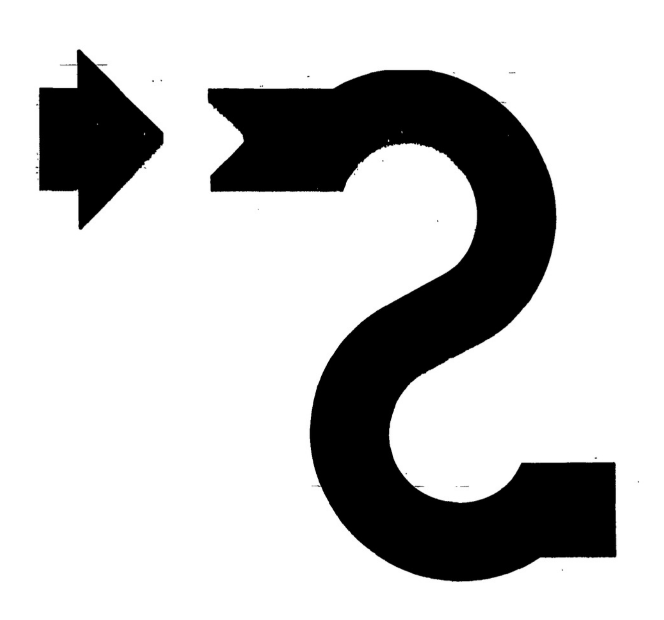
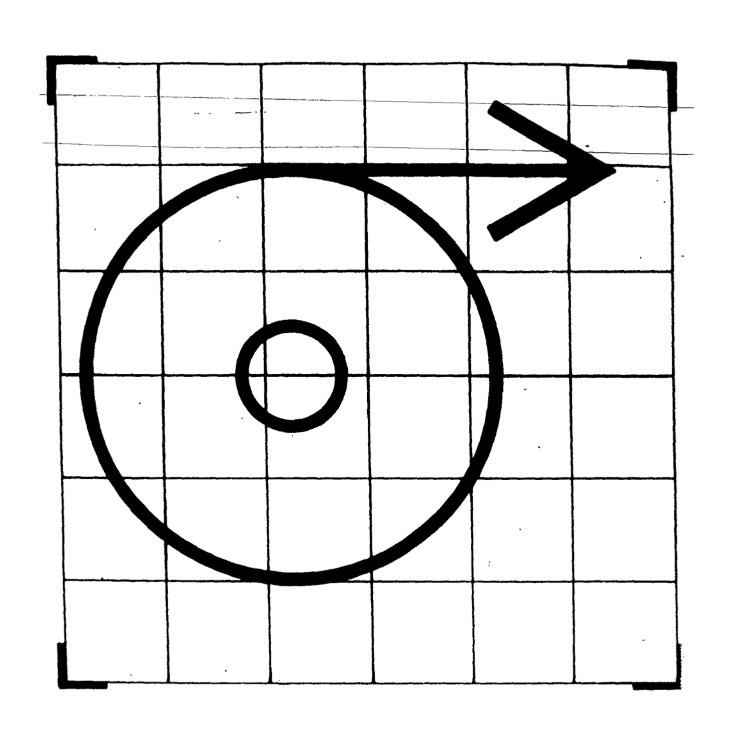


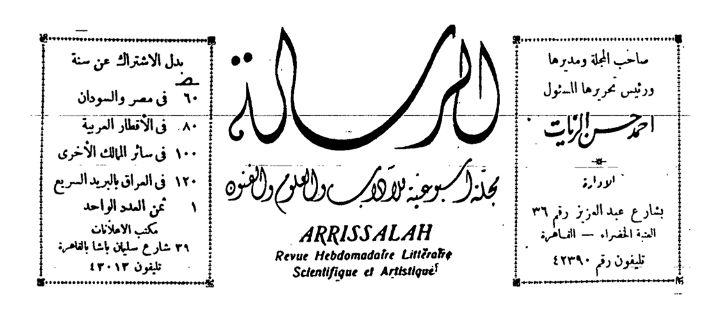
Suite d'une autre bobine

NF Z 43-120-7



Début de bobine

NF Z 43-120 1



1937

4 janvier - 28 juin

(n° 183-208)

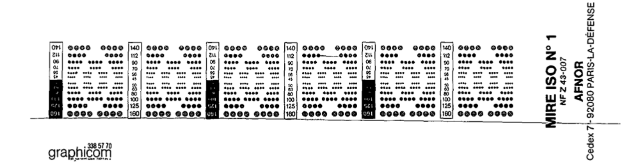
PROVENANCE DE LA COLLECTION

ECHELLE DE PRISE DE VUE



Rx11

A.C.R.P.P



5 me Année, No. 183

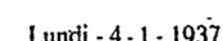
Lundi - 4 - 1 - 1937

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العــــدد ١٨٣ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢١ شوال سنة ١٣٥٥ — ٤ يناير سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــــدد

١٠٥٨

الرسالة
فى عامها الخامس

استهل عامُ (الرسالة) الخامس والدنيا فى بلاد الرسالة تلقى بسمعها إلى دعاء الوحى من جديد . فالعقول التى كبلتها أغلال الجهل تتحرر ، والنفوس التى دنستها أرجاس الذل تتطهر ، والعزائم التى طالما استنامت لسلطان القوة تستفيق ! كأنما ارتد إشراق الروح إلى مطالعه بعد أن اضطرب فى الضباب والسحاب عشرة قرون ! هذه مصر والعراق وسورية وأكثر أمم الشرق تنبثق فى أجوائها وأرجائها أشعة الشمس الصحراوية الأولى ، فتنتعش ما خمد من غرائز الرجولة ، وتحيى ما همد من نوازع المجد ، وتقتل ما عاث من جراثيم البلى ، وتهدى من ضل إلى سواء المحجة ؛ بينما أمم الغرب يغيم عليها الأفق ، فتدفع بالسلام إلى الحرب ، وتُلقى بالحياة إلى الموت ، لأن حضارتها الحديدية علمتها كيف تهدم ، ولم تعلمها كيف تبنى ! فالمصرى أو العربى أو الشرقى يعلم أنه كان يناضل عن ذاتيته ، فلما استردها عاد يناضل عن إنسانيته ؛ وسلاحه فى كفاح البربرية

اليوم ، هو سلاحه فى كفاحها أمس : قوة صارمة تعتمد على العدل ، وثقافة عاملة تستند إلى الروح ، وسياسة جامعة تقوم على المحبة . ومحال على ابن الرسالة والنور أن يرى مخلفات الدقل والقلب تتهاوى فى العدم ثم لا ينهض !

* * *

استهل عام (الرسالة) الخامس ومصر وأخواتها على باب عهد جديد ؛ فالنوايا معقودة على تغيير الحال ، والميول متجهة إلى طريق الكمال ، والآمال معلقة على الثقة بالله ؛ ولكل حال مقتضى ، ولكل عهد رسالة ، ولكل قوم أدب . وسبيل القلم أن يدخل فى عُدَد هذه النهضة دخول الآلة والمدفع : ينتج إنتاج الخير كتلك ، ويدافع دفاع الحق كهذا ، ثم ينفرد هو بالوساطة بين الروح والجسم ، والسفارة بين السماء والأرض . ولقد كان لأدبنا فى أمسه الدابر ذبذبة بين الشرق والغرب ، فلا إلينا ولا إليهم . وتلك حال كانت لازمة لما نحن فيه لزوم النتيجة المحتومة ؛ فإذا أحس الفنان مظاهر الاستقلال والاستقرار فى الوطن والحكم والرأى والعقيدة والعزيمة ، كان حريا بفنه أن يستقل ، وبذهنه أن يبتكر . (والرسالة) ترجو أن تحمل بعون الله دعوة العقول الخصيبة إلى هذه الأمة النجيبة . وستظل تنقل خطاها الوئيدة السديدة المتزنة على ما رسمته لها كرامة الجنس وطبيعة البيئة وحاجة الثقافة ؛ لا تتخذ لهو الحديث ، ولا تصطنع خوادع الحس ، ولا تتملق شهوات الأنفس . وأصدقاؤها — والحمد لله والشكر لهم — لبسوها على هذه الخشونة ، فلا يريدون أن تخطر فى وشى ، ولا أن تَطرَّى فى كلام ، ولا أن تميل إلى هوى العامة ، حتى أبوا كل الأباء أن يتسع فيها مجال القصص ، والقَصَص فى الأدب الحديث فرع يكاد يختصر كل فروعه ويطغى على جميع نواحيه . وما زلت أذكر يوم أعلنا عن باب المسرح والسينماء فى الرسالة ! فقد انثالت علينا رسائل الاشفاق والعتب تناشدنا الله أن نربأ بالصحف المهذبة الوقورة أن تنطوى على هذا (المذر) ! ولا يكاد العدد يخرج إلى الناس حتى تأتينا آراء القراء فى التليفون أو فى البريد تستحسن ما ارتفع إلى المستوى الذى عهدوه ، وتستهجن ما انخفض عنه ؛ وهذه الرقابة الغالية دليل على اشتراك الذوق ووحدة الهوى بين القارئ وبين المجلة . فنحن لذلك حريون أن نحرص كل الحرص على أن ندع للرسالة هذه الخطة ، ونحفظ عليها تلك السِّمة .

على أن هنالك طائفة من ذوى الثقافة المتخطَّفة والذوق الملول ، تعودوا أن يتناولوا كل شىء بالمس الرقيق ؛ فهم يريدون أن يكون لكل عدد لون ، ولكل مقالة خلاصة ، ولكل خلاصة نكتة ، ولكل نكتة صورة . وما دامت الصورة تمثل الفكرة ، والعنوان يلخص الموضوع ، فالاستغراق فى التفاصيل بعد ذلك عناء وعبث !! هؤلاء هم الجناة على الأديب والأدب ؛ يدفعون الباحث بسأمهم إلى توخى السهولة وإيثار الخفة ، فيكون من ذلك هذا التفاعل الدَّوْرى بين سطحية القارئ وسطحية الكاتب . وإنا لنرجو أن تجد هذه الطائفة فى (الرواية) مجازاً إلى (الرسالة) ؛ فإن المثل يقول : تَطَعَّمْ تَطْعَمْ ، أو ذُق تَشْتهِ . ومن الخير أن تمهد للجد باللهو ، وأن تجر إلى التثقيف بالتسلية . والرواية حلقات بين عامىّ الذوق ونبيله ، ودرجات بين خفيف الأدب وثقيله ؛ وخفتها من طرافة الموضوع لا من سخافة الفن ، ورَزانتُها من براعة الأسلوب لا من وقار الفكرة . وبالرسالة والرواية نحاول مخلصين أن نرضى كل ذوق ، ونساير كل طبقة ، ونضع فى بناء الأدب العربى الجديد لَبِنة

* * *

تحرشت بالرسالة فى عامها المنصرم عوادٍ من الأسى والمرض ، بعضها يقطع الوجهة على السالك البصير ، ويدفع اليأس فى صدر الواثق المؤمن . ولكن الله أبرُّ بالعمل الصالح أن يدعه فريسة الأحداث والغِيَر . ومُضِىّ الرسالة قُدُما فى خطتها الرشيدة إلى غايتها البعيدة أربع سنين لا تتغير ولا تتعثر ولا تتخلف ، يجرئنا على أن نجدد لقرائها العهد ، ونؤكد لأصدقائها الوعد ، ونحن أقوى ما يكون العاهد والواعد اطمئناناً للوفاء ووثوقاً بالمستقبل

احمد حسن الزيات

البحث عن الذهب

بقلم الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

وجدت صديقي ينتظرني — كما وعد — فدخلنا معاً وجلسنا متقابلين إلى مائدة صغيرة ، وبدأنا بأيدينا ففركناها — فقد كان البرد شديداً ، وكان كلانا قد خلع المعطف والطربوش ، وكانت الحجرة دافئة ولكنه لم يكن قد مضى من الوقت ما يكفي لانتقال الدفء إلى أبداننا . ثم أكب صاحبي على البيان الذي فيه ألوان الطعام وجعل يسردها لي لأتخير ما يطيب لي منها . وفرغنا من ذلك بعد طول التردد وانصرف العامل بدفتره الذي دوّن فيه ما طلبنا . فقال صديقي وهو يميل على المائدة :

« والآن ما العمل ؟ »

قلت : « هذا هو السؤال الأبدي ! وما أظن بنا إلا أننا سنظل نسأل عن ذلك طول العمر — طال أم قصر . . المسألة مسألة حظ يا صاحبي »

فقال : « كلا . . لا بد أن هناك وسائل كثيرة لاكتساب المال بسرعة . . كثيرون يفعلون ذلك . . وهذا دليل على أن الوسائل موجودة ولكنا نحن — لسبب ما — لا نهتدي إليها »

قلت : « فليكن الأمر كما تصوره ، فلست أرى أن هذا يجدينا شيئاً »

قال : « ولكن لا بد أن تكون هناك وسيلة »

قلت . « إذا كان ينفعك أو يريحك الأيقان من ذلك فأيقن وأرح نفسك »

فقال وهو يهز رأسه : « نحن اثنان . . كلانا محتاج إلى مبلغ حسن من المال . . والحاجة ملحة ، والسرعة لا مفر منها . . لا سبيل إلى الاقتراض لأن الذين يُقرضون يطلبون ضماناً . . شيئاً يطمئنون به على مالهم . . سخافة ؟! . ولماذا ينبغي أن نرد شيئاً ؟؟ . ألسنا أحق بالمال من هؤلاء الذين لا يعرفون كيف ينفقونه ويروحون يكنزونه ويدفنونه في خزانات أو في قدور يدسونها تحت الأرض . . ؟؟ »

فضحكت وقلت : « هذه بلشفية »

قال : « لا تصدق . . آه لو كنت غنياً ! ! . إذن لصارت الدنيا أرغد وأهنأ . . »

قلت وأنا أبتسم : « ماذا كنت تصنع ؟ »

قال : « أصنع ؟ . أتسأل ؟ . كنت أضع المال في صرر وأرمي بها لمن أتوسم فيهم أنهم أهل لأن يكون في يدهم مال . . (وأطرق شيئاً ثم رفع رأسه وقال) : هل تعرف أني زرت اليوم أختي ؟؟ . . إنها غنية كما تعرف . . وكيف لا تكون غنية وهي لا تنفق شيئاً ؟ فلما دخلت عليها وفتحت فمي لأتكلم رفعت يدها في وجهي وقالت : « ولا مليم ! » فغضبت وصحت بها وَنهرتها عن هذا السلوك »

فقلت : « ماذا قلت لها على سبيل الزجر عن هذا السلوك الذي لا يليق بين الأخ وأخته ؟ »

قال : « قلت لها ؟ . قلت لها هل تظن أنها من بوليس المرور حتى ترفع يدها هكذا لأنف ؟؟ شيء غريب ! فقالت بهدوء : إنها ليست هذا ، وليست كذلك دكان تسليف ! كلا لا فائدة ! . . بح صوتي معها . . أكدت لها مائة مرة أني محتاج إلى قليل من المال ، فوافقت وأكدت لي أني سأكون محتاجاً إلى هذا المال حين أخرج من بيتها . . سلوك يطير العقل . . فهل تسمي هذه أختاً ؟ إني أتصور أختاً ظريفة لطيفة سخية كريمة تعطيني ، وهي تعتذر ، وتملأ يدي وهي مُغضية ... وهكذا تكون الأخت ... أما هذه ؟ . . . أعوذ بالله ! . . على كل حال لا فائدة . . وإنما أردت أن أقول لك إن هذا الباب أيضاً سد في وجهي »

فقلت : « لماذا لا تفكر في طريقة لكسب المال ؟ »

قال بلهجة الاستنكار : « أفكر . . وما الفائدة من التفكير ؟ لا فائدة ما دامت الدنيا مقلوبة . . آه لو كان لي سلطان في هذه البلاد . . إذن لعقدت امتحاناً كل ثلاثة شهور للأغنياء . . . يجلس أعضاء اللجنة ويقف أمامهم الغني فيقول له أحدهم : « كم تملك يامولانا ؟ » فيقول : « ألف فدان ، ونحو مائتي ألف جنيه في المصرف وعمارتين — كلا منهما ذات سبع طبقات في شارع الملكة نازلي » فيقول أحد الأعضاء « وماذا تصنع بكل هذه الثروة » فيقول « أوه لا أصنع شيئاً . . كل ما زاد على حاجاتي الضرورية جداً أضيفه الى المدخر » فتقول اللجنة : « شيء جميل... أهذا رأيك فيما ينبغي أن يصنع المرء بالمال ؟ . . لا بأس . . أسألوا أحد (أي العبد الخاضع المطيع) ماذا يكفيه ؟ » فأقول رداً على

السؤال: « أوه .. يكفيني القليل .. خمسون ألفاً .. كفاية .. أعني مؤقتا .. » فتقول اللجنة : « أحد هذا رجل يحسن انفاق المـال .. اعطوه ما يطلب » فأقبض المبلغ وأفرك يدي وأقول « إذا سمحتم لي يا حضرات الأعضاء الموقرين فأني أستأذنكم في لفت نظركم الى رجل يعرف كيف يعطي ... بارع جدا في الانفاق » فيسأل أحدهم « من هذا ... قل بسرعة » فأقول « إنه المازني » فيقول « آه صحيح ! .. كيف نسيناه ؟ .. هاتوه حالاً .. علينا به .. اقبضوا عليه في حيثما تجدونه » فيقبض عليك الشرطة ويجرونك مصفدا الى اللجنة فيضحك الأعضاء ويقولون « خذ . خذ . خذ أيضا » فتخرج معي مسرورا .. ونروح ننفق باليمين وبالشمال حتى يحين موعد الامتحان التالي .. ما قولك ؟ »

فقلت وأنا أضحك : « شيء عظيم جدا ... ولكن الى أن يتيسر أن تلي أمور الناس ماذا نصنع ؟ »

فقال : « آه هذه هي المسألة .. ما رأيك أنت »

قلت : « يمكننا أن نكسب الورقة الأولى الرابحة من يانصيب المؤاساة ، أو اليانصيب الارلندي »

قال : « هذا ممكن .. ولكن ذلك يتطلب أن ننتظر بضعة شهور . والعجلة من الشيطان ، ولكنه لا معدى لنا عنها — كائنة ما كانت منه .. شيطان أو غير شيطان .. سيان .. »

قلت : « صدقت .. يمكن أن نخترع شيئا ونحتكر بيعه — وصنعه بالطبع — فنغنى »

قال : « صحيح ... فكرة لا بأس بها ... سأدون هذا في مذكرتي .. تنفع في المستقبل .. وعلى ذكر ذلك ماذا نخترع ؟ »

فقلت : « باب الاختراع واسع .. واسع جدا ... مثلا نخترع طريقة تجعل السيارات تستغني عن البنزين وتكتفي بالماء — أو حتى بالهواء — أو نخترع بديلا من النقود ، فان النقود هي أصل البلاء في هذه الدنيا ... أو نخترع .. »

قال : « يكفي ! يكفي ! ولكن هذا كله يحتاج الى زمن . والمطلوب هو الاهتداء الى وسيلة تكفل إفادة المـال اللازم في أربع وعشرين ساعة ... »

فقلت وأنا أضطجع وأرسل الدخان من فمي خيطا متلويا — فقد فرغنا من الطعام — : « يظهر أن الضرورة تفتق الحيلة حقيقة »

فقال : « معلوم .. اسمع .. أترى هذا الرجل القاعد هناك في الركن الأيمن ؟ . أترى كيف يأكل ؟ . أترى كرشه المدوّرة كالكرة ، ووجهه المتنفخ ؟ وكيف يفتح عيناً ويغمض أخرى وينظر حوله قبل أن يدس اللقمة في فمه كأنما هو يخشى أن يراه أحد ؟ .. الحق أقول لك إني أكره وجهه ولا أرتاح إلى النظر إليـه »

قلت : « يا أخي لا تنظر إليه .. دعه وحول عينك عنه »

قال : « ولكني لا أستطيع .. إنه وجه سوء .. لا يمكن أن يكون هذا الرجل من أهل الخير .. إنه ممن لا يؤتمنون على القصر والأيتام والأرامل .. »

فضقت به وصحت « ولكن مالك أنت ؟ . دعه وشأنه .. أليس له حق في أن يأكل هنا مثلي ومثلك ؟ »

قال : « يا أبله .. إن هذا الرجل لا بد أن يكون منطوياً على أسرار يكره أن تذاع .. لأن وجهه ناطق بأنه شرير .. فلو قمت إليه الآن وقلت له : « طيب . طيب » كأني أعرف سره الذي يجاهد لاخفائه ألا تظن أنه يفزع ويضطرب ويشتري سكوتي بأي ثمن .. »

فقلت : « أها ؟ . أهذه طريقتك ؟ . أتريد أن تبتز المال من الناس بهذه الوسائل ؟ .. »

قال : « المصيبة أني لا أستطيع .. تنقصني الشجاعة .. ولكني واثق أني أنجح إذا استطعت أن أصنع هذا ؟ .. ومع ذلك لكل إنسان سره القبيح .. ولو أن واحداً جاء إلي ووقف على رأسي الآن وحدق في وجهي ثم هز رأسه هزة العارف بكل ما هناك ثم قال « طيب ! طيب ! يا أحمد » لـما وسعني إلا أن أضطرب .. على كل حال يظهر أنه لا فائدة .. لا أمل في مال كثير نفيده بالسرعة اللازمة .. »

قلت : « صدقت . لا أمل »

قال : « خسارة .. سأظل أتحسر لأني لم أجد الشجاعة الكافية للوقوف على رأس هذا المجرم — هو مجرم ولا شك — وإبلاغه بعيني أني لا أعرف باطنه كما أعرف ظاهره البادي لنا .. خسارة .. نهايته

... نقوم ؟ »

قلت : « تفضل »

ودفع إلى الخادم ثمن الطعام وخرجنا

ولم نقل للرجل المنتفخ الأوداج شيئاً فلم نعرف أله — أم ليس له — سر يشترى كتمانه . .

***

وقلت لصاحبى وأنا أودعه « على فكرة . . من قبيل الاحتياط للمستقبل . . من يدرى ؟ . »

قال : « نعم . . »

قلت : « ما هو الجواب الصحيح . . أمام اللجنة ؟ »

قال : « آه ! . . انفق ما فى الجيب يأتك ما فى الغيب »

قلت : « أهو ذاك ؟ . أما ما فى الجيب فلست أحتاج فى أمر إنفاقه إلى التكلف . . وأما ما فى الغيب فهل تعرفه يأتى يا صاحبى ؟ »

فأشار لى بيده ومضى عنى وهو يضحك

ابراهيم عبد القادر المازنى

عاصفة فى الشرق الأقصى

حول حوادث الصين الأخيرة

بقلم باحث دبلوماسى كبير

بينما تواجه أوربا أزماتها الخاصة ، فى اسبانيا وفى حوض البحر الأبيض بنوع خاص ، وتنظر إلى تطوراتها بحيرة يمازجها الجزع ، إذا بحدث خطير يقع فجأة فى الشرق الأقصى ويثير فى الصين فتنة جديدة كادت تسفر عن أخطر العواقب لو لم تخمد فى مهدها . وقد غدت هذه الفورات الفجائية ظاهرة الحوادث فى الصين ، وأضحى من الصعب أن نقف على بواعثها وغاياتها دون الرجوع إلى مثيلاتها من الحوادث والمفاجآت التى توالت فى الصين فى عشرة الأعوام الأخيرة ، واستعراض الاوضاع السياسية الفريدة التى تعيش فى ظلها تلك الأمبراطورية الشاسعة

وملخص الحادث المسرحى الجديد الذى كاد يثير ضرام الحرب الأهلية فى الصين كرة أخرى ، هو أن الماريشال تشانج هسويه ليانج الذى رابط بقواته فى سيانفو عاصمة إقليم شنصى ، قد دبر كميناً للقبض على الماريشال تشانج كايشك رئيس حكومة نانكين الوطنية ، والقائد العام للجيوش الصينية بينما كان يستشفى قريباً من سيانفو ، واعتقله مع بعض حاشيته ؛ ثم أذاع أنه يرى بذلك إلى حل الحكومة الوطنية الحاضرة التى تمادت فى خضوعها لليابان ، وتأليف حكومة جديدة تعلن الحرب على اليابان ، وتعمل على استرداد الأقاليم التى انتزعتها اليابان من الصين وفى مقدمتها إقليم منشوريا ؛ وقد أخطر الماريشال الثائر أسيره بهذه المطالب ، وأخطر بها حكومة نانكين ، فرفض الرئيس المعتقل ورفضت الحكومة أن تبحث فى شأنها قبل الافراج عن الرئيس ، وإعادة الأمور إلى نصابها ؛ وقد حاولت حكومة نانكين أن تصل بطريق المفاوضة والتفاهم إلى تسوية مؤقتة يفرج معها عن الماريشال المعتقل ، فأبى الزعيم الثائر ؛ واضطرت الحكومة أن تجرد عليه بعض قواتها ؛ وقد زحفت القوات الحكومية فعلاً صوب سيانفو ، وبدأت المعارك الأولى بين الفريقين ونحن نكتب هذه السطور

فمن هو هذا الزعيم الثائر تشانج هسويه ليانج ؟ وما هى بواعث حركته ؟ إن الماريشال تشانج هسويه ليانج هو ولد الماريشال تشانج تسولين زعيم منشوريا السابق الذى قتل غيلة فى حادث قطار دست له القنابل سنة ١٩٣٠ ؛ وكان تشانج تسولين مدى أعوام طويلة حاكما بأمره فى منشوريا قبل أن تنتزعها اليابان ؛ وكان يعمل بالاتفاق مع السياسة اليابانية ، فلما قتل خلفه ولده فى حكم الاقليم ، ولكنه اختلف مع السياسة اليابانية ، وكانت حكومة نانكين الوطنية قد قامت يومئذ باسم الصين المتحدة كلها ، فأعلن تشانج هسويه ليانج انضمامه إليها ؛ ورأت اليابان الفرصة سانحة لتنفيذ مشروعها الاستعمارى فى الصين ، فاحتجت بوقوع بعض حوادث اعتداء على الرعايا اليابانيين ، وغزت منشوريا فى سنة ١٩٣١ ، واضطر الجنرال تشانج هسويه ليانج إلى الانسحاب بقواته دون مقاومة تذكر ؛ وعسكر مدى حين فى إقليم جيهول فى جنوب منشوريا ؛ ولما أتمت اليابان غزو منشوريا واحتلالها ، دفعت قواتها إلى جيهول ، فارتد أمامها الماريشال المهزم بقواته ؛ واحتلت اليابان أيضاً هذا الاقليم فى سنة ١٩٣٣ ؛ وعسكر تشانج

هسويه ليانج من ذلك الحين بقواته فى بعض أنحاء إقليم شنعى .
وفى سنة ١٩٣٥ ، انتدبته حكومة نانكين ، أو بعبارة أخرى انتدبه الماريشال تشانج كايشك لمحاربة القوات الشيوعية التى تقدمت جنوباً واحتلت ولاية ستشوان المجاورة لشنعى ؛ ولكنه بدلاً من أن يقوم بهذه المهمة فضل التفاهم مع الشيوعيين ، واتخذ من ذلك الحين موقفه المريب من حكومة نانكين

ويجب أن نذكر كلمة عن الشيوعية فى الصين ؛ ففى الصين الآن حزب شيوعى كبير يسيطر على قوات عسكرية كبيرة بقيادة زعيم الشيوعية الصينية ماوتسى دون ؛ وقد كانت الشيوعية من قبل عضد الحركة الوطنية ، ومنذ سنة ١٩٢٤ إلى سنة ١٩٢٧ ، وهى فترة الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب ، تعمل الحركة الوطنية بمعاونة الشيوعية ، ويندمج الحزب الشيوعى فى الحزب الوطنى الصينى (الكومن تانج) وتستمد الحركة الوطنية كثيرا من القوة والتنظيم من روسيا البلشفية ودعاتها فى الصين . ولكن الماريشال تشانج كايشك بعد أن تم له الظفر على قوات الشمال فى سنة ١٩٢٧ ، واستطاع أن يقيم حكومة نانكين الوطنية رأى أن يضع حدا للتعاون مع الشيوعية ، وقضى على عناصرها من (الكومن تانج) ومن الحكومة والجيش ، وبدأت الخصومة من ذلك الحين بين حكومة نانكين وبين الشيوعية ؛ ومنذ عدة أعوام تعمل قوات الحكومة لمطاردة قوات الشيوعية ومحاصرتها فى الأقاليم الوسطى التى تسيطر عليها ولكنها لم تستطع حتى الآن أن تقضى عليها

وفى تلك الفترة استطاعت اليابان أن تنتزع منشوريا وجيهول وبعض الأقاليم الأخرى من الصين ، وأن تمهد تمهيدا قويا لسياستها الاستعمارية فى الصين ؛ وهنا حدث تطور واضح فى سير الحركة الوطنية ، فقد رأى كثير من الزعماء والمستنيرين أن استمرار الحرب الأهلية على هذا النحو يقوى نفوذ اليابان ويفتح أمامها أبواب الصين ، وأنه من الحكمة والضرورة أن تتضافر القوى المشتتة لمقاومة الاعتداء الأجنبى ؛ ولوحظ أيضا أن الماريشال تشانج كايشك رئيس الحكومة الوطنية يتبع إزاء الغزو اليابانى سياسة الضعف والتسليم ، وأنه لم ينفك عن التصريح بأنه يريد التفاهم والاتفاق مع اليابان ، ولكن على أى الأسس ؟

إن اليابان تسير مسرعة فى تنفيذ برنامجها الاستعمارى ، ومازالت تنتهز كل فرصة للتوغل فى قلب الصين واحتلال أراضيها . ورد زعماء (الكومن تانج) على ذلك بأن الحكومة الوطنية مرغمة على اتخاذ هذا الموقف ، وأن الصين لا تستطيع فى ظروفها الحاضرة أن تقف أمام الغزو اليابانى ، وأنه يحسن التفاهم مع العدو المغير حتى تقوى الصين نفسها وتستطيع أن تقاوم الاعتداء بصورة فعلية ؛ وقد اضطر تشانج كايشك نفسه أمام هذا التيار الجديد أن يؤكد فى تصريحاته الرسمية أمام مؤتمر اللجنة التنفيذية للحزب الوطنى (الكومن تانج) فى الصيف الماضى أن الحكومة المركزية لن تتنازل قط عن التمسك بوحدة الصين وسلامة أراضيها ولن تعقد أية معاهدة تخالف هذا المبدأ ، ولن تنزل عند أى رغبة أو وعيد بإرغامها على إقرار الحالة فى منشوكيو (منشوريا) أو أية حالة أخرى من حالات الاعتداء على الأراضى الصينية

وقد رأى الماريشال تشانج هسويه ليانج أن ينتهز فرصة هذا التطور لينزل إلى الميدان ، والظاهر أنه يريد أن يحاول استغلال الشعور القوى الذى أثاره اعتداء اليابان المتكرر على الصين ، وأن يحمل من مطالبته حكومة نانكين بأن تمان الحرب على اليابان شعاراً قوميا يلتف حوله المعارضون لسياسة الحكومة الوطنية . بيد أن تشانج هسويه ليانج شخصية ثانوية فى الواقع ، وهو لا يشغل بين زعماء الصين أو قادتها مركزاً خطيراً يمكنه من تزعم مثل هذه الحركة الخطيرة ؛ ومن جهة أخرى فان الأساليب التى لجأ إليها فى اعتقال رئيس الحكومة وقائد الجيش الأعلى ومعاونيه ، ليست مما يشهد له بالفطنة والكياسة ، وليست مما يعاون على التمهيد الحسن لمشاريعه . وتقدر قوات الزعيم الثائر بنحو مائة وخمسين ألف جندى ، وهى قوة ضئيلة بالنسبة للوحدات العسكرية الصينية ، وبالنسبة لقوات الحكومة المركزية التى تقدر بنحو مليونين ؛ وإذا كانت الحوادث لم تسفر حتى كتابة هذه السطور عن حل حاسم للمشكل فانه لا ريب أن حكومة نانكين لن تنزل عند وعيده ، ولن تتخلى عن محاربته حتى يلقى سلاحه

هذا من الناحية الداخلية ، بيد أن للمسألة ناحية خارجية

فى منتهى الخطورة . فنحن نعرف أن الصين ميدان لتنافس الخطر بين اليابان وروسيا ، وأن اليابان تسيطر على منشوريا ، كما تسيطر روسيا على منغوليا الخارجية ، وأن عوامل الاحتكاك بينهما لا تنتهى ، وخصومة اليابان وروسيا خصومة طبيعية وتاريخية معاً ؛ وكلتاهما تخشى الأخرى وترقب مساعيها فى الصين بمنتهى الغيرة واليقظة ؛ وقد ذهبت اليابان فى توغلها فى الصين إلى حد يثير مخاوف روسيا ويحملها على مضاعفة جهودها لصون أملاكها ومصالحها فى الشرق الأقصى ؛ ومن جهة أخرى فقد عقدت اليابان أخيراً تحالفاً مع ألمانيا ضد الشيوعية أو بعبارة أخرى ضد روسيا ، ومن المرجح أن هذا التحالف الذى يقوم فى الظاهر على هذا الأساس ، يتضمن تحالفاً سرياً عسكريا بين الدولتين ، وأن غايته الحقيقية هى حصر روسيا بين نارين : نار اليابان من الشرق ، ونار ألمانيا من الغرب إذا ما وقعت حرب عالمية . ذلك أن ألمانيا الهتلرية تعتبر روسيا البلشفية عدوتها المميتة ، وتسعى لتحطيمها وسحقها بكل ما وسعت وتعتقد أن تعاونها مع اليابان على هذه الصورة يكون رداً بليغاً على الميثاق الروسى الفرنسى الذى اعتقدت أنه موجه ضدها ، وأنه خطر دائم على سلامتها ؛ والظاهر أن حوادث الصين الأخيرة لم تكن بعيدة عن آثار الميثاق اليابانى الألمانى ، وأنه يمكن أن نلمس فيها أثراً لأصبع روسيا ، وأن الماريشال تسانغ هسويه ليانغ كان يعول فى ثورته على معاونة روسيا الخفية إذا ما ساعدته الحوادث على تنفيذ برنامجه ، وأن روسيا ترى فى اضطرام هذه الثورة على حكومة نانكين وضد النفوذ اليابانى ، ما يمكن أن يكون رداً من جانبها على الميثاق اليابانى الألمانى ؛ بيد أن روسيا لم تخرج عن تحفظها إزاء هذه الأزمة ولم يبد منها ما يدل على أنها تتصل بها أو تعلق عليها أهمية خاصة ، هذا فى حين أن اليابان قد أبدت استعدادها وتحفزها للتدخل إذا ما تطورت الحوادث تطورا يمكن أن يهدد نفوذها أو مصالحها

ثم هنالك الدول الغربية وعلى رأسها انكلترا ، وهى تعلق أهمية خاصة على سير الحوادث فى الشرق الأقصى ؛ وهنالك أمريكا ، وهى تخشى ازدياد النفوذ اليابانى فى الصين وفى المحيط الهادىء . ومن الواضح أن بريطانيا العظمى ، والدول الأخرى التى تسيطر على أملاك عظيمة فى الشرق الأقصى مثل فرنسا وهولنده ، يهمها كبح التوغل اليابانى ومقاومته ، لأنه يزداد كل يوم خطراً على أملاكها ومصالحها ؛ والسياسة البريطانية تميل بلا ريب إلى تأييد كل حركة تؤدى إلى تحقيق هذه الغاية ؛ بيد أنها لا تميل فى نفس الوقت إلى نهوض الشيوعية وتقدمها فى الصين ، لأنها تعتبرها خطراً عظيما على أملاكها ونفوذها ؛ وهى الآن فى موقف انتظار وتريث واستعداد للطوارىء ؛ وأما أمريكا فهى تسير فى ذلك على سياسة مستقلة ، وكل ما يهمها هو الاحتفاظ بنفوذها وسيادتها فى المحيط الهادىء ، وهى تعتقد أنها تستطيع تحقيق هذه الغاية بالتفاهم مع اليابان وعقد اتفاق يصون مصالح الفريقين

هذا وقد صح ما توقعناه من أن حكومة نانكين لن تخضع لوعيد الزعيم الثائر ، وإن الثورة لن يرجى لها النجاح المنشود ؛ فقد وردت الأنباء الأخيرة بأن الماريشال تشانغ هسويه ليانغ قد أذعن للأنذار الذى وجهته إليه الحكومة المركزية ، واستمع لنصح زملائه حكام الولايات المجاورة ، وأفرج عن الماريشال تشانغ كايشك ؛ وقد عاد الماريشال إلى نانكين عود الظافر فى مظاهرات حماسية ، واعتذر الزعيم الثائر عن فعلته ؛ ولم تعرف شروط التسوية بعد ؛ ولكن الظاهر أن تشانغ هسويه ليانغ سيغادر الصين مدى حين ، وأن الحكومة ستمنحه معاشاً حسنا ، وأنه تعهد بعدم التدخل فى الشؤون العامة العسكرية أو السياسية

على أنه يبقى لنا أن نتساءل ، هل انتهت الفتنة وأخمدت نهائياً ، أم أنه يخشى أن تكون بذورها قد تمكنت فى القوات المتمردة ، وإن الشيوعية المحلية لا تزال تغذيها ؟ هذا ما لا يتضح الآن : بيد أنه يمكن القول أن حكومة نانكين ستنشط إلى محاربة الشيوعية والقضاء عليها ، لأنها تخشى منها على نفوذها واستقرارها . ولا ريب أيضاً أن الحكومة الوطنية ستعنى بأمر هذا التطور العميق فى شعور الشعب الصينى واتجاهه إلى وجوب الوقوف فى وجه اليابان ووضع حد لمطامعها ؛ وربما اضطر الماريشال تشانغ كايشك غير بعيد إلى أن يتخذ سياسة أشد حزماً إزاء المطامع اليابانية ، إذا وجد فى مثل هذا الشعور ما يكفى لتوحيد الصفوف ، وشد أزر السياسة الوطنية المتطرفة التى يجب اتباعها يومئذ وتدعيمها بقوة السلاح إذا اقتضى الأمر

(***)

نظرية النبوة عند الفارابي

للدكتور ابراهيم بيومي مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

— ٧ —

تعددت المدارس وتنوعت الفرق في العالم الاسلامي ، فمن متكلمين إلى متصوفة ، ومن شيعيين إلى سنيين ، وتحت كل شعبة من هؤلاء طوائف شتى وأحزاب متفرقة . بيد أن هذه المدارس المتنوعة والفرق المتعددة تلتقي في نقط مشتركة ويقوم الخلاف بينها على بعض المبادىء العامة . وقد استطاعت التعاليم الفلسفية أن تنفذ إليها جميعاً ، ولكن بدرجات متفاوتة . ففي حين أن الشيعة ، وخاصة الاسماعيلية ، يتقبلون بقبول حسن كثيراً من الآراء الفلسفية ، نرى أهل السنة يقفون من هذه الآراء موقف الحذر والحيطة ؛ وعلى هذا النحو يمكننا أن نلاحظ أن المعتزلة يدنون في أغلب أبحاثهم من الفلاسفة ، في حين أن الأشاعرة يعارضونهم ويناقضونهم . وقد سبق لنا أن بينا مقدار تأثر فلاسفة الاسلام بنظرية النبوة الفارابية ، ونريد اليوم أن نبين إلى أي مدى استطاعت هذه النظرية أن تؤثر في المدارس الاسلامية الرئيسية ، وكيف استقبلت من معارضيها ومحبذيها . ولا نظننا في حاجة إلى أن نبين موقف الصوفية منها ، فهي بما فيها من تصوف كفيلة بأن تنال حظوتهم ، وهي فوق هذا تضع أساساً علمياً لآرائهم ونظرياتهم . وسنقصر حديثنا على المعتزلة والأشاعرة من علماء الكلام ، والاسماعيلية والباطنية من الشيعيين

فأما المعتزلة فقد دالت دولتهم تقريباً وانقضى سلطانهم قبل أن تظهر نظرية النبوة الفارابية في ثوبها الواضح وشكلها الكامل . غير أن نظرية كهذه تتلاءم مع نزعتهم العقلية وروحهم الفلسفية ، ولا نظنهم ، لو أدركوها ، كانوا يحاربونها ويقابلونها بالرفض والمعارضة الصريحة ، ذلك لأن أكبر مأخذ يؤخذ عليها هو ما أسلفناه من أنها تتعارض مع بعض النصوص الثابتة الواضحة ، ولكن المعتزلة وقد فتحوا باب التأويل على مصراعيه لن يعدموا الحيلة في التوفيق بين هذه النصوص وبين فكرة تشرح النبوة شرحاً عقلياً فلسفياً . وأما الأشاعرة فقد نصبوا أنفسهم للدفاع عن التعاليم الاسلامية المأثورة ، وجدّوا في تفهمها كما وردت . حقاً إنهم يقولون بالتأويل ، ولكنهم لا يتوسعون فيه توسع المعتزلة

ونظرية الفارابي في النبوة تناقض في رأيهم مناقضة صريحة طرق الوحي المسلم به في الكتاب والسنة . ومما يؤسف له أن أبا الحسن الأشعري وهو من معاصري الفارابي لم يخلف لنا شيئاً يعتد به في هذا الصدد . إلا أن الغزالي وهو أكبر نصير للأشاعرة على الاطلاق ، وفي النصف الأخير من القرن الخامس الهجري بوجه خاص ، لم يغفل نظرية الفارابي في النبوة ، وتحامل عليها كما تحامل على الآراء الفلسفية الأخرى ، ولكنه في تحامله هذا لم يستطع أن يرد عليها رداً مقنعاً أو ينقضها بشكل واضح . على أنه هو نفسه بالرغم من خصومته لها وتحامله عليها لم ينج من أثرها ، وقال بآراء تقترب منها كل القرب ؛ وخصومة الأفكار تختلف إلى حد ما عن خصومة الأشخاص ، فقد تستطيع التبرؤ من كل ما يتصل بخصمك المادي مع أنه يعز عليك أحياناً أن تنجو تماماً من سلطان فكرة تعارضها ، ذلك لأن النظريات والآراء بما فيها من قدر من الصواب يمكنها أن تؤثر في أصدقائها وأعدائها ، بل وفي أشد الناس هجوماً عليها ؛ ولا أدل على هذا مما نلاحظ في مسألتنا الحاضرة ، فأن الغزالي يناقش في كتابه «تهافت الفلاسفة» نظرية النبوة الفارابية ملاحظاً أن النبي يستطيع الاتصال بالله مباشرة أو بواسطة ملك من الملائكة دون حاجة إلى العقل الفعال أو قوة متخيلة خاصة أو أي فرض آخر من الفروض التي يفترضها الفلاسفة[1] ، ثم يعود في كتابه «المنقذ من الضلال» فيقرر أن النبوة أمر مسلم به نقلاً ومقبول عقلاً ؛ ويكفي لتسليمها من الناحية العقلية أن نلاحظ أنها تشبه ظاهرة نفسية نعترف بها جميعاً ، ألا وهي الأحلام والرؤى . وها كم عبارته بنصها : « وقد قرب الله تعالى ذلك على خلقه أن أعطاهم أنموذجاً من خاصية النبوة وهو النوم ، إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب إما صريحاً وإما في كسوة مثال يكشف عنه التعبير[2] » .

(١) الغزالي ، تهافت الفلاسفة ، ص ٦٢
(٢) الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص ٣٣

ونحن فى غنى عن أن نشير إلى أن هذه العبارة تحمل فى ثناياها أفكاراً فارابية واضحة وبصرف النظر عما فى موقف الغزالى من تناقض فان اعتراضه على نظرية الفارابى فى النبوة لم يكن شديداً ولا قاطعاً . ولهذا لم يتردد فى أن يعتنقها فى مكان آخر محاولاً ، كما صنع الفارابى ، إدعامها على أساس من الفيض والاشراق . ولعل هذا هو الرأى الأخير الذى اطمأنت إليه نفسه ؛ ولاسيما . والدلائل قائمة على أن المنقذ متأخر تأليفاً عن التهافت ، ومشتمل على خلاصة أبحاث الغزالى ونتيجة دراساته السابقة

وإذا كانت نظرية النبوة الفارابية قد استطاعت التأثير فى خصومها من الأشاعرة فهى على هــذا أقدر لدى من ينتمون إليها من الاسماعيلية والباطنية . وإنا لنلاحظ منذ أخريات القرن الرابع الهجرى أن إخوان الصفا الذين لم يبق اليوم شك فى أمر اتصالهم بالاسماعيلية يشيدون بذكر قوة المخيلة ويبينون ما لها من أثر فى المظاهر النفسية المختلفة ، وخاصة فى المنامات والأحلام والوحى والالهام[1] . ويلخص لنا الغزالى فى رده على الباطنيــة معتقدهم فى النبوات قائلاً إنهم يذهبون إلى « أن النبى عبارة عن شخص فاض عليه من السابق بواسطة التالى قوة قدسية صافية مهيأة لأن تنتقش عنــد الاتصال بالنفس الكلية بما فيها من الجزئيات كما قد يتفق ذلك لبعض النفوس الذكية فى المنام حتى تشاهد من مجارى الأحوال فى المســتقبل إما صريحاً بعينه أو مدرجاً تحت مثال يناسبــه مناسبة ما فيفتقر فيه إلى التعبير إلا أن النبى هو المستعد لذلك فى اليقظة ، فلذلك يدرك الكليات العقلية عند شروق ذلك النور وصفاء القوة النبوية ، كما ينطبع مثــال المحسوسات فى القوة الباصرة من العين عند شروق نور الشمس على سطوح الأجسام الصقيلة »[2] . ويضيف الغزالى أن هذه الآراء كلها مأخوذة عن الفلاســفة ، وهذه ملاحظة لا تقبل الشك ولا الأنكار[3] وقد تأثر الاسماعيلية بالأفكار الفلسفيــة فى غير موضع ، إلا أن نظرية النبوة على الخصوص راقتهم إلى حد كبير وصادفت هوى فى نفوسهم . فانها لا توضح النبوة فحسب ، بل تشرح فكرة الأمامة التى قامت عليها دعوتهم ،

(١) اخوان الصفا ، رسائل ، ج ٣ ص ٣٨٥ — ٣٩١ ، ج ٤ ص ١٠٩ — ١٦٥

(٢) الغزالى ، فضائح الباطنية ص ٩

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٠

وقد قدمنا أن الفــارابى يصرح بأن الامام والنبى والفيلسوف يرمون إلى غاية واحدة ويستمدون تعاليمهم من مصدر مشترك ألا وهو العقل الفعال[1] . وإذا كان بعض الاسماعيلية قد أخذ على عاتقه أن يرد على منكرى النبوة فهو فى الوقت نفسه يدفع شبهاً يمكن أن توجه إلى الأمامة . فنظرية النبوة الفارابية أساس علمى متين بنى عليه الاسماعيليون كثيراً من تعاليمهم . ولم يزيدوا عليها شيئاً إلا أنهم تأولوا بعض النصوص التى سكت عنها الفارابى فقالوا مثلاً إن جبريل هو العقل الذى يفيض على الأنبياء بالمعلومات ، وإن القرآن تعبير عن المعارف التى فاضت على النبى صلى الله عليه وسلم من هذا المصدر[2]

***

الآن وقد لخصنا فى اختصار أثر نظرية النبوة الفارابية فى القرون الوسطى الاسلامية ، يجدر بنا أن نولى وجهنا شطر القرون الوسطى اليهودية والنصرانية لنبين ما إذا كانت هذه النظرية قد تمــكنت من النفوذ إليها أم لا . وسنكتفى من بين مفكرى اليهود بموسى بن ميمون الذى يعلن فى صراحة تلمذته للفارابى وابن سينا[3] . وسنشير بين المسيحيين إلى (ألبير الجراند) فقط الذى كثيراً ما ردد اسم الفارابى فى مؤلفاته اللاتينية[4] . فأما ابن ميمون فلا نظن أن واحداً من رجال الفلسفة المدرسية — اللهم إلا ابن سينا — قد استمسك بنظرية النبوة الفارابيــة وعنى بها مثل عنايته ، فقد وقف عليها فى الجزء الثانى من كتابه « دلالة الحائرين » نحو مائة صفحة أو تزيد ، وبذل جهده فى التوفيق بينها وبين الديانة الموسوية[5] وترجع الآراء المتعلقة بالنبوة فى نظره إلى ثلاثة أقسام . فطائفة ترى أن النبى مجرد شخص اصطفاه الله من بين خلقه وكلفه بمهمة خاصة ســواء أكان عالماً أم جاهلاً صغيراً أم كبيراً ، فلا يشترط فيه أى شرط ما دام الله قد اختاره ، اللهم إلا أن يكون حسن السلوك سامى الأخلاق ؛ وترى الشاؤون — وبعنى بهم ابن ميمون فيما نعتقد الفارابى وابن سينا — أن النبوة تستلزم كمالاً فى الطبيعة الانسانية وسمواً فى المواهب العقلية والاســتعدادات الفطرية ، فليس لــكل شخص إذن أن يكون

(١) الرسالة عدد ١٧٧ ، ص ١٩١٥

(٢) الغزالى ، فضائح الباطنية ، ص ٩

(٣) إسرائيل ولفنسون ، موسى بن ميمون ، ص ٦٤

(٤) Madkour, La place d' al Fârâbî, p. 2.

(٥) Maimonide, Guide, t. II, . 259 — 294.

نبياً ، بل من اكتملت فيهم صفات نفسية وعقلية معينة .
والرأى الأخير الذى ينحاز إليه الفيلسوف اليهودى هو أن النبى إنسان كامل من الناحية العقلية قد فضله الله واصطفاه على عباده الآخرين[1] . ولا بد له من مخيلة قوية تمكنه من الاتصال بالعقل الفعال وتقفه على الأمور المستقلة كأنما هى أشياء محسوسة ملموسة[2] . وعلى قدر ما تعظم المخيلة وتزيد اتصالها بالعالم العلوى تسمو الالهامات النبوية وتتنوع ، ومن هنا تفاوت الأنبياء فيما بينهم بتفاوت مخيلاتهم ، واختلف ما يوحى إليهم تبعاً لذلك[3] . فقوة المخيلة إذن ذات أثر كبير فى الكشف والالهام وشرط أساسى فى كل من يرقى إلى مرتبة النبوة[4] . بيد أنه يجب أن يضم النبى إلى مخيلته قوى عقلية عظيمة ، لأن المخيلة لا تستطيع أن تصعد إلى درجة العقل الفعال إن لم يكن فى معونتها قوى فكرية ممتازة[5] . هذه الملاحظات على اختصارها تكفى للبرهنة على أن ابن ميمون اعتنق فى إخلاص نظرية الفارابى فى النبوة

وأما ألبير الجراند فقد أثرت فيه الآراء الفارابية عامة من نواح كثيرة . فهو يقول بنظرية فى السعادة لا تختلف كثيراً عما ذهب إليه الفارابى ، ويقرر أن الانسان متى وصل إلى مرتبة العقل المستفاد أصبح على اتصال دائم بالعالم الروحانى ، وأضحى إلى حدما شبيها بالله ، ووقف على المعارف المختلفة ، وفاز بغبطة لا نظير لها[6] . ويحلل من جهة أخرى نظرية النبوة تحليلاً سيكلوجيا يتفق اتفاقا تاما مع ما جاء به الفارابى[7] . كل هذا يثبت ، كما لاحظ رينان من قبل ، إلى أى حد نفذت اللغة العربية والنظريات الاسلامية الخطيرة إلى المدرسة الألبيرية[8] . وسهل علينا أن نحدد على وجه التقريب المصدر الذى استقى منه ألبير نظرية النبوة الفارابية ، فانه لا يبعد أن يكون قد قرأ عنها شيئاً فيما ترجم من كتب ابن سينا إلى اللاتينية ، أو فى كتاب دلالة الحائرين الذى أحرز منزلة عظيمة فى مختلف المدارس المسيحية

(يتبع) ابراهيم بيومى مدكور

(١) Ibid., p. 298.
(٢) Ibid., p 333 et suiv.
(٣) Ipid., p. 333
(٤) Ipid.' p. 232.
(٥) Ipid., p. 313
(٦) Reuan, Averroès, 235
(٧) Ibid.
(٨) Ipi

في الأدب المقارن

أشكال الأدب
فى الأدبين العربى والانجليزى
للأستاذ فخرى أبو السعود

تبدأ العلوم والفنون الانسانية كلاً مختلطاً كالسديم ، فاذا ما ارتقت وتطورت تبينت أجزاؤها وانفصلت ، ووضحت أشكالها وتميزت ، وتعددت مناحى كل علم وفن ، وتوفر بعض ممارسى تلك العلوم أو الفنون على ناحية من نواحى العلم أو فرع من فروع الفن وتوفر غيرهم على غيرها ، كلٌ يتبع ما هو أقرب الى طبعه وأوفق لعبقريته وأتمُّ تعبيراً عن منازعه ؛ وكلما ارتقى العلم أو الفن جدت فيه ضروب وأشكال لم تكن من قبل ، وتولدت من الأشكال القديمة أخرى غيرها

وذلك شأن الأدب : يبدأ بانفصال الشعر عن الموسيقى ، فاذا هو ألحان وأهازيج ساذجة المعانى ؛ ثم ما يزال جانب المعنى منه يقوى حتى يطغى على جانب النغم ، حتى يبلغ الشعر أشده وما تزال الأمة متبدية ؛ فاذا ما نالت حظاً من الحضارة والثقافة ظهر النثر بجانب النظم ، حاوياً لكثير من مميزات الشعر الفنية : كالتعبير عن الوجدان وحسن اختيار الألفاظ المعبرة ، فاذا ما استمر الأدب فى رقيه تعددت أشكال النظم والنثر واختلفت صورها ، واجتذب كل شكل فريقاً من الأدباء يصطفونه دون غيره أو بجانب غيره ، لاخراج أفكارهم وأحاسيسهم فى قالبه ، وإبراز نظرتهم الى الحياة فى أوضاعه وحدوده

فتعدُّدُ أشكال الأدب من دلائل رقيه وابتعاده عن عهود الابتداء وعصور الابهام والعموم ، وهو أيضاً من دلائل سريان روح التجديد فيه : فمن طبيعة النفس الانسانية أن تسأم النغمة الواحدة إذا كررت ، مهما كانت عذوبتها أو براعة صاحبها ، وتستوى فى ذلك الموسيقى وغيرها من الفنون ، فاذا ما سئم جيل شكلا من أشكال الأدب ، أو أصبح ذلك الشكل الأدبى غير ملائم لعصره ، فأن روح التجديد — إذا كانت هناك — تدفعه

إلى ابتكار شكل طريف ملائم ، وهجر الأشكال القديمة مهما كانت منزلة الأدباء المتقدمين الذين مارسوا تلك الأشكال ، ومهما يكونوا قد أودعوها من صادق الأفكار والشعور ، ومُحكَم الصور لعصورهم

وقد شهد الأدب الانجليزى عصر إلزابث ، وهو ما زال مختلط الأجزاء ، مضطرب السُّور ، لم تتميز أشكال منظومه ومنثوره ، بل لم تستقم بعد أساليبه الشعرية ولا لغته الكتابية ؛ فما لبث الشعر على أيدى شكسبير ومعاصريه من مؤلفى المسرح ، وسبنسر وملتون ثم دريدن ، أن كسب لغة نقية مختارة ، وأشكالاً واضحة بينــة ، صالحة للتعبير عن شتى الأفكار وتصوير مختلف الحالات النفسية . وضع شكسبير أساس الشعر المرسل ، ورفع بعبقريته مكانة ذلك الضرب من الموشحات المعروف بالسونيت ، وهو موشح من أربعة عشر بيتاً متداخلة القوافى على هيئة تبرز الفكرة الوحيـــدة التى تتضمنها السونيت إبرازاً رائعاً ؛ ووضع سبنسر موشحه المنسوب إليه والمكون من أبيات تسعة متداخلة القوافى آخرها أطول عروضاً من سائرها ، مما يجعل الوشح أداة صالحة للقصص الشعرى الرصين

وجاء ملتون فأدخل الملحمة فى الشعر الانجليزى الحديث : والملحمة أعظم ضروب الشعر شأناً ، وأ كثرها كلفة ، وأبعدها منالاً لـما تحتاج إليه من طول التوفر ، وعمق البصر بالأدب ، واتساع الثقافة ، والتضلع من اللغة ، والتمكن من الأساليب الشعرية ، وامتداد الخيــال ؛ وقد قدَّر كولردج الزمن اللازم لانشاء ملحمة بعشرين عاما : ينصرف الشاعر فى عشر منها إلى الاستعداد والتحضير ، ويتوفر فى عشر على الانشاء والتجويد ؛ وجاء دريدن عقب ملتون فوطد أساس ضرب آخر من النظم يدعى الأود ode أو القصيد الخطابى ، يمتاز بوعورة عروضـه وقوافيه ، ويوجه الخطاب فيه عادة إلى شىء مخصوص أو فرد معروف أو ذكراه ؛ ورفع دريدن كذلك مكانة « الدوبيت » فى الشعر الانجليزى ، أعنى القصيد المؤلف من أبيات ثنائيـة القوافى ، محكمة الوزن ، مصقولة اللفظ ؛ وهو الضرب الذى تلقفه عنه بوب فزاده صقلاً وإحكاما ، وساد من بعدهما القرن الثامن عشر

توطدت دعائم الشعر وتميزت أشكاله فجاء دور النثر ، وهو دائماً متأخر عن الشعر فى الظهور ، ودعت الأحوال السياسية والاجتماعيـة التى سادت القرن الثامن عشر إلى احتفاء الأدباء والمثقفين بالنثر : فقد كانت النظم الدستورية قد استتبت ، والرأى العام قد تكون ، والطبقة الوسطى قد تعاظم شأنهـا ، والحركة العلمية قد نشطت بعد ما اقتبسته انجلترا من علوم أهل القارة ، والصحف قد انتشرت معتمدة على الرأى العام والطبقة الوسطى ، وقد غبر عهدُ المخاطرة والجهاد الذى تجلى فى حكم إلزابث وثورة المطهرين ، وألهب خيال الشعراء ، وجاء عهـد الاصلاح والعمل الرزين فى الداخل والخارج

وفى أول ذلك القرن كان النثر الانجليزى حطاماً مبعثراً من الألفاظ المتنافرة والتعابير المتعثرة ، والأساليب العامية ، وزخارف اللفظ ، وبهارج المعنى ، والتقليدات الفاشلة للأسلوب اللاتينى المتطاول الجمل ؛ فما لبث دريدن وكاولى أن هذبا من حواشـيه وقوّما من معوجه ، ونقياه من الغريب والسوقى ، فظهر النثر الانجليزى الحديث المعروف ببساطة ألفاظه ، ولطافة مأخذه ، وسلاسة تعـابيره ؛ ثم تلاهما أديسون وستيل فوطدا دعائم « المقالة » فى الصحف التى تعاونا فى إصدارها ، فاذا المقالة شكل من أشكال الأدب جم المزايا . فهى تدور حول فكرة مفردة تكون وحدتها وتجمع حولها شتى الأفكار الثـانوية ، وتتناول ما شاء الكاتب أن يدرسه من مسألة اجتماعيـة أو نقد أدبى أو حالة نفسية ، أو نظرة فى الفنون

ومن المقالة نمت بذور شكل آخر من أشكال النثر دعت إليــه طبيعة ذلك العصر : هو القصة التى تكونت من اجتماع عدد من المقالات تدور حول شخصيات معينة ، فما لبث الذوق العام أن استـطرفها وكان قد مل الرواية التمثيلية ، فحلت القصة محلها فى تصوير المجتمع ودرس الأخلاق واستكناه دخائل النفس الانسانية ، وتوفر عليها من كبار الكتاب أمثال ريتشاردسن وجولد سميث ، وجين أوستن ، فأحكموا أوضاعها ، وهذبوا حوارها ووضحوا شخصياتها ، وأسلموها إلى القرن التالى شكلا من أشكال الأدب جم المزايا مبشراً بمستقبل حافل

وكأنَّ النثر لم يقنع بهذا الضرب الخيـالى من التأليف ، وآثر أن يجعل من الحقيقة الواقعة مادة للفن كما جعل من القصص الخيـالى ، ويتخذ من الماضى مراداً له كما اتخذ من الحاضر ،

فالتفت إلى التاريخ ، وكان من قبل يدون باللاتينية أو بانجليزية ملتوية التراكيب مختلطة الحقائق بالأوهام والأكاذيب ، فبعث فيـه الروح الفنية التي شملت نواحي الأدب ونفخ فيه النزعة العلمية التي تمشت في سائر العلوم ، ولم ينصرم القرن إلا وقد ظهر أكبر أثر تاريخي في اللغة ، وهو كتاب جيبون عن الدولة الرومانية ، وإذا النثر الفني قد كسب شكلا جديداً هو التاريخ الفني للعصور أو الوقائع أو الأبطال

وهكذا صار الأدب الانجليزي أدباً رفيعاً متسع الجوانب متميز الأوضاع متعدد الأشكال ، مشتملاً على أرق ما لدى الأمم الأخرى من الصور الأدبية ، يقدم لدارسـيه ما يختارونه من أشكال الأدب ملائماً لطبائعهم ، ولقرائه ما يؤثرونه موافقاً لأذواقهم ، وورث القرن التاسع عشر عن القرنين السابقين له تراثاً ضخما من أشكال المنظوم والمنثور وآثار الفحول فيهما ، فلم يكد يحس حاجة الى استحداث أشكال أخرى ، بل انصرف إلى استغلال ما بين يديه منها ، ولاءم بين بعضها وبين حاجاته ، وآثر بعضاً منها على بعض : فعالج وردزورث وتيسون الشعر المرسل ، وعالج سـوذي وموريس وهاردي الملحمة واختلفت حظوظهم من النجاح ، واستغل هازلت وتكري وما كولى المقالة في النقد الأدبي ، وعالج ما كولى وكارليل التاريخ . وهجرت الرواية التمثيلية الشعرية وحلت محلها أخرى نثرية أكثر التزاما للواقع وملاءمة لحاجة العصر ، وتعاظمت مكانة القصة الطويلة والصغيرة حتى فاقت ما عداها ، والتفتت إلى تصوير المجتمع الجديد القائم على الصناعة والمخترعات

أما تاريخ الأدب العربي منـذ نهضته بقيام الاسلام وتوطد دولته ، ودخوله في طور الحضارة والثقافة ، فمغاير لهذا : فقد ورث عن الجاهلية لغة قوية غنية تبشر بمستقبل عظيم ، وشعراً رصيناً محكم الاوزان متعددها موطد الأركان ممهد الأساليب مؤذنا برقي إلى أبعد الغايات ، فاذا الأدب يجمد في أول الطريق ، ويجتزئ بماضيه عن مسـتقبله ، ويطوى زهاء خمسة قرون من عهود الحضارة والثقافة ، فلا يتفرع كما تفرع الأدب الانجليزي إلى أشكال متميزة ذات خصائص واضحة ، بل يظل كل من الشعر والنثر سديماً مشوشاً كما كان في أول بدئه ، وينبغ من فحول العربية أمثال ابن المقفع والجاحظ وابن الرومي والمتنبي والمعري ، فلا يمنعهم غير تقيل السلف فيما درجوا عليه من مناهج القول ، ولا تتوطد على أيديهم أشكال جديدة للنظم والنثر ، ولا يؤدون للعربية الخدمات الجلى التي أداها للانجليزية أبناؤها

طوى الأدب العربي عصور ازدهاره وهو يضرب على نغمة واحدة في النظم وأخرى في النثر ؛ ففي النظم ظلت القصيدة المفردة القافية ، غير المحدودة الطول ، غير الوحدة الفكرة ، غير المعروفة العنوان ، هي الشكل الشعري الوحيد ، يصوغ فيه ابن القرن الخامس أفكاره كما صاغ الجاهلي أفكاره من قبل ؛ وفي النثر ظلت كتب الأدب المبهمة العناوين المشتجرة الفصول والفقرات المتباعدة المواضيع ، المختلطة النظم بالنثر ، والأدب بالدين ، والقصص بالنقد ، هي الضرب السائد منذ انتشرت الكتابة إلى أن خمد الأدب

وفي الشعر ابتكرت الموشحات ، فلم تكن غير زخارف من القوافي ينمقها الناظم كما شاء دون أن تكون أوضاع قوافيها مبينة على إبراز المعاني ، ولم ينتشر استعمال تلك الموشحات واقتصرت على ضروب من الشعر الوجداني الضئيـل الحظ من المعنى . قال ابن رشيق : « وقد رأيت جماعة يركبون المخمسات والمسمطات ، ويكثرون منها ، ولم أر متقدماً حاذقا صنع شيئاً منها لأنها دالة على عجز الشاعر وقلة قوافيه وضيق عطنه . . . وهذا الجنس موقوف على ابن وكيع والأمير تميم ومن ناسـب طبعهما من أهل الفراغ والرخص » ؛ وفي النثر ابتكرت المقامة فاذا هي أشد من الموشح احتفاء باللفظ ، وإذا هي لاتفوقه ذيوعا ونجاحا ، وحاكته عقما فلم ينتج عنها ابتكار جديد ، كما مهدت المقالة في الانجليزية السبيل مثلاً للقصة

فاذا بحثت في الأدب العربي عن أشكال أدبية متميزة متعددة لم تجدها ، وإنما ظل الأدب كما بدأ سديما مختلطا متشابها : ارتقت معانيه وتعددت أغراضه ورقت ديباجته ، ولـكن جمد شـكله فلم يتحول الى أشكال جديدة ، وظل النقاد لا يقسمون الأدب الى أكثر من نظم ونثر ثم يقفون ، ويفاضلون بين النظم والنثر مفاضلة ليس لها موضع ولا هناك مايسوغها ؛ فأن أرادوا التوسع فاضلوا بين الرجز والقصـيد ، وقدموا شاعرا على شاعر لبراعته في الطوال أو في القطع ، وهي مفاضلات كذلك لا موضع لها ولا مبرر ، لأن هذه الأشياء متقدمة الذكر ليست بأشكال

للشعر متميز كلٌّ منها بخصائص فى الأسلوب أو فى الموضوع ، تجعل شكلا منها أصعب على الشاعر المعالج من شكل آخر أو أبعد متناولا

وإنما جنح بالأدب العربى الى هذه الحال من الجمود الشكلى التى لا يجد معها جديد ، ولا يحل طريف محل عتيق ، ولا يتسع أفق الأدب ولا تتشعب مناحيه ، عوامل تقدمت الاشارة اليها مراراً و كان لها أبعد الأثر فى تاريخ الأدب العربى ، بل كان لها فيه ضرر بليغ ، إذ باعدت بينه وبين أن يكون دائما تعبيرا حرا صحيحا عن شعور الفرد والمجتمع ، متطورا مع حاجات الأجيال وتجدُّد شؤون الحياة ، وتلك هى تغلب روح المحافظة على روح التجديد فيه ، واعتماده على تشجيع الملوك ، واعتزاله الآداب الأخرى ، واحتفاله باللفظ قبل المعنى

فلو عنى أدباء العربية بدراسة الآداب الأُخرى حق العناية لاطلعوا على أشكال للأدب تستحق أن تنقل الى العربية فتكون باعثا على ابتكار غيرها . ولقد اهتـدى الأدباء الانجليز فى كل ابتكاراتهم سالفة الذكر بهـدْى الأمم الأخرى : فالسونيت اقتبسوها عن بترارك ، والشعر المرسـل أخذوه عن الدرامة الاغريقية ، والأود نقلت عن بندار ، والملحمة تأثر فيها ملتون أثر هوميروس وفرجيل ، والمقالة أوحت بها كتابات مونتين ؛ وليس يدين الأدب العربى بشىء من هذا لغيره من الآداب ، ولو فعل لجاء أرحب آفاقا وأوضح مناهج وأبرز أشكالا

استقل الأدب العربى بنفسه واعتزل غيره ، ولم يكن له من داخله حافز الى التجديد والابتكار : فأن نفس السبب الذى صده عن آداب الأمم الأخرى صدف به عن تجديد نفسه ، ذلك السبب هو اكبار المتقدمين وإجلال آثارهم إجلالاً لا مطمع معه الى تنكب طرائقهم أو الحيدة عن أساليبهم ، وغـير هذه النزعة المحافظة كانت تسود الأدب الانجليزى : كانت روح التجديد متمكنة من سائر فحوله ، لا يمنعهم إعجابهم بمتقدميهم من الأعلام عن اختطاط غير طرقهم ، وبفضل هـذه الروح المجددة كان الأثر المنقول عن الآداب الأجنبية لا ينشب أن تتمثله الانجليزية ويونع فيها ، ويؤتى ثمرا جـديدا لم تحظ به الآداب المنقول عنها ؛ فالسونيت أصبحت فى الانجليزية ضربين : الشكسبيرى والملتونى ؛ والمقالة هذبت واستخدمت فى مقاصد لم تخطر لمونتين على بال ، وكانت أداة إصلاح اجتماعى نادر المثال ، وخرجت من غضونها القصة الاجتماعية

وولوع أدباء العربية بالألفاظ استغرق كل تفكيرهم واجتهادهم : ألهاهم احتيال الحيل فى تنسيق الألفاظ وإظهار البراعة فى استخدامها عن التفكير فى المعنى أو الشكل الأدبى الذى يصاغ فيه ، فابتكروا كثيراً فى البـديع الذى يتعلق باللفظ ولم يبتكروا فيما يتعلق بالشكل الأدبى . ولما أراد شاعر مجيد كالمعرى أن يأتى بجديد فى القوافى لم يتجه إلى تحرير الشعر من بعض قيودها أو تذليلها لابراز المعنى على أحسن صورة ، بل زادها قيوداً فضاعف حروف الروى فى لزومياته ، لأنه كان يحس أنه يفعل ذلك دون أن يَخْرِمَ التقاليد الأدبية المتخلفة عن الأقدمين ، ودون أن يتهمه متهم من النقاد كابن رشيق « بعجزه وقلة قوافيه وضيق عطنه »

واعتماد أدباء العربية على نوال الأدباء ، وترددهم على أبوابهم ، ومشاركتهم إياهم فى لذاتهم وتَرَفهم أحياناً ، أو دوام طموحهم إلى تلك اللذات والمتعات ، وذهاب أيامهم بين مرارة الحرمان ونشوة اللذاذة ووخامة البَشم والُخمار ، كل ذلك لم يدع لهم وقتاً للتوفر على الأدب الصحيح والانصراف إلى الفن الرفيع ، ولم تقم أمامهم حاجة إلى الابتكار والتجديد ، إذ كان الأمراء قانعين أن يقال فيهم مثلُ ما قيل فيمن قبلهم من الملوك الفخام وكما قيل فى أولئك الملوك ، فكان حسب الشاعر أن يقتفى أثر من قبـله ويحذق وسائله فى اقتناص معانى المديح

أما فحول الانجليزية فكان معظمهم بمنجى من هذه الحاجة الملحّة ، وممتصم من حياة الفلاكة والاذاذة التى كان يحياها كثير من أدباء العربية ، وكان لهم بفضل كدّهم فى سبل الحياة أو بفضل ما ورثوه من ثروة غنى عن سؤال الأمراء ، ومتّسع من الوقت للاعتزال فى صومعة الفن الخالص من شوائب المادة ، بل كان منهم أفراد كوردزوورث وشلى وتنيسون عاشوا فى رغد دون أن يعملوا فى حياتهم عملاً سوى أن يقرأوا ويكتبوا ما يسر نفوسهم ويرضى الفن وحده . ولا ريب أن أمثال هؤلاء أشد رغبة فى التجديد والاختراع ، وأقدر على القيام بالتجاريب الأدبية فى الأشكال والصيغ والمواضيع ، ممن يقضون العمر نظماً للمدح والسؤال وترقّباً للرضى والانعام . وقد فطن ابن رشيق فى عبارته السالفة إلى ضرورة اتساع الفراغ للتفنّن فى ضروب القول ،

وإن يكن قد قرَنَ ذلك بذكر الرخص وأضافه الى البطالة والعبث

فالأدب الانجليزى ظل دائماً على صلة بالحياة وحقائقها ، يعينه على ذلك ما به من روح التجديد ، وما أخذ نفسه به من التزود من الآداب الأخرى ، وما تمتع به أقطابه من وقت قصروه على فهم والحياة دائبة التحول والتجدد ، فلا ندحة للأدب إذا توثقت صلته بها عن تحول أشكاله وتجدد صوره وأزيائه . أما الأدب العربى فباعد بينه وبينها تلك العوامل السالفة الذكر ؛ فلا غرو أن جد فلم تتجدد أشكاله مع مرور الزمن ، وتحول الأدب الانجليزى فى قرنين من أدب ناشئ مختلط الأوضاع إلى أدب راق متجدد الصور متعدد الأشكال

فخرى أبو السعود

البيـــان (١)

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

لا وُجودَ للمقالة البيانية إلا فى المعانى التى اشتملت عليها يقيمها الكاتب على حدودٍ ويديرها على طريقة ، مصيباً بألفاظه مواقع الشعور ، مُثيراً بها مكامن الخيال ، آخذاً بوزن تاركاً بوزنٍ لتأخذ النفسُ وتترك

ونقلُ حقائق الدنيا نقلاً صحيحاً إلى الكتابة أو الشعر ، هو انتزاعُها من الحياة فى أسلوب وإظهارها للحياة فى أسلوب آخر يكون أوفى وأدقّ وأجملَ ، لوضعه كلَّ شىء فى خاصٍّ معناه وكشفه حقائق الدنيا كشفةً تحت ظاهرها الملتبس . وتلك هى الصناعةُ الفنيةُ الكاملة : تستدركُ النقص فتتمه ، وتتناول السر فتعلنه ، وتلمس المقيَّد فتطلقه ، وتأخذ المطلق فتحدُّه ، وتكشف الجمالَ فتظهره ، وترفع الحياة درجةً فى المعنى ، وتجعلُ الكلامَ كأنه وجد لنفسه عقلاً يعيش به

فالكاتبُ الحقُّ لا يكتبُ ليكتب ؛ ولكنه أداة فى يد القوة المصوِّرة لهذا الوجود ، تُصوِّر به شيئاً من أعمالها نوعاً جيلاً من التصوير . الحكمة الغامضةُ تُريدُه على التفسير ، تفسير الحقيقة ؛ والخطأ الظاهر يريده على التبيين ، تبيين الصواب ؛

(١) هذه القطعة الفنية الرائعة هى مقدمة كتاب (وحى القلم) ، ولاريب أن القراء سينعمون منه بأبلغ وأمتع ما أخرجته العربية فى هذا العهد .

والفوضى السائمةُ تسأله الاقرار ، إقرار التناسب ؛ وما وراء الحياة يتخذ من فكره صلة بالحياة ؛ والدنيا كلها تنتقل فيه مرحلة نفسية لتعلو به أو تنزل . ومن ذلك لا يُخلق اللَّهَمُ أبداً إلا وفيه أعصابه الكهربائية ، وله فى قلبه الرقيق مواضعُ للاحتراق تنفذ إليها الأشعة الروحانيةُ وتتساقط منها

وإذا اختير الكاتبُ لرسالة ما ، شعر بقوة تفرض نفسها عليه ، منها سِنادُ رأيه ، ومنها إقامة برهانه ، ومنها جمال ما يأتى به ؛ فيكون إنساناً لأعماله وأعمالها جميعاً ، له بنفسه وجود ، وله بها وجود آخر ؛ ومن ثمَّ يصبح عالماً بعناصره للخير أو الشر كما يُوجَّه ؛ ويلقى فيه مثلُ السر الذى يلقى فى الشجرة لاخراج ثمرها بعمل طبيعى يرى سهلاً كل السهل حين يتم ، ولكنه صعب أىُّ صعب حين يبدأ

هذه القوة هى التى تجعل اللفظة الواحدة فى ذهنه معنىً تاماً ، وتحول الجملة الصغيرة الى قصة ، وتنقلب باللمحة السريعة الى كشف عن حقيقة ، وهى تخرجه من حكم أشياء ليحكم عليها ، وتدخله فى حكم أشياء غيرها لتحكم عليه ؛ وهى هى التى تميز لغته وأسلوبه لأنها تلتقط بمعانيها ألفاظها ، وما تعطيه هو إلا لتعطى الناس منه ، وكما خُلق الكونُ من الاشعاع تضع الاشعاعَ فى بيانه (١)

ولا بد من البيان فى الطبائع الملهمة ليتسع به التصرف ، إذ الحقائق أسمى وأدقّ من أن تعرف بيقين الحاسة أو تنحصر فى إدراكها . فلو حُدَّت الحقيقة لما بقيت حقيقة ، ولو تلبَّس الملائكةُ هذا اللحم والدم لبطل أن يكونوا ملائكة ؛ ومن ثم فكثرةُ الصور البيانية الجميلة للحقيقة الجميلة ، هى كل ما يمكن من طريقة تعريفها للانسانية

وأىُّ بيان فى خُضرة الربيع عند الحيوان من أكل العُشب إلا بيان الصورة الواحدة فى معدته ؟ غير أن صُوَرَ الربيع فى البيان الانسانى على اختلاف الأرض والأمم ، تكاد تكون بعدد أزهاره ويكاد الندى يُنضّرها كما ينضره

ولهذا ستبقى كل حقيقة من الحقائق الكبرى : كالايمان والجمال والحب والخير والحق — ستبقى محتاجة فى كل عصر

(١) ثبت أن الإشعاع هو المادة التى صنع منها الكون

إلى كتابة جديدة من أذهان جديدة

* * *

وفى الكتَّاب الفضلاء باحثون مفكرون تأتى ألفاظهم ومعانيهم فنًّا عقلياً غايته صحةُ الأداء وسلامةُ النَّسق، ويندرُ البيان فى كلامهم فيكون كوخْزِ الخضرة فى الشجرة اليابسة هنا وهنا؛ ولكن الفنَّ البيانى يرتفع على ذلك بأن غايته قوةَ الأداء مع الصحة، وسموُّ التعبير مع الدقة، وإبداع الصورة زائداً جمال الصورة؛ أولئك فى الكتابة كالطير له جناح يجرى به ويدِفُّ ولا يطير، وهؤلاء كالطير الآخر له جناح يطير به ويجرى، ولو كتب الفريقان فى معنى واحد لرأيت المنطق فى أحد الأسلوبين يقول: أنا هنا فى معانٍ وألفاظ. والالهام فى الأسلوب الآخر يقول: أنا هنا فى جلال وجمال وصور وألوان

ودورةُ العبارة الفنية فى نفس الكاتب البيانى دورة خَلْق وتركيب، تخرج بها الألفاظ أكبر مما هى كأنها شبَّت فى نفسه شباباً، وأقوى مما هى كأنما كسبت من روحه قوة، وأدلَّ مما هى كأنما زاد فيها بصناعته زيادة. فالكاتبُ العلمىُّ تمر اللغة منه فى ذاكرة وتخرج كما دخلت عليها طابع واضعها؛ ولكنها من الكاتب البيانى تمر فى مصنع وتخرج عليها طابعُه هو. أولئك أزاحوا اللغة عن مرتبة سامية، وهؤلاء علوْا بها إلى أسمى مراتبها؛ وأنت مع الأولين بالفكر، ولا شىء إلا الفكر والنظر والحكم؛ غير أنك مع ذى الحاسة البيانية لا تكون إلا بمجموع ما فيك من قوة الفكر والخيال والاحساس والتأثر

وللكتابة التامة المفيدة مثل الوجهين فى خلق الناس: ففى كل الوجوه تركيب تامٌّ تقوم به منفعةُ الحياة، ولكن الوجه المنفرد يجمع إلى تمام الخَلق جمال الخَلق، ويزيد على منفعة الحياة لذة الحياة؛ وهو لذلك يُرى ويؤثر ويُعشق

وربما عابوا السموَّ الأدبىَّ بأنه قليل، ولكن الخير كذلك؛ وبأنه مخالف، ولكن الحق كذلك؛ وبأنه مُحيِّر، ولكن الحسن كذلك؛ وبأنه كثير التكاليف، ولكن الحرية كذلك

إن لم يكن البحر فلا تنتظر اللؤلؤ، وإن لم يكن النجم فلا تنتظر الشعاع، وإن لم تكن شجرة الورد فلا تنتظر الورد، وإن لم يكن الكاتب البيانى فلا تنتظر الأدب

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

حب الشاعر

للأستاذ السيد محمد زيادة

يا حبها: أأنا مخلوق بك ومخلوق لك؟.. كيف أتقيها وبجمالها فى كل مشرق من مشارقه صورة، وفى كل صورة معنى، وفى كل معنى خلابة وفتنة؟..

* * *

كنا على موعد أنا وهى، وكان موعدنا بين الأصيل والغروب فى حديقة سميناها حديقة الحب؛ تترامى أطرافها، وتُرى فى مكانها من بعيد كأنها عاشق برَّح به هواه فذهب إلى الخلاء يتفرج بالوحدة، وتُرى من داخلها فى جوها الشعرى الغزلى كأنها جنة هيئت لعاشقين

وتقوم بين أفنانها ربوة صاحية نائمة... صاحية بنسيمها الرفاف المعطر، ونائمة بمنظرها السكران الحالم، وتظلل هذه الربوة شجرة لفاء وارفة تعانقت أغصانها فكان لها موقف الحب والشوق... وهناك على هذه الربوة تحت هذه الشجرة كان الموعد.. والتقينا

وقبل أن يحين اللتقى بساعة كنت جالساً فى حجر الشجرة أرقب من خلال أوراقها احمرار الشمس بعد تمايل الأصيل، وكان كل ما فى الحديقة من أشجارها وزهرها يترجرج، كأنما كان للحديقة قلب ينتظر انتظار قلبى...

وسرَب خيالى بين أنحاء الطبيعة فى أنحاء الفكر؛ أما قلبى فكان معى ولم يكن معى!!. كنت أحس أنه معى يدق ويرتعش وهو مطمئن خائف، وكنت أحس أنه بعيد عنى بعد حبيبتى وأنه قادم معها بعد فترة

ومرت على الدقائق ثقيلة محببة، فكانت كل دقيقة تأتى بعد دقيقة كأنها أجل يمتد من أجل...

* * *

وإنى لفى غرقٍ وذهول فكر إذ رأيت الحديقة تهتز فجأة كأنما راعها رائع... فتبينت فاذا بنسمة وردية تنفاق فى جو الحديقة نصفين وينفذ من بينهما صوت ملاك... وتسمَّعتُ فاذا بها أغنية هى فن وسحر فن، وسمعت صوت الملاك يردد:

يا حبيب القلب مالى شغلتْ نجواك بالى

وأنصتُّ فإذا الصوت يقترب شيئاً فشيئاً ، وإذا الحديقة تبتسم شيئاً فشيئاً ، وإذا القلب يذوب شيئاً فشيئاً . . .

لقد جاءت الحسناء . . .

جاءت تترنم بهذه الترنيمة !! ومادت بي الربوة فلم أسمع إلا رعد فؤادي ، ولم أر إلا برق خيالي ؛ ثم انقشعت من فوق رأسي سحابة فنظرتُ فرأيت الحديقة ترقص ، ورأيت الحسناء قد وافت باسمة مغنية متثنية . وخيل إليّ أن الأشجار كلها قد تجمعت وسارت جحفلاً لتحيي جمالها وتزف إلى الطبيعة في قوامها غصناً خلقه الله ليحيا ، وأحياه ليظل سراً وتظل الطبيعة عاجزة عن معرفة هذا السر

***

ومدت إليّ يدها وهي ضاحكة وقالت : كأنك تناديني من بعيد ؛ فهل أنت بعيد ؟

قلت : كانت روحي بعيدة شاردة ، وها قد رجعتْ لما سمعت صوتك . . . وأنا الآن أناديك منها

قالت : لعل روحك طويلة ، ولعلك تناديني من أولها . . .

قلت : بل أناديك من آخرها ، ولولا أنك أدركتني فأدركت آخرها لضاع مني في الانتظار كما ضاع أولها

ثم ضحكت وافتنّ مبسمها في الضحك فقلت : كأني بالحديقة كلها تضحك في وردة إذ تضحكين

قالت : هذا رأي خيالك

قلت : ورأي عينيّ ورأي قلبي ورأي الحقيقة . . .

قالت : إذا كانت الحديقة تضحك كما تقول فلم لا أراها كما تراها ؟

قلت : لأنك لا ترين ثغرك الضاحك كما أراه

فضحك وجهها كله ، ويا للجمال في ضحكة الوجه الجميل ! !

لقد رأيته يومض وميض قبلة دانية تمتنع ، ويشع شعاع قبلة ممنوعة تدنو ، فقلت : وها هي الدنيا كلها تضحك

قالت : لقد كبرتْ الحديقة فصارت في خيالك دنيا . . .

قلت : لا ... بل تبسمت الدنيا من حول الحديقة لأن وجهك تبسم من حول ثغرك

فأطرقت إطراقة حنين وحب ، وترقرقت في مفاتن حسنها معاني هواها فكانت فلسفة الجمال بين فلسفة العواطف ؛ ثم رفعت رأسها ونظرت إلى السماء فسبحت عيناها في الشفق ، ثم

عادت إليّ من غيبتها وقالت : ما أرق قلب الطبيعة ، إنها الآن حانية ... ألا توحي إليك ؟ . .

قلت : لقد أوحى إلي بهذه الأبيات وأنت قادمة

قالت : ما أشوق نفسي الآن إلى الشعر

قلت : هذا هو شعر الحديقة :

ياسكرة اللحن لما مرّ من فيها	صدح البلابل فنّ من تفننها
والغصن تفسير معنى من تثنيها	البدر تفسير معنى من تلألئها
يحار في حسنها الرفاف رائيها	كأنها آية قد ألبست جسداً

في صـــوتها رنة لم يعطها ملك

تضني قلوب الورى من حيث تشفيها

هذي التي قدستني في أغانيها	غنت فقال الهوى هذي مخلدتي

***

فأسبلتْ أجفانها على نظرة صارخة ثم زفرتْ وقالت : آه منكم أيها الشعراء ! ! إنكم إذ تغوون لا ترشدون

قلت : وأين الغي هنا ؟

قالت : في لسانك ، من وراء شيطانك ، من وراء قلبك ... لقد جعلت الشعر مصيدة . . . إنك محتال شريف ! !

قلت : إذاً فالشعري لم يصد ؟

فسكتتْ هي وقالت عيناها : يا مُنكر الخير . . .

ثم سكتت عيناها وقالت هي : . . . ويحك

قلت : لو أنك رأيت كيف كان اللحن بين شفتيك وأنت مقبلة عليّ إقبال الدنيا على طريدها ، وكيف كانت شفتاك في وجهك وكيف كان وجهك فوق قوامك ، وكيف كان ميد قوامك بين ميد الغصون ... لو أنك رأيت هذا لكنت الآن شاعرة ولما قلت في وصف نفسك غير ما قلته ؛ . والله لكأن الفتنة ما خلقت إلا للمغنيات . . .

ونظرتُ اليها خُلسة فرأيت وجهها ساكناً يحتج على أني أخطأت وعددت فتنته من فتنة غيره ، ثم رفعت بصري لأختلس نظرة أخرى ، فصدمتني منها نظرة حزينة وقالت : أكل المغنيات جيلات لديك ؟ . . .

قلت : ومن غيرك جمت بين جمال الجسم وجمال الصوت في جمال ثالث هو انفرادها بالجمع بينهما ؟؟.. فإذا كنت لم أحسن التعبير فليكن عذري أنني أحسنت القصد

ولكنها غضبت وطال منها الغضب ، وتراءت لي كأنها

تجادل قلبها في صوابه لترده إلى صوابها ، ثم كأنها انتصرت وأمسكت قلبها بالحجة ؛.. ثم تبسمت فضحكت ثم قالت : يخيل إلى أنك خلقت وفي قلبك أذن مرهفة للغناء فمشت تهوى المغنيات ، وتجمل من كل منهن قصة حب ، وتفيد من كل منهن تجربة حب ، وتحسب كلا منهن أنها نهاية فلا تلبث حتى تراها بداية ؛ وجاء دوري عندك ... ولكن أي حب ؟ !

قلت : حب الشاعر الجاعل روحه نسمة في جوك ، الباذل لك من قلبه كل البذل

قالت : كي أن تقول حب الشاعر ليفهم سامعك أنه حب أيام أو أسابيع أو شهور ، وأنه كالزهرة لا تكاد تينع حتى تجتنى .

قلت : لقد عكست الوضع يا آنستي ؛ فحب الشاعر غير حب الناس ، لا يكون له آخر كما يكون له أول ؛ وإنما هو الحب الذي يبدأ ليظل حيث يبدأ فيرتبط بأجل الشاعر ما طال أجله ثم يبقى بعده ما بقي ذكره . . . أفلا تعلمين أن الشعراء هم أشد أهل الوفاء تمسكا بالوفاء ، وأكثر أهل الحب صدقاً في الحب ؟..

قالت : هذا من وهم الشعر والشعراء

قلت : أفلا تعرفين أنهم يشقون ليسعدوا غيرهم ؟ . .

قالت : وهذا من أكاذيب الشعر والشعراء

قلت : أفلا تعتقدين أنهم مخلدون ؟ . .

قالت : وهذا من أحلام الشعر والشعراء

قلت : إذن فما ذا تقولين فيهم ؟

قالت : أقول إنهم شواذ النـاس ، أما خلالهم فهي الخير والشر ، كلاهما يشق طريقه في جوف الآخر ، وأما كلامهم فأجل ما فيه أكذب ما فيـه ، وأما حياتهم فما منها غير تناقضها واضطرابها ، وليس لها أن تركن إلى حال مهما تكن الحال . . .

قلت : وحبهم إذا كان من قلوبهم ؟

قالت : أليس الشاعر كالطائر لا يطيب له عيشه إلا في تنقله بين الأفنان والأدواح ؟ ثم أليس من طبيعة الشاعر أنه طماح لا تقنع نفسه إلا بسعيه وراء الجديد حيث يكون ؟ فهل مع هذا نصدق أن في طوقه أن يحب فتنفرد لديه حبيبته ، ويحبس عليها قلبه ؟

قلت : وهذه الحرق التي في كبـــدي منك ، ما هي وما مصيرها

قالت : هي الهوى الثاوي ومصيرها إلى غيرها من غيري

ثم اضطجعت إلى ظهر المقعد تبتسم وتخفي ابتسامها كأنها شاعرة بنبض فؤادي فقلت : وهذه الألفة التي بين روحي وروحك من أين جاءت إذا لم تكن بنت الحب ؟

فقطبت بعض جبينها الوضاح ، وظهرت لي كأنها تنكرني وتتنكر لي ، فقلقت بهذا كبدي ثم قالت : هذه الألفة ؟.. سل عنها قلبك . . .

أواه منها ! ! أواه منها ! ! ما كان أقساها

***

وسكتنا فترة وكلانا في حاله ... هي في دلالها تتأود وتهز ساقاً موضوعة فوق ساق ، وأنا في حنق أتلوّى وأضغط يداً مضمومة إلى يد ، ثم نظرتُ إليها ونظرتْ إليّ فقلت : هل تعلمين كيف أنت الآن في قلبي ؟

قالت : لا إخالني إلا ممقوتة مقت الحقيقة عند ما تكون مرة

قلت : بل محبوبة حب الدلال في الجمال ... إني أراك الآن فاتنة أخرى ممثلاً في فتنتها عناد الفتنة ؛ فأنت في عيني برق يثور على برق ؛ أما أنا فلست أنا . انظري ... هل ترينني كما كنت قبل دقائق إنساناً بحالة إنسان ؟

فسرّحتْ طرفها في هيكلي ، فاقتحمتْ نظراتها الى قلبي فذابت في دمي وجرت في عروق ، وكانت النظرات شيئاً حلواً في شيء مر ... كانت رضا في غضب ، وإغراء في صد ، وليناً في صلابة

ثم كفّت النادة بصرها وقالت : لو لم يكن غرامُ الشعراء غرامَ برهة من الدهر قد تطول وقد تقصر لما كان مزعزعاً مخلّى ، ولكان فيه أظهر ما في الغرام ؛ ولكن من حكمة الله أنه يخلق في كل شيء كامل شيئاً ناقصاً ليجعل الكمال في الدنيا غاية لا تدرك

قلت : الشاعر يخلق موعوداً بحبيبة يتناهى إليها الجمال في رأيه ، فيعيش ما يعيش هائماً على وجهه بين مراتع الغيد يفتش عن تلك الحبيبة المجهولة ، فتجنح به عيناه الى كثيرات يتخايلن له بتلك التي في غيبه ...حتى إذا صادفها وعرضتْ له جمته على حبها وأخرجته من طور الفكرة المشمشة الى طور الفكرة الملومة ... وهأنت التي كانت في غيبتي فأصبحتْ في حياتي

قالت : لا أكاد أصدّق هذا إلا لأكذّبه ، فما يثبت عندي أنني أول من توافي وآخر من تحب

قلت : كيف لا وأنت قد أصبحت لي في كل مالي ، فأنا لا أرى الجمال إلا في جمالك أو في خلال جمـالك ؟ . . إن خيالي

ليقف عند نهايتك فليس فيه مابعدك وليس فيه إلا أنت أو مايجيء عنك ...

يارب سبحانك ! ! يا فاتح الروح للروح ... يا هازم القلب بالقلب ... يا فاعل ما تريد ... يارب سبحانك ...

ماذا أقول ؟ ... يا حبها أجب ، فأنت السائل وأنت المجيب

إني رأيتها تبكي ولكن بغير دموع ، وسمعتها تضج ولكن بغير صوت ، ثم بدت في عينها فترة كأنها سنة ، ورأيتها في جلستها رخية كأنها نائمة ، وكانت حقاً نائمة نوم أحلام في يقظة فكر

قلت : آه ما أجملك ! ...

قالت : وما أجمل شيطانك ...

ثم هزت رأسها هزة ضعف ، ثم سكتت فتركتها تسكت لأرى ما في سكوتها من كلام حسنها ... فماذا رأيت ؟ رأيت وجهها يحمر ويحمر حتى يكاد يلتهب ، ثم رأيته يميل عني ليخفي ما سفر عليه مما احتجب خلفه ، وأدركت ما بها فاستحييت أن أطيل النظر إلى شعاع السحر في احمرار الخفر على محياها ، فأغمضت جفوني على حلم سكران فلم أرها ...

وسمعتها تتنهد ، وجاوبها قلبي فتنهد ، وفتحت عيني مخمورتين لأراها فاذا بجمالها ثائر فزع ... عينان مهمومتان ووجه مرتبك

ثم رأيتها وخزت شفتها بسنها ، وقرصت إصبعاً بأصبعين ، ودقت برجلها على الأرض دقة وقالت : ما أضعف الانسان ! ! .

ثم تفترت وتندى جبينها وهدأت هدوء الفكر المستسلم فقلت : وما أقوى الحب ! !

(طنطا) السيد محمد زيادة

قصـــة المـكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

مدير مصلحة الكيمياء

عزرائيل يقبض يد صفراء

وصل الفائت

ذهب البكباشى ريد رئيس بعثة الحمى الصفراء فى جزيرة كوبا إلى الولايات المتحدة بدعوة من السلطات . وبقى مساعداه كارول ولازار فى كوبا . أما كارول فطلب إلى لازار أن يسلط عليه بعوضة سبق أن شربت من دم مريض بالحمى ، ففعل ، ومرض كارول بالحمى ثم اشتفى . ثم وقعت بعوضة وبيئة اتفاقاً على ذراع لازار وهو يدور فى عنابر المرضى فرض بالحمى ومات

— ٤ —

وعاد ريد من الولايات إلى كوبا ، فرحب به كارول ترحيباً حارًّا . وحزن ريد لِلازار وفرح للتجربتين اللتين نجحتا فى إعطاء الحمى إلى كارول وإلى س . ص . وَجفّفَ مدامعه على لازار ورأى فى القدر الذى وقع به يدَ الله التى لا غالب لهـا ، ولم يفته أن يرى فيه ظاهرة للعلم أيضاً . كتب ريد : « إن لازار قرصته بعوضة وهو فى عنابرالحمى الصفراء بالمستشفى ، فلا أقلّ من الاقرار بجواز أن هذه البعوضة تلوثت بالحمى الصفراء من مريض ، وإذن فحادث لازار وقع اعتباطاً ولـكنه لم يضع سدى ... »

قال ريد : « والآن جاء دورى أنا لأذوّق البعوض دى » . ولـكنه كان بلغ الخمسين من عمره فأرادوا تخزيله فقال لهم : « ولـكن لابد من البرهان » . وتُنصِتُ إلى صوته الموسيقى فتجده لطيفاً خافتاً . وتنظر إلى وجهه فلا تجد لذقنه هذا البروز الذى يكون للفتوّة والرجولة القوية . وتجمع هذا وهذا فتكاد تحسب أن ريد كان فى الذى قال متردداً هيّابا . ووالله لو حسبت ذلك ما شانه ، وكيف يَشينه وهو واحد من ثلاثة مات أولهم من غير شك وَوُرِيَ التراب يقيناً

قال ذلك الصوت اللطيف الناعم : « ولـكن لا بد من برهان » . وقام رِيدُ صاحب هـذا الصوت اللطيف الناعم إلى الجنرال ليونارد وُود Leonard wood ، وحمل إليه الأخبار كلها وما تضمنته من أحداث مؤثرة . وكان وُود أقل الرجال تخنثاً . فاستمع ماسمع حتى أذِن لريد أن يفعل مايشاء وأن يذهب إلى أى حد شاء . وأعطاه مالاً ليقيم معسكراً من سبع خيام وبيتين صغيرين ، حتى قناة السَلَم أعطاه ثمنها . وأحسن من هذا كله أنه أعطاه مالاً يشترى به رجالا يقامرون فى تلك التجارب بأرواحهم فيسلكون بها سبيلاً تهلك فيها على الأقل نفسٌ من كل خمس فلا تعود الى الوجود لتستمتع بالثمن الذى دُفع فيها . فشكر ريد الجنرال ، وخرج عن كيادوس حتى إذا بعـد عنها ميلاً نصب على الأرض سبع خيام ، ونشر العلم الأمريكى فوقها ، وأسمى المعسكر معسكر لازار — ولْنهتف ثلاثاً لذكرى لازار . وستعرف بعد قليل أى أعمال مجيدة وقعت فى هذا المكان

ليس آكد فى الحقائق من الحقيقة الآتية : كل صائد من كِبار صُيّاد المكروب يختلف اختلافاً بيناً عن كل صائد آخر منهم ، ولـكنهم جميعاً تجمعهم صفة واحدة : أنهم جميعاً مبتكرون ، إلا ريد . ولـكنه لا يستأهل الشنق لأنه لم يبتكر ، لأن عذره حاضر ، فأمر البعوض والقُراد وغيره من ناقلات المكروب كان حديثا شائعا على ألسن البحاث فى عشر السنوات الأخيرة من القرن الماضى ، فلم يكن لريد مندوحة عن سماعه واقتباسه . وإن فاته الابتكار فى هذا ، فوالله ما فاته أن يسُوُد البحّاثَ جميعا بقوة خُلُقه . وإلى جانب هذا كان مجرّبا متقناً محسنا . ووسوس إليه خُلُقه الصلب القويم : « لا بد من قتل الناس لخلاص الناس » ، فقام يرسم سلسلة من اختبارات مُحكَمة هى أسوأ ما ابتدعه رجلٌ خيّرٌ من الجرائم

وكان ريد رجلاً يحب الاتقان والاحسان فى الأعمال ، فقضى بأن كل رجل يُراد قرصه ببعوضة يصير حبسه قبل قرصه أياماً وأسابيع فى هـذا المعسكر تحت شمسه المحرقة حتى يكون بمعزل عن أى عدوى بالحمى الصفراء تأتى من غير هذه البعوضة ، فلا بد أن تكون التجارب مسدودة الثقوب محكمة لا يخرّ الماء منها . وأعلن ريد فى الجند الأمريكى أن الحرب لم تضع أوزارها بعد[1] ، وأن حرباً جديدة أعلنت لخلاص الانسان . وسأل هل فيكم متطوعون ؟ ولم يكد يجف مداد الاعلان حتى دخل

(١) يقصد الحرب بين الاسبانيين والولايات المتحدة التى قامت فى كوبا كما قدمنا . وكانت انتهت عندئذ

إليه في مكتبه جندي يُدعى كيسنجر Kessenger من أُهَيُو Ohio[(1)] ، ودخل معه رجل آخر يُدعى جون موران John J. Moran ، وحتى هذا لم يكن جندياً بل كاتباً ملكياً يعمل في مكتب الجنرال فِتْز هيُويِّ لِي Fitzhugh Lee ، ودخلا عليه مكتبه فقالا : « جئنا أيها السيد لتجرّب فينا » . وكان ريد رجلاً طاهر الذمّة حيّ الضمير ، فسألهما هل أدركا كل الادراك ما أقدما عليه من المخاطر ، وأخبرهما خبر الصداع الذي يجيئهما ، والنهوّع الذي يأتيهما ، والقيء الأسود الذي يقيئان . وذكر لهما ما كان من وافدات جائحة لم تُبقِ من الرجال على رجل واحد ليعود فيحكي خبرها ويدُلّ على فظائعها

فأجاب الرجلان : « نعلم ذلك ، وإنما جئنا تطوّعاً واختياراً في سبيل العلم والانسانية وحدهما » . عندئذ أخبرهما ريد بما كان من كرم الجنرال وُدْ ، وذكر لهما أن من تعضه البعوضة سيكون له مائتا ريال قد تُزاد إلى ثلثمائة . فقال الرجلان : « نحن إنما تطوعنا على ألا نأخذ عن تطوّعنا أجراً » ، فانتفض ريد على قدميه ورفع يده بالسلام إلى قبعته ، وهو البكباشيّ ، وقال لهما : « أيها السيدان الكريمان ، لكما تحيتي ! »

وفي نفس هذا اليوم دخل الاثنان المحجر العسكريّ ليتجهزا فيه ليصيرا بمثابة خنزيرين غينيين للتجريب على أحسن ما تكون الخنازير ، فلا تدخل إليهما لوثةٌ ولا تتطرّق إليهما ريبة . وفي الخامس من ديسمبر استضاف كيسنجر خمس بعوضات شربت من دمه حتى تروّت ، وكانت اثنتان منها قد شربتا منذ خمسة عشر يوماً وتسعة عشر يوماً من دم مرضى هلكوا بالحمى . ولم تمض عليه غير خمسة أيام حتى جاءه صداع يكاد يَصّدَّع رأسه ، ومضى يومان آخران فأخذ يصفرّ لونه ، وتعاقبت عليه أعراض المرض كما يجب أن تكون . ثم تعافى فحمد اللهَ ريدُ على هذا الشفاء

ثم جاء المجد يسعى إلى ريد وصاحبيه كارول وأجرمنتي . وإن يكن الدهر لم يسعفهم ، بمعنى أن الشبان الأمريكيين لم يزدحموا عليهم للتطوع ازدحاماً ويدوسوهم في سبيله دوساً ويرموا بحياتهم رمياً في سبيل العلم والانسانية ، فقد بعث الدهر إليهم رجالاً أسبانيين جاؤا كوبا حديثاً من أسبانيا ، وكانوا غاية في الجهالة ، وكان لهم مأرب في المائتي ريال ؛ فتقدم خمسة من هؤلاء طمعاً في المال . ولنسمهم المهاجرين الأسبان ، أو لعل الأوفق أن أسميهم بالأرقام ١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٥ كما يسمي صيادو المكروب حيواناتهم التجريبية فيقولون الأرنب رقم ١ والأرنب رقم ٢ وهلم جرا . وعلى كل حال تقدم هؤلاء الخمسة ، فلما تهيأوا للقاء البعوض عضهم عضات هي أخطر في التوسط من رصاص البنادق ، واستحقوا المال الذي أخذوه ، فان أربعة منهم جاءتهم الحمى الصفراء على أبين ما تجيء وبأظهر ما تكون من الأعراض ، أو كما يقول بعض الأطباء إذا هم لبسوا جِلد العلماء : « بأجلى ما تكون الأعراض » وهذا نصر مبين ! نصر لا يأتيه الشك من أيّ جهاته ؛ فان أحداً من هؤلاء الرجال لم يقترب يوماً من حيث يكون الوباء ، وأُخذوا فعوملوا معاملة الخنازير الغينية والفئران والأرانب التجريبية فحبسوا طويلاً في كِيمادُوس في خيمات مستورة لا يصنعون شيئاً ولا يرون أحداً ، ولم تحدث لهم أحداث إلا شكّات في أجسادهم شكّتهم إياها إناث البعوض المقلّمة ظهورها بالفضة . وكان الضجر لا شك قاتلهم لو لا أنهم كانوا جهالاً مُغرقين فلم يكن بينهم وبين الحيوان فارق مبين

كتب ريد إلى زوجته يقول : « افرحي معي يا حبيبتي ، فانك لو استثنيت لقاح الدفتريا وبشلة السل التي اكتشفها كوخ ، فهذا الكشف العلمي الذي وجدناه سيُرْوَى للأحفاد بأنه أكبر كشف حدث في القرن التاسع عشر ... »

لم يكن ريد في السبيل التي اتخذها مبتكراً ، ولكن دقته هذه بلغت حداً تنهض به إلى طبقة المبتكرين ، فهو لا شك مبتكر في دقته ، وقد كان في مقدوره أن يقف من بحثه عند هذا الحد ، بل لعلك مقسمٌ أن قد سوّلت له نفسه الوقوف عند هذا الحد ، ولِمَ لا وهؤلاء ثمانيةٌ جاءتهم الحمى من قرصات البعوض ؟

ألا أيّ حظ هذا الذي صحب ريدَ فلم يمت من رجاله الثمانية غير واحد ؟

على أن ريد لم يقف عند هذا الحد ، وأخذ يتساءل : « .... ولكن أيجوز أن تُنقَل الحمى عن طريق غير البعوض ؟ »

واعتقد الناس أجمع أن ملابس الموتى من الحمى وأفرشتهم وكل ما يتملكون يحمل الموت في طياته ، فأحرقوا من أجل ذلك من الأفرشة والملابس ما بلغت قيمته ملايين الدولارات . وارتأى هذا الرأي رئيس الأطباء ، وارتآه كل طبيب له اسمٌ في أمريكا شمالها وجنوبها وأوسطها إلا الشيخ المخبول فِنْلي . وتشكك فيه ريد . وبينا هو في سرور من نجاحه في عدوى

(1) مدينة بالولايات المتحدة

كيسنجر والأسبانيين المهاجرين جاء النجارون فنصبوا بيتين صغيرين دميمين فى معسكر لازار . وكان البيت الأول أقبح البيتين ، طوله أربع عشرة قدما فى عشرين عرضا . وكان له بابان فى مدخله ، نُصب أحدهما فى حذق خلف الآخر حتى لا يُفلِتَ منه البعوض . وكان له نافذتان تطلان على الجنوب فُتحتا والباب فى حائط واحد حتى لا يجرى فى هواء البيت تيار . ووُضع فى البيت موقدٌ لطيف ليرفع حرارته بعيداً فوق الدرجة الثانية والثلاثين المئوية ، ووُضع فيه براميل مليئة بالماء ليتشبع منه الهواء فيصبح بحرّه ومائه خانقاً كبطن سفينة ببعض مناطق الاستواء . وكان فى هذا كفاية لهذا البيت من كرب وضيق ، ولكن جاء الثالث عشر من نوفمبر عام ١٩٠٠ لحمل جند إليه وهم يتصببون عرقاً عدداً من صناديق محكمَة التسمير متّهمة المنظر جاءت من عنابر الحمى الصفراء لتجعل من هذا البيت مثلاً يُضرب فى اللعنة والشؤم . . .

فلما أدبر نهار هذا اليوم وخيّم ليله شهد ريدُ وكارول مشهداً من خير مشاهد الشجاعة والتضحية ، ففى هذا البيت اللعين الأول دخل دكتور أمريكى شاب يدعى كوك ، ودخل معه جنديان أمريكيان (ليت شعرى ما ذا عوّق الناسَ فلم تنصب لهؤلاء الأبطال تماثيل الأبطال) يُدعى أحدهم فوك Folk ويدعى الآخر جرنجان Jernegan

وفتح هؤلاء الرجال الثلاثة هذه الصناديق المحكمة المريبة داخل هذا البيت فى جو رطب متلزّج تضيق فيه الأنفاس

أف لها من رائحة كريهة ! ولعنوا وسبّوا وسدّوا أنوفهم واستمروا يفتحون الصناديق . فأخرجوا منها وسائد عليها القىء الأسود لقوم ماتوا بالحمى . وأخرجوا منها مُلاءات أسرة والحفة تلوثت بما يخرج من المريض إذا غاب حسه وهمدت قوته وضاع تحكّمه فى جسمه . وأخذوا يضربون الوسائد وينفضون الملاءات والألحفة ، فقد كان ريد قال لهم : « لابد أن تُعفّرُوا جو هذه الحجرة بالوباء وتنشروه جيداً بين أرجائها » . وقاموا يهيئون لأنفسهم من هذا المتاع فراشا على أسرة صغيرة من أسرة الجيش . وخلعوا ملابسهم ورقدوا على هذه الفُرُش القذرة وحاولوا النوم فى تلك الحجرة الملعونة . وأقام ريد وكارول على هذه الحجرة يحوطانها بالرعاية ويحاذران خشية أن تدخلها بعوضة تائهة . أما طعام فوك وكوك وجرنجان فلا تسل عنه فقد كان لا شك أطيب طعام

وتوالت الليالى وثلاثتهم فى هذا البيت راقدون ، ولعلهم كانوا يفكرون فيما صنع الله بأرواح من سبقوهم إلى هذه الملاءات وهذه الألحفة ، أو لعلكم كانوا يفكرون هل من سبيل غير البعوض تنتقل به الحمى . . . ثم جاء ريد ، وهو رجل يجمع إلى طهارة ذمته شدة دقته ؛ وجاء كارول ، وهو رجل كالح عبوس ؛ جاء كلاهما يزيدان تجربتهما إحكاماً على إحكام . فحملا معهما صناديق أخرى وردت من عنابر الحمى الصفراء ، فلما فضّتها فوك وكوك وجرنجان فزعوا إلى خارج البيت عجزاً عن احتمالها ولكنهم عادوا ورقدوا ، وناموا . . .

وقضوا على هذا عشرين ليلة ! فأين ذكراهم لا تُخلَّد ، ولِمَ صنيعهم لَمْ يُمجَّد ! ثم نُقلوا وعُزلوا وحدهم فى خيمة طلقة الهواء وانتظروا أن تأتيهم الحمى : ولكنها لم تأتهم ، وزادوا وزناً وصحّوا أجساماً وقرقموا بالنُكات على البيت القذر الذى شرفوه ، وعلى ألحفته وملاءاته التى تلفعُوا بها فيه . ولما جاءتهم الأخبار بأن كيسنجر والاسبانيين أصابتهم الحمى ضحكوا ملء أشداقهم كتلاميذ المدارس أن تكون الحمى جاءت هذه الأجسام الكبيرة من عضة بعوضة صغيرة

قد يعجبك هذا البرهان إعجابا شديدا ، ولكن أى تجربة فظيعة تلك التى ساقت اليه ، على أنه لم يكف ريد فلم يَرْضه عِلمه ولم تقتنع به لُوثَتُه

فأعاد الكرة ، فأدخل إلى تلك الحجرة ثلاثة آخرين من شباب أمريكا ، وجاءهم بمُلاءات وألحفة جديدة القذرِ جديدة البَشَع وعلى هذه أنامهم عشرين ليلة ؛ وأراد أن يزيد فى رفاهيتهم فأنامهم فى نفس الأقمشة التى مات فيها المصابون

ثم عاد بعد ذلك فأدخل ثلاثة شبان أمريكيين آخرين فى نفس هذا البيت ، وأرقدهم فيه عشرين ليلة على نفس الأسلوب مع فرق بسيط زاد التجربة دقة : ذلك أن غطّى وسائدهم بفُوَط أُشربت قبل ذلك من دماء رجال ماتوا بالحمى

وبرغم كل هذا بقى كل هؤلاء الرجال التسعة أصحاء فلم تنلهم مَسّة ولو خفيفة من الحمى . قال ريد : « ما أعجب العلم ؟ » . وكتب : « إن الأسطورة الكاذبة التى تقول بأن الملابس تنقل الحمى الصفراء قد انفقأت كما تنفقئ فقاعة تخِزُها بدبوس » . ولقد صدق ريد ، فما أعجب العلم حقا ! ولكن كذلك

ما أقساه ! وما أقسى صيادة المكروب ! فهى قد تنزع من الباحث قلبه . وأخذ شيطان ريدَ الباحث يوسوس اليه : «ولكن أصادقةٌ حقاً تلك النتائج التى أدّت اليها تجاربك» ؟ نعم إن الحمى لم تأت أيّا من هؤلاء الرجال الذين ناموا فى هذا البيت ، ولكن ما أدرانا أنهم بطبيعتهم حصينون من الحمى ، فهى لا تأتيهم أبداً ؟ وكان ريد وكارول سألا فوك وجرنجان أمرا هو أقصى ما سأله ضابطٌ جنديا فأجاباهما اليه ، ومع هذا فقد قام الاثنان من جديد فحقنا جرنجان بدم وبىء أشدّ الوباء جاءا به من دمِ مريض ، وقرصوا فوك بعوض كان قَرَصَ مرضى ماتوا من الداء . فأصيب جرنجان وفوك بآلام جسام . واحتقن وجهاهما ، واحمرت بالدم عيونهما ، ونزلا وادى الموت ولكنهما عبراه سالمين . فحمد ريد ربه ؛ حمده لخلاصهما ، ولكنه حمده على الأكثر لما تبيّن له أنهما لم يكونا حصينين من الحمى لما باتا فى بيت المكروب عشرين ليلة

ووهبوا كلا من فوك وجرنجان عن صنيعهما ثلثمائة ريال ، وهو مبلغ لم يكن صغيراً فى تلك الأيام

(يتبع) أحمد زكى

بين عامين

أنا ونفسى . . . !

للأستاذ على الطنطاوى

. . . كنت نائماً ولكن قلبي لم ينم ، بل كان يقظان يهزنى لأفيق ، ويغرينى بشتى الألاعيب يلوح لى بها ، ملفوفة بثياب الأحلام زاهية وكابية ، سارة ومحزنة ... فلا أحفل بها ، فلما ضاق بى ذرعا ، وضمنى على حافة الهاوية ، ودفعنى . . . فأفقت فزعاً . . .

فاذا العام على وشك الرحيل !

* * *

نظرت من النافذة فاذا كل شىء أراه نائم ؛ هذه النخلة التى تقوم حيال شباكى ، وقبة الأعظمية التى تبدو من ورائها فى عظمة وجلال ، ودجلة التى تجرى صامتة مهيبة ، والقمر الذى يغسل ماءها بشعاعه ...

وإذا على الطريق شبح يسير منهوكا !

* * *

على الطريق الذى لا يمتد فى سهل ولا وعر ، ولا يسير على سفح جبل ، ولا شاطىء بحر ، ولا يسلك الصحراء ، ولا يخترق البساتين ... ولكنه يلف السهل والوعر ، والجبل والبحر ، والصحراء والبساتين وكل ما تحتويه ، ومن يكون فيها ..

على الطريق الطويل الذى يلوح كخط أبيض ، يغيب أوله فى ظلام الأزل ، ويختفى آخره فى ضباب الأبد ..

رأيت شبحاً يسير على .. طريق « الزمان » !

* * *

وسمعت صائحاً يصيح بالطبيعة : أن تيقظى ، إن العام يرحل الآن !

ففتحت النخلة عينيها ونظرت ، فلما رأته قالت : قد رأيت عشرات مثله تأتى وتذهب ، فلم تبدل شيئاً . . الفأس لا تزال باقية ، وهذا الوحش البشرى لا يزال ينتظر ثمرى ليسلبنيه ؛ ثم إذا قنط منى كافأنى بالفأس والنار ... فمالى وللعام الراحل ؟

وأغمضت عينيها فنامت ، ولم تكترث !

ونظرت القبة ، فلما أبصرته قالت : قد رأيت مئات مثله تجىء وتروح ، لم تبدل شيئاً ؛ فهذا النخيل قائم حولى كما كان ، والشمس تطلع على كل يوم وتغيب ، والنجوم تسطع فوق كل ليلة ، والأرض تنتظرنى ، تريد أن أهرم فتجذب أحجارى إليها وتأكلنى .. وكل شىء على حاله لم يتبدل إلا الانسان : كان الخليفة يمشى تحتى ، ويخطر بين أساطينى فى حلل المجد وأردية الجلال ؛ إن أمر أطاعت الدنيا ، وإن نادى لبى الدهر ، وإن مال مالت الأرض ؛ وكان الناس يطيفون بى أجلة أمجاداً ، عباداً أذلاء لله ، وملوكا أعزة على الناس .. فأصبحت وحيدة منعزلة ، لا أرى إلا هذه الفئات من العامة المساكين الذين تعروا من كل جاه إلا جاه العبادة ، ومجد إلا مجد الآخرة .. فمالى وللعام الراحل ؟

وأغمضت عينيها ، وعادت تحلم ، ولم تكترث !

وتنبهت دجلة ونظرت ، فلما رأته قالت : قد رأيت ألوفا مثله تمر فى هذه الطريق فلم تعمل فى الكون شيئاً ، ولم تغير إلا الانسان ؛ كانت تقوم على شاطئى القصور الفخمة ، تتوج هامها العظمة ، ويحل أرجاءها الجلال ، ويمثل فى أبهائها المجد ، ويقف على بابها التاريخ ، يصدر عنها ، ويكتب حديثها ، وتبثق

منها أشعة الحضارة والفن ، وتسطع منها أنوار العلم والأدب ، وتومض فى شرفاتها وأروقتها العمائم التى كانت على أشرف رؤوس وأحفلها بالفضائل والعلوم .. فلم يبق من هذا كله إلا أطلال ، يريدون أن يطمسوا اليوم آثارها ويفطوا عليها بقبعة . . . ولكن ذلك لن يدوم ؛ إن طريق الزمن لا يزال مسلوكا . . . ثم صمتت وعادت تجرى كما كانت تجرى ولم تكترث !

وأنصت القمر وأطل ينظر ، فلما رأى العام الراحل قال : لقد رأيت ملايين مثله ، وقد مللت من السنين وكرّ العصور ، فالى وله ؟ وعاد يفيض نوره على الكون ولم يكترث !

وبقيت وحدى !

* * *

بقيت وحيداً .. فنظرت فى نفسى :

لقد صحبت سبعاً وعشرين قافلة من قوافل الزمان ... فهل اقتربت من آمالى ؟ هل دنوت من الغاية التى أسعى اليها فى سفرى ؟

ثم سألت نفسى : ما هى الغاية التى تسعين اليها ؟ أتسيرين الى غير ما نهاية ، كلما مرّ عام تعلقت به فسرت معه حتى يضيق بك عام من الأعوام فيقذف بك الى وادى الموت ؟ ألا تعلمين الى أين المسير ؟

ولم تكن النفس ترقب مثل هذا السؤال ، فاضطربت اضطراباً شديداً ، وكثرت فيها الآراء ، واشتد بين أعضائها الخلاف ، ثم انشقت انشقاقا ، وانقسمت أحزاباً ، وانتثرت نفوساً

* * *

قالت النفس الأولى : الغاية يا صاحبى واضحة ؛ إننا نسعى لخدمة هذا الجسم الذى نحمله ، نحيا لسدّ حاجاته ، وإجابة رغباته ، وإمتاعه بلذاته

قالت الثانية : خسئت أيتها « النفس الفاجرة ! » إننا لم نسخر من أجل هذا العنصر الأجنبى ؛ إن الجسم ليس منا

قالت الأولى : أفهو إذن من غيرنا ؟ وقهقهت ضاحكة

قالت : اسخرى من نفسك ، إنه لو كان منّا ، لما عشنا إلا فيه ولم نعش بعده ؛ إنه ثوب نلبسه ونخلعه ، أفيكون الثوب جزءاً من اللابس ؟

قالت الأولى : إننى لم أفهم فلسفتك ، أتزعمين أن يدى ورجلى ليستا منى ؟

قالت : نعم إن المرء لو قطعت يده أو رجله ، أو ذهب سمعه أو بصره ، لا تنقص نفسه شيئا ، بل لقد يكون الأعمى الأصم أكمل نفساً ، وأقوى عقلا ، وأسمى روحا ، من السميع البصير ؛ وإنك لتعلمين هذا ، ولكنك « نفس سوء » تريدين الاستمتاع بشهواتك ، ونحن لا نحيا لنيل الشهوات !

قالت الأولى : فلم إذن نحيا يا أيتها « النفس المفكرة ؟ »

قالت : نحيا لنكشف خبايا الوجود ، لنستطلع طلع الكائنات ، لنعرف نواميس الكون وأسرار الطبيعة . . . من أجل هذا نحيا

* * *

فانبرت لها نفسى الثالثة . . . فقالت :

— كنت أظنك عاقلة تفهمين وتعرفين ، فاذا أنت جاهلة . ويحك ! ما نحن والوجود ؟ مالنا وللطبيعة ؟ ماذا يعنينا أكانت المجرّة نهراً فى السماء ، أم كانت مجموعة من الكواكب ؟ وماذا ينفعنا أن يكون فى المريخ ناس ، أو يكون مقفراً لا ناس فيه ؟... مالنا ولهذا الفضول ؟

قالت الثانية : إنك « نفس شاعرة » تنكرين قيمة العلم

قالت : إن هذا العلم خسران لك يا حمقاء ! إنك كنت ترين فى الكسوف حادثاً غريباً مليئاً بالأسرار يبعث فيك عالماً من العواطف ، فلما علمت أنه حادث طبيعى : كوكب يقوم بحذاء كوكب ، ضاع معناه ، وانتفت أسراره ، ولم يعد يثير فيك عاطفة ، أو يهيج فيك حسا

قالت الثانية : وما قيمة العاطفة ؟ أتريدين أن ندع العلم من أجل عاطفة ؟

قالت الثالثة : لا . بل تعلمى ، ولكن تعلمى ما تحتاجين اليه ؛ العلم دواء يؤخذ بمقدار الحاجة ، ولكن الشعور غذاء لا يستغنى عنه ، فنحن نحيا لنرى الجمال ونستمتع به ، ونتذوّقه فى الطبيعة وفى الانسان وفى الفن ... من أجل هذا نحيا

* * *

فوثبت النفس الرابعة « النفس المؤمنة المطمئنة » فقالت : ياللسخف !

قالت الثالثة وقد غاظها ما قالت : أى سخف ترين من فضلك ؟ إذا كنا لا نرى الجمال فلمَ نحيا ؟

قالت الرابعة متهكمة : كأنك تحيين الآن ! إنك ياسيدتى سجينة فاسى لتتخلصى من قيود السجن ، ثم انطلقى فى فضاء

الحرية ، فعيشى فى الحياة الأخرى : حياة الانطلاق

ورأيت المناقشة قد طالت وغدت مملة ، وتشعبت فيها الآراء فأسكتهن ورجعت أفكر وحدى

* * *

قلت : إننى لا أدرى لماذا أحيا ؟ ولا أعرف ما هى صلتى بالكون !

كنت أنظر إلى الدنيا من خلال الكتب ، وأشرف عليها من نافذة المدرسة ، فأراها صغيرة كقبضة الكف ، فحسبت أنى إذا خرجت من المدرسة وحزت الشهادة قبضت عليها بيدى

وعشت بهذا الأمل ، فلم أعرف حقيقة الحياة ، ولم أعد لها العدة ، ولم أجد من يخبرنى خبرها إلا هؤلاء الأساتذة ، وهم قوم مخادعون ، لا يبصرون التلميذ بالدنيا كما هى فى ذاتها ، بل كما يريدون هم أن تكون ...

وخرجت من المدرسة ، وهبطت من سماء الخيال إلى أرض الحقيقة ، فاذا الطريق مزروع بالشوك ؛ فانطلقت أمشى وأجاهد بهمة الشاب القوى الطموح ، فما قطعت من الطريق إلا قليلاً حتى وجدت هذه (الطفيليات البشرية) تتعلق بكتفى وتستمسك بى ، حتى إذا دنوت من أول منزل وهممت أن أستريح فيه وثبت فسبقتنى اليه ، فسرت أجاهد وأتقدم أؤم منزلاً آخر ، حتى هدنى التعب ، ونال منى النصب ، ولم أصل إلى شيء .

* * *

ولاح لى فجأة قصر عظيم على جانب الطريق ، تلمع قبابه المغشاة بالذهب ، وتشرق جدرانه المغطاة بالفضة ، وتضيء نقوشه وزخارفه فى شعاع الشمس ، ويقرأ على بابه بأحرف من النور : « هذا قصر اليأس » فراعنى مظهره ، وهممت أن أحيد عن الطريق فأدخله ، ولكنى نظرت اليه أولاً ، فاذا هو موحش مظلم فى وسطه قبر مفتوح مملوء بالأساود والأفاعى ... وإذا هو خال من البشر ، ليس فيه الا جماعة الشعراء البائسين ، يمدون قصائدهم لتدفن معهم فى هذا القبر الأسود فلا يدرى بها أحد ...

فوليت هاربا ، وآثرت العودة الى مقارعة الشوك ، وجهاد الحياة

عدت فقارعت وجاهدت ، فلم أصل الى شيء . . . فسألت نفسى : هل أيأس ؟

* * *

سألتها وحدثتها ، ولكنى جهرت بالحديث ، فأيقظت النائمين . . .

أطلت على النخلة ، فقالت : إلامَ تجاهد وتناضل ؟ ماذا تريد أيها الرجل ؟ ألا تقنع مثلى بأن تقف فى مكانك حتى يأتيك الموت ؟

قلت : لا . إن لى غاية واحدة ، هى أن أبقى دائماً أجاهد وأناضل !

فضحكت وقهقهت أوراقها ، وعادت الى منامها

ومدت القبة رأسها فقالت : ألا تنام مثلى أيها الفتى وتحلم ؟ لماذا تعدو فى طريق القبر ؟ قلت : إنى أحب أن أصل الى القبر لأنى سأخرج منه الى الفضاء الواسع ؛ سأخلع فيه ثوبى الجثمانى ثم أنطلق صُعُدا

فذهبت وهى تحدث نفسها : ينطلق صعداً ؟ أنا هنا منذ ألف ومائة سنة ولم انطلق صعداً ، ثم رجعت الى المنام

وقالت دجلة وقد صفق لى ماؤها سروراً :

— امض أيها الغلام امض ؛ إن طريقك طويل ، ولكنك قوى ؛ إنك لاتمشى الى القبرلتفنى ، ولكن تدخل من باب القبر الى عالم الخلود ، هأنا قد بلغت من العمر سبعمائة وخمسين ألف سنة ، ولكنك قد ولدت بعقلك قبلى ، وستعيش بروحك من بعدى . . . انطلق . . . انطلق الى حياة الخلود ؛ إنك ستبقى بعد أن تموت الجبال ، وتغرق البحار ، ويختنق الهواء . . . وتدفن الصحراء !

وأمن القمر على كلامها ، وأطل على من النافذة فصافحنى بشعاعه وقال :

لقد صدقت ! إنك تعيش الآن لتعد العدة للحياة . . . إنك ستحيا حقاً حين تنطلق من قيود الجسم

ثم صمت ... وصمت !

* * *

وكان العام يقطع اللحظة الأخيرة ... فصحت به :

أنا الذى يهتم بك أيها العام ... أنا الذى يودعك ويستقبل غيرك ، لا النخلة ولا القبة ولا دجلة ولا القمر ... تلك للفناء ، وأنا للبقاء ... تلك تنتظر الموت ، وأنا أنتظر الحياة ... أنا أمشى على هام السنين الى الحياة الأخرى !

(بغداد) على الطنطاوى

بنانٌ على بيان

« البيانو »

للشاعر العالم الراوية الأستاذ أحمد الزين

ضَربتْ على وَتَر الحنانِ   نفسى فداؤك من بنان[1]

وشـدّت بعاجٍ من أنا   مِلِها على عاجِ (البيانِ)

مرّت عليـه مثلما   مرّت على القلب الأمانى

أو مثلما مرَّ الخيا   لُ يعيدُ لى ذكرى المغانى[2]

وأفتن فى سحر النُّهى   شـدوُ الأنامل واللّسان

وهفاَ بلُبِّكَ فى أفا   نين الصبابة ساحران

رنّات ساحرةِ الغِنا   ءِ تجيبُ رنات المثانى

بثت إلى الأوتار من   حرّ الصبابة ما تعانى

كم أودعت ألحانَها   فى الشوق من سحر المعانى

فتحِسُّ أوتار « البيا   ن » وقلبها يتشاكيان

لم يعرف الحبَّ المبرِّ (م) ح مثلُ أفئدة الغوانى

فلرُب حابسـةِ الدُّمو   ع ودمعها فى الصدر قانى

حبس الحياءُ بكاءها   فبكت بترجيع الأغانى

نشرت صحيفة لحنها   رمزاً يدق عن البيان

رمزوا إلى ألحانهم   صوناً لها عن الامتهان

واللحن من سرِّ الملا   ئك غير مبتذل الصهان

وحى تنزَّلَ من سما   ء قريحـة ذات افتنان

تنسى الوقورَ وقاره   طرباً وتمضى بالجبان

وتخالُ بالأوتار نا   رَ الشوق تُضرمها اليدان

لاقت أنامِلها (البيا   نَ) كما تلاقى عاشقان

يتضاحكان من السرو   رِ وفى الأسى يتباكيان

فى نفحة أحسَنْت من   طرب بها طرَب المكان

وتجاذَبا ذِكر الهوى   وحديث أيامٍ حِسانِ

وليالياً طابت وأثـ   ـمارُ المنى فيها دوانى

ومجالساً هبطت إلى الد   نيا بها عُليا الجنان

زَمن تولى صفوه   أيعود صفوك يازمانى

آناءُ لهوٍ خلفت   حزناً عليها كل آن

لم أنسها ياصاحبىْ   وُدى ولكن ذكّرانى

إنى ليُطربنى الحدي   ث وإن ملأت بها جنانى

زيدا فؤادى لوعة   لا تطمعا أن تسليانى

من لم يذق ألم الحيا   ة قضى سِنيها وهو فانى

أحمد الزين

(١) البنان : الأصابع   (٢) المغانى : منازل الأحياء

هدى النفس

بقلم العوضى الوكيل

ياهُدَى النفس بعد طول ضَلالِ   لا تزالين لُمْعَةً فى خيالى

أتملاكِ فى خيالىَ طَيفاً   بالغ السحرِ ، عبقرىَّ الجمالِ

وكأنى أراكِ باسمـةَ الثغـ   ـرِ تجيبين لوعتى واشتغالى

نحن روحان عاشتا قبل هذا الـ   ـكون ، فى عالمٍ رفيع الجلالِ

ينكر الناس منهُ صورةَ ما تشـ   ـهدُ عين الهوى ، ولسنا نُبالى !

* * *

أنا هـذا الفتى المثـالىُّ فى النسـ   ـر ، وأنت — الحياةَ — أسمى مثالِ

العوضى الوكيل



بيتر باول روبنز
PETER PAUL RUBENS
الفنان الخالد

للدكتور أحمد موسى

نشر تحت هذا العنوان ابتداء من هذا العدد مقالات فى تاريخ الفن العام وتراجم مصورة لعباقرته فى العصور المختلفة ، يحررها الدكتور أحمد موسى خريج جامعة برلين

إذا قيس قدر الفنان بعمله ، وفنه بحسن اختياره ، ومجده بتراثه ، فأنك تجد روبنز فى عصره إمام الفنانين ، وحجة العارفين ، لأنه الفنان الذى عاش لفنه ، وشعر بالجمال فيما حوله ، وبحث وراء المثل الأعلى فى كل ما صادفه . صور الجمال فأبدع ، والطبيعة فأحسن ، والحياة فأجاد . صور القصص التاريخية والدينية فأوضح ، والشخصية فعرف ؛ لا تجد فيما ترك مجالاً للنقد ، ولا بين ما اختار موضعاً للزلل

هذا هو روبنز الذى ولد فى مدينة سيجن سنة ١٥٧٧ ، وانتقل فى صحبة والديه وإخوته إلى كولونيا سنة ١٥٧٨ وبقى فيها إلى سن العاشرة ثم تركها إلى انتفرب سنة ١٥٨٨ . تمتع بقسط وافر من التربية الراقية التى لم تكن دائماً متوفرة لغيره من الفنانين ، ودان بكثير من درايته بالتاريخ العام والتاريخ الدينى إلى المدرسة الكاثوليكية بأنتفرب

شب روبنز مولعاً بمشاهد الطبيعة ، موهوبا حدة النظر ودقة الملاحظة ، له نظر سجل كل ما رآه ؛ انجذب نحو الجمال ، وتعطش الى الخلود ، وهام بالكمال المطلق

لم ير روبنز المثل الأعلى بين الموجودات ، ولكنه ظل فى خياله السامى ، فعبر عنه جهد طاقته فى تراثه المجيد

استمد من الطبيعة مادة التعبير والتصوير ، فاستطاع إظهار ما انطوت عليه عبقريته وما جال بخاطره . كان من هذه الناحية عبداً للطبيعة ، ولكنه فاز فى النهاية بدرجة الوصول فكان سيدها ، لأنه استمد منها مادته ، ووصل بها إلى ما لم تصل هى اليه من تسام ، إن قدر لنا أن نتأمله ونفهمه ونتأثر به ، وصلنا نحن أيضاً بمشاعرنا إلى كمال الاستمتاع

كان أول معلميه للمناظر الطبيعية توبياس فيرهجت الذى وصل صيته إلى إيطاليا ، كما كان آدم فان نورت معلمه لتصوير الأجسام والمناظر الشخصية ؛ أما معلمه للفن والألوان فكان أوتو فان فين

لا حظ فيه معلموه نبوغا ظاهراً ، فكانت دروسهم له أشبه بتعاريف أولية لأصول سير العمل ، أما هو فقد نهج فى أقصر وقت منهجا سار عليه وعرفت روحه فيه ، وظل بعده مائة عام يؤثر فى الفن الفلامنكى تأثيراً عميقاً إلى أقصى حد

شاءت القادير لروبنز أن يسافر إلى إيطاليا سنة ١٦٠٠ ، وشاءت القادير أن يلحق بخدمة أحد أمرائها الذى كان من كبار عشاق الفنون الجيلة فى مدينة مانتوا ، فشاهد روبنز لدى الأمير حيناً وبوساطته حيناً آخر أحسن ما أخرجته قرائح الفنانين الايطاليين وغير الايطاليين

لم يكن لروبنز إلا الانتقاد والتأمل ، فكان فى حالة من البؤس النفسى شبيهة بحال الفيلسوف المتصوف ؛ لم يقنع بما رآه ، ولم ير شيئاً عده كاملاً ؛ ولذا فقد عمل مكملاً ، ووصل إلى ما صبت اليه نفسه ، تلك النفس التى تميزت من نفوس المجموع بدقة التأمل وبالدرس وبقوة الملاحظة وبالتغلغل فى كنه المرئيات ، وأخيراً بالقدرة اللانهائية على تفهم الجمال

وبقدر تفانيه فى التصوير كان عاشقاً لسماع الموسيقى ولعزفها ، كأنه يقول إن مصدر الفنون واحد ، وإن الفنان الكامل لابد له من دراية بالفنون الأخرى لزيادة الاستمتاع بما فى الحياة من

مكنونات لا يصل اليها إلا العارف

تراه أيضاً ألمّ بأصول الكيمياء لرغبته فى الوقوف على سر صناعة الألوان

سافر كثيرا ، وتأمل كثيرا ؛ لم يترك لحظة تمر دون النظر والدرس ، باحثاً عن الجمال أياً كان نوعه ، وحيثما كان وجوده . كان لرحلته الى أسبانيا تأثير فى نفسه لم يقل من أثر رحلته الى ايطاليا التى استطاع أن يعرف الفن القديم والفن المعاصر أثناء إقامته بها

وتدل كراسات روبنز ومذكراته الخاصة على أنه كان كثير التدوين والتسجيل والنقل والاقتباس ، لا للتقليد بل الالهام ، شأن العالم المجتهد ؛ فتراه ينقل قدماً لتمثال استماله ، وعيناً من صورة استهوته ، وذراعا ورأساً من أخرى ، فكان جباراً فى اختياره عنيفاً فى نقده

خلق روبنز فنا قائما بذاته ومدرسة عرفت باسمه ، بعد أن شاهد الكثير من أعمال فنانى إيطاليا ، وتأثر الى حد بعيد بمشيل أنجلو وروفائيل وتيتسيان وكراتسى ، كما أن بعض لوحاته تمت بصلة الى چيليو رومانو الذى شاهد صوره عند ما أقام فى مانتوا

أشبع نفسه الفنية ، فعرج بعد عودته من إيطاليا على دراسة الألوان ودرسها درساً وافياً ، فكان له فى صوره لون أسمر قوى ، وظل أزرق رمادى عُرفا بعده باسمه

أقام فى بروكسل حيث تزوج من ازابلا برانت سنة ١٦٠٩ وبنى بيتاً خاصاً لاقامته كان متحفا لآيات الفن ومدرسة لتلامذته ، أمثال فان دايك ، وفان تولدن ، وكورن ، وأراسموس كويللينيوس ، وجان فان دِن هوك ، وتوماس فان ابرن ، وساللارت ، وفوتز ودِل مونت ، وولفوت

وكل هؤلاء كانوا خير معين له على إتمام أعماله ، فكان غالباً يضع التصميم والرسم التخطيطى ويترك لهم القيام بالتنفيذ تحت إشرافه ، كما أنه كان المخرج الأخير لكل صورة

على أن فان سيندر وباول دى فوس كانا قديرين الى حد أن سمح لهما بتصوير بعض الحيوانات فى مصوراته

أما لوكاس فان آدن وچان ويلدنز فكانا يصوران أجزاء على لوحاته الشاملة للمناظر الطبيعية ، كما كان چان بروجل يصور الزهور

ولا يُعدّ هذا نقصا فى مقدرة روبنز ولا تقصيرا منه ، لأنه كان فى ذلك أشبه بأستاذ يدير معهداً للأبحاث يساعده فيه تلامذته

والمجال لا يسمح هنا بوصف كل لوحاته الخالد الذى بلغ ألفى قطعة من روائع الفن موزعة على متاحف العالم ، ولكننا نقتصر فقط على وصف ما جاء من صوره بهذا المقال



فالصورة الأولى (الخاطئون أمام المسيح) تمثل يسوع واقفا وحول رأسه هالة من نور ، أمامه امرأة خاطئة تقف منحنية بخشوع والدمع منهمر من عينيها تلتمس المغفرة عن الخطيئة ، وحولها ثلاثة رجال ظهرت على وجوههم علائم الندم والألم لما فرط منهم ، ولأنهم أمام رسول الله الذى ينظر اليهم نظرة العطف والسمو

والصورة الثانية (إنزال الجسد من الصلب الى الأرض) تراها مجموعة رائعة من تسعة أشخاص لا تجد بينها واحدا خرج عن دائرة الاندماج وتكميل الشخصية الكاملة للصورة . انظر الى طريقة وقوف القديسات واشتراكهن فى حمله ، ولاحظ ما ارتسم على وجوههن من علائم الألم والحزن . أليس هذا الانشاء الكامل دليلا على قوة المرفة بالقصص الدينية والعبقرية الفنية فى الاخراج ؟



وصورة مادونا القديس إلديفونسو تمثل العذراء جالسة على



عرش وفوق رأسها ملائكة ثلاثة فى هيئة أطفال بأجنحة يحملون الأزهار ، وحولها وقفت أربع قديسات ينظرن إلى القديس إلدفونسو وهو راكع أمامها ، وهى فى مجموعها تبين إلى حدٍّ بعيد نبل الاخراج وقوة التعبير . وإذا تأملنا وجوه هذه القديسات وملابسهن نراها تعطينا فكرة صحيحة عن ناحية القوة البنائية فى إنشاء روبنز



أما الصورة الرابعة (حكم الراعى باريس) فهى توضح لنا إلى أى حد وصل علم روبنز بالتاريخ القديم وبالقصص الاغريقى ؛ فباريس هذا كان شاباً وديعاً يرعى الغنم ، صادفه فى طريقه ثلاثة آلهة من هيرا وأثينا وأفروديت فى هيئة نسوة غاية فى الجمال ، وسألنه أن يعطى التفاحة التى بيده إلى أجملهن منظراً . فأجاب باريس سائلاً ماذا يكون جزاؤه ؟

وعدته هيرا بأن تمنحه المُلك والغنى — وأثينا بمنحه الحكمة والشهرة — وأفروديت بأجمل النساء على الأرض إطلاقاً ؛ تريث باريس وأخيراً أعطى تفاحته إلى أفروديت (راجع إلياذة هومير ٢٤ : ٢٨)

انظر إلى باريس وهو يمثل التريث والحيرة فى الاختيار ؛ ثم انظر الى كل واحدة منهن ثم إليهن جميعاً ، فكل واحدة أبرع من الأخرى جمالاً ، ثم لا تلبث أن يستلفت نظرك ما فيها من قوة لا تزال إلى اليوم مطمح الفنانين

فكر قليلاً فى العصر الذى مثل فيه روبنز هذه القصة الاغريقية الخرافية ؛ أليس عجيباً أن يوفق روبنز إلى هذا الحد الذى يدعو إلى الدهشة والاستغراب ؟ ألا تراه وُفِّق كل التوفيق

في تصوير هذه القصة الرائعة ؟ أعطى تفاصيل الجسم كل عنايته ، فكانت آية في جمال التناسب وعظمة الانسجام . لا ترى للتكرار فيها أثراً . إن متحف مدريد يحمد حقاً على احتوائه هذه التحفة الفنية ، ولعل الحرب الداخلية لا تكون سبباً في أن يتسرب التلف إليها كما تسرب إلى غيرها في هذه الأيام بأسبانيا



وتعد لوحته الممثلة لاحد مواقف رواية أشيلاوس تاتيوس في القرن الخامس قبل المسيح والمسماة لوسيبوس وكليتو فون

من أروع وأبدع اللوحات



أنعم النظر إلى مظهر المرأتين المخطوفتين وإلى ما ظهر عليهما من علائم الوجل والتوسل ، وكيف استطاع روبنز أن ينفث فيها من روحه وعبقريته ، وتأمل كيف ينظر الحصانان إلى هذا الموقف الخطير كما لو كانا يتحفزان للهرب ، ثم إلى قوة عضلات الرجلين الخاطفين

إن مجلداً ضخماً لا يكفي للكتابة عن روبنز الخالد ، ولكننا مع هذا استطعنا أن نعرف بعض ما سجله تاريخ الفن له

دكتور أحمد موسى

القصص

البنت سر أمها

«لشولتو دوجلاس» و«فوجان بيسكو»

ترجمة محمد عبد الفتاح محمد

مالت السيدة «بولا بار فيلد» فى مقعدها الوثير إلى الوراء فبان جيدها العاجى الأبيض ينم عن أنوثة ناضجة وفتنة ساحرة وأخذت ترنو إلى سقف الغرفة بعينين ساجيتين وقد عزبت عن بالها لفافة التبغ التى استوت بين أصابع يدها البضة الجميلة المستندة على ذراع المقعد

كانت تحلق فى أجواء الخيال تبحث عن حيلة تحوك خيوطها وهى التى قد بلغت السابعة والثلاثين من عمرها — ولم تجنح إلى تدبير الحيل واستنباط الوسائل . لأن وسامة محياها كانت أحبولة كافية لجر الغنم ونيل القصد . . إلاّ أن توالى الأعوام لم يدع من فتنة وجهها شركا يقوى على اصطياد الفرائس . . بل رأت أن شحذ الفكر وتدبير الحيل خير عون لها الآن على نيل ما تصبو إليه النفس وما يتمناه الفؤاد . . بعد أن أَلِفَتْ أن نجاحها عن طريق لحاظها الفتاكة قد تعثر فى كثير من المواقف

كانت تقنع إبان حياتها الدرسية بالبنسات لشراء الحلوى راضية بعطف معلميها ومعلماتها . غير أن الثناء الذى كان ينصب على جمالها انصباباً والمديح الذى كان ينهال على فتنتها انهيالاً . حولا وجهها إلى أصدقائها الشبان فأنصتت لهم وهم يترنمون بهزج الهوى فى أذنيها ويرتلون آية الحب على مسمعيها . . مالت إليهم بكليتها . وتقبلت منهم الهدايا على اختلاف صنوفها

ولتلك الخلطة الزرية عثراتها وأخطاؤها . فما بلغت الثامنة عشرة من سنيها حتى تزوجت من رجل فقير أصاب بها قلبها القلب أنها تحبه وتهواه

وكان زوجها هذا رجلاً هادئ الطبع ، وديعاً جميلاً ، خاملاً مغموراً ، لا يهمه من دنياه سوى أن يملأ بطنه ليعيش . لذلك أخذت هى تدبر أمور الحياة لها وله ولابنتهما التى خرجت مبكرة إلى عالم الوجود بعد الزيجة بتسعة أهلة

ولم تحس بأى إحساس من الحزن عندما قضى بعلها نحبه بعد ثلاث سنين من زواجهما . بل انبسطت أساريرها ، وسُرت لزوال تلك العقبة الكؤود التى كانت تقف حائلاً بينها وبين آمالها وأمانيها

كذلك لم تكن بالمرأة التى ترى أن الشرف فى الحياة هو العمل على تحصيل القوت من سبله المشروعة ، بل كانت من النساء اللواتى يسلكن أى سبيل للوصول إلى الحياة الرغدة الهانئة ؛ ولا غضاضة فى أن تهب جسدها متعة لمن يشاء ما دام يجر عليها ذلك ما ترغب من أطايب العيش ولذائذه . ولذا عهدت بطفلتها إلى مرضع ، ثم الى مربية ، ومن ثم إلى مدرسة داخلية ، وانبعت هى أهواءها وما تمليه عليها رغباتها ومطامعها . راحت تخبط فى ذلك العالم العابث الصاخب مع من يقع فى يدها من الرجال

ولما أتمت ابنتها الثانية عشرة ألحقتها بمدرسة خارجية ، ثم بأخرى ، ومضت لا تعنى بتتبع أخبارها ، ولا تهتم لترسم خطواتها ؛ فكان لهذا أبلغ الأثر فى إفساد الفتاة وإتلافها إلى أن بلغت الثامنة عشرة فبدت جميلة فاتنة . . . ففكرت أن تسلخها من دور العلم وأن تبقيها فى المنزل ، إلا أنها ألفتها منافساً خطراً وأليفاً ينقص من قيمتها فى سوق الجمال

ولا ننكر أنها كانت تنظر إلى ابنتها كمجرد طفلة ، ولكن عندما تكون المرأة فى السابعة والثلاثين ، وترى نفسها تبدو كأنها فى السابعة والعشرين ، لا ترضى بأية حال أن تكون لها

ابنة حسناء فاتنة فى الثامنة عشرة

وكانت الابنة حقاً فاتنة ، ولم تكن تلك الحقيقة لتغيب عن المرأة ... غير أنها كانت تبدو دائماً دمثة الأخلاق مهذبة ... ولم تبدر منها طوال حياتها أية بادرة تؤخذ عليها ، بل كانت تعامل أمها بما كانت تتلقنه من ضروب الأدب وحسن الأخلاق

***

وفتح الباب آنئذ ودخلت الفتاة تقول لأمها فى صوت ثابت رزين مشوب باحترام شديد :

— لقد أفرغت حقيبتى يا أماه ... هل آخذ « بوجو » إلى الحديقة لتتنزه قليلا ؟

يا للجمال الرائع ! ويا للحسن الخلاب ! كانت طويلة القامة فى مهابة وجلال ، ناضجة الأنوثة ، مستكملة لكل معانى الجاذبية

وجابهت المرأة الحقيقة المرة ، وصدمتها الرؤيا الحقيقية القاسية ... روعتها تلك المنافسة الخطرة ... رأت من غير جهد جاذبية قوية وجمالاً باهراً ، فأحست بنيران الغيرة تضطرم بين ضلوعها ، وكرهت فيها ... فى ابنتها ذلك الجمال المغرى الذى أكسبه رداؤها المدرسى البسيط روعة وجلالا

ورنت إليها وأخذت تحدث نفسها قائلة : « إنها ساحرة ... تانك العينان الزرقاوان الصافيتان ، وتلك الأهداب الوطف الناعسة . لقد كنت وأنا فى مثل سنها أبدو كما تبدو ، مغرية فاتنة ، بذلك الشعر الذهبى المتهدل فى إهمال حبيب على جبينها الأبيض المشرق ، وبهاتين الشفتين الحمراوين اللتين تغريان بالقبل . إنها بهذا الحسن الفتاك ، وبهذا الجمال الغلاب ، تبدو كاحدى ربات الجمال القديمات »

وأخذت كل من الأم وبنتها تنظر إلى الأخرى فى صمت وسكون ... فى حين كانت تنتاب المرأة شتى العوامل والأفكار وهى تتفرس فى ابنتها البريئة .. الطاهرة .. والفاتنة أيضاً

وكانت الفتاة مازالت فى وقفتها تنتظر رد أمها على سؤالها ولكن تجاهلت المرأة ذلك وقالت كأنها تنتزع الكلام من حلقها انتزاعا

— سوف لا تذهبين إلى المدرسة بعد الآن يا عزيزتى . فماذا اعتزمت أن تفعلى بنفسك بعد ذلك ؟

— لست ... لست أدرى بالضبط ... وأظن أنه يجدر بى أن ... أن أبقى هنا بجوارك ... إنى أحب ذلك من قرارة نفسى . وعلى كل . سأتبع ما تشيرين به على

— أظنك سئمت المدرسة ؟ إذ قد تركتك فيها زمنا طويلاً

— لقد كنت جد سعيدة والله يا أماه ... وقد ارتبطت فيها بأواصر الصداقة مع كثيرات

ودق جرس التليفون ، فرفعت المرأة السماعة ، ثم قالت تحدث مخاطبها :

— أهذا أنت يا « فريدى » ؟ » لقد ظننت أنك لن تعود إلا فى الغد ! ... ماذا ؟ ... أجل ... سأكون على أهبة الاستعداد فى تمام السابعة لنتناول العشاء معا ... إلى اللقاء يا حبيبى ...

ثم وضعت السماعة مكانها وعادت الى مقعدها تفكر ، وغرقت فيه وهى لا تزال فى تفكيرها ؛ غير أنها بعد لحظة ضربت بيدها فجأة على ذراع المقعد ، ثم رنت الى ابنتها وهى تقول :

— تعالى واجلسى يا عزيزتى ... إن لى حديثاً معك

فجلست الفتاة قبالتها وتفرست فيها أمها فترة طويلة وهى صامتة ؛ ثم خرجت من صمتها أخيراً وأخذت تسرد عليها تاريخ حياتها فى شىء من الاسهاب ... مالت إلى الخلف فى مقعدها وقصت عليها تلك الأسباب التى دفعت بها الى هذه الطريق الوعرة التى تنساب فيها ، وتلك الحياة الشائكة التى تحياها

وعندما انتهت من قصتها خيم على الغرفة صمت رهيب أطرقت أثناءه الابنة وأخذت تنظر الى الفرش الثمينة التى ازدانت بها أرض الغرفة

غير أن الأم استأنفت تقول :

— وها أنت ترينى وقد بلغت السابعة والثلاثين من عمرى ، فاذا كنت ترغبين فى حياة رغدة هانئة فدعينى أشق لنفسى الطريق التى أراها أجدى لنا وأنفع

فرفعت الفتاة رأسها فى سرعة وقد شع من عينيها الزرقاوين بريق غريب لم تستطع الأم أن تدرك معناه

فترددت المرأة طويلاً قبل أن تتابع الحديث . وساءلت نفسها . . ترى هل أدركت ابنتها معنى ما قصته عليها . . إنها تجلس أمامها هادئة رزينة ، فى تأدب واحترام كطالبة صغيرة ساذجة واستطردت قائلة :

— والآن ، هل فهمت ما أرمى إليه ؟ وهل تفقهين ما أبغى

إذا قلت لك إنه يتحتم عليك الخروج من الميدان ردحاً من الزمن ؟ فهناك رجل جديد . رجل غني واسع الثراء . . . وإني أحوك حوله شباكي هذه المرة . لا لشيء سوى أن أقترن به . إني أعمل يا إبنتي كي أوفر لك ، ولي أيضاً أسباب السعادة والهناءة . وسوف يأتي هنا هذا المساء . فيجب ألا تظهري أمامه ... وليس ذلك لأنك تظهرين حقيقة عمري فحسب ، بل لأني أيضاً لا أستطيع الثبات بجمالي أمام سحرك ؛ ليس هناك من الرجال من يقوى على رؤيتنا معاً — أنا وأنت — في غرفة واحدة دون أن يفتنه حسنك

فهبت الفتاة واقفة بغتة وهي تقول صارخة :

— أمي ! !

واختفت دلائل الطهارة والبراءة والأدب الجم والحياء الشديد ، اختفت كل تلك الدلائل وحل محلها بريق غريب في العينين الزرقاوين . تبدلت بضحكة ثائرة صاخبة تحشرجت في حنجرتها المتهدجة الحنون

وألقت بنفسها على حجر أمها ثم طوقت عنقها بذراعيها واستطردت تقول :

— أمي ... أمي العزيزة .. كم .. كم أنا سعيدة ! كم أنا فرحة هائمة ؛ إنك طيبة القلب جداً ؛ لطالما أعجبت بك إعجاباً شديداً ؛ إنك حياتي يا أمي ؛ إني أحبك حباً هائلاً ؛ وسأكون لك أكبر عون على نجاح خطتك ... هيا أعطيني « شلنين » لأذهب الى « السينما » ؛ وسأبقى خارج الدار حتى يرحل عنها رَجُلك . . ومن ثم ننظر في باقي الأمر عندما يسفر الصبح . . ويا حبذا لو أمكنك بسلاح جمالك وقوة سحرك أن تجعليه يهبني سيارة صغيرة ذات مقعدين ... سيارة سباق زرقاء بجوانب حمراء . . يا لسعادتنا ! يا لطالعنا المجدود !

فلهثت الأم وهي تقول :

— ابنتي ! !

فقالت الفتاة المصرية الساحرة :

— ماذا علينا لو فعلنا ذلك ما دمنا نود رغد العيش ؟ . يا تُرى هل سنشرب « الجن »[1] و « الفيرموت » الايطالي ! ؟

محمد عبد الفتاح محمد
بالساحة والتاجم

(١) « الجن » و « الفيرموت » الايطالي نوعان من الخمور

البريد الأدبي

العيد المئوي لمعهد مصري جليل

كان الاحتفال بالعيد المئوي للمدرسة الخديوية حادثاً فريداً في تاريخ مصر الثقافي والاجتماعي ، فقد انقضت مائة عام كاملة مذ قام هذا المعهد الجليل ليعني بالثقافة الاعدادية أو الثانوية ؛ وكان قيامه في سنة ١٨٣٦ في أبي زعبل مكان مدرسة الطب القديمة ، ثم ألحق بعد ذلك بمدرسة الألسن الشهيرة التي كان مقرها مكان فندق شبرد الحالي ، والتي كان مديرها العلامة الشهير رفاعة رافع بك الطهطاوي ؛ ثم أعيد بعد ذلك إلى أبي زعبل ، ثم إلى بولاق ، ثم إلى العباسية ؛ واستقر أخيراً في بنائه الحالي بسراي فاضل باشا بدرب الجماميز منذ سنة ١٨٨٨ ، أعني منذ ثمانية وأربعين عاما ، وأطلق على المعهد اسم « المدرسة التجهيزية » إشارة إلى مهمتها في إعداد الطلبة للالتحاق بالمدارس العالية أو الخصوصية كما كانت تسمى في ذلك الوقت ؛ ثم أطلق عليها اسم المدرسة الخديوية أيام اسماعيل باشا ، وكان التعليم فيها داخليا مجانياً حتى أواخر القرن الماضي

وقد أنجبت المدرسة الخديوية خلال عمرها الطويل الحافل ثبتاً باهراً من العلماء والعظماء والزعماء في كل ضرب وفن ، وزودت مصر الحديثة بمئات من أبنائها البررة الذين عملوا على تقدمها ، وشادوا نهضتها الحديثة ، وقادوها في مختلف نواحي حياتها العامة ، وسهروا على مصايرها وتسديد خطاها طوال هذه الحقبة المليئة بالحوادث والخطوب من تاريخها . والمقام أضيق من أن يتسع لتعداد هذا الثبت الباهر ؛ ويكفي أن نذكر أن صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا زعيم مصر المستقلة هو من خريجي هذا المعهد الجليل ، وأن أكابر رجال الدولة الآخرين الذين شهدوا الاحتفال بصفة رسمية كرئيس مجلس الشيوخ ، ورئيس مجلس النواب ، ووزير المعارف كلهم من خريجيه ؛ وأن منهم أعلاما ساطعة كأميري الشعر الحديث صبري باشا وشوقي بك ، وإمام الوطنية المصرية الشاب مصطفى باشا كامل

وكان الاحتفال بالغ الروعة والجلال ؛ وقد بدئ في اليوم الأول ، وهو يوم الاثنين الماضي باقامة حفلة رياضية شائقة في النادي الأهلي اشترك في مبارياتها كبار الرياضيين القدماء من خريجي الخديوية ؛ وكان منظراً شائقاً مؤثراً أن ترى أولئك الكهول الذين شابت نواصيهم وصلعت رؤوسهم يرتدون ثياب اللعب القديمة فرحين جذلين ، ويلعبون متأثرين متحمسين ؛ ثم أقيمت في المساء بدار الأوبرا الملكية حفلة تمثيلية موسيقية ؛ وفي اليوم التالي أقيم الاحتفال الرسمي الكبير في سرادق فخم رحيب نصب في فناء المعهد القديم ، واحتشد فيه آلاف من خريجي الخديوية ، وانتظموا جماعات يجمع بينها عهد التخرج ؛ وكان لقاء الخريجين بعد هذا البعاد الطويل مؤثراً ، وكان بعضهم يعانق بعضا في مظاهر من الحنان الشجي ، وألقيت في الاحتفال خطب رنانة ، اشترك في إلقائها وزير المعارف ، ورئيس الوزراء ، ورئيس مجلس الشيوخ ، وناظر المدرسة الحالي ، وبعض الخريجين

وبعد أن قام مندوب جلالة الملك بوضع الحجر الأساسي بفناء المعهد الجديد اختتم الاحتفال بمنظر بالغ في الطرافة والروعة ، إذ هرع المدعون جميعا وفي مقدمتهم مندوب جلالة الملك والوزراء والعظماء والخريجون على اختلاف أعمارهم ومراتبهم الى قاعات طعام معهدهم القديم ، وجلسوا جميعا يتناولون الشاي والفطائر على موائدهم الخشبية القديمة عارية كما عرفوها أيام الدرس ، فكان لذلك منظر مرح مؤثر معاً

بول بورجيه بالعربية

ظهرت أخيراً ترجمة عربية لأثر من الآثار الغربية الخالدة هو قصة « التلميذ » Le Disciple بقلم بول بورجيه الكاتب الفرنسي الكبير وعضو الأكاديمية الفرنسية ؛ أخرجها بالعربية

الأستاذ عبد المجيد نافع المحامى . وقد ظهرت هذه القصة لأول مرة فى سنة ١٨٩٢ ، وبورجيه يومئذ فى عنفوان شبابه ، فنالت نجاحاً عظيما ، وحملته إلى الطليعة بين كتاب العصر ، ومهدت لدخوله بعد ذلك بسنين فى الأكاديمية الفرنسية وانتظامه فى سلك الخالدين . ويعتبرها البعض أعظم قصصه ، وأمتنها أسلوباً ، وأوفرها افتناناً . أما الترجمة العربية فهى متينة بليغة تشهد لمترجمها بما بذل فى سبيلها من جهد شاق يقدره على الأخص أولئك الذين يقرأون بورجيه بالفرنسية ويعرفون روعة أسلوبه ، ودقة بيانه ، وقوة تعبيره

وقد توفى بورجيه منذ نحو عام فى الثانية والثمانين من عمره بعد أن غمر الأدب الفرنسى بفيض رائع من شعره وقصصه ومسرحياته وآثاره النقدية

وظهور مثل هذه الآثار الخالدة من الأدب الغربى مترجمة بأقلام رصينة بارعة كقلم الأستاذ نافع مما يبعث إلى الغبطة ، ويدفع بالترجمة إلى غايتها المقصودة ، ويرتفع بالتراث المترجم إلى المستوى الرفيع الذى نرجوه غذاء للعقلية المصرية الفتية فى عصر النهضة والاستقلال

معهد ألمانى جديد للتمثيل

يفتتح فى يناير الحالى معهد جديد للتمثيل فى مدينة ميونيخ (منشن) عاصمة بافاريا (بألمانيا) ، وسيكون برنامجه شاملا لدراسة فن التمثيل ذاته ، وفن الزخرفة والاخراج ، وتنظيم الأزياء والمناظر ، وتاريخ المسرح ، ومدة الدراسة فيه سنتان . والجديد فى هذا المسرح هو أن أساتذته سيختارون جميعاً من بين الشباب . ولميونيخ شهرة خاصة بفنها المسرحى ، وبها مسرح تاريخى قديم تمثل فيه أرقى الروايات الألمانية يقع إلى جانب القصر الملكى القديم ؛ وفى كل عام ينظم فيها مسرح عظيم فى العراء يشهده الألوف

مجموعة شعرية عن الريف المصرى

صدرت أخيراً بالفرنسية مجموعة شعرية عن الريف المصرى بعنوان : « فى الجنوب تحت السماء الحارة « A Midi, sous Le Ciel Torride » ؛ بقلم السيدة نيللى فوشيه زنانيرى ؛ والسيدة نيللى مصرية المولد والنشأة والوطن ، ومن الشخصيات المعروفة فى الأوساط الاجتماعية المصرية الأوربية ؛ وهى كاتبة وشاعرة قديرة تعبر عن خواطرها باللغة الفرنسية ، وعضو فى نادى القلم المصرى . وقد أصدرت من قبل مجموعتين شعريتين أخريين ؛ ومجموعتها الجديدة تحتوى على خمس وعشرين قصيدة كلها وصف وتصوير للمناظر الطبيعية المصرية والريف المصرى بشمسه الوضاءة وفلواته الشاسعة ، ورماله وضبابه ورذاذه المنعش ؛ وهذه القطع الشعرية تفيض قوة ورقة ، كما أنها تفيض موسيقى . ذلك أن الخيال الذى أخرجها قد صاغته الطبيعة المصرية ، ونما وترعرع فى ظلها ، فهو يحسن لذلك التعبير عنها وعن مؤثراتها . وقد زينت هذه المجموعة الشعرية بعدة صور فنية بديعة

المدينة الخالدة ومجتمع المستقبل

منذ نصف قرن أصدر الكاتب الأمريكى ادوارد بلامى كتابه أو قصته عن الحروب الجوية ، وعنوانها « نظرة إلى الوراء من سنة ٢٠٠٠ إلى سنة ١٨٨٧ » فيها تخيل أن الحرب قد انتقلت من الأرض إلى الجو ، وأن معارك جوية ستنشب فى السماء كما تنشب المعارك بين الجيوش البرية ؛ وقد أيدت الحوادث خيال الكاتب ، فلم تجئ الحرب الكبرى حتى كانت أساطيل من الطيارات تملأ الجو ، وحتى كانت المعارك الحامية تنشب فى الهواء

وقد صدرت أخيراً بالألمانية قصة جديدة من هذا النوع فى تصور المستقبل ؛ وهى ليست قصة عسكرية كقصة بلامى ، بل قصة اجتماعية عنوانها « المدينة الخالدة « Die Unsterpleche Stadt » ، بقلم الكاتب النمسوى الكبير البارون كون ليفنتال ؛ والمدينة الخالدة هى مدينة فينا عاصمة النمسا ؛ ويصور لنا الكاتب فى قصته ماذا سيكون عليه المجتمع النمسوى سنة ٢٠٠٠ ، وهو يتوقع أن يكون النظام السائد يومئذ هو نظام النقابات ؛ ويتوقع أن ينعم المجتمع بكثير من الرخاء والرفاهة ، وأن يحتفظ المجتمع النمسوى خلال هذه الحقبة دائماً بميوله المرحة ، وتفاؤله رغم كل الظروف والمحن ؛ وقصة البارون ليفنتال تفيض وطنية وحماسة ، وقد استقبلت فى النمسا استقبالاً عظيما ، وذاعت ذيوعاً كبيراً ، وهى اليوم كتاب الموسم فى العاصمة النمسوية ؛ وتعتبر فى نظر النقدة أصدق صورة للروح النمسوية والعواطف الفينية التى تجنح فى مجموعها إلى المرح والدعابة والترويح عن النفس ، واستقبال الحياة دائماً بالابتسام والرضى



سلسلة الموسوعات العربية

معجم الأدباء — الجزء الثاني [1]

للدكتور عبد الوهاب عزام

أفتتح هذا المقال بكلمتين: الأولى أن الدكتور الفاضل أحمد فريد الرفاعي مشكور على ما يبذل من جهد في نشر الآداب العربية، معترَف له بالهمة العالية. وليس يذهب بجهده، ولا يحط من همته، أن تقع في الكتب التي ينشرها أغلاط، ولكن يشين الأدباءَ جميعاً ألاّ يُبيَّن له الغلط ليتقي الوسيلة إلى تجنبه

والكلمة الثانية أوجهها إلى أستاذي الجليل الشيخ عبد الخالق عمر الذي أعترف كل حين بفضله، وأنطوي ما حييت على حبّه؛ فقد شرعت أنقد الكتاب وليس أمامي إلا الناشر ومن ورائه وزارة المعارف. ولما تبينت أن لأستاذي الفاضل شركة في العمل لم أعدّ هذا النقد موجّهاً إليه، ولا حسبت هذه الأغلاط مأخوذة عليه، لأن هذا العمل على اضطرابه لا يمكّن أستاذنا من الاشراف على التصحيح، والتصرف في الأمر على قدر علمه الواسع وبحثه الدقيق. ولو وكل الأمر إليه ما وقعت في الكتاب هذه المآخذ.

ثم أمضي في نقد الجزء الثاني (أو القسم الثاني من الجزء الأول في تجزئة ياقوت) متجاوزاً عن بقية مآخذ الجزء الأول، بادئاً بأغلاط المتن فثنيًا بمآخذ التعليق. وأذكّر القارىء بما قلته في مقالي الأول أن هذا النقد نقد تمثيل لا استقصاء، وأني لا أثبت إلا الغلط الذي أدركه بالنظرة الأولى، تاركاً إلى حين الجمل التي يحتاج تصويبها إلى مراجعة وبحث

ص ١٠ أبيات أولها:

فإن تسأليني كيف أنت فإنني   تنكرت دهري والمعاهد والصَّبِرا

وسائر الأبيات على روي الباء المطلقة، مثل عزبا، الدربا. فلست أدري كيف سها الناشر عن اختلاف القافية في الأبيات؟ وكيف يتفق هذا السهو مع عنايته بشكل الصَّبِرا، وهو غلط آخر، فالصبرُ هو المادة المرة المعروفة، وما أظن الناشر أراده، والوزن لا يحتمله. فهذه كلمة واحدة تنوء بثلاثة أغلاط

ومثل هذا في ص ٢٤٤. أبيات أولها:

إذا كانت صِلاتكم رقاعا   تخطط بالأنامل والأكف

وبعده بيت عكس شطراه فصار:

فما خطي خذوه بألف ألف   ولم تكن الرقاع تجر نفعا

ولم ينبه اختلاف القافية الناشر إلى هذا الغلط

وهذا الغلط مما استدركه الناشرون، ولكني أبقيته في المقال لأني لم أدّع أن هذا يدق على أفهامهم، ولكنه دليل على مقدار العناية بالتصحيح، وليس يذهب بالمؤاخذة إنهم استدركوه؛ فإن وقوعه في الكتاب يدل على الاسراع والتساهل

ص ١٦ «وكان من رستاق جِى» وفي الحاشية تَروى: رستاق الحيّ، ولعلها رستاق حي على الاضافة .. الخ. والصواب جيّ بالجيم المفتوحة والياء المشددة، وهو موضع بأصفهان

ص ٢٩ «لأن المهلَّبي مات بعَمَّان». والصواب عُمان

ص ٣١ «ولقد قرَرْتَ عينَ أبيك بك في حياته، وسكّنتَ مضاجعهُ إلى مكانك بعد وفاته». والصواب قرّت عينُ أبيك، لأن قرّ لازم، ولو جاز أن يتعدى ما جازت التعدية في هذه الجملة رعاية لسياق الكلام

ص ٣٧ «كتابي — أيدك الله — من العسكر بجَبيْل» والصواب جبل بالكسر، وكانت بلدة قرب بغداد؛ أو جَبُّل وكانت بين بغداد وواسط

ص ٤١ ولكنا وهبنا إساءتك لخدمتك، وعلينا المحافظةُ فيك على حفيظتك. وفي الحاشية على بمعنى مع. والصواب عَلّينا المحافظة ... الخ

٤٨ «خرجت مبادراً وأنفذت لشكر شتّان صاحبي، وأنفذ ابن سعدان محمداً لأواتيه، وانتظرت عودها عما فعلا». والصواب

(1) بعد كتابة هذا المقال اطلعت على ما استدركه الناشرون من أغلاط هذا الجزء وألحقوه بالجزء الرابع فأسقطت كل ما استدركوه

لشكرستان . والظاهر : محمدا ابنه كما يفهم من سياق الكلام

ص ٥٣ « ولولا الثقة بأنه يجمّ من مياه الوجوه ويحميها ، ويجمّها ولا يقذيها» . والصواب يُجمّها ولا يُقذيها ، من أجم وأقذى .

ص ٥٧ : أيا رب كلُّ الناس أبناء علّة   أما تعثر الدنيا لنا بصديق

والأصح أبناء عَلّة ؛ وأبناء العلات من أبوهم واحد وأمهاتهم مختلفة . والمراد أن الناس على اختلافهم متشابهون ينزعون إلى أصل واحد . وفي الحديث : «الأنبياء أبناء علات» وقال المعرى :

ألا إنما الأيام أبناء عَلّة   وهذي الليالي كلها أخوات

ص ٨١   حتى ترى   في وجهك الميمون غاية سؤلها

والصواب تسهيل الهمز لتلائم القوافي الأخرى : رَسولها ، وُصولها الخ

ص ٨٦ ثلاثة عشر بيتا في الغزل ، والخطاب فيها للمؤنث . غيّره الناشر الى المذكر ، مع أن الشاعر سمى من يخاطبها ظبية ، وجعل لها فرعاً من الشعر ؛ ومن هذه الأبيات :

والصابئون يرون أنك فردة   في الحسن إقراراً لرب ماجد

كالزهرة الزهراء أنت لديهم   مسعودة بالمشترى وعطارد

قال الشارح : فردة بمعنى مفرد ، ليستقيم له خطاب المذكر على رغم الشاعر واللغة

ص ٩٠ السرى بن أحمد الشاعر الرّفاء . والصواب تشديد الفاء

ص ٩١ « وارتقوا كيف شِئْتُمْ في المعالي — والصواب شئتمُ بضم الميم ومدها

ص ١٢٢ « ومات فرأته السيدة فاتُّهِمَ أنه سقاه السم » — والصواب فمات ابن أخي السيدة الخ والدليل في ص ١١٠

ص ١٢٣ المُحْسِن بن علي التنوخي . والصواب المحسّن

قال المعرى في القصيدة التي كتبها إلى ابنه علي بن المحسن :

يا ابن المحسّن ما أُنسيت مكرمة   فاذكر مودتنا إن كنت أنسيتا

ص ١٢٦ منديل الغُمْر . والصواب منديل الغَمَر

ص ١٢٨ لما تخِذَ بُختيّةٌ تُماف النوى — والصواب تخذا بختيّة بالتثنية والاضافة

ص ١٣٣ :

إن بان شخصي عن مجالس غيره   فالنفس في ألطافه تتقلب

والصواب بمجالس عزّه ، لأن الأبيات شكوى من احتجاب الممدوح وأولها :

ويحجب محجاب عزّ شامخ   وشعاع نور جبينه لا يحجب

ص ١٣٥ وجدت في آخر نسخة المتضد لعبد القاهر الجرجاني — والصواب المقتصد

ص ١٣٩ « وكان ورعا متخشناً في الحكم » وفي الحاشية « هكذا رواه ابن الأنباري وفي الأصل متلينا . ورواية ابن الأنباري أظهر . » أقول : وأظهر من هذا وذاك « متثبتاً في الحكم »

ص ١٧٨ قول بديع الزمان :

أخامقة حتى يقال سجية   ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله

وفي الحاشية : المقة المحبة — والصواب أحامقُه حتى يقال سجية . أي يجاريه في الحمق

ص ١٨٢ من مطبوخ ومملوح الخ — والصواب بين مطبوخ الخ

ص ١٨٨ في رسالة الخوارزمي إلى البديع : « أما ما شكاه سيدي من مضايقتي إياه رَغْمٍ في القيام » . والصواب مضايقتي إياه — زَعَم — في القيام . يعني ما زعمه من مضايقتي الخ

ص ١٨٩ من رسالة الخوارزمي أيضاً : « ففيهم لعمري فوق ما وصف حسنُ عشرة ، وسدادُ طريقة وجمالُ تفصيل وجملة . » والصواب الفتح في الكلمات الثلاث : حسنَ عشرة الخ على التمييز ، يشهد بهذا سياق الرسالة .

ص ١٩٤ من رسالة الخوارزمي أيضاً : ولو أراد سيدي أن أن أصدّق دعواه في شوقه إليّ ، ليَغضُض من حجم عتبه عليّ ، فإنما اللفظ زائد ، واللحظ وارد » وهذه جمل لا معنى لها . والصواب لنَتقَص من حجم عتبه الخ فإنما اللفظ رائد بالراء

ص ١١٤ أبو العباس أحمد بن محمد البارودي — والصواب الباوردي

ص ١٣٨ أبو لهب محمد بن أبي العلاء — والصواب أبو كريب ، وليس في المسلمين من يسمى أبا لهب

ص ١٣٩ وكان مُفتياً في علوم شتى . والصواب متفنناً

١٤٧ في نسخة مرجليوث : قال ابن أبا جعفر ؛ فصححت في هذه الطبعة : قال ابن أبي جعفر . والصواب قال ابن الفرات : أبا جعفر الخ كما يفهم من سياق القصة ؛ فإن ابن الفرات يخاطب أبا جعفر

ص ١٥١ ابن عمر — والصواب أبي عمر

وسأبين في المقال الآتي إن شاء الله ما أخذته على تعليق الناشر في هذا الجزء . ثم أبين سوء النسق في تراجم الكتاب وفي متنه . والله ولي التوفيق

عبد الوهاب عزام

معجم الأدباء أيضاً

رد على نقد

للأستاذ محمود مصطفى

الأستاذ بكلية اللغة العربية

قرأت كلة للعالم الجليل الدكتور عبد الوهاب عزام يتناول فيها ذلك العمل العظيم الذى اضطلع به الدكتور أحمد فريد الرفاعى من إظهار هذه الكنوز الأدبية العظيمة فى ثياب قشيبة معبدة الطريق للقراء

وأشهد أن الدكتور عزام قد دل بكلمته على غيرة على العربية لم يقر له معها قرار حتى ينير مارآه غير مساوق للصواب فى نظره، وهى غيرة يشكر عليها قدر شكر الدكتور الرفاعى على غيرته التى حملته بذل المصونين الجهد والمال فى سبيل خدمة العربية

وما دفعنى أن أدخل بين الناقد والمنقود إلا حبى لأحقاق الحق وإقرار الأمور فى نصبها

أكتب هذه الكلمة ولم أسعد بعد باقتناء الكتاب، فأنا أكتفى بالرد على ما لمست عدوله عن الجادة فى كلام الدكتور عزام

* * *

(١) « إذ كلّ همّه تحصيل المأكول والمشروب » ، يقول الدكتور عزام الصواب همّه بضم الميم والمراد هنا الاسم إذ الفعل أهمه لا همه . وتقول عبارة القاموس المحيط : وهمه الأمر أحزنه كأهمه . ولا يعزب عن البال أن استعمال هـذا الفعل بمعنى شغله واستبد بمشاعره مجاز قريب لا تكلف فيه

(٢) « ومعاوية بفارسٍ » قال الصواب بفارسَ فأنها ممنوعة من الصرف . وأقول ورد فى القاموس وفارس الفرس أو بلادهم . وإذا اتبعنا القاعدة القائلة إن كل اسم قبيلة أو موضع لا علامة للتأنيث فيه يصح تذكيره على معنى القوم أو الرهط والوضع ، وتأنيثه على معنى القبيلة أو البلدة ، فعلى هـذا لا يكون لتخطئة الدكتور التنوين وجه مقبول

(٣) « ولم نعوّض من ذاك ميْسُرة » قال الدكتور عزام : الصواب فتح السين ؛ وأقول فى القاموس المحيط الميسرة مثلثة السين . وفى كتاب « نيل الأرب فى مثلثات العرب » للشيخ قويدر الخليلى :

سهولة الأمر تسمى ميسره ومصدر الى قدرت مقدره

يريد أن ميسرة مثلثة السين ، وكذلك كلة مقدرة مثلثة الدال . وغيرهما مما هو على هذا الوزن كثير

(٤) « لنويا نبيها ثَبَتاً » قال الدكتور عزام والصواب ثَبْتاً يقال رجل ثبْت لا ثَبَت والثَّبَت بالفتح (يريد بالتحريك) البرهان اسم لا وصف . وأقول : فى القاموس الاثبات الثقات ، وفى شرحه وهو ثبت من الاثبات إذا كان حجة لثقته فى روايته ، وهو جمع ثَبَت بالتحريك وهو الأقيس وقد يسكن وسطه . الخ

ولعل التفرقة التى جاء بها الدكتور عزام وهى أن الثبت (بالتحريك) البرهان اسم لا وصف ، إنما عقدها بنظرة خاطفة من قول الشارح « وقيل للحجة ثبت بفتحتين إذا كان عدلا ضابطا » فذهب باله إلى أن الحجة هنا الدليل والبرهان

(٥) « أُضِقتُ إضاقة شديدة » قال الدكتور عزام « والصواب بالبناء للفاعل أى أصابه ضيق » وأقول لو أنه فسرها بقوله أصابه عسر لقلنا إنه تابع صاحب القاموس فى قوله : أضاق ذهب ماله وأعسر ، فأما وقد فسرها بقوله أصابه ضيق فهو تفسير عام ينطبق عليه قول القاموس : ضاق ضد اتسع وأضاقه وضيقه » فمعنى كل ذلك جعله ضيقاً . والمراد هنا ضيق الصدر

(٦) « المُصَيْصة اسم بلد » قال الدكتور عزام والصواب المَصِّيصة . وأقول : ورد فى كتابى « إعجام الأعلام » : (المَصِيصة — المِصِّيصة مدينة على ساحل البحر الروى ... قال فى القاموس « والمصيصة كسفينة بلد بالشام ولا تشدّد » وقد ضبطها صاحب تقويم البلدان عن مزيل الارتياب فقال : بكسر الميم وتشديد الصاد وسكون الياء وفتح الصاد)

فمن ذلك يعلم أن الناقد والمنقود وقعا فى الخطأ وإن كان اللوم فى نظرى على الناقد أشد ، لأنه يأخذ على غيره فى مسألة بعينها فيجب أن يكون تحريه للصواب أدق

(٧) « غُمار الناس » قال الدكتور عزام والصواب كسر الغين ، وأقول يفهم من مراجعة القاموس المحيط لمن وقف على سر اختصاره وراعى مراده فى عطفه واستئنافه أن الغمار جمع لغَمْر وهو الماء الكثير كما أن الغَمْر يكون بمعنى الكريم الواسع الخلق أو الجواد من الخيل أو السابغ من الثياب أو اللفيف من الناس ويشاركه فى هـذا المعنى الأخير (اللفيف من الناس). مفردات أخرى وهى الغَمَر (بالتحريك) والغَمْرة بالفتح فالسكون مع تاء التأنيث والغُمارة بالضم مع التاء والغَمار بالفتح أو الضم . وعلى هذا يكون مصيباً من قال غمار الناس (بالضم)

معجم الأدباء أيضا

للأستاذ عبد العظيم على قناوى

يعرف أولو البصر بالأدب الأستاذ الباقســة الدكتور عبد الوهاب عزام ، عالماً ثقة ، وعلماً حجة ؛ فيصلاً إذا قال ، وثبتاً إذا جال ؛ لا يقف نبوغه عند ناحية من نواحى الأدب ، بل يفيض علمه عليها جميعاً ؛ فهو من أدبائنا القلائل الذين برزوا فى كل أفق ، وربطوا بآصرة الأدب بين الغرب والشرق ، وقد اختص بحوثه الرائعة وآراءه الشائقة مجلة « الرسالة » ، لأنها رسول الثقافة ، وآخر ما أمتع به قراءها ذلك النقد الجامع لكتاب «معجم الأدباء» الذى ينشره الدكتور الرفاعى . فنقد القسم الأول منه نقداً عميقاً ، وفحص عن وجه الحق فحصاً دقيقاً ، وأبى له تواضعه إلا أن يقول : « هــذا ما أخذته وأنا أعبر القسم الأول وهو جزء من عشرين ، ووراء هــذا معضلات من التحريف تحتاج إلى بحث وتنقيب ليتبين صوابها » وأقرر مؤكداً أن هذا النقد الممتع سيحمل الناشر على الامعان فى التحرى ، وسيدفعه إلى التريث والتأنى حتى يخرج الكتاب كما يريده الأدباء والمؤرخون

على أن لى رأياً فى قليل من كثير مما أورده من المآخذ الأستاذ القدير ولعلى قد وفقت إلى الصواب

ص ٦٤ « إذ كلّ همّه تحصيل المأكول والمشروب » . (والصواب همه بضم الميم ، والمراد هنا الاسم ، لأن الفعل أمّ لا همّ) هذا ما ارتآه الدكتور . واللغة تخالفه . نص القاموس « مادة هم » قال : (وهمه الأمر هماً ومهمة حزنه كأهمه) وإن الأبلغ ما رآه الأستاذ ، وليس فى الكتاب شبهة من خطأ

ص ٨٢ :

أمغط منى على بصرى بالحب أم أنت أكمل الناس حسنا

وقد شرحه الناشر فى الحاشية وقال : « ويروى أمغطى على صيغة المفعول » . (والصواب أمغطى لا يحتمل البيت غيرها وكان الصواب تصحيح البيت لا إثبات الغلط وشرحه) وأرى أن كلا اللفظين جائز والمعنى معهما مستقيم ، فالأول يثبت أن حبيبه قد غطى على بصره بالحب أو أنه أكمل النــاس جمالاً فى صورة الاستفهام عن الشقين ، ولا أنكر أن الوجه الثانى أفضل وأفصح

ص ٩٣ « ولا أبدأ نفعا ، ولا أحمد أخلاقا ، ولا أدوم سرورا » . (وقال فى الحاشية فى الأصل أبد نفعا ؛ فقد أصلح غلط الأصل بغلط آخر . والصواب أبدى ، وليس ما صححه الناشر غلطا ، ولعله الأوفق حتى يتفق ونظم الكلام ووزن الأفعال الذى يبدو أنه مراعى فى العبارة

ص ٩٩ « ولم تعوض من ذلك ميسُرة » (والصواب فتح السين » والفتح والكسر والضم كلها صحيح إذ السين مثلثة ، وأحسب الأستاذ اختار الفتح لأنه به قرىء قوله تعالى « فنظرة إلى ميسرة » وكان أيسر للناشر أن يتركها دون ضبط أو يثلث ضبطها

ص ١٣٣ « فلا أزال أماكسهم ويزيدونى » (والصواب يزيدوننى) ولا أدرى كيف ساغ للدكتور تخطئة الصواب فكتب النحو تنص على جواز تزيدونى بالتخفيف والتثقيل ، وبالتخفيف قرأنا نافع تأمرونى وتحاجونى

ص ٢٢١

« يخال بأن العرض غير موفر عن الذم إلا أن يدال له الوفر »

(والصواب يذال بالذال المعجمة من الاذالة أى الامتهان)

ويدال ليست خطأ بل لعلها أوقع فى المعنى لأن الغرض من الادالة الدوران والتحول والزوال ، وكل هذه المعانى أنسب من الامتهان فى البيت . هذا ما عنّ لى التعليق به على نقد أستاذنا النابغة وأرجو أن يلاحقنا بالحكمة والرأى الرشيد

(المعادى) عبد العظيم على قناوى

بمعنى جماعتهم ولفيفهم . كما أنه ليس فى القاموس ما يدل على أن غماراً يكون جمعاً لغَمْر بهذا المعنى الأخير وإلا لأتى به قبل ذكر الجمع كما هى عادته

وليس معنى كل هذا أن استعمال غمار بالكسر فى معنى جماعات الناس خطأ بل نقول إنه خلاف الأولى لأن استعماله يكون مع التجوز بتشبيه جماعة الناس باللجة وإطلاق لفظ غمر عليها ثم جمعه على غمار . أما المفرد وهو غمار (بالضم) فكاف فى الدلالة على الجماعة دلالة حقيقية لا تجوز فيها . فظهر من هذا أن النقود استعمل الضبط الجائز القريب فى الاستعمال

هذا قول أعجلتنا عن الافاضة فى نواحيه وتتبع مظانه ، مشاغل لم نستطع أن نزيحها عن كاهلنا إلا بهذا القدر والسلام

محمود مصطفى

العالم المسرحي والسينمائي

المعجزة

The Barretts of Wimpole Street.

لناقد الرسالة الفني

النقاد عادة من أدق الناس في مسائل الذوق الفني ، فهم بطبيعة عملهم كقضاة ، قاسون لا يرضيهم من الأعمال إلا كل عظيم جليل ، ولهذا فان اختيارهم يكون بلا ريب ممتعاً ، وقد أيد زميلنا وصديقنا الناقد المسرحي الأستاذ محمد علي حماد هذا الرأي باختياره هذه القصة وقيامه بترجمتها للمسرح المصري ترجمة سلسة الأسلوب سهلة اللفظ تلائم رواد المسرح

والرواية قطعة فنية رائعة من تأليف الكاتب الانجليزي « رودلف بيزير » نالت في انجلترا نجاحاً كبيراً دعا الكتاب الفرنسيين إلى نقلها لمسرحهم ودفع بأكبر شركة سينمائية في العالم إلى اقتباسها . وقد أتيح لرواد السينما أن يروا شارلس لاتون ونورما شيرر وفردريك مارش يقومون بالأدوار الرئيسية في هذا الفلم الذي نال الجائزة الأولى للعام الذي أخرج فيه . والذين شاهدوا الفلم ثم رأوا القصة تمثل على مسرح الأوبرا لا بد أحسوا بأن المسرح قد أبرز عوامل الجمال فيها في حين أن الفلم قصر عن أداء هذه المهمة كاملة

لست في حاجة إلى ذكر ملخص الرواية فموضوعها معروف لأن أشخاصها ظهروا على مسرح الحياة في العهد الفكتوري ، فالبطل روبرت براوننج شاعر إنجليزي كبير له دواوينه وأعماله الأدبية ، والبطلة إليزابيث باريت شاعرة رقيقة العاطفة تزوجت من براوننج ؛ وقد نشرت مجموعة الرسائل التي تبادلها البطل والبطلة والتي استمد منها المؤلف مادة قصته

لست أوافق من قام بالتلخيص المنشور في البرنامج الذي توزعه الفرقة القومية من أن القصة تدور في أساسها حول ذلك النزاع القديم المتجدد بين جيل وجيل ، وبين فكرة وفكرة ، وبين الآباء المحافظين الذين يريدون أن يفرضوا آراء أجيالهم الغابرة على أبنائهم الخ ، فلو أن القصة تقوم على هذا الأساس وحده لما استحقت أن توصف بأنها عمل فني ؛ فقد سبق المؤلف كثيرون إلى طرق هذا الموضوع . والواقع أن في القصة تحليلا نفسيا عظيما لشخصية الأب وشخصية الفتاة ؛ ومن يتتبع القصة بانتباه تبرز أمامه الحقيقة الواضحة التي يعنيها المؤلف ويصورها بدقة ، وهي أن الأب يحب ابنته — دون أن يدري — حباً جنسياً

فالعاطفة الجنسية هي سر حبه لابنته ، ولكنه لا يدري هذه الحقيقة ؛ فابنته ثمرة الحب ولدتها أمها أيام كانت الحياة هانئة بين الزوجين ، فهو إنما يحب أمها فيها ، في حين أنه يكره أولاده الآخرين لأنهم ليسوا ثمرة الحب ، بل أنجبتهم أمهم في أيام الجفوة والشقاء بين الزوجين ، وهذا هو السر في قسوته عليهم وفي أنه لا يفهمهم ولا يفهمونه

الإخراج والتمثيل

تصرف المخرج تصرفا له من السوابق ما يبرره وهو إخراج الروايات التاريخية في ثوب عصري ، إلا أنه كان من الخير أن تظهر القصة في ثوبها التاريخي ، فانما تمثل واقعة تاريخية هي قصة زواج روبرت براوننج من إليزابيث باريت . أما رسم المناظر فبديع ولاسيما المنظر الثاني ، ولكن اختيار الورق الأزرق الداكن لكساء حوائط غرفة نوم إليزابيث مما لا يلتئم والحوادث التي تجري فيه . فالرواية كما نعلم تحوي المواقف المحزنة والمواقف المضحكة ، والأزرق الداكن لا يصلح إلا للمواقف المحزنة ، لأنه يبعث أثراً قابضاً في نفوس النظارة ، فكان من الواجب أن يتنبه المخرج لهذه الحقيقة

أما الاضاءة فهملة إلى أبعد حدود الاهمال ؛ فهي واحدة لا تتغير سواء في المواقف المحزنة والمفرحة ؛ ومن بديهيات الاضاءة

أن الضوء القوى الصارخ من ضروريات المواقف الفكهة ، كما أن الضوء الخافت من ضروريات المواقف المحزنة ؛ ولكن الأستاذ عزيز يتجاهل هذا كله ويجعل الضوء قوياً صارخاً طوال مواقف الرواية

وفى المنظر الأول نجد الشبان يصعدون إلى غرفة نوم شقيقتهم بعد تناول العشاء وهم فى ملابس السهرة فى حين أن الشقيقتين كانتا تلبسان الملابس العادية . والأدهى أننا لم نحس أثناء التمثيل أننا فى جو انجليزى ، فقد كان الممثلون فى أحاديثهم وحركاتهم مصريين أكثر منهم انجليزا . فالأستاذ منسى فهمى قام بدور الأب وبذل مجهوداً كبيراً ووفق إلى حد بعيد فى تأدية الدور ، ولكن كان يثور من حين لحين مما لا يتلاءم مع الشخصية ومع الخلق الانجليزى ؛ فالشخصية ليست فى حاجة إلى الثورة لتؤثر الأب فى نفوس أولاده ، فان الرهبة التى فى نفوسهم منذ الطفولة كفيلة بأن تغنى عن هذه الثورة ، ولكن الذنب ليس ذنب الممثل بل هو ذنب المخرج . والآنسة نجمة ابراهيم كانت مجيدة فى دور هنريتا ، ولكنها كانت فى ثورتها مصرية ، وفى سخريتها كانت بعيدة عن تصور الخلق الانجليزى . ومن المؤلم أن يسمح المخرج لعباس فارس أن يظهر الكابتن بهذه الصورة المزرية ، فان من الاسفاف أن نلجأ إلى الحركات لأضحاك النظارة ونيل رضاهم ، والفرقة القومية قامت للسمو بالفن ، والشخصية سهلة واضحة هى أن الكابتن خجول يرتبك فى حضرة السيدات ، وكان من الواجب أن يبرز الشخصية على حقيقتها دون الالتجاء إلى الافتعال

قام حسين رياض بدور الشاعر فأداه أداء طيباً ، ولكن إبرازه له على أنه شاب رزين مما لا يرضيني ومما يتعارض مع ما هو معروف عن نزوات الشعراء وخفتهم ، وهذا الشاعر تقدم للزواج من فتاة شبه مقعدة !! وفى الموقف الذى يطلب فيه يد الزابيث اهتم بتجويد إلقائه أكثر من اهتمامه بابراز عاطفته

أما السيدة زينب صدقى فقد كانت بديعة إلى أبعد حد . والحق أن هذا الدور من أحسن أدوارها ، وفيه أثبتت أنها مقلدة ماهرة لنورماشيرر ولا سيما فى المنظر الأول عند حدوث المعجزة وقيامها من فراشها وسيرها إلى النافذة ، وفى الفصل الأخير عندما قبلها والدها القبلة التى كادت تفضح عاطفته .

يوسف تادرس

سافو على مسرح الاوبرا الملكى

تتمة ما نشر فى العدد الماضى

تحدثنا فى العدد الماضى عن دولت أبيض فى « سافو » ثم عن على رشدى فى دور جان ، وقبل أن أنتقل الى غيره من الممثلين أرى انصافا لهذا الشاب المجتهد أن أقول إنه ظلم ظلما كبيرا فى إسناد دور لا يليق به ولا يتفق مع طبيعته ، وإنه على رغم هذا قد بذل جهداً مشكوراً يستحق الثناء

ولا بد لى أن أذكر عباس فارس فى دور (ديشليت) ومنسى فهمى فى دور (كودال) وفؤاد شفيق فى دور (سيزير) فهؤلاء الثلاثة بلغوا درجة كبيرة من النجاح ، وإليهم الفضل فى النهوض بالرواية والوصول بها إلى درجة تجعل الجمهور يتقبلها ويستسيغها

وأما المناظر فمنقولة عن المناظر التى أخرجت بها الرواية فى فرنسا ، وقد استطاع الأستاذ أدمون تويما مدير المسرح أن يقنع الأستاذ عزيز باخراجها فى ثوب عصرى ولكنه فيما أرى أخفق فى إقناعه بالاستغناء عن المصباح البترولى فى الفصل الأول ، فقد كان مضحكا أن نرى الشاب الفقير الذى يسكن الطابق الخامس يضيء غرفته بثريا كهربائية كبيرة ! وبرغم ذلك نراه يضيء مكتبه بمصباح بترولى ! إن التقيد بالأصل دون استعمال العقل يبعث السخرية ، وكان أولى بالمخرج أن يضع بدلاً من المصباح البترولى مصباحاً كهربائياً للمكتب

أما الاضاءة فعادية ، وبودى لو يعنى المخرج بتوزيع الضوء ومساقطه حتى لا تتعارض ظلال الممثلين وحتى لا يقع ظل ممثل على زميله وأن يختار من ألوان الضوء ما يلتئم مع جو المواقف

الترجمة

نقل القصة إلى العربية الأستاذ محمود كامل المحامى ، وقد لاحظت الفرقة بعد أن نقدت المترجم الأجر أن الترجمة غير دقيقة ، فعهدت إلى لجنة مؤلفة من الأساتذة ادمون تويما وابراهيم الجزار ومراج منير بمراجعتها فاستغرق عملها ٢٧ يوماً . وقد اطلعنا على صفحات عديدة فشاهدنا الكثير من التصحيح والتبديل ، فكان أثر هذا أن أصبحت القصة تحوى أكثر من أسلوب واحد ، وكنا نفضل لو أن المترجم اشترك مع أعضاء هذه اللجنة لتجنب هذا الخلط .



العـــدد ١٨٤ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٨ شوال سنة ١٣٥٥ — ١١ يناير سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــــدد

ذكرى ميـــلاد ...

فى مثل هذا الأسبوع من عام ١٩٣٢ وأنا فى دار السلام ، هبط علىّ برق الأثير هبوط الملَك البشـير على زكريا الواهن اليائس . بشّرنى بأن اسمى قد اشترك ، ووجودى قد ازدوج ، وعمرى قد امتد ، وأصلى قد تفرّع ! فأخذنى شعور لا عهد لى بمثله ؛ لا أصفه لأنه أعمق من الإدراك ، ولا أنساه لأنه أوسع من الذاكرة . هو شعور خليط مبهم ؛ لا هو حماسة ، ولا هو نشوة ، ولا هو جذل ، ولا هو غبطة ؛ وإنما هو كل أولئك وشىء آخر لا أدريه ، لوّن مشاهد الطبيعة بألوان الأمل ، وعطّر نسائم (دجلة) بروائح الجنة ، وزيَّن مغانى الكرخ بأوشية السحر . فخرجتُ إلى بساتين (الصالحية) وفى إهابى المشبوب رجل آخر ، يحيا لأنه يحب الحياة ، ويعمل لأنه يريد العمل ، ويُزهَى لأنه يسمى لأُسرة . مررت بالأطفال الذين كنت أراهم كل يوم، فبدت لى فى قسماتهم وبسماتهم معانٍ جديدة . لم يعودوا شقاء الوالدين وهمّ الحياة كما كنت أشعر ، وإنما أصبحوا كطفلى

بهجة الوجود وراحة المكدود ورجاء المستقبل ؛ ثم وجدتني آنس بكل أب ، وأسكن إلى كل أم ، وأشعر كما يشعر كل والد بحملٍ رخيٍّ رضيٍّ يثقل رويداً رويداً على البال المطمئن الوادع !!

***

عدت إلى مصر فرأيتني أرسخ في الوطنية لأني غدوت أصلاً من أصولها ، وأعز في القرابة لأني صرتُ فصلا من فصولها ؛ ثم تجددتِ الأفراح ، وتسابقت التهاني ، وتنافست الهدايا ، وتعاقبت المآدب ، وغرقت الدار الكئيبة في فيض من البهجة ، ورقصت الروضة الموحشة على ألحان البلبل ، ورفرفت السعادة الهشة على مهد الوليد

وكان العُش الآمن الفارُّ يعلن في كل رابع عشر من شهر يناير ذكره للنعمة وشكره لله ؛ فيرفُّ للأصدقاء بالأنس ، ويخف للفقراء بالصدقة ، وتتفتح مصاريعه الضاحكة لتهنئات الصحاب ودعوات الأحبة ، ويخرج المرموق المشوق صاحب العيد في زينته وبهجته كالسوسنة الغضة ، يقابل مهنئيه ، ويتقبل هداياه ، ويستعرض لعبه ، ويُشعُّ على الحفل البهيج من روحه الجذاب ، وحسنه الفاتن ، وذكائه الباكر ، إشعاعاً من وراء المعلوم لا يدركه إلا الأب الحنون وإلا الأعزب الشاعر

حنانيك يا رباه ! أكل ذلك أصبح اليوم ذكرى ؟ أغاية السعادة في الأرض أن تنقلب وحشةً في النفس وظلمة في العين وحسرة في الفؤاد ؟ لا يزال صوته الصافي الجميل يرن في شعوري كله : فأنا أسمعه يقول ويده الصغيرة تجذب يدي : « يالله نشتري خروف عيدي يابابا ... عاوز أتومبيل أحمر زي أتومبيل الملك يابابا . » فأخرج معه كما يخرج الصديقان الأليفان لأمر مشترك ؛ فينتقي ثيابه بذوقه ، ويختار لعبه بنفسه ، ويقترح عليَّ أن نذهب إلى (حديقة الفردوس) ، فيمشي بين أفواف الزهر ، أو على زخرف الممشى ؛ فلا أدري أجمال الروض زهاً فيه فنضر حتى فتن ، أم جماله هو فاض على الروض فزها حتى بهر !

ثم يتفرق بصره المبهور بين التماثيل والتصاوير والورد ، فيذهل عن طريقه فيخوض في الماء فجأة ؛ فيخلع حذاءه وينزع جوربه ثم يدعهما للشمس ويقعد هو تحت المظلة أو فوق العشب يرسل على أبيه السعيد سيلا من الأسئلة لا ينقطع ، وفيضا من المسرة لا ينضب ؛ ثم يعود إلى بيته المزدان المرح فيستقبل في المساء أعمامه أحمد أمين وزكي وخلاف والعبادي وعوض وزناتي ويونس وسائر محبيه ومحبي أبيه ، فيتقلهم بإشراق نفسه وائتلاق طبعه من عالم الناس إلى عالم الملائكة !

***

ثم دار الفلك ، وتجرّم العام ، وعاد اليوم الرابع عشر من شهر يناير ! ولكنه واحسرتاه يعود هذه المرة على بيت غير البيت ، ودنيا غير الدنيا ! ! فلا العش مرحٌ بفرخه ، ولا الروض شادٍ ببلبله ، ولا الأتومبيل حالٍ براكبه !

يعود على ثياب مطوية ، ولُعَب مخبية ، وصور مستورة ، وعيون مقروحة ، وقلوب محطمة ، وآمالٍ مهيضة ! فلا بساط الأنس ممدود يا رفاق ، ولا حفلة العيد ساهرة يا أحبة !

أجل يعود اليوم الرابع عشر من شهر يناير ، ولكنه والهفتاه يعود على قبرٍ جَنِيِّ الأزاهير بين حقول القرية البعيدة ؛ تسهر عليه الشجرة الصغيرة ، وترعاه من قربٍ عيون الأهل !

فيا من دعوت نفسك الرءوف الرحيم ! أين أجد رأفتك فيخفف أساي ، وأصيب رحمتك فيندمل جُرحي ؟

ويا شاعر العروبة ، وحكيم الدهر ، وطريد الغِيَر ؛ متى أجد مصداق بيتك المعرِّي الخالد :

ستألف فِقدانَ الذي قد فقدتَه
كإلفك وِجْدانَ الذي أنت واجد

أحمد حسن الزيات

الشمس

للأستاذ أحمد أمين

أى شىء أحب إلى النفس ، من النعمة هذه الأيام بالشمس ، والحديث عن الشمس ؟

فقد أقرسنا البرد حتى اصطكت منه أسناننا ، وانكمش جلدنا ، ويبست أطرافنا ، وحتى وددنا — إذا رأينا النار — أن نحتضنها ، وإذا رأينا الجمرة أن نلتهمها ؛ ولوددت فى هذه الأيام أن أكون فراناً ، أو طباخاً ، أو سائق قطار ، حتى لا أفارق النار

* * *

كل شىء فى الطبيعة جميل ، وأجمل ما فيها شمسها

وهى فى شتائنا أجمل منها فى صيفنا ، ولها فى كلٍّ جمال

فلها — صيفاً — جمال القوة ، وجمال القهر ، وجمال السفور الدائم ، نُعظمُها ونجلها ؛ ونهرب منها ولكن نحبها . تقسو أحياناً ، ولكنا نرى الخير فى قسوتها ؛ فهى كالمربى الحكيم ، تقسو وترحم ، وتشتد وتلين ؛ تلفحنا بنارها ، ولكنها نار كنار الحب يكتوى بها قلب العاشق ، ثم هو يرجو بقاءها ، ويخشى زوالها ؛ ترسل علينا شواظاً من نار ، فتسفع جلودنا ، وتكوى جباهنا ، حتى إذا غلا جوفنا ، ووغر صدرنا ، غابت عنا ، وأرسلت رسولها اللطيف الوديع (القمر) نخفف من حدتنا ، ولطف من سَورتنا ، وأصلح ما أفسدت ، وضمد ما جرحت ؛ فاذا خشيَتْ أن نطمئن إليه ، أدركتها الغيرة منه فنفيته ، وطلعت علينا ببهائها ، وجمالها وجلالها . وهكذا دواليك

* * *

وهى — شتاء — تطلع علينا بوجه آخر ، ترينا فيه جمال الحنو ، وجمال الدعة ، وجمال الرحمة والعطف ، وجمال الغادة اللعوب ، تشاغلك فتظهر وتختفى ، وتسفر وتتحجب ، وتخرج من قناعها ثم تتقنع

وتنتقم من رسولها الذى غارت منه صيفاً فتطلعه علينا فى جو بارد لا نطيقه ، حتى لا نفكر إلا فى دفئها ونعمتها ، ولا نشتاق لشىء شوقنا لرؤيتها

فما أجملها قاسية وراحمة ! وما أجملها واصلة وهاجرة !

تتلون بشتى الألوان فتسحر العقول ، وتبهر العيون ؛ فهى تارة بيضاء ، وتارة صفراء ، وتارة حمراء ، ثم لا تستطيع أن تحكم هى فى أيها أبهى وأجمل ، فهى تزين ثيابها بأكثر مما تزينها ثيابها

فتحت النافذة قبل أن أكتب مقالتى فتدفقت فى حجرتى أشعتها الفضية اللامعة ، وملأتها روحاً وحياة ، وملأتنى دفئاً ، وملأتنى معانى ، وكانت حياتى فى حجرتى قبل زيارتها حياة مظلمة باردة جامدة لا معنى فيها ولا روح

* * *

خلعْتِ من جمالك على الزهر ، فكان فتنة للناظرين ؛ فجماله من جمالك ، ولونه قبس من ألوانك ، وحياته مدد من حياتك ؛ فأبيضه وأحمره ، وأصفره وأزرقه ، ليس إلا نعمة من نعمك ، وأثراً من فيضك

فالوردة الحمراء ليست إلا نقطة من دمك ، والياسمين الأبيض ليس إلا لمحة من نورك ، والنرجس الأصفر ليس إلا تبراً ذائباً من شعاعك

لقد أبيْتِ على الناس أن يدعوا النظر إلى جمالك ، فألهيتهم بالنظر إلى بعض آثارك ، ولوّنت الأزهار بألوانك ، وأريتهم قدرة إبداعك . فشغل الجاهلون به عنك ، وشغف به العارفون على أنه قبس منك ، يطالعون جمالك فيه ، ويقرأون معانيك فى معانيه

* * *

ثم شأنك فى البحر عجب أى عجب ! تضربينه بشعاعك ، وتلفحينه بنارك ، فيتحول ماؤه بخاراً ، يصعد إليك ليستجير منك ، ويمثل بين يديك لتمنحيه عفوك ، وتنيليه عطفك ، حتى إذا شعر برضاك ، وأمن من غضبك ، دمع دمعة السرور ، ففارقته ملوحته ، وعاد إليه صفاؤه وعذوبته ، واكتسب منك الحياة فكان ماء جارياً ، بعد أن كان ماء راكداً ، فجرى جداول وأنهاراً ، فأرسلته إلى خدمك فى الأرض من أزهار وأشجار يحيى ذابلها ، ويستخرج دفينها ، وينضج ثمرها

* * *

ثم تحركت فملأت الحياة حولك حركة ؛ فكم من نجوم لا يعلمها إلا الله تسير حولك وتحذو حذوك ؛ ثم تلعبين بالهواء من سخونة وبرودة فيتحرك ، ويتعلم منك اللعب فيلعب بالبحار والأنهار والأشجار وبكل شيء يمر به ؛ فإذا الدنيا كلها لعبة في يده

ثم أنت حرقت الأشجار والنبات ، وطمرتها تحت صفحة الأرض آلافاً من السنين بعد آلاف ، حتى إذا تنبه الناس آخر الزمان فطنوا إلى أنه مستودع من مستودعاتك ، فاستغلوه في كل ما نرى الآن من حركة ، فهو سر حركة المصانع والبواخر ، وسر حركة القطارات والآلات ، فلو قلنا إن كل حركة في الأرض أنت مصدرها لم نبعد

***

تلعبين بالناس فتنيمينهم وتوقظينهم ؛ ترسلين أشعتك الجيلة على العالم فينتبه ، وتغيبين عنه فينام ؛ ثم تتداولين العالم فتنبهين قوما وتنيمين قوما ، ويراك قوم شروقاً وقوم غروباً ، وقوم ليلاً وقوم نهاراً ، وقوم صيفاً وقوم شتاء ، وأنت أنت في عليائك لا تَحلّين الحركة ولا تشعرين بنوم أو يقظة ، ولا بليل أو نهار

***

بل بك يجري الدم في عروقنا ، فدمنا من غذائنا ، وغذاؤنا من حرارتك ، تسلطينها على الأرض فتخرجين منها « حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبّا » ؛ بل ما أفكارنا إلا منك ؛ أليست أفكارنا من دمائنا ، أو ليست دماؤنا منك ؟

بل لقد كنت حيناً من الأحيان إلَه الناس ومعبودهم ، فكنت مصدر وحيهم ، ومصدر إلهامهم ، ووجهة عبادتهم . رأوك مصدر الحياة فعبدوك ، ورأوك مصدر النعم فحمدوك ، ورأوك يحيط بك كثير من الغموض على جلائك ووضوحك فألهوك ، ورأوك أكبر النجوم فربّبوك

ثم أتى الأنبياء فرأوك تأفلين فسلبوك ألوهيتك ، ورأوك تتغيرين فحولوا عبادتهم عنك

ولكن إن سلبوك ألوهيتك فلم يسلبوك عظمتك وجمالك وجلالك وكفاك ذلك فخراً

***

لست أدري أأصاب العرب إذ أنثوها أم أصاب الانجليز إذ ذكروها ؛ لعل الانجليز رأوا القمر وادعاً جميلاً هادئاً رقيقاً فأنثوه ، ورأوا الشمس قوية قاهرة قاسية فذكروها ؛ ولكن لعل واضعي اللغة من الانجليز لو عاشوا في عصرنا ، ورأوا ما نرى من قوة المرأة وضعف الرجل ، وجبروت المرأة واستكانة الرجل ، لرجعوا إلى رأي العرب ، وآمنوا ببعد نظرهم ، وقلبوا المذكر مؤنثاً والمؤنث مذكراً

ولعل العرب أيضاً رأوا الشمس أمّ الأرض وأمّ القمر وأم الزرع فأنثوها ، إذ لا تلد إلا امرأة ؛ ورأوا القمر طفلاً يدور حول أمه فذكروه ، واحتاط العرب أن يدرك الشمس شيء مما يلحق الأنوثة فقال شاعرهم : « وما التأنيث لاسم الشمس عيب »

أما الشمس نفسها فلم تعبأ بتأنيث ولا تذكير ، كما لم تعبأ عن أنثها وعن ذكرها

فهي في سمائها تؤدي رسالتها ، وتسير سيرتها ، وتبهرنا بجمالها ، وتوحي إلينا بأسرارها

فما أعظمك ! وأعظم منك من خالقك !

٤ يناير سنة ١٩٣٧ — أحمد أمين

٨ ـ القلب المسكين

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

وأما هو فحدّثني بهذا الحديث العجيب من لطائف إلهامه وفنّه قال : انصرفت إلى داري وقد عزّ عليّ أن يكون هـذا منها وأن يكون هذا مني ، وهي إن غابت أو حضرت فأنها لي كالشمس للدنيا ، لا تظلم الدنيا في ناحية إلا من أنها تضيء في ناحية ، فظلمتها من عمل نورها . وكانت ليلتي فارغة من النوم فبتُّ أتململُ ، وجعل القلب يدقّ في جنبيَّ كأنه آلة في ساعة لا قلب إنسان ؛ وكان في الدنيا من حولي صمت كصمت الذي سكت بعد خطبة طويلة ، وفيَّ أنا صمت آخر كصمت الذي سكت بعد سؤال لا جواب عليه ؛ وكان الهواء راكداً كالسكران الذي انطرح من ثقلة السكر بعد أن هذى طويلاً وعربد ؛ والوجودُ كأنه يبدو كالمختنق لأن معنى الاختناق في قلبي وأفكاري . ونظرت نظرةً في النجوم فاذا هي تتغوّرُ نجماً بعد نجم كأن معنى الرحيل انتشر في الأرض والسماء إذ رحلت الحبيبة ، وكأن كل وجهٍ مضيء يقول لي كلمة : لا تنتظر

فلما عسعسَ الليلُ رميت بنفسي فنمت والعقل يقظان ، وصنعت الأحلامُ ما تصنع ، فرأيتها هي في تلك الشُّفوف التي ظهرت فيها عروساً ؛ وما أعجب كبرياءَ المرأة المحبوبة ! إنها لتبدو لعيني محبها كالعارية وراء ستر رقيق يشف عنها كالضوء ، ثم تدلُّ بنفسها أن ترفعَ هذا الستر ؛ فأن لم يتجرأ هو لم تتجرأ هي ؛ وكأنها تقول له : قد رفعتُه بطريقتي فارفعـه أنت بطريقتك . . .

وكانت مصوَّرة في الحلم تصوراً آخر فلا ينسكب من جسمها معنى الحسن الذي أتأمله وأعقله ، ولـكن معنى السكر الذي يترك المرء بلا عقل ؛ ولم تـكن غلائلها عليها كالثياب على المرأة ، ولـكنها ظهرت لي كاللون على الوردة الزاهيـة ؛ تُظهر فتنةً وتُتم فتنة

أيتها الأحـلام ماذا تُبدعين إلا مخلوقات الدم الانساني ، ماذا تبدعين ؟

قلت : ياصديقي دع الآن هذه الفلسفة وخـذ في قصّ ما رأيت . ثم ماذا بعد الوردة ولون الوردة ؟

قال : إنه القلبُ المسكينُ دائماً ، إنه القلب المسكين . لقد ضحكت لي وقالت : هأنذي قد جئت ، وأقبلتْ ترائيني بوجهها ، وتتغزل بعينيها ، وتتنهد بصـــدرها ، وألقت يدها في يدي فأحسست اليـدين تتعانقان ولا تتصافحان ؛ ثم تركناهما نائمتين إحداهما على الأخرى ، وسكتنا هُنيهةً وقد خُيِّل الينا أننا إذا تـكلمنا استيقظت يدانا

أما صافحتك امرأة تحبها وتحبك ؟ أما أحسست بيدها قد نامت في يدك ولو لحظة ؟ أما رأيت بعينيك نعاس يدها وهو ينتقـل إلى عينيها فاذا هما فاترتان ذابلتان ، وتحت أجفانهما حلمٌ قصير ؟

قلت : ياصديقي دع الفلسفة ؛ ثم كان ماذا بعـد أن نامت يدٌ على يد ؟

قال : ثم كانت سخرية من الشيطان أقبح سخرية قط

قلت : حسبي لـكأنك شرحت لي ما بقي . . .

فضحك طويلاً وقال : إن الشيطان يسخر الآن منك أيضاً ، وكأني به يقول لك : وكان ما كان مما لست أذكره ... أفتدري ما الذي كان وما بقية الخبر ؟

لقد كنتُ مولعاً بامتحان قوتي في الضغط بيدي على أعواد منصـوبةٍ من الحديد ، أو على أيدي الرجال الأقوياء إذا سلمتُ عليهم ؛ فلما صافحتني لبثت مدة من الزمن ثم شددتُ على يدها قليلاً قليلاً ، فتنبهتْ فيَّ هذه العادة ، فسخت الحلمَ وانصرف وهمي إلى أقبح صورةٍ وأشـنعها وأبعدها ممـا أنا فيه من الحب ولذات الحب ؛ فاذا بأزائي وجه ؛ وجهُ مَن ؟ وجهُ مصارع ألماني كنتَ أعرفه من عشرين سنة وأضغط على يده . . .

* * *

قلت : إنما هذه كبرياؤك أو عفتك تنبهتْ في تلك الشّدة من يدك ، ولا يزال أمرك عجيباً ؛ فهل معك أنت ملائـكة ومع الناس شياطين ؟

قال : والذي هو أعجب أني رأيت في أضعاف أحلامي كأن قلبي المسكين يخاصمني وأخاصمه ؛ وقد خرج من أحناء الضلوع كأنه مخلوق من الظل يُرى ولا يُرى إذ لا شكل له ؛ وسبَّني وسببتُه ، وقلت له وقال لي ، وتغالظْنا كأننا عدوان ؛ فهو

يرى أني أنا أمنحه لذته ، وأرى أنه هو يمنعني ، وأنه أشقى بي على ما أشقى ؛ وقلت له فيما قلت : لا قرارَ على جنايتك فاذهبْ عني ولا تتسمَّ باسمي فانه لا فُلانَ لك[1] بعد اليوم ؛ ولولا أنك مخذول في الحب لعلمت أن لمسة يد الرجل ليد المرأة الجميلة نوعٌ مخفف من التقبيل ، فاذا هي تركته يرتفع في الدم انتهى يوماً إلى تقبيل فمٍ لفمها ؛ ولولا أنك مخذول في الحب لعلمت أن هذا الضم بين اليدين نوع مخفف من العناق ، فاذا هي تركته يشتد في الدم انتهى يوما إلى ضم الصدر للصدر ؛ ولكنك مخذول في الحب ، ولكنك مخذول .

وقال لي فيما قال : وأنت أيها الخائب ؟ أما علمتَ أن أناملها الرَّخصةَ هي أناملُها ، لا أعوادُك من الحديد ؟ فكيف شددت عليها ويحك تلك الشَّدة التي أخرجت لك وجهَ المصارع ؟ ولكنك خائب في الحب ، ولكنك خائب .

قلت : فهذه قضيةٌ بيني وبينك أيها القلبُ العدوّ ؛ لقد تركتني من الهموم كالشجرة المُنْخَرِبة قد بليَتْ وصارت فيها التخاريب فلا حياتُها بالحياة ولا موتُها بالموت ، وكم علَّقتني بفاتنةٍ بعد فاتنة لا عنها إقصارٌ ينتهي ولا فيها مطمعٌ يبتدىء ؛ ما أنت فيَّ إلا وحشٌ أكبرُ لذته لطْعُ الدم .

***

واستدار الحلم فلم ألبث أن رأيتني في محكمة الجنايات ، وكأني شكوت قلبي إليها فهو جالس في القفص الحديديّ بين المجرمين ينتظر ما ينتظرون من الفصل في أمرهم ؛ وقد ارتفع المستشارون الثلاثة إلى منصة الحكم وجلس النائب العامّ في مجلسه يتولى إقامةَ الدعوى وبين يديه أوراقه ينظر فيها ، ورأيت منها غلافاً كُتب على ظاهره : قضية القلب المسكين .

وتكلم رئيس المحكمة أولَ من تكلم فقال : ليس في قضية القلب محامٍ ، فابْغُوه من يدافع عنه ؛ ثم التفت إليه وقال : من عسى يختار للدفاع عنك ؟

قال القلب : أوَهنا موضع للاختيار يا حضرة الرئيس ؟ إنه ليس تحت هذه — وأومأ إلى السماء — ولا فوق هذه — وأومأ إلى الأرض — إلا . .

فبَدَرَه النائب العام وقال : إلا الحبيبة . أكذلك ؟ غير أنها أستاذة في الرقص لا في القانون

— القلب : ولكنني لا أختار غيرها يحكموا لي أو يحكموا عليّ . أنا أريد أن أنظر فيها وانظروا أنتم في القضية . . . .

— الرئيس : فليكن ؛ فهذه جريمة عواطف إئذَنْ لهـا أيها الآذن

فنادى المُحضِر[2] : الأستاذة . الأستاذة

وجاءت مُبادِرة ، ودخلت تمشي مِشيتَها وقد افترَّ ثغرها عن النور الذي يسطع في النفس ؛ وأومَضَتْ بوجهها يميناً وشمالاً فصرفَ الناسُ جميعاً أبصارهم إليها وقد نظروا إلى فتنة من الفتن ؛ وثارت في كل قلب نزعة ، وغلبت الحقيقةُ البشرية فانتقضت طباع الموجودين في قاعة الجلسة ، وأُبطل قانون جمالها قانونَ المحكمة ، فوقعت الضجة وعلت الأصواتُ واختلطت ؛ وتردَّدت بين جدران المكان صَدى في صَدًى كأن الجدران تتكلم مع المتكلمين

أصوات أصوات : سبحان الله ! سبحان الله ! تبارك الله ، تبارك الله ، آه آه ؛ آه آه ؛ وسمع صوت يقول : اتَّهموني أنا أيضاً ... فتَفَرَّت الكلمات وأنا وأنا وأنا . واختفت المحكمة وانبعث السرح بدخول فاتنته الراقصة ؛ وكان المستشارون والنائب العام في أعين الناس كأنهم صور معلقة على الحائط لا يخشاها أحدٌ أن تنظر إلى ما يصنع

فصاح الرئيس : هنا المحكمة ! هنا المحكمة ! سبحان الله ... المحكمة المحكمة

— النائب العام : هذا بَدْءٌ لا ترضاه النيابة ولا تقبل أن تنسحب عليه . نعم إن هذا الوجه الجميل أبرعُ محام في هـذه القضية ، ونعم إن جسمها . . . آه ماذا ؟ إنكم تأتون بالشهوة الغالبة القاهرة لتدافع عن المشتهي ... عن المتَّهم . هذا وضع كوضع العـذر إلى جانب الذنب . وكأنكم يا حضرات المستشارين . .

فبَدَرَت المحامية تقول في نغمة دلال وفتور : وكأنكم يا حضرات المستشارين قد نسيتم أن النائب العام له قلب أيضاً ...

واشتدَّ ذلك على النائب وتبين الغضب في وجهه ، فقال : يا حضرة الرئيس

(١) ذكرُ اسمه كما تقول مثلا لا مجد لك

(٢) هو الموظف الذي يكون في الجلسة للنداء على الخصوم

— الرئيس مبتسما : واحدة بواحدة ، وأرجو ألا تكون لها ثانية ، ومعنى هذا كما هو ظاهر ألا تكون لها ثالثة . . . . (ضحك)

***

قال صاحب القلب المسكين : وكنت بلا قلب ... فلم التفت للجمال ، بل راعني ذكاءُ المحامية ونفاذها وحسن اهتدائها إلى الحجة فى أول ضرباتها ، وتعجبت من ذلك أشد التعجب ، وأيقنت أن النائب العام سيقع فى لسانها لا كما يقع مثله فى لسان المحامى القـدير ، ولكن كما يقع زوجٌ فى لسان زوجة مشوقة متدللة تجادله بحجج كثيرة بعضها الكلام ... وقلت فى نفسى : يا رحمة الله لا تجعلى من النساء الجميلات الفاتنات محاميات فى هذه المحاكم ، فلو ألبسوهن لِحًى مستعارة لكان الصوت الرخيم وحده من تلك الأفواه الجميلة العذبة نداء قانونياً للقبلات . . .

ونهضت المحامية العجيبة فسـلطت عينيها الساحرتين على النائب ، ثم قالت تخاطب المحكمة : قبل النظر فى هذه القضية قضية الحب والجمال ، قضية قلبى المسكين ... أريد أن أتعرف الرأى القانونى فى اعتبار الجريمة . أهى شخصية ، فتُقصر على صاحبها ؟ أو خاصة فتقصر غير جانبها ؟ أو عامة فيتناولها العموم المحدود لمن تجمعهم جامعة الحب ؟ أوهى أعم ، فيتناولها العموم المطلَق للهيئة الاجتماعية ؟ ما هى جريمة قلبى ..؟

— الرئيس : ما رأى النيابة ؟

النائب ضاحكا : (غزالتها رابقة) كما يقول الراقصات والممثلات . . . . أرى أنها جريمة آتية من ضرب الخاص فى العام .. (ضحك)

المحامية : جواب كجواب القائل : حب أبى بكر . كان ذلك الرجل يحب زوجته الجميلة ويخافها ، وكانت تقسو عليه قسوة عظيمة وتُغلظ له الكلام وهو يفرق منها ولا يخالفها . فرآها يوما وقد طابت نفسها فأراد أن ينتهز الفرصة ويشكو قسوتها ؛ فقال : يا فلانة قد والله أحرق قلبى .. ولم تدعه يتم الكلمة ، فحدت نظرها اليه وقطبت وجهها وقال : أحرق قلبك ماذا ؟ فخاف ولم يقدر أن يقول لها سوء أخلاقك . فقال : حب أبى بكر الصديق رضى الله عنه .. (ضحك) ورنت ضحكة المحامية فاضطربت لها القلوب ، ووقعت فى كل دم ، وفى دم النائب أيضاً ؛ فانخزل ولم يزد على أن يقول : أحتجُّ من كل قلبى . .

الرئيس : لندخل فى الموضوع ، ولكن المرافعة مطلقة فان الحدود فى جرائم القلب تُسدل وتُرفع كهذه الستائر فى مسرح التمثيل . وعشرون ستارة قد تكون كلها لرواية واحدة

***

— النائب العام : يا حضرات المستشارين ، لا يطول اتهامى فان هذا القلب هو نفسه تهمة متكلمة

المحامية : ولكنه قلب

النائب : وأنا يا سيدتى لم أحرف الكلمة ولم أقل إنه كلب . (ضحك) وتفرج وجه المحامية وخجلت[1]

— الرئيس : الموضوع الموضوع

النائب : ياحضرات المستشارين . إن أمّ هذه الجريمة إما أن يكون فى شخص الجانى أو ماله ، أو صفته كأن يكون زوجامثلاً ، أو صيته الأدبى . فأما الشخص فهذا ظاهر ، وأما المال فنعم إن القلب المسكين قرر لنفسه ولصاحبه ألا يبتاع أبداً تذكرة دخول إلى جهنم ... (ضحك)

— المحامية : أستميح النائب عذراً إذا أنا . . . إذا أنا فهمت من هذا التعبير أن حضرته يعرف على الأقل أين تباع هذه « التذاكر » ... (ضحك) وتفرج وجه النائب العام وخجل .

— الرئيس : كنت رجوت ألا تكون للأولى ثانية ، وقلت : إن معنى هذا كما هو ظاهر ألا يكون لها ثالثة ؛ فهل أنا محتاج إلى القول بأن المعنى المنطقىّ ألا يكون للثالثة رابعة ... ؟

— النائب : يا حضرات المستشارين . وأما الصفة ، فهذا القلب المسكين قلب رجل متزوج ؛ ولا تغرنّكم صوفية هذا القلب ، ولا يخدعنكم تألّهه وزعمُه السموّ . إنه على كل حال يعشق راقصة ، وهذا اعتداء فى ضمنه اعتداء ؛ على الزواج وعلى الشرف . وهبوه متصوفاً متألها ولم يتصل بالراقصة ؛ فهو على كل حال قد أخذها واتخذها ولكن بأسلوبه الخاص . . . وبهذا اقترف الجريمة . آه . ان هذه القضية ناقصة ؛ وذلك نقص فيها

(١) إذا كان كلباً فهو يتبع كلبة ... وهذه هى غمزة النائب للمحامية ، ولا ينس القراء أن المحكمة فى الرؤيا ؛ وفى الرؤيا علمنا أن هـذا النائب كأكثر شبان العصر فى هذه المدنية الفاسدة ، لا يتزوجون لأن المدنية جعلتهم بين الفتيات « أنصاف متزوجين » على لأزن « أنصاف عذارى » بين الفتيات ... وفى الرؤيا علمنا أنه يخادن راقصة ويقال ممثلة — بينها وبين صاحبة القلب المسكين منافسة ...

أخشى أن يكون نقصاً في الحكم أيضاً ، فأنبهوا أنتم . يا حضرات المستشارين إن النقص فيها أنها لا شهود فيها ؛ ولكن هذا عمل إلهي لا يظهر إلا يومَ تشهدُ عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون.

— المحامية : هـذا تعبير أكبر من قدرة قائله ومن منزلته ووظيفته ، هذا تعبير جسور . يا حضرة النائب ؛ من الذي لا يحمل شهوداً في لسانه ويديه ورجليه ؟ بل ألف شاهد على ليلة واحدة . . . يجب أن يكون مفهوماً بيننا يا حضرة النائب أن النون والباء في لفظة (نائب) غير النون والباء في لفظة (نبي)

— النائب : يا حضرات المستشارين . لا أرى مما يُحرجني في الاتهام أن أصرح لكم أن مما حيّرني في هذه الجريمة أنْ ليس فيها من أوصاف الجرائم إلا تلم الكرامة . فلا قذف ولا سب ولا هتك عرض ولا فجور ، ولا أصغر من ذلك ، ولا كأس خمر للراقصة . . .

— المحامية : لا أرى أمام حضرة النائب كأس ماء ، وسيجف حلقُه في هذه القضية فلعل المحكمة تأمر لي بكأس ... (ضحك)

— النائب : يا حضرات المستشارين . يعشق راقصة ؛ اسم فاعل من رقص يرقص ؛ امرأة لا تلبس ثياباً بل عُرياً في شكل ثياب . . . امرأة لا كالنساء ؛ كذبها هو صدق من شفتيها . لماذا ؟ لأنهما حمراوان رقيقتان عذبتان محبوبتان مطلوبتان . . .

المحامية : تضحك . . .

— النائب بعد أن تتمتع : امرأة لا كالنساء ، جعلتها الحرفة امرأة في العمل ، ورجلاً في الكسب . . .

— المحامية : ولكنك لا تدري تحت أي رِجل سقطت[1] السكينة . وقد يكون في الرذائل رذائل كبعض أصحاب الألقاب ؛ ذات عظمة . . .

— النائب : يحب راقصة ، أي يضعها في عقله الباطن ويشتهيها . نعم يشتهيها . فمن عقله الباطن ، وبتعبير اللغة ، من واعيته — تخرج الجريمة أو على الأقل فكرة الجريمة

والصيت الأدبي يا حضرات المستشارين ؟ هل من كرامة لمن يعشق راقصة ؟ لا بل هل من كرامة في الحب ؟ ألم يقولوا إن كرامة الرجل العاشق تكون تحت قدمي المرأة المعشوقة

كالمسحة الخشنة تمسح فيها نعليها

الحب ؟ ما هو الحب ؟ إنه ليس فكرة ، بل هو شيطان يتلبس لجسم العاشق ليعمل أعماله بأداة حية ، وهذا التركيب الحيواني للإنسان هو الذي يهيء من الحب مداخل ومخارج للشياطين في جسمه . وهل رضى صاحب القلب المسكين بجناية قلبه عليه ، وعظيم ما انتهك من أخلاقه السامية ، هل رضى بعشقه راقصة ؟ إنه لم يرض الرضى الصحيح ، أو رضى بقدر ما . فعلى كلٍّ هما يقوم في نفسه مانع والمانع من الرضى هو الموجب للعقوبة

— المحامية : ولكن قدراً من الرضى ينزل بالجناية فيردها إلى جنحة كما في القانون الانجليزي . وقد قرر الشرّاح أنه مادام الرضى غير مستلب بكله ، فالجريمة غير واقعة بكلها

— النائب : جنحة كل قلب هي جناية من هـذا القلب بخصوصه ، على طريقة : «حسنات الأبرار سيئات المقربين» . والعبرة هنا بالواقع لا بالصفة القانونية . وقد قرر الشراح أن الواقع قد يكون أحياناً سبباً في تشديد العقوبة ، فلا بد من تشديد العقوبة في هـذه القضية . لا أطلب الحكم بالمادة ٢٣٠ عقوبات بل بالمواد من ٢٣٠ إلى ٢٤١ ضربة واحدة ...

— المحامية : قد نسيت أن هـذا قلب وعقوبته عقوبة لصاحبه البريء

— النائب : إذن أطلب عقابه بحرمانه الجمال ؛ وهذا أشق عليه من العقاب بإثنتي عشرة مادة وبعشرين وثلاثين

الرئيس : وما هي الطريقة لتنفيذ الحكم بهذا الحرمان ؟

النائب : تأمر المحكمة بالمراقص كلها فتغلق ، وبالمسارح كلها فتقفل ، وبالسينما فتبطل إلا ما لا جمال فيه منها ولا غزل ولا حب ، ويحرم السفور على النساء إلا العجائز والدميمات ، ويمنع نشر صور الجمال في الصحف والكتب ، و . . .

المحامية : قل في كلمة واحدة : يجب إصلاح العالم كله لأصلاح القلب الانساني

***

وجلس النائب ، فالتفت الرئيس إلى المحامية وقال لها : وأما هو ؟

(لها بقية — طنطا)

مصطفى صادق الرافعي

[1] هذه الكلمة لفكتور هيجو

الريف

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

أراني كلما فسد الجو، وكثر تقلبه، وعز الاطمئنان اليه، أميل إلى الخروج إلى الصحراء أو الريف، ولا أطيق القعود في البيت؛ ولست أعرف لهذا المزاج — الشاذ فيما أعتقد — تعليلاً يسكن اليه العقل وتستريح اليه النفس. فأما أنه مزاج شاذ فأعرفه من صياح أهلي حين يرونني أرتدي ثيابي والمطر منهمر والريح تعصف، وأهم بالخروج؛ ولست أراهم يعلون أن يقولوا لي: «يا شيخ، ما هذا الجنون؟ تخرج في هذا المطر!! أما إن هذه لحكاية! اقعد... اقعد... نضرم لك الفحم، ونشوي «أبا فروة» أو نمص القصب ونحمد الله على وقاية الجدران» فأهز رأسي وأقول: «ما أحلى هذا! ولكني لا أطيق المكث هنا على حين لا يينكم، ولست أحب أن أفارقكم لحظة، وإنه ليعز علي ألا تأخذكم عيني في حيثما أكون، ولكن نفسي أمارة بالسوء، أو بالحماقة، أو بما شئتم غير ذلك. فاذا كنتم تحبونني فتعالوا معي... فان الفضاء رحيب، والصحراء واسعة، وهاتوا القصب معكم، وأبا فروة أيضاً... نضع هذا كله في السيارة ونمضي بها... قوموا»

ولكنهم لا يفعلون، فأمضي وحدي وأعود بزكام أو برد، ولكني أعود مستريح النفس هادئ الأعصاب!

وقد كنت أقول لصديق لي منذ بضعة أيام، وهو من أصحاب العقول المثقفة، والنظر البعيد، والغوص الشديد: «يا أخي، لماذا لا يحب المصريون الريف؟»

قال: «وكيف لا يحبونه وهم لا يبرحونه؟»

قلت: «إنما أعني أهل المدن — القاهرة مثلاً — قلما يخطر لهم أن يقضوا أيام البطالة والفراغ من العمل في رحلة إلى الريف»

قال: «وأين تريد أن يذهبوا، وليس في الريف لغير أهله مذهب أو مقام؟»

قلت: «هذا هو سؤالي... لو كان الناس عندنا يحبون الريف ويطيب لهم أن يقضوا فيه كل ما يسعهم أن يختلسوه من الوقت، لتغير حال الريف، وتكيف على مقتضى هذه الرغبة، وصار لغير أهله فيه مذهب ومقام»

قال: «ربما» وانقطع كلامنا في ذلك

ولكني لم أكف عن التفكير فيه، وقد أدرت عيني في شعوب البحر الأبيض فاذا أكثرها كأهل مصر، ليس لهم «غرام» أو «عشق» للريف أو ما يسمى «الطبيعة»، فالروم والطليان والفرنسيون والأسبان، كلهم على شاكلتنا: الحضري منهم يبقى في المدينة ولا ينشد الريف أو يحن اليه؛ والريفي في قريته، يندر أن تنزع نفسه إلى تركها أو التطواف بعيداً عنها. ولا نكران أن هجرة أبناء هذه البلاد إلى الأقطار الأخرى غير قليلة، وفي مصر وحدها منهم عشرات الألوف، أو مئاتها؛ ولكن الهجرة تجيء عن اضطرار لا عن رغبة، والباعث عليها الحاجة، فلا دخل لهذا فيما أقول عنهم من ضعف ولوعهم «بالطبيعة»

وأكثر الأجانب هنا يتخذون مساكنهم في قلب المدينة ولا يبعدون بيوتهم عن أماكن عملهم بعداً يكلفهم مشقة أو يجشمهم عناء ونفقة، ما خلا الانجليز، فان الرجل منهم يكون عمله في شبرا، فيتخذ بيته في أطراف مصر الجديدة أو في الزمالك على النيل، أو في الجيزة على طريق الهرم، ولا يبالي ما يضيع من الوقت في الذهاب والاياب، ولا يحفل ما يكلفه هذا البعد من النفقة. وقلما يقضي يوم بطالة في بيته إلا إذا كان مريضاً. وليس بالنادر أن ترى الواحد منهم يحمل في سيارته خيمة وطعاماً وشراباً يكفيان أياماً، وفراشاً أيضاً للنوم والجلوس، وأدوات للعب، ويذهب بذلك كله إلى السويس مثلاً؛ ولو شاء لأعفى نفسه من هذا العناء كله، فان يعدم فندقاً يبيت فيه، ولكنه يضرب خيمته على ساحل البحر أو في الصحراء ويقضي أياماً ناعماً بالعزلة والوحدة وبما حوله من وجوه الأرض أو الماء، ويروح يمشي بضعة فراسخ كل يوم... وقد يكون وحده، فلا يشعر بوحدة ولا تخطئه سكينة النفس، وقد يكون معه غيره، فلا تراه — فيما يبدو لك — شاعراً بأنس يفتقده في وحدته، فكأن أنسه كله بالمحل لا بالرفقة.. ومن المتع التي يحرص عليها أن يكون له بيت أو كوخ — سيان عنده — في مكان ريفي بعيد يذهب اليه كلما وسعه أن يخلو من مشاغل العمل، فهو في هذا نسيج وحده. ولا يمنعه المطر أو الأعصار أن يخرج في ثياب السهرة ليتمشى ويرقص ويحيي الليل على أسعد حال، ولا

يقعده البرد في بيته كما يقعدنا — حتى في بلاده التي لا أعرف أسخف منها جواً، ولا أبعد عن الاعتدال، فهو هناك كعهدنا به هنا

وأهل الشام على خلاف أهل مصر، فإنهم كثيرو الخروج الى الرياض والبساتين؛ حتى «قهوانهم» أو «مقاهيهم» - كما يريدوننا أن نسميها — قلما تكون إلا في بستان أو كما يقول ابن الرومي: «في» ميادين يخترقن بساتيـ ـن تمس الرؤوس بالأهداب[1].

ولا أعرف كما قلت تعليلاً لهذا الاختلاف في الطباع؛ وأحسب أن اعتدال جو بلادنا على العموم يحمل على الرضى بالموجود ولا يغري بغشيان غيره. ولماذا يشتاق ساكن المدينة الى الريف وليس في المدينة ما يزهده فيها ويدفعه الى الخروج منها والتماس ما هو أخف محملاً، وأكفل براحة النفس وسكينة الأعصاب؟ ومما يساعد على القناعة ويبعث على القعود أن التنوع مفقود؛ فالذي يترك القاهرة لا يتوقع أن يستفيد متعة يخطئها فيها؛ والمناظر في الريف واحدة أو هي متشابهة، فلا جبال هناك ولا غابات ولا أحراج، ولا غير ذلك مما يحرك الخيال فيحرك النفس، ولا اختلاف هناك يجعل للنقلة لذة ترجى. والريف من مصر قريب، فهو معروف غير مجهول. والصحراء حولها من بعض جهاتها فلا موجب للتخيل، ولكن الانجليزي شأنه غير شأننا، فأن جو بلاده دائم التقلب، وهو مع تقلبه السريع سخيف غير مأمون؛ وقد يكون هذا مما يدفع الانجليزي الى اشتياق الريف ويغريه بتصور سحره ويبعثه على التماسه ونشدانه حتى ولو تكررت خيبة أمله فيه

وأمم البحر الأبيض شبيهة بنا من حيث المزاج، وجوها أقرب الى الاعتدال من جو الشمال؛ ومن هنا فيما أظن مشاكلتها لنا في هذه الطبيعة، ولست أرى وجوه الاختلاف تؤثر في هذا

ولا نكران أننا تغيرنا. فكثير بيننا الذين يطلبون الريف أو الصحراء ويؤثرونهما على المدن، ولكننا نفعل ذلك على سبيل التقليد ومن قبيل المحاكاة وبفضل التثقيف الحديث والاتصال الوثيق بالغرب لا بدافع من الفطرة وحافز من الطبيعة. ومثلنا في هذا أمم البحر الأبيض فقد ذهبت تقلد أمم الشمال كالانجليز والإسكندناويين والألمان، وراحت تتكلف حب الطبيعة حتى لصارت تبدو كأن هذا فيها طباع، وما هو بذاك

ابراهيم عبد القادر المازني

(١) البيت في الأصل «من ميادين الخ»

الخليفة العزيز بالله

وزوجه النصرانية وأصهاره البطاركة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

ليس غريباً أن تقرأ في التاريخ الاسلامي أن خليفة من الخلفاء قد ولد من أم نصرانية أو أنه قد تزوج من نصرانية وله بين الأمراء النصارى أصهار ولأولاده منهم أقارب؛ ولكن ربما يبدو غريباً أن يقترن خليفة مسلم بنصرانية تنتمي إلى أسرة من الأحبار، وأن يكون له بين أحبار الكنيسة أصهار، ولولده منهم أقارب وخؤولة: تلك هي حالة العزيز بالله ثاني الخلفاء الفاطميين بمصر، ولد المعز لدين الله، ووالد الحاكم بأمر الله

كانت الخلافة الفاطمية منذ قيامها بمصر تتشح بصبغتها الذهبية العميقة؛ بيد أنها رأت أن تتبع نحو الذميين من النصارى واليهود سياسة التسامح الحر؛ وظهر أثر هذا التسامح جلياً في علائق الذميين بالدولة، وفي ارتفاعهم إلى أرقى مناصبها؛ بل نرى في خلافة المعز لدين الله وولده العزيز ثبتاً حافلاً من الوزراء والكتاب النصارى واليهود يحتلون أرفع المناصب في البلاط وفي الحكومة؛ وكان أول وزراء الدولة الفاطمية وأعظمهم يهودياً اعتنق الاسلام، وهو الوزير يعقوب بن كلس؛ وفي عصر العزيز كان مدبر الدولة وكبير الوزراء نصراني هو عيسى بن نسطورس؛ وكان متولي أعمال الشام يهودياً يدعى منشا؛ وفي عهد المعز والعزيز أنشئت كنائس وأديار كثيرة؛ وبلغ نفوذ النصارى واليهود ذروته في عصر العزيز حيث استولى الوزراء والكتاب الذميون على معظم أعمال الدولة، واستأثروا بمعظم السلطات والنفوذ، وقد كان لهذه السياسة المتطرفة في التسامح والعطف أثر سيء في المجتمع المصري؛ وتنقل الرواية إلينا في ذلك قصة خلاصتها أن العزيز بالله رأى ذات يوم في طريق الركب الخلافي امرأة تمد بيدها رقعة كأنها ظلامة. فتناولها، فاذا بالمرأة هيكل من الجريد قد ألبس إزاراً، وإذا في الرقعة ما يأتي: «بالذي أعز اليهود بمنشا، والنصارى بعيسى

ابن نسطورس ، وأذل المسلمين بك إلا ما كشفت ظلامتي ... »
فأدرك العزيز ما انتهت إليه نفسية الشعب من تحكم الأقلية الذمية في مناصب الدولة ومرافق الأمة ؛ وسواء صحت هذه الرواية أم كانت فقط أسطورة ذات مغزى ، فان العزيز لم يلبث أن أدرك خطر هذه السياسة على سلطان الخلافة وهيبة إمامتها الذهبية ، فانقلب إلى مطاردة الذميين ، وقبض على الوزراء والكتاب من النصارى واليهود ؛ ولكنه عاد فأفرج عنهم بعد أن اتخذ بعض الضمانات التي تكفل الحد من طغيانهم وإسرافهم في سياسة الاصطفاء

وتجمع الروايات المعاصرة على أن جنوح العزيز إلى هذا الاسراف في التسامح نحو الذميين يرجع من وجوه كثيرة إلى نفوذ زوجه أو سريته النصرانية ، وابنته منها الأميرة ست الملك ؛ وكانت فتاة عاقلة حازمة يحبها والدها العزيز ويستمع إلى نصحها في كثير من الأمور ؛ وأخيراً إلى نفوذ صهريه أخوى زوجه ، وهما حبران كبيران تبوآ في عصر العزيز أرفع المناصب الكنسية

* * *

وهذه القصة : أعنى قصة زواج العزيز من سيدة نصرانية ، قصة يمازجها شيء من الغموض والاضطراب ، وتنفرد بتفاصيلها الرواية النصرانية ، ولا تكاد تشير اليها الرواية الاسلامية ؛ وتقول لنا الرواية إن هذه السيدة زوج العزيز أو سريته ، كانت جارية رومية نصرانية من طائفة الملكية ، وكان لها أيام العزيز نفوذ كبير في الدولة ؛ وكان لها أخوان هما ارسانيوس أو (أرساني) وأريسطيس ، رفعهما العزيز بتدخله ونفوذه إلى ذرى المناصب الكنسية ، فعين أريسطيس بطريركا للملكية ببيت المقدس (سنة ٣٧٥ هـ) وعين أرسانيوس في نفس العام مطراناً للقاهرة ، ثم عين بعد ذلك بطريركا للملكية بالاسكندرية (سنة ٣٩٠ هـ)[1] وكان لهذين الحبرين بلاريب نفوذهما في بلاط يرتبط معهما بأواصر المصاهرة ، وفيه أختهما « زوج الخليفة » وابنتها منها الأميرة العاقلة المحبوبة ست الملك ؛ وكانت عند وفاة والدها العزيز في نحو السادسة والعشرين من عمرها ؛ وقد حملت رسالته في التسامح بعد ذلك في فرص كثيرة ، ولا سيما بعد مصرع أخيها الحاكم بأمر الله سنة ٤١١ هـ

وتذهب الرواية الكنسية إلى أبعد من ذلك ، فتقول لنا إن هذه السيدة النصرانية هي أم الخليفة الحاكم بأمر الله ولد العزيز ، وتنفرد بهذا القول الرواية القبطية المعاصرة ، وتقول لنا بالنص ما يأتي : « وكان الملك العزيز بالله بن المعز لدين الله قد رزق ولداً من سرية له رومية وجلس في الملك من بعده ، ولقب بالحاكم بأمر الله ؛ وكان للسرية المذكورة التي هي أم الحاكم أخ اسمه أرساني فجملته بمنابتها بطرك الملكية ... »[1] ولكن الرواية النصرانية تنقل الينا في غير موطن أن هذه السيدة هي أم ست الملك ابنة العزيز دون الاشارة إلى أنها أم الحاكم ؛ فيقول لنا يحيى الأنطاكي مثلاً ، وهو مؤرخ معاصر تقريباً : « وفي شهر رمضان سنة خمس وسبعين وثلثمائة صير اريستس خال السيدة ابنة العزيز بالله بطركا على بيت القدس ، أقام عشرين سنة ومات بالقسطنطينية ، وصير أخوه أرسانيوس أيضاً مطرانا على القاهرة ومصر »[2] . ويقول لنا المكين بن العميد في صراحة ووضوح : « إن العزيز بالله صاحب مصر تزوج امرأة نصرانية ملكية ورزق منها بنتا ؛ وكان للمرأة أخوان أحدهما أسمه أرميس (أريستس) صيره بطركا على بيت القدس ، والآخر أرسانيس صيره بطركا للملكية على القاهرة ومصر ؛ وكان لهما من العزيز جانب لأنهما أخولة ابنته »[3] ، هذا بينما تلزم الرواية الاسلامية الصمت إزاء هذه المسألة كلها ، ولا تشير الى أم الحاكم إلا بأنها « الست العزيزية »[4] . بل نرى المقريزي يشير الى ارسانيوس وولايته لمنصب البطريركية دون الاشارة الى أنه صهر العزيز أو خال ست الملك[5] . ومما يبعث الى التأمل أنه إذا كانت هذه السيدة النصرانية هي أم ست الملك ، فان العزيز يكون قد تزوجها أو تسراها وهو ولى عهد بالمغرب قبل سنة ٣٥٩ هـ — وهو تاريخ مولد ابنته — ففي أي ظروف حصل

(١) راجع المؤلف الكنسي (القبطي) المسمى « بسير البيعة المقدسة » والملحق بكتاب ساويرس بن المقفع (سير الآباء البطاركة) وقد اقتنت دار الكتب أخيراً منه نسخة فتوغرافية كاملة (رقم ٦٤٣٤ ح) وتاريخ الأنطاكي ص ١٦٤ و١٦٥ و١٨٥ ؛ والمكين بن العميد ص ٢٤٧

(١) المخطوط الكنسي المشار اليه
(٢) الانطاكي ص ١٦٤
(٣) ابن العميد ص ٢٤٧
(٤) راجع خطط المقريزي (الطبعة الأهلية) ج ٢ ص ٢٠٧
(٥) الخطط ج ٤ ص ٣٩٨

هذا الزواج أو التسرى ؟ وفى أى ظروف وقعت هذه الجارية الرومية المصرية فى يد البلاط الفاطمى بالمغرب ؟ هذا ما لا توضحه لنا الرواية ، ومن جهة أخرى فان الرواية الكنسية (القبطية) المعاصرة هى التى تنفرد بالقول بأن هذه السيدة هى أيضا أم الحاكم ، هذا بينما تكرر الرواية النصرانية المعاصرة والمتأخرة أنها هى أم ست الملك فقط ؛ ولو كانت نفس الأم هى أم الحاكم ، وهو الخليفة وشخصيته أهم من شخصية أخته ، لما ترددت الرواية فى ذكر هذه الحقيقة . وقد ولد الحاكم بعد مولد أخته بستة عشر عاما (سنة ٣٧٥ هـ) ولم يرزق العزيز خلال هذه الفترة إلا بابن يدعى محمداً وقد توفى طفلاً [1] ؛ وفى ذلك أيضا ما يبعث الى التأمل

أفلا نستطيع على ضوء هذه الملاحظات أن نرتاب فى هذا القول الذى تنفرد به الرواية الكنسية ، وأن نعتقد أن هذه السيدة النصرانية كانت أما لست الملك فقط ، وان « السيدة العزيزية » التى تشير اليها الرواية الاسلامية بأنها أم الحاكم هى سيدة أخرى ، وأنها هى الزوجة الشرعية ؟ هذا ما نميل الى الأخذ به ، خصوصا إذا ذكرنا موقف ست الملك من النصارى ، وهو موقف عطف دائما وموقف أخيها الحاكم وهو موقف اضطهاد وقسوة لا مثيل لها ، وصمت الرواية الاسلامية فى هذا الموطن لا يمكن أن يحمل على أنه صمت تحفظ وإغضاء ، لأن الرواية الاسلامية تقدم الينا ثبتا حافلا من الخلفاء الذين ولدوا من أمهات من النصارى ، وفى مقدمتهم عبد الرحمن الناصر أعظم خلفاء الأندلس

***

وتقدم إلينا الرواية النصرانية بعض تفاصيل عن حياة هذين الحبرين الكبيرين أريسطيس وإرسانيوس صهرى الخليفة العزيز بالله ؛ فتقول لنا إن الطائفة الملكية اشتد ساعدها فى عصر العزيز من جراء هذه المصاهرة الملوكية ، ووضعت يدها على بعض كنائس اليعاقبة ؛ وإن البلاط الفاطمى فى أوائل عهد الحاكم بأمر الله ، وفى عهد مدبر دولته برجوان الصقلى ، انتدب أريسطيس بطريرك بيت المقدس ليكون سفير الحاكم إلى قيصر قسطنطينية باسيل الثانى فى سنة ٣٩٠ هـ (سنة ١٠٠٠ م) ، ولكى يعمل على عقد الهدنة والصداقة بين مصر والدولة البيزنطية بعد أن استطالت الحرب بينهما فى الشأم منذ عهد المعز لدين الله ؛ فسار أريسطيس إلى قسطنطينية مع رسل القيصر ، وقام بالمهمة ، وعقدت بين مصر والدولة البيزنطية معاهدة سلم وصداقة لمدة عشر سنين ، وأقام أريسطيس فى عاصمة بيزنطية أربعة أعوام حتى توفى فى سنة ٣٩٤ هـ [1]

أما ارسانيوس فأنه لبث بطريركا للملكية زهاء عشر سنين ؛ وكان فى أواخر أيامه قد اعتزل الحياة ، فى دير القصير الذى شيد فى بعض ربى المقطم ، وعكف على النسك والتعبد ؛ وفى سنة ٤٠٠ هـ (١٠١٠ م) حينما اشتدت موجة الاضطهاد الدينى التى أثارها الحاكم بقوانينه الصارمة ضد النصارى واليهود ، أمر الحاكم بهدم هذا الدير الشهير ضمن ما أمر بهدمه من البيع والأديار الأخرى ، فهاجمته الغوغاء ، وقوضت أبنيته ، ونهبت مقتنياته وآنيته ، وأخرج منه أرسانيوس مع باقى الرهبان الساكنين فيه ؛ وقضى أرسانيوس أشهراً أخرى فى بعض البيع حزيناً على ما أصاب قومه من الخطوب ؛ وفى ذات ليلة من شهر ذى القعدة سنة ٤٠٠ هـ نفذ بعضهم إلى مكانه المتواضع وقتلوه سراً ، واحتوت ابنة أخته ست الملك على ما كان له من المال والثياب والذخائر المقدسة [2] . ولم تحدثنا الرواية عمن قتله أو من أمر بقتله ، بيد أن فى هذا الحادث نفسه ما يبعث إلى الريب فى قرابة الحاكم بأمر الله بالحبر المقتول

تلك هى قصة زوج العزيز أو سريته النصرانية وقصة أخويها الحبرين البطركين ؛ وهى مصاهرة طريفة فريدة فى نوعها ، ولا تذكر لنا الرواية مثلاً آخر يرتبط فيه خليفة مسلم مع بعض خلفاء النصرانية برباط المصاهرة ، وإذا استبعدنا من الرواية ما يتعلق بالحاكم ونسبته لهذه الأم النصرانية ، فانه ليس ثمة ما يحمل على الشك فى جوهرها وتفاصيلها . بيد أن الرواية لا تحدثنا عن اسم هذه السيدة الرومية النصرانية التى سطعت فى قصر من أعظم القصور الاسلامية ، وفى ظل خلافة تطبعها الصبغة الذهبية بأعمق طابع ، ولا تحدثنا عن مصيرها

محمد عبد الله عنان

(١) النويرى — نهاية الأرب — النسخة الفوتوغرافية بدار الكتب ج ٢٦ ص ٦١

(١) الانطاكى ص ١٨٣ و ١٨٤ وابن الأثير ج ٩ ص ٤٢ ، والمقريزى ج ٤ ص ٦٨ و ٦٩

(٢) الانطاكى ص ١٩٧ و ٢٣٧

صفحة من طفولتي

ترتبط بصفحة من حاضري

للأستاذ خليل هنداوى

« كان لى أخت فقدتها صغيرة أيام نكبة الحرب العظمى بالكوليرا . وما زال اسمها يطوى أيامى حتى استقر على صغيرة لى حلت مكان الأولى ؛ فكانت الأخت والبت ؛ وكان لهما اسمها ومقامها »

-- ---- -

يالشد ابتهاجى حين أراها تخطر أمامى ووجهها يتدفق نوراً بالصفاء، وشعرها الأشقر يتموج كالشعلة !

تملأ وحدها مكاناً وعلأ أخواها مكاناً ،

وتفعم وحدتى أنساً وقلبى محبة ؛

فلا ألمحها إلا ضاحكة ، ولا أسمعها إلا مهللة !. . .

كأنها ضحكة انطلقت بها الحياة ،

أو بسمة انجلت عن معنى الرضا .

أناديها باسمها ، فيهزنى اسمها لأنه وليد ذكرى أليمة ترتبط بها ذكريات . أراها فأرى فيها صاحبة هـذا الاسم أيام كانت تحيا بجانبي وتصـل طفولتى بطفولتها ، أيام كانت تتعانق أحلامنا وتتلاقى آمالنا . . .

أرى فيها صاحبة هـذا الاسم طفلة كما كانت باللامح التى كانت . ولـكن العين التى أرى بها قد اختلفت وزالت عنها معانى الطفولة ! ولـكنى أراها وألمسها وأعانقها فأرى أن سلسلة هذا الزمان الطويل لم تكن خلال ذلك منقطعة ، لأنها استطاعت أن تثبت لى اتصال الموت بالحياة ، واستطاعت أن تعيد لى الميت باسمه وروحه !

أراها تخطر أمامى واثبة أو متهادية ، ويراها من مى بعينه كما أراها ، ولـكن عين الذكرى تمتد إلى أبعد من هـذا الحد ، فتراها متصلة بذكريات بعيدة الأمد ، تحملها كما تحمل عيناها نور غدها . تراها تحمل إلى شيئاً من طفولتى المطوية ، أناديها باسمها فأرى « يسرى » الأولى التى كانت تخاف كثيراً من الدخان كأنما صفاء روحها لا يحتمل أن يرى السواد يغشى السماء الزرقاء والتى كانت لا تجـد وسيلة إلى إهداء سلامها إلى أبينا الجندى إلا القمر !

كانت فى الخامس من ربيعها يوم زحف الهواء الأصفر بجنوده وويلاته ، يغشى المدينة فيأخذ منها جنوداً ، ويدخل البيت فلا يرضى إلا بكبشين أو ثلاثة ! أو بكل ما تنفس بحياة . كنا نسمع بصفته فنخشى ريحه ، ونرتاع من صوته ونحذر أن نلقاه فى مكان ؛ ولـكنه كان يمشى ولا يرى ، ويدخل ولا يحسه أحد . فأنشب مخالبه فى أخى الصغير . فـكانت « يسرى » تخشى الدنو منه ، ولـكنها كانت تسمع من الجارات يقلن لأمه : « إنه سليم لأن يديه لم يزرقا .. خاف من زرقة اليدين فهى علامة الموت » وما مر على الصغير ساعات معدودة حتى سقطت « يسرى » التى كانت تحذر وتبالغ فى الحذر على صغرها ، لأنها تفهم الموت شيئاً مروعا . وكانت أمنا تجاهد فينا لا تخشى أن ينشب المرض مخالبه فيها ، وما غلبته إلا بقوة اعتقادها وإيمانها . فحنت على سرير « يسرى » وقد رأت أخاها نجا بمعجزة ... ولـكن يسرى تتأمل فى يديها فترى أن الزرقة أحاطت بهما فتقول لأمها : « ها إننى أموت ، لأن يدى مزرقتان .. » فتوارى الأم وجهها لتذرف دمعتها بعيدة من عينيها ! « إننى لن أشفى يا أماه لأننى لا أرى فى جسدى إلا الزرقة . » هاتى لى ثياب العيد — وكان العيد بعد أسبوع — من خزانتى ، أريد أن ألبسها كلها . هاتى ردائى الأحمر الذى أرسله إلى والدى من القدس . » لبست ثيابها واغتبطت برغم الألم، ثم أخذها ذهول عميق عقبه سكرة الموت ، ولبثت حتى حان وقت وقوعها فى الداء ، فأسلمت روحها ولما يتنفس الفجر ! فبكت أمنا بهدوء يشقه بعض شهقات ، تحاول ألا نسمع وكنا نياماً ، وهى تخشى على أخى النكسة ، حتى طلع النهار — وأوصت حفار القبور

تتراءى لى هذه الصفحة الأليمة فأراها واضحة السطور على رغم القدم ، وأذكر أننى نهضت فوجدتها كتلة زرقاء هامدة لا تنبض بالحياة ، فروعنى ذلك ولـكنى لا أذكر كيف بكيت ؟ فمشينا إلى المقبرة وهى على يدى الحفار لا يمشى خلفها إلا ثلاثة : أمها وجدتها وأنا ، أعدو خلفهما حافى القدمين ، ولـكنى أرى من وراء ظهر الحفار رأسها الملتف وقدميها الملتفتين . وكيف يمشى

أحد ممنا والناس لا هون بموتام . فوجدنا على باب المقبرة ولداً لا أهل له يوارونه التراب وكان اللحد ضيقاً ، فطووا قدميه بالعنف حتى يتسع اللحد له ! فشينا حتى أدركنا لحدها وكان واسعاً ، فقالت أمها :

إنه كثير السعة وهي صغيرة .

وسدوها اللحد وهالوا على وجهها التراب . وكنت أظن أن وجهها توارى الى الأبد . فعدنا وأخذ النسوة يعزين والدتي قائلات :

— اشكرى الله على نجاة الصبي بهذه الفدية

ولعل هذه التعزية كانت مما تخفف عن الأم لوعتها ولكن مكان الولد لا يسد

« لكل مكان لا يسد اختلاله »

بلى ظننت أن وجه يسرى قد توارى الى الابد

ولكن هاهي ذى الحياة تمخض مرة جديدة عن « يسراى »

تميدها إلى ابنة لا أختاً ؛ تعيدها قطعة من كبدى

لا أحفظ للاولى صورة ، ولا أذكر من ملامحها شيئاً ، ولكن جدتك — يايسراى — تقول لى : إنها عادت بملامحها ونضرة وجهها وكأنها هى . وإنها لا ترى فيك إلا ابنتها . . .

فأهلاً بك أختاً وبنتا !

وأهلاً بك ياشملة حياتى !

خليل هنداوى

في الأدب المقارن

الأدب العامي

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

بداوة الأمة هي عهد طفولتها : فيها يكون أدبها ساذجا على صدق عاطفته ، ضئيل الحظ من الفكر المستقيم على قوة شعوره ؛ ويشبه دخولُ الأمة طور الحضارة والثقافة بلوغ الناشىء الحلم : إذ تنضج أفكارها وينتبه وعيها بما يحيط بها من مظاهر الكون ويزداد تأملها فيها واتصالها بها ؛ ومن ثم يزداد أثر الفكر السليم والنظر الثاقب في آدابها بجانب الشعور الحار والعاطفة المتدفقة ؛ على أنه لما كانت العاطفة عادة تقتصر على فريق من أبناء الأمة دون فريق ، فأنه يصير للأمة المتحضرة أدبان : أدب راق للخاصة وأدب عامي للدهماء ؛ ولاريب أنه كلما ازداد انتشار التعليم في الأمة كان ذلك كسبا للأدب الراقي ؛ ولم توجد بعد الأمة التي يتوحد فيها الأدبان

وتزداد الهوة بين الأدبين تدريجيا بارتقاء الحضارة وازدهار الثقافة وترفُّه المجتمع : فتــدخل الأدب الراقي النزعة العلمية ، وترتقي لغته وتتسع جوانبها ، وتتهـذب لهجته وترق حاشيته ، ويزداد تراثه من جيل الى جيل لاستعانته بالكتابة ؛ أما الأدب العامي فيتداول بالرواية ، ولذا يظل في تجدد وتحول وزيادة ونقص ؛ تلونه المجتمعات المتعاقبة بألوانها ، وتترك فيه العصور المتوالية مياسمها ، ويظل ساذجا كأدب البداوة الأولى : يهتف بالغرائز والعواطف البسيطة ، ويتحدث بأحلام النفس الانسانية في السعادة المطلقة وميلها الدائب الى الجمال والقوة والحق والفضيـلة ، ويظل على ما يشوبه من خرافة وغرارة هو الثقافة الوحيدة التي تتمتع بها الطبقة العاملة

وقد كان للعرب على عهد حضارتهم أدبان كذلك : ساعد على قيام الأدب الراقي اعتـداد أشراف العرب بأدبهم القديم ، وتمسكهم بلغتهم ، وانتشار الثقافة والعلوم التي وَرَدَ مناهلها فريق من الأمة دون فريق ؛ وساعد على ظهور الأدب العامي اختلاط العرب بالأمم وفساد لغة الكلام . وصار للانجليز كذلك أدبان منذ تحضروا وتثقفوا وامتزجت اللغة الانجلوسكسونية باللاتينية ، واستخدمت في العلوم والآداب ، وتوطدت قواعدها واتسعت جوانبها وأصبحت لغة مجتمع راق . فانفصال الأدبين الخاص والعامي أحدهما عن الآخر جاء مختلف الكيفية في الأمتين : ظهر الأدب العامي في العربية بفساد اللغة الفصحى وانحطاطها ، وظهر الأدب الفصيح في الانجليزية بارتقاء اللغة العامية وارتفاعها

تختلف الأمتان في هذا ، وتختلفان أيضاً في عـلاقة الأدبين الفصيح والعامي في الأزمنة التالية لانفصالها : ففي العربية كانت الهوة بينهما سحيقة والاتصال يكاد يكون معدوما ، لشدة ترفع الأدب الفصيح عن صاحبه ، بل تجاهله لوجوده ؛ أما في الانجليزية فكانت المسافة بينهما أقرب ، والاتصال أوثق ؛ وظل للأدب العامي دائما للمثقفين اعتبار ، ورحب به الأدب الفصيح مراراً وخالطه بنفسه ، واقتبس أساليبه وصوره ، واصطنع مواضيعه ونغماته ، فأفاد بذلك فائدة كبرى

فالأدبان الفصيح والعامي وإن اختلفا تهذُّباً لغة واستقامةَ تفكير وعمق نظرة وتنوُّع أشكال ، يستقيان من معين واحد ، هو النفس الانسانيـة ، بميولها وأحلامها وآمالها . وإذا امتاز أولهما بصفات هي وليدة الحضارة العالية والمجتمع الراقي والعلم المنظم ، فأن الثاني يمتاز بصفات الصدق والبساطة والقرب من الطبيعة التي هي مرجع كل فن ؛ والأدب الفصيح عُرضة من آن الى آن لغلبة اللفظ فيه على المعنى ورجاحة الزخرف على الجوهر ، وظهور التأنق والتحذلق على الشعور الصحيح والطبع المرسل ، فهو بحاجة دائما الى العودة الى الطبيعة ، وخير سبيل له اليها الأدب العامي ، إذا نقاه من أوشابه واستخلص أجود عناصره

ظل للأدب العامي في انجلترا دائماً اعتبار ، وظل كبار الأدباء مهما سمت ثقافتهم واتسعت نظرتهم إلى الحياة على علم به : فشكسبير وسبنسر وملتون طالما استقوا من معينه قصصاً سائغاً ضمنوه آثارهم ، والتقطوا من كنوزه ألفاظاً معبرة ألحقوها باللغة الشعرية الراقية فصارت من بنيتها ؛ وأتيح الأغاني الشعبية من حين إلى حين أفراد من خاصة المثقفين عنوا بجمع ما وصـل إلى عهودهم منها ، فكانت تلك المجموعات نصب أعين الشعراء ،

يتخذون منها مواضيع لأشعارهم أو يحاكونها في الأسلوب والنظام

وكان لتلك الأغاني فضل عظيم في بعث النهضة الرومانسية في أوائل القرن التاسع عشر ، بعد أن اختنق الشعر في جو المدينة وأثقلته قيود الألفاظ والتقاليد ؛ فقد انصرف جمهور المتأدبين عن ذلك الضرب المتكلف من النظم إلى مجموعات الأشعار الشعبية التي توفر على جمعها ونشرها إذ ذاك نفر من الأدباء ، وضمنوها ما وصل اليهم من مقطوعات منذ عهد القرون الوسطى فنازلاً ، بعضها يدور حول السحر والطلاسم ، وبعضها من نسج الخرافة ، وبعضها مزيج من الخرافة والتاريخ ، وكلها مملوءة بحب الطبيعة ووصف مناظرها ؛ وكان لاسكتلندا وأدبائها فضل كبير في تلك الحركة ؛ فقد أخذ الكثير من الأغاني من أدبها العامي ، وقام أدباؤها بالجانب الأكبر من ذلك الجمع والنشر ، وقاموا بالرحلات بين أريافها وحزونها ينقلون عن الزراع والرعاة أغانيهم وأسمارهم

ومن الاسكتلنديين أيضاً كان الرعيل الأول من الشعراء الذين نظموا أشعارهم في التغني بالطبيعة وحياة البسطاء من الفلاحين والرعاة وحياة الفروسية الغابرة ؛ ومن أولئك ألان رمزي وروبرت برنز ووالترسكوت . وقد كان ثاني هؤلاء فلاحاً قحاً ، فعبر في شعره عن حياة فلاحي اسكتلندا وتقاليدهم وأفراحهم وأتراحهم ؛ أما الثالث فقد كان على نقيض ذلك أرستقراطياً سليل أسرة تمتُّ إلى فرسان العصور الوسطى ، فاحتفى شديد الاحتفاء بالأغاني الراجعة إلى تلك العصور ، وازداد شغفاً بالأغاني الشعبية حين اطلع على ما ترجم منها عن الألمانية ، فطاف في اسكتلندا طلباً للاستزادة ، وجعل محصوله من كل ذلك مادة لأشعاره وقصصه التي رفعته في زمنه وبعده إلى مصاف كبار الأدباء ، وأكسبته شهرة عظيمة في القارة الأوربية

وفي هذا الجو المملوء بحب الطبيعة والبساطة والشعور الصادق ، نشأ وردزورث وكولردج ثم شلي وكيتس ، وهذه الروح الخافقة المأخوذة عن الأغاني الشعبية هي التي أوحت اليهم أشعارهم البديعة وجعلتهم ينهجون بالشعر نهجهم الطريف . وكان وردزورث أحرص الجميع على اختيار المواضيع البسيطة لقصيده ، واختيار أشخاصه من بين الريفيين والدهماء ، واستعمال ألفاظهم بذاتها في شعره ؛ وقد جمع باكورة ما نظمه على ذلك النمط في كتابه « الأغاني الشعرية » الذي أخرجه بالاشتراك مع كولردج ، وصدَّره بمقدمة شرح فيها المذهب الجديد المستمدة روحه من روح الأغاني والأقاصيص العامية

ووجد الأدب العامي لنفسه مسلكاً جديداً إلى الأدب الفصيح ، حين تقدمت القصة وتناولت الحياة الاجتماعية بالوصف الدقيق ، وأولعت بتصوير شتى الشخصيات من الطبقات الفقيرة والأوساط الريفية ، وتناولت معاملات تلك الطبقات والأوساط ومحاوراتها وعقلياتها بالعرض والتحليل ، وتوخت الأمانة للواقع بنقل ألفاظ القوم ومحاكاة أساليبهم في الخطاب ؛ وفي روايات هاردي تصوير لكل ذلك دقيق لا يبارى دقة ونفاذ بصيرة ؛ وهكذا كسب الأدب الفصيح كسباً جديداً من الأدب العامي

أما في العربية فكان نصيب الأدب العامي دائماً الزراية والتجاهل ؛ وكان أول ما يأخذ به المتأدب نفسه التخلص من شوائب العامية لفظاً ومعنى وأسلوباً ، وشر ما يوصم به لفظ أنه عامي ، أو معنى أنه سوقي ؛ وأبعد ما يفكر فيه الأديب أن يخالط العامة أو الزراع ليأخذ عنهم ما يتحدثون فيه وما يتأدبون به ، من قصص ممزوج بالخرافة ، وغناء متسم بالسذاجة ، أو يطوف في الأرض طلباً لذلك كما طاف سكوت وأمثاله في شعاب اسكتلندا ؛ إنما كان أدباء العربية يشدون الرحال إلى البادية طلباً للفصيح من الكلام والأصيل من الأساليب ، والمأثور من أقوال العرب يُتَّخذُ حجة في المناظرة ، وأنموذجاً في الانشاء ، وقد عيب على بشار قوله في جارية :

ربابة ربة البيت تصب الخل في الزيت
لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

لأنه تناول موضوعا بسيطاً عامياً وتحدث في سذاجة لا تليق بالشعر الفصيح . وإنما كان الأدب العربي فيما ارتضى له أصحابه ، واستن له نقاده ، أدب بلاط يحفل بذكر الملوك لا السوقة ، ونديم أرستقراط يشارك في حياة العلية ويشمخ عمن دونهم ، ولا يرى في حياة الدهماء وحياً لقول ، ولا موضوعا لتفكير ، فلم يكن من شعراء العربية من يحتفي بوصف أشخاص قريته كما فعل جولد سميث في « القرية المهجورة » وصفاً كله حب وحرارة ، ولا من رثى أبناء القرية في مراقدهم الأخيرة ، وهم الذين أفنوا العمر كداً دون أن تسمع الدنيا بأسمائهم أو يصعدوا إلى المجد على أكتاف غيرهم أو دمائهم ، كما فعل جراي في مرثيته

وقد أُثر عن بعض شعراء العربية كأبي نواس وأبي تمام ، أنهم كانوا يتلقفون أحياناً أقوال العامة فيصوغونها شعراً ، كالذي رواه ابن الأثير من أن أبا تمام وصل من بعض قصيده إلى قوله : « وأحسنُ من نَور يفتّقه الصَّبا » وأُرتج عليه ، حتى مر بالباب سائل يقول : « من بياض عطايا كم في سواد مطالبنا » ، فأكمل أبو تمام البيت : « بياض العطايا في سواد المطالب » ، على أن ذلك كان نادراً ضئيل الأثر . أما الاحتفال للأدب العامي ومحاولة الانتفاع به ، والرغبة في جمعه ، والعمل على تلقيح الأدب الفصيح بعناصر الحياة فيه ، فذلك كان بعيداً جداً عن أذهان أدباء العربية

لم يستفد الأدب العربي الفصيح من شقيقه العامي شيئاً ، مع أنه كان أحوج كثيراً من الأدب الأنجليزي إلى تلك الاستفادة ، بل لعل رفضه الاستفادة من أدب العامة كان من أسباب اضمحلاله وسقوطه : فقد أبى الأدب العربي إلا اعتزال أدب العامة بنفس الاصرار والشموخ اللذين اعتزل بهما آداب الأمم الأخرى ، وتعالى عليه تعاليه عليها ؛ ورأى المسعودي وابن النديم نسَخاً من قصص ألف ليلة وليلة ، التي بدأت تتجمع حولها آداب العامة فاستخفا بها وحقراها ، ولم يخطر لهما أن بها مادة لعبقرية الأديب أو لقاحا للأدب ، سخرا من الأقاصيص الشعبية في القرن الرابع الذي كانت الصنعة اللفظية فيه قد ركبت الأدب ، والتقاليد قد كبلت المنظوم والمنثور ، ولو التفت الأدباء إلى ذلك الأدب الشعبي الناشيء واستوحوه جديداً من القول ، لربما شهد الأدب العربي نهضة جديدة وإحياء كالذي شهده الأدب الانجليزي في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن الذي يليه

والحق أن الأدب العربي العامي قد احتوى من المواضيع الأدبية والأشكال الفنية ما أعوز الأدب الفصيح ، بل إنه احتوى من ذلك على ما هو أشبه بالأدب وأنهض بوظيفته وأقرب إلى التعبير عن الشعور . والحق أن الأدب الفصيح ليس بالترجمان الصادق المستقل للمجتمع العربي ، ولا هو بالسجل الكامل لنتاج الذهن العربي وخلاصة النفس العربية في تعاقب العصور ، والأدب العامي أصدق وأوفى منه في كل ذلك

فالأدب العامي حافل بآثار الخيال ؛ مملوء برائع القصص ، وهو ما يعوز الأدب العربي الفصيح منثوره ومنظومه ؛ فالقصة الاجتماعية ضرب من الأدب لم يألفه أدباء العربية ، والخيال الذي أولع به الشعراء واشتهر به البحتري خيال كاذب ، إنما هو وهم ومغالطات صبيانية : من توهم أطياف أحبة لا وجود لهم ، واختراع مواقف للوداع لا طائل تحتها ؛ ولو فطن الأدباء لأخذوا بيد القصة فرفعوها من عاميتها إلى لغة الفكر المثقف والوضع المهذب ، فأضافوا بذلك إلى الأدب فناً يجد فيه متحولاً عن فنونه العتيقة

والأدب العامي حافل بضروب الأوزان والقوافي الشعرية المتداخلة ، وهي الأشكال التي رفضها الأدب الفصيح وظل متمسكا دونها بالقصيدة الموحدة القافية ، وأبعدها عن خطيرته فالجأت إلى حظيرة الأدب العامي ؛ على أن تلك الوشحات التي راجت في الزجل دون الشعر أدل على الرقي الأدبي وأقدر على التعبير عن شتى المقاصد من القافية الموحدة ، فتلك فائدة أخرى ما كان أحرى الأدب الفصيح أن يستفيدها من الأدب العامي ، ولكن الأرجح أن ذيوع تلك التوشيحات في أدب العامة زاد الأدباء صدوداً عنها فيما يحتفون به من أغراض القول

وأسباب هذا الجفاء الذي استحكم بين الأدبين الفصيح والعامي في العربية هي : روح المحافظة التي سادت الأدب الفصيح ، والتبجيل المظلم لآثار الأقدمين ، والاعتداد الشديد بلغة الضاد التي هي لغة الكتاب المنزل والدولة ؛ وهي عوامل نماها وقواها اعتزاز العرب في صدر الاسلام بقوميتهم وتعاليهم عن عداهم من الشعوب ، وحرص أبناء تلك الشعوب على التشبه بهم بحذق لغتهم وتقليد أساليبهم ؛ كل ذلك جعل للفظ عند الأدباء التقدم على المعنى ، فكل قول عدم اللفظ الفصيح هو عامي سوقي حقير لا قيمة له ، وجعل لأساليب العرب الأقدمين مكانة رفيعة ، فكل قول شذ عنها نابٍ مستهجن ، وكل احتذاء لها مهما أرهقه التكلف وخرج به التقليد عن طور المعقول والمحسوس ، فهو مقبول معدود في الأدب ؛ هذا إلى ماتقدمت الاشارة اليه من تعلق الأدباء بأهداب الملكية والعلية ابتغاء النوال ، مما نأى بجانبهم عن جانب العامة

فالأدب الفصيح استحال في حيز تلك التقاليد والمراسيم إلى

قوالب متحجرة ، وأوضاع متصلبة ، غير حر الحركة ولا سهل التجديد ولا قابل لتأثير من الخارج ، لا يتأثر إلا بمناسبه . بتراث العرب الأفحاح الذين قصدوا القصائد ونسبوا وفخروا وهجوا وارتجلوا الخطب ؛ وتلك حال إذا صار إليها الفن جمد وبعد عن الأمانة للحياة والتصوير لحقائقها . وشبيه بذلك ما صار إليه فن النحت وفن التصوير عند قدماء المصريين من جمود وزيغ عن الحقيقة ، حين كبلتها الأوضاع والرموز الدينية

وقد أصبح لزاما على الأدب الفصيح وقد كبلته التقاليد بالقيود ، وأحاطته الصناعة بالسدود ، أن يترك التعبير الصحيح عن شعور المجتمع للادب العامي ، وذلك هو الذي تم دون أن يشعر رجاله ، ودون أن يقلعوا عن كبريائهم وترفعهم عن الشعب . فظلوا في تقاليدهم الجامدة وبراعاتهم اللفظية سادرين ، وقد نما الأدب الشعبي واتسع ، وحوى من صادق المشاعر والعواطف ، وجيل المحاورات والمناظر ، ما أعوز الأدب الفصيح ، وماقربه إلى نفوس الشعب وإلى نفوس الأمم الأخرى معا :

فقد فطن الأوربيون من عهد الحروب الصليبية إلى ما في الأدب العربي من جمال وعبقرية ومتعة ، فتداولوا أقاصيصه وأغانيه وحاكوها في آدابهم الشعبية وخلطوها بها ، وترجموا مجموعات منها إلى لغاتهم في شتى الأزمنة ، ولم يألوها حفاوة وامتداحا ، وعرفوا فضلها في إدخال العنصر الرومانسي في آدابهم العالية ، وهي نفس الوظيفة التي أداها أدبهم الشعبي ؛ أما موقفهم من الأدب العربي الفصيح فكان خلاف ذلك : فأنهم كلما حاولوا دراسته والانتفاع به في آدابهم صدهم عنه ما فيه من غرابة معان متكلفة لا تمت إلى الحياة الصحيحة ، ومن زخارف ألفاظ يحتفي بها أدباء العربية كأنها حقائق مجسمة ، فاذا ترجمت لم تعد شيئاً مذكورا ، فرجعوا خائبين وعزوا تلك الغرابة إلى اختلاف عقليتي الشرق والغرب ، وما هو كذلك وإنما مرجعها ما خالط الأدب الفصيح من تقاليد جامدة شبيهة بالرموز الدينية ، بعدت به عن التعبير عن شعور النفس الانسانية ، شرقية كانت أو غربية

فالأدب العربي العامي قد احتوى من عناصر الصدق في الشعور ، وتصوير المجتمع ، ووثبات الخيال ما أعوز الأدب الفصيح كثيرا ، وهو مع ذلك قد لقي الاهمال والازدراء من المثقفين وخسر الأدب الفصيح معونته في العصور الماضية ، وهو إن لم يكن أحرى من الأدب الفصيح بالدرس ، وأكثر منه فائدة لمؤرخ الأدب والمجتمع ، فليس دونه في تلك الوجوه ، وهو خليق أن يدرس معه جنباً إلى جنب ، وتجمع آثاره المتخلفة من شتى العصور ، ففيها هي ذاتها متعة جليلة ، وفيها بجانب ذلك للشاعر والقصصي ما يبعث الالهام ، ويبسط منادح التفكير والقول ، ويدني من الطبيعة والصدق

فخري أبو السعود

نظرية النبوة عند الفارابي

للدكتور ابراهيم بيومي مدكور

مدرس الفلسفة بكلية الآداب

— ٨ —

انتهى بنا الحديث في المقال السابق الى بيان أثر نظرية النبوة الفارابية في القرون الوسطى . ويظهر أنها لم تقف عند هذا الحد بل جاوزته الى التاريخ الحديث . ونرى واجباً علينا لاتمام هذا البحث أن نشير الى بعض المفكرين المحدثين في الغرب والشرق الذين حاولوا تفسير النبوة تفسيرا يمت بصلة الى النظرية الفارابية ؛ ولن نتحدث من بين فلاسفة الغرب إلا عن اسبينوزا الذى أشرنا في بحث سابق الى أنه يلتقى مع الفارابي في نقط كثيرة[١] . وأما مفكرو الشرق ومصلحوه فسنذكر من بينهم شخصيتين جليلتين كانت لهما اليد الطولى في نهضة الأمم الاسلامية الأخيرة وتقدمها العلمي والأدبي ، وهما السيد جمال الدين الأفغاني والأستاذ الامام . ولا نظن أحدا الى الآن حاول أن يربط آراء هذين المصلحين ربطاً وثيقاً بنظريات علماء الاسلام الأول ومفكريه ، اللهم إلا محاولات ضئيلة ترمى الى إيجاد علاقة بينهما ، أو بين الأستاذ الامام بوجه خاص من جانب وابن قيم الجوزية وابن تيمية والغزالي من جانب آخر[٢] . وإذا صح أن آراءهما الدينية قد ربطت بأقوال بعض أئمة السلف فأبحاثهما العقلية لا تزال حتى الساعة غير واضحة الصلة بنظريات فلاسفة الاسلام . وخطأ أن يظن أن هذه الصلة مقطوعة أو معدومة ، فأن السيد والامام إنما تم تكوينهما أولا وبالذات على حساب المصادر العربية ؛ وفي مجلة العروة الوثقى ما يشهد بأنهما كانا يدعوان الى دراسة فلاسفة الاسلام وتفهم أفكارهم[٣] . وسنرى بعد قليل كيف يلتقيان في مشكلة من أهم المشاكل الاسلامية

كانا يعلم أن للصلة بين العقل والنقل بين الفلسفة والدين شغلت الفلاسفة المحدثين كما كانت حجر الزاوية في فلسفة القرون الوسطى . وقد وقف اسبينوزا على هذا الموضوع كتابا مستقلاً غير معروف من جمهور القراء ، لأن نفوذ كتابه الآخر المشهور « الأخلاق » غطى عليه ، ونعنى به « رسالته الدينية السياسية » التى تتمم في رأينا مذهبه الفلسفي . ذلك لأنه إذا كان « كتاب الأخلاق » يوضح الحقائق العقلية ، فأن هذه « الرسالة » تشرح الحقائق النقلية . وهذان الضربان من الحقائق متميزان عند اسبينوزا ومستقلان تمام الاستقلال ويقابلان علمين منفصلين : الحقيقة العقلية موضوع الفلسفة ، والحقيقة النقلية موضوع علم الآلهيات ؛ واسبينوزا فيلسوف وعالم في الآلهيات في آن واحد ، فلا يستطيع أن يلغى إحدى هاتين الحقيقتين ولا أن يدمجها في الأخرى ، بل يقرر أن كل واحدة منهما ضرورية ومطلقة النفوذ في مضمارها ؛ والدين إن لم يكن الحقيقة كلها حقيق في ذاته ولا غنى للجمعية عنه[١] . غير أن الحقيقة الدينية تعتمد رأساً على الوحى والالهام ، فكيف يتم هذا الوحى وبأنه وسيلة يستطيع الأنبياء الوصول إليه ؟ هذا هو السؤال الذى حاول اسبينوزا أن يجيب عليه . وفي رأيه أنا إذا تتبعنا الكتب المقدسة جميعها وجدنا أن الالهامات النبوية المختلفة سواء أكانت عبارات صريحة أم صوراً رمزية إنما تتم بواسطة مخيلة قوية[٢] . وعلى هذا لا تتطلب النبوة شرطا آخر سوى أن يكون الأنبياء ذوى خيالة نشيطة متنبهة[٣]

لا يمكننا أن نمر بهذه الآراء دون أن نفكر على الفور في الفارابي وفي الدراسات الفلسفية اليهودية في القرون الوسطى . حقا إن المعرفة الناتجة عن الوحى والالهام لا تساوى في نظر اسبينوزا المعرفة العقلية ، مع أنهما عند الفارابي متساويتان متكافئتان ؛ ولعل هذا راجع إلى أن اسبينوزا فيلسوف قبل أن يكون لاهوتياً ، وديكارتى قبل أن يكون فارابياً ؛ ولا شك في أن الأفكار الواضحة النيرة هي وحدها عند ديكارت سبيل المعرفة

(١) مدكور ، الرسالة ، عدد ١٧٢ ، ص ١٦٦٨

(٢) I. Scgach, Muhmed Abdo, dens Enqyc de. l'Islam

(٣) العروة الوثقى ، المقالة الرابعة

(١) Brochord, Etuds, 336 — 337

(٢) Spinoza, Traité théologieo. politique, p. 18

(٣) Ibip., p. 24

اليقينية. غير أنه بالرغم من هذا الخلاف فإن المسلم أن الفيلسوف العربي والفيلسوف اليهودي متفقان على أن قوة الخيالة شرط أساسي في النبوة. وهنا نتساءل: هل هذا الاتفاق مجرد مصادفة أو أخذ اسبينوزا عن الفارابي بعض آرائه في النبوة؟ إذا ما لاحظنا أن الأول درس في عناية مؤلفات ابن ميمون أمكننا أن ندرك الصلة بين الأفكار الاسبينوزية ونظرية النبوة الفارابية. ونحن نلحظ من جهة أخرى أن مذهب السببية عند الفيلسوفين متحد، وأنهما يقبلان فكرة التنبؤ بالغيب دون أن يكون لها أي أثر في مجرى القوانين الطبيعية. ففي مقدور ذوي النفوس الممتازة أن يقفوا أثناء اليقظة أو في حالة النوم على الأمور المستقبلة ويتكهنوا ببعض الحوادث التي ستحصل غداً أو بعد غد لا محالة [1]. وعلى كل حال فنحن لا نذهب مطلقاً إلى أن اسبينوزا أخذ عن الفارابي مباشرة، لأنه ما كان يعرف العربية؛ وبعيد أن يكون قد وقع في يده شيء مما ترجم من كتب الفارابي إلى اللاتينية. وكل الذي نعتقده أنه استقى بعض الأفكار العربية من مصدر ثابت هو كتاب «دلالة الحائرين» لابن ميمون، وفي هذا الكتاب، كما قدمنا قسط وافر عن نظرية النبوة

ولنعد الآن مرة أخرى إلى الشرق وإلى السيد جمال الدين الأفغاني والأستاذ الإمام بوجه خص. فأما السيد فلم يخلف لنا مؤلفات كثيرة نستطيع أن نقرأ فيها كل أبحاثه ونظرياته، وفيما وراء «رسالته في الرد على الدهريين»، و«تاريخه للافغان» لا نكاد نجد له إلا مقالات متفرقة في «العروة الوثقى» وفي بعض الصحف والمجلات الموجودة في ذلك العهد [2]. وكأنما كتفي بأن يلقن أتباعه وتلاميذه تعاليمه دون أن يودعها بطون الكتب شأن سقراط وطائفة من المصلحين. هذا إلى أن حياة الاضطراب والرحلة والانتقال التي قضاها ما كانت تسمح له بالهدوء الكافي للجمع والتأليف. ومهما يكن فقد أدلى في موضوع النبوة بآراء جديرة بأن تسرد هنا. وذلك أنه أثناء مقامه الأول في القسطنطينية سنة ١٨٧٠ دعي إلى إلقاء محاضرة في دار الفنون. ويظهر أنه شاء أن يكون موضوع المحاضرة متناسباً مع المكان الذي ألقيت فيه، ولهذا تحدث عن فائدة الفنون. وفي خلال هذا الحديث شبه الجمعية بجسم مرتبط الأجزاء والأعضاء، ولكل عضو من أعضائه خاصة. ثم انتقل من هذا إلى أنه لا حياة للجسم إلا بالروح، وروح هذا الجسم هي النبوة أو الحكمة. فالنبي والحكيم من الجمعية الانسانية بمنزلة الروح من البدن. وكل ما بينهما من فارق: هو أن النبوة منحة إلهية لا تنالها يد الكاسب يختص الله بها من يشاء من عباده «والله أعلم حيث يجعل رسالته» في حين أن الحكمة تنال بالبحث والنظر. وفوق ذلك فالنبي معصوم من الخطأ والزلل، بينما الحكيم يجوز عليه ذلك ويقع فيه [1] وأول شيء يستخرج من التشبيه السابق أن النبي عضو وعضو هام من أعضاء الجمعية الانسانية، وأن النبوة مهنة ووظيفة من الوظائف الضرورية للمجتمع. وفي هذا ما هيأ السبيل لشيخ الاسلام حسن فهمي أن يثيرها شعواء على السيد متهماً إياه بأنه زعم أن النبوة فن، وأن النبي صانع. وقد أحدثت هذه التهمة ضجة عنيفة في صحف الشرق المختلفة، وترتب عليها أن أرغم السيد على مفارقة استامبول سنة ١٨٧١ [2]

(التتمة في العدد القادم) ابراهيم بيومي مدكور

(١) Brochard, Etudes, p. 335

(٢) Goldziher, Gyamal-al-Din dans, Encyc. de l'Islam t. I. p. 1039

(١) Ibid., 1037—Browee The Tersian Bexolution, p.7

(٢) جورجي زيدان مشاهير الشرق ج ٢ ص ٥٤ — ٦٦

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكي

مدير مصلحة الكيمياء

عزرائيل يقبض بيد صفراء

وصل الفائت : بى ريد رئيس بعثة الحمى الصفراء وساعده كارول بيتا صغيراً وأناما فيه ثلاثة رجال ، الطبيب كوك والجنديين فوك وجرنجان ، أناماهم فى أقمصة الموتى بالحمى وفى دمائهم ، فلم تصب الحمى أحداً منهم . إذن فالحمى لا تنتقل من ثياب المرضى ولامن قذرهم ، وإنما من البعوض . وخشية أن تكون الحمى لم تصبهم لأنهم بطبيعتهم حصينون ، حقنا أحدهم بدم مريض ، وسلطا على الآخر بعوضة وبيئة ، فجاءت الحمى كليهما

— ٥ —

وبينا هذه التجارب تجرى كان رجل غير جندى من أُهَيْـو Ohio (١) كاسف البال حزيناً . هذا جون موران John Moran الذى انتصب له ريد قائماً ورفع له يده بالسلام . تذكُرُ أنه تطوع « فى سبيل العلم والانسانية » ورفض بتاتاً أن يأخذ أجراً ، وقرصته بعوضة الحمى ذات الأقلام الفضية البيضاء ، وبعد ذلك قرصته مراراً بعوضات مختارات تحمل السم نقيعاً فى بطنها ، ولكنه صمد وا أسفاه لكل هـذا وظل صحيحاً سليما . فحار ريد ماذا يصنع به

ثم أسعده الخيال فقام فبنى له بيتاً صغيراً ثانياً إلى جانب ذلك البيت الكريه الأول ، وكان هذا البيت الجديد على نقيض جاره القديم . فكانت له نوافذ فى قبالة الباب حتى يجرى فيه الهواء ، وكان بارداً ، وكان به سرير لطيف نظيف عُقّم فراشه بالبخار . وعلى الجملة كان منزلاً ترضاه الصحة غاية الرضاء ، فكأنما بُنِى خصيصاً لمسلول يعيش فيه ليطيب ؛ وأقام فى وسط البيت ستراً من ثوب شفّ دقيق ضاقت فروج نسجه فلا تأذن لأصغر بعوضة أن تنفذ منها . ونال الستر من البيت عدا الحائطين سقفه وأرضه

وفى اليوم الحادى عشر من ديسمبر عام ١٩٠٠ فى الساعة الثانية عشر ظهراً دخل البيتَ مُورانُ بعد استحمام ، وليس عليه من الثياب غير قميص فضفاض للنوم ؛ ومضت خمس دقائق ، فجاء ريد وكارول بوعاء من زجاج فتحاه فى البيت فخرج منه خمس عشرة من بعوضات أنثيات عطشى تطنّ حنيناً إلى شربة من دم . وكانت كل واحدة من هـذه الخمس عشرة شربت فى أيام مختلفات قبل هـذا من دم صِبيةٍ صفر الوجوه فى مستشفى لاس أنياس

دخل موران إلى هذه الحجرة النظيفة الصغيرة بعد استحمامة فى قميص واحد ورقد على سريرها النظيف وانتظر القدرَ الذى يكون . هذا موران ، فهل يسمع به أحد من الناس الآن ! وبعد دقيقة طن البعوض حول رأسه . وبعد دقيقتين قرصه البعوض . وفى ثلاثين دقيقة كنت تراه راقداً سطيحاً وفى جلده عدّة وخزات وخزها إياه البعوض وهو صاغر مستسلم لا يؤذن له حتى فى شفاء غليله بدق هذا البعوض

وعاد للقرص فى منتصف الساعة الخامسة من نفس اليوم ، وعاد إليه مرة ثالثة فى غد اليوم ليعطى الفرصة لأناث البعوض التى لم تمتر عليه فتمصه ، لتمتر عليه وتمصه حتى تشتفى منه . وكان إلى جانب موران فى النصف الآخر من البيت شابان يعيشان فيه لا يفصلهما عن موران وعن بعوضه غير الستر الشفاف ، وعاشا فى هذا النصف ثمانية عشر شهرا فى سلام

أما موران ففى صبيحة عيد الميلاد(١) من عام ١٩٠٠ استقبله العيد بالهدايا الآتية : وجع ينبض فى رأسه ، وحمرة فى عينيه زيدها نور الشمس ألماً ، وهمود بلغ منه حتى عظامه ؛ لقد هدّه البعوض شرّ هدّة ، وأطاح به حتى كان من الموت على قيد شَعره ؛ ثم أخذت الأقدار بيده فحمد اللهَ ريدُ على أنه اشتفى ، ولكنه اشتفى ليعيش فى خمول ذكر ما استحقه أبداً ، وعلى كل حال فقد نال أمنيته — فى سبيل العلم والانسانية ؛ والنتيجة أنه هوفوك وجرنجان وكوك وكل من تطوع معهم أو أوجر ، كل هؤلاء أثبتوا أن البيت الأول بيتَ الكرب والهول خلا من البعوض فخلا من كل خطر برغم قذره ، وأن البيت الجميل النظيف الثانى دخل إليه البعوض فدخل إليه كل خطر برغم

(١) بلدة بالولايات المتحدة وقد ذكرناها سابقاً

(١) هو ميلاد المسيح وهو يوم ٢٥ ديسمبر

أناقته ونظافته . ووقع ريد أخيراً على جواب كل سؤال فى معضلته الكبرى ، وكتب فى أسلوبه العتيق يقول : « إن أول شرط يجب توفره فى بناء ليكون وبيئاً بالحمى الصفراء أن يحل فيه بعوض عض من قبلُ مرضى بالحمى الصفراء »

كلمة ما أبسطها . وكلمة ما أصدقها . وانتهى الأمر وكان ما كان . وكتب ريد إلى زوجه : « إن الدعاء الذى بتّ أدعو الله إياه عشرين عاماً : أن يكون من نصيبى بطريقة ما وفى وقت ما أن أخفّف عن الانسان شيئاً من شقاء الانسان ، هذا الدعاء قد استجابه الله ! وهـذا العام الجديد يُطلّ علينا ، فألفَ عام وأنتِ بخير ياعزيزتى . . . أنصتى ! أنصتى ! هؤلاء عشرون بوّاقاً ينفخون أبواقهم معاً يسترقدون العام القديم »[(١)]

أم هم ينفخون أبواقهم تحية لازار ؟ أم هم ينفخون أبواقهم احتفالاً بالحمى الصفراء أنْ أُمكن محوُها من على ظهر الأرض ؟ أم ينفخ هؤلاء الوسيقيون أبواقهم إنذاراً بالقدَر الجيء الذى لن يلبث أن يجىء أفراد هذه البعثة الصغيرة يُصَيِّد ساعة نصرها بقليل . . .

— ٦ —

وجاءت الدنيا إلى هبانا ، وهتفت هناك لريد . وجاء العلماء إلى هبانا واشتركوا فى تفاؤلهم العابس وفى التساؤل والتشكك المعهود . ثم جاء وليم كرُوفورد جُرجاس William Crowford Gorgas [(٢)]، وكان رجلاً مثلَ ريد لا يُعاب ، جاء إلى هبانا يتدرّب استعداداً لصنيعه الأكبر الأخلد فى بنما Panama ، فدخل إلى ميازيب هبانا وإلى مجمّعات مراحيضها وإلى أحواض مائها وشن فيها الغارة على البعوضة الاستيجوميّوتة [(٣)] ، وفى تسعين يوماً خلصت المدينة من الوباء لأول مرة بعد قرنين فلم تقع فيها إصابة واحدة من الحمى الصفراء . انقلابٌ كأنه السحر ، ولكن مع هـذا بقى الشك يساور الأطباء العلماء والنطاسيّين ذوى اللحى المبوسة ، فى أوربا وأمريكا ، فظلوا يسألون عن هذا ، ويعيدون الكرة على هذا ، فسَلْ الذى لم يطمئن قلبه . . . وذات صباح

دخل خمسون من هؤلاء الشكاكين بيت البعوض المذكور وأخذوا يقولون : « إن هذه التجارب بارعة جميلة ، ولكن نتائجها يجب أن تُمحَّص وتوزن من غير عوَج أو ميل . . . » . وبينا هم فيما هم فيـه انكشف غطاء وعاء به بعض أنثيات البعوض ، انكشف بالطبع اتفاقاً ، فخرجت البعوضات منه وذهبت قُدُماً إلى وجوه هؤلاء العلماء تطن طنيناً وفى عيونها بسمة الخبيث ولهفة الجوعان . فواحسرتا على العلماء الأجلاء ! طار الشك من قلوبهم ، كما طارت أرجلهم بهم — إلى الباب . وارتد الستار بينهم وبين البعوض بقوة صاخبة تحكى عن قوة اقتناعهم بالذى قال ريد . ثم اتضح الأمر فاذا بالبعوض لم يكن لُوِّث بالحمى

بعدئذ جاء جرجاس ، وقد سبق ذكره ، وجاء معه جون جتراس John Gajtéras وكان كوبيًّا عمدةً فى الحمى الصفراء ، وكانا كلاهما اقتنعا فى الذين اقتنعوا بالتجارب التى أجريت فى معسكر لازار ، فاختطا الخطط لتطبيق نتائج هذه التجارب . وكانت خططاً جميلة ، ولكنها كانت مع الأسف سريعة نَزِقة . قالا : « إن من الغريب أنّ تلك الاصابات التى حدثت فى معسكر لازار لم تمت أصحابها . إنها كانت إصابات ذات أعراض نموذجية من الحمى الصفراء ، ولكن أصحابها اشتفوا منها وصحّوا من بعدها . أفيكون سبب ذلك أن ريد لم يعملهم على أرجلهم طويلا وبعث بهم إلى الفراش ليستريحوا سريعاً » . وبدآ يلعبان بالنار . قالا : « سنأتى بنفر من المهاجرين الاسبانيين الذين وردوا حديثاً ، فَهُم غير حصينين ، ثم نُصيبهم بالحمى إصابة شديدة ، ولكن على أسلوب ريد لتكون العاقبة مأمونة » . هكذا فكّرا وهكذا اختطّا ، وما كان أيسر محو الوباء بأبادة البعوض وهو من البعوض الأنيس الذى يسكن منازل الناس ويتناسل فى أماكن بين ظهرانيهم غير خافية . ولكنهما قالا : « وبهذا نكون أيضاً قد أعذنا تجارب ريد وخرجنا على نفس نتائجه فزدناها ثبوتاً »

وجاءا بالمهاجرين ، وكانوا قوماً جهلاء لايفقهون ، فأنصتوا للذى قالاه لهم واطمأنوا إلى أن الاصابة ستكون مأمونة العاقبة . ثم عض البعوض سبعة منهم ، وعض ممرضة أمريكية شابة جسورة . فخرج من المستشفى من هؤلاء الثمانيـة مهاجران والممرضة ، وقد أمن الثلاثة عواقب المرض جديدة ، وأمنوا عواقب الأمراض أجمع ، وكلَّ همٍّ من هموم الدنيا . خرجوا محمولين على الأعناق والطبول تدق دقاً بطيئاً خافتاً حزيناً . . .

(١) فى المعسكرات ينفخ البواق البوق ليلا لترقد الجند وتطفأ الأنوار ويسود السكون . وإنى لأحسب هؤلاء البواقين يسترقدون قرناً لا عاماً فقد كان العام عام ١٩٠٠ (المترجم)

(٢) طبيب فى الجيش الأمريكى خلد اسمه عند ما كافح الحمى الصفراء فى منطقة قنال بنما حتى عاماً . . . وتملك زمام حمى الملاريا فيها . وبذلك نجح حفر القنال (المترجم)

(٣) هذا اسم بعوضة الحمى الصفراء ، بل هكذا كانت تسمى عندئذ

ألا ما كان أبرع ريد فى بحثه . ألا ما كان أسعده حظًا فى بحثه — فى تلك التجارب التى خلت من الموت فى معسكر لا زار . . .

واســـتولى الذعر على هبانا ، وأخذت الجماهير تتجمع وتتحدث بالغضب اصطخاباً ، ومن ذا الذى يلومهم والحياة الانسانية عند كل الناس غالية مقدسة

كان كارول قد عاد إلى هبانا ليقضى فى بعض مسائل علمية صغيرة ، وكان رجلاً كالحنوطى [1] ذهبت العاطفة من قلبه ، وكان فوق ذلك جندياً . قال : « نحن الآن نستطيع أن نستأصل الحمى الصفراء فلا تكون ، ونحن الآن نعلم بأى وسيلة تنتقل من رجل لرجل ، ولكن الذى لا نعلمه هو الشىء الذى يسببها » . هذا ما قال كارول لريد ، وهذا ما قاله ريد لكارول ، ولا بد من اعترافنا ، واعتراف كل أحد منا ، بأن الشىء الذى لم يعلماه بعد ، والذى ظلاّ يعتزمان طلبه ، إنما كان أمراً علمياً محضاً لا يَهُمّ إلاّ من يطلبون المعرفة للمعرفة . وإنى أسألك أ كان هذا امراً من الخطورة بحيث يستحق ضياع الأرواح ، ولو أرواح مهاجرين إسبانيين ؟ أما أنا فلن أستطيع جواب هذا السؤال . وأما ريد وكارول فقد أجاباه بنعم . ولا عجب . فهما بدآ هذا الأمر جنديّين يطيعان أمراً ، وبدآه إنسانين يخاطران بروحيهما فى سبيل الانسان ، وأذنا للبعوض أن يصبّ سمّه فى جلديهما فى سبيل المعرفة القاسية الباردة ، ثم زهاهما المجد الذى يكون من كشف الغطاء عن كل مجهول . . .

وتأكّد لديهما أن الوباء ليس له بَشِلّة تُرى ، أو أية مكروبة أخرى تُريها أكبر المجاهر . لقد نظرا فى أكبدة الناس وأحشاء البعوض طلبا لهذا المكروب عبثاً . ولكن أمعنى هذا أنه لا يوجد ؟ كلا . فهناك احتمالات خفية أخرى . فهناك احتمال وجود نوع أصغر من المكروب دق حتى عن أكبر مكرسكوب لا يحسن وجوده إلا بقتل الرجال ونفث سمه الخفىّ فيهم ، قد تكون هذه طبيعة مكروب هذه الحمى الصفراء . يؤيد هذا أن فريدريك لفلار ، الرجل القديم ذا الشوارب الكبيرة ، كشف عن وجود مثل هذه الاحياء فى داء « الفم والقدم » الذى يصيب العجول . ووَدّ ريد وكارول أن يكشفا فى الحمى الصفراء عن وجود مثل هذا المكروب الذى خرج عن طوق المجاهر فلم تكتشفه

وكان ريد فى شغل شاغل ، فبعث كارول إلى هبانا يستطلع الأمر ، فلما جاءها غضب أشد الغضب لموت من مات فى تجارب جتراس ، وكان جتراس فى هلع هالع ، ومن ذا الذى يلومه ، فمنع كارول أن يستخرج دماً من مرضى الحمى الصفراء . لا ، لا . لا يمكن أن يستخرج دماً أبداً . بل ولن يؤذن لكارول أن يعضهم ببعوضه . وزاد جتراسُ فى سُخفه ففضّل ألا يفحص كارولُ حتى الجثث التى تموت خشيةَ أن يثير هذا ثائرة السكان . فكتب كارول إلى رِيد يقول : « . . . فتصور خيبتى فى وسط هذا » ، وزاد فاستنكر مخاوف قوم جُهّال يتسخّفون . على أن هذا لم يورثه الخيبة ، فما مِثْل كارول يخيب

ولسنا ندرى أى حيلة أعمل ، وبأى سحر استنجد حتى جاء بدم وبىء من مريض بالحمى ، ورشّحه فى مرشّح خزفىّ دقّت مسامّه حتى لا تنفذ منه المكروبات التى تريها المجاهر ، وأخذ السائل الراشح الذى نفذ من الخزف فحقنه تحت جلد ثلاثة رجال غير حصينين من الحمى — ولا يذكر التاريخ كيف أغراهم بالرضاء . فأصيب اثنان منهم . فصرخ صاحبنا صرخة الفرح : إن الحمى الصفراء مثل مرض « الفم والقدم » ، كلاهما ينشأ عن أحياء بالغة الصغر تستطيع الافلات من مرشح خزفى دقيق المسام

وكتب ريد إلى كارول يقول : « كُفّ عن قتل الناس فقد غلونا فيه » ، ولكن أين الكفّ من كارول ، فلا بد له من الحصول على بعوض وبىء ، وحصل عليه ببعض طرائقه الجريئة الشيطانية ، وانتزع الرحمة من قلبه وقام بأخيرة تجاربه

وقال فى صدد ماجرى : « لقد عضنى البعوض ومرضتُ ، وكنت أنتظر الخاتمة تأتى فى بحر سبعة أيام . ولكنها لم تأت ، فاقتنعتُ كل الاقتناع بأن قوة الاصابة تتوقف على قابلية المصاب أكثر منها على عدد القرصات . ففى التاسع من أكتوبر عام ١٩٠١ جمعتُ كل البعوض الوبىء الذى عندى ، وكانت ثمان أتاها الوباء قبل ذلك بثمانية عشر يوماً ، وسلّطتُها عامداً على رجل غير حصين ، فكانت الاصابة التى جاءته إصابة معتدلة » . وختم مقاله ختام الفاخر المنتصر . ولكن ماذا كان الحال لو أن هذا المريض مات ، والله يعلم أن احتمال هذا كان كبيراً ؟

هذه قصة هذه العصابة العجيبة ، غريبةٌ ما وَسمتْ الغرابة .

وإنى لأعود بالذكر إلى الذى كان من هذا الباحث كارول ، وأتصوره وقد عَرِيَتْ من الشعر رأسه ، واحتجبت عيناه وراء منظاره ،

(١) الحنوط كل طيب يخلط لأجسام الموتى وأكفانهم . والحنوطى نسبة إليه وهى لا شك أصل كلمة حنوتى العامية المصرية (المترجم)

ثم أذكر أنه كان حطّاباً قبل أن يكون بحّاثاً ، ثم أذكر ما كان من جرأته الخارقة وقلة مبالاته بالعاقبة فى أمر نفسه ، فلا أتمالك أن أرفع قبعتي احتراماً له وإعجاباً به بالرغم من إغرامه الشديد وإلحاحه فى أن يتجسس عن أسرار الطبيعة فى أخطر مخابئها .

إن كارول كان أول رجل أصيب فى هـذا السبيل ، وهو الذى سنّ السنّة الأولى فاقتدى به الجنود الأمريكيون ، وقفّى على أثره الكاتب الملكىّ ، وتشجع به المهاجرون الاسبانيون رقم ١ ٦ ٢ ٦ ٣ ٦ ٤ ٦ ٥ ، وحذا على حذوه البقية الباقية من هذا النفر الكريم الذين عرفنا أعمالهم وجهلنا أسماءهم — كلٌّ هذا فى سبيل العلم وسبيل الانسانية ! ولعلك تذكر أنه لما أصيب وقف قلبه أو كاد فى سبيل العلم وفى سبيل الانسانية . فهذا القلب الذى وقف أو كاد فى عام ١٩٠٠ ، ثم تشبث بعد ذلك بالحياة ، عاد فى عام ١٩٠٧ فوقف وقفة لا حركة من بعدها . . .

— ٧ —

وقبل ذلك بخمسة أعوام ، أى فى عام ١٩٠٢ ، مات ريدوهو فى عنفوان شبابه . وكان متعباً أشد التعب برغم صباه . مات وهتاف الأمم له يزداد اصطخابا . وهل تدرى بأى علة مات ؟ بالزائدة الدودية . ومات فقيراً . تمتم لصديقه كين Kean وهو على سرير العمليات قبيل أن يهبط المخروط بالأثير على وجهه : « انى لم أترك لزوجتى ولابنتى من متاع الدنيا الا القليل . . . القليل . . القليل » ، وأسكت الأثير لسانه ، وهبط به الى الأخير من أحلامه

لنا الفخار فى أمتنا وفى مجلس أمتنا[1] ، فانهم منحوا مدام اميلى لورانس ريد ، زوجة الرجل الذى اقتصد للعالم ملايين الدولارات ، دَعْ ذكر الأنفس ، منحوها منحة طيبة ، خمسمائة وألف دولار معاشاً سنويا ، ومنحوا مثلها لأرملة لازار ، ومثلها لأرملة كارول ، ولا شك أن هذا كانت فيه الكفاية لهن ، بدليل أن لجنة من شيوخ المجلس قالت فى غرابة وإبهام : « إن الأرامل لا يزال باب الرزق فى وجوههن مفتوحا »

ولكن ماالذى جرى لكيسنجر ، جندىّ أهيو ، الذى غامر فى التجربة وصمد فيها صمودا فى سبيل العلم والانسانية وحدهما ؟ إن الحمى الصفراء لم تقتله . وإنه رفض ان يأخذ أجرا عن آلامه ومخاطره . ولكنهم أخيرا وبعد الجهد أغروه بقبول خمس عشرة ومائة دولار وساعة من ذهب ، أهديت إليه فى حفل جنود معسكر كولومبيا وضباطه . إنه لم يمت بالحمى ، ولكن خرج سمّ الحمى من جسده ليدخل فيه ما هو شر منه : شللٌ زحف فى جثمانه بطيئا . واليوم هو مُقعَد يَعُدّ الزمن مصابرةً على عقارب ساعته ، وهى من ذهب ! وساعده الحظ أخيرا فجاءته زوجة طيبة تموله من غسل الثياب للناس

وماذا جرى للقوم الآخرين ؟ إن الوقت يضيق بى عن تناولهم . وفوق هذا فأنا لا أدرى ما ذا جرى لهم . لقد لقى كل واحد من هذا النفر قسمةً مختلفة خصته بها المقادير . أى والله لقـد كانوا زمرة من أغرب الزمر ، قامت فى تلك السنوات العشر بأعجب ما قام به صُياد المكروب ، وتوّجتْ هذه الصيادةَ بأنفرها وأنخمها ، وعملت بيد واحدة وقلب واحد فى بحث وباء الحمى الصفراء حتى لم يبق من سمّه وأنا أكتب هذا ما يُغطّى رأس دبوس

قال دافيد بروس David Bruce وهو محارب الموت القدير : « ليس بمستطاع فى الوقت الحاضر أن نتخذ من أجسام الناس أداة للتجريب » . فاليوم ماذا يقول بعد الذى كان !

أحمد زكى

(١) المجلس النيابى للولايات المتحدة . ويخيل إلى أن الكلام القادم به طعم السخرية حاولت أن أنتوقه فلم أفلح (المترجم)

٨ – هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

الحرب والمحاربون

لا نريد أن يراعينا خيرة أعدائنا ، كما لا نريد أيضاً أن يراعينا من نحبهم من صميم الفؤاد

دعوني أعلن لكم الحقيقة

إنني أحبكم من صميم الفؤاد ، أيها الرفاق في المعارك ، فما أنا الآن إلا ، كما كنت في الأمس ، جندي مثلكم ، فأنا إذن من خيار أعدائكم . دعوني أعلن الحقيقة لكم

إنني عارف ما في قلوبكم من حقد وحسد ، فأنتم من العظمة بحيث لا يمكنكم أن تتجاهلوا الحقد والحسد ؛ فلتكن عظمتكم رادعة لكم عن الخجل بما في قلوبكم . واذا امتنع عليكم أن تكونوا أولياء في معرفة الحق فكونوا على الأقل جنوداً يكافحون من أجل هذه المعرفة ؛ وما المكافحون الا طليعة الأولياء

لقد كثر عدد الجنود فليتني أرى مثل هذا العدد من المحاربين ، وعسى ألا تكون سرائرهم على طراز واحد كالألبسة التي يرتدونها

لتكن أنظاركم منطلقة تفتش على عدو لكم ، وقد لاحت في لماتها بوادر البغضاء . عليكم أن تجدوا العدو لتصلوا معه حرباً تناضلون فيها من أجل أفكاركم ، حتى اذا سقطت هذه الأفكار في المعترك ، ينتصب اخلاصكم هاتفا بالظفر

أحبوا السلام كوسيلة لتجديد الحروب ، وخير السلام ما قصرت مدته . إنني لا أشير عليكم بالعمل ، بل أشير بالكفاح ؛ لا أشير عليكم بالسلم ، بل بالظفر . فليكن عملكم كفاحاً وليكن سلمكم ظفراً

لا اطمئنان في الراحة إذا لم تكن السهام مسددة على أقواسها . وما راحة الأعزل إلا مدعاة للثرثرة والجدال . فليكن سلمكم ظفراً . . .

تقولون إن الغاية المثلى تبرر الحرب ؛ أما أنا فأقول لكم إن الحرب المثلى تبرر كل غاية ، فقد أتت الحروب والأقدام بعظائم لم تأت بمثلها محبة الناس ؛ وما أنقذ الضحايا حتى الآن إلا إقدامكم لا إشفاقكم

إنكم تتساءلون عن الخير ، وما الخير إلا الانصاف بالشجاعة ، فدعوا صغيرات الأطفال يقلن : (إن الخير في اللطف والجمال)

يقولون أن لا قلوب لكم ، ذلك لأن قلوبكم تنبض بالاخلاص ، وأنا أحب تواضعكم في إخلاصكم . إنكم تستحون لأن أمواجكم تندفع في مدها ، وسواكم يخجل من تراجعها في جزرها

إن قبحكم مريع ، فتدثروا به أيها الأخوة ، لأن في دثار القبح ما ليس في سواه من الروعة والبهاء

ان النفس لتقف صاخبة عند ما تمتلي ، والقسوة كامنة في اعتلائكم ، فما خفيت حالكم عني . في ميدان القسوة يلتقي الشديد العزم بمنهوك القوى فلا يمكنهما أن يتفاهما — إنني أعرف من أنتم

إذا ظفرتم بعدو فصبوا عليه بغضكم ؛ وحاذروا أن تصبوا عليه احتقاركم ، فما عدوكم الا مدعاة مباهاتكم ، فاذا عملتم بوصيتي يصبح انتصاره انتصاراً لكم أيضاً

إن الثورة مفخرة للعبيد ، فليكن افتخاركم أنتم قائماً على طاعتكم . وليكن أمر الآمر فيكم جزءاً من هذه الطاعة نفسها .

إن المحارب الصادق يفضل ما يجب عليه على ما يريده . فعليكم أن توجهوا ما تؤمرون به الى هدف رغباتكم . وليكن حبكم للحياة تعبيراً عن أسمى أمانيكم ؛ ولتكن هذه الأماني عبارة عن أرفع فكرة في الحياة . وما أرفع فكرة لكم ، وأنا أستميحكم إبداءها لكم كأمر ، إلا هذه القاعدة : (ما الانسان إلا كائن يجب أن نتفوق عليه)

على هذا الوجه تمر حياتكم بالطاعة والجهاد ، فما يهمكم أطالت الحياة أم قصرت . فليس من محارب يطلب أن يعامل بالمراعاة

لقد قلت لكم الحق بلا محاباة لأنني أحبكم من صميم الفؤاد ، أيها الأخوة في السلاح

هكذا تكلم زارا . . .

الصنم الجديد

لم يزل في بعض الأماكن من الأرض شعوب وجامعات ، أما نحن فليس عندنا سوى حكومات ، وما أدراكم ما هي الحكومات

أعيرونى أسماعكم لأخاطبكم عن موت الشعوب : — ليست الحكومة إلا أبرد مسخ بين المسوخ الباردة ، فهى تكذب بكل رصانة إذ تقول : « أنا الحكومة ، أنا الشعب »

إياكم وتصديق ما تقول ؛ فما كون الشعوب إلا المبدعون الذين نشروا الأيمان والمحبة ؛ فأتوا بأجل خدمة للحياة . وما الناصبون الأشراك للجموع الغفيرة إلا من يهدمون كيانها ليشيدوا الحكومات على أنقاضها ، ويعلقوا نصلاً قاطعاً فوق رأس الشعب ، وينصبوا مئات الشهوات أمام عينه

إن الشعب ، حيث بقى له مرتع على الأرض ، لا يفهم ما هى الحكومة ، بل هو ينفر منها كما ينفر من العين الساحرة ، ويراها شذوذاً هادماً للشرائع والتقاليد . وإليكم هذا الدليل : إن لكل شعب بيانه عن الخير والشر ؛ وجيرة هذا الشعب لا تفهم هذا البيان الذى أوجده لنفسه محدداً به شرائعه وتقاليده ، على حين أن الحكومة تكذب فى جميع تعابيرها عن الخير والشر ، فليس ما تقوله إلا كذباً ، وليس ما تملكه إلا نتاج سرقتها واختلاسها

إن كل ما للحكومة مزيف ، فهى تنهش بأسنان مستعارة ، وأحشاؤها مختلقة اختلاقاً ؛ وما شعارها إلا « البيان المبهم المشوش عن الخير والشر » فهى تتجه به نحو الفناء ، وتقوم بنشره بدعوة صريحة للمنذرين بالموت

إن عدد من يدخلون الدنيا قد تجاوز الحد ، وما أوجدت الحكومة إلا لخدمة الفضوليين الدخلاء على الحياة . انظروا إلى هذه الحكومة كيف تجتذب إليها الدخلاء فتضمهم إلى صدرها وتشبعهم عناقاً وتقبيلاً . اسمعوها تهدر قائلة :

— ليس أعظم منى على وجه الغبراء ، فأنا يد الألوهية المنظمة

وعندما تهتف هذا الهتاف ، تتهاوى الركاب جاثية ، وبين الراكعين كثير من غير طوال الآذان وقصار النظر

إن هذه الأكاذيب تجد مصدقين لها وا أسفاه حتى بينكم أنتم ، يا من تجول فيكم النفوس الأبية ، لأن الحكومة تعرف أن تدغدغ قلوبكم الطافحة بالمكارم ، الطامحة إلى الجود ، إنها تخترق سرائركم ، أنتم أيضاً ، يا من تغلبتم على الألوهية القديمة ، فهى تعرف أنكم تعبتم من الكفاح فتستخدم ملالكم لعبادة الصنم الجديد

إنه لصنم يتمنى أن يحيط به الأبطال وفضلاء الرجال ؛ إنه لمسخ بارد يريد أن يدفأ بشمس الضمائر المشمسة المشرقة

إنه ليمنحكم كل شىء إذا أنتم سجدتم له . فهذا الصنم الجديد يشترى لمعان فضائلكم وما فى لفتاتكم من عزة وكرامة . إنه فى حاجة اليكم ليجتذب إليه المدد الفائض من الدخلاء على الحياة ، فهنالك البرج الجهنمى ، وهنالك جياد الموت تقرقع بعددها حاملة شارات المراتب والامجاد ؛ أجل ذلك هو اختراع الموت أتى به للجموع ليحصدها حصداً وهو يباهى بأنه هو الحياة ، والمنذرون بالموت يرون بفعلته خير خدمة لمبادئهم

حيث يكرع الجميع السموم ويضيع كل إنسان نفسه صالحاً كان أو طالحاً ، فهنالك تقوم الحكومة لأنها تسود كل مكان يوصف فيه الانتحار البطىء بالحياة

انظروا إلى هؤلاء الدخلاء . إنهم يختلسون ثمرة جهود المخترعين وكنوز الحكماء ، ويدعون هذا الاختلاس تمدناً ؛ غير أن كل شىء يصبح أدواء ومصائب تحت سلطانهم . أنظروا إلى هؤلاء الدخلاء وليس فيهم إلا الأعلاء ينفثون غسلين مرائرهم ، وينتحلون صفة الصحافيين . . . إنهم يتناهشون ويلتهم بعضهم البعض الآخر وليس لهم القوة على هضم ما يلتهمون

انظروا إلى هؤلاء الدخلاء ، إنهم يحشدون الأموال ، وكلما ازدادت ذخائرهم زاد فقرهم ، فانهم يطمحون إلى الاستيلاء على القوة فيبدأون بالقبض على محركها الأول : على الأموال الطائلة ، وما هم إلا الدخلاء العاجزون

أنظروا إليهم ! أنظروا إلى هؤلاء القرود يتسلق بعضهم البعض الآخر فيتدافعون متمرغين فى الأوحال على الشفير . إن كلا منهم يطمح إلى التقرب من العرش ، وقد عراهم جنون التوصل إليه ، فكأن لا سعادة إلا على مقربة منه ، وقد يرتفع رشاش الأوحال إلى العرش كما يتزلق العرش نفسه إلى الأوحال[1]

إننى أراهم وقد جُنَّ جنونهم ، قروداً لا تسكن لهم حركة وهم يتسلقون قاعدة صنمهم البارد وقد انبعثت منه ومنهم أكره الروائح وأخبثها

(يتبع) فليكس فارس

(١) لا يغرب عن القارئ الكريم أن نيتشه يعالج فى هذا الفصل القضية الكبرى فى مدنية الغرب ، وقد نشأت من استخدام أصحاب الأموال لنتاج عبقرية المخترعين وجهود المكتشفين فى سبيل حشد الثروات الطائلة والتسلط بها على الحكومات ، وقد أصبحت مدنية الغرب من هذا الوضع الشاذ فى حلقة مفرغة تبتدئ حيث تنتهى بين ملوك الحكومات وملوك المال ، وليس ، والحمد لله فى الشرق أمثال لهؤلاء الملوك

١٠ - تاريخ العرب الأدبى

للأستاذ رينولد نيكلسون

ترجمة حسن محمد حبشى

الفصـــل الثانى

وخلف النعمان ولده المنذر وكان أميراً عاقلاً شجاعاً . ويستدل على سطوة اللخميين إذ ذاك من الحادثة التى حدثت عقب موت يزدجرد الأول ، ذلك أن المنـذر تدخـّل فى النزاع القائم حول انتخاب خليفته ، وأيد اختيار بهرام جور[1] الذى عارض توليته رجال الدين فى فارس . وفى الحرب التى اندلع لهيبها بعـد قليل بين الفرس والروم برهن المنـذر على أنه تابع مخلص ، ولـكن الروم كبّدوه خسائر فادحـة عام ٤٢١ م . وفى أوائل القرن السادس الميلادى اعتلى العرش أمير يسمى المنذر الثالث الذى دعاه العرب ابن ماء السماء[2] ، وطالت مدّة حكمه وازدهرت ، وإن كانت قد تلبدت سماؤها بغيوم حادثة يستحيل فهمها دون الرجوع إلى التاريخ العام لهذه الفترة ؛ ذلك أنه حوالى ٤٨٠ م امتـد نفوذ قبيلته كندة التى يظهر أن أمراءها كانوا خاضعين لتبابعـة اليمن خضوع اللخميين لملوك فارس ، وشمل نفوذها جزءاً كبيراً من وسـط بلاد العرب وشمالها . وكان اليد العاملة فى بسط هذا النفوذ حجر (آكل المرار) أحد أجداد امرىء القيس ، ولـكن مالبث أن تفكك هذا عنـد ما مات حجر ، ولـكن عاد الشمل فالتم مرّة ثانية لمدة وجيزة حوالى سنة ٥٠٠ م على يد حفيده الحارث بن عمرو ، وصار منافساً خطيراً لاماوى الحيرة وغسان ؛ على حين كانت تعاليم مزدك الاشـتراكية قد اتسع نطاق دعوتها وتغلغلت بين العامة فى فارس حتى انتهى الأمر بأن اعتنقها الملك قباذ[3] نفسه . ومن المؤكد أنه قد حدث بين عامى ٥٠٥ ، ٥٢٩ م أن اجتاح الحارث بن عمرو الـكندى العراق وأقصى المنذر عن مملـكته . وليس من البعيد أن يكون سقوط الأخير — كما يؤكد كثير من المؤرخين — راجعاً إلى عدائه لتعاليم المزدكية التى أثارت سخط مولاه . وعلى كل حال — وأياً كانت الأسباب — فان الحارث قد أقصى المنذرَ وقتاما ؛ وبالرغم من أنه قد عاد إلى عرشه بعد فترة قصيرة قبل تولية أنوشروان الذى قتل كثيرين من أتباع مزدك (٥٢٨ م) فان النسيان لم يسحب ذيوله على ما لحقه من إهانة وقسوة[1]، وإن حياة امرىء القيس وقصائده لتحمل طابع الـكراهية الموروثة التى تأصلت جذورها بين لخم وكندة . ولقد أدّت أعمال المنذر ضد الروم إلى نشاط كبير ، فقد دخل سورية ووصل الى إنطاكية ، ورأى جستنيان نفسه مضطراً لأن يكل أمر الدفاع والذب عن هذه الأقاليم الى الحارث بن جبلة الغسّانى (الحارث الأعرج) الذى وجد فيـه المنذر قوّة تفوق قوّته . ومنذ ذلك الحين أخذ كلٌّ من ملوك الحيرة وغسان فى الاغارة على أقاليم الآخر وتخريبه ؛ وفى إحدى هـذه الغزوات أسر المنذرُ ابنَ الحارث ، وسرعان ما ضحّى به لأفروديت الآلـهة العربية العزى[2] . ولما استرد الأقاليم ثانية سنة ٥٥٤ م فوجىء فى معمعان القتال وذبح فى موقعة تدعى « يوم حليمة » . ومجمل القول أن اللخميين كانوا وثنيين ليس لهم حظ من الرق والحضارة ، تلك التى يستحقها تمـاماً المنذر الثالث . وقد روى الأغانى أنه كان له نديمان من بنى أسد هما خالد بن المضلّل وعمرو بن مسعود ، فأغضباه فى بعض المنطق ، فأمر بحفر حفرتين وأن يجعلا فى تابوتين ويدفنا فيهما ففعلوا ذلك بهما ، حتى إذا أصبح سأل عنهما فأخبر بهلاكهما فندم على ذلك واغتم ؛ ثم ركب المنذر حتى نظر إليهما فأمر ببناء الغريَّين عليهما فبنيا وجعل لنفسه يومين فى السنة يجلس فيهما عندهما يسمى أحدهما يوم نعيم يعطى فيه أول طالع عليه مائة من الابل سوداً ، والآخر يوم بؤس يعطى فيـه أول طالع عليه رأس ظربان أسود ، ثم يأمر به فيـذبح ويطلى بدمه

(١) شكى عظماء من أن بهرام جور لم يتأدب تأدب العجم ، وإنما أدبه أدب العرب وخلقه كخلقهم لنشأته بين أظهرهم ، واجتمعت كلمتهم وكلمة العامة على صرف الملك عن بهرام (الطبرى ج ١ ص ٨٥٨ س ٧ — ٩)

(٢) وقيـل إن ابن ماء السماء كنية له عن أمه التى كانت تدعى مارية أو ماوية

(٣) للاطلاع على مزدك وتعاليمه يمكن القارىء مراجعة ما ترجمه نلدكه عن الطبرى ١٤٠ ، ١٤٤ ، ١٥٤ ، ٤٥٥ — ٤٦٧ وما كتبه الأستاذ براون فى كتابه Lit Hist of Persia ج ١ ص ١٦٨ — ١٧٢

(١) ذبح المنـذر أربعين أو خمسين فرداً من عائلة كندة المالـكة الذين وقعوا أسرى فى يده ، ولقـد كان الحارث أحد من قتلهم المنذر بيده عام ٥٢٩ م ومنذ ذلك الحين أخذ شأن كندة فى الضعف ، وأخذت ترتد بالتدريج إلى مواطنها الأولى فى حضر موت

(٢) وفى مرة أخرى ضحى بأربعمائة راهبة مسيحية لهذه المعبودة

الفريان ، ويقال إن عبيد بن الأبرص كان أول من أشرف عليه يوم بؤسه فقتله[1] ؛ وظل على هذا الحال حتى مرّ به رجل من طي يقال له حنظلة ، فلما رأى نفسه مقتولاً قال له : « أجلني سنة أرجع فيها إلى أهلي ، ثم أصير إليك فأنفذ في حكمك » فقال : « من يكفلك حتى تعود ؟ » فنظر في وجوه جلسائه فعرف فيهم شريك[2] بن عمرو الذي قام وقال للملك : « أبيت اللعن يدي بيده ودمي بدمه إن لم يعد إلى أجله[3] » فلما كان العام القابل جلس في مجلسه ينتظر حنظلة أن يأتيه فأبطأ عليه ، فأمر الملك بشريك ليقتله ، فلم يشعر إلا براكب قد طلع عليهم فتأملوه فإذا هو حنظلة متكفنا متحنطا معه نادبته تندبه ، فلما رآه المنذر عجب من وفائهما وكرمهما فأطلقهما وأبطل تلك السنة[4]

* * *

وقد خلفه على العرش ابنه عمرو الذي يعرفه شعراء العربية المعاصرون والمؤرخون المحدثون باسم عمرو بن هند ؛ وفي عهده أصبحت الحيرة مركزاً أدبياً زاهراً ، وقد وفد على بابه كثيرون من شعراء عصره ، وسترى في الفصل التالي علاقاته مع طرفة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة . ولقد كان عمرو هذا رجلاً شرس الطباع مستبداً طاغية ضاق العرب به ذرعا كما نرى ذلك من قول الدهان العجلي[5] :

أبا القلبُ أن يهوى السدير وأهله ... وإن قيل عيشٌ بالسدير غريرُ

فما أنذروا الحيّ الذي نزلوا به ... وإني لمن لم يأته لنذيرُ

به البقّ والحمّى وأسْد خفيّة ... وعمرو بن هند يعتدي ويجور

ولقي عمرو مصرعه على يد كبير التغالبة عمرو بن كلثوم ، ثأرا لكرامة أمه ليلى التي خدشت عنده

ونكتفي بالاشارة إلى اسمي قابوس والمنذر الرابع ابني هند اللذين ولي كل منهما العرش فترة قصيرة ، ونكون بذلك قد وصلنا إلى آخر ملك لخمي للحيرة ألا وهو النعمان الثالث ابن المنذر الرابع ويكنى بأبي قابوس وقد حكم من سنة ٥٨٥ إلى ٦٠٧ م ، كما نشأ في أحضان أسرة مسيحية شريفة في الحيرة قامت بتربيته وتعليمه ، وكان كبيرها زيد بن حماد أبا الشاعر عدي ابن زيد ، وعدي هذا ذو شخصية جذابة كما كانت وثائقه قوية الصلة بحوادث النعمان ؛ وكان كل من جده وأبيه ذا ثقافة ليست بالقليلة ، وشغلا مراكز سامية أيام المنذر الثالث وخلفائه ، وقد استطاع زيد بواسطة دهقان يدعى « فاروخ ماهان » من اجتذاب عطف كسرى أنوشروان[1] بأن صار كاتب ديوانه ، وذلك منصب لا يرقاه إلا أبناء الأشراف . وحينما اشتد ساعد عدي أرسله أبوه ليتلقى المعارف مع ابن الدهقان فأجاد الفارسية كتابة وقراءة ، كما أتقن العربية اتقاناً تاماً ، وقرض الشعر ، وتعلم ركوب الخيل ، ولعب الكرة ، كما أن جماله الشخصي وذكاءه وذلاقة لسانه وحضور بديهته كل أولئك حبّبه إلى أنوشروان فقرّبه إليه واتخذه كاتباً له ومترجماً في ديوانه ؛ ولم يكن قد كتب بالعربية قط من قبل في الديوان الملكي ، وحباه الملك عطفه ، وبعث به إلى القسطنطينية في سفارة خاصة حيث استقبل أجل استقبال ؛ وعند أوبته أوحى القيصر[2] — جريا على سنة متبعة — إلى جميع الموظفين القائمين بحراسة الطريق بمدّ الخيل في محطات البريد بما يلزمها حتى يرى المبعوث الفارس عظمة واتساع الامبراطورية البيزنطية

(يتبع) حسن حبشي

(١) راجع قصة هلاكه في الأغاني ج ١٩ ص ٨٦ — ٨٧

(٢) وقد ذكر له الأغاني (ج ١٩ ص٨٧ س ١٨) شعراً مطلعه :
يا شريك بن عمرو ما من الموت محاله

(٣) الأغاني ج ١٩ ص ٨٦ طبعة بولاق

(٤) كانت هند أميرة كندية ، وهي ابنة الحارث بن عمرو اتخذ أسره المنذر الثالث جارية ، وكانت نصرانية وأقامت ديراً في الحيرة ، راجع ترجمة ذلك للطبري ص ١٧٢ هامش رقم ١ »

(٥) الأغاني ج ٢١ ص ٩٤ س ١٦ — ١٨

(١) تولى زيد الحيرة نيابة عن الملك بعد موت قابوس ومهد الطريق للمنذر الرابع الذي أسرف في الطغيان حتى كرهه الشعب ومقته « راجع ترجمة نلدكه للطبري ص ٣٤٦ هامش رقم ١ »

(٢) يطلق العرب على الامبراطور البيزنطي لقب قيصر ، والملك الفارسي لقب كسرى

من ديوان البغضاء :

ألســت التى . . . ؟؟

للأستاذ محمود محمد شاكر

بَلَى ! كنتِ فى قلبى سِرَاجاً يضيئه
فيفترُّ عن أنوارِه كلُّ جانبِ

وكنتِ حياة للحياةِ تمدُّها
بأفراحِها فى عابسات المصائب

وكنت لىَ البرَّ الوديعَ إذا غلت
بأمواجها وادَّافعت بالمناكب

وكنتِ نسيماً واللَّظى ينشِفُ اللَّظى
ويترُكُ ظِل الدَّوْح ظلَّ اللَّواهب

وكنتِ ملاذى والشؤون كأنّها
من الدّمع ينبوعٌ يجيش بغارب

وكنتِ إذا ما العينُ مُدّت هيامها
إليكِ تلقّتها أحنُّ الترائب

وكنتِ كأنفاسِ الرياضِ ، عبيرُها
على الفاقدِ المحزون فرْحة آيب

بَلَى! كنتِ... كنتِ السحرَ تبدو صدورُه
من الخير تخفى منه شرَّ العواقب

أرى الحيّة الرقطاءَ أجملَ منظراً
وألينَ مسًّا من ثدىّ الكواعب

إذا ما تراءتها العيونُ بريئةً
من الخوف خالَتها دُعابةَ لاعب

تدانَى إلى اللاّهى دنُوَّ مُقارِبِ
فيدنو ويُدْنِى كفّه كالمُداعب

ألا ارْفَعْ يداً ، واذهب بنفسك رهبةً
فمِنْ حُسْنها نابٌ شــديد المعَاطب

بَلَى ! كنتِ ... إذْ عينى عليها غشاوةٌ
وإذْ أرتدَى من سوادِ الغياهب

وأُخرى على عينِ البصيرة خيَّلت
لنفسى هداها بالأمانى الكواذب

أرى من تكاذيب الخيالِ كأنّنى
إلى جنة الفردوس أحدو ركائبى

أُغنى لآمالى لأبلغ غايتى
وأُدرك لذّاتى ، وأُجنى مطالبى

وما ذاكِ إلاّ راحةُ القلب بالهوى
وبالوُدّ فى عيشٍ شديد المتاعب

وأنْ أرِدَ الماء الزلالَ . . . ولم أرِدْ
وقد عشت دهراً — غيرَ رَنْقِ المشارب

ألا فاعلمى أنى ظَمِئت ، وأنّنى
تجنبت جُهدى المأجمَ الشوائب

لجئتُـــك ظمآناً يموتُ بِغُلّةٍ
فأغريت بى الغُلاّتِ من كل جانب

لقد كنتُ خِلواً أنتحى حيث أشتهى
وأرْضَى وآبى مُقدِماً غير هائبِ

تسهِّلُ لى الصعب الأبى عزيمتى
ويكفُلُ لى صدق قضاء مآربى

وأرمى بنفسى فى المهالك باسماً
لأنفُذَ منها باسماً غيرَ خائب

فواحزنَا . . . ! أضلّت عزمى وهِمّتى
وأيتمت أفكارى وضيعت واجبى

تخشَّمت تحت الحُبِّ والوَجد والجوى
وطول اضطرابى فى الهموم الغوالب

أذلَّ شبابى الحبُّ حتى رأيتُنى
أمرُّ بأترابى مرور المُجانِبِ

وأحسدُهم مِمّا لقيت ... وإنّنى
لأخشى عليهم مِحنتى وتجاربى

ألا وَيحها ! ! كم بت أرقُبُ طيفها !
وكم سهرت عينى نجىَّ الكواكب !

وكم طُفت بالبيداء أطاب خـلوة !
وأُرسل طَرْفى فى ضلال المذاهب !

أُمثّلها حتى أكادَ أمسها !
وأُلقى إليها ما تضمُّ جوانبى !

وأشتاقُها والبحر بينى وبينها
وبيدٌ تعاوت بالرّياح الغواضب!

فلما التقينا ضمّنا الشوق والهوى
وكان حديث الوصل صمت الرغائب

ولـكن . . . رمت بينى وبينك بعدهُ
ضريبة أُنثى . . . وهى شرُّ الضرائب

فأطلقت فى إثرى الضوارى مُجدة
تمان على أنيابها بالمخالب

تمزّقنى ألحاظها وعيونُها
كأنى أُرْمى بالسهام الصوائب

يفزِّعُنى ظِلّى إذا ما لمحتُه
وقد غالنى رُعبى وسُدَّت مهاربى

فما كِدْت أنجو بالحشاشة بعدما
تلقيت من حُبيك شرّ النوائب

ألا لاَ تقولى كيف كنت !!.. فإننى
أرى كلَّ أُنثى شرُّها غيرُ غائب

[البقيــة فى ذيل الصفحة التالية]



فرانسسكو جـــويا

GOYA

للدكتور أحمد موسى

يعد جويا من أغرب شخصيات القرن التاسع عشر وأبعدها أثراً في الفن . ظل يصور حتى تجاوز الثمانين من عمره ، وقضى حياة حافلة بمختلف الحوادث والعبر ، وبوفاته انتهى دور من أهم أدوار الفن الأسباني

ولد فرانسسكو جويا في ٣٠ مارس سنة ١٧٤٦ في فوندیتورس إحدى القرى الصغيرة في مديرية أراجون لوالدين فقيرين اشتغلا بالفلاحة في قطعة صغيرة من الأرض كانت مصدر حياتهم ؛ فكانت طفولته مليئة بالعمل والتعب والملل .

وعندما بلغ الثانية عشرة من عمره رسم شكلا تخطيطياً لخنزير على حائط مسكنه الريفي ، وشاهد أحد الرهبان هذا الرسم مصادفة فوجد فيه ما يدل على استعداد راسمه ؛ فتقدم إلى والده ناصحاً بأن يذهب بابنه إلى فنان يقيم في سرقوسه وهي أقرب البلدان إلى قريتهم

كان أول معلميه جوزى لوزان مارتنز ، فعرف منه كيفية تحضير الألوان وشد قماش اللوحات في الأطار ، وما إلى ذلك من وسائل العمل نظير خدمته لمعلمه

وفي مدة وجيزة استطاع جويا أن يفهم الأسرار العملية لمهنته التي ولد لها ، وأمكنه أن يصور بعض تفاصيل مهمة على لوحات معلمه ، ولم تنقض ثلاث سنوات حتى رخّص له مارتنز برسم لوحات بأجمعها

جمع جويا بين ظاهرة العبقرية الفنية وبين قوة العضلات ؛ فكان يمضي أوقات فراغه في الرياضة البدنية والمصارعة والجرى وحمل الأثقال

وكان محبوبا من بنات البلدة اللواتي كن يحضرن لمشاهدة مصارعته مع أمثاله الذين تغلب عليهم دائماً . وكان كثير التردد على القهوات والحانات فكان روادها يخشون بأسه .

بدأ جويا حياته الفنية بتصوير العذراء ، فأخرجها إخراجا أنيقاً في ثوب رقيق وقوام رشيق . ومع هذا السمو كنت تراه أحياناً يغني أغاني شعبية عامية لا تنسجم مطلقاً مع مصوراته في ذلك الحين ، كما كان عصبي المزاج سريع الغضب سريع البطش

عاد في آخر الليل مرة مع أصدقاء له إلى المدينة فصادفه في حارة قذرة من حاراتها نفر من قطاع الطرق الذين أرادوا به وبأصدقائه شراً ، ولكن جويا بمساعدة رفاقه استطاع مطاردتهم وقتل ثلاثة منهم

ولم يترك الفرصة تسنح للقبض عليه ففر هارباً إلى مدريد . ظهر في العاصمة كفنان بسيط ، ولم ير سبيلاً إلى العيش لأنه

ترومينَ مني الودَّ بُقيا عَلَى الذى
مضى..!! خاب فألى أن أرى غير تائب

ترومين مني الودّ ! . . تلك عجيبة
وأسعى لذبحى ! تلك إحدى العجائب

تشهَّيت لحماً..! فات ما تشتهينه
فلم يبق من لحى ضمامٌ لساغب

تمليت هذا البغض حتى رأيتنى
أربب حيّاتى وأغذو عقاربى

فإن يك يُغضى كلَّ ذنب جنيته
إليك..! فانى لست منه بتائب

وكيف ! . . وقد أنهكتنى وعرقتنى
وقدت عَلَى قلبى جيوش النوائب !

ذرينى . . . ولكن الحياة مليئة
بكن . . . فما في الأرض منجى لهارب

محمود محمد شاكر

لم يكن يعرف أحداً فيها . كان دائب البحث عن أي عمل ولكنه كان يعود مساء كل يوم كسير القلب إلى الملجأ الذي أقام فيه

وفي صباح يوم وجد السكين في إحدى الأزقة الضيقة وقد اعتدى عليه بالسكين فأخذه أولئك الذين كان يقيم معهم وعنوا به حتى شفي من جراحه



علم البوليس بأنه من الماطلين المدمنين على شرب الخمر فطارده إلى خارج العاصمة ، فذهب إلى حلبة مصارعة الثيران واستطاع أن يجد عملاً حقيراً نظير أجر بسيط ادخر معظمه حتى تمكن به من الوصول إلى إحدى موانى أسبانيا الجنوبية حيث أبحر إلى شاطىء إيطاليا الغربي . وصل إلى روما وهناك أمكنه العمل عند فنان شمبي راجت حاله

وعند هذا الفنان تعرف إلى أناس لا يميلون بطبعهم إلى العلم ولا إلى المتعلمين وإنما هم من أولئك الذين تجتذبهم حياة الشوارع وما فيها من وسائل لقتل الوقت

ومال بطبيعته وبحسب استعداده وبعامل البيئة التي عاش فيها إلى تصوير مناظر الأزقة والحارات والقهوات على نقيض الفنانين الآخرين الذين كانوا كثيراً ما يتحاشون إظهار هذه المواقف على لوحاتهم

وهذه نزعة لم يسبق أحد إليها خصوصاً وأنه أكثر من تصوير الوجوه الثائرة والمناظر الشاذة المتصلة بحياة الجمهور والغوغاء مباشرة ، حتى لترى هذه المسحة على معظم لوحاته التي تعد بحق خير مسجل لشخصية مصور من أنبغ فناني القرن التاسع عشر

صعد يوماً إلى قبة كنيسة بطرس ليحفر الأحرف الأولى من إسمه ، ولا تزال محفورة إلى اليوم . وهكذا كانت إقامته في روما غريبة الأطوار . وقد تعرف فيها بسفير روسيا الذي طلب إليه السفر إلى بطرسبرج ليكون مصوراً للقصر . وفي أثناء المفاوضة في هذا الشأن قبض عليه بتهمة تحريض إحدى الراهبات على عمل غير شريف . ولولا اتصاله الوثيق بسفير روسيا لما استطاع الأفلات من يد العدالة

كان جويا تعساً في غربته ، وكان دائم الحنين إلى بلدته ، ورأى في إقامته الطويلة بروما تكفيراً كافياً لسابق جرائمه ، فعاد إلى مدريد سنة ١٧٧٥ وتزوج من جوزيفينا بايو شقيقة الفنان فرانسسكو بايو الذي كان مصوراً في قصر مدريد والذي بوساطته استطاع جويا أن يقوم بعمل تصميمات لمناظر وزخارف الأقمشة التي كانت تغطى بها حوائط القصر . وأول تصميم له نسج على قماش لهذه الغاية سنة ١٧٧٦ ، واستمر حاله هكذا حتى سنة ١٧٩١ ، وتدرج في التقرب من سادة القصر وتقدم في فنه تقدماً عظيماً حتى أصبح أبرز فناني عصره في أسبانيا ، وعمل لوحات مثال الحياة على الصورة التي تغلغلت في نفسه كما صور أكبر الشخصيات

كان جويا فناناً بكل معاني الكلمة ، كما كان بوهيميا في علاقته الزوجية ، ولم يخل تاريخ حياته من فضائح أهمها اتصاله بأميرة إلبا التي عشقها عشقاً ملك عليه مشاعره فصورها على لوحات تجل عن الحصر في مواقف مختلفة ، وكان يعيش في جناح من قصرها . أما هي فكانت تتوجه من حين لآخر إلى زوجته وأولاده وتقدم اليهم العطايا والهدايا



ولم تكن الملكة راضية عن هذه العلاقة ؛ فعمدت ترتيباً

أخرجت به الأميرة من القصر إلى جهة نائية . سافر جويا بصحبة مشوقته فى عربة خاصة كسرت عجلتها فى الطريق الوعر ، فقام بعمل الاصلاح اللازم كما لو كان حداداً ماهراً ، وأمكن السير بالعربة إلى أقرب قرية لتغيير العجلة . تعرض جويا بعد هذا المجهود للهواء البارد فأصيب بصمم فى احدى أذنيه لازمه حتى آخر حياته

مضت الأعوام وعادت الأميرة إلى مدريد وماتت بعد وصولها . وعاد هو لتصوير مناظر دلت على منتهى الحنق والحقد على النساء ، كما دلت على كثير مما خالج نفسه من البؤس والشقاء

زحف الفرنسيون على مدريد فقابلهم جويا بكل ترحيب وانضم إليهم بقلب مطمئن ، وبعد خروجهم منها وجهت إليه تهمة الانضمام للعدو ؛ إلا أنه تمتع بالعفو لكبر سنه

بدأ الهدوء يدب إلى نفسه ، واستمر يصور لوحاته ، وأكمل مجموعته بالقلم الرصاص حتى بلغ السابعة والسبعين ، ثم رحل إلى وردو عملاً بمشورة طبيبه ، ولم يترك التصوير مع ضعف بصره ، بل كان يستعين بالمجهر . وآخر لوحة له صورها فى سن الحادية والثمانين ، ومات بعدئذ بسنة واحدة سنة ١٨٢٨

هذه هى ترجمة فنان لم يكن له نظير فى مجرى حياته ولا فى قوته الانشائية لمجموع لوحاته التى من أشهرها صورة (البقرة العمياء) تمثل مجموعة من بنات وشبان تتوسطهم بنت مغمضة العينين تبحث عمن يناديها (محفوظة بمدريد) ، وصورة (الغداء فى النبيط) وفيها مثل الطبيعة تمثيلاً رائعاً (محفوظة بلندن) وصورة (النزهة فى الأندلس) وكانت مرسومة خصيصا للنسج (محفوظة بمدريد) وصورة الولد النطاط وهى من أدق الصور التى تدل على منتهى قوة الملاحظة والاخراج : وقفت اربع بنات يحملن ملاءة كبيرة وفوقها صبى واقف على ساق واحدة استعدادا للقفز إلى أعلى عندما يشددن الملاءة

وصورة (المشاجرة فى الملجأ) وهى من أحسن صوره ، تذكرنا بوقت بؤسه عندما كان بعيداً عن بيته يبحث عن عمل ولم يجد إلا ملجأ حقيراً يأوى اليه . والناظر فيها يأخذه العجب عندما يرى أنها تمثل حياة الملاجىء تمثيلا صادقا ؛ صور عليها بعض الحيوانات وبعض الأشجار وعربة قديمة فى ركن من اللوحة ؛ أما وسطها فقد وقف المتشاجرون موقفا عنيفا لا يستطيع غير جويا أن يخرجه فى هذه القوة

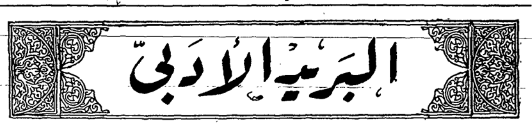
وله لوحة خالدة (محفوظة بمدريد) اسمها (الرمى بالرصاص) على يمينها وقف الجنود شاهرين بنادقهم ، وعلى اليسار اصطف النبوذون مستسلمين للأعدام ، وقد أعطى الصورة ظلا ونورا قويين قلما نراها لغيره من الفنانين

هذا غير لوحاته العظيمة للشخصيات البارزة فى عصره ، كصورة مارى لويس ، وصورة فرديناند السابع وصورة أمير الكاديا وغير ذلك مما يجل عن الحصر

وله لوحات تعد من أغرب ما تركه فنان ، منها صورة (شجرة الربيع) ، وهى تمثل صبية التفوا حول رجل يحمل ساقا طويلة ثبت فى أعلاها شجرة صغيرة وولدان صغيران يتسلقان الساق

أما لوحته (بالقلم الرصاص) المثلة لحلبة مصارعة الثيران فهذه تعد فى مجموعها من أعظم ما أخرجه ؛ فقدرته على تصوير الثور الثائر والمصارع الماهر لاسبيل إلى وصفها .

أحمد موسى



توحيد الثقافة العربية

بحث أساتذة كلية الآداب بالجامعة المصرية منذ أسابيع فى أمثل الطرق إلى توحيد الثقافة فى البلاد العربية ، ثم رأوا أن يذاكروا فى ذلك إخوانهم القائمين على أمور الثقافة فى لبنان وسورية وفلسطين ، فدعوهم إلى القاهرة فى عطلة عيد الفطر ، فلبى الدعوة بعض أساتذة الجامعة الأمريكية فى بيروت والأستاذ اسحق الحسينى عن فلسطين ، ولم يستطع الأساتذة الدمشقيون الحضور لأسباب طارئة ؛ ثم قضوا فى القاهرة أسبوعا حافلاً بالزيارات والمشاهدات على برنامج معين ؛ واجتمعوا مراراً فى دار « لجنة التأليف والترجمة والنشر » وتناقشوا فى موضوع الدعوة ومناهجها ووسائلها ، فأسفرت المناقشة عن اتفاقهم على هذه الأسس الآتية :

١ — أن تؤلف جمعية لتوحيد الثقافة العربية وتركيزها وتقويتها تتكون من ٢٤ عضواً هم الداعون والمؤسسون

٢ — أن تسعى الجمعية فى أن تضم اليها أعضاء من البلدان العربية الأخرى ، وهى العراق وشرق الأردن وتونس والجزائر ومراكش

٣ — أن يراعى فى اختيار الأعضاء الجدد أن يمثلوا فروع الثقافة المختلفة

٤ — أن تؤلف لجان فنية لدرس النهضات الفكرية والبرامج التعليمية فى البلاد العربية لتوحد غاية التعليم وتقرب مناحى الفكر بقدر ما تسمح بذلك طبيعة الأقليم

٥ — أن تتلافى تعارض الجهود الأدبية ، فلا ينشر مثلاً كتاب قديم فى بلد يكون بلد آخر قد أخذ ينشره على صورة مرضية

٦ — أن تعمل الجمعية لأصدار مجلة خاصة بها يعالج فيها أعضاؤها الأغراض التى أنشئت لها

٧ — أن تعقد الجمعية مؤتمرات ثقافية فى العواصم العربية على التتابع يحضرها الأعضاء ومن يدعون من الأدباء والعلماء فيوثقون الروابط ويرصدون التطور ويوجهون الجهود إلى الغرض المشترك وسننشر أسماء الأعضاء وتفاصيل المشروع فى فرصة أخرى

لجنة تفسير القرآن تحدد الغرض منه وتضع قواعد العمل

حددت اللجنة التى ألفت لتفسير القرآن الكريم تمهيداً لترجمة معانيه غرضها بأنه : « وضع تفسير يقصد به إلى فهم معانى القرآن الكريم كما يدل عليه نظمه العربى المبين ، ومعرفة ما فيه من أنواع الهداية ، ويكون فى متناول جمهرة المتعلمين فهمه والاهتداء به إلى معانى القرآن فى سهولة ويسر »

ولتحقيق ذلك تتبع القواعد الآتية فى التفسير :

١ — أن يكون التفسير خالياً ما أمكن من المصطلحات والمباحث العلمية إلا ما استدعاه فهم الآية

٢ — ألا يتعرض فيه للنظريات العلمية فلا يذكر مثلاً التفسير العلمى للرعد والبرق عند آية فيها رعد وبرق ، ولا رأى الفلكيين فى السماء والنجوم عند آية فيها سماء ونجوم ؛ إنما تفسر الآية بما يدل عليه اللفظ العربى ، وتوضح مواضع العبرة والهداية فيها

٣ — إذا مست الحاجة إلى التوسع فى تحقيق بعض المسائل وضعته اللجنة فى حاشية التفسير

٤ — ألا تخضع اللجنة إلا لما تدل عليه الآية الكريمة ، فلا تتقيد بمذهب معين من المذاهب الفقهية ، ولا مذهب معين من المذاهب الكلامية وغيرها ، ولا تتعسف فى تأويل آيات المعجزات وأمور الآخرة ونحو ذلك

٥ — أن يفسر القرآن بقراءة حفص ، ولا يتعرض لتفسير قراءات أخرى إلا عند الحاجة اليها

٦ — أن يجتنب التكلف فى ربط الآيات والسور بعضها ببعض

٧ — أن يذكر من أسباب النزول ما صح بعد البحث ، وأعان على فهم الآية

٨ — عند التفسير تذكر الآية كاملة أو الآيات إذا كانت كلها مرتبطة بموضوع واحد ثم تحرر معانى الآية أو الآيات مسلسلة فى عبارة واضحة قوية ، ويوضع سبب النزول والربط وما يؤخذ من الآيات فى الموضع المناسب

٩ — ألا يصار الى النسخ إلا عند تعذر الجمع بين الآيات

١٠ — يوضع فى أول كل سورة ما تصل إليه اللجنة من بحثها فى السورة ، أمكية هى أم مدنية ، وماذا فى السورة المكية من آيات مدنية والعكس

١١ — توضع للتفسير مقدمة فى التعريف بالقرآن وبيان مسلكه فى كل فن من فنونه كالدعوة إلى الله وكالتشريع والقصص والجدل ونحو ذلك ، كما يذكر فيها منهج اللجنة فى تفسيرها

طريقة التفسير

١ — تبحث أسباب النزول والتفسير بالمأثور ، فتفحص مروياتها وتنقد ، ويفرد الصحيح منها بالتدوين ، مع بيان وجه قوة القوى وضعف الضعيف من ذلك

٢ — تبحث مفردات القرآن بحثاً لغوياً ، وخصائص التراكيب القرآنية بحثاً بلاغياً وتدون

٣ — تبحث آراء المفسرين بالرأى والتفسير بالمأثور ، ويختار ما تفسر الآية به مع بيان وجه رد المردود وقبول المقبول ويفند ذلك كله

٤ — يصاغ التفسير المختار مستوفياً ما نص على استيفائه فى الفقرة الثانية من القواعد السابقة ؛ وتكون هذه الصياغة بأسلوب مناسب لأفهام جمهرة المتعلمين خال من الاغراب والصنعة

التوزيع

نظراً لظروف أعضاء اللجنة وتحقيقاً للتعاون رئى أن تقوم لهذه الأعمال الأربعة جماعتان فقط : أولاهما تقوم ببحث أسباب النزول والتفسير بالمأثور وبحث آراء المفسرين بالرأى وما يستنبط من الآية . الخ . وتتألف من فضيلة رئيس اللجنة وحضرات الأساتذة جاد المولى بك ، وأحمد أمين ، وأمين الخولى ، والشيخ على الزنكلونى ، والشيخ محمود شلتوت

وثانيتهما تقوم ببحث المفردات اللغوية والأوجه البلاغية كما تقوم بالصياغة الأخيرة للتفسير الذى يختار ؛ وتتألف هذه الجماعة من حضرات الأساتذة على الجارم بك ، ومصطفى عبد الرازق ، والشيخ ابراهيم حمروش

على أن تقدم الجماعة الثانية بحثها أولاً فى المفردات اللغوية والأوجه البلاغية للجماعة الأولى التى تتقاسم بينها أعمالها وتقدم تقاريرها ، وما يستقر عليه الرأى فى اختيار المعنى يعرض على اللجنة الكاملة مجتمعة فتنتهى فيه إلى قرار يقدم بعده الى الصياغة فتنجزها الجماعة الثانية وتعرضها على اللجنة العامة مجتمعة ليقر إقراراً نهائياً مع ملاحظة أن كل خطوة يتم بحثها يطبع ماتم فيها ويوزع على أعضاء اللجنة جميعها ليدرسوه قبل مناقشته فى اللجنة العامة

التفسير المختصر

تقرر كذلك أن تضع اللجنة بعد الفراغ من تفسير كل آية أو آيات موجزاً يختصر من التفسير الأول اختصاراً دقيقاً فى جلاء ووضوح يفرد وحده ويكتب فى كتاب خاص

وفاة شاعر تركيا الكبير محمد عاكف بك :

فى ٢٩ من ديسمبر الماضى استمز الله بالشاعر الكبير محمد عاكف بك أستاذ اللغتين التركية والفارسية فى كلية الآداب بالجامعة المصرية ، وكانت علته الفادحة قد اضطرته إلى اعتزال هذا المنصب فى يونيو سنة ١٩٣٦ والسفر إلى الآستانة حيث قضى نحبه بين قومه . كان الفقيد أستاذاً فى جامعات تركيا قبل الانقلاب ، وزاول الصحافة زهاء ثمانية عشر عاما أصدر فى خلالها مجلتى (صراط مستقيم) و (سبيل الرشاد) ؛ وكان إلى ذلك عضواً فى المجلس الوطنى أثناء حرب الأناضول

ولا تزال قصائده الوطنية وأناشيده الحماسية التى نظمها فى ذلك الحين تملق بالقلوب وتجرى على الألسن . ومن روائعه الخالدة فى الأدب التركى قصيدة (جناق قلعة) التى وصف فيها موقعة الدردنيل وصفاً بليغ المعرض شديد الروعة ؛ وقصيدته فى رحلته من نجد إلى المدينة ؛ ثم نشيده الوطنى الذى يردده ملايين

الأتراك . وقد اشتمل ديوانه على خمسة أجزاء نشرها جميعاً تحت عنوان (صفحات)

وفد إلى مصر منذ أربعة عشر عاما لاذم فيها المغفور له الأمير محمد عباس حليم ؛ وقد نظم فى مصر والمصريين قصائد رائعة ، منها قصيدته (مع فرعون) . وعسى أن تتهيأ الفرصة لصديقه الحميم الوفى الدكتور عبد الوهاب عزام فيجلو لقراء « الرسالة » نواحى أدبه بعد مماته ، كما أمتعهم بروائع شعره فى حياته .

كتاب الأشباح :

صدر أخيراً فى انكلترا كتاب طريف مدهش مما عنوانه : «قصص حقيقية عن الأشباح» True gohost Stories بقلم المركيزة تونز هنـد أوف رينهام والسيدة مود فولـكس ؛ وطرافة هـذا الـكتاب فى أن هذه القصص التى يحتويها ليست قصصاً خيالية من مبتكرات مؤلفتها ، وإنما هى قصص حقيقية واقعية تؤيدها المركيزة تونز هند بكثير من الأدلة والشواهد ؛ وهى فى مجموعها تدور على العلاقة بين الأحياء والأموات ، وعلى الاتصال بأرواح الذاهبين ومثولها فى كثير من الأحيان . والمركيزة تونز هند مؤلفة هذه المجموعة هى من أشهر المشتغلات بمسائل الأرواح والغيب ، ولها فى ذلك تجارب شهيرة ؛ وهى تقيم منذ أعوام فى دار اشتهرت منذ بعيد بمـا يسكنها من الأشباح والأرواح ، وهى دار رينهام وتعرف فى مقاطعة نور فولك « بالبيت الأعظم » ؛ وقد كانت هذه الدار مسرحا لأكثر من مأساة دموية ، ولها شهرة مرعبة فى جميع الأنحاء المجاورة

وإذا كانت تلاوة قصص الأشباح المختلقة تثـير الدهشة والجزع أحياناً ، فأن تلاوة هـذه القصص الحقيقية تثير الروعة والرعب فى الأذهان المؤمنة

وفاة الشاعر والفيلسوف الاسبانى أونامونو

من أنباء أسبانيا الأخيرة أن الفيلسوف الـكاتب الشاعر الاسبانى الـكبير ميجويل دل أونامونو مدير جامعـة شلمنقه (سلامانكا) قد توفى فى الثانى من يناير . وكان مولده بثغر بلباءو فى سـنة ١٨٦٤ ؛ ودرس دراسة جامعية حسنة ، وبدأ أستاذا للغة اليونانية فى جامعة شلمنقة سـنة ١٨٩١ ؛ واشتغل منـذ حداثته بالشعر والأدب ، ودرس الفلسفة دراسة مستفيضة . وأخرج فى سـنة ١٩٠٧ ديوانه « Poesies » فلقى تقديراً عظيما ، وتبوأ أونامونو مكانته فى الطليعة بين شعراء أسبانيا المعاصرين . وعالج أونامونو كتابة القصة أيضاً ؛ وأخرج منـذ سنة ١٨٩٧ قصته الشهيرة : « السلام فى الحرب » وفيها يصف مسقط رأسه ، ومشاهد صباه ؛ ثم اتبعها بقصة عنوانها « من بلادى » ، ثم بقصة « المركيز دى لومبريا »

بيد أنه اشتهر على الأخص بمباحثه الفلسفية ، فأخرج فى سنة ١٩١٣ كتابه « الشعور المؤسى بالحياة » ؛ وفى سنة ١٩٢٥ أخرج كتابه الشهير : « احتضار النصرانية » ، وأخرج أيضاً عدة كتب أخرى فلسفية ولغوية

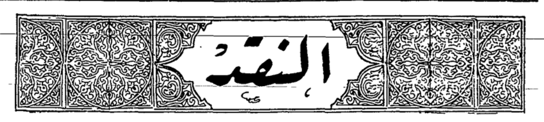
ومنذ سـنة ١٩١٤ يشغل أونامونو منصب مدير جامعة شلمنقه . وقد عزل عن كرسيه سنة ١٩٢٤ لمطاعنه اللاذعة فى نظام الطغيان العسكرى الذى أنشأه الجنرال دى ريفيرا ؛ ثم نفى مدى حين إلى جزر الكنارى ، ثم رحل إلى فرنسا . وكتب فى منفاه عدة رسائل وكتباً شائقة منهـا : « كيف تكتب القصة » ، ومنها كتابه المؤثر : « رومانثيرو فى المنفى » ، ولمـا انهارت دعائم الطغيان فى أسبانيا عاد أونامونو إلى شلمنقه ، وأعيد إلى منصبه الجامعى

وقد كان أونامونو من أعظم الشخصيات الأدبية التى طبعت الأدب الاسبانى المعاصر بطابعها العميق

تصويب

جاء فى الصفحة ٣٤ من العـدد الماضى : « فى الجنوب تحت السماء الحارة » وصواب الترجمة : ساعة الزوال — تحت السماء الحارة





سلسلة الموسوعات العربية

معجم الأدباء

للدكتور عبد الوهاب عزام

أخي صاحب الرسالة :

أود أن تفسح لي قليلا في صفحات رسالتك فاني مضطر إلى التوسع قليلا في الكتابة . وسأضنّ كما ضننتُ من قبل بصفحات الرسالة القيّمة فأقتصر على سرد أغلاط المعجم سرداً واثقاً بفهم القارئ، مكتفياً باللمحة الدالة والاشارة الموحية ، ولو استوعبت الأغلاط وأسهبت في بيان الأدلة لكان لنا معجم آخر

أبدأ مقال اليوم بكلمة في نقد الأستاذ الفاضل محمود مصطفى وأخرى في نقد الأديب الكريم عبد العظيم قناوى وثالثة في مقالات الأستاذ عبد الخالق عمر

وأود أن يتنبه الكاتبون إلى أمرين ؛ الأول : أننا في شأن كتاب قديم يُنشر . فكل همّنا أن يكون الكتاب كما أراده مؤلفه . فاذا أثبت الناشر أو المصحح كلة تدل القرائن على أن المؤلف لم يكتبها فهي غلط على المؤلف ولو كان لها محمل في اللغة

والثاني : أن مقياسنا في النقد هو اللغة التي نتعلمها ونعلّمها ونكتب بها ، ونعرف أن المؤلف كتب بها ، فالأوجه الشاذة والمحامل الضعيفة ليس لها مساغ هنا

أقول بعدُ للأستاذ محمود مصطفى :

١ — جاء في مقدمة ياقوت : « إذ كل همه تحصيل المأكول والمشروب . » والقارئ بين أن يقرأ هَمُّه فيخرج الكلام على وجه قويّ ، وبين أن يقرأ « هَمَّه » فيحمل الكلام على وجه ضعيف ، لأن همّ لازمة أصالة عرض لها التعدى توسّعا ، وأمّ متعدية وضعاً ، وهي لغة القرآن . وليس من حقنا أن نعدل عن الراجح إلى غيره دون ضرورة . على أن المصححين أنفسهم اعترفوا بأن عبارة المؤلف « هَمُّه » بالضم واستدركوها في آخر الجزء الرابع فلا موضع للجدال

٢ — وجاء في الكتاب : « ومعاوية بفارسٍ » فقلت إنها ممنوعة من الصرف . فنقل الأستاذ عن القاموس أن فارسَ الفرسُ أو بلادهم . وقال إن التذكير والتأنيث في أسماء القبائل والمواضع جائز فيجوز فيها الصرف والمنع . وأنا أقول : إن فارس في عبارة ياقوت ليست الفرس أو بلادهم ، ولكنها ولاية في الجنوب الشرقي من بلاد الفرس . فليرجع إلى الكتاب . وأما الصرف ومنعه بنية التذكير أو التأنيث فهو من مماحكات بعض النحويين . وقد جرت اللغة على تأنيث ألفاظ وتذكير أخرى ، وإجازة الوجهين في غيرها . فلا ينبغى أن ننوى التذكير في لفظ جرت اللغة على تأنيثه . فذلك ضرب من التأول لا حاجة إليه . وقد جرى العرب على تأنيث فارس . جاء في الحديث : « خدمتهم فارس والروم . » وشواهد هذا كثيرة . وهؤلاء مؤرخو المسلمين هل تجد من يقول « فُتِح فارس » أوهم جميعاً يقولون : فتحت بالتأنيث ؟ وما رأىَ الأستاذ في هذا النص : قال ياقوت نفسه في معجم البلدان : « قال أبو عليّ : فارس اسم البلد وليس باسم الرجل ؛ ولا ينصرف لأنه غلب عليه التأنيث … وليس أصله بعربي بل هو فارسيّ معرب بارْس »

٣ — وأما ميسرة فقال الأستاذ فيها إنها مثلثة . ولا أظنه يجادل أن المختار فيها الفتح وبه جاء القرآن . فضَبْط كلة مثلثة على غير الوجه المختار فيها غلط . وكان على المصحح أن يتركها لاختيار القارئ أو يبين الوجه المختار فيها . على أن المصحح اعترف في مقالة له بالقطم أن « ميسُرة » غلط مطبعي . فان أراد الأستاذ من بعدُ أن يجادل فيها فليجادل المصحح نفسه

٤ — جاء في ياقوت « لغوياً نابهاً ثَبَتاً » فقلت الصواب : « ثبْتاً » بالسكون . والثبَت بالفتح البرهان اسم لا وصف . فقال الأستاذ : إن القاموس أجاز فيها الفتح ، وظن أني وهمت

حين قرأت قول شارح القاموس : « وقيل للحجة ثَبَت بفتحتين إذا كان عدلاً ضابطاً » فذهب بالى (كما يقول) إلى أن الحجة هنا الدليل والبرهان . أقول : هل يظن الأستاذ حقاً أنى إذا قرأت هذه العبارة والشارح يقول فيها : « إذا كان عدلاً ضابطاً » يذهب بالى إلى أن الحجة هنا البرهان ؟ ثم أقول له : لا ريب أن الوصف ثبْت بالسكون ، وأن التَّبَت مصدر . قال صاحب اللسان : « ورجل له ثَبَت عند الحملة بالتحريك أى ثبات » . ويقال للبرهان ثَبَت . قال فى اللسان : « لا أحكم بكذا إلا بثَبَت أى بحجة . وفى حديث صوم يوم الشك : ثم جاء الثَّبَت أنه من رمضان . الثَّبَت بالتحريك الحجة والبينة » . فاذا قيل للرجل الثبْت ثَبَت ، فذلك كما يقال له حجّة ، وكما يقال رجل عدْل . كل هذا وصف بالمصدر للمبالغة . فأما الوصف الأصيل الدائر على ألسنة المحدثين فهو ثبْت بسكون الباء ، وهو الذى تحمل عليه عبارة ياقوت . فضبط الباء بالفتح إن لم يكن غلطاً فهو عبث

٥ — جاء فى ص ١١٥ ج ١ : أُضيقت إضاقة شديدة الخ . قلت الصواب أَضَقت . ويريد الأستاذ محمود أن يصوبها مبنية للمفعول . كأن الرجل يقول : أضاقنى الزمان فأُضيقت أى صرت ضيقاً . وهذا تعسف لنصر الغالط على الصواب . والوجه أن يقال : أضاق الرجل كأعسر . قال صاحب اللسان : « أضاق الرجل فهو مضيق إذا ضاق عليه معاشه . وأضاق أى ذهب ماله » فما بالنا نعدل عن المنهج الواضح الى بُنَيّات الطريق ؟

٦ — وجاء فى ص ٢٠٩ : نزل ثغر المُصَيْصَه . قلت الصواب : المَصِّيصَه ، وقال الأستاذ إنها المِصّيصه ، واحتج بكتابه إعجام الأعلام . وأيد حجته بقولين متناقضين : قول صاحب القاموس بأنها كسفينة ؛ وقول صاحب التقويم إنها مِصّيصة . ثم خطّأ الناقد والمنقود وجعلنى أوفر نصيباً من اللوم ؛ وأنا أحتج عليه بقول ياقوت نفسه ، قال فى معجم البلدان : « المَصّيصَه بالفتح ثم الكسر ثم التشديد وياء ساكنة وصاد أخرى . كذا ضبطه الأزهرى وغيره من اللغويين بتشديد الصاد الأولى الخ » ومثل هذا فى اللسان . ثم أقول للأستاذ إن كان الناقد حين يخطئ أجدر باللوم من المنقود ، فما تقول فى خطأ ناقد الناقد ؟

٧ — جاء فى الكتاب ص ٢٤٠ : أنه من عُمار الناس وصفارهم . قلت الصواب : عِمار بالكسر . وصوّب الأستاذ الوجهين ، واعترف المصحح أن الكسر أولى ، وأن الضم غلط الطبعة ؛ وأنا أقول مع الأستاذ محمود إنه لم يخطئ فى هذا ولم تخطئ الطبعة

وبعد ، فأسأل الأستاذ الفاضل : ما رأيه فى بقية الغلطات التى أخذت على الجزء الأول ؟ لماذا لم يتعرض لها فى مقاله ؟ وإن كان راضياً بها فلماذا لم يصرح بهذا ؟

* * *

وأما الأستاذ عبد العظيم قناوى فقد شارك الأستاذ مصطفى فى كلمتى « مَمَّه وميسُرة » . وقد تقدم الكلام فيهما . وبقى من ردّه قوله فى البيت :

أمُطْرٌ منى على بصرى بالحبِ (م) أم أنتِ أكمل الناس حسنا

إن هذا الضبط جائز — وهذا غلط بيّن ، فالشطر الثانى خطاب لامرأة . وهو لا يستقيم مع هذا الضبط . ثم المسألة ليست مجالاً للرأى بل هى رواية يجب أن تتبع ، والبيت فى كتب الثقات كما رويته . وقد اعترف المصححون أنفسهم بالوجه الصحيح الذى نبهتُ اليه .

وقوله إنه يجوز فى « أما كسهم وزبدونى » حذف النون . وذلك حمل للكلام على الأوجه الشاذة . وقد تقدم القول فيه

وجاء فى الكتاب ص ٢١٢ .

يخال بأن العرض غير موفر عن الذم إلا أنه يُدال له الوفر

فقلت الصواب يذال — وقال الأستاذ « ويدال ليست خطأ بل لعلها أوقع فى المعنى الخ » وأنا أقول إنها خطأ لأن البيت فى مدح رجل . ومعناه أن هذا الممدوح يظن أن عرضه لا يبرأ من الذم إلا إذا بُذل ماله وأُذيل أى امتهن — وإذا قرئت « يدال » كان البيت ذما . ويكون معناه أنه يظن أن عرضه لا يسلم إلا إذا أديل له المال أى صار غنياً . وهذا ليس من المدح فى شيء

وأختم بشكر الأستاذ على حسن ظنه ، ولومه على مبالغته فى الثناء علىّ . والله يهدينا جميعاً للتى هى أقوم

* * *

وأما أستاذنا عبد الخالق عمر فقد وجهت اليه كلمة بارّة فى

القال السابق ، ثم اطلعت على مقالات له فى المقطم . وأنا أسأل الله أن يعيننى على تناسى هذه المقالات . وأرى أن من الخير لى وله ألا أناقشه فيما قال . فسأستمر فى نقدى فارضاً أننى لم أقرأ ما كتب متمنياً أنه لم يكتب

ثم أعود الى الموضوع متمماً نقد الجزء الثانى من الكتاب ، وقد وعدت فى المقال السابق أن أبين ما أخذته على تعليق الناشرين ، ولكنى أتقدم بتبيين أغلاط كتبتها ثم سهوت عن الحاقها بأخواتها فى ذلك المقال

ص ١٩٩ : قول البديع ردّ على الخوارزمى هجاء الصحابة

هلا نهتك الوجنة الموشومه   عن مشترى الخلد ببئر رومه

والصواب مشترِي بالكسر . ومشترى الخلد الخ هو عثمان ابن عفان ، وقصة شرائه بئر رومة فى المدينة ووقفها على المسلمين معروفة . ثم هذا البيت لم يستحق تفسيرا من الناشرين الذين يكافون فى مواضع أخرى بأن يفسّروا الماء بالماء

ص ٢٣٧ : فقال هذا زنبيل الحوائج الخ — وفى الحاشية : وفى الأصل زبيل الحوائج تحريفاً — أقول التحريف ما فعله المصححون ، فأما الزبيل فهو أفصح من الزنبيل أو هو معربه ، وقد اقتصر عليه صاحب القاموس ولم يذكر الزنبيل ، وذكره صاحب اللسان بعد الزبيل ثم قال : وقيل الزنبيل خطأ وإنما هو زبيل اه . وقال المعرى :

أيها الجامع الكنوز أزرّ   أم زبال من نملة فى زبيل

وأما الحوائج فالظاهر أنها جمع حالجة المرأة تحلج القطن ، وزبيل الحوائج يجمع فيه ندافة القطن ، وقد جعل فى الكتاب مثلا فليرجع إليه

ص٢٤٢ : فى أخبار جحظة البرمكى أنه كان يلقب خَنْشيا كر وفى الحاشية : « كلمة فارسية معناها المغنى » . وهذا التفسير صحيح ، ولكن كيف ضبطت الكلمة هذا الضبط ؟ هل أجراها المصححون مجرى الأعلام الأعجمية وجروا فيها على المذهب الذى نشر فى المقطم فأجازوا فيها كل تحريف ؟ والصواب خُنيا كَر

ص ٢٥٨

ماذا ترى فى جَدْيٍ   وفى عقار بوارد
وقهوة ذات لون   يحكى خدود الخرائد

والوزن لا يستقيم فى الشطر الأول فينبغى أن يكون : ماذا ترى فى جُديّ — تصغير جدى . ولا يفره الصغر إذا كان لحمه لذيذاً

ص ٢٧٢ : قول جحظة البرمكى فى قصة رجل أعطاه ثيابا وعتيدة وهى وعاء للطيب : « فخرجت كأنى لص قد خرج من بيت قوم ، على قفا غلامى الثياب والعتيدة كارة » والكارة رحل الثياب . فرأى المصحح أن يحذف كلمة « كارة » كرها ويضع مكانها كلمة « كلها » وكتب فى الحاشية : كانت رواية الأصل كارة ، ولامعنى له » وقد عرف القارئ أن له معنى وأن المصحح غيّر متن الكتاب غلطا ، وقدمت لهذا نظائر وسيأتى :

ص٢٧٩ : قول جحظة :

يا من دعانى وفر منى   أخلفتَ والله حسن ظنى
قد كنت أرضى بخبز رزّ   ومالح أو قليل بُنّ

وأرى أن الصواب فى القافية الثانية بُنيٍّ بالياء . وهو ضرب من السمك لا يزال معروفا بهذا الاسم فى مصر والعراق . وفى بعض الأغانى العامية المصرية بنيّا سمك بنيّ . وليت الناشرين فسروا كلمة بُن هنا فهى فى حاجة الى التفسير

ص ٢٨٠ يقول بعض الشعراء إلغازاً عن الدواة والأقلام :

أحاجيك . ماقبر عديم ترابه   به معشر موتى وإن لم يكفّنوا
سَلوْتُ عن التبيان مدة قبرهم   فان نبشوا يوماً من الدهر بيّنوا

وهو إلغاز عن الأقلام فى الدوىّ القدعة

والتحريف فى كلمة سَلَوْتُ ، والصواب سُكُوتُ الخ

ص ٢٨٣ فى الكلام عن أبى نصر الباهلى الذى يقال إنه ابن أخت الأصمعى : « وكان أثبت من عبد الرحمن يعنى ابن أخت الأصمعى وأسنّ » . والمعروف أن عبد الرحمن ابنُ أخى الأصمعى لا ابن أخته . وصاحب الأمالى يكثر الرواية عن عبد الرحمن عن عمه (الأصمعى)

ص ٢٨٥ وكان يسكن باب الأزجّ . والصواب الأزَج بغير تشديد . وهو اسم محلة كبيرة كانت فى الجانب الشرقى من بغداد

ويضيق مقال اليوم عن الكلام فى مآخذ التعليق على هذا الجزء فوعدنا العدد الآتى إن شاء الله . والله ولى الهداية إلى الصواب

عبد الوهاب عزام



شركة أفلام الشرق

ومجهودها فى اخراج « نشيد الأمل »

تقرر أن يعرض فلم نشيد الأمل فى يوم الاثنين ١١ يناير سنة ١٩٣٧ بسينما رويال ، والمعروف أن هذا الفلم لم يستغرق فى إعداده أكثر من ٨٠ يوماً ، وهذه المدة القصيرة تشهد بالجهود الكبيرة التى بذلها رجال الشركة فى إخراج هذا الفلم العظيم . ويقول رجال الشركة إن الفضل فى هذا التوفيق يرجع إلى معاونة العناصر الفنية فى مصر وتضافرها على نجاح هذا الفلم ؛ فأولا استديو مصر — ذلك البناء الشامخ الذى يعتبر الدعامة الأولى فى نهضتنا السينمائية والذى خطا بصناعة الأفلام خطوة جريئة واسعة — وضع تحت تصرف الشركة كامل معداته الحديثة وجهد فنانيه ، فقاموا بأحسن ما فى وسعهم من جهد فنى

فالتصوير قام به سامى بريل المصور الأول للاستديو فجاء متقناً بديعا ، وتسجيل الصوت قام به مصطفى والى يعاونه عزيز فاضل فجاء واضحا جليا ، وبناء المناظر (الديكور) قام به ولى الدين سامح يعاونه يوسف بهجت فكان شاهداً على حسن الذوق والدقة ، والتنكر (الماكياج) قام به ستراتج الرومى يعاونه حلمى رفله المصرى الذى اشترك فى أكثر الأفلام المصرية نجاحا

أما الاخراج فكان من نصيب الأستاذ أحمد بدر خان وهو شاب وديع هادىء مفكر يشع الذكاء من عينيه ، وقد كان بين أوائل المصريين اهتماما بفن السينما ؛ وهو مبعوث شركة مصر إلى فرنسا لدراسة هذا الفن . ونشيد الأمل هو أول عمل فنى يقوم بإدارته ؛ وطبيعى أنه ركز كل قواه ومعلوماته فى هذا الفلم حتى جاء تحفة رائعة . وقد عاونه فى عمله صديقه الشاب جمال مدكور

هذا والفلم يحوى عدا الآنسة أم كلثوم مجموعة من خيرة الممثلين فى مصر وعلى رأسهم الأساتذه زكى طليمات مبعوث الحكومة المصرية لدراسة التمثيل فى أوربا وعباس فارس وفؤاد شفيق وغيرهم من كبار ممثلى الفرقة القومية وممثلاتها

الفاكهة المحرمة

للأستاذ أحمد عبد الرحمن قراعه المحامى

والأستاذ محمد السوادى

وأخيراً بعد صراع عنيف بين لجنة قراءة الروايات فى الفرقة القومية ، وبين المؤلفين قدر لهذه المسرحية أن تظهر على مسرح الأوبرا ، وأن يستمتع الجمهور بمؤلفة مصرية ممتازة نالت رضا رواد المسرح واستحسانهم ، لأن الرواية تمس جانباً من حياتهم . ولعل فى النجاح الذى تعاون عليه المؤلفان وممثل الدور الأول الأستاذ أحمد علام ما يجعل الفرقة القومية ورجال اللجنة تعطى الأفضلية للروايات المصرية ، فليس من شك أن الفاكهة المحرمة نالت من الاقبال ما لم تنله الروايات الأخرى فى هذا الموسم

لئن عيب على المسرحية المصرية أنها ما برحت تفتقر إلى الطابع الأصيل الذى يميزها عن الروايات الغربية لخلو أدبنا القديم من هذه الصورة من الأدب ، فان هذه الرواية تختلف عن هذا النوع ؛ إذ تتميز بهذا الطابع تميزاً ظاهراً ، فهى قطعة من صميم الحياة والبيئة المصرية ، تتصل بحياتنا وتقاليدنا وروحنا أوثق اتصال ؛ وهى تقوم على الصراع بين الشباب الذى يأبى لنفسه أن يهن أمام الشيخوخة التى لا تعرف من الدنيا إلا الاعتزاز بالثروة ، وعلى الصراع بين المنطق المستمد من الحكمة وجموح الرغبة ، ولكن ... فى ظل التقاليد !!!

ليس من شك فى أن أدبنا يفتقر إلى الوراثة المهذبة فى فن صياغة المسرحية ، فليست لنا تقاليد ولا آثار سابقة كما قلنا ؛ ولهذا فان كتابنا الذين يمالجون المسرحية ما برحوا يأخذون بتقاليد المسرح الغربى وينحون نحوه . فالمؤلف فى مصر يقف بين ثقافتين الثقافة اللاتينية والثقافة السكسونية ؛ فالأولى تهتم بالمفاجآت والحركات المسرحية المتصلة والشخصيات المشتبكة المعقدة ؛ والثانية تعنى بخلق الجو الهادئ والشخصيات الواضحة البسيطة

فضل مؤلفا هذه المسرحية الثقافة اللاتينية ، بل قل المدرسة الفرنسية ، فجعلا الحوادث تتجدد ، وجاءا بشخصيات تعاون على ابراز الشخصيات الرئيسية في المسرحية ، وبهذا كثرت الحركة في المسرحية والنشاط ؛ ولكن في رأيي أنهما لو سلكا الطريق الآخر وأعطيا هذه العناية للشخصيات الرئيسية لكان توفيقهما أتم . فهذه شخصية (فاضل) ذلك الصديق الذي يحب (درية) وشخصية (زوزو) ابنة صاحب الجريدة التي تحب (حسن) لو فكر المؤلفان في الاستغناء عنهما أو الاستغناء عن الشخصية الثانية وتصحيح موقف الشخصية الأولى منذ بدء الفصل الثاني ، فأنا زعيم بأن ختام المناظر يكون أهدأ وأفعل في النفس أثراً ، ولرأينا صورة بارزة من المسرح الرزين الذي يحملنا نلتذ للتكشف الهادئ للحادثة ويصدم أذهاننا فيميتنا على التأمل والاعتبار بالحوار ومناقشة الرأي . ولو أن لي أن أشير بنصيحة لطالبتهما بهذا الاصلاح

على أن هـذا الرأي قد يكون متأثراً ببعض الشيء بثقافتي السكسونية وحبي للمسرح الانجليزي ، ولكني ألقيه مع اعتقادي بأن المسرحية قطعة أدبيـة ممتازة بشخصياتها الرئيسية الكاملة التصوير ، والجو المصري الخالص الذي تعيش فيه هذه الشخصيات ، والأسلوب الرائع الملوس في نواحي المسرحية

اشترك في تأليف المسرحية الأستاذان أحمد عبد الرحمن قراعة المحامي المعروف ومحمد السوادي الصحفي ؛ وقد يصعب على الناقد أن يفرق بين عمل مؤلفين أتما رواية واحدة معاً ، ولكن المسرحية من حيث الأسلوب وطريق التفكير والشخصيات تنم عن قراعة أكثر مما تنم عن زميله

يقول « بيفون » الكاتب الفرنسي الكبير : إن الأسلوب هو الرجل . وليس من شك في أن أسلوب قراعة القوى قد نم عليه ، وليس الأسلوب وحده ، بل كذلك الشخصيات وطريق التفكير ؛ والمأساة تدل على أن له النصيب الأوفر في هذا العمل

فنحن نرى الشخصيات تنحني أمام قوة التقاليـد ، وحتى حسن ودرية ، وهما من أصحاب الثقافة العالية ، لا يفكران في الثورة على التقاليد والنظم بل يخضعان ويقبلان التضحية من أجل والديهما ؛ ثم النهاية القاسية التي تفرق بين حسن ودرية ، لأن الشرع يحول دون زواجهما — تنم عن روح قراعة ربيب بيت التقاليد وبيت الافتاء

الإخراج والتمثيل

ظهرت هذه المسرحية من غير مخرج ، فقد كانت من نصيب الأستاذ زكي طليمات ، وقد بدأ فعلا في تدريب الممثلين ، فلما ترك الفرقة وقامت العقبات في سبيل ظهور هذه المسرحية أهملت ، وأبى الأستاذ عزيز عيد أن يتم إخراجها ، فقام الممثلون أنفسهم بهذا العمل وعاونهم الأستاذ أدمون تويما منظم المسرح

وأفلح الممثلون في مجهودهم ، كما وفق الأستاذ أدمون تويما في اختيار المناظر واختيار ألوان الضوء وتوزيعه كما يتناسب وجو المسرحية . وأقرر أن هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها مسرحية مصرية اكتمل فيها الضوء وكان عونا للممثلين ؛ وأرجو أن تهتم الفرقة بهذه الناحية ، وتسند إلى الأستاذ تويما الاضاءة دائماً

قام الممثل الأستاذ أحمد علام بالدور الأول ، فكان لظهوره رنة فرح بين جمهور المعجبين به الذين احتجب عنهم زمنا غير قصير . ولقـد أظهر براعة فائقة في دور حسن بك . وإني لأذكر له موقفه البديع في الفصل الأول وهو يكاشف درية بحبه ، وفي الفصل الثالث بعد عودته الى البيت وحديثه مع درية زوجة أبيه ، ذلك الحديث الهادئ الذي يدل على مايضطرم في نفسه من شتى الاحساسات ، إحساسات الألم والحب المكبوت وما إليها . وكذلك في الفصل الرابع وهو يتحدث مع شقيقته ، وبعدها وهو يتحدث الى درية ، ويعرف أنها تضمر له الحب ، يسمو في هذه المواقف ويصل الى قلوب النظارة فيحركها بالألم

ويأتي بعد علام في النجاح السيدة ثريا فخري التي مثلت دور الدادة ، فقد وفقت فيه توفيقاً كبيراً وأدته أداء طيباً يعجز ممثلات الفرقة عن إدراكها فيه . وكان سراج منير موفقاً في إبراز شخصية والد درية . وكانت (روحية خالد) بديعة في تأدية دور شقيقة حسن ، وكانت حسنة الالقاء خفيفة الظل ، كما كان محمود رضا عذب الروح في دور نسيم أفندي مضحك الأسرة

وقامت الآنسة فردوس حسن بدور درية ، وهو الدور الأول في هذه الرواية ، فبذلت مجهوداً لا بأس به ، إلا أنها لم تعن العناية الكافية بابراز عاطفتها وإحساساتها في شتى المواقف ، وأن تكون أقل سرعة في إلقاء كلماتها . والأستاذ منسى فهمي قام بدور محي بك ، ويخيل إلي أنه لم يهتم به اهتمامه بأدواره السابقة ولم يعره جانب عنايته ، ولكنه في الفصل الرابع أبدى بعض العناية فأتقن الشخصية في النهاية

يوسف تادرس
الناقد الفني

5 me Année, No. 185

Lundi - 18 - 1 - 1937

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥



ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العـــدد ١٨٥ « القاهرة فى يوم الاثنين ٥ ذى القعدة سنة ١٣٥٥ — ١٨ يناير سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــــدد

صفحة

الدفاع المقـــــدس

قانون الحياة مادتان : هجوم على القوت ، ودفاع عن الذات . وما كانت النباهة والمجد والخلود إلا طعوم مغريات فى يد الطبيعة ، تتذرع بها إلى ضمان الحياة بالوفرة ، كما تتـذرع بالجمال والشهوة واللذة إلى بقاء النوع بالولادة . فالحى الخليق بالبقاء تتوفر فيه ولا ريب قوة السعى لنفسـه ، وقوة الوقوف لغيره ؛ فاذا فقد هاتين القوتين أو إحداهما كان طفيليا على مائدة الحياة ، وفضوليا فى ملكوت الطبيعة . وليست العزة التى تملك القاصر حين يرشد ، أو التابع حين يستقل ، إلا يقظة الأنانية فى طبعه ، وثورة الحيوية فى دمه . وهذا الذى نشهده اليوم فى مصر المستقلة من التسابق إلى إعداد القوة ، والتنافس فى إنشاء الدفاع ، إنما هو استكمال لاحدى وسيلتى العيش ، واستثمار لأرقى طبيعتى الوجود . فقد كانت مصر قبل عهدها الجديد تجرى على قدَر مجهول فى الغيب ، وتعيش على خطر معلوم من العدو ، ثم لا تجد فى واديها ولا فى أيديها ما يدفع الغارة ويمنع الحوزة ، فهى كالمرأة حمايتها على الزوج ، وكالقاصر تَبِعَتُهُ على الوصى . لذلك

خشعت نفوسها أمام القوى الساطية خشوع الوحش الداجن إذا حُطِّم نابه وقُلِّم ظفره ، فلا تدخل فى شر ، ولا تشارك فى مراء ، ولا تملك من دون وليها المحتل نفعاً ولا ضرا . كان ذلك وأكثر الدول السيدة الأيدة كالبلجيك واليونان والترك لا يطولها أصلا ، ولا يكثرها نفراً ، ولا يفوقها ثروة . وكان ذلك والقوة هي الدستور النافذ فى الأرض ؛ فالتسليح خطة السياسة ، والحرب عماد السلام ، والمنفعة حجة القانون ، وعصبة الأمم والمعاهدات (منيكير)[1] لمخلب الأسد ؛ ولكن الاحتلال الذى غل اليد وشل الارادة قد سلبنا فيما سلب الثقة بالمقدرة ، والاعتماد على النفس ، فكنا فقراء مع الغنى ، أذلاء على الكثرة ، لا ندرى على اليقين قيمة ما نملك ولا مدى ما نطيق

أما اليوم وقد تحطمت حلقات القيود على ضغط الجهاد المُلِحّ والزعامة المخلصة ، فها هى ذى مصر طليقةً على سجيتها ، سافرة عن طويتها ، قد عصفت فى رأسها النخوة ، وتمرد فى نفسها التاريخ ، فهى تتأهب لإعلان قوتها وأعزاز كلتها وتحصين عزتها فى ميادين الحرب الثلاثة ! وهاهم أولاء أبناؤها الميامين البررة يتدفقون فى التبرع السخى لمشروع الدفاع الوطنى تدفق الدماء الحية فى قلوبهم الحرة ! وسيدهش العالم لهَبَّتهم العاصفة ، كما دهش من قبل لغفوتهم الثقيلة ، فإن مصر فى كل شىء فريدة عجيبة !

لقد هبوا أول الجهاد فسخَوْا لها بالأنفس ، وهم يهبُّون اليوم أول النصر ليسخوا لها بالأموال ؛ وعلى قدر الاخلاص والتضحية فى الهبّة الأولى ، سيكون البذل والايثار ولا ريب فى الهبّة الثانية

صحيح أن تلك النهضة بدأت من الشعب واتجهت إلى الحكومة ، وأن هذه النهضة ابتدأت من الحكومة وستنتهى إلى الشعب ؛ ولكن ذلك لا يقدح فى حقيقتها ، ولا يشكك فى نتيجتها ، فإن حكومة اليوم هى شعب الأمس ، والذين أبوا الأنفس على ذل الاحتلال : هم أنفسهم الذين يحمسون الأفئدة لعز الاستقلال ؛ وبين عرش المُلك ، وكرسى الحكم ، ومقعد البرلمان ، وئام ناشىء من خلوص النية ، وانسجام قائم على وحدة الغاية ؛ ولن يهلك على خلوص النية رأى ، ولن يصل على وحدة الغاية سبيل

* * *

افتتح التبرعَ للدفاع المقدس الوزراء فتبعهم الموظفون ؛ فهل يفتتحه من الجانب الآخر الأمراء والأغنياء ليتبعهم الأهلون ؟

يريد الوطن الضعيف الأعزل من أولئك الذين ربَّبهم على دلال السرف ، وقلَّبهم فى أعطاف النعيم ، فحشا أهَبَهم بخيره ، وأفعم خزائنهم بذهبه ، وبسط ملكهم على أكثر أرضه ، ومد نفوذهم على معظم بنيه ، أن يعززوه ليُبقِىْ عليهم ، ويسلحوه ليدافع عنهم ، ويبروه ليدوم عليهم بره وظله

ما الذى يحبس هذا الأمير المترف أن ينفق على سلاح وطنه مثل ما ينفق على سلاح صيده ، ويبذل فى سبيل أمته بعض ما يبذل فى سبيل شهوته ؟

وما لهذا الباشا البطين صاحب الهيْل والهيلمان ، وملك الثيران والأطيان ، ورب النفوذ والسلطان ، يَقِرُ أذنه عن نداء وطنه ، وإنما عظمته من فضله ، وعزته من أهله ، وثروته من ثراه ! أيتلكأ الباشا ويتباطأ الأمير حتى تنشأ عدة الدفاع مما يرضخ به الفقير والأجير والعامل ؟ وهل ترك هذا أو ذاك لأحد من هؤلاء شيئاً يعطيه ؟ وهل من المروءة أن يدعا الفقير أو الأجير يتبرع من قوته وهو لا يكفيه ؟

* * *

سادتى أصحاب السمو وأرباب السعادة ! إن الفقير يغذيكم طيلة العمر بعرقه ، وسيدافع عنكم يوم الفزع بدمه ، ولن يكلفكم هذا الصابر المسكين إلا أن تشتروا له الفأس ، وتقدموا له السلاح ، فهل هذا كثير ؟

احمد حسن الزيات

---

(١) منيكير (Manicure) إسم الذى يجمل اليدين بالقص والصقل والصبغ ، وليس له لفظ فى العربية ؛ فهل يسمع المجمع ؟

في الحــب

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

الكلام في الحب يحلو للعاشق والسالي والخلي ؛ وأنا والله « لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » ، وقد كنت أتوهم أني عشقت بضع مئات من المرات في حياتي مذ عرفت أن لي قلباً وأن مكانه في الناحية اليسرى لا اليمنى . ولهذه المعرفة قيمتها عندي ، فقد خيل إلي في صدر أيامي أني أحب فتاة وأفضيت إليها يوماً — أو على الأصح ليلة وكان القمر طالعاً والجو سجسجاً — بما يجن صدري ، وأردت أن أؤكد لها الحب فأشرت إلى حيث الضلوع في الجانب الأيمن ، وكانت أعرف مني بتركيب الجسم الانساني ، فضحكت وقالت : « هل أنت واثق مما تقول ؟.. » فلم أفهم معنى لسؤالها وظننتها تريد أن تعاهدني على الحب والحفاظ وما إلى ذلك من الكلام الفارغ — أو الذي صرت أعتقد أنه فارغ — فوضعت كفها الرخصة على حيث أشرت لها إلى موضع قلبي وقالت : « مسكين هذا القلب !.. » فتناولت يدها وقبلتها وقلت على سبيل التأييد : « إي والله . . مسكين . . » فسألتني : « وما العمل الآن ؟ . . » فقلت : « في أي شيء ؟ » قالت : « أليس الواجب أن نبدأ بقلبك فترده إلى مكانه الذي حوله الحب عنه ؟ » قلت : « كيف ؟ . ماذا تعنين ؟ » قالت : « إن قلوب الناس هنا .. إلى اليسار .. ولكن قلبك قد وثب وثبة نقلته إلى اليمين ؛ وهذا — فيما أظن — يجب أن يستعان على إصلاحه بالجراح . . . وإلى أن يتم ذلك . . . »

فلم أدعها تتم كلامها ووليت هارباً . وخطر لي بعد ذلك أنه إذا كان القلب في غير الموضع الذي حسبته فيه فأن ما توهمته من إحساسه — أو بعبارة أدق — من الاحساس في ذلك الوضع لابد أن يكون تخيلاً لا حقيقة له . وكانت هذه مغالطة ، فليس من الضروري أن يعرف الانسان موضع قلبه ليحب ، ولكن المغالطة نفعتني وشفتني من هذا البلاء

وأنا لا أعشق بالمعنى المألوف لأني شديد النسيان مزيمه . والنسيان يجعلني أمسي عاشقاً ، وأصبح سالياً . وكثيراً ما حدث أني عشقت ، ولكن الليل يجيء فأجوع — ولا سيما في الشتاء — فآكل فيغلبني النعاس — والامتلاء يساعد عليه — وأنهض في الصباح فيخطر لي شيء ساعة أفتح عيني على الدنيا فأشتغل بذلك عما عداه وأفرغ من هذا الأمر الجديد في العصر أو بعد يوم أو اثنين ؛ فأقعد أفكر فيما مر بي في يومي ، أو في الأيام الأخيرة ، وإذا بي أتذكر فجأة أني عشقت فأقول : « أووووووه ... أعوذ بالله ! ما هذا النسيان الفظيع ؟ ألا شدَّ ما أذهلتني الحياة عن حبيبتي التي لا شك أنها تحسبني الآن أحيي الليل ساهراً أناجيها ... كلا ، ينبغي أن أكتم هذا لئلا تغضب ؛ وليس من اللائق على كل حال أن أخبرها أني كنت ناسياً أني عاشق مدنف . . . ولكن من هي الحبيبة ؟ . لقد ذكرت حبها ولكني والله نسيتها هي . . » وأحار ماذا أصنع . . . فليس من المعقول أن أسأل من أعرف من الفتيات أهي التي أحبها أم سواها . ويعجبني هذا الموقف فأتصور أني أقبلت على واحدة وفركت كفي وقلت لها : « هل تسمحين لي أن ألقي عليك سؤالاً عني ؟ « فتقول » تفضل . . بالطبع . . لم لا ؟ . » فأقول : « إن المسألة بسيطة ! . . أعني أنها في الحقيقة دقيقة . . والمفروض أني أعرف بها ولكني كما تعرفين حمار . فتقول : « استغفر الله ! . لماذا تطعن على نفسك هكذا ؟ . » فأقول : « معذرة . . . وأشكر لك هذا اللطف ولكنها الحقيقة . . على كل حال لقد تبينت من كلامك . . أعني . . أريد أن أقول إن كلامك الذي سمعته أغناني عن السؤال فألف شكر لك يا روحي ونور عيني وحبة قلبي و . . . . »

فتقاطعني وتصيح بي : « ماذا جرى لك ؟.. لماذا تتكلم هكذا ..؟ »

فأقول : « معذرة ... ولكن ألست أنت روحي ونور عيني وحبة قلبي ... لقد ظننتك ... »

فتسأل وهي مقطبة : « هل جننت ... ؟ »

فأقول : « لا ... لم أجن ... ولكني نسيت ... »

فتقول وهي كالمذهولة : « نسيت !.. ماذا نسيت ..؟ »

فأقول : « اسمعي ... لم يبق بد من الاقرار بالحقيقة ... إني أحب ، ولكني نسيت ولم أعد أعرف من هي التي سرقت قلبي ، وقد كانت نيتي حين ربكتني بالمقاطعة أن أسألك أأنت التي أحبها ،

أم أنا قد غلطت ؟ ... فلما أظهرت هذا العطف علي وأغضبك أني أطمئن على نفسي ، قلت إنك لا بد أن تكوني المحبوبة الضائعة — أعني المنسية — فإن لم تكونيها فأنت لا شك أولى منها بحبي ... وهذا هو تأويل قولي : ياروحي يانور عيني وحبة قلبي .. فما رأيك ؟ »

أتصور هذا الموقف فلا يسعني إلا أن أضحك . ومتى ضحك المرء فقد سلا وخلا قلبه من الوجع . ولو أن كل عاشق استطاع أن يضحك لكان الأرجح ألا يبقى في الدنيا حب عنيف طاغ

ولا أحتاج أن أقول إني في الحب كما تشاء ذاكرتي ؛ فإذا استيقظت وتنبهت به ، ووسعها أن ترتب ما فيها ، وتبرز ما يستحق الابراز ، وتؤخر ما التأخير أولى به ، وتعرض الأمر على عرضاً يساعد على التدبر ولا يغرى بالفرار والتماس النجاة ... إذا فعلت ذاكرتي هذا فأني أستطيع أن أعرف أأنا عاشق أم خلي ، ومن هي التي أحببتها ، أو من هن اللواتي أحببتهن ثم نسيتهن ؟ ولا غرابة إذن أن يكون حبي — حين أفطن اليه — بالجملة . أما إذا عجزت ذاكرتي عن هذا العرض فأني أمشي في الدنيا مستريح القلب من هم الحب وكربه ، واثقاً من نعمة الخلو ومزية السلامة والنجاة

ولكن البلاء والداء العياء أن ذاكرتي تفاجئني بومضات التذكر حين تحسن اللجاجة في النسيان ... وتصور أن تكون جالساً تناجي من تذكرت أنك تحبها ، وأن تكون راغباً في ملاطفتها لتعوضها من الإساءة إليها بنسيان أمرها ، فتروح تبثها هذا الحب وتناجيها بأعذب ما تستطيع من عبارات الشغف والهيام ، وتؤكد لها أنك ما أحببت ... كلا ، ولن تحب سواها ، وأن قلبك وقف عليها ، وأن حبك لها خالد ، وأن الدنيا تستطيع أن تعمر عن شاءت من النساء الجميلات الفاتنات الساحرات ؛ ولكنك أنت لن تكون لك عين ترى سواها ، أو قلب يخفق لغيرها ... وإنك لتسح بهذا الكلام وإذا بذاكرتك تصيح بك :

« حاسب ... ماذا تقول ؟ ... أتزعم أنك لا تحب سواها ؟ بوه ... أتراك نسيت تلك التي كنت تقسم لها مثل هذه الأيمان الغلاظ البارحة ... البارحة فقط ... في الساعة التاسعة ... على شاطئ النيل ... أو تلك التي دعوتها إلى الذهاب معك إلى الاسكندرية لأنك لا تطيق البعد عنها يوماً واحداً ... أو الأخرى ... أو ... أو ... »

وأرجو أن يكون القارئ منصفاً ، وأن يقول لي كيف بالله يمكن أن يمضي المرء في الكلام الذي بدأه ؟ ... أو كيف يستطيع أن يستحلي ما هو فيه ؟ ... أو ماذا يبلغ من شعوره بالتنغيص في لحظة جميلة كالتي هو فيها ؟... ثم إن هذه سماجة من الذاكرة .. لماذا لا تنتظر حتى تنقضي اللحظة الحلوة ، ويفوز المرء بالمتعة — متعة الجلسة والحديث والمناجاة وسرور المحبوبة بأنها محبوبة ثم بعد ذلك — بعد أن تنقضي الساعة التي هو فيها لا يبقى مانع من أن تذكره بما شاءت . وأن تعرض عليه الحقائق الثقيلة في غير أوانها

فماذا أصنع بالله ... وكيف أستطيع أن أحب ما ينبغي ... وهل مما يستظرف أن تعابثني ذاكرتي معابثة تحرمني لذة الحب في دنيا تزخر بالجمال ؟ ... وماذا عسى أن أقول للغانيات ؟ ... والله إن هذه لحيرة وأي حيرة ، ثم والله إني لمستريح مسكين

ابراهيم عبد القادر المازني

القلب المسكين

تتمة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال صاحب القلب المسكين : ووقفت المحامية وكأنها بين الحراس تزدحم عليها من كل ناحية ، وقد ظهرت للموجودين ظهور الجمال للحب ، ونقلتهم في الزمن إلى مثل الساعة المصوَّرة التي ينتظر فيها الأطفالُ سماع القصة العجيبة ؛ ساعة فيها كلُّ سرور اللذة للقلب

وكانت تدافع بكلامها ووجهها يدافع عن كلامها ، فلو نطقت غيًّا أو رشداً فهذا صوابٌ ولهذا صوابٌ ، لأن أحد الصوابين منظور بالأعين

كان صوتُ النائب العام كلاماً يُسْمعُ ويُفهم ؛ أما صوت المحامية الجميلة فكان يُسمع ويُفهم ويُحس ويُذاق ، تلقيه هي من ناحية ما يُدْرك ، وتتلقاه النفس من ناحيةِ ما يُشتَهى ، فهو متصل بحقيقتين من معناه وممناها ، وهو كله حلاوة لأنه من فمها الحلو

* * *

وبدأت فتناولت من أشيائها مرآة صغيرة فنظرت فيها

— النائب العام : ما هذا يا أستاذة ؟

— المحامية : إنكم تزعمون أن هذه الجريمة تأليفُ عينيَّ ، فأنا أسأل عينيَّ قبل أن أتكلم

— النائب : نعم يا سيدتي ؛ ولكني أرجو ألا تُدخلي القضية في سر المرآة وأخواتها ... إن النيابة تخشى على اتهامها إذا تكحّلتْ لغة الدفاع

فضحكت المحامية ضحكة كانت أولَ البلاغة المؤثرة ...

— النائب : من الوقار القانوني أن تكون المحامية الفتانة غير فتانة ولا جذابة أمام المحكمة

— المحامية : تريد أن تجعلها عجوزاً بأمر النيابة ...؟ (ضحك)

— النائب : جمال حسناء ، في ظرف غانية ، في شمائل راقصة ، في حماسة عاشقة ، في ذكاء محامية ، في قدرة حب . هذا كثير

— المحامية : يا حضرات المستشارين . لم تكن المرآة هفوة من طبيعة المرأة ، ولكنها الكلمة الأولى في الدفاع . كلمة كان الجواب عنها من النائب العام أنه أقر بتأثير الجمال وخطره ، حتى لقد خشي على اتهامه إذا تكحلت له لغتي

— القضاة يتبسمون

— النائب : لم أزد على أن طلبت الوقار القانوني . الوقار . نعم الوقار ، فأن المحامية أمام المحكمة ، هي متكلم لا متكلمة

— المحامية : متكلم بلحية مقدَّرة منع من ظهورها التعذُّر ... (ضحك)

كلا يا حضرة النائب ؛ إن لهذه القضية قانوناً آخر تُنتزعُ منه شواهد وأدلة ؛ قانون سحر المرأة للرجل ، فلو اقتضاني الدفاع أن أرقص لرقصت ، أو أغني لغنَّيت ، أو أثبتُ سحر الجمال لأثبتُّه أول شيء في النائب العام ...

— الرئيس : يا أستاذة ؟

— المحاميــة : لم أجاوز القانون ، فالنائب في جريمتنا هو خصم القضية ، وهو أيضاً خصم الطبيعة النسوية

— النائب : لو حدث من هذا شيء لكان إيحاءً لعواطف المحكمة . . . فأنا أحتجّ

— المحامية : احتجَّ ما شئت ، ففي قضايا الحب يكون العدلُ عدلين ، إذ كان الاضطرار قد حكم بقانونه قبل أن تحكم أنت بقانونك

— النائب : هذه العقدة ليست عقدة في منديل يا سيدتي ، بل هي عقدة في القانون

— المحامية : وهــذه القضية ليست قضية إخلاء دار يا سيدي ، بل هي قضية إخلاء قلب

— الرئيس : الموضوع ، الموضوع

— المحامية : يا حضرات المستشارين . إذا انتفى القصد الجنائي وجبت البراءة . هذا مبدأ لا خلاف عليه ؛ فما هو الفعل الوجوديّ في جريمة قلبي المسكين ؟

— النائب : أوله حب راقصة

— المحامية : آه دائماً هذا الوصف . هبوها في معناها غير جديرة بأن يعرفها لأنه رجلٌ تقيّ ، أفليست في حسنها جديرة بأن يحبها لأنه رجلٌ شاعر ؟ احكموا يا حضرات القضاة . هذه راقصة ترزق وترتفق ، ومعنى ذلك أنها رهنٌ بأسبابها ، ومعنى هـذا أنها خاضعة للكلمة التي تدفع . . . فلماذا لم ينلها وهي

متعرضة له ، وكلاهما من صاحبه على النهاية ، وفى آخر أوصاف الشوق ؟ أليس هذا حقيقاً بإعجابكم القانونى كما هو جدير بإعجاب الدين والعقل ؟ وإن لم يكن هــذا الحب شهوة فـكر ، فما الذى يحول دونها وما يمنعه أن يتزوجها . . . ؟

— القضاة يتبسَّمون

— النائب . نسيت المحاميـــــة أنها محامية وانتقلت إلى شخصيتها الواقفة على النهاية وفى آخر أوصاف الشوق . . . فأرجو أن ترجع إلى الموضوع ، موضوع الراقصة

— المحامية : آه دائماً الراقصة . من هى هــذه السكينة الأسيرة فى أيدى الجوع والحاجة والاضطرار ؟ أليست مجموعة فضائل مقهورة ؟ أليست هى الجائعة التى لا تجد من الفاجرين إلا الحمَ الميتة ؟ نعم إنها زلَّت . إنها سقطت . ولـكن بماذا ؟ بالفقر لا غير ؛ فقر الضمير والذمة فى رجل فاسـد خدعها وتركها ؛ وفقر العدل والرحمة فى اجتماع فاسد خذلها وأهملها . يا للرحمة لليتيمة من الأهل ، وأهلُها موجودون : والمنقطعةِ من الناس ، والناسُ حولها !

تقولون : يجب ولا يجب ، ثم تَدعون الحياة الظالمة تعكس ما شاءت فتجعل ما لا ينبغى هو الذى ينبغى ، وتقلب ما يجب إلى ما لا يجب . فاذا ضاع من يضيع فى هذا الاختلاط ، قلتم له : شأنك بنفسك ونفضتم أيديكم منه فأضعتموه مرة أخرى . ويحكم يا قوم ! غيروا اتجاهَ الأسبابِ فى هذا الاجتماع الفاسد تُخرجْ لـكم مسبَّبات أخرى غير فاسدة

تأتى المرأةُ من أعمال الرجـل لا من أعمال نفسها ، فهى تابعة وتظهر كأنها متبوعة ؛ وذلك هو ظلم الطبيعة للسكينة ؛ ومن كونها تظهر كأنها متبوعة ، يظلمها الاجتماع ظلماً آخر فيأخذها وحـدها بالجريمة ، ويقال سافلة وساقطة وما جاءت إلا من سافل وساقط

لماذا أوجبت الشريعـــــة الرجمَ بالحجارة على الفاسق المُحْصَن ؟ أهى تريد القتل والتعذيب والمُثلة ؟ كلا فان القتل ممكن بغير هذا وبأشد من هذا . ولـكنها الحـكمة الساميـة العجيبة : إن هذا الفاسق هدم بيتاً فهو يُرجم بحجارته

ما أجلَّك وأسماك يا شريعة الطبيعة ؛ كل الأحجار يجب أن تنتقم بحجر دار الأسرة إذا انهدم

تستسقطون السكينة ولو ذكرتم آلامها لوجدتم فى ألسنتكم كلمات الاصلاح والرحمة لا كلمات الذم والعار . إنها تسمى برذيلتها إلى الرزق ؛ فهل معنى هــذا إلا أنها تسمى إلى الرزق بأقوى قوتها . نعم إن ذلك معنى الفجور ؛ ولـكن أليس هو نفسه معنى القوت أيها الناس ؟

— الرئيس وهو يمسح عينيه : الموضوع الموضوع

— المحامية : ما هو الفعل الوجودى فى جريمة قلبى المسكين ؟ ما هو الواقع من جريمة يضرب صاحبها المثلَ بنفسه للشباب فى تسامى غريزته عن ممناها إلى أطهر وأجمـل من معناها ؟ لبئس القانونُ إن كان القانون يعاقب على أمر قد صار إلى عمل دينىٍّ من أعمال الفضيلة

— النائب : ألا يخجل من شعوره بأنه يحب راقصة ؟

— المحامية : ومم يخجل ؟ أمن جمال شـعوره أم من فن شعوره ؟ أيخجل من عظمةٍ فى سموّ فى كمال ؟ أيخجل البطل من أعمال الحرب وهى نفسها أعمال النصر والمجد ؟

أتأذنون ياحضرات المستشارين أن أصف لـكم جمال صاحبته وأن أظهر شيئاً من سر فنها الذى هو سر البيان فى فنه ؟

— النائب : إنها تهاجمنا علينـا يا حضرات المستشارين ، فالذى يحاكم على السكر لا يدخل المحـكمة ومعه الزجاجة ...

— الرئيس : لا حاجة إلى هذا النوع من ترجمة الـكلام إلى أعمال يا حضرة الأستاذة

— المحامية : كثيراً ما تكون الألفاظ مترجمة خطأ بنيَّات المتكلمين بها أو المصغين إليها ؛ فـكلمة الحب مثلاً قد تنتهى إلى فـكر من الأفـكار حاملة معنى الفجور ، وهى بعينهـا تبلغ إلى فـكر آخر حاملة إلى سموه من سموها . وعلى نحو من هذا يختلف معنى كلمة الحجاب عند الشرقيين والأوربيين ؛ فالأصل فى مدنية هؤلاء إباحة المعانى الخفيفة من العفة .. وإكرام المرأة إكرام مغازلة ... يقولون إن رقم الواحد غير رقم العشرة فيضعونه فى حياة المرأة ، فـما أسرع ما يجىء « الصِّفر » فاذا هو العشرة بعينها . . .

أما الشرقيون فالأصل فى مدنيتهم التزام العفة وإقرار المرأة فى حقيقتها . لا جَـرَم كان الحجاب هنا وهناك بالمعنيين المتناقضين : الاستبداد والعدل ، والقسوة والرحمة ، و ...

— النائب : وامرأة البيت وامرأة الشارع ...

المحامية : وبصر القانون وعمى القانون ...

— الرئيس : وحسن الأدب وسوء الأدب . . . . . الموضوع الموضوع

— المحامية : لا والذى شرفكم بشرف الحكم يا حضرات المستشارين . ما يرى القلب المسكين فى حبيبته إلا تعبير الجمال ، فهو يفهمها فهم التعبير ككل موضوعات الفن . وما بينه وبينها إلا أن حقيقة الجمال تعرفت إليه فيها . أفن أحسّ الشاعر سراً من أسرار الطبيعة ، فى منظر من مناظرها ، قلتم أجرم وأثم ؟

هذا قلب ذو أفكار ، وسبيله أن يمان على ما يتحقق به من هذا الفن . قد تقولون : إن فى الطبيعة جمالاً غير جمال المرأة فليأخذ من الطبيعة وليعط منها . ولكن ما الذى يجى الطبيعة إلا أخذها من القلب ؟ وما هى طريقة أخذها من القلب إلا بالحب ؟ وقد تقولون : إنه يتألم ويتعذب ، ولكن سلوه . أهو يتألم بأدراكه الألم فى الحب ؟ أو بأدراكه قوة الحقيقة ، وأسرار التعقيد فى الخير والشر ؟

إن شعراء القلوب لا يكونون دائماً إلا فى أحد الطرفين : همٌ أكبر من الهم ، وفرح أكثر من الفرح . فاذا عشقوا تجاوزوا موضع الوسط الذى لا يكون الحب المعتدل إلا فيه ؛ ومن هذا فليس لهم آلام معتدلة ولا أفراح معتدلة

هذا قلب مختار من القدرة الموحية اليه ، فالتى يحبها لا تكون إلا مختارة من هذه القدرة اختيار ملك الوحى . وهما بهذا قوتان فى يد الجمال لأبداع أثر عظيم ملء قدرتين كلتاهما عظيمة

فأن قلتم إن حب هذا القلب جريمة على نفسه ، قالت الحقيقة الفنية : بل امتناع هذه الجريمة جريمة

إن خمسين وخمسين تأتى منهما مائة ؛ فهذا بديهى ؛ ولكنه ليس أبينَ ولا أظهرَ ولا أوضحَ من قولنا : إن هذا العاشق وهذه المعشوقة يأتى منهما فن

* * *

قال صاحب القلب المسكين : وانصرف القضاة الى غرفتهم ليتداولوا الرأىَ فيما يحكمون به ، وأومأت لى المحاميةُ الجميلة تدعونى إليها ، فنهضتُ أقوم فاذا أنا جالس وقد انتبهتُ من النوم !

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

(جائزة) لمن يحسن كتابة الحكم فى هذه القضية خمس نسخ من كتاب (وحى القلم) . وترسل المقالات بأسمنا الى (طنطا) ، والموعد إلى آخر شهر يناير هذا ، والشرط رضى المحكمين ومنهم صاحب القلب المسكين وصاحبته

فى التاريخ السياسى

تفاقم المشكلة الاسبانية

ألمانيا تكرر محاولة أغادير

بقلم باحث دبلوماسى كبير

يظهر أن أخطار المشكلة الاسبانية لن تقف حد ؛ فقد بدأت الثورة الاسبانية فى أواخر يوليه الماضى حرباً أهلية ، ولكن عوامل التدخل الدولية التى صحبتها منذ قيامها لم تلبث أن غلبت على صفتها المحلية الداخلية ، فهى اليوم حرب دولية فى الأراضى الاسبانية ، يستتر فيها فريق الدول الفاشستية وراء الجنرال فرانكو زعيم الثورة ، وتستتر الدول الدموقراطية وراء حكومة مدريد ؛ وقد كان هذا الاستتار شفافاً فى البداية ينم على حركات الدول المختلفة ؛ ولكنه يفصح اليوم عن كل شىء بجلاء ؛ وتبدو الدول المتدخلة ولا سيما ألمانيا وإيطاليا والسوفييت فى الميدان بكل جرأة ؛ وتتقاطر الأسلحة والذخائر والنجدات الأجنبية إلى الفريقين المتحاربين بلا انقطاع

فهذه الصورة الدولية التى أسبغها التدخل الأجنبى على الحرب الأهلية الاسبانية تغدو اليوم بالنسبة لأوربا بركاناً يضطرم بمختلف المفاجآت والأخطار ؛ وقد كان آخر طور من أطوارها الخطرة تفاقم التدخل الألمانى وظهور ألمانيا فى سياستها الاسبانية بمظهر يزعج الدول الغربية ويثير كل مخاوفها . ذلك أنها لم تكتف بارسال السلاح والذخيرة والمتطوعين إلى جبهة الثورة ، ولكنها بعثت بقسم من أسطولها إلى المياه الاسبانية الشمالية وأخذت سفنها الحربية تعتدى تباعاً على السفن الاسبانية الجمهورية بحجة الانتقام لحادث الباخرة « بالوس » ؛ وفى الأنباء الأخيرة أن قوة عسكرية ألمانية نزلت فى مراكش الاسبانية ، وأنه شرع فى بناء الثكنات اللازمة لأيوائها مما يدل على أنها ستمكث هناك طويلاً ؛ وأن قوات أخرى نزلت فى قادس لنجدة الجبهة الثورية

وقد كان تدخل إيطاليا وألمانيا فى الحرب الاسبانية على هذا النحو يزعج الدول الغربية منذ البداية ؛ بيد أنه يلوح لنا أن السياسة الايطالية أخذت على أثر تفاهمها مع انكلترا تخفف نوعاً

من هذا التدخل ، وأنا لاتفاق الانكليزى الايطالى (اتفاق الجنتلمان) على الاعتراف بالحقوق والمصالح المتبادلة فى البحر الأبيض المتوسط ، وعلى احترام الحالة الراهنة فيه كان ذا أثر كبير فى تعديل سياسة إيطاليا الاسبانية ، وقد ظهر هذا التحول واضحاً فى سحب إيطاليا لقواتها من جزيرة ميورقة ، وفى وقف النجدات التى كانت ترسلها تباعاً إلى جبهة الثوار ؛ هذا بينما يشتد التدخل الألمانى ويتفاقم ، ويمتد من أسبانيا نفسها إلى مراكش الأسبانية ؛ وكان المنتظر أن المجهود الذى تقوم به السياستان البريطانية والفرنسية لحصر الحوادث الأسبانية فى نطاقها المحلى ودرء أخطارها الدولية يسفر عن بعض النتائج المرضية ؛ ولكن الدولتان الفاشستيان وهما إيطاليا وألمانيا لجأتا إلى المطل والتسويف فى الرد على هذا المسعى . وكانت المذكرة البريطانية الفرنسية تقترح على الدول ذات الشأن أن تبذل مجهوداً مشتركا لوقف التدخل الدولى فى شؤون أسبانيا الداخلية ، ومنع المعاونات العسكرية عن الفريقين المتحاربين ، وترك المسألة الأسبانية يحلها الأسبان فيما بينهم ؛ وقد أجابت روسيا وهى التى تؤازر حكومة مدريد على هذا الاقتراح بالقبول ؛ ولكن إيطاليا وألمانيا وهما اللتان تؤازران فريق الثوار تمهلتا فى الرد حتى تطورت الحوادث الأسبانية على هذا النحو الخطر ، واستطاعت ألمانيا أن تمد الثوار بنجدات عسكرية كبيرة ؛ وأخيراً قدمت إيطاليا وألمانيا ردهما وهما متحدان فى الحجة والموضوع ، وخلاصة رد الدولتين الفاشستيتين هو أنه لامحل لاجراء المفاوضات الدبلوماسية للبحث فى هذا الشكل فى حين أن هنالك لجنة خاصة للبحث فى مسألة عدم التدخل ، وأن منع المتطوعين الآن معناه معاونة حكومة مدريد التى تؤازرها قوات بلشفية كبيرة ، وأن التبعة فى تفاقم التدخل الأجنبى فى أسبانيا ترجع إلى انكلترا وفرنسا لأنهما هما اللتان اعترضتا منذ البداية على اقتراحات ألمانيا فى وجوب منع المتطوعين الأجانب ؛ وتزيد ألمانيا على ذلك أنها ترى بحث المشكلة كلها لا بحث بعض نواحيها فقط ، وأنها تحتفظ بحرية العمل إذا لم تقبل وجهة نظرها

ومن الغريب أن ألمانيا تقرن ردها بأرسال نجدات جديدة إلى أسبانيا ، وبانزال بعض قواتها فى مراكش الأسبانية ، وإذا كان ظهور الجنود الألمانية فى أسبانيا وفى صفوف الجنرال فرانكو قد أثار مخاوف انكلترا وفرنسا ، فأن ظهورها فى مراكش الأسبانية يضاعف هذه المخاوف ويذكيها ، وقد رأينا الوزارة البريطانية تسارع بالاجتماع لبحث المشكلة الأسبانية ، ورأينا السياسة الفرنسية ، تضطرب لهذا التطور المزعج فى الشؤون الأسبانية . ولكى نقدر خطورة هذا الطارف يجب أن نرتد بالذاكرة إلى حادث مماثل وقع فى ظروف مماثلة ، ذلك هو حادث أغادير الشهير الذى كاد يثير ضرام الحرب بين فرنسا وألمانيا ؛ ففى أغسطس سنة ١٩١١ ظهر فى مياه أغادير المراكشية (وأغادير واقعة على المحيط الاطلنطى) طراد ألمانى ، وطلب القيصر فى نفس الوقت « مركزا لألمانيا تحت الشمس » واضطربت فرنسا لهذا الحادث واعتبرته انتهاكا لحقوقها التى كفلتها معاهدة الجزيرة والتى عقدت بين الدول العظمى ومنها ألمانيا ، ونصت على أن حفظ النظام فى مراكش هو من شأن فرنسا وأسبانيا وحدهما ؛ واشتد توتر العلائق بين الدولتين يومئذ ولاح شبح الحرب بينهما فى الأفق ؛ ولم تسحب ألمانيا طلباتها ووعيدها إلا بعد مفاوضات طويلة شاقة ، وبعد أن تنازلت لها فرنسا عن بعض أراضيها فى الكونغو ؛ والآن وقد بسطت فرنسا حمايتها على مراكش ، ووطدت فيها مركزها وسلطانها ، وأضحت جزءاً من امبراطوريتها الضخمة فى شمال افريقية ، فانها ترتجف لأقل بادرة تهدد مراكش أو أى جزء آخر من أجزاء هذه الامبراطورية الغنية ؛ وقد كانت فرنسا تتوجس جزعاً مذ قامت الثورة الاسبانية ، واضطربت شؤون مراكش الاسبانية التى تحد أملاكها من الشمال ، وأضحت منطقة عسكرية خطرة ؛ فالآن تزيد جزعها وتتضاعف مخاوفها إذ ترى الجنود الألمان ينزلون فى هذه المنطقة ويعسكرون فى مليلة على مقربة من الحماية المراكشية

وهنالك ما يدل على أن هذا الحادث يشبه حادث أغادير من كل الوجوه . ذلك أن ألمانيا أثارت حادث أغادير لأطماع استعمارية ، واستغلته لأرضاء هذه المطامع ، وهى الآن تعيد الكرة ، وتجيش بنفس الأطماع . وليس من المصادفات أن تنزل الجنود الألمانية فى مراكش الاسبانية فى نفس الوقت الذى تتقدم فيه ألمانيا بمطالبها الاستعمارية إلى فرنسا وانكلترا بصورة رسمية . وقد كانت ألمانيا تروج لمطامعها الاستعمارية منذ أشهر وينادى بها زعماء ألمانيا المسؤولون فى شدة وصراحة ؛ وقد أجابت فرنسا وانكلترا غير مرة على لسان ساستها وصحفها أنهما لا تفكران فى النزول عن شبر من الأرض لألمانيا ، ولكن

ألمانيا لم تنثن عن ندائها ومطالبها ؛ ومنذ أسابيع قلائل كان وزير الاقتصاد الألماني الدكتور شاخت يكرر هذه المطالبة بعنف وشدة ويصرح بأن استعادة ألمانيا لمستعمراتها لم يبق مسألة كرامة فقط ، وإنما أضحى ضرورة اقتصادية ترزح ألمانيا تحت عواملها المرهقة ، وينذر أوربا بالانفجار إذا لم تعط ألمانيا حقها من المستعمرات والمواد الخام ؛ ثم اتخذت ألمانيا بعد ذلك خطوتها الرسمية الأخيرة بتقديم مطالبها الخاصة بالمستعمرات إلى فرنسا وانكلترا ، مقرونة بمناوراتها البحرية في المياه الاسبانية الشمالية ، وبمناوراتها العسكرية في شمال مراكش

فهل تزمع ألمانيا أن تستغل هذه المظاهرات العسكرية لتحقيق مطامعها الاستعمارية ؟ هذا ما نعتقد؟ ولقد جرت ألمانيا النازية في العهد الأخير على سياسة المجازفة والوعيد والتظاهر ، وجنت ثمار هذه السياسة في نقض ميثاق لوكارنو ، وفي تسليح منطقة الرين الحرام ، وفي غيرها ، واستطاعت أن توقع بسياستها الخلاف في صفوف الحلفاء السابقين ، واضطرت فرنسا أن تسلم بالأمر الواقع في هذه المسائل مع أنها مما يمس سلامتها ؛ فهل تبقى فرنسا أمام الوعيد والتظاهر مرة أخرى ؟ هذا ما لا نعتقد ؛ ففرنسا تنظر إلى أعمال ألمانيا ومشاريعها في أسبانيا وشمال إفريقية بمنتهى التوجس ؛ وألمانيا تصيب هنا نقطة حساسة جداً في السياسة الفرنسية ، وقد ظهر اهتمام فرنسا واضحاً في ذهاب وزير حربيتها إلى شمال أفريقية ليتفقد أعمال الدفاع ، وفي حركات أسطولها حيث تجتمع وحدات كبيرة منه على مقربة من المياه الاسبانية ؛ وقد بادرت فرنسا بالاحتجاج لدى حكومة بورجوس على السماح للجنود الالمانية بالنزول في مراكش طبقاً لما تنص عليه معاهدة الجزيرة من تحريم مثل هذا الاجراء ؛ ومن المحقق أن فرنسا لن تتساهل على الاطلاق في مشاريع ألمانيا في هذه الناحية خصوصاً أن مراكش الاسبانية تقع وسط امبراطوريتها الافريقية كما أنها تشرف من جهة البحر على طريق فرنسا الامبراطوري ؛ وانكلترا لا تستطيع مثل فرنسا أن تتسامح في وجود الجنود الألمان في هذه المنطقة على مقربة من ثغر سبته المواجه لجبل طارق والذي يعتبر أهم من جبل طارق ذاته بالنسبة للاشراف على مدخل البحر الأبيض المتوسط ، وقد بدأت انجلترا مثل فرنسا في حشد جانب كبير من أسطولها على مقربة من المياه الاسبانية ؛ فالسياستان البريطانية والفرنسية تجمعهما هنا سياسة موحدة ، وتحدوهما الى العمل المشترك بواعث مشتركة لا شك في خطورتها

والمعروف ان ألمانيا منذ قيام الحرب الأهلية ترنو إلى استغلال هذه الأزمة الأوربية الجديدة لصالحها الخاصة ، وأنها تحوم حول مراكش الاسبانية وجزر الكنارى ، كما أن إيطاليا كانت تحوم حول جزائر البليار ، ولكن إيطاليا انتهت إلى إدراك الحقائق الواقعة ورأت أن تتفاهم مع انكلترا ، وأخذت في الواقع تخفف من تدخلها في المسألة الاسبانية وإن كانت في الظاهر تبدو مؤيدة لخطة ألمانيا . أما ألمانيا فقد اندفعت في خطتها إلى هذا المدى الذي يثير اليوم أزمة في منتهى الدقة والخطورة . وفرنسا لا تجهل البواعث التي تدفع ألمانيا إلى مثل هذه المغامرة ، وهي تدرك تمام الأدراك أن من ورائها المسألة الاستعمارية برمتها ؛ ولكنها على ما يفهم من تعليقات صحفها لا تنوى أن تنزل في هذا الوطن على وعيد ألمانيا ورغباتها ؛ وكل ما هنالك أنها لا تأبى أن تبحث المسألة الاستعمارية على ضوء جديد ، وأنها لا ترى مانعاً من تحقيق بعض رغبات ألمانيا في هذا السبيل إذا كانت ألمانيا تتعهد من جانبها بأن تقف عند هذا الحد من تحقيق مطامعها ، وأن تعود إلى حظيرة الدول الغربية لتعمل معها على تأييد السلام الأوربي ؛ ويقتضي ذلك أن تخفف ألمانيا من حدتها العسكرية ، وأن تعمل مع الدول الأخرى على تخفيض سلاحها ؛ أما إذا كان قصد ألمانيا من الاستيلاء على المستعمرات هو بالعكس استثمارها لتوسيع مشاريعها العسكرية ، فأن فرنسا تعارض كل المعارضة في استيلاء ألمانيا على شبر من الأرض يعاونها على تحقيق هذه الغاية . هذه هي النظرية الفرنسية كما تعرضها الصحف الفرنسية ؛ أما انكلترا فلم يتضح موقفها بعد في هـذه المسألة تماماً ، وإن كان ساستها المسؤولون قد أكدوا غير مرة أنها لن تنزل عن شيء من مستعمراتها

ومن المحقق أن تطور هذه الأزمة الجديدة يتوقف إلى حد كبير على تطور الحوادث الاسبانية ذاتها ، وعلى نتائج المعارك التي تضطرم حول مدريد ؛ فاذا كتب الفوز للثوار ، فان ألمانيا تزداد إصراراً في سياستها ومشاريعها ؛ وإذا كان الأمر بالعكس ، فمن المحقق أن هذه المغامرة الألمانية تنهار في مهدها

وسنرى من جهة أخرى ماذا تستطيع الجهود السياسية أن تحقق في هذا السبيل

(***)

نظرية النبوة عند الفارابى

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

تتمة

وبصرف النظر عن هذه الحملة الباطلة التى أثارتها عوامل الحقد والحسد والتى لم يكن لها أساس من الواقع والحقيقة فى شىء ، فأن الذى نحب أن نستخلصه من الأفكار السابقة هو أن السيد يلتقى مع الفارابى فى نقطتين هامتين : فهو يوضح أولاً مهمة النبى الاجتماعية والسياسية ، وهذه مسألة بعد الفارابى من أول من صوروها فى الاسلام بصورة علمية نظرية ، وربما تلخص كتابه « آراء أهل المدينة الفاضلة » فى إدعام فكرة النبوة على أساس من « جمهورية » أفلاطون وعلم النفس عند أرسطو . والسيد وهو مصلح دينى وسياسى لابد له أن يحتذى هذه الخطى ويسير على هذا النهج . ومن جهة أخرى لا يفوتنا أن نشير إلى أن النبى والحكيم يقتربان عند هذين الفكرين إلى حد كبير ، فهما روح الجمعية ومبعث الحياة والاصلاح . نعم إن السيد يفرق بينهما من ناحية الكسب والعصمة ، فى حين أن الفارابى لم يوضح القول فى الأول وأغفل الثانية بتاتاً ، وبدا كأنه يسوى بين النبى والفيلسوف من جميع الوجوه . ولكن يجدر بنا ألا ننسى أن الفارابى كان يصعد بالحكيم إلى مستوى هو العصمة بعينها ولا يمكن أن يتصور فيه الزلل ، ولهذا لم يفرق بينه وبين النبى فى هذه النقطة . وفوق هذا فأن السيد إذا كان قد جهر بهذه التفرقة فهو متأثر بعصره وبيئته والحملات التى وجهت من قبل إلى البحث العقلى ، لأنه يعود إلى موضوع الحكمة بعد سبعة قرون قضاها المسلمون فى مطاردة الفلسفة والفلاسفة . فلم يكن فى مقدوره أن يدعو للفلسفة دعوة صريحة ولا أن يثبت لها حقاً فى الحياة مكتملاً من كل نواحيه . وكيفما كانت الفوارق بينه وبين الفارابى فما لا شك فيه أنه قرب المسافة بين النبى والحكيم ، وعدهما مصدر تقويم وإصلاح ؛ وهاتان الفكرتان فارابيتان فى أصلهما سواء أكان السيد قد استمدهما مباشرة من كتب الفارابى أم بالواسطة من مصدر آخر . وقد ساهم السيد فى نصرة الفلسفة والأخذ بيدها وساعد على إحياء دراستها فى الشرق بعد أن كان الناس قد انصرفوا عنها زمناً

ولم يكن الأستاذ فى تأثره بالفارابى أقل وضوحاً من شيخه وصديقه السيد جمال الدين ، فقد قرأ ابن سينا واشترك بنفسه فى إحياء الدراسات الفلسفية القديمة المهجورة . وفى نشره لكتاب « البصائر النصيرية » ما يشهد بذلك . هذا الى إنه وإن اشترك مع السيد فى فكرة التجديد والاصلاح يخالفه فى الوسائل الموصلة الى ذلك . فبينما السيد مجدد طموح يريد الوصول سريعا وعن طريق السياسة ، إذا بالأستاذ الامام يعتقد أن طبيعة الأشياء تأبى الطفرة وأن الاصلاح يستلزم خطوات رزينة ، وتدرجا معقولا ، ودعائم مثبتة من الأخلاق والدين . لهذا اتجه أولاً وبالذات نحو التعاليم الدينية يحاولا أن يصوغها فى القالب الذى يتفق وروح العصر ، وأن يصعد بها الى ما كان عليه السلف الأول [1] . فقد كان على يقين مما لحق الاسلام من أفكار فاسدة صورته بصورة معيبة شنيعة ، ووضعت حجر عثرة فى سبيل النهوض والتقدم . ولم ير بدا من محاربة هذه الأباطيل والترهات والقضاء على البدع والخرافات ، والأخذ بيد التفكير الحر الطليق تحت راية الدين الصحيح ؛ وأثره فى هذه الناحية أوضح من أن ينوه عنه . وفى رأيه أن العلم والدين لا يختلفان مطلقاً ، بل يجب أن يتضافرا على غاية واحدة هى تهذيب الانسانية وترفيهها وإسعادها [2] . فالدين يحول دون الانسان والزيغ الذى يقود اليه عقل جامح ؛ والعلم يوضح الأصول الدينية ويبين أنها لا تتنافى مع المبادىء العقلية . ولن نستطيع الأدلاء هنا بكل أفكار الأستاذ الامام الدينية ، وسنكتفى بأن نلخص رأيه فى النبوة كى تتبين وجوه الشبه بينه وبين النظرية الفارابية

يقف الأستاذ الامام على هذا الموضوع ثلث « رسالة التوحيد » المشهورة أو يزيد ، وفيها يتحدث عن الرسالة العامة وحاجة البشر إلى الرسل وإمكان الوحى ووقوعه ووظيفة الرسل ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم . ويصرح بأن الانسان مدنى

(١) Encyc. de l'Islam Mohamed Abdo.
(٢) محمد عبده ، الاسلام والنصرانية

بطبعه محتاج الى المخالطة والمعاشرة ، وعلى كل فرد من أفراد الجمعية واجب يؤديه وحق يطالب به [١] . بيد أن الأفراد قد يخلطون الحقوق بالواجبات ، ويتهاونون فيما كلفوا به مسرفين كل الاسراف فيما يدعونه لأنفسهم من حقوق ؛ فتعم الفوضى وينتشر الفساد ، وتصبح الجمعية في حاجة ماسة إلى قيام بعض أفرادها هداة ومرشدين ، يبينون للناس النافع والضار ، ويميزون لهم الخير من الشر ، ويعلمونهم ما شاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم ، وما أراد أن يقفهم عليه من شؤون ذاته وكمال صفاته ؛ وهؤلاء هم الأنبياء والمرسلون صلوات الله عليهم [٢] . فبعثتهم من متممات كون الانسان ، ومن أهم حاجاته في بقائه ، ومنزلتها من النوع الانساني منزلة العقل من الشخص ؛ منحة أتمها الله لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل [٣] . وليس غريباً أن يختص الله بعض خلقه بالوحي والالهام ، فقد سمت نفوسهم وأصبحوا أهلاً للفيض الالهي والكشف الرباني ؛ وبديهي أن درجات العقول متفاوتة يعلو بعضها بعضاً ، ولا يدرك الأدنى منها الأعلى إلا على وجه الاجمال . وليس هذا التفاوت نتيجة الاختلاف في التعليم فحسب ، بل كثيراً ما كان أثراً من آثار الاختلاف في الفطرة التي لا تخضع لقوانين الكسب والاختيار ؛ ولا يزال المرء يرقى في الكمال حتى يبدو البعيد له قريباً ، وتتفتح أمامه حجب الغيب [٤] . يقول الأستاذ الامام : « فاذا سلم ولا محيص من التسليم بما أسلفنا من المقدمات فمن ضعف العقل والنكول عن النتيجة اللازمة لمقدماتها عند الوصول اليها ألا يسلم بأن من النفوس البشرية ما يكون لها من نقاء الجوهر بأصل الفطرة ما تستعد به من محض الفيض الالهي لأن تتصل بالأفق الأعلى وتنتهي من الانسانية إلى الذروة العليا ، وتشهد من أمر الله شهود العيان ما لم يصل غيرها إلى تعقله أو تحسسه بعصا الدليل والبرهان ، وتتلقى عن العليم الحكيم ما يعلو وضوحاً على ما يتلقاه أحدنا عن أساتذة التعاليم [٥] »

لا نظننا في حاجة أن نشير إلى أن كثيراً من هذه المعاني التي رددها الأستاذ الامام قال بها السيد جمال الدين . فمهمة النبي في رأيهما أخلاقية اجتماعية ، ووظيفته تنحصر في تربية الشعوب والسير بها نحو الطريق القويم . وإذا كان السيد قد اعتبر النبي روح الجمعية الانسانية فالأستاذ الامام عده عقلها . ولا نظننا مغالين إذا قلنا إن الامام يعود بنا إلى عصر الفارابي وابن سينا اللذين كانا يفسران النبوة تفسيراً علمياً سيكولوجياً . وهو يميل دائماً ، كما قدمنا ، إلى أن يرجع التعاليم الاسلامية إلى الحال الزاهرة التي كان عليها السلف الأول ؛ وفي كثير من آرائه ما يقربه من هذين الفيلسوفين وما يدفعنا لأن ندرس العلاقة بينه وبينهما في شكل أكمل وعلى صورة أوضح . فهو يقرر مثلهما أن التعاليم والأوامر الدينية يراد بها الشعوب وعامة الناس في حين أن الفلسفة إن صلحت غذاء لطائفة معينة فليس في مقدور الجميع استساغتها . ويقول بالأسباب الطبيعية التي أنكرها أهل السنة ملاحظاً ، كما لاحظ فلاسفة الاسلام من قبل ، أنها لا تتنافى مع قدرة الله واختياره في شيء . وفي اختصار يتفق الأستاذ الامام مع الفارابي في محاولته التوفيق بين العقل والنقل ، بين العلم والدين . وهذه المحاولة تدور عادة حول نقط تكاد تكون محدودة ، ولعل هذا هو السبب الذي قرب المسافة في بعض المسائل بين هذين الفكرين

تتبعنا في كل ما سبق نظرية النبوة الفارابية منذ نشأتها ، أعني في القرن العاشر الميلادي ، إلى أن وصلنا بها إلى أوائل القرن العشرين ؛ ونأمل أن نكون قد وفقنا لبيان أثرها في الشرق والغرب ، في التاريخ المتوسط والحديث ؛ ونعتقد أن في هذا ما يحفزنا إلى إحياء الدراسات الفلسفية الاسلامية ، فقد ثبت أن هناك صلة بين أفكار اليوم والأمس ، وفي أبحاث القرون الوسطى ، كما لاحظ ليبنتز ، درر نفيسة لا يصح إغفالها . على أن نهضتنا العقلية والفكرية لا يمكن أن تؤسس على أساس صالح إلا إن ربط فيها الحاضر بالماضي واتصلت سلسلة التفكير الاسلامي الصحيح ؛ ولنا في الأستاذ الامام والسيد جمال الدين أسوة حسنة

ابراهيم بيومي مدكور

(١) محمد عبده ، رسالة التوحيد ، ص ٧٣ — ٧٤
(٢) المصدر نفسه : ص ٨٢ — ٨٣
(٣) المصدر نفسه : ص ٨٤
(٤) المصدر نفسه : ص ٨٥
(٥) المصدر نفسه : ص ٨٦

في الأدب المقارن

النسيب

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

الجمال هو مادة الفن ، والتأثر به هو وحي الأديب ، والتعبير عنه هو رسالة الأدب ، سيان جمال الطبيعة والجمال الانساني ؛ وأصدق مقياس لرقي الأدب وحيويته حسن تعبيره عن الفتنة بهذين الضربين من الجمال ، وأدق برهان على رقي المجتمع وصحة بنيته حفولُ أدبه بالتعبير الصادق عن الشعور الحار بفتنة الجمال في مظاهره . والأديب الموهوب لا مندوحة له عن الاتيان بشيء جليل في بابي الوصف الطبيعي والنسيب ، مهما كان حظه من سائر ضروب القول ؛ فالجمال الطبيعي والجمال الانساني هما لباب الفن وصميمه ، وما عدا ذلك نوافل وفضول

والنسيب لا يزدهر إلا في مجتمع توفرت له شروط خاصة : في مجتمع على جانب من الثروة لا هو الى الترف ولا هو الى الفاقة ، على جانب من الخلق العظيم لا هو الى النعومة والضعف ولا هو الى الجلافة أو التزمُّت ، على حظ من حب المغامرة لا فانٍ في حروب متواصلة ولا خانع قانع ، في منزلة من الحضارة والرقي العقلي بين الهمجية والتوحش ، وبين الاغراق في التقاليد المملوءة بالنفاق : ففي المجتمع الفقير يشتغل الأفراد بكسب القوت عن الترنم بعواطف النفوس ، وفي المجتمع المترف ترذل الأخلاق وتدنس العلاقات ، والتزمت أو التشدد الديني يخفت صوت العواطف ، وكذلك تخفته التقاليد الحمقاء الشديدة الوطأة ، كما أن عصور المغامرة هي شباب الأمم الذي تحس فيه بكل نوازع الشباب ، من حب الجمال والشغف بالعظائم

وقد تحققت هذه الشروط الى مدى بعيد في العربية في العصر الأموي : ففيه كانت الأمة العربية على جانب من الثروة والرقي العقلي والسمو الخلقي وحب المغامرة : قد ورثت أخلاق البادية المتينة وصقلتها الحضارة ولم تفسدها بعد ، وأصابوا من ثروة الأمم التي دانوها ، وما زالوا مجاهدين متأهبين للجلاد ، فلا غرو ارتقى النسيب في هذا العصر ؛ وكان قد بلغ في الجاهلية درجة عالية من الرقي ، فأصاب في العصر الأموي غاية رقيه ؛ وكان ذلك العصر مهده الذهبي في العربية ، فيه نبغ من شعراء النسيب جميل وكثير وقيس ، وجم غفير منهم عروة بن حزام وابن الدمينة وأبو صخر الهذلي وابن الطثرية

امتاز نسيب هذا العصر بخير ما يمتاز به النسيب : صدق شعور ، وحرارة عاطفة ، وجزالة نسج ، وعفة مقال ، وحسن بيان لمظاهر الحب وخفاياه وأحواله ، وحسن وصف لجمال المحبوبة الجسمي دون إغفال لجمالها النفسي . ومن عَجَب أنَّ جيلاً نبغ فيه من ذُكر كان يصغي في نفس الوقت الى الأخطل والفرزدق وجرير وهم يتشاتمون ؛ ونَبُهَ شأن هؤلاء حتى كادوا أن يخملوا الأولين ، مع أن جميلا وعروة وأمثالهما كانوا يترنمون بعواطف انسانية نبيلة ، والآخرين كانوا يتقاذفون بالأوضار ؛ ومن بديع النسيب المتخلف عن هذا العصر قول قيس بن ذريح :

نهاري نهار الناس ، حتى إذا دجا ... لي الليل هزتني اليك المضاجع

أقضّي نهاري بالأحاديث والمنى ... ويجمعني بالليل والهم جامع

وقول ابن الدمينة :

لك الله إني واصل ما وصلتني ... ومثنٍ بما أوليتني ومثيب

وآخُذُ ما أعطيت عفواً وإنني ... لأزورُّ عما تكرهين هيوب

وإني لأستحييك حتى كأنما ... عليّ بظهر الغيب منك رقيب

تصرم ذلك العصر تدريجاً ، ودخل عصر الترف والمجون والملكية المطلقة ذات الأبهة ، فلم يعد المجتمع يصلح للحب الصادق ، ولا الأدب يتسع للتعبير الصادق عن الحب : فقد ضعفت الأخلاق وانتشرت المفاسد ، واشتد تأثير الجواري في المجتمع . وتقلصت مكانة الحرائر وضرب عليهن حجاب الجهل . وفي ذلك الجو الخليع تفشو الغواية والشهوة ، ولا يفشو الحب العذري الحار ؛ فالحب الصادق لا يكون ، والنسيب الرائع لا يزدهر ، إلا حيث جمالٌ وحيث عفة ، كما قال العذريّ ؛ أما حيث تقع الجارية من نفس الرجل فيشتريها بماله ويصيّرها في عداد ممتلكاته ، فلا يكون ذلك

وذهب عهد المغامرة والجلاد وتلاه عهد الشيخوخة والوهن وكفّت الأمة العربية عن الحرب، وأقيم عليها المرتزقة من الترك والعجم، وخمدت العزائم، واستخذت النفوس تحت جبروت الملكية المطلقة وعمالها الناشئين الذين أفقروا الأهلين بمغارمهم، فانصرف الناس الى طلب القوت وحرصوا على المادة؛ ولم يعد الحب إلا اسماً يذكر، وطيفاً يتوهم، وأنيناً موصولاً وعويلاً، وتصابياً كتصابي الشيوخ؛ أما صدق الشعور بالحب والتقلب في أحواله وأطواره، فقد انقضى بانقضاء شباب الأمة

أما الأدب فسرعان ما داخله التكلف في ظل الملكية ذات الصلات، وتوفر الشعراء على المديح؛ وبدل أن يبتكروا جديداً انصرفوا إلى معارضة معاني الأقدمين في المدح والنسيب: ومن ثم انقسم شعراء العصر العباسي فريقين: فريقاً انغمس في تيار الشهوات وملأ شعره بوصفها، كبشار وأبي نواس اللذين أوغلا في الباب الذي كان فتحه ابن أبي ربيعة في العصر السابق؛ وفريقاً كان أنقى صفحة وأعف طبعاً فلم يجر إلى ذلك المدى، ولكنه لم يودع شعره وصفاً صحيحاً صادقاً لعواطفه وغرامه كذلك الذي توفر عليه جميل ومعاصروه، بل اكتفى بالنسيب الاستهلالي التقليدي الذي تتكلف فيه البراعة وتتوخى المحسنات البديعية؛ ومن ثم لا نرى في أشعار البحتري والطائي والشريف ومهيار وصفاً صادقاً حاراً لغرامهم. ومن الخطأ الشديد حين الكلام على النسيب في العربية أن نخلط نسيب هذا العصر الاستهلالي التقليدي بنسيب العصر الماضي الصادق الحي

***

وقد شهد النسيب في الانجليزية عصوراً مشابهة لهذه وإن جاء ترتيبها مختلفاً: فأما العصر الذهبي للنسيب في الانجليزية فهو العصر الاليزابيثي الذي توفرت فيه الشروط السالفة الذكر، فكان عهد شباب وطموح ومغامرة، فيه ثروة ونهضة عقلية وخلق متين؛ ومن ثم حفل مجتمع ذلك العصر بأحاديث الحب؛ وكانت قدوة الشعب ملكته التي كانت على جانب عظيم من الجمال والثقافة، يحيط بها طائفة من الفرسان البواسل، يتقربون إليها بتدويخ أعدائها ومد سلطانها براً وبحراً؛ ومن ثم ازدهر النسيب في أشعار شكسبير وسبنسر وبن جونسون وغيرهم

وفي العصر التالي خمد النسيب حيناً بتغلب طائفة المطهرين المتشددين الذين حولوا المملكة إلى صومعة يسودها الوقار والكآبة، وحرموا شتى المعاث والمسرات، حتى قيل إن سبب تحريمهم قتال الديكة — وكانت تلك تسلية معروفة إذ ذاك — لم يكن رغبتهم في الرفق بتلك الطيور، بل حرصهم على حرمان الناس من السرور والتمتع. وقد ركد النسيب كذلك في العربية ركوداً طبيعياً لم يفرضه عليه أحد، في صدر الاسلام حين امتلأت النفوس برهبة الدين وانصرفت الهمم إلى جهاد أعدائه

وتلا عصر المطهرين في انجلترا عصر ترف وفساد، جاء رد فعل للعصر السابق، فرانت الشهوات في المجتمع، وشاع الفجور في الأدب، كالذي كان في العصر العباسي؛ ثم زايلت المجتمع والأدب تلك اللوثة رويداً رويداً خلال القرن الثامن عشر. على أن النسيب لم يزدهر ثانية خلال ذلك القرن لأقفاره من روح المغامرة والطموح، وتقاعد رجاله في المدن وتزاحمهم في المنتديات التي شاعت إذ ذاك. ومن أهم ما يعاب على شعراء ذلك العصر أمثال بوب وأديسون وجونسون خلو شعرهم من آثار الفتنة بالجمال في مظهريه الطبيعي والانساني

وإنما ازدهر النسيب وحفل الأدب بوصف فتنة الجمال بانبعاث النهضة الرومانسية، التي انصرف رجالها إلى الطبيعة والتفتوا إلى الماضي الحافل بحوادث البطولة، فكان جميع رجالها كوردزورث وكولردج وكيتس وشلي مغرمين غراماً شديداً بمحاسن الطبيعة ومفاتن الجمال الانساني. ولكيتس في ذلك أقوال جرت مجرى الأمثال، كقوله: «الشيء الجميل هو حبور لا ينقضي» وقوله: «الجمال هو الحق والحق هو الجمال؛ هذا كل ما هنالك، وهذا كل ما يمنيك أن تعلمه»

والحق أن النسيب في الانجليزية مقرون غالباً بالوصف الطبيعي، لشعور الأدباء البدهي بما بين الأمرين من صلة وثيقة؛ فالطبيعة غالباً هي المنظر الخلفي للصورة التي يرسمها الشاعر لموقف الحب الذي يريد رسمه، كما يتخذ المصورون مظاهر الطبيعة من بحر أو غاب أو أفق مناظر خلفية لما يصورون من وجوه أو أشخاص آدميين. والطبيعة هي التي تمد الشاعر الانجليزي بالأوصاف والتشبيهات التي يمثل بها حبيبته وعاطفته؛ وظواهر الطبيعة هي الرسل الأمينة بينه وبين محبوبته، وهي أيضاً الوحي الذي يوحي اليه فلسفة الحب التي ينسجها لنفسه

فشلي مثلاً يقول: «النافورات تمازج النهر، والنهر يمازج المحيط، ورياح الفضاء تمازجها دائماً روح عذبة، ولا شيء في

العالم يمضي وحيداً ، بل كل الأشياء مطيعة لقانون إلـهي يمازج أحدها الآخر ، فلمَ يشذ كلانا ؟ » ومارلو يقول : تعالَ سويا وكوني لي ، كي نستوعب كل المتعات التي يجبونا بها التلاع والسهول والوديان والحقول والجبال الوعرة » وتنيسون يقول : « ما بالها تتباطأ في إسباغ الحب على قلبها تباطؤ الوريقة على الغصن في اكتساء الخضرة وقد اخضر جميع الغابة ؟ » ووولر يقول : « اذهبي أيتها الوردة الجميلة إليها ، إلى تلك التي تضيع وقتها ووقتي ، والتي تعلم حين أشبهك بها كم هي تبدو لي جميلة جذابة . أخبريها — تلك الصغيرة التي يأبى لها الخفر أن يطلع إنسان على مفاتنها — أنك لو نبت في القفار الموحشة لذويت دون ان يطرى جمالك إنسان ؛ ثم موتي أيتها الوردة كي تقرأ فيك النهاية المحتومة لكل غال عزيز ، وتعلم قصر المدة التي يحظى بها كل جميل جذاب »[1]

ولولوع أدباء الانجليزية بالفنون الجميلة ، وشمول نظرتهم إلى شتى مظاهر الجمال وأحواله ووسائل التعبير عنه ، كانوا كثيراً ما يمزجون جميع ذلك في مقطوعة واحدة من شعر النسيب . فشلي يقول مثلاً : « إن رجع الألحان بعد خفوت الصوت يبقى مردداً في الأفئدة ، ولنشر البنفسج بعد موته طيب في الأنوف ، وأوراق الورد بعد ذبولها تنثر على فراش الحبيب ، وكذلك ذكرياتك تظل بعد ذهابك ماثلة » ، وكولردج في قصيدته « الحب » يصور موقفه مع حبيبته حيال تمثال فارس مدجج تستند إليه محبوبة الشاعر ، ثم يمضي يقص عليها حكاية غرام ذلك الفارس في سالف الدهر في أسلوب خيالي عذب ، مازجا وصف عواطف الفارس بوصف عواطفه هو نفسه

وفي النسيب في العربية شيء من ذكر الطبيعة ولكنه ضئيل . وقد كانت الطبيعة على العموم مهضومة الجانب في الأدب العربي ، كما مرَّ ذكره في كلمة سابقة ؛ ولم يحقق الأدب العربي في عصر من عصوره تمثل ذلك الحب الحار الذي خفق به للجمال الانساني ، في معالجته للوصف الطبيعي ؛ إنما جرت عادة شعراء العربية على تحميل الرياح سلامهم ، ودعاء الغيث إلى سقي منازل أحبابهم ، ومناجاة الحمائم والتشاؤم بالغراب ، وتشبيه لواعجهم بلواعج الابل أو القطا لفقد صغارها وألافها ، كما كانوا يغبطون الوحش الآمن في سربه الهنأ بألفه كما قال أبو صخر الهذلي :

لقد تركتني أغبط الوحش أن أرى
أليفين منها لا يروعهما الذعر

أما مناظر الطبيعة : أشجارها وأزهارها ، والامتزاج الروحي بكل ذلك ، فقليلة الأثر في الشعر العربي عامة وفي النسيب خاصة ؛ فبينما نجد الشاعر الانجليزي حين يتأنق في تصوير أقصى مناه يتصور نفسه ومحبوبته يجوسان بين الخمائل والغدران ، نجد الشاعر العربي الذي تعوّد حياة المدينة واستمرأ معيشة الحضارة ، لا يتصور اللقاء إلا في الدار ، ولا يقابل حبيبته إلا في المجالس والمحافل والمآتم والحج ، كما قال أبو حية النميري :

رمته أناة من ربيعة عامر نؤوم الضحى في مأتم أي مأتم

وكما قال كثير :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسَّح بالأركان من هو ماسح
نقلنا قلوبا بالأحاديث واشتفت بذاك نفوس منضجات قرائح

وكما قال ابن الرومي .

ياليت شعري هل يبيت معانقي وبداي من دون الوشاح وشاحه ؟

وقد يتفق النسيب العربي والنسيب الانجليزي من بعض الوجوه : ففي كليهما استعمار الشعراء أحياناً أسماء خيالية تكنيةً وتعمية عند التحدث عن حبائبهم : ففي العربية فشت أسماء هند وليلى وسعاد مأخوذة عن الدرب المتقدمين ، وفي الانجليزية استعملت أسماء جوليا وإلكترا وثيرزا منقولة عن الأدب الكلاسي ؛ وفي كلا الأدبين اشتهر نفر من رجال الدين برقة النسيب والبصر بملابسات الحب : ففي الانجليزية كتب دن وهريت وسويفت وغيرهم قطعاً من أسنى وأنق ما كتب في النسيب ، وفي العربية أثر عن عروة بن أذينة الفقيه نسيب رائع أشهره أبياته التي مطلعها « إن التي زعمت فؤادك ملَّها » ، وألف ابن حزم وهو فقيه من بيت فقهاء كتاب « طوق الحمامة » يفصل فيه أطوار الحب ونوازعه ، ويبرهن على نظرياته بتجاريبه الخاصة

وقد تناول الأدبان شتى أغراض النسيب بين فارحها وحزينها ، وبين الذكريات والآمال ، وبين طرب اللقاء ولوعة الفراق ، وبين التوجع لغدر الحبيب والتفجع لوفاته ؛ بل تماثل في الأدبين معان كثيرة جداً من معاني النسيب : فقول الشاعر العربي : « أسرب القطا هل من يعير جناحه ؟ » له نظير في مقطوعة تنيسون « إلى الخطاف » ، وقول كراشو : « وجه لم يصنع من دكان غير ذلك الذي تفتحه يد الطبيعة البيضاء على

(1) كما ينظر هذا الكلام إلى قول المتنبي :

زودينا من حسن وجهك مادا م فحسن الوجه حال تحول
وصلينا نصلك في هذه الد نيا فان المقام فيها قليل

مصراعيه » شبيه بقول جميل : « إذا ابتدلت لم يزرها تزك زينة » ، وقول تنيسون من قصيدته « مود » : « لو كنت فانياً منذ قرن لسمع قلبي خطاها على رقّتها ، ودقّ وخفق تحت قدميها ، وارتد زهراً أحمر قانياً » يشبه قول توبة الحميري :

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت علىّ ودوني جندل وصفائح
لسلمتُ تسليم البشاشة أو زقا إليها صدى من جانب القبر صائح

واختص الأدب العربي بمواضيع احتفى بها وأدمن طرقها ، وكان أكثرها وليد خصائص بيئته ، وقلما التفت إليها الشاعر الانجليزي : كالوقوف بالاطلال ، ومناجاة الأطياف ، ووصف نحول الجسم وذم الشيب الذي يُقعِد عن المتعات ويُرَوِّع الغانيات ، والشكوى من الواشي والرقيب والعذول ؛ وهذا الأخير راجع إلى انتشار الحجاب وحظر الاختلاط بين الجنسين إلى حد بَعُد أو قرُب في مختلف عصور العربية . وهو أمر جعل مسحة الحزن والتفجع أظهر في النسيب العربي منها في الانجليزي ، إذ لا مانع في المجتمع الانجليزي من الاختلاط ، ولا رقيب سوى الخلق القوى ؛ وكأن الشريف الرضي عنى هذه الحال في المجتمع الانجليزي بقوله :

عفافكِ من دون التقية زاجرٌ وصَونكِ من دون الرقيب رقيب

يختلف النسيبان من هذه الوجوه ، ويختلف أدباء كلا الأدبين بعض الاختلاف في النظر إلى الجمال ، لاختلاف البيئتين وأثر ذلك في تكوين الجسم : فالأديب العربي في بيئته الحارة يتشبب بالعيون الدعجاء والحوراء ، والشعور السوداء الأثيثة ، والجفون المريضة ، والجسم الممتلىء ، ونؤوم الضحى ؛ على حين يهيم الشاعر الانجليزي بالشعور الشقراء يشبهها بالثلج نقاء ، ويهوى زُرق العيون وينفر من الحدق النُّجل ؛ والأديب العربي يشبب بكاعب « بنت عشر وثلاث » كما قال بشار ، ولا تكون مثل هذه في الجو الانجليزي إلا طفلة غريرة ؛ والشاعر الانجليزي آخر من يُعجب بصاحبة الشاعر العربي التي يصفها بقوله :

أبتِ الروادف والثديُّ لقمصها مسَّ البطون وأن تمس ظهورا
وإذا الرياح مع المشيِّ تناوحت نبهن حاسدة وهجن غيورا

ويختلف النسيبان من وجه آخر أهم كثيرا : ذلك أن النسيب كسائر فنون القول في الأدب العربي التزم طريقة التعبير المباشر ، يعبر الشاعر عن إحساسه الفردي تعبيراً صريحاً ثم لا شأن له بسواه ، كما عبر جميل عن حبه لبثينة ، وتوبة عن حبه لليلى ؛ أما في الانجليزية فيقوم بجانب هذا الضرب المباشر من التعبير ضرب غير مباشر ، فيه يتحدث الشاعر عن شعور سواه بالجمال ، ويصف جمال غير محبوبته ، وبجال ذلك الروايات التمثيلية كروايات أنطونى وكليوباترا لشكسبير ، والقصص كقصص وسكس لهاردى ، ففي هذه وتلك يصور الأديب عواطف غيره ومواقفهم ، مازجا ذلك بلا ريب بعواطفه ومواقفه ، مسبغاً على إنشائه ثوبا رائعاً من الخيال

وفي العربية شيء من القصص أولع بتأليفه بعض المتأخرين من الكتاب كأبي الفرج الببغاء ؛ غير أنه بدائي سطحي مشوب بلوثة الترف والشهوة . وأحسن ما في العربية من وصف للحب وأطواره هو النسيب الشعري ؛ فالشعر لموسيقاه واختيار ألفاظه وأخيلته خير معبر عن الشعور الفردي المباشر ؛ فالشعر في العربية دون النثر هو المستأثر بالتعبير عن الحب ؛ أما في الانجليزية فللنثر نصيب من ذلك تزايد بانتشار الرواية التمثيلية وذيوع القصة ، حتى ليكاد بفضل الأخيرة يغلب الشعر على مكانته من نفوس القراء ، لما يستطيعه دون الشعر من التحليل المسهب الدقيق ، والحركة المستمرة ، والوصف المستوعب لدخائل النفوس وأطوار الحب بمواقف الغزل ، حتى ليستطيع القصصي البارع أن يبكي قراءه ويمزج نفوسهم بنفوس أشخاص قصته ، ويجعلهم يتمثلونهم أحياء ويذكرونهم مدى حياتهم كأنهم أصدقاء قدماء قد فقدوهم

ومن ثم نرى أن أعلام الغرام المذكورين في الأدب العربي ، والذين تتخذأسماؤهم رموزاً للحب ، وتضرب أمثلاً في الهيام ، هم الأشخاص الحقيقيون الذين عاشوا وسجلوا قصة غرامهم بأنفسهم في أشعارهم وحدثتنا عنهم كتب الأدب ، كعنترة وعبلة ، وجميل وبثينة ، وتوبة والأخيلية ، وابن زيدون وولادة ، على حين نرى في الانجليزية أن أعلام الغرام الذين تضرب بهم الأمثال ويجري ذكرهم على الألسنة ، هم الأشخاص الخياليون الذين اخترعتهم مخيلة الأدباء ، مثل روميو وجوليت ، وعطيل وديدمونة ، وأوفيليا وهملت ، نعرف كل أولئك وهم من ابتداع شكسبير ، ولا نعرف إلا الشيء القليل غير المستيقن عن محبوبته « الحسناء السمراء »

ولم ينفرد القصصيون بذلك الابتداع وذلك التعبير الباشر عن مظاهر الحب ، بل حاراهم الشعراء : فمعظم شعراء الانجليزية الذين تناولوا الحب في شعرهم تغنوا بالجمال الانساني على إطلاقه ، ولجأوا إلى الخرافات اليونانية أو أساطير عهد الفروسية ، ينتخبون

منها من وقائع الغرام بين بواسل الأبطال وفاتنات ربات الحجال ما يصوغونه شعراً سلساً ، يضفون عليه ثوبا رقيقاً من الخيال ، ويودعونه شغفهم المطلق بالجمال غير مقصور على امرأة واحدة ، ولا على الوجه الانسانى ، بل شاملاً لمحاسن الطبيعة أيضاً

ولهذا الضرب من الشعر النسيبي مزايا جمة : ففيه إمتاع للخيال وإثارة للطرب ، وإشباع لحب الجمال على إطلاقه ؛ وهومنزه عن الغرض الشخصى وعن ريبة الشهوات تنزيهاً تاما ؛ وهو يجعل من الحب والجمال والبطولة والمرأة مُثلا عليا تهفو إليها النفوس ، ويمنح المؤلف والقارىء معاً جواً من النقاء والسمو كثيراً ما يعوزنا فى الحياة الواقعة ، وفى ذلك عزاء للنفس عن نقائص الواقع المجرد وأوشاب الحياة التى قلما تتعلق بالكمال

فالأدبان العربى والانجليزى فرسار هان فى مضمار النسيب ، قد وعيا من آثاره سجلاً حافلاً يصور فتنة النفس الانسانية بالجمال الانسانى ؛ يتمثل ذلك فى العربية فى بعض شعر الجاهلية ، وبالأخص فى شعر العصر الأموى ، وبذلك النسيب الأموى يعتز الأدب العربى ويفاخر أول ما يفاخر ، لصدق ما فيه من شعور يعوز شعر العصور التالية ، ونبل ما فيه من غرض يباين غرض أشعار المديح والهجاء ، وجزالة ماله من أسلوب يزدرى أسلوب الصناعة والمحسنات التى داخلت الشعر بعده ، وذلك الأدب النسيبى لم ينل حقه من التقدير والاهتمام بعد ، وأولئك الشعراء الناسبون لم يتبوأوا مكانهم الجدير بهم فى الأدب العربى

فخرى أبو السعود

جي دي موباسان*

١٨٥٠ – ١٨٩٣

بقلم محمد سليمان علي

حياته:

ربما ظل جي دي موباسان كاتباً خامل الذكر في القسم المدني الفرنسي طيلة حياته لولا إيحاء جوستاف فلوبير. فقد اكتشف الروائي المعظم مخايل النبوغ في الطالب الذي كانت غايته من الحياة الدنيا على حد اعترافه أن يكون «حيواناً كامل الصحة» والذي أطلق وهو في الثالثة عشرة على الدين اسم «اللاشيء الأبدي»

وكانت أمه تعتزم أن تجعل منه مؤلفاً نابهاً. وربما كان فلوبير باعث هذا الأمل، فقد كان يعرف لورا موباسان قبل زواجها من جستاف دي موباسان الفتى المتأنق الذي هجرها بعد أن جردها من كل شيء. وكان فلوبير ولورا يتراسلان بلا انقطاع، فكان يسدي النصح إليها فيما يختص بتربية ابنيها هرفيه وجي. ولقد كان لهما بمثابة الأب الناصح على نقيض أبيهما الذي كان يتجنب المسؤولية ويحب اللهو، حتى حرم بأسرافه ابنيه من فرصتهما في الحياة. ولقد كان (جي) وهو صبي «كجواد طليق في أحد الحقول»، وفي (الليسيه امبريال نابليون) برع في الرياضة والسباحة، والنكات العملية الأنيقة؛ وفي الثالثة عشرة كان فلوبير يقرأ المحاولات الأولى في الشعر لمتبناه

وبعد أن غادر موباسان المدرسة بدأ بدرس القانون، غير أن المال أعوزه فلم يتم الدرس، واضطر أن يلجأ إلى حمى الوظيفة التي كانت غاية الوقار والأمان عند أسر الطبقة الوسطى. وكان موظفاً قديراً. وظل سنين عدة في منصب مغمور، يتناول مرتباً ضئيلاً لا يكفي رغباته المسرفة. ولكنه لم يتعجل لتعزيز وسائله بالكتابة، ألم إلا يضيع مقالات لجرائد ومجلات أدبية.

فقد كانت يد حكيمة، قائدة، تسدد مستقبله الأدبي. وكان يرد على إلحاح أمه إذ تطالب منه قطعاً رائعة: «لم يحن الوقت بعد. إنني أتعلم صناعتي» وكان يكتب بعزم دون كلل، ويعرض كل سطر على فلوبير ليصححه أو يكتبه له من جديد، وما اشتكى موباسان قط ولا كد نفسه

واستمرت تلمذته ثلاث عشرة سنة تلاها عشر من الفني والمجد. ولما تخلص من خمول الوظيفة، وأصبح سمير الأبهاء الفرنسية، تعطش للنجاح، بيد أنه على أثر سقوطه النسبي كمؤلف مسرحي اعتراه ذلك الأسى الذي ألقى ظلاً قاتماً على الجزء الأخير من حياته. (فالتكرار) وهي المسرحية التي كان بها جد فخور، لم تمثل إلا بعد إحدى عشرة سنة من وفاته

وقد انتصر الكاتب على حساب «الحيوان كامل الصحة»؛ فقد كان من مناصراته أن يلقي بنفسه في السين وهو في لباسه ليدهش مواطنيه الباريسيين المتكلفي الاحترام، وأن يصطاد في الهواء والماء، وأن يلاكم ويبارز بالسيف، وأن يجوب البلاد والأمصار. إلا أن حياة الحيوان في دي موباسان لم تكن في واقع الأمر في حدود الصحة، فقد فرط في قواه الجسمانية، وعبث بالصحة التي كان يقدرها فوق كل شيء. ولقد قدر «لثور بريتاني» كما كانوا يدعونه لضخامة جسمه أن يجلس في تراخ في الأبهاء بحكم عمله؛ ومع حبه للأدب كان نظره الضعيف يعوقه عن القراءة. وفي شبابه كان في سن تؤهله للاشتراك في الحرب الفرنسية الألمانية عام ١٨٧٠، ولكن نفوذ من يهمهم مستقبله الأدبي كان سبباً في تعيينه في قسم المؤونة بعيداً عن معمعة القتال. وكان كبستر ندبرج يحتقر النساء، ولكنه لم يكن يستطيع العيش دونهن

وكان في أسرته جنون وراثي؛ فبعد أن أصيب أخوه في قواه العقلية ثم موته، علم موباسان أنه محكوم عليه بتلك النهاية، وكانت حالته معقدة، وأغلب الظن أنها لو فحصت في البداية لكان في الامكان انقاذه. ولن يعادل ما وضع من السخريات في قصصه تلك السخرية التي أصابته في السنين القلائل الأخيرة من حياته، حينما انحطت قواه العقلية بسرعة. وحقاً لقد كان استمراره في الكتابة نتيجة لارادته الحديدية وقوته الشديدة!

* اعتمدنا في هذه الكلمة على ما كتبه الكتاب والنقاد الانجليز: «سومرست.» و «جيرالد جولد» و «سكارلين ويلسون.»

وفى ذات يوم وهو يغادر مكتبه التفت فأبصر نفسه ما زال جالساً إلى مكتبه هذا ، وزادت أخيلته سوءا وأخذت أشكالاً مخيفة ؛ ولم يكن هناك أمل بعد ؛ غير أن الساخر الذى لم يكن يعتقد فى فضيلة من الفضائل ظل بغالب الأمل ، وفى الدرجات الأخيرة من مرضه كتب الى أمه يخبرها أنه فى تحسن ظاهر : فالعقل فى داخليته ما زال يستطيب الحياة ويقدر الشمس والسباحة والرياضة

وحاول بمعونة فرانسوا خادمه الأمين الذى ظل سنوات عدة صديقه المخلص أن يفر من النساء المعجبات به اللاتى لم يتحققن أنه هالك ، ولا سيما إحداهن وهى امرأة غامضة ؛ وقد حاول بعد زيارة فجائية منها أن يطلق الرصاص على نفسه ، لكن فرانسوا اليقظ كان قد اتخذ الحيطة فأخرج الرصاص من الغدارة . وبعد محاولة أخرى للقضاء على حياته نقل إلى مستشفى المجانين حيث ظل فى راحة لا يذكر شيئاً ولا يحس شيئاً سوى تلك التأملات المبهمة التى يراها من فقد قواه العقلية بلا أمل

فنه :

لو اطلع إنسان على نخبة من قصصه دون الملم بالتواريخ والأحوال والنظريات ، لاستطاع دون عناء أن يستنتج أنه كتب حين كانت مرارة الهزيمة فى حرب السبعين ما زالت تلقى على فرنسا ظلاً عبوساً ، وأنه كان رجلا مكنته وسائله وأخلاقه من الاختلاط بالأوساط الخاصة إلا أن النصيب الأعظم من عطفه الغريزى كان للفلاحين والفقراء ، وأنه كان مشغولاً بمعضلة البقاء ، وأنه مع كل عظمته كفنان كان فى استثماره تلك المعضلة لمؤثرات عاطفية ظاهرة يهبط أحياناً الى درجة الاسفاف

وقصص موباسان جيدة . فالموضوع جذاب مشوق حتى ليجذب الانتباه لو حكى على مائدة الأكل ، وهذه ميزة يعتد بها ، فما كانت كلماتك متقطعة ، ومردك فاتراً ضعيفاً ، فلن تخفق فى إثارة اهتمام سامعيك إذا قصصت عليهم القصة العارية فى « بول دى سويف » أو « الميراث » أو « القلادة » فهذه القصص لها بداية ولها وسط ولها نهاية . فليست تهيم فى خط متردد لا تستطيع أن تعرف أين تنقاد ، ولكنها تتبع من المقدمة الى النهاية منحنيا قويا جريئا

وربما خانت قصته من المعنى الروحى . ولم يرم موباسان الى ذلك ، فالقد كان ينظر الى نفسه كرجل عادى . ولم يدع الفلسفة وحسنا فعل ، لأنه حين يندفع فى التأمل يصبح سطحياً . ولكنه مبدع فى حدوده . وحقاً لقد كانت له مقدرة عجيبة فى خلق أشخاص يزخرون بالحياة ؛ وقد يضيق بالايجاز ، ولكنه يستطيع فى صفحات قلائل أن يعرض أمامك ستة من الرجال فى صورة واضحة حتى إنك لتعرف كل ما تحتاج عنهم فضلاً عن أن حدودهم ظاهرة ، ومزاياهم واضحة ، وأنهم يتنسمون أنفاس الحياة ، وقد خلوا من التعقيد ومن التردد ومن المفاجآت ومن الغموض الذى نراه فى الآدميين

فصور أشخاصه بسيطة إلا أن هذه البساطة غير متعمدة ، فعيناه الحادتان كانتا تريان بوضوح وإن كان على عمق غير بعيد . ولقد كانت فرصة سعيدة أن تريا ما هو ضرورى للفكرة التى يرى إليها . فهو حقاً يضع عينه على المرى الذى نصبه أمامه ، ولكنه ما كان يستطيع أن يرى أكثر من مرى واحد فى وقت واحد . فالنظر الواحد ، والجو الفاجىء ، والباعث القاهر ، كانت قوام مادته . وهذا هو السبب فى أنه لم ينجح فى القصة الطويلة كما نجح فى القصيرة . ويقول موباسان : « الفنان يحاول أن ينجح أو يخيب ، والناقد لا يحق له أن يقدر النتيجة دون أن يتتبع طبيعة المجهود ، وليس له الحق فى أن يُشغل بالمؤثرات . » ولما كان يفرق بين الخيالى والواقعى ، كان يصر على أن الواقعى يجب أن يكون « أكثر كمالاً ، وأشد تأثيراً ، وأتم انطباقاً ، مثل الحقيقة نفسها . » وهو كمن سبقه من الكتاب الناهبين لم يكن خيالياً فحسب ولا واقعياً فحسب ، ولكن كان الاثنين معاً ؛ وكانت عبقريته فى أن يرى ما فى الحقيقة من ابتداع

وتمتاز كتابته أيضاً بصحة وطلاوة وبساطة من الصعب تحليلها ولكن من السهل فهمها . وليس معنى ذلك أن سهولة فهمها للأجنبى تجعلها سهلة الترجمة . فالواقع أننا نجد أن أسهل الأعمال فى كل لغة أصعبها فى النقل ، فقراءة هوميروس أسهل من قراءة (مآسى أثينا) إلا أنه لم ينجح فى نقل هومير الشاعر الساحر إلى الآن أحد . وموباسان يعالج المحيط بنفس البساطة ، فهو يضع منظره بدقة واختصار وتأثير ، فاذا كان يصف طبيعة

نورمانديا الفاتنة ، أو أبهاء القرن الثامن عشر ، فهو في الحالين سواء

وكان من أتباع المذهب الطبيعي يرى دواماً إلى الحق ، غير أن الحق الذي كان يتوصل إليه به قليل من الزيف . فلم يكن يحلل شخصياته ، ولا يهتم بالأسباب الدافعة . فهم يتصرفون ولكنه لا يعرف إلى أي نهاية . وفيما يلي تعليله على حد قوله : « في رأيي أن التحليل النفسي في قصة طويلة أو قصيرة معناه هذا : أن أظهر الرجل الداخلي من حياته » حقاً هذا جميل ، بل هو ما يفعله القصصيون أجمعون ، ولكن الحركة لا تدل دواماً على الباعث . والنتيجة عند موباسان كانت تبسيطاً للشخصية ، وهذا له أثره في القصة القصيرة ، ولكنه عند إعمال الفكر يتركك غير مقتنع . وإذذاك تقول إن في الرجال من يفوق ذلك . هذا وقد كانت تتملكه الفكرة المنتشرة بين مواطنيه إذ ذاك ، وهي أن الواجب على المرء لنفسه أن يتصل بأي امرأة دون الأربعين تصادفه . فأشخاصه تساير رغباتها الجنسية لكي ترضى احترامها لنفسها . فهم كمن يأكل لوناً من الطعام دون احساس بالجوع ولكن لأنه غالي الثمن

قلنا إنه كان تلميذاً وصديقاً لفلوبير . وكان التلميذ يتقبل آراء أستاذه في مواضيع عدة ؛ وكان يعتقد أنه يحاكيه في مجهوداته الجبارة في الانشاء . إلا أنه من الصعب أن يتفق ذلك وسهولة أسلوب موباسان ؛ على أن الحقيقة التي لا مراء فيها هي أن الانشاء الفني كان عند فلوبير نصباً وعناء . ولما كان موباسان قدمات في شرخ الشباب ، فمن المحتمل أن ننسى أحياناً أنه لم يكن تلميذ فلوبير فحسب ، إنما كان تلميذا لدوديه وزولا وأناتول فرانس أيضاً . ومن العبث القول بأن هؤلاء الكتاب الكبار كانت لهم طريقة مشتركة ، سواء من الوجهة النظرية أو العملية ، ولكن إذا تكلمنا على وجه العموم دون تقييد فقد نستطيع القول أنهم يمثلون الحركة المتجهة نحو الدقة والواقعية . فالتنقيب عن الكلمة الملائمة أكثر من سواها ، والقول بأن الفنان ينبغي أن يسدد نظره إلى الموضوع ، وألا يقبل المقاييس العامة لتنظيم التقديرات الشخصية كانت ميول المدرسة والوقت . والدقة الجلية في عمل فلوبير تدين لمبدئه وطريقته ، على حين أن أدب زولا الواقعي كان في الحقيقة منتخبات من أجزاء من الطبيعة أثارت اهتمامه أكثر من سواها . وبعد ، أليست ماهية الفنان وعمله مهما حاول أن يوضحه ، أننا في النهاية نجده لم يصور الحقيقة وإنما غيّرها ؟

فاذا سما بهذا التغيير نحو الجمال فقد نجح ، وإذا انحط به إلى القبح فقد أخفق . وكان موباسان فناناً مجيداً لدرجة تسمو به عن الاسفاف المطلق ، فأن أرخص قصصه له ميزة الابتكار ، ولكنا نرى النقاد في بعض الأحيان قد بالغوا في مدحه ، ومع محاولته أن يكون طبيعياً نجده أحياناً يهبط إلى القيود البيانية ، ويسمح أحياناً بالعواطف الزائفة

ولقد كان غالباً ما يبدأ قصصه بمقدمة يقصد بها أن يهيء القارىء لحالة عقلية خاصة ، وهي طريقة خطيرة إن لم تنجح فقد تكون مملة ، وقد تحمل القارىء بعيداً عن الأثر . ولقد كان يختار أشخاصاً عاديين ، ويحاول أن يظهر ما في أعمالهم العادية وحياتهم من الفواجع ، وكان يختار الحادث الذي لا أهمية له ويخرج منه كل ما يستطاع من المواقف المؤثرة ، وهي طريقة تساعد على خلق الانتباه للقصة . وكان يكتب ويفرط في الكتابة ، وكان أيضاً يتخذ موضوعاً متشابهاً حتى (بول دي سويف) التي سببت شهرته تعطينا مقارنة سهلة عادية بين الرحلة التي قام بها بعض البلجيكيين هرباً من غضب البروسيين وقد أحسوا بقرص الجوع المنيف فسرهم أن يشاركوا البغي المسكينة زادها ، وبين الرحلة الأخرى بعد أن أغروها بشتى الوسائل من حيلة ورجاء على ارتكاب الخطيئة مع الضابط الألماني تلبية لطلبه ، حتى إذا قبلت التضحية على مضض شديد ، أبدوا لها ازدراءهم وترفعوا عن دعوتها لمشاركتهم الزاد في الطريق بعد أن نالوا الاذن باستئناف السير

ولقد وجد قادة النقاد أن قصص موباسان وإن لاءمت نبوغه لا تصلح على الرغم من مظهرها الخادع لأن تكون أنموذجاً مثالياً للغير . وقد كان مع حيوانيته وشهوته يعرف رقة الحب النقي . انظر على سبيل المثال قصته « ضوء القمر » ففيها نرى الكاهن الذي يكره النساء وهو ذاهب لكي يفاجيء ابنة أخيه وعشيقها ويجازيها شر الجزاء ، يذهب إلى ضوء القمر الشاحب ، ويذهل بين النمام والبلابل ، وحين يرى الحبيبين يخطران في تلك الجنة الفيحاء ، يقول في نفسه « ربما خلق الاله القادر ، هذه الليالي السواحر ، لكي يلقي غلالته القدسية على الحب البشري »

محمد سليمان علي

من ذكريات المجد !

وحى دار ابن لقمان

بقلم الأديب محمد فهمى

نحن الآن فى ٢٢ صفر سنة ٦٤٧ هجرية ، والقصر الملكى بجزيرة الروضة يموج بالأمراء والعظماء والحاشية ؛ الكل يغدون ويروحون فى ردهاته الفخمة فى قلق شديد يكاد لا يستقر أحدهم فى مكان ، وصاحب الجلالة الملك الصالح نجم الدين أيوب جالس على العرش تضطرب الدماء فى شرايينه ؛ أعصابه ثائرة ، وقلبه يخفق خفقاناً شديداً . إنهم جميعاً ينتظرون النبأ الخطير : نبأ المعركة الدائرة رحاها حول أسوار دمياط . دمياط الواقفة كالسد المنيع أمام الجيوش الأوربية الصليبية وهى تتدفق كالسيل وتحاصرها بقيادة ملك فرنسا (لويس التاسع) . إنها ليست حرب المسيحية والاسلام ، وإن سموّها كذلك ، وإنما هى نضال الشرق والغرب الذى لم يخمد أواره منذ أن كان هناك شرق وغرب ؛ هى الحرب بين مصر العظيمة زعيمة الشرق والاسلام ، وأوربا بأجمعها ؛ هى حرب بين الغرب الطامع والشرق الدافع !

نعم إن أول من دعا إليها هم رجال الكنيسة باسم الدين ، ولكن الدين من دمائها براء ! فلم يخضها إلا ملك طامع فى توسيع ملكه ، أو أمير يمنى نفسه بالذهب الوفير ، أو فقير يطلب المال والغنى من بلاد النفائس والكنوز . . .

وبينما القصر الملكى على تلك الحال من الاضطراب والغليان اذا بفارس قد أنهكته وعثاء السفر أشعث أغبر يلهث من الاعياء ويتصبب عرقاً يقتحم ردهات القصر وطرقاته متخذاً سمته قدُماً نحو قاعة العرش . وطلب الاذن بالمثول بين يدى صاحب الجلالة . فدخل الحاجب يُعلن قدوم الرسول المنتظر ! انتفض الملك فى مكانه وحبس أنفاسه كأنما يتهيأ للنبأ الهائل ... دخل الفارس وألقى بالنبأ الخطير فى صوت أجش . فيه شجاعة وفيه ألم ... مولاى ! سقطت دمياط بعد معركة تشيب لهولها الولدان ، ودفاع يشرف شهداءنا الأبطال ! سقطت دمياط ! !

كانت هذه العبارة خنجراً مسموماً نفذ إلى صميم قلب الملك ...

سقطت دمياط ! وفى عهدى أنا ؟ أبعد أن كان جدى البطل صلاح الدين يدوخ جيوشهم فى ربوع سوريا وفلسطين ، ويذيقهم مرارة الهزيمة المرة بعد المرة ، يجرؤون اليوم على الدنو من العرين الذى طالما رجفوا لذكره ؟ ! هكذا ناجى الملك نفسه فى حسرة ما بعدها حسرة . . . ثم أمر الجيش بالتجهز وسار على رأسه لملاقاة العدو المغير ، وعسكر فى مدينة المنصورة ، وقد اتخذها قاعدة لحركات الجيش

ولكن قلبه كان دائماً يئن فى حشرجة المذبوح من أثر الطعنة التى أصابته عند ما ألقى إليه نبأ سقوط دمياط ! ! فما هى إلا فترة حتى اشتد عليه المرض ، فحمل إلى قصره بجزيرة الروضة ؛ وهناك وبين يدى المرأة التى أحبها وأخلص لها « شجرة الدر » أم ولده وولى عهده غياث الدين توران شاه فاضت روحه إلى ربها

فى هذه اللحظة الرهيبة وقد نظرت شجرة الدر فاذا مليك مصر وزوجها الأثير عليها مُسجى على سرير الموت بين يديها ، فتملكها الأسى على الفقيد العظيم ، ولكنها سرعان ما أفاقت على صوت يهتف فى أعماق نفسها . . . الوطن . . . الأعداء . . . ! فولىّ العهد كان فى تلك الأثناء ببلاد الشام ولم يبلغه بعد نبأ الرزء الفادح . وها هو ذا العدو قد اقتحم أبواب البلاد متجهاً نحو العاصمة . فساءلت نفسها كيف يستطيع الجيش الثبات ومقاومة العدو إذا علم بموت الملك وفقدان الرأس المدبّر ؟ وهل تقاوم البلاد بغير رأس ؟ إن الوطن فى خطر فلابد من الحكمة والتبصر . . . وهنا لمت فى خاطرها فكرة جريئة . . . لا . . . يجب ألا يعلم الجيش بموت الملك . . . ثم خرجت من الحجرة وأشاعت أن الملك مريض ورغب ألا يدخل عليه أحد ؛ وأرسلت إلى قواد الجيش وأمرائه أن الملك يأمرهم بالتأهب للقاء العدو المغير فى طريقه ، بينما طيرت النبأ إلى ولى العهد ببلاد الشام بالقدوم على جناح السرعة . . .

أخذت الجيوش الفرنسية تخوض فى أحشاء البلاد قاصدة المنصورة ، والفزع يزداد يوماً بعد يوم ، والاستعداد قائم على قدم وساق ؛ فى هذه الساعة العصيبة حضر ولى العهد توران شاه فأطلعته شجرة الدر على كل شىء وتسلم زمام الملك . فجمع الملك

الشاب كل عزمه وأصدر أوامره للقواد ، وعبأ الجيوش وتأهب لليوم المظلم ... هذا هو يوم الفصل ، فاما نصر لأوربا والجيوش الصليبية يُملّكها مصر وبيت المقدس ، بل وقلاع الشرق جميعاً ويقضي على الاسلام في دياره قضاء مُبرماً ، وإما نصر لمصر يرد هذه الموجة الهائلة ويحمي ذمار الوطن والدين . وكم كانت مصر كالصخرة الهائلة تتكسر عليها أمواج الحملات الصليبية المتتابعة !. ها هي ذي أوربا بعظمتها وجيوشها الجرارة كاملة العدة هائلة العدد (كان جيش الصليبيين حوالى تسعين ألفاً) وعلى رأسها ملك من أعظم ملوك أوربا : لويس التاسع ملك فرنسا . . .

التحم الجيشان وبدأ الصراع الهائل : التقى صراع بين عدو مغير وبين أبطال يدفعون عن حمى الدين والوطن . وقد نفث فيهم المليك الشاب من روح الشباب وعزيمته ، فاندفعوا كالليوث يفتكون بالأعداء ؛ ولما اشتد الضغط على العدو التفت حوله ليكشف مكاناً للهرب ، فما هاله إلا الماء قد حاصره من الخلف ، إذ كانت الأوامر قد صدرت بفتح جسور النيل فتدفقت مياه الفيضان من وراء الأعداء كالسيول الجارفة . . نظر العدو فاذا البحر قد حصره من الخلف والجيش الباسل قد أطبق عليه يرمي عن قلوب تشتعل حمية وحماسة للوطن والدين ، وينظر الملك لويس والحسرة تنهش قلبه فيرى أشلاء جيشه تتطاير تحت مطارق الأذرع الحديدية من جنود مصر . هاهم أولاء جنوده يتساقطون في الميدان حوله جماعات كالفراش . ومن طلب الفرار من شفرات السيوف ابتلعه اليمّ . . .

وإذا بفرقة من الجيش المنتصر تتقدم نحو الملك «لويس» .. هاهم أولاء بعض الأمراء والفرسان المحيطين به يناجزونها مناجزة اليائس المستميت مدافعين عن مليكهم . ولكن ماذا تجدي شجاعة بضعة أفراد أمام جيش كله أبطال ؟ ! فما هي إلا جولة أو بضع جولات حتى كان الملك ومن بقي معه من الأمراء جميعاً في الأسر ! ! وإذا بالجيش العرمرم قد انهار كما ينهار البناء الشامخ ! ! . . .

انجلت المعركة عن فناء العدو وقد بلغ عدد قتلاه ثلاثين ألفاً خلاف الأسرى ، وكُتبت آيات النصر بمداد غزير من الدماء . هاهو ذا الملك المعظم توران شاه يعود إلى المدينة تجلّله أكاليل النصر والفخار ، ويسوق وراءه في السلاسل والاغلال ملك فرنسا وأمراءها . الكونت دنجواي ، والكونت داراتوار ، والكونت دو بواتييه ! والكونت دو بواتييه !؟ يا لروعة الذكرى التي يعيدها إلى الأذهان اسم هذا الكونت ! ! ويالسخرية القدر الذي ساقه ليشهد بعيني رأسه كيف تثأر مصر لشهداء بواتييه « بلاط الشهداء سنة ٧٣٢ م » بعد خمسة قرون في معركة تكسو فرنسا عاراً يطغى على بريق بواتييه ويسجل في تاريخ فرنسا بل في تاريخ أوربا كلها جبروت مصر وعظمة الشرق . . .

خيم الليل على دار ابن لقمان في مدينة المنصورة حيث أودع الملك الأسير وأمراء بلاده ؛ وكان ليلاً رهيباً . وفي جوف الليل تذكر الملك الأسير بلاده وجيشه ومجده وآماله المحطمة والذل الذي يعانيه ، فانحدرت الدموع غزيرة من عينيه . فخاطبه أحد أمرائه الذين يشاركونه الأسر قائلاً : (لقد نصحتك يا مولاي وقلت لك إن مصر عرين الشرق ، وإن روح صلاح الدين المظفر لا زالت تغذي أشبالها ، فأبيت إلا محاولة ما أعجز قبلك امبراطور ألمانيا وريكاردوس قلب الأسد) ! ؟ وهنا جلجل في حنايا القاعة صوت الحارس الطواشي «صبيح» الذي وُكل إليه حراسة الملك الأسير ، قائلاً : (نعم ، صدقت أيها الأمير ! ان أشبال الحمى وأبطال الوطن لتعد هذه الخاتمة لكل من رام مرام هذا الملك الأسير)

* * *

إن دار ابن لقمان لا تزال قائمة تنتظر الجيل الذي يعيد إليها حياة أبطالها . وإن من السواح الأوربيين والفرنسيين على الأخص من يقصدون هذه الدار ليشهدوا بأعينهم ويسمعوا بآذانهم عظة من أبلغ العظات ودرساً من أقسى الدروس تلقنهم اياه مصر ؛ وإن الفرنسي الذي يتيه عجباً وخيلاء في رحاب دمشق وربوع ميسلون(1) ليحني الرأس إذلالاً أمام دار ابن لقمان . ولكن كيف يحتفظ المصريون بهذا الهيكل من هياكل المجد والفخار ! إنهم وياللعار قد أهملوه شر إهمال وتركوه نهب البلى والاقذار . وهاهي ذي أحجاره وجدرانه تصارع البلى في أنفة وكبرياء ! فأية كرامة لأمة لا ترعى هياكل المجد !؟ وكأني بزوار الدار من الأوربيين يقولون في أنفسهم وقد نظروا إلى حالها المزرية هذه : (لو كانت لنا هذه

(1) الموقعة التي هزم فيها الجيش الفرنسي جيوش الملك فيصل واستولى بعدها على سوريا عقب الحرب الكبرى

الدار لجعلناها كعبة يحج اليها الشباب والفتيان ليستمعوا أبلغ أناشيد المجد والبطولة تردّدها جوانب هذه الدار ، ولجعلنا منها رمزاً خالداً على الدهر ، تمجد فى رحابه أرواح أسلافنا الأبطال وهى ترفرف محوّمة بين جدرانه ! ولكنها ويا للأسف المرير لشعب لا يرعى مجد آبائه !!)

إيه أيتها الدار !! لقد خط المجد على جدرانك أروع آيات البطولة ؛ وفى رحابك سجن ملك من أعظم ملوك أوربا حاول اقتحام الوطن بجيشه العرمرم فتلقفته سيوف الأبطال والأشبال ، فاذا الجيش أشلاء تتطاير على شفرات السيوف وأسنة الرماح ، وإذا بالملك المعظم .. سجين جدرانك .. !!

ألا خبرينا أيتها الدار ، كيف شهدت أوربا المتجبرة العاتية التى خرجت بجيوشها الجرارة لإذلال مصر ؟ كيف شهدتها تذرف دموع الحسرة والتفجع ، وأنات الأسى والحزن ، وهى ترسف فى قيود الأسر وذل الهزيمة . فى شخص « لويس التاسع » ملك فرنسا .. ! !

ألا تكلمى أيتها الدار ، فكلمة منك توقظ الأسماع وتهز القلوب . لأنك تتحدثين بلسان من قد رأى وقد سمع ! !

ألا تكلمى ، فكلمة منك تقشع عنا كب النسيان والجهل التى خيمت على صفحات المجد والبطولة من سفر تاريخنا الحافل ! ...

أيها المصريون ! ألا إن بقاء هذه الدار بحالتها الحاضرة المزرية لطمنة فى صميم الكرامة المصرية والوطنية المصرية والشعور الحى لأمة تعرف مالها من كرامة ومجد وتاريخ ...

(المنصورة) محمد فهمى

علمنا أن هناك مشروعاً لشق شارع حول دار ابن لقمان ، ولكنا نريد عناية خاصة بهذه الدار تتفق وجلال ذكراها

بناء العلم

للسير جيمس جنز
ترجمة ابراهيم البرلسى

إذا ما تجمع لدى الباحثين قدر مناسب من الحقائق فى ناحية من النواحى العلمية ، فالخطوة التالية تكون محاولة إيجاد قاعدة عامة تربط هذه الحقائق جميعها ؛ وقد تتفق هذه القاعدة أو لا تتفق مع الاعتبارات المقررة . ولا يكفى أن تفسر هذه القاعدة الحقائق المعروفة ، بل لا بد أن تتفق مع كل ما يكشف منها ؛ فهى على ذلك لا تكون إلا بمثابة افتراض ؛ ويبدأ العالم بأن يقول : « إن التجارب أثبتت هذه الحقائق ، وأرى أن افتراضاً معيناً يتفق معها جميعها » ثم يستمر هو وأمثاله فى العمل للحصول على بيانات أدق وأوفى مرتبطة بالحقائق الأولى ؛ وكثيراً ما يؤدى ذلك إلى الوصول إلى حقائق جديدة . ويمتحن الافتراض الأول بمطابقته للمعلومات الجديدة

أما إذا وجد افتراضان متناقضان ، فقد يكون ممكناً أن نتبين الصحيح منهما ؛ فاذا أمكننا مثلاً أن نبين أن ظاهرة « س » تحدث إذا كان الفرض الأول صحيحاً ، ولا تحدث إذا كان الفرض الثانى صحيحاً ، فبأجراء تجربة لمشاهدة الظاهرة « س » يثبت أحد الافتراضين

هذه التجربة كغيرها : هى فى الواقع توجيه سؤال للطبيعة وهو : « هل يستقيم الفرض الأول ؟ .. » وهى تجيب بأن ترينا إما ظاهرة مناقضة للفرض أو متفقة معه ؛ ولكنها لا تستطيع مطلقاً أن ترينا ظاهرة تثبت صحة هذا الفرض ، لأن ظاهرة واحدة تكفى لتهدم فرضاً معيناً بينما لا تكفى ملايين الظواهر لأثباته . ولهذا السبب لا يستطيع العالم أن يجزم بمعرفته أى شىء على وجه التأكيد ؛ اللهم إلا الحقائق المباشرة للمشاهدات . وإذا تعدى هذا فلا يستطيع التقدم إلا بافتراضات متعاقبة تحظى الواحدة منها باتفاقها مع حقائق أكثر من سابقتها وتتخلى كل منها لمن تتبعها ؛ وفى الواقع لن يأتى وقت الانتقال من الافتراضات إلى التأكيدات

الآن وقد ناقشنا أبسط مثل لاستفسار الطبيعة يجدر بنا أن نشير إلى بعض الصعوبات ، فليس من الممكن دائماً أن تضع سؤالاً يكون جوابه « الايجاب » أو « النفى » فقط ، فكثيراً ما تنشأ مسائل أكثر صعوبة عندما يخدع فرض وهمى من يقوم بتجربة ، أو يحاول الحصول على جواب لسؤال غير معقول ؛ فاذا أمكنه بطريقة ما أن يجرى تجربته فان نتيجتها تكون غير مفهومة كما كان السؤال بالنسبة للطبيعة

ولنضرب لذلك مثلاً ، فنتصور عدداً من الرجال مجهزين بأدق الأجهزة ، ولكن ينقصهم الادراك العلمى ، فاذا رأوا مثلا « قوس قزح » فى السماء ورغبوا فى معرفة بعده عنهم ، وبدأوا يعتبرونه كمنظر عادى بسيط فكونوا فرقة من المساحين لتعيين بعده ، فمن القياسات المأخوذة بأدق الأجهزة تظهر نتيجة واحدة لا خلاف فيها ، وهى أن المسافة « ناقص ٩٣ مليون ميل »

وظاهر أن من السخف بمكان أن تقاس مسافة بالسالب ، وأسخف منه هذا التقدير الكبير لها ، إذ أن القوس قد يظهر بيننا وبين جبل معين مثلا وبعده لا يدانى هذه المسافة بحال . أما إذا غير وضع السؤال بأن قلنا « ما المسافة التى يبعدها مصدر الضوء الذى نراه فى القوس أمامنا ؟ » رأينا الجواب « ناقص ٩٣ مليون ميل » محملا بالمعانى . فالعلامة السالبة تدلنا على أن مصدر الضوء لا يقع أمامنا بل خلفنا ، ومن بعده نستنتج أن هذا المصدر ليس إلا الشمس بعينها

وفى الواقع أن وضع سؤال معقول أصعب كثيراً من الحصول على جواب لسؤال غير معقول ، ولنضرب مثلا ينقلنا من هذا التعميم وصعوبته بالفلك والنظرية النسبية :

جمع الاغريق والمصريون عدداً كبيرا من الحقائق المتعلقة بالحركة الظاهرية للشمس والقمر والكواكب . وحوالى عام ١٥٠ من الميلاد حاول « بطليموس » عالم الاسكندرية وضع فرض يفسر هذه الحركات جميعها ؛ وقد تصور الأرض مركزا لهذه المجموعة تدور الشمس والقمر والكواكب حولها ، مخالفاً بذلك ارسطاطاليس وأتباع فيثاغورس ، فالشمس والقمر يتحرك كل منهما فى دائرة ، بينما الكواكب تتحرك فى مسارات معقدة . ولم تكشف حقائق جديدة لاختبار هذا الفرض حتى وضع « كوبرنيكس » فى سنة ١٥٤٣ فرضا آخر اتضح أنه يفسر الحقائق السالفة الذكر بطريقة أبسط ، فاعتبر الشمس — لا الأرض — مركزا للمجموعة الشمسية بينما الأرض والقمر والكواكب تسير فى دوائر حولها ، ولكن لا زالت حركة الكواكب معقدة بعض الشىء بالحركة فى دوائر ثانوية

وعلى ذلك ظهر افتراضان فى المحيط العلمى ؛ وقد حاول « كوبرنيكس » الفصل بينهما . فاذا كان فرض « بطليموس » صحيحا فان كوكب « الزهرة » لا يرى أقل من نصف دائرة ضوئية . ومن الناحية الأخرى إذا دار هذا الكوكب حول الشمس وجب أن نرى له أوجها كأوجه القمر . وقد مكننا التلسكوب الذى استكشف فى سنة ١٦٠٩ من توجيه سؤالنا الى الطبيعة لتفصل بين الفرضين . وبمجرد أن رأى « جاليليو » كوكب الزهرة يظهر على شكل قوس دقيق تأكد أن فرض بطليموس لا يستقيم

ولم يثبت هذا بالطبع فرض « كوبرنيكس » ولكن تجمعت حقائق جديدة على جانب كبير من الدقة جعلت الشك يحوم حول هذا الفرض . ونخص بالذكر من بين هذه الحقائق ما لاحظه « كبلر » من أن حركة المريخ التى درسها فى شىء من التفصيل لا تتفق مع فرض « كوبرنيكس » . وقد جعله هذا يعرض فرضا جديدا ، وهو أن الكواكب لا تدور حول الشمس فى دوائر ودوائر صغيرة حول محيطها ، ولكن فى أقطاع ناقصة تكون الشمس بؤرتها المشتركة . وقد ظل هذا الفرض متفقاً مع كل الحقائق الفلكية لمدة طويلة

وقد حاول « نيوتن » بعد هذا بنصف قرن أن يجمع هذه الحقائق وغيرها تحت فرض أوسع ، فتصور أن كل جسم فى الكون يجذب غيره بقوة الجاذبية ، وهذه تتغير عكسيا مع مربع المسافة بين الجسمين ؛ وفرض أن الكواكب تتحرك تحت تأثير هذه القوى فقط ، ثم بين أن هذا الفرض يفسر سير الكواكب فى أقطاع ناقصة ، وكذلك يفسر كمية كبيرة من الحقائق والظواهر منها حركة القمر حول الأرض وحركة كرة الكريكيت فى قطع مكافىء عند قذفها . حتى المد والجزر فسره هذا الفرض وأخيراً وجد أنه يفسر حركة المذنبات هذه التى كانت تعتبر دلائل

مخيفة ومجهولة تخشى لأنهـا علامة الشر أو الغضب السماوى أصبحت لا ترى إلا كـتل جامدة ترسم مسارها حول الشمس تحت تأثير نفس القوى التى تعمل فى الكواكب

ثم استمرت بعد ذلك الحقائق والبيانات تترى وكلها متفقة مع نظرية نيوتن حتى منتصف القرن التاسع عشر حيث وجد الفلكى «لفربيه» شذوذاً فى حركة عطارد ، فان فرض نيوتن يتطلب أن يعيد الكوكب مساره دائماً حول الشمس فى نفس القطع الناقص كما تدور لعب الأطفال الآلية فى نفس المسار مرات مستمرة ، بينما وجد « لفربيه » أن كوكب عطارد يتحرك فى قطع ناقص ولكن هذا القطع نفسه متحرك فى الفراغ ويتم دورته فى نحو ثلاثة ملايين من السنين ، فكأنما المسار الذى تجرى فيه هذه اللعبة موضوع على مائدة متحركة تدور حول محورها ببطء بينما تجرى هى بسرعة فى مسارها

وبعضى الزمن عرض « أينشتين » فرضاً جديداً هو النظرية النسبية ، وهذه لم تفسر الظواهر التى فسرتها نظرية الجاذبية لنيوتن فحسب ، بل وضحت حركة « عطارد » توضيحاً دقيقاً وفسرت كذلك عدداً كبيراً من الحقائق العلمية الأخرى

وقد أمكن عمل تجارب ومشاهدات فاصلة بين النظريتين : النظرية الحديثة « لأنشتين » والنظرية القديمة لنيوتن ، وفى كل هذه التجارب والمشاهدات قضت الطبيعة على نظرية الجاذبية وعززت النظرية النسبية ؛ وقد أجريت تجارب أخرى لتفصل فى النظريات السائدة فى هذا العصر كالنظرية القائلة بأن الضوء ينتقل كموجات فى الأثير الذى يملأ كل شىء ، وأن القوى الكهربائية والمغناطيسية تنتقل كضغط وشد فى هذا الأثير ، وفى هذه أيضاً انحازت الطبيعة للنظرية النسبية . وقد أصبحت النظرية النسبية الآن تفسر مجموعة هائلة من الظواهر الطبيعية ولم تظهر بعد حقيقة واحدة لاتتفق معها .

إن الغرض العام للعلم هو أن يسير إلى مثل هذه النظريات ويصل اليها . ولا نستطيع مطلقاً أن نعتبر نظرية مانهائية أو حقيقة مطلقة ، إذ من المحتمل أن تظهر حقيقة جديدة فى وقت ما ترغمنا على هذه النظرية ؛ وقد يحدث ذلك للنظرية النسبية ولو أنه بعيد الاحتمال . وإذا ماحدث ذلك برغم استبعاده فان الوقت الذى أنفق فى تكوينها لم يضع سدى ، بل سيكون تدرجا إلى نظرية أوسع وأكمل تتفق مع عدد أكبر من الظواهر الطبيعية . من ذلك يظهر العلم الرجل العادى متغيرا دائم التغير دائراً حول نفسه مخالفا لنظرياته الأولى ، ولكن العالم يراه دائم التقدم يرقى من نظرية الى أخرى ، تحظى كل نظرية منهـا باتفاقها مع حقائق تزيد على التى أزاحتها ، ورائده الوصول إلى هدفه الأسمى وهو النظرية التى تفسر ظواهر الطبيعة كاملة .

ابراهيم البرلسى

١١ - تاريخ العرب الأدبي

للأستاذ رينولد نيكلسون

ترجمة حسن محمد حبشي

الفصــل الثاني

وأمضى عدى فترة من الزمن فى سورية وخاصــة فى دمشق حيث يقال إنه نظم فيها أول قصيدة . ولمـا مات أبوه حينئذ هجر مقامه فى الحيرة واهتم بالصيد والقنص وسائر فنون اللهو والتسلية . وكان يزور « المدائن » بين فترة وأخرى ليشرف على أعمــال التحرير ، وفى فترة زيارته للحــيرة عاق فؤاده هند ابنة النعمان التى كانت تبلغ من العمر وقتئذ إحدى عشرة سنة . وإن القصة التى يرويها الأغانى[1] لفى غاية الغرابة حتى لا يمكن التجاوز عنها ؛ وتتلخص فى أن هنداً كانت أجمل نساء أهلها وزمانها ، خرجت فى خميس الفصح تتقرب فى البيعة فى أيام المنذر ، ودخلها عدى يتقرب ، وكانت عبلة الجسم فرآها عدى وهى غافلة وتأملها ولم يقـل لها جواريها ذلك ، وإنما قبلن هذا من أجل أمة لهند يقال لها مارية ، كانت قد أحبت عدياً ، فلم تدر كيف تجىء له ، فلما رأت هنــد عدياً ينظر إليها شق عليها ذلك وسبت جواريها ، ولـكنها وقعت فى نفس عدىّ ، فلبث حولاً لايخبر بذلك أحداً حتى أخبرت مارية هنــداً ببيعة دومة وما فيها من الرواهب وحسن بنائها ، فسألت أمها الاذن فأذنت لها ، وبادرت مارية إلى عدى فأخبرته الخبر فأخذ معه جماعة من فتيان الحيرة ودخلوا البيعة ، فلما رأته مارية قالت لهند : « انظرى إلى هذا الفتى فهو أحسن من كل ما ترين من السرج وغيرها » فقالت هند : « ومن هو ؟ » فقالت : هو عدى بن زيد ، ثم حرضتها على الاقتراب منه وسألتها أن تـكلمه ، ثم انصرفتا وقد تبعته هند بنفسها وانصرف بمثل حالها ، ثم عرضت له فى الغد فقال لها : « لا تسأليني شيئاً إلا أعطيتك إياه » فعرفته أنها تهواه وحاجتها الخلوة به على أن تحتال له فى

(١) الأغانى ج ٢ ص ٢٢ س ٣ وما يليه

هند وعاهدته على ذلك ، وبادرت إلى النعمان فأخبرته خبرها وذكرت أنها شغفت به ، وأنه إن لم يزوجها إياه افتضحت فى أمره أو ماتت . فقال لها : « ويلك وكيف أبدؤه بذلك ؟ » . فقالت : « هو أرغب فى ذلك من أن تبدأه » ، وأتت عديا فأخبرته الخبر وقالت « ادعه فاذا أخذ الشراب منه فاخطب إليه فأنه غير رادك » قال : « أخشى أن يغضبه ذلك » قالت : « ما قلت لك هذا حتى فرغت منه معه » فصنع عدى طعاماً ، ثم أتى النعمان بعد الفصح بثلاثة أيام فلما أخذ منه الشراب خطبها إلى النعمان ، فأجابه وزوجه وضمّها إليه بعد ثلاثة أيام[1]

وعند موت المنذر الرابع أيّد عدى حق النعمان الذى كان من قبـل تلميذه ثم غدا حماه ، فى عرش الحيرة ، ولقد تكللت الخدعة التى مثلها فى هذا الحادث بالنجاح التام ، ولـكنها كلفته حياته[2]

فمزم على الأخذ بالثأر أتباع «أسود بن المنذر» إذ فشل صاحبهم فى نيل العرش ، ولـكن مكائدهم أثارت شكوك النعمان ضد صانع العرش له . فألقى عديا فى غياهب السجن حيث ظل يرسف فى القيد ردحاً طويلاً حتى قتـله النعمان حينما توسط كسرى ابرويز[3] فى إطلاق سراحه[4]

وترك عدى غلاماً يدعى زيداً أشار كسرى أبروير بأن يخلف

(١) كتب إلى صديقى وزميلى الأستاذ بيفان يقول « إن قصة زواج عدى من ابنة الملك قد بنى بعضها على بيت يذكر فيــه الشاعر عمه كان صلته بالبيت المالك صلة زواج (الأغانى ٢ : ٢٦) وتارة أخرى على بيت آخر يذكر فيه بيت هــد (الأغانى ٢ : ٣٢) ولـكن هندا هذه كانت امرأة بدوية وليست ابنة الملك » أما البيت الأول (أغانى ٢ : ٣٦ س ٥) فهو :

أجل نعمى ربها أولـكم ودنوى كان منها واصطهارى

وأما البيت الثانى الذى يذكر فيه بيت هند (أغانى ٢ : ٣٢ س ١) فهو :

عرجا بى على ديار لهند ليس إن عجتما المطى كثيرا

(٢) حينما اسـتدعى هرمز أولاد المنذر إلى المدائن ليختار ملـكا من بينهم اختلى عدى بهم وقال لهم « إذا سألـكم كسرى : أتكفوننى العرب ؟ فقولوا نعم ، فاذا قال لـكم فان شذ أحدكم عن الطاعة وأفسد أتكفونيه ؟ فقولوا إن بعضنا لايقدر على بعض ليهابـكم » وجاء إلى النعمان وقال له « أما أنت فقل له إن عجزت عنهم (أى عن إخوته) فانى عن غيرهم لأعجز » فلما سمع هرمز ذلك منهم عقد للنعمان على العرش وألبسه التاج

(٣) هو كسرى بن هرمز

(٤) يرى القارئ شرحا وافياً لهذه الناحية فى الطبرى

أباه فى إدارة التحرير العربى فى الديوان الملكى بالمدائن ، ولما تصالح مع النعمان لم ينس ثأره القديم ولكنه أخذ يتحين الفرصة ويتأهب لها ؛ وكان ملوك الفرس ذوى دراية بمحاسن النساء فاذا أرادوا امرأة بعثوا من بديع طلبتهم وما يتوفر فيها من محاسن جثمانية وخلقية ، ولكنهم لم يكونوا قد فكروا حتى ذلك الحين فى نساء بلاد العرب ظناً منهم بأنها خالية من أية امرأة جميلة حوت من الصفات ما طلبوه ، فوجد زيد إذ ذاك الفرصة سانحة ، فجاء كسرى وقال له : « رأيت أيها الملك أنك كتبت فى نسوة ، وعند عبدك النعمان من بناته وبنات عمه وأهله كثير فابعثنى وابعث معى رجلا من حرسك يفقه العربية » فبعث معه رجلا جليداً ، ثم دخلا الحيرة ثم وصف للنعمان طلبة الملك ، فقال لزيد والرسول يسمع : « أما فى عين السواد ما تبلغون به حاجتكم ؟ » فقال الرسول لزيد : « ما العين ؟ » قال : « البقر » ثم رجعا إلى كسرى فقال لهما : « أين الذى كنت خبرتنى به ؟ » فقال له الرسول : « قال النعمان أما فى بقر السواد ما يكفيه حتى يطلب ما عندنا ؟ » فعرف الغضب فى وجهه ، ثم بعث إليه كسرى فقيده وبعث به إلى خانقين ، فلم يزل فى السجن ، ثم أمر بقتله فقتل ووطأته الفيلة[1]

وإن الشواهد المنقولة إلينا لتظهر النعمان الثالث حاكما مستبداً زير نساء مولعاً بالخمر والغناء ، كما كان مشجعاً لكثير من الشعراء وخاصة النابغة الذبيانى الذى فر هاربا من الحيرة لفرية كاذبة . وإن هذه القصة وأخرى اتهم فيها الشاعر المنخل لتلقيان شعاعا نستطيع على هديه أن نتعرف حياة النعمان الخاصة ، فلقد تزوج امرأة أبيه المتجردة أجمل نساء عصرها ، وبينما كان هو يوليها كل حبه كانت هى تحب غيره . وقد اتهم فيها النابغة لنظمه قصيدة يصف فيها محاسن الملكة ويذكر فيها نواحى خاصة دقيقة ، ولكن الحقيقة هى أنها كانت والمنخل اليشكرى يتبادلان الحب ويجرعان كؤوس الهوى ، وقد فاجأها النعمان ذات يوم على غير ما يهوى ؛ ومنذ ذلك اليوم لم يعد أحد يرى المنخل . ومن هنا نشأ المثل القائل « حتى يعود المنخل[2] » وبالرغم مما يقال من أن كثيراً من ملوك الحيرة كانوا مسيحيين فإن الشك يحتك فى الصدور عما إذا كان أحدهم — سوى النعمان الثالث — يستحق هذا اللقب ؛ وكان اللخميون بعكس غالبية رعيتهم عريقين فى الوثنية . أما تعاليم النعمان فقد هيأته للنصرانية ، كما أن هدايته — كما تؤكد القصة — كانت على يد رائده عدى بن زيد

* * *

يذكر النسابة المسلمون أن الغساسنة — سواء المقيمون منهم فى المدينة أو من جرى العرف بتسميتهم بغساسنة الشام — من ولد عمرو بن عامر المزيقيا الذى كان قد باع أملاكه فى اليمن وهاجر على رأس جمع غفير من سكانه قبيل انفجار سد مأرب ؛ ويعتبر ابنه جفنة عادة مؤسس الأسرة ، أما عن تاريخهم البدائى فالثابت منه ضئيل جداً لا يبل ظمأ الباحث . ومما يذكر عنهم أنهم دفعوا الجزية للضجاعمة وهى أسرة من نسل سليح الذى كان حاكما على حدود سورية تحت رعاية الروم . وتبع ذلك صراع عنيف خرج منه الغساسنة ولواء النصر يرفرف فوق رءوسهم . ومنذ ذلك الحين نراهم قد استقروا فى هذه الأقاليم كممثلى السلطة الرومانية ذوى ألقاب رسمية كأشراف وقواد ، تلك الألقاب التى أبدلوها هم والعرب الذين حولهم بكلمة « ملك » كما هى العادة الشرقية . « وأول من ملك الشام من آل جفنة الحرث بن عمرو ابن محرق ، وسمى محرقا لأنه أول من حرق العرب فى ديارهم ويكنى أبا شمر ؛ ثم ملك بعده الحرث بن أبى شمر وهو الحرث الأعرج وأمه مارية ذات القرطين ، وكان خير ملوكهم وأيمنهم طائراً وأبعدهم مغاراً ، وأشدهم مكيدة وكان قد غزا خيبر[1] فسبى من أهلها ثم أعتقهم ، وكان قد سار إليه المنذر بن ماء السماء فى مائة ألف فوجه إليهم مائة رجل فيهم لبيد الشاعر وهو غلام ، وأظهر أنه إنما بعث بهم لمصالحته فأحاطوا برواقه فقتلوه وقتلوا من معه فى الرواق وركبوا خيلهم فنجا بعضهم وقتل بعض ، وحملت خيل الغسانيين على عسكر المنذر فهزموهم وكانت له بنت يقال لها حليمة كانت تطيب أولئك الفتيان يومئذ وتلبسهم الأكفان والدروع ، وفيها جرى المثل « ما يوم حليمة بسر »[2]

(يتبع) حسن حبشى

(١) راجع هذه القصة بأكملها فى الطبرى ج ١ ص ١٠٢٤ — ١٠٢٩ ، وفى ترجمة نلدكه ٣٢٤ — ٣٣١ وابن قتيبة فى : Chrestamathy لبرنو ص ٣٠٢ — ٣٠٣

(٢) وهو أشبه بالمثل الانجليزى :

« Until the Comming of the Coqcigrues »

(١) التى تقع فى شمال المدينة

Freytag : Arabum Proverbia, Vol II,P. 611 (٢)

٩ ـ هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

أفيحلو لكم ، أيها الاخوة ، أن يخنقكم ما يتبخر من أشواق هؤلاء المسوخ ؟ حطموا النوافذ واقفزوا منها لتنجوا بأنفسكم

حاذروا هذه الأبخرة الخانقة وابتعدوا عن عبادة الأصنام فأنها دين الدخلاء على الحياة . حاذروا هذه الأبخرة وأعرضوا عن هذه الضحايا البشرية

لم يزل حتى الآن مجال تسمى فى رحبه النفوس الكبيرة نحو الحرية فى الحياة ، ولم تخل الأرض من أماكن يلجأ إليها المنعزل منفرداً أو مزدوجاً حيث تهب نسمات البحر الهادئة . فأن الحياة الحرة لم تزل تفتح أبوابها لكبار النفوس ؛ والحق أن من يملك القليل لا يناله إلا اليسير من تحكم المتسلطين . فطوبى لصغار الفقراء !

لا يظهر الانسان الأصيل فى الحياة إلا حيث تنتهى حدود الحكومات ، فهنالك يتعالى نشيد الضرورة بنغماته المحررة من كل مطاوعة وتقييد

هنالك عند آخر حدود الحكومات ، قفوا وتطلعوا ، يا إخوتى ، أفما ترون تحت قوس قزح المعبر الذى يجتازه الانسان الكامل ؟

هكذا تكلم زارا

حشرات المجتمع

سارع إلى عزلتك ، يا صديقى ، فقد أورثك الصداع صخب عظماء الرجال ، وآلمتك وخزات صغارهم . إن جلال الصمت يسود الغاب والصخور أمامك ، فعد كما كنت شبيهاً بالدوحة التى تحب ، الدوحة الوارفة الظل المشرفة على البحر مصغية فى صمتها إلى هديره

على أطراف حقول العزلة تبدأ حدود الميادين حيث يصخب كبار الممثلين ويطن الذباب المسموم . لا قيمة لخير الأشياء فى العالم إن لم يكن لها من يمثلها ، والشعب يدعو ممثليه رجالاً عظاماً .

فالشعب يسىء فهم العظمة المبدعة ، فيبتدع من نفسه المعانى التى يجمل بها ممثليه والقائمين بالأدوار الكبرى على مسرح الحياة

إن العالم يدور دورته الخفية حول موجدى السنن الجديدة .

وحول لاعبى الأدوار على مسرح الحياة يدور الشعب وتدور الأمجاد ، وعلى هذه الوتيرة يسير العالم

إن للاعب الأدوار ذكاءه ، ولكنه لا يدرك حقيقة هذا الذكاء لانصباب عقيدته إلى كل طريقة توصله لخير النتائج وإلى كل أمر يدفع بالناس إلى وضع ثقتهم به

غداً سيعتنق هذا الرجل عقيدة جديدة ، وبعد غد سيستبدل بها أجد منها . ففكرته تشبه الشعب تذبذباً وتوقداً وتقلباً

إن ممثل الشعب يرى بالتحطيم برهانه ، وبإيقاد النار حجته ، وبإراقة الدماء أفضل حجة وأقوى دليل . إنه ليعتبر هباء كل حقيقة لا تسمعها إلا الآذان المرهفة ، فهو عبد الآلهة الصاخبة فى الحياة

إن ميدان الجماهير يغص بالغوغاء المهرجين ، والشعب يفاخر بعظماء رجاله فهم أسياد الساعة فى نظره . ولكن الساعة تتطلب الاسراع من هؤلاء الأسياد ، فلذلك يزحمونك ، يا أخى ، طالبين منك إعلان رفضك أو قبولك ، والويل لك إذا وقفت حائراً بين (نعم) وبين (لا)

وإذا كنت عاشقاً للحقيقة فلا يغرنك أصحاب العقول الرعناء المتصلبة ، وما كانت الحقيقة لتستند يوماً إلى ذراع أحد هؤلاء المتصلبين

دع الشاغبين وارجع إلى مقرك ، فما ميدان الجماهير إلا معترك يهدد سلامتك بين خنوع (نعم) وتمرد (لا) . إن تجمع المياه فى الينابيع لا يتم إلا ببطء ، وقد تمر أزمان قبل أن تدرك المجارى ما استقر فى أغوارها

لا تقوم عظمة إلا بعيداً عن ميدان الجماهير وبعيداً عن الأمجاد ، وقد انتحى الأماكن القصية عنها من أبدعوا السنن الجديدة فى كل زمان

اهرب ، يا صديقى ، إلى عزلتك . لقد طالت إقامتك قرب الصعاليك والأدنياء ، لا تقف حيث يصيبك انتقامهم الدساس وقد أصبح كل همهم أن ينتقموا منك . لا ترفع يدك عليهم فأن عددهم لا يحصى ، وما قدر عليك أن تكون صياداً للحشرات .

إنهم لصغار أدنياء ولكنهم كثرة . ولكم أسقطت قطرات المطر وطفيليات الأعشاب من صروح شامخات . ما أنت بالصخرة الصلدة ، ولشد ما فعلت بك القطرات ، ولسوف

يتوالى ارتشافها عليك فتصدعك وتحطمك تحطيما

لقد أرهقتك هذه الحشرات السامة تخدشت جلدك وأسالت منه الدماء ، وأنت تتحصن بكبرك لتكظم غيظك ، وهي تود لو أنها تمتص كل دمك معتبرة أن من حقها أن تفعل لأن دمها الضعيف يطلب دماً ليتقوى ، فهي لا ترى جناحاً عليها إذ تنشب حمتها في جلدك . إن هذه الجروح الصغيرة لتذهب بالألم إلى مدى بعيد في حسك المرهف ، فتتدفق صديداً يرتميه الدود . أراك تتعالى عن أن تمد يدك لقتل هذه الحشرات الجائعة ، فحاذر أن يجول سمُّ استبدادها في دمك

إن هؤلاء الشاغبين يدورون حولك بطنين الذباب ، فهم يرفعون أناشيدهم تزلفاً إليك ليتحكموا في جلدك ودمك . إنهم يتوسلون إليك ويداهنونك كما يداهنون الآلهة والشياطين ، فيحتالون عليك بالملاطفة والثناء ، وما يحتال غير الجبناء

إنهم يفكرون بك كثيراً في سرهم فيلقون الشكوك عليك ، وكل من يفكر الناس به كثيراً تحوم حوله الشبهات

إنهم يعاقبونك على كل فضيلة فيك ولا يغتفرون لك من صميم فؤادهم إلا ما ترتكب من أخطاء . إنك لكريم وعادل ، لذلك تقول في قلبك : « إن هؤلاء الناس أبرياء وقد ضاقت عليهم الحياة » ولكن نفوسهم الضيقة تقول في نجواها : « إن كل حياة عظيمة إنما هي حياة مجرمة » ويشعر هؤلاء الناس بأنك تحتقرهم عند ما تشملهم بعطفك ، فيبادلونك عطفك بالسيئات . إنك لتصدعهم بفضيلتك الصامتة فلا يفرحون إلا عند ما يتناهى تواضعك فيستحيل غروراً . إن الناس يطمحون بالطبع إلى إلهاب كل عاطفة تبدو لهم ، فاحذر الصعاليك لأنهم يحسون بصغارهم أمامك فيتحمسون حتى ينقلب إحساسهم كرهاً وانتقاماً

أفما شعرت أنهم يخرسون عند ما تطلع عليهم ، فتبارحهم قواهم كما يبرح الدخان النار إذا همدت

أجل ياصديقي ، ما أنت إلا تبكيتٌ في ضمائر أبناء جلدتك لأنهم ليسوا أهلاً لك ، فهم لذلك يكرهونك ويودون امتصاص دمك

إن أبناء جلدتك لن يبرحوا كالحشرات المسمومة لأن العظمة فيك ستزيد أبداً في كرههم لك

إلى عزلتك ، ياصديقي ، إلى الأعالي حيث تهب رصينات الرياح ، فإنك لم تخلق لتكون صياداً للحشرات

هكذا تكلم زارا . . .

العفة

أحب الغاب ، فما تسهل حياة المدن علي وقد كثر فيها عبيد الشهوات الثائرات

لخير أن يقع الرجل بين براثن سفاح من أن تحدق به أشواق امرأة جائعة ملتهبة

إنك إذا ما تفرست في رجال المدن ، لتشهد لك نظراتهم بأنهم لا يرون في الأرض شيئاً يفضل مضاجعة امرأة …

في أغوار أرواحهم ترسب الأقذار ، وأشقاهم من تمرغ عقله بأقذاره

ليتك حيوان اكتملت حيوانيته على الأقل ، ولكن أين منك طهارة الحيوان ؟ ما أنا بالمشير عليك بقتل حواسك ؛ إن ما أوجبه إنما هو طهارة هذه الحواس

ما أنا بالمشير عليك بالعفة ، لأنها إذا كانت فضيلة في البعض فإنها لتكاد تكون رذيلة في الآخرين . ولعل هؤلاء يمسكون عن التمتع ، غير أن شبقهم يتجلى في كل حركة من حركاتهم

إن كلاب الشهوة تتبع هؤلاء المسكين حتى إلى ذرى فضائلهم فتنفذ إلى أعماق تفكيرهم الصارم لتشوش عليه في سكينته ؛ ولكلاب الشهوة من مرونة الزلفى ما تتوسل به إلى نيل قطعة من الدماغ المفكر إذا منعت قطعة اللحم عنها …

إنكم تحبون المآسي وكل ما يفطر القلوب ، أما أنا فلا أثق بكلاب شهواتكم لأن نظراتكم الرصينة تمتلئ شهوة عندما تقع على المتألمين ؛ وقد تنكر الشبق فيكم فدعوتموه إشفاقاً . وإني لأضرب لكم مثلاً على هذا : حالة العدد الوفير ممن أرادوا طرد الشياطين فدخلوا هم في الخنازير بدلاً منها

إذا ما ثقلت العفة على أحد منكم فعليه أن يعرض عنها كيلا تنبسط أمامه سبيلاً إلى الجحيم ، جحيم أقذار النفس ونيرانها

لعلكم ترون بذاءة في كلامي ، أما أنا فأرى البذاءة حيث لا ترونها أنتم

ليست البذاءة في قذارة الحقيقة ، بل هي في تدنيها وإسفافها ، وطالب المعرفة يأنف من الانحدار إلى مهاويها

إن من الناس من دخلت العفة قلوبهم فلانت هذه القلوب لها . أولئك هم الضاحكون وفي ابتسامهم ما ليس في ابتسامكم من إخلاص . إنهم يهزأون بالعفة ويتساءلون عما يمكن أن تكون

أفليست العفة غروراً ؟ أفليست هي التي جاءت إلينا ولم نذهب نحن إليها ؟

لقد فتحنا قلبنا لها فاستقرت ضيفاً ثقيلاً فيه ، فليبق هذا الضيف نازلاً فينا ما طاب له المقيل

هكذا تكلم زارا ...

(يتبع) فليكس فارس

الى شباب الوادى

للأستاذ محمود الخفيف

تنفس صُبحكمو المنتظر   فلله هـذا الصباحُ الأغرْ
تهلَّلَ فى المهـد سمحَ الجبين   رفيف الحواشى بهِيَّ الغُرر
على جانبيـه يفيضُ اليقينُ   ويلمعُ فى مُقلتيـهِ الظفَرْ
وتضحك بين يديه المنى   وتبـدو البشائرُ ملْءَ البصر
ثقيفَ العزيمة فى مهـده   يريك نبوغَ صِباهُ الصِّغر
جرىءُ الوثوب إلى مبتغاه   ذكى الفؤاد وثيق الحذَر
يفيضُ على الأرض من ذَوبه   نُضارٌ يكلِّلُ هام الشجر
وتحنو عليـه بناتُ الهديل   وتنثر فى المهرجان الزَّهَرْ
وتزْهى الوجودُ بهـذا الوليد   وينسى لديه وضىء البُكَرْ
ويستقبلُ الشرق من وَمضه   معانى تبعث حُلو الذِّكَرْ
أناشيد جاشت بهن النفوس   يقصِّرُ عنهن لحن الوتر
تُرِنُّ بأيامه الحافلات   وتومى إلى سرِّه المدَّخر
وتوحى إلى مصر من مجدها   ومُعجز آياتها ما غبر
تدبُّ بواديه روحُ الرَّجاء   ويُحصى القرونَ إليـه النهر
وقد طال بالنيل عهد الهوان   وبالأمس كان عزيز النفر
وما عرف النيل معنى الخلاص   ولا لَمَحَ النصر حتى سفر
فيالك صـبحاً جرى نورُه   فبدَّد من ليلنا ما اعتكر
نرى حُمْرَةَ الورد فى أفقـه   بشير السلام جلاه السَّحَرْ
وما كان يقطر إلا النجيع   وما كان يلبس إلا العفَرْ
تلقته مصرُ لقاء الرؤوم   ألح عليها الضنى والسهر
وطال المخاضُ وطافت بها   صنوف الرزايا وشتَّى الغِير

* * *

عبرنا إلى شطِّه الحالكاتِ   وخضنا الحتوف إليـه زُمَرْ
دعاَ الأعزَلُ الشيخ أشبَالَهُ   فضج له الغاب لما زأر
وراحت تُعربدُ ريح المنون   وترمى صواعقها بالشرَر
تقدَّم يزجى صفوف الجهاد   وليس من الموت فيـه وَزر
عنيد الخصومة صعب الأباء   شـديد المراس جليل الخطر
على رأسه من جلال المشيب   هـدًى ومن الحق نورٌ بهر
وليس بيمناه غيرُ اليقين   إذا غيره بالسنان افتخر
فتىُّ الفـؤاد له عزمةٌ   تذيب الحديد وتفرى الصخَر
سل الموت كيف طغى موجه   وكيف صـبرنا له فانحسر
سل المجد كيف ارتخصنا النفوس   وكيف ارتضينا ظلامَ الحُفر
وكيف انثنت دوننا الحادثاتُ   وكيف انجلت جائحات الغمر
سل الحرب من خاضها قبلنا   بغير القنا والظبا فانتصر ؟ !

* * *

بنى مصر وافا كمو يومُكمْ   وناب الزمان ولان القـدر
جعلتم من الروح مهر الخلاص   فسال بها دمكم وانتشر
وَما ضنَّ حُرٌّ غداة النضال   وَلا مَنَّ يوماً بها من مَهَرْ
فلله موقفكم فى الفـداء   ولله سـيرتكم فى السِّير !
ومصر لكم فى غدٍ أمرها   أعدوا لها من جليل الأثر

* * *

بنى مصرَ لا يُكتفَى بالصباح   فقد يعقب الصَّفْوَ فيه الكدر
هلموا فما دون رأْدِ الضحى   وما دون جـذوته من وطر
هلموا إلى صهوات العـلى   فما ضـلَّ ساع لها أو عثر
وكونوا لها فى ظلال السلام   كما كنتمو فى غواشى الخطر
فليس السـلام ركوناً وعجزاً   ولكنه همـة تُعتصر

* * *

شبولَ الحمى لن يذِلَّ الشبولُ   وَلن يعرف الليث معنى الخور
زمانكمو للجرىء النطاح الد   ؤوب الجـلادِ القوىِّ الظفِرُ
لكل كمىٍّ يخوض الوغى   إذا شب جانبُها وَاسـتعر
وَلن تتناعس أظفارُه   إذا زحمتـه ذئاب البشر
فروضوا على البأس أخلاقكم   يرِ العصْرُ من روحكم ما استتر
وَيرهب أحلافُكمْ وُدَّكمْ   ودادُ الأعزَّة لا يحتقر

ألستم طلائع هـذا الوجود — أصول الحضارة فيمن عَمَر ؟
أفيضوا على مصر من روحكم — شـباباً يرد لها ما اندثر
خذوا الوحى من أمسها العبقرىّ — وَمن يومها بالغات العبر
أشيروا إلى غدها فى الكفاح — وَغنوا بحاضرها فى السَّمَرْ
شبول الحمى قد تولى الشتاء — وَوَافى ربيع المنى وَازدهر
وَليس الربيع جمالاً فحسب — يهز القلوب وَيسْبى النّظر
وَلكنه قوة لا تنى — وَبَعْثٌ تراه شتيت الصُّور
نماء وَخَلْقٌ وَحُرِّيةٌ — الى سرها جو مصر افتقر
وَأنتم لعمرى رياحينُه — وَزينته وَشـذاه العَطِر
أعيذكمو أن تشينوا الربيعَ — وَأن تذروا غرسه يُهتصر
فصونوا عن اللهو إكليلكم — وَإلا ذوى عقـدُه وَانتثر
غدا نبتنى صرحنا عالياً — وَنجنى من الغرس أحلى الثمر

الخفيف

تأملات ...

المصباح الناعس

للأديب أحمد فتحى مرسى

خافقٌ فى الظلام كالأملِ البا — سم قد فاض فى القلوب وَرَفَّا
هامسٌ كالشفاه تهمسُ فى رفـ — ـقٍ بما نمَّ عن أساها وَشفَّا
ناعس كالجفون أدركها الأيـ — ـنُ فلبَّى الكرى نداها وَخَفَّا
باسمٌ كالطيوف فى حُلُم الصبِّ (م) توالت عليـه طيفاً فطيفا
راقصٌ كالظـلال فى نغم الرو — ض إذا الروضُ فاض شدواً وَعزفا
وَكأن الظلامَ جمعٌ من الخلـ — ـق غفيرٌ يلوح صفّاً فصفّا
وَكأن المصباح فى وِقفةِ الوا — عظ شيخٌ ينوء وَهْناً وَضعفا
أرتجَ القولُ وَالخطابُ عليـه — فبدا فى الظلام يرجف رَجفا
فاعترى [illegible] فأبحا شفتيه — دون أن يلفظَ العشيّة حرفا

* * *

نشر الليلُ بردتيـه وَأرخى — فوق هام الربى مُسوحاً وَسُجفا
وَالنجومُ الوضاء تخفق فى الأفـ — ـق وَريحُ المساء تعصفُ عصفا
وَكأن الظـلام بحر خِضمٌ — يفرَقُ القلب منه رُعباً وَخوْفا
وَكأن المصباحَ فيـه غريقٌ — بين لجاته يلوح وَيخفى
يغلب الموج ساعديه فينأى — كلما قارب النجاة وَأوفى

* * *

أيهذا السجينُ فى ظلمات الليـ — ـل كيف الخلاص منهن كيفا ؟
أنت فى قبضة الظلام أسير — فى صفاد السهاد ترسف رسفا
ساهرُ الجفن قيدتك يد الليـ — ـل فلهفاً عليك فى القيد لهفا
وَالفراش الوديع يرقصُ حولـ — ـك وَيروى صداه لثماً وَرشفا
أى شىء أحبُّ من رشفة الضو — ء وَأحلى من السناء وَأشفى
أى شىء أرق من لمحة النو — ر وَأبهى من الضياء وَأصفى
عَشِقَ الحرق فى سناك قريراً — وَتمنى لو مدَّ للموت كفا ...
رُب نفس هفت إلى النور وَالحسـ — ـن وَلو كان ثمَّ موتا وَحتفا

* * *

هكذا هذه الحياةُ شُعاعٌ — فى ظلام الوجود يخطفُ خطفا
يغلبُ الليل وَالظلامَ فيحيا — أو يغير الدجى عليه فيُطفا

أحمد فتحى مرسى



رمبراندت
REMBRANDT

للدكتور أحمد موسى

أراد الله أن يكون خلود الشخصية وقفاً على الغنى أو الجاه، كما شاء ولا راد لمشيئته أن يمنح الانسان عقلاً يميز به موضع الجمال في خلقه، فيقدسه ويستلهم منه وحياً لحياته التي لا تعتبر حياة بمعناها الكامل إلا إذا رجعت في جوهرها إلى التمييز

وكأن الشخصية التي نحللها اليوم من تلك الشخصيات التي لم يكن للغنى يد في تخليدها، ولا للجاه أي أثر في تكوينها، بل رجع الفضل فيها إلى الفن الذي عبر عنه رمبراندت تعبيراً استلهمه من الواقع الملموس طامحاً به إلى الكمال المنشود

وُلد رمبراندت فان راين في منتصف يوليو سنة ١٦٠٦ بلَيْدِن لأبوين فقيرين، اشتغل الوالد طحّاناً محدود الرزق؛ أما أمه فكانت الزوجة المخلصة البريئة

شب الولد بسيط النشأة والمعيشة لم ير أحد على ملامحه أي أثر للنزعة الفنية، كما أنه هو نفسه لم يكن يدري ماذا يكون من أمره في مستقبل الأيام

والشخصية في نظر التاريخ لا يتحتم أن تكون فذة في العلم أو الأدب، ولا في السياسة أو الحرب؛ لأن الحضارة في أكمل معناها تقوم على أركان لا يقل الفن فيها قيمة عن أي ركن آخر، بل إن شيلر شاعر ألمانيا الأعظم يقول: « إن الحضارة الحق يجب أن تمهد سبيل الحرية للانسان، وأن تعينه على الوصول إليها، كما يجب أن تشغل فراغ عقله حتى يصبح بها قادراً على الشعور بوجدانه مادام أنه مخلوق ذو إرادة »

وهكذا كان إنتاج رمبراندت ممهداً السبيل للشعور بالحرية في تراثه المجيد، الذي إذا تأملناه شعرنا بالوجود، وانتعشت فينا الارادة إلى العمل والانتاج، بل وإلى الاستمتاع إلى حد بعيد، أعني أنه ترك وراءه ركناً هاماً من أركان الحضارة الانسانية!

ونبوغ التلميذ لا يتوقف دائماً على قدرة أستاذه؛ وهذا ما يلاحظ على رمبراندت؛ فعند ما التحق بالعمل عند سوانبرج في لَيْدِن سنة ١٦٢١ لم يكن معلمه هذا من الدرجة الأولى؛ ومع أنه استمر يتلقى مبادئ الفن عليه ثلاث سنوات؛ فقد سافر إلى امستردام لزيادة المعرفة؛ فتلقى الدرس على لاستمان نصف سنة عاد بعدها إلى بلدته ليدن، وبدأ حياته العملية مستقلاً في آخر سنة ١٦٣١، أعني عند ما بلغ الخامسة والعشرين؛ إلا أنه ظل — ولو أن أول لوحة له مؤرخة سنة ١٦٢٧ — يواصل الليل بالنهار في المران والشاهدة، حتى إذا ما بلغ الثلاثين كان أستاذاً معترفاً به

تزوج رمبراندت في أواخر يوليو سنة ١٦٣٤ من زاسكيا فان أولنبرج، فأتمت عليه نعمة الحياة؛ ولم يكن اختياره لها لمجرد الهدوء إلى جانب زوجة، بل لأنه وجد فيها خير معين؛ وكان القدر قاسياً، فلم تمض ثماني سنوات حتى فرق الموت بينهما

كانت وفاة زاسكيا فاتحة مصائب كثيرة، تراكم دينه، وساءت حاله؛ وبعد أن كان من عشاق جمع الصور النادرة والتحف الثمينة، أصبح والمحكمة تحدد موعداً لبيع بيته ومافيه

وكانت هندريكا ياجرز مدبرة بيته عاشقة له معجبة به، فتقدمت بمالها الخاص وأنقذت الموقف ولم يتم البيع

أثرت هذه الصدمات تأثيراً فعّالاً في اتجاه الفنان، نتبينه في لوحات كثيرة له، فنرى بعضها تشمله روح اكتئاب وحزن ظاهرين

توفي رمبراندت في اليوم الثامن من اكتوبر سنة ١٦٦٩ بعد حياة مليئة بالانتاج الفني الهائل، الذي تخلله هدوء العيش حيناً، وآلام النفس أحياناً أخرى، معتبراً في التاريخ العام وتاريخ الفن إماماً لفناني المدرسة الهولاندية إطلاقاً

وتاريخ الفن لا يُعنى بانتاج الفنان من حيث الكثرة؛ وإنما يُعنى أول مايعنى بقدرته على الابتكار، ولمس النواحي التي لم يسبق

لغيره معالجتها ، ولذا يقول كارل يوليوس فيبر بأن الفنان الجدير بالتسمية هو ذلك الذى ينتج ما لا يستطيع غيره انتاجه ؛ لأننا نقول إن إنتاجاً ما بعيد عن الفن إذا استطاعت الكثرة عمل نظيره

ترك رمبراندت حوالى الخمسمائة لوحة ، صوّرها خلال ثلاثين سنة ، مثّلت المناظر التاريخية الدينية ، والشخصية ، والطبيعية بروح لا يمكن لغيره تصورها

حفظت المتاحف والكنائس كثيراً منها ، وتتباهى الممالك بكثرة ما بمتاحفها وكنائسها من عمله . وتوجد أربعون لوحة منها بمتحف بطرسبرج ومثلها بباريس وكاسل وأمستردام ، واثنتا عشرة ببرلين وأقل من ذلك بفينا ومدريد

هذا عدا ما هو فى حيازة الأفراد ؛ فلدى ملك انجلترا ودوق وستمنستر والليدى والاس ، واللورد البسمارر بلندن ، وهافير بنيويورك ، ورودلف كان بباريس ، وكارستانجن ببرلين ، والليدى سيكس بامستردام قطع من تصويره

أما الدّارس للوحاته فأنه يرى ما يفيض عليها من صدق التمثيل للحقيقة متمشياً فى ذلك مع مذهب الواقع (Realism) فضلا عن أنه من ناحية مذهب الكمال (Idealism) لا يقل بحال عن كبار الفنانين ، كما يلمس فيها روح القوة المنيفة المتغلغلة فى إخراجها ، وسحر الألوان المشتملة عليها ، والقدرة التى أصبحت مضرب الأمثال فى تكوين الظل والنور ، اللذين لا يزالان مثلاً أعلى يحتذى به الى هذا العصر

بهذا الظل والنور أبرز رمبراندت الجمال التكوينى والمجموعى إبرازاً يُعتبر أدق ما أمكن الوصول إليه ، مكوّناً طرازاً خاصاً انطبعت عليه نفسه ، وعرف باسمه على مر القرون

ويعتبر إنتاج رمبراندت إجمالاً القياس الصادق لقوة الفن الجرمانى ؛ إذ بشخصيته الممثلة فى طرازه يتم التوازن بين عظمة الفن الرومانى فى كفّة ، والفن الجرمانى فى الكفّة الأخرى

فسر رمبراندت الكتاب المقدس على لوحاته تفسيراً سهلاً من الناحية الوضعية ، ولكنه قوى من الناحية الفنية ، متخذاً مادته من الطبيعة المحيطة به ، أما الأشخاص فقد كانوا من مجاوريه ، حتى أشخاص أقاصيص كتاب العهد القديم كانوا من يهود هولاندا المعاصرين . ومن كل هذا لا نرى فيه فناناً عبقرياً [illegible] مستقلاً ومؤرخاً صادقاً فى كل ما صوّر ، لأنه لم يعتمد على الخيال كل الاعتماد ، بل على الوجود الملموس

سر أخرج اللوحات الشخصية إخراجاً فذاً ، فصور أبرز رجال عصره تصويراً دقيقاً ، كما صور حوالى الأربعين لوحة لنفسه حينما كان يخلو مستلهماً بين حين وآخر ؛ ولذلك ترى فى هذه الأربعين لوحة صفحة كاملة لتكوينه النفسى والفنى ، وتطوره فى تفكيره وفهمه لحقيقة الوجود

ومن أهم هذه الصور لوحته المحفوظة بمتحف برلين والمؤرخة سنة ١٦٣٤ ، ولوحته المحفوظة بالهاى سنة ١٦٣٤ أيضاً ، وبفينا سنة ١٦٣٥ ، وباللوفر سنة ١٦٣٧ ، وفى لندن بالناشونال جاليرى سنة ١٦٤٠ ، وبيكنجهام بالاس فى لندن سنة ١٦٤٢

ومن أحسن صوره لنفسه من الناحيتين الانشائية والفنية تلك اللوحة التى مثلته جالساً على مقعد وثير ، وهى فى حيازة اللورد الشستربلندن ومؤرخة بسنة ١٦٥٨ ، وكذلك واحدة أخرى فى باريس مؤرخة بسنة ١٦٦٠ ، وثالثة فى لندن بالناشونال جاليرى سنة ١٦٦٤

أما آخر صورة من هذه المجموعة فهى مؤرخة بسنة ١٦٦٩ أعنى قبيل وفاته ، وهى فى حيازة السير ريلد بلندن



(صورته لنفسه)

وصورته لنفسه لا تنم عن عظمة مصطنعة ولا تجميل مرغوب فيه ، ولا تكلف لضعف فى الاخراج . تراه وقد أسدل الشعر على كتفيه متفننتاً بدقة وانسجام ، مكوّناً للوجه من حوله مكاناً ملاصقاً لسواد الشعر ؛ فأبرزه خير إبراز . كوّن فيه شخصيته

دون جفاف ؛ فترى نظرة العينين وما ينطوى فيهما أقرب إلى الآلام منه إلى مسرّة الحياة ، ولكن هذا ليس غريباً على رجل كامل الحس ، فنان بنفسه ولحمه ودمه ، صادف آلاما مبرحة فضلا عن نظرته الخاصة إلى الحياة.



(صورته مع زوجته)

وله لوحة (بمتحف درســدن) خالدة ، تنبض بالحياة ، تمثله وزوجتــه زاسكيا فى مرح وسعادة ، والشاهد لها يدهش للقدرة العظيمة التى استطاع بها أن يجعلها فذّة مؤدية للغاية التى صورها من أجلها ، فجاءت ملامح وجهيهما ناطقة بالهناء والتوفيق . انظر إلى يده اليمنى رافعــة كأساً امتلأت لنصفها ، وإلى صفاء لون الخمر فيها ، ثم المس جمال الانشاء العام ولاحظ قوة الظل والنور التى جملتها مجسمة

ولوحته لمدبّرة بيته هندريكا ، وهى مؤرخة ســنة ١٦٦٣ ومحفوظة بمتحف برلين ، والمجموعة المحفوظة بقاعة وندسور ومنها لوحة لأمة ، وصورة أخيه أدريان لابساً خوذة ذهبية ومؤرخة ١٦٥٠ ، ومحفوظة بمتحف برلين ، وصورة ابنه تيتوس المحفوظة بمتحف فينا ، عدا الكثير لأبيه وأخته ، كل هذه تكوّن لك ناحية جليّة لقوّته

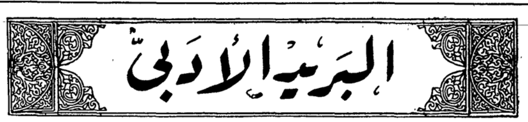
أما اللوحات التى صورها للشخصيات البارزة فى عصره فهى أيضاً مجموعة جديرة بالتسجيل هنا . من أهم ما فيها صورة الخطاط كوبينول مؤرخة سنة ١٦٣١ ومحفوظة ببطرسبرج ، وصورة إلزابيث باس ، وصورة حرم الأدميرال ســـوار تنهوت فى أمستردام ، وصورة العمدة بانكراس وحرمه مؤرخة سنة ١٦٤٥ فى قصر بكنجهام بلندن ، وصورة الطاهية مؤرخة ١٦٥١ بمتحف ستوكهلم ، وصورة جان سيكس مؤرخة ١٦٥٤ ومحفوظة بسيكس جاليرى فى أمستردام

وأهم لوحاته العامة صورة الصيرفى وهى مؤرخة ١٦٢٧ ، ترى أن أبرز ما عليها شخصية الصراف الجالس إلى منضدة ، ملتفتا إلى محدّثه فى شىء من التردد ، واضعاً يده عليها ، قابضاً باليسرى على كيس نقوده ، واليمنى فى حالة استعداد لأخذ قطعة النقود من محدّثه . وترى على يمينه كاتب الحسابات جالساً منحنياً ، شاخصاً بعينيه إلى المتكلم ، وقد أمسك ريشة الكتابة بيمينه ، ووضع اليسرى على الكتاب وضعاً فى غاية الدقة لا يوفق إليه غير رمبراندت



(صورة الصيرفى)

والوجوه خلف الصورة لا تقــل روعة عما فى مقدمتها ، إلا أن مهارة الفنان جعلت الشاهد يدرك تماماً أبرز وضع للوحة وأهم ما يقصد منها بمجرد النظر إليها ، لما ختم عليها من ضآلة



الأدب العربي الحديث

جاء في جريدة (النوفيل ليترر) الفرنسية ما يأتي :

كثيراً ما قيل وما زال يقال : إن تلك الصلة الوثيقة التي تجمع الشرق والغرب لا يجب إنقاذها مما هي سائرة إليه فحسب ، بل يجب تمكين أواصرها ، وتوثيق عراها ؛ وهذا بالطبع لا يتأتى إلا بتبادل الأفكار وتناقل الآراء ... فما الذي يعرفه الغربيون عن الأدب العربي الحديث ؟ . وما الذي يعرفه الغربيون عن تلك النهضة الأدبية الحديثة التي يحمل لواءها شباب مصر ، وتلك الباكورة الأدبية الطيبة التي تتزايد في ربوع النيل يوماً بعد يوم ؟

ويسرنا هنا أن نشكر جهود هؤلاء الكتاب الذين بذلوا ما في طاقتهم في سبيل نشر هذه الآداب في ربوع الغرب ، وفي طليعتهم الكاتب الفرنسي القدير موريك برن ... فهو لا ينفك يعمل منذ اثنى عشر عاماً على احكام الرابطة بين الفكرين الشرقي والغربي . ولم يقتصر على ما بذله في سبيل ذلك من الجهود التي ترمي إلى تبادل الآداب والفنون ، بل نرى له اليوم جولة أخرى في ميدان الترجمة اعتزم فيها أن ينقل أفكار أعلام الأدب العربي الحديث إلى اللغة الفرنسية ، وقد بدأ جولته — بالاشتراك مع الأستاذ م . خضرى — بترجمة رواية توفيق الحكيم الرائعة « شهر زاد »

وقد سئل موريك برن لماذا آثر تقديم توفيق الحكيم على غيره من كتاب العربية ، فأجاب :

— إن توفيق الحكيم — دون منازع — هو أقدر كتاب العربية في التأليف القصصي « الدرامى » وهو الكاتب المسرحي الأول في مصر . ومن روائع مسرحياته رواية « أهل الكهف » التي قامت دار الأوبرا الملكية المصرية بتمثيلها في الشتاء الماضي ولا تقل « شهر زاد » عنها قوة ولا روعة

فسئل : ألا يكتب توفيق الحكيم غير المسرحيات ؟ فأجاب :

— كلا ... إن له أيضاً باعاً طويلا في غير المسرحيات ... فهو أقدر كتاب العربية على تصوير الحياة المصرية خير تصوير .. ولست مبالغاً في ذلك ؛ فعند ما تقرأون روايته القادمة (عودة الروح) التي أوشكت على الفراغ من ترجمتها ستتثبتون من ذلك . وهذه القصة تصور حال أسرة مصرية ثرية تصويراً يبعث الاعجاب في نفس القارىء ؛ وسترون في شخص بطلها « محسن » الشاب المصري الذي يمتلىء حماسة ويفيض قوة وفتوة ، مما يجعلني أكرر لكم أن توفيق الحكيم أقدر كاتب مفتن في تصوير الحياة المصرية أصدق تصوير

فسئل : ولكن لماذا اختار لها اسم « عودة الروح » ؟ فأجاب :

— لأن القصة تصور كيف انبعث من جوامح مصر روح

النور المتعمدة . أما الظل والنور فهما واضحان بالنظر إلى الظل الواضح على صفحة الكتاب تحت يد الكاتب ، كذلك ظل الكتاب فوق المنضدة ، فضلا عما تراه من الظل على الجانب الأيسر لوجه الصيرفي ؛ على حين جعل الجانب الأيمن منيراً . وظهر الشعر المجعد ظهوراً غاية في الدقة . وتدل ملامح وجه المتكلم على الرجاء والالتماس بكل قوة

وله لوحة أسماها « دانيا » وهي صورة لامرأة عارية بالحجم الطبيعي مؤرخة سنة ١٦٣٦ ، ومحفوظة بيطرسبرج ، وصورة المراكي وامرأته وهي في حيازة ملك انجلترا ، وصورة كوينتابل في سان زيمو ؛ وصورة امرأة تستحم ومؤرخة سنة ١٦٥٤ بلندن ؛ وصورة العروس اليهودية مؤرخة سنة ١٦٦٥ بامستردام ؛ وكذلك صورة رجال الكنيس اليهودي في جنازة دوق دوڤنشير . هذا عدا صوره لرجال ونساء مجاز تعد من آيات الفن ، معظمها محفوظ بلندن وبطرسبرج وبروكسل ودرسدن

(لها بقية) أحمد موسى

جديدة جملتها تحطم أصفادها ، وتكسر أغلالها . فقصة «عودة الروح» هي قصة جهاد مصر ونضالها في سبيل استقلالها . . .

***

وأقول أخيراً إنه لن يمضي طويل من الزمن حتى نرى أدباء مصر الناهضــة يتبوأون مكانهم اللائق من أدباء الغرب ، فمن بواعث السرور أن نرى بينهم تلك النهضة الأدبيــة الموفقة التي تنتظم ربوع النيل

محمد عاكف بك

نعت الرسالة في عددها الأخير الشاعر الكبير محمد عاكف بك ، ولمـا كنت من الذين عرفوا الفقيد شاعراً ، وأعجبوا به ، وترجموا بعض آثاره إلى العربية ، فاني أكتب هــذه الكلمة الصغيرة للتعريف بالنواحي التي عرفتها من أدبه ، تاركا للدكتور عزام صديقه ما وراء ذلك من تعمق واستقصاء

سمعت بالفقيد بعـد أن أصدر ديوانه «الظلال» وقد كان يُتَرْجَمُ لي إلى النثر العربي ، كان يترجمه صديقي الاستاذ محمد محمد توفيق

وأول ما قرأت له مقدمة ديوانه الظلال ، وهي قصيدة تشرف على العشرين بيتاً ، عنوانها خسران ، وفي نهايتها يقول : «وذلك نظمي بالعربية»

وصدى تألمي العميق بضيع في ... تجويف هذي القبة الزرقاء
وكذاك خسراني الذي أودعته ... في شعري المتأجج الوضاء
لهفي عليــه يئن أنا خافتاً ... وكأنه ماخط من لأوائي !

ولست أذكر هذه القصيدة بتمامها ، ولم أعثر عليها في أوراق ، ووددت لو وجـدتها فنشرتها على الناس فانها تفيض باسلامية الرجل ، وحبه للجامعة الاسلامية التي يتمناها ، وفي ذلك يقول :

. . . وغايتي ... أن يستعيد نفوذه الاسلامُ

والصوفية العميقة هي الطابع الذي يغلب في شعره ، قرأت منها قصيدة عنوانها «الوحدة» أشتغل الآن بنقلها نظماً إلى العربيــة ، وقد بلغ الذروة العليا في تصوير الاحساس ، وقد استهلها بقوله :

من منذ آبادٍ وآباد وإ ... ماني لنورك ظامىءٌ لم ينهل !

وله منها قصيدة نظمها وهو منحدر إلى الحجاز حاجاً ، وأبدع فيها أيما إبداع ، ولعلها خير ما قيل في هذا على الاطلاق

وفي شعره موســيقى تتملك عليك مشاعرك ، وقد أعجبتني قصيدة له سمعتها بالتركية فافتتنت بها وترجمتها إلى العربية نظماً وعنوانها على قبر شهيد ؛ وها هي ذي :

خليليّ إنَّ الأولى يبذلو ... ن نفوسهمُ فدية للوطن
مسجّون تحت سجوف السما ... ء ، يحيط بهم دمهم كالكفن
ومثل أولئك عاشوا وماتوا ... وهانوا...وأوطانهم لم تهن...

ولا يسكنون الثرى بل لهم ... غوادٍ برحمتـــه رائحه
ولا يطلبون إلى عابر ... قراءة شيء سوى الفاتحه

وقد أعجب رحمه الله بالترجمة لما رآها وشكر لي الدقة التي راعيتها فيها . رحم الله الفقيد ، وعوض الأدب عنه خيراً ووفق إخوانه وأصدقاءه أن يترجموه لنا عربياً حتى نستمتع بأدبه وقوته

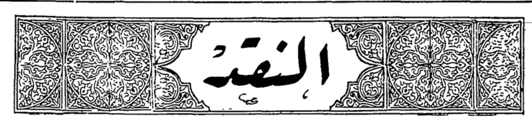
العوضي الوكيل

وحي القلم للرافعي

أصدرت لجنة التأليف والترجمة والنشر في هذا الأسبوع الجزء الأول والثاني من كتاب «وحي القلم» . والأستاذ الرافعيّ من أفذاذ الألسنة البيانيّة في الأدب العربيّ كله قديمه وحديثه ، وقد استقام قلمه على طريقة من البيـان انفردَ بها فعرفتْ به وعرف بها . وهذا الكتاب قد اجتمعت فيــه روح الرافعيّ الفلسفيّة وروحه البيانيّة ، وتعاونا على بناء الفنّ العربيّ بناءً جديداً فيه من الروعة والمتانة والتسامي والجمال كل بديع . وكلّ أديب عربيّ يحتفل بهذا الكتاب احتفالاً خاصاً لأنه قطعة من النفس العربية المتّصلة بالماضي والحاضر والمستقبَل ، ويهتزّ له لأنه تعبيرٌ فنيٌ دقيقٌ عن المعاني الغامضة التي لبثتْ قروناً لا تجدُ من يبين عنها إبانة الرافعي

محاضرة عن حاجتنا الى الفن

يلقي الأستاذ محمود تيمور برابطة موظفي الحكومة شارع عماد الدين رقم ١٨٧ بعمارات الخديوي حرف (أ) محاضرة عن حاجتنا إلى الفن . وذلك في يوم الخميس ٢١ يناير سنة ١٩٣٧ في تمام الساعة السادسة مساء . وتطلب التذاكر من دار الرابطة أو من المحاضر بشارع الأمير حسين رقم ٦ بالزمالك بالقاهرة



سلسلة الموسوعات العربية

معجم الأدباء

للدكتور عبد الوهاب عزام

كأن للأستاذ محمود مصطفى أرباً فى أن يصدِّنى عن نقد معجم الأدباء ، أو مصلحة فى أن يحسب من المجادلين عن ناشرى الكتاب . فهو لا يألو جهداً فى أن يشغلنى بمناقشة غير سديدة

نشرت « الرسالة » للأستاذ ردّه فى سبعة مآخذ مما أخذته على المعجم فى مقالى الأول ، ثم طلع على الناس فى جريدة المصرى بمقال قال فيه :

« فقد كانت المآخذ عشرة فما زال بى (يعنى صاحب الرسالة) حتى نزلت له عن اثنين فيها . فلما حاول أن أنزل له عن ثالث لم أقبل فتظاهر بالرضى عن نشره ، ولكنه حين خلا بنفسه حذف ذلك المأخذ ، وما كنت أحب أن يكون منه ذلك . والأعجب من هذا أنى حين ناقشته بعد ظهور المجلة فى أمر هذا الحذف كان جوابه أن الدكتور عزاماً لم يرض عن نشره »[1]

وأنا أعرف أن الزيات نصح الأستاذ أن يحذف جداله فى بعض الكلمات تنزيهاً له وللرسالة عن اللغو لا إشفاقاً من حججه الدامغة . وقد أبى الأستاذ إلا أن ينشر على الناس المآخذ الثلاثة التى نصحه الزيات بحذفها ؛ وليس أدل على نصح صاحب الرسالة ، ولا أدمغ لحجة الأستاذ محمود من نشر هذه الكلمات

١ — قال الأستاذ إن مرو الشاهجان ينبغى أن تكون بكسر الهاء . وهذه حجته : « إن التركيب إضافىّ فى اللغة الفارسية ، ومعنى مفرداته هكذا . المرو = المرج . الشاه = الملك . جان = نفس أو روح . فالمعنى على ذلك : مرج نفس الملك . والقاعدة فى اللغة الفارسية أن جميع كلماتها مهملة الاعراب ملازمة السكون إلا فى موضعين : الموصوف وأول المتضايفين فهما يكسران ، وذلك يعرفه من ألمّ أقل إلمام بهذه اللغة ، فمن أجل ذلك كان كسر كلمة الشاه واجبا . . . ويظهر أن لهذا المأخذ شأناً خاصاً إذ كان هجوما فانتصارا من أعزل مثلى (لم يجلس إلى معلم الفارسية إلا شهراً أو شهرين) على عالم جليل يفوق أهل اللغة علماً بأسرارها . فهذا ما حدا بصديقه الأستاذ الزيات إلى تخطّيه التقليد الواجب فى مثل هذا المقام » ا ﻫ

وأقول إن للكتّاب محنا ، وأشدها على أنفسهم أن يضطروا إلى الجدل فى الصغائر وأن يرجعوا القهقرى إلى عهد الكُتّاب

إن تفسير مرو الشاهجان بما فسره الأستاذ منقول من معجم البلدان ، وقد قرأته منذ أمد بعيد وعددته من هذيان ياقوت فى تفسير أسماء البلدان . كالذى يقوله عامة مصر فى تفسير الفيوم بألف يوم ، والبدرشين بقول يوسف الصديق حين رأى زليخا عجوزاً : أصبح البدرشينا الخ

والصواب : أن مرو الشاهجان تعريب مرو شاهكان ، أى مرو الشاهيّة . وتفسير هذا لا يفهمه من درس الفارسية شهراً أو شهرين

ولو سُلّمت للأستاذ هذه الخرافة مابلغت به غايته ، فمن (ألم أقل إلمام) بالفارسية يعلم أن القاعدة التى ذكرها الأستاذ غلط . ولو أنه (جلس إلى معلم الفارسية شهراً أو شهرين) لعرف أن المضاف إذا تقدم يكسر ، فاذا عكست الاضافة وتقدم المضاف اليه لم يكسر ، مثل عالشاه وجهانشاه وخوانسالار وهلم جرّا . ومقتضى خرافة ياقوت التى تبعه فيها الأستاذ أن شاهجان معناه روح الملك فالمضاف اليه مقدم ، فيجب أن يقال : شاهْجان باسكان الهاء ، وهذا الضبط مروىّ أيضا

هذا جدال الأستاذ فى الفارسية ، فلننظر أكان أقوم رأياً فيما يرجع إلى العربية وآدابها والاسلام وتاريخه

٢ — فى ص ٢٩ ج ٢ من المعجم : « لأن المهلّبى مات بعُمّان » وفى الحاشية : عمّان بلد فى أطراف الشام . قلت

---

[1] هكذا زعم الأستاذ محمود ! والله وحده يشهد أن ذاكرته عصته فنسى ، أو أن لسانه أطاعه فاختلق . (وما كنت أحب أن يكون منه ذلك) (الرسالة)

الصواب : عُمان ، لأنى أعرف من تاريخ المهلبى أنه مات بعُمان لا بعَمّان . فانظر كيف يجادل الأستاذ . يقول : يفهم من كلامى أنى لا أعرف أن فى الشام بلداً اسمه عَمّان . كأن اشتغالى بأمور المسلمين والعرب التاريخية والحاضرة ، وذهابى إلى الشام ثمانى مرات لم يعرفانى أن فى الشام بلداً اسمه عَمّان ... الخ . والحمد لله على أن أحداً غيره لم يفهم هذا من كلامى . ثم يقول : « فيثبت بواسع علمه أن المهلبى إنما مات بالتى على الخليج الفارسى (عُمان) ولم يمت بالتى فى الشام ، فأما مجرد التخطئة فى الضبط فليس فيها إقناع مادام للبلدين وجود فى العالم العربى الذى كان المهلبى يتولى الوزارة فيه » اه

يا أستاذ ! المهلبى مات بعُمان ، ولا يحتاج إدراك هـذا إلى علم واسع فاقرأ ترجمة المهلبى فى معجم الأدباء نفسـه لتعرف أين مات الرجل . كيف وأمامنا النص القاطع نقول إن المهلبى كان وزيراً فى البلاد العربية فجائز أن يكون مات فى كل بلد عربى ؟ ولو لم نعرف بالنص أن الرجـل مات بعُمان أو عَمّان لرجحنا الأولى ، لأنا نعلم أن المهلبى كان وزيراً لمعز الدولة بن بويه ، وبنو بويه لم يمتد سلطانهم على عَمّان قط . أرأيت أيها الأستاذ أن الزيات نصحك ولم يغشك حين أشار عليك بالعدول عن الجدال فى هذا ؟

٣ — جاء فى الكتاب : « وأنفـذت لِشُـكُر سْتان صاحبى الخ » فقلت الصواب لَشْـكَرستان ، فوقف الأستاذ موقف الحكم يخطىء الناشر والناقد فى ناحية ويصوب رأيهما فى أخرى — ولو عرف أن لشكرستان هنا اسم رجل لا مكان لأراح نفسه من هذا العناء . فليخطِّىء نفسه ويسترح

٤ — ورد فى الكتاب السَّرِىّ الرَّفَاء — فقلت الصواب تشديد الفاء . فقال الأستاذ إن المؤاخذة بهذه الشّدّة « شدة متناهية » وأن الذنب فى هذا على المطبعة — وأنا أقول لولا أن الناشرين التزموا الشكل فى كل حرف لما آخذتهم بهذا ، وقد شكلوا حروف الرفاء كلها فشددوا الراء وفتحوا الفاء عبثاً . فلم يكن بد من أن أظن أن تخفيف الفاء مقصود . لأن من يشكل ما لا يحتاج الى شكل لا يترك ما يحتاج إليه إلا عمداً

٤ — وجاء فى الكتاب من رسالة الخوارزمى إلى البديع : « ففيهم لعمرى فوق ما وصف حسنُ عشرة وسدادُ طريقة وجمالُ تفصيل وجملة » فقلت الصواب أن ينصب حسن وما عطف عليه على أنها تمييز — فقال الأستاذ ما قال : ورمانى بأنى لم أدرك ما تقضى به بدائه النحو

والأستاذ فى هذا مُليم ومعذور ؛ مُليم بمـا حسبنى قرأت الجملة كما قرأها فلم أهتد إلى أن « فيهم » خبر مقدم و « جمال » مبتدأ مؤخر . وكان عليه أن يفرض أن لى وراء هـذه البدائه النحوية نظراً دقيقاً فى الجملة عدل بى عن رفع الكلمات إلى نصبها ، وكان عليه إذ لم يبن له قصدى أن يستوضحنى ثم يجادل . وأما أنه معذور فلأنى لم أكتب الجملة كلها مصححة وكان يلزمنى أن أعيدها كلها على هذه الشاكلة : « فهم فوق ما وصف حسنَ عشرة الخ » ولكن حرصى على الايجاز فى نقدى كله أفاتنى هذا البيان

وانظر ما الذى دعانى إلى تخطئة الجملة كما ضبطت فى الكتاب : لو أنى اكتفيت بقراءة الجملة وحدها أو قراءة رسالة الخوارزمى كلها لما أدركت السقم فى هذه العبارة ، ولكن قرأت رسالة البديع التى أجاب عنها الخوارزمى فأدركت الخطأ والصواب . وبيان هذا أن البديع كتب إلى الخوارزمى ينقم عليه سوء ثنائه ويصف قومه فى همذان بأوصاف هى فى مضمونها حسن العشرة وسداد الطريقة الخ . وأجابه الخوارزمى معترفا بأن قوم البديع أو أهل همذان فيهم هذه الأوصاف : حسن عشرة الخ فلا يمكن أن يكون معنى جملة الخوارزمى : إن قومك فيهم فوق ما وصفت : حسنُ عشرة الخ لأن هذه الأوصاف ليست زائدة على ما وصف البديع ، بل هى خلاصة وصفه ، ويجب أن يكون مراد الخوارزمى أن القوم فيهم من حسن العشرة الخ فوق ما وصف البديع ، وهذا لا يستقيم مع الجملة التى فى الكتاب فالصواب ما رأيت . ويؤيد هذا رواية رسائل البديع المطبوعة فى بيروت : فأما القوم الذين صدر عنهم سيدى فكما وصف حسنَ عشرة وسداد طريقة الخ »

فهل يرى الأستاذ بعد هذا أنها غفلة عن بدائه النحو أو نظر دقيق وراء النحو والصرف لا يدركه إلا الموفقون لادراك دقائق البيان ؟

٥ — جاء فى الكتاب « وكان مفتياً فى علوم شتى » قلت : الصواب متفنناً . وقال الأستاذ مفتَنّا . فقد وافقنى على خطأ الكتاب . وأنا أفرض أن مفتنا أصح من متفنن . ولكنا نبحث عن عبارة ياقوت ، وهو قد استعمل «متفننا» فى مواضع منها ما فى ص ٢٣٨ ج ٢ : وهو شاب فاضـل بارع متفنّن » وقد استعملها الناشرون أنفسهم فقالوا : « كان غزير الفضل متفننا فى العلوم (ص ١٠٧) فأن ادعى أنها حيث وجدت فى الكتاب محرفة عن مفتن فليؤاخذ بها الناشرين حيثما وجدها

وبعد فأنى أحمد للأستاذ غيرته فى المجادلة عما يظنه صوابا ، ولكنى أود أن يتثبت ويتهم ظنه كثيراً وأن يجادل للحق لا طلبا للزلفى عند الناس . ثم أقول له ختاما : إنى أربأ بالأستاذ وبنفسى وبالقراء عن مثل ما جادل به فى مرو الشاهجان . وعمّان ، والشكرستان الخ ، فإن عاد الى المجادلة فى أمثالها فليعذرنى إذا لم يظفر منى بجواب وحسبى ما أضعت من وقتى فى جداله

ثم أعود الى المعجم ، منجزاً ما وعدت به من نقد تعليق الناشرين على الجزء الثانى :

سأتجاوز عن شرح البديهيات مثل السخط : ضد الرضا . والعواقب : جمع عاقبة آخر كل شىء . وسأترك شرح الفضول فان الناشرين يقولون إنا نريد أن نوضح الواضح وأن نستطرد لافادة القارئ كما يستطرد صاحبا الكامل والأمالى ونكل وجهة ثم أعدّد المآخذ الآتية :

ص ٣٠ — قول الصابى :

قلدتُ ديوان الرسائل فانظروا أعدلت فى لفظى عن التسديد
أعلىّ رفع حسابِ ما أنشأته فأقيم فيه أدلتى وشهودى

وفى الحاشية : « فى هذا البيت لبس . ولعل حساب منونة منعت من الصرف للضرورة وتكون ما نافية والمعنى حساب ما أنشأته أو أن الأصل ما أنشيه » وليس فى البيت لبس ولا ضرورة . وحساب مضاف الى ما أى حساب الذى أنشأته . والمعنى أيلزمنى أن أرفع إليكم حساب منشآتى كما يرفع صاحب الخراج حسابه الخ

ص ٣٨ — الكنَف : الظل . وهذا تفسير مضلل للقارئ الذى فرضنا أنه فى حاجة الى إيضاح الواضح . والتجوّز لا يسوغ هذا الشرح ، بل الكنف الجانب والناحية الخ

ص ٤٠ — « فتبعنى بعض حجابه وعدل بى إلى بيت من داره » وفى الحاشية : عدل إلى الشىء رجع . وهذا تفسير إن صح فى بعض الاستعمال لا يصح لتفسير الكلمة هنا . فهى هنا بمعنى مال وحاد

ص ٦٩ — العذار الشعر المتدلى بجانب الأذن ؛ وهذا غلط . فالشعر المتدلى لا يسمى عذارا ، وإنما هو الشعر النابت على جانبى الوجه

ص ٧٣ — الحائن : الأحمق . والذى نعرفه أن الحائن اسم فاعل من الحَين أى الهلاك

ص ٧٤ — قول الصابى فى وصف البق :

أحاط بى عسكر للبَقّ ذو لجب ما فيه إلا شجاع فاتك بطل

فى الحاشية : اللجب الصوت والجلبة . ما عهدنا للبق لجبا ، وإنما ذلك للبعوض اهـ . أقول البق هو البعوض . ولا يعرف البعوض فى العراق اليوم إلا بهذا الاسم

ص ٨٩ — الشريحة كل قطعة من اللحم — والصواب القطعة المرققة من اللحم

ص ٩٠ — الجمار الجزء الأبيض من طلع النخل — والجُمّار ليس من الطلع وإنما هو قلب النخلة أو شحمها كما يقول اللغويون واسأل أى عامىّ فى مصر عن الجمار

ص ١٠٧ — ذكر اسم الصابى فى المتن . فأثبت الشارح فى الحاشية ترجمته فى خمسة أسطر . وقد مضت قبل عشر صفحات ترجمة الصابى فى أربع وستين صفحة — كأن الشارح لا علم له بما مضى فى الكتاب — وفى الحاشية نفسها ترجمة للصاحب بن عباد فى ثمانية أسطر وستأتى ترجمته فى خمس وأربعين ومائة صفحة

وفى حاشية ص ١٦١ ترجمة لبديع الزمان مختصرة من ابن خلكان . وفى الصفحة نفسها تبتدئ ترجمة البديع فى متن الكتاب وتستغرق إحدى وأربعين صفحة

فليت شعرى لم هذا العبث ؟ أما كان يمكن إحالة القارئ على التراجم المطولة فى أماكنها ؟

ص ١٨٤ — « وإنما يشتغل بالجل من لا يعرف قيمة الخيل » وفى الحاشية الجل : السرج . وهذا غلط واضح إنما الجل ما تُلبَسه الدابة ليصونها من برد أو حر

ص ١٨٥ — البارح الريح الحارة فى الصيف تأتى من قبل اليمين ، ولست أدرى ما معنى اليمين هنا ؟ هل المراد ان هذه الريح تدور مع الشخص كيفما دار فتأتيه عن يمينه ؟ أظن فى هذا لبسا بين البارح من الرياح والبارح من الحيوان

ص ٢٠٥ — « تكريت : بلدة مشهورة ... ولها قلعة حصينة فى طرفها الأعلى راكبة على دجلة غربيها » وهذا وصف تكريت فى الزمن القديم وكان ينبغى أن توصف تكريت الحاضرة أو يقال : كانت الخ ولا يجوز أن توصف بلاد قائمة بأوصاف زالت عنها ، وليس فى تكريت اليوم قلعة حصينة فى طرفها الأعلى

ص ٢٧٧ — فى الكلام عن بعض الوزراء : « فكانت له أفعال منكرة ، منها أنه استدعى العيارين وضمنهم ما يسرقونه من أموال الناس » . وفى الحاشية : ضمنه الشىء كفله به وألزمه إياه اهـ وهذا تفسير لا يصلح هنا . فلو أن هذا الوزير ألزم العيارين



على ستار سينما رويال

نشـــيد الأمل

انتاج شركة أفلام الشرق

وإخراج أحمد بدرخان

ظهرت كلمة « النهاية » على شاشة سينما رويال فكانت إيذاناً بانتهاء عرض فيلم نشيد الأمل ، فضج الناس بالتصفيق وتطلعوا إلى الشرفة حيث تجلس الآنسة أم كلثوم بطلة الفلم وجعلوا يهتفون بحرارة فلقد أخذتهم بتمثيلها ، وسحرتهم بصوتها العذب البارع ، ولم أغادر مقعدي وجلست قليلاً في مكاني فمر بي خاطر عجيب وقلت لنفسي : « ترى هل كان يظهر الفلم على هذه الصورة وينال هذا النجاح لو لم تنشئ شركة مصر للتمثيل والسينما أستوديو مصر العظيم ؟ »

الحق أن هـذا الفلم الماثل إذا كان يدين ببعض النجاح لمواهب بطلته ، فهو يدين أولاً إلى رجل مصر العظيم طلعت حرب باشا الذى أنشأ شركة مصر للتمثيل والسينما وأقام ذلك الاستديو الكامل المعدات الذى عرض لنا الفلم بعض معداته

ولقد كان لرجال الاستديو النصيب الأكبر من إعداد الفلم حتى المدير الفني (أو المخرج كما يسمى في مصر خطأ) كان مبعوث شركة مصر إلى فرنسا لدراسة السينما ، فهو معدود من رجال الأستوديو وإن كان قد بعد عنه لظروف خاصة . فلولا الاستوديو لما ظهر الفلم في هذه الصورة ، ولولا طلعت حرب لما أقيم الأستوديو

***

نجح الفلم نجاحا كبيراً ، ما في هذا شك ، وهذه باكورة مباركة لشركة أفلام الشرق في أول أعمالها ، وجزاء طيب للجهود الجبارة التى بذلها الأساتذة عبدالله فكرى أباظة ومحمد شتا وعبد الحليم محمود كما هو توفيق عظيم يستقبل به صديقنا الأستاذ أحمد بدرخان أول أعماله الفنية التى نرجو لها الاتصال ودوام التوفيق

ملخص السيناريو

قبل أن أتحدث عن نواحى الفلم المتعددة أرى من الخير أن أبدأ بتلخيص القصة أو السيناريو حتى يتفهم قولى من لم يسعدهم الحظ بشهود الفلم بعد

فآمال فتاة منكودة الحظ كان من قسـوة الحياة عليها أن تزوجت من رجل غـوى يدعى إسماعيل كان بين عصابة تعمل لترويج المخدرات . وأهمل الزوج امرأته وابنته سلوى وتركهما يعانيان آلام الفاقة ، حتى انتاب الصغيرة المسكينة المرض ولم تجد ما تقتات به . ولم يكن الزوج يكتفى بهذا بل كان يتحين الفرص ليقتنص بعض المال مما ينال زوجه من نصيب لها فى وقف

ظلت هذه الحال تلازم «آمال» وازدادت حال الصغيرة سلوى سوءاً لولا عناية الله إذ أرسل الدكتور عاصم وهو طبيب كريم

ما يسرقونه ما كان هذا فعلا منكراً بل التضمين هنا معناه أن الوزير اتفق مع العيارين على أن يؤدوا مالا معينا مقابل ما يكسبون بالسرقة . كما يؤدى العامل مالاً عن أرض أو غيرها . وهذا من الوزير إقرار للعيارين على أعمالهم . ومن أجل هذا كان عملاً منكراً

وبعد فلست أستطيع إحصاء أغلاط الكتاب وتحريفاته ، ولا تبيين مساوىء الترتيب فى التراجم ، والتهاون فى تنسيق المتن ، وحسبى أن دللت على العيب ، ودعوت الى تداركه . وقد رأيت فى الأجزاء ٣ و ٤ و ٥ و ٦ مثل ما فى الأول والثانى من الأغلاط . فسأنتظر حتى تظهر الأجزاء التى طبعت بعد هذا النقد ، فإن ألفيتها كما أود فذلك مقصدى . وإن كانت كأخواتها أديت حقها من النقد حتى يقوم الأود . والخير أريد ، وما توفيقى إلا بالله .

عبد الوهاب عزام

الخلق طيب القلب ، فتولى معالجة ابنتها وكان يغمر الأم بحنانه وكرمه .

وجاء الدكتور يوماً لزيارتها فسمعها تنشد لطفلتها نشيداً عذباً تختال به على إماتها ، فأعجب برخامة صوتها . وطلبت آمال من الدكتور أن يعاونها في الحياة بأن يجد لها عملاً شريفاً يساعدها على كسب قوتها كممرضة مثلاً ، ولكن عاصماً يشير عليها باستغلال ماوهبها الله من صوت ملائكي فتتردد أولاً ثم تقبل أخيراً . ويتعهدها الدكتور بأكبر الأساتذة ليلقنونها فن الموسيقى والغناء كما يمهد لها الطريق للظهور أمام الجماهير ويقوم للدعاية لها بين أصدقائه ومعارفه

وكانت الحفلة الأولى لها فنجحت نجاحاً هائلاً وحالفها الحظ ، فخطت خطوات واسعة وارتقت درجات الشهرة ، وصارت قبلة عشاق الموسيقى والطرب . وكان بين المرضى الذين يعالجهم الدكتور عاصم مخرج سينمائي يشكو اضطراب الأعصاب ، فأخذه عاصم ليسمع « آمال » في حفلة طلبة الجامعة ، فيعجب المخرج بها ، ويختارها بطلة لفلم التضحية الذي يتولى إخراجه

وعاد الدهر يناوىء « آمال » فبعث لها زوجها السابق يرهقها بطلب المال ، فأمرته ألا يتردد على بيتها وأن يلازم داره وهي تمر عليه لتناوله ما تجود به نفسها

وتوثقت عرى الصداقة بين عاصم وآمال ، وأخيراً كتب لها يكاشفها بحبه ، ويعرض عليها الزواج فتسر وتقبل ، وينتظر الاثنان حتى ينتهي عملها في الفيلم ويحتفلا بالزواج . ويحدث أن الممثل الأول في الفلم يتودد الى آمال فتصده ، ويتابعها يوما فيراها تدخل البيت الحقير الذي يقطنه اسماعيل ، فيسرع بالكتابة الى عاصم يقول له إن آمال تخونه

وتحل الوقيعة بين الحبيبين بعد أن يتهمها بالخيانة ، ولا يحتمل عاصم الصدمة فيرحل إلى أوربا ، ويخرج اسماعيل لما يرهقها بطلباته ، فلما رأى أنها لا تهتم له كثيرا يعمل على كيدها بانتزاع فلذة كبدها (سلوى) فيستصدر حكماً شرعياً بحضانة ابنته بحجة أن أمها تحترف الغناء . وهكذا تفقد حبيبها وتنتزع طفلتها المسكينة من أحضانها

ولم ينقطع اسماعيل بعد هذا عن إرهاقها ، فذهب إليها في الاستديو فأمهلته قليلاً وأشارت الى أحد موظفي الاستديو باستدعاء رجال الشرطة ، ويعرف اسماعيل بهذا فيثور ويقرر الانتقام منها ، ويستمر العمل في التقاط صور الفلم ، ويكون من نصيب ممثل الدور الأول أن يطلق مسدسه على آمال ، فينتهز اسماعيل الفرصة ويطلق في نفس الوقت رصاصة حقيقية من مسدسه فتسقط مضرجة بالدماء

ويصل رجال الشرطة ، وتقوم معركة بينهم وبين اسماعيل تنتهي بموته كما يقع بقية زملائه المهربين في أيدي الشرطة وتسعف آمال بالعلاج ، ويتولى العناية بها الدكتور محبوب صديق عاصم ، فيعرف الحقيقة كلها ويكتب بها الى عاصم

وتشفى آمال ، وتحضر حفلة العرض الأولى لفلم التضحية الذي ينال أكبر النجاح ، ويتوافد الناس على بيتها يهنئونها ، ويجيء لتهنئتها المخرج والدكتور محبوب ومعهما الدكتور عاصم ، ويلتقي الحبيبان ثانية

* * *

إن أول ما يذكر لرجال شركة أفلام الشرق أنهم لم يسيروا وراء غيرهم من الشركات الأخرى فيختارون قصصاً مضطربة منا على المؤلف الأديب ببعض المال وإنما اختاروا قصة من تأليف شاب مثقف هو صديقنا ادمون نوعا واقتبسوا منها قصة سينمائية ، ولهذا فان الوقائع كانت تسير سيراً منتظما وتتتابع تتابعا طبيعياً من غير تعسف ولا شطط

وقد يرى القارىء أن القصة لا ترمي إلى غرض سام أو فكرة نبيلة ولكن ليس من الضروري أن يقوم الفلم على فكرة من هذا النوع ؛ ولقد شاهدنا الكثير من الأفلام الامريكية والأوربية تنال أكبر النجاح وهي لا تقوم إلا على فكرة بسيطة ، أو قل إن في بعضها ما تنعدم فيه الفكرة ؛ وإنما يكفي الفلم أنه يصور ناحية مصرية وينقد ناحية خاصة في أخلاقنا وأحكامنا ، ويسير في طريق طبيعي دون أن يشعر المشاهد أن هنالك ثغرة في الوقائع أو قطيعة في التسلسل تجعل المشاهد يصحو إلى نفسه من سحر المنظر ، فيفسد خياله وينحي باللوم على الشركة والممثلين والمدير الفني

أكتفي الآن بهذا القدر وسأتم الحديث في العدد القادم

يوسف

---

5 me Année, No. 186

Lundi - 25 - 1 - 1937



صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العـــدد ١٨٦ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٢ ذى القعدة سنة ١٣٥٥ — ٢٥ يناير سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــــدد

محضر جلســـة

للأستاذ أحمد أمين

تذاكر جماعة — من ذوى الرأى — فى الأدب العربى وحاجته إلى الاصلاح ، وفيما له من ثروة قديمة قيمة تحتاج إلى الأحياء ، واقترحوا أن يكوّنوا جمعية للأخذ بناصر الأدب ونشر ذخائره ؛ وكان من بينهم من ينتسب إلى الجامعة الأزهرية ، ومن ينتسب إلى الجامعة المصرية ، ومن ينتسب إلى المجمع اللغوى ، ومن هو عضو فى لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ومن يتصل بدار الكتب ، وغيرهم ؛ وصحت عزيمتهم على ذلك ، وعهدوا إلى أحدهم بوضع مشروع قانون للجمعية يحدد غرضها ، ويوضح نهجها ، واختاروا يوم ١٥ ديسمبر سنة ١٩٣٦ الساعة الخامسة بعد الظهر لقراءة المشروع

فلما حان الموعد حضر واحد فقط ، وخُيّل إليه أنه أخطأ اليوم ، أو أخطأ الساعة ، أو أخطأ المكان ، فأعاد قراءة الدعوة فاذا كل شىء من الزمان والمكان صحيح . وبعد ربع ساعة حضر آخر ، فتبادلا التعجب من عدم حضور الأعضاء فى الموعد

وأخذ من تأخر يلقى محاضرة قيمة فى المحافظة على الزمن ، وكيف هى عند الانجليز والفرنسيس والألمان ، وما جرى له من

أحداث في هذا الباب أيام كان في أوربا ، وحاجة المصريين إلى معرفة قيمة الزمن ؛ وقد استغرقت محاضرته القيمة ربع ساعة كان قد حضر في أثنائه عضوان آخران فاشتركوا جميعاً في الحديث عن قيمة الوقت ، وكل يروي نادرة في هذا الموضوع طريفة ، وقصة ممتعة ؛ وتختم النادرة أو القصة بضحكات عالية يدوّي بها المكان ، وتتخلل الضحكات تعليقات على ما يُرْوَى تُسَلْسِلُ الضحك وتُتابع الفكاهة

ولا أطيل عليك ، فقد تم اجتماع أغلب الأعضاء في الساعة السادسة والنصف ، وقد اعتذر بعضهم بزيارة صديق له عند خروجه ، وآخر بتعطيل الترام له ، وثالث بأن من عادته أن ينام بعد الظهر وقد طال نومه على غير عادته ، ورابع بأنه نسي الموعد لولا أنه لقي فلاناً مصادفة فذكّره به

أخذوا يتناقشون في هل يختارون رئيساً للجلسة حتى يتم القانون ؟ انحاز إلى هذا الرأي فريق ، لأنه لا بد لكل جلسة من رئيس يدير المناقشة ويأخذ الأصوات ؛ وعارض فريق بحجة أننا نريد أن نكون ديمقراطيين لا رئيس ولا مرءوس ، وأنه حتى بعد أن يتم القانون لا حاجة لنا إلى رئيس ، فكلنا سواسية في الرأي ، ويكفي أن يكون للجلسة « ناموس » بدون الآراء ويأخذ الأصوات

ولا أطيل عليك أيضاً فقد وافت الساعة السابعة والجدل على أشده في هذا الموضوع الخطير ؛ وعند تمام الساعة السابعة والنصف انتصر الفريق الأول فكان لا بد من رئيس

ولكن عرضت مشكلة أخرى أخطر من الأولى : هل يختار الرئيس بالسن أو بالاقتراع السري ؟ قال قوم بهذا ، وقال قوم بذاك . وكاد يحتدم الجدل على نمط المسألة الأولى لولا أن أحد الحاضرين قال : أختار فلاناً ليدير هذه الجلسة ، فخجل الآخرون أن يخطئوا في هذا الاختيار ، فسكتوا وكفى الله المؤمنين القتال

***

وطُلب من المقرر أن يقرأ المادة الأولى فقرأها ، ونصها : « أنشئت بمدينة القاهرة جمعية تسمى جمعية إحياء الأدب العربي »

ا : هل يقال : « أنشئت » أو « تنشأ » ؟ أظن أن الأصح أن يقال : « تنشأ » ، لأن الجمعية لم تتكون بعد ، فكيف يعبر بالماضي فيقال أنشئت ؟

— ب : هذا رأي في محله ، لأن إنشاء الجمعية مستقبل ، والذي وضع للدلالة على المستقبل هو الفعل المضارع والأمر لا الفعل الماضي . فإذا قلنا أنشئت دل على أنها تكونت في الزمن الماضي ، وليس ذلك بصحيح

— ح : الفرض في القانون أن يوضع في شكل يدل على أن الجمعية أقرته ، فواضع القانون فرض أن الجمعية اجتمعت وأقرت القانون وألبسته ثوبه النهائي ، ولذلك يوضع في صيغة الماضي

— ى : وأمثال ذلك كثيرة ، فكاتب العقود يقول : « في تاريخه أدناه قد باع فلان لفلان كذا » ثم يمضي البائع والمشتري العقد ؛ وقبل الامضاء كان البيع مستقبلا ، ومع ذلك عبر عنه بالماضي

— هـ : ومع هذا فلِمَ تذهبون بعيداً ؟ والماضي يستعمل في المستقبل كما قال تعالى : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه » فأمر الله هو يوم القيامة وهو لم يأت بعد ، وإنما عبر عنه بالماضي للإيذان بأنه أمر محقق ، أو للتنبيه على قرب مجيئه ، فهنا كذلك ، لما كان تكوين الجمعية محققاً إن شاء الله أو قريب الوقوع يعبر عنه بالماضي على سبيل المجاز

— و : الأمر أبسط من هذا كله ، فإذا قلنا « أنشئت » أو « تنشأ » لا يترتب على ذلك ضرر ، وهو لا يقدم الجمعية ولا يؤخرها ؛ إنما ينهض بالجمعية عملها في تحقيق غرضها ، فإذا حققته لا يضرها أنشئت أو تنشأ ، وإذا لم تحققه لا ينفعها أنشئت أو تنشأ

— ا (محتداً) : ولكننا نجتمع لأحياء الأدب العربي فأقل ما يجب علينا أن تكون عباراتنا صحيحة لفظاً ومعنى ، نحواً وبلاغة ، وإلا أعطينا مثلاً سيئاً لأحياء الأدب العربي

— الرئيس : أظن أن الأمر وضح ؛ فلنأخذ الآراء على « أنشئت » أو « تنشأ »

— ز : لكن بقيت مسألة : أليست « تكونت » خيراً من « أنشئت » لأن الانشاء في اللغة هو الخَلْق ، والخلق يكون من العدم ، وليست أفراد الجمعية معدومين حتى يقال فيها أنشئت ؛ إنما هي موجودة مفرقة ، فهي تتجمع وتتكون لا تُنشأ

— ا : ومن قال إن التكوين لا يكون من العدم ؟ ففي كتب

المتكلمين « إن التكوين إخراج المعدوم من العدم إلى الوجود » وفى التوراة سفر اسمه سفر التكوين وفيه حكاية خلق العالم ، والعالم قد خلقه الله من العدم .

(أراد (ز) أن يرد عليه فقاطعه الرئيس وأخذ منه الكلمة)

— الرئيس (فى شيء من الضجر) : أرى أن نكتفى بهذه المناقشة فى هذا الموضوع ونأخذ الأصوات على ما يأتى : هل نقول أنشئت أو تنشأ ، أو تكونت أو تتكون ؟

— ا : لا ، بل نأخذ الرأى — أولاً — على أن تصاغ الكلمة من مادة الانشاء أو من مادة التكون ، وبعد ذلك نأخذ الرأى هل نعبر بالماضى أو المضارع

— الرئيس : وهو كذلك

(أخذت الآراء — أولاً — فكانت الأغلبية فى جانب مادة الانشاء ؛ ثم أخذت — ثانية — فخرجت الأغلبية فى جانب أنشئت

— الرئيس : إذن ننتقل إلى المادة الثانية

— ا : لا ، بل لا تزال هناك مسألة فى المادة الأولى على جانب كبير من الأهمية

— الرئيس : وما هى ؟

— ا : التعبير « بأحياء الأدب العربى » ، فأن هذا تعبير لا أقبله ، وأحتج عليه بكل قوتى ؛ فأنه يدل على أن الأدب العربى ميت ونحن نريد إحياءه ، فهل كان الأدب العربى ميتاً ؟ إنه حى ، وكان حياً فى العصور الماضية وسوف يبقى حياً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وكيف نقول إن الأدب العربى قد مات وعلى رأسه القرآن الكريم وقد قال الله تعالى فيه : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » . إن الأدب العربى حى ، وكل ما نريد أن تعمله الجمعية أن تنظمه أو تنشر كتبه القديمة . فأما لفظ الأحياء فلا ؛ وأنا أنذركم أنكم إذا أصررتم على لفظ الأحياء انسحبت من الجمعية

هنا ساد المجلس صمت رهيب

— ح (تشجع وقال) : فى الواقع أن المسألة لا تحتاج إلى كل هذا ، فلفظ الأحياء لا يدل على سبق الموت ؛ ألا ترى يا أستاذ — ا — أن الغزالى سمى كتابه الكبير « إحياء علوم الدين » فهل كانت علوم الدين قبله ميتة ؟ كلا إنما أصابها نوع من الركود والجمود ، فأراد الغزالى أن يزيل عنها ركودها وجمودها ، وأن يعرضها عرضاً جديداً يتفق وذوق عصره ؛ ولم يقل أحد إن الغزالى صبأ أو كفر أو تزندق بتسمية كتابه هذا الاسم . وموقفنا الآن من الأدب العربى هو موقف الغزالى من علوم الدين ؛ نريد أن ننهض الأدب ونعرضه فى شكل حديث يتفق وأذواق الناس فى هذا العصر

— ى : وأيضاً فأن الأحياء ترجمة لكلمة «رينسانس» Renaissance وقد استعملها الفرنج للدلالة على حركة النهضة العقلية فى أوربا وبعث المدنية من رقدتها ، والمعنى الحرفى لهذه الكلمة : « الولادة من جديد » فاختار الكتاب المحدثون كلمة الاحياء للدلالة على ذلك

— الرئيس : نأخذ الأصوات على بقاء كلمة « إحياء الأدب العربى » أو تغييرها

— ا ك ه ى ى (فى نفس واحد) : لا ! المناقشة لم تستوف بعد

— الرئيس : الساعة الآن التاسعة فلنؤجل المناقشة إلى الجلسة المقبلة

— الجميع : موافقون

قال صاحبى . ومتى تنتهى قراءة القانون ؟

قلت : فى المشمش . . . ! — أحمد أمين

فى النسيان

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

أعوذ بالله من قولة « أنا » ؛ ولكنى مصاب بنفسى وهذا عذرى . وشر ما أصبت به منها النسيان ؛ وحسبك به بلاء عظيما . وقد صرت بفضله — أو من جرائه — امرأ له الساعة التى هو فيها ، فأعفيت من الهموم كما أعفيت من اللذاذات أو المسرات ومن ذكرياتها الحلوة . ولا آسف على ذلك فقد تكافأ الربح والخسارة . ولو أراحنى الناس كما أراحتنى نفسى لتمت لى السعادة فى هذه الدنيا الدنية . ويبلغ من نسيانى أنى أكون ذاهباً إلى فراشى فى الليل فأرانى أقف أمام السرير متردداً حائراً لا أدرى ماذا جاء بى إلى هنا . . أهى علبة السجائر ، أم أريد المعطف أو العباءة ؟ هذا فى الشتاء — أم ماذا يا ترى ؟ ثم أستخير الله وأقول لنفسى : « نم يا شيخ وأرح نفسك من عناء المحاولة فما فيها فائدة »

وأرقد على فراشى ، فتدور فى نفسى معان وتتمثل لذهنى صور أتعلق منها بما يروقنى فأغمض عينى — وقد قرت — وأقول إن شاء الله فى الصباح أكتب الفصل أو أرسم الصورة أو أقص القصة . . وأقرأ الفاتحة للموتى وآية الكرسى ليحفظنى الله من العين وأنام . ويطلع الصبح فأستيقظ مع الدجاج فاذا بى قد نسيت كل شىء ، وإذا بالصور والمعانى قد مسحت بقدرة ربك من اللوح ولم يبق منها ولا أثر ضئيل يدل عليها ويهدى إليها ، ويساعد على رجع ما ولى منها ، فأتعزى بأن الذى لا أجده لا يزال هناك وأنه غاب ولكنه لم يمح ، وقد تنتعش الذاكرة فجأة فيطفو ما رسب

ويتفق أن أقف أمام المرآة لأسرح شعرى أو أسوى ربطة الرقبة أو أفعل غير ذلك من الشؤون التى تحوج فى العادة إلى المرايا — وإن كنت أنا أستطيع ذلك كله بغير معونتها — حتى إذا صرت أمامها وقفت متعجباً متسائلاً : « لماذا يا ترى أنظر فى المرآة ؟ » وأرفع يدى إلى جبينى وأفركه وأحاول أن أتذكر ، ولكن الأمر يعيينى فأهز رأسى وأمضى لشأنى

وأقول وأنا ماض إلى عملى اليومى : إنى سأكتب كيت وكيت ، ويشغلنى ذلك طول الطريق ، وأصعد إلى مكتبى وألتقى باخوانى وزملائى ويجر اللقاء إلى التحدث فى أمور شتى من عامة وخاصة ، حتى إذا خلا المكان وتناولت القلم وأقمت سنه على الورقة رأيتنى أتساءل : فى أى شىء كنت أنوى أن أكتب يا ترى ؟ . وكيف أمكن أن أنسى بهذه السرعة العجيبة وقد كنت مشغولاً به طول الطريق ؟ . وأحتاج أن أبحث عن موضوع آخر . . ومن يدرى . . فقد يكون الموضوع الذى أهتدى إليه بعد العناء هو بعينه الذى نسيته وأنا أحسبه غيره

ومن كثرة نسيانى تحتاج الخادمة أن تحاسبنى كلما هممت بالدخول أو الخروج ، فانى أفقد مناديلى لأنى أنسى أين أتركها ، أو ألقيها ولا أذكر ماذا صنعت بها ، وزوجتى تعدها مسئولة عن هذه المناديل التى لا ينتهى الخلاف عليها ولا ينقطع الجدال من جرائها . فأنا أزعم أنى تركتها حيث ينبغى أن تترك هذه الأشياء ، والخادمة تنفى ذلك وتؤكد أنى لم أفعل — بأدب طبعاً — وتقسم أنها عدتها فألفتها ناقصة ؛ وزوجتى تحدق فى وجهى وتسألنى : هل أكون مستريح الضمير إذا صدقونى ؟ ومتى وصل الأمر إلى الضمير والذمة فأنه لا يسعنى إلا أن أتردد وأقول بالأرجح والمعقول كأنها قضية منطقية

فتشير زوجتى إلى الخادمة وتقول : « يكفى ... اذهبى يابنت » فتذهب البنت ولكنها تواجهنى حين أهم بالخروج وتسألنى كم منديلاً معى ؟ فأصيح « أووه . . وهل أنا أعرف ؟ . سبحان الله العظيم ! ألا يمكن أن يستريح المرء فى هذا البيت ؟ . ما معنى هذا التعطيل ؟ . تنحى من فضلك »

فتقول : « أرجو أن تعدها »

فأقول : « وما الفائدة ، ما دامت تضيع . . . . هه » وأخرجها من الجيوب وأعدها وأقول « ثلاثة » مثلاً

فترجو ألا أنسى أنها ثلاثة ، فأقول : « طيب . طيب »

وتفتح لى الباب وأنا عائد وتسألنى عن المناديل ، فأخرج ما أحمل منها وأرى به اليها وأمضى عنها ، فتدركنى وهى تصيح وتقول : « هذه أربعة . . . من أين جاء الرابع ؟ »

فأتعجب وأقول : « من أين جاء ؟ . . ماذا تعنين . . ربما كنت اشتريته »

فتقول : « ألا يمكن أن تكون أخذت منديل صديق

وأنت . . . وأنت . . . ! »

ويمنعها الأدب والحياء أن تنطق باللفظ فأنوب أنا عنها وأقول « ذاهل . . . أليس كذلك ... كلا لم يبلغ الأمر هذا الحد . . »

فتلح وتقول : « ولكن من أين جاء إذن ؟ »

فأقول متململا : « أووووه . . . إن شكواك لا تنقطع من أن المناديل تنقص وأنت الآن تزعمين أنها زادت واحداً فاحمدى الله إذن وأريحيني »

ولكني لا أرتاح منها ولا من ستها ولا من الأطفال ، ولا أزال أرى من يجرى ورائى منهم ويخبرني أنى نسيت الجورب أو لبست اثنين مختلفين ، أو تركت الطربوش وبوشك أن أخرج برأسى عاريا ، الى آخر هذه التوافه التى لا أعرف لها آخرا

وأحسب أن نسياني إنما يشتد لأن رأسى لا يخلو من شىء يدور عليه تفكيرى ويستغرقنى ذلك حتى لأذهل عما عداه ؛ وقد كانت أمى — عليها رحمة الله — تتعجب لأمرى وتقول لى : « يا بنى ما الذى يطير عقلك ؟ »

فلا يعجبنى هذا وأقول معترضا : « إن عقلى لم يطر . . ثم إن هذا غير معقول . . أم تظنينه حمامة »

فتقول غير عابئة بملاحظتى : « لم يكن أبوك هكذا . . ولا أنا مثلك . . إنك لا تتذكر شيئاً أبداً »

فأقول : « إنى من صنعكما — أنت وأبى المحترم — فأين ذنبى بالله ؟ »

فتقول مستاءة : « لماذا لا تتكلم خيرا ؟ »

فأقبلها وألثم يدها وأسترضيها وأقول معتذرا : « ماذا أصنع إذا كان ربى قد خلقنى هكذا . . . واسع خروق الرأس كالغربال القديم »

فتبتسم وتدعو لى الله أن يرد على ما عزب من عقلى ، فأتقبل دعاءها بالشكر وأمرى الى الله

والأم تحتمل ابنها وتصبر على ما يكون من ذهوله ، ولا تسىء به الظن ، وليست هكذا الزوجة فانها تحمل ذلك على غير محمله ، وتؤوله بأنه قلة اكتراث وعدم مبالاة ، وأن الرجل لا يفكر فيها ولا يفرض لها وجودا ولا يقيم لها وزنا إلى آخر هذا الهراء ؛ وهى سليمة لا تخونها الذاكرة ، فليس فى وسعها أن تدرك بلاء النسيان وأن تعذر المنكوب به . ومن العبث أن يقول لها المرء إن كثرة الشاغل هى التى تطير من الرأس كل ما عسى أن يكون فيه . إذن لماذا لا يشغل الرجل بها هى ولا ينسى ما عداها هى . . . ؟ هذا هو المشكل

وما دخلت البيت مرة إلا شعرت أنى لا بد أن أكون قد نسيت شيئاً أوصتنى به زوجتى ، فأقول لنفسى : « سترك اللهم .. وعونك أيضاً » وقد أكون مخطئاً ولكن الخطأ لا يمنع الشعور الثقيل . وكثيراً ما يتفق أن يكون ظنى فى محله ، فلا تكاد ترى وجهى الناطق بتوقع اللوم حتى تبتدرنى بقولها : « بالطبع نسيت » فأقول وأنا أتكلف الضحك : « أى والله . . صدقت . . الحق أن فراستك قوية »

فتقول : « وما العمل ؟ »

فأسأل متحرزاً : « فى أى شىء ؟ »

فتقول : « فى أن تذكر . . كيف نحملك على التذكر ؟ »

فأقول : « اربطى لبسة فى رجلى فأضطر أن أتذكر كلما سمعت كركرتها »

فتقول : « إنى جادة »

فأقول : « نكتب الشىء فى ورقة وأضعها فى جيبى أو مع الساعة »

فتقول : « وتنساها فى جيبك . . وتخرج الساعة فترى الورقة فترميها وأنت ذاهل »

فأقول : « ألبسينى الجاكتة مقلوبة .. أزرارها إلى الخلف »

فتهز رأسها وتقول آسفة « كلا . . لا فائدة . . الأمر لله .. لو كان شيئاً يعالج . . ولكنه مستعص ... لا علاج له »

فأقول متشهداً : « صدقت يا امرأة .. أما والله إنك لمنصفة .. جزاك الله خيراً وقواك على احتمالى »

وأعترف أنى كثيراً ما أنتفع بالمعروف المشهور من نسيانى ، فاذا سألتنى عما لا أريد أن أبوح لها به أو أذكر الحقيقة فيه تظاهرت بالبلاهة وقلت : « وهل أنا أعرف ؟ . وأين العقل الذى يتذكر ؟ . . »

وما قرأت كتاباً إلا نسيت ما فيه — نسيته جملة وتفصيلاً ؛ حتى اسمه واسم كاتبه ؛ وقد أعود إليه فكأنى ما قرأته ولا سمعت به ، فهو فى كل مرة أعود فيها إليه جديد ولو كنت قرأته عشر مرات ؛ وهذا نافع لأن فيه اقتصاداً . وكم من كتاب اشتريته ثم

انتصار الحب(١)

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

كلُّ ما يكتب عن حبيبين ، لا يُفهم منه بعضُ ما يفهم من رؤية وجهِ أحدهما ينظر إلى وجه الآخر

وما تعرفه العين من العين لا تعرفه بألفاظ ، ولكن بأسرار

والقليلُ المتسعِّرُ في دم العاشق ، كجنون المجنون يختصُّ برأسه وحده

وضجَّةُ المحب لحبيبه إحساسٌ لا يُستعار من صدرٍ آخر ، كما لا يستعار المولودُ لبطن لم يحمله

وكلُّ القبلة التي معناها وضعُ الفم ، لن ينتقلَ إليها ما تذوقه الشفتان

***

ويومُ الحب يومٌ ممدود ؛ لا ينتهي في الزمن إلا إذا بدأ يومُ السلوِّ في الزمن

فهل يستطيع الخلقُ أن يصنعوا حداً يفصل بين وقتين لينتهي أحدهما ؟

وهبهم صنعوا السُّلوانَ من مادة النصيحة والمنفعة ، ومن ألف برهان وبرهان فكيف لهم بالمستحيل ، وكيف لهم بوضع السلوان في القلب العاشق ؟

وإذا سالتِ النفسُ من رقة الحب ، فبأي مادة تُصنع فيها صلابةُ الحجر ؟

وما هو الحب إلا إظهارُ الجسم الجميل حاملاً للجسم الآخر كلَّ أسراره ، يفهمها وحده فيه وحده ؟

وما هو الحب إلا تعلّق النفس بالنفس التي لا يملأها غيرها بالأحساس ؟

وما هو الحب إلا إشراق النور الذي فيه قوة الحياة ، كنور الشمس من الشمس وحدها ؟

وهل في ذهب الدنيا وملك الدنيا ما يشترى الأسرار ، والاحساس ، وذلك النور الحي ؟

فما هو الحب إلا أنه هو الحب ؟

***

ما هو هذا السرُّ في الجمال المعشوق ، إلا أن عاشقه يدركه كأنه عقلٌ للعقل ؟

وما هو هذا الادراكُ إلا انحصارُ الشعور في جمال متسلطٍ كأنه قلبٌ للقلب ؟

وما هو الجمالُ المتسلطُ بانسان على إنسان ، إلا ظهور المحبوب كأنه روحٌ للروح ؟

ولكن ما هو السر في حب المحبوب دون سواه ؟ هنا تقف المسألة وينقطع الجواب

هنا سرٌّ خفيٌّ كسر الوحدانية ، لأنها وحدانية (أنا وأنت)

***

ناقشوا الحب ؛ فقالوا أصبحت الدنيا دنيا المادة ، والروحانية اليوم كالعظام المحرمة لا تكتسى اللحمَ العاشق

وقال الحب : لا بل المادة لا قيمة لها في الروح ؛ وهذا القلب لن يتحول إلى يد ولا إلى رجْل

ناقشوا الحب ؛ فقالوا إن العصر عصر الآلات ، والعمل الروحي لا وجود له في الآلة ولا مع الآلة

قال الحب : لا ، يصنع الانسان ما شاء ، ويبقى القلب دائماً كما صنعه الخالق

وقالوا : الضعيفان : الحب والدين ، والقويان : المال والجاه ، فماذا ردَّ الحب ؟

جاء بلؤلؤة روحانية في (مسز سمبسون) ؛ ووضع إليها في ميزان المال والجاه أعظم تاج في العالم : تاج ادوارد الثامن « ملك بريطانيا العظمى وإرلندا والمتلكات البريطانية فيما وراء البحار وملك — امبراطور الهند »

وتنافست الروحانية والمادية ، فرجح التاج وما فيه إلا ضعف المنيين من القلب

---

(١) شغلتنا مقالات (القلب المسكين). عن الكتابة في حادثة (القلب المسكين الأعظم) قلب الملك ادوارد عندما وقعت الحادثة

نسيت أين وضعته ثم يتفق أن أعثر عليه فأقف مستغرباً متسائلاً : أتراني قرأت هذا الكتاب من قبل . . أم لم أفتحه . . على كل حال . . الأمران سيان . . توكلنا على الله »

وأحسب هذا يجمل العلم والجهل سيين . ولولا أني أعرف أن ما أقرأ لا يضيع وإنما يختفي لأغراني ذلك بالانقطاع عن القراءة لقلة ما يبدو لي من فائدتها المحسوسة

إبراهيم عبد القادر المازني

وأعلن الحب عن نفسه بأحدث اختراع فى الاعلان ، فهز العالم كله هزة صحافية :

الحب . الحب . الحب

* * *

(مسز سمبسون) ، تلك الجميلة بنصف جمال ، المطلقة مرتين . هذا هو اختيار الحب

ولكنها المشوقة ؛ وكل معشوقة هى عذراءُ لحبيبها ولو تزوجت مرتين ؛ هذا هو سحر الحب

ولكنها الفاتنة كلّ الفتنة ، والظريفة كلّ الظرف ، والمرأة كل المرأة ؛ هذا هو فعل الحب

ولكنها العقل للأعصاب المجنونة ، والأنس للقلب المستوحش ، والنور فى ظلمة الكآبة ؛ هذا هو حكم الحب

ومن أجلها يقول ملك انجلترا للعالم : « لا أستطيع أن أعيش بدون المرأة التى أحبها » ؛ فهذا هو إعلان الحب .....

* * *

إذا أخذوها عنه أخذوها من دمه ، فذلك معنًى من الذبح .

وإذا انتزعوها انتزعوها من نفسه ، فذلك معنى من القتل .

وهل فى غيرها هى روح اللهفة التى فى قلبه ، فيكون الذهب إلى غيرها ؟

لكأنهم يسألونه أن يموت موتاً فيه حياة

وكأنهم يريدون منه أن يُجنّ جنوناً بعقل ... هذا هو جبروت الحب

* * *

وللسياسة حجج ، وعند (مسز سمبسون) حجج ، وعند الهوى ..

التاج ، الملكية ، امرأة مطلّقة ، امرأة من الشعب ، فهذا ما تقوله السياسة

ولكنها امرأةُ قلبه ، تزوجت مرتين ليكون له فيها إمتاعُ ثلاث زوجات ؛ وهذا ما يقوله الحب

واللحظة الناعسة ، والابتسامة النائمة ، والاشارة الحالمة ، وكلمة (سيدى) [1] . هذا ما يقوله الجمال

وانتصر الحب على السياسة ، وأبى الملك أن يكون كالأم الأرملة فى ملك أولادها الكبار . . .

* * *

العرش يقبل رجلا خلفاً من رجل ؛ فيكون الثانى كالأول

والحب لا يقبل امرأة خلفاً من امرأة ، فلن تكون الثانية كالأولى

وطارت فى العالم هذه الرسالة : «أنا ادوارد الثامن . . أتخلى عن العرش وذريتى من بعدى

« وأعلن الحب عن نفسه بأحدث اختراع فى الاعلان ؛ فهز العالم كله هزة صحافية . »

الحب . الحب . الحب

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

(١) لا تخاطب (مسز سمبسون) إدوارد إلا بكلمة (سيدى) ، ولا تتحدث عنه ولا تسميه إلا قالت (سيدى) . ولن يأسر الحب أمره بأبلغ ولا أرق من كلمة العبودية اللطيفة هذه حين تنطق بها المرأة فى صوت قلبها وغريزتها . وقد كان هذا أدب نساء الشرق مع أزواجهن ؛ أما اليوم ...

ضوء جديد على مأساة شهيرة

هل قتل الحاكم بأمر الله أم اختفى؟

معترك من الروايات والأساطير المدهشة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

في ليلة السابع والعشرين من شوال سنة ٤١١ من الهجرة (١٣ فبراير سنة ١٠٢١ م) خرج الحاكم بأمر الله يطوف كعادته في شعب المقطم حيث اعتاد أن يرصد النجوم، ثم لم يعد من جولته قط، ولم يعرف إنسان خبره أو مصيره قط؛ وكل ما عثر عليه بعد ذلك من آثاره، حماره الأشهب وقد وجد معرقباً في طريق حلوان، ثم ثيابه مزررة وبها آثار الطعان في بركة قريبة من حلوان

بيد أن اختفاء الحاكم في تلك الليلة الشهيرة، واجتماع مختلف القرائن والآثار على مصرعه بيد الجناة، لم يكن خاتمة حاسمة لعهده وسيرته وذكراه. أجل أعلنت وفاة الحاكم، وأقيم ولده أبو الحسن على مكانه في كرسي الخلافة، وذلك يوم النحر (١٠ ذي الحجة سنة ٤١١ هـ) لأسابيع قلائل من اختفائه، ولقب الظاهر لاعزاز دين الله؛ وبدأت الخلافة الفاطمية عهداً جديداً؛ ولكن ذكرى الخليفة الذاهب لبثت تغمر الأفق مدى حين، وتثير في المجتمع مختلف الفروض والأساطير. ذلك أن أدلة الجناية لم تكن واضحة، ولم يقم دليل قاطع على القتل أو الوفاة، ومن جهة أخرى فأن الحاكم بأمر الله لم يكن فيما زعموا شخصية عادية يغمرها العدم كما يغمر سائر البشر، وتطوى آثارها من ذلك العالم لتنبض في العالم الآخر بتلك البساطة التي أحاطت باختفائه. ألم يكن الحاكم شخصية خارقة تهيم في الخفاء، وتزعم الاتصال بعوالم الغيب، وترنو إلى مدارك السمو فوق البشر؟ ألم يقدمه الدعاة السريون إلى الناس بأنه «ناطق الزمان» وأنه آلة وروح حل في صورة البشر؟ وهل من كانت هذه خواصه ومزاعمه يسرى عليه قانون الفناء كما يسرى على جميع الناس؟

لقد أجمع معظم الروايات المعاصرة والمتأخرة على أن الحاكم ذهب ضحية المؤامرة والجريمة على اختلاف بينها في مدبري المؤامرة ومرتكبي الجريمة. ومعظمها على أن الذي دبر المؤامرة أخته الأميرة ست الملك، وذلك لما بدا من إسرافه في قتل الزعماء ورجال الدولة، وما ارتكب من التصرفات المنيفة المتناقضة التي هزت أسس المجتمع وقلبت أوضاعه؛ وأخيراً لما جنح إليه من حماية الدعاة الملاحدة الذين نادوا بألوهيته؛ فهذه الأسباب حسبما تقول الرواية هي التي حملت أخته على تدبير مصرعه اتقاء لنشوب ثورة تودي بالعرش وبتراث الدولة الفاطمية كله؛ أما شريك ست الملك ومنفذ الجريمة، فهو الحسين بن دواس زعيم قبيلة كتامة، وكان يخشى سطوة الحاكم وفتكه؛ وأما القتلة فهم عبيده أو هم جماعة من البدو اعترضوا الحاكم في طريقه ليلة اختفائه بحجة التماس الاحسان والصلة، وربهم المتآمرون لقتله؛ أما جثته فقد حملها الجناة إلى أخته فدفنتها في نفس مجلسها: هذا ملخص ما تقوله الرواية في شأن المؤامرة والجريمة

وهذه الروايات ليست موضوعنا في هذا البحث؛ وهي ليست كل شيء في تلك المأساة العجيبة؛ وإنما نعنى في هذا البحث بطائفة أخرى من روايات ذات نوع خاص ودلالة خاصة، لا تأخذ بنظرية المؤامرة أو الجريمة، ولكنها تؤيد فكرة الاختفاء العمد والهجرة الأبدية، وتسبغ بذلك على ذهاب الحاكم لوناً من الخفاء الغامض، كذلك الذي يغمر شخصيته وحياته كلها؛ وإذا كانت هذه الروايات تجنح في مجموعها إلى نوع من الأسطورة، فأنها مع ذلك تدخل في عداد التاريخ وتستحق الدرس بهذه الصفة، خصوصاً، وأن ماتقدمه إلينا من التفاصيل والوقائع ليس في ذاته مستحيلاً ولا خارقاً

وأول رواية من هذا النوع رواية كنسية كتبت في عصر الحاكم ذاته، ووردت ضمن سير البطاركة، أو سير البيعة المقدسة في ترجمة الأنبا زخاريا البطرك القبطي المعاصر للحاكم؛ وخلاصتها، أن الحاكم خرج الى الجبل ذات ليلة، وسار في الجبل ومعه ركابي واحد الى أن بلغ حلوان، ثم نزل عن حماره؛ وأمر الركابي أن يعرقبه ففعل، ثم أمره بالانصراف الى القصر وتركه بمفرده، فعاد الركابي كما أمر؛ فلما لم يعد الى القصر في اليوم التالي سأل رجال القصر هذا الركابي عن سيده، فأجابهم بأنه تركه في حلوان، وعاد وحده نزولاً على رغبته، فمضوا في طلبه، فوجدوا الحمار معرقباً، وبحثوا عن الحاكم في كل موضع،

فلم يجدوه ولم يقفوا له على خبر أو أثر [١]

ووردت في تاريخ الكنائس المنسوب لأبي صالح الأرمني ، والذي كتب في أواخر القرن السادس الهجري رواية مماثلة نصها : « وبهذه الناحية (أي حلوان) نزل الأمام الحاكم بأمر الله عن الحمار الذي كان راكبه ، وتقدم الى الركابي الذي كان يصحبه إلى حيث يذهب بأن يرقب الحمار ، وذهب هو وحده إلى داخل البرية ، ولم يرجع بعود ، ولا عرف أين توجه الى يومنا هذا ، وكان ذلك في شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة » [٢]

ويشير مؤرخ نصراني آخر ، هو ابن العبري الذي كتب تاريخه في أواخر القرن السابع الهجري إلى مثل هذا الرأي ، فيقول في حوادث سنة ٤١١ هـ : « وفيها فقد الحاكم بن العزيز ابن المعز العلوي صاحب مصر ، ولم يعرف له خبر » ، ثم ينقل قصة طوافه ومصرعه حسبما رواها القضاعي ، وذلك على سبيل الرواية والترديد فقط [٣]

وتقول الرواية الكنسية أيضاً ، « ولم تزل الناس مدة غيبة الحاكم والى أن انقضى مدة ولده يقولون إنه بالحياة . وكثير كانوا يتزيون زيه ويقول كل واحد منهم أنا الحاكم ، يتراءوا للناس في الجبال حتى يأخذوا منهم الدنانير » ثم تروى لنا قصة رجل يسمى « شروط » كان نصرانياً وأسلم ثم تعلم السحر والشعوذة ، وكان يشبه الحاكم شبها عجيباً ، ولو أنه أطول منه بقليل ؛ فلما اختفى الحاكم ظهر في الناس باسم « أبي العرب » ، وادعى أنه الحاكم ، والتف حوله بعض الناس ، وكان يطالب الأغنياء بالمال ، ويقول لهم إنه سيعيده إليهم عند رجعته إلى مملكته ؛ ثم استتر طيلة عهد الظاهر ، وهو مستمر على دعواه حتى اعتقد كثير من الناس أنه الحاكم ، وأنه يخفى نفسه لأمر مكتوم لا يعرفه سواه ؛ وفي أوائل عهد المستنصر ، نزح إلى البحيرة ونزل عند بعض البدو ، وتظاهر بالنبوة ومعرفة الغيب واستمر في دعواه أنه الحاكم وأنه يعتزل الحياة العامة حتى ينتهي قطع طالعه الذي يخشاه ؛ ولما ذاع أمره ، واهتمت السلطات بمطاردته توارى عن الأنظار ، ولبث مختفياً حتى عرف بأمره سانونيوس البطرك ، وأنفذ اليه مالا وتمهده بعونه ورعايته [١]

وأول ما يلفت النظر في هذه الرواية الكنسية هو أنها لا تشير أية إشارة إلى فكرة المؤامرة أو الجريمة ، بل لا تشير مطلقاً إلى فكرة الوفاة ، ولكنها تميل في مجموعها إلى تأييد فكرة الغيبة والاختفاء ، وتستأنس في ذلك بالاشاعات والأساطير التي ذاعت في ذلك الشأن منذ اختفاء الحاكم ، واستمرت ذائعة أيام ولده الظاهر

على أن الرواية الكنسية لا تقف عند ذلك الحد ؛ ذلك أن ابن العبري يحدثنا عن مصير الحاكم بعد اختفائه ، ويقول لنا إن كثيراً من الناس اعتقدوا حين اختفائه أنه لجأ إلى مكان بالصحراء واعتنق النصرانية ، ثم ترهب وقضى أيامه هنالك ؛ ثم يقول إنه ، أي المؤرخ ، حينما كان بدمشق سمع بعض كتاب الأقباط يقولون إن الحاكم حينما اشتد في مطاردة النصارى ظهر له يسوع المسيح كما ظهر لبولس الرسول ، فآمن به ، وتوارى سراً في الصحراء حتى توفى [٢]

ومما يجدر ذكره أن هذه الأسطورة — أي أسطورة تنصر الحاكم وترهبه — ليست هي الأولى من نوعها ، فقد نسب جده المعز لدين الله إلى مثل ما نسب اليه ، وزعمت الرواية الكنسية أن المعز تأثر بما شهده من معجزة نصرانية هي تحرك جبل المقطم لدى صلوات الأحبار النصارى وتضرعاتهم ، فنزل عن الخلافة لولده العزيز ، وتنصر وترهب ، ودفن بإحدى الكنائس [٣]

ويجب لكي نقدر مغزى هذه الروايات الكنسية أن نذكر الظروف التي نشأت فيها ، وأن نذكر موقف الكنيسة القبطية ونفسية المجتمع النصراني في عصر الحاكم بأمر الله : فقد عانت الكنيسة وعانى النصارى في هذا العصر ضروباً مرهقة من

---

(١) وردت هذه الرواية الكنسية بتفاصيلها التي أوردناها في مخطوط كنسي حصلت دار الكتب أخيراً على نسخة فوتوغرافية منه . ويتضمن كتاب سير الآباء البطاركة تأليف ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين الشهير ؛ ثم فصولا عديدة أخرى تذييلا على كتاب ساويرس في سير البطاركة أيضاً جمعت تحت عنوان « سير البيعة المقدسة » ويحفظ هذا المخطوط بدار الكتب برقم ٦٤٣٤ ح

(٢) تاريخ أبي صالح الأرمني ص ٥٢ ب

(٣) مختصر تاريخ الدول طبعة اكسفورد ص ٣٣٥

(١) المخطوط الكنسي المشار اليه (رقم ٦٤٣٤ ح) لوحة ٩٣

(٢) لم ترد هذه الرواية في جميع التراجم العربية التي انتهت إلينا من تاريخ ابن العبري ؛ ولكن الظاهر أنها وردت في الأصل السرياني . وقد كتب ابن العبري تاريخه بالسريانية ثم ترجم بعد ذلك ، وأوردها المستشرق دي ساسي في كتابه عن الدروز

(٣) كتاب الجريدة النفيسة في تاريخ الكنيسة ج ٢ ص ٢٤٨ . وراجع كتابي مصر الاسلامية ص ٧٨ وما بعدها

الاضطهاد المادي والمعنوي ، وجازت الكنيسة شر محنة نزلت بها منذ عصر الاضطهاد الروماني ، فهدمت بيعها وأديارها ، ونهبت أموالها ، وبدد تراثها المقدس ، وثل الأحبار كل هيبة ونفوذ ، وامتحن الكثير منهم ، وعانى المجتمع النصراني من القوانين والفروض الجديدة شر ما تعانيه أقلية مضطهدة من ضروب العسف والذلة والارهاق ؛ ومن ثم فان الروايات الكنسية المعاصرة تصور لنا هذا العصر ، عصر استشهاد للكنيسة ورعاياها ، وتحدثنا في مواطن عديدة عن مختلف المعجزات النصرانية التي ظهرت في هذا العصر ، والتي كانت الكنيسة تستمد منها العزاء والصبر على مغالبة المحنة ؛ ومنها قصة فتى مسلم يسمى ابن رجاء تأثر بمعجزات المسيح فتنصر وترهب ، وسموه قديساً باسم بولس ولقبوه بالواضح ؛ ومنها قصة أبي نجاح النصراني ، وكان من أعيانهم وأكابرهم ، فأراد الحاكم أن يرغمه على الاسلام فأبى فأمر بجلده حتى توفى ، وزعمت الأسطورة أن الماء كان يقطر من لحيته أثناء ضربه ، وأن المسيح ظهر له وتولى سقايته أثناء تعذيبه ؛ وقصة الرئيس الفهد الوزير ، فقد قتله الحاكم لأنه أبى الاسلام ، وأمر بأحراق جثته ، ولكن النار لم تؤثر فيها ؛ وقصة البطرك زخاريا فقد اعتقله الحاكم وطرحه للسباع لتأكله ولكنها نفرت منه ولم تمسه بأذى[1] ؛ وغير ذلك من الخوارق المزعومة التي تدل على روح الكنيسة وعقليتها في هذا الظرف العصيب ، وعلى جنوحها إلى الاستعانة بسيل من الأساطير والمعجزات الجديدة لتأييد هيبتها المقوضة ، وتقوية نفوس رعاياها والمؤمنين بقدرتها وسلطانها

فهل نعجب إذا كانت الرواية الكنسية تحدثنا عن مصير الحاكم بأمر الله بهذا الروح ذاته ، فتحيط هذا المصير بأسطورة من أساطيرها ، وتضيف بذلك معجزة إلى معجزاتها ؟ إن في تقديم الحاكم بأمر الله ، الخليفة الفاطمي ، في ثوب النادم المستنيب ، يبدو له المسيح ، فيرتد عن دينه ويعتنق النصرانية ، ثم يترهب ، ويقضي بقية حياته في بعض الأديار النصرانية ، لأعظم معجزة تقدمها الكنيسة إلى المؤمنين ، وأعظم ظفر تستطيع أن تصوره لرعاياها في هداية ذلك الذي أنزل بهم شر البلايا والمحن أعواماً مديدة ، ثم انتهى به المطاف إلى أن غدا جندياً من جند المسيح . إن في هذه الخاتمة لأعظم عقاب للآثم ، وأعظم ترضية للكنيسة والمؤمنين ، وأبلغ انتقام يمكن أن تنزله الكنيسة بخصيمها

(1) راجع المخطوط الكنسي المشار إليه لوحة ٩١ و ٩٣ و ١٠٥ و ١٠٧ و ١١٠

— ٢ —

ولا ريب أن التاريخ لا يمكن أن يحفل بمثل هذه الأسطورة التي لم يؤيدها أي دليل أو أية قرينة سوى الرواية الكنسية التي تنفرد بترديدها ، والتي تنم في الحال عما وراءها من الغايات والبواعث ؛ بيد أن هنالك في الرواية الكنسية الأولى شيئاً واحداً يمكن الوقوف به ، وهو ما تنوه به من اختفاء الحاكم أو غيبته دون الاشارة إلى مصرعه بصورة من الصور . ذلك أن هذه النظرية — نظرية الاختفاء — لم تكن دون صدى في حوادث العصر ووثائقه . وإذا استبعدنا فكرة المؤامرة والجريمة مدى لحظة ، واستبعدنا ما ينسب إلى الأميرة ست الملك من أنها هي التي دبرت مصرع أخيها على الوجه الذي بسطنا ، فان الحوادث والقرائن الأولى التي عقبت ليلة السابع والعشرين من شوال تسبغ على فكرة الاختفاء مسحة من الاحتمال . ذلك أن مصرع الحاكم أو وفاته لم تكن أول ما خطر لرجال القصر والدولة ، بل كان أول ما خطر لهم فكرة الغيبة ، فخرجوا في أثر الحاكم عدة مرات يبحثون عنه ويستقصون أثره قبل أن يؤمنوا بمصرعه ؛ ولبث الكرسي الخلافي شاغراً مدى ستة أسابيع حتى يوم عيد النحر (العاشر من ذي الحجة) ، ولم يناد بالخليفة الجديد حتى استقر لدى رجال الدولة أن الحاكم قد لقي حتفه بصورة من الصور أو على الأقل قد ذهب إلى غير ما عودة : بيد أن فكرة مصرعه ، مهما كانت الصورة التي صورت بها ، ومهما كان الجناة الذين نسب تدبيرها أو تنفيذها إليهم ، لم تكن فيما يبدو من روايات العصر وأحاديثه ، حقيقة مقررة ، ولم تكن رأي السواد الأعظم من الناس . بل لقد أشارت بعض الروايات التي سلمت بمصرع الحاكم إلى صدى هذا الشك في مقتله ، فنرى ابن خلكان مثلاً يقول في ترجمة الظاهر ولد الحاكم ما يأتي : « وكانت ولايته بعد أبيه بمدة ، لأن أباه فقد في السابع والعشرين من شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة ؛ وكان الناس يرجون ظهوره ، ويتبعون آثاره إلى أن تحققوا عدمه ، فأقاموا ولده المذكور في يوم النحر »[1]

(النقل ممنوع — البحث بقية)

محمد عبد الله عنان

(1) ابن خلكان ج ١ ص ٤٦٣

في الأدب المقارن

التأثير في الآداب الأخرى

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخرى أبو السعود

من أقوى الدلائل على حيوية أدب أمة وصدق ترجمته عن المشاعر الانسانية احتفاء الأمم الأخرى به ، وعنايتها بدرسه ، وتأثرها بنتاجه ، واصطناعها وسائله ، واشتهار فحوله بينها ؛ فان الأدب إذا كان حياً صادق التعبير عن النفس الانسانية ، عميق النظرة في مشاهد الكون ، تخطى حدود أمته واجتاز حوائل اللغة والتقاليد والجنسية والبيئة ؛ تخطى ذلك إلى ساحة الانسانية التي تمحى عندها فوارق الزمان والمكان ، ويلتقى لديها أبناء الأمم المختلفة والأزمان المتباعدة ، وتمجد العبقرية الفنية حيثما نبتت

فحيوية الأدب وصدقه شرط أساسي لذيوعه وتأثر الآداب الأخرى به . وقد تجتمع إلى قوة الأدب الفنية الخالصة قوة أصحابه الحربية وسلطانهم السياسي ، فيكون ذلك عاملاً كبيراً مؤدياً إلى انتشار الأدب ؛ على أنه عامل إضافي لا يضير انعدامه . فالأدب واللغة هنا على طرفي نقيض : فلغة الأمة لا تذيع في الأمم الأخرى إلا تبعاً لارتفاع سلطانها السياسي ، مهما كان رقى اللغة ذاتها وصلاحيتها وتفوقها على اللغات الأخرى ، أو تخلفها عنها ؛ فلغات الرومان والعرب ، ثم الفرنسيين والانجليز ، لم تذع وتتخذ صبغة عالية إلا مصاحبة لامتداد نفوذ تلك الأمم ؛ أما الأدب فلا يذيع إلا لرقيه وصلاحيته وتفوقه في بعض النواحي ، سواء أساعده النفوذ السياسي أم أعوزه ؛ ذلك لأن اللغة وسيلة ضرورية من وسائل التعامل ، فلا بد من الالمام بلغة الأمة ذات الشأن المعظم في الحياة الدولية والاقتصادية ؛ أما الأدب فهو متعة وجدانية كمالية ، تقبل النفس منه ما وافق طبعها وترفض مالا تستسيغه ، ولو كان يمت إلى أوسع الأمم سلطاناً وأضخمها جيشاً

والأدب الاغريقي نسيج وحده في هذا الباب ، وهو مصداق كل ماتقدم ذكره ، ولم يؤثر أدب تأثيره في آداب الأمم ، ولا نال مثل ما نال من احتفالها : فهو أدب حي راق صادق ، ذاع في عهد سطوة أصحابه وفي عهد اضمحلالهم ، بل أثر في غالبيهم في ميدان الحرب والسياسة — الرومان — أبعد تأثير ؛ ثم عاد فبعث من مكنه فأثر في نشأة الآداب الأوربية الحديثة ، بل على يديه درجت ، وفي حجره شبت ؛ وما زالت دراسته أحد فروع الثقافة العالية في الجامعات الأوربية ؛ ومن أجل دراسته والاستفادة من كنوزه تدرس اللغة الاغريقية على بعد ما بينها وبين اللغات الحديثة . أما اللغة ذاتها فتقلص ظلها منذ تقلص ظل السيادة اليونانية التي أظلت حوض البحر الأبيض الشرقي على عهد أثينا والاسكندر والبطالسة ، ودرست اللغة وبطل التخاطب بها حتى في بلاد اليونان ذاتها

وتتراوح درجة تأثير أدب أمة في آداب غيرها تبعاً لحالة المؤثر والمتأثر : فيكون الأثر شاملاً عامراً إذا كانت الهوة بينهما بعيدة ، بأن كان الأول عظيم الرقى والآخر بدائياً ساذجاً ، كما كان تأثير الأدب اليوناني في الأدب الروماني والآداب الأوربية الحديثة ، وكما كانت منزلة الأدب الفرنسي من الأدب الألماني في أوائل القرن الثامن عشر ؛ وقد يكون أثر أدب في غيره قاصراً على ناحية يتفوق فيها أو يمتاز بها ، كما كان تأثير قصة المغامرات الاسبانية في الأدب الانجليزي ، أو تأثير القصة الروسية في الآداب الأوربية المعصرية ؛ وقد تحتفى أمة بدراسة أدب أمة أخرى إعجاباً به وتقديراً له ، دون أن يتأثر به أدبها تأثراً كبيراً ؛ وأغلب ما يكون ذلك إذا تماثل الأدبان في الرقى ، كما هي الحال بين كثير من الآداب الأوربية الحديثة التي قطعت مراحل متماثلة ، ووصلت إلى درجات من الرقى متقاربة ؛ وقد يتناكر أدبان ويتنابذان فلا يتأثر أحدهما بالآخر ، لشدة ما بينهما من تفاوت ، أو لاعتداد كل منهما بنفسه ، كما كان من ازورار الأدب العربي عن الأدب اليوناني ؛ وقد يُدرس الأدب في المعاهد وعلى أيدى العلماء والأدباء لمجرد البحث العلمي والتأريخ ، دون أن يكون له كبير أثر في آداب الأمم ، أو يكون لجمهور المتأدبين بصر به ، كما يدرس الأدب العربي في بعض الجامعات الأوربية اليوم

وكلا الأدبين العربي والانجليزي أثر في آداب الأمم الأجنبية ،

وبلغ من الرقي والخطر ما جعله جديراً باحتذائها ، واشتهر فحوله وأعلامه بينها ، وساهم بنصيب في الأدب الانساني العالمي . على أن الأدب العربي أعطى أكثر مما أخذ ، وأثر في آداب الأمم الأجنبية أكثر مما تأثر بها ، بينما الأدب الانجليزي قد أخذ أكثر مما أعطى إلى اليوم ، وغنم من كنوز الأمم الأخرى أكثر جداً مما أودع تلك الكنوز ؛ وهذه في الحقيقة ظاهرة مطردة في تاريخي الأمتين لا في أدبيهما فقط . كانت الأمة العربية منذ ظهورها أمة إعطاء ، أعطت العالم ديناً وقوانين ولغة وأدبا ، ولم تأخذ إلا ما يتضاءل أمام ذلك كله من حضارة الفرس المادية ، ونظريات اليونان الفلسفية . وكانت الأمة الانجليزية أمة أخذ ، أخذت عن غيرها دينها ، وألفت من لغاتهم لغتها ، واشتقت من آدابهم أساليب أدبها وأشكاله ، وأغنت جزيرتها بخيرات الأقطار ، ولم تهد إلى العالم من مبتكراتها إلا نظامها النيابي . وعلى حين انزوت جزيرة العرب قابعة في عزلتها بعد أداء رسالتها ، أوتت انجلترا بما قطفت من أطايب الثمار المادية والأدبية التي اجتنتها على مدى العصور اجتناء مميز بصير خبير بما ينفع ، نابذ لما يذهب جفاء

أثر الأدب العربي في آداب كثير من الأمم الشرقية ، كالهنود والفرس والترك واليهود ؛ وما زال ذلك التأثير ماثلاً في الألفاظ والأساليب التي اقتبستها منه تلك الآداب ؛ وقد أدى إلى اتصال تلك الآداب بالأدب العربي اتصال العرب بتلك الأمم بالحرب والتجارة ، وبسط العرب سيادتهم عليهم حيناً ، ونشرهم دينهم بينهم ، فكانت سيادة العرب سبب انتشار اللغة العربية التي ظلت تدرس في تلك الأقطار عصوراً طوالاً ، ولم تزل تدرس في بعضها ؛ وكان انتشار الدين الاسلامي عاملاً آخر أطول بقاء ؛ فلما انتقلت السيادة إلى الفرس فالترك ضعفت مكانة اللغة العربية ، بينما ظل التفوق والتأثير للأدب العربي حيناً طويلاً لرقيه وتأخر الآداب الأخرى

ولم يَسمُ من تلك الآداب الشرقية إلى مضاهاة الأدب العربي إلا أدب الفرس . وقد كان بين هذين الأدبين وفحولهما تمازج وانتقال وتقارض وتبادل عديم النظير بين أدبين آخرين : بدأ ذلك بانتصار العرب الحربي والديني ، وكان أدبهم على جانب عظيم من التقدم ، بينما أدب الفرس بدائي لم يتعد بعدُ طور الطفولة ، ولم يستقل تماماً من الدين ، لأنه — كأدب قدماء المصريين — ترعرع تحت ملكية شديدة الجبروت والأنانية ، وكهنوتية شديدة الغيرة والأثرة ، فلم يكن يعدو الأقاصيص الساذجة والمواعظ ونوادر الملوك والآلهة ؛ أما الأدب العربي فكان قد ترعرع في حرية البادية

فلما اتصل الفرس بالأدب العربي وأعجبوا به ، لم ينقلوا ماوراءهم منه إلى أدبهم بل انتقلوا هم إليه ، فنثروا ونظموا في لغة الدولة والدين والقرآن ، وكان منهم جملة من فحول الأدب العربي ، على حين كان أدبهم هم خالياً من الفحول على الاطلاق ؛ ثم نشأت طبقة منهم كانت تؤلف باللغتين وتساهم في الأدبين ، وبذلك بدأ الأدب الفارسي في الظهور وكان الشعر أسبق من النثر ؛ فلما استقلت فارس واستعادت سيادتها القومية في ظل السامانيين والبويهيين ومن بعدهم ، نبغ فيهم رهط كبير من الشعراء والكتاب عكفوا على إحياء أدبهم وإثرائه ، متأثرين خطى الأدب العربي في المواضيع والأشكال الأدبية والأوزان الشعرية والألفاظ ، وأخذوا عن العربية ما كان قد داخلها إذ ذاك من محسنات وصنعة ؛ وبينما دخل الأدب العربي في طور ركوده افتتح الأدب الفارسي عصر رقي رائع طويل ، ضارع فيه الأدب العربي وفاقه في كثير من الأبواب ، كشعر الملاحم ووصف محاسن الطبيعة ، ونال بعض فحوله كالفردوسي والخيام من الشهرة العالمية ما قصر عنه فحولة العربية

وكان للأدب العربي أثر كبير في آداب الأمم الغربية ؛ ولكن بينما تأثرت الآداب الشرقية بالأدب العربي الفصيح ، كان الأدب العربي العامي هو الذي أثر في الآداب الغربية : فالأقاصيص الشعبية وضروب الأزجال التي فشت في الأندلس كانت نواة الأدب الاسباني الحديث الذي تمثل في عهد النهضة الأوربية في قصص سرفانتيس ، والذي أثر في الأدبين الفرنسي والانجليزي أثراً مذكوراً فيما بعد ؛ وتلك الأقاصيص والأزجال انتقلت من أسبانيا إلى جنوب فرنسا ، حيث نشأ شعراء التروبادور الذين وضعوا اللبنة الأولى في أساس الشعر الفرنسي الحديث . أضف إلى ذلك ما نقل من تلك الأشياء الى الأدب

الايطالى وأثر فى كتابات بوكاشيو وبترارك ودانتى ، وما تسرب الى الأمم الأوربية فى عهد الحروب الصليبية . هذا إلى قصص ألف ليلة وليلة التى انتقلت إلى أوربا من عهد بعيد وترجمت الى لغاتها ، وكانت موضع اعجاب الأدباء واقتباسهم

وللأدب العربى أثر ثالث عظيم الخطر عديم النظير ، لم يتأت حتى للأدب اليونانى أن يأتى بمثله : ذلك هو حلوله محل غيره فى الشام والعراق ومصر وشمال أفريقية ، حتى نسى أهل كل قطر من هاتيك ما كان له من أدب قبل ذلك ، وأصبح تاريخ الأدب فى كل أقليم منها يبدأ بعهد الجاهلية فى جزيرة العرب . والواقع أن الأدب العربى لم يَسُدْ تلك البقاع لمجرد قوته وحيويته ، وإنما تمكن من الأتيان بتلك المعجزة بفضل ما صاحبه من ظروف وعوامل ، كقوة اللغة العربية ذاتها وكونها لغة الدين الجديد والدولة ، ثم السياسة الحكيمة التى سلكها العرب فى حكم الأقطار : فقد تركوا لها حرية العبادة والمعيشة ، وأشعروها مع ذلك بالنقص وانحطاط منزلتها عن منزلة الفاتحين أصحاب الدين والدولة ؛ فتسامحهم الدينى لم يستفز تلك الأمم الى مقاومة الدين الجديد ومعاندته ، كما قد كان يستفزها القهر والأرغام على اتباعه ؛ وشعورها الباطن بالنقص والانحطاط دفعها إلى التشبه بالقائمين بالأمر عليها والانفهار فى جملتهم ؛ ومن ثم انتشر الدين واللغة وحلا محل غيرها ، وانتشر بانتشارهما الأدب العربى

فالأحوال كانت مهيأة فى الشرق مساعدة لانتشار الأدب العربى : لتفوقه وتفوق لغته على ما كان هناك من آداب ولغات ، وانتشار دين قومه وسيادتهم ، ومشابهة الأمم الشرقية للعرب فى الطباع إلى مدى ، وامتزاجها بهم فى أطراف الامبراطورية العربية . أما فى الغرب فلم يكن الأدب العربى الفصيح ليُلاقى مثل هذا النجاح ، بل هو لم يلاق نجاحا ما ، ولم يصب إيجاباً قط ؛ وقد هرع اليه متأدبو الافرنج غير مرة يريدون الانتهال من مورده ، وارتدوا خائبين قانطين ؛ وبينا وجدوا فى الأدب الفارسى ما يترجمونه ويضنون به ضنهم بآثار آدابهم ، لم يجدوا فى مدائح المتنبى لسيف الدولة وأهاجيبه لكافور ، وتفنن بديع الزمان فى صوغ الأسجاع والنكات على لسان أبى الفتح ، ما يستحق عناء الدرس والترجمة ، أو يحث على الاعجاب والضن .

إنما تنقل الأمم من آداب غيرها ما يمت إلى الانسانية فى شتى بقاعها وعصورها بأوثق الأسباب ؛ أما المدح والذم والزخارف اللفظية التى إذا ترجمت تبخرت فلا تنفق فى غير لغتها وعصرها

ولقد كانت الآداب الغربية قبل عهد النهضة ناشئة تتلفت باحثة عن الأستاذ المرشد ، فلم تره فى الأدب العربى الفصيح ، لأنه لم يكن أدب شعب ومجتمع وحياة متجددة ، بل اختار لنفسه أن يكون أدب بلاط ، ونديم علية ، ورهين تقاليد لا تتغير ، واستبعد من حظيرته مناحى كثيرة من مناحى القول ، ومواضيع شتى من صميم الحياة والفن ؛ وإنما استفادت تلك الآداب بما وجدته فى الأدب العربى العامى من آثار الخيال الرائع ، والتصوير الصادق ، والتعبير المتعدد الأشكال عن الحياة الانسانية المتدفقة المتجددة ، فضلاً عما ينسم منه من روائح الشرق وبذخه وكنوزه وغرائبه ، تلك التى ما زالت من قديم تستهوى نفوس الغربيين وتثير أخيلتهم ، فأوسع الأوربيون ذلك الأدب العامى دراسة وترجمة ومحاكاة ، ثم لم يلبثوا أن اهتدوا إلى ضالتهم المنشودة فى الأدب اليونانى ، فعلُّوا من معينه ونهلوا

وقد قيل إن كوميدية دانتى الآلهية متأثرة برسالة الغفران ، وقصة رينسون كروزو أوحت بها قصة حى بن يقظان ، وذلك بعيد : فلو أن الآداب الأوربية كانت تتأثر بالأدب العربى الفصيح لما اقتصر تأثرها على هذين المثالين الشاردين — على كون قصة حى بن يقظان أثراً فلسفياً لا أدبياً — وليس بين الكوميدية الآلهية وبين رسالة الغفران شبه سوى أن الجنة والنار مشاهدُ وقائعهما ، ولا بين روبنسون كروزو وحى بن يقظان تماثل إلا انعزالهما فى جزيرة ، وتوفيرهما حاجاتهما بأنفسهما ؛ وكلتا الفكرتين بديهيتان يلوح أنهما تطرآن على الفكر الانسانى فى شتى العصور والأصقاع . وهل شىء أكثر بداهة وأقرب إلى الطبيعة من أن دانتى المتعصب الدينى فى عصر التعصب الدينى وفى وطن البابوية يلتفت الى العالم الآخر ويُجرى فيه حوادث مهزلته ؟ أو أن ديفو المغامر الأفاق فى عصر المغامرات البحرية ، وفى انجلترا البلد البحرى يتخذ بطلاً لقصته مخاطراً بحاراً ؟

أما الأدب الانجليزى فكان — كما تقدم — أقل من الأدب العربى تأثيراً فى الآداب الأجنبية ، وأكثر منه تأثراً بها : تأثر

من عهد النهضة بالأدب اليونانى والرومانى والفرنسى والايطالى والأسبانى ثم الألمانى ، وأخذ خير ما فى تلك الآداب من الأشكال الأدبية والمواضيع والأساليب ، وصاغها على النحو الملائم لطبائع أهله وعبقرياتهم الخاصة ، ومثّل كل ما أخذ ونقّاه ، حتى جاء الأدب الانجليزى مضاهياً لأحسن ما فى تلك الآداب إن لم يفقها جيعاً عمق فكرة وشمول نظرة وحرارة شعور وصدق عاطفة وبساطة بيان ، ونبغ فيه من الأعلام أمثال شكسبير وملتون وبيرون وسكوت مَن كان لهم مكان رفيع فى القارة ، وعنى بدراستهم ، والاشادة بفضلهم أقطاب الآداب الأوربية ، أمثال هوجو وتين وسنت بيف ، وحوكيت قصائد بيرون وقصص سكوت ، ومُثلت روايات شكسبير فى مسارح العواصم الأوربية ، وساهمت انجلترا بنصيبها فى النهضة الرومانسية التى كانت حركة أدبيـــة دولية ساهمت فيها سائر الآداب الأوربية والأمريكية

على أن كل ذلك لا يكاد يتخطى حدود التقدير والاعجاب بذلك الأدب ، ولم يتمد ذلك إلى إحداث ثورة شاملة أو تطور خطير فى تلك الآداب ، ولم يؤثر الأدب الانجليزى فيها بعض ما أثرت هى فيـــه ، فهو قد جاء متأخراً عنها قليلاً ولحق بها فتشابه الجميع اليوم رقيا ، فهى فى غنى عن الأخذ عنه ، وهو لا يفاجئها بعناصر ليست فيها ، وهو وهى سواء فى الأخذ من الأدب اليونانى والبناء على أساسه واعتناق مبادئه التى دان بها فى تصوير الحياة وتحليل النفوس وعبادة الجمال

فالآداب الأوروبيـة اليوم ، بما فيها الأدب الانجليزى ، فرسا حلبـة واحدة ، متشابهة فى النشأة والتاريخ والمنهج ، وهى وإن كانت على اتصال وامتزاج دائبين ، لن ينتظر أن يكون تأثير واحد منها فى غيره تأثيراً بعيد المدى شاملاً غامراً ، كما كان تأثير الأدب اليونانى فى الأدب الرومانى ، أو تأثير الأدب العربى فى الأدب الفارسى ، فمثلُ هذا التأثير الشامل لا يكون إلا بين أدبين قد انفرجت بينهما مسافة الخلف ، وضرب حجاب العزلة بينهما دهراً ، كما هو الشأن اليوم بين الآداب الغربية فى مجموعها — ومن بينها الأدب الانجليزى — والآداب الشرقية فى مجموعها — ومن بينهـا الأدب العربى — فقد كان التدابر والتناكر سائدين بينهما عصوراً طويلة ، والأولى فى رقى مطرد ، والثانية فى تدهور مستمر ؛ فلما تلاقتا ورفع من بينهما حجاب العزلة أثرت الأولى فى الثانية ؛ وما تزال تؤثر تأثيراً هو أدنى إلى الثورة المطلقة أو الخلق من جديد

فالأدب الانجليزى قد بلغ من الرقى وصدق الرسالة واتساع الجوانب ما يفذ به الأدب العربى ، ونال من المكانة بين آداب الأمم أسماها ، وحاز من أدباء تلك الأمم أعظم التقدير والحفاوة ، وهى مكانة ستظل له دائماً كما ظلت مكانة الأدب اليونانى بعد زوال دولته ، وهو خليق أن يؤثر فى آداب الأمم التالية أثراً بعيداً ؛ أما إذا ووزن بين تأثيره فى الآداب الأخرى الى اليوم وبين تأثير الأدب العربى فى الآداب المعاصرة له ، فان الأدب العربى يرجحه كثيراً . بيد أن الأدب العربى قد أدى رسالته فى ذلك الصدد ولم يعد صالحاً لأن يؤثر فى آداب الأمم الأخرى حتى يتجدد ويتأثر هو ذاته بغيره من الآداب ، ويفتتح فى تاريخه فصلاً جديداً غير الفصل السالف

فخرى أبو السعود

على أطلال الماضى

وقفة على «إيوان كسرى»

للأستاذ على الطنطاوى

خرجنا من بغـداد فسلـكنا على « حيّ البتاويين » ظاهر « الباب الشرقى » ، وجزنا على قصوره الشمّ التى تتكىء فيها الارستقراطيـة الناعمة على الأرائك سـكرى بخمرة الذهب ، وسرنا الى « المنيدى » فى الطريق التى تنام على بسـط الحقول السندسية ، يحرسها صفّان من النخيل ، حتى انتهينا الى « المعسكر البريطانى » صرح أكاسرة اليوم ، فتركناه وأممنا صرح أكاسرة الأمس لنقف عليه ذاكرين معتبرين

عبرنا نهر « ديالى » وخلفنا القرية جاثمة على كتف النهر ، قد دلّت رجليها فى مائه ، واستقبلنا الفـلاة الواسعة ، فما عدنا نرى إلا الفضاء ؛ حتى إذا سرنا فيها ساعتين طلعت علينا قرية « سلمان » تلوح على حاشية الأفق ، تضح وتغيب ، ثم تبيّناها ورأينا قبـة مسجدها واضحة ، ورأينا بجنبها بناء ضخماً كأنه جبل ... فقلت : ما هذا ؟ قال صحبى : هذه قبة سلمان الفارسى ، وهذا إيوان كسرى . فقلت : ياللعجب ! أطاف سلمان حتى استقر قبره بجانب الايوان ، فغـدوا متلاصقين ، وبدوا متعانقين ؟ وحثثنا « الدرّاجات » الى القرية فبلغناها بعد ساعة

كانت قرية صغيرة ، نشأت على تربة سلمان رضى الله عنه ، ليس فيها — إلا مسجده — شىء يذكر ؛ أما الايوان فهو فى ظاهر البلد ، متربع على ظهر الفلاة وحيد معتزل ، مطرق حزين !

***

وقفنا عليـه فاذا هو (طاق) عالٍ متهدم ، وجدار شامخ متصدّع ، وإذا هو ضخم فخم ، ولـكنه عار موحش ، ليس فيه صورة ولا نقش : لا صورة انطاكية التى تروع بين روم وفرس ، ولا أنوشروان الذى يزجى الصفوف تحت الدرفس ، ولا عراك الرجال بين يديه فى خفوت منهم وإغماض جرس ، من مشيح يهوى بعامل رمح ، ويليح من السنان بترس . . .

لقد محا الدهر الصورة ، كما محا أهلها ، ودار الزمان دورة أخرى ، فأصبح حاضر البحترى ماضياً وعيانه أثراً . . . ذلك لأن المـاضى نقطة واحدة ، تتـلاقى فيها الأبعاد ، وتضيع المسافات ، وتفنى الدهور . . . نقرأ قصـيدة البحترى ، ونرى الايوان ، فنحس أنهما قد التقيا فى عالم الماضى وضاع ما كان بينهما من عصور ، كما التقت آثار « سرّ من رأى » بأطـلال بابل ،



(المنظر الأمامى للطاق والجدار)

فـكان حكمهما فى الخيال واحداً وأثرها فى النفس واحداً ، وكما التقت فى أبصارنا ونحن قادمون على القرية قبـة سلمان بالايوان ... ومن لعمرى يدرك الزمن الذى كان بين آدم ونوح ، وابراهيم وموسى ، وبلقيس والزباء ، وهوميروس وأفلاطون ، وحروب طروادة وفتوح اسكندر ؟ إن الحوادث كلما أممنت فى المضىّ ، ضاعت من بينها الأزمنة وامّحت الأبعاد

***

وليس يهيج النفس ويثيرها كرؤية أطلال الماضى والوقوف بآثار الغابرين ؛ ففيها روعة البقاء ، وهول الفناء ، وعبرة الدهر ؛ وهى نوافذ تطلّ منها النفس على عالم المجهول الذى نحنّ اليه أبداً ولا نني تقرع بابه ، فنتحرر فيها ساعة من قيود المـادة ، وتطير فى مسارب الأحلام

ولقد وقفت على الاهرام ، ومررت على الحديبية ، وجلت فى العقيق ، وعرّجت على حطّين ، وزرت بعلبك ، فكان شعورى فى ذلك كله كشعور اليوم وأنا فى المـدائن أمام إيوان كسرى ... أستعظم الأثر وأعجب بجلاله ، وأكبر القدرة التى أنشأته ، ثم أعود بفكرى إلى الماضى فأحس بأن صفحته تفتح أمامى فأرى حقيقة شاهدة كل ما قد قرأت فى الـكتب ، وأتخيّل أنى مع الغابرين أسمع وأرى ، فأرانى قد عشت دهوراً ؛ ثم أقبل

وأعتبر ، ثم أذهل عن نفسى ، وأجول بفكرى وخيالى فى آفاق كثيرة لم أرها من قبل



(منظر الطاق من داخله والجدار الخلفى القصير وفيه أحد الأبواب الثلاثة الباقية)

فى الآثار الباقية للأمم الماضية يلتقى أعظم شيئين وأجلهما : الزمان والمكان ؛ فتلمس القرون تنحدر على صخر الهرم ، أو أعمدة بعلبك ، أو آجر الايوان ، هذا الآجر الذى حمل أعباء القرون السبعة عشر . يالروعته وجلاله ! إنى لأحتقر نفسى وأنا قائم بقامتى القصيرة الهزيلة حيال هـذا الكائن الجبار الماثل ، ثم أعود فأرى كل شىء دونى حقيراً ، أنا الحىّ ، وأنا الباقى ، وما هذه كلها إلا أثر من آثارى ، ليس لها لولا فكرى وجود ولا لوجودها معنى ...

***

أطفت بالايوان فى خشوع وإكبار ، ووقفت على بابه فى هيبة وإجلال ، ثم دخلت من الصحراء فاذا ... فاذا أنا خرجت إلى الصحراء ، الصحراء الصامتة صمت الموت ، الموحشة وحشة القبرة ، الممتدة امتداد الزمان ... وقفت أستنشق عبير المجد ، وأتسمّع نشيد العظمة ؛ فما سمعت إلا صفير الرياح ، ولا نشقت إلا رطوبة الفناء . لست الجدار فما أحسست إلا برودة الحجر ؛ تسلقت الجدار حتى كلّت رجلاى ولم أبلغ نصفه ، فجلست على لبنة بارزة لأستريح ، وتلفّت ... فاذا الأفق الواسع الرحيب وإذا الناس كالنمل ، وإذا القرية كأنها كومة من الحجارة ، مكوّمة فى أعماق الوادى ، وإذا دجلة تجرى بعيداً تلبس حلة من نور الشمس فتبدو لامعة تزيغ منها الأبصار ، وإذا أنا وحدى معلق بين السماء والأرض ، فتشتت نفسى ، وأخذنى الدوّار ، وهممت بالسقوط ، فأغمضت عينىّ كيلا أرى شيئا

أغمضت عينىّ ، وفتحت قلبى ، فرأت البصيرة ما لا يراه البصر : رأيت أنى قد ذهبت أتخطى أعناق القرون وأطوى سجل الزمان ، وأدير بفكرى دولاب الفلك ، فيكرّ راجعاً . . ازّخرفت هـذه الجدران العارية وأخذت زينتها ، وعادت هذه الأبواب ، فأسدلت عليها سُتر الوشى والديباج ، وتحلّت هذه السقوف بالصور والنقوش وتدلت منها سلاسل الذهب ، تحمل الثريات المرصّعة باللؤلؤ . . . عاش الايوان ، وقام فى صدره سرير أنو شروان ، ورجع المجد وعاد السلطان

وحلّت الحياة فى هذه الصحراء ، فنبتت المدائن والقصور من الأرض نبماً ، ونبتت منها نباتاً ، فنمت فى لحظة وأورقت ، وعات واستطالت ، ولوّنت الحياةُ هـذه البرية الـكالحة بألوان الزهر ، فعادت حدائق وبساتين ، كانت لهـذه المدائن كالاطار ، فرأيتها أعظم المدن ، وقصورها أفخم القصور ، والايوان أجلّ صروحها وأعلى ذراها ، ورأيت هذه الأبواب التى كانت منذ ساعة تفضى من الصحراء إلى الصـحراء ، مفتّحة للرياح والذئاب ... قد قامت عليها الحجاب ، ووقفت دونها الملوك ، وحل على أعتابها المجد ، والجدران التى كانت عارية مصدّعة ، قد شمخت وبذت وعزّت ، حتى غدت والطير تخشى أن تطير فوقها ، أو تحوّم فى سمائها ، ورأيت دجلة التى كانت منذ ساعة تجرى فى البادية بعيدة عن الايوان ، معرضة عنه ، لا تلتفت إليه ، ولا تأبه له ، قد غدت ساقية . . . تمشى خاشعة وسط المدائن ، وتنحنى لتعقد على كتفيها القناطر والجسور ، وتفتح صدرها لتضم ظلال هذه القصـــور ، وهى تستنقع فيها فى أمسيات الصيف الحارة !

ورنوت بعينى إلى هناك ، إلى الحيرة ، فاذا الخورنق السامق يعنو للايوان كما يعنو صاحبه لربه ؛ ورميت ببصرى إلى بعيد . إلى الجزيرة ، فاذا فيها أشباح تجىء وتروح خلال الضباب ، تموج كأنها فى بحر واسع ، وكأن خيامها سفائن يحملها الموج ، ويمشى بها مد وجزر ، ولكن هذه الأمواج تتكسر على صخرة الايوان ثم ترقد ضعيفة وانية ، والايوان مشمخر عات ، لا ملك أعظم من ملكه ، ولا سلطان أعظم من سلطانه ، ولا إنسان أعز من ربه ؛ وأمتد ببصرى إلى المشرق والمغرب فلا أرى كالايوان ثروة وجاها وعظمة ومجداً . . .

ولكن ... مه ! إن فى البادية لشيئاً جديداً ؛ إنها تضطرب وتهتز ؛ إنــ فيافيها تتمخض بالحياة ، ها هوذا النور يشق الضباب الكثيف ، حتى يلمع كالبرق الخاطف ، بين قصور المدائن وتحت أقبية الايوان ... لقد ضرب محمد (صلى الله عليه وسلم) صخرة الخندق ، فأضاءت المعجزة الايوان ، فوعده أتباعه وقال لهم : هذا الطريق

ياللعجب المعجاب ! إن هــذه القرية الملتفة فى ألحفة الرمل ، النائمة على صخور الحرة ، المتوسدة سفح أحد ، وجوانب سلع ، تريد أن تأكل المدائن ! .. بلغ كسرى الخبر ، فضحك حتى استلقى ... ثم جاء كسرى الكتاب ، فعبس وبسر ، وأعرض واستكبر ، ومزق كسرى كتاب سيد العالم ...

لقد نطق سيد العالم بالحكم النافذ : ليمزقن الله ملك كسرى

* * *

وفتحت عينىّ فاذا الحلم قد تصرم ، فغاضت المدائن فى الأرض ونزعت الجدران ثيابها ، وابتلعت الصحراء زهرها ووردها ، وعادت قاحلة ليس فيها إلا هذه الأنقاض جاثمة على ظهرها ، قد حطمها الكبر ، وثقلت عليها السنون ، فانحنت حتى تسلق صبية القرية سطحها يلعبون عليه ...

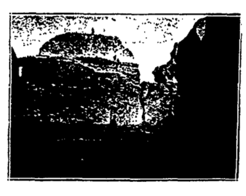
* * *

الصبية يلعبون على سطح الايوان ! أين كسرى يرى ما صار إليه إيوانه ؟ أبناء العرب يتلهون بمجلسك يا شاهنشاه ! لقــد قوّض المجلس ، وثلّ العرش ، وهوى التاج ، فما أنجدك الجند ، ولا أغنى عنك الغنى ، ولا حمتك الحمِيّة ، ولا آواك الايوان !

لقد مزّق البدو ملكك يا كسرى ؛ وما هذا عجيباً ، فالتمزيق أسهل من الترقيع ، والهدم أهون من البناء ؛ ولقد هدم البرابرة من قبل عرش الرومان ... غير أن هؤلاء البدو — ياملك — قد أسسوا حضارة خيراً من حضارتك ، وبناء أجل من بنائك ، وحكموا أعدل من حكمك . لقد أثمرت حضارتهم حضارة القرن العشرين ، وحضارتك لم تثمر شيئاً

لقــد بنت ديموقراطية عمر الذى كان ينام على التراب ، ويلتحف بالبرنس ، ويؤدب بالدرة ، ويمين الفقير ، ويخدم العجوز ، وينصف من نفسه ، لقد بنت ديموقراطيته دولة . أما جبروتك ، وعظمتك الجوفاء ، واستعبادك الناس ، فلقد هدم دولة !

هذه بغداد الاسلام ؛ فيها أربعمائة وخمسون ألفاً ؛ وهــذا إيوانك تصفر فيه الرياح الباردة صفير الفناء الرعب ، وتنشــد فيها الطبيعة نشيد الموت !



(المنظر الجانبي للطاق)

من الذى كان يفكر أيام عزّ الايوان أن صبية العرب ستلعب فى أنقاضه ؟ من الذى يفكر اليوم بأن أطفال الحبشة ستقفز على أطلال روما ؟ لا تتعجبوا من شىء ، إن الليالى يلدن كل عجيبة ...

وليعتبر الطغاة ، فلقد كان كسرى — يوم كان كسرى — أضخم سلطاناً ، وأعظم بنياناً ، وأكثر أعواناً ، فأباد الزمان السلطان ، ودك البنيان ، وأهلك الأعوان ...

* * *

اعتبروا ... فهذا صرح كسرى خال موحش . وهذا قبر سلمان عامر مأنوس . . . قد مات القصر ، وعاش القبر ! قصر كسرى شاهنشاه ، الذى كانت تقوم على بابه الملوك

. . . ضاحين حسرى من وقوف خلف الزحام وخنس

قد مات ، وغدا قبراً فى الفلاة ؛ وهذا القبر ، قبر فارسى من عامة الناس ، يصبح مثوى الحياة ، تلتف به البيوت ، ويؤمه الزائرون ، يقفون حياله خاشعين ، ثم يعودون ولا يلتفتون إلى الايوان ، وبينهما ثلثمائة متر ...

أين كان سلمان من كسرى أنوشروان ؟ أين كان من وزرائه وأتباعه ؟ أين كان من خدامه وحشمه ؟ صَهْ : لقد خلد سلمان بالاسلام ، فكان أعظم من كسرى !

* * *

الى الاستاذ الزيات

« ذكرى ميلاد » حركت قلمي !

للمربية الفاضلة الآنسة زينب الحكيم

أحييك من قلب يتهيب فواجع الحدثان لتتابعها ، ويئن من المصائب لتواليها ، حتى أصبح قلباً كسيراً ملتاعاً . وأشكرك على كلمتك (ذكرى ميلاد) بقدر ما أشاركك عواطفك النبيلة نحو ذلك « الرجاء » الضائع والأمل النهار

لقد هز نفسي هذا المقال هزة عنيفة ، وحرك قلمي بعد أن سكن طويلاً ليكتب عن الأطفال ، والطفولة المنيئة . وكنت قد دفنت هذه الذكرى لا تعمداً ولكن قهراً ، مع أن أمنيتي في الحياة كانت العمل على إسعاد الأطفال واستمتاعهم بطفولتهم ، ولا سيما ونحن في بلد لا يعرف للطفل حقه ، ولا يدرك للطفولة كرامتها

وكم نحن في حاجة إلى آباء مثلك يعنون بدراسة أبنائهم ، ويشاركونهم الحياة ليعيشوا وإياهم سعداء

غالب الظن ، أن الأستاذ الزيات لم يدخل مدرسة علم النفس الحديثة ، أو هو إذا كان قد فعل لا يفطنن بدراساته المتعددة وجهوده المتكررة كما يفعل بمفهم . إن كلمتك يا أستاذ تعد بمثابة دروس لعدة دروس تربوية جامعة في عالم الأطفال ، يجب أن توضح وتدرس للآباء والأمهات جميعاً

فأن « فرحك الصادق ، واستبشار نفسك بذلك المولود الذي هبطت عليك بشراه هبوط الملك على زكريا ، والذي جعل نفسك تطمئن إلى أن اسمك قد اشترك ، ووجودك قد ازدوج ، وعمرك قد امتد في الحياة » ، كل ذلك ما ينبغي أن يحسه ويشعر به جميع الآباء والأمهات ، قبل وبعد أن يرزقهم الله أطفالاً ، وذلك من أهم العوامل التي تؤثر في حياتهم

إن ذلك « الرجاء » الذي غير من نظرتك إلى الأطفال ، فجعلها نظرة عملية جادة ، بعد أن كانت خيالية نظرية ، تلك النظرة التي جعلتك تتقرب إلى كل أب ، وتسكن إلى كل أم ، هي التي جعلتك من هذه الناحية في صف المكلفين المسؤولين . ولعمري إن الرجل المكلف المسئول هو الرجل الحر الذي يعتمد عليه . فلله ما أجمل ما اختصك الله به من فطنة للوجود الحق ، وما أقوى ما امتازت به طبيعتك من تكوين الأسرة السعيدة التي هي اللبنة الأولى في بناء الوطن العزيز

ثم إن خطة تعاقب المآدب ، وتقديم الهدايا ، وبهجة الدار المتوالية ، وإعطاء الصغير فرصة الرياضة في الحديقة ، والعناية بنظام حياته كلها في غير إسراف أو تقتير ، يتفق تماماً وروح التربية الصحيحة . كذلك إقامة حفلات الميلاد ، والتعارف بين الأطفال ، وما إلى ذلك ، لما يزيد في بهجة الأسر ، ويدرب النشء على الآداب العامة من نعومة أظفارهم ، ويشعرهم بالواجب ، ويعد شخصيتهم للنضوج التدريجي ، ويشجعهم أيضاً على قبول كل شيء حولهم وفحصه ، من أشياء وأفكار ومبادئ ، فيخضعون للصالح منها في غير تأفف ، ويأنفون من الطالح في صراحة ويقين

لقد كنت مثال الأب الصالح بالنسبة لطفلك العزيز ، فان مصاحبة الآباء لأبنائهم أثناء شراء لعبهم ولوازمهم ، وإعطاءهم فرصة الانتقاء والاختيار مع التوجيه الصحيح والارشاد الحكيم ، يمكنهم من دراسة غرائز أطفالهم وتعرف ميولهم ، فيعملون على تربية كل وفق طبيعته

أما بعد ، فقد تكون الأهرام أضخم وأفخم ، وأعمدة بعلبك أجل وأجمل ، ولكن للايوان معنى آخر ...

هنا كان يستقر جلال الماضي كله ؛ هنا كانت عظمة الملك وجبروت السلطان ؛ هنا كان الذي يستعبد الناس ، فيؤلهه الناس ... لم يبق من ذلك كله شيء ...

وكانت الشمس قد جنحت الى المغيب ، فنزلت ووقفت أودع الايوان ، فاقترب مني سائل أعمى ، وجعل ينفخ في ناي معه نغمة حزينة مؤثرة ... فكان لها — في تلك الساعة ، في صمت الصحراء ، ووحشة الايوان ، وغروب الشمس — أثر في نفسي لا يوصف ، فقلت : آه ... ليتني كنت شاعراً

علي الطنطاوي

مدرس الأدب في الثانوية المركزية ببغداد

وكم كنت أباً رحب الصدر ، بارعاً فى فن تربية الأطفال وهم رجال المستقبل وعدة الوطن حينما كنت تجيب « رجاء » على أسئلته بقدر ما يحتمل عقله ، ولا ترد له سؤالاً أو تعنفه عليه ، ولو كنت فعلت لما لحظت مخائل نجابته المبكرة ، ولا حدة ذهنه وشخصيته القوية المرنة كما وصفت

الى هنا ، يأتى دور العتب على الأستاذ الزيات ، فى هلع نفسه ، وتطيره من الحياة ، لأن الله اختار ذلك الكم العبق لجواره الكريم (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) أيدرى أحدنا لماذا خلق على النمط الذى اختصه الله به ؟ ! أو لماذا يرجعنا الله إليه إن عاجلاً أو آجلاً ؟ ! له فيما يريد أبلغ حكمة

وعهدنا بالأستاذ كبير النفس قوى الايمان ، صقلته غير الدهر وصروف الزمن ، فلا ينبغى أن يجزع إلا على قدر

ولست أدرى لم تطوى ثياب « رجاء » تعبث بها الهوام وتوارى فى الحقائب ، وقد لامست جسمه النضر ، وتضوع فيها شذى أنفاسه العطر ! ! ولماذا تخفى لعب « رجاء » ، وهو الذى لمسها بيديه الطاهرتين ؟ ! وأتساءل فى دهشة : لماذا تستر صور « رجاء » وجميع آثاره ؟ ! !

إن هذا ينافى بقاء ذكراه الكريمة ، ويمحو صورته الجميلة من المخيلة ، ويذهب بصوته الرائق من الأذن

أيها الأب الكريم ! سهل على النفس غرامها ، وعلى القلب حنينه ، وعلى العقل حيرته . انشر صور « رجاء » فى كل مكان جميل فى المنزل ، وضع لعبه فى أكرم مكان وأليقه ، وانفض عن ثيابه المطوية الغبار ، حتى تتلمسه فى كل شىء حولك ؛ وضع أثراً من آثاره كمنديل ، أو قفاز ، أو لعبة صغيرة فى مكان يحتمل أن تطرقه على حين فجأة ، وانس أنك وضعت ذلك الأثر فى هذا المكان ، فاذا صادفك بعد حين ، فاختبر انفعال نفسك بالعثور على ذلك الأثر المنسى ، وجدد الذكرى ؛ ثم حدث أصدقاءك ومحبيك كلما زاروك عن صور « رجاء » على اختلاف مواضعها ومناسباتها . وأشد بذكائه وجمال نفسه ، وما كنت تعقد على وجوده من أمل ، وبهذا تستطيع أن تبقى « رجاء » حياً فى عقلك وفؤادك ، وبهذا تستطيع أن تجد رجاء أقوى فى (خليفة رجاء) . وحذار من تضليل الطفل بعاطفة مصطنعة ، فأنها لن تخفى عليه مهما صغر سنه ، وإن هو عجز عن أن يثأر لنفسه منك صغيراً ، فلن تفلت منه وهو كبير . واعمل بالمبدأ القائل : إحى ويسر للآخرين الحياة

وإنى بهذه المناسبة ، يحضرنى حوار شعرى طريف ، كنت قد حفظته وأنا طفلة بالمدرسة لشاعر الطبيعة الانجليزى (ووردذورث Wordthworth) ألخص معناه فيما يلى :

تخيل الشاعر أنه قابل مرة طفلة ريفية راقه حسنها ، فاستأذن فى محادثتها ، وسألها : « ألك إخوة وأخوات أيتها الصغيرة ؟ قالت : نعم ، نحن سبعة من ذكور وأناث ، مات منا اثنان . فقال لها : إذن أنتم خمسة الآن لا سبعة ؟ ! فقالت : لا ، نحن سبعة . فقال إذا كان قدمات منكم اثنان فالأحياء خمسة فقط ! ! فأجابته الريفية الساذجة بدهشة ردت الشاعر العظيم إلى صوابه قائلة : ولكنهما حيان عند الله وسنتقابل جميعاً فى الجنة . »

هذا ياسيدى الأستاذ تحليل طفلة غربية ساذجة ، فهل يجوز أن يكون جواب الشرق فى مثل هذه الأحوال كذلك ؟ ! !

الجواب منك وإليك ، وأنت صاحب النفس الكبيرة ، والايمان العامر . أطال الله بقاءك ، وأجمل عزاءك

زينب الحكيم

أدولف

لبنجمان كونستان الفرنسى

عربه الدكتور محمود مازنى

من الشعر المنثور

أحبك أيها الشتاء!

للأستاذ خليل هنداوى

«أنف أدباؤنا أن يكرهوا الشتاء لأنه فصل قاتم الأجواء، يفرون من جوه الثقيل ولا يدعون شمسه تنفذ إلى قلوبهم، ولكني أراني تدفعني إلى محبة الشتاء دوافع لا أستطيع لها دفعاً، وقد أترك القطر الذى لا تظهر فيه آثار الشتاء كثيراً إلى القطر الذى تحل فيه»
«خ . هـ»

أحبك أيها الشتاء:

أحب غيومك المتناطحة فى الأعالى، تغشى السماء فتحجب زرقتها عن العيون، وتسطو على النور فتتركه قاتم الأحشاء.

أحب خيوطك المتواصلة التى لا تنقطع، كأنها أغنية السماء للغبراء

أحب طيورك السوداء النازحة، هائمة بين الأشجار الجرداء، أو محلقة فى الأجواء

أحب أشجارك العارية لأنها خلعت ثياباً قديمة وطرحت أوراقاً ذاوية، تاركة لغيرها حق النماء.

أحب عصافيرك التى تتوارى فى الغيوم الدلهمة وقد صرفها التأمل عن الغناء

أحب هامات الجبال المكتسية بالثلوج، وبطونها التى فى كل منحدر منها ساقية تغنى، وفى كل منبطح جدول له خرير

أحب رائحة الأرض التى تنم عن كنوز تنطوى عليها فأفعم نفسى بشذاها، وأملأ قلبى من طيب ثراها

* * *

أحبك حينما كنت أيها الشتاء!

أحبك وأنت تزجى إلى مدينتى الغيوم السوداء تطرح على غامرها وعامرها شباكاً من خيوطك المتواصلة فما يبالى العاملون بك، ولا يفر الساعون منك؛ يمشون سراعاً تحت شباكك إلى العمل الذى يناديهم!

أحب هذه الحجب القاتمة التى يطرحونها على أبدانهم يتقون بها برد الشتاء

إنهم يريدون أن يصالحوك تحت هذه السرابيل ولا يريدون منك فراراً

أحبك وأنت تغشى مدينتى لأنى أرى قلبها ينبض ويخفق بهؤلاء المتزاحمين صفوفاً متراصة فى كل شارع؛ تدوى أصواتهم فى قلبك وقد كانت هامدة، وتملو حركتهم فى جوك وقد كانت خامدة

أحب أنفاسك المتراكمة على المدينة حابسة أنفاسها فيها...

أتروح هذه الأنفاس فلا أجد إلا نفساً واحداً، وأنت لو ميزت هذا النفس لرأيت أنه خليط من أنفاس متباينة؛

أنفاس زفرت من صدور عاملين بائسين؛ وأنفاس خرجت من رجال ونسوة مرحين

كلها صدتها أنفاسك تحت غيومك، فردتها إلى المدينة نفساً واحداً، أكاد — إذا تروحته — أن أقول: هذا نفس عاشقة تترنح! وهذه زفرة بائس يتروح!

ولكنى لا أجدها إلا نفساً واحداً ممازجاً! يعبق فى جو المدينة، وينسل إلى دور المدينة

فنهارك الحائل متحرك، وليلك الحالك متحرك

* * *

هذه الحركة هى أبرز مظاهرك وخير ظواهرك، تنشأ وتنمو فى حضنك أيها الشتاء!

أحب حركتك التى تدل على ثورة الأرض والسماء فيك، فكل شىء فيهما وبينهما ثائر يتحرك!

توحى غيومك المتناطحة معنى الحركة، وتهدى عواصفك الثائرة ورياحك الجائرة إلى الحركة، وتملى فى كل مكان نزلت فيه الحركة...

* * *

أقم ما شئت يا شتاء!

ولتدلهم — ما شاءت — غيومك!

فأنى أحببت كل اضطرابك، وأنست باصطخابك

يا علامة النفس الحية الثائرة!

خليل هنداوى

من مراثي لامرتين لحبيبته الفير

الى إلفير

« ... أما الشاعر فانه لقادر على أن يترك من يحب ويهوى حياة لايبرحها الفناء ! »
لامرتين

ترجمة الأستاذ معروف الأرناءوط

بَلَى إنَّ نهر « آنيو » ليمور وقد استفاضت أثباجه ، ورجع صداها اسم « سنتي[1] » البهيّ ، وكذلك نهر « الفوكلوز » ألا تراه هادرا دافقا يحمل إلى صخور « تيبور » اسم « لور[2] » المستحبّ ، وإن نهر « نه رار » مثل هذا الشأن ، إذ ألقى في سمع العصور الآتية اسم « ألينور[3] »

* * *

يا لهناءة الجمال وقد عكف الشاعر على عبادته واصطفاه حرماً ومقاماً ! بل يا لهناءة الاسم الذي يسكن في أغانيه وأناشيده !

أيتها الحبيبة ! إنك لتستطيعين أن تبعثي أنفاسك الأخيرة .
أما الشاعر فإنه لقادر على أن يترك لمن يحبّ ويهوى حياة لا يبرحها الفَناء . ألا تَرينه وقد سدر في سدفة ، يُحلّق في الفضاء بجناحين من عبقرية وذكاء ؟ إنه ليصعد حتى يلتقي مع الخلود في مصاف واحد

* * *

لَئِنْ كان زورق ، وقد استخذى للرياح البوارح ، غَبَرَ يمشي قدُماً إلى شاطئ وادع ساكن ، فذلك لأنَّ ريحاً ليِّنةً سَجْواء تهافتت عليه ومشت به إلى نور دافق

إذا كانت هنالك شموس أبهر لألاء استفاضت فوق هامتي ، إذا كانت دموع الحبيبة غسلت حوبات قدري العاثر ورفعت عن جبيني وقد غشيته ظلال الفناء ، فربما كان ذلك — عفوك يا صاحب النغم الثائر — حادياً بي إلى أمر يتساوى معه تمزدي بالحبّ الذي يستهويني فأصوغ أناشيد الرثاء والترع وأترك في معبد الحبّ القديم نصباً قائماً وأثراً خالداً

ألا ترى الرجل الجوّابة وقد اعتسف السَّيْر وارتاد حمى الوادي كيف اطمأنَّ إلى الشجرة الفرعاء ، ينعم بوارف ظلّها ثم استفزته نوازع النفس إلى نقش اسمه على جذعها فترك بذلك أثراً بيِّناً

* * *

أرأيتَ كيف تنكَّر كلُّ شيء واستهم ، وكيف عشيت ظلمة الموت حواشي الطبيعــة فتعرّت الأرض من رواثها ، ونصل زبرج الغابات وذوى ، واستفاقت أمواج النهر في أعماق الزّاخر المزبج ، وهبّت على المروج ريحٌ صَرْصَرٌ عاتية صوّحت زهرها وأقاحها ومشت عربةُ الخريف في مزالق السنين تدفعها إلى المجهول يدُ الشتاء العابثة

إنَّ الزمن والموت حليفان سلاحهما سيفٌ مُرْهَفُ الحدِّ عظيم الصليل ، إنهما ليطويان العالم الخامد ويجددانه كرّ الغداة ومرّ العشيّ

* * *

ينتال الحصاد في حضيض النسيان الأبدي ، وكالصيف الذي يتساقط عشبه وينهار ، وكالكرمة الذابلة المصفرّة إذ ترى الخريف المخصوصب يلقي بأزهارها إلى القطاف ، هكذا ستسقطين وتذبلين يا زهرات العمر القصيرة وما تمثل فيك غير الشباب ، والحبّ والسرور والجمال الزائل

انظر بعين رأفةٍ وَحُبّ إلى ذلك الشباب الهادر ! إنه يتألّق ويفيض جمالاً ثم يمتصه السرور والفرح ، وحينما تنصبّ كأسه المترعة لن يبقى منها إلا ذكرى ضئيلة ، فإن القبر الذي ينتظره يبتلعه بأسره ، ثم يسود هذا الحبَّ سكونٌ أبديّ

* * *

ولكن العصور الآتية ستمرّ فوق رغامك يا « إلفير » وستعيشين إلى الأبد

(دمشق) معروف الأرناءوط

(١) «سنتي» حبيبة الشاعر الايتالي « بروبرس »
(٢) « لور » حبيبة الشاعر « بترارك »
(٣) « اله ونور » حبيبة الشاعر « لوتاس »

إلى نينـــــون ...

لألفريد دى موسيه

ترجمة الدكتور أحمد ضيف

أستاذ الأدب العربي بدار العلوم

تُرَى ... ماذا تقولين لي — ياذات الشعر الأسود والعيون الزرقاء — إذا بحتُ لكِ بحبي ... الحب كما تعلمين ينبوع أسقام مضنية، بل هو سقم لا يعرف الشفقة .. وإنك لتتجرعين آلامه. مع هذا فقد تتوعدينني بالعقاب

* * *

نينون! إنك لبارعة .. فقد خفي عليّ انصرافك عني فلم أتنبأ به؛ فاذا قلت لك إن ستة أشهر قد انصرمت في صمت وسكون خفيت فيها آلامي المبرحة وآمالي السانحة .. ربما تقولين إنك تعلمين ذلك ...

فأذا قلت لك إن جنوناً حلواً لذيذاً صيّرني ظلاً من ظلالك، وحملني على ألا أفارق خطواتك، وإن شيئاً من الشك والوجد، كما تعلمين، جملك أجملَ ما تكونين، قد تقولين لا أظن ذلك. وإذا قلت لك إني أحفظ في سويداء قلبي كل صغيرة وكبيرة من مسامراتك، وإن نظرة ارتياب منك — كما تعلمين — تجعل تلك العيون الزرقاء لهيباً مشتعلاً ... إذن لتحرمين علي رؤيتك؛ وإذا قلت لك إن السهاد ينتابني كل ليلة، وإن البكاء يتملكني كل يوم، وإني أدعو الله جاثياً .. نينون! ألا تعلمين أنك عند ما تضحكين تظن النحلة أن فمك زهرة قرمزية .. إذا قلت لك ذلك ربما تضحكين مني!

* * *

سيخفى عليك أمرى فسأجيء إليك صامتاً .. أجلس في ضوء مصباحك وأتحدث معك فأسمع صوتك وأستنشق عبيرك، ولك أن ترتابي في حبي وأن تظني بي الظنون وأن تضحكي مني، ولكن أنى يتسنى لعينيك أن تعرفا لماذا تنظران إليّ شزراً؟

* * *

سأجئ في الخفاء زهرات حافلة بالأسرار، وفي المساء أجلس خلفك وأسمع عزف يديك على البيانو، وأشعر بقدك الرشيق يلتوي بين ذراعيّ كغصن يميد، وأنت غارقة في لجة الأنغام الرقصة!

* * *

فاذا جننا الليل، وبدد النوى شملنا، ودخلت حجرتي، وأرخيت سدولها، تناوبتني ذكريات أيقظت في نفسي الغيرة؛ فهناك وأنا وحدي أمام الله أهيم فرحاً وسروراً ... أفتح قلبي، وكأنه خزانة من ذهب، فأجده مملوءاً بحبك ... إني أحب وأعرف أن أكتم حبي ... أحب ولا ينبيء عن حبي شيء ... أحبُ ومثلي لا يذاع له سرٌ! فما أعز سرّي، وما أعز سقمي وحبي!

لقد أقسمت أن أحب في غير أمل ولا رجاء، ولكن في سعادة وهناء ... إني أراك وكفى! كلا ... لم أخلق لهذه السعادة الجلّى كي أموت بين ذراعيك أو أعيش تحت قدميك! وا أسفاه! كل شيء ينبيء بذلك ... حتى آلامي ..

مع هذا، تُرى ماذا تقولين لي — ياذات الشعر الأسود والعيون الزرقاء إذا بحت لك بحبي؟

أحمد ضيف

١٠ ـ هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

الصديق

يقول المنفرد فى نفسه (لا أطيق وجود أحد بقربى) ولكثرة ما يقف محدقاً فى ذاته تظهر التثنية فيه ، ويقوم الجدال بين شخصيته وبين ذاته فيشعر بالحاجة إلى صديق . وما الصديق للمنفرد إلا شخص ثالث يحول دون سقوط المتجادلين إلى الأغوار كما تمنع المنطقة المفرغة غرق العائمين

إن أغوار المنفرد بعيدة القرار ، فهو بحاجة إلى صديق له أمجاده العالية ؛ فثقة الانسان فى غيره تقوده إلى ثقته بنفسه ، وتشوقه إلى الصديق ينهض أفكاره من كبواتها

كثيراً مايقود الحب إلى التغلب على الحسد ، وكثيراً مايطلب الانسان الأعداء ليستر ضعفه ويتا كد امكانه مهاجمة الآخرين من يطمح إلى اكتساب الصديق وجب عليه أن يستعد للكفاح من أجله ، ولا يصلح للكفاح إلى من يمكنه أن يكون عدواً . يجب على المرء أن يحترم عداءه فى صديقه ، إذ لا يمكنك أن تقترب من قلب صديقك إلا حين تهاجمه وتحارب شخصيته

أنت تريد الظهور أمام صديقك على ما أنت عليه هاتكا كل ستر عن خفايا نفسك ، فلا تعجب إذا رأيت صديقك يعرض عنك ويقذف بك إلى بعيد

من لا يعرف المصانعة يدفع بالناس إلى الثورة عليه ، فاحذر العرى ، ياهذا ، لأنك لست إلهاً ، والآلهة دون سواهم يخجلون من الاستتار

عليك بارتداء خير لباس أمام صديقك ، لتهيب به إلى طلب المثل الأعلى : الانسان الكامل

أفما تفرست يوماً فى وجه صديقك وهو نائم لترى حقيقته ؟ أفما رأيت ملامحه إذ ذاك كأنها ملامحك أنت منعكسة على مرآة مبرقعة معيبة ؟ أفما ذعرت لمنظر صديقك وهو مستسلم للكرى ؟ ما الانسان ، أيها الرفيق ، إلا كائن وجب عليه أن يتفوق على ذاته ، وعلى الصديق أن يكون كشافاً صامتاً ، فامسك عن النظر علناً إلى كل شىء ما دمت قادراً فى غفلتك على كشف كل ما يفعله صديقك فى انتباهه . عليك أن تحل الرموز قبل أن تعلن إشفاقك ، فقد ينفر صديقك من الاشفاق ويفضل أن يراك مقنعاً بالحديد وفى عينيك لمعان الخلود

ليكن عطفك على صديقك متشحاً بالقسوة وفيه شىء من الحقد ، فيبدو هذا العطف مليئاً بالرقة والظرف

كن لصديقك كالهواء الطلق والعزلة والغذاء والدواء ، فان من الناس من يعجز عن التحرر من قيوده ولكنه قادر على تحرير أصدقائه

دع الصداقة إذا كنت عبداً ، وإذا كنت عاتياً فلا تطمح إلى اكتساب الأصدقاء

لقد مرت أحقاب طويلة على المرأة كانت فيها مستبدة أو مستعبدة فهى لم تزل غير أهل للصداقة ، فالمرأة لا تعرف غير الحب

إن حب المرأة ينطوى على تعسف وعماية تجاه من لا تحب ، وإذا ما اشتعل بالحب قلبها فان أنواره معرضة أبداً لخطف البروق فى الظلام ...

لم تبلغ المرأة بعد مايؤهلها للوفاء كصديقة ، فما هى إلا هرة ، وقد تكون عصفوراً ، وإذا هى ارتقت أصبحت بقرة ...

ليست المرأة أهلاً للصداقة ، ولكن ليقل لى الرجال من هو أهل للصداقة بينهم ؟ إن بفقر روحكم وخساستها يستحقان اللامنة أيها الرجال ، لأن ماتبذلونه لأصدقائكم يمكننى أن أبذله لأعدائى دون أن أزداد فقراً

إنكم لا تتخذون إلا الأصحاب ، فالى متى تسود الصداقة بينكم ؟

ألف هدف وهدف

لقد شاهد زارا كثيراً من البلدان وكثيراً من الشعوب ، فنفذ إلى حقيقة الخير والشر ، وعرف أن لا قوة فى العالم تفوق قوتهما

تحقق أن ليس على الأرض من شعب تحلو له الحياة دون أن يخضع النُظُم والسُنن لتقديره ، وأن كل شعب يرى من واجبه ، إذا أراد الحياة ، أن يجىء بتقدير يختلف عن تقدير من

يجاوره من الشعوب . وهكذا كان ما يراه أحدهما خيراً يراه الآخر دناءة وعاراً

ذلك ما عرفته ، فكم من عمل اتشح بالعيب فى بلد ، رأيته مجللا بالشرف والفخر فى بلد آخر

لم أر جاراً تمكن من إدراك حقيقة جاره ، بل رأيت كلاً منهما يعجب لجنون الآخر وقسوته

لقد علق كل شعب فوق رأسه لوح شريعته ، وسطر عليه ما اجتاز من عقبات وما تضمر إرادته من عزم ، فما تراءى له صعب المنال فهو موضوع تمجيده ، وما خيره إلا حاجة ملحّة عز مطلبها ، فهو يقدس كل وسيلة تمكنه من الظفر بهذه الحاجة

إن كل ما يوطد الحكم لهذا الشعب ، وكل ما ينيله النصر والمجد ويلقى الرعب فى روع جاره مثيراً حسده إنما هو فى نظره ذو المكانة الأولى ، وما احتل المقام الأول فى اعتباره يصبح مقياساً لجميع أموره ومعنًى لجميع ما يحيط به ؛ فاذا ما تمكنت من الاطلاع على حاجات أى شعب وخبرت أرضه وجوه وحالة جاره ، فأنك لتدرك النواميس التى تتحكم فيه وتحفزه الى المجالدة للغلبة على أهوائه ، ولتعرف السبب فى اختياره مراقيه الخاصة يتدرج عليها لبلوغ أمانيه

(عليك أن تكون سبّاقاً مجلياً فى كل مضمار ، فلتتلفع نفسك بغيرتها كيلا تبذل الولاء إلا للصديق)

إنها الكلمات إذا وقعت فى أذن يونانى ، ترتعش نفسه لها فيندفع الى اقتحام الصعاب طلباً للمجد

(قل الحق ، وكن ماهراً فى تفويق سهامك من قوسك)

إنها لوصية صعبت وعزّت على الشعب الذى اقتبست اسمى منه ، وفى هذا الاسم من المصاعب قدر ما فيه من أمجاد

(أكرم أباك وأمك ، ولتكن باراً بهما من صميم قلبك)

وهذه الوصية القائمة على إرغام النفس ، قد عمل بها شعب آخر فبلغ القوة وأصبح خالداً

(كن أميناً وابذل للأمانة دمك وشرفك حتى ولو كان جهادك فى سبيل ما يضير وما يورد المهالك)

وهذه أيضاً وصية عمل بها شعب آخر ، فتغلب على ذاته وأصبح عظيماً تثقله الأمانى الجسام

لقد أقام الناس الخير والشر ، فابتدعوهما لأنفسهم ، وما اكتشفوهما ولا أنزلا عليهم بهاتف من السماء

لقد وضع الانسان للأمور أقدارها ليحافظ على نفسه ، فهو الذى أوجد للأشياء معانيها الانسانية

ما التقدير إلا الايجاد بعينه ، فاسمعوا إلىّ أيها الموجدون

ما الكنوز والجواهر إلا أشياء أرادها تقديركم جواهر وكنوزاً ، فما القيمة إلا اعتبار ، ولولا التقدير لما كان الوجود إلا فتوراً لا نواة فيها . اسمعوا أيها الموجدون : — إن قيمة الأشياء تتغير تبعاً لتحول اعتبار الموجد ، ولا بد لهذا الموجد من أن يهدم فى كل حين

لقد كانت الشعوب تتولى الايجاد فى البدء حتى ظهر الأفراد الموجدون ، فما الفرد فى الواقع إلا أحدث هيئات الوجود

لقد أقامت الشعوب لنفسها قدْماً شريعة خيرها ، وما نشأت هذه الشريعة إلا باتفاق المحبة التى طمحت الى السيادة ، والمحبة التى رضيت بالامتثال

إن هوى المجموع أقدم من أهواء الفرد ، وإذا كان خير الضمائر ما يكمن فى المجموع ، فان شرها ما يتجلى فى الفرد الملئ شخصيته

والحق أن الشخصية الراوغة التى لا محبة فيها ، الشخصية التى ترمى الى الاستفادة من خير الاكثرية ، إنما هى عنوان انحطاط المجموع لا مبدأ كيانه

ما خلق الخير والشر فى كل عصر إلا المهوسون المبدعون ، وما أضرم نارهما إلا عاطفة الحب وعاطفة الغضب باسم الفضائل جمعاء !

لقد شاهد زارا كثيراً من الشعوب والبلدان فما رأى قوة على الأرض تفوق قوة المهوسين ، والقوة معنى لكلمتى الخير والشر

ما أشبه ما يستدعى التمجيد ويستوجب العقاب بالمسخ الهائل ، فمن له بسحق هذا المسخ ، أيها الاخوة ؟ من سيشد بالأغلال على ما يتلع هذا الحيوان من آلاف الأعناق ؟

لقد بلغت الأهداف الألف عدا إذ بلغ عدد الشعوب ألفاً ، فنحن بحاجة إلى قيد واحد لألف عنق ، لأننا بحاجة إلى هدف واحد ، فالبشرية لم تعرف حتى اليوم لها هدفاً ، ولكن إذا كانت الانسانية تسير ولا غاية لها ، أفليس ذلك لقصورها وضلالها ؟

هكذا تكلم زارا

(يتبع) فليكس فارس

١٢ ـ تاريخ العرب الأدبي

للأستاذ رينولد نيكلسون

ترجمة حسن محمد حبشي

الفصـــل الثاني

ثم ملك بعده الحرث الأصغر بن الحرث الأعرج بن الحرث الأكبر ؛ ومن ولد الحرث الأعرج أيضاً عمرو بن الحرث الذي كان النابغة سار إليه حين فارق النعمان بن المنذر ؛ وكان يقال لعمرو أبو شمر الأصغر ومن ولده المنـــذر بن الحرث والأيهم ابن الحرث ، والأيهم هذا أبو جبلة بن الأيهم ؛ وجبلة آخر ملوك غسان ، وكان طوله اثنى عشر شبراً ، وكان إذا ركب مسحت قدمه الأرض ، وأدرك الاسلام فأسلم في خلافة عمر بن الخطاب ثم تنصر بعد ذلك ولحق بالروم . وكان سبب تنصره أنه مرّ في سوق دمشق فأوطأ رجلاً فرشه فوثب الرجل فلطمه فأخذه الغسانيون فأدخلوه على أبي عبيدة بن الجراح[1] فقالوا هذا لطم سيدنا . فقال أبو عبيدة : « البينة بأن هذا لطمك ؟ » قال وما تصـــنع بالبينة ؟ قال إن كان لطمك لطمته بلطمتك . قال ولا يقتل ؟ قال لا . قال تقطع يده ؟ قال لا ، إنما أمر الله بالقصاص فهي لطمة بلطمة ، فخرج جبلة ولحق بأرض الروم وتنصر ولم يزل هناك إلى أن هلك[2] » . وإن الأخبار العربيـــة الخاصة بدولة الغساســـنة لحيرة موئسة ، وقل أن تمد الباحث بأي مادة حتى يستطيع أن يؤلف من شتاتها هيكلا تاريخياً تقريبياً باضافتها إلى النتف المبعثرة في كتب المؤلفين البيزنطيين[3] . ويظهر أن أول أمير مستقل من الغساســـنة هو الحرث بن جبلة الذي اختاره جستنيانوس حوالى ٥٢٩ م ليكون في جانبه ضد المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة ، وقد قضى الجانب الأعظم من حكمه الطويل

(١) أحد صحابة الرسول قاد الجيش الاسلامي في فتح الشام ، ومات سنة ٦٣٩ م

(٢) ابن قتيبه 28 — Brünnow : chrestomathie pp. 26

(٣) التفاصيل المذكورة مستقاة من مقال نلدكه

Die Ghassânischen Fürsten aus dem Hause Gafna's في Abhband. d.Kön. Preuss Akad. d.Wiss-enschaften (Berlin, 1887) ١٠ ـ ٨

(٥٢٩ — ٥٦٩) في حروب طاحنة مع منافسه الخطير الذي ذكر شيء عن دفاعه وموته في الواقعة الفاصلة واقعة حليمة التي أشرنا إليها آنفاً ، وكان الحرث مسيحياً يعقوبياً ، وقد دافع عن هذا المذهب دفاعاً شديداً في حماسة منقطعة النظير في وقت كان التملق بأهدابه إياه مجازفة خطيرة . وإن القصة التاليـــة لتصوّر خلقه الخشن المخيف : ذلك أنه في أخريات أيامه زار القسطنطينيـــة ليتفق مع السلطة الحاكمة هناك عمّن يخلفه من أبنائه ، واستطاع أن يجتذب اليه عطف الـكثيرين ، وترك أثراً عظيما في نفوس أهلها وخاصة ابن أخي الامبراطور جستنيانوس ؛ وبعد عدة أعوام حينما تقدّم بجستنيانوس عمره وأصابه الجنون ، خافه حجابه إذ أخذ يهـــذي بقوله : « هش سيأتي إرثاس ويأخذكم[1] »

وخلف الحارث ابنه المنذر الذي ظهر على ملك الحيرة الجديد قابوس بن هند عام ٥٧٠م في الوقعة التي ربما كانت هي المعروفة عند العرب بعين أباغ[2] ، وربما يكون رفض الامبراطور جستنيانوس إمداده بالـــال مانعاً إياه (المنـــذر) من الاهتمام برعاية مصالحه ؛ وكان ذلك فاتحة عداء بينهما ، ولذلك تلبـــدت سماء صداقتهما بغيوم عداء ظل مستحكم الحلقات إحدى عشرة سنة ؛ ومنذ ذلك الوقت حتى استيلاء الفرس على فلسطين ســـنة ٦١٢ م ضربت الفوضى بجرانها ، وعمت أرجاء مملكة الغساسنة ، فأخذت القبائل المختلفـــة تختار رؤساءها الذين كانوا بطبيعة الحال ، وفي كثير من الأحيان ، من جفنة ؛ ولـكن الأسرة نفسها تحطمت تمـــاماً ؛ وغير بعيد أن تكون قد استمادت قواها الدائرة وسطوتها النائرة ، حينما طرد هرقلُ الفرس من أرض سورية سنة ٦٢٩ م إذ نجد الغساســـنة مراراً يحاربون المسلمين بجانب رومة ، ويتفق المؤرخون العرب جميعاً على أن جبـــلة بن الأيهم الجفني — الذي كان له ضلع كبير في النزاع — هو آخر ملك غساني ، وقد حكم حوالى سنة ٦٣٥ م ؛ وأن الشاعر حسان بن

(١) يرى نلدكه (المرجع السابق ص ٢٠) أنها تشـــير الى قبض انسيسوس (الباب الثاني الفصل الثالث) راجع :

The Ecclesiastical History of John, Bishop of Ephesus trans. by R. Poyne Smith, Part III, q. 168

(٢) لا يمكن أن تكون هذه الواقعة هي نفس واقعة « عين أباغ » التي حدثت بين المنذر بن الحرث بن جبلة والمنذر الرابع ملك الحيرة عام ٥٨٣ م راجع :

Guidi : L'Arabi antéislamique, p. 27.

ثابت الذى كانت تربطه رابطة القربى بالغساسنة قد زار فى شبابه بلاطهم فصوّر لنا تصويراً شاملاً دقيقاً ما يموج به من صور النعيم والترف والعظمة فى قوله(١) « لقد رأيت عشر قيان : خمسا روميات يغنين بالرومية ، وخمسا يغنين غناء أهل الحيرة أهداهن اليه إياس(٢) بن قبيصة ، وكان يفد اليـه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها ، وكان إذا جلس للشرب فرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين ، وضرب له العنبر والمسك فى صحاف من الفضة وأوقد له العود المندى إن كان شاتياً ، وإن كان صائفاً بطن بالثلج وأتى هو وأصحابه بكساء صيفية يتفضل بها هو وأصحابه فى الصيف ، وفى الشتاء الفراء والفنك وما أشبهه ؛ ولا والله ما جلست معه يوماً قط إلا خلع على ثيابه التى عليه فى ذلك اليوم وعلى غيرى من جلسائه . هذا مع حلم عمن جهل ، وضحك وبذل من غير مسألة ، مع حسن وجه وحسن حديث ، ما رأيت منه خناً قط ولا عربدة(٣) »

ولم تكن إقامة الغساسنة ثابتة بعكس منافسيهم فى الفرات ، فقد حكموا الاقليم الذى حول دمشق وتدمر ، ولكن هـذه الأماكن لم تكن فى حوزتهم أبداً ، وكانت عاصمة ملكهم البدوية « الحيرة » التى ظلت تنتقل معهم هنا وهناك ، ولكنها كانت توجـد عادة فى الجولان جنوب دمشق ، وقد استطاع الغساسنة أن ينشئوا حضارة أعظم من حضارة اللخميين لتأثر الأولين تأثرا شديداً بالثقافة الاغريقية ، وللطبيعة البدوية التى كان عليها الآخرون الذين كانوا أوثق اتصالاً بالعرب الوثنيين الذين استطاعوا أن يسموهم بميسمهم . وإن بعض مظاهر هـذه الحضارة لتتضح لنا من خلال الوصف الشائق لبلاط جبلة بن الأيهم ، ذلك الوصف الذى ينسب إلى الشاعر حسان . ولما صبّ النعمان الثالث ملك الحيرة جام غضبه على الشاعر الألمى النابغة هرب إلى سورية حيث نظم قصيدة رائعـة امتدح فيها الغساسنة فى شخص مليكهم الحرث بن الأعرج ، وبعد أن امتدح بسالتهم وشجاعتهم فى ركوب متن الأهوال التى صوّرها فى بيت واحد قوى يقول فيه :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

أخذ يقول :

لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم من الجود والاحلام غير عوازب
محلتهم ذات الأله ودينهم قويم فما يرجون غير العواقب
رقاق النعال طيب حُجزاتهم يحيوّن بالريحان يوم السباسب
تحييهم بيض الولائد بينهم وأكسية الاضريج فوق المشاجب
يصونون أجساداً قديماً نعيمُها بخالصة الأردان خضر المناكب(١)

وتاريخ البدو أيام الجاهلية لا يخرج عن كونه سجلا لحروبهم ، أو بالأحرى عن ذكر عصابات كانت تغير على القوافل بين آن وآخر للسلب والنهب . ولم تكن ثمت حاجة إلى الاستئناف ، بل كان كل فريق منهم يفخر بنسبه ، ويرمى الآخر بوابل هطال من الأهاجى المقذعة وتؤثر الابل والنساء ، كما كانت المناوشات المدة تقوم بينهم ، ولكن القليل منها يؤدى الى نشوب حرب ، وكان ذلك نوعاً من الحروب الهوميرية أتاح فرصة طيبة للقيام بأعمال تنطوى على البطولة . ويقول نوريك فى ذلك : « وإذا شئنا أن نكتب التاريخ الواقى لمثل هـذه المنازعات البدوية وجدنا ذلك أقرب الى المستحيل . أما عن المصادر المعاصرة لها التى تستأهل عناية الباحث ، فليس لدينا سوى القصائد والمقطعات الشعرية التى ظلت محفوظة . وطبقاً لما يذكره السيوطى كان العرب يطلبون من أى بدوى يقص حادثة تاريخية أن يقرنها ببعض أشعار تتعلق بها . وفى الحقيقة أن هـذه الأقاصيص وأشباهها التى حفظت على مر العصور حتى وصلت إلينا قد تبلورت حول القصائد . ومما يؤسف له أنها قلما كانت صحيحة ، وكثيراً ما يتضح أن الأقاصيص قد اخترعت اختراعا حتى توافق موضوع الأشعار(٢) »

(يتبع)

حسن حبشى

(١) الأغانى جـ ١٦ س ١٥ س ٢٢ — ٣٠

(٢) تولى أياس بن قبيصة ملك الحيرة (٦٠٢ — ٦١١ م) عقب النعمان الثالث وينمى الى قبيلة طى . راجع ما كتبه Rothstein فى : Lahmiden, P. 119.

(٣) مع استبعاد أن تكون هذه القطعة من قول حسان فهى مشكوك فيها ، ولكن هذا لا يؤثر جديا فى قيمتها إذا اعتبرنا أنها مأخوذة من ديوان الشاعر نفسه الذى تكلم فيه مرارا عن الغساسنة ، والاشارة الخاصة الى جبلة بن الأيهم خطأ ، فان معرفة حسان بالغساسنة ترجع الى أيام أن كان وثنياً ؛ والمعروف أنه اعتنق الاسلام قبل حكم جبلة بعدة سنوات

(١) ديوان النابغـة الذبيانى طبعة Derenbourg ص ٧٨ ، وفى Delectus لنلدكة ص ٩٦ ، وقد ترجم القصيدة بأكلها سير شارلز ليل فى كتابه Ancient Arabian Poetry, P. 95

(٢) Thorbecke : Antarah, ein vorislamischer Ditcher, P. 14

الأمل

مهداة إلى شبابنا الباسل
أمل مصر فى عهدها الجديد

للأستاذ محمود الخفيف

طامحٌ يوحى لقلبى ما الطماحْ   سائلُ الغُرّة رفّافُ الجناحْ
سابحٌ فى النور هيمانُ به   أبداً تلقاهُ فى عليائه
نازعاً صوبَ السماوات الفساح

خافقٌ يملأ نفسى سِحرُه   وإذا غاب شجى ذِكرُه
كلما أزعج رُوحى خاطرٌ   هتف بالقلب به مُسترْوحاً
فتراءى ، فاجتلاهُ ، فاستراح

قبسٌ لاح من الخلد سناه   كم جلا للنفس من سرّ الحياه
كم تطلعت إلى غُرّته   وهفت نفسى إلى بسمته
فى غُدوٍّ للمعالى ورَواح

كم نفى مرآهُ عن قلبى الشجن   كم سمت روحى عن هذا البدن
آهِ - كم ثارت بقلبى عزمةٌ   ولكم آنستُ فى إشراقه
من تجلٍّ لم يكن قبلُ يُتاح

حُلُم يا حُسنه من حُلُم   قصّرت عنه وضاقت كلمى
فقصاراى مُنى ناضرةٌ   ورؤًى ضاحكةٌ مُسفرةٌ
منه فى دُنيا جمال ومراح

لمحةٌ فى الأرض من معنى الخلودْ   سلوةُ الانسان فى هذا الوُجود
ماثلٌ فى كلّ حُسن ، ناطق   كم رأتْ عيناى فى ساحاته
من معانٍ ترجمت عنه فِصاح

* * *

شِمتُه فى البذر نديانَ الشبابْ   شقّ فى مسراهُ مركومَ السحاب
ثمّ فى الصبح بدت آيته   وتجلى بعدَ ليل مُطبق
أبلجَ الوجنةِ وردىَّ الوشاح

فى تباشير الربيع المُغدقِ   فى تثنّى كل غصن مورق
فى زياط العُشّ ، فى أفراحه   فى انتشاء الكون ، بل فى بعثه
فى الشذى نمّ بأسرار البطاح

فى ندِىّ الزَّهر جلاه الفلق   مُشبعَ الصبغة من لون الشفق
ملأ الأنفسَ من نُضرته   ومضى يروى حديثاً عجباً
عن وجوه مثله غُرّ صباح

شِمتُه فى البُرْء بعد السقم   مسحتْ يمناهُ بَرْحَ الألم
فى الشباب الغض موفور الجذل   تبهرُ الألبابَ فى إقدامه
عزَماتٌ منه فى الجدّ صِحاح

فى نهوض الفذ من عثرته   فى تساميه إلى غايته
فى انطلاق الحرّ من أصفاده   فى خُطى العائد من غُربته
بعد شوق وعناء وانتزاح

* * *

توأمَ الحبّ وبانى عُشّه   إيه يا صنوَ الهوى فى عرشه
أجتلى وجهك سمحاً مُشرقاً   فى وجوه تشرق الدنيا بها
مثلما يُشرق بالشمس الصباح

أجتلى طيفك حلواً رائعاً   فى مُحيّين يروقان معا
أنت أحييت المنى فالتقيا   وجملت الوصالَ لهواً سائغاً
لا أرى فيه على الحبّ جُناح

أجتلى طيفك فى وجه الغلام   راق فى عينيه معنى الابتسام
تطرَب الأمُّ إلى لثغته   ويرى الوالدُ من أفعاله
أبداً بين ثناء وامتداح

* * *

يا أنيس الروح فى وحشتها   وحديث النفس فى خلوتها
كم تراءاك فؤادى قبساً   ولكم لُحتَ لعينى صورةً
أذهلت قلبيَ عن لذع الجراح

هاتِ من فيضك يا نورَ الأمَلْ   إيه يا روح الشباب المُقتبل
أدِر الدفّة وانشر لى الشراعا   رافق الفُلكَ إلى وِجهتها
وابتسمْ ؛ يلمعْ على الافق النجاح

الخفيف

رواية الدمع

للسيد رفيق فاخوري

أيها النائى على قُرْبىَ دمٍ بين قلبينا ، أغث قلبي الصَّدِي
عاطِ من راحك ظمآن إلى خمرة تحيي صريع الكمد
وحياةِ الحب يا من بَثثتْ روحُه ميتَ الهوى فى كبدى
لم تخنك العين فى السرّ ولم تستبر نشوتَها من أحد

* * *

أنا مشتاقٌ فهل تعطف أو لا تَرى فى الحب رأىَ المشفق ؟
عادنى البينُ بألوان الضَّنَى فأجرى من بادٍ مُوبِقِ
أين منى ناظرٌ يجلو الدجى عن جفونى بسواد الغسق
أين منى بسمةٌ لاهيةٌ جرحها فى القلب باقٍ ما بقى

* * *

أنت مأمون على القلب فلا تمتحن إخلاص قلبي بالجفا
شهدت حالى على حبى وهل يستطيع الصب كتمان الهوى ؟
صاح ما فى الحب مكنونٌ ولا من روايات التصابى ما انطوى
يسكت العاشق عنها جهده ويقص الدمع منها ما جرى

* * *

يا نجىَّ الروح لا تبعدْ فما تصبر النفسُ على بُعد مُناها
طال ليلى فاجْلُها ضاحكةً لا يطل الفجر إلا من سناها
طلعة غرّاء يستهدى بها حائر فى مجهل الأحلام تاها
وَجَدَتْ عيناىَ لما أشرقت حسنَها واعتنقت روحى هواها

* * *

حبذا طيفك يأتينى وإن سلب النوم وأهدى البُرَحاء
زائرٌ يخرجنى من وحدةٍ قرَّبت من شقوتى ما قد تناءى
أيهذا الليل إن آنسنى طيف من أهوى وأصفيه الولاء
قل لهذا النجم : لا تبرح ، وقل لرسول حلَّ ضيفاً ، عِمْ مساء

(حمص) رفيق فاخورى

طلل*

للسيد عمر أبو ريشة

قفى قدمى ! إن هذا المكا ن يغيب به المرء عن حسّه
رمالٌ وأنقاض صرحٍ هوت أعاليه تبحثُ عن أسّه
أقلّب طرفى به ذاهلا وأسأل روحىَ عن أمسه
أكانت تسيل عليه الحيا ة وتغفو الجفون على أنسه
وتشدو البلابل فى سعده وتجرى المقادر فى نحسه
أأستنطق الصخر عن ناحتيه وأستنهض الميْت من رمسه ؟!
حوافر خيل الزمان المشـ ـت تكاد تحدّث عن بؤسه !!
فما يطمع الشوك فى تربه ولا يرغب البوم فى مكنسه
وتهجر أوكارَها العنكبوت وترجو التخلص من حبسه
لقد تعبت منه كفُّ الدمار وباتت تخاف أذى لمسه !
هنا ينفض الوهم أشباحه وينتحر الموت من يأسه !!!

(حلب) عمر أبو ريشة

(*) من ديوان (شعر) وقد صدر حديثاً



رمـــــبراندت

REMBRANDT

للدكتور أحمد موسى

بقية ما نشر فى العدد الماضى

أما صور الجماعات ، فنها ما هو فى منتهى الروعة والقوة . وصورة التشريح تمثل عدداً من نطاحل أطباء أمستردام ملتفين حول جثة منبسطة على منضدة التشريح ، والدكتور تلب يلقى عليهم شيئاً عن حالة تشريحية معينة أتم الفنان تصورها سنة ١٦٣٢ ، وكانت فى دار جماعة الأطباء بأمستردام إلى أن أخذتها الجليرى الملوكية فى الهاى.. وهى صورة تمثل ثمانية أشخاص ، سبعة منهم يستمعون لثامنهم وهو الدكتور تلب ، وتظهر على الوجوه إجمالاً ملامح الوقار العلمى والشوق إلى معرفة الجديد . أما الدكتور تلب فقد مثل الثبات والهدوء اللازمين للعالم ، ماسكا « جفتاً » بيمينه رافعاً به الشرايين ، ناظراً إلى زملائه ، متحفزاً للشرح ، مشيراً بيسراه إشارة العالم الواثق الذى تنبعث من عينيه نظرة محيطة بالدرس والفحص ؛ وتبدو على وجوه المستمعين ظاهرة الرغبة الأكيدة والاستغراب . انظر للواقف إلى جانب الدكتور تلب ، ممسكا صفحة ورق بيسراه ، ألا ترى وجهه ناطقاً بالحياة ؟ ثم انظر إلى التكوين المجموعى للرؤوس وقد بدت اللحى نامية تحت الذقن ، سنة العلماء فى ذلك الحين . لقد جمع رمبراندت بين بساطة مظهر العالم وبين جلالة العلم والوقار ، أما الجثة فلا يمكن إخراجها بأحسن مما أخرجه رمبراندت ، فهى مسلوبة الارادة تماماً ، ترى اليد مرتمية ارتماء متراخياً على المنضدة ، فضلاً عما ظهر على الوجه من علائم فقدان الحياة ؛ فالفم مفتوح والعينان مغمضتان ، والجسم عار ، والذراع الايسر مشرح ظهرت منه الشرايين ممسوك بعضها بالجفت ، وهى فى مجموعها لا تدل فقط على القوة فى الاخراج ، بل تدل أيضاً على النزعة العظيمة التى نزع إليها رمبراندت ، فهو ميال إلى الجديد ، مدفوع بعامل الفن الى خدمة النواحى البعيدة التى لولا تفكيره فيها واتجاهه إليها لما شرع فى عمل شبيهاتها غيره من بعده

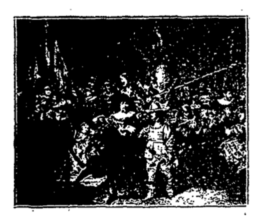


(التشريح)

وتكاد تكون أهم لوحاته عموماً صورة الحراسة الليلية وهى أكبرها مساحة ، إذ بلغ طولها أربعة أمتار ونصف متر وعرضها ثلاثة أمتار ونصف أو يزيد قليلاً . وبالرغم من أن الصورة تظهر كما لو كانت تمثل فرقة من الجنود الامستردامين خارجين من مراكزهم نهاراً ، نظراً لما وقع من أشعة النور على جانب من وجوههم ؛ إلا أن الظل والنور فى الصورة يعطى فكرة صحيحة عن قوة هذا العبقرى ولمسه جمال التصوير فى ظلام حالك يخترقه شعاع من النور ، فيزيد فى جلال التصوير بجوار الظلام الحالك . تمثل هذه اللوحة عشرين شخصاً لا ترى وجهاً يشابه الآخر ، ولكنه مع هذا جمل الجزء منسجم فى الشكل ومندمج فى المجموع ؛ فهو بتصويره على هذه الصفة أشبه بملحن موسيقى يوزع قطعته على آلات موسيقية عديدة ، جاعلاً

الانسجام الكلى متوافراً بينهما ليتم بذلك الخلق الفنى المنشود

صورها رمبراندت فى فترة طويلة وأتمها سنة ١٦٤٢ ، وهى مع اتساع مساحتها مليئة بالانشاء ، لا ترى فيها فراغ إصبع دون معنى أو دون عناية ، جعل الظل شديداً والنور شديداً hellpunkel فظهرت بألوانها الساحرة معجزة عصره



(الحراسة الليلية)

ومجموعته للصور الدينية كبيرة عظيمة من أهمها صورة (بولص فى السجن) مؤرخة سنة ١٦٢٧ ومحفوظة باستوتجارت ، وشمسون ودليلة سنة ١٦٢٨ ببرلين ، والعائلة المقدسة سنة ١٦٣١ بميونيخ وتجهيز الصليب ١٦٣٣ بميونيخ أيضاً . وإنزال المسيح من الصلب ١٦٣٣ ، وضحية إسحاق ١٦٣٥ بيطرسبرج ؛ وسيمون يندر حماه ، وصعود المسيح ١٦٣٦ ، وعائلة توبياس ١٦٣٧ باللوفر ، وبعث المسيح ١٦٣٩ بميونيخ ، وبحث العذراء عن المأوى ١٦٤٠ فى جروسفنور هاوس بلندن ، والعائلة المقدسة باللوفر ، وتضحية مانوا مؤرخة ١٦٤١ بدرسدن ؛ وهى أيضاً تكمل تعريفنا بفنان لا يمضى يوم دون ذكر اسمه فى عالم الثقافة والفن . انظر إلى وجهى القديسة والقديس وما بدا عليهما من فرط الخشوع والاستسلام . أما الملابس بثناياها وتفاصيلها ، والدار والمدخل والسلم ، فكلها بجانب ما ظهر عن تكوين الملاك الصاعد شىء ثانوى ؛ صوّره كما لو كان مسحوباً من أعلى بإرادة خارقة ، وتراه وقد تجرد عن الارادة الذاتية صاعداً دون مقاومة وصورة الزوجة الزانية أمام المسيح ١٦٤٤ ، والعائلة المقدسة ١٦٤٥ بيطرسبرج ، وابراهيم مضيفاً ثلاث ملائك ١٦٤٥ بيطرسبرج أيضاً ، وسوزانا فى الحمام ١٦٤٧ ببرلين ، وداود وشاول يعزفان الهارب بأمستردام ، وأولاد يعقوب يحضرون لأبيهم القميص الملطخ بدم أخيهم يوسف بيطرسبرج ، وعودة الابن المفقود (وهذه أيضاً من أحسن لوحاته) بيطرسبرج

أما الصور الطبيعية ، والتى ظهر أنها لم تتجاوز الاثنتى عشرة ، فمن أهمها صورة الطاحونة وهى فى حيازة اللورد لانسدون ، وصورة الرعد فى متحف براونشوايج ، وصورة منظر جبلى على سفحه بعض خرائب وهى مؤرخة ١٥٦٠ بجاليرى كاسل ، وصورة جبال وقع عليها ضوء القمر فجعلها تؤثر على الناظر تأثيراً شعرياً غريباً

ومجموعته بالقلم الرصاص والريشة معظمها باللوفر وفينا ، وبمتحف الصور اليدوية بميونيخ وبرلين ودرسدن ، وبالمتحف البريطانى ، وبمتحف هارلم وامستردام غير ما لدى الأثرياء ؛ وهى كلها تبلغ حوالى المائتين وستين صورة تصلح لأن تكون وحدها رسالة علمية فنية لحلقة فى سلسلة تاريخ الفن العام



(تضحية مانوا)

ولا يحضرنى الآن ما أقوله عن رمبراندت الخالد سوى قول شيلر :

« إن الانتاج الفنى الحق لا ينبغى أن يحيط بما هو خارق للمادة من الناحية الاشمالية البحت ، ولكنه ينبغى أن يشمل ما هو خارق لها من الناحية التكوينية ، التى بها يتأثر الانسان بكليته ؛ على حين لا يتأثر إلى هذا الحد بالناحية الانشائية التى لا تهم غالباً إلا الاخصاء ذوى الحاجة المحدودة »

أحمد موسى

من هنا ومن هناك

غاندي والفيران

انتهى سلطان غاندي في الهند وظهرت حقيقة الزعيم الذي كان بريق شهرته يخطف الأبصار . وفي الحق لقد كان الناس معذورين في إعجابهم بغاندي ، لا سيما أيام اعلانه العصيان المدني وصبره الجميل لبطش نائب الملك وغطرسة الحكام الانجليز ؛ فلما فشل العصيان المدني ورأى الهنود أن غاندي كان يسخرهم في تيه لا طائل وراءه ، هب الشباب في أنحاء الهند يسخطون على الهاتما ولم يبالوا أن يلتفوا حول جوهر لال نهرو . وزهدهم في غاندي انغماسه الشديد في الهندوكية ، ودفاعه الحار عن تعاليمها التي هي سبب نكبة الهندوكيين . وغاندي برهمي سخيف العقيدة ، فهو مؤمن سني بقدس البقرة ويتبرك بروثها بل يتطهر به ، وهو لذلك لا يرى مانعاً من أن تترك ٧٠ مليون بقرة سائمة ، لا يستطيع أحد أن يطردها من حقله إذا عاثت فيه أو نفشت في زرعه . ويدعي غاندي أنه انصرف عن الميدان السياسي إلى نصرة النبوذين وتخليصهم ، وكان ادعاؤه ذلك جميلاً لو أنه عمل به ، ولكن غاندي ، بدلاً من أن يوصي بالنبوذين خيراً ويكف عنهم أذى البراهمة ، أوصاهم بالصبر على هذا الأذى ... لأن الدين يأمر بذلك ... وهو يقول إن الدين يأمر بذلك ، ويسلم أن الفيدا — كتاب البراهمة القدس — لم يرد فيه سطر واحد يهون فيه من شأن هذه الطبقة البائسة . وبذلك كان غاندي مقتاً على النبوذين ، وكان موقفه المؤلس سبباً في ثورة الدكتور أمبيدكار — زعيم النبوذين — عليه وتصميمه على الانحياز بأخوانه ، وهم سبعون مليوناً — إما إلى المسلمين وإما إلى السيخ

ولكن المضحك من أمر غاندي هو انهيار ماضيه المظلم وتربيته العالية تلقاء خرافات الصوفية البرهمية التي لا تطاق . فقد حدث أن زلزلت الأرض زلزالها في الهند وانخسف جانب عظيم من الأرض ، فما كان من غاندي إلا أن عزا الزلزال إلى غضب الآلهة ؟ ! وأحنق بذلك أديب الهند الكبير طاغور .

وحدث مرة ثانية أن اجتاح الهند طاعون قتال ، فأوصت الحكومة بوجوب محاربة الفيران لأنها أكبر الوسائل في نقل ميكروب هذا المرض ... فما كان من غاندي إلا أن هب يحمي الفيران ويناضل عنها (لأنها مخلوقات ضعيفة لا حول لها وهي لا تستحق التعذيب والقتل لكي يسعد الناس ، والطاعون قضاء من السماء إن شاءت رفعته !!)

بين يوربيدز وأرسطوفان

كان يوربيدز عدوا للمرأة ، وهو في كل دراماته كان يبشر بالحد من سلطانها وجعل الرجل سيدها المطلق . ولم يكن يؤمن بها مطلقاً ، وكان يبني مآسيه دائماً على المصائب التي تنبع من مكرها والتي كان يعزوها إلى الشيطان الثاوي في أعماقها ؛ وعلة ذلك أنه كان بائساً في زواجه ؛ فقد دخل الجحيم عندما تزوج زوجته الأولى ، فلما خرج منها وتزوج زوجته الثانية استقر في سقر ، ولم يسعه إلا أن يطلقها كذلك ، وقد طلق زوجتيه لأنهما كلتيهما خانتاه وصبتا إلى غيره ...

هذا ويوربيدز أقوى رجال المسرح اليوناني ، ودراماته تدل على تفكير عميق وخيال خصب ، ولكنه هاج الرأي العام اليوناني بأفكاره المتطرفة وآرائه التي كان لا يتورع أن يسخر فيها بالآلهة ، بله الناس

وقد سلطت القادر أرسطوفان — الدرامي الكوميدي — على يوربيدز يوسعه سخرية ، ويتخذمن أدبه هزوا ؛ وأرسطوفان أكبر أديب مهرج عرفه التاريخ ، وهو لا يستحي أن يظهر على المسرح بطل الدرامة راكباً حماراً أعرج ، أو بلابس الرجل زي امرأة وما يلبث أن ينكشف آخر الأمر ؛ وقد يحشو الرواية بنكات مكشوفة تتصل بالعرض وتنهش الشرف ويحمر لها وجه الفضيلة

وسنلخص كوميديات أرسطوفان في هذه النبذ في الأعداد التالية ، غير أن الذي يروعنا منه في هذه المناسبة هو جراءته

الكريهة على سيد أدباء اليونان والتمريض الزرى بأمه ؛ وكان يبالغ فى إيذائه فيتهمها بالدعارة والفجور ، وأنها كانت فى صدر حياتها تبيع الفجل والخيار والطماطم فى (مشنة) تحملها على رأسها وتنادى فى شوارع أثينا !! وكان اليونانيون يسمعون هذا البذاء ويضحكون . وقد أدى ضحكهم عن أرسطوفان إلى سقوطهم وظهور رومة عليهم

سرفانتس

هاج ضرب الثوار الأسبانيين للطراد سرفانتس ذكريات سرفانتس الكاتب الروائى الأسبانى العظيم صاحب (دون كويكسوت) والذى يباهى به الأسبانيون الانجليز كما يباهى الانجليز كل العالم بشاكسبير . والذى يقرأ سرفانتس لا يلبث أن يتملكه الاعجاب الشديد بذكائه الخارق ، ونشاط روحه التى يطبعها المرح ، وتسبح فى لجة من المزاح البرىء والدعابة الخلابة والنكتة الحلوة المضحكة . ولقد كتب سرفانتس مقدمة كتابه (دون كويكسوت) وهو نزيل السجن ، وقد صدرت تلك المقدمة عام ١٦٠٥ فما لبثت أن ترجمت إلى الانجليزية ثم الفرنسية بعد صدورها بعام واحد . هذا وقد صدر الجزء الثانى سنة ١٦١٥ ، وقد استطاع سرفانتس أن يتناول فى كتابه هذا الخالد حياة طبقات الناس فى أسبانيا كما لو كان عاشئاً بينهم — ولم تفته طبقة من تلك الطبقات على كثرتها إلا وتتغلغل فيها واندمج فى معائشها . فهو يصف المحامين والحلاقين ، والأطباء والسماسرة ، والمعلمين واللصوص ، والكهنة وعذارى الأندلسيات من العرب والطباخين وأميرات قشتالة والجزائر . وشخصية دون كويكسوت شخصية عجيبة اخترعها سرفانتس لجعلها تحب وتكره ، وتسخط وترضى ، وتنشد المثل الأعلى للحياة والقدوة الصالحة للفروسية ، ودون كويكسوت رجل غريب الاطوار ، وهو فى الحقيقة يمثل سرفانتس نفسه ، لأنه شقى كما شقى صاحبه ، وتعذب كما تعذب ، وجال فى الآفاق كما سجن سرفانتس وحى عبداً رقيقاً فى قيود البيئات المختلفة كما حى سرفانتس عبداً رقيقاً عند أحد أمراء الجزائر بلاد المغرب . ولقد عاش سرفانتس فى العصر الذهبى لاسبانيا المسيحية فى القرن السادس عشر بعد جلاء العرب والقضاء على دولة ملوك الطوائف ، ومات فى نفس اليوم الذى مات فيه شاكسبير من عام ١٦١٦

يوربيدز والسوفسطائيون :

يصغر يوربيدز الشاعر الدرامى اليونانى الكبير مواطنه سوفوكلس بخمسة عشر عاماً ، ولهذه الخمسة عشر عاماً أثر كبير جداً فى المسرح اليونانى الذى بدله يوربيدز وغير معالمه إن لم يكن قد هدمه وأقامه على أسس جديدة متينة . ففى هذه الفترة كان السوفسطائيون قد عظم سلطانهم ، واتسع مدى تعاليمهم ، وتأثر الناس بفلسفتهم ، لأنهم علموا اليونانيين قواعد النقد ، وبذروا فى نفوسهم الشك ، وجعلوهم يستريبون فى كل قديم حتى آلهتهم ، لأنهم كانوا يجيدون الجدل ويتقنون المنطق ، فوسعهم أن يصبحوا المعلمين الفنيين لجميع الشعب اليونانى المثقف . ولقد تأثر بهم يوربيدز ، وانتهل من مورد فلسفاتهم ، ومن هنا ثورته على التقاليد القديمة للمسرح ، واستهزاؤه الشديد بآلهتهم ، ونظرته إلى هذه الآلهة نظرة السخرية المرة التى تقع فى اعتبارها موقع المردة والشياطين الجبارين ، لا موقع الأرباب الرحماء

حقيقة لقد أسخط يوربيدز قومه ، ولكنه فتح عيونهم على حقيقة الحياة ، وبدلاً من أن يقدم لهم روايات أبطالها الأرباب وأنصاف الأرباب ، قدم لهم روايات أبطالها هؤلاء الناس ، وحوادثها تلك الحوادث التى تزدحم بها الحياة كل يوم . . . الحب ، والبغضاء ، والحقد ، والطمع ، والأنانية ، و ... المرأة !

ولا نغالى إذا قلنا إن يوربيدز هو الذى أثار الذهن اليونانى وأعد الافكار لثورة الفلاسفة (سقراط وأفلاطون وأرسطو ...) وبالتالى فهو الذى أثار أذهاننا منذ أكثر من أربعة وعشرين قرنا

هل برنرد شو كافر ؟

لا تستطيع أن تدعو برنرد شو فيلسوفاً ؛ مع أنه أحسن الفلاسفة الذين يعيشون فى العصر الحديث ، وليس فى هذا الكلام تناقض ، إذ لا تستطيع أن تحدد فلسفة شو كما تحدد فلسفة نيتشه أو كانت أو ديكارت أو برجسون ، وكل من هؤلاء قد ترك أثراً كبيراً أو طفيفاً فى عصره وبيئته ، ولكن شو قد ترك آثاراً جليلة فى الدنيا برمتها ، وسيعيش أدب شو ، ولكن أدباً كأدب ولز سيموت . ذلك أن أدب شو كتب لهذا الجيل وللأجيال القادمة ، أو قل إنه كتب للنفس البشرية

فى كل العصور ، ولكن ولز يكتب لهذا العصر الذى نعيش فيه فقط ، وقد ماتت كل كتبه التى دعا فيها إلى الأخاء الأممى . وها هى ذى الدكتاتوريات تبتلع آراءه وتغيبها فى أعماق الظلام . ولذلك كتبنا مرة أن ولز قد مات وكان ذلك يوم الاحتفال ببلوغه السبعين ، وكنا نقصد أنه مات بأفكاره وكتبه وقصصه لولا أن سها الصفاف فأغفل هذه العبارة

وفلسفة شو هى باقات يانعة من الآراء الاجتماعية منتثرة فى قصصه ودراماته ، وليست له نظرية محدودة كما للفلاسفة ، ولكن الذى يبرز بروزاً واضحاً منها هو كفره الصريح وإيمانه بأن الله هو الحياة نفسها ، وليس شيئاً آخر . ومع أن هذا الرجل متأثر إلى حد بعيد بالطهريين ، وهو إلى الآن ينحو نحوهم فى امتناعه عن إيذاء الحيوان والاكتفاء بالأغذية النباتية فانه يكفر بأفكارهم الدينية ويثور على تقاليدهم الاجتماعية بكل ما فيه من قوة وجلد . وقلما ألف شو فى الحب ، وهو يستهزئ بالمحبين ، ولذلك لم ترج دراماته فى مصر خاصة ، وفى ممالك البحر الأبيض عامة ، ذلك لأن شعوب هذا البحر شعوب وجدانيون مولعون بالموسيقى والرقص والغناء والفنون ، وهذه كلها من آلات الحب ، وبدلنا ذلك أيضاً على رجحان العقل فى رأس شو على القلب فى صدره ، ولذلك لم ندهش يوم زار مصر وتفرج على آثار توت عنخ واحتقرها ، وقال إنه جدير بمصر أن تبيعها للأمريكان وتبنى بثمنها سدوداً على النيل أو تسدد بها دونها . حقاً إن شو لكافر !

د . خ

البريد الأدبي

ذخائر أسبانيا الفنية

أثارت أهوال الحرب الاهلية الاسبانية جزع الكثيرين على مصير ذخائر أسبانيا الفنية والادبية، ولكن السنيور كارلوس مونيثلو رئيس اللجنة التي ألفت للمحافظة على هذه الذخائر يؤكد لنا أن تراث أسبانيا الفني قد نجا من السلب والتخريب، وأنه اليوم حيثما يصان من كل عبث، ولم تفت هذه المشكلة الخطيرة حكومة مدريد حينما اشتدت وطأة الحرب الاهلية، فقد ألفت لجنة من العلماء والفنيين لتعنى بالمحافظة على تراث أسبانيا الفني؛ وبادرت اللجنة بنقل ذخائر الاسكوريال (ومنها المكتبة العربية الاندلسية) إلى مكان أمين؛ ولما اشتد هجوم الثوار على مدريد وتقاطرت قنابلهم على المدينة المحصورة نقلت اللجنة معظم الذخائر الفنية إلى بلنسية حيث تقوم الآن حكومة الجمهورية.

ويقول السنيور مونيثلو إنه قد فقدت بعض الذخائر أو أتلفت خلال الحرب، ولكن من جهة أخرى وجدت ذخائر كثيرة كانت مدفونة في أعماق الاديار أو مخبأة في المجموعات الخاصة، وهذه وحدها تعدل كل ما فقد أو أتلف أو تزيد عنه. وقد وجدت أيضاً عدة صور ومخطوطات ثمينة في المنازل والمكاتب الخاصة التي تركها أصحابها حينما اقترب الثوار من مدريد، ومنها مخطوطات كانت قد سرقت من المكتبة الوطنية. وقد سجلت هذه الذخائر كلها في قوائم سرية حتى لا يعرف بوجودها أحد، وحتى يبت في مصيرها متى وضعت الحرب أوزارها، ومما عثرت عليه اللجنة من الذخائر المجهولة مخطوط بأغاني برثيو أقدم شاعر أسباني، ومخطوط من كتب لوبي دي فيجا أعظم شعراء أسبانيا.

وقد زعم الثوار أن الجمهوريين أتلفوا ذخائر كنيسة طليطلة ومنها صورة الجريكو الشهير، ولكن السنيور مونيثلو يؤكد أن الجمهوريين غادروا الكنيسة سليمة بكل ذخائرها وحافظوا عليها حتى اللحظة الأخيرة، وحاولت اللجنة الجمهورية أولا أن تحمي المتاحف العامة بوضع أكياس الرمل وحظائر السمنت، ولكن إلقاء القنابل المحرقة كان يهددها بالدمار، فمنذئذ قررت نقلها من مدريد، ونقلت معظم الذخائر الشهيرة مثل صور موريليو، وفيلاسكيز، ونقوش جويا، وصور رافائيل كلها إلى بلنسية، ولما شبت النار في قصر دوقات ألبه من جراء قنابل الثوار، بذل الجمهوريون جهداً عنيفاً لانقاذ معظم ما فيه من الذخائر الفنية؛ وهكذا استطاعت الحكومة الجمهورية خلال الاهوال والخطوب أن تنقذ معظم تراث أسبانيا الفني ليبقى ذخراً لاسبانيا وللحضارة كلها

حول تنظيم المسرح المصري

نشرت مجلة «الكوميديا» الفرنسية في أحد أعدادها الأخيرة مقالا عن تنظيم المسرح المصري، ذكرت فيه أن المسيو جورج ريمون مراقب الفنون الجميلة بوزارة المعارف العمومية قد اقترح على الوزارة أن تنتدب الفنان الفرنسي الكبير المسيو أميل فابر المدير السابق لمسرح «الكوميدي فرانسيز» ليقوم بمهمة تنظيم المسرح المصري. والأستاذ فابر من أعظم الاخصائيين في فن التنظيم المسرحي، ومن أعظمهم مقدرة وافتنانا؛ وقد أشرف مدى أعوام طويلة على تنظيم مسرح الكوميدي فرانسيز وهو مسرح الدولة، وأحرز على يديه تقدماً باهراً. ولكن الذي يدعو إلى التأمل أن ينتدب المسيو فابر لتنظيم مسرح شرقي ذي تقاليد خاصة تمتزج بعادات الشعب وعقائده الدينية، ذلك أنه إذا كانت روح المسرح ومقاصده واحدة في مختلف المجتمعات، فانه يختلف في توجيهه وفي مظاهره وفي وسائله لتحقيق غاياته الثقافية، باختلاف الامم والشعوب، وهذا ما نرجو أن تفطن إليه وزارة المعارف

وقد صرح مسيو فابر لمكاتب الصحيفة المذكورة أنه قد خوطب فعلاً في قبول هذه المهمة وأنه قد يسافر قريباً إلى مصر

مجموعة شعرية فرنسية عن مصر

أصدرت السيدة إيمى خير الكاتبة الشاعرة المعروفة وعضو نادى القلم المصرى مجموعة شعرية جديدة بالفرنسية عنوانها «تعاريج النهر» Méandres ؛ وتحتوى هذه المجموعة على عشرات من القصائد والمقطوعات الساحرة فى وصف أيام مصر ولياليها ، ومروجها وضفاف نيلها ؛ وعدة أخرى فى سعادة الأمومة ومتاعبها . ويمتاز نظم السيدة إيمى خير بالدقة والبساطة المؤثرة ؛ وهى فوق كونها شاعرة أديبة ممتازة ، عالجت القصة وأخرجت منذ بضعة أعوام بالفرنسية قصتها المعروفة «سلمى وقريتها»

بعض أوراق البردى المصرية

كانت مكتبة ريلاند الشهيرة بمنشستر قد اقتنت فى سنة ١٩١٧ على يد الدكتور رندل هاريس مجموعة من أوراق البردى المصرية ، وبينما كان العلامة الأثرى الأستاذ روبرتس يعنى أخيراً بفحص هذه المجموعة إذ استوقف نظره قطعة سميكة من الورق المقوى كانت قد وجدت فى تابوت مومياء ، وظهر بفحصها أنها مجموعة من عدة أوراق البردى ألصقت معا ، فتولى الأستاذ علاجها ووصل أوراقها ، ولجأ فى ذلك إلى عدة عمليات صعبة دقيقة ، وكلل مجهوده بالنجاح إذ أخرجت كل ورقة منها على حدة ، ووجد أنها عبارة عن مجموعة أدبية شعرية ترجع إلى القرن الثانى قبل الميلاد ؛ ومن بينها عدة مقطوعات من كتاب «الدوترونوم» ، وعدة أخرى من الكتاب الأول من «الالياذة» ، وقطعتان من مأساة يونانية قديمة ، وقطعة من كتاب تاريخى ، وبعض قصائد متفرقة ؛ فعولجت الأوراق جميعها ، وألقيت عليها طبقة من الصمغ تمسك أجزاءها .

عصير البرتقال والدم الانسانى

هل يحل عصير البرتقال مكان الدم الانسانى ؟ إن عملية نقل الدم الانسانى من شخص سليم قوى البنية إلى شخص عليل يحتاج إلى الغذاء الدموى ليست حديثة ، فقد ظهر من النقوش والصور المصرية القديمة أنها لم تغب عن تفكير الطب المصرى القديم . ولكن هذه العملية تغدو اليوم من أهم الظواهر والوسائل الطبية فى عصرنا ؛ وفى برلين وحدها مائة شخص من الأقوياء يعطون دمهم للمرضى ؛ واشتهر من بينهم بالأخص شخص يدعى أدموند اكارث تبرع منذ سنة ١٩٣٣ إلى نحو خمسين مريضاً بدمه وخص كل منهم نحو نصف لتر ، والمدهش فى أمر هذا الرجل أنه يعيش طبقاً لنظام خاص ، ويشرب كميات كبيرة من عصير البرتقال والليمون ، ويؤكد أن هذا العصير من أعظم القويات الغذائية والدموية وهو يتناول منه نحو ثلاثين قدحاً فى اليوم . وقد أثارت حالة هذا الشخص دهشة الأطباء ، ويتولى بعضهم فحصه ليرى مبلغ ما يمكن أن يؤديه عصير البرتقال فى تقوية الدم وغزارته

التدريم Manicure بمناسبة ما جاء فى افتتاحية العدد الماضى

أهم شىء فى (المنيكير) هو تسوية الأظفار بعد القص ، فاذا وضعت لها لفظة (التدريم) مشت الحال

جاء فى القاموس المحيط : «درم أظفاره تدريماً سوّاها بعد القص»

والاصطلاح والاستعمال سيشملان سائر تلك العناية باليد ، وهل اللغات أصلها إلا تواضع واصطلاح ، فيقال :

فن التدريم ، تدريم اليد ، درمت يدى ، الآنسة المدرمة ، الأوانس المدرمات ، ما أجمل هذا التدريم

«وفوق كل ذى علم عليم»

أحمد القرار

النشيد القومى

نشرت جريدة الأهرام هذا الخبر :

تلقى حضرة صاحب المعالى وزير المعارف كتابا من لفيف من حضرات أصحاب الفضيلة أعضاء هيئات التدريس بكليات اللغة العربية وأصول الدين والشريعة الاسلامية والمعهد الأزهرى يرفعون فيه باسم اللغة والدين إلى معاليه أجمل عبارات الشكر والتقدير لاقراره النشيد القومى ، حامدين لأعضاء لجنة التحكيم يدها البيضاء على البلاد وعلى رأسهم سعادة رئيس مجلس النواب

وقد طلبوا إلى معالى العرابى باشا تعميم النشيد بين جميع أبناء البلاد طلاباً وشعباً ؛ ثم رجوا فى آخر كتابهم أن تساير النهضة الوطنية الحاضرة نهضة دينية لتصبح البلاد مثلاً أعلى فى الفكر والدين والخلق

* * *

وهذا الخبر العجيب في صورته العجيبة ، هو إجماع من لفيف من حضرات علماء الأزهر الشريف على أن النشيد لا غلط فيه ولا إلحاد ولا ضعف ولا ركاكة ، ثم هو إعلان للناس جميعاً ليقولوا سمعنا وأطعنا . . .

ومعنى هذا أن لفيفاً من حضرات علماء الأزهر يردون على مانشر في «الرسالة» من غلطات هذا النشيد رداً لا برهان فيه إلا كلمة « العلماء »

وهل يكفي في مثل هذا القرار أن ينسب إلى لفيف من علماء الأزهر ليقول للناس : « إنه لقول فصل وما هو بالهزل » ؟ ونحن في زمن العلم الذي قاعدته « هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » ؟ . . .

لقد نزل حضرات العلماء إلى المعركة ، فلنا أن نطلب منهم الرد على ماجاء في « الرسالة » من غلطات النشيد واحدة واحدة .. فإن لم يتفضلوا بذلك قلنا لهم الكلمة المشهورة : ولو أفتاك المفتون ... نعم ولو ! . . .

السيد زيادة

الاجتهاد في الأصول

قال الأستاذ عبد المتعال الصعيدي (الرسالة ١٧٩) : وأن الرسول صلى الله عليه وسلم جعل للمجتهد إذا أخطأ أجراً واحداً وإذا أصاب فله أجران ، ولم يفرق في ذلك بين أصول أوفروع ، بل أطلق الأمر اطلاقاً ، وفتح باب الاجتهاد في الأصول والفروع معاً فأنكرت هذا القول أشد الانكار ، وعجبت منه أشد العجب لأن الاجتهاد (في تعريفه الأصولي) هو بذل الجهد في طلب العلم بأحكام الشريعة ، وهو عبارة عن استنباط الفروع من الأصول ، ولأنهم ينصون في كتب الأصول (راجع كتاب الخضرى ، وهو أقرب المراجع ص ٤٥٧) ينصون على أن المجتهد فيه هو كل حكم شرعى ليس فيه دليل قطع ، يخرج من ذلك ما لا مجال للإجتهاد فيه مما اتفقت عليه الأمة من جليات الشرع ، أما المسائل الكلامية ، أى الأصول (راجع الخضرى ص ٤٦٢) فالحق فيها واحد ومن أخطأ فهو آثم ، فان كان الخطأ فيما يرجع إلى الايمان بالله ورسوله فالمخطىء كافر

وقد ألحق الأصول بالفروع الجاحظ وأشباهه ، ممن لا يعتد بهم ، ويتضح بطلان مذهبهم لكل من كان واقفاً على شيء من علم الأصول

علي الطنطاوى

هومير لابلاند

نعت إلينا أنباء السويد الأخيرة كاتباً من طراز خصوصي صائد الذئب والكاتب اللابي الشهير يوهان تورى Johan Tuuri توفى ببلدته يوكاسيرفى في قاصية لابلاند (شمال السويد) في الثانية والثمانين من عمره ؛ وكان تورى في شبابه من أشهر صائدى الذئب في تلك الأنحاء الثلجية ، وكان كاتباً وشاعراً ملهما بالفطرة حتى أنه سمى « هومير لابلاند » ، وعرف تورى لأول مرة حينما أصدر كتابه الشهير عن الشعب اللابي بلغته الأصلية التي يجيد الكتابة بها ، ويرجع الفضل في حثه على تأليفه وإخراجه إلى آنسة دانماركية تدعى أميلى دىمانتهات عرفته في رحلة لها إلى لابلاند حيث أقامت حيناً بين القبائل اللابية ودرست أحوال معيشتهم ، وعندئذ فاتحها تورى برغبته في وضع كتابه عن حياة هذا الشعب القطبي المدهش ، ولم يكن معتاداً على الكتابة ولا على الجلوس إلى المكتب ، فشجعته وعاونته حتى أتم الكتاب ؛ ثم ترجمته إلى اللغة الدانماركية ، فنال نجاحا عظيما وذاعت شهرة مؤلفه في الأمم الشمالية كلها

وكتب تورى بعد ذلك عدة كتب باللغة اللابية أيضاً وترجمت جميعها إلى السويدية والنرويجية والدانماركية ؛ وأنعم عليه بوسام شرف لما أداه من مجهود في التعريف بجنسه وأمته ؛ وكان فوق مواهبه الأدبية يشغف بالرسم ، وله عدة لوحات قطبية بديعة نالت تقديراً واعجابا

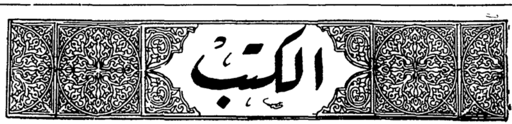
وكان تورى صياداً بارعا ويقال إنه قتل من الذئاب مالم يقتله أى صائد آخر في عصره ، وكان في أعوامه الأخيرة يعيش من راتب صغير أجرته عليه الحكومة ، ويغذى نفسه بالأسماك التي يصيدها بنفسه ، وقد احتفل مواطنوه منذ عامين ببلوغه الثمانين في حفلة قطبية رائعة أفاضت في وصف طرافتها وبهائها الصحف السويدية .

وحى القلم

إلى المشتركين في السودان

أرسلنا الكتاب لحضرات المشتركين في السودان ودفعنا أجرة البريد تسعة قروش ونصف قرش عن كل نسخة ، مع أن كل مشترك لم يرسل لأجرة البريد غير ثلاثة قروش ولم نؤخر الكتاب عنهم ثقة بهم ؛ فنرجو أن يتفضل كل منهم بارسال الفرق ولهم الشكر

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى



وحى القلم

تأليف الأستاذ مصطفى صادق الرافعى

اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم

للدكتور عبد الوهاب عزام

أنا معجب بالرافعى منذ قرأت له . وأحذر أن يغطى الاعجاب على بصرى ، وتكل عين الرضا عن العيوب ، وقد اتهمت نفسى ، ولتكافئ التهمةُ الاعجاب ، ويعادل الحبَّ الارتياب

الرافعى نسيج وحده ؛ تقرأ له فتشعر أنك فى اختراعه وتصويره ، وبيانه وتفكيره ، لا يذكرك بأحد ، ولا يذكرك به أحد . وحسب الكاتب أن يكون كونا مستقلا يستملى الضمير ، ويُبدع فى التصوير ، وكثير من الكتاب قوالب تختلف أحجامها وأشكالها ، ولكنها صور مستعارة لا تفتأ تستعير مادة عملها

بين شعراء الفرس شاعر تسمّى « خلاق المعانى » ؛ والرافعىّ فى وحى القلم جدير بهذا اللقب . وما أعسر الخلق هنا ، وما أصعب الابداع . يعمد إلى الحدث الصغير ذى المعنى المحدود فيحطم حدوده ويصله بالبشرية كلها ، أو يُشيعه فى العالم كله ، ويصوّره صوراً تلقى القارئُ بجدّتها وروعتها . والكاتب الملهم يرى الخليقة أسباباً متصلة ، ومعانى متجاوبة ، وصوراً متجاذبة ، فما يبصر ذرة إلا رأى وراءها الفلك ، ولا يمسك شعاعاً إلا جذبه إلى الشمس ؛ وكأن كل شىء فى الوجود عين تطل على العالم غير المحدود . تنثال عليه الفِكَر وتتزاحم أمامه الصور ، فيكون همه أن يشق طريقه بين المعانى المتزاحمة ، ويجدّ سبيله بين الطرق المتشعّبة ، وأن يطرد المعانى التى لا يريدها عن المعانى التى يقصدها . فهو من الخصب فى نصب — نصب الكاتب المقلّد من الاجداب والاجبال

العالم أمام الرافعى كتاب مفتوح ، يدرك فيه جمال الحروف وحسن السطور ، ثم ينفذ إلى ما لا ينتهى من المعانى . وما يزال يعرض المعنى الواحد فى صور رائعة حتى يدع القارىء معجباً حيران ، قد اجتمعت على القراءة خفقاتُ قلبه ، ونظرات عينه ، وأسارير وجهه . فلو أن الرافعى صور هذه الخفقات وبينّ هذه النظرات والقسمات لا ستردّ البيان الذى أفاضه على قارئه

والرافعى يغرب أحياناً ، أو يدقّ فيبهم معناه . وفى هذا ثورة بعض الأدباء عليه ، ولكن الذى آمن بقدرته فيما وضح واستبان من كلامه يؤمن أنه حين يغمض يتحيل لمعنى دقيق خفىّ لم تَرُضه الألفاظ ، ولم يذلله الكتاب ، أو يتلطف لفكر نفور آبد ليختله . وكثيراً ما يخيّل إلىّ وأنا أقرأ آبدات الرافعى أنى أتبع بصرى طائراً يرتفع فى الأفق ثم يرتفع حتى تضمه السحب ؛ فلا تراه العين ولكنها تعرف أنه فى جوّ السماء . فان قيل إن هذا حكم الاعجاب والرضى ، قلت فانى أتهم نفسى فلا أدفع عن هذه الأوابد . ولكن وحى القلم برىء من الغموض والابهام ، وإنما أكتب اليوم عن وحى القلم

وهذا الكاتب النابغة نزّاع إلى الجمال ، طماح إلى الفضيلة ، مولع بكل خلق كريم ، فلا يعالج أمراً إلا حلّق به إلى الجمال والرأفة والرحمة والاحسان والحرية والأقدام وهلم جرّا

وقلبه فياض بالايمان والطهر ، فاذا كتب فى الدين وما يتصل به ارتقى إلى حيث تنقطع المطامع . اقرأ مقاله : « سمو الفقر فى المصلح الاجتماعى الأعظم » . إنها تملأ القارى إعجاباً ، وتسمو به حتى يحسب نفسه ملكاً محلّقاً يرى مآتم الناس ومصائبهم من حيث لا تتعلق به ولا تستهويه ؛ ولا يوفق لهذا البيان إلا مسلم ملهم كالرافعى ، يكتب فى حقيقة علوية كالنفس المحمدية . ثم اقرأ فى مقاله : « الله أكبر » وصف المسجد ونشيد الملائكة ؛ لقد قرأت فكانت تنبعث التكبيرة من قرارة نفسى ، فأمسكها مؤثراً الاستماع إلى هذا التكبير الذى يدوى به المسجد ؛ فلما انتهى

القتال لم أملك أن رفعت صوتي بآخر كلمة منه « الله أكبر »

هذه النزعات العلوية ، والسمو الروحي يتجلى في مقالاته : الاشراق الالهي ، فلسفة الاسلام ، حقيقة المسلم ، وحي الهجرة ، فوق الآدمية ، درس من النبوة ، شهر للثورة ، ثبات الأخلاق

الرافعي كاتب الاسلام والعربية ، يتناول الحديث الصغير في تاريخ الاسلام ومآثر العرب فيجعله عنوان فصل بليغ من الحكمة والموعظة ، يسايره فيه القارئ متعجباً : كيف ولدت الواقعة الصغيرة هذه المعاني التي تحاول أن تكون تاريخ جيل ؟ . اقرأ « زوجة إمام » و « السمكة » . واقرأ « يا شباب العرب » و « يأيها المسلمون »

وهذا الكاتب السماوي أروع الناس تحليقاً بالحب الطاهر ، وأعظمهم ترفعاً به ، وأبصرهم بالمهاوي والمهالك التي يحلق عنها هذا الحب العليّ الأبيّ . نظرة إلى السماء تصف العلاء والضياء والطهر والسمو الروحي الذي لا يحد ، ونظرة إلى الأرض تصف السقوط الحيواني ، والهوى الشيطاني ؛ فترى القارئ مدعواً إلى السماء ، مطروداً عن الأرض ، طائراً إلى الخير ، نافراً عن الشر

وإذا وصف صاحبنا الجمال ، بث في العالم معانيه ، ونفض عليه ألوانه ، فكأنما خلق العالم خلقاً جديداً . يخلق من الشعاع شمساً ، ومن القطرة نهراً ، ومن الوردة حديقة ؛ ثم يفرد فلا يُدرى أهذا التفريد تفسير هذا الجمال ، أم هذا الجمال تصوير هذا التفريد . ولا يدري القارئ أهو في ربيع باهر ، أم في بيان ساحر ؟ . وما أشبه قلمه وهو يشقق النظر المُقفل عن سرائر الجمال ببارقة الذاكية ، تسلط على الصفحة الجامدة السوداء فتردّها كلاماً وأنغاماً وألحاناً ؛ واقرأ « عرش الورد » تر كيف جعل ابنته على عرشها مركزاً يحيط بها الجمال فلكاً دائراً

ولله مصطفى حين يتغلغل في الجماعات ، فيحس آلامها ، ويصف أسقامها ، ويُعرب عما في ضمائر البائسين ، وعما في رءوس المتكبرين ؛ ولا يزال بالمعنى الذي يراه الناس جماداً ، يقدحه حتى يخرج منه النار والنور . ويأخذ الحادثة الصغيرة ينطقها عما وراءها ، ويكشفها عما انطوت عليه حتى يقيم بها للانسانية عرساً أو مأتماً . اقرأ « أحلام الشارع » تسمع أنات البشرية وتر عبراتها وتلمس مصائبها مصورة ملونة بدم المهج وماء العيون [illegible] الزفرات وعز الجبروت وسواد الفاقة والذلة ؛ ثم تسمع لعنة الانسانية على لسان ما خلفت الانسانية من قوانين . والعجب أنك كلما أسال الحزن عبراتك طبع البيان الساحر على شفتيك بسمة إعجاب لا تملك نفيها . واقرأ « عربة اللقطاء » تر أنه صاغ من أساريرهم حروفاً للهجاء تسع كل معنى ، وتتمثل الآلام التي ولدت هؤلاء ، والمصائب التي يحملها هؤلاء ، والمفاسد التي سيلدها هؤلاء . وتقرأ « لحوم البحر » فتستمع إلى الشيطان والملك ، كل ينشد أناشيده . ويستخرج الرافعي منها دعوة إلى الفضيلة ولعنة للرذيلة ، وهو قادر على تسخير الشيطان لبيانه . فقد أعطى في البيان مُلك سليمان .

وإذا وعظ مصطفى الصادق نفذ إلى السرائر ، وصور للانسان فضائله ورذائله تصويراً لا يدع له أن يختار إلا الأولى وأن يهجر إلا الثانية . وهو لا يعمد إلى النذُر يصبها على النفس صب السياط ، يألم لها الجسم ، ويموت القلب ، بل يعمد إلى الحياة يصورها هنا على حقائقها نافياً عنها تلبيس إبليس ، وإلى القلب ينفخ فيه العظمة ، ويبث فيه الفضيلة والطهارة والطموح إلى كل خير ، والنفور من كل شر . واقرأ له « وحي القبور »

وهذه المقاصد الجليلة والنزعات السامية تخالطها دعابة دقيقة ، وسخرية نافذة ؛ ترى الكاتب يرتفع فوق العالم ثم يسخر مما عبّد الناسَ من أباطيل وأهواء ، فإذا التماثيل التي يسجدون لها تهاويل ، وإذا الهول الذي يفزعون منه تهويل ، وإذا العظمة والكبرياء والسلطان والجاه والغنى وكل ما عدّه الاجتماع عظمة لقوم وحقارة لآخرين ، أضاحيك يخلقها الجهل ، ويهدمها العقل ، ويقدسها الانسان حيواناً ، ويحطمها الانسان إنساناً -- وأعوذ بالله من الرافعي إذا انطلق ساخراً يرسل بيانه طعنات دراكاً وهو يضحك ضحك البرق في السحاب الراعد ، أو لمع السيف في يد الضارب .

* * *

وبعد ، فهذا وصف الروض في كلمات لو كانت أزهاراً ما مثلته ، ونعت البحر في سطور لو كانت أمواجاً ما صوّرته . فأما الروض في بهجة جماله ، والبحر في روعة جلاله ، فهما ما خطه الرافعي . فان شئت فقل جنات في صفحات ، وعباب في كتاب ؛ وإن شئت فقل إنه العالم في سطور قد انتظم ، ووحي إلهي سماه الرافعي « وحي القلم »

« ذلك الفضل من الله »

عبد الوهاب عزام

العالم المسرحي والسينمائي

نشيد الأمل

انتاج شركة أفلام الشرق

لناقد الرسالة الفني

السيناريو والإدارة الفنية (الإخراج)

تحدثنا في العدد الماضي عن قصة الفلم التي أخذ عنها السيناريو ، ولكن القارىء فيما أعتقد يرى أن هناك بعض نواح كان من الخير إهمالها ، مثل مناظر عصابة تجار المخدرات

إن سر نجاح الأفلام الفنية أنها تؤدي رسالة واحدة وتشبع فيها ناحية واحدة هي ناحية الفن الخالص ، ولكن الأستاذ بدرخان عندما كتب سيناريو « نشيد الأمل » وأدار الفلم أعطى بعض المناظر أهمية لا تستحقها ، وأخذ لها صوراً كثيرة ؛ فتصويره للاستديو وشركة الطيران والباخرة النيل جعل من الفلم أداة دعاية ، ونحن يسرنا بالطبع هذه الدعاية لمؤسسات مصرية وطنية ناجحة نؤيدها ونعتز بها ، ولكن يؤسفنا أن نقلل من القيمة الفنية لأفلامنا بمثل هذا التصرف

وهو كذلك لم ينصف شخصياته ، فنراه في دور الدكتور عاصم — وهو الشخصية الرئيسية الأولى في القصة — قد اختزله وجعله ثانويا في حين جعل دور المخرج دوراً رئيسياً وجاري غيره

مجموعة قصص

من الأدب الحديث

تأليف السيد عبد الوهاب الأمين

مؤلف هذا الكتاب شاب عراقي من أولئك الشبان الذين يكتبون القصة ، ويكتبونها للفن ، ويسمون بفنهم وتفكيرهم وعمقهم عن مستوى الجماهير . وفي الكتاب خمس عشرة قصة ، منها الموضوعة ومنها المترجمة ، والمترجمة منها لكبار كتاب القصة القصيرة في الغرب وخولهم ؛ وناهيك بتشيكوف ، وبيراندللو ، وويلز ، وموبسان من أسماء !.. ولقد ترجم المترجم وتخير أحسن روائع هؤلاء ، وأمسها بمشاعرنا وإحساساتنا ، ولا ينقصه في عمله هذا إلا المراجعة الدقيقة وتخير الألفاظ ، وصقل الأسلوب

أما القصص الموضوعة : فكلها تصور تقريباً شخصيات مريضة مضطربة كثيرة الهواجس والخواطر والشرود الذهني ، ولهذا كانت القصص تحليلية فيها عمق وبراعة وصدق ، ولا يعوزها كذلك إلا عرض الصور الذهنية قوية على القرطاس كقوتها في ذهن الكاتب . . .

ولا يمنعنا هذا من أن نقول : إن هذا القصصي الشاب من أحسن الشبان في الشرق العربي الذين يفهمون القصة على أحسن وجه ، ويتأثرون تأثراً عميقاً بكتاب القصة الانجليز والروس الذين سموا بالقصة وبلغوا بها نهاية مجدها ؛ كما أننا نكبر فيه إخلاصه للفن القصصي الذي دفعه إلى الكتابة بهذا العمق وهذا الابداع وهذا اللون الجديد من الأدب ، مع علمه بأن الجماهير في الشرق العربي على الاخص لا تستسيغ القصة التحليلية ولا تتأثر بها ، مع أنها خلاصة الفن ونهاية الرقي في هذا الميدان الأدبي ؛ وهو مع شبان قليلين في مصر يستحقون كل إعجاب وإكبار

والكتاب في اثنتين وتسعين صفحة من القطع المتوسط ، وهو مطبوع بمطبعة الثغر بالبصرة على ورق مصقول

(ميم)

من المديرين الفنيين المصريين في استغلال عناصر الضحك في الفلم إلى أبعد حد بإفساح المجال للشخصيات الهازلة . وأعتقد أن بدرخان وفق في كتابة سيناريو « وداد » أكثر مما وفق في كتابة سيناريو « نشيد الأمل » ولا سيما في خلق مناسبات الغناء ، فهي في الأول تكاد تكون طبيعية جداً على عكسها في الثاني إذا استثنينا الأغنية الأولى

لم أرد بهذا النقد إلا توجيه نظر المدير الفني وكاتب السيناريو إلى ما كنا ننتظر منه وما كانت نفوسنا تصبو إليه ، وأن نشرح له وجهة نظرنا في صراحة ، ولا سيما وهذا أول عمل يقوم به حتى يكون غيره من المديرين على هدى في عمله القادم وأقرب إلى الكمال . وأنا على ثقة من أن الأستاذ بدرخان سيحمله على المحمل الصادق الذي أرمي إليه

والنواحي التي أبدع فيها بدرخان هي نواح فنية خالصة ، وهي الإضاءة وزوايا التصوير ؛ فهو يستحق في هاتين الناحيتين أطيب الثناء ، ونجاحه فيهما رفع قيمة الفلم وبغطي على كل تصرف أو نقص آخر ، ويبدو جلياً أن الصور التي أخذت للآنسة أم كلثوم في « نشيد الأمل » أبدع وأحسن من الصور التي أخذت لها في « وداد »

الأغاني :

ليس في أغاني الفلم نوع جديد ، فهي من النوع الذي اعتدنا سماعه على التخت ومن الاسطوانات . وكان الواجب على من يلحن أدواراً للفلم أن يتذكر أنه يلحن لممثل أو ممثلة وظيفتهما في الفلم أن يترجما عن العواطف وما يضطرم في النفس من متباين الأحاسيس ، وليس الغرض ربط نغمات يلذ للأذن سماعها . فلعل الأستاذ القصبجي والأستاذ رياض السنباطي يتنبهان إلى هذه الحقيقة ؟ !

أما الغناء فإن الآنسة أم كلثوم قد ملكتنا بصوتها الرائع ، وقد تحدثنا في العدد الماضي عن هذه الناحية وأفضنا فيها

التمثيل

لا شك أن الآنسة أم كلثوم نجحت في هذا الفلم كممثلة نجاحاً طيباً ، وإن كانت حركاتها مقيدة بعض الشيء ، ولو تركت لنفسها الحرية لكانت مواقفها أبلغ في النفس أثراً ، ولكنها في هذا تخضع لأوامر المخرج حتى تكون دائماً مواجهة لعدسة الصور حيث تبدو شخصيتها أروع وصورها أجمل

والأستاذ زكي طليمات مثل دور الدكتور عاصم ، وقلنا إن الدور مقتضب ليس فيه مجال يبرز فيه الممثل مقدرته وفنه ، ولكنه أحسن القيام في النصيب الذي خص به ؛ وقام فؤاد شفيق بدور المخرج السينمائي فكان خفيف الظل ، وقد نجح نجاحاً كبيراً كاد يغطي على غيره من الشخصيات ؛ وقام محمود رضا بتمثيل الدكتور محبوب وهي الشخصية التي نقلها رجال الشركة عن شخصية الدكتور الفاضل محجوب ثابت طبيب الجامعة المصرية ، فكان عذب الروح تمكن من اضحاك رواد الفلم ، ولكنه في الحقيقة لم يستطع أن يصل إلى روح الدكتور محجوب وإن قلد بعض حركاته

واسطفان روستي قام بدور الممثل أمام الآنسة أم كلثوم ، وكان في حركاته متكلفاً ففشل في اضحاك الجمهور ، وغالى عباس فارس في تصوير شخصية الزوج وإن نجح في أدائها ، والطفلة سلوى كانت مبدعة وخفيفة ولعلها أحسن من أجاد في الممثلين

يوسف

5 me Année, No. 187

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣



ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

Lundi - 1 - 2 - 1937

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٢٤٥٠

العـــدد ١٨٧ « القاهرة في يوم الاثنين ١٩ ذي القعدة سنة ١٣٥٥ — ١ فبراير سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

قرآن الفجر

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

كنتُ في العاشرة من سنّي وقد جمعتُ القرآنَ كلّه حفظاً وجوّدتُه بأحكام القراءة ؛ ونحن يومئذ في مدينة (دمنهور) عاصمة البحيرة ؛ وكان أبي رحمه الله كبير القضاة الشرعيين في هذا الإقليم . ومن عادته أنه كان يعتكفُ كل سنة في أحد المساجد عشرة الأيام الأخيرة من شهر رمضان ؛ يدخل المسجد فلا يَبرحهُ إلا ليلة عيد الفطر بعد انقضاء الصوم ؛ فهناك يتأمل ويتعبد ويتصل بمعناه الحق ، وينظر إلى الزائل بمعنى الخالد ، ويُطل على الدنيا إطلال الواقف على الأيام السائرة ، ويغير الحياة في عمله وفكره ، ويهجر تراب الأرض فلا يمشي عليه ، وترابَ المعاني الأرضية فلا يتعرض له ، ويدخل في الزمن المتحرر من أكثر قيود النفس ، ويستقر في المكان المملوء للجميع بفكرة واحدة لا تتغير ؛ ثم لا يرى من الناس إلا هذا النوع المرطّبَ الروح بالوضوء ، المدعوَّ إلى دخول المسجد بدعوة القوة السامية ، المنحنيَ في ركوعه ليخضع لغير المعاني الذليلة ، الساجدَ بين يدي ربه ليدرك معنى الجلال الأعظم

وما هي حكمة هذه الأمكنة التي تقام لعبادة الله ؟ إنها أمكنة قائمة في الحياة ، تشعر القلب البشريّ في نزاع الدنيا أنه في إنسان لا في بهيمة . .

***

وذهبتُ ليلةً فبتُّ عند أبي في المسجد ؛ فلما كنا في جوف الليل الأخير أيقظني للسَّحور ، ثم أمرني فتوضأت لصلاة الفجر وأقبل هو على قراءته . فلما كان السَّحَرُ الأعلى هتف بالدعاء المأثور : اللهم لك الحمد ! أنت نور السموات والأرض ، ولك الحمد ، أنت بهاء السموات والأرض ؛ ولك الحمد ، أنت زينُ السموات والأرض . ولك الحمد ، أنت قيامُ السموات والأرض ومن فيهن ومن عليهن ، أنت الحق ومنك الحق . إلى آخر الدعاء .

وأقبل الناس يتتابعون المسجد فانحدرنا من تلك العليّة التي يسمونها (الدَّكة) وجلسنا ننتظر الصلاة . وكانت المساجدُ في ذلك العهد تضاء بقناديل الزيت في كل قنديل ذبالة يرتعش النور فيها خافتاً ضئيلا يَبِص بصيصاً كأنه بعضُ معاني الضوء لا الضوء نفسهُ . فكانت هذه القناديل والظلامُ يرتج حولها ، تلوح كأنها شقوق مضيئة في الجو ، فلا تكشف الليلَ ولكن تكشف أسراره الجليلة ، وتبدو في الظلمة كأنها تفسير ضعيف لمعنى غامض يُومىء إليه ولا يُبَيِّنُهُ ، فما تشعر النفس إلا أن العين تمتد في ضوئها من المنظور إلى غير المنظور كأنها سرّ يشف عن سر

وكان لها منظر كمنظر النجوم يُتم جمالَ الليل بإلقائه الشُّعَلَ في أطرافه العليا وإلباس الظلام زينتَه النورانية ؛ فكان الجالسُ في المسجد وقت السَّحَر يشعر بالحياة كأنها مخبوءة ، ويُحس في المكان بقايا أحلام ، ويسرى حوله ذلك المجهول الذي سيخرج منه الغد . وفي هذا الظلام النوراني تنكشف له أعماقه منسكباً فيها روحُ المسجد فتعتريه حالة روحانية يستكين فيها القَدَر هادئاً وادعاً راجعاً إلى نفسه ، مجتمعاً في حواسه ، منفرداً بصفاته منعكساً عليه نورُ قلبه ؛ كأنه خرج من سلطان ما يضيء عليه النهار ، أو كأن تلك الظلمة قد طمست فيه على أبواق الأرض .

ثم يشعر بالفجر في ذلك الغَبَش عند اختلاط آخر الظلام بأول الضوء شعوراً نديّاً كأن الملائكة قد هبطت تحمل سحابة رقيقة تمسح بها على قلبه ليتنضَّرَ من يُبْس ، ويرقَّ من غلظة . وكأنما جاؤوه مع الفجر ليتناول النهار من أيديهم مبدوءاً بالرحمة مفتَّحاً بالجمال ؛ فاذا كان شاعر النفس التقى فيه النورُ السماويّ بالنور الانساني فاذا هو يتلألأ في روحه تحت الفجر

***

لا أنسى أبداً تلك الساعة ونحن في جو المسجد ، والقناديل معلقة كالنجوم في مناطها من الفلك ، وتلك السُّرُج ترتعش فيها ارتعاش خواطر الحب ، والناس جالسون ، عليهم وقارُ أرواحهم ، ومن حول كل إنسان هدوء قلبه ؛ وقد استبهمت الأشياء في نظر العين ليلبسها الإحساس الروحاني في النفس ، فيكون لكل شيء معناه الذي هو منه ومعناه الذي ليس منه ، فيُخلق فيه الجمالُ الشعري كما يخلق للنظر المتخيل

لا أنسى أبداً تلك الساعة وقد انبعث في جو المسجد صوت غَرِد رخيم ، يشقُّ سُدْفةَ الليل في مثل رنين الجرس تحت الأفق العالي ، وهو يرتل هذه الآيات من آخر سورة النحل :

« ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلْهم بالتي هي أحسنُ ، إن ربَّك هو أعلمُ بمن ضلَّ عن سبيله وهو أعلمُ بالمهتدين . وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عُوقبتم به ؛ ولئن صبرتم لهُوَ خيرٌ للصابرين . واصبرْ وما صبرُكَ إلا بالله ، ولا تحزَنْ عليهم ، ولا تكُ في ضيق مما يَمكُرُون . إنّ الله مع الذين اتقوا والذين هم مُحسنون . »

***

وكان هذا القارىء يملك صوته أتمَّ ما يملك ذو الصوت المطرب ، فكان يتصرَّف به أحلى مما يتصرَّف القمري وهو ينوح في أنغامه ، وبلغ في التطريب كلَّ مبلغ يقدر عليه القادر ، حتى لا تفسر اللذة الموسيقية بأبدع مما فسرها هذا الصوت ؛ وما كان إلا كالبلبل هزَّته الطبيعة بأسلوبها في جمال القمر ، فاهتزَّ يحاورها بأسلوبه في جمال التغريد

كان صوته على ترتيب عجيب في نغماته ؛ يجمع بين قوة الرقة وبين رقة القوة ، ويضطرب اضطرابا روحانياً كالحزن اعتراه الفرح على فجاة . يَفْتَنُّ الصيحةَ ترجح في الجو وفي النفس ، وتتردد في المكان وفي القلب ، ويتحول بها الكلام الألهي إلى

أنا والأحمـــر

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

غضبتْ على ذات دل وحسن . ومن النساء من تدل ولا حسن لهـا . ومنهن الجبلة التى لاتدرك قيمة ماوهبها الله ؛ ولكن هذه عارفة مدركة أصح إدراك وأدقه . وآية ذلك أنها لاتنفك تؤكد خصائص جمالها وتبرزها بألوان الثياب ، وأسلوب التفصيل ، وبطريقة تسريح الشعر وفرقه ، وبحركاتها ومشيتها ولفتة وجهها ، والجانب الذى تؤثر أن تمنحك منه ، وبابتسامتها وخطرتها ووقفتها ، وبالصورة التى تعرضها على عينك وهى متكئة على ظهر كرسى أو خالفة شرفة ، إلى آخر ذلك إذا كان له آخر

وسر هذا الغضب أنها تؤمن بالدلال — كما لايسعها إلا أن تفعل — وأنى أنا أومن بقول المتنبي عليه ألف رحمة :

زودينا من حسن وجهك مادا م فان الجمال حال تحول
وصلينا نصلك فى هـذه الدنـيا فان المقام فيها قليـل

فلها عقلها وطبيعتها ، ولى عقلى وطبيعتى ؛ ومن أجل ذلك نحن مختلفان متجافيان ـ ترانى فتعرض عنى ، وأراها فأتجاوزها بعينى ، كأنها ليست هناك ؛ وتراجع نفسها أحياناً فتصفو وتقول عفا الله عما سلف ، وتومىء إلى إيماءة تجعلها خفيفة خفية من الكبر والتردد ، فأتجاهل وأتعامى وأتباله ، فترجع إلى شر مما كانت فيه من الغضب والسخط ، وتمنحنى كتفها أو توليني ظهرها ، وتمضى الايام على هذا التقاطع الشديد ـ أخرج إلى الشرفة وتكون هى مطلة من النافذة فتأخذنى عينها ، فـما أسرع ما تتناول مصراعى الشباك وتغلقهما بعنف لا داعى له سوى أنها تريد أن تسمعنى صوت الاغلاق لأدرك معناه . وأكون أنا فى الشرفة فتظهر فى نافذتها أو شرفتها ، فلا أكاد أراها حتى أعبس وأمط بوزى . كان من سوء حظى ألا أستطيع أن أقف فى الشرفة دقائق من غير أن تسد الفضاء أمامى ، ثم أدور دورة سريعة وأرتد إلى الغرفة ملتمساً الوقاية من جيرانها

ولم يكن هذا حالنا من قبل ، بل كنت أقبل عليها فتهش لى وتريني وميض أسنانها والتماع عينيها ، وكنت ألقاها فتدنو منى حتى لأحس أنفاسها العطرة على وجهى ، وتضع راحتها البضة على قلبى وتقول لى : « كيف حال هذا المسكين الذى لا يمل الدق بل الوثب ؟ »

فأقول « أتريدين أن يمل »

فتقول « أعوذ بالله . . ما هذا الكلام ياشيخ . . . »

فأصرف الكلام عن وجهه وأقول « إنه يدق لى ولك ، فلا عجب إذا كان يتوثب »

فتبتسم لى ـ فى عينى ـ وتقول : « ألا يمكن أن يفتر ذكرك لى ـ يفتر قليلا ـ ليرتاح هذا القلب بعض الراحة . . إنه عنيف الدق وأنا أشفق عليه »

فأقول « لا تخافى عليه ولا تجعلى اليه بالك . . دعيه يدق فان هذا عمله وواجبه فى الحياة »

ثم نمضى معاً إلى حيث يروق القعود ويطيب الحديث وتحلو النجوى ويحسن الغزل ، ونرجع ضاحكين وتام ملء عيوننا

شىء حقيق ، يلبس الروح فيرَفضُّ عليها بمثل الندى . فاذا هى ترف رفيفا ، وإذا هى كالزهرة التى مسحها الطل

وسمعنا القرآن غضًّا طريًّا كأول ما نزل به الوحى ، فكان هذا الصوتُ الجميلُ يدور فى النفس كأنه بعضُ السرّ الذى يدور فى نظام العالم . وكان القلب وهو يتلقى الآيات كقلب الشجرة يتناول الماء ويكسوها منه

واهتز المكان والزمان كأنما تجلى المتكلم سبحانه وتعالى فى كلامه ، وبدا الفجر كأنه واقف يستأذن الله أن يضىء من هذا النور .

وكنا نسمع قرآن الفجر وكأنما محيت الدنيا التى فى الخارج من المسجد وبطل باطلها ، فلم يبق على الأرض إلا الانسانية الطاهرة ومكان العبادة ؛ وهذه هى معجزة الروح متى كان الانسان فى لذة روحه مرتفعاً على طبيعته الأرضية

أما الطفل الذى كان فىّ يومئذ فكأنما دعى بكل ذلك ليحمل هذه الرسالة ويؤديها إلى الرجل الذى يجىء فيه من بعد . فأنا فى كل حالة أخضع لهذا الصوت : ادعُ إلى سبيل ربك ؛ وأنا فى كل ضائقة أخشع لهذا الصوت : واصبر وما صبرك إلا بالله .

طنطا مصطفى صادق الرافعي

وقلت لها مرة : لماذا هذه المساحيق كلها .. ماحاجتك إليها ؟ كيف يمكن أن يفتقر إلى زيفها هذا الوجه الخارج من الفردوس؟

فضحكت وقالت : أهو زيف .. ؟ »

قلت مغالطاً : إنه تأكيد لا حاجة بك إليه »

قالت : يا خبيث .. اعترف أنك تريد أن تقبل فى وتخشى أن يعلق بشفتيك الأحمر ! »

قلت : ألا يكون مجنوناً أو أعمى ذاك الذى لا يشتهى أن يقبل هذا الفم الجميل ! »

قالت : لا تغالط .. دع العموم إلى الخصوص »

قلت : أتتعمدين أن تضعى هذا الأحمر إذن ؟ »

قالت : لا .. هى عادة ليس إلا .. »

قلت ملحاً : أتكرهين أن أقبلك .. أو بعبارة أصرح فان عفريت الصراحة ركبنى اليوم .. ألا تشتهين هذه القبلة التى تقيمين فى سبيلها الحواجز وتضعين الأسلاك الشائكة أو الأصباغ العالقة ؟ »

قالت : مالك اليوم .. ماذا جرى لك ؟ »

قلت : « إن الذى جرى لى هو هذا .. أنت تعرفين أنى أحب فمك .. وأنت لا تكرهين أن أضع شفتى على شفتيك .. وتعرفين أيضاً أنى شديد الكره لهذا الأحمر السخيف ، وتعرفين فوق هذا أن إزالته سهلة إذا هو علق بفمى منه شىء يسير أو كثير ، ولكنى مع ذلك أكرهه لله .. هكذا أنا .. خلقنى الله كذلك ولا حيلة لى .. فلماذا تصبغين به شفتيك على الرغم من ذلك .. ليس الأحمر فى ذاته هو الذى يضايقنى ولكن تعمد وضعه . إذا كان الدلال هو الباعث على ذلك فان الدلال ميسور بغير الأحمر . وعلى أن الدلال حسن وجميل ، وهو يشحذ الرغبة ويقوى الحب إذا كان فى حدود الاعتدال ولم يجاوز المعقول أو المحتمل .. أى ما يسهل على الرجل احتماله بلا عناء شديد أو مرهق ، ولكن المرأة لا تفهم هذا مع الأسف ، وهى لا تزال تلح فى الدلال وتلح وتلح حتى يسأم الرجل وتتفتح مساحره ويتعذر عليه الصبر ويضيق صدره فيفتر حبه ، لأنه يكلفه فوق ما تطيق أو ما يمكن أن تحتمل طبيعته ، فتذهب المرأة تقول غدر الرجال وعدم وفائهم وتقلبهم ؛ ولو أنصفت للامت نفسها ولأدركت أنها هى التى أملته وأزهقت روحه

فقطبت وقالت : أهذا تهديد ؟ »

قلت : وهذا خطأ آخر .. فليس فيما أقول تهديد وإنما هو عجب واستغراب يدعو إليهما اختلاف الطبيعتين .. »

فقاطعتنى وقالت : قل إن طبيعتك المتجبرة تريد أن تجعل منى ملهاة لنفسك لا تخالف لك إرادة ولا تعصى لك أمراً .. »

فقاطعتها وقلت : « كلا : ليس هناك تجبر ولا شبهه ، إنما أشرح لك ماتغريك به طبيعتك وما تغرينى به طبيعتى ... »

ولا أحتاج أن أروى كل ما قالت وقلت ، فان فى مقدور القارىء أن يتصور ذلك ، وأكبر الظن أن تجارب مثل هذه مرت به وعاناها ، فما تعيش المرأة بغير رجل ولا الرجل بغير امرأة إلا فى الندرة القليلة والفلتة المفردة ؛ ومتى عاش رجل وامرأة فلا مفر من أن تسوقهما الطبيعتان إلى الشجار والنقار فى بعض الأحيان ، وأكثر ما يحدث ذلك من جراء توافه لاقيمة لها ، ولا يجرى فى الخاطر أن تجر إلى خلاف .

وقد حاولت يومذاك أن ألاعبها وأمازحها بعد فتور الحدة وذهاب السورة ، ولكن تعبى ذهب عبثاً ، ورجعنا وقد أيقن كل منا أن هناك سراً أعوص لما أبدى صاحبه من الجفاء وضيق الصدر .

ولقيتها بعد ذلك ، فقلت لنفسى إن العتاب يجدد مرارة الخلاف ، ولم يكن لى ولا لها مفر من الكلام والنفاق ، فقد كنا فى حفل حاشد من المعارف والأهل ، وانفض السامر فناولتها ذراعى وقلت « تعالى فأن بى حاجة إلى الهواء الطلق » فابتسمت ، فتوهمت أنها نسيت ما كان بيننا أو آثرت مثلى أن تطويه . وإذا بها تقول لى أول ما تقول ونحن فى السيارة « إنك مستبد » فعجبت وقلت : « كيف ؟ لقد كنت أظن أنى من ألين خلق الله وأسلسهم قياداً » « فصاحت بى « أنت .. تقول إنك لين سلس القياد .. أعوذ بالله ... »

قلت وأنا أحاول أن أصرفها عن هذا الموضوع الشائك « طيب .. آمنا وسلمنا .. مستبد مستبد .. كما تشائين .. والآن يا جاحدة ... »

وكنت أنوى أن أمازحها ، ولكنها قاطعتنى بسرعة وحدة : « جاحدة .. لماذا بالله .. هه »

فقلت لنفسي إن ليلى لا شك سوداء . . وأنا رجل أكره الجدل العقيم ولا يثقل على نفسي شيء مثله ، ولست أعرف لي صبراً عليه ؛ غير أني ضبطت نفسي ولم أدع عنانها ينفلت من بين أصابعي فقلت : « معذرة . . إني أضحك ولا أعني ما أقول »

قالت « واعترف أنك مستبد »

قلت « إذا كان الاعتراف بما ليس في يرضيك ، فها أنذا أعترف وأمري إلى الله »

قالت « كلا . . إنما أريد اعترافاً صريحاً لا مكابرة ولا تحفظ فيه »

قلت « فليكن ؛ ولكن ما خيره ؟ . ماذا يفيدك أن أقر لك بأني مستبد ؟ . أما إن هذا لغريب »

قالت « اعترف والسلام . . لست أريد فلسفة »

قلت « اعترفنا ياستي . . فهل راق مزاجك ورق »

فضحكت وقالت : « نعم » قلت : « إذن امسحي الأحمر الذي صبغت به شفتيك ، أو دعيني أمسحه لك بهذا المنديل . . إنه نظيف »

قالت « كلا » وأصرت على الرفض والتأبي فقلت : « ألا تدركين أنك مغرورة ؟ » فاحمر وجهها كأنما أفرغت على وجنتيها كل ما في الدنيا من الأحمر ، فقلت وقد تعمدت أن أثقل عليها : « نعم مغرورة . . ولم أكن أحسب شوقي رحمه الله صدق في قوله : والغواني الخ . . تعرفين الباقي . . وأحسبك تتوهمين أن حياتي رهن بأن تمسحي هذا الأحمر . أو أن روحي معلقة بشفتيك وما يكون أو لا يكون عليهما من الأصباغ السخيفة . . ثقي أن الأمر ليس كذلك . . إنما أنصح لك بمسح الأحمر لأنه . . . »

وأمسكت إشفاقاً عليها من اللفظ القاسي الذي كان على لساني فسكتت ولم تقل شيئاً

والغريب أنها بعد أن نزلت أمام منزلها وودعتها تعمدت أن تقف هنيهة قبل أن تدخل من الباب وتخرج منديلا صغيراً وتمسح به الأحمر عن شفتيها وفي يدها الأخرى مرآة الحقيبة

وكان هذا آخر عهدي بلقائها وكلامها

ولا تزال المعركة ناشبة ، وأحسبنا سنمل هذه الحرب الباردة - حرب الشفاه الممطوطة والأكتاف المهزوزة والأشاحة بالوجه والاعراض بالعين وتقطيب الحواجب وتجعيد الجبين ، إلى آخر هذه المناظر المضحكة ، ولولا أني لا أعدم القدرة على رواية الجانب المضحك لانفلقت ، ولكنت حرياً أن ألقي السلاح وأعدل عن الكفاح ، ولكنها هي متكبرة . . أوه جداً جداً . . وأنا كما تعرف . . دائم الضحك - هذا أولا - وأما ثانياً فاني لا أنفك أقول لنفسي : لقد عشت قبل عهدها دهراً طويلا لا تحس بالحاجة إليها ولا تعرف أنها موجودة . وإنك الآن لتحيا بغيرها ، ولا تعدم نعما تفيده بدونها ومن غير طريقها ، فماذا ينقصك ولماذا تعني نفسك بالتفكير في الأمر كله ؟ . . دع كل شيء للظروف والمصادفة . . وليكن ما يكون . . . ولكن يخطر لي أحياناً أني قد ألقاها ولا أرى على شفتيها هذا الأحمر ، فماذا يكون العمل حينئذ ؟ . أقول لك . . دع هذا أيضاً للمصادفة وإلهام الساعة ، إن التدبير هنا قلما يجدي أو يصح . .

ولكن ضحكي يحنقها ، وابتسامي يثير سخطها ، وأنا لا أستطيع أن أكره نفسي على التعبيس بلا موجب ، وهذا هو البلاء والداء العياء ، فانها تتوهم أني أسخر منها فتزداد لجاجة في الصدو الاعراض ، وأحسبني سأظل هكذا أبداً . . أفسد على نفسي متع الحياة بسوء تصرفي وقلة حكمتي ، فلا حول ولا قوة إلا بالله !

ابراهيم عبد القادر المازني

في الأدب المقارن

الانسان

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

إذا ما استقر الإنسان في موطن آمن، وارتقت عقليته، لم يعد يكتفي بتوفير حاجاته الجسدية واتقاء قوارع الطبيعة، بل بدأ يفكر في نفسه ومنشئه وغايته؛ لم يعد يكتفي بقبول الحياة على علاتها ومداراة غوائلها، بل راح يتساءل عن ماهيتها وغايتها وما بعدها، وأجاب عن تساؤله ذلك بما تتيح له عقليته البدائية من تفسيرات فطرية، بعضها صادق وأكثرها وهمي؛ ثم ما يزال كلما ترقى في مدارج الفكر يعاوده الشك من حين إلى حين في تلك التفسيرات، ويثور على عقائده المتوارثة، ويتناولها بالتعديل والتهذيب، فيكون من ذلك الدين والفلسفة

ويشارك الأدبُ الدينَ والفلسفة في التعبير عن تأمل الإنسان في نفسه، وتساؤله عن نشأته ومصيره، فيحفل الأدب شيئاً فشيئاً بآثار تفكير الانسان في الحياة والموت، وافتخاره بقوته وسيادته، وجزعه من ضعفه وقصور حيلته، واعتداده بمبتدعاته في مجال العلم والفن والصناعة، وارتياعه من تضاؤل آثاره تلك جميعاً إزاء قوى الطبيعة وأبعاد الكون؛ وتصطبغ تأملاته تلك في عالم الأدب بصبغة البشر والتفاؤل حينا، وبصبغة التشاؤم والقنوط حينا، حسب ما يسود المجتمع من عوامل الحيوية والثقة بالنفس والاقبال على أسباب المتعة والحبور، أو دواعي الانخذال وسقوط الهمة وفتور العزيمة، وحسب ما يخالج الأديب الفرد من بشر ملازم أو طارىء، وتشاؤم مصاحب أو عارض.

فتأمل الانسان في نفسه، وتساؤله عن مكانه في الكون، واهتمامه الدائب بسبر قواه وامتحان قدرته واستكناه غاياته ومراميه، كل هاتيك من أظهر ميزات المجتمع المتحضر والأدب العلي. وقد كان ذلك الاهتمام الملح بالانسان: قواه وطباعه ومواطن ضعفه، ومفاخره ومعايبه ومصائره ومطامعه، من أبرز ظواهر الحضارة الاغريقية وخصائص الأدب الاغريقي والفنون الاغريقية، ففيها تنويه بالجمال الانساني وترنم بالبطولة الانسانية، وفيها بجانب ذلك عرض لنقائص الانسان ومغامزه، وفيها إشادة بما تمهد له الحياة من أسباب المجد والابتداع والتمتع والسرور، وتصوير لما تفرضه عليه من هوان وصغر وقهر وآلام. وما تبسط له من لجاج الحرية وما تكبله به من مشعبات القيود؛ وليست مواضيع الدرامة اليونانية المتعددة في صميمها إلا موضوعاً واحدا: هو اصطدام مطامع الانسان بصرامة الأقدار

ولحفول الأدب الاغريقي على ذلك النحو بدراسة الانسان، سميت الآداب الاغريقية أو الكلاسية عامة منذ عهد النهضة الأوربية «بالانسانيات»، فان الاطلاع عليها لم يكن كشفا للعالم القديم فقط، بل كان كشفا للنفس الانسانية ذاتها، تلك النفس التي كانت قد أهملت في العصور الوسطى أشد الاهمال، وازدريت شر الازدراء، بتأثير الكنيسة التي ذهبت في تضليل العقول مذهبا بعيدا، فزعمت الانسان شريراً خاطئاً بالطبع، وعلمت الانسان أن فيه نزعة من الشيطان، لا يذهب مسها عنهم إلا العصا في الصغر، ودوام الندم والاستغفار في الكبر. وهكذا عكست الكنيسة بجهالتها غاية الدين الذي لم يأت إلا لتوطيد ثقة الانسان بنفسه وتمكين اعتقاده بحاضره ومستقبله، فلا غرو خمد الأدب في تلك العصور، إذ لا أدب ولا حياة إلا حيث للإنسان ثقة بالانسان

وقد ورث الأدب الانجليزي فيما ورث عن الأدب الاغريقي تلك النزعة الإنسانية، وحفل كما حفل أدب اليونان بتمجيد الإنسان من جهة، والأسى لتلاعب الأقدار به من جهة أخرى: فمواضيع روايات شكسبير الكبرى كهملت وعطيل وماكبث هي مواضيع الدرامة اليونانية: فهي تدور حول أبطال أو عظماء نالوا من المجد وشرف المحتد وفضائل الشجاعة والقوة والعقل شأوا عظيما، ولكن كل مزاياهم تلك تذهب هدرا من جراء مغامز في شخصياتهم تتسلل منها أصابع القدر إلى سعادتهم فتنغصها، وإلى مجدهم فتثله؛ ورواياته بجانب ذلك تعج بشتى الدراسات للطبائع الإنسانية، التي تثير الروعة والإكبار تارة، والشفقة والأسى مرة، والاحتقار والاشمئزاز حينا، والسخر والضحك طورا.

وإذا انتقلنا إلى العصر الحديث في الأدب الانجليزي ألفينا نفس ذلك العراك المستمر بين النفس الإنسانية الجادة في تحقيق مطالبها ومطامحها، وإثبات شأنها وخطرها، وبين القدر الصارم

القوانين السادر فى جبروته . لم يزد بعد تقدم العلم وتذليل قوى الطبيعة إلا تجسما واستفحالا . وقد نقله هاردى من عالم الرواية التمثيلية التى تدور حول الأبطال والملوك ، إلى القصة المقروءة التى تدرس المجتمع العادى ، وتتناول أوساط الناس ودهماءهم ، وليست « تس » الفقيرة إلا نظيرة « أوفيليا » المنعّمة ، ولا « يهود المغمور » فى طموحه إلى القوة إلا قريع « مكبث » المشهور فى تطاوله إلى العرش : مطامح إنسانية ، وآمال فى المتعة والسعادة ، وأقدار ماضية تعترضها وتبطش وهي عمياء بطش جبارين

وقد كان الموت ولن يزال عدو الانسان اللدود ، وبلاءه الأكبر ، واللغز الأعظم الذى استغلق على فهمه ، ووقف له بالمرصاد كأنما يسخر من كل ما يبنى وما يجمع ، ويتهكم بكل ما يأتى وما يدع ، ويقنعه فى ذروة نجاحه ومجده وسعادته بعبث سعيه وإدراكه ؛ ومن ثم امتلأت الآداب بذكر الموت وصولته وإزرائه بالحياة والأحياء ، وإتيانه على الجبابرة ، وتسويته بين العلية والسوقة ، وبين العالم والجاهل ، وتمزيقه شمل الألاّف ، وتعفيته لآثار السرور والفوز بوصل الأحبة ، وعبثه بحوَر العيون وبياض الأجياد والنحور . وقد تفنن الخيام فى رباعياته فى صوغ هذه المعانى وتحليتها بالصور الفاتنة المنتزعة من الطبيعة ومن الجمال الانسانى ، ومن مجالس الصفو والشراب

وبجانب الموت تمثلت الرهبة لعينى الانسان فى مظاهر الطبيعة الرائعة ، وقواها المصطرعة ، ولجاجها المترامية ، ومخلوقاتها المقتتلة فى سبيل الغلب والبقاء ، وصممها عن آلامه وأشجانه ، وغفلتها عن أفراحه وأتراحه ، ومضيّها على عاداتها حسُنت به الحال أو ساءت ، وخلودها على رغم فنائه ، وطيها جيلا من الناس بعد جيل ؛ فامتلأ الأدب بذكر ذلك كله . ومن جميل أمثلته مقطوعة هوجو « الطبيعة والانسان » التى يقابل فيها بين شباب الطبيعة وشيخوخته ، ونضارتها وجفاف عوده ، وبقائها ووشك ذهابه ، ويتنبأ بقيام جنازته بين معالم أعيادها ، وبمضيه غير ماسوف عليه منها ، ولا محسوس فقدانه .

وقد كان شكسبير معنيا بالموت موكلا بالتفكير فيما بعده ، يُنطق بذلك أبطاله كهملت ، الذى يتأمل فى الموت فى خلوته ، ويؤم المقابر حيث يرى الحفارين يعبثون بالجماجم وحيث يشهد دفن حبيبته فى ريعانها . ولا يمل شكسبير ذكر الموت والبلى ، حتى فى شعره النسيبى ، الذى يتسم لذلك بمسحة الحزن والكآبة .

ولشيرلى مقطوعة رائعة فى الموت سارت بعض أبياتها مسير الأمثال ، وهى تطابق فى شتى المواضع معانى رباعيات الخيام . ومن أحسن أشعار التأمل فى الموت فى الانجليزية قول كيتس ، وقد كان لضعف بنيته مايزال متمثلا شبح الموت : « حينما يخامرنى الخوف من أن أقضى قبل أن أجنى كل ثمار عقلى الوافرة ، وقبل أن تحويها الكتب المكدسة كما تحوى البيادر المحصول الناضج ؛ وحينما أشاهد على وجه الليل المرصع بالنجوم رموزاً من الغمائم لرواية تجرى فى علو ، وأذكر أنى ربما لا أعيش حتى أرسم ظلا لها بيد الالهام السحرية ؛ وحينما أشعر يا جميلتى الوشيكة المضىّ أنى لن أراك بعدُ ، ولن أنعم بتلك القوة الساحرة : قوة الحب الأعمى ، عند ذلك أقف وحيداً على شاطىء الدنيا الرحيبة ، وأفكر حتى يصير الحب والمجد هباء »

وتمثلت رهبة الطبيعة لأدباء الانجليزية فى البحر وهياج أواذيه واصطخاب عواصفه ، واطراد ثورته وبعد غوره . ومن روائع آثار الشعراء فى هذا الصدد أبيات تنيسون التى نظمها وقد قصد البحر مفكراً مهموماً ، يبغى العزاء عن فقد صديق له حميم ، ومنها قوله : « تكسر أيها البحر على صخورك الباردة الكالحة ، وطوبى لابن الصائد إذ يتصايح هو وأخته لاعبين ، وتمضى الجوارى المنشآتُ إلى مراقيها بسفح التل . ولكن من لى أنا بمصافحة تلك اليد التى غابت ، وذلك الصوت الذى سكت » . واستعار شلى رحب البحر وشدة أسْره وصرامة صروفه ، للتعبير عن صرامة الزمان وبطشه بالانسان . قال يخاطب الزمان : « أيها البحر الذى لا يُسبر غوره ، والذى أمواجه السنون ، والذى قد غدت أواذيه أجاجا من ملح دموع الإنسان ، والذى يطوى فى مده وجزره أطراف الإنسانية ، ويبشم من فرائسه وإن يكن ما يزال يعوى طلباً لسواها فيلفظ بقاياها على شطوطه غير الكريمة ولا الوثيرة »

واسترعت تفكير الأدباء أحوال المجتمعات التى رضيها الانسان لنفسه مُقاماً وما يداخلها من نقائص لا يخلو من بعضها مجتمع أو جيل ، وما فى بعض أنظمتها من تقييد للحريات وهضم لحقوق بعض الأفراد أو الطبقات ، فندد بتلك المساوىء ونادى بعضهم بإصلاح تلك المفاسد التى تهبط بالانسان عن رتبته التى هو جدير بها فى الكون ، وتعترض سيره إلى ماينشده من كمال ؛ فكان منهم رادةُ حركات النهوض والاصلاح ؛ بل نادى بعضهم

بغض المجتمع والعودة إلى الطبيعة . ويمثل تلك الكتابات الاجتماعية تحفل كتابات فلتير وروسو . وقد كانت هذه النزعة ضئيلة المظهر فى الآداب القديمة ؛ أما فى الآداب الحديثة فهى تتعاظم وتشتد جيلا لجيلا . فالنقد الاجتماعى والحض على الاصلاح غرض حديث من أغراض الأدب يضارع غرضه القديم من التعبير عن الجمال والافصاح عن الشعور الفردى

فالتفكير فى شأن الإنسان ماضيه وحاضره ومستقبله من مميزات الإنسان المتحضر المثقف ، وهو لا يكف عن هذا التفكير طوال حياته ؛ ولا تزال أشباح الماضى والمستقبل والحياة والموت ماثلة أمامه ، يكوّن لنفسه فى شأنها فلسفة تختلف عمقاً واتساعاً وإقناعاً ، وتختلف فى مدى قربها من اليقين والجزم ، أو قيامها على الشك والرفض . على أن هذا التفكير الإنسانى يفرض نفسه فرضاً شديداً على كل أديب أو كل مثقف أو كل إنسان ، فى فترة خاصة من فترات حياته ، بل أزمة من أزمات وجدانه ، يشتد فيها تفكيره فى نفسه وبنى جنسه ، ويحفزه إلى التساؤل والثورة على الحياة الإنسانية حادث نفسانى يؤثر فيه أثراً عميقاً : من خيبة أمل أو إخفاق حب أو موت عزيز ، فتتسم آثار الأديب فى تلك الفترة بالتمرد والتشاؤم والكآبة ؛ وقد يحاول إصلاح العالم دفعة واحدة ويدعو الناس إلى حياة جديدة تصورها له أحلامه ، ثم ما يلبث أن تخلف الحقائق المتحجرة ظنونه وتثبط هياجه وتروض جماحه ، فيُعدّل حياته بما يلائم ظروف الحياة الإنسانية البطيئة التغير الوئيدة الخطى ، فتعود آثاره الأدبية مشرقة بالبشر متغنية بمباهج الحياة بدل الامعان فى التفتيش عن معايبها

ولسريان الحيوية فى دماء الشعب الانجليزى وغلبة التفاؤل على أمزجة أبنائه ، كان أدباؤه إذا راعتهم نقائص الحياة الانسانية وشرورها ، وأحزنهم ضعف الإنسان وشقاؤه ، لم يلبثوا أن يتحولوا عن ذلك الجانب الأسود من الصورة إلى جانبها الأبيض ، ويطلبوا العزاء بما فى الحياة من جمال عما فيها من قبح ، فيشيدون بمقدرة الإنسان على الجلاد وبراعته فى الابتكار ، وبطولته وماضيه الحافل بالعظائم ، ويترنمون بمفاتن الطبيعة وما يصيب الإنسان عندها من رخاء بال وراحة نفس ، ويطلبون السلوى قبل كل شىء بممارسة فنهم الذى يصور تلك الحياة ويحكيها حكاية تروى من نفوسهم مالا ترويه الحقيقة الواقعة ، يصور آلامها تصويراً يخفف وقع تلك الآلام عن نفوسهم ، ويحكى مفاتنها ونعمها التى فاتتهم حكاية تشفى صدورهم . فتمثيل الأديب للحياة فى فنه يشعره كأنما قد أحاط بتلك الحياة وتمكن من أعنتها ، ويكسبه ثقة بنفسه وإيمانا بقدرته على الابتداع والاتيان بجديد من عنده .

فتنيسون حين فقد صديقه الحميم سالف الذكر توفر على إنشاء قصيدة طويلة فى ذكراه ، ولكنها لم تقتصر على ذكراه بل امتدت إلى شتى نواحى الحياة وشملت نظرته العامة إليها ؛ وشكسبير حين مرت به أزمته النفسية الكبرى باخفاق آماله فى الحب والصداقة ، نفّس عن صدره بمآسيه الكبرى ، وفيها لا نرى الانسان ألعوبة عاجزة فى يد الأقدار ، بل نرى من آثار بطولته ما يملؤنا روعة ويُبقى أمامنا نور الأمل ؛ وورد زورث حين تبددت أحلامه فى المجتمع الانسانى الفاضل الذى خال الثورة الفرنسية منجلية عنه ، مرت به غيمة قنوط عابسة لم يقشعها عنه إلا تعزّيه بمحاسن الطبيعة وقضائه الوقت متفيئا ظلالها مصوراً آثارها فى شعره . وفى عبادة الجمال الطبيعى والانسان كان كيتس يجد مفزع روحه مما يتكنفه من بأساء الحياة وما يمض عيشه من فتكات الداء

ومن أبدع الأشعار التى تعرض جانبى الصورة ناصعهما وحالكهما ، وتجسم ضعف الانسان وفناءه ، وتمجد قوته وعبقريته ، مقطوعة شلى المسماة « أوزيمانداياس المصرى » وفيها يقول : « قابلت مسافراً من أرض قديمة قال : تقوم فى الصحراء ساقان من الحجر ضخمتان عديمتا الجذع ، وقد ارتمى بجانبهما وجه مهشم يكاد يغور فى الرمال ، تنطق تقطيبته وشفته المعوجة كبرياء وعظمة هادئة ، بأن المثّال قد أجاد قراءة تلك الصفات التى ماتزال حية مطبوعة على ذلك الحطام الجامد ، وقد فنيت اليد التى صوّرتها والقلبُ الذى غذاها ، وقد لاحت على القاعدة هذه الكلمات : اسمى أوزيمانداياس ، ملك الملوك . انظروا إلى آثارى أيها الجبابرة وأقروا يائسين ، وليس بجانب ذلك شىء باق ، قد أحاطت بذلك الحطام الهائل المهدم رمال موحشة منبسطة جرداء تمتد إلى مالا نهاية » ؛ فهنا وصف شائق أخاذ لعظمة الملك وبراعة الفنان ، وتصوير رائع لسطوة الموت وبطشة الفناء

وفى الأدب العربى نرى تزايد هذا الاهتمام بالإنسان نشأته وأحواله ومصيره ، بتزايد حظ العرب من الحضارة والثقافة : فنى الأدب الجاهلى وفى صدر الاسلام لا نعثر إلا بالأبيات المتفرقة يتأمل فيها الشاعر فى ضعف الانسان وقصر حياته ، وتلاحق همومه ، واتصال آماله برغم ذلك ، وشدة إقباله على الحياة وتغاضيه عما وراءها . وفيما عدا تلك النظرات الخاطفة والمواعظ العارضة ، لا يكرث الشعراء أنفسهم كثيراً بالتساؤل فيما كان وماسوف يكون ، بل لكل منهم شأن يعنيه من حاضره ، فتغزل عاكف على هواه مترنم بليلاه ، ومفتخر يشيد بمجد نفسه ومكان قبيلته ، ومداح مجتهد فى استدرار صلات الأمراء ، وهجاء ممعن فى إثخان غريمه . ومما أثر عن متقدمى الشعراء فى التأمل فى حال الانسان قول القائل :

منَعَ البقاء تقلبُ الشمس وطلوعها من حيث لا تمسى

وقول الآخر :

ألا تسألان المرء ما ذا يحاول ؟ أنحبٌ فيُقضى ؟ أم ضلال وباطل ؟

ويتزايد التفكير فى خلق الإنسان وغايته كلما انتشر العلم والفلسفة : فترى فى شعر بشار وأبى نواس وأبى تمام من آثار ذلك فوق ما نجد فى شعر الأخطل والشماخ وجميل ، حتى يبلغ ذلك التفكير مداه بنضج العلوم والفلسفة فى القرنين الثالث والرابع ، ويبدو ذلك واضحاً فى آثار شعراء العربية الكبار : ابن الرومى والمتنبى والشريف والمعرى : لكل من هؤلاء فلسفة إنسانية منثورة فى أنحاء شعره ، ونظرة إلى الحياة تلائم طبعه ومذهبه : فابن الرومى يرى الحياة فرصة من الجمال الطبيعى والإنسانى يجب أن تغتنم ، ومتعة للحس والروح يجب أن تباكر . والمعرى يرى حياة الناس شقاء وشراً متصلا . والشريف يرى مثله الأعلى فى الفضيلة والمعالى . والمتنبى يرى الناس سواما يحرّ فيهم القتل ويحق لمثله أن يسود فيهم ويعتلى ، فلسان حاله قوله :

ومن عرف الأيام معرفتى بها وبالناس روّى رمحه غير راحم

كما أن جُماع فلسفة المعرى قوله :

فأف لعصريهم : نهار وحندس وجنسى رجال منهم ونساء

والحق أن المعرى كان أشمل هؤلاء جميعاً نظرة ، وأنفذ شعراء العربية جميعاً فكرة ، وأشدهم شغلا بالحياة ، وعناء بأمر الإنسان والأحياء عامة ، وتفكيراً فى ماضى الإنسان ومستقبله ، وتبصراً فى أحوال مجتمعاته ودياناته ، وله فى كل ذلك من مستنير الأفكار المصبوبة فى جزل الألفاظ والأساليب ما ينزله أرفع مكانة بين الشعراء المفكرين ، على ما يشوب تفكيره فى أكثر مواضعه من مسحة التشاؤم القاتم المغرق الذى هو وليد عصره المضطرب ، وحياته الكئيبة ، وبنيته السقيمة ، وأعصابه المرهفة .

وفيما عدا المعرى نرى أدباء العربية عامة أقل عناء بشؤون الانسان وشغلا بالحياة وغايتها من أدباء الإنجليزية ؛ وهم أكثر منهم قبولا للحياة على علاتها . ورغبة فى اغتنام متعاتها والتغاضى عن سوآتها ، وأقل تمرداً ولجاجاً فى الأزمات النفسية . والأديب العربى أكثر تحدثاً عن نفسه وعاداته وآدابه ولباناته منه عن الانسان عامة ؛ وهذه النزعة السمحة الراضية ترجع إلى عوامل أهمها طيب المناخ الذى يبعث البشر والثقة ، والايمان الدينى الذى بعثه الإسلام فى نفوس أبنائه وبثه فى مجتمعهم ، والإسلام أكثر تغلغلا فى حياة معتنقيه وتسرباً فى أرواحهم وتجسما فى مظاهر مجتمعهم من غيره من الأديان . هذا إلى أن الحكم المطلق لم يكن يسمح للأدباء بنقد المجتمع والنظم نقداً جريئاً ، وإنما كان يروضهم على الاندماج فى ظروف الحياة المحيطة بهم ، والتعود على اجتناء خيرها واتقاء شرها ، كما قال الشاعر :

وإن امرأً أمسى وأصبح سالما من الناس إلا ما جنى لسعيد

فلم يكن أدباء العربية يطيلون الوقوف بمهامه الشكوك ومضايق الأزمات النفسية ، بل سرعان ما كانوا يشيحون عما يطوف بهم من خيالاتها علماً بأن من أظال الفكر فى الحياة وغايتها ، والانسان ومصيره ، أقامه الفكر بين العجز والنصب ، كما قال المتنبى ، وحين كانت تطيف بهم تلك الحالات النفسية العابسة ، ويثير شجنهم وجزعهم ما يلاحظون فى حياة الإنسان ومجتمعه من نقص وشر ، لم يكونوا يتأسّون كما يتأسى شعراء الانجليزية بمحاسن الطبيعة ، فقلما أعاروا محاسنها التفاتاً ، كما أنهم قلما اكترثوا لفجائعها وأهوالها . ولو كانوا يتعزون بذكر البطولة الإنسانية ، فما يكاد يكون لها فى آدابهم أثر ؛ أو بتاريخ الأمم العظيمة ، فما كانوا يذكرون من أمرها إلا غرور مشيديها وتقويض الزمان لأركانها ، ولا بالتأمل فى مخلفات فنون تلك الأمم ، فما كانت توحى إليهم إلا بضعف الإنسان وبطلان مساعيه .

وقد التفت المتنبي إلى شرق الامبراطورية الاسلامية المترامية فقال:

أين الأكاسرة الجبابرة الأولى كنزوا الكنوز فما بقين ولا بقوا؟
من كل من ضاق الفضاء بجيشه حتى ثوى فحواه لحد ضيق

والتفت إلى غربها فقال:

أين الذي الهرمان من بنيانه؟ ما قومه؟ ما يومه؟ ما المصرع؟
تتخلف الآثار عن أصحابها حيناً ويدركها الفناء فتتبع

إنما كان أدباء العربية إذا جزعوا لضعف الانسان وقصر مدته وشرور مجتمعه، يجدون مفزعهم من الحزن والقنوط في «الفضيلة الاجتماعية»: في الأخلاق القويمة التي تكسب الإنسان حسن الأحدوثة الموروث حبها عن العرب الأقدمين، وتنجيه من شرور المجتمع الذي لا يد له بإصلاحه، والذي لا تنال شروره عادة إلا من يستهدف لها بسوء فعله. وتكسبه رضى ربه وتضمن له عقبى الدار. ومن ثم زخر الأدب العربي بروائع الحكم ونبيل التمدح بمكارم الأخلاق، وهذا باب من أشرف أبواب الأدب العربي وبه يمتاز على غيره، ومن محاسن ما فيه من ذلك قول إياس بن القائف:

إذا زرت أرضاً بعد طول اجتنابها فقدت صديقي والبلاد كما هيا
فأكرم أخاك الدهر ما دمتما معاً كفى بالممات فرقة وتنائيا

وقول الشريف:

لغير العـــلا مني القلى والتجنب
ولولا العلا ما كنت في العيش أرغب
غرائب آداب حباني بحفظهـــا
زماني، وصرف الدهر نعم المؤدب

فالعرب كانوا منذ جاهليتهم أمة اجتماعية ذات ميل غريب إلى الاجتماع، وفضيلة اجتماعية أصيلة، واستعداد متمكن للتحضر والتعاون. وأن يكونوا أمة مصلحة، يأنسون بالاجتماع ويتفاخرون بحسن الجوار وسيادة العشيرة وخدمتها معاً، ويشتغلون بمتعات تلك الحياة الاجتماعية عن طول الندب لنقائص الحياة وشوائبها، وطول التشكك والتحير في منشأ الكون ومنتهاه، وميلهم الطبيعي ذاك واضح الأثر في شعر شعرائهم. وفضيلتهم الاجتماعية تلك هي مرجع ازدهار العمران في كل بلد وطئوه، جابلة وطئوه، على حين نشر الأغاريق الخراب في شرق البحر الأبيض حين هطلوه، واستغرقوا قروناً طويلة في الاستقرار وتشرب الحضارة؟

فخري أبو السعود

ضوء جديد على مأساة شهيرة

٢ - هل قتل الحاكم بأمر الله أم اختفى؟

نظرية الاختفاء كما يشرحها الدعاة السريون

للأستاذ محمد عبد الله عنان

وقد رأينا فيما تقدم أن الدعاة الملاحدة، أعني حمزة بن علي وصحبه، ألفوا في اختفاء الحاكم فرصة لإذكاء الدعوة وتغذيتها، واتخذوا من هذا الاختفاء وظروفه الغامضة، مستقى جديداً للزعم والارجاف؛ فزعموا أن الحاكم لم يقتل ولم يمت، ولكنه اختفى أو ارتفع إلى السماء، وسيعود عند ما تحل الساعة فيملأ الأرض عدلا، وأضحى هذا الزعم أصلا مقرراً من أصول مذهبهم.

وقد انتهت إلينا في هذا الزعم — أي زعم الغيبة والرجعة، وثيقة هامة بقلم كبير الدعاة حمزة بن علي ذاته، وفيها يشرح لنا ظروف هذا الاختفاء وبواعثه على ضوء دعوته وأصول مذهبه، وإليك ما جاء في تلك الوثيقة الهامة التي تقدم رغم غرابة شروحها ومزاعمها إلى المؤرخ مادة للتأمل:

يقدم إلينا حمزة رسالته بهذا العنوان: «نسخة السجل الذي وجد معلقاً على المشاهد في غيبة مولانا الامام الحاكم»، وهي التي يفتتح بها رسائله في متن الدعوة وأصولها حسبما أشرنا فيما تقدم

ويؤرخ الداعي هذه الرسالة بشهر ذي القعدة سنة ٤١١ هـ، أعني عقب اختفاء الحاكم أو بعده بأيام قلائل، ويفتتحها بدعوة الناس إلى المبادرة «بالتوبة إلى الله تعالى وإلى وليه وحجته على العالمين وخليفته في أرضه وأمينه على خلقه أمير المؤمنين، وأنه قد سبق إليكم، أعني إلى الناس، من الوعد والوعظ والوعيد من ولي أمركم وامام عصركم، وخلف أنبيائكم، وحجة باريكم وخليفته، الشاهد عليكم بموبقاتكم، وجميع ما اقترفتم فيه من الأعذار والانذار، ما فيه بلاغ لمن سمع وأطاع واهتدى وجاهد نفسه عن الهوى وآثر الآخرة عن الدنيا، وأنتم في وادي الجهالة تسبحون، وفي تيه الضلال تخوضون وتلعبون، حتى تلاقوا يومكم الذي كنتم به توعدون»

وإن أمير المؤمنين قد أسبغ على الناس نعمه ولم يفر عليهم

شيئاً منها ، ولم يبخل عليهم بجزيل عطائه ، ولم يشاركهم فى شىء من أحوال هذه الدنيا ، نزاهة عنها ، ورفضاً منه لها على مقداره ومكنته لأمر سبق فى حكمته ، وهو سلام الله عليه اعلم به ، فأصبحتم وقد حزتم من فضله وجزيل عطائه مالم ينل مثله بشر من الماضين من أسلافكم . . . ولم تنالوا ذلك من ولى الله باستحقاق ولا بعمل عامل منكم من ذكر وأنثى ؛ بل منة منه عليكم ولطفابكم ورأفة ورحمة واختباراً ليبلوكم أيكم أحسن عملا ، ولتعرفوا قدر ماخصكم به فى عصره من نعمته وحسن منته وجميل لطفه وإحسانه . وعظيم فضله دون من قد سلف من قبلكم ،

وأنه قد أجرى عليهم الأرزاق والنعم من الذهب والفضة والخيل المسومة والأقطاع والضياع ، ورفعهم إلى ذرى المراتب وشرفهم بأرفع الألقاب ، حتى غدوا سادة يحكمون ويطاعون ، وغاشوا فى نعماء ورغد ، فأقبلوا على الدنيا واعتزوا بها ، وظنوا أنها سبيل الفوز فى الآخرة ، وتظاهروا بالطاعة فى حين أنهم متمسكون بالمعصية ؛ ثم يقول الداعى :

« ثم من نعمه الباطنة عليكم إحياؤه لسنن الاسلام والايمان ، التى هى الدين عند الله وبه شرفتم وطهرتم فى عصره على جميع المذاهب والأديان ، ومزيتم من عبدة الأوثان وابانهم عنكم بالذلة والحرمان وهدم كنائسهم ومعالم أديانهم . . . وانقادت الذمة إليكم طوعا وكرهاً فدخلوافى دين الله أفواجاً ؛ وبنى الجوامع وشيدها وعمر المساجد وزخرفها ، وأقام الصلاة فى أوقاتها والزكاة فى حقها وواجباتها ، وأقام الحج والجهاد وعمر بيت الله الحرام ، وأقام دعائم الاسلام ، وفتح بيوت أمواله ، وأنفق فى سبيله ، وخفر الحاج بعساكره ، وحفر الآبار ، وآمن السبيل والأقطار ، وعمر السقايات ، وأخرج على الكافة السدقات ، وستر العورات ، وترك الظلمات ، ورفع عن خاصتكم وعامتكم الرسوم والواجبات ، وقسم الأرض على الكافة شبراً شبراً ، وفتح لكم أبواب دعوته ، وأيدكم بما خصه الله من حكمته ليحثكم على طاعته وطاعة رسوله وأوليائه عليهم السلام ، فشينتم العلم والحكمة وكفرتم الفضل والنعمة ، وآثرتم الدنيا كما آثروها قبلكم بنو اسرائيل فى قصة موسى عليه السلام ، فلم يجبركم ولى الله عليه السلام ، وغلق باب دعوته وأظهر لكم الحكمة وفتح لكم خارج قصره دارعلم حوت من جميع علوم الدين وآدابه وفقه الكتاب فى الحلال والحرام والقضايا والأحكام ... وأمدكم بالأوراق والدواة والحبر والأقلام ، لتدركوا بذلك ما تمضون به وتستبصرون ... »

ثم يقول حمزة بعد أن يستعرض أعمال الحاكم على هذا النحو - إنهم - أى الناس ، لم يزدادوا إلا ضلالا واثما ، وتمادوا فى غيهم وفجورهم ؛ وينعى على الناس هذه النازلة الأليمة ويحذرهم من عواقبها ، ثم يقول مشيراً إلى اختفاء الحاكم : « فقد غضب الله تعالى ووليه أمير المؤمنين سلام الله عليه من عظم إسراف الكافة أجمعين ، ولذلك خرج من أوساطكم . قال الله ذو الجلال والاكرام : « وماكان الله ليعذبهم وأنت فيهم » ، وعلامة سخط ولى الله تعالى تدل على سخط الرب تبارك وتعالى . فمن دلائل غضب الامام غلق باب دعوته ورفع مجالس حكمته ، ونقل جميع دواوين أوليائه وعبيده من قصره ومنعه عن الكافة سلامه ، وقد كان يخرج إليهم من حضرته ومنعهم لهم عن الجلوس على مصاطب سقائف حرمه ، وامتناعه عن الصلاة بهم فى الأعياد وفى شهر رمضان ، ومنعه المؤذنين أن يسلموا عليه وقت الآذان ولا يذكرونه . ومنعه جميع الناس أن يقولوا مولانا ولا يقبلوا له التراب . وإنهاؤه جميعهم من الترجل عن ظهور الدواب ، ثم لباسه الصوف على أصناف ألوانه ، وركوبه الأتان ، ومنعه أولياءه وعبيده الركوب معه حسب العادة فى موكبه ، وامتناعه عن إقامة الحدود على أهل عصره ، وأشياء كثيرة خفيت عن العالم ، وهم عن جميع ذلك فى غمرة ساهون ...

ومن ثم « فقد ترك ولى الله أمير المؤمنين سلام الله عليه الخلق أجمعين سدى ، يخوضون ويلعبون فى التيه والعمى الذى آثروه على الهدى »

ويختتم الداعى رسالته الغريبة بتكرار الدعوة إلى التوبة والاستغفار ، وأن يتجه المؤمنون بأبصارهم إلى الطريق التى سلكها أمير المؤمنين ، وقت أن استتر ، وأن يجتمعوا فيها بأنفسهم وأولادهم ، وأن يطهروا قلوبهم ، ويخلصوا نياتهم لله رب العالمين ، وأن يتوسلوا إليه بالصفح والمغفرة وأن يرحمهم بعودة وليه إليهم . . . . والحذار الحذار أن يقفو أحد منكم لأمير المؤمنين أثراً ولا تكشفوا له خبراً ، ولا تبرحوا فى طريق يتوسل

جميعكم . . . فاذا أظلت عليكم الرحمة خرج ولى الله أمامكم باختياره راضياً عنكم ، حاضراً فى أوساطكم . فواظبوا على ذلك ليل نهار قبل أن تحق الحاقة ويغلق باب الرحمة وتحل بأهل الخلاف والعناد النقمة ، وقد أعذر من أنذر . . . الخ » .

ويؤرخ الداعى رسالته بذى القعدة سنة إحدى عشر واربعمائة، وينعت نفسه فيها بمولى دولة أمير المؤمنين ، ويذيلها بالحث على نسخها وقراءتها والعمل بما فيها [١] .

وهذا السجل يعتبر وثيقة مدهشة ، وربما كان بروحه وأسلوبه أقوى رسائل الدعاة وأهمها . ومما يلفت النظر بنوع خاص ما يطبعه من حرارة وأسى ، واذا كنا لا نستطيع أن نؤمن بأن الداعى يصدر فيه عن إيمان حقيقى ، فانه ينم على الأقل عن براعة الداعى فى عرض ما يريد أن يعتبره الناس أساساً لعقيدة مدهشة ، هذا إلى أن هذا « السجل » يعتبر وثيقة تاريخية هامة بما يقدمه إلينا عن أعمال الحاكم وتصرفاته المختلفة فى بادىء عهده ثم فى خاتمته .

على أنه ما يلفت النظر أيضاً أن الروايات الاسلامية والنصرانية ، المعاصرة والمتأخرة . لا تشير أية إشارة إلى هذا « السجل » الذى يقول لنا الداعى إنه وجد معلقاً على المشاهد ، ولو وقعت مثل هذه العلانية فى اذاعة السجل بمساجد مصر لما أغفلت الرواية الاشارة إليها ، ولعل الدعاة حاولوا إذاعته فلم يفلحوا ، وقد اشتدت عليهم وطأة المطاردة عقب مصرع الحاكم كما رأينا فلاذوا بالاختفاء والاستتار . وأصدر الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله ولد الحاكم سجله الشهير الذى يتبرأ فيه من هذه المزاعم الخارقة التى قيلت فى أبيه وفى أسلافه ، وفيه يعلن اعترافه إلى الله « بأنه وأسلافه الماضين وأخلافه الباقين مخلوقون اقتداراً ومربوبون اقتساراً ، لا يملكون لأنفسهم موتاً ولا حياة ، ولا يخرجون عن قبضة الله تعالى ، وأن جميع من خرج منهم عن حد الامانة والعبودية لله عز وجل ، فعليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » وأنه قدم انذاره لهم بالتوبة إلى الله من كفرهم ، فمن أصر فسيف الحق يستأصله

وإلى جانب هذه الوثيقة التى كتبها حمزة بن على عقب اختفاء

(١) لم ترد هذه الرسالة فى مجموعة دار الكتب والتى لدينا منها نسخة فتوغرافية (وهى مخطوطة برقم ١٢٢ عقائد النحل) إذ ينقصها من أولها عدة أوراق ولكنها وردت فى مخطوط باريس ، ومنه لخصنا ونقلنا ما تقدم ، ثم وفقنا أخيراً إلى الحصول على نصها الكامل .

الحاكم . والتى يحاول فيها أن يعلل هذا الاختفاء وأن يشرح بواعثه ، وأن يطمئن المؤمنين على رجعة سيده ومولاه ، توجد بين رسائل الدعاة وثيقة أخرى عنوانها « الغيبة » تمس نفس الموضوع من ناحية أخرى ، وقد كتبت بعد اختفاء الحاكم بثلاثة أشهر عن لسان قائم الزمان (أى الحاكم بأمر الله) بقلم داع مجهول ، والظاهر أن كاتبها هو المقتنى أحد أكابر الدعاة وأحد « الحدود الخمسة » : وقد وجهت إلى أهل الشام خاصة ، وفيها يذكرهم قائم الزمان بالعهد الذى قطعوه ، ويحذرهم من الدجال الذى يزعم أن الألوهية انتقلت إليه ، والذى عاند الموحدين وحاصرهم . ويقول إن الدين لا يصح إلا عند الامتحان ، ثم يخاطب الموحدين بقوله :

« معشر الموحدين ، إذا كنتم تحققون أن مولاكم لا تخلو الدار منه وقد عدمته أبصاركم . . . وإذا فسدت المعدة ضرت البصر ؛ فهكذا إذا كانت المادة واصلة إلى النفوس الصحيحة ، فينظروا صورة الناسوت نظراً صحيحاً ، وإذا كانت المادة من فعل الأبالسة ومادة النطقاء والأنس وشرائعهم فيفسد النظر وما ينظر إلا بشر

« واعلموا معاشر الموحدين لمولانا الحاكم المعبود سبحانه وتنزه عن الحد والمحدود أن قائم زمانكم يطالبكم ، وقد شهدتم فى مواثيقكم بعضكم على بعض بما شرطتموه على نفوسكم . . . » [١]

ثم يشير إلى أن كثيراً من الموحدين ارتدوا عما كانوا أقروا به . وهو الاعتراف بألوهيته ، ويحذرهم من سلوك هذا الطريق ؛ ويشير إلى « الدجال » ويقول إنه قتل الكثيرين بسبب عبادة الحاكم ؛ وأن المولى غنى عن عبادتهم ، وإنما هى أعمالهم ترد عليهم .

ثم يقول : « ألم تعلموا أن مولاكم يراكم من حيث لا ترونه .. معشر الاخوان أحسنوا ظنكم بمولاكم يكشف لكم عن أبصاركم ما قد غطاها من سوء ظنكم »

ويلوح لنا أن هذا « الدجال » المشار إليه فى هذه الرسالة إنما هو عبد الرحيم بن الياس ولى العهد ، ووالى الشام ؛ فقد اشتد فى مطاردة الدعاة ، حينما ظهرت دعوتهم بالشام ، وفتك بكثير من أتباعهم وأنصارهم ، وهو ما تشير إليه الرسالة .

(النقل ممنوع — البحث بقية) محمد عبد الله عنان

(١) وردت هذه الرسالة فى المجموعة المحفوظة بدار الكتب برقم ٥٤ عقائد النحل ؛ والمجموعة المحفوظة برقم ٢٠ عقائد النحل مع شرح لها .

إلى رجال التعليم :

نقد نظام التعليم فى مصر

للأستاذ ساطع الحصرى بك
مدير دار الآثار العربية بالعراق

يذكر القراء أن المربى الكبير الأستاذ ساطع بك الحصرى كان قد وفد إلى القاهرة فى العام الماضى ليطلع على الأنظمة التعليمية المصرية فزار المدارس وقرأ المناهج ثم لاحظ على نظام التعليم عندنا ملاحظات قيمة لم يرد أن ينشرها يومئذ لصفته الرسمية فى وزارة المعارف العراقية . فلما انتقل منها إلى دار الآثار رأى أن يذيع هذه الملاحظات فى مصر عن طريق الرسالة ليطلع عليها القائمون على شئون التعليم فيها ثم يناقشونها . وهذه فرصة حسنة يتيحها الأستاذ لرجال التعليم ليدلوا بالرأى فيما يجب أن يكون عليه نظام التعليم فى عهد مصر الحديث . (الرسالة)

— ١ —

لعل أبرز المآخذ التى تستلفت أنظار الباحث المحايد عند ما يلقى نظرة انتقادية عامة على نظام التعليم فى مصر هو « حرمان المدارس الابتدائية من أساس متجانس متين » . فان الدراسة فى هذه المدارس لا تبتدىء ببداءة « الاعمار المدرسية » كما هو شأن المدارس الابتدائية فى سائر أنحاء العالم ، بل تبتدىء بعد ذلك بسنة أو سنتين ، لأن المدرسة الابتدائية لا تقبل إلا من « يعرف القراءة والكتابة » . وهذه « المعرفة » لا تتيسر بطبيعة الحال إلا بالتخرج فى رياض الأطفال ، أو بالدراسة فى الصفوف الأولى من المدارس الأولية مدة سنتين أو أكثر ، أو بالدراسة فى المنزل مدة غير محدودة . وإذا تركنا الدراسة المنزلية جانبا ، ولاحظنا الفروق العظيمة الموجودة بين أساليب التعليم والتربية المتبعة فى رياض الأطفال من جهة ، وفى المدارس الأولية من جهة أخرى ، اضطررنا إلى القول بأن « أسس المدارس الابتدائية » فى مصر بعيدة عن « التجانس » بعداً كبيرا . وإذا شبهنا تلك المدارس بالمبانى ، نستطيع أن نقول : إنها ليست مشيدة على الأرض المتينة ، بل قائمة على دعائم غير متجانسة ، يختلف بعضها عن بعض اختلافا كبيرا من حيث الطول والعرض والعمق والمتانة .

لهذا السبب ، تشاهد بين طلاب الصفوف الأولى من المدارس الابتدائية فروق عظيمة ، من حيث العمر والمعلومات والقابلية العقلية

ومن المعلوم أن « عدم التجانس بين الطلاب » من أخطر الآفات التى تعترى « نظام التعليم الجمعى » ، ومن أكبر المشاكل التى تعقد مهمة المعلمين الذين يقومون بتعليم عدد غير قليل من الطلاب فى فصل واحد ووقت واحد . ولذلك تجد رجال التربية فى البلاد الغربية يبحثون عن ألف طريقة وطريقة لزيادة التجانس فى الصفوف ويسعون دائما للتأليف بين ضرورات التعليم الجمعى وبين مطالب الفروق الفردية .

وأما نظام التعليم الابتدائى المرعى فى مصر — فبعكس ذلك — يزيد هذه المشكلة زيادة هائلة . لأنه يضيف إلى الفروق الطبيعية فروقا اصطناعية ناشئة عن اختلاف نتائج الدراسة السابقة .

إن التخلص من مضار هذه المشكلة ليس من الصعوبة بمكان . إذ يكفى لذلك تغيير النظام الحالى على أساس « إتمام بناية المدرسة الابتدائية بايصال أسسها إلى الأرض القوية » ؛ وجعلها مؤسسة تعليمية قائمة بنفسها ، تتعهد بتعليم وتربية الأطفال منذ بدء أعمارهم المدرسية ، دون أن تتكل على مؤسسات أخرى فى تعليم القراءة والكتابة .

— ٢ —

ومن المآخذ البارزة التى تستلفت الأنظار فى نظام التعليم فى مصر هى « اصطباغ رياض الأطفال بصبغة مدرسية » واضحة .

ومن المعلوم أن رياض الأطفال تعتبر — عادة — بمثابة معاهد « تربية قبمدرسية » préscolaire (١) تتعهد بتربية الأطفال — حتى وصولهم إلى الاسنان المدرسية — بالأساليب الملائمة للأعمار التى تتقدم تلك الاسنان بوجه عام .

وأما نظام التعليم المتبع فى مصر فينظر إلى « رياض الأطفال » نظره إلى « المدارس » تماما . فان التعليمات الرسمية المتعلقة بها تحمل عنوان « منهج الدراسة » و « مدارس رياض الأطفال » وتوصل عدد « الدروس » فى الأسبوع إلى الأربعة والثلاثين ، وتكرر كلمات « الدرس » و « الدراسة » و « أوقات الدروس » و « خارج أوقات الدروس » على الدوام ، حتى إنها تنظر إلى « التهذيب » أيضا كدرس من الدروس ، وتعين « الغرض من تدريس التهذيب للأطفال » ، وتبين كيف يجب أن « تلقى عليهم دروس التهذيب » ، وكيف يجب أن يجرى « تدريس التأمل فى مشاهد الطبيعة » .

إن حركة التطور والتقدم السريعة التى حصلت فى ساحة رياض الأطفال منذ بداءة القرن الحالى — ولا سيما ما كان منها بسبب آراء وأعمال دكرولى ومونتسورى — اتجهت على الدوام نحو « تخليص رياض الأطفال من الصبغة المدرسية » . وأعتقد أن أسباب بقاء رياض الأطفال فى مصر بعيدة عن هذا الاتجاه ، بهذه الصورة ، تعود أولا وبالذات إلى كيفية « تكوين المدرسة الابتدائية » . إذ من الطبيعى أنه عند ما يطلب من رياض الأطفال أن تهيء الطلاب إلى المدارس الابتدائية القائمة على الطراز الذى ذكرناه آنفا ، ويحتم عليها تعليم القراءة والكتابة والحساب بالقدر الذى تتطلبه المدارس الابتدائية

(١) منحوتة من (قبل) و (مدرسية)

الحالية ـ بتعبير أجعلها «دور تربية» أكثر من جعلها «بيوت تدريس»، بل يصبح من الضروري جعلها « مدارس من نوع خاص » .

إن التعديل الذي يدخل على أسس المدارس الابتدائية ، ـ وفقا للاقتراح الذي أدرجناه في الفقرة السابقة ـ يفسح في الوقت نفسه مجالا واسعا لاصلاح رياض الأطفال وفقا للنزعات التربوية الحديثة ، ولجعلها بمثابة « معاهد تربية قبمدرسية » ـ كما تقتضيها النزعات المذكورة ـ أكثر من « مدارس إعدادية للمدارس الابتدائية » كما هي الحال الآن

— ٣ —

غير أن أهم المآخذ التي تؤخذ على نظام التعليم في مصر ، هو « الاختلاف العظيم الموجود بين الدراسة الابتدائية وبين الدراسة الأولية » اذ أن مناهج هذين النوعين من المدارس المصرية تختلف بعضها عن بعض اختلافا كليا ، ولا توجد بينهما رابطة منظمة تسهل انتقال الأطفال من الواحدة للأخرى ؛ حتى ولا يوجد تماثل نسبي يساعد على تقريب تأثيراتهما على نفوس الأطفال على الأقل .

لنفرض أننا أخذنا جدولين يبين كل واحد منهما خطة الدراسة المتبعة في كل واحد من هذين النوعين من المدارس ؛ واستبدلنا فيهما تعبير « اللغة العربية » بتعبير « اللغة البيتية » أو « لغة الأم » ؛ وعرضنا الجدولين على أحد المربين دون أن نخبره بماهيتهما . فلا شك عندنا في أنه عند ما يقارن هذين الجدولين بعضهما ببعض ، سيظن أن كل واحد منهما يعود الى مملكة ، وسيجزم بأن هاتين المملكتين تختلفان اختلافا كليا من حيث الحاجات والتقاليد والنزعات . واذا أخبرناه بأن هذين الجدولين يعودان الى مملكة واحدة ، فسيقول بدون تردد « اذن يجب أن يكونا عائدين الى دورين مختلفين من الأدوار التي مرت عليها حياة تلك المملكة » ، وسيظن أن هذين الدورين ينفصل بعضهما عن بعض بتطورات خطيرة وانقلابات عظيمة ؛ وعلى كل حال سوف لا يتصور قط أن هذين الجدولين يمثلان مناهج الدراسة المتبعة في نوعين من المدارس التي تربي أبناء جيل واحد في مملكة واحدة بل في مدينة واحدة .

وفي الواقع تصوروا جارين يسكنان في محلة واحدة ، وافرضوا أن لكل منهما طفلا في التاسعة من العمر ، غير أن الأول قد أرسل ابنه الى مدرسة ابتدائية في حين أن الثاني أرسل ابنه الى مدرسة أولية أو الى مكتب عام ؛ ثم قارنوا بين الدروس التي سيتلقاها كل واحد منهما ، تجدوا أن الأول سيخصص ستة في المائة من أوقات دراسته لتعليم الدين والقرآن ، في حين أن الثاني سيخصص ثمانية وعشرين في المائة من مجموع أوقات دراسته لنفس الموضوع ، كما أن هذه الأوقات ستصل الى أربعين في المائة اذا ذهب الطفل الى أحد المكاتب العامة ؛ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الأول سيخصص خمس مجموع أوقات دراسته لتعلم اللغة الانكليزية ، وسيبدأ بدراسة تلك اللغة قبل أن يبدأ بتعلم قواعد اللغة العربية نفسها ؛ في حين أن الثاني سوف لا يتعلم شيئا منها طول مدة دراسته المقبلة . وعلاوة على كل ذلك ، فان الأول سيخصص أكثر من ربع أوقات دراسته للرسم والاشغال اليدوية والتربية البدنية ، في حين أن حظ الثاني من هذه التمارين والأعمال سيكون شبيها بالعدم .

واذا لاحظنا مدى تأثير هذه الفروق العظيمة على عقلية الأطفال ونفسياتهم ، وجب علينا أن نقول : إن نظام التعليم المتبع في مصر لا يساعد على تكوين « جيل موحد الشعور » .

كان يوجد في البلاد الغربية أيضا بعض الفروق بين مناهج الفصول الابتدائية التابعة للمدارس الثانوية وبين مناهج المدارس الابتدائية المستقلة عنها ، غير أن تلك الفروق كانت « طفيفة جداً » بالنسبة الى الفروق الهائلة التي تشاهد بين مناهج المدارس الابتدائية والأولية في مصر . مع هذا ، قام علماء التربية ورجال السياسة في تلك البلاد بحملات عنيفة ضد تلك الحالة ، وأثاروا حولها أبحاثا دقيقة ومناقشات شديدة ، انتهت في معظم البلاد بتوحيد أسس الدراسة الابتدائية وفقا لمبدأ « المدرسة الموحدة » école unique ذلك المبدأ الذي يلخص في عبارة « شعب واحد ، مدرسة واحدة » .

أفليس من الغريب جدا ألا تبدأ في مصر الى الآن أية حركة ضد هذا النظام ؟ .

إنني لا أجهل بأنه نشأت في مصر ـ منذ مدة ـ حركة مباركة تطالب بتوحيد التربية والتعليم ، وتعمل في سبيل ذلك بنشاط وقوة . غير أني ألاحظ في الوقت نفسه أن أغراض تلك الحركة المباركة وخططها لم تتعد حدود « التوحيد بين المدارس الأميرية والمدارس الحرة » ؛ في حين أنني أعتقد اعتقادا جازما بأن هذه الحركة لا يمكن أن تثمر الثمرة الكافية ، اذا لم تسع لتوسيع نطاق عملها فتشمل في الوقت نفسه « توحيد أسس الدراسة في المدارس الأميرية نفسها » .

إن الفرق العظيم الموجود بين مناهج المدارس الابتدائية والأولية كان من أول النقائص التي استوقفت نظري في نظام التعليم في مصر عندما زرت مدارسها للمرة الأولى سنة ١٩٢١ قبل مجيئي الى العراق ؛ واستمرار هذه الفروق بدون معارضة أو انتقاد كان من أهم ما استلفت نظري عند زيارتي الثانية لها سنة ١٩٣٦

لقد عرضت ملاحظتي هذه ـ عند زيارتي الأولى على وزير المعارف بكتاب خاص . وعند ما قدمت العراق ، وجدت أن السلطة الانكليزية كانت قد نقلت هذا النظام الى هذه البلاد أيضاً ، وكانت قد أحدثت مدارس أولية تختلف بمناهجها عن المدارس الابتدائية . وأول الأعمال التي أقدمت عليها ـ عند ما توليت ادارة المعارف العامة هنا ـ كان القضاء على ذلك النظام ؛ فقد وحدت برامج الدراسة في السنين

الأربع الأولى توحيداً تاماً، وجعلت الدراسة الأولية منطبقة على دراسة السنين الأربع الأولى من المدارس الابتدائية كل الانطباق.

أقدمت على ذلك - حينئذ - تحت تأثير عقيدة تربوية اجتماعية، قبل أن أرى مفعولها في كثير من البلاد بصورة فعلية. فان مبدأ «المدرسة الموحدة» كان قد دخل حديثاً في صلب دستور (وايمار) في ألمانيا؛ غير أن معظم البلاد الأوربية كانت قد ظلت بعيدة عن الأخذ به، كما أن جميع البلاد الشرقية - بما فيها تركيا - كانت معرضة عنه. غير أن التطورات التي حدثت في نظم التعليم العام في تلك البلاد وغيرها - منذ ذلك التاريخ - أثبتت تماماً أنني كنت مصيباً في ذلك العمل كل الاصابة.

أفلا يجب على مصر أيضاً أن تقوم بعملية مماثلة لتلك، وتعيد النظر في أسس نظامها التعليمي على مبدأ «توحيد أسس الدراسة»؟

— ٤ —

من الأمور التي يجب أن تلاحظ بوجه خاص، أن الفروق العظيمة التي أشرنا الى وجودها بين مناهج المدارس الابتدائية ومناهج المدارس الاولية كانت تتماشى بفروق مماثلة بين معاهد المعلمين الذين يتولون شؤون التربية والتعليم في كل نوع من نوعي هذه المدارس،

فان معلمي المدارس الأولية يتخرجون في دور المعلمين الأولية في حين أن معلمي المدارس الابتدائية يتخرجون في معهد التربية. غير أن الفروق الموجودة بين دور المعلمين ومعهد التربية في مصر، لم تكن من نوع الفروق الاعتيادية التي تنتج من اختلاف «درجة التحصيل العام» أو «أسلوب الاستعداد المهني» فحسب، بل هي من نوع الفروق العظيمة التي تنتج من اختلاف «نوع الدراسة ونزعتها»، و«نوع الثقافة التي تتولد منها». وذلك لأن دور المعلمين الأولية تستند على المدارس الأولية، فالمدارس الأولية الراقية، وتستمر على خططها ونزعاتها، في حين أن معهد التربية يستند على المدارس الابتدائية، والثانوية، ويستمر على خططها ونزعاتها.

إنني لا أود في هذا المقام أن أتطرق إلى خطط كل من معهد التربية ودور المعلمين الأولية ومناهجها وأبدي رأيي في هذه الخطط والمناهج نفسها، بل أود أن ألفت الأنظار إلى الفرق العظيم الموجود بين نوع الثقافة واتجاه العقلية التي يستند عليها ويصل إليها كل واحد منهما. وأقول: إن الفروق العظيمة التي شرحنا وجودها بين مناهج الدراسة الابتدائية والأولية تشتد وتقوى بصورة هائلة خلال تطبيق تلك المناهج، من جراء الهوة العميقة الموجودة بين معاهد معلمي المدارس الابتدائية والأولية.

ولهذا السبب تصل «ثنائية التربية والتعليم في مصر» إلى أقصى الدرجات التي يمكن أن يتصور الانسان وجودها في مملكة واحدة

إنني كثيراً ما تصفحت التقارير التي قدمها الخبراء الفنيون الذين استقدمتهم الحكومة المصرية للاسترشاد بآرائهم في إصلاح معارفها، وأردت أن أطلع على رأيهم في هذه الثنائية، ولو من خلال التقارير التي قدموها؛ وعلمت أنهم لاحظوا هذه الثنائية؛ غير أنهم لم يبدوا أي اعتراض عليها. ويغلب على ظني أن السبب في ذلك كان اعتقادهم بأن هذه الأمور تتعلق بتقاليد مصر ونزعاتها التي لا يجوز المناقشة حولها. لأنهم قسموا النظام التعليمي في مصر إلى قسمين، عنونوا أحدهما بعنوان «المدارس التي على النمط الأوربي»، واكتفوا بأبداء بعض الملاحظات لاصلاح كل واحد من هذين النظامين على حدة: غير أني أرى من الضروري أن نتساءل قبل كل شيء: هل يجوز أن يكون في مملكة واحدة نظامان من المدارس، أحدهما على «نمط أوربي»، وثانيهما على «نمط محلي أو غير أوربي»؟

أنا أعتقد أن ذلك مما لا يجوز بوجه من الوجوه. فعلى مصر أن تأخذ من الأنماط الأوربية ما يلائم حالاتها وحاجاتها، ثم توجد نمطاً قومياً خاصاً بها. فلا يجوز لها مطلقاً أن تؤسس صنفاً من المدارس «على النمط الأوربي» بجانب صنف آخر يبقى على نمط غير أوربي. وإذا كان لوجود هذين النمطين بعض المسوغات والمبررات في بدء تأسيس المعارف، فلا يمكن أن يكون لبقائهما الآن أي موجب بعد أن وصلت مصر إلى هذه المرحلة من مراحل نهوضها، وبعد أن صارت تحكم نفسها بنفسها...

يظهر أن مصر ألفت هذا النظام المزدوج منذ مدة طويلة. ولعل هذه الألفة الطويلة كانت من أهم الأسباب التي حالت دون انتباه مفكري مصر إلى أضرار هذا النظام.

غير أنني أعتقد أن إعادة النظر في أسس النظام التعليمي في مصر على مبدأ «توحيد أسس الدراسة»، أصبحت من أهم الاصلاحات الضرورية لمصر في بدء عهد نهضتها السياسية والاجتماعية الحديثة. فان بقاء نظام التعليم على ما هو عليه من الثنائية dualité يكون خطراً على وحدة الشعور التي يجب أن تسود البلاد.

قد يقول قائل: لا خوف على وحدة الشعور في مصر أبداً، لأن هذه الوحدة تجلت بأجلى مظاهرها خلال كفاح المصريين الطويل ضد الحماية والاستعمار؛ غير أنني أقول بأن «وحدة الشعور» التي عملت عملها خلال ذلك الكفاح كانت «وحدة» من نوع خاص، تكونت تجاه عدو مادي وخارجي، استمر في إرهاق نفوس الجميع منذ مدة تنيف على نصف قرن. أما الآن فستدخل مصر في حياة كفاح جديدة تتطلب النضال في سبيل إصلاح النقائص الداخلية، وضمان التقدم في جميع مناحي الحياة.

إن وحدة الشعور التي تكونت وتجلت خلال الكفاح السياسي

الفقر أستاذ . . .

للأستاذ السيد محمد زيادة

التقى رجلان فقيران ، كلاهما مدقع ذليل لفقره ... وجلسا يتشاكيان ويتناجيان بأحاديث يصل فيها الفقر إلى الألم ، ويصل الألم إلى الحسرة ، وتبلغ الحسرة إلى الثورة ، وتنتهي الثورة إلى الدموع ... ثم يكون بعد الدموع الاستسلام والجلد والهدوء والراحة

قال أحدهما للآخر : هبك أصبحت غنياً من أهل الترف والنعيم والجاه ؛ فكيف تكون فى غناك . وماذا تعمل إذ ذاك بمالك ؟ .

فأجاب : أكون ظلا مباحا يأوى إليه الشُّرَّدُ بلا قيد ، ويتفيؤه الفقراء بغير عناء ، وأكون حلقة الاتصال بين الأغنياء والمساكين ... أعطى أولئك المكانة والمظهر ، وأعطى هؤلاء النفس والجوهر

لا تلبث أن تندثر خلال هذا النضال الاصلاحى إذا لم تغذ بتربية موحدة مستندة على نظام تعليمى موحد .

ولذلك أقول : إن إعادة النظر فى أسس نظام التعليم أصبحت من الواجبات التى تتحتم على مصر فى مستهل حياة النهوض التى دخلتها الآن .

— ٥ —

هذه ملاحظات تتعلق بأسس نظام التعليم فى مصر ، أبسطها أمام الرأى العام المستنير بكل احترام وصراحة واخلاص . وأرجو ألا يعتبرنى أحد متطفلا على مصر بهذه الملاحظات ، فأنى عربى صميم أدين بدين « العروبة » فى إيمان وصدق ، وأهتم بمصر بقدر ما أهتم بسورية والعراق . ولا أكون مغاليا اذا قلت : إننى أهتم بمصر أكثر مما أهتم بسورية والعراق ، لأنى أعرف أن مصر – بحسب أوضاعها العامة – أصبحت « القدوة المؤثرة » فى العالم العربى بأجمعه . فأعتقد لذلك أن كل تقدم يحصل فى مصر لا يخلو من النفع لسائر البلاد العربية ، كما أن كل نقص يعيش ويستمر فى مصر لا يخلو من ضرر العدوى الى سائر البلاد العربية .

فكل خدمة تسدى الى مصر تكون كأنما أسديت الى سائر البلاد العربية جمعاء .

أبو خلدون
(ساطع الحصرى)

بغداد

وأما مالى فلا يكون إلا مطية للكرم ومجالا للعطف وسبيلا للرحمة ، ولا أكون عليه إلا كالأمين على مال موقوف للخير ، ولا يكون لى منه إلا ما للمرضع من لبن ثديها تدرُّ به للتربية

***

والتقى رجلان غنيان كلاهما مرهوب مرفوع لغناه ... وجلسا يتداعبان ويتنادمان بأحاديث يصل فيها الغنى إلى الفخر ، ويصل الفخر إلى الكبر ، ويبلغ الكبر إلى التعاظم ، وينتهى التعاظم إلى الوقاحة ... ثم يكون من الوقاحة انتفاخ الأوداج واتساع المزاعم وادعاء المستحيل

قال أحدهما للآخر : هبك أصبحت فقيراً من أهل البؤس والعدم ؛ فكيف تكون فى فقرك ؟ وماذا تجد إذ ذاك فى دنياك ؟

قال الثانى : وهل تتوقع الفقر لأمثالنا ؟

قال الأول : ليكن هذا مستحيلا ، ولنفرض أنه وقع ...

قال الآخر : إذن أنتحر ...

***

ومشت الأيام فى طريقها إلى غايتها ... فإذا الفقير المعدم غنىٌّ موسر يتدرج نحو الثراء وشيكا ؛ فيجد فى كل عمل حظا ، ويكسب من كل حظ ثروة ، ويحس فى كل ثروة سعادة ... لأن الدنيا رضيت عنه فراحت تسترضيه ، ومالت إليه فأخذت تستميله

وقد كان بين آخر العسر وأول اليسر يحمل تلك النفس الطيبة التى كان يحملها وهو فقير والتى أوحت إليه إذ ذاك أن يقول لصاحبه ما قال ... فظل نفسه باستمساكه بمذاهب الفقر واستعذابه حياة الفقراء !! . ثم تغير قليلا فكانت دنياه مزيجاً من حياته القديمة وحياته الجديدة ، فأنصف نفسه بذلك وعدل بين الفقر والثراء !! . ثم تغير تغيراً بيناً فنسى الفقر ونسى أنه كان فقيراً ، وحقر الفقراء واستقر فى الأغنياء ، وطغى واستكبر ، وبدَّل النفس الخيرة بنفس شريرة ، واستطاب لسانه كلمة أنا ... وبذلك لبس الغنى كما يشاء الغنى أن يلبس

وويل للغنى من جهله إذا تسلط على عقله الغرور فتعبَّده !! . ينسيه أنه إنسان ويلقى فى روعه أنه فوق مرتبة البشر ، ليجرِّده من صفات الانسانية ، ويكسوه صفات غيرها تُصيِّره تحت ؛ ودائماً تحت مرتبة البشر ... المال فى يده مفسدة لخلقه ومضيعة

للفضيلة ونداء للجشع وقضاء على الرحمة ...

لقد تلف الرجل، وفقدته الحياة حياً فلم يصبح معدوداً فى الناس؛ وإنما أصبح رقماً حسابياً لثروة واسعة ليس من ورائها خير

* * *

ومشت الأيام فى طريقها إلى غايتها، فاذا الغنى الذى استبعد على نفسه الفقر قد رجع فقيراً يستبعد على نفسه الرجعة إلى غناه. تمور به الدنيا وتهيئ له فى كل خطوة عثرة، وفى كل عثرة كبوة، وفى كل كبوة مصيبة، وفى كل مصيبة هماً وشقاء ... لأنها غضبت عليه فراحت تقصيه عنها شيئاً فشيئاً لتقطع أسباب المودة بينها وبينه

وكان فى بدء انكسار حظه واغتراب نجمه يستكبر على الفقر ويتعظم على القدر، ويحاول بشق النفس ألا يتحول مرتعه ولا يتبدل منزعه، فوضع نفسه بهذا أمام الدنيا فى موضع الحرد والعنت ليناصبها العداء، ويملى عليها العصيان والكبرياء!!. ثم اشتدت عليه غضبة الدهر فأيقظت فيه بعض عقله ونبهته إلى حاله ومصيره ... فاعتدل طغيانه، وفتر عنفوانه، وهمّت به نفسه الخائرة الواهنة تريده على أن ينتحر فراراً من الفقر النازل؛ ولكن راجعته بوادر السمو المنساقة إليه فى بوادر الفقر ... فتشجع واستمهل نفسه فيما أرادت!!. وكان فى هذا كالذاهب على رغمه إلى ميدان الحرب ...

ثم تمت صنعة الفقر فيه، فتأهب للصبر الطويل، وتماسك عزمه لاحتمال الفاقة وصراع الزمن، وتهذبت سريرته من شوائب الغنى وكفر المادة؛ وبذلك أسلمت نفسه بالحقيقة وحسن إسلامها.

* * *

الفقر فى ذاته قبيح شديد القبح؛ ولكنه فى عمله جميل رقيق الجمال، إذا نزل بالرجل مسخه وبدل فى طبيعته، وصير منه للناس الفقراء رجلا خفيفاً محبوباً، وصير منه للناس الأغنياء رجلا ثقيلا مبغضاً، وصير منه بين أولئك وهؤلاء رجلا بين المحبوب والمكروه ... فيصبح الرجل بفقره ثلاثة رجال، لكل منهم روح خاصة تضعه فى مكانه من الانسانية

وإذا رضى الله عن رجل ممن ولدوا أغنياء وأحبه امتحنه بمحنة الفقر ليخلق منه إنساناً فى أرفع درجات الانسان، وإذا غضب على رجل ممن ولدوا فقراء ومقته هيأ له الغنى وغمره به، ليخلق منه رجلا آخر بين الانسان والحيوان .. حتى إذا أراد الله وعاد الأول إلى غناه وعاد الثانى إلى فقره شعر كل منهما بنعمة الفقر

وإن الفقير ليتعلم من فقره القناعة فيجد سعادته فى قناعته، كما يتعلم الغنى من غناه الجشع فيجد شقاءه فى جشعه ...

ولا يعرف الفقير أنه فقير إلا إذا عرف أن غيره غنى ... ولا يشعر بوجود الفقر معه إلا إذا شعر بامتناع الغنى عليه؛ فإذا اجتمع قوم من الفقراء ولم يكن بينهم واحد من الأغنياء، لم يجدوا للفقر مضضاً ولوعة، ولم يحسوا أنهم فقراء ... حتى يكون منهم أو يكون بينهم ذو يسار فيرونه فى مباهج النعيم ومناهج السعادة، فيفكرون فيجدون فى حياته حياة أخرى لم يألفوها ولم يعرفوها، ثم يفكرون فيجدون فى حياتهم فراغا لا يملؤه إلا المادة، ونقصاً لا يسده إلا الثراء، ثم يفكرون فيعرفون أنهم فقراء ...

والفقراء فى هذه الحياة مظلومون لأنهم يحرمون بقدر ما يعملون ...

والفقر يمتاز من الغنى بأنه ألزم للحياة وأدعى لسلامتها. فليس الناس إذا جمعهم الفقر فصاروا جميعاً فقراء، كالناس إذا جمعهم الغنى فصاروا جميعاً أغنياء .. إذ لو أراد الله الحالة الأولى لوجدنا الناس كتلة واحدة مبنية على الطهارة الفطرية مدعمة بالاخلاص الروحى؛ يتبادلون المعروف ويتعاونون على أيامهم بمناعة الايمان وقناعة النفوس ... فتصلح لهم وتصلح بهم الحياة، ويعيشون فى نعيم دونه نعيم الغنى ...

ولو أراد الله الحالة الثانية لوجدنا الناس كالوحوش بنفوس داجية وعقول ضارية؛ يتعشق كل منهم التسلط حيث لا مجال للتسلط، ويستكبر على القيام براحة نفسه فلا يجد من يقوم براحته ... فتفسد عليهم وتفسد بهم الحياة، ويعيشون فى جحيم أخف منه جحيم الفقر ...

فالفقر أستاذ أخلاق، ومن قدر له أن يكون أحد تلاميذه فقد قدر له أن يتلقى دروس الحياة ؟

طنطا

السيد زياده

التعب

للأستاذ محمد جلال

ألقى الأستاذ ميكائيل فستر Michael Foster خطبة فى هذا الموضوع بجامعة كمبردج فى ١٤ يونية سنة ١٨٩٣ لا تزال ذات قيمة .

ولا بد للباحث من الرجوع إليها ليعرف نشوء الآراء وتبدلها فيما هو بصدده . ولذلك سأبدأ بتدوين ملخص رأيه .

قال الأستاذ فستر : إن قوة الانسان الجسمانية محدودة بنقيصتين هما : ميل الجسم إلى السكون حتى ليعسر حثه على الحركة . وسرعة استعداده للتعب ، أى العجز عن مواصلة العمل المطلوب منه .

والتعب ينشأ حتى من تكرار أبسط الحركات . ولنضرب لذلك مثلا تحريك صنج أو ثقل باليد . إن هذا العمل يتم فسيولوجيا على الوجه الآتى : يحصل فى الجهاز العصبى المركزى - ولنطلق عليه اسم « المخ » تبسيطاً للشرح - تغيرات تبعث على حدوث تغيرات أخرى فى حزم من الألياف تسمى الأعصاب . وهذه التغيرات التى يسميها الفسيولوجيون دوافع عصبية تحدث فى العضلات تغيرات من شأنها أن تجعلها تقصر ثم تنكمش حتى تتلاقى أواخرها معاً . وفعلها هذا يحرك روافع عظيمة . وبذلك تنثنى الذراع أو اليد ويرفع الثقل

ومن الجلى أن التعب قد ينشأ بطرق ثلاث على الأقل .

(١) نكوص العضلات (٢) نكوص الأعصاب

(٣) نكوص المخ ، أو نكوص اثنين منها أو الجميع معاً .

أما ما يعترى العضلات من نصب فلا يتوقف على مقدار ما تنفقه من جهد مثل ما يتوقف على مقدار سرعة ذلك الجهد وتعويضه ، أى على مقدار الفرق بين سرعة الهدم وسرعة البناء

ويشذ القلب عن جميع عضلات الجسم بأنه لا يعرف الكلل ، وحينما يعجز عن الاستمرار فى تأدية وظيفته يكون ذلك بسبب اختلال أو فساد يصيب أحد أجزاء الجسم الأخرى لا بسبب اختلاله أو فساده هو إلا فى ما ندر .

وتوجد عوامل لتعب العضلات غير الافراط فى بذل رأس ماله الحيوى ، ذلك بأنها ميدان حياة وموت ، إذ تحمل إليها الشرايين مواد حية وتنقل منها الأوردة مواد ميتة . ومن مظاهر الحياة الغريبة أن كل عضو يصنع سما لنفسه وهو يؤدى حركة من حركاته

فالتعب يتوقف على مقدار ما تفرزه العضلة من السم الضار بها كما يتوقف على ما تدخره بقية أجزاء الجسم من قوة تعين بها تلك العضلة على مقاومة ما يعتريها من وهن بإزالة السموم وجلب مواد حية جديدة .

على أن كل عمل تأتيه العضلات يشاركها فيه المخ والأعصاب ، وما ينجم من تعب لا يصيب العضلات وحدها . ومن المشاهد أن الانسان قد يبلغ به الجهد حد الأعياء ، ومع ذلك قد يدفعه الفرح أو الخوف المفاجىء إلى إتيان ما كان يظنه منذ لحظة مستحيلا ، وقد تشل حركتنا وتنضب قوتنا من تأثير انفعال مباغت . ولما كانت العضلات لا تحس ولا تشعر ولا تدرى بما يفاجىء ، فلا يمكن أن تتأثر بالانفعالات ، فالتعب الذى يمحوه الأمل أو الذى يعجل به اليأس لا يمكن أن يعزى إلى العضلات ، بل لابد أن يكون مصدره الجهاز العصبى .

وهنا يجب التنبيه على التفرقة بين الأعصاب والجهاز العصبى ، فالأعصاب لا تتعب مطلقاً ، وإنما الذى يكل هو المخ أو الارادة ، وهذا ما نقصده بالجهاز العصبى ، وهو أقل قدرة من العضلات على تحمل التعب . ولعل سرعة تكرار ذبذبة الأمواج الصوتية والضوئية وغيرها مما يجهد المخ مسجل الاحساسات ، فاننا لنرى أن الصوت المستمر يأتى علينا وقت لا نسمعه كما نفقد الشعور بلسة واصبة ولا نشعر بحلاوة ما نأكل أو نذوق من مادة سكرية نأكلها أو نذوقها دون انقطاع ، واحساسنا يكاد يصبح بليداً ، دون أن ندرك بفعل التكرار ، ولذلك تفقد الملذات لذتها فى نظرنا بطول المدة وتشبع الجسم وسأمته

ولما كانت أعضاء الجسم جميعاً مرتبطة فى العمل . فالجهد الذى يصيب أحدها لا تسلم منه سائر الأجزاء . ولما كان الدم يحمل السموم كما يحمل المواد المنعشة فان مروره فى الجهات الحساسة كالمخ قد يسبب لها اضطرابا وقلقا أو تخديراً وموتاً .

على أن تلك السموم تفيد بعض الأعضاء التى تتغذى بها أو

تحولها إلى مواد غير ضارة أو تقذف بها إلى خارج الجسم ، ولذلك تجب علينا العناية بالأعضاء الداخلية وخصوصاً الكبد . ولا يفوتنا أن الجلد لا يقل أهمية عن الكبد . ولنذكر كل واحد أن لأبداننا علينا حقوقاً يجب أن نوفيها بالراحة والرياضة غير المجهدة » .

هذا بعض ما يقوله الأستاذ فستر .

أما الدكتور فلورى فقد أفرد باباً للتعب فى كتابه الطبى الذى جعله مقدمة لطب النفوس، وفيه يقول : «إن الانسان يستنفد قواه اليوم ما يتعرض له من مختلف الذبذبات ، فقد أقام المسيو فيريه Féré البرهان على أنه يكفى أن يمر تحت نظرنا لون زاه ، أو على سمعنا صوت ، حتى يهيج جهازنا العصبى إلى حد يزيد قوتنا مؤقتا ثم يعقب ذلك خمول دائم . فاذا قدرنا مايقع تحت أبصارنا من ألوان الصور ، وما يقرع أسماعنا من أصوات الموسيقى وحركة العربات وغيرها ، أمكننا أن نكون فكرة عن مقدار مايذهب من قوانا هباء بسبب التعب الجسمانى ليس غير

وإذا أضفنا الاجهاد العقلى وما تستنفده حياتنا العاطفية استطعنا أن نعرف أن أجل نومنا قصير لا يعوض ما كابدنا من مشقة ، وهذا هو الارهاق بعينه ، ولا يكون علاج هذا الارهاق المدمر إلا باحدى وسائل ثلاث :

الراحة والمران ثم تنبيه المراكز العصبية تنبيهاً منظماً

أما الراحة فتتطلب العزلة التامة بعيداً عن المنغصات والمثيرات فى بيت من بيوت العلاج المائى بحيث لا يقطع تلك الحياة البسيطة التى يقضيها المجهد هناك إلا فترات الأكل والاستحمام والنزهة والتعرض لتيارات الكهرباء الاستاتيكية .

«فلورى يرى أن هذه الوسيلة شرها أعظم من خيرها ولا يقرها علاجاً إلا حين يخفق كل علاج سواها ، فان المرء لا ينبغى له أن يرتمى فى أحضان السآمة بل يجب عليه أن يصون نشاطه ويذكيه بتنمية ميله الطبيعى إلى العمل بالمران . فان البطالة والكسل مصدر كل الموبقات ومنبع عدة اضطرابات وأمراض عصبية . والتعب الحقيقى نادر عارض لا يلازم المفكرين المنتجين إلا أمداً قصيراً ، ولكنه كثيراً ما يلازم الفارين من متاعب الحياة الذين يقضون أوقاتهم دون عمل ، والذين لا ينتجون إلا إذا هبط عليهم وحى أو الهام . لأمثال هؤلاء لا تنفع الراحة إذ هم فى راحة دائمة ، والراحة لا تفيد إلا من تعوزه ، وهى لا تعوز إلا من يبذل أقصى الجهد فى عمل متواصل . أى أناة وجلد ومثابرة ، وأى جهد استلزمته مؤلفات اسكندر دوماس الكبير أو مؤلفات بلزاك أو ميشليه أو هوجو أو تيير ؟ فلنر كيف كان هؤلاء الفحول يشتغلون

يقول دوماس الصغير فى والده : لم يكن والدى يشتغل متقطعاً ، بل كان يشتغل يومياً من وقت استيقاظه حتى الظهر غالباً ؛ ولم يكن الغذاء إلا فترة راحة ، وإذا تناول طعامه وحيداً ، وهذا نادر ، نقلت له مائدة صغيرة إلى حجرة العمل حيث يأكل برغبة ولذة كل مايقدم إليه . فإذا انتهى الأكل عاد إلى كرسى العمل وتناول قلمه . ولم يكن يشرب وقت الغداء إلا النبيذ الأحمر أو الأبيض مخلوطاً بماء سلتز ، فلا قهوة ولا خمر ولا تبغ . أما بقية اليوم فلم يكن يتناول فيه إلا شراب الليمون . وشغله فى المساء قليل ، ولكنه على كل حال لم يكن يسهر أبداً حتى ساعة متأخرة من الليل بل كان ينام نوماً عميقاً .

ولم يكن يشعر بتعب إلا إذا قضى على هذه الحال عدة أيام بل عدة أشهر . عند ذلك يسافر للصيد والقنص فى رحلة قصيرة يستغرق معظم وقتها فى النوم دون أدنى تفكير ، فاذا مام حل ببلدة فيها ما يدعو الى الفرجة ذهب لمشاهدة غرائبها ودون مذكرات عنها ؛ فكل راحته فى تغيير العمل .

ولقد شاهدته فى عدة سنين يصاب بالحمى يومين أو ثلاثة عقب عمله اليومى المستمر ، وتبلغ ضربات قلبه ١٢٠ أو ١٣٠ فيعالج نفسه بالنوم العميق وشراب الليمون يوضع له فى جفنة عظيمة على منضدة بجوار السرير ، فكلما استيقظ تناول جرعات ، متى وبعد مضى يومين أو ثلاثة ينتهى كل شىء فيقوم ويستحم ويبدأ عمله .

وكان دائما فى صحة جيدة لا يرتاح راحة تامة إلا فى الصيد والسفر ، ولم أعهده يرتاح فى المنزل مطلقا . غير أنه كان كثير النوم ؛ وقد ينام بالنهار « على حسب هواه » ربع ساعة نوما مصحوبا بشخير عظيم ، فاذا ما استيقظ أمسك بالقلم ، ولم يكن يمحو شيئا حين يكتب ؛ وكان جميل الخط

أما دوماس الصغير فكان على خلاف والده ، متقطع العمل

يسكت أشهرا ثم يستأنف الكتابة ، ذلك بأنه كان عديم الخيال ، معتمدا فى تأليفه على الملاحظات والتفكير : فكان لا بد من أن يستغرق زمنا طويلا فى المشاهدات ، ثم يفكر فى طريقة صوغ القصة ، حتى اذا ما انضجت الفكرة عمد إلى تدوينها على القرطاس ؛ وكان يقضى مدة المخاض فى حركة ، حتى إذا ما أراد الوضع بدأ عمله مُبكرا واستراح عند الظهر . وكان يحب التأليف فى الريف ، ولا يشتغل فى اليوم أكثر من ساعتين أو ثلاث ، وكلما طال عمله طال نومه وقلت رغبته فى الأكل ، وكانت صناعة الكتابة منهكة له ، وكثيرا ما اضطر إلى الانقطاع عن العمل بتاتا مددا طويلة .

على أنه كان كأبيه من حيث الاعتدال ، فلم يكن يشرب نبيذا ولا قهوة ولا خمرا ولم يكن يدخن تبغا .

أما بلزاك العظيم فقد كان غريبا فى حياته التأليفية ، فلم يكن يكتب إلا بعد أن يلبس لباس الرهبان ؛ وكذلك كان سلوكه مثلهم منظما نقيا جيدا . ويروى تيوفيل جوتييه أن بلزاك كان ينصح لتلاميذه أن ينقطعوا للعمل سنتين أو ثلاثا بمعزل عن الناس ، وألا يشربوا إلا الماء ولا يأكلوا إلا الأرانب ، وأن يناموا عند تمام الساعة السادسة مساء ويستيقظوا عند منتصف الليل فيبدأوا عملهم حتى الصباح ، كما كان ينصحهم بالعفاف المطلق ؛ وكان كثير التكرار لهذه النصيحة الأخيرة . ولم يكن هازلا فى نصائحه . وقد كان عظيم الانتاج بفضل إرادته الخارقة . ومزاجه التقشف وانقطاعه عن الناس انقطاع المتحنثين الأبرار . وكان فى سلوكه مستقيما حتى لم يكن يشرب النبيذ

وأما هوجو فكان مفرطاً فى شرب الخمر والأكل دون اكتراث ، ولكنه ككل عظماء المتجين ، كان يبدأ عمله فى ساعات محددة من وقت الاستيقاظ إلى وقت الغداء . وكان يستيقظ فى الساعة السابعة دائماً فيغسل رأسه بماء بارد ، ثم يبدأ يكتب وهو واقف بسلاسة دون محو صفحات من نثر أو نظم قد اختمر فى عقله فى مساء اليوم السابق فى أثناء نزهته المعتادة بعد الظهر . وما أكثر ما صنف ! ولكن تصانيفه الهائلة لم تجهده أبداً ، وذلك بفضل نظام العمل .

أما ميشليه فكان من عادته أن يكتب مبكراً ؛ فكان فى أول حياته يستيقظ فى الرابعة صباحاً ، ثم أصبح فى وسط حياته يعمل نحو الساعة الخامسة ؛ وفى آخر حياته صارت السادسة هى ساعة بدء العمل . وكان محباً للنوم ، هادئه عميقه ؛ وكان ينام الساعة التاسعة مساء حين كان وحيداً . وكان يدرس قبل نومه الحقائق الأساسية الخاصة بالفصل الذى عليه أن يكتبه فى اليوم التالى . فما لا شك فيه أن العقل يشتغل بالليل وصاحبه نائم .

وكان معتدلا فى غذائه ، لا يأكل شيئا ثقيلا ، ويكثر من الخضر ؛ وقبل بدئه عمله يتناول فنجانة صغيرة من قهوة ولبن دون خبز ؛ وفى الحادية عشرة صباحا يأكل بيضتين وشريحة من اللحم المشوى ؛ وقد يأكل قليلا من الفاكهة ويشرب قليلا من النبيذ . أما الخمر فلم يكن يتعاطاها ولم يكن يحب القهوة الا باللبن

وكان يشتغل فى كل يوم ست ساعات طول حياته ، ولم يكن يحب الملاهى ، وما كان يزورها الا نادرا ؛ وما كان يلهيه عن عمله شىء . فاذا ما أتم كتابه شعر بأثر متاعب العمل المتواصل فلا ينجيه من آلامه الا الريف والتاريخ الطبيعى

مما سبق يتبين أن هؤلاء العظماء قد اشتغلوا كثيرا جدا دون انقطاع تقريبا مدى عدة سنين ولم يصابوا فى صحتهم بسوء ، فقد عاش دوماس الكبير ٦٧ سنة وميشليه ٧٤ وتيير ٨٠ وهوجو ٨٢ ودوماس الصغير ٧١ ، ولم يمت صغيرا الا بلزاك فقد عاش ٥١ سنة فقط . ولعل لكثرة مشاغله وهمومه المالية أثرا فى ذلك ؛ فكثيرا ما كان يضطر الى العمل ١٦ ساعة فى اليوم شهرين متتاليين أو ثلاثة أشهر . فلا عجب اذا كل وعجز عن المقاومة وإن كان قوى الجسم مفتول العضلات .

شاعر الاسلام (١)

محمد عاكف

بقلم الدكتور عبد الوهاب عزام

— ١ —

كنت أقرأ اسم محمد عاكف بين أعـــلام الأدب التركي الحديث، وكنت لا أعرف إلا طرفاً من أخباره وأشعاره. فلما سافرت إلى استنبول منذ سبع سنين، وكان عاكف قد هاجر إلى مصر، عرفت من سيرته وأدبه ما حببه إلى وشاقني إلى لقائه. فلما عدت إلى مصر بادرت إلى زيارته، وكان من سعادة الجد حينئذ أن ألفيته على مقربة مني في حلوان نازلا في كنف الأمير عباس حليم باشا رحمه الله

شاعر الاسلام

ذهبت إلى داره، فطرقت الباب فاذا رجل ناهز الستين أشمط ربعة قوى البنية، عليه سيما الحياء والتواضع. وجلست فتحدثنا قليلا، فافتتحنا عهداً من المودة المؤكدة والصداقة المخلصة

وكان صديقي حيياً، نزر الكلام، كثير التفكر طويل الصمت. نزّاعاً إلى العزلة، نفوراً من المجامع؛ فتوفر حظي من لقائه والأنس به، قلما زرته فلم ألفه في داره

وكان أنسه أن أزوره أو يزورني، فنفرغ للحديث نصرفه بين الماضي والحاضر، ونمزج فيه الجد بالفكاهة. ونطوف به في أرجاء الأدب والتاريخ، ونتعرف بها أحوال المسلمين. وكان اذا أنس بالمجلس انطلق في الحديث وتبسط واستزاد المحدث بحسن استماعه واهتمامه. فاذا قاسمنا مجلسنا غير ناصمت حياء أو انقباضاً، أو إصغاء أو إنكارا؛ فاذا سألته لأشركه في الحديث هز رأسه متجاهلا، أو ابتسم أو أجاب موجزاً، ثم راجع صمته. فاذا انفض المجلس أبدى لي رأيه مخالفاً أو موافقاً، ساخطاً أو راضياً

وكان أحب شيء اليه أن نلتقي في عشايا الصيف، فنطوف في حلوان نتعطف في شوارعها كما تتعطف بنا شجون الحديث، فلا نتنبه لمكاننا حتى نخرج من أبنية المدينة فنرجع إليها، ويلهينا الحديث حتى ننتهي إلى طرفها الآخر. وكان قوياً على المشي محباً له لا يذكر الدار إلا إن شكوت إليه التعب، فيشكيني عائداً إلى داره أو داري لنقطع الحديث بشرب الشاي.

وكم تحدثنا وقرأنا في سيرنا وجلوسنا في الآداب الثلاثة: العربية والفارسية والتركية. وكنت أحب أن أقرأ عليه شعره: وكان يسره أن يستمع له. وكانت كل أحاديثنا وقراءتنا متعة، نجتمع فيه على الفكر والذوق والأمل والألم. وكان أطيب المجالس مجلسا نفزع فيه الى شعر محمد اقبال. وهو، رحمه الله، عرفني باقبال يوم أعارني ديوانه «پيام مشرق». فاذا صفا الوقت عمدت الى أحد كتب اقبال فقرأت واستمع مقبلا مستغرقا يقطع انشادي في الحين بعد الحين بالاستعادة أو الاستحسان أو التعجب أو التأوه. وشد ما كان يثير إقبال نفسه، أو يثلج صدره! وشد ما كان يحزنه أو يفرحه! وأذكر أننا بدأنا كتاب اقبال «أسرار خودي» فوالينا الجلسات حتى أنهيناه انشادا، ثم أتبعنا به أخاه «رموز بي خودي» فختمناه على شوق الى الاعادة

وكنت عرفت أساتذة كلية الآداب بهذا الأديب الكبير، فاختاروه لتدريس التركية بها، فكان محببا الى الأساتذة والطلاب يأنسون به ويجلّونه ويتوددون اليه

— ٢ —

كرّت على هذا الأيام، وعددنا فيه بضع سنين لا يكاد عاكف يغيب ثلاثة أيام لا أراه في حلوان أو كلية الآداب. وكان قويا صحيحا مغتبطا بالعافية، فلم يرُعنا الا أن بدا عليه الهزال والشحوب، وازداد به الانقباض والحزن، فاذا سألناه اخبرنا أن

(١) بذلك كان يلقب في تركيا

مرضا قديما عاوده . وهو يطب له ويرجو الشفاء . ثم بدا له أن يذهب الى الشام يستمد العافية من السفر وتجديد الهواء ، فعاد بعد شهرين وقد استفاد أن مرضه لم يزدد . ثم تغير وتغير فأنكرنا حاله ورثينا له ، واذا الجسم القوى المضمور عظام تحت الثياب ، ولكنا كنا نأمل له العافية ، ونرتقب أن نغتبط به معافى متهللا كما كان .

وكان سفرى الى العراق ، فتركته راجيا أن ينجده الطب فيسترد عافيته ونضرته ، وتطول سعادة أصدقائه وغبطة الأدب به . وكتبت اليه من بغداد فلم أظفر بجواب ، ولم يكن ذاك من دأبه . فالتمست له عذرا من المشاغل وتمنيت الا يكون المرض شغله عن رجع الخطاب ، ثم علمت أنه سافر الى استنبول وأن حاله لاتبشر بالرجوع الى مصر .

— ٣ —

رجعت الى حلوان أفتقد زوراته بالنهار والليل ، وأندب غدواتى وروحاتى اليه ، ممسكا بكتاب أو معدًّا الحديث ، وأتذكر مجالس عزّت علىّ من بعده ، ومن لى بعد عاكف بمجالسه ؟

وعلمت أواخر الصيف الماضى أن صاحبنا لما به ، وأن داءه قد استفحل . وغلب اليأس الأمل . ثم انقطعت الأخبار ، وطال الانتظار ، وأرجفت الأنباء ، ولم نظفر من الأمر بيقين . والتمسنا أخباره بالبريد والبرق فلم نستقر على نبأ

ثم طلعت جرائد مصر بالنعى ، وترادفت جرائد تركيا بخبره ، ولكن بالحسرة والرثاء ، وبصورته ولكن فى ساعاته الأخيرة ، وبمشهده ، ولكن محمولا على الأعناق ، وبالخبر اليقين ! ولكن فى بطن الثرى .

فالى رحمة الله التقى النقى ، وفى ذمة الله الأديب الألمعى ، وفى رضوان الله « شاعر الاسلام »

(للكلام بقية) عبد الوهاب عزام

سجن شيلون

للشاعر الانجليزي لورد بيرون

بقلم الأستاذ محمود الخفيف

إلى الذين لا يلويهم شيء عما يعشقون من حرية
(المعرب)

تمهيد: كتب بيرون هذه القصيدة الجليلة في فندق صغير في قرية بالقرب من لوزان ، حيث عاقته رداءة الجو عن متابعة سيره ، وقد أثار مرأى ذلك الحصن العتيق (شيلون) في قلبه ذكرى فرنسوا دي بونفارد الذي سجنه فيه دوق سافوي من أجل مبادئه الجمهورية عام ١٥٧٠ م وقد جعله بيرون بطل هذه الأقصوصة الخيالية الرائعة .

— ١ —

لقد علق الشيب بشعري ولكن لم تلده السنون ، كذلك لم تبيض رأسي في ليلة كما تبيض رؤوس الرجال بغتهم الرعب .

وتقوست ساقاي ، وإن لم يك ذلك عن جهد ، بل لقد صدئتا في سكون موبق مُهلك ، إذ كانتا نهب الدمار في سجن مظلم تحت الأرض

٭٭٭

وكان حظي في هذه الدنيا حظ أولئك الذين لا يجدون في أرضها مضطربا ، ولا في سمائها مسرحا . إذ كان ذلك عليهم محرما

على أن ما ألاقيه ، إنما هو من أجل عقيدة أبي ! أجل ، من أجل تلك العقيدة أقاسي الأصفاد وأغازل الموت طالبا يده !

٭٭٭

ولقد قضى ذلك الأب نحبه مستشهدا على خشبة الصلب ، في سبيل مبادئه التي لم يكن ليتنى عنها ، وفي سبيل هاتيك المبادىء عينها ، يجد أبناؤه مأواهم في ظلمات السجن

٭٭٭

كنا سبعة ، نحن الذين تراهم الآن واحدا فحسب ، ستة في الشباب وواحداً في المشيب ، انتهوا جميعا كما بدأوا فخورين بما صبه الاضطهاد على رؤوسهم من نقمة .

ألقى بواحد في النار ، وهلك اثنان في الميدان ، حيث طبع الدم عقيدتهما بخاتمه ، وذهبا كما ذهب أبوهما في سبيل الله الذي أنكره أعداؤهم ، وألقى بالثلاثة الباقين في غيابة السجن حيث لم يعش منهم سواي أنا ... حطامهم الباقي

— ٢ —

هنالك في سجن « شيلون » ذلك السجن العتيق العميق ، توجد سبعة أعمدة أقيمت على النمط القوطي . سبعة أعمدة ضخمة شهباء ، تتراءى كالحة على بصيص منبعث من شعاع كئيب سجين ، شعاع من أشعة الشمس ضل طريقه ، فسقط من خلال الشقوق في الجدار الضخم على أرض السجن ، وأخذ يزحف فوق تلك الأرض الرطبة المبللة كأنه خيال المذنّب انعكس في مستنقع

٭٭٭

في كل عمود من تلك الأعمدة علقت حلقة . وفي كل حلقة ربطت سلسلة . آه . يا لهذا الحديد من آكل ، فهاهي ذي أسنانه لا يزال أثرها في ساقي ولن يزول ذلك الأثر إلا بزوال هذا النهار الجديد ، الذي تتأذى به الآن عيناي وتتألمان ، لأنهما لم تريا الشمس هكذا تشرق منذ سنوات لا يسعني حصرها ، فقد نسيت عددها وغاب عن وعيي تعاقبها الثقيل ، منذ أخنى آخر إخوتي رأسه وفارق دنياه ، وأنا بجانبه لا تزال تدب في جسمي الحياة !

— ٣ —

أوثقونا كلا في عمود من تلك الأعمدة الحجرية وكنا ثلاثة معا ، ولكن كل في معزل عن أخويه ، ولم نك نستطيع أن نتحرك خطوة واحدة ، ولم يك يتسنى لأحدنا أن يرى وجهي الآخرين لولا ذلك الضوء الشاحب الأغبش الذي جعل كُلاً منا غريبا في عين أخيه : وهكذا كنا معا وإن كنا في الوقت نفسه منفردين ، كانت أيدينا مغلولة مربوطة ، ولكن قلوبنا كانت تذوى من الحزن .

٭٭٭

على أننا مع ما كنا نقاسيه من حرمان أنفسنا من عناصر الحياة الصافية وجدنا بعض العزاء أن كنا نستطيع أن نتحادث ويسمع كل منا كلام أخويه فيسرى كل عن الآخرين بما ينشد من أمل جديد أو بما يذكر من أسطورة قديمة أو بما يتغنى به من نشيد حماسي من أناشيد البطولة

٭٭٭

ولكن هاتيك التعلات وا أسفاه قد تسربت إليها في النهاية برودة المكان ، وصار لأصواتنا رجع كئيب موحش هو الصدى المرتد من أحجار ذلك السجن ، صارت أصواتنا حبيسة ضعيفة ، ولم تعد كما كانت بالأمس طليقة مليئة . ربما كان ذلك وهما ، ولكني لم أعد أتبين في تلك الأصوات أصواتنا السوالف .

— ٤ —

كنت أكبر هؤلاء الثلاثة ، وكان علي ان أشد أزر أخوي وأسري عن قلبيهما ، ولقد قمت من ذلك بأحسن ما استطعت ، وكذلك قام كل منهما بما وسعه

* * *

وتالله لقد حرك الحزن نفسي من أعماقها ، وبلغ الأسى منها كل مبلغ من أجل أخي الأصغر ، ذلك الفتى الذي أحبه أبي لأنه كان يرى في جبهته جبهة أمه ، وكان يرى في عينيه لازورد السماء

وفي الحق إنه مما يذكي القلوب أسى أن يرى مثل هذا الطائر في مثل ذلك القفص . ذلك لأنه كان جميلا كالنهار حين كان يبدو لعيني من جمال النهار بقدر ما يبدو منه لأعين النسور الفتية المحلقة في جو السماء ؛ كان جميلا كنهار القطب ، لا يرى الغروب حتى يتصرم صيفه ، ذلك الصيف الصاحي الطويل زمن ضوئه ، ابن الشمس المتشح ببياض الثلج .

كان أخي شبه ذلك النهار في نقائه وبريقه ، وكان عذب الروح يفيض بالمرح ، ولا تعرف عيناه الدموع في شيء ، اللهم إلا فيما نال الآخرين من شقاء ، وهنالك تفيضان كما يفيض الغدير المنحدر من الجبل ، ولن يرقأ دمعه حتى يدفع ذلك الشقاء الذي أزعجه مرآه وأمضه

— ٥ —

وكان الآخر مثله في صفاء الروح ، ولكنه خلق محارباً مقداما ، فكان قوي البنية ، متين الأعضاء ، له من قوة الارادة ما يتحدى به العالم في ساحة الحرب ، وكان أشد ما يبهج نفسه أن يتاح له الموت في طليعة الصفوف ، لا أن يذوي هكذا في الأغلال .

ولقد أوهن روحه صليل تلك الأغلال حتى ذبلت كما تذبل الزهرة ، ورأيتها تتساقط شيئا فشيئا . وفي الحق لقد نالني مثل ما ناله ، ولكني تجلدت لأبقي على حشاشة هذا البيت العزيز الغالي ، وكان أخي هذا صائداً يطارد الغزلان والذئاب على متون التلال ، ولذلك كان يرى في هذا السجن أقبح هوة وفي تصفيد قدميه أسوأ عذاب .

— ٦ —

كانت تقع بحيرة ليمان تحت أقدام ذلك الحصن على عمق ألف قدم ، وكانت لججها تتلاطم وتعج حتى لتصل إلى رأسه وتجعل قياس عمقه يبدأ من تلك الرأس البيضاء التي كانت تكتنفها الأمواج من جميع النواحي ، وتجعل مع الحائط من الحصن سجنين ؛ وتدعه كالقبر الحي !

وكان يقع القبو الذي ألقي بنا فيه تحت سطح البحيرة ، وكثيرا ما سمعنا موجها فوق رؤوسنا يلطم الجدران بالنهار والليل ، ولقد أحسست ثبج الشتاء يضرب القضبان في الريح العاصفة ورأيته ينبعث صعداً نحو السماء الهائجة .

وعند ذلك ارتج الصخر وهو الصخر ، وأحسسته يهتز وما هو بالمهتز ، ذلك أني كنت حينئذ أستطيع أن أبتسم ، أن أرى للموت الذي يطلقني من هذا الأسر !

البقية في العدد القادم — الخفيف

الشتاء

للأستاذ أديب عباسي

أحسب أن مقال الاستاذ الكبير (احمد أمين) فى امتداح الشمس وذكر آياتها فينا وأياديها علينا، كان بداعي توارد المعانى والانتقال الطبيعي من موضوع «الضحك» إلى تاليه فى «الشمس» فالشمس بما ترسل إلى النفوس فى الشتاء من إشراق، وما تشيعه فى الوجوه من بشر، وما تبعثه إلى القلوب من حرارة، تعمل عمل الضحك فى النفوس والأجسام. ومن هنا ما جوَّزت لنفسى أن أفترض من انتقال الأستاذ بين الموضوعين انتقال توارد لا انتقال عفو

وأنا أعترف بأنى متأثر الأستاذ الكبير، متأثر به فى كتابة هذا الفصل. فلولا موضوع الشمس الذى دبجت يراعته الساحرة ما كنت فى الأرجح أفكرُ فى موضوع «الشتاء» وأكتب فيه فى هذا الفصل الذى يغرى بالاعتكاف والانكماش. ولولا طريقة الاستاذ فى امتداح الشمس والتغزل بمحاسنها لكانت لى خطة تباين فى الراجح هذه الخطة عند الكتابة فى هذا الموضوع لو عنيت يوما أن أكتب فيه

والشتاء — كما لابد أنك تعلم — أقل فصول العام نصيباً من احتفال الشعراء والكتاب له.. ومن هنا كان ما قيل فيه مدحاً وهو القليل، وذماً وهو الكثير، أقل لما جاء فى الربيع أو الصيف أو الخريف مدحاً وثناء. ولعل ذلك لما يرين على النفوس فى هذا الفصل من حرج الشتاء وضيق البرد بما يذود عن الشعراء أقل الشعر والنثر فى التغزل بالشتاء ومدح القر. على أنى سأخرج على هذه القاعدة وأمتدح الشتاء فى فصل الشتاء عينه وإبان اشتداده وسورته غير العادية فى هذا العام.

وأول ما نذكره للشتاء وغيومه المقطبة وبروقه الملعلعة ورعوده المقعقعة وغيثه المنهل وسيله الحادر ونهره الهادر، أنه فصل الأحياء والبعث فى الطبيعة، وأنه محرك رواقد الأجنة وغوافى النبت، ثم هو مغذى الزرع وباعث الرزق ومحيى الضرع. ولعلة واضحة وسبب مقبول أن اشتق العرب الغيث من الغوث، إذ لولا الشتاء ما نبت نبت ولا تفتح زهر ولا اكتسى دوح ولا فاح عطر ولا غنى جدول ولا انبجس نبع ولا أورق عود ولا اخضر ربع ولا أحصد زرع

يسيل فى الترب الماء فينقل أسباب الخصب والنماء إلى البذور المستكنة والأجنة المخبوءة فى باطن الارض، فتصاعد الجواهر المغذية محمولة فى مطاويه إلى سوق النبت وأزهاره وأوراقه وبراعمه وتسير فيه كل مسير، فيأخذ كل حاجته ونصيبه كفعل الجسم بالدم

ولولا الشتاء لحرمنا الربيع بوشيه وأفوافه وأنواره، والصيف وظلاله الندية ونسماته الرخية وغلاله الوفية. والخريف وما أنضج من ثمر شهى وفاكهة روية

وللشتاء جماله الرائع القوى: ففيه الغيوم تأخذ كل شكل وتلوّن كل لون وتسير متلاحقة مطّردة، تارة مسرعة وأخرى وئيدة، تشق عباب الجوّ كالسفين المثقلة. وهى تجتمع فى الجو لتفترق، وتفترق لتجتمع، فهى حيناً جميعة وهى حينا الشملُ شتيت. وآنا هى مسفّة حتى لتدخل من النوافذ وتتطفل على الناس فى مخادعهم واسرتهم، وآونة تسمو وتشيل فى كبرياء وأنفة حتى لتكاد تحس بأنها تبغى الى الشمس سبيلا.

والغيم رمز الأمل القوى والعزم الفتى. فهو أبداً متجدّد وهو أبداً يسير، وأبداً يستهدف المرامى البعيدة والآفاق القصية، ولن يصدّه عنها سهل ولا وعر. وهو كلما وصل أفقاً وبلغ غاية استهدف أفقاً آخر جديداً الى أن يفنى كفناء الأمل بفناء العمر الذى يضع الحدود ويقيم السدود للآمال والأمانى الانسانية.

وفى الشتاء السيلُ المترع والموجُ المصطفق والنهر الزاخر، وفيه الثلج يكسو الأرض حلة نقيّة من أديم الشمس هى لولا برودها. وفيه الجليد كالثريات المدلاّة حيناً. وحيناً كصفحة السماء، فى الزرقة والاستواء. وحيناً آخر تراه فتخاله هشيما من البلور النقى الصفيق. وفيه الندى مسلوكا عقوداً من اللؤلؤ فى خيوط الزرع وتباشير النبت. وفيه الضباب يضيّق الافق ويقصّر أمد الابصار فترة، فيكون للأبصار كالحمية للأجسام يعطيها فرصة للاستجمام من ألم النظر البعيد! وفى الشتاء البروق الخواطف والرعود القواصف والرياح العواصف. وكل هذا فيه جمال القوة وجمال الروعة، وهما كجمال الهدوء والاعتدال

لأزمان لرياضة العواطف وحياة الشعور . وإن يكن فى فصول العام ما يُرينا عظمة الخالق وجبروته ففصل الامطار هو أول هذه الفصول . ولا يذكر الناس الله ويخشعون أمام سطوته خشوعا صادقا إلا فى فصل الشتاء . حينما يعود إلى الاذهان ذكر الطوفان الذى أغرق قوم نوح ، وحينما يشتد قصف الرعد وهزيمه فتزلزل الارض زلزالها ، وتوشك أن تخرج أثقالها كيوم الحشر .

والشتاء فى أول عوامل التعمير والبناء فى صرح الاجتماع ، فلولا الشتاء لما كان الموقد ، ولولا الموقد لما كانت الأسرة أو لتأخر نشوؤها أمداً طويلا ، ولولا الأسرة ما كانت قبيلة ، ولولا القبيلة ما كانت دولة ولا مملكة . فأنت ترى أنه لولا الشتاء وضرورة اجتماع الافراد حول النار للاصطلاء وطلب الدفء ، لظل نشوء الاسرة رهناً بحوادث وظروف أخرى طارئة قد تقع وقد لا تقع .

وفى الشتاء يقل الاجرام قلة ملحوظة ، وذلك أن الناس يقلون من الغدو والرواح ويعتكفون فى بيوتهم مما لا يهيء للصوص فرصا عديدة للسلب والنهب . وفيه كذلك يسمو مستوى الحياة العائلية . فالأب يرى بنيه وزوجه ، يخالطهم ويباسطهم ويقيم بينهم وقتا أطول ، فلا الزوجة ساهرة مسهدة ، ترقب دامعة العين والقلب أوبة الزوج من إحدى زوراته الليلية ، ولا البنون يلتمسون حنو الأب وعطفه عليهم ورعايته لهم وانتباهه إليهم فلا يجدونها . ولا العاشق المفتون ييسر له كل اليسر أن يتسور على الناس الدور ليسطو على الأعراض ويلغ فيها ويفسد

وفى الشتاء تقل الضوضاء ولا يقطع على الناس فى الليل وأطراف النهار هدوءهم لغط الباعة وهرجهم وصراخهم وضجيجهم فى الشوارع والأزقة وأمام الدور والمدارس والمستشفيات وفى كل محل تجوس خلاله أقدامهم

هذا ويعلم الشتاء الناس الحذر والحيطة ، فلا يجدى معه أن تهمل لباسك أو تهمل أمور بيتك أو تهمل استشارة الطبيب أو تغامر فى الادلاج والسير فإنه على خلاف بقية الفصول ، سريع حاسم فى عمله ، ولا يدع لك فرصة للتطلل والمراوغة وترك التبعات المفروضة عليك نحوك ونحو بنيك وذويك .

ويعلمنا الشتاء بتقلبه واختلاف وجوهه وقوة تنبيه دراسة الطبيعة وحسن الاستدلال بالأمائر والإشارات على حال الجو من دفء أو قر أو إمطار أو انحباس وخلافها . والبدوى أسرع الناس استدلالا وأسوغهم معرفة وأصدقهم فراسة بشؤون الجو ، لان للشتاء عنده من المعانى غير ماله عند الحضرى وساكن المدينة

ومن أنعم الشتاء على الناس وفضله العميم أنه يحجب عن الأبصار كثيراً من مشاهد القبح والتشويه المغثية مما تقذى به العيون ، وأنه يحجب كذلك الكثير من مظاهر الفتنة والجمال والاغراء

وقد تقول محتجًا ومعارضاً : نستطيع أن نفهم ونسيغ أن يكون من فضل الشتاء على الناس وخيره العميم أنه يحجب عنهم مظاهر القبح فيمن حرموا الجمال بما لا بد أنهم مخبئوه من أجسامهم الشوهاء المضطربة بما يلفعون به أنفسهم من أردية وأكسية ثقيلة ، حتى لا يكاد يبدو الاضطراب والتشويه . قد تقول : إننا نستطيع أن نسيغ هذا ونفهمه ، ولكن كيف نفهم أن يكون إخفاء الحسن والجمال والفتنة من أنعم الشتاء عندنا وفضله العميم علينا ؟

وأجيب : إنك بلا ريب تحمد للشتاء أن يخفى عنك الفرو الغزير حول العنق فتنة الجيد العاجى ، وما يصله بأعلى الصدر من نحر يطل عليك إطلالة الفجر . وتحمد للشتاء أن يخفى عنك بالمعطف الثقيل والدثار الكثيف والصوف الخشن الصدر الناهد البض ، والترائب المصقولة والاعضاء المملوءة والردف الشف . يخفى شيئاً ويبدى أشياء فتكون الفتنة – وايم الله – أشد من فتنة العرى الكامل !! وتحمد للشتاء أنه يخفى عن عينيك ضمور الخصر وهيف القد والساقين لفرط انسجامهما لا تدرى أهما إلى الربالة والامتلاء ، أم هما إلى الدقة والنحافة . ستحمد للشتاء كل أولئك لانك تحب ان يثوب إليك رشدك والعازب من لبك ، وتحب أن تنقطع شيئاً آهاتك وتغيب حيناً مثيرات الحرمان والحسرة فى فؤادك .

أفبعد هذا لا نصوغ للشتاء عقود المدح والثناء ، ونردد قول الشاعر : « سلام الله يا مطر عليك » . سواء أعنى الشاعر مطر السماء أم عنى اسما من الأسماء ؟ !

بلى ، سلام وألف سلام يا شتاء !

أديب عباسى

١١ - هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

محبة القريب

إنكم لتعطفون على القريب، وتعبرون عن عطفكم بتزويق الكلام، أما أنا فأقول لكم إنّ محبتكم للقريب إنْ هي إلا أنانية مضللة.

إنكم تلجأون للقريب هرباً من أنفسكم، وتريدون أن تعدوا هذا العمل فضيلة، وهل يخفى عليّ كنه تجردكم هذا؟

إن المُخاطب أقدم من المتكلم، فالأول مقدّس أما الثاني فلم يقدّس بعد. ذلك هو السبب في عطف الإنسان على قريبه.

إن ما أشير به عليكم هو أن تنفروا من القريب لا أن تحبوه لتتمكنوا من محبة الإنسان البعيد، فإن ما فوق محبة القريب محبة الإنسان البعيد المُنتظَر، وإني أضع فوق محبة الإنسان محبة الأشياء والأشباح.

إن الشبح الذي يعدو أمامك، ياصديق، لهو أجمل منك، فلماذا لا تعيره لحمك وعظمك؟

لقد استولى الخوف عليكم فلذلك تفزعون إلى القريب. لا قِبل لكم باحتمال أنفسكم وما حبكم بالحب الكامل، لذلك أراكم تطمحون إلى إغواء قريبكم لتتمتعوا بضلاله.

أتمنى أن تنفروا من جميع فئات الأقربين ومن جيرتهم أيضاً لتضطروا إلى إيجاد الصديق الذي يطفح قلبه بالاخلاص. إنكم لتدعون شهوداً عند ما تريدون أن تغدقوا الثناء على أنفسكم، وإذا ما توصلتم إلى تضليلهم ليحسنوا الظن بكم تبدأون حينئذ بإحسان الظن بأنفسكم.

ما من أحد يرتكب الكذب إلا إذا تكلم ضد ضميره؛ فأصدق الناس من لا ضمير له يحول دون قوله الصدق. على هذه القاعدة تتكلمون عن أنفسكم بين الناس لتضللوهم في حقيقتكم: يقول المجنون في نفسه: (إن مخالطة الناس تفسد الأخلاق، بل هي تفسد بخاصة من لا خلاق لهم)

إن منكم من يهرع إلى جاره ليفتش عن نفسه، ومنكم من يذهب إليه لينساها. انكم تسيئون محبة أنفسكم، لذلك يصبح انفرادكم بمثابة سجن لكم.

إن الغائبين يؤدون ثمن حبكم للقريب، لأن خمسة يجتمعون منكم يقضون دائماً على السادس الغائب.

إنني لا أحب أعيادكم، إذ رأيتها مليئة بالممثلين، ورأيت النظارة أبرع منهم تمثيلاً.

لا أدعوكم إلى محبة القريب، بل أدعوكم إلى محبة الصديق. فليكن الصديق لكم مظهر حبور الأرض، فتحسون بما ينبئكم بالانسان الكامل.

أوصيكم بالصديق يطفح قلبه إخلاصاً؛ غير أن من يطمح إلى الظفر بمثل هـذا القلب يجب عليه أن يكون كالاسفنجة قادراً على تشرّب السائل المتدفق. أوصيكم بالصديق الذي يحمل عالماً في نفسه، فهو الصديق المبدع الذي يسعه أن يقدم لكم هذا العالم في كل حين، فيعرض عليكم ما مرّ به من عبر الحياة، فتشهدون كيف يتحول الشر إلى خير، وكيف تنتهي الصدف بكم إلى غاياتكم.

ليكن المستقبل والمقاصد البعيدة ما تصبو إليه في يومك، فتحب في صديقك الانسان الكامل، وتضعه نصب عينيك كغاية لوجودك.

لا أشير عليكم بمحبة القريب أيها الاخوة، بل محبة الآتي البعيد.

هكذا تكلم زارا . . .

طريق المبدع:

أتقصد العزلة يا أخي لتجد الطريق التي توصلك إلى مكمن ذاتك؟ إذن، فقف قليلا في ترددك واصغ إليّ:

لقد قال القطيع: (من فتش فقد تاه، ومن انعزل فما أمن العثار).

وأنت قد عشت طويلا بين هـذا القطيع، ولسوف يدوي صوته ملياً في داخلك. فاذا قلت له: - لقد تغير ضميري جانحاً عن ضميرك - فلن تكون إلا شاكياً متألماً.

إن اشتراكك بالشعور مع القطيع قد أورثك هذا الألم، وآخر وَهَجٍ من هذا الضمير المشترك لا يزال يلهب فجيعتك فيجددها . ولكنك ترغب في اتباع هاتف آلامك لأنه يقودك إلى التوغل في ذاتك ، فأين برهانك على حقك في المضي إليها وعلى انك قادر على هذا السفر . أفأنت قوة جديدة وحق جديد؟ أأنت حركة ابتداء؟ أأنت عجلة تدور على ذاتها؟ أبوسعك أن تجعل النجوم تدور حولك؟

لَكَمْ من طموح يتحفز نحو الأعالي ، ولكم من طمع يرتعش في أمانيه ؛ فاثبت لي أنك لست من الطامحين الطامعين .

إن كثيراً من ساميات الأفكار لا تعمل إلا عمل الأكر المنتفخة فلا تكاد تتضخم حتى يحكمها الضمور .

إنك تدعو نفسك حراً ، فقل لي ما هي الفكرة التي تقيمها مبدأ لك . ولا تكتف بقولك إنك خلعت نيرك ، فهل كنت ياترى ذا حق بخلعه؟ إن من الناس من يفقدون آخر مزية لهم إذا هم انعتقوا من عبوديتهم .

لايهم زارا أن تقول له من أية عبودية تحررت ، فلتعلن له نظراتك الصافية الغاية التي تحررت من أجلها .

هل بوسعك أن تسنَّ لنفسك خيرها وشرها فترفع إرادتك شريعة تسود أعمالك . أبوسعك أن تكون قاضياً على نفسك وأن تكون منتقماً منها لشريعتك؟

إنه لأمر مريع أن يبقى الإنسان منفرداً مع مَنْ أقامه قاضياً عليه ومنتقماً منه بالشريعة التي أوجدها . إن مثل هذا الإنسان ليذهب في الفضاء ذهاب الكوكب مقذوفاً إلى فراغ الوحدة وصقيعها .

إنك وقد أصبحت منفرداً لاتزال تتألم من المجتمع لأنك لم تطرح شجاعتك ولم يزل للآمل مرتع فيك . غير أنك ستتعب من انفرادك يوماً ، إذ تلين قناتك ، وينحطم غرورك فلا تتمالك من الهتاف قائلا . إنني أصبحت وحيداً فريداً

سيأتي يوم تحتجب فيه عظمتك عنك فتلتصق صغارتك فيك حتى لترتجف فرقاً من تساميك نفسه إذ يبدو أمامك كشبح مرعب فتصرخ قائلا (كل شيء باطل)

إن في المنفرد عواطف تطمح إلى القضاء عليه ، فإن لم تنل منه نالت من نفسها وانتحرت . فهل أنت مستعد لارتكاب جريمة القتل؟

أتعرف ، يا أخي ، معنى كلمة الاحتقار ، وما ستكون آلامك إذا أنت أردت العدل واضطررت إلى الاقتصاص ممن يحتقرونك؟

انك تُكره الكثيرين على تغيير اعتقادهم فيك ، فتثير حفيظتهم عليك . لقد اقتربت منهم ثم تجاوزتهم ، فهم لذلك لن يغتفروا لك .

لقد تفوقت عليهم ، فكلما اعتليت فوقهم ازددت صغاراً في أعين الحاسدين . وما كره الناس أحداً كرههم للمحلق فوق السحاب .

لقد وجب عليك أن تقول للناس : — إنني اخترت ظلمكم نصيباً حق لي منكم ، لذلك عز إنصافي عليكم . إن الناس يرشقون المنفرد بالمظالم والمثالب ، ولكنك إذا كنت تريد أن تصبح كوكباً فعليك أن ترسل أنوارك حتى إلى الراشقين .

واحترس بخاصة من أهل الصلاح والعدل لأنهم يتوقون إلى صلب من يوجد فضيلة لنفسه . إنهم يكرهون المنفرد .

واحترس أيضاً من السذاجة المتقية ، لأنها ترى الكفر في كل إنسان لا يلتصق بها . وقد كان الساذجون في كل زمان يتوقون إلى إيقاد النار واللعب بها .

كن على حذر من التطرف في حبك ، فان المنفرد يمد يده متسرعا لمصافحة من يلتقي في طريقه . إن من الناس من يجب عليك ألا تمد إليهم يداً ، بل مخلباً ناشباً .

غير أن أشدَّ من تصادف من الأعداء خطراً إنما هو أنت وما يترصدك في المغاور والغابات إلا نفسك .

لقد تبيَّنت الطريق الذي يقودك إلى ذاتك . أيها المنفرد ، وطريقك منبسط أمامك وأمام شياطينك السبعة . فتصبح منذ الآن جاحداً لنفسك ، ساحراً ، مجنوناً ، مشككا كافراً شريداً .

فيجب عليك أن ترضى بالاحتراق بلهبك إذ لا يمكنك أن تجد مالم تشتعل حتى تصبح رماداً .

إنك تتبع طريق الخالق ، أيها المنفرد ، فأنت تفتش على إله لك تقيمه من شياطينك السبعة . إنك تتبع طريق العاشق ، أيها المنفرد ، وقد عشقت نفسك ، فأنت لذلك تحتقرها احتقار العاشقين .

يريد العاشق أن يبتدع لأنه يحتقر، وما له أن يدّعي الحب إذا كان لم يبدأ باحتقار المحبوب.

توغل في عزلتك يا أخي، سر فلا رفيق لك إلا حبك وإبداعك. إنك ستسير طويلا قبل أن تقفو العدالة أثرك متثاقلة متعارجة.

اذهب إلى عزلتك فأنني أشيعك بدموعي يا أخي، لأنني أحب من يتفانى ليوجد في فنائه من يتفوق عليه.

هكذا تكلم زارا

العجوز والفتاة

لماذا تدلج مختفياً في الغسق يازارا؟ وما هو الذي تخفيه بكل احتراس تحت ردائك؟ أكنز وُهبتَه أم طفل رُزقته؟ وإلى أين تتجه على طريق اللصوص ياصديق الأشرار؟.

فأجاب زارا: — والحق يا أخي، أن ما أحمل إنما هو كنز وُهبتُه، فهو حقيقة صغيرة طائشة كالطفل، ولولا أنني كممت فمها لصاحت بملء شدقيها.

بينما كنت أسير اليوم منفرداً في طريق عند الغروب، التقيت بشيخة ناجتني قائلة: —

لقد كلمنا زارا مراراً نحن النساء، ولكنه لم يتكلم عنا مرة واحدة.

قلت لها: — يجب ألا يتكلم عن النساء إلا للرجال.

فقالت: — لك أن تتكلم أمامي عن النساء لأنني بلغت من العمر أرذله فلن تستقر أقوالك في ذهني.

وقبلت رجاء المرأة العجوز فقلت لها: — كل ما في المرأة لغز، وليس لهذا اللغز إلا مفتاح واحد وهو كلمة (الحَبَل)

ليس الرجل للمرأة إلا وسيلة؛ أما غايتها فهي الولد، ولكن ما تكون المرأة للرجل يا ترى؟ إن الرجل الحقيقي يطلب أمرين: المخاطرة واللعب؛ وذلك ما يدعوه إلى طلب المرأة، فهي أخطر الألعاب.

خلق الرجل للحرب، وخلقت المرأة ليسكن الرجل إليها، وما عدا ذلك لجنون، ولا يحب المحارب الثمرة إذا تناهت حلاوتها، فهو لذلك يتوق إلى المرأة لأنه يستطعم المرارة في أشد النساء حلاوة

تفهم المرأة الطفل بأكثر مما يفهمه الرجل؛ غير أن الرجل أقرب إلى خلق الطفل من المرأة، ففي كل رجل حقيقي يحتجب طفل يتوق إلى اللعب. فلتعمل النساء على اكتشاف الطفل في الرجل.

لتكن المرأة لعبة صغيرة طاهرة كالماس تشع فيها فضائل العالم المنتظر.

ليتوهج الكوكب السني في حبك أيتها المرأة، وليهتف شوقك قائلا: لأضعن للعالم الانسان الكامل. ليكن في حبك استبسال تتسلحين به لاقتحام من يثير الوجل في قلبك. ضعي شرفك في حبك، وما تعرف المرأة من الشرف إلا يسيراً؛ غير أن الشرف في حبك هو الخلق الذي يجعلك تبادلين المحبة بأكثر منها فلا تنحدرين إلى المقام الثاني

ليحذر الرجل المرأة عند ما يستولي الحب عليها، فهي تضحي بكل شيء في سبيل حبها، إذ تضمحل في نظرها قِيَمُ الأشياء كلها تجاه قيمته، ليحذر الرجل المرأة عند ما تساورها البغضاء، لأنه إذا كان قلب الرجل مكمنا للقسوة، فقلب المرأة مكمن للشر

إلى من توجه المرأة أشد بغضائها؟

والجواب في قول الحديد للقوة الجاذبة:

— إن أشد كرهي موجه إليك لأنك تجتذبين ولا طاقة فيك لتربط على ما تجتذبين.

إن سعادة الرجل تابعة لإرادته؛ أما سعادة المرأة فتوقفة على إرادة الرجل.

تقول المرأة وقد استسلمت لحبها العميم: لقد اكتمل العالم. ولا بد لها أن تخضع وأن ترى أعماقاً على سطحها، لأن روح المرأة سطحية، فهي صفحة ماء متماوجة تداعبها الرياح، في حين أن روح الرجل أعماق تزمجر أمواجها في المغاور السحيقة القرار؛ وقد تشعر المرأة بقوة الرجل ولكنها لن تفهمها

عندئذ قالت العجوز: لقد تكلم زارا عن أشياء طريفة أجدر بسماعها من النساء من لم يزلن في مقتبل العمر. ومن الغريب أن ينطق زارا بالحق عند ما يتكلم عن النساء وهو لا يعرفهن إلا قليلا. أفتكون إصابته ناشئة عن أن ليس في حالة المرأة شيء ممتنع

والآن اصغَ إليَّ يا زارا، فانني سأعلن لك حقيقة صغيرة مكافأة على ما قلت، وكبر سني يجيز لي أن أعلنها لك، فاسترعها وأطبق شفتيك عليها لئلا يتعالى صراخها من فمك

فقلت هاتها، هذه الحقيقة الصغيرة أيتها المرأة. وهذا ما قالت العجوز: —

— إذا ما ذهبت إلى النساء فلا تنس السوط.

هكذا تكلم زارا . . .

(يتبع) فليكس فارس

شاعر الطبيعة (١)

للسيد عمر أبو ريشة

شاخص الطرف محدق فى الفضاء   فوق طود عالى المناكب ناء
يرقب الفجر والندى مالئٌ بُرْ   دَيْه والشعر مائج فى الهواء
شاعرٌ خافق الجوانح بالحب (م) بعيد عن عالم الضوضاء
تتراءى فى وجهه الهادئ الوا   جم آى الوداعة الغرّاء
وبعينيه بارقٌ قذفته   شعلة الروح مبهم اللألاء!
نهض الفجر مثقلاً يتلوّى   فوق صدر الطبيعة الخرساء
يتخطّى الربى وئيداً ويهمى   بشتيت الأظلال والأنداء
وثبةٌ إثر وثبة ذائب الألـــوان فيها وجامد الأضواء
فارتدى الكون بردةً من جمال   وتهادى بباسم النعماء
فإذا السفح باسمٌ تمرح القطــعانُ   فيه وترتعى بهناء
وإذا الطير بين كرّ وفرّ   من غدير لروضة غنّاء
صورٌ أفرغت على أذن الشا   عر نجوى علوية الإيحاء

***

هبط السهل والهجيرة تنقضّ (م) وتطوى مطارف الأفياء
وتصبّ الخمول والسأم الصاخــب والصمتَ فى فم الغبراء
وتردّ الجمال منهتكَ الستر (م) سليب النعومة العصماء!
وتسلّ النشاط من قبضة الكو   ن فيغفو على ذراع الفناء!
فصدور الحقول متعبةٌ تلـ   ـهث فى غمرة من الإعياء!
ورؤوس الأزهار مطرقة تسـ   ـأل منها انتفاضة الكبرياء!
وقيان الغصون ملويّة الأعـــناق صرعى كآبة عمياء...
صورٌ أفرغت على أذن الشا   عر نجوى علوية الإيحاء!!..

***

بلغ المنحنى.. فجاز مدى الطر   ف بحسٍّ مفجّع الأنباء!
مأتمُ الشمس ضجّ فى كبد الأفـــق وأهوى بطعنة نجلاء
عصّبت أرؤس الروابى الحزانى   بعصاب من جامدات الدماء!
فأطلّت من خدرها غادة الليـــل وتاهت فى ميسة الخيلاء
وأكبّت تحلّ ذاك العصاب (م) الأرجوانى باليد السمراء!!
وذؤابات شعرها تترامى   فى فسيح الآفاق والأجواء
وعيون السماء ترنو إليها   من شقوق الملاءة السوداء!!
فإذا الكون لجّة من جلال   فجّرتها أصابع الظلماء
يرسب الطرف فى مداها ويطفو   ثم يرتد فاقد الإرتواء
فتطلّ الأشباح من كوّة الوهم (م) وتعوى مجنونة فى العراء
وتموج الأصداء من جهش الأر   ض بأذن المهابة الصماء
وتحس الروح الوديعة بالرعـ   ـشات تسرى كموجة الكهرباء!
صور أفرغت على اذن الشا   عر نجوى علويّة الإيحاء!!

***

هكذا استعرض الوجود مليًّا   فى غضون الإصباح والإمساء
فى اختلاج البروق فى قهقها   ت الرعد فى صاخب من الدأماء
فى ابتسام الرياض فى هدأة الجد   ول فى نفحة الربى الفيحاء
فانثنى ضاربا على الوتر الشا   دى اهازيج روحه الشماء!
فضّ فيها عن الحياة نقابا   من خداع وبرقعا من رياء!
ورمى ختم سرها فتجلت   بعد لأى عريانة للرائى!
فتهادت بناتها باصطفاق الصـ   ـنج والدف واتساق الغناء
كدُمى هيكل لقد نفض الله (م) عليها اختلاجة الأحياء!
يتمايلن راقصات نشاوى   بدلال مفجر الإغراء!
فن الخصر عطفة تركت فى   حلمة النهد نفرة للعلاء
كل بنت جياشة الصدر ترمى   أختها بابتسامة استهزاء
هذه فى يمينها مشعلُ الحب (م) قصير الأنفاس خابى السناء
هذه فى عيونها تصرخ الشهـ   ـوة جوعا وتزدرى بالحياء
هذه فوق رأسها تشرق الحكـ   ـمة فى شبه هالة وضاء!
هذه.. خلّ هذه، ودع الأخـ   ـرى فصعب إصابة الإحصاء
زمر من كواعب برزت فى   صور العيش فى أتم جلاء!..
عزف الشاعر النبيغ فجسّت   أكبدَ الراقصات كف العزاء
مسنداً رأسه على كتف القيـ   ـثار مستسلماً إلى الأهواء
وإذا ماصحا على نفخة البو   ق بأذنيه وازورار القضاء..
خدرت كفه على الوتر الشا   دى وسالت أصداؤه فى الفضاء
وتلاشت تلك الحسان تلاشى الـ   ـشمع فى زفرة اللظى الحمراء
وهوى فوق مضجع من تراب   تحت عطف صفصافة غيناء!!

حلب   عمر أبو ريشة

(١) من ديوان (شعر) الذى صدر حديثا



اكروبوليس أثينا
AKROPOLIS - ATHENA

للدكتور احمد موسى

الجمال فى هذا الوجود كثير، ولكنه ليس رخيصاً ؛ ولذلك كانت معرفته والاستمتاع به شأن فئة معينة من الناس . وكان من أهم ما نظرت إليه الجامعات الأوربية الحديثة وجوب تدريس مادة علم الجمال Aesthetik ضمن دراسة الفلسفة ، ومادة تاريخ الفن العام وعلم الآثار بعد إكمال دراسة التاريخ والجغرافيا ؛ فالأولى تمكن من معرفة الجمال بقواعد تؤدي إلى ترقية حواسنا وتهذيب تقديرنا ، وتقريب استمتاعنا من الكمال ، وما ينبني على هذا كله من تمهيد السبيل إلى إكمال سلسلة التطور الفني والوصول بها إلى الغاية المقصودة دون ركود أو انحطاط . وبالثانية نسجل ماضي الفن تسجيلا علمياً نقيس به الحضارات ونعمل على ربط الحاضر بالماضي وبالمستقبل فيكون التطور طبيعيا والتقدم منتظراً

وإذا رجعت إلى حضارة أي شعب أو أمة ، وجدت أن الآثار والفن من أهم مواد التسجيل لمقياس مدى هذه الحضارة ؛ فكأننا بدراساتنا هذه نقصد الوصول إلى معرفة الوسائل التي بها نستطيع تكوين حضارة حقيقية ترجع في جوهرها إلى معرفة نواحي الجمال الفني ، فضلا عن الاستمتاع واللذة نتيجة صدق التقدير .

وإذا نظرنا إلى مصر وجدنا أن الفن فيها عظيم ، وأن الطبيعة منحتها الكثير من جمالها ، ومع هذا يجهل كثير من أبنائها ما فيها منه ، وليس جهلهم هذا نتيجة مباشرة لجهلهم العام دائما ، ولكنه نتيجة لإهمال مدارسنا لعلم يعد اليوم من أهم العلوم الدراسية في أوروبا التي نأخذ عنها الكثير .

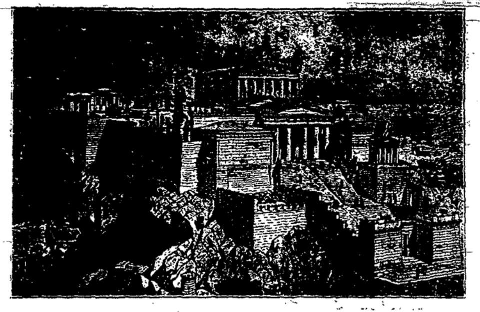
والظاهر أننا بحسب مولدنا والبيئة التي نشأنا فيها قليلو التأمل فيما نراه - وأثر ذلك واضح في كثير من تصرفاتنا العامة حتى في مطالعتنا ، ترانا نقرأ ما نقرأ بطريقة أوتوماتيكية خالية من الأخذ والرد تبعدنا غالبا عن الاستمتاع .

وإذا نظرنا إلى الطبيعة فإننا قد لا نستطيع أن نتذوق ما يسميه الغير جمالا ؛ وإذا شاهدنا معبدا أو كنيسة أو جامعا أو صورة صعب علينا التعرف على ما فيها من سر الجمال والإنشاء .

وإذا كان من نصيب البعض زيارة متاحف أو معارض فنية ، وكان من شأنه وصف ما شاهد ، أو نقد ما عاين ، أو تكوين رأى شخصي ، تراه لا يخرج فيما يكتبه أو يقوله أو يقرره عن مديح وإطراء أو ذم وتقليل ليس فيه قيمة دراسية تعود على القارئ أو المستمع بأي تثقيف أو فائدة ، بل على النقيض من ذلك قد تضر استعداده الفطري وتنقص منه ؛ وذلك ما حدا لي في الواقع إلى الاتصال بالأستاذ الكبير رئيس تحرير هذه المجلة ، بقصد التحرير في تاريخ الفن وتاريخ الآثار إجمالا ، حتى أستطيع بذلك أن أقدم للقارئ تعاريف إجمالية تكون خلاصة هذه الدراسات ، إذ بها يمكن اكتساب المعرفة الحقة لعلمين مهمين يؤديان بنا إلى التعرف على ما في حياة الانسان من تراث فني مجيد ، ويكسبنا ناحية من الاستمتاع قد لا يمكن الوصول إليها دون المعرفة الدراسية ولا سيما وبيئتنا لا تزال تخلو من هذا النوع من التثقيف .

وقد فكرت كثيرا في الخطة التي يمكنني السير عليها ، ووجدت أن من الملائم للقراء وجمهرتهم من الأدباء والمثقفين ، ألا أنحو نحواً مدرسياً بحتا قد يمل القارئ ، فتراني مرة أكتب عن روبنز وأخرى عن جويا وثالثة عن رمبراندت ، ثم تراني أنتقل فجأة إلى اكروبوليس أثينا ، مع أن الصلة المدرسية أو المنهجية بين هذه المقالات وبعضها مفقودة تماما ؛ كما أني لم أعرج على الفن المصري أو الاسلامي بعد ، ولكني أتعمد هذا الاعراض مؤقتا ، كما أتعمد الانتقال المفاجئ لأمرين : أولهما تشويق القارئ كل مرة بقراءة شيء جديد يخالف سابقه ؛ وثانيهما إعطاء الفكرة العامة عن ماهية تاريخ الفن وتاريخ الآثار في أبسط عبارة تؤدي إلى معرفة وسائل القياس بواسطة الفن المقارن ، وبذلك تكمل حواسنا ، وندرك الجمال على الوجه المتقدم .

على أنه إذا كان ولا بد من جعل الدراسة منتظمة ، فهذا ما سيكون بطبيعة الحال في النهاية ؛ إذ يمكن عندئذ ، بعد عمل ترتيب بسيط ، جمع فناني كل مدرسة على حدة ، ووضعهم معاً وضعاً تاريخياً ؛ وهذا الترتيب يمكن إجراؤه فيما يتعلق بتاريخ الآثار أيضا .



(ش ١) منظر عام لأكروبوليس أثينا – وفيه يؤدي السلم إلى مدخل بروبولين وخلفه على اليمين معبد بارتنون

واليوم أقدم إيضاحاً عن اكروبوليس أثينا الذى يعتبر آية من آيات الفن القياسى ، إلا أنى مضطر للأشارة إلى تاريخ أثينا نفسها قبل الدخول إلى اكروبوليس اضطرار من يريد تاريخ الأزهر مثلا ، فيعرج على تاريخ القاهرة وعلى ما كان لها من الشأن أيام إنشائه

كانت أثينا من ناحية حضارة الاغريق مركز الحياة اليونانية ، وكانت من الناحية السياسية من أهم بلاد الاغريق حينا ، وعاصمة لها حيناً آخر .

قامت هذه المدينة على مرتفع أكسبها بروزاً هاماً فى مقاطعة أتيكا Attika بين نهيرى اليزوس وكفيزوس وعلى بعد خمسة كيلومترات من شاطئ البحر وسبعة كيلومترات من ميناء بيريوس . يرجع إنشاؤها إلى الملك ككروبس Kekrops الذى اختار لها هذا المرتفع لحسن ملاءمته . ثم أقيم مكان هذه المدينة بناء قلعة اكروبوليس الذى خصص للحفلات الدينية والحربية فى عصر الحضارة الاغريقية ، بعد إصلاح الأرض وتبطيحها ثم إحاطتها بسور عال من كل الجهات (ش ١) فكان بذلك أهم بناء فى أثينا ، وقد جعل المدخل فى الجهة الغربية للمرتفع مكونا من مداخل بعضها خلف بعض لتعزيز الوصول إلى اكروبوليس ، ولامكان عمل الرقابة اللازمة عند الدخول إليه أو الخروج منه ، وسمى هذا المدخل فى ذلك الحين بلاسجيكون نسبة إلى ما قيل من أن مؤسسيه كانوا البلاسجر (ش ٢)

وفى داخل المرتفع المحاط بالسور سكن ملوك هذه المنطقة من أتيكا ، وبجوار تمثال الآله زويس Zeus بنى معبد هيكا تومبيدوس Hekatompedos وهو أقدم المعابد ، وفيه أقيم تمثال أثينا بولياس وتمثال الآله ارشتايوس وعلى اسمه بنى بعدئذ معبد ارشتايون ، وتمثال بوزيدون اله البحر والزلازل .

كثر سكان أثينا وزحف جزء منهم تدريجياً إلى جنوب وغرب المرتفع ، فكان أمام المدخل وعلى بعد مناسب منه أول سوق تجارية

ونظراً لاتحاد سكان أتيكا وتكوينهم مقاطعة متحدة الأطراف عملا بإرادة الملك تيسيوس Theseus ، اتسعت دائرة المدينة وزادت قيمتها الاجتماعية والسياسية فأصبحت العاصمة .

أما السكان الذين زاد عددهم كثيرا عن قبل فقد امتدوا بمساكنهم إلى الأطراف خصوصاً إلى الجزء الشمالى الغربى ، حيث سكن صناع الفخار ، ولذلك سمى هذا الموقع حى الفخارين (Cerameikos)

اشتغل الفنان بيسستراتوس Pisistratos وأولاده بتجميل المدينة مبتدئين بالجزء الشمالى الغربى منها ، فبنوا هيكلا شمل الاثنى عشر إلهاً ، كان بوضعه ملتقى الشوارع التى أنشئت وتقاطعت عنده .

ثم ابتدأ بيسستراتوس وأولاده أيضا فى بناء معبد زويس الأولمبى بالطرف الجنوبى الشرقى وسموه معبد أولمبيون Olympieion ؛ على أن بناءه لم يتم إلا بواسطة هدريان Hadrian ، كما أنهم أضافوا إلى مبانى معبد أثينا القديم مدخلا مكونا من أعمدة أقيم فى أعلاها إفريز

رسومات شملت تماثيل تبين مواقع حربية ؛ أما المدخل العام للمرتفع فأنهم أدخلوا عليه كثيراً من التحسينات البنائية ، فأصبح مدخلا فخماً بكل معانى الكلمة .

ولم يترك بيسستراتوس البئر الموجودة بالسوق القديم دون تجميل، فبنى حولها بناء ظاهراً ، كما بنى بالجهة الشرقية دائرة ليكايون Lykeion لتقديس أبولون ؛ على أن بناءها لم يتم إلا بواسطة بركليس . وقد تحولت هذه الدائرة فيما بعد إلى جنازيوم أقيمت فيه الحفلات الرياضية منذ أيام الحاكم ليكورجوس Lykurgus .

وبعد ثورة تيرانيس Tyrannis وانتصار الديموقراطية بواسطة كلايستينس Kleisthenes فى نهاية القرن السادس قبل المسيح أصبحت أهمية اثينا عظيمة وقيمتها الاجتماعية أعظم .



(ش ٢) خريطة تبين اكروبوليس اثينا وعلى الجهة الغربية منه مدخل ابروبولين وفى الجنوب الأوسط معبد وارسو

وبعد عام ٥٠٠ ق . م . أقيم مكان خصص للرقص فى الموضع المخصص للاله ديونيزوس Dionysos فى الجنوب الشرقى للمرتفع تطل عليه أماكن صنعت من الخشب لمشاهدة تمثيل المناظر الدراماتيكية التى مثلت أيضاً فى هذا المكان .

ظل الحال كذلك حتى جاء الفرس محاربين (٤٨٠ - ٤٧٩ ق م) فدمروا المدينة وهدموا معظم مبانيها . وكانت فترة إقامتهم قصيرة ، فعاد الأثينيون إلى أثينا نشطين ، وأخذوا يعيدون الحال إلى ما كانت عليه مبتدئين ببناء سور جديد بطول ثمانية كيلو مترات .

وواصل المهندس تيميستو كليس أعماله البنائية بميناء بيريوس وهى التى بدأها قبل الحرب الفارسية ، ثم انتقل إلى مواضع أخرى أنشأ عليها موانى أخرى غير بيريوس .

ابتدأ رؤساء المدينة بالإشراف على أعمال التأسيس والبناء ، وأول ظاهرة لهذا اهتمام كيمون بتوسيع الجهة الغربية لمكان القلعة وبجوار مدخل اكروبوليس ، وذلك ببناء أكتاف عريضة أقيم على جزء منها ومن المسطح الاول معبد أثينانيكا Athena-Nike الذى اتخذ منه الأتراك عام ١٦٨٧ طابية لهم ؛ فتفككت أحجاره وتهدم ، وظل كذلك حتى أعاد بناءه المهندسان الألمانيان شوبرت وهانزن تحت إشراف العالم الأثرى لودفيج روس عام ١٨٣٥ .

وبنى بايسيانكس Peisianax أحد أقارب كيمون صالة رحبة على أجورا ، وصور الفنان بوليجنوت Polygnot لوحات زين بها هذه الصالة .

انتهت أيام كيمون وابتدأ عصر بركليس الذى يعد أهم عصور اثينا . فأنشأ الأودبون Odeion ثم التفت إلى تجميل اكروبوليس

وبنى اكتينوس Aktinos معبد بارثنون Parthenon (ش٢) وبعده قام البناء العظيم منيسيكليس Mnesikles ببناء المدخل الباهر للقلعة ، وهو المسمى بروبيلين Propylaen (ش ٢) .

هذا بيان موجز لنشأة اثينا وأكروبوليس وما أحاط بهما لم يكن منه بد .

للكلام بقية — احمد موسى



العبقرى الملعون

للكاتب الايطالى

جيوفانى بابينى

ذهبت إلى براغ مرتين ولكنى لم أستطع لقاءه . فى المرة الأولى لم أجرؤ على التطلع إلى بيته . وفى الثانية لم أهتد إلى منزله الجديد ، فقضيت ليلة فى تلك المدينة الغريبة أسائل الناس عنه وأنا مسوق إليه سوقى إلى المصير المحتوم .

لقد كنت فى تلك الليلة متشبعاً بكلامه وأفكاره حتى أخذت أحلم أحلامه وأغنى أغانيه وأتابع تيارات تفكيره وأتمثل نفسى أحد أبطال قصصه . لم أخضع لرجل من قبل كما خضعت لذلك الرجل الغريب الذى يزداد تأثيره فىّ يوماً بعد يوم حتى لم أعد أفكر فى أمل الخلاص منه . كنت أعتقد أنه أعظم رجل أنجبته أوربا . فنى فنه روعة « بو » وتهاويله ، وقوة نيتشه ووحدته ، وموسيقى شيلى وعذوبته ، وآلام « دستوفسكى » ومرارته . فيه حمرة الجحيم وزرقة السماء . فيه طلاقة الطفل وعبوس الشيطان ، ولكن شيئاً آخر كان خافياً علىّ هو عبقريته الفذة التى لم يكن يدركها أو يشرف عليها إلا القليلون . ولم تكن شهرته الذائعة التى نالها فى سنين قلائل إلا مجداً خالداً يشدو بذكره . لقد رماه الناس بالكبرياء والنفور ، ولكنهم لم يدروا شيئاً عن مؤلفاته ولم يحيطوا بأركان عبقريته . لقد أحببت قصصه إذ كانت كلها سيرة لشخصه من نسج غريب . تزأر أرواح أبطاله وتدوى بين أحزان الحياة ومخاوفها .

لم أستطع أن أكبت ذلك الإعجاب طويلا ، بل أحسست بدافع قوى لأن أراه وأتطلع إلى وجهه وأسمع كلمات تخرج من فمه . أردت أن أقرأ فى سطور وجهه تلك الآلام العاصفة التى صبها فى أبطال قصصه فوطنت العزم على لقائه . وقد ساعدنى على ذلك رجل فرنسى قادنى إلى بيته ، فدلفت إلى سلمه وقد ازدادت دقات قلبى شدة كلما دنوت من الطابق الذى كان يقطنه . وقفت أمام الباب وحاولت الكلام ولكن لسانى كان قد لصق بسقف حلقى فوقفت برهة أنظر إلى تلك اللوحة النحاسية المنقوش عليها اسمه فى حروف كبيرة سوداء فازددت هلعاً وزعباً . وأخيراً استجمعت قواى ومددت يدى إلى الباب أقرعه ، فجاءتنى خادمة تصف فى لباس أسود ، فهمست فى أذنها باسم ذلك الكاتب العظيم ، فقادتنى إلى ممر طويل ينبعث فيه نور ضئيل شاحب حتى وصلت إلى غرفة نظيفة قد أغلقت نوافذها وتدلت مصابيح الكهرباء فى وسطها ، فلمحت فى أحد جوانبها مكتبا صغيراً عليه دفتر كبير شبيه بدفاتر المحامين وقد كسيت الجدران بالخرائط والصور .

شعرت بخيبة الأمل عندما وقع نظرى على تلك الغرفة العادية التى لم تكن تختلف عن سائر الغرف ولا سيما وقد كنت أتوقع صومعة لقديس أو عريناً لأسد لا مكتب أحد المحامين ؛ فأخذت أسائل نفسى : أحقا هذا بيته وتلك غرفته . أم أنا فى بيت أحد أقربائه ؟ ولكنى لم أطل التفكير فى هذا إذ رأيت أمامى رجلا ضئيلا قد أربى على الخمسين يحيينى بلغة فرنسية صحيحة ، فارتعت لمرآه . أيعقل أن يكون رجل أحلامى وأمانى هذا الرجل الضئيل الذى يرمقنى بعينين صغيرتين وتنفرج شفتاه عن ابتسامة هى أقرب إلى ابتسامات البله والسذج ؟ أيعقل أن يكون هذا الرجل الذى يرتدى ثوباً أسود ويضع يديه فى جيبه كما يصنع ضابط الاستيداع أو موظف المعاش ؟ ذلك الذى جعل قلبى يخفق بروعة آثاره وقوة أسلوبه ؟ وهل يمكن أن تكون تلك الأفكار العظيمة التى حيرتنى وجعلتنى أقطع الليالى ساهراً قد نبعت من ذلك الرأس الأصلع الصغير ؟ لم أكن لأصدق هذا ، بل كنت كلما أنعمت النظر فيه ازددت دهشة وعجبا ، حتى لم أستطع أن

أخفى دهشتى فقلت : أأنت الكاتب الذى أبحث عنه والشاعر الذى كتب « نفسى » و « الله » ، ومشاكل نصف الليل » ؟ فأجابنى فى هدوء وابتسام : نعم ، وكأنه لم يشعر أنى أهنته بسؤالى هذا فدعانى إلى الجلوس وسألنى حاجتى . .

لم أكن أعرف مكانى ، ولم أكن أستطيع التفكير فى شىء أقوله ، فلاحظ على بعض هذا الارتباك فدنا منى متلطفاً وقال : أراك أحد المعجبين الأجانب الذين يأتون لرؤيتى . إن هذا أمر يسير ، فأنى أستطيع أن أقوم لك بما تريد . ثم أسرع إلى مكتبه وأخرج ورقة ومجموعة من الصور وعاد ثانية يستأنف حديثه : « هاك بعض تاريخ حياتى مدوناً بالفرنسية ، وفهرساً كاملا لجميع مؤلفاتى . أى صورة تعجبك ؛ إننى أظن أن أحسن صورى ما كان جانبيا ، ولكن لك الاختيار . فى أى صحيفة ستنشر هذا المقال ؟ أفى صحيفة يومية أم فى مجلة ؟ فلما رأى أنى لم أجبه إلا بنظرة حائرة ساهمة عاد إلى مكتبه وأخرج كتابا صغيرا وقدمه إلى قائلا : هاك أشهر المقالات التى نشرتها كبرى الصحف عن مؤلفاتى ، إنها مدبجة بأقلام كبار الناقدين . ألا تريد صورة تنشرها مع المقال ؟ ثم أسرع ذلك الرجل الذى لا يعرف التعب إلى مكتبه وجاءنى بأقاصيص من الورق مكتوبة بخط يده ، فلم أستطع أن أخفى دهشتى ، ولكن صاحبى مضى فى حديثه قائلا : أليس هذا كل ماتحتاج إليه ؟ أظنك تريد أن تعرف كيف أكتب ، سأخبرك حالا : إنى أعمل أربع ساعات فى اليوم ولا أكتب أكثر من خمسين صفحة فى جلسة واحدة . إنى لا أستعمل الكتب القديمة ولا المعاجم البالية ، لأنى صنفت كل مواد الكتابة تصنيفا جديدا . فى هذا الصندوق تجد الصفات ، وفى ذلك تجد التشابيه والاستعارات ، وفى الثالث تجد المتناقضات ، وفى الأخير تجد أوصاف المناظر الطبيعية ، وفى ذلك الذى عن يمينه تجد الأوصاف الغريبة لجميع الناس . أما الذى عن يساره فقد جمعت فيه كل عناوين القصص والمسرحيات . أظنك الآن تستطيع أن تفهم أن عملى ليس شاقا جدا بفضل هذا الترتيب . إنى أكتب بدون تفكير كأنى آلة : فاذا أردت أن أكتب شيئاً فما على إلا أن أضع يدى فأخرج ما أحتاج إليه . إنى لست أحد أولئك البلهاء الذين ينتظرون الوحى والالهام ، فانى أكتب بانتظام وفى أوقات معينة . فماذا ترى فى هذا ؟ فحاولت أن أتكلم ولكنى لم أستطع . فمضى صاحبى يقول : « أخبرنى . ألا يمكن أن تؤدى لى عملا فى إيطاليا ؟ ألا يمكنك أن تنقل بعض كتبى إلى الايطالية ؟ إنى أعطيك ٤٠ ٪ فى المائة من الأرباح وحق النشر فى بلادك . دعنا نكتب العقد .

ومن حسن الحظ أن دق جرس التليفون فى الغرفة الثانية فأسرع إليه الرجل دون استئذان ، ولكنه مالبث أن جاءنى يقول : عفوا إن ناشرى كتبى فى ميونيخ يطلبوننى . دعنا نستأنف حديثنا . قل لى بصراحة : ألا تستطيع أن تقوم بهذا ! فنهضت مذعورا وأنا أعجب أن تكون هذه اليد الغليظة قد جرت بتلك الروائع الخالدة ، ثم صوبت نظرى إلى الباب ولكنه لم يكد يرانى أنهض حتى صاح : ألا تنتظر الشاى ! إن زوجى وطفلى سيعودان حالا وسنتناول الشاى معاً . ألا تريد أن ترى طفلى ؟ إنهما طفلان جميلان ، أحدهما فى السابعة والآخر فى الحادية عشرة ، إن زوجى تجيد العزف على « البيان » وتتقن فن التصوير . إن هذه اللوحات الفنية التى تراها على الجدران من ريشتها ، فقبعت فى كرسى وأنا أتفرس فى وجه ذلك الرجل الذى لم يفتأ يقوم ثم يقعد ويفتح الأدراج ثم يقفلها وأخيراً قال لى : هنا تجد الطبعة الأولى من كتبى ، وفى الدرج الآخر تجد الطبعات الثانية ، وتحتها التراجم . إنه محصول كبير ، أليس كذلك ؟ إنى أعنى بها عنايتى بأطفالى . ثم أخذ يقهقه عاليا فلم أطق أن أرى فكيه ينفرجان عن فم واسع كريه ، فصحت : يجب أن أذهب ، ثم اندفعت إلى الباب وتدحرجت على السلم ؛ وبدون أن أشعر وجدت نفسى خارج المنزل ، وما كدت أصل إلى منزلى حتى ألقيت جميع مؤلفات ذلك الملعون فى النار

ترجمة نظمى خليل

البريد الأدبي

اكتشاف مدهش في الموميات المصرية:

وقع العلماء الأثريون في متحف « المتروبوليتان » بنيويورك على اكتشاف مدهش في شأن الموميات المصرية القديمة؛ فقد رأى الدكتور ونلوك مدير المتحف أن يسلط أشعة رنتجن على لفائف الموميات لأول مرة ، وقد انتهى البحث إلى نتيجة مدهشة ؛ وكان بعض العلماء قد سلط هذه الأشعة على الموميات من قبل فكانت النتيجة سلبية دائما لأن اللفائف الكثيرة التي تحيط بالجثث المحنطة كانت تحول دون ظهور أية نتيجة . ولكن العلامة الكيميائي الدكتور أرثوركوب توصل إلى اختراع جهاز جديد ، واستعمل الدكتور ونلوك للكشف على مومياءين ترجعان إلى الأسرة الحادية عشرة ، وهي مما وجدته البعثة الامريكية أثناء حفرياتها بمصر سنة ١٩٢٠ ؛ فكشفت الأشعة عن حقيقة مدهشة هي أنه يوجد تحت هذه اللفائف العديدة ، وفوق الجثة المحنطة كثير من الحلي والجواهر التي زينت بها الجثة في الصدر والعنق والمعاصم ، وبذا كشفت الصورة التي أخذت عن كنز لم يكن يحلم به إنسان ، ففي عنق المومياء وجدت أربعة عقود ، منها واحد ذهبي يتوسطه بعض اللآلىء الكبيرة والصغيرة ، وعقد من اللآلىء الصناعية الصغيرة (الخرز) ، ووجد على الصدر غطاء من الخرز وعقد كذلك ، وكشفت الاشعة عن سوارين ، كل معصم فيه سوار من الخرز وثلاثة جعارين كبيرة قد ثبتت فيهما . كذلك كشفت الأشعة عن سوارين في مفصل القدمين كسوارى المعصمين . ومن أعجب ما كشفت الاشعة هيكلا جرذين صغيرين عند القدم يظهر أنهما تسربا إلى الجثة عند ربطها . وقد رأى العلماء ازاء هذا الاكتشاف أن يحاولوا نزع اللفائف عن المومياء ، بيد أنه رؤى قبل ذلك أن تتخذ كل الوسائل الدقيقة لحفظها خوفاً عليها من التلف . وقد عرضت الصور التي كشفت عنها الأشعة بجانب المومياء في متحف نيويورك .

شعب مصري في غانة الجديدة؟

تحدثت إحدى الصحف الالمانية التي تصدر في بودابست نبأ اكتشاف غريب وفق إليه بعض الطيارين والعلماء الانكليز أخيراً في جزيرة غانة الجديدة التي تقع في المحيط الهادى على مقربة من استراليا ، فقد طار إلى الجزيرة بعض الطيارين الاستراليين وتوغلوا في داخلها ، فوقعوا على شعب غريب عن أهلها يعيش في الداخل ويبلغ عدده زهاء مائتى ألف ، وليس بينه وبين باقى سكان الجزيرة شبه في الجنس أو العادات . وجاء بعدهم بالطيارة إلى الجزيرة بعض الاخصائيين في علم الأجناس وبحثوا أحوال هذا الشعب المتأخر المنقطع عن العالم فألفوه ماهراً في الزراعة خبيراً بطرق الرى . ورأى العلماء أنه يوجد بين هذا الشعب وبين المصريين شبه كبير ، ورتبوا هذا الاستنتاج على عدة حقائق علمية ، منها أنهم يحرزون من الآلات الموسيقية ماهو شبيه بالآلات التي ترسم على الآثار الفرعونية ، كذلك اسلحتهم الحجرية تشبه أسلحة المصريين القدماء . كذلك يوجد في معتقداتهم الدينية كثير مما يشبه عقائد المصريين القدماء . ويرى هؤلاء العلماء المكتشفون أنه ليس بعيداً أن يكون المصريون القدماء قد ساحوا إلى تلك المياه في العصور الغابرة ، ونزلوا على تلك الجزيرة الثانية وحل بعضهم بها ، وأقاموا فيها مجتمعا خاصا بهم ونقلوا اليها بعض عاداتهم وحضارتهم . بيد أنه يبقى على أولئك العلماء أن يبحثوا عما إذا كان لذلك الشعب من الخواص الجنسية ، وعما إذا كان في لغته ، ما كان للشعب المصرى القديم ؛ فاذا وقفوا إلى وجود هذه الخواص ، فعندئذ يغدو الاكتشاف حقيقة علمية لا ريب فيها

ولقد دلت أبحاث المكتشفين من قبل على وجود آثار حضارة مشابهة لحضارة الفراعنة في بعض أنحاء أمريكا الجنوبية والمكسيك ، ولكن البحث لم يقطع بوجود الصلة بين هذه الحضارة وحضارة المصريين القدماء .

فيبر عميد الموسيقى الالمانية

احتفلت دوائر ألمانيا الفنية والموسيقية أخيراً بذكرى الموسيقى الالمانى الكبير كارل ماريافون فيبر Weber وذلك لمناسبة مرور مائة وخمسين عاما على وفاته . وكان مولد هذا الموسيقى الكبير في ديسمبر سنة ١٧٨٦ في إحدى قرى هولشتين وكان أبوه رئيساً لموسيقى البلاط المحلى — فخرج على رأس فرقة من الممثلين الجوالين يطوف

جميع أرجاء ألمانيا ، ومعه ابنه فيبر ؛ وهكذا قضى الموسيقى العظيم حداثته متجولا فى مختلف الأنحاء ؛ ومنذ سن العاشرة ظهر شغفه بالموسيقى ؛ ولم يمض عامان حتى وضع أولى مقطوعاته الموسيقية ؛ وفى الرابعة عشرة وضع أولى « أوبراته » ، وفى الثامنة عشرة أتم فيبر دراسته الموسيقية ، وغدا علماً يشار إليه . وتولى رياسة الفرقة الموسيقية فى برزلاو ـ وقام بتنفيذ موسيقى « طيطوس » لموتسارت ثم التحق بخدمة دوق فرتمبرج . وبعد أن تنقل حينا فى قصور هذا الأمير اتهم بالتدخل فى الشؤون السياسية فقبض عليه وزج إلى السجن. ولما أطلق سراحه تقلب حينا بين مانهايم ودارمشتات وبامبرج حيث تعرف بالكاتب الأشهر هوفمان ، ثم زار ميونيخ وهنالك مثلت « أوبرته » « أبوحسن » ، ثم قصد إلى فيناوتعرف بشاعر ألمانيا الأكبر جيته ، واشتغل بعد ذلك فى درسدن وفى برلين واشتهرت أوبراته ومقطوعاته الغنائية ؛ وكانت أشهر قطعه « فراى شتس » التى نالت فى عصره أعظم نجاح ، والتى تعتبر فاتحة عهد جديد فى تاريخ الموسيقى وهذه القطعة التى حملت فاجنر فيما بعد على أن يقول « لم يوجد موسيقى أكثر ألمانية من فيبر » .

وتوفى فيبر فى الأربعين من عمره فى لندن ثم نقل رفاته بعد ذلك إلى مدينة درسدن تثوى إلى يومنا .

عيد جريدة الطان

من أنباء باريس أن جريدة « الطان » كبرى الصحف الفرنسية قد احتفلت بعيدها الخامس والسبعين فى حفل فخم أقيم فى بهو الاستقبالات بقصر أورسى ، وشهده جمع عظيم من الوزراء والنواب وأكابر الكتاب والفنانين ورجال المال والصناعة وأعضاء الأكاديمية والمجمع العلمى ، وخطب فيه عدة من الوزراء وأقطاب التفكير الفرنسى مثل مسيو أندريه تارديه ، ورنيه بو ، وجاك شاستنيه وغيرهم منوهين بعظمة الطان وعظمة المهمة التى تضطلع بها وكونها فخر الصحافة الفرنسية بلا مراء سواء من حيث رصانتها وسمو تفكيرها أو أسلوبها الرفيع المتزن ، والواقع أن الطان على رغم ثوبها المحافظ وحرصها على القديم واحجامها عن مجاراة التطور الصحفى المعاصر من حيث التصوير والتوزيع ، تبقى عميدة الصحافة الفرنسية من حيث غزارة مادتها وقوة تحريرها ونزاهة غايتها واحتشام أسلوبها

وقد أسست الطان منذ خمسة وسبعين عاماً سنة ١٨٦١ فى أواخر الامبراطورية الثانية؛ وكان مؤسسها صحفيا يدعى نفتزر . أسسها أولا لخدمة التجارة الدولية . ثم تحولت إلى جريدة سياسية قوية ، أهم مظاهرها إذاعة الأنباء الدولية ؛ ثم كانت المرحلة الثالثة فى عنايتها بالعلوم والآداب والنقد ؛ وكتب فيها أئمة التفكير الفرنسى مثل شيرر وسانت بيف وبريسون وبلان ، وكتب فيها عظماء الوزراء والساسة مثل بوانكاريه وتارديه . وقد اشتهر مراسلوها الخارجيون بأنهم أعظم مراسلين من نوعهم حتى قيل فى المثل ان فرنسا لها سفيران : « السفير الفرنسى ومراسل جريدة الطان » وأشرفت على إدارة هذه الصحيفة الشهيرة مدى نصف قرن أسرة ابيرار ، التى أنجبت عدة من كبار الصحفيين والكتاب ، وكان آخرهم فى الاشراف عليها أميل ابيرار الذى تخلى عن إدارتها منذ نحو عشرة أعوام .

أيام تولستوى الأخيرة

صدرت أخيراً ترجمة انكليزية لمذكرات الكونته تولستوى زوج الكاتب الروسى الأشهر ليون تولستوى بعنوان « المعركة الأخيرة » The Final Struggle ترجمها ومهد لها الكاتب الانكليزى الميرمود . وقد ذاعت عن أيام تولستوى الأخيرة قصص عديدة ، فقيل إنه فى أواخر حياته كان يعيش عيشة الفلاحين الذين اعتنق قضيتهم ؛ وقيل إنه رجل نظرى لا يفعل مايعتقد . فهذه المذكرات التى كتبها عن هذه المدة من حياته ألصق الناس به تبدد كثيرا من الأخطاء الذائعة وتلقى ضوءاً كبيراً على خاتمة الكاتب العظيم فى مقامه الهادىء فى « سنايا بوليانا » .

وقد اجتمعت أسباب عديدة لتنغص عيش تولستوى فى أعوامه الأخيرة ، وأهمها الدسائس والشجار المتواصلة بين زوجه وأبنائه من ناحية ، وبين ابنته الكبرى وهى أعظم أصدقائه . وكان تولستوى يود فى تلك الفترة أن يترك العالم لينقذ روحه ، وكانت ثمة مسألة مؤلفاته ولا سيما مذكراته وكلها ذات قيمة أدبية ومادية معا . وهذه المذكرات التى تنشر اليوم تشمل سنة ١٩١٠ التى توفى فيها تولستوى . وفيها مذكرات كثيرة من تحرير تولستوى نفسه عن أحواله وشؤونه اليومية .

وكانت هذه المذكرات بين تراث أسرة تولستوى حتى صحت عزيمة ولده سيرجى على طبعها واخراجها ، وقد تولى ترجمتها الميرمود صديق تولستوى وأخرجها فى أسلوب صادق مؤثر كما هى فى أصلها ، ومهد لها بمقدمة بديعة يحلل فيها شخصية الكاتب العظيم تحليلا يدل على الوفاء والاعجاب الذى لاحد له ، وشرح كثيرا من مواقفها وغوامضها . وما كادت هذه الترجمة الانكليزية تصدر حتى هرع القراء إلى اقتنائها بسرعة مدهشة دلت على ما للذكرى الكاتب العظيم من الأثر والصدى .

جائزة للقصص التاريخى

كانت جريدة « الانترانسيجان » الفرنسية قد خصصت منذ حين جائزة مالية كبيرة ، تقوم بمنحها الأكاديمية الفرنسية والمعهد العلمى لمؤلف أحسن قصة تاريخية تعرض فيها حقائق التاريخ

في أسلوب القصص الرفيع . وقد عقد أخيراً اجتماع كبير من بعض أعضاء الأكاديمية وكثيرين من رجال الأدب لتخصيص هذه الجائزة عن سنة ١٩٣٦ ، وكانت لدى اللجنة عشرة مخطوطات جديدة ، فنال الجائزة المسيو روجيه رجيس عن قصته التاريخية التي عنوانها «La Belle Sabotière» وهي قصة تدور على أسر نابوليون الثالث في الحرب السبعينية في قلعة « هام » وبطلتها فتاة حسناء هي « صانعة قباقيب » ؛ ومع أن للواقعة أصلا تاريخيا لا شك فيه ، فان المؤلف استطاع أن يخرج منها قصة خيالية ممتعة .

وقد تبوأت القصة التاريخية مركزها في الأدب الفرنسي في العصر الأخير بنوع خاص وكان كتابها في الغالب مؤرخين من الطراز الأول ، وكان أستاذ هذا الفن من المعاصرين المؤرخ لينوتر الذي توفي منذ نحو عام ، وكان يكتب قصصه التاريخية في جريدة « الطان » بعنوان « التاريخ الصغير » وفيها يحيي شخصيات وحوادث تاريخية مجهولة ويسبغ عليها من قلمه سحراً لا يبارى

ألمانيا وكتابها المنفيون

أصدرت الحكومة الألمانية أخيراً قانوناً بنزع الجنسية الألمانية عن طائفة كبيرة من الكتاب والمفكرين الذين يخاصمون النظام الهتلري والذين غادروا ألمانيا منذ بدء الحركة اتقاء الفتك والمطاردة . ومن هؤلاء الذين نزعت عنهم الجنسية الكاتب القصصي الكبير توماس مان وجميع أفراد أسرته ، والمؤرخ الكبير الأستاذ ديتريش فون هلدبراند الذي يشغل الآن كرسيا في جامعة فينا ، وعدة كبيرة من الكتاب والصحفيين والفنانين الذين يقيمون في مختلف العواصم الأوربية . وهذا آخر إجراء تتخذه الحكومة الهتلرية في شأن هؤلاء الكتاب المنفيين بعد أن نزعت كل أملاكهم وحرمت نشر كتبهم في ألمانيا .

حياة النور

النور أو الغجر من الشعوب البدوية المدهشة التي مازالت تحتفظ بعاداتها وتقاليدها القديمة وسط أمواج الحضارة الحديثة . ومع أن النور يستقرون جماعات كبيرة في أواسط أوربا ، ولا سيما في المجر ورومانيا ، فانهم بدو في أعماق نفوسهم بمعنى أنهم لا يستقرون على أسلوب معين في الحياة . وقد صدر أخيراً بألمانيا كتاب عن هذا الشعب الغريب بقلم الدكتور مارتين بلوك عنوانه « النور : حياتهم ونفسيتهم « Zigeuner, ihr Lebenund ihre Seele » وأصدره معهد التراجم بمدينة لايبزج ، ويتناول المؤلف حياة النور وخواصهم وعاداتهم ، ثم يحاول شرح نفسيتهم ومشاعرهم وتفكيرهم بطريقة تدل على تعمقه في هذا البحث . ويبين محاسن عاداتهم التي ما زالت تقوم على الفطرة والسذاجة كما يبين مساوئهم وميولهم الخبيثة التي أملتها عليهم عصور من التشريد والاضطهاد . ومع أنه ينحو في مؤلفه نحواً علميا رزينا فانه يتبع في نفس الوقت في عرض آرائه أسلوبا بسيطا جذاباً ؛ ويفيض المؤلف في خواص النور النفسية والفكرية والفنية ، ويصف براعتهم في بعض الفنون مثل الموسيقى التي اشتهروا بها ونحوا فيها نحواً خاصاً لا يباريهم فيه أحد .

ومع أن مصادر هذا البحث ليست كثيرة ، فان الدكتور بلوك استطاع أن يجمع في مؤلفه شوارد موضوعه بافاضة ، وأن يجمع فيه كثيراً من المسائل والحقائق التي تلقى ضياء كبيراً على حياة هذا الشعب الغريب الذي مازال ينظر إليه أينما حل بعين البغض والريب

جريدة الشباب بدلا من الشورى

جاءنا من الأستاذ محمد علي الطاهر أنه اتفق مع الأستاذ محمود عزمي على أن يتولى إصدار جريدته « الشباب » بشكل آخر في خلال شهر فبراير المقبل .

وهو يرجو من أصدقاء الشورى القدماء أن يمنحوا الجريدة الجديدة نفس الثقة التي منحوها للشورى ، وسيظل عنوانه كما كان : ٣٠ شارع عبد العزيز بمصر تليفون ٥٦٨٠٠



شرح الايضاح

تأليف الأستاذ عبد المتعال الصعيدى

أتمت المطبعة المحمودية التجارية ، ومكتبتها بالازهر بمصر طبع الجزء الثالث من شرح الايضاح فى علوم البلاغة للأستاذ عبدالمتعال الصعيدى المدرس بكلية اللغة العربية

وقد بدأ فى هذا الجزء بشرح قسم علم البيان من كتاب الايضاح وأتمه فيه ، وسار فى شرحه على منوال الجزء الاول والثانى ، لا يعنى بالمماحكات اللفظية ، والمناقشات التى لا تتصل بصميم علوم البلاغة ، وإنما عنى بتحقيق مسائل هذه العلوم ، وبشرح شواهدها ونسبتها إلى أصحابها . وقد يذهب فى ذلك إلى مخالفة من سبقه من علماء هذه الفنون ، كما ذهب فى هذا الجزء إلى أن وظيفة علم البيان تخالف وظيفة علم المعانى مخالفة تجعله علماً مستقلا عنه ، وليس شعبة منه ، كما ذهب إليه الامام السكاكى ومن تبعه

فوظيفة علم المعانى على هذا تطبيق الكلام على مقتضيات الاحوال ، ومرجع ذلك إلى مراعاة ما يرجع فيه من جهة البلاغة ؛ ووظيفة علم البيان معرفة إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة من الدلالة ليعرف ما يقبل منها وما لا يقبل ، ويحترز بهذا فيها عن التعقيد المعنوى ؛ ومرجع ذلك فى الكلام إلى مراعاة ما يجب فيه من جهة الفصاحة بقطع النظر عن مراعاة مقتضى الحال وإن كان لابد من ذلك فيه ، ولكن هذه وظيفة علم المعانى ، وشأنها من وظيفة علم البيان كشأن وظيفة علم النحو وغيره منها

وعلى هذا لا يكون من شأن علم البيان أن ينظر فى مثل قول امرىء القيس :

ألم تسأل الربع القديم بعسعسا ... كأنى أنادى إذ أكلم أخرسا

من جهة مطابقته لمقتضى الحال أو عدم مطابقته له وإنما ينظر فيه من جهة فساد التشبيه ، لأجل أنه لا يقال كنت حجراً فلم يجب فكأنه كان حجراً ، وإنما الجيد فى ذلك قول كثير عزة :

فقلت لها يا عز كل مصيبة ... إذا وطنت يوماً لها النفس ذلت

كأنى أنادى صخرة حين أعرضت ... من الصم لو تمشى بها النفس زلت

وكذلك ينظر فى قول امرىء القيس :

وأركب فى الروع خيفانة ... كسا وجهها سعف منتشر

من جهة فساد الاستعارة فيه ؛ لانه إذا غطى الشعر العين لم يكن الفرس كريماً ، ولا يعنيه فى ذلك اعتبار المطابقة وعدمها

وكذلك ينظر فى قول أبى تمام :

رقيق حواشى الحلم لو أن حلمه ... بكفيك ما ماريت فى أنه برد

من جهة أن الرقة لا تستعار للحلم ، وإنما يوصف بالرجحان والرزانة كما قال النابغة :

وأعظم أحلاماً وأكبر سيداً ... وأفضل مشفوعاً إليه وشافعا

وهكذا يسير الشرح فى علم البيان على هذا المنوال ، يطنب إذا اقتضى المقام الاطناب . ويوجز إذا اقتضى المقام الايجاز ، فجزى الله مؤلفه عنه خير الجزاء ؟ (ص)

مرافعات

تاليف الأستاذ حسن الجداوى

كثير منا رأى الدفاع فى قاعة المحكمة وهو يدافع عن المتهم . . يدافع عن المجرم ؛ ويحاول بقوة حجته وشدة عارضته وذلاقة لسانه أن يحطم الأغلال والقيود التى تطوق الرجل ويطلقه من إساره . . . أو يرجو متى أفلت أمر الرجل من يده وغدا مصيره إلى الظلمات أن يعامل بروح القانون . وكثير منا أنصت إلى وكيل النائب العام وهو يحمل على المتهم ، ويدافع عن الانسانية المعذبة فى أشخاص هؤلاء المجرمين السفاكين الذين يسودون وجه الحياة المشرق النضير ويلطخونه بالدماء ، لا يزجرهم زاجر ولا يأخذ على أيديهم قانون . ولكن قليلا منا من فكر فى الظروف القوية التى تسوق المجرم إلى الاجرام ، قليل منا من فكر فى ظروف الحياة القاسية التى تخلق

المجرمين والسفاكين وتدفعهم إلى ارتكاب أشنع الآثام . قليل من الناس من يفكر كما يفكر الدفاع وهو يدرس القضية ويقف أمام القضاء يشرح أدوارها ويبسط فصولها ويلقى الضوء القوى الباهر على ماخفى منها من أسرار .

هذه المرافعة البيانية القوية لها أثرها المحمود فى نفوس القضاة ونفوس الناس ، فكثيراً ماتقسو الحياة وتتضافر العوامل السيئة على المتهم المسكين ، فلا ينقذه إلا محاميه ومرافعة محاميه ، متى كانت قوية خلابة كهذه المرافعات التى بين أيدينا الآن ، والتى ترجمها الأستاذ حسن الجداوى عن الفرنسية وتخير فيها قضايا إنسانية تقع فى كل بلد وتجرى فى كل محكمة وتدور على كل لسان . فقضايا حرية الرأى والصحافة والدفاع عن العرض ، والقتل بدافع الغيرة والشفقة ، والخيانة الزوجية التى يضمها هذا الكتاب القيم ، كلها قضايا إنسانية لاتقف على بلد واحد وشعب واحد . ولقد أبدع المترجم فى الترجمة خير ابداع ، ووفق أحسن توفيق ، فجاء كتابه تحفة أدبية رائعة أكملت نقصاً محسوساً فى المكتبة العربية وسدت فراغا كبيراً فى الأدب القضائى

وسيجد القارئ فى مرافعة بعض المحامين الفرنسيين منطقاً أخاذاً ولساناً رائعاً دعم بالدراسة الفنية الدقيقة كمرافعة جوزيه فى قضية التجميل حتى قال عنها زميله وخصمه «لقد أدهشتنى مرافعة الأستاذ جوزيه تيرى بما فيها من معلومات طبية أنحنى أمامها ، كنت أسائل نفسى أيهما أخطر على ، الأستاذ جوزيه تيرى أو الدكتور جوزيه تيرى ؟ » وهذا أقل مايجب أن يكون عليه المحامى فى هذا العصر ، إحاطة شاملة بعلم التشريح وعلم الاجرام وعلم النفس

وفى قضية حرية الدفاع سيقرأ القارىء دفاعاً فذاً فيه بلاغة وقوة وبيان وحجج منطقية وكلام يجرى مجرى الأمثال « إن القوانين لم تعد تطبق بل أصبحت تفسر ، وتفسر دائماً بالمعنى الذى لا تدل عليه ولا أراده المشرع لها . . . إنهم يعذبون القوانين ليجعلوها صالحة لتعذيب الناس » وما الذى سيقوله القارئ بعد هذا الكلام .

وفى محاكمة شارل الأول ترى صورة قوية للشعب الانجليزى الصابر الباسل المتفانى فى حب مليكه حتى فى عهد كرمويل .

وفى القرن الماضى أعدم مجرم شقى بطريقة همجية وحشية فثار شارل هيجو ابن شاعر فرنسا الكبير فوصف الحادث فى الصحف وحمل عليه حملة شديدة وسيق بعدها إلى المحاكمة . ومما كتب قوله : « وما الذى ارتكبه هذا الرجل ضد الهيئة الاجتماعية ؟ أنه قتل . . وما الذى فعلته الهيئة الاجتماعية بذلك الرجل ؟ إنها عذبته . . . ولكن أتدرون ما الأثر الذى تركته فعلتكم ؟ لقد أتيتم أمراً إداً ، فيه قسوة وفيه وحشية وفيه إيلام . . إنكم بدلا من أن تكسبوا عطف الجمهور المشاهد لجانب القانون كدتم تحولون عطفه لجانب المجرم . لقد أخفق الجلاد الأول فجئتم بثان ، وبعد نصف يوم من جهاد مستمر استطعتم آخر الأمر أن تقهروا الرجل ، وتمسحوا فى آن واحد الدم من نصل المقصلة والعرق من جباهكم . . لا لا . إن الاعدام ليس بالمنظر الجيل . . . . »

ومرافعات الكتاب كلها قوية بليغة وهى على نسق قصصى يسر ويشوق ، ويعرض صوراً بارزة من الحياة . وسيجد فيها القارىء لذة خالصة وفائدة محققة ، أما المحامى فسيطلع فى لغته على مرافعات يكفى أن يقال عنها إنها لأفذاذ رجال القانون .

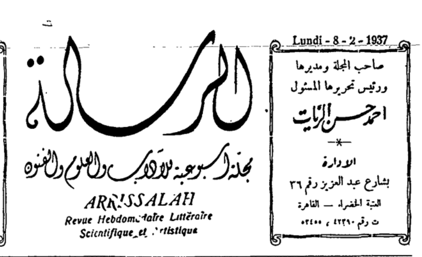
هذا والكتاب مطبوع طبعاً جيدا على ورق ناعم وغلاف مقوى وهو يقع فى ١٨٠ صفحة من القطع الكبير وهو مفهرس الاعلام حسن التبويب زهيد الثمن .

ونرجو ونحن نهنىء المؤلف على جهده الأدبى المشكور أن يتحفنا دائماً بأمثال هذا الكتاب الرائع .

محمود البدوى

5 me Année, No. 188

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣



Lundi - 8 - 2 - 1937

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٢٤٥٠

العـــدد ١٨٨ « القاهرة في يوم الاثنين ٢٦ ذى القعدة سنة ١٣٥٥ — ٨ فبراير سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

لو كنا نقرأ . . .

فى مصر تسعمائة وتسعون فى كل ألف لا يقرأون ، وتسعة من العشرة الباقية ينتفون الأخبار من الصحف اليومية ، ويقطفون النكت من المجلات الخفيفة ؛ وواحد هو الذى يقرأ الكتاب المثقف ويطالع المجلة المهذبة ؛ وهذا الواحد الأحد يدركه فى أكثر العام فتور الطبع أو عدوى البيئة أو فوضى النظام فيعاف الكتاب ، ويجتوى الصحيفة ، ثم يقعد فى مشارب القهوة يتقمع ، أو يسير فى مجالى الطبيعة يتأمل . أو يضطجع فى مراقد السكينة يستجم . ذلك تقدير مقارب تهجم به على (مصلحه الأحصاء) وفى يدينا استقراء متتبع لا يتهيأ لغير من قضى أكثر العمر فى التعليم والتأليف والصحافة . وتقدير المؤلفين والكتاب فى هذا الباب هو الكاشف الحق عن مكان الأمة من التربية القويمة والثقافة السليمة والرقى الصحيح . أما قياس درجة الرقى على نسبة القارئين بالقوة لا بالفعل ، فذلك عمل كل ما يدل عليه أنه خانة فى سجل التعداد — ماذا يردُّ على العقلية المصرية إذا بلغ (فكاكو الخط) فينا مائة فى المائة ما دام فك الخط لا يطلق عقلا أسيرا ولا يجلو بصرا حسيرا ولا يذكى قريحة كابية ؟ أوافق مصلحة الأحصاء على أن فى الخمسة عشر مليون نفس أكثر من مليونى قارىء ، وأن فى هذين المليونين ألوفا من ذوى الشهادات المدرسية والدرجات الجامعية يستطيعون أن

يكشفوا للعقل آفاق المعرفة ، وينهجوا للنفس طرائق الكمال ؟

ولكنك إذا وازنت بين عدد المتعلمين وعدد ما يطبع من الكتاب وما يوزع من الصحيفة خامرك الشك في إحصاء المصلحة . أو في تعليم المدرسة ، أو في عقلك أنت ! ينشر في العام كله بضعة من الكتب يتراوح ما يطبع من كل واحد منها بين الألف والثلاثة ، ثم تساق إلى قراءته بالطبل والزمر بمصر جمعاء وفي معوتها العالم العربي أجمع ، ومع ذلك لا تنفد طبعته المباركة بعد الاغراء بالاعلان والاهداء قبل خمس سنين !

أليس معنى ذلك أن هذا الشعب أمي وإن عرف حروف الهجاء ، وعامي وإن تلقب بألقاب العلماء ؟ تتبَّع الطالب من يوم دخوله روضة الأطفال إلى يوم خروجه من الجامعة ؛ فهل تراه يقرأ - إن قرأ - إلا كتب المدرسة أو ملخصات المعلم أو فكاهات الصحف ؟ إنك تراه ساعة الدرس وأذنه إلى فم الأستاذ ، ويده على القلم ، وعينه في الدفتر ، يختصر ما اختصر ، ويقتصر على ما اقتصر؛ وتراه ساعة الفراغ يحاول أن ينقشه بالتكرار على صفحة ذهنه ، فيصدع رأسه بترديد ما لا يفهمه ، ويتخم نفسه بإساغة ما لا يهضمه ، حتى اذا خرج من المدرسة خرج مكروباً لا يتقار من الكلال والسأم ، فينفس عن صدره بالفكاهة الرخيصة أو القراءة السهلة ! فاذا نال الشهادة بالحفظ تبعه هذا النفور إلى منصبه إذا كان عبد الوظيفة ، أو إلى مكتبه إن كان حر العمل ، فيكره الأدب لأنه يتذكر درس (المحفوظات) ، ويعاف القراءة لأنه لم ينس درس (المطالعة) ؛ وعمله وأمله لا يقتضيانه التعمق ولا المزيد ، فيعود كما بدأه الله أمياً يعمل بالارشاد ، وفطرياً يهتدي بالغريزة . والمعلم الذي يخرِّج التلميذ اليوم ، كان هذا التلميذ نفسه بالأمس : أرسل إليَّ مدرس في كلية الآداب كتاباً يسألني فيه أن أقطع عنه (الرسالة) لأنه لا يجد وقتاً لقراءتها ، وهو لا يلقاك إلا حدثك بما قالته المجلة الفلانية عن الفتاة فلانة ، وما نبزأت به المجلة الأخرى من الاستاذ فلان ؛ ثم سأله أحد طلابه ذات يوم عن (واسط) فقال له : أحسبها مكاناً في طريق القصير ! قرأت هذا الكتاب فعذرت وكيل المعرض الزراعي الصناعي وقد دخل عليه مندوب الرسالة يطلب إليه أن يعرض صحيفاً بدخول المعرض ، فقالها وأمارات التعجب الساخر تتخايل على جبينه العريض : ولكني لم أر هذه (الرسالة) قط ! فلم يجبه مندوبنا وانما أجابه حاجبه هو بقوله : لا ، يابك ! هذه مجلة صفتها كيت وكيت ؛ وأنا وابنتي نقرأها كل أسبوع ، ونجلدها كل سنة ! سمعت هذا الخبر فعذرت ذلك الباشا القاروني الذي أهديت اليه الرسالة لصلة بين أخي وبينه ، فردها علي وقد كتب على غلافها الأبيض بالقلم الغليظ : (مرفود) فوقع في نفسي أن الباشا يتشبه بالملوك والخلفاء ، في رفد المعوزين من الأدباء والشعراء ، فهممت أن اكتب اليه أشكره وأستعفيه لولا أن نبهني صديق أوتي منطق الناس أن (مرفود) معناها (مرفوض) ولا أريد الترسل في هذا الحديث ، ففي ذاكرة كل صحافي من بابه طرائف وأعاجيب

الحق اننا لا نزال أمة أمية تنظر الى الكتاب نظر المتعظم الخائف ، أو المتقنع العازف ؛ وما دمنا لا نرى الكتاب ضرورة للروح ، كما نرى الرغيف ضرورة للبدن ، فنحن مع الخليقة الدنيا على هامش العيش أو على سطح الوجود

تتطور المذاهب والآراء ، كما تتطور الحلى والأزياء ؛ فاذا لم تقصَّ بالقراءة المتجددة أخبار هذا التطور في أطراف الأرض عشت في عصرك غريب العقل أجنبي الشعور وحشي الثقافة ، كالذي يلبس في الناس زيا مضى بدل زي حضر

إن من وظائف المدرسة أن تعودك القراءة وتعلمك كيف تقرأ ، وإن من وظائفك أن تقرأ وأن تعرف ماذا تقرأ ؛ فاذا لم تفعل هي فقد قصرت عن رسالة ، وإن لم تفعل أنت فقد فرطت في واجب .

ليت الذين يطلبون من الادباء أن ينتجوا ويجيدوا الانتاج ، يطلبون من القراء أن يقرأوا ويحسنوا القراءة . فلو كنا نقرأ لخلقنا الكاتب والكتاب ولو كنا نقرأ لاخصبنا حقول المعرفة فأزهرت في كل مكان وأثمرت في كل نفس ؛ ولو كنا نقرأ لما كان بيننا هذا التفاوت الغريب الذي تتذبذب فيه الأفكار بين عقلية بدائية وعقلية نهائية ؛ ولو كان العالم العربي يقرأ لنشر من الكتاب زهاء مائة الألف ، ووزع من الصحيفة قرابة المليون ؛ وإذن تستطيع أنت أن تتصور كيف تزدهر الثقافة وتنتشر الصحافة ويتنوع الأدب ويرقى الأديب !

احمد حسن الزيات

حديث مجلس

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

زارني صديق، ففعلت ما يفعل المرء مثله في العادة حين يجيئه ضيف: قدمت له السجاير ليأخذ منها واحدة وأشعلت عود الكبريت. وكنت لا أشعر برغبة في التدخين في تلك اللحظة، فكانت أصابع إحدى يدي ممدودة إليه بالكبريت وأصابع اليد الأخرى تثني الغطاء على السجاير. فلما أشعل سيجارته رددت يدي إلى فمي وزمت شفتي لأنفخ وأطفئ النار ألفيتني أتردد ثم أتناول سيجارة.

وقلت لصاحبي وأنا أنفخ الدخان مثله «أرأيت... لم أكن أريد أن أدخن، ولكن العادة غلبتني حين رأيت النار في طرف العود بين أصابعي. وأنا أغالط نفسي وأقول لها مازحا إن الكبريت أغلى من السجاير، وإن من سوء التدبير أن أضيع عود كبريت من أجل سيجارة واحدة. وتروقني هذه المغالطة لأنها تفتح لي باب القياس والتمثيل فأقول إن الانسان كثيرا ما يضيع الكثير من جراء حرصه على القليل فما رأيك؟»

قال: «رأيي أن هذا صحيح. وسأقص عليك قصة»

قلت: «هاتها»

وسرني أني أطلقت لسانه وأنه صار في وسعي أن أستريح من الكلام، فأن من نقائصي أني طويل الصمت وإن كنت في العادة ثرثارا عظيما، وأحسبني أهرب بالصمت من الناس، وبالثرثرة من نفسي

وسمعته يقول: «كنت منذ سنوات أتعلم العزف على الكمان، وكان معلمي تركيا ضيق الصدر من أولئك «المولوية» الذين يعيشون في التكايا ويزجون فراغ الحياة بالموسيقى وما تغرى به. وكنت قد اشتريت «فرسا» جديدة للكمان - والفرس كما تعرف هي قطعة من الخشب المنجور ترفع عليها الأوتار، فلما رآها أستاذي غضب ورماها وقال إنها غليظة، وذهب يعنفني ويؤنبني كأنما كنت أنا صانعها، أو كأنما كنت أدرى قبل ذلك شيئا عن الكمان والأوتار والفرس، فكرهت سوء خلقه وثقل على نفسي سلوكه وزهدت في التعلم - على هذا الرجل على الأقل - وزارني بعد خروجه صديق رآني منقبضا متجهما، فسألني عن السبب فحدثته به، فأحب أن يرى هذه «الفرس» التي أثارت كل هذا الخلاف، وكانت لا تزال على الأرض، فأشرت إليها فتناولها وقال: «هذه» وجعل يقلبها في يديه مستغربا، ثم طلب أن أدعها له، فقلت: «خذها ياسيدي، فما لها قيمة في الحقيقة فان ثمنها لا يزيد على قرشين، ولكن معلمي كان ممن يخلقون من الزبيبة خمارة عظيمة

ومضى بها صاحبي ونسيت الأمر كله جملة وتفصيلا، وإذا به بعد سنة أو نحو ذلك يقول لي إنه يتعلم العزف على الكمان وإن الدافع له على ذلك والمغرى به كان هذه الفرس التي ظل بضعة شهور يخرجها من مكانها كلما خلا إلى نفسه ويتأملها

وهو الآن من خير هواة العزف على الكمان

قلت: «وأنت»

قال: «أنا.. انقطعت عن الدرس.. لم أجد أستاذا أقدر منه أو مثله قدرة وإن كنت وجدت كثيرين أرحب صدرا... على أني كنت أدور على المعلمين كارها وبي فتور شديد فكففت»

قلت: «هل تعلم أني أنا أيضا تعلمت العزف على الكمان.. ظللت أتعلم أكثر من سنة.. فلو أني واظبت لكنت الآن من أمهر العازفين على هذه الآلة.. خمس وعشرون سنة.. من يدري.. لعلي كنت خليقا أن أتحول عن الأدب إلى الموسيقى. ولكن قلة الصبر.. والخجل من أن يسمع الجيران الأصوات النابية التي أخرجها.. والاستحياء من أن يعرف عني أني مبتدئ، كل هذا صرفني.. كما صرفتني عوامل أخرى عن الشعر..»

فابتسم وقال: «والآن؟»

قلت: «الآن.. أنا الذي كنت خليقا أن أكون شيئا. ولكن.. لا بأس.. أرانا بعدنا جدا عن الموضوع»

فابتسم مرة أخرى وقال «لا بأس...»

قلت: «صدقت.. كل شيء ككل شيء في هذه الحياة.. هبني كنت الشيء الضخم الذي كان يغريني الصبي والخيال الجامح بالطمع فيه والتطلع إليه فماذا إذن؟..»

قال: «كنت تكون أشد رضى عن نفسك»

قلت: «كنت أشعر.. كلا.. كان رأيي في نفسي يبقى كما هو.. ربما غرني رأي الناس أحيانا، ولكن بلائي أني حين أغتر

أدرك أنى مغتر فيسلبنى إدراكى هذا متعة الغرور . لست أقول إنى غير قابل أو مستعد للغرور أو عرضة له ، فانى كغيرى فى هذا ، والغرور لازم لاطاقة الحياة ، وبغيره لا أدرى كيف يطيق الناس عيشهم . ولكنى لا أزال أدير عينى فى نفسى وأتأملها وأفحصها وأنكت تربتها كما ينكت المرء الارض بطرف العصى ، وأخلق بهذا أن يكشف للانسان عن حقائق غير التى يزيفها أو يموهها الغرور . . وأول ما يعرفه المرء — بفضل الفحص المتواصل والتدبر المستمر — هو حدودها ، ومتى عرف المرء حدود نفسه فأيقن أنها لن تغيب عن عينه قط . .وقد يعالج توسيعها وإفساح ما بينها . . ولكنها تظل ماثلة أبدا . . والشعور بهذه الحدود كرب وبلاء . . والجهد الذى يبذله الانسان لعلاج النقص الذى يشعر به فى نفسه كرب آخر . . آلة محدودة القوة تريد أن تبلغ بها ما تستطيعه آلة أخرى أقوى منها . . هذا الجهد ماذا تظنه يكلف الآلة المسكينة المحدودة القوة والعزم . . وفوق كل قوة أخرى أعظم . . وتجاهد حتى تبلغ بنفسك فوق ما كان ظنك أنها قادرة عليه فلا تقنع بهذا . . لأن هناك مرتبة أعلى ومنازل أخرى أسمى ، فانت لاتزال تستحث نفسك وتدفعها وتحفزها . . ولا نهاية لهذه الدائرة . . وهذه هى حياتنا جميعا . . فى الحقيقة والخيال . . محاولات مستمرة لعلاج ما نحسه من نقصنا . . ولا يخلو هـذا من جانبه المضحك . . فقد يعيينا أن نصلح الفاسد ونعالج الضعف ، أو أن نعوضه من ناحية أخرى قابلة للزيادة والنمو فنروح نستر العيب أو الضعف أو النقص سترا نظنه وافيا كافياً أو نحتال لنبدو كأن قوتنا هى فى هذه الناحية التى نعرف ضعفنا فيها . والانسان ليس بشىء إذا لم يكن منافقاً مرائياً ودجالا كبيراً .

فقال صاحبى : « أو لا يدرك المرء حدود نفسه إلا إذا دأب على ادارة عينه فيها ؟ »

قلت : « لا . . ليست هذه سوى طريقة واحدة لمعرفة النفس ، ومثلنا العامى يقول إن سكة أبى زيد كلها مسالك . ولا أعرف من هو أبو زيد هذا . ولكنى أعلم أن المعرفة سكتها كثيرة المسالك . ومن المسالك التجربة والمعاناة . والتجربة تتيح للانسان أن يقيس ما عنده إلى ما عند سواه فيعرف فى أية ناحية قوته ، وفى أى النواحى نقصه وضعفه وتقصيره . . وأعترف لك بحقيقة . . لقد كنت فى سنى وفى ميعتى يهولنى أن أرى نفسى عاجزاً عن الحب الذى أرى غيرى قادراً عليه . . . نعم كنت أشعر بالاعجاب وبسحر الجمال وفتنة الحسن ، ولكن شعورى هذا كان لا يطول ولا يلبث أن يفتر . . ولم يكن الحب عندى أكثر من مظهر رغبة وقتية تزول اذا زال الداعى اليها كما يجوع المرء فيشتهى الطعام ، حتى اذا أصاب شبعه صد عنه ولم يعد يذكره إلى أن يجوع مرة أخرى . . فلا أرق ولا شوق ولا أحلام ولا بكاء ، وإذا حرمت حظاً فى باب الحب فكما يحرم المرء نصيباً من لون من ألوان الآكال كان يشتهى أن يفوز به . . وما أكثر ملايين الناس الذين يعيشون محرومين ويعلمون أنهم محرومون ومع ذلك يحيون ويسعدون بالحياة ... كذلك كنت . ولم يكن إخوانى كذلك ، ولا كان الذين أقرأ أخبارهم فى كتب الأدب مثلى . فيكنت أستغرب وأنكر من نفسى هذا الجمود أو إن شئت هذه الحصانة أو المناعة من الحب بالمعنى المعروف المألوف . الحب الطاغى العنيف الذى لا يفتر ولا يخبو له ضرام والذى يذكرك بمجنون ليلى وأشباهه . فأغرانى هذا الذى بلوته من نفسى بالتكلف ولججت فى التكلف حتى لكان يخيل الى أحياناً أن الأمر صار جداً لاهزل فيه . وكنت أشجع نفسى على الأرق وأحثها على التذكر والشوق ، وألح عليها بأجمل شعر الغزل فى الأدب العربى والآداب الغربية لأوحى إليها الروح الذى ينقصها ، وكنت أتمثل هذه الحالات التى يصفها الشعراء وأسمع بها من الاخوان ، وأروض نفسى على مثلها وأجعلها تستغرقنى حتى قلت شعرا كثيرا فى ذلك لا يشك قارئه فى أنه صادر عن عاطفة صادقة عميقة قوية . ولم أكن أنا أشك فى أن الأمر كذلك أيام كنت أقول هذا الشعر لانى لم أزل أعالج نفسى بالايحاء اليها حتى صار الأمر أشبه ما يكون بالحقيقة . ولكنى كنت فى أعمق أعماق نفسى أدرك الحقيقة . وكنت أمتحن نفسى أحيانا بالبعد فلا أرانى أشتاق أو أتلهف أو أتحسر أو أصبو الى آخر ذلك . وأخيرا مللت هذا التكلف . وهذا من أسباب تركى للشعر . وثم أسباب أخرى ولكن هذا من أكبرها اذا لم يكن أكبرها » .

فاستغرب صاحبى وجعل ينشدنى بعض ما يحفظ — وما نسيت أنا — من شعرى ، ويسألنى أكان هذا تكلفا ، فقلت له « لم يكن الشعور الموصوف فى هذه الأبيات كاذبا ، فانه كان صادقا فى ساعته . . كان حبا قصير العمر جدا . . حب ساعة . . إعجاب

اذا شئت . نشوة عارضة كنشوة الخمر . وكونها عارضة . . . من فعل الخمر أو بتأثير الحسن لا يمنع أن الشعور الذى تحدثه صادق فى حينه . وقد يلح المرء على نفسه بالايحاء اليها حتى يشعر بما يشعر به العاشق الحقيقى . فيكون شعوره أيضا فى حينه صادقا . ولكن بعد ذلك . . بعد أن يثوب الرشد الذى أضاعه الخمر ، ويرجع الاتزان الذى أفسده منظر الحسن ، أو تعود الحالة الطبيعية التى اضطربت من جراء الايحاء . بعد ذلك يذهب ما جاءت به النشوة الوقتية ، وقد أفادنى علاج نفسى ورياضتها على أن تستغرقها الحالة التى أتمثلها . نعم بقيت عاجزا عن العشق وفى أمان من جنون الحب فان هذه طباع لا حيلة لى فيها ، ولكنى أصبحت بفضل هذه الرياضة أستطيع حين أفكر فى شىء أو أكتب شيئا أو أشغل بأمر أن أذهل عن الدنيا فلا أسمع ولا أرى ، ولا يستطيع شىء أن يصرفنى عما أنا فيه . . خرجت بفائدة على كل حال . وكثيرا ما ترى الانسان يطلب شيئا فيخطئه ويفوز بغيره . »

فقال « ولكنك محروم وهذا فظيع » .

قلت « كلا . أنا على نقيض ذلك سعيد . مستريح من وساوس الحب وبلابله وهواجسه وتخريفه ، وفى وسعى دائما أن أمتع نفسى بالحسن وأنا هادىء الأعصاب مدرك لما أنا فائز به بلا اسراف أو غمط فى التقدير ، ومن غير أن أنغص على نفسى هذه المتع بعد ذلك بالوساوس والخيالات وما الى ذلك مما يكابده المحبون . . . وأقول لك الحق إنى أصبحت لا أصدق من يزعم أن حبه على نحو ما يصف الشعراء ومن اليهم . ولا أعتقد إلا أن ذلك نشوة يطيلون عمرها بالايحاء . والايحاء يا صاحبى — الى النفس والى الغير — عامل خطير الاثر فى حياتنا . صدقنى . »

قال : « ولكنى جربت »

قلت : « ما أظن بك الا أنك تخدع نفسك . وهذه سنة الانسان أبدا . عد الى نفسك وحلل خوالجك بلا خوف من مواجهة الحقيقة ولا جزع ولا اشفاق . اجعل من نفسك شخصا مستقلا . طبيبا يفحص حالة ولا يعنيه الا ما يهتدى اليه . وانظر ما يكون . . ثم تعال واخبرنى . وأنا واثق أن النتيجة ستكون مطابقة لما حدثتك به عن نفسى »

فوعد أن يفعل . . ولكنه لم يعد إلى

ابراهيم عبد القادر المازنى

في الأدب المقارن

التفاؤل والتشاؤم

فى الأدبين العربى والانجليزى

للأستاذ فخرى أبو السعود

حب الحياة كائن فى طبيعة كل حى ، والرضى بها والاطمئنان إليها والاقبال عليها شيمة جميع الأحياء ما دامت بنياتهم صحيحة وحاجاتهم حاضرة ، والمرح واللعب غايتهم الأخيرة مادامت غرائزهم مقضية اللبانات مشبعة المطالب . ولما كان الانسان يمتاز بالخيال والفكر فإن له مطالب نفسية غير مطالب جسده الغريزية ؛ يرضى ويرتاح إذا قضاها ، ويقنط ويكتئب إذا أخطأها ؛ وليس يشكو الحى أو يألم ، وليس يسخط الإنسان أو ينقم ، إلا أن يغدو وهو سقيم الجسم أو محروم الغريزة أو ممنوع المطالب . فحب الحياة والاقبال عليها والرضى عنها هى الحال الطبيعية العادية ، وذم الحياة والعزوف عنها والسخط عليها حال طارئة استثنائية ، نتيجة لامتناع وسائلها وعدم مواتاة أسبابها .

فالمتشائمون قوم قست الحياة عليهم فحرمتهم قليلا أو كثيراً مما حبت به سواهم ، فثاروا عليها وكالوا لها قسوة بقسوة ، وجزوها على حيفها بمزير الذم والتفنيد ؛ فلسنا نرى بين المتشائمين الزارين على الحياة والأحياء رجلا صحيح البدن معتدل المزاج مجدوداً واثقاً بنفسه ، بل كلهم ممن أكسبتهم الوراثة والنشأة والبيئة أجساماً معتدلة أو أعصاباً مختلة ، أو ألحت عليهم الخطوب فحطمت مساعيهم ، أو اقتنعوا بعجزهم عن مُصاولة الأحياء فى ميدان الحياة ، فأورثهم ذلك حساً مرهفاً متيقظاً إلى مواطن الشر والقسوة والنقص فى الحياة ، فقعدوا يبرُزون لها وللمقبلين عليها السهام .

وفى الحياة مواطن للنقص لاتحصى ، يهتدى إليها الناقمون عليها بلا عناء ، وهى تعرض مثالبها عليهم وتضع أصابعهم على نقائصها ؛ بيد أن المتفائل المعافى الجسم الناجح المسعى قلما يلتفت إلى تلك المساوىء ، وإذا التفت إليها فبرهة قصيرة يأسى فيها

ويعتبر ، ثم يعود إلى ما كان فيه من استمراء لمتعات الحياة واجتلاء لمفاتنها ، متعزياً بهذه المفاتن والمتعات عن تلك النقائص والمقابح ، باذلا جهده لتوفير السعادة لنفسه ولمن حوله ، ومحو ما يستطيع من أسباب الشقاء ؛ على حين يظل المتشائم أمام مايروعه من مساوىء الحياة قائماً ، لا يريد أن يحوّل بصره إلى سواها ، بل يهوّل تلك المساوىء كما يسول له حسه المرهف وخياله المغرق .

والأدباء وغيرهم من رجال الفنون عادة أرهف حساً وأبعد خيالا ممن عداهم ، وما من أديب إلا تتجسم له مقابح الحياة جهمة مقززة فى فترة من فترات حياته ، فتعافها نفسه ، وينقم عليها وعلى نفسه وعلى الأحياء جميعاً ؛ فأما من كان متفائلا بطبعه معتزاً بنفسه واثقاً من قدرته على خوض وغى الحياة ، فسرعان مايخرج من تلك الغمّة وتنتصر فيه دفعة الحياة القاهرة ، فيلتفت إلى ما بالحياة من مباهج بجانب مابها من مآس ، ويطلب العزاء ببعض تلك عن بعض هذه ، ويستن لنفسه مثلا أعلى جديداً فى الحياة ؛ وأما المتشائم المحس بوطأة الحياة الثقيلة على جسمه المتعب وأعصابه المنهوكة ونفسه الخائرة ، فيرفض كل عزاء ويأبى كل إيمان ويسخر من كل مثل أعلى

فالفرق الرئيسى بين المتفائل والمتشائم هو أن الأول يرضى العزاء والثانى يرفضه ، والأول يؤمن بمثل أعلى والثانى يأبى الإيمان بشىء ، فالمتشائم يرفض الدين فيما يرفض ، فالتشاؤم والدين ضدان لايلتقيان : التشاؤم إزراء بالحياة وإنكار لجدواها وتحقير لأبنائها ، والدين يبشر بجدوى الحياة الصالحة ويبث العزاء فى النفوس عن آلام الحياة . وما كانت الديانات الأولى كديانات المصريين والفرس إلا محاولة حاول بها الإنسان أن يفسر ما راعه من تجاور قوى الخير والشر فى الحياة ، وأن يتعزى بجانب الخير عن جانب الشر منها ، أما والتشاؤم هو فقد الإيمان بالحياة ورفض العزاء عن شرورها ، فالتشاؤم والدين نقيضان ، ولا ترى متشائماً إلا يسر الإنكار للدين أو يعلنه ، ولا مؤمناً معتصماً بدينه قد هوى فى لهوات التشاؤم

وليس فقد الإيمان بالحياة ومثلها العليا - أو التشاؤم - ينتهى بصاحبه فى كل حالة إلى الإسراف فى رفضها واعتزالها ، بل هو ربما أدى إلى إسراف مناقض لهذا : إسراف فى انتهاب لذاتها القريبة وإشباع الغرائز النهمة منها ، تناسياً لمنغصاتها وتخلصاً من لذعات التفكير فى نقائصها ؛ فالمتشائمون المعتزلون للحياة الناقمون على الأحياء الساخرون من المجتمع ، والمتشائمون المستهترون باللذات المتهكمون بتقاليد المجتمع وأخلاقه ، الخارجون على عرفه المصادمون له فى عقائده ؛ أولئك وهؤلاء سيان فى التشاؤم ورفض الإيمان والعزاء النفسى ، أو قل هما طرفان متباعدان بينهما الوسط الذى يحتله المتفائلون الراضون بالحياة على علاتها ، المتسلون بنعمائها عن بأسائها فى قصد واعتدال ، المتشبثون ببعض مثلها العليا

على أن المتشائمين أنفسهم لا يخلون من عزاء وإن توهموا سوى ذلك ؛ وأشدهم إمعاناً فى التشاؤم لا ينضب من نفسه حب الحياة ، وعزاء أكثرهم هو ذلك الفن الذى يزاولونه ، هو أدبهم الذى يودعونه فلسفتهم المتشائمة وخطراتهم القاتمة ، ففى كتابة أفكارهم تلك راحة لنفوسهم المعذبة وشفاء لغرائزهم الظامئة ؛ ولولا أنهم ما يزالون يحبون الحياة فى صميم أفئدتهم ، على رغم إعلانهم الحرب عليها ، لما لبثوا بساحتها ؛ ولو أنهم يزدرونها ويزدرون أبناءها بقدر ما يزعمون ، لما حفلوا بتدوين آرائهم فيها وعرض تلك الآراء على أبنائها ؛ ففلسفتهم المتشائمة تناقض نفسها بنفسها

فإذا كانت فلسفة تصدق أو تفسير للحياة يتقبل ، فليست فلسفة المتشائمين بالتى ترجح وتفسر الحياة ، وليست رسالتهم التى يؤدونها إلى الإنسانية بالتى تتقبل ، لأن فلسفتهم كما تقدم تناقض نفسها ، وتناقض طبيعة الحياة التى بثت حبها فى جبلات أبنائها ، ومهدت من متعاتها ما يرجح شوائبها ، وزودت بنيها بالسلاح اللازم لهيجائها . ليست فلسفة المتشائمين بالمقبولة فى جملتها ، وإن احتوت فى أطوائها من صائب النظرات وبديع اللفتات وآثار الفكاهة والسخر والوصف والتحليل ما يمتاز به أصحاب ذلك المزاج ، وما يهديهم إليه حسهم المرهف المستوفز وخيالهم المتيقظ المسترسل

وفلسفات المتشائمين فى مختلف الأمم والأجيال متماثلة ، ومواضيعهم متقاربة : إسهاب فى شرح مظاهر تنازع البقاء ، وإطناب فى ذكر لئيم الطباع فى الأحياء وفى الإنسان خاصة ، وإصرار على تذكر الموت وكرور الزمن وحلول البلى ، وتهويل

لضعف الانسان إزاء جبروت القدر ، وتصوير لنفاق المجتمع وجور أنظمته ، وتحقير للمرأة وموازنة بينها وبين الحياة ؛ وآراؤهم في كل ذلك مَرَدُّها إلى اضطراب تكوينهم وتزعزع ثقتهم بأنفسهم وحرمانهم من شتى مطالب الحياة ؛ فلسفة المتشائمين لا تدلنا على حقائق الحياة والكون ، بمقدار ما تدلنا على نفوس أصحابها وأمزجتهم وعوامل تكوين أذهانهم

فهم يجزعون لمرآى تنازع البقاء لاحساسهم بأنهم عزّل ضعفاء ، وينحون على المجتمع بقوارع الكلم لأنهم عاجزون عن الانغمار فيه ونيل الحظوة والصدارة به . ويُذكّرون الناس بالموت والدثور لأن الناس يتمتعون دونهم بالطيبات ، فهم يُسلّون أنفسهم بتكرار القول بأن تلك الطيبات عما قليل ذاهبة ، ويخوفون الناس بجبروت القدر لأن غيرهم يتمتعون بالقوة والاقتدار ، فهم يلوحون أمام أعينهم بالقدر الذي يتلاعب بهم ويضحك من تدبيرهم ، ويرمون المرأة بالغدر والتقلب لأنها تنى لغيرهم ، ويجاهرونها بازدرائهم إياها لأنهم يُسِرّون الاحساس بازدرائها إياهم وإعراضها عنهم .

ولما كان مَرَدُّ المزاج السوداوى المتشائم إلى عوامل فردية محض ، من وراثة أو بيئة ، يظهر المتشائمون في شتى الأمم والأجيال متفرقين لا اتصال بينهم من مدرسة أو مذهب ؛ على أن مسحة التشاؤم تطغى عادة في آداب عصور الأدبار السياسى والضيق الاقتصادى والفوضى الخلقية ، فيَسُود الشك والرفض والتهكم المرير . كما كان الشأن في الأدب الروسى تحت الحكم القيصرى ؛ كما أن صبغة الايمان والبشر والتفاؤل تغلب في عصور الرخاء والنجاح والمغامرة ، وهى الصبغة التى سادت الأدب الاغريقى في عصره الذهبى عقب الانتصار على الفرس . فلما تلا ذلك عهد الادبار ظهر السخر والشك ومذاهب الرفض والاعتزال من جهة ، ومذاهب الاستهتار والاباحية من جهة أخرى

ولعل أشد أدباء الانجليزية تنكيراً على الانسان وتهكما بمساعيه وتهوينا لشأنه هو جوناثان سويفت ، وهو أديب نشأ نشأة ضنكة مقلقلة ، ولازمه داء في أذنه جشمه آلاما مبرحة ، وما زال حتى طغى على عقله في أواخر حياته ؛ وحالف الاخفاق مطامحه السياسية وصاحب النحس غرامه ، فلم يبق له إلا الانزواء في عزلته ببعض بلدان أرلندة ، وإلا أن يقول لبعض أصحابه إنه يمقت ذلك الحيوان المسمى الانسان من أعماق قلبه ، وما ذاك إلا لما كابد من عنت الظروف والأمراض ولَدَد الخصومات وغصص الاخفاق ، وهو الذى كان فيما عدا ذلك من أوفى الناس عهدا وأصفاهم ودا ، وهو الذى عطف على الأرلنديين ودافع عنهم ، على حين ناصبهم من قبل ذلك مواطنُه وزميله في حرفة الأدب ادموند سبنسر . وكتاب سويفت « رحلات جليفر » على ما به من سلاسة وفكاهة وبراعة تصوير ، مملوء بالسخر المرير من الانسانية .

وزعيم التشاؤم في العصر الحديث توماس هاردى ، الذى كانت أشباح الموت والبلى والقدر لا تبرح ناظريه ، وكان لا يمل تكرار موضوعه الوحيد في شتى قصائده وقصصه : موضوع ضعف الانسان وقلة حيلته وعبث مسعاه ، حيال ضربات القدر الأعمى ، ودوران رحى الزمن الطحون ، فكان دائبا يتفنن في اختراع المواقف المفجعة والظروف المنحوسة ، يتخذ مشاهدها في المقابر والبرارى وفى الأيام الداجنة الكالحة ، ويطيف أشخاص روايته بين الموتى ، ويُنطق الموتى في أشعاره . ويغالى في تصوير فجائع الحب : بين الغدر والسلو والنسيان والغيرة وجفاف الجمال ؛ فأشعاره لا تكاد تنتقل بك من غمة إلا إلى غمة ، ولا من محنة للانسان إلا إلى انتصار وحشى للأقدار عليه

ومعاصره أو خليفته في هذه النظرة المتشائمة إلى نصيب الانسانية في الحياة هو هاوسمان ، الذى كان يحاكيه كثيراً في اختيار مواضيعه وطريقة معالجتها و إجرائه الحديث فيها بين الأحياء والأموات . ومن نماذج ذلك الضرب من شعر التشاؤم قوله : « — أما برحتْ خيلى تحرث الأرض كعهدى بها ، إذ أناجى أسوقها وأسمع صليل شكائمها ؟ — بَلَى ماتزال تنقل خطاها وشكائمها تصلّ . ولم يتغير شيء برغم أنك قد رقدت تحت الأرض التى كنت من قبل تحرثها — أو ماتزال الكرة تترامى ويتسابق خلفها الرفاق على شاطيء النهر ، وإن أك لا أستطيع اليوم نهوضاً ؟ — نعم تترامى الكرة بينهم وكلهم باذل في اللعب جهده ، وذلك مرماهم قائماً وحارسه لا يني — وفتاتى التى شقّ عليّ فراقها ، أسئمتْ البكاء واستطابت طعم الغمض ؟ — نعم هى ناعمة في خدرها ، فنم أنت وقر — وهل

صديق صحيح معافى وقد نحلتُ أنا وبليتُ ؟ وهل وَجدَ بعد فراشي فراشاً وثيراً ؟ — أجل أنا يا صاح لي ضجعة كالرَّوح. ما يشتهيه الفتى: أسلَّني حبيبة وجل قصَى، ولا تسألنِّي حبيبة مَن ،

ومن أمثلة الوراثة المختلة والمزاج السوداوي في تاريخ الأدب الانجليزي كوبر وبيرون : كلاهما كان مضطرب التكوين اضطراباً أدى إلى ظهور الغرابة في مسلكيهما وأدبيهما . على أنهما رغم اتفاقهما في ذلك كانا يختلفان ثقة بالنفس :كان أولهما ضعيفاً متناهياً في الخجل، وكان الثاني مفرطاً في الزهو والاعتداد بمواهبه ونسبه ، فقنع كوبر بحياة العزلة ولم يعلن على الناس حرباً ، وإن ظهرت أعراض التشاؤم في كثير من شعره ؛ أما بيرون فصادم المجتمع بمسلكه الخلقي كما هاجمه في شعره ؛ ولما لفظه المجتمع الانجليزي زاد عتواً وجرأة ، وتحدياً لخصومه وتشفياً من مؤيدي النظم الاجتماعية التي كان يمقتها . هذا فضلا عما حفلت به آثاره عامة من تصوير لضعف الانسان وقصر مدته وعبث جهوده .

ورمز التشاؤم في العربية هو ولا شك المعري ، الذي اجتمع عليه من أسباب التشاؤم مالم يجتمع على غيره : من اعتلال التكوين الجسمي، واختلال الصحة ، والحرمان من شتى اللذات ، واضطراب العصر الذي عاش فيه ، فجاءت فلسفته مثالا نادراً لفلسفات المفكرين المتشائمين : حقر الإنسان . وأنذر بيطش الأقدار ، وذكر بالموت ، وشك في الدين ، وأزرى بالمرأة ، وندد بالمجتمع ، وفند الحكام ، وأطنب في تنازع البقاء ؛ ورثى مع ذلك للإنسان ورأف بالحيوان ، وضاق بنفسه كما ضاق بغيره وحرم على نفسه اللذات وعاش نباتياً ومات عزباً لم يجن على أحد ، وعبر عن نظراته النافذة الحكيمة التي سبق بها عصره ، تعبيراً شعرياً عربياً جزلا ممتعاً ؛ وكان صادقاً صريحاً : اعترف بأنه لم يعتزل تلك الحياة الضنكة إلا لأن سواها قد شآه ، فهو القائل :

ولم أرغب عن اللذات إلا لأن خيارها عنى خنسنه

فقد كان لدقة حسه شديد الحرص على كرامته ، شديد التوقى لمواطن السخر والزراية ، فكان ذلك حائلا بينه وبين ما تصبو إليه غرائزه من متعات ، وكانت حياته معركة طويلة قائمة داخل نفسه بين الرغبة في الاستمتاع بطيبات الحياة والاصرار على رفضها ، لاستعصاء سبلها على الكفيف المجدور ، إلا أن يبيح كرامته ويهدر خيلاءه . وما أطار خياله إلى طيبات الفردوس إلا حرمانه من طيبات الحياة وطول نزوع نفسه إليها . وما كان وصفه لمتعات الخلد إلا إرضاء لشهواته المخمدة تحت رماد التوقر والتقشف . وما كان تأليفه رسالة الغفران أو اتخاذه الخلد مسرحا لها إلا تنفيسا عن مكتوم نوازعه ؛ وبفضل هذه النوازع المكبوتة خلَّف المعري الكفيف أثراً من آثار الخيال فريداً في اللغة ، كان المبصرون من أدباء العربية منصرفين عن مثله

والمعري نسيج وحده في التشاؤم في العربية ، يرفع راية الرفض للحياة والاعتزال لها والازراء عليها . ويمارس في حياته ما ينادي به في أشعاره ، ولا ينضوي تحت تلك الراية سواه : إنما كانت غالبية المتشائمين في العربية الذين نبذوا الايمان ورفضوا العزاء ، وهانت عليهم الحياة فلم يجدوها أهلا لسعي ولا لحفاوة ، هم طائفة المتشائمين المستهترين ، الذين ظهروا حين طغت تيارات الترف والمادية والشكوك ، على المجتمع والعقائد في العهد العباسي كبشار وأصحابه ، وأبي نواس وأضرابه ، أولئك ساقهم تفكيرهم إلى تصغير الحياة وما يقدس الناس من مثلها العليا ، فلم ينبذوا الحياة جملة بل راحوا يطفئون غليل نفوسهم المتحرقة في لذات الحياة الدنيا ، ويشبعون غرائزهم الحيوانية متهكمين بما عدا ذلك مما يسميه المجتمع فضائل وعظائم وعقائد . وأبو نواس هو القائل :

وما هنأتك الملاهي بمثـــل إماتة مجد وإحياء عار

والقائل :

قلت والكأس على كفـــى تهوى لا لتثامى :
أنا لا أعرف ذاك الـــيوم في ذاك الزحام

وإنما حرضهم على سلوك تلك السبيل ما كان يسود عصرهم من حرية تقرب من الإباحية ، وما كان يسود المجتمع العربي دائما من صراحة لا نظير لها في المجتمع الإنجليزي ، حيث التقاليد الاجتماعية شديدة الصرامة . فعلى حين كان يتأتى لبشار وأبي نواس وأضرابهما أن يباشروا وهم معافون حياة الاستهتار التي باشروها ، ويتهكموا بعقائد غيرهم ماشاءوا ، ويترنموا بمخازيهم شعرا ، نرى بيرون الذي لم يجْرِ إلى مداهم يُلفَظ من المجتمع الإنجليزي الذي بجَّله من قبلُ لشعره وحَسَبه

وحياة المعري وبشار موضع لموازنة ممتعة : كلاهما عاش

كفيفا ، أى مكفوفا إلى مدى بعيد عن كثير من مسرات الحياة ومتعات المبصرين ، فخلقت فيهما تلك الحالُ وحشة وشذوذا وزراية على الحياة والأحياء ، ولكن المعرى كان دقيق الحس مرهف الأعصاب ضعيف البنية ، فنفض يده من الحياة ونجا بالسلامة والكرامة ، وبشار كان مفرط الجسم متنزّى الحيوانية مضطرم الشهوة ، فأكب على إشباع شهواته مستهدفا لزراية الآخرين وتهكمهم ، وشهر عليهم سوط لسانه المقذع ، كما يشرع السبع المنهمك فى تمزيق فريسته مخلبه لنبذ غيره من السباع عنها .

تلك مظاهر التشاؤم ، أو فقه الايمان بسمو الحياة والعزاء النفسى عن شوائبها ، فى الأدبين العربى والإنجليزى ، وفيما عدا ذلك كان أقطاب الأدبين ـ لما يتدفق فى شرايينهم وشرايين أمتيهم من دفعة الحياة ـ متفائلين متشبثين بأهداب المثل العليا التى ترضاها لهم طبائعهم وبيئاتهم ، يَغْبَرُّ لهم وجه الحياة حينا فيبدو أثر ذلك عابسا فى آثارهم ، ثم يجنحون إلى التعزى والإيمان : فملتون فى الإنجليزية مثلا على فرط ما لاقى من خذلان فى حياته الفردية والعامة وما حل به من فقدان البصر ، ظل وطيد الايمان متطلبا للعزاء إلى منتهى حياته ، وكتب ملاحمه فى أواخر أيامه طلبا للترفيه عن نفسه ولكى « يبرر للناس أعمال الله » ؛ والمتنبى فى العربية رغم ما أصاب من إخفاق متوال فى مطلب حياته الأسمى ، الذى « جلَّ أن يسمى » ، ورغم ما كابد من حسد وكيد وعداوة ، وما صب على الناس من قوارص كلمه ، ظل أبدا « من نفسه الكبيرة فى جيش وفى كبرياء ذى سلطان » ، متدرعا متأهبا للجلاد .

وإن يكن هناك مجال للمقابلة ، فالأدب العربى لا شك أكثر اصطباغا بالتفاؤل والايمان ، على كثرة ما به من الشكوى ؛ والأدب الإنجليزى أحفل منه بآثار التشاؤم ، ولاسيما فى العصور الحديثة التى زادت الحياة فيها تعقدا ووطأة ؛ وإنما يبث ذلك التفاؤل فى المجتمع والأدب العربيين أمران : صحو الجو الذى يعدل المزاج ويبعث البشر والطلاقة ، والدين الاسلامى الذى يبث الايمان فى النفوس ويحض على اجتلاء متعات الحياة التى أحل الله ، والذى هو كما تقدم القول أكثر تغلغلا فى سرائر معتنقيه ، وشمولا لجوانب حياتهم من غيره من الأديان .

٨٠١٤ **فخرى أبو السعود**

ضوء جديد على مأساة شهيرة

هل قتل الحاكم بأمر الله أم اختفى ؟

نظرية الدعاة السريين ومزاعمهم

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تتمة

تلك هى النظريات والشروح الغريبة التى لجأ إليها الدعاة لتفسير اختفاء الحاكم وغيبته ؛ ولا ريب أن اختفاء الحاكم على هذا النحو الفجائى كان ضربة شديدة للدعاة ؛ فقد كان الحاكم ملاذهم وحاميهم ، وكان شخصه محور دعوتهم وعماد مزاعمهم ؛ فلما اختفى الحاكم انهارت الدعوة فى مصر بسرعة ، وتفرق الدعاة فى مختلف الأنحاء اتقاء المطاردة به ، ولكن الدعاة ألفوا فى هذا الظرف ذاته مستقى جديداً لدعونهم ؛ فقد اختفى الحاكم ولكن إلى رجعة ؛ وليس على المؤمنين أن يعرفوا أين اختفى وكيف اختفى ؛ ولكن عليهم بالصلاة والاستغفار حتى يرضى عنهم ، ويعود إليهم عند ما تحل الساعة ، ذلك لأنه اختفى غضباً عليهم لما أمعنوا فيه من الآثام والخطايا ، ولن يظهر إلا عند ما تصفو قلوب المؤمنين وتصفو نياتهم؛ وفى هذا الاختفاء ذاته ، دليل ساطع على ألوهيته وخارق قدرته ، وهو فى السماء أو فى الأرض روح بلا جسم ، يشرف على عباده ، « وإنه ليراهم من حيث لا يرونه » !

هذا وقد مضى إلى اليوم على مصرع الحاكم تسعمائة وخمسة عشر عاما ، ولا يزال الموحدون يؤمنون برجعته ويرقبونها ؛ ولم يقل لنا الدعاة أنى ومتى تكون هذه الرجعة من عالم الأبدية ، وكل ما هنالك أن حمزة يقول للمؤمنين فى رسالته الشهيرة ، « إنه متى أطلت عليهم رحمة الله خرج ولى الله إمامهم باختيار وراضياً عنهم ، حاضرا فى أوساطهم . . . » ويكرر الدعاة هذه الاشارة الغامضة إلى مثول الحاكم ورجعته فى رسائلهم ، ولا سيما رسالة الغيبة التى أشرنا إليها ، فيقولون : « إن مولاكم لا تخلو منه الدار وقد عدمته أبصاركم » ، « إن مولاكم يراكم من حيث لا ترونه » ، « أحسنوا ظنكم بمولاكم يكشف لكم عن أبصاركم ما قد غطاها من سوء ظنكم » ، وأمثالها من الاشارات والعبارات الرمزية

الجوفاء . وخلاصة مزاعمهم فى ذلك هو أنه متى حلت الساعة ، يقوم جند الموحدين من ناحية الصين ، ويقصدون إلى مكة فى كتائب جرارة ، وفى غداة وصولهم يبدو لهم الحاكم على الركن اليمانى من الكعبة ، وهو يشهر بيده سيفاً مذهباً ، ثم يدفعه إلى حمزة بن على فيقتل به الكلب والخنزير وهما عندهم رمز الناطق والأساس ؛ ثم يدفع حمزة السيف إلى محمد « الكلمة » وهو أحد الحدود الخمسة ، وعندئذ يهدم الموحدون الكعبة ويسحقون المسلمين والنصارى فى جميع أنحاء الأرض ، ويملكون العالم إلى الأبد ، ويبسطون سلطانهم على سائر الأمم ، ويفترق الناس عندئذ إلى أربع فرق . الأولى الموحدون وهم « العقال » أو « العقلاء » والثانية أهل الظاهر وهم المسلمون واليهود والثالثة أهل الباطن وهم النصارى والشيعة ، والرابعة المرتدون وهم « الجهال » (الجهلاء) ؛ ويعمد حمزة إلى أتباع كل طائفة غير الموحدين فيدمغهم فى الجبين أو اليد بما يميزهم من غيرهم ، ويفرض عليهم الجزية وغيرها من فروض الذلة والطاعة ، وأما أصحابه فالعقلاء منهم يصبحون أرباب السلطة والمال والجاه فى سائر أنحاء الأرض (١)

والظاهر أن هذه المزاعم الأخيرة فى سحق أبناء الأديان الأخرى مستمدة من أقوال حمزة ذاته فى رسالته المسماة « النهاية والبلاغ فى التوحيد » إذ يقول : « وعن قريب يظهر مولانا جل ذكره سيفه بيدى ، ويهلك المارقين ويشهر المرتدين ، ويجعلهم فضيحة وشهرة لعيون العالمين ؛ والذى يبق من فضلة السيف تؤخذ منهم الجزية وهم صاغرون ، ويلبسوا الغيار وهم كارهون » .

تلك هى نظرية الدعاة السريين ومزاعمهم فى غيبة الحاكم وفى رجعته ، وهى نظرية فى منتهى الاغراق والجرأة ؛ بيد أنه لاريب فى سخفها ؛ وقد ألفى الدعاة بعد انهيار دعوتهم فى مصر ، ملاذا لهم فى الشام ، فوجهوا اليها أنظارهم ، وحاولوا بشروحهم ومزاعمهم الجديدة أن يستبقوا ولاء شيعتهم وأنصارهم هنالك ، وما زالت ثمة بقية من شيعتهم الى يومنا وهم طائفة الدروز

بيد أن الدعاة لم يكونوا مبتدعين أيضا فى نظريتهم الجديدة ؛ فقد رتبوا فكرة اختفاء الحاكم ورجعته على فكرة قديمة هى فكرة بنفس غلاة الشيعة فى المهدى المنتظر ؛ ومنذ عصر على بن أبى طالب تبوأ هذه الأسطورة مكانها ؛ ويزعم هؤلاء الغلاة ، وهم الرافضة ، أن عليا لم يمت ، ولكنه حى غائب عن أعين الناس مستقر فى السحاب ، صوته الرعد ، والبرق صوته ؛ ومنهم من يقول مثل هذا القول فى ابنه محمد بن الحنفية ، وأنه مستقر فى جبل رضوى من أعمال الحجاز ؛ ويقول آخرون وهم الاثنا عشرية إن هذا الامام المنتظر هو محمد بن الحسن العسكرى (وهو أيضا من ولد على) وأنه لم يمت ، ولكنه اختفى وغاب عن الأنظار ، ولا يزال مختفيا الى آخر الزمان ، ثم يخرج فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا (١)

فالقول باختفاء الحاكم مستمد من هذه الاسطورة القديمة ؛ وقد كانت هذه الأسطورة ، أعنى أسطورة الغيبة والرجعة ، وما يكتنفها من الرموز والغموض ، مبعث الخفاء دائما ؛ وكان هذا الخفاء ذاته مبعث الخشوع والروع فى المجتمعات الساذجة المؤمنة ؛ وكان مبعثا لا كثر من دعوة بالنبوة والامامة ؛ بل كان مبعثا لدعوى الألوهية ذاتها : أليس منتهى الخفاء والروع أن يغيض الحاكم على هذا النحو الى حيث لا يعلم أحد ؟ وقد رأى الدعاة أن يستغلوا هذا الخفاء فى تأييد دعوتهم ، وأن يبثوا بين المؤمنين جوا من الرهبة والخشوع لذكرى ذلك الذى اختفى ليعود حين تحين الساعة ، والذى « يرى ولا يرى » .

على أن هناك نقطة غامضة فى موقف الدعاة إزاء هذا الاختفاء إذا سلمنا بان الحاكم اختفى ولم يقتل ؛ ذلك هو الدور الذى يحتمل أن يكون قد أداه الدعاة فى هذا الاختفاء ذاته . فهل للدعاة يد ما فى هذا الاختفاء ؟ وهل دبروه أو اشتركوا فى تدبيره ؟ أليس من المحتمل أن يكون الدعاة هم الذين أقنعوا الحاكم بان يختفى تقوية للدعوة ، وتمكينا للزعم بألوهيته لدى الأولياء والكافة ؟ بل نستطيع أن نتساءل أيضا ، أليس من المحتمل أن يكون الدعاة قد فكروا فى اغتيال الحاكم خدمة لدعوتهم ، وأنهم دبروا مؤامرة لاغتياله أو اشتركوا فى تدبيرها واستطاعوا أن يحكموا تدبير جريمتهم ، لكى يستغلوا بعد ذلك فكرة الاختفاء على النحو الذى أسلفنا ؟ هذه أسئلة قد تخطر على الذهن فى مثل هذا الموطن ، خصوصا وقد كان حمزة وصحبه أهلا لكل اجتراء ، ولا تبعد فكرة الجريمة عن أولئك الذين اجترأوا على زعم الألوهية البشرية ، وسفكوا فى سبيلها دماء الأبرياء : بيد أن هذه مسائل يحيط بها الظلام

(١) لخصنا هذه الفروض الأخيرة عن كتاب مخطوط عن طوائف لبنان لم يعرف مؤلفه وهو محفوظ بدار الكتب رقم ١٦ م

(١) ابن خلدون — المقدمة ص ١٦٠

المطبق ، ولا يقدم التاريخ إلينا عنها أية لمحة أو ضياء ، ومن المستحيل أن نعاملها بأكثر من فروض عارضة ، وستبقى أبد الدهر على التاريخ لغزاً مغلقاً .

بيد أنه من الغريب أن تلقى هذه الفروض المغرقة سبيلها إلى دوائر البحث الحديث . فنرى المستشرق فون ميلر مثلا يأخذ بنظرية اختفاء الحاكم ، ويعلق عليها بما يأتى :

« أما أن أخته قد دبرت قتله لخوفها من تنفيذ وعيده لها بالقتل ، فهو حديث خرافة . والواقع أن مصيره لم يعرف قط ، وعندى أنه طبقاً لكل ما نعرفه من حياته ، قد رأى استحالة تحقيق مبادئه فى مصر . فاعتزل الحياة واختفى فى مكان ما ليقضى حياته بعيداً عن الأنظار لكى يعتقد أنصاره على الأقل أنه هو « الناطق » حقيقة (ناطق الزمان) وأنه سيعود من رمسه آخر الزمان فى شخص الامام أو المهدى ؛ وهذا ما لا يزال ماثلا إلى اليوم فى عقائد الدوز » (١)

أما نحن فما زلنا نرجح فكرة المؤامرة والجريمة : وسواء أكانت المؤامرة من تدبير ست الملك ، أم من تدبير ابن دواس ، أم كانت من تدبير الدعاة أنفسهم ، وسواء أكان الذى ارتكب الجريمة هم عبيد ابن دواس ، أم البدو الذين اعترضوا الحاكم ليلة اختفائه : أم آخرون لم يعرفوا : وسواء أكانت البواعث السياسية أم البواعث الدينية هى التى أملت بتدبير المؤامرة وارتكاب الجريمة ، فأن ما لدينا من الروايات والقرائن على أن الحاكم قد زهق ضحية الجريمة ، يرجح فى نظرنا كل فرض آخر مما استعرضنا .

وليس من المستحيل أيضا ، أن يكون الحاكم قد اختفى من تلقاء نفسه أو بتحريض الدعاة لبواعث أو مشاريع خيالية أو جنونية قامت فى نفسه : بيد أن هذا الفرض يبدو فى نظرنا من الضعف والاغراق بحيث لا نجد له موضعاً من التاريخ .

* * *

هذا والظاهر أن فكرة اختفاء الحاكم بامر الله لبثت مدى حين تردد بين آونة وأخرى حتى أوائل عهد المستنصر بالله ، أعنى بعد وقوع الحادث بنحو ربع قرن ، وقد أشرنا فيما تقدم إلى قصة ذلك المشعوذ الذى تسمى « بأبى العرب » وزعم حينا أنه الحاكم ثم توارى بعد ذلك . بيد أن هنالك قصة أخرى من هذا النوع كادت أن تحدث فتنة حقيقية ؛ ففى رجب سنة ٤٣٤ هـ (١٠٤٣ م) فى أوائل عهد المستنصر ، ظهر بمدينة مصر شخص يدعى « سكين » كان يشبه الحاكم فى بعض ملامحه ، وادعى أنه الحاكم ، وأنه بعث بعد موته وعاد من غيبته ؛ والظاهر أنه كان من عصبة الدعاة السريين ، وأن الدعاة أرادوا بدفعه إلى هذه المغامرة أن يحاولوا إثارة الفتنة التى خمدت ، وأن يطبقوا نبوءاتهم وما بشروا به فى رسائلهم من رجعة الحاكم بصورة عملية ؛ فالتف حوله فل الملاحدة ، من شيعة الدعاة الذين يعتقدون أو يتظاهرون بالاعتقاد فى هذه الخرافة ؛ وفى ظهر يوم سار سكين وأصحابه إلى القاهرة وقصدوا إلى القصر الكبير ، ولما حاول الجند منعهم نادى الملاحدة بأنه الحاكم ، قد عاد من غيبته ، فارتاع الجند مدى لحظة ثم ارتابوا فى الدعى فقبضوا عليه ، وحملوا على صحبه ، واشتبك الفريقان فى معركة حامية ضجت لها أرجاء القصر ، وقتل من الملاحدة عدد كبير وأسر الباقون ، وصلب سكين وأصحابه وقتلوا بالنبال شر قتلة (١)

وكانت هذه آخر مغامرة من نوعها ، ولا نسمع بعد ذلك شيئاً عن أولئك الدعاة الملاحدة أو دعوتهم بمصر . ولا نجد بعد ذلك أثراً لأسطورة غيبة الحاكم أو رجعته إلا فى الشام حيث استقرت الدعوة فى بعض أنحائه ورسخت حتى يومنا .

(النقل ممنوع قطعاً — تم البحث) **محمد عبد الله عنان**

(1) Von Muller : Der Islam I. P. 633

(١) ابن الاثير ج ٩ ص ١٧٧ وأبو الفدا ج ٢ ص ١٦٦

النفس وخلودها عند ابن سينا

للدكتور ابراهيم بيومي مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

النفس سر الله فى خلقه وآيته فى عباده ، ولغز الانسانية الذى لم يحل بعد ، وقد لا يحل يوما ما . هى مصدر المعارف المختلفة والمعلومات المتباينة ، ولكننا لم تسم إلى أن نعرف حقيقتها معرفة صادقة يقينية ؛ وهى منبع الأفكار الواضحة الجلية ، إلا أن فكرتها عن ذاتها مشوبة بقدر كبير من الغموض والابهام . ومع هذا فالانسان منذ نشأته تواق إلى تعرفها جاد فى تفهمها ، ولا يزال حتى اليوم يبذل قصارى جهده فى إدراك كنهها والوقوف على أمرها . وبوده أن يعرف فى دقة ماهيتها ويدرك الصلة بينها وبين الجسم ويتبين مصيرها ومآلها . وكيف لا وهو طلعة يحب أن يعرف كل شىء ، وهو فى معرفة الأشياء المجهولة والامور المستترة أرغب . وإذا كان قد خطا خطوات فسيحة فى سبيل فهم الطبيعة وتوضيح آياتها فنفسه التى بين جنبيه أولى بالبحث والتوضيح ، هذا إلى أنه مدنى بطبعه لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن إخوانه وذويه ، ومعرفته لنفسه كثيراً ما تعينه على تفهم بنى جنسه ، وكم بذل الأخلاقيون والمربون من جهد فى تحديد الدعائم النفسية التى يقوم عليها اصلاحهم ووعظهم وتعليمهم وإرشادهم . والأديان والشرائع تخاطب النفوس قبل أن تخاطب الأبدان ، وتتجه إلى الأرواح أكثر من اتجاهها إلى الأجسام . والثواب والعقاب والمسئولية الأخلاقية والدينية بوجه عام تدعو إلى التفكير فى الروح وخلودها ومآلها بعد مفارقة البدن . ففى أحوال الانسان الفردية وظروفه الاجتماعية وأبحاثه العلمية وتعاليمه الدينية ما يدفعه إلى كشف ذلك السر الذى أودعه الله فيه والذى آمن به الناس جميعاً دون أن يروه .

لهذا كان موضوع النفس شغل الباحثين والمفكرين فى مختلف العصور ؛ وليس ثمت فيلسوف إلا أدلى فيه برأى وتعرض له بالبحث والتحليل ، وربما كان فى تاريخه ما يلخص تاريخ الفلسفة بأسرها . بيد أن ابن سينا ، فيما نعتقد ، قد عنى به عناية كبيرة لا نجدها لدى واحد من رجال التاريخ القديم والمتوسط . حقاً إن أفلاطون تحدث عن النفس فى محاورات عدة ووقف على خلودها محاورة مستقلة ؛ وكتاب أرسطو فى النفس ومؤلفاته المسماة « بالطبيعيات الصغرى » تصعد به إلى مرتبة أسمى عالم نفسى عرف فى التاريخ القديم . ولم يغفل أفلوطين أمر النفس فى تاسوعاته ، وشغل بوجه خاص بهبوطها من العالم العلوى واتصالها بالعالم السفلى ورغبتها الدائمة فى أن تعود إلى مقرها الأصلى . ولفلاسفة القرون الوسطى المسيحيين وخاصة أوغسطين وتوماس أبحاث مختلفة فى حقيقة النفس ووظائفها . إلا أن هؤلاء جميعاً لا يبدو عليهم الشغف بهذا الموضوع مثل ما شغف به ابن سينا ، فانه يعود اليه غير مرة ويقف عليه جملة رسائل مستقلة ، ويتحدث عنه فى كل كتبه الرئيسية التى وصلت إلينا . ففى كتاب القانون المعروف يبين قوى النفس المختلفة على طريقة الأطباء ويشير إلى الصلة بينها وبين الجسم [1] . وفى الشفاء يعقد فصلا مستفيضاً يفصل فيه آراءه النفسية [2] ، وفى النجاة يلخص هذا الفصل ويصوغه فى قالب مدرسى محكم ، وفى الاشارات ينظم فى نحو عشرين صفحة عقداً من مسائل علم النفس كله درر قيمة وآيات بينة . وله تعليق على كتاب النفس لأرسطو لا يزال مخطوطاً حتى اليوم [3] ولم يقنع بهذا ، بل كتب رسالة قيمة فى القوى النفسية أهداها للأمير نوح بن منصور الساماني ، ورسالة أخرى فى معرفة النفس الناطقة وأحوالها ، وشرح هبوطها إلى الجسم وحنينها إلى مصدرها الأول فى قصيدة مشهورة . [4]

كنا نتوقع وابن سينا هو الطبيب والفيلسوف أن يستخدم طبه فى دراسة الظواهر النفسية وأن يستعين بالملاحظة والتجربة على شرحها وتوضيحها فينمى معلوماتنا ويخطو بنا إلى الامام فى سبيل هذا البحث الدقيق . ولكنه ، فيما يظهر ، كان يعتقد

(١) ابن سينا ، (القانون) ، ﺣ ١ ص ٣٢ — ٣٦ (طبعه رومة)
(٢) (الشفاء) ، ﺣ ١ ، ٢٧٧ — ٣٦٨ .
(٣) (فهرست دار الكتب المصرية) ، فلسفة ، رقم ٢١٤ .
(٤) لا يفوتنا أن نشير إلى رسالة (فى القوى الانسانية وإدراكاتها) موجودة فى المجموعة المسماة : (تسع رسائل فى الحكمة والطبيعيات) ، وقد أثبتنا من قبل ، وبيدنا الدليل القاطع ، أن هذه الرسالة من عمل الفارابي

« Madkour, (La Place) 14. 128 »

أن الفصل فى مثل كل علم النفس ليس من عمل الطبيب ولا من دائرة اختصاصه، بدليل أنه يشير فى القانون إلى بعض نقط متصلة بالنفس وقواها اختلف فيها الأطباء والفلاسفة، ويصرح بأن الكلمة كلمة الأخيرين. وأن استيفاء هذه النقط إنما يتم فى كتبهم [١] والواقع أن التجارب المنظمة والابحاث العلمية الدقيقة المتصلة بالنفس أثر من آثار التاريخ الحديث وحده، بل القرنين الأخيرين فقط، وفى وسط طى حظر فيه التشريح وحرم من الأدوات الحديثة لم يكن فى الامكان دراسة المخ والجهاز العصبى دراسة تجريبية كاملة. ولا نكاد نحظى بباحث بين المسلمين نحا هذا المنحى التجريبى فيما وراء ابن الهيثم الذى أدلى بآراء فى الضوء والرؤية تقترب مما جاء به فيبير (Weber) حديثا [٢]. وأما ما يذهب إليه ابن سينا من تقسيم المخ إلى مناطق تقابل قوى النفس المختلفة ومن ملاحظات فسيولوجية شتى فهو ترديد لما قال به أطباء وفلاسفة اليونان. فقد كان أمامه تراث عظيم خلفه أفلاطون وأرسطو وجالينوس وأفلوطين أفاد منه كثيراً وعول عليه التعويل كله. وإليه يرجع الفضل فى عرض هذا التراث فى صورة واضحة مهذبة لم نعهدها عند سابقيه، وإذا كان قد فاته أن يتوسع فى دراسة المخ والظواهر النفسية دراسة تجريبية فانه لم يهنه أن يفتن فى البرهنة على وجود النفس وخلودها افتتاناً يستلفت النظر ويستحق التقدير. ولعل ذلك راجع إلى أن النزعة الميتافزيقية والفلسفية البحتة غلبت عليه فى كل أبحاثه النفسية.

وبالرغم من أن ابن سينا عالة على السابقين فى أغلب آرائه المتعلقة بالنفس وأحوالها فانه قدر لهذه الآراء نجاح عظيم فى القرون الوسطى ولدى بعض رجال التاريخ الحديث، فكانت عماد علم النفس جميعه فى العالم العربى منذ القرن العاشر الميلادى إلى أخريات القرن التاسع عشر؛ وخلفت آثاراً واضحة فى الفلسفة المدرسية اليهودية والمسيحية؛ واتصلت بنسب إلى بعض ما جاء به ديكارت فى حقيقة النفس ووجودها. وقد عرف لها الباحثون المحدثون هذه المنزلة فسارعوا إلى دراستها وجمع مصادرها وبيان أثرها فى المدارس الغربية. وربما يكون البادرون كارادى فو من أول من لخصوها وحاولوا إعطاء فكرة عنها. فقد عقد لعلم النفس السينوى (نسبة إلى ابن سينا) فصلا فى كتابه المسمى: Avicenne [١]. ثم جاء الدكتور صليبا أخيراً فتوسع فى هذا الموضوع قليلا فى رسالته التى تقدم بها إلى السربون للحصول على الدكتوراه [٢]. أما من اشتركوا فى نشر مؤلفات ابن سينا السيكلوجية فيجب أن نشير أولا إلى الدكتور صمويل لاندأور الذى نشر رسالة القوى النفسية المهداة إلى نوح بن منصور السامانى سنة ١٨٧٥؛ وقد وفق فى عمله هذا كل التوفيق وأحاطه بوسائل الدقة والبحث العلمى الصحيح [٣] فاعتمد على أصول عربية وعبرية ولاتينية ليختار النص المناسب والتعبير المقبول؛ ولم يفته أن يرجع إلى المصادر اليونانية رجاء أن يوضح بها بعض عبارات ابن سينا. وعلى ضوء مجهوده العظيم استطاع فنديك بعد ذلك بنحو ٣٠ سنة أن يعيد نشر هذه الرسالة مرة أخرى مع ترجمة انجليزية دقيقة [٤] وفى العام الماضى نشر ثابت أفندى الفندى أحد خريجى كلية الآداب ومبعوثها الآن فى باريس رسالة أخرى فى معرفة النفس الناطقة وأحوالها. ويظهر أن أثر أفكار ابن سينا السيكلوجية فى المدارس المسيحية قد شغل الباحثين ومؤرخى الفلسفة من قديم. ففى النصف الثانى من القرن الفائت نرى هانبرج يدرس نظرية المعرفة لدى ابن سينا والبير الجراند [٥]. وفى أوائل القرن العشرين كتب فنتر فى إحدى صحف مونيخ العلمية مقالا طويلا عن الجزء السادس من طبيعيات الشفاء المترجم إلى اللاتينية، وهذا الجزء هو الذى يدرس فيه ابن سينا النفس وقواها [٦] وفى سنة ١٩٢٩ وفى المسيو جلسن مؤرخ الفلسفة المدرسية المسيحية وأستاذها فى «كوليج دى فرانس» هذا الموضوع حقه من البحث، وبين أثر ابن سينا فى هذا المضمار بما لا يدع مجالا للشك [٧]

وفى اختصار يمكننا أن نقول إن علم النفس عند ابن سينا

(١) ابن سينا، (القانون)، جـ ١ ص ٢٥.

(٢) De Boer, (Encyce. of Ethıes), Soul.

(١) Carra de Vaux, (Avıcenne), P. 207-238.

(٢) Saliba,(Etude sur lo métaphysique d'Avicenne), Paris, 1926, P. 185 et suiv.

(3) S Landauer, (Die Psycholo, gie des lbu Sinâ), Z. D. M. G. 1896.

(2) (مبحث عن القوى النفسية)، نشر فنديك، القاهرة ١٣٢٥ هـ

(4) B. Haneberg, (Zur Erkenntnislehre von In Sinâ und Albertus), München, 1866.

(9) M. Winter, (Uber Avicennas opus egregium de Anima, Munchen, 1903.

(7) Er. Gilson, (Archives d'his). r- IV 1929, P. 38-74.

من روائع أدب الغرب

الخلود L'Immortalité

لشاعر الحب والجمال الفونس دى لامرتين

ترجمة السيد حسين نعكجي

أحبها فبادلته حبه ، فراحا يرشفان أكوس الغرام تحت ظلال الأشجار الباسقة .

فى أفياء الادواح المنتشرة غنى لها لحن غرامه . فسمعه الطير على غصنه ، وأنصت له الصفور على فنته . اختلسا النعيم ساعات معدودة ، حتى رمى الدهر سهم التفرقة ، فسافرت بعيدة عنه إلى باريس . انتظر كتابا منها يطمئنه على صحتها يرجع الأمل إلى صدره ، وإلى فؤاده أشعة الحياة . ولكن ساعى البريد اتاه بكتاب نعيها .

مسكينة ؟ ! أماتت « جولى » . أو يموت من عاش لأجل الحب ؟ لم يصدق عينيه . سار يخبط خبط عشواء ، يردد ألفاظها ، يقف الساعات الطوال مكانه يرجع أنشودة غرامها .

إنها أمل رحل . وحب مقيم .

نظم قصيدته « الخلود » L'Immortalité فكانت قطعة من قلبه الملتهب ، ونشيدا لفؤاده المضطرب .

قضت « الفير » « كما يدعوها » نحبها . فدبت إلى جسم « لامرتين » يد المرض .

كان فى ريعان الشباب . ظن نفسه أنه على طريق الآخرة يسير . فلذا جاءت قصيدته « الخلود » جامعة لشتى معاني الفلسفة ، والحب والجمال ، والخلود ، والحياة والموت .(١)

إلى جولى

شمس حياتنا اصفرت وهى فى فجرها . ترسل على جباهنا الذابلة ووجوهنا المنهوكة المتعبة أشعتها المضطربة ، وأضواءها الحائرة ، التى تغالب طلائع الظلام وتناصب هواجه . الظل يمتد ، النهار يموت ؛ كل شىء يزول ، وكل شىء يفر ويحول .

كم يهلع المرء لهذا المنظر الرهيب ويرتجف ! لشد ما يتراجع وهو راعن الأوصال مضطرب الفؤاد عن شاطىء الهاوية الماثلة أمامه ! بل لكم يخفق قلبه الضعيف ، إذ ينصت من بعيد لتلك الأنشودة المظلمة !

تلك أنشودة الموت ، مازالت تتردد فى أعماق صدره ، وتنتشر فى أنحاء نفسه . وتلك الزفرات المتصاعدة والتنهدات المرسلة ، والانات المخنوقة ، والأنفاس المتحشرجة ، لهى آهات الحبيب ، وزفرات الخليل ، وانتحابات الولهى ، تضطرب وتتراجع ، تتقدم وتتأخر ، حول سرير الموت .

الناقوس الصغير ما زال يرسل الهمسات ، ويعلو بالخفقات . أصواته التى تطويها معالم الفضاء تنبىء الأحياء أن شقياً بائساً رحل ، ومكدوداً تاعساً إلى هوة القبر نزل

أحييك أيها الموت . أيها المنقذ السماوى ، سوف لا تظهر أمام ناظرى بهيئتك المرعبة ، وبزتك الموحشة ، وطلعتك المشؤومة . إن يمينك سوف لاتشارفنى برهف ماضيك ، إنى لا أرى تجهم وجهك ، ولا أقرأ فى عينيك معالم الجريمة والخيانة ، فأنت الذى تنقذنا من آلامنا ، تخفف من أحزاننا ، تأخذ بيمناننا لتقودنا إلى حيث الرب الرحيم ، تستعدى رحمته على نكباتنا ، وتستنزل رأفته على ويلاتنا .

إنك لاتميت بل تنقذ ؛ إنك لا تهلك بل ترحم ؛ إن يدك يارسول السماء تحمل إلى نبراسا إلهيا ، يوم تغمض عيناى الكليلتان أجفانهما . تأتى تحت الأضواء المنعشة لتبلل ناظرى ، وتغمض عينى ، والأمل إلى قربك يطفر ، يظلله الايمان ، تشده التقوى ، فتفتح أمامى عالما رائعا

إلى أيها الموت . أقبل واكسر عنى أغلال الجسد . بدد عن نفسى قيود الأوصال . افتح باب سجنى واكسر مغالق حبسى وأعرنى أجنحتك الرفرافة ، وقوائمك الهفهافة . ماذا يمنعك عنى ؟ . لماذا تتأخر ؟ ماذا يعيقك عن زيارتى الأخيرة ؟ تقدم إلى . فانى أريد أن أرمى بنفسى نحو ذلك الكائن المجهول ، حيث أعرف سر حياتى ومماتى

(١) اقرأ تفصيل ذلك فى كتابه (رفائيل)

كان أعظم حظاً من أجزاء فلسفته الأخرى وكان نصيبه من الدراسة والبحث أكبر منها جميعاً ، بيد أن هذه الدراسات على اختلافها ناقصة وغير مقنعة . فبعضها لا يخرج عن ترجمة حرفية أو ملخص غير كامل لآراء ابن سينا . وبعضها يعنى بهذا الفيلسوف لدى اللاتينيين أكثر من عنايته به لدى العرب ، ويفصل القول فى أثره فى الغرب تاركا جانباً ما كان من أمره فى الشرق ، وأغلبها ينسى الأساس اليونانى الذى بنى عليه فلسفته عامة وأبحاثه النفسية خاصة . وسنتتبع هنا آراءه النفسية المختلفة مبينين أولا صلتها بالوسط الذى نشأ فيه وبالأفكار الاسلامية على العموم وباحثين ثانيا عن منابعها لدى فلاسفة اليونان وأطبائهم ، ومظهرين أخيراً ما كان لها من أثر فى الشرق والغرب .

ابراهيم مدكور

أي شيء فصل عني؟ من أنا؟ ومن سأكون؟.

أموت ولا أعرف ماهية الحياة وسر الوجود ، وأذهب وأنا أجهل ما البقاء! ما أنت أيتها الروح المبهمة ، أيها الطيف المجهول؛ أيها السر الغامض. قبل أن أردى في لحدى أريد أن أسألك : أية سماء بحقك تسكنين؟ وفي أي عالم تعيشين ؟ وأي قدرة إلهية رمتك إلى هذه الكرة المحطمة ، حيث عالمنا الضعيف الهشيم. وأي يد إلهية قذفت بك إلى سجنك الفخار ، واعتقلتك في محبس الطين؟ وأي سر عجيب ربطك بالجسد وربط الجسد بك وأي يوم تنسلخ الروح فيه عن المادة؟ وتصبح عالما بنفسها ، تقوم بأودها دون أن تعتمد على الجسد البالي والجسم الفاني ؟

إلى أين تذهبين ؟ أتتركين الأرض الجميلة لترحلي إلى قصر منيف؟ هل نسيت كل شيء؟ أم لا زلت تذكرين ؟ إن هناك القبر ، فهل ستبعثين إلى عالم مجهول جديد؟ أتعودين إلى حياة أشبه وعالم أحكى وأمثل إلى حجر الله ، حيث رأيت أشعة الحياة ولمست معالم الوجود . أم إنك ستفصلين من كل شيء تدب إليه يد الفناء؟ وتسير في عروقه دماء البلاء

أستنعمين بمناعم الخلود الأبدية وتلعبين في الجنان غير البالية؟

نعم ، هذا أملي الوحيد يا نصف حياتي . تلك هي الأمنية التي بها رأت الروح التي تضيء جوانب صدري طرق الحياة . وكانت عزاء نفسي المتألمة التي قضى عليها بالسجن في هذا الجسد البالي . شهدت ربيع حياتك يرحل وألوانه البهيجة تموت وتذبل ، وزهوره المتلألئة تسير نحو هوة الفناء . والحزن ما زال يفتك بي ، والموت يدير مني الخطوات وأنا أجود بالنفس الأخير ، ترتسم على شفتي الابتسامة ، وتنهمل من عيني دموع الفرح ، مقدماً إليك كلمات الوداع الأخير ، منتظراً نظراتك لتشع في عيني قبل أن يغمضهما الموت

أولئك الذين تعلقوا بأذيال المادة ، وكانوا أشبه بالقطيع ، يسيرون وراء راعيهم « أبيقور » Epicure سيهتفون « ياله من أمل كاذب خلب قد مضى ورحل ، عند ما يرون معالم الدنيا قد قضت وانتهت

وذلك العالم الذي ما زال يفحص أسرار الطبيعة يود كتشافها ، يدرسها في زاوية مهملة تسمى العقل . سيقطع الدهر في فهم كنه المادة ، يعيش في عالم الملموسات ، يغفل عن الروح ولكنهم سيهتفون به :

أيها الأحمق ، أي كبر سخيف يكسوك؟ انظر حولك! تأمل بناظريك ! كل يبتدىء لينتهي ، وكل يدب نحو الفناء دبيبه . إن سيرك نحو هدف مثل ، وإلى غاية نهائية هي « هوة الموت »

انظر إلى الحقل وقد علت أوراقه صفرة الذبول! ألا ترى الزهرة تتعب وتضمحل ثم تلفظ الأنفاس؟ ألا تشهد في هذه الأحراج الملتفة تلك السدرة العظيمة بجبينها الشامخ ونظراتها إلى العلياء كيف هوت تحت ثقل السنين ورزحت تحت أعباء الدهر ، ثم امتدت على العشب النضير المنتشر على بطحاء الأرض؟

ألا تنظر الأنهار تنضب في مجاريها ، والبحار تجف في قيعانها ، وهذا الكوكب المتلألئ في السماء أخرت يد الزمن ولادته ، وهذه الشمس ، وما أشبهها بنا! إنها تسير الى الفناء والعدم ، وفي السماء حيث الأموات ينتظرون يوماً به ينعمون .

تأمل حواليك الطبيعة . مرت الأجيال فتكاثفت أتربتها . وتحولت الأعوام إلى ذرات غبار تناثرت في فضائها

إن الزمن بخطوة واحدة يذل من كبريائك ، يخمد عزة نفسك ، ويطفىء جذوة اشتعالك ، يقبر في جوفه العميق الحوادث ، ويرمس في لحده المخيف الأيام .

ولكن الانسان ، الانسان وحده ، المجنون الأكبر في هذا الكون! إنه ليظن أن القبور لتسعد بسكانها ، ويأمل أن يعيش الحياة ثانية فيها ، فيظفر طياتها بالحياة أثر الحياة ، ويحلم بالأبدية والخلود . وهو كريشة في مهب زوبعة العدم الهائجة

ليجبكم غيري ، يا عقلاء الأرض ، يا مدعي الفلسفة .. اتركوا لي خطأي . فأنا أهوى فلذا آمل ، فاذا كان الخلود خطيئة لا توجد مرسومة إلا في بعض العقول دون أخرى ، فكم هذه الخطيئة عزيزة لدي!

اتركوني أيها العقلاء أنعم بجانب ضلتي ، إني أحب أن أتمنى وأن أعلل الأشياء ، إن عقلنا الضعيف المضطرب يتحير بلى إن عقلنا ليمسك عن الكلام أمام حججكم ، ولكن الادراك يجيبكم

أما أنا ، عند ما أرى الكواكب تسبح في السموات العلى ، والنجوم تنحرف عن طرقها المدبرة وسبلها المقررة ، وأشهد النجم في حقول الأثير اللانهائية يناطح النجم ، والكوكب

بركض أثر الكوكب ، فأنصت لصراخ الأرض ، واستسكن لسماع صرخاتها المتوالية تنهد ، وقد شق جوفها ، ومادت كرتها هائجة تضطرب ، بعيدة عن السموات وشموسها . تبكى الانسان المحطم ، ابنها العاتى ، المسرع فى طريق الموت الذى هام فى حقول الأبدية المظلمة ، عندها أكون الشاهد الأخير ، والحاضر الفرد ، وقد احتاطتنى المدلهمات ، وأمسك بيدى الموت إلى جوف الظلمات . وبالرغم من ضعفى سأنهض واثباً ، لا خوف يدب إلى قلبى ، ولا ذعر يمسك على فؤادى ، أفكر فيك ، أرقب بفارغ الصبر عودة الفجر الأبدى ليضىء العالم المحطم ، حيث أرقب لقاءك وأرجو زورتك

كنت تذكرين دائماً رحلتنا الهنيئة وسفرتنا الرغدة ، يوم نشأ غرامنا الخالد وبدأ حبنا المقيم ، فكنا ننعم على ذوائب الصخور القديمة التى شهدت مجد الأولين حيناً ، وحينا على ضفاف البحيرة الساكنة ، نرقب أمواجها الهادئة ، ونستمع الى أصوات مياهها العذبة . فتحمل نفوسنا على جناح النعيم حيث نسلو العالم الصاخب .

كنت أخوض معك الظلماء التى أنتجها التفاف الأشجار . وأسير جنبك تحت الظلال الوارفة والأفياء المنتشرة ، نهبط الربى لنصعد الجبال . لحظة سعيدة مرت أصغينا خلالها لموسيقى النجوم الغامضة ، وأصخنا بسمعنا إلى غناء الكواكب الجليل ، لاصخب يتخلله ولا ضوضاء تمسك ألحانه

كم دهشنا لهذه الصورة الجميلة التى تغطى العالم ، عدنا أدراجنا إلى المعبد ، خشعنا أمام الضوء الخافت الذى يرسل أشعة متضائلة تبعث إلى القلب الرهبة ، وإلى الأجسام الرعشة . سكرى من جمال الوجود ، كنت ترددين النظر بين الأرض والسماء ثم تهتفين :

« إله الغيب ، هذه الطبيعة مأواك ، عند ما نتأمل بنظرا تاصنع يديك ، فالروح تراك متمثلا فى كل صورة من إبداعك ، فهذه الدنيا صورة كما لك : النهار نظرتك ، والجمال ابتسامتك . فى كل مكان القلب يعبدك ، والنفس ترجو أن تدب فيها الأمل وتنفخ طياتها روح العمل

« أيها الخالد اللانهائى القدير الجليل ! إن قلبى ليعجز عن وصف اسمك وكتابة حسناتك ، والروح التى حييتها بنفختك تمجد عظمتك حتى تخمد فيها الحركة ، وتسكن بين جنباتها الخفقات

« أيها الإله القدير ! إن الروح لتخضع لحكمتك العليا وأنشودتك المثلى . تريد أن تطفر نحو علاك ، وتثب إلى سمائك . إنها لتشعر أن الحب هو ختام حياتها ، فهى تحترق لمعرفتك وتلتهب لمرآك

كذلك كنت تقولين وبهذه النفثات كنت تناجين . وقلبانا بمجمعان التنهدات ، بمزجان الآنات ، يصعدان الزفرات ، يرسلانها صوب هذا الكائن العظيم الذى يدل عليه هوانا ، ويشهد لعظمته غرامنا ، نخشع بصلاتنا أمامه ، نحمل طيات قلوبنا محبته واحترامه ، يرسل إليه الفجر تخشعاتنا وتضرعاتنا ، ويرفع نحوه المساء تذللاتنا وابتهالاتنا ، وعيوننا السكرى بجمال ما صنعت يداه ، تتأمل بين الفينة والفينة الأرض حيث نفينا ، والسماء مسكنه .

أواه ! فى هذه اللحظة والروح على وشك الفرار تريد البعاد ، تود تحطيم السجن . هو ذا الإله يطل علينا من عليا سمائه ، يستجيب دعانا ، ينظر إلى شكوانا نظرة عطف تنقذ كلينا .

إن روحينا تريدان أن ترجعا إلى حيث وجدتا النور . واستشفتا الضياء . تريدان أن تقطعا معاً خضم هذا العالم إلى النهاية المحتمة ، يداً بيد ، ووجهاً إزاء وجه . حتى تصلا على جناح الحب إلى النهاية . فهى تصعد كضوء النهار إلى أن تنتهى إلى حيث الاله الخالد ، وترتمى تحت أقدامه متعانقة باكية .

هذه الأفكار : أتراها تغشنا وتخدعنا ؟

أواه ! أللعدم خلقت أرواحنا ؟ أللفناء كانت حياتنا ؟ أتشترك الروح فى مصير الجسد إلى العدم ، ويلتهمها جوف القبر الغامض كما تلتهم الضوارى اللحم ، ويضيع بين ترابها العظم ؟ أتعود إلى التراب الذى منه نشأت ، أم تطير فى الأجواء ولا تستحيل إلى هباء ؟ أم تراها تتبدد فى الفضاء ، كما تتبدد صرخات صوت قذفته عروس حسناء ؟

بعد حسرة ضائعة ، وزفرة راجعة ، وتوديعة باكية ، أترى يفنى المحب ، ويطوى الدهر فى صفحات كتابه غرامنا ؟ أواه ؟ ! إن هذا السر العظيم لا يعرف كنهه إلا أنت . ألا انظرى موت من أحبك والغير ، أجيبى . ردى على !

حسين غملكي

وطنى فى عرس الحرية

للاستاذ عبد المنعم خلاف

عرش الشمس ، عليه صباح مشرق ، كله أضواء وأنداء وأغاريد وطوالع سعد ، واستهلال مجد

يَرِفُّ فوقه علم هو رمز النمو والخصب والعلا وإقبال الأيام ، رفيفَ القلوب حوله والأجفان فيه

وعلى العرش ملك يومئ الزمن باسمه إلى تاريخ وقف ، وتاريخ أقبل . . . . وبشبابه إلى ربيع مخضر يلف بنت النيل بطيلسانه وريحانه فتنبت الورد والشوك ، والغصن والرمح ، للجمال والقوة . فهو ملك وكلمة من كلمات الغيب ألهمنا « فؤاد » فوضعها فيما وضع من أعلام المجد

وأمة صهرت الفتن جوهرها نصف قرن ، فخرج صافياً غير مدخول ولا زائف ، قد « تكتل » وتجمعت ذراته ، وتضاءلت خلاياه ، ونشطت عضلاته ، ونهض فى مركزه بين مشرق الشمس ومغربها صلب العاتق كالأهرام ، رشيقاً كالنيل ، رهيباً كالصحراء ، ينتظر أن يحمله الزمن رسالته الحديثة

وشعب يبدو كخلية النحل ، يعمل فى رأى مجتمع ، ونشوة بعذوبة الوحدة بعد مرارة الفرقة ، وحيرة الادلاج والسرى خمسين سنة فى مجهل السياسة ، وقد ترك على الطريق جثثاً صرعى ونفوساً هلكى ، فلما عسعس الليل وملَّ الحادى وحار الدليل ، أسعفه القدر بانفلاق الاصباح وإقبال النور والهدى إلى الغاية

وتاريخ يمسك قلمه القديم الذى كتب به أولى صحائف الحضارة والعلم ليكتب صحيفة جديدة نرجو ألا ينقضى مداها ولا يأفل سناها

وأرواح حائمة من الأبوة الأمجاد تصلى فى ملكوت السموات أن يحيى رحمن العالم أرض التربة ووصلة الشرق بالغرب .

وشيوخ محنكون يضعون الأساس ويخلقون الجو الجديد للروح والجسم ، بالقلم والسيف ، للمجد والحق .

وشباب ملتهب الفؤاد مسعر الروح ، يريد أن يقيم البناء بنجوم السماء . . لا يدرى ماذا يقدم من مطالب الوطنية ورغائب الحياة الجديدة ، فما يولد يوم إلا ومعه إلهام منه يتنزل على العقول بمعنى من معانى توكيد الاستقلال والتأهيل لاستكماله ، لأنه يشعر بالعظيمة التى ألقيت على كاهله فى عصر الانتقال وتغير مجرى التاريخ ، وإليه مآل الحوادث وقرار النتائج

ذلكم هو وطنى من بُعد . . أبى وأبوكم الرحيم أيها المصريون ! تشيع منه فى عينى صورة حاضرة على غيابه ، مجلوة على احتجابه ، طائفة فى المُصبِح والمُمسى ، والخلوة والجلوة

وقد شاء الله أن تعود الحرية النائية إلى ربوعه وأنا عنه بعيد ، فلم أشهد مواكبها وعُرسها على الجباه والشفاه ، ونشوتها فى الأرواح والأشباح ، وأملأ فراغى من فرح الحياة بها كما ملأته من الأسى عليها وهى حمراء دامية . . وأضحك للبلسم كما بكيت للدم !

ولى ولع برؤية الجماهير ورصدها ، وللجماعة فى أعصابى سحر . . . عجيب يجدد إيمانى بقوة الذرة إلى الذرة . إلى الصحراء ، وبالقطرة إلى القطرة . . . إلى الدأماء ، وبالانسان إلى الانسان . . إلى الدولة . فكانت مناى أن أرى الشباب الذى طالما خر إلى الأرض شهيداً يخر للأذقان ساجداً تحت رجفة من هتاف الزعيم « اسجدوا . . اسجدوا لله شكرا »

ooo

طلع الفجر يا بنى أبى ! وانفجر الضوء . فاغسلوا قلوبكم بنوره ، ونقوا ضمائركم بطهوره ، وأشيعوا معانيه فى صدوركم ، وسلطوه على أوكار الظلام والضعف والجهل ، واقتلوا به الحشرات المخربة الدنيئة . . . ثم أجمعوا أمركم لسفر طويل فى طريق وعر مملوء بالأشراك والتعاسيف والمتاهات والزحام والسعالى والغيلان . . وجثث الأمم الوانية الخطى ، الخرقاء التدبير ، المتخاذلة القوى ، المفرقة الهوى . . . طريق المجد ! !

وقبل السير قفوا وتلفتوا إلى الخلف ، وسرحوا الأبصار فى معالمه ، وتذكروا أغلاط الماضى واستوحوا هداه وعبره ، فان ذلك أحرى أن يطرد معه السير على الجادة دون انحراف إلى بنيات الطريق

بغداد عبد المنعم خلاف

حول رأيين فى

الوحدة الاسلامية

للأستاذ حسين مروة

لنكاد نلمس اليوم فى مظاهر الحركة الاصلاحية القائمة فى ديار الاسلام وأمة القرآن الكريم — اتجاها جديدا يغتبط به كل مسلم يستشعر فى نفسه الايمان الحق ، ومظهرا مباركا يرتاح إليه كل موحد يحمل فى صدره عاطفة الخير الصريح ، وإننا - إلى اغتباطنا بهذا الاتجاه - لنزداد طمأنينة إليه إذ نتلمس بين عوامله وأسبابه عامل النضج الفكرى وفهم الحقائق المستوحاة من ملابسات الحياة وروحية الدين الاسلامى الحنيف . وإننا لنذهب فى طمأنينتنا واغتباطنا هذين مذهباً أبعد مدى ، إذ نشهد بين العاملين على هذا الاتجاه طائفة رجال الدين التى يرى كثير من المشتغلين فى هذا الحقل أنها السبب الأول فى إخفاق الحركات الاصلاحية التى نشأت فى الأعوام المتأخرة لتوحيد كلمة الأمة الاسلامية وجمع رأيها الشتيت ورتق ما فتق التاريخ من مجدها السنى وعزها الرفيع .

وفى الحق أن طائفة رجال الدين هذه كانت فى عصور التاريخ الاسلامى الأولى هى العنصر الصحيح الذى عمل للاسلام أكثر مما عملته العناصر الأخرى ، إذ بينما كانت هذه العناصر تحمل المعاول لهدم صروح الوحدة الاسلامية الشامخة — كان علماء الدين يجلسون إلى القرآن والحديث الشريفين يستوحونهما حقائق الدين : ويستهدون بنورهما المبين إلى حل المشكلات وتوضيح الغامضات ، يجتمعون على ذلك فيما بينهم وإن باعدت المذاهب بين صفوفهم ، ويتواصلون تواصل الأرحام وإن حاولت أهواء السياسة أن تنثر جماعاتهم نثراً وأن تستغل بساطتهم البريئة استغلالا ، وأن تستثير حفائظهم الدينية لتأييد أغراضها ، فتراهم — على هذا كله ينصرفون عما حولهم من شؤون إلى دراسة ، أو تدريس ، أو تأليف ، أو مناظرة علمية مهذبة الحواشى طاهرة المقاصد موطأة الأكناف بالسماحة الرحبة والتساهل العذب وأدب البحث النزيه . وإذا كنت ترى فى مخلفات هذه الطائفة فى عصورها تلك من المؤلفات والدراسات ما لا يدل على شىء من هذا الذى نقول — فانما هو النادر الذى لا يصح القياس به ، أو هو مما ألحت عليه السياسة بأسبابها ونوازعها الأثيمة . وهكذا كانت السياسة تلحف بالتقض من أطراف الوحدة ، وتلح فى تبديد الشمل ، وتجهد فى تشنيع الخلق العلمى السمح ، واستئصال هذه البقية الكريمة من تراث العصر الأول للإسلام — حتى انثال رجال الدين إلى السياسة ، وانثال العلماء على الدنيا ، وكان ما كان من هذه الطرائق المبعثرة ، وهذه الأهواء المتدافعة ، وهذه الدنيا الاسلامية المليئة بالأحداث الجسام والنوازل المروعة الفادحة .

وعفا الله عن رجال الدين هؤلاء ومن خلف من بعدهم إلى يوم المسلمين هذا ، فلقد سايروا أهل المطامع ، وكانوا معهم إلبا على الدين من حيث لا يشعرون ، وكانوا لهم عونا على الاثم من حيث هم غافلون، ونحن لا نشك فى أن أصحاب الرأى القائل بأن علماء الدين قد عرقلوا سير الاصلاح فى الاسلام — على شىء من الحق ، وإن لم يكونوا على الحق جميعه فيما نرى ؛ لأن تخلف هؤلاء عن قافلة رجال الاصلاح الذين قطعوا شوطاً فى هذا المضمار — ليس هو السبب — كما يرون — فى إخفاق الحركات الاصلاحية التى قامت فى هذه الأمة إلى اليوم ، لأننا لا نعتقد أن سلطة رجال « الاكليروس » الاسلامى تتناول هذا المدى من التأثير فى سير الأمور العامة فى دنيا المسلمين ، ولعلنا لا نزيغ عن الحق إذا قلنا لأصحاب هذا الرأى إن السبب الأول فى فشل المصلحين يرجع إلى عاملين اثنين : أحدهما - كاتبوا التاريخ الاسلامى أنفسهم الذين أمعنوا كثيراً - علم الله - فى تملق السياسة ومجاراة أهواء النفوس من أى حزب كان هؤلاء ومن أى شيعة ولون ، جعلوا تاريخنا مثارا للحزازات وموقظا للنعرات كلما شاء الزمان أى يبدلنا بشرنا خيراً ، وبفرقتنا اجتماعا ، وشر البلية فى هؤلاء أننا مرغمون على قراءتهم فما الحيلة إذن ؟ . ترى هل يعمد القائمون على فكرة الاصلاح إلى ما كتب المؤرخون عن عصور القلق الاسلامى فيقطعون ألسنتهم فيما يتحدثون به إلينا من فضول الاحاديث ؟ .

وأما العامل الثانى فليس فى قراء « الرسالة » الكريمة - كما نعتقد - من يجهله ، أو ليس هو « الغرب » الغازى . . . المظفر . . . ، ويعلم القراء ما وراء هذا من شجون الحديث وشؤونه الرائعات .

هذان ما نعتقد أنهما السبب الأول فى تمزيق شمل المسلمين . وإذا كان لرجال الدين من أثر بعد هذا ، فذلك هو استسلامهم إلى هذين العاملين استسلاماً ساذجاً أخرق ، ولا نقول عنه إلا ذلك . . .

ونعود الآن لنقول ثانية : إن هذا الاتجاه الحادث فى دقة الحركة الاصلاحية ، يزيد فى اطمئناننا إليه أن بين عوامله وأسبابه فهم أولى الشأن من طوائف المسلمين حقائق الحياة المحدقة بهم وأسرار الروحية الاسلامية السمحاء ، وأن فى صف العاملين عليه طائفة رجال الدين ، ورجال الدين هؤلاء المساهمون فى هذا الاتجاه ليسوا من الازهر الشريف وحده ، وليسوا من النجف المقدس وحده ، ولكن المعهدين الشقيقين كليهما يمدان الفكرة الجليلة المنشودة : « الوحدة الاسلامية » بروح منهما وبسبب من عندهما بليغى الأثر ، كريمى العنصر ، طيبى المنبت ، وها هى دار « الكنانة » العزيزة ، زعيمة هذه الفكرة المثلى وحاملة المشعل المقدس اليوم قد شهدت منذ أيام عالما جليلا من علماء النجف يحاضر فى دار جمعية الشبان المسلمين فى موضوع « الوحدة الاسلامية » بروح من التسامح جليل البادرة ، ويجتمع إلى عظماء البلد الاسلامى الكريم يحادثهما حول هذا الشأن فيلقى فى رجال العرش المؤثل الرفيع كل العطف ، ويشهد فى أوساط الأزهر العظيم

أبلغ المثل على نضج الفكرة ، وبأنس من علية البلد وزعمائه الأبرار ومن حملة العلم والقلم ورجال الفكر فيه - ألمع الدلائل على قرب اليوم السعيد ، إذ يصبح المسلمون إخوانا كأنهم البنيان المرصوص تظلهم جميعاً راية التوحيد العليا .

ولكننا - ونحن نعرض لهذا كله - نرى من واجبنا أن نقول كلمة فى مرحلة ثانية للموضوع ، وهى التى أردناها أول ما أردنا أن نكتب فى هذا الباب ، ذلك أن للموضوع مرحلتين : أولاهما - حاجة الأمة الاسلامية إلى الوحدة الشاملة الكبرى ، وهذه قد فرغ الباحثون من التدليل عليها ، ووضعها فى ميزانها الصحيح ، وفرغ كذلك المصلحون من عقد الضمائر على الايمان بها وجعلها مثلا أسمى تستهدفه النفوس ، وتستهون فى سبيله الجهود . والمرحلة الثانية هى : قضية العوامل والأسباب الأقرب أثراً وأعظم فعلا فى تحقيق هذه الأمنية الغالية والمثل الرفيع .

هذه المرحلة الثانية قال الكاتبون والمصلحون فيها ما شاءوا ، ولقد طلع على العالم الاسلامى منذ أعوام بعيدة أو قريبة ، رأى بهذا الشأن عرفه السوريون أكثر من غيرهم ، إذ نشأ - أول ما نشا - فى ديارهم ، ويقول أصحاب هذا الرأى إن الخلافات المذهبية - ولا سيما بين طائفتى السنة والشيعة - هى مصدر الفرقة ، وهى مصدر البلاء والشقاء ، وإذن فلنعمد إلى قلع هـذا الوباء من أصله ، ونجذه من جذوره ، بان نجمع المسلمين كافة على مذهب واحد يستخلص من مجموعة هذه المذاهب على ضوء القرآن والحديث ، ولكن هذا الرأى لم يكد يظهر حتى اختفى دون أن يثير وراءه جدلا ولا بحثا ، ودون أن يترك بعده صوتا لنادب عليه أو شامت به ؛ وهاهو ذا اليوم يظهر ثانية على لسان سماحة العلامة الزنجانى - ومن النجف كذلك - ، فاذا هو يلق هذه المرة فى مصر وفى ديار الشام غير ما لقى أول مرة ، وإذا هو موضوع بحث وعناية من العلماء ورجال الفكر وأولى الشأن الجليل فى القطرين الشقيقين . وبينا نفكر فى إدلاء دلونا بين الآراء فى الموضوع وإذا « الرسالة » الرفيعة تطلع علينا فنستقبلها بالبهجة الروحية التى نستقبلها بها فى كل مرة ، ونقف - أثناء سبرها - على مقال جليل للاستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدى فى الموضوع نفسه وبعنوان : « الوحدة الاسلامية » وللاستاذ حرمة فى النفس حملتنا على أن نجمع الفكر إلى مقاله ، فاذا هو يقول فيه ما كنا نحاول أن نقول فى الموضوع قبل ذلك ، وها نتقدم إلى « الرسالة » الغراء بهذه الكلمة العاجلة تأييداً لرأى الأستاذ الصعيدى الذى تفرد به بين من عرضوا لهذا « المشروع » بشىء من القول :

فى الحق - ياسيدى الأستاذ - أن محاولة توحيد المسلمين عن هذا الطريق الذى يقولون ، لهى - شهد الله - عامل جديد على توسيع شقة الخلف بينهم ، وتهديد هذا الكيان الحاضر - على هزاله - بالاضطراب فالاضمحلال .

ليس هذا أوان التلبيس والابهام ونحن نبحث أمراً حيويا له خطره . وله عواقبه الجليلة وتائجه المرموقة ، فلنقل - إذن - بصراحة : إن خلاف الطائفتين فى أصول العقائد حقيقى ، وليس هو - كما قالوا - ظاهرى قشرى يستطاع « تصفيته » فى اجتماع أو مؤتمر أو ما يشبه هـذا . ولنقل كذلك - بمثل هذه الصراحة - : ان من العسير ، بل من المتعذر ، أن نحمل أية من هذه الطوائف على التزحزح عن مبدأ واحد من مبادئها أو أصل واحد من أصولها - قيد شعرة ، بعد أن أصبحت هذه المبادىء والأصول عقيدة فى العقائد . ولا نظن السادة أصحاب هذا الرأى يجهلون أن العقيدة جزء من كيان المرء لا ينفك عنه ما دام كيناً ينسب إليه ويتميز به ، ونظننا فى غنى عن التبسط بهذه الناحية ، وفى مباحث العلوم النفسية والاجتماعية وفى منطق الواقع نفسه ما يغنى عن التبسط والتدليل

ولنفرض - جدلا - أن اجتمع نخبة من علماء كل طائفة ، وتجرد هؤلاء عن اعتبارات المذهب ، وموحيات العقيدة ، وبحثوا الأمر بحثاً علمياً صريحاً مستهدين بروح الاسلام الأعلى ومبدأ القرآن الأول ، ثم أقروا جملة من المبادىء والأصول قد تكون مزيجاً من مذاهب شتى وقد تميل إلى مذهب دون مذهب - لنفرض هذا كله ، ولنجعله بمكان من الاعتبار الصحيح ، ولكن من يضمن لنا هذه الدهماء أن تتنازل عن عقائدها لقاء ما يقول لها العلماء ، هكذا قضى البحث وقواعد العلم ، وهكذا تشاء مصلحة الاسلام . أو أن تتقبل هذا المذهب « الجديد » بطمأنينة ورضا واقتناع ، ومن يضمن لنا كذلك هذا التاريخ الأرعن أن يوقظ النعرات من جديد فنستهدف مشكلة جديدة ونضيف إلى هذه المجموعة « الضخمة » من المذاهب مذهباً جديداً ، أو قل : عاملا جديداً على صدع الصف وخلق الفوضى التى نحاول أن نبيدها من الوجود ؟ .

لا . لقد جاء الأستاذ الصعيدى - حفظه الله - بالحق إذ نحا غير هذا المنحى فى سبيل الاصلاح وجمع الشمل . ولقد نحونا مثل هذا كذلك فى مقالات نشرتها جريدة « الهاتف » النجفية ناشدنا فيها هيئة العلماء العليا فى النجف أن يعتبروا هـذه الخلافات فى أصول العقائد بين المذاهب الاسلامية ، كما يعتبرون هذه الخلافات فى الفروع بين مجتهدى المذهب الواحد ، وأن تمد مدرسة النجف يدها إلى شقيقتها الكبرى مدرسة الأزهر ، وأن يتبادل المعهدان الكريمان البعوث العلمية ويوحدا مناهج التعلم فيها وأن يشتركا فى الرأى كلما حدث فى الاسلام حدث من إصلاح أو تثقيف ، أو تأليف ، أو تأسيس الخ .

هـذه هى الخطة المثلى التى نرجو أن يعتبرها المصلحون من علماء الطائفتين قاعدة لأعمالهم فى سبيل الوحدة الاسلامية المنشودة . وإننا لنرجو أن يكون لنا فى هـذا الاتجاه الاصلاحى الجديد - سبب أى سبب فى تحقيق هذه الأمنية الحبيبة .

وأنا أرجو - فى ختام كلمتى - أن أحقق أمنية تعتلج بالصدر فى أن أشد الرحال فى اليوم القريب إن شاء الله إلى الأزهر العظيم رجاء أن نشق الطريق إلى تواصل الأرحام بين المعهدين الشقيقين ، وتحقيقاً لمقترح الأستاذ الصعيدى الكريم ، والله ولى الأمر ؟

حسين مروه

دعابة الجاحظ

بقلم محمد فهمى عبد اللطيف

كان أبو عثمان الجاحظ لوقته شيخ الأدب ، وفخر العرب ، جمع بين اللسان والقلم ، وبين الفطنة والعلم ، وبين الرأى والأدب ، وبين النثر والنظم ، وبين الذكاء والفهم ، إن تكلم حكى سحبان فى البلاغة ، وإن ناظر ضارع النظام فى الجدل[1] ، وكان إلى جانب هذا كله ظريفاً مرح النفس ، يحرص على النادرة ويحتفل بها ، ولو كان فيها ما ينال من شخصه ، ويمسه فى سمته . ولما كان الأدباء قد أكثروا القول عن الجاحظ فى أدبه وفنه ، وعلمه وتحقيقه واقتداره على الكلام والجدل ، فقد رأينا أن ننظر إليه فى دعابته ومرحه ؛ وإنها الناحية للباحث فيها مراد ومنزع ، وللقارىء منها متاع ولذة . ولعل من الخير قبل الإمعان فى البحث أن ندحض وهماً يقوم فى رؤوس بعض الناس إذ نجدهم ينكرون ذلك على الجاحظ وأضراب الجاحظ ، لأن كرامة الأديب أو العالم فى رأيهم أكبر من أن تكون مصدر عبث ومجانة ، وأرفع من أن تبتذل فى الضحك والتنادر ، وقديما قيل : ليس لمزاح مروءة ، ولا لمهارخلة . ولقد رأيت ابن قتيبة لما أراد أن يثلم الجاحظ لم يدخل عليه إلا من هذه الجهة إذ قال : إنه كان يقصد فى كتبه للمضاحيك والعبث . وفات هؤلاء الناس أن الانسان حيوان ضاحك باك بطبعه ، وأن الله قد خلق فيه الضحك قوة تعينه على استساغة هذه الحياة المريرة ، كما خلق فيه البكاء قوة تقف به موقف العظة والاعتبار . وقد روى فيما روى عن الحسن البصرى أنه قال : حادثوا هذه القلوب فأنها سريعة الدثور ، وارعوا هذه الأنفس فانها طلعة ، وإنكم إن لم ترعوها تنزع بكم إلى شر غاية ! ! ومما جاء فى التاريخ أن عبد الله بن طاهر جلس مجلسا أنصف فيه من وجوه القواد ، وأمراء الأجناد ، وضرب الأعناق ، وقطع الأيدى ، ورد كبار المظالم ، ثم قام وقد دلكت الشمس ، فتلقاه الخدم ، فأخذ هذا سيفه ، وهذا قباءه ، وهذا إزاره ، فلما دخل دعا بنعل رقيقة فلبسها ثم رفع ثوبه على عاتقه وتوجه نحو البستان وهو يتغنى :

النشر مسك والوجوه دنا نير وأطراف الأكف عنم

قال عيسى بن يزيد : وكنت جريئا عليه ، فجذبت ثوبه من عاتقه وقلت له : أتقعد بالغداة قعود كسرى وقيصر ، ثم تعمل الساعة عمل علوية ومخارق ؟ ! فرد ثوبه على عاتقه وهو يقول :

لابد للنفس ان كانت مصرفة من أن تنقل من حال إلى حال

ومن أولى - رعاك الله - بأن يصرف نفسه من حال إلى حال ، ومن أحق بالاستراوح والانشراح من ذلك العالم أو الأديب الذى يصهر ذهنه فى خدمة الانسانية ، كالذبالة تضيء للناس وهي تحترق ؟ وهل هو يفعل فى ذلك إلا ما تقضى به إنسانيته ، وتدفعه إليه طبيعته ؟ فاذا طاب لنا أن نقف بهذا وأمثاله موقف التزمت والوقار فى كل فترة من فتراتهم ، فنحن فى الواقع نجردهم من نصف إنسانيتهم ونعطل فيهم قوة خلقها الله لهم مباءة للرفاهية والراحة ، بل نحن نبقى لهم حياة هى الكرب الآخذ بالخناق ، والجحيم الذى لا يطاق . وإنى لأعجب لبعض الناس أن تطرق إلى عقولهم تلك العقيدة الغريبة وهى أن حياة الأبرار فى الجنة ، أرفع وأشرف من أن يدخلها الضحك ، ويكون فيها التنادر ، ولقد رأيت كثيرا من هؤلاء يهيئون نفوسهم فى هذه الحياة الدنيا لاستقبال تلك العيشة العابسة التى يزعمونها فى دار النعيم ، فهم يطردون من صدورهم كل ميل إلى السرور والانشراح ، ويكشحون عن صحائف وجوههم كل لمحة من سنا البشر والطلاقة . وكثيرا ما أصادف فى غدواتى أحد هؤلاء العابسين فينظر إلى كمن عرفنى نظرة موحشة شزرة ، كأنما هو قاض سماوى قد هبط إلى هذا العالم ليحكم بأقصى العقوبة على كل من يعرف ، ومثل هذا الرجل يقطع ولا شك ذنب هرته اذا هو صادفها تعبث به ، فبالله سله من علم الهرة أن تعبث بذنبها ؟ ! » [1]

هذا وللجاحظ فى هذا المعنى كلام حسن هو من أقوم ما قيل فى بابه ، وأدق ما أتى فى معناه ، وإنما ساق الرجل الحديث فى ذلك وهو ينضح عن نفسه ، ويدحض شبهة كالتى نعالجها ، إذ

(١) من تقريظ التوحيدى للجاحظ .

(١) هذه النبذة من كتاب « حديث المائدة » للكاتب الأمريكى هولمز وقد اعتمدنا على ترجمة الأستاذ السباعى

خاف - وهو العالم الأديب - أن يتهم بالنزق والسفه من أجل مايستروح به من المزح والفكاهة ، وبسوقه من الطرف والنوادر .

والظاهر أن مسألة الجد والمزاح كانت من المسائل التي شغلت الأذهان في عصر الجاحظ ، فكثر حولها القول ، وطال فيها الخلف والتضارب ، وما كان ذلك إلا نتيجة لازمة لتلك الحياة الفكرية التي كان عليها القوم ، وهي حياة مضطربة لم تأخذ وضعها من الاستقرار بعد ، ولم تكن قد خلصت من شوائب الأخذ والرد ، فهناك علماء الفقه والسنة ما زالوا يتلمسون نصوص الشريعة يطبقونها على ما أمامهم من مظاهر وظواهر ، وتبيان ما هو حلال منها وما هو حرام ، وإلى جانب هؤلاء جماعة يتولون الوعظ بأحوال السابقين ، والزجر بالقصص والآثار ، وإن فيهم من لا يتورع عن التزيد والافتراء ، والحشو والكذب ، لتأييد أمر له فيه غرض ومأرب . وثمت عناصر فارسية من الشعراء والأدباء لا يتحرجون من اقتحام الدين والخروج على الأوضاع ، فكل همهم اشباع الجسد ، وامتاع القلب . وفيهم من يذهب في التظرف مذاهب ، فكان من الطبيعي أن تقوم مسألة « المزاح » عند كل فريق من هؤلاء باعتبار ، وأن يجرى فيها القول على خلاف ، إذ لكل هوى ومنزع ، وقد عرض الجاحظ أقوالهم أجمل عرض فقال : « وقد ذهب الناس في المزاح إلى معان متضادة ، وسلكوا منه في طرق مختلفة ، فزعم بعضهم أن جميع المزاح خير من جميع الجد ، وزعم آخرون أن الخير والشر عليهما مقسومان ، وأن الحمد والذم بينهما نصفان » وبعد أن أتى الجاحظ على جمل هذه الأقاويل أخذ في إعلان رأيه فقال : « ونحن نعوذ بالله أن نجعل المزح في الجملة ، كالجد في الجملة ، بل نزعم أن بعض المزح خير من بعض الجد ، وعامة الجد خير من عامة المزح ، وقد يكون الكلام في لفظ الجد ومعناه معنى الهزل ، كما يكون في لفظ الهزل ومعناه معنى الجد ، ولو استعمل الناس الدعابة في كل حال ، والجد في كل مقال ، وتركوا التسجيح والتسهيل ، وعقدوا أعناقهم في كل دقيق وجليل ، لكان السفه صراحاً خيراً لهم ، والباطل محضا أردّ عليهم ، ولكن لكل شيء قدر ، ولكل حال شكل ، فالضحك في موضعه ، كالبكاء في موضعه ، وكذلك التبسم والقطوب ، والمنع والبذل ، فأن ذممنا المزاح ففيه لعمري مايذم ، وإن حمدناه ففيه مايحمد ، وفصل مابينه وبين الجد أن الخطأ إلى المزاح أسرع ، وحاله بحال السخف أشبه ، فأما أن يذم حتى يكون كالظلم ، وينفى حتى يصير كالغدر فلا ، لأن المزاح بما يكون مرة قبيحا ومرة حسنا ، ولا يكون الظلم الا قبيحا ، وبعد : فمن حرّم المزاح وهو شعبة من شعب السهولة ، وفرع من فروع الطلاقة ، وقد أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحنيفية السمحة ، ولم يأتنا بالانقباض والقسوة [1] . . »

ولا شك أن الجاحظ في رأيه هذا قد وقف موقف العدل والانصاف ، وقال قولا هو غاية القصد . ولقد أحسن الرجل كثيراً إذ راعى « المقام » في حكومته بين الجد والمزاح ، فقال بأن « لكل شيء قدر ، ولكل حال شكل ، فالضحك في موضعه ، كالبكاء في موضعه ، وكذلك التبسم والقطوب ، والمنع والبذل » نقول : بل وكذلك كل شأن من شؤون هذه الحياة ، وما أحسب أحداً في الناس يجهل أن وضع الندى في موضع السيف مضر ، كوضع السيف في موضع الندى ؛ ولكن قل في الناس من يتعرف الوضع المناسب ، ويتبين المقام المشاكل ، وما ذلك في الواقع الامسبار الذكاء ، ومحك البراعة ، وهل النادر يقوم الا على قوة المفارقات ، والتميز بين المناسبات ؟ وهل الرجل الذي يلقى بالنادرة في موقف العظة والاعتبار ، أو يخلق الضحكة ينطلق بها فمه بين مظاهر الأسى والحزن ، ألا نزق طائش ، بل قل سفيه لا يحس بالواجب ، ولا يقدر العواقب ، وسرعان ما ترمقه العيون بالنظر الشزر ، ويقعد في الجالسين مقعد الثقيل المملول ، وربما كانت نادرته حلوة رائعة ، وضحكته رقيقة حسنة ، ولكنه ألقى بها في المقام الكز ، واختار لها الموقف الخشن ! !

ولا عاب في المزح عند الجاحظ إلا أن الخطأ اليه أسرع ، وحاله بحال السخف أشبه ، ومن ثم فهو يرى أن من الصون للأديب أو العالم أن يكون فيه على قصد ، وأن يعالجه على قدر ، هو قدر الاستراوح والانشراح . ولقد أوضح هذه الناحية اذ يقول : « والمزاح باب ليس المخوف فيه التقصير . ولا يكون الخطأ فيه من جهة النقصان ، وهو باب متى فتحه فاتح ، وطرق له مطرق ، لم يملك من سده مثل الذي يملك من فتحه ولا يخرج منه بقدر ماكان قدم في نفسه ، لأنه أصل بنائه على الخطأ ،

(١) رسالة التربيع والتدوير ص ١١٤ من رسائل الجاحظ .

ولا يخالطه من الأخلاق إلا ما سخف ، ومن شأنه التزيد ، وأن يكون صاحبه قليل التحفظ ، ولم نر شيئاً أبعد من شيء ولا أطول له صحبة . . . من الجد والمزاح ، والمناظرة والمراء [٢] . . . »

وهذا كلام يتفق فيه الجاحظ هو وصاحب حديث المائدة ، إذ يقول في كلام له عن الجد والمزاح « أنا لا أمقت منكم ميلكم إلى الضحك ، ولا أضن عليكم بالكلمة تضحككم متى قدرني الله على ذلك ، فأما أن تطلبوا إليّ ألا أقول إلا ما يضحك ، وإلى أنفسكم ألا تفعل شيئاً غير الضحك ، فذاك مخالف لسنة الطبيعة ، وجدير بمن هذا شأنه أن ينقلب قرداً لتوّه وساعته . . . ولذا كان من البلية على الكاتب أو الشاعر أن يسترسل في باب المضحك ، فانه يعوّد الناس بذلك ألا ينتظروا منه إلا ما يضحك وألا يعرفوه إلا مزاحاً ، فهم يضحكون معه ما دام يضحكهم ، فاذا أراد أن يجد وشرع ينطق بالعلم والحكمة ضحكوا منه وهزئوا به » . ثم ينظر صاحب حديث المائدة إلى الموضوع من ناحية لم يتمعنها الجاحظ فيقول : « على أن هناك سبباً أغمض من ذلك ، ألا تشعر أنك ترى نفسك فوق كل إنسان يتصدى لاضحاكك ، سواء بحركات جسده أو بحركات قلبه ؟ بل ألا تشعر بأنك تفيض عليه من برك وإحسانك إذ تمن عليه بتقبلك منه الوثبات الحقيقية أو الشعرية !! . فاذا لزم أدبه ، ووقف عند حده خيراً يفعل ، وإذا حاول أن يعلو إلى مقامك الرفيع ، فأخذ يدلي اليك من منبر عظته نوابغ الحكم ، فبئس ما صنع ، وساء ما أتى ، وهيهات أن يقوم عندك مقام الواعظ ، أو يفوز منك بنظرة الاجلال التي هو جدير بها لعلمه وأدبه ! [١] » .

وما كان الجاحظ من الدعابة والمزح ، إلا في ذلك المقام الكريم الذي اتفق عليه هو وصاحب حديث المائدة ، فتجده يستروح بالنادرة ، ويتفكه بالدعابة ، ولا يضن على السامر بالكلمة تصفق لها القلوب ، وترتاح لها النفوس . وإنه في أبحاثه وكتاباته ليبتدع النكتة ابتداعاً ، ويحتفل بالنادرة يسوقها إلى القاريء ، ولكن كل هذا في المقام المناسب ، وعلى القدر اللازم ، فما يتعدى طوره ، ولا يخرج عن قدره ، ولا استذل كرامته بالتزيد والامعان في المجانة . وإذا كان ابن قتيبة قد عاب الجاحظ بالعبث والضحك ، فما ابن قتيبة إلا مسرف في هذا الاتهام ، وإنه ليطعن الجاحظ في غير مطعن ، بل إنه ليريد أن ينكر على الرجل طبيعته البشرية ، وكأنه كان يحمل له ضغناً ، ولماذا ينكر ابن قتيبة على الجاحظ ما استباحه هو لنفسه في عيون الأخبار من سرد المضاحيك والمعائب ، حتى ليقول في مقدمة ذلك الكتاب بلهجة صريحة : « وسينتهي كتابنا هذا إلى باب المزاح والفكاهة وما روى عن الأشراف والأئمة فيهما ، فاذا مر بك أيها المتزمت حديث تستخفه أو تستحسنه أو تعجب منه أو تضحك له ، فاعرف المذهب فيه وما أردنا به ، واعلم أنك إن كنت مستغنياً عنه بتنسكك ، فان غيرك ممن يترخص فيما تشددت فيه محتاج إليه ، وإن الكتاب لم يعمل لك دون غيرك ، فيهيأ على ظاهر محبتك ! ولو وقع فيه توقي المتزمتين لذهب شطر بهائه وشطر مائه ، ولأعرض عنه من أحببنا أن يقبل عليه معك ... » ، وأحب أن يتأمل القاريء قوله — شطر بهائه وشطر مائه — فياليت شعري إذا كان توقي المزاح والفكاهة سيذهب بالبهاء والماء ، فماذا يبقى بعد !؟

« للكلام صلة »

محمد فهمي عبد اللطيف

(٢) التربيع والتدوير للجاحظ .

(١) حديث المائدة تعريب البشري في البيان .

جولات في الأدب الفرنسي الحديث

تطور الحركة الأدبية

في فرنسا الحديثة

لأستاذ الأدب في جامعة السربون ، دانيال مورنى ، Daniel Mornet

بقلم الأستاذ خليل هنداوى

« فصول ملخصة من كتاب تاريخ الأدب والعقل الفرنسى الحديث لأستاذ الآداب في جامعة السوربون « دانيال مورنى » تبحث تطور الشعر والرواية والنقد والتاريخ والفلسفة . (١) ودانيال مورنى أستاذ له مدرسته التحليلية وطريقته الادبية التي يفرضها على آداب أمته في هذا الجيل ! وهو مؤرخ للأدب بطريقة خاصة يكاد يكون بها نسيج وحده . تقرأ كتبه ومقالاته فتشعر باطلاع واسع عميق وجهد كبير وفكر عال استطاع أن يقرأ ويفيد ويحلل فتأخذ منه ما أوجزه فاذا به يخفى طى سطوره القليلة ما يغنى !

يكتب بأسلوب سهل كتابة يغلب عليها الاسلوب الأدبي طورا والاسلوب التحليلى تارة ، وهو في كل ذلك حى تجري حياة الفكر فيه ، يكتب عن المدرسة الادبية أوحياة الاديب صفحة أوصفحتين ويقف وإنك لراغب في الزيادة ! ولكن وقوفه هو الحاجز الذى يجب ان يقف عنده ، ولن يمضي زمن حتى ينشأ هذا الاسلوب الموجز في تحليل الادب وتمييز مواقفه الحاسمة. واشهر كتبه المنشورة تاريخ شامل للأدب الفرنسى قديمه وحديثه . وتاريخ لمراحل خاصة للعقل الفرنسى وقد احببت ان ادرس هذا الكتاب لانه درس شامل لعقل وادب . لا يذهب وراء الخيال كثيرا كأنه كل شيء ، ولا ينطلق وراء العقل كثيراً كأنه كل شيء . . . لأن صاحبه يرى التأثير متبادلا بينهما ، ففيه نرى تأثير العلم في تطور الادب وتأثير الادب في الفلسفة . وفيه يرى أصحابنا تأثير النظريات الفنية والعلمية في توجيه الأدب ؟ « خ ، ه »

رقية العلم عام ١٨٨٠

لم تبلغ العلوم الطبيعية من الذيوع والقوة مابلغته في أواخر القرن التاسع عشر . فإن أهم اكتشافاتها ومخترعاتها إنما تمت في عهد قبل عهد الأواخر . فكتاب « داروين » مثلا عن أصل الانواع إنما ظهر عام ١٨٥٩ وكذلك في الأعوام الأخيرة نشأت اكتشافات جديدة غمرت الأرض وألقت في أخلادهم أن العلم قادر على تبديل الحياة الاجتماعية وغير عاجز عن تغيير الحياة ذاتها . وساعدت على نشر هذا الاعتقاد الانتصارات المتتالية في كل ميادين العلم . ولم يقبل عام السبعين حتى ازداد هذا الاعتقاد عنفا ورسوخاً حتى اعتنقه بعضهم كما يعتنق ديناً . على أن الناظر لا يرى خلقا جديداً في مذاهب العلم وأساليبه وأصوله ، ولكن غير العلماء كانوا يتحرون في أصوله عن النور الذى ينبغى له أن ينير مسالك الحياة الاجتماعية والحياة الخاصة وما قدر لها . فـ « رينان وتين » قد جمعت آثارهما قبل عام السبعين ولكن الشباب لم يتخذ منهما قائدين إلا بعد هذا العام . وهكذا انتشر سلطان العلم وغلب على كل سلطان وطغى على الأدب وأصبح موضع الأنظار . وأعلن أحد رسل العلم « برتلو » بعد اكتشافه في الكيمياء مذهب تأليف الأجزاء المتفرقة بأنه بواسطة هذا المذهب يستطيع إنسان الغد أن يصبح المسيطر على عالم الأجساد والنفوس . فهو يضع غذاءه ويخلق عصور الرفاهية التى تتجلى فيها المساواة والاخاء إزاء شريعة العمل المقدسة . كل شيء سجله العلم ويخلقه خلقا جديداً . وكذلك شأن الأخلاق يدركها هذا التطور الذى أدرك الطبيعة

كل شيء في الحقيقة ينتظم ليخضع كل فكرة إنسانية لقوانين العلم . وقد كان علم طبقات الأرض وعلم الآثار القديمة والتوسع فيها كانا ذائعين في القرن الثامن عشر قبل أن تتفجر عن العلم اكتشافاته وتزداد حركته . وهنالك مجامع كثيرة قامت ومدارس نشأت تطلب أن تقيم الدراسة المحض للحقائق بدلا من الركض وراء الخطرات الخيالية اللامعة على غير جدوى .

ولكن هذه المطالب كانت لا تزال تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، فيها تردد غير المطمئن وشك غير المؤمن . فبقي التعليم وجامعاته والنقد وحركاته أمينة لمذاهب الأدب القديمة التى تعتمد على الذوق والذهاب إلى إحياء فن الأوائل بالخيال ، حتى بزغ عام السبعين فبدأت الأذواق تنفر من هذه الأخيلة . ودعا الأدباء الى اعتناق علم « الالمان » الذين ربحوا الحرب ، ليكون منهم علماء في دراسة اللغات ومؤرخون وأساتذة ، وأن تكون دراساتهم مرتكزة على بحث الحقائق وتجريدها ونقدها نقداً علمياً . وقد طغت هذه الدعوة العنيفة على جامعات فرنسا وغزت مجامعها الادبية . فتغير الأسلوب وتبدلت المناهج ، ونرى أثر ذلك في

(١) حقوق التعريب والنشر باذن المؤلف

مدرسة (أثينا) الفرنسية التي أخذت تنهج في الدرس نهجاً حديثاً، وفي بقية مدارس أنشئت لهذه الغاية كدرسة (روما) ومدرسة القاهرة؛ وفي بعض مجلات علمية أنشئت لتعمل على تشجيع هذا المذهب الجديد!

وقد سرى هذا الارتجاج الى الفلسفة فخالت أن العلم يبدل منهجها. ويبدأ أثر هذا الارتجاج في الدراسات النفسية التي كانت تعتمد على الدرس الباطني فبدل نوع هذا الدرس وجاءوا بعلم جديد لدرس النفس لا يعتمد الا على الفحص والتجريب والبرهان. وخزانة الفلسفة الفرنسية لا تزال طافحة بهذا النوع الجديد من الدرس كآثار الفيلسوف «ريبو» في معالجة أمراض الذاكرة والارادة والشخصية. وكلها أبحاث قائمة على الفحص العلمي والبرهان العملي الذي لا مجال للخيال فيه وهي تثبت أن أصول علم النفس الروحاني لا تتلاءم مع الأعمال، وأننا بدرسنا - علمياً - لفساد المادة الدماغية ندرس كذلك فساد الفكرة التي لا بد أنها مظهر من مظاهرها وأثر من تأثيرها.

أما علم درس المجتمعات فهو لا يشبه العلم فحسب، بل يجب أن يكون علماً صارماً في تطبيق مبادئه وفي تطبيق نتائجه، كما هو الحال في علوم الطبيعة. ولم ينشأ هذا العلم في فرنسا الا بعد عهد، ولكن هذا لا يمكن أن يكون وليد المذاهب العقلية. وإنه علم ومنطق يراد به خلق أصوله ومذاهبه. وقد وقف العالم «دوركهايم» جهوده على القول بأن الحوادث الاجتماعية هي حوادث مخصصة معينة يجب اعتبارها كأنها خاضعة لقوانين خاصة يكتشفها علم الاجتماع كما يكتشف علم الطبيعة قوانين الطبيعة

وهنالك فئة علمية تدين بالعلم. هذه الفئة التي قدم لها «رينان» كتابه «مستقبل العلم» هذه الفئة هي التي مشت وراء تعاليم «داروين»، وعلى هذه الفئة ثبت مستقبل العلم ومستقبل الديموقراطية، وفي الحقيقة كانت الجمهورية الفرنسية متقلقلة متزعزعة حتى عام ١٨٨٠، فتألب رجال السياسة والصحافة على استنقاذها من مأزقها، فعمدوا الى التبشير بكلمات «برتلو» بالمساواة والحرية والاتحاد والسعادة، بالعمل على تأييد العلم الذي يجازي العاملين من أجله بالسلامة والعافية ورفاهية العيش، وهو الذي سيحل عقدة الحياة والوجود.

ليت شعري إن هذه الروح العلمية غزت الأدب فبما غزت وكان لها فيه تأثير بليغ؟

خليل هنداوي

دمعـــة وفاء

على المرحوم الأستاذ غانم محمد

بمناسبة مرور اربعين يوما على وفاته

للأستاذ زكي نجيب محمود

أحقاً يا غانم حم القضاء وقام فيك الرثاء؟ أحقاً طاح بدوحك العاتي منجل الفناء؟ واجيعتاه؟ قم إذن يا صاح فاهتف بالمحاجر أن تسح الدمع هتوناً سخيناً، وبالحناجر أن تسكب ذوب النفوس أنيناً حزيناً.

عجباً! أستطاع الدهر في لمحة من الزمن، أن يطوي الشمس في ظلمة الرمس؟ أستطاع الموت بلفظة في لحظة أن يدك طوداً كان شامخاً بالأمس؟ أفي اليوم الذي نرجو للأمة فيه غانماً وغانماً، يهوي مخلب الموت، بين أشاجعه رعب القدر، وننظر فاذا غانمنا الواحد قد افتقدناه في مثل اللمح بالبصر؟ حنانيك يا رباه! أأصبت بالمنية غانماً أم أصبت عشيرة في رجائها؟ أرميت بالبلية رجلا أم رميت الرجولة في سويدائها؟ فما كان فقيدنا في عداد القوم واحداً كسائر الآحاد، بل كان ينبوعاً للرجولة دافقاً، وقلباً للوطنية خافقاً، يمتلىء همة حتى ليسكب الهمة في بنيه، ويشتعل حماسة حتى ليبث الحماسة في مواطنيه، لا يدخر في سبيل ذلك ما وسعه من جهد اللسان والقلم. فهأنذا أطوي الليالي القهقرى أعواما ثلاثة، فاذا بالمطبعة العربية تذيع في الناس كتاباً لا يخطف العين مظهره، ولا يضج به في الناس منشئه ومسطره: جان دارك تأليف غانم محمد.

أقبلت على الكتاب حينئذ، ولم أكن أدري عن صاحبه إلا أشتاتاً منثورة، فحسبته بادىء الأمر كتاباً من الكتب أخرجه للناس كاتب من الكتاب، فما هي إلا صفحات عشر أتلوها حتى همست لنفسي قائلا: كلا! تالله إن الرجل لكاتب بارع وأديب قدير، اختلجت في نفسه الفكرة عنيفة جبارة، تنشد التصوير والتعبير، فلستجاب لدعوة القلم وكأنه فولتير يثور فيسطر فيثير. نعم لم تكن إلا صفحات عشراً أتلوها حتى أيقنت أن الكاتب منتش مخمور، قبس من صحائف التاريخ

هدى ونورا ليلقيه فى جوانحنا لهباً مسعوراً ! فما كتابه هذا عن جان دارك إلا منصرف تدفقت فيه أواذى نفسه المضطربة المصطخبة فى بيان رائع خلاب. كأنها وحى النبوة يستحيل إلى بلاغ فى كتاب.

« استمع إليه كيف يستهل كتابه :

لم أكتب مذ عرفت أناملى قبض القلم وتحريكه، ولم تنطق شفتاى مذ انفرجتا للنطق، ولم يخفق قلبى، ولم يجش وجدانى وتنشرح جوانحى، منذ أن خرجت إلى الدنيا، لأمر من الأمور هو أسمى وأرفع وأشرف من الغرض الذى أرمى إليه بموضوع اليوم »

ثم انفذ إلى الختام وانصت إليه ماذا يقول قبيل أن يضع القلم:

« وإنى أختم هذا الكتاب مترسما أثر جان فى دعوتها وحياتها وصفاتها، وكلى أمل خالص أن تبعث قراءة قصتها فى قلوب القارئين نور الإيمان الصادق ونشوة الوطنية الحقة . . . إن ما حققته جان فى مقدورنا أن نحققه، إذا ما ارتفعت بنا، كما ارتفعت بها هى من قبل، أجنحة الوطنية والدين . . . أيتها الفتاة المنقطعة النظير! انفخى فينا من روحك، وبثى فينا من حماستك، لكى نحيا حياتنا ونموت فى سبيل الله والوطن !! »

وإذا أنت مضيت بين تلك الفاتحة وهذه الخاتمة، لم تقرأ أسطراً كالاسطر، بل أحسست فى الكلم حرارة وقوة وحياة، فهو ثائر حيناً شاعر حيناً، إذا جالت جان دارك فى أجنادها زأر القلم فى يده زئيراً، وإذا جلجلت جان دارك فى أصفادها صر القلم من الأنين صريراً. وهكذا صور تتلوها صور، أبدعها صناع فسواها، وألهبها من شعوره فأذكاها، حتى لتقرأ الكتاب وكأنما تخوض فى أتون مستعر، أو كأنك تنصت إلى صوت من السماء يهتف بك: تلك جان دارك فى فرنساها، وهأنت ذا فى مصرك، فماذا أنت صانع لبذكو شعورك الخابى، وينهض بلدك الكابى؟! وهذا النداء فى ذلك الحين ما كان أبلغه من نداء حيث كادت تذهل أنفس عن الطموح إلى السماء، فانحرفت إلى الأرض راضية من الغنيمة بالحب والماء!

لم أكد أفرغ من قراءة الكتاب عندئذ، حتى حلت قلبى على وهنه وعثاره، ودعوت للكتاب (فى الرسالة) لأنى آمنت أن الدعوة له صيحة وطنية واجبة، وكلما ازددت للكتاب قراءة ازددت يقيناً بما قلته إذ ذاك من أن غانماً « أخرج بكتابه للناس درة من أثمن ما تحوى لجة التاريخ من درر، ونشر صفحة من أسطع ما طوى الدهر من صفحات. ومن أنه بهذا الكتاب قد أذاع فى الناس مثلا أعلى للتضحية والفداء، ونموذجاً سامياً للوطنية المشتعلة الصادقة ممثلة فى جان دارك». وما أزال عند كلمتى التى ختمت بها مقالى من أن غانما « قد وفق فى التصوير توفيقاً بلغ حد الكمال، وأن ليس هذا الكتاب واحداً من الكتب يتلى ثم يطوى وكأنه لم يكن، إنما هو فيض من الشعور القوى النبيل سيغمرك ويحتويك حين قراءته، وسيطبعك بطابع هيهات أن يزول أثره ما بقيت على الدهر إنسانا ».

ذلكم هو غانم الذى التقيت به فى كتابه منذ أعوام ثلاثة لقاء قارئ بكاتب، ثم التقيت به منذ أشهر ثلاثة لقاء روح بروح، ثم افترقنا فراق الأبد، بعد أن خلف لنا حرارة نفسه وحلاوة جرسه فى كتابه الخالد

فرحمة الله ورضوانه على الفقيد الكريم

زكى نجيب محمود

شاعر الاسلام

محمد عاكف

بقلم الدكتور عبد الوهاب عزام

— ٢ —

كتب الأديب الكاتب عمر رضا صهر الأستاذ محمد عاكف مقالا فى جريدة جمهوريت التركية بعنوان «أيام عاكف الأخيرة» فأردت أن يطلع عليه قراء الرسالة فى هذه الترجمة :

منذ ستة أشهر أرست فى استنبول باخرة قادمة من مصر ، توسمتُ النازلين منها فاذا على السلم شبح لم أثبته للنظرة الأولى ، فلما أنعمت النظر عرفت الفاجعة ؛ وتأوه رفيق مدحت جمال آهة أعربت عن وقع الفاجعة فى نفسه .

لقد انحطم الأستاذ عاكف ! ولكنه كان على ذلك ، لا يزال متفائلا يحسب أن هواء الوطن يحييه . ذلك كان ظنه ، وذلك ما أمله إلى آخر رمق من حياته . أخبرته يوما أن أحد أقاربه يود مقابلته . فقال : « لا يشق على نفسه ؛ سأزوره أنا حين أستعيد بعض عافيتى »

ولقد حيرنى حقاً هذا الرجاء ، وهذه القوة الروحية التى رسخت فيه بعد أن آذنه الأطباء بخطر المرض ، وضعف الأمل ، ورأى هو صحته تضمحل يوما بعد يوم . كان تفاؤله يملأ نفسى عجبا ، فكنت أقول لنفسى : أتراه يريد أن يشعرنا الطمأنينة وينفى عنا الفزع ؟ ثم أرجع فأقول : كلا إن هذا الأمل القوى لا ينبع من تعلق البشر بالحياة وإفراطهم فى حبها ، بل وراءه منبع أبعد غوراً ، وأغزر فيضا ، وأسمى مكانا

كان الزائرون يتتابعون إلى حجرته فى المستشفى ، وكان فى هذه الزيارات ارهاق له . وكان الأطباء يكرهونها ولكنه هو كان يحرص على لقاء أصدقائه ورؤية أحبائه ، وكان يسكن إلى عادته كل واحد منهم منفرداً ولا يجد فى هذا حرجا ولا نصبا .

ولم يكن بد من تغيير هذه الحال ، فدعى الأستاذ لينزل ضيفا فى دار لأحد أصدقائه القدماء . وكانت الدار فى « علم طاغى » . وحسب أصدقاء الأستاذ أنه سيجد فى هواء هذه الجهة ومائها بعض شفائه إلى ماتجدى عليه العناية بنظام الغذاء وتناول الأدوية التى كانت تجلب له من أوربا

فرح الأستاذ كثيراً حين بلغ علم طاغى وسكن إليها . ورُسم له أن يهبط المدينة مرة كل أسبوع لزيارة أصدقائه واستشارة أطبائه . وكان هو يقول : سأفترش سجادة تحت شجرة وأنشق الهواء النقى ، وأستمتع بحرارة الشمس الصافية ، وأحاول أن أسترجع قواى وشيكا . فإذا آنست فى بدنى الصحة ، دعوتكم جميعاً إلى علم طاغى ، وعندى هناك طاهٍ منقطع النظير .

وحق أن الأستاذ افترش سجادته فى ظلال أشجار علم طاغى الخضراء ، وأنس بها وتمشى فى تلك المروج ، ولكن مرارة الدواء كانت تنغص عليه جمال المكان ومسراته ، بل كانت ترد هذه المتعة الموموقة سما قاتلا . وكان يقول : لو أن هذه الأدوية تشرب مرة واحدة كل يوم ! لا كاد أخلص من جرعة حتى ألزم بجرعة أخرى ، فأنى لى أن أشهد جمال علم طاغى وآنس لذاتها .

لست أنسى قوله ذات يوم : « يابنى لقد كنت أطوى الطريق من اسكدار إلى علم طاغى سيراً على قدمى لا أبطىء ولا أقف . وهأنذا اليوم أقطع الطريق لا تمس قدماى الارض . ولكن ماذا تُجدينى هذه السيارات وآهاتى فيها لا تفتر . آه لو شفيت فعدت سيرتى أقطع الطريق على قدمى ! . » — وأما هواء « علم طاغى » فلم يرد على الأستاذ عافيته بل كانت قواه فى خور مُستمر .

* * *

ليت شعرى ماذا ألهمه هذا التفكير العميق الذى دام أشهراً ؟ وماذا كان يريد أن يعرض علينا من أفكاره حين يبل من مرضه ! ! لقد كان نظم « قصة الاستقلال » إحدى أمانيه منذ سنين . وكان يبغى من التجائه إلى مصر أن يخلص من متاعب الحياة ويفرغ لهذه القصة . فلما هم بهذا طلبت إليه رياسة الأمور الدينية فى أنقرة أن يترجم القرآن الكريم إلى اللغة التركية ، فأشفق وأبى واعتل بأن أمامه قصصاً يود أن ينظمها ، فلم يقبل عذره وتوسلت رياسة الأمور الدينية بصديقه الحميم أحمد نعيم بك أستاذ الفلسفة الاسلامية بجامعة استانبول فاضطر عاكف أن يذعن كارهاً . والحق أن إباءه الاضطلاع بترجمة

القرآن أول الأمر كان من إجلاله الكتاب الكريم واعتقاده أن إنساناً لا يستطيع أن يؤدى ترجمته على الوجه الجدير به مهما أوتى من العلم والبيان. وكان كلما سئل عن الترجمة قال: « لم أقدر عليها. إنها لم تُرْضنى فكيف ترضى غيرى؟ ». وقضى الأستاذ سبع سنين فى مصر وهو فى شغل شاغل عن ترجمة القرآن، وكانت النتيجة ما رأينا [1] فقد ضاعت تلك السنون وحرم الأدب التركى من أثر خالد. وكان نظم حجة الوداع من أمانيه ـ هذا المشهد التاريخى العظيم الذى يمثل الرسول فى حجته الأخيرة يخطب على مائة ألف من المسلمين، وكذلك كان يريد أن ينظم قصة تمثيلية فى الحروب الصليبية وبطولة صلاح الدين الأيوبى، وحالت دون الأمانى حوائل، وعاد الأستاذ إلى استانبول عليلا بدت عليه أمارات الهجوم الأخير من هذا المرض المشئوم فثقل لسانه قليلا ولكنه لم يفقد من إدراكه إلا يسيراً

ويوماً تغيرت حال الأستاذ فجأة، وبدت عليه أمارات القوة والنشاط، فكان يتحدث إلى الناس ويستمع إليهم، ويطلب أن يكونوا حوله ولا يرضى أن يترك وحده.

وفى مساء هذا اليوم ضاقت نفسه فلم يلبث إلا يسيراً حتى كانت الخاتمة

(للكلام بقية) عبد الوهاب عزام

(١) حدثنى الأستاذ رحمه الله أنه كان كارها احتمال هذا العبء وأن أصدقاءه قالوا له: إذا لم يكن بدّ من ترجمة القرآن فليس لها غيرك، وأنه أكمل الترجمة وأراد أن تنشر معها تفسيرات فى الحاشية وأبت حكومة أنقرة أن يكون مع الترجمة تفسير فأبى الأستاذ أن يعطيهم ما ترجم وانتهى الأمر.

سجين شيلون

للشاعر الانجليزى لورد بيرون

بقلم الاستاذ محمود الخفيف

تتمة ما نشر فى العدد الماضى

— ٧ —

ذكرت أن أقرب الأخوين إلى مكانى تساقطت نفسه وذوى عوده ، وكذلك ذكرت أن قلبه القوى انصدع وانسرقت قوته عزفت نفسه عن الأكل وعافته ، ولم يك ذلك لما كان عليه من قبح ووحشية ، فقد ألفنا طعام الصيد ورضنا أنفسنا عليه .

أبدل ما كنا نشربه من لبن تجود به غنمات الجبل ، بماء أتوا به من الخندق ، وكان الخبز الذى يلقى إلينا على حال أحسسنا معها كأن دموع الموثقين البائسين قد سقته فالاته آلاف السنين ، منذ ألقى الانسان ببنى جنسه أول مرة فى الأصفاد كما يفعل بضوارى الوحوش !

***

ولكن ما كان ليضيره ذلك أو يضيرنا ، لم يكن ذلك ما أذاب قلبه وفت فى عضده ، فقد كانت روح أخى من ذلك الطراز الذى تتسرب إليه برودة الموت حتى ولو كان فى قصر ، إذا حيل بينه وبين شعاب الجبال وجوانبه الحادرة . وليت شعرى لم أخنى الحقيقة وأؤجل النطق بها ... لقد لفظ أخى أنفاسه

***

رأيته يموت ولكن واحسرتاه لم أستطع أن أسند رأسه ، لا ولم أستطع أن أمسك بيده وهى تموت ولا بعد أن همدت فيها الحياة ، لم أستطع شيئا من ذلك ولو أنى تنزيت فى الحديد وحاولت عبثا أن أفك السلاسل وأجعل أصفادى شطرين . لفظ أخى أنفاسه، ففكوا سلاسله وحفروا له لحدا قليل العمق، وقد جعلوه هكذا قريب القرار فى مثل تلك الأرض الباردة أرض ذلك القبو

***

ولقد توسلت إليهم أن يمنوا على بسلوة لنفسى فيدفنوا جثمانه فى بقعة يقع عليها ضوء النهار ، وهى فكرة سخيفة ، ولكنها أوحت إلى نفسى أن قلبه الذى فطر على الحرية لن يجد حتى فى ضجعة الموت راحة فى مثل ذلك السجن

***

وكان أولى بى أن أكفى نفسى عناء هذا التوسل ، فما أغنى عنى منهم شيئاً ، إذ ضحكوا فى برود ثم وسدوه وسدوا عليه حيث سجنوه ، وهناك رقد ذلك المخلوق الذى أجزلنا له الحب تحت أرض منبسطة لا ينبت فوقها عشب ، ترتكز فوقها السلاسل المفرغة والأغلال نصبا ملائما لذلك الاغتيال !

— ٨ —

ولكن الآخر ، ذلك الفتى الحبيب الذى كان يشبه الزهرة ، ذلك الذى أعززناه منذ أن رأت الوجود عيناه ، ذلك الذى كان يحمل صورة أمه فى وجه صبوح . ذلك الطفل الذى تحب فيه الطفولة جميعاً ، ذلك الذى كان أحب وأعز خيال إلى أبيه الشهير ، والذى أصبح فى السجن آخر ما بقى لأعنى به ، والذى كنت من أجله أجهد أن أبقى على حشاشة نفسى ، عسى أن يقلل ذلك من شقائه وعسى أن تتاح له الحرية يوما ما ؛ أقول حتى ذلك الأخ أيضاً ، ذلك الأخ الذى ظل إلى ذلك الوقت محتفظا بروح ذاتية أو موحاة ، غلب على نفسه فى النهاية ورأيته يذبل كما تذبل الزهرة على غصنها يوما بعد يوم

***

يا إلهى ! إنه لمما يبعث الرعب فى القلوب ، أن نرى الروح البشرية تنطلق مولية فى أية صورة وفى أى موقف ، ولقد رأيتها من قبل تنطلق فى دم مسفوح ، ورأيتها فى البحر الثائر تجاهد الموج المنتفخ القاذف ، ورأيت المضاجع المحتضرة مضاجع الذين أسرفوا على أنفسهم يشيع فيها الهذيان من شدة الهول ، رأيت ذلك كله وما حوى من صور مرعبة ، ولكن رزئى فى أخى كان فاجعة .

***

لم يصحب موته هول مما أسلفت ، وإنما أسلم روحه مستيقنا غير معجل ، وتساقطت نفسه ومضى هادئا وادعا ، أكثر نعومة فى نحوله ، وأبرز جمالا فى ضعفه ؛ ذهب غير دامع المقلتين ولكنه عطوف رؤوف ، حزين على من خلفهم وراءه ؛ سار للموت وفى وجنتيه نضرة بدت كأنها تهزأ بالقبر ! ولقد ذهبت صبغتها فى رقة وهدوء كما يتلاشى فى السماء قوس الغمام ؛ سار وفى عينيه بريق يكاد ومضه يضىء ذلك القبو

***

مات لم أسمع له غمغمة ولا أنة تحسر على هذا الذى انتابه قبل أوانه . لم أسمع سوى كلمات قليلة عن حياة هى خير وأبقى ، واشارة طفيفة الى الأمل أراد بها أن يثيره فى نفسى اذ قد غرقت فى السكون ، وأحسست بفقدان روحى فى ذلك القفر الذى عظم عندى عن كل قفر .

وأخيرا توانت وتضاءلت تلك التنهدات التى كان يحاول كتمانها ، تلك التنهدات المنبعثة من هزال نفسه المتلاشية

°°°

أصخت بسمعي ، ولكنى لم أسمع شيئا ، فصرخت اذ ذهب الهلع بلبى ، فعدت فى وحشية المذعور ثم أدركت أنى صرخت عبثا ؛ ولكن هلعى ما كان لينهنه بزجر ، لذلك عاودت الصراخ وأحسبنى سمعت صوتا ، وإذ ذاك فصمت سلسلتى فى وثبة قوية وأسرعت اليه ولكننى لم أجده !

وما فعلت سوى أن رحت أحدق فى تلك البقعة القاتمة ، وما أحسست سوى أنى مازلت حيا وأن رئتى تتنفسان ذلك الهواء الرطب اللعين هواء القبو .

وهكذا انكسرت تلك الحلقة التى كانت تصلنى باللانهاية ، والتى كانت تربطنى بتلك السلالة المضمحلة التى انحدرت منها ؛ انكسرت فى ذلك المكان المهلك تلك الحلقة الوحيدة آخر الحلقات وأعزها جميعا لدى . وبات أخواى أحدهما تحت الأرض والآخر فوقها وكلاهما لا ينبض فيه عرق

°°°

أخذت بيدى تلك اليد التى تدلت هامدة ، ولكن يدى وا حسرتاه كانت مثلها فى برودتها ، ولم أعد أجد فى نفسى القوة لأن أتحرك أو أناضل ، ولكنى على الرغم من ذلك أحسست أنى مازلت حيا ، وتملكنى ذلك الشعور المضطرم الذى لا يقر ، ذلك الشعور الذى يكون مبعثه ادراكنا أن الشيء الذى أوليناه محبتنا لن يعود أبدا الى ماكان عليه . وليت شعرى لم عجزت عن أن أضع حدا لتلك الحياة ؟ لم يعد يربطنى بالأرض أمل . ولكن ظلت لى فيها عقيدتى وهي التى حالت دون أن أقتل نفسى .

— ٩ —

أما ماكان من أمرى بعد ذلك ، فلست أتبينه تماماً . لا أذكر سوى أنى فقدت شعورى أولا بالضوء ثم بالهواء ، وأخيراً بالظلمة نفسها . لم أعد أفكر فى شيء أو أحس شيئاً ، ووقفت حجراً بين الأحجار . كنت كالصخرة الجرداء يغشاها الضباب ، إذ لم يكن حولى سوى الفراغ والكآبة والظلام . لم يعد ثمة ليل ولا نهار ؛ حتى ولا ذلك النور البغيض نور القبو الذى كان ينفر منه بصرى الكليل ، لم يبق إلا الفراغ الذى فنى فيه الكون كله فلا أحس سواه ، والوجود الذى لا يرتبط بمكان فى معناه !

لم يعد ثمة سماء ولا أرض ، ولم يعد ثمة ثبوت ولا تحول ولا زمن ولا خير ولا شر . لم يكن هناك سوى السكون ، والتنفس الذى لا يبعث حركة فلا هو إلى الحياة ولا هو إلى الموت .

كنت فى بحر من الخمود الراكد تغشاه الظلمة ، لا تدرك له نهاية ، ولا يسمع فيه صوت ، ولا تحس فيه حركة !

— ١٠ —

طافت بعقلى بغتة بارقة من النور ؛ كانت غناء حلوا تغنى به طائر ، غناء انقطع ولكنه ما لبث أن عاد ؛ ولقد كان أجمل سجع سمعته الآذان ! طربت له أذناى حتى دارت عيناى تتبعان هذه المباغتة السارة ، فى تلك اللحظة لم تستطيعا أن تريا أنى حليف الشقاء ، ولكن حواسى عادت فى خطا كئيبة إلى طريقها التى ألفتها . ورأيت جدران القبو وأرضه تدور فتلتف حولى فى بطء كما كانت من قبل . ورأيت ذلك البصيص المنبعث من الشمس يزحف كما كان يزحف من قبل ؛ بيد أنى رأيت ذلك الطائر فى تلك الكوة التى دخل منها الشعاع يقف مشغوفاً أليفاً كما لو كان فوق شجرة ، بل أكثر ألفة مما لو كان هنالك . كان طائراً جميلا ذا جناحين أزرقين وغناء جم المعانى ؛ ولقد خيل إلى أنه تغنى بتلك المعانى جميعاً من أجلى ! وما وقعت عيناى من قبل على طائر مثله ولن تريا بعد شبيها له أبداً . وبدا لى كأنما كان يعوزه إلف كما كان يعوزنى إلف ، ولكنه لم يصل إلى نصف ما كنت فيه من وجد ووحشة . وكذلك بدا لى أنما قد جاء ليهبنى حبه ، على حين لم يبق لى من يهبنى ثانية مثل ذلك الحب . ولقد جعلتنى هذه البشرية المنبعثة من حافة القبو أشعر ثانية وأفكر ، ولست أدرى أكان أطلق سراحه حديثاً ، أم أنه كسر قفصه وجاء ليطل على قفصى ! ولكنى أيها الطائر الجميل وقد عرفت معنى الأسر لن أستطيع أن أريده لك !

وليت شعرى لعله زائر من الفردوس تنكر فى جناحين ! ذلك أنى كنت أفكر أحياناً أنه ربما كان روح أخى هبطت إلى . ولتغفر لى السماء تلك الفكرة ، تلك اللحظة التى جعلتنى أذرف الدمع وجعلتنى أبتسم ، ولكنه فى النهاية ولى بعيداً عنى ،

وإذن فقد كان من بني الفناء؛ عرفت ذلك حق المعرفة. وإلا فما كان ليذرني هكذا في وحدة أحسستها ضعفين: وحدة كنت فيها كما يكون الجسد في أكفانه، أو كما يكون السحاب المنعزل: ذلك السحاب الفريد الذي يتراءى في اليوم الضاحي حينما تكون نواحي القبة صافية كلها فيبدو في الجو كعبوس لا موجب لظهوره والسموات طلقة والأرض في بهجة

— ١١ —

طرأ على حالي نوع من التغير إذ أصبح آسريّ ذوي رحمة؛ ولست أدري ماذا جعلهم كذلك وقد ألفوا مناظر الشقاء. ولكن ذلك ما حدث. بقيت سلسلتي المكسورة منفصمة الحلقات. وكانت الحرية عندي أن أتجول في صومعتي من جانب إلى جانب، وأن أقطعها طولا وعرضاً، وأن أطأ أرجاءها جميعاً، وأدور حول كل عمود، ثم أعود إلى حيث بدأت، لا أتجنب وأنا أطأ الأرض بقدمي إلا ذينك القبرين العاريين: قبرى أخوي. ذلك أني كنت اذا ظننت أن وطأة على غير قصد مني قد أهانت مضجعهما الخافض، ينبعث نفسي لاهثاً كثيفاً، وينقلب فؤادي المتحطم ضريراً عليلا.

— ١٢ —

تسلقت الحائط ولكني ما أردت الهروب. فقد غال الردى كل من كانوا يحبونني من البشر، ومن ثم صارت الارض كلها عندي سجناً أكثر سعة مما أنا فيه، لم يكن لي ولد ولا والد ولا ذو قربى، ولا شريك فيما الاقي من شقاء. ذكرت ذلك فاغتبطت به لأن فكري في هؤلاء قد أورثني الجنون. ولكني كنت أتطلع إلى تسلق الجدار حتى النوافذ التي تعترضها القضبان. بل كنت أتطلع إلى أن أصوب بصري مرة أخرى في هيام إلى تلك الجبال الشاهقة

— ١٣ —

رأيتها لما تزل على ما كانت عليه، فلم تنل منها يد التغيير كما نالت مني في الأغلال؛ ورأيت الثلج الذي يكلل هاماتها منذ آلاف السنين كما رأيت البحيرة الواسعة الطويلة أسفل منها، ونهر الرون الأزرق في أشد فيضه؛ وسمعت جارف السيل يتلاطم ويندفق فوق الصخر المتشقق والجذوع المتحطمة؛ وأخذت عيناي المدينة النائية البيضاء المنازل، كما لمحت القلاع التي تعلوها ابيضاضاً تجري مسرعة؛ ثم وقع بصري على جزيرة صغيرة تراءت حتى لي أنا باسمة، ولم يلح سواها أمام ناظري؛ جزيرة صغيرة خضراء طهرت كأنما لا يزيد عرضها على ذلك إلا قليلا، قامت فيها ثلاث شجرات باسقات، وكانت تهب عليها نسمات الجبل وتجري بجوارها المياه، كما كانت تنمو فوقها زهرات جميلة اللون عاطرة الانفاس.

ورأيت فيما رأيت السمك يسبح إلى جدران السجن؛ ولقد بدا للعين مرحا: وحداته وجماعاته؛ وأبصرت النسر يركب متن الريح الهائجة، ويخيل إلي أني لم أره من قبل في مثل تلك السرعة. وعندئذ اخضلت عيناي بدمع جديد وتبلبل خاطري، ووددت لو أني لم أنطلق من تلك السلاسل، ولما نزلت أحسست كأن الظلمة في مأواي الكدر تقع على كأنها حمل ثقيل؛ كانت كأنها القبر ينطبق على من جهدنا في خلاصه، وأحس بصري وقد انقلب الى هكذا محزونا كأنه يطلب راحة كراحة القبر.

— ١٤ —

ولست أدري كم لبثت بعدها في ذلك القبو، ربما كانت شهورا أو أعواما أو أياما. لم أحص لها عددا ولم ألق اليها بالا. ولم يك ثمة من أمل برفع عيني ويمسح عنهما القذى المحزن. وأخيرا أقبل الرجال ليطلقوني من الأسر، فلم أعن أن أعرف ماسبب هذا ولا حفلت أين أذهب، فلقد تساوى في النهاية عندي الفكاك والقيد. وتعلمت أن أصالح على اليأس نفسي. ولذلك حين أقبلوا يطلقونني وحين ألقيت جميع السلاسل جانبا، أحسست أن تلك الجدران السميكة قد صارت لي معتكفا وأصبحت على وقفا؛ وكأني شعرت نصف شعور ساعتئذ أنهم أتوا ينتزعونني من وطن ثان. لقد اتصلت بيني وبين العناكب أسباب الصداقة، وكنت أراقب عملها الدائب، كما كنت أرى الجرذان في نور القمر. وليت شعري ماذا يدعوني أن أحس أنني دون هؤلاء جميعا؟ لقد صرنا ألافا جمعتهم وحدة المكان

وكنت أنا فيهم ملك الجميع، ولي الحول أن أقتل أني شئت! ولكنا تعلمنا أن نعيش معا هادئين، وذلك لعمري من عجيب الأمور! في ذلك السجن توثقت الألفة بيني وبين الأغلال ذاتها. وهكذا ينتهي بنا طول الاعتياد إلى ما نصير اليه فهأنذا الذي لا قيت ما لا قيت قد تنهدت حينما عادت حريتي إلي!

الخفيف



اكروبوليس اثينا

ومعبد بارتنون: Parthenon

للدكتور احمد موسى

يرى الواقف فى وسط اثينا على بعد ليس بقليل، مرتفعاً أشبه بتل منبسط القمة، تعلوه مبان ظاهرة، أكثرها ارتفاعاً معبد بارتنون.

والقاصد إلى هذا المرتفع يعرج إلى جهته الغربية ليستطيع الوصول اليه، فتنتهى به الطريق إلى مدخل بروبيلين المعتبر من أكبر الأعمال البنائية فى اثينا، مبنى كله من الرخام بين سنة ٤٣٧ وسنة ٤٣٢ ق. م.، على آثار بناء قديم، تحت إشراف المهندس منيسيكلس Mnesikles، واستغرق بناؤه زهاء الخمس سنوات. وهو بحالته الحاضرة لا يزال يعطى المشاهد أنموذجاً فذاً لعصر البناء الفنى فى اثينا، فضلا عن أنه مثال رائع لجمال البناء على مر القرون.

وهو بوضعه أشبه شيء بجبين الحسناء فى نظر المتجه إلى اكروبوليس، لأنه فى مقدمة ما يرى الداخل إلى المرتفع، يمر منه للوصول إلى المعابد.

وكانت شهرة بروبيلين وبارتنون شهرة فاقت كل وصف فى ذلك الحين، ومع أن عمل التجديد به لم يتم بعد، إلا أن الزائر لاكروبوليس لا يمر منه دون أن يأخذه العجب من عظمة إخراجه وإتقان بنائه وجمال أجزائه.

ويتكون الجزء الأوسط منه من مداخل بعضها خلف بعض على جانبيها أعمدة من الطراز الدورى تحمل سقفاً جملونى الشكل يبدأ بأفريز شمل نقوشاً ورسومات دون تماثيل، كما ذكر ذلك كل من سپن وهيلر Sponn & Wheler اللذين زاراه سنة ١٦٧٥.

ويلاحظ المشاهد للمدخل آثار الألوان وماء الذهب على أجزاء من رؤوس أعمدته، كما يرى أن الردهتين الأمامية والخلفية تتجهان بستة أعمدة دورية إلى الشرق والغرب، وبينهما يقع المدخل بفتحات كبار كانت فى ذلك الحين مما يمكن إغلاقه وفتحه حسب الرغبة بواسطة أبواب أشبه بأجنحة.

وعمل المدخل المؤدى إلى الباب الأوسط بحيث يتصل بالردهة الغربية، وله أيضاً ثلاثة أعمدة يونية الطراز على كلا الجانبين، وتتصل الصالة الداخلية من الشمال والجنوب ببناءين صغيرين زاداها قوة وهيبة جعلت من المجموع الكلى لبروبيلين فخامة ظاهرة، وطرازاً أنيقاً.

أما البناءان الصغيران فيسمى الأيمن منهما پيناكوتيك لأنه كان شاملا لمجموعات صور الفنانين فى ذلك الحين. والأيسر أصغر بكثير من الأيمن نظراً لما طرأ على العمل من التعطيل بسبب حرب البلوبونيس ولمعارضة حزب الكهنة فى امتداد البناء خشية أن يصل إلى حدود معبد اثينا نيكا وارتميس برورونيا فيقلل من شانهما، كلاهما يكمل الجمال الانشائى لبروبيلين. (انظر ش ١ من المقال السابق)

وهناك ردهات أخرى لم يتم بناؤها كما كان معروضاً وفق التصميم الذى وضعه منيسكليس للأسباب المشار إليها.

يسير المشاهد بعدئذ إلى معبد بارتنون الخالد الذى يعد أبهى بناء فنى فى العصر القديم كله، فهو وحيد فى مظهره العام وأبهة بنائه وعظمة تجسمه وضخامته دون خروج على أصول الانسجام فى أكمل معانيه.

وإذا شاهدت كل آثار اثينا فلن ترى من بينها بناء يفوق بارتنون؛ ومع أن الفارق بين مظهره الحالى ومظهره القديم شاسع جداً إلا أنه لا يزال يشع جمالا خالداً يملأ الروح بهجة ويفعم العقل روعة.

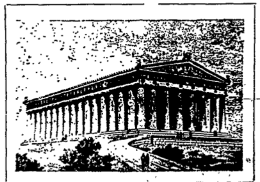
يقع بارتنون فى وسط جنوب المرتفع، فهو بموقعه هذا يشغل نقطة أشبه بمركز قوس دائرى يلتف حوله كل ما قام على المرتفع من مبان زادت فى عظمته وقوته (انظر ش ١ من المقال السابق).

كان أساس الحوائط وما يعلوه قليلا من الرخام الخالص عند ما هاجم الفرس أثينا وأشعلوا النار بالمرتفع، ولكن أدرك عصر بركليس تجدد بناؤه وجعل كله من الرخام.

قام بركليس ببناء هذا المعبد كما تولى بنفسه الانفاق على تكاليفه. أما أستاذا بنائه فكانا اكتينوس Aktinos وكليكراتس Kallikrates

وتعد حليات البناء الخارجية من أروع القطع الفنية التى عملها الفنان المظيم فيدياس Phedias فكانت معجزة سميت باسمه إلى اليوم، وضع تصميمها وأشرف على عملها واشترك فيها بيده ونفخ فيها من روحه. كان فيدياس صديقاً مقرباً لبركليس، فأفادت هذه الصداقة إلى حد بعيد فى إخراج معبد بارتنون على هذه الصورة من الجمال والروعة،

أقيم هذا البناء كما تشير الكتابات الخاصة به في القرن الخامس عام ٤٣٨ ، وافتتح عام ٤٤٧ ق . م . ، ومن هذا يتضح أنه تم في عشر سنوات بعد مجهود جبار استغرق كل أيام السنين العشر . وإذا علمنا أن هذه الأعجوبة البنائية الرائعة شملت ٦٢ عموداً كبيراً و ٣٦ عموداً صغيراً وحوالي الخمسين تمثالا بحجم الانسان الطبيعي لتحلية الموضعين المثلثي الشكل من الناحية الأمامية والخلفية المحمولة على الأعمدة لتكوين واجهتي السقف الجمالوني وبأفريزه البالغ طوله ١٦٠ متراً حول البناء من نواحيه الأربع ، واثنين وتسعين مستطيلا صغيراً انحصرت بين رؤوس الأعمدة وقاعدة السقف فكونت الافريز ؛ وأخيراً تمثال أثينا الذي بلغ ارتفاعه ثلاثة عشر متراً وصنع كله من العاج والذهب ؛ إذا تمثلنا كل هذا الانتاج الفني الهائل في بناء واحد تناسقت كل أجزائه وانسجمت كل مشتملاته ، وجدنا أنفسنا أمام عظمة قل أن يجود الزمان بمثلها مرة أخرى .



(شكل ١) منظر عام لمعبد بارتنون

أنظر إلى الأعمدة المتكررة دون املال ودون تشابه (ش - ١) ، وتصور إلى أي حد وصل فنانو الاغريق ، وإلى أي درجة بلغت القدرة في الانتاج الفني الذي يعد بحق آية من آيات القدرة الانسانية في أبهى ما وصل إليه تفكيرها وشعورها بالوجدان والجمال .

والاعمدة كما ترى عملت مسلوبة من أعلاها ، كما أنها لم تكن مستديرة صماء حفرت على طولها قنوات متوازية سارت على ارتفاع العمود فزادته حسناً وأكسبته حياة . حملت الاعمدة السقف الجمالوني الذي لم يبن فوقها مباشرة ، بل ارتفع قليلا ليترك مكاناً إلى المستطيلات الصغيرة الملتفة حول محيطه الخارجي البالغ طوله ١٦٠ متراً كما سبق القول ، وترى على هذا المحيط الافريز الشامل لتلك المستطيلات المملوءة بالمناظر البارزة الأخاذة لبصر المشاهد المدقق . اشتملت كلها ما يمثل كثيراً لمن حياة الاغريق العامة أو الخاصة . والمجال هنا لا يسمح بالتوسع في التكلم عنها أو الاتيان بمعظم صورها . ولما كانت دراستنا في هذا المقال اجمالية ، فاننا نأتي ببعض هذه القطع .



(شكل ٢) المتسابقون ، جزء من الافريز الشمالي لمعبد بارتنون

فاذا تأملت المتسابقين بخيولهم (ش ٢) أخذتك روعة غريبة تملك عليك مشاعرك عند ما تعلم أن هذا ما استطاع الفن الاغريقي إبداعه قبل المسيح بخمسة قرون .

انظر إلى الانشاء الكلي للقطعة وتصور أن هذا منحوت على الرخام ومع ذلك ظهر بهذه القوة التي مثلت صورة تنبض بالحياة . انظر إلى الخيل وهي جامحة وإلى تفاصيل أجسامها وهي في غاية من الدقة ، وإلى بروز عضلاتها التي لا تخالف أصول التشريح ؛ ثم تأمل الفرسان واذكر قدرة فيدياس في عظمة إخراجه لهم دون تناظر ودون تماثل ، لاشك ترى أن هذا دليل الغنى الفني إلى أبعد حدوده . تأمل عيون الفرسان وعيون الخيل تر اليقظة الكاملة في الاولى ، والوثوب التام في الثانية .



(شكل ٣) جزء من افريز معبد بارتنون

والصورة ٣ أوضحت لنا أربع نساء تحمل كل منهن آنية ، ظهرت أجسامهن كاملة مغطاة إلى أعناقهن بملابس امتلأت بالحياة ، فالتعاريج والتفاصيل التي شملتها هذه الملابس لا ترى لها نظيراً في قوة الاخراج ولم يترك الفنان رؤوسهن متشابهة ، بل جعلها تختلف الواحدة عن الأخرى مسجلا بذلك الحالة كما كانت ، فضلا عما ينجم عن ذلك من تقوية درجة الاستمتاع النظري ، لجعل الحيي تربط الشعر برباط

رفيع، على حين جعل الثانية بذؤابة صغيرة ظهر بروزها من خلف رباط الرأس، وتركت الثالثة شعرها مسترسلا على ظهرها، أما ابنتهن فقد أخفت الشعر تحت غطاء هرمى الشكل.

أما تفاصيل الوجوه فهي مع كونها تعبر عن جمال المرأة الاغريقية فانها تمثل الخشوع إلى حد بعيد؛ إنهن يحملن ما بأيديهن بقصد التوجه إلى المعبد. أما نبل الاخراج فهو ظاهر من طريقته فى تكوينهن الواحدة وراء الأخرى فى انسجام.



(شكل ٤) حاملو الاوانى

وصورة حاملى الأوانى (ش٤) تريك، فوق قوتها الفنية البعيدة إلى أى حد استطاع المثال أن يجعل من حركة سير الثلاثة رجال صورة رائعة لقدرته على الإخراج — تأمل صدر الرجل الأوسط تر الفنان لم يتركه دون حياة، فوضوح خطوط العضلات وبروزها مع ما تراه شاملا للقطعة من حسن التصوير ودقة الثنايا، كل هذا جدير بالاعجاب. إن غنى مادة فيدياس ظاهر واضح عند ما تتحقق من الكيفية التى سار عليها المثال فى تكوين ذراعى كل رجل وكيفية حمله الآنية فوق رأسه وسندها بيمينه.



(شكل ٥) مجموعة آلهة العدالة من الافريز الشرق لمعبد بارتنون

ومن قطع بارتنون الرائعة أيضا اللوحة (ش ٥) حيث ترى إلى أقصى اليسار رجلا جالسا يتحدث إلى شاب بجواره. مشيراً له بيسراه إشارة المستمر فى الحديث، وهو ينصت اليه، وإلى اليمين ترى ولداً عارياً يستند إلى ركبة أمه وهى تشير إليه لافتة نظره إلى شىء معين، وكأن مجاورتها تشترك معهما فى النظر، وهى فى مجموعها أوضحت ما أراده الفنان من تمثيلها آلهة العدالة.

أما صورة تيسويس Theseus (ديونيزوس) الجالس عارياً فهى وحدها درس كامل لجمال الانشاء وصدق التعبير وقوة الاخراج، فكل ما برز فيها من تفاصيل تشريحية مملوءة بالحياة وان المتحف



(شكل ٦) تيسويس (ديونيزوس ؟)

البريطانى ليفخر بوجود هذه القطعة وغيرها من تماثيل بارتنون التى لا تزال إلى الآن النماذج الفذة لفن النحت.

ومهما يكن من شىء فان بارتنون أعظم بكثير من أن يسجل بين سطور لا يتجاوز ما جاء فيها قطرة فى محيط فنه وجماله.

(لها بقية) **أحمد موسى**

من هنا ومن هناك

الاثنولوجيا الجديدة وهر هتلر

الأثنولوجيا (New Ethnology)أو علم الأجناس البشرية هو علم حديث لايزيد عمره على الخمسين أو الستين سنة ، وأشهر العلماء الذين ساهموا فى مباحثه هم هكسلى وولفرد بلنت وجريفث تايلر وسير . ف . بترى والأستاذ ج . ف هورابين الذى وضح بالرسوم خلاصة التاريخ لولز ثم الأستاذ العلامة إليوت سميث الذى يتعصب لمصر القديمة ويعترف أنها صاحبة الفضل فى تثقيف العالم . ولقد كانت الأثنولوجيا القديمة تحصر الأجناس البشرية فى السلالات الثلاث التى تنتسب إلى أبناء نوح وهم حام وسام ويافث ، وقد نسخت الأثنولوجيا الحديثة تلك النظرية البالية وأصبحنا نرد الشعوب فى أقاصى الأرض إلى أصول أقرب إلى الحقيقة وإن يكن الجدل لم ينته بعد حول هذه الأصول

وقد أثار العداء الناشب بين هر هتلر وبين اليهود الجدل من جديد حول الأصول الأثنولوجية وكانت النتيجة الهائلة أن طرد اليهود من ألمانيا وأن حرمت ألمانيا التزاوج على أبنائها من غير الآريين، وهى تخص بهذا التحريم الشعوب السامية وإن تكن تقصد - كما صرح ساستها - أنها تعنى اليهود من بين الشعوب السامية قاطبة ! !

وبعد أن نهضت اليابان نهضتها الحاضرة أصبح علماء الأثنولوجيا فى شك مريب من القيم الذهنية التى كانوا يخصون بها بعض الشعوب. ونحن لاتعنينا هذه القيم الآن وإنما أردنا أن نقدم للقارىء خلاصة مفيدة عن الأجناس التى تعترف بها الأثنولوجيا الحديثة

١ — فهم يرجعون الأصول الإنسانية إلى العصر الباليوليتى الأقدم وأشهر أناسيه هم : إنسان هيد لبرج والإنسان النيندر تالى وإنسان بلتدن ثم الإنسان الراقى الذى هو الجد الأول للشعوب

٢ — ثم يأتى العصر الباليوليتى الحديث وتقسم أناسيه إلى مجموعتين كبيرتين : المجموعة الكروماجناردية Cromagnard Types والمجموعة الجريمالدية Grimaldi Types . وهذه المجموعة هى مجموعة الزنوج وقبائل البوشمان والاسترالين والطسمانيين والاندمانيين

٣ — أما المجموعة الجريمالدية فهى بمجموعة الأجناس الراقية وتتفرع إلى ثلاث شعب : الأجناس النورديه والأجناس السامية . الأجناس المغولية

٤ — على أن بعض العلماء يطلق اسم (الجنس القوقازى) على سكان أوروبا وغرب آسيا ، ويقسم القوقازيين إلى (نورديين) وهم أهالى شمال غرب أوروبا ثم (أيبريين) وهم أهالى البحر الأبيض و (ألبيين) وهم سكان الألب والجبال الممتدة منها

٥ — وهناك أجناس مولدة (خلاسية) من النورديين والأيبريين أهمها الأيرلنديون والقلتيون والغاليون

٦ — وإذا ذكر الآريون فانما يجىء ذكرهم عند الكلام عن الفيلولوجيا (التى تعنى علم فقه اللغات) ويشملون الانجليز والفرنسيين والألمان والاسبان والأيطاليين والأغريق والروس وأهل أرمينيا . والفرس وشمال ووسط الهند ويسمون Indo-European أو Aryan Family

٧ — وتشمل شعبة الساميين المصريين والعرب والشآميين والفرس والسامريين والدرافيد (الهند) والسياميين وأهل ملايو

٨ — أما شعبة المغول فتشمل الهون والترك والمنغوليين والاسكيمو والأمرنديين واليابانيين والصينيين والتتار

٩ — ويتكون من أجناس المجموعة الراقية الكروماجارديه مزيج وسط يطلقون عليه (البرونيتيين) وهم شعوب الثقافة الهليوليتية

ولا يحسبن القارىء أن هذه الأجناس صافية مستقلة بأصولها محتفظة ببذرتها فقد تزاوجت كثيراً وتداخل بعضها فى البعض الآخر . ومن أنفع الكتب التى تفيد المستزيد في هذا الباب كتاب الأستاذ إليوت سميث (هجرة الثقافة فى العصور القديمة) (Migrations of Early Culrure)

د . خ

لويجى بيراندللو :

مات الأديب الايطالى العظيم لويجى بيراندللو منذ شهرين نخسرت فيه إيطاليا ملكا أكبر من الحبشة وامبراطورية أوسع من امبراطورية سبط يهوذا . وشتان بين فتح مغتصب ، وأدب خالد مكتسب !

لقد استطاعت إيطاليا أن تساهم فى الثقافة العالمية منذ القدم إلى اليوم بطائفة من الأدباء الأفذاذ الملهمين، ولولاهم لتأخر موكب الانسانية، ولتباطأت النهضة (الرنيسانس) عن تاريخها منذ خمسة قرون، ولاستطالت العصور الوسطى، ولتبدل مجرى التاريخ. وهذه الأسماء البارزة فى تاريخ الفكر الانسانى: فرجيل، هوريس، شيشرون، سنكا، دانتى، بوكاشيو، جاليليو، كوبرنيكوس رفائيل، سانازارو، كارو، كاسا، كاستليونى، ليوباردى، بترارك الخ. هى أسماء عظيمة لا شك، وقد ضم إليها ورقد إلى جانب أصحابها لويجى بيراندللو فزاد التراث وعظمت إيطاليا

ولد براندللو فى جيرجنتى إحدى مدائن صقلية وشب فى أسرة كثيرة المتاعب والخصومات، وقد ماتت أمه فتزوج أبوه وكان أباً شهوانياً مولعاً ببنات الهوى، وقد ظل متصلا بابنة عمته الأرمل برغم زواجه، وقد حملت منه سفاحاً فأرضاها بهبة مالية على أن تهاجر إلى بلد آخر

ويظهر أثر هذه الحياة العائلية المضطربة فى بيراندللو، وقد سجل فضيحة أبيه فى درامته (إكساء العراة) حيث يصور العلاقة الأثيمة بين الفتاة أرزيليا ومخدومها الذى شغف بها حباً واتصل بها ثم أولدها. فلما حاولت الانتحار ولم تستطعه أخف عليها مخبرو الجرائد ليتعرفوا سبب محاولتها الانتحار حتى اضطرت أن تعترف لهم بكل شيء ثم أفلحت آخر الأمر فى أن تنتحر.

وفى درامته (إيف - و - لين) يصور لنا شاباً مالياً يتزوج من الفتاة الجميلة (إيفلين) ثم يقع فى عسر مالى فيهرب ويتركها وقد ولدت منه طفلا جميلا - وتتصل إيفلين بمحامى زوجها فتتزوج منه وتلد له طفلة بارعة الجمال... وتمضى الأيام... ويعود الزوج الأول وقد هاجه الشوق إلى زوجته ولكنه يجدها متزوجة محاميه وقد ولدت له هذه الطفلة - وكان كل منهما يدللانها فيدعوها الاول (إيف) ويدعوها الثانى (لين) - وهنا تظهر براعة بيراندللو فى تصوير العواطف المتباينة فى قلب هذه المرأة وحيرتها بين حبها القديم وواجباتها الزوجية الحاضرة، وبين حبها لطفلها الاول الذى أصبح اليوم شاباً وطفلتها الاخرى من زوجها الآخر... ثم لا يسعها إلا الرضى بما قسم لها...

ولم ينبه ذكر بيراندللو إلا بعد إصداره درامته الخالدة (ماتياس باسكال) والتى يصور فيها حياة رجل ضج بالحياة وتبرم بزوجه وحماته فهرب منهما واعتزم الرحيل إلى الدنيا الجديدة. ولكنه مر فى طريقه على مونت كارلو بلد الميسر والمقامرة فرأى أن يجرب حظه على الروليت فربح أرباحاً طائلة - ولكنه قرأ فى الجرائد أن جثة غريق ظهرت فى النهر وأنها لرجل يدعى (ماتياس باسكال) فضحك ماتياس. وهنا خطر له أن يستغل الحادث وأن يعيش عيشة رجل مجهول طليق من الأوضاع الاجتماعية ولكنه سرعان ما يفقد شخصيته ويحس كأنه ميت حى!

وبعد صيت بيراندللو فعين أستاذاً للآداب فى جامعة رومة، ولكن مهنته الجديدة زادت فى متاعبه، فقد كان يعلم التلميذات فى الجامعة، وكن ظباء كلهن، واضطرمت الغيرة فى قلب زوجته، وكثيراً ما اتهمته بميله إليهن وغرامه بهن؛ وغلا هو فى التبرؤ إليها ولكنها ازدادت حقداً عليه بزعم غلها يده فى نفقته الشخصية حتى لم تكن تسمح له إلا بدريهمات لا تغنى... ثم تضاعفت غيرتها وساورتها الشكوك فكرهت أبناءها وقلبت بيتها جحيما لا يطاق، فاضطر بيراندللو آخر الأمر أن يلجأ بها إلى مستشفى الأمراض العقلية

وقد أرسل بولديه إلى الميدان فى الحرب الكبرى فأسر الأكبر وجرح الأصغر، ثم وصل إليه أبوه المفلس الأعمى من صقلية، فزادت أشجانه وتضاعفت متاعبه، ولا سيما بعد أن لفظت الألسن وولغت فى عرض ابنته التى اضطرت أن تقضى بقية حياتها فى دير بعيد منفرد بعد أن فشلت فى الانتحار غير مرة... ومن هذه الفذلكة السريعة يدرك القارىء كيف أثرت تلك الحياة المشجونة القلقة التاعسة فى كاتب إيطاليا العظيم، حين أصدر درامته الخالدة العبقرية (ستة أشخاص يبحثون عن مؤلف) والتى ملأها بكل مخاوفه وأحزانه

وقد تأثر بيراندللو بالكاتب الروسى دستوئفسكى، وبين دراماته وقصص دستوئفسكى صلات وثيقة. ولا نكاد نقرأ قصة أو درامة لبيراندللو إلا وتلمح أثر البطل راسكولنيكوف ومناظر (بيت الموتى) ماثلة فيها - وقد تأثر كذلك بالسيكولوجى النمسوى فرويد

وقد غادر منصبه فى الجامعة سنة ١٩٢٢ ليتفرغ للمسرح، وقد كان يصحب فرقته التمثيلية إلى مختلف العواصم الاوربية والامريكية ليباشر إخراج دراماته بنفسه

ومن أخلد دراماته وقصصه: هنرى الرابع - و - أنت تضحك - وزوجها - كوميديا الموت - وحصان فى القمر - والفخ - وشهوة الشرف... الخ.

ومما يؤخذ على بيراندللو إغراقه فى الخيال وتجزىء الشخصيات والغموض الشديد فى بعض مواقف دراماته المملوءة بالمنازعات

وقد نتناول بعض دراماته بالبحث والتحليل فى أعداد تالية

د. ح

البريد الأدبي

المصطلحات العسكرية في مجمع اللغة العربية :

تألفت في المجمع اللغوي الملكي لجنة لوضع كلمات عربية للمصطلحات العسكرية المستعملة في الجيش من حضرات الأساتذة الأب انستاس الكرملي وحسن حسني عبد الوهاب باشا والشيخ أحمد السكندري وسيادة حايم ناحوم أفندي ومنصور فهمي بك ، وقد روعي في تشكيلها أن تضم بعض ممثلي الأقطار العربية الأخرى للاستئناس بما اتبع في البلاد الأخرى ورغبة في توحيد المصطلحات في جميع الأقطار العربية .

ومما يذكر أن بعض هذه الأقطار مثل العراق عرب تلك المصطلحات منذ مدة وقد حصلت اللجنة على بيان بالمصطلحات العربية في تلك البلاد . وكان المجمع قد كتب إلى وزارة الحربية لموافاته بالمصطلحات العسكرية المستعملة في الجيش الآن والتي ينظر أن تستعمل فيه بعد زيادته وإعادة تنظيمه ، وقد ألفت وزارة الحربية لجنة لموافاة المجتمع بما يطلبه . وقد أرسل المجمع إلى وزارة الحربية خطاباً طلب فيه انتداب ضابط ملم باللغة العربية ليحضر الجلسات التي يعقدها المجمع للنظر في وضع عبارات عربية لعبارات التعاليم العسكرية

الاجتهاد في الأصول

قرأت ما كتبه الأستاذ علي الطنطاوي في الرد على ما ذهبت إليه من تجويز الاجتهاد في الأصول كالفروع ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم جعل للمجتهد أجرين إذا أصاب وأجراً واحداً إذا أخطأ، ولم يفرق بين أصول وفروع ، بل أطلق الأمر إطلاقاً ، وفتح باب الاجتهاد في الأصول والفروع معاً

وقد أنكر الأستاذ هذا أشد الإنكار لأنه يخالف ما استقر عليه الرأي بين المتأخرين من علمائنا في الاجتهاد ، ويخالف تعريفهم له بأنه استنباط الفروع من الأصول ، فيخرج من هذا المسائل الكلامية لأنها ليست من الفروع ، ولأن الحق فيها واحد فمن أخطأه فهو آثم ، فإن كان الخطأ فيما يرجع إلى الايمان بالله ورسوله فالمخطيء كافر

وما كنت أظن أن الأستاذ يؤاخذني بهذا بعد أن قرأ ما كتبته في موضوع الاجتهاد ، وهو موضوع سأعود إليه بعد في مجلة الرسالة الغراء ، فإني فيما كتبت في هذا الموضوع خارج على أولئك العلماء من المتأخرين ، فلا يصح أن يحتج على برأيهم في الاجتهاد ، وتقييدهم له بالفروع دون الأصول

فالاجتهاد عندي بذل الجهد في استنباط الأحكام من النصوص الشرعية ، اعتقادية كانت تلك الأحكام أو عملية

وليس بصحيح ما ذهب إليه الاستاذ من أن المخطيء في المسائل الكلامية آثم ، لأن الخلاف بين أهل الكلام ليس مقصوراً على الخلاف بين جماعة أهل السنة وغيرهم من الفرق التي يقال إنها آثمة . فهناك خلاف أيضاً في علم الكلام بين أهل السلف والخلف من جماعة أهل السنة ، وهناك خلاف أيضاً بين الخلف من الاشعرية والماتريدية ، وهو خلاف لا إثم فيه لقيامه على الاجتهاد . وأنا لا أزيد على هذا إلا أني لا أفرق فيه بين أهل السنة وغيرهم

عبد المتعال الصعيدي

كتاب سياسي خطير

صدر أخيراً بالانكليزية كتاب سياسي عنوانه « عند الصفر » Zero Hour ؛ بقلم رتشارد فرويند R. Freund ، وهو كاتب انكليزي من أصل نمسوي ، عرف أخيراً بقوة كتاباته السياسية وحسن تقديره للحوادث والنتائج ؛ ويتناول المؤلف في كتابه مواطن الخطر في أوربا الحالية وفي أفق السياسة الدولية بصفة عامة ؛ ولا يعني الكاتب بالنظريات والمبادىء النظرية ، ولكنه يعني بنوع خاص بالحقائق العملية وبالحوادث الواقعة ؛ وهو يعلق أملاً ضئيلاً على عصبة الأمم وعلى مستقبلها وما يمكن أن تؤديه في انقاذ العالم من اضطرابه الحالي . ويتحدث عن كل مسألة

وكل دولة فى أوروبا ، وعن الحوادث والقوى التى تضطرم بها افريقية والشرق الاقصى فى الوقت الحاضر ؛ وهو أكثر ميلا إلى التشاؤم ، ولا يرى فى النظم والمجتمعات الحالية سوى معترك من الأنانية القومية . ويخشى أن يسفر هذا الاضطراب عند أية لحظة عن الانفجار الذريع الذى يحمل العالم إلى مصير كله الويل والدمار

ويعنى المستر فرويند بمركز المانيا الهترلية بنوع خاص . ويرى أنها تمثل الآن طوراً من أطوار الطموح والتوسع ، لابد له أن ينفجر آجلا أو عاجلا ؛ ومن حسن الحظ أن ميول هتلر الشخصية وبغضه المأثور لروسيا والبلاشفة يحول دفة المعترك اليوم إلى جهة الشرق وإلى الجنوب الشرقى ؛ ولكن إذا مات هتلر ، أو إذا استطاعت روسيا أن تسحق تحديه ، فقد تتجه ألمانيا إلى ناحية أخرى ، وقد تتجه إلى الامبراطورية البريطانية . ويرى مستر فرويند أن ألمانيا الهترلية قد بدأت بالفعل تتجه إلى مناوأة المصالح البريطانية فى كثير من المواطن ، وأن السياسة الانكليزية تسيء صنعاً إذا هي لم تعتبر بهذه الحقيقة وآمنت بوعود هتلر وتأكيداته ؛ وعلى أى حال فان المصاعب الداخلية التى تتخبط فيها ألمانيا الآن كفيلة بأن تشحذ سياسة العدوان الألمانية وتدفع المانيا فى طريق الحرب والاعتداء

أما عن إيطاليا فيرى مستر فرويند أنها تنمو وتتقدم باستمرار ، وأنه لابد أن تأتى الساعة التى تضطر انكلترا فيها إما إلى الحرب وإما إلى التراجع ، لأنها لا تستطيع أن تنزل عن سيادتها فى البحر الأبيض المتوسط دون المخاطرة بكل مركزها فى إفريقية والشرق الأدنى . كذلك يتوقع الكاتب أن تضطر انكلترا قريباً إلى الوقوف فى وجه اليابان بشيء من الحزم لأنها بدأت فعلا تهدد منطقة المصالح البريطانية . ويعرض مستر فرويند نظرياته بقوة وصفاء ويدعمها بكثير من الحقائق والحوادث الواقعة

رأى جديد فى أسباب الثورة الفرنسية

يرى البحث الحديث رأيا جديدا فى الثورة الفرنسية وفى أسبابها ، فبينما تجمع الروايات والبحوث القديمة كلها على أن الثورة ترجع إلى أسباب اقتصادية واجتماعية وسياسية فقط ، إذا بالبحث الحديث يرى أنها ترجع أيضا إلى جهود الجمعيات السرية الخفية ولا سيما محافل البناء الحر « الماسونية » وأن هذه الهيئات السرية قد لعبت من وراء الستار دورا عظيما لاضرام نارها

وقد ظهر أخيرا كتاب بالانكليزية عنوانه : « لويس السادس عشر ومارى انتوانيت قبل الثورة » Louis XVI and M. Antoinette before the Revotution بقلم السيدة نستا وبستر N. Webster وفيه تميل المؤلفة إلى الأخذ بهذا الرأى ، وتفصل العوامل والظروف الخفية التى كانت تحيط بهذين الملكين التعيسين قبل نشوب الثورة . وترى السيدة وبستر أن المساعى الخفية التى قامت بها الجمعيات السرية وراء الستار كانت كالأسباب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية عاملا خطيرا فى نشوب الثورة الفرنسية ؛ ومن رأيها أن قضية عقد الملكة الشهيرة التى ثارت حول اسم الملكة واتهم فيها الكردينال دى روهان والكونت كاجليوسترو ، إنما ترجع إلى تدبير هذه القوى الخفية . وإن كاجليوسترو لم يكن سوى داعية خطر يحمل رسالة هذه القوى ، ويحيك شراكه من وراء الكردينال . ولقد كانت هذه القضية أو هذه الفضيحة من أعظم أسباب الثورة ، ومع أن السيدة وبستر تعدد عيوب مارى انتوانيت ووجوه ضعفها كامرأة وملكة ، فانها تدافع عنها فى موطن الشرف والكرامة ، وتقول إن الدعاية الواسعة التى أثيرت حول اسمها لتشويه سمعتها الشخصية لم تكن سوى مزيج من الأكاذيب والوشايات المدبرة وأن مارى انتوانيت كانت امرأة وافرة الشرف والعفة ، وملكة وافرة الكرامة والعقل .



رسالة المنبر الى الشرق العربي

للأستاذ فليكس فارس

يقول الله فى صفة بقية من القوم الصالحين من القسيسين والرهبان « وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » وقد قرأت كثيراً من هذا الكتاب فترامت لى هذه الآية ، وتراءى الأستاذ فليكس فارس بقية من هذه البقية الصالحة ، فهو طالب حق لا يغفل ، وساع إلى غاية لا يمل . والكتاب مجموعة من أدب الأستاذ تربط بينها هذه الرابطة : طلب الحقيقة مبرأة من العصبية لما يخالفها ، وسعى إلى غاية مبدأة فى الطلب ، يحتمل فى سبيلها إرهاق الفكرة للبلوغ ، وحرمان النفس للسمو ، والعدل بين المتخالفين لاقرار الحق وتثبيته والعلو به عن نوازع النفوس وشهواتها ، وهو فى ذلك فارس كاسمه متدفع متدفق ، مأمون العثرة ، حديد النظرة ، ثابت الجنان لا يرهب ولا يتخلف

وقد تعاطى - فى كتابه - القول فى كثير من الأدباء ، وتكلم فى أدبهم الكلام القسط ، وكشف ببيانه عن الحقيقة الأدبية التى انطوى عليها أدبهم ، وعن الحقيقة الفنية التى اشتملت عليها جوانحه ، وأفصح عن الحقيقة الشرقية التى تعمل فى حياة الشرق عمل الدؤوب والاستمرار لتجعل فى ضعفه قوة عضلة تستعصى على الأنياب الأجنبية التى تزعم أنها (تستعمر) أرضه وبلاده ونفوس أهله وبنيه . فجزى الله (فارس الحلبة) خير ما جوزى مجاهد عن أمته .

وقد سمى الأستاذ الفارس كتابه « رسالة المنبر إلى الشرق العربى » وأصاب ، فهو فى جوهره يحمل الأصل المشرق الذي تكون منه الرسالة . ففيه الشمول والتعدد واختلاف الأغراض وما يتبع ذلك مما يمتاز به الكاتب من جودة الفكرة ، وجلاء العبارة ، وحسن القصد ، وبلاغ الغاية . فأنت من أول فصل مندفع إلى قراءة البقية لما تجد من الروعة واللذة والفائدة .

بدأ رسالته بقوله « نحن وأنتم » ، وهى أول رسالة إلى البلاد العربية مصر والشام والعراق وأرض الحجاز فهو فيها عربى قد غلبته عروبته على هواه وعلى عصبيته ، يدعو دعوة الحق لليقظة والاتحاد والتعاضد والتخلص من آصار العبودية القاتلة التى تتلجلج فى أوهامها تلجلج المحموم ، ثم يتدافع من ثم إلى رسالته فى الثقافة الشرقية والعربية ، فهو عربى مفكر يقظ مؤمل هاد إلى حقيقة الثقافة الشرقية العربية ، عامل على ربط الأول بالآخر من هذه الأمة ، داع إلى نبذ الأوهام المتمكنة من وباء الجهل القديم ، والسمو عن التورط فى التقليد الذى لا يرد بنا إلا موارد التلف . ثم يقف بك على باب من أدب (جبران) وهو كتاب وحده فيه من الفكر ما تختلف عليه العقول ، وحسب القارىء أن يقرأه فان فيه روح الكاتب متجلية كاشفة ناقدة بصيرة عليمة بفنها وإحساسها قادرة على الابانة عن خلجاتها خير الابانة .

ثم الرسالة الخامسة وهى إصلاح الحياة البيتية ، وهو من أدق أبواب هذه الرسالة ، يبين عن الفكرة الاجتماعية المخلصة التى تدفع الأستاذ إلى البصر والتفكير والنقد والتمييز ، ولولا ما يحول بيننا وبين الافاضة لأثبتنا بعض هذا الباب وعقبنا ، فهو على جلالته فيه مواقع من القول لو عاد اليها الأستاذ بثاقب فكره ومسدد نظره لا نكشف له الحق الذى ينشده ويبغيه .

وأما الرسالة الأخيرة فهى « المهود فى الشرق والغرب » وهى التى كتبها بالفرنسية ونشرها ثم ترجمها إلى العربية ، فلا غرو أن كانت هذه الرسالة « هى رسالة الشرق والغرب » فانها بنيت على أصل ثابت من نظرة الشرق المتحفز بشرقيته فى الحياة الغربية التى انتقلت إليه انتقال الوباء . وأهم ذلك مسألة النسل ، وقد كان الرافعى قد كتب « رؤيا فى السماء » ، فترجمها الأستاذ الفارس واستخرج منها الحكمة الاسلامية فى الزواج والنسل وما أعجزت به هذه الشريعة فكر الانسان فى إصابتها مكان الداء على اختلاف الزمان والمكان وانطوائها على الدواء الذى لا يدع للعلة ما تتعلق فى الجسم الاجتماعى

فهذه هى رسالة المنبر إلى الشرق العربى ، وهى قبس من اشراق هذا الشرق المتلفع المتجافى ذى الأهوال والإسرار

ثمن الكتاب عشرة قروش ويطلب من إدارة الرسالة ومن المكاتب الشهيرة .

(ش)

نظرات تاريخية دستورية

للأستاذ حسن صادق

١٨٠ صفحة من القطع المتوسط
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

قلما يعالج الباحث القانونى فى مصر موضوع البحث الدستورى ، وقلما يتناول الانظمة النيابية فى العالم بأى درس أو بحث . وإذا استثنينا بضع مذكرات موجزة يضعها أساتذة القانون لطلبتهم . فاننا نرى هذا الميدان خلوا من أقلام الباحثين .

وأخيرا يطالعنا الأستاذ حسن صادق بكتابه « نظرات تاريخية دستورية » ويشمل هذا الكتاب ثلاثة بحوث مستفيضة لثلاثة من دساتير العالم الهامة التى تكونت بعد الحرب العظمى وهى : الدستور الألمانى ، والنمسوى ، والتشيكوسلوفاكى .

مهد الأستاذ لكتابه بمقدمة قصيرة ، أوضح فيها كيف جاهدت مصر فى سبيل دستورها على يد زعيميها ، وبين فيها كيف كان لزاما على المصرى أن يعرف ماله من حقوق وما عليه من واجبات ، وأشار فيها إلى أن الغرض من كتابه هو المساهمة فى تربية الشعب تربية دستورية صادقة .

ثم بدأ الكاتب بدراسة الدستور الألمانى دراسة دقيقة ، فتكلم أولا عن الوجهة التاريخية فى ذلك الدستور منذ أن سنه بسمارك فى ابريل سنة ١٨٧١ فخلص ذلك الشعب الذى رسف فى قيود الرجعية زمنا طويلا ، والذى آده الظلم وأضنته الآلام من نير الظلم ووطأة الاضطهاد ، وعلمه كيف يحكم نفسه بنفسه ، وكيف يصبح سيداً لا مسوداً ، وكانت ألمانيا إلى قبل الحرب مكونة من دويلات صغيرة ، وكانت السيادة فى دولة الريخ ممثلة فى مجلسين : الأول وهو البندسرات ويتكون من مندوبى أمراء الدول . والثانى الرخستاج وينتخب من الشعب . ثم الأمبراطور وهو الرئيس الأعلى للدولة .

واستمر الحكم على هذا النظام إلى أن شبت ثورة سنة ١٩١٨ . وأخذ الشعب يعمل بجد وعزم حتى سن لنفسه دستوراً ، يذهب فى الديموقراطية إلى أبعد حد . وأنشأ سلطاناً نيابياً يعبر عن سلطته حق التعبير ، وجعل نفسه الحاكم العام فى كل خلاف يقع بين عناصر الدولة ، وبذلك جعل الشعب الحكومة تستمد منه سلطانها وتدين له بمناصبها إن شاء أسقطها ، وإذا شاء أبقاها ، وفى ذلك اطمئنان الشعب .

ثم انتقل الكاتب إلى الكلام عن الدستور النمسوى فبين لنا كيف تخلص ذلك الشعب بعد جهاد طويل من أغلال الامبراطورية النمسوية التى قيدته زمناً طويلا . فما أشرق عام ١٩١٨ حتى هب الشعب يطالب بحقوقه . فسن لنفسه دستوراً ووضع السلطة كلها فى يد المجلس الوطنى ، وهذا المجلس له حرية مطلقة فى تحديد انعقاده وتأجيله ولا يمكن لرئيس الدولة أو الوزارة التدخل فى ذلك . وفى أثناء الحل والعطلة تقوم مقامه لجنة تراقب أعمال الحكومة . . وإذا خالف الرئيس أو الوزارة قواعد الدستور حوكموا أمام المحكمة الدستورية . والدستور النمسوى منظور فيه إلى الدستور الألمانى ومقتبس منه فى بعض أجزائه .

أما الشعب التشيكوسلوفاكى الذى نزلت به ضروب الظلم ، وصنوف الارهاق أيام الامبراطورية النمسوية فانه انتهز فرصة انهزامها سنة ١٩١٨ ، فأعلن استقلاله ، وسن لنفسه دستوراً مقتبسا من دساتير العالم الأخرى . ونص فيه على وجوب دوام الحياة النيابية وذلك بتأليف لجنة من ٢٤ عضواً ستة عشر من الشيوخ وثمانية من النواب ، تزاول عمل البرلمان فى عطلته وذلك لضمان وجود السلطة التشريعية حتى لا تستأثر السلطة التنفيذية بالأمر .

ومما يلاحظ فى الكتاب أن الدساتير الثلاثة التى اختارها الاستاذ متشابهة إلى حد ما ، ويشمل ذلك التشابه أيضاً نظام الحكم فى هذه الدول الثلاث (الحكم الجمهورى) فلو أن الكاتب الفاضل اختار لنا صوراً مختلفة من الدساتير العريقة الأخرى التى يمكن للشعب أن يفيد من تجاربها الدستورية لجاء الكتاب جامعاً شاملا .

والكتاب - فى دقة آرائه وبحوثه - مجهود موفق نشكره للاستاذ ، وقدوة طيبة نرجو أن نجد فى مصر من يقتدى بها ، وثمرة تبشر باهتمام الكتاب بالناحية الدستورية ، ومساهمتهم فى تربية هذا الشعب تربية دستورية صادقة .

احمد ف . م

التلميذ

لبول بورجيه

ترجمة الأستاذ عبد المجيد نافع

لعل من فضول القول أن يتحدث متحدث عن الفراغ الذى ملأته ترجمة هذه القصة إلى العربية ، فما أشد ما كانت تمتلىء قلوبنا أسفاً وحسرة حينما نرى الدنيا تتحدث عن بول بورجيه ، ونسمع بأدبه وترى فى قصته الخالدة Le Discible مثلا من أروع المثل للقصص المفتن الدقيق ، والأدب العالى الجليل ؛ ثم تلتفت حولنا ، فنرى مكانه فى العربية خالياً إلا من كلمات عنه طائرة هنا وهناك ، لا تمثل فى ذهن القارىء العربى أدبه ، ولا يمكن بطبيعة الحال أن يجد فيها ذلك المتاع الفنى المهذب ، أو يستشعر لقاءها تلك اللذة العقلية السامية التى يبتعثها فى النفس أدب ذلك الأديب .

وقصة التلميذ التى بين يدينا هى ، فيما يقول بعض نقاد الأدب الفرنسى ، أروع ما كتب بول بورجيه وما تحسبهم أطلقوا هذا اطلاقاً إلا أنها خير ما يمثل مذهبه فى كتابة القصة ، فقد أبدع فيها أيما إبداع فى عرض الدقائق النفسية عرضا فنياً خلابا ، وتحليل الأمزجة العقلية المعقدة تحليلا عبقريا رائعا ، حتى لا يكاد يفلت منه عنصر

من العناصر التي تكون الشخصية ، على ما فيها من غموض وإبهام وتصوير ذلك في صورة فنية منسقة مضطردة ، لا يحس القارىء فيها نبوة ، ولا يلمح بها شيئاً من الصنعة المتكلفة ، أو التلفيق البغيض .

وهو في هذه القصة يعرض شخصية شاب من شبان القرن التاسع عشر ، وهو من أعقد العصور فيما أحسب إذا اعتبرنا التأثيرات المختلفة ، والنزعات المتباينة ، والاتجاهات الغريبة التي تعرض لها الفكر الأوربي في تلك الفترة من الزمن ، وامتحن بها محنة ظهر أثرها في جميع مجالات الحياة ، فلا يدع شيئاً مما يكون الشخصية حتى يسوقه في سياقة الفنى الرائع ، فاذا أتم عرض شخصيته في صورة فيلسوف من فلاسفة ذلك القرن . قد فني في الفلسفة حتى صار صورة حية منها كر عليه كرة أخرى ، فاذا بذلك كله آثار سطحية ، وإذا بتلك الصبغة الفلسفية وهذه الصوفية الدلية لم تستطع أن تغير من كيانه الداخلي أو تنسخ ذلك الميراث الذي ورثته الانسانية الحاضرة عن أناسيها الأولى . فما تزال له من تحت هذا الظاهر الوقور المتزن غرائزه الطبيعية الكامنة التي كان يبدو بادىء الرأي أنها ضعفت وتلاشت بتأثير تلك الحياة الفلسفية الخلابة ، ولكنها لم تلبث أن وجدت في البيئة التي تلائمها : ورأت من حولها موضوعا لبروزها ونشاطها حتى ثارت ثورتها ، وخرجت من مكمنها ، ملونة ألواناً . . بتأثير المؤثرات المختلفة التي كونت صاحبها ، ولا تزال تعمل فيه وتوجه في طريقها وفي هذه الألوان الغريبة التي عملت في تكييفها شتى العوامل ، وفي اظهارها مفتتة متموجة ، تتجلى عبقرية بورجيه وقدرته الفائقة على تحليل الحالات النفسية المعقدة إلى دقائقها ، وتصويره لها في أروع صورها وأدقها ، في أسلوب بياني خلاب .

فما من شك في أن هذه القصة من أعجب المثل الأدبية الخليقة بالخلود ، الحقيقة بأن تمثل في كل لغة تقيم للأدب العالي وزناً ، فللأستاذ المترجم أخلص التهنئة على هذا التوفيق الذي صادفه في ترجمتها ، وأجزل الشكر على الجهد البليغ الذي بذله فيها ، حتى جلاها في أسلوب عربي رائق ، ومظهر من النشر أنيق .

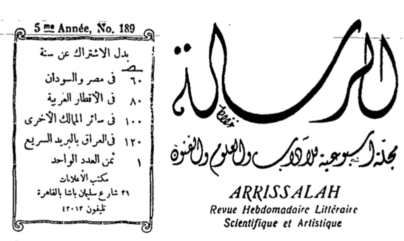
° ° °

وبعد فقد كنا نود ، مع هذا الصنيع المبارك المشكور ، لو أن الأستاذ المترجم عني بأن يبرز إلى اللغة العربية صورة من هذا الأثر الفني الخالد دقيقة كاملة بتفصيلاتها . كما أبرزها جميلة وافية في جملتها . ولكنه اتخذ لنفسه مذهبا في الترجمة وضع فيه الأدب ودقة النقل في المكان الثاني . ووضع فيه جمهور القراء في المكان الأول : فهذه صورة لا تتفق مع تقاليد جمهورنا ، إذن يجب أن تبعد ! وهذه مسألة فلسفية أطنب المؤلف في عرضها حتى لا تلائم عقلية جمهورنا ، إذن يجب أن تبتر ! وهذا إسهاب في التحليل والتصوير يبعث السأم إلى نفوس جمهورنا ، إذن يجب أن ينفى ! ولا بأس بشيء من ذلك مادام سياق الرواية مضطرداً ، ووقائعها متسقة ، وفكرتها محققة . هذا هو مذهب الأستاذ المترجم عرضه في مقدمة ترجمته . وعندنا أن هذا المذهب إن جاز أن يتخذ في نقل بعض الآثار الأدبية الأخرى فلا يجوز أن يتخذ في هذا الذي سماه الأستاذ المترجم نفسه خالداً ، والذي صدر عن نابغة كتاب فرنسا حقا ، فهو أثر عالمي لا ينبغي أن يخضع لسيطرة بعض هذه الاعتبارات البسيطة . على أنا لا نمتنع مع هذا أن المسألة دقيقة كل الدقة ، وأن الفصل بين المذهبين ليس من الأمور الهينة التي يتقبلها الضمير دون معاناة .

أما أسلوب المترجم فهو على ما نعرف منه : عربي جميل ناصع ، لا ابتذال فيه ولا إبهام . وقد وفق - على حد قوله - إلى إحلال المعاني الغربية في معان عربية . على أنا كنا نود أيضا أن لو برىء من مثل هذه العبارة : « عالما لا يشق له غبار ، ولا يصطلى له بنار ، فليس هذا فيما نحسب معنى عربيا ، بل هو دمنة بدوية .

وهناك هنوات لغوية لا نرى بأسا في أن نشير إلى شيء منها مثل قطع همزة الابن في صفحة ٤١ ، ومثل قوله (ص ٥٥) أصبحت وأمي وحيدين ، والصحيح الفصل في مثل هذا بالضمير المنفصل فيقال: « أصبحت أنا وأمي وحيدين » ، ومثل قوله (ص ١٩) « قد تلقى خمسة أو ستة خطابات ، وليس هذا فيما أحسب بناء عربيا ، وإن كان من الممكن أن يخرج له وجه نحوي ، والعربية المستقيمة تقول : خمسة خطابات أو ستة وهذا على كل حال أمر هين يسير ، لا يغض من القيمة الأدبية لذلك الصنيع العظيم .

« الحاجري »



5 me Année, No. 189

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٦٠ في مصر والسودان

٨٠ في الأقطار العربية

١٠٠ في سائر الممالك الأخرى

١٢٠ في العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

Lundi - 15 - 2 - 1937

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٢٤٥٠

العـــدد ١٨٩ « القاهرة في يوم الاثنين ٤ ذى الحجة سنة ١٣٥٥ — ١٥ فبراير سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

٨٠١٦

الحيـــاة والقيود

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

قلت لصديق ونحن خارجون من السينما — أو لعلنا كنا داخلين فما أذكر الآن : —

« يا أخي أحسب أن من الخسارة علينا أننا خلقنا في هذا الزمان ، ولو تأخر بنا الحظ جيلا آخر لكان عيشنا خليقاً أن يكون أطيب وأرغد ، فان هذا عصر انتقال لم تستقر فيه الأمور على حد مريح »

فوافق واستطردنا إلى حديث آخر . ولكني ظللت أفكر فيما قلت فبدا لي أني أخطأت . ولا نكران إن زمننا هذا زمن انتقال ، ولكن هذا حال كل زمان ، فما تلزم أمور الحياة حداً تنتهي إليه ولا تكون قط على حال لا يتغير أو يتبدل . وكل عصر عصر انتقال . والتحول هو قانون الحياة فلا وقوف ولا رجوع ، لأن هذا وذاك مستحيلان في الحياة . ولو كنا خلقنا في زمن غير هذا — قبله — لكنا أحسسنا ما نحسه الآن من أننا في عصر انتقال وأننا نعاني من جراء ذلك اضطراباً وقلقاً وقيوداً كثيرة تثقل علينا ونعتقد أن الأيام ستصدعها عن الناس وتعفيهم

منها . ولتوهمنا أن الناس حينئذ سيكونون أسعد وأرغد عيشاً وأكثر حرية وأقل شعوراً بالتقلقل والاضطراب والحيرة بين القديم المشنوء الذي يتزلزل والجديد المأمول الذي بدت بشائره .

وحضرني وأنا أفكر في هذا مثال قريب ، فقد كنا في الجيل الذي مضى نسخط على الحجاب وما يقتضيه من التفريق بين الرجال والنساء ، وكانت بشائر السفور قد بدت ، ولكن أملنا يومئذ في إدراك عهده والانتفاع به قبل أن تعلو بنا السن وتفتر الحيوية ويفسد علينا الأمر كله — كان يبدو لنا بعيداً . وقد أدركنا زمن السفور بأسرع مما كنا نتصور ووثبنا إليه في أوجز مما كنا نقدر ، وقبل أن ترتفع أسناننا وينضب معين الحيوية فينا ، غير أنا بعد أن صرنا إلى هذا الحال الجديد الذي كنا نحلم به ونتطلع إليه ونتخيل أن الحياة ستكون به أهنأ وأطيب — لم نرض ولم نقنع . ولسنا الآن في حاضرنا ننظر إلى ما كان بل نحن ننظر إلى تيار الزمن واتجاهه ، ونقول إنه يتحدر إلى ساحة من الحرية أوسع وأرحب . ولاسيما بعد أن عرف الانسان ضبط النسل . والشجرة — كما لا أحتاج أن أقول — تعرف بثمرها ، فحيث لا توجد ثمرة لا يخطر للمرء أن هناك شجرة فهي غير موجودة فيما يعلم وإن كانت في الواقع هناك

لا . . لم نخسر بأن خلقنا في هذا الزمان . وليست العلة أننا موجودون في زمان دون آخر ، بل العلة أن العمر إلى انتهاء وأن الحياة إلى نفاد كائنا ما كان الزمن الذي نحن فيه . ولا خير في تقطيع النفس حسرات على ما عسى أن يكون الغيب منطوياً عليه ، وأحجى بالانسان أن يقصر همه على حاضره فانه هو الحقيقة التي يضيع كل شيء اذا هو ضيعها ، ومهما يبلغ من اتساع نطاق الحرية في المستقبل فان حياة الجماعة لا تنتظم إلا بالقيود والحواجز والاسداد . وستظل هناك قيود من ضروب شتى .

ومع ذلك ماذا ينقصنا من الحرية في زماننا هذا . . ألسنا نصنع ما نحب كما نحب وحينما نحب . . ولا شك أن هناك قيوداً وأغلالا غير قليلة أو هينة ، ولكن هذه القيود هي التي تكسب الحياة الطعم وتفيدها المزية والفضيلة . ولست أحاول أن أعزي نفسي بهذا الكلام أو أغالطها به بل أنا أومن بأن الأمر كما أقول والحال على ما أصف

وتصور أن الماء المنحدر من الجبال أو غيرها لم تعترض طريقه الاسداد ولم يمنعه شيء أن يظل يتدفق وينتشر على وجه الأرض حتى يذهب أو ينتهي إلى البحر ، أكان من الممكن في ظنك أن تتكون بحيرة مثلا . . وقد لا تكون ثم حاجة إلى البحيرة وقد تحتاج الجماعة في وقت ما إلى محوها من الوجود ، ولكن هذا لا يؤثر في القضية ولا ينفي أن البحيرة انما تتكون بفضل الاسداد التي يلقاها الماء وهو يجري

والطيارة التي تحلق في الجو وتنقلنا إلى حيث نحب وتقصر المسافات وتطوي الأبعاد والتي نعدها من آيات هذا العصر ، كيف كان يمكن أن تفعل ذلك لولا مقاومة الهواء لدفع المحرك ؟ . بل كيف كان يتسنى أن تتحرك لولا هذه المقاومة . ولست أعرف شيئاً في هذه المسائل العلمانية فاني من أجهل خلقه سبحانه وتعالى وتنزه عن العبث ، ولكني التفت إلى هذا الأمر يوماً وكنت في طيارة وإنا فيها لمسرورون مغتبطون بهذا التحليق وإذا بها تسقط كالحجر مائة وخمسين قدماً كما قيل لي فيما بعد ، وكانت هنيهة قصيرة جدا ، ولكنها على قصرها الشديد كانت أقسى ما جربت في حياتي ، فقد أحسست أن قلبي صار في حلقي من فعل السقوط المفاجيء لا من الخوف فما اتسع الوقت لخوف أو رجاء . ثم عادت الطيارة فمضت بنا في طريقها وكرت إلى مثل الارتفاع الأول فلم أفهم سبب هذه السقطة المزعجة ، فلما نزلنا كدت أنسى أن أسأل عن السر فيما حدث ، ولكني تذكرت بعد أن مشيت خطوات فارتددت إلى الطيار فقلت له يا أخي قد سقطنا في الهواء فما سبب ذلك ؟ قال هل أحسست شيئاً ؟ قلت كيف لا أحس وقد كادت أنفاسي تنقطع . ؟ قال لقد صادفنا فراغاً . . قلت كيف واستغربت فبين لي أن بعض طبقات الجو تخلو لأسباب شتى — نسيتها — من الهواء فتصبح فارغة ، فاذا دخلت الطيارة منطقة الفراغ لم تستطع أن تجتازها لأن الهواء هو الذي يعينها بمقاومته على الطيران ، ولهذا تسقط حتى تخرج من المنطقة الفارغة فيتيسر لها أن تمضي في

طيرانها وذكر لى أن المنطقة التى صادفناها كانت من أكبر ما التى من الفراغ مذ ركب طيارة

وقد علق بذهنى هذا ودار فى نفسى من يومئذ فأضفته إلى ما كنت أعرف من فضل المقاومة بل ضرورتها فأنى عاجز عن تصور حياة لا يلقى فيها الحى مقاومة . وكيف تكون يا ترى هذه الحياة إذا أمكن أن توجد حياة على هذا النحو . . لا أدرى ولا أحسب أن أحداً يستطيع أن يزعم أن فى وسعه تخيلها . . ماذا يدفع فيها إلى العمل ويغرى بالسعى . . ويبعث على الطموح . . الذى هو الوسيلة إلى حفظ النوع فى الدنيا ؟ كيف يكون حينئذ ولا مقاومة هناك ولا عائق ولا صعاب ولا عراقيل ولا حواجز من العرف أو القانون أو غير ذلك . . أتراه عبثاً ومسلاة . . وكيف تكون له لذة اللهو ومتعة العبث ومزية التسلى وهو لا يمكن أن يوجد أصلا . . أم ترى ينحط فينقلب مجرد رغبة عارضة واشتهاء زائل بزوال دواعيه الوقتية . . وكيف تنشأ الرغبة وماذا يشحذ الشهوة ولا شىء هناك من قبيل الموانع

ودع الحب وانظر فى غيره واسأل نفسك ماذا عساك أن تطلب حينئذ ولا عسر هناك ولا عناء ولا خوف من حرمان لأنه لاعقبة هناك ولا صعوبة ولا مقاومة من الأحوال أو الحظ أو الناس أو التنافس أو غير ذلك مما تكون به المقاومة . .

ويطول بى الكلام إذا أنا أحببت أن أتقصى وجوه هذا الأمر : وما الداعى إلى الأطالة والمسألة واضحة . كلا لم أخسر بأن خلقت فى هذا الزمن . ولا خسر أحد شيئاً بأن خلق فى زمنه وإنما ينظر الانسان إلى ما هو مستطيع ويقيسه إلى ما يشتهى فيرى البون عظيما والبعد كبيرا والمسافة طويلة بين المطلوب والموجود ، فيتوهم أن ذلك إنما كان هكذا لأن فى الزمن عيباً وفى أحواله فساداً ، وأنه لو كان فى زمن آخر لكان حقيقاً أن يكون أمله أقرب منالا وسعيه أعظم توفيقاً . وهذا وهم كما قلت فأن رغائب الانسان فى أى زمن أكثر مما يبلغ وينال . والذى يسمح لرغبته بأن تطغى إلى هذا الحد حتى لتصور أمر الحياة على هذا النحو المقلوب تكون شهوته أقوى من إدراكه أو إرادته أو أعصابه إذا شئت

ولم ألق صديق لأبلغه أنى غيرت رأيى أو صححته ، فها أنذا أقول له ذلك فى « الرسالة »

ابراهيم عبد القادر المازنى

صعاليك الصحافة . . .

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

لما ظهر كتابى (وحى القلم) حملت منه إلى فضلاء كتابنا فى دور الصحف والمجلات أهديه إليهم ليقرأوه ويكتبوا عنه . وأنا رجل ليس فىَّ أكثر ما فىَّ ، كالنجم يستحيل أن يكون فيه مستنقع . فما أعلم فى طبيعتى موضعاً للنفاق تتحول فيه البصلة إلى تفاحة ، ولا مكاناً من الخوف تنقلب فيه التفاحة إلى بصلة . واستأهدى من كتبى إلا إحدى هديتين : فإما التحية لمن أثق بأدبهم وكفايتهم وسلامة قلوبهم ؛ وإما إنذار حرب لغير هؤلاء

والقرآن نفسه قد أثبت الله فيه أقوال من عابوه ليدل بذلك على أن الحقيقة محتاجة إلى من ينكرها ويردها ، كحاجتها إلى من يقر بها ويقبلها ؛ فهى باحدهما تثبت وجودها ، وبالآخر تثبت قدرتها على الوجود والاستمرار . والشعور بالحق لايخرس أبداً ، فاذا كانت النفس قوية صريحة مرَّ من باطنها إلى ظاهرها فى الكلمة الخالصة ، فإن قال لا أو نعم صدق فيهما . وإذا كانت النفس ملتوية اعترضته الأغراض والدخائل ، فرَّ من باطن إلى باطن حتى يخلص إلى الظاهر فى الكلمة المقلوبة ، إذ يكون شعوراً بالحق يغطيه غرض آخر كالحسد ونحوه ، فإن قال لا أو نعم كذب فيهما جميعاً

ooo

وكنت فى طوافى على دور الصحف والمجلات أحس فى كل منها سؤالا يسألنى به المكان : لماذا لم تجىء ؟ فأنى فى ابتداء أمرى كنت نزعت إلى العمل فى الصحافة . وأنا يومئذ متعلم ريِّض ومتأدب ناشىء ، ولكن أبى رحمه الله ردنى عن ذلك ووجهنى فى سبيلى هذه والحمد لله ، فلو أننى نشأت صحافياً لكنت الآن كبعض الحروف المكسورة فى الطبع . . .

وللصحافة العربية شأن عجيب ، فهى كلما تمت نقصت ، وكلما نقصت تمت ، إذ كان مدار الأمر فيها على اعتبار أكثر من يقرأونها أنصاف قراء أو أنصاف أميين . وهى بهذا كالطريقة لتعليم القراءة الاجتماعية أو السياسية أو الأدبية ، قيامُها بمراعاة

قواعد النقص في القارىء... وما بدّ أن تتقيد بأوهام الجمهور أكثر مما تتقيد بحقيقة نفسها. فهي معه كالزوجة التي لم تلد بعد، لها من رجلها من يأمرها ويجعلها في حكمه وهواه، وليس لها من أبنائها من تأمرهم وتجعلهم في طاعتها ورأيها وأدبها. ثم هي عمل الساعة واليوم فما أبعدها من حقيقة الأدب الصحيح إذ ينظر فيه إلى الوقت الدائم لا إلى الوقت الغابر، ويراد به معنى الخلود لا معنى النسيان

ولا يقتل النبوغ شيء كالعمل في هذه الصحافة بطريقتها، فأن أساس النبوغ (ما يجب كما يجب)، ودأبه العمق والتغلغل في أسرار الأشياء وإخراج الثمرة الصغيرة من مثل الشجرة الكبيرة بعمل طويل دقيق. أما هي فأساسها (ما يمكن كما يمكن)، ودأبها السرعة والتصفح والإلمام وصناعة كصناعة العنوان لا غير

فليس يحسن بالأديب أن يعمل في هذه الصحافة اليومية إلا إذا نضج وتم وأصبح كالدولة على «الخريطة»، لا كالمدينة في الدولة في الخريطة، فهو حينئذ لا يسهل محوه ولا تبديله... ثم هو يمدها بالقوة ولا يستمد القوة منها، ويكون تاجاً من تيجانها لا خرزة من خرزاتها، ويقوم فيها كالمنارة العظيمة تلقي أشعتها من أعلى الجو إلى مدى بعيد من الآفاق. لا كمصباح من مصابيح الشارع

وحالة الجمهور عندنا تجعل الصحافة مكاناً طبيعياً لرجل السياسة قبل غيره، إذ كان الرجل السياسي هو صوت الحوادث سائلا ومجيباً، ثم يليه الرجل شبه العالم، ثم الرجل شبه الممثل الهزلي.. والأديب العظيم فوق هؤلاء جميعاً، غير أنه عندنا في الصحافة وراء هؤلاء جميعاً

***

ولما فرغت من طوافي على دور الصحف جاءت هي تطوف في نومي. فرأيتني ذات ليلة أدخل إحداها لأهدي (وحي القلم) إلى الأديب المتخصص فيها للكتابة الأدبية، ودلوني عليه فإذا رجل مربوع مشوّه الخلق صغير الرأس دقيق العنق جاحظ العينين، تدوران في محجريها دورة وحشية كأنما أرعبته الحياة منذ كان جنيناً في بطن أمه لأنه خلق للاختناس والوصف، أو كأنما ركّب فيه هذا النظر الساحر ليرى أكثر مما يرى غيره من أسرار السخرية فينبغ في فنونها، أو هو قد خلق بهاتين العينين الجاحظتين دلالة عليه من القدرة الإلهية بأنه رجل قد أرسل لتدقيق النظر

وقال الذي عرّفني به: حضرتُه عمرو افندي الجاحظ... وهو أديب الجريدة

قلت: شيخنا أبو عثمان عمرو بن بحر؟

فضحك الجاحظ وقال: وأديب الجريدة، أي شحاذ الجريدة، يكتب لها كما يقرأ القارىء على ضريح؛ بالرغيف والجبن والبيض والقرش...

قلت: إنا لله. فكيف انتهيت يا أبا عثمان إلى هذه النهاية وكنت من أعاجيب الدنيا، وكيف خبتَ في الصحافة وكنت رأساً في الكلام؟

قال: نجحت أخلاقي فخابت آمالي، ولو جاء الوضع بالعكس لكان الأمر بالعكس. والمصيبة في هذه الصحف أن رجلا واحداً هو قانون كل رجل هنا

قلت: وذاك الرجل الواحد ما قانونه؟

قال: له ثلاثة قوانين: الجهات العالية وما يستوحيه منها، والجهات النازلة وما يوحيه إليها، وقانون الصلة بين الجهتين وهو...

قلت: وهو ماذا؟

فحملق فيّ وقال: ما هذه البلادة؟ وهو الذي «هو»... أما ترى الصحيفة ككل شيء يباع؟ وأنت تخبرني - ولك الدولة والصولة عند القراء - ألم تر بعينيك أنك لو جئت تدفع ثمانمائة قرش، لكنت في نفوسهم أعظم مما أنت وقد جئت تهدي ثمانمائة صفحة من البيان والأدب؟

قلت: يا أبا عثمان. فماذا تكتب هنا؟

قال: إن الكتابة في هذه الصحافة صورة من الرؤية، فماذا ترى أنت في.. وفي.. وفي..؟ لقد كنا نروى في الحديث. «يكون قومٌ يأكلون الدنيا بألسنتهم كما تلحس الأرضَ البقرةُ بلسانها»؛ فلعلّ من هذه الألسنة الطويلة لسان صاحب الجريدة...

قلت: ولكنك ياشيخنا قد نسيت القراء وحكمهم على الصحيفة.

قال: القراء ما القراء. وما أدراك ما القراء. وهل أساس

أكثرهم الا بلادة المدارس، وسخافة الحياة، وضعف الأخلاق، وكذب السياسة؟ إن الابداع كل الابداع في أكثر ما تكتب هذه الصحف، أن تجعل الكذب يكذب بطريقة جديدة... وما دام المبدأ هو الكذب فالمظهر هو الهزل. والناس في حياة قد ماتت فيها المعاني الشديدة القوية السامية، فهم يريدون الصحافة الرخيصة، واللغة الرخيصة، والقراءة الرخيصة. وبهذا أصبح الجاحظ وأمثاله هم (صعاليك الصحافة)

***

ودق الجرس يدعو أبا عثمان الى رئيس التحرير؛ فنهض اليه ثم رجع بعينين لا يقال فيهما جاحظتان بل خارجتان... وقال: أف. «وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون».

كلا والذي حرّم التزيّد على العلماء، وقبّح التكلف عند الحكماء، وبهرج الكذابين عند الفقهاء، لا يظن هذا الا من ضل سعيه». (١)

قلت: ماذا دهاك يا أبا عثمان؟

قال: ويحها صحافة. قل في عمك ما قال المثل: جحظ اليه عمله. (٢)

قلت: ولكن ما القصة؟

قال: ويحها صحافة. وقال الأحنف: «أربع من كنّ فيه كان كاملا، ومن تعلق بخصلة منهن كان من صالحي قومه: دين يرشده، أو عقل يسدده، او حسب يصونه، أو حياء يقناه». وقال: «المؤمن بين أربع: مؤمن يحسده، ومنافق يبغضه، وكافر يجاهده، وشيطان يفتنه: وأربع ليس أقل منهن: اليقين، والعدل، ودرهم حلال، وأخ في الله». وقال الحسن بن علي ... (٣)

قلت: يا شيخنا دعنا الآن من الرواية والحفظ والحسن والأحنف. فماذا دهاك عند رئيس التحرير؟

قال: لم أحسن المهاترة في المقال الذي كتبته اليوم....

ويقول رئيس التحرير: إن نصف التمويه رذيلة؟ فأن نصفه الآخر يدل على أنه تمويه. ويقول: إن سمو الكتابة انحطاط فصيح، لأن القراء في هذا العهد لا يخرجون من حفظ القرآن والحديث ودراسة كتب العلماء والفصحاء، بل من الروايات والمجلات الهزلية. وحفظ القرآن والحديث وكلام العلماء يضع في النفس قانون النفس، ويجعل معانيها مهيأة بالطبيعة للاستجابة لتلك المعاني الكبيرة في الدين والفضيلة والجد والقوة؛ ولكن ماذا تصنع الروايات والمجلات وصور الممثلات والمغنيات وخبر الطالب فلان والطالبة فلانة والمسارح والملاهي؟

ويقول رئيس التحرير: إن الكاتب الذي لا يسأل نفسه مايقال عني في التاريخ، هو كاتب الصحافة الحقيق، لأن القروش هي القروش والتاريخ هو التاريخ. ومطبعة الصحيفة الناجحة هي بنت خالة مطبعة البنك الأهلي. ولا يتحقق تسبُ ما بينهما الا في إخراج الورق الذي يُصْرَف كله ولا يرد منه شيء.

إنهم يريدون إظهار المخازي مكتوبة كحوادث الفجور والسرقة والقتل والعشق وغيرها؛ يزعمون أنها أخبار تروى وتقص للحكاية أو العبرة، والحقيقة أنها أخبارهم الى أعصاب القراء...

***

ودق الجرس يدعو أبا عثمان الى رئيس التحرير..

لمابنية (طنطا) **مصطفى صادق الرافعي**

(١) هذه الجملة من كلام الجاحظ

(٢) يريدون أنه اذا نظر في عمله رأى سوء ما صنع

(٣) هذه طريقة الجاحظ يخلط الكلام دائما بالنقل

إلى رجال التعليم

بقايا التركية

في لغة مصر الرسمية

للأستاذ أبي خلدون ساطع بك الحصري

مدير دار الآثار العربية بالعراق

لقد لاحظ العلماء الذين توغلوا في درس الحوادث الاجتماعية اللسانية أن الكلمات كثيراً ما تنتقل من لغتها الأصلية إلى اللغات الأخرى حسب العلائق التي تنشأ وتتوثق بين الأمم التي تتكلم بها، وقد تندمج هذه الكلمات في اللغة التي دخلت عليها؛ فتنتظم في سلك كلماتها الأصلية وتتكيف بمقتضيات قواعدها الخاصة؛ وقد تولد نسلاً جديداً في موطنها اللغوي الجديد، يختلف عن النسل الذي كان قد تولد منها في موطنها الأصلي اختلافاً كلياً

أما أنواع الكلمات التي تنتقل بهذه الصورة من لغة إلى لغة، فتتبع - بطبيعة الحال - أنواع العلائق التي تحدث بين الأمم التي تتكلم بها: فالمعاملات التجارية تؤدي إلى انتقال الأسماء مع الأشياء والأمتعة، والنفوذ العلمي يسبب انتقال المصطلحات العلمية مع الآراء والمعلومات. والسيطرة السياسية تؤدي إلى انتشار الكلمات والتعبيرات المستعملة في الأنظمة الادارية والعسكرية. والكلمات والمصطلحات التي تدخل على اللغة بسبب هذه العلائق المتنوعة، تبقى فيها عادة حتى بعد انقطاع تلك العلائق.. ولهذا السبب نجد العلماء الذين يستكشفون الحقائق في مجاهيل التاريخ يستندون في بعض الأحوال إلى «مقارنة الألسن» و«تتبع الكلمات» في استدلالاتهم المتعلقة بالحوادث التاريخية والتطورات الاجتماعية.

◦◦◦

لعل الآثار التي تركتها التركية في مصر، ولاسيما في لغة الدواوين الرسمية، من أبرز الأمثلة وأقربها إلى ما أسلفنا. إذ أننا إذا استعرضنا عناوين الوظائف الرسمية في جداول الميزانية ودليل التليفون وتصفحنا بعض النشرات الرسمية، وتتبعنا بضعة أعداد من الجرائد اليومية، فسجلنا الكلمات والتعبيرات التركية التي نصادفها خلال هذا البحث السريع... دهشنا من كثرة الكلمات والتعابير الباقية من عهد الحكم التركي في مصر

نستطيع أن نقول إن معظم النعوت والألقاب المستعملة في مصر هي من بقايا ذلك الحكم. ولا سيما الكلمات والتعابير التي تدل على الرتب الملكية والعسكرية، فكلها ترجع إلى منشأ تركي بدون استثناء فان كلمات «بك. افندي، باشا، هانم» تركية الأصل. مع هذا تستعمل في مصر كالكلمات العربية، ويقال لذلك «بكوية وبكوات، و«باشوية وباشوات، افندية، وهوانم»، ومما تجب ملاحظته أن هذه الالقاب ألغيت في تركية أخيراً واستبدلت بكلمة «باى» للرجال و«بايان» للنساء

فمن يتتبع الجرائد التركية الآن لا يجد فيها أثراً للكلمات التي بحثنا عنها؛ غير أن من يتصفح الجرائد المصرية يصادف في كل نسخة منها مئات.

ومما يستلفت الأنظار أن الألقاب الرسمية التي تستعمل في مصر عند ذكر أصحاب الرتب أو مخاطبتهم — مثل: صاحب العزة، صاحب السعادة — أيضاً تمت بقرابة إلى العهد التركي، بالرغم من مظهرها العربي: فان الأتراك عند ما أرادوا أن يضعوا لقباً خاصاً بأصحاب كل رتبة من الرتب الملكية والعلمية، اقتبسوا من العربية كلمات كثيرة، مثل «رفعة، عزة، سعادة، عطوفة، دولة، فخامة، فضيلة سماحة، سيادة، عناية، عصمة..» وأضافوا إلى آخر كل واحدة منها حرف «لو» الذي يعرف في قواعد الصرف التركي باسم «أداة المصاحبة»، فقالوا «... عزتلو، سعادتلو، دولتلو، فخامتلو، فضيلتلو، سماحتلو...» إن هذه النعوت والألقاب استعملت في مصر مدة غير قصيرة بصيغتها التركية، ثم استبدلت فيها «أداة المصاحبة» التركية بتعبير «صاحب ال...» العربية؛ فتحولت بذلك هذه الألقاب إلى «صاحب العزة، صاحب السعادة، صاحب الدولة، صاحب الفضيلة...» فنستطيع أن نقول: إن هذه الألقاب تركية بمدلولاتها الحالية، وإن كانت عربية بألفاظها الأصلية. وإلا فلا يوجد أي سبب معقول لاعتبار «الفضيلة» خاصة برجال الدين، ولا لاعتبار «السعادة» أكبر من «العزة»، ولا لاعتبار «الفضيلة أو العزة أو السعادة» من النعم التي يستطيع أن يحصل عليها الانسان عن طريق انعام الملوك والحكومات..

وأما أسماء الرتب العسكرية المستعملة في مصر، فبعضها تركية بحتة مثل شاويش، باشاويش، أونباشي، يوز باشي، بيك باشي،... فان اللفظة الأولى كلمة مفردة، والأربع الباقية كلمات مركبة، تعني «رئيس الشاويشية، رئيس العشرة، رئيس المائة، رئيس الألف..» وهناك أسماء رتب عسكرية مؤلفة من كلمة تركية وكلمة عربية، حسب

الاستعمال التركي: مثل «بلوكامين» بمعنى أمين الرهط، و «ميرآلاي» بمعنى آمر الكتيبة . .

وأما كلمة «صاغ» التي تدل على إحدى الرتب العسكرية في مصر، فتركية أيضاً؛ غير أنها لا تستعمل في التركية للدلالة على رتبة من الرتب العسكرية أبداً. لأن معناها اللغوي عبارة عن «أيمن»؛ فليس من المعقول طبعاً أن يسمى أحد باسم «الأيمن»، نظراً لرتبته العسكريه. وأما كيف صارت هذه الكلمة لقباً لاحدى الرتب العسكرية في مصر، فلا يتضح إلا بمراجعة تاريخ الألقاب العسكرية في تركية: إذ يوجد في الجيش التركي رتبة عسكرية تسمى باسم «قول أغاسي» بمعنى «آمر الجناح». وبما أن القطع العسكرية كانت تقسم إلى جناحين، كانوا يقسمون هذه الرتبة قبلا إلى درجتين فيسمون الأولى «صاغ قول آغاسي» بمعنى «آمر الجناح الأيمن»، ويسمون الثانية «صول قول آغاسي» بمعنى «آمر الجناح الأيسر». غير أنهم وحدوا الدرجتين مؤخراً، فحذفوا كلمات «صاغ» و «صول» من هذه الألقاب، واقتصروا على تسمية الرتبة بـ «قول آغاسي» أي «آمر الجناح». ويظهر أن لفظ «صاغ قول آغاسي» كان يستعمل في مصر أيضاً؛ غير أنه اختصر مؤخراً، بدون ملاحظة معاني الكلمات التي يتألف منها، فجرى الاختصار عن طريق حذف الكلمتين الأخيرتين، والاحتفاظ بالكلمة الأولى وحدها. وبما أن الصفة في اللغة التركية تتقدم على الموصوف، كما أن المضاف إليه يتقدم على المضاف، صار هذا الاختصار بمثابة حذف كلمتي «آمر» و «الجناح»، والاحتفاظ بكلمة «الأيمن» وحدها، وبهذه الصورة أصبحت كلمة «صاغ» التركية، التي تدل على «اليمين» أو «الأيمن»، اصطلاحا على رتبة من الرتب العسكرية المصرية

غير أن الكلمات التركية المستعملة في الجيش المصري لاتنحصر في أسماء الرتب العسكرية التي أسلفنا ذكرها. بل ان المصطلحات العسكرية التالية أيضاً تمت إلى منشأ تركي صريح؛ بلوك، تابور، آلاي، أورطة، قيشلاق، قره قول، طوبجي، نوبتجي. .

إن كلمة «أورطة» تستحق النظر والتأمل بوجه خاص: فإن هذه الكلمة من التعبيرات الدارجة في تشكيلات مصر العسكرية وهي تدخل في التراكيب مثل الكلمات العربية، فيقال مثلا «الأورطة الثالثة» و «استعراض الأورطتين» و «أعلام الأورط» كما يقال «أورطته، أورطتيه، أورطتيهما . . . . .» مع أنها من الكلمات التركية المهجورة في تركية نفسها. فان استعمالها في الجيش التركي قد طل منذ عهد بعيد، يرجع إلى تاريخ إفناء الانكشارية، وإحداث النظم العسكرية الجديدة؛ ومن المعلوم أن المدة التي مضت منذ ذلك التاريخ تناهز القرن الكامل

هذا، ومما يجدر بالانتباه أن قاموس الاصطلاحات العسكرية المصرية يحتوي على بعض الكلمات الفارسية أيضاً - مثل، بيادة، سواري، ياور، سردار. - غير أن هذه الكلمات لم تدخل على العربية من الفارسية مباشرة، بل دخلت عليها بواسطة التركية. ولذلك يجب علينا أن نعتبر هذه الكلمات أيضاً من بقايا الحكم التركي بالرغم من أصلها الفارسي

كذلك كلمة «حكم دار» أيضاً تشبه الكلمات المذكورة آنفاً، إذ أنها مركبة من كلمة «حكم» العربية وكلمة «دار» الفارسية، فمعناها اللغوي عبارة عن «صاحب الحكم». غير أن معناها الاصطلاحي المعروف في مصر يختلف عن معناها الدارج في تركية، إذ أن تعبير الـ «حكم دار» لايستعمل في التركية إلا للدلالة على «الملوك»

هذا وإذا استعرضنا عناوين الوظائف والخدمات المختلفة نجد بينها أيضاً عدداً كبيراً من التعبيرات التركية

أولا، سلسلة كبيرة من التعبيرات التي تحتوي على كلمة «باش» التركية: باشكاتب، باشمفتش، باشمهندس. باشمعاون، باشمحضر باش صراف، باش حكيم، حكيمباشي، خاخاماشي، باش ساعي، باش فراش، باش طباخ، باش جنايني، باش بستاني، باشميكانيكي باش أدلاء، باش رئيس البحرية. باش رئيس المطافي. فاذا أنعمنا النظر في هذه التعبيرات نجد أن كلماتها الأساسية عربية، غير أنها موصولة بكلمة «باش» وفقاً لقواعد اللغة التركية، وإذا بحثنا عن منشأ هذه التراكيب نجد أن نصفها الأول مستعمل في التركية أيضاً غير أن نصفها الأخير لم يستعمل في التركية أبداً. فنستطيع أن نقول إن القسم الأول منها (من باش كاتب إلى خاخام باشي) مقتبسة من التركية. وأما القسم الثاني (من باش ساعي إلى باش رئيس المطافي) فستحدثة في مصر نفسها. قياساً على التراكيب المماثلة المستعملة في التركية

ثانيا، سلسلة غير قصيرة من التعبيرات التي تحتوي على أداة «جي» التركية: تليفونجي، تلغرافجي، بوسطه جي، نوفكجي، نيشانجي، تعليمجي، مخزنجي، محاسبجي، قهوجي، سفرجي، عطشجي. عربجي قشجي، اجزاجي، تبارجي، جاشمبجي، مطبعجي، اسنفجي، جزمجي مكوجي، أشارجي، ناضورجي، مفتاحجي. ومما يجب التنبيه اليه أن التراكيب الأربعة الأخيرة ليست مستعملة في التركية، مما يدل على أنها استحدثت في مصر قياسا على أمثالها. وعلاوة على كل ما تقدم نذكر فيما يلي الكلمات التركية التي صادفناها في النشرات الرسمية :

قنار ، ليمان ، بوغاز ، أورمان ، كوبرى ، قزان ، طولمبة ، بورى ، باشبورى ، أوضه ، قاووش ، آغا ، ترزى . وهذه الكلمات تدخل فى تراكيب بعض التعبيرات مثل : مصلحة اللمانات والفنارات ، حديقة الأورمان ، أوضة المحامين ، الطلبات الأميرية ، تعمير القزانات ، مصلحة الكبارى . كما نذكر فيما يلى الكلمات الفارسية التى صادفناها فى تلك النشرات ، والتى انتقلت إلى مصر بواسطة التركية أيضاً سراى ، شنكل ، كليم ، نيشان ، أورنيك ، ماهية ، رفت ، خانة . . .

ومما يجدر بالذكر أن الكلمة الأخيرة تدخل فى تراكيب كثيرة مثل : أجزخانة ، كتبخانة ، دفترخانة ، بطركخانة ، سلخانة . جبهخانه ، بمكخانه ، أدبخانه ، عربخانه ، شفخانه ، مهندسخانة .

* * *

بعد أن ألقينا هذه الـ السريعة على اللغة الرسمية فى مصر يجدر بنا أن نقوم بمقارنة عامة بين دواوين مصر وبين دواوين سورية والعراق فى هذا الموضوع

من الغريب أن هذه المقارنة تظهر لنا تباينا عظيما فى الأمر : إذ بينما نجد أن دواوين مصر مضيافة لجميع هذه الكلمات الدخيلة والمصطلحات الأعجمية نجد أن دواوين سورية والعراق ـ بعكس ذلك ـ مجردة منها ومتعصبة عليها . .

هذا . . مع أنه قد مضى على انفصال مصر عن تركية عهد طويل ، فى حين أنه لم يمض على انفصال سورية والعراق عنها إلا زمن قصير ، ومع أنه لا يشاهد فى مصر أثر للقوانين الموضوعة فى العهد التركى ، فى حين أن عدداً غير قليل منها لاتزال نافذة فى سورية والعراق . . . ومع أن أنظمة الحكومة المصرية مختلفة عن الانظمة التركية اختلافاً كليا فى حين أن أنظمة سورية والعراق لم تتباعد عنها إلا تباعداً جزئياً . . . ومع أن الذين يعرفون التركية بين موظفى الحكومة المصرية قليلون جداً ، فى حين أن عددهم كثير فى سورية والعراق . . ومع أن اللغة الفصحى منتشرة فى مصر انتشاراً كبيراً ، ودراسة الآداب العربية متقدمة فيها تقدما عظيما ، فى حين أن كل ذلك لايزال محدوداً فى سورية والعراق

فيجدر بنا أن نتساءل عن أسباب هذه الاحوال والحوادث المتناقضة : كيف أن مصر حافظت ، ولا تزال تحافظ ، فى دواوينها الرسمية على هذه المصطلحات الاعجمية ، بالرغم من قدمها فى الانفصال وتقدمها فى فصاحة القلم واللسان ؟ وكيف أن حكومات سورية والعراق ـ بعكس ذلك ـ تخلصت فى دواوينها من جميع تلك المصطلحات ، بالرغم من قرب عهدها فى الانفصال وحداثة دخولها فى مضمار فصاحة الانشاء والبيان . ؟

إننا نعتقد بأن أسباب ذلك تعود إلى تباين الظروف التى حدث فيها انفصال هذه الأقطار العربية المختلفة عن الدولة العثمانية : فإن انفصال مصر حدث قبل أن يستيقظ الشعب يقظة مقرونة بشعور قومى واضح ، واللغة العربية استولت على الدواوين المصرية بصورة تدريجية ، دون أن تضطر إلى الاصطدام مع اللغة التركية والقيام عليها بحركة عنيفة . وهذا ما جعل مصر متساهلة مع الكلمات التركية ومضيافة لها ، بل لانغالى إذا قلنا : غير منتبهة إلى أعجميتها .

وأما انفصال سورية والعراق عن الدولة العثمانية ، فلم يحدث إلا بعد حوادث كثيرة أدت إلى إيقاظ الشعب يقظة مقرونة بشعور قومى واضح واللغة العربية لم تصبح رسمية هناك إلا بعد أن حدثت مشادة بينها وبين التركية وبعد أن مازج هذه المشادة شىء غير قليل من العنف من الطرف الواحد ومن الثورة من الطرف الآخر . فقد قامت فى سورية والعراق ، فى أواخر العهد العثمانى ، جمعيات عديدة تطالب بـ « حق التعلم والتعليم بالعربية » و « حق المرافعة والمراجعة بالعربية » ، تارة بالطرق السياسية ، وطوراً بالطرق الثورية . ولم تنل تلك البلاد هذا « الحق » بصورة فعلية إلا بعد الحرب العالمية ، فعند ما تألفت الحكومة العربية فى سورية أسرعت إلى تحويل لغة الدواوين إلى العربية بجد وحماس ؛ فلا نغالى إذا قلنا إن المصطلحات التركية خرجت من الدواوين هناك مع خروج الموظفين الأتراك منها .

والحكومة العراقية التى تأسست بعد سقوط الحكومة العربية السورية أيضاً حذت حذوها فى هذا الباب ؛ وزيادة على ذلك وجدت أمامها متسعا من الوقت لاتمام عملها فى تكوين مجموعة المصطلحات الادارية والعسكرية من الكلمات العربية التى لاتشوبها شىء من الأعجمية

هذه هى سلسلة الحوادث والأسباب التى وجهت الأمور فى سورية والعراق إلى اتجاه يختلف عن الاتجاه الذى سارت عليه فى مصر فى هذا المضمار . . .

مع هذا ، لابد من الاشارة إلى أن هذه الأسباب تعود إلى النشأة الأولى وظروف الانفصال فأدت إلى إبقاء هذه المصطلحات فى لغة الدواوين المصرية إلى الآن . غير أنه يجدر بنا أن نتساءل : هل هذه الأسباب ستضمن دوام هذه المصطلحات بعد الآن أيضا ؟

إنى لا أتردد فى الاجابة على هذا السؤال بالنفى . فلا أستبعد أن يصبح معظم ما كتبته آنفا « حكاية ماض » ـ فى عهد مصر الحديث ـ بعد مدة وجيزة من الزمن

بغداد

أبو خلدون
ساطع الحصرى

في الجامعة المصرية

كرسي خاص

لدراسة الأدب المصري الاسلامي

للأستاذ محمد عبد الله عنان

قرأت مع الغبطة نبأ ذلك الاقتراح الجليل الذى تقدم به صديق الأستاذ العميد الدكتور طه حسين إلى مجلس إدارة الجامعة المصرية بوجوب إنشاء كرسي خاص للأدب المصرى الاسلامى ؛ وهو اقتراح لاريب أن سيلبيه المجلس الجامعي الموقر ، وسيلقى بلا ريب تأييداً حارا من كل أولئك الذين يقدرون تراث التفكير القومى ، ويعتزون به ، ويتوقون إلى بعثه وإحيائه واستعراض نفائسه ، بعد أن طال الأمد على إغفالها ونسيانها .

ولقد حاولت منذ أعوام أن ألفت النظر إلى وجوب العناية بدراسة تاريخ مصر الاسلامية وآدابها ، وحاولت جهدى أن أحث الشباب المتادب على قراءتها ودراستها ، وكان من بواعث دهشتى أن الجامعة المصرية الفتية لم تفكر منذ قيامها فى إنشاء كرسى خاص لتاريخ مصر الاسلامية ، وكرسى آخر لآدابها إلى جانب ما أنشأته من كراسى خاصة للتاريخ الأوربى والآداب الفرنسية والانكليزية : فاذا كان الأستاذ العميد يتقدم اليوم باقتراحه بانشاء كرسى خاص للأدب المصرى الاسلامى فهو إنما يعبر فى ذلك عن أمنية قديمة لناجميعاً ، والجامعة إنما تعمل بتحقيقها على استدراك نقص فى دائرة الثقافة القومية كان خليقاً أن يستدرك منذ بعيد

والواقع أن الأدب المصرى الاسلامى لم ينل فى عصرنا شيئاً من العناية التى هو حقيق بها ، فى حين أن كثيراً من نواحى الأدب الأخرى من شرقية وغربية تنال من عنايتنا أوفر حظ ؛ وبما زال الأدب العربى يقدم إلينا فى صورته العامة ويمثل لنا بنوع خاص فى الأدب العباسى ، وقلما نعنى بدراسة نواحيه الخاصة ، بل إن الشباب المتعلم ليرغب اليوم عن الأدب العربى كله ويتجه شطر الأدب الغربى ، ويعرف من تطورات هذا الأدب ومن خواصه ما لا يعرف عن تطورات الأدب العربى وخواصه ؛ ويعرف من شخصيات الآداب الأوربية وآثارها ما لا يعرف عن شخصيات الأدب العربى وآثارها ؛ وإذا كانت ثمة أقلية من الشباب المتادب تعنى بالأدب العربى على وجه التعميم ، فهى قلما تعنى بدراسة شىء من تراث أدبنا المصرى

ونحن نعرف الأسباب التى يرجع إليها هذا الشذوذ فى ثقافتنا الأدبية وهذا الانصراف عن تراثنا العربى وتراثنا المصرى بنوع خاص ؛ وهى أسباب سياسية واجتماعية لانرى محلا لاستعراضها فى هذا المقام ؛ بيد أنه يجدر بنا أن نشير هنا إلى سبب مادى واضح ، هو أننا لم نوفق حتى اليوم سواء فى برامجنا الدراسية أو فى بحوثنا الأدبية إلى تقديم الأدب العربى فى مثل تلك الصور الأنيقة الشائقة التى يقدم بها الأدب الغربى إلى قرائه ؛ ومن ثم كان انصراف الشباب عن الأدب القومى إلى صنوف منوعة من الأدب الغربى يجدى قراءتها كثيراً من المتاع العقلى ، فيؤثرها بعنايته وفراغه ، ولا يستطيع أن يتذوق بجانبها شيئاً من ذلك التراث الذى ما زال يغمره القدم وما زال يقدم إليه فى صور العصور الوسطى

وإذا كنا قد دعونا منذ أعوام إلى العناية بدراسة الأدب المصرى الاسلامى ، وإذا كنا نرى وجوب التخصص فى دراسة هذا الأدب ، فليس ذلك فقط لأن البواعث القومية تدعو إلى مثل ذلك فى كل أمة حية تشعر بماضيها وتعتز بتراثها القومى ، بل لأن هناك أيضاً من البواعث العلمية والثقافية والتاريخية مايدعو إلى اعتبار الأدب المصرى الاسلامى وحدة أدبية مستقلة بين تراث الأدب العربى العام ، تستحق أن تدرس على حدة ؛ وأن تدرس خواصها وتطوراتها دراسة خاصة ، كما يدرس الأدب العباسى أو الأدب الأندلسى

بل نستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إن الأدب المصرى الاسلامى يستأثر بمميزات خاصة قلما توجد فى فرع آخر من الأدب العربى ؛ نعم إن الأدب العباسى والأدب الأندلسى ، وأدب الشام ، وأدب شمال إفريقية يمتاز كل منها بمميزاته الخاصة ، من إقليمية ، واجتماعية وسياسية ، ولكن الأدب المصرى فضلا عن احتفاظه بمثل هذه المميزات العامة يمتاز أيضاً بطابعه المصرى العميق ؛ وتبدو هذه الخاصة واضحة فى كل فنونه ومراحله ، وتكاد تغلب على كل خواصه الأخرى ؛ وذلك يرجع إلى عوامل تاريخية وثقافية خاصة ؛ فقد اتخذت الحضارة الاسلامية فى مصر طابعها الخاص ؛ وكان قيام الأزهر بالقاهرة منذ منتصف القرن الرابع عاملا جديدا فى توكيد هذا الطابع الخاص للأدب المصرى ؛ ولما انهارت الخلافة العباسية فى المشرق

وفرت العلوم والآداب الإسلامية أمام الغزاة البرابرة من السلاجقة والتتار، تبوأت مصر زعامتها الفكرية في المشرق. ولبثت القاهرة بجامعتها الكبرى، ملاذ التفكير الاسلامي، حتى الفتح التركي؛ وفي جميع هذه المراحل كان الأدب المصري الاسلامي يحتفظ بجميع مميزاته وخواصه في جميع مناحي التفكير. في الشعر والأدب والتاريخ والعلوم والفنون: وإذا كان الأدب المصري قد تأثر في العصور ببعض العوامل الخارجية، سواء من المشرق أو المغرب، فأنه لم يفقد شيئاً من خواصه الجوهرية ولم يفقد بالأخص شيئاً من طابعه المصري العميق

ويبدو هذا الطابع المصري الخاص لأدبنا الاسلامي في تراثنا الفكري بأوضح صورة؛ في الرواية والتاريخ، وفي الشعر والنثر. وفي أساليب التفكير والكتابة. نلمس هذه الخاصة ولا سيما في الشخصيات والآثار النموذجية؛ فأنه يصعب مثلا أن تجد بين شعراء العربية في الأمم الأخرى. شاعرا مثل البهاء زهير، أو ابن نباتة: فهذان شاعران مصريان روحا ومعنى، يمثلان مصر أقوى تمثيل وأصدقه، ومن النادر أن تجد بين شعراء العربية من يحمل الرسالة القومية بمثل ما يتجلى في شعرهما من إخلاص وقوة في التعبير عن الروح القومي وكل خواصه ومميزاته: كذلك ينفرد الأدب المصري بنوع من أدب الموسوعة أو (الأدب الانسيكلوبيدي)، ولدينا من ذلك آثار تعتبر بحق نماذج فريدة مثل نهاية الأدب للنويري، ومسالك الأبصار للعمري. وصبح الأعشى للقلقشندي، وهي آثار ليس لها نظائر من حيث تنوعها وطابعها العام، وتخصصها مع ذلك فيما عرضت إليه: وانفردت الرواية المصرية الاسلامية أيضا بمميزات خاصة تستحق أن ندرس على حدة. فأليها يرجع الفضل مثلا في ابتكار فن الخطط والآثار، الذي يقوم على استعراض تاريخ المجتمع والحضارة إلى جانب تاريخ الدول، ونستطيع أن نقول بحق إنه لا يوجد بين آثار الرواية الاسلامية كلها أثر كخطط المقريزي في طرافته وقيمته الاجتماعية والتاريخية: وهذه أمثلة قليلة من كثيرة نستطيع أن ندلل بها على ذلك الطابع القومي الخاص الذي يمتاز به أدبنا المصري الإسلامي على غيره من آداب الأمم الإسلامية الاخرى

كذلك يجب ألا ننسى أثر الأزهر في تكوين ذلك الطابع الخاص؛ وقد لبث الأزهر قرونا ملاذ العلوم والأدب في مصر الإسلامية؛ وأثره في تكوين تراثنا الفكري أعظم من أن نحيط به في مثل هذا المقام، وهو أثر يستحق أن يدرس لذاته ولأهميته وإذا كان الأزهر نفسه أحق بأن يدرس تاريخه العلمي الحافل؛ فانه من المعقول أيضا أن تكون رسالة الأزهر في ماضيها وحاضرها موضعا للدراسة المستفيضة في استعراض مراحل الأدب المصري الاسلامي التي تعنى الجامعة المصرية بالبحث في إنشاء كرسي خاص لها؛ بل يلوح لنا أن مثول الأزهر في تاريخنا الفكري بمثل هذه القوة من العوامل الأدبية الخطيرة التي تملي بضرورة إنشاء هذا الكرسي الخاص

وقد كنا نود أن تعنى الجامعة المصرية إلى جانب عنايتها بأنشاء كرسي للأدب المصري الاسلامي بأنشاء كرسي آخر لتاريخ مصر الاسلامية؛ فقد انقضى عصر طويل لم يحظ فيه تاريخنا الاسلامي بما يجب من الدرس والعناية؛ ونحسب أن العوامل السياسية التي كانت تملي من قبل باسدال الستار على ماضينا وعلى ذكرياتنا القومية المجيدة، وبتصوير مصر في جميع مراحل تاريخها أمة مستعبدة، لم تذق في ماضيها الطويل الحافل طعم الحرية والاستقلال قد انقضت؛ ونحسب أن الوقت قد حان لأن يعرف الشباب المصري عن تاريخه القومي على الأقل مثلما يعرف عن تاريخ الأمم الغربية الذى تسخو برامجنا التعليمية في تلقينه للطلاب، وأن يرفع عن تاريخنا ذلك الستار الذى أسدلته يد الأهواء، وأن نستعرض ذكرياتنا القومية المجيدة على ضوء البحث المنزه، فيكون لنا منها غذاء قومي حقيق، يخلق بالعصر الجديد الذى تستقبله مصر. فالتاريخ القومي في جميع الأمم الحية عنصر هام في تكوين الشعور الوطني وفي تغذيته وإذكائه

فالمشروع الجليل الذى يتقدم به اليوم الأستاذ العميد إلى مجلس الجامعة المصرية إنما تملي بتحقيقه بواعث علمية وقومية معا؛ وما نحسب المجلس الموقر إلا سيقدر هذه البواعث قدرها وسوف يكون إنشاء الكرسي المنشود حادثا علميا في تاريخ الجامعة المصرية، كما أنه سيكون حادثا قوميا في تاريخ برامجنا الدراسية؛ وفي اعتقادنا أن الجامعة ستفهم مهمة هذا الكرسي بأوسع معانيها، فتجعل منه بداية حسنة لدراسات مصرية إسلامية شاملة فيما بعد، وسوف يكون لهذه الدراسات أكبر الأثر في إحياء تراثنا الفكري. وسيكون لها بالأخص أكبر الأثر في التدليل على أهميته وعلى قيمته التي طمستها عصور طويلة من النسيان والنكران

محمد عبد الله عنان

في الأدب المقارن

البطـولة

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

البطل فرد يمتاز عن غيره من أفراد مجتمعه بمواهب عقلية أو خلقية أو جسدية، يظهر بها بينهم وينال من أجلها إجلالهم ويبذلها في خدمتهم ويتولى قيادتهم في معترك الحياة ردحا من الزمن، ويترك في تاريخهم أثرا يطول عهده أو يقصر؛ فالبطل لا يكون إلا في مجتمع، وهو عادة نموذج لصفات أبناء ذلك المجتمع ومثل أعلى لنوع حياتهم، ومواهبه إجابة لمطالب ذلك المجتمع وحاجاته في فترة من الزمن، فالأمة المحاربة إذا كانت تجري الحياة في عروقها قوية وتتمتع بالصفات اللازمة للبقاء ينبغ فيها القائد، والأمة الشاكة الحيرى يظهر فيها النبي. والشعب الذي يشكو فساد أنظمته الاجتماعية يقوم فيه المصلح

والأمة المتبدية الساذجة التي لم تستقر بعد ولم تبرح حياتها سلسلة متواصلة من الحروب، لا يكاد يظهر فيها من أنواع البطولة إلا القواد البسلاء، الذين يقودونها في مهاجراتها ومحارباتها لجيرانها، ويبدون من ضروب الشجاعة ويفتقون من أفانين الحيلة والرأي والمكيدة ما يبلغون به الفرصة في أعدائها؛ ولأولئك الأبطال في تلك الجماعات مكانة لا تطاول وأثر لا يبارى وكلمة لا ترد، وإن أحدهم ليغني غناء الجحافل، ويعدل بين قومه ما لا تعدل الآلاف، ولا غرو: فالحروب في أمثال تلك العهود أكثرها مصاولات فردية، وتسمى تلك العهود لذلك عصور الأبطال

وفضلا عما يناله البطل في عصره من تبجيل وتقديم، فإنه إذا ما مات وخلا مكانه وافتقد مثاله، زاد ذكره ارتفاعا وزاد ذاكروه مبالغة في تعظيم آثاره وتصوير وقائعه وتخيل صفاته ومواهبه، وما يزال جيل يزيد على جيل حتى تقوم حول بعض الأبطال أقاصيص طويلة السرد، تنطوي على شيء من الحقيقة الأولى ويتكون أغلبها من صنعة الخيال ومما تصبو إليه النفس الإنسانية دائما، من أمثلة القوة والشهامة والنجدة والغلب وحماية الذمار، وما تتوق دائما إلى تصوره من روائع المشاهدات، وجسام الوقائع؛ بل كانت بعض المجتمعات البدائية تغالي فترتفع بأبطالها إلى مصاف الآلهة. كما فعل أوائل قدماء المصريين بأوزيريس وأخته وابنه، وكما فعل أوائل الاسكندناويين ببطلهم أودين، أو إلى مراتب أنصاف الآلهة كما فعل الاغريق القدماء بأبطالهم

وإذا ما استقرت الأمة وتحضرت، وجنحت إلى السلم ولم تعد الحرب هي الحالة الطبيعية العادية التي تعيش في ظلها، تغيرت حالها الاجتماعية وضؤلت مكانة أبطال الحرب قليلا وزاحمهم أبطال السلم من أنبياء ومصلحين ومشرعين وحكام وأرباب علم وفن، وهبطت قيمة القائد في الجيش قليلا فلم يعد هو وحده المهيمن على مصائر الحرب بل صار للعدد والنظام والسلاح وغير ذلك حساب كبير؛ وبطل تصديق المتعلمين بوقائع الأقاصيص المتخلفة عن عصور الأبطال؛ ولكن البطولة على صورة من الصور خالدة، وعبادة الناس في كل العصور لها قائمة، بل إن احتفاء الأمة بأبطالها من أبرز دلائل حيويتها، كما أن من دلائل حيويتها حفول تاريخها بأسمائهم، بل يغالي كارليل ويزعم ان تاريخ الأمة هو تاريخ أبطالها، وتاريخ العالم إن هو إلا سير الأبطال

وتلك الأقاصيص المتخلفة عن عصور الأبطال إذا فقدت اعتقاد الناس بصدق كثير مما فيها فما فقدت إلا هينا يسيرا، ولن تفقد ما يعج به من روائع الأوصاف وبدائع الصور ومتع الأخيلة وشائق المواقف والوقائع، والعرض الصادق لأحوال المجتمعات المتخلفة عنها تلك الآثار. والتأمل في طبائع الإنسان ومذاهبه في الحياة؛ فتظل تلك الأقاصيص تحفظ لنفاستها، وتظل كنزا ثمينا لقرائح الأدباء وأخيلتهم. يطيب لهم الهيام في عالمها البعيد، وإجراء أفكارهم على ألسنة أشخاصها العظماء، واستعارة وقائعها وتشاهدها في التمثيل لوقائع عصورهم وأحداثها، وإبراز معانيهم وأغراضهم بالاشارة إلى حوادثها وملابساتها؛ وخير مثال لكل ذلك عصر الأبطال في بلاد الاغريق:

فعصر الأبطال في بلاد الأغريق، الذي امتد زمن استقرارهم في شرقي البحر الأبيض وتشربهم حضارته، هو أشهر عصور

الأبطال وأسيرها ذكرا ، لأن أشعار هوميروس قد خلدت روائع الصور لأحوال الموعظائم أبطاله، وبدائع الأوصاف الشاملة لمعتقدات القوم وتصورهم لآلهتهم ؛ حتى إذا ما انقضى ذلك العصر وبرزت اليونان في عالم التاريخ الواضح وطلعت في عصرها الذهبي وحلت الفلسفة محل الخرافة ، وبطل الاعتقاد بكثير من أخبار الالياذة والاوديسة ، اتخذت أشعار الملاحم تلك مادة لضرب جديد من الأدب هو الدرامة ، التي ظهرت لتسد من حاجة ذلك العصر مالم يعد يسده شعر الملاحم الذي يلتفت إلى الماضي ويتوفر عليه ، ولا يعير الحاضر التفاتا

وكلتا الأمتين العربية والانجليزية قد مرت في استقرارها وتحضرها بعصر أبطال ترك أثره في أدبها : وعصر الأبطال في التاريخ العربي هو عهد الجاهلية الذي انتهى بظهور الإسلام وظهور الأمة العربية في ضوء التاريخ المستيقن ، فالجاهلية العربية شديدة الشبه بالعصر الهوميري : فيه كانت الأمة منقسمة على نفسها لا تفتر عن القتال ، ولا يزال يظهر فيها من الأبطال أمثال عنترة ومهلهل ودريد بن الصمة ، ولا تزال تتحدث بأيام المواقع وتتفاخر وتتنافر كما تفاخر أبطال الحروب الطروادية ، ولولا أن الإسلام وضع حدا فجائيا لذلك العصر ، لما بعد أن تتجمع أشعاره وأقاصيصه في ملحمة أو ملاحم كبرى ؛ وكان العرب على تفرقهم يشعرون بوحدتهم في الجنس واللغة ويجتمعون في مواسم الحج وأسواق التجارة والأدب ، كما كان اليونان يجتمعون في دلفي وأولمبيا ، وكما كان اليونان يزدرون غيرهم ويلقبونهم بالبرابرة كذلك كان العرب يعتدون بعربيتهم ويلقبون غيرهم بالأعاجم ، ولم يفتهم أن يجمعوا شملهم تحت لواء العربية لدفاع الفرس في موقعة ذي قار ، كما فعل الاغريق من قبل إذ تجمعوا بزعامة أثينا لرد عادية الفرس أيضا ، وفي موقعة ذي قار يقول الأعشى :

لما أمالوا إلى النشاب أيديهم ... ملنا ببيض فظل الهام يقتطف

وخيل بكر فما تنفك تطحنهم ... حتى تولوا وكاد اليوم ينتصف

ومر الانجليز بمثل ذلك العصر في عهد استقرارهم في الجزيرة . وأهم الآثار الأدبية المتخلفة عن ذلك العصر ملحمة بيولف التي تصف كيف تغلب أمير انجليزي على وحش هائل أقض مضاجع بعض الملوك المجاورين ، وذلك العصر في التاريخ الانجليزي شديد الغموض ، ولغموضه ذاك رُدّت إليه خرافات لعلها لم تكن منه في شيء ، كقصص الملك آرثر وفرسان مائدته المستديرة . وهي قصة قد نالت من احتفال أدباء الانجليزية ما لم تنله قصة بيولف ، لسذاجة هذه وشدة إمتاع تلك ، واحتوائها على كثير من تقاليد العصور الوسطى وأنظمة فروسيتها ومغامراتها

ولما ظهر الأدب الانجليزي الحديث ، بعد انتشار الحضارة والعلم ، اتخذ الشعراء والروائيون من تراث العصر السابق مادة لخيالهم ، ولم يكتفوا بذلك بل استعاروا خرافات عصر الأبطال الاغريقي مضافا إليها تاريخ الاغريق والرومان ، بما انطوى عليه ذلك التاريخ من سير الأبطال ، فحفل الأدب الانجليزي بذكر البطولة وتمجيد الأبطال ، سيان انجليزيهم وأجنبيهم ، تاريخيهم وخرافيهم ، عجّت بذكر هؤلاء وأولئك روايات شكسبير ، وتفنن سبنسر وتنيسون في سرد قصص آرثر وفرسانه ، واستعار شلي أبطال اليونان وآلهتهم لبعض مواضيعه ، كما في قصيدته « بروميثيوس المقيد » ، ولم يأل سكوت جهدا في تصوير بطولة القرون الوسطى في قصصه

تناول الأدباء سير أولئك الابطال بالدراسة الفنية لشتى الاسباب : لما ركب في الطبع الانساني من عبادة الأبطال والشغف بحديثهم ، ولما يضفيه مجدهم وبأسهم على الموضوع المتناول من عظمة وجلال ، ولما يبعثه حديثهم في النفس من تسام وصبو إلى المثل الأعلى ، وما يبثه ذكر أبطال الوطن في نفوس أبنائه من فخر وثقة ؛ فلعبادة البطولة في إطلاقها وتمجيد العظمة الإنسانية في عمومها تناول شكسبير سير قيصر وبروتس وكريولانس وعطيل بالوصف ، وكتب ماثيو ارنولد قصيدته الطويلة سهراب ورستم ، ولتبجيل البطولة القومية والاعتزاز بأبوة الوطن الذين شادوا مجده تناول شكسبير مواقف هنري الخامس في حرب مائة العام ، وألف سكوت قصصه الاسكتلندية مثل خرافة منتروز وكونتين دروارد

ولم يقتصر أدباء الانجليزية في تمجيدهم للبطولة واحتفائهم بالأبطال على الماضي الخرافي أو التاريخي البعيد ، بل التفتوا إلى الحاضر والماضي القريب ، ووفوا أبطال جزيرتهم الذين وطدوا مكانتها وأعلوا كلمتها حقهم من الذكر والتعظيم ، في جانبي المنثور والمنظوم ؛ بل كان الابطال الخرافيون يستعارون أحيانا رموزا

للعظماء المعاصرين، كما فعل أدموند سبنسر في قصته الشعرية « الملكة الحسناء » . وكما قيل إن شكسبير قد قصد من الرمز لشخصية هملت إلى شخصية إرل إسكس؛ وقد احتفل سوذي وكامبل وتنيسون وماكولى بتمجيد أبطال الانجليز وعظائهم في البر والبحر أمثال نلسون وولنجتون وكلايف . وكتب كارليل كتابه « الأبطال وعبادة الابطال » فأسهب في الكلام على مظاهر البطولة في شتى الأزمان والأمم ، وأثر الأبطال في تقدم العمران البشرى وما هم جديرون به من حفاوة

فالأدب الانجليزى ، بعد انقضاء عصر الأبطال المحاربين ، لم يخل من ذكر البطولة وتمجيد الأبطال ، بل ظل معنيا بأبطال الماضى ولم يجعل الحاضر دبر أذنه : لأبطال الماضى البعيد بوقائعه الخارقة التمجيدُ والتصوير الفنى المبالغ المغرق في الخيال والشاعرية ، ولأبطال الحاضر الكريم والتأريخ الذى هو أدنى إلى الحقيقة دنوّ عصرهم من الأذهان ، وأبعد عن الخرافة والخيال بُعدَ الإنسانية عن عصور طفولتها ؛ أما في الأدب العربى فقد انقطع ذكر الأبطال أو كاد بانتهاء عصر البطولة الجاهلية : أهمل الأبطال الجاهليون أو فازوا بالنظرة العابرة والذكرة العارضة ، ولم يكن أبطال الإسلام أوفر منهم حظا من عناية الأدباء . مهما كان نصيبهم من اهتمام المؤرخين ومكانهم في التاريخ

ولم يخل تاريخ العرب بعد الاسلام من أبطال يمجدون وتنسج حولهم القصائد الطوال ، ولا أقفر تاريخهم من حوادث مملوءة بالوحى الشعرى الصادق ، بل إن تاريخ نهضتهم وبسط سلطانهم لهُوَ ملحمة التاريخ الكبرى التى تزرى بكل ملحمة ، وتسخر من الوقائع الموضعية الضئيلة التى حاك حولها هوميروس قصيده الفاخر . وقد أنجبت تلك النهضة ـ بعد شخصية الرسول الكريم التى لم يجد بمثلها الزمن ـ نخبة من أبطال السلم والحرب ، كخالد وعمر وعلى وابن العاص ومن عاصرهم وتلاهم من فحول الابطال الذين لم تنجب أمة أعظم منهم ، واحتوى تاريخ العرب على سير أفذاذ يستفزون الوحى الشعرى خاصة ، لما انطوت عليه سيرهم من طرافة وجاذبية : كالحسين الذى استشهد على أسنة الرماح آبيا أن يستأسر ، وصلاح الدين الذى رفع لواء الاسلام وقصم ظهر الصليبيين في سورية ، وعبد الرحمن الداخل الذى شاد من الفوضى دولة من أزهر دول التاريخ ، ومحمد بن القاسم، الذى فتح السند وهو يافع والذى قيل فيه :

ساس الجيوش لسبع عشرة حجة ... يا قرب ذلك سؤددا من مولد

ولكن الأدب العربى قد نبذ ذكر أولئك جميعاً ظهريا ، ولم يحتو من ذكر البطولة والحماسة والحروب إلا على وقائع ثانوية كفتح عمورية وأعمال أنصاف الأبطال ، كبدر بن عمار ، وغيره من ممدوحى الشعراء الذين كانوا يطمعون في رضاهم ونوالهم ، فجاء مدحهم لهم شديد التكلف مغرقا في التهويل ؛ أما إذا لم يكن نوال ولا سلطان حاضر فلا بطولة تستهز نفس الشاعر ، ولا عظمة تستدعى إعجابه وتستجيش وحيه ، ولا يَرِد ذكر عظماء الجاهلية في القصيد إلا مستعارةً صفاتهم وفضائلهم للممدوح مهما ظهرت فضفاضة عليه داعية إلى السخرية ، بل كان أولئك العظماء يُزدرَوْن في مواقف الملق لأرباب السلطان : فقد قيل إن بعض الحضور عاب على الطائى تشبيه ممدوحه « بأجلاف العرب » حين أنشد سينيته في مدح احمد بن المعتصم فقال منها :

إقدام عمرو في سماحة حاتم ... في حلم أحنف في ذكاء إياس

ومن مثل هذا الحديث تتبين بعض أسباب إعراض الأدب عن حديث البطولة : كالتكسب بتمليق أمراء أنانيين يأبون إلا أن يكون كل المدح لهم ؛ بيد أن هناك سببا أهم هو انعدام روح القومية بين العرب : فقد كانت العصبية القبلية فوق القومية العربية في عصر الجاهلية ، فلما وحد الاسلام العرب تحت لوائه وحض على التآخى ونبذ العصبية ، لم يستمر العرب دولة واحدة مستقلة منعزلة زمنا طويلا كافيا لتوحد عناصرها توحدا صحيحاً، واعتناقها جميعاً للقومية العربية مكان العصبية القبلية ، بل اندفعوا وهذه العصبية ما تزال على أشدها يفتحون شرقى العالم وغربيه ، فإذا هم في بضع سنين يموجون في امبراطورية مترامية ، ضلّت قوميتهم العربية في قومياتها المتعددة ، وظلت عصبيتهم المتأصلة تستأثر بولائهم وتثير الفتن بين قبائلهم ، وكان هذا التناحر القَبَلى من أكبر أسباب انتصار الفرس ، ووثوبهم إلى السلطان على أيدى العباسيين

فالمجتمع العربى عرف العصبية القبلية الضيقة الحدود

والامبراطورية العالمية الفضفاضة الجوانب ، ولم يعرف القومية العربية التي تسمو على العصبية وتفخر بأبطال العرب الغابرين من أي الأحياء كانوا ، والتي تضيق دون مدى الامبراطورية الواسعة ، التي لا يجمعها ماض واحد ولا تشترك في تراث عمراني ثقافي فرد . فلم يكن العربي المسلم يفخر بأبطال العرب المشتركين كابن الوليد وابن الخطاب قدر ما يفخر بآبائه الذين تنتسب إليهم قبيلته . فابن الرومي في القرن الثالث يمدح أبا الصقر فلا يفوته أن يمدح قبيلته شيبان ، وأبو الصقر يرى أن ابن الرومي لم يوف شيبان حقها فيحرمه العطاء ، وأبو فراس في القرن الرابع يفخر ببني حمدان الذين يراهم لم يخلقوا إلا « لمجد أو لبأس أو لجود » ، ولا يرد ذكر العرب في شعره ، وهذه النزعة القبلية الضيقة لا تنتج شعر بطولة فنياً راقياً ، بل تنتجه الروح القومية المتدفقة

إنما كان الدين يحل محل القومية من نفوس العرب . ومن ثم كان له في أدبهم أثر بعيد المدى ، ولذلك نرى أن جانباً عظيماً مما قد ندعوه شعر بطولة في العربية يدور حول أعظم الشخصيات الدينية في الاسلام بعد الرسول الكريم ، شخصية الامام علي ، وشخصيات أبنائه : ففي الأشعار التي تندب مصارعهم — رغم اتسامها بالحزن والفجيعة ، وقلة ما تسجله من عظائم أولئك الأبطال الذين نهضوا في الحقبة بعد الحقبة ، وساروا إلى الموت مملوئين ثقة وبسالة — تمجيد صادق الشعور للمثل العليا مشخصة في أولئك النفر الغر الميامين ، ولدعبل [illegible]وى وغيرهما أشعار حارة فيهم ، ومن ذلك قول الأول :

وليس حي من الأحياء نعلمه ... من ذي يمان ومن بكر ومن مضر
إلا وهم شركاء في دمائهم ... كما تشارك أيسار على جزر
قتل وأسر وتحريق ومنهبة ... فعل الغزاة بأرض الروم والخزر

وسبب آخر عظيم الأثر في خلو الأدب العربي من تمجيد البطولة ، هو أن هذا الضرب من الأدب ضرب فني يحتاج في ممارسته إلى تفرغ وطول معاناة وكثرة مراجعة ، ومثل هذا الفراغ لم يتهيأ لأدباء العربية ، ومثل هذا العكوف أو الترهب الفني الذي حظي به ملتون ووردزورث وتنيسون وغيرهم من شعراء الانجليزية لم يظفر به شعراء العرب وكتابهم . أضف إلى ذلك أن الأدب العربي كان دائماً يؤثر التقليد ويحجم عن اتخاذ مواضيع أو صور جديدة لم يرثها عن العرب الأولين ، ولهذه النزعة المحافظة قد نفى من حظيرته كثيراً من فنون القول ومنادح الفن ، لم يرها من شأنه ولم يحسبها جديرة بالتفاته ، لأنه لم يرثها عن الأقدمين ولم يطلع على أدب الأغريق فيقف على بدائع النظم التي تأتي من ذلك الباب

وكان الأدب العربي كلما نفى من حظيرته باباً من أبواب القول يمت إلى الطبيعة الانسانية بسبب لا يجذ ، ويروي من النفس البشرية غليلا دائم الحاجة إلى الري ، تلقفه عنه الأدب العامي فنهض عنه بالعبء الذي طرح ، وآثر إرضاء النفس الانسانية حين آثر الأدب الفصيح إرضاء التقاليد ، ومن ثم حاك الأدب العامي ، أو الخيال العربي ، حول أبطال الجاهلية كعنترة وكليب ، وعظماء الاسلام كعلي بن أبي طالب وهرون الرشيد ، روائع قصص البطولة ومنازلة الصناديد ومقابلة الانس والجان واجتلاء أسباب المتعة والبهجة والفكاهة ؛ وما كان بالأدب العربي الفصيح قصور عن ذلك الضرب من القول لو أراده . انظر إلى روعة الوصف في قول المتنبي :

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه ... وفي أذن الجوزاء منه زمازم

وقول ابن هانيء الاندلسي في جيش جوهر :

اذا حل في أرض بناها مدائناً ... وإن سار عن أرض ثوت وهي بلقع

فهذا وصف للجيوش لن تحوي أبلغ أشعار الملاحم أروع منه ، ولا غرو : فقد كانت المادة متوفرة لأدباء العربية لينسجوا من أحاديث البطولة وأوصاف المواقع ما شاءوا ، فقد تفنن المسلمون في وسائل الحروب البرية والبحرية وحازوا فيها غايات السبق ، والدول والانقلابات كانت تتوالى على أعين الأدباء تباعا واللغة العربية الرحبة المساعدة بالألفاظ ، الغنية بالاوزان الرصينة والقوافي المتعددة ، خير معوان على نظم قصيد الملاحم ووصف عظائم الابطال ، فلو التفت الشعراء إلى هذا المجال من القول لرأوا سعة ولكنهم أغفلوه فيما أغفلوا ، وعدوا البطولة والابطال شأناً من شؤون التاريخ ، لا فناً من فنون الأدب

فخري ابو السعود

٢ - دعابة الجــاحظ

بقلم محمد فهمي عبد اللطيف

ولقد رأيت فى الناس من يحسب أن التنادر من الشيء الهين، الذى يستطيعه كل إنسان، ويقدر عليه كل شخص؛ وهـذا حسبان خطأ، فأن التنادر فن له ثقافة ودراية كسائر الفنون، ولا بد فى حذقه من استعداد موهوب، وملكات فطرية، يتصل بعضها بالقلب، وبعضها بالعقل، وقد يناقض بعضها بعضا، وقد لا تجتمع كلها لشخص واحد، ومن ثم اختلف حظ الناس فى إجادة هذا الفن، كاختلافهم فى إجادة الشعر والكتابة والرسم وغيرها، ففيهم الذى يبلغ فى ذلك مرتبة العبقرية، ومنهم من يقف عند حد النبوغ، وفيهم من هودون ذلك وأقل، ثم تدلى وتدلى حتى تقع على البليد الأصم الذى لا يفهم ما يقول، ولا يفقه ما يقال، فهو أخو الجمادات فى فقدان الشعور، وبلادة الاحساس، وإن كان قد تميز بالنطق، وبالنطق فحسب!

ومن أجل أن نقيم الأود فى هذا الخطأ على وجه أوضح، ونعطى الموضوع بعض ما يستحقه من الشرح، نقول: بأن التنادر لا يقف فى اتجاهاته ومراميه عند حد العبث والضحك، ولكنه فى الواقع يقصد إلى ما هو أهم وأجل، ويرمى إلى أغراض متعددة، كل غرض منها يعتمد على ملكات ولا بد له من استعداد خاص، فمن ذلك السخر وهو يقوم على الذكاء وقوة الأدراك، وحسن المفارقات؛ والدعابة وهى تعتمد على انبساط النفس، ومرح الطبيعة، وخفة الروح؛ ثم الهزل وإنما يكون عن أستهانة بتكاليف الحياة وعظائم الأمور، وتفريط فى الواجب؛ وقد يندفع الأنسان إلى الهزل والعبث بدافع العطف والتبسط، كما تضحك من طفلك الصغير، ومن أصحاب النقص وذوى العاهات. وقليل فى الناس من تجتمع له كل هذه الجهات بملكاتها كما كان الجاحظ، وكثير من نجده يجيد الضرب والضربين، فهو فى أحدها يقطف، وفى بعضها يقف

على أنه لا بد لحذق هذا الفن بعد كل هـذه المواهب والملكات من ثقافة بضروبه، وعلم بمسالكه وانتهاجه، حتى يمكن للمتنادر أن يقع بالنادرة من قلوب السامعين موقعا يهز المشاعر، ويشنى نجى البلابل، وقد تكلم الجاحظ فى تبيان النهج الذى يكون به أداء النادرة وحظها من القبول والاستملاح والاستطابة فقال: «والنادرة الباردة جداً قد تكون أطيب من النادرة الحارة جداً، وإنما الكرب الذى يخيم على القلوب ويأخذ بالأنفاس، النادرة الفاترة التى لا هى حارة ولا هى باردة، وكذلك الشعر الوسط، والغناء الوسط، وإنما الشأن فى الحار جداً والبارد جداً...

ومتى سمعت حفظك الله بنادرة من كلام الأعراب، فأياك وأن تحكيها إلا مع اعرابها ومخارج ألفاظها، فأن أنت غيرتها بأن تلحن فى إعرابها، وأخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين، خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير. وكذلك اذا سمعت بنادرة من نوادر العوام، وملحة من ملح الحشوة والطغام، فأياك وأن تستعمل فيها الأعراب أو أن تتخير لها لفظاً حسنا، أو تجعل لها من فيك مخرجا سريا، فان ذلك يفسد الأمتاع بها، ويخرجها من صورتها، ومن الذى أريدت له، ويذهب استطابتهم إياها، واستملاحهم لها..(١)».

وثمت ناحية لا أحب أن تغرب عن البال، وهى أن الانسان وإن اجتمعت له ملكات التنادر، وتمت له مواهب الدعابة، وكان على علم بشرائط ذلك وضروبه، فأنه مع هذا كله لا يستطيع أن يكون له فى هذا الفن إلا اذا استوفى شرائط أخرى فى هيئته ومخبره وإشاراته، وما هذه الشرائط فى الواقع الا أداة هذا الفن وآلته، فكما أنهم ارتضوا للخطيب نمطا خاصا فى موقفه من اعتجار العمامة، واصابة الاشارة، وجهارة الصوت، وجودة الايقاع؛ وكما أنهم اشترطوا للمنادم بزة معلومة من الزى، وحسن الحديث ولطف المدخل، فكذلك رأوا من شرط المسامر والمنادر أن يكون خفيف الاشارة لطيف العبارة، ظريفا رشيقا، لبقا رفيقا، غير فدم ولا ثقيل، ولا عنيف ولا جهول، قد لبس لكل حالة لباسها، وركب لكل آلة أفراسها فطبق المفاصل، وأصاب الشواكل (٢)، ولقد تم للجاحظ كل هذا من مواهب الفن وملكاته، فبلغ فيه مبلغ العبقرى النادر، وكان له فى كل ضرب من ضروبه واتجاهاته، يتهكم تهكما مراً لاذعا، ويداعب مداعبة حلوة سائغة، ويهزل هزلا هو مراح الأرواح، وأنس القلوب. وإنك لتجده فى سائر كتاباته وأحاديثه يجمل القول بالنادرة، ويخلط الجد بالدعابة، فيجعله حبيبا الى النفوس، سهلا فى التناول، وما أعرف للجاحظ ضريبا فى تلك الناحية غير الكاتب الانجليزى الماجن صاحب «الأفكار البليدة» (٣) فقد كان ذلك الكاتب خفيف الروح، هويم الفكر، له آراء صائبة، ولكنه كان يسوقها الى القارئ مساق الدعابة والتفكه، وكان مشغوفا بنقض ما تواضع عليه الناس من الفضائل والأخلاق، فيحسب الغرور فضيلة، والقناعة بلادة، ويرى أن أهل الخير والطيبة على باطل، وإنه فى ذلك لكالجاحظ إذ كان يكتب فى الأمور المتناقضة، والحالات المتضاربة، فيحتج لفضل السودان على البيضان، ويفتخر للرماد على المسك، وإن الشبه ليشتد بين الرجلين إذ يتحدث كل منهما عما يتصل بنفسه، ويمسه فى شخصه، ولقد وقفت على فصل لذلك الكاتب يتكلم فيه عن الذاكرة، ويتنادر

---

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ١١١ ط السندوبي

(٢) جمع الجواهر ص ٧ للحصرى

(٣) هو الكاتب الفكه جيروم ك. جيروم كان يسمى نفسه بالمفكر البليد، وله كتاب سماه الافكار البليدة...

بضعف ذاكرته حتى بلغ به أنه كان ينسى اسمه فى بعض الأحيان ، فأذكرنى ذلك بما كان من أمر الجاحظ إذ قال : نسيت كنيتى ثلاثة أيام ، فسألت أهلى بماذا أكنى فقالوا لى : أبو عثمان ! !

ولقد كان الجاحظ فى كثير من قبح الشكل ، ودمامة الخلقة ، وقصر القامة ، ونشوز التركيب . ولكنه كان على الرغم من ذلك كله طيب المحضر ، شهى الحديث ، خفيف الروح . ظريفاً فى إشاراته ، فكان بذلك ريحانة السامر ، وأنس النادى ، ومهوى الرؤساء وولاة الأمر ، يطلبونه لخفته ، ويحرصون عليه لظرفه ، ويغمرونه لذلك المرح الذى يفيضه عليهم . وأسوق اليك من ذلك طرفا : حدث الرواة أن الجاحظ كان فى جانب الوزير ابن الزيات ينصره على القاضى ابن أبى دؤاد ، وقد كان الشنآن مستحكما بين الرجلين ، فلما غضب المتوكل على ابن الزيات وقتله ، وتم الظفر للقاضى ، خاف الجاحظ على نفسه التلف ، فطلب السلامة بالهرب ، فلم يلبث أن قبض عليه ، وحمل إلى ابن أبى دؤاد مغلول العنق ، مقيد الرجلين ، فى قميص سمل . فلما وقف بين يديه ، أرسل القاضى فى طلب حداد . فقال الجاحظ أعز الله القاضى ، ليفك عنى أو ليزيدنى ؟ قال : بل ليفك عنك ! فلما جيء بالحداد ، غمزه بعض أهل المجلس أن يعنف بساقه ، ويطيل أمره قليلا ، فلطمه الجاحظ وقال : أعمل عمل شهر فى يوم ، وعمل يوم فى ساعة ، وعمل ساعة فى لحظة ، فان الضرر على ساقى ، وليس بجذع ولا ساجة . فضحك ابن أبى دؤاد وأهل المجلس منه . وقال ابن أبى دؤاد لمحمد ابن منصور وكان حاضراً : أنا أثق بظرفه ، ولا أثق بدينه ! ! ثم قال يا غلام صر به إلى الحمام ، وأمط عنه الأذى ، فنزع منه الغل والقيد وأدخل الحمام وقد حمل اليه تخت من ثياب وطويلة وخف ، ثم جاء فصدره المجلس ، ثم أقبل عليه وقال : هات الآن حديثك يا أبا عثمان (١) .

وكم كنا نشتهى أن يصلنا ذلك الحديث الذى لا شك فى أنه كان عذباً شهياً يفيض بألوان من المرح ، وفنون من الأنس ، قد توثب فيه الجاحظ على طريقته من نادرة إلى نادرة . وتنقل به من طرفة إلى طرفة . فيا ترى ما ذا قال أبو عثمان ، وبماذا أجاب ابن أبى دؤاد ، ولماذا سكت الرواة ؟ !

« له بقية »

محمد فهمى عبد اللطيف

(١) اعتمدنا على معجم الأدباء فى تلك الرواية وقد حذفنا مالا يتصل بمقام الكلام

حديث الأزهار

للكاتب الفرنسي ألفونس كار

ألفونس كار من أبرز أدباء القرن التاسع عشر وقد اشتهر بأسلوب خاص من السهل الممتنع ، ومن أبلغ آثاره (حديث الأزهار) وهو مجموعة قطع صغيرة فى كل منها مجال وسيع للتفكير ، وهذه بعض الحديث ازهاره اخلها إلى العربية وأقدمها إلى قراء الرسالة .
ف . ف

(١)

الزهرة الأولى

لقد انبلج صبح نيسان (ابريل) فإلى الحقول يابنات الأمل لاقتطاف أول زهرة من أزهار الربيع .

أقطفى أول زهرة يافتاتى وضعيها تحت طيات ثوبك على صدرك ، فأنها طلسم السعادة يشدد العزم ويحيى الأمل .

°°°

ليست الوردة ولا البنفسجة أولى أزهار الربيع ، بل هى الزهرة التى تلمحها العين قبل سواها ؛ هى التى تبدو لمرتاد الحقول كأول ابتسامة ترسلها الطبيعة من خلال دموع الشتاء .

لقد كانت الوردة أول زهرة أعلنت إلى قدوم الربيع فى السنة الماضية ؛ وكانت زهرة البنفسج رسول الحياة إلى قلبى فى أول هذا الربيع . ومن يدرى ما تكون الزهرة الأولى بعدها ، فلعلها زهرة القبور . ؟

من أى نوع كنت يازهرة الربيع ، أنت ابتسامة الحياة بعد الموت ، ولمعة الأمل بعد اليأس . أنت الزهرة الأولى ، لاتلمسك يدٌ دون أن ترتجف ، ولا تقع عليك عينٌ دون أن تترطب بندى الأجفان .

إن الناظر إليك يا أولى الازهار ، ليشعر بأن فتوة القلب ستعود مع فتوة الزمان ، وأن النفس ستنوَّر مع تتويج الأزهار وتخضرّ ذاوياتها مع اخضرار الأوراق .

أنت الأمل يازهرة نيسان ، بل أنت ابتسامة أوهام ينخدع بها المرء فيؤمن بامكان رجوع المنصرم وعودة خطوات الزمان .

°°°

أولى الأزهار شبيهة بالأعياد فى دوران الأعوام ، فهى درة فى عقد الساعات والأيام ، إذا ما بدت فى الحاضر نبهت ما مضى بمثل زمانها الغابر ودفعت بالقلب إلى العودة نحو الزمان القديم .

إنها لوقفة يربط الانسان فيها حلقة الآن الحاضر بمثلها من الآن البعيد ، فيحسب نفسه إلهاً ينفخ فى الأموات نسمة الحياة .

وما أوجع مايشعر به حينما يرى هذه الرجعة وهماً تولده حرارة القلب وتبدده عاصفات الأقدار .

ما أجلك أيتها الزهرة الأولى ، وما أحلى وما أمر ما تفعلين بالقلوب ، ينشر مشهدك من جوانب التذكار ألوفا من مجنحات الحياة ثم يطويها ليردها مكسورة الأجنحة إلى قبر الزمان .

إنها لسريعة الذبول ، أولى أزهار الربيع ، وما أشبهها بما تولدُ فى القلب من شعور .

°°°

سلاما على وريقاتك يا زهرة الربيع وبلسما من عبيرك على قلوب العاشقين والشعراء ، على قلوب الحزانى والآملين .

لئن كان فى وهمك بعض العذاب ، فان فيه ما يعيد إلى التذكار برهة من متلاشيات الحياة .

فى أوان قطفك برهة من الشباب للشيخ ، ولحظةُ أمومة للثكلى ، وفترةُ بنوَّة لليتيم . وما بين وريقاتك الباسمة فترةُ لقاء لأبناء هذه الحياة بأحبابهم الراحلين الثاوين فى القبور

سلام عليك يازهرة الربيع ، فانى وجدت بك وأنا اقتطفك لوحدى ما كنت أجده وأنا أقتطفك من قبل مع الأحبة المودعين .

فليكس فارس

جولات فى الأدب الفرنسى الحديث

تطور الحركة الأدبية

فى فرنسا الحديثة

لأستاذ الأدب فى جامعة السربون « دانيال مورنى » Daniel Mornet

بقلم الأستاذ خليل هنداوى

القصة الواقعية « Le Roman Naturaliste »

اميل زولا

أصول مذهبه :

يتولد أدب زولا من ارادة قانونية ومن طبع لا يتلاءم مع هذه الارادة . أما هذا النظام فهو يعود إلى تأثير « بالزاك » فيه و « فلوبير » وفلسفة « تين » والواقعيون هم الذين قالوا بأن القصة لا ينبغى أن تكون رومانتيكية ابداعية لأنها ليست وليدة خيال أو وهم ، وإنما يجب أن تكون محاكاة حقيقية للحقيقة ، ولكن زولا بما أوتى من الخصب وبما أفاد من مطالعة المتأخرين وجد أن هنالك مذهباً أجدر بالأخذ ، يجب أن تخلق القصة المبنية على الامتحان الذى يصل إلى عرفان حقائق علية . وقد آلت بزولا مطالعته للدراسات النفسية التى نشأت فى جيله كنظرية ولادة العواطف ونظرية الوراثة الطبيعية فلسفياً وفسيولوجياً إلى أن يرى أن الطبائع فى الرواية المدرسية انما كانت عقداً بسيطة ، على أن كل ما فى الانسان وكل ما فى القصة يخضع للجبلة الطبيعية أو للطبع . وهذا الطبع انما هو وليد الوراثة ووليد تأثير الاوساط والظروف ، فواجب القصة اذن ألا تقف بحثها على دراسة حالات نفسية ما هى إلا كلمات مصفوفة ، وانما على حالات واقعية . فتأنيب الضمير مثلا ما هو إلا اضطراب بسيط عضوى ، « وانما غايتى أن أكون كاتباً واقعياً وطبيعياً » ، ولكن القصة الامتحانية يجب أن يكون لها هدف أبعد ، انها ستكون درساً . فقد يجلس القصصى وتحمله ملاحظته وتأملاته إلى حالة من حالات كل يوم ، فيرى مثلا حالة جنون التصوف أو هلاك المدمنين للكحول ؛ أحل بهم هذا عن مصادفة ، أم نتيجة شريعة معلومة ؟ اذا أردنا أن نعرف ذلك فلنقم أشخاصنا وأنفسنا مقام من تخيلهم فكرنا المؤلف على الطريقة الامتحانية ، ولنتأمل مجرى هذه الاشياء ، فاذا وصلنا فى النهاية الى النتيجة التى أدركناها بالتأمل الاول كان لنا أن النتائج الواحدة تتبع الاسباب الواحدة ، وهكذا أوجدنا قانوناً ، وعملنا علماً !

على ان أهواء « الرومانتيكيين » لم تكن أبسط ولا أسهل من هذه البحوث العنيفة التى يشبهها زولا بحقائق علية يختلقها رجل الأدب كما يشاء هواه لكى يصل إلى النتائج التى تلائم فكرته وغايته . وأحكام زولا العلية لم تكن أكثر جداً من بحوثه .

وقد وضع زولا قصصه سائراً على طريقته بصبر وجلد ، لا يعرف الملل ، وقد عمل على الذهاب من المبدأ إلى النتائج ، فبعض أشخاصه تؤثر فيهم عوامل الوراثة ، وبعضهم لا يستطيعون فراراً من تأثير الاوساط والظروف . وبهذا لم تظهر الفضيلة عنده كمثل مستقل وانما الفضيلة تحتاج إلى الوراثة وإلى تأثير الاوساط والظروف كما هو الحال فى الرذيلة التى تنشأ بهذا التأثير .

طبع المؤلف وعبقريته

لقد كان طبع زولا أشد وأقوى من تعاليمه الفلسفية ، وقد كانت آثاره الأولى تفيض عاطفة ورقة . لقد كان كاتباً رومانتيكياً ! وهو لا يجهل ذلك فى نفسه . فلقد أخذ عهداً على نفسه بأن يكون واقعياً وطبيعياً ، وطلب الى القصصى أن يكون ذا عاطفة ، تموج فى صدره كل العواطف حيث لا تغنيه عاطفة التأمل والتحليل وحدها . ولقد كانت تموج فى صدر زولا العواطف على اختلافها : العواطف الاجتماعية ، والعواطف النبيلة . ولقد كان جمهورياً ثم صار اجتماعياً فاشتراكياً . وله هذه الجملة المأثورة « الجمهورية ستكون واقعية أو لن تكون » . فكان من وراء ذلك ان رأى فى الاغنياء والاسياد والمثرين رجالا لؤماء وأرواحاً قاسية وعقولا منحطة ، ولا ينزل النبل والشرف والحقيقة الا منازل رجال الشعب والفنانين والمفكرين المؤمنين بالجمهورية الواقعية . وفى استطاعتنا أن نناقش هذه الافكار ولكنها بجملتها تصل بنا الى بعض الأنانيه والحق ، والى الاشفاق على البؤس والبؤساء .

ان الصورة التى صور بها ـ زولا ـ الانسانية صورة مظلمة الالوان ، تحمل فى طياتها اليأس والوجوم . تتلخص هذه الصورة فى أنها مجموعة مظلمة للعيوب والخبث والرياء ، وجهود دائبة تبعث

على الأشفاق تذهب مذهب العنف فى قتال الفاقة الروحية والجسدية ؛ على أن زولا برغم ذلك كله يعتقد أن هذا النضال شريف وعظيم ، يبشر بمستقبل خير من الحاضر ويعلن أن الحياة الحرة المخصبة هى التى ستظفر وتنتصر . وتراه قبل كتابة « أناجيله العاطفية » كان يعتقد بجمال الحياة ، هذا الجمال الذى هو عنوان قصة له ، إن جمال الحياة سينتصر على كل شناعة فيها ، وسيغلب على كل مناسك وشعائر لا تبعث إلا على الزهد والفرار من الحياة . وسيقهر المذاهب المسممة . الحياة وحدها ستكون جميلة لأنها ستكون صادقة مبدعة . وهكذا تجد زولا يتشاءم ويطغى عليه تشاؤمه . ولكن تشاؤمه تلوح خلاله لمعات الرجاء ، ويمشى فيه شعاع التفاؤل

ولزولا مخيلة قوية وثابة . ان الشىء الذى يحبه حباً جماً هو مشهد الحياة . يحب الشناعة فيها والرذيلة والفساد أيضاً ، أليس هو مشهداً من مشاهدها ؟ وان مشهد الحياة يحمل بنفسه حيث يبدو مجموعة صور تتجلى فيها لجبة الحياة ، وفى الحق لا تظهر عبقرية زولا الا فى هذه القدرة على التخيل . وان هوجو وفلوبير قد وصفا الجماعات فى حركتها ، وفى عراكها وصراعها ، ولكنه وصف ينشأ حول أبطال القصة ولا يدخل فى أنفسهم . أما زولا فقد بدّل هذا النظام ، وترك الحياة المضطربة المبهمة تسود جو القصة كلها . فهنالك صور كبيرة تهيمن على الجماهير ، وهنالك كائنات سرية عظيمة كأنها تحيا باضطراب الجماعات ، وان عالماً ضخماً واسع الحدود ، ذا لجب وصخب ، مبهم التفسير ، يفتش ويتحرى ويجد تأويل نفسه فى هذا الرمز يبدو - طوراً - كصورة عنه ، وتارة كوهم باطل !

وقام لزولا منتمون لمدرسته ، أخذوا بمبادئه الأدبية وهجروا مبادئه الفلسفية ، فلم يشاءوا أن يجعلوا تاريخ البشرية مقيداً بتاريخ الوراثة والأدواء الكحولية . ولم يعتقدوا بأن القصة انما تكون تجربة فسيولوجية اجتماعية . . . فعادوا إلى المصادر التى صدر عنها زولا ، وإلى الواقعية التى اقتبسها من فلوبير وكونكور ، ورأوا أن كل ما فيه اختلاق هو افتراء ، ورأوا ألزم شىء التحدث عن شىء لاحظناه ، ولو أن الحياة قدمت لنا مشاهد نادرة الوقوع فمن الواجب أن نهملها لأنها افتراء ! مادة الرواية هى مادة كل يوم ، هى مادة كل شىء لا ابتداء له ولا انتهاء ، مادة كل ما يمكن وقوعه كل يوم فى كل كون ، والحياة التى تتمثل لنا كل يوم وفى كل كون هى حياة فيها القبيح والشنيع ، أما الجمال والفضيلة فهما صفتان نادرتان ، أو قل هما مستحيلان ، وهما مما لا يصح اتخاذه موضوع القصة ، القصة تعرض الشناعة والرياء الضعيف الممثل فى مجتمع بنيت أسسه على رذائل مشتهرة وأنانية متبجحة . وانما قيمة القصة وحسنها يتوقفان على مقدار صدقها فى وصف هذه الشناعة والرياء

هذه مبادىء جهد بها هؤلاء ولكنهم لم يكونوا أمناء لمبادئهم ، فقد كانت فضيلتهم زاهية مختالة ، قتلوا كبرياء وخلقوا كبرياء ، وكرروا موضوع « كتلة الشحم » تحت مظاهر متحدة الغرض ، وكل رواياتهم تعود إلى وصف فئة تتظاهر بنصر الفضيلة ، تمدح جماعة سافلة اذا افتقرت اليها ، وتعود إلى إهانتها إذا فرغت منها . ولهذا لم يبق من « الواقعية » إلا مبادىء عامة قد تتلاقى بالمذهب « المثالى » حيث تكتب القصة بأسناد وأدلة . والروائى لا يحيا إلا فى العالم الباطن ، عالم نفسه ، وإنه ليخرج منه ليلتقط من الحياة اليومية ألف مشهد ، ويتحرى فى هذه المشاهد عن الغرائز والأهواء التى تمثل هذه القصة . الحياة الحقيقية ليست هى حياة صفوة مختارة ، وقد تكون هذه الحياة كاذبة مرائية ، إن الحياة فى حياة المجموع ، حياة الشعب الصادقة ، والفن يكون فى تصوير هذه الحياة الشعبية

جى دى موباسان

جمال الحياة ومذهبه الواقعى :

عاش موباسان للحياة ولجميع لذائذ الحياة . لقد كان فتى « نورمانديا » له مظهر يملأ العين ونفس لا تعرف الكلال . كان يهيم شغفاً بالطبيعة وجمالها وهو القائل « إنى أحب السماء كعصفور ، والغابات كذئب شرس ، والصخور كوعل . أحب حباً وحشياً عميقاً قدسياً وحقيراً - كل شىء يحيا » . ولقد كان له فى فنونه حواس لا للتمتع فحسب ، بل للملاحظة ، وقد كان الصديق المقرب الوفى للكاتب « فلوبير » إذا هم بأن يكتب قيد بانتباه ودقة لا كل ما شاهده ، بل كل ما يقدر أن يشاهده . ولقد أعطى صوراً كثيرة قوية عن مناظر السين والمارن ومقاطعة نورمانديا وعن حياة القرويين وطلاب الجامعات . وفى قصصه الأولى سخر من معايب نفسه ومخازيها ، وسخر من كل ما يراه كاذبا فى المجتمع فى الأديان والشرائع والعادات ،

لقد كان ماجنا مرحا ولكن لم يطل عهد مجونه ومرحه . فقد تألم وغزا الألم جسمه ونفسه فبدل كل نظراته الواهمة في الحياة

لقد كان مسرفا جد الاسراف في التمتع بالحياة ، وقداساء لنفسه وجسده بهذا الاسراف ، إسراف عنيف في لذته وصناعته كأنما كان طبيعة شاذة عنيفة في ميولها ! فكرت إليه الأوصاب وتناوشت جسمه العلل ، فأراد أن يقاوم سلطانها فعكف على الخمر والمورفين والمخدرات ومالبث قليلا حتى أثر ذلك في نفسه فولد فيها الاضطراب فتبدلت ألوان الحياة في وجهه ، واستحال نورها ظلمة حالكة ، وأخذت هذه الروح المرحة تشك في فرح الحياة وبدأت تحقر معانيها ، وآزره على ذلك عقول أوى إليها كان تفكيرها متجهما، فهو يحب شوبنهاور ممن وجدوا الحياة صفحة سوداء . ومنذ ذلك الحين غدا كل شيء في عينه زهوا باطلا وجنونا وعدما : « سعداء هم أولئك الذين لا يبصرون بسأم كبير : لا شيء يتبدل، ولا شيء يتحول، وأن كل شيء يغمره سأم طويل » . فكرة الانسان ساكنة لا تتحرك وإنما تدور ضمن حدودها المتقاربة كذبابة في قارورة مسدودة ، وهذا الضجر الذي عراه يظهر على صور مختلفة في ثنايا مواضيعه ورواياته ؛ على أنه لم يجعل من هذه الانسانية الكئيبة الحزينة صورة قاتلة ، وهو اذا لم يجلُ هذه الصورة بوجه صحيح فانه كان مفعماً شفقة وحناناً عليها ، فهو في المواطن التي تهتز فيها الغرائز وتملك على الشاعر يبصر فضائل خفية وجمالا متوارياً ونزوعاً عنيفاً متألماً نحو المثل الأعلى ، تراه يعود إلى حديث من أحاديث الحياة حيثما كان مصدره ، تسكب عليه الحنان والرقة ، ويسبغ عليه الجمال ؛ على أن فوزه الأدبي والثروة التي نالها قد بدلاه وأثرا في نفسه ، فقد كان يغشى الأوساط الارستقراطية ويتمتع بما تخلقه هذه الأوساط من الفنون والمرح العنيف في الحياة ، فلم يعد يقنع بطريقته وفنه الأول في وصف الأشياء البسيطة وتصوير الحوادث القريبة . إنه نشط إلى ماتدعوه طبيعته الصافية إلى تحليل نفوس مركبة يستحوذ عليها القلق ويهدها الشقاء ، ومن جملة هذه الأنفس نفسه . كتب قصة « قوى كالموت » و « قلبنا » و « بطرس » و « حنا » وما هي قصص تحليلية . هو يريد فيها أن يجعل التحليل بدلا من نثره . وأشخاصها يريدون أن يخدعوا الناس عن أسرار نفوسهم بهذه الفصول والحركات التي يأتون بها . وأكثر قصصه تجري على طريقته . القصة الشخصية التي تدور حوادثها حول بطل هو صاحب القصة ، تجري على طريقة الاعترافات التي تعبر عن الحياة الباطنة والتحليل الخلقي .

على أن موباسان كانت جهوده بارزة في تطور المدرسة الواقعية وهو في خير قصصه تبدو واقعيته في ذوق حاد مشبوب يسمو إلى فتنة الحياة الشعبية ومجو الحياة الاجتماعية مجواً لا فظاظة فيه ولا مرارة في انتقاء هذه الحقائق التي تمثل الحقيقة الاكثر ارتباكاً في الحياة . كل شيء في أسلوبه يدل على صرامة واتزان . ولا يمل « موباسان » من قول كل شيء ، ولكن من قول كل مايوحي إليه عقله بقوة وبيان . وقد تفتنه الطبيعة وتأسره وتؤثر فيه ، ولكن القصة تخون نفسه ، وأخيراً تراه لا يتردد في التحري عن الحقيقة الانسانية التي تعكس في لحظة واحدة من هذه الحياة المتغيرة العابرة شيئاً من حقيقة النفس الخالدة للناس .

« يتلوه بحث تأثير الملم في الرواية » خليل هنداوي

التبعة الأدبيـــة

للدكتور حسن صادق

سنبين فى هذه الكلمة تبعة الشعراء والكتاب التى يحملونها أمام التاريخ وتثقل على أسمائهم وشهرتهم عند مؤرخى الادب وتطوره، اذا أنتجت أعمالهم الأدبية حالة من الاضطراب العقلى والقلق النفسى بين شباب الأجيال المتعاقبة

وقد يقول قائل إن من ينسب الى مصنفى الكتب مثل هذه التبعة الخطيرة، إنما يجعل للأدب قيمة أكبر وأعظم من قيمة الدور الحقيقى الذى يقوم به فى حياة الأفراد والشعوب. ولكننا نجيب على هذا الاعتراض بأن الطريقة الوحيدة التى نملكها لحفظ كنز الانسانية الأدبى ونقله من جيل إلى جيل، من فجر العصور التاريخية إلى اليوم، هى الكتب؛ وكل ما نعرفه عن العصور الماضية البعيدة لم نصل إليه إلا بفضل أعمال الكتاب. وفضلا عن ذلك فان الدراسة المضنية التى يقوم بها الأساتذة أثناء الأعوام الطوال فى معاهد العلم المختلفة، ليست إلا شرحاً وتفسيراً لأعمال مكتوبة

وينتج عن ذلك أن الحضارة والأدب أمران متعاونان لا ينفصلان، وأن أحدهما بغير الآخر لن يكون إلا التكرار المستمر لوقائع ومذاهب ونظريات بعينها، بدون أية مقارنة ممكنة بين الماضى والحاضر. وما دام هذا هو اعتبار مهمة الكتابة فان من السهل تصور التبعة الهائلة الملقاة على عاتق الذين يدونون أفكارهم وينشرونها بين الناس

إن الروح السائد بيننا الآن، قد كونه الشعراء والكتاب والمؤرخون والفلاسفة الذين يتحدثون إلينا بوساطة كتبهم منذ آلاف السنين؛ وسيتأثر من غير شك روح الأجيال القادمة بما نكتب اليوم أو ببعضه على الأقل. ومن أجل ذلك يشعر الانسان بشيء من الانفعال المنتبه كلما نشر كتاب جديد، لأنه يجهل مبلغ الخير أو الشر الذى ينتجه الكتاب خلال سير الانسانية.

وليست أنواع الكتب جميعاً متساوية فيما تنتج من الأثر، ولكن أعظمها سلطاناً على النفس وأشدها خطراً وأقواها بأساً هى الكتب التى مصدرها الخيال، أو ما يصح أن يطلق عليها اسم الكتب الشعرية

وفى الحق أن الكتب الغزيرة المادة التى تدل على التبحر وتتطلب الجدال والمناقشة، أو التى تثبت آراء وأفكاراً أو تفندها وتهدمها، سواء أكان موضوعها التاريخ أم الفلسفة أم الدين، تجد أمامها كتباً أخرى كتبت فى الموضوعات نفسها للقضاء على الأثر الذى أنتجه النوع الأول من الكتب؛ وبهذه الطريقة نجد تصحيحاً لشر هذه، فى الخير الذى تنشره تلك. وجمهرة الناس الذين لهم حق الخيار فى الأخذ بما يرون لهم من الآراء، يستطيعون الوصول إلى الحقيقة بفضل جهودهم العقلية الخاصة. وبهذه المناسبة أذكر كلمة حكيمة للكاتب الفرنسى أناتول فرانس، فقد دخلت عليه فى صباح أحد الأيام سيدة، فراعها كثرة ما رأت عنده من الكتب والمجلدات، وقالت له فى دهشة شديدة: أقرأت ياسيدى الأستاذ هذه الكتب جميعا؟ فقال نعم، ومن أجل هذا لا أعرف شيئا. فازداد عجبها من هذا الجواب الغريب وسألته الافصاح فقال: كل كتاب من هذه الكتب ينقض الآخر ويهدمه. ولهذا السبب لا يخرج القارىء منها جميعاً إلا بفائدة واحدة، هى أن يتعلم كيف يفكر!

ولنفرض - كما هو الواقع - أن مؤرخا نشر كتابا لحمته الهوى وسداه الحقد على شعب أو ملك أو زعيم ما، فى هذه الحال يكتب مؤرخ آخر فى الموضوع نفسه كتابا يدافع به عن الشعب أو الملك أو الزعيم الذى حمل عليه المؤرخ الاول. ثم يقوم مؤرخ ثالث يجمع الوثائق والأدلة الصحيحة ويثبت الوقائع والآراء فى دقة تاريخية، وهكذا. فإذا كان المؤرخ الأول قد قصد إلى الشر، فان نجاحه لا يكون إلا فى حدود ضعيفة وقتية لا تلبث أن تزول. وكذلك الحال فى ميدان الفلسفة، فأذا دعاك حكيم إلى الركود وعدم الاكتراث مثلا، أظهر لك حكيم آخر بالمنطق ضرورة الارادة والعزم والحركة

فهما تكن قوة أصحاب المذاهب والمفكرين ، فليس لهم علينا إلا سلطان نسبى ، لأننا نظل سادة أنفسنا فى قبول مبادئهم ومذاهبهم أو رفضها ، ونجد فى كتابات أخرى السلاح الذى ندفع به عن أنفسنا هجمات هؤلاء

أما حالنا مع الشاعر فعلى النقيض من ذلك ، لأنه السيد المطلق فى الميدان الذى اختاره لنفسه . والشاعر هنا هو الذى يخلق من عبقريته الخاصة عالماً من الحوادث والانفعالات والصور ينفث فيه كل حيوية الأشياء الحقيقية ، وإذن فالشاعر هو الروائى أو المؤلف التمثيلى ، أو الموسيقار ، أو مبتكر الحكايات الخرافية أو مصنف الملاحم أو مبتدع الكلام الموزون المقفى

وبفضل هذه الموهبة ، موهبة خلق عالم مستقل . يكون الشاعر نجما عظيما أو خطراً مخيفاً . إنه لا يبحث ولا يناقش ولا يبرهن ، ولكنه يبتدع ويخترع . فهو لا يقنعنا ، ولكنه يستهوينا ويفتننا كما تفتننا المناظر الطبيعية الجميلة واصطفاق الأشجار فى سكون الغابة وخرير الماء فى الغدير ، أى أن الشاعر يغزونا دون أن نستطيع الدفاع عن أنفسنا وصد غارته عنا . وهو بعبقريته يجعلنا عاجزين عن أن نحذر سلطانه ، ويفرض علينا أريج أزهاره وظلال غاباته والتحليق فى أفقه ، فنحن فى الواقع سجناء سحر . وأين نجد ملجأ للخلاص من الصور والأخيلة التى يطبعها فينا ؟ أنلجأ إلى شاعر آخر ؟ كلا لأن هذا يكون تعباً ضائعاً لا طائل تحته . فكل شاعر منهم له ميدان حر مستقل خالص ، وليس من المعقول أن يفند الانسان ملحمة بأخرى ولا درامة بأخرى ولا نشيداً بأغنية . ومن هنا نرى الخير أو الشر الذى يستطيع الشاعر عمله . فهو يستطيع أن يغرس فينا بذور البطولة أو جراثيم الجبن ؛ وفى وسعه أن يقودنا إلى الخير أو يدفعنا إلى الشر على الرغم منا

والشاعر الكبير الجدير بهذا اللقب هو الذى يشعر بالرحمة العميقة ، ويحتقر المتاع المادى ، ويستعذب الآلام فى سبيل المجد المستقبل ، ويلهمنا حب الحياة ويحثنا على إعزاز الارادة وقهر الهوى ، ويدفعنا إلى ضروب التضحية المجيدة ، أى يدفعنا إلى البطولة مهما اختلفت البلاد والجنس والدين والفلسفة . وهذه صفات مشتركة بين الشاعر والبطل

وكلامنا هنا عن الشاعر العبقرى ؛ أما الشاعر الذى يعوزه الابتكار والأسلوب والعبقرية فلا قيمة له ولا أثر يخشى منه . ومثل هذا ربما يحصل على نجاح وقتى ، ولكن شهرته لا تطول ونفوذه لا يمتد ولا يثمر

والشاعر العبقرى نوعان : الأول هو الذى أوتى المقدرة على استهواء الناس بخصوبة ذهنه ورقة خياله وقوة ألفاظه وإحكام نسجه ، ثم يستسلم فيما يكتب لضعف الهوى ويتغنى بالحياة السهلة الرخوة ويندفع فى الملذات الحقيرة المبتذلة ويؤثر بهذا فيمن يسحرهم ويدعوهم إلى الضعف والجبن والأثرة والاشتهاء والشراهة . والثانى هو الذى يحملنا نحو مثل أعلى من القوة والنور والبطولة ولا يورطنا فى اضطراب الذهن ورعشة الأعصاب والحواس

حسين صادق

١٣ - تاريخ العرب الأدبي

للأستاذ رينولد نيكلسون

ترجمة محمد حسن حبشي

إن تاريخ البدو أيام الجاهلية لايخرج عن كونه سجلا لحروبهم ، أو بالحرى هو ذكر عصابات كانت تغير على القوافل بين آن وآخر بغية السلب والنهب . ولم يكن ثمة حاجة تدعو إلى الاستغاثة ، بل كان كل فريق منهم يفخر بنسبه ، ويصب على الآخر وابلا هطالا من الأهاجي المقذعة ، وتؤسر الابل والنساء ، كما كانت المناوشات العدة تقوم بينهم ولكن القليل منها يؤدي إلى نشوب حرب . وكان ذلك نوعاً من الحروب الهومرية أتاح فرصة طيبة للقيام بأعمال تنطوي على البطولة . ويقول ثوربك بصدد هذا الشأن : « وإذا شئنا أن نكتب التاريخ الواقعي لمثل هذه المنازعات البدوية وجدنا ذلك أقرب إلى المستحيل . أما عن المصادر المعاصرة له التي تستأهل عناية الباحث فليس لدينا سوى القصائد والمقطعات الشعرية التي ظلت محفوظة ، وطبقاً لما يذكره السيوطي كان العرب يطلبون من أي بدوي يقص حادثة تاريخية أن يقرنها ببعض أبيات تتعلق بها . والحقيقة أن كل مثل هذه الأقاصيص التي ضغطت على مر العصور حتى وصلت إلينا قد تبلورت حول القصائد . ومما يؤسف له أنها قلما كانت صحيحة ، ويتضح في أغلب الأحيان أن الأقاصيص قد اخترعت اختراعاً وهيئت حتى توافق موضوع الأشعار(١) ، ورغماً من أن معظم مايتعلق بأيام العرب خرافي إلى حد بعيد إلا أنه يصف في أمانة الخصومات القبلية التي كانت تنشب بينهم والطريق الذي كانوا يسلكونه فيها ، وقصة(٢) حرب البسوس التالية - وهي أشهر حرب في الجاهلية كافية في تصوير هذا الجانب المهم من الحياة البدوية ، وجنوب أرض نجد المرتفعة يقترب المسافر بالتدريج من البحر الأحمر الذي تفصله عن الجبال المحاذية له أرض منخفضة ضيقة يقال لها تهامة ، أما الحجاز فهو تلك الهضبة الوعرة المسالك التي تقوم بين نجد والشاطئ . وهذا هو الشعب الذي كانت تسلكه في الأزمنة القديمة قوافل السبئيين محملة بالبضائع الغالية الثمينة ، ميممة شطر موانى البحر الأبيض المتوسط ؛ ومنذ عدة قرون قبل الميلاد نشأت محطتان تجاريتان عظيمتان هما مَكُرَب (مكة فيما بعد) وفي شمالها يثرب (اسم المدينة قبل الاسلام) ولسنا نعرف شيئا عن سكانهما الأولين أو تاريخهم إلا ما تفيض به روايات الكتاب المسلمين التي تطوي القرون القهقرى حتى تصل إلى ذكر أيام آدم وإبراهيم ؛ ولقد كانت مكة مهد الاسلام هذا الدين الذي كان - كما يذكر محمد (ص) - ملة إبراهيم ، ولكن جاء من بعده خلف أفسدوه إلى أن أرسله الله ليطهره من شوائبه مبشراً به من جديد ، ولذلك قيل إن دين أهل مكة قبل ظهور الإسلام بزمن كبير كان هو في ذاته الإسلام . وإن مدينة الإسلام المقدسة لتظهر منذ آلاف السنين وهي مغمورة بفيض هذا السناء ، ويقال إن العرب حينذاك كانوا جميعا يعبدون « الله » ثم تفرقوا بعد ذلك وزلوا بعبادة الأوثان ولكنهم عادوا كحجاج إلى مزار خصص أولا للكائن الأعظم الفرد ، بيد أن المطاف قد استحال إلى حرم لآلهة القبائل المختلفة ، وهذه النظرية من أول ما جاء به الإسلام ، وسأقص - جهد ما أمكنني الاختصار - النقط البارزة القوية .

في وادي مكة - وهي البيت الأول لهذا الفريق من الجنس العربي الذي يدعي أنه من ذرية اسماعيل بن ابراهيم من زوجه هاجر - يقوم بناء مكعب الشكل على غير نظام ، وفي مساحة صغيرة ذلك هو الكعبة ، وتنسب قصة بنائها إلى آدم الذي شادها بأمر سماوي ، وحينما طغى الطوفان وطوى في لجته كل ما على الأرض رفعت الكعبة إلى السماء حتى إذا غاض الماء أعاد بناءها في مكانها السابق اسماعيل وإبرهيم . وبينما كانا منهمكين في عملهما هذا جاءهما جبريل بالحجر الأسود المعروف وموضعه الجنوب الشرقي من البناء ، وأوصاهما بأداء فريضة الحج . ولما انتهى البناء انتصب ابراهيم واقفا على صخرة يطلق عليها المتأخرون « مقام إبراهيم » واستدار إلى الجهات الأربع ثم

(1) Thorbecke : ‘ Antarah, ein Vorislamischer Ditcher, P. 14.

(٢) لم نشأ ان نكتب هذه القصة لشهرتها عند قراء العربية ويكفي القارئ مراجعة ما ذكره التبريزي في شرحه للحماسة (طبعة Freytag) ص ٤٢٠ - ٤٢٢ ، ص ٢٥١ - ٢٥٢ كذلك راجع أيضا Delectus لنلدكه ص ٣٩ وما يليها

ولى وجهه شطر السماء وصاح : «أيها الناس : لقد فرض عليكم الحج إلى البيت العتيق فاستمعوا لإلهكم» وحينئذ أجابته من كل الجهات أصوات هاتفة «لبيك اللهم لبيك».

وكثر نسل اسماعيل حتى ضاق بهم الوادى فساح عدد جم منهم فى فجاج الأرض ، وخلفتهم قبيلة جرهم كأسرة حاكمة للبقعة المقدسة ، ولقد غرقت تلك القبيلة فى الكبرياء والآثام حتى حلت نقمة الله عليها ، وكثيرا ما يشار إلى انفجار سد مأرب الذى جعل الكثير من عشائر اليمن تشد رحالها ناحية الشمال ، ولقد استقر المهاجرون فى الحجاز واستأصلوا غالبية الجرهميين ثم واصلوا السير إلا قبيلة واحدة تلك هى قبيلة خزاعة التى استقرت فى جوار مكة تحت امرأة زعيمها الحىّ ، واشتهر عمرو ابن لحىّ بين العرب بثرائه وكرمه ، ويقول ابن هشام ، حدثنى بعض أهل العلم أن عمرو بن لحىّ خرج من مكة إلى الشام فى بعض أموره فلما قدم مآرب من أرض البلقاء وبها يومئذ العماليق رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم ماهذه الأصنام التى أراكم تعبدون؟ قالوا له هذه أصنام نعبدها نستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا ، فقال لهم : أفلا تعطوننى منها صنما فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه؟ فأعطوه صنما يقال له هبل . فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه [1] . وقلده العرب فى ذلك فجاءوا بأوثانهم ونصبوها حول المعبد ، وبذلك تم انتصار الوثنية وعمّ انتشارها ، حتى لقيت كل هاتيك الأوثان مصرعها حينما دخل محمد (ص) مكة على رأس جيش من المسلمين فى السنة الثامنة للهجرة (= ٦٢٩ م)

أما أشهر القبائل التى نسلت من إسماعيل من عدنان واستقرت فى الحجاز فهى هذيل وكنانة وقريش ، وينبغى أن نجعل اسم هذه القبيلة الأخيرة على الدوام نصب أعيننا ، إذ نجدها قبل ظهور محمد بقرن صاحبة السيادة فى مكة . وشيوخها حراس الكعبة ، وتلك مرتبة قد حرصوا عليها لما تدره من ثراء عظيم . وسبب صعودهم إلى معارج القوة أنه كان لكلاب بن مرّة ولدان : هما زهرة وزيد وكان الثانى طفلا حينما اغتصب الموت أباه ، وتزوجت أمه فاطمة من رجل يدعى ربيعة فاحتملهما إلى بلاده ، وشب زيد بعيدا عن وطنه الأول ومن ثم سمى «قصيّا» ولما بلغ مبلغ الرجال وعرف موطنه أتى مكة حيث كانت السيادة فيها معقودة على هام بنى خزاعة وتحت زعامة شيخهم حليل بن حُبشية ، فكانت شؤون الكعبة بعيدة عن قريش وهى من سلالة إسماعيل ، ثم إن قصىّ بن كلاب خطب إلى حليل بنته حُبّى فرغب فيه حليل ، وكان هدف قصى أن يخلف حليلا فى هذه المكانة الرفيعة ، بيد أن هذا سلّم مفاتيح الكعبة ساعة وفاته إلى أحد ذوى قرباه واسمه أبو غبشان ، وكان كثير الشرب فاحتال قصى عليه وأسكره حتى باعه مفاتيحها لقاء زق من النبيذ . ولذا يقال فى الأمثال «أضل من غبشان» ولم ترض خزاعة بهذا الأمر فامتشقت الحسام ، ولكن قصيّا ظهر عليها . ومن ثم غدا المهيمن على شؤون البلدة وحرمها القدسى ، وكانت باكورة أعماله أن جمع قريشا وكانت قد تفرقت فى سهول مكة فسمته قريش «المجمّع» وبنى دار الندوة حيث يجتمع شيوخ العشائر والقبائل فيها متبادلين الرأى والمشورة فيما يعرض أمامهم من الأمور . ولما مات قصى احتفظت قريش بهذا الأرث المقدس وظل فى بيتها .

وربما كان موت قصى قد حدث فى النصف الثانى من القرن الخامس للميلاد ، ولقد ولد الرسول بعد ذلك بقرن أعنى عام ٥٧٠ أو ٥٧١ م وهنا ينبغى الإشارة إلى أن تاريخ مكة طوال هذه الفترة كان سجلا لمشاغبات تافهة قل أن تتخللها حادثة ذات أهمية ، كما أننا نجد الصدارة لأسلاف النبى طوال هذه المدة . وتظهر المنافسة التاريخية للبيتين الأموى والعباسى فى شخص مؤسسيهما : أمية وهاشم ؛ وفى أثناء ذلك كان نفوذ قريش ثابت الدعائم ، واسع الانتشار ، وغدت الكعبة دار ندوتهم الأهلية الكبرى ، كما أن وفود الحجاج الذين أقبلوا من مختلف أصقاع بلاد العرب لم يعملوا فحسب فى رفع العبء عن قريش بل عاونوها فى تثبيت مركزها التجارى ، ولقد قصصنا عليك من قبل ، كيف عزم أبرهة — والى الحبشة على اليمن — على النيل من مكة لما ارتكبه أحد القرشيين من تدنيس كنيسة صنعاء ، وقد يصح أن يكون هذا سببا يتخذه أبرهة ، بيد أنه كان يريد بلا شك الاستيلاء على مكة ومفاتيح تجارتها .

ويزعم المؤرخون المسلمون أن هذه الحادثة [1] العجيبة وقعت عام ميلاد الرسول فى السنة المعروفة بعام الفيل حوالى ٥٧٠ م ،

(١) ابن هشام ج ١ ص ٥١

(١) راجع ما كتبه الطبرى عن حملة ابرهة ج ١ ص ٩٣٦ ، ٩٣٩ - ٩٤٠ ، وفى ترجمة نلدكه ص ٢٠٦ - ٢٢٠

وبرهان على أن العرب قد هالهم مرأى هذه الحيوانات الضخمة أن واحداً أو أكثر قد صحب الحملة الحبشية ، وقد أوقع صدى استعداد أبرهة الحربى الرعب فى قلوب القبائل التى حاولت فى مبدأ الامر أن تصده، معتبرة الدفاع عن الكعبة واجباً مقدساً ، ولكن سرعان ماطارت نفوسهم شعاعاً إذ رأوا أن لاقدرة لهم على ذلك ، وبعد أن هزم ابرهة ذا نفر الحيرى ، عسكر فى جوار مكة دون أن يلقى مقاومة تذكر ، بعث إلى عبد المطلب جد النبى الرسالة التالية ، وكان عبد المطلب موقراً محترماً من جميع القبائل « إنى لم آت إلى سربكم ، إنما جئت لأهدم البيت ، فان لم تعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لى بدمائكم ، فرد عليه عبد المطلب « والله مانريد الحرب وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله وبيت خليله ابراهيم ، وإن للبيت رباً سيمنعه ، وإذا لم يتنا فلاحول لنا ، وانطلق عبد المطلب إلى معسكر الأحباش مع حناطة رسول أبرهة فتوسط له أنيس[1] عند الملك وقال له «أيها الملك هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك وهو صاحب عير مكة يطعم الناس بالسهل والوحوش فى رءوس الجبال ، فأذن له أبرهة ، وكان عبد المطلب رجلا عظيما وسيما جسيما ، فلما رآه أبرهة أجله وأكرمه أن يجلس تحته ، وكره أن تراه الحبشة يجلسه معه على سرير ملكه فنزل أبرهة عن سريره وجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه ثم قال لترجمانه « قل له ما حاجتك » فقال عبد المطلب « حاجتى إلى الملك أن يرد علىّ مائتى بعير أصابها لى » فقال أبرهة لترجمانه « قل له قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتنى أتكلمنى فى مائتى بعير قد أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمنى فيه ؟ » فقال عبد المطلب « إنى أنا رب الأبل وإن للبيت ربا سيمنعه » قال « ما كان ليمنع منى » قال « أنت وذاك ، اردد إلى إبلى »[2]

ويقال إن القبائل المقيمة حول مكة قد أوفدت رسلا من لدنها ومن بينهم عبدالمطلب فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت فأبى عليهم[3] ولما استعاد عبد المطلب إبله انصرف إلى قريش فأخبرهم الخبر ، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز فى شعف الجبال والشعاب تخوفا عليهم من معرّة الجيش ، ثم قام فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش فقال عبد المطلب :

لا هُمَّ إنّ العبـد يمـ ـنع رحله فامنع حلالكْ[1]
لا يغلبنّ صـليبهم ومحالهم أبدا محـالك
ولئن فعلت فربّمـا أولى فأمر ما بدا لكْ
ولـئن فعلتَ فإنّه أمر تتمّ به فعالك[2]

فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة فأقبل نفيل بن حبيب الخثعمى حتى قام إلى جانب فيله وقال « ابرك محمود وارجع راشدا من حيث جئت فإنك فى بلد الله الحرام ، ثم أرسل أذنه فبرك الفيل فوجهوه لمكة فأبى ثم للشام فهرول ، وللمشرق واليمن ففعل مثل هذا ، وأرسل الله عليها طيرا من البحر أمثال الخطاطيف[3] يحمل كل طائر منها ثلاثة أحجار : حجر فى منقاره وحجران فى رجليه لا تصيب أحدا منهم إلاّ هلك وقد أشير إلى هذا الحادث فى السورة الخامسة بعدالمائة المعروفة بسورة الفيل حيث يقول تعالى (ألمْ تر كيف فعَلَ ربُّكَ بأصحَابِ الفيلِ . ألمْ يَجعَلْ كيْدَهُمْ فى تَضلِيل ، وأرسَلَ عليْهِمْ طيْرًا أبابيل ، ترميهِمْ بِحِجَارةٍ مِنْ سجّيل ، فَجَعَلَهُمْ كعَصفٍ مَأْكُول)

وإن الفصل الذى قام بتمثيله عبد المطلب فى هذه القصة لهو فصل دينى الغرض منه تبجيل شأن هذه المدينة المقدسة ، كما يتضح لنا منه ما كانت عليه أسرة النبى من سطوة وثراء قبل انبثاق نور الإسلام بنصف قرن ، ، وحينما رد الله الحبشة عن مكة وأصابهم بما أصابهم به من النقمة ، وعظمت العرب قريشا وقالوا أهل الله قاتل الله عنهم وكفاهم مؤونة عدوهم ، وقالوا فى ذلك أشعارا يذكرون فيها ما صنع الله بالحبشة وما رد عن قريش من كيدهم وينسب ابن اسحاق الأبيات التالية إلى ابن الصلت بن ربيعة

---

(١) سائس فيل ابرهة وكان يسمى محمودا
(٢) الطبرى ج ١ ص ٩٣٨ – ٩٣٩
(٣) الطبرى ١ : ٩٣٩

(١) قرأها نيكلسون حلالك (بكسر الحاء) ومن ثم ترجمها هكذا :
O God ! defend Thy neighbouring folk even as a man his gear defendeth !
(٢) ا الطبرى ١ : ٩٤٠
(٣) ويقول الطبرى أيضا (ص ٩٤٠ س ٢) ان هذه الحجارة « لا تصيب شيئاً إلا هشمته وإلا نفطر ذلك الموضع فكان ذلك اول ماكان الجدرى والحصبة » وهنا نرى حقيقة تاريخية تلك هى انتشار المرض فى جيش الحبشة

الثقفي وينسبها كثيرون غيره لأمية بن أبي الصلت الشاعر المشهور وكان حنيفياً ومعاصرا للنبي :

إن آيات ربنا ثاقبات لا يمارى فيهن إلاّ الكفورُ
خلق الليل والنهار فكلٌ مستبين حسابُه مقدورُ
ثمّ يجلو النهار رب رحيم بمهاةٍ شعاعها منشورُ
حبس الفيل بالمغمس حتّى ظلّ يحبو كأنه معقورُ
لازماً حلقة الجران كما قطـطرّ من صخر كبكب مجدورُ (١)
حوله من ملوك كندة أبطا ل ملاويث في الحروب صقورُ
خلفوه ثم ابذعروا جميعا كلهم عظم ساقه مكسورُ (٢)
كل دينٍ يوم القيامة عند اللـه إلاّ دين الحنيفة زور

ولقد أثارت غزوة الأحباش وهزيمتهم النعرة الوطنية في نفوس عرب الحجاز ، هذه المشاعر التي لابد وأن يكون قد شاركهم فيها إلى حد بعيد البدو عامة ، وظهرت روح جديدة خلال الحوادث التي تخللت الأربعين عاماً التي تلت هذا الحادث في جميع نواحي شبه الجزيرة ، وينبغي أن نتذكر دائماً أن أسرة اللخميين في الحيرة قد انتهت بالنعمان الثالث الذي لقي مصرعه على يد خسرو برويز (٦٠٢ ، ٦٠٧ م) وكان قبل موته قد استودع أسلحته وبعض حاجاته عند هانئ شيخ عشيرة بني بكر وقد طلب خسرو هذه الودائع ولكن هانئا رفض تسليمه إياها ، فأرسل هذا جيشاً فارسيا عرمرماً إلى ذي قار وهو مكان قرب الكوفة يطفح بالمياه المتدفقة ولذلك كان ملجأ حصينا لبني بكر أثناء فصل الجفاف ، ونشبت هناك معركة حامية الوطيس انتهت بهزيمة الفرس هزيمة منكرة (٣) وكانت قوات العرب أكثر من قوات الفرس (٤) ، وقد عد العرب هذه الموقعة فاتحة عصر جديد . من ذلك ما يروى أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) قال حينما سمع بهذا « هذا أول يوم استراح فيه العرب من الفرس »

(١) الجران العنق والكبكب اسم جبل ، والمجدور : الحجر الذي جدر حتى بلغ الأرض .
(٢) ابذعروا تفرقوا (الأصل)
(٣) راجع الطبري ١٠١٦ - ١٠٣٧ وترجمة نلدكه ٣١١ - ٣٤٥
(٤) كان عدد العرب ثلاثة آلاف مقاتل والفرس ألفين ، وقد ذكر هذا في قصيدة لكهم اسم بني الحارث بن عباد يمتدح بها بني شيبان .
عربا ثلاثة آلف وكتيبة ألفين أعجم من بني الفدام

أما قبائل الصحراء فقد قوي اعتقادها في نفسها وأخذت موقف المهاجم بعد أن كانت من قبل تستظل بلواء امبراطورية آل ساسان وتخضع للأسرة الحاكمة في الحيرة ، وأخذت تلك القبائل تظهر الموجدة والاحتقار بهذا الشبح الذي لم يعودوا يخشون بطشه بل وطئوه بأقدامهم . ؟

« انتهى الفصل الثاني »

محمد حسن حبشي

شاعر الاسلام

محمد عاكف (١)

بقلم الدكتور عبد الوهاب عزام

— ٣ —

مات الشاعر الكبير والساعة ثمان إلا ربعاً من مساء الخميس التاسع والعشرين من ديسمبر، تاركا للأمة التركية آثارا خالدة، آثارا مثل «دفاع جناق قلعة» و «نشيد الاستقلال»

(١)

شيعت الجنازة من «عمارة مصر» في بيوغلي إلى جامع بايزيد. وهنالك أقيمت صلاة الجنازة، ثم اتصل المسير إلى قبر الشاعر الذي هُيِّئ له في المقبرة التي أمام شهيدلك في «أدرنه قبو»

كان في توديع الشاعر كثير من أصدقائه وجمهور عظيم من طلبة الجامعة، فلما أديت الصلاة وأريد وضع التابوت على السيارة أبى الطلبة إلا أن يحملوا النعش على أيديهم، واشترك مئات الشبان في حمله طوال الطريق من بايزيد إلى «أدرنه قبو»

وعلى حافة القبر فتح التابوت وأخذ النحات راتب عاشر صورة الشاعر في قالب من الجص ليصنع منها تمثالا

ولما وضع الشاعر في لحده دوّت أصوات الطلبة جميعا بنشيد الاستقلال الذي نظمه محمد عاكف. ثم تكلم طالب من طلبة الآداب في حياة الشاعر وما أعقبته وفاته من أسى، وأنشدت طالبة قصيدة «جناق قلعة» وأنشدت أخرى أبياتا كتبها الشاعر تحت صورته، وهي آخر ما نظم

ثم اقترح بعض الطلبة أن يشيد طلبة الجامعة قبر شاعرهم العظيم، فتلقاه الحاضرون بالموافقة والاستحسان، واتفقوا أن يحتفل كل عام بيوم الوفاة وأن يسمى «يوم عاكف»

ثم انصرف الذين أودعوا الشاعر الكبير مقره الأبدي بين الحسرات والدموع

(١) هذه الكلمة مستخلصة مما نشرته الجرائد التركية

(٢)

هو ابن محمد طاهر أفندي الايبكي أحد مدرسي الفاتح. وأمه تركية خالصة من بخارى

ولد في استانبول عام ١٨٧٣. وبدأ تعلمه على أبيه، ثم حصل العلوم الدينية وأتقن اللغتين العربية والفارسية

ثم التحق بالمدرسة الاعدادية في استانبول، فلما أتم دراستها التحق بمدرسة الطب البيطري الى أن نال شهادتها من الدرجة الأولى. وقد فاق أقرانه جميعا في الكيمياء والطبيعة، والنبات والحيوان والتشريح ووظائف الأعضاء

ثم تنقل في عمله بين سورية والروملي والأناضول. وشرع حينئذ ينشر أشعاره

ولما وقعت حرب البلقان عمل في شعبة النشر من جماعة الدفاع الملي. ولما كانت المهادنة بعد الحرب العامة ذهب إلى الأناضول ولبث هناك محتملا عبئه في الجهاد الوطني حتى النهاية، وكان نائبا في المجلس الكبير عن ولاية بوردور. وفي ذلك الحين نظم «نشيد الاستقلال» الذي بذ به كل المتبارين في نظم نشيد وطني

(٣)

كان محمد عاكف يحب من شعراء العرب ابن الفارض، ومن الترك فضولي، ومن الفرس سعدي، ومن الفرنسيين لامرتين. ويمكن أن يقال إن في شعره آثارا من هؤلاء ظاهرة أو خافية، ولكن الذي لاريب فيه أن عاكفا قد رفع النظم التركي في أوزان العروض (١) إلى درجة من السلاسة لم ينلها شاعر آخر، وقد صارت اللغة التركية بقلمه أيسر لغات الشعر وأبلغها. فنشيد الاستقلال أبرع بيان لهذا اللسان الحساس النقي الذي ذلّله قلم عاكف. ومنظوماته «صوت الحق» (حقك سسلري) و «الصفحات» في أجزائها السبعة تراث يغنى به الأدب التركي، وإن لعاكف في تاريخ الأدب لمكانة خاصة. لقد فقدنا بموته شاعراً عظيما

(٤)

ذلكم اجمال ما كتبته الجرائد التركية عرضته على قراء «الرسالة» تمهيداً للكلام في شعر عاكف، موضوعه ومقاصده، وأسلوبه وأوزانه. وعسى أن أبين هذا في الأعداد الآتية

(للكلام بقية) عبد الوهاب عزام

(١) للترك بجانب الاوزان العروضية العربية اوزان مقطعية قديمة، وقد حاكوا الأوربيين في اوزانهم في هذا العصر

من الأدب الحديث

أنا وابنـــاى

للأستاذ محمود غنيم

وأطيبُ ساعِ الحياة لديَّا ... عشيّةَ أخلو إلى وَلَديَّا
متى ألجُ البابَ يهتفُ باسمى العظيمُ ويحبو الرضيعُ إليَّا
فأجلسُ هـذا إلى جانبى ... وأجلس ذاك على رُكبتيَّا
وأغزو الشتاء بموقد فحم ... وأبسط من فوقه راحتيَّا
هنالك أنسى متاعب يومى ... حتى كأنى لم ألقَ شيَّا
وأحسَبُنى بين طفلىَّ «شاها» ... وأحسَبُ عشّىَ قصراً عليَّا
فكلُّ شرابٍ أراهُ لذيذا ... وكل طعام أراهُ شهيَّا
وما حاجتى لغـذاءٍ وماءٍ ... بحَسْبىَ طفلاىَ زاداً وَرِيَّا ؟
هنا أستعيدُ زمانا خلا ... وأرجعُ أطوى الليالىَ طيَّا
فأنسىَ عِذارىَ وأنسى وَقارىَ ... وأحسَبُ أنىَ عُدتُ صبيَّا

* * *

فقل لرفاق النـدىِّ سلاماً ... فلستُ من اليوم أغشى النديَّا
ولن أتلهّى «بشاة» «وفرز» ... ولن ألعب النرد ما دمت حيَّا

* * *

وأيْبَةُ نجوى كنجواىَ طفلى ... يقولُ : أبى فأقولُ : بُنَيَّا ؟
ويا رُبَّ لغوٍ يفوهُ الصبى ... به فيكونُ حديثاً شجيَّا
وأفصحُ من ألف سحبانَ طفلٌ ... أراد الكلام فكان عييَّا

* * *

فيا ليتَ شعرى أتمتَـد بى ... حياتى فأجنىَ غرسَ يديَّا ؟
وأشهدَ طفلىَ حين يشبُّ ... فتًى عالىَ النفس شهما أبيَّا ؟
أبوكَ امرؤٌ من رجال الكلام ... فكنْ أنت يا ابنى امرأً عَمليَّا
فما احتقر الناسُ إلا الأديبَ ... ولا احترم الناسُ إلا الغنيَّا

* * *

أيا ابنىَّ أحبِبْ بما تكسِران ... وأهوِنْ بما تُتلفان عليَّا
يصونكما الله من حادثات الليالى ... ويُبقيكما لى مليَّا
ويكفيكما الله شرَّ البكاء ... ويحفظُ من وقعه أذُنيَّا
أمِن [illegible] كيدى أتيا فلذتا ... ن أم أتيا حبَّتا مقلتيَّا ؟

كوم حماده ... محمود غنيم

أروع الأشيـــاء

للدكتور عبد الوهاب عزام

أتذكرين يوم جئت حيرى ... سائلة : ما أروع الأشياء !
أتذكرين حيرتى وأنى ... طوّفت فى الأرض وفى السماء
ثم انثنيت واللسان عىٌّ ... يعثر بين العجز والحياء ؟

* * *

أتذكرين بعد ذاك يوما ... أسلمك الحزن إلى البكاء
ترقرت فيه الدموع تترى ... لآلاءة فى خـدك الوضاء
هذى الدموع، لاعراك حزن ... أوحت لقلبى أصدق الإيحاء
أروع شىء فى الورى دموع ... فى مقلة الحزينة الحسناء

وله أيضاً :

شباب أم أمانى ؟

يا زهرة فى ضفاف الماء ناضرة ... يهتز فيها جمال جد مفتون
وللنسيم على أوراقها عبث ... ينشر فيه الحسن كل مكنون
تطالع الماء تبغى فيه صورتها ... تردّها الريح عنه رد مغبون
وينفذ الدهر فيها حكمه فاذا ... شتى الوُرَيقات بين الماء والطين
أين الشباب الذى راقت نضارته ... ورفرفت فوقه أحلام مجنون
أنضرة الزهر لم تثبت لناظرها ... أم صورة الماء بين الحين والحين

السراج المفقود

للأستاذ أمجد الطرابلسى

لا ! دعونى وسط الجموع وحيداً   أشعلُ القلب كى أنيرَ سبيلى
عجباً أيها الورى ! ما الذى تبـ   ـصر فى حالك الدّجى المسدول ؟
أترانى ولدتُ أعمى ؟ أم الكو   ن ظلام ؟ أم كلّ حىٍ متيلى ؟
أم همُ الناس واهمون سكارى   يتغنون بالسّراب الجميل ؟
رقصوا فى فم الجحيم وغنّوا   فوقَ أشلائهم وبين الطلول !
خابت العين ! ليس يُبصرُ إلا الـ   ـقلبُ ، يا نعمةَ الخلىّ الجهول !
يا هناء الصخور فى هذه الدنيـ   ـا ويا شقوة الشعور النبيل !
يا ضلال العقول فى الحانة السّكـ   ـرى ونعمى المعربد الضّليل !

***

أين منى قلبى يُنيرُ سبيلى ؟   أترى ذابَ قبل ليلى الطّويل ؟
أم ترى أطفأتهُ عاديةُ الرّ   يح جنوناً وزمجراتُ السّيول ؟
ورمَتهُ كفّى فأهوى به السّيـ   ـلُ غضوباً إلى أقاصى السّهول
واخبالى ! أما سمعتُ سراجى   يتشظّى ؟ وما أشدّ ذهولى !
مزّجتْ شِرّةُ السيولِ بقايا   هُ مع الشوكِ والحصى والوحول
تلكَ أشلاؤه تَشعُ على البعـ   ـدِ وراء الربى وخلفَ الحقول

***

ماترى الفلكَ فى العواصف تلقى   بخفيفٍ من حِملِها وثقيلِ . . ؟

***

أيهذا السارى المروّعُ ! مهلاً   وعزاءٍ عن كلّ قصد وسولِ
ما ترجى وهذه الدُّجية النكرا   ءُ غشّتْ بوارقَ التأميلِ ؟
الدّجى راعبٌ تفحّ به الأشبـ   ـاحُ ظمأى إلى النّجيعِ العليل
موحش ليسَ فيه غير صدى الوبـ   ـلِ وهزجِ الأمواهِ وسطَ المسيل
وأعاصيرُهُ تلاعب خديـ   ـكَ بسيفٍ من بردها مصقولِ
والذئابُ الجياعُ ضجّت عواءً   فى بطونِ الهُوى وفوقَ التلول
تتحرّى فريسةً من جريحٍ   أو طريد أو شاردٍ أو قتيل
أيهذا المسكين ! أىّ الأمانى   تقرى ؟ هُديتَ من مخبولِ !
شعّثت رأسكَ الرّياح السّوافى   وتعثّرتَ فى الكثيب المهيلِ
لا تمدّن إلى جبينكَ كفّاً   ضُرّجتْ بالدم الزكىّ الطليلِ !
ضرّجتْها الأشواكُ من طولِ ما تكـ   ـبو عياءً كالموثقِ المكبول
أترُجّى خلفَ الدّياجى شعاعا   من صباحٍ مُزوّق أو أصيل ؟
ما وراء الظلام إلا ظلام   ليس فيه من ملجأ أو مَقيل !
كلُّ وادٍ وراءه ألف واد !   كل ميلٍ وراءه ألف ميل !
خابَ من سار لاصطيادِ الأمانى   فى عمايات مَهمَهٍ مجهول
من يسر دون غايةٍ كيف يحظى   بعد طول السّرى بنعمى الوصول ؟

***

ارجعِ القهقرى فلن يطلع الفجـ   ـرُ ولنْ تستقرّ بعدَ الرحيل

ياسراجى المفقودَ فى ثورة الليـ   ـلِ شهيداً ، يا مشعلى ودليلى !
يا سنا مقلتىّ فى الظُلَمِ السو   دِ ويا نورَ غمّتىَ المملول !
كنت لحنى فمن يمزق صمتى ؟   ومدامى فمن يبل غليلى ؟
وأنيسى فمنْ تركتَ لأنسى ؟   وخليلى فمنْ يكون خليلى ؟
يا سراجى كلّت ذراعى فألقتـ   ـكَ بلا رحمةٍ ودونَ عويل
فرحتْ مثلما تسرّ بترْكِ الـ   ـغُلّ كفُّ المصفّدِ المغلول
حسبت فى نواك راحتَها الكبر   ى ضلالاً ، واخيبة المأمول !
ياسراجى ! لما صرخت هشيماً   وتبددتَ كالدم المطلولِ
قد تصاممتُ عن أنينك ، لا بل   كانَ عندى كأنّة الا رغول !!
نصبٌ آدنى فخففتُ حملى   بعد ياسى من حلمىَ المقتول

وتلمّسْ بينَ الصخورِ رماماً   من سِراجٍ محطّمٍ مشلول
وأعدْ سبكها سراجاً منيراً   لدجاك المعبّس المسدول
لا تقل إنه يهدُّ ذراعىّ   م ويدنى نضارتى للأفولِ
إنه فجرُكَ الذى تتمنّى   إنّه نبعـة الهوى والميولِ
إنه فرحة الحياة وبؤسا   ها وشهدُ المنى وسم الذحول
إنه هيكلُ الرّضى والتأسّى   إنّه رفرفُ الجمالِ الخجولِ
انّه مهبطُ الرؤى والأمانى   والخيالاتِ والهوى المعسولِ

***

يا سراجى أنت العناء ولكن   فى تواريك مصرعى وأفولى

« دمشق »   أمجد الطرابلسى



أكروبوليس أثينا

Erechtheion

للدكتور أحمد موسى

(تابع)

وإذا أردنا أن نسجل هنا كل ما في معبد بارتنون من عجائب الفن وآياته ، فانا نحتاج إلى أعداد كاملة من « الرسالة » ، ولكنا نقتصر على وصف أهم ما فيه مما يستطيع غير المشتغل بعلم الآثار أو بتاريخ الفن تفهمه وتذوقه

فالمثلثان المصوران بين السقف الجالونى وافريز المعبد من واجهتيه حيث المدخل المؤدى للهيكل، اشتملا كما سبق القول على منحوتات غاية في الابداع الفنى وجمال الانشاء المجموعى ، كلها من خلق الفنان فيدياس .

وترى في (ش ١) مجموعة منحوتات أحد المثالين ، نقلها العلامة كارى عن الأصل بتصرف قليل اضطر إليه ، وهى كما يتضح بالنظر إليها مبتورة الاجزاء ؛ ومعظم هذه القطع موجود بالمتحف البريطانى وبمتحف أثينا .

والصورة (ش٢) تبين امرأتين جالستين(١)، احداهما قد اضطجعت مستندة إلى صدر الأخرى وواضعة يمناها على فخذها، على حين ترى ساق الثانية كأنما يلتصقان بالفخذين حتى يكون بذلك إخراجهما طبيعياً إلى أبعد حد .

والبناء العام لجسميهما مثل عال من أمثلة تناسب الأعضاء ؛ وإذا رجعنا إلى أصول وقواعد النحت ، نجد أن فيدياس من أقدم مؤسسى هذه الأصول والقواعد ، كما يتضح هذا من منحوتاته ، التى ترى الوحى فيها خارجا عن دائرة حاجات النفس المادية ، بل إنك إذا تفرغت بها للاستمتاع الذوقى ترى أنها تعرج بك إلى ملكوت الخيال السامى

ومهما وصفنا قطع فيدياس فأننا لا نزال نقصر عن وصف ما جال بخاطره عند نحتها الذى عبر به عن ثورة فنية رائعة تكاد



(ش ٢) التمثال الرخامى لأثينا بارتنوس

(١) لا ينطبق هذا الوصف على (ش ٢) ولعل ذلك سهو من الأستاذ الكاتب (الرسالة)

(ش ١) بين المثلث الواقع تحت جمالون الوجهة الغربية لمعبد بارتنون

تكون خارقة للمعقول ، إذا علمنا أنها نحتت من الرخام فى القرن الخامس قبل المسيح .


(ش ٢) جزء من مجموعة النساء الممثلة فى مثلث الجهة الشرقية لهالون بارتنون

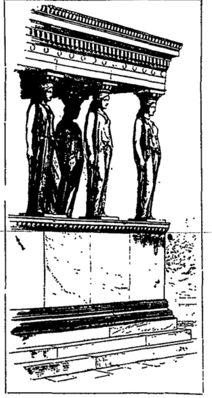
ولعل تمثال أثينا بارتنوس المصنوع من الرخام أيضاً (ش ٢) يعطينا فكرة عن تمثال أثينا الذى قلنا فى المقال السابق إنه كان من العاج الخالص والذهب وارتفاعه ثلاثة عشر متراً ، والصورة هنا ليست على جانب كبير من الدقة ، إلا أنها لا تخلو من إظهار الغاية التى عمل التمثال من أجلها

والمغادر لمعبد بارتنون يرى إلى الناحية الشمالية على بعد قليل ، معبد إرشتايون (انظر صورة أكروبوليس بالمقال الأول) وهو المعبد الذى بناه ككروبس لأثينا بولياس بأحجار نحتتها الآلهة وألقت بها من السماء إلى الأرض على هذه البقعة حيث تحاربت أثينا مع بوزيدون على امتلاك البلاد ، كما كانت شجرة الزيتون التى غرستها أثينا والمنبع الملحى الذى حفره بوزيدون فى هذا الموضع أيضاً

حطم كسركسس Xerxes هذا الموضع المقدس ، ولكن إقامته أعيدت بكل نشاط فى عصر بركليس ، إلا أنه لم يتم نهائياً إلا عند انتهاء حرب بيلوبونيز . والناظر إلى المجموع الانشائى لهذا المعبد يرى أنه مكون من ثلاثة معابد : هى معبد أثينا ومعبد بوزيدون ارشتايوس (ارشتايون) وباندوروزوس Pandorosos لأن الرغبة كانت متجهة إلى المحافظة على هذه المساحة المشغولة بالثلاثة المعابد معاً ؛ لذلك كان المجموع الانشائى على شكل غير منسجم التكوين من حيث الوضع الهندسى للبناء ، ولفظ ارشتايون باللغة الاغريقية معناه الأقدم ، وقد أطلق على هذا المعبد نظراً لأنه مكون من الثلاثة معابد القديمة

وصالة كرياتيد Karyatidenhalle (ش ٥) تحمل سقفها آنسات قد وقفن وعلى رؤوسهن السقف ، ولم تظهر على وجوههن علائم التعب أو الاجهاد ، بل إن وقفتهن تمثلهن كما لو كن يحملن شيئاً مألوفاً . ويعطى قوامهن فكرة كاملة عن جمال الشابات الاغريقيات اللاتى لم تمتلئ أجسامهن بعد . والواقع أن جمال الأجسام لا يرتبط بضخامتها أو نحافتها ، بل بتكوينها الكلى وحسن تناسب أجزائها وانسجامها بعضها مع بعض لتكوين المجموع ، وهذا نفسه ما قرره أوجستينوس (٣٥٤ - ٣٢٠ ب . م .) فى شرح الجمال Non Mole Constat, Sed Parilitate Ac Demension Membrosum

وإذا لاحظنا أن الأولى من اليمين تكاد تتشابه مع الثانية من حيث طريقة الوقوف ، مع فارق ضئيل فى كيفية امتداد الذراع ، وأن الأولى من اليسار اختلفت فى شكل امتداد الساق اليسرى بدلا من اليمنى كما كان الحال فى الاثنتين الأخريين ، وعلمنا أنهن يشتركن


(ش ٤) حاملات سقف صالة كرياتيد بمعبد ارشتيون

جميعاً فى حمل سقف واحد ؛ أمكننا أن نتصور القدرة الهائلة فى الاخراج ، لأن أوليات قواعد الهندسة تحتم أن يكن كلهن فى ارتفاع واحد لمستوى السقف . فترى الفنان مع هذا القيد الهام ووجوب

بمزاياه استطاع أن يخرج عن ضرورة التشابه خشية الاملال كما هو الحال فى عمل الأعمدة ، وتصرف فى طريقة إخراج السيقان والأذرع لجعلها مختلفة دون إخــلال بأصول التوازن

أما التيجان البسيطة التى علت الرؤوس ، وما فوقها من الافريز (الشامل الأسنان) فبكل هذه فى ضبط نحتها واستوا خطوطها مثل آخر من أمثلة الدقة

(ش ٥) معبد ارشتايون

وفى (ش ٤) نعرف موقع الصالة المقول عنها . وكذلك الشكل الكلى للمعبد . وأهم ما يلفت النظر هو التكوين الشكلى للأعمدة ، فهى مخالفة فى قاعدتها السفلى والعليا لأعمدة بارتنون التى قلنا إنها من الطراز الدورى . أما هذه فهى من الطراز اليونى أعنى أنها اختلفت



(ش ٦) جزء من افريز معبد نيكا ابتروس

عن اليونية بوجود قاعدة صغيرة أسفل كل عمود فضلا عن التاج الدائرى الجانبين على نهاية كل منها ، وعلى هذه النهاية قام السقف الجالونى الذى ترك مثلثاه دون منحوتات بداخلهما كتلك التى رأيناها فى معبد بارتنون

والشجرة المغروسة إلى جانب الصورة تمثل شجرة الزيتون السابق ذكرها بالمقال الفائت . ولا نترك أكروبوليس أثينا دون تنويه بمعبد أثينا نيكا القريب من المدخل العام (بروبيلين) وما هى ذى قطعة من افريزه (ش ٦) تشمل أحد المناظر التى تجلت فيها قدرة الاخراج . فاذا تأملت الأشخاص وما مثله من حركات الهجوم والمقاومة والانتصار والانهزام ، رأيت أن المثال أخرجها فى قوة جديدة بالتسجيل بالنظر لما فيها من دقة العضلات وتفاصيل الجسم وحسن التمثيل

أحمد موسى



شحاذ الارواح

للكاتب الايطالى

جيوفانى بابينى

دفعت آخر قرش كان معى ثمنا لفنجان القهوة ثم أخذت أفكر فى الجوع - الجوع للطعام والجوع للشهرة - إذ لم يكن هناك من يهمه أمرى حتى صاحب المجلة التى أكتب فيها لم يكن يقبل منى قصة إلا عندما لا يجد أفضل منها ، وقد اعتاد أن يمنحنى خمس « ليرات » سواء كانت القصة طويلة أو قصيرة

فى ذلك المساء من شهر يناير كان الجو يدوى بالرياح القوية العاصفة وأصوات الأجراس الرتيبة العالية ، فدلفت إلى أحد المقاهى الكبيرة أتفرس فى الوجوه النائمة المتعبة ، ثم أخذت أرتشف فنجان القهوة وأنا أفكر فى مخاطرة غريبة تصلح لأن تكون موضوعا لقصة . فأخذت أقدح زناد فكرى على أهتدى إلى فكرة لقصة أصيب منها بضع ليرات تكفينى يوما أو يومين

كنت مضطراً لأن أكتب قصة فى تلك الليلة أقدمها لصاحب المجلة فى الصباح ، فيمنحنى مبلغا من المال يكفى لأكلة طيبة ، فأخذت أفكر أترقب أول خاطر يهفو بذاكرتى أملأ به تلك الأوراق البيضاء التى وضعتها أمامى على المنضدة

قضيت أربع ساعات وأنا على هذه الحالة من الانتظار والحيرة ولكن رأسى كان فارغا وخيالى ثقيلا وذهنى مكدوداً ، فيئست من كتابة أى شىء فى تلك الليلة فألقيت بآخر قطعة من نقودى على المائدة وانصرفت

ولكنى لم أكد أترك المقهى حتى جال بخاطرى ذلك القول القديم وهو : إذا استطاع الانسان العادى أن يدون حياته الخاصة فإنه يخرج لنا أعظم القصص ، ثم أخذت أفكر فى هذا ولكنى لم أصل الى شىء جديد . إلا أنه ما كدت أصل الى منزلى حتى وقفت وقلت لنفسى : لماذا لا تحاول هذا بنفسك . لماذا لا تكتب حياة أى رجل عادى يقابلك ، فى الطريق

لم يكن لدى ما أقوله عن نفسى فقد أفرغت كل شىء حدث لى فى قصصى ، وعلى ذلك يجب أن أبحث عن رجل عادى - وإن كنت لا أعرفه - يقص على قصة حياته

لاحت هذه الفكرة غريبة وبسيطة حتى أننى عزمت على تنفيذها بأسرع ، وقت فتركت منزلى وأخذت أطوف فى الشوارع آملا أن أصادف فى تلك الساعة المتأخرة من الليل إنسانا . سرت مسرعا أتفرس فى كل الوجوه محاولا أن أختار الشخص المناسب ولكنى لم أصادف مخلوقا فانعطفت إلى ميدان صغير ووقفت هناك كأنى أحد قطاع الطرق أو أحد لصوص الليل . ثم لمحت شبحا قادما فلم أرد أن أفاجئه بهجومى السريع فانتظرت حتى دنا منى فاذا هو رجل عادى قد التف فى عباءة طويلة وترك شعره الطويل يتموج فى الفضاء فلم أرد أن أسأله وتركته يمضى فى طريقه ، ثم تبعه آخر وكان حليق الذقن محدودب الظهر يتمتم بأغنية أسبانية قديمة لعلها كانت تذكره بأيام شبابه الماضية ، فلم أكد أتفرس فى وجهه حتى رأيته يغلب عليه النوم فتركته لشأنه

انى لا أستطيع ان أتذكر الحالة التى كنت فيها فى تلك الليلة ، كلما فكرت فى تلك الحادثة فأتصور نفسى إنسانا غريبا من قطاع الطرق يترقب شخصا لا يعرفه يسأله قصة حياته وهو يتحرق شوقا لأن ينقض على تلك الفريسة المجهولة ، وكأن القدر القاسى قد ضن على بذلك الرجل الذى أنتظر ، إذ أن جميع من مروا بى كانت تبدو عليهم علامات الترف والنعيم . ولكنى لم أيأس من الوصول إلى بغيتى ، فبقيت واقفاً تحت المصباح الذى كان يتمايل كلما هبت الريح ولكن الشوارع كانت مقفرة ، ولم تكن تلك الرياح العاصفة تغرى الناس على السير فى تلك الليلة الباردة . ولكن لم يطل انتظارى إذ لاح على بعد شبح قد أيقظ الشارع وملأه حركة بعد سكونه ثم أخذ يدنو منى شيئاً فشيئاً ، ولم يكد يقترب منى حتى عرفت أنه الرجل الذى أبحث عنه . لم يكن ذلك الرجل بالجميل ولا بالقبيح . بل كان وسطاً بين الاثنين كما كان وسطاً بين الشباب والكهولة ، ذا عينين هادئتين يلبس معطفا سميكا على أحدث

طراز. فلم يكد يخطو عدة خطوات حتى أوقفته بيدى، فارتاع لمرآى ورفع يده كمن يتأهب للدفاع عن نفسه ولكنى أسرعت فطمأنته أنى لا أريد به سوءاً فقلت له فى صوت رقيق « لست قاتلا ولا سفاك دماء ولا شحاذاً وإن كنت شحاذاً من نوع آخر، إنى لا أطلب مالا ولكنى أطلب شيئاً واحداً لا يكلفك نفقة هو قصة حياتك، فحملق الرجل فى وجهى ثم تراجع إلى الوراء، فتوقعت أنه قد ظن أنى معتوه فقلت فى صوت هادئ رزين « إنى لست مجنوناً كما تظن وإن كنت قريباً من ذلك فأنا كاتب قصص على أن أكتب قصة قبل طلوع النهار لأرد عن نفسى غائلة الجوع، ومن أجل ذلك أسألك أن تخبرنى عن كل ما حدث لك. من أنت؟ وماذا تعمل؟ حتى يمكننى أن أكتب قصتى عنك. إنى أصارحك القول إنى أحتاج إليك وإلى قصة حياتك وإلى اعترافاتك. أرجوك ألا تخفى عنى شيئاً. إنى واثق أنك لا تضن بمساعدة مخلوق بائس مثلى فأنت الرجل الذى كنت أنتظره وربما كنت أستطيع أن اكتب بما تقدمه إلى أروع القصص

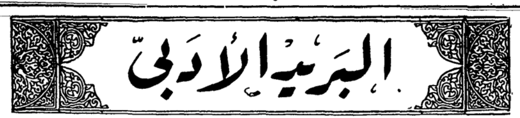
فبدا على الرجل التأثر ونظر إلى فى عطف وإشفاق وقد زال عنه الخوف وقال « حسنا. إذا كنت تريد حقا أن تسمع قصة حياتى فيمكننى أن أخبرك عنها لا سيما وأنها سهلة بسيطة. فقد ولدت منذ ٣٥ سنة من أسرة كريمة وكنت وحيد والدى فأرسلانى إلى المدرسة وأنا فى السادسة. وفى التاسعة عشرة التحقت بالجامعة وحصلت على درجتى فى الرابعة والعشرين. لم أظهر طوال دراستى شيئاً من النبوغ الخارق، أو الغباوة الفاضحة. ثم أعانى والدى على أن أشغل وظيفة فى السكة الحديدية وخطب لى فتاة جميلة. إنى أعمل ثمانى ساعات فى اليوم وعملى لا يحتاج إلا إلى الصبر وذاكرة متوسطة، ويزداد مرتبى جنيهين كل ست سنوات، وعلى ذلك فاذا عشت حتى الرابعة والستين فسأحصل على معاش قدره كذا. لقد أنجبت طفلين ولدا وبنتاً، فالولد فى العاشرة الآن وسأعده لأن يكون مهندسا، وأما البنت فهى فى التاسعة، وسوف تكون مدرسة. إنى أحيا الآن حياة هادئة لا يشوبها نكد أو أطماع. أستيقظ فى الثامنة من صباح كل يوم وفى التاسعة مساء أذهب إلى المقهى حيث أتحدث مع بعض زملائى عن الطقس والحرب والحكومة والوظائف. والآن لقد أخبرتك بما تريد، فهل تسمح لى بالعودة بعد أن تأخرت عن موعد ذهابى إلى المنزل عشر دقائق ».

ولم يكد ينتهى من كلامه حتى شعرت بشىء غريب اضطرب له جسمى، إذ كيف يحيا ذلك الرجل تلك الحياة الرتيبة العادية الثابتة. فأشفقت عليه ومضيت فى طريقى وأنا أقول فى نفسى. « حسنا، هذا هو أحسن نموذج للرجل العادى والبطل الحقيقى للحياة الحديثة. والعجلة الصغيرة فى الماكينة الكبرى، واللبنة الأولى فى الحائط العظيم، الرجل الذى لا يضطرب كثيرا للخيالات والتصورات، كنت أظن أن مثل هذا الرجل غير موجود ولكنى قد وجدته أخيرا واقفا بجانبى، ثم أردت أن أعرف عنه كل شىء فهرولت وراءه وأنا أقول « أليس هناك شىء آخر فى حياتك، ألم يعرض لك حادث غريب، ألم يحاول أحد أن يقتلك؟ ألم تخدعك زوجك أو يهزمك عدو؟ فأجابنى: « لا شىء من هذا. لقد كانت حياتى كلها هادئة منتظمة، فلم أعرف الأفراح البهجة ولا الأحزان القاتلة. لم يحدث لى ما يستحق الذكر، فقاطعته قائلا: أحقا ما تقول؟ حاول أن تتذكر - إنى لا أكاد أصدق هذا النوع من الحياة. فأجابنى: « إنى أؤكد لك أنه لم يحدث لى شىء حتى هذه الليلة، حتى فاجأتنى بلقائك الغريب الذى هو أول مخاطرة - فاذا أردت أن تكتب شيئا فعليك بهذا

قال هذا ثم مضى مسرعا فبقيت فى مكانى أنظر حولى حائراً مذهولا.

ثم عدت إلى منزلى دون أن أكتب القصة. ومنذ ذلك المساء لم أعد أسخر من أولئك الناس العاديين ثانية

نظمى خليل



كيف يكتبون عن حركتنا الأدبية

قرأنا في صحيفة «هنوفر شركورير» الألمانية فصلا كتبه لها مراسلها الخاص بالقاهرة تحت عنوان «الشعراء المصريون، وأثر الشعر في مجد مصر القومي» فرأينا أن نأتي على ترجمته ليرى قراء العربية كيف يكتب الأجانب عن حركتنا الأدبية وكيف يصورونها تصويراً يبعد أحيانا عن الحقيقة بمراحل؛ قال الكاتب:

تبدو مصر بطرافة مشاعرها القومية وروعة سمائها وأقليمها وسحر ماضيها وصراعها المستمر في سبيل الحرية كأنها موطن الشعر، وتبدو كأنها تذكي الفكر وتجذبه، بيد أن تراثها الأدبي، وبالأخص تراثها من الشعر السياسي والقومي يبدو متواضعا جداً. ويرجع ذلك إلى أن شعب النيل منذ عهد اليونان والرومان برزح تحت صنوف الاستبعاد والذلة؛ فبعد الاسكندر الأكبر جاء قياصرة رومة، ثم قياصرة بيزنطية، ثم العرب، وأخيرا الترك؛ وهكذا مزق صرح الوحدة القومية الذي لابد منه لكل تقدم عقلي قومي؛ ومنذ عصر محمد علي أي منذ نحو قرن بدأ نماء هذا الصرح القومي، والتي ختامه الظاهري أخيرا حيث استطاعت مصر أن تحقق حريتها السياسية وسيادتها القومية؛ بيد أنها رغم هذا الظاهر لاتزال من حيث الناحية المعنوية في المؤخرة

وللجاليات الأجنبية التي تعيش في مصر منذ بعيد، رغم تطور مصر القومي أثر قوي في جميع مناحي الحياة؛ وقد كانت الدوائر الاجتماعية التي كان بوسعها أن تعمل على خلق نهضة ثقافية خاصة على اتصال دائم مع الأجانب، بيد أنها فيما يتعلق بشؤون الأسرة اتجهت إلى استانبول، لأن معظم رجال هذه الطبقة كانوا يتخذون زوجاتهم من التركيات، وهؤلاء طبعن الحياة العائلية بطابعهن ولغتهن؛ بل لقد غلبت التركية على العربية، وألقي بالعربية إلى الشارع حتى غدت في مستوى العامية، ولم تبق اللغة الأدبية إلا في الدوائر الدينية، وبقي مثلها الأعلى لغة القرآن

وتبوأ الدين زعامته إزاء الاستعباد المستمر وسحق الكرامة الوطنية، وسادت الفكرة الاسلامية كل نواحي الحياة العامة والاجتماعية؛ فحال ذلك دون نهضة الشعر القومي؛ وقامت ضد الفكرة الوطنية فكرة الجامعة الاسلامية، ولم تتخذ الفكرة السياسية لها مكاناً خاصاً بل غمرتها الفكرة الدينية فسارت في أثرها؛ وهكذا كان منحى الشعر السياسي فانه سار في أثر الفكرة الدينية؛ واجتمع حول رعاية القصر في عهد أول زعيم لنهضة مصر الثقافية في العصر الحديث ألا وهو الخديو اسماعيل؛ ومن شعراء هذا العهد علي الليثي وعبده الحولي (كذا)

وتقدمت عملية ترقية الشعب على يد البعثات التي أرسلها محمد علي إلى فرنسا، وعاد أولئك الشبان إلى مصر يحدوهم العزم في أن يخلقوا لمصر حياتها العقلية الخاصة؛ بيد أنهم كانوا دائماً متأثرين بالنفوذ الأجنبي ولا سيما النفوذ الفرنسي، وفي أثناء هذه البداية في سبيل الوحدة القومية وقعت الحوادث العرابية التي انتهت باحتلال الانكليز لمصر؛ وهنا ظهر لأول مرة جيل فتي من الكتاب والشعراء يهتف بحريات الوطن والذود عنها، وشرد أبناؤه في السجن والمنفى؛ وكان أهم أعلام هذا الجيل سامي البارودي ومحمد عبده

وبث الاحتلال الأجنبي وما أصاب الوطنية الوليدة روحا جديداً في الوحدة القومية؛ وظهر في مصر أول الزعماء الوطنيين في المشرق، وأسس مصطفى كامل تلميذ جوليت آدم وبيير لوتي الحزب الوطني، وأدرك هذا الزعيم منذ البداية أهمية الشعر والكتابة في النهضة الوطنية فجمع حوله ماهنالك من كتاب وشعراء قلائل؛ بيد أن هؤلاء لم يكونوا سوى أبواق سياسية؛ ولم ينبغ من هذا الجيل سوى شاعرين اقتحما هذه الدائرة السياسية الضيقة في نظمهما هما: شوقي وخليل مطران، فهذان شاعران بلا ريب؛ وهما لم يدعوا فقط إلى الوطنية، بل تجولا أيضاً في ميدان التأملات الخاصة؛ وقد ضم ذهناهما الفكرة المصرية والفكرة الوطنية وتوثقت فيهما عداهما رغم أن خليل مطران ليس مصرياً إلا بالموطن (وهو سوري المولد)؛ ففي نظمهما يرى الانسان مصر، كما يود أن يراها كل منهما؛ تلك هي مصر المصرية والشعب المصري

هذا ما نشرته الصحيفة الألمانية، وفيه ما يغني عن التعليق؛ بيد أننا نلاحظ فقط أن ما نكتبه نحن عن أدب الغرب وعن الحركات الأدبية الغربية يندر أن يعرض لمثل هذا الخلط في الوقائع والتصوير

وإنا لنغتبط إذ يعنى القوم بالكتابة عنا كما نكتب نحن عنهم ، بيد أنا نرجو أن يوفقوا فى دراساتهم لشؤوننا وحركاتنا بأكثر فيما يبدو فى مقال الكاتب

الأزهر والمؤتمرات الدولية

قرر مجلس الجامع الأزهر تلبية لدعوة المكتب الدولى للتعاون الثقافى أن يشترك فى شهود مؤتمر القانون الدولى الذى تقرر عقده فى مدينة لاهاى (بهولندة) فى شهر أغسطس القادم ، وسيمثل الأزهر الشريف الاسلام ويقدم إلى هيئة المؤتمر بحوثاً شرعية فى الوقف والمواريث والهبة وغيرها من المسائل التى تمتاز بطرافة أحكامها ، وسيتألف الوفد الأزهرى إلى المؤتمر من ثلاثة أعضاء هم الأستاذ الدكتور محمد عبد المنعم رياض مدير قضايا بنك التسليف الزراعى والأستاذ عبد الرحمن حسن القاضى الشرعى والأستاذ محمود شلتوت المدرس بكلية الشريعة . وقد سبق أن اشترك الأزهر فى الأعوام الأخيرة فى غير مؤتمر دولى علمى أو دينى ، وهذه سنة حسنة تمهد لتعاون الأزهر مع الهيئات العلمية والدولية الكبرى ، وتزيد فى هيبته العالمية

تحريم جوائز نوبل فى ألمانيا

سبق أن أشرنا فى عدد سابق من « الرسالة » إلى الضجة التى حدثت فى ألمانيا على أثر منح الأكاديمية السويدية جائزة نوبل للسلم إلى الكاتب الألمانى كارل فون أوسيتسكى ، وإلى ما أبدته الحكومة الألمانية يومئذ من الامتعاض والتأثر لأنها ترى فى الكاتب الذى أسبغت عليه لجنة نوبل هذا الشرف خائناً لوطنه ، والخيانة هنا هى أن أوسيتسكى كان قبل قيام النظام الهتلرى يدعو إلى السلم ونزع السلاح ومنع الحروب ، وهى مبادىء تخالف الأمانى العسكرية والامبراطورية التى تتعلق بها ألمانيا النازية : وكان أوسيتسكى حينما أنعم عليه بجائزة نوبل سجيناً فى المستشفى ، ولكن الحكومة الألمانية سمحت له تحت ضغط الرأى العام الدولى أن يقبل الجائزة . على أنها اتخذت أخيراً فى هذا الموضوع خطوة حاسمة ، فقد قررت أن تحرم جوائز نوبل أياً كانت على الألمان ، وأنشأت هى جائزة قومية ألمانية تقدرها ثمانية آلاف جنيه ، (وهو ما يساوى قيمة جائزة نوبل) ، وبذلك خرجت ألمانيا من عداد الدول التى يتقدم علماؤها وكتابها لنيل الجوائز الشهيرة ، وقد فاز الألمان منذ نهاية الحرب الكبرى بنحو خمس وعشرين جائزة فى مختلف العلوم والفنون والآداب ، ولكن ألمانيا الهتلرية تمقت كل حركة تمازجها الصفة الدولية ، وكل شرف لا يطبعه الشعار القومى ، وهى من جهة أخرى لا تريد أن تسمح للهيئات العلمية الأجنبية أن تكون حكماً عليها فى أمر من الأمور كما حدث فى مسألة كارل فون أوسيتسكى

طوالع الأيام قديماً وحديثاً

كان العرافون القدماء يحصون الحوادث السيئة والحوادث الطيبة فى أيام معينة لكى يستخرجوا بعد ذلك الأيام السعيدة والأيام المنحوسة ، وقد انتهوا بعد أجيال إلى القول بأن هناك أياما بعينها تعتبر أياما سعيدة ، وأخرى تعتبر منحوسة ، وكانت هذه الأيام معروفة منذ العصر الغابر ، وكان يعرفها أهل بابل قبل المسيح ، وكان المصريون القدماء يقولون أيضاً بمثل هذه التفرقة بين الأيام ، ولهم قوائم معينة بالسعيد منها والمنحوس ، واستمرت هذه القوائم معروفة متداولة حتى العصور الوسطى . وعندئذ طبقها العرافون على أيام التقويم الجريجورى .

فمثلا يمثل يوم الاثنين السلام ، ويمثل الأربعاء النجاح والخميس الشجاعة والأحد يمثل الراحة والسعادة ، وهذه هى الأيام السعيدة . أما الأيام المنحوسة فهى الثلاثاء وهو يوم مارس إله الحرب ، والجمعة وهو يوم فينوس ، والسبت وهو يوم زحل

أما العرب فقد خالفوا هذا الاستنتاج ، واعتبروا يوم الجمعة من الأيام السعيدة ، وأنه يوم القرآن .

ويرى العرافون المحدثون ألا يأخذوا فى ذلك بأقوال القدماء ، وأقوال عرافى العصور الوسطى ، ويرون أن لكل إنسان طالعا واحدا فقط هو طالع اليوم الذى يولد فيه ، ويتأثر هذا الطالع بظروف وحوادث معينة ، وعلى هذا الطالع يتوقف مصير الانسان مدى الحياة

رحلات بيتر موندى

صدر أخيراً كتاب بالانكليزية عن رحلات رحالة انكليزى فى القرن السابع عشر تعتبر فى ذاتها وثيقة تاريخية هامة ، والرحالة المذكورة هو بيتر موندى ، وقد كان موظفا فى شركة الهند الشرقية التى بدأت استعمار الهند ، وكتب عن أسفاره ومشاهداته مذكرات يومية لبثت مخطوطة حتى العصر الأخير ، وعندئذ عنى بنشرها السير تمبل فنشر منها أربعة مجلدات حتى سنة ١٩٢٥ ، وصدر أخيراً المجلد الخامس والأخير ، وفيه يقص موندى رحلته الأخيرة إلى الهند ، ويصف البلاد التى زارها أثناء مسيره فى أوربا وآسيا ولاسيما الجزائر الافريقية التى كانت ترسو بها السفينة مثل سنت هيلانة وأسانشيون . وقد شهد موندى حوادث الثورة الانكليزية ولكنه حريص فى سردها ، يقدمها كما وقعت دون تعليق ، وتتناول هذه الفصول وصف

كثير من المدن الآسيوية ومشاهدها في هذا العصر الذي أخذ الشرق ينحدر فيه إلى سباته الطويل ، وأخذ الغرب يتربص به وينقض عليه تباعا ، وقد عاش موندى بين سنتي ١٦٠٨ و ١٦٦٧ ، وصدرت رحلاته بهذا العنوان : رحلات بيتر موندى في أوربا وآسيا ، The Travels of P. Mnndy in Europe and Asia ومن المحقق أن المؤرخ يجد في مذكراته كثيراً من الوقائع والحقائق التي تفيد في درس مجتمعات القرن السابع عشر .

في ميدان الاجتهاد

مسألة الاجتهاد في الدين - من المسائل الفكرية - التي تعنى الرسالة بدرسها وتسجيلها - من أجل ذلك فتحت صدرها لمقالات الأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدي (في ميدان الاجتهاد) - المجلد السادس : ٥٨ و ٢٦٠ و ٤٦٤ - والمجلد السابع : ١٩٩٨ - ونشرت آراءه فيها - فكان من رأيه فيها :

١ - (أن نعتمد من رجال كل من أهل السنة والشيعة والخوارج من أعتمدوه - ونرفض منهم من رفضوه - ولا يوجد ما يمنعنا من الانتفاع بالحديث الضعيف في التشريع - والأخذ به عند الحاجة إليه ، فلا نرفض من الأحاديث إلا ما ثبت أنه موضوع بيقين ولا نتهم من رجال الحديث إلا من ثبت عليه الكذب قطعاً ورب حديث ضعيف يكون هو الصحيح - ورب رجل متهم . يكون هو الرجل الثقة)

٢ - (ان نحذف الاجماع من بين الأصول التي يرجع إليها في الاجتهاد - وأن نرجع مباشرة إلى النصوص التي لابد من استناده إليها - فقد يفتح الله علينا بفهم جديد - غير ما فهموه منها)

٣ - (ألا نقتصر في القياس على الحاق الشبيه بالشبيه لأن هذه السنة قد اختلفت رواياتها اختلافاً كبيراً ولا بد من تحكيم الرأي فيها تحكيما مطلقاً)

٤ - (إن الاجتهاد جائز في الأصول وفي الفروع لأن النبي صلى الله عليه وسلم جعل للمجتهد أجرين إذا أصاب وأجراً واحداً إذا أخطأ ، ولم يفرق بين أصول وفروع - بل أطلق الأمر إطلاقاً - وفتح باب الاجتهاد في الأصول والفروع معاً)

٥ - وكان الأستاذ في آرائه تلك خارجا على العلماء الأصوليين . المتأخرين - كما قال هو عن نفسه في الرسالة (١٨٨)

٦ - (ولم يدع العصمة فيما قال - بل عرض رأيه على صفحات هذه المجلة - لتشترك فيه الآراء - وتمحصه البحوث - كما قال في خاتمة مقالاته (في ميدان الاجتهاد)

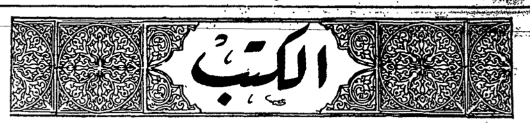
* * *

فما هي آراء العلماء الأعلام - في هذه المسألة ؟ أرجو أن يدلوا بها باختصار - وأنا واثق ان الرسالة ، التي أثارت البحث في هذه المسألة المهمة - ونشرت كل ما قال الأستاذ الصعيدي - لن تضن عليهم بنشر ما يرونه - وهذه سبيل الوصول إلى الحقيقة - التي نريدها ويريدها الأستاذ الصعيدي - والمسألة مهمة - تتصل بأصل الدين - ولا يجوز التغافل عنها .

« دمشق » علي الطنطاوي

المعارض الدولية

أصبحت المعارض الدولية عنوان النهضات الاجتماعية والاقتصادية ، ومع أنه لم يمض على البدء بتنظيمها أكثر من ثمانين عاما . فانها تغدو اليوم من أعظم المظاهرات القومية والدولية في سائر نواحي التقدم ، وقد أقيم أول معرض أو سوق عالمية من هذا النوع في لندن سنة ١٨٥١ في قصر البلور الذي التهمته النيران منذ أسابيع قلائل : ثم تبعه معرض باريس في سنة ١٨٥٥ ، وفي سنة ١٨٧٨ أقامت فرنسا معرضها الشهير في قصر « التروكاديرو » الذي أنشيء خصيصاً لاقامته فأحرزت بأقامته نجاحاً عظيما وذاع صيته في أنحاء العالم ، وفي سنة ١٨٨٩ ، أقامت معرضاً عظيما آخر . هو الذي أقيم لمناسبته برج ايفل المشهور ، وعرضت فيه مناظر فنية وموسيقية في جميع أنحاء العالم ومنها القاهرة ، وقد كانت هذه المعارض في الواقع مراحل واضحة لما بلغته الأمة من التقدم في سائر النواحي والمرافق . أو هي كما يقول الفيلسوف المؤرخ « تاين » تبيان عصر ، وتعبير مجتمع . ومن المحقق أن المؤرخ يجد في هذا المناظر المختلفة مجموع ما انتهى اليه مجتمع العصر من ضروب التقدم العقلي والاجتماعي ، وقد بلغ الشغف باقامة هذه المعارض في عصرنا ذروته ، وأصبحت الأمم الكبرى تتنافس في إقامتها وفي الانفاق عليها . حتى لقد تبلغ من الضخامة والتنوع قدر المدينة العظيمة ، وقد يقتضي الطواف بمعرض أو سوق دولية ساعات طويلة قبل أن تلم بمناظره ومحتوياته . والمنتظر ان تكون سوق باريس التي تستعد فرنسا لاقامتها منذ أعوام ، والتي ستقام في الربيع المقبل أعظم مظهر دولي لما بلغته هذه المظاهرات الاجتماعية والاقتصادية من الفخامة والتنوع والرونق والجمال



احيـــاء النحو

تأليف الأستاذ ابراهيم مصطفى

خير ما نقدم به هذا الكتاب القيم إلى القراء أن ننشر هذه المقدمة التى صدره بها مؤلفه الفاضل فقد حدد فيها الموضوع ورسم الطريق وبين الغاية . والرسالة بعد ذلك كلمة فيه

هذا بحث من النحو ، عكفت عليه سبع سنين وأقدمه إليك فى صفحات . سبع سنين من أوسط أيام العمر وأحراها بالعمل ، صدقت فيها الاعتكاف إلى النحو ، وإلى ما يتصل بمباحثه ، وأضعت له من حق الصديق والأهل والولد والنفس جميعاً .

كان سبيل النحو موحشا شاقا ، وكان الإيغال فيه ينقص قواى نقصا ، ويزيدنى من الناس بعداً ، ومن التقلب فى هذه الدنيا حرمانا . ولكن أملا كان يزجينى ويحدو بى فى هذه السبيل الموحشة ؛ أطمع أن أغير منهج البحث النحوى للغة العربية ، وأن أرفع عن المتعلمين إصر هذا النحو ، وأبدلهم منه أصولا سهلة يسيرة ، تقربهم من العربية ، وتهديهم إلى حظ من الفقه بأساليبها .

كانت بارقات الأمل - خادعة وصادقة - تدفعنى فى سبيلى ، غير واهية ولا وانية . فليكن ما أنفق من هذا العمر ذخراً فى أعمار الدارسين من بعد ، ولتكن شيخوخة هذا الشيخ فدى العربية ؛ أن تقرب من طالبيها ، ويمهد السبيل لمتعلميها .

اتصلت بدراسة النحو فى كل معاهده التى يدرس فيها بمصر ، وكان اتصالا طويلا وثيقا ؛ ورأيت عارضة واحدة ، لا يكاد يختص بها معهد دون معهد ، ولا تمتاز بها دراسة عن دراسة ، وهى التبرم بالنحو ، والضجر بقواعده ، وضيق الصدر بتحصيله ؛ على أن ذلك من داء النحو قديما ، ولأجله ألف « التسهيل » و « التوضيح » ، و « التقريب » ، واصطنع النظم لحفظ ضوابطه ، وتقييد شوارده .

والنحو مع هذا لا يعطيك عند المشكلة ، القول البات ، والحكم الفاصل . قد يهدى فى سهل القول ، من رفع فاعل ونصب مفعول . فإذا عرض أسلوب جديد ، أو موضع دقيق ، لم يسعفك النحو بالقول الفصل ، واختلاف الأقوال ، واضطراب الآراء ، وكثرة الجدل التى لا تنتهى إلى فيصل ولا حكم ، كل ذلك قد أفسد النحو أو كاد ، فلم يكن الميزان الصالح لتقدير الكلام ، وتمييز صحيح القول من فاسده .

وإذا جئنا إلى مدارس الناشئين ، كانت المشكلة فى تعليمهم النحو أشد وأكد ؛ فهو على ما تعلم من بعد تناوله ، وصعوبة مباحثه ، قد جعل المفتاح إلى تعلم العربية ، وكتب على الناشئ أن يأخذ بنصيبه منه ، منذ الخطوة الأولى فى التعليم الابتدائى والثانوى ، واختير له جملة من القواعد ، قدر أنها تفى بما يحتاج إليه لإصلاح الكلام وتقويم اللسان ، ثم كانت خصومة هادئة قاسية بين طبيعة التلميذ ، وبين هذا المنهاج والقائمين عليه . أما التلميذ فقد بذل الجهد وأعيا ولم يبلغ من تعلم العربية أربا . وأما أصحاب المنهج . فقد رأوا أن يزيدوا فى منهجهم ، ويكلوا للتلميذ حظه من القواعد ، فلا سبيل له إلى العربية غير هذا النحو ؛ فزادوا فى هوامش كتبهم ما يكمل القواعد ويتمم الشروط — ثم تسللت هذه الزيادات إلى جوف الكتاب فضخم ، وزاد المنهاج المفروض - ولكن طبيعة التلميذ الصادقة فى إباء هذه القواعد ، والتململ بحفظها ، لم تخف شهادتها ، ولم يستطع جحدها ، فكانت ثورة على المنهاج وأصحابه ، وخفف منه ، وانتقص من مسائله ، والداء لم يبرأ ، والعوارض لم تتغير ، وتكررت الشكوى ، وعادوا على المنهاج بالنقص ، حتى كان المقرر قواعد من النحو مختلفة ، كأنما هى نماذج يراد بها عرض نوع من مسائله

قد كان فى هذا ، الشهادة الصريحة بفشل هذا النحو أن يكون السبيل إلى تعلم العربية ، والمفتاح لبابها .

ولقد بذل فى تهوين النحو جهود مجيدة ، واصطنعت أصول التعليم اصطناعا بارعا ، ليكون قريبا واضحا ؛ على أنه لم يتجه أحد إلى القواعد نفسها ، وإلى طريقة وضعها ، فيسأل : ألا يمكن أن تكون تلك الصعوبة من ناحية وضع النحو وتدوين قواعده ، وأن يكون الدواء فى تبديل منهج البحث النحوى للغة العربية ؟

هذا السؤال هو الذى بدا لى ، وهو الذى شغلنى جوابه طويلا .

ولقد تميز عندى نوعان من القواعد : نوع لا تجد فى تعليمه عسراً ، ولا فى التزامه عناء ، ولا ترى خلاف النحاة فيه كبيرا ، وذلك كالعدد ورعاية أحكامه فى مثل : قال رجلان ، والرجلان قالا . وقال

رجال والرجال قالوا . فع دقة الحكم فى رعاية العدد ، واختلافه تبعا لموضع الاسم والفعل من الجملة ، لا تجد العناء فى تصوره ، ولا المزلة فى استعماله

ونوع آخر لا يسهل درسه ولا يؤمن الزلل فيه ، وقد يكثر عنده خلاف النحاة ، ويشتد جدلهم ، كرفع الاسم أو نصبه فى مواضع من الكلام

ثم رأيت علامات العدد تصور جزءا من المعنى يحسه المتكلم حين يتكلم ، ويدركه السامع حين يسمع . أما علامات الإعراب ، فقل أن ترى لاختلافها أثرا فى تصوير المعنى ، وقل أن يشعرنا النحاة بفرق بين أن تنصب أو ترفع ؛ ولوأنه تبع هذا التبديل فى الاعراب تبديل فى المعنى ، لكان ذلك هو الحكم بين النحاة فيما اختلفوا فيه ، ولكان هو الهادى للمتكلم أن يتبع فى كلامه وجها من الاعراب

فلوأن حركات الاعراب كانت دوال على شىء فى الكلام ، وكان لها أثر فى تصوير المعنى ، يحسه المتكلم ويدرك ما فيه من الاشارة ومن وجه الدلالة ، لما كان الاعراب موضع هذا الخلاف بين النحاة ولا كان تعلمه بهذه المكانة من الصعوبة ، وزواله بتلك المنزلة من السرعة

ألهذه العلامات الاعرابية معان تشير إليها فى القول ؟ أتصور شيئا مما فى نفس المتكلم ، وتؤدى به إلى ذهن السامع ؟ وما هى هذه المعانى ؟؟

والعربية ـ لغة القصد والايجاز ـ أتلتزم علامات الاعراب على غير فائدة فى المعنى ، ولا أثر فى تصويره ؟

لقد أطلت تتبع الكلام ، أبحث عن معانى لهذه العلامات الاعرابية ، ولقد هدانى الله ـ وله خالص الاخبات والشكر ـ إلى شىء أراه قريبا واضحا ، وأبادر إليك الآن بتلخيصه :

(١) إن الرفع علم الاسناد . ودليل أن الكلمة يتحدث عنها

(٢) إن الجر علم الاضافة ، سواء أكانت بحرف أو بغير حرف

(٣) إن الفتحة ليست بعلم على إعراب ، ولكنها الحركة الخفيفة المستحبة ، التى يحب العرب أن يختموا بها كلماتهم ما لم يلفتهم عنها لافت ؛ فهى بمنزلة السكون فى لغتنا الدارجة

(٤) إن علامات الاعراب فى الاسم لاتخرج عن هذا إلا فى بناء أو نوع من الاتباع ، وقد بيناه أيضا .

فهذا جماع أحكام الاعراب ؛ ولقد تتبعت أبواب النحو بابا بابا واعتبرتها بهذا الأصل القريب اليسير ، فصح أمره ، واطرد فيها حكمه .

ثم زدت فى تتبع هذا الأصل ، فتجاوزت حركات الاعراب ، ودوست التنوين على أنه منبىء عن معنى فى الكلام ، فصح لى الحكم واستقام ، وبدلت قواعد « مالا ينصرف » ، ووضعت للباب أصولا أيسر وأنفذ فى العربية مما رسم النحاة للباب . ولا أؤجل عنك إجمال هذه الأصول أيضا .

(١) إن التنوين علم التنكير .

(٢) لك فى كل علم ألا تنونه ، وإنما تلحقه التنوين إذا كان فيه حظ من التنكير

(٣) لا تحرم الصفة التنوين حتى يكون لها حظ من التعريف

والبحث الذى أقدمه إليك الآن ، هو شرح موجز لهذه الفكرة ودرس لها فى أبواب النحو المختلفة ، وبيان لما رأينا من الأدلة لتأييدها

وكنت أريد أن أشكر لصديق الدكتور طه حسين ، وأذكر فضله فى إتمام البحث وإخراج الكتاب ؛ ولكنه آثر أن يقدم الكتاب ، وانزلق إلى الثناء على صاحبه ، فأجورت أن أتكلم .

وحق على أن أشكر تلاميذى الذين عاونونى فى شىء من المباحث ، وإن لم أملك الآن أن أسميهم وأعمالهم .

وأحمد الله حمدا ملؤه التوحيد والتمجيد والشكر

قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة

تأليف الأديب توفيق الطويل

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

ما زال الناس يستلهمون التاريخ ويستمدون منه العبرة كلما ألجأتهم ضرورة فى حاضرهم إلى ذلك ، فأن تجربة العصور فى حاضرها لا تغنى الناس إذا شاءوا التماس الحكمة أو استبانة القانون الانسانى ، وذلك أن حوادث السنين لا تتصل نتائجها بمقدماتها إلا بعد مضى القرون ولا تكمل عبرتها إلا بعد توالى الأجيال . وليس فى تكرار التمثل بعبر الزمان إعادة ولا فى تعدد النظرات اليها إباحة لها أو ابتذال ، فان الحادثة الواحدة قد تنطوى على ما لا حد له من العظات ، وقد يتناولها الناس فى كل عصر فيجد كل منهم فيها ناحية من المعنى مخالفة لما وجده سواه من معانيها . ولقد كان النضال بين قرطاجنة وروما أحد هذه المواقف التاريخية الفذة التى هزت العالم هزة قوية فى إبانها ، وما زالت العصور التالية ترجع وتلتفت صوبه ، وكل منها يشير إلى ما يبتغى من عبرة فيه أو يتحدث عنه حديثاً يوجه إليه موقع الضوء عليه فى ناظره ، وهكذا كان شأن الأستاذ « توفيق الطويل » مؤلف هذا الكتاب عند ما تناول بالبحث هذا النضال

لقد نظر المؤلف الفاضل إلى تلك الحرب التى يسميها التاريخ بالحروب اليونانية كما نظر سواه إليها ووصفها ورسم لنا منها صورة خاصة لا أظن أنها تشابه صورة أخرى رسمها أحد فى لغة العروبة

فهو قد استدرج الذهن من موقعة إلى موقعة ومن صورة إلى صورة حتى بلغ به النهاية فأشار اليه مومئاً إلى ما تحت قدميه ، فاذا بالعبرة التى كان يرى اليها ماثلة واضحة لا يستطيع أحد أن يخالف فيها

ولقد كانت الشعوب الانسانية منذ القدم ينافس بعضها بعضاً فى كل ميادين النشاط والمطامع ، فلقد كانت تتنافس فى امتلاك الأراضى وفى الانتفاع بالمراعى ، وكانت تتنافس فى القوة والمنعة ثم هى تتنافس اليوم فى كل هذه المعانى بوسائل سلمية تارة وحربية أخرى . غير أن ذلك التنافس الانسانى كانت له مظاهر عدة ، فقد كان يحدث بين وحدات القبائل الصغيرة فى دائرة محدودة كما كان يحدث بين الأجناس والشعوب فى دوائر أوسع ، فانا لا نكاد نجد عصراً خلا من محاولة شعب من شعوب الأرض سيادة سائر الشعوب ونبوغ شعب آخر يتصدى له بالدفاع ، فاذا بشعوب الأرض موزعة بين الزعيمين المتناضلين حتى ينتهى الأمر باذعان أحدهما أو انقراضه وضياع سلطانه . وقد حاول بعض علماء التاريخ أو الاجتماع أن يخلصوا من استقراء ما حدث من ذلك النضال فى كل العصور إلى أن أجناس العالم بينها طائفتان كبريان لا تفتأ تميل إلى النزاع والنضال على سيادة الأرض ، فيسمون طائفة من الطائفتين شرقاً والطائفة الأخرى غرباً ، ويقول هؤلاء العلماء إن النضال بين هاتين الطائفتين دائب مستمر استمرار الليل والنهار فقد يحدث أن شعبين من طائفة واحدة يثوران حيناً للنضال ثم لا يلبثان أن يستقرا على نوع من التفاهم والتجاور ، فى حين أن الطائفتين الكبريين لا يستقر بينهما النضال بل لا تزالان تتصاولان وتتصارعان . فأما إحداهما سيدة غالبة ، والأخرى تناضل فى سبيل الحياة تجاهها ، وإما أن تنقلب الآية فتصبح السيدة مسودة والمستضعفة سيدة ، وهؤلاء العلماء يجعلون قرطاجنة وروما رمزين لهاتين الطائفتين الكبريين فى العصور التى سبقت الميلاد بقرنين أو ثلاثة . كما أنهم يجعلون حرب الفرس واليونان رمزاً لذلك النضال قبل ذلك ، وحرب العرب والروم ثم الفرنج رمزاً له فى العصور الوسطى

ومهما يكن من أمر هذا الرأى فانا لا نستطيع أن نغضى عما فيه من الضعف والتعسف ، فالحقيقة التى لا شك فيها هى أن أمم الأرض تتنازع وتتناضل فيما بينها . وأن ما بقى بعد ذلك من التحديد ناشىء من الظروف والحوادث . ولقد كان نضال قرطاجنة وروما بغير شك من أروع مواقف النزاع العالمى ، ولكن لم تكن رومة لتمثل ضد ذلك شيئاً اسمه الغرب ، ولم تكن قرطاجنة تمثل شيئاً اسمه الشرق ، فقد كانت مصر عند ذلك تحت سلطان البطالسة العظام ، وما كانت قرطاجنة إلا مدينة نامية تستولى على المال وتستخدمه فى سبيل بسطة سلطانها بأن تسخر الجيوش لتنتصر لها فى حروبها ، وما كان لمثل هذه المدينة أن تكون زعيمة الشرق أو الآخذة بزمامه فى نضال السيادة العالمية ، بل لقد كانت مصر أجدر منها بذلك وأحرى

ويلوح لى أن المؤلف الفاضل لايذهب مع أصحاب الرأى المتقدم فأنه وإن علم أن قرطاجنة لها رحم بالساميين لم يجعلها ممثلة الشرق فى نزاع الأجناس ، بل نظر نظرة أخرى تختلف كل الاختلاف عن تلك الوجهة التى أشرنا إليها ، فهو لايتعصب لها ولا يراها تمثل مثلاً من أمثلة الشرق العليا ، بل إنه لينظر إلى المثل العليا لرومة على أنها أقرب إلى تمثيل مثل الانسانية عامة ، وهو يتحدث عن حوادث نضال قرطاجنة ورومة حديث من يريد أن يتغلغل دون السطح ليتخذ من بحثه عظة تنفعنا فى حاضرنا فهو يريد أن يوجه أنظارنا إلى أن قرطاجنة قد فنيت لأنها كانت جديرة بالفناء ، وأن رومة قد بقيت ونمت لأنها كانت جديرة بالبقاء والنمو ، ثم هو يشير لنا وهو يسير فى حديثه إلى الأسرار التى أهلت كلا من المدينتين إلى مصيرها وجعلتها جديرة بما نالها

خلقت الأساطير قصتين عن منشأ المدينتين المتناضلتين ، وما أحرى هاتين الأسطورتين أن تكونا مختصراً لتاريخهما . فرومة تنشأ فى العراء وتغذوها الوحوش ثم ترويها الدماء ، ولكنها ترفض الاستكانة إلى الدعة ويطلب أهلها العيش فى ظلال المكاره ، فلا تزال مثلها العليا الخشونة والقوة والقسوة . وقرطاجنة تنشأ هرباً من مطامع الطامعين لتنفرد فى مأمن تتمتع فيه برغد العيش وذكريات السعادة ، ولكنها لاتلبث أن تحرق نفسها دفاعاً لمطامع جديدة اتجهت إليها من ناحية أخرى . وما كان التاريخ ليحدثنا عن المدينتين إلا هكذا إذا شاء اختصار حكاية كل منهما فى كلمات قليلة

وإنه لمن ألذ المطالعات أن يتتبع القارىء وصف هذا الكتاب لحوادث تلك الحقبة من الدهر ، فان فيه خصالا ثلاثاً تسمو به . دقة فى البحث ، ونفوذ فى النظر ، وجمال فى الأسلوب

وإنى لأنتهز هذه الفرصة لتهنئته تهنئة حارة على ما أصاب من إجادة وتوفيق ؟

محمد فريد أبو حديد

وقع خطأ فى البيت الثانى من قصيدة (شباب أم أمانى) للدكتور عزام وصوابه :

وللنسيم على أوراقها عبث   ينشر الحسن فيه كل مكنون

Lundi - 22 - 2 - 1937

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٠٠

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

5 me Année, No. 190

بدل الاشتراك عن سنة

مص	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٢٠١٣

العـــدد ١٩٠ « القاهرة فى يوم الاثنين ١١ ذى الحجة سنة ١٣٥٥ — ٢٢ فبراير سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــــدد

على هامش الرتب والنياشين

شكر المنعم واجب

قال لى صديق وهو أبىٌّ وفى نزيه : ألا يوحى اليك إنعام العرش وإكرام الوزارة كلمة فى الرسالة ؟ فأجبته جوابا أملس لا يتماسك عليه ايجاب ولا سلب ؛ لأن نفسى قلما تنفعل لما يشغل الناسَ من ضحكات القلوب فى هذه الحياة . فقال فى لهجة حادة جازمة : إذا لم تكتب أنت كتبت أنا ، لأن الأمر بالنسبة إليك يستغرق الفكر طويلا ويستوجب الشكر جهرة

انصرفت عن صديق ومضيت فى طريق أقاول نفسى فى اقتراحه ، وأداول عقلى على رأيه . فانثالت على خاطرى معانٍ لا أدرى أين كانت

لاجرم أن الأمر بالاضافة إلى يستغرق كما قال صديق الفكر طويلا ويستوجب الشكر علانية ، ولا ريب أن واجب الشكر على هذا العطف السامى لا يسقط عنى بتسجيله فى دفتر التشريف بقصر المُلك ودار الرياسة ، فانى لم ألق همى إلى هذا الانعام ، ولم أضع نفسى فى طريق هذا الوسام ، ولم أكن ذا منصب فأقدَّم على حسب ما قضيت به من زمن أو أمضيت فيه من كفاية ، ولا صاحب مال فأكرم على قدر ما أنفقت منه فى مشروع

الدفاع أو فى سبيل الخير ؛ وليست بالكاتب السياسى الذى يكافأ على عظم جهاده وكرم تضحيته ، ولا بالأديب الصالونى الذى يتقرّب للطف مدخله وحسن مصانعته ؛ وإنما أنا رجل لا أحسن بطبعى تكاليف المجتمع : أعيش فى زاوية مظلة من زوايا الحياة ، وأدور فى دائرة ضيقة من دوائر الوجود ، لا أتعرض لأقطاب السياسة ، ولا أتعلق بأصحاب النفوذ ، ولا أخرج عن هذا النطاق الصوفى الذى ضربته على مواهبى ، وحصرت فيه رغائبى وواجبى ؛ فأنا كما أجدنى فى شعورى هوى خالصاً من أهواء الطبيعة : أمجد الوادى لأنه الوطن ، وأقدس الملك لأنه الدولة ، وأحب الوفد لأنه الشعب ، وأوثر الخير لأنه الجمال ، وأعشق الأدب لأنه الحياة . فاذا نفذت مع ذلك عين الوزارة إلىّ ، وبسطت جناح برها علىّ ، دل ذلك على يقظة تخترق كل حجاب ، وعدالة تشمل كل فرد ، ونزاهة تفند كل اعتراض

ولا يمكن أن تكون الوزارة قد قصدت بهذا التكريم شخصى الضارع ، وإنما قصدت به ولا ريب تكريم الأدب المستقل فى جندى من جنوده ، وتشجيع الجهاد الثقافى فى ناحية من نواحيه . فأنا عسىّ أن أشكر هذه اللفتة الكريمة بلسان الأدب لأنها إلى الأدب ، وعلى منبر الرسالة ، لأنها متصلة بهذا السبب

* * *

كان العهد بالسلطان المطلق أن يكون إنعامه على رأى ابن المقفع أشبه بشجرة الكرْم تعلق بأقرب الشجر لا بأكرمه . فلما غلبت الديمقراطية على طبيعة المُلك ، وقبضت الأمم على أزمة الحكم ، تهيأ لكل فرد أن ينال نصيبه المقدور من الكرامة القومية العامة ، والسيادة الوطنية المشتركة ، وتسنى للنبوغ المستور ، والذكاء المغمور ، والعبقريات الفقيرة ، أن تطاول فى المجد شرف الولادة ، وتنافس فى الجاه سلطان الثروة

وهذا الذى تفعله الحكومة من اقتراحها الألقاب المميزة والأوسمة المشرفة لأبناء الأمة ، ظاهره يخالف طبيعتها الشعبية ، ولكن باطنه يوافق المنطق ولا يعدو الانصاف . فإن المساواة روح الدستور وجوهر العدالة ، فإما أن تلغى هذه الألقاب فيصبح الناس سواسية أمام المجتمع ، كما هم سواسية أمام القانون ؛ وإما أن تبتذل هذه المميزات حتى تتداولها الطبقات ويقصر هذا الفرق المبين بين (الباشا) و (الفلاح)

لقد كانوا بالأمس يعيرون الوفد أنه حزب الرعاع وقائد السوقة ، فما بالهم اليوم وقد ورث أمجاد الوطن يعيبونه أن يرفع عن حزبه أو شعبه معرة هذه الإهانة ؟

زعموا أن الديمقراطية العاملة حين ثارت فى فرنسا على الارستقراطية العاطلة ، أوحت إلى العمال العراة الجياع أن يقتحموا قصور السراة والنبلاء ، فلبسوا وشْيهم ، وتقلدوا حَليهم ، وغرقوا فى مقاعدهم المنجدة ، وطعموا على موائدهم المنضدة ، فشعروا فى ساعة واحدة باسترداد ما فقدوه فى الحقب الطوال من اللذة والعزة والكرامة والعظمة ؛ فلم لا يكون ذلك من هذا ؟

* * *

عفواً ! لقد كدت أخرج عن موضوع الشكر وما قضيت منه لبانة وما نقعت به غلة . وليس الشكر بابا من أبواب الملق ولا ضربا من ضروب التنبيه كما يُظن ، ولا هو قيد النعم الموجودة ، وصيد النعم المفقودة كما يقال ، وإنما هو للصنيعة كالاعتراف للاقتراف والتسبيح للعقيدة ، يخفف عبء المنة عن الضمير ويكفكف سورة الإيمان عن القلب !

ولئن كان يخجلك فى رأى نفسك من التكريم أن تسعى إليه ، لقد يخجلك فى رأى غيرك الا تشكره وقد سعى إليك

على أن الأدب نفسه سجل عصره بما فيه من محاسن ومساوىء ؛ فهو يضمن الذكر والشكر لمعضده ، كما يضمن المجد والخلود لموجده . والأدب كان ولن يزال لغة التاريخ ، ولسان النهضة ، وقبس الروح ، وومضة الالهام ، ورائد الإنسانية إلى المثل الأعلى ؛ فلا يمكن أن يكون رجاله فى عهد الذين اشتهرت زعامتهم به ، وقامت دعايتهم عليه ، أضعف ركناً وأقل شأناً من رجال الأعمال وأصحاب الأموال وعبيد الأرض

ولولا خلال سنها الشعر ما درى بناة المعالى كيف تبنى المكارم

احمد حسن الزيات

أسرة الرسالة والرواية تتقدم بالتهنئة الخالصة إلى أصدقائها وقرائها بعيد الأضحى ، وتدعو الله أن يعيد هذا العيد على العالم الاسلامى بالسلام والوئام والمحبة .

فى الحب أيضا

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى

أرجو ألا يتوهم أحد أن هذا حديث فى فلسفة الحب فانه قدرة لى على الفلسفة ، وقد فقدت ايمانى بها مذ خذلتنى وخيبت ملى وعجزت عن أن تفسر لى شيئا مما يحيرنى فى هذه الحياة . وقد رأت كثيرا مما كتبه الذين ينسبون إلى الفلسفة وإلى البحث علمى ، غير أنى لم أقتنع به ولم استرح إليـه . ومن سوء الحظ حظى أنا بالطبع كما لا أحتاج أن أنبه - أنه ليس لى فى هـذا باب تجربة تستحق الذكر حتى كنت أعرض مايقول الفلاسفة العلماء على ما جربت وأرى إلى أى حد أصابوا ووفقوا . لست اكتمكم أنى عاجز عن هذا الحب . وعسى أن أكون اهما لا عاجزا . ولكنى ما قرأت قط شعر العشاق وما قالوه الصبابة والوجد وفيما تضطرب به نفوسهم وتجيش به صدورهم ن الخوالج والاحساسات فى القرب والبعد ، والاقبال والصد ، المواتاة والحرمان ، ولا سمعت ممن أعرفهم وصف ما جربوا ن ذلك إلا قلت لنفسى - حين أخلو بها - « اسمحى لى يانفس أن قول إنك - ولا مؤاخذة - بليدة ، فتسألنى لماذا؟ فأقول « لأنى أراك تحسين شيئا من هذا الذى أجمع على وجوب الاحساس الشعراء والناس قاطبة . فهل أنت بليدة أم هؤلاء كلهم كذابون و على الأقل مبالغون؟ » ولا أحتاج أن أقول إنى لا أخرج من هذا الحوار الذى يدور بينى وبين نفسى بشىء آنس به واستريح يه ، فانها تصر على أن الناس مبالغون وأصر أنا على منطق قرقوش » المشهور . فقد قالوا إن ناسا كثيرين وضعوا رجلا ن الأحياء فى نعش وحملوه فيه كالميت ، فمر قرقوش بجنازته صاح به الرجل مستنجدا وأكد له أنه لا يزال على قيد الحياة ، أطرق قرقوش قليلا وفتل شعرات من لحيته ثم رفع رأسه ونظر يه وإلى الناس وقال : « أتريد أن أصدقك وأكذب هذا الخلق كله؟ » كذلك أنا مع نفسى - لا يعقل عندى أن تكون هى وحدها لى صواب وكل هـذه الملايين من النفوس مخطئة أو كاذبة ، و مبالغة .

ولا أنكر أن نفسى كانت تتحرك أحيانا فاشجعها مسرورا واستحثها فرحا بيقظتها بعد طول السبات ، ولكن أقصى ما جربت حين تفتح النفس عينيها على ما حولها أن يخفق القلب خفقات تصعد به إلى حلقى من فرط شدتها ، فأفيق وتعود فتهوى به إلى قريب من حذائى كأنما هذا ليس قلبا وإنما ركب لى الله سبحانه فى مكانه لعبة من لعب « اليويو » التى شاعت فى الزمان الأخير . وأحيانا أشعر بأن حولى فراغا وأحس شيئا من اللهفة وقليلا من الشوق ، ولكنه شوق هادىء ولهفة محتملة لا تثقل على النفس ولا يشتق بها القلب ولا يسود من جرائها العيش . وشبيه بذلك أن يشتهى الانسان أن يرى شريطا من أشرطة السينما سمع عنه ثناء أو أن يشتاق أن يطوف حول الأرض أو يشاهد معرضا كبيرا فى بلد ناء . ولا أظن أن هذا يعد حبا بالمعنى القديم أو الحديث

وللسامع العذر إذا تساءل : « كيف إذن كنت تقول الشعر فى شبابك وتذكر فيه الحب ولواعجه وصباباته وما تزعم أنك كنت تعانيه من السهد والضنى أو تريقه من الدموع إلى آخر ذلك » والسؤال طبيعى ولكن الجواب عنه حاضر ، ولولا عادة الصدق التى اكتسبتها فى الأيام الأخيرة لعز الجواب . والجواب يعرفه القراء فقد سقته فى فصل سابق عن الحب نشرته لى « الرسالة » وخلاصته أنى أوحيت الحب إلى نفسى

ومن الجرأة أن أزعم أن الناس كلهم كذلك ، ولكنى أقول إن نشوة الحب تطول عند الناس بفضل الايحاء المستفاد من تأثير الجماعة والعرف . ولو خلت الكتب مما نقرأه فى وصف الحب وأثره فى النفس وألف المرء أن يرى الناس يحبون حبا لا يخرج بالنفس عن الاتزان لصار الحب هادئا فاترا كالصداقة . وأحسب أن الفرق بينى وبين غيرى ليس هو أنى شاذ وهم طبيعيون ، بل إنى تأثرت بايحاء الجماعة وايحاء الكتب وأنا عارف بذلك مدرك له متفطن لحقيقته ، وأن الأكثرين يتأثرون على هـذا النحو تماما ولكنهم لا يدركون أن فى الأمر ايحاء ولا يفطنون للحقيقة فيه . والحياة تقوم - كما لا أحتاج أن أبين - على الايحاء ، وكل امرىء يوحى إلى كل امرىء آخر ويستوحى منه ، بل نحن نستوحى الأشياء كما نتلقى الايحاء من الناس .

ويخيل إلى أن الحب اسمه غلط ، فانه يبدو لى أن هذه العاطفة التى نسميها الحب خالية فى الحقيقة من الحب والعلاقة فيما بين الجنسين ليست علاقة مودة . وهذا كلام قد يبدو متناقضا ولكنى

أظنه صحيحا. ذلك أن الحب ضرب من الجوع؛ ولا تقولوا إنه جوع معنوى فإن هذا يكون تخريفك، إذ ليس ثم فيما يتعلق بالانسان أو الحياة شىء معنوى. والانسان مادة وكل ما فى الحياة من المادة وإلى المادة، فلندع هذه الخيالات ولنجتزىء بالحقائق فإن أرضها صلبة متينة لا تسوخ فيها الرجل. والمرء يجوع فيشتهى الطعام أى يطلبه، لا لأنه يحب الطعام فى ذاته، ولا لأن بينه وبين ما يأكل مودة، بل ليسد الحاجة التى يشعر بها ويقضى الرغبة التى تلح به ولا يستطيع أن يهدئها بغير الأكل. وكذلك يجوع جوعا من ضرب آخر - جوعا يطلب به إرضاء الرغبة الطبيعية فى النسل إطاعة لغريزة حفظ النوع، كما يطلب بالأكل إطاعة لغريزة المحافظة على الذات. وكما لا يقال إن بين الآكل والمأكول مودة، كذلك لا ينبغى أن يقال إن بين المحبين مودة. إنما تكون العلاقة بينهما قائمة على الرغبة فى الالتهام أو الاستحواذ إطاعة للغريزة لا عن مودة. والحبيبان أشبه بالمتقاتلين المتبارزين منهما بالصديقين المتوادين، لأن مطلب كل منهما الاستيلاء والغلبة؛ وهما لا يستعملان سلاحا ولا يحدثان جراحا، ولكن الواقع أن القبل والعناق والضم وغير هذا وذاك مما يكون بين المحبين - كل ذلك ليس إلا وسائل للتليين بغية التغلب. وقد استعمل الشعراء ألفاظا كثيرة كانوا فيها صادقين من حيث لا يشعرون، فذكروا فى مواقف الحب وحالاته المختلفة المتعددة السيف والجراح والأكباد القريحة والقلوب المفجوعة والنفوس الكليمة والسهام وما إلى ذلك، فأشاروا إلى حقيقة العلاقة بين الحبيبين من حيث يحسون بها بالفطرة ولا يدركونها بالعقل. والحقيقة هى أن الحب حرب واقتتال وفتك، وغايته - وهى النسل - تنطوى على تعرض للتضحية الكبرى - على الأقل من جانب المرأة - وسيله الاخضاع، فالمرأة تحاول إخضاع الرجل ليتسنى لها بذلك أن تجىء بالنسل الذى جعلتها الطبيعة أداة له. والرجل يحاول إخضاع المرأة ليتسنى له أن يجعلها تجيئه بالنسل الذى يطلبه بغريزته. والحال بينهما دائر أبدا على الكفاح. وفى كل شعر صادق - قديم أو حديث - لمحات عديدة تدل على التفطن إلى هذه الحقيقة ولو من غير إدراك تام صحيح جلى لها

والحب يتخذ الصورة التى يؤدى إليها التفاعل بين عاملين: الأول هو الدافع الغريزى للإنسان، والثانى هو مقاومة الجماعة، وهى مقاومة مرجعها إلى العرف والدين وما يجرى هذا المجرى.

وإلى تفاعل هذين العاملين وما ينتجانه فيما بينهما من الأثر ترجع الصور الشائعة للحب بين الجماعة. وقد كان التحرج شديدا فى الجيل الماضى من ذكر الحب والاعتراف أو المجاهرة به، لأن التقاليد كانت صارمة وكان لها معين من الدين لا يستهان به، وكانت الجماعة تنزع إلى الاحتشام. وكانت قاعدة الحياة من هذه الناحية المثل المشهور «إذا بليتم فاستتروا». فكانت معاقرة الخمر على قارعة الطريق ممنوعة لا بحكم القانون بل بقضاء العرف، وكان الشبان مثلا يستحيون أن يجلسوا فى القهوات، وكان النساء يتحجبن ويحرصن على ستر زينتهن، ولم يكن اتصال شاب بفتاة من الهينات، ثم جاءت الحرب فرجت الدنيا وزلزلت قواعد الحياة فيها وانتشر التعليم وشاع الاطلاع على الآراء الحديثة فى الأمور الجنسية، وهدمت الهبة القومية المصرية حواجز كثيرة وفى جملتها ما كان يفصل الجنسين ويفرق بينهما، وصار الناس - شيئا فشيئا - يلهجون بذكر الحب ويتناولونه فى مجالسهم وفى كتاباتهم تناولا هو أقرب ما يكون إلى البحث العلمى، ولم يعد الشبان - بسبب نشأتهم والجو الجديد المحيط بهم ينظرون إلى الحب وما يتعلق به كما كان آباؤهم يفعلون أو يرون فى الأمر موجبا للحماسة أو داعيا للتخجل أو باعثا على الاستحياء؛ وجاء التطور الاجتماعى ولا سيما فيما يتعلق بإمكان ضبط النسل هادما لحاجز منيع بين الرجل والمرأة. وفى الأمثال إن الشجرة تعرف من ثمارها؛ فإذا لم تكن ثم ثمرة فأين الشجرة؟ وضعف العرف وتفككت قيوده وحصل التمرد عليه فى سبيل الحرية كما حصل التمرد على كل قيد آخر. ومن أخطار الحرية فى بادىء الأمر أن الناس يطلبون الحقوق وينسون الواجبات التى تقابل الحقوق. والتوازن لا يعود إلا ببطء وبعد التجارب الطويلة والمعاناة المرة والدروس العملية الأليمة. وبذلك فقد الحب الهالة التى كانت حوله وسلب القداسة القديمة، وصار على الأيام أمرا عاديا، وهوى إلى مرتبة الرقص والألعاب الرياضية، لأن وطأة العرف والتقاليد ضعفت وخفت جدا حتى ليمكن أن يقال إنها غير محسوسة فى الأغلب والأعم. وفى مثل هذه الأحوال التى يعظم فيها الترخص والتسامح يندر الحب القوى العميق الطويل العمر، وقد يكون هذا الحال هو بعض السر فى ركود الشعر إلى حد كبير فى هذه الفترة من حياتنا الأدبية

ابراهيم عبد القادر المازنى

النفس وخلودها عند ابن سينا

للدكتور ابراهيم بيومي مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

— ٢ —

يدرس ابن سينا النفس من نواح كثيرة، فيحاول أولا أن يثبت وجودها ومغايرتها للبدن، ثم ينتقل بعد هذا إلى حقيقتها فيعرض لجوهريتها وروحيتها ويبرهن على خلودها ببراهين شتى ووسائل متعددة. ولن تفهم حقيقة النفس فهما كاملا إلا إذا حددت وظائفها وبين فى دقة عملها. وابن سينا يتحدث طويلا عن أنواعها المختلفة من نباتية وحيوانية وإنسانية، ويسهب بوجه خاص فى حديثه عن قوى النفس الانسانية الظاهرة والباطنة، وهذا الجزء يلخص تقريباً علم النفس عنده. وواضح أن مشكلة العقل التى تعد أحد الأحجار الأساسية فى بناء الفلسفة الاسلامية والتى شغلت فلاسفة القرون الوسطى على العموم، تتصل اتصالا وثيقاً بقوى النفس الباطنة، وستتبع هنا الخطوات السابقة لندلى بفكرة كاملة عن أبحاث ابن سينا فى النفس، ولكنا سنجمل القول فى أقسامه وتفصيلاته الكثيرة المتصلة بأنواعها وقواها لأن هذا فى أغلبه أصبح من علم النفس البائد، وسنكتفى بأن نشير منه إلى مصادره اليونانية. وأما مشكلة العقل فهى من الأهمية بحيث لا تدرس عرضاً وفى ثنايا بحث كهذا، ولا بد لها من دراسة مستقلة سبق لنا أن حاولناها فى كتابنا عن الفارابى [1]

لم يعن مفكرو اليونان كثيراً بالبرهنة على وجود النفس، وكأنهم كانوا يعدون وجودها واضحا بحيث لا يتطلب الاثبات، ومسلماً به إلى درجة لا تقبل الشك أو المناقشة. فالماديون منهم والروحيون متفقون على وجود النفس، وخلافهم فقط فى بيان ماهيتها وتحديد وظائفها. وأطباؤهم وفلاسفتهم يجمعون على أن للظواهر النفسية مصدراً وأصلا تعتمد عليه بجانب الجسم. وعلى هذا يمكننا أن نقول إن المادية المتطرفة التى ظهرت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر والتى تنكر وجود النفس بتاتاً غير معروفة لديهم. ذلك لأن هذه المادية أثر من آثار الطب وعلم وظائف الأعضاء الحديثين، وكل همها أن تفسر الأحوال العقلية جميعها تفسيراً واقعياً تجريبياً، وفى اعتقاد أنصارها أن المخ والجهاز العصبى كفيلان بتوضيح كل أعمال الفكر السامية. لهذا نراهم يصرحون بأنه «لا تفكير بدون الفسفور» وأن «المخ يهضم الاحساسات بشكل ما ويفرز عصارة التفكير افرازاً عضوياً» [1] وما كان الطب متقدما عند اليونان تقدمه فى التاريخ الحديث، ولا كانت وظائف الأعضاء واضحة وضوحها اليوم

ومن الغريب أن ابن سينا الذى تقبل كل مبادىء الطب وعلم وظائف الأعضاء اليونانيين قد عنى عناية خاصة بالبرهنة على وجود النفس وإثبات أنها تغاير البدن. ولعل ذلك راجع إلى أن بعض الماديين قد غالوا مغالاة الماديين المحدثين وتطرفوا تطرفهم، فوحدوا بين النفس والجسم أو أنكروا وجودها رأسا واعتبروا الجسم مبعث الظواهر العقلية على اختلافها. فلم ير بدأ من أن يرد عليهم ويبين خطأهم، وقد أشار إليهم صراحة فى إحدى رسائله [2]. وفوق هذا فالمنهج القويم فى رأيه يقتضى أن يبدأ الباحث بأثبات وجود النفس ثم ينتقل بعد هذا إلى شرح وظائفها وأعمالها. يقول: «من رام وصف شىء من الأشياء قبل أن يتقدم فيثبت أولا أنيّته (يعنى وجوده) فهو معدود عند الحكماء ممن زاغ عن محجة الايضاح. فواجب علينا أن تتجرد أولا لأثبات وجود القوى النفسانية قبل الشروع فى تحديد كل واحدة منها وإيضاح القول فيها [3]

وهو فى برهنته على هذا الوجود يسلك سبلا عدة ويستخدم وسائل متفرقة. فيلجأ تارة الى العرف العام والاستعمالات الدارجة مستمدا منها بعض الملاحظات الدالة على أننا نؤمن بوجود حقيقة فينا تخالف الجسم. ويركن تارة أخرى الى بعض القضايا الفلسفية

(1) Madkour, (La Place d'al Fârâbî), P. 122-180

(1) Cabanis, (Rapports du physique ert du moral), P. 138.

(٢) ابن سينا، (رسالة فى معرفة النفس الناطقة وأحوالها)، ص ٨.

(٣) ابن سينا، (رسالة فى القوى النفسانية)، ص ٢٠.

المسلة من القدامى ليستعين بها على تحقيق هذه الغاية . ويبتكر أحيانا فروضا وتعليلات دقيقة تقربه من بعض الفلاسفة وعلماء النفس المحدثين . فيلاحظ أن الانسان اذا كان يتحدث عن شخصه أو يخاطب غيره فانما يعنى بذلك النفس لا الجسم . فحين تقول : أنا خرجت أو أنا نمت لا يخطر ببالك حركة رجليك ولا اغماض عينيك ، بل ترمى الى حقيقتك وكل شخصيتك . وقد صاغ ابن سينا هذه الملاحظة على الصورة الآتية ، ان الانسان اذا كان منهمكا فى أمر من الأمور فانه يستحضر ذاته حتى أنه يقول إنى فعلت كذا أو فعلت كذا ؛ وفى مثل هذه الحالة يكون غافلا عن جميع أجزاء بدنه . والمعلوم بالفعل غير ما هو مغفول عنه ، فذات الانسان مغايرة للبدن »[1] . وإنا لنلمح فى ثنايا هذه الملاحظة فكرة الشخصية أو فكرة « أنا » (l'idée du moi) التى هى مثار بحث طويل بين علماء النفس المعاصرين . فالشخصية أو « الأنا » فى رأى ابن سينا لا يرجع الى الجسم وظواهره ، وانما يراد به النفس وقواها

ومن جهة أخرى تبدو علينا آثار لا يمكن تفسيرها إلا إن سلمنا بوجود النفس ، وأهم هذه الآثار الحركة والادراك . فأما الحركة فضربان : قسرية ناتجة عن دفعة خارجية تصيب جسما ما فتحركه ، وغير قسرية وهى التى تتصل بنا هنا . وغير القسرية هذه منها ما يحدث على مقتضى الطبيعة كسقوط حجر من أعلى الى أسفل ، ومنها ما يحدث ضد مقتضى الطبيعة كالانسان الذى يمشى على وجه الأرض مع أن ثقل جسمه كان يدعوه الى السكون ، أو كالطائر الذى يحلق فى الجو بدل أن يسقط الى مقره فوق سطح الأرض . وهذه الحركة المضادة للطبيعة تستلزم محركا خاصا زائدا على عناصر الجسم المتحرك ، وهو النفس . وأما الادراك فأمر امتازت به بعض الكائنات على بعض ، واذن لابد للكائنات المدركة من قوى زائدة على غير المدركة[2] . هذا هو البرهان الطبيعى السيكولوجى الذى يعتمد عليه ابن سينا فى اثبات وجود النفس . وهو كما لاحظ لانداور مستمد فى أغلب أجزائه من كتابى « النفس » و « الطبيعة » لأرسطو[1] . ففى الكتاب الأول يصرح الفيلسوف اليونانى بأن الكائن الحى يتميز من غير الحى بميزتين رئيسيتين : هما الحركة والاحساس[2] . وفى الثانى يقسم الحركة الى أقسام عدة لم يعمل ابن سينا شيئا سوى أن ردّدها وبنى عليها برهنته السابقة[3] . بيد أن هذه البرهنة ، فوق أنها برهنة باللازم ، غير مقنعة وخاصة فى جزئها الطبيعى . فأنه لو كانت الأجسام كلها مكونة من عناصر متحدة لكان لهذه البرهنة قيمتها . فأما وهى مختلفة التكوين فلا مانع من أن الجسم الذى يضاد الطبيعة العامة بحركته متمش مع قوانين طبيعته الخاصة ومشتمل على عناصر تسمح له بالحركة . وكم من جهازات وآلات تتحرك حركات مضادة للطبيعة ولا يخطر ببال أحد الآن أنها تحتوى على نفس أو قوة خفية أخرى ، وقد انقضى الزمن الذى كانت تعتبر فيه النفس أصل الحياة والتفكير فى آن واحد ، أو مصدر الحركة والادراك ان شئنا أن نستعمل لغة ابن سينا ، وأصبح علماء الحياة يفسرون الظواهر الحيوية تفسيراً آلياً أو « ديناميكياً » بمعزل عن القوى النفسية تاركين للنفسيين توضيح النفس وظواهرها ، وهؤلاء الأخيرون حتى الممعنون فى الروحية منهم لا يذهبون اليوم مطلقاً إلى أن للنفس عملا فوق الظواهر العقلية ويتقبلون التفسير الآلى للحياة والحركة . ويظهر أن ابن سينا قد تنبه إلى ضعف برهنته بدليل أنه لم يطنب فيها إلا مرة واحدة وفى مؤلف تقوم كل الدلائل على أنه كتبه فى صباه[4] . أما فى « الشفاء » و « الاشارات » وغيرهما من مؤلفات الشيخوخة : فانه يمر بها مسرعا ويحاول أن يثبت وجود النفس معتمداً على آثاره العقلية ؛ وهذه هى البراهين التى تدل على العبقرية والابتكار .

فيلاحظ أولا أن فى الأحوال النفسية تناسقاً وانتظاماً يؤذن بقوة مهيمنة عليها ومشرفة على نظامها ، وهى برغم تنوعها

(1) ابن سينا ، (رسالة فى معرفة النفس الناطقة) ، ص ٩ .

(2) ابن سينا ، (رسالة فى القوى النفسانية) ، ص ٢٠ ــ ٢١ .

(1) Landauer, (Die Tsychologie des Ibn Sinâ), P. 376-77.

(2) Aristote, (De l'ame), I,2,403 b 125.

(3) Aristote, (Physique), V 177,4,431 a, 30.

(4) Landauer, (arr. cité), P. 336-338.

كذلك ، (رسالة فى القوى النفسانية لابن سينا) ، ص ٩ ــ ١٢ .

وتخالفها بل تنافرها أحياناً تدور حول مركز ثابت وتتصل بمبدأ لا يتغير، وكأنها مرتبطة برباط وثيق يضم أطرافها المتباعدة، فنسر ونحزن، ونحب ونكره، ونتنوء ونثبت، ونحلل ونركب، ونحن في كل هذا صادرون عن شخصية واحدة وقوة عظمى توفق بين المختلف وتوجد المؤتلف؛ ولو لم تكن هذه القوة لتضاربت الأحوال النفسية واختل نظامها وطغى بعضها على بعض. وما النفس من آثارها إلا بمنزلة الحس المشترك من المحسوسات المختلفة؛ كلاهما يلم الشعث ويبعث النظام والترتيب [١].

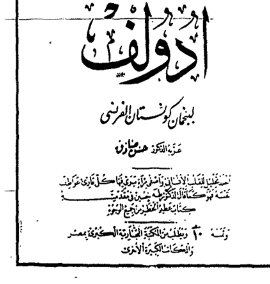
وهنا يشير ابن سينا إلى ذلك البرهان المشهور الذي كثيراً ما ردده أنصار المذهب الروحي من علماء النفس المحدثين. ويتلخص في أن وحدة الظواهر النفسية l'unité des faits psychiques تستلزم أصلا تصدر عنه وأساساً تعتمد عليه [٢]. وضعف هذه الوحدة أو انعدامها معناه ضعف الحياة العقلية أو القضاء عليها

يدنو ابن سينا من المحدثين، بل ومن المعاصرين بشكل أوضح من هذا في برهان آخر يصح أن نسميه برهان الاستمرار. وملخصه أن حاضرنا يحمل في طياته ماضينا ويعد لمستقبلنا، وحياتنا الروحية هذا الصباح ترتبط بحياتنا أمس دون أن يحدث النوم أي فراغ أو انقطاع في سلسلتها، بل وترتبط بحياتنا منذ أعوام مضت. ولئن كانت هذه الحياة متحركة ومتغيرة فإنما تتحرك في اتصال وتتغير في ارتباط. وليس هذا التتابع والتسلسل إلا لأن أحوال النفس فيض معين واحد ودائرة حول نقطة جذب ثابتة. يقول ابن سينا: «تأمل أيها العاقل في أنك اليوم في نفسك هو الذي كان موجوداً في جميع عمرك حتى أنك تتذكر كثيراً مما جرى من أحوالك. فأنت إذن ثابت مستمر لا شك في ذلك. وبدنك وأجزاؤه ليس ثابتاً مستمراً بل هو أبداً في التحلل والانتقاص... ولهذا لو حبس عن الانسان الغذاء مدة قليلة نزل وانتقص قريب من ربع بدنه. فتعلم نفسك أن في مدة عشرين سنة لم يبق شيء من أجزاء بدنك، وأنت تعلم بقاء ذاتك في هذه المدة، بل جميع عمرك. فذاتك مغايرة لهذا البدن وأجزائه الظاهرة والباطنة [١]». وفكرة استمرار الحياة العقلية واتصالها من الأفكار التي أثبتها حديثاً وليم جيمس وبرجسون وعداها من أخص خصائص الظواهر النفسية ومن أكبر الدلائل على وجود «الأنا» أو الشخصية. وفي رأيهما أن تيار الفكر لا سكون فيه ولا انقسام ولا انفصام، وهو في حركة متصلة مطردة. وما أشبه الحياة العقلية بقطعة موسيقية مكونة من نغمات مختلفة ومتميزة قد امتزجت واختلط بعضها ببعض فأنتجت لحناً منسقاً [٢] يقول جيمس: «من الصعب جداً أن نجد في شعور واقعي حالا نفسية مقصورة كل القصر على الحاضر بحيث لا نستكشف فيها أي شعاع من أشعة الماضي القريب.» [٣] فابن سينا ببرهانه المتقدم يسبق عصره بعدة أجيال ويدلي بآراء يعتد بها علم النفس الحديث كل الاعتداد

(يتبع) ابراهيم مدكور

(١) ابن سينا، (رسالة في معرفة النفس الناطقة)، ص ٩ - ١٠ و (الشفاء)، ج ١، ص ٣٦٢ = (النجاة)، ص ٢١٠ - ٢١٢ والاشارات، ص ١٢١.
(2) Ribot, âme dans (La Grande Encyc).

(١) ابن سينا، (رسالة في معرفة النفس الناطقة)، ص ٩.
(2) Bergson' (Evolution créatrice), P. 3.
(3) James, (Principles of Psychology, I, P. 206.



الصوت الخافت

للأستاذ مصطفى حمدى القونى

« مهداة إلى صديق الكاتب السويسرى جوستاف بيل »

— ١ —

ما كان يدور بخلدى قط أن يكون هذا كل نصيبى من الدنيا ، لقد طالما حلمت إبان صباى وفى فجر شبابى أنى سوف أدير كرة الأرض على أناملى ، وأنى سوف أملأ باسمى الأفواه والأسماع والقلوب . والآن وقد نقضت أيام الصبا فاذا لى دنياى أديرها فى غير جهد ، وإذا أفواه وأسماع وقلوب يملؤها اسمى ، وإذا أيد ترتفع إلى الجباه تحيينى كلما أقبلت على عملى أو أدبرت عنه . ويا ما أكثر ما يتملقنى تلاميذى !

واليوم إذ خرجت فى الصباح إلى المدرسة بدأت تطوف برأسى هذه الخواطر : كنت فى الماضى أصور الآمال وأنتظر تحقيقها فى أيام مقبلة ، وأقبلت هذه الأيام فاذا آمالى ليس إلى تحقيقها من سبيل ، فأصابنى شىء من الرضا والقناعة وطفئت حرارة الصبى وجرأته ، وأصبح الصبى وآماله حطاما ، وإن عاودتنى أحيانا ذكراه فلا أكاد أصدق أنى كنت فى يوم الأيام

إنى أحيا الآن ولكن . . . عاريا عن الآمال والعواطف . لقد سقطت عنى عواطفى وآمالى كما تساقط عن الشجرة الذاوية أوراقها ؛ وكثيراً ما أشعر أنى كالغريق الملقى على ضفة اليم ينتظر النهاية . . .

لست آسف على الماضى ولا أؤمل فى المستقبل ولا أبالى كيف يكون ، ولكنى أقف الآن حيث أنا فاتحا يدى للقدر يلقى فيهما ما به يجود . . .

وإنى لأدخل حجرة الدراسة — وأنا لا أزال غارقا فى مثل هذه الخواطر — إذ تسألنى نفسى :

— أكان من الممكن أن تقنع بمثل هذا فى الماضى ؟

وإذا بى أسمع صوتا ساخراً يقول مجيباً :

— ولم لا ؟ ألم يكن يحلم بشجرة الخلد وملك لا يبلى و . . . عرش عظيم ؟

واعتليت المنصة !

ووقف التلاميذ رافعين أيديهم بالتحية ، وإذ رفعت يدى أرد تحيتهم جلسوا صامتين ، وبدأت قائلا :

— واجب الدرس السابق

ففهموا بذلك انى أريد أن يقف المقصرون ويلقوا إلى بأعذارهم عن التقصير فيما كلفتهم به ؛ ووقف واحد من التلاميذ كان من أكثرهم جداً وعناية بعمله ، ولكنه لم يلق إلى بأى عذر وإنما بقى ساكناً صامتاً كأنما لا يبالى

ونزلت من على المنصة وتقدمت اليه فى خطى ثابتة ورفعت يدى أريد أن ألطمه ، وحينئذ انبرى زميل له يقول فى صوت خافت :

— لا لا يا أستاذى ! إن أباه قد مات البارحة .

ونزلت يدى إلى جانبى وعدت إلى مكانى من جديد والحجرة يخيم عليها سكون ، وأنفاس التلاميذ كأنها محبوسة ، ونظراتهم متعلقة بى تتبعنى ، ففتحت كتاباً أمامى وقلت لهم من دون أن أرفع نظرى اليهم :

كتاب المحاسبة صفحة ٦٥ التمرين الثانى . سوف أراه مع سابقه فى الدرس القادم .

وفتحوا كتبهم فى سكون وبدأت أذرع الغرفة جيئة وذهوباً ورأسى يدور ، وقلبى كأن به بركاناً ثائراً

— ٢ —

ودق الجرس فخرجت من الفصل ومن المدرسة إذ كان هذا هو درسى الوحيد فى هذا اليوم ، وبدأت أجوب شوارع المدينة ذاهلا عن كل ما حولى إذ بدأت أعود بالذاكرة إلى الماضى وكأنما بدأت أعيش فيه كرة أخرى :

« هذا أنا طفلا فى المدرسة الابتدائية أسير إليها مع الشمس كل صباح وأعود منها كل أصيل . وهنا أنا أعود من المدرسة فى أصيل يوم من الأيام فلا أجد أمى : لقد انتقلت إلى الريف تبتغى فيه شفاء من مرض ألم بها . وهذا أنا أعود فى أصيل كل يوم أتنسم أخبارها ، فاذا جن الليل سهرت من أجلها أدعو لها وأتمنى لها طيب الأمانى . وهذا أنا أقوم إلى المدرسة ذات صباح فأجد رسولا من القرية جاء يستقدم أبى ، فينقلب أملى شكا طاغياً جارفاً . وهذا أنا أخرج من المدرسة فى أصيل هذا اليوم يائساً أشد اليأس ، حزيناً أشد الحزن ، أسرع الخطا ثم أبطئها ،

أسرع لأنى أريد أن أعلم ماذا كان مصير أمى، ثم أحس كأن شيئاً يرد من خطاى ويصدنى: لقد كان الشك يغمر نفسى

أذكر أن الشمس كانت جانحة إلى المغيب تلقى على طرق المدينة أشعة صفراء باهتة حزينة، وإنى لا زلت إلى الآن تفيض نفسى بالكآبة كلما رأيت مغرب الشمس.

وفى أول الطريق الذى ينتهى إلى بيتنا قابلنى عمى ثم أجلسنى إلى جانبه فى دكان صغير هناك وجاء أحد الجيران يشترى بعض حاجه من الدكان، فألقى إلى نظرة ومال برأسه إلى صاحبه كأنما يسأله عن شىء، وهز صاحب الحانوت رأسه ومص الجار شدقيه راثياً، وقمت من مكانى وانفجرت باكيا وجريت إلى البيت لأسترسل فى البكاء

وهناك كانت نسوة كثيرات - فى ثياب سود - حاولن عبثاً أن يكفكفن من عبراتى. وهناك كانت أختى الصغيرة مدهوشة حيرى لا تدرى ماذا جرى. وهناك كانت أختى التى تكبر هذه - فى هدوئها وسكونها الدائمين - تسكب عبرات صامتة وكانت ليلة . . .

— ٣ —

وأصبح الصباح فاذا الشمس مشرقة كعادتها، وإذا بى أسير إلى المدرسة محنى القامة خافض الهامة، أفكر فيما كان وفيما سيكون

وابتدأ الدرس الأول، وكان درس القواعد العربية، وإنى لأذكر تماما الشيخ عبد الحميد رجلا قصير القامة مكور الوجه قاسيا، وأذكر أنه كان فى هذا الصباح جاداً فى إلقاء الدرس وشرح ما غمض منه على السبورة، ولكنى لا أذكر ما هو الدرس الذى كان يلقيه، إذ إنى نسيت - فيما نسيت - هذا الباب الذى من أمثلته (حضرموت وبختنصر)، ولكن ماذا يهمنى من هذا، إن ما يزال عالقاً بذهنى هو أنى انتبهت لحظة للشيخ وللدرس، ورفعت نظرى إلى السبورة أمامى فوجدت هاتين الكلمتين (حضرموت - بختنصر)

تأملت الكلمة الأولى وقرأتها هكذا، حضَرَ موْت، ثم بدأت أقول فى نفسى:

— يا ما أسعد من لا تموت أمهاتهم! وهؤلاء الذين يحضرون موت أمهاتهم إنهم أسعد منى حالا، أنا الذى لم يحضر موتها ولا يدرى ماذا مصيرها

وحينئذ عن للشيخ أن يلقى إلى بسؤال - ولعله رآنى عنه وعن درسه فى شغل شاغل - ولكن كلمة واحدة لم تند عن شفتى جواباً لسؤاله

وكان أن تقدم إلى ولطمنى لطمة قاسية . . . تقبلتها صامتاً. وماذا كانت هذه إلى جانب لطمة القدر؟

— ٤ —

وحين وصلت بذكرياتى إلى هذا الحد - وكنت قد وصلت فى سيرى إلى شارع سليمان باشا - رفعت يدى إلى خدى كأنما أتحسس بها أثر اللطمة بعد هذه السنين الطوال. ثم تراءى لى - ويدى لا تزال على خدى - أن أعبر الشارع. وإنى لأخطو أولى خطواتى إذ سمعت كأن صوتاً ينادينى:

— إبراهيم! يا إبراهيم!

وكان الصوت خافتاً كأنه آت من بعيد، من أعماق هاوية، وقد خيل إلى أنه ليس غريباً عنى، وأنى سمعته قبل الآن، متى وأين لا أدرى؟ وتلفت حولى واختل توازن خطاى وكادت سيارة تدهمنى. فنظر إلى شرطى المرور كأنما يسألنى ماذا بى. فقلت له فى بساطة:

— إن اسمى ابراهيم!

فلم يبد على وجه الشرطى أنه فهم شيئاً

وطفت على شفتيه ابتسامة فيها سخرية وفيها رثاء.

مصطفى حمدى الفولى

في أفق السياسة الدولية

المسألة الاستعمارية

والصراع على الأسلاب والغنائم

بقلم باحث دبلوماسي كبير

يظهر أن المسألة الاستعمارية ستغدو في القريب العاجل مسالة المسائل، وربما لعبت دوراً خطيراً في تطورات السياسة الدولية هذا العام، وقد كانت مسألة المستعمرات، خلال الأعوام الأخيرة تبدو في الأفق من آن لآخر، ولكنها كانت تتخذ صبغة نظرية؛ بيد أنها منذ غزو إيطاليا للحبشة واستيلائها عليها تتخذ صورة عملية واضحة؛ وكانت ألمانيا وإيطاليا هما اللتان تصران على إثارة هذه المسألة الشائكة كلما سنحت الفرص، أما ألمانيا فلأنها فقدت كل مستعمراتها السابقة في افريقية وفيما وراء البحار نتيجة لهزيمتها في الحرب الكبرى وتنفيذاً لنصوص معاهدة الصلح، وأما إيطاليا فلأنها رغم كونها كانت في عداد الحلفاء الظافرين ورغم استيلائها على نصيبها من أسلاب الدول المهزومة، كانت ترى دائماً أنها خدعت من حلفائها، وأنهم استأثروا دونها بالغنائم الكبرى وخصوصاً في مسألة المستعمرات والأراضي الجديدة، إذ بينما حصلت فرنسا وانكلترا وبلجيكا على انتدابات وأملاك واسعة في إفريقية وآسيا، إذا بإيطاليا تحرم من كل نصيب في هذا التراث وترغم على الاكتفاء بما منح لها من الأراضي النمسوية القليلة في أوربا؛ وقد كان هذا الغبن شعار السياسة الفاشستية في الأعوام الأخيرة، وذريعة إيطاليا في وجوب إعادة النظر في معاهدات الصلح وتعديلها تعديلا يكفل استقرار الأحوال في أوربا، وحل مسألة الانتدابات والمستعمرات بصورة ترضي الأماني الايطالية، فلما لم توفق ايطاليا إلى إرضاء مطامعها بطريق المفاوضة والتفاهم، عمدت إلى طريق القوة، فنظمت اعتداءها المعروف على الحبشة رغم المعاهدات المعقودة، واستولت عليها، وحققت بذلك بعض مطامعها الاستعمارية

وأما ألمانيا فلم تفكر قبل قيام الحكومة النازية في أن تثير مسألة المستعمرات بصورة جدية، وإن لم تنقطع منذ معاهدة الصلح عن الشكوى من فداحة شروطها المرهقة، ولم تنقطع ألمانيا بالأخص لحظة عن السعي في سبيل التنصل من تبعة الحرب التي اتخذت ذريعة لسحقها وتصفيدها بمثل هذه الفروض والمغارم الفادحة، وكانت ألمانيا تثير مسألة المستعمرات من آن لآخر ولكن بصورة نظرية فقط، فلما قامت الحكومة النازية منذ أربعة أعوام كان برنامجها الواضح أن تنكر معاهدة فرساي برمتها وأن تنكر بالأخص الأساس الذي قامت عليه وهو تبعة ألمانيا في الحرب الكبرى، وأن تحطم من نصوصها القائمة كل ما يمس السيادة الألمانية أو يغل حقوق ألمانيا وحرياتها؛ وقد فازت ألمانيا الهتلرية في هذه الأعوام القليلة بتحقيق غايتها من نقض معاهدة فرساي وتمزيقها، وفي نفس الوقت الذي كانت ألمانيا تنكر فيه تبعة الحرب وتنكر شرعية معاهدة الصلح، كانت تطالب برد مستعمراتها وتنوه بضرورة هذه المستعمرات لتقدمها الاقتصادي والاجتماعي؛ ولما نظمت إيطاليا مشروعها لغزو الحبشة كانت ألمانيا من ورائها تؤيدها بكل ما استطاعت، لأنها كانت ترى في مشروع ايطاليا دعامة لقضيتها الاستعمارية وذريعة لاثارة المسألة الاستعمارية كلها؛ ذلك أن غزو إيطاليا للحبشة لم يكن مشروعاً إيطالياً داخلياً فقط، ولكنه كان يمثل في نفس الوقت طموح الفاشستية إلى التوسع الاقتصادي، ويمثل بالأخص نزعتها العسكرية المتوثبة، وهي النزعة التي تضطرم بها ألمانيا اليوم كما تضطرم ايطاليا، وقد كان في مثل ايطاليا قدوة صالحة لالمانيا؛ وكان العام الماضي بالنسبة لألمانيا عام القضاء على معاهدة الصلح وميثاق لوكارنو، واسترداد ألمانيا لسيادتها المطلقة في مسائل التسليح، وفي منطقة الرين الحرام، أما هذا العام فسيكون بالنسبة لألمانيا عام المستعمرات والمسألة الاستعمارية، كما تدل على ذلك طوالع السياسة الألمانية الجديدة ومقدماتها

فمنذ أشهر يتحدث زعماء ألمانيا الهتلرية وتتحدث صحفها بشدة عن ضرورة استعادة ألمانيا لمستعمراتها السابقة، ويقولون إن المسألة فضلا عن كونها مسالة كرامة قومية لأن ألمانيا هي الدو

العظمى الوحيدة التي حرمت من المستعمرات ، قد أضحت في نفس الوقت بالنسبة لألمانيا ضرورة اقتصادية واجتماعية ، لأن سكان ألمانيا يزيدون بسرعة وألمانيا لا تستطيع الحصول على المواد الأولية اللازمة لصناعاتها إلا بالشراء واستنزاف موارد ثروتها القومية ، وهي حالة تهدد كيانها الاقتصادي ؛ وقد رأينا الدكتور شاخت زعيم ألمانيا الاقتصادي يهدد أوربا بالانفجار إذا لم تحقق ألمانيا أمانيها الاستعمارية ، ورأينا الجنرال جيرنج رئيس الحكومة البروسية يصف اقتطاع الحلفاء للمستعمرات الألمانية بأنه سلب ومرقة صريحة؛ وقد كانت هذه كلها تمهيدات عنيفة للخطوة الرسمية التي تزمع ألمانيا أن تتخذها في سبيل المسألة الاستعمارية ؛ وفي ٣٠ يناير الماضي أعلن الهير هتلر زعيم الدولة الألمانية في خطابه الرسمي الذي ألقاه في مجلس الريخستاج لمناسبة الذكرى الرابعة لتولي النازي الحكم مطالب ألمانيا الصريحة في سبيل استرداد مستعمراتها وبذلك اتخذت ألمانيا في هذه المسألة موقفها الرسمي الصريح ؛ ولم يمض على تصريح الهير هتلر أيام قلائل حتى كان صدى المطالب الألمانية يتردد في دوائر باريس ولندن ، وحتى وقعت المقابلة الأولى بين الهير فون ريبنتروب السفير الألماني في لندن ، وبين اللورد هاليفاكس القائم بأعمال وزير الخارجية البريطانية ، وفيها بسط السفير الألماني وجهة نظر حكومته في مسألة المستعمرات

ويجب أن نذكر إلى جانب ذلك كله موقف ألمانيا من المسألة الاسبانية وهو موقف وثيق الصلة بمطالبها ومشاريعها الاستعمارية ؛ فقد اشتركت ألمانيا مع إيطاليا والبرتغال في تدبير الثورة الاسبانية القائمة ، وعاونت زعيمها الجنرال فرانكو بالرجال والذخائر ، واعترفت بحكومته أي بحكومة برجوس الفاشستية ، ولألمانيا عدة سفن حربية في المياه الاسبانية تعاون مشاريع الثوار ؛ وقد أذيع في الأسابيع الأخيرة أن ألمانيا استطاعت أن تحصل من الجنرال فرانكو على امتيازات عظيمة لاستغلال مناجم النحاس وغيره في أنحاء كثيرة من اسبانيا ؛ وقد ذهبت ألمانيا إلى أبعد من ذلك فحاولت بالتفاهم مع الجنرال فرانكو أن تحتل مراكش الاسبانية ، وأنزلت فيها بعض قواتها فعلا ؛ ولم يك ثمة شك في الغايات الاستعمارية المباشرة أو غير المباشرة التي تعلقها ألمانيا على هذه الحركة التي ذكرتنا بحادث أغادير في سنة ١٩١٢ ، وهو الحادث الذي استغلته ألمانيا يومئذ لمصالحها الاستعمارية ؛ بيد أن ألمانيا اضطرت إزاء حزم فرنسا وما أبدته من الاستعدادات البحرية العظيمة في المياه الاسبانية وما همت به من اتخاذ الاجراءات العسكرية السريعة في مراكش وعلى حدود اسبانيا الشمالية أن تتراجع في مشروعها وأن تؤكد أنها لا ترمى إلى أية غاية استعمارية في مراكش الاسبانية أو في اسبانيا ذاتها

والآن ما هي الاحتمالات التي يمكن أن تسفر عنها حركة ألمانيا في سبيل المستعمرات ؟ ان ألمانيا تتقدم بمطالبها الى جميع الدول التي استولت على أملاكها السابقة في إفريقية وفيما وراء البحار ، وهي انكلترا وفرنسا وبلجيكا واليابان ؛ وهي تتقدم الى انكلترا بصفة خاصة لأنها وضعت يدها على اكبر قسم من هذه التركة ، ولأن موقفها من المسألة قد يغدو مفتاح الموقف كله ؛ وقد كانت السياسة البريطانية تتوقع هذه الخطوة من ألمانيا منذ أشهر ، ولهذا فقد بحثت المسألة ، واتجهت فيها على مايلوح الى خطة معينة لم تتضح قواعدها بعد . بيد أنا نستطيع أن نتبين موقف السياسة البريطانية من بعض التصريحات الرسمية والتعليقات غير الرسمية ؛ وقد أدلى السير صموئيل هور وزير الخارجية البريطانية السابق ، منذ اكثر من عام خلال مناقشات عصبة الأمم في المسألة الحبشية باول رأي واضح لانكلترا في المسألة الاستعمارية وهو ان انكلترا مستعدة لأن تنظر في مسألة تنظيم توزيع المواد الأولية تنظيما يكفل توزيعها بصورة اكثر عدالة ورضاء للدول المحرومة منها ؛ أما عن التخلي عن المستعمرات ذاتها أو اعادة شيء منها الى ألمانيا، فقد صرح مستر ايدن وزير الخارجية الحالي ، وكذلك مستر بلدوين رئيس الوزارة اكثر من مرة في مجلس العموم ، بان نكلترا لا تنوى التخلي عن أية مستعمرة أو منطقة يظللها العلم البريطاني ؛ بيد أنه يلوح لنا أن السياسة البريطانية قد تقدمت أخيرا خطوة أخرى في سبيل بحث المسألة الاستعمارية ، وهو أنها مع عدم استعدادها لبحثها من الوجهة الشخصية ، فانها على استعداد لبحثها من الوجهة الدولية العامة ، اعني من حيث ارتباطها بالسلام الاوربي ، ووضع تسوية عامة للمسائل الدولية والأوربية

يستقر معها السلم بصورة نهائية؛ ومن هذه مسألة تحديد السلاح، وتأمين الحدود المختلفة، وحل المشكلة الأسبانية وغيرها؛ وهذا ما تاباه المانيا، لأنها لا تقبل المساومة فى أى مسألة تتعلق بسيادتها وحرياتها فى العمل، وتصر على أن تنظر المسألة الاستعمارية فى ذاتها؛ وهى تجد فى انكلترا ذاتها بعض المؤيدين لنظريتها، فقد رأينا مستر جارفن الكاتب السياسى الكبير ينصح باعادة مستعمرات ألمانيا اليها، ويقول ان مسألة المستعمرات لا تستحق ان تكون مثارا للحرب بين الدول العظمى

ولا ريب أن المسألة لا يمكن ان تحل بمثل هذه السهولة؛ فانكلترا لا تقبل مطلقا أن ترد لالمانيا مثلا شرق افريقية الألمانى وبذا تعيدها خصما منافسا لها فى شرق أفريقية الى جانب ايطاليا الفاشستية، أو تعيد اليها غرب أفريقية الألمانى فتهدد بذلك سلامة امبراطوريتها فى جنوب أفريقية وفى أواسطها. أو مستعمرة غانه الجديدة فتهدد مواصلاتها مع استراليا؛ وقد كانت هذه أهم مستعمرات المانيا السابقة. وليست فرنسا أقل تمسكا من انكلترا بما وضعت يدها عليه من تراث المانيا السابق فى الكرون وفى توجولاند؛ والنظرية الفرنسية فى مسألة المستعمرات معروفة، خلاصتها أن فرنسا لا تقبل مطلقا أن تعيد الى المانيا أية مستعمرة أو أراض تستغلها المانيا فى سبيل تدعيم قواتها ومشاريعها العسكرية، ولا تنظر فى مسألة المستعمرات الا اذا ارتبط البحث فيها بمسألة السلامة العامة، واسفر عن ضمانات جديدة مؤكدة تقدمها المانيا فى هذا السبيل

والخلاصة أن مسألة المستعمرات هى مسألة اليوم، وهى طور جديد من أطوار الصراع التى تثيره ألمانيا الهتلرية فى سبيل استرداد مكانتها القديمة كاملة شاملة وفى سبيل تدعيم مشاريعها الاقتصادية والعسكرية؛ وقد يؤدى البحث فيها إلى بحث الموقف الأوربى كله، ويؤدى إلى تسوية دولية عامة؛ وقد يقف البحث فيها عند الخطوات التمهيدية إذا أصرت ألمانيا على وجهات نظرها المعروفة من رفض البحث فى مسألة تحديد التسليح، والاصرار على وجوب ابعاد روسيا عن حظيرة الدول الأوربية، وعندئذ تتعقد المشكلة الأوربية، ويصعب التكهن بما قد يفضى إليه هذا التعقيد من التطورات

ويجدر بنا أن نشير أخيراً إلى أن هذه الشهوة المضطرمة التى تحدو الدول الفاشستية، وتحدو ألمانيا إلى السعى لامتلاك المستعمرات لا ترجع إلى بواعث اقتصادية واجتماعية حسبما تصورها لنا السياسة الفاشستية، فان الاحصاءات تدل على أن المستعمرات تغدو فى أحيان كثيرة، عبئاً اقتصادياً، وقد لا يهاجر إليها من البيض سوى آلاف قليلة لا تؤثر فى تخفيف مشكلة السكان فى البلد الأصلى، وأكثر ما ترجع هذه الشهوة إلى بواعث سياسية وعسكرية فوق ما ترجع إليه من الاطماع المادية والاقتصادية؛ وهى نفس البواعث التى تحمل الدول الأخرى على الاحتفاظ بتراثها الاستعمارى الشاسع، وهى فى الواقع معركة الغنائم والأسلاب الخالدة؛ فاذا كانت ألمانيا قد فقدت مستعمراتها فى حرب كبرى هزمت فيها وسحقت، فمن الصعب أن تتوقع عود هذه المستعمرات إليها غنيمة باردة، وعليها إما أن تبذل الثمن المناسب، وإما أن تخوض حرباً تحرز فيها النصر، وعندئذ تستطيع أن تملى شروطها، كما أملى عليها الظافرون شروطهم بالأمس، وهذا ما نستبعد وقوعه فى الظروف الحاضرة

(٭٭٭)

٢ - صعاليك الصحافة . . .

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

وغاب شيخُنا أبو عثمان عند رئيس التحرير بعضَ ساعة ثم رجع تدور عيناه في حَجاظَيْهما وقد اكفهرّ وجهُه وعبس كأنما يجري فيه الدمُ الأسود لا الأحمر، وهو يكاد ينشقُّ من الغيظ وبعضُه يَغلي في بعضه كالماء على النار . فما جلس حتى جاءت ذبابتان فوقعتا على كَنَفَيْ أنفه تُسْتمّان كآبةَ وجهه المشوَّه، فكان منظرهما من عينيه السَّوداوين الجاحظتين منظرَ ذبابتين وُلدتا من ذبابتين . . .

وتركهما الرجل لشأنهما وسكت عنهما. فقلت له : يا أبا عثمان هاتان ذبابتان ويقال إن الذباب يحمل العدوَى

فضحك ضحكة المَغيظ وقال : إن الذباب هنا يخرج من المطبعة لا من الطبيعة . . . فأكثر القول في هذه الجرائد حشَرات من الألفاظ: منها ما يُستقذَر، وما تنقلب له النفس، وما فيه العدوى، وما فيه الضرر ؛ وما بدٌّ أن يعتاد الكاتب الصحافي من الصبر على بعض القول مثلما يعتاد الفقير من الصبر على بعض الحشرات في ثيابه . وقد يريده صاحب الجريدة أو رئيس التحرير على أن يكتب كلاماً لو أعفاه منه وأراده على أن يجمع القمل والبراغيث من أهدام الفقراء والصعاليك بقدر مايملأ مقالة . . . كان أخفَّ عليه وأهون، وكان ذلك أصرحَ في معنى الطلب والتكليف [1] .

وكيفما دار الأمر فانّ كثيرا من كلام الصحف لو مسخه الله شيئا غير الحروف المطبعية، لطار كله ذبابا على وجوه القراء .

قلت.. ولكنك يا أبا عثمان ذهبت مُتَطلِّقاً إلى رئيس التحرير ورجعت متعقدا فما الذي أنكرت منه ؟

قال : « لو كان الأمر على ما يشتهيه الغريرُ والجاهلُ بعواقب الامور لبطل النظرُ وما يشحذ عليه وما يدعو اليه ، ولتعطلت الأرواحُ من معانيها والعقول من ثمارها ، ولعدمت الأشياء حظوظها وحقوقها » [1] . هناك رجل من هؤلاء المعنيّين بالسياسة كما هي السياسة في هذا البلد . . . يريد أن يخلق في الحوادث غير معانيها ، ويربط بعضها إلى بعض بأسباب غير أسبابها ، ويخرج منها نتائج غير نتائجها ، ويلفّق لها من المنطق رُقعاً كهذه الرقع في الثوب المفتوق . ثم لا يرضى الا أن تكون بذلك ردّا على جماعة خصومه وهي ردعليه وعلى جماعته ، ولا يرضى مع الرد الا أن يكون كالأعاصير تدفع مثل تيار البحر في المستنقع الراكد

ثم لم يجد لها رئيس التحرير غير عمك أبي عثمان في لطافة حسه وقوة طبعه وحسن بيانه واقتداره على المعنى وضده ، كأن أبا عثمان ليس عنده ممن يحاسبون أنفسهم ولا من المميِّزين في الرأي، ولا من المستدلّين بالدليل ، ولا من الناظرين بالحجة . وكأن أبا عثمان هذا رجلٌ حُروفي . . . كحروف المطبعة ترفع من طبقة وتوضع في طبقة وتكون على ماشئت . وأدنى حالاتها أن تمد اليها اليد فاذا هي في يدك

وأنا امرؤٌ سيدٌ في نفسي وأنا رجلُ صدق ولست كهؤلاء الذي لا يتأثّمون ولا يتذمّمون ؛ فإن خضتُ في مثل هذا انتقض طبعي وضعفت استطاعتي وتبيَّن النقصُ فيما أكتب ، ونزلتُ في الجهتين فلا يطّرد لي القول على ما يرجو ولا يستوى على ما أحب . فذهبتُ أناقضُه وأردّ عليه ؛ فبُهتَ ينظر إلى ويقلب عينيه في وجهي كأن الكاتب عنده خادمُ رأيه كخادم مطبخه وطعامه هذا من هذا

ثم قال لي : يا أبا عثمان إني لأستحي أن أعنفك . وبهذا القول لم يستح أن يعنّف أبا عثمان . . . ولهممتُ والله أن أنشده قول عباس بن مرداس :

أكُلَيب... مالكَ كلَّ يوم ظالما والظلمُ أنكدُ وجهه ملعون...

لولا أن ذكرتُ قولَ الآخر :

ومابين من لم يُعطِ سمعاً وطاعةً وبين تميمٍ غيرُ حزِّ الغلاصم

« حزُّ الغلاصم » وقطعُ الدراهم « من قافية واحدة ... وقال سعيد بن أبي عَروبة : « لأن يكونَ لي نصفُ وجه ونصف لسان على ما فيهما من قبح المنظر وعجز المخبر - أحبّ إلى من أن أكون

(١) هذه طريقة الجاحظ في الاغراق حين يتهكم .

(١) هذه الجملة من كلام الجاحظ .

ذا وجهين وذا لسانين وذا قولين مختلفين » . وقال أيوب السختياني ...

وهمّ شيخنا أن يمرّ في الحفظ والرواية على طريقته ، فقلت : وقال رئيس التحرير ... ؟

فضحك وقال : أما رئيس التحرير فيقول : إن الخلابة والمواربة وتقليب المنطق هي كل البلاغة في الصحافة الحديثة ، ولهي كقلب الأعيان في معجزات الأنبياء صلوات الله عليهم ، فكما انقلبت العصا حيّةً تسعى ، وهي عصا وهي من الخشب ، فكذلك تنقلب الحادثة في معجزات الصحافة إذا تعاطاها الكاتب البليغ بالفطنة العجيبة والمنطق الملوّن والمعرفة بأساليب السياسة ، فتكون للتهويل وهي في ذاتها اطمئنان ، وللتهمة وهي في نفسها براءة ، وللجناية وهي في معناها سلامة . ولو نفخ الصحافي الحاذق في قبضة من التراب لاستطارت منها النار وارتفع لهبُها الأحمر في دخانها الأسود . قال : وإن هذا المنطق الملوّن في السياسة إنما هو إتقانُ الحيلة على أن يصدقك الناس ، فان العامة وأشباه العامة لا يصدّقون الصدقَ لنفسه ولكن للغرض الذي يساق له ، إذ كان مدار الأمر فيهم على الإيمان والتقديس ، فأذقهم حلاوة الإيمان بالكذب فلن يعرفوه إلا صدقا وفوق الصدق ، وهم من ذات أنفسهم يقيمون البراهينَ العجيبة ويساعدون بها من يكذب عليهم متى أحكم الكذب ، ليحقّقوا لأنفسهم أنهم بحثوا ونظروا ودقّقوا . . .

ثم قال أبو عثمان : ومعنى هذا كله أن بعض دُور الصحافة لو كتبت عبارة صريحة للاعلان لكانت العبارة هكذا : سياسة للبيع . . . .

* * *

قلت : يا شيخنا فانك هنا عندهم لتكتب كما يكتبون ، ومقالات السياسة الكاذبة كرسائل الحب الكاذب تقرأ فيها معانٍ لا تكتب ، ويكون في عبارتها حياء وفي ضمنها طلبُ ما يُستحَى منه . . . والحوادث عندهم على حسب الأوقات ، فالأبيض أسود في الليل والأسود أبيض في النهار ، ألم تر إلى فلان كيف يصنع وكيف لا يعجزه برهان وكيف يخرّج المعاني ؟

قال : بلى نعم الشاهد هو وأمثاله . إنهم مصدّقون حتى في تاريخ حفر زمزم

قلت : وكيف ذلك ؟

قال : شهد رجل عند بعض القضاة على رجل آخر ، فأراد هذا أن يجرح شهادته ، فقال للقاضي : أتقبل منه وهو رجل يملك عشرين ألف دينار ولم يحجّ إلى بيت الله ؟ فقال الشاهد : بلى قد حججت . قال الخصم : فاسأله أيها القاضي عن زمزم كيف هي ؟ قال الشاهد : لقد حججتُ قبل أن تحفر زمزم فلم أرها . . .

قال أبو عثمان : فهذه هي طريقة بعضهم فيما يزكى به نفسه ؛ ينزلون إلى مثل هذا المعنى وإن ارتفعوا عن مثل هذا التعبير ؛ إذ كانت الحياة السياسية جدلا في الصحف لنفي المنفي وإثبات المثبت ، لا عملا يعملونه بالنفي والاثبات . ومتى استقلت هذه الأمة وجب تغيير هذه الصحافة وإكراهها على الصدق فلا يكون الشأن حينئذ في إطلاق الكلمة الصحافية إلا من معناها الواقع .

والحياة المستقلة ذات قواعد وقوانين دقيقة لا يترخّص فيها مادام أساسها إيجاد القوة وحياطة القوة وأعمال القوة ، ومادامت طبيعتها قائمة على جعل أخلاق الشعب حاكمة لا محكومة . وقد كان العمل السياسي إلى الآن هو إيجاد الضعف وحياطة الضعف وبقاء الضعف ؛ فكانت قواعدنا في الحياة مغلوطة ، ومن ثم كان الخلق القوي الصحيح هو الشاذ النادر يظهر في الرجل بعد الرجل والفترة بعد الفترة ؛ وذلك هو السبب في أن عندنا من الكلام المنافق أكثر من الحر ، ومن الكاذب أكثر من الصادق ، ومن المماري أكثر من الصريح ؛ فلا جرم ارتفعت الألقاب فوق حقائقها وصارت نعوت المناصب وكلمات باشا وبك من الكلام المقدس صحافياً . . . .

يا لَعباد الله ! يأتيهم اسم الأديب العظيم فلا يجدون له موضعا في « محليات الجريدة » ؛ ويأتيهم اسم الباشا أو البك أو صاحب المنصب الكبير فبماذا تتشرف « المحليات » إلا به ؟ وهذا طبيعي ، ولكن في طبيعة النفاق ، وهذا واجب ولكن حين يكون الخضوع هو الواجب . ولو أن للأديب وزنا في ميزان الأمة لكان له مثل ذلك في ميزان الصحافة ، فأنت ترى أن الصحافة هنا هي صورة من عامية الشعب ليس غير ... ومن ذا الذي يصحح معنى الشرف العامل لهذه الأمة وتاريخها – وأكثر الألقاب عندنا هي أغلاط في معنى الشرف ... ؟

ثم ضحك أبو عثمان وقال : زعموا أن ذبابة وقعت في بارجة

(أميرال) انجليزى أيام الحرب العظمى ؛ فرأت القائد العظيم وقد نشر بين يديه درجاً من الورق وهو يخطط فيه رسماً من رسوم الحرب . ونظرتُ فإذا هو يلقى النقطة بعد النقطة من المداد ويقول : هذه مدينة كذا ، وهذا حصن كذا ، وهذا ميدان كذا . قالوا فسخرت منه الذبابة وقالت : ما أيسر هذا العمل وما أخفّ وما أهون ! ثم وقعت على صفحة بيضاء وجعلت تلقى وَنِيمها[1] هنا وهناك وتقول : هذه مدينة ، وهذا حصن ...

° ° °

والتفت الجاحظ كأنما توهم الجرس يدق . . . فلما لم يسمع شيئاً قال :

لو أنى أصدرت صحيفة يومية لسميتها (الأكاذيب) ، فمهما أكذب على الناس فقد صدقت فى الاسم ، ومهما أخطىء فلن أخطىء فى وضع النفاق تحت عنوانه

قال : ثم أخط تحت اسم الجريدة ثلاثة أسطر بالخط الثلث هذا نصها :

ما هى عزة الأذلاء ؟ هى الكذب الهازل

ما هى قوة الضعفاء ؟ هى الكذب المكابر

ما هى فضيلة الكذابين ؟ هى استمرار الكذب

قال : ثم لا يحرر فى جريدتى إلا « صعاليك الصحافة » من أمثال الجاحظ . ثم أكذب على أهل المال فأمجد الفقراء العاملين ، وعلى رجال الشرف فأعظم العمال المساكين ، وعلى أصحاب الألقاب فأقدم الأدباء والمؤلفين . و . . .

ودق الجرس يدعو أبا عثمان الى رئيس التحرير . . .

لها بقية (طنطا) **مصطفى صادق الرافعى**

(١) ونيم الذباب هو . . . اى هذه النقط السود التى يحدثها

وحى القلم

كثرت عندنا كتب إخواننا من فقراء الطلبة . منهم من يريد الكتاب بقيمة الاشتراك ، ومنهم من يريده بنصف الثمن ، ومنهم من يطلبه بالدعوات الصالحات.. فأعتذر للجميع بأنى لم أنفق على طبع الكتاب وإنما أنفقت عليه لجنة التأليف والترجمة والنشر . ولو كان (بولانا كى) الفتى اليونانى المشهور يعرف الأدب العربى ، لرجوته لهم فاشترى واهدى إليهم .

ولكن بولاناكي لايعرف الأدب العربى ، ومثله جنا كليس وماتوسيان . ورحمة الله على أغنيائنا الاموات الذين لامرفهم وزارة الأوقاف واطال الله بقاء الأحياء الذين لا اعرفهم انا ولا يعرفهم احد من المؤلفين . . .

الرافعى

حديث الأزهار

للكاتب الفرنسى الفونس كار

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

(٢)

زهرة السلوان

حذار من زهرة السلوان ! إنها زهرة يصيبك بهاؤها ويقتلك عبيرها . إنها لزهرة تتشح الجمال وتتكلف الابتسام ، تحدجك بلفتات ساحرة لتستهويك وتقول لك : ـ تعال الىّ ، فنىّ الاخلاص وفىّ العزاء .

رأيت رجلا اقتطف زهرة السلوان من حقول الحياة بعد أن عرفته هائماً تتقد فى قلبه النار التى لا تنير دون أن تحرق ، فاصبح خلىّ البال يحدّق فى من كان يهواها فلا يفرح ولا يحزن ، لا يلذه شىء ولا يتألم لشىء

ولكنّ السلوان لا يدخل وحده إلى القلب ، بل يجر معه رفيقه الملازم له : يجر معه الضجر والملال . ومن اقتطف زهرة السلوان يسير حزيناً مطرقاً بالارض لانه لن يحب بعد ...

من سطا السلوان عليه فهو طريدٌ لا قرار له

من ينس مرةً فلن يحب أبدا

أرى الخلىّ يقطع السهول ويتسلّق الروابى فيقف متضجراً ينصت إلى تغريد الأطيار ويسرّح الطرف فى أزهار الخمائل وجداول المروج متسائلا أمام الطبيعة العاشقة عما أفقده عشقه ، فتجيبه الطبيعة : لأنك قطفت زهرة السلوان

ويبكى هذا الطريد زماناً كان يبكى فيه إذ كان شقياً ، ولكنّ قلبه لم يكن ساكناً لا حرارة فيه ولا خفوق

إن من الأمراض مايفوق ألمُ شفائها آلامَ استفحالها

دلنى على منابت زهرة السلوان لأجتنبها ، قل لى أين تنوّر لأحوّل طريقى عنها

هى زهرة صفتها اسم لها ؛ تنبت فى الاماكن الموحشة المقفرة ، وقد تنمو فى المدن بين الحركة والضجيج ، غير أن جرثومتها عالقة فى عالم الخيال فى أسرار حياة الموت وموت الحياة

هى زهرة الضجر والملال والعذاب ، زهرةُ السلوان

في الأدب المقارن

الرحلة

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

كان الإنسان رحالة قبل أن يكون ذا وطن: كان يهجر جماعات جماعات بقاع الأرض الشحيحة، ويقصد أصقاعها الخصيبة ووديانها الكريمة، طلبا للقوت والتماسا للغنم؛ فلما استقر في الأوطان والمساكن لم يستغن في حياته عن الرحلة، بل ظل يحفزه إليها ابتغاء الرزق تارة، وحب الاستطلاع والمتعة أخرى، وشهوة الغلب والفتح طورا، ونشدان العلم آنة، وأداء مناسك دينه حينا، والفرار من الظلم أو الذل أحيانا؛ وامتازت عصور نهضاته خاصة باشتداد حبه للرحلة: فاذا ما مشت نسمة الحياة بين الأمة، وتنبهت فيها ثقتها بنفسها، وامتلأت روحها بحب العمل والاقبال على أسبابه، تطلعت دولتها إلى الخارج تبسط سلطانها عليه، وراح أفرادها في إثر جنودها يبتغون الرزق ويتوسمون وجوه المعرفة، ويهجمون على ظواهر الكون وخفاياه

تلك النهضة الروحية التي تهب ريحها بين الأمة، وتدفع أبناءها إلى الارتحال وطلب المغامرة والمجد والعلم، وابتغاء الجديد والطريف، تصحبها عادة نهضة أدبية تعبر عن هذا الروح الوثاب، وتنعكس فيها آثار تلك الرحلات وما تهز به الأذهان من روعة الكون وعظمته ورحب أقطاره، وما تحدث في العقائد الدينية والعلمية من ثورة، وما توسع به آفاق التفكير من حقائق جديدة، وما تدخل في الأدب من عناصر أجنبية تخالط عناصره المحلية، من قصص وأوصاف وألفاظ؛ فيفيد الأدب بذلك كله فائدة كبرى، وينبغ فيه من أعلام النظم والنثر أنداد من ينبغون من أفذاذ المغامرة والقتال والرحلة

عرف قدماء المصريين هذه النهضة المصحوبة بحب المغامرة والاستطلاع على عهد امبراطوريتهم في آسيا، فامتلأ أدبهم إذ ذاك بقصص الهجرة والمخاطرة والتجوال؛ وإلى أدب ذلك العهد ترجع القصة التي مازالت تتشكل على توالي الأجيال، حتى انتهت إلينا في شكل حكاية علي بابا واللصوص الأربعين. ومشت بين الاغريق روح المغامرة تلك إبان نهضتهم قبيل الحروب الفارسية وبعدها، فكان كثير من أفذاذهم وعلمائهم أمثال لكرغ وصولون وهيرودوت وطاليس وافلاطون رحالين جابوا مهود الحضارة الشرقية، وأخذوا عن المصريين والبابليين علومهم، وكتبوا مشاهداتهم في رحلاتهم، واصفين جغرافية تلك البلاد وتاريخها، وهبت ريح المغامرة شديدة على الممالك الأوربية في عهد إحياء العلوم، فدفعتهم إلى ارتياد العالم المعروف واكتشاف العالم المجهول، وبسط حضارتهم وثقافتهم في أطراف العالمين القديم والجديد. وكان من رادة هذه النهضة مركو بولو وداجاما وكولمبس

وقد كان أكثر العرب في جاهليتهم رحالين لا ينزلون أرضاً إلا ريثما يتحولون عنها، يطلبون الكلأ أو يبتغون القتال أو ينقلون التجارة؛ ومن ثم شغفوا حباً بأبلهم وجيادهم، وترنموا بوصفها، وكثرت في لغتهم أسماؤها وأسماء سيرها، وقدموا الحديث عنها بين يدي قصيدهم، وأدمنوا ذكر ارتحال أحبتهم، وتمدحوا بطول التنقل وإنضاء الرواحل وإباء المقام بأرض الذل. وكان بعض سادتهم يسفرون إلى ملوك الروم والفرس؛ وإلى تلك الرحلات المختلفة الأغراض يرجع الفضل في انتشار بعض أسباب الحضارة والرقي الفكري والكتابة الخطية بين العرب قبيل الاسلام. ولا ريب أن الرحلات التي قام بها الرسول الكريم كانت من أهم عوامل تكوينه الروحي والعقلي، حتى تهيأ له أن يضطلع برسالته العلوية؛ فالرحلة عادة من أهم العناصر المكونة لشخصية العظيم؛ كما أن الرحلات التي قام بها في الجاهلية أفذاذ القواد أمثال عمرو بن العاص إلى الممالك المجاورة كانت عظيمة النفع للجيوش العربية حين توجهت لغزو امبراطوريتي الفرس والروم. ومن تمدح العرب بالرحلة عن موطن الهوان قول الشنفرى:

ولولا اجتناب الذام لم يلف مشرب يعاش به إلا لدي ومأكل
ولكن نفساً حرة لا تقيم بي على الذل إلا ريثما أتحول

وقول الشاعر الاسلامي أوس بن معن:

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلى متعزل

ونهض العرب نهضتهم الحربية العظيمة فرأوا من أقطار الأرض وصنوف الخلق مالم يكن يخطر لهم ببال، وكان لذلك كل الأثر في أذهانهم وآدابهم، والتقت تحت رايتهم شتى الحضارات والأجناس؛ وشدت الرحال من أقصى أمبراطوريتهم إلى أقصاها: وهدأت ضجة الحرب فمشى التجار حيث مشى الجنود من قبل، وسار العلماء والأدباء في شرقي الأرض ومغربها يطلبون العلم والأدب، ويلتمسون الرزق والحظوة، وأظهر العرب من حب الرحلة لشتى الأغراض مالا تبذهم فيه أمة أخرى: هاجروا جماعات فأنشأوا الأساطيل يفتحون بها سواحل البحر وجزره، وأفراداً فبثوا الدعوات وأنشأوا الدول وسافروا تجاراً فنشروا الاسلام وحضارته في الأطراف والمجاهل التي

لم تبلغها سنابك خيول الفاتحين، وتجشم علماؤهم متاعب الأسفار طلباً لتحقيق العلم والمشاهدة والتثبت من صحة الأحاديث الشريفة. وحرص الكثيرون على حج بيت الله الحرام مهما بعد، وزيارة عاصمة الاسلام حيث كانت

وظهر من أعلام الرحالين الذين طافوا أنحاء الامبراطورية الاسلامية وجاوزوها إلى الأقطار الأجنبية شغفاً منهم بحب الاستطلاع والتجوال، أو ولوعاً بعلم تقويم البلدان وطلباً لغرائبه، أمثال المسعودي وابن جبير وابن بطوطة، طوف أولئك الرحالون تدفعهم الروح التي كانت تدفع هيرودوت وديودور قديماً، والتي حثت ماجلان وكوك وأضرابهما فيما بعد، وما تزال تدفع العلماء إلى قرع أبواب العلم المغلقة، وطرق سبله المجهولة، ودون أولئك الرحالون المسلمون مشاهداتهم، فنالت كتبهم الذكر والاهتمام، ودرست لا في البلاد العربية وحدها، بل في أوربا حيث ظلت زماناً من أكبر مراجع التاريخ والجغرافيا؛ ولم تكن رحلات كولمبس غرباً وداجاما شرقاً في الحق إلا إتماماً لما بدأه العرب وحذقوه من التجوال في البحار وارتياد الأقطار. وقد انتفع كلا ذينك الكاشفين وغيرهما بآثار العرب في الرحلة والجغرافية، واستفادوا بخبرة الملاحين المسلمين

كان لكل هاتيك الكتب والرحلات والأخبار آثارها في الأذهان والآداب؛ غير أنه لما كان الأدب العربي قد نفى من حظيرته القصة وازدرى الخرافة، وزهد في كثير من مناحي القول، فقد أهمل الكثير من ثمار تلك الأسفار وطرائف تلك الأخبار التي تحوي أنفس المواد لخيال الأديب وفنه، فلم تبد آثار الرحلات والمخاطرات في الأدب العربي الفصيح إلا ضئيلة متفرقة: ففي المقامات شيء منها، إذ تدور المقامة حول أفاق يذرع الأرض ويهبط كل يوم بين قوم؛ وإنما استأثر بالتحدث عن الرحلة والمخاطرة والبلاد البعيدة الأدب العامي: تجمعت أقاصيص الأمم القديمة، وأضيفت إليها أخبار الرحلات الجديدة، وذاع كل ذلك في العامة، ودون بعضه في قصص ألف ليلة وأشباهها، وظل بعضه غير مدون يتداول شفاهاً

ولم يكن الأدباء أنفسهم أقل من العلماء والتجار حباً للتجوال وجوباً للأقطار، بل كانت الرحلة عندهم جزءاً من منهاج الدرس والتأدب لا غنى عنه. فكانوا يشدون الرحال إلى العواصم، ويشخصون إلى العلماء والأدباء المتقدمين ويقصدون دور الكتب التي أولع بانشائها الأمراء، فاذا ما قضوا من ذلك وطراً التفتوا إلى طلب الحظوة والنوال، فقصدوا المطايا إلى أبواب الملوك والخلفاء. فاذا تمت لهم الحظوة رأضواهم الملك تحت ظله صحبوه في قليل أو كثير من رحلاته وغزواته، كما صحب عباس بن الأحنف الرشيد، وابن هانئ

الأندلسي المعز. لحظ أدباء العربية عامة من الرحلة لم يكن بالضئيل حتى أبو العلاء الكفيف لم يقعده عماه عن ركوب مشاق الأسفار والشخوص إلى العواصم

وقد ضرب كبير شعراء العربية المتنبي في الرحلة بسهم وافر: قضى شطراً من شبابه في البادية، وجاب أطراف العالم العربي، وقصد الأمراء ما بين فارس ومصر، وصحب سيف الدولة في حروبه، ومات وهو على سفر، وامتلأ شعره بذكر الرحلة والشغف بها والتمدح بتعوده إياها، ووصف الخيل والابل وذكر الليل والفلاة وتفضيل النياق على الغواني. وقد كان يحب الرحلة حباً أصيلاً لا تكلف فيه ولا ادعاء للبأس والفروسية: كان دوام التأهب والنقلة يشفي من نفسه الطامحة إلى جلائل الأعمال صداها، ويستوعب نشاط جسمه المتحفز للنضال وحمل الأعباء. لم تتهيأ له الفرصة لمجالدة الأبطال وتضريب أعناق الملوك فاعتاض عن ذلك بمجالدة قوارع الطبيعة ومجابهة شدائدها. ومن رصين أشعاره في ذلك قوله:

ذراني والفلاة بلا دليل ووجهي والهجير بلا لثام

فاني أستريح بذا وهـذا وأضوى بالاناخة والمقام

وقوله:

غني عن الأوطان لا يستفزني إلى بلد سـافرت عنه إياب

فحب الرحلة كان أمراً شائعاً في الدولة العربية، يدعو إليه توطيد الملك وبسط السلطان وابتغاء الرزق، ونقل التجارة ونشدان العلم والأدب وتأدية مشاعر الدين. وقد أدلى الأدباء في ذلك بدلوهم، وقل منهم من لم يرحل عن وطنه ولم يتغرب في بعض الأغراض؛ وأثر ذلك ملحوظ في الأدب، غير أنه ضئيل محصور في مواطن قليلة: كوصف الرحلة إلى بلد الأمير الممدوح يقدم في صدر المدحة، وكالحث على الارتحال في طلب العلم والرزق والمنفعة وصحبة الماجدين في أشعار مشهورة سار كثير منها أمثالاً: يشبه فيها المرء في وطنه بالأسد في غابه لا يصيد، والماء في مستقره يأسن، والعود في أرضه لا ينفق ولا يزكو، والشمس في دارة الحمل لا يغني عنها شرف المحل؛ ومن جيد ما قيل في ذلك قول أبي تمام:

ولكنني لم أحو وفرا مجمعا ففزت به إلا بوفر مبـدد

ولم تعطني الأيام نوما مسكنا ألذ به إلا بنـوم مشرد

وطول مقام المرء في الحي مخلق لديباجتيه فاغترب تتجدد

فاني رأيت الشمس زيدت محبة إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

وكثير مما قيل في الرحلة في هذا الباب متشابه لا يمتاز بعضه من بعض إلا في قوة الأسلوب أو ضعفه، وكثرة ما به من محسنات أو قلته، وكثير منها يتفق في تداول نفس المعاني والاستعارات، جرياً على

عادة المحافظة على تقاليد المتقدمين الأدبية ، التى اتبعها الأدباء فى كثير من فنون القول . أما الوصف المسهب لروائع المشاهدات التى تمتع بها الأديب فى سفراته ، وأثرها فى ذهنه وقلبه ، وتحويلها لنظرته إلى الحياة والكون، وما أثارته فيه من تأمل طويل ، وما نازعه من حنين عميق إلى أوطانه ، وما استرعى نظره من محاسن الطبيعة ، وراع نفسه من آثار الأقدمين وبدائع فنون الانسان ؛ أما الوصف المسهب المفصل لكل ذلك ، وتصوير أثر الرحلة فى تكوين شخصية الأديب - فهى من أهم عناصر ذلك التكوين - فقلما يبدو فى الأدب العربى ، فهذا باب آخر من أبواب الأدب الصميمة تغاضى عنه الأدب العربى ، وتركه بين أيدى كتاب التاريخ وتقويم البلدان ، وتخلى عنه للأدب العامى

فالرحلة عن الموطن فى نظر الأديب المثقف ليست فقط وسيلة لابتغاء الرزق أو اصطحاب الماجد أو قصد الملوك ، ولا هى وسيلة لطلب العلم والأدب المدون والمحفوظ فحسب ، بل هى قبل هذا وذاك وسيلة للشاهدة واكتشاف الجديد والاطلاع على المجهول والوصول إلى البعيد . فطول مقام المرء فى الحى لايبغضه إلى معارفه ولا يحرمه من الوفر المجمع فقط ، بل هو يضيق أفق ذهنه ويخمد قوى نفسه ويكفكف وثبات مطامحه ؛ والرحلة تثير عزيمته وتزيد نشاطه وقدرته على التفكير والانتاج ، وتطلعه على أحوال الأمم الأخرى التى تزيده بصراً بأحوال أمته ومجتمعه ونفسه ، وتشهده بدائع الطبيعة التى تتجدد حلاها فى كل خطوة ، وتتبدل محاسنها من بقعة إلى بقعة ، وتبدى من أسرار جمالها صورة فى إثر صورة ، وفى ذلك من متعة النفس وغذاء الخيال والفن مافيه ، كما أن الوحدة التى هى نصيب الغريب فى كثير من أوقاته تعوده الوقوف عن العالم المضطرب بنجوة ، وإدمان الفكرة فيما يشاهد من أمور بنيه ، وبالكثير من هذا يعج الأدب الانجليزى

كان الانجليز كما كان العرب فى أول أمرهم رحالة دائبى التجوال والهجرة والمقاتلة ، بيد أنهم كانوا منصرفين إلى البحر مزاولين للملاحة ، فلما استوطنوا الجزيرة جنحوا إلى حياة الاستقرار رويداً رويداً ، وإن لم ينفكوا عن حبهم للبحر وركوب أثباجه ، وساهموا فى النهضة الأوربية فأولعوا بالرحلة والمغامرة والكشف فى عهد اليزابث وما يليه ، ونبغ من رحاليهم ومغامريهم أمثال رالى ودريك من رفعوا مكانة انجلترا فى البحر وما وراءه ، وتلاحم التجار ورجال الأعمال والمهاجرون أتباع المذاهب الدينية المضطهدة ، وانتشر الشعب الانجليزى شرقاً وغرباً ، وانتشر العلماء والأدباء فى أثر ذلك يكبرون معارفهم ويستقصون مباحثهم ، وصار من تقاليد خريجى الجامعات أن يطوفوا فى بعض أنحاء القارة الأوربية عقب إتمام دراستهم ، ليعرفوا أحوال الأمم ويزوروا خاصة إيطاليا واليونان مهدى الحضارة القديمة ، وفرنسا التى ظلت زعيمة الثقافة والمدنية فى أوربا مدى حين

وكان لأكثر أدباء الانجليزية ولع بالرحلة لا ينقضى ، وشغف بالبعيد لا يهدأ ، وغرام بالاستطلاع لا يحد ، واشتغال بمظاهر الطبيعة المتجددة ومحاسنها المتعددة ، وتطلع إلى أحوال الأمم قاصيها ودانيها حاضرها وماضيها ، ومن ثم أولعوا بالرحلة يقضون بها مآرب أرواحهم : فطوفوا فى أنحاء جزيرتهم ولا سيما منطقة البحيرات ومرتفعات اسكتلندا وجزرها ، وشخصوا إلى أصقاع أوربا المشهورة كباريس وإسبانيا وروما والبندقية وأثينا ، وجول بعضهم مثل كنجليك ولين بول فى الشرق ، وأودعوا أوصاف رحلاتهم تلك مذكراتهم أو رسائلهم إلى أصدقائهم فى الوطن أو قصصهم أو قصيدهم

ومن أدبائهم الذين طوفوا كثيراً ديفو الأفاق صاحب روبنسون كروزو . وجولد سمث الذى ضرب فى أنحاء أوربا على قدميه وهو لا يملك شروى نقير ، وكان يتكسب بالعزف على مزمار ، وسبنسر الذى قضى ردحا طويلا فى أرلندة ، وبيرون الذى جول مراراً فى أواسط أوربا وسواحل البحر الأبيض ، وانتهى به المطاف إلى اليونان حيث استشهد فى حرب الاستقلال ، وشلى الذى قصد إلى إرلندة ليقودها إلى الحرية ويحقق فيها مجتمعه الفاضل ، ثم آب إلى انجلترا وما زال فى تردد بينها وبين أوربا إلى أواخر أيامه ، تركت هذه الرحلات آثارها واضحة فى الأدب ، فن سفراته اتخذ بيرون مادة لقصيده ولا سيما قصيدتيه الطويلتين : « تشايلد هارولد » و « دون جوان » ، وفيهما يصف مشاهداته براً وبحراً وأثرها فى ذهنه . وكتب شلى وكيتس وبروننج وهاردى الكثير عن آثار روما وفنون إيطاليا عامة . وكان تنيسون فى رحلاته يدون ملاحظاته لدقائق المناظر الطبيعية كى يعود إليها وقت النظم . وهيهات أن تتبع آثار الرحلة ومظاهر الشغف بها فى الأدب الانجليزى ، فهى مبثوثة فى كل موضع منه

لم يقنع أدباء الانجليزية بتدوين أوصاف رحلاتهم فى آدابهم تدويناً مسهبا نابضا بالحياة ، بل عدوا - ولا سيما من قعد بهم الجد عن القيام بالرحلات الطوال التى يحلمون بها - إلى تخيل الأقطار البعيدة والمشاهد الغريبة والأمم العجيبة والحوادث الجسيمة وأودعوا كل ذلك قصصهم وأشعارهم ليشفوا غليل نفوسهم الظامئة إلى الجدة والحركة والجمال الطبيعى ، فتخيل شكسبير وقائع رواياته فى شتى بقاع الأرض والبحر ، وتخيل كولردج مشاهد « الملاح القديم » فى جهة من المحيط نائية مملوءة بالأسرار والألغاز ، وتصور ستيفنسون فى

قصصه الحوادث الجسيمة فى أقاصى الجزر والبحور ، وهى الحوادث والمناظر التى كان يقعده الداء الممض عن مباشرتها بنفسه

ولجأ الأدباء إلى تاريخ ملاحيهم وجوابيهم يقصونه ، وإلى الخرافة القديمة يستعينون بها على تصوير نزوعهم إلى الرحلة والمشاهدة فى شتى الصور ، كما استعانوا بتلك الخرافة فى الكثير من فنون الأدب. ومن أبدع آثار ذلك قصيدة تنيسون المسماة يوليسيز باسم البطل اليونانى الذى تقص الأوديسا أخبار مغامراته ، وقد أصبحت قصيدة تنيسون تلك عنوانا فى الانجليزية على حب الرحلة . تبدأ القصيدة ويوليسيز ملك فى جزيرة إيثاكا ، يتململ من الاقامة ، ويتذكر سالف مخاطراته ومشاهداته ووقائعه حول طروادة ، ويحن إلى معاودة حياة التجوال فى البر والبحر واكتساب المعارف بلا انقطاع ، فيعول على ترك ابنه تليماك ملكا مكانه ، ويهيب بصحبه الأقدمين الذين شيتهم الأهوال فى صحبته ، أن يأخذوا مقاعدهم من السفينة ، ويهووا بمجاديفها على الأمواج المصطفقة ، فتنطلق بهم إلى حيث لا يعلمون ، إما إلى الردى وإما إلى جزائر الفردوس حيث يلقون البطل أخيل . يصف تنيسون كل ذلك فى أسلوبه الشعرى الممتاز ، وفى خيال معجب أخاذ ، ويرصعه بوصف مطرب لمناظر الطبيعة جملا وفرادى ، من سهول طروادة إلى أثباج اليم وهبوط حواشى الليل عليها ، إلى تلألؤ النجوم على صخور الشواطىء البعيدة ، وصعود القمر منها وئيداً .

ومن أجمل أشعار الحنين إلى الوطن ومناجاته قول جولد سميث فى « القرية المهجورة » : « قد كنت آمل دائماً - فى جميع جولاتى فى هذا العالم الرحب المملوء بالمتاعب وفى جميع أشجانى ، وقد حبانى الله نصيبى منها - أن أتوج ساعاتى الأخيرة بالقرار بين هذه المغانى البسيطة المتواضعة ؛ وكنت آمل - إذا ما تقشعت همومى - أن أعود إلى الوطن ، وفى الوطن أقضى نحبى، كما يعود الأرنب البرى الذى تجد الكلاب والأبواق فى أثره ، إلى الجحر الذى انطلق منه أول مرة »

ومن أعذب الأشعار المترجمة عن حب الرحلة فى الأدب الحديث مقطوعة الشاعر المعاصر جرالد جولد : « الشمس طالعة فى المشرق وفى المغرب البحر ، وسيان إن كنت فى الشرق أو فى الغرب فهذا الظمأ إلى الرحلة لن يدعنى أقر ، بل يعصف بى كالجنون ، ويحملنى على توديع موطنى ، فالبحار تدعونى ، والنجوم تدعونى ، ويا شد ما تدعونى السماء ! ولست أدرى أين ينتهى الطريق الأبيض ، أو أعلم ما تلك الجبال الزرقاء ، ولكن كفى للمرء بالشمس زميلا ، وبالنجم دليلا ، ثم لا آخر للمطاف إذا ما هتف الصوت ، إذ الأنهار تدعونى ، والطريق يدعونى ، ويا شد ما يدعونى الطائر ! ذلك هو الأفق ممتدا ، وهناك ليل نهار تعود السفن القديمة إلى أوطانها ، وتنطلق السفن الصغار ، وربما أعود أنا ، ولكن لابد أن أذهب . فإن سألك سائل ما السبب ، فألق اللوم على النجوم ، والشمس ، والطريق الأبيض والسماء ! »

فحب الرحلة كان أمرا شائعا فى الأمتين ، وقد نال أدباؤهما منها بنصيب ، وظهر أثرها فى أدبيهما ؛ بيد أنها فى الأدب الانجليزى أظهر أثراً ، وأدباء الانجليز بها أشد شغفا وأكثر تغنيا ، ونظرتهم إليها أوسع أفقا من نظرة أدباء العربية : فهؤلاء كانوا ينظرون إليها نظرتهم «الاجتماعية» إلى شتى الأمور ، يرونها وسيلة من وسائل فهم المجتمع الذى يعيشون فيه ويطلبون الرزق فى مضطربه ، وذريعة من ذرائع استيعاب معارفه والتذرع بأسبابه ، على حين كانت نظرة أدباء الانجليزية إليها كنظرة الإغريق إنسانية شاملة ، وفنية حرة خالصة من كل غرض خارجى : كانوا يريدون بها المعرفة المطلقة بشؤون الكون والإنسان ، وإن لم تجدهم تلك المعرفة فى معركة الحياة فتيلا ، ويريدون رى غريزة الاستطلاع الكامنة فى الانسان والتى تظل متيقظة ما دامت النفس مقبلة على الحيـاة ، ويبغون إرضاء نشاط جسومهم وأرواحهم والتثبت من بقاء نشاطها وحيويتها ، ويسعون لاستجلاء محاسن الطبيعة التى لا تفنى مجاليها ولا تحد آفاقها

فخرى أبو السعود

من الأدب التركي

ابنـــاء المجرم

القاضي الشاعر :

فؤاد بك خلوصي أحد رؤساء محكمة النقض والابرام فى الجمهورية التركية الآن وهو مولود فى طرابلس الشام ، رجل فذ من رجال القانون وشاعر من أرق الشعراء عاطفة وأروعهم بيانا . ولهذا القاضي الشاعر ديوان باللغة التركية وقفت فيه عند قصيدة ممتعة من خالد الشعر يصف فيها تنفيذ حكم الاعدام على مجرم يترك فى الحياة أرملة وأطفالا ، وقد كان الشاعر أحد قضاة المحكمة العسكرية التى حكمت باعدام المجرم فى ثورة البلقان ، فاخترت تعريب هذه الأبيات لما فيها من حكمة وعواطف ، ولعرضها مشكلة كبرى من مشاكل العدل الانسانى تجاه سر الحياة ف . ف

وكانت من شهر ديسمبر أواخر أيامه القارصة ، وكان آخر الليل ؛ سواد يربط على صقيع وديجور أربد ملفع بالجمود

فى كل خطوة أوحال متحجرة بالجليد وزمهرير يسفع الوجوه فيلفحها كالسعير .

تجهم وجه السماء كجمرة تنطفىء ، وشرارها بقية كواكب الليل ، حكمها الملال فاطبقت على أنوارها وتراجعت إلى الافول

وساد الآفاق ارتعاش صامت ، ونعق البوم مقلقاً سكون الظلمة العميق

أمامك ووراءك حلك الظلام ، وفوق رأسك سماء متألمة واجمة ، فالى أين مسيرك يا فؤاد ، مضطربا معقود اللسان ؟ إلى أين تتجه فى آخر هذا الليل ، أيها الرجل ؟

هو قاتل أنزل القضاء عليه الحكم بالرفع إلى المشنقة ، وأمام قصر الجند المجلل بالرهبة بين المعاقل الحصينة ركزت يد الانتقام بل يد العدل آلة الاعدام ، وهنالك سينزل القصاص بمن أردى أحد الجنود شهيدا

هبوا من رقادكم أيها الشجعان وأسرعوا إلى المشهد ، ذلك حكم الأمة عادلا وهى تنتظر تنفيذه فى المجرم المهين ! أيتها الرقة الحديدية سارعى لأطلاق رصاصك على الجانى . ولكن لا ، انما رصاص بنادقك شريف يضيع فى هذا الخائن . اتركوا للحبل فريسته ، إن للموت المعلق قلادة القنب وقساوة الجلاد

أيها القضاة المقسمون بوجدانكم ! أفما أنتم الحاكمون بالاعدام إجابة لاختيار مجرد فيكم ، فعلى مَ ارتعاشكم ، وماهذا السهم النافذ الآن إلا سهمكم الذى شددتم له القوس وسددتم له المرمى . . ؟

لن أنسى ما حييت ما أرى

بين لجج الظلمات المطبقة على كل منظور ، كان نور مشعل واحد تجهمت أشعته على صفحة الأوحال لتزيد فى روعة المشهد ، وكان هنالك جذعان من الأشجار مرتكزان على الأرض وفوقهما عارضة أفقية تدلى منها حبل تجسم الموت فيه وارتجف الروع برجفانه

أفما تعجب لهذا الانقلاب فيك ؟ علام حزنك واضطرابك وأنت الشاجب والقاصى ؟ لقد عددت هذا الجانى عدواً للإنسانية ورآه وجدانك مستحقاً للإعدام ، وما يجديك افتكارك الآن شيئاً . اثبت أو تردد ، اضطرب أو تجلد ، لك ما تشاء ، فمشيئتك عبث وقولك لن يسمع ، ارجع إلى الوراء وقف إلى جانب ، اهرب وتوار عن الأنظار ، إن يد الجلاد هى التى تقبض الآن على زمام الأقدار

— ما اسمك وما اسم أبيك ؟

— فلان وأبى فلان على قيد الحياة

سئل هل له أولاد ، فترجم المترجم : إن له طفلين

وشعرت إذ ذاك أن اللجة قد فغرت فاها تحت رجلى

ارتفع الأنين من صدرى فاختنق ، وربط الروع بشهقة الألم على أنفاسى ، وانتصبت أمامى الضحية المقربة لليتم طفلين متشحين السواد ، وصرخ مزفوف المشنقة : عفوك أيها الإله ! وخمدت أنفاسه

وغشت عينى ظلمة خفقت من ورائها الأشياء . نفدت قولى وامتنع الاستجلاء علىّ ، فتلاشى أمام ناظرى القاتل والمقتول وانتصب مكانهما خيال عيال باكية مصدوعة القلوب دامية الصدور

ذلك أب يبكى أرملة ويتيمين يجولون تائهين بالفقر والمسكنة فى فيافى المستقبل الأدكن . ويلاه ما جنت هذه العيال لتقتسم الجزاء مع الجانى ؟ معضلة ، من يسبر غورها ؟ ومسئلة ، من يحل عقدتها ؟

لو أن هذا المشهد أحلام لبدده انفلاق الصباح والعتق القلب من روعه وآلامه ، ولكن هى الحقيقة الماثلة ، ليتها كانت طيفا أو خيالا ...

فؤاد خلوصي

تعليق على مقال

أثر المـــرأة

فى حياة الشيخ محمـــد عبده

للأستاذ عثمان أمين

كتب أستاذنا الكبير الشيخ مصطفى عبد الرازق بك فى مجلة « الشباب »[1] مقالا عنوانه « أثر المرأة فى حياة الشيخ محمد عبده » . ونحن مع إعجابنا بما حوى هذا المقال من طرافة ودقة بحث ، هما شأن أستاذنا فيما يسطر قلمه البارع ، نرجو أن يسمح لنا فى التعليق عليه ببعض ملاحظات

ذكر أستاذنا كيف كان قصر الأميرة نازلى فاضل[2] مجتمعاً للعظماء وقادة الرأى فى مصر فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وأشار كذلك إشارات لطيفة إلى ما اتصفت به الأميرة من صفات شخصية عالية جعلتها تميز قيم الرجال وتخص الشيخ محمد عبده بمكانة تجمع بين الحب والاجلال

ونحن من جانبنا نوافق أستاذنا مصطفى بك فيما ذهب إليه من أمر تلك المودة الصادقة التى قامت بين الشيخ محمد عبده وبين الأميرة نازلى والتى كان لها - من غير شك - أثر عميق فى حياة الشيخ وفى نفسه الكبيرة الحساسة .

ولقد وقع لنا - أثناء بحثنا عن آثار الأستاذ الامام - خطاب يشهد بوجود تلك الصداقة التى ذهب اليها حضرة صاحب المقال ؛ والخطاب بالفرنسية كتبته الأميرة بخطها إلى الشيخ محمد عبده تدعوه فيه إلى القدوم لرؤيتها . وهذا نصه :

Samedi

Cher Ami

Je vous prie de venir me voir ce soir après 7 h.

Je regrette d'avoir manqué votre visite hier.

Votre amie sincère.

Nazli

وإليك ترجمة الخطاب[3] :

السبت

صديقى العزيز :

أرجوك أن تحضر لرؤيتى هذا المساء بعد الساعة السابعة

أنا آسفة إذ فاتتنى رؤيتك أمس

صديقتك المخلصة :

نازلى

فأمر الصداقة إذن حق . واختلاف الشيخ محمد عبده إلى قصر الأميرة أمر مقرر . ولعلنا الآن لا نبالغ اذا قلنا إن عناية الشيخ محمد عبده باتقان اللغة الفرنسية ربما كان نفحة من نفحات الأميرة التى كانت تتكلم بالفرنسية كاحدى بنات « السين » ذوات الثقافة العالية والأدب الرفيع . ونظرة إلى مجموعة الكتب الفرنسية التى وجدت بمكتبة الأستاذ الامام ، والتى تعالج منها شؤون الأدب الفرنسى بنوع خاص ، تؤيد ما ذهبنا اليه من أثر الأميرة فى ميول الاستاذ الامام واطلاعاته .

* * *

أراد أستاذنا الفاضل مصطفى بك أن يبين أثر الأميرة في حياة الشيخ محمد عبده من ناحية أخرى ، فذكر فى آخر مقاله أن الشيخ كان يجهر أول أمره بعداوته لانجلترا ويكتب فى ذلك فصولا ضافية ، ثم قال : « أما بعد اتصاله بالأميرة نازلى التى كان هواها مع انجلترا ، وكانت صديقة للورد كرومر ، فقد تلاشت عداوة انجلترا من صدر استاذنا (محمد عبده) وأصبح يجهر فى كتاباته ودروسه أن بريطانيا العظمى أحسن الدول استعماراً » .

فهل يسمح لنا فضيلة الأستاذ أن نبدى فى هذه النقطة رأياً آخر ؟

اذا كان الامام محمد عبده ، أول أمره ، قد حمل على الانجليز حملات شديدة ، فقد كان ذلك فى جريدة « العروة الوثقى » أيام اتصاله بأستاذه السيد جمال الدين الأفغانى . فكان يكتب وهو فى باريس ، مدفوعا بحماسة الشباب ، ومرارة المنفى بعيداً عن وطنه ، ومتأثراً بآراء استاذه الأفغانى ، وقد كانت على ما يعلم الجميع — ترمى الى الثورة سواء بتأليف الجمعيات السرية ، أو الاذاعة بالقلم واللسان . أو استعمال العنف والقتل ، وبالجملة القيام فى وجه الظالمين المستبدين سواء أكانوا شرقيين أم غربيين[1] .

(١) العدد الأول الصادر بتاريخ ١٧ فبراير سنة ١٩٣٦

(٢) ابنة الأمير مصطفى فاضل صاحب الخطاب المشهور المرفوع إلى السلطان عبد العزيز سنة ١٨٦٦ والتى ترجمه فتحى باشا زغلول بعنوان : « من أمير إلى سلطان »

(٣) الخطاب محلى بالسواد كتبت الأميرة على غلافه بالعربية : « عزتلو شيخ محمد عبده حضرتلرى » ، ولم ترسله إلى الامام عن طريق البريد ، بل حمله إليه رسول من

(١) انظر : Blunt, (Secret History, P. 489

وكان محمد عبده ، أول الأمر يعتنق أكثر آراء استاذه الافغانى ، لكنه بعد عودته من باريس وحبوط الدعوة وانفصاله عن استاذه ، عدل آراءه الأولى ، ومال إلى الأخذ بالاعتدال والتدريج متوخياً الاصلاح ، لامن طريق السياسة والثورة ، بل من طريق التعليم والتربية الاجتماعية والدينية ، وكان الأستاذ المصلح يتحدث عن هذا فيقول :

« علينا أن نهتم الآن بالتربية والتعليم بعض سنين . وأن نحمل الحكومة على العدل بما نستطيع ، وأن نبدأ بترغيبها فى استشارة الأهالى فى بعض مجالس خاصة بالمديريات والمحافظات ، ويكون ذلك كله تمهيداً لما يراد من تقييد الحكومة . وليس من اللائق أن نفاجىء البلاد بأمر قبل أن تستعد له فيكون من قبيل تسليم المال للناشىء قبل بلوغ سن الرشد : يفسد المال ويفضى إلى التهلكة » [1] .

أما عن الاصلاح الدينى فهو يقول فى رده على هانوتو : « إن الغرض الذى يرمى إليه جميعهم (أعنى المصلحين من المسلمين) إنما هو تصحيح الاعتقاد وإزالة ما طرأ عليه من الخطأ فى فهم نصوص الدين ، حتى إذا سلمت العقائد من البدع تبعها سلامة الأعمال من الخلل والاضطراب ، وتهذبت الأخلاق بالملكات السليمة . ولم يخطر ببال أحد ممن يدعو إلى الرجعة إلى الدين سواء فى مصر أو غيرها ، أن يثير فتنة على الأوربيين أو غيرهم من الأمم المجاورة للمسلمين . » [2] فلما أراد محمد عبده تطبيق وجوه الاصلاح على الأزهر بإدخال العلوم الحديثة فى برامجه - وكانت أولى محاولاته الاصلاحية فى عهد الخديو توفيق - قام فى وجهه شيوخ جامدون على ما ألفوا من تقليد ، ولم يفطنوا إلى مدى إصلاحه ، وبعد ذلك نظر الشيخ عبده إلى السلطات العليا يلتمس عندها التأييد ، فوجد من الخديو عباس الثانى مشايعة له ومناصرة لخصومه ، ولقى الامام فى ذلك من الأذى كثيراً . ولسنا اليوم بحاجة إلى بيان ما كان فى خصومة الخديو للأستاذ الامام من شدة ، فذلك أمر مشهور . وحسبنا أن نشير إلى تلك الوثيقة التاريخية الخطيرة التى نشرها أخيراً احمد شفيق باشا [1] والتى أرسلها الخديو إلى شفيق باشا - وكان إذ ذاك رئيساً للديوان العالى - يؤنبه فيها على السير فى جنازة الشيخ محمد عبده إزاء الدسائس المتوالية والحملات المنكرة التى كانت توجه من كل صوب إلى رجل الاصلاح ، لم يكن للأستاذ الامام بد أن يدير وجهه إلى السلطات الانجليزية [2] فعرف « لورد كرومر » وأقنعه بوجهته فى الاصلاح ، ووجد محمد عبده المفتى من العون عند كرومر ما أخطأه عند عباس الثانى وعند شيوخ الأزهر . ومن اطلع على التقارير السنوية التى كان يقدمها لورد كرومر إلى حكومته وجد فيها ذكرا طيباً للشيخ محمد عبده وتقديراً لأعماله . وعميد الانجليز فى مصر يذكر لنا نفسه أن مناصرته محمداً عبده لم تكن بالأمر اليسير نظرا لما كان يلقاه الامام المصلح من خصومة المحافظين له وكراهة الخديو إياه ، بل لولا كرومر مابقى محمد عبده فى منصب الافتاء طويلا [3]

° ° °

نرى مما تقدم أن الشيخ عبده لم يصادق الانجليز عفوا ولا إرضاء لهواه ، بل ألجأته إليه الظروف : كان يريد الاصلاح حقا ، ولم يكن بمقدوره أن يمضى فى إصلاحه وأهل الجمود والتقليد يقيمون فى وجهه العراقيل ، ويحيكون من حوله ضروب الدسائس ، فكان طبيعيا إذن أن يلتمس موافقة الانجليز . وكان لهم حينذاك النفوذ الفعلى فى البلاد

على أن رضاه عن سياسة بريطانيا فى مصر لم يكن ينسيه واجبه كوطنى ، بل كان أول من حاول بث الفكرة الوطنية فى نفوس المصريين ، ولم تكن تفوته فرصة دون أن يطالب فيها بقيام دستور للحكم العادل فى البلاد ، ووضع حد للتدخل الذى كان

---

(١) السيد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الامام ج ١ ص ٢١٧

(٢) راجع : السيد رشيد رضا : تاريخ الاستاذ الامام ج ٢ ص ٤٠١ ومابعدها

(١) انظر : احمد شفيق باشا : مذكراتي في نصف قرن . الجزء الثاني . سنة ١٩٣٦ ص ٧١ إلى ٧٤

(٢) يعلم الناس ان المحافظين الجامدين قد بلغ من شدة معارضتهم للاصلاح الدينى ان ألفوا حزبا (على رأسه الشيخ محمد الرفاعى والشيخ المصورى) لمناوأة الشيخ محمد عبده . وحدث فى ذلك الحين أن صدرت من الاستاذ الامام فتوى تجيز للمسلم طعام اهل الكتاب والتزى بزى الغربيين إذا اقتضته ظروف الحياة ان يعيش بين الاوربيين . وما كادت تذاع هذه الفتوى حتى قام لها حزب المعارضين ونادى بالويل والثبور ، واخذ يشيع فى الناس ان مفتى الاسلام إنما يعمل على التأليف بين المسلمين والمسيحيين . وانشأ الحزب جريدة يومية للطعن على فتوى الامام ، وقيل فى ذلك الحين ان مدير تلك الجريدة كان مؤيدا من الجهات الرسمية مقربا من الخديو . . . إلى آخر ما هنالك حتى شاع انهم ارادوا عزل المفتى لولا ان تدخل « كرومر » آخر الامر وصرح « ان المفتى هو المفتى وانه سيظل مفتيا » . وقد سجلت جريدة « المقطم » هذه الاشاعات فى ذلك الحين

(٣) انظر : Cromer, (Modern Egypt), vol .II, P. 180.

يدعيه لأنفسهم الموظفون الانجليز كالمستشارين وغيرهم ، بحيث لا يكون الموظفون المصريون مجرد ألعوبة فى أيديهم ، كما كان الحال فى ذلك الزمان [١]

ونحب فى ختام هذا التعليق أن ننبه إلى أننا ما قصدنا إلا أن نذلى بتعليل جديد للموقف الذى اتخذه المصلح الكبير إزاء الانجليز ؛ وما أردنا مما ذكرنا من وقائع أن نتعرض بالنقد لرأى أستاذنا الجليل مصطفى عبد الرازق بك . فنحن أول من يعترف بفضله ، ونجل فيه شدة وفائه لأستاذه الامام محمد عبده وعمله الدائم على إحياء ذكراه

ويخيل إلينا أن الأستاذ الامام قد توسم علائم هذا الاخلاص فى تلميذه الشيخ مصطفى فكتب إليه سنة ١٩٠٤ يقول : « ولقد عرفت منى على حداثة سنك ما لم يعرفه الكبار من قومك . فلله أنت ولله أبوك »

عثمان محمد خليل

مبعوث الجامعة المصرية بباريس

(١) انظر خطابى الأستاذ الامام إلى المستر « ولفرد بلنت » سنة ١٩٠٤ بشأن الحالة السياسية فى مصر وما يقترحه من حلول (وثيقتان نشرتهما مجلة « الشباب » بالعدد ٢٨ من الاستاذ حسن الشعرانى بأدنبره)

١٤ - تاريخ العرب الأدبى

للأستاذ رينولد نيكلسون

الفصل الثالث

الجاهلية : شعرها وعاداتها ودياناتها

ترجمة محمد حسن حبشى

يقول ابن رشيق القيروانى : « وكانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن فى الأعراس ، وتتباشر الرجال والولدان لأنه حماية لأعراضهم ، وذب عن أحسابهم ، وتخليد لمآثرهم ، وإشادة لذكرهم ، وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبغ أو فرس تنتج [١] » .

وفى خلال هذا الزمن لم يكن هناك سوى أدب منطوق حفظته الرواية الشفهية ، ولم يشرع فى كتابته إلا بعد ذلك بزمن طويل . أما عصر الجاهلية فيشمل قرنا ونيفا من السنوات ، أعنى منذ سنة ٥٠٠ بعد الميلاد حينما نظمت أول قصيدة وصلت إلينا حتى عام هجرة النبى محمد (عليه الصلاة والسلام) إلى المدينة سنة ٦٢٢ م تلك السنة التى تعد نقطة انتقال ومستهل عهد جديد فى التاريخ العربى . وكان أثر هذه المائة والعشرين سنة كبيراً وخالداً ، فقد شهدت نشأة تدهور نوع من الشعر اعتبره أغلب المسلمين الناطقين بالضاد مثالا للابداع لا يتأتى الوصول إليه ، فهو شعر قد سار مع حياة القوم جنبا إلى جنب ، ووحد بينهم قبل ظهور محمد (صلى الله عليه وسلم) بزمن طويل من الناحيتين الخلقية والروحية ، وقبل أن يؤلف الرسول بين أهوائهم المتشعبة وقبل أن يجعلهم أمة تسعى من أجل غاية مشتركة ، وترمى إلى مقصد واحد . فى هذه الأيام لم يكن الشعر من الكماليات للأقليات المثقفة بل كان الوسيط المفرد فى التعبير الأدبى [٢] ، وكان لكل قبيلة شعراؤها يعبرون بحرية عما يختلج فى النفوس ويصورون أفكارهم ، وكان كلامهم الشفهى هذا ينطلق فى رحاب الصحراء أسرع من انطلاق السهم ، ويجد آذانا صاغية وقلوبا واعية عند جميع من يستمعون إليه . وفى وسط هـذا الصراع الخارجى والتفكك كان هناك مبدأ يربطهم جميعا : ذلك أن الشعر أحيا وعمم المثل الأعلى الأوهو : « المروءة » ولو أنها كانت تقوم على عصبية الدم القبلية ، ونرى أن روابط الدم مقدسة ؛ بيد أنها غدت روابطا غير واضح تماما بين القبائل المختلفة . وأوجدت عرضا أو اتفاقا أساس اتحاد قومى فى الشعور

* * *

ولقد حاولت فى الصفحات التالية أن أتعقب أصول الشعر

(١) ابن رشيق فى المزهر للسيوطى (طبعة بولاق ١٢٨٢ هـ) ج ٢ ص ٢٣٦ س ٢٢ وما يتبعه ، وقد ترجم هذه الفقرة سير شارلز ليل فى مقدمته (ص ١٧) لكتابه Ancient Arabian Poetry ذلك الكتاب الرائع الذى ينبغى ان يكون فى يدى كل آخذ بدراسة هذا الموضوع الدقيق .

(٢) ذكر الاستاذ الجليل احمد امين فى كتابه ضحى الاسلام (ص ٥) وشهر العرب بالقدرة على الشعر حتى قال احمد بن ابى دؤاد : ليس احد من العرب إلا وهو يقدر على قول الشعر ، طبعا ركب فيهم ، قل او اكثر . المترجم

العربي ، وأصف طبيعته وعناصره وخصائصه العامة ، وأن ألمّ بأبرز شعراء الجاهلية ، ومجاميع شعر هـذه الفترة ، ثم أنتهى من ذلك إلى عرض الوسيلة التى حُفظت بها حتى وصلت إلينا

كان العرب القدماء يعدّون الشاعر كما يدل عليه اسمه - ذا صلة بالغيبيات ، وساحرا يؤاخى الجن والشياطين ويستمد منهم العون فيما يعرضه من مقدرة رائعة . وتتضح هذه النظرة إلى شخصيته ومكانته التى يتبوأها مما يروى عن شاب أبت حبيبته الزواج به لأنه لم يكن شاعرا أو كاهنا أو عرافا [١] ، وارتقت بعـد ذلك فكرة الشعر كفن إذ كان الشاعر الوثنى فى الجاهلية كاهن قبيلته ومرشدها فى السلم والحرب ، وبطلها فى معمعان القتال ، تستشيره إذا ما بحثت عن مرعى جديد ، ولا تضرب طنبها إلا حسب إشارته . وإذا عثر رادوها المجهدون الظامئون على بئر نهلوا من مائها واغتسلوا به ، وقادهم إليه رافعين جميعا عقيرتهم بالغناء كما فعل إسرائيل من قبل : « انبثق أيها الماء ، وياهؤلاء غنوا له [٢] »

ولا بد أن تكون قد وجدت فى العصور الأولى ضروب أخرى من الشعر عدا أغانى الينابيع والحرب والتراتيل الدينية للأصنام - هذه الضروب كالتشبيب والرثاء ، كما كانت مواهب الشاعر تستغل أيما استغلال فى الهجاء الذى كان فى أقدم صوره « يبعث القبيلة على طلب الثأر ، ويُعد باعثا من بواعث الحرب لا يقل عن الطعن والنزال [٣] » كما يعد وعيده للعدو وتهديداته إياه دليل خطب جسيم ، أمّا منظوماته التى لا تقل عن السهام فتكا فكان أثرها أثر اللعنات الصارمة يجريها الوحى على لسان نبى أو كاهن [٤] ، وكان الشعراء يتناشدون أشعارهم فى حلقات خاصة ذات طقوس وأنظمة خاصة ، كدهنهم أحد جانبى الرأس ، وإسدالهم العباءة ، وانتعالهم « خفا » واحدا من الصندل [١] . وقد أبقى الهجاء على شىء من هذه العادات المستهجنة إلى عصر متأخر ، حينما تخلى منطق الشاعر الساحرُ عن مكانته للهجاء والقـذع الذى كان يكيل به الشاعر لخصومه السب ويسمهم بميسم العار

وإن الطلائع الأولى المبهمة للشعر العربى (التى غطت عليها حيويته الساحرة المعروفة) لم تترك وراءها أثراً فى هيكل الأدب ، ولكن المهمة قد تكون سهلة نسبيا حينما نواجه قوماً جدّ محافظين مستمسكين بالقديم كالعرب . وقد يمكن القول بأن أقدم صورة للكلام الشعرى فى بلاد العرب كانت السجعَ أو كما ينبغى تسميته « النثر المقفى » [٢] وإنّ وصف مناهضى محمد عليه السلام إياه بأنه شاعر لما جاء به القرآن من صور له حتى بعد معرفة الموازين الشعرية واستنباطها ليظهر لنا أن هذه النظرة كانت لا تزال حتى ذلك الحين قوية ثابتة

وتطوّر السجع أخيرا - كما سنرى - فأصبح حلية لفظية فقط ، والميزةَ البارزة لكل فن من فنون البلاغة سواء فى الخطابة أم فى الكتابة ، ولكن كان له فى الأصل مرمى بعيد يتصل عن قرب بالناحية الدينية ، ويختاره الشعراء والكهنة ومن على شاكلتهم ممن كانوا يعتبرون ذوى صلات بالقوى الخفية ليفسّروا به للدهماء كل ما يحزبهم من مسائل عويصة لا يدرون لها تأويلا ولا يعرفون لها حلا . وتفرع من السجع فن آخر يجرى على وزن يعد أقدم موازين الشعر العربية ذلك هو الرجز [٣] ، وهو بحر شاذ العروض والتفاعيل يحتوى فى الغالب على تفعيلتين أو ثلاث . ومن أوضح مميزات الرجز التى تظهر صلته القوية بالسجع أن نهايات شطراته تجرى على قافية واحدة ، مع أنه فى معظم البحور لا يحدث التصريع إلا فى مطلع القصيدة . وزيادة على ما ذكرنا ، نجد ميزة أخرى للرجز ، هى أنه على الدوام يكون مرتجلا ، فينشد الرجل الأرجوزة عند المفاجآت يفسّر بها بعض مشاعر

---

(1) Freytag : Arabum Proverbia, Vol. II, P. 494.

(٢) ولا تزال مثل هذه الاغانى تسمع حتى اليوم فى صحراء الشام انظر :
Emro Littmann : Neuarabische Volkspoesie (in) Abhand. der Kön. Gesellschaft der Wissenschaften; Phil.-Hist. Klasse, (Göttingen, 1901) P. 92.
وفى صفحة ٨١ نجد مثالا من ذلك وهو « اطلع يادلونا » حيث يردد عدة مرات

(3) Goldziher : Abhand. Zur Arab. Philologie, Part I (Leyden 1896) P. 26 [Ueber die Vorgeschichte der Higá-Poesie.]

(٤) راجع ما كتبه جولد زيهر فى المرجع السابق ص ٤٢ وما يليها

---

(١) جولد زيهر : شرحه ص ٤٦ وما يليها

(٢) رأى المؤلف فى السجع واتصاله بأولية الشعر يتفق تماما مع رأى الأستاذ الزيات (انظر كتابه تاريخ الأدب العربى) فى أولية الشعر الجاهلى (المترجم)

(٣) يرى الدكتور G. Jacob أن البحور العربية نشأت من حداء العيس لاتفاق وقع أخفافها راجع فى ذلك ص ١٧٩ وما يليها من كتابه :
Studien in Arabischen Dichtern. Heft III.

الشخصية أو عواطف أو تجارب ، ومثل هذا ما ارتجله دويد بن زيد بن نهد القضاعي وهو يتهيأ للموت [1] :

اليَومَ يُبْنَى لِدُوَيدٍ بَيْتُهُ ... لَوْ كَانَ لِلدَّهْرِ بِلًى أَبْلَيْتُهُ
أَوْ كَانَ قِرْنِي وَاحِداً كَفَيْتُهُ ... يَارُبَّ نَهْبٍ صَالِحٍ حَوَيْتُهُ
وَرُبَّ عَبْلٍ خَشِنٍ لَوَيْتُهُ [2]

ويحسن أن نأتي في هذا المقام على ذكر بعض البحور الهامة في الشعر العربي كالكامل والوافر والطويل والبسيط والخفيف وغيرها ، وإيثاراً للاختصار أحيل القارىء إلى البحث الوافي عن هذا الموضوع في مقدمة سير شارلز ليل في كتابه Ancient Arabian Poetry (ص ٤٥ - ٥٢) . وكل البحور قياسية كما هو الحال في الأغريقية واللاتينية . وقد استنبط قواعد العروض من القصائد القديمة لأول مرة ونظمها ورتبها الخليل بن احمد اللغوي (٧٩١ م) الذي يقال إن الفكرة طرأت له حينما شاهد حداداً يضرب بمطرقته على السندان

ولا بد لنا الآن من أن نبحث في نظام وموضوع هذه الأشعار التي تعد أقدم مافي التراث العربي ، فبين هاته النصوص البالغة حد الإتقان والروعة وبين شواهد السجع أو الرجز التافهة بون شاسع ليس من اليسير تحديده . وأول من نعرف من الشعر هؤلاء الذين تلوح في آثارهم إجادتهم لصناعتهم وإبداعهم فيها « وإن عدد الموازين التي يستعملونها وتعقدها وقوانينهم الثابتة عن الكمية ، والطريقة [3] المألوفة التي كانوا يستهلون بها قصائدهم بالرغم من الفترة التي بين كل ناظم وآخر ، هذه تحتاج إلى دراسة طويلة واندماج تام في تعرّف فن التعبير للغة واتساع نطاقها وطلاقتها ، وهي دراسة قل أن نجد بين أيدينا اليوم ثبتا يساعدنا عليها » [4]

« يتبع » محمد حسن حبشي

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ج ١ ص ٣٦ س ٣ — ٥

(٢) وقد ذكر في بعض المواضع الاخرى كالقاموس « ورب غيل حسن لويته » بدلا من « ورب عبل خشن لويته » المترجم

(٣) كما في قول عنترة في القرن السادس الميلادي حيث شكا ان اسلافه لم يتركوا له شيئا بقوله :

هل غادر الشعراء من متردم ... ام هل عرفت الدار بعد توهم

(4) Charles Lyall: Ancient Arabian Poetry, P.XVI.

إليهـــا !

للأستاذ أمجد الطرابلسي

حبيبي ! إنْ بدا الفجرُ ... ورفَّ كثغركَ الزَّهرُ
وغنَّى الطيرُ مخموراً ... لحوناً كلُّها خمرُ
فـلا تأسَ على أيا ... منا القرحى ولا تعتبْ
هو الدَّهرُ ! ومنْ للدَّهـ ... ـرِ إن أخطأ أو أذنبْ ؟
حبيبي ! إنَّ في قلبي ... ظلاماً مالهُ فجـرُ
ولولا طيفُكَ الخطَّا ... رُ ما شعَّ به كوكبْ !

° ° °

حبيبي ! بانَ لي الكونُ ... ولمْ أكُ مدركاً بعضَهْ
عرفتُ نجومَهُ الحَيرى ... عرفت زهورَه الغضَّه
عرفت النسمةَ الفرحى ... عرفت البلبلَ الشادي
عرفت الحلمَ الزاهي ... عرفت الأمل الحادي
نشيدَ الروحِ ! هل كنّا ... سوى طيرين في روضهْ ؟
فمن ظلٍّ إلى ظلٍّ ... ومن وادٍ إلى وادِ ...

° ° °

أأيامَ الهوى البرِّ ... وأمسياتِه الحلوه !
جفَوْت ولم يذقْ طفلا ... كَ بعدكِ لذاذة الصَّبْوه
حبيبي ! يا ترى هل تسعدُ الأيامُ قلبَينا ؟
فنأسو الجرحَ والذكرى ... ونسلو الغمَّ والبَينا ...
ألسنا في الشبابِ الحلـ ... ـوِ زنبقتينِ في ربوه ؟
فما للعاصف المجنو ... نِ يفرقُ بينَ غصنينا ؟

° ° °

حبيبي ! إن دجا الليلُ ... وطافتْ بكَ أشباحُهْ
وأورى طرفكَ الساجي ... جوى البعدِ وأتراحه
فإنِّي بينَ أترابي ... وأصحابي وإخواني
غريب مُلْهَبُ الأجفا ... نِ واري القلبِ كالعاني !
حبيبي ! إنَّ ليلَ الحبِّ ... جرحُ القلبِ مصباحُهْ
وهل يعبق نشر العو ... دِ إلا وسطَ نيران

من زوايا النسيان

زهرات ذابلات

لشاعر معروف

أحاذر فى نجواك بث شكاتى   فأكتم مافى القلب من حسرات
ويُضرعنى وجدى فألقاك شاكيا   ولا بد للمصدور من نفثاتِ
لقد علمت أخت الملائكِ أننى   من الهمّ والآلام فى غمراتِ
وأن هواها مستبدّ بمسمعى   وفى كل حسن مالىء نظراتى
وملء فؤادى والأمانىّ كلُّها   يبرّح بى فى يقظتى وسُباتى
أروم اصطبارا عن لقاك فأنثنى   إليك بملء القلب من لذعات
وألتمس السلوى لديك فانثنى   بزاد من الأشواق مستعراتِ
اذا ما دجا بالغمّ قلبى أضاءه   كواكب من ذكراكِ والخطرات
وان جنحت للشر نفسى هديتها   بذكرك فارتدّت الى الحسنات
وان أخلدت يوما إلى الارض ردها   هواك الى الافلاك فى لمحات
وذكرك قد يجلو عن القلب رَينه   فيسطع فيه النور حين صلاتى
على أننى يعتادنى من تذكرى   لواعج همّ مُشعَل الزفرات
هى النور وهى النار والسلم والوغى   بقلبى ، ومنها غبطتى وشكاتى
وأمنى وخوفى، وهى أنسى ووحشتى   وظلمة أيامى وضوء حياتى
فياقمرا إن غاب عنىّ نوره   فقلبى ليل موحِش الظلمات
ويا شمس حسن إن تغب بجوانحى   بها شفق فى وقدة الجمرات
ويا فلكا للحسن والحبّ دائرا   يبارك ربّى هــذه الدوَرات
فلو كان ما بينى وبينك فرقة   لقطع بحار أو لطىّ فلاة
ولكنه الدهر المُشتُّ يُقيمنا   على قربنا فى فرقة وشتات
تمنّيت أنا طائران بدوحة   تظلل بـ[illegible] فى الفلوات
أصوغ لك الأزمان شعرا وبهجة   وأسمع منك الخلد فى نغمات
ويُمسِك هذا الدهر عن حركاته   فلا هو بالماضى ولا هو آت
أناظمة الأشعار أنت قصيدة   جلتها يد الخلاّق فى قسَمات
يطالعها قلب من الشعر مُجدب   فينبت فيه الشعر أىّ نبات
وينشدها من قدّ فى الصخر قلبه   فيُنبض منه الحبُّ قلبَ صفاة
أرى وجهك الوضّاء شعرا مصوّرا   تحاوله الأبيات فى كلمات
كأن يراعا فى يمينك إبرة[1]   تردد ما فى الوجه من نغمات

يقولون شعر شاعرٌ هل عنوانه   بديعة حسن تنظم الشطرات
يُحيّى بهذا الشعر قلبى فاقبلى   وإن كنت روضا ، هذه الزهرات
سقتها دموعى واصطلت حرّ زفرتى   فلا تهزئى إن لم تكن نضرات

(شاعر)

[1] المراد الإبرة الحاكية التى تخرج الأنغام المضمرة فى الألواح

ومن الشاطىء

أيها البحر...

للأديب احمد فتحى مرسى

سهرت عينهُ ملالاً وسُهْدَا !   هدأ الليلُ مالهُ ليس يهدَا
يرتمى لاغباً على بُسُطِ الشطـ   ـم ويولى الرمالَ ميلاً وصدّا
وكأنّ الأمواجَ كفًا بخيلٍ   رامَ أن يرفدَ العشيّةَ رفدَا
كلما مدّ بالعطاءِ يديهِ   غلبَ البُخلُ نفسه فاستردّا

ما أحبّ الشطآن تهدرُ فى الليـ   ـلِ وما أبهجَ الرمالَ وأندى
وكأنّ الأمواجَ أوفتْ عليها   حاسبٌ جدَّ فى الحساب وكدّا
سطّرتْ كفّهُ الرمالَ سطوراً   وصفا ذهنُهُ وراقَ وجدّا
مفكرٍ فى السكونِ حتّى إذا ما   خذلتهُ النُهى ، وأخطأ عدّا
عادَ للّوحِ حانقاً فمحاهُ   وأعادَ الحسابَ فيهِ وأبدا

سرّح الطرفَ أيها العاشقُ الحُسـ   ـنَ . هنا الحُسْنُ رائعٌ يتبدّى
وتأمّلْ فى ذلكَ الغاضبِ الحا   نق يطوى الفضاءَ راحاً ومغدى
وكأنّ الأمواجَ ترغى على الشُطآ   نِ شيخٌ يميلُ أيناً وجهدَ
شيّبتْ صولةُ المقاديرِ فوديـ   ـهِ وهدّتْ قواهُ فى الدهرِ هدّ
مدلجٌ طالَ فى الظلامِ سُراهُ   كلما جدّ فى خطاهُ تردّى

أيها البحرُ ... ما لأمواجكَ الحيـ   ـرى ترامى وترعدُ اليومَ رعد
فرّقتْ بيننا المقاديرُ يا بحـ   ـرُ وودّ الزمانُ ما لم يودّ
أترى أنتَ ذاكر طيبَ ماولّى   وما غابَ فى الزمانِ وأودى
يومَ كنّا والليلُ مُرخىً علينا   نتساقى من أكؤس الودّ شهد
ساعة للصفاءِ مرّتْ من الدهـ   ـرِ ، وللصفو ساعة لن تردّ
كم نرجّى لو عاد ما فاتَ منها   وسُدًى نرتجى لما فاتَ عود

احمد فتحى مرسى

٣ - دعابة الجاحظ

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

ولكن ليس كل هذا ما فقدناه من أحاديث الجاحظ وآثاره في المرح والدعابة فأن له كثيراً من الطرائف والملح التي ضاعت بين سمع الأرض وبصرها، وطوتها الاحداث بين أجواء العصور الخالية، فلم يبق منها إلا معالم كأنها معالم الطود قد استبد به الزمن ومحقته العواصف القاسية. وها نحن أولاء نكتب عن دعابة الجاحظ وليس بين أيدينا من مصادر البحث إلا وشل من معين، فكل ما هنالك جملة من النوادر المبعثرة في بطون الكتب يتلمسها الباحث بشق النفس، مع أن الرجل قد جرد في ذلك كتبا ورسائل تدل أسماؤها على أنها قد ضمنت ألواناً من الدعابة والمزاح، وأترعت بفنون من النوادر والمضاحيك. وتلك الكتب على ما ذكر الجاحظ نفسه وعلى ما قال بعض الباحثين: هي كتاب الملح والطرف، وما حر من النوادر وبرد، وماعاد بارده حاراً لفرط برده حتى أمتع بأكثر من امتاع الحار(١) ثم كتاب المزاح والجد، وكتاب خصومة الحول والعور. وكتاب المضاحيك، ورسالة في فرط جهل الكندى يعقوب بن إسحاق(٢) أول من اشتهر في الاسلام بالعلوم الفلسفية وما إليها. والظاهر أن الجاحظ قد ساق هذه الرسالة في التندر على هذا الرجل والتهكم به كشأن صنيعه مع أحمد بن عبد الوهاب في التربيع والتدوير... ثم أين نحن بعد هذا كله مما كتبه الجاحظ إلى إخوانه وخلطائه «من مزح وجد، ومن افصاح وتعريض، ومن تغافل وتوقيف، ومن ملح تضحك، ومواعظ تبكي (٣)...» بل أين نحن مما أفرغه في جميع كتبه ومؤلفاته من النوادر والمعابث، وقد كانت تلك طريقته وذلك صنيعه، وهو الذي يقول في وصف الكتاب: «ومن لك بوعاء ملىء علماً، وظرف حشي ظرفا، وإناء شحن مزاحاً وجداً، إن شئت كان أبين من سحبان وائل، وان شئت كان أعيا من باقل، وإن شئت ضحكت من نوادره، وإن شئت عجبت من غرائب فرائده، وإن شئت ألهتك طرائفه.. (٤)»

فيالها من ثروة كبيرة تلك التي وفرها الجاحظ في باب المزاح والدعابة. ولو أن الزمن قد أبقى لنا على كل هذه الثروة لفزنا بكثير، ولوقفنا باليقين على اتجاهات الرجل وما كان له من قدم في مسالك هذا الفن وضروبه؛ أما وقد خسرنا هذه الصفقة، فليس إلا أن نسير في البحث على قدر تلك الآثارة التي بقيت لنا من أماليح الجاحظ على الرغم من مغالبة المحن وقسوة الأحداث، وان فيها ما قد يجدى في البحث، ويغني في الوقوف على مقاصد الرجل من دعاباته. ولعل أهم تلك المقاصد وأجلها انما هو التهكم؛ ولعل الجاحظ لم يبرع في ناحية من مناحي الدعابة كما برع في تلك الناحية وتفنن، فهو عجيب في تهكمه؛ تنظر إلى إحدى غمائزه فلا تدري إلى أي جو قد نقلك الرجل، ولا ما ثم من أشتات المعاني التي قد أوردها على ذهنك وأثارها في نفسك، فهو يحاور ويداور. ويصطنع أسلوبا ملفوفاً له ظهر وله بطن، وفيه لين وفيه قسوة، وبه طرافة وبه جفوة؛ وقد يقف من القارئ موقف المتسائل، ويسير معه سير المتجاهل، فكأنه يريد أن يتهكم أيضاً بالقارئ على غفلة. وليس هذا كله إلا علامة القدرة ودليل الطبع؛ وإنما كان الجاحظ موهوباً في تهكمه، ساخراً بطبعه؛ ومن ثم لم يقف في تهكمه عند حد الدعابة والعبث، بل لقد كان يتناول ذلك في كثير من نواحي فنه، فهو أداته في الهجاء والتقريع، والنقد والتعريض، والجدل والمناظرة، وما إلى ذلك من مواضع الأخذ والرد والنظر والبحث. ألا تراه وهو ينتقد الخليل بن احمد إذ صنف في علم لم تجتمع له أداته، ولم يتوفر له شرطه فيقول: «والخليل بن احمد من أجل إحسانه في النحو والعروض وضع كتابا في الايقاع وتراكيب الأصوات وهو لم يعالج وتراً قط، ولا مس بيده قضيباً، ولا كثرت مشاهدته للمغنين. وكتب كتاباً في الكلام ولو جهد كل بليغ في الأرض أن يتعمد ذلك الخطأ والتعقيد لما وقع له ذلك. ولو أن ممروراً استفرغ قوى مرته في الهذيان لم يتهيأ له مثل ذلك، وما يتأتى مثل ذلك إلا بخذلان من الله الذي لا يبقى منه شيء. ولولا أن أسخف الكتاب، وأهجن الرسالة، وأخرجها من حد الجد إلى حد الهزل، لحكيت صدر كتابه في التوحيد، وبعض ما وضعه في العدل! (١)»

فهذا أسلوب من النقد الساخر الذي كان يصطنعه الجاحظ وإنه لأسلوب شديد الوطأة، وإنه بالهجاء لأشبه. فهو كما ترى يطلب «أولا» مرتبة لتصنيف الخليل هي أحط مراتب الضعف والتهافت، فيضعه دون الخطأ «يتعمده» «كل» «بليغ» «في الأرض» «جهده» ولكن هذه المرتبة الدون لا تقنع الجاحظ، فيعود «ثانيا» فيجعله عدلا «لهذيان» «الممرور قد» «استفرغ» «كل مرته في الهذيان؛ وهذه أيضا لا تقنع الجاحظ ولا تشبع نفسه، فتجده «أخيراً» يحكم على صنيع الرجل بأنه ضرب من الضعف لا يتأتى لطبيعة بشرية إلا «بخذلان» من الله، ثم زاد فجعله سخفاً ومجانة لو حكاه لخرج بالقارئ من حد الجد إلى باب الهزل. وهذه مداورة من الجاحظ فيها مافيها

(١) الحيوان ج ١ (٢) الفرق بين الفرق للبغدادي
(٣) الحيوان ج ١ (٤) الحيوان ج ١

(١) ادب الجاحظ للسندوبي

من التهكم المر، والتقريع اللاذع، والتعريض الذى لا يطاق استهزاء وسخرية !!

ولقد كان هذا التهكم هو سلاح الجاحظ أيضا وعدته فى تقريع الحشويين وأهل التزيد، والذين يفترون الأخبار الغثة، ويلفقون الأحاديث الكاذبة، ويروجون القصص التافهة، ثم هم يحشرون ذلك فى الدين، ويلصقونه بالأخبار النبوية الشريفة، ويسندونه فى الرواية إلى الأصحاب الأخيار، والرواة الثقات، كمثل ما زعموه عن كبد الحوت، وقرن الشيطان، وتنادم الديك والغراب، ودفن الهدهد أمه فى رأسه فأنتنت ريحه، وتسبيح الضفدع، وطوق الحمامة، ودخول إبليس إلى سفينة نوح فى جوف الحمار، وما أسندوه إلى ابن عباس من أن الحجر الأسود قد نزل من الجنة وكان أشد بياضا من الثلج فسودته خطايا أهل الشرك، ثم ما تحدثوا به عن السيدة عائشة بشأن الصحيفة التى كان فيها المنزل فى الرضاع فأكلتها داجن للحى حين شغلوا بوفاة النبى صلى الله عليه وسلم؛ فكان الجاحظ يستنكر هذه الأخبار وأشباهها، ويحكيها فى سخر بالغ، وتهكم قارص. وتستطيع أن تقف على ذلك وأمثاله فى كتابه «الحيوان» فى كل موضع يفرغ فيه الرجل لبعض خرافات القوم ومزاعمهم. وقد تجده لا يعنى بتفنيد هذه المزاعم ولا يهتم بأدحاضها لأنها ظاهرة السخافة والبطلان، ثم هو يعقب عليها بكل تهكم واستهزاء، ويختمها بالعبارة القصيرة الموجزة تأتى عليها من القواعد. فمثلا تجده يحكى أقوال «صاحب المنطق» عن التزاوج والتلاقح بين بعض الحيوانات وبعضها، فيسترسل الجاحظ فى الحكاية، ثم ينتهى إلى التعليق عليها فيقول: «وقد سمعنا ما قال صاحب المنطق من قبل، وما يليق بمثله أن يخلد على نفسه فى الكتب شهادات لا يحققها الامتحان، ولا يعرف صدقها أشباهه من العلماء، وما عندنا فى معرفة ما ادعى إلا هذا القول!» ثم يخرج بعد ذلك إلى بعض خرافات القوم التى تتعلق بالحيوانات، ثم يتهكم بها فيقول: «ولولا أنى أحببت أن تسمع نوعا من الكلام! ومبلغ الرأى، لتحدث لله تعالى شكراً على السلامة، لما ذكرت لك شيئاً من هذا الجنس..(١)»

فبهذا الأسلوب التهكمى اللاذع كان يتذرع الجاحظ فى كثير من نواحى فنه؛ وبهذا الأسلوب التهكمى اللاذع كان يأخذ فى دعابته ومزحه فيبلغ الغاية من إرضاء الفن، ويسمو إلى الذروة فى إمتاع القارىء.

وعجيب أمر بعض أبناء العربية الذين يشدون من الأدب إذ تراهم يطيرون بفن الكاتب الفرنسى «فولتير» فيالغون فى سخريته، ويمتدحونه بلذعاته، ويثنون على عبقريته فى التهكم، وما أحسبهم يعرفون ذلك الجاحظ أو يعترفون به، وأنهم لو علموا لتعجبوا من جهد كاتب العربية واقتداره فى ذلك، ولراحوا يتلمسون تلك الناحية من فنه فيما له من كتب وآثار، وهم لا شك واجدون متاعهم ولذتهم، واقعون على أربهم ومبتغاهم، ثم هم لا جرم سيعترفون له بما يعرفون «لفولتير» وأضرابه. وسترى الجاحظ فى أحاديثهم وكتاباتهم منعوتا بالكاتب الساخر، وما يجرى مجرى هذا النعت

وتعال إلى الرجل فى شىء من دعاباته الساخرة. فانك واجده على ما ذكرنا – حلوا مستساغا، قويا قادراً قد تمكنت فى طبعه ملكة السخر، وتمت له موهبة التهكم، فاذا أخذ بعض الأشخاص بالتصوير «التهكمى» فهو يقدم لك الصورة الدقيقة الرائعة التى تثير فى نفسك كل ما يمكن من معانى الضحك والفكاهة، والسخر والتهكم، والعطف والاشفاق، والنفور والبغض. ألا تراه وهو يتندر على سهل بن هرون فى بخله وشحه فيقول: «قال دعبل الشاعر: أقمنا عند سهل فلم نبرح حتى كدنا نموت جوعا. فلما اضطررناه قال: ياغلام ويلك غدنا قال فأتانا بقصعة بها مرق فيه لحم ديك، وليس قبلها ولا بعدها غيرها. لا تحز فيه سكين ولا تؤثر فيه الأضراس، فاطلع فى القصعة وقلب بصره فيها، ثم أخذ قطعة خبز يابس، فقلب جميع ما فى القصعة حتى فقد الرأس من الديك، ثم رفع رأسه إلى الغلام فقال: أين الرأس؟ قال لم أظنك تأكله. قال: ولأى شىء ظننت أنى لا آكله؟ فوالله إنى لأمقت من يرمى برجليه، ولو لم أكره ما صنعت للطيرة والفأل لكرهته فان الرأس رئيس، وفيه الحواس، ومنه يصدح الديك؛ ولولا صوته ما أريد؛ وفيه قرنه الذى يتبرك به، وعينه التى يضرب بها المثل فى الصفاء فيقال. شراب كعين الديك؛ ودماغه عجيب لوجع الكلية؛ ولم أر عظما أهش تحت الأسنان من عظم رأسه. فهلا إذ ظننت أنى لا آكله ظننت أن العيال يأكلونه؟ وإن كان بلغ من نبلك أنك لا تأكله فان عندنا من يأكله. أو ما علمت أنه خير من طرف الجناح ومن الساق ومن العنق. فانظر أين هو؟ قال والله ما أدرى أين رميت به. قال: لكنى أدرى: إنك رميت به فى بطنك والله حسيبك(١)

وقد تكون هذه النادرة من مرويات دعبل حقاً، وقد تكون من اختراع الجاحظ وابتداعه، وإنما حمله على تلفيقها ما كان بينه وبين سهل من الشنآن، ثم عزاها لدعبل ليخلص من تبعتها ولتكون أبلغ فى المؤاخذة. ومهما يكن من شىء فان الرجل هو الذى عرضها هذا العرض وجلاها فى هذا الثوب، فجاءت على ما ترى من السخر والتهكم والضحك والمرح، والغمز واللمز. وانها لصورة دقيقة رائعة مهما بلغ كاتب من القدرة فى التصوير فما أحسبه سيبلغ فى وصف بخل سهل وتصوير شحه واقتاره ما بلغ الجاحظ فى هذه النادرة وهيهات!

(للبحث صلة) محمد فهمى عبد اللطيف

(١) الحيوان ج ١ ص ٨٠ وما بعدها

(١) الحيوان ج ٢



الفن المصرى

للدكتور احمد موسى

تمهيد

سل من شئت من المصريين عن تاريخ مصر الفنى وعما فى تراث الأجداد من مميزات ، وعن الناحية الجميلة الممتعة فيه ؟ بل سل أغلبية ناس فى مصر ممن زاروا أهرام سقارة ، وممن تطرف فى حب لشاهدة للآثار المصرية وسافر إلى الاقصر ، وشاهد معبد الكرنك طيبة ووادى الملوك والملكات وتمثالى ممنون ؟ سل كل هؤلاء عما شاهدوه وعما استفادوه ، وعن ناحية الجمال فيما عاينوه ، فلا تسمع لا تخبطا يكاد لا يختلف عما تسمعه من أمى يعيش بجوار هذه الآثار طوال أيام حياته !

ثم شاهد مدينة القاهرة ـ على اعتبار أنها عاصمة القطر وأهم مدينة فيه ـ وما فيها من ضروب الخروج على أبسط مبادىء الذوق العام ، واخطر فى أحسن شوارعها يستوقفك شذوذ الانسجام فى مبانيها وظاهرة انحطاط الذوق فى كل ما فيها ؛ ثم تفلسف قليلا لمعرفة السبب فى ذلك تجده دون شك ينحصر فى جهل الناس معنى الجمال ومعنى الذوق ومعنى الفن . وهم فى ذلك سواء ، يستوى الجاهل مع العالم ، والفقير مع الغنى ، والشيخ مع الافندى

بيوت عالية شاهقة ، وأخرى واطئة حقيرة ، كلها متجاورة . وإذا صادفت عشر عمارات كبار الواحدة ملتصقة بالأخرى ، ترى لكل منها شكلا ولكل منها منهجاً ؛ كل هذا بجانب دكاكين كتب فى أعلى مداخلها باللغة الاغريقية مرة وبالعبرية أخرى وبالأرمنية ثالثة ، ودكاكين كتب أعلى مداخلها بالفرنسية حينا وبالايطالية أو الانجليزية حينا آخر ، كما تصادفك أخرى كتب عليها بالعربية لغة الوطن ، لغة البلاد !

تأمل كل هذا . ثم عرج على آثار الأقدمين تر أنها منسجمة ، كلها من طراز واحد سمى الطراز المصرى القديم . وإذا شاهدت المساجد جميعها رأيتها من طراز سمى « الارابسك » فيه روح الانسجام ، دون حاجة ـ فى هذه أو تلك ـ إلى دقة الفحص لمعرفة عصر الآثار ، وهل هى من مبانى الأسرات الأولى أو المتوسطة أو الأخيرة ، كما أنك لا تضطر إلى فحص نقوش مسجد أو كتاباته أو تفاصيل مبانيه لتعرف إن كان من الطراز الطولونى أو الفاطمى أو طراز المماليك البحرية أو الشراكسة . وما ذلك إلا لأن الأول مصرى والثانى إسلامى

هذا ما سار عليه الناس أيام كانوا أميين ، أما اليوم حيث كثر المتعلمون ، وأصبحوا يلبسون كما يلبس الجنتلمان فى أوربا ، فنرى أنهم مع مزيد الأسف قد تجردوا من الذوق وبعدوا بعداً شاسعا عن المعرفة الحق ، والثقافة الكاملة المؤدية إلى حسن التقدير والاستمتاع عن طريق الذوق

لعل قائلا يقول : وماذنبنا نحن فى هذا ؟ الواقع أن الذنب راجع إلى مناهج التعليم المصرية ، لأنها تجردت من كل المشوقات للدرس ، وخلت مما يمهد لحب الفحص والنقد ، فضلا عن بعدها عن كل ماينتمى إلى الذوق العام بصلة

وفى أيامنا هذه كثر اللغط حول معارض الفن وحول التصوير والنحت وحول الموسيقى ووجوب تدريسها بالمدارس الابتدائية والثانوية ، على أنى أعتقد أن كل هذا لا يخرج عن معالجة الأعراض ، أما الأسباب فهى عند أولى الأمر فى المؤخرة

قرروا تدريس الموسيقى فى المدارس ، فهل قرروا إلى جانب ذلك تحسين الموسيقى وجعلها تخرج عن الوحدة الملائمة للرقص الخليع ورقص الخيل ؟

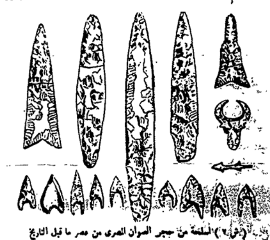
وهذا نفسه ينطبق على نوع التثقيف الفنى . فمنذ أن كانت لنا مدارس ابتدائية وثانوية وفن الرسم والتصوير باقيان على ماهما عليه لم يتغيرا ولم يتطوروا ، حتى كتب التاريخ العام لاترى فيها أثراً لمعنى تاريخ الفن أو تاريخ الآثار تفصيلا أو إجمالا ، مع أن التاريخ فى جوهره يعتمد عليهما إلى أبعد حد

وهذا لم يكن سبباً كافيا لمن أولى الأمر على الاهتمام بدراسة تاريخ


(ش ١) مقبرة مصرية من عهد ما قبل التاريخ

الفن ، ليغرسوا فى نفوس النشء شيئاً من التذوق والمعرفة الفنية

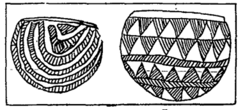
كان تاريخ الفن ضمن مواد الدراسة فى كلية الهندسة عندما كانت مدرسة عالية ، أما الآن فقد تقرر إلغاء تدريس هذه المادة للثقة التامة فى عدم نفعها أو على الأقل لعدم الحاجة إليها فى المستقبل العملى للمهندسين . أما كان الأجدر بكلية الطب إلغاء مادة الصوت والضوء من علم الطبيعة ومادة التشخيص الباطنى لمن سيكون طبيباً للعيون . وإذ كان الأمر كذلك فلم يدرس طلبة كلية الحقوق القانون الرومانى ؟ ولم يدرس طلبة كلية الآداب شيئاً من الأدب الاغريقى مثلا مع أنه لاينفعهم فى مستقبل حياتهم ؟ (وهذا غير صحيح) الحق أننا نتخبط ولا نعرف إلى أى اتجاه نسير . فالثقافة العامة لن تكون كاملة مالم تشمل أيضاً المعرفة بأصول الفن عن طريق دراسة تاريخه ولو إجمالا ! إن الرسم والتصوير والنحت فنون ليست من شأن الرسامين والمصورين


(ش ٣) أسلحة من حجر الصوان المصرى من عصر ما قبل التاريخ

والنحاتين وحدهم ، بل هى من شأن المجموع ، إذا علمنا أن الفنان لايعيش لنفسه ، كما أن خلقه الفنى لايسجله هو بشخصه ، بل أيضاً بعصره الذى عاش فيه ، وبوطنه الذى شب على أرضه

وهذا مايحتم علينا أن نعنى عناية خاصة بتاريخ الفن المصرى والفن الاسلامى ، وإذا كان مقال اليوم منصباً على الفن المصرى وحده إجمالا ، فإنى أبدأ هنا بالتمهيد والتقديم له لأنى لا أقصد بالكتابة مجرد الكتابة ، ولا بنشر الصور مجرد التحلية ، وإلا فما كان أهون علىّ من أن أتخير أجزل العبارات وأجمل المصورات ، ولكنى كما ترى أذهب بك ثمانية آلاف سنة إلى الوراء . لكى أستطيع أن أوضح فى بساطة كيف نشأ الفن المصرى وكيف نما وازدهر

والناظر إلى خريطة العالم يرى أن القطر المصرى يتوسطها تقريباً إذا أراد أن يقسم الكرة الأرضية إلى قسمين متكافئى المساحة والتكوين ، كما يرى أن وادى النيل أهم بقعة فى القارة الأفريقية ، ومن أهم مواقع الاتصال بين القارات جميعاً .


(ش ٢) آنيتان مصريتان من عصر ما قبل التاريخ

وإذا كان هيرودوت قد قال بأن مصر هبة النيل (Homeros, Od. 4,351-355.) فلأنه كان ثاقب الفكر بعيد النظر ، لتوقف حياة مصر على النيل مباشرة حيث نشأت فى واديه أقدم مدنية عرفها التاريخ ولا يزال العالم أجمع يعجب بعظمتها فى كل نواحيها

سارت هذه الحضارة والمدنية سيراً بطيئاً طبيعياً ككل الحضارات الأخرى ، مع فارق واحد هو التبكير العجيب ، وإن علمنا أنها بدأت منذ خمسة آلاف سنة ، فإن ثلاثة آلاف قد سبقتها لتمهد لها أعنى منذ أصبحت أرض مصر الواقعة على ضفتى النيل صالحة للزراعة

هب إلى وادى النيل جماعات من تلك التى كانت تعيش فى الأراضى القاحلة بصحراء ليبيا ، والدارس لمقابر هؤلاء وما وجد فيها من متروكات ، يستطيع أن يقف على طرق معيشتهم وأحوالهم رغماً عن قلة ماتبقى منها (ش ١) فيرى أنهم صنعوا العصى من سيقان الأشجار بمقابض من الحجر ، كما زينوا أوانيهم الفخارية بأشكال متناظرة الرسم ، متكررة الوضع لاتخرج عن خطوط مستقيمة متقاطعة أو منحنية أو دائرية ، رسمت داخلها خطوط أخرى أقرب إلى الماشور فى أبسط مظاهره

وبمشاهدة مجموعات الأوانى الفخارية يمكن ملاحظة التقدم التدريجى الذى طرأ عليها ؛ فترى أنها اكتسبت شكلا تكوينياً أجمل (ش ٤) وزودت برسومات صغيرة مثلت شيئاً من حياتهم ، فضلا عن التقدم الفنى الذى نستطيع ملاحظته بمقارنة الأوانى فى (ش٣) وفى (ش ٤) بعضها ببعض . والناظر إلى الآنية الوسطى من (ش٤) يرى على سطحها الدائرى رسوما ضعيفة ، تمثل أناساً يحمل أحدهم إلى أقصى اليسار وعاء على رأسه ، كما يرى على الجانب الأيمن للوعاء نفسه رسم النعام . أما الأوانى الأخرى فهى أجمل شكلا وأكثر زخرفة . مما لا يزال مستعملا الى اليوم فى مصر وبشمال افريقية ببلاد الجزائر والمغرب ، وهذا يدل على وجود صلة قديمة بهؤلاء .



(ش ٤) أوان مصرية من عصر ما قبل التاريخ

ووجدت ببعض المقابر أمشاط للشعر ، زينوها من أعلاها بأشكال كانت غالبا تمثل رؤوس حيوانات أو طيور أو رأس إنسان .

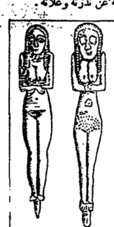
وصنعوا أسلحتهم من الصوان (ش ٢) ، وكانت هذه خطوة لا يستهان بها ، خصوصا لصلابته وصعوبة نحته وما يتطلبه ذلك من مجهود وعناية .

ولبس المصريون النعال المصنوعة من الجلد ، وجعلوا لها أربطة (ش ٥) من الجانبين لتثبيتها على القدم .



(ش ٥) نعال مصرية من عهد ما قبل التاريخ

وأخذوا يلتفتون تدريجيا إلى الزينة ، فعملوا العطور ووضعوها فى أوعية صغيرة كانت بأشكال مختلفة . واستمروا فى تقدمهم فراجت مصنوعاتهم وانتشرت تجارتهم . وازدادت صلتهم بالبلاد المجاورة وازداد عددهم . كما عرفوا المعادن واستخدموها فى مختلف أغراضهم وأدخلوها فى صناعة أدوات الزينة والتحلية ؛ فعملوا الأساور والعقود بعضها من الذهب ومن الحديد الأزرق الجميل الذى زادها رونقا ، وأعطانا فكرة صادقة عن ندرته وغلائه .



(ش ٦) تمثالان مصريان من عهد ما قبل التاريخ

وبدأت العقيدة الدينية تدب إلى نفوسهم نتيجة شعورهم بالوجدان والاجتماع ، وأخذت نظرتهم إلى الحياة تتطور ، فعملوا تعاويذ لجلب الرزق ولصد العين . وكانت هذه التعاويذ عبارة عن طيور وحيوانات عبدها المصريون أيام تحضرهم ، ورسموا بعضها فى مناسبات كثيرة .

واعتقد المصريون بخلود الروح ، فوضعوا فى مقابرهم كثيرا من الحبوب والتمر والتحف السابقة لعصر التاريخ .

وعند ما وصل المصريون إلى هذا المستوى ، فى وقت كان العالم فيه لا يزال فى ظلمات الجهل ، أخذوا يشعرون بحاجتهم إلى القانون وإلى الاتحاد لصد هجمات البلدان المجاورة ، فقام فيهم الملك مينا موحدا البلاد ، جاعلا من مصر السفلى والعليا مملكة واحدة ابتدأ بتأسيسها ، فبدأ بذلك عصر مصر التاريخى أو عصر الأسرات .

(يتبع) احمد موسى

القصص

على كف القدر

للأديب السيد محمد زيادة

الحياة لغز معقد أعجب ما فيه أن يشقى من لا يستحق الشقاء وأن يهنأ من لا يستحق الهناء؛ ولكن رحمة الله قريب ...

التف الولدان والبنتان حول أمهم فى أول الليل يسألون عن العشاء، وراحت هى تعللهم وتشاغلهم بما يلذ لهم من الحديث ليغمي على طفولتهم فيناموا ..

ثم ما لبثت صغرى البنتين أن استلقت على حجر أمها نصفها يقظان ونصفها هاجع، فحدبت عليها الأم ومالت تقبلها وتهز أعطافها برفق لتصرف عنها بقية يقظة وتسرب إليها بقية نعاس.

ثم نامت الفتاة طاوية تشيع على وجنتيها حمرة صفراء فيها معنى الطوى، وترقد بين أجفانها نظرة موهونة فيها معنى الألم، وتجول على شفتيها ابتسامة حزينة فيها معنى اليأس!!

ورأتها أمها نائمة لا يستقر على ملامحها الكرى، فحدقت فى وجهها وأطالت التحديق ... فأى حزن أبلغ من حزن أم فقيرة تنظر إلى وجه ابنتها النائمة فترى الجوع والفقر يتصالحان لتذبل فى صلحهما زهرة ناضرة؟.

وسقطت من عين الأم على خد الفتاة قطرة من الدمع ... ثم نهنهت المسكينة دمعها، ورفعت رأسها إلى أعلى وقالت: يارب!

ونظر الولد الأصغر إلى أمه بعد إذ تنهدت وقال: هاهى ذى قد نامت فلم يبق إلا نحن الثلاثة ... أما لديك طعام لنا؟

قال الولد الأكبر: إذا كان لديها طعام فاذا كان يمنعها أن تقدمه؟. انتظر يا مجنون حتى يعود أبونا فأنا لا نملك الطعام أو ثمن الطعام إلا بعد عودته.

قال الولد الأصغر لأمه: وهل يحضر معه ما وعدنى وهو خارج فى الصباح يا حضارة يا أماه؟ أم يخلف ما وعدنا كما فعل بالأمس وكما يفعل كل يوم؟.

قالت الأم: سيأتيك بكل ما تطلب يا ولدى والله معينه.

قالت البنت الكبرى: إنه تأخر الليلة عن موعده يا أماه.

قال الولد الأكبر: أنا أعرف أنه تأخر ليملأ جيبه بالمال، وسوف ترون كيف يوسع علينا الليلة فتشبع بطوننا بكل ما نشتهيه.

وما هى إلا هنيهة حتى أقبل الرجل يتحامل على نفسه فيتقدم به شيء ويتأخر به شيء ... يتقدم به الحنين إلى أولاده ويتأخر به الحسرة عليهم ... فهو بين الماشى والواقف، يحمل على كتفه صندوقه وفيه تجارته يجوب بها الطرقات.

ورآه الأولاد مقبلا فجنوا جنون الفرح، واستيقظت النائمة على أصواتهم، ونهضوا جميعاً يهللون ويصيحون: جاء أبونا. جاء أبونا ... أما هو فقد لقيهم بوجه كاسف مغبر، فكان كمن توقع مصيبة فوافته مصيبتان، وأسلم لهم يديه وجسمه يتعلقون به ويتواثبون حوله، وأبقى لنفسه رأسه بما حوى من فكر وما حمل من هم.

أما زوجته فقد علقت بصرها به فعرفت ما به، وبادلته نظرات مستصرخة بنظرات صارخة ثم تنفست وقالت: يارب.

ووضع الرجل صندوقه وجلس إلى جوارها مكبكباً مخذولا؛ والتأم الاولاد حولها وقال الولد الاصغر: هل نكثت بوعدك يا أبى كعادتك؟. قال الرجل: لا يابنى. سأفى إن شاء الله

قال الولد: ومتى يشاء الله؟. كل يوم تقول هذا ولا تفعل شيئاً!!

قالت البنت الصغرى: لقد تأخرت يا أبى للآن ولم نأكل، ألم تدر أننى جائعة؟ إنى سأخاصمك ولكن بعد العشاء.

فضحك الرجل ضحكة باكية ثم قدم لزوجه ما فى جيبه وقال: خذى هذا فهو كل ما رزقته فى مطافى ...

وما الذى كان فى جيبه؟.

قرش ونصف قرش جناها الرجل من سعيه طول يومه، فهل تكفى لقوت أسرة لا أدم عندها ولا خبز؟ يا رحمة الله بالمساكين! يارحمة الله! أى فقر هذا؟!

أطفال أبرياء يرهقهم الجوع وليس لديهم مما يحمله غير الصياح والتوجع، وليس حولهم مما يدفعه غير تسلية أمهم ووعودها وأم حسرى ممزقة الكبد، ترى أولادها وهم فتات قلبها نوحاً يتكلم الجوع بألسنتهم. ويتكلم ألم الجوع بعيونهم، وهى حيزى

تسمع كلامهم بأذنها وتحس آلامهم فى قلبها . ولكنها لاتملك لهم شيئاً فلا تستطيع أن تفعل شيئاً ، فهى محتوم عليها أن تظل صابرة على ما تسمع وما ترى . وأن تنسى نفسها بأولادها فتحمل كربتهم على كربتها ، وأن تنظر دامعة ما يفلت من بين يدى القدر إلى يدى زوجها من رزقه الحبيس .

ووالد بائس يعلم أن وراءه أربعة أطفال يمرغهم الجوع بين أحضان أمهم البرّة فلا يغنيهم حنانها عن الطعام . . . ويعلم أنهم يحيون فى غير الحياة ، وينتظرون عودة الحياة فى عودته ! ! فيندلق فى الطرقات ناحية فناحية يتبع شيئا ممنوعا ، هو رزقه ، ويصل شيئا مقطوعا هو حظه ، ويقطع شيئا موصولا هو فقره . . .

ولكنه لايبلغ بسعيه وجهاده غير مايقدر له . . . وماذا يقدر للفقير غير الفقر ؟ ياويلتا ! ! ياويلتالهم ! !

وجعل الرجل والمرأة يتشاوران ، وراح كل من الأولاد يطلب شيئا بينما لا يكفى القرش ونصف القرش لشراء شىء . . .

قالت البنت الصغرى : أريد أن آكل سمكا فأنا أشتهيه من شهر وكلما طلبته تؤخرونه إلى يوم بعد كل يوم . وقد رأيت بنت الجيران تأكل منه بالأمس ، ولولا أنى خفت أن تضربونى لشحذت منها ؛ وكانت هى تنظر إلى مختالة ونظراتها تقول لى ماتقول، وكنت أنا أنظر إليها حزينة ونظراتى تقول لها ماتقول أيضا

فتبللت أجفان الأم وصرخ قلبها صرخة وقالت : عزيز على يا ابنتى — فاصبرى لعل الله يرحمنا

قال الولد الأصغر : وأنا أريد أن آكل أرزا . . .

قالت الأم : آه ياولدى ! ! غداً أعمل لك الأرز

قال الولد : يا طالما تقولون غداً وما يأتى الغد بشىء . . . أريد أن آكل الآن أرزاً ، وإلا فسأبكى . . .

وجهش الولد إلى أمه المسكينة ، ثم بكى فبكت له وضمته إلى صدرها وعيناها مدرار تميح من قلبها الدموع

وبكت البنت الأخرى فبكى الولد الآخر . . .

أما الرجل . فكان مطرقا واجما لايطيق أن يرى موقف البكاء فى منظر الفقر بين زوجه وأولاده ؛ وكان تائها فى دنياه يرى بخياله ماضيه الرخى الناعم فيهز رأسه ، ويرى بعينه حاضره الشقى المظلم فيزفر ، ويرى بفكره مستقبله الحالك المقطب فيرتعد

ثم ضاقت به نفسه فخرج على حكمة الرجولة وهوى من ثبات الايمان إلى خور اليأس . . . وبكى . . . وبكى بكاء رجل ، وما أمر بكاء الرجال ! !

ثم رفع المسكين رأسه وقال : يارب ماذنبى وماذنب صغارى ؟ ماذا يطعم هؤلاء الليلة وماذا يطعمون كل ليلة ؟ . . .

قالت الزوجة : خفف عنك حمالك . . . إن الله لم يخلقنا لينسانا . . . إنه يرانا . . . إنه قادر رحيم . . .

ثم قالت : سأخرج الآن لأشترى بالقرش خبزا وبالنصف قرش جبنا ليأكل هؤلاء . وغداً يفعل الله بنا ما يريد

ورضى الأولاد أن يمسكوا رمقهم بالجبن ، فشىء خير من لاشىء . . . وخرجوا تصحبهم أمهم لتهون عليهم فى الطريق مشقة انتظار الطعام ، ومشوا حولها يتناقشون . . . يقول هذا : أنا الذى أحمل الخبز ، وتقول هذه : لا . . أنا التى أحمله . . . ويقول هذا : أنا الذى أصون الجبن ، وتقول هذه : لا . . . أنا التى أصونه . . . ثم يقول هذا : أنا الذى أجلس إلى جنب أمى وقت الأكل ، وتقول هذه : لا . . . أنا التى أجلس إلى جنبها . . .

حتى إذا كانوا على بعد خطوات من البدال كان النقاش بينهم على أشده ، فعثرت أمهم بأحدهم فكادت تسقط على الأرض وسقطت النقود من يدها . . . فقفزت لترد القضاء ولكن القضاء أسبق ! ! حمل القرش والنصف إلى الطين ثم إلى الخفاء

يالله ! ! بالله ! ! ماهذه الدنيا ؟ إنها لاترحم ولاتعرف اللين فى القسوة . نكبت هذه الأسرة بالفقر ثم لم يرضها هذا حتى نكبتها بفقر الفقر ! يا أيها الأغنياء . . . كيف يحل لكم عيشكم الرغيد وفى الحياة مثل هذه الأسرة ؟

ومدت المسكينة يدها فى الطين تبحث فلم تجد شيئا ... وجعلت تبحث فلا تجد ... ثم وقفت ذاهلة وعيناها تذرفان ما سال من حشاها

ثم جمعت أولادها الباكين وعادت ... ولكن كيف عادت ؟ عادت محطومة يستغلق على إحساسها كل ما حولها ... فلا تسمع شيئا مماترى ، ولاترى شيئا مماتسمع ؛ وكأنما انفضت من حولها الدنيا فلم يبق إلاهى وأولادها ، ومابينها وبينهم إلاأنين وأنين ...

وإنهم ليقتحمون ظلمة الطريق بظلمة اليأس إذ أفلت الولد الصغير من بينهم فتأخر ...

ثم صاح وهو يجرى ليلحقهم : أماه ... لقد وجدت قرشا ! وأخذت الأم مافى يده فاذا فى يدها قطعة فضية بعشرين قرشاً ...

ياأرحم الراحمين ... ودارت الأم ، ودار أولادها معها ومضوا ... ومضوا إلى السوق

طنطا — السيد محمد زيادة

البريد الأدبي

التعاون الأدبي بين الشرق والغرب

ليس من ريب في أننا ندين بكثير من تكويننا العقلي الحديث للغرب ولآثار الثقافة والآداب الغربية، فنحن ننقل عنها وننتفع بها منذ أجيال، ولها أكبر حظ من قراءتنا واطلاعنا. بيد أننا نستطيع من جهة أخرى أن نقول أن الأمم الشرقية بدأت تكوينها الأدبي الحديث، وأخذت تسير في طريق الانتاج المستقل وأخذ الغرب من جانبه يعنى بآدابنا كما نعنى بآدابه وإن كانت هذه العناية لاتزال محدودة. ولقد ترجمت إلى كثير من اللغات الأوربية بعض الآثار الشرقية الرائعة المحدثة، وكانت الهند أوفر الأمم الشرقية حظاً من ذلك؛ فآثار تاجور مثلا تعرف في الغرب كما تعرف آثار أعظم كتابه العالميين، وقد كانت الآداب العربية المحدثة أقل حظاً في هذا الميدان، فلم يعن الغرب بها عناية كافية إما لأنها لاتستحق في نظره أن يعنى بها، وإما لتقصير من جانبنا في التعريف عنها؛ بيد أنه يلوح لنا أنه قد تتاح في المستقبل القريب فرص جديدة للتعاون الأدبي بين الآداب العربية والغربية، فقد أثيرت مسألة النقل والترجمة في أكثر من مؤتمر دولي في الأعوام الأخيرة، وأدلت مصر بصوتها في هذه المؤتمرات على يد نادي القلم المصري؛ وقد بدت أخيراً نتائج هذه الحركة بصورة عملية؛ فقد تقدمت بعض هيئات النشر الانكليزية إلى نادي القلم المصري تطلب معاونته في التعريف عن بعض الآثار العربية المصرية التي تصلح للنقل إلى الانكليزية، وذلك لتترجم وتنشر بالانكليزية، والمعروف أن هذه الهيئات قد وضعت مشروعاً كبيراً لترجمة الآثار الشرقية النموذجية إلى الانكليزية، وأفسحت فيها مجالا كبيرا للآثار العربية؛ وسوف يعنى نادي القلم المصري ببحث هذه المسألة واختيار الآثار النموذجية الصالحة؛ والمرجو أن يسفر هذا التعاون في القريب العاجل عن أثره المحمود في التعريف عن طائفة من كتابنا وآثارنا، وأن يتسع نطاقه مع الزمن حتى يغدو تبادلا حقيقيا بين الآداب الشرقية والغربية.

مهرجان أولمبي للآداب والفنون:

وقفنا في الصحف الفرنسية الأخيرة على نبأ مشروع طريف تبحثه اليوم بعض الدوائر الأدبية في مدينة مونبليه، ذلك هو السعي إلى إقامة مهرجانات دولية أولمبية تمثل الحركة العقلية والفنية. ولقد قيل في ذلك إن المهرجانات الأولمبية التي تقام في عصرنا لا تمثل إلا ناحية واحدة هي الثقافة الرياضية، وهذه الناحية لا تمثل كل ما رتبه القدماء على إقامة الاحتفالات الأولمبية، فقد كانت هذه المهرجانات الشهيرة تضم عدا الرياضيين عدداً كبيراً من المفكرين والموسيقيين والفنانين يعرضون ثمرات قرائحهم إلى جانب الألعاب الرياضية ويمثلون بذلك القوة العقلية والمهارة الفنية كما تمثل الألعاب القوة البدنية والمهارة الرياضية. ويرى أصحاب هذه الفكرة أن ينظم كل أربعة أعوام مهرجان أولمبي عقلي وفني في إحدى مدن أوربا التي اشتهرت بتراثها الفني أو الثقافي مثل أوكسفورد وفلورنس وهيدلبرج ومونبليه ورومة وأثينا وغيرها. وتختار كل أمة من الأمم المشتركة في المهرجان وفداً يضم بعض المفكرين والشعراء والموسيقيين والفنانين يعرضون في المهرجان ثمرات الحركة العقلية والفنية في بلادهم في شكل قطع شعرية أو موسيقية أو تمثيلية أو محاضرات يلقيها أو يمثلها الاخصائيون كل في ناحيته، وإن يقع الاختيار بالأخص على كل ما يصلح للعرض أو الالقاء التمثيلي، ويختص كل وفد بيوم يعرض فيه ما لديه على ممثلي الأمم الأخرى، ويشمل البرنامج إقامة حفلات تمثيلية وموسيقية وراقصة عامة تتبارى فيها مختلف الوفود، ويقترح أصحاب الفكرة أن تكون مدينة مونبليه مركزاً لأول مهرجان أولمبي عقلي إذ هي مهد قديم من مهاد الثقافة من الجنوبية، ثم يعقد المهرجان بعد ذلك كل أربعة أعوام في إحدى المدن التي اشتهرت بتراثها العقلي أو الفني والتي لها طابع عالمي

نقول وهذا مشروع بديع بلا ريب ، ومن المحقق أنه يلقى تأييداً من المفكرين والفنانين فى أنحاء العالم ، ومن المحقق أن تنفيذه يعاون فى تقارب الشعوب وتعاونها معاونة لا تحققها المهرجانات الأولمبية الرياضية

أثر الفراعنة فى الفن السينمائى

هل تصدق أن الأفلام الفكاهية التى تعرف باسم «مكى ماوس» والتى غدت من أشهر المناظر السينمائية فى عصرنا إنما ترجع إلى أصل فرعونى ؟! هذا ما يقوله العلامة الأثرى البلجيكى الأستاذ جان كابار نزيل مصر الآن ؛ فهو يقول لنا إنه انتهى فى مباحثه إلى أن هذه المناظر والصور المحدثة قد عرفت فى مصر الفرعونية قبل أربعة آلاف عام ، وأنها وجدت مرسومة على القبور الفرعونية قبل أن تظهر على شعار السينما ؛ ويستدل العلامة المذكور على صدق نظريته بما يأتى:

أولا — يوجد فى متحف القاهرة صورة للملكة ماكيت وهى تشبه ميكى ماوس شبها عجيبا ، وقد صورت وهى تتلقى احترام رعاياها

ثانيا — يوجد فى متحف بروكسل الملكى وفى متحف التاريخ صورة لهذه الملكة ترى فيها وهى تتناول طعامها وأمامها قطة تقوم بخدمتها

ثالثا — توجد فى متحف تورينو لوحة من ورق البردى صورت عليها صورة جوقة موسيقية من عدة حيوانات : حمار بيده معزف ، وأسد ينفخ فى مزمار ، وتمساح بيده قيثارة ، وقرد يقود الفرقة بحركاته وينفخ فى مزماره ؟ وهذه الصورة تماثل شريطا من أشهر الأشرطة الفكاهية من نوع مكى ماوس التى عرضت أخيرا فى دور السينما

فى ذلك كله ما يدل على أن المصريين القدماء مع تمسكهم بالرسوم الدينية العميقة ، وتعلقهم بالشعائر المقدسة ، كانوا فى نفس الوقت يمزجون فنونهم الرصينة ونقوشهم المقدسة ، بنوع من الفكاهة ، وعلى أنهم قد عرفوا قبل آلاف السنين أن يتخذوا من الحيوانات رموزا لتمثيل الأفكار الفكاهية والسخرية الانسانية على نحو ما يبدو الآن فى الأفلام التى اتخذ أبطالها من الحيوانات وهى المعروفة بميكى ماوس

كتاب جديد عن مصر :

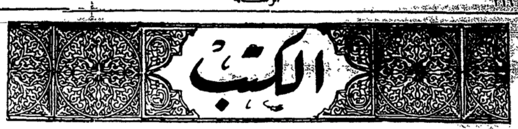
صدر أخيراً بالألمانية كتاب جديد عن مصر وضعه أستاذ مجرى كان مديراً لمتحف فؤاد الزراعى وعنوانه : الاقتصاد الزراعى فى مصر المعاصرة « Die Landwirtschaft im heutigen Agypten » وفيه أبحاث مستفيضة فى كل ما يتعلق بشؤون مصر الاقليمية والزراعية والصناعية ، مثل تربة الأرض والنيل وطرق الرى وخزان أسوان ، والمواسم الزراعية ، والمحاصيل ، وزراعة القطن ونسجه . والقروض الزراعية والتعاونية واستغلال المصايد والملاحات وشؤون المواصلات والتجارة الخارجية وغيرها مما يتصل بموضوع الاقتصاد الزراعى ، ويختتم المؤلف كتابه ببحث قيم فى وسائل تنمية الاقتصاد الزراعى المصرى . ويبدى فى بحوثه خبرة واطلاعاً واسعين ، وقد تولت نشره مطبعة « شوليه » فى فينا

رنيه بنجامان

قدم القاهرة منذ أيام قلائل الكاتب الفرنسى الكبير رنيه بنجامان ، وقد ألقى محاضرة شائقة عن « رسائل بلزاك الغرامية » وسيلقى محاضرة أخرى فى الخامس والعشرين من هذا الشهر عن « موليير وشخصيته » بقاعة يورت التذكارية . ومما يؤثر عن الكاتب الكبير أنه من أقدر المحاضرين فى فرنسا ، فهو يتمتع فى الالقاء بمواهب ساحرة ، وأسلوبه جذاب رائع ، وقد اشتهر بمحاضراته الأدبية والتاريخية الشائقة

كتاب الفصول والغايات لأبى العلاء المعرى

هذا الكتاب الغريب فى بابه العجيب فى أسلوبه قد وضعه أبو العلاء فى الوعظ وتمجيد الله فزعم بعض أعدائه أنه يعارض به القرآن . وقد فقد هذا الكتاب فيما فقد من آثار هذا الفيلسوف حتى عثر على جزئه الأول الأستاذ محب الدين الخطيب وأهداه إلى المرحوم تيمور باشا ، ثم قيض الله له صديقنا الأستاذ محمود حسن زناتى أمين الخزانة الزكية سابقاً فأخذ يقدم له ويعلق عليه ويشرحه ويصححه ، وسيقدمه إلى الطبع عما قليل وهى بشرى نزفها إلى أصدقاء أبى العلاء من أعيان الأدباء والعلماء



شعراء مصر وبيئاتهم

فى الجيل الماضى

تأليف الأستاذ عباس محمود العقاد

أحوج ما يحتاج إليه أدبنا سواء فى ذلك قديمه وحديثه ، معرفة مكانة الأدباء والشعراء ، لا من حيث البلاغة والفحولة والمعانى الشعرية فى ذاتها فحسب ، بل من حيث الخاصية النفسية لكل منهم ونوع مزاجه ووشائجه الانسانية ونظرته إلى الطبيعة وفلسفته فى الحياة إن كانت له نظرة وفلسفة

وقد تناول الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد فى كتابه الأخير شعراء الجيل الماضى يتخللهم بلحظه الناقد وطبعه القويم ، فاذا الرعيل المحشود فى صعيد واحد تتبين له ألوان وشيات مهما خفت وتقاربت ، وتتميز له ملامح وسمات مهما خفيت وتشابهت ، وإذا بكل شاعر من شعراء ذلك الجيل مبيت فى حيزه ، وكل أمر من أموره مقرر فى نصابه . وقد انتظم الكتاب بين دفتيه الساعاتى وعبدالله فكرى وعبدالله نديم وعلى الليثى ومحمد عثمان جلال ومحمود سامى البارودى وعائشة التيمورية وحفنى ناصف واسماعيل صبرى والسيد توفيق البكرى ومحمد عبدالمطلب وحافظ ابراهيم وشوقى ثم كلمة ختام عن مدارس الشعر بعد شوقى

والأستاذ العقاد فى كلامه عن هؤلاء لا يرسل القول إرسالا ، بل يدعمه كعادته بما أحاط به تحصيله الواسع وأدركه تفكيره العميق من بحوث عالية فى رسالة الأدب للحياة وموازينه الصحيحة والفروق الفاصلة بين شعر الصنعة وشعر الطبع وبين الذوق الخاص والذوق العام

« فالذوق ذوقان : فأما الشائع منهما فهو الذوق الذى يتملى الجمال ويستحسنه حين يراه معروضا عليه . وأما النادر منها فهو الذوق الذى يبدع الجمال ويضفيه على الأشياء ولا يكون قصاراه أن يتملاه حيث يلقاه أو يساق إليه .

فالذين يحبون محاسن الطبيعة كثيرون يحسبون بعشرات الألوف وكل من يخرجون إلى الرياض ويجلسون على الجداول ويسهرون فى القمراء ويستمعون إلى شدو العصافير ويبتغون منازه الأرض فى المواسم وأيام البطالة — هم محبون للطبيعة يشغفون بها كما يشغفون بالفرجة والاسترواح . وقد يشبههم فى هذا بعض الأحياء التى تغرد على الشجر كلما آن الأوان أو تأوى إلى الظلال والأمواه كلما حنت إلى الراحة وبرد الهواء .

ولكن هذا هو الذوق الشائع كما قلنا ، وليس هذا هو الذوق الخالق المحى الذى يضيف من عنده شيئاً إلى شعور الناس بما يراه ويصفه ويحكيه

إنما صاحب الذوق الخالق المحى هو الذى ينقل إليك إحساسه بالشىء القديم الموجود بين جميع الناس ، فاذا بك كأنك تحسه أول مرة لما أودعه فيه من شعوره وما أضفاه عليه من طرافة . فاذا وصف البحر أو السماء أو الصحراء أو الروضة فكأنما هو يجعلها بحره وسماءه وصحراءه وروضته لفرط ما مزج بينها وبين مزاجه وشعوره . وتسرى إلى القارىء هذه الجدة فيرى هذه المناظر بعين غير التى كان يرى بها مألوفاته

ومن ذلك المعين الفياض نبع وصف الأقدمين للطبيعة ومحاسنها ومخاوفها فتمثلوها ـ لفرط شعورهم بها ـ عرائس وحوراً وأطيافاً وأرواحاً وبثوها جنة وشياطين وأغوالا . لأنهم عاشوا فيها وعاشت فيهم فزجوها بدمائهم ولم ينظروا إلى الطبيعة كأنهم ينظرون إلى « سجادة » منسقة الخيوط مزبرقة الألوان مريحة لمن يمشى فوقها أو ينام عليها كما يستريح العديد الأكبر من رواد الرياضة فى منازة الخلاء

فالرياض ـ عند الشاعر من هؤلاء ـ والخمائل والجداول والأنهار والسموات هى بعينها رياض زوار « المواسم والآحاد » وخمائلهم وجداولهم وأنهارهم وسمواتهم لا تزيد ولا تنقص . . . . وإن بيتاً واحداً كبيت البحترى الذى قاله فى الربيع :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا من الحسن حتى كاد أن يتكلما

ليساوى كل ما نظم شاعرهم فى ربيعياته وريحانياته : لأن الطلاقة والاختيال والبشاشة والحسن الذى يهم بالكلام هى علامات الربيع المبثوث فى النفوس . وكل كلمة من هذه الكلمات تدل على النفس الحية التى تشاهد الربيع أكثر من دلالتها على الربيع الظاهر فيما يبدو للعيان أو على « السجادة » المزخرفة بالاصباغ والنقوش والدوائر

والخطوط . . . ولو لم يكن البحترى قد أحس بشاشة الطلاقة وزهو الاختيال وفرح الحياة النامية ونجوى الحسن المتكلم حين شهد ربيعه لما كان لزاما أن يذكر هذه الكلمات ويجمع بين هذه الصفات. ولكانت له مندوحة عنها بوصف الأحمر أو الأخضر يبحث له عن أحمر أو أخضر مثله فى محفوظات المشبهين . وبوصف العطر يطلق حوله الند والبخور، وكلمة من هنا وكلمة من هناك عن الخدود والعيون والوجد والهيام على نحو ما يفعل شعراء الصنعة

وشعر الصنعة ليس على نهج واحد كله . فمنه ما هو زيف فارغ لا يمت إلى الطبيعة بواشجة ولا صلة . وليس فيه إلا لفظ ملفق وتقليد براء من الحس والذوق والبراعة . ومنه ما هو قريب إلى الطبيعة ولكنه - كما قدمنا - منقول من القسط الشائع بين الناس . فليس فيه دليل على شخصية القائل ولا على طبعه ولا تتبين فيه لمحة من الملامح ولا قسمة من القسمات التى يتميز بها إنسان بين سائر الناس

وليس هذا بشعر النفس الممتازة ولا بشعر النفس « الخاصة » إن أردنا أن نضيق معنى الامتياز . وليس هو من أجل ذلك بالشعر الذى هو رسالة حياة ونموذج من نماذج الطبيعة . وإنما ذلك ضرب من المصنوعات غلا أو رخص على هذا التسويم

والفرق بينه وبين شعر « الشخصية » أن الشخصية تعطيك الطبيعة كما تحسها هى ، لا كما تنقلها بالمجاورة والسماع من أفواه الآخرين . فهذه هى الطبيعة وعليها زيادة جديدة مطلوبة أبدا ، لأن الحياة والفن على حد سواء موكلان بطلب « الفرد » الجديد أو النموذج الحادث ، أو موكلان بطلب « الخصوص » والامتياز لتعميمه وتثبيته والوصول منه إلى خصوص بعد خصوص وامتياز بعد امتياز

وأقرب ما يمثل به لذلك زارع يستنبت صنوف الثمار لينتقى منها « المميز » فى صفة من الصفات المطلوبة . فاذا عثر بالثمرة الواحدة التى وصل فيها إلى غرضه قومها وحدها بعشرات الأفدنة من الثمرات الشائعة عند غيره ، لأنه بهذه الثمرة الواحدة ليستأثر بالطلب والاقبال ويعفى على ثمرات الشيوع والعموم

وهكذا الشخصية الممتازة فى عالم الشعر أو فى عالم الحياة عامة : هى عندنا وعند الحياة التى أنشأتها أقوم من جميع المتشابهات الشائعات وإن كن جميعا مطبوعات غير مقلدات ولا زائفات

وإنما يستحق الشعر أن يسمع ويحفظ حين يكون كهذا الشعر - وقد أورد الأستاذ أروع الأمثال عليه - الذى يرينا ما فى الدنيا وما فى نفس إنسان ، ونعرف فيه الطبيعة على لون صادق ولكنه أيضا لون بديع فريد لأنه لون القائل دون سواه ، فتجتمع لنا غبطة المعرفة من طرفيها ، ويتسع أمامنا أفق الفهم وأفق الشعور ، إذ يتكرر الشعور الواحد باختلاف الشعراء كأنه مائة شعور ، ويتكرر فهم الحقيقة الواحدة كأنها مائة حقيقة ، وتلك هى الوفرة التى تتضاعف بها ثروة الحياة ، ونصيب الأحياء منها ،

وفى هذه الصفحات التى أدمجناها ما يجعل الاضافة والتعقيب فضولا ما . وإن القارىء بعد هذا الذى قدمناه لاشك مؤثر أن يخلو بالكتاب ونفسه

« ص »

أحـــــلام الصبا

للأديب إدوار حنا سعد

١٣٠ صفحة من القطع المتوسط

طبع بمطبعة مصر بالاسكندرية

قليل من أدباء الشباب فى مصر من يجمع فن القصة إلى جانب الشعر . فالأديب الناشىء فى طور التثقيف عادة إما أن يقتصر على قرض الشعر ويتجه إليه بكليته حتى يجعله يطغى على غيره من فنون الأدب . وإما أن يقتصر على القصة فتملك عليه زمامه وتشغله عما عداها من أغراض الأدب الأخرى ، وإما أن يجمع بين الاثنين فيغلب أحدهما على الآخر ويطغى عليه

وبين يدى الآن مجموعة من الشعر والقصص أهداها إلى صديق أديب جمعها فى كتاب أسماه « أحلام الصبا » . وقد قدم الأستاذ نخرى أبو السعود للكتاب بمقدمة قصيرة ، تناول فيها شخصية المؤلف ببعض التحليل ثم تكلم عن القصص وتحدث عن استقلال الكاتب فى موضوعاته ومتانة صياغته للقصة ، وربط أجزائها وحسن نسجها . وختم الأستاذ مقدمته بالكلام عن الشعر مستدلا ببعض بيوت المؤلف فى معرض حديثه

ننتقل بعد ذلك إلى قسم القصص فى الكتاب . . . فنرى أن قصص المؤلف وإن كانت تدور حول موضوعات مطروقة من قبل إلا أنها حسنة السبك متينة الصياغة ، تسبغ عليها البساطة روعة الحقيقة . وأذكر منها هنا قصة « أحلام الصبا » وقصة « رقصة شيطان »

وأما الشعر فهو يشغل النصف الثانى من الكتاب ، وللمؤلف نزعة شعرية وطابع خاص فهو يميل إلى الشعر الغنائى ، ولذا كثيرا ما نراه يختار لذلك البحور القصيرة ، وهو لا يهتم بجانب المعنى

قدر أهتمامه بموسيقية الألفاظ ، فكثيرا ما يخرج القارىء من بعض قصائده دون أن يلفت نظره معنى جديد . أما شعره فى جملته فسهل الألفاظ ، رقيق الديباجة ، موسيقى التوقيع . . ومن جيد شعره قصيدة « أنت وأنا » وقصيدة « لقاء الحبيبين » .

والمؤلف من أدباء الشباب الذين جمعوا بين القصة والشعر ، وغلب أحدهما على الآخر ، فنرى القصة غالبة عليه ، وأغلب الظن أنه لو والاها وصرف فيها بعض عنايته لكان له فيها مستقبل زاهر

أحمد فتحى مرسى

طلعت حرب

للأدباء : حافظ محمود ، مصطفى الفلكى ، محمود فتحى عمر
١٨٠ صفحة من القطع الكبير طبع بمطبعة مصر .

كثيرا مايطالعنا كتاب الغرب وأدباؤه بدراسات تحليلية طويلة ، وبحوث فائضة فى حياة زعمائهم ، اعترافا بفضلهم وإشادة بذكرهم وحثاً لغيرهم على الاقتداء بهم والنسج على منوالهم

وهذه الناحية التحليلية التى نراها بين أدباء الغرب قلما نجد لها أثراً ظاهراً فى الأدب الشرقى . . . . فأدباء الشرق لا يعنون بدراسة زعيم ما ، مادام بين ظهرانيهم ، وما دامت تجرى فيه دماء الحياة ، حتى إذا ضمه القبر وواراه التراب ، بدأوا يجمعون شتات أخباره ، وتبير آرائه وأفكاره ، فيما يسمونه بحث فى حياة الراحل ، أو تحليل لشخصية الفقيد

وبين يدى الآن كتاب أعده منوالا يجب النسج عليه ، وثمرة فكرة طيبة يجب اقتفاء أثرها ، وضعه ثلاثة جمعتهم بزعيم مصر الاقتصادى « طلعت حرب باشا » صلة وثيقة ، فألموا بدقائق حياته عن قرب ، ودرسوا شخصيته عن كثب ، ثم كشفوا لنا فى كتابهم عن صفحات ناصعة من حياة ذلك الرجل العظيم ، ودرسوا ماضيه وحاضره ، وبينوا لنا آراءه وأفكاره لافى الناحية الاقتصادية فحسب ، بل فى غيرها من نواحى المجتمع ، مستدلين بصفحات من مؤلفاته ونبذ من خطبه

وقد وفق الأساتذة المؤلفون إلى متانة نسج الكتاب وحبك خيوطه ، بما لا يجعل الملل يتسرب إلى نفس القارىء أو يدركه الضيق من طول الكتاب

(ف)

ثورة العرب الكبرى

تأليف السيد عبد الحميد راضى

١٢٠ صفحة . ورق صقيل . مطبعة الجزيرة ببغداد

من بواعث الغبطة والسرور ، أن نرى تلك النهضة الأدبية التى يحمل لواءها شباب العراق ، والتى تنتظم ربوع دجلة والفرات تنشط يوما بعد يوم ، فتعيد إلى الأذهان سيرة السلف الصالح وذكريات الماضى المجيد . . .

وأمامى الآن قصة شعرية طريفة وضعها أديب عراقى ، وتناول بها موضوع الثورة العربية الكبرى ، فبسط لنا دقائقها وصور حوادثها . وقد بدأت القصة بتمرد العرب على الأتراك ، وانتهت بوفاة الملك حسين بعد أن تنازل عن العرش لولده الملك على

وقد راقنى موضوع القصة بقدر ماراقنى أسلوبها ، فالمؤلف فى كتابه قوى الصياغة ، متين النسج ، غير متكلف النظم يرسل الشعر إرسالا على سجية الشاعر المطبوع دون تصنع أو تكلف

ولا يسعنى هنا إلا أن أهنئ المؤلف بكتابه الفريد كما أهنىء العراق بأدبائه النابهين وشبابه الناهض

أ . ف

كتاب الشهر

تتقدم دار الثقافة العامة ، وقوامها جماعة من شباب الجامعة وخيرة رجالها ، وكبار أصدقائها إلى قراء العربية فى أقطارها بمشروعها الجديد « كتاب الشهر » وهو سلسلة من المؤلفات ، يخرج كل مؤلف منها فى موضوع مستقل يكتبه عالم أو مؤرخ أو أديب أو بحاثة متخصص : وتكون غاية هذه الكتب تلخيص وتيسير مباحث العلم والتاريخ والأدب والسياسة وتقريبها فى أسلس أسلوب إلى أذهان قرائها ، مراعية إلى جانب الدقة فى اختيار المواضيع حسن العرض ، ورخص الثمن حتى تكون فى متناول الجميع . وقد اختيرت طائفة من فروع

العالم المسرحي والسينمائي

روميو وجوليت لشكسبير

اخراج ايرفنج تالبرج

لناقد « الرسالة » الفني

استطاع المرحوم « ايرفنج تالبرج » أن يخلد اسمه فى عالم السينما كمخرج قوى وعظيم باخراجه رواية روميو وجوليت. وتالبرج هذا كان من كبار مخرجى شركة مترو جلدوين ماير الذين يشار إليهم. كان جريئا مجددا، عمد إلى اقتباس أشهر المسرحيات العالمية الحديثة واخراجها على الشريط. وتاريخه جليل حافل ولكنه فى اخراجه البديع لهذه الرواية أضاف مجداً إلى مجد، وكان هذا الفلم خير عمل يختم به مخرج حياته الحافلة.

لم يكن تالبرج أول من اقتبس أعمال شكسبير للسينما الناطقة، بل سبقه إلى هذا المخرج المسرحي والسينمائي العظيم « ماكس رينهارت » إذ أخرج رواية « حلم ليلة صيف » A Mid Summer Night's Dream وهى أصعب روايات شكسبير فى الاخراج السينمائي، ولكن ذلك الفنان العبقرى استطاع أن يبرزها على الشاشة فى أجمل الصور وأحبها إلى النفس، فله فى هذا فضل السبق إلى جانب الروعة التى لم يدركه أو يدانه فيها أحد. على أن أهم ما يمتاز به اخراج تالبرج هو الصدق وعدم المغالاة، والدقة فى ابراز حوادث الرواية والمحافظة على روحها واستعمال الحوار الشعرى الذى وضعه شكسبير نفسه

يعرف القراء أن اقتباس سيناريو من رواية مسرحية عمل من الصعوبة والدقة بمكان، لأن الكاتب يعمد إلى ترجمة الحوار إلى صور. وليس كل حوار يمكن أن يترجم إلى صور، والمسرحية مقيدة بزمان ومكان، ولكن روايات شكسبير تشذ عن هذه القاعدة، فالمسرح فى عهد شكسبير لم يعرف المناظر التى تتغير، لأن الستار لم يكن قد عرف بعد، وكانت الحوادث تمثل على مسرح مرتفع ويُكتَفى بابراز لوحة صغيرة مكتوب عليها اسم المكان الذى تجرى فيه الحادثة، وعلى رواد المسرح أن يتخيلوا المنظر أمامهم، ولهذا لم يتقيد المؤلف بالمكان فكثرت المناظر فى الرواية الواحدة وكانت نتيجة ذلك تتابعا مستمرا فى الحوادث دون انتقال مفاجىء أو انقضاء فترات طويلة بين فصل وآخر؛ وهذا يشبه فى نواح

المعرفة العامة لتصدر بها السلاسل الأولى من كتب الشهر، وهى السياسة الدولية فى أشخاص قادتها العالميين المحدثين. والتاريخ الاسلامى يمثله ستة من عظمائه لكل كتاب على حدة، وتاريخ مصر الحديث فى كتب ستة، وتاريخ العقائد الشرقية القديمة يبحث تاريخ آلهتها وأنصاف آلهتها فى أبدياتها

وبين يدى القراء الآن، كتاب الشهر الاول عن هتلر وسيتبعه فى الشهر التالى كتاب ثان عن موسولينى ثم ديفاليرا ثم مصطفى كمال ثم ستالين

فاقتناء هذه السلاسل، والحرص عليها، يكون لدى أصدقائها بعد مدة وجيزة، مكتبة نفيسة لن تقل قيمة عن مكتبات كتب الجيب والست بنسات وغيرها التى عرفت فى اللغات الأوربية. ولتيسير إقتناء السلاسل، وضعنا نظاما للاشتراك فيها، وهو عشرة قروش لكل سلسلة، أى أنها تكون ثمناً لستة كتب (وتتضاعف القيمة للخارج)

ويسر دار الثقافة العامة، أن تجد لغيرتها على مستوى الفكر المصرى العربى صدى يكون المكافأة الحقة لجهودها بعد أن اتضح من رخص أثمان الكتب، وقيمة الاشتراك فى سلاسلها إلى جانب جودة الطبع، ما ينفى كل فكرة عن أن غايتنا هى مجرد الاتجار أو الكسب

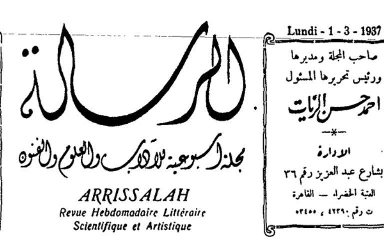
محمد صبيح

5me Année, No. 191

بدل الاشتراك عن سنة

	مـ
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣



ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

Lundi - 1 - 3 - 1937

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٠

السنة الخامسة « القاهرة فى يوم الاثنين ١٨ ذى الحجة سنة ١٣٥٥ — ١ مارس سنة ١٩٣٧ » العـــدد ١٩١

ثقافة مصر المستقلة

يجب أن تقوم على أسس جديدة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

مصر فى مفتتح عهد جديد ، لا يتناول مركزها السياسى فقط ، بل يتداول أيضا كل شىء فى حياتها العامة . ذلك أن التطورات السياسية العميقة تحدث أثرها دائما فى سائر نواحى الحياة الاجتماعية والفكرية لأمة من الأمم ؛ وقد كان تكوين مصر الاجتماعى فى العصر الحديث وليد تطورات وأحداث سياسية خاصة ، تختفى اليوم من الافق ليحل محلها عهد جديد بكل معانى الكلمة ؛ وسيحدث العهد الجديد أثره فى حياتنا الاجتماعية والفكرية ؛ وستتوقف آثاره ونتائجه على مبلغ ما تبديه مصر ذاتها من استعداد وطموح

ومن المعروف أن العوامل المعنوية فى تقدم الامم تسبق العوامل المادية دائما ؛ ومصر الآن فى مستهل المرحلة الأولى من العهد الجديد أى فى طور التكوين المعنوى الذى يلائم هـذا العهد . ولما كانت هذه المرحلة من أدق المراحل فى حياة الأمم الناهضة ، فانه يجب على مصر أن توليها أوفر عناية حتى تستطيع أن تشيد خلالها تكوينها المعنوى الجديد على خير الأسس التى تمهد لها طريق التقدم والنهوض

فهرس العـــدد

ولا ريب أن الثقافة القومية هي أقوى دعامة يقوم عليها كيان الأمة المعنوي ؛ وقد قطعت مصر بالفعل في هذا الميدان خطواتها الأولى ، حتى قبل أن تحقق استقلالها السياسي ؛ ولكنها مازالت في مفترق الطرق تنقصها عناصر الاستقرار في توجيه ثقافتها الجديدة . وهذا التردد طبيعي في تكوين الثقافات القومية الناشئة ؛ بيد أنه يجب ألا يطول عهده ، ويجب أن تحل مكانه عوامل الاستقرار المنشود بسرعة ؛ وعندئذ يبدأ بناء الصرح المعنوي الذي يقوم عليه كل شيء في حياة الأمة الجديدة

ومصر تتمتع اليوم بثقافة حسنة ، ولكن ينقصها كثير من العناصر القومية الحيوية . ومن الصعب أن نحدد لون هذه الثقافة أو نوعها ؛ فهي اليوم مزيج متباين من ثقافات مختلفة يرجع تكوينه إلى ظروف مصر السياسية والاجتماعية في العصر الأخير . ولقد قيل في مناسبات كثيرة إن مصر تتمتع بنوع من الثقافة اللاتينية وان هذا النوع من الثقافة . أعني اللاتينية . هو خير ما يلائم عقلية مصر ومشاعرها ، كأمة من أمم البحر الأبيض المتوسط الذي تغمر هذه الثقافة ضفافه الشمالية منذ العصور الوسطى . وان الأمر يتعلق هنا بعوامل جغرافية واجتماعية لا سبيل الى إنكارها ؛ بيد أننا نشك في صواب هذه النظرية : والواقع أنه إذا كانت الثقافة اللاتينية أو بعبارة أخرى الثقافة الفرنسية قد غلبت على الثقافة المصرية في القرن التاسع عشر ، فان ذلك يرجع بالأخص إلى حوادث وظروف تاريخية طارئة ، أخصها مقدم الحملة الفرنسية إلى مصر . وما بذلت خلال مقامها القصير بمصر من مجهودات علمية وثقافية محمودة ، وما كان من اعتماد محمد علي بعد ذلك على نصح المستشارين والعلماء الفرنسيين في تنظيم ثقافة مصر الجديدة ؛ هذه هي الظروف والعوامل الحقيقية التي نشأ فيها لون ثقافتنا اللاتيني ، ولا دخل هنا للعوامل الجنسية والجغرافية في هذا التطور الثقافي الطارئ ؛ والدليل على ذلك أن طابع ثقافتنا الفرنسي قد ضعف في العصر الأخير ، وقوى فيها الطابع السكسوني نظراً لتغلب النفوذ الانكليزي في شؤون التربية والتعليم ، وتسرب العوامل الثقافية الجديدة إلى المجتمع المصري

والآن ومصر في مستهل عهد جديد من تاريخها يمتاز بآفاقه الحرة المستقلة ، نرى أنه يجب على مصر أن تعمل ، كما تعمل جميع الأمم المستقلة الناهضة على أن تطبع ثقافتها الجديدة بطابع قومي واضح ؛ وأول ما يجب علينا في ذلك هو أن تجانب اصطفاء ثقافة أجنبية بعينها . وأن تنظر إلى مختلف الثقافات والحضارات نظرة واحدة تأخذ منها جميعا ما يصلح لانشاء ثقافتها الخاصة ، وان تنسق ذلك المزيج المستخلص من الثقافات المحدثة وتدعمه بالعناصر القومية التي تسبغ عليه طابعه القومي المنشود

والمعروف أن الثقافات القومية تعتمد دائما على أمور جوهرية منها اذكاء الروح والتقاليد الوطنية . وتقوية اللغة القومية ، وتدعيم المثل الأخلاقية . والعناية بالتاريخ القومي ، وتقديم الشؤون والدراسات القومية على غيرها . ولا مرية في أن ثقافتنا الحالية ضعيفة في معظم هذه النواحي ، فهي بعيدة أولا عن ذلك التخصص والاستيعاب اللذين تأخذ بهما جميع الثقافات المستقلة في الدراسات القومية . بل يلاحظ بحق أن ثقافتنا الحالية تعتمد على المعلومات والدراسات السطحية العامة ، فتقتبس القليل السطحي من كل شيء . ولا تتجه إلى التخصص والاتقان في شيء ؛ وهذا عيب جوهري يجب تداركه بأسرع ما يستطاع ، ثم ان ثقافتنا لا تكفي بصورتها الحالية لتغذية الروح الوطني الناشئ ، لأن أنظمتها وبرامجها الحالية وضعت في جو خانق من الريب والحجر على العواطف والأماني الوطنية ، فوجب أن تبحث من جديد في ظل العهد الحر الجديد . وان تفسح مجالا لكل ما يعاون في تنمية الروح الوطني ؛ ومن جهة أخرى فقد لبثت اللغة القومية . أعني اللغة العربية ، عصر أضحية هذه السياسة القديمة ، ولولا أنها استطاعت أن تقاوم ضغط الأجنبي بكل ما فيها من حيوية ، وأن تشق لنفسها طريقها المستقل خارج المعاهد الحكومية في الآفاق الحرة . لما استطاعت أن تنهض كما تنهض اليوم ؛ بيد أنه لا يزال علينا أن نحررها من شوائب المؤثرات والمنافسات الأجنبية التي تعرقل نهضتها ، والتي هي من بقايا عهد طويت صفحته ، فاللغة العربية يجب أن تتبوأ مقامها الأول في كل معاهدنا ودراساتنا كلغة اصلية لا تنافسها في هذا المقام أية لغة ، ويجب ان تكون لغة التربية والتعليم في كل مراحل الدراسة ، إلا ما اقتضته مصلحة الدراسة ذاتها ؛ ويجب أن يختفي من معالم حياتنا العامة ذلك المزيج المؤلم من لغات أجنبية يستعمل بلا ضرورة في كثير من دوائرنا ومصالحنا الحكومية ، بل وفي بعض بيئات مجتمعنا الرفيع ، فقد حان الوقت الذي يجب ان تختفي فيه هذه الآثار الأخيرة التي ترمز إلى سيادة فكرية او اتفاقية اجنبية لا وجود لها اليوم

أما عن دراسة التاريخ القومي التي هي اليوم من دعامات

الروح الوطنى فى جميع الأمم المستقلة ، فمن الأسف أنها انتهت فى العصر الراحل إلى حالة يرثى لها : وما زال التاريخ القومى يغمط حقه من جميع النواحى ، وما زلنا نتلقى عن تاريخ الامم والحضارات والشخصيات الأجنبية أضعاف ما نتلقى عن تاريخنا وتاريخ شخصياتنا وحضارتنا ، ولم يكن ذلك غريبا فى عهد السيادة الأجنبية لأنها تعرف بخبرتها فى طبائع الشعوب ومشاعرها أن الأمم ذات التواريخ الحافلة المجيدة ، تهتز فى عصور الضعف والانحلال لذكرياتها القديمة ، وتستمد منها الوحى والقوة فى مغالبة الخطوب وشحذ الشعور الوطنى ؛ وقد كانت أساليب التربية القديمة ترمى إلى محاربة ذلك الشعور وإضعافه . وكان التاريخ القومى من العناصر الثقافية التى قضى عليها بالمسخ والمحو تقريبا ؛ أما اليوم فان الاستقلال الوليد فى أشد حاجة لأن نحيطه بسياج من تاريخنا القومى . وان توطد دعائمه بما يبعثه إلى نفوسنا استعراض هذا التراث الحافل من اعتزاز وطموح إلى استئناف تاريخنا المجيد ، وربط مستقبلنا بماضينا ، وهذا عنصر فى تغذية الشعور القومى تعرفه الامم المستقلة وتعنى به أشد عناية

وأخيراً يجب ألا ننسى ما للناحية الخلقية فى تكوين الثقافة القومية من أهمية خاصة . ولسنا بحاجة لأن ندلل على أن المثل الأخلاقية الرفيعة يجب أن تكون غاية الغايات فى كل ثقافة عظيمة ؛ فاذا كان الماضى قد طوى بسيئاته ومثالبه المعنوية فمن ألزم واجباتنا فى العهد الجديد أن نعمل على إخراج جيل جديد يتمتع بالجرأة والصراحة واستقلال الرأى وسلامة التفكير والتقدير ؛ فهذه القوى المعنوية والأخلاقية ضرورية لحماية الاستقلال القومى ضرورة الجيوش ذاتها

والخلاصة أن ثقافتنا الجديدة يجب أن تكون وليدة ثورة حقيقية ، سواء فى نظمها أو روحها أو مادتها ؛ يجب ألا تكون ثقافتنا المستقبلة كما كانت فى الماضى ، معتركا لتنافس الثقافات والمؤثرات الأجنبية المختلفة . بل يجب أن تكون ثقافة مصرية خالصة ، حرة من كل تيار غير مرغوب فيه ؛ ويجب أن تكون ثقافتنا غزيرة عميقة فى نفس الوقت ، تأخذ بالتخصيص فى جميع الدراسات والشؤون الجوهرية ، ولا تخلو مع ذلك من التعميم النافع ؛ وأخيراً يجب قبل كل شىء أن يتبوأ الطابع القومى مقامه الأول فى صوغ ثقافتنا وفى توجيهها ؟

محمد عبد الله عنان

النحـــو

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

النحو علم لا أعرف منه إلا اسمه . وما أكثر ما أجهل وأضأل ما أعرف ! ولو كنت وجدت من يعلمنيه لتعلمت وما قصرت . وكيف بالله تنتظر منى أن أعرفه بالفطرة والالهام . . . كان أول من قيل لنا إنه معلم نحو رجلا قاسياً سيء الطباع سريع البادرة ، وكانت له عصاً قصيرة من الخيزران يدسها فى كمه ، حتى إذا أمن أن يراه الناظر أخرجها وسلطها على أجسامنا الصغيرة وأهوى بها على أيدينا وجنوبنا ورؤوسنا فلا يتركنا إلا بعد أن ينقطع نشيجنا وتخفت أصواتنا وتذهب عنا القدرة على الصراخ والاستنجاد ، فلم يكن أبغض إلينا من درسه . ومن المضحك أن ذلك لم يكن يخيفنا منه ولا يزيدنا إلا إلحاحاً فى معابثته . وكنت أنا أثقل التلاميذ عليه وأبغضهم إليه ، لأنى كنت - وأحسب أنى مازلت - شيئاً صغيراً جداً وخفيفاً مستدقاً لا أستقر فى مكان ، ولا أزال أنط من هنا إلى هنا ولا يكف لسانى عن الدوران . فكان نصيبى من هذه العلقات النصيب الأوفر وحظى هو الأجزل . وكان الناظر فيه سذاجة عجيبة لم تفتنا نحن الأطفال . وكيف كان يمكن أن يفوتنا التفطن إلى سذاجته ونحن مئات من الأطفال لنا مئات من العيون نفحصه بها ، ومئات أخرى من الآذان والرؤوس تسمعه وتتدبر أمره وتجسه وتختبره . . . فكنت أذهب إليه وأقول له على سبيل الملق والدهان : « يا سعادة البك » فيلتفت بوجهه الكبير إلى ويقبل على بابتسامته البلهاء ، فقد كانت الرتبة جديدة وفرحه بها عظيما . ويسألنى « مالك يا امن (بالميم فقد كان أخن) عبدالقادر » فأقول له : « ياسعادة البك ، الشيخ فلان ياسعادة البك معه عصا يخفيها فى كم القفطان ويضربنا بها ياسعادة البك » وكنت صادقاً ولكنه لم يكن يعرف أنى صادق : غير أنه كان يسمع « سعادة البك » تصافح أذنه مرات عديدة فى نصف دقيقة فيطرب ، ويصرفه الطرب عن التثبت فيقول لى - متآمراً معى - « طيب . رح انت إلى الفصل وعاكسه » اى والله كان يحرضنى

على معاكسة الشيخ المسكين ليضبطه - كما يقال - متلبساً بالجريمة ، أو كان يكتفى بأن يأمرنى بالعودة إلى الفصل ثم يدخل هو ويفاجئ الشيخ بانتزاع العصا من كمه ويوبخه أمامنا وينصرف . فتصيح أربعون حنجرة جديدة « هيه » فيكاد الشيخ يجن وينهال علينا ضرباً باليدين والرجلين فتنكشف سراويلاته فيعلو الصياح من جديد ، ولكنه يكون قد تعب وأضناه الجهد وبهر أنفاسه العدْو وراءنا فيقف وهو ينهج ويخرج المنديل من جيب القفطان ويمسح به العرق المتصبب ونحن جميعاً نتكلم وليس بيننا واحد يصغى إلى ما يقال

هذا كان أستاذنا فى النحو . ولو أنه كان موفقاً فى التعليم لكان الناظر وحده كفيلا بافساد الأمر عليه . فقد كان يتظاهر بالعلم بكل شىء وهو لا يعرف شيئاً . فاذا تورط ولم يسعه إلا الاعتراف بجهله قال : « جاهل جاهل . لكن إدارى تمام » ومن ظريف ما أذكره من نوادره أنه دخل علينا فى درس ترجمة وكان المعلم غائباً . ولم يكن هو يعرف ذلك وان كان فيما يزعم إدارياً حاذقاً . ولكنه سمع ضجتنا العالية فسأل فقيل له إن هذه الفرقة ليس فيها معلم ، فلم ينتدب غيره بل جاء هو إلينا بنفسه وبطوله وعرضه وسألنا : « مالكم يا أولاد ؟ » قلنا « يا سعادة البك المعلم غائب » قال « الدرس إيه » قلنا « ترجمة يا سعادة البك » فانشرح صدره واغتبط وأيقن أنه سيظل يسمع منا مايسره فقال : « طيب وايه يعنى ؟ » فقلنا « ياسعادة البك لم نفهم الدرس السابق ياسعادة البك » فسأل عن هذا الدرس السابق الذى استعصى علينا فقلنا له انه كان يحاول أن يعلمنا النفى فى اللغتين العربية والانجليزية ولكنا لم نفهم عنه . فأعرب لنا بعبارات صريحة عن دهشته وتعجبه لوزارة المعارف التى تعين مدرسين لا يحسنون تفهيم التلاميذ ، وأكد لنا أنه يعطف علينا لاننا نؤدى للوزارة أجور التعليم كاملة ولا نتعلم مع ذلك شيئاً . ثم قال ان المسألة بسيطة وأن النفى سهل جداً وأن أدواته فى اللغة العربية معروفة وهى « لا ولم ولن الخ » والأمثلة سهلة ومعروفة ، وشرع يسوق الأمثلة . فلما بلغ « لم » قال « مثلا » « لم كتب . لم ضرب . لم ذهب » فانفجرنا ضاحكين وكان لنا العذر . وكيف لا نضحك من « لم كتب ولم ضرب »

فلما سكنت العاصفة بعض السكون قال يوبخنا ويزجرنا ويعظنا : « تضحكون ؟ . . ابكون . . ابكون . . . » فلم يبق منا طفل على مقعده من شدة الضحك . ولم يسكتنا الخوف منه وإنما أبكتنا الألم الذى صرنا نحسه فى بطوننا من الضحك الطويل

هذا فى التعليم الابتدائى . أما فى التعليم الثانوى فقد كان أول معلم لى فيه مصاباً بالربو ، فكان لا ينفك يسعل ويتفل حتى توجعنا بطوننا . ولهذا كنا ننام فى درسه أونهرب منه اتقاء لوجع البطن . ثم صار لنا معلم آخر وكان سياسيا ولكنه كان فى هـذا نسيج وحده ، فكان يغلق النوافذ ليأمن أن يسمع أحد ما ينوى أن يقول - أعنى ما ينوى أن يفضى إلينا به من الأسرار . ثم يشرع فى الحديث فيصف لنا كيف كان الحكم المصرى على عهد الخديو اسماعيل ظالما ، فنجادله وينقضى الدرس كله فى هذا الجدل العجيب . ولست أدرى لماذا كان يجشم نفسه إغلاق النوافذ . ولو أن الناظر الانجليزى سمعه لكان حقيقا أن يسر لا أن يغضب ، ولكنى أحسبه كان يفعل ذلك ليكون تأثير كلامه فى نفوسنا أبلغ . والعجب بعد ذلك أن تلاميذه كلهم صاروا وطنيين متطرفين فى وطنيتهم لا خونة لبلادهم كما كان يشتهى هو أن يكونوا

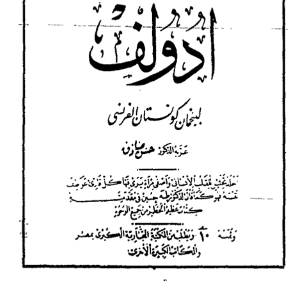
فممن كنت أتعلم النحو بالله ؟ . وما الذى كان يمكن أن يغرينى أن أتعلمه وحدى ؟ . ثم مافائدة هذا النحو الذى لم اتعلمه ولم احتج اليه . . وعسى من يسأل : « وكيف كنت تصنع فى الامتحانات ؟ فأقول إنى كنت أقرأ ورقة الأسئلة وأترك النحو إلى آخر الوقت ثم أتناوله وأروح أجمع طائفة من الأمثلة أستخلص منها القاعدة فأجعل هذا جوابى . ولا شك أنه كان لا يخلو من نقص ولكنه لم يكن خطأ كله . هذه كانت طريقتى وقد استغنيت بها عن حفظ ما فى كتب النحو . وأرانى الآن أصبحت كاتبا - وقد كنت فى زمانى شاعرا كذلك - وقد وسعنى هـذا وذاك بغير معونة من النحو . بل من غير أن أتعلم العروض . وأذكر أنى وأنا فى مدرسة المعلمين العليا كان الشيخ حمزة فتح الله هو الذى يتولى امتحاننا فى اللغة العربية - على الأقل فى احدى السنين - وكان من أعضاء اللجنة التى هو رئيسها الشيخ عبد العزيز شاويش وفتح الله بركات بك واستاذنا فى المدرسة ؛ وكنا ندخل على اللجنة واحداً واحداً

كما هي العادة فأخبرني الذين سبقوني إلى أداء الامتحان أن الشيخ حمزة عليه رحمة الله يفتح كتاب النحو والصرف ويأمر الطالب أن يسمعه الباب الفلاني، وكانت هذه مبالغة ولكنا صدقناها، فأيقنت أني مخفق ووطنت نفسي على معركة . وجاء دوري فدخلت، فناولني مقدمة ابن خلدون وقال افتحها في أي موضع واقرأ . ففعلت، فأمرني أن أضع الكتاب وشرع يسألني عن كلمة « العدوان » ما فعلها الثلاثي ولماذا يقال « اعتديا » - بفتح الدال للماضي - واعتديا « بكسرها للامر . فلم أعرف لهذا جوابا ، فقلت: « هكذا نطق العرب وعنهم أخذنا » . فألح في طلب الجواب المرضي فقلت « إن اللغة نشأت قبل القواعد . وأنا أنطق وأكتب وأقرأ كما كان العرب يفعلون من غير أن يعرفوا قاعدة أو حكما » فساءه جوابي ونهرني وخشي الشيخ شاويش العاقبة فقال له: « يا مولانا . العصر وجب » فنهض الشيخ حمزة لصلاة العصر وتركني لزملائه فأسرعوا في امتحاني قبل أن يفرغ الشيخ ويعود

وأحسب أن ماوسع العرب الأولين من معرفة العربية بلا نحو لا يعجز عنه أبناء هذا الزمان . ومن الميسور فيما أعتقد أن تحل قراءة الأدب العربي محل النحو . وليس يعجز رجال العربية عن وضع مختارات صالحة لكل سن . وإذا كان لابد من النحو فليكن ذلك عرضا وأثناء القراءة وعلى سبيل الشرح وللاستعانة به على الفهم ، وعلى ألا يكون ذلك درسا مستقلا يؤدى فيه امتحان .

أما الطريقة التي يتعلم بها أبناؤنا العربية فاني أراها مقلوبة لانها تبدأ بما يجب الانتهاء اليه . ومن ذا الذي يتصور أن صبياً صغيراً يستطيع أن يفهم ما الفعل وما الاسم وما الحرف ، وأن هذا يكون حكمه كيت وكيت وذاك يجري عليه كذا وكذا من . . وان هذه الفتحات والضمات والكسرات علامات إعراب أو لا أدرى ماذا هي ، وأن لفظا يكون مسندا ولفظا آخر يكون مسندا اليه إلى آخر هذه الألغاز التي لا يعقل أن يدركها طفل صغير . بل إني أنا الكبير أردت منذ بضعة أيام أن أراجع شيئا في النحو ففتحت وقرأت فيه شيئا ثم وضعته يائسا من الفهم ولجأت إلى وسيلة أخرى كانت أجدى علي من هذا الكلام الذي أراه يفهم ، وذلك أني كتبت الوجهين اللذين حرت بينهما واختلط علي الأمر فيهما فلم أعد أدري أيهما الصواب وأيهما الخطأ ، ثم ذهبت أنظر اليهما فالذي سكنت اليه نفسي أخذت به وتبينت بعد ذلك أن ما أخذت به كان هو الصحيح وأن عيني لم تخدعني وأن نفسي إنما اطمأنت إلى ما طال عهدها به من الصواب . أما ما لم تألفه أثناء مطالعاتي فقد رفضته . والطريقة التي أشير بها تجعل العربية سليقة على خلاف ما هو حاصل الآن فان أبناءنا يتعلمون العربية كما يتعلمون الانجليزية أو أية لغة أجنبية أخرى لا يشعرون بصلة بينها وبين نفوسهم . وكثيرا ما يتفق أن يخرج التلميذ وهو أعرف باللغة الأجنبية منه بالعربية . وليس بعد هذا فشل والعياذ بالله . واسأل من شئت فلن تجد أحداً لا يقول لك إن اللغة العربية انحطت - أعني ضعف العلم بها - في هذا الجيل . ولست أعرف لهذا سببا إلا أن التلاميذ لا يتعلمون اللغة وإنما يحفظون نحوا وصرفا وبلايا كثيرة أخرى مثل البلاغة الخ لا تعلمهم اللغة وإنما تبغضها اليهم ، فاذا كان التبغيض هو الغاية المنشودة فلا شك أن المعلمين قد وفقوا إلى ما لا مزيد عليه . أما إذا كان الغرض هو تعليم اللغة فخير الأساليب هو الأسلوب الطبيعي الذي يتعلم به الطفل الكلام

ابراهيم عبد القادر المازني



٣ – صعاليك الصحافة . . .

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

ولم يلبث أن رجع أبو عثمان فى هذه المرة وكأنه لم يكن عند رئيس التحرير فى عملٍ وأدائه ، بل كان عند رئيس الشرطة فى جنايةٍ وعقابها . فظهر منقلبَ السحنة انقلاباً دميماً ، شوّه تشويهة وزاد فيه زيادات .... ورأيتهُ ممطوط الوجه مطّاً شنيعاً ، بدت فيه عيناه الجاحظتان كأنهما غير مستقرتين فى وجهه ، بل معلّقتان على جبهته . . .

وجعل يضرب إحدى يديه بالأخرى ويقول : هـذا بابٌ على حدةٍ فى الامتحان والبلوى ، ومافيه إلا المئونة العظيمة والمشقة الشديدة ؛ والعملُ فى هذه الصحافة إنما هو امتحانك بالصبر على اثنين : على ضميرك ، وعلى رئيس التحرير . . وسأل بعض أصحابنا أبا لقمان الممرور عن الجزء الذى لا يتجزأ ماهو ؟ فقال : الجزء الذى لايتجزأ علىُّ بنُ أبى طالب عليه السلام . . . فقال له أبو العيناء محمد : أفليس فى الأرض جزء لا يتجزأ غيره ؟ قال : بلى . حمزة جزء لا يتجزأ . . . قال : فما تقول فى أبى بكر وعمر ؟ قال : أبو بكر يتجزأ . . . قال : فما تقول فى عثمان ؟ قال : يتجزأ مرتين ، والزبير يتجزأ مرتين . . . قال : فأى شىء تقول فى معاوية ؟ قال : لا يتجزأ

فقد فكرنا فى تأويل أبى لقمان حين جعل الأنام أجزاء لا تتجزأ إلى أى شىء ذهب ؟ فلم نقع عليه إلا أن يكون ابو لقمان كان اذا سمع المتكلمين يذكرون الجزء الذى لايتجزأ ، هاله ذلك وكبر فى صدره وتوهم أنه البابُ الأكبر من علم الفلسفة ، وأن الشىء إذا عظم خطره سموه بالجزء الذى لا يتجزأ » (١)

قلت : ورجع بنا القول الى رئيس التحرير . . .

فضحك حتى أسفر وجهه ثم قال : إن رئيس التحرير قد تلق الساعة أمراً بأن الجزء الذى لا يتجزأ اليوم هو فلان : وان فلانا الآخر يتجزأ مرتين . . . وأن المعنى الذى يبنى عليه رأى الصحيفة فى هذا النهار هو شأن كذا فى عمل كذا ؛ وأن هذا الخبر يجب أن يصوَّر فى صيغة تلائم جوعَ الشعب فتجعله كالخبز الذى يطعمه كل الناس وتثير له شهوة فى النفوس كشهوة الأكل ، وطبيعةً كطبيعة الهضم . . . وقد رمى إلىَّ رئيس التحرير بجملة الخبر ؛ وعلىَّ أنا بعد ذلك أن أضرم النار وأن أجعل الترابَ دقيقاً أبيض يُعجن ويخبز ويؤكل ويسوغ فى الحلق وتستمرئه المعدة ويسرى فى العروق

وإذا أنا كتبت فى هذا احتجتُ من الترقيع والتمويه ، ومن التدليس والتغليط ، ومن الخِبّ والمكر ، ومن الكذب والبُهتان — إلى مثل ما يحتاج إليه الزنديقُ والدهرىُّ والمعطِّل فى إقامة البرهانات على صحة مذهب عرف الناس جميعا أنه فاسدٌ بالضرورة إذ كان معلوماً من الدين بالضرورة أنه فاسد . وأين ترى إلا فى تلك النِّحَل وفى هذه الصحافة أن ينكر المتكلم وهو عارف أنه منكر ، وأن يجترئ وهو موقن أنه مجترئ ، ويكابر وهو واثق أنه يكابر ؟ فقد ظهر تقديرٌ من تقدير ، وعملٌ من عمل ، ومذهبٌ من مذهب ؛ والآفة أنهم لايستعملون فى الإقناع والجدل والمغالطة إلا الحقائق المؤكَّدة ؛ يأخذونها إذا وُجدت ويصنعونها إن لم توجد ، إذ كان التأثير لا يتم إلا بجعل القارئ كالحالم يملكه الفكر ولا يملك هو منه شيئاً ، ويلقَى اليه ولا يمتنع ، ويُعطى ولا يَرُد على من أعطاه

قلت : ولكن ما هو الخبر الذى أرادوك على أن تجعل من ترابه دقيقاً أبيض ؟

قال : هو بعينه ذلك الشأن الذى كتبت فيه لهذه الصحيفة نفسها ، أنقضه وأسفّهه وأرد عليه وكان يومئذ جزءا يتجزأ . . . فان صنعتُ اليوم بلاغتى فى تأييده وتزيينه والإشادة به ، ولم يكن هذا كاسراً لى . ولا حائلا بينى وبين ذات نفسى ـ فلا أقل من أن يكون الجاحظ تكذيباً للجاحظ . آه لو وضع الراديو فى غرف رؤساء التحرير ليسمع الناس . . .

قلت : يا أبا عثمان . هذا كقولك : لو وضع الراديو فى غرف قواد الجيوش أو رؤساء الحكومات

قال : ليس هذا من هذا فان للجيش معنى غير الحذق فى تدبير

(١) عن كتاب الحيوان للجاحظ

المعاش والتكسب وجمع المال؛ وفي أسراره أسرارُ قوة الأمة وعمل قوتها: وللحكومة دخائل سياسية لايحركها أن فلانا ارتفع وأن فلانا انخفض، ولا تضرّنها العشرة أكثر من الخمسة؛ وفي أسرارها أسرارُ وجود الأمة ونظامُ وجودها

قال أبو عثمان: وإنما نزل بصحافتنا دون منزلتها أنها لا تجد الشعب القارىء المميز الصحيح القراءة الصحيح التميز، ثم هي لا تريد أن تذهب أموالها في إيجاده وتنشئته. وعمل الصحافة من الشعب عمل التيار من السفن في تحريكها وتيسير مجراها، غير أن المضحك أن تيارنا يذهب مع سفينة ويرجع مع سفينة ... ولو أن الصحافة العربية وجدت الشعب قارئاً مدركا مميزاً معتبراً مستبصراً لما رمت بنفسها على الحكومات والأحزاب عجزاً وضعفاً وفسولة، ولا خرجت عن النسق الطبيعي الذي وضعت له، فان الشعب تحكمه الحكومة، وإن الحكومة تحكمها الصحافة، فهي من ثم لسان الشعب؛ وانما يقرأها القارىء ليرى كلمته مكتوبة. وشعور الفرد أن له حقاً في رقابة الحكومة وأنه جزء من حركة السياسة والاجتماع هو الذي يوجب عليه أن يبتاع كل يوم صحيفة اليوم

قال أبو عثمان: فالصحافة لا تقوى إلا حيث يكون كل إنسان قارئاً، وحيث يكون كل قارىء للصحيفة كأنه محرر فيها، هو مشارك في الرأى لأنه واحد ممن يدور عليهم الرأى، متتبع للحوادث لأنه هو من مادتها أو هي من مادته، وهو لذلك يريد من الصحيفة حكاية الوقت وتفسير الوقت، وأن تكون له كما يكون التفكير الصحيح للمفكر، فيُلزمها الصدق ويطلب منها القوة ويلتمس فيها الهداية، وتأتى اليه في مطلع كل يوم أو مغربه كما يدخل إلى داره أحد أهله الساكنين في داره

وفي قلة القراء عندنا آفتان: أما واحدة فهي القلة التي لا تغني شيئاً، وأما الأخرى فهم على قلتهم لا ترى أكبر شأنهم إلا عبادة قوم لقوم، وزراية أناس بآخرين، وتعلق نفاق بنفاق، وتصديق كذب لكذب. وآفة ثالثة تخرج من اجتماع الاثنتين: وهي أن أكثرهم لايكونون في قراءتهم الصحيفة إلا كالنظارة اجتمعوا يشهدوا ما يتلهون به، أو كالفراغ يلتمسون ما يقطعون به الوقت، فهم يأخذون السياسة مأخذ من لا يشارك فيها، ويتعاطون الجد تعاطى من يلهو به، ويتلقون الأعمال بروح البطالة، والعزائم بأسلوب عدم المبالاة، والمباحثة بفكرة الاهمال، والمعارضة بطبيعة الهزء والتحقير. وهم كالمصلين في المسجد؛ فمثل لنفسك نوعا من المصلين اذا اصطفوا وراء الامام تركوه يصلي عن نفسه وعنهم وانصرفوا...

قال أبو عثمان: بهذا ونحوه جاءت الصحف عندنا وأكثرها لاثبات له إلا في الموضع الذي تكون فيه بين منافعه ووسائل منافعه؛ ومن هذا ونحوه كان أقوى المادة عندنا أن تظهر الصحيفة مملوءة حكومة وسلطة وباشاوات وبيكوات... وكان من الطبيعي أن محل الباشا والبك والحوادث الحكومية التفهة لا يكون من الجريدة إلا في موضع قلب الحي من الحي.

ثم استضحك شيخنا وقال: لقد كتبت ذات يوم مقالة أقترح فيها على الحكومة تصحيح هذه الألقاب، وذلك بوضع لقب جديد يكون هو المفسر لجميعها ويكون هو اللقب الأكبر فيها، فاذا أنعم به على إنسان كتبت الصحف هكذا: أنعمت الحكومة على فلان بلقب (ذو مال).

ودق الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئيس التحرير...

***

فلم يلبث إلا يسيرا ثم عاد متهللا ضاحكا وقد طابت نفسه فليس له جحوظ العينين إلا بالقدر الطبيعي، وجلس إلى وهو يقول:

بيد أن رئيس التحرير لم ينشر ذلك المقال، ولم ير فيه استطرافاً ولا ابتكارا ولا نكتة ولا حجة صادقة، بل قال كأنك يا أبا عثمان تريد أن يأكل عدد اليوم عدد الغد، فاذا نحن زهدنا في الألقاب وأصغرنا أمرها وتهكمنا بها وقلنا إنها أفسدت معنى التقدير الانساني وتركت من لم ينلها من دوى الجاه والغنى، يرى نفسه إلى جانب من نالها كالمرأة المطلقة بجانب المتزوجة... وقلنا انها من ذلك تكاد تكون وسيلة من وسائل الدفع إلى التملق والخضوع والنفاق لمن بيدهم الأمر، أو وسيلة إلى ما هو أحط من ذلك كما كان شأنها في عهد الدولة العثمانية البائدة حين كان

الوسام كالرقعة من جلد الدولة، يرقع بها الصدر الذي شقوه وانتزعوا ضميره. اذا نحن قلنا هذا وفعلنا هذا، لم نجد الشعب الذي يحكم لنا، ووجدنا ذوي المال والجاه والمناصب الذي يحكمون علينا، فكنا كمن يتقدم في التهمة بغير محام إلى قاض ضعيف.

يا أبا عثمان انما هي حياة ثلاثة أشياء: الصحيفة، ثم الصحيفة، ثم الحقيقة ... فالفكرة الأولى للصحيفة والفكرة الثانية هي للصحيفة أيضاً. ومتى جاء الشعب الذي يقول: لا. بل هي الحقيقة، ثم الحقيقة، ثم الصحيفة — فيومئذ لا يقال في الصحافة ما قيل لليهود في كتاب موسى: تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا. . .

قلت: أراك يا أبا عثمان لم تنكر شيئاً من رئيس التحرير في هذه المرة، فشق عليك ألا تثلبه، فغمزته بالكلام عن مرة سالفة.

قال: أما هذه المرة فأنا الرئيس لا هو، وفي مثل هذا لا يكون عمك أبو عثمان من (صعاليك الصحافة). إن الرجل اشتبه في كلمة: ما وجهها أمرفوعة هي أم منصوبة؟ وفي لفظة: ماهي: أعربية أم مولدة؟ وفي تعبير أعجمي: ما الذي يؤديه من العربية الصحيحة؟ وفي جملة: أهي في نسقها أفصح أم يبدلها؟

إن المعجم هنا لا يفيدهم شيئاً إلا اذا نطق . . .

ولقد ابتليت هذه الأمة في عهدها الأخير بحب السهولة مما أثر فيها الاحتلال وسياسته وتحمله الأعباء عنها واستهدافه دونها للخطر، فشبه العامية في لغة الصحف وفي أخبارها وفي طريقها إنما هو صورة من سهولة تلك الحياة، وكأنه تثبيت للضعف والخور، وأنت خبير أن كل شيء يتحول بما تحدث له طبيعته عالياً أو نازلا، فقد تحولت السهولة من شبه العامية إلى نصف العامية في كتابة أكثر المجلات وفي رسائل طلبة المدارس، حتى لتبدو المقالة في ألفاظها ومعانيها كأنها القنفذ أراد أن يحمل مأكلة صغاره، فقرض عنقودا من العنب، فألقاه في الأرض وأترب وتمرغ فيه، ثم مشى يحمل كل حبة مرضوضة في عشرين إبرة من شوكه.

ثم مد أبو عثمان يده فتناول مجلة مما أمامه وقعت يده عليها اتفاقاً، ثم دفعها إلي وقال: اقرأ ولا تجاوز عنوان كل مقالة.

فقرأت هذه العناوين:

«مسئولية طبيب عن فتاة عذراء»، «مودة الراقصات الصينيات»، «تخر مغشياً عليها لأنهم اكتشفوا صورة حبيبها»، «هل يعتبر قبول الهدية دليلا على الحب، واذا كانت ملابس داخلية ... فهل تعتبر وعدا بالزواج؟»، «هل يحق للأب أن يطالب صديق ابنته ... بتعويض اذا كانت ابنته غير شرعية»، «بين خطيبتين لشاب واحد»، «بعد أن قص على زوجته أخبار السهرة ... لماذا أطلقت عليه الرصاص؟»، «عروس تأخذ (شبكة) من شابين ثم تطردهما»، «زوجة الموظف أين ذهبت»، «لماذا خطفت العروس في اليوم المحدد للزفاف؟»، «في الطريق — حب بالإكراه»، «فلانون وفلانات، زواج وطلاق، وأخبار المراقص، وحوادث أماكن الدعارة الخ الخ.

فقال أبو عثمان: هذه هي حرية النشر؛ ولئن كان هذا طبيعيا في قانون الصحافة إنه لإثم كبير في قانون التربية؛ فان الأحداث والضعفاء يجدونه عند أنفسهم كالتخيير بين الأخذ بالواجب وبين تركه، ولا يفهمون من جواز نشره إلا هذا. «وباب آخر من هذا الشكل فيكم أعظم حاجة إلى أن تعرفوه وتقفوا عنده، وهو ما يصنع الخبر ولا سيما اذا صادف من السامع قلة تجربة، فان قرن بين قلة التجربة وقلة التحفظ — دخل ذلك الخبر إلى مستقره من القلب دخولا سهلا، وصادف موضعاً وطيئاً وطبيعة قابلة ونفساً ساكنة، ومتى صادف القلب كذلك رسخ رسوخاً لا حيلة في إزالته

ومتى ألقي إلى الفتيان شيء من أمور الفتيات في وقت الغرارة وعند غلبة الطبيعة وشباب الشهوة وقلة التشاغل و ...»(1)

ودق الجرس يدعو أبا عثمان الى رئيس التحرير ...

(لها تتمة) (طنطا) **مصطفى صادق الرافعي**

---

(1) هذه الجملة من كلام الجاحظ

الحكم في قضية (القلب المسكين) بلغنا اربعين حكما في هذه القضية وستجتمع اللجنة لاختيار ما يتحقق فيه شرطنا وهو «احسان الكتابة» ثم ثمان حكمها

الرافعي

في الأدب المقارن

موضوعات الأدب

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

يعبر الأدب عن شتى خوالج النفس وخواطر الذهن . ويصف تأثر النفس بمختلف صور الحياة وظواهر الكون وصروف الدهر ، وكلها أمور لا يحد مداها ولا تحصى مذاهبها ، ومن ثم لا تحد ولا تحصى أشتات الموضوعات التي يعالجها أدب أمة من الأمم في مختلف عصوره ، فأدب الأمة الحي يشمل أطراف حياتها المترامية ، مما يوحي به التدين والورع إلى ما يمليه التبذل والاستهتار ، وما يمليه الحزن والألم إلى ما توحي به الغبطة والسرور ، وما يدعو إليه التفكير والتأمل الرزين أو يحمل عليه التفكه والتندر ، ومن كل ما يبعث إعجاب الإنسان ورهبته وخشوعه أو يثير احتقاره أو نفوره ، ومن كل ما يوقظ حب الاستطلاع والدرس والمعرفة المركب في طبع الإنسان ، ويمتد مجال الأدب حتى يختلط بشتى فروع العلم في بعض أطرافها

على أن موضوعات الأدب وإن تعذر استقصاؤها يتجمع أكبرها وأخطرها شأناً حول مواضيع رئيسية يكثر طرقها ويعزى إلى واحد منها كل أثر من آثار رجال الأدب ، كالنسيب والرثاء مثلاً ؛ كما أن أدباً قد يختلف عن أدب في فن يحتفي به ولا يكاد يوجد في غيره ، أو فنون يدمن طرقها دون غيرها ، بل يختلف الأدب الواحد في عصر من عصوره عنه في عصر آخر من حيث فنون القول التي يحتفي بها ويقدمها على غيرها . فالبيئة والعصر يتركان أثرهما في فنون الأدب التي تحظى بالرواج والإقبال : ففي عصور الجهاد والصراع مثلاً تسود أشعار الحماسة وتمجيد الحمى والأبطال ؛ وفي عصور النزاع بين المادية والترف وبين الدين والتقاليد ، تكثر آثار المجون والزيغ من جهة ، وآثار الوعظ والزهد من جهة أخرى ؛ وعصور البداوة تتسم آثارها بالسذاجة والعاطفة المتدفقة ، وعصور الثقافة تمتلئ آدابها بآثار التأمل والأزمات النفسية ؛ وكلما ارتقى المجتمع وصدق أدبه في التعبير عن حياته كثرت فنونه التي يطرقها ، وطال طرقه للفنون الرئيسية التي تمت إلى النفس الحية والفكر المهذب بأوثق الأسباب ، واختلف أدباؤه كل منهم يخص فناً أو فنوناً منها باحتفائه . أما في عصور التدهور والركود فتضيق دائرة تلك الفنون ويتعلق كثير منها بالسطحي والتقليدي من الأقوال ، ويتفق أكثر الأدباء في طريقة تناول تلك الفنون المحصورة

والأدبان العربي والانجليزي قد تناولا أشتاتاً من فنون القول ، وعبرا عما لا يحصى من أفكار الإنسان ومشاعره ، واتفقا في كثير من ذلك لاتفاق الطبيعة الإنسانية في كل مكان ، واختلفا في مدى الاحتفال ببعض الفنون والإعراض عن بعضها لاختلاف بيئات الانسان من إقليم إلى آخر ، وظهرت في كل منهما على تعاقب العصور مواضيع لم تكن معروفة من قبل ، وحظيت مواضيع دون أخرى بالحفاوة والصدارة ؛ فالشعر الحماسي كان في العصر الجاهلي هو الفن الرئيسي ، لما كانت تتطلبه الحياة القبلية من التعبير عن صفات القوة والغلب ، ثم حلت الخطابة السياسية في صدر الاسلام محل الشعر ، ثم احتل الصدارة في العصر الأموي النسيب والمهاجاة ، وهلم جرا . وفي الأدب الانجليزي بلغت الخطابة الدينية الوعظية شأوها في عهد المطهرين ، وملكت الطبيعة جل اهتمام الشعراء في العصر الرومانسي ، وفاز التحليل القصصي النفسي والاجتماعي بالصدارة في العصر الحديث

ولعل النسيب أحظى فنون الأدب باحتفال الأدباء في شتى الأمم ، لما يصدر عنه من عواطف وغرائز متأصلة في النفس الانسانية على اختلاف البيئات . وقد بلغ من احتفاء العرب به أنهم لم يقتصروا على الحديث عنه في مكانه ، بل استهلوا به منذ عهد الجاهلية قصيدهم . ولم تخل من حديث الحب أكثر روايات شكسبير في القديم وقصص هاردي في العصر الحديث . فوسع الأدبان شتى الأوصاف لحالات الحب الراضية وأطواره الغاضبة . وإلى الحب يرجع الفضل في كثير من الآثار الأدبية وفي تكوين نفوس كثير من الأدباء ، وحول حديثه يدور جانب عظيم من كل أدب ؛ وقد غلا قوم فعدوه مصدر كل أدب وفن

والرثاء فن معدود من فنون الأدب في العربية والانجليزية ، يمتاز كثير من آثاره بالصدق وحرارة العاطفة وعمق التأمل . وذلك لأن حلول الموت ينقض الشمل وينغص المسرة ويذهب بالإلف ، فيبعث في نفس الأديب ثورة ، ويدفعها إلى مراجعة التأمل في الحياة ، ويستخرج خير ما في النفس من صفات الوفاء والمودة وعذب الذكريات وخلجات الحنين . ومن غرر المراثي في العربية رثاء مهلهل لأخيه ، ودالية المعري ورثاء البحتري للتوكل ورثاء ابن الرومي لأوسط صبيته ورثاء التهامي لولده . ومن روائع المراثي في الانجليزية مرثية ملتون المسماة ليسيداس ومرثية شلي المسماة ادونيس ومرثية تنيسون المسماة الذكرى . وقد نظم كل منهم قصيدته في رثاء صديق له رفيق لشبابه مات معتبطاً ومن بدائع المراثي الانجليزية أيضاً خطبة مارك انطوني

على جسد قيصر فى رواية شكسبير الذائعة الصيت ، ومرثية جراى التى نظمها فى مقبرة قرية

والتدين والوعظ فن يشترك فيه الأدبان ، يتمثل فى العربية فى خطب الرسول الكريم وكثير من خلفائه ، وكثير من أشعار أبى العتاهية وأبى نواس وابن عبد القدوس وابن الفارض وأصحاب المدائح النبوية ؛ وفى الانجليزية فى كثير من شعر ملتون ودن ونثر هوكر وبنيان ونيومان . وأكثر ما كتب من ذلك فى الانجليزية إنما كان بأقلام رجال الدين المنتمين إلى الكنيسة . أما العربية حيث لم تكن للدين هيئة رسمية ذات نفوذ كالكنيسة فجاء أدب التدين متفرقاً يستوى فى معالجته رجال الدين المتفقهون فيه ورجال الدنيا غير المتوفرين عليه . ومن أنبغ رجال الدين فى الأدب العربى الإمام الشافعى الذى يمتاز شعره برصانة ونقاء رائعين ، ومن آثاره قوله :

ثلاث هن مهلكة الأنام وداعية الصحيح إلى السقام :
دوام مدامة ودوام وطء وإدخال الطعام على الطعام

وقوله :

ومن لم يذق ذل التعلم ساعة تجرع ذل الجهل طول حياته
حياة الفتى والله بالعلم والتقى إذا لم يكونا لا اعتبار لذاته

والميل إلى الصداقة طبع فى الإنسان لا يكاد يقل عن الحب تمكنا وقوة ، فما يزال الإنسان فى حنين إلى الأليف الروحى الذى يبادله الفهم والشعور ، ويقاسمه الحزن والسرور ؛ ومن ثم تشغل الرسائل والقصائد الإخوانية فى الأدبين العربى والإنجليزى مكانا معدودا ، بين تخاطب فى شتى الأمور وبين تعارف وتقاطع ، وبين تعاتب وتقريع . ومن آثار الصداقة فى الإنجليزية كثير من مقطوعات شكسبير ، وما كان بين بوب وكوبر وليدى منتاجيو وبعض معاصريهم من تراسل ، وما كان بين جونسون وجولدسمث وبوزويل وجماعتهم من أحاديث دونها الأخير فى كتابه عن الأول ، وما كان بين جراى وشلى وبيرون وكثير غيرهم وبين أصدقائهم فى الوطن من مراسلات ، حين كان أولئك الشعراء يطوفون فى ربوع أوربا . وللجاحظ والبديع والصابى وابن العميد رسائل إلى أصدقائهم بارعة تعد فى صميم الأدب العربى . ولم تكن رسالة الغفران إلا رسالة بين صديقين . ومن قصائد التعاتب المشهورة لامية معن بن أوس التى مطلعها :

لعمرك ما أدرى وإنى لأوجل على أينا تعدو المنية أول

وهمزية ابن الرومى الطويلة التى مطلعها :

يا أخى أين عهد ذاك الإخاء ؟ أين ما كان بيننا من صفاء ؟

ونقد الأدب موضوع مهم من مواضيع الأدب ، تلذ قراءته كما تلذ قراءة آثار الأدب الأخرى ، لما يحوى من عام النظرات وخاصها فى مخلفات الأدباء وعصور الأدب . ومما يزيد أكثر كتب الأدب فى العربية ككتاب الصناعتين وكتاب الوساطة إمتاعاً حفولها بالكثير من بدائع المختارات والمقتبسات . وفى الانجليزية يحتفى بعض النقاد أمثال ما كولى وماثيو أرنولد وإديسون بأسلوبهم الأدبى فى تقدم لآثار غيرهم ، حتى ترى آثارهم النقدية مضاهية لما ينقدونه لذة وإمتاعاً . ويمتزج بنقد الأدب فى الانجليزية نقد الفنون الجميلة عامة ، والاشارة إلى القواعد التى تشملها هى والأدب ؛ ففى مقاله عن بيرون مثلا يوضح ما كولى آراءه بأمثلة من الفنون الأخرى من موضع إلى آخر .

وأحوال المجتمع وأحداث السياسة ليست مما يمر بالأديب المثقف دون أن يكرثه ، بل لابد أن يترك ذلك أثره الواضح فى أدبه . وقد كان شعر الجاهليين سجلا موجزاً لكبريات أحداثهم ، فلما خضع العرب للملكية بعد الاسلام كفكفت تلك النزعة كثيراً ؛ وقل نقد الأنظمة الاجتماعية والسياسة فى الأدب والتعليق على الحوادث إلى حد كبير ، إلا أن يكون فى ذلك مجاراة ومظاهرة لأصحاب السلطان . وقد قتل المنصور ابن المقفع الذى رفع اليه رسالة فى شؤون الحكم وإن عزى مقتله إلى سبب آخر وأحيط بالغموض . إنما أثر السياسة والحوادث فى الأدب بعد الاسلام باد فى الرسائل الديوانية التى كان يتأنق الوزراء الكاتبون أمثال سهل بن هرون والقاضى الفاضل وابن زيدون فى كتابتها إلى عمال الأمير وأنصاره وأعدائه والخارجين عليه ، كما أن فى كتابات الجاحظ ومقامات البديع تصويراً واضحاً لكثير من أحوال مجتمعهم وأبنائه . ومن أشعار الأحداث السياسية قصيدة يزيد المهلبى فى رثاء المتوكل وقصيدة ابن الرومى فى ثورة الزنج التى منها يقول :

بينما أهلها بأحسن حال إذ رماهم عبيدهم باصطلام
صبحوهم فكابد الناس منهم طول يوم كأنه ألف عام

وهذا الفن أوسع محيطاً وأحفل بالآثار فى الانجليزية ، حيث مهدت الحكومة الديمقراطية السبيل للنظرات الحرة والنقدات الصادقة . وكان استقلال الأمة الانجليزية عن غيرها واعتزالها سواها إلى حد بعيد داعياً إلى اشتداد الشعور القومى والاحساس بوحدة المجتمع والاهتمام لشؤونه كأنها شؤون كل فرد الخاصة . وقد قال الامام على : كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته . وما أسماه مبدأ إنسانياً ومذهباً ديمقراطياً وحكمة عمرانية ؛ بيد أنه كان شعار المجتمع الانجليزى أكثر منه شعاراً للمجتمع العربى ، ومن ثم كانت لأكثر أدباء الانجليزية نظراتهم الاصلاحية الخاصة ، التى تتراوح بين الخطرات العارضة وبين الرغبة فى الانقلاب الكلى ، وظهرت القصة نتيجة هذا الاندماج

الاجتماعي تصور المجتمع تصويراً دقيقاً لا يغادر منحى ولا مذهباً .

ولكن الحياة ليست كلها جداً مرا ، ولا النفس الانسانية تحتمل الجد المتواصل ، وإنما يميل الانسان بطبعه إلى الترفيه عن نفسه بالتفكه والنظر إلى الجانب الهزلي من الحياة . والأدباء لدقة إحساسهم ونفاذ نظراتهم سريعون إلى ملاحظة مواطن التناقض ومواضع الفكاهة في أخلاق الناس وأعمالهم ؛ ومن ثم يحفل الأدبان العربي والانجليزي بصور عديدة من صور الفكاهة ، تتراوح درجاتها بين العبث البريء في أيدي شكسبير وجولد سمث واديسون والجاحظ ، وبين السخر المرير في أيدي سويفت وبوب وابن الرومي والمعري ، ويتناول بها الأدباء منافسيهم ومعاصريهم ويفندون حماقات المجتمع

وهناك مواضيع احتفى بها الأدب العربي حفاوة بالغة تفوق ما نالته في الانجليزية ، وأولها الحكمة : فأدباء العربية كانوا منذ الجاهلية يعشقون الحكمة ويحبون نظمها والاستماع إلى أشعارها ، بل كانوا كما قيل لا يعترفون لشاعر بالفحولة حتى يوفق إلى شيء منها . وظل الأعشى مزوياً عن مصاف الفحول حتى قال في مدحه سلامة ذا فائش : « والشيء حيثما جعلا » ، لجمع صدق النظرة إلى إيجاز اللفظ وهما سمتا الحكمة عند العرب . ولما اطلع العرب على ثقافات الأمم كان أهم ما احتفوا بنقله من آدابهم الحكمة . ومن كتب الحكمة مؤلفات ابن المقفع ومقصورة ابن دريد والخطب المنسوبة إلى قس ابن ساعدة والامام علي ، والجم الغفير من أشعار المتنبي التي سارت مسير الشمس ؛ وليس من محض الصدفة أن كان أكبر شعراء العربية وأسيرهم ذكراً حكيما مكثراً لصوغ الحكم وضرب الأمثال . وبالحكمة الصادقة البليغة الموجزة كان الأدب العربي يستغني عن فنون وأشكال من الأدب ازدهرت في الانجليزية ، كالقصة والرواية التمثيلية والملحمة ، فالعبرة التي تنطوي عليها إحدى هذه يجمعها الشاعر العربي في بيت واحد يلقيه إليك وخلاه ذم

واقتباس الحكمة والمثل والاستشهاد بأقوال السلف أقل حدوثاً في الانجليزية منه في العربية ، لأن الحكم الموجزة التي تغزر في الأخيرة قليلة في الأولى . وكثيراً ما يلجأ المقتبس في الانجليزية إلى الأدبين الاغريقي واللاتيني ، وحتى هذا يبطل تدريجاً في العصور الحديثة . وأكثر أدباء الانجليزية حظوة لدى المقتبسين والمستشهدين شكسبير ، وليس ذلك لأنه كان يتعمد صوغ الحكمة أو يحرص على التكثر منها ، بل لأن رواياته من جهة قد أحاطت بشتى أحوال الحياة والنفس الإنسانية ، بحيث يجد فيها كل كاتب شيئاً مقاربا لما هو بصدده ، ولأن مقدرته اللغوية العظيمة من جهة أخرى كانت تهديه إلى صوغ أفكاره صياغة موجزة ممتعة ؛ ويليه سيرورة أقوال بوب ، زعيم الأسلوب المحكم الرصين الذي كان شعاره في الأدب التعبير « عما قيل من قبل كثيرا ، ولكن لم يقل أبدا بهذا الإحكام » ، فسار كثير من أبياته المحكمة الموجزة على الأقلام والأفواه

ومما يتصل بالحكمة في الأدب العربي ويمتاز هذا الأدب به التمدح بحميد الخصال كالجود والشجاعة وحمى الذمار وحسن الجوار وحفظ السر وكظم الغيظ ومداراة السفيه ، إلى غير ذلك من الدساتير الخلقية التي كان كثير من أشراف العرب الأدباء يسنونها لأنفسهم ، وامتداح تلك الصفات في الغير والحث عليها ، وهذا من أنبل مواضيع الأدب العربي ، ولحاتم الطائي ومسكين الدارمي والمقنع الكندي والشريف الرضي والإمام الشافعي آثار في ذلك ، تروع برصانة أسلوبها ومتانة أسرها وعظمة خلقها ؛ فلما غلب التقليد على الأدب، ودخل الشعر في طور التقهقر انقلب مثل هذا التمدح المحبوب الصادق المقرون بالفعال فخرا عاجزا أجوف ، بمآثر وهمية وعزائم مزعومة ، وتيها على النجوم ودلا على الزمان ، كقول السري الرفا :

وإنك عبدي يا زمان وإنني على الرغم مني أن أرى لك سيدا

والغريب أن أحد أولئك الشعراء المتشدقين بالفخر ربما قرنه في القصيدة الواحدة بشكوى سوء الحال وقعود الجدود وخيبة الآمال . والشكوى موضوع من مواضيع الأدب العربي كانت أقرب إلى متناول أدبائه منها إلى أدباء الانجليزية ؛ وقد فشت خاصة في آثار المتأخرين . والأدب العربي من جهة أخرى أحفل بوصف آثار الترف ومظاهره : من القصور والمحافل ومجالس الشراب وآلات الطرب ودواعي المجون . وللخمر خاصة منزلة في الأدب العربي لا نظير لها في الانجليزية ، وقد حظيت من جزالة أسلوب الأخطل وأبي نواس وابن الرومي بما خلد أوصافها وأعلى ذكرها ، وقلما يرد ذكر الخمر في الأدب الانجليزي إلا تظرفا وتشبها بالاغريق الأقدمين وإشارة إلى باخوس إله الخمر عندهم

وراج في الأدب العربي فنان ليسا من صميم الأدب في شيء ، وما زالا يرقيان حتى احتلا مكان الصدارة من الأدب ، وموضع الحفاوة من الأدباء ، وهما المدح والهجاء اللذان استفحل أمرهما من عهد الأمويين فنازلا ، حتى استبدا بأجزاء كبيرة من دواوين بشار وأبي نواس وأبي تمام والمتنبي ، وكادا يشغلان كل دواوين آخرين غير هؤلاء . وما كان ارتفاع شأنهما هكذا إلا نتيجة فساد تقاليد قديمة ، كانت في الجاهلية تقاليد محمودة لا ضير فيها ، ثم استمرت بعد ذهاب عصرها واندثار بيئتها بظهور الاسلام وقيام الدولة المتحضرة المركزية ففسدت تلك التقاليد وصارت بلاء على الأدب الصحيح

كان العرب الجاهليون يحرصون على حسن الأحدوثة ، ويتمدحون بكريم الصفات ، ويناخون خصومهم بالشعر ، ويجزون من فعل ذلك عنهم ، وكان ذلك كله وليد بيئتهم البدوية ، فلما كان الاسلام والدولة والحضارة لم يعد لمثل ذلك التفاخر والتهاجي موضع ، ولكن الشعراء استبقوا ذلك التقليد طلباً للنوال ، والأمراء قبلوا منهم ذلك الأحياء المفتعل لتقليد غبر عصره طلباً للمجد الزائف . ومن العسير أن تحصى المساوىء التي جرها هذان الفنان من القول على الأدب العربي : مواضيعه ومعانيه وأساليبه

ولم يكن في الانجليزية شيء من هذين الفنين يقاس بما كان في العربية ، وحتى القليل من المدح الذي كان في بعض الفترات يستفز الأدباء الأباة إلى مثل قول بوب : « فلأعبر عن رأيي في الأمر في كلمة : إن وصف الرجل بأكثر مما نعلم فيه عمل بعيد عن الامانة إذا قصد من ورائه الربح ، وعمل أخرق إذا لم يقصد ، وكل من نجح في مثل هذا العمل لابد أن يعتقد في قرارة نفسه أنه هو نفسه دجال لانه فعل ذلك ، وأن ممدوحه أحق لانه صدق ماقيل فيه »

وعلى حين احتفى شعراء العربية بهذين الفنين الزائفين من فنون القول ، أهملوا إلى حد بعيد فناً هو من صميم الأدب والحياة ، وهو الوصف الطبيعي : فديوان المتنبي الذي يعج بمعاني المدح والهجاء المخترعة لايضم إلا أبياتاً معدودة منثورة في التغني بمباهج الطبيعة . أما في الانجليزية فالطبيعة وحي مالا يعد من قصائد بين مقطوعات ومطولات ، ووصفها يتخلل أشتات المنظوم والمنثور في مختلف الأغراض ، وهي المنظر الخلفي لكثير من روايات العصر الاليزابيثي وملاحم ملتون وسبنسر ومطولات تنيسون وقصص هاردي ، بل بلغ من دقة دراسة تنيسون إياها أن أصبح شعره يقتبس في كتب الجيولوجيا والجغرافيا أحياناً ، وبلغ من معرفة هاردي بطبيعة الاقليم الذي أجرى فيه حوادث قصصه ، أن كان يخصص الصحائف الطوال لوصف المنظر الواحد في قصصه بدقة العالم لا القصصي

وهناك مواضيع أدمن أدباء الانجليزية ورود مناهلها وغزرت آثارها في أدبهم ، فكانت فيه مادة فن وإمتاع وغبطة : كالتحدث عن المغامرات وروائع القصص وعجائب الرحلات ، وجسام حوادث الماضي وعظائم أبطال الامم ، ومتع خرافات الاجيال وأغنيات طبقات الشعب وأقاصيصهم ، كل هاتيك وجد فيها أدباء الانجليزية منادح للفن والخيال ومعارض لميول النفس الانسانية وطباعها وشطحاتها المرسلة ، أما الأدب العربي فيمتاز بكفكفة غلواء الخيال والتجافي عن البعيد من الأمكنة والأزمنة والازورار عن الامم الأخرى والترفع عن العامة وثقافتهم المتواضعة ، واحتقار الخرافة وأساطير الماضين .

واتخذ الأدب الانجليزي التاريخ الواقعي مادة لموضوعاته : منه اتخذ الاليزابثيون مواضيع بعض رواياتهم ، وفيه جال جيبون وسوذي وما كولي وكارليل ، يدرسون كبريات الوقائع وعظماء الرجال وإليه رجع الشعراء والقصصيون ، وقد صور سكوت في قصصه حوادث التاريخ تصويراً يفوق كتب التاريخ أحياناً دقة ووضوحا ، ولم يكد يلتفت إلى التاريخ من أدباء العربية ويتناوله في أسلوب أدبي جزل سوى الجاحظ .

فالأدبان العربي والانجليزي قد تناولا مواضيع مشتركة بينهما ، وطرق كل منهما مواضيع لم يحتف بها الآخر . على أن الأدب الانجليزي أغزر موضوعات وأكثر شغلا بأسباب الحياة ؛ والأدب العربي لم يظل دائماً ترجماناً لكل عواطف المجتمع العربي ، وكانت روح المحافظة التي سببت عدم تطور أشكاله سبباً في قلة تطور مواضيعه أيضاً ، فأهمل مواضيع شتى تمت إلى الطبع الانساني بأوثق الأسباب وتدخل في حظيرة الأدب أول داخل ، وتناول غيرها لا تمت إلى الفن بسبب ، ومرجع ذلك ما خالطه من نزعة تقليد جامدة ، وما اعتمد عليه من رعاية الأمراء ، على حين كان الأدب الانجليزي دائماً حر النزعة حر الحركة والنمو

فخري أبو السعود

بين تلستوى وماكس نوردو

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

قرأت تلستوى قبل أن أقرأ نقد ماكس نوردو لآرائه . وكنت أشك فيما شك الناقد الألمانى ، ولكنى عندما قرأت نقده لتلستوى لم يقنعنى تعليله ، أو على الأقل رأيت أنه لم يتتبع كل احتمال يمكن أن تصير إليه النفس الحائرة فى بحث معضلات الحياة . ولم يقف كل موقف من الجائز أن تقفه فى أثناء بحثها : فكان تعليله لما ينقد من الآراء بالشذوذ الجثمانى فى صاحب الرأى ، ولم يدر أن كل إنسان شاذ وأن كل مفكر مصحوب بشيء من الشذوذ الجثمانى ، وأن الشذوذ الجثمانى قد يكون فى غير المفكر أ كثر منه فى المفكر . وأن الانسان حيوان شاذ ، وأن الرأى الذى ينقده قد يكون قد دخل عليه الخطأ بسبب رفض صاحبه لخطأ آخر فى أثناء بحثه الحياة واختيار مسالك الرأى فيها . ولو أن ماكس نوردو قد فسر سبب رفض تلستوى لنقيض ما رأى من الآراء لكان قد وصف رحلة نفس تلستوى فى عالم الاحساس والوجدان ، ولكان قد وصف رحلة فكره فى عالم الأفكار ، ولكان قد وصف من تلك المسالك ماهو كالتيه ذى الطرق المتشعبة وما يحسبه ماكس نوردو طريقا معبدا بالخرسان والقطران والأسفلت

خذ مثلا رأى تلستوى فى الامتناع عن الاجرام حتى قتل المجرم للدفاع عن النفس أو عن طفل برىء ، فهو يقول لك انصح المجرم وعظه والتجىء إلى جانب الخير من نفسه وحاول أن تمنعه من ارتكاب جريمة القتل ، ولكن احذر أن يكون منعك إياه عن الجريمة بأن تأتى أنت جريمة كأن تقتله ؛ فاذا رأيت مجرماً يريد أن يقتل طفلا فضع نفسك بينه وبين الطفل وعظه ، ولكن لا تقتله لأنه يريد أن يقتلك أو أن يقتل إنساناً آخر حتى ولو كنت قادراً على قتله

يأخذ ماكس نوردو هذا الرأى فيفنده ويسخر به ويهزأ منه . وله أن يفنده وأن يظهر مواطن الضعف فيه ، وله أن يسخر منه ما شاء أن يسخر ، وله أن يقول إن هذا رأى يؤدى إلى موت الأبرار وتحكم الأشرار . إذا أخذ به بعض الناس ولن يأخذ به كل الناس إلا إذا انمحى الشر من النفس الانسانية فلا يكون إذن للرأى معنى ولا ضرورة ، وإذا مات الأبرار الأخيار بسبب أخذهم بهذا الرأى وتحكم الأشرار رجعت الحالة إلى ما كانت عليه قبل الشروع فى تحقيق هذا الرأى وانعدم هـذا الرأى من عالم الأفكار والأحياء . فاذا قال ماكس نوردو كل هذا كان مصيباً فى قوله . وإن كنا لا نقطع بحدود لجاءات النفس البشرية وحدود عدوى المحاكاة كمحاكاة الانقطاع المطلق عن الشر . ولعل تلستوى قد قدر كل ماقدره ماكس نوردو من شر يعود به الانقطاع عن الشر حتى فى الدفاع عن الخير أو عن النفس أو عن الأحياء ، ولكن لعله كان يؤمن بالنفس البشرية أ كثر من إيمان ماكس نوردو بها فقدر أيضاً ذيوع الأخذ برأيه وانتشار عدوى محاكاة الانقطاع عن الشر حتى تعم الناس قاطبة بعد ويل يكون للبادئين بالاخذ به ، والبادئون دائماً ضحية فى كل رأى ومذهب . ولعله قدر أيضاً أنه لو أخطأ فى إيمانه بالنفس الانسانية فان الويل والضرر اللذين يكونان نتيجة الاخذ برأيه مقبولان فى سبيل تجربة قد تعود على الانسان بالخير الآجل إن لم يكن عاجلا ؛ ولعله قدر أيضاً ان المرء قد لا يأخذ برأى الانقطاع عن الشر المطلق دائما ، ولكن هـذا الرأى قد يبعد به عن الشر أحياناً أو قد يقلل من غلواء شره كما قللت روادع المسيحية من قسوة من اعتنقها من التيوتون الذين غزوا الدولة الرومانية وإن لم تقض على قسوتهم كل القضاء . ولم يكن تلستوى أول من فكر هذا الفكر ، فانه فكر تلتجىء إليه النفس الانسانية المعذبة كلما حاولت التهدى إلى وسيلة تخلصها من شرور الحياة كما فعل البوذيون قديماً عندما داهمتهم قبائل المغول والتتر والتركمان فى الهند ، وكما فعل المسيحيون القدماء عندما كانوا مضطهدين فى الدولة الرومانية الوثنية قبل اعتناقها للمسيحية

ثم لعل تلستوى قد قدر أيضا أن دفع الشر بالشر يؤدى إلى خلود حب الانتقام والأخذ بالثأر ؛ وكثيراً ما فنيت أسر وقبائل وشعوب بسبب خلود حب الانتقام والأخذ بالثأر جيلا بعد جيل . ونحن نرى الآن كيف يهدد الخراب عالم العمران بسبب دفع الشر بالشر والمباراة فيه .

فترى أن خطأ تلستوى ليس بالخطأ الذى يتهم صاحبه من أجله بالانحطاط والجنون كما فعل ماكس نوردو الناقد الألمانى ،

ولم يكن هناك من داع في هذه الحالة لنظرية الانحطاط التي بنى عليها ماكس نوردو كتابه (الانحطاط) ولو أنه اكتفى بابراز الحيرة الفكرية التي أدت بهروب تلستوى من نظرية دفع الشر بالشر إلى نظرية ألا يدفع الشر بالشر وأوضح خطأ هذه الحيرة لكان أقرب للتقوى

وعرض ماكس نوردو مذهب تلستوى في العاطفة الجنسية: وله أن يفنده وأن يسخر منه، ولكن كان من تمام الحكمة والفلسفة والتفكير أن يعرض شرور الحلول الأخرى التي تحل بها معضلة العاطفة الجنسية لكي يفسر الحيرة التي أدت إلى هروب تلستوى منها، فان حل معضلتها ليس طريقا ممهودا بالأسفلت والقطران كما حسب ماكس نوردو؛ وهو إن كان كذلك فهو أيضا كثير الحفر والمهاوى. وهي التي أدت إلى ذلك الرأى الغريب الذي ارتآه تلستوى وجعله يطلب رفضها رفضا باتا حتى في حالة الزواج؛ وهو في هذه الناحية أقل إيمانا بالنفس الانسانية من ناقده، ولكن كان يجدر بناقده أن يبرز الشرور والآثام التي تكثر، سواء أكان حل معضلة العاطفة الجنسية بغلبة القيود والغيرة، أو بضعف القيود والغيرة أو بانعدامها كلها؛ فلعل تلستوى قد نظر طويلا إلى كل حالة من هذه الحالات؛ ولعل طول نظره في كل حالة هو الذي حيره ودعاه إلى رفض العاطفة الجنسية رفضا باتا. فالحيرة ليست دائما دليلا على كلال الذهن وقصر نظره وغموضه وانحطاطه؛ وهي تذكرني برجل جليل فاضل مفكر كان يجيد لعب الشطرنج ويفكر في كل تفكير يصح أن يفكر فيه الذي يلاعبه، فكان لا يفكر في لعبة إلا فكر في طريقة ضدها تهزمها فينتهي به الحال إلى أن يلعب أول لعبة تخطر على ذهن اللاعب وتستدعي سخر الناظرين وضحكهم

ونظر ماكس نوردو إلى موقف تلستوى من العلم، وكان ينبغي لو حاول الاتزان في النقد أن يفسر سبب الحيرة التي دفعت بتلستوى إلى رفض أكثره، وأن يميز بين حيرة الجاهل الغبي وبين حيرة الذكي التي هي أشبه بحيرة لاعب الشطرنج الذي وصفته، وأن يفرق بين خطأ الغافل الذي لا يفكر وخطأ المفكر الذي يحيره كثرة الفكر وتشعب مسالكه والتواؤها حتى يراها مثل حارات القاهرة القديمة التي ليس بها منفذ ولكنها حيرة لا تستدعي أن يتهم صاحبها بالانحطاط حتى ولو كان صاحبها مخطئا، وإلا كان الانسان حيوانا كثير الانحطاط. وكأن الانحطاط الذي يعنيه هو من النقص المحتوم في الطبيعة البشرية. ولعل تلستوى قد قدر عواقب العلم الحديث في النظم الاقتصادية وفي النظم والمخترعات الحربية وهي عواقب أدت إلى كوارث الحرب العظمى وأهوالها، وإلى الأزمة الاقتصادية ومعضلاتها، وهي إلى الآن تهدد العالم بالخراب؛ فلا غرابة إذ أدركته الحيرة، ولا غرابة اذا أخطأ فلم يصب أحد بعد في حل تلك المعضلات. ولعل تلستوى قد فكر أيضاً فيما فكر فيه اللورد بالفور عند ما قال في وصف أثر العلم الحديث في تغير نظر الانسان إلى الحياة: « إن العلم الحديث يعلم الانسان أن الدنيا لم تخلق من أجله، وأنه ليس تاج الخليقة ولا أنه من سلالة من سكن الجنان قديماً، وأن حياته جاءت عفوا، وأن تاريخه قصة عار وحادث لا تشرف من حوادث أحقر نجم سيار، وأنه مملوء بالأسقام والآثام والمجاعات والقتل والقسوة، وأن الانسان بعد آلام لا تحصى قد صار له من الضمير ما يعرف به حقارة نفسه، ومن العقل ما يدرك به أنه مخلوق تافه، وأنه بعد عصور طويلة في ذاتها قصيرة بالنسبة إلى ما مضى من العصور الجيولوجية سينمحي بهاء الشمس ورونقها، ولا تسمح الأرض ببقاء ذلك المخلوق الذي أقلق هدأتها، فيفنى الانسان وتفنى معه آراؤه وأفكاره كلها فكأنما كان عمله وذكاؤه وإيمانه وآلامه وجهاده في عصور حياته الطويلة عبثاً ومن غير جدوى »

ثم إن العلم الحديث يقول أيضا إنه على فرض تحقق السلام والخير الشامل، وعلى فرض انمحاء الشر، فان هذه حالة تؤدي إلى تدهور الانسانية، لأن الخير في مقاتلة الشر، والذكاء مستنبط من الخوف والحذر من الجوع ومن اعتداء القوى، فاذا انمحى الخوف والحذر والشر والاعتداء ضعفت الانسانية وتدهورت وتردت في هاوية الفناء

ولعل تلستوى قد نظر أيضا إلى ما نظر اليه ادن فلبوتس القصصي الانجليزي في وصف أثر هذه الآراء كلها في الجرائم في أوروبا والولايات المتحدة وغيرهما. فاذا كان تلستوى بعد ذلك النظر قد رفض أكثر هذه الآراء العلمية فليس رفضه دليلا على الانحطاط كما قال ماكس نوردو بل هو من حيرة المفكر الذي يتهدى.

ولعل تلستوى في استعراضه تاريخ العاطفة الجنسية ومعضلاتها

فى الصحراء

للأستاذ عبد المنعم خلاف

عشقتها منذ أن عاش جسمى بين يديها أربعا وعشرين ساعة فى الخريف الماضى كذرة من رمالها فى وَهَج ظهيرتها ، وأفياء آكامها ، وَطَفَل أصائلها ، وأشباح دياجيها ، ورَهَبوت عوالمها ... ومنذ أن لمست يدا قوية من طبيعتها تمتد إلى قلبى فتضربه بشعلها وتعصره برهبتها ، وتحمله فى أجوائها مع الهبَوات ، وتسقيه من آلها وسرابها أمواجا تظمىء ولا تروى ، وتتلف ولا تسعف ، لأنها أحلام الأرض الظامئة والأكباد الحرَّى . .

واستقبلت العودة إليها فى ظرف موُات استقبال المتطلع إلى عالم مسحور ناطق بالصمت ، مُحىٍ بالموت ، مثير بالهدوء ، مُنَضَّر بالشوك ، مُرْوٍ بالجفاف ، مؤنس بالوحشة ، يضج القلب فيه ضجيج الدنيا وإن صمت هو صمتَ الآخرة ، ويحوم الفكر فيه حول العقدتين : الأزل والأبد ، فتختلط الحواس ويتداخل فعلها فتسمع العين وترى الأذن وتَـلْمَس الأضواءَ والألوان !

٥٥٥

سلام عليكِ أيتها الذرات المتشابهة الراقدة على مهاد الأزل حالمةً بالنُّقلة على جناح الرياح إلى عوالم الأنهار والأزهار والحيوان . . سأمانة من طول الرقاد على بساط الديموم ، تمثلين العقم والبساطة والصورة الأولى للأجسام ... تنظرين إلى الذرات العليا المضيئة الدائرة فى فضاء ربى والراقدة أيضا على صدر الفراغ . . تحلم بالقَرار كما تحلمين أنت بالانطلاق والفِرار . .

فى قلبى ذرة صغيرة مُعَرْبِدة لذاعة وددتُ لو استحالت إلى جودك ! إذن لأراحت واستراحت من رُوح الحياة . . إنها ذرة تحلم بالرياح كما تحلمين . فهى ثائرة تريد الانطلاق من ضيق المكان . . وهى دائبة على ذلك حتى يفنى الزيت من السراج ، وتخمد الوَقْدة التى وضعت شرارتها يد الله فى ذراتى الأولى !

٥٥٥

نحن ركب مُسيَّرون لا سائرون أيتها الذرات . . مسيرون بعواصف خفية فهى أهول ، مكبوتة فهى أعنف ، متنافرة فهى أسرع فى تحطيمنا ونقض بنائنا . فلا إرادة ولا خيرة فى النقلة ، وإنما هى رياح من نوع آخر ، وما أكثر جنود ربى !

٥٥٥

سألتُ : كم مضى من دهرك أيتها الديموم ... ؟ فأجابت : طفلة أنا لا أعى دورات الفلك ، ولا أشيخ على الدوام ... وإنما تقاس الأزمان وتعرف الأعمار بجفاف فى ورقة ، أو تجعيدة على وجه . وأنا كما ترانى علامة ابتداء ...

وسألتُ : لمن خُلِقَ ليلك والنهار ، وشمسك والقمر ؟ ومن يسمع تناوُحَ رياحك وعزيفَها على شعاف جبالك ، وصفيرَها فى كهوفك ؟ ومن يَسْمُر مع نجومك ، ويشهد تقاتل عناصر الطبيعة على صدرك ؟ لمن وَشائعُ الغيوم على صفحات سمائك ، وألوانُ جُدَدك وظرابك وآكامك ؟ وأين كل ماصبَّته الشمس والكواكب على أديمك من أضواء وألوان ؟ أللعابرين فيك كالنسمات والطائرين عليك كالخطرات ؟ ! أكل هذه الأكوان للشياه والبُعران والرُّعيان ؟ ! ويحَ الجمال من غير عيون تجتليه ، والجلال من غير قلوب تستوحيه ، والسطور من غير قارىء !

فأجابت : سِرِّى وسحرى أن أكون آبدةً عقيما متفردة . لأنى أرض الخفاء والمجهول والجن ... الجن الذين ملأوا آفاق بتهاويلهم كما ملأتم دياركم بالشواخص والأجرام ... وقد خُلقتُ لهم ، وإنَّ منهم قلوبَ الشعراء والمتأملين ، السائرة مع الأضواء

ونفاقها وأكاذيبها وآثامها ونظمها على اختلاف تلك النظم ولعله أيضاً عند استعراض تلك الآراء والنظم العلمية الحديثة قد نظر إلى قول القائلين إن العاطفة الجنسية والعلم الحديث هما كالماء الذى تضعه فى الاناء القذر فيصير قذرا ، وتضعه فى الاناء النظيف فيكون نظيفاً ، والآنية تختلف كاختلاف النفوس وأصل الماء واحد سواء الذى وضع فى الاناء القذر والذى وضع فى الاناء النظيف .

ولكن لعل تلستوى أيضا قد فطن إلى أن هذا تشبيه لا أقل ولا أكثر ، وأنه عند امتحان النفوس وتطبيقه عليها يتلاشى ويتضاءل اذا أعوز الاناء النظيف من آنية النفوس البشرية

عبد الرحمن شكرى

والظلمات ترقبها فى الشفق والغسق ، الخافقة مع الهبوات والنسمات ترصد فعلها فى المدَر والوبَر والدوح والورق ، النائمة فى حضن جبل أو على ذراعى موجة أو فى عين نجم ، أو فى عُش ، أو على زهرة منضورة نقّطها الندى ، أو فى ناى راعٍ ، أو فى قبر مهدم متفرد !

* *

يا أم الفطرة ! أريد أن أقبض قبضة من ذرانك البسيطة التركيب ، البريئة من الدنس ، المطهرة من الرجس ، فأحصب بها وجوه المصانع وناطحات السحاب لعل أحجارها تذكر المهد الأول فترعى ذممه ، وتوشج رحمه ، وتزيح عنها دخان البارود لترى السماء وتسمع خبرها . . .

يا أم الفطرة ودينها ، انبهامُك ترك عقل « محمد » فى حيرة غداة شب عن الطوق يرعى ، ومجالى الفتنة والروعة فيك نادته إلى العزلة فى شعفة من شعفات جبالك يسأل الدنيا عن سرها وأزلها وأبدها ومللها ونحلها حتى حدثته السماء خبرها ، ولم ينزل خبر السماء إلا فيك أو على حوافيك ، لأنك القدس والمطهر ، تسجد الطبيعة فيك بالإصباح والإمساء ، والنجوم والجبال والشجر والدواب ... وإن أهل الأرض مدينون لك بالظل الذى يجدون برْدَه على قلوبهم وامتدادَه على أرواحهم ؛ ولقد نشرت « كتابك » على الدنيا مرة فطبعت كلماتُه على الآفاق كلها ؛ ولكن رُكاما من الغيوم يكاد يخفيها ، فأرسلى رياحك الحارة تذيب الركام وتجلو كلمات النبوة . . تريد الأرض موجة جديدة منك أيتها الصحراء ، فاهتزى !

* * *

ضَحِكَتْ بالقَتادِ والأشواكِ ضحكةً خلتُها بشاشةَ باكِ
أرسلتْها فى الصمت همساً ولكن رنّ فى مسمعى صداها الحاكى
فرْحةً بالربيع دبّ على الأر ض وليدا يثيرها لحراكِ
فرشت فى طريقه الشوكَ والحمـ ض ووشّت رمالها بالأراكِ
عجزت أن تجارىَ الخصبَ بالحب (م) وفرش الربى ونفح الزواكى
فأنالت جهدَ المقلّ وما يُطـ ـلب من عاجز بلوغُ السماكِ

القاهرة عبد المنعم خلاف

٢ - عمر بن الخطاب *

للأستاذ على الطنطاوى

— ٦ —

كان المسلمون فى مكة - فكانت الخصومة بينهم وبين الكفار من قريش - خصومة فردية ، شخص يناوئ شخصاً ، وجماعة تقاتل جماعة . فلما كانت الهجرة واستقر الاسلام فى (يثرب) وفتحت له صدرها ، وقدمت لنصرته أبناءها وفلذات كبدها ، استحالت الخصومة إلى شبه (خلاف دولى) بين القرشيين المقيمين على الشرك ، العاكفين على الاصنام ، المدافعين عن الباطل ، وبين أهل (المدينة المنورة) بنور التوحيد - (أنصار) الاسلام وحماة الدين ، وجنود الله ؛ واتسع الخلاف وخاب مع الكفار المنطق وتعذر الصلح ولم يبق بد من الحرب

ومهما يقل اليوم (دعاة السلام) فى شناعة الحرب ويصفوا من أهوالها وينفروا منها ، ومهما يؤلفوا فى ذلك من كتب ويصنفوا من أصناف ، فان مما لا ريب فيه أن هناك (حرباً مقدسة) مشروعة فاضلة ، هى الحرب التى تشب نارها دفاعاً عن الحق وذباً عن الفضيلة وتأديباً للمجرمين . . . ومن ينكر على الجند أن يحاربوا اللصوص والمجرمين ويمنعوهم أن يعيثوا فى الأرض فساداً ؟ ومن يمنع القاضى أن يقتل القاتل ليشترى بموته حياة أمة ، ويحبس الجانى ليضمن بحبسه حرية شعب ؟

كذلك كانت (معركة بدر) حرباً مقدسة ، أثيرت من أجل الحق والفضيلة والسلام والاسلام . . . فمشت إلى بدر (عصابة المجرمين) من قريش ، مزهوة زهو اللصوص ، شامخة بآنافها شموخ القتلة ، مستكبرة استكبار قطاع الطرق . . . ومشت فرق الجنود المسلمين متواضعة لله خاضعة له . لا قوة لها إلا قوة الحق ، ولا سلاح إلا سلاح الايمان ، ولا غرض لها إلا تطهير الأرض من أدران الشرك وأوضار الظلم ومحو الارستقراطية السخيفة العاتية . . .

(*) انظر الرسالة ١٦٨

والتقتا فى (بدر) - فالتقى الحق بالباطل - والنور بالظلام ، ووقف الجنود والحراس وجهاً لوجه . . . ووقف التاريخ على الطرق يرقب النتيجة - فاما أن ينتصر المسلمون فيمضى صعداً ويرقى فى مدارج العلاء متوشحاً بوشاح الحضارة ، وإما أن يندحروا فينحدر إلى الهاوية . . فلم ينجل الغبار حتى خرجت راية محمد (صلى الله عليه وسلم) خفاقة منصورة وخرج اللصوص بين قتيل ملقى للسباع والطير قد خسر الدنيا والآخرة . وأسير فى عنقه حبل يساق إلى (المحكمة) !

***

وانعقدت أشرف محكمة وأعدلها - برئاسة سيد العالم - وأفضل النبيين (صلى الله عليه وسلم) وعضوية شيخى المسلمين ، وخليفتى النبى الأمين - الصديق والفاروق - وكان فى كرسى (النيابة العامة) شاعر الاسلام ، وعلم الانصار ، البطل الشهيد : عبد الله بن رواحة ...

وافتتحت الجلسة ... وثبت الجرم . وكان (جرماً مشهوداً) وطلب (النائب العام) أن يعوّد المتهمون على جباة جهنم التى كذبوا بها ، وأقدموا عليها - فيكون جزاؤهم جزاء نارياً : يلقون فى وادٍ كثير الحطب - ثم يضرم عليهم ناراً

دخلت المحكمة (للمذاكرة) فسأل الرئيس الأعضاء آراءهم ، فلان أبو بكر (أرحم الأمة بالأمة) ورأى أن تؤخذ منهم الفدية فتكون قوة للاسلام ولا يقتلوا لأنهم بنو العم والعشيرة والاخوان ، وخالفه عمر (أشد الناس فى دين الله) وطلب إعدامهم) جميعاً : هؤلاء أئمة الكفار وصناديدهم وقادتهم ؛ نهم يعترضون سبيل الدعوة الجديدة - إنهم قطاع الطريق - يجب أن تسلم الطريق إلى الله - يجب أن تمضى الدعوة فى سبيلها منة مطمئنة

وسكت صلى الله عليه وسلم - ووازن بين الرأيين - ثم نطق الحكم فكان كما رأى أبو بكر ...

غير أن الحكم قد (استؤنف) ونزل (الاستئناف) من السماء : ما كان لنبىٍّ أنْ يكونَ لهُ أسرى حتى يُثْخِنَ فى الأرض . يريدون عَرَضَ الدنيا والله يريد الآخرةَ والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبَقَ لمسّكم فيما أخذتم فيه عذاب عظيم ،

— ٧ —

وسمت منزلة عمر فى الاسلام . فلم يكن فوقه إلا الصديق الأعظم . وكان عمر بطل الدعوة وفتاها وحارسها . ثبت مع النبى (صلى الله عليه وسلم) فى أحد ساعة اضطراب الجيش وفداه بنفسه ، واختاره صلى الله عليه وسلم ليجيب أبا سفيان باسم الاسلام ، فأجابه جواب القوىّ الظاهر ... حسب أبو سفيان أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) قد قتل . وقتل صاحباه ، واستراحت قريش من هذه البدعة فهى ذاهبة إلى حلقاتها حول الكعبة - التى تحدق بها الاصنام - تتحدث حديثها وتروّ بها أبناءها ليعتبروا بها فلا يحاولوا الخروج عما ألفوا عليه آباءهم .. حسب أبو سفيان أن الاسلام غمامة صيف جاءت ثم انقشعت . لم يدر أن الاسلام أثبت من الأرض ، وأخلد من الزمان ، وأنها تزول السموات والأرض ولا يزول ، فما هُبَل ، وما هذه الأباطيل ؟ أقطعة من الحجر وفلذة من المعدن ، تصنعها بيدك ، وتدوسها برجلك ، تسويها برب العالمين ؟ ما هذا العقل يا أبا سفيان ؟

***

كانت أحد فكان عمر عظيما ظافراً فيها . كما كان فى بدر وهما لعمرى سواء ، ما غُلب المسلمون فى أحُد . وما غَلب فيها المشركون ... ذلك أنهم ما ساروا خمسمائة ميل ، من مكة إلى المدينة ليصيح قائدهم : اعل هبل ... اعل هبل ... ثم يرجع من حيث جاء ، ولكن ساروا ليفتحوا المدينة ، ويقتلوا محمداً ، ويجتثوا الاسلام من أصله ، فكيف يدعون المدينة وما بينهم وبينها إلا مسيرة نصف ساعة ، وما فيها حامية تذكر ولا يدخلونها ولا يحتلونها ولا يغيرون عليها فينهبونها ؟ وكيف ينظر قائدهم العام محمداً صلى الله عليه وسلم وصحبه وهم قواد العدو ، ويكلمهم ويحادثهم ولا يقتلهم ولا يأسرهم ، وهو ظافر بهم ظاهر عليهم ؟ وكيف يعد جيش المسلمين منهزماً ، وقواده ثابتون ، وضباطه مستقرون فى أماكنهم ، وقلبه باق ورايته مرفوعة ؟

أما إن الحق أن جيش المسلمين ، قد اضطرب بعد أن غادر الرماة أماكنهم ، وأغار عليه خالد - قائد فرسان المشركين ، وانهزمت بعض فرقه ، مذعورة خائرة - ولكنّ القادة ، وفرق القلب بقيت ثابتة فى أماكنها . تمنع العدو من الوصول إلى

المدينة حتى يئس فارتد على أعقابه من حيث جاء . ونجح الجيش الاسلامى فى خطته الدفاعية نجاحا باهرا . ذلك أن الجيش الاسلامى كان مدافعا ، وأكبر نصر يناله الجيش المدافع ، هو أن يردّ العدو وينقذ الوطن . وهذا ما قام به الجيش الاسلامى على أتمه ولكنه خسر كثيرا من الضحايا ...

فمعركة أحد إذن نصر للاسلام ، وعمر من أعلام هذه المعركة وأبطالها

— ٨ —

واقرأ (السيرة) كلها ، فهى سيرة عمر - وإذا لم يظهر اسمه فى كل موطن — ولم يبد ذكره فى كل موقع — فلأن النبى صلى الله عليه وسلم شمس تسطع فى سمائها - فتكسف النجوم مهما كانت وضاءة متلألئة

على أن عمر رضى الله عنه لقوّة شخصيته ومضاء عزيمته لا يكاد يخفى ، فقد كان يمثل الجانب القوى المغامر الطماح ، من الجبهة الاسلامية ، لا يرضى بالهوادة ، ولا يعرف اللين ، ولا تأخذه فى الله شفقة ولا ملامة

كان يأبى أن توقع معاهدة الحديبية ، ويلح على النبى صلى الله عليه وسلم أن يعمد إلى الحرب : ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ؟ فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟

فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ابنَ الخطاب ! إنى رسول الله ، ولن يضيعنى الله أبدا

فيشتد عليه الأمر . ويضيق به صبره ، فيذهب إلى أبى بكر وقد عجز الصحابة كلهم عن احتمال المحنة - إلا أبا بكر . فيقول له: يا ابن الخطاب . انه رسول الله ولن يضيعه الله أبدا . . .

فلا يقنع عمر ولا يرضى ، ولكنه يسمع مكرهاً ويطيع ، حتى اذا مرت الأيام ، ووضحت حكمة النبوة ، وكان الفتح ، أدرك عمر سمو رأى النبى صلى الله عليه وسلم ، فما زال يتصدق ويصوم ويصلى ويعتق ، مخافة كلامه يومئذ ، حتى رجا أن يكون خيراً . على أن عمر لم يعارض النبى صلى الله عليه وسلم ولم يعصه ولكنه رأى رآه واجتهاد اجتهده : فكان يأمل موافقة ربه سبحانه وتعالى ، كما سبق له أمثالها . وقد كانت طاعته للنبى صلى الله عليه وسلم معروفة ، وكان يؤثر رضاه على رضاه ، ولقد أقسم عمر — باراً — أن إسلام العباس يوم أسلم كان أحب اليه من إسلام أبيه الخطاب لو أسلم ، لأن إسلام العباس أحب إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم أحب اليه من أهله وولده ، ومن نفسه التى بين جنبيه

— ٩ —

أنجز الله وعده . فظهر الاسلام وغلب وعم الجزيرة ودان له العرب كلهم ، واجتمعوا فى عرفات ، فى المؤتمر الأعظم فأنزل الله آخر آية من القرآن ، آخر مادة من الدستور الخالد « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً » فاحتفلوا بكمال الدين ، وتمام النعمة ، وقام النبى صلى الله عليه وسلم خطيباً مودعا ، وأعلن (حقوق الانسان كاملة : الحرية والعدالة والمساواة .

وعاد صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، فلم يلبث أن مرض

***

جزع الصحابة ، وشغلهم مرضه عن أولادهم وأنفسهم فكانوا لا يهنأون بمنام ولا يسيغون طعاماً ، ولا يقبلون على عمل ، ولا يرون وجه الدنيا قلقاً عليه صلى الله عليه وسلم وكانوا يودون لو يفتدى بكل مافى الأرض من شىء ليفتدوه وكانوا يسألون عنه فى كل ساعة ولحظة ، ويعلون عليه . فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم طارت العقول ، وخفت الاحلام ، وزلزل الناس زلزالا شديداً ، وأصابتهم حيرة وعرا ذهول ، فلم يدروا ما يصنعون ، وكانت ساعة من يوم الحشر ولا عجب فقد كانوا أمواتاً قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان الرسول مطلع حياتهم ، وأول دنياهم ، فلم لاتكون وفا خاتمة الحياة ، وآخر الدنيا ، وأن يكون يوم قبضه كيوم القيامة

وجزع عمر وهزت الرزية نفسه ، وغلبه حبه رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يستطع أن يتصور أنه قد مات ، و يقدر أن يتخيل الحياة بدونه ، فهو أساسها ومصدرها ، وه شمسها المنيرة ، وهل حياة من غير شمس ؟ وهو روح ه

الكون ، وهل يعيش جسم بلا روح ؟ ولم يطق أن يسمع أنه قد مات ، فوثب مخترطا سيفه ، تنطقه عاطفته ، وحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يمنع الناس أن يقولوا : مات رسول الله انه لم يمت ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى ابن عمران وقد غاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع اليهم ، والله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رجع موسى ، فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات !

وكان أبو بكر رضى الله عنه غائباً فى منزله فى السنح ، وكان أبو بكر العقل الثابت الذى لا تقلقله الحادثات ولا تحركه النوائب ، وكان عمر يومئذ القلب الحساس الذى يفيض بالعاطفة وينبثق بالشعور ، فلما قدم دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبله ثم خرج وعمر يتكلم ، فاستنصته فلم ينصت ، ومضى يتكلم ، لا مخالفة لأبى بكر ، ولكن الحس الذى طغى على نفسه ، والحب الذى غمرها لم يدع فيها سبيلا لغيره . . حتى إذا تكلم أبو بكر فقال كلمته العظيمة :

أيها الناس : من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت ، وتلا قول الله عز وجل :

(ومَا محمد إلاّ رَسول قَدْ خَلَتْ مِنْ قبله الرسلُ ، أفَإنْ ماتَ أوْ قتِلَ انقَلَبْتمْ علَى أعقَابِكمْ ، وَمَنْ يَنقَلِبْ عَلى عقِبَيْهِ فلَنْ يَضرَّ اللهَ شيْئاً وَسَيَجزِى اللهُ الشاكرِينَ) وسمعها عمر ، أفاق كمن استيقظ من حلم ، فرأى أنه كان مخطئا ، وتحقق الرزية وأدرك أنه لن يرى بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخارت قواه ولم تحمله رجلاه ، فسقط على الأرض

دمشق : **على الطنطاوى**



المرحوم اسماعيل صبرى باشا



المرحوم محمود سامى البارودى باشا



المرحوم حفنى ناصف بك



المرحوم احمد شوقى بك



المرحوم حافظ ابراهيم بك

٤ ـ دعابة الجاحظ

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

... ولعل أهم ما وصلنا من أساليب الجاحظ في السخر والتهكم، تلك الرسالة التي وضعها في التنادر على صاحبه احمد بن عبد الوهاب الكاتب، وهي الرسالة المعروفة برسالة التربيع والتدوير وقد تعرف أيضا برسالة الطول والعرض، والتوسع والتدوير، ورسالة المفاكهات(١)، ولكنها ذاعت ونشرت بين الناس وطبعت في مصر ولندن بهذا الاسم الأول ، قال الجاحظ : « وقد كان احمد بن عبد الوهاب هذا مفرط القصر ويدعي أنه مفرط الطول ، وكان مربعا وتحسبه لسعة جفرته واستفاضة خاصرته مدورا ، وكان جعد الأطراف قصير الأصابع وهو في ذلك يدعي السباطة والرشاقة ، وأنه عتيق الوجه ، أخمص البطن معتدل القامة تام العظم ؛ وكان طويل الظهر قصير عظم الفخذ ، وهو مع قصر عظم ساقه يدعي أنه طويل الباد ، رفيع العماد ، عادي القامة عظيم الهامة ، قد أعطى البسطة في الجسم والسعة في العلم ؛ وكان كبير السن متقادم الميلاد ، وهو يدعي أنه معتدل الشباب حديث الميلاد ؛ وكان ادعاؤه لأصناف العلم على قدر جهله بها ، وتكلفه للإبانة عنها على قدر غباوته فيها ؛ وكان كثير الاعتراض لهجاً بالمراء شديد الخلاف كلفاً بالمجاذبة متتابعاً في العنود مؤثراً للمغالبة مع اضلال الحجة والجهل بموضع الشبهة ، والخطرفة عند قصر الزاد ، والعجز عند التوقف ، والمحادثة مع الجهل بثمرة المراء ، ومغبة فساد القلوب ... وكان قليل السماع غمراً ، وصحفيا غفلا ، لا ينطق عن فكر ، ويثق بأول خاطر ، لا يفصل بين اعتزام الغمر واستبصار المحق ، يعد أسماء الكتب ولا يفهم معانيها ، ويحسد العلماء من غير أن يتعلق فيهم بسبب ، وليس في يده من جميع الآداب الا الانتحال لاسم الأدب ... »

فالرجل ـ على ما يصف الجاحظ ـ كان دعياً يبالغ في قدره ، ويشتط على نفسه ، فيجري في حلبة العتاق وهو كودن ، ويطاول السماء وأسبابه لاصقة بالأرض ، فكأنه الهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد ، فهو يزور على الناس مخبره ، ويدلس في حقيقته ، ويزعم لنفسه دعوى عريضة لا يد له فيها ولا رجل .. والظاهر أنه بالغ في دعواه وأمعن ، وأصر عليها وتهور ، قال الجاحظ . « فلما طال اصطبارنا حتى بلغ المجهود منا ، رأيت أن أكشف قناعه ، وأبدي صفحته للحاضر والباد ، وسكان كل ثغر وكل مصر ، بان أسأله عن مائة مسألة أهزأ فيها وأعرف الناس مقدار جهله ، وليسأله عنها كل من كان في مكة ليكفوا عنا من غربه ، وليردوه بذلك إلى ما هو أولى به ... » ولقد استطاع الجاحظ أن يبدي صفحة الرجل حقا ، وأن يهزأ به ويبلغ منه ، فأخذه بأسلوب لاذع ، وغمره بفيض من السخر والتهكم والتعريض ، وتندر عليه في منظره ومخبره ، وعلمه ومعرفته ، وغروره وادعائه ، وكذبه وتدليسه ، وكل مازعمه لنفسه . وقد استهل الجاحظ القول في براعة فائقة فقال يغمزه وكأنه يدعو له : « أطال الله بقاءك ، وأتم نعمته عليك ، وكرامته لك ! قد علمت حفظك الله أنك لاتحسد على شيء حسدك على حسن القامة ، وضخم الهامة ، وعلى حور العين ، وجودة القد ، وعلى طيب الأحدوثة ، والصنيعة المشكورة ، وأن هذه الأمور هي خصائصك التي بها تكلف ، ومعانيك التي بها تلهج ... ثم أخذ الجاحظ يناقشه في طوله وقصره ، وعرضه واتساعه ، وتربيعه وتدويره ، وقده وخرطه ... ثم أورد عليه شيئاً من آراء الناس عنه واختلافهم فيه ، وحسدهم له !! ثم ابتدأ فقال : فأنت المديد وأنت البسيط ، وأنت الطويل وأنت المتقارب . فياشعراً جمع الأعاريض ، وياشخصاً جمع الاستدارة والطول ، مايهمك من أقاويلهم . وبتعاظمك من اختلافهم ؟ . وهل في تمامك ريب حتى يعالج بالحجة ؟ وهل رد فضلك جاحد حتى يثبت بالبينة ؟ وهل لك خصم في العلم ، أو ند في الفهم ، أو مجار في الحكم ، أو ضد في العزم ؟ وهل يتبلغك الحسد أو يضرك الغبن ، وتسمو إليك المنى ، أو يطمع فيك طامع ، أو يتعاطى شأوك باغ ؟ وهل يطمع فاضل أن يفوقك ، أو يأنف شريف أن يقصر دونك ، أو يخشع عالم أن يأخذ عنك ؟ وهل غاية الجميل إلا وصفك ؟ وهل زين البليغ إلا مدحك ؟ وهل يأمل الشريف ألا اصطناعك ؟ وهل يقدر الملهوف إلا غناءك ؟ وهل للغواني مثل غيرك ، وهل للماتح رجز إلا فيك ؟ وهل يحدو الحادي إلا بذكرك ؟ وهل على ظهرها جميل حسيب ، أو عالم أديب ، إلا وظلك أكبر من شخصه ؟ ! وظنك أكثر من علمه ، واسمك أفضل من معناه ، وحلمك أثبت من نجواه ، وصمتك أفضل من نحواه ؟ وهل في الأرض حليم سواك ؟ وهل أظلت الخضراء ذا لهجة أصدق منك ؟ وهل حملت النساء أجمل منك ؟ فمن يطمع في عيبك بل من يطمع في قدرك ؟ وكيف وقد أصبحت وما على ظهرها خود إلا وهي تعثر باسمك ، ولا قينة إلا وهي تغني بمدحك ، ولا فتاة إلا وهي تشكو تباريح حبك ، ولا محجوبة إلا وهي تنقب الخروق لممرك ، ولا عجوز إلا وهي تدعو لك ولا غيور إلا وقد شقي بك ! وكم من فتاة معذبة قد أقرح قلبها الحزن ، وأجهد عينها الكمد ، ... فأصبحت والهة مبهوتة ، وهائمة

(١) جمع الجواهر للحصري ٢١٢ .

مجهودة ، بعد ظرف ناصع ، وسن ضاحك ، وغنج ساحر ، وبعد أن كانت ناراً تتوقد ، وشعلة تتوهج ! ! وليس حسنك أبقاك الله بالذى تبق معه توبة أو تصح معه عقيدة أو يدوم معه عهد أو يثبت معه عزم ، أو يمهل صاحبه التثبت ، أو يتسع للتخير ، أو ينهنه زجر أو يهذبه خوف ! ! ولكنه شيء ينقض العادة ، ويفسخ المنة ، ويعجل عن الروية وتنسى معه العواقب ولو أدركت ابن الخطاب لصنع بك أعظم مما صنع بنصر بن حجاج (١) » .

ثم أمعن الجاحظ فى التنادر على الرجل ، وراح يتفنن فى السخر من حسنه وجماله وخلقه وتركيبه ، وبعد أن اقتحمه بنظرة إجمالية على نحو ما قدمنا لك أخذ ينظر إليه فى كل عضو من أعضائه فقال : « وما ندرى فى أى الحالتين أنت أجمل ، وفى أى المنزلتين أنت أكمل ، إذا فرقناك أو إذا جمعناك ، وإذا ذكرناك كلك ، أو إذا تأملنا بعضك . فأما كفك فهى التى لم تخلق إلا للتقبيل والتوقيع ، وهى التى يحسن بحسنها كل ما اتصل بها ! وما ندرى آلكأس فى يدك أحسن أم القلم ، أم الرمح الذى تحمله أم المخصرة ، أم العنان الذى تمسكه ، أو السوط الذى تعلقه ؟ ! وما ندرى أى الأمور المتصلة برأسك أحسن وأبها أجمل وأشكل ؟ آللمة أم مخط اللحية ، أم الأكاليل ، أم العصابة ، أم التاج ، أم العمامة ، أم القناع أم القلنسوة ؟ ! وأما قدمك فهى التى يعلم الجاهل كما يعلم العالم ، ويعلم البعيد الأقصى كما يعلم القريب الأدنى أنها لم تخلق إلا لمنبر ثغر عظيم ، أو ركاب طرف كريم ؟ وأما فوك فهو الذى لا ندرى أى الذى تتفوه به أحسن ، وأى الذى يبدو منه أجمل ؟ الحديث أم الشعر ، أم الاحتجاج أم الأمر والنهى ، أم التعليم والوصف ؟ وعلى أننا ما ندرى أى ألسنتك أبلغ ، وأى بيانك أشفى ؟ أقلمك أم خطك ، أم لفظك أم إشارتك أم عقدك ؟ وهل البيان إلا لفظ أو خط أو إشارة أو عقد ... وقد علمنا أن القمر هو الذى يضرب به الأمثال ، ويشبه به أهل الجمال ، وهو مع ذلك يبدو ضئيلا نضواً ، ومعوجاً شختا ، وأنت أبداً قمر بدر فخم غمر ، ثم هو مع ذلك يحترق فى السرار ويتشاءم به فى المحاق ، ويكون نحساً كما يكون سعداً ، ويكون نفعا كما يكون ضرا ، ويقرض الكتان ويشحب الألوان ، ويخم فيه اللحم ، وأنت أبداً دائم اليمن ظاهر السعادة ، ثابت الكمال شائع النفع ، تكسو من أعراه وتكن من أشحبه ... » .

وانطلق الجاحظ بعد ذلك يندد بالرجل فيما يدعيه لنفسه من طراوة الشباب ونضارة الأهاب على أنه كبير السن قد شابت شواته وتخدد أديمه ، وسلخ من العمر غايته . وتجد الجاحظ ظريفاً طريفاً إذ يقول : « جعلت فداك ما لقى منك الذهب ، وأى بلاء دخل بك على الخز ؟ ! كانا ينهيان بطول العمر ويبهجان ببقاء الحسن ، وبأن الدهر يحدث لهما الجدة إذا أحدث لجميع الأشياء الخلوقة ، فلما أربى حسنك على حسنهما ، وغمر طول عمرك أعمارهما ، ذلا بعد العز ، وهانا بعد الكرامة . . فيا عقيد الفلك كيف أمسيت ؟ ويافوه الهيولى كيف أصبحت ؟ ويا نسر لقمان كيف ظهرت ؟ ويا أقدم من دوس ، ويا أسن من لبد ، ويا صنى المستقر ، ويا صاحب المسند . حدثنى كيف رأيت الطوفان ؟ ومتى كان سيل العرم ؟ ومنذ كم مات عوج ؟ ومتى تبلبلت الألسن ؟ وكم لبثتم فى السفينة ؟ وما حبس غراب نوح ؟ هيهات ! أين عاد وثمود ؟ وأين طسم وجديس ؟ وأين أميم ووبار ؟ وأين جرهم وجاسم ؟ أيام كانت الحجارة رطبة وإذ كل شيء ينطق ! ومذ كم ظهرت الجبال ونضب الماء عن النجف ، وأى هذه الأودية أقدم : أنهر بلخ أم النيل أم الفرات أم دجلة ، أم جيحان أم سيحان أم مهران ؟ ... أبقاك الله ! وليس دعائى لك بطول البقاء طلباً للزيادة ، ولكن على جهة التعبد والاستكانة ، فاذا سمعتنى أقول : أطال الله بقاءك فهذا المعنى أريد ، وإذا رأيتنى أقول لا أخلى الله مكانك فالى هذا المعنى أذهب . وفيك أمران غريبان ، وشاهدان بديعان : جواز الكون والفساد عليك ، وتعاور الزيادة والنقصان إياك ، جوهرك فلكى وتركيبك أرضى ، ففيك طول البقاء ، ومع دليل الفناء ، فأنت علة للتضاد ، وسبب للتنافى ! فاياك أن تظن أنك قديم فتكفر ، وإياك أن تنكر أنك محدث فتشرك ، فان للشيطان فى مثلك أطماعا لا يصيبها فى سواك ، ويجد فيك عللا لا يجدها فى غيرك ، ولست - جعلت فداك - كابليس وقد تقدم الخبر فى بقائه إلى انقضاء أمر العالم وفنائه ، ولولا الخبر لما قدمته عليك ولا ساويته بك ، وأنت أحق من عذر ، وأولى بمن ستر ، ولو ظهر لى لما سألته كسؤالى اياك وإن كان فى التجاذب مثلك فهو فى النصيحة على خلافك ، ولأنك إن منعت شيئاً فمن طريق التأديب أو التقويم ، وهو إن منع منع بالغش والإرصاد ، وأنت على أية حال شكل ، ونحن نرجع إلى أصل ونلتقى إلى أب ويجمع بيننا دين ، ويزداد الجاحظ ظرفاً وملاحة ، ويشتد تهكما وسخرية إذ يدخل

---

(١) نصر بن حجاج هذا حكاية فى كتب التاريخ ، فقد زعموا أن عمر سمع فى مدأة الليل امرأة تتنى :

هل من سبيل إلى خمر فأشربها   أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج

فغضب وطلب نصر بن حجاج فاذا هو فتى وسيم الوجه اجمل مافيه شعره فأمر ان يحلق لتتقى فتنته فكان افتن الناس وهو حليق فأمر بنفيه من المدينة

على صاحبه من ناحية علمه، أو قل من ناحية جهله! فقد أورد عليه كثيراً من الخرافات والمحالات وتلقف له جملة مما هو شائع عند العامة من الأكاذيب والأخبار، وجعل هذا كله من باب المسائل ورؤوس المعضلات ، فأخذ يعابيه بها ويسأله عنها : فسأله عن الشقناق والشهصبان ، ومن قيرى ومن عيرى ومن جلندى ، ومن أولاد الناس من السعالى ، ومتى تخزعت خزاعة ، ومتى طوت المناهل طى ، وما القول فى هاروت وماروت ، وما عداوة ما بين الديك والغراب ، وما صداقة ما بين الجن والأرضة ، وما علة خلق الخنزير ؛ وكيف اجتمع فى الذبابة سم وشفاء ، وكيف لم تقتل الأفعى سمها ، وكيف لم تحرق الشمس ما عند قرصها ، ومذ كم كان الناس أمة واحدة ولغاتهم متساوية ، وبعد كم بطن أسود الزنجى وابيض الصقلبى ، وما عنقاء مغرب ، وما أبوها وما أمها ؟ وهل خلقت وحدها أم من ذكر وأنثى ؟ ولم جعلوها عقيما وجعلوها أنثى . إلى آخر ما تلقفه الجاحظ من الطرائف وبلغ به مائة مسألة كلها من هذا الطراز وعلى هذا النمط ، ولعل من المعلوم أنه لم يكن يطمع فى الاجابة من صاحبه بل إنه ليقول له : « وقد سألتك وإن كنت أعلم أنك لا تحسن من هذا قليلا ولا كثيراً ؛ فإن أردت أن تعرف حق هذه المسائل وباطلها وما فيها خرافة وما فيها محال ، وما فيها صحيح وما فيها فاسد ، فألزم نفسك قراءة كتبي ولزوم بابى وابتد بنفى التشبيه والقول بالنداء ، واستبدل بالرفض الاعتزال ، وأن أتنكر منعك بعد التمكين والبذل وبعد التقريع والشحذ فلا يبعد الله إلا من ظلم ! »

ولا شك أن الجاحظ قد ابتدع رسالته هذه ابتداعاً ، وأتى بها على غير مثال سابق فى الأدب العربى ، ولا شك أنها قد جاءت قوية رائعة تعلن عن فن الرجل فى بابها ، واقتداره على أمثالها . ولقد كان الجاحظ على اعتزاز بها غاية الاعتزاز ، فأشار إليها بالاكبار ، وأحال عليها بالأقدار (١) ، واقتبس منها فى بعض ما كتب . وقد تأثر بها بعض الكتاب فحاول الخوارزمى أن يحذو حذوها فقلدها فى رسالة كتبها إلى أحد أصحابه الشعراء يعرف بالبديهى فبلغ أربا ، ولكن دون ما بلغ الجاحظ بكثير . ثم جاء البديع الهمذانى فانتهج الطريق فى بعض مقاماته إذ كان يهاجى بعض أصحابه ولكن يظهر أنه نظر إلى الخوارزمى أكثر مما نظر إلى أبى عثمان فسلبه كثيراً من تعبيراته ، وخرج من التعريض إلى الشتم ، ونزع عن التهكم إلى السب ، وبدل التلميح بالتصريح ، والمرح بالتجهم ، وهذا كله غير ذلك كله ، فتعرف الصنفين ، وافرق بين الطريقين . . . ؟

(للكلام صلة) محمد فهمى عبد اللطيف

(١) الحيوان ج ١ ص ١٠٠ ط الساسى

شقيـــة

للسيد عمر أبو ريشة

حثت خطاى الحمر عن هيكل القدس
وفى حمأة الأرجاس كفرت عن رجسى

وما استعذبت نفسى الشقاء وإنما
وجدت عزاء النفس أقتل للنفس

دعونى أعب السم من أكؤس الملا
وأقضى على تلك البقية من حسى ،

كفانى نفضت الكف من يانع المنى
وبعت صباى الغض بالثمن البخس ! !

وما من ضحايا النار ، حسناء كاعب
عليها جلال الحسن فى العرى واللبس

تمشت ونفحات المحاجر حولها
ومن خلفها الكهان خافتة الجرس

ولما ذكت فى المذبح النار تمتمت
مصلية والضرس يقرع بالضرس

وزجت بها عريانة فتفجرت
جراح وقطرات الدما صبغة النفس

وفى كل جرح فوهة من جهنم
تولول كالريح المؤججة البأس

بأهلك منى عند فض مآزرى
على مذبح الشهوات للصبح الممسى ! !

يؤرقنى الماضى فأنشر طرسه
وألسنة الآلام تقرأ فى الطرس

وأجس والأشباح تعتام ناظرى
فيرتد إشفاقاً فأقصر من هجسى

وأزجر دمعى أن يثور وزفرتى
فلا دمعتى تسلى ، ولا زفرتى تنسى

تغر ابتساماتى عيون أخى الهوى
وخلف ابتساماتى جراح من البؤس

طلعت على الأيام والطهر حارسى
يحيك على عطفى جلبابة القدسى

تشيعنى الأبصار أين توجهت
خطاى فأمشى مشية الرجل النكس
وضج بأعطافى الغرور فلم ألِنْ
لصرخةِ ولهان تَمَخضُ باليأس
كنرجسة فى الحقل تلثم ساقَها
ثغور من الأزهار طيبة الغرس
ولكنها ... والكبرياء تهزها
أبت أن ترى فى غيرها رفعة الجنس
حنت رأسها كيما تقبل ظلها
غرورا فماتت وهى محنيّة الرأس ! !
ولما رأيت الفقر أزبد فكه
وكشّر عن أنياب منهرت طلّس
صحوت فلم أبصر حوالىّ راحما
يخفف من بؤسى ويطرد من تعسى
ألقتنى الأقدار فى كف أرعن
كما قبضت كف البخيل على الفلس
بثُّ لى النجوى فيطربنى بها
فأبنى من الآمال أساً على أس
سكنت كشاة ألفت العيش زاهرا
تروح على أنس وتغدو على أنس
يش لهـا الراعى فترقص حوله
فيلقمها الأعشاب بالأنمل الخمس
سمنهـا ... للذبح وهى تظنه
رحيما يقيها صكة الناب والضرس
ولّت أمانىّ العذابُ تلاشياً
كما يتلاشى الثلج من قُبلة الشمس
ضاقت بى الدنيا فهمتُ طريدة
أفتش عن سعدى فيلطمنى نحسى !
ا لاح لى إلا دم متلاطم
فى لجه أغـــدو وفى لجه أمسى
ى عنده للإنتقام من الورى
مناهل تنسى ما أجرّع من بؤس
ب فتى ما دنّس الخزى قلبه
نصبت له سهم الإساءة فى القوس
تمطيت لاستغوائه فتثابت بعينى أفواه الدعارة والرجس !
وما خفّ للذّات حتى تركته يصارع داء قد تحفّز للغرس
إذا أنّ هزّت رعشة الأنس أضلعى وأفرحنى إن لاح فى صفرة الورْس
فصرت إذا ما اشتدّ دائى تركته
ليعدى وإن أبصرت من خلفه رمسى !
كما النحلة الغضبى لدى وخز خصمها
تموت ... ولكن وهى مرتاحة النفس !!

(حلب) عمر أبو ريشة

أترانا فراشتين ؟

للأستاذ خليل هنداوى

أتراها فراشةٌ سبحت فى مائج الكون والخيالُ الجناح ؟
دأبها أن تهيم فوق الروابى يلتقيها منها الشذا الفواح
عيشها بسمة تشع ، وفيض من سنا اللهو ساطع وضّاح
الصباحُ الندىُ يحنو عليها كل ما حولها ندى وأقاح !
ليلها دفقة من النور تمشى والليالى - مع الغرام - صباح

* * *

وترانى فراشةٌ حبَّها الشو ق وهمت فلم يطعها جناح
فترامت..! ولا تسل إذ ترامت! كان أدرى بحالها المصباح

خليل هنداوى

النفس وخلودها عند ابن سينا

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

— ٣ —

لم يقف ابن سينا عندما تقدم فى إثبات وجود النفس ومغايرتها للبدن، بل افترض فرضاً آخر هو من أبدع حججه وأكثرها ذيوعاً، ونعنى به فرض الرجل المعلق فى الفضاء. فلو تصورنا أن شخصاً ولد مكتمل القوى العقلية والجسمية، ثم غطى وجهه بحيث لايرى شيئاً مما حوله، وعلق فى الهواء أو بالأولى فى الخلاء كى لايحس بأى احتكاك أو اصطدام أو مقاومة، ووضعت أعضاؤه وضعاً يحول دون تماسها أو تلاقيها، فانه لايشك بالرغم من كل هذا فى أنه موجود وأنه كان يعز عليه إثبات وجود أى جزء من أجزاء جسمه. بل قد لاتكون لديه فكرة ما عن الجسم والوجود الذى تصوره مجردا عن المكان والطول والعرض والعمق، وإذا فرض أنه تخيل فى هذه اللحظة يداً أو رجلا فلا يظنها يده ولا رجله، وعلى هذا إثباته أنه موجود لم ينتج قطعن الحواس ولا عن طريق الجسم بأسره؛ ولا بد له من مصدر آخر مغاير للجسم تمام المغايرة وهو النفس[1]. يقول ابن سينا: «يجب أن يتوهم الواحد منا كأنه خلق دفعة وخلق كاملا، ولكنه حجب بصره عن مشاهدة الخارجات، وخلق يهوى فى هواء أو خلاء هوياً لا يصدمه فيه قوام الهواء صدما مايحوج إلى أن يحس، وفرق بين أعضائه فلم تتلاق ولم تتماس، ثم يتأمل أنه هل يثبت وجود ذاته فلا يشك فى إثباته لذاته موجوداً، ولا يثبت مع ذلك طرفا من أعضائه ولا باطنا من أحشائه ولا قلبا ولا دماغا ولا شيئا من الأشياء من خارج، بل كان يثبت ذاته ولا يثبت لها طولا ولا عرضا ولا عمقا. ولو أنه أمكنه فى تلك الحال أن يتخيل يداً أو عضواً آخر لم يتخيله جزءاً من ذاته ولا شرطا فى ذاته؛ وأنت تعلم أن المثبت غير الذى لم يثبت، والمقر به غير الذى لم يقر به. فإذن للذات التى أثبت وجودها خاصية لها على أنها هو بعينه غير جسمه وأعضائه التى لم يثبت[1]»، وواضح أن هذه البرهنة قائمة على أن الأدراكات المتميزة تستلزم حقائق متميزة تصدر عنها، وأن الانسان قد يستطيع أن يتجرد من كل شىء اللهم إلا نفسه التى هى عماد شخصيته وأساس ذاته وماهيته. وإذا كانت الحقائق الكونية كلها تصل إلينا بالواسطة فهناك حقيقة واحدة ندركها إدراكا مباشراً ولا نستطيع أن نشك فيها لحظة. لأن عملها يشهد دائما بوجودها. وما أصدق سقراط حين قال: اعرف نفسك بنفسك. ولئن كنا نستدل على وجود جسم ما بالحيز الذى يشغله فالتفكير الذى هو خاصة النفس الملازمة لها دليل قاطع على وجودها

وقد سبق إلى هذا المعنى أغسطين فيلسوف المسيحية فى القرن الخامس الميلادى وسلك فى البرهنة على وجود النفس سبيلا تشبه من بعض الوجوه السبيل الآنفة الذكر، فذهب إلى أن الجسم والنفس حقيقتان متميزتان تمام التميز، فى حين أن الأول يشغل حيزاً وله طول وعرض وعمق لاحيز للثانية مطلقا، وخاصيتها الوحيدة هى التفكير؛ ومن أجل هذا كان شعورنا بها وإدراكنا لها ادراكا مباشراً، فان الفكر لايحتاج إلى واسطة فى فهم ذاته. وما دامت النفس تفكر فهى موجودة، لأن تفكيرها يساوى وجودها تمام المساواة. وقد يستطيع الانسان أن يتجرد عن جسمه وعن العالم الخارجى فى كل مظاهره، وأن ينكر الحقائق على اختلافها وأن يشك فى كل شىء إلا نفسه التى هى مصدر شكه ومنبعث تفكيره فإنه لايجد إلى الشك فيها سبيلا[2]

وهنا نتساءل: هل تأثر ابن سينا بأغسطين أم الأمر مجرد توافق خواطر؟ لم يثبت مطلقا أن مؤلفات الأخير نقلت إلى العربية: ولا نجد أية وسيلة سمحت لابن سينا بالأخذ عنه، ويرجح الأستاذ جلسن أنهما معا صدرا عن أصل اسكندرى ولاسيما وهما شديد...

---

(١) ابن سينا، (الاشارات)، ١١٩ — ١٢٠ (الشفاء)، ج ١، ص ٢٦٣

(١) ابن سينا، (المصدر السابق)، ج ١، ص ٢٨١.

(2) St Augustin, (De trinitate), X, cap. X, art. 13-16.- Gilson, (Introduction à l'étude de St Augustin), 56-59.

التعلق بأفلوطين وتعاليمه(١) ، بيد أنا لم نقف على شيء مما وصل إلينا يشهد بأن رجال مدرسة الاسكندرية حاولوا البرهنة على وجود النفس على النحو السابق. ولسنا ندرى ما المانع أن يكون برهان الرجل المعلق فى الفضاء من ابتكار ابن سينا واختراعه ، خصوصا وهو قد عودنا صوراً فرضية أخرى كثيرة كحديث حى بن يقظان ورسالة الطير التى تدل على خيال خصب ومهارة فى التصوير . وعلى فرض أنه عالة على من قبله فى بعض عناصر برهانه ، فليس هناك شك فى أن الصورة الجذابة التى صوره بها من بنات فكره وانتاجه الشخصى ، ويخيل إلينا أنه كان مغتبطا بفنه معجبا بتصويره ، ولا أدل على هذا من أنه أبرزه مرتين فى كتاب الشفاء وعاد إليه مرة ثالثة فى اشاراته (٢)

وهذا التصوير هو الذى ميز برهنته من برهنة أغسطين وان كانتا تلتقيان فى الغاية والمرمى . وهو الذى استلفت أنظار فلاسفة القرون الوسطى المسيحيين واستولى على نفوسهم ، فأعاده الكثيرون منهم بنصه أحياناً ، وخاصة أتباع أغسطين مثل غليوم الأقرنى وحنا الروشيلى ، وكأن هؤلاء قد ازدادوا تعلقاً بالفيلسوف العربى حين رأوه يقترب من أستاذهم اللاتينى (٣) .

ولا نظننا فى حاجة إلى أن نشير إلى أن كتاب الشفاء ترجم إلى اللاتينية . وكان للجزء المتعلق بالنفس منه أكبر الأثر فى رجال الفلسفة المسيحية ، ولم يكد دومينقوس جندسالينوس يترجمه فى القرن الثانى عشر الميلادى حتى أقبلوا عليه يتدارسونه ويأخذون عنه مختلف الآراء ، ولا يرون على أنفسهم غضاضة فى أن يعزوا البرهان الذى تتحدث عنه إلى صاحبه ومبتكره ابن سينا

ويظهر أنهم استمروا يرددونه فيما بينهم إلى عصر النهضة وإلى أن جاء ديكارت فنادى بمبدئه المشهور Le Cogito الذى ينطوى على أفكار أغسطين وسينويه ، فى بحثه عن الحقيقة عاهد نفسه على أن يرفض كل ما يتطرق له الشك ، لأن حواسنا فى حال اليقظة تخدعنا وتنقل إلينا العالم الخارجى نقلا مشوها ، وتخيلتنا أثناء النوم تعلق علينا صوراً وأوهاماً لا أساس لها . وأخذ يشك فى كل شىء إلى أن انتهى به شكه إلى حقيقة ثابتة هى أنه يفكر ؛ ومادام يفكر فهو موجود . وفى مقدور الشكاك واللاأدريين أن يهدموا الحقائق على اختلافها إلا هذه الحقيقة التى تحمل معها برهانها (١) .

يقول ديكارت : « قد أستطيع أن أفترض أن لا جسم لى وأن لا عالم ولا مكان أحل فيه ، ولكنى لا أستطيع لهذا أن أفترض أنى غير موجود ، بل على العكس ينتج قطعاً وفى وضوح من شكى فى حقيقة الأشياء أنى موجود . . . فقد عرفت إذن أنى جوهر ذاته وطبيعته التفكير ، ولا يحتاج فى وجوده إلى مكان ولا يخضع لشىء مادى ، وعلى هذه الصورة الأنا أو النفس التى هى أساس ما أنا عليه متميزة تمام التميز من الجسم ، بل هى أيسر معرفة منه ، حتى فى حال انعدامه لا تنقطع هى عن أن توجد مع كل خصائصها » (٢) .

هذا هو الكوجيتو (٣) الديكارتى القائل : « أنا أفكر فأنا إذن موجود » . وهذه هى البرهنة عليه . ولا يجد القارىء صعوبة فى إدراك وجوه الشبه بين هذه البرهنة والبرهنتين السابقتين الأغسطينية والسينوية ، وقديماً لاحظ أرنولد أن ديكارت يحاكى أغسطين تمام المحاكاة فى إثباته وجود النفس وتميزها من البدن(٤) ولم يبق مجال للشك فى أن أبا الفلسفة الحديثة قرأ مؤلفات أغسطين وخاصة ما اتصل منها بالنفس وخلودها (٥) وحديثاً استطاع المسيو ليون بلنشيه أن يبين فى سعة وتفصيل جديرين بالاطراء الأفكار التى سبقت الكوجيتو الديكارتى ومهدت له (٦) ، غير أنه فاته أن يشير إلى الصلة بينه وبين برهان الرجل المعلق فى الفضاء . وقد حاول أخيراً المستشرق الايطالى فورلانى أن يتلافى هذا النقص ، فكتب فى مجلة Islamica فصلا عنوانه

---

(١) Gilson, (Archives), r. IV, P. 41 en bas.

(٢) ابن سينا ، (الشفاء) ، ج ١ ، ص ٢٨١ — ٢٨٢ ، ٣٦٣ = (الاشارات) ، ١١٩ — ١٢٠ .

(٣) Gilson (Archives), r, 53, IV, 41-42 en bas.

(1) Descartes, (Discours), 31-33 (éd. Tannery)

(2) (Thid.;) ef. (Meditatio 11).

(٣) فضلنا تعريب هذه الكلمة اللاتينية الأصل لما لها من منزلة تاريخية .

(4) Hamelin, (Le systéme de Descartes), P. 122.

(5) Bréhier, (Histoire de la plûlos.), 11,73.

(6) L. Biancher, (Les antécédents historique du je perse donc je suis), Taris, 1920.

وابن سينا والكوجيتو الديكارتي »[1]. وفيه يعرض برهان الفيلسوف العربي وترجمته اللاتينية القديمة، ثم يقارنه بما جاء به ديكارت موجها عنايته الكبيرة إلى بيان أثر الحواس والمخيلة لديهما، وينتهي بعد كل هذا إلى النتيجة الآتية: وهي أنه يستبعد أن يكون ديكارت قرأ ابن سينا رأسا لقلة المطبوعات وعدم تداول مؤلفاته في الأيدي، ويرجح أن يكون قرأه عن طريق غليوم الأقرني[2]

ولكنا نلاحظ أن ترجمة كتاب الشفاء اللاتينية، أعيد طبعها في فينيس ثلاث مرات بين سنة ١٤٩٦ وسنة ١٥٤٦، فتكون آخر طبعة منها ظهرت قبل ميلاد ديكارت بخمسين سنة فقط. ونحن نعلم كيف أثيرت مشكلة النفس وخلودها لعهده، فمن المحتمل أن يكون الباحثون قد لجأوا الى كل المصادر الممكنة لحلها. وابن سينا من أطول الناس حديثا فيها وأكثرهم غراما بها. وقد أبان رينان من قبل مقدار تعلق السربونيين ورجال الدين في باريس بالفلسفة الاسلامية بوجه عام ومناقشتهم لها وردهم عليها وبحثهم عن أصولها ومصادرها، فلا يمكن أن تكون قد فاتتهم مطبوعات فينيس المتقدمة[3] وفي مكتبة باريس الأهلية أكثر من نسخة من هذه المطبوعات، ويغلب على الظن أنها وصلت السربون منذ ذلك التاريخ[4]: وإذا كان أرنولد قد أشار إلى أغسطين فقط ليبين أن ديكارت عالة على من قبله. فلعل ذلك راجع إلى أنه تخير شخصية معروفة من العالم المسيحي المحيط به

على أن ديكارت لم يتنبه إلى ابن سينا بواسطة غليوم الأقرني فقط، بل يغلب على ظننا أنه اهتدى اليه أيضاً في ثنايا مؤلفات روجير بيكون التي قرأها وتأثر بها في نواح مختلفة، ومهما يكن فسواء أقرأ ديكارت ابن سينا مباشرة أم عن طريق غير مباشر فكل الدلائل قائمة على أن برهان الرجل المعلق في الفضاء جدير بأن يعد بين الأفكار التي سبقت الكوجيتو الديكارتي ومهدت له[1]. وإذا كان ديكارت مديناً لأغسطين بشيء في صوغه وتصويره فهو مدين بدرجة لا تقل عن هذا لابن سينا كذلك، خصوصاً وإلى الأخير يرجع الفضل في بعث أفكار أغسطين من مرقدها وتوجيه اللاتينيين من جديد نحوها توجيهاً نشيطاً في الأربعة قرون السابقة لديكارت. وهو مع زميله ابن رشد قد أثارا في العالم الغربي منذ القرن الثاني عشر مشكلة العقل والنفس ونظرية المعرفة بوجه عام اثارة امتد صداها إلى عصر النهضة.

وغني عن البيان أنه لا يعيب الكوجيتو مطلقاً أن يكون بعض الباحثين قد اهتدى إليه من قبل عن طريق آخر، فان اتفاق الآراء على أمر من الأمور يزيده قوة فوق قوته ويقيناً إلى يقينه. وليس ثمت داع لأن نجهد أنفسنا، كما صنع هملان وغيره في أن نثبت بأي ثمن أن ديكارت مبدعه الأول، فان هذه محاولة فاشلة ولا تتفق مع روح البحث العلمي الحديث[2]. ولا يعيب ديكارت نفسه أن يكون قد سبق اليه في صورة غير الصورة التي أظهره فيها، وثوب غير الثوب الذي ألبسه إياه، فان الفكرة الواحدة تتشكل بأشكال مختلفة تبعاً للمذاهب الفلسفية التي تبدو فيها

يتبع — ابراهيم مدكور

(1) G. Furlani, (Auicenna e il Cogito).
(2) (Ibid.), P. 70.
(3) Renan, (Averroès), 267-78
(4) Catalogue de la Bibliothèque nationale, Réserve, R. 82 (1), 82 (2), 83, 618.

(1) يوافقنا الأستاذ جلسن كذلك على هذا الرأي (Archives, I, 63 en bas).
(2) Hamelin, (Le système de Descartes, 122-23

١٥ - تاريخ العرب الأدبي

للأستاذ رينولد نيكلسون

ترجمة حسن محمد حبشي

ومن المحتمل أن يكون فجر العصر الذهبي للشعر العربي هو هذه السنوات العشر الأولى من القرن السادس بعد الميلاد. فحوالي هذا الوقت كان قد اشتد ضرام حرب البسوس التي سجلت سنيها عاما فعاماً أشعارُ معاصريها إبّان ذلك الوقت، كما أن أول قصيدة عربية أنشئت - كما تذكر أخبارهم - قصيدة نسج بردتها المهلهل بن ربيعة التغلبي في رثاء أخيه كليب الذي كان مصرعه سببا في إشعال نار الوغى واشتجار رماح قبيلتي بكر وتغلب. وعلى كل حال ففي خلال القرن التالي لهذه الحادثة نجد كثيرا من المنشدين في جميع أصقاع شبه الجزيرة العربية ظلوا مقتفين لهجة شعرية واحدة في معانٍ مشتركة ظلّت محترمة لم تمسسها يد التغيير والتبديل حتى نهاية العصر الأموي (٧٥٠ م) ومع ذلك فقد سادت الأدبَ أيام الخلافة العباسية روح جديدة سرعان ما ثبتت قوائم سلطانها الذي ظل على قوته حتى اليوم تقريبا، وكان هذا النمط يتمركز في القصيدة (١) التي تعد الصورة - أو بتعبير أدق - المثل الأعلى لما يمكن تسميته بالعصر الرائع للأدب العربي. وتختلف القصيدة في عدد الأبيات التي تتألف منها، لكنها قلما تقلّ عن خمسة وعشرين أو تربو على المائة، ولا يكون التصريع إلا في المطلع، ثم تجري القافية على رويّ واحد حتى نهاية القصيدة. أما الشعر المرسل Blank Verse فغريب عن العرب الذين لا يرون الايقاع حلية وتنميقا أو تقييدا منهكا بل يعدونه روح القصيدة وجوهرها. وأغلب ما تكون القوافي رقيقة فيها أنوثة كقولهم سخينا، تلينا، مهينا، مخلدي، يدي، عوّدي، رجامها، سلامها، حرامها. وإنّ تذليل عقبات القافية الواحدة ليتطلب مهارة فنية كبرى حتى في لغة يكون من أشد خصائص تكوينها تعدد القوافي وكثرتها، وإن أطول المعلقات لأقصر من مرثية جراي. أما من ناحية الوزن فللشاعر الحرية في اختيار أي بحر إلا الرجز الذي يعد أتفه من أن يستعمل في القصيدة. بيد أن حريته لا تصل إلى اختيار الموضوعات أو إلى طريقة استغلالها بل نرى عكس ذلك، إذ أن مجرى أفكاره مقيد بشروط قاسية لا يستطيع الفكاك منها، وفي ذلك يقول ابن قتيبة: «وسمعت بعض أهل العلم يقول إن مقصد القصيد إنما ابتدئ فيها بذكر الديار والدمن والآثار، فشكى وبكى وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها إذ كان نازل العمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه المدر لانتجاعهم الكلأ، ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الشوق وألم الوجد والفراق وفرط الصبابة ليميل نحوه القلوب لأن النسيب قريب من النفوس لما جعله الله في تركيب العباد من محبة الغزل وألف النساء، فليس يكاد يخلو أحد من أن يكون متعلقا منه بسبب. فاذا علم أنه استوثق من الاصغاء اليه عقب بايجاب الحقوق فرحل في شعره وشكا النصب والسهر وسرى الليل وانضاء الراحلة، فاذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء بدأ في المديح فبعثه على المكافأة وهزه على السماح وفضله على الأشباه (١)».

وهناك مئات من القصائد لا تخرج عن هذا الوصف الذي لا يجب على كل حال أن يعتبر النموذج الثابت على الدوام إذ يتجاوز الشاعر في بعض الأحيان عن المقدمة الغزلية وخاصة في المراثي، وإذا لم تقده على الفور إلى الغرض المنشود تلاها وصف دقيق صادق لبعير الشاعر أو حصانه الذي يحمله خلال القفار في سرعة الظبي النافر أو الحمار الوحشي أو الظليم. وشعر البدو يفيض بالدراسة الجيلة لحياة الحيوان ووصفها (٢)؛ ولا شك أنهم كانوا يولون المديح همهم وعنايتهم، كما كان أحب شيء إلى نفوسهم. وقد استطاع الشاعر أيام الجاهلية أن يرضي نفسه فلم تكن القصيدة وحدة قائمة بذاتها، ولكنها أشبه ما تكون بمجموعة

(١) راجع التعاريف المختلفة لكلمة قصيدة عند:
Jacob : Studien in Arab. Ditchern, Heft III, P.203.
Ahlwardt : Bemerkungen uberdie Dechtheit der Alten Arab. Gedichte, P. 24. seq.

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة (طبعة ليدن ١٩٠٢) ج ١ ص ١٤ س ١٠ وما يليه.

(٢) نلدكه Funf Mo'allaqat (المعلقات الخمس) ص ٣ وما يليها ويذكر نلدكه ملاحظة دقيقة تصور الطبيعة الصناعية لهذا الشعر تلك هي أن بعض حيوانات جد مألوفة ومعروفة عند العرب كالقنفذ واليربوع والأرنب قل أن يشار إليها أو يرد لها وصف في شعرهم، ومن الواضح أن ليس من سبب لهذا سوى أنها لا تدخل ضمن ما تعارفوا عليه.

صور رسمتها يد واحدة أوكما يقول الشرقيون مكونة من لآلىء مختلفة الحجم والقيمة، ثم ألف منها عقد

***

قد يمكن وصف الشعر العربي القديم بأنه نقد تصويري للحياة الجاهلية وأفكارها، إذ نجد الشاعر في هذه البيئة بعيداً عن التكلف والميوعة والبهرجة. وليست تسمية مجموعة أبي تمام «بالحماسة» من قبيل الصدف. أو لأن ذلك عنوان من عناوين الكتاب أو فصل من فصوله يشغل قرابة نصفه، بل لأن الحماسة تشير إلى أجل فضيلة عظمها العربي، فقد امتدح البسالة في القتال والصبر عند اشتداد البلاء، والجد في طلب الثأر، وحماية الضعيف والازدراء بالأهوال، أوكما قال تنيسون «كافح واطلب تجد ولا تخضع»

ومن صور المثل الأعلى للبطل العربي الشنفرى الأزدي، وقرينه في الغزو والسلب «تأبط شراً» فقد كانا قاطعي طريق طريدين، كما كانا شاعرين مبدعين، أما عن الاول فيروى أن بني سلامان اختطفوه طفلا وربوه فيهم، ولم يعرف أصله حتى نما عوده فأقسم لينتقمن من خاطفيه وعاد إلى قبيلته الأولى، ونذر أن يفتك بمائة رجل من بني سلامان فقتل ثمانية وتسعين ثم نجح مطاردوه في أسره، وبتر أحدى ذراعيه في دفاعه عن نفسه فشد على أعدائه بيده الأخرى وقتل واحدا منهم ولكنهم تكأكأوا عليه فغلب على أمره وقتل وقد بقي على إيفائه نذره رجل واحد، وبينما كانت أقحوفته ملقاة على الأرض مر بجوارها رجل من أعدائه فركلها بقدمه فدخلت فيها شظية من جمجمته ونغل الجرح ومات الرجل، ومن ثم قتل المائة[1]، وفي قصيدته الموسومة بلامية العرب يذكر طرفاً من صور بطولته وبسالته وعناء حياة السلب:

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى
وفيها لمن خاف القِلى متحوَّلُ
لَعَمْرُكَ ما بالأرض ضيق على امرىء
سَرَى راغباً أو راهباً وَهوَ يعقِلُ
ولي دونكم أهلون سِيد عَمَلَّس
وأرقط زُهلُولٌ وعرفاء جَيْألُ
هُمُ الأهلُ لا مُستَودَعُ السِّر ذائعٌ
لديهمْ وَلا الجانى بما جَرَّ يخذَلُ
وكلٌ أبيٌّ باسِلٌ غيرَ أنني
إذا عرَضَتْ أولَى الطرائدِ أبسَلُ
وإن مُدَّت الأيدِي إلى الزّاد لم أكن
بأعجلِهِمْ إذ أجشَعُ القومِ أعجل
وما ذاك إلا بسطة عن تفضل
عليهم وكان الأفضل المتفضلُ
وإني كفاني فقدُ من لستَ جازياً
بحسنَى ولا في قربه متعلَّلُ
ثلاثة أصحاب: فؤاد مشيع،
وأبيض إصليت، وصفراء عيطل
هتوف من الملس المتون يزينها
رَصائع قد نيطت إليها ومحمل
إذا زال عنها السهم حنت كأنها
مرزّأة ثكلى ترن وتعولُ[1]

ثم يأخذ في الكلام عن قبيلته التي تلفظه لفظ النواة وتتركه هائما على وجهه حينما يتكالب عليها الأعداء مطالبيها بثأر تلك الدماء المهراقة ويقول:

فلا تقبروني إنّ قبري مُحَرَّمٌ
عليكم ولكن أبشِري أمَّ عامرِ
إذا احتملوا رأسي وفي الرأس أكثري
وغُودِرَ عندَ الملتقى ثَمَّ سائري
هنا لك لا أرجُو حياةً تسرُّني
سَجيسَ الليالي مُبسَلاً بالجرائرِ[2]

(1) Sir Charles Lyall: Ancient Arabian Poetry, P. 83.

(١) يجد القارىء هذه القصيدة كاملة بالعربية في كتاب دي ساسي المسمى «كتاب الانس المفيد للطالب المستفيد، و «جامع الشذور من منظوم ومنثور» وترجمها نفسه إلى الفرنسية في Chrestomathie Arabe ص ٣٣٧ وما يليها، وكذلك ترجمها إلى الانكليزية شعراً G. Hughes (لندن ١٨٩٦ م) وقد اشار نلدكه إلى كثير من التراجم لها في Beiträge Zur Kenntniss d. Poesie der Alten Araber, P. 200.

(٢) الحماسة ٢٤٢

أما ثابت بن جابر بن سفيان فهو من قبيلة «فهم» ويسمى تأبط شرا، وسبب ذلك أن أمه أبصرته ذات يوم خارجا من الخباء إلى الخلاء متأبطا سيفاً فسألها أحدهم «أين ثابت؟» فقالت: «لست أدرى، لقد تأبط شرا وخرج»، وهناك قول آخر بأنه قد خرج فى بعض أموره فالتقى بغول فشدّ عليه وجزّ رأسه ثم حمله إلى بيته على هذه الحال، فقيل له تأبط شرا. وإن الأبيات[1] التالية التى يصوّر بها خاله شمس بن مالك لكفيلة بتصوير طبيعة الشاعر ونفسه تماما وهى انعكاس لعاداته:

قليلُ التّشكى لِلمهم يصيبُهُ
كثيرُ الهوى شتى النوَى والمسالك

يَظل بمَوْمَاة ويمسى بغـيرها
جَحيشاً ويَعرَورى ظهُور المهالك

ويَسبق وَفْدَ الرّيحِ من حيث ينتحى
بمنخرق منْ شده المتَدارك

إذا حاص عَينَيه الكرى النّوم لم يزل
له كالىء منْ قلب شيْحان فاتك

ويجعلُ عينيه ربيئة قلبه
إلى سلةٍ من حدّ أخلق صائك

إذا هزّه فى وجه قِرن تَهللت
نوَاجذ أفوَاهِ المنايا الضوَاحك

يَرَى الوَحشة الأنس الأنيس ويهتدى
بحيث اهتدت أمّ النجوم الشوائك

وهذه الأبيات السالفة تصف فى دقة وتلم كل الالمام بالفضائل الأولية العربية من شجاعة وخشونة وبأس. وهنا نرى لزاما علينا أن ننتقل بالقارىء إلى ناحية بعيدة بعض الشيء عن الناحية الأدبية، تلك هى الناحية الخلقية التى تعد من الأسس المهمة التى قام عليها كيان المجتمع الوثنى الذى ليس لدينا من مرجع عنه سوى الشعر الجاهلى. لم يكن للعرب قانون مكتوب أو مرجع دينى أو أى شيء من هذا القبيل، بل كان هناك ثمة قوة أجل من

(١) الحماسة ٤١ - ٤٢ وقد ترجمها إلى الانكليزية:

Sir Ch. Lyatl : Anc. Ar. Poetry, P. 16

A. B. Davidson : Biblical Literary Essays, P. 263

هذه وأعلى شأنا وأنفذ تأثيراً فى نفوسهم، تلك هى «الشرف»، ولكن ما هى خصائص الشرف البارزة وميزاته الواضحة التى تنطوى عليها فضيلة المروءة كما كان يفهمها عرب الجاهلية؟ لقد أشرنا إلى أن شجاعة العرب تشبه تمام الشبه شجاعة الأغريق «يولدها ثوران النفس ولكنها تتلاشى إزاء الابطاء أو التراخى»[1] ومن ثم كان البطل العربى رجل جلاد يقتحم الأهوال، ويزدرى الأخطار، كثير الفخر كما يظهر لنا ذلك من معلقة عمرو بن كلثوم. وإذا رأى أن ليس لما يفوته بالهرب خطر عظيم أسرع غير مليم، ولكنه يحارب ويناضل حتى آخر رمق فيه ذابًا عن نسائه اللائى كنّ إذا جد الجد واشتبكت الرماح، صحبن القبيلة ووقفن خلف صفوف القتال:

لما رأيتُ نِساءنا يفحَصن بالمعزاء شدّا
وبدَتْ لميسُ كأنّها بدْرُ السماء إذا تَبدّى
وبدَتْ محاسنُها التى تخفَى وكان الأمرُ جدّا
نازلْتُ كبشَهُمو ولمْ أرَ من نزَال الكبش بدّا[2]

وكانت الديمقراطية دستور القبيلة يتولى الإشرافَ على تطبيقه شيوخها الذين استحقوا السيادة بما لهم من شرف النسب، ونبل الأخلاق، وسعة الثروة، وحكمة الرأى، وكمال التجربة[3] كما أشار إلى ذلك شاعر بدوى[4] بقوله:

لا يَصلُح الناس فوْضى لا سراة لهم ... ولا سَرَاة إذا جُهّالهم سادوا
والبَيتُ لا يبتَنى إلا له عمدٌ ... ولا عِمَاد إذا لمْ ترْسَ أوتادُ
وإن تجمع أوتادٌ وأعمـدة ... يوماً فقد بلغوا الأمر الذى كادوا[5]

«يتبع» حسن حبشى

(1) Hahaffy : Social Life in Gree, P. 21

(٢) الحماسة ٨٢ - ٨٣، والأبيات للشاعر عمرو بن معديكرب احد فرسان الجاهلية المغاوير، اعتنق الاسلام وجاهد فى صفوفه إبان حرب الفرس

(٣) نزيد على ما ذكره نيكلسون ما رواه المبرد من ان معاوية سأل عرابة بن أوس بن قيظى الأنصارى عما كان من شانه حتى بلغ مرتبة الرياسة، فقال: «أعطيت فى نائبتهم، وحلمت عن سفيههم، وشددت على يدى حليمهم، فمن فعل فعلى فهو مثلى، ومن قصر عنه فأنا أفضل منه، ومن تجاوزنى فهو أفضل منى» (الكامل ص ٧٥). وكذلك الفصل الأول من ترجمتنا لكتاب «تاريخ العرب باسبانيا» لدوزى. (المترجم) (٤) هو الأفوه الأودى (المترجم)

(٥) Delectus لنلدكه ص ٤ س ٨ - ١٠



الفن المصرى

العقيدة الدينية أصل الباعث على الفن

للدكتور احمد موسى

انظر إلى خريطة وادى النيل الطبيعية ، تجد أن مصر واد جميل منبسط ، لا تتخلله ارتفاعات ولا انخفاضات خصوصاً فى المناطق المأهولة بالسكان . أما الأمطار فهى نادرة فيه ، فضلا عن أن الشمس تسطع عليه طوال أيام السنة

وتفكير الناس وتكوين إحساسهم وليد البيئة التى يعيشون فيها . ولما كان الفن وليد دقة الإحساس وسمو التفكير ، وجب أن يكون الفن المصرى بسيطا سهلا ، نظراً لبساطة الخيال المصرى ولين شاعريته ، على عكس الخيال الاغريقى مثلا

وكان المصرى ولا يزال قليل الاستمتاع بجمال الطبيعة لندرة تغيرها ، على حين نرى الاغريق عظيم الاحساس بالجمال والاستمتاع به سريع التأثر بمظاهر الطبيعة المتقلبة ، كثير السعى والبحث وراء ما فيها من جمال وفن . كل هـذا راجع إلى الاختلاف الطبيعى بين مصر وهى البلاد المنبسطة المكونة من قطعة واحدة غير منفصلة ، وبين اليونان وهى جزائر سواحلها كلها تضاريس ، فضلا عن كثرة الارتفاعات والانخفاضات فى سطحها

وقد أوضحت شيئا يسيراً عن الفن المصرى قبل التاريخ ، وقلت إن الالتفات إلى الدين كان قبيل عهد الأسرات ، وأن هذا الالتفات نما وازداد حتى عصر مينا ، الذى وحد بين الوجهين البحرى والقبلى مكونا ملكة واحدة

وإذا استطعنا أن نفهم شيئا عن تطور العقيدة الدينية ، فإنه يمكننا أن ندرك الفن المصرى إلى حد الاستمتاع

أنعم المصريون النظر فى الموجودات والمرئيات ، واتجهوا بنظرهم إلى السماء فصوروها بعضهم أن القبة السماوية شىء أشبه ببقرة كبيرة رأسها متجه نحو الغرب ، وأن بلادهم بين أرجلها ، كما تخيلوا أن النجوم لا تخرج عن كونها زينة تتحلى بها

وتصور غيرهم أن السماء على هيئة امرأة انحنت متجهة بيديها ورأسها نحو الغرب ، وبأرجلها نحو الشرق ، وأن النجوم حلى منثورة على بطنها وصدرها

وإذا فكرنا قليلا نجد التشابه فى الفكرة عظيما ، ولا سيما وأن الذين تخيلوا السماء على هيئة بقرة ظنوا أن الشمس تولد (تشرق) على هيئة عجلة صغيرة ؛ وأما الآخرون الذين تخيلوها على شكل امرأة فقد ظنوا أنها تشرق على هيئة طفلة تسير من الشرق إلى الغرب فلا تلبث أن تصير عجوزاً عند غروبها

ظل الحال كذلك حتى اتصل أهل مصر العليا بأهل مصر السفلى وتم التعارف بينهم ، وتبادلوا التجارة وتفاهموا فى شؤون الحياة وفى شؤون الدين

وكانت نتيجة هذا التعارف والتفاهم أن وجدنا أن هناك من رأى الصقر يطير بسرعة ، فتخيلوا الشمس مثله ، تطير بجناحين من الشرق إلى الغرب . وكان أثر هذا الخيال عميقاً فى الفن المصرى ، فترى الشمس قد رسمت بجناحين فى مناسبات مختلفة

ولم ينته الأمر عند هذا الحد ، بل نظر المصرى إلى الماديات وأولها وادى النيل ، فتخيله رجلا منبسطاً على الأرض وظهره إلى السماء وعليه نمت النباتات ، وعاش الانسان والحيوان مستمدين الحياة من الشمس . وظنوا أن الدنيا تبدأ حيث بدأ النيل من ذلك المحيط اللانهائى جنوباً ، وتنتهى حيث يصب شمالا

واعتقدوا أن هناك آلهة للماء وللأرض وللهواء ، وتوسعوا فى تصوراتهم فجعلوا للحياة الها وللموت آخر ، وللمسرات والحب غيرها وهكذا

وكانت عبادتهم للشمس قوية باعتبارها مصدر الحياة والنور فاختاروا لها مدينة خاصة أسموها عين شمس (هليوبوليس) ثم أسموا الشمس (رع) عند الشروق و (اتوم) عند الغروب

ونظراً لدقة ملاحظتهم للقمر وإعجابهم بانتظام سيره الزمنى جعلوا منه منظما لزرعهم واعتبروه الها للعلوم والآداب ، واتخذوا بلدة الأشمونين (قرية من المنيا) مقراً لعبادته

ورمزوا للسماء ببقرة رسموها فى معبد دندرة (بالقرب من قنا) وبقطة فى صالحجر (بالقرب من كفر الزيات) وبلبؤة فى منفيس (بالقرب من البدرشين)

وكانت مصوراتهم التى رمزوا بها للآلهة بسيطة فى أول الأمر ، مما يدل على بساطة معيشتهم فى ذلك الحين ، كما أن رسوماتهم لها لا تدل على أنهم أحبوا حيواناتهم حباً عظيما جعلهم يصورون رؤوس هذه الآلهة بصور تلك الحيوانات نفسها عند تدهور المدنية المصرية

وإذا دهشنا للعقلية المصرية من ناحية العقيدة الدينية، فاننا لا نندهش عند ما نجد الكهنة يتركونهم مسترسلين فى عقائدهم حتى بذلك يدوم لهم السلطان

وكانت هذه العقيدة ، رغماً عن عدم انسجامها مع العقلية المصرية خير دافع للفن المصرى بل وإلى الحضارة المصرية إجمالا ، فكل ماوصل إليه المصريون من أبهة وعظمة كان عن طريق هذه العقيدة، وكل ما تركوه من آثارها لا يخرج عما شيدوه للدين

فانشاؤهم المقابر والاهرام والمعابد ، كل هذا لم يكن إلا لرسوخ العقيدة الدينية فى أنفسهم . ولا يعنينا الآن وصف شىء من مقابرهم أو أهراماتهم ؛ أما معابدهم فكانت إجمالا عبارة عن حوش محدود بحوائط تنتهى بصالة مستطيلة ذات أعمدة ، وعلى يمينها ويسارها غرف لحفظ الأثاث والأدوات والهدايا ، وضمن هذه الغرف مساكن الخدم

وخصصوا غرفة وضعوا فى وسطها حجراً من الجرانيت المنحوت جيدا ، جعلوه قاعدة لتمثال المعبود الذى كان أحيانا من الخشب المطعم بالذهب والفضة والأحجار الكريمة ، وبارتفاع يتراوح بين نصف متر ومترين

وكانت احتفالاتهم الدينية فى أول الأمر بسيطة ، ولكنها أخذت شكلا عظيما فيما بعد ، فبدأوا يقيمون حفلاتهم الدينية التى كانت تتخللها الموسيقى والغناء والرقص

وقام الكل بتموين هذه المعابد بالمأكل والمشرب ، ووصل بهم الحال إلى جعل الاشتراك فى هذه الاحتفالات إجباريا ، فاشتركت البلاد من أقصاها إلى أدناها ، وقدموا هداياهم إرضاء للمعبود لينالوا بذلك سعادة الدنيا والآخرة . وكان فرعون ، وهو الحاكم المطلق للبلاد يقوم علاوة على مهمته المدنية بمهمة الكاهن الأكبر ، وقد عين لنفسه نائبا فى كل معبد ، يقوم بتقديم القربان للمعبود : وبرئاسة المصلين الذين يدعون لفرعون بدوام الملك والأبهة . وكان من شأن الكاهن أن يقوم بالمحافظة على المعبد بمشتملاته ومراقبة حساباته من إيراد ومصروفات

من كل هذا نرى أن الدين المصرى دفع المصريين فى إخلاصهم المتناهى له ، إلى بناء المعابد والاهتمام بشأنها وتنميتها وزخرفتها. وكل هذا لا يخرج عن كونه الفن المصرى إجمالا ، لأننا إذا ألقينا النظر على وادى النيل كله ، وتأملنا ما ترك المصريون قديما ، لا نجد إلا أهراما ومعابد ومدافن ، وما بداخلها لا يخرج أيضا عن متروكات ارتبطت بحياة الناس أو بموتهم

ويتلخص تاريخ الفن المصرى كدراسة خاصة ، فى التوسع فى وصف هذه الآثار ووضع قواعد لنماذجها وتطوراتها ورقيها وانحطاطها ، وعلاقة ذلك بالحياة الاجتماعية فى ذلك الحين ، مع الاستعانة بما وجد على الجدران والسقف من كتابات ونقوش وزخارف ، وما وجد من تماثيل وتحف ومحفوظات دلت بدرسها على ما وصلت إليه المدنية المصرية من مستوى يجعلها وحيدة فريدة بذاتها بين أمم العالم

ولاعتقاد المصريين فى عودة الحياة إلى الجسم بعد الموت (البعث) فضل عظيم فى إيجاد التقدير الهائل نحو الموتى الذين تمتعوا أثناء حياتهم بمشاهدة مقابرهم التى سيدفنون بها بعد موتهم

وفكرة شروق الشمس واعتقادهم بأنها تأتى معها بالحياة ، وفكرة غروبها واعتقادهم بانها تذهب ومعها الحياة ، جعلتهم يدفنون موتاهم على الضفة الغربية للنيل فى معظم الأحيان ، ليمثلوا بذلك الموت فى أظهر معانيه

وكانت هناك عقائد خاصة بحال الروح بعد الموت ؛ فن المصريين من اعتقد أنها تسكن عالماً آخر أسفل هذه الدنيا ؛ ومنهم من ظنها تتحول إلى طير يطير بعد مفارقة الجسم إلى قرص الشمس ليعيش بجواره

وحرصهم على جثث موتاهم التى ستعود إليها الروح فى وقت ما ، جعلهم يمهرون فى فن التحنيط ، كما تفننوا فى طريقة المحافظة على الموميات ، فتراهم دفنوها دفناً منيعاً ، بعد وضعها فى تابوت من الخشب وضع فى تابوت آخر من الصوان أو الحجر الجيرى . وكانت مدافنهم على شكل الأهرام أو على شكل المصاطب أو فى جبانات عملت خصيصا

وكان الغرض من التحصين الحيلولة بين اللصوص وبين العبث بالجثث ، وبما دفنوه معها من أدوات وجواهر وتماثيل الخ .

واشتملت حوائط غرف الأهرام والمصاطب والمقابر على كتابات ونقوش ، كما اشتملت على رسومات تبين صاحب القبر يراقب الخدم أثناء اشتغالهم بخدمته والمحافظة على راحته بعد موته .

وكانت العناية ببناء المقابر فائقة فى كل أجزائها التكوينية والشكلية ، وسهر نفر معين من الناس للمحافظة عليها نظير أجر معلوم حصلوا عليه من أصحابها ؟

أحمد موسى

من هنا ومن هناك

أونجين

لعل هذه التحفة النادرة هي أبدع مانظم بوشكين الشاعر الروسي طول حياته ، وقد بدأها سنة ١٨٢٣ وأتمها سنة ١٨٣١ . وهي خيال طريف لقصيدة بيرون بيو Beppo وإن تكن في صدقها وروعة فنها خيراً من بيو ومن كل مانظم بيرون على الاطلاق . ونلخص اليوم تحفته أونجين التي تبذ كل ما كتب الأدباء الروس فنقول :

« يوجين أونجين أحد أبناء الطبقة المتوسطة من سكان بطرسبرج ، حسن البزة ، مفسق الهندام ، عني أبوه بتربيته تربية رفيعة ، وتوجيهه في الحياة وجهة خاصة ، إذ وصله بالأستاذ لابيه فتفقه في الفرنسية حتى ثقفها وأصبح يتكلمها كواحد من أهلها . وكان مشغوفاً في ملبسه بالطراز الانجليزي من نسق لندن . وأجاد بضع رقصات كان أحبها إليه (المازورقا) ـ وكان متأنقاً في عبارته ، يتخير اللفظة الرنانة ، ويصقل الحروف صقلا أرستقراطياً يزيد في فخامتها ، ويضاعف موسيقاها . وطالما كان ينثر في حديثه أبياتاً من الانيد (فرجيل) أو يستشهد بالحكمة اليونانية ، والمثل اللاتيني ، كأنما يريد أن يلفت السامع إلى تبحره في الأدب . ورسوخ قدمه في التاريخ ، وإلمامه بعلوم الأولين ... ... والآخرين ! وفي مشيته ، بل في طعامه ، بل في جلسته ، بل في الإيماءة الصغيرة بطرفه ، كان يتعمل تعملا ملحوظاً ، وكأنما أورثه تعمله هذا رذيلة الاضطغان ، والتبرم بجميع المخلوقات ! ... وكان أبوه رجلا متلافاً مبذراً ، لايكفي دخله المتوسط للتظهر المتنفخ الذي كان يبدو به بين الناس ، وكان لذلك كثير الاستدانة قليل السداد ... يقيم في داره المراقص والمراقص ... وهو في إفلاس وضيق ليس وراءهما إفلاس وضيق . فلما مات خلف تركة ثقيلة من الديون الفادحة ، أتت على أخضره ويابسه

واشتد الضيق على أونجين فارتحل إلى عمه في الريف فوجده قد انتقل إلى الآخرة هو الآخر . وثمة تعرف إلى شاب ألماني حَدَث ، واسع أفق الفكر ، متشعب المعرفة ، درس كانت وشيللر وهجل وأدباء الألمان ، حتى ما يكاد ينطق إلا بكلامهم ولا يفيض إلا عنهم . ويقدمه هذا الشاب (لنسكي) إلى عائلة مجاورة قوامها أرمل وابنتان ، صغراهما أولجا ، فتاة يافعة ممشوقة ساحرة اللفتات ، رشيقة الحركات ، علقها لنسكي من كل قلبه ، وشغفه حبها حتى ما يفكر إلا فيها . والكبرى ، تاتيانا ، أقل جمالا من أولجا ، وإن تكن أرجح عقلا ، وأثبت جناناً ، وأكمل أنوثة . ترى أونجين فتحس بزائر جديد يحتل قلبها دون أن يستأذن ، وتشعر بانعطاف إليه يقرب أن يكون ولوعاً . وتكتب إليه بعد أن يكون التعارف قد اشتدت أواصره ، وتعترف له بما تحس نحوه في أعماقها ، في أسلوب صارخ ، وعبارة مجلوة منتقاة ، وكلمات تكاد تتوهج وتلتهب . وليس في أشعار العالم شيء يشبه ما نظمه بوشكين في رسالة تاتيانا هذه ، بل ليس في فلسفة الحب صورة هي أروع ولا أصدق مما جاء في خطابها إلى أونجين . لقد كان قلبها يتكلم ويتضرم ، وكانت نفسها الملتاعة الوامقة تسيل دماً على شباة القـــلم . ولقد قرأنا درة شللي (أبيبسيكيديون) في الحب ، ولكنا لم نلمس هذه الروح التي هبطت من وحي بوشكين في رسالة تاتيانا ، ولم نلمح هذا القبس المقدس الذي أججه بوشكين العظيم في شعره العظيم . . .

ويرد أونجين على هذه الرسالة العلوية بخطاب فاتر بارد فيدعي فيه أنه لم يخلق للحب ، ولا يفكر في الزواج . وأنه غير جدير بها ، لأنه لم يشعر نحوها إلا بما يشعر به الأخ نحو أخته .

وإنهم جميعاً لفي مرقص ، فتدعو أولجا الصديق أونجين إلى رقصة اختارتها ، فينهض ملبياً طلبها ، وما تنتهي الموسيقى إلا وقد جن جنون لنسكي من الغيرة ، فينهض إلى أونجين وينتهره ، ويتحداه تحدياً يهيجه ، فتكون بينهما مبارزة هائلة يقتل فيها لنسكي — وتسود الدنيا في عيني أونجين ، فيرحل عن هذا البلد وينتقل في أطراف البلاد . . وتنتقل الأرمل بابنتيها إلى العاصمة

حيث يفتتن أحد أغنيائها بتاتيانا . فيخطبها إلى أمها . وسرعان ما يصبحان زوجين سعيدين

ويلتقي بها أونجين فجأة في إحدى حدائق بطرسبرج ، فتثور في نفسه الذكريات القديمة ، ويهيج به ميله الماضي . فيبثها حبه ولكن . . ولكن . . الفتاة تدمع قليلا . ثم تصارح الفتى قائلة :

« أونجين ! لقد أحببتك من صميمي ، ولكنك استكبرت ورفضت حبي ... وهأنا الآن زوجة ... وعلى واجبات ... ولزوجي شرف ، وله كرامة ... وهو يحبه لي خير منك بعبثك عليَّ ... أونجين ... وداعاً ! »

هذا ملخص مقتضب لهذه القصة الرائعة التي يخطىء مؤرخو الآداب فيقرنونها بدون جوان لبيرون

فن راسين (١٦٣٩ — ١٦٩٩)

يعتز الفرنسيون براسين اعتزاز الانجليز بشاكسبير. ولكل من راسين وشاكسبير ميزة يفضل بها أخاه ، فراسين يحكم العقل في العاطفة ويسخرها له وبعكسه شاكسبير الذي يجعل العاطفة مسيطرة على العقل سيطرة تامة ويترك لها القياد فوق المسرح فتنتقل بالنظارة في آفاق شعرية جميلة صاخبة لاوجود لها في عالم الحقيقة . ولا يدري أحد أيهما يفضل أخاه ولا يستطيع أحد أن يحكم لأحدهما على الآخر

والذي يلفت النظر في فن راسين أنه مشيد على دعائم يونانية من فن سوفوكليس ويوريبيدز في حين تفيض فيه روح مسيحية عليها طابع قوي من جماعة الـ (Jansenists) (أو الطهريين الفرنسيين) ثم يزين ذلك كله رواء من أبهة لويس الرابع عشر وفخامته .

ولكن يوريبيدز أقوى أثراً في راسين من كل شيء آخر . ولا غرو ، فقد كان راسين يسير على درب الأديب اليوناني الكبير ويمشي على منهاجه فلا يحيد قيد أنملة ، اللهم إلا فيما يجعل دراماته ملائمة لعصر لويس العظيم . ففي (أندروماك) و (إفجنيا) و (فيدر) نلمس روح يوريبيدز في الأديب الفرنسي ونكاد نعقد المقارنة بينهما ، وإن كان راسين قد لون فن أستاذه بمثل الألوان التي كان رافائيل يضفيها على صور لداته فيخلقها خلقاً آخر .

وليس شك في أن (أندروماك) هي خير درامات راسين جميعا . ولا نبالغ إذا قلنا إن أية درامة أخرى لم تجمع أشخاصاً ذوي عواطف شتى وأحاسيس متناقضة كما جمعت أندروماك . ولا نستطيع أن نعلل الأسباب التي إليها يرجع عدم نجاح هذه الدرامة العنيفة على المسرح المصري ، إلا أنها قطعة كلاسيكية لم يعتدها الذوق المصري بعد . وهذا ما يؤسف له ! وإذا كانت أندروماك قد جمعت كل هذه الشخصيات المتناقضة فبعكسها (فيدر) التي ازدحمت في قلب بطلتها متناقضات من عواطف غريبة ما برحت تتنقل وترتفع وتنخفض وتخبو وتشتعل حتى ختام المأساة . فقد أحبت فيدر ابن زوجها حبا شهوانيا اختلط بلحمها وخامر قلبها ، ثم جعلت تتلطف إليه ، ثم أعلنت إليه أنها تحبه ، وطفقت تراوده ، ولكن الفتى أبى أن يخون أباه أو يغمس شرفه في الوحل ، فتضرعت إليه ، وانقلبت الضراعة فأصبحت مذلة وهواناً . فلما اشتط الفتى في تمنعه انقلبت المذلة فصارت حقدا وغيظا ، ثم اضطرم الغيظ فصار شرا تضمره فيدر ويمزق فؤادها . . . ثم اتهمت الفتى لدى أبيه أنه يراودها عن نفسها . . . فوقعت المأساة ! فأنت ترى - إن كنت قد قرأت أندروماك أو شهدتها على المسرح - أن العواطف المتناقضة التي توزعت على أبطال أندروماك قد اكتظت كلها في نفس فيدر ؛ وهذا عمل فني خالد لم يتح لكاتب مثل راسين .

كذلك قد قلد راسين الشاعر الكوميدي اليوناني أرسطوفان في ملهاته (Les Plaideurs) التي احتذى فيها الكوميدية اليونانية (الزنابير !) (The Wasp) والتي أضحكت لويس الرابع عشر حتى ذهبت بوقاره المعروف عنه !

البريد الأدبي

وثيقة فرعونية عن المعاملات الشخصية

اقتنى متحف شيكاجو أخيراً وثيقة مصرية قديمة يرجع عهدها إلى ما قبل الميلاد بنحو مائة عام، أعنى الى أواخر عهد البطالسة تدل على أن المصريين القدماء كانوا يجرون فى القروض الشخصية على قواعد وأوضاع اقتصادية صارمة. وإليك خلاصة ما نصت عليه الوثيقة المذكورة التى حل رموزها الدكتور ناتانيل ريش العلامة الأثرى، على لسان المقترض:

« أنا العبد انسنا كومنى التابع لمقبرة زيمى، قد اقترضت من المرأة نخوتسى ٢٢٫٥ أردباً من القمح. وأتعهد برد هذا القرض مع أداء مثله بصفة ربح ليكون المجموع ٤٥ اردباً.

« وأن يكون الأداء من قمح حسن لاغش فيه، ويكال بنفس الكيل الذى استعمل فى القرض، كما أتعهد بأن أحمل القمح المذكور إلى منزل المرأة نخوتسى متحملا نفقات الارسال، وذلك فى آخر يوم من الشهر التاسع من السنة التاسعة دون طلب امتداد الميعاد، فاذا لم أستطع أن أؤدى القمح فى الميعاد المذكور فأتعهد بأن أدفع فى الشهر التالى عن كل أردب ستين قطعة من الفضة

« ولا حق لى مادام هذا الايصال فى يد نخوتسى أن أدعى الوفاء كله أو بعضه، هذا مع اقرارى بأن كل ما أملكه الآن أو أملكه فى المستقبل يكون رهناً لذمة نخوتسى حتى أؤدى الدين كاملا، فاذا اضطرت نخوتسى إلى مقاضاتى من أجل الوفاء فانى أتحمل كل ما يترتب على ذلك من التعويضات، هذا مع اعترافى باتباع كل ما يأمر به وكيل نخوتسى فى كل وقت بلا معارضة ولا ممانعة ». —

ونقول: فهل يستطيع رجل القانون المعاصر أن يكبل المدين لمصلحة الدائن بأوثق من هذه القيود؟

ذكرى بوشكين عميد الشعر الروسي

احتفلت حكومة جمهورية اتحاد السوفيت، وروسيا كلها، فى اليوم الحادى عشر من فبراير بالذكرى المئوية لوفاة الشاعر بوشكين أعظم شعراء روسيا الحديثة، وأطلق اسم الشاعر بهذه المناسبة على متحف الفنون الجميلة فى موسكو، وعلى مسرح لننجراد كما أطلق اسمه على عدة من الشوارع الهامة فى العاصمتين، وأطلق أيضاً على مدينة «دتسكيو زيلو» التى نشأ فيها الشاعر وتلقى تربيته.

ويعتبر اسكندر سرجيفتش بوشكين فى الواقع شاعر روسيا القومى كما يعتبر شكسبير شاعر انجلترا، وجيته شاعر ألمانيا. وكان مولد الشاعر سنة ١٧٩٩ فى موسكو، ولما انتهى من دراسته القانونية عين فى وظيفة بوزارة الخارجية، وفى سنة ١٨٢٢، ذهب إلى جنوب روسيا وزار القوقاز، وألهمته هذه الزيارة موضوع روايته الشعرية الشهيرة «سجين القوقاز». ثم أخرج قصيدته الرائعة «ثناء نابليون»، وكتاباً شائقاً فى حياة النور. واتهم بوشكين فى تلك الآونة فى عدة مؤامرات سياسية، ولكنه استطاع أن يفلت من العقاب نظراً لمكانة أسرته. وفى سنة ١٨٢٤ استقال من وظيفته لخلاف بينه وبين رؤسائه وتفرغ للكتابة والنظم. وأخرج فى العام التالى مأساته الشهيرة «بوريس جودونوف»، وهى القطعة الخالدة التى حررت المسرح الروسى من نفوذ المسرح الفرنسى، ودفعت التأليف المسرحى فى روسيا إلى وجهة قومية جديدة، وفى سنة ١٨٢٨، ظهرت «بولتاوا»، وهى قصة شعرية عن أيام بطرس الأكبر، ثم وصف شائق لرحلته الثانية فى القوقاز، وعاد بوشكين إلى سلك الوظائف سنة ١٨٣١، وكتب تاريخاً للثورة القوقازية التى وقعت يومئذ، ثم أخرج بعد ذلك قصته الرائعة «ابنة الكبتين»، ثم قصيدة «أوجين أونجين»، وهى فى نظر النقدة ابدع ما نظم. وهى مزيج من الفكاهة والتهكم والقصص، يبدو فيها أثر اللورد بيرون واضحاً

جلياً ، وهو أثر يبدو فى كثير من قصائد بوشكين الأخيرة . وفى فبراير سنة ١٨٣٧ وقعت بين بوشكين وبين البارون دانتس الذى اقترن بأخت زوجته ناتاليا جورشاروف مبارزة جرح فيها بوشكين جرحاً أودى بحياته ، وبذلك انتهت حياته القصيرة الباهرة .

حول التاريخ الألفى للأزهر

كتب كاتب فى جريدة الجهاد الغراء مقالا يستعرض فيه قصة اللجنة التى أنشئت منذ ثلاثة أعوام لكتابة تاريخ شامل للجامع الأزهر لمناسبة عيده الألفى الذى تقرر الاحتفال به عند حلوله فى أوائل سنة ١٣٥٩ هـ ؛ وذكر الكاتب أن اللجنة المذكورة قد عقدت بضعة اجتماعات ، وأن لجنة فرعية من بعض الأعضاء ألفت لوضع برنامج لتاريخ الأزهر ، ثم لم يسمع بعد ذلك شىء عن اللجنة ولا عن أعمالها

وما ذكره الكاتب عن اللجنة صحيح فى مجموعه ، بيد أن هنالك بعض حقائق غابت عنه ولا بأس من ذكرها بهذه المناسبة ، ذلك أن إنشاء هذه اللجنة كان نتيجة للقرار الذى اتخذته مشيخة الأزهر فى عهد شيخه السالف بالاحتفال بالعيد الألفى للأزهر ؛ فلما تغيرت المشيخة بعد ذلك بقليل ، رأى فضيلة الشيخ الحالى أن يرجىء جميع الأعمال الخاصة بالعيد الألفى لأنه فى رأيه لايزال ثمة فسحة كبيرة من الأجل ، وبذا تعطل عمل اللجنة دون حلها ، هذا فى حين أن اللجنة كانت قد قطعت بالفعل مرحلة تذكر فى سبيل انجاز برنامجها ، وكانت اللجنة الفرعية التى ألفت لوضع برنامج العصر الفاطمى قد وافقت على البرنامج الذى وضعه أحد أعضائها الأستاذ محمد عبد الله عنان ، ووزعت مواده بالفعل على بعض أعضاء اللجنة العامة ، وأنجز بعض الأعضاء ماعهد إليهم بكتابته وفى مقدمتهم الدكتور حسن ابراهيم حسن ، والأستاذ عنان ، ثم وقفت اجتماعات اللجنة واجتماعاتها عند هذا الحد

وقد ظهرت أثناء مباحث اللجنة ومناقشاتها حقائق تلفت النظر ؛ من ذلك أن أقطاب المشيخة قد لحوا أكثر من مرة إلى أن التاريخ المراد وضعه للازهر يجب أن يكون فى مجموعه وفى روحه نوعاً من التاريخ الرسمى ، وأنه يراد أن تخص منه عصور معينة دون غيرها ، وأن العناصر السياسية أو المذهبية التى يحفل بها تاريخ الأزهر يجب ألا تمثل فيه ، وكانت هذه التلميحات والرغبات داعية دهشة أعضاء اللجنة ، المدنيين ، ولا سيما المتخصصين منهم فى التاريخ ، وقد علقوا عليها بأكثر من مرة بأنه يجب إذا أريد أن يوضع تاريخ ألفى للازهر فيجب أن يكون تاريخاً بالمعنى الصحيح ، وعلى هذا سارت اللجنة الفرعية فى عملها

وثمة حقيقة أخرى كانت موضع النضال ، وهى أنه ظهر خلال المناقشة أن المشيخة تريد أن تنتفع بجهود العلماء المتخصصين فى التاريخ ، لينسب المؤلف فيما بعد فى مجموعه إلى ، مشيخة الازهر ، ؛ ولكن هذه النقطة كانت موضع الاعتراض الشديد إذ أصر الاعضاء المدنيون على أن ينسب كل فصل إلى صاحبه على طريقة المؤلفات العلمية الاخرى

هذه بعض حقائق عن لجنة التاريخ الألفى للازهر تجدر إذاعتها ؛ وإذا كان لنا أن نعلق على هذا الموضوع بشىء ، فهو أن تأليف اللجان الحاشدة ليس وسيلة عملية لكتابة التاريخ ، وأن كتابة التاريخ الصحيح قد أصبحت فى عصرنا علماً حقيقيا لا يستطيع أن يضطلع به إلا المتخصصون فيه

هذا وإنا لنأمل أن يكون لمشيخة الأزهر فى عهدها الجديد فى هذا الموضوع نظرة أوسع آفاقاً ، وأوفر سداداً وتوفيقاً

الذكرى السنوية الاولى للزهاوى

ستقيم وزارة المعارف العراقية حفلة تأبينية للشاعر الفيلسوف جميل صدقى الزهاوى ببغداد يوم الجمعة ١٢ مارس سنة ١٩٣٧ ، دعت إليها نفراً من كبار الأدباء فى البلاد العربية ، ثم أرسلت لجنة التأبين إلى جمهرة أخرى من الكتاب هذا الكتاب :

وبعد فانى أتشرف بأخباركم بأن حفلة تأبينية كبرى ستقام فى بغداد يوم الجمعة المصادف ١٢ مارس ١٩٣٧ إحياء للذكرى السنوية الأولى لوفاة شاعر العرب الكبير الفيلسوف الحكيم السيد جميل صدقى الزهاوى الذى خدم الأدب العربى مدة نصف قرن

ولما كنا نعتقد بأن حضرتكم ترغبون فى الاشتراك فى رثاء الفقيد الطيب الذكر نرجو أن تتكرموا بما تجود به قريحتكم فى هذا الشأن ليتلى فى الحفلة التأبينية أو يثبت فى الكتاب المزمع نشره تخليداً لذكرى الراحل الكبير . . .

تأبين الزهاوى فى وزارة المعارف ببغداد



المتنبي مع طه حسين

للدكتور محمد عوض محمد

إن الذين يطالعون الكتاب الذي بين أيدينا على أنه كتاب لطه حسين في المتنبي سيخطئون القصد ويفوتون على أنفسهم اللذة الحقيقية والمتعة العظيمة التي يستطيعون أن ينالوها من مطالعة هذا الكتاب على الوجه الصحيح: أي على أنه كتاب أدبي أو قصة أدبية شائقة لها بطلان المتنبي وطه حسين معاً. فليس الكتاب بحثاً تاريخياً جافاً، أو نقداً موضوعياً، بل قصة ممتعة تشترك فيها شخصية المؤلف الأديب وشخصية المتنبي المدهشة ... ولهذا يجمل بنا أن ندعو الكتاب طه حسين مع المتنبي، أو المتنبي مع طه حسين؛ كما ينادون في بعض المطاعم على الأصناف اللذيذة بأن يقولوا فراخ مع الأرز، أو كوارع مع الفتة...

فالكتاب الذي نحن في حديثه الآن اسمه الصحيح إذن هو المتنبي مع طه حسين....

والمتنبي مع طه حسين مظلوم!.. فقد كان طه حسين معرضاً عنه إعراضاً تاماً؛ وظل معرضاً عنه زمناً كدنا ألا نعرف له آخراً.. وقد قرر طه حسين أن يعرض عن المتنبي كل هذا الاعراض، منذ أن كان يطلب العلم في الأزهر الشريف. ثم لم يزل معرضاً عنه ممعنا في الاعراض. لا يستمع لصوته القوي، ولا يستجيب لندائه العذب. وهو يستعين على هذا الاعراض بضروب من الوسائل؛ فجعل يضع القطن الغليظ في أذنيه، ويقيم الحجب والجدران بينه وبينه، ويقول له: ابعد عني؛ لا أريد أن أصغي إليك...

وهكذا ظل المتنبي يهيب بالأديب الكبير، والأديب الكبير ليس له - كما تقول العامة - سوى أذن من طين وأذن من عجين

ولكن لم كل هذا الاعراض، أو التجني، أو التمنع؟

سيقول لك خلطاؤه الذين لا ينظرون إلا إلى ظاهر الأمور إن إعراض طه حسين يرجع إلى الخصومات التي تنشأ بين الطلبة، وتذهب بهم في التشيع الأدبي مذاهب مدهشة، فكان يكفي أن ينادي زيد بأن الطائي شاعر كبير، لكي يخاصمه في ذلك عمرو وبكر وخالد؛ وكان يكفي أن يشتد إعجاب بكر بشعر المتنبي ويسرف في مدحه، حتى يتألف عليه الآخرون، ويقاطعوا المتنبي المسكين من غير جريرة ولا ذنب

أقول إن هذا ما يزعمه الزاعمون. وقد يكون هذا ما يزعم طه حسين نفسه إذا سألته عن سبب إعراضه الطويل. ولكن الحقيقة أعمق وأبعد غوراً من هذا كله: وقد خفيت حتى على المؤلف نفسه. ذلك أن طه حسين كان يحس - إحساساً مبعثه الالهام الذي لا حول له فيه ولا قوة - أن شعر المتنبي متعة هائلة أولى به أن يدخرها، وأن يؤجل التمتع بها كما يترك المرء أطيب الثمار إلى آخر الوجبة، بادئاً بالفج الثقيل منها. قال لي بعض الناس مرة: هل رأيت إيقوسيا؟ قلت: لا! قال فاني أحسدك على هذا أشد الحسد. إني لأعطي كل ما عندي لكي أرى إيقوسيا للمرة الأولى!

ومن هذا الجامد البخيل الذي لا يعطي كل ما عنده لكي يدرس شعر المتنبي للمرة الأولى؟

ذلك هو السبب الحقيقي لهذا الاعراض الطويل؛ وكان لا بد لصاحبه إذا سأله لماذا لا تعنى بدراسة المتنبي أن يجيبك بأعذار ينتحلها انتحالا، وإذا هو يصطنع خصومة بينه وبينه، وقد ينتهي به الأمر إلى تصديق هذه الأعذار والايمان بأن تلك الخصومة المفتعلة تقوم على أساس أو شبه أساس.

إلى أن جاء الوقت، واستطاع المتنبي أن يرغم طه حسين على أن يسهر مع الساهرين من أجل شوارد شعره التي كان ينام عنها هو ملء جفنه. وأن يكب على دراسة المتنبي انكبابا عجيبا، وأن يقيم للمتنبي أسبوعاً كان من أجل وأروع أسابيع الجامعة المصرية، وأن يصطحب المتنبي معه إلى أوربا، وأن ينزله معه في الباخرة وفي القاطرات وفي مختلف الفنادق والديار!!

وهكذا اضطر طه حسين إلى أن يرى نفسه - على كره منه كما يقول - منصرفا إلى دراسة المتنبي، وأن يبادر إلى المتعة التي ادخرها لنفسه هذا الدهر الطويل، وأن يسلط على هذه الدراسة ما وهبه الله من ذكاء خصب، واطلاع واسع، وملاحظة دقيقة، وقدرة على استنباط الحقائق من أيسر المعلومات التي يمر بها الناس مرا دون أن يروها.. ثم استطاع بعد ذلك أن يصور لنا المتنبي، فاذا نحن نحسه وإذا نحن نلمسه، وإذا نحن نراه ماثلا أمامنا، وإذا نحن نسير وإياه جنبا إلى جنب، وإذا شخصية المتنبي تبرز لنا من وسط هذه الصفحات بروزاً غير محاط بلبس ولا إبهام

وطه حسين الذي أبدع هذه الصورة يقول لنا مع إنه ليس من

المعجبين بالمتنبي ، المشغوفين بشخصه وفنه ، ولكنه لحسن الحظ لا يطلب منا أن نصدق كلامه هذا بل يقول لنا إننا مخيرون فى أن نرى أن هذا الكلام يصدر عن تفكير أو هذيان أو شذوذ وجموح (ص ٧٠) . . وأنا أفضل الرأى الأخير . . ومن الممكن للمصور البارع الذى أبدع الصورة وجلاها للناظرين أن يزعم أنه لا يحب صاحب هذه الصورة ولكنه لم يجد بين الناس من يصدقه

ليقل طه حسين إذن فى علاقته الشخصية بالمتنبي ما يشاء . فإن القراء قد ظفروا منه على كل حال بكتاب ممتلىء حياة وقوة . ليس المتنبي فيه اسما يذكر وأشعارا تتلى وجدالا يسرد ، بل شخصا حيا يسعى ويعمل ، ويحس ويشعر ، ونحن نشاركه كل هذه الحياة . واستطعنا بسبب هذا كله أن نزداد حبا للمتنبي وعطفا عليه . وهى نتيجة لم يكن المؤلف يريدها أو يفكر فيها . كذلك استطعنا أن نعجب بالمؤلف حين ينصف المتنبي ، ويبرز الخفى من أركان هذه الحياة الثائرة العجيبة . واستطعنا أيضا أن ننظر شزرا حين نرى المؤلف يحمل على المتنبي حملات أقل مايقال عنها إنها لاتتفق مع مايذكره المؤلف نفسه عن المتنبي حين يتناسى ما بينهما من الحزازات القديمة

ليس من الممكن هنا أن نعدد محاسن هذا الكتاب الذى قلما خدم شاعر فى العربية كما خدم به أبو الطيب . وسيرى القارىء من غير مشقة كيف استطاع المؤلف أن يزيد لذتنا ومتعتنا بأشعار المتنبي أضعافا مضاعفة . فقصيدة مثل «وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه» ونحوها . أصبحنا بعد أن صورت لنا حياة المتنبي والظروف المعقدة التى أنشدت فيها تلك القصائد ـ نرى فيها حياة وقوة وعمقا لم نكن نحس له وجودا

ومع هذا ـ وبعد هذا كله ـ فالمتنبي مع طه حسين مظلوم . لأن طه حسين لم يستطع دائما أن ينسى ما بينه وبين المتنبي من خصام ، بل يتذكر هذا الخصام أحيانا فيعود إلى ظلم المتنبي ، ويمعن فى التشنيع عليه . أنظر إليه حين يريد ان يوهمنا بأن المتنبي مداح كسائر المداحين وأنه ينكر نفسه كلما اقتضت منه المنفعة العاجلة إنكارها . ويريد منا أن نصدق هذا ، وهو نفسه الذى يرينا فى صراحة وجلاء كيف أعرض المتنبي عن مدح اسحق بن كيغلغ ولم يعبأ بتهديده ووعيده . مع أن المنفعة العاجلة كانت تقضى من غير شك بانكار النفس وبذل المدح

ونحن نرى المتنبي لا يكتفى بهذا بل يهجوه هجاء مراً ، ذلك لأن المتنبي كان غاضباً من هذا الرجل الذى أبى أن يقبل منه المدح فيما مضى ، فجاراه المتنبي على إعراضه بأن أعرض عنه يوم أضحى شاعرا مشهوراً .

هذا كله لا يمكن أن يذكر للمتنبي إلا بالخير . فانظر كيف يصور لنا المؤلف هذا الحادث : « فلا تسل عن كبرياء الشاعر وما امتلأت به نفسه من الزهو والغرور ، وإذا هو يمتنع على الأمير ويأبى أن يجيبه إلى المدح الذى رغبه فيه ، ويحتال الأمير فى ذلك فلا يوفق . وتشق عليه هذه الاهانة فيمسك الشاعر فى طرابلس ، ولا يخلى بينه وبين السفر ، وإنما يمسكه سجيناً كالطليق ، وطليقا كالسجين »

والمنطق السليم يقضى بأن مسلك أبى الطيب هذا ينطوى على كثير من العزة والشمم . ولا يدل مطلقا على أنه يطلب العاجلة ، فينكر نفسه . ولا بد للمنصف أن يرى أن عبارة المؤلف فى وصف ذلك الحادث قاصرة لم يملها الانصاف ، بل إن للحزازات القديمة أثراً فيها

وفى حياة أبى الطيب أمثلة من الوفاء والاخلاص ، استطاع المؤلف أن يحولها إلى أمثلة من التزلف والخوف . انظر مثلا إلى الحادث الشهير يوم أن غضب أبو العشائر على أبى الطيب وأرسل غلمانه وراءه فرماه أحدهم بسهم وقال خذه وأنا غلام أبى العشائر . فأنشد أبو الطيب هذه الأبيات العجيبة الساحرة :

ومنتسب عندى إلى من أحبه ... وللنبل حولى من يديه حفيف
فهيج من شوقى وما من مذلة ... حننت ولكن الكريم ألوف
وكل وداد لا يدوم على الأذى ... دوام ودادى للحسين ضعيف
فان يكن الفعل الذى ساء واحداً ... فأفعاله اللائى سررن ألوف
ونفسى له ـ نفسى الفداء لنفسه ، ... ولكن بعض المالكين عنيف
فان كان يبغى قتلها يك قاتلا ... بكفيه فالقتل الشريف شريف

وليس هنا مجال لسرد الحادث كله ، ولكن العجيب أن سرد المؤلف له يضع الذنب كله على المتنبي ، لأنه أهمل مدح أبى العشائر وكأنه يلتمس العذر لهذا الرجل فى غدره بأبى الطيب

لقد قرر المؤلف فى نوبة من نوبات الظلم التى كانت تعاوده وهو يملى كتابه هذا : أن المتنبي « عبد للطمع والمال ، لا للجمال والفن . » ولم يجد من الحوادث والاشعار مساعداً له على تأييد هذا الرأى ، فاضطر إلى أن يصبغ الحوادث بالصبغة التى تتفق مع هذا الظلم ، وأن يلتمس للشعر الخالص البرىء أسباباً غير خالصة ولا بريئة

وقد وجد الأستاذ المؤلف نفسه فى مأزق حرج أمام قصيد

المتنبي الشهيرة « واحر قلباه ممن قلبه شبم » فقد رأى المؤلف أنها قصيدة لا يمكن أن تصدر عن رجل خلقه الأساسي أنه عبد للطمع والمال لا للجمال والفن . فماذا يفعل بهذه القصيدة التي إن دلت على شيء فانها تدل على أن المتنبي رجل خلقه الأساسي الشمم والآباء . لم يكن للمؤلف بد من أن يمر بهذه القصيدة مراً ، وأن يختصر الكلام عنها ، وعن الحادث الذي تدل عليه اختصاراً . وأن يعتذر عن ذلك بأن الناس قالوا فيها فأكثروا . . أما ما اشتملت عليه القصيدة من الفن الهائل فانه لايظفر من المؤلف إلا بالعبارة الآتية : نلاحظ مسرعين أن المتنبي قد وفق فيها إلى حظ لا بأس به (كذا) من الاجادة الفنية . . سلك طريق ابن الرومي فألح في العتاب حتى كاد يبلغ الهجاء . وأسرف في المدح ليصلح ما أفسده بالعتاب » .

هذا كل مايقوله عن هذه القصيدة هذا المؤلف العجيب الذي يخصص ست صفحات من كتابه لقصيدة «كفرندى فرند سيفي الجراز»

ونحن نلاحظ هنا أمراً مدهشاً قد ساق المؤلف إليه إصراره على تجاهل هذه القصيدة . .

ولنمر أولا - مر الكرام ، على قوله إن بها حظا لابأس به من الأجادة الفنية ، ولكننا نقف قليلا عند قوله إن المتنبي أسرف في المدح ليصلح ما أفسده بالعتاب .

إن أقل إلمام بهذه القصيدة يرينا أن ما اشتملت عليه من المدح ليس من النوع الذي يوصف بالاسراف . ومهما يكن من شيء فان هذا المدح مقدم في أول القصيدة ، لا لإصلاح ما أفسده العتاب ، بل توطئة للعتاب القاسي واللوم المر ؛ والقصيدة تزداد شدة وعنفا كلما اقتربنا من النهاية ؛ حتى تنتهي فعلا بتهديد سيف الدولة بالانصراف عنه والرحيل من دياره

وهذه القصيدة تدل على براعة فنية هائلة ، وعلى خلق متين وعر . ولذلك لاتتفق مع الدعوى بان المتنبي عبد للطمع والمال ، ذليل للملك والسلطان ، ولذلك تجاهلها المؤلف ومر بها مرا سريعاً . . .

* * *

وبعد فليست بي حاجة لأن أدلي بأمثلة أخرى يظهر فيها ماين المؤلف والمتنبي من خصومة قديمة . . ففيما ذكرناه كفاية لأن يرى القارىء أن المتنبي مع طه حسين مظلوم . ولكن من العدل أن نقرر أن طه حسين كثيراً ما كان ينسى هذه الخصومة . والكتاب ممتلىء بقطع عديدة ، استطاع المتنبي أن يثأر بها لنفسه ، وأن ينال من المؤلف كل انصاف وتقدير بالرغم منه

والمواقف الطائلة التي وقفها المؤلف من الشاعر هي من الوضوح والظهور بحيث لن يخطئها القارىء ؛ ونحن لانشك في أنها البقية الباقية من أيام العهد القديم حين كان بعضنا يتعصب للمتنبي وبعضنا يتعصب عليه ، وكان طه حسين دائماً من الفريق الثاني . .

ولكننا برغم هذا التحامل - بل لسبب هذا التحامل - سنجد في مطالعة هذه الفصول متعة شائقة ، بحيث لايمكن أن نتناول الكتاب ثم نلقيه قبل أن نفرغ منه

يجب أن نطالع هذا الكتاب لا على أنه تاريخ أو نقد ، بل على أنه قطعة أدبية فنية ، تمثل صورة وتقص قصة . ولك أن تطالعه إذا شئت على أنه كتاب لطه حسين عن المتنبي . ولكنك بهذا ستضيع على نفسك لذة عظيمة ومتعة فائقة . فلوجه الصحيح للتمتع بهذا الكتاب هو أن تقرأه على حقيقته التي كشفت لك عنها في أول هذا المقال . فالموضوع الصحيح هو المتنبي مع طه حسين . أو إذا شئت اسطلاحا حسابيا فقل : « المتنبي مضروبا في طه حسين » فالكتاب هو حاصل هذا الضرب

وبهذا الاعتبار أو ذاك ستجد في مطالعة الكتاب لذة جديدة لم تكن تتاح لك من قبل . ولو كان في هذا الزمان إنصاف لشكرني الناس على الكشف الذي كشفت والهدى الذي هديت . ولكننا في زمن كما يقول صاحبنا :

إنا لفي زمن ترك القبيح به من أكثر الناس إحسان وإجمال

* * *

والآن فبالاصالة عن نفسي وبالنيابة عن عشاق المتنبي أسجل هنا ما أحرزناه من النصر بانضمام عدو عنيد إلى صفوفنا ؟

محمد عوض محمد

العالم المسرحي والسينمائي

على مسرح الأوبرا

موسم الدرامة الانجليزي

Dublin Gate Theatre Productions

لناقد « الرسالة » الفني

كان للمظهر الفني البديع الذي ظهرت فيه فرقة « دبلن جيت » الأرلندية في العام الماضي ما جعل وزارة المعارف العمومية تستقدمها في هذا العام أيضا لتحيي موسم الدرامة الانجليزي على مسرح الاوبرا الملكي

ويذكر قراء الرسالة أنه سبق لنا الحديث عن هذه الفرقة وعن مقدرة مخرجها المستر « هلتن ادواردز » الذي يعمد في اخراج رواياته إلى الطريقة الايمائية إذ يراها وسيلة لاشغال بال رواد المسرح وتفكيرهم فيكونون بذلك عنصرا من عناصر الرواية والتمثيل . وعنده أن من يقصد المسرح يجب أن يجلس منتبه الحواس لكل كلمة وكل حركة أو إشارة تبدو من الممثلين في حين أن من يقصد السينما يجلس في مكانه هادىء البال مرتاح الفكر يرى الأشياء تعرض أمامه عرضا سهلا لا يكلفه عناء لأن المدير الفني يجعل عدسة التصوير تحصر أمامه ما يريد أن يوجه الأنظار اليه.

وليس من شك في أن طلبة البكالوريا هذا العام سيقصدون دار الأوبرا لمشاهدة رواية « لابورنم جروف » المقررة عليهم فنرجو أن ينتبهوا إلى طريقة المخرج وفكرته في الاخراج : من استعمال المنظر الواحد لتمثيل مشاهد ومناظر متعددة مستعينا بالاضاءة وبالنظارة في تخيل المنظر المتجدد وما إلى هذا من الطرق التي لم يألفوها في المسرح المصري ؛ فعليهم ألا يضيقوا بما يرون وأن يحاولوا ادراك مرامي هذا المخرج وأن يتتبعوا الممثلين ليستمتعوا بالقصة والتمثيل

وممثلو الفرقة ليسوا في حاجة إلى أن أتحدث عنهم ، فهم على جانب عظيم من النبوغ والمقدرة لاسيما الممثل الأول المستر ميكائيل ماك ليمور الذي نال اعجاب النقاد ورواد المسرح في العام الماضي عندما مثل هملت وروميو في روايتي شكسبير وكذلك المستر هلتن ادواردز الذي أبدى مهارة فائقة في اداء دور الملك في رواية هملت والكابتن شانوفاف في رواية « بيت القلوب المحطمة » لبرناردشو .

وقد ضمت الفرقة إلى مجموعتها السابقة ممثلا كبيرا هو المستر « آنيوماك ماستر » الذي يزور مصر للمرة الأولى وقد اشتغل في أكبر مسارح الوست اند بلندن وقام بتمثيل كثير من الأدوار الرئيسية منها عطيل في رواية شكسبير

هذا وستمثل الفرقة مجموعة طيبة من الروايات التمثيلية لأكبر الكتاب الارلنديين والانجليز والايطاليين منها : « مدرسة النميمة » لشريدان ، « اهمية انتحال اسم ارنست » لاوسكار وايلد « صورة في الرخام » لهازل إليس ، « عطيل » ، « الليلة الثانية عشرة » لشكسبير ، « لابورنم جروف » لبريستلي ، « ملاك الموت في أجازة » لالبرتو كاسللي وغيرها .

ملاك الموت في اجازة Death Takes a Holiday

هي مهزلة خرافية ألفها الكاتب الايطالي « البرتو كاسللي » ونقلها إلى الانجليزية « والتر فريس » فكرته عجيبة وطريفة حببت رجال السينما إلى إخراجها على الشريط وقد عرضت في موسم القاهرة الماضي .

لاحظ ملاك الموت أن الناس يخشونه ويفزعون منه فأراد أن يعرف سر هذا الفزع وسر بغض الناس له وأن يدرك بنفسه ما يحبب الناس في الحياة والخلود .

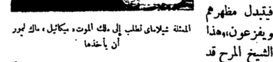
نزل إلى الأرض كظل أو طيف يرى ، وبينما هو يطوف إذ يشاهد قصرا للدوق « لامبرتو » عامرا بالضيوف فيمر بالحديقة ويلتقي بفتاة جميلة تدعى « جرازيا » من اللواتي يعشقن الخيال والجمال والشعر فتفزع منه

ويظهر الموت لرب الأسرة ويفصح له عن حقيقته وأنه سوف يتجسد في صورة إنسان ويأتي إلى القصر باسم الأمير « ساركي » حتى يستطيع في معاشرته للضيوف أن يلبس السر الذي أتعبه وأقلقه كثيرا ويطلب إلى الدوق أن يكتم السر خلال أيام ثلاثة يقضيها بينهم عاطلا لا يموت فيها إنسان ولا تسقط ورقة من شجرة أو تذبل زهرة .

اختلط الأمير ساركي بين الضيوف فأحسوا بشيء من التغيير

في حياتهم، فهذا شيخ عجوز أحس بدم الشباب يجري في عروقه وعادله النشاط والمرح وتذكر الحب، وهذه فتاة تحب الأمير وتختلي به، فلما يحدق فيها وتحدق فيه ترى في عينيه عمقا يفزعها وتكاد تلمس سره فتصرخ خائفة، فيقول لها إنها لم تحبه وأن كل ما تحس به هي عاطفة الساعة، وأحب ملاك الموت، جرازيا الصغيرة، وأحبته هي ورأى أنها تختلف عن الفتاة الأخرى تماما. ولما أخبرها أنه سيرحل بعيدا عن هذه البلاد طلبت إليه أن يأخذها معه. فلما بين لها صعوبة ذلك عليه وعليها قالت له إن الحياة بدون الحب لا تساوي شيئا.

ويعرف رب القصر بحبهما ويضطر أن يصرح لضيوفه بالسر الرهيب فيتبدل مظهرهم ويفزعون، وهذا الشيخ المرح قد عادت إليه الكآبة وثقل السنين. وهذه الزهور تذبل، ولكن أم الفتاة والدوق يخشيان أن تذهب الفتاة الصغيرة مع ملاك الموت دون أن تدري حقيقة أمره فيطالبونه أن يصرح لها بالحقيقة كاملة. ولكنه يخشى أن يفقدها إذا هي عرفت ولكن أمام الواجب يفهمها رويدا رويدا ومع ذلك لا تفزع. فيتغير من إنسان إلى طيف فلا ترى فيه هذا التغير وترجوه أن يأخذها معه حتى إلى الفناء وتسير إليه فيفتح لها ذراعيه وتسقط أوراق الأشجار ويستأنف الموت مهمته في الحياة.. وهكذا أراد الموت أن يهزأ من الناس فهزأ الناس منه.



الممثلة شيلاماي تطلب إلى ملاك الموت، ميكائيل ماك ليمور أن يأخذها

استطاع المخرج أن يصور الطيف والظلال التي تسقط على الحجرات في صورة بديعة كان لها الأثر المطلوب في نفوس النظارة، وكانت الإضاءة غاية في البراعة، وقام المستر ميكائيل ماك ليمور بدور ملاك الموت فكان بديعا كما أجادت الآنسة شيلا ماي أداء دور جرازيا في سذاجتها وروحها الشعرية

عطيل Otello

هي تراجيدية شكسبير المشهورة التي نقلها إلى العربية الأستاذ خليل مطران ومثل عطيل الاستاذ جورج ابيض ومثل ياجو أمامه عدد من كبار الممثلين منهم منسي فهمي وزكي طليمات ويوسف وهبي

والرواية تصور لنا كيف أحب البطل المغربي «عطيل» الفتاة النبيلة «ديدمونه»، وكيف استطاع ياجو أن يدوي في أذني عطيل بأن امرأته تخونه ويحيك خطة جهنمية تساعده على الوصول إلى أغراضه فيثور المغربي ويصرخ ويصل في ثورته إلى حد الجنون والقتل

يقتل ديدمونة التي أحبها والتي أحبته وفضلته على كل النبلاء من أهل جنسها وتزوجت منه برغم والدها، وأخيرا وبعد فوات الفرصة يعرف أنها كانت بريئة فيطعن ياجو ويغمد خنجره في صدره ويجود بأنفاسه على قبلة من فم من أحبها.

عمد المخرج إلى طريقته المعروفة في الاعتماد على المنظر الواحد مستعيناً بالاضاءة بين فصل وآخر، وكان موفقا إذ اختار ستارا خلفيا يمثل السماء كان له أثر كبير في توضيح حركات الممثلين كلما كان الضوء خافتا في مقدمة المسرح..

مثل المستر «آنيو ماك ماستر» دور عطيل فأعطى صورة قوية لهذه الشخصية. كان متطرفا في البدء كعادة المحب ولكنه انقلب في الفصل الثاني الى رجل هائل ثائر.

الممثل الارلندي «آنيو ماك ماستر» في عطيل ولكنه خالع ملابسه

كان بديعا في القائه وفي حركاته التي تعبر عما يضطرم في نفسه عند كل كلمة يلفظها ياجو، وكان عظيما في ثورته في الفصل الثاني وفي الفصل الأخير بعد ما قتل ديدمونة وأحس أنه فقدها.

ومثل المستر ادوارد دور ياجو فأعطى صورة طبيعية من الشخصية ولم يلجأ إلى المغالاة، وكانت الممثلة «آن كلارك» بديعا في دور ديدمونة

يوسف تادرس

5 me Année, No. 192

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٦٠ في مصر والسودان

٨٠ في الأقطار العربية

١٠٠ في سائر الممالك الأخرى

١٢٠ في العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات

٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة

تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

Lundi - 8 - 3 - 1937

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع عبد العزيز رقم ٣٦

القبة الخضراء — القاهرة

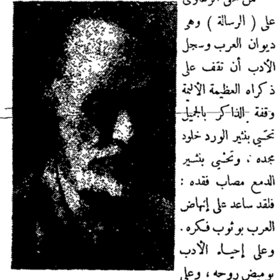
ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٢١٥٠

العـــدد ١٩٢ « القاهرة في يوم الاثنين ٢٥ ذي الحجة سنة ١٣٥٥ — ٨ مارس سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

جميل صدقي الزهاوي

بمناسبة ذكراه الأولى



من حق الزهاوي على (الرسالة) وهو ديوان العرب وسجل الأدب أن تقف على ذكراه العظيمة الأثيرة وقفة الذاكر بالجميل تحيي بنثير الورد خلود مجده ، وتحيي بنثير الدمع مصاب فقده : فلقد ساعد على إنهاض العرب بوثوب فكره . وعلى إحياء الأدب بوميض روحه ، وعلى إنعاش (الرسالة) بعيون شعره . ومن حق الزهاوي على صاحب الرسالة أن يقوم في هذه المناسبة فيفرغ في سمع الزمان الواعي هذا الحديث الذي يتّسم على ما أظن بخبرة الصديق وثقة المطلع ونزاهة المؤرخ ؛ فإني ما ذكرت العراق إلا ذكرت في أول أشيائه

فندق (كارلتون) ، وفى أول أشخاصه شخص الزهاوى ؛ ذلك أن أول مكان لقيت فيه العراق هو هذا الفندق ، وأول إنسان سمعت منه العراق هو هذا الرجل !

كنت جالساً فى بهو هذا الفندق صباح اليوم الثانى لقدومى بغداد ، أروض قلبى على روعة الفراق ، وأذنى على لهجة العراق ، وعينى على غرابة الصور ، وإذا بأحد الندل يلقى إلى بطاقة كتب عليها (جميل صدقى الزهاوى) ، ولم تكد تلوح فى مخيلتى صورة الشاعر التى صورها السماع والقراءة ، حتى رأيت على باب البهو شيخاً فى حدود الثمانين قد انخزع متنه وثقلت رجله ورعشت يده فلا يحمل بعضه بعضاً إلا بجهد

أقبل على يتخلج على ذراع غلامه وقد انبسطت أسارير جبينه العريض وانفرجت شفتاه الذابلتان عن ابتسامة نضرة عذبة ، ثم سلم على تسليم البشاشة بيد مرتجفة ، ورحب بى ترحيب الكرم بصوت متهدج ، ثم انطلق يشكو جحود الأمة وإغفال الدولة وكيد الخصوم وإلحاح المرض ، وتطرق إلى خصومته عامئذ مع الأستاذ العقاد فذكر — والأسف المر يكسبه لهجة المظلوم وهيئة الشهيد — كيف استغلها من سدد خطاه فى الشعر ، وأزجف بها من تولاه بالرعاية ؛ وحمد الله على أننى جئت بدله فقد كان وجوده كما كان يظن تألباً متصلا على فضله ، وإزعاجاً مستمراً لسكينته

لم يدع لى الزائر الكريم فرجة بين كلامه الدافق أدخل عليه منها بالتخفيف والتسرية ، فان الزهاوى - كما علمت بعد - ديدنه أن يتكلم ، كالبلبل خاصته أن يغرد ، والزهر طبيعته أن يفوح ؛ فهو فى مجلس الصداقة شاك أو شاكر ، وفى مجلس الأدب محاضر أو شاعر ، وفى مجلس الأنس مفاكه أو محدث .

كان الشيخ يتكلم أو ينشد ونبراته المؤثرة ، وقسماته المعبرة ، ولحيته الخفيفة المرسلة ، ووجهه المسنون الأعجف ، وشاربه النائم على فمه الأهرت ، وعينه البراقة ترأرئ من خلف المنظار ، وشعره الشمط يتهدل على نتوء الصدغ ، تخيل إلى أن طيفاً من أطباق الجدود ، أو نبياً من أنبياء اليهود ، قد انشق عنه حجاب الزمن فجأة فى هذا المكان الصامت والنور القاتم والجو الغريب ؛ ولكن الحيوية التى تنبض فى حركاته ، والشبيبة التى تفيض فى كلماته ، والعزيمة التى تضطرم فى نظراته ، كانت تطرد هذا الخيال وتجعلنى وجهاً لوجه أمام (كتلة) من الأعصاب القوية المشدودة تتكلم وتتألم ، وتثور وتهدأ ، وتسخط وترضى ، وموضوع مقالها وانفعالها لا يخرج أبدا عن (الأنا) إذا صح هذا التعبير

٭٭٭

دأبت (عربانة) الشيخ بعد ذلك على أن تقف أمام منزلى صباح يوم الجمعة من كل أسبوع . فكنت أستقبله استقبال العابد المتحنث للكاهن الملهم ، ثم نقضى ضحوة النهار معا يحدثنى فأعجب أو ينشدنى فأطرب ؛ وقد تكون أذنى إلى فمه وليس معنا ثالث ولكنه يجاهر بالالقاء ، ويصور المعنى بالصوت والإيماء . حتى يدهش المنزل وينصت الشارع . وهو بين الفترة والفترة يعود إلى شكاته وشكواه ، وأظل أنا أمام هذا الجيشان الروحى ساهما حالما أفكر فى الذهن الذى لا يكل ، واللسان الذى لا يفتر . والزهو الذى لا يتطامن ، والطموح الذى لا يتقاصر ، والقلق الذى لا يسكن . والتمرد الذى لا يهن ، والشباب الذى يلبس رداء الشيخوخة . والحياة التى تتخذ هيئة الموت

كنت ألقاه فى خلال الأسبوع مع الناس فى منتداه بشارع الرشيد ، أو على ضفة دجلة جالساً على الدكة الخشبية ينشد الأبيات الرائعة ، أو يرسل النكتة البارعة ، أو يروى الخبر الطريف . فى بشاشة جذابة ، وقهقهة ساذجة ، ويده المرتعشة لا تنفك تعبث بمسبحته الصغيرة ، أو تصعد وتهبط بسيكارته العراقية ، أو تمد (بالآنة) إلى نادل القهوة كلما طلب الشاى إلى صديق

وكنت أزوره فى مثواه (بالصابونجية) فأراه فى مباذله قاعداً يشكو الوصب لأنه قضى الليل ساهدا يقرأ ، أو ذاهلا ينظم ، فالقصص والمجلات منتثرة على سريره وعلى مقعده ، والمسودات مدسوسة تحت مخدته أو فى ثيابه ، فلا يتمالك حين يرانى أن يصيح : أنظر كيف أذيب عمرى فى شعرى والأمة تقذفنى بالبهتان ، والحكومة تخرجنى من مجلس الأعيان ، والملك يستكثر على أن أكون شاعر البلاط ! ، انى سأذهب ، وستبقى أشعارى معبرة عن شعورى وناطقة بآلامى ، فهى دموع ذرفتها على الطرس ، وهى خليقة أن تبعث من عيون قارئها دمعة هى كل جزائى من نظمها .

(للكلام بقية)

احمد حسن الزيات

الطين الضعيف

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

سألني صديق عن شيء لماذا أفعله أو أتركه – فقد نسيت – فكان مما أذكر أني قلته له إني أعيش الآن كما أحب لا كما يجب، فقد جاوزت الأربعين، والذي بقي لي من العمر ستفسده الشيخوخة المتهدمة لامحالة حين ترتفع بي السن فلا يبقى لي حينئذ من لذة الحياة إلا الوجود بمجرده لو أن هذا يفيد متعة، فمن حقي في هذه الفترة – التي أرجو أن تطول قبل أن يدركني الذوى والذبول – أن أعتصر من الحياة كل ما يدخل في الطوق اعتصاره من المتع واللذاذات، فأنا أقرأ ما أشتهي، وأذهب إلى حيث أريد، وأجالس من آنس به، ولا أبالي من غضب ممن رضى. فما في الحياة فسحة لمبالاة ذلك؛ وأطلق نفسي على السجية كلما وسعني ذلك، وليس للناس علي أكثر من أن أؤدي واجباتي فيما عدا هذا

ودخل علي وأنا أقول هذا لصديقي شاب مهذب فحيا وقال إنه يقرأ الآن ديواني، ففزعت ولكني ابتسمت له وقلت «كان الله في عونك. ومن الذي ابتلاك به...»

فأهمل السؤال وجوابه وأقبل علي يسألني: «انك تكتب بسرعة» فقلت «إن الذي أعرفه أني أكتب في غرفة تحيط بها جدران من الحجارة لا تنفذ العين منها على خلاف ما كان يصنع ديماس الذي كان يكتب على ما يقال في دكان فيجيء الناس وينظرون اليه من وراء الزجاج.. أريد أن أعرف يا صاحبي ماذا تعني بالسرعة»

قال «أعني أنك تكتب إلى مجلات كذا وكذا وكذا.. وتكتب في صحيفة يومية أيضاً.. هذا كثير.. فتى تستطيع أن تكتب كل ذلك.. إنه نشاط عجيب...»

فقلت «جواب السؤال أني أكتب وأنا نائم. فالذي تقرأه لي هو أضغاث أحلامي.. وأما النشاط يا صاحبي فذاك أني مازلت في شبابي»

فتركني وهو يقول إنه يدرس ما أكتب وإنه ينوي أن ينشر بحثا، فاستعذت بالله وحاولت أن أصرفه عن هذا العناء الباطل فما أفلحت، فتوجهت إلى الله عسى أن يصرف عني هذا السوء بطريقة ما.. وهل كثير على الله أن يشاء أن تشب النار في كتبي التي عند هذا الشاب، أو تنقلب الدواة كلما هم بالكتابة، أو تجمد أصابعه أو يحدث له غير ذلك من أسباب التعويق والتعطيل.؟

وانفض هذا المجلس، ولكن خاطرا ثقيلا ألح علي وظل يدور في نفسي، ذلك أن كل من ألقاهم من إخواني يذكرون هذا النشاط. ولا يكتمون تعجبهم. فلم يسعني إلا أن أتعجب مثلهم وإلا أن أسائل نفسي: «أكان هذا يبدو لهم مني مستغربا لو أنهم كانوا يرونني شابا في العشرين من عمري مثلا؟ أتراهم يستغربون لأني في ظنهم خلفت شبابي ورائي فالمنتظر من مثلي في اعتقادهم هو الفتور...» ولم يعجبني هذا التأويل فإنه ثقيل على النفس، وآثرت أن أقول إنهم هم معدومو النشاط ولذلك يتعجبون لي. ثم إني لا أحس الا أني مازلت شابا. والعبرة بالاحساس لا بهذه الشعرات البيضاء التي يقول عنها ابن الرومي إنها تزيد ولا تبيد فهي مثل نار الحريق.. وما قيمة هذه الشعرات.. لقد ابيضت وأنا في العشرين من عمري، وكنت يومئذ بها فرحا مزهوا، وكنت أعدها مظهراً للرجولة ومدعاة للاحترام، فاذا حدث حتى صرت أبغضها.. أولا أبغضها وإنما أنظر إليها في المرآة فأزوم، وتقول شفتاي «هممممم».. ثم اني أراني أجلد من أبناء العشرين، وأصبر على العناء والجهد، وأقدر على العمل والحركة، وأحسن تلقيا للحياة، وأسرع استجابة لدواعيها، فما قيمة هذا الذي تطالعني به المرايا؟ وما حاجتي أنا إلى المرايا؟ ومتى كنت أنظر فيها حتى أنظر فيها اليوم؟ كلا.. إن امامي باذن الله حياة طويلة، وليست الحياة أن أظل باقيا في الدنيا والسلام، وإنما هي أن أظل قادرا على العمل وكفؤا للأعباء، وهذا ما اعتقد أنه سيكون شأني فما أشعر بدبيب الفتور ولا أرى أية علامة على ابتداء النضوب.

وضحكت وأنا أقول ذلك فقد تذكرت أني قلت مرة لصاحب كان يحدثني في هذا الموضوع أو يسألني على الأصح «هل تعرف حكاية الذي أراد أن يتزوج بنت السلطان.. لقد زعموا أن رجلا من الغوغاء زعم أنه سيتزوج بنت السلطان، فلما سألوه كيف يتسنى له ذلك، قال ان المسألة بسيطة؛ فقد رضيت أنا بزواجها

ولم يبق إلا أن يرضى السلطان . وكذلك أنا فقد عزمت أن أعيش إلى التسعين والمائة أيضا وأنا موافق على ذلك وراض بهذه القسمة وليس باقيا إلا أن يواتينى الحظ ويساعفنى القدر ... »

ويتفق لى كثيرا أن أقف بالسيارة حيث يطيب لى الوقوف . ويسرنى حين أفعل ذلك أن أنظر إلى الناس وهم يروحون ويغدون وأن أتأمل ما يكون منهم وكيف يمشون وكيف يتحدثون ويميل بعضهم على بعض وكيف يذهلون عما يكون أمامهم لأن ما هم فيه من الحديث يستغرقهم فيصطدمون أو يحدث غير ذلك مما يضحك ويشرح صدر المتفرج . وأنظر أيضاً إلى الفتيات الناهدات وهن يمشين متخلعات متثنيات متقصعات وعيونهن دائرات فى الرجال فإذا نظروا إليهن أغضين كأنما كن ينظرن عفوا . إلى آخر ما لا يسع المرء إلا أن يراه فى الطريق . فحدث يوما أنى اشتريت شيئا من دكان ثم دخلت السيارة وقعدت فيها وشرعت أدخن وأجيل عينى فى الناس فكان الرجال يمضون ويمرون بى ولا يعيروننى التفاتا ؛ أما الشبان فكانت عيونهم ترمقنى خلسة . وأما الفتيات فكن يحدقن فى وجهى صراحة ، فكنت أبتسم مسرورا بهذه المناظر . فمرت بى فتاتان بارعتا الجمال فلما بلغتا حيث كنت واقفا مالت إحداهما على الأخرى جداً وهمست وهى تنظر إلى : « ده عجوز » ومن الغريب أنى سمعت الهمسة الخافتة على بعد مترين ، وأحسب أنى ما كنت لأسمع ما تقول لو أنها صاحت بأعلى صوت ، ما أحلاه وأجمله وأبرع شبابه ، وأكبر الظن أن الترام كان يمر حينئذ فيغرق هذا الثناء بضجته فيفوتنى ما يسرنى . أو تسقط عمارة فيفزع الناس ويذهلون ويشغل الخلق بذلك وأنا فى جملتهم ... وأنا أتكلم أولا ثم أفكر بعد ذلك ؛ والأولى العكس ، ولكن هذا ما أصنع غير عامد . فلما سمعت الهمسة الثقيلة رأيتنى أصيح بالفتاتين ، فشرت . فشرتما . فشرتين ، فضحكتا وثنتا وذهبتا تعدوان

ولم يسؤنى قول الفتاة إنى « عجوز » فما كانت سنها تزيد على الرابعة عشرة وأنا فوق الأربعين بسنوات فهى طفلة بالقياس إلى وليس فى وسعها إلا أن تحس هذا الفرق . وغير منتظر أن تدرك أن صباها صبى جسم لا أكثر . وأن شبابها الذى تزهى به طراوة ولين وملاسة ونعومة وغريزة نفسى بلهجة المتشبث به وأنها ستفقد ذلك كله حين تناهز الأربعين وأنها لن تجد يومئذ عوضاً عما فاتها وأن نفسها ستسبق جسمها إلى الذوى . على حين أظل أنا فيها أرجو شاب النفس لا يضيرنى أن الزمن يكون قد حفر على وجهى وجلدى أخاديد عميقة . ومن العدل أن تباهى الفتاة وتزهى بما لا عوض عنه وليس من الإنصاف أن أنكر عليها ذلك أو أكرهه منها

ثم رجعت أقول لنفسى ولكن ما قيمة شباب النفس وحده .. ؟ ما جدواه إذا فقد الجسم شبابه .. ؟ وتذكرت أبياتاً من قصيدة طويلة كنت قلتها منذ عشرين عاماً ولم أنشرها - بل نشرت بضع مئات منها فى صحيفة أسبوعية -

أيها الطينُ ماترى بكَ أبغى ... لستَ - فيما أرى - لشىء كفاء
إن طلبتُ السماء قلتَ لىَ الأر ... ض - أو الأرض كنتَ لى عصّاء

إلى آخر هذا الهراء ... ولم يكن هذا الطين يستعصى عليه شىء يومئذ . وما قلت ذلك إلا فى ساعة فتور شديد جعلنى كاليائس أو انسياقا مع المعانى التى ولدتها روح القصيدة وأنا أنظمها . ولم يكن يخطر لى أنى سأذكر هذه الأبيات التى رميتها وأهملتها حتى مرت الفتاتان بعد عشرين عاماً ونظرت إحداهما - وأحلاهما - إلى الشيب فى فودى وقالت وهى تميل على صاحبتها « ده عجوز »

إيه يا فتاتى الصغيرة أما والله إنى لأشتهى أن أفتح ذراعى وأضم كل فتاة خود مثلك - أضم ملايينكن دفعة واحدة فى عناق مفرد كما أراد من نسيت اسمه - نيرون إذا كانت الذاكرة لم تخنى - أن يضرب أعناقكن جميعاً بضربة سيف واحدة .. ولعله استسهل هذا واستخف مؤونته واستضأل كلفته . وإنى لأرفق بكن منه - أو لعلى أقسى فما أدرى - ولكنكن ملايين والطين ضعيف واه .. وإنى لأرانى كما يقول ابن الرومى :

ضعيفاً جباناً - اشتهى ثم أنتهى
بلحظى جنابَ الرزق لحظَ المجانب

وإنى لأحس الحياة ثقيلة الوطأة على كاهل الصبر .. وإنى لأعود فى الليل إلى دارى فتقول لى زوجتى ألا تستريح ؟ فأقول كلا .. لا راحة لحى .. وأمضى إلى مكتبى وأجلس إليه وأهم بالكتابة فأرى النعاس يثنى رأسى على صدرى ، فأنهض متبرماً ، ساخطاً على هذه البلادة ، وأقول لنفسى وأنا أرتمى على الفراش أترى لو كنت فى مجلس لهو وطرب أكنت أقر هذا الفتور ؟

ويغلبنى النوم قبل أن أسمع جراب النفس . . وإنى ليكون أمامى الطعام الجيد المشتهى فأمد إليه يدى محاذراً وأتناول منه مترفقاً وعلى قدر مخافة الكظة أو الانتفاخ ، ولم أكن أبالى ذلك قبل سنوات . . وإنى لأهم بزيارة الصديق فيصدنى أن درجات سلمه كثيرة فأرتد وألعن أصحاب العمائر الذين لا يتخذون المصاعد . .

ولم يرضنى هذا السخط على نفسى فقلت وأين هذا الفتور ؟ ومن ذا الذى لا يكل أحياناً ؟ . إنى أعمل كالحمار بالليل والنهار وأكتب فى اليوم الواحد فصولا ثلاثة أو أربعة لأكثر من صحيفة واحدة . وأقطع بالسيارة أكثر من خمسين كيلو فى نهارى ، وأسهر إلى منتصف الليل ، ثم أقوم فى الفجر مع الديكة والعصافير وأقصد إلى مكتبى وأروح أدق على آلة الكتابة حتى لقد غير جارى غرفة نومه لكثرة ما أزعجه وأطير النوم عنه فى الصباح الباكر . . وأنا أجالس الناس وأحادثهم وأفعل ما يفعله المرء بشبابه ولا أرانى أكل أو أعيى أو أمل أو أفتر . . وإن رأسى لدائب لا يكف عن العمل فى يقظة أو نوم ؛ ولو كنت أقيد مايدور فى نفسى لوسعنى أن أملأ الدنيا كلاماً ، ولكن المصيبة أنى لا أقيد شيئاً وأنى أنسى ، فالذى يبقى لى لا يعدل جزءا من مائة مما يخطر لى ، وإذا كانت لى شكاة فتلك أنى لا أفتر ولا أرانى أقنع بما أستطيع وما يدخل فى وسعى . ولقد قال لى مرة طبيب حاذق شكوت إليه أنى لا أهدأ - إن بنائى كله من الأعصاب ، وأن جسمى ليس أكثر من شبكة أعصاب ركبت لها العظام لتمسكها ووضع لى هنا قلب وهناك معدة إلى آخر ذلك ، ثم كسى هذا كله جلداً رقيقاً ليمكن أن يقال إن هذا جسم إنسان ، ولكن المهم هو هذه الأعصاب ؛ فاذا كنت أشكو شيئاً فى بعض الأحيان فيحسن بى أن أعرف أنه من الأعصاب ليس إلا ، فأرحها حين تتعب تعد كما كانت فانها متينة . وأكبر الظن أن هذه ليست أعصاباً وإنما هى « جنازير من الحديد » ويكفى أنها تتحملك « كذلك قال . ودليل صدقه أنى لم أشك شيئاً قط مذ سمعت منه هذا : ولو كان بى شىء غير هذه الأعصاب لما نفعنى كلامه . ولقد خرجت من عنده إلى صيدلية فيها ميزان فوقفت عليه فاذا بى - بثيابى الشتوية لا أزن أكثر من سبعة وأربعين كيلو ، فضحكت وقلت : « كم ترى يكون وزنى فى الحمام . . بغير هذه الثياب . . أو فى الصيف الذى يستدعى التخفيف . . صدق الطبيب الحاذق فما هذا بجسم إلا على المجاز . . ولكن هذا البناء الواهى يحتمل النوم على الرمال وتوسد الحجارة . نعم فانى كثيرا ما أخرج إلى الصحراء فأرتمى على رمالها ساعة وساعتين وتحت رأسى حجر صلد كبير . وفى بيتى أترك الفراش الوثير إلى الكراسى الخشنة التى لا راحة لمخلوق عليها . . وأفتح النوافذ وأقعد أو أنام بين تيارات الهواء ولا أرى ذلك يضيرنى . وأحسب هذا وراثة . فقد كانت أمى رحمها الله تنام وأنفها إلى النافذة المفتوحة - صيفاً وشتاء . نعم أزكم أحياناً ولكن الفيل يزكم . . وساقى مهيضة ولكنى لا أتعب من المشى وإنما أتعب من الوقوف . . ولم أتخذ المدافىء قط . فاذا أوقدوا فى بيتنا ناراً تركت لهم الغرفة إلى أخرى لا نار فيها . . وما لبست معطفاً إلا فى أعقاب مرض وعلى سبيل الوقاية إلى حين . . وإنى لأرى مناعة جسمى تزداد عاماً فعاما وأرانى كلما علت سنى أحس أنى صرت أقوى وأصح بدنا وأقدر على العمل والحركة والجهد . . فلست بعجوز يافتاتى الصغيرة وإنى وحياتك لأصبى من ابنى . وان الذى فى عروقى لنار سائلة لا دماء جارية ، وقد أحسنت بالانصراف بعد تلك الضحكة الفضية التى ستظل فى مسمعى تذكرنى بك وتصبينى إلى أترابك والسلام عليك والشكر لك . وإلى الملتقى » وأين منى يهرب الهارب ؟ » ...

ابراهيم عبد القادر المازنى

٤ – صعاليك الصحافة . . .

تتمة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

وجاء أبو عثمان وفي بُروز عينيه ما يجعلهما في وجهه شيئاً كملاميّ تعجبُ ألقتهما الطبيعة في هذا الوجه . وقد كانوا يلقبونه (الحَدَقي) فوق تلقيبه بالجاحظ ، كأن لقباً واحداً لا يبيّن عن قبح هذا النتوء في عينيه الا بمرادف ومساعد من اللغة . . . . وما تذكرت اللقبين إلا حين رأيت عينيه هذه المرة .

وانحطّ في مجلسه كأن بعضه يُرمي بعضه من سخط وغيظ . أو كأن من جسمه مالا يريد أن يكون من هذا الخلق المشوه ، ثم نصب وجهه يتأمل ، فبدت عيناه في خروجهما كأنما تهمّان بالفرار من هذا الوجه الذي تحيا الكآبة فيه كما يحيا الهمّ في القلب : ثم سكت عن الكلام لأن أفكاره كانت تكلمه .

فقطعت عليه الصمت وقلت : يا أبا عثمان رجعت من عند رئيس التحرير زائداً شيئاً أو ناقصاً شيئاً فما هو يرحمك الله ؟

قال : رجعت زائداً أني ناقص ، وههنا شيء لا أقوله ، ولو أن في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين . لوقفوا على عملك وأمثال عملك من كتاب الصحف يتعجبون لهذا النوع الجديد من الشهداء .

وقال ابن يحيى النديم : دعاني المتوكل ذات يوم وهو مخمور فقال : أنشدني قول عمارة في أهل بغداد . فأنشدته :

ومن يشتري مني ملوكَ مُخَرَّمٍ أبِعْ حَسَناً وابنَي هشامٍ بدرهمِ
وأُعطي رجاءً بعد ذاك زيادة وأمنحُ ديناراً بغير تندّمِ

قال أبو عثمان :

فان طلبوا مني الزيادة زدتهم أبادُلفٍ والمستطيلَ بنَ أكثمِ

(١) كتب الدكتور زكي مبارك مقالا في جريدة المصري الغراء زعم فيه أننا قلنا « إن الصحافة لا تنجح إلا في أيدي الصعاليك » ، ولا ندري كيف أحس هذا المعنى . ثم تهددنا ! ! ! فقال : « ما رأيك إذا وقف لك أحد الصحفيين (ولعله يعني نفسه) في معركة فاصلة ! ! ! ورماك بحب التكلف والافتعال في عالم الانشاء والتأليف » ؟ « ما رأيك إذا حملك رجل منهم (ولعله يعني نفسه) على عاتقه وألقى بك في هاوية التاريخ لتعيش مع صعصعة بن صوحان » ؟ — أبلغ خطباء العرب وأنطقهم —

وجوابنا لصاحبنا هذا : أن وزارة الداخلية اطلعت على مقاله فأمرت جميع المحال التي تبيع لعب الأطفال . ألا يبيعوا « معركة فاصلة » ولا « هاوية تاريخ » . .

ويلي على هذا الشاعر . اثنان بدرهم ، واثنان زيادة فوقهما العظم الدرهم . واثنان زيادة على الزيادة لجلالة الدرهم : كأنه رئيس تحرير جريدة يرى الدنيا قد ملئت كتّابا . ولكن ههنا شيئاً لا أقوله

وزعموا أن كسرى أبرويز كان في منزل امرأته شيرين ، فأتاه صياد بسمكة عظيمة فأعجب بها وأمر له بأربعة آلاف درهم فقالت له شيرين : أمرت الصياد بأربعة آلاف درهم . فان أمرت بها لرجل من الوجوه ، قال : إنما أمر لي بمثل ما أمر للصياد . فقال كسرى : كيف أصنع وقد أمرت له ؟

قالت : إذا أتاك فقل له : اخبرني عن السمكة ، أذكر هي أم أنثى ؟ فان قال أنثى . فقل له : لا تقع عيني عليك حتى تأتيني بقرينها ، وان قال غير ذلك فقل له مثل ذلك .

فلما غدا الصياد على الملك قال له : اخبرني عن السمكة ، أذكر هي أم أنثى ؟ قال : بل أنثى . قال الملك : فأتني بقرينها . فقال الصياد عمر الله الملك ، إنها كانت بكراً لم تتزوج بعد . . .

قلت : يا أبا عثمان فهل وقعت في مثل هذه المعضلة مع رئيس التحرير ؟

قال : لم ينفع عملك أن سمكته كانت بكراً . فاىما يريدون إخراجه من الجريدة وما بلاغة أبي عثمان الجاحظ بجانب بلاغة التلغراف وبلاغة الخبر وبلاغة الأرقام وبلاغة الأصفر وبلاغة الأبيض . . . ولكن هنا شيئاً لا أريد أن أقوله .

وسمكتي هذه كانت مقالة جودتها وأحكمتها وبلغت بألفاظها ومعانيها أعلى منازل الشرف وأسنى رتب البيان وجعلتها في البلاغة طبقة وحدها . وقبل أن يقول الاوربيون (صاحبة الجلالة الصحافة) قال المأمون : « الكتاب ملوك على الناس » . فأراد عملك أبو عثمان أن يجعل نفسه ملكاً بتلك المقالة فاذا هو بها من (صعاليك الصحافة) .

لقد كانت كالعروس في زينتها ليلة الجلوة على محبها ، ما هي إلا الشمس الضاحية ، وما هي إلا أشواق ولذات ، وما هي إلا اكتشاف أسرار الحب ، وما هي إلا هي . فاذا العروس عند رئيس التحرير هي المطلقة ، واذا المعجب هو المضحك ، ويقول الرجل : أما نظرياً فنعم ، وأما عملياً فلا ، وهذا عصر خفيف يريد الخفيف ، وزمن عامي يريد العامي ، وجمهور سهل يريد السهل : والفصاحة هي إعراب الكلام لا سياسته بقوى البيان والفكر واللغة ، فهي اليوم قد خرجت من فنونها واستقرت في علم النحو

وحسبك من الفرق بينك وبين القارىء العامي : أنك أنت لا تلحن وهو يلحن

قال أبو عثمان : وهذه أكرمك الله منزلة يقل فيها الخاصي ويكثر العامي فيوشك ألا يكون بعدها إلا غلبة العامية . ويرجع الكلام الصحافي كله سوقياً بلدياً (حنشصياً) . وينقلب النحو نفسه وما هو إلا التكلف والتوعر والتقعر كما يرون الآن في الفصاحة ، والقليل من الواجبات ينتهي إلى الأقل ، والأقل ينتهي إلى العدم ، والانحدار سريع يبدأ بالخطوة الواحدة ثم لا تملك بعدها الخطى الكثيرة

لا جرم فسد الذوق وفسد الأدب وفسدت أشياء كثيرة كانت كلها صالحة ، وجاءت فنون من الكتابة ما هي إلا طبائع كتّابها تعمل فيمن يقرؤها عمل الطباع الحية فيمن يخالطها . ولو كان في قانون الدولة تهمة إفساد الأدب أو إفساد اللغة ، لقبض على كثيرين لا يكتبون إلا صناعة لهو ومسلاة فراغ وفساداً وإفساداً . والمصيبة في هؤلاء ما يزعمون لك من أنهم يستنشطون القراء ويلهونهم . ونحن إنما نعمل في هذه النهضة لمعالجة اللهو الذي جعل نصف وجودنا السياسي عدما ؛ ثم لملء الفراغ الذي جعل نصف حياتنا الاجتماعية بطالة . وهذا أيضاً مما جعل عمك أبا عثمان في هذه الصحافة من (صعاليك الصحافة) وتركه في المقابلة بينه وبين بعض الكتاب كأنه في أمس وكأنهم في غد .

ودق الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئيس التحرير . . .

٭٭٭

فما شككت أنهم سيطردونه فإن الله لم يرزقه لساناً مطبعياً ثرثاراً يكون كالمتصل من دماغه بصندوق حروف . . . ولم يجعله كهؤلاء السياسيين الذين يتم بهم النفاق ويتلون ، ولا كهؤلاء الأدباء الذي يتم بهم التضليل ويتشكل .

ورجع شيخنا كالمخنوق أرخى عنه وهو يقول : ويلي على الرجل . ويلي من الكلام الظريف الذي يقال في الوجه ليدفع في القفا . . . كان ينبغي ألا يملك هذه الصحافة اليومية إلا مجالس الأمة ، فذلك هو إصلاح الأمة والصحافة والكتّاب جميعاً . أما في هذه الصحف فالكاتب يخبز عيشه على نار تأكل منه قدر ما يأكل من عيشه ، ولو أن عمك في خفض ورفاهية وسعة ، لكان في استغنائه عنهم حاجتهم إليه . ولكن السيف الذي لا يجد عملا للبطل ، تفضله الإبرة التي تعمل للخياط . وماذا يملك عمك أبو عثمان ؟ يملك مالا ينزل عنه بدول الملوك ، ولا بالدنيا كلها ، ولا بالشمس والقمر ، إذ يملك عقله وبيانه . على أنه مستأجر هنا بعقله وبيانه يعقل ما شاؤا ويكتب ما شاؤا .

لك الله أن أصدقك القولَ في هذه الحرفة اليومية . إن الكاتب حين يخرج من صحيفة إلى صحيفة ، تخرج كتابته من دين إلى دين . . .

ورأيت شيخنا كأنما وضع له رئيس التحرير مثلَ البارود في دماغه ثم أشعله . فأردت أن أمازحه وأسرى عنه ، فقلت : اسمع يا أبا عثمان . جاءتني بالأمس قضية يرفعها صاحبها إلى المحكمة ، وقد كتب في عرض دعواه : إن جار بيته غصبه قطعة من أرض فنائه الذي تركه حول البيت . وبنى في هذه الرقعة دارا ، وفتح لهذه الدار نافذات . فهو يريد من القاضي أن يحكم برد الأرض المغصوبة ، وهدم هذه الدار المبنية فوقها ، و . . و . . وسد نافذاتها المفتوحة . . . !

فضحك الجاحظ حتى أمسك بطنه بيده وقال : هذا أديب عظيم كبعض الذين يكتبون الأدب في الصحافة : كثرت ألفاظه ونقص عقله . وسئل بعض الحكماء : متى يكون الأدب شراً من عدمه ؟ قال : إذا كثر الأدب ونقصت القريحة . وقد قال بعض الأولين : من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه ؛ كان حتفه في أغلب خصال الخير عليه ؛ وهذا كله قريب بعضه من بعض [1]

والأدب وحده هو المتروك في هذه الصحافة لمن يتولاه كيف يتولاه إذ كان أرخص ما فيها ، وإنما هو أدب لأن الأمم الحية لا بد أن يكون لها أدب ، ثم هو من بعد هذا الاسم العظيم ملء فراغ لا بد أن يملأ . وصفحة الأدب وحدها هي التي تظهر في الجريدة اليومية كبقعة الصدأ على الحديد تأكل منه ولا تعطيه شيئاً .

ثم بأبي من تترك له هذه الصفحة إلا أن يجعل نفسه (رئيس تحرير) على الأدباء ، فما يدع صفة من صفات النبوغ ولا نعتاً من نعوت العبقرية إلا نحَلَه نفسه ووضعه تحت ثيابه ؛ وما أيسر العظمة وما أسهل منالها إذا كانت لا تكلفك إلا الجراءة والدعوى والزعم ، وتلفيق الكلام من أعراض الكتب وحواشي الأخبار وقد يكون الرجل في كتابته كالعامة ، فإذا عبته بالركاكة

(١) هذه الجملة من كلام الجاحظ

والسخف والابتذال وفراغ مايكتب؛ قال: هذا مايلائم القراء. وقد يكون من أكذب الناس فيما يدّعى لنفسه وما يهوّل به لتقوية شأنه وإصغار من عداه، فاذا كذّبه من يعرفه قال: هذا ما يلائمني. وهو واثق أنه فى نوع من القراء ليس عليه إلا أن يملأهم بهذه الدعاوى كما تُملأ الساعة، فاذا هم جميعاً يقولون: تك تك.. تك تك.....

فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل؛ جعل الفصاحة واللكنة والخطأ والصواب والإغلاق والإبانة والملحون والمعرب، كلّه سواء وكله بياناً[1]، وكان المكى طيبَ الحجج، ظريفَ الحيل، عجيب العلل. وكان يدّعى كل شىء على غاية الإحكام ولم يحكم شيئاً قط من الجليل ولا من الدقيق. وإذ قد جرى ذكره فسأحدثك ببعض أحاديثه. قلت له مرة: أعلمت أن الشارى حدثنى أن المخلوع (أى الأمين) بعث إلى المأمون بجراب فيه سمسم، كأنه مخبره أن عنده من الجند بعدد ذلك، وأن المأمون بعث له بديك أعور، يريد أن طاهر بن الحسين يقتل هؤلاء كلهم كما يلقط الديك الحب؟

قال: فان هذا الحديث أنا ولدته، ولكن انظر كيف سار فى الآفاق...[2]

ثم قال أبو عثمان: وقد زعم أحد أدبائكم أنه اكتشف فى تاريخ الأدب اكتشافاً أهمله المتقدمون وغفل عنه المتأخرون، فنظر عمك فى هذا الذى ادعاه، فاذا الرجل على التحقيق، كالذى يزعم أنه اكتشف أمريكا فى كتاب من كتب الجغرافيا....

وما يزال البلهاء يصدقون الكلام المنشور فى الصحف لا بأنه صدق ولكن بأنه «مكتوب فى الجريدة».... فلا عجب أن يظن كاتب صفحة الأدب - متى كان مغروراً - أنه إذا تهدد إنساناً فما هدده بصفحته بل بحكومته....

نعم أيها الرجل إنها حكومة ودولة؛ ولكن ويحك: إن ثلاث ذبابات ليست ثلاث قطع من أسطول انجلترا.......!

***

وضحك أبو عثمان وضحكت فاستيقظت

(طنطا) **مصطفى صادق الرافعي**

(١) و(٢) هذا من كلام الجاحظ

من التاريخ

المهديون المنتظرون

لأستاذ كبير

قال الأستاذ محمد عبد الله عنان فى مبحثه البارع (ضوء جديد على مأساة شهيرة) فى الجزء (١٨٨) من هذه المجلة: إن رجعة[1] الحاكم قد بنيت على المقالة المهدوية، وذكر ثلاثة من الجماعة المنتظرة. وقد رأيت أن أطرف قراء (الرسالة) أقوالا موجزة فى (المهديين المنتظرين) مما خطه مؤرخو النحل الإسلامية ونقله رجال الأثر. وأنا فى ذلك راو لا ينقد مقالة فرقة. ولا يجادل جماعة مذهب، ولا يضيف شيئاً من عنده إلى نقله. وروايتى هى عن هذه الكتب: مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين للأشعرى، الفرق بين الفرق للبغدادى، الفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم، الملل والنحل للشهرستانى، فرق الشيعة للنوبختى، سنن أبى داود، صحيح الترمذى، المحصل للرازى، شرح مواقف الأيجى للجرجانى، شرح الدرة المضية للسفارينى.

١ — على بن أبى طالب

قالت السبئية: «إن علياً لم يقتل، ولم يمت، ولا يقتل ولا يموت حتى يسوق العرب بعصاه، ويملأ الأرض عدلا وقسطا كما ملئت ظلما وجورا. وهو المهدى المنتظر دون غيره[2]».

٢ — ابن الحنفية (محمد بن على)

قالت الكربية الكيسانية: «إن محمد بن الحنفية حى لم يمت، وإنه فى جبل رضوى، وعنده عينان نضاختان تجريان بماء وعسل، يأتيه رزقه غدوة وعشية، وعن يمينه أسد، وعن يساره نمر، يحفظانه من أعدائه؛ وهو المهدى المنتظر[3]».

٣ — عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب

«زعمت الجناحية (فرقة من الكيسانية) أن عبد الله بن

(١) (الرجعة) عند الهروز اقترب أجلها، اذ مدة (الغيبة) ألف سنة، ورجال الدين منهم فى قلق وحيرة لدنو الميعاد. ويقول بعض لبعض: استدنت قربت (الساعة). وستشهد (القاهرة) — حسبما سطر فى كتب الجماعة — عجائب وغرائب، وتعز فيها أقوام وتذل أقوام...

(٢) البغدادى، النوبختى.

(٣) الأشعرى، البغدادى، الشهرستانى.

معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب حي بجبال أصبهان لم يمت ولا يموت . ولا بد أن يظهر حتى يلي أمور الناس ، وهو المهدى الذى بشر به النبي (١) .

٤ - محمد بن على (الباقر)

، قالت الباقرية : إن محمد بن على (الباقر) هو المهدى المنتظر بما روى أن النبي قال لجابر بن عبد الله الانصارى : (إنك تلقاه فاقرأه منى السلام (٢)) وكان جابر آخر من مات بالمدينة من الصحابة ، وكان قد عمى فى آخر عمره ؛ وكان يمشى فى المدينة ويقول : يا باقر ، يا باقر ، متى ألقاك ؟ (٣) .

٥ - محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب

، قالت طائفة من الجارودية الزيدية : إن محمد بن عبد الله حى لم يقتل ولا مات ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً ، وهو مقيم بجبال ناحية الحاجر ، وهو المهدى الحديث الذى يقول فيه : يوافق اسمه اسمى واسم أبيه اسم أبى (٤) .

٦ - جعفر بن محمد (الصادق)

، قالت الناووسية : إن (الصادق) حى لم يمت ولا يموت حتى يظهر أمره ، وهو القائم المهدى . رووا عنه أنه قال : إن رأيتم رأسى يدهده عليكم من الجبل فلا تصدقوا فانى صاحبكم صاحب السيف (٥) .

٧ - اسماعيل بن جعفر الصادق

، قالت فرقة من الاسماعيلية الواقفية والناووسية : إن اسماعيل بن جعفر لم يمت إلا أنهم أظهروا موته تقية ، وعقد محضر أشهد عليه عامل المنصور بالمدينة . فهو حى لم يمت ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً . فالجماعة منتظرة اسماعيل بن جعفر (٦) .

٨ - محمد بن اسمعيل بن جعفر

، قالت القرامطة : ان محمد بن اسمعيل لم يمت ولا يموت حتى يملك الأرض ، وانه هو المهدى الذى تقدمت البشارة به ، وهو في بلاد الروم وهو القائم المهدى ؛ ومعنى القائم عندهم انه يبعث بالرسالة وبشريعة جديدة ينسخ بها شريعة محمد . واعتلوا فى نسخ الشريعة (شريعة محمد) أنه قال : لو قام قائمنا علمتم القرآن جديدا (١) .

٩ - موسى بن جعفر (موسى الكاظم)

، قالت الواقفة (الموسوية ، المفضلية ، الممطورة) : إن موسى ابن جعفر لم يمت ولا يموت حتى يملك شرق الأرض وغربها ، ويملأ الأرض عدلا وقسطا كما ملئت ظلما وجورا . وهو المهدى المنتظر (٢) .

١٠ - جعفر بن على الهادى

، غلت النفيسية فى جعفر بن على الهادى وفضلته على على بن أبى طالب ، واعتقدت انه أفضل الخلق بعد رسول الله ، وادعت أنه القائم (٣) .

١١ - محمد بن القاسم

، قالت طائفة من الجارودية إن محمد بن القاسم بن على بن عمر بن على بن الحسين (القائم بالطالقان أيام المعتصم) حى لم يمت ولا قتل ، ولا يموت ولا يقتل حتى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا (٤) .

١٢ - يحيى بن عمر

، قالت طائفة من الجارودية : ان يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب (القائم بالكوفة أيام المستعين) حى لم يقتل ولا مات ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا (٥) .

١٣ - الحسن العسكرى (٦) بن على الهادى

، قالت فرقة : ان الحسن لم يمت وهو القائم ، ولا يجوز أن يموت ولا ولد له ظاهر . وقد ثبت عندنا أن القائم له غيبتان ، وهذه إحدى الغيبتين . وسيظهر ويعرف ثم يغيب غيبة أخرى

(١) الأشعرى ، ابن حزم .
(٢) نقلت الجملة كما رويت
(٣) البغدادى .
(٤) ابن حزم ، الأشعرى ، البغدادى .
(٥) الأشعرى ، الشهرستانى ، البغدادى .
(٦) الشهرستانى ، ابن حزم . البغدادى .

(١) الأشعرى ، النوبختى .
(٢) الأشعرى ، البغدادى .
(٣) النوبختى .
(٤) ابن حزم .
(٥) ابن حزم .
(٦) نسبة إلى (العسكرية) من أسماء مدينة (سر من رأى) لما بناها المعتصم انتقل إليها بعسكره فقيل لها العسكر

وقالت فرقة ثانية : إن الحسن مات لكن سيجيء. وهو المعنى بكونه قائماً أي يقوم بعده (بعد الموت) (١) ،

١٤ — محمد بن الحسن العسكري

« قالت الفرقة الثانية عشرة وهي الامامية : لله في الأرض حجة من ولد الحسن بن علي ، وأمر الله بالغ ، وهو وصي لأبيه . ولا يجوز أن تخلو الأرض من حجة ؛ ولو خلت ساعة لساخت الأرض ومن عليها . فنحن مقرون بوفاة الحسن وأن خلفه هو الامام من بعده حتى يظهر ويعلن أمره . والامام (عليه السلام) أعرف بنفسه وزمانه منا (٢) ،

« لقبه المهدي والمنتظر والقائم المكرم المطهر
أكثر من سبعين شخصا شاهدوا جماله ولاحت الشواهد
وغاب غيبتين (صغرى) امتدت وكانت الشدة فيها اشتدت
قريب سبعين من الأعوام كان اختفى عن اكثر الأنام
كان له من الموالي سفرا إذ غاب واختفى ورام السفرا
وغيبة أخرى الى ذا الآن وانه لصاحب الزمان
لكنه لا بد من أن يخرجا وبعد شدة نلاقي الفرجا (٣) ،

١٥ — محمد بن عبد الله . محمد المهدي ، الفاطمي

روى الترمذي وأبو داود ، عن ابن مسعود أن رسول الله قال : لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجلا مني . أو قال من أهل بيتي ، يواطيء اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي ، يملأ الأرض قسطاً وعدلا كما ملئت جوراً وظلماً ، (٤)

* * *

ومن الفرق التي تنتظر رجعة زعيمها فرقة الخلفية من الخوارج . فهم ينتظرون قيس بن مسعود وقد غرق في واد منهزماً من الخوارج الحزية (٥)

ومن — كانوا — ينتظرون منجدين ومغيثين — وإن لم يسموا بالمهديين — القحطاني والسفياني (٦) . ومصدقو المقالة المهدوية يرتقبون هذين الرجلين وغيرهما (قبل الفاطمي) مفسدين في الأرض وعاثين لا مغيثين

(١) الشهرستاني ، الرازي .
(٢) النوبختي .
(٣) ابن الحر العاملي المشغري .
(٤) الترمذي ، أبو داود .
(٥) البغدادي .
(٦) السفياني عند الأمويين وجاءتهم مثل المهدي عند الهاشميين وشيعتهم .

« ومن أقوى علامات خروج المهدي خروج من يتقدمه من الخوارج : السفياني والأبقع والأصهب والأعرج والكندي . أما السفياني فاسمه عروة واسم أبيه محمد ، وكنيته أبو عتبة . قال الشيخ مرعي في فوائد الفكر ، وفي عقد الدر : إن السفياني من ولد خالد بن يزيد بن أبي سفيان ، ملعون في السماء والأرض ، وهو أكثر خلق الله ظلماً . قال علي : السفياني رجل ضخم الهامة بوجهه أثر جدري ، بعينه نكتة بياض ، يخرج من ناحية دمشق ، وعامة من يتبعه من كلب فيقتل حتى يبقر بطون النساء ، ويقتل الصبيان . ويخرج إليه رجل من أهل بيتي في الحرم فيبعث إليه جنداً من جنده فيهزمهم ، فيسير إليه السفياني بمن معه حتى إذا جاز بيداء من الأرض خسف بهم فلا ينجو إلا المخبر عنهم . أخرجه الحاكم في مستدركه وقال هذا حديث صحيح الاسناد على شرط البخاري ومسلم ولم يخرجاه . والأبقع يخرج من مصر ، والأصهب يخرج من بلاد الجزيرة ، ثم يخرج الجرهمي من الشام ، ويخرج القحطاني من بلاد اليمن . قال كعب الأحبار : فبينما هؤلاء الثلاثه قد تغلبوا على مواضعهم إذ قد خرج السفياني من دمشق من واد يقال له : وادي اليابس .

وفي الحديث : لاتحشر أمتي حتى يخرج المهدي يمده الله بثلاثة آلاف من الملائكة ، ويخرج إليه الأبدال من الشام ، والنجباء من مصر ، وعصائب أهل الشرق حتى يأتوا مكة فيبايع له بين الركن والمقام ، ثم يتوجه إلى الشام وجبريل على مقدمته وميكائيل على يساره . ومعه أهل الكهف . فيفرح به أهل السماء والأرض والطير والوحوش والحيتان في البحر ، وتزيد المياه في دولته ، وتمد الأنهار ، وتضعف الأرض أكلها فيتقدم إلى الشام فيأخذ السفياني فيذبح تحت الشجرة التي أغصانها إلى بحيرة طبرية (١) ،

* * *

وهناك فرقة تنتظر نبياً (لامهدياً فقط) عجمياً (لاعربياً) وهي اليزيدية من الخوارج أصحاب يزيد بن أنيسة ، قالوا : سيبعث نبي من العجم بكتاب يكتب في السماء وينزل عليه جملة واحدة ، ويترك شريعة محمد إلى ملة الصابئة المذكورة في القرآن (٢) ،

أحمد القراء

(١) السفاريني .
(٢) شرح المواقف .

داعى الدعاة

ونظم الدعوة عند الفاطميين

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كانت الدعاية من أعظم العوامل التى عاونت على ظفر الحلفاء فى الحرب الكبرى؛ وللدعاية فى عصرنا أعظم شأن فى تكوين الرأى العام، وفى توجيهه إلى النواحى والغايات التى يراد توجيهه إليها، ولا يخفى ما للرأى العام اليوم من القوة والنفوذ حيثما تتاح له فرص الظهور والاعراب؛ فى الأمم الديمقراطية التى مازالت الحريات العامة فيها قائمة مكفولة يتمتع الرأى العام بكل قوته ونفوذه، ويحسب حسابه، ويحدث أثره فى توجيه الحوادث والشؤون؛ وحتى فى الأمم التى تسودها النظم الطاغية، وتسحق الحريات العامة، ويسلب الرأى العام والخاص كل حرية فى القول والاعراب، تتبوأ الدعاية أهميتها كوسيلة قوية لتكوين رأى الكافة، ومحاولة التأثير على الخاصة والمستنيرين، وإخفاء ما يراد إخفاؤه من عيوب النظم الطاغية والاشادة بما تدعيه من الفضائل والمزايا وتحقيق الاصلاح والخير العام؛ وفى سبيل هذه الغاية تعتمد النظم الطاغية على هيئات قوية محكمة للدعاية الشاملة تسيطر على جميع وسائل الدعوة كالصحافة والأدب والراديو والتمثيل والسينما وغيرها مما تلمس أثره فى تكوين الرأى العام وتوجيهه وتثقيفه

وتبدو هذه الهيئات المحدثة للدعاية كأنها بدعة فى النظم الجديدة، وكأنها ابتكار لم يسبق مثوله فى غيرها، وقد بلغت فى بعض الدول مرتبة الوزارة الخاصة، وأضحت من دعامات الحكم الجديد التى يحسب حسابها فى حشد الرأى العام وفى توجيهه حيثما شاءت السياسة العليا. بيد أنا سنرى فى هذا الفصل أن تنظيم الدعاية الرسمية على هذا النحو ليس ابتكاراً جديداً، ولم تنفرد به تلك الدول والنظم التى تفاخر به وتعتمد عليه، وانه قد عرف فى الدول الاسلامية قبل ألف عام، واتخذ كما يتخذ اليوم أداة قوية لغزو الأذهان وتوجيه رأى الكافة، وكان دعامة من دعائم الحكم والخلافة

أجل عرفت الدولة الاسلامية قيمة الدعاية ولجأت فى مختلف الظروف والحوادث لتحقيق غايات الدين والسياسة: بيد أنها لم تدمج فى هيئة خاصة، ولم تنظم أصولها ووسائلها بصورة رسمية إلا فى الدولة الفاطمية. فى ظل هذه الدولة القوية المدهشة نجد الدعوة تتخذ وسيلة من أنفذ الوسائل لحشد الأولياء والكافة وتوضع لها نظم هى آية الطرافة والبراعة. ونجد هذه الهيئة الرسمية التى تضطلع بهذه المهمة الخطيرة ترتفع إلى مرتبة الوزارة، وتجعل الخلافة الفاطمية منها سياجاً منيعاً لامامتها وزعامتها الدينية

لما استقر الفاطميون بمصر وغدت مصر منزلهم ومثوى ملكهم ودولتهم شعرت الخلافة الفاطمية بالحاجة إلى مضاعفة جهودها المذهبية، ذلك أنها لم تجد فى مصر كما وجدت فى قفار المغرب الساذجة مهداً خصباً لدعوتها، بل ألفت فى مصر مجتمعاً متمدناً عركته الأحداث الدينية والسياسية والفكرية؛ ولم يكن اعتماد الخلافة الفاطمية فى بث دعوتها على سلاح التشريع قدر اعتمادها على الدعاية السرية، وغزو الأذهان بطريقة منظمة، لأنه إذا كان التشريع وسيلة لسيادة الكافة وتحقيق الطاعة الظاهرة فان الدعاية المنظمة هى خير الوسائل لغزو الأذهان المستنيرة وحشدها لتأييد الدعوة المنشودة. وقد كانت الدعوة السرية أنفذ وسائل الفاطميين إلى تبوء الملك، فلما جنوا ثمار ظفرهم الأولى، كانت الدعوة السرية وسيلتهم إلى حمايتها وتدعيمها، فكان لهم دعاة فى سائر الأقطار الاسلامية؛ وكانت مصر منزل ملكهم وخلافتهم منبر هذه الدعوة ومركزها ومجمعها، تنساب منه إلى جنبات الامبراطورية الفاطمية الشاسعة وإلى سائر الأقطار الاسلامية الأخرى

وكانت هذه الدعوة المذهبية تتخذ منذ البداية صبغة رسمية، ومذ قامت الخلافة الفاطمية بالقاهرة، نراها تنتظم فى القصر الفاطمى وتتخذ صورة الدعوة إلى قراءة علوم آل البيت (علوم الشيعة) والتفقه فيها، وكان يقوم بالقاء هذه الدروس قاضى القضاة وغيره من أكابر العلماء المتضلعين فى فقه الشيعة، وكانت تلقى أحياناً فى القصر وأحياناً فى الجامع الأزهر؛ وينوه المسبحى مؤرخ الدولة الفاطمية باقبال الكافة على الاستماع لهذه الدروس

والجلسات المذهبية فيقول لنا إنه في ربيع الأول سنة ٣٨٥ هـ جلس القاضي محمد بن النعمان بالقصر لقراءة علوم آل البيت على الرسم المتقدم فمات في الزحام احد عشر رجلا ، فكفنهم العزيز بالله . بيد أن هذه الدعاية المذهبية الظاهرة التي بدأت في صورة الدروس الفقهية المذهبية ، وهي دروس كان يطلق عليها مجالس الحكمة ، كانت ستاراً لدعوة أخرى بعيدة المدى ، كانت تحاط بنوع من التحفظ والتكتم ، هي الدعوة الفاطمية السرية التي كانت الخلافة الفاطمية تجد في بثها وسيلة لغزو الأذهان المستنيرة وحشدها في حظيرتها المذهبية ، الدينية والسياسية ؛ وكان من عناية الخلافة الفاطمية بتنظيم هذه الدعوة وبثها أن أنشأت لها خطة دينية تضارع في المرتبة والأهمية خطة الوزارة ذاتها ؛ وكان هذا المنصب الخطير من أغرب الخطط الدينية التي أنشأتها الدولة الفاطمية وانفردت بها ؛ وكان متوليه ينعت بداعي الدعاة وهو أيضا من أغرب الشخصيات الرسمية التي خلقتها الدولة الفاطمية ؛ وكان داعي الدعاة يلي قاضي القضاة في الرتبة ويتزيا بزيه ويتمتع بمثل امتيازاته ، وينتخب من بين أكابر فقهاء الشيعة المتضلعين في العلوم الدينية وفي أسرار الدعوة ويعاونه في مهمته اثنا عشر نقيبا وعدة كبيرة من النواب يمثلون في سائر النواحي : وكانت هذه الدروس والمحاضرات الخاصة التي يشرف عليها داعي الدعاة ، تلقى بعد مراجعة الخليفة وموافقته في إيوان القصر الكبير : وتعقد للنساء مجالس خاصة بمركز الداعي بالقصر ، وهو المسمى « بالمحول » ، وكان من أعظم الأبنية وأوسعها فاذا انتهت القراءة أقبل الأولياء والمؤمنون على الداعي فيمسح على رؤوسهم بعلامة الخليفة ويأخذ العهد على الراغبين في دخول المذهب ، ويؤدي له النجوى من استطاع ، وهي رسم اختياري صغير يجبى من المؤمنين للانفاق على الدعوة والدعاة ، وكانت ثمة مجالس أخرى تعقد بالقصر أيضا لبعض الهيئات والطبقات الممتازة من أولياء المذهب - ورجال الدولة والقصر - ونساء الحرم والخاص ، ويسودها التحفظ والتكتم ، ويحظر شهودها على الكافة ؛ وتعرض فيها الدعوة الفاطمية على يد دعاة تفقهوا في درسها وعرضها ؛ وكان تلقين هذه الدعوة ، هو أخطر مهمة يقوم بها الدعاة ، بل كان في الواقع أهم غاية يراد تحقيقها ؛ وكان للكافة أيضا نصيب من تلك المجالس الشهيرة ، فيعقد للرجال مجلس بالقصر ، ويعقد للنساء مجلس بالجامع الأزهر ويعقد مجلس للأجانب الراغبين في تلقي الدعوة ؛ وكان الداعي يشرف على هذه المجالس جميعا إما بنفسه أو بواسطة نقبائه ونوابه ، وكانت الدعوة تنظم وترتب طبقا لمستوى الطبقات والأذهان فلا يتلقى الكافة منها سوى مبادئها وأصولها العامة ، ويرتفع الدعاة بالخاصة والمستنيرين إلى مراتبها وأسرارها العليا

وقد انتهت إلينا وثيقة رسمية هامة هي سجل فاطمي باقامة داعي الدعاة ، وبيان مهمته واختصاصاته وما يجب عليه اتباعه لاذاعة الدعوة ، وقد جاء فيه بعد الديباجة شرحاً لمقاصد الدعوة ما يأتي : « وإن أمير المؤمنين بما منحه الله تعالى من شرف الحكمة ، وأورثه من منصب الامامة والأئمة ، وفوض إليه من التوقيف على حدود الدين وتبصير من اعتصم بحبله من المؤمنين ، وتنوير بصائر من استمسك بعروته من المستجيبين ، يعلن باقامة الدعوة الهادية بين أوليائه ، وسبوغ ظلها على أشياعه وخلصائه ، وتغذية أفهامهم بلبانها ، وإرهاف عقولهم ببيانها ، وتهذيب أفكارهم بلطائفها ، وإنقاذهم من حيرة الشكوك بمعارفها ، وتوفيقهم من علومها على ما يلحب لهم سبل الرضوان ، ويفضي بهم روح الجنان وريح الحنان ، والخلود السرمدي في جوار الجواد المنان . . . »

ومنها في شرح واجبات الداعي وطرق تلقين الدعوة : « وخذ العهد على كل مستجيب راغب ، وشد العقد على كل منقاد ظاهر ، ممن يظهر لك اخلاصه ويقينه ، ويصح عندك عفافه ودينه ، وحضهم على الوفاء بما تعاهدهم عليه ... ولا تكره أحداً على متابعتك والدخول في بيعتك ... ولا تلق الوديعة إلا لحفاظ الودائع . ولا تلق الحَبَّ الا في مزرعة لا تكدى على الزارع ، وتوخ لغرسك أجل المغارس ، وتوردهم مشارع ماء الحياة المعين ، وتقربهم بقربان المخلصين ، وتخرجهم من ظلم الشكوك والشبهات الى نور البراهين والآيات ؛ واتل مجالس الحكم التي تخرج اليك في الحضرة على المؤمنين والمؤمنات ، والمستجيبين والمستجيبات ، في قصور الخلافة الزاهرة ، والمسجد الجامع بالمعزية القاهرة ، وصن أسرار الحكم الا عن أهلها ، ولا تبذلها الا لمستحقها ، ولا تكشف للمستضعفين ما يعجزون عن تحمله ولا تستقل أفهامهم بتقبله ، واجمع من التبصر بين أدلة الشرائع والعقول ،

ودل على اتصال الممثل بالممنون؛ فان الظواهر أجسام، والبواطن أشباحها، والبواطن أنفس، والظواهر أرواحها ...» (١)

وفى هذه العبارات ما يلقى الضياء على غايات السياسة الفاطمية الدينية والمعنوية وعلى وسائلها فى غزو الاذهان وحشدها من حولها؛ ومن المعروف ان الخلافة الفاطمية كانت تتخذ الامامة الدينية شعارها، ومرجع زعامتها الدينية فى العالم الاسلامى، وشرعية ملكها السياسى، فالدعوة الفاطمية التى كانت تلقى فى مجالس الحكمة الى الكافة والى الخاصة متدرجة فى مراتب من السرية والتحفظ طبقا لمكانة الأشخاص وأحوالهم الفكرية والاجتماعية، كانت رغم صفتها الدينية، ترمى فى النهاية الى أغراض سياسية؛ ذلك أن الخلافة الفاطمية كانت ترى أن تحشد جمهور أوليائها ومؤيديها عن طريق الدين، ومتى اجتمعوا فى ظل الامامة وتحت لوائها، استطاعت أن تحركهم وان توجههم وفق مصالحها وغاياتها، وان تعتمد على تأييدهم ونصرتهم كلما اقتضت الظروف والأحوال

والدول الحديثة التى تعتمد فى عصرنا على سلاح الدعاية ترمى الى مثل هذه الغاية؛ فهى تتوسل بما لديها من أسلحة حديثة لغزو العقول والأذهان كالصحافة والراديو والسينما وغيرها لفرض مذاهبها السياسية والاجتماعية والدينية أحيانا على جمهور الشعب والحصول على تأييده ونصرته. ولم تكن الخلافة الفاطمية، وهى من دول العصور الوسطى، تتمتع بشىء من هذه الوسائل القوية المحدثة، ولكنها مع ذلك استطاعت ان تنظم دعوتها بأساليب ووسائل مدهشة، وأن تجنى كثيراً من الثمرات المادية والمعنوية، بل لقد كان قيام الدولة الفاطمية ذاته نتيجة من نتائج الدعوة الفاطمية. وذيوع هذه الدعوة فى قبائل إفريقية البربرية هو الذى جمع كلمة القبائل حول عبيد الله المهدى، وهو الذى مهد لقيام الدولة الجديدة

والخلاصة ان فكرة الدعاية التى تتبوأ فى النظم السياسية والاجتماعية الحديثة، ولا سيما نظم الطغيان الفاشستية، مكانة خاصة، وتعتبر من أقوى أسلحة الطغيان فى عصرنا، ليست جديدة فى ذاتها أو غاياتها، وان كانت جديدة فى وسائلها، وقد عرفتها الدول الاسلامية قبل ألف عام، واتخذت على يد الخلافة الفاطمية أذكى وابرع وانفذ أساليبها

محمد عبد الله عنان

(١) صبح الأعشى ج ١٠ ص ٤٣٤ وما بعدها

في الأدب المقارن

الرومانسية والكلاسية

فى الأدبين العربى والانجليزى

للأستاذ فخرى أبو السعود

يتشأ أدب الأمة المتبدية ساذجا بسيطاً صريح التعبير قريب المتناول، مطلق السجية فى الإعراب عن الشعور الإنسانى، ويظل له هذه السمة حينا، حتى تتحضر الأمة وينتقل الأدب من جو الطبيعة الطلق إلى حياة المدينة، بما تشمل من وسائل الحضارة المادية وأسباب الثقافة الذهنية، فيرتقى الأدب لذلك كله وتتسع حواشيه وتبعد أغراضه، بيد أن الحضارة المادية التى توفرها المدنية لساكنيها ولا توفرها الطبيعة للمتبدين، ربما طغت فأفسدت على القوم حياتهم؛ وكذلك الثقافة العقلية التى فى ظلها يرتقى الأدب رقيا عظيما ربما زيفت على الإنسان شعوره، وتعاونت مع تلك الحضارة المادية على إفساد الأدب بتغليب الصنعة والتكلف فيه على الإحساس الصادق، وتكبيله بالتقاليد والأوضاع، وتضييق حدوده وسد آفاقه، وإيلاء الألفاظ فيه المكانة الأولى دون المعانى

إذا بلغ الأدب هذا الطور الصناعى التقليدى انحط ولم يعد يسير إلا من تدهور إلى تدهور، وصار الأدب المتبدى على سذاجته أرقى منه وأصدق، ولم يعد للأدب الذى غلبت عليه الصناعة من سبيل للنهوض، إلا الرجوع إلى الطبيعة والاقتباس من الأدب البدوى المرسل الطبع، والاطلاع على آداب الأمم الاخرى التى لم يرهقها التكلف ولم تفسدها الصنعة، بهذا وحده يتأتى له معاودة الحياة وأن يعود ترجمانا صادقا مبينا لها، وبغير تلك العوامل الخارجية هيهات أن ينهض الأدب العاثر من سقطته، وإنما يزداد إمعانا فى التكلف السمج جيلا بعد جيل، وإغراقا فى اختراع كاذب الأخيلة والأحاسيس ومزجها بألاعيب الألفاظ، والخروج بكل ذلك عن كل ما يسيغه ذوق أو يقبله عقل

لحياة الطبيعة المطلقة فى أعنتها، وحياة المدينة ذات الحضارة والثقافة، تتنازعان الأدب وتؤثر كل منهما فيه تأثيرا خاصا، ولكل منهما مزايا هى قادرة على إيداعها الأدب: تمنحه الطبيعة شتى مناظر جمالها وصدق شعورها وبعيد آفاقها وروائع أسرارها ومخاوفها،

وتمنحه المدينة وسائل التفكير العميق والنظر الثاقب والطموح إلى المثل العليا، وأسباب الإنشاء الأدبي الفني والجهد الأدبي المتصل، والتفنن في ابتكار صور الأدب وأوضاعه، والخير كل الخير أن يأخذ الأدب من كلتا الناحيتين بنصيب، والأدب الذي اجتمع له رحب الطبيعة وحرارة شعورها وجمالها، إلى ثقافة المدينة ووسائل التوفر الأدبي فيها، أدب لاشك بالغ من الرقي غاياته؛ أما الأدب المتبدي فيظل على صدقه وجماله قاصراً ساذجاً، وأما أدب المدينة الذي بالغ في الانغمار في جوها وأهمل جانب الطبيعة، فسائر إلى الفساد والانحلال لا محالة

والرومانسية هي الصفة التي ينعت بها عادة الأدب الذي يؤثر جانب الطبيعة، ويحفل بمظاهر عبادتها والتأمل في ظواهرها ووصف مشاهدها والسبح في آفاقها، يؤثر كل ذلك على اللفظ فلا يهتم بهذا إلا بقدر ما يستخرجه في إيضاح أغراضه. وعلى حياة المدينة فلا تستغرق شؤون السياسة وعلاقة رجاله برجالها ورجال البلاط والحرب كل جهده واهتمامه، ولا يصرفه الحاضر عن الولوع بالماضي والتأمل فيه وفي المستقبل، ولا ريب أن ذلك لا يعني إهماله لجانب الحضارة والثقافة، بل هو بهما شديد الولوع ويدرس ماضيهما ومستقبلهما شديد الشغف؛ والكلاسية هي النعت الذي يطلق على الأدب الذي استغرقته حياة المدينة وشغلها عن جانب الطبيعة وانغمر فيها رجاله، في مجتمعها ومنتدياتها ومعاركها السياسية والحزبية والشخصية، وآثر التأنق في اللفظ والشكل الأدبي وكمكف العاطفة لخل محلها الذكاء والبراعة واللباقة، وضيق مجالات القول وحدد أغراضه، وكل ما يلك صفات ولوازم تعلق بالمجتمع المترف وتعكس عنه في الأدب

وقد كانت الصفة الرومانسية هي الغالبة على الأدب الإغريقي في عهد عظمته، لأنه ترعرع في مجتمع قريب من البداوة، وفي حياة شديدة النشاط مطردة الحركة، تجيش بالمغامرة والجلاد، وفي حرية في الفكر والسياسة. أما الأدب اللاتيني فكان أكثر اصطباغاً بالكلاسية لأنه لم يبلغ ذروته إلا في ظل الملكية المطلقة والامبراطورية الموطدة المستقرة. فكان أدب مدينة وثقافة متأنقة، واشتهر أعلامه كفرجيل بإحكام الأسلوب والتشبث بمبادئ وتقاليد أدبية خاصة، وما زالت إلياذة هومير وإنياد فرجيل موضوع مقابلة من هذه الناحية. وكان أدباء الإنجليزية أكثر احتفالاً باللاتينيين واقتداء بهم في العصر الكلاسي في الأدب الإنجليزي، كما كانوا في عهده الرومانسي أميل إلى اليونان وأكثر تغنياً بآثارهم، ويعدم اطلاع الأدب العربي على الأدب اليوناني فقد هذا العنصر الرومانسي الذي أصبح في حاجة إليه، حين انتقل إلى المدينة وشغل بآثار الحضارة والثقافة

وقد كانت الرومانسية هي الصفة الغالبة على الأدب الإنجليزي في العصر الإليزابيثي؛ ففي ذلك العهد كانت البساطة والخشونة تسودان المجتمع والبلاط؛ والحركة والنشاط والتطلع تتجلى في شتى نواحي الحياة: في السلم والأدب والكشف والمخاطرة والحرب. كان عهد نهضة تتحفز وتستشرف إلى الجديد وترمي إلى التوسع، لا تقنع بالقليل الحاضر ولا تقبل القيود والحدود؛ وزمن شباب يولع بالقوة والجلاد ويبرم بالأنيار والأقياد، فهو لا يرضاها في الأدب؛ ومن ثم جاء أدب ذلك العصر غزير المادة متلاطم العباب مترامي الآفاق، جياشاً بشتى العواطف والمعاني، حافلاً بمختلف الأوضاع الأدبية والمذاهب الفنية، لم يتقيد رجاله بتقاليد فنية غير معقولة: فعلى حين تقيد أدباء الفرنسية بالوحدات الثلاث التي أثرت عن الدرامة الإغريقية، انتفع الأدب الإنجليزي بخير ما في تلك الدرامة وضرب بتلك الوحدات عرض الحائط؛ ولم يتقيد بألفاظ خاصة في الشعر، مما أصبح فيما بعد يسمى «الألفاظ الشعرية»، بل زاد على استعمال كل ما في لغة الكتب أن اقتبس من لغة العامة واصطنع بعض ألفاظ اللغات الأجنبية، واشتق ما راقه من ألفاظ. وأخرج هذا العصر الحافل كبير شعراء الإنجليزية شكسبير، وأنجب بجانبه أحد كبراء شعرائها سبنسر، وامتد هذا العصر حتى انتهى بظهور علم ثالث من أعلامها هو ملتون

تصرم ذلك العهد المملوء بالحرية والنشاط والجرأة والفتوة، وتلاه عصر كلاسي طويل، بين أواخر القرن السابع عشر وأواخر القرن الذي يليه، خمدت فيه روح المغامرة والتطلع التي كانت متنبهة في عصر اليزابث، واستراح الناس إلى حياة المدينة ومنتدياتها، وانغمر الأدباء في المعارك الأدبية فيما بينهم، فكان نزاع بين كل من دريدن وأديسون وستيل وديفو وسويفت ومعاصريهم، محتدم حيناً ومترفق حيناً، ومعلن تارة ومستتر أخرى؛ وانغمروا كذلك في المشادات السياسية وانضووا تحت ألوية الأحزاب، وشجعهم رجال تلك الأحزاب على الانخراط في سلكهم والذود عن مبادئهم بأقلامهم، فكان سويفت في صف المحافظين، وأديسون في جانب الأحرار، وكان ستيل يختلف من هؤلاء إلى أولئك. وخلا أدب ذلك العصر أو كاد من ذكر الطبيعة ومجاليها، وحتى أولئك الأدباء الذين كانوا يرحلون إلى الأقطار الأجنبية لم تكن تحرك نفوسهم مناظرها الجديدة، فكانوا يتناولون في رسائلهم إلى أصدقائهم في الوطن شتى

المواضيع ماعداها . واهتم أدباء ذلك العهد باللفظ كل اهتمام وقدموه صراحة على المعنى ، وجعلوا للشعر ألفاظا لا يتعداها ومواضيع لايتخطاها ، واتخذوا للشعر وزنا واحدا مزدوج القافية لم يكد أحد ينظم فى سواه ، وقلدوا الأقدمين من أدباء الاغريقية واللاتينية ونقادهما ، وانصاعوا لمبادئهم انصياعا أعمى ؛ وبهذا كله ضاقت حدود الادب ضيقا شديدا ، وأرهقه التكلف وفدحته القيود . فسار إلى الانحلال

وزعيم هذا المذهب الكلاسى الذى بلغ أوجه على يديه هو بوب الذى نال الغاية من إحكام اللفظ ، وقد قال عنه بعض مترجميه إن شعره ليس إلا نثرا جيد النظم ، وذلك حق : فهو يتناول فى شعره مواضيع هى أقرب إلى النثر وأبعد عن الخيال والشاعرية ؛ وكان يسمى بعض قصائده « مقالات » ومنها مقالته فى النقد التى نظم فيها مبادىء المذهب الكلاسى فى الأدب ونقده ، فظلت مرجعاً لمن تلاه من شعراء المذهب ، ومنها يقول : « تعلم إذن التقدير الحق لمبادىء الأقدمين ، فمحاكاتها هى محاكاة للطبيعة ، فتلك المبادىء القديمة — التى إنما اكتشفت ولم تخترع — إن هى إلا الطبيعة ؛ غير أنها الطبيعة منظمة مهذبة » ، وقد ترجم بوب إلياذة هوميروس ترجمة قدسها معاصروه ، ولكننا قلما تذكر الآن أو يعتمد عليها أو تعد صورة صحيحة لشعر هوميروس ، إذ كان من المستحيل على أديب مشبع بالروح الكلاسى أن يخلص إلى روح الشاعر الاغريقى الرومانسى ؛ ثم دبت فى المجتمع الانجليزى روح جديدة ، وانتعش الأدب الانجليزى من خموله باطلاعه على آداب الأمم الأخرى الناهضة كالأدب الالمانى ، والعودة إلى صدر الطبيعة الرحب الحافل بالأسرار والحياة والوحى . تمخض كل ذلك فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل الذى يليه عن نهضة رومانسية جديدة فكت الأدب من عقاله ونبهت الشعر من غفوته ، ورحبت آفاقه وبسطت جوانبه ، وسبحت به فى آماد الكون والطبيعة والانسانية . وأنجبت هذه النهضة جمهرة أخرى من أفذاذ الأدب الانجليزى : أنجبت وردزورث وبليك وكولردج ، ثم بيرون وشلى وكيتس ، ثم تنيسون وبراوننج ، عدا من أخرجت من أفذاذ النثر الذين جاء نثرهم حافلا بمظاهر النهضة الجديدة ؛ ولا غرو : ففى العهود الرومانسية يتجلى الروح الشعرى حتى فى النثر ، وفى العصور الكلاسية يغيض الروح الشعرى حتى فى النظم ؛ وما تزال تلك النزعة الرومانسية ملحوظة فى الأدب الانجليزى ، على ما داخله من نزعة واقعية ، وإقبال على درس مسائل المجتمع كافة

والعصر الرومانسى فى الأدب العربى هو ولا شك عصر الجاهلية والعهد الراشدى وصدر العصر الأموى : فى تلك العهود وكان المجتمع العربى أدنى إلى البساطة والتبدى ، وكان الأدب مرسل السجية صادق التعبير عن خلجات النفوس : من حزن وطرب ولذة وألم ، وحب وبغض وحماسة ووصف ، خاليا فى أكثر نواحيه من مظاهر التكلف اللفظى أو التعمل فى المعنى أو التصنع فى الموضوع . وما تزال لحكم بعض الأعراب والأعرابيات ومراثيهم ، وحماسيات قطرى بن الفجاءة وغزليات جميل وقيس ، روعة فى النفوس وغبطة شاملة ، لصدورها عن طبع سليم وشعور صميم ؛ هذا على رغم بساطة ذلك الأدب وخلوه من مظاهر التثقف والتعمق فى التفكير

تجرم ذلك العصر بطول عهد العرب بالحضارة والثقافة ، ومهدت حضارة المدينة وثقافتها من أسباب القول ودواعى النظم ووسائل التفنن الأدبى ما لم يتوفر فى البادية ، فنشأ من ذلك أدب جديد يفوق أدب العصر السالف تعدد مواضيع وعمق نظرة ووفرة محصول ، وتجلى ذلك فى خير آثار ابن الرومى والطائى والمتنبى والمعرى ، والجاحظ والبديع والجرجانى وأضرابهم . على أن الأدب فى طوره هذا انغمر فى جو المدينة انغمارا تاما ، فكان هذا عهداً كلاسيا صميما : فيه تزايد ولوع الأدباء تدريجاً باللفظ . واحتفاؤهم به ، ثم استعبادهم أنفسهم له وللأوضاع والمبادىء الموروثة عن المتقدمين . وضاقت مواضيع القول رويداً رويداً وكبلها التكلف والاغراب ، وتجمع الأدباء حول موائد الأمراء ورجال السياسة والحكم والحرب ، وخاضوا غمار مشاحناتهم ، وتشاحنوا هم أنفسهم فيما بينهم ، وهى مشاحنات تذكرنا بحملات سويفت ودريدن على الوزراء والقواد فى عصرهما ، وحملاتهما على غيرهما من الأدباء ، فمن هجاء الوزراء قول دعبل فى وزير المأمون :

أولى الأمور بضيعة وفساد ... أمر يدبره أبو عبـــاد

يسطو على جلاسه بدواته ... فمضمخ بدم ونضح مداد

ومن تهاجى الشعراء قول ابن الرومى فى البحترى :

أف لأشياء يأتى البحترى بها ... من شعره الغث بعد الكد والتعب

البحترى ذنوب الوجه نعرفه ... وما عهدنا ذنوب الوجه ذا أدب

وقول المتنبى فى معاصريه :

أفى كل يوم تحت ضبنى شويعر ... ضعيف يقاوينى ، قصير يطاول ؟

وكم جاهل بى وهو يجهل جهله ... ويجهل علمى أنه بى جـــاهل

فى ذلك العصر الكلاسى الطويل أعرض الشعراء إعراضاً يكاد يكون تاماً عن الطبيعة وحديثها ومجالها . وأقبلوا على حياة المدينة أى إقبال . وما منهم من له أمل أبعد من أن ينال النجاح فيما تهيئه

لأبنائها من أسباب اللذة والمتعة والشهرة، فكان منهم طامح إلى الملك كالمتنبي والشريف الرضى، وحريص على الوزارة كالصاحب وابن العميد، وراغب في الولاية حظى بها كالطائي وقصر عنها كابن الرومي، ومغتبط بالحظارة والمنادمة كأبي العتاهية والبحترى، وغير هؤلاء وأولئك ممن سعوا سعيهم ولم ينالوا مثل شهرتهم؛ وممن طمحوا فيما هو دون ذلك من متعات الحياة. ونظير ذلك كله تراه في العصر الكلاسي الانجليزى سالف الذكر: فقد تقلب دريدن بين الأحزاب وحرص على الحظوة في البلاط. وتدرج أديسون في المناصب حتى صار وزيراً للخارجية. ولم يقنع سويفت بما تولى من مناصب في الكنيسة، وكان إخفاقه في مطامعه البعيدة أحد أسباب نقمته وتشاؤمه

وتجلت هذه الصفة الكلاسية في الأدب ذاته: حددت مواضيعه وقصرت على ما اتصل بالحاضر القريب من شؤون الحياة في المدينة، وأهملت المواضع الرومانسية الصبغة، كالالتفات إلى الماضي واستعراض حوادثه الطريفة واتخاذها مادة للنظم والنثر، ومعالجة خرافاته واستلهامها ما بها من معاني الجمال والعظمة والبطولة، وأهملت أحاديث الرحلات وأوصاف البلاد البعيدة والأصقاع المجهولة، ما وجد منها في الحقيقة وما يتخيله الشاعر، وكفكف الخيال ونبذت آثاره من عالم الأدب.

خلا الأدب العربي في ذلك العهد من كل هذه المواضيع، وهي من صميم الشعر ولباب الفن وجوهر الأدب إذا ما تحضر أهلوه واتفقوا بالثقافة، وإنما تركت هذه المواضيع الجليلة للأدب العامي، فظل الأدب الفصيح أدباً كلاسياً وصار الأدب العامي هو الممثل للرومانسية

دام ذلك العصر الكلاسي الطويل في الأدب العربي طوال عهد ارتقاء الأدب، أي زهاء ثلاثة قرون، ثم طوال عهد انحطاطه أي إلى العصر الحديث، لم تعقبه خلال تلك الأجيال المتوالية نهضة رومانسية تخفف من غلوائه وتصلح من فساده، وتقيم ما اعوج من مبادئه الأدبية. وتعود به إلى الطبيعة التي هجرها واستغرق في النوم في أحضان المدينة: لم تنبعث فيه تلك النهضة التي انبعثت في الأدب الانجليزى في أعقاب القرن الثامن عشر، حين بلغ العهد الكلاسي مداه من التحكم في أساليب الأدب. وبلغ الأدب الدرك من الاسفاف والاعال؛ ذلك لأن الأدب العربي كانت تعوزه تلك العوامل التي تساعد على النهضة وتعاون على الرجوع إلى الطبيعة وتنت الميل الرومانسي، فكان استمرار النزعة الكلاسية المحتدمة في الأدب أكبر أسباب تدهوره الطويل ...

فالأدب العربي لم يكن على اتصال بآداب أجنبية فيأخذ عنها حب الطبيعة وإيثار البساطة، ويلتفت باطلاعه عليها إلى حقائق الحياة الكثيرة التي أهملها، وهو لم يكن ينازل فيتصل بآداب العامة وأقاصيص الزراع والرعاة، التي تنم فيها نسائم الطبيعة والبساطة والشعور الصميم، وهو لم يكن يرجع إلى ماضيه الرومانسي الذي سبقت الاشارة إليه، فينظر فيه نظرة حرة مميزة، تستخلص اللباب وتنظر من خلاله إلى حقائق الحياة، إنما يرجع إليه طلبا للاسلوب واللفظ، دون المعنى والموضوع. كان يعده كنز لغة فصيحة الأساليب والألفاظ لا كنز حقائق منتزعة من الحياة الصميمة. فاذا نظر إلى المعاني حاول حكايتها وتقليدها تقليداً كاملا على ما هي عليه، أي حاول الأديب أن يحيا في أدبه حياة البدو ويشعر بشعورهم كله، وكان الأجدر أن ينبذ ذلك جميعا، ولا يهتم إلا بصدق تعبير أولئك المتقدمين عن شعورهم، ووجوب صدقه في تعبيره عن شعوره الصحيح، في عصره وحياته المخالفين لما كان قبله

ظل هذا المذهب الكلاسي التقليدى سائدا الأدب العربي، يقلد المتأخر المتقدم ويزيد عليه تقييدا وتضييقا في مجالات القول وأوضاعه مادام الأدب محجوبا عن غيره من الآداب بعيدا عما جهله أو تجاهل من حقائق الحياة والأدب، حتى أتيح له الاتصال بالآداب الغربية في العصر الحديث، فصحا من غفوته ونفض عنه تدريجا غبار التقليد والتقييد اللفظي والمعنوى، وفتن بحقائق الكون ومحاسن الطبيعة التي كان عنها في شغل، وتناول شتى المواضيع التي كان حرمها على نفسه، وبالجملة تقشع عنه عصره الكلاسي الطويل، وأشرق عليه فجر نهضة رومانسية جديدة

فخرى أبو السعود

فوائد قياس الذكاء فى التربية

للأستاذ على محمد فهمى

مدرس التربية التجريبية المساعد بمعهد التربية

تقدم قياس الذكاء منذ الحرب العظمى فذاع استعمال المقاييس فى المدارس حتى أصبحت ضرورية لكل مدرسة تعنى بجعل التعليم ملائماً للأطفال . وهذه هى أهم فوائد مقاييس الذكاء والتى لها أثر فى تعليم الأطفال وإرشادهم : —

أولا — قياس الذكاء والتعليم المدرسى

تعالج عيوب الامتحانات القديمة بجعلها موضوعية بواسطة المقاييس الدراسية التى تعتبر أحسن وسيلة لقياس معلومات الطلبة وما يحصلونه من العلم والمعرفة . ومقدار التحصيل المدرسى هذا يتوقف إلى حد كبير على الذكاء ، يدلنا على ذلك التجربة التى أجراها الأستاذ سيرل برت Cyril Burt على ٦٨٩ طالباً تتراوح أعمارهم بين السابعة والرابعة عشرة لأثبات العلاقة بين الذكاء والتحصيل المدرسى فوجد أن معامل الارتباط بينهما ٧٤ فى المائة ؛ وهذا معامل عال جداً يدل على شدة الاتصال بين الذكاء والتحصيل . ومن هذا كانت معرفة ذكاء التلميذ من الأمور التى تساعد المختبر على تفهم أسباب تقدمه وتأخره . فاذا فرضنا أن تلميذا ضعيفاً فى دروسه فان قياس ذكائه يبين لنا إذا كان ضعفه نتيجة غباوة طبيعية أو نتيجة عوامل أخرى كاهمال التلميذ أو عدم ميله للدروس أو عدم ملاءمة البيئة المنزلية للدراسة . الخ

ولأهمية مقاييس الذكاء وضرورتها تستعمل بدل الامتحانات القديمة فى بعض الأحيان وتساعد الامتحانات الجديدة فى بعض الأحيان الأخرى ، وعلى هذا نجد أن مقاييس الذكاء والمقاييس الدراسية يكمل كل منهما الآخر . من أجل ذلك يتحتم على من يريد قياس التلميذ قياساً مضبوطاً ألا يكتفى بقياسه بالاختبار الدراسى فقط بل يقيسه أيضاً باختبار الذكاء . ويبنى حكمه على نتيجة هذين الاختبارين فيتعرف أولا ميول الطفل الطبيعية ثم يقيس ثانياً ما اكتسبه هذا الطفل عن طريق هذه المواهب

على أنه ليس من الضرورى أن نقيس ذكاء الطفل فى كل مرة نقيس فيها تحصيله الدراسى ، بل يكفى أن نقيسه عند أول عهده بكل مدرسة يلتحق بها فتساعدنا هذه المعرفة على الحكم عليه .

ولقد استعاضت بعض كليات الجامعات عن امتحانات القبول باختبارات الذكاء فتستعمل الآن كلية كولومبيا اختبار ثورنديك بدل امتحان القبول الذى كانت تعقده فى أول كل عام دراسى للطلبة الذين يرغبون الالتحاق بالكلية . ولقد نجحت هذه الطريقة نجاحا كبيراً يدل على ذلك ما قاله الأستاذ هوكس Hawkes عميد الكلية من أن الطريقة الجديدة ، تبين بوضوح ودقة أعظم مما عهدناه فى أية طريقة أخرى ما إذا كان الطالب سينجح فى جامعة كولومبيا أم لا ،

ثانيا — التوجيه التعليمى

يرجع ازدياد نسبة فشل الطلبة فى الامتحانات لعدة أسباب منها عدم ملاءمة الدراسة لكل الأفراد ، إذ أن ما يلائم شخصاً لا يلائم الآخر ، ولقد دعت نفس هذه الفكرة فى البلاد الأوروبية والأمريكية إلى امتحانات التحصيل المقننة واختبارات الذكاء إذ يمكن من نتائج هذه الاختبارات الحكم على ملاءمة الدراسة للتلميذ أو تغييرها ثم ادماجه فى دراسة أخرى أكثر موافقة لمواهبه الطبيعية

وليس هناك شك كما قلنا فى أنه يوجد ارتباط وثيق بين مقدار تحصيل الطفل الدراسى وذكائه . فالطفل الذكى هو الذى يستمر فى دراسته بنجاح مطرد ، بينما الطفل الغبى هو الذى يفشل فيها ، ويرجع هذا الارتباط إلى أن الدراسة فى الفرق العليا تحتاج لدرجة ذكاء عالية ، وهذا مما يجعل الأغبياء فى الغالب يقفون عند حد لا يتعدونه مهما حاولوا التغلب وبذلوا من جهد . ولقد قدر الأستاذ ترمان بأن الذين يقل مستوى ذكائهم عن ٨٠ فى المائة لا يتمكنون من أن يدرسوا بعد الدراسة الابتدائية ، فاذا ما انتقلت هذه الفئة إلى دراسة تحتاج لمستوى ذكاء أكبر من هذا المستوى تكرر فشلهم ، وعلى هذا يجب أن يوجهوا إلى دراسات أخرى ، وهذا هو السر فى بعض حالات لا يتيسر لسوى المشتغلين بالذكاء أن يكشفوها . فكم من طالب مثلا كان فى دراسته الابتدائية ناجحا لا يفشل فى سنة من سنيه الدراسية حتى يعتقد والداه والمتصلون به أنه ذكى ، ومثل هذا الصنف من الطلبة إذا ذهب إلى المدارس الثانوية وجد صعوبات كثيرة فى الدراسة خصوصا الدروس المجردة والتى تحتاج إلى تفكير عميق كالجبر والرياضة . الخ إذ فى الغالب تتطلب هذه المواد ذكاء أكبر من ذكائه فيتكرر رسوبه ووالداه من ذلك فى دهشة ، ولكن الاختبارات كفيلة ببيان السر فى ذلك

وقد أجرى الأستاذ ترمان اختباراته الكثيرة لتعيين المستويات التى تتطلبها الدراسات المختلفة فوجد أن الدراسة الثانوية تحتاج لنسبة ذكاء لا تقل عن ٩٠ فى المائة أما الدراسة العليا فتحتاج إلى نسبة ذكاء لا تقل عن ١٠٠ ٪ وهناك تقسيم أدق من هذا للاستاذ اسماعيل القبانى ؛ فمن تتراوح نسبة ذكائهم بين ٧٠ و ٨٠ يتأخرون فى دراسة التعليم الابتدائى ولا يمكنهم إتمام الدراسة الثانوية ، وما بين ٨٠ و ٩٠ يمرون فى الدراسة الابتدائية فى مدة أقل من الفريق الأول ويرجح ألا يمروا فى الدراسة الثانوية ، وما بين ٩٠ و ١١٠ عاديون يتممون

الدراسة الابتدائية بسهولة ويستطيعون أن يمروا فى الثانوى بصعوبة، وما بين ١١٠ – ١٢٠ يمرون فى الدراسة الثانوية بسهولة، ومن ١٢٠ فأكثر يسهل عليهم الدراسة العليا.

ثالثاً — التوجيه المهنى

يجب أن نميز بين الاختبار المهنى والتوجيه المهنى، فالأول هو اختيار الشخص المناسب لمهنة ما والتوجيه المهنى هو اختيار المهنة المناسبة لشخص ما أو هو تسيير الشباب بنين وبنات نحو المهنة التى تتفق أكثر مايكون ومؤهلاتهم الفطرية، وأهمية هذا التوجيه فى تقدم البلاد وإسعادها لا تنكر. وليس معنى التوجيه فى المهنة أنه يبدأ عند انتهاء التلاميذ من دراساتهم، إذ أن الارشاد التعليمى هو أول خطوة للتوجيه المهنى كما أن ما ينادى به علماء العصر الحاضر هو تدريب الطالب على المهنة التى سيزاولها فى المستقبل أثناء مدة الدراسة

قيمة التوجيه المهنى والفائدة من وضع الفرد فى العمل الذى يليق به وبمواهبه الطبيعية لاتقتصر على الفرد نفسه بل تعود عليه وعلى الامة بالنفع الجزيل، وإن الحاجة للتوجيه المهنى أصبحت حاجة العصر الحديث بعد الاختراعات الحديثة وانتشار الصناعة التى تتطلب الآن صفات خاصة

كيف نقوم بالتوجيه المهنى: تختلف المهن من حيث ما تتطلبه من ذكاء كما دلت على ذلك الابحاث الحديثة فيقسمها الأستاذ ترمان إلى ثلاثة أقسام: (١) مهن تحتاج لمقدار كبير من الذكاء (٢) مهن تحتاج لذكاء متوسط (٣) مهن لا تحتاج لذكاء. ومن الأبحاث القيمة التى تهمنا فى هذا الموضوع بحث Yerkes فقد أوجد العلاقة بين مراتب الذكاء المختلفة والمهن المتعددة وقال إن النجاح فى مهنة ما لا يتيسر لكل شخص إذا كان الذكاء دون المستوى المعين. ومن هذا يتبين قيمة التوجيه المهنى وكيف أنه يعمل لمصلحة الفرد والمجتمع فى آن واحد. ولقد اهتم بايجاد مستويات الذكاء للمهن المختلفة كثير من العلماء. ولقد ذكر الأستاذ ترمان أنه يجب ألا يشجع أى شخص إذا كانت درجة ذكائه أقل من ١٠٠ لأن يمتهن مهنة من المهن الراقية التى ذكرها وهى تشمل الأطباء وقادة الرأى والمربين والمهندسين وأصحاب المشروعات والكتاب. فالنجاح فى مثل هذه المهن لا يمكن أن يحصل عليه إلا من كانت درجة ذكائهم أعلى من ١١٥ – ١٢٥. ولقد أجرى الأستاذ فلاندر Flander عدة تجارب استخلص منها أن من كان ذكاؤهم يتراوح بين ٧٠ و ٨٠ يمكنهم أن يتخذوا الأعمال الآلية مهنة لهم؛ فعلاقة الذكاء بالتوجيه المهنى حينئذ تقع فى تحديد مستوى الذكاء المهنى الذى يمكن الفرد من النجاح. وهكذا نجد أن اختبارات الذكاء تفيد فى تحديد العمل الذى يمكن أن يؤديه الشخص على أحسن مايمكن. على أن هناك أشياء أخرى يجب دراستها لتوجيه الفرد توجيهاً مهنياً وهى: (١) القدرات الخاصة (٢) التحصيل المدرسى (٣) البيئة المنزلية (٤) الميول والمزاج (٥) الصحة والقدرات الجسمية (من حيث القوة والسرعة والدقة)

رابعاً — تقسيم التلاميذ الى فرق وفصول

يقسم بعض نظار المدارس فى مصر التلاميذ إلى فصول مراعيا ترتيب أسمائهم حسب ترتيب الحروف الأبجدية، ويراعى البعض الآخر أجسام التلاميذ ويرتبهم حسب أطوالهم فيضع الصغار فى فصول والكبار فى أخرى، ويقسمهم البعض الآخر حسب ترتيب أعمارهم الزمنية. وقد ظهر فساد هذه الطرق بعد أن قسنا ذكاء عدد كبير من التلاميذ وتبين لنا أن القوة العقلية لبعض التلاميذ فى فصل من فصول السنة الثانية الابتدائية كانت تعادل قوة التلميذ المتوسط الذى عمره ١٣ سنة فى حين أن القوة العقلية لتلاميذ آخرين أقل من قوة الطفل الذى عمره ٧ سنين. وفى فصل من فصول السنة الثالثة بمدرسة أخرى وجدنا تلاميذ تعادل قوتهم قوة الطفل المتوسط من سن ٨ سنوات وآخرين قوتهم العقلية تزيد على قوة التلميذ المتوسط من سن ١٤ سنة وهكذا فى سائر الفصول

ولا يخفى ما فى هذا من الأثر السيء على كل من التلاميذ الأذكياء والأغبياء الذين يضطرهم اجتماعهم فى فصل واحد إلى السير إما حسب سرعة الأول ومقدرته فيعجز الأغبياء عن متابعتهم، وإن أجهدوا أنفسهم فلن يستمروا فى ذلك طويلا حتى يضنيهم الاجهاد فتثبط هممهم؛ وإما حسب سرعة الآخرين ومقدرتهم فلا يجد الأذكياء مايستعملون فيه قواهم العقلية فتثبط هممهم أيضا. والنزعة الحديثة فى التربية تميل إلى جعل المدرسة ملائمة لعقول التلاميذ وكفاياتهم فلا يصح أن يجمع فى الفصل الواحد تلاميذ أقوياء ومتوسطون وضعاف إذ يلزم أن يكون تلاميذ الفرقة متجانسين حتى يمكنهم أن يقوموا بعمل مجد. وعلى ذلك فخير طريقة لتقسيم التلاميذ إلى فصول أن تقسمهم حسب نسبة ذكائهم: فتقسم التلاميذ إلى قسمين أو أكثر حسب العمر الزمنى ثم نقسم كل قسم إلى فصول حسب العمر العقلى، فمن كان عمرهم العقلى متقاربا وضعوا فى فرقة واحدة. فاذا عملنا بهذا نقصت نسبة الرسوب فى الامتحانات إلى أدنى حد، وبذلك نقضى على أهم عوامل الشكوى. هذا ولنلاحظ أن تقسيم الطلبة إلى فصول مهم جدا فى القسم الابتدائى، وتقل أهميته فى الثانوية، وهو غير مهم فى القسم العالى، وإن كانت نسبة الذكاء شرطا هاما فى الدخول. ويتخذ التقسيم فى القسم العالى حسب الملكات الخاصة

خامساً — انتقاء ضعفاء العقول

واضح من الابحاث السيكولوجية أنه اذا اختبرنا ذكاء عدد من الأشخاص نجد ثلاثة أرباع هذا العدد يقع تقريبا فى وسط المنحنى العادى ويتوزع الباقى على الجانبين، فالذين على الجانب الأيسر من المنحنى هم ضعفاء العقول والذين على الجانب الأيمن هم الأذكياء.

وضعف العقل ينقسم إلى ثلاثة أقسام : (١) عته : وعقلية المعتوه عبارة عن عقلية طفل عادى لا تزيد سنه على ثلاث سنوات (٢) بله : الأبله عبارة عن شخص وقف نمو نوعه عند سن ٧ سنوات (٣) موروث: هم الأفراد الذين وقف نمو مخهم عند سن ١٢

ويرجع ضعف العقل إلى : (١) عوامل وراثية (٢) وعوامل مكتسبة (٣) وعوامل خارجية . والوراثة هي أهم العوامل المسببة لضعف العقل . فمثلا إذا كان الأب أو الأم مجنونا فليس من الضرورى أن يرث الشخص الجنون ، بل يجوز أن يرث رذيلة من الرذائل أو ضعف العقل ـ ولقد استقصى بعض الاخصائيين ما للوراثة من تأثير في أبناء الأسرة الواحدة ، فبذل الأستاذ جودار جهدا كبيرا في تتبع حياة أفراد أسرة واحدة هي أسرة كاليكاك . وقد كان مارتن كاليكاك شابا سليم العقل من أسرة كبيرة تطوع في الحرب الأهلية الأمريكية ، وكان يتردد على حانة تختلف إليها فتاة ضعيفة العقل توددت إليه فحملت منه سفاحا وولدت له ولدا ضعيف العقل . وفي سنة ١٩١٢ استطاع الأستاذ جودار أن ينتهي من عمله فأحصى أفراد هذه الأسرة فبلغ عددهم ٤٨٠ فردا جاءوا من ذلك الزواج غير الشرعي . وتتبع أحوالهم فوجد أن معظمهم (٩٩ /. منهم) عاهر أو فاسق أو سكير أو لص . على أن تلك الحرب لم تكد تنتهي حتى تزوج مارتن بفتاة أخرى سليمة العقل عريقة النسب ، وتتبع الأستاذ جودار ٤٩٦ شخصا من أفراد هذه الأسرة فلم يعثر فيها على شخص ضعيف العقل وإنما وجد أن الأسرة كلها مكونة من أطباء ومحامين ومدرسين ومهندسين وتجار وغيرهم من لهم يد عاملة في الحياة .

وضعاف العقول هؤلاء يربكون نظام التدريس في المدرسة ويعطلون سير الدراسة ، وذلك لأنهم يختلطون في الفرق المختلفة مع العاديين والأذكياء . أما في المجتمع فقد اتضح لنا من نتائج الابحاث التي قام بها الأستاذ جودار في إصلاحية الأحداث في الولايات المتحدة أن سبب سلوكهم الشاذ هو كونهم ضعاف العقول . ومن هنا نجد أن ضعاف العقول يهددون كيان المجتمع ، ولذلك يجب أن نهتم بأمر تربيتهم حتى تخف وطأتهم ؛ وبقياس الذكاء يمكننا فصل هؤلاء في فصول خاصة وتعليمهم تعليما يتلاءم مع درجة ذكائهم

ونسبة الذكاء هي الأساس السيكولوجي الذي يبنى عليه المربى تعليمه لضعفاء العقول ، ويجب على المربى الذي يقوم بأمر تربيتهم أن يعين ذكاء كل واحد حتى يستطيع وضع طريقة تتفق مع قدرة كل منهم العقلية ، ويستطيع أن يعين الموضوعات التي يمكن أن يتعلمها ضعيف العقل في هذا العمر المعين

ولا يمكن أن يعلم هؤلاء الضعفاء أي عمل يحتاج إلى درجة من الذكاء أعلى من مستواهم . وقد حاول كثير من المدرسين ذلك فلم يستطيعوا . وكذلك فكرة تعليم هؤلاء الضعفاء حتى ترتقي عقليتهم إلى المستوى العادى فكرة خاطئة ، ولكن توصل بعض الأطباء إلى إعادة بعض ضعفاء العقول إلى المستوى العادى ، وذلك في الحالات التي لا تنتهي إلى ضعف عقلى وراثى . وإنما ترجع إلى وقوف النمو عندهم بعامل من العوامل الخارجية . ومع كل فان هذه الحالات نادرة جداً ، كما أنه لا يمكن للمربى أن يضيف شيئا إلى نسبة ذكاء ضعيف العقل وإنما كل مايستطيعه المربى من تعليم ضعيف العقل هو تكوين عادات خاصة حتى لا يكون شراً ووبالا على المجتمع ؛ وهنا نجد ضرورة تحديد نسبة الذكاء اللازمة لكل عمل أو موضوع يضعه المربى ليتأكد من أن استعداد ضعيف العقل يتمشى مع طبيعة هذا العمل الموضوع له ؛ وقد توصل بعض العلماء أخيراً إلى ذلك . وعلى العموم يجب أن يكون نظام الدراسة في مدارس ضعاف العقول قائما على اختيار المواد العملية النافعة والتعليم الحسن ، أما العلوم التي تستدعي التفكير المجرد النظرى ، وفهم الرموز فلا فائدة ترجى لهم منها

سادسا — انتقاء التلاميذ الموهوبين

من النوابغ من إذا وضع في فصول عادية نجدهم متأخرين في علمهم الدراسي ؛ ويرجع ذلك إلى أسباب كثيرة : منها الكسل مثلا ، أو عدم الاهتمام بالدروس لسهولة المادة وطول الشرح . والواجب يقضي علينا أن نبحث عن هؤلاء النوابغ وندرسهم درساً وافياً حتى يتسنى لنا تربيتهم بطرق تناسب قواهم العقلية وتهيئة الظروف لهم لإيقاظ نواحي النبوغ فيهم وذلك لأنهم هم الأسس التي تبني الأمة عليها مدنيتها ، فمن بين الأطفال النوابغ توجد الأرواح الحية الفعالة التي تتولى زمام المدنية وقيادتها فيما بعد ، وعلى ذلك فتربية الطفل النابغة يجب أن تنفصل عن غيره حتى تتمكن من توجيهه إلى ما فيه خيره وخير المجتمع الذي سيعيش فيه .

ومقاييس الذكاء هي من الاختبارات التي تكشف لنا عن هذه الفئة فلا يختار لفصول الأطفال النوابغ من كان أقل من ١٤٠ . ويقول الأستاذ هورن Horn إن التلاميذ النوابغ يجنون كثيرا إذا ماساروا في كل المواضيع إلى مستوى أعمق وبطرق مفصلة أكثر من التلاميذ المتوسطين ، فالنابغة لا يقبل الحقائق والمعلومات كما هي وإنما يحاول أن يرجعها إلى أصولها ومسبباتها وإلى النتائج المشتقة منها كما أنهم يميلون أكثر الى المواد المعنوية .

وقد كان الرأى السائد أن الموهوب يكون عادة ضعيف الجسم أو عصبي المزاج أو يمتاز بشذوذ في الناحية الخلقية أو العقلية ، ولكن الأستاذ ترمان كان أول من خطأ هذا الرأى باظهاره أن الأطفال الموهوبين لا يقلون عن إخوانهم العاديين سواء أكان في الصحة أم في الحالة العصبية ؟

علي محمد فهمي

١٦ - تاريخ الأدب العربي

للأستاذ رينولد نيكلسون

الجاهلية : شعرها وعاداتها ودياناتها

ترجمة حسن حبشي

ومع ذلك فلا يجرؤ شيوخ العشيرة على فرض أوامرهم فرضا، أو إنزال العقوبات برجالها، إذ كان كل منهم ولى نفسه وسيدها، وله الحق أن يقتص ممن يناله بسوء :

فإن كنتَ سيِّدَنا سُدتنا
وإن كنتَ للخَالِ فاذهبْ فخَلْ [1]

ولم يكن معنى الوفاء عند العربي الوثني الخضوع لرؤسائه، ولكن المساعدة الصادقة لمساويه وأنداده، وكان قوى الصلة بفكرة القرابة، وإن القبيلة أو العائلة التي تشتمل على غرباء عاشوا في ظلها، واستظلوا بحمايتها، فان الذب عن هؤلاء أفرادا أو جماعات من أقدس الواجبات اللازم احترامها، كما كان الشرف يقضى على الرجل منهم أن يقف بجانب قومه فيما جل من أمرها أو حقر

وَهَلْ أنَا إلاّ مِنْ غزِيَّةَ إن غوَت
غَويتُ وإنْ ترْشُدْ غزيَّةُ أرْشُدِ ؟ [2]

كما يقول دريد بن الصمة الذي تابع عشيرته بالرغم من رأيه المصيب في غزوة كلفته رأس أخيه «عبد الله» وإذا نشد رجال القبيلة العون من أقاربهم فسرعان ما يُلبَّى نداؤهم دون اهتمام بقيمة الأمر الذي يقدمون من أجله المعونة، فاذا أسيء التصرف فيها تحملوا مغبة ذلك طويلا قبل أن يعودوا إلى مكانتهم السالفة وإن انتفاعهم بالصداقة ليتضح بجلاء من هذه الأبيات التالية [3] :

---

(١) الحماسة ١٢٢ (٢) الحماسة ٢٢٨ .

(٣) الأبيات التي يذكرها المؤلف لقراد بن العيار وكان ابوه شيطانا من شياطين العرب وهو القائل :

ولا نرمي المؤون ولا المؤونا إذا خارت ضغابيس الرجال
[illegible] يتخلف الأمر المولى ونحتمل داء ذي الداء العضال
ونحلم لكل جماظري شموخ الأنف ينظر من معال

(المترجم)

فآخِ لِحَالِ السِّلْمِ مَنْ شِئْتَ وَاعلَمَنْ
بأنَّ سِوَى مَوْلاكَ فى الحَرْبِ أجْنَبُ
وَمَوْلاكَ مَوْلاكَ الذِى إن دعوْته
أجَابَكَ طَوْعاً وَالدِّمَاءِ تَصبَّبُ
فلاَ تخذُلِ المَوْلى وإنْ كانَ ظالماً
فإنَّ بِهِ تُثْأى الأمورُ وترأبُ [1]

وبالرغم من ذوقهم الجاف، فليس ثمت ما هو أخص في العرب الجاهليين والمسلمين على السواء من روح الفروسية والتضحية بالنفس لنجدة الصديق حتى ولو لم تكن هناك أية فائدة شخصية من وراء هذه التضحية، ويقدم لنا الشعر القديم البراهين الجمة على أنهم كانوا يمقتون نكث العهد الذى اتفق عليه بين التاجر وعميله، أو الضيف ومضيفه، وأدب العرب زاخر بالشواهد الجمة على صدق هذا الفضل، وأقرب مثال إلى ذلك قصة السموأل الذي يضرب به المثل في الوفاء فيقال هو «أوفى من السموأل» أو «وفاء كوفاء السموأل» ويقال إنه كان صاحب الحصن المعروف بالأبلق، واحتفر فيه بئرا عذبة، وكانت العرب تنزل به فيضيفها، وتمتار من حصنه. ويقال إن امرأ القيس لما سار إلى الشام يريد قيصر نزل على السموأل ومعه أدراع كانت لأبيه ورحل إلى الشام فوجه ملك الحيرة جيشاً تحت امرة الحرث بن ظالم ثم قال للسموأل «أتعرف هذا؟» قال نعم هذا بنى. قال: «أفتسلم ما قبلك أم أقتله؟» قال: «شأنك، فلست أخفر ذمتي ولا أسلم مال جارى» فضرب الحرث وسط الغلام، فقطعه قطعتين. وانصرف عنه فقال السموأل :

وَفيتُ بادرع الكندي إنى	إذا ما ذُمَّ أقوام وَفيت
وأوصى عادياً يوماً بالا	تهدِّم يا سَموأل ما بَنيت
بنى لى عادياً حِصناً حَصيناً	وماء كلما شئت استقيت [2]

كما أن المثل البدوى الأعلى للكرم والسخاء هو حاتم طيء الذي يروى عنه كثير من الأقاصيص المستطرفة، ويمكننا أن نعرف نظرة البدوى إلى هذا الموضوع مما ذكره الأغاني من أن أم حاتم وهي حبلى رأت في المنام من يقول لها: أغلام سميح يقال له

---

(١) الحماسة ٣٢٧ (طبعة فريتاج) سنة ١٨٢٦ .

(٢) الأغاني ج ١٩ ص ٩٩ .

حاتم أحب اليك أم عشرة أغلمة كالناس ، ليوث ساعة الباس ، ليسوا بأوغال ولا أنكاس ؟ فقالت حاتم ، فولدت حاتما ، فلما ترعرع جعل يخرج طعامه فان وجد من يأكله معه أكله ، وإن لم يجد طرحه ، فلما رأى أبوه أنه يهلك طعامه قال له : الحق بالابل . ووهب له جارية وفرساً وفلوها ، فلما أتى الابل طفق يبغى الناس لا يجدهم . ويأتى الطريق فلا يجد عليه أحداً ، فبينا هو كذلك إذ بصر بركب على الطريق فأتاهم فقالوا : يا فتى هل من قرى ؟ فقال تسألونى عن القرى وقد ترون الابل ؟ وكان الذين بهم عبيد بن الابرص وبشر بن حازم والنابغة الذبيانى ، وكانوا يريدون النعمان فنحر لهم ثلاثه من الابل فقال عبيد : « إنما أردنا القرى اللبن ، وكانت تكفينا بكرة إذا كنت لابد متكلفاً لنا شيئا » فقال حاتم « قد عرفت ولكننى رأيت وجوها مختلفة وألواناً متفرقة ، فظننت أن البلدان غير واحدة ، فأردت أن يذكر كل واحد منكم ما رأى اذا أتى قومه » فقالوا فيه أشعاراً امتدحوه بها وذكروا فضله فقال حاتم : « أردت أن أحسن اليكم فكان لكم على الفضل ، وأنا أعاهد الله أن أضرب عراقيب الابل عن آخرها أو تقسموها » ففعلوا ، فأصاب الرجل تسعة وتسعين بعيراً ومضوا على سفرهم إلى النعمان . وأن أبا حاتم سمع بما فعل فأتاه فقال له : يا أبت طوقتك بها طوق الحمامة مجد الدهر [1]

كما نسمع أن ابنة حاتم قد اقتيدت أسيرة أمام الرسول صلى الله عليه وسلم فقالت له : « يا محمد هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فان رأيت أن تخلى عنى فلا تشمت بى أحياء العرب فإنى بنت سيد قومى ؛ كان أبى يفك العانى ويحمى الذمار ويقرى الضيف ، ويشبع الجائع ، ويفرج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ، ولم يرد طالب حاجة قط : أنا بنت حاتم طى » أجابها الرسول « يا جارية هذه صفة المؤمن ، لو كان أبوك إسلامياً لترحمنا عنه . خلوا عنها فان أباها كان يحب مكارم الأخلاق [2] » .

وكان حاتم شاعراً معروفاً ، وفى ابياته التالية يخاطب زوجه ماوية :

أيا ابنة عبد الله وابنة مالك
ويا ابنة ذى البردين[1] والفرس الورد

إذا ما صنعتِ الزادَ فالتمسى لهُ
أكيلاً فإنى لستُ آكلهُ وحدى

أخاً طارقاً أو جارَ بيت فإننى
أخاف مذمّاتِ الأحاديث من بعدى

وإنى لعبدُ الضيف ما دام نازلاً
وما فىّ إلا تلك مِن شيمة العبدِ [2]

« يتبع » حسن حبشى

(١) الأغانى ج ١٦ ص ٩٨ س ٥ ـ ٢٢ .

(٢) الأغانى ج ١٦ ص ٩٧ س ١ ـ ٥ .

(٣) قام « F. Schulthess » بتبع ديوان حاتم وترجمه والتعليق عليه

(١) ذو البردين هو عامر بن احيمر بن بهدلة ، وحديث البردين أن الوفود اجتمعت عند المنذر بن ماء السماء فأخرج المنذر بردين يبلو الوفود وقال « ليقم اعز العرب قبيلة فليأخذهما » فقام عامر بن احيمر فأخذهما واتزر بأحدهما وارتدي بالآخر فقال له المنذر « انت اعز العرب قبيلة » قال « العز والعدد فى معد ثم فى نزار ثم فى مضر ثم فى خندف ثم فى تميم ثم فى سعد ثم فى كعب ثم فى عوف ثم فى بهدلة ، فمن انكر هذا فلينا فرني » فسكت الناس فقال المنذر « هذه عشيرتك كما تزعم فكيف أنت فى اهل بيتك ؟ وفى نفسك ؟ » قال « انا ابو عشرة واخو عشرة وخال عشرة وعم عشرة ، اما فى نفسي فشاهد العز شاهدى » ثم وضع قدمه وقال « من ازالها عن مكانها فله مائة من الابل » فلم يقم إليه احد من الحاضرين ، ففاز بالبردين فسمى بذى البردين » الحماسة » المترجم

(٢) الحماسة ٩٤٧

شخصية الزهاوى

بمناسبة مرور عام على وفاته

بقلم السيد احمد المغربى

لسنا نقرر شيئاً جديداً إذا قلنا بأن الزهاوى كان شخصية فذة متعددة النواحى ، تشهد على مدى نبوغه وعبقريته ، ذلك لأن الزهاوى لم يكن شاعراً مجدداً . دقيقَ الحس مفتوحَ القلب مُرهَف السمع ، متقد العاطفة ، ثائرَ القلب فحسب ، بل كان إلى هذا كله فيلسوفا تعمق فى دراسة الفلسفة ونفذ إلى ما وراء المادة والطبيعة ، فخبر أحوالها وتفهم مادق من أسرارها وخفاياها . وكان فى فلسفته متأثراً بأبى العلاء المعرى ، مترسماً خطاه ، متبعاً أساليبه ؛ ونظرة فى ملحمته « ثورة فى الجحيم » ومعارضتها برسالة الغفران ، تؤيد ماندهب إليه . ولا غروَ فان كلا من الشاعرين الفيلسوفين كان يسخرُ من التقاليد الموروثة ؛ ولماذا نذهب بعيداً والزهاوى نفسُه يعترف بتلمذته عليه وإعجابه به وهو يشكو إليه ما أصابه من ظلم وحيف :

وإن أكبرَ شىء فيك يُعجبنى ... سُخرية بتقاليد وعصيانُ

وأنكروا فيك إلحاداً وزندقة ... وعلّ ما أنكروه فيك بُهتانُ

إنى تتلمذتُ فى بيتى عليك وان ... أبلَتْ عظامَك أزمان وأزمانُ

أصابنى فى زمانى ما أصابك من ... حيف فما ردهذا الحيفَ إنسانُ

أما شعرُه فحر طليق، لايتقيد بالسلاسل والاغلال، ينزع فيه نحو الطبيعة المطلقة، مخترقا التقاليد التى ورثها الأبناء عن الآباء، خالياً من الصناعات اللفظية والخيالات الوهمية ، نزّاعاً إلى التجدد ، ثائراً على النظام ، متمردا على الأوهام

إذا الشعرلم يهززْك عند سماعه ... فليس خليقاً أن يقال له شعر

ما الشعر إلا شعورى جئت أعرضه ... فانقده نقدا شريفاً غير ذى خللِ

الشعرُ ما عاش دهرا بعد قائله ... وسار يجرى على الأفواه كالمثلِ

والشعرُ ما اهتز منه روحُ سامعه ... كمن تكهرب من سلك على غفَلِ

فيه إلى اليوم ماقلدتُ من أحد ... وما على غير نفسى فيه متكإ

أفعمته حكماً تعلو ، وأمثلة ... تحلو، فسُرَّ به شعب وصفق،

وقد أعود به إبان أنظمُه ... إذا تذكرت أيامى إلى الغز

فالزهاوى كان كالبحترى شديدَ الزهو والاعجاب بشعر لأنه مرآة حقيقية تنعكس عليه نفسُه الشفافة وقلبُه الطيب

إننى إن بكيت أبكى بشعرى ... ولقد أهديه إلى الأحقاب

كل بيت منه إذا عصروه ... دمعة ثرّة على الآداب

بين شعرى ، ومايجيش بصدرى ... من شعور وشائج الأنساب

أنا عنه محدث وهو عنى ... وكلانا فى القول غيرُ محاب

ooo

أما قريضى هذا ... فانه نفثـــاتُ

شعر له من شعورى ... والصدقِ مستمداتُ

وإنمـــا صقلته ... الخطوبُ والنكباتُ

والزهاوى ، بالرغم من إعجابه بشعره وإيمانه بأنه شا الأجيال وأن شعرَه خالد لا يموت يعترف بأنه لم يكن دا التحليق ، بل انه كثيرا ماكان يُسِف تبَعاً لحالته النفسية . . .

يا شعرُ أنت سماء ... أطير فيها بفكرى

طورا أُسِف وطورا ... أعلو كتحليق نسرِ

ان لم تصور شعورى ... فلست ياشعر شعرى

من بعد موتى بحين ... سيعلم القومُ قدرى

فقد وقفت حياتى ... لهم وأفنيتُ عمرى

ويكاد يخلو شعرُ الزهاوي من الغزلِ والتشبيب ، والتغ بمحاسن الحبيب ، وتبيان ما يقاسيه المحبون من ضروب الآ والاسقام ، ووصف ما يتكبدونه من عذاب الهجر ، و الحرمان ولَوْعة الأسى وحلاوة الوصل ، وأكبر الظن أ لم يُتَحْ له أن يدخل فى شبابه فى زمرة المحبين ، لانشغاله فى نث رسالته ، وأما مانقرؤه فى هذا السبيل فقلما يثيرُ اعجابنا أو يستد عطفنا ورحمتنا ، وإذا ماتغزل بغادته «ليلى» فانما كان يتغزل بوه

ولعلّ خيرَ قصائده الغرامية هى القصيدة التى يصف ف الحب . . .

أولُ الحب فى القلوب شرارُه ... تختفى تارة وتظهرُ تا

ثم يرقى ، حتى يكون سِراجاً ... لذويه ، فيه هدى وإنا

ثم يرقى ، حتى يكون مع الأيـــام ناراً حمراء ذاتَ حرا

ثم يرقى، حتى يكون اتوناً، بحراراته تذوبُ الحجاره
ثم يرقى، حتى يكون حريقاً فيه تَهلك لأهله وخساره
ثم يرقى، حتى يمثل بركا ناً يرى الناس من بعيد نارَه
ثم يرقى، حتى يكون جحيما، عن تفاصيلها تضيق العباره

فأنت تلاحظ أن هذه القصيدة نفسها تغلبُ عليها روح التحليل العلمي الفلسفي، وما الحبُ إلا عاطفة هوجاء صاخبة عاصفة، تتبرأ من العلم، وتهرب من الفلسفة!!

الزهاوي العالم

وناحية أخرى من شخصية الزهاوي تحتاج إلى عنايتنا واهتمامنا هي الناحية العلمية، فالزهاوي كان عالماً عبقرياً شُغِفَ بالابحاث العلمية، ولاسيما فيما يتعلق بالجاذبية. وله في هذا الصدد نظريات وآراء، إن لم تحُز موافقة العلماء المحدثين، فهي على الأقل تشهدُ على سعَة اطلاعه ومدى نبوغه، ذلك لأن الزهاوي لم ينشأ في بيئة علمية، ولم يتلق العلم في جامعات معروفة بل إن ما توصل اليه، كان نتيجة بحثه وتفكيره...

وفي وُسعنا أن نوجز رأي الزهاوي في الجاذبية، بأن المادة لا تجذب المادة، بل إن المادة تدفع المادة، وعلى هذا فان الحجر الذي يسقط على الأرض، لا يسقط لجذب الأرض إياه، بل لدفع الموادِ في السماء إلى الأرض.

وهو يعللُ أنواع الجاذبيات بناموس واحد، وهو دفعُ المادة للمادة بسبب الكترون‍اتها التي تشعها بكثرة. وهو يفسرُ بان الحرارة والنورَ في الشموس يتولدان من الأثير المنعكس عن مراكزها، بعد جريانها اليها، حفظاً للموازنة التي لا تزال تختلُ بطرد الالكترونات له من بين الجواهر في كل جسم، مبيناً أن هذا الأثير الجاري إلى الاجرام هو الذي يدفع الأجسام اليها: فيزعمُ العلماء هذا الدفعَ الخارجي جذباً داخلياً.

ثم يشرح الزهاوي بمبدئه سبب حدوثِ الزلازل، وحالات ذوات الأذناب فيميط اللثامَ عن توجه أذنابها إلى خلاف جهة الشمس وعن سبب ابتعادها عن الشمس بعد أن تدور حولها دورة ناقصة، وعن بقاء القوة، وعن حقيقة الشمس وهو ينكر انحلال الشموس إلى السدم منكراً تولدها منها.

فلسفة الزهاوي - تحليل « ثورة في الجحيم »

لعل فلسفة فقيدنا الكبير أظهر ما تكون في ملحمته الشهيرة « ثورة في الجحيم »، وهي تحفة فنية خالدة أثبت فيها آراءه الفلسفية ومعتقداته الدينية ونزعاته الاصلاحية، ولسنا نغالي إذ نقرر بأنها صورة حية صادقة للمبادىء السامية والمثل العليا التي وقف الزهاوي حياته على تحقيقها غير مكترث لما يعترض سبيله من العقبات، بل إن هذه العقبات ما كانت إلا لتزيد عزيمته مضاء وإيمانه إيمانا بتلكم الرسالة المقدسة التي عمل على نشرها بين قومه.

وتتلخص هذه الرسالة في التحرر من التقاليد البالية والعادات الموروثة التي وقفت سداً منيعا دون تقدم الشرق العربي فجعلته يرسف في أغلال من الأوهام وقيود من الأحلام، هي ثورة على القديم، وانتصار للجديد في مختلف نواحي الحياة... والثورة تتطلب الهدم.. والزهاوي كان ثائراً هداما

ثورة الزهاوي في الجحيم: —

يتخيل شاعرنا نفسه ميتا قد احتواه القبر وإذا بمنكر ونكير يوقظانه من رقاده الأبدي فيعود إليه اشعوره ويشاهد أمامه نسرين هائلين تتطاير النارُ من عيونهما وتبدو ملامح الشرَّة على وجهيهما. لكل منهما أنف غليظ وفم واسع وبأيديهما أفاع غلاظ تتلوى وتدور

فيخورُ عزمه وتهنُ قواه ثم ما يلبث أن يستعيدَ جرأته، ويتمالك جأشه ويجيبَ على الأسئلة التي كان يوجهها إليه الملكان، فيعترفُ بأنه لم يأتِ في حياته أمراً خطيرا فقد مارس الشعرَ دفاعا عن الحق وهو يفتخر بأنه كان يخالف جمهرة الناس في الرأي والمعتقد فيثيرُ عليه نقمتهم فيُمْعِنون في ازدرائه واضطهاده حتى إنهم ليَهمُّون مرة بقتله. مع أنه كان يعتقدُ بالوحي، ويؤمن بالأنبياء والمرسلين ويقوم بما يعرضه الاسلامُ على المؤمنين من صلاة وصوم وزكاة وحج وجهاد

ثم يسأله أحدُ الملكين عن الحشر والميزان والحساب والصراط والجنان والجحيم، فيجيبه الزهاوي بأنه كان في شبابه مؤمنا كل الايمان فاذا بالشكوك تهبُّ تلاحيه فيتعمقُ في العقائد

إلا نفسه لا تزالُ مضطربة حائرة ، فهو تارة مؤمن ، وهو تارة ملحد ، وهو يخشى الجحيم ولجج النار ، ويرجو من الله أن يرفق بعباده فانهم ضعاف لاحول لهم ولا صبر على العذاب .

وهو يبدى ارتيابه فى كل ما عجز العقلُ عن تأويله إلا أنه لا يشك مطلقا بوجود الله فهو فى الجبال والوديان ، فى البر والبحر ، وهو واجبُ الوجود وواهبُ الوجود قد استوى على عرشه فى السماء إن أراد شيئا قال له كن فيكون

فيتهمُه الملَكان بالالحاد ويُمضَّانِه بالمقامع ضرباً وهو يستعطفهما فلا يعطفان عليه ، وهو يسترحمهما فلا يرحمان دمعه الغزير وجسده الدامى بل يصبان فوق رأسه قطراناً فائراً شوى رأسَه ووجهه ويطيلان عذابه حتى يغيب وعيه فاذا ما عاد إليه صوابه ألفى نفسه موثق اليدين بحبال مفتولة لا يستطيع حراكا فيحمله الملكان ويطيران به فى الفضاء إلى الجنة حتى يزداد عذاب ضميره من حرمانه إياها ، ويبيح لهما رضوانُ دخول الجنة ، وهنا تتجلى روعة الزهاوى الشعرية فى الوصف الدقيق الجذاب فيحلق فى سماء الفن ما شاء له التحليق ، ويسمو فى عالم الخيال الرفيع سمواً ليس بعده من سمو : —

كلُّ ما يرغبونَ فيه مُباح   كلُّ ما يشتهونه ميسورُ
وعلى تلكم الأسرة حور   فى حُلى لهـا ونعمَ الحورُ
ليس يخشين فى المجانة عارا   وإن اهتز تحتهن السرير
وكأن الولدان حين يطوفو   ن على القوم لؤلؤ منثور
إئت ما شئته ولا تخش بأسا   لا حرام فيها ولا محظور
فاذا ما اشتهيت طيراً هوى من   غصنه مشوياً وجـاء يزور
وإذا مارمت أن يحول لك التين   دَجاجاً أتى إليك يطير
ليس فيها موت ولا موبقات   ليس فيها شمس ولا زمهرير
لا شتاء ولا خريف وصيف   أترى أن الأرض ليست تدور
ولقد رمتُ شربةً من نمير   فتيممته ففرَّ النمـيرُ
وكأنَّ الماء الذى شئت أن أشـربه   بابتعاده مأمور

ويتذكر بأنه مطرود ملعون ، لا يحق له أن يتمتع بما وُعِد به المؤمنون المتقون ، فيرجو من الملكين أن يعودا به من حيث أتيا لأن ما يشاهده من النعيم يثيرُ أشجانَه ويَهيجُ أحزانه فيخرجانه من الجنة ويشدان وثاقه ويقذفان به فى جوف الجحيم

وكأنَّ الجحيم حفرة بركا   ن عظـيم له فم مفغور
تدلعُ النارُ منه حمراءُ تلقى   حِمما راح كالشواظ يطـيرُ
وأشدُّ العذاب ماكان فى الها   وية السفلى حيث يطغى السعيرُ
الطعامُ الزقومُ فى كل يوم   والشراب اليحمومُ واليحمورُ
ولهم فيها كلَّ يوم عذابٌ   ولهم فيها كل يوم ثبورُ
ثم فيها عقاربُ وأفاعٍ   ثم فيها ضراغمٌ ونمورُ
وقدت نارُها تئزُ فتغلِى   أنفس فوق جمرها وتخورُ
ولقد كانت الوجوهُ من الصا   لين سـودا كأنهن القيرُ
ولقد كانت الملامحُ تخفى   ولقد كانت العيونُ تغورُ
لستُ انسى نيرانها مائجاتٍ   تتلظى كأنهُن بحورُ
ولقد صاح الخاطئون يريدو   ن نصيرا لهم وعز النصيرُ
وتساوى أشرافهم والادانى   وتساوى غنيهم والفقيرُ

ثم يعدد لنا الزهاوى العلماء والشعراء والأدباء والفلاسفة الذين رآهم فى الجحيم ، فيذكر لنا الفرزدق وجريرَ والأخطلَ والمتنبيَ والمعرىَ وبشاراً وأبا نواس والخيامَ ودنتى وشكسبيرَ وأمرأ القيس .

أما بشار فكان حانقاً ثائراً مهتاجا وأما أبو نواس فكان كئيباً حزيناً ، على أن الخيام لم يشغلهُ عذاب الجحيم عن التغنى بالخمرة بصوت شجى يطرب له أهل الجحيم

حبـذا خمرة تعين على النيـران حتى اذا ذكت لا تضيرُ
اسقنى خمرة لعلى بها أر   جع شيئاً ممـا سبتنى السعير
أنت لو كنت فى الجحيم بجنبى   لم ترعنى نار ولا زمهرير

وكان سقراط أثبت القوم جأشاً يلق خطبه على أصحابه واخدانه وعلى مقربة منه أفلاطون وارسطو وكوبرنيك الذى أثبت بان الأرض تدور حول الشمس ، ودروين صاحب نظرية النشوء والارتقاء ، وهيكل وبخنر وسبنسر ورنان وروسو وفولتير وزرادشت ومزدك والكندى وابن سينا وابن رشد والحلاج وغيرهم كثيرون

لم أشاهد بعد التلفت فيها   جاهلا ليس عنده تفكير
انما مثوى الجاهلين جنان   شاهقات القصور فيها الحور

وكأن أهل الجحيم قد شعروا أخيرا بما يحيق بهم من العسف والحيف فعقدوا النية على الثورة لتقويض دعائم الاستبداد فاخترعوا الآلات المدمرة والأدوات الهدامة واخترق صفوف الملايين أحد الشباب ووقف فيهم خطيباً يبين لهم بصوت جهورى

زعزع عاصف ما يقاسونه من الآلام، ويدعوهم إلى مقاومة القوة الغاشمة بالقوة الغاشمة دفاعاً عن حقوقهم المهضومة وذوداً عن كرامتهم المثلومة. فهاج أهل الجحيم وماجوا وعلا منهم الضجيج، فاطفأوا جمرة الجحيم وزحفوا ثائرين هائجين ونشبت حرب ضروس بينهم وبين زبانية النار عاضد فيها الشياطين أهل الجحيم وانجدت الملائكة زبانية جهنم ورموا بالصواعق والرياح والأعصار، والبروق والرعد، والبحار والجبال والبراكين. وكانت الحرب بادىء ذى بدء سجالا. الا انها اسفرت فى النهاية عن انتصار أهل الجحيم، فطاروا على ظهور الشياطين يطلبون الجنان، فاحتلوها وطردوا منها البله المساكين

ومن الانصاف للعلم والحقيقة قبل الانصاف للزهاوى أن نقرر هنا بأن الزهاوى لم يقصد من ثورته فى الجحيم الشكَّ بوجود الله عز وجل كما ظن السوادُ الأعظم من بنى قومه وإنما كان مسلماً قوى الايمان إلى أقصى حدود الايمان والأمثلة على صحة ما نذهبُ اليه وافرة نوردُ منها ما يتسع له النطاق الذى حددناه لهذه الكلمة :

قال ماذا دينك الذى كنت فى الدنيا ... عليه وأنت شيخ كبير
قلت : كان الاسلام دينى فيها ... وهو دين بالاحترام جدير
قال من ذا الذى عبدتَ فقلت ... الله ربى وهو السميع البصير
مذهبى وحدة الوجود فلا كا ... ئن غير الله القديم القدير
أنا هذا . فلا أبالى إذا ما ... اجمعت ثلة على تكفيرى
أهل عصرى لا يفقهون حديثى ... حبذا لو أتيت بعد عصور
أنا ما كفرت بكل عمرى ... بالكتاب المنزل
أنا لم أزل أشدو ببعثة ... النبى المرسل
يسائلنى عن مذهبى وعقيدتى ... فريق من الأشياخ ما أنا منهم
فقلت لهم أما السؤال فبارد ... وأما جوابى فهو أنى مسلم
ولكننى ما كنت يوماً مقلداً ... يرى أن حكم العقل فى الدين مأثم
فما القلب منى بالسخافات مولع ... ولا الرأس منى بالخرافات مفعم
لا درَّ درّ الجاهلين فانهم ... يرمون بالالحاد من لا يلحد
إن كان من يبدى الحقيقة ملحداً ... فليشهد الثقلان أنىَّ ملحد
أحمد البارى الذى يتساوى ... عنده إيمانى به وجحودى
كلنا مؤمن يسبح للرحمن ... فى ظل عرشه الممدود
إننى ما سجدت يوما لغير الله ... فالله وحده معبودى

(البقية فى العدد القادم) **أحمد المغربى**

٥ - دعابة الجاحظ

للأديب محمد فهمى عبد اللطيف

... والآن فلننظر إلى الجاحظ فى ضحكه. ولقد كان الجاحظ ضحوكا طلقا تستخفه النادرة فيقهقه ملء شدقيه، ويقصد إلى الأضحاك فيبلغ من ذلك غايته. وإنك لتجده فى ضحكه وإضحاكه - كما كان فى تهكمه وسخره - مطبوعا موهوبا خفيف الروح، لطيف الاشارة، ظريف الأداء، طريف المقصد، فهو فى إضحاكه يسلك السبيل اللاحب إلى القلب، ويصل إلى قرارة النفس فى ملاطفة وسهولة. وخفة وبراعة، وإنه ليهز المشاعر بالنادرة يبتدعها، ويشفى القلب بالملحة يرسلها، ولقد تصرمت السنون وخلت القرون وما زالت نوادر الرجل ومضاحيكه فى بطون الكتب إذا ما وقع عليها القارىء فلا يستطيع الامساك مهما كان فى وقاره، ومهما اعتورها بالنظر ورددها فى اللسان. وعلى أن النادرة لا يكون لها فى الاضحاك مكتوبة كمثل ما يكون لها إذا ما جرت تحت المعاينة، فان المكتوب لا يصور لك كل شىء، ولا يأتى لك على كنهه وعلى حدوده وحقائقه (1)، وأما إذا ما أخذ الرجل فى الضحك فأنه ينطلق فى غير احتشام، ويجرى فى الشوط إلى أبعد غاية. حدث عن نفسه قال: صحبنى محفوظ النقاش من مسجد الجامع ليلا، فلما صرت قرب منزله وكان أقرب إلى المسجد من منزلى، سألنى أن أبيت عنده، وقال أين تذهب فى هذا المطر والبرد، ومنزلى منزلك، وأنت فى ظلمة وليس معك نار، وعندى لبأ لم ير الناس مثله، وتمر ناهيك به جودة، فملت معه فأبطأ ساعة ثم جاءنى بجام لبأ وطبق تمر، فلما مددت قال يا أبا عثمان: إنه لبأ وبه غلظة، وهو الليل وركوده، ثم ليلة مطر ورطوبة، وأنت رجل قد طعنت فى السن، ولم تزل تشكو من الفالج طرفا، وما زال الغليل يسرع إليك، وأنت فى الأصل لستَ بصاحب عشاء. فإن أكلت اللبأ ولم تبالغ، كنت لا آكلا ولا تاركا وحرشت طباعك، ثم قطعت الأكل

(1) البخلاء ص ٤٧ ط الساسى

أشهى ماكان إليك ، وإن بالغت بتنا فى ليلة سوء من الاهتمام بأمرك ، ولم نعد لك نبيذاً ولا عسلا ، وانما قلت هذا الكلام لئلا تقول غداً كان وكان ، والله قد وقعت بين نابى الأسد ، لأنى لو لم أجئك به وقد ذكرته لك ، قلت : بخل به وبدا له فيه ، وإن جئت به ولم أحذرك منه ولم أذكر لك كل ما عليك فيه قلت لم يشفق على ولم ينصح ، فقد برئت اليك من الأمرين جميعا ، وإن شئت فأكلة وموتة ! وإن شئت فبعض الاحتمال ونوم على سلامة !! فما ضحكت قط كضحكى تلك الليلة ، ولقد أكلته جميعاً فما هضمه إلا الضحك والنشاط والسرور فيما أظن ، ولو كان معى من يفهم طيب ما تكلم به لأتى على الضحك أو لقضى على ولكن ضحك من كان وحده لا يكون على شطر مشاركة الأصحاب [1]

فانظر يارعاك الله إلى أى حد كان يغرق الجاحظ فى الضحك والمرح ، وإلى أى حد كانت النادرة تستخف وقاره ، وتهيج نشاطه ، وتجلب له كل هذا من البِشر والسرور . وماذا تقول فى رجل لو وجد من يساجله الضحك ويجاذبه السرور لما أمن على نفسه الموت سروراً وضحكا ؟! على أن ما قاله صاحبه لن يكن ليحمل على كل هذا ولا يدعو إليه ، فياليت شعرى أكان الجاحظ يعيش فى الحياة بقلب فارغ من الهموم والمشاغل ، بعيد من الأحداث والأوصاب ؟ أم كان ذلك الرجل يضحك عن فلسفة ورأى ، فهو يعتقد أن هذه الحياة الفاجرة أحقر وأهون من أن يسفح الدمع فى الحرص عليها ، وأن يسجن القلب فى سبيل الودادة إليها ، وأن يتكلف لها ما يتكلفه بعض الناس من التزمت والوقار ، وكزازة النفس ، وضيق العطن ، أولئك الذين ابتعدوا من المرح لأنهم زعموه ينافى المروءة ، وحرموا أنفسهم نعمة الضحك لأنهم استقبحوه بالوقار !! قال الجاحظ ولو كان الضحك قبيحا من الضاحك وقبيحا من المضحك ، لما قيل للزهرة والحبرة والحلى والقصر المبنى كأنه يضحك ضحكا وقد قال الله جل ذكره : وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا ، فوضع الضحك بحذاء الحياة ، ووضع البكاء بحذاء الموت ، والله تعالى لا يضيف إلى نفسه القبيح . ولا يمن على خلقه بالنقص ، وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيما . ومن مصلحة الطباع كبيراً ، وهو شىء فى أصل الطباع وفى أساس التركيب ، لأن الضحك أول خير يظهر من الصبى وقد تطيب نفسه ، وعليه ينبت شحمه ويكثر دمه الذى هو علة سروره ومادة قوته . ولفضل خصال الضحك عند العرب تسمى أولادها بالضحاك وببسام . وبطاق وبطليق . وقد ضحك النبى صلى الله عليه وسلم وفرح ، وضحك الصالحون وفرحوا ؛ وإذا مدحوا قالوا هو ضحوك السن ، بسام العشيات وذو أريحية واهتزاز ؛ وإذا ذموا قالوا هو عبوس وهو كالح ، وهو قطوب ، وهو شتيم المحيا . وهو مكفهر أبداً وهو كريه وبغيض الوجه ، وكأنما وجهه بالخل منضوح [1] .

فالجاحظ إنما كان يقصد إلى الضحك والأضحاك : لأنه ذلك فى رأيه « يكون موقعه من سرور النفس عظيما ، ومن مصلحة الطباع كبيراً ، وهو شىء فى أصل الطباع وفى أساس التركيب ، وهو أول خير يظهر من الصبى » ، وإذن فليأخذ الجاحظ فى الضحك والاضحاك ما استطاع حتى يغتنم هذا الخير فيسر نفسه ويصلح طباعه ، وما أحوجه إلى ذلك . ومن ذا الذى لا يضحك على هذا الشرط ، ويسبق إلى الأضحاك إذا ما صح عنده هذا الاعتقاد الذى كان يعتقده الجاحظ ؟ وكان الله قد أراد أن يسعد الرجل فى هذه الغمرة ، وأن يعده لأداء هذه المهمة ، فبرأه مرح النفس أو على حد تعبيره ـ ذو أريحية واهتزاز كما برأه فى منظرجهم ، وشكل هو المثل السائر فى القبح والدمامة فكان الرجل لايتورع ولا يتحرج من أن يجعل من ذلك مصدر ضحك وإضحاك ، فيتفكه بقبحه ودمامته ، ويتندر بما فيه من شذوذ الوضع وجهامة الشكل ، بل لقد كان يحلو له ذلك ويتعمد ويسوقه إلى الناس وهو قرير العين . طيب الخاطر ، حتى لتحسب فى تلك الناحية ممثلا هزلياً وقف على الخشبة ليضحك الجمهور

(1) النجلاء ص ١٠٢ وما بعدها

(1) البخلاء ص ٥

ويدلهم على مواضع الدمامة فى شكله ، والنقص فى خلقته وماذا ترى فى رجل يحدث عن نفسه بهذه الصراحة فيقول : ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده . فلما رآنى استبشع منظرى فأمر لى بعشرة آلاف درهم وصرفنى !!

وقال فيما قال عن نفسه : ما غلبنى أحد قط إلا رجل وامرأة فأما الرجل فأنى كنت مجتازاً فى بعض الطريق ، فاذا برجل قصير بطين كبير الهامة طويل اللحية مؤتزر بمئزر وبيده مشط يمشطها ، فقلت فى نفسى : رجل قصير بطين ألحى ! فاستزريته فقلت : أيها الشيخ : لقد قلت فيك شعراً !! فترك المشط من يده وقال : قل فقلت :

كأنك صعوة فى أصل حش أصاب الحش طش بعدرش[1]

فقال اسمع جواب ما قلت ، فقلت هات ! فقال :

كأنك جندب فى ذيل كبش تدلدل هكذا والكبش يمشى[2]

وأما المرأة فأنى كنت مجتازاً فى بعض الطريق، فاذا أنا بامرأتين رأيت إحداهما فى العسكر وكانت طويلة القامة ، وكنت على طعام فأردت أن أمازحها فقلت لها : انزلى كلى معنا ! فقالت : إصعد أنت حتى ترى الدنيا ! ! فهو يعرض بطولها وهى تعرض بقصره

وأما الأخرى فأنها أتتنى وأنا على باب دارى فقالت : لى إليك حاجة وأريد أن تمشى معى ! فقمت معها الى أن أتت بى الى صائغ يهودى وقالت له : مثل هذا !! ثم تركتنى وانصرفت ، فسألت الصائغ عن قولها فقال : انها أتت الىّ بفص وأمرتنى أن أنقش لها عليه صورة شيطان ! فقلت لها ما رأيت الشيطان حتى يمكن أن أصوره ، فأتت بك وقالت ما سمعت !!

وقد لا يخجل من أن يتندر على نفسه بالبلاهة وبالغفلة ، ومن ذلك ما ذكره عن نفسه إذ قال : جلست إلى المرآة وقد أمسكت بالمقراض أريد أن أقرض من لحيتى ما زاد على القبضة من تحت ولكنى نسيت فقرضت ما فوق القبضة ، وتلك من اختراعات الجاحظ وتلفيقاته . وللرجل من أمثال هذه كثير ، وكلها من هذا الطراز الذى يطل منه الجاحظ صريحاً فى الضحك على نفسه ، جريئاً فى الاضحاك بما يمسه فى سمته ، فلا يخجله أن يتحدث عن بشاعة منظره الذى أفزع المتوكل فصرفه عن تأديب أولاده ، وجعل المرأة تقدمه إلى الصائغ على أنه شيطان ، والأخرى تعرض بقصره ، والثالثة تخجله بالنادرة ، والشيخ يمثله بالجندب فى ذيل الكبش . . . فأما إذا ما أخذ الرجل فى الضحك على غيره من الاخوان والأصدقاء ، والحمقى والنوكى والموسومين والمدخولين ، وأهل العىّ والحصر والتجلاء والأطلة ، والمكدين وأصحاب التطفيل ، فانه يكون أصرح وأجرأ ، وأحلى ، وأملح ، وقد عنى الرجل بأخبارهم واهتمّ بالحديث عنهم ، وما أعرف له كتابا يخلو من ذكرهم ، وإذا كان من الاطالة أن نسرد ما للرجل فى كل ذلك فلا بأس من أن نسرد بعض ما له فى مقال آت

(له تابع) **محمد فهمى عبد اللطيف**

---

(١) الصعوة عصفورة صغيرة كثيرة الصفير والحش بيت الخلاء والطش كثير المطر والرش قليله (٢) الجندب الجرادة

الى شباب العرب

للشاعر القروى

ثبْ يا شباب العُرب ثب مشث الشعوب وأنت نائم
ثبْ فالعلى نار تأجج فى العروق وفى العزائم
وردِ المجرّة بالضر اغم تحت أجنحة القشاعم
وأردد مجاهل هـــذه الـ أكوان واضحة المعـــالم

٥٥٥

حطمت قيدك فانطلق فى حلبـــة العمل العظيم
واستغن بالعز الطر يف عن التغنى بالقديم
إن لم تجلّ عن الرميم بنهضة تحيى الرميم
ما أنتَ بالخلف الكريم لذلك السلف الكريم

٥٥٥

اليوم تجنى ما سقيـــت بذوره العلق الثمينا
فاحرص على ما قد وجد ت بمن فقدت بميسلونا
حاشاك بعد بزوغ مجـــدك إن تخون وان تهونا
ما نلت الاستقلال إلا بعـد أن ذقتَ المنونا

٥٥٥

الناس حولك للوثو ب إذا غفت عين انتباهك
يتراقصون على أنينك شاربين كؤوس آمك
لم تغنك الصلوات ان سطت الذئاب على شياهك
الحرب من سنن الحيا ةِ أأنت أحكم من إلهك

٥٥٥

ليس الفتى العربى بالذ ئبالخطوف ولاالخروف
لكنه البطلُ الشريـــفالقادر البطلَ الشريف
نحن الاولى نخروا الأنا م بكل جبّار لطيف
لا يستبد بغـير طا غٍ مستبدّ بالضعيف

٥٥٥

ما ولت فى بدء الجها د فلا تقـل بطلَ الجهاد
اليوم يومك للسبا ق اليوم يومك ياجواد

فانهـد إلى حوماته لا بالمهندة الحـداد
بل بالتساهل والمحبّـــة والوئام والاتحـاد

٥٥٥

عش للعروبة هاتفاً بحياتهـا ودوامهـــا
وامدد يمين الحب يا لبنانهـــا لشآمها
أنظر إلى آثارها تنبئك عن أيامها
هـذا التراث يمتُّ معـــظمه إلى إسلامها

٥٥٥

مالى أراك برئت من دمها ومن أوطانها
أنسيت أنك ليث نهـــضتها ونسر بيانها
أتقول لست من الشآ م وأنت فى أحضانها
أتهـد ناطحة النجو مِ وأنت من أركانها

٥٥٥

إن فاتك الرأى السديـــد فخذ برأى ذوى العقول
ودعِ الغبيَّ يقول ما شاء التعصب أن يقول
الحق بشاعرك الأبى وفيلسوفك يا جهول
من سار خلف «الديك» يعـــلم أين آخرة الوصول

٥٥٥

هلا ذكرت فتوحهم بالمشرفيّـــة والقلم
أيام هـزوا للعلى والعلم فى الغرب العلم
جمعوا الذكاء إلى الوفا ء إلى الاباء إلى الشمم
قهروا العدى نشروا الهدى رضعوا الندى بدعوا الكرم

٥٥٥

قل لى بربك هـل ربحـــت من الغريب سوى المحن
وفروغ جيبك واليدين وقتل روحك والبدن
كانت تدر الشهد أر ضك والسلافة واللبن
فغدا الوقوف على ربو عك كالوقوف على الدمن

٥٥٥

سيجرّ عزرائيل فو ق ربوعهم ذيل العفاء
ويطير الشيطان ما اخـــترعوا بما اخترعوا هباء
ويطهر الأجواء من عقبانهم نسر القضاء
من كان يأباه الجحـــيم فكيف ترضاه السماء

٥٥٥

حديث الأزهار

للكاتب الفرنسي ألفونس كار

— ٣ —

زهرة التذكار

وسقطت زهرة من طرتها ، فانحنى ليرفعها عن الأرض .

استوقفته بنغمة من صوتها الشجى قائلة : — دعها ، دع الزهرة التى صدمها الهواء ، وخذ هذه ، بدلا عنها .

أخرجتنى من بين نهديها وأهدتنى لحبيبها .

° ° °

سمعته ينشد وهو يضمنى إلى صدره : أيتها الزهرة المحبوبة ابقى معى إلى الأبد ، أنت زهرة التذكار .

وذهب بى إلى غرفته المنفردة ، حيث بللتنى بكأس البلور .

كان ينظر إلى ، فيراها . ويهمس فى وريقاتى قائلا : — يازهرة محبوبتى ، ما أقوى عبيرك وما أشد فعله فى قلبى !

لقد لمستك بيدها وتركت أنفاسها تهب على وريقاتك ، لو فقدتك بين آلاف الأزهار لما ضل عنك تذكارى .

° ° °

شربت كثيراً من الكأس البلورية فلم أرتو ، ذبلت ككل شىء ينفصل عن أصله ، علا الاصفرار تويجى فانحنيت على نفسى ، رأيته يتقدم إلى والدمعة في عينيه ، يحدجنى بنظراته الرائعة ، ثم قال : — ما أوجع احتضارك على مشهد منى يازهرة التذكار ! سيسطو عليك ملك الموت ولكنه لن يدنو من روحك الخالدة روح التذكار الدائم . تعالى لأدفنك فى القبر المقدس حيث دفنت آمالى فيضمك وحياتى كفن واحد .

أخذنى إلى خزانته وألقانى بهدوء بين أكفان الطروس ، بين رسائل من يهوى .

° ° °

وكان مقرى بين النار الكامنة فى الكلمات ، والكلمات صامتة فى الحروف السوداء .

لقد زارنى مراراً فى قبرى ، فكنت عاكساً أميناً لخياله ، تنطبع نضارة تذكاره على اصفرار وريقاتى ، ويهب عبير غرامه من جفاف عروقى ، فيرانى صبيه رائعة الشباب تنفخ الفتوة فى كهولة قلبه .

° ° °

وما عدت أراه إلا من حين إلى حين .

ومنذ أيام أخذ كفنى دون أن يلقى على كلماته نظرة واحدة ودفع به الى اللهيب . ثم لحت لعينيه جافة صفراء فحدجنى ملياً كأنه يفتش على ذكر لايهتدى اليه .

أمسكنى بأطراف أنامله وتقدم يبطء إلى النافذة .

شعرت بمصادمة الهواء لوريقاتى النحيلة فارتجفت .

أنكر جميلى وأى إنسان ليس جاحداً ؟

أنا الزهرة المأخوذة من بين نهديكن ، أنا زهرة التذكار ؛ لفح الهواء وريقاتى الجافة فتبددت فى الفضاء .

(ف . ف)

شيد على أنقاضها مدنيّة الخلق المتين
فلأنت بالتمدين دو ن الناس أجمهم قمين
مثل المهند أن يهز فان يهزّ بك الحنين
فالغصن ، فالنسمات ، فالورقاء ، فالماء المعين

° ° °

واهاً على عهد السذاجة والحماقات العِذابِ
ما ضرّ لو غادرتهن وطرت ، وحدك ياشبابى
خير الصحاب تركتنى وتركت لى شر الصحاب
بعد الأمانى العذا ب أمر ألوان العذاب

° ° °

عش للتفاؤل يا شبا ب وللبشاشة والخلابه
عش للخيال وللجما ل وللغرام وللصبابه
عش للطموح وللجها د وللمناعة وللصلابه
قيل المهابة للشيو خ وأنت أجدر بالمهابة

° ° °

سر فى فتوح الخالدين وطرْ الى أقصى مطارك
الكهرباء على يميـنك والبخار على يسارك
طرْ لابساً إكليل غا رك رافعاً علم انتصارك
رحب الفضاء فناء دا رك والعوالم باب دارك

الشاعر القروى

من العصبة الاندلسية

أقصوصة

الخداع

مترجمة عن الفرنسية

بقلم الأستاذ فليكس فارس

بين الوهاد والجبال أمام روعة الطبيعة لم تدنسها يد الانسان كانت العساكر الفرنسية والانكليزية تتحين الفرصة للهجوم، وكل منها يتوقع الفوز بوفرة عَدده وضخامة عُدده. وكان قائد الحملة الفرنسوية شيخاً بلته الأيام فما زادته إلا صلابة وعزماً، وقد ملىء تذكاره بالوقائع الكبرى وعقد له النصر ألوية وسجل له التاريخ صفحات المجد خالدة.

حمى وطيس الحرب فتوالت الهجمات وتفجرت الدماء على تلك الأرض الجرداء مثمرة الترمل والثكل واليتم. وما لبث أن أحاط الانكليز بأعدائهم إحاطة السوار بالمعصم فكادت تدور على هؤلاء الدائرة لو لم يتدارك القائد الشيخ خطورة الموقف بعزمه وإقدامه

وكان هذا القائد ممتطياً صهوة جواده يفكر في إيجاد وسيلة تمكنه من اختراق صفوف الأعداء. فشاهد أحد أتباعه يتقدم إليه بخطوات ثابتة. وعندما وصل العادم إلى مقربة منه عرف أنه هنري الذي تبناه بعد أن سقط والده قتيلا في موقعة كان هو قائدها أيام الصبا. وحاط القائد هذا الطفل بكل رعايته حتى بلغ أشده فاتخذه معيناً له، وكان يستصحبه في جميع معاركه وكان هذا الفتى الجميل قد عاد مرات من الحروب مثخناً بالجراح فضمدتها يد قرينة القائد الشيخ وهي فتاة في ريعان الصبا كانت تزوجته بالرغم من تقدمه في السن وبالرغم من أقوال الناس وتكهناتهم

وحدق القائد بفتاه معجباً بجمال طلعته وبسالته وقال له: — لاخلاص لنا من هذا المازق إذا نحن لم نخترق دائرة الأعداء المحيطة بنا، فعليك أن تقوم بهذا العمل، اختر من تشاء من الشجعان وسر في مقدمتهم. فالواجب يدعوك إلى التضحية من أجل الوطن والمليك

وانتضى الفتى سيفه ونادى: ليحي الملك

فرددت نداءه فرقة من الجند لمعت سيوفهم في الفضاء وتقدموا منضمين الى قائدهم الجديد منتظرين اشارة الهجوم

وارتمى هنري بين يدي مربيه يضمه الى صدره قبل أن يقتحم المخاطرة الكبرى، فتمازج دمعا الفتى والشيخ وكل منهما موقن بأن لا لقاء بعد هذا الوداع

وفي تلك اللحظة شق الصفوف فارس آت من باريس، ترجل عن فرسه وقد علاه الغبار وأضناه التعب وتقدم الى القائد الشيخ مقدما له رزمة رسائل مختومة بالشمع الأحمر حاملة عنوان هنري باحرف منمقة، ولم يكد يفض القائد الختم ووقعت أبصاره على السطور حتى جمد الدم في عروقه وارتسمت على وجهه أمارات حزن عميق وحدق في ربيبه مليا وقد جفت دموعه فجأة بين جفنيه

وكانت الرسائل من عقيلة القائد الشيخ موجهة الى هنري. في كل كلمة منها شرارة شوق وفي كل سطر شعلة غرام وجنون

وأدار الشيخ وجهه عن ربيبه وسرح أبصاره على ميدان المعركة كأنه يفتش عن هاوية تنفتح فيه فيذهب اليها ببقية حنان كانت تختلج في قلبه لربيبه وبشبح غرام نورت أزهاره على غصن هرم ففاحت منها رائحة القبور

مزق الرسائل الواحدة تلو الأخرى على مهل وهو مصغ من أعماق روحه الى هتفة ما كان يعلم أمها أم من روح الوجود مصدرها: — ويل للعقوق، ويل للخائنة

وانتبه الشيخ كمن يستفيق من حلم وقال لهنري: — ابق هنا وقم مقامي، فلسوف أقود مخترق الصفوف بنفسي

فصاح الفتى: — ولم تريد حرماني هذا الشرف، يا أبي؟

فادار القائد رأسه ليخفي ما ارتسم عليه من الحنق والألم وقال بهدوء: — ذلك أمر تلقيته الآن

واختنق صوته، فاندفع نحو الخطوط وتبعته فرقة المستبسلين وعلا دخان البارود وملأ الفضاء أزيز الرصاص، فلم يسمع أحد ما هتف به القائد الشيخ وهو يرتمي قتيلا عن صهوة جواده.

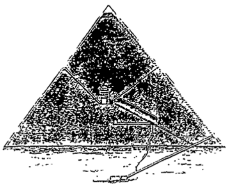


الفن المصرى

١ – العمارة

للدكتور احمد موسى

دفع الدين والاخلاص له إلى الفن الذى بدأ به المصريون مبكرين. نظروا إلى السماء فقدسوها وإلى الشمس فعبدوها ، وإلى النيل فعرفوا أنه مصدر حياتهم فجعلوا منه إلها للخير ، ورأينا فيما سبق كيف كانت عبادة المصريين لمعبوداتهم ، وكيف دفع بهم الدين إلى حضارة هى مثار الاعجاب للدارس الباحث على مر القرون



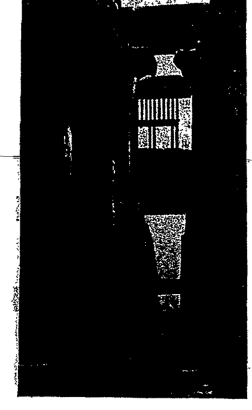
(ش ١) قطاع رأسى للهرم الأكبر بالجيزة يبين المدخل والمسالك والحجرات والمنافذ

وإذا كانت قواعد تاريخ الفن تشير بتقسيم التراث المجيد إلى أقسام معينة ؛ فذلك لكى نحسن الفهم فيتم التقدير الذى يؤدى بنا إلى الاستمتاع بجمال الوجود ، فضلا عما نستطيع وضعه من أصول نتمكن بها من ربط نهضتنا الحالية بالحضارة القديمة ، فى انسجام وبغير خروج على الذوق العام .

بنى المصريون المقابر والأهرامات لثقتهم بعودة الحياة إلى الجسد بعد الموت ، وبعد حساب عسير، ولن تتمتع بقسط من النعيم إلا بقدر ما قدمت من عبادة وتقديس للآلهة ، فدفعهم هذا إلى تشييد المعابد التى لم يكن مستطاعا لهم فى غيرها القيام بالواجب الأسمى

فكان بناء المقابر والمعابد أول أقسام الفن ، وأجدرها بالدرس لمن يريد معرفة الفن المصرى من بناء ونحت وتصوير ، والوقوف على ما فيها جميعا من جمال أدى إليه الشعور بالوجدان وسمو المشاعر ونبل العاطفة

استغرق تاريخ مصر عدة آلاف من السنين ، وشمل أسرات بلغت الإحدى وثلاثين ، ولذلك ينبغى تقسيم عصر البناء (والفن من نحت وتصوير) إلى أقسام أولها عصر المملكة القديمة ، حيث تم تشييد الأهرامات بالجيزة وغيرها . ثم عصر المملكة الوسطى وبعدها المملكة الحديثة



(ش ٢) صالة فى معبد الكرنك

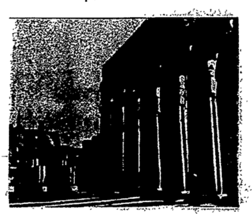
ويرى الدارس للأهرام سر العظمة البنائية متجليا فيها ، كما يلاحظ الأبهة فى إخراجها والدقة المتناهية فى تكوينها العام ، بجانب ما يستطيع الوصول إليه بالفحص والتحليل من معرفة بعض ما بلغه المصريون فى علمى الهندسة والرياضيات ، ولا غرابة إذا اعتبر العلماء المعاصرون ، الاهرام أعظم نموذج عملى لعلم الهندسة المعمارية إطلاقا

ولم تدم مرحلة بناء الاهرام طويلا ، بل إنها لم تكن إلا فى عهد الأسرات الأولى فقط ، أما المعابد فانها بدأت معها ولكنها ظلت تشيد طوال عصور الحضارة المصرية القديمة

وأهم الأهرام ثلاثة ، أولها وأعظمها هرم خوفو البالغ ارتفاعه حالا ١٣٧ مترا وطول ضلع قاعدته ٢٢٧ مترا ، كله من الأحجار الضخمة التى استحضرت من محاجر طرة والمقطم ومن محاجر أسوان أيضا . ويبلغ حجمه الهائل حوالى مليونين وثلث مليون من الأمتار المكعبة ، له مسالك للسير فى داخله والوصول إلى حجرات الدفن ، كما أن له منافذ للهواء

أما هرما خفرع ومنقرع فهما أصغر قياسا وحجما ، كما أنهما نسبيا أقل أهمية من الهرم الأكبر . وتوجد بمصر أهرامات كثيرة فى أبى رواش وأبى صير وسقارة ودهشور وميدوم وغير ذلك ، لبعضها مميزات واضحة منها التدرج (كهرم سقارة المدرج) ومنها عدم استقامة أضلاع الزوايا (كهرم ميدوم) الذى كان فى الأصل مكونا من سبع طبقات بعضها فوق بعض لم يبق منها إلى الآن سوى ثلاث . كل هذه الأهرام كانت مقابر للملوك . ولعل ما تشعر به النفس من رهبة أثناء دخول الهرم الأكبر خير دليل على مبالغة الملوك فى الحرص على أجسادهم بعد موتهم الذى نظروا إليه بكل اعتبار وبكل تقدير

أما المعابد فقد اختلفت عن الأهرام اختلافا ظاهرا واختلافا



(ش ٥) طريق الاعمدة بمعبد الأقصر



(ش ٤) معبد الدير البحرى بطيبة

معنويا ، فبينما كانت الاهرام مقابر للملوك ، كانت المعابد أماكن للعبادة . فضلا عن اختلاف الوضع والتصميم

والناظر إلى المعابد المصرية إجمالا يرى أنها تنقسم من ناحية طراز أعمدتها التى هى أبرز ما يلفت نظر الزائر لها إلى قسمين أولهما المعابد ذات الأعمدة الشاملة لقنوات سارت مع طولها ، من قاعدتها إلى نهايتها ، حيث تحمل السقف مع تجردها من التيجان وثانيهما ذات أعمدة لها حينا قنوات وحينا آخر خالية منها ، علاوة على وجود التيجان فى أعلاها . أما التيجان نفسها فكانت على هيئة زهر اللوتس أو زهرة البردى أو على شكل نهاية النخل (العمود النخلى) أو كانت أحيانا عبارة عن مكعب على نهاية العمود الأسطوانى حفرت على كل وجه من أوجهه الاربعة رؤوس نساء (ش ٦) وبمقارنة المعابد المصرية المهمة بعضها ببعض ، يمكن أن نعرف أن عصر نهضة فن بنائها انحصر فى عهد المملكة الحديثة (١٥٥٥ - ٧١٢ ق . م .) وأثناء حكم البطالسة وقياصرة الرومان (٣٣٢ ق . م . وما بعدها)

والدارس لتصميماتها يرى أنها شابهت إلى حد بعيد قصور الملوك والمساكن الخاصة ؛ فالمدخل العام للمعبد أنشىء بحيث يؤدى دائما إلى فناء فسيح غير مسقوف ، وحوار ثلاثة جوانب منه وضعت أعمدة



(ش ٥) معبد رمسيس الثاني أبي سنبل

تشترك مع الجوانب في حمل السقف ، الذي كان بعرض كاف لتظليل الممر أسفله . اما الهيكل حيث اجتمع المصلون حوله لتقديم قربانهم ، فقد توسط المعبد . وكان الفناء ينتهي عادة بردهة ذات أعمدة وضعت بنظام يقسمها ثلاثة أقسام ، الأيمن والأيسر متشابهين من حيث مساحة الفراغ المحصور بين الحائط والأعمدة ، وأما الأوسط فكان عرضه مساوياً لفراغ الاثنين معاً نظراً لأنه طريق المرور . وفي النهاية ثلاث غرف . الوسطى منها خصصت للإله المعبود ، وأما اليمنى واليسرى فكانت لزوجة الإله ولأولاده أحياناً . وكانت هناك غرفة لحفظ أدوات التقديس والاطعمة وما إليها

وأقام المصريون أمام المدخل العام لمعابدهم أعمدة شاهقة ذات أوضاع متناظرة ، وإلى جوارها مسلات وتماثيل ، ووضعوا على جانبي الطريق العمومي المؤدي إلى المدخل تماثيل لأبي الهول رابضاً أو تماثيل للكباش

وكثيراً ما أدخل الملوك المتعاقبون تحسينات أو تغيرات كثيرة على مباني المعابد التي شيدها من قبلهم . ولعل خير مثل لهذا معبد الكرنك ، فأول من أمر ببنائه سيزوستريس الأول ، أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة ، حوالي عام ١٩٥٠ ق . م ، خصيصاً لآمون إله طيبة ، وكانت مساحته عندئذ ضئيلة ، ولم يشمل سوى بعض ردهات وستة أعمدة ، كانت خالية من الزخرفة ، إلى أن جاء تحتمس أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة فبنى غرفا عدة أمام هذا



(ش ٦) معبد ايزيس بفيلا

المعبد . وحذا ملوك هذه الأسرة (١٥٤٥ - ١٣٥٠ ق . م .) حذوه فأدخلوا على معابد كثيرة شيئاً من التوسع جديراً بالذكر

ونهجت الأسرة التاسعة عشرة على منوال أدق (١٣٥٠ - ١٢٠٠ ق . م .) ، فأضافت إلى معبد الكرنك الصالة الرائعة ، التي بلغت مساحتها مائة متر في خمسين متراً ، بأعمدة ارتفاعها اثنى عشر متراً وربعاً ، علاوة على بناء غرفتين صغيرتين ، وفي عهد الأسرة الثانية والعشرين (٩٤٥ - ٧٤٥ ق . م) تم عمل السور العظيم حول هذا المعبد الفذ

وأهم وأجل المعابد المصرية راجع إلى المملكة الحديثة (١٥٨٠ - ١٠٩٠ ق . م) تحت إشراف ملوك عظام ، لايزال التاريخ يذكرهم أمثال تحتمس الثالث والرابع ، وأمينوفيس الثاني والثالث والرابع ورمسيس الأول والثاني والثالث ، وسيتي الاول . ممن شيدوا القصور والمعابد التي لايزال بعضها رمزاً لأعظم حضارة وأقدمها .

فمعابد الكرنك ش ٢ و ٣ ، وأبي دوس ، والأقصر ش ٤ ،



(ش ٧) المعبد الصغير أعلى معبد حاتور بدندره

والقرنة ، ومدينة جابو ، والدير البحري ش ٥ ، وأبو سنبل ش ٦ ، وفيلا ش ٧ ، ودندرة ش ٨ ، وجرف حسين ، كل هذه مشيدات لم تغالب الدهر فحسب ، بل تحدث كل ماجاء بعدها عن مظاهر الأبهة والمدنية ، ولا تزال إلى اليوم رمزاً خالداً يوحي بالعظمة والجلال . لو كان لشعب غير الشعب المصري لواصل الليل بالنهار للعود بالمجد التالد إلى عالم الوجود

ومهما يكن من شيء ، فأني لم أف الموضوع حقه من العناية في سطور ضئيلة قد لاتكفي إلا لاعطاء فكرة شاملة عن المعابد المصرية إجمالا ، غير أن هذا لايمنع من التنويه بوجوب معرفتنا لآثار بلادنا ، تمهيداً لايصال الحاضر بالماضي ، حتى نكون قد أدينا رسالتنا نحو أنفسنا ونحن الوطن ، ونكون قد لمسنا بعض ما ببلادنا من نواحي ووجوه للتثقيف والاستمتاع ، ألتفت إليها الأجانب قبل أبناء مصر

أحمد موسى

البريد الأدبي

الصحافة المصرية في معرض باريس

أذاع مندوب مصر العام في معرض باريس بيانا قال فيه « إنه لما كانت مصر ستشترك هذا العام في معرض باريس الدولي . ولما كان يحرص على أن يكون تمثيل مصر كاملا من جميع الوجوه . فانه لم ينس مكانة الصحافة المصرية كدعامة كبرى من دعائم رقي مصر الحديث ، ولهذا فقد احتفظ لها بمكان في القسم العام المخصص لمعرض الصحافة وإذا كان لنا أن نلاحظ على هذا البيان بشيء فهو أنه جاء متأخراً ، وقد كان يحسن التفكير في أمر الصحافة قبل ذلك كي تستطيع من جانبها أن تستعد للمثول في المعرض بالصورة اللائقة بها . بيد أن الفرصة ما زالت قائمة على أي حال ، ولا يزال بيننا وبين افتتاح المعرض زهاء شهرين ؛ وهذه فرصة حسنة لتعريف أمم العالم بالخطوات الباهرة التي استطاعت الصحافة المصرية الفتية أن تخطوها في العهد الأخير ، خصوصا وأن التبادل الصحفي بيننا وبين الأمم الغربية يكاد يكون معدوما من الناحية المصرية ، لأن اللغة العربية ليست من اللغات التي يعنى بها في مكاتب الصحافة الأوربية ، وبينما تبذل صحافتنا جهودا متواصلة لتقف قراءها على سير التطورات والحوادث الأوربية ، وعلى أقوال الصحف الخارجية بصورة سخية واضحة إذا بالصحافة الأوربية لا تكاد تذكر عن مصر وأحوالها شيئا مستقى من مصادره الأصيلة اللهم إلا ما يبعث به إليها مراسلوها من وقت لآخر : فعلى صحافتنا أن تستعد لانتهاز هذه الفرصة للمثول إلى جانب الصحافات الغربية الكبرى ، والتعريف عن نفسها وعن مكانتها ، ويجب عليها أن تنتهز الفرصة لتوثق روابطها مع دوائر الصحافة الغربية بصورة تلفت النظر إليها ، وفي أهميتها باعتبارها مصدراً لأخبار مصر والأمم الشرقية ومرآة صادقة لتطوراتها وأحوالها يحسن الاعتماد عليها من جانب الصحافة الغربية والانتفاع بمعاونتها وجهودها

كتاب ألماني جديد عن مصر الفرعونية

ما زالت حضارة مصر القديمة تثير دهشة العالم وطلعته وتحفز العلماء والمنقبين إلى مضاعفة الجهود في سبيل الكشف عن حقائق تلك الحضارة العجيبة وأسرارها . ولعل حضارة من الحضارات العالمية الخالدة لم تظفر بمثل ما ظفرت به حضارة الفراعنة من البحوث والتآليف الجليلة ، ففي كل عام تصدر عنها سلسلة حافلة من الكتب في مختلف أقطار الأرض . وقد صدر منذ أسابيع قلائل كتاب جديد بالألمانية عن حضارة مصر القديمة عنوانه « العالم من وادي النيل صور من مصر القديمة »

Die Welt am NilBilder aus dem alten Agypten

بقلم أدولف ايرمان A. Erman والدكتور ايرمان من أشهر علماء ألمانيا الأثريين ، وهو اليوم في الثمانين من عمره وقد أنفق معظم حياته في المباحث المصرية القديمة ولا سيما قراءة أوراق البردي وحل رموزها وأودع كتابه الجديد الذي وضعه في مغرب حياته خلاصة جهود علمية وفنية شاقة . ويقدم إلينا ايرمان في كتابه عرضاً وافيا لأحوال مصر الفرعونية الجغرافية والتاريخية والثقافية ؛ ويبدي دهشته من أن هذه الأرض الفياضة بكنوز الفن القديم والمدنية القديمة لبثت منسية حتى نهاية القرن الثامن عشر ؛ ولولا نابليون وحملته لبقيت عصراً آخر في غمارها المجهولة ، ويستعرض ايرمان جهود العلماء الأثريين خلال القرن التاسع عشر وما كشفت مباحثهم من الحقائق الجليلة عن حضارة مصر الفرعونية وعن تاريخها المجيد ، وعن آثارها وكنوزها المدهشة ، ويعنى ايرمان بنوع خاص بالنواحي العقلية والاجتماعية لمجتمعات مصر الفرعونية ، ويحاول أن يصور لنا هذه المجتمعات في حياتها المنزلية والاجتماعية والدينية ، وفي طقوسها ورسومها وتفكيرها ، وفي سائر نواحي حياتها المادية والروحية كما يصور لنا الملوكية المصرية القديمة في مواكبها وفي روعتها ، في عصور الحرية . وفي عصور السلام

ويعتبر كتاب ايرمان من الوجهة العلمية ثروة جديدة في تراث المكتبة المصرية الفرعونية

مجموعة ثمينة من رسائل جيته

تحتفظ مدينة فيجساك الألمانية الواقعة على نهر ويزر بمجموعة ثمينة . من رسائل الشاعر الألماني الأكبر جيته كتبها بخطه . وأرسلها جميعاً إلى صديقه نيقولا ماير من أهل مدينة بريمن ، وكان ماير قد زار فى شبابه مدينة ـ فينا ودرس فى جامعتها ، وزار الشاعر مراراً فى مقامه فى فيمار ، وعقدت بينهما أواصر صداقة متينة استطالت زهاء ثلاثين عاماً ، واستمرت مراسلاتهما بانتظام إلى ما قبل وفاة الشاعر بنحو عامين فقط ، وهذه المجموعة مما كتب جيته إلى صديقه تبلغ وحدها خمسين رسالة ، تحتفظ بها مدينة فيجساك فى متحفها الصغير ، وهناك مجموعة أخرى من الرسائل أرسلها ماير إلى زوجه وولده ، وكانت هذه الرسائل تحفظ منذ مدة طويلة فى مكتبة شتراسبورج ، ولما كان يهم ألمانيا أن تجمع هذه المراسلات كلها فى مجموعة واحدة ، فقد بذلت على يد سفيرها لدى الحكومة الفرنسية السعى اللازم لاستعارة رسائل ماير من شتراسبورج وكلل سعيها بالنجاح أخيراً ، وحملت الرسائل إلى متحف فيجساك

معرض لتاريخ الدخان

مذ عرفت شجرة الدخان في سنة ١٥٥٠ على يد طبيب ومكتشف أسبانى يدعى ريكارد وديلافونتى ، حمله إلى أسبانيا مع النارجيلة التى كان يدخنة فيها الهنود يومئذ ، وأمم العالم كلها مقبلة على تدخينه ، واليوم يدخنه الشرق والغرب والشمال والجنوب والشبان والشيب ، والرجال والنساء ، ويرون فيه جميعاً وسيلة للترويح عن النفس ومطاردة الهموم . وقد أقيم أخيراً فى باريس معرض شرح فيه تاريخ الدخان منذ اكتشافه إلى يومنا ، وهو معرض « جاليرا » ويضم المعرض المذكور فى واجهاته الزجاجية طائفة كبيرة من الغلايين المصنوعة من مختلف المواد فى مختلف العصور ، وبعضها محلى بالذهب ، مما كان يملكه بعض الملوك ، ومشاهير السادة ، وكذلك مجموعة مختلفة من العلب التى يوضع فيها الدخان ، وتشكيلة عظيمة من مختلف السجائر فى مختلف أنحاء العالم .

جيل نموذجى فى ألمانيا الهتلرية

إن فكرة النسل المختار التى يدعيها ويدعو إليها زعماء ألمانيا النازية لم تعد فقط فكرة نظرية ، بل خرجت إلى طور التطبيق العملى ، فقد رأت ألمانيا الهتلرية أن تنشىء بالفعل جيلا نموذجياً من الناس ، وتحقيقا لهذه الغاية أنشأت فى مدينة يوناس دورف من أعمال باوتسن فى سكسونيا مستعمرة خاصة بالشبان الراغبين فى الزواج من أعضاء فرق الحرس الأسود ، ومن المعروف أن هذه الفرق تضم الشبان الأقوياء الذين يمتازون ببسطة الجسم وحسن التكوين والملامح ، ومن الجهة الأخرى فقد رؤى أن ينشأ فى نفس الوقت معسكر للبنات النموذجيات اللائى يصلحن لكن زوجات لهؤلاء الشبان فأنشىء فى يوناس دورف مستعمرة من مائتين وخمسين فتاة يشترط فيمن تنتظم فيها أن تكون من الآريات الخلص وان تثبت أن الدم اليهودى لم يتسلل إلى أسرتها حتى سنة ١٨٠٠ ، ويوقع على الراغبات خمسة كشوف طبية متعاقبة للتحقق من سلامتهن وصلاحيتهن للنسل السليم . كذلك يمتحن كل من الفريقن فى مبادىء الحزب الفكرى ومراميه السياسية والاجتماعية ، ويزول أولئك الشابات والألعاب الرياضية المجهدة ويدربن على الأعمال المنزلية وشؤون الأمومة تدريبا حسنا ، ويراعى فى اختيارهن التناسب فى الجسم بينهن وبين الشبان الذين يتقدمون لخطبتهن . والمفهوم أن ولاة الأمر فى ألمانيا الهتلرية يفكرون فى مضاعفة هذه المستعمرات تدريجيا ، تحقيقا لمشروعهم فى ترقية النسل والجيل

احياء ذكرى حافظ ابراهيم فى دار الأوبرا

الآن والرسالة تتهيأ للصدور تقيم لجنة إحياء ذكرى حافظ ابراهيم حفلتها الأولى بدار الأوبرا الملكية في الساعة الثالثة والدقيقة ٤٥ بعد ظهر يوم السبت ٦ مارس سنة ١٩٣٧ تحت رعاية صاحب الجلالة الملك ورياسة صاحب المعالى وزير المعارف وهذا برنامج الحفلة

قرآن كريم الشيخ محمد الصيفى

كلمة الافتتاح لحضرة صاحب المعالى وزير المعارف

١ — حياة حافظ : للأستاذ ابراهيم دسوقى أباظه

٢ — قصيدة : للأستاذ أحمد الزين

٣ — الاجتماعيات فى شعر حافظ : للأستاذ أحمد أمين

٤ — قصيدة : للأستاذ أحمد الكاشف

٥ — أثر حافظ فى القومية : للأستاذ أمين الغريب

٦ — قصيدة : للأستاذ حسين شفيق المصرى

٧ — الغزل والنسيب فى شعر حافظ : للأستاذ السباعى بيومى

٨ — قصيدة : للأستاذ حليم دموس الشاعر اللبنانى

٩ — شكوى الزمان : للأستاذ حفنى بك محمود

١٠ — قصيدة : للأستاذ خليل مطران بك

١١ — حافظ والنقد : للدكتور زكى مبارك

~~١٢ — قصيدة : للشاعر على محمود طه المهندس~~

١٣ — حافظ الكاتب : للأستاذ عباس محمود العقاد

١٤ — قصيدة : للأستاذ محمد الأسمر

١٥ — حافظ فى السودان : للدكتور سعيد كنعان

١٦ — ذكريات شخصية : للاستاذ السيد محمد كرد على بك

١٧ — قصيدة للاستاذ محمد الهراوى

١٨ — الوصف فى شعر حافظ : للدكتور عبد الوهاب عزام

١٩ — حافظ العروبة : للدكتور عبد الرحمن شهبندر

٢٠ — قصيدة للأديب محمود حسن اسماعيل

٢١ — السياسيات فى شعر حافظ : للاستاذ عبد المجيد نافع

***

الحفلة الثانية

وهذا برنامج الحفلة الثانية التى تقام فى الساعة ٤٥ : ٣ بعد ظهر يوم الأحد ٧ مارس فى دار الأوبرا الملكية .

قرآن كريم الشيخ محمد الصيفى

١ — حافظ واللغة : للاستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

٢ — قصيدة : للدكتور ابراهيم ناجى

٣ — الوطنيات : للدكتور محمد حسين هيكل بك

٤ — قصيدة : للاستاذ احمد محرم يلقيها عبد القادر المسيرى

٥ — شخصية حافظ وفكاهاته : للاستاذ الشيخ عبد العزيز البشرى

٦ — قصيدة : للاستاذ بشارة الخورى شاعر لبنان

٧ — لمحة عن حافظ الشاعر : للاستاذ فؤاد صروف

٨ — قصيدة : للاستاذ أمين ناصر الدين الشاعر اللبنانى

٩ — مزايا شعر حافظ : للاستاذ عيسى اسكندر المعلوف .

١٠ — قصيدة : للاستاذ أبى الاقبال اليعقوبى الشاعر الفلسطينى

١١ — حافظ الراوية : للاستاذ محمد هاشم عطيه

١٢ — المديح والرثاء والتهانى : للأستاذ محمود البشبيشى

١٣ — قصيدة : للأستاذ فليكس فارس

~~١٤ — قصيدة : للأستاذ عبد اللطيف النشار~~

١٥ — حافظ القصصى : للأستاذ محمود تيمور

١٦ — قصيدة : للأستاذ احمد الغزاوى شاعر الحجاز

١٧ — حافظ الصديق الوفى : للأستاذ محمد فريد وجدى

١٨ — قصيدة : للاستاذ عزيز بشاى

١٩ — قصيدة : للاستاذ محمد الشريقى شاعر شرق الأردن

٢٠ — حافظ شاعر الشرق : للاستاذ قدرى حافظ طوقان

٢١ — قصيدة : للاستاذ محمد سعيد العباسى الشاعر السودانى

٢٢ — مختارات لبعض الكتاب والشعراء فى مصر والشرق يلقيها الاستاذ ضياء الدين الريس .



سبأ ومأرب

رحلة في بلاد العربية السعيدة

تأليف الأستاذ السيد نزيه المؤيد العظم

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

لقد قصر الأواخر عن الأوائل تقصيرا معيبا فى وضع المدونات الجغرافية ووصف المسالك والممالك وصفا علميا مبنيا على ملاحظاتهم الخاصة وقائما على وجهة نظرهم ولا سيما وصف الأقطار التى يهمنا شأنها ولنا ارتباط بها خاص ؛ ومن هذه الأقطار التى تكاد تكون غفلا من الذكر فى مدوناتنا الحديثة القطر اليمانى أو العربية السعيدة حتى صرنا إذا أردنا أن نلم بشىء من أخبارها وشؤونها اضطررنا إلى مراجعة ما دونه السياح الغربيون عنها أو إلى مؤلفات كتابنا من أهل القرون الوسطى. لذلك يعد هذا السفر الذى وضعه الرحالة الأستاذ نزيه المؤيد العظم تحفة ثمينة قد سدت ثغرة عظيمة فى تاريخ نهضتنا الأدبية السياسية العلمية

والكتاب مكتوب بطريقة قصصية سهلة وبأسلوب سلس خال من التعقيد والتكلف يكاد من يقرأه يظن أن مؤلفه يحادثه وجها إلى وجه ولا سيما من عرف المؤلف معرفة شخصية وتعود سماع حديثه والطريقة التى يدلى حججه بها . وهو لم يبسط فيه أحوال اليمن بسطا حياديا مجردا بل يتحين الفرص ليدلى بآرائه الشخصية ونظرياته الدينية والاجتماعية ويشير من حين إلى آخر إلى أغراض الدول المستعمرة فى تلك الارجاء

ومما استوقف نظرى كثيرا ملاحظة منه سبق لى أن تجرعت منها الصاب وأنا واقف على أسكلة عدن فى أوائل سنة ١٩١٦ ، فقد حدث يومئذ أننى كنت قادما من الهند إلى مصر وكانت معنا فى الباخرة سيدة انكليزية أرلندية ملمة ببعض الشئون السياسية فذكرت لها النهضة العربية وكيف أن العرب يعملون لاعادة مجدهم الغابر واستقلالهم المنشود ، فلما رست باخرتنا على عدن رأيت خليطا من الغوغاء بألبسة قذرة وأصوات منكرة وحركات همجية مزرية يتقدمون إلينا على زوارق كبيرة لنقل البضائع ، فصاح بعض الانجليز من على ظهر السفينة « عرب عرب » فجاءتنى السيدة الانكليزية مستفسرة بشىء من التعجب: « هل هؤلاء هم العرب الذين يغارون على مجدهم السابق واستقلالهم المنشود » ؟ فبينت لها خطأ التسمية من اطلاق اسم جزء خاص على كل عام وأن حفاة أرلنده - وكانت أرلندة يومئذ تتحفز للثورة - ليسوا كل الأرلنديين . قال الأستاذ نزيه فى ملاحظاته « ومما يؤسف له أن أكثرية الوطنيين العرب - فى عدن - أصبحوا خداما للأجانب فلا يتعاطون من الأشغال إلا الدنيئة كالخدمة فى المنازل وصيد السمك والحلاقة ومسح الأحذية ونقل البضائع وخصوصا الفحم والغاز من السفن التجارية إلى البر ؛ وكذلك فى مصر من الفرنجة والمتفرنجين من يطلق كلمة « عرب » على هذه الطبقة من الناس

وفى الكتاب ملاحظات قيمة عن الزراعة فى البلاد وخصب الأرض وخدمتها والطرق الابتدائية المستعملة فى استنباتها وهو يقول أن محصولات اليمن تشمل البن والتنباك والقطن ، وذكر لى أن جلالة الامام استحضر من مصر بزر (السكالاريدس) فنجح هناك نجاحا ظاهراً

ومن أغرب ما جاء فى هذا الكتاب مما يخالف المألوف ولا ندرى له سببا أن تضع الحكومة المتوكلية مكسا أو رسما جمركيا اثنين ونصفا فى المائة على الصادرات ولا تضع شيئا على الواردات (ص ٣٧)

وان تعجب فعجب أن تكون اليمن وهى موطن أفخر البن لا تشرب القهوة المعمولة من ثمره وإنما تشرب مغلى قشره مما يذكرنى ببلاد النمسا فهى تصنع أفخر الطرابيش لا يلبسها النمسويون بل لتصديرها إلى بلاد الشرق . واليمنيون إذا أرادوا إكرام ضيوفهم بهذا المغلى سألوهم أتقشرون أى أتريدون أن تشربوا القشر على قولنا أتتفكهون

وقد عرفنا قديماً ان نساء اليمن فى الارياف يلبسن القبعات القش ولكن المؤلف رآهن فى حفلة عرس سافرات « وبعضهن كن عاريات الا من مئزر بسيط ، وبعضهن كن لابسات أكماما قصيرة - ديكولتيه - وبعضهن وضعن على رؤوسهن حجابا أسود ، وبعضهن وضعن فوق هذا الحجاب قبعة مصنوعة من قش القمح أو الشعير ذات حجم كبير لترد أشعة شمس تهامة المحرقة وهى من صنعهن ، وقد علمتهن الحاجة التى هى أم الاختراع الا يتقيدن بعادة وقانون بل يلبسن ما يوافق محيطهن واحتياجهن »

ويخيل الى من يقرأ هذا الكتاب أن البلاد تحت نوع من الأحكام العرفية أو ان أهاليها فى مدرسة ليلية أو فى سجن اصلاحى لأن السير فى طرقاتها من بعد ساعة معينة من الليل محظور ، فقد جاء فى الصفحة ٤٩ « وفى هذه الساعة الرهيبة - يعنى بعد تناول العشاء - لا يسمع المرء فى بلاد اليمن من اقصاها الى أقصاها الا نداء الجنود فى ثكناتهم وقلاعهم

وحصونهم (وامتوكلاه) – على طريقة بادشاهم جوق ياشا فى الدولة العثمانية. وبعدئذ يضرب بوق النوم فيذهب جميع أهل المدن الى النوم ويصبح الخروج من المنازل الى الأزقة والشوارع محظوراً على الجميع عدا الجند،

واعجبنى جد اعجاب الغاء الرق فى بلاد اليمن ومنع الاتجار بالعبيد فلم يجد المؤلف لهذا الوضع أثرا فى تلك الانحاء بل قال فى الصفحة ٥ « ان الامام حفظه الله منع هذه التجارة منذ تولى الحكم ، وكان عنده عبد يدعى صمصام فاعتقه لوجه الله وزوجه من فتاة كانت فى خدمته ووظفه فى احدى الوظائف ،

وكل كتاب عن اليمن لا يذكر النبات المخدر الذى يدعى (قانا) لا يكون مستوفيا للشروط ، فالقات عند اليمنيين لا يقل شأنا عن الوسكى عند الانكليز والبوزه عند السودانيين ، وهو له مجالس خاصة ينهمك المجتمعون فيها بمضغه ، وأمام كل واحد منهم رزمة كبيرة منه والى جانبها إبريق من فخار ومبصقة من فضة ؛ أما الابريق فيستعملونه لغرغرة أفواههم من حين الى آخر ، وأما المبصقة فلطرح أوراق القات بعد مضغه . ويدوم هذا المجلس من بعد الغداء حتى المساء ، ويسمى هذا النبات بالانكليزية (كاتا أديوس) وفيه مادة مخدرة تؤثر فى الأعصاب فيشعر من يمضغه براحة وبسط وانشراح

ثم ذكر الاستاذ نزيه أضراره فقال « انه يقلل من شهية الانسان للطعام ويزيد فيه الميل الى شرب الماء ويضر بالأسنان ويسودها ، وبالمعدة فيقلل من عصيرها وبالنسل فيضعفه . وبالرغم من جميع هذه المضار وبالرغم من علم أهل اليمن بها فهم يمتدحونه وينشدون القصائد فى مزاياه ويستعملونه باجمعهم ماعدا صاحب الجلالة الامام يحيى فقد منعه طبيبه الخاص من استعماله منذ عدة سنوات ولا يزال جلالته ممتنعا عنه الى اليوم ،

ومن دواعى الأسف ان يضيع اليمنيون ثروتهم وصحتهم فى هذا المخدر الضار حتى ان الذى يشتغل منهم فى نهاره كله بفرنك واحد يصرف معظمه على القات . ويغرس شجره كما يغرس البن فى الأودية المرتفعة التى لا تتعرض لحرارة الشمس الحادة الا بضع ساعات فى اليوم ، وهو أثمن نبات فى اليمن على الاطلاق ؛ وتساوى الرزمة الصغيرة من أغصانه نحو ثلاثة فرنكات

ولا يفوتنا أن نذكر هنا ما لحظناه من وجود إيطاليين موظفين فى الحكومة المتوكلية من أطباء وغيرهم فالأطباء الموجودون هناك الآن من الطليان وقد أتوا الى اليمن عقب زيارة والى اسمرة السنيور غاسبريني اليها وعقد المعاهدة مع الامام وهم يتناولون رواتب تبلغ ستين جنيها شهريا للواحد منهم وبيدهم مستشفى الحديدة ومستشفى صنعاء وكذلك التلغراف اللاسلكى فى صنعاء فهو بيدهم ومن تأسيسهم بأمر الامام منذ بضعة أعوام .

وذكر حاخام اليهود الاكبر فى صنعاء واسمه يحيى اسحق للمؤلف أنه كان لليهود مملكة عظيمة فى اليمن إلى الشرق من صنعاء أسسها سليمان بن داود وربما كانت هذه المملكة فى نجران وأن اليهود فى صنعاء ذكوراً وأناثا يبلغون زهاء عشرين ألف نسمة لهم ١٥ مدرسة و ١٩ كنيسا وهم يمارسون شعائرهم الدينية كما يشتهون ويطبقون شريعتهم الموسوية كما يرغبون ويعلمون أبناءهم العبرية دون العربية . وعرف المؤلف أن للصهيونيين مخابرات طويلة عريضة مع صنعاء وأن لهم صناديق للاعانة فى كل دار من دور اليهود فى معظم مدن اليمن والاسرائيلى الذى يريد أن يتصدق بشىء مهما كان زهيداً يضعه فى هذا الصندوق ، ورب الدار ليس مأذوناً بفتحه بل يفتحه وكيل الجمعية فى كل شهر ويخرج مافيه ويرسله الى صندوق الجمعية الصهيونية فى القدس واسمه صندوق الأمة ، قال المؤلف : « حبذا لو كان زعماء الحركة الوطنية فى الشرق يقتدون باليهود ويأخذون هذا الدرس عنهم » ،

هذه لمحة مستعجلة عن الجزء الأول من هذه الرحلة المباركة ولكن العمل الخطير والاكتشاف الأثرى العظيم هو فى الجزء الثانى حيث يدون المؤلف رحلته إلى بلاد سبأ وسد مارب فيذكر كيف حصل على الاذن من جلالة الامام بالسفر الى تلك الانحاء المحفوفة بالمهالك والمخاطر ويذكر الجنود الذين ساروا لحمايته من التعدى مما لم يسبق له مثيل ولم يحصل عليه أحد قبله . وكانت بداءة هذه الرحلة الى مأرب فى اليوم السادس والعشرين من يناير سنة ١٩٣٦ إذ ترك صنعاء وسار مشرقاً فدخل فى واد يدعى (وادى السر) ومنه سار إلى قرية (القمعة) فقرية (ال الوزير) فوادى (حريب) فصرواح فقرية تدعى محترجة وهى آخر قرية يسكنها اليهود فى شرق صنعاء وهكذا حتى وصل إلى سد مأرب ، ووصف ما رأى فى طريقه من آثار ومعادن ونباتات وأشجار فقال عن المعادن مثلا والحديد من جملتها انها كثيرة ومتنوعة ، ونقل الكتابة الحجرية الموجودة حول جدران قصر (صرواح) بخط يده وعرضها على من ترجمها له من المستشرقين الألمان ومن الاخصائيين المصريين فى القاهرة وكان وصوله إلى مأرب فى اليوم التاسع والعشرين من يناير سنة ١٩٣٧ بعد الظهر أى بقى على الطريق نحو أربعة أيام كأن المسافة كلها بين صنعاء ومارب ١٢٠ كيلو مترا ، ولما وصل الى مدينة مأرب هو وعامل الامام يحيى والجنود استقبلهم الاهلون بالطبول والأناشيد . وبعد ذلك نرى فى الكتب صور ثمينة للسد وجدرانه القائمة وأبوابه الواسعة والخطوط الموجودة على أحجاره وصفاً دقيقاً لمجارى المياه وكيف تتجمع وتتوزع ومن أين تأتى والجنتان اللتان كانتا تشربان منه والأشجار الباقية من خمط وسدر وأثل مما ينطبق كل الانطباق على ماورد فى القرآن الكريم

وقصارى القول ان هذه الجولة الأثرية فى بلاد مجهولة عندنا هى ذات قيمة علمية من الطراز الأول يهنأ عليها الاستاذ نزيه المؤيد العظم ولا سيما أن بعض الأوربيين الذين وصلوا الى تلك الارجاء لم يتمكنوا من رؤية جزء صغير مما رآه سائحنا العربى بالنظر الى المخاوف التى كانوا معرضين لها ؛ ونعد عمله بادرة من بوادر نهضتنا العلمية العملية المباركة

عبد الرحمن شهبندر

العالم المسرحي والسينمائي

على مسرح الاوبرا الملكي

صورة في الرخام
Portrait in Marble

لناقد « الرسالة » الفني

هي باكورة أعمال الآنسة « هازل اليس » الممثلة الايرلندية تنبئ عن مستقبل باهر واستعداد طيب للنبوغ وليست القصة في المستوى العالي من التأليف ولكن حوارها قوي بديع يدل على أن الكاتبة تلم بأمور المسرح إلماما تاما وإن كانت بعض الشخصيات غير كاملة التصوير لأن الكاتبة لم تترك إلى جانب شخصية اللورد بيرون فراغا تكتمل فيه الشخصيات الأخرى

والقصة التمثيلية تصور حياة اللورد بيرون الشاعر الانجليزي العظيم بين النساء وتشرح بعض نزواته وأخلاقه ونظرته في الحياة وما احاط باسمه من إشاعات لم يكن يبالي بدفعها عنه بل يترك الأمور تتفاقم حتى يجري اسمه على كل لسان؛ كما تصور حبه لبلاد اليونان التي مات محموماً أثناء الدفاع عن حريتها

موجز القصة

اللورد بيرون ثائر ساخط متبرم بكل شيء لا يعبأ بأحد وأصدقاؤه في بيته يتحدثون عن تصرفاته مع العظماء ، فهذا رئيس مجلس اللوردات يأتيه راجيا أن يكتب فيه بيتين من الشعر في عمل مجيد أداه فيرده خائبا لأنه يرى أن الانسان لا يستحق المديح على واجب أداه . ويدخل بيرون ويتحدث عن حياته ويقول إنه سوف يجعل اسمه يجري على كل لسان ويحدث أصدقاءه عن بلاد اليونان وعن حبه لها وألمه لأنها لا تتمتع بحريتها . وما يكاد يتم أقواله حتى تأتيه رسالة بموت أحب أصدقائه إلى نفسه فيصدم وينفجر مقهقها

فاذا كان المنظر الثاني رأينا حفلة راقصة يغشاها أشهر النساء وأجملهن ويجيء بيرون متأخرا قليلا ويعتذر ، وإذ يقف بعيدا إلى جانب الباب تقدم ربة الدار ضيوفها إليه فيذهب النساء إليه في مكانه كأنه ملك . هذا التصرف يغيظ السيدة «كارولين لامب» التي ما تكاد تتقدم إليه حتى ترتد راجعة فيفهم بيرون كبرياءها ويهمس في أذن إحدى صديقاته بأن سيجعل هذه السيدة تركع عند قدميه قبل انقضاء يوم واحد



« ميكائيل ماكليمور » في دور اللورد بيرون و « ميريل مور » في دور كارولين لامب

ويدخل الجميع يستمتعون بالرقص عدا الليدي كارولين ويعود بيرون إلى القاعة وتدور مناقشة حادة بين الاثنين؛ وهنا تبرز قوة الكاتبة موهبتها في الحوار وتنتقل من موضوع إلى موضوع ، وفجأة يطوقها بيرون بذراعيه ويقبلها فلا تمانع وهكذا يبدأ حب هذه السيدة لبيرون وهو في الحقيقة لا يحفل بها !!

فاذا كان الفصل الثاني رأينا أصدقاء بيرون في بيته يتحدثون عن سلوكه غير المرضي فهو جعل السيدة «كارولين لامب» تجن به حبا وتجري وراءه ، ويرى أحدهم أن الذنب ليس ذنبه فهو قد قطع كل علاقة بها ولكنها تلاحقه في الطرقات . ويجيء بيرون فيحدثونه في أمر هذه السيدة فيقول إنه أرسل اليها خطابا يقطع كل علاقة له بها ويخبرهم أنه نوى الزواج بالآنسة « أنا بل ميلبانك » فيسأله صديق عما إذا كان يحبها فيقول : « ليس حبا عميقا »

ويجيء الخادم يعلن أن سيدة تصر على مقابلة اللورد فيرفض أن يستقبلها ولكن أمام الالحاح يخرج إليها ويعود بعد لحظة يرجو أصدقاءه أن ينتظروه في غرفة مجاورة حتى يفرغ من حديثه مع هذه السيدة . وتدخل كارولين لامب وتحاول أن تعيده إليها فيرفض ويصرح لها بأنه ينوي أن يتزوج من الآنسة « ميلبانك » ويطلب إليها أن تذهب إلى بيتها فلا تتحرك وإذ هو يستدعي الخادم ليحضر لها عربة تهجم عليه تريد أن تطعنه بخنجر ولكنه يتمكن من أن يمسك يدها ويثور فيقدم الخادم والأصدقاء

وفي المنظر الثاني نرى زوجة بيرون تشكو إلى صديقة لها سلوك زوجها وأنها تنوي الانفصال عنه فتنصحها هذه بالتريث من أجل

ابنتها وأن عملا كهذا يهدم حياة الشاعر العظيم ويقضى عليه ، وتصرح الزوجة بأنها سمعت أشاعة مخزية عن علاقة اللورد بيرون بأخته « أوجستا » ولكن الصديقة تتمكن من تبديد شكوك الزوجة ويدخل بيرون ، وسرعان مايقوم الشجار بينه وبين زوجه ، فنراها تبكى وتنتحب فيتأثر ويتقدم إليها مدللا وبعد قليل يراجع البريد وتستوقفه رسالة من شقيقته ويخبر زوجه أنها تنوى القدوم اليهما لقضاء بضعة أسابيع فتثور الغيرة فى نفس الزوجة وتطلب منه أن يرفض قبولها فى بيته فيحاول أن يعرف السبب فتمتنع أولا ولكنها تشير فى النهاية إلى الاشاعة التى تتردد على الألسنة وتطلب إليه أن يكذب هذه الاشاعة فتصدقه . وكعادته يرفض ويجيب بأنه ليس فى حاجة إلى تصديقها فتريد الاطلاع على الخطاب فيرفض فتحاول أن تختطفه فيصرخ فى وجهها ويحرق الخطاب ويلقيه فى المدفأة .

فاذا كان الفصل الثالث رأينا بيرون واقفا إلى جانب النافذة يرى الجماهير محتشدة أمام بيته ثائرة ويشير عليه أحد أصدقائه بالابتعاد عن النافذة حتى لا تصيبه أحجار الغوغاء . ويبدى بيرون عجبه من الشعب فهو لم يؤذه ولم يسىء إليه ومع ذلك يريد هذا الشعب أن يفتك به . ويطلب بيرون إلى الخادم أن يحمل رسالة إلى زوجته فى بيت والدها ويذهب الخادم ويجىء أصدقاء بيرون ويقولون أنهم شقوا طريقهم وسط كتل بشرية ويحدثهم بيرون بأن بلاده هى اليونان ويتحدث عن جمالها وعن آماله فى أن تثور وتحطم القيود التى تغلها . ويجىء الخادم يقول أن الزوجة رفضت أن تجيب على الرسالة وأنها تطلب من بيرون ألا يحاول مقابلتها أو الكتابة إليها فيصدم بيرون وتسمع بعد قليل أصوات باعة الصحف ويعرف بيرون من خادمه أن اليونان ثارت على تركيا مطالبة بحريتها .

وفى المنظر الثانى من الفصل الثالث نرى بيرون فى بيته يستعد للرحيل ويأتى أصدقاؤه فيخبرهم بأنه سيسافر إلى اليونان متطوعا ليحارب فى صفوفهم ويتركهم إلى تلك البلاد التى أحبها والتى قضى نحبه محموماً أثناء الدفاع عن حريتها .

الاخراج والتمثيل

لم يعمد المخرج فى هذه الرواية إلى الطريقة الايحائية التى ألفناها منه بل عمد إلى تركيز إخراجه فى منظر واحد وجعل أجزاء من حوائط هذا المنظر تتبدل فيتبدل المنظر بها ، وهكذا استطاع أن يخلق من المنظر الواحد مناظر متعددة . والاضاءة كانت غاية فى الدقة والروعة ولون المنظر أزرق داكن يلتئم مع جو الرواية

مثل المستر ميكائيل ماك ليور اللورد بيرون فسما به وكان بديعا جداً وإنى أعد هذا الدور من خير أدواره التى رأيتها خلال هذا الموسم والموسم الماضى ولقد شاهدت كثيرا من الانجليز يهنئون الممثل على إجادته ، وبين هؤلاء المستر سكيف الأستاذ بالجامعة المصرية فقد كان إعجابه بالتمثيل أكثر من إعجابه بالرواية نفسها . ومثلت الآنسة « ميريل مور » السيدة كارولين لامب فأدته بنجاح ، ووفقت بقية الممثلين فى تأدية أدوارهم وهكذا رفع التمثيل والاخراج هذه الرواية .



أنيو ماك ماستر فى دور شارلز سيرفيس فى رواية مدرسة الفضائح

مدرسة الفضائح The School For Scandel

ريتشرد برينسلى شريدان وأوليفر جولد سمث من أعلام الكوميدى الانجليزى القديم وقد رأت فرقة دبلن جيت أن تخرج هذه الرواية لأن مؤلفها ايرلندى ولأنها من أحب الروايات الى شعب الامبراطورية . فهى تصور ناحية من نواحى المجتمع الانجليزى فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر وكيف كانت المجتمعات بؤرا تفرخ فيها الاشاعات وتنتشر على الألسنة وكيف كانت المخازى والفضائح تدبر وكيف كان الناس يخدعون بالظواهر فالرجل الذى يرون فى سلوكه مالا يرضيهم يعد شقيا سيىء السلوك فى حين ان من يأتى النقائص فى الخفاء يكون موضع التجلة والاكبار ، فالشعب كان يخدع ويحكم على الأمور بظواهرها

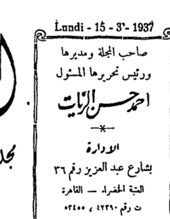
والرواية ليست جديدة على المصريين إذ سبق للمسرح المصرى ان أخرجها باسم « مدرسة النميمة » فى مستهل النهضة المسرحية فلاقت نجاحا كبيرا . وأعتقد ان مثل هذه الرواية التى تقوم على المفاجئات والمواقف الكوميدية يفسدها التلخيص ويمسخها

أخرج الرواية المستر ادواردز وقام بدور بيتر تيزل فكان خفيف الظل عذب الروح مما جعل رواد المسرح يضجون بالضحك ؛ ومثل المستر ماك ماستر دور شارلز سيرفيس فملأ الشخصية حياة وكان بديعا فى أكثر مواقفه كما أجادت الآنسة « آن كلارك » دور لادى تيزل

يوسف تادرس

5 me Année, No. 193

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣



ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

Lundi - 15 - 3 - 1937

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٢٤٥٥

العـــدد ١٩٣ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢ محرم سنة ١٣٥٦ — ١٥ مارس سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

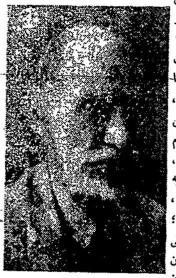
فهرس العـــدد

٨٠٢٠

جميل صدقى الزهاوى

بمناسبة ذكراه الأولى

(٢)



ولد الزهاوى (١) فى يوم الأربعاء الثامن عشر من شهر يونيو سنة ١٨٦٣ ببغداد لأبوين كرديين كريمين تميزت أسرتهما بالدين والفقه والأدب، فقد كان أبوه محمد فيضى الزهاوى مفتياً لدار السلام وأخوه فقيهاً من فقهائها، فنشأ بين أبيه وأخيه يرتاض عقله ليتثقف، ويرتاش خياله ليطير؛ ولكن أخاه كما حدثنى جميل، كان حَصِر اللسان لا يتذوق الأدب؛ فكان يذوده عن رواية الشعر، ويصده عن دراسة اللغة، ويأبى عناده هو

(١) الزهاوى نسبة إلى زهاو وهى بلدة من أعمال كرمان شاه الفارسية كانت موطن جدته لأبيه .

وتسامح أبيه إلا أن يديم النظر فى الأدب، ويروض القريحة على القريض. كان هم أخيه وأمل أبيه أن يستقيم على عمود أسرته فيكون صاحب قضاء وفقه، ولكنه استقام على محتوم طريقته فكان صاحب دعوة وفلسفة. والاستعداد الموهوب فى الطبع هو مشيئة الخالق فى الخلق، جعل من الزهاوى أبا العلاء وقد كان أهله يريدونه أبا حنيفة؛ وجعل من الرصافى أبا نواس وقد كان الألوسى رحمه الله يريد أن يبعث فى معروف الرصافة معروف الكرخى!

كان العراق أيام نشأ الزهاوى تركى السلطان سنى الحكومة، فالتعليم المدنى فيه كان تابعا فى لغته وطريقته وغايته لسياسة الأجنبى وهواه، فلم يخرج الا رجال جيش يخضعون للنظام، أو رجال إدارة يذعنون للحكم. أما التعليم الدينى فقد ظل فى صحون الجوامع على ماعهده الناس، عربى اللسان حر النزعة طليق الفكرة مستقل الغاية. وطبيعة هذا النوع من التعليم الجدلى المطلق أن يخلق المجاهل للشعور البليد فيضل، ويكشف الآفاق للفكر النافذ فيبلغ، ويساعد الجبلة فى الانسان على حسب الاستعداد فتعلو أو تهبط؛ فهو يساعد الهمة القاعدة على السقوط، والنفس القانعة على القنوط، والذهن المبطىء على التخلف، كما يساعد العقل الحائر على التزندق، والطبع القلق على التمرد، والارادة المستقلة على الزعامة. ورجال الثورة والاصلاح فى تاريخنا الحديث كانوا جميعا من أهل هذه الثقافة، كالأفغانى، وعرابى، ونديم، ومحمد عبده، وسعد زغلول، والكواكبى، والزهراوى، والزهاوى، ومن إليهم. والناجون من أهل هذه الثقافة لاينفكون دائبين على القراءة والتتبع والمشاركة ليدفعوا عن أنفسهم معرة القدم. وهم عسيون إذا جددوا أن يسرفوا فى التجديد كذى العامة يدفعه النفور من ذلة الضعف إلى الافراط فى العسف والتجبر.

فالزهاوى الجرىء بطبعه، الطموح باستعداده، تتفق بهذه الثقافة، ثم تنفست على أعصابه الشاعرة أمواج العروبة ترسلها على بغداد الصحارى الملهمة؛ ثم نزعه عرق العم والخال من الكردية فجاهد وجالد وغامر؛ والكرد كالعرب إن لم يكونوا من العرب؛ ثم ابتلى وهو فى الخامسة والعشرين من عمره بداء فى النخاع الشوكى لازمه بقية حياته، ورمى بعد ذلك بالشلل فى رجله فبرم واكتأب وتشاءم؛ ثم منى من عصره بفساد السلطان واستطالة الجهل وانحلال الخلق، فدفعته هذه العوامل كلها إلى مواقف المصلحين من الانذار والتضحية.

رأى وهو فى الآستانة عبد الحميد يلقى الأحرار مغلولين فى غيابة السجن أو فى قاع البحر، فأرسل إليه مع رسبوتينه أبى الهدى قصيدة منها:

أيأمر ظل الله فى أرضه بما نهى الله عنه والرسول المبجل

فيفقر ذا مال وينفى مبرأ ويسجن مظلوما ويسبى ويقتل

تمهل قليلا لا تغظ أمة إذا تحرك فيها الغيظ لا تتمهل

وأيديك ان طالت فلا تغترر بها فان يد الأيام منهن أطول

فسجنه حيناً ثم نفاه.

وسمع وهو عضو فى (مجلس المبعوثان) عن بغداد مقرر الميزانية يذكر فى وزارة الحربية مبلغاً جسيماً من المال جعلوه لقراءة البخارى فى الأسطول. فقال: أنا أفهم أن يكون هذا المبلغ فى ميزانية الأوقاف أما فى الحربية فالمفهوم أن الأسطول يمشى بالبخار لا بالبخارى. فثار عليه المجلس وشغب عليه العامة.

ورأى ماتعانيه المرأة من عنت الاستعباد والاستبداد والجهل فهب لايقاظها ونصرتها، حتى كتب فى (المؤيد) مقاله المشهور (المرأة والدفاع عنها) فزلزل الناس فى بغداد وفى غير بغداد، فسعو به إلى ولاة الأمر ليعزلوه، وحرشوا عليه دهماء الشعب ليقتلوه فاضطر إلى لزوم داره.

ونظم فى أعقاب عمره (ثورة فى الجحيم) ففزع المتزمتون من شرها إلى الملك فيصل؛ فلما كلمه فى ذلك قال: ماذا أصنع يامولاى: عجزت عن اضرام الثورة فى الأرض فأضرمتها فى السماء!

* * *

لم يخلد الزهاوى إلى التبطل، ولم يعش على مروءات الناس كأكثر أهل الشعر، وإنما غامر فى خطير الأمور، وطمح إلى بعيد المدارك: فلأ حياته بالأمل الدافع والعمل المثمر: عين فى بغداد عضواً فى مجلس المعارف، ثم مديراً لمطبعة الحكومة، ثم محرراً للجريدة الرسمية، ثم انتخب عضواً فى محكمة الاستئناف. ودعاه الخليفة حين نبه ذكره إلى الآستانة فحرك فيها لسان النقد، وأقض بها مضاجع الجاسوسية، فانتقض أمره وساء مقامه. ولما أعلن الدستور عين أستاذاً للفلسفة الاسلامية فى (المكتب الملكى)، ثم مدرساً للآداب العربية فى (دار الفنون)؛ ثم عاد إلى بغداد فعين أستاذاً للشريعة فى مدرسة الحقوق، ثم انتخب نائباً عن العراق فى مجلس المبعوثان؛ وهو فى خلال ذلك كله حركة ذهنية دائرة، وجملة عصبية ثائرة. لايفتر ليله عن الشعر أو القراءة، ولا يكل نهاره عن الحديث أو الكتابة، حتى غلب الترك وأديل منهم فى بغداد للعرب، فكان الشأن لأصحاب الجيش وأقطاب السياسة؛ أما الزهاوى وأمثاله من رجال الفكر والشعر فاتخذوا طريقهم على الهامش. وكان الشاعر قد ألقى للمجد معاذيره من انسراق القوى واستحكام العلل، فبات يرسل الأقباس والأضواء من جسمه المتهدم وقلبه المنضرم حتى خمد.

(للكلام بقية) احمد حسن الزيات

أبو حنيفــة

ولـكن بغير فقه

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قد انتهينا فى الأدب الى نهاية صحافية عجيبة ، فأصبح كل من يكتب ينشر له ، وكل من ينشر له يعد نفسه أديبا ، وكل من عد نفسه أديبا جاز له أن يكون صاحب مذهب وأن يقول فى مذهبه ويرد على مذهب غيره

فعندنا اليوم كلمات ضخمة تدور فى الصحف بين الأدباء كما تدور أسماء المستعمرات بين السياسيين المتنازعين عليها ، يتعلق بها الطمع وتنبعث لها الفتنة وتكون فيها الخصومة والعداوة، منها قولهم : أدب الشيوخ وأدب الشباب ؛ ودكتاتورية الأدب وديمقراطية الأدب ، وأدب الألفاظ وأدب الحياة ، والجمود والتحول ، والقديم والجديد . ثم ماذا وراء ذلك من أصحاب هذه المذاهب ؟

وراء ذلك أن منهم أبا حنيفة ولكن بغير فقه ، والشافعى ولكن بغير اجتهاد ، ومالك ولكن بغير رواية ، وابن حنبل ولكن بغير حديث . أسماء بينها وبين العمل أنها كذب عليه وأنه رد عليها .

وليس يكون الأدب أدباً الا اذا ذهب يستحدث ويخترع على ما يصرفه النوابغ من أهله حتى يؤرخ بهم فيقال أدب فلان وطريقة فلان ومذهب فلان ، إذ لا يجرى الأمر فيها علا وتوسط ونزل الا على إبداع غيرَ تقليد ، وتقليد غيرَ اتباع ، واتباع غيرَ تسليم ؛ فلا بد من الرأى ونبوغ الرأى واستقلال الرأى حتى يكون فى الكتابة إنسان جالس هو كاتبها ، كما أن الحيَّ الجالس فى كل حي هو مجموعه العصبى ، فيخرج ضرب من الآداب كأنه نوع من التحول فى الوجود الانسانى يرجع بالحياة الى ذرات معانيها ، ثم يرسم من هذه المعانى مثل ما أبدعت ذرَّاتُ الخليقة فى تركيب من تركيب ، فلا يكون للأديب تعريف الا أنه المقلد الالهى . (1)

وإذا اعتبرنا هذا الأصل فهل يبدأ الأدب العربى فى عصرنا أو ينتهى ؛ وهل تراه يعلو أو ينزل ؛ وهل يستجمع أو ينفض ، وهل هو من قديمه الصريح بعيد من بعيد أو قريب من قريب أو هو فى مكان بينهما ؟

هذه معانٍ لو ذهبتُ أفصلها لاقتحمت تاريخاً طويلا أمرُّ فيه بعظام مبعثرة فى ثيابها لا فى قبورها ... ولكنى موجز مقتصر على معنى هو جمهور هذه الأطراف كلها ، وإليه وحده يرجع ما نحن فيه من التعادى بين الأذواق والإسفاف بمَنَازع الرأى والخلط والاضطراب فى كل ذلك ؛ حتى أصبح أمر الأدب على أقبحه ، وهم يرونه على أحسنه ، وحتى قيل فى الأسلوب أسلوب تلغرافى ، وفى الفصاحة فصاحة عامية ، وفى اللغة لغة الجرائد ، وفى الشعر شعر المقالة ، ونجمت الناجمة من كل علة . ويُزَيِّن لهم أنها القوة قد استحصفت واشتدت ، ونازع الأدب العربى إلى سخرية التقليد وإلى أن يكون لصيقاً دَعِيًّا فى آداب الأمم ، واستهلكه التضييعُ وسوء النظر له على حين يؤَتَّى لهم أن كل ذلك من حفظه وصيانته وحسن الصنيع فيه ومن توفير المادة عليه

أين تصيب العلة إذا التمستها ؟ أفى الأدب من لغته وأساليب لغته ، ومعانيه وأغراض معانيه ؟ أم فى القائمين عليه فى مذاهبهم ومناحيهم وما يتفق من أسبابهم وجواذبهم ؟

إن تقل إنها فى اللغة والأساليب والمعانى والأغراض ، فهذه كلها تصير إلى حيث يُراد بها ، وتتقلد البليَّةَ من كل من يعمل فيها ؛ وقد استوعبتْ واتسعت ومادَّت العصورَ الكثيرة إلى عهدنا فلم تؤتَ من ضيق ولا جمود ولا ضعف . ثم هى مادة ولا عليها ممن لا يحسن أن يضعَ يدَه منها حيث يملأ كفَّه أو حيث تقع يدُه على حاجته

وإن قلت إن العلة فى الأدباء ومذاهبهم ومناحيهم ودواعيهم وأسبابهم ، سألناك : ولمَ قصَّروا عن الغاية ، ولم وقعوا بالخلاف ، وكيف ذهبوا عن المصلحة ، وكيف اعتقمت الخواطر وفسدت الأذواق مع قيام الأدب الصحيح فى سَببه مقامَ أمة من أهله أعراباً وفصحاء وكتّاباً وشعراء ؛ ومع انفساح الأفق العقلى فى هذا الدهر واجتماعه من أطرافه لمن شاء ؛ حتى لتجد عقول

(1) استوفينا هذه المعانى فى مقالة « الادب والاديب » من مقالاتنا فى الرسالة

نوابغ القارّات الخمس تحتقب فى حقيبة من الكتب . أو تُصَندَقُ (١) فى صندوق من الأسفار

كيف ذهب الأدباء فى هذه العربية نشراً متبددين تعلو بهم الدائرة وتهبط ، فكلٌّ أعلى وكل أسفل . هذا فلان شاعر قد أحاط بالشعر عربيه وغربيه وهو ينظمه ويفتنُّ فى أغراضه ويولد ويسرق وينسخ ويمسخ ، وهو عند نفسه الشاعر الذى فقدته كل أمة من تاريخها ، ووقع فى تاريخ العربية وحدها ابتلاء ومحنة ؛ وهو ككل هؤلاء المغرورين يحسبون أنهم لو كانوا فى لغات غير العربية لظهروا نجوما ، ولكن العربية جعلت كلا منهم حصاة بين الحصى . وتقرأ شعره فاذا هو شعر تتوهم من قراءته تقطيع ثيابك ، إذ تجاذب نفسك لتفر منه فراراً .

وهذا فلان الكاتب الذى والذى . . . والذى يرتفع إلى أقصى السموات على جناحى ذبابة .

وهذا فرعون الأدب الذى يقول : أنا ربكم الأعلى . وهذا فلان وهذا فلان .

أين يكون الزمام على هؤلاء وأمثالهم ليعرفوا ما هم فيه كما هم فيه ، وليضبطوا آراءهم وهواجسهم ، وليعلموا أن حسابهم عند الناس لا عند أنفسهم ، فالواحدة منهم واحدة وإن توهموها مائة وتوهمها بعضهم ألفاً أو ألفين . ومتى قال الناس : غلطوا فقد غلطوا ، ومتى قالوا : سخفاء فهم سخفاء .

وأين الزمام عليهم وقد انطلقوا كأنهم مسخرون بالجبر على قانون من التدمير والتخريب ، فليس فيهم إلا طبيعة مكابرة لا إقرار منها ، باغية لا إنصاف معها . نافرة لا مساغ إليها ، متهمة لا ثقة بها ، طبيعة يتحول كل شىء فيها إلى أثر منها كما يتحول ماء الشجر فى العود الرطب المشتعل إلى دخان اسود .

***

يرجع هذا الخلط فى رأيى إلى سبب واحد : هو خلو العصر من إمام بالمعنى الحقيقى يلتقى عليه الإجماع ويكون ملء الدهر فى حكمته وعقله ورأيه ولسانه ومناقبه وشمائله ، فان مثل هذا الإمام يُخَصُّ دائما بالإرادة التى ليس لها إلا النصر والغلبة ، والتى تعطى القوة على قتل الصغائر والسفاسف ؛ وهو إذا ألقى فى الميزان عند اختلاف الرأى ، وُضع فيه بالجمهور الكبير من أنصاره والمعجبين بآدابه ، وبالسواد الغالب من كل الفاعليّات المحيطة به والمنجذبة إليه ؛ ومن ثَمَّ تتهيأ قوة الترجيح ويتعيَّن اليقين والشكر . والميزان اليوم فارغ من هذه القوة فلا يرجح ولا يعيِّن

ومكانة هذا الإمام تحدُّ الأمكنة ، ومقداره يزنُ المقادير ، فيكون هو المنطق الإنسانى فى أكثر الخلاف الإنسانى : تقوم به الحجة فتلزم وإن أنكرها المنكر ، وتمضى وإن عاند فيها المعاند ، ويؤخذ بها وإن أصرَّ المصرُّ على غيرها . لأن بالإجماع على القياس يَبين التطرفُ فى الزيادة أو التقصير ؛ والإجماع إذا ضَرَب ضرب المعصية بالطاعة ، والزيغَ بالاستقامة ، والعنادَ بالتسليم ؛ فيخرج من يخرج وعليه وَسْمُه ، ويزيغ من يزيغ وفيه صفتُه ، ويصيرُ المكابر واسمُه المكابر ليس غير وإن هو تكذَّب وتأوّل ، وإن زعم ما هو زاعم

ولكل القواعد شواذّ ولكن القاعدة هى إمام بابها ؛ فما من شاذّ يحسب نفسه منطلقاً مخلًّى ، إلا هو محدود بها مردود إليها ، متصل من أوسع جهاته بأضيق جهاتها ؛ حتى ما يعرف أنه شاذّ إلا بما تعرف به أنها قاعدة ؛ فيكون شأنه فى نفسه بما تعيّن هى له على مَكرَهته ومحبته

والامام ينبث فى آداب عصره فكراً ورأياً ، ويزيد فيها قوة وإبداعاً ، ويزين ماضيها بأنه فى نهايته ، ومستقبلها بأنه فى بدايته ، فيكون كالتعديل بين الأزمنة من جهة ، والانتقال فيها من جهة أخرى ؛ لأن هذا الامام إنما يختار لإظهار قوة الوجود الانسانى من بعض وجوهها وإثبات شمولها وإحاطتها كأنه آية من آيات الجنس يأنَسُ الجنسُ فيها إلى كماله البعيد ، ويتلقى منه حكم التمام على النقص ، وحكم القوة على الضعف ، وحكم المأمول على الواقع ، ويجد فيه قومه كما يجدون فى الحقيقة التى لا يكابر عندها متنطع بتأويل ، وفى القوة التى لا يخالف عندها مبطل بعناد ، وفى الشريعة التى لا يروغ منها متعسف بحيلة . ولن يضل الناس فى حق عرفوا حده ، فان ماوراء الحد هو التعدى ؛ ولن يخطئوا فى حكم أصابوا وجهه ، فان ما عدا الوجه هو الخلاف والمراء .

وقد طبع الناس فى باب القدوة على غريزة لا تتحول ، فمن انفرد بالكمال كان هو القدوة ، ومن غلب كان هو السمت ، ولابد

(١) كلمة وضعناها على قياس تحتقب

لهم ممن يقتاسون به ويتوازنون فيه حتى يستقيموا على مراشدهم ومصالحهم ، فالامام كأنه ميزان من عقل ، فهو يتسلط فى الحكم على الناقص والوافى من كل ما هو بسبيله ، ثم لا خلاف عليه إذ كانت فيه أوزان القوى وزناً بعد وزن ، وكانت فيه منازل أحوالها منزلة بعد منزلة .

هو إنسان تتخير بعض المعانى السامية لتظهر فيه بأسلوب عملى ، فيكون فى قومه ضرباً من التربية والتعليم بقاعدة منتزعة من مثالها مشروحة بهذا المثال نفسه ، فإليه يرد الأمور فى ذلك ويتلوه يتلى وعلى سبيله ينهج ، فما من شىء يتصل بالفن الذى هو إمام فيه ، إلا كان فيه شىء منه ؛ وهو من ذلك متصل بقوى النفوس كأنه هداية فيها لأنه بفنه حكم عليها . فيكون قوة وتنبيهاً وتسهيلا وإيضاحاً ، وإبلاغاً وهداية ، ويكون رجلا وإنه لمعان كثيرة ، ويكون فى نفسه وإنه لفى الأنفس كلها . ويعطى من إجلال الناس ما يكون به اسمه كأنه تخلق من الحب طريقته على العقل لا على القلب .

ولعل ذلك من حكمة إقامة الخليفة فى الاسلام ووجوب ذلك على المسلمين ، فلابد على هذه الأرض من ضوء فى لحم ودم ، وبعض معانى الخليفة فى تنصيبه كبعض معانى « الشهيد المجهول » فى الأمم المحاربة المنتصرة المتمدنة : رمز التقديس . ومعنى المفاداة وصمت يتكلم ، ومكان يوحى ، وقوة تستمد ، وانفراد يجمع ، وحكم الوطنية على أهلها بأحكام كثيرة فى شرف الحياة والموت بل الحرب مخبوءة فى حفرة ، والنصر مغطى بقبر ، بل المجهول الذى فيه كل ما ينبغى أن يعلم .

* * *

فعصرنا هذا مضطرب مختل إذ لا إمام فيه يجتمع الناس عليه ، وإذ كل من يزعم نفسه إماما هو من بعض جهاته كأنه أبو حنيفة ولكن بغير فقه .

ولعمرى ما نشأ قولهم « الجديد والقديم » إلا لأن هنا موضعا خاليا يظهر خلاؤه مكان الفصل بين الناحيتين ويجعل جهة تنحاز من جهة ، فمنذ مات الامام الكبير الشيخ محمد عبده رحمه الله جرت أحداث ، وتأت رءوس ، وزاغت طبائع . وكأنه لم يمت رجل بل رفع قرآن .

(طنطا) **مصطفى صادق الرافعي**

جيلان

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

« ألا تعرفنى ما هذا الجديد ؟ » .

ولم يكن كلامنا فى الأدب أو الفنون وإنما كانت المساكن والأحياء هى مدار الحديث . وكان الرجل يناهز الستين ولكنه فى نشاط ابن العشرين ، وأنا آنس به وأسكن إليه . ويسرنى أن أجلس بين يديه وأصغى — أو لعل الأصح أن أقول أنظر — إلى عباب حديثه المتحدر فقد كان يذكرنى بالبحر ويروعنى مثله بمثل فيضه الزاخر

فقلت له « ياسيدى ، العارف لايعرف . . ولكنى أستأذنك فى أن أقول لك إنكما جيلان — أنت وبنوك — ومن حقك أن تتبرم بهم وتسخط على نزعتهم فى الحياة وتستسخف مطالبهم فيها وغاياتهم منها . . أنت حر فى ذلك ولكن من حقهم أيضاً أن يضجروا منك لأنهم ينزعون غير نزعتك وأن يطلبوا من الحياة غير ما تطلب ، لأن وجوهها اختلفت . وأظن أن هذا عدل »

فصاح بى : « عدل ؟ . كيف تقول ؟ . عدل أن يخرجونى من بيتى ويحملونى إلى حى أنا فيه غريب لا أشعر إلا بالوحشة ؟ . ويقصونى عن أحبابى وأصحابى وعشراء الصبى وأخدان العمر كله ؟ . ماعيب بيتنا بالله ؟ . إنى لست متعنتا . . أنت تعرف بيتنا فهل تعرف فيه عيباً ؟ »

قلت « كلا . . وأشهد أن لاعيب فيه . . واسع وصحى وأسباب الراحة فيه موفورة . . نعم لاعيب فيه ولكنى أعترف بأنى لو كنت ابنك لما فعلت إلا ما فعل بنوك . . أى لخرجت منه »

فقال « أنت كنت تفعل ذلك ؟ . حاشا لله . . إنك عاقل . »

قلت : « المسألة ليست مسألة عقل . . وإنما هى مسألة حياة تغيرت وجوهها وزمن اختلفت المطالب فيه »

قال : « إنى أجادلهم كل يوم . . الكلام فى هذا لا ينتهى بيننا »

قلت « وهذا حسن . . وجدتم على الأقل موضوعاً للكلام لاتخشون أن ينضب معينه »

قال : « اسمع . إنى رجل كبير وقد أديت واجبى وربيت أبنائى وهم الآن رجال يعتمدون على أنفسهم ولا يحتاجون إلى . . فرغت من هذا الأمر . . وأحب أن أقضى مابقى من عمرى فى بيتى . . بيتى أنا . . البيت الذى ورثته عن أبى وقضيت فيه خير عمرى . . بل عمرى كله . . وحولى جيرانى . . أعرفهم ويعرفوننى وأستطيع أن أجدهم عند الحاجة . . لقد رفسنى مرة حمار فى الطريق فأغمى على فلما أفقت الفيتنى فى بيتى على سريرى . . هل تعرف من حملنى ؟ . جيرانى . . عرفنى أهل الحى فحملونى إلى بيتى . لو وقع لى هذا فى الحى الجديد الذى نقيم فيه الآن لجاء الأسعاف وحملنى إلى مستشفى . . . »

قلت « معقول . . أنت تفضل أن يحملك جيرانك وأهل حيك إلى بيتك فى مثل هذه الحالة ولكن بنيك يفضلون فى مثل هذه الحالة أن يحمل المرء إلى المستشفى . . زمنك لم يكن يعرف المستشفيات فأنت تنكرها وتشفق من أن تحمل إليها ولعلك تتطير من دخول المستشفى ، وعسى أن يكون اسم المستشفى مقروناً فى ذهنك بفكرة الموت . ولكن الزمن تغير ، والرأى فى المستشفيات اختلف ، وأبناء هذا الزمن الجديد يؤثرون العلاج فى دوره المجعولة له على العلاج فى البيوت : فالذى تعده أنت مزية يرونه هم نقصاً . والذى تراه أنت شراً يعتقدون هم أنه خير . . وهذا بعض الفرق بين الزمنين »

قال : « ولكنى كبرت ياسيدى . . ماذا يضرهم لو تركونى أقضى الأيام الباقية لى كما أحب ؟ »

قلت : « إنه لا يضرهم ، وثق أنهم لا يأبون عليك ولا يكرهون لك أن تحيا حياتك على هواك ولكن تيار الزمن حملهم - وحملك معهم - إلى حيث لا تشعر . إلا بالقلق وعدم الرضى ؛ والذنب للزمن لا لهم »

قال « إنهم يضحكون منى حين أقول لهم إن بيتنا قريب من المساجد فأنا أستطيع بلا عناء أن أزور السيدة نفيسة أو السيدة زينب وأن أصلى المغرب فى سيدنا الحسين ثم أشرب الشاى المغربى البديع هناك فى قهوة من القهوات القديمة . وأنتظر حتى أصلى العشاء ثم أعود إلى البيت . . يضحكون ياسيدى ويجعلون هذا موضوعاً لفكاهاتهم . . لا يعجبهم إلا جروبى وشارع عماد الدين والسينما . . »

قلت : « أنت محق وهم غير مخطئين . . لقد فرغت من حياتك أو من واجبك فيها ، فأنت تريد أن تفرغ لربك . ولكنهم هم فى بداية الأمر وأول مراحل الحياة ، ولكل حياة بداية ونهاية ؛ ومن العنت أن تفرض عليهم فى البداية الحالات النفسية التى لا تكون إلا فى النهاية . وأنت لا تشعر بالحاجة إلى السينما مثلا لأنك لم تعتدها إذ لم يكن لها فى زمنك وجود ، وقد عشت بغيرها أكثر عمرك ففى وسعك بسهولة أن تعيش بقية العمر من غير أن يخطر لك أن السينما لازمة أو أنها ملهاة مستحبة ، ولكنهم هم نشأوا فى ظلها فصارت من وجوه حياتهم المألوفة ، وأحسبهم حين تعلو بهم السن ويفرغون من أمور الدنيا سيظلون يذهبون إلى السينما كما تذهب أنت الآن إلى المساجد للعبادة ؛ ولن يكونوا حينئذ أقل منك زهداً فى الدنيا أو انصرافاً عن باطلها أو ابتغاء لرضى الله . ومن يدرى ؟ . . عسى أن تكون هناك يومئذ أشياء جديدة غير السينما يرتادها أبناؤهم فينكر أبناؤك على أحفادك هذا الشغف بالجديد الذى جاء به الزمن كما تنكر أنت اليوم على بنيك كلفهم بالسينما . لكل زمن ياسيدى حكمه ، ولكل جيل روحه . . ويحسن بالمرء أن يوطن نفسه على ذلك »

قال : « نعم نعم . . إنى لست جامداً ولا متعنتاً بل أنا أدرك ذلك كله »

قلت « إن الادراك وحده لا يكفى ، والمعول فى مثل هذه الأمور على العادة لا على الادراك »

قال « صحيح . ولكنى مظلوم . . تصور أنى لا أشعر برمضان فى هذا الحى . . لا نسمع المدفع ، ولا يدق الباب علينا أحد ليوقظنا للسحور . . ولا نسمع الطبلة القديمة . . ولا المؤذن . . لا . . لا شىء من ذلك . وقد احتجنا إلى المنبه لنستيقظ على صوته حتى لا يفوتنا السحور . . تصور هذا . . الحق أقول لك إنى كنت لا أشعر أن هذا هو رمضان . ولا أكاد أصدق أن صيامى مقبول . . أهذا هو رمضان . . ؟ من يقول هذا ؟ . . أين الأولاد الذين يطوفون بالمصابيح فيها الشموع الموقدة . . أين صيحات فرحهم وسرورهم بليالى رمضان . . أين السهرات اللذيذة . . سهرات الإخوان فى البيوت . . إنى أحس فى هذه الشقة الضيقة التى نسكنها أنى يتيم . . صحيح »

قلت « او لست يتيما . . »

قال « أعنى أنى أشعر بوحشة .. والباقى من عمرى قليل ، وكنت أرجو أن يتركونى أقضيه فى بيتى وبعد أن أموت يمكنهم أن يصنعوا ما شاءوا .. وأظن أن هذا عدل »

قلت « عدل ؟ .. من يدرى ؟ .. هل من العدل أن تفرض على ثلاثة أو أربعة ضربا من الحياة لا يوافق إلا واحدا هو أنت ؟ .. ربما كان العدل أن تحتمل أنت ما يوافق الأربعة .. على الأقل هذا أقرب إلى العدل أو أشبه به .. العدل ؟ .. من يدرى ياسيدى .. »

قال « إنى أنظر إلى فائدتهم .. نحن الآن نخسر خمسة جنيهات كل شهر أجرا للسكنى ، ولو كنا فى بيتنا لاستطعنا أن نقتصد هذا المبلغ أو أن ننفقه فيما هو أولى وألزم .. ألست توافقنى ؟ »

قلت « تسألنى الآن فجوابى نعم ، ولو سألتنى قبل عشرين سنة لكان جوابى لا .. الشباب يفعل ما يعجبه لا ما ينفعه .. ينفق بلا حساب لأنه يشعر بفيض الحيوية ولا يشعر بالحاجة إلى التدبير والاقتصاد .. مليونير .. كيف يبالى بالقروش والملاليم ؟ »

قال « ولكن ألا ينبغى أن يفكروا فى المستقبل ويعدوا العدة للضعف ؟ .. »

قلت « إن هذا يكون أحجى ولكن الشباب رأسه مثل التليفون .. أعنى أنه يستطيع أن يقصى السماعة عن أذنه ويضعها فلا يسمع إذاً صوت النذير بالكلام الثقيل ... »

قال : « يا شيخ لا تقل هذا .. إنه جنون »

قلت « صدقت .. إنه جنون .. ولكنه جنون القوة .. والشباب ينفض عن نفسه الهموم كما تنفض عن ثيابك التراب بأصبعك .. بلا عناء ولا اكتراث .. فى وسعه ذلك لأن عباب القوة زاخر .. والعقل يجىء .. مع الضعف .. والحساب له وقته .. أوانه ، عند ما يحس المرء بأنه بدأ ينفق من رأس ماله .. ياسيدى هل تعرف مهندسا استطاع أن يوصد بوابات الخزان فى إبان الفيضان .. إنما يكون الخزن ويتيسر التدبير عند ما تفتر قوة الماء الدافق ويؤمن شر اندفاعه على كيان الخزان .. كذلك الإنسان .. هل كنت تنفق بحساب دقيق فى شبابك ؟ ... »

فأطرق ، فقلت « إنك تنسى أنك كنت كذلك .. لو استطاع الكهول أن يذكروا كيف كانوا فى شبابهم ولم يستغرقهم الإحساس بالحاضر وحده .. لعذروا ... »

قال « يعنى إنك موافق على ظلمى »

قلت « اسمع .. لو كان أبى حيا لما صبرت على معاشرته ولا أطقت الحياة معه فى بيت واحد وتحت سقف واحد .. فأبناؤك خير منى ألف مرة »

قال « إن لك أبناء ؟ »

قلت « نعم ولا أسف ولا سرور .. وسأعنى بأن أدعهم يحيون حياتهم وحدهم وعلى هواهم حين يستغنون عن هذه التكأة التى هى أنا .. »

قال « إنى لا أضيق على أبنائى .. أنا معهم كأخيهم »

قلت « ليس فى وسعك أن تضيق عليهم . وحسبك منهم أنهم أكرم من أن يضيقوا عليك .. المثل يقول : إنك لا تستطيع أن تأخذ زمانك وزمان غيرك .. ولو استطاع الإنسان ذلك لما كان عدلا »

قال « صحيح .. بس مشوار من العباسية إلى السيدة »

قلت « ألا تعلم أن الله خلق الترام »

قال « ولكنى أحب المشى .. مفيد »

قلت « فى وسعك بفضل أبنائك أن تستفيد الآن جدا من المشى »

ابراهيم عبد القادر المازنى

البزيع (*)
أعوذ بالله !

للأستاذ محمد اسعاف النشاشيبي

كانت الصحف قد ذكرت أن أحد أعضاء (مجمع اللغة العربية الملكي) اختار (البزيع) لفظة عربية (للجنتلمان) وروت (البزيع) بالذال لا بالزاي ـ فأمليت هذا القول:

في (القاموس المحيط): «البذع الفزع، والمبذوع المذعور المفزع، وصبح بن بذيع محدث خراساني»

والخراساني (والله) مخيف، وما سمي (بذيع) بذيعاً إلا لأنه كان يبذع الناس، أو جاء يوم قبلته [1] القابلة مشيّأً [2] هولة [3]

فهل غزا (عضو مجمع اللغة العربية الملكي) هذه الكلمة المبذعة أم أراد (البزيع) بالزاي وهو الغلام الظريف الذي يتكلم ولا يستحي؟ ففي (اللسان): «بزُع الغلام بزاعة فهو بزيع وبُزاع: ظرف وملح، والبزيع الظريف، قال أبو الغوث: غلام بزيع: أي متكلم لا يستحي، وغلام بزيع وجارية بزيعة ولا يقال إلا للأحداث»

فبزيع ليست لجنتلمان، وان كان هؤلاء (الجنتلمنات) الانكليز قد عادوا يقولون ويفعلون ولا يستحون!

أجل، قد جاء في (اللسان) أيضاً: «والبزيع السيد الشريف» لكن ليس من (أدب النفس) أن تسوء الرجل (السري [4]) أو الكامل أو الفتى المهذب أو السيد الشريف بصفة شركه فيها الغلام الحدث

(*) من كتاب (أمالي النشاشيبي في أوقات الضحى) وهو في التهيئة للطبع

(١) قبلت القابلة الولد: تلقته عند خروجه

(٢) مشيأ: مختلف الخلق كأنّ فيه من كل قبح شيئا

(٣) الهولة: الكريه المنظر، وكل ما هالك يسمى هولة

(٤) البنيري هو المرزيه الشريف، والسرو او السراوة المروءة والشرف أو المروءة في شرف فـ (السري) عندي خير لفظة عربية لتلك الأعجمية (الجنتلمان) وقد فصلت ذلك في مقالتين في (الرابطة العربية)

وفي (تهذيب الألفاظ) لابن السكيت: «البزيع الظريف الحلو المجزيء. والحلو الذي يستخفه الناس يكون خفيفاً على أفئدتهم»

وتعريف (التهذيب) ـ وإن لم يكن فيه قلة حياء ـ فيه الخفة، ووصف «سري» ـ بأنه حلو خفيف ـ مؤلم مرثقيل عليه

وما أرى هذه الكلمة البزيعية الباذعة إلا من طغام الكلام [1] ولن يحسبها الأدباء العربيون [2] في قبيل (اللسان المبين). والجزيرة أقاليم، والعربية لغات، والعرب أمم

وبزيع الجماعة يذكرنا بقصة (بوزع) وهي فوعل من البزيع، وقد رواها أبو الفرج في كتابه، والبغدادي في خزانته، وهذا بعضها وهو المهم المقصود في الحكاية:

«قال جعفر بن أبي جعفر المنصور المعروف بابن الكردية لحماد الراوية:

أنشدني لجرير، فأنشده:

بان الخليط برامتين فودعوا أو كلما اعتزموا لبين تجزع؟

واندفع ينشده اياها حتى انتهى الى قوله:

وتقول بوزع:

قد دببت على العصا هلا هزئت بغيرنا يا بوزع؟

قال حماد: فقال لي جعفر: أعد هذا البيت، فأعدته: فقال: بوزع إيش هو؟ قلت: اسم امرأة.

فقال: امرأة اسمها بوزع؟ هو بريء من الله ورسوله ونفي من العباس بن عبد المطلب ان كانت بوزع الا غولا من الغيلان. تركتني (والله) يا هذا لا أنام الليل من فزع بوزع.. ياغلمان. قفاه...»

واني لو سمعت أعضاء (مجمع اللغة العربية الملكي) يتجادلون في (ديوانهم) في (بزيع وجنتلمان) لصحت: ياقوم، انبذوا (البزيع) وخذوا (الجنتلمان) فما (فلان) واضراب (فلان) باقرب إلى مصر والعربية من (جورج لويد) و (برسي لورين)!

محمد اسعاف النشاشيبي

(١) من طغام الكلام: من فسله، وفي سجعات الأساس: كلام الطغام طغام الكلام

(٢) قالوا: فارسي وفارسيون فقيل عربي وعربيون وفي المفضليات للمرقش الأكبر «كالفارسيين مشوا في الكمم»

فى أفق السياسة الدولية

السلام المسلح

بقلم باحث دبلوماسى كبير

السلام المسلح هو بلا ريب شعار السياسة الدولية هذا العام فالدول العظمى تتسابق كلها فى ميدان التسليح بحماسة لم يسمع بها فى التاريخ ، ومع ذلك فالدول تؤكد نياتها السلمية ، وتدعى جميعاً أنها تقوى أهباتها الدفاعية دفعاً للاعتداء وتقريراً للسلم ؛ وقد كانت انكلترا إلى ما قبل أشهر قلائل أقل الدول العظمى تأثراً بهذه الحمى فى سبيل التسليح ، ولكنها اليوم تنزل إلى نفس الميدان ببرنامج للتسليح يفوق بضخامته كل ما عرف حتى اليوم ، وترصد لهذا البرنامج اعتماداً يبلغ ألفاً وخمسمائة مليون من الجنيهات ، وهو إسراف لم يسبق أن عرفته الامبراطورية البريطانية فى تاريخها الحافل رغم اهتمامها دائماً بشئون التسليح والدفاع ، وفى نفس الوقت الذى تتقدم فيه السياسة البريطانية بهذا البرنامج العسكرى الهائل تتقدم إلى العالم بنفس التأكيدات السلمية التى لم تنقطع عن ترديدها طيلة الأعوام الأخيرة ، وتعلن أنها لا تتسلح إلا دفاعاً عن نفسها وحفظاً لكيانها ومصالحها ، وتأييداً للسلام العالمى الذى كانت قوة بريطانيا العظمى دائماً عاملا كبيراً فى تعزيزه وتأييده

والسياسة البريطانية لا تخفى أنها كانت مسرفة فى حسن الظن بالعهود والمواثيق الدولية ، وفى الاعتماد على مبادىء السلم وحسن التفاهم بين الأمم ، وانها كانت مقصرة فى مجاراة الأمم الأخرى فى التسليح بالدرجة التى يقتضيها مركزها الدولى ، ومصالحها الامبراطورية العظيمة ، فهى الآن تجرى على نفس سياسة السلم المسلح التى جرت عليها الدول الأخرى ، بعد أن أيقنت أن التخلف فى هذا المضمار يعتبر خطراً على هيبتها الدولية وعلى سلامتها وسلامة امبراطوريتها المترامية الأطراف ، وبعد أن لمست عن قرب هذا الخطر جاثماً يتربص بها ويحاول أن يجد فرصة فى نقص أهباتها الدفاعية ، وهى تعود اليوم فترى أن الوسيلة العملية الوحيدة لاسترداد مكانتها الدولية ، وتأييد كلمتها وإرادتها وحفظ سلامتها وطمأنينتها ، هى أن تضاعف أهباتها فى التسليح حتى تستطيع أن تسحق أية قوة فى العالم تفكر فى مناوأتها والاعتداء عليها

وليس من العسير أن نستشف بواعث هذا التطور الحاسم فى السياسة البريطانية الحالية وتحولها إلى خطة السلام المسلح ، بعد أن كانت تعتمد على المواثيق الدولية والسلامة المشتركة والجهود السياسية ، ففى حوادث العام الماضى تفسير شاف لهذه البواعث ، وأولها وأهمها بالطبع هى المسألة الحبشية التى فتحت عيون السياسة البريطانية إلى حقائق لم تحسن تقديرها ، فقد دبرت ايطاليا اعتداءها على الحبشة عامدة متعمدة ، وغزتها واستولت عليها بوسائل عنيفة وحشية هى أدنى إلى القرصنة منها إلى الحرب الحقيقية ، ولم تعبأ بالمعاهدات المعقودة والمواثيق المقطوعة ولا بكون الحبشة من أعضاء عصبة الأمم ؛ وحاولت السياسة البريطانية أن تحشد دول العصبة ضد إيطاليا فى جبهة أدبية اقتصادية تقاومها بالاستنكار والمقاطعة ، فلم تحفل إيطاليا بهذا السلاح السلبى وسخرت منه كما سخرت من السياسة البريطانية ومحاولتها ، وانتهى الأمر باستيلائها على الحبشة ، ووطدت بذلك سلطانها الاستعمارى فى شرق افريقية بجوار السودان ومنابع النيل وكنيا وشرق أفريقية البريطانى . ولم يكن موقف السياسة البريطانية يومئذ دفاعاً عن الحبشة ذاتها ، وإنما كان وسيلة للدفاع عن مصالح الامبراطورية ، لأن قيام العسكرية الفاشستية فى الحبشة على هذه الصورة المتحفزة يهدد سلامة الأملاك البريطانية ويهدد المواصلات الامبراطورية فى البحر الأحمر ، وتوطد سلطة إيطاليا الاستعمارية يهدد سياسة بريطانيا البحرية فى البحر الأبيض المتوسط ، ولم تستطع بريطانيا العظمى يومئذ أن تلجأ إلى سلاح العنف لمقاومة المشروع الايطالى . ولم تحاول أن تغلق قناة السويس فى وجه القوات الايطالية لأنها أدركت يومئذ أنها ليست مستعدة للطوارىء تمام الاستعداد ، وأن من الخطر أن تدخل مع العسكرية الفاشستية المتوثبة فى معركة لا تؤمن عواقبها لهذا كله اكتفت بمراقبة الحوادث ، وشهدت على كره منها ومضض ظفر الفاشستية بغزو الحبشة وقيام الامبراطورية الايطالية الاستعمارية ، وشهدت انهيار سياستها القائمة على تحريك العصبة ؛ ولم يخف على السياسة البريطانية ما أحدثه ذلك الفشل

من صدع لهيبتها ونفوذها الدولى . ولم يخف عليها أنها كانت قصيرة النظر حينما اعتمدت على فكرة السلامة المشتركة . وتخلفت فى مضمار التسليح حتى تفوقت عليها فيه أمم أخرى أصبحت تناوئها الآن وتشاكسها

وفى نفس الوقت الذى نفذت فيه إيطاليا اعتداءها على الحبشة على هذا النحو المثير ، أعلنت ألمانيا نقضها لميثاق لوكارنو الذى يكفل سلامة حدود الرين ، كما أعلنت نقضها لآخر النصوص العسكرية فى معاهدة الصلح المتعلقة بتحريم التسليح فى منطقة الرين . وانكلترا من الدول الموقعة على ميثاق لوكارنو . ومع أنها لم تتأثر بتصرف ألمانيا قدر ما تأثرت فرنسا فإنها رأت فى انهيار هذا الميثاق الذى كان يعد ضماناً قوياً للسلام فى غرب أوربا نذيراً سيئاً بانهيار فكرة السلام المشتركة وتقويض صرح السلام الأوربى ، ورأت فيه بالأخص ضربة أليمة لشرعية العهود والمواثيق تنذر بانهيار سلطان القانون الدولى ، وتبعث إلى الريب فى قيمة العهود الدولية ، وتحمل على عدم الاطمئنان إليها ، ما لم تكن من ورائها القوة الكافية لتأييدها وضمان تنفيذها

ثم كانت المشكلة الأسبانية ، وتدخل ألمانيا وايطاليا فيها الى جانب الثوار الأسبانيين لاقامة حكومة عسكرية فاشستية فى أسبانيا ؛ وقد لمحت انكلترا منذ البداية شبح الخطر الذى يجثم من وراء هذا التدخل ، وأدركت فى الحال أن قيام حكومة فاشستية فى أسبانيا تؤيدها ايطاليا والمانيا ، وكلتاهما تضطرم طموحا الى الفتوح الاستعمارية ، مما يهدد سيادتها فى غرب البحر الأبيض المتوسط ، وهى سيادة تحرص عليها بالسهر على مدخل هذا البحر من مضيق جبل طارق ، وهو توجس لم تلبث ان حققته تطورات الحرب الأسبانية ، وتدفق الجنود الايطالية والألمانية الى أسبانيا ، وما قامت به الدولتان من المناورات الاستعمارية المزعجة فى جزر البليار ومراكش الاسبانية

إزاء ذلك كله شعرت انكلترا بحقيقتين بارزتين ، الأولى ان هناك خطرا حقيقيا على سيادتها فى البحر الأبيض يتفاقم يوما بعد يوم ؛ وان ايطاليا الفاشستية تبذل جهودا جبارة لتحطيم هذه السيادة ؛ والثانية أن سلام أوربا لم يعد مكفولا ، وان ألمانيا وايطاليا المدججتين بالسلاح أصبحتا بما لهما من القوة العسكرية تتحكمان فى سلام القارة ، وتهددانه فى كل لحظة بنزعاتهما واطماعهما العنيفة . وأنه أضحى من العبث ان تعتمد السياسة البريطانية على سياسة العهود والمواثيق والسلامة الاجتماعية ، وأنه لا بد من اعتمادها على القوة للدفاع عن سلامتها ومصالحها الامبراطورية الواسعة : ومع ان انكلترا عقدت فى يناير الماضى مع ايطاليا اتفاقا باحترام الحالة القائمة فى البحر الأبيض ، والاعتراف بالمصالح المتبادلة وهو ما يسمونه باتفاق الجنتلمان ، فان السياسة البريطانية لم تكن ترى فيه على ما يظهر اكثر من وسيلة لتهدئة الحالة وتسكين الأعصاب المضطربة واكتساب الوقت ؛ بل يلوح لنا ان هذا الاتفاق الذى علقت عليه يوم عقده آمال كبيرة ، ينهار اليوم من أساسه . لأن ايطاليا رأت فى برنامج التسليح البريطانى . وفى دعوة الحكومة البريطانية للنجاشى الى حفلات التتويج ، ما يسوغ لها الارتياب فى موقف السياسة البريطانية ، والسير فى سياستها العسكرية المطلقة دون تردد أو تقيد

وقد كان لهذا التحول فى السياسة البريطانية . والتجاء بريطانيا الى سياسة التسليح الشامل وقع عميق فى المانيا وايطاليا : ومما يلاحظ انه وقع على أثر اثارة المانيا لمسألة المستعمرات ومطالبتها بمستعمراتها القديمة بصورة رسمية ، ورد انكلترا على مطالبها بالرفض المطلق ؛ وقد أكد مستر ايدن وزير الخارجية البريطانية فى عرضه لسياسة بريطانيا الخارجية . ان بريطانيا لا ترمى بالتسلح الى أية غاية اعتدائية ، ولا تفكر مطلقا فى تعكير السلم . وكل ما ترمى اليه هو الدفاع عن سلامتها وسلامة أملاكها ومصالحها الامبراطورية . ولم يخف الوزير أن ما شعرت به بريطانيا من خيبة الأمل فى قيمة العهود والمواثيق الدولية وقيمة السلامة المشتركة كان من أعظم بواعث هذه السياسة ، ولم يخف ان اخفاق العصبة في المسألة الحبشية كان صدمة أليمة للعصبة ولجميع الدول التى تؤمن بمبادئها . بيد ان السياسة البريطانية ما زالت تؤمل فى مستقبل العصبة ومستقبل مبادئها السلمية الحرة . على أن هذه التصريحات الملطفة لم تخف الحقيقة البارزة فى تسلح بريطانيا ، وهى انه رد عملى على تسلح المانيا وايطاليا ، ورد القوة على القوة ، واعتزام التذرع بالعنف لرد العنف . ولن يستطيع منصف ان يلوم السياسة البريطانية على هذا التحول الذى اضطرت اليه بمثل هذه البواعث الحيوية القاهرة . ولكن برلين وروما لا تريان هذا الرأى . أما برلين فلا تؤمن بما تقوله السياسة البريطانية فى تبرير

هذا التسلح . بل ترى فيه تحديا وتهديدا خفيا لها لتأييد السياسة التى ترمى الى حرمانها من مستعمراتها ومطامعها الاستعمارية والاقتصادية المشروعة ، وأما رومة فلا تشك انه موجه اليها توجيها مباشرا لحرمانها من ثمرات تفوقها العسكرى وانتصارها فى الحبشة وتهديد سلامة امبراطوريتها الاستعمارية التى كسبتها بسيفها ، ولذلك رأينا المجلس الفاشستى الأعلى يجتمع بسرعة ويقرر مواصلة التسليح دون هدنة أو توقف . وان يترك فكرة الاتفاق على تحديد التسليح نهائيا ، وسيقترن هذا القرار باجراء مناورات بحرية وجوية كبرى فى مياه المضيق الواقع بين طرابلس وصقلية ، وهو المضيق الذى قد تفكر ايطاليا فى اغلاقه فى حالة الحرب لتقطع المواصلات البريطانية فى البحر الابيض المتوسط

وهكذا نرى معركة التسليح تضطرم بين الدول الكبرى . ولا ننس ان فرنسا قد اقرت كذلك برنامجا هائلا للتسليح ، وان روسيا السوفيتية قد دججت سلاحا وأضحت أقوى دول القارة. بيد أنه مما لا ريب فيه أن للتسليح البريطانى آثارا يغتبط لها أنصار السلام ، ذلك أن بريطانيا لا تطلب مزيداً فى السلطان والملك ، ولا تفكر فى فتوحات أو غزوات استعمارية جديدة ، وانما تريد الدفاع عن امبراطوريتها القائمة . ومقاصدها الدفاعية ظاهرة لا ريب فيها ، وفى وسع بريطانيا متى أتمت تسليحها واستكملت قوتها أن تغدو بمالها من الكلمة النافذة والقوة المرهوبة عاملا حاسما فى استتباب السلم العالمى (...)

فى الأدب المقارن

الحرب

فى الأدبين العربى والانجليزى

للأستاذ فخرى أبو السعود

حب الحياة والاقبال على متعاتها والرغبة فى التكثر من خيراتها مركب فى طبائع الأحياء . وليس لحاجات الحى ورغباته ومطامعه نهاية ، بل تبقى له حاجة ما بقى كما قال الشاعر ؛ والنزاع بين الأحياء على خيرات الحياة من أجل ذلك متصل لا يفتر ، وهيهات يفتر وحب الخلاف والنزاع والجلاد ذاته بعض طبائع الأحياء ، والشغف بالقلب والتخايل بالقوة والزهو بالسيادة من أكبر مطامع الأحياء والانسان خاصة ، ومن ثم عرف الانسان الحرب من أول عصوره واشتغل منذ همجيته بمكافحة الأحياء من الوحش ومن أبناء جنسه ، وتم له النصر من قديم على أمة الوحش ، وما تزال معارك الانسان مع أخيه - أو عدوه - الانسان متصلة تشب بين حين وحين

وقد كابد الانسان فى شتى العصور أهوال الحروب وعلم علم اليقين عواقبها الوخيمة ؛ بيد أنه لم يستطع بعد أن ينبذها ، لقيامها على غرائز فى طبعه راسخة متأصلة ، ولما تليح به أمام عينيه من مزايا النصر ومغانمه ومجده ولألائه ، ومن ثم كانت مهمة دعاة السلم من أشق المهام ومطلبهم من أبعد المطالب ، وقد هبوا فى الفترة بعد الفترة ينددون بالحرب وبلاياها ومغباتها ، فكانت صيحاتهم تترك صداها فى نفوس الكثيرين ، لا سيما فى أعقاب الحروب الطاحنة التى أهلكت الحرث والنسل ، ثم لا تلبث غرائز الانسان الفطرية أن تعاوده على أشدها ، وتبدأ الأمم سيرتها الأولى من الطمع والتفانى وتحكم القوة التى لا يفصل سواها بين المطامع المتضاربة

وللحرب آثارها المشهودة فى أدب كل أمة بلا استثناء . ولتلك الآثار ثلاث نواح : فالحرب أولا من أهم وسائل اتصال الأمم واختلاط الأفكار وتلاقح الثقافات ؛ وهى ثانياً وحى الجم الغفير من نظم الشعراء ونثر الكتاب الواصفين لوقائعها وسلاحها ورجالها الممجدين لأبطالها وانتصاراتهم ، المفاخرين بما كان دحر الأعداء وحماية الذمار وسلامة الشرف الرفيع من الأذى ؛ والحرب من جهة ثالثة أوحت بآثار أدبية شتى فى تبغيض القتال ، وتسفيه اعتداء

الانسان على الانسان ، والحض على السلم والدعوة إلى الاخاء والصفاء وإن كان أثر هذه الدعوة فى الأدب أقل كثيراً مما فيه من الترنم بمجد الانتصار والتغنى بالعز والغلب ، ولم تكثر آثار تلك الدعوة فى الأدب إلا فى العصر الحديث

وكل هاتيك الآثار بينة فى الأدبين العربى والانجليزى . فقد خبت الأمتان وأوضعتا فى مجال الحروب . وكان بين كل منهما وبين جيرانها وأعدائها ملاحم ومواقع جسام ، وشهد أدبها قيام نهضة حربية عظيمة وتشييد أمبراطورية واسعة ، وأنجبت كل منهما عظماء القادة وحازت مشهود الانتصارات ، وذاقت أحيانا مرارة الهزيمة ، ووقفت مراراً حيال الأخطار الجائحة التى تهدد كيانها وحريتها وتقاليدها ، وشهدت الكثير من أمثال هذا كله يجرى بين الدول المجاورة والأمم المغاصرة لها ، وعلى كثرة ما يحتويه الأدب الانجليزى من آثار كل ذلك فان ما فى الأدب العربى منه أكثر ، وذلك لأسباب عديدة :

فأولا ارتقى الأدب العربى وتوطد والأمة العربية ما تزال منشقة متناضلة ، تتفاخر قبائلها بأيامها وانتصاراتها ، أما الأدب الانجليزى فلم يبلغ عظمته إلا فى ظل القومية الموحدة ، ولم تنشق الأمة على نفسها ويمتشق بعضها الحسام لقتال بعض إلا مرة واحدة فى عهد الصراع بين الملكية المطلقة والنظام الدستورى ، وهى الفترة التى أنجبت القائد العظيم كرومويل ، وفيما عدا ذلك يمتاز التاريخ الانجليزى بخلوه من الحروب الأهلية

وثانياً كانت الحروب أكثر طروءاً فى تاريخ العرب منها فى تاريخ الانجليز . حتى بعد توطيد الأمبراطورية : فان تلك الأمبراطورية ظلت ـ ما دامت لها قوتها ـ تجالد أعداءها فى الدين من روم ووثنيين ، حتى إذا ما وهنت قوتها انقسمت على نفسها ، وكثرت فى داخلها الدويلات والحروب

وثالثاً لأن كثيراً من أعلام الأدب العربى كعنترة وقطرى بن الفجاءة والمتنبى وأبى فراس ، كانوا جنوداً يشهدون الوغى ويتمدحون بمآثرهم فيها ، وقل من أدباء الانجليزية من كان كذلك ، بل لقد ذكر أن المقاتلة فى عهد التلاحم بين على ومعاوية والخوارج كانوا إذا تهادنوا ليلا تقابلوا تقابل الأصفياء يتناشدون الأشعار

ورابعاً كان جل شعراء العربية المتأخرين متصلين بالأمراء والقواد ، فلم يكن لهم مندحة عن وصف أعمال ممدوحيهم الحربية . كان العرب فى الجاهلية فى قتال لا يكاد يهدأ ، وكانت بين قبائلهم وأشرافهم ثارات وعداوات لا تكاد تنتهى حتى اضطروا أن يتخذوا لهم موضعاً حراما ووقتاً حراماً ما تهدأ فيه الخصومات وتغمد الصوارم وتتصل أسباب الحياة والتعاون ، وبالتمدح بالنصر فى تلك الحروب والتفاخر بأيامها والتوعد والتربص ، كان أكثر ما قيل من شعر فى الجاهلية . وظلت لهذا الباب من الشعر المسمى بالحماسة مكانته بعد انقضاء عهد الجاهلية بطويل ، وبه بدأ أبو تمام مختاراته الشعرية وبه سماها ، وكثر فى الشعر الجاهلى ذكر السيوف والرماح والخيول وغيرها من وسائل الحرب ، وكثرت فى العربية أسماؤها وأوصافها ، وارتقى بين العرب البصر بالحروب وتأصلت فيهم ملكاتها ، حتى أخرجت الجزيرة صناديد الاسلام الذين اصطلوا كتائب قيصر وآل ساسان ، ومن الشعر الذى يعرض صور حروب ذلك العهد معلقة عمرو بن كلثوم التى يقول منها :

على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا
وكنا الأيمنين إذا التقينا وكان الأيسرين بنو أبينا

وكانت الرسالة النبوية ، وكان صاحبها يجمع إلى عبقرياته العظيمة المتعددة التى لم تجتمع لانسان ، البصر بالحرب والبلاء فيها فتخلف فى أشعار ذلك العهد ولا سيما شعر حسان أثر ما كان بين المسلمين والكفار من كفاح ؛ حتى إذا ما وحد الاسلام قلوب العرب انصرفوا إلى جهاد أعداء الدين ، ومن عجب أن عصر الفتوح الباهر الذى تلا ذلك لم يترك فى الأدب العربى إلا أثراً ضئيلا . وليس امتلاء النفوس برهبة الدين هو كل السبب فى ذلك ، بل يرجع ذلك أيضاً إلى جدة الحالة التى وجد العرب بها أنفسهم : من قتال أمم مخالفة لهم فى الجنس واللسان والمسكن ووسائل القتال ، ولعلهم لم يجدوا من اللذة والغبطة ودواعى الفخار فى اجتياح تلك الجيوش المرتبة ، ما كانوا يجدونه فى مصاولاتهم البدوية المملوءة بالكر والفر والمساجلات الفردية .

وأهم من هذا وذاك أنهم لم يتعودوا الفخر بالأعمال القومية ، التى يشترك فى فخارها المضرى والبكرى والتغلبى ، ولم يتعودوا أن ينظموا القصيد فى الفخر على أعجمى ، وإنما هم كانوا يترفعون على الأعجمى ترفعاً بدهياً بسيطاً لا يتكلفون له عناء النظم ، ولا يحتفون بالقول ، وآية ذلك حكاية الأعرابى الذى سئل : أتحب أن تكون ابن أعجمية ولك قصر فى الجنة ؟ فقال : لا أحب اللؤم بشيء . قيل : فان أمير المؤمنين ابن أمة ، قال : أخزى الله من أطاعه !

إنما كان الفخر كل الفخر عند العربى فى الظفر بعربى مثله ، من قبيلة معادية لقبيلته ، قد توارثت قبيلتاهما العداوة والتراث جيلا بعد جيل . وما هى إلا أن دمعت الفتنة من جديد بين العرب حتى

ظهر أثرها في الشعر : فهدد لمعاوية وحزبه ، ومناصر لبني هاشم أو مناصب لهم . ومفاخر بكلب أو بتغلب أو معير لهذه أو لتلك ، إلى عهد بشار الذي يتمدح - على كونه من الموالي - بالعصبة المضرية التي تهتك حجاب الشمس ؛ وظل الشعراء الذين يمدحون الخلفاء والأمراء والقواد ويمدحون بلاءهم في الحروب ، لا ينسون أن يذكروا مفاخر قبائلهم من قبل وبلاءهم في الوغى ، فاذا مدح الشاعر الحجاج ذكر ثقيفاً ، أو عبد الملك ذكر أمية ، وظل الشعر العربي دائماً يردد ذكر بني مطر وبني شيبان وبني تنوخ وبلاء كل أولئك في الحروب ، وكان التساجل بين الشعوبيين وأنصار العربية فلم يكد يترك أثراً في الشعر العربي ، وحتى المتنبي يحفل شعره بذكر قبائل من مدحهم على التوالي ، رغم تعصبه للعربية ، وطول تألمه من أن يرى عرباً ملوكها عجم

بجانب تلك العاطفة القبلية نمت تدريجاً عاطفة أخرى هي الرابطة الاسلامية ، إذ تمكن الاسلام من نفوس معتنقيه ومجتمعهم تمكنا أحله محل القومية ، وترددت تلك العاطفة في أشعار الشعراء الممجدين لبلاء الخلائف والأمراء في دفاع أعداء الملة ، وكان للاسلام في أول ظهوره عدوان كبيران : الوثنية وزعيمتها فارس ، وقد فرغ من شأنها عاجلا ، والنصرانية وممثلتها الدولة الرومانية ، وقد ظل جهادها دائماً من أول مهمات الخلفاء وولاة الثغور ، وظلت حربها من أهم ما يشغل بال المسلمين ويغذى عاطفتهم المشتركة وشعورهم القوى ؛ وتتجلى أثر تلك الحروب بين الدولتين ، أو بين الديانتين ، في أشعار أبي تمام والبحتري والمتنبي ؛ ولما أعيت الدولة الرومانية الحيل استنجدت بغيرها من أمم النصرانية ، فكانت الحروب الصليبية ، التي ظهر أثرها في شعر شعراء مصر والشام ، ومن ذلك قول البهاء زهير في السلطان الأيوبي :

فأبلغ رسول الله أن سميه ... حمى بيضة الاسلام من نوب الكفر
وأقسم إن ذاقت بنو الاصفر الكرى ... فلا حلمت إلا بأعلامه الصفر

وبلغ المسلمون المبالغ في فنون الحرب البرية والبحرية ، وعنهم أخذ الصليبيون ، ومن لغتهم نقل الغربيون كلمة الأميرال أو أمير البحر وغيرها من مصطلحات القتال ، وحفل شعرهم بوصف المعارك والجيوش ، وما توقعه بأرض العدو من دمار ، كوصف أبي تمام تخريب عمورية ، ووصف الأساطيل ؛ والمتنبي هو أصدق وصاف الحرب في المتأخرين وأروعهم لأنه كان يصف ما يميل إليه بطبعه وما يمارسه ويشاهده بنفسه ، ولا تكاد ترتوى منه لهفته ، ومن ثم لا تقل أشعاره الحربية عن أشعار الجاهليين والاسلاميين صدقا وفطانة

وتفوق بعضها جزالة وتجويدا ، ومن جيدها وصفه لخيل سيف الدولة الذي منه :

وما علموا أن السهام خيول ... رمى الدرب بالجرد الجياد إلى العدا
لها مرح من تحته وصهيل ... شوائل تشوال العقارب بالقنا
فكل مكان بالسيوف بسيل ... كتائب يمطرن الحديد عليهم

ومن جيد وصف الأساطيل قول ابن هانيء الأندلسي :

أنافت بها آطامها وسماكها ... بناء على غير العراء مشيد
وليس بأعلى كبكب وهو شاهق ... وليس من الصفاح وهو صلود
إذا فورت غيظاً قد ترامت بمارج ... كما شب من نار الجحيم وقود

ولم يقتصر ذكر الحرب على مواضعها الخاصة بها ، ومناسباتها بين الحين والحين ، بل كان أمرها من الشمول والاتصال والحضور في أذهان الناس بحيث تسرب ذكرها في شتى أبواب الأدب ، واستعيرت صفاتها وأحوالها لمختلف الأغراض : ففي النسيب استعيرت السيوف والسهام للجفون واللواحظ ، والقتل لشدة التتيم ، وبالسيف شبه الممدوح صقلا ومضاء وبه جرت الأمثال فقيل : سبق السيف العذل ، وشبه المتنبي المنون بعدو لا تجدى المشرفية والعوالي في قتاله ، ولا تنجي السوابق المقربات من خببه ، وقرن التمدح بالبلاء في الحرب بالتشبيب ، كما كان يفعل عنترة ، وكما قال أبو عطاء السندي وهو البيت الذي تمثل به صلاح الدين الأيوبي في بعض رسائله :

ذكرتك والخطى يخطر بيننا ... وقد نهلت منا المثقفة السمر

وفي الأدب الانجليزي أوصاف رائعة للحروب ، وتمجيد شائق لأبطالها ، وتفاخر بانتصاراتها وما كسبته الأمة من اعتزاز وهيبة ، وللمتون ومارفيل وكامبيل وتنيسون وكبلنج في ذلك أشعار مأثورة . وقد كان مجال القول أمام أمثال أولئك الشعراء ذا سعة : فتاريخ الامبراطورية حافل بعظائم جنودها . نعم كانت سياسة بناتها دائماً سلمية لا تلجأ إلى الحرب إلا في الحالة القصوى . ولا تدفع إلى ميدان القتال لمجرد الرغبة في الظفر والافتخار . ولكن الدولة كانت دائماً عزيزة في وطنية أبنائها وقوة أسطولها ، وقد كسب لها جيشها وأسطولها انتصارات باهرة خالدة ، ودوخ أبطالها أمثال كرومويل وملبرا ونلسون وولنجتون الأمم ، وأعلوا كلمتها فوق كل كلمة .

ولا يستأثر الشعر دون النثر بحديث الحرب ووقائعها وأبطالها بل هنالك كتاب سوذى عن نلسون ومقالات ما كولى عن كليف وهستنجز وفردريك الأكبر ، وتاريخه وتاريخ جيبون ، كل هاتيك حافلة بالوصف الدقيق البليغ لشتى المواقع والحروب ، هذا إلى ما في مختلف القصص من ذلك ، ولا يكاد يكون في العربية من مثل ذلك سوى بعض خطب الامام علي بن أبي طالب ، ورسائل في بعض

الخلفاء إلى ولاتهم ينهونهم أن يؤذوا المسالمين أو يعيثوا فى الحرث والنسل، وخطب بعض القواد كتلك المنسوبة إلى طارق بن زياد والتي تفيض بلاغة وشجاعة. ولا غرو فقد كان للشعر دائماً التقديم على النثر، وقد ظل طويلا يستأثر دونه بالحفاوة

ولم يقتصر شعراء الانجليزية على نظم القصيد فى تمجيد انتصارات وطنهم وعظائم أبنائه. بل التفتوا - كدأبهم فى كل فنون القول - إلى الماضي وإلى الخارج، ونظموا فى المواقع التاريخية والخرافية، إرضاء للفن وتسريحاً للخيال وتنشيطا للفكر، فوصف تنيسون آخر معارك الملك آرثر وصفا أصبح من ذخائر الأدب المعدودة وآثاره السائرة، أودعه كل مقدرته على تجسيم الوصف وخلق المنظر الكامل بدقائقه وألوانه وأصواته، ونظم هاردى قصائد شتى فى حروب نابليون والثورة الفرنسية، وكان له بحروب نابليون غرام كبير لقرب عهدها منه واشتراك بعض أقربائه فيها، وفى تلك الحروب نظم ملحمته الكبيرة التي تعد أكبر آثار الشعر الانجليزي الحديث، وفيها ينتقل بين شتى المناظر والأوصاف والنظرات والتأملات

ولم يخل الأدب العربي من ذم للحرب ودعوة إلى الاخاء، ومن آثار ذلك أبيات زهير بن أبي سلمى المعروفة، من معلقته حيث يمدح السيدين اللذين اصلحا بين عبس وذبيان بعد ما تفانوا، ويستطرد إلى قوله: «وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم»، غير أن ذلك قليل نادر. وقد كان الجهاد دائماً شعار الدولة الاسلامية، وكان النزاع والغلاب دأب أمرائها، وبذلك تفاخر فرسانها وبه امتدحهم مادحوهم من الشعراء، وظل السيف والرمح والبنود والخيول فى شعر شعراء العربية مرادفات للعز والمجد والغلب والسيادة، ولم يخل الأدب الانجليزي من محبذين للحرب متغاضين عن معاتبها كتنيسون الذي كان يرى الحرب وسيلة لا غنى عنها من وسائل العمران وتطهير النفوس من شوائب المادية والترف والأنانية، غير أن الأدب الانجليزي أغنى بآثار النظرة الانسانية، التي تبغض الحرب وتصور بشاعتها وبلاياها.

ففى قصيدته «البطولة» يقول كوبر معرضاً بملوك فرنسا: «أيها الملوك الذين يستهويكم المجد وتؤيدون بالدم دعواكم، وتهوون بالضربة ثم تبررونها بالدفاع عن النفس، المجد بغيتكم والحق ذريعتكم، تبنكم عبر النهر الذي يحد ملككم الحق، ويريكم مدى ما يجوز لكم أن تنشروا عليه حكمكم، أمة لا مطمع لها فى تاجكم، حريصة على السلام، سلام جيرانها وسلامها، ولكن يا لشؤم طالع تلك الأمة! ويا شد ما تتقاضاها جزيرتها الوحيدة، جزيرة مجاورتها إياكم، أما هى إلا أن تنطلق الأبواق حتى تزحف كتائبكم إلى الخارج شاقة طريقها وسط المحصول الناضج، يطأون فى كل خطوة حياة جماهير وخبز أمة، فالأرض أمامهم جنة يانعة، وهى خلفهم يباب بلقع»

وفى قصيدته عن موقعة بلنهايم التي كسبها القائد النابغة ملبرا، يصف سوذى شيخاً ألمانيا جالسا ذات مساء أمام كوخه فى أرباض البلدة التي دارت حولها رحى المعركة، بعد جيل من حدوثها، وحفيداه يلعبان حوله، فاذا الطفلة ترى أخاها يدحرج شيئا مستديرا قد عثر به بجانب الجدول، فتناول الشيخ ذلك الشيء والطفلان مشرئبان إليه يريدان أن يعلما ما هو، حتى هز الجد رأسه قائلا هذه جمجمة مسكين سقط يوم النصر العظيم. وكثيراً ما أعثر بهذه الجماجم فى الحديقة، وحين أحرث الحقل كثيراً ما يثيرها المحراث من التربة، ولا غرو فقد سقط آلاف مؤلفة فى ذلك النصر العظيم فيتساءل الطفلان بفارغ الصبر عن تلك الحرب وسبب تناحر الفريقين، فيقول جدهما: شتت الانجليز صفوف الفرنسيين، أما سبب ذلك فلا أعلمه، بيد أن الجميع يقولون إنه كان نصراً عظيما ويمضى واصفا كيف أحرقت مزرعة أبيه وألجىء إلى الفرار وكيف هلكت الحبالى والرضع، ثم يردف قائلا: ولكن مثل هذه الأشياء يا ابنى تحدث فى كل نصر عظيم، فالمجد لدوق ملبرا وللأمير الطيب يوجين، فتصيح الطفلة: كيف؟ لقد كان ذلك أمراً إداً! فيراجعها الشيخ. كلا يا بنيتى بل كان نصرا عظيما، وكل إنسان أطرى الدوق الذي كسب تلك الموقعة، فيصيح الطفل. وماذا كانت فائدة كل ذلك؟ فيسلم الشيخ تسليم العاجز قائلا: أما ذاك فلا علم لى به بيد أنه كان نصراً عظيما.

فآثار الحرب وأحاديثها على مختلف ضروبها ظاهرة محسوسة فى جوانب الأدبين، ولا ندحة من أن تكون ظاهرة محسوسة فالحرب ناحية من نواحى حياة المجتمع الانساني جليلة الخطر حاضرة الأهمية دائما، تتصل برفاهية الأفراد ومستقبل الجماعات ومصائر الدول والمدنيات، وبالحرب تعلق كل معاني القوة والحرية والذود عن الحقيقة، وقد كانت الحرب أحيانا ممهدة لانتشار الحضارة وازدهار الثقافة، كما كانت إذا استفحلت وبالا على العمران وبلاء على الانسان بيد أنها قد تركت فى الآداب تلك الأوصاف الممتعة لملابسات الحروب ومشاهدها وأعقابها، وقد خلدت هذه الآثار الأدبية الرائعة عبرة ومتاعا للألباب، بعد أن غبرت تلك الحروب وهدأت تلك المطامع والثارات، وذهب مسعروها ومن اصطلوا بها واستوى فى الترب القاهر منهم والمقهور؟

فخرى أبو السعود

اسكندر بوشكين [1]

Alexander Pushkin

أمير شعراء الروس

بقلم الأستاذ عبد الكريم الناصري

في يوم ١٠ فبراير احتفل الروس في بلادهم وفي خارجها بمرور مائة عام على وفاة شاعرهم الأكبر اسكندر بوشكين

وقبل خاتمته الفاجعة ببضعة شهور كتب يقول: « لقد أقيم لذكراي نُصب لم تصنعه يد ... ولسوف يذاع اسمي في كل أرجاء روسيا، ولسوف يجري ذكري على كل لسان، ولسوف يتغنى بشهرتي كل روسي ... »

بوشكين

وقد أدهشت هذه النبوءة مريديه والمعجبين به، فما عرفوه قط من قبل يتحدث عن نفسه على هذا النحو، وإنما عرفوه حيياً متواضعاً على ما أصاب من شهرة ومجد. بَيْدَ أنه كان مُصيباً في قوله، فإن شعرَهُ الآن جزء لا يتجزأ من العقلية الروسية، وشهرتَهُ قد تجاوزت حدود بلاده، حتى أن بعض البلدان، كصربيا، وتشيكوسلوفاكيا، وفارس، احتفلت رسمياً بذكراه المئوية، هذا فضلا عن الاحتفالات التي أقامتها شتى أقطار الأرض. ومع ذلك لم يصب بوشكين في خارج روسيا ما هو حقيق به من الشهرة والتقدير، ولم ينل منهما في انجلترا ما ناله في فرنسا وألمانيا، بالرغم من أن المجلات الأدبية الانجليزية ذكرته سنة ١٨٢٢، ووصلته بقرائها، وبالرغم من أن جماعةً

(١) مترجمة عن مقالة نشرتها مجلة « المستمع » الانجليزية، بقلم أريادنا تيركوفا وليمز، والظاهر من اسمها وإنشائها أنها روسية

من الشعراء والأدباء، ومنهم جورج بورو، تصدوا لترجمة قصائده

وقد كتب الشاعر الانجليزي المعاصر، موريس بيرنج،[1] فصولا في تقويم أدبه، وتقدير شعره، تعد من أحسن ما كتب عنهُ في أية لغة من اللغات بما فيها الروسيَّة. كما أنه ترجم بعضَ قصائده الوجدانية ترجمة تدعو إلى الاعجاب على الرغم من قوله: « إن التصدِّي لترجمة أشعار بوشكين محاولة فاشلة، وعمل يائس، يشبه تصديك لتمثيل ألحان موزار بالرسوم والتماثيل، وتحويلها إلى الألوان والأحجار. »

ولد « الكساندر بوشكين » في موسكو، في الثامن من يونيو سنة ١٧٩٩، وتوفي في بطرسبورج. في العاشر من فبراير سنة ١٨٣٧. وهو سليل أسرة من الأشراف، كان من شأنها الاعجاب بكل ما يتصل بفرنسا والفرنسيين ولا سيما آدابهم. وكان الفتى اسكندر يحفظ عن ظهر القلب كثيراً من بدائع موليير وفولتير. ولم يكن الحفظ عسيراً عليه، لما أوتيه من ذاكرة قوية ممتازة، وقد ظل طوال حياته قارئاً نهماً، حتى روى أنه لما حضره الموت شخص ببصره إلى الكتب المرصوفة على الرفوف وقال: « وداعا يارفاقي الأعزاء. »

وأجداد بوشكين من جهة أمّه أفريقيون، ويحتمل أنهم أحباش، وقد جُلب جدُّه « أبرام هانيبال » إلى بطرسبورج — من القسطنطينية — هدية إلى بطرس الكبير، ثم صار سكرتيره الخاص، وكان بوشكين يفتخر بجده الأسود، وكان متأثراً بدمه الأفريقي، ولعل لهذا الدم يداً في نُضجه المبكر، وفي هذه الحرارة التي تفيض بها أغانيه، على أن هذا التأثير لم يبلغ من الشدة بحيث يظن كثير من الناس

وفي سنة ١٨١١ دخل الليسيه في تسارسكوي سيلو Tseraskoye Selo، وهي مدرسة داخلية أسسها القيصر المتحرر الفكر اسكندر الأول، وشيد بنايتها في جانب من بلاطه؛ وهناك أنفق بوشكين ست سنوات سعيدات، طبعت أثناءها أولى قصائده، وكان عمره عندئذ أربعة عشر عاماً

ولما ترك المدرسة التحق بوزارة الخارجية، ولكنه لم يحبّر قط بلاغا رسمياً، وما كان ينتظر منه ذلك، وما بلغ الثامنة عشرة حتى كان باعتراف شيوخ الأدب. من أمثال كارامازين وجوكوفسكي، زعيما لشعراء عصره، وحتى كان شعره بغية الشبان يدرسونه ويحفظونه

(1) Maurics Baring

وقد لعبت السياسة دوراً مهما فى حياته ، فمع أنه لم يكن عضواً فى الجمعية السرية التى تشكلت سنة ١٨١٨ ، ثم سحقها الجيش فى فتنه[1] التى شبَّ أوارُها سنة ١٨٢٥ ، فانه عبر فى قصائده عن أغراضها — وخلاصتها تأليف حكومة دستورية وتحرير الفلاحين — تعبيراً أقوى وأشد إقناعا من برامجها الطويلة ولكن ما لبث الرأى العام أن اشتد فى مطالبته بالاصلاح والتحرير فقل تسامحُ القيصر وفترت همته الاصلاحية ، وكان بوشكين أول من نزلت به عاقبة هذا الخلاف بين الامبراطور ورعيته وذلك أنه نشر فى ذلك الوقت قصيدته الموسومة « بالحرية » ، وقصيدتين أخريين فى هجو أراكتشيف Araktcheev ، فنفى على أثرها إلى جنوب روسيا

وقد هيأ له منفاهُ — الذى لم يك قاسياً جداً — فرصة لمشاهدة بلاد القوقاس والقرم وبرارى صربيا ، حيث عاش تلك العيشة التى التمسها بيْرون[2] ثم ظفر بها فى ألبانيا ، وكان بوشكين مسحورا ببيرون ، وما سحرهُ منه أسلوبهُ الشعرى ، بل بساطتهُ وإخلاصهُ[3] وعنفُ عواطفه . وفى سنة ١٨١٩ ، دخلت الترجمة الفرنسية لكتاب بيرون Childe Harold روسيا ، فرحب بها هو وطائفة من أصدقائه الأدباء ترحيبا حماسيا ، بالرغم من سقمها وركاكتها . وبلغ من إعجاب الشاعر الروسى العظيم بالشاعر الانجليزى أنه أخذ نفسه بتعلم الانجليزية ليقرأه بلغته الأصلية ، ولكن أسرار النطق الانجليزى كانت تحيره وتربكه ، حتى أن أصدقاءه الذين تعلموا الانجليزية منذ طفولتهم كانوا إذا سمعوه يقرأ عليهم شكسبير لا يملكون أنفسهم من الاغراق فى الضحك لأنه ينطق بالألفاظ الانجليزية كأنها لاتينية !

تأثر بوشكين ببيرون ولم يقلده — فما كان مقلداً وإنما كان مستعدا على الدوام لأن يتعلم ليس غير — وظهر هذا التأثير فى قصيدتيه « سجين القوقاس » و « نافورة باختشيساراى » . على أن التشابه قليل والفرق واضح بين الشاعرين : فبوشكين أرق وأودع ، وفكاهته النادرة أعمق ، فى غير إيلام ، وفهمه لطبائع الشعوب وخصائص البلدان أوسع وأبعد مدى .

بيد أن تأثير بيرون زايل شاعرنا بالتدريج حتى إذا بدأ بتأليف قصته الشعرية « إفجينى أونيجن » Evgeni Onegin لم يكن بقى منه شىء . وتعد هذه القصيدة أول ما ألف من القصص الروسى الجيد ، وكان ترجنيفا يقول إن أربعة أبيات من مقدمتها تفضل آثاره جميعاً ، وكان لينين يجد فى صفحاتها مريحاً من عناء العمل ، وقد سمى القيصر نقولا الثانى ابنتيه الكبريين — تاتيانا وأولغا باسمىْ الأختين فى الرواية

ومع ذلك كان بوشكين يفضل عليها قصيدتيه « بوريس جودونوف » (١٨٢٥) . و « بولتافا »[1] (١٨٢٨) ، والأخيرة قصيدة تاريخية تصور النزاع بين بطرس الكبير وتشارلس الثانى عشر ملك السويد

أما الأولى فقد نظمها فى « ميخيلوفسكوى » Michailovskoye وهى ضيعة لأبيه ، كان الشاعر نفى إليها بعد عودته من منفاه الأول لوقوع السلطات على رسالة له فيها ما يكرهون . وفى هذه الأعوام اشتد تركيز ذهنه وتمت له السيطرة على صناعته ، وقوى فيه الشعور بقيمة اللفظ فى الشعر ، حتى كان لا ينشر القصيدة إلا بعد أن ينحى عليها بالتصحيح والتنقيح أعواما

كان بوشكين حين نظم « جودونوف » تحت تأثير شكسبير . وهو من أوائل الروس الذين عرفوا شكسبير وقدروه حق قدره . قال فى رسالة إلى بعض أصدقائه : « أى رجل شكسبير هذا !! وما أصغر بيرون ، كتراجيدى ، بالقياس إليه . . إن بيرون لا يقدر أن يصف إلا شخصية واحدة ، هى شخصيته . فهو يعطى لهذه كبرياءهُ ، ولتلك بغضهُ ، ولأخرى مزاجهَ السوداوىّ ؛ وهكذا ينتزع من شخصيته القوية النشيطة شخصيات كثيرة لا قيمة لها . وليس هذا من الفن التراجيدى فى شىء »[2]

وقد خلصه النفى من الاشتراك فى الثورة التى قام بها أصحابه المعروفون بال Decabrists ولما أذن له القيصر نقولا الأول فى العودة من المنفى سنة ١٨٢٦ ، واستدعاه إلى موسكو . سأله « ماذا كان يكون موقفك يوم ١٤ ديسمبر فى موسكو ؟ » ، فأجابه بوشكين : « كنت أشترك مع إخوانى العصاة »

وكان اجتماع القيصر بالشاعر خطة مدبرة أريد بها التأثير فيه وفى جمعيته التى استثار غضبها إعدامُ خمسة من الثوار . ولم

(1) Rising. (2) Byron. (3) Disenchantment

(1) (Boris Godounoff ; Poltava).

(٢) يقصد أن بيرون لا يحسن أن يصور من الشخصيات إلا التى تتميز بصفة من صفاته . فاذا تقدم لتصوير شخصية ليس لها هذه الصفة ، عاد خائباً . فكأنه لا يصور شخصيات ، وإنما يقطع شخصيته أوصالا عديدة تؤلف كل منها شيئاً يحسبه شخصية ، وما هو بشخصية . (المعرب)

يكن بوشكين ـ على قوته العقلية العظيمة ـ ليختلف عن الطفل في سذاجته وسرعة تصديقه وانقياده ، ولذلك لم يجد القيصر صعوبة في اختلابه واجتذابه وإقناعه بأن الهدنة قد عقدت أخيراً بينه وبين الحكومة . ولم يكتشف كيف عبث به القيصر بمساعدة رئيس البوليس ـ كونت بنكيندورف ـ إلا بعد سنين

لم يكن بوشكين يتصور وهو في منفاه مدى الشهرة التي نالها بين قومه . فلما عاد إلى الاشتراك في الحياة الاجتماعية أذهلته مقابلتهم له . فقد كتب بعض الكتاب يقول : « موسكو السعيدة تحتفل اليوم بتتويجين : تتويج القيصر وتتويج الشاعر »

وفي الثلاثين من عمره تزوج من فتاة جميلة في الثامنة عشرة تدعى « ناتالى جونخاروفا » ، ولم يجلب عليه هذا الزواج سعادة بل ولا هدوءاً ، وما كان بيت الزوجية أكثر من خان باهظ النفقات . كان الشعر آخر شيء تحفل له الزوجة الشابة ، على أنها نجحت في المجتمع نجاحاً كبيراً . وفي هذه الفترة من حياة بوشكين ساءت أحواله . فقد تراكمت عليه الديون ، وتغير ذوق الجمهور فلم يعد يتحمس ذلك الحماس لروائع آثاره ، وتزايد حقد بعض فرق الارستقراطية عليه ، فعزم على الخروج بزوجه وأطفاله الأربعة إلى إحدى ممتلكات والده ، حتى يتفرغ لمشاريعه الأدبية الكثيرة ، لكن القيصر عارض الفكرة . فاضطر إلى البقاء ، واستمر في الكتابة فاتر الهمة مكتئب النفس : وحدث أن شاباً فرنسياً جميلاً يقال له البارون دانت Baron D'Antes ، تعرف بزوجته أخذ يتودد إليها في إلحاح شديد ، فدعاه بوشكين إلى المبارزة ، بارزه وجرحه جرحاً بليغاً ، أودى بحياته بعد يومين . وبموته تت نبوءة عراف قال له سنة ١٨١٩ . إنه سيصير معبود قومه ، ينفى مرتين ، وبأن عليه أن يحذر رجلاً جميلاً قد يقتله حين بلغ السابعة والثلاثين

اعتبر الشعب موت بوشكين رزية وطنية ، واشتد حزنه عليه حتى خشيت الحكومة أن يؤدي إلى قيام مظاهرات عدائية أمرت بنقل الجثمان سراً إلى مقبرة «سفياتيجورسكى» ـ القرية ن ميخيلوفسكوى ـ وهناك دفن

في أول ترجمة ظهرت بالانجليزية لحياة بوشكين ـ وهي ترجمة رائعة نشرتها مجلة « بلاكوود مجازين » [1] سنة ١٨٤٥ ـ كتب صاحبها توماس شو Thomas Shaw ، أستاذ الانجليزية في كلية (ليسيه) تسارسكوى سيلو ، يقول : « يمكن أن يقال إن قصيدة (إفجيني أونجين) أصبحت جزءاً من لغة الشعب الروسي ، ولا يزال هذا القول ـ وقد تقضت مائة عام ـ صحيحاً ملموساً

إن اسم « بوشكين » يرن في أسماع الروس رنين الأغاني والأغاريد . وقد تأصلت شخصيته في أعماق العقلية الروسية ؛ وإن الروسي ليعجز ، إن سألته ، عن تفسير حبه لبوشكين ، عجزه عن تفسير حبه للبحر أو لنور الشمس وقد يكون جوابه ابتسامة سعيدة يشرق بها وجهه

(بغداد) عبد الكريم الناصري

(1) Blackwood Magazine.

جولات في الأدب الفرنسي الحديث

تطور الحركة الأدبية

في فرنسا الحديثة

العلم في القصة – القصة التحليلية العلمية

بول بورجيه P. Bourget ١٨٥٢ — ١٩٣٥

التحليل العلمي عند بورجيه . التحليل الحي . المثالية
الرواية التقليدية أو آثار بورجيه الاخيرة

تختلف بيئات الأشخاص — عند بول بورجيه — عن بيئات المدرسة الواقعية ، فأرواح أشخاصه تكاد تحيا منعزلة عن أجسادها ، وهي ليست مختارة من الأشخاص المرضى أو المنحطين . وبالاجمال لا يحيا أشخاصه في بيئة تلك المدرسة . وليس أشخاصه من سواد الناس ولا بموسرين سئموا الحياة ، وان منهم النساء الكبيرات والعاطلين ، مفكرين أو فنانين . وقد عد أرباب المدرسة الواقعية رواياته من نوع (السنوبينم) لأنها في أجزائها الأولى قد تجسدت من ذلك الايمان بالعلم الذي كان مذهب زولا

وقد علم بورجيه أن أبرز صفة للشباب الحديث هي صفة « القلق العلمي » . وهذا القلق هو الذي كان يهيمن عليه يوم كتب رواياته ، وكان معلموه منهم « ستندال » الذي قرن فعل الخيال إلى الدراسة النفسية ، و « تين » الذي ابتكر علم النفس ، والذي بين أن في النفوس بعض أسباب وعلل تجر بالضرورة إلى بعض أفعال ، وهذا علم النفس هو الذي وضع لرجال التشريح النفسي مبادئ وقوانين خارقة ، وهكذا لم تعد القصة وضعاً ولا تحليلا وانما أصبحت إيضاحاً

إن الدرس العلمي في امكانه أن يولد تحليلا جذابا وجدلا عميقا يجعل من صاحبنا مؤلف « تجارب نفسية حديثة » نقاداً واجتماعيا أكثر مما يجعل منه قصصياً ، لأن القصة ما هي إلا التعبير عن الحياة ، والحياة لا تكون حياة إلا اذا ظلت محافظة على ظواهرها في حريتها واختيارها ، أما التحليل العلمي فقد لا يكون إلا ضربا من التشريح . وكما يعلم بورجيه ، أن كل ما يشرح هالك ، على أن من حسنات عبقريته أنه وجد في « ستندال » وفي « تين » وفي عبقريته الشخصية شيئا لم يقف عند التنقيب عن الاسباب والاعمال فانه تعلم — من وراء ذلك — حال تركيب العلل والاسباب ، وهو القائل « ان العقل المدرسي الذي يجدي في المخاصمة الخطابية يجدب حين يريد أن يخضع لقوانين قوة النمو - المخنوقة والمتبدلة - في الحياة ، والدرس العلمي ينبغي له ألا يقنع بتوضيح هذه القوات المشوشة ، وإنما ينبغي له أن يعمل على اظهار التبدل فيها ، والدوافع والحياة ، ومن هذه الناحية وحدها تصبح آثار بورجيه روايات — لا مناقشات — كل شخص فيها عالم مستقل بذاته — عالم لاقانون — هذه خلاصة قصته « قلب امرأة » — وهي خير ما سطره يراعه ، لا تقف رواياته على التحليل المنطقي فحسب ، وانما هي توليد واحضار وبعث للنفوس .

أما المثالية Idéal العلمية عند بورجيه فقد اختلفت جد الاختلاف عن مثالية « تين » فهو لا يجحد المذاهب العلمية ، حتى اذا حاول أن يذود مثلا عن مذاهب سياسية تراه يجرب أن يجعلها قواعد تجريبية ترتكز على أعمال في المجتمع وأعمال في التاريخ ولكنه — في عالم الايمان — نراه أخذ يتحرى عن شجرة غير شجرة العلم ، وعنه يقول النقادة « جول لميتر » : ان رجل اليوم هو عقلية مزيجة من العقل العلمي ، والشعور الرقيق الكئيب ، والقلق الخلق ، والرقة والعطف ، والتصوف . الروح العلمية — عنده — لم تجنح إلى عمارة الدين والاخلاق ، ولكنها تركتهما قليلا قليلا يعملان على فرض قواعد الحياة ، وقبل أن يغدو بورجيه رسول دين وسياسة تحول عن حلقة العلم الضيقة .

وهو القائل : إن انسان الرغبة والأنانية ، الذي لا يحيا إلا ليحلل نفسه ، ولو كان من جراء ذلك تعاسة الآخرين ، هذا الانسان قد مات بنفسه ، وهو القائل : « بألا حياة حقيقية إلا في مثل أعلى للاخلاص والتزهد ، مثل أعلى في الدين ، إذ لا تمكن الحياة مطلقة تحت رحمة الأهواء ، وتقلباتها المستمرة .

هنالك فئة من الأدباء حاربت أدب الديموقراطية والاشتراكية حربا عنيفة . ولقد عالج بورجيه في روايته « التلميذ » المذهب

المادى ، وتطرق إلى قواعد تين وبرتلووريبو . والقصة ترى أن المذهب المادى خطأ . ولا يمكن فى كل الأطوار البرهنة على أنه مذهب حق . على أنه إذا كان حقاً فلا يمكن نشر ذلك والجهر به ، إذ أن هذا التعليم يمكن أن يخلق تلاميذ كهذا « التلميذ » يرتكب جرائم خلقية ثابتة ، يكون المعلم فيها هو الضامن الكفيل . فرجل الآداب والمفكر لا يحق لهما أن يكتبا كل شىء ، ولكن واجبهما أن يكونا نافعين . وهكذا تعلم قصص بورجيه أن الفرد ورضا الفرد وإرجاع العدل إلى الفرد كلمات فارغة . إذ يرى أن المجتمعات هى أعضاء منظمة مرتبة ، ملاجئها الحية هى الأسرة ، فكل مايضر ببقاء الأسرة وخصبها وتنظيمها يفنيها كما هو الحال فى الجرائم التى تودى بالكائن الحى . ومنها الطلاق والانهماك فى الفسق والزنا ، وهجر الأولاد قبل البلوغ . والمجتمعات حالها كحال الأعضاء فى استطاعتها أن تتحرك ولكنها لا تستطيع ذلك إلا ببطء ، وكل تبديل فجائى يجر معه المرض والموت . وهذه الأخيلة الباطلة التى تبشر بها المساواة والديموقراطية تؤول إلى هذه التغييرات والفساد ، فان الطبقات الاجتماعية لا تجوز مرحلتها ، إلا على مهل ، خارجة من الحياة العاملة إلى اكتساب الثقافة العقلية ، وحسن استعمال الثروة ومعنى السلطة . ومن أجل هذا ينبغى إجلال « سياسة محافظة ارستقراطية ، وديانة توحى إلى الانسان احترام الأسرة واحترام نظامها . وهكذا تبدل بورجيه فى نهاية أيامه ، وأصبح رجل وعظ فى السياسة والدين .

فشل العلم

نقد الفلاسفة

كان لبورجيه كما كان لبرتلو وتين وغيرهما ، إيمان لا يتزعزع بالعلم . . . والعلم وحده لا يكذب أصحابه ، وهو ينطوى على أسمى الآمال ، ولكن بورجيه لم يكن وحده حين هجر نبوءته ، وهجر الآمال الخادعة التى يذيعها فان الفلاسفة قبله قالوا : ليس للعلم مستقبل فيما وراء الطبيعة ، إذ أنه لا يقدر أن يعطى إلا يقيناً علمياً عملياً اصطلاحياً ، ولا يقدر أن يعطى اليقين ذاته . وقد قال « اميل بوترو س » فى إحدى مقالاته المنطقية : « إن المذاهب العلمية لا تأتينا واضحة إلا الآن مقاييسنا غير واضحة . ولا توضح الحوادث إلا بحوادث اصطلاحية قد لا تكون صميم الأشياء ولكنها — صك تحكيم — بين العقل والأشياء ، على أن هنالك عدداً من الفلاسفة الذين درسوا العلم وقالوا بأنه لا يعطى الحقيقة المطلقة . وهذا « هاملان » دون أن يجحد تأثير العقل قال : بأنه لا يستطيع أن يفهم الحقيقة العميقة إلا إذا أولها وفسرها . وأخيراً جاءت فلسفة هنرى برجسون جاحدة بالفلاسفة والعلم الذى آمن به « تين ورتلو » من قبل

هنرى برجسون

نقد العقل Henri Bergson

ولد سنة ١٨٥٩ وأشهر تصانيفه « معلومات الشعور المباشرة » مادة وذاكرة » والقوة المبدعة » ، ويذهب برجسون فى « كتبه الأول إلى القول بأن الشعور المنطلق عن العقل . الشعور الفطرى فيه لا يتلاءم أبداً مع ما استخرجه العلماء من العقل المتحول المتبدل - كما أرادوه وسهلوه - . فالعلماء هم فى حاجة إلى قياس الفضاء وهو سهل عندهم ، وإلى قياس الزمان وهذا أقل سهولة . لأن قياس الزمان معناه الافتراض بأن الزمان تتألف أجزاؤه من طبيعة واحدة Homagéne وأن اللحظات المتتالية على حادث قد تكون من بعض وجوه متشابهة متطابقة ، تطابق طول متر مع طول متر آخر . ولكن هذا ما هو الافتراض ، إذ حين نتأمل نرى أن زمان هؤلاء العلماء هو زمان مجرد أو هو التجريد . أما الذى يوجد فهو الدوام ، والشىء الذى يدوم يختلف - فى لحظة ملحوظة - عما كان عليه قبل اللحظة السابقة ، ولهذا ينطوى هذا الشىء على شىء هو « دوامه » . فالدوام هو متألف من أجزاء مختلفة طبيعتها . تختلف عن ذاتها بدون نهاية ولكى ننكر صفة « الدوام » التى قال بها « زينون » ولم ينكرها عليه أحد ، نرى أن الشىء يمكن أن يكون ساكناً ومتحركاً فى وقت واحد . وأن « أشيل » العادى وراء سلحفاة لا يستطيع - عقلياً - إدراكها . وهكذا نرى العلم المبنى على الاصطلاح لا يمكن أن يكون إلا اصطلاحياً

وقد أتم برجسون فى كتابه « مادة وذاكرة » برهانه هذا ، فالانسان - بوهم عميق الجذور فيه - آمن بأن عقله يبسط له

الحقيقة ، إن عين الحيوانات ليست موضوعة لتعرف أصحابها بحقائق الأشياء ، وإنما وظيفتها وظيفة عملية تهدى أصحابها إلى الانتظام بين الأشياء . فلو عاشت هذه الحيوانات على غير الأرض لاختفت لأنها تصبح عديمة النفع . وكذلك لكى نستطيع أن نحيا بين الحوادث ، قادرين على استخدامها على وجهها الأحسن المستطاع ، نجد هذا لا يطلب إلينا أن نعرفها بحقيقتها كما هى . وإنما يطلب إلينا أن نختار - بصورة عملية - الوجه الأحسن استعمالا وفائدة لنا ، لأن عقلنا لا يلمح إلا هذه الناحية العملية . إذ ليس هنالك عقل أو عقل شاعر الا حيث يمكننا أن نمسك جزءاً من الشىء الذى نفكر فيه . والعقل والفكر الشاعر ليسا بوسيلتين للمعرفة وإنما هما وسيلتان للعمل . والعلم الذى أوجداه وشيدا أركانه ماهو إلا نظام جديد لوسائل العمل . وفن مستقيم لاستخدام الحقيقة فى سبيل حاجاتنا . فهو لا يعلمنا الحقيقة ولا يكشف لنا أسرار الوجود كما هو الحال فى أن الأرنب لا يكشف لنا طبيعة السرعة والخفة .

نقد العلماء

وأما العلماء أنفسهم فقد قلبوا وجوه العلم ودققوا مسائله . فانتهوا إلى القول بأن العلم إنما هو مذهب ووسيلة إلى استخدام الأشياء ، والعلم لن يصل أبداً إلى « المطلق » وقد عملت بعض مدارس الطبيعيين على رد علوم الطبيعة إلى مذهب رياضى صرف غايته الأرقام التى تأتى نتائجها صحيحة ، وخلاصة هذا النقد توجز فى أبحاث الرياضى الكبير « هنرى بوانكاريه » فهو فى كل ما كتبه أعطى الأدلة القاطعة على بيان فضل العلم ، ودافع عن نفسه بأنه رجل شك . وهو يرى أن التمحيص العلمى ليس عملا عبثاً . بل إنه عمل أقل عبثاً من غيره من أعمال الانسان . وهو فى الغالب يكون مذهباً مطلقاً . وكل العلوم - مثلا - هى علوم الحركة ، على أن من المحال أن نثبت حركة مطلقة ، وأن نبرهن - بقياس منطقى - على حركة الأرض

وهكذا نجد الفلاسفة والعلماء ينضم بعضهم إلى بعض للاتفاق على هذه الخلاصة ، وهى أن هنالك حقيقة مركبة متحركة بدون انتهاء ، وعقلا عمل - من أجل ادراكها واستخدامها - على فرض بشاطئها واتحاد فكرتها وقوانينها ولكنه بعمله هذا غير الثوب وأفسد الحقيقة .

الفلسفة الشاكة والنقد الشاك !

رينان فى عهده الأخير

جمع رينان عام ١٨٩٠ كتابه « مستقبل العلم » وأنجز تاريخه فى أصل المسيحية . وقد كان ذلك المعلم الذى يعلم « بألا تقبل الحقيقة فى التاريخ الانسانى والعلوم أيضا إلا ماشهد العقل عليه مرفوقا بالأعمال على أنه حقيقة » أما آثاره الأخيرة فقد جاءت تعلمه بأن ليس فى القدرة التثبت من أية حقيقة . وأن هذا العجز قد يكون ضروريا فى بعض الأحيان . إن محاوراته الفلسفية تعلمنا أن الحقائق المطلقة ، الحقائق الفلسفية ، لا يمكنها أن تكون هدف البراهين ! وقد يكون هذا خيراً . إذ من يعلم أن الحقيقة ليست بدافعة إلى الحزن ؟ من يعلم أن الأخطاء والأوهام ليست بنافعة أو ضرورية ؟ لقد كان الشعب حيوانا ضارياً مولعا بالاعتقادات الباطلة . فذللت صرامته ومشادته باعتقادات باطلة مثلها . ماعسى يغدو الانسان إذا أصبح واقعيا؟ إنه يصبح سيداً صارما احمق ! من يعلم بأن حكمة سليمان لم تكن على حق ، تلك الحكمة القائلة : « كل شىء باطل ، باطل الأباطيل ، وكل شىء باطل تحت الشمس » . وإذا لم يكن كل شىء باطلا فان الفلسفة الحقيقية قد تكون فلسفة الصراصير والقبرات التى لم تشك أبداً فى أن نور الشمس ليس جميلا ، وأن الحياة ليست هبة سنية ، والأرض ليست معقلا حسناً للأحياء . إن خير ما نصنعه على هذه الأرض هو ألا نستغرق فى تعليل الأشياء والتحقيق فيها ، وإنما نعمل على محبتها . فان سر الحياة لا يقف على العلم ولكن على الحب . وبهذا عمل رينان على تهذيب شكه وتشذيبه . وشهد على أن أكثر الأشياء ضمانا وجداً ، مهما ذهب الظن . هو العلم . وهنالك فئة كبيرة ذهلت من شك رينان الذى غمرها ، وكان ذلك لعمر قصير ، ولكن عادت هذه الفئة إلى التأثر بمؤثرات جديدة أخرى

النقد المنفعل Impressionisme

« جول ليمتر » J. Lemaitre ١٨٥٣ - ١٩١٤

إن رينان قد أكمل دورة العلم قبل أن يناقشه ويحاكمه . وجول ليمتر لم يذهب إلى أبعد من ذلك . إنه أكمل دورة النقد

وحده . وقد لقى فى المنابر والنوادى والصحف الكبيرة نقداً له فذهب من مزاعمه أنه يهذب الرأى باسم الذوق السليم والعقل . فسانت بوف - برغم عبقريته - لم يترك فى النقد مدرسته ، وتين لم يأخذ عنه النقد إلا دساتيره ، وقد ألفى جول ليمتر أن هذا النقد عمله أن يحكم على بودلير وفلوبير وفرلين وهنرى بيك وسواهم . ووجد فيه ما يبعث على السأم فشهد على أنه نقد فيه غش ومداهنة لأنه مبنى على أصول ومذاهب . ولكى يتم اليقين بهذه المذاهب ينبغى أن تبدل بمذاهب غيرها . وغيرها أيضا إلى ما لا انتهاء . لأن هذه المذاهب ما بين جيل وجيل إما أن ينقض بعضها بعضا ، وإما أن تتلاشى . إذ ليس هنالك فى الحقيقة إلا ارتياح أو ضجر ، إلا انفعالات وتأثير . وقال أناطول فرانس فى كتابه « الحياة الأدبية » : الحقيقة هى ما لا تخرج عن نفسها أبدا وفى هذا أكبر بلائنا . فلنتحمل إذن بخلوص نية هذا البلاء ، ولا نصدر أحكامنا على الآثار ، ولنصدر انفعالاتنا !

لقد كان جول ليمتر صادقا ولكنه كان أقل اهتداء مما راح يزعم ، فلقد انتمى فى أواخر أيامه إلى مذاهب سياسية ، وكان زعيم الحزب الوطنى ، وهو - فى فترات راحته - لا تشعر منه بذلك الرجل الذى يتحدث للتحدث وحده ، ولكن تحس ذلك القاضى الذى يحكم ويدين . على أنه يبقى رجلا عالمياً ببعض آثاره العالية ، ومذهبه الانفعالى قد ترك له مجال الخوض واسعاً . فهو يستطيع أن يخوض حقولا مختلفة فى الأدب والفن لا يصرفه عن ذلك شىء ، وقد عمل على تجديد الأدب القديم وكانت له فيه محاولات لاستنقاذه من قيود الفصاحة التقليدية المدرسية لكى يندمج مع الحياة الراهنة . وإذا كان النقد الانفعالى لم يجعل همه التحقيق والاقناع فهمه إذن أن يسر ، وهكذا أراد جول ليمتر أن يسر ! ولقد كان هذا الناقد ممن أوتى روحاً وخفة وفناً متزناً مستقيما ، فكان تأثيره عظيما وأعظم آثاره « المعاصرون » .

* * *

ريمى دى كورمون Remy de Gourmont ١٨٥٨ - ١٩١٥

لا يمكن الخوض كثيراً فى الحديث عن « ريمى دى كورمون » فلقد كان له قراء أمناء ، لكن عددهم قليل . إذ كان يمقت الفوز والجماعات والمجد المدرسى ، على أنه كان معلماً ، معلم صفوة مختارة من القراء ، اتبعت تعاليمه ومذاهبه . وكانت تجد فيها فكرة رائعة متنوعة ، لا تقف على الأدب وحده ، لقد كان يفتش فى الآداب خاصة عن ترجمة صادقة للحياة ، وكان يرى أن ليس فى الامكان تفهم الحياة بغير العلماء والفلاسفة ، ولذا تناول فى بحوثه شخصيات مختلفة ، أرباب علم وأدب وطبيعة وطب وأرض واجتماع . وتحدث عنها كما يتحدث عن شعراء وروائيين ، ولكنه لم يحمل فى كل هذا علم اليقين . إذ لا يقين - عنده - فى العقل الذى لم يبلغ إلا ذرة من الحقائق الظاهرة إلا ذرة واحدة ! ولا فى القلب الذى لا يمثل لنا إلا فصولا مختلفة ، لاهم له منها إلا إلقاء السدول على العقل ، ولا فى نظريات « ما وراء الطبيعة » ولا فى الأديان التى تطفح بعوامل التعصب . ! نراه يجنح إلى الشك . لا شك التشاؤم : هنالك فلسفة السعادة ... ينبغى أن تحيا سعيداً ! وأن تكون فوق كل شىء وأن تحتقر كل شىء وأن تحب كل شىء ، وأن تدرك بأنه لا يوجد شىء ، وإن هذا اللاشىء فى الامكان أن يكون كل شىء ، والحياة بعد هذا كله - مشهد ، يكفر ما فيها من اللذة عما فيها من عناء وشقاء ، وأن فى الجهود المصروفة إلى تعرفها وتفهمها معنى قد يرفع العقل إلى ما فوق حدود الفناء .

وقد وضع فى حياته الأدبية سلسلة أفكار قيمة ، وقد ظل يؤمن بأن هنالك كتابا صعاليك وهم من يدعون « بالمدرسين » ، وكتابا لبقين دأبهم أن يتحروا عن الأساليب الجديدة والتعابير الحية فى الفن ، وقد حارب بشدة فى سبيل المدرسة الرمزية وناوأ خصومها أشد مناوأة ؟

خليل هنداوى

شخصية الزهاوى

بمناسبة مرور عام على وفاته

بقلم السيد احمد المغربى

بقية ما نشر فى العدد الماضى

الزهاوى والمرأة

الحديث عن المرأة ، مهما اختلفت نواحيه وتباينت مناحيه حديث لذيذ يسترعى الأسماع ، ويستلفت الأنظار ، ويستهوى الأفئدة ، وهو حديث ، لا نكون بعيدين عن الصواب اذا ما قررنا بأنه يلذ للمرأة أكثر مما يلذ للرجل ، ولا سيما اذا كان صادراً عن الرجل نفسه ، فهى تتلهف شوقاً إلى الاطلاع على ما يضمره لها فؤاده وما يكنه ضميره ، وهى تبذل ما ملكت يمينها وما لا تملكه يمينها لاستماع حديثه عنها ، سواء أكان هذا الحديث مدحاً أم قدحاً ، ثناء أم ذماً ؛ بل ربما كانت إلى استماع حديث الذم والقدح أشد شوقاً وأقوى رغبة منها إلى حديث الثناء والمدح !

ذلك لأن المرأة كانت ولا تزال ، وستبقى ما بقيت المرأة ، سراً غامضاً كلما خيّل للرجل أنه توصل إلى سبر غوره ، واجتلاء حقيقته ، أسلمه هذا السر إلى سر آخر ، وهكذا حتى يقف مكتوف اليدين ، مطأطىء الرأس معترفاً بعجزه مقراً بضعفه .

من أجل هذا كان التضارب بين آراء الفلاسفة ، والأدباء والشعراء ، كل يصفها كما عرفها بنفسه ؛ ففريق يقول بأنها ملاك تذيع السلام وتنشر الوئام ، وفريق آخر يقول بأنها شيطان تسبب الأحزان والأسقام ، وتثير الأضغان والخصام ، فينهض الفريق الثالث ، فيعارض الاثنين بقوله ، إنها بين بين !.

ولقد كان فقيدنا الكبير يعتقد بسمو منزلة المرأة ويؤمن باخلاصها إخلاصا تاماً يحملك على الايمان بالسعادة الزوجية التى كانت تهيمن فى جو بيته ؛ حتى انه ليؤثر أن يبقى بدون ذرية على أن يجرح عاطفة زوجه بالبناء على غيرها .

والمرأة فى اعتقاده ، لا تقل عن الرجل ذكاء وفهماً وإدراكاً ، فهى أهل للحفاوة والتكريم ، جديرة بالاحترام والتعظيم .

وهى تجلو بابتسامها الحلو وحديثها العذب ، الكآبة والملل عن نفس الرجل . وتخفف عنه آلام الحياة ومتاعبها ، وتبث فيه روح الجرأة والاقدام ، فيقتحم فى سبيلها الأهوال ، ويستقبل الارزاء بوجه باسم ونفس مطمئنة .

ويمثل لك الزهاوى مدى وفاء المرأة فى فتاة شاهدها بين أهل الجحيم قد اخضلت عيناها من شدة الأسى ولوعة الجفاء ومرارة النوى ، بشعر هو السحر الحلال : —

قلت ماذا يبكى الجميلة قالت ... أنا لا يبكينى اللظى والسعير
انما يبكينى فراق حبيبى ... وفراق الحبيب خطب كبير
هو عنى ناء كما أنا عنه ... فكلانا عمن أحبَّ شطير
فرقوا بيننا فما أن أرى اليو ... م سميراً ولا يرانى سمير
ولو أنا كنا جميعاً لخف الخطـ ... ـب فى قربه وهان العسير
لا ابالى ناراً وعندى حبيبى ... كل خطب دون الفراق يسير

ولقد وقف الزهاوى حياته على الدفاع عن حقوق المرأة المشروعة والذود عن كرامتها الضائعة ، وكان يقصد من مناصرته المرأة ، المرأة المسلمة ، فصور لنا ما تلاقيه من ضروب الذل والهوان ، فى بيت أهلها الذى وصفه بالسجن والقبر محرومة من رؤية النور ، وبين لنا ما للحجاب من مساوىء فادحة وأضرار بالغة حالت دون تقدم الشرق العربى ودعا إلى السفور حتى يتاح للمرأة أن تعاضد الرجل فى تحقيق الأمانى والآمال التى تختلج فى نفسه .

قال هل فى السفور نفع يُرَجَّى ... قلتُ خير من الحجاب السفورُ
انما فى الحجاب شلٌّ لشعب ... وخفاء وفى السفور ظهور
كيف يسمو إلى الحضارة شعب ... منه نصفٌ عن نصفه مستور
ليس يأتى شعب جلائل ما لم ... تتقدم إناثه والذكور

°°°

قد عزوتم إلى السفور غروراً ... طائشاً قد يفضى إلى الهفوات
هل يحول الحجاب بين التى لم ... تتثقف والطيش فى الرغبات
بل أرى فى الحجاب تسهيل ما تخـ ... ـشونه من نُكْرٍ على الفتيات

وقد تحمل الزهاوى ، فى سبيل المرأة الأذى والهوان ، وعرض حياته لخطر الاغتيال ، وذلك أن قصائده أثارت عاصفة

من الاستياء الشديد فى العالم الاسلامى . فهاج الناس لها فى بغداد واتهموه بتحامله على الشريعة الاسلامية الغراء وطلبوا من والى بغداد ، ناظم باشا فى عام ١٣٢٦ ﻫ أن يقيله من منصبه ، وازدادت نقمة الناس عليه حتى اضطر الى ملازمة داره . . .

الزهاوى الوطنى

لئن عُدَّ احمد شوقى شاعر الإسلام فإن الزهاوى كان ، بلا جدال ، شاعر العرب . فهو ينزع فى شعره نزعة عربية ، فيفتخر ببنى قومه العرب ويتغنى بذكرهم ، ويشيد بمحاسنهم

وهو يدعو إلى نبذ التعصب الدينى فهو مدعاة إلى التفرقة ، والتفرقة تستتبع الضعف ، وهذا العصرُ هو عصرُ القوة ، هو عصرُ التنازعِ على البقاء ؛ الضعيفُ فيه مقضىٌّ عليه بالموت

أصلُ العروبةِ قد رسا كالطودِ فى البلد الحرام
والفرعُ منها فى العرا قِ ومصرَ يسمو والشآم
بغدادُ منذ تأسستْ عُرِفَتْ بعاصمة السلام
عاش النصارى واليهو دُ ومسلموها فى وئام
فى وَحْدَةٍ عربيةٍ ليست تُهَدَّدُ بانفصام
تبنى سعادتها الشعو بُ على اتحاد وانضمام
لا خيرَ فى شعب يعيش من التعاسة فى انقسام

* * *

كونوا جميعاً سادةً لنفوسكم فالعصرُ هذا سيدُ الأعصارِ
أما تهاونكم فيجرح أمرُه فى القبرِ عزةَ يعربٍ ونزارِ
ليس الحياةُ سوى نزاعٍ دائمٍ يا للضعيفِ به من الجبارِ
الفوزُ للتجلدِ الجرىءِ فؤادُه والويلُ كل الويلِ للخوّار

ولقد رافق الزهاوى سيرَ القضيةِ العربية فى جميع أدوارها وجاهد فى سبيلها جهاد الأبطالِ البواسل . وكان فى هذا الجهادِ يحذرُ العربَ من عاقبةِ التهاون والتكاسل ، ويبث فى نفوسهم روحَ الجرأةِ والإقدام ، ليعيدوا مجدَ أجدادهم شمِ الأنوف ، أباةِ الضيم : —

والدهر للرجل القوى على صلابته ظهيرُ
والدهر يخذل من ينى والدهر يصفع من يخورُ

* * *

إن هدَّمَ العزَّ البِحوضَ حدوده سخطت عليه يعربٌ ونزارُ
لا يرفع الوطنَ العزيزَ سوى امرىءٍ حرٍ على الوطن العزيز يغارُ

* * *

لقد صح أن الضعف ذل لأهله وأن على الأرض القوىَّ المسيطرُ
وأن اقتحامَ الهولِ أقصر مسلكٍ إلى المجدِ إلا أنه متوعرُ

* * *

يا قوم إن أذعنتم للذل أغضبتم نزارا
أنتم أحق الناس إن ترعوا لأنفسكم ذمارا
هل تقبلون لنفسكم عاراً وللأعقاب عارا

والاستقلال ، فى نظر الزهاوى ، يؤخذ بالقوة ، ولا يعطى .. فعلى العرب ، إذن ، أن يريقوا دماءهم الزكية ويتقدموا للموت بقلوب لا تهاب الموت ، أما اعتمادهم على الوعود والعهود فلن يحقق لهم استقلالهم المنشود !

ذكت دماء لأجل الحق سائبة فإنها وحدها للمجد أثمان
وكل شعب على الأوعاد معتمد لحظه فى عراك الدهر خذلان
إن لم تكن قوة للمرء بالغة فكل حق به قد لاذ بُطْلانُ

وهو يدعو الأمة العربية إلى خدمة العلم ، إلى رمز الحرية والاستقلال ، فهو السياج الوحيد الذى يدرأ عنها الأخطار

وعلى الجند إنه كسياج يقى الحرم
وبه يُستقلُ بالرغم من عصبة الأمم
لا يجوسُ العدوُ مملكةً جيشها انتظام

نم قرير العين ، ياجميل ، فان فى بلادك نفوساً أبية ، وأنوفاً شماء ، تكره الذل وتأبى الاضطهاد ! .

نم هادىء البال ، ياجميل ، فان الشباب . يتقد حماساً . وإنه فى حماسه ليغلى ، ليثور ثورة البراكين . . . انظره . . . ها هو ذا قد أجاب داعى الوطن . اسمعه . ها هو ذا قد أصاخ لصوت الله . ان المدرسة ومتاعب المدرسة لم تثنه عن خدمة علمه المفدى . أتعلم أين هم الآن . انهم يتدربون . انهم يحملون البنادق .

نم قرير العين ، ياجميل ، فان فى البلاد مليكا ، هو رمز الشباب وأمل الشباب ، إنه غازى ، غازى القلوب ، ابن فيصل ، ابن الحسين ! .

أحمد المغربى

الزهاوى

للاستاذ أكرم زعيتر

كنت فى عداد الذين احتشدوا لتأبين الكاظمى الشاعر فى بغداد وأرهفوا آذانهم يستمعون إلى الزهاوى الشاعر المتفجع المتوجع.

جاء الزهاوى يومئذ يتوكأ على عصاه فى جسم متهدم يصارع العلل ويناجز الأدواء وصعد إلى مرزح الخطابة وجلس على كرسى ووقف خلفه شابان حرصا حين شرع يلقى قصيدته على أن يمسكا بذراعيه إمساك الشفيق الذى يحذر أن تجمح العاطفة بالشاعر فيثور وينهض من مقعده وهو لا يقوى على الوقوف فيصيب الجسم الذى ترادفت عليه الأسقام أذى شديد

راح الزهاوى يلقى قصيدته بصوته المتهدج، ونغمته التى انفرد بها، واضطرابه الجسمانى حتى وصل إلى قوله :

الكاظمى قد اعتنى ببلاده وبلاده بحياته لم تعتن

فنهض، وهاج، وتلظى قلبه الفتى يوشك أن يودى بجسمه المتهدم لولا حذر الشابين، ثم أنهى الزهاوى نشيده :

يا بلبل الشعراء مالك صامتا من بعد تغريد بشعرك مشجن
قد سرت قبلى للردى متعجلا ولعلنى بك لاحق ولعلنى!

وردد الشطر الأخير نشيجاً مؤثراً : ولعلنى بك لاحق ولعلنى!

التفت إلى صديق يجلس بجانبى فاذا بدمعه يترقرق وقلت : أرأيت يا صديق؟ إن الزهاوى يرثى نفسه فى قصيدته، إن هواجسه تنم عن دنو أجله!! قال : صدقت ولكن شعره اليوم فيه فتوة وفيه حياة! قلت : إنها خفقة الذبالة الأخيرة كنذر بانطفاء السراج؛ إننى مزمع على مغادرة بغداد قريبا وأحس برغبة ملحة تهيب بى إلى زيارته غداً زيرة الوداع الذى لا لقاء بعده. فماذا تقول؟ قال : ذلك ما أبغى

وانطلقنا فى اليوم التالى إلى بيت الشاعر، ودخلنا عليه فاذا به جالس على فراشه يتكئ على وسادتين، فرحب بنا وسر بزيارتنا؛ وكان أول ما حادثنا سألنا عن وقع قصيدته فى رثاء الكاظمى، فأعربت له عن أثرها فينا وقلت : إننى عائد إلى فلسطين وأود أن أدون فى مفكرتى ما يدور فى هذه الزيارة من حديث! قال الزهاوى : حسن وهل اطلعت على «الأوشال»؟ كنت أظن أن عظمى رق وأن زمنى لن يمتد بى كثيراً فسميت مجموعة قصائدى «الأوشال»، ولكننى نظمت بعدئذ بعض القصائد وهى آخر ما أنظم، وجمعتها فى ديوان صغير سميته «الثمالة»، والثمالة آخر ما أنظم فى هذه الدنيا التى أرانى تاركها قريبا. قلت : وهل غير الثمالة للأستاذ شعر لم يطبع؟ قال : أجل إنه ديوان فى... وأحسب أنه لن ينشر فى القرن العشرين؟ قلت وما عمر الأستاذ؟ قال : أنا فى السنة الثانية والسبعين بالحساب الشمسى وفوق الأربعة والسبعين بالحساب القمرى!

وهنا أحس الشاعر بالألم وأخذ يئن، فوجمنا، ولكنه قطع وجومنا بقوله : لكل جريح أنة. وصمت قليلا ثم قال : نظمت قصيدة لتتلى فى تكريم الدكتور حسين هيكل لمناسبة تأليفه «حياة محمد»، ونادى خادمه فناوله كيساً انتزع منه القصيدة وتلاها علينا ثم استأنف الحديث. وطالما كنت أنشر قصائدى فى السياسة الأسبوعية وحدثنى طالب أن مئات النسخ من السياسة كانت تباع فى دار العلوم بمصر حين تنشر لى فيها قصيدة؛ وطالما احتدم الجدل وتعارك الطلاب (وتباسطوا) بسبب انقسامهم إلى فئتين : واحدة تؤثر شوقى على، والأخرى تؤثرنى على شوقى! قلت :

وتطرق الزهاوى فى حديثه إلى بعض أدباء بغداد الذين يحاولون انتقاصه فندد بهم وحمل عليهم حملة شعواء، ثم تحدث عن صفات الشاعر التى هى فى نظره استعداد ذاتى ومادة تتألف من ثقافة ولغة ثم طول ممارسة. وسألته عن خير قصائده فقال أكو (يوجد) أكثر من أربعين قصيدة كلها (زينات) : خذ مثلا قصيدتى «هواى»، ومطلعها : أذكرى إذ كنا صغيرين نلعب! وخذ قصيدتى فى الغروب وقصيدتى فى الطلوع إنهم عصريتان جديدتان، أما التصوير المؤثر الجميل ففى قصيدتى ومتى تخر أم لا؟ ومطلعها :

يا ابنة الهم إن غرفتك القلـــب فلا تخرجى إلى الأبواب

إن هذه القصيدة بديعة، بديعة!

وحدثنا عن رأيه فى بعض الشعراء، فإيليا ابو ماضى يحلق أحياناً فى السماء عاليا ويهبط أخرى، أما أحمد محرم فيمتاز شعره بجزالته ولكنه مشوب بالتقليد، وأما الصافى فحبذا لو اتسع

يا ابنة الصين ، وما أنا ممن يتقلد المنة من أحد . جئتك زائرة

اطلاعه اللغوي وارتقت ثقافته . قلت له : وفى العراق ؟ قال : الرصافى ماضيه خير من حاضره بكثير ، بكثير ؛ والشيخ رضا الشبيبى قل أن يحلق ، والجواهرى عربيته ضعيفة ، ولقد لازمنى سنتين أو ثلاثا وكان فى أثنائها . . . سامحه الله ! ولكن أملا قد يعقد على حسين الظريفى وابن أخى ابراهيم الزهاوى

وسألته عن قصيدته فى رثاء الكاظمى فقال : تقرؤها فى (الرسالة) ثم تحدث عن صاحبها وقال : والزيات هو الكاتب الذى تقرأ أخلاقه فيما يكتب

ودار الحديث حول المجمع الملكى اللغوى الذى تأسس فى مصر فأبدى تشاؤمه منه . وقال إنه لن يدوم اكثر من سنوات لجوده !

وحدثنا عن المرحوم الملك فيصل واعجابه بشعر الزهاوى وبما قال : ورأى فيصل رسمى وأنا نائم فاعجب به وأمر بتكبيره ، فنظمت بيتين كتبا تحت الرسم ، وأنشدهما الزهاوى ، واذكر أن شطرهما الأخير هو : ولكنى عن مدحك لا أنام ، وودعت الزهاوى وأنا موقن أنه الوداع الأخير

(نابلس) **اكرم زعيتر**

حديث الأزهار

للكاتب الفرنسى ألفونس كار

— ٤ —

بين القهوة والشاى

خطر يوماً لزهرة البن أن تجتاز الجبال والبحار من سهول الحجاز إلى الصين لتزور أختها زهرة الشاى ، فاستقبلت هذه زائرتها بكل ترحاب إلا أنها كانت مغرورة بنفسها تتكلف الود تكلفاً ككل مخلوق لا يعترف بفضل أحد

وكانت ابنة الصين تباهى بحضارة بلادها القديمة وتحسب ابنة الحجاز حديثة نعمة خرجت من قفار لا مدنية فيها ولا مجد

وما كانت ابنة العرب لتخدع بغرور صديقتها فثارت العزة العربية فى نفسها فقالت لزهرة الشاى : — أراك مغترة بنفسك

لا مستجدية فلست أعرق منى نسباً ولا أرفع حسباً

وهزت زهرة الشاى رأسها باحتقار وقالت : — إن حسبى عريق يتصل بمن أسسوا مملكة الصين منذ ستين قرناً

— وما تقصدين بهذا ؟

— أقصد تذكيرك بما يجب عليك من احترامى

وكانت الزهرتان تتحدثان وهما جالستان إلى مائدة صفت عليها أوانى القهوة والشاى ، وكل زهرة تتناول من خلاصتها لتنبه قواها ؛ فقالت زهرة البن : — أنت كريهة الطعم ، ولو لم تكونى كذلك لما هجرك الصينيون لاجئين إلى الأفيون ، فما أنت بالمخدر يفتح أبواب الأحلام الجميلة

فانتفضت زهرة الشاى وقالت : — لقد غزوت الشعب الذى تغلب على الصين فأنا سيدة بلاد الانكليز

— وأنا أسود بلاد الفرنسيس

— لقد أنزلت الوحى على ولتر سكوت وبيرون

— وأنا بعد أن ألهمت وطنى أروع الافكار ألهمت موليير وفولتير

— أنت سم بطىء قتال

— أنا دواء للهضم

وساد السكوت لحظة ، فقالت زهرة الشاى : — انك لتسمعين من غليان مائى ما يشبه حفيف أجنحة الأرواح ، وما ضفائر الفاتنات بأجمل من أوراقى . أنا شعر الشمال يتدفق حزناً وحناناً

فقالت زهرة البن : — لى سمرة بنات الصحراء ، ولى لفتات عيونهن السوداء ، فأنا أحترق الأعصاب باللهب الخفى . أنا سحر الشرق وأنا غرامه

— أنت تحرقين ، أما أنا فأستنزل العزاء على قلوب الموجعين

— أنا أعطى القوة ، أما أنت فتنزلين الضعف بالجسوم

فقالت زهرة الشاى : — لى القلب

فقالت زهرة البن : — أما أنا فلى الرأس

واحتدم الجدال بينهما دون أن تذعن إحداهن للأخرى ، فقررت الزهرتان أخيراً أن تلجآ إلى مجلس محكمين يؤلفه شاربو القهوة وشاربو الشاى

قدمت القضية لهذا المجلس ومرت الأجيال والخلاف قائم بين أعضائه وهو لم يصدر حكمه حتى اليوم

(ف . ف)

تاريخ العرب الأدبى

للأستاذ رينولد نيكلسون

الجاهلية : شعرها ، وعاداتها ، ودياناتها

ترجمة حسن حبشى

ولندع هذه الناحية برهة قصيرة لنلقى نظرة عابرة نلم فيها بمكانة المرأة ونتلمس أثرها فى المجتمع ليرى القارىء كيف كانوا ينظرون إليها فى المجتمع الجاهلى ، وذلك أنهن كن فى مرتبة سامية ذوات أثر ملموس ، يخترن أزواجهن بأنفسهن ، ويرجعن إلى منازلهن الأولى إذا سيئت معاملتهن أو لم يجدن الراحة المنشودة فى حياتهن الجديدة ، وكن فى بعض الأحيان هن اللاتى يطلبن الزواج وفى أيديهن العصمة ، وما كن جوارى أو متاعاً بل كن مساويات لأزواجهن يلهمن الشاعر القصيد ، ويثرن نخوة المحارب فى القتال ، ويبعثنه على الاستماتة والقوة . ولعل أصل فروسية القرون الوسطى يرجع إلى بلاد العرب الوثنية ، وإن الفروسية وامتطاء متن الصافنات حبا فى المخاطرة وتخليص الأخيذات ، وإغاثة الملهوف والنساء اللواتى أحاقت بهن المصائب ، كل هذه الأمور هى من الطبائع الجوهرية للعربى الصحيح ؛ وإن لفظ « الفروسية » ليشير إلى راكب الحصان ذى الطبع الشريف ، كما أنه لا ينال لقب « فارس » إلا من كانت تجرى فى عروقه دماء النبل [1] . ولكن نبل النساء لا يظهر أثره من احترام الرجال إياهن وبطولتهم من أجلهن فحسب ، بل تنعكس صوره أيضاً فى الأغانى والأقاصيص وفى التاريخ ؛ من ذلك أن فاطمة بنت الخرشب كانت إحدى ثلاث عرفن بالمنجبات ، وكان لها سبعة أبناء ، ثلاثة منهن يسمون « بالكملة » وهم ربيع وعمارة وأنس . وفى ذات يوم أغار حمل بن بدر الفزارى على بنى عبس وهى القبيلة التى تنمى إليها فاطمة ، ثم أسرها ، ولما أخذ بخطام البعير وابتعد بها عن الحى وأهله صاحت به : « أى رجل ضل حلمك ، والله لئن أخذتنى فصارت هذه الأكمة التى أمامنا بى وبك ـ وراءنا لا يكون

(1) W. Blunt & Lady Anne Blunt : The Seven Golden Odes of Pagan Arabia, P. 14.

بينك وبين بنى زياد [1] صلح أبداً ، لأن الناس يقولون فى هذه الحال ماشاءوا . وحسبك من شر سماعه » قال : « إنى أذهب بك حتى ترعى إبلى » فلما ايقنت أنه ذاهب بها رمت بنفسها على رأسها من البعير ، فماتت خوف أن يلحق ببنيها عار فيها [2] . ومن بين الأسماء التى غدت مضرب المثل فى الوفاء بين النساء فكيهة وأم جميل . أما عن فكيهة فيروى أن السليك بن السلكة [3] أغار على بنى عوار (بطن من بطون مالك) فلم يظفر منهم بفائدة ، وأرادوا مساورته فقال شيخ منهم « إذا عدا لم يتعلق به شىء ، فدعوه حتى يرد الماء فإذا شرب ثقل ولم يستطع العدو وظفرتم به » فأمهلوه حتى شرب ثم بادروه . فلما علم أنه مأخوذ جاملهم وقصد لأدنى بيوتهم حتى ولج على امرأة منهم وهى فكيهة فاستجار بها فمنعته وجعلته تحت درعها واخترطت السيف وقامت دونه ، فكاثروها فكشفت خمارها عن شعرها وصاحت بإخوتها فجاءوا ودافعوا [4] عنها حتى نجا من القتل [5] ولولا ضيق المقام لكان من أمتع البحوث أن نسرد تفاصيل أوفى عن القصص التى وردت فى ذكر نبيلات النساء فى الجاهلية . ولقد صورت شعورهن المرهف بالشرف والوفاء ، ولكن لعلى أكون قد وفقت فى اختيار أمثلة تصور الشرف العريق والذكاء الحاد والعاطفة العنيفة . وكان الكثيرات منهن ينظمن الشعر الذى ينشدنه فى المآتم ويصغنه قلائد فى رثاء موتاهن ، ومن أسطع البراهين على سمو أخلاق المرأة فى الجاهلية ورفعة نفسها أن ترى أم البطل وأخواته يقضين على أنفسهن بملازمة الحزن عليه والاشادة بمحامده .

---

(1) هم أسرتها وكان زوجها من بنى زياد (المترجم)

(2) الأغانى ج ١٦ ص ٢٢ س ١٠ ـ ١١

(3) وكان أسود البشرة ولذلك يقال : أغربة العرب ثلاثة عنترة وخفاف بن ندبة والسليك بن السلكة (المترجم)

(4) Freytag : Arabum Proverbia, Vol II, P. 134.
الأغانى ج ١٨ ص ١٣٧ س ٥ ـ ١٩

(5) ذكر الأغانى بعد هذه القصة أبياتا قالها السليك فى مدحها ، لا نرى بأسا من إيرادها اتماما للفائدة الأدبية :

لعمر أبيك والانباء تنمى ... لنعم الجار أخت بنى عوارا
من الخفرات لم تفضح أباها ... ولم ترفع لاخوتها شنارا
كأن مجامع الأرداف منها ... نقا درجت عليه الريح هارا
وما عجزت فكيهة يوم قامت ... بنصل السيف واستلبوا الخمارا

وقد ذكر ابن قتيبة فى كتاب المعارف (طبعة وستنفلد) ص ٤٤ (جوتنجن ١٨٥٠ م) أن قاتل السليك : أنس بن مدرك الخثعمى (المترجم)

أما مدح العاشق لمحبوبته فكانت له لهجة أخرى ، وذلك أن القصيدة لا تدع ناحية من نواحي المحاسن الجثمانية إلا وتصفها وصفا شاملا ، وقل أن نجد اهتماما أو تقديراً للجمال الخلق ، ولا يشذ عن هذا سوى مطلع قصيدة للشنفرى ، أما سير شارلز ليبل الذي يهم كل مشتغل بالأدب العربي التعرف إلى رأيه لعطفه على الشعر العربي القديم ودقته في نقل صوره . فيقول عنها ، إن هذه القصيدة أمتع صورة ترسم لنا الأنوثة التي خلفتها لنا الوثنية العربية ، وقد رسمتها نفس اليد التي خطت اللامية المنقطعة النظير ، وأدت خلالها المثل الأعلى لقوة الرجولة وصلابة [1] البطولة ،

لقد أعجبتني لا سقوطاً قناعها
إذا ما مشت ولا بذات تلفت
تبيت بُعَيْد النوم تهدي غبوقها
لجارتها إذا الهدية قلت
تحل بمنجاة من اللوم بيتها
إذا ما بيوت بالمذمة حلت
أميمة لا يجزى نثاها حليلها
إذا ذكر النسوان عفت وجلت
إذا هو أمسى آب قرة عينه
مآب السعيد لم يسل أين ظلت
فدقت وجلت واسبكرت وأكملت
فلو جن إنسان من الحسن جنت [2]

وإن مثل هذا الخلق لا يمكن أن ينضج إلا في جو طليق حر بعيد عن التكلف والقيود المعدوم أثرها في الصحراء . وإذا نظرنا إلى هذه الأبيات وما توحيه من المعاني نجد أنها كافية في الرد على أولئك الذين يزعمون أن الاسلام قد رفع منزلة المرأة الاجتماعية ، وإن يكن من بعض الوجوه قد رفع مستواها الأدبي في الحضارة إلى حد عظيم [3] ولكن يوجد بجانب هذا أمر آخر ذلك أنه في بلاد كهذه حيث القوة هي الحق ، وحيث نرى أسلوب الحياة الأولى يجيز للأيد امتلاك ما يريد ، ومن استطاع

(1) Ancient Arabian Poetry, P. 81

(٢) المفضليات (طبعة ثوربك) ج ١ ص ٣٢

(3) Goldziher : Huh. Studien, Part a, P. 295 399

مقاومته احتفظ بنفسه ، في مثل هذه البلاد كان عجيباً ألا يندثر الجنس الضعيف (النساء)

أما عادة الجاهلية في وأد البنات أحياء فترجع – كما يظهر لنا – إلى المجاعات الجمة التي كثيراً ما تمنى بها بلاد العرب نظراً لقلة سقوط الأمطار ، وكذلك إلى محافظة موهومة على الشرف ، وكان الآباء يضنون أن يطعموا أفواهاً ليس لها من قيمة في الحياة كما كانوا يخشون أن يجلبن لهم العار إذا سبين في حرب ، ومن ثم كانوا يعدون ولادة الأنثى خطباً كما نتبين ذلك مما ورد في القرآن [1] (ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ، وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ، ألا ساء ما يحكمون)

ويقال في أمثالهم [2] ، تقديم الحرم من النعم ، وقولهم ، دفن البنات من المكرمات [3] ،

(يتبع) حسن حبشي

(١) سورة النحل ١٦ : ٥٧ – ٥٩

(2) Freytag : Arabum Proverbia, Vol I, P. 228.

(٣) شرحه ص ٢٢٩ ج ١

ذكرى حافظ ابراهيم

للعالم الشاعر الراوية الأستاذ أحمد الزين

أفى كل حين وقفة إثر ذاهبِ   وصوغ دم أقضى به حقّ صاحبِ
أودِّع صحبي واحداً بعد واحد   فأفقد قلبي جانباً بعد جانب
تَساقَطَ نفسى كلّ يوم فبعضُها   بجوف الثرى والبعض رهنُ النوائب
فيادهر دع لى من فؤادى بقية   لوصل ودود أو تذكّر غائب
ودع لى من ماء الجفون صُبابة   أجيب بها فى البين صيحة ناعب
وهل صيغ قلبي أو ذخرتُ مدامعى   لغير وفاء أو قضاء لواجب
فقارب أخاك الدهر والعيش مسعف   فسوف تُرَى بالموت غير مقارب
حياة الفتى بعد الأخلاء زفرة   تَرَدَّدُ ما بين الحشا والترائب
رعى الله فتياناً وفوا حقّ شاعر   وفىٍّ على مَضِّ الخطوب الحوازب
وفيٍّ لمصر لم يدنسِ قريضه   بحمد خؤون أو بإطراء كاذب
وفىّ وفاء الرسل بينَ معاشر   نصيب الحمى منهم وفاء الثعالب
يدورون بالأمداح يبغون مأرباً   فياضيعة الأوطان بين المآرب
فبينا ترى حمداً ترى الذم بعده   يريك فصول العام شعرَ الأكاذب
فدع عنك شعرَ الحمد والذم إننى   نصحت بما قد أقنعتنى تجاربى
وكن أمة لم تُعنَ إلا بأمّة   فنفسك لم تخلق لسخر الألاعب
متى تخلص الاقلام للنيل وحدَه   فمن شاعر عالى الشعور وكاتب
إذا الشعب بالنواب عزمكانُه   فشعرك إن تنصفه أبلغ نائب
وهل نائب زكيتموه كنائب   يزكيه صوت الله أعدل ناخب
وشتّان بين اثنين نائب أمة   ونائب إنسانية فى المصاعب
فهذا إلى وقت من الدهر ينقضى   وذاك عن الأجيال آت وذاهب
لقد فقدت مصر بفقدان حافظ   لسانا كوقع المرهفات القواضب

فسل عنه فى الموتى (كرومر) إنه   سقاه بكأس الشعر سمّ العقارب
ألم يرمه فى دنشواى بضربة   سرى وقعها فى شرقها والمغارب
أطار صواب اللورد صاعق هولها   فولى على أعقابه غير آئب
وشد على قصر الدبارة شدة   تبين منها اللورد سوء العواقب
تداعت بها أركانه وتجاوبت   مقاصيره تبكى بكاء النوادب
وكاد يقول القصر للورد: أخلِنى   فلو دام هذا القذف لاندك جانبي
ظلمتَ فما ذنبي تعرّض ساحتى   عناد الليث مرهف الناب غاضب
فلو كان لى فى ساكنى متخيّرٌ   لأغلقت بابى دون إيواء غاصب
وسل بعده غورست ما فعلت به   بَواتر أمضى من نصال المضارب
بَواتِر صاغتها قريحة شاعر   من اللفظ لم تحفل بحشد الكتائب
تمزق من أعراضهم لا جسومهم   فما القتل ان تغنَى بحشو الجلابب
وما قتل الاحرارَ كالهجو إنهم   يرون أليم الطعن طعن المناقب
ولم أر سيفا كاللسان قرابه   فم وشباه من قواف صوائب
يُرى شِعرُه بين الصفوف محاربا   وصاحبه فى الناس غير محارب
وسل بمجلس الشورى تجبك من البلى   مواقف صرعى الجاه صرعى المناصب
رآهم لأغراض العميد مطية   وأن لحى الأشياخ لعبة لاعب
فأوتر قوس النقد غير مصانع   وسوّد مبيّض اللحى غير هائب

***

فذاك جلال الشعر لا شعر عصبة   يطالعنا تجديدهم بالحواصب
همُ جدَرِى الشعر آذوا جماله   بما ألصقوا فى حسنه من معايب
عناوين كالألغاز حيرت النهى   وما تحتها معنى يلذ لطالب
دواوين حسن الطبع موّه قبحها   وهل يخدع النقاد نقش الخرائب
فياضيعة الأوراق فى غير طائل   ويا طول ما تشكو رفوف المكاتب
وكم دافعوا عن مذهب العجز جهدهم   فما غسلوا أسواء تلك المذاهب
وكم ملأوا بالزهر والنهر شعرهم   بلا طيب مستاف ولا ريّ شارب
وكم يذكرون الأيك والطير صدّحا   عليها فلم نسمع سوى صوت ناعب
وكم لهجوا بالشمس حتى تبرمت   بهم وتمنت محوها فى الغياهب
وكم أقلقوا بدر الدجى فى سكونه   وكم أغرقوا سماعهم بالسحائب

وكم هاتف بالخلد منهم وشعره ... تُوُفِّيَ سقطاً قبل عقد العصائب
وشاك أذاة الحب أطفأ جمره ... بشعر كبرد الثلج جم المثالب
فأقسم لو يبغي وصالا بشعره ... لجانبه من لم يكن بمجانب
اذا ما احتفى بعض ببعض فإنهم ... نواصب علم تحتفي بنواصب
أكل متاع كاسد عند غيركم ... يروج لديكم يا بلاد العجائب ؟
وكل أخي زيف نفاه سواكمُ ... يرى فيه من أخياركم ألف راغب
لقد راج دجل الشعر عند رجالكم ... كما راج دجل السحر عند الكواعب
تواصت بغبن شيبكم وشبابكم ... وفوضى الهوى ساوت مجدًا بلاعب
فأحجم عن ميدانها كل سابق ... جواد وجلى فيه تهريج صاخب
وأمسى زمام الفكر في يد عصبة ... هم المثل الأعلى لسخف المواهب
علام يجيد الفن في مصر متقن ... اذا كان بالتهريج نيل المراتب ؟
فيا جهل واصلنا ويا علم فابتعد ... ويا حمق لازمنا ويا عقل جانب
أرى الجهل نورا في بلاد رجالها ... خفافيش يعشيها ضياء الكواكب
اذا الشعب بالإهمال أرسب عاليا ... فلا بدع لو يعلو به كل راسب

أحمد الزين

حافظ

للأستاذ فليكس فارس

لعمرك ما في الدهر ظلم ولا غدر ... ولكن هي الدنيا مراحلها غمر
يرى المرء ما في يومه وهو لا يرى ... غداً، وغد سر سيتبعه سر
مسالكنا في الأرض خطت سطورها ... إذا ما تلونا السطر لاح لنا سطر
ومعنى الذي نتلو كمين بما تلا ... فما يدرك المعنى ولو ختم السفر
هنا كلمات إن تهجأ حروفها ... ففي العالم المستور آياتها الغر
وإن تهتك الغيب الضمائر ترتضي ... بواقعها فالحق يحجبه الستر
وكم نال منا الأمس حتى إذا انقضى ... تبين منه الخير وانقشع الشر

* * *

أحافظ، هل تشجيك في ذلك العلا ... هواتف آلام يرددها الذكر
أتشجيك حرب في الحياة بلوتها ... ويوجعك العزم المكابر والقهر
أتأسف للأيام مجلى ثقيلة ... والليل عن صبح المكاره يفتر
وللأمل المغرور في مهيع الصبا ... وللحب لا جنى إذا انتثر الزهر
وللعلم مجهولا وللفضل مغفلا ... وللود في الاخلاص سادها الغدر
وللنار تبكي فيك قلبا مولها ... بمصر وقد ذلت بأغلالها مصر
أتبكيك هاتيك الدموع ذرفتها ... قصائد من سودائها انفلق الفجر

* * *

أحافظ، قل، هل كان دهرك ظالما ... وفي ظله المكذوب قد كمن النصر
أما نفذت في الخلد روحك روحها ... فلاح بها ما ادّخرت لها الذخر
وقد ظهرت منك السريرة درة ... على شاطئ الأزمان ألقى بها العمر
لحظك في دنياك أنت أردته ... ومن نفذ المقدور نفسك لا الدهر
بنو الشعر رسل في الحياة سبيلهم ... إلى الله آلام يمهدها الصبر

فصحتهم سقم وراحتهم عنا وعزتهم وهم وإثراؤهم فقر
وسيان فيهم ذو يسار ومعسر فذا سجنه كوخ وذا سجنه قصر
مشيت وشوقى واحدا صنو واحد
فخلنا كما شفعا وروحكما وتر
وقد كان شوقى حافظا فى شقائه وحافظ شوقى أمره للعلا أمر
فللمجد والعلياء ماقد نظمتما وللخلد فى دنيا كما هذه الخمر
ترنح منها الثائرون كأنما ألم بهم من كأس شعركما السكر

* * *

أحافظ كم نادى بما قلت شاعر ولكن ما أطلقته الصرخة البكر
وما سمعت أقطار يعرب قبلها هتافا تنادى فى مقاطعه القطر
قصائد من وحى الشعوب أنينها فناظمها فرد وملهمها كثر
أتيت بها والروع مرخ سدوله على كل فج ضاق فى رحبه الصدر
تسير به الأقوام حيرى وليس فى مطالعها بدر ينير ولا زهر

خلق فوق النيرين جناحه
وفاض على الشرقين من روحه السحر
أما والذى أخفى عن النفس كنهها
فأدرج فى أسرارها الجهد والأجر
لكل من الأرواح قسط مقرر لها وعليها لا كثير ولا نزر
إذا البلبل الصداح أكمل شدوه وبلغ ما ألقى على روعه النشر
إذا الزهرة الملداء نوّر تاجها
وفاح على الأرجاء من نفحها العطر
فقد جاد كل منهما بحياته
فما تطلب الدنيا وقد نفد العمر

* * *

أحافظ ، أى الشعر أنشدت فى العلا
لسعد فمال الحور وارتعش السدر

فأوقدت للسارين قلبك مشعلا تفجر من أشعاعه المجد والكبر
رأى القوم أن النور فى القلب فاهتدوا
إلى قلبهم يجرى بأعشاره الفخر
وهل فى قلوب العرب إلا مشاعل من القبس الهادى أضاء به الذكر
خبا نورها حينا فضلت عن الهدى
ولولا انطفاء القلب ما أظلم الفكر

* * *

أحافظ ، قد أديت فينا رسالة ختمنا بها عصرا فلاح لنا عصر
وحملك الماضى بجميع احتضاره فبالك حرا نال من روحه الأسر
تحملت لا يرميك بالعجز فاضل وناضلت لا يرميك بالسفه الغر
وقد كنت مصريا صميما بلاده وأوطانه قلب العروبة والنحر
وما عاش قلب دون جسم يضمه وما عاش جسم قلبه عنه يزور
ألا رحم الله الذى مد كفه على صفحات البحر فانفلق البحر
وسارت على أمن تصافح يعربا فصافحها المعمور والمهمه القفر

* * *

أشاعرنا ، هذى قوافيك ألهبت دم الأسد الباكى ففى دمه جمر
وكم من شهيد لو نثرت دماءه لفاح على الدنيا به ذلك الشعر

* * *

يقولون لو لم يحكم الصمت حافظاً ويطوى على غل قوادمه الصقر

تردده السبع الطباق مذيعة لبشراك أن الشرق فى حقه حر
وما كان قبل العهد فى أرض يعرب
سوى صفحات كل عهد بها حبر
وهل يطلق النسر الأسير جناحه إذا لم يحرر رأسه ذلك النسر
تنبه هذا الشرق والأفق مظلم
وقد سادت الدنيا المطامع والكفر
فما يؤمن الانسان إلا بنفسه وقد محيت من لوحه الكلم العشر
جهاد أبى قومى وسير أعلى الهدى فما بسوى آفاقنا للسرى بدر
وهل للورى نور سوى نور ربهم وفى آيه الأسعاد والمجد والبشر

* * *

أحافظ ، هذا اليوم يومك إنما جدير بذكر الحر موطنه الحر
وفى الأمس كان المجد مجدك أن نرى وجوماً فلا إحياء ذكر ولا قبر
كتمنا القوافى ناحيات ذليلة إلى أن أطل الفجر وابتسم الثغر
فاطلقت الذكرى لروحك حرة وقد غار فى النسيان تذكارك المر

* * *

تحييك كف المصطفى فى جهاده
وقد أورقت فى الأفق أعلامه الخضر
يحييك من عرش الكنانة عاهل تبسم للآفاق فانفلق الفجر

فليكس فارس



الفن المصري

٢ – النحت

للدكتور احمد موسى

يكاد لا يختلف اثنان في تقدير الفن المصري القديم وخلود عظمته. بل والتأكيد بأنه أصل الفنون جميعاً؛ ذلك الذي حدا كثير من علماء الفن والآثار إلى الاشتغال بتحديد الصلة بين الفن المصري وبين ما جاء بعده من فنون الاغريق وغيرهم، والقول أن الاغريق أول من اقتبس عن المصريين، ويدللون على ذلك بمقارنات قياسية بين تصميم المعابد المصرية، ونظيرها عند الاغريق كما يقارنون بين منحوتات المصريين وبين منحوتاتهم في أول عهدهم، ويحاولون إيجاد الشبه والمخالفة بين الاثنين، ثم تراهم يعرجون بعدئذ على قواعد غاية في الدقة تؤكد صدق قولهم. منها تناسب الأعضاء، وتشابه المجموع الكلي وتناظر الانشاء الشكلي

كل هذا قد يكون صحيحاً إلى حد كبير، ولكن أهم ما يجب علينا أن نعرفه، هو أن الفن المصري بدأ ونما وازدهر، ثم انحط وانتهى دون أن يصل في مرحلة من مراحله إلى المثل الأعلى بمعناه الفني، لأنه لم يمثل الحقيقة تمثيلا يدل على سمو الخيال وروعة التصور وكان هذا ولا يزال معدودا من القصور الحتمي الذي لم يمكن التخلص منه بد، لأنه نجم عن طبيعة أرض مصر، ونفسية أهلها، وصفاء سماء بلادهم، وسهولة العيش دون الكفاح الكثير. وبالرغم من أن مرحلة الحضارة المصرية استغرقت حوالي ثمانية أضعاف الوقت الذي استغرقته حضارة الاغريق، فانه للأسباب الطبيعية المذكورة لم يصل الفن المصري إلى ما وصل إليه الاغريق.

وإذا كنا لا نزال نذكر ما نقله عن بعض منحوتات اكروبوليس أثينا ومعبد بارتنون، وما يحتويه من تلك القطع الرائعة التي مثلت الحياة خير تمثيل، وفي قوة وصلت إلى أقصى ما يمكن أن يصل اليه الفن اطلاقا، أمكننا أن نعرف بالمقارنة مدى ما وصل اليه المصريون



(ش ١) تمثال الكاتب

في هذا النوع من الفن، معرفة أقرب إلى الحقيقة العلمية منها إلى حشو القول!

لون المصريون كل ما تركوه بمقابرهم وأهرامهم ومعابدهم بألوان صناعية اتخذوا بعضها من الأرض، هذا عند ما كانت من الحجر الجيري أو الرملي، أما في الحالات الأخرى حيث كانت من حجر الجرانيت الوردي أو الأسمر. أو حجر البازلت أو الديوريت أو السربنتين، فانها تركت بدون تلوين اكتفاء بلونها الطبيعي. على أنه من المناسب أن أذكر شيئا عن الألوان الصناعية وكيفية عملها، فاللون الأبيض كان من الجبس المخلوط بياض البيض أو العسل، والأصفر من الصنوبر أو الطفل، والأزرق من مسحوق حجر الزبرجد أو من سلفات النحاس، أما الأسود فكان من مسحوق العظام المحروقة

وإذا وجدت تماثيل خشبية أو حجرية من التي تقبل امتصاص الألوان وكانت غير ملونة؛ فان هذا راجع في الغالب إلى زوال الألوان بمرور القرون، أو لأنها تركت قبل إتمامها لطارئ لم يكن في الحسبان.



(ش ٢) شيخ البلد (الأسرة الرابعة)

من هذا ترى أن الصلة بين النحات أو المثال وبين المصور أو المنمق كانت قوية وضروزية لاكمال الانتاج الفني، وكان هذا من أهم العوامل التي مهدت السبيل إلى وجود شبه عظيم في تكوين كل من التماثيل والمصورات، بل إنك لترى ما هو أكثر من ذلك، إذا قارنت التماثيل بالمصورات من حيث الفكرة والانشاء، فتقف حينئذ على مدى ارتباط كليهما بالآخر من حيث الناحية الفنية والمنهجية، نعم كانت المنحوتات والتماثيل مجسمة، على حين كانت المصورات نصف بارزة أو محفورة أو مسطحة، فكان هذا دافعا إلى تصويرها من الجانب، ولعله من الضروري أن أشير هنا إلى حالة شملها النحت النصف البارز والمحفور كما شملها التصوير، لم تكن تعرف ولم تشاهد إلا في الفن المصري وحده. هذه الحالة التي تعد طابعاً مميزاً «Caracteristic» تتلخص في أن المصور جعل تصويره للانسان كما لو كان ناظراً إليه من الجانب لمجموع الرأس والساقين والقدمين، وكما لو كان مشاهداً إياه من الامام للعينين والصدر واليدين، فهذا رغما عن أنه خطأ، إلا أنه استمر طوال أيام الفن المصري كله منذ بدئه حتى نموه وازدهاره الذي أعقبه الانحطاط والانحلال، إلا في بعض الأحيان التي لا يمكن اعتبارها قاعدة للفن من ناحيته العامة، ولم يعرف للآن شيء عن الدافع لهذا اللهم إلا إذا كانت العينان والصدر واليدان أهم ما في جسم الانسان من أعضاء في اعتبار المصريين إجمالا أو في نظر الفنانين على وجه الخصوص.

أما تاريخ النحت الكامل والنصف بارز «Relief» فهو وصف شامل لمراحلهما منذ عصر المملكة القديمة، خصوصا في عهد الأسرتين الرابعة والخامسة إلى آخر أيام النهضة المصرية، ولما كان المجال لا يسمح بدرس هذا التاريخ تفصيلا، فاننا هنا نعالج تطور هذين الفنين المرتبطين معالجة أقرب إلى الاجمال منها إلى التفصيل، متخذين من بعض التماثيل نماذج كافية بعض الشيء للتطور والتقدم.

كانت عناية المثال والنحات في عهد الأسرتين الرابعة والخامسة (٢٧٢٠ - ٢٥٦٠، ٢٥٦٠ - ٢٤٢٠ ق. م.) منصرفة إلى الاهتمام باخراج ملامح الوجه دقيقة التفاصيل صادقة التناسب، أما بقية الجسم فكانت في المرتبة الثانية من حيث الدقة وصدق المحاكاة، بل إن هذه البقية كانت أحيانا رمزية أكثر منها حقيقية.

وأهم تماثيل هذه المرحلة - التي تعد من أهم مراحل النحت المصري عما يناسب المقام هنا، تمثال الكاتب المحفوظ بمتحف اللوفر وبمتحف القاهرة أيضاً.

والمشاهد للثاني منهما، يراه جالسا على الأرض جلسة أقرب إلى تلك التي يجلسها الشيوخ القارئون اليوم (ش ١)، واضعا قرطاسا على فخذيه، ممسكا القلم بيمينه (المفروض هو أن يكون التمثال هكذا) شاخص العينين، تدل ملامح وجهه على سحنة مصرية

وتمثال شيخ البلد تجده واقفا في شيء من اليقظة وضخامة الجسم



(ش ٣) الأمير راحوتب والأميرة نوفرت (الأسرة الرابعة)

التي يجب أن تتوفر فيمن يقوم بالشياخة ، كما ترى بالجزء الظاهر من هذا التمثال الخشبي (ش ٢) تناسب أعضاء الوجه وحسن اخراجها إلى حد بعيد ، أما ملامح الخلقة فتعطيك فكرة صادقة لمهمة هذا الرجل ، فهو بها أقرب إلى الآمر منه إلى المأمور . وتمثاله الكامل (بمتحف القاهرة) واقف وبيسراه عصا طويلة وصل ارتفاعها إلى الكتف ، متناسبة من حيث غلظها مع طولها والطول الكلي للتمثال

والصورة الثالثة تبين تمثالين ، الأيمن منها للأميرة نوفرت ، والأيسر للأمير راحوتب (بالمتحف المصري) من أمراء الأسرة الرابعة أيضا . جلسا جلسة متناظرة تكاد تكون متشابهة على مقعدين متساويي الارتفاع ، وترى على كلا المسندين إلى يمين ويسار رأس كل من الأمير والأميرة كتابة هيروغليفية دلت على شخصيتهما

أنظر إلى الأميرة . وتأمل إلى أي حد بلغت قدرة الفنان المصري في ذلك الحين ، فاستطاع أن يصور لك الاحتشام والجمال بكل معانيهما . ولاحظ اختفاء الذراع اليسرى واليمنى إلا اليد فهي مبسوطة أسفل الثدي : ولم يخرج بروز الثديين عن حدود أصول الجمال والذوق والتناسب مع الشكل العام : تجلس الأميرة شاخصة إلى المثال وقد تحلى عنقها وأعلى صدرها وحول الرأس بجواهر سبق المصريون فيها



(ش ٥) تمثال امنحوتب بن حابو

كل من عاصرهم أو جاء بعدهم . وعناية الأميرة بشعرها كما يتضح من مظهره ، كانت بلا شك فائقة . فتراه قد استرسل على الأذنين وغطى جزءاً من الجبين ، أحاطته من أعلى الرأس بطوق بديع الصنع ساعد على حفظ تصفيف الشعر كما زاد في تجميل الرأس دون ازدحام . والوجه جميعه دقيق الاخراج ، جميل الوضع ، رائع التناسب . أما جلستها مع ضم الساقين بعضهما إلى بعض فهي وإن كانت من القيود التي أبعدت الحياة عن مجموع التمثال ، إلا أنها تدل إلى حد كبير على نبل الجالسة وسمو شخصيتها .

وجلس الأمير راحوتب في وضع متشابه مع الأميرة ، ترى لأول وهلة أنه خالفها لوناً ومظهراً . فهو لم يغط من جسمه إلا الجزء الأوسط فضلا عن لونه الأسمر على نقيض الأميرة . ارتفعت الذراع اليمنى عن الصدر قليلا واليد مقبوضة الأصابع . كما تمتد الذراع اليسرى حتى تتمكن اليد من الاستناد على الركبة وهي مقبوضة الأصابع بشكل يتناسب وتوفر الارادة في صاحبها . والتمثال في مجموعه يعطيك فكرة واضحة لحسن انتباه الفنان حيث ترى البساطة في الملامح والمجموع الكلي .

وإذا انتقلنا إلى الأسرة الثانية عشرة فجأة ، فذلك لامكان ادراك الفوارق بوضوح ، فالتمثال (ش ٤) يمثل أحد رجال الدولة جالساً بلباس ربما كان مخصصاً لأمثاله في ذلك الحين ، وبالنظر اليه اجمالا



(ش ٤) أحد رجال الدولة (الأسرة ١٢)

نجد الجسم مغطى من أعلى القدمين إلى أسفل الثديين ، كما نرى الرجل قد ترك الشعر مسدلا على الكتفين وقد اكتسب الوجه ، علاوة على دقة تفاصيله شيئاً من الحياة ، لاحظ تلك الابتسامة الضئيلة التي ارتسمت على محياه ثم تأمل في الانشاء المجموعي ولاحظ مع هذا أن التمثال مصنوع من الجرانيت . أما طريقة وضع متجاورين ، واليدين أعلى الفخذين : فهذه هي نفسها الحالة التي شاهدناها بالتماثيل السابقة مع الفارق الزمني الفسيح .

ولعل تمثال أمينحوتب (ش ٥) أشبه بتمثال الكاتب (ش ١) من حيث الجلسة ، أما اهتمام الفنان بتقليد طبيعة الجسم البشري من حيث الاجتهاد في إظهار الثنايا أسفل الثديين وأعلى البطن فهو جدير بالنظر . تأمل ما طرأ على مظهر الرأس وملامح الوجه من علائم التفكير ، والكيفية التي استطاع الفنان بها اظهار العينين والحاجبين . ثم الشعر وما فيه من تجاعيد زادت في حسنه ، كل هذا دليل التطور والتقدم .

وكانت الأسرة الثامنة عشرة غنية بتماثيلها (١٥٥٥ - ١٣٥٠ ق . م .) وبالنظر إلى احداها (ش ٦) ترى أن الشكل العام للتمثال أصدق محاكاة ، وأجمل تناسباً في الأعضاء مما سبق مشاهدته ، والشيء الجديد الذي نلاحظه هنا هو تحلية الرأس بالأفعى المقدسة ، فضلا عن ظهور الجسم على جانب كبير من جمال التكوين ، وربما كانت الأذنان من أحسن الأجزاء التي يمكن مقارنتها مع ما شاهدناه في تمثالي أحد رجال الدولة (ش ٤) وشيخ البلد (ش ٢) إذ تتضح بذلك العناية بمختلف أجزاء الجسم مما يدل على إدراك أصول الجمال العام كنتيجة للتقدم العظيم في عهد المملكة الحديثة .

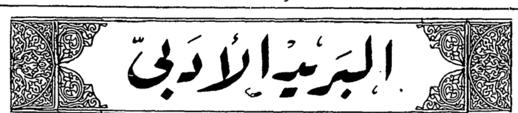

(ش ٦) تحوتمس الثالث (الأسرة ١٨)

وفي تمثال رمسيس الثاني (ش ٧) مع ضآلة ما هو ظاهر منه ترى تفاصيل الوجه من جانبه دقيقة كما يبدو الجسم متناسب الأعضاء أما القدرة التي تجلت في تكوين القدمين والأصابع ، فهي جديرة بالاعتبار حقا .


(ش ٧) رمسيس الثاني (الأسرة ١٩)

والزائر لمتحف القاهرة يستطيع بزيارة الصالات التي روعي في ترتيب محتوياتها التدرج التاريخي ، أن يأخذ فكرة شاملة لفن راثع جم إلى القدم ، جمالا خاصا ميزه على سائر منحوتات غيره من الشعوب

(لها بقية) احمد موسى



مؤتمر دولى للآثار

يعقد الآن بمدينة القاهرة بدار الجمعية الملكية الجغرافية مؤتمر دولى للآثار والمتاحف . وقد افتتحه وزير المعارف المصرية بخطاب نوه فيه بما لمصر من مركز خاص فى عالم الحفريات الأثرية ، وبما بذله العلماء الأجانب لاستكشاف كنوزها الأثرية ، وبما تبذله مصر لصون تراثها الأثرى ؛ وتمنى فى خطابه أن تعمل الحكومات المختلفة على حظر إخراج الآثار القومية من وطنها ، وأن تحل هذه المسألة الشائكة بما يرضى الفن والأمانى القومية

ويعقد مؤتمر الآثار والمتاحف الآن دورته الرابعة ؛ وقد عقد من قبل ثلاث دورات : الأولى فى رومة ، والثانية فى أثينا ، والثالثة فى مدريد ؛ وهو يعنى بالبحث فى كل ما يتعلق بالآثار والحفريات الأثرية وصيانة الآثار ، والمتاحف وتنظيمها ؛ وقد شهد الدورة الحاضرة زهاء خمسين مندوبا يمثلون عدة من الأمم الفنية بكنوزها الأثرية مثل فرنسا وألمانيا وإيطاليا وانكلترا وأمريكا وتركيا والعراق ومصر وغيرها

ولعقد هذا المؤتمر الأثرى بالقاهرة أهمية خاصة ، لأن مصر تشكو منذ حين تبدد تراثها الأثرى على يد بعض العلماء الذين لا يراعون حرمة العلم ، وبعض التجار ومهربى الآثار الذين يعملون بلا انقطاع على اختلاس كنوزها الأثرية وتفريقها فى مختلف الأقطار ؛ والذين زاروا المتاحف الأوربية من المصريين يعرفون كم تضم الأقسام المصرية فى المتاحف الأجنبية من آثارنا المفقودة ، وكم تضم منها المتاحف والمجموعات الخاصة فى مختلف أنحاء العالم . وقد شعرت مصر أخيراً بوجوب التحوط لهذا الاعتداء المتكرر على تراثها الفنى ؛ وربما كان فى مجاهرتها بالشكوى أمام هذا الحفل الكبير من علماء الآثار وممثلى الدول أثره فى تحقيق أمنيتها وتقريب وسائل العمل على صون تراثها الأثرى

مجمع اللغة العربية الملكى

اختتم مجمع اللغة العربية الملكى دورته الرابعة فى الاسبوع الماضى ، وانفرط عقد أعضائه الشرقيين والغربيين ، وقفل عدة منهم راجعين إلى بلادهم ، وقد امتازت هذه الدورة من المجمع بظاهرتين : الأولى ظاهرة القلق والتكهن حول مستقبله ونظامه الجديد الذى تعنى وزارة المعارف بوضعه منذ حين ؛ والثانية ظاهرة النشاط ولاسيما فى ميدان استنباط المصطلحات والألفاظ الجديدة . وقد أثار المجمع ونظامه فى هذه الدورة كثيرا من الجدل ، ووجهت اليه وإلى جهوده حملات كثيرة ، واضطر المجمع نفسه أن يخوض معركة الجدل للذود عن كيانه وعن جهوده ؛ والواقع أن المجمع قد بدأ فى هذه الدورة لأول مرة يدرك خطورة مهمته ، ويشعر بسهام النقد التى توجه اليه ، ومعاول الهدم التى تشهر عليه ؛ بيد أن من الانصاف أن نقول إن المجمع قد أبدى فى هذه الدورة نشاطاً يحمد ، وإنه اذا كان فى تكوينه الحاضر بعض الشذوذ والاضطراب ، فليس الذنب فى ذلك عليه ، وإنما على الذين تأثروا فى تأليفه على هذا النحو باعتبارات لا علاقة لها بمهمته الأصلية . ورجاؤنا أن يوفق ولاة الأمر إلى إصلاح المجمع وتنظيمه بصورة جديدة تبدو فيها مصريته قوية واضحة ، وتمثل فيه الكفايات المصرية التى أهملتها البواعث والأهواء الشخصية ، وتحدد مهماته اللغوية والعلمية والأدبية تحديدا واضحا بحيث يغدو بهذا الاصلاح من القوة والهيبة الادبية فى مصاف المجامع اللغوية العريقة

إحياء ذكرى حافظ ابراهيم

كان يوما السبت والأحد ٦ و٧ مارس الحالى موعداً للاحتفال باحياء ذكرى حافظ ابراهيم ، ففى مساء يوم السبت قصد إلى دار الأوبرا جمهور يبلغ الألفين ، وحضر الحفلة صاحب العزة محمد حسين بك مندوب حلالة الملك ومجلس الوصاية ، كما حضرها بعض الكبراء .

وافتتحت الحفلة بالقرآن الكريم ، ثم ألقى صاحب المعالى على زكى العرابى باشا وزير المعارف كلمة الافتتاح ، وتلاه الخطباء والشعراء طبقاً للبرنامج الذى نشرناه فى العدد الماضى ، وكذلك كان فى اليوم الثانى

وقد كانت الحفلتان مظهراً رائعاً للوفاء لحافظ ، غير أننا نلاحظ أن كثيراً مما قيل فيها لم يكن معداً لهذه المناسبة ، بل كان عهده قبل ذلك ، كذلك التضييق فى الوقت على الخطباء والشعراء كاد يؤدى إلى

الاخلال بالغرض منه ، فإن عدم إتمام الخطب والقصائد انصياعاً لقانون الاذاعة لم يساعد على إيضاح النواحي المختلفة للشاعر المحتفل بإحياء ذكراه ، التي يتناولها الخطباء والشعراء ، وقد كان أحرى بلجنة الاحتفال أن تختزل الخطباء والشعراء ، وأن تقدر لكل خطيب وكل شاعر من الوقت ما يتسع لالقاء كلمته

ولعل لنا عودة إلى الكتابة عن الحفلة وما قيل فيها وتناوله بما يعن لنا من النقد

أسبوع الجاحظ في الجامعة المصرية

ستحتفل كلية الآداب بالجامعة المصرية باقامة أسبوع للجاحظ بمناسبة مرور أحد عشر قرناً على وفاته ابتداء من يوم ٢٥ مارس . وهذه هي موضوعات المحاضرات وأسماء المحاضرين موزعة على أيام الأسبوع :

كلمة الافتتاح	:	اليوم الأول
حياة الجاحظ	: للأستاذ عبد الوهاب عزام	
ثقافة الجاحظ	: « أحمد أمين	
منهج تفكير الجاحظ	: « أمين الخولى	اليوم الثاني
أسلوب الجاحظ	: « عبد الوهاب حمودة	
الجاحظ بين النقد والبلاغة	: « شوقى ضيف	اليوم الثالث
الجاحظ المعتزلى	: « عبد اللطيف حمزة	
كتاب الحيوان	: « كراوس	اليوم الرابع
البيان والتبيين	: « السقا	
دعابة الجاحظ	: « ابراهيم مصطفى	اليوم الخامس
مآخذ الجاحظ	: « أحمد الشايب	
فكاهة الجاحظ	: الدكتور طه حسين بك	اليوم السادس

مستقبل الكتاب

هذا موضوع يثير اليوم كثيراً من الجدل . ويتساءل أقطاب التفكير الرفيع اليوم هل سيقضي على الكتاب في المستقبل القريب ؟ لقد تناقص قراء الكتب القيمة إلى درجة تثير الجزع في جميع الدوائر الأدبية ، والاجماع على أن ذلك يرجع بنوع خاص إلى تأثير السينما والراديو ، والمجلات المصورة ، والمجلات الأسبوعية ، وذيوع الأدب الغث من القصص البوليسية وغيرها ذيوعاً هائلاً ؛ بيد أنا قرأنا أخيراً فصلاً لكاتب فرنسي كبير يذهب فيه في تعليل هذه الأزمة الأدبية مذهباً آخر ؛ فهو يسلم بما للسينما والراديو من أثر في إحداثها ، ولكنه يقول إن هناك سبباً آخر أشد أثراً ، وهو أن أقطاب الكتابة في عصرنا لم يفلحوا في الوصول إلى العاطفة الشعبية ، ففي القرن الماضي مثلاً كان كتاب مثل بلزاك وفكتور هوجو وأميل زولا وفرانسوا كوبيه ، وغيرهم يصلون بسرعة إلى أعماق قلوب الشعب ، ولكن هذه الطبقات الشعبية تكتفي اليوم بقراءة الرواية البوليسية أو مشاهدة السينما ؛ وكيف لا يكون ذلك وأكابر كتاب العصر ، مثل جيد وبروست وفاليرى وغيرهم يقصدون بما يكتبون طبقة أو طبقات معينة من الخاصة ؟ فالشعب يقرأ في الواقع ما يكتب له ، فاذا نأى عنه عظماء المفكرين فهو بدوره ينأى عنهم

وهكذا يغدو الميدان حراً لرواج الأدب الغث الرخيص ، ويفقد الجمهور شيئاً فشيئاً الرغبة في تذوق الأدب القيم ، ولا يطلب إلا نوعاً للتسلية وتمضية أوقات الفراغ في المكتب أو المصنع أو قبيل النوم ، ويقضى على كل مجهود يبذل لترويج الكتاب القيم بالفشل لأنه لا يلائم ذوق الجمهور ولا يرضى عواطفه

ونحن نوافق الكاتب في أهمية هذا التعليل النفسي الذي يقدمه شرحاً لأزمة الكتاب ؛ بيد أننا لا نعتقد أنه تعليل حاسم ، وهناك بلا ريب عوامل كثيرة أخرى لها قيمتها ؛ ومن المحقق أن الكتاب فقد كثيراً من نفوذه وسحره القديم بفعل التطورات الفكرية والاجتماعية المعاصرة

الأستاذ لامبير

وفد على مصر في الأسبوع الماضي العلامة المشترع الفرنسي الكبير المسيو ادوار لامبير عميد معهد القانون المقارن بجامعة ليون ، بدعوة من كلية الحقوق المصرية ليلقي سلسلة من المحاضرات القانونية ، وقد بدأ الأستاذ فألقى بالفعل محاضراته الاولى . وللأستاذ لامبير روابط علمية قديمة بمصر ، فقد كان ناظراً لمدرسة الحقوق الخديوية سنة ١٩٠٦ ؛ ومع أنه لم يقم بمصر أكثر من عام ، فانه ترك بها أحسن الأثر ، ولما عاد إلى جامعة ليون ، التف حوله هنالك في كلية الحقوق جمهرة من الطلبة المصريين الذين تلقوا دراستهم القانونية تحت إشرافه ؛ وهم اليوم جمع حافل ، منهم بعض أكابر فقهائنا ، ومنهم كثير ممن يشغلون أسمى المناصب . واستمرت العلائق العلمية والودية بين الأستاذ لامبير وبين تلاميذه المصريين من ذلك الحين إلى يومنا ؛ وهو يزور مصر الآن بعد ثلاثين عاماً ، وهو في ذروة نضجه العلمي ؛ وقد استقبل الأستاذ من جميع تلاميذه القدماء بالتجلة والتكريم ؛ وسيواظب على إلقاء محاضراته في « القانون المقارن » وكل ما يمت إليه من المسائل الفقهية والاجتماعية

مسرحية جديدة لشيلر

المعروف أن الشاعر الألماني الكبير شيلر قد ترك حين وفاته مسرحية لم تكمل ، عنوانها « ديمتريوس » ؛ وقد لبثت هذه القطعة على

نقصها منذ وفاة الشاعر إلى يومنا . وأخيراً عنى الدكتور فلهلم هينتز باتمامها تمشياً مع فكرة الساعة التى ظهرت من جزئها المكتوب . وقد مثلت فعلا لأول مرة بمسرح ماينتجن ، والمنظور أنها تمثل بعد ذلك فى جميع مسارح ألمانيا ، ثم تنقل إلى مختلف اللغات وتمثل فى فى جميع المسارح الأخرى .

المتاحف المتنقلة

وضعت إدارة متحف السويد القومى مشروعا جديدا للثقافة الفنية القومية خلاصته أن تنظم عرض بعض الآثار والتحف الهامة بصورة دورية وأن تتخذ لعرضها عربة من عربات السكة الحديدية ، تصنع بشكل بهو فنى ، ويمكن تسييرها إلى مختلف المدن ؛ وتقوم إدارة السكة الحديدية الآن بصنع هذه العربة الجديدة التى سيطلق عليها « عربة الفن » ، وستغطى نوافذ هذه العربة بألواح ضوئية لكى تعكس أكبر مقدار من الضوء على الداخل ؛ وتضاء بعد الغروب بجهاز كهربائى قوى ؛ وستجهز العربة أيضاً بجناح خاص لالقاء المحاضرات الفنية على الزائرين ؛ وسيطوف هذا المتحف المتنقل بالمدن والقرى الواقعة على السكة الحديدية والقريبة منها ، ويمكث أياماً فى كل منها ؛ وتعضد الحكومة هذا المشروع وترى فيه وسيلة حسنة لتعريف الطبقات التى لا تسمح لها ظروفها بزيارة العاصمة بالكنوز القومية الفنية ؛ وترقية ثقافتها الفنية

لوتستى كارولين راينر احدى الفنانات البارزات

من الظواهر الفذة فى العصر الحاضر اشتغال كثير من السيدات بالفن وبروز بعضهن فيه . والسيدة لوتسى راينر إحدى هؤلاء البارزات جاءت إلى مصر لأول مرة سنة ١٩٢٩ وظلت دائبة المشاهدة والبحث وراء المناظر الشرقية الرائعة مسجلة إياها على لوحاتها آنا بالزيت وحيناً بالباستيل ومرة بالطبع من لوحات اللينو ليوم التى حفرتها بنفسها لمختلف الألوان .

ولعل من الغريب أن تكون السيدة راينر من فنانات الوقت الحالى ، ومع هذا لا تتجه بروحها إلى الفن الحديث الذى يعنى بالموضوعات من حيث معناها قبل العناية بتصويرها دقيقة التفاصيل ، لأنك تراها محافظة على تعاليم المدرسة النموذجية (كلاسيك) فى معظم لوحاتها :

زرت معرضها بصالة نيستري ، وشاهدت بعض لوحاتها التى دلت على ما لهذه السيدة من مقدرة فائقة فى صدق المحاكاة وحسن الاختيار . وجمال الاخراج وانسجام الألوان .

فأنت تنتقل من منظر لقهوة بلدية إلى منظر يمثل لك جامع الأزهر فى الغروب فتقف أمامه مأخوذاً بقوة ألوانه وانسجام تفاصيله وحسن بيانه ، ثم إلى لوحة بشارع الحمزاوى وإلى أخرى بباب المتولى فترى أنك أمام مجهود رائع جدير بالتسجيل والاعجاب

أما لوحاتها للمناظر الشخصية Portrait فكانت مع قلتها نسبياً دليل المقدرة والتفوق ، ولا نزال نذكر صورتيها الرائعتين للسيدة مدام الدكتور م ومدام ب .

فبالأولى رأينا كيف استطاعت الفنانة أن تجمع فى صورة هذه السيدة بين الرقة والجمال وبين حسن التكوين الانشائى واختيار الالوان . أما القوة التى انبعثت من عينى السيدة المذكورة فانها حقيقة جديرة بالاعجاب فى أدق معانيه ، كما لاحظنا فى الصورة الأخرى رقة وعذوبة لا يسهل اخراجها بهذه العناية إلا لمن تمكن من الفن .

ولما كانت هذه السيدة النمسوية الأصل ستعرض لوحاتها فى معرض الفن الحديث الذى سيفتتح قريبا ، فإنا نرجو أن يقبل القراء على مشاهدة هذه المجموعة الرائعة إلى جانب ما سيعرض به من أعمال الفنانين الآخرين ؟

الدكتور أحمد موسى

مجمع علمى فى ألمانيا يجمع نوادر المخطوطات عن علوم القرآن

يقوم المجمع العلمى فى بافاريا منذ سنوات عديدة بجمع الكتب والنوادر المخطوطة باللغة العربية والمؤلفات الخاصة بالقرآن الكريم وعلومه والقراءات وتاريخ القرآن . وقد اقتنى من ذلك مجموعات كبيرة بعضها امتلك أصوله الخطية وبعضها استنسخ منه لوحات فوتوغرافية كاملة . وأسس بهذه المجموعات كلها متحفاً خاصا كبير القيمة . وشرع بعد ذلك يطبع على نفقته بعض الكتب ذوات القيمة منها

وقد فكر المجمع بعد ذلك فى أن تقوم جهة من الجهات التى يعنيها أمر هذه العلوم بطبع ما بقى من هذه الكتب وهو كثير . ورأى أن أولى الجهات بتقدير مثل هذه المجموعة هى الأزهر الشريف والحكومة المصرية . فأوفد أحد أعضائه وهو الدكتور برتزل إلى مصر للتفاهم فى هذا الأمر . .

وقد قدم الأستاذ برتزل إلى رياسة الأزهر مذكرة تفصيلية بما قام به المجمع العلمى فى بافاريا فى هذا الشأن والقيمة العلمية والأدبية والتاريخية التى تقدر بها مجموعات الكتب التى حصل عليها أو على لوحاتها الفوتوغرافية منها . وشرح لرياسة الأزهر فكرة المجمع فى طبعها تحت إشراف الأزهر وعلى نفقته . وما يكون لذلك من الأثر فى نشرها وتقديرها وإخراجها فى عناية وضبط وإتقان . وشفع

مذكرته بقائمة بأسماء الكتب التي حصل عليها المجمع والكتب التي قام بطبعها في ألمانيا .

وقد أحالت مشيخة الأزهر هذه المقترحات والمذكرة الملحقة بها إلى الأستاذ محمد فريد وجدي مدير مجلة الأزهر لدرسها وإبداء الرأي فيها وانتهى الأستاذ وجدي من درسها وأبدى رأيه إلى رياسة الازهر

وقد قابل الدكتور برتزل أمس صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الأزهر في مكتبه قبل ظهر أمس وتباحثا في هذا الموضوع

وقد أعرب المجمع عن استعداده أن يقدم إلى مشيخة الأزهر بعض الألواح الفوتوغرافية لهذه الكتب ليمكن رياسته أن تحكم على قيمة هذه المؤلفات وأصحابها قبل إقرار طبعها تحت إشراف الأزهر وتحمله نفقاتها . ولذلك أعرب المجمع عن استعداده لأن يرسل إليه الأزهر أحد رجاله لبحث هذه المخطوطات أو تصويرها في لوحات خاصة لمشيخة الأزهر لتتمكن بمعرفة الاخصائيين من رجالها من تقرير المجموعة التي يريد المجمع طبعها والتنازل في نظير نشرها عن جميع الحقوق والنفقات التي تكبدها في سبيل الحصول عليها في سنين طويلة

إلى صاحب رسالة المنبر الأستاذ فليكس فارس

قرأت كتابك (رسالة المنبر إلى الشرق العربي) فما أحسن ما أبدعت وما أبدع ما أحسنت ، لكأن الشرق هو الذي حكته في فلك وأرسل كلمته من قلبك ، ثم نصب لك منبره العالي وقال لك - قم فتكلم .

لم أرك انحرفت عن الحقيقة ولا ملت عن وجه الرأي ولا نزعت إلى تقليد ولا جنحت إلى متابعة ولا غرك اسم فيلسوف ولا خدعك اسم كاتب ، بل كنت كالسيف لا يعمل إلا عمل حده القاطع ضاربا في كل مرة ضربته في كل مرة

وفي كتابك أنات هي رعد قلبك الحر ، وفي بيانك إشراق هو نور نفسك القوية ، فلا جرم كان ما كتبته من الكلام الروحي البليغ الذي يقرأ بالعين ويسمع في النفس في وقت واحد

ولقد أدركت بفطرتك السليمة وروحك الملهمة ما في دين الفطرة من الحكمة الاسلامية البالغة وجئت من ذلك بأشياء كأنها من نبع الوحي ، فكنته بعقلك وذكائك وإحساسك النبيل صورة أخرى لحكيم الألمان وشاعرهم (جيته) حين قال : — إذا كان هذا هو الاسلام فكلنا مسلمون

جزاك الله وأدام النفع بك وأمتع بأدبك والسلام ؟

من المخلص

مصطفى صادق الرافعي

مؤتمر اللاسلكي الدولي

في شهر فبراير سنة ١٩٣٨ يعقد في القاهرة المؤتمر الدولي اللاسلكي وقد وجهت وزارة الخارجية الدعوات إلى الدول التي تشترك في أعمال هذا المؤتمر كما وجهتها إلى اللجنة المختصة بجمعية الأمم

وبهذه المناسبة نذكر أن لمصر مطالب هامة ستعرضها على هذا المؤتمر وأهمها أن يكون لها موجة دولية خاصة بها . وقد سبق أن طلبت مصر هذا الطلب في المؤتمر الذي عقد في لوسرن ولكنها لم تفز إلا بالموجة الحالية التي تشاركها فيها محطة بروكسل بلجيكا . وقد عدل هذا الطلب أخيراً وجعل بموجتين بدلا من موجة واحدة

وهاتان الموجتان المطلوبتان من الموجات القصيرة حتى يمكن أن تنقل الإذاعة اللاسلكية المصرية بجلاء إلى كثير من الأقطار التي ترغب في الاستماع إلى الاذاعات المصرية وفي مقدمتها القرآن الكريم

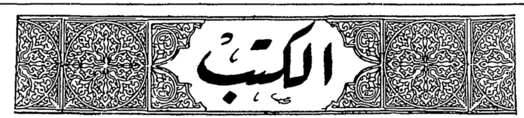
وإذا رخص لمصر بهاتين الموجتين أمكن عندئذ إنشاء محطتين للاذاعة بطريق هاتين الموجتين قوة كل محطة من ١٥ إلى ٢٠ كيلوات بينما المحطة المصرية الحالية وقوتها ٢٠ كيلوات لا تسمع بجلاء تام في بعض الأقطار الخارجية

على أن في النية تقوية المحطة الحالية حتى تبلغ قوتها ١٠٠ كيلوات أي خمسة أضعاف القوة الحالية وستخصص للبرنامج العربي ، أما المحطة أو المحطتان الأخريان المراد إنشاؤهما فستخصصان للاذاعات الأخرى

البعثات العلمية

أدرج في الميزانية الجديدة للبعثات العلمية ١٠٠٠٠٠ جنيه منها ٢٧٨٠٠ جنيه لبعثة وزارة المعارف و ٣٩٦٠٠ جنيه لبعثة الجامعة المصرية و ٤٢٠٠ جنيه لبعثة وزارة الزراعة و ٥٠٠٠ جنيه لبعثة وزارة الصحة و ٥٤٠٠ جنيه لبعثة وزارة المالية و ٢٣٠٠ جنيه لبعثة وزارة الأشغال و ٣٠٠٠ جنيه لبعثة وزارة المواصلات و ٩٠٠ جنيه لبعثة وزارة التجارة والصناعة و ٤٠٠ جنيه لبعثة وزارة الحقانية و ٧٣٠٠ جنيه للامتدادات و ٣٠٠٠ جنيه للبعثات الصيفية القصيرة المدى و ١٥٠٠ جنيه نفقة زوجات الأعضاء في الخارج و ٣٠٠٠ جنيه لاسعاف الطلبة الذين يدرسون في الخارج على نفقتهم فيكون المجموع ١٠٤٤٠٠ ولكن المنتظر عدم صرف مبلغ ٤٤٠٠ جنيه فيكون الاعتماد المقرر هو مائة ألف جنيه فقط

أما عدد أعضاء البعثات فيبلغ ٢٩٠ عضوا منهم ٧٥ عضوا ببعثة وزارة المعارف و ١٤٤ عضوا ببعثة الجامعة و ١٢ عضوا موفدون من الزراعة و ٩ أعضاء موفدون من الصحة و ١٥ عضوا موفدون من المالية و ٨ أعضاء موفدون من الأشغال و ٤ أعضاء موفدون من المواصلات وعضوان موفدان من التجارة وعضو واحد من الحقانية



البـــدائع

تأليف الدكتور زكى مبارك

للأستاذ يوسف محمد

كل كتاب بعنوان خلاب لم يخدعنى فحواه ولم يغرنى مرماه ولم يخلف ظنى واضعه «كأطباق الذهب» و«نسيم الصبا» بل لمـا ألق كتابا عنوانه أخاذ لم يخيب وهمى إلا هذا الكتاب الممتع الذى أنا بصدده، فنى هذه المرة فقط قد طابق عنوان الكتاب الواقع، وطابق باطنه ظاهره فهو على الحقيقة سلسلة نفيسة من الروائع والبدائع خليقة أن تخلد فى مجلد.

حسبك أن تقلبه حتى توقفك فصوله لطرافتها، وحتى تنفرج لكَ صفحاته عن معرض، وعن أمتع الأشياء، أو عن حديقة غناء فيها ما فيها من بهيج الأزهار ويانع الثمار حتى لتحار أيها تقطف وأيها تجنى لفرط البهر إذ كلها بهى نهى، كأنك صبى فتنته معروضات اللعب المتباينة الأشكال أو شره إزاء لذائد الصحاف والألوان

الكتاب فى جملته أشبه شىء بموسوعة موجزة، دال على ذهن خصب وعقل رصين وقريحة طلقة وسعة اطلاع لا تغيب عنها لا صغيرة ولا كبيرة، أحاط صاحبها بالغابر والحاضر والآجل، فبيناهو يذكرك بماضيك لأنك لا تفهم حاضرك إلا به إذا هو يتابع عصره ويساير النهضة ويساهم فيها ثم يفكر فى المصير لأن الأمس واليوم يهيئان الغد

فاذا ما تصفحت الكتاب فكأنك تقوم برحلة شائقة تتفتح فيها لذهنك آفاق جديدة وأبواب مغلقة وتنثال عليك آراء لم تكن فى حسبانك، فتحس تجدداً فى الفكر والشعور كمن استفاق من نوم عميق معافا مستجما، يخرج بك من حديث أدبى معجب إلى موضوع غزل مطرب، وينتقل بك من نقد رفيق لاذع إلى حديث عن سيرة عظيم بارع، ثم يستدرجك من هذا إلى تفطينك إلى رائع الشعر الدفين ودقيق المعنى الكمين، ثم يتجاوز معك إلى النظر فى بعض وجوه الأخلاق والاجتماع وكشف الغطاء عن طلاء بعض الطباع وبعد هذا المطاف يرجع بك إلى الوراء، إلى الماضى البعيد أو القريب فيريك من آياته عجبا، ولعلك تزعم أن هذه الفصول أشتات وتفاريق تعوزها الوحدة المنسجمة، ولكن مهلا: روح الكاتب السارية فيها جميعا سريان الماء فى الأعواد كفيلة بالوصال الوثيق.

ومن خصائص هذا الكاتب أنه يملك ناصيته الحاسة الادبية فيما يكتب، ولو أنه قليل الاستعارات والمحسنات، فإنه يرى الأشياء فى دقائقها وجلتها كالمتفنن متأثرا بعفاتنها، مستغنياً عن التصريح بالتلميح. وعن العبارة بالأشارة حتى يوحى إليك بالمعانى إيحاء، يصف لك ما رأى وما سمع ولكن لا يريد الوصف للوصف وإنما لإماطة اللثام عن جانب من جوانب نفسية الناس أو يبين خبيئة من خبايا الجماعة لأن الإنسان لا يعنيه إلا الإنسان، وإن غضب أو رضى استرسل فى الأسلوب الخطابى الفياض وتدفقت لعناته ومسراته كنهر زخار، اقرأ مثلا «عيد الحرية فى باريس» و«أخلاق الناس» و«بين العقل والهوى» تر صدق ما أقول وأكثر ما تتجلى فيه هذه الروح الأدبية حين يتناول الشعر بالتحليل والتعليل فاذا تحدث عنه ذوقك اياه تذويق الخبير، وبصرك بروعته تبصير العارف البصير، كأنما تلبس نفس الشاعر ثم عرفك بالصحيح منه والمزيوف كالصيرف الماهر، اقرأ فى الكتاب «نقد ديوان شوقى» ثم قصائد المديح فى الأدب العربى توقن بما قدمت ايقانا تاما فلا أحد حبب إلى الشعر العربى وقد كنت منه نافرا إلا هذا النقاد الحاذق.

ثم يمتاز هذا الكاتب بالصدق والصراحة حيث تمثله كتاباته كل التمثيل وتشف عن عقليته كما يشف الثوب الرقيق عن الجسم الرشيق، تنم سطوره عن نزوعه إلى القديم القويم الجدير بالرعاية وتشى بمسايرته لعصره، ويشيع فيها الروح الدينى الصوفى فهو حين يصور لك سحر باريس وفتنة باريس يصورها فى لهف وشوق كمتعبد ربى على الحشمة والوقار وكبت النفس الأمارة بالسوء ثم إذا هو قد لان ووهن وبروعة الجمال افتتن فذهب عقله شعاعا وانتثى وقاره ضياعا، ولعل ما تميز به من وضوح الأسلوب والجلاء ناشىء من الصراحة المتناهية لأن من أسباب الغموض والاستغلاق ميل الكاتب إلى المداراة والتعمية والتنكر، ومن هنا كانت شخصيته قوية عصية على التقليد والفناء فى غيرها، فهو لم يتأثر بأحد ممن لازمهم وأخذ عنهم لا فى نمط التفكير ولا فى طراز التعبير.

ربما ساءلت نفسك مرة إن عددت الجهل مزريا بك: لماذا اقرأ؟ فأنت تقرأ للهو والتسلية ونفى الملال ان كنت من أهل الفراغ ثم لتسر من مصادفتك لما يشبه ما يجول فى خاطرك من المعانى ومن لقائك

من يشاطرك فى مشاعرك ثم لتصلح ما اعوج وفسد من أفكارك بالقياس إلى أفكار سواك إذ لابد من تصحيح التجارب الشخصية وتوطيدها بالقراءة، ثم لتضيف إلى ما تعلم ما لا تعلم فتزداد ثروة على ثروة ثم لتستوضح على ضوء القراءة ما يقوم بذهنك من المعانى العائمة القلقة الدائرة فى شبه الظل ثم لتمرن فكرك وتروضه على التأمل المستمر حتى لا يعلوه الصدأ وتذهب عنه مرونته ومتانته وحتى لا يصيبه الخمود والجمود والركود لأن القراءة ضرب من التفكير إذ فيها محاولة لمتابعة الكاتب فى سير تفكيره وإلا استدق عليك واستغلق ثم لترهف ذوقك لأن الذوق الرفيع لا يكتسب إلا بطول القراءة واستدامة الموازنة بين الجيد والردىء والغث والثمين ثم لتنبه ما غفى من عقلك وخمد من قلبك فكل هذا تكتسب من كتاب «البدائع»، فعليك به تجد فيه المسلاة والمأساة والنور.

منذ انتشار الصحافة واتساع دائرتها ازدهر أول ما ازدهر عندنا من ألوان الأدب ما يسمونه بأدب المقال (Ess ayisme) حيث يسع هذا النوع بوجه عام جميع فنون القول والأغراض والبحوث فى فصول ورسائل تطول أو تقصر بحسب ما يقتضى المقام، فيصاغ فى هذا القالب من الأدب فصول فى النقد ونبذ فى التاريخ وأبحاث فى الأخلاق والاجتماع وتصب فيه النظرات والخطرات والمشاهدات حتى الأقاصيص الموجزة الصغيرة وقد كان هذا النوع من الكتابة عاملا مهما فى ترقية النثر إلى حد كبير وقد ساهم صاحب كتاب «البدائع» بفصوله فى إعلاء شأن أدب المقال كما ساهم فى هذا المجهود الجليل غيره من الأدباء الأجلاء أمثال الأساتذة الجهابذة احمد أمين ومصطفى صادق الرافعى والزيات والمازنى وعبد الوهاب عزام وسواهم من أئمة الأدب وأساطينه.

إلا أننا نؤاخذ صاحب «البدائع» ونعتب عليه وننكر كل الانكار ما أدرجه فى الكتاب عن طيش ونزق من بعض فصول فى الخصومة بينه وبين أحد أعلام الأدب والبيان وكان لزاماً عليه أن يتناساها لا أن يحييها بوضعها فى الكتاب فإن هذه الفصول الشائنة بين سائرها لهى كالنقط السوداء فى الصفحة البيضاء يعافها الذوق واللياقة والكياسة.

يوسف محمد

إلى المشتركين بالتقسيط

لقد اشترطنا حين فتحنا الاشتراك المخفض المقسط للطلاب ولرجال التعليم الإلزامى أن تكون الأقساط متتابعة، والاخلال بهذا الشرط يستوجب طبعا إلغاء الاشتراك. فكل من لم يدفع القسط الثالث إلى اليوم أو الثانى من باب أولى ستنقطع عنه الرسالة والرواية ابتداء من هذا العدد.

العدد ١٨٣ من الرسالة

نفدت طبعة هذا العدد فليس فى الادارة منه شىء فنرجو من الذين يطلبونه أن ينتظروا حتى نعيد طبعه ويومئذ سنعلن فى الرسالة عن موعد توزيعه

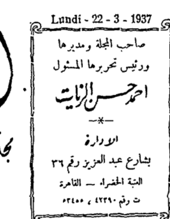
5 me Année, No. 194

Lundi - 22 - 3 - 1937

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique



صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٠

بدل الاشتراك عن سنة

ص	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

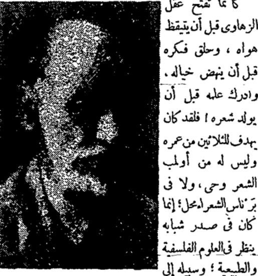
العـــدد ١٩٤ « القاهرة فى يوم الاثنين ٩ محرم سنة ١٣٥٦ — ٢٢ مارس سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

جميل صدقى الزهاوى

بمناسبة ذكراه الأولى

(٣)



كأنما تفتح عقل الزهاوى قبل أن يتيقظ هواه ، وحلق فكره قبل أن ينهض خياله ، وادرك علمه قبل أن يولد شعره ! فلقد كان يهدف للثلاثين من عمره وليس له من أولمب الشعر وحى ، ولا فى برناس الشعراء محل ؛ إنما كان فى صدر شبابه ينظر فى العلوم الفلسفية والطبيعية ؛ وسبيله إلى ذلك ما تُرجم من المقالات فى الكتب والمجلات ، لأنه لم يعرف من اللغات غير العربية والفارسية والتركية والكردية ، وكلها لا تصل فكر الانسان بالتطور ، ولا تنقع غلة الظمآن إلى المعرفة. ومع ذلك استبطن الزهاوى دخائل هذه العلوم بعقله النافذ حتى

ألف كتاب (الكائنات) فى الفلسفة، وكتاب (الجاذبية وتعليلها) فى الطبيعة، ذهب فيهما مذهباً خالف به أقطاب العلم وجهابذة النظر، كقوله: إن علة الجاذبية ليست جذب المادة للمادة، وإنما هى دفعها لها بسبب ما تشعه من الالكترونات. وسواء أنهض دليله أم دحض فإنه يدل على النظر الثاقب والفكر المستقل. ورجاحة عقله هى التى حملته وهو فى ربيع العمر على أن يشرف على ظواهر الكون وحقائق الوجود من سماء فكره لا من سماء خياله؛ والمعهود فى عامة الشعراء أن يكونوا على النقيض من ذلك. فلما هيأته الاقدار الجليلة لرسالة الشعر كان فكره أقوى من خياله وأسمى من عاطفته؛ والفكر والخيال والعاطفة هن ملكات النفس الأدبية الثلاث، يصدر عنهن فيض القريحة، ويَرد إليهن إلهام العبقرية؛ ولكن الشعر لا يهيمن عليه إلا الخيال والعاطفة: أما حاجته إلى الفكر فمحدودة بمقدار ما يضىء لها الطريق حتى يأمنا الضلالة. فالفكر للعبقرية بمثابة العين، والخيال والعاطفة لها بمثابة الجناحين، فاذا تغلبا عليه كان الشرود والزيغ، وإن تغلب عليهما كان الجفاف والعقم؛ ومن هنا جردوا أكثر ما قال أبو العلاء وأقل ما نظم أبو الطيب من الشاعرية. والزهاوى شاعر من شعراء الفكرة، له البصيرة الناقدة والفطنة النافذة، وليس له الأذن التى «تموسق»[1]، ولا القريحة التى تصنع. فاللفظ قد لا يختار، والوزن قد لا يتسق، والاسلوب قد لا ينسجم، ولكن الفكرة الحية الجريئة تعج بين الأبيات المتخاذلة عجيج الأمواج المزبدة بين الشواطىء المنهارة.

الزهاوى عقلية أفاقة وحيوية دفاقة وطبيعة ساحرة: وهذا التوثب الحماسى فيه هو الذى جعله يؤثر النظم فى تقييد خواطره. وهذه الحماسة قد تنفك أحياناً عن الفكرة لكلالها أو ابتذالها، فيذهب الشاعر، ولا يبقى الفيلسوف، ويكون الزهاوى معك كالآلة تدور ملبثة متزنة ما دامت على شىء، فاذا نفدت مادتها على فجأة انطلقت تدور على الفارغ سريعة مضطربة، ذلك لأن الفكرة الفلسفية هى المادة الأصيلة فى شعر الزهاوى. وليس الشعر كله فكرة. وإنما هو فضلا عنها صورة يرسمها الخيال. وشعور تبعثه العاطفة. على أن فكرة الفيلسوف واضحة، وجمالها فى هذا الوضوح وفكرة الشاعر خفية، وسحرها فى هذا الخفاء. فإما أن تدرس الطبيعة لتعرفها وتشرحها فتكون صاحب فلسفة، وإما أن تدرسها لتقلدها وتصورها فتكون صاحب شعر. أما الخلط بين الفلسفة والشعر لأن الشاعر يدرس ظواهر الكون. فكالخلط بين التصوير والتشريح لأن المصور يدرس بواطن الجسم

° ° °

كان الزهاوى كشوقى حريصاً على متابعة العصر ومسايرة التطور؛ ومنشأ هذا الحرص فيهما طبع مرن يطلب التجدد، وحس مرهف يأنف التخلف. ويزيد الزهاوى أن الفخر يزهاه، والتيه يذهب به، فيحب الثناء ويبغض النقد. فهو لفرَقه من صفة القدم يسبق الشباب إلى التجديد، ولنفوره من معرة الجمود يذهب بالرأى إلى التطرف، ولطمعه فى نباهة الذكر يجارى ميول الخاصة ويعارض هوى العامة. ومن ثم كان أكثر شعره تشنيعاً على الاستبداد بمهاجمة أهل الحكم، وزراية على الجمود بمحاربة أهل الدين، وتحقيراً للتأخر بمصادمة مألوف الأمة.

والزهاوى بعد هذا وفوق هذا كان رسولا من رسل الفكرة الانسانية، وبطلا من أبطال النهضة العربية. كان يهزج بأغاريد الفجر على ضفاف دجلة فتتردد أصداؤها الموقظة على ربوات بَرَدى، وخمائل النيل، وسواحل المغرب. وأدب الزهاوى وأمثاله هو الذى وصل القلوب العربية فى مجاهل القرون السود بخيوط الهبة غير منظورة، حتى استطاعت اليوم أن تتعارف وتتآلف وتتحالف؛ ثم تسعى لتعود أمة كما كانت، وتقوى لتصبح دولة كما يجب أن تكون.

احمد حسن الزيات

عدد الرسالة الممتاز

ستصدر الرسالة على عادتها عددها السنوى الممتاز بمناسبة العام الهجرى الجديد، فى الأسبوع الثالث من المحرم. وسيكون بعون الله فاتحة لتطور جديد فى الرسالة نرجو أن يقع من قرائنا موقع الرضا.

(1) لا مانع فيما أظن من أن نشتق هذا الفعل من الموسيقى

حديث المال

بقلم ابراهيم عبد القادر المازنى

جلسنا ثلاثة من الاخوان نتحدث عن المال وكيف ينال ـ
نقد مات زخاروف رجل الأسرار أو الظلام كما يسمونه وصار
كره على كل لسان ولهجت الصحف بملايينه وأعماله الصحيحة
و الموهومة وأخذ عنها الناس وراحوا يلغطون. وأحسب ان
و كان زخاروف حيا واستطاع أن يسمع ما يروى عنه ويعزى
ليه لأذهله ذلك ويكفى أنه مامن ثورة أو حرب شبت فى الخمسين
سنة الأخيرة الا وهو فيما يقال مضرم نارها

وقلت لصديق: «أما أنا فلست أعرف وسيلة للغنى الا هذه ـ
فتح عينى فى الصباح وأدس يدى تحت الوسادة لاتناول الساعة
أنظر الى وجهها فاجد مكانها كوما عاليا من الأوراق المالية
كبيرة. وعلى ذكر هذه الأوراق الكبيرة أقول ـ ولا فخر ـ
نى مارأيت ورقة بمائة جنيه الا مرة واحدة فى حياتى.. أم تراها
كانت بخمسين فقط.. والله ما أدرى.. الحاصل.. أعطيتُها
بدلها وآخذ منها قدرا معينا وأرد الباقى فوضعتها فى جيب
بنطلون وأبقيت كفى عليها خوفا من النشل وذهبت الى البنك ـ
لصرف كما لا يسمى ـ ولا أطيل. وحسبى أن أقول ان الرجل
كان ينظر الى نظرة من تحدثه نفسه بأنه يحسن حجزى حتى تجىء
النيابة».. وصار معى عدد كبير من الورق فوضعت حتى فى
يب والباقى فى جيب آخر اتقاء للاختلاط والحاجة الى إعادة
مد والحساب. وقد تعلمان كرهى لهذا الحساب أو جهلى به على
لأصح. وجاء الليل ـ وكنت أعمل فى ذلك الوقت فى جريدة
باحية، فانا أعمل بالليل وأنام بالنهار ـ وتذكرت انى على موعد
م صديق فى الساعة الحادية عشرة وكنت جائعا فقلت أذهب
، محل جديد فى شارع عماد الدين وآكل لقمة أو اثنتين من
السندويتش، ثم أذهب الى موعدى. وكنت قد وضعت
لأوراق فى المحفظة ـ على خلاف عادتى ـ ولم يكن معى من النقود
صغيرة غير قرش واحد. وحدثتنى نفسى وأنا آكل انه يحسن
، أشترى شيئا من هذه الفاكهة فان منظرها مغر، فاخرجت جنيها

ولكن الزحام كان شديدا فكادت روحى تزهق ورأيت أن الأمر
سيطول فدسست الجنيه فى جيبى وانصرفت ولقيت صاحبى على
«القهوة»، وعدت الى البيت فأحسست وأنا أخلع ثيابى ان
«الجاكته» خفيفة فنظرت فيها فاذا المحفظة قد طارت. أى والله.
قطع النشال الجيب بسكين أو موسى أو لا أدرى ماذا وأخذ
المحفظة...»

وعدنا بعد هذه الذكرى الأليمة الى زخاروف والملايين
فقال أحد الصديقين: «لماذا لا نرى فى الشرق ناسا يصبحون
أصحاب ملايين كما يحدث فى الغرب كثيرا...»

فقال ثالثنا: «ان الغنى العريض الواسع يستفاد من الصناعة
والتجارة لا من الزراعة فانها محدودة وكل عمل لا يقبل التوسيع
والنماء المطردين لا يمكن ان تجىء منه ملايين ولا مايقرب منها»

فقلت: «ولا تنس ياصاحبى ان الخطار فى حكم المعدوم فى
الشرق. ولا بد من المغامرة لطالب الثروة الكبيرة السريعة.
ولعل إخواننا العرب أعظم منا جرأة واقداما وأكثر استعدادا
للمغامرة. والمحقق أن المصريين اطلب للراحة والدعة والاطمئنان
على الرزق. وهم يرضون بالقليل اذا كفل لهم الاطمئنان
وقد كانوا الى بضع سنوات يعدون صاحب التجارة أحط مقاما
من صاحب الزراعة وأحسب ان هذا لأن رزق الزارع مكفول
ولكن الرزق من التجارة على كف عفريت. واسمعوا هذه
الحكاية: لما عدت فى العام الماضى من العراق جاءنى صديق حميم
وذكر لى ان له صاحبا يشتغل بصناعة الجلود وانه يرجو منى
المعونة ليحتكر جلود الأضاحى فى موسم الحج فى الحجاز فقلت له:
إنى أعرف أن الحكومة العربية تكره الاحتكارات ولا ترضى
أن تظلم رعاياها على نحو ما يبغى صاحبك ثم إنى لا أستطيع أن
أستغل علاقتى بهؤلاء القوم، ولكنى أشير بما هو خير من ذلك
وأجدى على صاحبك إذا كان عاقلا.. واقترحت عليه أن يؤلف
صاحبه شركة مصرية عراقية لانشاء مصنع للجلود ومدبغة فى
بغداد وقلت له: إنى أستطيع بمساعدة إخوانى فى مصر والعراق
أن أقنع جماعة من العراقيين بالدخول فى هذه الشركة. ولصاحبك
أن يدخل فيها بالقدر الذى هو فى طوقه. والجلود فى العراق
وفيرة ورخيصة، وجلبها من البلاد العربية إلى بغداد أسهل وأقل

كلفة من جلبها إلى مصر، أما الأسواق فعديدة . فهناك أسواق العراق نفسها – والقوم هناك وطنيون عمليون يؤثرون صناعات بلادهم، والحكومة عظيمة التشجيع لها ولا أعتقد أنها تتردد في أخذ حاجة جيشها من هذا المصنع إذا أنشىء ثم ان هناك أسواق جزيرة العرب وأسواق فلسطين وأسواق الشام وفي هذه البلاد كلها يفضل الرجل مصنوعات بلاده فالمشروع لا شك في حسن عائدته ولاخوف من الخسارة فيه وأنا مستعد أن أطلق الصحافة والأدب وأعمل معه وأقوم له بكل ما يستدعيه الحصول على رأس المال أولا واستيراد الجلود من الجهات المختلفة وتصريف المصنوعات في أسواق الجزيرة والعراق وفلسطين وسوريا، فاقترح هذا على صاحبك وانظر ماذا يرى . . ووقف الأمر عند هذا الحد لأن في المشروع مخاطرة بالمال !! . ولست أدري أين المخاطرة ولكن هذا ما كان . وهكذا ضاعت على فرصة حسنة للتحرر من رق الصحافة والأدب . »

فسألني أحدهما : « أو تكره الصحافة والأدب ؟ »

« قلت : لا أكرهما ولكن أعمل فيهما كالحمار ولا أفيد منهما إلا العناء . وإذا وسعني أن أهجرهما إلا ماهو خير وأجدى فلماذا لا أفعل ؟ وصدقني حين أقول لك إني لا أكف عن التفكير في وسيلة للنجاة منهما . وقد خطر لي أن أتخذ جراجاً « ولكن الجراج » لا يكون إلا محدوداً وأنا أريد عملا يحتمل التوسيع على الأيام . وخطر لي أن أتخذ مطبعة ولكني رأيت أن المنافسة الشديدة بين أصحاب المطابع توشك أن تؤدي إلى خرابهم جميعاً . وخطر لي أن أكون بائع « طعمية » وهذا لا يتطلب رأس مال يستحق الذكر، واقتنعت بأن هذا خير ما يمكن أن أصنع وأنه أحسن وجه للخلاص من الصحافة، فذهبت أبحث عن محل صالح ولكني كنت كلما عثرت على واحد واهتديت إلى مكان يمكن أن تروج فيه هذه البضاعة أجد أن غيري قد سبقني . . ولكني لم أقنط من رحمة الله . . وما زلت أرجو أن أوفق إلى عمل صالح غير هذا الأدب الذي لا فائدة منه لأحد »

فسألني ثانيهما : « هل تتكلم جاداً ؟ »

قلت : « أي والله . . لقد قرأت كل ماوسعني أن أقرأ وكتبت كل مادخل في طوقي أن أكتب، فهل أفدت إلا الغرور والنفخة الكذابة والصيت الفارغ . . وإلا العداوات والخصومات التي لا داعي لها . . لا يا سيدي . . وإني لمستعد أن أنزل لك عن نبوغي وعبقريتي وخيالي الخصب ونشاطي الجم ولا أطلب إلا دكاناً صغيراً أقلي فيه « الطعمية » في سيدنا الحسين أو السيدة زينب أو في بولاق . . أقف فيه وأمامي المقلاة وإلى جانبي الزيت – زيت الزيتون من فضلك – والفول المدقوق وعلى ثوب أبيض نظيف وورائي الموائد مصفوفة وعليها الأباريق والأكواب . وأصص الزهر هنا وهناك . والأرض مفروشة بالرمل الأصفر، فاني أريد أن أرقى صناعة « الطعمية » وأجعل منها فناً . . نعم، خذ أدبي كله وخلودي أيضا إذا كانا يستحقان شيئاً واعطني هذا الدكان الصغير وزرني بعد ذلك وشرفني بالأكل عندي وعلى موائدي الأنيقة الجميلة واحسدني يومئذ »

وقمنا صامتين لأن كلامي هذا لم يعجبهما . . ولو أعجبهم لرجوت أن أقنعهما بهذه المبادلة . . ولكن لابأس . . لا بأس . ولا بأس أيضاً فلن أعدم صناعة أخرى أهتدي إليها في يوم من الأيام . والعمر الطويل يبلغ الأمل كما تقول العامة في أمثالها الحكيمة التي هي عصارة التجارب الانسانية على الدهور

ابراهيم عبد القادر المازني

قنبلة بالبارود

لا بالماء المقطر (١) ...

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

حياكم الله يا شباب الجامعة المصرية ، لقد كتبتم الكلمات التي تصرخ منها الشياطين ...

— كلمات لو انتسبن لا نتسبت كل واحدة منهن إلى آية مما نزل به الوحي في كتاب الله .

— فطلب تعليم الدين لشباب الجامعة ينتمي الى هذه الآية : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس » .

— وطلب الفصل بين الشبان والفتيات يرجع إلى هذه الآية : « ذلك أطهر لقلوبكم وقلوبهن » .

— وطلب ايجاد المثل الأخلاقي لهذه الأمة من شبابها المتعلم هو معنى الآية : « هذا بصائر للناس وهدى ورحمة » .

— قوة الأخلاق ياشباب . قوة الأخلاق . إن الخطوة المتقدمة تبدأ من هنا

***

حياكم الله ياشباب الجامعة ؛ لقد كتبتم الكلمات التي يصفق لها العالم الاسلامي كله

كلمات ليس فيها شيء جديد على الاسلام ، ولكن كل جديد على المسلمين لا يوجد إلا فيها .

كلمات القوة الروحية التي تريد أن تقود التاريخ مرة أخرى بقوى النصر لا بعوامل الهزيمة

كلمات الشباب الطاهر الذي هو حركة الرقي في الأمة كلها ، فسيكون منها المحرك للامة كلها

كلمات ليست قوانين ، ولكنها ستكون هي السبب في إصلاح القوانين .

قوة الأخلاق ياشباب ، قوة الأخلاق . إن الخطوة المتقدمة تبدأ من هنا .

***

يريد الشباب مع حقيقة العلم حقيقة الدين ، فإن العلم لا يعلم الصبر ولا الصدق ولا الذمة .

يريدون قوة النفس مع قوة العقل ، فان القانون الأدبي في الشعب لا يضعه العقل وحده ولا ينفذه وحده .

— يريدون قوة العقيدة حتى لذا لم ينفعهم في بعض شدائد الحياة ما تعلموه ، نفعهم ما اعتقدوه .

يريدون السمو الديني ، لأن فكرة إدراك الشهوات بمعناها هي فكرة إدراك الواجبات بغير معناها .

يريدون الشباب السامي الطاهر من الجنسين ، كي تولد الأمة الجديدة سامية طاهرة

قوة الأخلاق ياشباب ، قوة الأخلاق . إن الخطوة المتقدمة تبدأ من هنا

***

أحس الشباب أنهم يفقدون من قوة المناعة الروحية بقدر ما أهملوا من الدين

وما هي الفضائل إلا قوة المناعة من أضدادها ؟ فالصدق مناعة من الكذب والشرف مناعة من الخسة .

والشبابُ المثقل بفروض القوة هو القوة نفسها . وهل الدين إلا فروضُ القوة على النفس ؟

وشبابُ الشهوات شباب مفلس من رأس ماله الاجتماعي ينفق دائماً ولا يكسب أبداً .

والمدارس تخرج شبانها إلى الحياة ، فتسألهم الحياة : ماذا تعودتم لا ماذا تعلمتم ؟

قوة الأخلاق ياشبابُ ؛ قوة الأخلاق . إن الخطوة المتقدمة تبدأ من هنا .

***

(١) رفع طلبة الكليات في الجامعة المصرية إلى مديرها وعمدائها وأساتذتها طلبا يلتمسون فيه إدخال التعليم الديني في الجامعة والفصل بين الشبان والفتيات إذ « لا إصلاح إلا بعد إصلاح روح الشباب الناهض حتى يكون له من قوة روحه وسمو أخلاقه سلاح يحارب به الرذيلة وينصر به الفضيلة » . قالوا : « ولا شك أن الامة بأسرها قد أحست بنقص الناحية الدينية في المجتمع المصري ، ونقص أخلاق الفرد ووطنيته تباعا »

وأحسّ الشبابُ معنى كثرة الفتيات في الجامعة ، وأدركوا معنى هذه الرقة التي خلقتها الحكمة خالقة .

والمرأة أداة استمالة بالطبيعة ، تعمل بغير إرادة ما تعمله بالارادة لأن رؤيتها أول عملها

نعم إن المغناطيس لا يتحرك حين يجذب ، ولكن الحديد يتحرك له حين ينجذب .

ومتى فهم أحدُ الجنسين الجنسَ الآخر ، فهمه بإدراكين لا بإدراك واحد .

وجمالُ المرأة إذا انتهى إلى قلب الرجل ، وجمال الرجل إذا استقر في قلب المرأة .

هما حينئذ معنيان ، ولكنهما على رغم أنف العلم معنيان متزوجان . . . .

* * *

لا ، لا ؛ يارجال الجامعة . إن كان هناك شيء اسمه حرية الفكر فليس هناك شيء اسمه حرية الأخلاق .

وتقولون : أوربا وتقليد أوربا . ونحن نريد الشباب الذين يعملون لاستقلالنا لا لخضوعنا لأوربا .

وتقولون : إن الجامعات ليست محل الدين . ومن الذي يجهل أنها بهذا صارت محلا لفوضى الأخلاق ؟

وتزعمون أن الشباب تعلموا ما يكفي من الدين في المدارس الابتدائية والثانوية فلا حاجة إليه في الجامعة

أفترون الإسلام دروساً ابتدائية وثانوية فقط ؟ أم تريدونه شجرة تغرس هناك لتُقلَع عندكم . . . ؟

لا ، لا ؛ يارجال الجامعة . إن قنبلة الشباب المجاهد تملأ بالبارود لا بالماء المقطر . . . .

* * *

إن الشباب مخلوقون لغير زمنكم ، فلا تفسدوا عليهم الحاسة الاجتماعية التي يحسّون بها زمنهم

لا تجعلوهم عبيدَ آرائكم وهم شبابُ الاستقلال إنهم تلاميذكم ولكنهم أيضاً أساتذة الأمة .

لقد تكلم بلسانكم هذا البناء الصغير الذي يسمى الجامعة . وتكلم بألسنتهم هذا البناء الكبير الذي يسمى الوطن .

أما بناؤكم فمحدود بالآراء والأحلام والأفكار ؛ وأما الوطن فمحدود بالمطامع والحوادث والحقائق .

لا لا . إن المسلمين الذين هدّوا العالم ، قد هدوه بالروح الدينية التي كانوا يعملون بها لا بأحلام الفلاسفة

لا لا . إن الفضيلة فطرة لا علم ، وطبيعة لا قانون ، وعقيدة لا فكرة ؛ وأساسها أخلاقُ الدين لا آراء الكتب

* * *

من هذا المتكلم يقول للأمة : « الجامعيون لن يقبلوا أن يدخل أحد في شئونهم مهما يكن أمره » .

أهذا صوتُ جرس المدرسة لأطفال المدرسة ؟ : ترِنْ ترِنْ .... فيجتمعون ويتصاعون ؟

كلا يارجل ، ليس في الجامعة قالب يصبّ فيه المسلمون على قياسك الذي تريد .

إن التعليم في الجامعة بغير دين يعصم الشخصية ، هو تعليم الرذيلة تعليمها العالي

« ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين »

قوة الأخلاق ياشباب ، قوة الأخلاق . إن الخطوة المتقدمة تبدأ من هنا .

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

حمــام فرعون

للأستاذ حسن جلال

علمت وأنا فى مدينة الاسماعيلية بأن جماعة من رواد الجبال سبق لهم القيام برحلة إلى عين كبريتية فى جبل من الجبال التى فى جنوب مدينة السويس، وأنهم يعاودون التفكير فى تكرار هذه الرحلة ويتهيأون لها، فهفت نفسى إلى الاشتراك معهم لهوى قديم بينى وبين تلك الجهات كان يدفعنى منذ سنين إلى أن أقضى سحابة يوم الجمعة من كل أسبوع متقلباً بين ربوع جبال القاهرة وضواحيها.

وكانت تلك الجماعة تتألف من :

١ — أحد أعضاء مجلس النواب وشيخين من أقاربه.

٢ — ومن تاجر من كبار تجار الاسماعيلية

٣ — ومن تاجر آخر من عيون تجار القاهرة

٤ — ثم من رجل أجنبى من رجال الاعمال إيطالى الجنسية ، مزارع واسعة فى حدود مدينة الاسماعيلية.

فأما عضو النواب وقريباه فكانوا يشكون الروماتزم، وكان هذا هو الذى يحفزهم الى ارتياد تلك العين، فان لها على ما يقول الناس خواص سحرية فى شفاء الأمراض.

وأما تاجر القاهرة فقد سمع بحديث تلك العين من النائب فأغراه ذلك على أن يجرب سحرها فى أوصاله.

وأما تاجر الاسماعيلية فكان على ما فهمت رجلا لا يحتاج إلى الاستشفاء لا بالحار ولا بالبارد، وكل همه فى الحياة أن يجلس آخر النهار فى بعض المقاهى ونرجيلته بين ركبتيه يمصها فتقهقه له حتى تتقطع أنفاسها فيخليها لصاحبها ويعود إلى داره راضياً مرضياً، وكانت الأسباب كلها منقطعة بينه وبين تلك الرحلة لولا أن له سيارة جميلة أحب صاحبنا النائب أن يضمها إلى القافلة فدعاه للاشتراك فلبى الدعوة.

وأما التاجر الايطالى فكان هو عماد الرحلة وبطلها لأنه كان قائدها الذى يدلها على الطريق فى وسط الأودية المهجورة والجبال المتشابهة، يعاونه على ذلك دليل بدوى ممن يعملون فى مزارعه، ولم يكن له من حافز ظاهر إلى الاشتراك فى الرحلة غير ميله إلى الرياضة، أما أن أمثال هذه الرحلة قد تساعده على تنمية معلوماته عن الصحارى المصرية وطرقاتها فهذا حديث آخر لا محل للخوض فيه الآن، وللقارىء أن يستنتج لنفسه ما يشاء . . .

***

هؤلاء هم أشخاص الجماعة

أما النبع نفسه فقد سمعت أنه نبع حار يخرج من الصخر، ويصب فى مياه البحر الأحمر. وأنه نبع (مكبرت) كالنبع الذى فى حلوان. والفرق بين الاثنين أن هذا بارد. أما «حمام فرعون» فهو يخرج من بطن الجبل شديد الحرارة حتى لتلقى السمكة فى مائه الدافق فتنضج فى دقائق معدودات. وعلمت أيضاً أن كهفا يقوم إلى جانب النبع. إذا دخله الانسان فانه لا يطيق البقاء فيه أكثر من ربع ساعة لفرط حرارته وشدة ما يعانى الانسان وهو بداخله من الوهج الذى يتفصد له الجسم عرقا. وقيل لى إن من دخل هذا الكهف وهو يشكو «الرطوبة» فانه لا يلبث أن يخرج منه كما ولدته أمه صحة وعافية. أما العين فانها وإن خرجت من ينبوعها حارة شديدة الحرارة إلا أنها تجرى على شاطىء البحر مسافة طويلة قبل أن تصب فيه. وأنها فى مجراها هذا تتفاوت حرارتها. فهى تبدأ حارة لا تطاق ثم تتناقص حرارتها كلما ابتعدت عن أصل النبع، حتى إذا جاءت ماء البحر وصلت وهى فاترة يطيقها كل إنسان. وقال لى من كان يحدثنى عنها : وإذا كانت مياه حلوان قد بلغت ما بلغت من الشهرة العالمية وهى باردة يرفعون حرارتها بأنابيب البخار، فلك أن تصور لنفسك مبلغ ما تمتاز به هذه العين وهى تخرج من بطن الأرض حارة حرارة طبيعية لم تتدخل فيها يد الانسان. وناهيك بحمام من مائها تعقبه خلوة قصيرة فى ذلك الكهف الذى يليها . . . إن الانسان ليدخلها ثم يخرج من الكهف بعدها كما يدخل المنديل القذر فى يد (الغسالة) ثم يخرج جافا ناصعا من عند (الكواء)!

***

وكان لى صاحب من ضباط البوليس أرتاح إلى صحبته فعرضت عليه رغبتى فى الاشتراك فى تلك الرحلة فتولى عنى مفاوضة الجماعة فى أمر انضمامنا إليهم. وعاد يبشرنى بأنهم يرحبون

بنا على شرط أن نكون ضيوفهم فى الحل والترحال : وتذللت بذلك آخر عقبة كنت أتوهم أنها تعترضنى فى سبيل تحقيق رغبتى لأنى لم تكن لى سيارة خاصة . وليست أمثال هذه الرحلة الطويلة مما يهون فيه الحصول على سيارة بالأجرة . وتحدد موعد القيام بعد يومين من إبرام هذا الاتفاق على أن نجعل قيامنا بعد الفجر بقليل فى اليوم المحدد . ولم يبق أمامى إلا أن أتولى إعداد توافه الأمور التى تركها لى مضيفى كالمناشف التى تلزم لتجفيف عرقى وأنا فى داخل الكهف . والغطاء الذى أتدثر به عند مبيتى معهم على شاطىء البحر فى العراء . على أنى أبيت إلا أن أستصحب معى سراً بعض المرفهات التى أعلم أنها لم تكن لتخطر لزملائى على بال . فدسستها فى حقيبتى بغية أن أفاجئهم بها هناك وسط الصخور والجبال . وكانت عندى (ترامس) ثلاثة يسع كل واحد منها لتراً من الماء . فملأتها جميعا بالماء المثلوج — ونسيت أن أقول إن الوقت كان فى بداية الصيف — وعطرتها بماء الزهر وأخفيتها فى الحقيبة كما أخفيت معها آلة تصوير لألتقط بها بعض المناظر التى تخلد ذكرى هذه الرحلة . وقد دلت كل الدلائل على أنها ستكون رحلة عامرة بالذكريات التى تستحق التخليد . ولست أحتاج أن أقول إن زملاءنا كانوا قد صارحونا بأنهم سيحملون عنا مئونة تزويدنا بالماء والطعام . فلما سألت عما إذا كانوا سيحملون هذا الزاد من الاسماعيلية أم من السويس قيل لى إن العرب الذين سنصادفهم فى الوديان خلال الجبال كلهم رعاة أغنام . ونستطيع أن نحصل منهم على ما نشاء من ضأن وماعز . كما أن البحر هناك مرعى بكر يزخر بألوان السمك . والوديان لا ينقطع منها الماء الجارى . ورجال البدو لا يلبثون أن يحتاطوا بنا ويتنافسون فى خدمتنا . فكنت أستمع لهذا الحديث وأرسل أخلاتى على سجيتها لتتم بألوانها الساحرة بقية تلك الصورة الخلابة التى لبثت يومين كاملين وأنا أسعد بالتقلب بين أعطاف خيالاتها !

* * *

وأخيراً حل اليوم الموعود ، وكنت على أتم أهبة للرحيل قبل بزوغ الشمس ، وأقبلت السيارات تناديني بأبواقها ، فنزلت فاذا سرب طويل منها يضم الصحاب جميعاً ، فاستقللناها قاصدين إلى السويس ؛ والطريق ما بين الاسماعيلية والسويس طريق جميل ممهد أعدته فى السنوات الأخيرة شركة قنال السويس ليكون متمما للطريق القديم الذى يوصل ما بين الاسماعيلية وبور سعيد . وهذا الطريق يسير إلى جانب القناة ويتمتع السائر فيه بمناظر بحيرة التمساح والبحيرات المرة الكبرى والصغرى التى تمتد على يساره ، بينما تقوم الحقول الخضراء على يمينه وهى حافلة بالأكواخ الصغيرة الساذجة ، وبألوان شتى من المواشى والأغنام ، وكلها دائبة فى رعى تلك المروج الناضرة البهيجة . ووصل الركب محطة « الكوبرى » حوالى الساعة السابعة صباحا . وهذه المحطة تقع فى شمال السويس ، وعلى بعد ثمانية كيلومترات منها . وعندها تقع « المعدية » التى ينتقل عليها المسافر من شاطىء القنال الغربى ، إلى شاطئه الشرقى — أو من شاطئه الأفريقى إلى قرى شاطئه الآسيوى كما يقولون — فاضطررنا إلى الوقوف هنا ريثما يقوم عامل « الجرك » بتفتيش أمتعتنا . وقد عجبت لهذا العمل ونحن إنما نتنقل من أرض مصرية إلى أرض مصرية . فلما استفسرت عن السبب علمت أن المنطقة التى نريد أن ندخلها خاضعة لمصلحة الحدود . والنظام الادارى فى تلك المصلحة يكاد يكون مستقلا عن إدارة الحكومة المصرية . وأنه محظور على من يريد دخول الصحراء فى تلك الجهة أن يكون معه سلاح نارى تنفيذاً لأمر المصلحة الذى يقضى بعدم صيد الغزال مثلا فى تلك المنطقة . كما أنه من المحظور أيضاً أن يحمل المسافر معه آلة تصوير حتى لا يسجل بها مناظر ترى المصلحة أنه من الواجب المحافظة على سريتها . وكانت النتيجة الأولى لوقفتنا هذه فى محطة الكوبرى ، أنى خسرت آلة تصويرى ، لأنى اضطررت إلى تسليمها من تلقاء نفسى ، وبذلك ضاعت على فرصة احدى المفاجآت التى كنت دبرتها للاخوان . على أن هذه لم تكن خسارتى الوحيدة . فقد بدأ لبعضنا أن يتناول وجبة خفيفة فى ذلك المكان تكون بمثابة الفطور لمن فاته الافطار فى منزله . وكنت أنا من هؤلاء . فأردت بعد لقيمات ازدردتها أن آخذ جرعة من الماء فهممت بتناول واحد من (ترامسى) ولكن سبقنى إليه يد أحد الزملاء الكرام يريد أن يبالغ فى الحفاوة بى فلا يدعنى أقوم بهذه الخدمة الهينة لنفسى فما راعنى الا أن أراه يملأ كوب الترموس من مائه المعطر المثلوج ثم يهزه فى يده هزات يريقه من بعدها على الأرض كما لو كنا

نستقى من (زير) بجوار سوق فى إحدى قرى الريف ، فهو يريد أن يكفل نظافة (الكوز) مما يكون قد علق به من الغبار ! وأردت أن أعوض ماشربته الأرض من مائى العزيز فاقتصدت فى الجرعة التى شربتها واكتفيت منها بمصتين لأنى كنت أقدر ما نحن مقبلون عليه من الجفاف والجدب. ولكن حلا لبقية الصحب أن يستقوا فأدار الساقى عليهم من أكوابى ، ودخلت الصحراء بنصف ما كنت تزودت لها به من الماء . وكانت هذه خسارتى الثانية فى مستهل الطريق

وحملتنا (المعدية) بسياراتنا فنقلتنا إلى الشاطىء الشرقى . وبدأنا عقب ذلك رحلتنا الشاقة فى وسط الصحراء حيث لاشىء إلا الحصى والرمال فى طريق متشابهة لا أثر فيها لأى نوع من أنواع الحياة . ولبثنا نضرب فى تلك البيداء حتى أدركنا الظهر - ولكنا على كل حال كنا نسمر بمختلف الأحاديث - وكان الذين سبقونا إلى ارتياد هذا الطريق لا يضنون علينا بشرح ما يعرفونه من معالم . وأحياناً أيضاً بشرح مالا يعرفون استجابة منهم لنداء تلك الغريزة العجيبة التى ركبت فى كل نفس والتى تجعل صاحبها يلتذ أن يتظاهر بالعلم أمام من لا يعلم !

وكانت سيارة الإيطالى فى مقدمة الركب . وقد قبع الدليل البدوى على مقدمها ليلجأ إليه صاحبه كلما أعوزته المشورة فى أمر الطريق . وفى النهاية لاحت لنا أشجار «الطرفاء» التى تزين (وادى الغرندل) وهو واد واسع يكثر فيه النخيل ولا ينقطع منه الماء طول العام . وبدأنا نرى الناس من جديد بعد أن كنا نظن أننا انقطعنا عن العالم - ولكن يالهم من ناس ! . . . لقد كانوا أشباحا فى أسمال . . . أجسام رقيقة مديدة ضمرها الجوع . وعيون فاترة غائرة أطفأها الفقر والجدب . كانوا يحيطون بنا ويعدون إلى جانبنا ويلاحقوننا كما كانت تفعل جنادب الوادى الذى يعيشون فيه . أما سياراتنا فكانت عند اجتيازها لهذا الوادى تجرى فوق مياهه . إذ لم يكن أمامنا طريق أخرى غير بطنه ، فكانت أشبه بالزوارق البخارية منها بالسيارات . ولقد عانينا كثيرا ونحن نجتاز هذه المرحلة من طريقنا لأن الماء كان يتسرب إلى داخل آلات السيارة كلما أدركنا خاضة بعيدة الغور نوعا ما . وكان الويل للسيارة التى يصيبها ذلك ، لأن الركب ما كان ليقف لأمثال تلك الأحداث ، فكانت السيارة المتخلفة تقاسى كثيرا قبل أن تلحق بالقافلة وتمسك معها بطرف الطريق . وتكررت حوادث فقد الطريق ونحن بالوادى ، ذلك لأن الطرق فيه متشعبة فكان المتخلف عرضة لأن يتبع آثار عجلات غير عجلات سياراتنا كلما غابت عن نظره بقية القافلة . وكم وقفنا وأطلقنا أبواقنا ليهتدى على صوتها من نفتقده من الزملاء ، وكم كررنا نحن راجعين فى مسلك وعر كنا قد تشهدنا عند ما اجتزناه ، فلما فرغنا منه وجدنا أننا قد ضللنا الطريق .

* * *

وأخيراً خرجنا من هذا الوادى وعدنا إلى الصحراء من جديد ولكنها كانت فى هذه المرة صحراء نافرة صخرية يكتنفها جبل عظيم أبيض اللون ناصعه تجوس فى سفحه عربات صغيرة وتدب معها نمال بشرية تتراءى من بعيد كأنها بعض هوام الجبل أو زواحفه . وسألت فعلمت أن شركة إيطالية قد حصلت من الحكومة على امتياز لاستغلال هذا الجبل وأنها تحصل منه على نوع من الرخام النادر تصدر معظمه إلى باريس بالذات دون بلاد العالم لكثرة الحاجة إليه فى مبانيها الأنيقة الحديثة . وأن هذه الشركة قد أثرت من وراء هذا العمل ثراء طائلا . فأحببت أن نقف قليلا لنصل بعمال هذا الحجر ونتحدث إليهم فنسرى عن أنفسنا ونسرى عنهم . وفى أمثال تلك البقاع النائية يصدق قول القائل : وكل غريب للغريب نسيب !

وكانت حالة السيارات تقتضى هذه الوقفة أيضاً ، فإنها كانت قد شربت كل ما معنا من الماء وكانت فى حاجة أيضا إلى الماء . فترجلنا لنملأ صهاريجها ، واتجهت وبعض من معى إلى أولئك العمال فاذاهم جميعا من أهل الصعيد — تلك الطائفة النبيلة التى شيد أجدادها مجد الفراعنة وخلدوا آثارهم فى وادى الملوك وغير وادى الملوك ، وها هو ذا الخلف اليوم لا يجد من يستنجد بكتفه وذراعه غير الأجنبى فيلبى دعوة القوت وسط تلك الأصقاع السحيقة القاحلة يقضى عمره ويفنى حياته فى قطع الرخام وحمله ليجد هو فى آخر النهار ما يسد به رمقه . ولينعم حسان باريس بالرونق البهى والرواء الحسن . وليقف المقاول الإيطالى بين الطرفين يستغل جهد المصرى وثراء الباريسى فى آن واحد .

وأردت أن أعرف من أين يحصل هؤلاء العمال على الزاد

والماء — ولعل الباعث الخفي لسؤالي كان حرصي على الاطمئنان على نفسي ومصيرها في هذا القفر قبل أن يكون إشباع حب الاستطلاع فيها عن حالة هؤلاء المساكين — فقيل لي بأن باخرة تقدم من السويس كل شهر تقريباً فتحمل اليهم الزاد والماء الذي يكفيهم حتى موعد الزورة التالية ، فبدت على أنا وزملائي علائم الاشفاق والرثاء . ولكن جرنا الحديث إلى ذكر المنائر التي تقع على شاطيء البحر الأحمر والتي تضم كل واحدة منها ثلاثة من الموظفين المصريين في حالة عزلة تامة عن العالم لمدة تسعة شهور ، إذ أن كل منارة من هذه المنائر يديرها أربعة من الموظفين يعمل كل واحد منهم تسعة شهور متتالية في العام ويحصل على أجازة سنوية تستغرق الثلاثة شهور الأخرى . ولذلك فإن ثلاثة منهم فقط يجتمعون في العمل ويكون الرابع في إجازته ، حتى إذا عاد هو قام من يكون عليه الدور وهكذا . وأن الواحد من هؤلاء الموظفين متى استلم عمله في فنارة فانه ينقطع عن العالم وأخباره حتى يحل موعد وصول الباخرة التي تأتيهم بالطعام والماء مرة في كل شهر . وهم من خلال هذا الشهر لا يقرأون الصحف ولا سبيل لهم إلى معرفة ما يكون قد مر على العالم من أحداث ، وما يكون قد طرأ عليه من حروب . وعجبت من شأن الحكومة مع هؤلاء الناس ومن شأنهم هم مع أنفسهم . فاننا أصبحنا اليوم نسمع الراديو في السيارات الخاصة وهي تسير وسط الطرقات العامرة الزاخرة ، ثم ها نحن أولاء نسمع من أمثال هذه المنائر التي تترك بغير جهاز ولا صفير من هذه الأجهزة الكفيلة بأن تقل أهلها من عزلتهم فتضعهم في وسط العمران والحياة

* * *

كان بيننا وبين (حمام فرعون) ونحن في ذلك المحجر بضع كيلومترات قد لا تزيد على خمسة أو ستة ، ولكن ما كابدناه في قطع هذه المرحلة القصيرة فاق كل ما لاقيناه في طول الرحلة منذ بدايتها ، ذلك بأن الطريق كان قد انقطع عند المحجر ، وأصبح علينا بعد ذلك أن نسير في أرض بكر لا تطرقها السيارات إلا كلما جلا لأمثالنا أن يزور ذلك المكان ، وهو نادر قليل ، وكانت طبيعة الأرض في تلك الجهة جامحة نافرة ، فبيناهي صلبة في بعض نواحيها إذا هي رخوة تغوص القدم في رمالها في نواحيها الأخرى وكان في انتقال السيارة من الصلب إلى الرخو ثم من الرخو إلى الصلب ما فيه من إجهاد للسائق وللراكب وللآلات نفسها ، وذلك لما تستدعيه طبيعة كل ناحية من تغيير درجات السرعة وتحريك رافعات السيارة واحدة بعد أخرى بما يناسب حالة الطريق وقد حدث اننا خسرنا فعلا إحدى سياراتنا فقد انكسرت بعض آلاتها في هذه التنقلات السريعة المفاجئة ، واضطررنا إلى التخلي عنها وسط الطريق بعد أن توزعت حمولتها على بقية السيارات فزادت في عسر حركتها وتعريضها هي الأخرى للتلف ، وليس يفوتني هنا أن أقول إن هذه السيارة بالذات كانت سيارة تاجر الاسماعيلية الذي لم يكن من سبب لاشتراكه في هذه الرحلة غير سيارته ، ولكن هكذا قدر الله في لوحه أن يأتي أجل هذه السيارة في تلك البقعة الموحشة . وصدق الله العظيم و (ما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت) وقديماً قيل :

إذا ما حمام المرء كان ببلدة ... دعته اليها حاجة فيطير

وقبيل العصر بقليل ألقت القافلة عصاها في سفح جبل عال كان يواجهنا ، وقيل لنا انزلوا : فهذا هو « حمام فرعون »

* * *

وثبت من سيارتي فرحا وقد نسيت أمام بلوغ الهدف كل ما لاقيته خلال الرحلة من مشقة . ولم أنتظر حتى يتقدمني من له علم بالمكان . لأني لم أكن رأيت في حياتي قط عينا حارة ـ ولكني كما هو الحال دائماً في أمثال هذه الشئون كنت قد صورتها لنفسي بعين خيالي . وكنت شديد الشغف الآن بأن أقابل بين الحقيقة وبين الخيال . فما كان أشد الفرق بين الصورتين !

كنت أتصور النبع على صورة (الفسقية) ينبثق من وسطها خرطوم عال من الماء له رشاش من حوله ثم يتجمع الماء في حوض حول العين ثم لا يلبث أن يفيض من الحوض إلى ذلك المجرى الطويل الذي حدثونا عنه . وكنت أتخيل هذا المجرى في صورة قناة جميلة وسط صخور صلدة ينساب الماء فيها رائقا صافيا كتلك القناة الجميلة البيضاء التي ما تزال آثارها باقية في « وادي حوف » بحلوان والتي كنا نتناول فيها غداءنا كلما رحلنا إلى تلك الجهة . فادرت عيني بسرعة فيما يحيط بي أبحث عن تلك الفسقية أو عن هذه القناة فلم أجد لإحداهما أثراً ، فخاب ظني لأول

وهلة وأحسست بقلبي يتراجع قليلا في صدري شأن من يفاجأ بأمر لم يكن يتوقعه . ولكن سرعان ما استغرق بصرى ذلك الجبل العظيم الذي كنا نقف في كنفه . فصوبت عيني فيه وصعدتها فأخذتني عظمته . ولمحت في صفحته ثغرة سوداء قريبة من سطح الأرض ، فأدركت أنها لابد أن تكون مدخل الكهف الموعود . وكان هذا الجبل يقوم على شاطئ البحر ليس بينه وبين الماء في البقعة التي وقفنا فيها أكثر من خمسين مترا ، ثم هو يمتد محاذيا للشاطئ مسافة مائتي متر أو ثلثمائة متر ، وبعد ذلك يتصل بالماء رأساً فيرتطم موج البحر بقدميه ويتحطم على صخوره السوداء . ولفت نظرى في ذلك المثلث الرملي الضيق الذي كنا نقف على قاعدته أن قناة ضحلة تجرى وسطه فتتبعتها ببصرى مسرعا فرأيتها تبدأ عند قاعدة الجبل ولكن لم أتبين من أين ينبثق ماؤها . فدلفت إليها حتى جئت المكان الذي ينبعث منه الماء فاذا هو ثلمة ضيقة بين صخرين يسيل منها الماء كما يسيل من صنبور متوسط الحجم فيجرى على الصخور المجاورة حتى تتسلمه رمال الساحل فتبلع منه ما تبلعه وتترك الباقي ينداح على صدرها حتى يصب في البحر . وكانت رائحة الكبريت ساطعة تملأ الجو ، ولكن الماء كان يجرى كالبلور المذاب لا يعلوه بخار ولا يبدو عليه أنه حار . فأغراني ذلك بأن أمد إليه أصبعي ولكني ما كدت أفعل حتى سحبتها صارخاً كأنما اندق فيها مسمار . فأثلجت هذه اللسعة صدرى . ومنيت نفسي بالحمام الساخن الذي قطعت من أجله كل تلك القفار . فلست أعرف في متع هذه الحياة ما هو أحب إلى نفسي من الحمام الساخن !

* * *

وكان إخواني قد أدركوني وحف بعضهم بالنبع وانطلق بعضهم يساير القناة . أما الايطالي فإنه اشتغل بنصب الخيام

وشاءت المصادفات أن يكون الهواء في ذلك اليوم قوياً ثقيلا فكان يسفى علينا التراب ونحن لا نجد ما نحتمى فيه حتى قامت خيام الايطالي فآوينا اليها وقد نال منا الجوع ، ونشر الخادم بين يدينا علبه ولفائفه وأدار علينا الخبز فالتهمناه بما أصابت أيدينا من جبن وزيتون وقديد وما إلى ذلك مما كان قد أعد لتبتيل أغنام الرعاة المنتظرة وسمك الصيادين الموعود ، فأبت علينا المقادير إلا أن نأكله هو متبلا بالتراب ومحشواً بصغار الحصا ، ومع ذلك فقد كنا نتخاطفه ونتنافس في التطويح بما نصيبه منه إلى أفواهنا قبل أن ننفخ فيه وندرو عنه ما علق به من الرمال ، فيا سبحان الله ! أهكذا يحلو المر أحياناً في هذه الحياة ! وماذا بقى لنا من الحقائق المطلقة في دنيانا وكل شيء فيها اعتبارى كما نرى ؟ إلا أن الحسن إنما يكون حسناً في ظل رضا النفس ، والقبيح إنما يقبح بزوال هذه الحالة عن النفس ! والسعادة مهما اختلف الناس في أسبابها فهي من الكثير الغالب من صنع أيدينا وفي القليل النادر من صنع المقادير .

* * *

ولم نهجع عقب الطعام بل انتشرنا في المكان نرتاده ونتسلق الجبل وندخل الغار بأطراف رءوسنا ثم نخرجها سراعاً لكثرة ما ألقى في روعنا من أنه شديد الحرارة يذيب نخاع الرءوس . وقضينا على ذلك ساعة وبعض ساعة حتى أوشك النهار أن ينقضى فتاهبنا لأخذ الحمام المرتجى ، وانصرف كل واحد منا إلى صخرة توارى خلفها فخلع ملابسه . وارتدى قميص البحر . ولم تكن إلا هنيهة حتى استحال المكان إلى « بلاج » أنيق صغير بأولئك الفراعنة الصغار الذين جاءوا من أقصى الأرض ليحققوا للمكان اسمه ويؤيدوا له لقبه . وكان الأعرابي الذي مع الايطالي قد احتمل فأساً وقصد إلى أوسع مكان في القناة فعمقه وأبعد غوره كما يتسع لأجسامنا ويصلح للاضطجاع . فنزلناه واحداً بعد واحد وساعدنا ذلك على رفع مستوى الماء قليلا فما زلنا نتقلب فيه ونتلبط . وهواء المساء البارد يصفع أجسادنا الحارة . ونحن نصر على أن نوهم أنفسنا باننا نأخذ حماماً ساخناً حتى أدركنا أن إصرارنا سيكون وخيم العاقبة اذا نحن تمادينا في تحدى الطبيعة إلى أبعد من هذا الحد ، فخرجنا نتواثب من حفرتنا كجماعة الضفدع دهمها داهم وهي ترتل في مخابئها أناشيد المساء !

ولما نزل بنا الليل كان الهواء الثائر قد سكن ، والتراب السافى قد استقر ، ولاحت النجوم في السماء زاهية زاهرة . وأشهد أنى لم أر السماء طول حياتي كما رأيتها في تلك الليلة . فلقد اعتدنا أن نراها ونحن في المدن من خلال المباني الضاربة في الفضاء ، ومن خلال النوافذ الضيقة ، فكنا لا نرى إلا قطعاً منها تذهب التجزئة

فيها بجمال المجموع . أما فى تلك الليلة فقد راقنا أن تنام فى العراء فبسطنا فراشنا فوق الرمل وألقينا عليه وسائدنا ثم انطرحنا على ظهورنا واتجهنا بأبصارنا فى السماء فراعتنا . وبدت لنا النجوم كا لو كنا لم نرها قط قبل تلك اللحظة . وإنى لأذكر الآن كيف أننا جميعاً أصابنا وجوم مشترك أمام عظمة هذا المشهد حتى لقد بقينا فترة لم ينبس فيها واحد منا بحرف . فلما نطق أول متكلم فينا وتحدث بماراعه من منظر السماء اندفعنا جميعاً نكرر معنى واحداً فى عبارات مختلفة ، وأدركنا أننا فى سكوتنا كنا تحت تأثير واحد، وأن أحداً منا لم يستطع أن يفلت من جاذبيته !

***

وفى غداة اليوم التالى تنفسنا مع الصبح جميعاً . ومنا من كانت قد انقضت عليه أعوام وأعوام وهو لا يرى الشمس كل صبح إلا بعد أن ترقى حدود الأفق بزمان طويل . وهببنا من مضاجعنا خفافاً تفيض حركاتنا بالقوة والنشاط . وكانت مفاجأة الصباح التى أعدتها لنا طبيعة المكان أننا أردنا أن نحلق لحانا فامتنعت عن الصابون مياه النبع ؛ وعبثاً حاولنا إحداث الرغوة المطلوبة على الرغم من إسرافنا فى الدعك والفرك ؛ ولم نشأ أن نضحى ببقية مائنا العذب فى شؤون زينتنا ، فطال ركوعنا على حافة القناة حيث اجتمعنا فى شبه (صالون) خشن حقير !

وكنا قد أحسسنا فى المساء أن ذخيرتنا من الماء كادت أن تنفد ، فاحتلنا فى الحصول على مدد فلم نجد إلا صفيحتين فارغتين من صفائح البنزين فبعثنا بهما مع خادم ليملأهما من ماء الوادى فعاد بهما إلينا ونحن نتناول طعام الفطور ، فكرعنا من مائهما ما كنا فى حاجة إليه ، فاذا هو فى مذاقه أشد نكراً من ماء النبع فهذا فيه طعم الكبريت . أما ذاك فانه عبق برائحة البنزين والبترول .

وكنت أزمع العودة مع بعض الصحاب فى ظهر ذلك اليوم فرأينا أن نقضى الساعة التى بقيت لنا فى جوف الكهف حتى لا يكون قد فاتنا شىء من « متع » المكان قبل أن نبرحه . فعدنا إلى قمصان البحر فارتديناها ونشرنا شيئاً من الفراش فى أرض الغار ثم دخلنا فرقدنا فوقها ولكنا لم نلبث أن اعتدنا حرارة المكان الذى استلقينا فيه ، فأوغلنا قليلا فوجدنا فارقاً محسوساً فى الحرارة فسرنا ذلك ، وبقينا فيه أيضاً حتى ألفناه ثم أوغلنا ثانية ، وهكذا حتى أصبحنا فى قرار الكهف حيث الظلام الشامل . فما كان أروع منظرنا ونحن نزحف فى نواحى المكان كالخفافيش والعالم من خلفنا على باب الكهف ساطع بهيج ! وكنا قد احتملنا معنا مناشفنا فلم تكن ترى فينا إلا شبحا يستوى قاعدا فيأخذ فى تدليك جسمه بمناشفه حتى يجفف عرقه فلا يكاد يرقد حتى يقوم إلى جانبه شبح آخر يظل يهزج ويحك ذراعه بذراعه فلا ينتهى حتى يسلم هذه المهمة لسواه ، وهكذا حتى أحسسنا بحلوقنا آخر الأمر تكاد تجف من فرط ما عرقنا وأفرزنا من ماء جسومنا فعولنا على الانسحاب . وكان حتما علينا أن ننسحب متدرجين كما أوغلنا متدرجين حتى لاتقتلنا الطفرة أو يؤذينا الانتقال السريع . فقضينا فى هذا الانسحاب زمنا ليس بالقليل ولم نستطع أن نركب سياراتنا إلا بعد أن انتصف النهار . ونسيت أن أقول إننا أتينا بعد خروجنا على ماء الصفيحتين فشربناه وظللنا من بعده يومين ونحن نتجشأ بنزينا قويا يكاد ريحه يضىء ولو لم تمسسه نار !

***

انقضت بعد عودتنا أيام رأيت فى خلالها بعض الصحاب فكان حديثهم ترديدا لما لاقينا من وعثاء الطريق ، وما قاسينا من سعار الكهف . ثم قابلت صاحبنا الايطالى فكان حديثه أنه يفكر فى الحصول من الحكومة على امتياز لاستغلال النبع واقامة فندق صغير بجواره وتهيئة بواخر خفيفة تصل بينه وبين السويس حتى تنقلب الرحلة إلى متعة ينعم بها المستشفى بدل أن تبقى كما هى الآن مشقة ينوء بها الرياضى . فهتف فى نفسى هاتف : « يعيش الدوتشى ! » وقلت لمحدثى : لمثل هذا فليعمل العاملون .

حسين جلال

الألفاظ العربية

الاسلامية ، المولدة ، المعربة
العربية ، العبرانية ، السريانية
استعمال لفظة فى محلها : (سد بوزك)

للأستاذ محمد اسعاف النشاشيبى

الألفاظ فى العربية أقسام :

قسم عربى بحت . وهو الذى وضعته اللغة فى (الجزيرة) أو جاء من عند غيرها وخالط ألفاظها فعد كأنه منها ، وهو أعجمى تعرب ، والعربية عربية قوية ، فكان مثل « الهرمزان الذى أسلم وبدّل ثيابه . وتسمى بعرفطة . . » كما جاء فى (الطبقات) لابن سعد .

وقسم اسلامى أظهره الاسلام ، وما كان فى الجاهلية يعرف ، أو كان له معنى فيها غير الذى استجد ، وهو مثل : المؤمن ، المسلم الكافر ، المنافق ، المخضرم [1] ، الجاهلية [2] الدجاجلة [3] الفاسق ؛ قال ابن الاعرابى : « لم يسمع قط فى كلام الجاهلية ولا فى شعرهم (فاسق) قال : وهذا عجيب وهو كلام عربى ، ولم يأت فى شعر جاهلى . وفى الصحاح نحوه » .

وقسم مولّد محدَث ، ولد فى غير (الجزيرة) مثل الطنز (أعنى السخرية) والكابوس الذى يقع على النائم ـ وفى هذا الزمان يقع على النائم واليقظان ـ والطرمذ وهو الكذاب الذى له كلام وليس له فعل ، وما أكثر الطرمذة [4] فى الناس ! والفشار ـ وهو الهذيان ـ وجُلّ الناس أوكلهم ـ كما يقول بعضهم ـ فشارون . .

---

(١) فى اللسان قال ابن خالويه : خضرم خلط ومنه المخضرم للذى أدرك الجاهلية والاسلام . وأما من قال مخضرم بفتح الراء فتأويله عنده أنه قطع عن الكفر الى الاسلام

(٢) فى (كتاب ليس) لابن خالويه : ان لفظ الجاهلية اسم حدث فى الاسلام للزمن الذى كان قبل البعثة .

(٣) فى (كتاب ليس) : لم يسمع جمع الدجال من أحد إلا من مالك بن أنس فقيه المدينة فانه قال : هؤلاء الدجاجلة

(٤) فى (أمالى القالى) : الطرمذة لفظة عربية . وفى (اللسان) : الطرمذة ليس من كلام أهل البادية (الجوهرى)

ومن المولد الطرش والتشويش والمخرقة والقازوزة [1] والبحران [2] ومنه [3] (ستى) فى قولهم : ياروحى ، ياستى ! بمعنى ياسيدتى

وقسم معرب وتعريب الاسم الأعجمي أن تتفوه به العرب على منهاجها تقول : عربته العرب وأعربته

فى (الصحاح) : المهندز الذى يقدر مجارى القنى والأبنية ، معرب . وصيروا زايه سينا فقالوا : مهندس لأنه ليس فى كلام العرب زاى قبلها دال

ومن المعرب (قالون) قال الثعالبى فى فقه اللغة : « سأل على شريحا مسئلة فأجابه ؛ فقال له : قالون : أى أصبت بالرومية » وفى (الفائق) للزمخشرى « أو هذا جواب جيد صالح . ومنه حديث ابن عمر (رضى الله عنهما) انه عشق جارية له (رومية) وكان يجد بها وجداً شديداً ، فوقعت يوماً عن بغلة كانت عليها ، فجعل يمسح التراب عن وجهها ويفديها ، وكانت تقول له : أنت قالون (أى رجل صالح) فهربت منه بعد ذلك فقال :

قد كنت أحسبنى (قالون) فانطلقت
فاليوم أعلم أنى غير (قالون)

ومن المعرب الشقلة وهى ان تزن الدينار بازاء الدينار لتنظر أيهما أثقل ، قيل ليونس : بم تعرف الشعر الجيد ؟ قال : بالشقلة

ومنه (البوس) بمعنى التقبيل . ومن المعرب (خوداى) أى واجب الوجود وهو الله . وفى كتاب (المدهش) لابن الجوزى : « وقف أعجمى عند الكعبة والناس يدعون وهو ساكت ، ثم أخذ بلحيته فرفعها وقال : ياخوداى ، شيخ كبير ! ! ! »

ومن المعرب (الخز والديباج) وكون هذين معربين ـ شيء محقق [4]

ومنه الفالوذج واللوزينج والجوزينج ومن يقدر ان يمارى فى تعريب ذلك ؟ ؟

---

(١) فى (اللسان) : القازوزة مشربة دون القرقارة ، أعجمية معربة

(٢) البحران : التغير الذى يحدث للعليل دفعة فى الامراض الحادة

(٣) فى المزهر : كل لفظ كان عربى الاصل ثم غيرته العامة بهمز أو تركه أو تسكين أو تحريك أو نحو ذلك مولد .

(٤) فى (أدب الكتاب) للصولى و انظر فارسى عربيا بين يدى يحيى بن خالد

ومنه (الدهدر) أى الباطل وهو تعريب (دَهْ دُلِه) أى صاحب عشرة قلوب، والمراد به الرجل المتقلب. (قلت): والرجل المتقلب ذو مئة قلب ومئة وجه

ومنه البشم: التخمة، ولا ريب فى أنها معربة فما يجىء البشم الا من الافراط فى الاكل، ومتى كان الشبع فى الجاهلية حتى يكون البشم ؟!

ومنه أيضا: (أيضا) فارسيتها أيدى كما يقول كتاب الألفاظ الفارسية المعربة

ومن المعرب: (شاقرد) أو شاجرد ومعناه متعلم، تلميذ تعريب شا كرد قال الأعشى:

وما كنت (شاجردا) ولكن حسبتني — إذا (مسحل) سدّى لى القول - أنطق[1]

وقال موسى بن عبد الله البختكان:

قد كنت شاكردى فيما مضى — فصرت أستاذى ولا ترضى

ومن المعرب: التوت أو التوث وهو الفرصاد فى العربية الأولى. قال محبوب بن أبي العشنط:

لروضة من رياض الحزْن أو طرف — من القُرَيَّة جرد غير محروث

للنوْر فيه اذا مج الندى أرَج — يشفى الصداع وينقى كل ممغوث[2]

أحلى وأشهى لعينىّ ان مررت به — من كرخ بغداد ذى الرمان والتوث

وفى تذكرة الشيخ تاج الدين بن مكتوم بخطه: «قال نصر ابن محمد بن أبي الفنون فى كتاب أوزان الثلاثى: سين العربية شين فى العبرية، فالسلام شلام، واللسان لشان، والاسم اشم،

وقول ابن أبي الفنون يذكرنا بكلام لابن حزم فى كتابه (الاحكام فى أصول الأحكام) وهو:

«ان الذى وقفنا عليه وعلمناه يقينا أن السريانية والعبرانية والعربية التى هى لغة مضر وربيعة لا لغة حمير - واحدة تبدلت بتبدل مساكن أهلها فحدث فيها جرش كالذى يحدث من الأندلسى اذا رام نغمة أهل القيروان، ومن القيروانى اذا رام لغة أهل الأندلس، ومن الخراسانى اذا رام نغمتهما

ونحن نجد من سمع لغة أهل (فحص البلوط) وهى على ليلة واحدة من قرطبة كاد يقول إنها لغة أخرى غير لغة أهل قرطبة. وهكذا فى كثير من البلاد فانه بمجاورة أهل البلدة لأمة أخرى تتبدل لغتها تبدلا لا يخفى على من تأمله، ونحن نجد العامة قد بدلت الألفاظ فى اللغة العربية تبديلا، وهو فى البعد عن أصل تلك الكلمة كلغة أخرى، ولا فرق، فنجدهم يقولون فى العنب: (العينب) وفى السوط (أسطوط) وفى ثلاثة دنانير (ثلثدا). وإذا تعرب البربرى فأراد أن يقول الشجرة قال (السجرة)؛ وإذا تعرب الجليقى أبدل من العين والحاء هاء فيقول (مهمداً) إذا أراد أن يقول (محمداً) ومثل هذا كثير. فمن تدبر العربية والعبرانية والسريانية[1] أيقن أن اختلافها إنما هو من نحو ماذكرنا من تبديل ألفاظ الناس على طول الأزمان واختلاف البلدان ومجاورة الأمم، وإنها لغة واحدة فى الأصل

***

ومن الألفاظ المولدة فى العربية لفظة (البوز) التى استعملها الجمهور فى مدينة يافا من أعمال فلسطين منذ أربع سنين حينما كان الوطنيون فى دار القضاء (المحكمة) يحاكمون، فقد قال عامل عربى من عمال الشحنة أو الشرطة — البوليس أو البلوص كما يقال فى بعض الجهات — فانه قال كلمة منكرة فاحشة أنكرها الجمع العربى حتى ان النيابة وهي انكليزية أنكرتها وقسرته على أن يرجعها فرجعها؛ فلما قالها صاح الناس هناك: (سد بوزك) وقد ظن بعضهم أن هذه اللفظة عامية والصحيح أنها معربة[2]

البرمكي فقال الفارسى: ما احتجنا اليكم قط فى عمل ولا تسمية، وقد ملكتم فما استغنيتم عنا فى أعمالكم ولا لغتكم حتى أن طبيخكم وأشربتكم ودواويكم وما فيها على ما سمينا، ما غيرتموه. فسكت عنه العربى. فقال له يحيى بن خالد: قل له: اصبر لنا، غلقت كما ملكتم ألف سنة بعد ألف سنة كانت قبلها لا نحتاج إليكم ولا إلى شيء كان لكم

(1) مسحل: تابعة الاعشى (شيطانه) وفى الاساس: ركب فلان مسحله اذا مضى على عزمه، وتقول: اذا ركب فلان مسحله أعجز الأعفى ومسحله. أى اذا مضى فى قريضه.

(2) ممغوث: محموم

(1) وفى (طبقات الامم) للقاضى صاعد الأندلسي: «تفرعت اللغة العبرانية والعربية من اللغة السريانية».

(2) فى (كتاب) الالفاظ الفارسية المعربة: «البوز بكلام العامة معرب عن بوز وهو يطلق على فم الحيوانات (الكلب)»

وفى (شفاء الغليل) البوز الفم ويطلقونها فى الاكثر على فم الكلب.

أو مولدة وهي — إن لم تكن نوحية — ألفية عمرها ألف سنة، وقد استعملها كبار الأدباء. وهذه حكاية أوردها ياقوت في كتاب (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) وقد جاءت فيها اللفظة المذكورة:

« حدث غرس النعمة محمد بن هلال قال: حضر يوماً (ابن جني) — الامام اللغوي — في الديوان يتحدث مع أبي اسحق الصابي، وكان له عادة في حديثه بأن يميل شفتيه ويشير بيديه، فبقي أبو الحسين القمي شاخصاً ببصره يتعجب منه فقال له ابن جني: ما بك يا أبا الحسين، تحدق إلى النظر وتكثر مني التعجب؟

قال: شيء ظريف!

قال: ماهو؟

قال: شبهت مولاي الشيخ وهو يتحدث ويقول ببوزه كذا وبيده كذا بقرد رأيته اليوم عند صعودي إلى دار المملكة وهو على شاطئ دجلة يفعل مثلما يفعل مولاي الشيخ

فامتعض أبو الفتح بن جني وقال: ماهذا القول يا أبا الحسين (أعزك الله)؟ ومتى رأيتني أمزح فتمزح معي، أو أمجن فتمجن بي؟

فلما رآه أبو الحسين قد غضب قال: المعذرة أيها الشيخ إليك وإلى الله (تعالى) أن أشبهك بالقرد، وإنما شبهت القرد بك

فضحك ابن جني وقال: ما أحسن ما اعتذرت! وعلم أنها نادرة تشيع فكان يتحدث هو بها دائماً »

* * *

ويستعمل بعضهم (البوز) لبرطيل[1] الكلب. فيقول: بوز فلان مثل بوز الكلب

وإذا كانت اللغة خصت بها هذا الحيوان فيكون استعمالها لنوع من بني الإنسان مجازياً، والمجاز باب واسع...

فقول الجمهور لذلك (الشرطي) حين خرج الذي خرج من فيه، من فمه، من بوزه: (سد بوزك) — استعمال من جهة اللغة في محله...

محمد اسعاف النشاشيبي

(١) البرطيل: خطم الفلحس وهو الكلب

الروايات الكنسية والنصرانية

وقيمتها كمصادر للتاريخ الاسلامي

للاستاذ محمد عبد الله عنان

وفقت دار الآثار المصرية أخيراً للحصول على نسخة مصورة من أثر كنسي هام له قيمته في تاريخ مصر الاسلامية. هو مجموعة سير بطاركة الكنيسة القبطية منذ نشأتها حتى منتصف القرن السابع الهجري. وقد كان للمجتمع القبطي دائماً شأن في تاريخ مصر الاسلامية، وكان للكنيسة القبطية دائماً علائقها الرسمية مع الحكومات الاسلامية، ومع ذلك فان الرواية الاسلامية لم تفسح مجالا كبيرا لبحث هذه العلائق وتمحيصها. ولم تعن بالأخص بان تشرح لنا وجهة النظر الكنسية في مختلف العصور شرحاً وافياً، ولم تفطن دائماً الى الاستفادة من الآثار والمصادر النصرانية في تفهم أحوال المجتمع النصراني وزعامته الروحية.

ومن ثم كانت أهمية الآثار النصرانية التي تعنى بعصور من تواريخ الأمم الاسلامية، ففي هذه الآثار نستطيع أن نفهم بوضوح موقف الكنيسة وموقف أوليائها حسبما يصوره لنا كتابها ودعاتها، ونستطيع بمراجعة أقوالهم وتعليقاتهم أن نقف على كثير من الحقائق التي لم تعن الرواية الاسلامية بشرحها واستيعابها، وكتاب سير البطاركة الذي أشرنا إليه من تلك الآثار التي تلقي ضوءا على موقف الكنيسة القبطية، وموقف الشعب القبطي وأحواله في مصر خلال العصور الوسطى؛ وهي ناحية لها بلا ريب قيمتها وأهميتها في تاريخنا القومي. وتنقسم النسخة المصورة التي حصلت عليها دار الكتب من الأثر الذي أشرنا اليه والتي نقلتها عن مخطوط باريس إلى قسمين: أولها كتاب سير الآباء البطاركة الذي وضعه الأنبا سويرس بن المقفع أسقف الأشمونين في عهد المعز لدين الله الفاطمي في تاريخ بطاركة الاسكندرية، وهذا الأثر معروف ومتداول لأنه طبع منذ أكثر من ثلاثين عاما بعناية الآباء اليسوعيين، وقد عرفته الرواية الاسلامية منذ عصور واتفقت بها أحيانا فيما نقلته من أنباء الكنيسة والبطاركة. وقد كان الأسقف سويرس من أكابر الأحبار والمفكرين أيام الدولة الأخشيدية وأيام المعز لدين الله، وكان أسقفا لمدينة الاشمونين التي كانت من مدائن

الصعيد الزاهرة يومئذ ، وتشيد الرواية الكنسية بعلمه وأدبه ومكانته الروحية والاجتماعية ، وتحدثنا عن صلاته بالمعز لدين الله ومحاوراته الدينية والكلامية معه ، وتعدد لنا كتبه وآثاره الأدبية والتاريخية . ويتناول سويرس فى كتابه سير بطاركة الاسكندرية منذ القديس مرقص منشىء هذا الكرسى حتى البطريرك افراهام بن زرعة السريانى الذى رسم بطريركا لليعاقبة سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) فى أوائل عصر العزيز بالله . وقد ورد فى مقدمة هذا القسم إشارة إلى طريقة وضع هذا الأثر وتأليفه نصها : « هذه السيرة جمعها واهتم بها من كل مكان الأب الجليل انبا سويرس بن المقفع أسقف مدينة الاشمونين ، ذكر أنه جمعها من دير أبو مقار ودير نهيا ، وغيرهما من الديارات وما وجده فى أيدى النصارى منها أجزاء مفرقة أنفق فيها أعواما طويلة حتى بلغ عمره الثمانين » [١] .

على ان هذا القسم المتداول ليس هو المقصود بالذات فى هذا التعريف والتعليق ، وانما نقصد بالاخص إلى التعريف بالقسم الثانى من الأثر الكنسى ، وهو الذى يشغل المجلدين الثالث والرابع من مخطوط باريس الذى نقلت عنه نسخة دار الكتب المصورة ، فهذا القسم الذى لم ير الضياء بعد يحتوى على سير البطاركة المصريين منذ أوائل الدولة الفاطمية إلى سنة ٦٣٥ هـ أعنى إلى نهاية عصر الملك الكامل . وقد نسب هذا الأثر بجملته فى فهرس مكتبة باريس الوطنية إلى سويرس بن المقفع ، وهى نسبة ظاهرة الخطأ لأن سويرس توفى فى أوائل عهد العزيز حوالى سنة ٣٧٠ هـ ، فليس من المعقول إذن أن ينسب إليه ما تضمنه الأثر الكنسى بعد هذا التاريخ : وظهر أثر هذه النسبة الخاطئة جليا فيما كتبه العلامة المستشرق سلفستر دى ساسى ، عن الحاكم بأمر الله فى كتابه عن الدروز ، إذ ينقل كثيرا مما ورد فى الأثر الكنسى عن عصر الظاهر ولد الحاكم وعن عصر المستنصر بالله ولد الظاهر [٢] ، منسوبا إلى سويرس بن المقفع .

وقد أتيحت لنا فرصة لبحث هذا الأثر الكنسى واستقصاء مصادره ومساق واضعيه ، فانتهينا إلى هذه الحقيقة وهى أن الجزأين الثالث والرابع من المخطوط ليس لهما علاقة بمؤلف أسقف الأشمونين ، بل هما أثر مستقل بذاته ، ذيل بهما الأثر الأصلى لأنهما فى نفس موضوعه وهو استئناف سير البطاركة من حيث وقف سويرس ؛ ويسمى هذا الأثر الملحق باسم آخر هو « سير البيعة المقدسة » ، ولم يقم بتأليفه أو وضعه مؤلف واحد بل تعاقب فى وضعه وكتابته عدة من الأحبار المتعاقبين ، فتولى كتابة القسم الخاص بعصرى العزيز والحاكم مثلا قس معاصر يدعى الأب ميخائيل « كاتب السنوديقا بكرسى مار مرقص » (البطريركية) كما يقول لنا ذلك خلال الكتاب ؛ وكتب سيرة الأنبا فيلاتاوس البطريرك الثالث والستين وهو معاصر العزيز ثم الأنبا زخاريا البطريرك الرابع والستين وهو معاصر الحاكم بأمر الله ، وأورد الكتاب خلال حديثه كثيراً من الأقوال والروايات الهامة عن الحاكم وحياته العامة والخاصة ، وعن حوادث العصر المدهشة . وكتب سير البيعة المقدسة أيام الظاهر والمستنصر قس يدعى « موهوب بن منصور بن مفرج الاسكندرانى الشماس » ويقول لنا « إنه جمع سيرهم وكتبها واستخرجها من دير أبو مقار بوادى هبيب وذلك سنة ٨٠٦ للشهداء الموافقة لسنة ٤٨٠ هـ » . وكتب فى أيام المستنصر وبعده قس آخر يدعى يوحنا ابن صاعد بن يحيى المعروف بالقلزمى وهكذا حتى أواخر الدولة الفاطمية ؛ وهنا يقول لنا كاتب هذا القسم إنه سيتم سير الآباء وإنه بدأ بما شاهده فى عصره وخصوصا أيام زوال الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية ، وهنا يميل الكاتب إلى التبسط فى سرد أحداث العصر ، ولا يتقيد بالناحية الكنسية ، بل يفيض فى سرد الحوادث جملة ؛ ويتحدث عن السلطنة وعن سيرها وأعمالها ويسير فى ذلك على ترتيب السنين القبطية أو سنى الشهداء ، حتى سنة ٦٣٥ هـ ، أو نحو سنة ٩٥٠ للشهداء ، حتى نهاية عصر الملك الكامل ناصر الدين

ولقد نوهنا فى بداية هذا الفصل بأهمية أمثال هذه الآثار الكنسية فى شرح موقف الكنيسة من الخلافة أو السلطنة وشرح وجهات نظرها فيما يتصل بها من الحوادث والشؤون وتبدو أهمية الرواية الكنسية بنوع خاص فى العصور التى تضطرم فيها فورات اضطهاد ضد الكنيسة والمجتمع النصرانى أو تتجه السياسة الاسلامية إلى الضغط عليهما لظروف وعوامل

---

(١) فى ديباجة سير الآباء البطاركة (طبعة اليسوعيين)

(٢) سلفستر دى ساسى Réligion des Druses : (P.417 et Suiv.) ومما يلاحظ أن هذا العلامة هو الذى وضع فهرس الكتب العربية لمكتبة باريس ووقع فى هذا الخطأ ، الذى تابعه فيه البحث الحديث بنسبة الاثر كله الى سويرس ابن المقفع .

خاصة ، كما حدث بمصر فى عصر المأمون . وفى عصر الحاكم بأمر الله وأيام الحروب الصليبية : فهنا تبدو الرواية الكنسية متنفساً حقيقياً للتعبير عما يخالج الكنيسة ورعاياها من العواطف والآراء نحو المجتمع الاسلامى ؛ وقد تحمل الرواية الكنسية فى هذه المواقف على المبالغة والاغراق فى أحيان كثيرة ، ولكنها تحتفظ مع ذلك بقيمتها وأهميتها فى إيضاح كثير من النقط والمواقف التى تغضى عنها الرواية الاسلامية أو ترى فيها آراء أخرى.

ولا تقف أهمية الرواية الكنسية عند ذلك الحد ؛ ففى بعض الأحيان ، وفى عصور السكينة والسلام ، تغدو الرواية الكنسية مصدراً قيما لاستعراض الحوادث التى تعنى بها . وفى القسم الأخير من مجموعة « سير البيعة المقدسة » يبدو الكاتب مؤرخاً لا غبار عليه ، ويتبسط فى شرح الحوادث والشؤون العامة فى أواخر الدولة الأيوبية ، ويقدم إلينا عنها رواية لا بأس بها

ونرى أن نشير بهذه المناسبة إلى أنه توجد الى جانب هذه الروايات الكنسية التى تعنى بناحية خاصة من تاريخ مصر الاسلامية ولا تعطها الرواية الاسلامية دائما حقها من العناية ، طائفة من الروايات النصرانية ، التى تتبوأ مقامها الحق بين مصادر التاريخ الاسلامى ؛ فلدينا مثلا تاريخ سعيد بن بطريق — بطريرك الاسكندرية الذى يصل فى كتابته حتى سنة ٣٢٦ هـ ، وتاريخ يحيى بن سعيد الانطاكى الطبيب والمؤرخ ، وقد كتبه ذيلا على تاريخ ابن بطريق ، ووصل فى كتابته حتى أواخر عهد الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمى ، وعنى فيه عناية خاصة بأخبار الحاكم وشخصه وحوادث عصره ، وتاريخ المكين ابن العميد المسمى تاريخ المسلمين الذى يستعرض فيه أخبار الخلافة والسلطنة حتى أواخر القرن السادس الهجرى ؛ وتاريخ ابن العبرى المسمى مختصر تاريخ الدول الذى يصل فيه برواية حتى أواخر عصره يعنى إلى أواخر القرن السابع ، فهذه الآثار التى كتبها كتاب مؤرخون من النصارى ، وإن كانت تميل فى معظم الأحيان إلى أن تخص أخبار الكنيسة والمجتمع النصرانى باعظم قسط من عنايتها ، تحتفظ دائما بقيمتها كمصادر لتواريخ العصور التى عنيت بها . وتمتاز هذه الآثار بميزة خاصة ، هى أنها تعنى عناية فائقة بتاريخ الدولة البيزنطية باعتبارها حامية الكنيسة الشرقية ، وتفيض فى تتبع أخبارها وعلائقها بالأمم الاسلامية إفاضة دقيقة ممتعة ، وهذه ناحية لم تخصها الرواية الاسلامية دائما بما يجب من عناية ، بل هى تعتمد غالبا فى تناولها على هذه الروايات النصرانية . مثال ذلك أن ابن خلدون يعتمد على ابن العميد فى معظم ما كتبه عن أخبار الدولة الرومانية والدولة الشرقية (البيزنطية) . ويرجع السر فى ذلك إلى أن أغلب الكتاب النصارى كانوا يعرفون السريانية واليونانية واللاتينية أحياناً ، ومن ثم كان اتصالهم بالمراجع الأجنبية وانتفاعهم بها .

وهكذا نرى أن الروايات الكنسية والنصرانية العربية بوجه عام فضلا عن قيمتها وأهميتها الخاصة فى سرد أخبار الكنيسة والمجتمع النصرانى ، وشرح مواقفهما فى مختلف العصور والمناسبات ، حقيقة بالدرس والمراجعة كمصادر قيمة لعصور معينة من التاريخ الاسلامى ، تلقى ضوءاً على كثير من نواحى الصلة والعلائق بين الشرق والغرب ، والنصرانية والاسلام

محمد عبد الله عنان

في الأدب المقارن

الطير والحيوان

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

ـــــــ

وحدة الأحياء واشتراكهم في صفات ترفعهم جميعاً عن الجماد وتميزهم بالشعور بالغبطة والألم . كل هاتيك حقائق من الوضوح بحيث اهتدى إليها الأولون قبل أن يحققها العلم الحديث ويفصل دقائقها وخوافيها ؛ وتنازع الأحياء البقاء ، وغدوان أقواها على أضعفها وفوز القوي بالغلب والبقاء ، هذه كذلك أمور واضحة رأى المتقدمون مظاهرها وظهرت لمحاتها في آدابهم ؛ وقد كان موقف الانسان منذ عصوره البدائية من الحيوان غريباً لا يخلو من تناقض وطرافة : كان في أول أمره ينازع السباع البقاء ويفترسها ليتغذى بها ، ثم استأنس بعضها وسخره في أعماله تسخير العبيد ، واتخذ بعضها للزينة والمسرة ثم عاد فقدس بعض عبيده أولئك ورفعهم إلى مصاف الآلهة ، لانهم يدرّون على حياته خيراً وبركة ، بينما ظل يتلهى باقتناص أوابد الوحش ، ويجرب بأسه وفروسيته باصماء حشاشاتها ، والتفريق بين الامهات منها وبين الصغار

واخترع خيال الانسان في تلك العهود البعيدة عجائب الحيوان وغرائب الأطيار وعجيب الكائنات ، كما توهم البابليون وحشاً هائلا يقذف الماء من فيه فيغمر السهل والجبل ، وكما تخيل الاغريق الجياد الطائرة والسباع ذوات الرؤوس المتعددة وخلائق شعور رؤسها أفاع باغية ، وتوهموا الأبطال المغامرين منطلقين لقتال تلك السباع والافاعي ، وكما تصور العرب الغول والعنقاء ، وزعم السندباد أنه سافر على جناح طائر ميمون يدعى الرخ ، وكما توهم أوائل الانجليز سبعاً ضارياً قد ألقى الرعب في مملكة بأسرها ، حتى صارعه فصرعه الأمير بيولف في الملحمة المسماة باسمه ؛ ولم تكن كل هذه السباع الوهمية التي هذى بذكرها الانسان في عهوده الأولى ، إلا صدى لذكريات الوحوش الهائلة التي كانت تقطن البر والبحر في غابر الأزمان ، وكان الانسان المتوحش على فزع منها وحذر دائبين

فلما بلغ الانسان طوراً من الحضارة أرقى ، أنزل تلك العجماوات التي كان ألهها من عبادته ، ونبذ تلك الخرافات ، وما بها من سباع وهمية ، وعلم العرب أن الغول والعنقاء مستحيلان استحالة الخل الوفي ، وظهر من المثقفين ذوي النفوس الرقيقة من انتهوا ونهوا عن قتل الحيوان والتغذي بلحمه والتلهي بصيده وتعذيبه وسجنه كأبي العلاء الحكيم العربي . وكالمصور الايطالي ليوناردو دافنشي ، الذي كان يبتاع الطيور الحبيسة ليطلقها ويشفي نفسه المتألمة برؤيتها تضرب أجنحتها ذاهبة إلى الفضاء ؛ وظهرت آثار تلك العلاقات المختلفة بين الانسان والحيوان في الآداب : ففي الأدب الاغريقي وصف لمغامرات حملة الارغونوت التي خرجت لاستخلاص فراء ثمين يحميه غول فظيع ، وفيه وصف لجماعة السيكلوب أو المردة ذوي العيون المفردة ، وما كان بين كيرهم وبين يوليسيز من كفاح ، وفي الأدب الفرنسي قطعتان بديعتان تفيضان رحمة وجمالا ، تصور إحداهما مصرع غزال والأخرى مصرع ذئب على أيدي الصيادين

والأدب العربي حافل بذكر أنواع الطير والحيوان التي عرفها العرب في باديتهم ، كالجمل والحصان والأسد والقطاة والحمامة ، وكان من عاداتهم أن يمنحوا بعضاً منها كنايات : فأبو قيس للقرد وأبو خالد للأسد ، وكان لبعضهم أسماء في لغتهم عديدة ، وبها ضربوا الأمثال فقالوا : أهدى من قطاة وأحذر من غراب وأعدى من ظليم ، وسيروا الكنى فقالوا : جبان الكلب ومهزول الفصيل للجواد المضياف ، واستعاروا أوصافها للإنسان فقالوا : جيد كجيد الغزال وعيون كعيون الجآذر وشبهوا خوذات المقاتلين بيض النعام ، وتشاءموا بأصوات بعض الحيوانات كالغراب والبومة ، وزجروا الطير يتفاءلون بالسارح منها ويتشاءمون بالبارح ، وأجروا الأمثال على ألسنتها كقصة الثيران الثلاثة المنسوبة إلى الامام علي ، وكالقصص التي أنطق فيها الحيوان ابن المقفع ، والمحاورات التي نحلها إياها إخوان الصفا ، واستعرت أحوال الحيوان ومسعاته انتباههم فتدبروها مليا كما في تلك الرسالة البليغة عن النمل المنسوبة إلى الامام علي أيضاً ، وفي التدبر في أحوال كثير من الطير والحيوان والهوام أفاض القرآن الكريم في شتى المواضع ، ودعا الانسان إلى التفكير فيها ، وألف الجاحظ كتابه المعروف جامعاً بين العلم والأدب

وقد أطنب أدباء العربية خاصة في ذكر الإبل ووصفها في أشعارهم ، ووصف سيرها وحنينها إلى أعطانها واستحثاثها ومناجاتها ، ولا غرو فقد كانت قوام حياة العربي في حله وترحاله ، بل كان لها أثر جليل في تطور الشعر العربي ذاته ، اذا صح ما قيل من أن أوزان الشعر اشتقت من مشياتها وتدفعها ، وهو قول وجيه ؛ وقل شأن الإبل قليلا حين تحضر العرب ، ولكن ظلت لها أهمية عظيمة ، وظلت من أهم وسائل الانتقال وحمل المتاجر براً ، وحافظ أدباء العربية على تقاليد الجاهليين من الإطناب في ذكر الإبل وتقديمه بين أيدي المديح

حتى استقلت الابل بجانب عظيم من الشعر العربي ، ومن خير أوصافها
قول طرفة في معلقته :

إني لأقضي الهم عند احتضاره   بعوجاء مرقال تروح وتغتدي
أماري عتاقا ناجيات وأتبعت   وظيفا وظيفا فوق مور معبد

وأطنب أدباء العربية أيضا في ذكر الخيل ووصفها في أشعار الحماسة ، وما ذاك إلا لأنهم في جاهليتهم وإسلامهم كانوا أمة جلاد وكفاح ، الخيل أول عدتهم في القتال والذود عن حقيقتهم ، فكان أعز مكان في الدنى لديهم ظهر سابح كما قال المتنبي ، وطالت صحبتهم الخيل واطردت ملازمة الخيل لهم ، فكأنما ولدت قياما تحتهم كما قال المتنبي أيضا ، وكأنما ولدوا على صهواتها ، ووصفوا مواقفهم في الحروب ومواقف جيادهم ، كما فعل عنترة في معلقته ، حيث يذكر كيف ازور حصانه من وقع القنا بلبانه . وكيف شكا إليه آلامه بعبرة وتحمحم ، وصار لكلمة الخيل أو كلمتي الخيل والرجل مغزى خاص بالحرب ، بعد أن استعملها القرآن الكريم في تلك الآية البليغة : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » ، وتأنق أبو تمام والمتنبي في وصف الخيل وسماتها وأخلاقها وزحوفها ، ومن بديع أوصافها في العربية قول الفرزدق في جواد أغر محجل :

فكأنما لطم الصباح جبينه   فاقتص منه فخاض في أحشائه

وأبيات أبي تمام التي يقول منها :

وأولق تحت العجاج وإنما   من صحة إفراط ذاك الأولق

وقول أبي الطيب في وصفه للمعركة التي دارت على ربى حصن الحدث:

إذا زلقت مشيتها ببطونها   كما تتمشى في الصعيد الأراقم

وفاز الأسد والذئب باهتمام أدباء العربية ، وتركا في الشعر العربي أوصافا شائقة وقصصا ممتعا ، من ذلك وصف بعض المقاتلة أمام أمير المؤمنين عثمان بن عفان طلوع أحد الليوث عليهم في جلجلة ورهبة زلزلت الأرض وخلعت قلوب الفرسان وجيادهم ؛ ومنه أيضا وصف الفرزدق للأطلس العسال الذي رأى ناره موهنا فأتاه ، فقاسمه عشاءه ، حتى امتلأ الذئب فتكشر ضاحكا ، ولكن الفرزدق حين رأى نيوب الذئب بارزة لم يظن أن الذئب يبتسم ، بل جعل قائم سيفه في يده بمكان ، وتاه على الذئب بما أنا له من قرى بدل أن يرشقه بشباة سنان ؛ أما البحتري فلم يكن بهذا المكان من الجود ، بل كان يحدث نفسه بصاحبه الذئب ، كما كان الذئب يحدث نفسه بصاحبه البحتري، فرمى الانسان الوحش فأصماه ، ونال من لحمه قليلا ؛ كذلك يصف المتنبي في أبيات هي من غرر الشعر العربي ملاقاة بعض ممدوحيه للأسد، وتعفيره إياه بالسوط ؛ وهناك كذلك وصف البديع في بعض مقاماته لمثل هذا اللقاء الرائع بين فارس مقدام وبين ملك الحيوان ، ومنه قوله على لسان الفارس :

وقلت له : يعز على أني   قتلت مناسبي جلدا وقسرا
ولكن رمت شيئا لم يرمه   سواك ، فلم أطق يا ليث صبرا
تحاول أن تعلمني فرارا ،   لعمر أبيك قد حاولت نكرا

ولما تحضر العرب وانتشر في عليتهم الترف ، تأنقوا في اتخاذ الحيوان للزينة والمتعة ، وكان الخروج للقنص من وسائل لهوهم وترويحهم عن النفس ، وكثر في الشعر وصف تلك الأفيال التي كان الخلفاء الفاطميون يسيرونها في مواكبهم ، والمها التي كانوا وكان غيرهم يزينون بها حظائرهم وقصورهم ، ووصف الخروج للقنص وكلاب الصيد ، وقد وصف أبو نواس في أبيات مشهورة كأسا له قد صورت عليها مها تدريها بالقسي الفوارس ، ووصف المتنبي لبؤة مقتولة وأشبالها حولها جاثمة ، وكان قد هيء ذلك المنظر في حفل استقبل فيه سيف الدولة سفراء قيصر ، ولابن الرومي عينية بارعة في وصف يوم طرد تمتع به في رفقة له ، ومن نوادر أبي دلامة أنه خرج مع الخليفة المهدي وعلي بن سليمان للصيد ، فأخطأ على الرمية وأصاب أحد كلاب الصيد فقال أبو دلامة :

قد رمى المهدي ظبياً   شك بالسهم فؤاده
وعلي بن سليما   ن رمى كلباً فصاده
فهنيئاً لهما :   كل امرىء يأكل زاده

وكان من عادة أدباء العربية أن يمثلوا لأحوالهم بأحوال الحيوان ، ويستعيروا صفاته لمآربهم بسبيل وصفه ، فيمثلون لحنينهم بحنين الابل إلى أعطانها ، ولوجدهم بوجد الظبية على خشفها قد صرعته نبال الصائد ، أو مزقته براثن السبع الضاري ، يصفون مصرع طفلها وافتقادها إياه وجزعها وتلددها لهلاكه ، في أبيات كثيرة يبدأونها بقولهم : « وما ظبية . . . . » أو نحو ذلك ، ويعقبون عليها بقولهم : « بأوجع مني يوم بانوا . . . . . » أو ما إليه ؛ كما كان من التقاليد المتبعة في أشعار النسيب والوجد مناجاة الحمائم وسؤالها عما يشجيها ، ومقابلة شجوها بشجو الشاعر ، ووصف تهييجها لذكرياته وتجديدها لآلامه ومن محاسن ما قيل في الحمائم قول أعرابي :

وقبلي أبكى كل من كان ذا هوى   هتوف البواكي والديار البلاقع
وهن على الاطلال من كل جانب   نوائح ما تخضل منها المدامع
مزبرجة الأعناق غر ظهورها   مخطمة بالدر خضر روائع
ترى طرراً بين الخوافي كأنها   حواشي برد زينتها الوشائع
ومن قطع الياقوت صيغت عيونها   خواضب بالحناء منها الأصابع

أما أشد شعراء العربية شغلا بأمر الأحياء وتأملا في أحوالها وذكراً لها في شعره فهو المعري الذي بلغ من نفاذ البصر في شؤون الحيوان وشدة الرحمة له حينا ، والانكار للؤم طباعه حينا ، وطول التأمل فيها تأملا موضوعياً لا ذاتيا ، مالم يبلغه غيره من شعراء العربية

فهو تارة ينعى على الضرغام مغادرته غابه لينازع ظبي رمل فى كناس ، وتارة يسمح للذئب بالشاة علماً بما بالذئب من داء السغب ، وتارة يبكى للحمامة البريئة يعاجلها الصقر عن نقرها وهديلها ، وطوراً يرميها بمماثلة غيرها من الحيوان فى الجور والعدوان ، وهو ينهى عن بجيعة النحل فى شهدها أو الناقة فى فصيلها فى حائيته الرصينة من لزوم ما لا يلزم

لا يكاد يوجد فى الأدب الانجليزى شيء من ذكر تلك الأنواع من الحيوان سالفة الذكر ، التى احتفى بها أدباء العربية أى احتفاء ، وحفل بذكرها الشعر العربى فى شتى عصوره ، فلا الجمل ولا الحصان ولا الأسد والذئب ، ولا الحمائم والظباء ، تمثل ذلك المكان الظاهر من موضوعات الأدب وتشبيهاته وكناياته وأمثاله ؛ وذلك لاختلاف البيئة الاقليمية والاجتماعية ، فتلك ضروب من الحيوان لا تكثر فى انجلترا كثرتها فى بلاد العرب ، بل لا يوجد بعضها أصلا ، والانجليز كانوا جوابى بحار لا رحالى صحار ، ومقاتلة على الماء أكثر منهم على البر ، فلا غرو ألا يمروا بتلك الأنواع إلا عرضا ، وأن يمتلىء أدبهم بوصف ضروب أخرى من الأحياء غير هذه

إنما يحفل الأدب الانجليزى بذكر الطيور الجميلة المغردة ، ووصفها ومناجاتها ، ووصف أغاريدها والاسترسال معها إلى آماد الخيال البعيدة والطيران معها على أجنحة الشعر ؛ فالأدب الانجليزى غنى بالشعر الطبيعى الذى قصد به الوصف الطبيعى وحده ، وهذا الوصف حافل بوصف الأطيار ، والأدب الانجليزى غنى أيضا بالوصف الطبيعى لم يقصد لذاته ، وإنما يتخلل شتى أغراض القول ؛ وهذا مملوء بذكر الطير أيضاً ، والشعر الانجليزى غنى فوق ذلك بالقصائد التى كتبت خاصة فى مناجاة الطيور وعبادة أصواتها المطربة ، ولم يخل الأدب العربى من شيء من ذلك ، ومن محاسن ما فيه منه وصف الصابىء للببغاء ، وهو من غرر الشعر العربى ومنه يقول :

عدت من الأطيار ، واللسان يوهمنى بأنها إنسان
تنظر من عينين كالفصين فى النور والظلمة بصاصين
تميس فى حلتها الخضراء مثل الفتاة الغادة العذراء

بيد أن الشعر الانجليزى أغزر وأحفل بتلك الآثار . ولكل من وردزورث وكيتس وشلى وتنيسون وسوينبرن قصائد فى ذلك بالغة غاية السمو العاطفى والكمال الفنى ؛ ولم يكتف الشعراء بمناجاة أطيار جزيرتهم الغريدة الكثيرة ، فلجأوا على عادتهم إلى الخرافة ، وتصور كولردج طائراً عجيبا سماه الالباتروس جلب اليمن والبركة لأصحاب الملاح القديم ، ثم جزاه هذا الأخير جزاء سنمار فقتله ، فكان ذلك سبب ضلاله وهلاك أصحابه

ومن غرر تلك الأشعار فى الانجليزية قول وردزورث : « أيها القادم السعيد ، ها أنذا أسمعك فأطرب ؛ أأسميك طائراً أم صوتا محلقا ؟ أنا أسمع هتافاتك المرددة وأنا مضطجع على العشب ، ويخيل إلى أنها تمر من ربوة إلى ربوة ، قريبة بعيدة فى آن واحد : ترسل أغاريدك فى الوادى المكسو بالأزهار وضياء الشمس ، فتثير فى نفسى رؤى بعيدة ، مرحبا بك يارسول الربيع ! يامن كنت إليه أستمع إذ أنا صبى بالمكتب . وطالما جعلنى هتافك هذا أتلفت فى كل ناحية باحثا فى الشجيرات والأدواح والسماء ، وطالما ضربت فى الغابات والأعشاب فى نشدانك ، وظللت أنت دائما أملا أو حبا يطول التشوق إليه ولا يرى أبداً ، وما أزال أستطيع الاستماع إليك والانبطاح فى السهل مصيخا إليك ، حتى أستعيد فى مخيلتى ذلك العهد الذهبى »

وللجون لوجان من شعراء القرن الماضى مقطوعة عذبة فى مناجاة الطائر عينه ، قد وقع فيها على بعض معانى وردزورث وتعبيراته وان لم يقل عنه جمالا وابتكارا ، قال : « مرحبا ياغريب الأراك الجميل ، يارسول الربيع ، هاهى ذى السماء تعد لك مقعدك من الريف ويردد الغاب صدى الترحيب بك ؛ إذا مارقش الأقحوان العشب أيقنا أن سنسمع صوتك من جديد ، فهل لك نجم يهديك السبيل أو يوقت لك دورة العام ؟ أيها الزائر المطرب ، إنى معك أرحب بأوان الأزهار وأسمع الموسيقى العذبة التى ترددها الأطيار فى حواشى الخمائل ؛ ويسمع صبى المكتب صوتك المنبىء بالربيع الجديد ، وهو يطوف فى الغاب يقطف آخر زهيرات الشتاء ، فيتوقف منصتا ويقلد تغريدك ؛ أيها الطائر المطرب : إن خميلتك خضراء أبدا ، وسماؤك أبدا صافية ، وليس فى أغاريدك شجن ولا فى عامك شتاء ، فياليتنى أستطيع الطيران فأخف معك على جناح الحبور . نطوف طوفتنا السنوية حول الأرض ، رفيقى ربيع مستمر »

بأمثال هذه الأوصاف الطبيعية الشائقة ، والمناجاة الحارة الصادقة يحفل الشعر الانجليزى ، ومثل هذا الولع بالطيور والشغف بمناجاتها ووقف القصائد والمقطوعات على الترنم بحبها غير شائع فى الأدب العربى ؛ فالشعر العربى أحفل بذكر الحيوان ولا سيما الضروب سالفة الذكر ، والشعر الانجليزى قليل الاحتفال بها عظيم الحفاوة بالطير ؛ ولا غرو : فقد كان العرب رجال مجتمع مقبلين على أسبابه ووسائله ، يحمدون الإبل التى هى قوام حياتهم والخيل التى هى عمادهم فى معركة الحياة ، ويتمدحون بالبأس والشجاعة فيذكرون قتال الأسود وجندلة الذئاب ، وفيما عدا ذلك لم يكن لهم كبير التفات إلى الطبيعة ، ولا شديد عطف على أبنائها ، وأشعارهم فى هذا الباب لا تنم عن حب للحيوان أو شغف بحياته ؛ وكان حب الطبيعة والهيام بجمالها من أكبر مميزات الأدب الانجليزى ، والطيور أكثر تمثيلا لجمالها وحبورها من الأسود والذئاب ، فكثر فى الأدب الانجليزى وصف الطيور كما كثر وصف الأزهار والآجام والأنهار ؛ وفى شغف الأدب الانجليزى بهذه واحتفاء الأدب العربى بتلك رمز وبيان للصبغة الاجتماعية التى ترين على الأدب العربى ، والنزعة الطبيعية التى تتجلى فى الأدب الانجليزى

فخرى أبو السعود

النفس وخلودها عند ابن سينا

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

— ٤ —

لانظن بعد الذى تقدم أن الرئيس ابن سينا قد ادخر وسعاً فى إثبات حقيقة مغايرة للجسم ومتميزة عنه كل التميز ، وأن فى الكائن الحى شيئاً غير لحمه ودمه هو مصدر حركته وحسه وتفكيره . وسواء كان موفقاً فى برهنته دائماً أم لا فالمهم أنه اعتمد - كما اعتمد أنصار المذهب الروحى قديماً وحديثاً - على بعض الظواهر التى لا يمكن تفسيرها تفسيراً مادياً ، ورأى أنها تستلزم قوة كامنة ومبدأ خفياً هو النفس . وهذه الظواهر قسمان : جسمية وعقلية ؛ ومن الأولى يتطرق الخلل والوهن غالباً الى برهنته . فى اللحظة التى يتحدث فيها عن الإحساس أو الحركة زاعماً أنها لا تفهم الا إن سلمنا بقوة روحية تشرف عليها وتنظمها نراه يبعد عن الآراء الحديثة كل البعد ؛ أما حين يعرض للشخصية والتفكير والظواهر النفسية فى وحدتها واتصالها ويقرر أنها تستدعى أصلاً غير الجسم وأمراً مخالفاً للبدن فانه يدلى بأفكار تقربه من المحدثين بقدر ما تبعده عن زملائه ومعاصريه . وهذا هو الجزء الذى بقى للخلف من برهنته ، والذى يجدر بنا أن ندخره ونحتفظ به . ولسنا ندعى مطلقاً أنه أثبت وجود النفس بأدلة هى اليقين وحجج لا تقبل النقض ؛ فتلك كانت ولا تزال مشكلة المشاكل وموضع الخلاف بين الماديين والروحيين . والمهم أنه اهتدى فى هذا الباب الى أكثر البراهين اقناعاً وأعظمها وضوحاً .

والآن وقد فرغ من اثبات وجود تلك الحقيقة المخالفة للجسم فلا بد له من أن يحددها ويبين ماهيتها ويعين خواصها ومميزاتها . وليس تحديد النفس من الأمور الهينة ؛ فقد كان مثار اختلافات كثيرة بين الفلاسفة الأقدمين ، ومبعث أخذ ورد طويلين بين أفلاطون وارسطو بوجه خاص . ولم يكن ابن سينا بعيداً عن هذه الآراء المتباينة والمذاهب المتفرقة ، فان الباب الأول من كتاب النفس لأرسطو ، الذى يعد حجته الأولى ومصدره الرئيسى ، موقوف فى جملته عليها وخاص بعرضها ومناقشتها(١) . وسيراً على سنته يعقد فى كتابه الشفاء فصلا « فى ذكر ما قاله القدماء فى النفس وجوهرها ونقضه (٢) » وفيه يلخص كل ماجاء فى الباب الآنف الذكر . ليبين مذاهب الفلاسفة السابقين ، ويناقشها على نحو يشبه كثيراً ماصنعه أرسطو . واختلاف هؤلاء الفلاسفة فى رأيه راجع إلى أن للنفس أثرين ظاهرين هما الحياة والحركة من جانب والادراك من جانب آخر ، ففريق بهره الأثر الأول وحاول تجريد النفس بواسطته فقط ، وفريق آخر لم يفهم فى طبيعتها إلا الادراك ، وفريق ثالث رأى أن يجمع بين هذين الجانبين . ويراد بالفريق الأول كل أولئك الذين عدوا النفس مصدر الحياة والحركة الذاتية ، فخلطوا بينها وبين الدم الذى إن سفح كان الموت ، أو بينها وبين الجواهر الفردة - أو الهباء كما يسميه ابن سينا - التى كان يظن أنها متحركة دائماً . وأما الفريق الثانى فيعتقد أن الشىء لايدرك سواه إلا إذا كان مبدأ له ومتقدما عليه ؛ ولذلك عدوا النفس واحداً أو جملة من المبادىء التى يختلف نوعها وعددها تبعاً للفلاسفة فظنوا أنها نار أو هواء أو أرض أو ماء أو بخار ؛ أو جعلوها مركبة من العناصر الاربعة كما ذهب إلى ذلك أبناء دقليس زعماً منه أن الشبيه هو الذى يدرك الشبيه ، فلا بد أن يكون فى النفس جزء من الأشياء التى تدركها وأما الفريق الأخير فيرد النفس إلى العدد لأن الأعداد مبدأ الوجود والحركة والادراك (١)

واضح أن ابن سينا يشير فى كل هذا إلى آراء الفلاسفة السابقين لسقراط فى النفس ، أمثال طاليس وديمقريط وفيثاغورس وإن كان لم يصرح بأسمائهم . ولم يقنع بتلخيص هذه الآراء ، بل ناقشها مناقشات طويلة عنيفة نكتفى بأن نسرد أمثلة منها . فيعترض على الفريق الأول أنه لم يفسر السكون ، ذلك لأن النفس إن كانت متحركة بذاتها فكيف تسكن . على أنه ليس من السهل على هذا الفريق أن يحدد نوع الحركة الذى تقوم به النفس . ويرفض المذهب الذرى الذى أثبت بطلانه فى نواح أخرى . ولا يخفى تهكمه بأولئك الذين يزعمون أن الكائن لايدرك إلا ماصدر عنه ملاحظاً أن الانسان يعلم أشياء كثيرة لم يقل أحد إنه أصل لها . وليس بصحيح مطلقاً أن الشبيه فقط هو الذى يدرك الشبيه ، لأنه لو سلم هذا كان معناه أن العالم العلوى لايعرف من أمر العالم السفلى شيئاً (٢)

ليس هناك شك فى أن وقوف ابن سينا على هذه الآراء ومناقشته لها قد هيأت له الفرصة لتخير أحسن تعريف يلتئم مع طبيعة النفس ووظائفها . إلا أن هناك عاملين قويين يتقاسمانه . وصوتين عظيمين يتجاذبانه ، وهو بينهما فى حيرة واضحة وتردد ظاهر أو تناقض مكشوف أحياناً . فحين يقرأ عبارات أرسطو الأخاذة وتحليلاته المنظمة واعتراضاته المفحمة لايلبث أن يرددها ويسير وراءها . وحين يسمع أفلاطون ينادى بجوهرية النفس وتميزها التام عن البدن

(1) Aristote, De l'ame, I, 2-5.

(٢) ابن سينا ، الشفاء ، ج ١ ص ٢٨٢

(١) المصدر نفسه .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٨٢ - ٢٨٤ .

يستولى عليه هذا النداء ويصادف هوى فى نفسه وان كان لايتفق مع آراء أرسطو . وقد يقف موقفا وسطا بين هذين الطرفين المتقابلين محاولا الجمع والتوفيق .

يبدأ ابن سينا فيلاحظ أن الأجسام الطبيعية مكونة من هيولى وصورة . فأما الهيولى فهى تلك المادة التى يتكون منها الجسم كالخشب الذى يصنع منه الكرسى أو كالحديد الذى يعمل منه السيف . وأما الصورة فهى مابه تتميز الأجسام بعضها عن بعض وتتحدد ماهيتها وتقوم بوظائفها . فالأرض لاتفترق عن الماء بمادتها بل بصورتها ، والانسان إنسان بصورته لا بمادته المكونة من العناصر الأربعة ، والسيف لايقطع بحديده بل بحدته . وبما أن الكائن الحى جسم طبيعى فهو مركب من هيولى وصورة ، والأخيرة هى التى تميزه من الكائنات غير الحية إذ أنها مصدر حياته وحسه وحركته . فالنفس إذن صورة الجسم . والصور كمالات كلها وكمالات أولية ، لأن وجود الأشياء المختلفة لا يكتمل إلا بها . وليست النفس كمالا أوليا لجميع الأجسام ، بل للأجسام الطبيعية فقط التى تمتاز بالحياة عن الأجسام الصناعية وتشتمل على آلات وأعضاء تقوم بوظائف متباينة . فهى كمال أول لجسم طبيعى آلى (١)

يخيل إلينا أن القارىء سيدرك على الفور المصدر الذى أخذت عنه هذه الأفكار . فان ابن سينا لم يصنع شيئاً أكثر من أنه لخص الفصلين الأول والثانى من الباب الثانى من كتاب النفس لأرسطو (٢) ولم يكتف بأن يعتنق آراء الفيلسوف اليونانى ، بل أبى إلا أن يردد بعض ألفاظه وتعبيراته . فلفظ « كمال » الذى يتشبث به ويبنى عليه تعريفه ترجمة صحيحة لكلمة « أنتليشيا » اليونانية ، وقوله إن « النفس صورة الجسم » ترجمة أخرى لتعبير أرسطى مشهور (٣) فاذا كان التعريف السابق ناقصاً أو معيباً من بعض نواحيه فالذنب فى هذا لا يرجع إلى الفيلسوف العربى وحده ، وإنما يشاركه فيه أستاذه اليونانى صاحب الفكرة الأولى . وإذا تركنا جانبا لفظة « كمال » أو « أنتليشيا » ، وما فيها من غموض فإنا لانلبث أن نصطدم بهذه الجملة : « النفس صورة الجسم » . تعبير رائع أخاذ من غير شك ، ولكنه لايقدم كثيراً فى تفهم حقيقة النفس وتحديد ماهيتها . وكم عودنا أرسطو هذه التعبيرات الحلوة التى يدمج فيها بعض المشاكل دون أن يحلها وفكرة الصورة من الأفكار الجوهرية فى مذهبه إلا أنها فى الوقت نفسه من أدق نقطه وأصعبها تلاؤما مع نزعته الواقعية . فان من يقول بالصورة يدنو من المثالية الأفلاطونية وإن تحامل عليها . والواقع أن أرسطو لم يأل جهدا فى نقد مثالية أفلاطون التى تقول إن النفس حقيقة

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٧٨ - ٢٨٠ ، رسالة فى القوى النفسانية ، ص ٢٤ - ٢٦

(2) Aristote.De l'âme, II, 1-2.

(3) I bid., 412 a , 20.

متميزة من الجسم . ويصرح بأن ما ذهب إليه الافلاطونيون والفيثاغوريون من أن النفس جوهر روحى أشبه بالخيال منه بالحقيقة ولا يستطيع أن يتصور أن نفسا ما تأتى من الخارج وتحل فى جسم ما وكيف نقبل هذا ومؤداه أن النفس تدخل الجسم كما يوضع مظروف فى ظرف خاص ؛ ومن المقرر أن المادة غير قابلة للعزل عن صورتها (١) ومع هذا فإن أرسطو يفسر النفس تفسيرا أدخل فى باب المثالية من فرض أستاذه ؛ فانه يعتبرها صورة ، وليست الصورة شيئا أو مادة بأى شكل من الأشكال . تناقض واضح ومنتظر من كل فيلسوف واقعى لا يزال يحتفظ بقدر من المثالية .

وكأن ابن سينا قد أدرك مافى التعريف السابق من نقص بدليل مالاحظه من أنه لايفسر النفس من حيث هى وإنما يعرفها من ناحية صلتها بالجسم فقط (٢) . لهذا أخذ على عاتقه أن يتلافى هذا النقص وأن يوضح ذات النفس مميزا إياها بخاصتين رئيسيتين هما الجوهرية والروحية . وفى حديثه عن هاتين الخاصتين يعرب لنا عن جدلى ماهر ومحلل دقيق وباحث عميق . ونحن نعلم أن الجوهر والعرض متقابلان بل ومتناقضان وإن كان تناقضهما غير صحيح ، فإن كل ماليس بجوهر عرض . فاذا استطعنا أن نثبت أن النفس ليست واحدا من الأعراض لزم من هذا أنها جوهر قائم بذاته . ولعل أول شىء ينفى عنها العرضية هو أنها مستقلة كل الاستقلال عن الجسم ؛ وهذا الأخير محتاج إليها تمام الاحتياج فى حين أنها لا تحتاج إليه فى شىء . ولن يتعين جسم ما ويتحدد إلا إذا اتصلت به نفس معينة . وعلى عكس هذا النفس هى هى سواء اتصلت بالجسم أم لم تتصل به . ولا يمكن أن يوجد جسم بدون النفس مع أن هذه تستطيع أن تعيش بمعزل عنه ؛ وما دامت هى مصدر حياته وحركته فلا وجود له بدونها . ولا أدل على هذا من أنه يتغير ويصبح شبحا من الأشباح إذا ما انفصلت عنه . فالنفس إذن جوهر قائم بذاته لاعرض من أعراض الجسم (٣) . وهنا يبتعد ابن سينا عن أرسطو بعدا واضحا ؛ فإن من المبادىء المسلمة لدى الأخير أن ليس ثمت وجود مستقل للصورة بمعزل عن مادتها .

وليس القول بجوهرية النفس من الآراء التى ابتكرها ابن سينا فقد سبقه إلى هذا أفلاطون وتوسع فيه رجال مدرسة الاسكندرية غير أن هناك فارقاً بينه وبينهم ، فبينما هؤلاء يعدون النفس جوهرا لا غير يقرر هو أنها جوهر وصورة للجسم فى آن واحد ، وفى هذا من التعارض مافيه وإن كان يفسره بأنها جوهر فى ذاتها وصورة من ناحية صلتها بالجسم . والسر فى هذا التعارض الذى وقع فيه الفارابى من قبل أن الفيلسوفين العربيين متأثران بمصدرين مختلفين ؛ فقد أخذ

(1) I bid., 407 b,13.

(٢) ابن سينا ، الشفاء ، ج ١ ، ص ٢٧٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٨٠ .

فكرة الصورة عن أرسطو كما أخذا فكرة الجوهر عن أفلاطون ؛ ولم يريا أية غضاضة فى أن يطلقا هاتين على النفس ، خصوصاً وقد ذلل لهما أرسطو ذلك ؛ فانه لم يستعمل كلمة « جوهر » فى معنى محدود فيطلقها على المادة تارة والصورة أخرى وعليهما معامرة ثالثة . ومن الغريب أن صاحب كتاب الربوبية الحرانى يفسر عبارة ارسطو المشهورة : « النفس صورة الجسم » تفسيراً يشبه كل الشبه ماجاء به فلاسفة الاسلام ؛ ولعل هؤلاء تأثروا به وخلطوا على نحو ماصنع الأرسطية والافلاطونية (١) ولكنه لايفوتنا أن نلاحظ أن ابن سينا كلما بعد عن جو الآراء الارسطية وخلص إلى نفسه عد الروح جوهرا فحسب ولم يشر قط إلى صورتها . فاذا كان يعرفها فى الشفاء والنجاة اللذين يحاكى فيهما جماعة المشائين أنها كمال وصورة للجسم فإنه لايتحدث عنها فى كتاب الاشارات الذى يبدو فيه استقلاله وشخصيته إلا باسم الجوهر والجوهر الروحى القائم بذاته . وفى هذا مايبين لنا كيف غلبت أفلاطونيته على انتسابه لأرسطو فى هذا الموقف .

«يتبع» ابراهيم مدكور

(١) كتاب الربوبية ، ص ٤ ، ٧ ، ٢٤ .

حديث الأزهار

للكاتب الفرنسى ألفونس كار

— ٥ —

قالت الزهرة المائتة للزهرة الخالدة :

— لقد تمتعنا بالحياة معاً على مرج واحد ، وغداً تلفحنا نسمات الربيع المودع فتذوى وريقاتى وأموت . وتبقين أنت خالدة فى الحياة

ستقبلك الشمس مشرقة ومغربة فتشرب من وجنتيك دموع الصباح وأنت مصغية الى أناشيد الأطيار

ما أحلى الحياة وما أجمل البقاء ! وبلاء من قضاء أبرم على حكم الفناء !

وأجابت الزهرة الخالدة : — كل شيء يتغير ويتطور وأنا وحدى أشهد فى جمودى نشوء الطبيعة وتحولها

تمرّ بى لفحات القرّ وتداعبنى نفحات الصيف فلا الشتاء يميتنى . ولا الربيع يحيينى ، وأنا أحمل تاجى الأصفر الدائم فلا أخاف الموت ولا أشعر بالحياة

تمرّ بى أسراب النحل فلا أسمع لها طنيناً ، ويجانبنى الفراش المتطاير فلا تلمسنى جناحاه

يهبّ النسيم فيمر بى سراعاً دون ان يستوقفه منى أريج يتضمخ به ، وتقترب الغادة منى ثم تبتعد وهى تحدجنى بلفتات الاحتقار

من يقطف زهرة القبور ، زهرة الخلود الصفراء الدائمة الذبول؟

تمايلى على ساقك النضير يازهرة الربيع ، وارفعى أبصارك إلى السماء شاكرة ، سقياً لك ! فانك ستحلين رموز الموت بعد أن عرفت أسرار الحياة

أما أنا الضحية البريئة ، فلسوف أبقى عرضة لحر النهار وبرد الليل ، تضربنى شمس يوليه وتعانقنى ثلوج يناير ، سوف أبقى فى الحياة لأسمع فى الليل أنين العظام البالية فى القبور

° ° °

ستموتين يازهرة الربيع فترتفع روحك مع زكى عبيرك إلى السماء

اذهبى بسلام واحلى توسلى إلى العلى ، قولى للذى خلقنا : إن دوام البقاء على الأرض ضربة لا عطية ، توسلى إليه ليدعونى إلى مصدر كل سعادة وكل حياة

(ف . ف)

١٣ – هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الالماني فردريك نيتشه

ترجمة الاستاذ فليكس فارس

لسعة الأفعى

واستسلم زارا للكرى يوما تحت شجرة التين ، وكان الحر شديداً فستر وجهه بساعده فأتت أفعي ولسعته في عنقه فصرخ متألماً وانتفض محدقاً بالأفعى فعرفت عينيه وتململت لتنصرف ، فقال لها زارا : — لا تذهبي قبل أن أقدم لك شكرى ، لانك نبهتني فى الزمن المناسب لأقوم بسفر بعيد .

فأجابت الأفعى وفي صوتها غنة الأسى : — بل سفرك قريب فزعافي قاتل

وابتسم زارا وقال : وهل لزعاف الأفعى أن يقتل تنيناً ؟ خذى سمك ، إننى أعيده اليك فلست من الغنى على ما يسمح لك بتقديمه هدية لى .

وسارعت الأفعى الى الالتفاف حول عنق زارا تلحس جرحه.

وقص زارا هذه الحادثة يوما على أتباعه فقالوا له : وما هو المغزى الأدبى لهذه القصة ، فاجاب : — إن أهل الصلاح والعدل يدعوننى هداما للنبادئ الادبية فقصتى لا تتفق وهذه المبادئ .

اذا كان لكم عدو فلا تقابلوا شره بالخير لأنه يستصغر بذلك نفسه ، بل أكدوا له أنه أحسن بعمله اليكم ، والأجدر بكم ألا تحتقروا أحداً ، تظاهروا بالغضب ، واذا وجهت اللعنة اليكم ، فلا يسرنى أن تمنحوا البركة ، إن ما يسرنى هو ألا تأبوا اللعن أنتم أيضا ، واذا ما أنزلت بكم مظالة كبيرة فبادلوا المعتدى مثلها وارفقوها بخمس مظالم صغرى ، لأنه ما من مشهد أشد قبحا من مشهد من لا يخضع إلا للظلم .

— إن اقتسام المظالم بالتساوى إنما هو مساواة بالحق ، فهل كنتم تعرفون هذا من قبل ؟ من يقدر على إرهاق الناس بظلمه فعليه أن يحتمل هو الظلم أيضا .

لأن ينتقم الانسان قليلا ، فذلك أدنى إلى المعروف وليس من الانسانية أن يترفع المظلوم عن الانتقام . إننى لأنفر من اقتصاصكم إذا لم يكن عبارة عن حق تؤدونه للمعتدى ، وإن من يسند الخطأ الى نفسه لأنبل ممن يعلنون فى كل آن أن الحق فى جانبهم ، وأخص من هؤلاء من كانوا حقيقة على صواب . ان أغنياء الروح لا يفعلون هذا .

انني أكره عدالتكم الباردة ، فان فى عيون قضاتكم ازورار الجلاد ولمعان سيفه . فأين العدالة تلمح فى عينيها الصفاء . أوجدوا لى الحب الذى لا يكتفى بحمل كل أنواع العقاب ، بل يحمل أيضا جميع الخطايا .

أوجدوا لى العدل الذى يبرىء الجميع إلا حكم على الانسان الدى يدين .

أتريدون أن أذهب الى أبعد مما قلت فأعلن لكم أن الكذب نفسه يصبح محبة للانسانية فى نفس من يتوق الى إقامة العدل .

ولكن هل بوسعى أن أقيم العدل بكل اخلاص . وكيف يمكننى أن أتوصل الى اعطاء كل ذى حق حقه . اذن ، لأكتفين بان أعطى أصحاب الحق حق الخاص .

وأخيراً ، حاذروا ظلم المنفرد ، اذ ليس بوسعه أن ينسى وأن يبادل الظالمين ظلما ، وما المنفرد الا بئر عميقة يسهل على من يشاء أن يلقى فيها حجراً . ولكن من يقدر أن يستخرج هذا الحجر اذا بلغ قعر البئر السحيق ؟

احترسوا من اهانة المنفرد ، واذا أنتم حقرتموه فاجهزوا عليه بقتله .

هكذا تكلم زارا . . .

الفصل الثانى

الطفل حامل المرآة

ورجع زارا الى الجبال ، الى عزلة كهفه ليحتجب عن الناس كالزارع ألقى بذوره فى أتلام أرضه وبات يتوقع نبتها ، ولكنه ما لبث أن حنت جوارحه الى أحبابه اذ كان عليه أن يمنحهم بعد كثيرا من الهبات وأصعب ما يلقى المحب اضطراره الى قبض يده اجابة لداعى محبته وتفاديا للمنة فى عطائه .

ومرت على المنفرد الشهور والأعوام وحكمته تزداد نمو فتزيده ألما باتساع آفاقها .

وأفاق يوما ، من نومه قبل انفلاق الفجر واستغرق فى تفكيره وهو ممدد على فراشه وتساءل قائلا :

— لماذا أرعبنى هذا الحلم الذى استفقت منه مذعوراً ؟

رأيت كأن ولدا ، يحمل مرآة ، اقترب منى وهو يقول :

— انظر فى هذه المرآة يازارا

وما نظرت الى المرآة حتى صرخت وخفق قلبى خفوقا شديدا ، لأن ما انعكس لى فى المرآة لم يكن وجهى بل وجها تقطبت أساريره بضحكة شيطان ساخر

والحق ما يفوتنى تعبير هذا الحلم وإدراك ما نبهت اليه فان تعاليمى مشرفة على خطر، والزوان يريد أن ينتحل صفات الحنطة. لقد استأسد أعدائى فشوهوا تعاليمى حتى أصبح أتباعى يخجلون مما وهبتهم .

لقد فقدت صحبى وآن لى أن أفتش عمن فقدت

وانتفض زارا لا كمن استولى الذعر عليه بل كمأخوذ برؤى وكشاعر هزه شيطانه . فوجم نسره وأفعاه وحدقا بوجهه وقد لاحت بوادر السعادة عليه كتباشير الفجر . فقال لهما :

— ماذا حدث لى ؟ أفما تريان انى تغيرت ؟ افما تحسان ان الغبطة قد نزلت على كانها عصفات الرياح ؟

لقد جنّ شعورى بهذه السعادة فلن يسلم بيانى من اختلال هذا الشعور ، ان سعادتى لم تزل فى حداثتها فتذرعا بالصبر معى عليها

لقد أوجعتنى سعادتى فليكن أساتى كل من أرهقتهم الأوجاع

إن فى وسعى الآن أن أنحدر الى مقر صحبى والى مقرّ أعدائى

فقد أصبح زارا قادراً على استطراد القول والاحسان الى من يحب

لقد آن لحبى أن يتدفق كالذى يندفع من الأعالى الى الأعماق ، ويتجه من الشرق الى المغرب .

إن نفسى تندفع مرغية مزبدة فى الوديان متملصة من الجبال الصامتة تصخب فوقها عواصف الآلام. ولطالما تعللت بالصبر وعلقت أبصارى على بعيد الآفاق ، لقد أرهقتنى العزلة فما أطيق السكوت بعد

أصبحت وكأننى بأجمعى فم أو هدير جدول يتحدر من شامخات الصخور . أريد أن أقذف بكلماتى الى الأغوار . فيجرى نهر حبى فى المفاوز البعيدة ، ولن يضل هذا النهر سبيله الى مصبه فى البحار

ان فى داخلى بحيرة وحيدة قانعة بنفسها ، غير ان نهر محبتى

يجتذبها فى مسيره ليقطع معها السيول ويترامى وإياها فى لجة البحر

انى أتبع مسالك لم أعرفها من قبل وألهمت بيانا ، جديدا ، بعد أن اتعبتنى اللهجات القديمة التى ترهق كل المبدعين وقد امتنع على فكرى أن يقتفى رواشم النعال المقطعة

ما من لغة إلا وأراها بطيئة تقصر عن مجاراة بيانى

سأقفز الى صهوتك أيتها العاصفة فألهبك أنت أيضاً بسوط سخريتى

أريد أن أقطع أجواء البحار كهتفة مسرة وحبور الى أن أستقر على الجزائر السعيدة حيث يقيم أحبابى ، وبينهم اعدائى أيضاً ، لشد ما أحب الآن جميع من يتسنى لى أن اوجه إليهم الكلام . وسيكون لهؤلاء الاعداء أيضاً قسطهم فى إيجاد غبطتى

عندما أتحفز لاعتلاء أشد جيادى جموحاً لا أجد لى معيناً أصدق من رمحى متكأ أرتفع عليه

هو رمحى أهدد به أعدائى ، ولكم يستحقون ثنائى اذا ماتمكنت من طرح هذا الرمح من يدى :

لقد طال اصطبار غيومى بين قهقهة الرعود وقد آن لى أن أرشق الأعماق بقذائف بردَى .

إن صدرى سيتعاظم بانتفاخه حتى يزفر بالعاصفة الهائلة على الشامخات وهكذا سأفرّج عنه

فان سعادتى وحريتى سيندفعان اندفاع العواصف ولكننى أتمنى لو يحسب أعدائى أن ما يزمجر فوق رؤوسهم إنما هو روح الشر لا روح سعادة وحرية

وأنتم أيضاً أيها الصحاب سيتولاكم الرعب عندما تنزل عليكم حكمتى الكاسرة ولعلكم تولون هاربين منها كما يهرب الأعداء

ليت لى أن أستدعيكم إلىّ بحنين شبّابة الرعاة ، وليت تعلم لبؤة حكمتى أن تزأر بنبرات العطف والحنان ، فلطالما وردنا سويا من مناهل العرفان ، ولكن حكمتى الوحشية تمخضت بآخر صغارها فى الجبال السحيقة بين الجلامد الجرداء ، وهى الآن تطوف بجنونها الصحارى القاحلة مفتشة على المروج الناضرة

إنها لشيخة وحشية هذه الحكمة التى تقصد إنزال أعز ما لديها فى مروج قلوبكم الناضرة

هكذا تكلم زارا .

(يتبع) **فليكس فارس**

احياء النحو

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

لا شك فى أن نحونا العربى أصبح علماً جافاً يورث النظر فيه السأم والملل . ولا يسعنى مع هذا أن أنكر تلك الجهود الموفقة التى بذلها الأستاذ الجليل على الجارم فى تسهيل النحو وتجميله فى كتاب (النحو الواضح) فصارت به دروس النحو الأولى سهلة مقبولة لدى الناشئين ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، وتقرن العلم بالعمل قرناً وفقاً ، ولكن نحونا العالى لا يزال فى الحالة السيئة التى وصل اليها من يوم أن أخذ من أحضان علم الأدب الذى نشأ النحو فى ظله ، وترعرع فى أرضه الخصبة .

وكان الامام على بن عيسى الرمانى أول من انتزع النحو من حضنه بين الأدب وعلومه ؛ وقد ولد الرمانى سنة ٢٧٦ ﻫ وأخذ عن الزجاج ، وابن السراج ، وابن دريد ، ثم برع فى علم النحو حتى قال أبو حيان التوحيدى : لم ير مثله قط علما بالنحو ، وغزارة بالكلام ، وبصراً بالمقالات ، واستخراجاً للعويص ، وإيضاحا للمشكل ، مع تأله وتنزه . ودين وفصاحة ، وعفاف ونظافة ، وكان يمزج النحو بالمنطق ، حتى قال الفارسى إن كان النحو ما يقوله الرمانى فليس معنا منه شىء ، وإن كان النحو ما نقوله نحن فليس معه منه شىء — قلت : النحو ما يقوله الفارسى ، ومتى عهد الناس أن النحو يمزج بالمنطق ، وهذه مؤلفات الخليل وسيبويه ومعاصريهما ومن بعدهما بدهر ، لم يعهد فيها شىء من ذلك .

على أن النحو لم يزل يبعد عن الأدب بعد الرمانى شيئا فشيئا ، حتى أصبح العالم بالنحو لا يدرى شيئا من الأدب ، ولا يستطيع أن يقوم لسانه أو قلمه إذا نطق أو كتب ، وحتى أصبحت بعض الشواهد النحوية تروى مغلوطة وتمضى عليها أزمان طويلة فلا يتنبه إلى غلطها ، ولا يعرف مع هذا قائلها ، وليس هذا إلا من فصل النحو عن الأدب ، والعناية بحفظ قواعده ونكاتها الفلسفية ، وإهمال صبغته الأدبية التى كانت تراعى فى عهد ازدهاره .

وإني أسوق من ذلك هذا الشاهد الذى يذكر فى باب التوكيد

لكنه شاقه أن قيل ذا رجبُ ... يا ليت عدةَ حولٍ كلِّه رجبُ

برفع كلمة (رجب) فى آخر البيت . فهذا الشاهد لا يعرفون قائله إلى الآن ، وهم مخطئون فى رفع كلمة (رجب) فى آخر البيت لأنها من قصيدة رويها على النصب لا على الرفع . وقد جاء فى كتاب الكامل للمبرد وشرحه رغبة الآمل للشيخ المرصفى (ص ٢١٤ ج ٧) أن عبد الله بن مسلم بن جندب الهذلى كان يؤم بالناس فى مسجد الأحزاب بالمدينة ، فلما وليها الحسن بن زيد منعه أن يؤم الناس فى هذا المسجد ، فقال له : أصلح الله الأمير ، لم منعتنى مقامى ومقام آبائى وأجدادى من قبلى ؟ قال : ما منعك منه إلا يوم الأربعاء ، يريد قوله :

يا للرجال ليوم الأربعاء أمَا ... ينفكُّ يحدث لى بعد النُّهى طَرَبَا

إذ لا يزالُ غزال فيه يفتننى ... يأتى إلى مسجد الأحزاب مُنتقِبَا

يُخبِّرُ الناسَ أنّ الأجرَ همَّتُهُ ... وما أتى طالباً للأجر محتسبا

لو كان يطلب أجراً ما أتى ظُهُراً ... مُضمَّخاً بفتيت المسك مختضباً

لكنه شاقه أن قيلَ ذا رجب ... يا ليت عدَّة حولٍ كلِّه رجبَا

فإن فيه لمن يَبغى فواضِلَهُ ... فضلا وللطالب المرتاد ما طلب

كم حُرةٍ دُرَّةٍ قد كنتُ آلفُها ... تسدُّ من دونها الابوابَ والحجب

قد ساغ فيه لها مَشىُ النهار كما ... ساغ الشرابُ لعطشان إذا شرب

يقال شهر عظيمُ الحقِّ فى سَنَةٍ ... يهوى له كلُّ مكروب إذا كرب

فاخرجنَ فيه ولا ترهَبْنَ ذا كذب ... قد أبطل الله فيه قول من كذب

وكانت ولاية الحسن بن زيد بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب المدينة سنة ١٦٠ ﻫ فى عهد أبى جعفر المنصور ثانى ملوك العباسيين

فإحياء النحو عندى بأن تعاد له صبغته الأدبية التى كانت له وليس إحياؤه بتطويل الكلام فى أن الفتحة ليست علامة إعراب كما قرأته فى بعض الكتب الحديثة ، فإن هذا مما يزيد فيه الطين بلة ، ولا يؤدى بنا إلى الاصلاح المنشود له

عبد المتعال الصعيدى

تاريخ العرب الأدبى

للأستاذ رينولد نيكلسون

الجاهلية : شعرها وعاداتها ودياناتها

ترجمة حسن حبشى

وقد وضع الاسلام حداً لهذه الوحشية واستهجنها القرآن ونها عنها فى قوله (١) (ولاَ تَقتُلوا أولاَدَكُمْ خشيَةَ إملاَقٍ نحنُ نَرزُقُهمْ وإيَّاكمْ إنَّ قتلَهمْ كانَ خِطأً كبيراً) وربما كانت الأبيات التالية تفصح عن هذا تمام الإفصاح، وفيها نرى صراعا عنيفاً بين رجل وبين الفاقة، ويحمد الله أن كان مصرع ابنته قبل مصرعه حتى لا تكون تحت رحمة أقاربها (٢) :

لوْلاَ أُمَيْمَةُ لمْ أجزَعْ منَ العَدَمِ
ولَمْ أُقاسِ الدُّجَى فِى حِندسِ الظلَمِ

وَزَادَنِى رَغبَةً فى العَيْشِ معرِفتِى
ذُلَّ اليَتيمةِ يَجفوهَا ذَوُو الرَّحِمِ

أحاذِرُ الفقرَ يَوْماً أنْ يُلِمَّ بِهَا
فَيَهْتِكُ السِّترَ عن لَحمٍ على وَضَمِ

يهْوَى حيَاتِى وأهوَى مَوْتَها شَفَقاً
والموْتُ أكْرَمُ نَزَّالٍ على الحُرَمِ

أخشَى فَظَاظةَ عَمٍّ أو جفاءِ أخٍ
وكنْتُ أبْقِى عليهَا منْ أذَى الكلِمِ (٣)

---

(١) الاسراء (١٧ : ٣١) وقد ورد فى القرآن الكريم فى موضع أخر (التكوير ٨ - ٩) يوم الموقف والسؤال (وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت)

(٢) الحماسة ١٤٠ . وبالرغم من أن هذه الأبيات لم تنظم فى الجاهلية وانما ترجع إلى عصر متأخر فى الاسلام الا أنها تمثل هذه النزعة الوثنية تمام التمثيل وقد عاش ناظمها اسحق بن خلف أيام الخليفة المأمون (٨١٣ - ٨٣٣ م) وقد تبنى بنت أخته إذ ماتت ابنه . راجع كذلك الكامل للمبرد ص ٧١٥ ، وقد ترجم المقطوعتين سير شارلز ليل فى كتابه Anc. Ar. Poetry, P. 26

(٣) ذكر المبرد قصيدة فى هذا المنى وهى التى أشار اليها نيكلسون وترجمها ليل:

أمست أميمة معموراً بها الرجم   لقى صعيد عليها الترب مرتكم
ياشقة النفس ان النفس والهة   حرى عليك ودمع العين منسجم
قد كنت أختى عليها أن تقدمنى   الى الحام فيبدى وجهها العدم

ويقول آخر فى هذا الموضوع : (١)

لوْلا بُنيَّاتٌ كزُغْبِ القَطَا   رُدِدْنَ منْ بَعضٍ إلى بَعضِ
لَكانَ لِى مضْطَرَبٌ واسِعٌ   فى الأرضِ ذاتِ الطولِ والعَرضِ
وإنَّمَا أوْلادُنا بيْنَنَا   أكْبادُنا تَمْشى علَى الأرضِ
لوْ هَبَّتِ الرِّيحُ على بَعْضِهِمْ   لامتنَعَتْ عيْنِى منَ الغَمْضِ (٢)

° ° °

الحب والبغض Adi et Amo هاتان الكلمتان هما جماع الآداب البدوية ؛ لأنه إذا كان العربى - كما رأينا - صديقاً حميماً لخلانه ، فانه عدو لدود لا يهدأ له بال إذا عادى ؛ تضطرم نفسه وتتأجج بنيران الحقد والبغضاء ، وكانوا يعدون من لا يرد اللطمة التى أصابته جباناً ، ويستحيل على الرجل الكريم المحتد منهم أن ينسى ضرراً لحقه حتى يثأر لنفسه وينتقم لها ، وأنشد بعض الأعراب ، - وقد آلمه أن يغتصب المغير إبله - أبياتاً يقول فيها عن عشيرته التى لم تساعده فى استرجاعها :

لكنَّ قومى وإن كانوا ذوى عدَدٍ
ليْسُوا من الشرِّ فى شىءٍ وإنْ هانا
يَجزُونَ من ظُلمِ أهلِ الظلمِ مَغفرَةً
ومن إساءةِ أهلِ السُوءِ إحسانا (٣)

والبيت الثانى الذى قد يسرف فى مدح من يتصف به الاخلاقيون المسيحيون والمسلمون ألحقَ بن قيل فيهم عاراً لا تمحى آثاره ، وإن المنهج البيِّن فى معاملة الأعداء ليتضح على أتمه من الأبيات التالية :

إذا المرْءُ أوْلاكَ الهوَانَ فأوْلِهِ
هوَاناً وإن كانتْ قَرِيباً أواصِرُهْ
فانْ أنتَ لمْ تَقدِرْ على أن تُهينَهُ
فَذرْهُ إلى اليَوْمِ الذى أنْتَ قادِرُهْ

فالآن نمت فلا هم يؤرقنى   بهدا النيور اذا ماأودت الحرم
للموت عندى أياد لست أنكرها   أحب سرورا وبى مما أتى ألم
(المترجم)

(١) هو حطان بن المعلى (المترجم)

(2) Charles Lyall : Anc. Arabian Poetry, P. 28.
والحماسة ص ١٤٢

(٣) الحماسة ص ٧

وقاربْ إذا ما لمْ تكنْ لكَ حيلة
وصمّمْ إذا أيقنتَ أنكَ عاقرُه (١)

وفوق كل هذا فان الدم يدعو الدم ، وهذا الارغام يظل يلاحق ضمير العربي الوثني ؛ وكان الانتقام عندهم ضرورة طبيعية اذا لم تجب حرمتهم النوم والشهية والصحة ، كما كان ظمأ محرقاً لا يطفئ أواره أو يبل لهيبه سوى الدم ، ومرضاً من أمراض الشرف يمكن تسميته بالجنون ، وإن كان قليلا ما يمنع الرجل من أداء عمله في هدوء وتبصر . وكانوا يثأرون من القاتل إن أمكن أو أحد أقاربه وأبناء عشيرته . وإذ ذاك تستقر الأمور في نصابها ويندمل الجرح ، إلا أن هناك حالات كان الانتقام فيها فاتحة قتال دموى دائم . تشتبك فيه القبيلة بأجمعها صغيرها وكبيرها ، كما حدث ذلك في مقتل كليب الذي أدى إلى حرب زبون ظلت الرماح فيها مشتجرة زهاء أربعين عاما بين قبيلتي بكر وتغلب ، ويقبل أقرب أقرباء القتيل الدية كفدية له وتدفع عادة جمالا وهي تعد مسكوكات الاقليم ، وان قبولهم ذلك ليوحي إليهم دائماً أنهم فضلوا اللبن (النياق) وآثروه على الدم (٢) ، وان الشعور العربي الحق ليشرئب من خلال هذا البيت الذي يقول فيه الشاعر :

سأغسل عني العار بالسيف جالباً على قضاء الله ما كان جالبا (٣)

وكانوا يعتقدون أن روح القتيل تظل شاخصة على قبره وتسمى « الهامة » أو الصدى ، وتصيح : « اسقوني ، أسقوني ، حتى يؤخذ لها الثأر ممن اعتدى على صاحبها ، ولكن الأفكار الوثنية عن الانتقام كانت مرتبطة بالماضي أكثر من ارتباطها بالمستقبل ولم يكونوا يحسبون للحياة الأخرى قيمة كبرى أو لم يكونوا يعلقون عليها أية أهمية بجانب الذكريات المتأصلة عن الحب الأبوى ، والشفقة البنوية وأخوة السلاح .

ومع أن النفس تستهجن هذه الطريقة المتبعة في الانتقام والأخذ بالثأر إلا أن مغبتها إيجابية في صد أولئك العابثين الذين لولا تلك الخطة — لأطلقوا لغرائزهم المجرمة العنان ، ولم يكبحوا لها جماحا ، إذ لا يخشون إذ ذاك رادعاً أو إلا ، ولا يصدهم إرهاب ،

(١) الحماسة ٣٢
(٢) راجع ما كتبه Ruckert في ترجمته للحماسة ج ١ ص ٦٦ وما يليها
(٣) الحماسة ٣٠

أما من وجهة نظرنا نحن فان قيمة هذا الأمر لا تهمنا من حيث هو أحد الأسس الأولية في إقامة دعائم صرح المجتمع العربي بقدر ما تهمنا من أنه يكون عنصرا من عناصر الحياة العربية والأدب العربي ، ولذلك فقد اخترت من كتاب الأغاني قصة تنعكس فيها هذه الصور بأكملها ، تلك هي قصة قيس بن الخطيم وكيف انتقم ممن اغتالوا أباه وجده (١) .

٭٭٭

والقصائد التي يرد فيها ذكر الانتقام والأخذ بالثأر للدم المهراق تكشف القناع عن كل ما هو مستحسن ومستهجن في العربي الوثني ، فنجده من ناحية يصور لنا شجاعته وعزمه واحتقاره للموت وخوفه من العار وتبجيله الموتى واحترامه إياهم وعطفه الجدي على ذوي قرباه ومن كانوا من لحمه ودمه ، ومن ناحية أخرى نجده يصور نفسه المضطغنة ، وقسوته وغدره ، وضراوته في تعقب القتلة ، وإن القصيدة التي تجسم لنا هذه الصفات كلها هي القصيدة المنسوبة إلى « تأبط شرا » ، وإن كان البعض يزعم أن صاحبها « خلف الأحمر » المنشئ المعروف لقطعة الشنفرى ، والمقلد البارع الباهر للشعراء القدامى

(يتبع) حسن حبشي

(١) لم نشأ أن نذكر القصة كما ذكرها الأستاذ نيكلسون لطولها ، ويمكن للقارئ العربي الرجوع اليها في الأغاني ج ٢ ص ١٦٠ أما عن عادات البدو فيمكنه مراجعة ما كتبه Burckhardt بركهارت في كتابه : Notes on the Bedowins and Wahàbys (London 1831) Vol. I, P. 160 sqq & 329 sqq.

شاعر الإسلام محمد عاكف*

للدكتور عبد الوهاب عزام

– ٤ –

نشر محمد عاكف شعره فى سبعة أجزاء صغار كلها تحمل اسم « صفحات » ولكل جزء عنوان خاص ماعدا الجزء الأول وهى : –

١ – الجزء الأول وقد وضع عليه بعد العنوان العام : « صفحات » هذا الاسم « برنجى كتاب » أى الكتاب الأول . وفى هذا الجزء أربع وثلاثون منظومة فى موضوعات شتى . ويتبين فيها كلف الشاعر بالتجوال فى طبقات الأمة . ووصف المعيشة العادية . والواقعات المألوفة يكشفها عما وراءها من عظات . وينطقها بما استسر على الناس من عبر . وحسب القارئ أن يرجع إلى المنظومات : قفة وحصير . والحانة ، وقهوة المحلة ، ليرى قدرة الشاعر على تصوير الحياة وجلائلها ودقائقها فى بيان يجمع يسر النثر الى جمال الشعر .

وقد عرف قراء الرسالة من منظومات هذا الجزء اثنتين : سيفى بابا ، والزامر الأعمى .

٢ – والجزء الثانى سماه الشاعر : « فى كرسى السليمانية » (سليمانية كرسيسنده) . وهو منظومة مزدوجة فيها زهاء ألف بيت يصف فيها جامع السلطان سليمان القانونى أعظم مساجد استانبول ، ويتحدث على لسان واعظ سياح اعتلى كرسى الوعظ فى هذا المسجد واصفاً ما شهده فى سياحته من أحوال المسلمين ويبين أدواءهم وأدويتهم . وقد اختار لهذا الحديث السائح المعروف عبد الرشيد ابراهيم الذى يطوف فى أرجاء العالم منذ ستين سنة أو أكثر ، والذى قدم مصر مرات آخرها قدومه قبل سنتين فى طريقه إلى اليابان ؛ وهو اليوم نزيل طوكيو ، فعليه منا تحية وسلام .

٣ – والجزء الثالث أصوات الحق (حقك بسلرى) وهو منظومات فى معانى آيات قرآنية مثل قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء الخ . تلك بيوتهم خاوية بما ظلموا . كنتم خير أمة أخرجت للناس .

٤ – والجزء الرابع فى كرسى الفاتح (فاتح كرسيسنده) . منظومة فى نحو ثمانمائة بيت يبدؤها الشاعر بوصف مسجد الفاتح وصفاً يذكر القارئ بالشاعر الفرنسى فكتور هيجو فى رواية Notre Dame de Paris ثم تكلم على لسان واعظ فى عقائد المسلمين وأسمعهم كلاماً يتجلى فيه سمو الفكر . وصفاء القلب . والتبصر بأسرار الدين . والإخلاص لأصحاب المسلمين .

٥ – والخامس « حاضرات » (حاضره لر) . وفيه منظومات فى معانى آيات من القرآن ، وأخرى فى موضوعات مختلفة . كقصيدته فى وصف آثار الأقصر التى أهداها إلى الأمير عباس حليم باشا رحمه الله ؛ ومنظومة « خواطر برلين » وهى طويلة تنتظم زهاء أربعمائة بيت . ويعرف قراء الرسالة من هذا الجزء القصيدة الخالدة « من نجد إلى المدينة » .

٦ – عاصم : قصة طويلة منظومة فى نحو ألف ومائتى بيت بطلها شاب من الذين جاهدوا فى الحرب الكبرى ، اسمه عاصم . وهو ابن كوسه امام تلميذ طاهر افندى والد الشاعر . وقد أبان فيها عن حال تركيا القديمة والحديثة ، ووصف كثيرا من الأمور الأخلاقية والاجتماعية وصفا بليغا دقيقا يتناول أشد الموضوعات استعصاء على النظم فيعرضها فى أسلوب مطبوع بيّن لا أثر فيه للتكلف والجهد . وكان الشاعر يوصى بقراءة هذه القصة لما ضمنته من عبر ولما قاربت لغتها ، اللغة العامية فى تركيا

٧ – الظلال (كولكه لر) هى الجزء الأخير الذى نشره الشاعر قبل وفاته بعامين ، وقد نظم بعض منظوماته فى استانبول وبعضها فى انقرة ومعظمها فى حلوان . ومنها قصيدة فى الآثار المصرية سماها « مع فرعون وجها لوجه » وأهداها إلى الأميرة خديجة حليم . ومنها قصيدة نشرت ترجمتها فى الرسالة بعنوان الفنان يصف فيها صديقه الشريف محيي الدين أكبر الموسيقيين

* حالت شواغل دون تتابع هذه المقالات فمعذرة

المسلمين ومفخرة العرب فى الموسيقى وهو نزيل بغداد اليوم

وقد أهدى الشاعر الجزء الأول من الصفحات الى أحد تلاميذه (محمد على)، والثانى الى صديقه فطين خوجه، والرابع الى صديقه الشاعر مدحت جمال، والسادس الى صديقه فؤاد شمس، والآخر الى الشريف محيى الدين

وقد صدّر الشاعر الجزء الأول من صفحاته بخمسة أبيات لا عنوان لها، وافتتح الجزء الأخير بستة أبيات عنوانها خسران. ويرى القارىء فى ترجمة هاتين القطعتين كيف كان فكر الشاعر فى أول شعره وآخره:

— ١ —

سلنى أيها القارىء الحبيب أنبئك. سلنى ماهذه الأشعار الماثلة أمامك؟ انها أكداس من الكلم لا براعة فيها إلا الإخلاص. لست أعرف التصنع لأنى لست صانعا. يقال ان الشعر دمع العين. لا علم لى بهذا، ولكنى أرى أن كل ما أسطر هو بكاء العجز. أنا أبكى فلا أستطيع أن أبكى، وأشعر فلا أستطيع أن أبين. وان الشقاء ان يحرم القلب الشاعر لسانا: اقرأ ان كنت تنشد قلبا حساسا - اقرأ فما كتبت كلمتين الا سطرت هذا القلب

— ٢ —

وكتب على الجزء الأخير الذى نشره قبل وفاته بعامين أبياتا نظمها فى استانبول قبل قدومه الى مصر:

ما كنت لأقف معقول اللسان أقلب الطرف فيما حولى. لم يكن لى بد أن أنوح لأوقظ الاسلام. انما أريد أن تفور القلوب المرهفة الحس، الراسخة الايمان؛ وأما التفكير الطويل فقد هجرته منذ أمد بعيد. انى أنوح ولكن لمن؟ أين أهل الدار؟ أقلب طرفى فلا أظفر الا بأمم نائمة

لقد خنقت صرخاتى وحملت نعشها ثم مزقتها تمزيقا ودفنتها فى شعرى وتركتها

وهأنذا أسيل أنينى الذى هم بأن يعم الأودية كالسيل المنهمر، أسيله فى غير هدير كالدموع الخفية. لا أجد فى هذه القبة الصماء لأنينى أثرا فليتن الخسران الذى فى صفحاتى، دون حس ولا ركز.

عبد الوهاب عزام

فى حفلة تأبين الزهاوى

مضى الطائر الصداح

للأستاذ على الجارم بك

مندوب مصر فى حفلة تأبين الزهاوى ببغداد

جفا الروض مغير الاسارير ماطره ... وغادره قفر الخمائل طائره
ذوى نبته بعد البشاشة وارتمت ... مصوحة أثماره وأزاهره
تلفت: أين الروض، أين مكانه ... وأين مجاليه، وأين بواكره
وأين الذى لم يطرق الأذن مثله ... إذا صدحت فوق الغصون مزاهره
حمائم ألهاها النعيم عن البكا ... وأذهلها عن عابس العيش ناضره
اذا أرسلت ألحانها فى خميلة ... توثب زهر الروض واهتز عاطره
لها صوت داود وحسن رنينه ... اذا ما علت متن النسيم مزامره
اذا بدأت أشجاك أول صوتها ... وان سكتت أعيا بيانك آخره
وان هتفت فى الدوح مال كأنما ... يسايرها فى لحنها وتسايره
تحدت فنون الموصلى وطوحت ... بأنفس ما ضمت عليه بناصره
أولئك أوتار الاله وصنعه ... اذا عزفت فليسكت العود واتره
ألمت بأسرار النفوس فترجمت ... كما فسر الحلم المحجب عابره
يصيخ اليها أسود الليل باسما ... فتفتر عن زهر النجوم مشافره
يود لو أن الغيد ضمت شعورها ... إلى شعره الداجى فطالت غدائره
ويرجو لو أن الفجر عوق خطوه ... وطاش به نائى الطريق وجائره
وزلت بشطآن المجرة رجله ... فطوحه فى غمرة اليم زاخره

° ° °

سل الروض ان أصغت اليك رسومه ... متى روعت أطلاؤه وجآذره
وأين الغدير العذب طاب وروده ... لذى الغلة الصادى وطابت مصادره
اذا فاض بين الزهر تحسب أنه ... يمانى برد أذهل التجر ناشره
تأزر من أثوابه الروض واكتسى ... فرقت حواشيه وطالت مآزره
تدور به جم البلابل مطرقا ... ولم تدر أن الدهر دارت دوائره
وتصغى فلا يجتاز سمعك نغمة ... سوى أنة يلهى بها الحزن قاهره
وتدعو فلا تلقى مجيبا سوى النوى ... تطارح مطوى الأسى وتحاوره
وقفت به والقلب يحبس وجده ... فيطغى ودمع العين ينهل بادره
وما وقفتى بين الرياض وقد عفت ... سوى حاجة يقضى بها الحق ناذره

أرى ما أرى إلا غبارا أثاره ... خميس الليالى حينما ثار ثائره

* * *

مضى الطائر الصداح فالأفق موحش ... حزين النواحى عابس الوجه باسره

وأودى « الزهاوى » فانتهى ملعب النهى ... وأطفئت الأنوار وانفض سامره

أقام على رغم النبوغ بحفرة ... وسارت على رغم المنون سوائره

وغادر عرش اللوذعية ربه ... وخلى ندىّ العبقرية شاعره

دعوا ذكر إعجاز البيان وسره ... فقد غاب عنه طيلة الدهر ساحره

له خاطر لو سابق البرق فى الدجى ... لجلى على برق السموات خاطره

تملك حر الشعر سن يراعه ... فياعجبا إن حرر الشعر آسره

تمنى العذارى لو تقلدن دره ... ورفت على أجيادهن جواهره

ويزهى العيون الدعج إن سوادها ... شبيه بما ضمت عليه محابره

وما جاشت الصهباء إلا لأنها ... وقد صفقوا مشمولها لا تناظره

تمر به مرا فيسبيك بعضه ... وتقرؤه أخرى فيسبيك سائره

ترى فيه هذا الكون صورة حاذق ... أحاطت بأسرار الحياة بصائره

وتلمح فيه الرأى فى بعد غوره ... كما غاص تحت الماء للدر ذاخره

وتلق به الآذىّ فى ثورانه ... إذا عقله الجبار مارت موازره

* * *

له قلم لو لامس الطرس مرة ... تدانى له صعب القريض ونافره

لقد كان منظار النفوس فلم يحل ... بنفس هوى إلا وطرفك ناظره

بلوح بعيد الرأى خلف زجاجه ... وحاضر تاريخ الحياة وغابره

براه إله الخلق عزما وجرأة ... تهاب الرواسى حده وتحاذره

وصوره عضبا تفر لهوله ... ذئاب الدنايا شرداً وهو شاهره

كأن عصا موسى أعيدت بكفه ... يصاول من يرمى بها ويغاوره

* * *

يقول جريئا ما يريد وربما ... يقول الفتى ما لم ترده سرائره

وكم من فتى يقضى بنفسين عيشه ... مظاهره نفس ، ونفس مخابره

تراه من النساك فى خلواتهم ... وفى الحان قد نمت عليه ستائره

لسان كما طال الجرير مسبح ... رياء ومن خلف اللسان جرائره

إذا لم يكن فى الحرب قلبك باترا ... فماذا يفيد المرء فى الحرب باتره

* * *

حنانا له كيف استقرت به النوى ... وكيف ثوى بعد التلفت حائره

وهل بعد ليل فى الحياة مؤرق ... كثير التظنى أبصر الصبح ساهره

* * *

شققت إليك الطرق والقلب خافق ... تراوحه آلامه وتباكره

تذكر آلاما ألموا فودعوا ... كطيف خيال أرق الصب زائره

ونحن حياة والحياة إلى مدى ... ولولا المنى لم يبذر الحب باذره

وأن المهود الزهر — لو علم الفتى ... وفكر فى غايتهن — مقابره

سموت إلى بغداد والشوق نحوها ... يساورنى حينا وحينا أساوره

كلانا نأى عن أهله وعشيره ... ليلقاه فيها أهله وعشائره

حبيب إلى نفسى العراق وأهله ... وسالفه الزاهى المجيد وحاضره

ديار بها الاسلام أرسل ضوءه ... فسار مسير الشمس فى الأفق سائره

ومدت بها الآداب ظلا على الورى ... تساوت به آصاله وهواجره

تجلى بها عهد الرشيد وعزه ... وزاهر ملك الفاتحين وباهره

إذا شئت مجد العرب فى عنفوانه ... فهذى مغانيه ، وهذى منائره

أطلت على الدنيا فأبصرت الهدى ... كما لمعت فى جنح ليل زواهره

* * *

تفاخر بالغازى الذى سار ذكره ... ودوّت بآفاق البلاد مفاخره

هو الملك أمضى من شبا السيف عزمه ... وأغزر من ماء السحائب هامره

نماه بناة المجد من آل هاشم ... لجلت مراميه وطابت عناصره

أعاد إلى عهد البيان شبابه ... فهب فتيا ينفض الترب دائره

يريك به المنصور مأثور حزمه ... وتذكرك المهدى فيه مآثره

ذكرنا اسمه طول الطريق فذللت ... مصاعب متنيه وضاءت دياجره

* * *

جميل ! نداء من أخ يقدر النهى ... وإن لم يمتع باجتلائك ناظره

عرفتك فى آثارك الغر مثلما ... تنبىء عن وجه الصباح بشائره

عرفت « جميلا » فى جميل بيانه ... يشاطرنى وجدانه وأشاطره

تجاورنى فى دوحة النيل روحه ... وروحى بأدواح العراق تجاوره

إذا اجتمع القلبان فالكون كله ... مكان ، وإن شقت وطالت معابره

لنا نسب فى المجد يجمع بيننا ... تعالت أواسيه وشدت أواصره

ألسنا حماة القول فى كل محفل ... تتيه بنا فى كل أرض منابره

صببت عليك الدمع سحا ومدمعى ... عزيز ولكن أجود الدر نادره

وأرسلت فيك الشعر لوعة موجع ... تئن قوافيه وتبكى صدائره

عليك سلام الله نورا ورحمة ... وغادتك من سيب الاله مواطره

علي الجارم

لبيك نابغة العراق

للأستاذ بشاره الخوري

مندوب لبنان في حفلة التأبين

قولي لشمسك لا تغيبي وتكبدي فلك القلوب
بغداد يا وطن الجهاد وموضع الأدب الخصيب
غناك دجلة والفرا ت قصائد الزمن العجيب
رقصت قوافيها على نغم البشائر والحروب
أعراس دارا من مقا طعها وخيبة سنحريب (١)
حتى إذ طلع الرشيـد وماج في الأفق الرحيب
صور القرون وصاغها تحفاً لمفرقك الحبيب

بغداد يا شغف الجمال وملعب الغزل الطروب
بنت المكارم للعرو بة فيك جامعة القلوب
بيت من الأخلاق صا نت عنه أخلاق الشعوب
وسع الديانات السما ح وضم أشتات الدروب
زفرات أحمد في رسالته وآلام الصليب

بغداد ما حمل السرى مني سوى شبح مريب
جعلت له الصحراء والسـفن الكثيب إلى الكثيب
وتنصتت زمر الجناد ب من فريات الثقوب
يتساءلون وقد رأوا قيس الملوح في شحوبي
والتمتمات على الشفا ه مضرجات بالنسيب
تبكي لها قبل الصبا ويذوب فيها كل طيب
يتساءلون من الفتى العربي في الزي الغريب
صحراء يا بنت السماء البكر والوحي الخصيب
أنا لو ذكرت أحـلامي وأنغامي وكوبي
إحدى الشموع الذائبا ت أمام هيكلك الرهيب
أنا دمعة الأدب الحزين رسالة الألم المذيب
من قلب لبنان الكئيب لقلب بغداد الكئيب

لبيك نابغة العرا ق وحجة الشرق القريب
لبيك معجزة البيا ن الحر والقلم الخضيب
حجاج روحك وهي ملء الكون تقذف باللهيب
تخبو الشموس وتنطفي وتظل نامية الشبوب
حلم سفكت دم الشباب فدى لمبسمه الشنيب
حب الخلود وكم أريـق عليه من جفن سكيب
لولاه لم تلد الطروس الحر اكليل الأديب

آليت اقتحم الجحيـم على جواد من ذنوبي (١)
فأغوص في الأبدية الخر ساء والأزل القطوب
أتلمس الأشباح والأر واح من خلل الحقوب
حتى إذا انكشف الجحيـم يئز بالضرم الصخوب
سكنت ثائرة الضلو ع وكاد يصرعني وجيبي
وسألت عن «داتي» وعن شيخ المعرة ذي الريوب
أحقيقة عرفا لظى أم وصف مبتدع نجيب
«جميل ليلى» (٢) فيه ما شاء التفنن من ضروب
صور ملونة الجنا ح على مخيلة خلوب
آليت اقتحم الجحيـم على جواد من ذنوبي
آليت . . . لكني ارعويت وقلت يا نفسي اهدئي بي
مهما سما عقل الحكيم يزل عن حجب الغيوب

يا فيلسوف العـرب والأيام كالحة النيوب
هلا ذكرت لنا العراق ومجـد عابره الذهيب (٣)
ذلك ترصع بالحكيـم وبالأديب وبالطبيب
يفتر عن مثل ابن سينـا والنواسي الأريب
إرث وهبت له الصبا وسقيته دمع المشيب
ونثرت أنجمه على بغـداد من كفن المغيب

شيخ القريض أبا الرصـين الجزل والمرح اللعوب
ما زلت ألمحها على لبـنان طافرة الوثوب
من معصم النبع الدفيـق لمعطف الغصن الرطيب
وأخو الوفا لبنان ير فل منه في الثوب القشيب
هو والعـراق الحر مهـد هوى وأيكة عندليب
فجران من مزن السما ء ووردتان على قضيب

أسـد العراق وما الرياح الهوج طاغية الهبوب
أمضى وأنفـذ منك إذ تثبين للأمر العصيب
قلمت أظفار الزما ن وروعت داهية الخطوب
وبنيت بالقلم الحليم وبالمهنـدة الغضوب
ونشـدت للعرش المفـدى آية الفتح القريب
عرش «لغازي» المكرما ت لمنتهى حسب الحسيب
نسب تنقل في العلى بين الأشـعة والطيوب
عرش الملوك من السلا ح وعرشه فلذ القلوب

بشاره الخوري

(١) دارا أحد ملوك الفرس الفاتحين وسنحريب ملك آشور الذي فشل تحت أسوار أورشليم

(١) الماع الى قصيدة الزهاوي (ثورة في الجحيم)
(٢) «جميل ليلى» هو جميل الزهاوي وقد أكثر من ذكر ليلى في شعره حتى أصبحت منه كليلى العامرية من قيس
(٣) الذهيب المذهب .



الفن المصرى

٣ – التصوير والحفر

للدكتور أحمد موسى

يلاحظ الدارس للفن ، المحيط بأسراره بعض الاحاطة ، أن الفنان المصرى عمل مصوراته ومحفوراته البارزة والمنخفضة ، متقيدة بقيود ظلت طوال أيام الحضارة المصرية كلها . تلخصت فى نظرته للأجسام . لا بحسب مظهرها الطبيعى أمامه : بل بحسب وضعها الأصم الذى ظن أنه يجب أن تظهر به فى تصاويره وعلى لوحاته . وقد ظن بعض الناس أن هذا متعمد بقصد خلق روح فنية معينة ، وظن غيرهم أن هذا نوع من التشويه الفنى كما أسموه . وهذا فضلا عن كونه محض افتراء ، فانه بعيد عن الواقع وعن التقدير العلمى بُعداً شاسعاً . فالفنان المصرى لم يتعمد شيئاً معيناً وإنما كان مقيداً بقيود طبيعية ، دفعته إلى هذا الوضع وإلى هذا المنهج دفعاً لم يكن له فيه أى قصد ، بل ولم يكن ليتخلص منه بأى وسيلة . ولذلك كان إذا صور جماعة من الناس أو الحيوان أو المواد أو منها جميعاً تصويراً إنشائياً ، تراه يضعها بحيث يكون بعضها خلف بعض أو إلى جانبه ، من غير مراعاة الوضع الطبيعى لها ، الذى كانت تظهر به أمام عينيه ، وكان هذا هو الحال أيضاً عند ما أراد التصرف بعض الشىء – مثلا – فى تصوير مائدة عليها أدوات أو مواد . فتراه يصورها قطعة قطعة ، كما لو كانت متفرقة غير مجتمعة على مائدة واحدة ، ذلك لأنه لم يكن يعرف بعد أصول تصوير المجسمات . وعلاقة الحجم والبعد بالتصوير المنظور « Perspective » ، وكان هذا سبباً جوهرياً فى ظهور مختلف المصورات التى مثلت شئون حياته الزراعية والصناعية والدينية والاجتماعية والسياسية وغيرها ، كما لو كانت متجاوزة بالرغم من أن بعضها كان يجب أن يخفى البعض الآخر بحسب وضعه وراءها

نعم : شاهدنا فى بعض المصورات قوة ملاحظة الفنان بجعله الشىء الموضوع خلف شىء آخر غير ظاهر . ولكن هذا كان نادر الحصول بحيث لا يمكننا الأخذ به كقاعدة عامة لروح الفن المصرى فى التصوير والحفر

والجدير بالملاحظة والمعرفة ، هو أن نعلم أن نظرة الفنان لجماعة من الناس بينها شخصية بارزة ، دفعته حيناً إلى إظهار هذه الشخصية بمقياس أكبر من المقياس الذى تقيده بتنفيذه فى مصوراته . غير ناظر إلى موقع هذه الشخصية من حيث البعد أو القرب منه . أو لوضعها بالنسبة لمجاوريها . فضلا عن نظرته إلى جسم الانسان على وجه الخصوص ، كما لو كان شيئا ينظر إليه من وضعين مختلفين ، فتراه – كما سبق التنويه بذلك فى المقال السابق – نظر إلى الرأس والبطن والساقين والقدمين من الجانب على حين نظر إلى العينين والكتفين والبطن من الأمام .

ويرى الزائر للمتحف المصرى أنموذجاً صادقاً لهذه الحالة إذا نظر إلى الصورة المحفورة على الخشب . التى تمثل الطحان واقفاً وجالساً ، (قطعة رقم ٨٨ – دولاب ب – الصالة ا – بالدور الأرضى) ، والتى تبين بوضوح الدقة العظيمة فى تصوير الوجه من الجانب

بدأ المصريون بهذه الدقة منذ عهد الأسرة الخامسة . واستمر التقدم حتى بلغ الغاية فى منتصف عهد الأسرة الثامنة عشرة (حوالى ١٤٥٠ ق . م .) وأعقب ذلك التدهور والانحطاط

وإذا قُدِّر للقارىء المصرى أن يعنى بتراث حضارته القديمة واحتمل مشقة السفر إلى الوجه القبلى بضع ساعات حتى يصل إلى الشيخ عبد القرنة (بطيبة بجرى راميسيوم) . وإلى تل العمارنة القريبة من دير مواس ، فانه يستطيع أن يرى أروع تصوير وأدق تمثيل ، فيشاهد الحيوانات مرسومة من الجانب بمنتهى ما يمكن من الدقة ، فالتناسب بالغ منتهاه ، والحياة نابضة فيه ، حتى ليخيل إليك أنها صور فوتوغرافية لشدة صدق محاكاتها

أما الانشاء الكلى لفن التصوير، فقد كان ثابتاً على مر القرون، إلا فى بعض أحوال معينة، فترى معظم المصورات فى عهد المملكة القديمة (٣٢٠٠ - ٢٢٧٠ ق. م.) تمثل ممارسة الناس لأعمالهم اليومية فى الحقل والبيت بشكل رائع جميل. فضلا عما العشرين، فقد كلف الفنانون بتصوير المناظر الحربية، وتسجيل انتصارات المصريين تصويراً دقيقاً، إذ بهذا يمكن إيقاظ روح الشعب للتعلق بحب الوطن والتفانى فى الاخلاص له، كما يسجل المواقع والمذابح الحربية التى يبدو بها فى عصر الأسرة الثامنة عشرة،



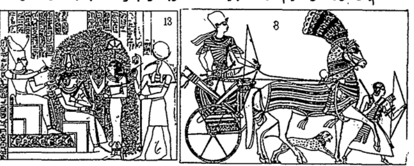
(ش ١) آشوريون متجهون إلى ملك مصر لتقديم ولائهم

يمكن استفادته من هذه المصورات فى مختلف إنشائها وأزمانها لمعرفة مدى دقة ملاحظتهم وحضارتهم

وتغيَّرَ الانشاء الموضوعى بتغير العصر: فترى فى عهد المملكة الوسطى (٢١٩٠ - ١٧٠٠ ق. م.) أن المصورات شملت مشاهدات فى قصور الملوك والأمراء. كما أظهرت لنا طرائف أوضحت كيفية دفن الموتى وما إليها، على أن هذا الاتجاه الاجتماعى الجديد نما وازدهر على وجه الخصوص فى عهد الأسرة الثامنة عشرة (١٥٥٥ - ١٣٥٠ ق. م.)، عندما بلغت مصر شأواً عظيماً وفتحت بلاداً مجاورة، الأمر الذى ترتب عليه اتساع الأفق الفنى أمام الفنان المصرى، وشعر الملوك والأمراء بأهمية الفن حتى لتراهم فى عهد أمينوفيس الرابع (١٣٧٥ - ١٣٥٨) قد اتصل الفنانون بهم، واستطاع الفنان تصوير الحياة الخاصة للعائلة المالكة وللحاشية، وهذا شيء جديد فى ذاته، إذ أن اتصال مصور بالعائلة المالكة إلى هذا الحد لم يكن معروفاً طوال أيام الملوك السابقين، والتى لاتزال شعوب الأرض المتحضرة فى أيامنا هذه ناسجة على منوالها. وفى المتحف المصرى قطعة مقلدة من الأصل المحفوظ بمتحف فلورنسا، تعد من أروع ما يستطيع الانسان أن يشاهده لمثل هذه الحالة، تمثل عربة توتموزيس الرابع (١٤٢٠ - ١٤١١) يجدها الزائر تحت رقم ٣٠٠٠ داخل الصندوق حرف ط بالجناح الشرقى بالدور الأعلى

وبدأ فن التصوير ينحط عند انتهاء عصر المملكة الحديثة، فتراه قد عاد من حيث الضعف الفنى إلى عهد الأسرات الأولى، بحيث أصبح كل ما صور بعد هذا العصر، لايخرج عن تقليد ضعيف لما سبق تصويره.

أما النحت التصويرى فكانت أزهى عصوره عند الأسرة الخامسة فى المملكة القديمة، وهذا يتفق مع عصر النحت الكامل، وأحسن نماذجه وأروعها يمكن مشاهدتها بسقارة خصوصاً بمصطبة تى وبتاحوتب وكذلك بمعابد الملوك للموتى



(ش ٢) إلى اليمين، رمسيس الثانى فى عربته الحربية إلى اليسار، بعض الآلهة فى حضرة الملك

لأننا لم نعثر ولا ينتظر أن نعثر على مصورات تؤيد غير ذلك أما فى عصر الأسرة التاسعة عشرة (١٣٥٠ - ١٢٠٠ ق. م.)، وكذلك فى عهد رمسيس الثالث (١١٩٨ - ١١٦٧) من الأسرة على أنه يجب التنويه بأن الفن قد انحط فى عهد المملكة الوسطى، وظل كذلك حتى عهد الأسرة الثامنة عشرة، حيث ترى فى معابد الأقصر والدير البحرى ومقابر الشيخ عبد القرنة دلائل التقدم

أما فى عهد البطالسة (٣٣٢ وما بعدها) فقد تقهقر الفن ، وأصبح التناسب ضعيفا بين المسافات التى كانت تخصص للحفر والتصوير وبين المساحات التى تركت بدونه ، كما أصبح توزيع المصورات على المساحات رديئا ، وخلت هى نفسها من كل جمال وانسجام ، وطغى عليها ازدحام أبعدها عن الذوق الفنى . والمشاهد لتراث هذا العهد يلاحظ التضخم باديا على المنحوتات الممثلة لجسم الانسان

ولعلنا بمشاهدة بعض المصورات التى أمكن الحصول عليها لتناسب المقال هنا ، يمكننا أن نفهم جيداً المدى الذى وصل إليه المصريون فى فن التصوير والنحت التصويرى : فترى فى الصورة - ١ - المنقولة عن حائط بمقابر بنى حسن ، منظراً رائعاً لجماعة من الآشوريين (الساميين) وهم سائرون وراء اثنين من المصريين ، ومتجهون جميعاً فى طريقهم إلى مصر . فترى على اليمين أحد الموظفين المصريين (باللون الأحمر فى الأصل) يرفع بيمينه لوحة أوضحت الغرض من قدوم هؤلاء الأجانب وهو تقديم الولاء لملك مصر (سيزوستريس الثانى - الأسرة الثانية عشرة) ، ويعقبه مصرى آخر يسير وراءه كمن يرشد الجماعة إلى خط السير ؛ ثم ترى الثالث وهو يسير ممسكا عنزا من أحد قرنيها بيده اليسرى ، والرابع ممسكا غزالا أحاط عنقه بحبل قبض عليه بيسراه ، على حين قبض على القرن بيمناه ، أحضراهما كعينة لحيوانات بلادهم ؛ وبعدئذ نرى أربعة رجال يسيرون فى نفس الاتجاه ، والأخير منهم يتجه برأسه إلى الوراء كما لو كان يتحدث إلى من خلفه ، يحمل كل منهم السهم والقوس

أما الاثنان وراءهما ، فأحدهما ينظر إليه والآخر يلاحظ الطفلين اللذين ركبا حماراً وقد قعدا داخل مخلاة أشبه بحاجز يقيهما شر السقوط . وخلف الحمار ولد تعقبه أربعة نساء تركن الشعر منسدلا إلى الكتفين ، وخلفهن حمار آخر يحمل بالهدايا ، ووراءه رجل يعزف على آلة موسيقية آشورية ذات خمسة أوتار ، وآخر يحمل نشاباً بيسراه وعصا بيمناه استعداداً للطوارىء . وسار المصريون حفاة الأقدام ، على حين كان الآشوريون تلبس نساؤهم أحذية من الجلد ، ورجالهم يحتذون نوعاً من الصنادل فضلا عن إمكان تمييزهم بذقونهم الطويلة .




(ش ٣) إلى اليمين ، صياد السمك إلى اليسار صياد الطيور

والصورة - ٢ - تشمل منظرين وجدا بأبى سنبل (القرية من الدر) الأيمن منهما يمثل رمسيس الثانى على مركبته الحربية التى انتصر بها فى حروبه الافريقية ، وهى فى شكلها الكلى واضحة التفاصيل ، قوية الاحراج ، تسجل الناحية الجديدة فى الاتجاه الفنى لاثبات الانتصارات ومظاهر الأبهة والعظمة كما سبق التنويه .

أنظر إلى رمسيس فى مركبته الرائعة يجرها حصانان وقد اختفى أحدهما لظهور الآخر من الجانب ، وتأمل كيف استطاع الفنان أن يبينه فى بساطة ، وذلك برسمه خطاً رفيعا موازيا للحصان الظاهر . والمتامل فى صدر رمسيس يلاحظ الكتفين وقد ظهرا من تحت الملبس ، مما يدل على أنه كان من قماش رفيع شفاف ، كما يراه قابضا على القوس وعلى جزء من لجام الحصان بيده اليسرى ، وعلى سهم وسكين باليمنى ، أما الحصان فظهر رائعا كامل الزينة مغطى بغطاء جميل الزخرف ، وأسفل الحصان ترى أسداً سائراً مع اتجاه العربة الملكية ، نقش جلده يبقع أشبه بتلك التى تراها على جلد النمر ، قصد به الرمز للعظمة

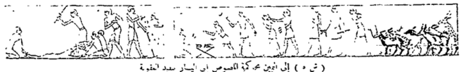




(ش ٤) إلى اليمين ، عصر العنب فى الوسط ، حلب البقرة ، إلى اليسار الرضاعة

والقوة . يقول ديودور أحد مؤرخي القرن الأول قبل المسيح إن فرعون كان يركب عربته حافى القدمين ، ولذلك ترى على الكتف اليسرى لخادمه السائر أمام الحصانين وعلى يسارهما

يقص حادث سرقة ووراءه آخر انتهى من تادية شهادته . بعدئذ ترى أحد رجال الأمن قابضاً على عنق لص وعلى يده ، ثم ترى آخر وقد كبل رجلا من يساره بالحديد . وخلف الجميع رجل



(ش ٥) إلى اليمين محاكمة اللصوص إلى اليسار تنفيذ العقوبة

كيسا خصص لوضع حذائه داخله حتى يستطيع بذلك لبس الحذاء بمجرد مغادرته العربة .

والمنظر الأيسر مأخوذ عن نظيره بمعبد سيتى الأول (ميسونيوم) بأبي دوس (بالقرب من تنيا) يبين رمسيس الثانى (تولى الملك بعد سيتى الأول وأكمل بناء معبده) جالسا على العرش فى ظل شجرة . وإلى اليمين ترى إله الكتابة والتحرير يسجل اسم رمسيس بقلمه على ثمار الشجرة . والآله توت كاتب السماء . وإلهة الليل آتمو التى تسجل حظ الفرعون من الخير والمتعة

والصورة - ٣ - توضح الكيفية التى تم بها صيد الطيور (وجدت بطيبة) . فترى إلى أقصى اليسار رجالا ثلاثة ، يجذبون حبلا ربط إلى مجموعة من الشبك ، أحاطت بالطيور المصادة بها . أنظر إلى الساقين الأولين على يمين وعلى يسار شجرة اللوتس ترى على زهرة الأولى منهما طيوراً صغيرة وعلى الأخرى بيضاً . وأما بقية التفاصيل فهى متروكة لدقة ملاحظة القارىء

والصورة - ٤ - هى لثلاث لوحات ، أولاها إلى اليمين تبين كيفية عصر العنب للحصول على النبيذ - والوسطى لطريقة حلب البقرة ، فترى القائم لعملية الحلب ومساعده الذى يحرص على منعها من التحرك - أما اليسرى فهى تريك منظراً جميلا ، استطاع الفنان أن يخرجه إخراجاً قوياً . أنظر إلى البقرة تثنى عنقها لمداعبة ابنتها العجلة الصغيرة يشار كها فى الرضاعة ولد صغير



(ش ٦) المصورون

والصورة - ٥ - ذات موضوع خلاب يهم المشتغلين بتاريخ القضاء ، فهى تمثل قاضياً جلس إلى منصة الحكم ، وأمامه رجل

يجر الماعز المسروقة لاثبات الحادث

وإلى يسارها صورة تبين كيفية توقيع العقوبة بالجلد وذلك بطرح المجرم أرضاً ، وضربه على الظهر بعصا . وإذا نظرت إلى أقصى اليسار ترى رجلا ممسكاً بقدمى آخر . أما يداه فقد أمسكهما رجلان قعدا عند رأسه

والصورة - ٦ - وجدت ببنى حسن ، وهى أيضاً طريفة الموضوع ، تهم المؤرخ الفنى . فهى توضح فى جلاء الطريقة التى اتبعها الفنانون فى التصوير ، فترى الفنان وقد جلس متوسط الصورة ممسكاً ريشته بيمناه ، وكأس الألوان بيسراه . مستمر فى تكميل تصويره لعجل صغير بعد أن أتم تصوير البقرة وأمامه جلس مساعده ممسكاً لوحة التصوير

ووراء هؤلاء تشاهد فنانا آخر يلون تمثالا من الخشب أو الحجر . كما كانت عادة المصريين دائما ، وكما سبق التنويه بذلك المثال فى الفائت

ومن هذه الصور الست ، التى لا تعد شيئاً بجانب المئات التى تركها المصريون على حوائط معابدهم ومقابرهم ، يمكننا أن نستخلص أن الفن لا يكون إلا حيث توجد الحضارة . وأن مصر عرفت قيمته وعملت على ترقيته فى القرن العشرين قبل الميلاد ، ولكنها مع مزيد الأسف لا تعرفه ، ولا تعترف بوجوده ، ولا تفهم حتى مدى نفعه أو ضرورته فى القرن العشرين بعده ؛ ولا أبلغ مما قاله شاعرنا احمد الزين تسجيلا لهذه الحالة :

علام يجيد الفن فى مصر متقن ... إذا كان بالتهريج نيل المراتب

فياجهل واصلنا وياعلم فابتعد ... ويا حمق لازمنا ويا عقل جانب

أرى الجهل نوراً فى بلاد رجالها ... خفافيش يعشيها ضياء الكواكب

إذا الشعب بالاهمال أرسب عاليا ... فلا عجب لو يعلو به كل راسب

أحمد موسى

البريد الأدبي

العيد المئوي لوزارة المعارف

تحتفل وزارة المعارف العمومية في التاسع والعشرين من مارس الجاري بمرور مائة عام على إنشائها، وستنظم بهذه المناسبة حفلات رياضية وتمثيلية، ويقام معرض للتعليم والتربية تستعرض فيه مراحل التعليم وتطوراته في مصر مدى قرن، ويوضع كتاب ذهبي يتضمن تاريخ التربية والتعليم في هذا القرن إلى غير ذلك مما ترى وزارة المعارف أن تتخذه للاحتفاء بعيدها المئوي. والواقع أن المناسبات والاحتفالات المئوية في تاريخ مصر الحديث قليلة، ومن الواجب أن يعتنى بشأنها وأن يحتفى بها كلما سنحت، تجديداً للذكريات القومية، وشحذاً للهمم، وتوطيداً لبناء المستقبل.

وقد مضت مائة عام كاملة منذ أنشئ «ديوان المدارس» في سنة ١٨٣٧، أنشأه مصلح مصر الكبير محمد علي، بعد أن أنشأ من قبله عدة من المدارس العالية والخصوصية، وأوفد عدة بعوث علمية إلى أوربا، وبدأت ثمار هذه السياسة المستنيرة تتفتح، ويتسع نطاق التعليم والتربية. وكان ثمة قبل إنشاء ديوان المدارس هيئة تشرف على التعليم تسمى بمجلس شورى المدارس، فرؤى أن ينظم مكانه «ديوان المدارس» الذي أصبح فيما بعد وزارة المعارف، واشترك في تنظيم الديوان المذكور عدة من رجال مصر المثقفين الذين تلقوا العلم في أوربا، وانتخب لرآسته مصطفى مختار بك أحد خريجي البعثات فكان أول رئيس أو وزير لديوان المعارف المصرية؛ وشكل للاشراف على أعمال الديوان مجلس مؤلف من عدة من النوابغ الذين يرجع إلى رأيهم في شؤون التربية مثل رفاعة بك الطهطاوي، وكاوت بك وغيرهما؛ وقام المجلس المذكور بوضع لائحة لنظم التعليم، وقرر إقامة عدد كبير من المدارس في مختلف أنحاء القطر، منها عشرات من المدارس الابتدائية الاميرية، في معظم المراكز ومئات المدارس الأولية أو الكتاتيب، وبذا وضعت أسس النهضة التعليمية في مصر الحديثة

ومما يؤثر بالفخر أن التعليم كان يومئذ في جميع المدارس على اختلاف درجاتها وأنواعها مجانيا، وكانت الحكومة تتولى الانفاق على التلاميذ، وتعنى باطعامهم وكسوتهم، وتجرى عليهم بعض الرواتب المالية، وكان عدد تلاميذ المدارس الأميرية يومئذ يبلغ نحو العشرة آلاف

وتقلب في ديوان المعارف عدة من رجالات مصر الأفذاذ مثل علي باشا مبارك، تولى سنة ١٨٨٨، وبذل في تنظيم التعليم جهداً عظيما، ولا تزال آثار هذا الغرس زاهرة إلى يومنا

ووقعت وزارة المعارف مدى حين تحت سيطرة الاحتلال، وأخمدت روحها الاصلاحية أيام دانلوب ومعاونيه؛ ولكنها بدأت تتنفس في عهد الاستقلال؛ ولكنها والأسفاه مازالت مضطربة الأوضاع والنظم، ولم توفق إلى أن ترسم لها حتى اليوم سياسة ثابتة للتعليم

الصور الهزلية في الفن المصري القديم

أصبحت الصور الهزلية من أبرز نواحي الفن المعاصر، تتخذ أداة للتعبير اللاذع عن وقائع الحياة العامة، وأحوال الأشخاص وتصرفاتهم، وأضحت سلوة الألوف من القراء تثير ابتسامهم ومرحهم. وقد عرف المصريون القدماء فن الصور الهزلية، وألفوا فيه متنفسا للنقد اللاذع والسخرية العميقة. وتوجد لدينا نقوش وصور هزلية تدل على مبلغ ما انتهى إليه الفراعنة من الافتنان في هذا الباب، فمثلا توجد نقوش على البردى ترجع إلى ألفي عام قبل الميلاد، سطرت بها قصص عجيبة كقصص ألف ليلة وليلة من مناظر سحرية وشياطين وحيوانات تلعب أدوارا مدهشة، وتوجد صور هزلية مسلية في كثير من أوراق البردى المحفوظة في تورينو ولندن، ويبدو فيها شغف المصريين

بهذا النوع من تصوير الحياة العامة ؛ فالأمراء والوزراء وأكابر الزعماء يمثلون فى صور حيوانات مختلفة ترمز إلى معان هزلية . مثال ذلك صورة رسمت بها قطة تسير مضمومة الذراعين إلى جانب ثور مبجل (يمثل كبير البلاط) . وهما يسيران معا للمثول فى حضرة خصى قد صور فى صورة حمار ؛ أو صورة لفرقة الموسيقى الملكية مؤلفة من تمساح يبكى تأثرا ، وحمار يعزف على القيثارة ، وأسد يعزف على العود ؛ أو أسد (يمثل فرعون) وحمار (يمثل وزيره) يلعبان الشطرنج معا ؛ وهكذا . وكان للفنانين المصريين شغف بتمثيل مناظر الحياة العامة فى صور مضحكة لاذعة ، فمن ذلك صورة ذئب يقود الغنم ، وهرة تحرس الطير ، وكلاهما رمز لفساد الحياة العامة ؛ وهذه الصورة التى ترجع إلى بضعة آلاف من السنين تدل على مبلغ ما وصل إليه فن التصوير الهزلى لدى الفراعنة فى القوة والروعة . وعلى أن الفراعنة كانوا أيضا فى هذا الميدان أول الأساتذة والمبتكرين

كتاب جديد عن الاشتراكية الوطنية

ما زالت الاشتراكية الوطنية أو النظم التى تعيش فى ظلها ألمانيا الحاضرة مثار كثير من الجدل ، وقد ظهرت الى اليوم عنها تصانيف كثيرة بين الخصومة والتأييد ، ولكن روحها وغاياتها الحقيقية مازالت موضع الغموض والحدس

وقد ظهر أخيراً بالفرنسية كتاب جامع عن الاشتراكية الوطنية ربما كان أقوى وأوفى مؤلف ظهر من نوعه ؛ وعنوانه : « طغيان الفاشستية الألمانية » بقلم الآنسة جريته شتوفل La Dictature du Fascisme allemand ، ويمتاز الكتاب بالوضوح والترتيب ، وينم عن دراسة عميقة وفهم شامل للنظم التى تعيش فى ظلها ألمانيا الحاضرة . وقد استهلته المؤلفة بمقدمة تاريخية ، ثم تناولت سلطات الدولة الأساسية بالتعيين والشرح ، ففى شخص « الزعيم » (هتلر) تجتمع كل السلطات ، فهو رئيس الدولة ورئيس الحكومة ، وهو المتصرف المطلق فى جميع نواحيها الإدارية والقضائية والعسكرية ، وهو المشرع الأعلى ؛ وهو يفوض سلطانه الى وزراء ، ليسوا إزاءه سوى موظفين أصاغر ، وأما الريخستاج (البرلمان) فهو اسم على غير مسمى ، فهو لا حق له إن يقترح أو يعارض ، وليس عليه إلا أن يوافق ويؤيد ، والحزب (حزب النازى) يندمج فى الدولة ، وهو يجمع الشعب ولا يقوم نظامه حسب قول هتلر الأعلى « السلطة والنظام والمسئولية والخضوع » ؛ ومن أدلة هذا الاندماج أن نفس الرجال يديرون الحكومة والحزب معا ، ورجال الحزب هم الذين يستولون على الوظائف ، وشعار الاثنين واحد هو « هايل هتلر » . بيد ان الحزب لم ينجح فى كسب الجيش ، ولكن الجيش فى يد الزعيم

وقد قضت الاشتراكية الوطنية على نظام المانيا الاتحادى واستأثرت الحكومة المركزية بكل السلطات ، أما النظام النقابى فيقوم على حشد العمال فى جبهة الاشتراكية الوطنية ، وتنظم جميع المهن والحرف فى طوائف تحشد فى نفس الجبهة . تحدثت المؤلفة بعد ذلك عن الخلاف بين الكنيسة والدولة وعن النظرية الآرية ومراميها الحقيقية ، وعن سياسة الاضطهاد الدينى والجنسى التى تضطرم بها الآن ألمانيا الهتلرية . هذا والطغيان الهتلرى لا يقوم إلا على الارهاب والعنف ، والقضاء خاضع لخدمة الدولة والتشريع الجنائى ليس إلا أداة للكفاح لا تعرف الرأفة أو العدالة ، وتقضى محاكم الشعب دون تحقيق ، وتسير فى قضائها تحقيقا لأهواء الحزب والزعماء . والخلاصة ان القضاء والبوليس والجيش والهيئات الحزبية تعمل كلها لسحق أعداء النظام وخصومه ومع ان كل الحريات قد سحقت ، فانه توجد معارضة كامنة والدولة النازية هى أتم وأوفى أداة للطغيان فى عصرنا ؛ بيد انها بوسائلها العنيفة فى الكفاح والقمع تنافى كل المبادىء والاعتبارات الاخلاقية والانسانية "

هذه هى الصورة التى تقدمها الينا المؤلفة عن النظام الهتلرى وهى تقدمها الينا فى عرض بديع حقا مدعم بالأدلة والوثائق والاحصاءات . ويرى النقدة ان كتابها هو أقوى وأوضح بحث من نوعه ظهر حتى اليوم

حرب نيكوبوليس الصليبية

لعل أكبر الحوادث فى تاريخ الشرق والغرب هو تلك الحروب التى اصطلح المؤرخون على تسميتها بالصليبية ودامت عدة قرون ، تجلى فيها كثير من ضروب الفروسية والشجاعة مما يرى فيهما القصصيون مادة خصبة لهم . وقد كانت هذه الحروب ولا زالت ميداناً لكبار البحاث المؤرخين ، ولكن

مع ذلك لا تزال بحاجة للدرس والتمحيص . ومن الوقائع الشهيرة فى تاريخ العالم الاسلامى موقعة « نيكوبوليس » التى وصل فيها الأتراك إلى قلب أوربا ، وأصبحوا على أبواب المجر ، وهى مع مالها من أهمية قصوى لم يؤلف فيها أحد المتخصصين فى تاريخ العصور الوسطى كتاباً قائماً بذاته ، حتى قام بذلك أحد نوابغ الشبان المصريين الذى اختارته جامعات لندن وليفربول بانجلترا ، وبون بألمانيا أستاذاً بها ، ذلك هو الدكتور عزيز سوريال عطية ، فقد أفرد لها كتاباً خاصاً ألم فيه بما مهد لهذه الحرب . ويذهب المؤلف إلى أن الحروب الصليبية لم يكن بدء قيامها أو ختامها ما تآلفنا عليه ، بل هناك عدة حروب قبلها وبعدها كان الدافع لأوربا فيها على امتشاق الحسام عصبيتها الدينية ضد الاسلام . ولقد أصدرت إحدى دور النشر الكبرى بانجلترا Methuen هذا الكتاب القيم Crusade of Nicopolis للدكتور سوريال . وبلغ من أهميته أن قرظه أعلام التاريخ فى انجلترا وفرنسا وألمانيا والمجر وأثنوا على صاحبه الثناء الجم ، فقالت جريدة التيمس فى ملحقها الأدبى : « إن هذا الكتاب دراسة رائعة عن الظروف السياسية والمالية فى نهاية عصر الفروسية فى أوربا » وختمت الديلى بوست تقريظها له بقولها : « إن مثل هذا الكتاب يكتبه أحد أبناء مصر لشىء يفخر به جميع المصريين . . . إن نهضة مصر فى طريقها » وقالت مجلة معهد الدراسات الشرقية بلندن : « إن هذه الاضافة العظيمة الرائعة للتاريخ هى من غير شك نتيجة بحث عميق وميل قوى للموضوع . . وإنه لينبغى لكل مؤرخ أو باحث لهذه الفترة أن تكون لديه نسخة منه »

وقالت جريدة الجارديان : « . . . تقرير شامل يعتمد على المقارنة الدقيقة لمراجع كثيرة » ووصفه الأستاذ وليم ميلر فى مجلة التاريخ الانجليزية بأنه « كتاب دسم » كما أثنى على مؤلفه وموضوعه كثير من المجلات الأخرى كجريدة الحرية ، والجيش والجريدة الأسيوية . وقالت مجلة الثقافة الاسلامية الانجليزية بالهند: « إن تعمق الدكتور عطية فى هذا الكتاب لا يوفيه المديح حقه ، وإن التعاليق التى كتبها وإضافاته لهى بحث جديد يضاف إلى دراسته النقدية لهذه الفترة » وقالت مجلة J. R. I. S « إن الدكتور عطية ملم بكل نواحى الحروب الصليبية ، وكتابه قائم على المصادر المعاصرة لها بل والنادرة أحياناً . . . وإنا لننتظر منه الكتاب الشامل الأكبر فى المستقبل » كما امتدحته مجلة « بلمارى » ومجلة الدراسات الشرقية الألمانية Orientalische Literaturzeitung فقالت : « ان هذا الكتاب أوفى ما كتب عن هذه الناحية » وان مؤلفه ليعد حجة فى هذا الموضوع » ومع أهمية هذا الكتاب ، وتقدير أقطاب التاريخ له ومصرية مؤلفه فانه لم يترجم بعد .

تمثال شيخ البلد

قرأت بعدد الرسالة الأخير مقال الدكتور الفاضل أحمد موسى فى الفن المصرى القديم فاستوقفتنى تلك العبارة من كلامه عن تمثال (شيخ البلد) المعروف بالمتحف المصرى :

(وتمثال شيخ البلد تجده واقفاً فى شىء من اليقظة وضخامة الجسم التى يجب أن تتوفر فيمن يقوم بالشياخة الخ)

وقفت متسائلا : هل عرف النظام الإدارى القديم شيخ البلد كما تعرفه مصر الآن من أقصاها إلى أقصاها ؟ وبالتالى هل عرفت هوية صاحب هذا التمثال وعرف عمله فى الدولة ؟ أم أن الحقيقة هى ما قرأناه فى كتب التاريخ من أن عمال الحفر لما أخرجوا هذا التمثال من مكانه راعهم ما وجدوا من شبه قوى بينه وبين شيخ بلدهم فأطلقوا على التمثال (شيخ البلد) ثم لزمته التسمية ولم يغيرها علماء الآثار لما لم يعرفوا حقيقة صاحبه ولم يجدوا به من النقوش أو الكتابات ما يبوح بسره وينم عن جلية أمره ؟

وهل للدكتور الفاضل أن يميط اللثام عن حقيقة التمثال المذكور خدمة للعلم والتاريخ فنكون له من الشاكرين ؟

(م . ح بأسيوط)



ملحمـــة عبقر

للشاعر المطبوع شفيق معلوف

رمى الكثيرون الشعر العربى بالعجز والقصور عن متابعة الشعر الغربى فى القصة والملحمة والرواية التمثيلية ؛ ولكن ناظم عبقر ضرب لهؤلاء المثل الحى على أن العيب واقع على عاتق الشعراء أنفسهم لا على اللغة ولا الشعر. ولقد ظلت عبقر مدى العصور تتردد فى ألفاظ كثير من الشعراء. ولكن لم يفكر واحد منهم فى أن يخرج لقراء الضاد قصيدة عنها بقدر ما توحى اليه من خيال ؛ كأنها أبت أن تكشف سترها وتميط اللثام عن حقيقتها إلا لهذا الشاعر المحلق فى سماء الجمال، فحمله شيطانه إلى عبقر، وأوديتها السحرية؟ وهناك كشف له سر الحياة، فوقف على المجهول من أمرها، حتى إذا عاد إلى دنياه صوره بلغة أهل الأرض؛ فأبدع فى ذلك ما شاء له الابداع، ورسم هذه العوالم الدفاقة بالسحر والخيال وقربها إلى قارئيها فاذا هم يعيشون ويتحركون ويتنفسون فيها، وإذا هم يحيون فى مهابط الجن، ويقضون مع حورها لحظات لا يحسون فيها لغب الواقع، ولا تعب الحياة وأوضارها، ولست أدرى أيهما خلد الآخر: هل خلق شفيق عبقر، أم هى التى خلقته؟

حمله شيطانه إلى عبقر ذلك الشيطان الذى:

فى فمه من سقر جذوة يطير منها الشرر الثائر
ووجهه جمجمة راعه أنيابها والمحجر الغائر
كأنما محجرها كوة يطل منها الزمن الغابر

ويمضى الشيطان بصاحبه إلى عبقر ليريه «جنا من النور جلابيبها»، وإذ يهبط الاثنان عبقر، يرى الشاعر «الغمائم الزرق، وفى أبراج المنازل» وثور ضجة بها يضيق الأفق الأوسع، ثم يحط به الشيطان عند عرافة عبقر فاذا بها عجوز شمطاء طواها الكبر، ولقد أبدع الشاعر أيما إبداع فى وصفها بقوله:

تلف ثعبانا على وسطها يكمن فى نابيه كيد القدر
مجامر الصندل من حولها تألب الجن عليها زمر
ينبعث الدخان من شعرها ويلتظى فى مقلتيها الشرر
كأنما الله لدى بعثها زودها بكل ما فى سقر

وفى حديث العرافة له ترى الوصف المر الأليم للإنسان، وما انطوت عليه نفسه من مكر وخديعة، وترى روح التهكم تنبعث على لسان العرافة ساخرة بكبرياء ابن آدم وقد خال «نفسه أعلى من ربه، وحسبه عيبه فضلا»، وأية سخرية أشد وقعا مما انطلق به لسانها من أنها:

تخشى على الثعبان من شره فى نابه السم كان وصار فى صدره

وينطلق به شيطانه إلى امرأة قد كورت من حلقات النور أضلاعها تلك هى «الشهوة»، وإن وصفه الرائع لها، ليجعل القارىء يخال الشهوة قد جسمت امرأة وهى تضج:

من لى بحب نوره ينبلج من شرر محتدم فى المقل
من لى بثغر لاهب تنفرج ثغرته عن شعلات القبل
يا حامل الجسم ألا أعطنيه وخذ إذا شئت خلودى ثمن
وشاحى النارى من يشتريه فإننى أبيعـــه بالكفن.

ويمضى به الشيطان إلى الكاهن سطيح الذى يرى أن الله خلصه برحمته حين استل منه العظام «وملأ الفراغ من حكمته»، أما الكاهن شق فقانع بنصفه، وما ضره أن حباه الله بيد واحدة إذ:

هل تنفع اليدان والواحدة تهدم ما تشيده الثانيه

ويخلص القارىء من مغزى هذه الحكمة أن فى النقص كمالا، ولكن الشاعر يهوى بالأسلوب فى قوله «والله يهدينى سواء السبيل» فهى نابية فى موضعها لا تلائم الذوق الشعرى، وإنك لتلمح رثاءه للبغايا وألمه لهن خلال وصفه الشعرى الجميل لهن فهن:

دسن من الحديد بحمره ورحن يقحمن البراكينا
يلغن فى الجمر ويغبنه غبا ويرشقن به الشياطينا
زج بهن الله فى عبقر يبلو بهن العبقريينا

وينتهى بالشاعر المطاف عند رفات العبقريين من الشعراء والأدباء، وفى نشيد جماجم هؤلاء العباقرة تلمح تقديس الشاعر لهم، فهؤلاء أرواحهم تبنى قباب الخلود «بغير أحجار الورى»، وهم فى موتهم يعيشون على .. الحب الذى:

إن كانت الأرض جحيما له وكان فيها تهنأ الأرض

هذه جولة فى عبقر المعلوف، فاذا كان فوزى قد حلق على «بساط الريح»، فان أخاه فى عبقر قد تغلغل فى ثناياها مع حورها وكهانها وعرافتها وشياطينها

وإن خيال شفيق لمنسجم مع تفكيره، وهذا سر إبداعه، فلا جرم إذا حلق خياله من شاهق ولم يسف فى شعره. ولا عجب إذا طالعنا ذلك الشاعر بنفحات من الشعر الخالد فى لفظ متسق، وجمال مطبوع، وبيان عذب فصيح، وخيال لو قيل له اختر صاحبا لما اختار غير شفيق.

حسن حبشى

5 me Année, No. 195

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠	في مصر والسودان
٨٠	في الأقطار العربية
١٠٠	في سائر الممالك الأخرى
١٢٠	في العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

Lundi - 29 - 3 - 1937

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٠

العـــدد ١٩٥ «القاهرة في يوم الاثنين ١٦ محرم سنة ١٣٥٦ — ٢٩ مارس سنة ١٩٣٧» السنة الخامسة

فهرس العـــدد

وزارة المعارف

بمناسبة عيدها المئوي



«مصطفى مختار» أول ناظر للمعارف

في الساعة العاشرة من صباح هذا اليوم تحتفل وزارة المعارف بانقضاء مائة عام على مولدها السعيد. ووزارة المعارف لا تزال ناشئة وإن أدركت المائة؛ ولعلها لم تبلغ الرشد إلا منذ أعوام قلائل، فإن القرن في عمر الأمة كالعقد في عمر الفرد، والشباب المهمل وإن طال بلاهة وغفلة — كان يومها الذي أبصرت فيه الوجود من الأيام الغر الوضاء في عهد الأمي العبقري الطموح محمد علي باشا. رأى بعينه الكلوء أن ما بالغرب من حضارة وعمارة وقوة إنما أساسه الجيش والعلم وأدرك بفؤاده اليقظ أن الجنود

الألبانيـة لا تؤمّن الخوف ولا تحقق المطامع ، وأن الجامعة الأزهرية لا تعلم علوم الدنيا ولا تدرس فنون الحرب ؛ وأكبرَ ما ترك نابليون بمصر من الآثار الصالحة على قصر احتلاله واضطراب حاله ، فحصر هذا الرجل النظورُ همه وعزمه فى إنشاء مصر الجديدة على الوضع الذى استقر عليه الزمان الحاضر والانسان الحديث ؛ فأقام المدارس للحرب وما يتصل بها من الطب والصيدلة والبيطرة والهندسة والكيمياء والعلوم والألسن ؛ ثم ربط هذه المعاهد المختلفة الدرجات والغايات بادارة واحدة سماها (ديوان المدارس) وجعل أعضاءه عشرة من المصريين الذى أوفدهم إلى أوربا ، والأوربيين الذين أقدمهم إلى مصر ، وجعل عليهم الأستاذ مصطفى مختار الدويدار

كان من ذلك الديوان الصغير ذلك الصورُ الذى انبعثت على صوته مصر ، والنسم الذى تنبهت من نفحته العروبة ، والقبس الذى استضاء بنوره الشرق . وكان من الطبيعى يومئذ أن يكون التعليم للحكومة لا للشعب ، وللبنين لا للبنات ، وللمادة لا للأدب ، فكانت الحركة الثقافية تتسع وتضيق تبعاً لحاجة الجيش والادارة . فلما فترت الوثبة العلوية فى عهد عباس وعهد سعيد زاد عرض هذه المصانع العلمية ، على طلب الدواوين الرسمية ، فوقفت البعوث ، وأغلقت المدارس ، وكانت ثلاثاً وستين مدرسة ابتدائية ، ومدرستين تجهيزيتين ، وإحدى عشرة مدرسة عالية ، فلم يبق منها إلا ثلاث للحربية والطب والصيدلة

***

أما اسماعيل فكان رجلا آخر . لم يكن سياسياً طامعاً كجده ، ولا عسكرياً فاتحاً كأبيه ، وإنما كان مدنياً باريسياً له ذوق ، وبه ترفع ، وفيه زهو ، فجعل التعليم للتمدين والتثقيف ، لا للتجنيد والتوظيف ، وطمح إلى أن تكون مصر جزءاً من أوربا ، فى مبانيها ومعانيها ، ورفاهتها وأنظمتها ، ففتح ما أغلق من المدارس وزاد عليها ، وأعاد البعوث إلى أوربا ، وأقام نظارة المعارف على هذا الوضع المعروف وأنشأ لتغذيتها دار المعلمين ، وابتغى الأسباب لتقليل الأمية ، وتلمس الوسائل لتعميم الثقافة ؛ وسار الأمر على هذا الطريق الواضح حتى دهانا الاحتلال الانجليزى وكل شىء كان يتحفز للنهوض ويتوثب للرقى ، فكأنما صبيت ماء فى نار ، أو أقمت سداً فى تيار !

كان التعليم فى أواخر عهد اسماعيل واسع النطاق متعدد المناحى شعبى الغرض ؛ فالمدارس موفورة العدد ، واللغة العربية لسان المعلم ولغة الكتاب ؛ فأخذ الانجليز منذ اغتصبوا السلطان يقطعون أسباب هذه النهضة ، ويسيرون بالتعليم إلى وجهة أخرى ، فأغفلوا البعوث وأغلقوا مدرسة الألسن ، وأبطلوا المجانية وأهملوا اللغة العربية ، وجعلوا التعليم كله بالانجليزية ، وقصروه كما كان قبل اسماعيل على تخريج عمال للحكومة لا إعداد رجال للشعب ؛ وصار ا[illegible] (دنلوب) علماً على نوع من التدريب الاستعمارى الآلى تروَّض به النفوس المتمردة على الضراعة ، والألسنة الآمرة على الطاعة ، والعقول المستقلة على التبعية . فكان من عواقب هذه السياسة السفيهة أن اتسع التعليم وضاقت التربية وكثر المتعلمون وقل العلم ؛ فنجحت الجهالة ، وانتشرت البطالة ، وفسد الأمر فى الحكومة ، وساء الحال فى الأمة . ثم اشتعلت الحرب الكبرى فى أنظمة دنلوب وأمثالها فى كل دو[illegible] فأكلتها أكلا ذريعا ، ثم خمدت فاذا بقاياها فى كل مكان عصيان وطغيان وثورة ، وإذا مصر تفلت من ربقة (جون بول) فتطلب الاستقلال ، وإذا المعارف تخرج من وصاية (دنلوب) فتبلغ الرشد ! ولكن الراشد لا يزال قريب عهد بالقصور ، فهو يختلج ليستقيم ، ويتذبذب ليعتدل ، ويتجمع ليثب . فاذا احتفلنا اليوم بمرور هذا القرن على وزارة المعارف ، فانما نحتفل بعهده السعيد الذى أقبل ، وتطورها الجديد الذى لاح ، ومستقبلها الواعد الذى أشرق .

احمد حسن الزيات

فى المرقص

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى

جلست فى ركن أرى منه الناس جميعا وذهبت أنتظر صديقى . والانتظار ثقيل ولكنه هنا مما يهون أمره ، فقد كان اليوم يوم أحد ، وكان المكان غاصا بالفتيات الجميلات ، وكانت الموسيقى لا تكف عن العزف ، فالرقص لا ينقطع وحركته لا تفتر ، ولا يزال الشبان ينهضون ويتقدمون من الفتيات وينحنون لهن باسمين فترفع الواحدة منهن حاجبيها الدقيقين اللذين يبدوان كأنهما مرسومان وتبتسم وتنهض ويداها على ثوبها لتصلح منه ما أفسده الجلوس . وكان يخيل إلىّ أن كل إنسان هنا يعرف كل إنسان آخر إلا العبد لله ، فما كنت أرى وجهاً من أعرف . وصفقت فجاء خادم سمين أسود الوجه غليظه فقلت : اسقنى شيئا مما عندك ، وكان صوتى خافتا وقد زادت الضجة خفوته ، فمال الرجل على وهز وجهه الكبير فقلت : هات أى شىء بارد .. أى شىء .. اذهب ، فقد كان يحجب عنى الدنيا

وأدرت عينى فى المرقص فسرتنى المناظر . آه ! .. هذه البيضاء ذات الثوب الأرجوانى ما أحلاها .. شعرها ذهبى وخصله الجميلة تهتز تبعا لحركة الرقص وكف زميلها على ظهرها تجعل هيف خصرها واستواء ردفها أوضح وأوقع فى النفس وأسحر للعين ، وقد دارا الآن فأنا أرى كيف تمنح صاحبها صدرها .. إن صدرها ليس على صدره .. كلا .. ثديها الأيسر وحده هو الذى أراه على صدره .. ما أحلى هذا ! . ليتنى كنت مكانه ! وأحلى ما فيها إشراق وجهها النضر .. إنها مسرورة تضحك وتثنى رأسها راضية مغتبطة . فليت شعرى ماذا يقول لها هذا الشاب الحاذق ؟ ..

واختفيا عن عينى وحجبهما غيرهما من الراقصين والراقصات .

آه .. هذه أيضا حسناء . ولا شك .. ثوبها فيما يبدو لى قديم .. ووجها باهت اللون .. والأبيض كثير .. ولكن معارفها حسنة وعينها واسعة حوراء .. أم ترى هذا فعل الكحل ؟ .. لا أظن . ولكن صاحبها لا يدنيها من صدره وإنى لأرى بينهما مقدار شبر .. ولا يحادثها ولا يهمس فى أذنها بكلمة .. فهما يدوران فى صمت .. خسارة .. كنت أحب أن أرى وجهها وهى مسرورة تضحك .. ذهبت الآن على كل حال .. فلننظر إلى غيرها ..

وراقنى فرق ما بين الفتيات وهن يرقصن .. هذه واحدة تقف من صاحبها كالسيف .. خط جسمها مستقيم تماما .. وتلك التى تلبس هذا الثوب الأخضر تنأى بساقيها عنه وتلقى بصدرها على الفتى ، فلو تخلى عنها لكان الأرجح أن تقع على الأرض مكبوبة على وجهها الجميل .. أم ترى هذا ليس إلا وهما ؟ ومن يدرى ؟ .. لعلها تتقى أن يغلط مراقصها فيدوس أصابعها الصغيرة فهى لهذا تبعد بساقيها عنه .. ومن يدرى أيضا ؟ .. فعسى أن تكون غايتها أن تريح صدرها جدا عليه .. وهذه السمينة التى تحرك جسمها الثقيل ببطء .. صاحبها أسمن منها فهما مسكينان .. ألا ترى كيف يمسح عرقه .. ولكن الغريب أنى لا أراها تعرق مثله .. وأحسب أن هذا من فضل الله فلو تصبب عرقها لَنَثَّرَ على المسحوق ورسم خطوطا تجعل وجهها كأن فيه أخاديد .. ولكن لماذا وكيف لا تعرق ؟ ..

وسكتت الآلات وكانت الارجوانية من جيرانى ولكن وجهى كان إلى غير جهتها فلم أستطع أن أديره إليها .. قاتل الله الشعور بالذات .. لماذا لا أنظر إليها ؟ .. لن أخطفها أو آكلها .. ولا أظن أن نظرى إليها يسوءها كما يسوءها الانصراف عنها كأنما هى لا تستحق نظرة .. وإنها والله لآية .. ولمحت شيئا عظيما إلى يمينى فى مدخل النافذة فالتفت فإذا الخادم الأسود الضخم الجثة فضحكت — فى سرى فما أستطيع أن أقهقه وأنا وحدى فى هذا الحشد — وحدثت نفسى أن الله اختار لى أن يكون هذا الزنجى العظيم زميلى فى ليلتى هذه وأنيسى فى وحدتى .. وحولت وجهى عنه مستعيذا بالله ، ونظرت فى الساعة ورجوت أن يحضر صاحبى فيزيل هذه الوحشة وينحى عنى هذه الغمة الحالكة السواد .. ولكن صاحبى لم يجىء فلا بد أن أعتمد على نفسى فالتفت إليه وطلبت شيئا لأصرفه عن مكانه فذهب ووسعنى أن أجيل عينى مرة أخرى فى الجلوس فرأيت فتاة فى ثوب ذا كن الحمرة ذى شقين وفى أذنها قرط هو حبة كبيرة من اللؤلؤ .. المزيف بالطبع .. وهى سمراء فلعلها مصرية .. أعنى لا عبرانية ولا أوروبية .. وشغلنى من أمرها أنى لا أستطيع أن أتبين أهى بدينة أم نحيفة ..

وتعجبت لهذا . . ولكن المائدة أمامها وهي متكئة عليها بذراعيها فالبادى منها هو صدرها مضموما . . ووددت أن تقف . . أعنى أن يدعوها أحد إلى الرقص . . ولكنى لا حظت أنها لا ترقص أبدا . . ولم أر واحدا من هؤلاء الشبان دنا منها وانحنى لها أو ابتسم أو أشار أو فعل غير ذلك مما تدعى به الفتاة إلى الرقص . . فهل هم يعرفون أنها لا ترقص ؟ . هي مثلى إذا . . ولكنى مهيض الساق فهل تراها . . ؟ لا لا . . إنى رجل ، فلا بأس ولا ضير على من كسر يصيب ساقى ولكنها تكون مسكينة حقا إذا كان الله قد امتحنها بمثل ما امتحننى به . . أعوذ بالله . . كلا . . لا أظن . . وشاء حسن الحظ أن تقوم الفتاة فى تلك اللحظة وأن تقبل على جيرانى فإذا قدها سخيف جدا فانصرفت عنها وحمدت الله الذى أبى أن يشغلنى بها عن الجميلات . .

وأطفئت الأنوار وبقيت بضعة مصابيح حمراء وخضراء وعزفت الموسيقى لرقصة التانجو فقلت هذا أحسن وأمتع . . واذا بشاب أسود وعلى عينيه نظارة يقترب من الفتاة الهيفاء ذات الثوب الارجوانى ويهز لها رأسه فتنهض مرتاحة مسرورة يا أخى ! . . أما ان هذا لغريب ! . . من أين عرفها ؟ . . بل من أين جاء ؟ فقد درت بعينى فى المكان كله ولم أدع ركنا أو زاوية الا حدقت فيها ؛ ولست أعمى ولا قصير النظر وان كنت أحمق قليل العقل . . وهززت رأسى مستغربا . . وقلت لنفسى لولا ان الله ابتلانى بساق لاخير فيها أما كنت انهض انا أيضاً لأراقص هذه البنت الجميلة ؟ . . وزاد عجبى أنى رأيته يحسن الرقص وأنها فرحة به ومقبلة عليه . ورنت ضحكتها الفضية فقلت لنفسى ياملعون ! . وظريف أيضا ؟ . . اذن أنت تستحق هذه النعمة التى كنت أظنك غير جدير بها . وقد وهبتكها فليس أحق بها منك ! . .

وكانت أصابعى تعبث بعلبة الكبريت وتحركها على صوت الموسيقى أراعى الراقصين ولا يفوتنى ان أنقد حركاتهم اذا كان قد فاتنى ان أشاركهم ، فجعلت أقول لنفسى . . لا . . هذه الميلة ليست حسنة ولا رشيقة . . كان ينبغى أن يكون الانحراف فيها أقل . . هذا الأحمق يجب أن ينزل بكفه الغليظة الى الخصر . . ماذا يظن أنه يصنع ؟ . . ألا يرى أن الفتاة تميل الى الوراء فكيف يبقى كفه على طرف الكتف ؟ . أما انه لمجنون . . وهذا الأبكم ألا يجد كلاما يقوله لصاحبته فيشيع البشر فى محياها ؟ . . لماذا يدعها كأنما صب وجهها فى قالب ؟ . فى أى شىء غيرها يفكر هذا الأبله ؟ . . أما لو كنت أنا مكانه ؟ . . اذن لأريته . . ولكنى مع الأسف قاعد أنظر ولا أرقص . وقد خدرت ساقى من طول ما تركتها على أختها فلأرحها قليلا

وأنزلت ساقى والتفت وأنا أعتدل فى مجلسى فاذا الزنجى الضخم واقف الى جانبى ، فقلت يالها من ليلة سوداء ! . ماله لا يتحول عن هذه النافذة ؟ . . وخطر لى أنه يتوهم أنى قد أهرب منها فانها تؤدى الى شرفة تنتهى من آخرها الى السلم ، فقلت أعطيه القروش التى لا يستحقها وأريحه وأستريح فقد طلبت شيئا باردا فجاءنى بشاى سخن . وأحسب انه لم يسمع أو لعله ظن الشىء شايا . . فما أذكاه ! . . وبدا لى أنى أظلمه فليس ذنبه انه أسود وان جثته ضخمة وان شكله بغيض . ثم ان له حقا فى الوقوف حيث يشاء مادام لا يزحم المكان ؛ وأين بالله يقف الا فى مدخل باب أو نافذة استعدادا لتلبية الطلبات ؟ فلندعه على كل حال .

وأردت أن أنهض وأنصرف فقد تأخر صديقى جدا ولم يعد من المنتظر أن يحضر ، ولكنى استحييت أن أمشى أمام هؤلاء الفتيات الجميلات وضننت بهن أن أعكر عليهن صفوهن برؤية رجل أعرج يظلع أمامهن ، وقلت أنتظر حتى يستأنفن الرقص ويشغلن به عنى . ولست أستحى من العرج الذى منيت به فما فيه ما يدعو الى الخجل ، لكنى أكره الفضول وأستثقل من الناس أن يديموا النظر الى رجلى كأنها شىء غريب جدا . وما ركبت الترام قط الا ضايقنى الناس بهذا الفضول . وما أكثر ما رأيتهم يتحدثون ويشيرون الى ساقى غير عابئين بشعورى . ولهذا رأيت أن أتخذ سيارة لأريح نفسى من هذا الفضول

وودعت الخادم الغليظ وتحريت أن أرضيه فقد ظلمته وان كان هو لا يدرى ولا يعرف ما كان يدور فى نفسى كلما وقف الى جانبى . وخرجت مترنحا ـ لا من السكر فما شربت الا ماء فقد تركت الشاى ـ وانما كنت أترنح لأن رأسى كان يدور . ولى العذر فقد يحتمل المرء واحدة جميلة ولكن من العسير أن يحتمل فتنة كل هذا الجمال الراقص

ابراهيم عبد القادر المازنى

حافظ ابراهيم شاعر الفخامة

للأستاذ كرم ملحم كرم

حافظ العسكرى اقتدى بالبارودى العسكرى
فجاء شعره قوياً كالأمر دقيقاً كالنظام

ظهر الشعر ضعيفاً فى مطلع عهد الانبعاث . فكأنه ليس بالشعر ، إن هو إلا كلمات مرصوفة بعجز ، لا تدل على معنى سام ، ولا تزخر بالقوة . وكأن أولئك النظامين يجهلون حسن الصياغة ، فنفحونا بشعر مائع فى معناه ومبناه . وكل ما رموا فيه إلى الاقتداء بالأقدمين . لا فى سبكهم الشعر بل فى مواقعهم من ولاة الأمر . فعلموا أن الأخطل كان يمدح معاوية ويزيد ويتمتع برحابة عبد الملك ، وأن أبا نواس مدح الرشيد والأمين ، وأن المتنبى تغنى بمآثر سيف الدولة ، إذاً عليهم أن يمتدحوا الحكام والولاة . عرفوا أن الشعر يبدأ بالغزل وينتهى إلى المدح ، فنهجوا هذا النهج اندفاعاً وراء البحترى والمتنبى ومهيار الديلمى ومن جرى مجراهم من شعراء العصر العباسى الأخير

وطالعوا فى صفى الدين الحلى الطباق والجناس وتسخير المعنى للألفاظ ، فقلدوا صفى الدين فيما أنشدوا من شعر ، وما نظموا من قصائد خالية فى معظمها من روعة البيان والابتكار

بلى ، لقد حاول الشيخ ناصيف اليازجي الخروج عن هذه الدائرة ، إلا أنه لم يكن ابن نفسه فى معظم ما أنشد . فهو مدين للمتنبى فى أكثر قصائده مع كونه شاعراً ، على أن الشاعرية لا تنفى التقليد

وأول من برز من الشعراء الأقحاح بعد الشيخ ناصيف اليازجي هو محمود سامى البارودى ، فجمع بين حسن الصياغة والمعنى . وإن يكن هذا المعنى غير مبسوط أحياناً ينحصر فى نطاق معلوم ، فهو خير ما جاد به علينا مطلع عصر الانبعاث . وتكفى تلك الصياغة المشرقة التى اهتدى إليها البارودى ونبذ بها الركاكة الشائعة يومذاك ليكون لهذا الشاعر فضل عميم على القريض . فالشعر العربى نهض بالاستناد الى البارودى نهضة نشاهد آثارها فى شعراء اليوم . وقد تكون نهضته نهضة ألفاظ أكثر منها نهضة معان . على أن نهضة الألفاظ هذه صقلت الشعر ، ونفت عنه الاضطراب ، وقادته فى طريق سوى انتهى به إلى شعر المعانى الأنيق ، البراق الظاهر ، الخالى من كل وهن وعيب سواء فى لغته أو تركيبه

وحافظ ابراهيم اقتدى بالبارودى فى حسن صياغته . فعمد الى الشعر العالى النفس ، المتين القالب ، يشد به نفثاته . وكأننا ونحن نقرأه نسمع الفرزدق أو بشاراً ، على ان هذا الشعر لم يكن موفقاً فى معظم الأحيان بمعانيه مثله بألفاظه

فهناك ألفاظ مختارة تعيد الى الاذهان عصر الجاهلية وما تلاه من أعصر أشرق فيها الأدب العربى وأزهر . ولا نكير أن الشعر فى الجاهلية وصدر الاسلام والأعصر العباسية كان أشد خصباً فى المعانى من شعر الانبعاث فى مستهله ، بيد أن النهضة لا تعتمد على الطفرة فى مسيرها بل تمشى وئيداً الى هدفها الأعلى . ولا بد فى مطلع كل نهضة أدبية من هزة لفظية تجتاح القوالب الرثة لتقيم الأدب الجديد على ركن لغوى سليم

والهزة اللفظية بدأها اليازجى الكبير والشدياق ونقلها الى مصر اليازجى الأمين ؛ فلا عجب اذا اعتمدها البارودى فى بيانه وتلاه حافظ ابراهيم . وحافظ تأثر بالبارودى فى شعره ومسلكه ، وطمع فى أن يرتقى يوماً الى مستوى هذا الشاعر العسكرى . فالبارودى تربع فى مقعد الوزارة ، وحافظ شاقه أن يجلس يوماً فى هذا المقعد وان يبلغ شأن زميله . وهو لما كان يرتدى ثوب ضابط فى السودان ما انفك عن التودد الى الشيخ محمد عبده . وكل قصده أن يمهد الشيخ له السبيل الى الوزارة أو الى منصب سام فى الجيش . بيد أنه لم يقع منه على ضالته . فالشيخ كان يتناول رسائل حافظ ويطويها دون أن يكترث كل الاكتراث لهذا الضابط الوافر الآمال ، العاقد عليه رجاءه . فيئس حافظ أو كاد ، ودعا اخوانه الى التمرد على الأوامر العليا ، ومال عن الجيش الى الاشتغال بالأدب فى مصر . ومع كل مالقى من فتور الشيخ محمد عبده ظل له على وفاء وولاء . وانتابته الفاقة وهو يرقب انصاف الشيخ له وما تولى عمن تولى عنه .

* * *

وكان ميدان الأدب يضيق بالفرسان . فهناك شوقى ومطران وولى الدين واحمد محرم والمنفلوطى . وظهر شوقى فى القمة يزاحمه

عليها خليل مطران . على ان حافظاً لم يدركه اليأس . فدفع فى الحلبة جواده يبغى الوصول الى القمة شأن شوقى نفسه . على أن ما توفر لشوقى لم يتوفر له . فقد ملك شوقى المال والثقافة معاً . فكان واسع الاطلاع ، ناعم البال ، يعلم حق العلم ان عيشه مضمون فى حاضره وفى غده . على حين ان حافظاً فقد أمله فى الحاضر والمستقبل . فكافح الشقاء ، غير أن الشقاء أقوى منه . ونظر الى آتيه واذا الآتى يبدو مبهماً ان لم يبد فاحماً أسود

فى هذه البيئة المضطربة عاش حافظ بين الافلاس والشقاء والأمل الطعين . فلا يسعفه من اعتمد عليهم ولا ينجده دهره . ولم يبق لديه سوى بيانه . على أن البيان لم يوفر له العيش الرغيد مع كل ما فطر عليه من حسن المخالقة وحلو الحديث ونبل النفس ؛ فلم يكن حافظ ممن يتسفلون الى استجداء اللقمة ، بل كان يجتهد ما استطاع فى صون كرامته وهو الرجل العسكرى الشديد الحرص على شرفه وواجبه

ولمعت قصائد حافظ الأولى . وقام الناس يقارنون بينه وبين شوقى . فأدرك حافظ أنه بلغ القمة التى يصبو إليها ، وأن الحجر العثرة فى الطريق هو شوقى دون سواه ، فان هو ذلل هذه العقبة هان عليه كل عسير ونال المشتهى . فليس أمامه غير هذا الخصم وعليه ألا ينام عنه ، ومما كان يؤلمه أن يلمع شوقى لدى الخديو عباس وأن يؤثره عزيز مصر على الأدباء أجمعين . فلماذا يكون شوقى فى تلك المرتبة السامية ولا يترقى هو (حافظ) إلى المكانة نفسها ! . . ولقد كان يطمع فى مكانة أسمى ، فشاء أن يكون شاعر الخليفة العثمانى وأن يتفوق على شوقى فى أدبه ومنزلته إلا أن الأقدار لم تضمن له مايرجو .

فنقم على دهره وأبى أن يناصر مذهب شوقى السياسى فدرج على خطى محمد عبده خصم الخديو ، ونفخ فى بوق الوطنية فكانت قصائده تلهب الحماسة فى النفوس فيصفق لها العرب بأجمعهم لكون القوة تتجلى فيها . وغار منه شوقى فنسج على منواله فى رثاء مصطفى كامل وفى سقوط أدرنه وفى سقوط عبد الحميد . فكل مأثرة وطنية كانت تجد لها صدى فى قريحة الشاعرين، إلا أن صداها فى منظوم حافظ أكثر صدقاً منه فى منظوم شوقى . فلم يكن من شوقى إلا أن يتغلب على هذا المزاحم الوثاب . وكيف يزاحمه بسوى إطلاق بلاغته وبيانه ؟

والزحام كان جليل الفائدة . فالشاعران جالا فيه على مايتسع لهما المدى . فبذلا كل ما بإمكان من موهبة . وكان حافظ يتفوق حيناً وحيناً شوقى . وأحياناً كانا يتساويان . إلا أن ثقافة شوقى ساعدته فى استنزال المعانى أكثر مما توفر الأمر لحافظ . ولسنا ننفى عن حافظ اصطياد هذه المعانى المبتكرة ، إلا أنه لم يكن موفور التوليد فيها . فاللفظ وحسن الصياغة كانا يشغلانه عن المعنى . وهو لو كان يجيد لغة أجنبية ، لو اطلع على أدب الغرب مثله على أدب العرب لبات أوسع خيالا وأشد عمقاً فى منظومه ، إلا أن جهله اللغات الأجنبية[1] وقف به عند الأدب العربى ، فما تفتحت عيناه على آفاق بعيدة يخلو منها أدبنا القديم . فكان يجتهد فى الاقتداء ببشار وبالمتنبى فى صياغتهما . ويميل عن كل أسفاف فى المبنى . وهذا المجهود من حافظ فى إنقاذ آثاره من الضعف اللغوى أهاب بشوقى إلى الانعكاف على درس اللغة ليدفع عن قصائده هذا الشين

وإن يكن لابد من المقارنة بين شاعرين عاشا فى عصر واحد واندفعا فى طريق يكاد يكون واحدا فى مانظما وأطلقا من خواطرهما قلنا إن شوقى يتقدم حافظا فى معانيه وموسيقى ألفاظه . فيحلق فى جو أسمى من جو حافظ ، فكأنه يملك جناحين أوفى انبساطا ، وأشد عزماً . كأنه كتلة من أعصاب تأبى إلا أن تندفع إلى الأعالى تقع فيها على كل جديد، فترى وتلمس مالا يتفق لسوى من ملك قوتها فى اقتحام مسبح الفلك . وحسب شوقى أن يرصع صدر الملعب العربى بتلك الروايات التمثيلية . فشاء بها أن يضارع كبار شعراء العالم أمثال شكسبير وكورناى وراسين وفولتير وفكتور هيغو . فما « مجنون ليلى » غير « روميو وجوليت » لشكسبير ، وما « كليوباترة » غير « أندروماك » لراسين

وحافظ لم يخترق هذا الجو . فاكتفى بالديباجة الفخمة ، بعظمة الجند ، بالشارات العسكرية البراقة . فأنت تحس وأنت تقرأه بأنك أمام شاعر يتقلد سيفاً ويعلن أمراً . فلا محاباة ولا مصانعة ، بل قوة جياشة تدعوك إلى الإصغاء بكلام طنان ثابت فى مواضعه كأنه صُب فيها صبا . والأوامر العسكرية معروفة لا زخرف فيها ولا طلاء بل فخامة وقوة . وهذه الأوامر غلبت على شعر حافظ كما غلبت على شعر البارودى فمالت بهما عن

(١) الصحيح أن حافظا كان ملما باللغة الفرنسية وعنها ترجم البؤساء بتصرف. (الرسالة)

التغريد المتعالى من شعر شوقى والخيال المغلف بمنظوم شاعر الأمير

إذاً شوقى هو المتفوق . وشوقى روح عصر الانبعاث فى مطلع القرن العشرين . فهو مرآة الشعر فى هذا الزمن . ومن ينظر فى نتاج قرائح شعراء اليوم يقبل على شوقى فى الطليعة ومن المحال أن تنسى خليل مطران . على أن المفاضلة تتناول فى فى مبحثنا حافظاً وشوقى دون سواهما . وحافظ لم يكن خصباً كشوقى ولا متفنناً مثله . وإذا قيل إن شوقى أغار على الأقدمين فليس ينجو حافظ من التهمة . هـذا عارض من سبقوه وذاك عارض من سبقوه ، إلا أن أبواب الغزو لدى شوقى المطّلع على الأدب العربى والغربى معاً أكثر منها لدى شاعر النيل . وهذا سرّ من أسرار تفوّق الأول ووقوف الآخر دونه فى الطريق

ومما نشاهد أن عطف الناس على حافظ أقوى منه على شوقى . فإن لحافظ فى القلوب منزلة لم يبلغها شاعر الأمير . فكل من وقف على بؤس حافظ وإخفاقه فى أمانيه وعزة نفسه مال إليه متأثراً وتألم لألمه . والبائس يجد حوله ذوى الرفق ، على حين أن القرير العين يصطدم أبداً بالناقين الكارهين . وهذا هو موقف الشاعرين من أبناء اللغة العربية . أحبوا حافظاً لبؤسه وخفقت فى صدورهم محبة شوقى لغناه . على أنهم إذا جاءوا يفاضلون بين الشاعرين آثروا شوقى على حافظ دون ما تردد . وتلك العاطفة الروحية لا بدّ لها أن تتلاشى على مر الأيام ، يوم يفنى هذا الجيل ويبيت أبناء الغد حيال أدب شاعرين يعتمدون فى تحليل آثارهما على نور الحقيقة لا على نبضات القلوب

وهذا الإيثار لا يحط من قدر حافظ . فهو من أقطاب الشعر فى هذا العصر . وإذا استثنينا شوقى ومطران قلنا إن البلاد العربية لم تنجب حتى الآن من أمثاله . ويسرنا أن تدرك أخيراً مصر قدره وتقيم له المهرجان تلو المهرجان . وكنا نود أن يلقى هـذا التكريم وهو فى قيد الحياة . فكان بحاجة إلى التقدير بعد كل ما عانى من بؤس وخيبة .

والتقدير لا يكفى إذا تهاون المصريون فى أمر ضريح الشاعر ، فإن لرفات هذا الشاعر الجندى المتوقد القريحة شأناً تاريخياً من حق مصر أن تعتز به . فلن يقوم فى كل يوم فيها شاعر كحافظ إبراهيم .

ولقد أثبتت الأقطار العربية الأخرى انها تحترم حافظاً وتنحنى أمام أدبه العالى . فأوفدت ممثليها للاحتفال بذكراه والتغنى بمحامده . ولا ريب ان الملوك أنفسهم يشتهون أن ينالوا ما يتمتع به الشعراء بعد موتهم من خلود وتكريم . فالمتنبى والفردوسى لقيا من يحتفل بمرور ألف عام على موتهما . مع أن هذا التقدير العالى لم ينل مثله كسرى ولا هرون الرشيد . وأين الفردوسى والمتنبى من كسرى وهرون الرشيد فى إبان حياتهما ! . ولكن الادب أبقى من العروش ، والشاعر أبعد خلوداً من الملوك ، وحافظ من هؤلاء الخالدين . ومن الراهن أن مصر تنسى المئات من أرباب التيجان الذين توالوا ويتوالون عليها ، ولا تنسى حافظا وشوقى والبارودى وصبرى وولى الدين ، وفى ذلك الدليل كل الدليل على أن الأدب وهو وليد النفوس ، أوطد أثراً فى قلب الدهر من التيجان والصوالجة ، وأن الأديب الأديب يرسخ فى أذهان الأجيال المقبلة رسوخاً لا يحلم به غير من دوخوا الأرض من أمثال الإسكندر ، ويوليوس قيصر ، وعمرو بن العاص ، ونابليون العظيم ! ...

(بيروت)

كرم ملحم كرم
صاحب جريدة « العاصفة »

من أدب التاريخ

قصة غرام فاطمية

موضوع مسرحية بديعة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تقدم إلينا صحف القصور الاسلامية طائفة من القصص الغرامية الشائقة التي امتزجت بسير الخلفاء أوالسلاطين ؛ بيدأن هذه القصص المشرقية بالرغم من ألوانها المشجية المؤسية أحياناً لا تحمل دائماً ذلك الطابع الروائي العنيف الذي يبدو في قصص الحب في القصور الغربية ؛ ويرجع ذلك أولا إلى روح العصور ، وثانيا إلى تباين الخلال والنظم الاجتماعية ؛ ففي القصور الاسلامية كان يغلب دائماً ذلك التحفظ الذي يسبغ ستار الصمت والكتمان على حوادث وسير لا تحمد إذاعتها وتتقي آثارها بين الكافة ؛ وكان نظام التسري الذي يعمر قصور الخلفاء والسلاطين بأسراب الجواري الحسان من مختلف الأمم والأجناس يحول دون اضطرام هذه العواطف والنزعات العنيفة التي كثيراً ما تضطرم في قصور الغرب ، وتحمل في طريقها عروشاً أو تؤثر في مصاير أمم ومجتمعات ؛ ومن النادر أن نرى في التاريخ الاسلامي جارية أو خليلة ، حظية خليفة أو سلطان ، تسيطر على أقدار الدولة ومصايرها بمثل ما كانت تسيطر غانية مثل بومبادور أو دوباري على أقدار فرنسا في عهد لويس الخامس عشر ؛ أو نرى ملكا وأمبراطورا عظيما كادوارد الثامن يهجر أعظم عروش الأرض وأجلها قدراً في سبيل حب ليس فيه من الروعة والجمال ما يتناسب مع روعة التضحية التي أقدم عليها

بيد أننا نظفر في صحف القصور الاسلامية مع ذلك ببعض السير الغرامية العجيبة التي تطبعها ألوان روائية تذكي الخيال إلى الذروة . ولولا أن الرواية الاسلامية تحجم في كثير من الأحيان عن الافاضة في تلك السير الشائقة ، وتكتفي بإيراد الروايات الموجزة عنها لكان منها تراث روائي ساحر لا يقل في روعته وجماله وتباينه عما تقدمه إلينا قصص الحب الغربية الشائقة مثال ذلك قصة الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله وحبيبته البدوية فهي في الواقع نموذج ساحر من ذلك القصص الغرامي الذي يصلح بموضوعه ومناظره وألوانه موضوعا لمسرحيات من الطراز الأول في سحرها وروعتها

ولي الآمر بأحكام الله الخلافة وهو طفل في نحو السادسة من عمره سنة ٤٩٥ هـ (١١٠٢ م) رفعه إليها أمير الجيوش الأفضل شاهنشاه وزير أبيه الخليفة المستعلي ، وجده المستنصر من قبل ، والمتغلب على الدولة ، والمستأثر بسلطانها ؛ ونشأ الآمر في كنف هذا الوزير الطاغية ، كما ينشأ جميع الأمراء الذين ليس لهم من الملك غير رسومه ومظاهره ، محجوبا في قصره ، مغمورا بأنواع الملاهي والمسرات ؛ بيد أنه نشأ مع ذلك طموحا ينزع إلى السلطان والبطش فلما بلغ أشده ، وشعر بوطأة المتغلب عليه أخذ يتربص به حتى استطاع أن يدبر مصرعه ، وقتل الأفضل سنة ٥١٥ هـ ؛ وتولى مكانه المأمون البطائحي ؛ وقبض مثل سلفه على السلطة بقوة وحزم ، فلم يلبث أن لقي نفس مصيره ، فقتل في سنة ٥١٩ هـ ، واستأثر الآمر عندئذ بكل سلطة ، وأطلق العنان لأهوائه وإسرافه وبذخه ؛ وكان الآمر أميرا مرحا ، مضطرم النفس والأهواء ، مشغوفا بحياة اللهو والطرب ، وافر السخاء والبذل ، يعشق البذخ الطائل ؛ وكان يهيم بالجواري والحسان ، لا يطيق الحياة دون حب وهوى ، وكان يشغف بفتيات البادية بنوع خاص ، وله مع إحداهن قصة غرام مؤثرة ، تنقلها إلينا الرواية في ألوان ساحرة ، فكأنما تقرأ فيها كما تذكر الرواية ذاتها فصلا من فصول ألف ليلة وليلة ، أو ما يشابهها من القصص العجيب المغرق

كان الآمر يهيم كما قلنا بفتيات البادية ، ويرسل في أثرهن رسله وعيونه ، يجوبون البوادي والنجوع ، ويبحثون عن روائع الجمال الساذج في ثنايا الخيام وفي مهاد البداوة النقية ؛ فنقل إليه بعضهم أنه عثر ببعض أحياء الصعيد بجارية عربية هي مثال رائع للجمال العربي آية في الحسن والرشاقة والظرف ، أديبة شاعرة ، وافرة الذكاء والسحر ؛ وإلى هنا تبقى القصة عادية ليس فيها ما يثير الدهشة ؛ بيد أن الرواية تجنح بعدئذ إلى نوع من القصص الرائع ، فتقول لنا إن الخليفة الآمر لما سمع بخبر هذه الفتاة البارعة في الحسن وفي الجمال ، أراد أن يراها بنفسه قبل أن يتخذ في شأنها أي إجراء ، فتزيا بزي الأعراب وغادر قصره بالقاهرة وسار إلى الصعيد ، وأخذ يتجول بين الاحياء حتى وقف على

حبها واستطاع أن يتصل بأهلها دون أن يعرفوه وأن يظفر برؤيتها وتأمل محاسنها ؛ فما أن رآها حتى اضطرمت جوانحه بحبها ، وأسرع بالعودة إلى القاهرة وقرر فى الحال أن يخطب هذه الفتاة التى تيمته حبا ، وأن يتزوج بها ؛ وبعث الآمر إلى أهل الفتاة برغبته ، فبادروا إلى تحقيقها فرحين مغتبطين ، وأرسلوا بالفتاة إلى القاهرة ، حيث حملت إلى القصر ، وغدت فى الحال زوجة للخليفة ، وسيدة البلاط الفاطمى

وإلى هنا ينتهى أول فصل فى القصة ، وهو فصل لا تنقصه عناصر الخيال الممتع ؛ ثم إن فتاة البادية العالية - وكان هـذا اسمها - بعد أن سكنت إلى حياة القصر الباذخة حينا ، وأفاقت من دهشتها الأولى ، أخذت تشعر بثقل هذه الحياة الناعمة على ما فيها من متاع ونعماء وترف مستمرة ، وتبدو لها جدران القصر العالية ، وأبهاؤه الفخمة كأنها ظلام السجن ، وأخذت تحن إلى فضاء القفر الشاسع وهوائه النقى الساذج كما تحن الطيور فى أقفاصها إلى فضاء السماء ، أو كما تحن الأسود المعتقلة إلى أحراجها وأدغالها ، رغم ماتتمتع به فى سجنها من وافر العناية ؛ فلما رأى الخليفة الآمر ما أصاب حبيبته من الاكتئاب والوحشة ، دفعه الخيال إلى أن يلتمس لها متعة الفضاء التى تنشد على طريقته الملوكية . فامر أن تقام لها على النيل فى جزيرة الفسطاط (الروضة) متنزها عظيما يضم بستانا ساحرا وأجنحة ملوكية بديعة ، وسمى هـذا المتنزه الرائع الذى لبث مدى حين من محاسن الدولة الفاطمية « بالهودج » فكان للتسمية مغزاها فى التشبيه بالهودج الذى هو خباء السفر فى البادية ؛ وأنس روح البدوية الهائم مدى حين إلى الرياضة فى « الهودج » والتمتع بمناظره الرائعة ونسماته العليلة بيـد أنها لم تنس قط وهج القفر وسحر الفلاة

واليك فصلا ممتعا آخر من تلك القصة الغرامية الرفيعة . لقد ظفرت « العالية » بغزو قلب صاحب الخلافة والعرش ، وغدت سيدة القصر والبلاط ، ولكن ذلك لم يكن منتهى آمالها وسعادتها ؛ ذلك لأن قلبها البدوى المضطرم كان يخفق منذ أيام البادية بهوى فتى من بنى عمومتها يدعى ابن مياح . ربيت معه فى الحى منذ الطفولة ، وكان فى رقيق الخلال وافر السحر ، فلما حملت الى قصر الخليفة لم تخمد فى قلبها جذوة حبه ، ولبثت فى قصرها تتجه بخيالها اليه : وفى ذات يوم هزها الشوق اليه ، فبعثت اليه من قصر الخليفة بهذه الأبيات

يا ابن مياح اليك المشتكى	مالكٌ من بعدكم قد مُلكا
كنت فى حيى مطاعا آمرا	نائلا ما شئت منكم مدركا
فانا الآن بقصر موصد	لا أرى إلا حبيبا ممسكا
كم تثنينا باغصان اللوا	حيث لا نخشى علينا دركا
وتلاعبنا برملات الحمى	حيثما شاء طليق سلكا

تقول الرواية ، فأجابها ابن مياح بهذه الأبيات

بنت عمي والتى غذيتها	بالهوى حتى علا واحتبكا
بحت بالشكوى وعندى ضعفها	لو غدا ينفع فيها المشتكى
مالك الامر اليه يشتكى	هالك وهو الذى قد هلكا
شأن داود غدا فى عصرنا	مبديا بالتيه ما قد ملكا

ثم تقول الرواية : ووقف الخليفة الآمر على سر هذه المراسلة وقرأ أبيات ابن مياح ، فقال لو انه لم يسيء اليه فى البيت الرابع لرد الجارية الى حبه وزوجها منه

وأثارت هذه القصة نفس شاعر معاصر من بنى طيء يدعى طراد بن مهلهل ، فنظم أبياتا ينحى فيها على الآمر باللائمة ويخاطبه بما يأتى :

ألا بلغوا الآمر المصطفى	مقال طراد ونعم المقال
قطعت الأليفين عن ألفة	بها سحر الحى بين الرجال
كذا كان آباؤك الأقدمون ؟	سألت فقل لى جواب السؤال

فغضب الآمر حينما وقف على هذا الشعر ، وقال جواب السائل قطع لسانه على فضوله ، وبعث فى طلب طراد فى احياء العرب ، ففر منه واختفى

ولبث الآمر بعد ذلك أعواما : يطلق العنان لأهوائه ، وينعم إلى جانب حبيبته العالية . ويتردد معها إلى متنزه الهودج . وكان الآمر يثير سخط فريق من الزعماء ورجال الدولة بما جنح إليه من تمكين النصارى من مناصب الثقة والنفوذ . وما كان يمعن فيه من اللهو والبذخ والاستهتار بالرسوم والتقاليد ، ففى ذات يوم من أيام ذى القعدة سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠م) ركب من القصر كعادته إلى الهودج للتنزه ، فلما وصل إلى رأس الجسر الموصل إلى الهودج وثب عليه قوم قد كمنوا له ، وأثخنوه طعناً بخناجرهم ، فحمل جريحاً إلى قصر اللؤلؤة على مقربة من مكان الجريمة . ولكنه لم يلبث أن توفى ، ولم يجاوز الخامسة والثلاثين

وكان الآمر بأحكام الله شاعراً مجيداً ؛ وله نظم قوى مؤثر فمن نظمه قوله :

حول مجمع اللغة العربية الملكى

هل لمجمع اللغة العربية وضع المصطلحات العلمية ؟

للأديب مصطفى زيور

نشرت الاهرام فى عددها الصادر فى السادس من شهر مارس سنة ١٩٣٧ كلمة للكاتب الفاضل اسماعيل مظهر يناقش فيها حديثا مع مندوب الاهرام لعميد كلية الآداب الدكتور طه حسين بك بشأن مجمع اللغة العربية ومهمته التى يجب (فى رأى الأستاذ العميد) الا يكون منها وضع المصطلحات العلمية . وما كنت لأزج نفسى فى هذه المناقشات - فلست من المضطلعين بعلم اللغة - لولا ما تبينته فى كلمة الكاتب الفاضل اسماعيل مظهر من إغفال حقيقة أوليه أخشى أن تكون فاتت أعضاء المجمع المحترمين ، بل اليقين أنها فاتتهم لأن موقف المجمع منها يدل على ذلك ، فكان فى ذلك الخطر وكان فى ذلك ما دفعنى إلى كتابة هذا .

ساق الكاتب الفاضل اسماعيل مظهر فى كلمته رداً على رأى الأستاذ العميد الحجة الآتيه التى يستهلها بقوله : « إن حضرة الأستاذ العميد يحاول أن يثبت أن لمجامع اللغة طبيعة واحدة لا تختلف باختلاف الشعوب واللغات وظروف الأحوال فضى يطبق القواعد التى يجرى عليها مجمع اللغة الفرنسى . . . كأن الطبيعة والتاريخ لا حساب لهما فى قياس الفارق بين اللغتين وحال الشعبين . . . ، إذن فنى رأى الفاضل اسماعيل مظهر أن الظروف الملابسة لمجمع اللغة العربية تختلف عن ظروف المجمع الفرنسى بحيث تجعل مجمع اللغة العربية فى حل من أن يتقيد بمسلك المجمع الفرنسى فى الاحجام عن معالجة وضع المصطلحات العلمية . أما هذا الفارق فى الملابسات فيتلخص فى رأى الكاتب الفاضل فى أنه إذا كان للفرنسى المشتغل بالعلم أن يضع الاصطلاح العلمى دون أن يكون لمجمع اللغة فى بلده إلا أن يسجل الاصطلاح فذلك لأنه ينشأ فى مهده يسمع اللغة الفرنسية الصحيحة ثم هو يدرس بعد ذلك اللغتين اللاتينية واليونانية ، فهو إذن قادر على الاشتقاق والنحت وأغلب الظن أن المصطلح الذى يضعه لا غبار عليه ، هذا بينما نحن فى مصر لانسمع فى طفولتنا إلا العامية ولا نحصل من اللغة الفصيحة بعد ذلك فى المعاهد إلا قدراً لا يغنى ولا يمكن المشتغل بالعلم أن يقوم بذلك العمل الفقهى دون مساعدة المجمع . والنتيجة المنطقية من هذا كله فى رأى الكاتب الفاضل كما يقول فى مكان آخر من كلمته « إن طبيعة لغتنا والظرف القائم فينا يجعل من أوليات المهام التى يجب أن يباشرها مجمع اللغة العربية النظر فى وضع المصطلحات العربية الصحيحة » .

ولست أريد أن أناقش هنا هذه الحجة والنتيجة المستخلصة منها ، لأنه من الواضح أن هذا القياس كله يقوم على زعم اقتنع به الكاتب الفاضل : وهو أنه إذا اجتمع لمجمع لغة ظروف بعينها فعليه أن يقوم بوضع المصطلحات العلمية . وهذا هو ما أنكره

أنكر أن يقوم مجمع لغة مهما يكن وفى أى بلد يكون ومهما تكن الظروف بوضع اصطلاح علمى . ومع احترامى الشديد لأعضاء مجمعنا الموقرين - ومنهم من كان لى أستاذا بل ومنهم من تربطنى به صلات هى أوثق من صلة التلميذ بأستاذه - فاننى لا أخفى أن فى إنكارى هذا إنكاراً لمجموع مجهودهم إزاء المصطلحات العلمية ؛ فإن ثمة حقيقة أولية هى من الخطر بحيث لا ينبغى السكوت عليها : لا يختلف اثنان فى أن مهمة مجمع اللغة العربية هى العناية باللغة العربية - بصرف النظر الآن عن الطريق التى يسلكها إلى ذلك - كما أن مهمة مجمع اللغة الفرنسية هى العناية باللغة الفرنسية ، وليس لأحدهما أن يعنى بلغة غير

دع اللوم عنى لست منى بموثق فلا بد لى من صدمة المتحقق
وأسقى جيادى من فرات ودجلة واجمع شمل الدين بعد التفرق

تلك هى قصة الآمر بأحكام الله مع حبيبته العالية ، وهى قصة تجمع بين حقائق التاريخ ومتاع القصة ؛ ولا ريب أن الرواية قد أسبغت عليها حواشى وألواناً خلابة مصدرها الخيال الشائق ، بيد أنها تحتفظ مع ذلك بطابعها التاريخى . ولقد عرج كثير من كتاب المسرح عندنا على بعض الوقائع والمآسى التاريخية واتخذوها موضوعا لمسرحياتهم ، بيد أنها قلما تتمتع بذلك الطابع الروائى الخلاب الذى تتمتع به قصة الآمر بأحكام الله مع حبيبته العالية ، ألم يقف أحدهم بتلك القصة الفاطمية الشائقة التى وقعت بمصر فى ظل خلافة تنثر من حولها آيات الفخامة والبذخ الرائع ؟ إن صحف التاريخ الاسلامى تقدم الينا كثيراً من هذا القصص الرقيق المؤثر ، فهلا فكر كتاب المسرح فى ورود هذا المنهل الغزير والاقتباس من طرائفه ؛ وإن المسرح المصرى ليبدو أروع وأبدع ، وأوفر سحرا وفتنة إذا استطاع كتابنا أن يتحفوه ببعض هذه المناظر القومية الشائقة التى تبدو فى ألوانها ، وفى روعتها وبهائها كثيرا مما ينقلون الينا من تراث المسرح الغربى

محمد عبد الله عنان

اللغة المنوط به أمرها . فاذا كان الأمر كذلك فان هناك حقيقة أولية هي أن لغة العلم لغة دولية مستقلة لا شأن لها باللغة العربية ولا شأن لها بغيرها من اللغات ، هذا هو موضوع كلمتي هذه .

تصفح معجما فرنسيا متداولا مثل « لاروس » ثم تصفح معجما انجليزيا متداولا مثل « تشيمبرسز » ثم تصفح معجما ألمانيا متداولا مثل « سكس فيلات » فلن تجد كلمة (كروموسوم) التي تهجى الكاتب الفاضل اسماعيل مظهر على أساتذة كلية العلوم المصرية بأن المجمع أوجد لها لفظا عربيا ، فاذا أردت الآن أن تتصفح معجما علميا مطبوعا في فرنسا أو انجلترا أو ألمانيا أو غيرها من البلاد وجدت كلمة (كروموسوم) هي هيَ يستعملها العالم الفرنسي والانجليزي والألماني على السواء . هل يريدني الكاتب الفاضل أن أعلق على هذه الحقيقة ؟ كروموسوم التي ترجمها مجمع اللغة العربية بكلمة (صبغى) ليست فرنسية ولا ألمانية ولا انجليزية بل ولا يونانية ؛ نعم لا أرسطو ولا معاصروه يعرفونها ، ولا سكان اليونان الحاليون من غير المشتغلين بالعلم يعرفونها . هي ربط تحكمي بين أصلين يونانيين قديمين Xewpa أى لون و Kwpa أى جسم ، ربط لم يكن الداعي إليه كما زعم الكاتب الفاضل عجز لغة واضع الاصطلاح عن إسعافه بلفظ يؤدى المراد . وإلا فقل لي يا سيدى هل عجزت إحدى هذه اللغات الأوربية عن لفظة تقابل لفظة صبغى ؟

يخيل إلى أن القاعدة الأساسية التي قامت عليها حركة اشتقاق المصطلحات العلمية من اليونانية القديمة واللاتينية هي التي فاتنا فهمها في مصر . لم يكن عجز اللغات الأوروبية الحديثة ولكن إرادة التخصيص والتمييز لمعان جديدة بينها وبين الألفاظ المتداولة بعض الصلات هو الدافع إلى خلق ألفاظ إذا كانت أعجمية بالنسبة إلى اللغة العربية فهى كذلك أعجمية بالنسبة لغيرها من اللغات الحية ، لقد فهم هذا اليابان والروس فاتخذ علماؤهم هذه الألفاظ العلمية التي لا صلة للغاتهم بأصولها اليونانية أو اللاتينية واستعملوها كغيرهم من العلماء . إذن فليس في انحدار اللغة الفرنسية أو الانجليزية من اليونانية واللاتينية ، وليس تلقى الطالب الفرنسى هذه اللغات القديمة في المعاهد ما يفسر تعميم استعمال هذه المصطلحات في أوروبا ، فإن شعوب الأرض قاطبة من المغول إلى الصقالبة إلى الجرمان إلى الانجلوسكسون إلى اللاتين جميعها تقول كروموسوم . فهل يراد بعلماء مصر أن ينفردوا عن سكان الأرض طرا ويقولوا صبغى ؟ ألا يفسر لك هذا ياسيدى أن كثيرين من أهل الذكر من العلماء في مصر — كما قلت في كلمتك — لم يكونوا على استعداد للتضحية في سبيل اللغة فضنوا بمجهودهم على المجمع . ألا ترى أنهم تبينوا أنه تطلب منهم التضحية من حيث لا محل للتضحية لا للغة ولا لغير اللغة .

قلت لابد أن هذه الحقيقة الأولى حقيقة وحدة لغة العلم قد فاتت أعضاء مجمع اللغة العربية المحترمين ، فذهبوا يترجمون لا من الفرنسية ولا الانجليزية بل من لغة العلم إلى العربية : فاذا كان الباعث الرئيسى الذى دفعهم إلى ذلك هو إرادة استبعاد ما سموه بالألفاظ الأعجمية واستبدالها بألفاظ تسيغها عبقرية اللغة العربية فهم لاشك لن يستثنوا من عملية « التطهير » هذه لفظاً دون غيره .

فاذا كان الأمر كذلك وقد ترجموا كروموسوم بصبغى فقد بقى لدينا عدة مصطلحات أخرى كلها مشتقة من الأصل اليونانى Xewpa فلدينا مثلا (كروماتين) وهي كما يعرف الكاتب الفاضل اسماعيل مظهر تلك المادة ذات التلوين القاعدى غالباً الموجودة داخل نواة الخلية ؛ ثم لدينا (كروم) وهو المعدن المعروف بباهر لون مركباته ، ثم لدينا (كروما) وهي وحدة إدراك الألوان في البصريات لا أجهل أن عبقرية أعضاء المجمع المحترمين لن يعوزها ترجمة كروماتين ولكن ما القول في الكروم . أيترجم هذا أيضا وهو اسم علم لمعدن لم يعرفه العرب ؟ إذن يجب ترجمة البلاتين ثم الراديوم والمزوتوريوم إلى آخر سلسلة المعادن ذات الأشعاع ، وكذلك الكلور والبروم واليود والبور الخ . ولكن هذه الكيمياء اللعينة لها مشكلة أدهى وأمر : هي المركبات العضوية التي يتألف اسم الواحدة منها من خمسة أصول يونانية أو أكثر كل منها يدل على وظيفة كيمائية يجب ذكرها ، ولكني أترك الكيمياء لحظة حتى ننتهى من هذا الحوار حول ترجمة المصطلحات المختلفة المشتقة من الأصل اليونانى Xewpa ، ذكرت لك أن وحدة الألوان هي كروما ، فهل ينبغى تمشياً مع عملية التطهير ترجمة هذه الوحدة أيضا كما ترجم بعض أعضاء المجمع المتر والباردة ؟ ! واذا كان الأمر كذلك فانه ينبغى أن نترجم الوحدات الفيزيقية الأخرى مثل (دين) و (ديوبترى) ثم (فلت) و (امبير) و (وات) الخ ، ولكن مهلا ! انك تعرف ياسيدى أن هذه الوحدات الأخيرة هي أسماء لعلماء كانت حياتهم وقفاً على خير الانسانية ، فاراد القوم أن يخلدوهم بتسجيل أسمائهم وحدات عالمية . ولا أخالك تجهل أن أحداً من المشتغلين بالعلم والعارفين فضل هؤلاء العلماء لن يقبل أن يسمع حتى الجدال حول ترجمة هذه الوحدات . بل أنى ولا أشك أنك تثق معى أنه مهما شرع المجمع ومهما صدرت القوانين الصارمة بتحريم استعمال هذه الالفاظ « الأعجمية » فسيكون موقف العلماء في مصر كموقف جاليلي حينما أرغم على القول بأن الأرض ساكنة ثم لم يلبث أن قال « ورغما عن ذلك فانها تدور » .

إذن فلابد لنا — ورغما عن أنفنا — من ألفاظ أعجمية . ولكن ماذا ؟ أيذهب بنا الطهر اللغوى أن نكون ملكيين أكثر من الملك

فننسى أن العرب أنفسهم لم يأنفوا من هذه الألفاظ الأعجمية ؛ وإلا فما قولك فى مصطلحات مثل فلسفة وكيمياء وقاطيغورياس وكلها يونانية محضة ؟ وما قولك فى هذا المجمع الفرنسى الذى يقبل ويسجل Alcool, Algébre, Alcali ، وكلها عربية محضة ؟ ثم ما قولك فى هؤلاء العلماء الغربيين الذين يقبلون ويستعملون اسم هذا الدواء الذى حضره الاستاذ الدكتور خليل عبد الخالق وسماه فؤادين تيمناً باسم المغفور له فؤاد الأول وهو اسم أعجمى بالنسبة لهم ولا تزكيه دلالة علمية ؟ ثم هذه المصطلحات الألمانية المحضة مثل (ماسه زلن) وغيرها المستعملة فى علم الأنسجة فى فرنسا وانجلترا . وهذه المصطلحات التى تسمها سمة يابانية و . . . وبعد فانه مهما يكن من الأصل الذى اشتق منه الاصطلاح العلمى فانه اذا كتب له البقاء – وليس هذا متوقفا على صحته من الوجهة الفقهية فهذه كلمة (بكتيريا) ومعناها فى اليونانية عصا أى جسم مستطيل ومع هذا فانهم يقولون بكتيريا مستديرة مثل (ستافيلوكوكاس) وهذه هى Hemoculture وهى مزج يتعارض مع أبسط قواعد الفقه اللغوى بين أصل يونانى Xipx أى دم وأصل لاتينى Cultura أى زراعة – أقول اذا كتب لمصطلح البقاء فانه يأخذ مكانه فى لغة العلم (بوضع اليد) ويفرض نفسه على الاستعمال مهما كان فيه من خطأ فقهى لأنه نشأ عن مبدأ انفردت به لغة العلم وهو التخصيص والتمييز كما قلت آنفاً لمعنى جديد يشترك فى بعض صفاته مع معان متداولة ، فهم عندما قالوا (أنابولزم) لم تعوزهم كلمة فى اللغات الحية تقابل (البناء) التى وضعها مجمع اللغة العربية ترجمة لأنابولزم ، ولكنهم لاحظوا أنهم لو قالوا Construction فى الفرنسية أو Building فى الانجليزية مثلا فانه يختلط الفهم بين هذه الألفاظ العامة وبين المعنى الجديد المراد تحديده . بل إن فى المصطلحات العلمية معانى تشترك فى بعض صفاتها مع مصطلحات أخرى ، فهذه (فوتون) ذرة الضوء ، وهذه كروما وحدة إدراك الألوان ، وهذه ديوبترى وحدة الانكسار فى البصريات ، لا يخفى ما بينها من العلاقة ، ثم ما بين الأولى وبين الذرات الأخرى (الكترون) و (بوزيترون) الخ ، فوجب التمييز والتحديد بالرجوع إلى أصول تجهلها اللغات القائمة .

وليس هذا كل شيء ، فهناك أيضا إرادة مزج معنيين أو أكثر فى لفظة واحدة على أن تكون هذه المعانى واضحة تذكرها جميعاً إذا ما ذكر الاصطلاح . ويبدو هذا واضحاً فى الكيمياء العضوية ولكن على سبيل المثال المركب - Dimethylaminodimethylpheny lpyrazolone وهى (البيراميدون) المستعملة فى علم الأقرباذين ضد الحمى ؛ فأنت ترى أن هناك خمسة وظائف كيميائية يجب ذكرها جميعاً عند التعبير كيميائيا . وليسمح لى الكاتب الفاضل بشيء من الفضول لأسأله كيف السبيل إلى ترجمة مثل هذه العبارات الفنية إذا بقى لدينا شيء من الاخلاص للعلم . وهلا يظن أن مثل هذه العبارات ليست أعجمية بالنسبة للغات الأوربية . ولكننا لم نسمع أن مجمعاً من مجامع اللغة فى أوروبا أو فى غيرها شن الغارة عليها بدعوى أن هناك غزوة ألفاظ أعجمية ضد اللغات الحية لأنه لم يقل أحد أن هذه المصطلحات لها شأن ما بلغة من اللغات .

وأخيرا فأنا لا أجهل أن لغة العلم لم تصل بعد إلى الوحدة المنشودة لها من العلماء فما زال كثير من المصطلحات يختلف باختلاف اللغات ، ولكن أغلب المصطلحات التى من هذا النوع والمستعارة من اللغات الحية رأسا قديم قليل التوفيق يترجم إما عن حركة علمية موضعية وإما عن اختلاف فى الرأى العلمى نفسه أو على الأقل عن وجهة نظر مختلفة ؛ فهذا شلل الطفولة الفقرى يدعى أحيانا (تفروميليت) وأحيانا (بوليو ميليت) وأحيانا أخرى (مرض هاين مدن) الخ . على أن هناك مجهودا متصلا فى استبعاد هذه الألفاظ الأعجمية عن لغة العلم ، ومن أجل هذا تنعقد المؤتمرات الدولية بين العلماء المختصين من البلاد المختلفة ؛ وفى هذه المؤتمرات – وفيها وحدها لا فى مجامع اللغة – يقترح اصطلاح جديد دولى يحل محل المصطلحات المتعددة بتعدد اللغات . ولا يخفى أن نجاح هذه المصطلحات الجديدة متوقف على التقدم العلمى الذى يوحد بين الآراء ؛ فهذا هو مؤتمر الكيمياء العضوية قد أقر مثلا لفظة (جلوسيد) لتحل محل هدرات الكربون ومرادفاتها : المواد النشوية والمواد السكرية ، وذلك بعد أن تبين أن جميع هذه المصطلحات التى كانت تختلف باختلاف اللغة قليلة التوفيق بل تعبر عن خطأ علمى ، وبالمثل فى (ليبيد) التى حلت محل Fatty Substances الانجليزية و Substaces granes الفرنسية ، ثم (بروتيد) التى حلت محل المواد الزلالية Albuminous وزميلتها المواد البروتينية الخ . وهكذا فقد أصبحت لغة الكيمياء موحدة فى جميع بلاد العالم . وقد تم مثل ذلك التوحيد فى لغة العلم فى كثير من فروع التاريخ الطبيعى . ثم هذه هى المؤتمرات الدولية يعقدها الفلاسفة وعلماء وظائف الأعضاء لهذا الغرض . ثم المعاجم الدولية فى فروع الطب يشترك فى تحريرها علماء من البلاد المختلفة للتقريب بين المصطلحات تمهيدا لتوحيدها .

والآن إذا كانت الحاجة ماسة ، والرغبة فى ترجمة الكتب العلمية الأجنبية إلى اللغة العربية ملحة ، فلا بأس من ترجمة الألفاظ التى لا تزال تختلف باختلاف اللغات . ولنضرب مثلا لذلك بالجهاز الذى يحول الشعاع الضوئى إلى تيار كهربائى والمسمى بالفرنسية Cellulephoto-electriqwe

وبالانجليزية Photo-electric cell وبالألمانية Photo elektrische zellen - فأنت ترى أن الكلمة التي تختلف هي Cellule, Cell, Zellen فيمكننا أن نقول في مصر خلية فوتو ألكتريك ؛ ولكن حتى ترجمة مثل هذه الكلمة ليس من شأن مجمع اللغة بل هذا من شأن المشتغلين بالعلم . ولست في ذلك متعنتا لأن هذه الترجمة تتطلب مجهودا علميا شاقا إذ أن هـذه الكلمات التي تختلف باختلاف اللغات تدل في كثير من الأحيان على اضطراب علمي وانقسام في الرأي بين المدارس المختلفة. وقد رأينا مجمع اللغة العربية يختصر طريقه في ذلك فاعتمد في ترجمته على الكلمات الانجليزية — ومنها مابطل استعماله — كما لو لم تكن هناك حركات علمية في غير انجلترا

أما قول الكاتب الفاضل إنه يذهب « إلى أن من الواجب ألا تجيز وزارة المعارف كتاباً ليدرس في المدارس وعلى الأخص كتب العلم ، من غير أن يجيزه المجمع من حيث اللغة ومن حيث المصطلحات » فليس فيه قلب للأوضاع فحسب ، بل هو مؤد إذا أخذ بمثل هذا الرأي الذي يفوح برجعية القرون الوسطى - وليعذرني الكاتب الفاضل فقد جاوز قوله هذا كل حد - إلى حالة من الركود والشلل ، فسيقفل باب الاجتهاد في وجه العلماء الذين يعرفون مادتهم دون غيرهم أو على الأقل خيراً من غيرهم ، وسيرى كل مؤلف نفسه مقيداً بأوضاع من التعبير جامدة هي ما شرع المجمع ، عليه أن يصب مادته فيها إذا أراد أن ينال حظوة محكمة المجمع مهما كان في ذلك تشويه لفكره

وبعد هذا نعجب كيف يتقدم القوم في أوربا بخطى المارد في سبيل الثقافة والمدنية بينما نحن نتخبط، نتقدم خطوة ونرجع القهقرى خطوات ! كلا ياسيدي ، ما بهذا يمكن إحياء اللغة والعناية بصفائها ، وليس يجيز لك حرصك على ألا تقتل الأعجمية المزعومة ما سميته بأدب العلم أن تلوح بهذه القيود الرجعية ، بل أنا أزعم أن جريمة القتل هي أن تشرع مثل هذه القيود، وجريمة القتل أن تستبعد لغة العلم من مصر ويستبدل بها ألفاظ لاخير فيها . لست أجهل أن الحرية المطلقة هي نوع من الفوضى ولكني موقن من جهة أخرى أن البقاء للصالح ؛ فكل مؤلف وكل وضع من أوضاع التعبير الجديد يحمل في طياته الحكم عليه بالبقاء أو الزوال

فاذا كان الأديب الفاضل اسماعيل مظهر يرى أن المشتغلين بالعلم في مصر غير قادرين على الاجتهاد ، لايصلحون للتأليف ، ومهما يكن من حقيقة حكمه هذا ، فان ذلك لايخول لمجمع اللغة أن ينسى تلك الحقيقة الأولية التي أشرت إليها آنفاً والتي عبر عنها بعض الناس بأن العلم مجموعة من مصطلحات خاصة أشبه بالرموز تكون لغة مستقلة قائمة بذاتها إذا تفهمتها فقد تفهمت العلم . حسن أن يبدو من مجمع اللغة حرصه على تقدم العلم في مصر ، ولكن الطريق التي يسلكها إلى ذلك هي التي أنكرها عليه ، لأن اشفاقه من غزوة الأعجمية المزعومة للغة الضاد اشفاق وهمي ، فلن يضيرها أن يكتب مؤلف (سيتوبلازما) بدلا من حشوة التي وضعها المجمع فيتكلف الناس من المشتغلين بالعلم في مصر استظهار معجم من الألفاظ العربية إلى جانب المعجم الدولي الذي لا يمكن الاستغناء عنه إذا أردنا تتبع العلم في تطوره . وقد درجنا ودرجت من قبلنا ومن بعدنا عشرات الأجيال من الطلبة والأساتذة في المعاهد المصرية على استعمال مصطلحات (ستاتيكا) و (دنياميكا) و (كلور) و (مثيلين) و (بروتوبلازما) وغيرها من المصطلحات الدولية ، فكنا نعالج استعمالها في غير شعور بما يسمى بالأعجمية ، كما كنا نستعمل ألفاظا مثل تشيكوسلوفاكيا وأستكهلم ومترنيخ سواء بسواء . بل ما كنا نجد في كل هذا من الغرابة ما كنا نجد في تلك الألفاظ التي كانوا يضعونها في حافظاتنا مثل افرنقع وغضنفر واسحنفر وغيرها من الألفاظ التي كنا نستعيذ بالله من وحشيتها . قل ما شئت في قيمة الثقافة اللغوية لخريجي المعاهد المصرية فالعبرة بعد كل شيء في الحكم على صلاحية لفظ أو عبارة بحظها لدى ذوق الجمهور من الخاصة أو من العامة ، فهذه مسرة وبرق يعرفهما كل الناس ولا يستعملهما أحد ، فتقرأ في أكبر الصحف العربية تلغرافات كذا الخصوصية ، وتليفون رقم كذا ؛ أقول ذلك لأني لا أومن بأن اللغة غاية في ذاتها بل هي أداة ، وهي باعتبارها كذلك لا يمكن أن يكون المرجع فيها إلى مجلس يشرع بل إلى ذوق جمهور يستسيغ أو يعرض

وفي النهاية إذا كان لابد لمجمع اللغة أن يساهم في النهضة العلمية في مصر فليكن ذلك عن طريق ما أنشيء له أو ما كان يجب أن ينشأ من أجله ، واقصد العناية باللغة من حيث هي ، ففي كتب العلم شيء آخر غير المصطلحات . هناك العبارة اللغوية والأسلوب ، ومهما كانت الأسباب فهناك حقيقة يعرفها ويتألم لها كثير من المشتغلين بالعلم في مصر ، وهي أن العبارة من اللغة الأجنبية التي لم يدرسوها إلا سنوات محدودة بالنسبة للغة العربية تواتيهم في سهولة تؤنسهم من لغتهم ، فليكن سبيل المجمع إلى إصلاح هذا الحال : حال ضعف اللغة العربية عند أهلها . ليكن نشاطه في البحث عما يقوم لسان الكتاب والمؤلفين إذا تكلموا أو كتبوا عن طريق عملي يجعل من اللغة العربية لغة سهلة التناول في مستوى اللغات الحية الأخرى . أما المصطلحات العلمية ، وأما لغة العلم فهذه شأنها إلى العلماء

باريس ١٣ مارس ١٩٣٧

مصطفى زيور

في الأدب المقارن

الذاتي والموضوعي

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

تتأثر النفس الانسانية بكل ما تحس من مظاهر الحياة، فاذا ما عبر المرء عن تأثره ذاك نثراً أو نظما في لفظ نقي، كان تعبيره ذاك أدباً، فالأدب نتاج عاملين: مؤثر هو مظاهر الحياة التي تحفز الأديب إلى الانشاء، ويتخذها موضوعا لانشائه، ومتأثر هو ذات الأديب التي يترجم القول المنظوم أو المنثور عن خوالجها، وليس يخلو عمل أدبي من آثار هذين العاملين ممتزجين، فكل عمل أدبي هو ذاتي وهو موضوعي، غير أن الأعمال الأدبية تتفاوت حظا من هذا ونصيبا من ذاك، فاذا استرسل الأديب في وصف ما هو بإزائه من مظاهر الحياة وشرح أحوالها على علاتها، مكفكفا من عنان عواطفه محكما دونها الفكر، كان العمل الأدبي موضوعيا، وإن أرخى الأديب العنان لعواطفه ملما بالموقف الذي هو حياله إلماما خفيفا، كان عمله الأدبي ذاتياً.

فمظاهر الحياة المختلفة هي مادة الأدب لأنها مادة الاحساس والتفكير، وبدونها لا يتصور تفكير ولا شعور، ولا تكون النفس إلا خواء تاما ولا الفكر إلا فضاء مطلقا؛ والنفس الانسانية هي العامل الفعال الذي يعكس صور مظاهر الحياة تلك، ويمنحها من الصفات ما يروق المرء حيناً ويطربه ويحببه فيها، وما يسوؤه حينا ويؤلمه ويبغضه في بعض تلك المظاهر، والأديب مهما توفر على موضوعه الذي هو بصدده، ومهما كان موضوعه ذاك بعيداً عن نفسه وعن محيطه وزمنه، ومهما حكم فيه الفكر السليم والرأي المنزه، لا يخلو من أن يكون معبراً في عمله الأدبي عن ذاته، مصدراً عن طبيعته، وهي طبيعة يتفق فيها مع الآخرين إلى مدى، ويختلف عنهم في بعض نواحيها.

بل لا يعدو الحق من يقول إن الأديب لا يزيد مدى حياته على أن يعرض نفسه على قرائه، مهما تباينت موضوعاته وتعددت أشكال أدبه فتنوع راح مادحا أو ذاما أو واصفا أو قاصا، أو ملاحظا لأحوال الناس أو متأملا في ماضيهم ومستقبلهم، فهو لا يعدو محيط نفسه وتجاربه وعواطفه؛ بل إن بعض كبار الأدباء إنما بلغوا أوج نجاحهم الأدبي في العمل الأدبي الذي يصف كل منهم فيه قصة حياته أو أهم تجربة من تجاربه، أو أزمة نفسية عبرت به، كما قص لامرتين قصة حبه في «رفائيل»، وكما وصف كل من شاتوبريان وأناتول فرانس نشأته في آثاره الأدبية، وكما وصف تشارلز دكنز قصة طفولته في «دافيد كوبرفيلد»؛ وبلغ القصصيون ذروة نجاحهم في قصصهم التي كان أبطالها صورا من أنفسهم أو من بعض حالاتهم النفسية، كما كان جيته فاوست، وكما كان أناتول فرانس بعض أشخاص كل رواياته

وأناتول فرانس نفسه يقول إننا لا نكتب إلا عن أنفسنا، ويزيد فيقول إننا لا نقرأ حين نقرأ إلا أنفسنا. ولا غرو فالمرء لا يدمن إلا قراءة الضرب الذي يعجبه من القول ويصادف هوى في فؤاده ولا يصطفي من الكتاب إلا من يشاكله نفسا، وهو حتى حين يقرأ موضوعاته الأثيرة من آثار أدبائه المختارين يصبغ كل ما يقرأ بصبغة نفسه ويؤوله على حسب إدراكه وطبعه، ويستخلص منه ما قد لا يستخلصه غيره، وما لعل المنشيء نفسه لم يقصده، والناس إنما يقرأون الشاعر أو الكاتب وهو يتحدث عن نفسه لأنهم يرون في نفسه صورة من أنفسهم، وفي ذاته صدى من ذواتهم، فاذا ألفوه قد أغرب وباعد بين ما يصف وما يحسون نبذوه واستهجنوه، ولم يعنهم مما يصف من أحوال ذاته التي لا يحسونها في ذواتهم، أكثر مما يعنيهم من أحوال معيشته الخاصة ومطعمه وملبسه

والذاتي في أدب اللغة أسبق ظهوراً من الموضوعي: يبدأ الأدب في عهده الأول بتعبير الانسان عن خواطره العاجلة وأحاسيسه السانحة وتجاريبه الحاضرة، يرسل ذلك على سجيته وبديهته قولا مأثوراً أو أبياتا شاردة، لم يعد لها العدة ولا تكلف فيها عناء طويلا، ويرقى الأدب رقيا كبيرا وما تزال الصبغة الذاتية هي السائدة فيه، وتظل هذه الصبغة ما دام قريبا من البداوة غير آخذ أهله بشيء من الثقافة أو مقيدين لآدابهم بالكتابة؛ فاذا ما انتفع الأدب بالثقافة والتدوين ظهر فيه الضرب الموضوعي، إذ تتسع أفكار الأدباء ويمتد أفق نظراتهم ويقصدون التأمل في شؤون الحياة قصدا، غير منتظرين التجارب التي تسنح عرضاً، ويطلبون من مناحي الحياة ومذاهب التفكير الأبعد فالأبعد، فتزاحم الصفة الموضوعية الصفة الذاتية

فغزارة الضرب الموضوعي في الأدب من لوازم رقيه ووصوله إلى الطور الفني، بيد أن العنصر الذاتي لا يمحي ببلوغ الأدب هذا الطور، بل يبقى ويزداد رقيا وحرارة وعمقا، ويظل صدقه وعمقه وحرارته خير مقياس لصدق الأدب ورقيه، ويقترن ضعفه وتلاشيه بضعف الأدب وفتور العاطفة فيه وتغلب اللفظ على الشعور الصحيح

فى عصور تدهور الأدب يسود الضرب الموضوعى ، وتنفق موضوعات بذاتها يصطلح الأدباء على طرقها على أساليب مخصوصة لا يعدلون عنها . ويكفكفون عواطفهم الذاتية ، فلا يكاد يتميز واحد منهم عن الآخر فى السمات والميول ؛ فالضرب الموضوعى يظهر متأخرا عن الضرب الذاتى فى الآداب ، ثم يبقى متخلفا عنه عند اضمحلال الأدب ، يبقى على حال من الضعف والتكلف والابهام

ولما كان الضرب الذاتى من الأدب أسبق إلى الظهور فى تاريخ الأدب ، كان مقترنا بالشعر الذى هو أسبق إلى الظهور من النثر الفنى فالأدب فى عهوده لا يكاد يزيد على أن يكون شعراً ذاتيا ، فاذا دخل الأدب طوره المتحضر الفنى ظهر فيه النثر وظهر الضرب الموضوعى فى الشعر والنثر معا ، بيد أن الشعر يظل دائما متعلقا بالضرب الذاتى ، بينما يستأثر النثر منذ نشأته بالجانب الأكبر من الأدب الموضوعى ؛ فالشعر لما له من مزايا الموسيقى والخيال أقدر على التعبير عن الوجدانيات ، والنثر لما له من مزايا الرحب والدقة والتحرر من قيود الوزن والقافية أقدر على تتبع الوصف لموضوع الانشاء ، والاسهاب فى شرح دقيقه وجليله ؛ فاذا جمع أديب بين الصناعتين رأيته يندفع اندفاعا تلقائيا إلى النظم ، إذا حفزته ثورة نفسية متدفقة ، وينساق بداهة إلى النثر إذا أراد التأمل الهادىء والتوسع فى الشرح والاستقصاء ؛ على أن هذا ليس بمانع أن يحتوى النثر أحيانا على بدائع من آثار الضرب الذاتى ، وأن يشتمل الشعر على لطائف من آثار الضرب الموضوعى

ولما كان الشعر أشبه بالضرب الذاتى من الأدب ، والنثر أقرب إلى الموضوعى ، كان الشعراء بطبيعتهم أدباء ذاتيين أو أنانيين كما قد يلقبهم بعض المنكرين عليهم ، وكان الكتاب أدباء موضوعيين ، يتناولون من مجالات القول ما لا يمس أنفسهم وشخصياتهم إلا قليلا ، بينما لا يكاد بعض الشعراء يخوض فى غير شؤون نفسه ، من طرب وشجن وغضب ورضى وحب وبغض ، حتى تلوح دواوين بعضهم كأنها صخب مستمر مزعج ، أو بكاء طفل مدلل وضحكه يتتابعان بلا انقطاع ، والبكاء أظهرهما جلبة والسخط والنقمة والشكوى أبين أثراً ، فاذا فرغ الشاعر من صخبه وثورانه جاء الكاتب من بعده هادئا وقوراً ، يصرف فى شعره نظر الحكيم الخبير ، ويحكم على شعره وخلقه وحياته وفهمه للدنيا حكم القاضى المتمكن ، فلا يزال الشعراء يلوحون كأنهم فريق من المتهورين الأغرار ، ولا يزال النقاد يظهرون فى مسرح الراشدين الأكبر منهم سنا وخبرة بالأمور .

ولا يقتصر التفريق على الشعر والنثر فى هذا الصدد ، بل هناك أشكال من الأدب هى أصلح للذاتى وأخرى هى أوفق للموضوعى : فالقصة والترجمة والتاريخ والملحمة كلها ضروب موضوعية يتحدث فيها المنشىء عن غيره من رجال الحقيقة أو الخيال ، ومن أبناء الحاضر أو الماضى ، ويدرس حوادث لم يساهم فيها ولم يختص بها ، وإن تكن لذاته فى كل ذلك آثار تقل أو تكثر ، والرسائل الاخوانية والمذكرات ، والتراجم الشخصية والاعترافات وما جرى مجراها ، كلها أشكال من الأدب ذاتية يخصصها الأديب لتحليل ذاته وعرض صور من حياته ، وإن خالط ذلك شتى النظرات الموضوعية ، أما المقالة فيتراوح حظها من كل من الضربين .

وكما تفترق أشكال الأدب وتتميز فى هذا الصدد ، كذلك تفترق وتتميز موضوعاته : فالوصف والمدح والهجاء والحكمة أقرب إلى الضرب الموضوعى من الفخر والحماسة والنسيب والشكوى ، أما الرثاء فيجمع إلى وصف خلال المرثى وهو أمر موضوعى ، وصف مشاعر الراثى وهى أشياء ذاتية ؛ على أن موضوعات الأدب هذه قلما ترد فى أثر الأديب خالصة مستقلا ذاتيها عن موضوعيها ، بل يتمازج الضربان كما أن الأشكال الادبية كثيراً ما تختلط ، فيتصل بالأثر الادبى الواحد الترجمة بالقصص مثلا ، ويمتزج الوصف بالنسيب ، وتبدأ القصة أو القصيدة بوصف منظر وتنتهى بخواطر وجدانية ، ومن ثم تمتزج الذاتية والموضوعية فى أكثر الآثار الأدبية .

ومن التعسف تفضيل ضرب من الاثنين على الآخر : فللذاتى من آثار الأدب محاسنه ، وللموضوعى مزاياه ، كما ان الشعر لا يفضل النثر ولا الاخير يرجح الأول ، بل لكل فضائله ومواقفه ودواعيه ؛ فالعمل الأدبى الذى ترين عليه مسحة الذاتية يروع بحرارته وإخلاصه وصراحته ، ويشوق بكشفه عن نفس صاحبه وتحديده لشخصيته ، كما تحدد خطوط المصور شكل الصورة وجوانبها ، ويروع بقدرة صاحبه على التأمل فى نفسه وتوضيح خلجاتها ، والضرب الموضوعى يسر إذ يعكس فى صفحة الفن ما نشهد ونحس فى عالم المشاهدة والخبرة ويروع بقدرة الأديب المنشىء على الملاحظة والتقصى والتجرد من أهواء نفسه والتوفر على ما هو بصدده ، لكل من الضربين مكانته وروعته ما اتفقت له صفتان : الصدق والعمق .

وكل من الأدبين العربى والانجليزى حافل بآثار الذاتية والموضوعية فى مختلف نواحيه ، ترين هذه أو تلك على بعض آثاره أو تغلب على أدبائه ، أو تظهر فى بعض عصوره ، أو تتجلى فى أشكال منه وموضوعات دون أخرى ، بيد أنه لاختلاف تاريخى الأمتين واختلاف ظهورها فى عصر الحضارة والثقافة ، يحتل الطور الذى كان الأدب فيه ذاتيا عهداً مهما من عهود تاريخ الأدب العربى قبل

أن يظهر الضرب الموضوعي ويشيع في الأدب ، على حين لم يتخلف في الأدب الانجليزي من ذلك العهد شيء ذو بال ، وإنما يبدأ تاريخ الأدب الانجليزي الحديث من عهد اليزابث ، والضربان الذاتي والموضوعي فرسا رهان في حلبته ، بل كاد الضرب الموضوعي أن يستأثر بالصدارة في ذلك العصر .

ففي عهد الجاهلية وحقبة من الاسلام كان الأدب العربي - إذا استثنى القرآن الكريم والحديث الشريف - أغلبه ذاتي الصبغة ، وكان للشعر فيه المكانة العليا ، وكان الشعراء دائبين يبدأون القول ويعيدونه فيما خالج أنفسهم من خواطر ، أو مس حياتهم من قريب من حوادث ، فامتلأ قصيدهم بالحماسة والنسيب والمنافرة والمهاجاة والفخر والتمدح بكريم السجايا ، فلما توطدت الحضارة وشاعت الثقافة اتسعت جوانب الشعر وتعددت مجالاته ، وظهر بجانبه النثر الفني ، وتناول كلاهما موضوعي الشؤون بجانب ذاتيها ، فكان من الفنون التي جدت في الشعر أو توسعت فيه الوصف المسهب والمدح المطنب ، وتناول النثر رسائل الأمراء ، كما جال الجاحظ والبديع وغيرهما في نواحي الحياة ومذاهب التفكير وأحوال الماضي وخصائص الأحياء وأخبار الأمم ووجوه النقد الأدبي ، فغزرت في الأدب العربي منظومه ومنثوره في هذا الطور آثار الذاتية والموضوعية . يتحدث المتنبي مثلا عن عظمته وفتوته ومطامحه وأشجانه ، فيجيء شعره ذاتيا صادقا رائعا ، ويمدح سيف الدولة أو سواه ويصف مآثره ومواقعه فيميل إلى الموضوعية ؛ والأرجح أن الموضوعية كانت أظهر في هذا العصر ، لرواج ضربين من القول موضوعين عج بهما الأدب : عج الشعر بمدح الأمراء ، وعج النثر برسائل الدواوين .

ذانك هما الطوران الأولان من أطوار الأدب العربي من جهة الذاتية والموضوعية : الطور الأول هو عهد نشأة الأدب الذي كانت الذاتية فيه غالبة ، والثاني طور نضج الأدب الذي فيه اجتمع الضربان ؛ أما الطور الثالث فهو عهد اضمحلال الأدب تدريجاً ، وهو طور تغلب الضرب الموضوعي وتلاشي الضرب الذاتي تدريجاً : جمد الأدب على موضوعات خاصة اصطفاها الأدباء ، في مقدمتها المدح والهجاء - وعدوها وحدها مجال الأدب وشغل الأديب ، وطرقوها على أساليب خاصة يتنازعهم في ممارستها عاملان الحرص على تقليد الأقدمين ، والرغبة في إظهار البراعة بالتلاعب بالألفاظ والمعاني ، أما المشاعر الذاتية الصادقة ، والخصائص النفسية المميزة ، فاختفت من الأدب ؛ وحتى في شرح عواطفه كان أديب ذلك الطور مقلداً ، لا يشرح عواطفه إلا على نحو خاص قد جرى به العرف ، وحض عليه النقاد ، وبذلك جاءت الآثار الذاتية نفسها موضوعية عامة مبهمة

ومن أحسن أمثلة الضرب الذاتي الصريح في الطور الأول قول عنترة :

فاذا ظلمت فان ظلمي باسل ... مر مذاقته كطعم العلقم
وإذا شربت فانني مستهلك ... مالي ، وعرضي وافر لم يكلم
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى ... وكما علمت شمائلي وتكرمي

ومن أمثلة أشعار الطور الثاني التي يمتزج فيها الذاتي والموضوعي قصيدة المتنبي التي يعاتب بها سيف الدولة ، ومنها قوله :

مالي أكتم حبا قد برى جسدي ... وتدعي حب سيف الدولة الأمم
فوت العدو الذي يممته ظفر ... في طيه أسف في طيه نعم
صحبت في الفلوات الوحش منفردا ... حتى تعجب مني القور والأكم

ومن أمثلة أدب الطور الثالث الذي طغت فيه الموضوعات المأثورة وطمست الشخصية الذاتية قول القائل :

وقفت بأطلال الأحبة سائلا ... ودمعي يسقي ثم عهدا ومعهدا
ومن عجب أني أروي ديارهم ... وحظي منها حين أسألها الصدى

وكان للشعر المكانة الأولى في الأدب الانجليزي في العصر الاليزابثي ، وكان يتناول الضربين الذاتي والموضوعي من النظم ، تختص بالآخير الروايات التمثيلية التي ازدهرت إذ ذاك ازدهارا عظيما ، وتختص بالأول القصائد المرسلة طويلها وقصيرها ؛ وفي القرن الثامن عشر هبط فاضمحلت فيه النزعة الذاتية ، وأصبح أكثره موضوعيا مبهما ، واحتل مكانه النثر وشمل شتى النواحي الذاتية والموضوعية ، ففي الأولى كتب كاولي واديسون وستيل كثيراً من مقالاتهم ، وفي الثانية كتب جيبون وبوزويل ورتشاردسون وديفو وآخرون لا يحصون كتبهم في التاريخ والترجمة والقصص والمغامرات . فلما كانت النهضة الرومانسية عادت للشعر أفضليته ، وحفل بشتى الآثار الذاتية والموضوعية ، بين وصف الطبيعة وسرد الخرافات الشائقة ، ووصف تأثر النفس بهذه وتلك ، وتمجيد الجمال وشرح أطوار الحب ، ولم يزل الشعر والنثر منذ ذلك العهد فرسي رهان ، يطرقان شتى المناحي بين ذاتيها وموضوعيها

بيد أن الذاتية ما زالت منذ عهد شكسبير إلى العصر الحاضر تطغى على الموضوعية رويداً ، وتستأثر شيئا فشيئا بالتفات الأدباء ، وتفوز باشكال أدبية جديدة . ففي عهد شكسبير كان الروائي يحرك روايته حول أشخاص تاريخيين أو خرافيين بعيدين عنه بعداً كبيراً وفي القرن الثامن عشر عهد النثر الذهبي كان الادباء يكتبون القصص يضمنونها من طرف خفي صورا من حياتهم وجوانب من أنفسهم ، فيكتب سمولت الأفاق قصة كونت فاثوم المغامر ، ويكتب جولد سمث

ابن القسيس قصة قس ويكفيلد التي ليست إلا حكاية عهد نشأته في أسرته، ثم يكتب تشارلز دكنز في القرن التالي قصة صباه في كتابه دافيد كوبرفيلد؛ ثم تزداد الذاتية بروزا ويرفع الأدباء حجاب التخفي وينبذون الأسماء المستعارة، فيكتبون قصص نشأتهم ومذكرات رجولتهم وينشرون رسائلهم وتراجمهم الشخصية، والأدب الانجليزي المعاصر حافل بآثار هذه الذاتية السافرة

وقد امتازت بالذاتية الواضحة، أو الأنانية الأدبية، كثير من الأدباء الانجليز، كانوا لا يملون التأمل في نفوسهم والتحدث عن ذواتهم صراحة أو تحت غشاء شفاف: فملتون يعرض لكوارثه وعماه ومبادئه السياسية والدينية والاجتماعية في ملاحمه الثلاث، وورد زورث يؤلف المطولات الشعرية في تصوير صباه وخواطره من طفولته إلى كهولته، وبيرون ينظم القصيدة تلو القصيدة ويصور البطل تلو البطل، ولا يزيد أن يتحدث عن نفسه وميوله وآرائه، وشلي يسمى نفسه «اريل» باسم إله إغريقي، ويكتب عن نفسه تحت ذلك العنوان أشعارا، وكل من هازلت ولام يصور تصويرا دقيقا أميناً ما يحس عند خروجه للرياضة على الأقدام أو حين سماعه النواقيس تتجاوب مؤذنة بانتهاء العام أو نحو ذلك

ومن جهة أخرى نرى أدباء من أمثال جراي وكولردج ورسكن يستترون وراء حجاب من الوقار والتفكير الهادئ الشامل ويتحدثون مصورين أو قاصين أو ناقدين، عن غيرهم من رجال التاريخ والأساطير وأعلام الفن والأدب، فأكثر آثار هؤلاء موضوعية، وأكثر مؤلفات الأولين ذاتية؛ كما كان من الأدباء من أخذوا من كلا الضربين بنصيب وافر، ومن برزوا في مجالي الشعر والنثر، ومن أنهوا حياتهم الأدبية باصدار تراجمهم الشخصية، ومن خلفوا في النقد آثارا تبارى آثارهم في النظم والانشاء، أو تفوقها، مثل دريدن وماكولي وماثيو ارنولد

ويعد بعض المغالين تزايد هذه النزعة الذاتية في الأدب الانجليزي علامة ضعف وانحلال، ولا شك أن غلبة أحد العنصرين الذاتي أو الموضوعي على الأدب من دلائل نقصه، وإنما يكون رقيه مقترنا برقي العنصرين فيه معا. يدل ما فيه من آثار الذاتية على صدق الشعور وعمق التأمل وتميز الشخصيات، ويدل ما فيه من آثار الموضوعية على شمول النظرة واتساع أفق التفكير وتناول الادب لمختلف نواحي الحياة ؟

فخري أبو السعود

«تصويب» جاء في العدد الماضي ص ٤٠٩ س ١٥: وأعدوا لهم ما استطعتم من عدة، والصواب من قوة.

من مشاكلنا الحاضرة

ســؤال...

للأســتاذ علي الطنطاوي

كنت أسمع من أبي والأشياخ من أهلي أنه كان في بلدنا — فيما كان فيها من أوقاف كثيرة — وقف على المشتغلين بالعلم والمنقطعين إليه. يفتحون لهم بريعه المدارس الواسعة، ويعدون لهم الغرف المفروشة، ويهيئون لهم فيها المكتبات القيمة، ويقيمون لهم الخدم ويقدمون إليهم كل ما يحتاجون إليه من طعام وشراب وحلية ومتاع. ويفرغون قلوبهم من كل هم إلا هم الدرس والبحث، فكان الناس يرغبون في العلم، ويقبلون عليه ويبرزون فيه..

... ثم ذهب ذلك كله بذهاب أهله، وخلف من بعدهم خلف أضاعوا الأوقاف، وأكلوا أموالها، فتهدمت هذه المدارس، وأمست خرائب واطلالا. ثم سرقها الناس فحولوها بيوتاً، وطمسوا آثارها...

فأعرض الناس عن العلم وزهدوا فيه، فقلنا: لا بأس، انها قد تتحول تلك المدارس الى دور عجزة، وقد تصير أحيانا ملجأ كسالى، ومأوى عاطلين، وعندنا المدارس الجديدة، تسير على منهج مقرر، ونظام معروف. وطريق واضح، فما نحن إلا كمن أضاع درهما ووجد ديناراً. وأقبلنا على هذه المدارس، إقبال العطاشى على المنهل الصافي. ومنينا أنفسنا بكل جليل وجميل ولكنا لم نلبث أن خرجنا منها. وواجهنا الحياة حتى علمنا بأنها لم تقم بما كان يرجى منها ويجب عليها ... ووجدنا أننا لا نصلح في هذه الحياة إلا لشيء واحد، هو (الوظيفة)؛ أما العمل الحر، والمغامرة في الحياة فنحن أبعد ما يكون امرؤ عنه؛ ووجدنا سبيل الوظيفة مسدوداً وكراسيها مملوءة؛ وكيف لا تكون كذلك وكل الناس يسعى إليها ويريدها؟ هل يكون أبناء الشعب كلهم موظفين؟ فكنا واحداً من رجلين: اما الغني الموسر

فعاش بمال أبيه . وأقام منه سورا حوله . فلا يرى الحياة ، ولا تصل إليه بآلامها ومصائبها . وأما الفقير فيتخبط فى لجة اليم : يم الحياة تضربه بأمواجها ، فلا ينجو من لطمة إلا إلى لطمة ، ولا يخلص من شقاء إلا إلى شقاء .

وقد يكون فى هؤلاء الفقراء موهوبون ، وقد يكون فيهم ذوو الملكات ، وفيهم من إذا استراح من هم العيش واشتغل بالعلم برّز فيه وبرع ، ونفع أمته ووطنه وخلف للأجيال الآتية تراثا عليا فخما كالذى خلفه لنا الأجداد ... فماذا يعمل هؤلاء ؟ ومن أين لهم العقل الذى يدرسون به ، والهمة التى يؤلفون بها ، وعقولهم ضائعة فى البحث عما يملأ معدهم الجائعة ، ويستر أجسادهم العارية ، وهممهم مصروفة إلى ضمان الكفاف ، والحصول على ما يتبلغون به ؟

لقد قال الشافعى رحمه الله منذ الزمن الأطول : لو كلفت شراء بصلة ، ما تعلمت مسألة ... فكيف يتعلم ويدرس ويؤلف من يكلف شراء الرغيف ، وشراء ثمن الرغيف ؟

إنى أعرف كثيرين ممن يؤمل لهم أن يبرعوا فى الأدب ، ويتفوقوا فى العلم ، قدر الله عليهم الفقر والافلاس ، وعلق بأعناقهم أسراً عليهم إعالتها ، والسعى فى إعاشتها ، فألقوا القلم والقرطاس ، ورموا الدفتر والكتاب ، وخرجوا يفتشون عن عمل . . . يطلبون وظيفة ؛ غير أن الطريق إلى الوظيفة وعر ملتو طويل ، لايقدر على سلوكه ، ولا يبلغ غايته ، إلا من حمل معه تميمة من ورق (البنكنوت) يحرقها أمام أبواب الرؤساء لتخرج شياطينها فتفتح له الباب . أو صحب معه (الشفيع العريان) وأين من هذين الشاب النابغ المفلس الشريف ؟ ثم إنه إذا بلغ الوظيفة وجدها لا تصلح له ولا يصلح لها ، وضاقت به وضاق بها !

أعرف كثيرين من هؤلاء يظهرون فجأة كتاباً مجددين ، وشعراء محسنين ، وعلماء باحثين . فما هى إلا أن تنزل بهم الحاجة وتنيخ عليهم (هموم الخبز) حتى تقطعهم عما هم فيه ، ثم تذوى ملكاتهم وتجفف قرائحهم وتتركهم يموتون على مهل ، ويموت بموتهم النبوغ ، وأرباب الأقلام وأصحاب الصحف يشهدون مصارعهم فى صمت وإعراض ، لا يهتمون بهم ، ولا يظنون أن عليهم واجباً تلقاءهم . حتى إذا قضوا قاموا يطنطنون بذكرهم ، ويشيدون بمواهبهم ، ويركبون على قبورهم ليقولوا للناس : أنظروا الينا ...

هذه هى علة الشرق .

إنى عهدتك بعد الموت تدبنى وفى حياتى ما زودتنى زادى

ورحم الله القاضى عبد الوهاب المالكى ، خرج من بغداد فخرج لوداعه عشرون ألفاً ، يبكون وينتحبون فقال لهم : ياأهل بغداد ، والله ما فارقتكم عن قلى ووالله لو وجدت عندكم عشاء ليلة ما فارقتكم . وهم يبكون وينتحبون ويصرخون : إنه يعز علينا فراقك ، إننا نفديك بأرواحنا ، ياشوقنا إليك ! يا مصيبتنا بفقدك ... !

***

هذه هى المسألة ... أفليس هناك طريقة لانقاذ الدماغ من المعدة ؟ لانصاف العلم من المال ، لحماية النبوغ من الضياع ؟

من يشتغل بالعلم والدرس والكتابة والتأليف إذا كان الفقراء لا يطيقونه ، والأغنياء لا يحسنونه أكان لزاماً على من يشتغل بذلك أن يموت من الجوع ؟ ألا يستحق هذا المسكين بطريقة من الطرق . بقانون من القوانين ، عشرين ديناراً يأخذها موظف جاهل خامل بليد ، لا يحسن شيئاً إلا النفاق والالتماسات والوساطات ، ولا ينفع الأمة معشار ما ينفعها هذا الذى يذيب دماغه ، ويحرق نفسه ، ويعمى بصره ، وينفق حياته فى النظر فى الكتب ، والخط بالقلم ؟

أما فى ميزانية الدولة ، أما فى صندوق الجمعية ، أما فى مال الجريدة ، ما تشترى به آثار هذا الكاتب ، وأشعار هذا الشاعر وبحوث هذا العالم ، بالثمن الذى يعدل ما بذل فيها . ليعيش فيصنع غيرها

هذه هى المسألة !

هل يجب أن يموت النابغ لأنه نابغ ، ويعيش الأغبيا والجاهلون ؟ أم يجب عليه أن يميت نبوغه ليعيش ، ويبيع عقله وذكاءه برغيف من الخبز ؟

(بغداد) علي الطنطاوي

الأقلام العربيـــة

فى المهاجر الأمريكية

للأستاذ يوسف البعينى

لا يجهل أحد فى مصر وسائر الأقطار العربية تلك النهضة الفكرية الأدبية التى يقوم بها فريق من خيرة كتابنا وراء البحار، فهنالك خطباء وشعراء وكتاب من الطراز الاول يعززون القومية العربية، ويغذون الجاليات بثقافتها وتاريخها وآدابها.

ولدى رسائل عدة من صفوة الكتاب هنالك يحمدون فيها (للرسالة) دعوتها، ويباهون بنهضتها، ويرونها بحق كتاب الشرق الجديد وديوان العرب المشترك.

ومن هؤلاء الكتاب المعجبين بالرسالة عبقرى مجدد ملك آداب الفرنجة فاجتذبها الى بيانه العربي فى حين تخطف هذه الآداب عددا كبيرا من الناشئة حتى فى عقر دارنا.

وهذا العبقرى هو الأستاذ يوسف البعينى الذى لا تخلو جريدة أو مجلة عربية فى شمالى أميركا وجنوبها من بدائعه، وقد رأي أن يرسل الىّ القطعة الآتية لتنشر فى الرسالة فاتحة لما سيتبعها من رسائل لاخوان لنا وراء البحار من حقهم أن تخصص لهم صفحة في ديوان العرب المشترك.

وإلى القراء هذه القطعة الرائعة.

ف . ف

حبٌ وغرام

فى كتبِ الحبّ وقصص الغرام مقاطع مشرّبة بالعهود، وصفحاتٌ مبطّنة بالوفاء. فعند ما يُصغى الشاعر الحسّاس إلى رنين ألفاظها وهمسَ معانيها تطفو عليه موجةٌ مترعة باليأس والحنين. وكثيراً ما يشاهد فى قرارتها أحلامه المبعثرة بين فجر الماضى ومسائه

ومَنْ يتفهّم مرامى تلك الصفحات الغراميّة يعلم أنّ كاتبيها وضعوها لتكونَ رمزاً إلى العهود على مدَى الليالى والأيام ... وأروعُ ما فى الحياةِ عندى هى العهود.. أجل العهود التى تعطينا صوراً جليّة عن أسرار القلوب وخفايا الأرواح ...

فان أكثر الحفّارين عند ما أرادوا أن يرسموا المثلَ الأعلى فى الحبّ لم يجدوهُ إلا فى العهود ... وهكذا أدركَ الشعراء أيضاً أن أجلَ ما فى الشعر صفحةٌ غرامية تعبّرُ عن الوفاء ... ومتاحف العالم اليوم طافحةٌ بدُمى الحفّارين. كما أنّ قصص الشعراء زاخرة بأخبار الحبِّ والغرام. وفى اعتقادى أنّ الشاعر فى صفحاتهِ، والحفّار فى دُماه، إنّما كانتْ بغيتهما تخليدُ العهود!!

ولكن هل فى الحياة حبّ مغموس بالوفاء، وغرامٌ منحوت من العهود؟ أم هما موجودان فحسب فى أحلام الشعراء ودمى الحفّارين؟ من يدرى ... وكلُ ما أعلمهُ هو شاذٌ عن أفهامِ الناس وعن أذواقهم

* * *

أنا لا أُريد أن أبحث عن صِحّة تلك الأحلام وعن خطأها، ولا أبتغى البحث عن جمال تلك الدمى وعن عللها؛ إنما أريد أن أتحدّث عما فيها من حبّ وغرام، وهما أقربُ إلى العهود منهما إلى شيء آخر

فلقد قرأتُ فى الكتاب الشعريّ الأنيق - تهاليل الفجر - الذى أخرجه الكاتبُ المجدِّد «بيير لويس»، موضوعاً شيقاً عن رسائل الراقصة الروسيّة الساحرة - إيذادورا دونكان - التى كانتْ ترسلها إلى حبيبها التعِس «إيفان بارشوف» عندما بلغها خبرُ مرضه وأنه يلهج باسمها فوق سَرير آلامه. وإنى لمورد فى ما يلى هاتين الرسالتين المشبعتين بغرامِ الراقصة الجميلة وحبّها المفعم بالوفاء

— ١ —

أيها الحبيب!

إنّ زهرةَ مخدعى التى أبقيتَ على أوراقها ذكراً يهولنى مرآها الشاحبُ الحزين ... والسراجَ الأحمر الذى كنتُ ألمحُ فى نظراتهِ بهجةً وإغراء فيما مضى يروعنى الآنَ منه نورهُ الواجمُ الضئيل ... والبلبل الغريد الذى كان ينبّهنى إلى اجتناءِ اللذات يشجونى نفورهُ المبهم، وصمتُه العميق!!

إنّ روحى تريد أن تستهدى إلى قرارها فى ليلِ شوقها وحنينها فيصدُّها العذاب ... عذابُ فراقكَ الطويل الذى أورثنى ملّةً خرساء كسكينة القبور

لقد علمتُ أنك تقاسى من أجلى آلاماً مبرّحة ... فهل عرفتَ أيها الحبيب أنّ فى قلبى المعذّب شجواً يحنظلاً أمرّ من الموت؟

أحياناً ... تهفو على مخيّلتى أحلام ملونة مزيجة ... أحلام

سوداء مخيفة ! فأحجب وجهى بكلتا يدىّ وأغيبُ فى غمرة موجعة متمنيّةً بعدها المنيّة لأنه لا قدرة لى على استماع أنّاتك وشكواك !

أضرعُ إلى الله أن يرحمنى بشفائك . وثق أنى سأبقى سجينة مخدعى بعيدةً عن خلوات أحلامى، متجرّدة من سرورى وابتسامى ، هاجرة شعاع القمر الشاهد على أويقات حبنا وغرامنا حتى تعود إلى ذراعى حبيبتك (ايذادورا)

— ٢ —

يا معبودى الجميل !

الآن وقد أرخى الليلُ سدوله على البسيطة مغلقاً بأنامله الناعمة أجفانَ النيام ، تمرُّ بى أشباحٌ خفيّة هامسة فى مسامعى اسم ذلك الحبيب الذى أجرى فى أودية قلبى جدولا لاينقطع خريره، وغرس فى حديقة روحى زهرة معطرة لاتموت .

وعلى هذا النغم الشجىّ المؤثر الذى تلحنه الظلمة فيردّده الدجَى باكياً ملتاعا ، أسمعُ نعياً منذراً بمأساة مرعبة فأمسى كورقة تهبُّ عليها الرياح السافيات .

لقد مات بلبلنا الحبيب صباحَ اليوم ! مات ضمن قفصه وهو ينظر إلى الأعالى كأنه يرى بين الغيوم خيالا عجيباً ، فبكيته طويلا وقلت فى نفسى هل مات حبنا المقدس بموت هذا الطائر الصغير !

إن نفسى تلفحها الآن نار متلظية ، نار محرقة تضرمها أيد مجهولة ؛ فمتى تتحول هذه النفس إلى رماد هامد لايحس؟ إن النفس التى تحس لهى شقية ، إذ تحياها ثمة وراء أحلامها الشاردة . ولن أشعر بالراحة إلا عندُ ماتغمرنى بقبلاتك الطائشة (إيذادورا)

٭٭٭

وأذكر أننى عند ماقرأت هذه الرسائل — وكلها مطلية بالحب والغرام — استولت على كآبة خرساء بلا معنى ، وأية روح مهما بلغ فهمها لفلسفة الحب لاتشعر بسلطان خفى يجنح يستأثر بها ويحملها إلى أمكنة نائية لاتحقق فيها إلا العهود ، ولا يتمايل فى أجوائها غير الوفاء .

إن هذه القبلة الطافية فوق ألفاظ العاشقة الوالهة ، وهذا التوق الملح النابض بأسرار قلبها ، وهذا الإيمان الثابت القاطن أعشاش صدرها . . . إن كل ذلك هل تحافظ عليه دون خداع فى الحب ؟ ولنفرض أن حبيبها حجبه الموت بعد حين فهل تبقى وفية له طوال أيامها ؟

لقد مات — إيفان بارشوف — بعد كتابة هذه الرسائل بثلاثة أسابيع . فلا أذكر إذا كانت الراقصة المغرمة قد تفجعت عليه تفجعها فى رسائلها إليه . ولكنى أعلم أنها نسيته سريعاً

فانها لم تبكه بدمعة
ولم تنثر على ضريحه زهرة
ولم تذكرهُ بكلمة . . .
ولم تتلهف على أيامه الماضية

بل كانت ، قبل أن يجف قبره ، تعانق حبيباً جديداً لتنسى فى دعابه ومزاحه ذلك العاشق المسكين الذى أسكنه الدهر تلك الحفرة الضيقة الباردة ليقضى فيها زمناً مجهولا غير عالم بما يجرى فى هذا الوجود

فالوفاء والعهود كلمتان نجدهما فى كتب الشعراء وتماثيل الحفارين . أما فى هذا العالم فلسنا نجد الا حباً كاذباً وغراماً سريع الزوال يعقبه دائماً نسيان أبدى على أثر محو القبلة التى تتبادلها الشفاه !

٭٭٭

وهناك حب سريع الزوال ، فهو وإن مازجته الدموع وأفعمته التنهدات ، تمحوه الحياة كما يمحو شعاع الشمس لهاث الطفل العالق على لوح من زجاج

فى أواسط الجيل الماضى تحدث الناس عاماً كاملا عن قصة غرامية جرت حوادثها بين الغادة الحسناء ، المدموازيل إلسيت ، وبين الشاعر الجميل — شارل هيكو . والذى عجب له الناس كثيراً هو هيام الحسناء بالشاعر الصغير وتفضيلها اياه علىُ كبار رجال باريس الذين غمروها بالذهب والحلى وأحاطوها بكل أسباب الترف والابهة والكبريا

وقد أبق العاشقان رواية يُطرب استماعُها ، ويشوق موضوعُها . فانّ الحسناء كانت كلفة كثيراً بالشاعر الى درجة انها لم تكن تقوى فيها على فراقه ساعة واحدة وفى ذات يوم حكم على العاشق الفتى أن يبرح باريس شهراً على الأقل . فلما عاد الى ذراعيها صدته عنها بحجة ان قبعته المعجب بها ليست ظريفة . وان الأشعار التى ينشدها اياها مختلسة من دفتر صغير أسود الغلاف يقبع دائماً تحت وسادة والده الشاعر الكبير فيكتور هيكو

وهذه الحجة الساخرة بما فيها من ضراوة المرأة المستهترة كثيراً ما تتمثل فى الحياة . ولا أشك فى أن القراء يجهلون تلك

القصة الدامية التي تركها الشاعر الالهى الساحر — دي موسيه — مع جورج ساند وكيف عبثت بقلبه الرقيق لتتعلق بطبيب إيطالي لأنه لا يهمهم في الظلمة ... ولا يحب الخزة ... مثل موسيه!

لقد يطول بي الحديث إذا أنا مررت بكل ما هنالك من شؤون وعبر. ولكنني مكتف الآن بإيراد لمحة وجيزة عن غرام الشاعر المشهور — شارل بودلير — مع حبيبته المعبودة — جان ديفال — التي ألهمته أشجى أشعار الحب والجمال في كتابه الخالد «أزاهير الشر»، وهذه الحبيبة التي عشقها طول حياته كانت سوداء!!

وأعتقد أن الشعراء الساخرين ليضحكون من هيام الشاعر اللطيف بامرأة سوداء. نعم قد يضحكون.. ولكنه الغرام... الغرام القاهر الذي يستحوذ على القلب الضعيف فيقيده بالسلاسل ويغله بالأصفاد

وعلى الرغم من شغف الشاعر، ولهفة روحه، وثابت وفائه، فقد خدعته حبيبته الماكرة بعد أن نحت لها من غرامه تمثالا ومن حبه محراباً للعبادة. ولكن هذا الخداع في الغرام، وهذه الخيانة في الحب أغنيا الأدب الفرنسي لأنهما أفاضا دموع الشاعر وأوقدا نار وجده وحنينه!

***

أنا لا أريد أن أشجب الحب، وأن أهجو الغرام. كلا ما إلى هذا أذهب.. بل أريد إثبات أنهما موجودان وحسب في كتب الشعراء، وتماثيل الحفارين. والشاعر والحفار لا يصوران غالباً إلا كل ما سما في فضاء الأحلام وما تمدد على سرير الشعور والاحساس

الرجل الذي يعتقد خلود الغرام ووفاء الحب هو رجل مسكين يستحق الشفقة... إذ لا قبلة يبقى طعمها على الشفاه، ولا وعود تظل محفوظة، ولا ذكرى تحيا في القلوب

وجل ما هنالك حب كاذب وغرام خادع شبيهان بالخطوط التي ترسمها الأمواج على رمال الشاطىء فاذا لم تمحها العاصفة لا تلبث الأمواج أن تمحوها. فالحب الذي لا تبدده الحياة يبدد نفسه بنفسه، والغرام الذي لا يبعثره الموت يبعثر ذاته بذاته

هما حلم يراود الروح في المنام، ولكن اليقظة تشتته ولا تترك منه إلا أثراً دامياً يحنظل الأماني، ويشقي الآمال

(البرازيل) **يوسف البعيني**

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

في الجزر السعيدة

ها إن التين يتساقط عن أشجاره عطر النكهة حلو المذاق وقشوره الجراء تشقق بسقوطها، وأنا هو ريح الشمال يهب على هذه الأثمار الناضجة. إن تعاليمي تتساقط إليكم أيها الصحاب كمثل هذه الأثمار فتذوقوها الآن عند ظهيرة من أيام الخريف وقد صفت فوقكم السماء.

سرّحوا أبصاركم فيما حولكم من خيرات الأرض ثم مدوا بها إلى آفاق البحر البعيد فليس أجمل لمن فاض رزقه من أن يتطلع إلى الأبعاد

لقد كان الناس يتلفظون باسم الله عند ما كانوا يسرّحون أبصارهم على شاسعات البحار، أما الآن فقد تعلمتم الهتاف باسم الانسان الكامل

إن الله افتراض وأنا أريد ألا يذهب بكم الافتراض إلى أبعد مما تفترض إرادتكم المبدعة

أفتستطيعون أن تخلقوا إلهاً؟ إذن أقلعوا عن ذكر الآلهة جميعاً، فليس لكم إلا إيجاد الانسان الكامل

ولعلكم لن تكونوا بنفسكم هذا الانسان الكامل ولكن في وسعكم أن تصبحوا آباء وأجداداً له. فليكن هذا التحول خير ما تعملون

إن الله افتراض وأنا أريد ألا يتجاوز بكم الافتراض حدود التصور، فهل تستطيعون أن تتصوروا إلهاً؟ فاعرفوا من هذا أن واجبكم هو طلب الحقيقة فلا تطمحوا إلى ما يبلغه تصور الانسان وبصره وحسه. فأمسكوا بتصوركم كيلا يتجاوز حدود حواسكم

يتحتم عليكم أن تبدأوا بخلق ما كنتم تسمونه عالماً من قبل فيتكون عالمكم من تفكيركم وتصوركم وإرادتكم ومحبتكم

وعندئذ تبلغون السعادة يامن تطلبون المعرفة . وكيف تطيقون الحياة إذا لم يكن لكم هذا الرجاء ؟

على من يطلب المعرفة ألا يتورط فى ما يرده العقل من المعميات

لسوف أفتح لكم قلبى فلا تخفى عنكم خافية فيه ، فأقول لكم : لو كان هنالك أرباب أكنت أتحمل ألا أكون رباً ؟ إذن ليس فى الكون أرباب

لقد استخرجت لذاتى هذه النتيجة ، وها هى تستخرجنى الآن

إن الله افتراض ولكن من له بتحمل كل ما يضمر هذا الافتراض من اضطراب دون أن يلاقى الفناء ؟ أتريدون أن تأخذوا من الخالق إيمانه ومن النسر تحليقه فى أجواز الفضاء ؟

إن الله عبارة عن إيمان ينكسر به كل خط مستقيم ويميد عنده كل قائم ، فالزمان لدى المؤمن وهم ، وكل فان فى عينيه بطل وخداع ، فهل مثل هذه الأفكار إلا أعاصير تتطاير فيها عظام البشر وتورث الدوار لشاهدها ؟ تلك افتراضات يدور المبتلى بها على نفسه كالرحى حتى يموت

أفليس من الشر والافتيات على الانسانية كل هذه التعاليم تقيم الواحد المطلق الذى لا يناله تحول ولا تغيير ؟

إن الرموز وحدها لا تتغير ، وطالما كذب الشعراء ، غير أن خير ما يضرب من الأمثال ما يصور الحاضر وآتى الزمان فتأتى حجة لكل زائل لا نقضاً له

ليس فى غير الابداع ما ينقذ من الأوجاع ويخفف أثقال الحياة ، غير أن ولادة المبدع تستدعى تحولات كثيرة وتستلزم كثيراً من الآلام

أيها المبدعون ستكون حياتكم مليئة بمرير الميتات لتصبحوا مدافعين عن جميع ما يزول

على المبدع إذا شاء أن يكون هو بنفسه طفل الولادة الجديدة أن يتذرع بعزم المرأة التى تلد فيتحمل أوجاع مخاضها

لقد اخترقت لى طريقاً فى ميتات النفوس والأسرة وأوجاع المخاض غير أننى كثيراً ما نكصت على أعقابى لأننى أعرف ما تقطع الساعات الأخيرة من نياط القلوب .

ولكن ذلك ما تطمح إرادتى المبدعة اليه ، وبتعبير أشد صراحة ذلك هو المقصد الذى تريده إرادتى

إن جميع ما فىّ من شعور يتألم مقيداً سجيناً وليس غير إرادتى من بشير يؤذن بالمسرة ، ويأتى بالافراج عن الشعور

إن الارادة وحدها تحرر ، وما بغير هذه الآية من شرعة صحيحة للارادة وللحرية ، على هذا تقوم تعاليم زارا

بعداً وسحقاً لكل وهن وملال يشل الارادة ويوقف كل تقدير وإبداع

ان طالب المعرفة يشعر بلذة الارادة والايجاد وبلذة استحالة الذات الى ماتحس به فى أعماقها ، فاذا انطوى ضميرى على الصفاء فما ذلك الا لاستقرار ارادة الايجاد فيه . وهذه الارادة هى ما أهاب بى للابتعاد عن الله وعن الآلهة ، إذ لو كان هنالك آلهة لما بقى شيء يمكن خلقه .

إن طموح إرادتى الى الايجاد يدفعنى أبداً نحو الناس اندفاع المطرقة فوق الحجر

أيها الناس اننى ألمح فى الحجر تمثالا كامناً هو مثال الأمثلة أفيجدر أن يبقى ثاوياً فى أشد الصخور صلابة وقبحاً

ان مطرقتى تهوى بضرباتها القاسية على هذا السجن فأرى حجره يتناثر

أريد أن أكمل هذا التمثال ، إن طيفاً زارنى وألطف الكائنات وأعمقها سكوتاً قد اقتربت منى

لقد تجلى بهاء الانسان الكامل لعينى فى هذا الخيال الطارق فما لى وللآلهة بعد : (١)

هكذا تكلم زارا .

الرحماء

لقد بلغنى ، أيها الصحاب قول الناس : « أفما ترون زارا يمر بنا كأنه يمر بين قطيع من الحيوانات » .

وكان أولى بهم أن يقولوا : ان من يطلب المعرفة يمر بالناس مروره بالحيوانات

ان طالب المعرفة يرى الانسان حيواناً له وجنتان حمراوان ولم يراه هكذا ؟ أفليس لأنه كثيراً ما علته حمرة الخجل ؟

(١) ونحن نقول بدورنا لنيتشه متخذين قياساً من قياسه : لو أمكن للانسان أن يخلق شيئاً لما كان هنالك إليه ، وبما أن الانسان يقصر عن إيجاد ذرة وخطرة فكر فى عالمى المادة والروح فالكائن الأزلى مفروض فرضاً على العاقل وكل قول يخالف هذا القول ثرثرة وجنون . . .

هذا ما يقوله طالب المعرفة أيها الصحاب : - ان تاريخ الانسان عار فى عار

ولذلك يفرض الرجل النبيل على نفسه ألا يلحق إهانة باحد لانه يستحي جميع المتألمين

انى والحق أكره الرُحَماء الذين يطلبون الغبطة فى رحمتهم، فاذا ما قضى على بان أرحم تمنيت أن تُجهل رحمتى والا أبذلها إلا عن كثب . أحب أن أستر وجهى حين اشفاق وأن أسارع الى الهرب دون أن أعرف . فتمثلوا بى أيها الصحاب

ليت حظى يسوقنى أبداً حيث ألتقى بأمثالكم رجال لا يتألمون وفى طاقتهم ان يشاركونى آمالى وولائمى وملذاتى

لقد قمت باعمال كثيرة فى سبيل المتألمين ولكن كنت أرى أن الأفضل من هذا زيادة معرفتى فى تمتعى بسرورى . فان الانسان لم يسر الا قليلا منذ وجوده وما من خطيئة حقيقية الا هذه الخطيئة

اذا نحن تعلمنا كيف نزيد فى مسرتنا فاننا نفقد معرفتنا بالإساءة الى سوانا وباختراع ما يسبب الآلام

ذلك ما يدعونى الى غسل يدى اذا أنا مددتها لمتألم ، بل والى تطهير روحى أيضاً ، لانى أخجل لخجله وتؤلمنى مشاهدتى لآلامه ولانى جرحت معزة نفسه بلا رحمة عندما مددت له يدى

ان عظم الاحسان لا يولد الامتنان بل يدعو الى اخماد الحقد ، واذا تغلب نافه الاحسان على النسيان فانه يصبح دوداً ناهشاً

لاتقبلوا شيئاً دون احتراس ، وحكموا تمييزكم عندما تأخذون . ذلك ما أشير به على من ليس لهم ما يبذلونه للناس

أما أنا فمن يبذلون العطاء وأحب أن أعطى الأصدقاء كصديق؛ أما الأبعدون فليتقدموا من أنفسهم لاقتطاف الأثمار من دوحتى فليس فى اقدامهم على الأخذ ما فى قبولهم العطاء من مهانة لكرامتهم

غير أنه من اللازب أن يقطع دابر المتسولين لأن فى الجود عليهم من الكدر ما يوازى كدر انتهارهم وحرمانهم

وكذلك هو حال الخطاة وأهل الضمائر المضللة فان تبكيت الضمير يحفز الانسان الى النهش وإيقاع الأذى

وشر من كل هذا الأفكار الحقيرة وخير للانسان أن يسيء عملا من أن تستولى المسكنة على تفكيره

انكم تقولون « إن فى التفكير الملتوى كثيراً من الاقتصاد فى شر الأعمال » وما يستحسن الاقتصاد فى مثل هذا

ان لشر العمل أكلانا والتهاباً وطفحاً كالقروح ، فهو حر وصريح لأنه يعلن نفسه داء كما تعلن القروح . فى حين ان الفكرة الدنيئة تختفى كالنواحى الفطر وتظل منتشرة حتى تودى بالجسم كله،

ومع هذا فانى أسر فى أذن من تملكه الوسواس الخناس : « إن من الخير أن تدع الوسواس يتعاظم فيك لأن أمامك أنت أيضاً سبيلا يوصلك الى الاعتلاء »

مما يؤسف له أن يكون جهل بعض الشيء خيراً من إدراك كله ؛ غير أن من الناس من يشف حتى تبدو بواطنه ، ولكن ذلك لا يبرر طموحنا إلى استكناه مقاصده . ومن الصعب أن نعيش مع الناس ما دمنا نستصعب السكوت

إن ظلمنا لا ينزل بمن تنفر منه أذواقنا بل يسقط على من لا يعنينا أمره .

و بالرغم من هذا ، إذا كان لك صديق يتألم فكن ملجأ لآلامه ولكن لا تبسط له فراشاً وثيراً بل فراشاً خشنا كالذى يتوسده المحاربون وإلا فما أنت مجديه نفعاً

وإذا أساء اليك صديق فقل له : انى اغتفر لك جنايتك على ولكن هل يسعنى أن أغتفر لك ما جنيته على نفسك بما فعلت ؟

هكذا يتكلم عظيم الحب ، لأنه يتعالى حتى عن المغفرة والاشفاق علينا أن نكبح جماح قلوبنا كيلا تجر عقولنا معها إلى الضلال.

أين تجلى الجنون فى الأرض بأشد مما تجلى بين المشفقين ؟ بل أى ضرر لحق بالناس أشد من الضرر الناشيء عن جنون الرحماء ؟

ويل لكل محب ليس فى محبته ربوة لا يبلغها إشفاقهم قال لى الشيطان يوماً : إن للرب جحيما هو جحيم محبته للناس

وقد سمعت هذا الشيطان يقول أخيراً : لقد مات الاله وما أماته غير رحمته

احترسوا من الرحمة لأنها لن تلبث حتى تعقد فوق الانسان غماماً متلبداً : وما أنا بجاهل ما تنذر به الأيام

احفظوا هذه الكلمة أيضاً : - إن المحبة العظمى تتعامى عن رحمتها فان لها هدفها الأسمى وهو خلق من تحب

- إننى أقف نفسى على حى ، وكذلك يفعل أمثالى : هذا ما يقوله كل مبدع ، والمبدعون قساة القلوب .

هكذا تكلم زارا ...

فليكس فارس

في طريق الوحدة

«محرم» بين السنة والشيعة ...

للأستاذ حسين مروه

أما أن اليقظة الاسلامية قد غمرت دنيا المسلمين على رحبها - فهو مما لا ريب فيه، وأما أن المصلحين من مختلف الأقوام الاسلامية قد خطوا هذا العام المنصرم إلى الوحدة والتقريب بين القلوب خطوة واسعة مباركة - فهو مما لا يخامرنا فيه أدنى هاجس من الشك، ولسنا اليوم بصدد التدليل على هذا كله، ولسنا كذلك نحاول أن نذهب في تصوير الأمر مذهباً يُغَشّي على الحقيقة فنجنى الجناية الكبرى على هذا الأمل المشرق الذي نمشي على هداه إلى المثل الكريم الأعلى الذي ننشده

لقد عمل المصلحون في الآونة الأخيرة كثيراً، واستطاعوا أن ينشئوا خَلقاً جديداً في المسلمين، خَلقاً يقول، إنّ حوادث التاريخ إذا استحال أن يتغير مجراها فتنقلب عما وقعت عليه فليس من المستحيل أن نغير نحن مجرى أهوائنا المتدافعة، ونقلب هذه الأفكار السائدة علاقات أهل القرآن رأساً على عقب أو نستبدل بها خيراً منها، فاذا نحن أمة متكتلة تظلها راية الله العليا، تلك راية الإسلام الحنيف. ولكنّ هنالك خَلقاً آخر في المسلمين لما يزل من خَـلْق الأيام الغابرة السوداء، الأيام التي أخذ الناس فيها بالجانب البغيض من صفحتي التاريخ الاسلامي، وأعرضوا عن الجانب الحبيب الأغر اللامع، وهذا الخَلق في المسلمين - وهو كثير وآأسفاه - يجب على المصلحين أن يرحموه، أن يشفقوا على ذهنيته الضيقة الساذجة فلا يقرونها بما لا تطيق احتماله وهي على هذا الضيق بفهم الأمور، وأن يأخذوا بيده إلى مشارق النور بهوادة ورفق حتى يلمس الحق هو بنفسه، وأن يتملقوا أحاسيسه المختولة المخمورة بأغنيات التعصب - وناهيك بالتعصب ضارباً على وتر الأحاسيس الواهنة - ولا يحسبن القارئ الكريم أنني أدعو إلى اتباع العامة ومجاراة أهواء الدهماء ونزعاتها الهوجاء، فأنا - شهد الله - من أشد الناس نقمة على جماعة العلماء الذين يتملقون السواد، ويهابون اندفاعات الجماهير، ويسترون - من أجل ذلك - الحق خشية من غضب هؤلاء عليهم، فيقطعون معايشهم ويحطمون عروش أمجادهم، ويؤثرون عرض الحياة الدنيا على أن ينطقوا بكلمة الصدق ويقيموا شعائر الحق. غير أني - على ذلك - أخشى هذا الفريق من رجال السوء الذين يستغلون ذهنية الجماهير لأنفسهم ويسخرونها لأهوائهم، فاذا ما تناسى المصلحون شأن الدهماء، وإذا ما أغمضوا أعينهم عما في نفوسها من حقير العواطف وفي عقولها من ساذج الادراك، فقد يقوم هذا النفر المستغل يدعو بالويل والثبور، ويرفع عقيرته البغيضة نافخاً في الجماهير روح الفرقة، عاملا على صدع الصف، ضارباً بآمال المصلحين عرض الأفق فتصبح الآمال الحية أشلاء أباديد، فيجب على القائمين اليوم بأمر الاصلاح - والحال هذه - أن يقيموا الأوزان للجواهر قبل الاعراض، وأن يحفلوا باللباب دون القشور، وأما الأعراض وأما القشور فليس من ضير علينا أن ندع للذين يحفلون بهما أمر ما يحفلون به حتى يتبين لهم أن العرض عرض فينبذونه، وأن القشر قشر فيطرحونه؛ وليس من ضير علينا أن نستكفف شر ذلك النفر العائش على تمليق العامة بأن نحسم بعض القضايا التي يتخذها القوم هؤلاء مطية للغرض الأدنى، ووسيلة لاثارة النعرات المفرقة، وهيج العواطف الحانقة.

وفي طليعة هذه القضايا التي يطل رأسها اليوم - ورجالنا المصلحون يجهدون بجمع الشمل ورأب الصدع - قضية تقف بطائفتي المسلمين. السنة والشيعة على مفترق الطريق - والعياذ بالله - بعد أن كان يغمرنا موج من الفرح لهذه الظاهرات المباركة الطالعة علينا هنا وهناك ببشائر الوحدة الاسلامية المنشودة، ذلك أننا اليوم - حين نكتب هذه الكلمة - نعيش في شهر من الشهور التي تحمل إلينا من ذكريات الماضي البعيد صورا ذات ألوان مختلفة، وأشكال متباينة في ظاهر الأمر، وإن هي كانت في الجوهر والروح، وفي نظر الذين يزنون الاسلام بميزانه الصحيح متسقة أحسن الاتساق، منسجمة أكمل الانسجام.

إننا اليوم فى شهر محرم الحرام ، وشهر المحرم هذا ذو صفحتين من الذكرى كلتاهما ذات خطر عظيم ، وكلتاهما ذات شأن كبير فى نفوس المسلمين ؛ ففى إحدى صفحتيه يحمل ذكرى هجرة المنقذ الأعظم ، رسول الله ، محمد بن عبد الله ، عليه صلوات من ربه وبركات ، ذكرى هجرته إلى يثرب حيث قامت سوق الاسلام وعمرت ، وحيث استفاضت أنوار الشريعة الغراء لألاءة الرواء ، ضافية البهاء ، ثرّة الأضواء ؛ ويحمل فى صفحته الأخرى ذكرى عاشوراء ، ذكرى حادثة الطف الدامية حيث استشهد ريحانة رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحسين بن على مجاهداً فى سبيل الحق ، وحيث نجم — لأول مرة — قرن الانقلابات الخطيرة ، والثورات الداخلية الجيّاشة .

هاتان صفحتان من الذكريات الاسلامية ذات الشأن يحملهما شهر المحرم ، ويطلع بهما على المسلمين ، فتستقبله طائفة من ناحيته الأولى فتجعل يوم مطلعه عيداً ميمون النقيبة ، محمود الأثر ، أغر الجبين ، وتستقبله طائفة من ناحيته الثانية فتجعل يوم استهلاله مأتماً قاتم اللون ، أغبر الوجه ، دامى القلب ؛ وتنظر - من بعد - كل طائفة إلى أختها النظر الشزّر ، وتتباعد وجهة النظر ، وتتسع شقة البين ، ويطلُّ النفر المستغل برأسه وينفخ فى بوقه ؟ وهذا هو الشر المستطير الذى نريد أن نكفكف من عاديته فى وجه الحركة الإصلاحية القائمة اليوم ، وهذا هو الأمر الجلل الذى نحاول أن يخفف المصلحون من سورته ، وها أنذا أضع - فى ختام هذه الكلمة - اقتراحاً على رجالنا العاملين فى حقل الوحدة الاسلامية ، أرجو أن يجدوا فيه حلا حاسما لهذه القضية التى يرى القارىء خطورتها . وأرجو إلى إخواننا علماء الأزهر المصلحين أن يقولوا كلمتهم فى « الرسالة » الكريمة حول هذا الباب ليرى العالم الاسلامى رأيهم المحترم المرموق بالتقدير :

يجمع المؤرخون - ياسادتى - على أن مقدم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة كان فى اليوم الثانى عشر من شهر ربيع الأول ، أى بعد أول المحرم بشهرين واثنى عشر يوماً ، كما جاء فى تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٢٥٣ باب (ذكر الوقت الذى عمل فيه التاريخ) ، وفى مروج الذهب للسعودى ج ١ ص ٤٠١ ، وفى غيرهما من مصادر التاريخ الاسلامى الموثوق بروايتها ؛ وتدل الروايات فى هذا الباب على أن أول من أمر بالتاريخ فى الدولة الاسلامية هو الخليفة الثانى عمر بن الخطاب ، وأنه هو اختار هجرة النبى صلى الله عليه وسلم مبدأ للتاريخ الاسلامى . وقال يومئذ كلمته الصادقة الحكيمة حيث جمع الناس للشورة ، فقال بعضهم : أرخ لمبعث رسول الله . وقال بعضهم : أرخ لمهاجر رسول الله ، فقال : « لا بل نؤرخ لمهاجر رسول الله فان مهاجره فرق بين الحق والباطل » ، وتدل هذه الروايات نفسها كذلك أنه هو — عمر — اختار شهر المحرم مبدأ لشهور السنة الهجرية قائلا أيضاً : نبدأ بالمحرم « فهو منصرف الناس من حجهم وهو شهر حرام » ، والحق فيما قال من هذه الناحية ، غير أننى أقول الآن :

مادام قد وقع الاختيار على بدء السنة الهجرية بشهر المحرم لهذا الغرض الذى جاء فى كلام الخليفة الثانى الكريم ، وجرت على ذلك السيرة فى عصور الإسلام جمعاء ، فلتبق هذه السيرة مستمرة ولا ضير ، ولا نريد أن نبدع بدعاً فى هذا ، أما ذكرى الهجرة نفسها ، الذكرى التى هى لا غير مبعث تقديس المسلمين لرأس السنة الهجرية ، وهى التى يحتفلون بها ، ويجعلون يومها عيدا كريما مباركا — أقول : أما هذه الذكرى نفسها ، فليس من غضاضة فى أن يكون الاحتفال بها ، وأن يكون عيدها الميمون فى يومها الذى وقعت فيه الهجرة النبوية الشريفة على التحقيق ، فى يومها التاريخى الصحيح حيث يكون عيدا للسلمين كافةً : يشتركون بأفراحه ، ويتبادلون مظاهر السرور ، ومجالى الاغتباط . وإذا ما جاء شهر المحرم - من بعد - اشتركوا جميعاً كذلك فى مشاعر الألم ، وهواجس الحزن للمأساة الاسلامية الرائعة التى تمثلت فى طف كربلاء ، وكرموا نبيهم صلى الله عليه وسلم بالتأسى به إذ جاء فى الأسانيد الصحيحة أنه صلى الله عليه وسلم كان يستشعر الحزن فى هذا الشهر : شهر المحرم ، فنكون بذلك قد وضعنا حجر الزاوية فى بناء الوحدة الاسلامية المرجوّة ، ولا نكون قد فرطنا فى شىء من ما جريات التاريخ ، ولا نقضنا شعيرة من شعائر السلف أو حرمة من حرمات الاسلام .

فما قولكم ياسادتى ؟ ؟

النجف

حسين مروه

الزهـــاوى

فى أوائل أيامه وأواخرها

للسيد صلاح الدين عبد اللطيف الناهى

كنت فى السابعة أو الثامنة من عمرى يوم كان يستلفت نظرى شيخ هزيل نحيف، مرسل الشعر على الأكتاف. يمتطى صهوة حمار حساوى أبيض ويمشى فى ركابه خادم لا يتغير، وكانت سيماء الشيخ ومطيته تدلان على أنه من أعيان بغداد فقد كان الحمار مطية لا تزرى براكبها قبل ان تديل دولة «الميكانيك» من دولة الحيوان

ومرت فترة من الزمن فهجر الشيخ حماره واتخذ له «عربانة» تقطع به عرض الشارع العام «شارع الرشيد» وهو يطل منها على الناس أو يراقب الطير حائماً فوق مآذن بغداد الشامخة وقبابها الزرق، أو يحرك شفتيه بشعر

وسألت ذات يوم: من يكون هذا الشيخ وماله يهدل خصائل شعره شأن أحبار اليهود؟ فقيل لى انه فيلسوف. فلم أفهم ما يريدون ولكن كتمتها فى نفسى كمن اقتنع بالجواب

ثم قل اهتمامى به لكثرة ما اعتدت رؤيته بعد ذلك، ولم أكن أقدر أن اعتنائى به سيزداد يوماً من الأيام. ولكن العمر تقدم بى قليلا فعرفت قدر الشيخ الفيلسوف ورضت نفسى على قراءة ما وقع فى يدى من آثاره فبدا لى من أمره ما كنت أجهل

وكان الناس يومئذ فريقان فريق يدعوله ويكبر شأنه، وفريق ينكر أمره ويتبرم به ويرميه بالزندقة والالحاد. وكان هو محور هذا التطاحن العنيف بين هذين الفريقين. وانك لتلمس فى شعره هذا التطاحن اذا قرأته وتلمس تبرمه بجمود الجمهور وجهالة الجمهور، ولكنه لم ييأس ولم يتمثل بقول القائل:

غزلت لهم غزلا رفيعاً فلم أجد لغزلى نساجاً فكسرت مغزلى

بل التزم دائما سبيل الجهر بآرائه والدعوة لها وانك لتعجب من بسالة هذا الشيخ المتهدم يوم كان يدعو الى التحرر والى التجدد ويجاهر برأيه فى المرأة:

يرفع الشعب فريقا ن أناث وذكور
وهل الطائر إلا بجناحيه يطير

ليس يأتى شعب جلائل مالم تتقدم أناثه والذكور

٭٭٭

مزقى يا ابنة العراق الحجابا واسفرى فالحياة تبغى انقلابا

ويجاهر برأيه فى الدين:

تحيرت لا أدرى أمام الحقائق أأنى خلقت الله أم هو خالقى

فتضج الناس بالشكوى وتتبرم ويضيق به الأمر فيلزم داره أو يهجر بلده ويودع ليلاه لائذاً بمصر من غضب الناس نادباً لياليه فى بغداد ولكنه لم يلبث أن يجهر برأيه هنا وينشد القوم:

وسائلتى هل بعد أن يعبث البلى بأجسادنا نحيا طويلا ونرزق
... ...
وهيهات لا ترجى حياة لميت إليه البلى فى قبره يتطرق
تقولين يفنى الجسم والروح خالد فهل بخلود الروح عندك موثق

فتنزى الشيوخ من الغيظ ويثور الجمهور فاذا بالناس فريقان فريق له وفريق عليه حتى يضيق به الأمر فيعود إلى بلده وقد سكن روع الناس وعز عليهم أن يلجئوا الشيخ إلى الفرار فيناله المكروه فى سبيل ذلك وهو الشاعر الذى ينطق بآمالهم وآلامهم ويحفزهم إلى المجد، غير مبال بعوده الذابل وجسمه الذاوى. حتى ألف الناس منه هذه البسالة والجرأة والتف حوله الشباب وهو يدفع بهم إلى الثورة ويلوح لهم بكل جديد فى الرأى وطريف فى الفكر تلويحاً يدفع به أحياناً إلى تحميل الشعر والأدب مالا طاقة لهما به فيزج العلم فى ساحة الشعر فيمهد بذلك السبيل لخصومه ومنكرى شاعريته فيحتجون عليه بمثل قوله:

ليست الشمس من الشر ق إلى الغرب تدور
إنما الأرض من الغر ب إلى الشرق تسير

وما كان بالعلم من حاجة إلا من ينظمه لنا شعرا إلا حاجة فى نفس الشيخ قضاها

ولقد كنا نقرأ له القصيدة فنلمس وجدان الشاعر الموهوب فى ألفاظ الشاعر المطبوع وأفكار الشاعر الفيلسوف فنطرب لها. ثم نقرأ له القصيدة وقد أقحم فيها العلم اقحاما فنقف ننافح الخصوم عما فيها من نظريات وآراء تلهيهم بذلك عن زلة الشاعر ونخرج بهم من نقد هذه الزلة إلى تأييد الفكرة والبرهان وننعى عليهم جموداً فى الراى وضيقا فى الصدر ولولا تجاوزهم حدود النقد إلى التحامل لما تجاوزنا حدود الدفاع إلى المكر.

وإذا كان فى اختيار الألفاظ الجزلة للمعانى السامية مايدل على

صفاء نفس الشاعر وطول باعه ودقة احساسه وتمييزه وقع الألفاظ وموسيقاها فقد كان شاعرنا فى اختيار الألفاظ والنواسى فرسى رهان . وهو الذى يشير إلى ذلك بقوله :

إذا هلكت تخطوا جنب النواسى قبرى
إنى أمت إليـــه وإن تأخر عصرى

على أنه يختلف بعد ذلك عن أبى نواس فى ميله من الدعابة والعبث إلى الفلسفة والحكمة ، فهو يغوص وراءها فى كل لجة ويأتى بها بكرا لم تقع العين على مثلها ، وهو بذلك يقتفى خطى المعرى . وبذلك يقول :

إنى تتلمذت فى بيتى عليك وان أبلت عظامك أزمان وأزمان

وهو يقتفى أيضا خطى الشاعر الخيمى(١) لافى مجونه وإنما فى حكمته وشكه ويقينه ، وحسبك أنه عمد إلى رباعياته فترجمها إلى العربية نظما

واشتقت مرة أن أحادث الشيخ الفيلسوف وأتعرف به قبل أن تختطفه المنون فلما اجتمعت به أبصرت أمامى هيكلا من الأعصاب الثائرة يكسوها جلد مجعد ، ورأيته يرجحن فوق ساقين هزيلتين ماتنفكان تضطربان من الشلل

وقد أحاول أن أسعى فتمنعنى • رجل رمتها يد الأقدار بالشلل

فهو ينتفض بين الآونة والآونة فيتجهم وجهه ثم تنبسط أساريره ويتمتم قائلا : أعصابى ! ثم ينصرف إلى محدثه فيما كان فيه ، وأذكر أننى ما كدت ابدأه بالتحيه حتى قال لى :

« يا بنى تسمع بالمعيدى خير من أن تراه »

ثم لم يلبث أن قرأ لنا قصيدته « احساناتى » فاجتمعت حوله خلقة كبيرة من مريديه والمعجبين به وفى ذلك بنكات بارعة وروى لنا أنه قرأ بين يدى جلالة الملك الراحل « ثورته فى الجحيم » ، وما زال بين نكتة وارتجاجة حتى انتصف النهار فودعنا وامتطى (عربانته) إلى داره . ومرت أيام فنعى إلينا الشيخ ووقع ما كنا نخشاه .

مات الشيخ ولكن السبيل الذى كان يدعو إليه هانت صعابه وتطامنت وهاده

وبالرغم مما كانوا يتهمونه به من مروق فى الدين فقد قال :

عبدتك لا أدرى ولا أحدرى أسرك أم صدر الطبيعة أوسع
عبدت اسمك المحمود فى الليل والضحى
إذا الشمس تستخفى إذا الشمس تطلع

فأيقنت أن الكون بالله قائم وانك نور والحقيقة برقع

وقال :

أنا هـــذا فلا أبالى إذا ما أجمعت ثلة على تكفيرى
أهل عصرى لا يفقهون حديثى حبذا لو أتيت بعد عصور

وشيخنا فى تقلبه بين الشك واليقين إنما ينحو منحى بعض الفلاسفة الذين مروا فى تفكيرهم بأزمات فانكروا وآمنوا وهو فى كل مرحلة إنما سجل ما جاش بنفسه فجاء شعره صدى أطواره فى هذه الأزمات .

والمرء يخلق طوراً بعد أطوار

وبعد فان الصدق فى الرواية يحتم على أن أقول إن ما أثبته هنا من أبيات لم أرجع فيها إلى دواوين الشيخ فقد خلفتها فى بغداد ، وإنما هى مما علق بالذاكرة ، وما أكثر ماتخوننى الذاكرة ، فأضع كلمة مكان كلمة متى استقام لها المعنى ولو كنت فى زمن الرواية والحديث لما أبحت لنفسى أن أروى حديثاً فلتغفر لى روح الفقيد ما أكون قد وقعت فيه وتغمد الله روحه برحمته

صلاح الدين عبد اللطيف الناهى

(١) عمر الخيمى الشاعر المعروف ويسميه بعضهم خطأ بالخيام وقد جاء :
إن كنت ترعين ياريح الصبا ذممى فاقرى السلام على العلامة الخيمى

٦ - دعابة الجاحظ

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

... وإني لأعجب للجاحظ كيف اتسع وقته واتسع قلبه لكل هذا الضحك والأضحاك من الناس، فكأنه كان رقيباً يرقبهم في كل ناحية من نواحي نقصهم، ليعود من وراء ذلك بالنادرة الطيبة، ويفوز بالفكاهة الضاحكة، ويثني بالملحة البارعة، فهو يتسقط جهد طاقته — حيلة المتطفل، وحجة البخيل، ونحلة الأكول، وخفة الأبله، وسخافة الغبي، وغباوة الأحمق، ووقاحة الدعي، وتقعر المتعالم، وعنجهية الأعرابي، وملحة الأديب، وظرف النديم، فاذا ما أجرى ذلك وأشباهه على لسانه، أو تناوله بقلمه، وأخرجه على طريقته، وطبعه بأسلوبه، وأفرغ عليه من روحه وقلبه، فانه لاشك يستولي على لبك، ويهيج نشاطك، ويدفعك إلى الضحك دفعاً، وينتقل بك إلى روضة أريضة بالبشر والطلاقة، والشواهد لذلك كثيرة في كتب الرجل وفيما تلقفه عنه الأدباء وأهل الرواية. حدث فيما حدث به عن بخل محمد بن أبي المؤمل وشدة حرصه وإقتاره فقال: واشتريت — أي ابن أبي المؤمل — مرة شبوطة(١) وهو ببغداد، وأخذها فائقة عظيمة، وغالى بها وارتفع في ثمنها، وكان قد بعد عهده بأكل السمك وهو بصري لايصبر عنه، فكان قدأ كبر أمرهذه السمكة لكثرة ثمنها، ولسمنها وعظمها، ولشدة شهوته لها، فحين ظن عند نفسه أنه قد خلا بها، وتفرد بأطايبها، وحسر عن ذراعيه، وصمد صمدها، هجمت عليه ومعي السدري، فلما رآه رأى الموت الأحمر والطاعون الجارف، ورأى الحتم المقضي، ورأى قاصمة الظهر وأيقن بالشر، وعلم أنه قد ابتلي بالتنين، فلم يلبثه السدري حتى قور السرة بالمبال، فأقبل علي فقال لي يا أبا عثمان: السدري يعجبه السدر! فما فصلت الكلمة من فيه حتى قبض على القفا فانتزع الجانبين جميعاً، فأقبل علي فقال: والسدري يعجبه الأقفاء، فما فرغ من كلامه إلا والسدري قد اجترف المتن كله!

فقال يا أبا عثمان: والسدري يعجبه المتون! ولم يظن أن السدري يعرف فضيلة ذنب الشبوط وعذوبة لحمه، وظن أنه سيسلم له، وظن معرفة ذلك من الغامض، فلم يدر إلا والسدري قد اكتسح ما على الوجهين جميعاً!! ولولا أن السدري أبطره وأثقله وأكده وملأ صدره غيظا لقد كان أدرك معه طرفاً لأنه كان من الأكلة، ولكن الغيظ كان من أعوان السدري عليه، فلما أكل السدري جميع أطايبها وبقي هو في النظارة، ولم يبق في يده مما كان يؤمله في تلك السمكة إلا الغيظ الشديد والغرم الثقيل ظن أن في سائر السمكة مايشبعه ويشفي من قرمه، وبذلك كان عزاؤه وذلك هو الذي كان يمسك بأرماقه وحشاشات نفسه؛ فلما رأى السدري يضرى القرى ويلتهم التهاماً قال: يا أبا عثمان السدري يعجبه كل شيء، فتولد الغيظ في جوفه، وأقلته الرعدة خبثت نفسه، فما زال يقيء ويسلح ثم ركبته الحمى وصحت توبته وتم عزمه في ألا يؤاكل رغيباً أبداً ولا زهيداً، ولا يشتري سمكاً أبداً رخيصة ولا غالية، وإن أهدوها إليه لايقبلها، وإن وجدها مطروحة لايمسها(١)

فالجاحظ في هذه النادرة البارعة يحاول أن يدخل على نفسك من كل جهة، وأن يهز قلبك بالضحك في تهويله وإغراقه، فهو يبسط لك في العبارة، ويرادف الجمل على المعنى الواحد فاذا به يبهرك بصور معروضة لا بألفاظ مسرودة. وخذ بالنظر الى هذه النادرة التي بين أيدينا، فأنت في ضحك بالغ من إغراق الجاحظ في تصوير بخل ابن أبي المؤمل حتى أنه لما رأى السدري رأى الموت الأحمر والطاعون الجارف! ورأى الحتم المقضي! ورأى قاصمة الظهر! وأيقن بالشر! وعلم أنه قد ابتلي بالتنين!! وأنت أيضاً في ضحك بالغ من نهاية هذا الرجل تلك النهاية الأليمة: اذ « تولد الغيظ في جوفه، وأقلته الرعدة، خبثت نفسه فما زال يقيء ويسلح!! ثم ركبته الحمى!! وصحت توبته وتم عزمه في أن لا يؤاكل رغيباً ولا زهيداً، ولا يشتري سمكاً أبداً رخيصة ولا غالية، وإن أهدوها اليه لا يقبلها، وإن وجدها مطروحة لا يمسها!! » ثم أنت في ضحك من صنيع السدري وهو يقور السرة، ويقبض على القفا، ويجترف المتن، ويكتسح ما على

(١) الشبوط نوع من السمك دقيق الذنب عريض الوسط لين المس تحدث عنه الجاحظ في كتابه الحيوان وهو كثير في دجلة.

(١) البخلاء ص ٨٣

الوجهين جميعا، ثم وهو يفرى القرى ويلتهم التهاما !! ولقد كان السدرى من الأكلة، وهو من الأشخاص الذين أولع الجاحظ بالتنادر عليهم، وأغرق فى الضحك منهم، ومع ذلك فكان يجالسه ويحادثه ويجاذبه الرأى والفكاهة، فقال له يوماً: اذا كانت المرأة عاقلة ظريفة كاملة كانت قحبة! فقال السدرى: وكيف؟ قال: لأنها تأخذ الدراهم، وتتمتع باللباس والطيب، وتختار على عينها من تريد، والتوبة معروضة لها متى شاءت! فقال السدرى: فكيف عقل العجوز؟ قال: هى أحمق الناس وأقلهم عقلا !!

على أن السدرى وهو على ما رأيت فى الشره والجشع لم يكن فى الأكلة بسباق الحلبة ولا هو بكبش الكتيبة فى رأى الجاحظ وتقديره، وانما كان يقدم فى ذلك قاسما التمار، وكان قاسم هذا - كما يقول الجاحظ - شديد الأكل شديد الخبط قذر المؤاكلة، وكان أسخى الناس على طعام غيره وأبخل الناس على طعام نفسه؛ وكان فى مؤاكلته يعمل عمل رجل لم يسمع بالحشمة ولا بالتجمل قط. وكان يجلس على طعام ثمامة بن أشرس فكان لا يرضى بسوء أدبه حتى يجر معه ابنه ابراهيم، وكان بينه وبين ابنه فى القذر بقدر ما بينه وبين جميع العالمين، فكانا اذا تقابلا على خوان ثمامة لم يكن لأحد على ايمانهما وشمائلهما حظ فى الطيبات [1]، وكان قاسم الى جانب ذلك سخيفاً مغفلا غبياً، وقد حفل الجاحظ بأخباره ونوادره فأورد بعضاً من حوادثه فى الهجوم على خوان ثمامة وفتكه به فى كتاب البخلاء [2]، كما اورد طرفاً من سخافاته وحماقاته فى البيان والتبيين [3]، وما أطيبه وهو يضحك من جهله اذ يقول فى باب اللحن: وقال بشر المريسى: قضى الله لكم الحوائج على أحسن الوجوه وأهنؤها! فقال قاسم التمار: هذا على حد قوله:

إن سليمي والله يكلؤها ضنت بشىء ما كان يرزؤها

قال الجاحظ: فصار احتجاج قاسم أطيب وأضحك من لحن بشر !! [4]، ولولا التحرج لأوردنا شيئا من نوادر الرجل ومضاحيكه التى أحصاها الجاحظ عنه، فان فيها ما يعف القلم عن ذكره، ولا يصح أن ينشر مطويه فى مجلة سائرة! على أنها طبية تفيض بالضحك وتحمل عليه !!

والجاحظ ولوع ببعض الأشخاص يتعقب أخبارهم فى الضحك والعبث، ويذكرهم بأوصافهم فى كل مناسبة داعية، فكما أنه يتندر على الكندى وابن أبى المؤمل وسهل فى البخلاء، والسدرى وقاسم التمار فى الأكلة، فهو يذكر كثيراً كيسان مستملى أبى عبيدة فى أهل البلادة. ولقمان المرور فى أصحاب الغباوة، وريسموس اليونانى فى الموسوسين، وأبو حية النميرى فى المجانين، وريطة بنت كعب فى الخرق، ومالك بن زيد مناة فى النوكى، وابن فنان فى المدخولين. وإنه ليطربك ويضحكك وهو يضحك من مستملى أبى عبيدة فى غفلته وبلادته، قال الجاحظ: فكان يكتب غير ما يسمع، ويقول غير ما يكتب، ويستملى غير ما يقرأ، ويملى غير ما يستملى. أمليت عليه يوماً:

قلت لمعشر عدلوا بمعتمر أبا عمرو!

فكتب أبا بشر، وقرأ أبا حفص، واستملى أبا زيد، وأملى أبا نصر [1]! قلت وإذا كان فى هذا الوصف ما يحمل على الضحك، فليس يبالغ من ذلك ما يبلغه وصف الجاحظ أيضا لغباوة أبى لقمان المرور إذ يقول: وسأل بعض أصحابنا أبا لقمان المرور عن الجزء الذى لا يتجزأ ما هو؟ فقال: الجزء الذى لا يتجزأ على ابن أبى طالب عليه السلام، فقال له أبو العيناء: أفليس فى الأرض جزء لا يتجزأ غيره؟ قال: بلى! حمزة جزء لا يتجزأ! قال فما تقول فى أبى بكر وعمر؟ قال أبو بكر يتجزأ! قال: فما تقول فى عثمان؟ قال: يتجزأ مرتين، والزبير يتجزأ مرتين، قال: فأى شىء تقول فى معاوية؟ قال: لا يتجزأ !! قال الجاحظ: فقد فكرنا فى تأويل أبى لقمان حين جعل الأنام أجزاء لا تتجزأ إلى أى شىء ذهب؟ فلم نقع عليه إلا أن يكون أبو لقمان كان إذا سمع المتكلمين يذكرون الجزء الذى لا يتجزأ هاله ذلك وكبر فى صدره وتوهم أنه الباب الأكبر من علم الفلسفة !! وأن الشىء إذا عظم خطره سموه بالجزء الذى لا يتجزأ!!، [2]

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر كما يقولون، فما أشبه أبا لقمان فى غفلته وجهله بعبيد الكلابى. وقد سأله الجاحظ: أيسرك أن تكون هجيناً ولك ألف دينار؟ فقال: لا أحب اللؤم بشىء!

---

(١) البخلاء ص ١٦٧ (٢) ص ١٦٦، ١٦٧
(٣) ص ٢١٨ ج ٢ (٤) البيان والتبيين ج ٢ ص ١٤٧

(١) جمع الجواهر للحصرى ص ٣٠٢
(٢) الحيوان للجاحظ

قال الجاحظ : فقلت له : إن أمير المؤمنين ابن أمَةَ (١) ؛ فقال : أخزى الله من أطاعه ، فقلت : نبي الله إسماعيل ابن أمة ! فقال : لا يقول هذا إلا قدَرى ! فقلت : وما القدرى ؟ فقال : لا أدرى إلا أنه رجل سوء !!

وللجاحظ كثير من المضاحيك السائرة والنوادر الذائعة التي نقلها عنه الرواة ؛ فمن ذلك ما رواه أبو بكر بن إسحاق قال : قال لي إبراهيم بن محمود ونحن ببغداد : ألا تدخل على الجاحظ ؟ فقلت مالي وله ! فقال : إنك إذا انصرفت إلى خراسان سألوك عنه فلو دخلت إليه وسمعت كلامه ؟ فدخلت عليه فقدم لنا طبقاً من الرطب فتناولت منه ثلاث رطبات وأمسكت ، ومرَّ فيه إبراهيم فأشرت إليه أن يمسك ! فرمقني الجاحظ فقال لي : دعه يا فتى فقد كان عندى بعض إخوانى فقدمت إليه الرطب فامتنع فحلفت عليه فأبى إلا أن يبرَّ قسمى بثلثمائة رطبة !!

وقال أبو العيناء : كان الجاحظ يأكل مع محمد بن عبد الملك الزيات فجاءوا بفالوذجة (٢) فتولع محمد بالجاحظ وأمر أن يجعل من جهته مارق من الجام ، فأسرع في الأكل فتنظف ما بين يديه !! فقال ابن الزيات : تقشعت سماؤك قبل سماء الناس يا أبا عثمان ؟ فقال الجاحظ : لأن غيمها كان رقيقاً !!

وأدعى إلى الضحك من هذا ما حدث به الجاحظ قال : كان يحضر الي رجل فصيح من العجم فقلت له : هذه الفصاحة وهذا البيان لو ادعيت في قبيلة من العرب لكنت لا تنازع فيها ، فما جابني إلى ذلك ! فجعلت أحفظه نسباً حتى حفظه وهذّه هذاً ، فقلت له : الآن لا تته علينا ! فقال : سبحان الله ان فعلت ذلك فأنا اذاً دعي !!

وشبيه بهذا الأعجمي المتفاصح ذلك القاص المتعالم الذي أشار اليه الجاحظ فقال : وكان عندنا قاص أعمى ليس يحفظ من الدنيا الاحديث جرجيس ، فلما أخذ فيه بكى واحد من النظارة فقال القاص : أنتم بأي شيء تبكون ؟ ! انما البلاء علينا معاشر العلماء !!

فالجاحظ لا شك كان رجلا ضُحَكة ضُحُكة ، ومضاحيكه كما قلنا - تمتلك اللب ، وتهتاج النشاط ، وتدفع إلى الضحك دفعا ...

(دمياط) محمد فهمي عبد اللطيف

(١) يريد به الخليفه المعتصم إذ كانت أمه جارية

(٢) حلواء تعمل من الدقيق والماء والعسل وكأنها المعروفة الآن بالبالوظة

حديث الأزهار

للكاتب الفرنسي ألفونس كار

ترجمة ف . ف

زهرة مقصوفة

ترطّبت أهدابي بدموع الفجر ، ففتحتُ عيني لأوائل أشعة الشمس .

مرت بي عند الصباح غادة استوقفها جمالي فخدجتني بنظرات الاعجاب فابتسمت لها

وأمرت الغادة يدها الناعمة على وريقاتي فارتعشت وأسكرتني اللذة ، لكنها لم تطل حتى شعرت بعدها بألم هائل اخترق أحشائي ، فأحنيت الرأس ذليلة على غصني المقصوف

* * *

لم لَمْ تقطفي تويجي ، أيتها الغادة ، لماذا قصفت غصني فتركتني بين الحياة والموت ، وقد كان في إمكانك أن توسديني نهدك فأرقد عليه بسلام .

إن دمى يسيل ببطء من جرحي المفتوح ، وصقيع الموت يلوح وريقاتي بالاصفرار . وقد انطبق تويجي منقبضاً على أوجاع

أتوقف النسيم عن مداعبة الأغصان ؟ إنني لم أعد أسمع لأجنحته عليها حفيفاً . وهل صمتت الأطيار ؟ فقد انقطع عن مسمعي تغريدها .

أين شعاع الشمس ؟ إنني لم أعد أراه . ويلاه أخبرنني أيتها الرفيقات ، هل تلاشى النور وساد الظلام ؟ .

* * *

لا، إن الليل لم ينشر أجنحته بعد، ولكنها أشباح الموت السود تطبق على ، فسوف لا أرى لمعان النجوم في قبة الفضاء ولا أفتح وريقاتي لا قتبال ندى الفجر

ستتساقط بقاياي مبددة على التراب وترتفع روحي إلى الأعالي تاركة أريجي عالقاً بالأثير .

سوف ينتصب شبحي المتألم بوجهك، أيتها الغادة، سوف يثأر ا ضميرك منك ، فتتألمين لقسوتك على وإهمالك للضحية البريئة

* * *

غفر الله لك ، ووقاك من يد تغشاك بالأمل لتتركك فريسة الإهمال . أبعد الله عنك آلام الزهرة المقصوفة ! أيتها الفتاة !

بين حب جديد

وسلوة عن قديم

للعالم الشاعر الراوية الأستاذ أحمد الزين

فرغ القلب من عسى ولعلاّ فسلامٌ على غرامٍ تولّى
وخلا للهوى الجديد فؤادى مرحبا بالهوى الجديد وأهلا
ليت شعرى هل المُنى فيه تدنو فكفانى ما ذقتُ في الحبّ قبلا
يا لَقلبٍ ما قرّ حتى تداعى ولدمعٍ ما غاضَ حتى استهلا
فدعى يا حبيبةَ الأمس قلبى لوَصُولٍ تجزى المودّةَ مِثلا
تعرف الصبّ كيف يقتله الحـ ـب فرقّت ولم تزِد فيه قتلا
لم تُطِعْ فيه عاذلاً وإذا ما صدق الحب لم يُطِعْ فيه عذلا
وإذا ما بذلت غالىَ حبّ بذلت من فؤادها الحبّ أغلى
وإذا ما نما هواها بقلب لم تُمِتْهُ بالصدّ تيهاً ودلا
لا كتلك التى إذا نبتَ الحـ ـب بقلب أذوته ضنًّا وبخلا
تحسب الصدّ والجفاء يزيدا ن فؤادى بها غراما وشُغلا
ما درَت أنّ صدّها وطّنَ القلـ ـبَ على طول بُعدها فتسلّى (١)
فاطويا ذكر ذلك العهد عنى نَهِلَ القلبُ (٢) بالسلوّ وعلاّ
إيه يا جفنُ كم تساهدُ نجمَ الليـ ـل حتى مَلِلتَ والنجمُ مَلاّ
إيه يا ليلُ كم حمَلتَ من الشكو ى وبثّ الشجون ما شقّ حملا
فأطلتَ المقامَ ترثى لحزنى وحشدتَ النجومَ حوْلىَ أهلا
كم تواسى المحزونَ بالدمع حتى تدع الزهر بالندى مُخضلا (٣)
فكلانا راثٍ لبثّ أخيه وكلانا عن عهده ما تخلّى
إيه يا دمعُ كم تفيضُ لذكرى لمحةٍ لن ترى لها الدهرَ ظِلاّ
ذهبَت كالحباب أو مثلما جفّـ ـف حرُّ الشعاع في الروض طلاّ
ومضت كالخيال في غفوة العُمـ ـر فهلاّ عزّيتَ قلبك مَهلا
إيه قلبي كم فرقةٍ ذقتَ حتى كدت تسلو الهوى فراقا ووَصلا
غير أنّ الهوى حياةٌ لقلبٍ غرُسَ الحبّ فيه مذ كان طِفلا
إنّ قلبا لم يُحيِه الحب مَيْتٌ لا ترى فيه للحياة محلاّ
وإذا الشعر لم يُفِضْه غرامٌ يَصهَر النفسَ بالجوى كان هزلا
فأعزّي بصادق الحبّ شعرى كم أهنت القريض في حب من لا..
وأفيضي عليّ صفوا من الحـ ـب أُفِضْه صفوا من الشعر جَزلا

أحمد الزين

(١) تسلى : سلا .
(٢) النهل والعل : الشرب الأول والثاني .
(٣) مخضلا : مبتلا .

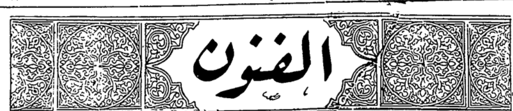
نحن والماضى

للأديب عبد اللطيف النشار

قضت أم أوفى ، بلّل الغيث قبرها فعدٌ عن الدراج فالمتثلم
وأخلى الفراعين الكرام مقامهم لأشبه منهم بالحياة وأعظم
أمن نسل مينا أنت أم نسل جرهم إلى أى فرعى دوحة المجد تنتمى؟
يقول حصيف الرأى من نسل آدم له صبر مصرى وإيمان مسلم
أفخراً بان راضوا قوياً منعماً ولا فخر في إحياء شلو محطم
عفاء على الدنيا إذا كان مامضى نهاية شعب تائق متوسم
مضى مامضى ، الاسلام ورحمة سلام وفاء لا تفجع أيم
ولسنا من الماضين أدنى مكانة ولا كان أوفى الفضل للمتقدم
ورثت زهيراً شعره ومكانه وما مال نسل وارث بمحرم
فما وقف الماضون مجداً ليحبسوا على غير أحفاد لهم كل مغنم
ولكن مجدنا ملكهم فهو مجدنا . ولم يبق منهم غير ذكرى وأعظم
ألا أيها الجاثى على قبر هالك تعز فان الدمع أغلى من الدم
تعز يعش مابين جنبيك قلبه فما مات ذو نسل عزيز مكرم
ولا عاش من لا ينطوى في ضلوعه سوى زفرات الآسف المتندم
ومن كان ماضيه نهاية .جاهه يعش في سديم من دجى الهم مظلم
بداية عمر المرء إشراق شمسه وكم من شموس ليس يدركها العمى
فخرت برمسيس ورمسيس جثة فخارُك أن تحيا بعزم مصمم
يفاخر بالأحياء حى ويزدهى بمن مات ذو قلب كسير مهضم
لعمرى لقد جفت سنابل يوسف وحامت على أبقاره أم قشعم

لقد أنقذ الأحرار من رق يوسف … بما أنشأوا فى كل أرض وعيلم
وأسراب طير من حديد محدم … وغائصة فى غائر القاع مظلم
وما الحرب إلا عزة واستطالة … فلا تنقضوا حكم القضاء المحتم
ولا تحسبوا فى السلم غنما لحالم … ألا ضل رأى الآمل المتوهم
يراد أخاء دائم وسلامة … ومن يرج معسولا من العيش يحرم
بلادى عداك الذم لست بخيلة … بجودى فإلا تفعلى اليوم تندمى
أنترك للأحلاف أن يدفعوا العدا … اذا غزيت مصر بجيش عرمرم
معاذ العلا ان يحمى النيل فى الوغى … سوى كل مصرى على الموت مقدم
هو العهد عهد الحرب لا كلفاً بها … ولكن من لا يتق الظلم يظلم
رجال غد لا تطلبوا المال مطلباً … فما العيش عيش الوادع المتنعم
ولكنما يحيا الذى يرهق العدا … ومن عاش فى أمن من الناس يسأم
ولا تحسبوا الماضى أعز مكانة … ألا تلك دعوى الخائب المتلوم
يمهد عذراً للهوان بذمه … بنى عصره فى كل قول مرجم
بنى وطنى كونوا قلوباً تكن لكم … مناعتها من كل عار ومأثم
فما تسلك الأوزار فى الناس مسلكا … الى القلب لولا ثغرتا الجيب والفم
أحب الذى أعطيت نسيان موضعى … لدى كل نهب فى الحياة مقسم

عبد اللطيف النشار



الفن البابلى الاشورى

للدكتور احمد موسى

اذا كنا قد عرفنا شيئاً عن الفن المصرى من عمارة ونحت وتصوير
يهمنا كيف أن هذا الفن كان إلى حد ما أساساً للفن الاغريقى ،
علنا أن الحضارات تقاس بالفن ، أمكننا أن ننتقل اليوم إلى حضارة
ة أخرى هى حضارة بابل القديمة (٣٨٠٠ — ٦٢٥ ق م .)
لجديدة (خالديا ٦٢٥ — ٥٣٨ ق م .) وآشور (٢٢٥٠ —
٦٠ ق م) التى لم تبلغ فى مجموعها مستوى عظمة الحضارة المصرية
بياً ؛ فضلا عن أنها لم تكن أساساً اتخذه الاغريق لحضارتهم الفنية ،
غما عن وجود بعض الشبه الضئيل بين النحت البابلى الآشورى وبين
لاغريقى ، من حيث عدم الاكتفاء بالخطر المحدد للمنحوتات النصف
ارزة والمصورات (كما رأينا فى الفن المصرى) ، وإخراجها شاملة
ض تفاصيل أعطت شيئا من الحياة قربها من النحت الاغريقى .

ويحسن قبل التكلم عن الفن البابلى الآشورى وعن مميزاته أن
رف شيئاً عن نشأة بابل وآشور اللتين كانتا مصدر حضارة غرب
سيا . ففى الجزيرة المحصورة بين نهرى دجلة والفرات التى تعد من
خصب البقاع الصالحة للزراعة ، نشأت بابيلونيا من الجنوب وآشور
لى نهر دجلة من الشمال .

وإذا رجعنا إلى التاريخ الذى اعتمد واضعوه على الآثار
الدراسات الفنية ، فاننا نرى أن الحفريات التى أجريت فى مناطق
كثيرة من هذه البلاد ، دلت على أن أول آثار الانسان المتحضر
عاً رجعت إلى حوالى عام ٤٠٠٠ ق . م .

على أنه لا يهمنا هنا أن نعرف إن كان أصل هؤلاء الناس من
آريين أو من الساميين ، كما أنه لا يعنينا أن نبحث لتحديد نوعهم ،
لكن المهم أن نعلم أن بابل نفسها انقسمت مملكتين شمالية وجنوبية ،
م اندمجتا معاً حوالى عام ٢٣٠٠ (٢٠٠٠ ؟ ق . م) فى عصر الملك
برى أكو Iri-Aku وكانت مدينة بابل على نهر الفرات (على خط
رض يافا تقريبا) عاصمة لها

أما أشور فهى أقدم كثيرا من هذه ، إذ قامت الحضارة فيها
عام ٢٢٥٠ ق . م . على أساس حضارة بابل . وكانت مدينة نينوى
Nineveh لعهد طويل عاصمة لها ، وهى واقعة على الضفة الشرقية
لنهر دجلة أمام مدينة الموصل الحالية ، وفيها ظهر الفن الآشورى
الرائع فى المرحلة الزمنية المحصورة بين القرنين الثامن والسابع قبل
الميلاد ، واستمر التقدم فى هذه الفترة حتى تأسيس مملكة آشور ،
وازدهار الفن فى عصر ساراجون (٧٢٢ - ٧٠٥) وسانهريب
(٧٠٥ - ٦٨١) وأسوربانيبال (٦٦٨ - ٦٢٦ ق . م .) ولم يتدهور
الفن إلا فى عصر نابوبولاسر واتجه بعد ذلك اتجاها آخر عند ما حكمها
كيروس بن قمبيز Kyros سنة ٥٣٩ ق . م . وضمها إلى مملكة الفرس

هذا سرد تاريخى بسيط اقتصرت فيه على ما لا استغناء عنه لمن
يود الوقوف بشكل إجمالى على الحالة التى نشأ خلالها الفن البابلى
الآشورى ، الذى ينقسم إلى عمارة ونحت وتصوير كالفن المصرى
والإغريقى وغيرهما .

ونظراً لقلة الأحجار فى هذه البلاد ، تجد أن العمارة لم تكن رائعة ،
فضلا عن تهدمها جميعها لضعف اللبن الذى استخدم فى معظم مبانيها
إلى جانب الآجر

وبالدراسة الاجمالية لبقايا العمارة البابلية الآشورية ، يمكننا أن
نعرف أنها خلت من الأعمدة التى كانت من أهم مميزات الفن المصرى
والاغريقى ، ولذلك تجد أن الحوائط كانت سميكة إلى حد بعيد ، فضلا
عن إقامة أكتاف لها من البناء لتساعد على تقوية الحوائط المرتفعة .



(ش ١) الفروسية - نمرود

إلا أن لبابل وآشور ميزة قد تعادل النقص الناشىء عن عدم
إنشاء الأعمدة ، وهى القباب التى بنيت على هيئة نصف كرة والقبوات
التى أقيمت على شكل عقود نصف دائرية أو نصف بيضاوية ، بجانب

على عزة تقهر الخطوب، وأمل يغلب الزمان، ونفس لا تسف، وقلب لا يذل، وما تزال سيرة محمد فى عقله وقلبه، ولا يزال مجد الاسلام ملء جوانحه، ولا تزال كلمة الحق والعدل ملء ضميره. فلن تقف دعوة الاسلام. إن دعوة الاسلام لا تقف حتى يموت الخلق العلى والقلب الأبى فى نفوس البشر.

وقل للذين يزعمون إنهم حماة الاسلام: إن الاسلام فى حماية أهله ورعاية تاريخه. ما أذل الاسلام إن ابتغى فى غير أولاده حماة! وما أذل المسلمين إن رضوا بغير حماية الله! ياحسرة على الحق إن التمس من الباطل حاميا! وياخسران العدل إن ابتغى من الظلم ناصراً! وويل لورثة محمد إن لم تحمهم سيرة محمد وخلفائه، ومن أنجبتهم العصور من أئمته وأبطاله!

إن فى دين المسلم، وإن فى قلب المسلم، وإن فى خلق المسلم، مايربا به عن كل دنية، ويصمد به إلى كل هول، ويثبته فى كل كارثة، ويسمو به على كل عقبة.

أيها الحماة الأبرار! لقد أدرتموها على المسلمين حرباً طاحنة فى المشرق والمغرب، وغزوتموهم بالسلاح والفتنة والفرية، وكدتم لهم فى السر والعلانية، واستبحتم فيهم كل منكر، حتى إذا ظننتم أنهم هانوا وذلوا، ويئسوا وملوا قلتم: هلم أيها الضعفاء فنحن الحماة الأقوياء!

أيها الحماة: شد ما قسوتم على المسلمين! ثم شد ما رفقتم بهم! أيها الحماة: لقد تعلمون أن بضعة آلاف من بنى الاسلام ثبتوا لكم وسخروا بقواكم وفنونكم وأساطيلكم وجيوشكم وطياراتكم أكثر من عشرين عاماً ولم يكن سلاحهم إلا عزة الاسلام ومجد العرب.

سلاحهم عزيمة الجهاد
وقوتهم ما سلبوا الأعادى
يصابرون الأكبد الصوادى
ويا كلون الجوع فى البوادى
قد يئسوا يأساً من الأمداد
إلا ثبات القلب فى الجلاد
ونصرة الرحمن للعباد

أبت لهم كرامة الاسلام
أى إباء العرب الكرام
أن يسلموا الأوطان دون الهام
منيتهم مشـــارع الحمام

فلما تكسر فى أيديهم كل سلاح، وأعوزهم كل قوت، وضاق على عزائمهم كل مجال، خرجوا من ديارهم أنفة أن يروا الصغار فى الديار، وإباء أن تجمعهم والمذلة أرض؛ وهم اليوم مشردون فى الأقطار، قد نالت الخطوب من أموالهم وجموعهم ونعيمهم ودعتهم ولم تنل من أنفسهم، فكل منهم علم جهاد، وصحيفة فخار، وسجل مآثر، وشهادة ناطقة بما تتجاهلون من العزة الاسلامية، والأنفة العربية. ألا إن الاسلام لم تمته دعوته، ولم تضعف كلمته، وسيبقى كلمة الله فى الأرض، ودعوته إلى الحق، وحجة على الخلق، فى أمره بالأخوة والحرية، والعمل فى الحياة على أقوم السنن، إلى أكرم الغايات.

ألا إن الاسلام دعوة إلى الحياة لا تموت، ودعوة إلى الحرية لا تستعبد، ودعوة إلى العزة لا تذل، ودعوة إلى العمل لا تفتر

ألا إن الاسلام دعوة إلى السلام والاخاء، وإلى الصدق والوفاء. فان دارت به الأكاذيب، واجتمعت عليه الأباطيل، وسيم الهوان، وقوبل بالعدوان، فهو دعوة إلى العزة والاباء، والصبر على اللاواء، والموت فى سبيل الحق، والخلود من وراء الموت.

عبد الوهاب عزام

وبجمل التعريف أن المشاهد لبقايا المنحوتات والزخارف والتصاوير الخ ، يرى أنها مليئة بالحياة ، كما يلاحظ قدرة الفنان وثبات يده في العمل . وقد وجدت رسومات نصف بارزه على لوحات من حجر الباستر المعروف شملت مناظر الآلهة والانسان والحيوان كما شملت كثيرا من طراز الملابس التي اعتنى باخراجها عناية شديدة

ولعلنا بمشاهدة بعض الصور هنا نلاحظ الدقة التي وجهت إلى إظهار تموجات الشعر والاكثار من الظل والنور .

ومما تجب ملاحظته أن هناك وجه شبه إلى حد ما ، بين ما رأيناه من منحوتات المصريين ومصوراتهم وبين ما نراه الآن من مخلفات بابل وآشور ، وذلك باظهار الأجسام كاملة التكوين والتصوير بحسب مايجب أن تظهر به أمام المصور في حالة من الجفاف والصمت ، ولكنها تميزت باشتمال الأجسام على شيء من خطوط التحديد الذي أظهر تفاصيل العضلات ، إلى جانب هذا كان النحت والتصوير الآشوري على وجه الخصوص متقدما إلى حد يقربه من روح النحت والتصوير الاغريقي .

وما وقع فيه الفنان المصري من الخطأ في تصوير الحامات ؛ وقع فيه الفنان البابلي الآشوري أيضاً ، فترى تصويره لها كما كان لو كانت كل قطعة منها قائمة بنفسها لا تتصل بمجاوراتها

ومن ضمن المميزات الفنية ظهور الأسد أحيانا برأس إنسان في معظم المصورات البارزة والمسطحة ظهوراً مستمراً ، إلى جانب الأجنحة التي نحتوها أو صوروها عند ما مثلوا آلهتهم



(ش ٥) رأس آشوري - نمرود

وفي المتحف البريطاني ومتحف اللوفر وغيرهما مجموعات كبيرة ما وجده الأثريون من بقايا النقوش والزخارف والتماثيل ، وعدد هائل من اللوحات التي قيل أنها تكون مكتبة أسوربانيبال . والفضل في ذلك راجع إلى شخصيات بارزة أمثال أميل بوتا وهنري ليارد وهرمز رسام وجورج سميث وغيرهم ، استغل كل منهم في منطقة معينة لا يتسع المجال لايضاحها وإيضاح نتائجها



(ش ٦) اللبؤة المصابة - كريونشيك

ولعلنا بالنظر إلى المصورات التي تشملها هذه المقالة ، نأخذ فكرة عامة عن الفن البابلي الآشوري كما أنه يمكننا بالمقارنة أن نعرف إلى أي مدى وصل هذا الفن نسبيا إلى الفن المصري

أنظر إلى الصورة الأخيرة (ش ٦) تر أروع ما يستطيع فنان إخراجه ، فهي مليئة بالحياة وصدق المحاكاة ، إلى جانب دقة التناسب وعظمة الاخراج

فعند ما أصيبت اللبؤة بسهمين في نصفها الخلفي انهزمت بهذا النصف ، ونلاحظ أن النصف الأمامي لايزال حيا برغم اختراق السهم الثالث للقلب أو لما يجاوره . أنظر إلى بروز المخلبين الأماميين وإلى اختفاء نظيريهما من الخلف ، ولاحظ ما ظهر على ملامح الوجه من علائم الألم التي تمثلت في التجاعيد الواضحة على الأنف . أما الفم فهو يمثل الاستغاثة بكل معانيها

فهذه إلى جانب غيرها من الأمثلة الصادقة لفن إن لم يكن في مقدمة الفنون القديمة ، دليل على أنه من الفنون التي لا يمكن للراغب في فهم الجمال الفني الاستغناء عن معرفتها ؟ « احمد موسى »



الوالد

للكاتب القصصي جي دو موباسان

جان دوفالوا صاحب لي لا أفتأ أزوره الفينة بعد الفينة . وهو يقيم في قصر له على ضفة جدول في بعض الغياض ، وقد لاذ بهذا الكن بعد أن قصف وترف في باريس خمسة عشر عاما سوية . وقد عرته بغتة ملالة من كل ما في هذه المدينة من مناعم ومآدب ورجال ونساء وملاعب ، وجاء يعتزل في هذه الدار التي فيها ولد وفيها نشأ .

ونمضي إليه اثنين أو ثلاثة من الصحب نقضي معه أسابيع معدودات ، ولقد كان سروره بنا إذ يلقانا بعد نأي ، بالغا شديداً ، وابتهاجه باسترجاع ما أفلت منه من حبور بعزلته إذ تولى عنه جما وفيرا .

ولقد وفدت عليه في الأسبوع الماضي فهش وبش . وكنا نقطع الساعات تارة جميعاً وتارة منفردين ، والعادة أن يقرأ هو واشتغل أنا بالنهار ، وحين تأخذ عين الشمس في الاغتماض نقبل على السمر إلى أنصاف الليل .

وكنا في يوم الثلاثاء الماضي ، وكان يوما حروراً متلظيا ، قد جلسنا في جنح ليله نتأمل جريان الماء في الجدول تحت أقدامنا ، وكنا نتساجل ما يتوارد علينا من أفكار شديدة الغموض عن النجوم الخائضة في الماء وكأنها بين أيدينا تمرح سبحاً . كنا نتناقل ما تتمخض به أذهاننا من خواطر كثر غموضها واشتد اختلاطها وأخش إيجازها ، ذلك أن عقولنا شديد قصورها ، مستفحل ضعفها ، بالغ عجزها . أما أنا فقد كنت مشفقاً على الشمس المتوارية في الحجب لدى الطفل .

كنا نفكر في هذه الكائنات المبثوثة في هذه العوالم ، ومختلف أشكالها العجيبة التي يتقاصر دونها وهم الانسان ، وخواصها التي لا تدرك كنهها الفطن ، وأعضائها الخفية المحجوبة . والحيوان والنبات وكافة الأجناس وسائر الجواهر وشتى المواد ، مما لا تكاد ترتفع إليه أذهان الانسان .

وبينما نحن كذلك إذا بصوت على بعد يصيح :

- سيدي ، سيدي :

فقال جان :

هلم يا بابا تيست

فلما اهتدى إلينا الخادم قال :

- الغجرية يا سيدي

فجعل صاحبي يضحك كمن به مس ، وما عهدته يضحك كذلك إلا نادراً ، ثم قال :

إنا إذن في ١٩ يوليو ؟

- نعم يا سيدي

- إذن قل لها تنتظر وأعدلها الطعام فاني عائد بعد عشر دقائق .

ولما انصرف الخادم أخذ صاحبي بذراعي وقال :

- فلنمش على مهل ، إني قاص عليك قصة هذه المرأة :

منذ سبع سنين أي في السنة التي حللت بها هنا : خرجت في أصيل يوم أطوف في الغابة . وكان يوماً طلقاً صافياً كيومنا هذا وجعلت أسير متئداً تحت أفنان الدوح أتأمل نجوم السماء من خلل أوراقها ، مستجلبا لرئتي بليل نسمات الليل وطيب زهر الغابة .

وكنت قريب عهد بهجري باريس . إذ تملكني سأم شديد وعافت نفسي كل ما رأت عيني وأخذت منه بنصيب من كل سخيف وزري وذميم مدة خمسة عشر عاماً .

وأمعنت في السير وتوغلت في مسالك هذه الغابة ومضيت في فج منها عميق يؤدي إلى قرية جروزي على مدى غلوة من هنا ، وإذا بكلبي قد وقف فجأة ونبح ، فظننت أنه رأى ذئباً أو وحشاً ضارياً فدلفت متسللا كظيم الخطو ولكني سمعت بغتة صراخاً علا ، صراخ إنسان يستغيث مختنقا تتمزق له نياط القلوب من رحمة . فما شككت أنه رجل يغتاله مغتال في خميلة فعدوت لنجدته وبيمنى هراوة غليظة ضربتها مردية

دنوت من هذا الصراخ الذي كان ينجلي كلما قاربته ولكنه خفيض مع ذلك مكظوم ، كأنه صادر من بيت ، وربما من خصر حطاب ، وكان كلبي بوك يتقدمني على قيد خطوات تارة يعدو . وتارة يقف ، ثم ينطلق انطلاق السهم هائجا حنقا مسترسل الهرير ولم نلبث أن برز لنا كلب آخر أسود عظيم الهيكل كأن عينيا جمرتان قد كشر عن أنياب عصل يلمع بين شدقيه بياضها

فهممت أن أهوى عليه بهراوتي ولكن بوك سبقني إليه فتلاحم

وتصارعا وتجاولا ، ومضيت أنا قدما ، وإذا بى أكاد أتعثر بجواد منطرح فى الطريق ، وإذ وقفت مبهوتا أتأمل هذه الدابة لحت عربة أمامى ، بل بيتا طائفا ، أحد مساكن هؤلاء الباعة المتجولين

من ههنا كان مصدر هذا الصراخ الفظيع المتلاحق . ولما كان الباب من الناحية الأخرى ، فقد درت بهذه العربة واندفعت أرقى الدرجات الثلاث الخشبية وأنا أهم بأن أصرع المعتدى بهراوتى

ولكنى شاهدت عجبا ، والتبس على الأمر فلم أفقه لأول وهلة شيئا : هذا رجل قد جثا على الأرض كأنه يصلى ، وعلى الفراش الذى استوى فى جوف هذه العربة شىء قد جثم لا سبيل إلى تمييزه : بشر نصف عار قد انطوى على نفسه وهو يتلوى كالثعبان لا أرى وجهه ، يميد ويضطرب وكأن صراخه خوار ثور

فاذا هي امرأة تعانى آلام الوضع

فما إن أدركت كنه الأمر وتبين لى ما غمض من حقيقة هذا الحادث الذى كان عنه هذا الصراخ حتى اذنتهما بوجودى ، فجعل الرجل وهو يشبه أهالى مارسيليا يسألنى ملحا ذاهب اللب أن أغيثه وأغيثها وهو يوائقنى بكلام لا آخر له على الوفاء والذكر الجميل ، بما أقضى منه عجبا . ولم أك قد رأيت ولادة قط ، ولا أسعفت أنثى قط فى مثل هذه الأحوال ، وذكرت له ذلك فى بساطة ، وأنا أنظر ذاهلا إلى هذه التى تصم الآذان جلجلة صراخها فى هذا الفراش

ثم سألت الرجل الواهن الحسير وقد استرددت جأشى : ما بالك لا تذهب إلى القرية القريبة ؟ فقال إن جواده هوى فى حفير فانكسرت ساقه فهو رازح لا يريم

— فقلت له : ياهذا لا بأس عليك . الآن نحن اثنان . إنا سنتعاون فى جر العربة بامرأتك إلى بيتى .

ولكنا لم يسعنا إلا الخروج إلى الكلبين ، إذ علا هريرهما وما فصلناهما إلا بضرب بالهراوة شديد كاد يخمد أنفاسهما ، ثم خطر لى أن أشدهما بين أقدامنا إلى العربة استعانة بهما ، هذا يمنة وذاك يسرة وما انقضت عشر دقائق حتى كنا على تمام الأهبة . وأخذت العربة تسير الهوينا ، فترتج ـ باهتزاز عجلاتها فيما تخط فى الأرض ممعنة من أخاديد ـ تلك المرأة المسكينة الممزقة الأحشاء

ويالها من طريق! كنا نسير لاهثين لنا زفير مرتفع ، وعرق ناضح . نزلق حيناً ، وحيناً نقع ، بينما الكلبان المسكينان يزفران بين أرجلنا كزفير النار

وقضينا ثلاث ساعات حتى بلغنا القصر ، وإذ دنونا من الباب انقطع الصراخ داخل العربة . وإذا الأم والمولود فى أحسن حال . وأرقدنا الأم وطفلها فى فراش وثير . ثم ركبت عربتى لأستحضر الطبيب بينما كان صاحبنا المارسيلى وقد اطمأنت نفسه ، يلتهم الطعام فى شراهة ويحتسى حتى لا يعى من سكر ابتهاجاً بهذه الولادة السعيدة

وكانت بنتاً

وأقام عندى هؤلاء النفر ثمانية أيام ، والوالدة وهى السيدة ألمير لها بصر بالغيب عجيب ، وقد بشرتنى بحياة مديدة ومناعم عديدة

وفى العام الذى بعده وفى مثل هذا اليوم لدى الغسق جاء الخادم الذى حضر من هنيهة يدعونا ، وكنت فى حجرة التدخين بعد طعام العشاء ، يقول : « غجرية العام الماضى جاءت تشكر سيدى »

فأمرت بدخولها ، وعرتنى دهشة إذ رأيت بجانبها غلاما بالغا أشده ، ممتلئا شحما ولحما ، أشقر اللون من أهالى الشمال ، فسلم على ثم جعل يقول كزعيم لطائفته إنه علم ما كان من إكرامى للسيدة المير ، وأراد أن لا تمر هذه الذكرى دون أن يفدا للشكر والاعتراف بيدى عليهما

وقد أكرمت مثواهما وأمرت باحضار الطعام لهما فى المطبخ وأوفرت قراهما ليلتهما ، وارتحلا فى الغد

وهكذا فى كل عام فى نفس اليوم تفد هذه المرأة مع مولودها ذاك ، وهى طفلة رائعة الحسن ، وفى كل مرة مع . . . رجل جديد . إلا واحدا منهم فقط هو من أهالى أوفرنيا وقد بالغ فى شكرى وأجزل لى الثناء ، حضر معها حولين متتالين . والصبية تدعوهم جميعا « بابا » ، كما نقول « سيدى » عندنا

وكنا بلغنا القصر فلمحنا أمام السلم ثلاثة أشخاص فى انتظارنا وخطا أطولهم نحونا بضع خطوات وحيانا أحسن تحية ثم قال :

— سيدى الكونت إنما حضرنا اليوم لنبدى لك آيات الشكر . . .

أما هذا الرجل فكان بلجيكيا

ثم تكلمت بعده أصغر الثلاثة بتلك اللهجة المدربة المتكلفة فى الأطفال إذ يلقون عليك تهنئة أو ثناء

أما أنا فقد أبديت البساطة وانتحيت بالسيدة المير ناحية وبعد حديث قصير قلت لها :

— أهذا أبو طفلتك ؟

— كلا ياسيدى

— أمات أبوها ؟

— كلا ياسيدى . ما نبرح يلقانى وألقاه أحيانا . وهو من رجال العسس

— عجبا ! أليس هو إذا ذاك المارسيلى الأول صاحب يوم الولادة ؟

— كلا ياسيدى . ما كان ذاك إلا وغداً زنيما سلبنى مدخر مالى

— ورجل الدرك والد ابنتك الحقيقى أيعرف ابنته ؟

— نعم يا سيدى ، بل هو شديد الحب لها ، ولكنه لا يستطيع تعهدها ، إذ له من امرأته أولاد غيرها

أحمد أبو الخضر منسى

البريد الأدبي

حول تقرير مسيو فابر عن المسرح المصري

أتم المسيو أميل فابر الخبير المسرحي الذي انتدبته الحكومة المصرية لدراسة المسرح المصري والوسائل اللازمة لترقيته - مهمته أخيراً ووضع عنها تقريراً موجزاً أذاعته الصحف، وخلاصة تقرير المسيو فابر، هو أن توجد بمصر نواة صالحة للمسرح ولانشاء فرقة قومية، وأن توجد بالأخص عناصر قوية للتمثيل الهزلي(الكوميديا) تضارع نظائرها في الأمم الراقية، وأن مصر تنقصها المسارح الحديثة، وأن الاختراع لا يزال متأخراً؛ بيد أن المسيو فابر لم يستطع أن يبدي رأيه في شأن التأليف المسرحي بمصر ولا في شان اللغة المسرحية التي يحسن اتباعها، وإنما ذكر في ذلك ملاحظات قال إنه سمعها من أصدقائه المصريين، وقد سبق أن لاحظنا حينما انتدبت الحكومة المصرية المسيو فابر ليقوم بهذه المهمة أن في هذا الانتداب شيئاً من الشذوذ، وأن مصر قد ذهبت بعيداً في سياسة الاستعانة بالخبراء الأجانب. ذلك أن المسيو فابر رغم مواهبه الفنية البارعة ورغم خبرته المسرحية الفائقة التي جعلته مدى ثلاثين عاما مديراً لمسرح الكوميدي فرانسيز، هو أبعد الناس عن روح المسرح المصري والظروف الاجتماعية التي تحيط به والخلال الشرقية التي تتصل بمهمته، وقد جاء تقرير المسيو فابر مؤيداً لما لاحظنا، فهو لم يستطع أن يقوم بدراسة عميقة لشئون المسرح المصري لأن هذا المسرح مغلق بطبيعته عليه، وإنما اكتفى بدراسة مظاهره المادية، وقد كان خيراً لو أن الحكومة بدلا من انتداب خبير أجنبي فكرت في أن توفد مندوباً مصرياً أو أكثر لدراسة المسرح الحديث في عواصم أوربا دراسة عميقة. والتوفر بعد ذلك على تنظيم المسرح المصري بما أفاد من خبرة ومقارنة، هذا هو الوضع الطبيعي للمسألة، أما انتداب خبير أجنبي لدراسة موضوع شرقي عربي فهو من تناقضات سياسة الاستعانة بالخبراء الأجانب في كل شيء وهي سياسة قد عفت اليوم.

حول العيد المئوي لوزارة المعارف

أشارت وزارة المعارف في بعض بياناتها عن احتفالها بعيدها المئوي أنها اضطرت إلى الاختصار في الاجراءات والحفلات نظراً لأنها لم تبدأ استعدادها لإحياء هذا العيد القومي في الوقت المناسب؛ وهذا اعتراف يؤسف له، والواقع أننا لم نوفق بعد إلى تنظيم الأعياد والذكريات القومية تنظيماً مرضياً، وفي كل مرة تعرض فيها إحدى هذه المناسبات، نفكر في الاحتفاء بها بعد فوات الوقت. وأحيانا تعرض ذكرى العيد المعين قبل وقوعه بأعوام فيتحمس لها البعض، وتقوم حولها دعاية صحفية واسعة، ولكن الجهات الرسمية تبدي فتوراً مدهشاً. مثال ذلك ما حدث في مسألة الاحتفاء بالعيد الألفي للجامع الأزهر؛ فقد نوه بأهميته واقترابه منذ أعوام، ووضعت مشيخة الأزهر برنامجاً للاحتفاء بهذا العيد؛ ثم حدث تغيير في المشيخة فانهارت كل التدابير السابقة، وجمدت كل حركة في هذا السبيل بحجة أن الوقت لا يزال فسيحاً، مع أن الاحتفاء بهذا العيد القومي الجليل يقع في جمادى الأولى سنة ١٣٥٩ هـ أعني بعد ثلاثة أعوام فقط؛ ولم تتخذ مشيخة الأزهر بعد أي إجراء جدي في هذا السبيل. فمتى تغدو لنا همم وتقاليد صالحة للاحتفاء بأعيادنا وذكرياتنا القومية؟

ابرس أول مكتشف لأسرار الفراعنة

احتفل أخيراً في ألمانيا بمرور مائة عام على مولد القصصي والعلامة الأثري الألماني جورج إبرس G. Ebers ويرتبط اسم جورج إبرس بمصر والفراعنة ارتباطاً وثيقاً، فقد كان هذا العلامة هو أول من وقع على أول ورقة من أوراق البردي المصرية، وأول من استطاع أن يصف أحوال الفراعنة في أسلوب قصصي ممتع. وقد ولد إبرس في برلين سنة ١٨٣٧، وجالت بذهنه منذ الحداثة أمنية عزيزة هي أن يزور بلاد الفراعنة وما وراءها من البلاد التي تخلب سيرها لبه. وعني بدراسة تاريخ مصر القديم دراسة خاصة، وعين في سنة ١٨٦٥، مدرساً للتاريخ المصري القديم في جامعة فينا، ثم عين أستاذاً له في جامعة لايبزج سنة ١٨٧٠؛ وهنا فكر إبرس في تحقيق أمنيته فسافر إلى مصر والنوبة، وعثر أثناء تجواله بمصر على ورقة البردي الشهيرة التي عرفت باسمه، وهي ترجع إلى نحو ألف وستمائة عام قبل الميلاد وبها معلومات طبية فرعونية، فحملها معه إلى ألمانيا، وأذيعت محتوياتها، فأثارت في الدوائر الأثرية أعظم اهتمام، ونال إبرس

شهرة عظيمة ، وكان ذلك سنة ١٨٧٤ ؛ وعاد إيبرس وذهنه يفيض بسحر مصر القديمة ، ويتوق إلى التجوال في هذه الديار العجيبة ووصفها ، وكان قد أصدر منذ سنة ١٨٦٨ كتابا عنوانه « مصر وكتب موسى » Aegypten und die Bücher Moses ، وكتابا آخر عنوانه «مصر بالقول والوصف » Aeg. ni Wortcono Bild ، فرأى عندئذ أن يبدأ كتابة سلسلة كبيرة من القصص الفرعونية ؛ فاستقال من منصبه الجامعي ، وعكف على التأليف والكتابة ، وأخرج قصته الأولى ابنة ملك مصرى » Eine agyptische Konigstochter وهي قصة فرعونية وقعت حوادثها في عهد الملك ابساتيك ، وفيها وصف لنضاله ضد الفرس . ثم أتبعها برواية « وردة » Uarda (سنة ١٨٧٧) ثم رواية « القيصر » Der Kaiser (سنة ١٨٨١) ثم سيرابيس (سنة ١٨٨٥) ثم « الأختين » Die Schwestern ، ثم « كليوباترا » (سنة ١٨٩٤) ؛ وقد اشتهرت قصص ابرس الفرعونية وذاعت ذيوعا عظيما . وطبعت مؤلفاته مجتمعة في ٢٥ مجلدا سنة ١٨٩٥ ، وترجمت إلى معظم اللغات الأوربية . وتوفى إيبرس في سنة ١٨٩٨ ، بعد أن حقق باكتشافاته وكتاباته في تاريخ الفراعنة فتحا عظيما

التسليحات . السباق والأزمة :

صدر أخيرا في انكلترا كتاب سياسي خطير عنوانه : « التسليحات السباق والأزمة » Armamentsi the Race and the Crisis بقلم كاتب سياسي كبير هو فرنسيس هرست ، ومسألة التسليح ، والتنافس فيها هي مسألة اليوم في أوربا ، وقد بلغت اليوم ذروة التنافس والاضطرام ، ويمهد المستر هرست لكتابه بمقدمة تاريخية يقول فيها إن التسابق في التسليح في القرن التاسع عشر يرجع إلى بواعث وهمية وإلى مخاوف لا أساس لها . وأما الخصومة فيما قبل الحرب بين انكلترا وألمانيا فترجع إلى أن اللورد جراى قد تدخل في سلسلة المحالفات الأوربية .

ويستعرض الكاتب بعد ذلك مسابقة التسليح التي تجرى منذ سنة ١٩٣٣ ، ويقدم عنها بيانات وأرقاما واضحة ، ومن رأيه أن حمى التسليح الحاضرة في أوربا ترجع إلى السياسة الفرنسية فيما بعد الحرب ، وهي سياسة زادها الميثاق الفرنسي السوفيتي تعقيدا وخطرا ، وإن هذا الميثاق يرمى إلى تطويق ألمانيا . ثم يقول إن نفقات ألمانيا في الأعوام الخمسة الأخيرة على التسليح هي بلا ريب أدنى من نفقات فرنسا ، وأدنى من نفقات روسيا ، وربما كانت مساوية لنفقات بريطانيا ؛ ورخاء ألمانيا الحاضر دليل على أنها تنفق على التسليح أقل مما يذاع . ثم إن ماتعانيه ألمانيا الآن من نقص في المواد الأولية ينذر بأنها لن تستطيع المضي في الإنفاق على التسليح بهذه الصورة . ويبدى مستر هرست على العموم تأييدا لوجهة النظر الألمانية ويقول مثل ما تقول ألمانيا إن تشيكوسلوفاكيا تسودها روسيا السوفيتية ، وأن روسيا تنفق على التسليح أكثر مما تعلن أرقامها

ويصور مستر هرست ألمانيا ضحية بريئة لهذا التسابق ؛ وهو رأى لا يقره عليه كثيرون ؛ وقد كان مستر هرست قبل الحرب من خصوم السياسة البريطانية التي تميل إلى مخاصمة ألمانيا ؛ ومن رأيه أن التسليحات الكبرى ليست ضمانا للسلام كما يرى البعض ، وأن الحرب لاتتقى بهذه الصورة بل لا بد لاتقائها أن تبحث أسباب الخلاف والخصومة ثم تعالج بما يزيلها ويمسحها

في معرض باريس

من العجائب التي سيشهدها زوار معرض باريس الدولى رجل من زجاج من مقتنيات المتحف الصحى الألمانى ؛ وهو أعجوبة من أعاجيب الصناعة الفنية ؛ وهذا الرجل الزجاجى يعطى بالألمانية كل الايضاحات اللازمة عن تركيبه وعن أجزائه ؛ بيد أنه يراد أن يكون هذا البيان بالفرنسية ، ولذلك سيجهز الرجل الزجاجى بالآلات والأجهزة اللازمة التي تجعله ينطق بالفرنسية

كذلك سترسل ألمانيا إلى المعرض مجهر « سايس » الشهير ، وسيوضع في مكان خاص به تمكن منه تجربة في رصد الكواكب

تمثال شيخ البلد

يشمل سؤال حضرة م . ح . بأسيوط الفقرات الآتية :

١ — هل عرف النظام الادارى القديم « شيخ البلد » كما تعرفه مصر الآن من أقصاها إلى أقصاها ؟

٢ — هل عرفت هوية هذا التمثال وعرف عمله في الدولة ؟

٣ — هل الحقيقة هي ما قرأناه في كتب التاريخ من أن عمال الحفر لما أخرجوا هذا التمثال من مكانه ، راعهم ما وجدوا من شبه بينه وبين شيخ البلد ، فأطلقوا على التمثال « شيخ البلد » ؟

٤ — . . . . لزمته هذه التسمية ، ولم يغيرها علماء الآثار ؛ لما لم يعرفوا صاحبه . ولم يجدوا من النقوش والكتابات ما يوح بسره وينم عن جلية أمره .

٥ — هل للدكتور أن يميط اللثام عن حقيقة التمثال المذكور خدمة للعلم والتاريخ ؟

إنى أشكر حضرة الأستاذ الفاضل لاهتمامه بهذه النقطة ، كما أبدى مزيد سرورى للصلة الأدبية التي أوجدها حضرته بيني وبينه

فعن الفقرة ١ — أقول نعم عرف النظام الادارى القديم « شيخ البلد » لامن الناحية اللفظية ؛ بل من الناحية المعنوية والعملية ، أعنى

أن الذين قاموا بمراقبة تنفيذ أوامر الملوك والأمراء والكهنة ، وتقديم المخالفين للمعاقبة أو المحاكمة ، كانوا من هذه الناحية أشبه شيء بشيوخ البلدان ، كما أن الذين قاموا بملاحظة عمليات بناء الاهرام والمعابد والمقابر والقصور كانت مهمتهم إلى حد ما ، مهمة الرئاسة والاشراف وحصر المسئولية التى يمكن اعتبارها – اذا سمح الأستاذ – مهمة شياخة ! كما كان الذين جمعوا الأموال والضرائب أشبه شيء برجال الـ دارة .

ويمكن لحضرة الاستاذ اذا رغب التوسع الرجوع إلى :

(1) Breasted : History of Egypt. London. 1925 P. 79 a. 80, about the « Adminstration in the Old Kingdom ».

(2) Erman Ranke : Aegypten im Altertum. Tuebingen, 1923 S. 96, 97 u. 98, ueber « Der Staat der aeIteren Zeit ».

٢ – لم تعرف شخصية صاحب التمثال بالضبط ، ولكن يجب ألا ننسى أن العلامة ماريت والرئيس روبى – الذى حضر اكتشاف التمثال الخشبى الذى كان ناقص الساقين وقت اكتشافه ، وقد أكلا من خشب باللون الطبيعى – ما كانا ليوافقا على هذه التسمية على رغم مشابهة ملامح التمثال لشيخ بلدة سقارة فى ذلك الحين ، لو أنهما وجداه ممسكا بمقبض فأس أو قيثارة مثلا ! (راجع وصف التمثال : بدليل التحف المصرية الفاخرة لمدينة القاهرة ، تأليف جاستون ماسپرو وترجمة احمد كمال ، الطبعة الأولى سنة ١٩٠٣ صفحتى ٦٩ ، ٧٠)

٣ ، ٤ – تندمجان فى الفقرة السابقة .

٥ – اذا كان حضرة الاستاذ الفاضل قد عنى بقراءة كتب التاريخ التى استنتج منها عدم وجود نقوش وكتابات تبوح بسر التمثال . فانى أرى أنه بتكليفى كشف اللثام عن حقيقته – ميال إلى المداعبة ، وأعترف له بانى عاجز عن إماطة اللثام عن حقيقته لنفس الأسباب التى صادفت أساتذتنا من علماء التاريخ والاجيبتولوجى الذين لا أعتبر نفسى شيئاً مذكوراً إلى جانبهم والسلام . الدكتور أحمد موسى

أسبوع الجاحظ فى الجامعة المصرية

قلنا فى العدد الأسبق إن كلية الآداب بالجامعة المصرية ستحتفل بإقامة أسبوع للجاحظ بمناسبة مرور أحد عشر قرناً على وفاته ابتداء من يوم ٢٥ مارس ، ونشرنا برنامج المحاضرات لأيام الأسبوع

ونكتب هذا يوم الجمعة إذ كان أمس (الخميس) اليوم الأول من أسبوع الجاحظ ، فقبيل الساعة السادسة مساء وفد على قاعة المحاضرات بالجمعية الجغرافية الملكية جمهور كبير من المتأدبين ، بينهم طائفة من السيدات والآنسات ، وظل الجمهور يتوافد إلى ما بعد ابتداء الحفلة حتى اكتظت بهم القاعة

وفى منتصف الساعة السابعة نهض إلى المنصة الدكتور طه حسين بك عميد كلية الآداب فافتتح الحفلة بكلمة بدأها بأنه يقوم بافتتاح الأسبوع لاعتذار مدير الجامعة لانحراف خفيف ، وشكر حضرات أعضاء قسم اللغة العربية لقيامهم باحياء ذكرى الجاحظ ، وقال : « أريد أن تتصل سنتنا هذه كما اتصلت فى العام الماضى بحيث تستحيل دروسنا العامة فى كل سنة إلى دروس تحليلية لكاتب أو شاعر أو عظيم »

وقام بعده الدكتور عبد الوهاب عزام فتحدث عن حياة الجاحظ وبدأ بطائفة من مأثور الكلم فى تقريظ الجاحظ ، وذكر سيرة مجملة له ، فقال : « ولد الجاحظ بالبصرة ونشأ بها فقيراً ، وروى ياقوت عن المرزبانى أنه رؤى يبيع السمك والخبز بسيحان ، ولكن الرجل المستوقد ذكاء ، المولع بالمعرفة لم يكن ليصده شيء عن طلب العلم ، فأخذ العلم عن شيوخ تصدوا للتعليم ، وأفاد مما قرأه ، وتثقف من الأعراب ، وحرص على أن يبحث فى كل ما يرى ويسأل كل من يرجو عنده علماً فى أمر جليل أو حقير حتى صارت معارفه خلاصة المعارف التى أدركها المسلمون فى عصره ، زيادة على ما أدركه هو واستنبطه ، وقد أفاض الاستاذ فى التحدث عن نواحى حياة الجاحظ وأشار إلى ما وقع فى كتبه من الألفاظ الفارسية فقال : لا أحسب الجاحظ قد حذق الفارسية واستفاد من كتبها .

وتكلم الاستاذ احمد أمين عن « ثقافة الجاحظ » فقال : « ان الجاحظ أكبر شخص تثقف ثقافة واسعة فى العصر العباسى ، فقد أحاط بمعارف زمانه تقريباً ، وقال انه ظل يحصل المعلومات المختلفة حوالى القرن فتيسر له بما منحه من الزمن والصبر والحافظة ما لم يتيسر لغيره ، وذكر الأستاذ أن الجاحظ تثقف ثقافة اعتزال ، وهى أوسع ثقافاته لأنها تتطلب من صاحبها الاحاطة بالأديان المعروفة فى عهده ، إلى أن قال : « وقد كانت للجاحظ ثقافة أخرى هى الأخذ عن الكتب ، وكان هذا معيبا ، وكان صاحبه يسمى « صحفياً » ، وبعد أن أفاض فى بيان شغفه بالاطلاع والاستقراء قال إن الجاحظ تفرد بالثقافة الواقعية إذ انغمس فى الحياة ودرس كل ما وقع تحت حسه ، وأنه أبدع فى الناحية الاجتماعية فتكلم عن التجار والصناع والجبناء والبخلاء الخ

وانتهى اليوم الأول من أسبوع الجاحظ بانتهاء محاضرة الاستاذ أحمد أمين .

وفاة درنكووتر

توفى الأديب الشاعر المؤلف التمثيلى المستر درنكووتر فى أثناء نومه بسكتة قلبية . وقد تكلمنا عنه بافاضة أيام وفد على القاهرة لالقاء بعض المحاضرات .



5 me Année, No. 196

Lundi - 5 - 4 - 1937

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع عبد العزيز رقم ٣٦

العتبة الخضراء — القاهرة

ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

بدل الاشتراك عن سنة

مـ	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات

٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة

تليفون ٤٣٠١٣

العـــدد ١٩٦ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٣ محرم سنة ١٣٥٦ — ٥ أبريل سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

العام الهجرى

عام الاسلام وال

هكذا تتعاقب أمواج السنين على ساحل الحياة ، فتنفى الخبَثَ وتطرح الغثاء ، وترَكُم الأحداث ، وتزيد فى سجل التاريخ صفحة بعد صفحة ؛ وابن آدم الفانى محمول على غواربها الزُّعْن ، تقذف بعضه مع الرمل والزبد ، وتُرجع بعضه إلى العُباب واللجّ ! ومن رجع فسوف يعود ؛ ومن عاد فسوف لا يرجع !

هكذا يتحرك الفلك الدوار حركة الطاحون الثقيلة الساحقة ، فيلفظ القشر ، ويحفظ اللباب ، ويمحو أكدار الوجود بالعدم ،

ويُمَنِّي حطام الصيف برياح الخريف ، ويجدد مارثٌ من ديباجة العيش بأفواف الربيع ؛ وابن آدم في يد القدر المصرِّف محراث ومنجل ؛ بعضه يزرع الأمان والعمران والخير ، و بعضه يقطع السلام والوئام والحب ، و بين هاتين القوتين المتكافئتين يسير هـذا الكوكب المظلم فلا يقف ، ويتدفق هذا الدهر الآتيّ فلا يركد ، ثم لا ينسحق بينهما إلا هذا الغبي الذي سلط نفسه على نفسه !

***

لله الحمد ولنا المجد ! لم تكن أمتنا من شيعة الظلام ولا عصبة الخصام ولا فرقة الهدم ؛ إنما كانت خير أمة أخرجت للناس ، أمرت بالمعروف ، ونهت عن المنكر ، وأعلنت كلمة الله ، و بلغت رسالة الحق ، وحملت أمانة العلم . هذا تاريخنا ، تتألق أيامه الغرّ في ظلام الماضي ، كما تتألق الكواكب الزهر في حَلَك الليل . أرشدنا الضال فاهتدى ، وحمينا الذليل فعز ، وعلمنا الجاهل فتعلم ؛ ثم مكنا في أرضنا الفسيحة ودنيانا العريضة لعناصر الجمال والخير ، فقويت في كل نفس ، وازدهرت في كل جنس ، وانبعثت في كل دين ، وانتشرت في كل أفق ؛ وحققنا لهذا الإنسان طريد العدوان وعبد الطغيان أحاديث أحلامه وهواجس أمانيه : من الأخوة التي يعم بها النعيم ، والمساواة التي يقوم عليها العدل ، والحرية التي تخصب فيها المدارك ؛ لأن رسالتنا لم يوحها الجوع ولا الطمع ، و إنما أوحاها الذي خلق الموت والحياة ، وجعل الظلام والنور ، وأوجد الفساد والصلاح ، ليدرأ قوة بقوة ، و يصلح نظاماً بنظام ، و ينقذ إنساناً بإنسان

فلما أدركنا ضعف المخلوق ونقص البشر ، فقدحتنا تكاليف الرسالة وأعباء المجد ، أغفينا حقبة لنستريح ونستجم ؛ ثم صحونا اليوم نمسح الكرى عن الجفون ، وننفض الغبار عن الأوجه ، فاذا العالم يعصف به سُعار من الجشع المسلح والطمع الباغي ؛ واذا الذين الشرق يقلبه المزاج الغربي إلى كَلَب وغَلَب : فعبقرية موسى رباً ودنيئة ، وروحية عيسى خصومة وحرب ؛ واذا رجل لم تنبته صحراء العروبة ، ولم تنفحه عطور الشرق ، يطغيه الحديد ويبطره العديد ، فيقول وهو يحطم الصليب في الحبشة : أنا حامي الاسلام !

وأذلُّ الاسلام اذا لم يعزه أهله ! لا ياسيدى ! إن الاسلام قوته فيه ودفاعه منه ؛ ولا يزال كتابه في أيدينا يعمر القلوب بالقوة ، ويغمر النفوس بالحياة : والقوة قوة الإيمان ، والحياة حياة الروح ؛ أما قوة الأساطيل على الماء وفي الهواء فعمرها يوم وليلة ، ثم لا تكون إلا دخاناً في السماء ، وحطاماً على الأرض !

***

لا يكون الغرب بغير الشرق إلا كما يكون الجسم بغير الروح . فلا بد من تآلف العقليتين وتحالف القوتين لإقرار النظام في الدنيا والسلام في العالم . والاسلام - دستور الديمقراطية الصحيحة ، والاشتراكية المنظمة ، والاخوة الشاملة - يبسط يده لكل يد تدفع الانسانية إلى التقدم ، وترفع المدنية إلى السمو . وهؤلاء المستعمرون الجياع الذين هالهم سره وراعهم معناه ، فحاولوا أن يطفئوه في مشرق نوره ، ويخفتوه في مصدر صوته ، ليسرقوا الضمائر في الظلام ، و يسلبوا الذخائر في الغفلة ، قد أخطأوا فهمه وجهلوا قواه . فان نوره من الله ، وسيسطع ما سطعت الشمس ؛ وإن صوته من السماء ، وسيرتفع ما ارتفع الحق ؛ وإن سلطانه من العدل ، وسيبقى ما بقي الكون . فاذا انشقت الأرض ، وانفطرت السماء ، وانكدرت الشمس ، عاد إلى مصدره الأزلي باهراً كما صدر عنه ، طاهراً كما انبثق منه !

لقد أصابوا أخيراً فخطبوا ودّه وطلبوا حلفه . ذلك عهد جديد بين الشرق والغرب ، أو بين السلم والحرب ، سيقف فيه الحق الصريح أمام الباطل الخداع وجهاً لوجه . وسيعلم الإنجليز الذين حالفوا العراق ومصر ، والفرنسيون الذين عاهدوا سورية ولبنان ، أن الإسلام أصدق وعداً ، وأن العرب أوفى ذمة . ولعل هذه التجربة القريبة ترفع حجب الظنون عن القلوب والعيون فيعيش أولئك أصدقاء في فلسطين ، ويعيش هؤلاء حلفاء في المغرب

إن الاسلام روح فهو حياة ، وعقيدة فهو قوة ، وشريعة فهو دستور ، ومحبة فهو سلم . فعاملوه على ذلك تكسبوا عطفه وتغنموا رفده ؛ أما الخداع والرياء ، أو الشدة والجفاء ، فتلك أسلحة مفلولة ، إن قطعت قبلُ بالأمس فلن تقطع بعدُ اليوم .

احمد حسن الزيات

فى غار حــــراء

للأستاذ أحمد امين

فى غار حراء - وهو غار يقرب من ثلاثة أمتار فى مترين فى قمة جبل على يسار السالك من مكة إلى عرفة - كان محمد وهو فى سن الاربعين قبيل الرسالة يتحنث

كان محمد فى هذه الأيام يألف العزلة « لم يكن شىء أحب إليه من أن يخلو وحده »

وكان يخرج إلى شعاب مكة وبطون أوديتها

وكان يقضى شهراً مجاوراً فى غار حراء

هكذا تقول كتب السيرة

فيم كان يفكر ؟ وما الذى كان يطلب ؟ وما هـذه الحالة النفسية الجديدة التى استولت عليه ؟ وما الذى جعله يهرب من الناس وقد كان بهم أنيساً ؟ يسعد بالوحدة ، ويسعى إلى العزلة ، ولا يطمئن إلا إلى نفسه وتفكيره ؟ وما الذى جعله يختار قمة جبل يشرف منه على العالم حوله فتسبح نفسه فى التفكير من غير أن يحدها حد أو يقف بها عند غاية

ماهذه الأفكار التى كانت تملأ نفسه شهراً فلا يمل التفكير ، ولعله كان يود أن يبقى كذلك أشهراً لولا واجب أهله وواجب عشيرته ؟

ولكن هل لنا أن نتساءل هذه الأسئلة ؟ وإذا سألناها فهل فى استطاعتنا أن نجيب عنها ؟

هل فى استطاعة الجاهل أن يشرح أفكار الفيلسوف ؟ وهل فى مكنة من لايحسن الرياضة أن يتخيل مايفكر فيه الرياضى ؟ وهل للنملة أن تتساءل فيم يفكر الإنسان ؟

ولكن ماحيلة الانسان وقد خلق طموحا إلى أقصى حد وأبعد غاية ، لم يقنع فى باب المعرفة بشىء ، لم يقنع بالأرض ففكر فى السماء ، ولم يقنع بالظاهر ففكر فى الحقائق ، بل لم يقنع بآثار الله فأراد أن يعرف ذات الله ، وهيهات هيهات !

* * *

أكبر الظن أن « محمداً » فى هذه الفترة ، وعلى الأخص فى غار حراء كان فى حيرة ما أشدها من حيرة عبر الله عنها بقوله « ووجدك ضالا فهدى »

لقد عرف قومه فلم يعجبه دينهم ولا نوع حياتهم ولا كفرهم ولا إيمانهم ولا أخلاقهم ؛ وسافر إلى الشام فرأى فيها مدينة الرومان بما لها وأعمالها التجارية وترفها ونعيمها ودينها الرسمى ومظاهره ، فلم يعجبه شىء من ذلك . لقد رآهم يعيشون كما يعيش السمك يأكل بعضه بعضاً ، أو كما تعيش الذئاب والشياه فى حظيرة واحدة

رحماك الله ! ما هذه الحيرة الشاملة ؟ لا البداوة لسذاجتها ونظامها أعجبته ، ولا الحضارة بترفها وزخارفها أعجبته . لم يعجبه ما رأى من وثنية ، ولم يعجبه ما رأى من نصرانية . فأين الحق ؟

لقد اطمأن إلى شىء واحد وهو أن كل ما رأى ضلال ؛ وحيره شىء واحد وهو سؤاله أين الهُدَى

حالة نفسية إذا تملكت نفسا مرهفة وشعورا دقيقا ملكت نفسه وغمرت قلبه ؛ فلا له أن يعتزل الناس لأنهم يحولون بينه وبين تفكيره ويقطعون عليه سلسلة مشاعره

لقد جرب العزلة الساعة واليوم فوجدها تفتح قلبه وتريح نفسه ، ووجد فيها مفتاحا لحيرته واتجاها لهدايته فبالغ فيها حتى بلغت الشهر !

إن الناس وضوضاءهم ومناظر حياتهم يُضْنُون نفسه فليهرب منهم ، وإن منظر الطبيعة بجمالها وبهائها ورونقها ليحيى نفسه فليطمئن إليه . يتعاقب عليه فى عزلة الليل والنهار فيجد فى كلٍّ غذاء نفسه : هذا الليل فى أعلى الجبل بسكونه وهدوئه ، وسمائه

ونجومه ، والعالم حوله كله نائم . وهو يناغى النجم ، ويشاطره الاضطراب والحيرة ، وهذا النهار - فى أعلى الجبل أيضا - يشرف منه على العالم من تحته ، فيهزأ بالناس وسخافاتهم هزؤا مشوبا برحمة ، واستخفافا ممزوجا بعطف

كل ذلك وأكثر من ذلك كان يخفق له قلب محمد فى غار حراء .

لقد عرف الباطل ، ويريد أن يعرف الحق ؛ وأدرك الضلالة ويريد أن يدرك الهدى ؛ ولم يحب ما عليه الناس ، ولكن يريد أن يعرف ما ينبغى أن يكون عليه الناس .

هذا الظلام فاين النور ؟ وهذا العمى فاين البصر ؟ وهذا ما يجب ألا يكون ، فاين ما يجب أن يكون ؟

* * *

لقد طلب الحق - فى غار حراء - بعد أن تهيأت نفسه ، واستعدت روحه ، وكملت مشاعره ، وتوجت بالحيرة ، فكانت حيرته إرهاصا لليقين ، وضلالة إرهاصا للهدى

لم يطلب الحق من طريق الشعر ؛ فالشاعر يتخيل ثم يخال ، والشاعر يخلق ما لم يكن ولا يدرك ما يجب أن يكون ، والشاعر يغنى لنفسه - أولا - ولا بأس أن يسمع الناس ، والشاعر يعيش فى جو خيالى يخلقه بنفسه لنفسه . وليس هذا من النبوة فى قليل ولا كثير . ولم يطلب الحق من طريق الفلسفة أو العلم ، فكلاهما عبد المنطق ، عبد الألفاظ ، عبد الكتب ، عبد النصوص ؛ وأحسن أمرهما أنهما عبدان للعقل ، والعقل معيب مغرور مضل ؛ ولكل إنسان عقله ، ولكل إنسان تفكيره ، ولكل إنسان منطقه وقضاياه

إنما طلب محمد الحق من طريق أسمى من ذلك كله ، وأرفع من ذلك كله : طلبه من طريق القلب ، وأعلن أنه لم يطلب علما ولكن طلب إيمانا ، فاعلن أنه أمى وفخر باميته ، لأن القلب فوق اللغة ، وفوق الكتابة والقراءة ، وفوق العلم ، وفوق المنطق ؛ وهو القدر المشترك بين الناس ، لا يؤمن بحدود اللغة والجنس ، ولا يؤمن بحدود اللسان والألوان

من أجل هذا لم يذهب - وقد حار - إلى معلم يعلمه الكتاب ، ولا إلى مثقف بالكتب والأديان ، وإنما فضل على ذلك كله غار حراء حيث الطبيعة على فطرتها مفتوحة أمام قلبه ، وحيث يتصل هو وهى بربها وربه

لقد اهتدى إلى الصراط المستقيم ، واتجه اتجاه الأنبياء ، لا اتجاه الشعراء والعلماء ، وتهيأ للأمر العظيم ، فلمعت فى قلبه الشرارة الالهية ، كما يتهيأ السحاب فيلمع البرق

لقد أضاءت لهذه الشرارة الالهية كل شىء ، وكانت رسالته من جنس هدايته ؛ فرسالته أن يبعث الحياة فى القلب ، ويبعث الضوء إلى النفس ، كالقمر يستمد نوره من الشمس ، ثم يعكس أشعته الجميلة على الناس ، يشترك فى الاهتداء به العالم والجاهل ، والذكى والغبى ، والفيلسوف والعامى ، على اختلاف فيما بينهم ، لأن لديهم جميعا قدرا مشتركا من القلب صالحا للاهتداء

وليست العقول مسايرة فى الرقى والانحطاط للقلوب ، فقد يكون مريض القلب صحيح العقل ، وقد يكون صحيح القلب مريض العقل ، ومقياس صحة الاستفادة من النبوة صحة القلب لا صحة العقل ، فلذلك آمن بلال قبل أن يؤمن عمرو بن العاص ، وأسلمت جارية بنى مؤمل قبل أن يسلم أبو سفيان

* * *

كانت فترة غار حراء الحد الفاصل بين محمد بشرا ، ومحمد بشرا رسولا . لقد صعد إليه إنسانا حائرا ، وهبط منه إنسانا نبيا ، مهتديا مطمئنا . صعد شاكا ، وهبط مؤمنا . لمع فى قلبه النور الإلهى فاذا كل شىء حوله شفاف يراه بقلبه ويكشفه بنوره

نزل من الغار يدعو الناس أن يستضيئوا بضوئه ، وأن يحيوا قلبهم من حياة قلبه ، وأن يسمعوا لصوت الله على لسانه ، وأن يروا عظمة الله فى كل أثر من آثاره

* * *

أى شهر كان هذا الشهر ؟ لو وزن به الزمان لوزنه ، وأى مكان غار حراء ؟ لو فاضل كل مكان لفضله

أحمد أمين

نجم أحمد !

للأستاذ توفيق الحكيم

وقف اليهودى على أحد آطام يثرب ناظرا الى السماء يعلن إلى بنى قومه ميلاد النبى فى صيحة مدوية : طلع الليلة نجم أحمد ! عجبا من العجب ! أحقاً لم ير ذلك اليهودى نجم أحمد قبل تلك الليلة ؟ يخيل إلى أن الناس فى ذلك الزمان كانوا يسيرون مطرقين كالعميان . إن نجم أحمد طالع فى كل لحظة يشع نورا من بداية الكون لو أن للكون بداية ، الى نهاية الزمن لو أن للزمن نهاية . نجم أحمد هو الحق . والحق لا يبدأ ولا ينتهى . ولا يظهر ولا يختفى . انه موجود

إذن ما الاسلام ؟ وكيف ظهر الاسلام بظهور محمد ، والمسيحية بظهور المسيح، واليهودية بظهور موسى ؟ هنا لزم التفريق بين الحق وثوب الحق . بين المعنى والأسلوب . ما الاسلام إلا أسلوب من أساليب الحق ، ورداء من أرديته . كذلك المسيحية وكذلك اليهودية . وكذلك كل دين من تلك الأديان السماوية التى تتحد فى الجوهر وتختلف فى المظهر : وهنا نستطيع أن نفاضل بين الأساليب ؛ وهنا فقط يجوز لنا أن نفاخر بالدين الأخير ، إذ جاء بأسلوب جامع مانع ، سهل ممتنع ، محكم الوضع ، مصقول التراكيب . فالمفاضلة لا تكون فى الجوهر ، لأنه واحد أحد ؛ إنما المفاضلة فى الأثواب

وهنا يخطر على البال سؤال : هل تجوز المفاضلة بين الأثواب وهى كلها من صنع الخالق المعصوم الذى لا ينبغى أن يخطئ ولا أن يصحح ما سبق أن صدر عنه . أو أن جوهر الحق وحده من شأن الله ، أما الأسلوب الذى يعرض به على الناس فهو من شأن الرسل والأنبياء ؟ قبل الإجابة على هذا السؤال يجب النظر فى قضية أخرى : هل للطبع والمزاج والخلق الذى ركب عليه النبى أو الرسول أثر فى أسلوب رسالته ؟ هل شخصية الرسول تطبع بخاتمها شكل الدين الذى يدعو إليه ؟ وهل لظروف العيش التى نشأ عليها النبى دخل فى اتخاذ «القالب» الذى أفرغ فيه «موضوع» النبوة ؟ إن أجب على كل هذا بالإيجاب فان التبعة فى «أسلوب» الأديان تقع بلا مراء على كاهل الأنبياء . والنبى إذن مسئول عن الطريق الذى اتبعه للإبانة عن «الحق» مسئولية ملقاة على «شخصيته» التى صبغت الشريعة بصبغتها . وعلى قدر المسئولية تكون العظمة ؛ وعلى قدر «الشخصية» ذات الوجود الفعلى تقاس العبقرية العظمى والمجد الأسمى .

إن صح هذا الكلام فانى أستطيع القول إن النبى أو الرسول لا يصل إلى الحق متجرداً عن شخصيته . بل انه لا يستطيع الدنو من الحق إلا عن طريق شخصيته . كذلك فعل النبى العربى ، وكذلك فعل المسيح وموسى . وكذلك كل نبى لا يستطيع أن يرى الحق إلا عن طريق إحساسه وطبعه وعقله . وهى ملكات تختلف باختلاف الأشخاص . وهنا يبدو سر تباين الأساليب التى جرت عليها الأديان فى عرض جوهر الحق على الناس . ولعل محمداً هو أكثر الأنبياء حرصاً على تنبيه الناس فى كل مناسبة إلى وجود شخصيته المستقلة ، فهو لا يفتر يذكرهم أنه بشر خاضع للقوانين التى يخضع لها البشر ، وأنه لا يتصل بالله هذا الاتصال الخاص الذى قصر على الرسل إلا إذ يشاء الله . وأنه فى كثير من حياته الخاصة أو العامة حيث لا وحى يهديه السبيل ، يتصرف كما يتصرف البشر . هكذا فعل فى معارك بدر وأحد والخندق إذ كان يستمع إلى مشورة أصحاب الرأى من رجاله . وهكذا فعل إذ لم يخف ميله إلى الطيب والنساء . بل انه أعلن ذلك الميل لعلمه أن الميول من مميزات الطبع التى ركبها الخالق فى البشر . والنبى الحق أجل من أن يكتم مزاجاً أو طبعاً ، وهو يعرف أن المزاج والطبع من مقومات الشخصية .

وهنا تبدو حكمة الاسلام ظاهرة بين سائر الأديان . فهو

دين بسيط فطرى لم تدخله صناعة . كل شيء فيه صادق خالص صاف . ليس فيه انكار لقوانين الطبيعة ، بل فيه مسايرة حكيمة ومصاحبة رشيدة لكل ما فرضه النظام العلوى على البشر من حيث تركيبهم المادى والمعنوى . ذلك أن أسلوب محمد فى إدراك « الحق » كان أسلوباً مستقيماً . فهو قد أدرك أن « معنى » الحق إنما هو « السبب » الذى يصدر عنه الناموس الأكبر ، وأن روح الوجود هو « النظام » إذ لا يتصور أن تكون « الفوضى » من عناصر الخليقة . بل إن « الفوضى » إذا حلت فى نظام الوجود انقلبت نظاماً ، لأنه لا وجود بلا نظام ؛ بل ان كلمة « الفوضى » لا محل لها إلا فى أدمغة البشر يعبرون بها عن كل ما يحدث شيئاً من الخلل فى ترتيب حياتهم الضيقة المحدودة . أما الكون غير المتناهي فلا يعرف غير النظام ، هذا النظام الذى فرض على الانسان والحيوان والجماد . هل من سبيل إلى مخالفته ؟ إن مخالفة النظام الطبيعى للانسان والأشياء مخالفة لله ؛ وكل دين يقف فى وجه النظم الطبيعية لا يمكن أن يكون من عند الله ، لأن الله لا يناقض نفسه . كل هذا فهمه محمد ووعاه ببصيرته النورانية النافذة ، فجاء أسلوب الاسلام فى الافصاح عن « الحق » واضحاً جلياً ؛ لا يأمر بالرهبنة ، ولا بالفرار من الدنيا ، ولا بتعذيب الجسد من أجل الله لأن الله لا يأمر بتحطيم ما بناه

إنما يريد الله أن تعيش الأحياء طبقاً لقوانين الحياة التى وضعها لها ، وأن تجاهد فى سبيل هذه الحياة ، وأن تتغلب على عناصر الفناء بما هيأه لها من مناعة طبيعية ، أو مناعة اكتسابية . والدين هو أداة المناعة الاكتسابية لمكافحة عناصر الفناء المادية والأدبية

فلئن كانت غاية الدين عند البشر توفير أسباب الحياة الصحيحة ، والدنيا الصحيحة خير تمهيد لآخرة صحيحة ، فإن الإسلام بلا مراء هو دين الصحة فى كل شيء . فهو ذو صوت جهير فى الدعوة إلى صحة الجسم وصحة العقل وصحة العقيدة . ولئن كان ماضى هذا الدين السليم مجيداً ، فإن مستقبله ولا ريب يبشر بازدهار يعم الأرض لو استطعنا أن نجرده من سفسطة الجامدين ، وننقيه من ثرثرة المتنطعين ، وننقذه من احتكار الجهال المحترفين ، وأن نرده إلى مبادئه البسيطة الصافية التى لا تصدم تقدماً ولا تعارض التطور الطبيعى للأذهان والأشياء . وقتئذ فقط نستطيع أن نغزو به كل النفوس وكل العقول . فإن الدين « المثالى » هو الدين البسيط . وهل أبسط من الإسلام شريعة وهى لا تعرف « رجال دين » ولا تقر وجود أناس يجعلون من هداية الناس حرفة يأكلون منها ويكنزون ، ومن « الدين » مهنة تدر الرزق وتعطى متاع « الدنيا » ؟ إن أولئك الذين يجعلون « الدين » سلماً « للدنيا » لا « الدنيا » سلماً « للدين » قد طردهم الإسلام بعيداً عن حظيرته ، وجعل الدين سمحاً باسماً باسطاً ذراعيه لكل الناس لا احتراف فيه ولا احتكار . نعم ، إن حاجة البشر كافة قد أصبحت متجهة إلى هذا النبع العلوى الصافى من المبادئ البسيطة المستقيمة التى لا خداع فيها ولا تمويه ولا تناقض ولا تشويه ولا إخلال ولا تدخل فى قوانين الطبيعة الأساسية التى وضعها المبدع الأعظم. إذا تم ذلك للإسلام فى هذا العصر فلسوف يأتى يوم يقف فيه أهل الأرض أجمعون من كل جنس ولون على آطام بلادهم يصيحون فى كل صوب صيحة ذلك اليهودى :

« لقد طلع نجم أحمد ! »

توفيق الحكيم



الفن البابلى الاشورى

للدكتور احمد موسى

اذا كنا قد عرفنا شيئاً عن الفن المصرى من عمارة ونحت وتصوير بهمنا كيف أن هذا الفن كان إلى حد ما أساساً للفن الاغريقى، علمنا أن الحضارات تقاس بالفن، أمكننا أن ننتقل اليوم إلى حضارة ة أخرى هى حضارة بابل القديمة (٢٨٠٠ — ٦٢٥ ق. م.) الجديدة (خالديا ٦٢٥ — ٥٣٨ ق. م.) وآشور (٢٢٥٠ — ٦٠ ق. م) التى لم تبلغ فى مجموعها مستوى عظمة الحضارة المصرية بياً؛ فضلا عن أنها لم تكن أساساً اتخذه الاغريق لحضارتهم الفنية، ما عن وجود بعض الشبه الضئيل بين النحت البابلى الآشورى وبين غريقى، من حيث عدم الاكتفاء بالخط المحدد للمنحوتات النصف ارزة والمصورات (كما رأينا فى الفن المصرى)، وإخراجها شاملة ض تفاصيل أعطت شيئاً من الحياة قربها من النحت الاغريقى.

ويحسن قبل التكلم عن الفن البابلى الآشورى وعن مميزاته أن رف شيئاً عن نشأة بابل وآشور اللتين كانتا مصدر حضارة غرب سيا. ففى الجزيرة المحصورة بين نهرى دجلة والفرات التى تعد من خصب البقاع الصالحة للزراعة، نشأت بابيلونيا من الجنوب وآشور لى نهر دجلة من الشمال.

وإذا رجعنا إلى التاريخ الذى اعتمد واضعوه على الآثار الدراسات الفنية، فاننا نرى أن الحفريات التى أجريت فى مناطق كثيرة من هذه البلاد، دلت على أن أول آثار الانسان المتحضر عاً رجعت إلى حوالى عام ٤٠٠٠ ق. م.

على أنه لا يهمنا هنا أن نعرف إن كان أصل هؤلاء الناس من آريين أو من الساميين، كما أنه لا يعنينا أن نبحث لتحديد نوعهم، لكن المهم أن نعلم أن بابل نفسها انقسمت مملكتين شمالية وجنوبية، م اندمجتا معاً حوالى عام ٢٣٠٠ (٢٠٠٠؟ ق. م) فى عصر الملك برى أكو Iri-Aku وكانت مدينة بابل على نهر الفرات (على خط رض يافا تقريبا) عاصمة لها

أما أشور فهى أقدم كثيرا من هذه، إذ قامت الحضارة فيها عام ٢٢٥٠ ق. م. على أساس حضارة بابل. وكانت مدينة نينوى Nineveh لعهد طويل عاصمة لها، وهى واقعة على الضفة الشرقية لنهر دجلة أمام مدينة الموصل الحالية، وفيها ظهر الفن الآشورى الرائع فى المرحلة الزمنية المحصورة بين القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد، واستمر التقدم فى هذه الفترة حتى تأسيس مملكة آشور، وازدهار الفن فى عصر ساراجون (٧٢٢ - ٧٠٥) وسنهريب (٧٠٥ - ٦٨١) وأسور بانيبال (٦٦٨ - ٦٢٦ ق. م.) ولم يتدهور الفن إلا فى عصر نابو بولاسر واتجه بعد ذلك اتجاها آخر عند ما حكمها كيروس بن قمبيز Kyros سنة ٥٣٩ ق. م. وضمها إلى مملكة الفرس

هذا سرد تاريخى بسيط اقتصرت فيه على ما لا استغناء عنه لمن يود الوقوف بشكل إجمالى على الحالة التى نشأ خلالها الفن البابلى الآشورى، الذى ينقسم إلى عمارة ونحت وتصوير كالفن المصرى والاغريقى وغيرهما.

ونظراً لقلة الأحجار فى هذه البلاد، تجد أن العمارة لم تكن رائعة، فضلا عن تهدمها جميعها لضعف اللبن الذى استخدم فى معظم مبانيها إلى جانب الآجر

وبالدراسة الاجمالية لبقايا العمارة البابلية الآشورية، يمكننا أن نعرف أنها خلت من الأعمدة التى كانت من أهم مميزات الفن المصرى والاغريقى، ولذلك تجد أن الحوائط كانت سميكة إلى حد بعيد، فضلا عن إقامة أكتاف لها من البناء لتساعد على تقوية الحوائط المرتفعة.



(ش ١) الفروسية - نمرود

إلا أن لبابل وآشور ميزة قد تعادل النقص الناشىء عن عدم إنشاء الأعمدة، وهى القباب التى بنيت على هيئة نصف كرة والقبوات التى أقيمت على شكل عقود نصف دائرية أو نصف بيضاوية، بجانب

على عزة تقهر الخطوب، وأمل يغلب الزمان، ونفس لا تسفّ، وقلب لا يذل، وما تزال سيرة محمد فى عقله وقلبه، ولا يزال مجد الاسلام ملء جوانحه، ولا تزال كلمة الحق والعدل ملء ضميره. فلن تقف دعوة الاسلام. إن دعوة الاسلام لا تقف حتى يموت الخلق العلى والقلب الأبى فى نفوس البشر.

وقل للذين يزعمون إنهم حماة الاسلام: إن الاسلام فى حماية أهله ورعاية تاريخه.. ما أذل الاسلام إن ابتغى فى غير أولاده حماة! وما أذل المسلمين إن رضوا بغير حماية الله! ياحسرة على الحق إن التمس من الباطل حامياً! وياخسران العدل إن ابتغى من الظلم ناصراً! وويل لورثة محمد إن لم تحمهم سيرة محمد وخلفائه، ومن أنجبتهم العصور من أئمته وأبطاله!

إن فى دين المسلم، وإن فى قلب المسلم، وإن فى خلق المسلم، مايربا به عن كل دنية، ويصمد به إلى كل هول، ويثبته فى كل كارثة، ويسمو به على كل عقبة.

أيها الحماة الأبرار! لقد أدرتموها على المسلمين حرباً طاحنة فى المشرق والمغرب، وغزوتموهم بالسلاح والفتنة والفرقة، وكدتم لهم فى السر والعلانية، واستبحتم فيهم كل منكر، حتى إذا ظننتم أنهم هانوا وذلوا، ويئسوا وملوا قلتم: هلم أيها الضعفاء، فنحن الحماة الأقوياء!

أيها الحماة: شد ماقسوتم على المسلمين! ثم شد مارفقتم بهم! أيها الحماة: لقد تعلمون أن بضعة آلاف من بنى الاسلام ثبتوا لكم وسخروا بقواكم وفنونكم وأساطيلكم وجيوشكم وطياراتكم أكثر من عشرين عاماً ولم يكن سلاحهم إلا عزة الاسلام ومجد العرب.

سلاحهم عزيمة الجهاد
وقوتهم ما سلبوا الأعادى
يصابرون الأكبد الصوادى.
ويألكون الجوع فى البوادى
قد يئسوا يأساً من الأمداد
إلا ثبات القلب فى الجلاد
ونصرة الرحمن للعباد

أبت لهم كرامة الاسلام
أى إباء العرب الكرام
أن يسلموا الأوطان دون الهام
منيتهم مشـــارع الحمام

فلما تكسر فى أيديهم كل سلاح، وأعوزهم كل قوت، وضاق على عزائمهم كل مجال، خرجوا من ديارهم أنفة أن يروا الصغار فى الديار، وإباء أن تجمعهم والمذلة أرض؛ وهم اليوم مشردون فى الأقطار، قد نالت الخطوب من أموالهم وجموعهم ونعيمهم ودعتهم ولم تنل من أنفسهم، فكل منهم علم جهاد، وصحيفة فخار، وسجل مآثر، وشهادة ناطقة بما تتجاهلون من العزة الاسلامية، والأنفة العربية. ألا إن الاسلام لم تنته دعوته، ولم تضعف كلمته، وسيبقى كلمة الله فى الأرض، ودعوته إلى الحق، وحجة على الخلق، فى أمره بالأخوة والحرية، والعمل فى الحياة على أقوم السنن، إلى أكرم الغايات.

ألا إن الاسلام دعوة إلى الحياة لا تموت، ودعوة إلى الحرية لا تستعبد، ودعوة إلى العزة لا تذل، ودعوة إلى العمل لا تفتر

ألا إن الاسلام دعوة إلى السلام والاخاء، وإلى الصدق والوفاء. فان دارت به الأكاذيب، واجتمعت عليه الأباطيل، وسيم الهوان، وقوبل بالعدوان، فهو دعوة إلى العزة والاباء، والصبر على اللاواء، والموت فى سبيل الحق، والخلود من وراء الموت.

عبد الوهاب عزام

الدبلوماسية فى الإسلام

العلائق بين مصر و بيزنطية

فى عهد الدولة الفاطمية

للاستاذ محمد عبد الله عنان



كانت بغداد محور السياسة الاسلامية فى المشرق يوم كانت الدولة العباسية فى ذروة قوتها وفتوتها ؛ وكانت الدولة البيزنطية تتجه يومئذ ببصرها إلى بغداد قلب الاسلام النابض ، ترقب حركاتها ومشاريعها ، وتتحوط لفوراتها وغزواتها . وكانت المعارك تضطرم بين الدولتين بلا انقطاع تقريبا أيام الرشيد والمأمون والمعتصم ؛ ولكن فتوة الدولة العباسية لم يطل أمدها ؛ فمنذ أواخر القرن التاسع تسرى إليها عوامل الانحلال والوهن ، وتخبو فيها فورة النضال والغزو ، ويتجه بصر الدولة البيزنطية إلى قوة ناشئة أخرى على مقربة من حدودها الجنوبية . ذلك أن مصر ، التى بقيت زهاء قرنين ونصف قرن ولاية خلافية ، غدت فى ظل الولاة الأقوياء دولة شبه مستقلة ، وأخذت تجيش بمختلف الاطماع والمشاريع ، وألفت الدولة البيزنطية فى قيام الدولة الحمدانية بالشام ، وقيام الدولة الطولونية ثم الدولة الاخشيدية بمصر ، مواطن جديدة للخطر يجب اتقاؤها . وأخذ ميدان النضال بين الاسلام والنصرانية يتحول من سهول أرمينية وأواسط الأناضول إلى سهول كليكية وشمال الشام . ولما قامت الدولة الفاطمية بمصر ، رأت الدولة البيزنطية من قوتها وغناها ووفرة جيوشها وأساطيلها ماينذر بتفاقم الخطر ، وأدركت أنها تواجه على يد هذه الدولة القوية فورة اسلامية جديدة تضطرم قوة وفتوة وطموحا ، وأخذت ترقب حركات الدولة الجديدة ومشاريعها فى يقظة وجزع .

وشغلت الدولة الفاطمية مدى حين بخطر القرامطة الذى كان يهددها فى موطنها الجديد ، ويكاد ينذرها بالمحو والفناء العاجل . وألفت الدولة البيزنطية من جانبها فيما أثارته غزوات القرامطة للشام من الاضطراب والفوضى ، فرصة للإغارة على الشام ودفع حدودها إلى الجنوب ؛ وكانت الدولة الحمدانية فى حلب قد اضمحلت ولم تقو بعد على رد الغزاة من الشمال ، ولم تلبث أن انضوت تحت لواء الروم (البيزنطيين) وتعهدت لهم بأداء الجزية استبقاء لحياتها ، واتقاء لسطوة الدولة الفاطمية الجديدة . وبينما كان القرامطة يزحفون على مصر ، وجيوش المعز الفاطمى تدفعهم عنها ، غزا الروم الشام ، وعاثوا فى سواحله واستولوا على انطاكية ، وهزموا الجيوش الفاطمية أولا ، ثم عادوا فارتدوا أمامها تحت أسوار طرابلس ، واختتم عهد المعز لدين الله ، والروم يبسطون سلطانهم على قسم كبير من شمال الشام .

وفى عهد العزيز بالله استؤنف النضال بين الدولتين ؛ وكان خطر القرامطة قد خبا وتحطم تحت ضربات الدولة الفاطمية . وألفى الفاطميون والروم أنفسهم فى سهول الشام وجها لوجه ؛ وكانت الدولة البيزنطية تجوز فى أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر مرحلة جديدة من القوة والنهوض فى عصر الأسرة البسيلية ، ولا سيما فى عهد الامبراطور باسيل الثانى (٩٧٦ ـ ١٠٢٥ م) ، معاصر العزيز بالله وولده الحاكم بأمر الله ؛ وكانت السياسة البيزنطية كعادتها تشجع كل عناصر الانتقاض أو الخروج فى المملكة الإسلامية ؛ فلما همت الجيوش الفاطمية بغزو حلب واستغاث بنو حمدان بحلفائهم الروم ، سار الروم لقتال المصريين ونشبت بينهما معركة طاحنة على مقربة من أنطاكية (٣٨١ هـ ـ ٩٩١ م) ، فهزم الروم هزيمة شديدة ؛ وخشيت السياسة البيزنطية عواقب هذا الفشل ، فسار الامبراطور باسيل الثانى بنفسه إلى الشام وغزا حمص وأعمالها ، وبسط سلطانه على معظم سواحل الشام ؛ وارتاعت الخلافة الفاطمية لهذا التطور الخطير فى حوادث الشام ، وهم العزيز بالمسير بنفسه إلى قتال البيزنطيين ، ولكن الموت أدركه فى الطريق ؛ وخلفه ولده

الحاكم بأمر الله طفلا ، وتولى تدبير شؤون المملكة وصيه برجوان الصقلي؛ واضطربت حوادث الشام حينا ، وشجعت السياسة البيزنطية قيام الثورة في صور ، وسار الروم في البر والبحر لمؤازرة الثوار ؛ ولكن برجوان كان رجل الموقف ، فبعث إلى الشام بجيش كبير ، استطاع أن يخمد الثورة ، وأن يهزم البيزنطيين في عدة مواقع (٣٧٨ هـ - ٩٩٨ م) ، واضطر باسيل الثاني أن يسير بنفسه إلى الشام مرة أخرى . ولكنه ما لبث أن اضطر إلى العودة إلى قسطنطينية ليتأهب لرد خصومه البلغار الذين هددوه بالغزو من الشمال :

وهكذا لبثت الشأم مدى حين ميدان النضال بين الدولتين الفاطمية والبيزنطية . كانت السياسة البيزنطية ترى في قيام الدولة الفاطمية وتوطدها بمصر والشام خطرا جديداً عليها ، وتحاول أن تغالب هذا الخطر ما استطاعت ؛ وكانت الدولة الفاطمية من جانبها تعمل لتوطيد حدودها الشمالية ورد الخطر البيزنطي عنها ، ولم تكن تجيش في ذلك بأكثر من نزعة دفاعية ، بينما كانت الدولة البيزنطية تجيش في عهدها الجديد بنزعة إلى الفتح والتوسع . وكانت الخلافة الفاطمية تتوق الى اتقاء الأحداث والحروب الخارجية لتتفرغ إلى تنظيم شؤونها الداخلية ؛ فلما هزمت الجيوش الفاطمية جيوش الامبراطور في الشام واستطاعت بذلك أن تثبت تفوقها العسكري ، انتهز مدبر الدولة برجوان هذه الفرصة ليعقد الهدنة مع الدولة البيزنطية ، فبعث الى الامبراطور يقترح عقد الصلح والمهادنة . فاستجاب باسيل الثاني لدعوته ، وانفذ سفارة إلى بلاط القاهرة ؛ واحتفى البلاط الفاطمي بالسفير البيزنطي احتفاء عظيما وزين الديوان الخلافي لاستقباله زينة تنوه الرواية بفخامتها وروعتها ؛ وانتدب برجوان اريسطيس بطريرك بيت المقدس وخال الأميرة ست الملك ابنة العزيز بالله وأخت الحاكم بأمر الله للسير مع السفير البيزنطي وتقرير شروط الهدنة مع القيصر وعقد أواصر الصداقة بين الدولتين ؛ فسار اريسطيس إلى قسطنطينية ، وقام بالمهمة ؛ وعقدت بين مصر والدولة البيزنطية معاهدة سلم وصداقة لمدة عشر سنين ؛ وأقام اريسطيس في عاصمة بيزنطية أربعة أعوام حتى توفي ؛ ولم تحدد لنا الرواية تاريخ هذه السفارة ولكن المرجح انها وقعت في أواخر سنة ٣٨٩ أو أوائل سنة ٣٩٠ (سنة ١٠٠٠ م)

وشغلت الدولة البيزنطية مدى حين بشؤونها الداخلية وحروبها في البلقان وأرمينية . وقنعت من الشام بانطاكية ، وهدأ النضال بين الدولتين حيناً ، وتحسنت العلائق بينهما ؛ ولكن سياسة الحاكم بامر الله إزاء النصارى ، واشتداده في مطاردتهم ، وما اتخذه من الاجراءات العنيفة لهدم الكنائس والأديار ، ولاسيما كنيسة القيامة (القبر المقدس) ببيت المقدس أثارت حفيظة السياسة البيزنطية . وحفيظة الكنيسة الشرقية التي كانت تعتبر نفسها حامية النصرانية في المشرق ؛ بيد أن الدولة البيزنطية لم تستطع يومئذ أن تتدخل في سير الحوادث . وكانت الأميرة ست الملك أخت الحاكم تخشى عواقب هذه السياسة العنيفة وتجاهد في تلطيفها ، وكان لها حسبما تؤكد الرواية أكبر يد في تدبير مصرع أخيها وانقاذ الخلافة الفاطمية من عواقب هذه السياسة الخطرة . فلما انتهت المأساة بذهاب الحاكم ، وقام ولده الظاهر في عرش الخلافة بتدبير ست الملك ورعايتها ، عادت الخلافة الفاطمية في الحال إلى تسامحها المأثور نحو النصارى ، وردت اليهم حرياتهم وحقوقهم ، وسمح لهم بتجديد ما درس من كنائسهم ، ولاسيما كنيسة القيامة ، وألفت ست الملك الفرصة سانحة لتجديد الصداقة والمهادنة مع الدولة البيزنطية ، فبعثت نيقفور بطريرك بيت المقدس سفيرا إلى باسيل الثاني ليعمل على عقد أواصر التفاهم والصداقة بين الدولتين سنة ٤١٤ هـ (١٠٢٤ م) ويطلعه على ما اتخذه بلاط القاهرة من الاجراءات لتحرير النصارى ورفع الارهاق عنهم وحمايتهم في أموالهم وأنفسهم ؛ ولكن الأميرة ست الملك توفيت قبل أن يستطيع السفير تأدية مهمته ، ورده بلاط قسطنطينية بلطف ، فعاد ادراجه ، ولم يمض قليل حتى توفي باسيل الثاني (١٠٢٥ م) .

ولكن الخلافة الفاطمية آثرت أن تمضي في سياستها الودية نحو الدولة البيزنطية : ومع أن الجيوش البيزنطية اشتبكت في الأعوام التالية في عدة معارك وحروب محلية في حلب وانطاكية مع الأمراء العرب المحليين ، وهزمت أمامهم غير مرة ، فان حكومة القاهرة لم تشأ ان تتدخل في تلك المعارك ولا أن تنتهز تلك الفرصة لمحاربة البيزنطيين ؛ ووقعت المفاوضات بين الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله والامبراطور رومانوس الثالث لعقد معاهدة

صداقة بين الدولتين ، واشترط الامبراطور لعقدها ان يتولى الـادة تعمير كنيسة القيامة وان يعمر النصارى ماشاءوا من كنائسهم الدارسة ، وان يقيم بطريركا من قبله لبيت المقدس ، وان تمتنع حكومة القاهرة من التعرض لشؤون حلب أو مصايرها باعتبارها داخلة فى حماية الامبراطور وتؤدى له الجزية ، وأن تمتنع عن نجدة صاحب صقلية المسلم إذا هاجمته الجيوش البيزنطية ؛ ولكن الظاهر رفض التخلى عن حلب باعتبارها عاصمة إسلامية جليلة ؛ وطالت المفاوضات بين الفريقين ، وانتهت بعقد معاهدة صداقة بينهما ، سمح فيها للامبراطور ان يتولى تعمير القبر المقدس ، وللنصارى أن يعمروا كنائسهم وأن يعود منهم من أسلم كرها إلى دينه ؛ وأن يطلق الامبراطور سراح الأسرى المسلمين لديه ، وان يعيد مسجد قسطنطينية كما كان ويسمح فيه بالأذان وبالخطبة للظاهر ؛ بيد أن الكنيسة الشهيرة لم يجدد بناؤها إلا بعد ذلك بنحو عشرة أعوام فى عهد المستنصر بالله

وفى عهد الخليفة المستنصر بالله ولد الظاهر اضطربت شئون الخلافة الفاطمية ، واضطربت العلائق بين مصر وبيزنطية ، وعانت مصر فى أوائل هذا العهد أروع مصائب الغلاء والقحط والوباء مدى أعوام ثمانية تعرف بالشدة العظمى (٤٤٦-٤٥٤ هـ) وأرسل المستنصر بالله إلى الامبراطور قسطنطين التاسع أن يمده بالغلال والأقوات ، وتم الاتفاق بينهما على شروط هذه المعاونة ، ولكن الامبراطور توفى قبل تنفيذ الاتفاق ، فخلفته الامبراطورة تيودورا ، واشترطت لتنفيذه شروطا جديدة أباها المستنصر ، واضطربت علائق الدولتين ، واشتبك الفريقان فى عدة معارك شديدة فى البر والبحر ؛ وفى سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) أرسل المستنصر سفيراً إلى تيودورا هو القاضى أبو عبد الله القضاعى ليحاول تسوية العلائق واستئناف الصداقة ؛ ولكن السياسة البيزنطية آثرت جانب السلاجقة ورأت أن تفاهمهم ، وأخفق سعى السفير المصرى ؛ وكانت فورة السلاجقة قد اضطرمت قبل ذلك بالمشرق ، وأخذت تنذر باجتياح الشام ، وتطورت حوادث الشام فى الوقت نفسه تطورا سيئا ، واستولى الزعماء العرب على قواعده وثغوره ، فانتزعت حلب من يد الخلافة الفاطمية نهائيا ، وكادت دمشق وفلسطين تخرج عن قبضتها ، وتضعضعت قوى الدولة فى الداخل والخارج ؛ ثم كانت وثبة السلاجقة نحو المشرق واستيلاؤهم على فلسطين ودمشق ؛ وأعقبت ذلك فورة من الغرب كانت أخطر ما عرفت الأمم الاسلامية : تلك هى ثورة الحروب الصليبية التى اضطرمت منذ أواخر القرن الحادى عشر ، وسرعان ما ظفرت بانتزاع الشام وفلسطين من قبضة الاسلام ؛ وحلت المملكة اللاتينية فى بيت المقدس مدى حين ، وقامت الامارات النصرانية فى الشام حاجزا بين الدولة الفاطمية والدولة البيزنطية ، وتحول مجرى العلائق الدبلوماسية بين الاسلام والنصرانية ، وافتتح بينهما عهد طويل من النضال المضطرم ؛ وانحدرت الدولة الفاطمية إلى مرحلة الانحلال الأخير ، كما انحدرت الدولة البيزنطية خصيمتها ومنافستها القديمة إلى مرحلة مماثلة من الضعف والانحلال

محمد عبد الله عنان

ليتني كنت أدري!

للدكتور محمد عوض محمد

١

ليتني كنت أدري!
ما طواه الغيبُ من نَيْلٍ وويْلِ
وشقاء لابسٍ ثوبَ نعيمِ
وظلامٍ أقتم الوجه بهيمِ
وقضاءٍ مبرمٍ في جنح ليلِ
ليتني كنت أدري!

٢

ليتني كنت أدري!
يومَ أن سرت على النهج القويمِ،
لم أحِدْ عنه يميناً أو يسارا
مُثبتاً طرفي وقلبي وجناني،
في طريق ضيّقٍ، واهي الأديمِ
يملأ الجفنَ تراباً
. . . . . وشقاء وغُبارا . . .
أن مِنْ حولي جِناناً
وهواءً خالصا . . .
يملأ القلبَ صفاء وسرورا وفخارا . . .
عالَمٌ قد حُفَّ بالخير العميمِ
ساحر المنظر موفور النعيمِ
ليتني كنت أدري!

٣

ليتني كنت أدري!
حينما أُلبِسْتُ ثوباً من حديدِ
ليس يَبْلَى . . . .
كي يقيني حادث الدهر المبيد . .
أنْ سيغدو الجسم مُضْنًى
ومعنًّى بالقيود . .
والفؤاد الحرُّ رهناً
بسلاسلٍ وجمودِ
يقتل الروح على الأيام قتلا . .
ليتني كنت أدري!

٤

ليتني كنت أدري!
حينما أمسكت كأسي بيميني،
أحتسي منها رحيقا وسُلافا،
شَرِهاً لا يرتوي مني غليلٌ
نَهِماً لا أبتغي عنها انصرافا،
أنني أشرب من داءٍ دفينٍ
أنني أرشفها سما زعافا
ليتني كنت أدري!

صوت الإله!

أنصتي يا جبالُ! قد هدأ اللَّيْـلُ وأرخَتْ جفونَها الظلماء؛
ومضى اليوم مُتْعَباً ينشُد الأمْـنَ وقد كدَّ ظهرَه الإعياء،
وسَرَتْ في الوجود لهفة مشتا ق لمعنًى ينشق عنه الفضاء.
جَمَّ الكون رابضا مُرْهفَ الأذ ن لِسِرٍّ توحي به العلياء:
لنشيدٍ يسري إذا سكن اللَّيْـل فتَرْوَى به النفوس الظِماءُ:
نَغَمٌ يترك النفوس وفيها منه نور وروعة وصفاء؛
أنصتي يا جبال! قد هدأ اللَّيْـل وأرخت جفونَها الظلماء!

* * *

أنصتي يا طيور! قد سكن النَّسْـرُ وآوت لوكرها العنقاء،
وغطاء الظلماء قد شمل العا لم فالقبح والجمال سواء؛
فاستكني في الوكر أو فاستقري فوق غصن تبلُّه الأنداءُ
وأقلي الإنشادَ! فالدهر والعا لم واللَّيْـل كله إصغاءُ:
لغناء ينساب كالجدول السا حر؛ ما للقلوب عنه غَنَاءُ!
لا تعيه أذن السميع ولكن يملأ القلبَ حسنُه والرُّواءُ . . .
أنصتي يا طيور! قد سكن النَّسْـرُ وآوت لوكرها العنقاء . . .

محمد عوض محمد

الذى نريده

للأستاذ عباس محمود العقاد

ما الذى نريده من حياة جديدة للمصريين والشرقيين ؟

الذى نريده كثير جدا من الطمأنينة التى مصدرها الشعور بالقوة، وقليل جدا من الطمأنينة التى مصدرها عدم الشعور

نريد أن نحس ذلك القلق الروحى الذى يحسه الغربيون على أثر كل معرفة جديدة ، وفى إبان كل اضطراب جلل ، وفى أعقاب كل دولة دائلة وفى مطالع كل مرحلة مقبلة . لأن القلق علامة النمو والحركة ؛ والنفس تنمو فيضيق بها كساؤها ، وتشعر بالحرج والتقلقل لا تستريح فيه ولا يريحها . وتحاول أن تخلع ما ضاق ورث ، وتلبس ما اتسع وحدث ، وهذا دواليك ما دامت تنمو وتستقبل الأحوال بعد الأحوال والأطوار بعد الأطوار

أما الطمأنينة التى تستقر بصاحبها لأنه لاينمو ولا يتحرك ، فتلك مصاب يرثى له وليست بنعمة يغبط عليها : أرأيت الحيوان الأعجم تفارقه الثقة قط ؟ كلا ! إنه يشبع ويسمن وينظر إلى الدنيا نظرة الرضى والتحدى كأنه بلغ الغاية وأوفى على الرجاء ... وهو قد بلغ الغاية حقا ولكنها غاية أقل من البداية ، وأوفى على الرجاء حقا ولكنه رجاء أخبث من القنوط . وشر ما يبتلى به المصرى والشرقى هذه الثقة وهذه الطمأنينة . فاللهم كثيرا جدا من القلق ، وقليلا جدا من الراحة والركود

***

الذى نريده كثير جدا من الإيمان الذى يسكن بصاحبه لأنه نفى جميع الشكوك ، وقليل جدا من الإيمان الذى يسكن بصاحبه لأنه يجهل الشكوك

الذى نريده كثير جدا من الخيال الذى لا يزال ينقلنا من واقع حسن إلى واقع أحسن ، وقليل جداً من « حب الواقع » الذى لايخرجنا مما نحن فيه ، لأن النوم واقع عند النائمين ، والجهل واقع عند الجاهلين ، والفقر واقع عند الفقراء ، والأسر واقع عند المستعبدين

زعموا أن الشرق مبتلى بداء الخيال والهيام بالأحلام

ألا ليت ما زعموه قد صدقوا فيه ! ألا ليت الشرق يحلم ويتخيل ، لأن الذى يعرف الحلم والخيال يعرف الأمل والطموح

إن « الطيارة » هى واقع اليوم ولكنها خيال الأمس . وهكذا ينتقل العاملون من خيال إلى واقع ، ومن واقع إلى واقع غير الذى كان .

وإن الخبز والمتعة واقع عندنا اليوم ، وواقع عندنا بالأمس ، وواقع فى جميع الأزمان ، ولن يزال واقعنا الوحيد حتى نحلم ونتخيل فنطمح ونأمل ونحيا ونعمل ، ونسوق الدنيا معنا من حال إلى حال ، ونخرج بها فى ركابنا من نطاق إلى نطاق

ألف ليلة وليلة ليست عالم الخيال والأحلام ، ولكنها هى واقع العاجزين والضائعين ، لأن خبزها هو خبز المائدة ، غير أنه مفقود ليس بمأكول ؛ ولذتها هى لذة المخدع ، ومخدعها هو المخدع الذى ينال بالدرهم والدينار ، لولا أن الدرهم والدينار ناقصان !! ومن يحقق ألف ليلة وليلة لايحقق عالماً جديداً ولا فتحاً غريباً ، ولكنما يحقق « الواقع » الذى عرفه الناس من أقدم الأيام ولا يستطيعون أن يفقدوا المال والحطام ، وهما أيضاً من أوقع الواقع وأحس المحسوسات !!

فلا يقولن قائل إن الشرق يحلم لأنه يكتب ألف ليلة وليلة ، بل هو مبتلى بالواقع محبوس فيه لأنه يحلم هذه الأحلام ويتخيل هذا الخيال

ألف شرقى يدين بواقع العاجزين فدى لشرقى واحد يبيع العيش الصغير بالأمل الكبير ، ويحلم ويتخيل لينقل الواقع من طبقة إلى طبقة ، ومن مجال إلى مجال

***

نريد كثيراً جداً من « الذوق » الذى مصدره الفهم واليقظة والدماثة .

وقليلاجداً من الذوق الذى مصدره التأنث والسقم والاصطناع

لقد شبع الشرق من ظرف الظرفاء الذين يصرخون من الهباء كما يصرخ الجسم الورم من لمس الذباب

وشبع الشرق من ظرف الظرفاء الذين يتحلون بالتثنى والتأوه كما يتحلى بهما النساء

وشبع الشرق من ظرف الظرفاء الذين يبرمون بالجد كما يبرم به الصغار الهازلون

وشبع الشرق من ظرف الظرفاء الذين ليس منهم عامل فى ميدان ، ولا نافع لبنى الانسان ، ولا مجتهد يحسن الاجتهاد ، ولا فكه يحسن الفكاهة ، ولا رجل عظيم أو مقبول فى زمرة العظماء

شبع الشرق من هذا الذوق ، فهو من شبعه هزيل الجسد والروح ، وهو من شبعه أجوع ممن صام الف عام

أما الذوق الذى لم يشبع منه الشرق فهو الذوق الذى يحس الصغائر لأنه يحس كل شىء ، لا لأنه على الصغائر موقوف ، وفى الصغائر محبوس ومقصور

وهو الذوق الذى ينفذ من « البوتقة » لأنه جوهر صميم ، ولا يفرق من وهج النار كما يفرق الزيف والغشاء المصبوغ

***

الذى نريده كثير جداً من الضحك الذى معناه الاقبال على الدنيا والاضطلاع بالاعباء والقدرة على التبعات

وقليل جداً من الوقار الذى معناه التهيب والرياء واتخاذ المظاهر درعاً يستر ماوراءه من ضعف وهزيمة وعجز عن الكفاح

الضحك ملء الصدور والحناجر خير من الوقار ملء اللحى والتجاعيد ؛ والضحك الرنان كأنه موسيقى النصر فى ميدان الكفاح خير من الوقار المحجم كأنه مخبأ الهارب من الميدان ، وراء غبار الهزيمة وغشاء الدخان .

***

الذى نريده كثير جداً من الحرية التى تعرف الحدود ، وقليل جداً من الحدود التى لا تعرف الحرية . فليس من مقياس لحق الحرية أصح وأحكم من قدرة النفس على احتمالها بغير رقيب ولا موجه ولا حسيب

ان الحرية التى يتبعها الرقيب هى منحة من ذلك الرقيب واستعباد فيه السيد وفيه المسود

أما الحرية التى تعرف حدودها فهى حق لصاحبها لا يعطيه أحد ولا يسلبه أحد ، لأن الحر الذى يعرف كيف يلتزم الحدود يعرف ولا ريب كيف يحمى الحدود

***

الذى نريده بين القديم والجديد أن نمتلىء بالحياة . فاذا بالتعبير الصالح الجميل ينبثق من تلك الحياة

فليس القديم بضائرنا اذا حيينا وشعرنا وعمدنا بعد ذلك إلى التعبير

وليس الجديد بنافعنا اذا عبرنا محدثين ، ونحن غير أحياء وغير شاعرين

ليست آفتنا أننا نعيش كما يعيش القدماء ، بل آفتنا أننا نندب القدماء ليعيشوا بديلا منا !

وليست آفتنا قلة الشعر الجديد ، بل قلة الشعور الجديد

وليست آفتنا أن القصة قليلة عندنا ، بل آفتنا أن القليل هو الحياة التى تستحق أن تكون قصة ، و « الواعية » التى تستوعب تلك الحياة

وليست آفتنا كساد المسرح ، بل آفتنا أننا فى مسرح الدنيا بلا أدوار ولا فصول ؛ ولو كانت لنا فى مسرح الدنيا أدوار وفصول لشاقنا أن نراها مروية فى أدوار الممثلين ، محكية فى أقوال المؤلفين

***

الذى نريده أن نفهم ما نريد وأن ننجز ما نريد ، وأن نعرف الفرق بين فهم القول وفهم الارادة . فانك إذا قلت لسامعك إنك تريد شيئاً من الأشياء فى يوم من الأيام فقد فهم ما تقول ، ولكنه لن يفهم ما تريد حتى ينجز ما طلبت فى الموعد الذى طلبت ، وهذا هو الفهم الأصيل

الذى نريده كثير جداً

وقليل جداً إذا استطعناه ، وإننا لمستطيعوه ببركة العزم والايمان

عباس محمود العقاد

الجزيرة والتاريخ الاسلامى

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

منذ بضع سنوات — ست أو سبع — زرت الحجاز وقضيت فيه أياماً أنظر وأسمع وأفكر . فرأيت أنى أصبحت أحسن فهماً للتاريخ الإسلامى والأدب العربى وأقدر على تمثل الصور والحقائق فيهما وإدراكها على نحو لم يكن يتيسر لى قبل ذلك .

ولهذا اقترحت على صديقى الأستاذ الدكتور هيكل بك – لما شرع يكتب « حياة محمد » وينشرها فصولا فى السياسة الأسبوعية أن يزور الحجاز فليس أعون على كتابة التاريخ الاسلامى من ذلك . والحجاز بلاد متحضرة ولكنى مع ذلك اهتديت إلى كثير وسأحاول أن أتخير طائفة من الأمثلة تجلو ما أعنى وتبين ما أقصد إليه . فمن ذلك أنى دعيت فى جملة من دعوا إلى الغداء فى « وادى فاطمة » وهو واحة جميلة فى صحراء جرداء . وهناك نصبت لنا الخيام وصفت الموائد وقد وصفت ذلك كله فى « رحلة الحجاز » فلا أعيده هنا . ولكنه اتفق أنى ذهبت أتمشى بعد الأكل مع بعض الاخوان فلقينا جماعة من البدو فقال لهم أحدنا إن فى السرادق آكالا طيبة كثيرة ودعاهم إلى الذهاب فذهب أكثرهم وبقى واحد تخلف معنا معتذراً بأنه « أكل البارحة » فاستغربت قوله هذا ولكنى كنت مثقل الرأس من كثرة ما أكلت فلم أستطع أن أجعل بالى إلى كلامه أو أن أعيره التفاتا . ومضت السنون وجاء إلى مصر صديق من أبناء سورية جاب بلاد العرب وطوّف فيها كثيراً ولا يزال يؤثر المقام فى الجزيرة ، فهو أكثر الوقت مع الملك العظيم ابن السعود . فجلسنا إليه نستمع إلى حديثه الممتع ووصفه البارع لتجاربه ومشاهداته العديدة الدقيقة . وأعنى به « خالد بك الحكيم » فتذكرت قول ذلك البدوى فى وادى فاطمة « أكلت البارحة » وقلت لنفسى إنى قد وقعت على الخبير فلأسأله فلن أجد أدرى منه وأعرف . فقال لى إن هذا معقول ، ولو أن البدوى قال « أكلت أول من أمس فأنا لا أستطيع أن آكل اليوم » لما كان ذلك إلا طبيعياً . وذكر لى أن البدوى يذهب فى الصحراء ماشيا على قدميه أو راكبا ناقته وعلى رأسه العقال وتحتها اللفافة — ويسمون العقال عقالا لأنه فى الحقيقة حبل يعقل به البعير — ويلتف بالعباءة ويتلثم ولا يكاد ينبس بحرف . فاما السكون وقلة الكلام فليدخر كل ذرة من قوته للجهد الذى تتطلبه الصحراء — والكلام جهد فهو إنفاق — وأما التلفف فليحتفظ برطوبة جسمه فيكون أقدر على احتمال الحر والصبر عليه . ويظل ماضيا حتى يبلغ « مضارب عشيرة أو قبيلة فيسقى ماشاء من اللبن ويمضى عنها إلى سواها وكلما نزل على قوم بروه وسروه وسقوه اللبن لأن مثله ممن ينحر لهم القوم . ثم يتفق أن يأتى قوما نحروا لضيف كريم فاذا قام الضيف وإخوانه عن الطعام ، أقبل على « اللحم والأرز » من هم دونهم مقاما ، فيقعد الرجل ويهبر من اللحم ما شاء ومن الارز ما أحب . قال صديقى « وصدقنى حين أقول لك إن هذا البدوى يأكل بعض أقات من اللحم وملء كيلة من الأرز . وهو يأكل كل هذا بعد أن لبث أياما — عشراً أو عشرين أو أكثر أو أقل — لايجد من الطعام إلا اللبن وقليلا من التمر أحيانا فاذا أكل كل هذا اللحم والأرز وأثقل به معدته بعد ما يشبه الصيام أو فطام النفس كظها واحتاج إلى يوم كامل أو أيام للهضم .

فلم يسعنى إلا أن أفكر فى أمر هذا البدوى الذى يصبر على الصحراء وحياتها المرهقة ومطالبها المجهدة وعنائها الشديد ولا طعام له سوى اللبن « التمر أحيانا . إن هذا جلد لا أكاد أعرف له مثيلا . ومن كان يحتمل هذه الخاصة ولا يعجز مع ذلك عن مطالب الحياة التى لارفق فيها من حرب وسعى وأسفار فى الفيافى المهلكة فان مثله يعدل ولا شك ألف جندى من جنود الدولة الرومانية المتخنثة ، ولا عجب اذاً إذا كان بضعة آلاف من هؤلاء

البدو الأشداء الخشنين المعروقين قد عصفوا بمئات من الآلاف من جنود الدولة الرومانية التي كانت تقيد جنودها وتصفدهم لتمنعهم أن يهربوا ويفروا . .

وأحببت أن أعرف قيمة الحياة فيما يحس العربي — أعني البدوي — فلم أجد لها قيمة . وما عسى أن تكون قيمتها عند من لا يكاد يجد طعاماً أو ماء ، ومن لا يكاد يأمن غدر الصحراء وعصف رياحها . أولم نقرأ عن واقعة الخندق أن الرياح عصفت بجيش المشركين وقلبت قدورهم وهدمت خيامهم حتى يئس أبو سفيان ودعا قومه إلى الانكفاء إلى مكة ؟ . وحدثني غير واحد ممن لقيت في الحجاز أن المرء — بعد المعركة — يجيء إلى الواحد من هؤلاء البدو فيسأله عن صاحب له أو قريب أو ابن ماذا فعل الله به ، ويتفق أن يكون قد قتل في المعركة ، فلا يزيد على أن يقول لك « ذُبح » يعني « ذُبح » ، ولكنه يأكل الذال في النطق فلا تسمع منه إلا « ُبح » . . ثم لا دمع ولا أسف ولا حسرة ولا لهفة ولا جزع ولا غير ذلك مما ألفنا أن نقرن به الموت . فكأن حياة البدوي الشاقة تفقدها قيمتها وتسلب الموت لذعه وتفتر وقعه . وما قيمة القتل في حرب أو نحوها والحيـاة معرضة للبوار والتلف في كل ساعة ؟ ؟ وتصور كيف يكون إقبال مثل هؤلاء البدو على الحرب وقس إليه ما عسى أن يكون من إقبال غيرهم من أبناء المدنية والترف والبذخ على القتال ! . إن الذي يقبل عليه البدوي ليس خيراً فيما تحس نفسه من الحياة التي كان يحياها . وإذا أضفت إلى هذا فعل العقيدة والايمان الراسخ بحياة أخرى أطيب وأعز وأكرم فهل يستغرب أحد أن هؤلاء البدو العراة الحفاة الذين لا يملكون إلا السيف والرمح والايمان المستغرق ، اكتسحوا دولا كبيرة وممالك عظيمة ، وهدموا بناء كان يبدو شامخاً ؟ .

ولست ترى في الصحراء قبراً أو صوى منصوبة تدل على أن فلاناً أو علاناً دفن هنا . والناس يعيشون في هذه الصحراء ويموتون فيها ويفنون تحت رمالها ثم لا شيء بعد ذلك ، لأنهم لا يعرفون المغالاة بقيمة الحياة إذ كانت لا قيمة لها عندهم . ولو أنهم اتخذوا المقابر وأعلوها ورفعوها وعنوا بها وكانت عندهم مقبرة مثل مقبرة « جنوى » التي يزورها الناس ليعجبوا ببراعة الفن فيها ، لما أمكن أن تخرج من جزيرة العرب تلك الأمة التي انحدرت على العالم المتحضر في زمانها كما يتحدر السيل الجارف فأغرقته . ولم تغرقه فقط ولم تفتح البلدان أو تحكمها فحسب ، بل قلبتها عربية صرفاً . وقد استطاع الفرس أن يحتفظوا ببعض صفاتهم وخصائصهم وبروحهم القومية — كما لم يستطع البيزنطيون أن يفعلوا فيما استولى العرب عليه من بلادهم — لأن الفرس كانوا أقل تخنثاً من البيزنطيين . ولست مؤرخاً ولكني أظن ان هذا هو السبب ، يضاف اليه ان البلاد التي فتحها العرب من دولة الأكاسرة كانت فارسية وأهلها من الفرس على خلاف ما فتح العرب من بلاد الدولة الرومانية ، فانها كانت أجنبية لا رومانية ولا بيزنطية ، فبقاء الشعور القومي في بلاد فارس طبيعي ومعقول والفتح لا يمكن أن يقتله ، وانعدام مثل هذا الشعور فيما فتحه العرب من أملاك الدولة الرومانية معقول أيضاً . لأنه لم يكن هناك في الأصل . ولهـذا بقيت فارس شوكة في جنب الدولة العربية .

وقد زرت العراق وسورية — أو كما صارت الآن مع الأسف فلسطين ولبنان والشام — كما زرت الحجاز فلم أستغرب أن ينتقل مركز الثقل في الدولة العربية من الحجاز إلى الشام أولا ثم إلى العراق ، فان طبيعة الأراضي الحجازية تجعل من المستحيل عليها أن تكون مقر دولة مترامية الإطراف عظيمة الرقعة . نعم تستطيع بسهولة أن تحتفظ باستقلالها وعزتها ولكنها لا تقوى على حكم أقطار أخرى بعيدة كالشام والعراق ومصر .

وقد بقي الحجاز مقر الدولة العربية في صدر الإسلام وعلى عهد الخلفاء الراشدين ولكن هـنا كان زمن التوسع والامتداد ، لا زمن الاستقرار والنظام الدائم ، فلما انتهت الفتوح أو معظمها وأهمها ، وصارت الفتوح بعد ذلك عبارة عن توسع طبيعي لدولة مستقرة تغريها ما أنست من نفسها من القوة والبأس والشوكة بالتوسع والزحف ، وتدفعها مقتضيات المحافظة على ما في اليد إلى هـذا الزحف ، صارت جزيرة العرب لا تصلح أن تكون هي مركز الدولة . أما في زمن أبي بكر فقد كانت الحاجة تدعو إلى توطيد الأمر في قلب الجزيرة أولا قبل إمكان التفكير في

غيرها . وأما فى زمن عمر فقد كانت الجيوش تزحف فلا يعقل أن تنقل العاصمة قبل أن يستتب الأمر . نعم فتحت البلاد فى عهده ، ولكن الفتح يستدعى التمكين والتوطيد أولا . ثم إن عمر كان يشق عليه أن يخرج من الجزيرة ، وكانت صلته بالنبى عليه الصلاة والسلام أوثق من أن تسمح له بترك الجزيرة ، حتى لو كان كل شىء قد استقر وانتظم . ولم يكن قد عاش فى الشام أو مصر أو العراق حتى تبدو له مزية التحول بقاعدة الدولة إلى جهة أخرى . وأما زمن على وعثمان فقد كان زمن اضطراب ونزاع وانقسام ، وكان هذا حسبهما شاغلا عن إقامة مركز الدولة إقامة ثابتة نهائية فى مكان آخر غير الحجاز . ولما انتهى النزاع بفوز معاوية كان هذا قد أدرك مزية البلاد الأخرى وعرف فضلها كمركز للملك ومقر للدولة التى شادها بفضل ما تولى منها فى الفترة السابقة .

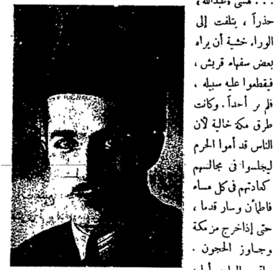
وبلاء جزيرة العرب أنها مجدبة قاحلة ، فاذا امتدت لها رقعة ملك أسرع أهلها إلى التحول عنها إلى غيرها ، لأن الحياة فى غيرها تكون أرغد والعيش أطيب . والمرء يحن إلى الراحة والدعة مهما بلغ من اعتياده الخشونة والمشقة والشظف ؛ وفرق بين هجرة تدعو إليها كثرة السكان ، وهجرة تدعو إليها الفاقة والمحل . ولا بد لبلاد تريد أن تكون مقر دولة كبيرة أن تكون هى ذات موارد كافية إلى حد ما . ولهذا لم يكد العرب يفتحون الأقطار المجاورة حتى كثرت هجرتهم إليها طلباً للرغد والراحة . ومن ألف التنقل وكثرة الرحيل من ناحية إلى أخرى انتجاعاً للرزق لم تشق عليه الهجرة إلى بلاد بعيدة لأنه لم يزل أبداً مهاجراً فى قلب بلاده . وما دامت الدولة واحدة فى الحجاز ومصر والشام والعراق فأخلق بهذا أن يكون مشجعاً على الهجرة ومستحثاً على النزوح . وبذلك صارت الجزيرة أخلى من الناس وأقل صلاحاً لأن تكون مركز الدائرة ومقر الدولة . وقد يتغير حال الجزيرة فى المستقبل وقد تظهر فيها موارد ثروة طبيعية تغنيها ولكن محل أرضها عقبة فى سبيل الحياة . ومهما يبلغ من غناها فى المستقبل فانها ستظل أحوج إلى غيرها من غيرها إليها — إلى حد بعيد — على أن كلامنا على الماضى الذى لم يكن يعرف البترول والمعادن وما إلى ذلك مما جد فى الدنيا لا على المستقبل الذى هو غيب .

ابراهيم عبد القادر المازنى

فى رأس السنة الهجرية

معنى الهجرة

للأستاذ على الطنطاوى



. . . مشى «عبدالله» حذراً ، يتلفت إلى الوراء خشية أن يراه بعض سفهاء قريش ، فيقطعوا عليه سبيله ، فلم ير أحداً . وكانت طرق مكة خالية لأن الناس قد أموا الحرم ليجلسوا فى مجالسهم كعادتهم فى كل مساء فاطمأن وسار قدما ، حتى إذا خرج من مكة وجاوز الحجون . واتسع الوادى أمامه وانفرج ، صعد الجبل يأخذ طريقه إلى الغار ؛ ونظر . . فراقه منظر الغروب . على هذه السفوح والذرى ، وأحس بجلال الموقف ، وأخذ عليه نفسه هذا الصمت العميق ، وهذه الصفرة التى تعم كل شىء ، فنسى غايته ووقف ينظر . . رأى مكة تلوح أبنيتها من فرجة الوادى ، وتبدو الكعبة قائمة فى وسطها ، والأصنام التى تحف بها تظهر على البعد كأنها لطخ سود . . فذهب به الفكر سريعا إلى ذينك الرجلين اللذين تركهما صباحا فى الغار . وذهب يتحسس لهما خبر قريش . ويعلم علمهما . ذكر النبى صلى الله عليه وسلم وأباه الصديق (١) . . فخاف أن يكون قد أصابهما شر ، فاغمض عينيه عن هذه المشاهد ، ومضى فى طريقه وهو يتعجب من قريش حين زهدت فى المجد والظفر ، وآثرت هذه القرية الجاثمة بين هذين الجبلين كأنما هى مخبوءة فى صندوق من الصخر . على السهول والجنان والمدائن التى أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يقودها إليها وانصرفت عن الراية التى دفعها إليها محمد ، لتسير بها إلى أرض النخيل والأعناب

(١) انظر كتابى « أبو بكر الصديق » صفحة ١٠

فتركزها فى دمشق والأسكندرية، وعلى إيوان كسرى. وفضلت عليها رايتها التى لم تتعود الخفق فى سماء المعارك الكبرى، ولا ألفت الاهتزاز على أسوار المدن المفتوحة.. لقد عرض محمد على قريش أن تعطيه هذه الأصنام ليكسرها. ويعطيها بدلا منها ملك كسرى وقيصر، ويعطيها العقل المبدع، والقانون العادل، والعبقرية والخلود، فأبت، وعكفت على أصنامها وتماثيلها.. فما أعجب عقل قريش!

ونظر إلى مكة مرة ثانية، فاذا الظلام قد لفها بردائه، ثم ابتلعها ولم يعد يبدو منها إلا بصيص من النور لخالط نفسه سرور مبهم، وشعر بزوال هذا الخطر القرشى، واسترح رائحة الظفر، فامتلأ قلبه أملا، وجعل يجيل بصره فى الأفق الواسع، فيخيل إليه أنه يرى راية محمد ترقص على هام القصور البلق فى الشام، والصروح البيض فى المدائن... فمضى يتسلق الصخور إلى الغار، وهو يقفز قفزاً، يظن من شدة النشاط وقوة الأمل أنه سيطير!

***

وكانت الجزيرة يومئذ تتمخض بالموجة الكبرى... ولطالما ماجت هذه البرية القاحلة التى تلتهب فى أيام الصيف التهاباً، وهذه الرمال التى تتسلسل إلى غير ماحد، ففاضت على أرض العراق والشام وكانت منبع الحياة. لقد كان ذلك، والتاريخ جنين فى بطن العقل البشرى لم يولد بعد، وكان وهو طفل لايعى، وكان والتاريخ صبى يميز ويدرك، فرآه فسجله فى دفتره...

رأى وادى النيل، وحوض الرافدين، يمشيان إلى الخراب، قد نضبت فيهما الحياة، فما راعه إلا موجة تنشأ من الجزيرة، من وسط الرمال، فتقذف إلى مصر بـ(مينا) ليكون أول فرعون فيها، وتلقى ببنى كلدة إلى العراق، فاذا هؤلاء الوافدون من أعماق القفر، يفتحون حقائب أدمغتهم، فيخرجون منها الحضارة الأولى، (حضارة البابليين القدماء) قبل الميلاد بستة وثلاثين قرناً

ويكر الزمن، وتدور الأفلاك، فتطحن الناس، وتحطم الحضارة وتطفئ الشعلة، فتنادى العراق والشام يطلبان المدد، وتسمع الصحراء فتتهيأ وتتحرك وتموج موجة أخرى فيقذف إلى ساحل البحرين بأنشط مجموعة بشرية، عرفها التاريخ القديم، ثم تلقى بها إلى ساحل سوريا لتطل على العالم، فلا تلبث أن تتغلغل فيه تحمل إليه تجارتها وحروفها ولا تلبث أن تغدو شريان الحياة فى العالم، وتنشئ فى كل موضع مستعمرة فينيقية، هى فى الحقيقة مدرسة عالمية، كان من أمهر من تخرج فيها اليونان.

ولقد ماجت الجزيرة موجات أخرى... ولكنها اليوم تتمخض بالموجة الكبرى!

***

فكر عبد الله، فى هذا وهو يتسلق الصخور، إلى الغار، وكان لطول ما سمع من حديث الاسلام شديد الرغبة فى توحيد العرب، وسوقهم إلى إنقاذ أرض الوطن، فى الشام والعراق، من الحكم الأجنبى، وكانت هذه الفكرة جديدة لم يعرفها العرب، أثمرتها فى رأس عبد الله الدعوة التى استجاب لها، وآمن بها، واستسلم عبد الله إلى أفكاره، وأطلق لها العنان، وشمل العالم كله بنظرة واحدة، فرآه ينتظر شعباً جديداً طاهراً لم تدنسه تلك الحضارة الزائفة، حراً لم تذله تلك الأنظمة الجائرة، أبيا لم يألف طغيان الملوك، وجبروت الأباطرة، ليختم صفحة الماضى السوداء، ويفتح فى التاريخ صفحة بيضاء جديدة

إن البناء القديم قد تهدم وخرب، ولم يعد صالحا، ولا بد من شعب قوى ماهر، يهدم هذه الأطلال البالية، ثم ينشئ بناء جديداً.

إنه ليس فى العالم إلا ثلاث كتل كبيرة... كتلتان تتصارعان صراع الديكة، قد أمسكت كل واحدة بعنق الأخرى، فسالت دماء الشعوب، والملوك يضحكون ويفرحون لأنهم سيصبغون بالدم ثيابهم لتغدو قرمزية حمراء، يمتازون بها من سواد الشعب، وطاحت جماجم الشعوب، والملوك يضحكون ويفرحون، لأنهم سيبنون منها برجا، يترفعون به عن غمار الشعب

هاتان هما الامبراطوريتان الفارسية والرومانية، وهناك كتلة أخرى فى زاوية الكون نائمة على ضفاف الكنج، ووراء هملايا، لا يدرى بها أحد...

أمم تشقى ليسعد أفراد. شعوب تفنى ليحيا رجال. مدن تحرق لتشعل منها سيجارة، إن هذه حال يجب أن يوضع لها حد! فمن هو الذى ينقذ العقل البشرى من قيود الجهل والاستبداد! من هو الذى يمحو هذه الارستقراطية العاتية السخيفة؟ من يهدم هذه الهياكل البالية ليقيم على أطلالها صرح الحضارة؟ من الذى يمهد السبيل للمستقبل المنتظر، لعصر الراديو والطيارة؟ لعصر العلم والفضيلة؟ لعصر الحرية والعدالة والمساواة؟ لعصر السوبرمان...

لا أحد!

كل شىء هادئ فى العالم!

إن القافلة تمشى ببطء فى عرض البادية، قد خرس الحادى، ومات الدليل، إنها تمشى نحو الموت!

إن السفينة تتخبط فى لجة اليم، تميل وتضطرب، لم يعد لها أمل، قد هبت العاصفة وطغى الموج، وغرق الربان!

يا من يهدى القافلة الضالة؟

يا من يخلص السفينة الحيرى؟

يا من ينصر الشعوب المظلومة ؟ يا من يحمى العقل المهان ؟ يا من ينقذ الفضيلة المعذبة ؟

ليس من مجيب ، كل شيء هادىء في العالم !

* * *

بلغ السيل الزبى ، وعم اليأس ، واشتدت المصيبة ، فتلفت الناس فلم يجدوا أمامهم إلا البيع والكنائس ، فأموا بيوت الله ، ونفضوا أيديهم من الدنيا ، وجاءوا يبغون فيها الفرج ، لقد سدت فى وجوههم كل الأبواب ، ولكن باباً واحداً لا يزال مفتوحاً فوق رءوسهم ، هو باب السماء .

وسمعوا الفرج على ألسنة الكهان ورجال الدين ، علموا أنه سيبعث نبى جديد ، يطهر الأرض ، وينشر العدل ، فخرجوا فرحين مستبشرين ، قد أحيا قلوبهم الأمل

وطفقوا يفتشون عن النبي الجديد ، فتشوا عنه على ضفاف الأنهار فى سهول العراق الجميلة ... فتشوا عنه على جبال لبنان الشجراء ، وحدائق الشام الغناء ، فتشوا عنه فى المدن الكبرى ، عله يظهر إلى جانب القصور فى القسطنطينية والمدائن ، مثوى الجبروت البشرى ، فيهزها ويزلزلها ، فتشوا عنه فى كل مكان فلم يجدوه ، إنه لن يخرج فى السهول ولا فى الجبال ولا فى المدن الكبرى - ولكنه سيخرج من حيث انبثقت الحياة ، من حيث بزغ فجرها من حيث خرجت الحضارات الأولى ... من الجزيرة

تلك هى أم العالم فليلجأ العالم إلى أحضانها ، كلما حاق به خطر ؟

* * *

فتشوا عن النبي المنتظر فى كل مكان فلم يجدوه ، وازداد عسف الملوك ، وظلم الطغاة ، واشتد البلاء ، وكمت الأفواه ، وقيدت العقول ، وديس الحق ... فلجأ الناس مرة ثانية إلى البيع والكنائس . فسمعوا فيها البشارة ، وكانت هذه المرة واضحة قريبة ...

« يا شعوب العالم » !

« استبشروا فقد نشأت اليوم الموجة الخيرة التى ستغمر العالم - وتغسله من أدران الماضى - لقد نشأت من غار عال منقطع . فى قمة جبل رفيع ، ومشت تقطع الرمال - نحو أرض الثمار والرياحين - نحو أرض المدنيات ... لقد ابتدأ اليوم أكبر حادث تاريخى : إن ركاب النبي المنتظر ، قد تحرك من مكة يسير إلى نصرة الشعوب - إلى حماية العقل ، إلى إنقاذ الفضيلة ، إلى إنشاء عصر الحرية والعدالة والمساواة »

فخفقت القلوب فى كل مكان لذكر النبي المصلح ، وعاشت بحبه ، وسألت :

— إلى أين بلغ ؟ إلى أين بلغ ؟

— لقد بلغ الغار ، فوقف فيه يودع هذه الجماعة السخيفة ، التى جاءها أعظم رجل ، بأعظم مبدأ ، فلم تفهم منه شيئاً ، وحسبت أنها تستطيع القضاء عليه ، فهى تريد أن ترد النبي فتقتله أو تسجنه ، فهى تبعث رسلها ، يفتشون عنه فى أنحاء البادية ، وشعاب الجبال ، ومنعرجات الأودية ، وينفضونها نفضاً ، ولكنهم يعمون عن هذا الغار العالى المكشوف الذى يطل منه سيد العالم

— أهؤلاء يحرمون البشر من العصر الذهبى المرتقب ؟ ويقضون على الأمل الوحيد الذى تعيش به ملايين الخلائق ؟ يا للمجرمين ، يا للجاهلين المغترين !

وتفرق الناس يهتفون فى كل مكان باسم المنقذ الأعظم ، باسم النبي !

* * *

وانتبه « عبد الله » فاذا هو قد تأخر ، وضل الطريق ، فصحا من ذهوله ، وتسلق الصخر مسرعاً نحو الغار ، لقد فهم معنى الهجرة ، التى لم تفهم قريش معناها - وحسبتها سفراً من مكة إلى المدينة ، لقد علم أنها انتقال من الماضى الأسود الكئيب ، إلى المستقبل المشرق المنير ... فليقفز إلى الغار قفزاً ...

* * *

وبعد ، فيامن ينعمون بحضارة القرن العشرين : ..

يا من يعرفون قيمة الفكر البشرى ، ويستمتعون بثمراته ...

يا من يقدرون العدالة والحرية والمساواة ...

لا تنسوا أبداً أن المنار الذى اهتدت به القافلة الضالة ، والسفينة الحيرى ، إنما خرج من ذلك الغار ، فاذكروا دائماً عظمة هذه الغيران غار (حراء) إذ بزغت منه أنوار الديانة التى هذبت العقل الانسانى ، وأرشدته إلى أقوم سبل الحقيقة والخير والجمال ، وغار (ثور) إذ بدأت منه الموجة التى نسفت قصور الظالمين ، وصروح العتاة ، وقفت على الماضى السخيف ، وحملت إلى العالم أسمى المبادىء وأعلاها ، حين حملت إليه تعاليم حراء

إن هذه الغيران كعبة فى التاريخ ، لا ينبغ عقل ولا يمشى فى طريق التفكير الصحيح ، إلا بعد أن يطيف بها ، ويقف عليها ...

إن العالم قد سار نحو الكمال ، يوم سار محمد (صلى الله عليه وسلم) نحو الغار ...

إنه لولا الهجرة ، ولولا الفتح الاسلامى ... ما خرج العالم من الهوة ، التى دفعته إليها أرستقراطية السادة الأشراف ، وجبروت الملوك المستبدين ... ولا كانت حضارة القرن العشرين !

... هذا هو معنى الهجرة ، التى نحتفل اليوم بذكراها ، فحق على كل متمدن أن يشاركنا فى هذا الاحتفال !

• عين التينة – سوريا

على الطنطاوى

من صفحات البطولة

سلاميش

للأستاذ محمد فريد أبو حديد



قد كان ذلك أثناء الحرب الصليبية التي ثار لهيبها في الشام نحو قرنين طويلين ؛ وكانت جنود مصر العظيمة تحاصر مدينة انطاكية إحدى المدن التي كانت لا تزال باقية في يد المسيحيين . وكانت جيوش مصر تحارب ببسالتها المعروفة لا يعرف أحد من جنودها ما معنى الخوف بل يهوى بفرسه كالصاعقة وهو يصيح صيحة الحرب فيوقع بعدوه الفشل فيتفرق ويتبدد ، ثم يشيط في رماحه وسيوفه .

وكان منظر هذه الجنود مما يروق الأعين ويبهر الأنظار ، فقد كان الفرس وراكبه قطعتين من آيات الفن ومبدعات الصناعة ، فالفارس في ملبسه الحربي عليه العلامة الصفراء تبرق في شعاع الشمس وفوق جسده الدروع والسلاح يحسبها الناظر اليها من عسجد مصفى وإن كانت من صافي الحديد والفولاذ ؛ وكانت ملابسه من تحت تلك الغواشي لا تظهر منها إلا أطراف مزركشة بالذهب أو أذيال من صافي الحرير والقصب ؛ وكان الفرس يختال تحت راكبه كأنما هو يزهى بما عليه من زينة وحلية ويفاخر بمن عليه من نجد مغوار

ودافع المحصورون في أنطاكية دفاع الأبطال ، لم يتركوا الأسوار حتى لم يبق بها ركن غير مثلوم ، ولم يدعوا الضرب حتى لم يبق لمجانيقهم حجر يقذفون به أو نار يلقون بها على أعدائهم . وانتصرت جنود السلطان العظيم بيبرس . ودخلت المدينة في أبهة النصر واختيال القوة . وكانوا وهم يدخلون المدينة لا ينسون أنهم يلجون أكبر معقل بقي للنصارى في الشام بعد أن كانوا قد بسطوا أيديهم على ذلك القطر كله .

كان قائد الجند شابا في مقتبل العمر اسمه سلاميش لو رآه أحد في غير لباس الحرب لظنه أحد أبناء الملوك المنعمين . وجه مشرق إشراق الزهرة اليانعة ، وقوام ممشوق كأنه رمح رديني ، وعينه تلمع كأنها ريا بفرند سيف دمشق . ولكنه كان في عدة الحرب عليه اللأمة والدروع وفي يده الرمح وفي منطقته السيف ، ودخل على رأس الجنود فوق جواده الكريم ناظراً إلى الأمام معبسا جاداً والجنود من ورائه لا يلتفت أحد منهم إلى يمين أو إلى يسار ، ولا يتخلف أحد منهم عن طاعة الامر بمقدار همسة هامس أو طرفة عين . وكانوا كلما نظروا إلى قائدهم الشاب زادت قامتهم استقامة ، فان هم بعضهم ببسمة وقفت البسمة على شفتيه حذر أن يطلع عليها اذا هو التفت .

وكان يوم دخول انطاكية يوماً مشهوداً ، فكان نساء المدينة وصبيانها أسرى ينتظرون حكم الفاتح فيهم ؛ وكان رجالها وشبانها بين مقيد في الاصفاد ، وجريح في مثاوى العلاج ، وقتيل طريح على جانب الأسوار أو عرض الطريق . وبلغ القائد وجيشه ميدان المدينة الأكبر وقد احتشد فيه الأسرى والضعفاء يتطلعون جميعاً إلى من في يده الحكم في مصائرهم ، وخمدت الأنفاس ، وهدأت الاصوات ، وأومأ القائد للجيش بالوقوف حول الميدان ، فوقف الجند ينظرون إلى أكوام الغنائم التي سيقسمها السلطان الأعظم بينهم وهي من كل نفيس ونادر من تحف الأمراء والأغنياء وقد وقف حولها جماعات من سبايا الحرب بين صبية وعذارى أو كهول وشبان ينظرون إلى قيودهم حانقين ، أو يبكون ويندبون معولين .

وتقدم نحو سلاميش وفد من كبار المدينة وأمرائها حتى إذا ما صاروا منه على بضع خطوات ركعوا له ووقفوا يطلبون الاذن للكلام ، فأذن لهم وهو معبس على عادته لاتفارقه تلك النظرة الجامدة التي في عينيه ، وجعلوا يتكلمون بلسانهم وقد وقف رجل منهم يترجم ما يقولون . وطلبوا اليه أن يمن عليهم بالفكاك وأن يهبهم نساءهم وذراريهم تقربا إلى الله الذي نصره بعد أن وضعت الحرب أوزارها ودانت المدينة لحكم السلطان الأعظم ، وقالوا له فيما قالوا « حسبك من تقتل من شباننا وكهولنا ، وما تخرب من ديارنا ومعاهدنا ؛ فلئن كانت بنا كبرياء لقد ذلت ، ولئن كانت فينا عزة لقد هانت ؛ وكفاك من الحرب النصر فلا تضم اليه دموع المساكين ، ولهيب الفراق بين الأبناء والوالدين » غير أن سلاميش بقي على تعبيسه ووجومه ولم يجب إلا باشارة لجنوده أن يعيدوا الأسرى إلى حيث كانوا وأن يستعدوا لنقل الغنائم والأسرى إلى مخازن السلطان أو إلى خيامه ، فلم يكن للوفد إلا أن ينصرف والحسرة تأكل قلوبه .

ثم أمر القائد جنوده بالمسير إلى مخيمه وسار في الطليعة يتقدمه لولا أن استوقف نظره جماعة من الجند يجرون شخصا وهو يمانع ويجاهد ، فتأمل الشخص فلاح له عن بعد شخص امرأة ، فوقف وأمر

الجنود بالوقوف ، ثم أسرع إلى مكان الجند ليرى ماهناك فوقعت عينه على فتاة بين أذرع جنديين يدفعانها ويترددان فى حملها . ولما اقترب منها رأى شابة نحيلة ممشوقة فارعة ، بوجهها صفرة قد غطتها حمرة ، وفى عينيها حلاوة قد غشيتها صرامة ، وهى تنظر إلى الجنديين مرفوعة الرأس كأنها تزهى ، جامدة العينين كأنها تتحدى . وقد تمزق ثوبها وتلوث من آثار الوسخ والدماء ، لايكاد يستر من جسمها إلا مايستر ظل أوراق الشجر من صفحة الجدول .

وقد انسدل على كتفيها غطاء من شعرها الفاحم وهو يلمع فى ضوء الشمس الغاربة . فدخلت الرحمة قلبه برغمه ، وتمهدت عبسته ولانت نظرته وأشار إلى جنوده بالكف عنها ، ثم نزل إليها وأخذ بذراعها فأسلمت له وسارت معه حتى اقترب من شيخ فقيه كان فى صحبة الجيش وأمره أن يترفق بها حتى تذهب إلى خيمته . ثم عاد وقد أطرق قليلا حتى علا صهوة جواده . ثم ركض إلى حيث ترك جنوده واستعاد نظرته وعبسته . وأتى إليهم الأمر بالمسير وقضى سائر اليوم فى شغل من أمر جيشه حتى أوغل الليل وعلا البدر وحان وقت العودة فآب إلى سرادقه .

وتذكر الفتاة التى كانت أعمال اليوم قد أنسته ذكراها ، فأمر غلاما أن يحضرها إليه ، وجلس يستعيد صورتها ويتمثلها وهى تناضل على ضعفها وتتكبر على ذلها ، ولم يتمالك أن ربت الرقة إلى قلبه ، ولم يستطع قهر عبرة ترددت فى عينه . وغاب الغلام قليلا ثم عاد وحيدا فنظر إليه سلاميش كأنما يستفهم عما أتى به ، فقال الغلام بعد التحية « إنها لاترد بكلمة ولا ترفع إلى بصرها » . فصرفه سلاميش وجلس هنيهة يفكر ، ثم نهض متثاقلا وسار إلى خيمتها حتى إذا دخل ألفاها على الأرض وقد وضعت رأسها بين كفيها .

فدنا منها ووضع يده على رأسها وتبسم ابتسامة ضئيلة وقال : « يحزننى أنهم أساءوا إليك »

فانتفضت الفتاة كأنما لسعتها جمرة ، ثم رفعت رأسها وقامت تنظر إليه والحقد مرتسم على محياها ، ونار الغضب تضطرم فى عينيها ، وكانت الملابس الرثة التى أتت بها قد تبدلت وألبست حلة من الحرير الأسود جعلت وجهها المصفر وعليه آثار الدموع يبدو كالزنبقة المبللة بالندى ، ودفعت يده التى مدها نحوها وقالت وفى صوتها بحة : « ابعد يدك عنى أيها القاتل السفاك . أدر وجهك الكريه عنى فأنت قاتل أبى وأخى ، وأنت سافك دماء قومى ، وأنت المعتدى على وطنى . ابعد عنى وافعل بى ماشئت من عذاب أو قتل تكمل به وحشيتك وفظاعة جندك » .

وكانت وهى فى ثورتها هذه تقذف بنظراتها إليه كالسهام النافذة ، وكان صدرها يعلو ويهبط فى هياجها ، وشعرها الطويل الأسحم يضطرب بعضه فوق كتفيها وبعضه على صدرها أو جوانب جسمها

ودهش سلاميش من قولها ولم تفته فصاحة فى لفظها ولا رخامة فى صوتها ، ولكنه لم يجب بكلمة ، بل رفع حاجبيه واثنى راجعا إلى خيمته يسير فى بطء ويثور به شىء يشبه الحزن

وأرسل إلى الشيخ الفقيه يستحضره ، وأتى إليه فجعل يسأله عن المدينة وأهلها ، وعن تلك الفتاة وبيتها ، فلقد كان ذلك الفقيه من أهل المدينة قبل الفتح يعيش بين أهلها ويعاشرهم ويخالطهم ، فعلم منه أن تلك الفتاة بنت أكبر أغنياء أنطاكية ، وأن أباها كان شديد الولع بتثقيفها ، وأنها قرأت أدب العرب كما قرأت أدب الفرس ، وكان لها أخ قتل فى أثناء الحصار ، ومات أبوها يوم الفتح ، وكان يدعو قومه إلى المصالحة قبل أن تفتح المدينة عنوة ، وأراد ان يحمل قومه على تدارك الأمر قبل انفراطه فاتهموه بالجبن ، وصاحوا فى وجهه ، أنه اثر السلامة ، فحملته الحفيظة مع كبر سنه على الركوب فى وجه الجيش الفاتح ، ومات عند أبواب المدينة تحت سنابك الجيش الظافر

وسمع سلاميش تلك القصة فأفلتت منه زفرة لم يستطع كتمانها ، وبات الليلة والأحلام تتخلل نومه حتى لاح الفجر ، فصحا وهو مضطرب النفس قلق البال

ولكن أعمال اليوم لم تترك له متسعا للتفكير فى الفتاة ولا فى همومها ، وكان كلما تذكر كلماتها له نازعته نفسه إلى القسوة عليها ، ثم لايلبث أن يلين ، وتعاوده رحمته . حتى إذا انقضى اليوم وعاد فى المساء إلى خيمته رأى نفسه يسير نحو مكانها ، وتقرب إليها وهو يتردد ويترفق ثم وقف إلى جوارها هنيهة وقال بصوت خفيض :

« لعلك اليوم أهدأ مما كنت بالأمس »

فلم ترفع إليه بصرها ، بل بقيت جالسة ، ورأسها بين كفيها

والتفت إلى خوان بالقرب منها ، فرأى عليه طعاما لم يمس . فقال وهو يتكلف الهدوء والجفاء : « وهل تريدين أن تموتى جوعا ؟ » فلم تجب حتى ... [illegible] ... كم محياها .

فقرب منها ، وحاول أن يضع يده على رأسها ليرفعه وهو محترس متلطف ، ولكنه ما كاد يلمسها حتى نفرت منه وصاحت به قائلة : « أقول لك اتركنى »

فلم يستطع أن [illegible] . فأبعد يده عنها ، وتراجع ، ناظرا نحوها ، ثم تنفس نفسا طويلا وخرج وفى قلبه حزن وقلق

وقضى ذلك اليوم موزع القلب كئيبا ، حتى لحظ أصحابه كآبته ، وعجب جنوده لجفائه ونفرته ، فكان لا يأمر إلا متبرما غاضبا ، ولا يسمع إلا متجهما ساهما ، حتى عجب الناس من ذلك الغضب ، فى عقب الانتصار ، ومن ذلك الضجر لمن كان مثله مكللا بالمجد والتوفيق . وما انتهى من عمله حتى اسرع الى سرادقه ، ووقف هذه

المرة مترددا وجلا ، ودخل في رفق وخشوع إلى مكان الفتاة ، فأبصرها على ما كانت عليه في الصباح ، والخوان لا يزال إلى جانبها ، قد تبدل طعامه ، ولا يزال كاملا لم تنل منه شيئا

ونظر إليها مليا ثم قال برفق : « أما تكلمينني ؟ إنني أرجوك أن تنظري إلى وتنطقي بما يجول في نفسك ولو كان قاسيا »

ثم مد يده إلى رأسها ومسح عليه متلطفا - ولكنها هذه المرة لم تثر ولم تغضب . وكأن نبرات صوته قد حملت إليها ما في فؤاده من حزن من أجلها . على أنها بقيت ساكتة ، وهي جالسة في مكانها كئيبة .

فجلس الى جوارها ساعة يحاول محادثتها وهي لا تجيب الا بدمعة تثور بين حين وحين في عينيها فتمسحها بمنديل ثم تعود الى وجومها وسكونها ، فقال لها ولسانه ينم عن مقدار عطفه وحزنه :

« إنني لا أريد ايلامك - لأنني لا أستطيع أن أراك متألمة - ولو كان ذهاب ألمك بإبعادك عني لفعلت . ألك أهل في عكا أو في مدينة أخرى من المدن فأرسلك اليهم ؟ ان السلطان لن يرد لي طلبا اذا طلبت منه شيئا »

فلم تجبه حتى أعاد عليها القول راجيا مستعطفا - وكان أول ما قالته له أن هزت رأسها نحوه وقالت : « ليس لي أهل - قد قتلتم جميعا » ثم شهقت بالبكاء واسترسلت في هزة مريرة من الحزن

ولم يملك سلاميش نفسه من أن تجيش بالحزن ولكنه تمالك بعد قليل وهدأ من جأشه وقال لها :

« انني أرحمك في حزنك ولكنني لا أملك دفعه . فقد كان أهلك أعدائي وكنا معا في ميدان قتال يسعون فيه الى قتلي كما كنت أسعى إلى قتلهم . وهل للشجعان مصير الا الموت في ميدان الحرب ؟ وهل كان أولى بأهلك ان يشهدوا مدينتهم تحطم وتسلب وهم بين هؤلاء الأسرى ؟

انهم لو كانوا بين هؤلاء الأسرى لما ترددت في افتدائهم من أجلك ولكنهم في غير حاجة الى ولا اليك . انني قد رأيتك ويهرني حسنك ، ثم رأيت حزنك فآلمني حزنك . ثم تكشفت لي كبرياؤك فقهرت كبريائي ، ولو شئت أن تبعدي الى مكان تختارينه لما رفضت لك مشيئة - وإن أحببت المقام هنا - كنت عندي ولا أقول لي حتى تقولي ذلك أنت »

فنظرت الفتاة نحوه وقد زال من عينها ذلك البريق القاسي الذي كان يلوح منهما كلما نظرت نحوه من قبل ، وأطالت نظرتها إليه ثم انفضت بعد أن طبعت في خيالها صورته

ولم يذهب سلاميش ذلك المساء إلى خيمته حتى كان قد قاسمها بعض الطعام الذي قدم اليها في ذلك اليوم ولم تنل منه قبل ذلك شيئا

- وفي ذلك المساء وفد الى سلاميش بريد السلطان يحمل اليه أمر الارتحال الى دمشق بمن معه من الجند . ويأمره فيه بتقسيم الغنائم بين أمرائه وجنوده وبتوزيع الاسلاب من أموال وسبايا . ووهبه نصيبه من ذلك كله جزاء له على بسالته واعترافا له بما كان من نضاله

وبكر سلاميش فذهب في الفجر إلى خيمة الفتاة وهو خفيف الخطوة متهلل النفس إذ كان قد عزم على خطة أملاها عليه قلبه ، فرأى الفتاة راقدة على أريكة قضت عليها الليلة لم تذق للنوم طعما ؛ فلما وقع نظرها عليه جال على وجهها طيف ابتسامة واعتدلت في مكانها ونظرت إليه وهو قادم نحوها . ولما حياها تحية الصباح ردت تحيته ، ثم جلس قريبا منها ولم يكن عند ذلك على عادته من اعتداده بنفسه وكبريائه ، بل كان في حديثه خفيض الصوت مهتز الأنفاس .

قال لها : « قد أمرني السلطان أن أتحرك اليوم إلى دمشق بعد أن انتهى الأمر هنا »

فلم تجبه بل نظرت نحوه ، كأنما تسأله عن مصير وطنها ، ومن فيه من رهطها ، وكأنه أحس بما في نفسها من التساؤل فقال : « وقد أراد السلطان المعظم حفظه الله أن يجعل لي حظه من هذه المدينة » فصاحت الفتاة ومدت نحوه يديها : « إذن فالمدينة في يديك » فقال لها : بل نصيب السلطان منها وسأجعل نصيبي من الغنيمة من في المدينة من الأسرى تاركا للجند أموالها وتحفها »

فصاحت الفتاة ووقفت أمامه قائلة « وما ذا تفعل بهم ؟ »

فتبسم سلاميش نحوها وقال « هم لك »

فصاحت وصوتها يتهدج من الفرح « هل تفعل ؟ »

فقام ومد يديه نحوها وقال « لقد أكرمني السلطان المعظم بنصيبه ، وسيكون أقر عينا إذا علم أين ذهبت به »

فدت يديها وامسكت بيديه الممدودتين وقالت « ما اسمك ؟ »

قال باسما « سلاميش » فنظرت إلى وجهه لحظة ثم تركت يديه وأطرقت إلى الأرض فقال « وإنني أود أن أعرف ما تحبين فأنفذه لك فان دارك هنا لم يمسها أحد من الجنود . لقد عرفت دارك وعرفت أهلك من بعض أهل المدينة وأعدت كل ما أخذ منها إلى مقره ، ولك أن ترجعي إلى دارك إذا شئت عزيزة في ظل السلطان المعظم » .

فنظرت الفتاة نحوه وترددت قليلا ثم قالت في حياء « وأنت ؟ »

فقال سلاميش وهو يمانع نفسه من الاضطراب :

« سأذهب إلى دمشق كما أمر مولاي »

فسكتت الفتاة لحظة ثم مدت يديها بحرارة وقالت :

« سلاميش ! وأنا كذلك إلى دمشق أسير »

ثم ارتمت بين ذراعيه .

محمد فريد أبو حديد

نسـيبة

للاستاذ ابراهيم مصطفى
المدرس بكلية الآداب

سيدة من بني الخزرج من أهل يثرب ، ولم يكونوا إذ ذاك سموا أنصاراً ولا كان الرسول هاجر إليهم ، ولكن حديثه كان يملأ الجزيرة ودعوته تشغل العرب وقرآنه يبث بينهم ويتلى ،كما كانت الأشعار تنشد وتروى .

وكان أهل المدينة أشد عناية بهذه الدعوة وأحفى سؤالا عنها ، فهم أصهار قريش وشركاؤهم فى التجارة وحفظة طريقهم إلى الشام وبينهم اليهود أهل الكتاب ورواة المأثور ومجمع الأخبار

وجلست نسيبة فى مساء إلى زوجها وولدها يتحدثون فى أمر محمد وأنباء دعوته وما حدث من قرآنه ، وتلى تال (الر تلك آيات الكتاب الحكيم . أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ، قال الكافرون إن هذا لساحر مبين) وآيات أخرى من كتاب محمد . وعجبت نسيبة للكافرين أن ينكروا على رجل منهم أوحى إليه أن يهديهم وأن يبشرهم وينذرهم ، وتساءلت بهذا السحر المبين أين يكون ؟ وما هى إلا الدعوة الصالحة والحق الواضح والبيان الجميل . لشد ما ظلم الرسول قومه وبئسما افتروا عليه . واشتاق القوم أن يروا محمداً وأن يستمعوا إلى حديثه ويستزيدوا من قرآنه.

وما جاء ميقات الحج حتى كانت القافلة تسير من يثرب الى مكة فى نحو خمسمائة حاج أكثرهم الرجال وقل فيهم النساء ومن بينهم نسيبة . وما قد أدرك الركب مكة وتوافى إليها الحجيج من كل فج واستقرت القبائل فى منازلها والرسول يسعى إليهم يعرض عليهم دينه ويبين رسالته ويتلو قرآنه بل يعرض نفسه أيضاً ، لقد ضاق به المقام فى مكة ونبا وآذاه أهله فى نفسه وفيمن من آمن به ، وبالغوا فى الايذاء والتنكيل حتى عاد بينهم كالعانى الأسير أو أنكد . وما يبغى الرسول ؟ إنما يريد من العرب قوماً يسعونه حتى يؤدى رسالته ، ويحمونه حتى يبين حجته ، ثم يدعون من آمن لايمانه ومن كفر لكفره . وما من قبيلة رضيت هذا أو انشرحت له صدراً إلا جماعة من أهل يثرب واعدهم الرسول اذا انحدروا من منى أن يوافوه فى الشعب الأيمن بأسفل العقبة وأمرهم ألا ينبهوا نائماً ولا ينتظروا غائباً وأن يستخفوا من قريش ويحذروا عيونهم وأرصادهم ، وما وافى الموعد حتى كان بين يدى الرسول سبعون منهم . بينهم نسيبة وسيدة أخرى عاهدهم وعاهدوه أن يسعوه بينهم وأن يحموه حمايتهم لأحدهم حتى يبين حجته ويبلغ رسالته . وراحوا بعهدهم يخفون من قريش ومن الناس أن يعلموه ، وعادت نسيبة إلى بلدها سعيدة بإيمانها فخورة بعهدها ، وقدرت ما يكلفها هذا العهد نفسها على الرمى بالنبل والضرب بالسيف وأعدت لهذا الجهاد ولديها حبيباً وعبد الله .

ودار الزمن وفر الرسول من مكة وهاجر الى المدينة وتلقاه الانصار بالنشيد والترحيب ، ثم نشبت الحرب بين الرسول وبين المشركين من قريش فى يوم « بدر » ، وشهدها المهاجرون الأولون والأنصار السابقون ونسيبة منهم تسق من استسق وتضمد الجرح لمن جرح ، وتشهد غلبة الحق لأول يوم انتصر فيه . وعظم هذا اليوم على المشركين وهم الأكثرون فأعدوا عدتهم وحشدوا للرسول في « أحد » وشهدته نسيبة أيضا ومعها زوجها وولداها فى يمينها السقاء والضماد ، واستعرت الحرب وغلب المسلمون ثم نالتهم هزيمة ، فما ارتاعت نسيبة الا لجموع من المشركين تقصد إلى محمد تريد أن تحيط به وتكاد أن تبلغه والمسلمون عنه فى ناحية مثقلون بالهزيمة ، فألقت السقاء والضماد وسددت بالسهم . ورمت عن الرسول بالنبل ، حتى التحم به المشركون فشرعت السيف وجالدت القوم حتى جرحت وخارت وارتمت على الأرض مصروعة . وثبت الرسول وهزم عنه المشركون وانجلى من الغمرة ما انجلى وتساءلوا بنسيبة فاذا هى ملقاة يفور دمها من جرح غار بكتفيها . ضمدوا الجرح وسقوها الماء فما تنبهت حتى سألت : وأين الرسول ؟ وماصنع المشركون معه ؟ إنه لناج وانه منك لقريب . وجرحك الغائر ودمك السائل وقوتك الموهنة وولداك الناشئان وبعلك الشيخ - كل أولئك منك دون محمد ! ؟ أجل دون محمد ودون رسالة محمد ، لها خرجنا ومن أجلها قاتلنا ، ولها نحيا ، وفى سبيلها نموت . وبرئت نسيبة ونسيت الفخر إلا بهذا اليوم ، وبالأثر الباقى من ذلك الجرح . (روى ابن هشام عن أم سعد قالت : دخلت على نسيبة أم عمارة فقلت لها : ياخالة أخبرينى؛ فقالت : خرجت يوم أحد ومعى وعاء فيه ماء فأتهينا الى رسول الله

وهو في أصحابه، و الدولة والريح للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحزت الى رسول الله فكنت أباشر القتال وأذب عنه بالسيف وأرمى عن القوس حتى خلصت الجراح الىّ، وأرت على عاتقها جرحا أجوف له غور».

وقد أحسنت السيدة نسيبة تربية ولديها حبيب وعبد الله وملأت قلبهما إيماناً وصدرهما شجاعة وسواعدهما قوة، وعرف رسول الله فضلهما وقدرهما، وأحضرهما المشاهد وجعلهما سفراء ورسلا إلى من شاء من رجال العرب ورؤوس القبائل، أرسل عبد الله إلى اليمن مع معاذ، وأرسل حبيبا إلى مسيلمة الجبار البطاش المتنبئ كذبا في قومه بني حنيفة وهم من أكثر العرب عدداً وأغناهم وأقواهم بأساً. أتدرى ما صنع الكذاب بحبيب؟ لا يملك القلم أن يقصه عليك، وبأشق الجهد أن يرويه لك، ففي الجزء الأول من أسد الغابة في ترجمة حبيب، أن رسول الله أرسله إلى مسيلمة الكذاب الحنفي صاحب اليمامة فكان مسيلمة إذا قال تشهد أن محمدا رسول قال نعم، فاذا قال تشهد أني رسول الله قال لا أسمع، فيقطع منه عضواً، ففعل ذلك مراراً وقطعه مسيلمة عضواً عضواً، اهـ

وقبض المصطفى عليه الصلاة والسلام لأجله، وزلزل المسلمون لموته وارتدت من العرب أحياء وجموع، وكان مسيلمة أشد الخصوم لددا وأقواهم كيداً وأكثرهم مالا وعدداً، كاثر بقومه بني حنيفة واعتصم بحصونه في «اليمامة»، وصمد إليه خالد بن الوليد بجيش فيه السيدة نسيبة وولدها عبد الله، واستعصى أمر مسيلمة وكاد يهزم المسلمون، ثم تجمع نفر من المستبسلين، رموا بأنفسهم مسيلمة لا يألون إلا أن يبلغوا إليه وينالوا نفسه، وفي هذا النفر نسيبة وولدها عبد الله، أما نسيبة فجالدت بالسيف حتى بتر ذراعها، وأما عبد الله فصمد وألح في الهجوم على مسيلمة مستقتلا مستبسلا حتى أدركه وأغمده السيف. مات مسيلمة فماتت الفتنة بموته وتم أمر بني حنيفة مع ابن الوليد صلحاً؛ وعادت نسيبة إلى بلدها بساعد واحد وولد واحد، وهي بما مضى أسعد منها بما بقي. كل إلى فناء، وإنما الفوز والمجد أن يكون في سبيل الحق ذهاب ما ذهب منك

ونسي التاريخ نسيبة وأغمض العين عن بقية أيامها وضن أن يحدثنا بما نحب من ختام جهادها ومواطن مثواها. إلا أن مثواها الجنة، وإن ذكرها في الطيبات لخالد.

ابراهيم مصطفى

من مواقف العروبة

للأستاذ محمد سعيد العريان



مَن ذلك الفتى الشّجاع، يختال في العزم والقوة، والشباب والفتوة، حاسرا عن ذراعه، متقدما على صحابته، قد فرَعهم طولا، وبهرهم تماما وحسنا ...؟

قال أصحاب محمد: «ذلك قُزمان المدني، ما نعرف في أصحابه من يفوقه شهامة ورجولة؛ إنه ليعين الضعيف. وينتصر للمظلوم. ويسرع إلى الصريخ؛ لا تني به عزيمته. عن أمر يقصد إليه؛ وما تعرف المدينة في فتيانها أغيرَ منه على حماه، وأبرَّ منه لأهله...!»

قال محمد: «إنه لمن أهل النار...!»

واستمع المسلمون لرأي النبي في الفتى الذي اجتمعوا على الإعجاب به والتمدُّح بخلاله، فما راجعوه الرأي ولا ناقشوه العبارة؛ إنهم ليؤمنون بالنبي إيمانهم بكلمة الله؛ وإنهم ليعرفون محمدا أصدقَ نظراً وأنفذ بصيرة فما تخفى عليه من أصحابه خافية.

إنه ليكاد ينفذ إلى سرائرهم جميعا بعينيه الثاقبتين، فيعرف ما تجيش به نفس كل رجل منهم. وإنهم ليعيشون من هذه المدينة في جو من الحذر والتربص، بين المنافقين من أتباع عبد الله ابن أبي بن سلول، وبين اليهود من بني قريظة والنضير؛ فما يسيئون الرأي في واحد بينهم إلا حسبوه عينا وربيئة من عيون المنافقين واليهود؛ فمن يكون «قزمان» بين هؤلاء وأولئك؟ وهل يدري أحد من هو وإلى من ينتسب؟ إنه لرجل يعيش في المدينة كما يعيش أهل المدينة جميعا، ولكن أحدا منهم لا يعرف عنه أكثر مما يرى منه ...

***

وتذامر المشركون من أهل مكة على قتال محمد ، واجتمع إليهم من اجتمع من قبائل كنانة وأهل تهامة ، يطلبون الثأر لقتلى بدر . وسار جيش الشرك فى ثلاثة آلاف مقاتل ، ما منهم إلا موتور يحرص على الأخذ بالثأر ولو مات دونه ؛ وتطايرت رمال الصحراء تحت سنابك الخيل وأخفاف الابل ، نذيرا بما سيكون فى غد بين الطائفتين ؛ وسال الوادى يقذف بالزبد رجالا على الصهوات تلمع سيوفها تحت الشمس ثائرة مهتاجة ؛ وتجاوبت جنبات البادية بحداء الرجال على نواصى الخيل ورنين الدفوف بين الظعائن ؛ حتى أشرف الجيش على (أُحُد) فتلبَّثوا ينظرون ما يكون من أمرهم وأمر محمد . . .

وخرج محمد وأصحابه سبعمائة رجل إلى لقاء الجيش عند أحُد ، فما تخلَّف فى المدينة إلا الصبيان والشيوخ والنساء والعجزة . وما انخزل عنه إلا المنافقون من أتباع عبد الله بن أُبَىّ . وتخلَّف قزمانُ فيمن تخلف بالمدينة . . !

* * *

وغدا قزمان يمشى فى طرق المدينة لا يصحبه إلا ظله . أين رفاقه وصحابته ؟ لقد خرجوا جميعاً إلى لقاء العدوّ فما تخلف منهم غيره ، ففيم بقاءه ولا بقاء لمثله ؟ ولكن فيم خروجه وما يؤمن بما يؤمن به صحابته ؟ لقد خرجوا دفاعاً عن دينهم الذى يدينون الله عليه ، وذياداً عن الحق الذى يذعنون له ، بلى ، وحفاظاً على الوطن العزيز أن تطأ ثراه نعالُ الغرباء . . .

وتحدَّث قزمان إلى نفسه هُنَيَّة : « ما مُقامى هنا وأصحابى هناك ؟ وَىْ ! وماذا تكون مقالتهم عنى وليس فى المدينة غيرى وغير هؤلاء ؟ »

هؤلاء كل ماهنا لك : شيخ هِمٌّ يمشى على عصوين ، وأعمى ضرير يتوكأ على عكازته ، وطفل لَدْن يركب عصاه يستبق مع لداته ، وعجوز عرقتها الأيام جالسة وراء الباب تنتظر ما يأتى به الركبان من أخبار الحرب ، وشابة مخضوبة البنان متوارية فى الخباء وأذنها إلى الطريق تتسمَّع نبأ عن زوجها الذى خرج للجهاد ؛ وهذا الفتى وحده . . . !

وعاد قزمان يتحدث إلى نفسه : « . . . وماذا يكون من أمرى حين يعود أصحابى أو حين تأكلهم الحرب فلا يعودون ؟ بل ماذا يكون إن كانت الهزيمة وعجز الأوسُ والخزرجُ أن تدافعا عن المدينة ؟ وما مُقامى وكيف أكون إن ظفر العدوُّ واستباح الحى ووطئت نعاله ترابَ الوطن . . . ؟ يالأحساب قومى ، ويالعزة بلادى . . . ولكن . . . ! ياللعروبة ! أتغفر لى أن أقاتل فى صفوف محمد وما أنا على دينه ؟ »

وتوزَّعته الفكرتان لا تُسْلِمانه إلى رأى فيهدأ ، ثم لم يلبث أن خلع الفكرتين جميعا إلى خاطر هفَتَ له نفسه . . .

ومضى يحثّ الخطا إلى دار « سُلافة بنت طلحة » ، يلتمس فى الأنس بها ساعة من نهار هدوء البال وراحة النفس . مُنذُ كَمْ لم يجتمع قزمانُ وسلافة تُسِر إليه ويُسِر إليها ؟ إن لها فى نفسه لمكانا ؛ وإن له فى نفسه لحديثا يَسُره أن يلقاها فيحدثها به وتحدثه ؛ لقد كانت العيون بينهما حائلة ، فهاهى ذى الفرصة قد أمكنته ليجلس إليها ساعة فى غفلة العيون . . . وطرق الباب . . .

— : « من ؟ من يدق الباب ؟ » .

— : « قزمان . . . ! »

— : « وىْ . . . ! قزمان ؟ وماجاء بقزمان الساعة ؟ »

— : « سلافة . . . »

— : « حسبتكَ هناك . . . ! »

— : « أتظنين ياسلافة ؟ »

— : « بل أعتقدُ . . قزمان لا يكون هنا وقومه هناك ! »

— : « ولكنى هنا من أجلك ياسلافة ! »

— : « وقومُك . . . ؟ وأهلك . . . ؟ ودينك . . . ؟ »

— : « أنتِ قومى ، وأهلى ، ودينى . . . ! »

— : « لست منك ياقزمان إن لم تكن من أهلى وقومى ودينى ؛ لَخيرٌ لى أن أفقدك فى الجهاد وأنت أحبُّ إلى . . . ! »

— : « سلافة ! »

— : « سلافةُ لقزمانَ البطلِ المجاهد وليست لك . . . ! »

* * *

وغادر الفتى فتاته وقد اجتمع إليهم ثالث . وسار بين البيوت مطرق الرأس ، تتناوله نظرات الريبة والحدس . وسمع عجوزاً تتحدث إلى جارتها : « أما سمعت ياعاتكة ؟ »

— : « ماذا ؟ »

— : « حسيل بن جابر ، وثابت بن وقش ؛ إنهما من تعلمين : هل يقوى أحدهما أن يحمل نفسه من الهرم والضعف ؟ لقد لحقا

اليوم برسول الله يرجوان المثوبة فى الجهاد أو الشهادة ، وما عليهما والله إن بقيا فى الآطام مع النساء والصبيان ، وما منهما إلا له إخوة أو ولد فى الحرب يكفون عنه . . ! »

قالت صاحبتها : « بلى ، قد علمت يا أختاه ! فهل جاءك أن عمرو بن الجموح لم يمنعه من الحرب أنه يمشى برجل واحدة ، وأن له بنين أربعة مثل الأسد يشهدون المواقع مع رسول الله؟ »

وسمع الرجل ما تتحدث به المرأتان ، فكأنما كانتا ترجمانه بالحجر فما يستطيع أن يتماسك بما ينهال عليه . واستمر يمشى وكأنما تستعر الحرب فى رأسه لا فى الميدان البعيد

ومرت به «نسيبة بنت كعب» ، تحمل سقاء فيه ماء ، فاستوقفها يسألها عن خبرها فما أجابت نداءه ؛ لقد كانت فى طريقها إلى أحد، لتقوم بما تقدر عليه فى صفوف المجاهدين . . !

وعاد قزمان يتحدث إلى نفسه : « ويلى ! ما أنا هنا والحرب هناك ؟ وما يكون من أمرى غدا على الحالين : فى النصر والهزيمة ؟ أفراراً من الموت ؟ أنكوصا عن الواجب ؟ أكفراً بالوطن والأهل والعشيرة ؟ ألا إنه يومك يا قزمان ، فليجاهدوا هم فى سبيلهم ، وليكن جهادى معهم لأجل الوطن . . . ! »

***

وترامت السهام ، وبرقت الأسنة ، والتقت السيوف ، وابتدأت المعركة بين الجيشين وقزمانُ غير بعيد ؛ لقد أدرك الجيشَ ولما يبدأ النضال ، فما فاته أن يشهد المعركة من البداية

مَن ذلك الفتى الشعشاع ، يختال فى العزم والقوة ، والشباب والفتوة ، حاسراً عن ذراعه والسيف فى يده ، يحتز الرءوس ، ويقطع الأوداج ، ويلقى الرعب فى قلوب الأعداء ؟

إنه قزمان نفسه ؛ لقد قاتل فى ذلك اليوم قتالا شديداً ، وأبلى بلاء حسناً ، فما وضع السيف حتى أثخنته الجراحة .

والتف المسلمون حول قزمان يخففون عنه ما ناله من أذى القتال ، وما منهم إلا معجب بصبره وقوة بلائه ، فهم يقولون : « والله لقد أبليت اليوم ياقزمان فأبشر ! » قال : « بماذا أبشر ! فوالله إن قاتلت إلا عن أحساب قومى ، ولولا ذلك ماقاتلت . . . »

ونظر المسلمون بعضهم إلى بعض ثم انفضوا . . .

« إنه لمن أهل النار ! » هكذا كان يقول عنه محمد . صدق رسول الله !

ونظر قزمان إلى نفسه ، فاذا هو يتلاشى نفسا فى نفس ، وذكر صنيعه فى ذلك اليوم ، فعادت إليه الفكرتان الأوليان تصطرعان فى نفسه ، لا تسلمانه إلى رأى فيهدأ . أى الخطتين كانت أهدى سبيلا : أن يدع هذا الدين تمزقه أعداؤه وتمزق معه أهله وعشيرته شرَّ مُمزَّق ، أو يقاتلَ فى صفوف قومه دفاعاً عن أحسابهم ؟

أما إنه لا سبيل إلى مافات . لقد أدى واجبه لوطنه ، ولكن ... ولكنه غير مستريح إلى ما كان منه ...

ونَزَتْ به نازية ، فلم يجد لنفسه خلاصا من عذاب الفكر إلا بالموت ، فاتكأ على سيفه فأزهق نفسه ... !

يالله ! لقد نفذت إلى نفسه بارقة من شعاع هدَته سبيلَ الوطنية ، ولكن قلبه ظل فى ظلمات من الضلال والشرك .

لو عرف ذلك الدينَ الذى جاهد له يومه الأخير ، لأشرقت له الدنيا كلها ، وانبثق الصبح فى قلبه ، ولمات يوم مات تشيعه الملائكة وتهزج له أناشيد الخلود !

ليته عرف ! ولكن ، حسبه أنه كان مثالا فى الوطنية . ليت كثيراً يعرفونه . . . !

(شبرا) محمد سعيد العريان

بين حراء . . . وعرفات

للأستاذ عبد المنعم خلاف

وقف الرجل الذى تلخص فيه مجد الانسان وتحقق به وشاع منه على عرفات فى حجة الوداع ،وقد احتشدت حوله فى ذلك الرحب الصامت الرهيب الذى فيه أول بيت وضع للناس ، الأزمانُ والدهور وأرواح الملأ الأعلى والرسل والحكماء وأعضاد الانسانية وحاملى المشاعل على طريقها ، وأفواج الخلائق من عالم الذر والبرزخ ، وأجسادُ أولئك المتجردين من لبس المحيط والمخيط من صحابته المخبتين . . ومن فوق الحشد الخفيّ والمستعلن ينظر وجه الله ذو الجلال إلى عبده ورسوله وهو يلقى الكلمة الخاتمة للبلاغ الأخير بالآيات المنزّلة من حول العرش : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » . . . ويعلن حقوق الإنسان وواجباته ويسأل الجموع المحشودة : هل بلغتُ ؟ فتردد البطاح والأودية والشعاب التى كان يأوى إليها فى طلب الهدى ثم فى التخفى بالدعوة ثم فى الجهاد لها ـ الجوابَ الاجماعى فى اقرار وشكران

وما بدٌ من أن الكلمة الأولى : « إقرأ باسم ربك ... » التى طالعه بها الوحى فى « حراء » كانت تتردد على سمعه فى تلك البرهة الخالدة ، فتتوالى أمام مخيلته عزائم جهاده فى الأرض التى كان كل قدس فيها رجسا ، وكل برّة فَجرة ، وكل امرىء آثما فى عقيدة القلب ، خرِفاً فى رأى العقل ، ضارياً فى معاملة الخَلق ، طفلا فى طقوس العبادة ... أيام أن كان يتخفى بالغار فى حيرة وانفراد ورهبة وصمت وشك وفراغ ، وأعصاب مرهفة ، وقلب مفجوع بالضلالات المعقدة ، وعقل عظيم ، ولكنه أمى ينظر إلى كون مبهم مختلط نظرا لا يقع إلا على قمم الجبال وصفرة الرمال وأمم تحنو على أصنام من الأناسى والأحجار والأخشاب ، ومواكب من النجوم تبدأ كل يوم من الشرق وتروح إلى الغرب فى قهر وصمت وطواعية ووجوم ... وهو ذا الآنَ على عرفات فى استعلان ومعرفة وحشد وطمأنينة وضجة ويقين وامتلاء فى العقل من عالم الشهادة ، وفى الروح من عالم الغيب، وفى البدمن أجساد العباد الذين لم يؤمنوا به حتى أحبوه أكثر من نفوسهم التى بين جنوبهم ، فهم فى يده يقذف بهم على كل أفق وتحت كل كوكب ليكونوا امتدادا منه وظلا من دعوته . . وقد امتلأ قلبه بالأمل الواثق بان الله متمٌ نوره ومعلٍ كلمته . وقد شبع عقله من جوع إلى المعرفة واتصلت به شرارة الوحى ، وانتهت إليه ينابيعه فأضاء وصفا وعمُق ، ففيه لبنى الإنسان الهدى والحلى والطهر .

وقد تعوّض نظره من رءوس الجبال التى حول حراء ، برءوس خاضعة من النساء والرجال الذين رباهم ثلاثا وعشرين حجة فى كل يوم بآية من الكتاب أو جملة من بيانه أو فعلة من سلوكه أو إيماءة أو صمت . . حتى صُقلوا وصاروا أناسا كالنجوم المصابيح .

***

بين الكلمة الأولى الآمرة المغرية المثيرة لعقله وروحه بقصة خلق الإنسان ذلك الكون العجيب من علَق ، وقصة القلم ذلك الشيء العجيب الذى يجعل الدنيا كلمات بين البنان واللسان : « اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علَق . اقرأ وربك الأكرمُ الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم » وبين الكلمة الأخيرة المخبرة الهادئة الممتنة بكمال الدين واختيار الطريق : « اليوم أكملت لكم دينكم . . . » . . . . دار الفلك ثلاثا وعشرين دورة على محور من ذلك الرجل الذى كان عقله مرآة لما يدور فى السماء حول صلاح عمّار الأرض . وها هو ذا يقف معلنا « أن الزمن قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » وأن حركة بدء واستهلال وولادة ثانية للإنسانية تتمخض عنها الأيام الوالدات ...

وإنها لكلمة ثقيلة التبعات لأنها حديث عن ابتداء الزمن واستدارته كهيئته فى اليوم الأول ! ومنذا الذى يجرؤ على الحديث بها إلا أن يكون نبيا ؟

إذاً هو الأب الثانى للبشر وُلدت منه الإنسانيةُ ولادة روحية وعقلية كما ولدت من آدم بالجسد . ألم يستدر الزمان معه كما بدىء مع آدم ؟ ألم تبلغ البشرية به رشدها وتترك طفولتها وسفهها ووقوفها عند المجسَّمات من الارباب والمعجزات ؟ ألم

يسلبها مفاتيحَ الطبيعة ويُهِبْ بها إلى الفكر فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ، وكيف بدأ الخلق ؟ ألم يرفع الحجب والشفاعات بينها وبين ربها الأقرب إليها من حبل الوريد ؟ ألم يمح الفوارق بين أجناسها وألوانها وأوطانها كما يمحو الأب الحانى الفوارق بين بنيه من الجسد والروح ؟ ألم ينهها أن تقفو ماليس لها علم وأن تتبع الظن الذى لا يغنى من الحق شيئاً ؟ ألم يدعها إلى أن تؤمن بجميع الرسل والأنبياء وبما أنزل الله من كتاب ؟ ألم يعلن حقوقها وواجباتها وأخوتها ومساواتها والعدلَ بينها ؟ ، لأن ربها واحد وأباها واحد ، ألم يترك لها ميراثاً خالداً منظماً مستوعباً شؤونها وحياتها فى البيت والجماعة والحرب والسلم والعاجلة والآجلة ؟ ولم يترك موقفه الأخير منها وهى أمامه فى عرفات ممثلة فى الحبشى بلال الأسود والرومى صهيب الأصفر والفارسى سلمان الأبيض والعربى فى العدد الأكثر إلا وقد أخذ منها قراراً بإبلاغه الأمانة وأدائه الرسالة وأشهد الله على ذلك . ولو سكتوا لنطق الحصى الذى كان يرجم به فى بدء الدعوة وحطام الأصنام التى هشمها بيمينه فى يوم الفتح . .

أيها الرسول المنقذ ! كلمة إقرار بالبلاغ يرسلها القرن الرابع عشر فى فجر عام جديد لتلحق بإقرار صحابتك فى فجر القرن الأول ويوشك الزمن أن يأخذ هذا الاعتراف من أفواه أهل الأرض جميعاً بعد أن ابتدأوا يعرفونك وينصفونك .

لقد بلغتَ كتاب الدنيا ورسالة كل شىء ، إلى القلوب السليمة الكبيرة فجعلت من كل شىء محراباً تقف فيه لعبادة الله ذى المجد ، وحب الحق والخير والجمال . .

ولا يزال صوتك يدوى فى الآفاق مخترقاً أربعة عشر قرناً بسرعة الشمس والضوء ، ولن يزال كذلك يعلن الكلمة التى أضاءت لها الظلمات وقام عليها صلاح العالم .

***

الحقوق والواجبات التى خصصت حياتك لتقريرها وأعلنتها فى الخطبة الجامعة على الحشد الذى لم تلقه بعد كما توقعت . . صارت أبجدية الإنسانية ومزمور أمانيها ، حملها العباد الذين كلفتهم حملها ممن شهدوا مقامك وسمعوا بلاغك أو سمعوا به . . حملوها أنهاراً تجرى من الصحراء أرض الجفاف إلى الوديان والسهول المخصبة بالنبات ، الكرّة المجدبة من فضيلة الإنسان . فامرعت بالخير والحق والجمال والسلام

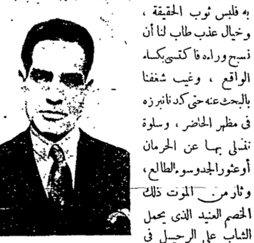
وقد ثارت البشرية لهذه الحقوق بعدك ثورات عدة كلما بدأت رءوس الأصنام البشرية أو الحجرية تتحرك بعد أن قمتَها وحطمتها ببرهانك وفيصلك . . فالثورة الانجليزية لإقرار الشورى ، والثورة الفرنسية لإعلان حقوق الانسان . . إنما هما صدى يحكى فى خفوت وضآلة وبطء وتخلف ، ثورتك الكبرى على الأرباب الزائفين والطواغيت وعناصر الدمار والفساد التى تأكل الانسانية وديعة الله فى الأرض وتصرفها عن وجه الله ذى الجلال ومقام الحق ونصاب العدل

وشتان ماببنها وبينهما ! إنها ثورة رجل يهتف فى بوق النبوة له قلب فيه مددٌ من هدى الوحى ، وسلام من رحمة الروح ، وله يد بريئة من الإثم والجبروت تضرب أحياناً بمبضع الطبيب لإذهاب الألم لا لإحداثه . وكلاهما وبخاصة الفرنسية ثورة دامية قاسية عمياء ضارية ، قامت بها أيد أرضية حيوانية فيها أظافر ومخالب . . تدفعها قلوب فيها أطماع وغل وحقد مؤرث . ومن عماها أكلت الحطب والأيدى التى كانت تقدمه ، ولطخت وجه الحرية بمآثم وشناعات لاتزال تغض منها وتثير حول ذكراها سخطاً واشمئزازاً ، والتاريخ ميزان .

(بغداد) **عبد المنعم خلاف**

الخـــلود

للدكتور إبراهيم بيومى مدكور



أمل حلو زاد التعلق به فلبس ثوب الحقيقة ، وخيال عذب طاب لنا أن نسبح وراءه فاكتسى بكساء الواقع ، وغيب شغفنا بالبحث عنه حتى كدنا نبرزه فى مظهر الحاضر ، وسلوة نتسلى بها عن الحرمان أو عثور الجد وسوء الطالع ، وثار من الموت ذلك الخصم العنيد الذى يحمل الشاب على الرحيل فى عنفوان شبابه ، ويرغم الشيخ على السير وان تباطأ به ركابه . فهو إذن عون على الحياة وامتداد لها : عون على ما فيها من بؤس وشقاء وآلام وويلات ، وكثيرا ما نستطيب شدة اليوم فى سبيل فرج الغد ؛ ووصلة لأجل وإن طال قصير ، وعمر وإن بلغ أرذله عزيز ، وعيش وإن ساء مرغوب فيه . وربما كان حب الحياة أول ملهم بتجددها ، وكانت غريزة الاحتفاظ بها أول دافع للقول باستئنافها . وقد صور الانسان هذا الاستئناف وذلك التجدد بصور شتى وأشكال متباينة هى فى جملتها صدى لرغباته ونزعاته وميوله وأهوائه ، أو انعكاس لعالمه الحاضر والحياة التى يحياها . فتصور الهمجيون الذين يعيشون عيشة السلب والنهب والقتل وسفك الدماء الخلود على أنه عودة للانسان فى شكل مارد جبار شيطان رجيم يثأر لنفسه ممن عدا عليه . وظنه بعض المتحضرين ضربا من اليقظة يرفل فيه المرء فى حلل السعادة وآيات النعيم ، ولهذا أعدوا فى القبور وسائل الزينه والزخرف ولذيذ الطعام والشراب . ثم جاءت التعاليم السماوية فصورته فى صورة أسمى ، وكسته بكساء أفخم ، وأغدقت على الحياة المقبلة متنوع الأوصاف بين مادية وروحية وحسية وعقلية كى تقنع العامة والدهماء وترضى المفكرين والعقلاء .

كم كنا نود أن يبقى للخلود حلاوة الأمل فنسير وراءه سيرا أعمى ، وعذوبة الخيال فنتعلق به فى شوق وحرارة راغبين مخلصين ، وحرمة الدين فنؤمن به إيمانا جازما لا يساوره شك أو ارتياب ولا يعوزه برهنة أو استدلال . ولكن العقل الذى منحنا إياه وبلينا به فى آن واحد يأبى إلا أن يعكر علينا بعض الصفو ويحرمنا من أحلام لذيذة . فيفلسف ما لا صلة له بالفلسفه ، ويبحث ويعلل فيما يسمو عن البحث والتعليل ، ويقيس ويستنبط فيما لا يخضع لمبادىء القياس والاستنباط . وقد سرت عدواه إلى موضوع الخلود منذ عهد بعيد ، فأخذ يتفهم سره وغايته ويبرهن على أمكانه أو ضرورته . وليس ثمت فلسفة إلا قالت فى الخلود كلمتها بالايجاب أو السلب ، بالقبول أو الرفض ، وأى فيلسوف لم يتساءل من أين جئنا وإلى أين نذهب ولم يبحث عن المصدر والمرد والمبدأ والمعاد ؟

فاليونانيون وإن كانوا قد شغلوا بالكون وتغيراته والحياة الحاضرة وقوانينها لم يفتهم أن يدلوا فى هذا الموضوع الخطير بآرائهم . ورجال القرون الوسطى كان لابد لهم أن يبدئوا فيه ويعيدوا ويعترضوا ويجيبوا ، فهو من فلسفتهم الدينية فى صميمها ونقطة هامة من نقط التوفيق بين العقل والنقل التى ملكت عليهم أذهانهم . وفى التاريخ الحديث نرى الروحيين والماديين بين مثبتين للخلود ومنكرين . وإذا شئنا أن نمثل لكل عصر من هذه العصور برجل فهناك شخصيات ثلاث لا يكاد يذكر موضوع الخلود إلا ذكرت ، ولا نظن أن آخرين سواها تمثل عصرها فى هذا الباب تمثيلها ، ونعنى بها أفلاطون ، وابن سينا ، وكانت .

فأما أفلاطون فهو من غير شك أكثر فلاسفة اليونان اشتغالا بالخلود وأول من حاول أن يبرهن عليه برهنة عقلية منطقية . تحدث عنه عرضا فى غير ما موضع . ثم لم يقنع بهذا فوقف عليه محاورة مستقلة مشهورة هى « فيدون » . وفيها يجرى ذلك الحديث العذب الأخاذ على لسان أستاذه سقراط ومن حوله من الأتباع والتلاميذ . وأفلاطون روائى ماهر وقصصى مبدع يعرف كيف يضع روايته ويرتب قصته ويتخير أبطاله ويرسمهم بريشة المصور الفنان . فهو يدع « سقراط » المتهم البرىء الذى

يرقب الأعدام بين عشية أو ضحاها ، والحى الذى يسعى إلى الموت فى خطى حثيثة رزينة راغباً لا راهباً ومختاراً أو شبه مختار ، يتحدث عن خلود الروح فى آخر يوم من أيام حياته فما أجل الحدث وما أنسب الظرف وما أروع الحديث ! ولسقراط سنة معهودة فى حواره من استيلاء على نفوس محاوريه وإرشاد إلى سبل القول وهداية إلى مواطن الضعف وافتنان فى وسائل الاثبات . وتكاد ترجع برهنته على الخلود إلى نقط ثلاث : برهان التضاد وبرهان المشابهة ثم برهان المشاركة . فنحن نلاحظ أولا أن الشيء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده ، وأن الأكبر يتولد عن الاصغر والأحسن عن الأسوأ ؛ فهناك تبادل دائم بين الأضداد . وما دام الموت والحياة ضدين فهما متعاقبان . وقديما قالت الأرفيه والفيناغورية بالتناسخ وتداول الأجيال البشرية ! وبهذا يخرج الحى من الميت كما يخرج الميت من الحى ، وتبقى النفس رحالة منتقلة من جسد إلى جسد دون أن يطرأ عليها عدم أو فناء . ونسلم ثانيا مع أفلاطون أن النفس تدرك المثل والحقائق العامة الأزلية الباقية ! والشبيه وحده هو الذى يدرك الشبيه . فلا بد أن يكون للنفس ما للمثل من ثبوت وبقاء . وأخيراً النفس مشاركة للحياة بذاتها ومنافية للموت بطبعها، فهى بحسب مدلولها وحقيقتها حياة . ولا يمكن أن يجتمع فى ماهية واحدة ضدان ! فالنفس حياة فقط ولا تقبل الموت بحال ، وأنى لأتساءل بعد كل هذا هل وفق أفلاطون فى برهنته ؟ إذا اختبرنا أدلته لم نتردد فى أن نجيب بالسلب ، فان فكرة صدور الصد عن ضده مرفوضة من أساسها ، ونظرية التناسخ واضح بطلانها . ولا نظن أن أحدا يسلم اليوم مع الأغريق أن الانسان لا يدرك إلا ما يشابهه . فإنا لو قبلنا هذا لوقفنا بالمعلومات الانسانية عند دائرة ضيقة ، ولم يبق بين علماء الحياة من يقول بذلك المذهب النفسى القديم الذى كان يعد النفس فى آن واحد مصدر الحياة والحركة والاحساس والتفكير . على أن أفلاطون نفسه كان على بينة من حرج موقفه وخطورة مهمته وضعف حجته ، فأنه يصرح على لسان سمياس أن العلم بحقيقة الخلود ممتنع أو جد عسير فى هذه الحياة . وجدير ببحث كهذا أن يوضع فى قالب القصة وكفى ، لا أن يصاغ بصيغة الأقيسة والبراهين

وسواء أوفق أفلاطون فى برهنته أم لا فانه قد سن سنة استمسك بها من جاء بعده ، أو نهج نهجا حبب إلى الخلف السير فيه . فأنزل الخلود من السماء إلى الأرض ، وأحل فيه منطق العقول محل همس الضمائر والقلوب . وكان من أكبر فلاسفة القرون الوسطى تأثرا به فى هذا الصدد ابن سينا الذى قد يردد بعض أدلته أحيانا أو يؤيدها ويدعمها أحيانا أخرى ، لاسيما وقد توفر لديه مالم يتوفر لدى أستاذه ! فقد وقف على الوحى الألهى الذى صير الخلود عقيدة بعد أن كان مجرد أمل ورجاء ، وسمع لغة القرآن الصريحة فى الحشر والنشر والبعث والقيامة ، فرأى لزاما عليه أن يربط هذه التعاليم الدينية بالبراهين الفلسفية ، وفى خيال حلو هو أشبه ما يكون بخيال أفلاطون يقص علينا قصة هبوط الروح من عالمها العلوى ومقامها فى هذا العالم الفانى ثم عودتها إلى بحر اللانهاية حيث الأبدية والخلود

هبطت إليك من المحل الأرفع ... ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة ناظر ... وهى التى سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك وربما ... كرهت فراقك وهى ذات توجع

* * *

ان كان أهبطها الاله لحكمة ... طويت عن الفذ اللبيب الأروع
فهبوطها لا شك ضربة لازب ... لتكون سامعة لما لم تسمع
وتعود عالمة بكل خفية ... فى العالمين فخرقها لم يرقع

ولا يقف ابن سينا عند هذا الشعر وهذا الخيال ، بل يأبى إلا أن يبرهن على خلود الروح برهنة منطقية ويثبته اثباتاً فلسفياً ، فيقرر أن النفس وهى جوهر بسيط لا يمكن أن تشتمل على مبدأين متناقضين ، وقد ثبت أنها حياة بفطرتها وطبيعتها فلا يمكن أن يكون فيها أى استعداد للفناء . وفوق هذا سواء لديها أبقى الجسم أم فنى ، فان صلتها به ليست صلة ارتباط وتلازم متبادل ، بل صلة سيد ومسود ومالك ومملوك . ولن يضير السيد فى شيء ما قد يلحق عبده من التغير ، كما لا يؤثر فى شخص المالك ما قد يطرأ على ملكيته من الفساد . فالنفس هى المتصرفة فى البدن والمدبرة لأمره ، ولن ينقلب الآمر ماموراً ولا المتأثر مؤثراً .

بيد أن حظ ابن سينا فى هذه البرهنة الفلسفية والأدلة العقلية ليس أعظم من حظ أفلاطون . فان الجوهر البسيط الذى يفترضه هو موضع البحث والمنافسة ومثار الأخذ والرد ، وصلته بالجسم لا تزال حتى اليوم عقدة العقد ومشكلة المشاكل ؛ ولم يتوصل أنصار المذهب الروحي على اختلافهم إلى حلها أو الفصل فيها بقول جازم

ولقد تنبه (كانت) الى هذا التهافت فى البرهنة والقصور فى الاثبات . فرفض فى كتابه « نقد العقل المجرد » الأدلة التى تساق لاثبات خلود الروح وأبان أنها غير موصلة . وما كان للعقل أن يهتدى الى شيء يقينى فى دائرة الأمور المغيبة ؛ وفى هذا مايسمح للنقل أن يحتفظ لنفسه بمكان فى جانبه ، وما يهيء للوحى والالهام الفرصة أن يكملا نقص البحث والنظر . خصوصا والتبعة الأخلاقية لاقيام لها بدون الثواب والعقاب والحساب والمسئوليه ، والواجب فى حاجة ماسة الى تأييد الدين ونصرته . لهذا نرى (كانت) يعود فى كتابه « نقد العقل العملى » فيحاول إثبات خلود الروح عن طريق الأخلاق بعد أن أظهر أنه لا يمكن اثباته فيما وراء الطبيعة . وذلك أن الخير الاسمى الذى ننشده والسعادة الحقة التى نسعى اليها لا سبيل الى تحقيقهما فى حياتنا الحاضرة القصيرة . فأن شئنا أن يكون للواجب الذي ننادى به قيمته وللأخلاق التى ندعو اليها جلالها وحرمتها فلا بد أن نجزم بخلود الروح . ولا سيما والعدالة تأبى كل الأباء أن يكون جزاء الفضيلة هو الاعدام ، وأن يستوى البر والفاجر فى مصير واحد وفناء لا رجعة بعده . وكأنى بكانت يردد ، هو كذلك ، فكرة تنبه لها أفلاطون ويوضح معنى أشار اليه من قبل شيخ الأكاديمى فى جمهوريته ؟ غير أن هذا البرهان الأخلاقى ليس أكثر إقناعا من سابقيه ؛ وكل ما يمتاز به أنه أقرب الى فكرة الخلود وأكثر تلازما مع طبيعتها وأميل الى جانب القلب والعاطفة من تلك الأدلة العقلية الصرفة . وما أشبهه بالغرض منه بالبرهان والمبدأ يسلم به احتراما وتقديسا لمبادىء أخرى .

والحق أن الخلود ليس مما يبرهن عليه برهنة عقلية منطقية . وماكان أغنى الفلسفة أن تغامر بنفسها فى هذا المضمار وأن تتزلج فى هذا المأزق الحرج . فى مقدورنا أن نقول إنه ممكن أو محتمل أو ضرورى ، ولكن لاسبيل لنا بحال أن نقرر اعتمادا على عقولنا وحدها أنه أمر واقعى . وأنى لنا ذلك ومن وصلوا الى مرتبة الخلود يأبون أن يعودوا الى حياة قاسوا فيها الأمرين ، ولاقوا ما لاقوا من جهد وعناء ؟ ولم يصل استحضار الأرواح بعد الى درجة اليقين وليس فى وسائله ما يبعث على الثقة والطمأنينة . واذا كان العقل عاجزا عن إدعام الخلود وإثباته فهو أعجز عن دحضه وإنكاره . وخطأ أن يزعم أنصار المذهب المادى أن تجربتهم لا تسلم بحياة بعد هذه الحياة . وأن بحثهم يرفض أى وجود بعد هذا الوجود . فأن للتجربة ميدانا لا تتجاوزه ، وللبحث العلمى دائرة لا يتعداها ؛ ومن العبث أن نتكلم باسم العلم فى دائرة تسمو على العلم ، وأن نفسر عالم الغيب الفسيح بقوانين عالم الشهادة المحدود . ولن يضير الخلود فى شيء أن تعجز عقولنا الضعيفة عن الانتصار له فانه يستمد جلاله ورهبته من مصدر أسمى ومقام أرفع ولن يعيبه مطلقا أن تقصر لغة أهل الارض فى بيانه فانه من خصائص سكان السماء ووقف عليهم . هو أمر خارج عن عالم الفناء وحقيقة مخالفة لما ألفه المحدثون ، وما كان لفان أن يدرك ادراكا واضحا ما يتنافى وطبيعته الا أن عرج الى سماء الخالدين

ابراهيم مدكور



نتاج العبقرية المنسية

فى الحسن بن الهيثم

للأستاذ قدرى حافظ طوقان

يفكر الدكتور النابغ الأستاذ مشرفة عميد كلية العلوم للجامعة المصرية فى إقامة مهرجان لأحياء ذكرى ابن الهيثم فى العام المقبل بمناسبة مرور ٩٠٠ عام على وفاته

ولا عجب إذا فكر العميد فى هذا ، فابن الهيثم من عباقرة العرب الذين نبغوا فى الطبيعة والرياضيات والهندسة وقدموا اجليل الخدمات لها ، ولولاه ما كان علم البصريات (الضوء) على ماهو عليه الآن

ويؤلمنى أن اقول إنه لو كان ابن الهيثم من أبناء أمة أوربية لرأيت كيف يكون التقدير وكيف يذاع اسمه وتنشر سيرته على الناس وتدخل فى برامج التعليم ليأخذ منها الأجيال إلهاماً وحافزاً يدفعهم إلى الاقتداء به والسير على طريقته

أليس فى عدم معرفة ناشئتنا وشبابنا شيئاً عن ابن الهيثم أجحاف وعيب فاضح ؟ أليس إهمالا منا أن نعرف عن بطليموس وكيلر وباكون أكثر مما نعرف عن ابن الهيثم ؟

ألا يدل هذا على نقص معيب فى برامجنا الثقافية القومية ؟ ولا يظن القارىء أن ابن الهيثم وحيد فى هذا الاجحاف والإهمال فليس حظ أكثر علماء العرب ونوابغهم وعباقرتهم بأحسن من حظه ، فها هي ذى حياتهم ومآثرهم لا تزال محاطة بغيوم الغموض وعدم الاعتناء وهي فى أشد الحاجة إلى أناس يتعهدون إزالة الغيوم وإظهار المآثر على حقيقتها للناس . ولا شك أن فى إظهارها انصافاً لهم وخدمة للحقيقة ، كما أن فى عرضها على الناشئة من العوامل التى توجد فيهم الاعتزاز بالقومية والاعتقاد بالقابلية ، وشعوراً يدفعهم إلى السير على نهج الأجداد فى رفع مستوى المدنية . ولا يخفى ما فى هذا كله من قوى تدفع الأمة إلى حيث المجد والسؤدد ، قوى تمهد السبل لتقوم (الأمة) بواجبها نحو نفسها ونحو الانسانية فتساهم فى بناء الحضارة وإعلاء شأنها

والآن نرجع إلى ابن الهيثم فنقول إنه ظهر فى أوائل القرن الخامس للهجرة فى البصرة ونزل مصر واستوطنها إلى أن مات سنة ١٠٣٨ م . وقد عرف الاقدمون فضله وقدروا نبوغه وعلمه فقال ابن أبى أصيبعة : « وكان ابن الهيثم فاضل النفس قوى الذكاء متفننا فى العلوم لم يماثله أحد من أهل زمانه فى العلم الرياضى ولا يقرب منه ، وكان دائم الاشتغال كثير التصنيف وافر التزهد ... » وقال ابن القفطى : « إنه صاحب تصانيف وتآليف فى الهندسة ، كان عالماً بهذا الشأن متقناً له متفننا فيه ، قيما بغوامضه ومعانيه ، مشاركا فى علوم الأوائل أخذ عنه الناس واستفادوا . . »

وكذلك عرف الافرنج قيمة ابن الهيثم فأنصفوه بعض الانصاف واعترفوا بتفوقه وخصب قريحته فنجد دائرة المعارف البريطانية تقول : « إن ابن الهيثم كان أول مكتشف ظهر بعد بطليموس فى علم البصريات ... »

وجاء فى كتاب تراث الاسلام : « إن علم البصريات وصل إلى أعلى درجة من التقدم بفضل ابن الهيثم ، واعترف العالم الفرنسى لوتيرفياردو بأن كيلر أخذ معلوماته فى الضوء ولا سيما ما يتعلق بانكسار الضوء فى الجو من كتب ابن الهيثم . ويقول سارطون : إن ابن الهيثم أعظم عالم ظهر عند العرب فى علم الطبيعة بل أعظم علماء الطبيعة فى القرون الوسطى ومن علماء البصريات القليلين المشهورين فى العالم كله ... » .

ولعل الأستاذ (مصطفى نظيف) أول عربي فى هذا العصر أنصف ابن الهيثم بعض الانصاف ووقف على التراث الضخم الذى خلفه فى الطبيعة ولا سيما فيما يتعلق ببحوث الضوء . قال الأستاذ نظيف فى مقدمة كتابه النفيس الفريد (البصريات) ما يلى : . . « والذى جعلنى أبدأ بعلم الضوء دون فروع علم الطبيعة الأخرى أن علماً ازدهر فى عصر التمدن الاسلامى وكان من أعظم مؤسسيه شأناً ورفعة وأثراً الحسن بن الهيثم الذى كانت مؤلفاته ومباحثه المرجع المعتمد عند أهل أوروبا حتى القرن السادس عشر ... » فلقد بقيت كتبه منهلاً عاماً نهل منه أكثر علماء القرون الوسطى كروجر باكن وكبلر وليو ناردو فنسى وبوتيلو وغيرهم . وكتبه هذه وما تحويه من بحوث مبتكرة فى الضوء هي التي جعلت ماكسى ومايرهوف يقول صراحة : « إن عظمة الابتكار الاسلامى تتجلى فى علم البصريات ... »

ومن أهم كتب ابن الهيثم وأكثرها استيفاء لبحوث الضوء كتاب « المناظر » ويتبين من هذا الكتاب أن ابن الهيثم هو

الذى أضاف قانون الانعكاس القائل بأن زاويتى السقوط والانعكاس واقعتان فى مستوى واحد . وقد أدخل فيه أيضا مسائل مهمة عرفت « بمسائل ابن الهيثم » اشتهر بعضها كثيراً كالمسألة الآتية : إذا علم موضع نقطة مضيئة ووضع العين ، فكيف تجد على المرايا الكرية والاسطوانية والمخروطية النقطة التى تتجمع فيها الأشعة بعد انعكاسها . ويعود سبب شهرة هذه المسألة إلى صعوبات هندسية تظهر فى أثناء الحل إذ ينشأ عن ذلك معادلة من الدرجة الرابعة استطاع أن يحلها (ابن الهيثم) باستعمال القطع الزائد . وأجرى تجارب عديدة تبين له منها أن الضوء ينتشر فى خطوط مستقيمة أثناء سيره فى الهواء أو فى وسط آخر ، وأن الضوء إذا سار من وسط إلى وسط آخر انعطف عن استقامته . وقاس كلا من زاويتى السقوط والانكسار وبين أن بطليموس كان مخطئاً فى نظريته القائلة بأن النسبة بين زاويتى السقوط والانكسار ثابتة ، وقال بأن هذه النسبة لاتكون ثابتة بل تتغير ولكنه على الرغم من ذلك لم يوفق إلى إيجاد القانون الحقيقى للانكسار . واستعمل آلة لايجاد العلاقة بين زاوية السقوط وزاوية الانكسار وهى تشبه الآلة التى نستعملها الآن . وعمل جداول أدق من جداول بطليموس فى معاملات الانكسار لبعض المواد . وأتى على تجارب عديدة اثبت فيها انعطاف الأشعة عندسيرها من وسط شفاف إلى وسط آخر شفاف . وقد شرح فى بعض كتبه الظواهر الجوية التى تنشأ عن الانكسار فكان أسبق العلماء إلى ذلك . ومن هذه الظواهر التى ذكرها وشرحها الانكسار الفلكى أى أن الضوء الذى يصل إلينا من الاجرام السماوية يعانى انكساراً باختراقه الطبقة الهوائية المحيطة بالأرض ، ومن ذلك ينتج انحراف فى الاشعة ، ولا يخفى ما لهذا من شأن فى الرصد . فمثلا يظهر النجم على الأفق قبل أن يكون قد بلغه فعلا ، وكذلك نرى الشمس أو القمر على الأفق عند الشروق والغروب وهما فى الحقيقة يكونان تحته . ومن نتائج الانكسار ان قرص الشمس أو قرص القمر لا يظهر بالقرب من الأفق مستديراً بل بيضوياً . هذه الظواهر وغيرها استطاع ابن الهيثم تعليلها تعليلا صحيحاً واستطاع أيضاً الوقوف على أسبابها الحقيقية . ومن الحوادث الجوية التى عللها الهالة التى ترى حول الشمس أو القمر . وقال بان ذلك ينتج عن الانكسار حينما يكون فى الهواء بلورات صغيرة من الثلج أو الجليد فالنور الذى يعرفها ينكسر وينحرف مع زاوية معلومة . وحينئذ يصل النور الى عين الرأى كأنه صادر من نقط حول القمر أو الشمس فتظهر الأشعة دائرة حول الجرمين المذكورين أو حول أحدهما . وهو من الذين لم يأخذوا برأى اقليدس واتباع بطليموس القائل بأن شعاع النور يخرج من العين الى الجسم المرئى ، بل قال بان شعاع النور يأتى من الجسم المرئى الى العين . وبحث فى كتابه أيضاً فى قوى تكبير العدسات ؛ ويرى كثيرون ان ما كتبه فى هذا الصدد قد مهد السبيل لاستعمال العدسات فى اصلاح عيوب العين . وكتب فى الزيغ الكرى وفى تعليل الشفق وقال انه يظهر ويختفى عند ما تهبط الشمس ١٩ درجة تحت الأفق ، وأن بعض أشعة النور الصادرة من الشمس تنعكس عما فى الهواء من ذرات عائمة وترتد الينا فنرى بها ما انعكست عنه . وبين ان الزيادة الظاهرة فى قطرى الشمس والقمر حينما يكونان قريبين من الأفق وهمية ؛ وقد علل هذا الوهم تعليلا علمياً صحيحاً لم ينبق اليه ، بناء على أن الانسان يحكم على كبر الجسم أو صغره بشيئين : الأول الزاوية التى يبصر منها أو زاوية الرؤية ، والثانى قرب الجسم أو بعده من العين . وابن الهيثم أول من كتب عن أقسام العين وأول من رسمها بوضوح تام . وقد اعتمد فى بحوثه هذه على كتب التشريح التى كانت فى زمانه ، ووضع أسماء لبعض أقسام العين وأخذها عنه الأفرنج وترجموها إلى لغاتهم . وتقول دائرة المعارف البريطانية إن ابن الهيثم كتب فى تشريح العين وفى وظيفة كل قسم منها . وقد بين كيف ننظر إلى الأشياء بالعينين فى آن واحد . وأن الأشعة من النور تسير من الجسم المرئى إلى العينين ، ومن ذلك تقع صورتان على الشبكية فى محلين متماثلين . ولعل هذا الرأى هو أساس آلة الاستريسكوب

وفوق ذلك هو أول من بين أن الصور التى تنشأ من وقوع صورة المرئى على شبكية العين تتكون بنفس الطريقة التى تتكون بها صورة جسم مرئى تمر أشعته الضوئية من ثقب فى محل مظلم ، ثم تقع على سطح يقابل الثقب الذى دخل منه النور ، والسطح يقابله فى العين الشبكية الشديدة الاحساس بالضوء . فاذا ماوقع الضوء حدث تأثير انتقل إلى المخ ، ومن ذلك تتكون صورة المرئى فى الدماغ . وله أيضا معرفة بخاصيات العدسات اللامة والمفرقة والمرايا فى تكوين الصور ؛ وكتب فى المرايا المحرقة وأجاد فى ذلك إجادة دلت على إحاطته الكلية بمبدأ تجمع الأشعة التى تسقط

على السطح موازية للمحور بعد انعكاسها عنه وكذلك بمبدأ تكبير الصور وانقلابها وتكوين الحلقات والألوان .

ويظن البعض أن ابن الهيثم لم يشتغل في الرياضيات ، مع أن الواقع خلاف ذلك فله فيها بحوث تدل على سعة اطلاعه ونضجه العلمي ، فلقد بحث في المعادلات التكعيبية بواسطة قطوع المخروط . ويقال إن الخيام رجع إليها واستعملها . وقد حل كثيراً من المعادلات بطريقة تقاطع المنحنيين وتمكن من إيجاد حجم الجسم المتولد من دوران القطع المكافئ حول محور السينات أو محور الصادات . وتنسب إليه بعض رسائل في المربعات السحرية واستعمل نظرية افناء الفرق ووضع أربعة قوانين لايجاد مجموع الاعداد الطبيعية المرفوعة الى القوى ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ . وله بحوث في الهندسة تدل على تعمقه في علوم زمانه . ولقد طبق الهندسة على المنطق والف كتابا يقول فيه . . . . « . . . كتاب جمعت فيه الأصول الهندسية والعددية من كتاب أقليدس وابلونيوس ونوعت فيه الأصول وقسمتها وبرهنت عليها ببراهين نظمتها من الأمور التعليمية والحسية والمنطقية حتى انتظم ذلك مع انتقاص توالي اقليدس وابلونيوس » . وله مؤلفات أخرى قيمة في الرياضيات والطبيعة منها كتاب شرح أصول اقليدس في الهندسة والعدد وتلخيصه كتاب الجامع في أصول الحساب ، وكتاب في تحليل المسائل الهندسية ، وكتاب في تحليل المسائل العددية بجهة الجبر والمقابلة مبرهناً ، وكتاب في حساب المعاملات وكتب أخرى في بحوث رياضية عالية . وله غير كتبه في الرياضيات والطبيعة كتب في الالهيات والطب يربو عددها على الخمسين .

واشتغل ابن الهيثم في الفلك ويعترف بذلك سيدليو فيقول : « وخلف ابن يونس في الاهتمام بعلم الفلك جمع منهم حسن بن الهيثم الذي ألف أكثر من ثمانين كتابا ومجموعة في الأرصاد وتفسير المجسطي ... »

هذا بعض ما أنتجه ابن الهيثم في ميادين العلوم الطبيعية والرياضية يتجلى للقارئ منها الخدمات الجليلة التي قدمها لهذه العلوم والمآثر التي اورثها إلى الأجيال والتراث القيم الذي خلفه للعلماء والباحثين مما ساعد كثيراً على تقدم علم الضوء الذي يشغل فراغاً كبيراً في الطبيعة ، والذي له اتصال وثيق بكثير من المخترعات والمكتشفات ، والذي لولاه لما تقدم علما الفلك والطبيعة تقدمهما العجيب ، تقدماً مكن الانسان من الوقوف على بعض أسرار المادة في دقائقها وجواهرها وكهاربها وعلى الاطلاع على ما يجري في الأجرام السماوية من مدهشات ومحيرات .

والآن نقف عند هذا الحد آملين أن تخرج فكرة الدكتور مشرفة إلى حيز الوجود فيكون بذلك قد أنصف عالما عالميا من أفذاذ علماء الطبيعة والرياضة . ويكون أيضا قد أدى واجبا ثقافيا وطنيا هو من أقدس الواجبات ، وأضاف مأثرة إلى مآثره العديدة في خدمة الثقافة العربية وبعثها .

(نابلس) **قدري حافظ طوقان**

تصحيح نص عربي قديم

وفيه شاهد على تطور العقلية العربية بعد الإسلام

للأستاذ عبد القادر المغربي

جاء في كتاب (طبقات الشعراء) لأبي عبدالله بن سلاّم الجُمَحي المتوفى (سنة ٢٣٢ هـ) نص يتعلق بأخبار (عقيل بن عُلَّفة) فيه اضطراب وفيه تلفيق أحببنا تحقيقه في هذا المقال.

والنص — عدا ذلك يتضمن فائدة تتعلق بالاجتماع الإسلامي وتصف لنا ناحية من نواحي عقلية العرب وتطورها بعد الإسلام

وعقيل بن علّفة هذا من أتباع (مدرسة المخضرمين) أو (مدرسة الخضرمة) إن سُمح لنا بهذا التعبير . وهي المدرسة التي تتلمذ فيها طائفة من الأعراب أسلموا ولم يدخل الإيمان في قلوبهم ؛ فكانت معرفتهم بآدابه سطحية . كانوا يراعون تلك الآداب حيناً ثم يغلبهم طبعهم الجاهلي فيعودون إلى ممارسة ما اعتادوه في جاهليتهم حيناً آخر . كانوا يتعزّون بعزاء الجاهلية . ويحاربون القبائل المعادية لهم عصبيةً لوشائج الأنساب لا إقامة لحدود الله وشرائع الإسلام . وما كانوا يتورّعون من شرب الخمر في بعض الأحايين ولا من الحنين إلى نزعاتهم الجاهلية : ومنها الفخر والمنافرة والمهاجاة والإفراط في الغيرة . كان فيهم جفاء وغلظة لم تخالطها بشاشة الاسلام وسجاحته ولين جانبه .

ومن أشهر تلاميذ هذه المدرسة (عقيل بن علّفة المرّي) و (عُلّفة) على وزان (قُبّرة) اسم للواحدة من ثمر الطلح . وهو ثمر أشبه باللوبياء .

كان عقيل أعرابيا جلفا مفرط الغيرة . له نزوع شديد إلى عادات الجاهلية ، فخوراً بها ، داعيا إليها

هنّأ يوما أحد فتيان قريش بزواجه قائلا له : «بالرفاء والبنين والطائر المحمود» ، فقيل له : يُكره أن يقال هذا في الإسلام وإنما هو من تهاني الجاهلية . فأجاب عقيل : يا ابن أخي ! ماتريد إلى ما أحدث ؟ إن هذا قول أخوالك في الجاهلية إلى اليوم لا يعرفون غيره »

وقد رويت كلمته هذه للزهري فقال إن ابن عُلّفة كان من أجهل الناس »

وعدا بنو جعفر على مولى لابن علفة ، فعَدَا هو على مولى لهم ولم يرفع الأمر إلى عامل الخليفة وأنشد :

فلا تحسبوا الاسلام غيَّر بعدكم رماح مواليكم فذاك بكم جهلُ

ومن أخبار جفائه ما رواه ابن أبي الحديد في شرح النهج . (ج ١ ص ٤٤٠) نقلا عن ابن قتيبة . قال :

خطب هشام بن اسماعيل المخزومي والي المدينة (وهو خال الخليفة هشام بن عبد الملك الذي قال فيه الفرزدق بيته المشهور : وما مثله في الناس إلا مملكا الخ)

خطب إلى عقيل بن عُلّفه ابنته فردّه وقال:

رددتُ صحيفة القرشي لما أبت أعراقه إلا احمرارا

يريد أن فيه شبها للعجم وعرقا منهم فلم يزوّجه لذلك . وكان هشام أبيض أشقر فهو مظنة أن يكون أعجمي الأصل . والعرب تسمي الأعجمي أحمر ، وتجمعه على أحامر . لأن الشقرة تغلب على جنسه ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم « بُعثت إلى الأسود والأحمر » يريد إلى العرب والعجم

وروى أبو عبيدة أنه قيل لعقيل : والله ما نراك تقرأ شيئاً من القرآن . قال : بلى والله إني لأقرأ . قالوا : فاقرأ . « إنا أرسلنا نوحا إلى قومه » ، فقرأ « إنا خرّطْنا نوحا إلى قومه » ، قالوا : أخطأتَ والله . قال : فكيف أقول ؟ قالوا . تقول : «إنا أرسلنا نوحا » ، لا ، خرّطْنا نوحا » ، فقال : أشهد أنكم تعلمون أن

« أرسلنا » و « خرّطنا » سواء ثم أنشد

خذا صدر هرشى أو قفاها فإنما كلا جانبى هرشى لهنّ طريق

وهذا البيت يُستمثل به حين التسوية بين أمرين . و(هرشى) كسكرى ثنية قرب الجحفة فى طريق مكة يُرى منها البحر ولها طريقان طريق عبّر عنه الشاعر بصدر هرشى وطريق عبّر عنه بقفا هرشى ، وضمير (لهنّ) يرجع إلى النياق . والخطاب فى (خذا) يرجع إلى رفيق سفره فهو يقول لهما : اسلكا إلى هرشى أىّ الطريقين شئتما : جهة صدرها أو جهة قفاها فأنتما واصلان إليها .

وهذا المثل الفصيح على حد المثل العامىّ الشامىّ (كل الدروب على الطاحون) أى تؤدى إليها . ومعنى (خرطنا) الذى قال عقيل إنه بمعنى (أرسلنا) ماذكره القاموس فى قوله (خرط عبده على الناس إذا أذن له فى أذاهم) .

قال التاج (شبه العبد بالدابة التى يُفسح رسنها وترسل مهملة تفعل ماتشاء) فالخرط أصله فى الدابة ثم نقل إلى العبد ، ونقله عقيل إلى نوح عليه السلام ، وهذا من عنجهيته وتعنته فى جاهليته

ولعقيل شعر يؤثر لفصاحته وبلاغته : من ذلك قوله يرثى ابنه علّفة :

لتمش المنايا حيث شئن فانها محلّلة بعد الفتى ابن عقيل

فتى كان مولاه يحل بنجوة فحلّ الموالى بعده بسبيل

يقول : إن حلفاء علفة أو جيرانه كانوا فى حياته ينزلون فى مرتفع من الأرض حيث هم مكرمون أو حيث تضىء نيرانهم للدلجين بما يجود به عليهم علّفة من القرى ، أما اليوم وقد مات علّفة فنزولهم أصبح فى قوارع الطرق حيث يُمتهنون أو حيث يتكففون الناس طالبين صدقتهم كعامة أبناء السبيل . ونَسَبَ إليه بعضهم البيت المشهور :

أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رمانى

وإنه قاله فى ابنه عميس والصحيح أن هذا البيت من أبيات لغيره . فلعله استشهد به كما استشهد به على بن أبى طالب رضى الله عنه فنسب إليه أيضاً .

أما النص الذى روى من أخبار عقيل وفيه اضطراب وتلفيق من جهة ، وعبرة اجتماعية اسلامية من جهة ثانية — فهو ما فى كتاب (طبقات الشعراء) لابن سلام (صفحة ٢١٤) ونصه :

« حدثنى أبو عبيدة أن يزيد بن عبد الملك خطب إلى عقيل ابن علفة ابنته وقال : زوجنى فلست بواجد فى قومى مثلى . قال عقيل : بلى والله لأجدن فى قومك مثلك وما أنت بواجد فى قومى مثلى . فحبسه يزيد فضرب عقيل كتف ابنه جثامة وقال زوجه يابنى فأنت أحق باللائمة ، فزوجه أم عمرو ابنة عقيل ، فلما أهداها تمثل جثامة فقال :

أيعذر لاهينا ويلحين فى الصبى وهل هن والفتيان إلا شقائق

فرماه عقيل بسهم وقال : أتتمثل بهذا عند بناتى ؟ فخرج جثامة مراغماً لأبيه (أى مفارقاً له على رغم منه وكراهة) وأتى يزيد ابن عبد الملك فكتب عقيل الى يزيد : إنه قد أتاك أعق خلق الله . وكان يزيد قد أعطاه وحباه . فأخذ ذلك منه وحبسه » انتهى نص ابن سلام .

لكن الخبر من عند قوله (فلما أهداها تمثل جثامة الخ لا يلتحم مع ما قبله إذ لا علاقة بتمثل جثامة بهذا الشعر : أيعذر لاهينا الخ مع تزويج عقيل ابنته من الخليفة . فلم يبق إلا أن الخبر مضطرب يحتاج إلى تصحيح . أو نقول هو ملفق يحتاج إلى تقويم وتوضيح .

والتلفيق أصله فى الثوب : يعمد إلى مايلى ورث من وسطه ثم يضم لفقاه (أى طرفاه) أحدهما إلى الآخر ويخاطان .

فالخبر المنقول من طبقات الشعراء ينتهى لفقه الأول عند قوله (فزوجه أم عمرو ابنة عقيل) وبين هذا اللفق واللفق الذى بعده وهو (فلما أهداها تمثل الخ) كلام ساقط سهواً من النساخ يمكننا العثور عليه فى معجم البلدان طبعة أوربا (ج ٤ ص ٦٦٧) عند الكلام على دير سعد . وهذا نص ما فى المعجم بعد حذف السند :

« خرج عقيل بن عُلفة وابنه جثامة وابنته الجرباء (ولعلها غير أم عمر التى زوجها من الخليفة فى الخبر المنقول عن طبقات الشعراء) حتى أتوا بيتاً له ناكحا فى بنى مروان بالشامات (يعنى أن عقيلا كان ناكحا أى متزوجا امرأة فى بنى مروان وقد أتاه زائراً مع ولديه . والشامات هى بلاد الشام) ثم إنهم قفلوا حتى

إذا كانوا ببعض الطريق قال عقيل :

قضت وطراً من دير سعد وطالما على عرض ناطحنه بالجماجم

ضمير قضت يرجع إلى النياق . وقوله (على عرض) بالعين المهملة ولعل صوابه (على غرض) بالمعجمة مصدر غرض إليه إذا اشتاق إليه) .

« ثم قال عقيل لابنه : أنفذ يا جثامة (أى أجز البيت بضم بيت آخر إليه) فقال جثامة :

فأصبحن بالمومات يحملن فتية نشاوى من الإدلاج ميل العمائم

إذا علم غادرنه بتنوفة تذارعن بالأيدى لآخر طاسم

(طاسم بمعنى طامس وكأنه مقلوبه) ثم قال عقيل لابنته الجرباء : أنفذى يا جرباء فقالت :

كأنّ الكرى سقاهمو صرخدية

عُقارا تمطى فى المطا والقوائم

(قول الجرباء هذا فى وصف الخمرة وتأثيرها فى ظهر شاربها وقوائمه راب أباها عقيلا وجعله يعتقد أن ابنته الجرباء من شاربى الخمرة وإلا لما أجادت وصفها)

فقال عقيل : شربتها ورب الكعبة ، لولا الأمان لضربتُ بالسيف تحت قُرطك . أمَا وَجدْت من الكلام غير هذا ؟

فقال جثامة أخوها (منافحاً عنها) : وهل أساءت ؟ إنما أجادت وليس غيرى وغيرك (يريد جثامة) أنه لا يضرّ أخته فى خلوتها مع أبيها وأخيها إذا قالت الشعر وأجادت فى وصف الخمرة ، وإجادتها لوصفها لا يستلزم أن تكون شربتها . وإنما هى أديبة متقنة لصنعة الكلام وقرض الشعر فهى إنما تدل فى شعرها على مقدرتها وإجادتها الصناعة لا أكثر ولا أقل . لكن دفاع جثامة عن أخته الجرباء غاظ أباه عقيلا فرماه بسهم فاصاب ساقه وأنفذ الرحل . ثم شدّ على الجرباء فعقر ناقتها . ثم حملها على ناقة جثامة وتركه عقيراً مع ناقة الجرباء . ثم قال لولا أن تسبنى بنو مرة لما عشت (وهذا خطاب لابنه العقير أو ابنته) ثم خرج متوجهاً إلى أهله وقال للجرباء : لئن أخبرت أهلك بشأن جثامة أو قلت لهم إنه أصابه غير الطاعون لأقتلنك . فلما قدموا على بنى القين ندم عقيل على فعله بابنه جثامة فقال لهم : هل لكم فى جزور انكسرت (يريد ناقة الجرباء التى عقرها) قالوا : نعم . قال : فالزموا أثر هذه الراحلة حتى تجدوا الجزور . فخرجوا حتى انتهوا إلى جثامة فوجدوه قد أنزفه الدم فتقسموا الجزور واحتملوا جثامة وأنزلوه عليهم وعالجوه حتى برئ وألحقوه بقومه ، فلما كان قريبا منهم تغنّى :

أيعذر لاهينا ويُلحين فى الصبى وما هنّ والفتيان إلا شقائق

المراد بالصبى اللهو الذى يكون فى زمن الصبى عادة : فقال له القوم إنما أفلتَ (أو صوابه أبْلَلْتَ) من الجراحة التى جرحك أبوك آنفاً وقد عاودتَ ما يكرهه . فامسك عن هذا ونحوه إذا لقيته لا يلحقك منه شر وعُرّ (العُر الجرب والعرب يقرنونه بالشرّ لأنه يتلف إبلهم فكان أبغض شىء إليهم) فأجابهم جثّامة : إنما هذه خطرة خطَرَتْ ، والراكب إذا سار يغنّى) انتهى نص المعجم .

فقول جثامة : أيُعذر لاهينا الخ إنما جاء فى خبر رجوع عقيل مع ابنه وابنته من عند أصهاره بنى مروان المقيمين فى الشامات كما هو فى معجم البلدان ولم يجئ فى خبر تزويج جثامة أخته من الخليفة كما هو نص طبقات الشعراء . وقد تبين من هذا أن نص الطبقات ملفق من الخبرين المذكورين .

وفى الخبر الثانى الذى جاء فى معجم البلدان وصف لنفسية عقيل بن علفة الجاهلى الجافى الطبع ونفسية ولديه الناشئين فى الاسلام وقد فهما منه (أى من الاسلام) أنه لا يشدد النكير على متبعيه إلا فى ارتكاب منكر أو استباحة حرام . أما أن تقول الفتاة المسلمة الشعر وتحسن صنعته وتصف الخمرة بما جعله الله فيها من تأثير فى جسم شاربها فلا يراه ذلك الفتى المسلم حراما ، وإنما الحرام شربها فهو الذى يجب تجنبه . ولذا وقف فى جانب أخته ينافح عنها . ويدرأ صولة أبيه الجاهلى عليها ويرفع صوته — كما علمه الاسلام — بان للفتيات الحق فى تناول متع الحياة المباحة كما للفتيان . وانه كما يعذر اللاهى من الفتيان ينبغى أن تعذر اللاهية من الفتيات : فلا يعذرونهم ويلحينهن بغياً وعدوانا إذ ليسوا جميعاً إلا شقائق وإخواناً . وقد جاء هذا الشعر الذى تمثل به جثامة قولا شارحاً للاثر المأثور : « النساء شقائق الرجال » .

« دمشق » **عبد القادر المغربى**

على ذكر الحرب الأهلية فى اسبانيا

نهضة العلوم الطبية

فى اسبانيا العربية وتأثيرها فى اوربا

للدكتور زكى على

من بين الكتب التى ظهرت أخيراً عن الحرب الأهلية المروعة القائمة فى اسبانيا الآن كتاب « الثورة فى أسبانيا » قال فيه مؤلفاه هارى جانس وتيودور رابارد فى معرض الكلام عن ماضى اسبانيا : « إن طرد العرب من اسبانيا كان كارثة على مدنيتها وقد كان الباعث عليه التعصب للروح الاقطاعية السائدة فى أوربا والرغبة فى تقويض دعائم الثقافة العربية وتأثيرها »

وقد أعادت الحرب الحاضرة فى أسبانيا ذكريات تاريخها الماضى وكيف كان عهد العرب أزهى عصورها ، وكثيراً ما أشارت صحف أوربا إلى ذلك الماضى إما بالمقالات أو بالصور . وأذكر أننى رأيت صورتين رمزيتين تبعثان فى النفس مزيد الاعتبار إحداهما فى صحيفة أمريكية تمثل « عودة العرب » والأخرى على غلاف مجلة سويسرية مصورة تمثل « العرب على أبواب مدريد » إشارة إلى انتظام فرق من عرب المغرب الاسبانى فى سلك جيش الجنرال فرانكو لفتح اسبانيا ، ولكن شتان بين الفتحين ، وما أعظم الفرق بين العهدين . ولست بصدد الكلام عن تاريخ الفتوحات والحروب وإنما أحببت اتخاذ الأحوال الحاضرة وسيلة للتذكير بما كانت عليه أسبانيا من النهضة على عهد العرب قاصراً الكلام على العلوم الطبية وما كان لها من تأثير ونفوذ فى الحركة الفكرية فى أوربا فى ذلك الحين وهى التى صارت أساس نهضتها فيما بعد .

كان لتألق نجم الثقافة العربية فى سماء اسبانيا على أثر الفتح الاسلامى أعظم الأثر فى نهضة العلوم الطبية لا فى اسبانيا وحدها بل فى أوربا بأجمعها . وكان لما أولاه الخلفاء العلوم والفنون من العناية والتشجيع فضل كبير فى ازدهار الحركة الفكرية والنشاط العقلى وانبعاث أضواء الحضارة العربية لتسرى فى سائر أنحاء أوروبا ، وسرعان ما أصبحت اسبانيا أسطع درة فى سلسلة الثقافة العربية الممتدة من ربوع الهند إلى أقصى غرب أوربا ، وعن طريق هذه الحلقات المتصلة من مدنية الاسلام تدفقت الكنوز الضخمة من علوم الأقدمين التى كانت نسياً منسياً قبل أن يبعثها العرب ويضيفوا إليها كنوزاً غنية جديدة بفضل عبقريتهم وأثر الاسلام فى حضهم على البحث وحثهم على الكشف والدرس والتحصيل

وما أتى القرن العاشر للميلاد حتى كان العرب قد أحضروا إلى أسبانيا مجموعة ضخمة من التآليف العلمية والطبية الاغريقية والعربية ، ووضعوا بذلك أساس الحركة الفكرية التى دامت فى عصرها الذهبى من القرن العاشر إلى الثالث عشر ، وجعلت اسبانيا فى ذلك الحين ، المركز الوحيد الذى يشع على أوروبا النور والعرفان ، والذى سرت منه الثقافة العربية ، حتى صارت ملموسة الأثر فى سائر أنحاء الغرب

ونبغ فى هذه الحركة طائفة كبيرة من علماء العرب وشخصياتهم الطبية البارزة ، وكان لأعمالهم وتواليفهم أثر مباشر فى نهضة العلوم الطبية لاسيما أن الخلفاء أكثروا من تشييد المستشفيات ، وكانوا يلحقون بها المدارس الطبية ومدارس الصيدلة والمكاتب العلمية .

وقبل أن نخص بالذكر هنا أشهر البارزين فى هذه النهضة نشير إلى ما يدل على مبلغ حضارة أسبانيا وازدهارها تحت حكم العرب ، فنذكر أنه فى القرن العاشر بلغ عدد سكان قرطبة أكثر من ثلاثمائة نفس ، وكان بها خمسون مستشفى وتسعمائة حمام وثمانمائة مدرسة وستمائة مسجد ومكتبة ضخمة تحوى ستمائة ألف مجلد وسبعون مكتبة خاصة . وإذا ما أشرنا فى هذا المقام إلى جامع قرطبة الشهير ، الذى يعتبر من ايات الفن — لا فى العصر الاسلامى وحده بل فى كل العصور — فإننا نذكر الكلمة الشهيرة التى وجهها شارل الخامس سنة ١٥٢٦ إلى مجلس الكاتدرائية الكاثوليكية توبيخاً لهم على تشييد الكنيسة فى قلب الجامع المعظم ، إذ قال لهم : « قد بنيتم هنا ما تستطيعون ، وكل واحد سواكم — بنساه فى جهة أخرى ولكنكم خربتم ما كان فريداً فى العالم كله »

وفى صدد الحضارة العربية أيضاً يقول الطبيب المؤرخ الأمريكى فكتور روبنصن صاحب « قصة الطب » : « كانت أوروبا فى ظلام حالك بعد غروب الشمس بينما كانت قرطبة تضيئها المصابيح العامة ، كانت أوروبا قذرة ، بينما قرطبة شيدت ألف حمام ؛ كانت أوروبا تغطيها الهوام بينما كان أهل قرطبة مثال النظافة ؛ كانت أوروبا غارقة فى الوحل ، بينما كانت قرطبة مرصوفة الشوارع ؛ كانت سقوف القصور فى أووروبا مملوءة بثقوب المداخن ، بينما قصور قرطبة تزينها الزخرفة العربية العجيبة ؛ كان أشراف أوروبا لا يستطيعون إمضاء أسمائهم بينما كان أطفال قرطبة العربية يذهبون إلى المدارس ؛ كان رهبان أوربا يلحنون فى تلاوة سفر الكنيسة بينما كان معلمو قرطبة

قد أسسوا مكتبة تضارع فى ضخامتها مكتبة الاسكندرية العظيمة . »

والآن نعود لنذكر بين متقدمى المشاهير فى النهضة الطبية ابن الوافد الذى اشتهر فى أوربا باسم Abru Gue Fit (٩٩٧ - ١٠٧٤) وكان طبيباً بمستشفى طليطلة وامتاز بانه وضع أساس طريقة عقلية للعلاج مرتكزة على النظم الغذائية . وكان أشهر مؤلفاته كتاب الادوية البسيطة De Medicamentis Simpzicibus طبع هذا الكتاب بعد ترجمته إلى اللاتينية أكثر من خمسين مرة . ثم هناك أبرز شخصية فى النهضة الطبية العربية وفخر الجراحة العربية أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى الذى عرفته أوروبا باسم Albucasis (١٠١٣ - ١١٠٦) وإليه يرجع الفضل فى النهوض بمهنة الجراحة إلى المركز اللائق بها وكانت قبله قد انحطت إلى الحضيض ولكن سرعان ما بلغت الجراحة على يد أبى القاسم الزهراوى أعلى مراتبها فى ذلك العصر فانه ألف فى الطب النظرى والعملى كتابه الشهير « التصريف لمن عجز عن التأليف » وبه قسم خاص بالجراحة يقع فى ثلاثة كتب استوفى فيها أبو القاسم علوم الجراحة وعملياتها وبين آلاتها بالصور فكان تأليفه هذا أول كتاب موضح بالصور والأشكال فى الجراحة . ولا أجد فى هذا المقام قولا أدل على مكانة الزهراوى من قول الأستاذ الشهير فورج Forgue من أعظم الجراحين الفرنسيين فى الوقت الحاضر إذ كتب عنه منذ سنوات : « يعتبر الزهراوى بلا شك أعظم شخصية فى الجراحة العربية ، وهو الحجة التى كان يلجأ إليها كافة مؤلفى الجراحة فى العصور الوسطى مع أعظم الاحترام . وقد ولد فى الزهراء (من ضواحى قرطبة) التى كانت فرساى خلفاء بنى أمية فى الأندلس . ويستحق كتابه فى « الجراحة » أن يبقى فى تاريخنا كأول تأليف فى الجراحة على أنها علم مستقل مؤسس على قواعد التشريح . وصار كتابه فيما بعد مرشد الجراحين منذ ترجمه إلى اللاتينية حوالى وسط القرن الثانى عشر جيرار دى كريمونا . ومما يبرهن على أن الزهراوى كان الثقة والعمدة فى الجراحة والمشار اليه فى علومها أن سلفنا العظيم جى دى شولياك جراح مونبليه استشهد بأبى القاسم فى مؤلفاته نحو مائتى مرة !

« ولا مراء فى أن الجراحة العربية فى ذلك الحين تقدمت تقدماً عظيما فى الغرب . ويكفى أن نذكر أنه فى أواخر القرن الثالث عشر لما قدم الجراح لا نفرانك من إيطاليا ودرس مؤلفات أبى القاسم أصدر رأيه فى جراحى باريس لذلك العهد بقوله : « يقومون بالعمليات الجراحية مع درجة من الجهل يكاد لا يوجد معها شخص واحد منهم يمكن أن يعد جراحاً حقيقياً ! وقد كان أبو القاسم أول من كتب فى علاج الأقواس الضرسية (فى طب الأسنان) وتشوهات الفم ، وأول من ربط الشرايين قبل امبرواز باريه الفرنسى . وقد وصف عمليات تفتت حصاة المثانة وعملية استخراجها بالشق ، وتكلم عن مسألة التقيح ووصف الوضع المعروف باسم « وضع والحز » فى التوليد ، والشلل عقب كسر السلسلة الفقرية ، وتكلم بدقة عن إزالة الأجسام الغريبة من الأذن ، وأجرى عملية فتح قصبة الرئة Trachéo tomie ، وعالج الخراجات الكبيرة - بشقها وتفريغها تدريجاً ، واستعمل محلول الملح فى علاج الجروح ، ووصف علاج الناسور بالكى . وهو أول من استعمل « السنارة » فى استخراج الورم المسمى « بوليبوس » ، وتكلم فى موضوع الولادة عن مجىء الجنين فى الأوضاع غير المنتظمة ، وعن التوليد بالآلات . وهو أول من أدخل استعمال الحرير وأوتار العود بهيئة خيوط للربط فى العمليات الجراحية ، وتكلم أيضا عن وقف النزف بالكى ، وقد بقى كتاب أبى القاسم فى « الجراحة » أساس التعليم الجراحى ومزاولة مهنة الجراحة فى أوربا عدة قرون ، ونشرت ترجمته فى فينا سنة ١٤٩٧ ؛ وفى سنة ١٥٠٠ كان المعول عليه فى تعليم الجراحة فى مدرسة البندقية بايطاليا ، وطبع أيضاً فى « بال » بسويسرا سنة ١٥٤١

وأما أشهر أطباء العرب الاكلينكيين فى الأندلس فهو محمد بن مروان بن زهر الاشبيلى وعرف فى أوربا باسم Avenzoar (توفى سنة ١١٦٢) وهو ينحدر من عائلة عربية عريقة أنجبت كثيراً من الأطباء وذاعت شهرته الطبية فى جميع الأنحاء . وهو أول من ثار على طريقة جالينوس وابتكر طرقا جديدة تدل على عبقريته ؛ وأهم كتبه « التيسير » وفيه وصف شامل لأمراض عديدة . وكان ابن زهر أول من وصف التهاب التامور المصلى وخراج المنصف الصدرى وشلل البلعوم والتهاب الأذن الوسطى . ووصف لبن الماعز فى الدرن ، ويعتبر أيضاً أول عالم بالطفيليات لأنه أول من أتقن وصف حيوان الجرب .

وأما أبو الوليد محمد بن احمد بن محمد بن رشد (Averroes) القرطبى (١١٢٦ - ١١٩٨) الطبيب الفيلسوف العظيم فمع أنه بلغ ذروة الشهرة كفيلسوف الاسلام وشارح أرسطو فقد كان له أيضاً فضل لاينكر فى تقدم العلوم الطبية ؛ وهو الذى هز بناء التعاليم الجالينية من أساسها ، وزعزع نظرية صفة الأدوية الكثيرة Polypharmacie فى التذاكر الطبية ، وهو أول من أشار إشارة علمية إلى الدورة الدموية فى كتابه « الكليات » فسبق بذلك وليام هارفى . ومن أعظم الشخصيات الأندلسية فى القرن الثانى عشر الفيلسوف الطبيب الاسرائيلى موسى بن ميمون (Maïmonides) الذى صار فيما بعد طبيباً خاصاً لسلطان صلاح الدين ، وله مؤلفات

عديدة فى الفلسفة والطب ترجمت من العربية إلى اللاتينية ومنها كتابه فى « السموم والتحرز من الأدوية القتالة » وكتاب «البواسير» (وترى هنا صفحة من هذا الكتاب الأخير عن نسخة خطية نقلت عن الأصل الذى كتبه ابن ميمون بيده) وكتابا « الوصايا » فى التغذيه «وقانون الصحة » و « بيان الأعراض » و « مقالة فى الربو» الخ

ويمتاز ذلك العصر بازدهار فن الصيدلة أيضاً وظهور التواليف الجديدة فيه . واسم « ابن البيطار» أشهر من أن يذكر ، وقد ولد أبو محمد عبد الله بن احمد بن البيطار فى « مالقة » ، وصار أوحد زمانه فى علم النبات وأتقن دراية كتاب « ديسقوريدس » الاغريقى اتقانا بالغاً وكان حجة لا يبارى فى علوم الأدوية المفردة والحشائش . وأهم كتبه «الجامع فى الأدوية المفردة » وهو فريد فى بابه إذ يشتمل على وصف دقيق لأكثر من ألف واربعمائة عقار كان جزء كبير منها جديداً فى ذلك الوقت . وصار هذا الكتاب فى الواقع المرجع الأساسى فى أوروبا للمادة الطبية وعلوم الأغذية .

أما كتب الأدوية المركبة فكانت تسمى الأقرباذين (مأخوذة عن اليونانية) وهو اسم حرف فيما بعد فى المخطوطات اللاتينية المترجمة عن العربية إلى كلمة Grabadin والعرب هم أول من وضع دساتير الأدوية المعروفة الآن باسم « فارماكوبيا » ، وعنهم أخذتها أوروبا كما أخذت عنهم عادة وضع الأوانى الزجاجية الكبيرة المحتوية على السوائل الملونة عند مدخل الصيدليات وكان نظام الصيدلة عند العرب يقضى بالتمييز بين مخازن العقاقير (ويقابله الآن Droguerie) لبيع العقاقير البسيطة بحسب تعريفة محددة وبين الصيدليات (الأجزاخانات) (Pharmacie) لصرف العقاقير المركبة والتذاكر الطبية وكانت كلها موضوعة تحت الرقابة الشديدة بمقتضى القانون . وقد أدخل فردريك الثانى هذا النظام إلى أوروبا وأصدر سنة ١٢٣٣ قانوناً بقى نافذ المفعول زماناً طويلا فى صقلية ، كان يكلف الطبيب بمقتضاه أن يبلغ عن أى صيدلانى (صيدلى) يثبت له أنه يبيع أدوية فاسدة

وقد أخذت أوروبا عن العرب استعمال كثير من الأدوية الجديدة ذات المفعول اللطيف والتى أدخلها العرب فى المادة الطبية للعلاج مثل السنا المكى والراوند والتمر الهندى والمسك والقشبة Cassia والمسن والكافور وجوز الطيب والقرنفل والزعفران والشمر وعرق السوس . وعن العرب أيضاً أخذت أوروبا طريقة طلاء حبوب الأدوية بالورق المذهب أو المفضض وتقطير ماء الورد ، كما أن أوروبا مدينة للعرب بإدخال الجوز المقيء فى القرن الحادى عشر والأكونيت (خانق الذئب) وشرح تأثير الإرجوت (الجويدار) والحنظل والقنب الهندى والعنبر . وكان دستور الأدوية (الفارماكوبيا الاسلامية) فى اسبانيا يحتوى على أكثر من مائتى نبات جديد لم تعرفها أوروبا من قبل . ولا يزال كثير من الكلمات العربية الأصل مستعملة فى الصيدلة إلى اليوم منها الكحول والشراب والقلى Alkali والنفط Naphtha والبازهر (بزهير) be zoar والجلاب jalap .

ثم كان من مفاخر المدنية الاسلامية إنشاء المستشفيات فى معظم المدن الكبيرة مثل قرطبة واشبيلية وغرناطة وطليطلة وبلنسية ومرسية والمرية ومالقة وغيرها ، وكان نظام هذه المستشفيات وإدارتها وتجهيزها تجهيزاً وافياً على نسق لم تعرفه أوروبا فى ذلك العهد . وفضلا عن أن هذه المستشفيات كانت مراكز لعلاج الأمراض فقد كانت أيضاً معاهد للتعليم الاكلينيكى وأكاديميات للمعارف الطبية ، وكانت مجهزة بمكاتب طبية نفيسة . ويعزى إلى العرب أيضا الفضل الأول فى إيجاد المستشفيات الخاصة بذوى الأمراض العقلية ومن أهم تلك المستشفيات ما أنشأوه فى بلنسية ، وقد شهد جميع مؤرخى الطب بأن للعرب فخر معاملة هؤلاء المرضى بالرفق والشفقة والانسانية بينما كان « المجانين » فى أوروبا يعاملون إذ ذاك كالمجرمين يعذبون

ويضطهدون . وقد أعاد جوان جيلابرت جوفربه بناء مستشفى بلنسية للأمراض العقلية عام ١٤١٠

كذلك لما أرادفيليب الثانى عام ١٥٦٦ أن يعيد تنظيم المستشفيات فى مجريط (مدريد) أقام على أنقاض معهد سان لا زاروا (وكان فى الأصل مستشفى أسسه المسلمون) مستشفى جديداً باسم سان جوان دى ديوس ، وضم اليه مستشفى دى لا باز للأمراض المعدية ولذوى العاهات .

وقد أظهر أطباء العرب فى اسبانيا فى فهم الأوبئة والعدوى مقدرة وذكاء منقطعى النظير بين كافة أطباء أوروبا فى العصر القديم والعصور الوسطى ، يدلك على ذلك أنهم بحثوا منشأ الأوبئة وانتشارها بالعدوى . وقد ألف الطبيب الشهير ابن الخطيب من غرناطة (١٣١٣ - ١٣٧٤) كتاباً نفيساً عن (الطاعون) وصف فيه الطاعون الذى حل بأوروبا فى القرن الرابع عشر وذكر فيه أن وجود العدوى تثبته التجربة ثم البحث ودليل الحواس ثم الرواية الموثوق بها عن انتقال المرض بالملابس والأوعية والحلى (كالقرط فى الأذن) ومن شخص لآخر فى المنزل الواحد وباصابة ميناء سليم بوصول أناس مرضى من أرض موبوءة . . . » .

وكذلك كتب « ابن خاتمة » (توفى ١٣٦٩) كتابا عن الطاعون الذى فتك بالمرية فى اسبانيا فى سنتى ١٣٤٨ و١٣٤٩ ، وهذا الكتاب يفوق فى دقته كل ما كتب فى أوروبا عن الطواعين من القرن الرابع عشر إلى السادس عشر .

ولا يتسع المقام هنا للاسهاب فى ذكر سائر النوابغ من أطباء العرب فى ذلك العصر . وإنما ننوه بأنه كان من أهم عوامل بث العلوم الطبية العربية ونشرها فى أوروبا إنشاء مدارس الترجمة التى كانت أهمها مدرسة طليطلة التى شيدها فى سنة ١١٣٠ الأسقف ريموند وازدهرت حتى القرن الثالث عشر .

وكانت جامعات العرب فى اسبانيا إذ ذاك قبلة أنظار طلاب العلم من كافة أنحاء أوروبا فكانوا يفدون اليها من كل حدب وصوب لينكبوا على دراسة العلوم العربية وترجمتها ثم نقلها إلى بلادهم فظل النفوذ العربى سائداً فى الغرب قروناً عديدة وظلت تآليف الأطباء العرب مدة خمسمائة سنة برنامجا لدراسة الطب فى أوروبا .

ومما يدلك على مدى سريان النفوذ العربى وهيمنته على النهضة الطبية فى أوروبا أن الطبيب الشهير بطرس ألفونسو (ولد سنة ١٠٦٢) بعد أن أتقن الطب فى مدارس العرب فى اسبانيا قدم إلى انجلترا ليكون طبيباً خاصاً للملك هنرى الأول واشترك مع (والخر وبرايور أوف مالفرن) فى وضع كتاب فى الفلك اعتمد فيه على المصادر العربية . وكانت جهود هؤلاء الثلاثة بمثابة أول أثر للعلوم العربية فى انجلترا ثم لم ينقض بعد ذلك وقت طويل حتى امتاز أديلارد أوف بات بكونه أول عالم أوربى كبير حضر إلى طليطلة للتخصص فى العلوم العربية ، فاتصلت بذلك الحلقة الثقافية بين اسبانيا العربية وانجلترا . ومن ثم ازداد اهتمام العلماء فى انجلترا بعلوم العرب وتفوق من بينهم ميشيل سكوت (١١٧٥ - ١٢٣٢) وروجر باكون (١٢١٤ - ١٢٩٤)

فأما سكوت فكان طبيبا وفيلسوفا ومتضلعا فى العربية ، وبعد أن درس فى اكسفورد وباريس انتقل إلى بالرمو وبولونيا بايطاليا ، ومن هناك واصل سفره فى طلب العلم إلى طليطلة ليروى ظمأه من ينابيع حكمة العرب وعلومهم وفلسفتهم ، واشتهر فيما بعد بتآليفه الكثيرة فى الكيمياء والفلك والطب وكان أكثر اعتماده على المصادر العربية .

وأما روجر باكون فقد اشتهر فى اكسفورد بكونه شارح الفلسفة العربية والارسطوطية وألف فى علم البصريات كتابا نقل فيه عن كتب الخازن ، وهناك فى مكتبة مجلس كاتدرائية كانتربورى نسخة خطية مزخرفة من أواخر القرن الثالث عشر تسمى Vetus togica هى أقدم تفسير معروف لكتاب ارسطو فى المنطق ظهر فى انجلترا على أثر احياء العرب لفلسفة ارسطو ، وهى تحمل اسم جون دى لندن الذى أخذ عن روجر باكون العلوم العربية .

ويرجع إلى العرب ايضا فضل المحافظة على تراث الطب الاغريقى القديم وهناك حقيقة ذات أهمية قصوى فى هذا الصدد وهى أن سبعة كتب من « تشريح جالينوس » وصلت أوروبا عن طريق ترجمتها العربية أما أصولها الاغريقية فكانت قد فقدت .

وكان أشهر المترجمين للعلوم الطبية من العربية إلى اللاتينية « جيرار دى كريمونا » ١١١٤ - ١١٨٧ الذى اشتغل فى مدرسة طليطلة معظم حياته وأتم فى العشرين السنة الأخيرة منها ثمانين ترجمة بعضها فى غاية الأهمية ، ومنها كتاب الجراحة لأبى القاسم الزهراوى وقانون ابن سينا ، وكتاب المنصورى للرازى، وبعض أجزاء « الحاوى » .

ومن أعظم المترجمين والمفكرين من الأوروبيين فى العصور الوسطى جيربرت دى أورىلاك (٩٣٠ - ١٠٠٣) الذى صار فيما بعد البابا سلفستر الثانى فانه عبر جبال البرانس وأتى إلى طليطلة لتحصيل علوم المسلمين ونقلها إلى أوروبا القوطية ، ثم إنه عاد إلى فرنسا وأذاع علوم العرب فى مدينة (ريمس) ثم نقل تلك العلوم إلى أنحاء فرنسا وألمانيا وإيطاليا ، ويعتبر أحد واضعى أساس النهضة العلمية والأدبية والدينية فى أوروبا فى القرن الحادى عشر ويقال إنه الذى أدخل إلى أوروبا الأرقام العربية .

ومن بين مشاهير الذين حضروا من انجلترا إلى طليطلة روبرت

أوف إنجلاند ، (عاش حوالى ١١٤٣) وهو أول من ترجم القرآن ثم دانيل مورلى (١١٧٠)

وكان ارنولد دى فيلا نوفا (١٢٣٥ — ١٣١٣) آخر العلماء الاسبان الذين كان لهم نصيب وافر من ترجمة مؤلفات العرب الطبية إلى لغات الغرب ، وقد صار فيما بعد طبيباخاصا لبطرس الثالث ملك أرغون ، ودرس الطب فى جامعة مونبليه ونقل عن العرب استعمال الصبغات فى الأدوية ، وأدخلها فى دساتير الأدوية الأوربية ، كما أنه ترجم كتاب ابن سينا عن القلب

وقد أنار العرب لأوربا سبيل الدراسة المبنية على التجربة والمشاهدة ويقول مؤرخ مونبليه الشهير جرمان (الفرنسى) إن بقاء مؤلفات الأطباء العرب فى برنامج الدراسة الطبية فى مونبليه حتى ختام القرن السادس عشر خير شاهد على صفات الايضاح والتنوير وعلى الطريقة التعليمية التهذيبية التى امتاز بها الكتاب العلميون فى الأمة العربية »

وتوجد فى سجلات كلية الطب بباريس قائمة جرد للكتب الطبية بها فى سنة ١٣٩٥ تحتوى على اثنى عشر مجلدا كلها مؤلفات لأطباء العرب. وكان لويس الحادى عشر دائم القلق على صحته ولهذا كان حريصاً على أن تكون فى مكتبته كتب « الرازى » الطبيب العربى الأشهر ولم يكن منها إذ ذاك فى مكتبة مدرسة الطب بباريس سوى نسخة واحدة فاستعارها الملك بشرط أن يردها وقد فعل !

وأرى فى ختام هذا البحث أن أذكر كلمة المؤرخ « لبرى » : « ولو لم يظهر العرب فى التاريخ لتأخرت نهضة العلوم والفنون (الرينسانس) فى اوروبا قروناً عديدة » .

(جنيف) زكى على

الفــــداء

للأستاذ أمجد الطرابلسى

« فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم . وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على إبراهيم » قرآن كريم

شعَّ من بَسمةِ الصباحِ الضياءُ … وأفاقت من نومها البطحاءُ

وتعرت كثبانُها والروابى … وتمطت هضابُها السمراء

وتبدت ذُكاءُ فانتفض الرمـ … ـلُ ابتهاجاً لما تبدت ذُكاء

وشَّى الأرضَ بالظلال فنوناً … هىَ للطرفِ والنهى إغواء

فمن الشمس والرمال نُضارٌ … ومن الظلِّ واحةٌ غنّاء

السهوبُ الفساحُ ، والأفقُ الزا … هى ، وتلك الغمائمُ الشقراء

والخِضَمُّ الموّاج بالماسِ والتبـ … ـرِ المصفّى والقبّةُ الزرقاء

والبطاحُ الغرقَى ، وسِلسِلةُ الكثـ … ـبانِ ، والرملُ ، والحصَى ، والسَّناء

صورةٌ تغمرُ العيونَ وسِحرٌ … عبقرىٌ ، ومُتعةٌ ، ورُواء

وَحشةٌ ملؤها الجمالُ وصمتٌ … خاشعٌ لاتشينهُ ضوضاء

أيها الشاعرُ أنْتَدُ ! هل تؤدى … ماتؤدّى الطبيعة الخرساءُ ؟

إنَّ صمتَ الرمال عودٌ ومزما … رٌ ونأىٌ ومِزهرٌ وحُداء

نَغَمٌ يُفعِمُ السامعَ سِحراً ، … وغناءٌ ، هيهات منه الغناءُ !

* * *

مَنْ هوَ السالكُ القفارَ وئيداً … للأسى فى جبينه سيماء ؟

كاسفَ البالِ ليس يبهره الحسـ … ـنُ ، ولا يستبيه ذاكَ البهاء

مطرقاً رأسهُ الصديعَ تبدّى … فى أساريرِ وجههِ البأساء

وإلى جنبهِ ابنهُ حائرَ اللبِّ … م تنزّى فى صدرهِ الأهواء

يتأسّى خُطَى أبيهِ ولِلحمْـ … ـلانِ بالشاةِ أسوةٌ واهتداء

يسألُ الرملَ عن وجوم أبيهِ … فاذا الرملُ منصتٌ والفضاء

يسألُ الأرضَ والسماءَ فما تنـ   ـبيه أرضٌ ولا تجيب سماء !
وتراه يَهِمُّ يسألُ عن ذا   كَ أباه الحزينَ لولا الحياء
يا إلهي ! هـذا خليلُكَ إبرا   هيمُ يغـدو لما أرادَ القضاء
وإلى جنبِهِ ابنُـه البَرُّ إسما   عيلُ سلواه في الدُّنى والعزاء
جاءه وحيُكَ المقدَّسُ في اللـ   ـيلِ وقد عمَّتِ الدُّنى الظلماء
قال « قرِّبْ إلى السماءِ القرابـ   ـينَ ، فقد شاقتِ السماءَ الدماء
إنها تبتغي وحيدَكَ ذبحاً   ليسَ في غيرِهِ لها إرضاء ! »
هبَّ من نومِهِ الشرودِ مُراعاً   ونأى عن جفونِهِ الإغفاء
إنما تطلبُ السماءُ فتاه !   ليسَ مما تبغي السماءُ نجاء !
قد قضى الله ما أرادَ وأمضى   وقضاءُ اللهِ الرحيمِ مَضاء
ليكن ما أرادَ سوفَ يضحّي   بابنِهِ وهو عيشُهُ والهناء . .
يارحيمَ الأكوانِ إحكمتُكَ الغرّا   ءُ ، حارتْ في كُنهِها الحكماء
إنَّ أضرى الجراحِ يارب ما عا   ناهُ في الأرضِ رسْلُكَ الخلصاء
أنت قدَّرتَ أن يعذَّبَ في الأر   ضِ نبيٌّ ، وينعمُ الأغبياء !

***

طالَ سيرُ الفتى وناءت قواه   وعراهُ بعد النشاطِ وَناء
أينَ يمضي به أبوه ولا زا   دَ لديهِ ، وليس في القفرِ ماء
ألفيافي ممتدةٌ كالأماني   لا تناهى وكلها جرداء
فإلامَ السيرُ المُمِضُّ وما لِلـ   ـقفرِ من أوَّلٍ وليس انتهاء ؟؟...
وتجرّى وقال يَستطلِعُ السرَّ   وقد آده الوَنى والظماءُ
وشجاه الصمتُ الطويلُ ، وللصَّمـ   ـتِ على القلبِ غمةٌ دكناء :
« أبتي طالَ سيرُنا وعراني   نصبٌ منه مُرمِضٌ وعناء
أين نبغي ؟ لعلنا قد ضَلَلْنا   نهجَنا ! أين قصدُنا والرَّجاء ؟
أبتاهُ كلَّتْ يداي ورجلا   يَ ، وأدمتْ أصابعي الحصباء
مِلْ إلى الظلِّ نستجِمَّ قليلا   فلقد هدَّ قوّتي الإعياء ! »
فأجابَ الأبُ الرحيمُ يواسيـ   ـهِ وقد شفَّه الأسى والشقاء
باسماً يمنعُ المدامعَ أن تجـ   ـري ، وأن تستفزَّه البُرَحاء :
« ياصغيري الحبيبَ ، كيف خبا عز   مُكَ ، أين الثباتُ أين المضاء ؟
غايةُ السيرِ ذروةُ التلِّ هـذا ،   وعليه المقيـلُ والإرساء
فوقه يا بنيَّ تؤسى الجراحا   تُ ، وتلقى الجهودُ والأعباء
فوقه يابنيَّ يرقُبُنا العطفُ   من اللهِ ربِّنا والرِّضاء »
فاستحى الطفلُ من أبيه وأغضى   منتهى البثِّ والأسى الإغضاءُ
ثمَّ سارا وفي الفؤادين نارٌ   وأحاديثُ جمَّةٌ وبكاءُ ! ...

***

واستوتْ في سمائها الشمسُ عجباً   وتلظَّتْ من وقدها الرَّمضاء
وتغنَّتْ فيها الجنادبُ فرحى   وعليها من الرِّمالِ خِباء
سكنتْ خطرةُ النسائمِ فالأر   ضُ لهيبٌ والأفقُ والأجواءُ
وأناخَ الخمولُ كَلْكَلَهُ المُضْـ   ـني ، وأغفتْ كالمتعَبِ البيداءُ
فبكى الطفلُ لا يحيرُ شكاةً   والفيافي عن بثِّه صماءُ
مُطرِقاً رأسَهُ الصغيرَ ليخفي   عن أبيه البُكى ، وكيفَ الخفاء ؟
وأبوه الساجي يُسارِقُهُ اللحـ   ـظَ فتنزو في صدره الأدواءُ
مَشهدٌ يمنعُ القوافي منَ الجر   يِ وتَعْيا عن وصفه الشعراء !
إيهِ دمعَ البنينَ ماذا يُعاني   ويقاسي من سكبكَ الآباء !؟
رحمةً للأبِ الشفيقِ وللأمِّ   م إذا ما تباكَتِ الأبناءُ !

***

مَسَحَ الطفلُ أدمعاً فوق خدَّيـ   ـهِ وأهدابُه لها لألاءُ
قائلاً والشحوبُ في وجهِهِ با   دٍ كمن قد براه داءٌ عياء :
« يا أبي قد دنا المكانُ وفيه   للمهيضِ الهناءُ والنَّعماءُ
هو ذا المذبحُ المقدَّسُ والحبـ   ـلُ ، وهذي سكينُكَ العَوجاء
وعلى منكبيَّ محرقةُ الذبـ   ـحِ ، فأين الضحيَّةُ القرناء ؟
أتُرى قد نسيتَها أم تراها   سبقتنا بها إليه الرِّعاء ؟ »
صُعِقَ الوالدُ الوجيعُ وسالت   عَبرةٌ فوق خدِّه عصماء
وأجاب ابنَهُ مُشيحاً بوجهٍ   غضَّنته السنون والأرزاء :
« ياصغيري هناك يرقُبُنا القر   بانُ ، لا يقعُدَنْ بنا الإبطاء
لنحثَّ الخطى إليه سراعاً   فسيحلو لنا هناك البقاء »
إيهِ يا موكبَ الجلالِ الذي ما   دتْ له من خشوعها الصحراء !

فالروابى ذواهـلٌ مطرقاتٌ والنُّسَيْمات حوله سَجواء

إنَّ هذى الدموعَ ضجَّت لها الدنيــــا ، ورُجَّتْ لسكبها الأرجاء

وأجل الدموع ما يَذرف القلـــب ، وتعيى عن حبسه الكبرياء

الفتى خافتُ الأنين صَموتٌ قد بَراه طول المَدى والجفاء

وأبوهُ يبكى عليهِ حناناً يا لَدَمْعٍ تَسُحُّه الأنبياء !

يا لدمعٍ تهزُّهُ رحمةُ القلـــبِ ، فيُبقيه مِ الجفونِ الاباء !

* * *

ذاكَ إبليسُ فتنة الشَرِّ والآ ثام ، مَنْ كلُّ همِّهِ الاغواء

ساءهُ أنْ يفوزَ ما أمر اللــــهُ ، وأنْ يُخذلَ الخنا والرِّياءُ

فأتى هاجَراً يُنَبِّئُها الأمـــرَ ، وإبليسُ ساعداه النَّساء

قال : « فيمَ الثَّواءُ يا أُمُّ إسما عيلَ ، والثُّكلُ بيِّنٌ والشقاء

لستِ تدرين مايحيك لكِ المِقــــدار ، نامت عن حظها الأشقياء !

قد غدا بابنكِ المحبَّبِ إبرا هيم تحدوهُ جُنَّةٌ هَوْجاء

زاعماً ـ والالهُ أعول من أنْ تَصْطلى نارَ سُخطِهِ الأبرياء ـ

أنَّ وحياً أتاهُ ، فى الليلِ ، والنا سُ نيام ، والأرض والآناء

ودعاهُ ليذبحَ الطفلَ صبراً ! تلك رُؤيا كذوبة شنعاء

أسرعى ! أنقذيه ! من قبل أن تُر وى بقانى دمائه الغبراء . . . »

فأجابته وهى تُخفى أساها ولَظاها : « لن يكذبَ الإيحاء !

إن يكن ذاكَ ما أراد إلهى فهوَ الخير كله والهناء »

* * *

إيه إبليس ! خاب فألُكَ يا مِســـكينُ ! ما كلُّ غادةٍ حوَّاء !

* * *

وصلَ الوالد الحزين ، ولكن ودَّ لوْ طالَ سيره والعناء

وابنه من ورائه مُثقَل الخطـــوِ ، تلظَّى فى صدره الصُّعَداء

رازحٌ تحت عِبئه لاهث الصد رِ ، وللظهر كالمسِنِّ انحناء

حطَّ عن منكبيْه وهو يجيل الـ طَّرفَ : أين الخراف ، أينَ الظباء !

نظرَ الطفل حوله ، فإذا الأر ض خلاء من الأضاحى قَواء

وتحرَّى فلم يجد حوله الذبحَ ولا هزَّ مسمعيه ثغاء

فرنا ثائرَ الشكوك ، وفى عيــــنيه شوق للسرِّ واستقصاء

وأبوه يحار فى فمه النطــ ق ، وفى الرزء تبكم البلغاء

شدَّ من حزنه على قلبه الوا هى ، وعشَّتْ عيونه الضرَّاء

وتهاوت دموعه مثل ما رفَّـــت على زنبق الربى الأنداء

ربِّ رحماكَ ! مايقول ؟ وما يفـ شى ؟ وكيف المقال والإفشاء ؟

هبْه يارب من لدنك بياناً فلقد يعقد اللسانَ البلاء !

قالَ يانورَ مُقلتىَّ ويامن هو عيشى وسلوتى والرجاء

ياوحيدي ! يا مأملى ! يا سراجى ماندَجتْ همومى الكدراء

طال ماقد كتمتُ عنك من السر م وقد شاق سمعك الاصغاء

يارجائى ! ماذا أقولُ ؟ وهل للنُّـ طق في زحمة الدموع غَناء ؟

كلما همَّ بالكلام لسانى أبْدَسَتْه المصيبة السوداء !

أترى أنتَ إن ذكرتُ لكَ الأمـ رَ مطيعى أم غاضبٌ أبّاء ؟

جاءنى الوَحْى فى المنام بأمرٍ ليس فيه دفعٌ ولا إرجاء

قال لى : اذبحْ غداً وحيدَكَ ، ياللْـ هَوْل تنزو لذِكْره الأحناء

يابنىَّ ! انظرْ ما تراهُ ، ولا تأ خُذكَ بى غضبةٌ ولا استهزاء

ليت شعرى ! أذاك أمرُ إلهى أم تُرَى تلكَ لوثتى الحمقاء ؟ »

* * *

فاقشعرَّ الفتى كما انتفضتْ فى خَطرة الرِّيح ، وردةٌ حسناء

وسرَت رهبةُ الرَّدى فى مُحيا هُ ، ورفَّت غمامةٌ صفراء

ودَّ لو يكتمُ الأسى عن أبيهِ ، كيف يخفى عن العيون الداء ؟

رعدةُ الموتِ ماتخلَّصَ منها فقراء قضوا ولا أُمراء

إنما الموتُ حينما حلَّ فى الكو خِ وفى القصر غُمَّة وبلاء

هو للشَّيبِ مثلما هو للأطـ فال ، غُوْلٌ ، وحيَّةٌ ، رقطاء

وأجاب الفتى يواسى أباه لو يفيد العزاء والتأساء !

« أبتاه ! هوِّن عليك ! فإنى لستُ ممَّنْ من القضاء يُساء

حبذا مصرعى بكفِّك إمَّا كان فيه لربِّنا إرضاء

أبتاه ! افعلْ ما أمرت ولا تأ خُذكَ بى رحمةٌ ولا أهواء

أنفِذِ الوحىَ يا أبي ! هل يطيعُ اللــــهَ إلا المعاشر السعداء ؟

أبتاه ! إن حانَ يومى فهلْ عَنْـ ... ـهُ محيدٌ ، أو هل ليومى اتّقاء ؟

أينا خالد على هــذه الأرْ ... ضِ ، وما للحياة فيها بقاء ؟

لاتهنْ يا أبى هَـلمَّ فأضجِعْـنىَ من قبل أن يَدِبَّ المساء

ثم عصِّب عينىَّ رفقاً بمنديـل ، فالموتُ سَحْنة نكراء

واشحذ الخنجرَ المُظمَّأ حتى ... تتلظّى شباتُه الحمراء

ثم ضمه على خناق واذبحـ ... ـنى كما تَذبحُ الظِّبا والشاء . . .

فإذا ماذبحتنى وتروّت ... من دَمى هـذه الرمال الظِماء

فاحترس أن يصيبَ كفك شىءٌ ... منه ، أو أن يبلَّ منك الرداء

وتجنب رَشاشهُ ، لايهنْ أجْـ ... ـركَ فيه ، ولا يقِلَّ الجزاء

دعْـه للرمْل ينسربْ فى حنايا ... هُ ، ففيـه لحرِّها إطفاء

دعْـه يذهب كما تبدَّدَ عطرٌ ... فى الفضا أو تغيَّبتْ أصداء ..

وإذا مافرغتَ منِّى وحالت ... بيننا ظلمةُ الرَّدى السّحْماء

وأردت الرجوعَ بعدى إلى الدا ... رِ ، فلى يا أبى إليكَ رجاء

ذاكَ ثوبى فانزعْه عنِّى إذا متُّ ، وقد خضَّبَتْه منِّى الدماء

واحبُه إذ تعود ذِكرى لأمِّى ... فيـه سَلوةٌ لها وعزاء

إيه ! أمّاه لوعلمت مصيرى ... وتبيَّنتُ ما تريد السماء

لتَمكَّنْتُ منكِ لثماً وتقبيـ ... ـلاً ، ولكن هيهات منّا اللقاء!

لستُ آمَنُ إلاَّ عليكِ من الدُّنيـــا ، ولولاكِ لم يرُعْنى الفناء ..

عذب الموت فى سبيلكَ ياربُّ ... وساغَ البـلَى وطاب الفناء

فرور السكِّين فى العنق لثمٌ ... ولهيبُ النيران ظلٌّ وماء . .

***

أضجعَ الوالد ابنَه مثلما تُضْـ ... ـجعُ شاةٌ وديعةٌ خرساء

والفتى ساكنٌ كما نام فى المَهـ ... ـدِ تغنيه أمُّه الحسناء

مُغمِضٌ عينَه على الدمع، هل يـ ... ـديه إلاّ الأذلة الجُبناء ؟

والأب الواله المعذَّب تدوي ... ثائرات فى صدْره الأنواء

قبَّلَ الطفْلَ ثم عصَّب عينيه ... وقد ينفع البصير الغطاء

تؤلم المبصرَ الدياجى وتنجو ... من قذاهن مقلة عمياء

وانتضى الخنجر الرهيب بكف ... أرعشتْها الفجيعة الحمراء

مثلما أُرعشت بكأس الحميا ... كفُّ صب مجنونة هوجاء

كاد يردى فتاه لولا هتاف ... فى السموات مطرب ونداء

وإذا بالسماء تلتمع الأنـ ... ـوار فيها وتسطع الأضواء

وإذا بالأكوان ترقص فى الجوِّ ... حبوراً وتهتف الأصداء . . .

رفع الوالد المعذب عينا ... ملأتْها المدامع العصماء

فإذا بالدموع تضحك فى عيـ ... ـنيه بشراً وتنجلى الضراء

وتهزُّ البشرى الرحيمة كفيـ ... ـه فتهوى سكينه الصمّاء

ملك فى الفضاء يحمل كبشاً ... قد تعالى فى السُّحب منه الثغاء

هبط الأرض مثلما تهبط الروْ ... ض اشتياقاً حمامة بيضاء

فدية للصبى أرسلها الله ... تهادى بحملها البشراء

رحمة الله كم تداركت الخلْـ ... ـقَ وقد أعوزتهم الرحماء

***

ياخليل الرحمن هيا ارفع الطفـل فقد ردَّه إليكَ السماء

واذبح الكبشَ يانبىُّ فداء ... عظمَ المفتدى وطابَ الفداء

واسجدا خاشعين شكر المنعم ... البرايا نداه والآلاء

رحمةُ الله تغمر المجرم العا ... صى ، فكيف الخلائق الأبرياء

. . . .

إيه شعرى قد تيَّمَتْكَ البطولا ... تُ وأغراك نورُها الوضّاء

غنِّها فهىَ للجراحات مَلهى ... وعزاءٌ وبَلسمٌ وشفاء

وارْوها فالشبابُ مُصغٍ لما تنـشد قد هدَّه الأسى والداء

والزمان الشقىُّ ساد به الشرُّ ... وأخنى على بنيـه الشقاء

عُـذِّبت فى جحيمه العبقريّا ... ت كما فاز بالنعيم الرّياء . . .

غنِّها ربما تعزّي جريحٌ ... أو تجافتْ عن ذلِّها الجبناء

سِيَرُ الخالدين كم شبَّ فى أحـ ... ضانها الخالدون والعظماء

دمشق — أمجد الطرابلسى

علم التاريخ عند العرب

للأستاذ عبد الحميد العبادى

التأريخ بالهمز والتاريخ بدون همز ، والتوريخ ، تعريف الوقت. وهو لفظ عربي أصيل ، وقيل بل دخيل مأخوذ من أصل سرياني معناه (الشهر) ؛ وكانوا قبل الاسلام يوقتون بالنجوم والأهلة يكبسون الشهور إلحاقاً للسنة القمرية بالسنة الشمسية ؛ وكانوا يؤرخون من الحوادث العظام والوقائع المشهورة كعام الفيل وبناء الكعبة ونحوهما . فلما كانت خلافة ثاني الخلفاء أمر عمر الناس فأرخوا من عام الهجرة ، ومضى الأمر على ذلك حتى يومنا هذا

هذا في اللغة ؛ أما في الاصطلاح فالتاريخ عندهم فن يبحث عن وقائع الزمان من حيث توقيتها ، وموضوعه الانسان والزمان. وهو على هذا المعنى قديم عندهم ، نما معرفة بسيطة ساذجة من معارف العرب قبل الاسلام ، ثم تكمل على الزمن حتى أصبح علماً من أجل علومهم وأعظمها شأناً . فعرب الجاهلية كانوا لغلبة الأمية عليهم يتذاكرون أيامهم وأحداثهم من طريق الرواية الشفوية على هيئة أشعار مقصدة أو أخبار متفرقة ؛ وشذ عن تلك الحال من اطرح منهم البداوة ونزل حواضر الجزيرة وخاصة أهل اليمن والحيرة ، فقد نقش الأولون بالخط المسند على مبانيهم لمعا من أخبار ملوكهم وشئونهم العامة ؛ ودون الآخرون بخطهم أخبار مملكتهم وأودعوها أديار الحيرة وكنائسها

فلما جاء الإسلام ، وقامت الدولة العربية ومست الحاجة إلى معرفة سيرة الرسول العربي وأحواله استقصاء للسنة توفر رجال على جمع أخبار السيرة وتدوينها ، فكان ذلك بدء اشتغال العرب في الاسلام بالتاريخ ، وإن كان التاريخ لم يخرج يومئذ عن كونه نوعا من أنواع الحديث . وأقدم من كتب في موضوع السيرة عروة بن الزبير بن العوام المتوفى عام ٩٣ هـ ، وأبان بن عثمان ابن عفان المتوفى عام ١٠٥ هـ ، ووهب بن منبه المتوفى حوالى عام ١١٠ هـ . ثم انتهى علم السيرة والمغازي إلى رجلين من الموالي هما محمد بن اسحق المتوفى عام ١٥٢ هـ وقد اختصر سيرته ابن هشام المتوفى عام ٢١٨هـ ومختصره هذا هو الذي بأيدي الناس اليوم ؛ ثم محمد بن عمر الواقدي المتوفى عام ٢٠٧ ، وكثير من روايته مضمن في كتاب الطبقات الكبير لابن سعد المتوفى عام ٢٣٠ هـ هذا إلى كتاب له في مغازي الرسول مطبوع متداول

٭٭٭

وفي أثناء ذلك كانت قد تمت الفتوح العربية الكبرى ؛ ووقعت الفتن العظمى ، ونبض عرق العصبية القبلية ، وشاعت بين المسلمين أخبار الأمم القديمة والديانات غير الاسلامية على أيدي رجال مثل كعب الأحبار المتوفى عام ٣٤ هـ (؟) وعبيد بن شرية المتوفى حوالى عام ٧٠ هـ ووهب بن منبه المتوفى حوالى عام ١١٠ هـ فتوافرت أسباب شتى اقتضت جمع وتدوين الأخبار المتصلة بكل ذلك ؛ فتدوين أخبار القدماء مثلا دعت اليه رغبة العلماء في فهم إشارات إلى الأمم الغابرة وردت في الكتاب والسنة ، وميل بعض الخلفاء كمعاوية والمنصور إلى الاطلاع على سياسات الملوك ومكايدهم ؛ هذا فضلا عن حرص الموالي على التنويه بمجد بلادهم القديم . ثم إن تدوين الأنساب وأيام العرب كان مطاوعة لحاجة الشعراء اليها عامة في مقام الفخر والهجاء ، وحاجة الدولة للأنساب خاصة للاستعانة بها في تقدير العطاء للجند . وكان الباعث الأقوى على تدوين أخبار الفتوح رغبة ولاة الأمور في معرفة ما فتح من البلدان صلحا ، وما فتح عنوة ، وما فتح بعهد ، لأن لكل حكما خاصا من حيث الجزية والخراج . فلما دون ذلك كله وجد إلى جانب السيرة نوع آخر من الرواية التاريخية موضوعه أخبار الماضين ، وأحوال الجاهلية ، وحوادث الاسلام . وقد أطلقوا على ذلك كله لفظ «الأخبار» وعلى المتخصص في روايته «الأخباري» كما عرف المتخصص في رواية الحديث «بالمحدث» . ونلحظ النقلة من الحديث إلى الأخبار في رجال خواص منهم ابن اسحق والواقدي المتقدما الذكر . والمدائني المتوفى عام ٢٢٥ هـ . فكل

من هؤلاء كان محدثا وأخباريا معا . كما نلحظ بداية التخصص فى الأخبار فى مثل محمد بن السائب الكلبي المتوفى عام ١٤٦ هـ وكان مقدما فى علم الأنساب ، وعوانة بن الحكم المتوفى عام ١٤٧ وقد جمع أخبار بنى أمية ، وأبى مخنف المتوفى عام ١٥٧ ، وله كتب فى الردة ووقعة الجمل ووقعة صفين وأخبار الخوارج . وسيف ابن عمر المتوفى عام ١٧٠ وله كتاب كبير فى الفتوح ، وهشام بن محمد بن السائب الكلبى المتوفى عام ٢٠٤ وله فى أخبار الأوائل وأيام العرب وأنسابهم وأخبار الأسلام كتب كثيرة أحصاها ابن النديم فى كتاب الفهرست ، وقد طبع منها حديثا « كتاب الأصنام » .

وقد وجد فى تلك المرحلة نوع من التخصص المحلى فى رواية الأخبار ، فكان لبعض الأقطار الأسلامية الرئيسية أخباريون اختصوا بجمع أخباره وتدوينها . قال ابن النديم : « قالت العلماء : أبو مخنف بأمر العراق وأخبارها وفتوحها يزيد على غيره ، والمدائنى بأمر خراسان والهند وفارس ، والواقدى بأمر الحجاز والسيرة ، وقد اشتركوا فى فتوح الشام » .

على ان المحدث كان عند جمهور ذلك الزمان أشرف موضوعا وأسمى منزلة من الأخبارى ؛ وذلك يرجع إلى شرف موضوع الحديث وإلى أن الأخبار وخصوصا قديمها كانت مظنة الأغراب والتلفيق والاختلاق . ولقد بلغ الأمر بهم ان كانوا يضعفون المحدث إذا مال إلى الأخبار ، فقد ضعفوا محمد بن إسحق وكان أصلا راوية للحديث ، ثم صار يحمل عن اليهود والنصارى ويسميهم أهل العلم الاول . وربما لم يستحسنوا للفقيه المختص باستنباط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة أن يتوفر على طلب الأخبار . ذكر ابن خلكان « أن أبا يوسف كان يحفظ المغازى وأيام العرب وأنه مضى ليستمع المغازى من محمد بن اسحق أو غيره وأخل بمجلس أبى حنيفة ، فلما أتاه قال له أبو حنيفة ، يا أبا يوسف امن كان صاحب راية جالوت؟ فقال له أبو يوسف : إنك إمام ؛ وإن لم تمسك عن هذا سألتك والله على رؤوس الملأ أيما كان أولا ، وقعة بدر أو أحد ، فإنك لاتدرى أيهما كان قبل الآخر ، فأمسك عنه » .

* * *

وجملة القول أن أهل السيرة والأخبار قد رسموا فى أواخر القرن الثانى الموضوعات الأسلسية للتاريخ عند العرب ، وهى أمورا أربعة : (١) أخبار الماضين (٢) أحوال العرب قبل الاسلام (٣) السيرة (٤) أخبار الدولة الاسلامية . ومن أوائل القرن الثالث إلى أوائل الرابع يلحظ الباحث زيادة جوهرية فى المادة التاريخية ودقة وتحرراً فى مصادرها . فقد استقرت دواوين الدولة العباسية وتمهدت قواعدها ولا سيما دواوين الانشاء والجند والخراج والبريد ، وأمكن المشتغلين بالتاريخ أن ينتفعوا بها فى بحثهم ، كما يؤخذ مما اشتملت عليه تواريخ القرن الثالث من عهود رسمية ومراسلات سياسية وإحصاءات للمواليد والوفيات ، ومدد ولاية كبار الدولة من وزراء وقواد وعمال وقضاة وولاة لمواسم الحج ووصف للحروب الداخلية ووقائع الغزو على الحدود صيفاً وشتاء وغير ذلك . ثم إنه فى العصر المذكور قويت حركة النقل عن اللغات الأجنبية كالفارسية والسريانية واليونانية واللاتينية . وقد بدأت هذه الحركة من حيث التاريخ بترجمة ابن المقفع عن الفارسية حوالى عام ١٤٠ لكتابى خدينامه وآيينامه فى تاريخ الفرس وأحوالهم ؛ ومن هذا القبيل كتاب عهد أردشير الذى ترجمه إلى العربية البلاذرى المتوفى عام ٢٧٩ ، ومنه أيضاً ترجمة تاريخ هيروشيوس وإن كان ذلك قد تم بالأندلس حوالى منتصف القرن الرابع . ثم إن سهولة الانتقال بين أنحاء الدولة الاسلامية حملت كثيراً من طلاب العلم والمؤرخين خاصة على الرحلة فى طلب الرواية وأخذها عن الشيوخ ، ولرؤية عجائب البلاد ومشاهدة آثارها ، فوجد بذلك مصدر هام للمادة التاريخية هو المشاهدة والمعاينة . وعلى الجملة فإن مؤرخى القرن الثالث حددوا بصفة عامة مصادر التاريخ عند العرب فكانت أربعة أشياء (١) كتب السيرة والأخبار (٢) السجلات الرسمية (٣) الكتب المنقولة عن اللغات الأجنبية (٤) المشاهدة والعيان

وبتعاظم المادة التاريخية وتحرر مصادرها بالقياس إلى ما كانت عليه الحال من قبل لم ير كثير من أفاضل العلماء وثقات الفقهاء بأساً بالتوفر على دراسة التاريخ والتأليف فيه ؛ ومن ثم أخذ التاريخ مظهره الرائع كعلم من أجل علوم المسلمين وأعظمها شأناً ، وأخذ المؤرخون مكانتهم بين علماء الدولة الاسلامية كرجال لهم خطرهم فى الحياة العامة سياسية كانت أو عقلية أو أدبية . وتضاءل مدلول لفظ الأخبارى حتى أصبح كما فسره بعد السمعانى المتوفى عام ٥٦٢ بقوله : « ويقال لمن يروى الحكايات

والقصص والنوادر الأخبارى . نذكر من بين مؤرخى القرن الثالث ابن قتيبة صاحب كتاب المعارف وقد توفى عام ٢٧٠ ، والبلاذرى صاحب كتابي فتوح البلدان وأنساب الأشراف وتوفى عام ٢٧٩ ، واليعقوبى صاحب التاريخ المضاف إليه وتوفى عام ٢٨٤ ، والدينورى صاحب الأخبار الطوال والمتوفى عام ٢٩٠ وابن جرير الطبرى صاحب تاريخ الرسل والملوك والمتوفى عام ٣١٠ هـ

* * *

أخذت الوحدة السياسية التى انتظمت الدولة العباسية تداعى من منتصف القرن الثالث ، ولم تلبث تلك الدولة أن أصبحت مجموع دويلات عديدة يحكمها متغلبون مختلفو الأجناس فى مشارق الدولة ومغاربها . وجرت اللامركزية السياسية إلى لا مركزية أدبية ، فتوزعت الثقافة الاسلامية على الأمصار بعد أن كادت تكون مجموعة فى حاضرة الخلافة وحدها . ونافست بغداد قرطبة والقيروان ومصر وحلب وأصفهان ، وغزنة والرى وبلخ وغيرها ، وكثر العلماء فى الأمصار كثرة عظيمة . كل ذلك أثر فى كتابة التاريخ عند العرب تأثيراً كبيراً يتضح فى كثرة ماظهر إبتداء من منتصف القرن الثالث من التواريخ المحلية وكتب التراجم والطبقات خاصة ؛ من ذلك تاريخ فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم المتوفى عام ٢٥٧ ، وكتاب ولاة مصر وقضاتها للكندى المتوفى عام ٣٥٠ وتاريخ بغداد وأعلامها للخطيب البغدادى المتوفى عام ٤٦٣ ، وتاريخ دمشق وأعلامها لابن عساكر المتوفى عام ٥٧١ . والبيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذارى (القرن السابع) . ومعجم الأدباء لياقوت الحموى (٦٢٦) . ووفيات الأعيان لابن خلكان (٦٨١ هـ) وإلى جانب ذلك ظلت سلسلة التواريخ العامة مطردة من حيث انتهى الطبرى ، فوضع المسعودى المتوفى عام ٣٤٦ كتابه مروج الذهب وأخبار الزمان . وصنف ابن مسكويه (٤٢١) تجارب الأمم ، وابن الأثير (٦٣٠) كتابه الكامل

واستتبع التفرق السياسى وهن القوة الذاتية للعالم الاسلامى فطمع فيه أعداؤه من وراء الحدود واجترءوا عليه واستباحوا حماه ، وبدت مقدمات ذلك فى استئساد الروم وانتقاصهم شمالى الشام فى القرن الرابع ، ثم أغار الصليبيون فى القرن الخامس والسادس على ملك المسلمين بالمغرب والمشرق ، ولم تكد تلك الغمة تنجلى عن العالم الاسلامى حتى كانت الداهية الدهياء والطامة الكبرى وهى غارة المغول ، فقضى على الخلافة العباسية ودمرت معالم الحضارة الاسلامية فى القارة الآسيوية تدميرا

واتضحت عبر التاريخ وصروف الزمن بعد تلك الأحداث الجسام والخطوب العظام ، فكان طبيعيا أن ينحو المؤرخ الاسلامى في التاريخ تلقاء ذلك كله منحى فلسفيا عميقا فيتعرف علل الحوادث وأسباب قيام الدول وأسباب سقوطها ومظاهر العمران وأصول الاجتماع ونحو ذلك . وهذا ما صنعه فيلسوف مؤرخى العرب قاطبة عبد الرحمن بن خلدون المتوفى عام ٨٠٨ فى مقدمة تاريخه التى لم يكتب مثلها فى الاسلام على الاطلاق . ثم لم يلبث علم التاريخ أن نظر إليه على أنه يمكن أن يكون هو نفسه محلا للتاريخ فوضع فى ذلك الصفدى (٧٦٤) مقدمة كتابه الوافى بالوفيات ، والسخاوى المتوفى عام ٩٠٢ كتابه الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ .

فيرى القارىء أنه فيما بين الرواية الشفوية القديمة وفلسفة التاريخ لابن خلدون وتاريخ التاريخ للسخاوى ، قد نما التاريخ عند العرب وتفرع وأزهر وأثمر ، فلما نضب معينه بانحلال الحياة الاسلامية العامة المستقرة جرى عليه مايجرى على الأحياء من حكم البلى والفناء متى انقطعت مادة حياتها

* * *

ذلك مجمل حال التاريخ عند العرب نشوءاً واكتمالا وهرماً وفناء ؛ أما من حيث الطريقة العلمية التى اتبعوها فالتاريخ ابتدأ عندهم كما رأينا فرعاً من علم الحديث فكان حرياً أن يتأثر بطريقة المحدثين فى جمع الرواية التاريخية ونقدها . فكان أهل السيرة والمغازي والأخبار يجمعون مأثور الروايات ويدونونها مع إسنادها إلى مصدرها الأصلى وهو عادة رجل عدل له علم مباشر بالواقعة المروية كأن يكون عاينها أو اشترك فيها كما هى الحال فى رواية أخبار السيرة والاسلام ، أو أخذها من بعض مظانها ككتاب قديم ضاع ، أومن بعض أهل البادية ، وتلك كانت الحال فى رواية أخبار الأمم القديمة والعرب قبل الاسلام . فكان النقد عندهم أو الجرح والتعديل كما يسمونه ذاتياً منصباً على الرواة . لاموضوعياً منصباً على المرويات هذه الطريقة ضمنت

لهم إلى حد بعيدصحة الأخبار المتصلة بالقسم التاريخى من السيرة وبحوادث الدولة الاسلامية ، ولكنها عجزت عن أن تضمن لهم ذلك فى أخبار القدماء والعرب قبل الاسلام والقسم الأول من السيرة . والحق أن هذه الموضوعات الأخيرة هى أضعف وأغمض نواحى كتب التاريخ عند العرب .

واذا كان الأسناد عندهم أساس نقد الأخبار فقد كان أساس ضبطها هو التوقيت الدقيق بالسنين والشهور والأيام ، وهو ضابط انفردوا به عن نظرائهم عند اليونان والرومان وأوروبا فى العصور الوسطى. قال المؤرخ الانجليزى (بكل) : ان التوقيت على هذا النحو لم يعرف فى أوروبا قبل عام ١٥٩٧ . على أن هذا النظام ابتدأ ضعيفا عندهم ، فكثير من حوادث الفتوح الأولى قد وقع فى توقيته خلط شديد واختلاف كثير. ثم تكمل التوقيت على مر الزمن بتعدد طرق الخبر الواحد وبالأخذ عن المصادر الرسمية التى سبقت الاشارة اليها .

وقد اتبعوا طريقة علماء الحديث كذلك فى تدارس كتب التاريخ وتلقيها عن مؤلفيها بالسند المتصل قراءة وسماعا وإجازة ؛ فكتاب الأصنام مثلا تتصل سلسلة روايته عن ابن الكلبى من عام ٢٠١ إلى قريب من عام ٥٠٠ . ومثل ذلك يقال فى مغازى الواقدى وكثير غيره من كتب التاريخ . وتلك مبالغة محمودة فى المحافظة على النصوص التاريخية الهامة والكتب المعتبرة أمهات وأصولا .

تلك طريقتهم فى جمع الرواية التاريخية ونقدها وضبطها ؛ أما عرضهم لها فأصحاب السيرة والمغازى والأخباريون الأوائل كانوا يجمعون الروايات ويرتبونها بحسب موضوعاتها رسائل أوكتباً تشبه أبواب الحديث ؛ ثم جاء المؤرخون فسلكوا فى عرض الحوادث طريقتين أولاهما وأقدمهما الترتيب على السنين ، ويظهر أن أول من صنف على هذا النمط الهيثم بن عدى المتوفى عام ٢٠٧ ، ثم اتبعها من بعده الطبرى وابن مسكويه وابن الأثير وأبو الفداء . والأخرى الترتيب على العهود ، وقد جرى عليها اليعقوبى والدينورى والمسعودى وغيرهم .

ويتصل بعرض الحوادث أسلوب أدائها وتصويرها : أما الأسلوب فكان على وجه العموم سهلا غير متكلف . وأما التصوير فكان فيه وضوح وقوة وحياة كما فى العقود الأولى من تاريخ الطبرى وفى بعض فصول ابن مسكويه والصولى .

ويمكن تلخيص أوجه النقص فى طريقتهم فى أمور ثلاثة : ضعف ملكة النقد عندهم بوجه عام ، وادارتهم التاريخ على الأفراد والحروب والسياسة فى أبسط صورها ، وعدم عنايتهم بالشئون العامة للجماعات أو بتعليل الحوادث والنفاذ إلى أسرارها

على أنه مهما قيل فى نقص طريقتهم من الناحية العلمية فحسبهم أنهم خلفوا للمؤرخ الحديث ثروة تاريخية طائلة يستطيع أن يتدارك فى صياغتها ما فاتهم . وإن العالم الحديث يسجل لهم أنهم أول من حاول ضبط الحوادث بالاسناد والتوقيت الكامل ، وأنهم مدوا حدود البحث التاريخى ونوعوا التأليف فيه وأكثروه إلى درجة لم يلحق بهم فيها من تقدمهم أو عاصرهم من مؤرخى الأمم الأخرى ، وأنهم أول من كتب فى فلسفة التاريخ والإجتماع وتأريخ التاريخ ، وأنهم حرصوا على العمل جهد طاقتهم بأول واجب المؤرخ وآخره ، وهو الصدق فى القول والنزاهة فى الحكم

عبد الحميد العبادى



التصوف الفلسفي في الاسلام

للدكتور أبو العلا عفيفي
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

سأعرض في هذا البحث للتصوف الفلسفي من ناحية نشأته والعناصر التي دخلت في تكوينه لا من حيث مسائله ولا نظرياته، وإن كنت سأشير إلى بعض هذه النظريات اشارة سريعة مجملة ونشأة التصوف الفلسفي في الاسلام متصلة بنشأة التصوف نفسه من جهة، وبنشأة الزهد الذي تقدم التصوف الفلسفي منه وغير الفلسفي

وربما خلط بعض الناس بين التصوف والتصوف الفلسفي من جهة، وبين التصوف والزهد من جهة أخرى؛ أو فهم الثلاثة أنها من المترادفات، وليس هذا بنادر الوقوع. أما الزهد فهو الناحية العملية من الطريق الصوفي؛ أو هو الحياة التي يحياها الصوفي، تلك الحياة البادية في مظهره الخارجي من تقشف في المأكل والمشرب واعتزال للناس وانقطاع إلى الله، والبادية في حياته الباطنة الروحية من خشية من الله وورع وتقوى وعبادة وصوم وصلاة وذكر وتهجد وهجر للدنيا وزخرفها. وأما التصوف فأصدق وصف له أنه طريق لتصفية النفس ومجاهدتها ورياضتها والانتقال بها من حال إلى حال ومن مقام إلى مقام والترقي بها في خطوات بطيئة عسيرة حتى يصل بها صاحبها إلى المقام الذي يطلق عليه الصوفية اسم مقام الشهود أو الوجد أو الفناء – وهو المقام الذي يدرك فيه الصوفي – وفي هذه الحالة لافرق بين صوفي مسلم وصوفي مسيحي أو يهودي أو بوذي – يدرك من الحقائق ما لا سبيل للعقل الانساني أن يدركه، ويتذوق من المعاني ما يكل اللسان الانساني عن شرحه

وأما التصوف الفلسفي فهو الأساس الميتافيزيقي أو النظريات الفلسفية التي يحاول بها الصوفيون في وقت صحوهم تفسير أو تعليل ما يجدونه في وقت سكرتهم أو في حالة وجدهم

وقد وجدت هذه الأنواع الثلاثة في الاسلام وظهرت فيه ظهورا تاريخيا متواليا بحيث يمكن اعتبار كل منها دورا من أدوار التصوف هو بمثابة المقدمة المنطقية للدور الذي يليه، فظهر الزهد في القرنين الأولين من الهجرة، وظهر التصوف في القرن الثالث، وظهر التصوف الاسلامي في القرن الرابع وما بعده، ولم يأت القرن السادس والسابع حتى بلغ التصوف الفلسفي أقصى حده في النضوج ثم ضعف شأنه بعد ذلك تدريجيا

أما الزهد فقد ظهر في الاسلام قويا فتيا بمجرد ظهور الاسلام تقريبا؛ ذلك أن الاسلام دين ورحمة وزهد وتقوى؛ وليس دين دنيا وشهوات ولذات كما يصفه بذلك أعداؤه الذين يحاولون تعليل نشأة الزهد في الاسلام بأنها راجعة إلى عوامل كلها خارجة عن الاسلام، ويخصون بالذكر من بين هذه العوامل المسيحية والرهبنة المسيحية التي كانت منتشرة في صحراء العرب وبلاد الشام ومصر وغيرها من البلاد الاسلامية

نعم لم يدع الاسلام الى الرهبنة، بل هو صريح في إنكارها في القرآن والحديث، ولكنه دعا الى العبادة والورع والتقوى والتهجد وقيام الليل والصوم والصلاة

نعم لم يذكر القرآن كلمة زهد ولا مادة الزهد الا في آية واحدة في سورة يوسف في قوله تعالى «وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين» ولم يذكرها هنا على سبيل المدح ولا بالمعنى الذي نتكلم عنه. ولكنه وإن لم يذكر «الزاهد» فقد ذكر العابدين والسائحين والقانتين والمخبتين والركع السجود، وكل هذه من صفات الزاهدين

واذا كان الزهد طريقة للتقرب الى الله ومناجاته وذكره فقد وصف القرآن الله بأنه رحيم، وبأنه ودود، وبأنه قريب من عبده، بل إنه أقرب اليه من حبل الوريد، وبأنه سميع مجيب يجيب دعوة الداعي اذا دعاه

فلا حجة للقائلين بان فكرة الحب الالهى قد دخلت الى الزهد الاسلامى عن طريق المسيحية لأن الاسلام قد قضى على كل أمل فى الاتصال الروحي بين العبد وربه بوصفه الله بأنه جبار متكبر منتقم الخ

ظهر الزهد فى الاسلام اذن داعيا إليه الاسلام كما قلنا وداعيا اليه ظروف أخرى هي الظروف السياسية القاسية التى عاش فيها المسلمون فى عهد الخلفاء وعهد بنى أمية — فقد كان هذا العصر عصر حروب وفتن مستمرة وقلاقل واضطرابات — وفيه دخلت النظريات السياسية الى العقائد الدينية ، وتدخل الحكام فى آراء الناس الدينية ومعتقداتهم ، فاضطهدت الحرية وكبت التفكير الحر: فشعر من لم يميلوا إلى اعتزال الناس بضرورة العزلة وزهدوا فى الدنيا وزخرفها وفى الحكومة والحكام

أما الرهبنة المسيحية فقد كان لها أيضا أثرها فى الزهد الاسلامى لامن حيث أنها كانت السبب فى وجوده ، بل من ناحية أنه تسرب الى طريقة المسلمين فى الزهد كثير من تقاليد الرهبان المسيحيين وعاداتهم وطقوسهم

بل إن القرن الثانى لم يكد ينتهى حتى انتظمت حركة الزهد الاسلامى داخل أديرة وصوامع أشبه بأديرة وصوامع المسيحيين: فأسست خانقاه فى دمشق سنة ١٥٠ هـ وأخرى بخراسان سنة ٢٠٠ . ويقول عبد الرحمن جامى فى كتابه نفحات الأنس أن أول خانقاه أسست فى الاسلام كانت بالرملة بفلسطين أسسها فى القرن الثانى راهب مسيحى — وإن كان المقريزى يقول فى الخطط إن الأديرة لم تظهر فى الاسلام إلا فى القرن الخامس الهجرى — ولعله يقصد بذلك انتشار الأديرة فى البلاد الاسلامية لا مجرد وجود بعضها

وقد امتاز الزهد فى القرنين الأول والثانى — ولاسيما القرن الثانى بصدق الورع والتقوى وسلامة الايمان والخشية الشديدة من الله ومن عذاب جهنم ، والأمل الشديد فى الحظوة برؤية الله فى الدار الآخرة ، وكثرة المناجاة والكلام فى الحب الالهى

وقد تغلغل الزهد فى نفوس المسلمين العامة والخاصة على السواء ، وظهر منهم فى القرن الثانى أمثال الحسن البصرى المتوفى سنة ١١٠ وهو المؤسس لفرقة الصوفية بالبصرة ، وابراهيم بن أدهم البلخى المتوفى سنة ١٦١ ، وداود بن نصير المتوفى سنة ١٦٥ ، والفضيل ابن عياض المتوفى سنة ١٨٦ ، ومن النساء رابعة العدوية التى توفيت سنة ١٣٥

وكانت رابعة آية من آيات الله فى الزهد : زهدت أولا فى الحياة الدنيا وزخرفها طمعا فى الآخرة وجنتها ، ثم زهدت فى الجنة طمعا فى الفوز بمحبة الله ورضاه

وقد حل الحب الالهى من قلبها كل مكان فأصبحت لا تناجى سوى الله ولا تتحدث إلا إليه ؛ وفى هذا يحكى شهاب الدين السهروردى فى عوارف المعارف أنها كانت تقول :

إنى جعلتك فى الفؤاد مؤانسى   وأبحت جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس   وحبيب قلبى فى الفؤاد جليسى

ويقول القشيرى عنها إنها كانت تقول فى مناجاتها « إلهى ! تحرق بالنار قلبا يحبك ؟ » فهتف بها هاتف : ما كنا نفعل ذلك؛ فلا تظنى بنا ظن السوء

***

أما القرن الثالث فدور انتقال من الزهد إلى التصوف بمعناه الحقيق . والواقع أن هذا الدور كان أقرب إلى الزهد منه إلى التصوف . فى هذا القرن نجد كلمة « صوفى » شائعة الاستعمال ولم يكثر استعمالها قبل نهاية القرن الثانى خلافا لما ذهب إليه القشيرى ، فلم يفرق الناس بين زاهد وصوفى لأنه لم يوجد من الزهاد من ينطبق عليه وصف صوفى بالمعنى الدقيق . أما فى القرن الثالث فحصل التمييز بينهما فسمى الزاهد زاهدا وسمى الصوفى صوفيا أحيانا وعارفا أحيانا

بل إننا نجد فى هذا القرن تحولا فى وجهة نظر الزهاد أنفسهم ، فإنهم لم يعودوا ينظرون إلى الزهد باعتباره غاية فى نفسه ، بل نظروا إليه باعتباره وسيلة لتحقيق غاية أخرى هي الكشف : أى أنهم اعتبروا الزهد مرحلة من مراحل الطريق بواسطتها يصل السالك أو المريد إلى تصفية النفس والترقى بها فى معارج الحياة الروحية إلى أن يصل بها إلى حالة الفناء التى تنكشف له فيها الحقائق الالهية ، فتنعكس هذه الحقائق على مرآة قلبه كما تنعكس صور المرئيات على صفحة المرآة الصقيلة المجلوة

وفى هذا القرن أيضا نجد القوم يكثرون من الكلام فى المواجد والأذواق ، ويصفون الأحوال والمقامات ، ويتكلمون فى الصحو والسكر والمحو وفى الوحدة والسكرة والتفريد والتجريد والفناء

والبقاء وغير ذلك من أحوالهم الصوفية

يعرف معروف الكرخي المتوفى سنة ٢٠٠ التصوف بأنه الأخذ بالحقائق واليأس مما فى أيدى الناس؛ يريد أنه ادراك الحقائق الالهية بواسطة الكشف والزهد فى الدنيا. وهذا تعريف جديد للتصوف لم نسمع به من قبل

ونغمة أخرى جديدة نسمعها من ذى النون المصرى الذى كان أول من تكلم فى المعرفة الحاصلة بالكشف واعتبرها المقياس الحقيقى لحياة الرجل الصوفى، يقول: إنه بمقدار مايعرف الصوفى من ربه يكون إنكاره لنفسه. وتمام المعرفة بالله تمام إنكار الذات، وهى الحالة التى عبر عنها غيره بالفناء

وفى هذا المعنى يقول الحسين بن على بن يزدينار: « يكون العارف بمشهد من الحق إذا بدا الشاهد، وفنى الشواهد، وذهب الحواس، واضمحل الاحساس »، وهو قول ينسبه بعض الصوفية للشبلى، ونغمة ثالثة نسمعها من أبى يزيد البسطامى (المتوفى سنة ٢٦١) فى الحال التى يعبر عنها القوم بالفناء: يقول أبو يزيد وقد سئل عن العارف (أى الصوفى): « للخلق أحوال ولا حال للعارف، لأنه محيت آثاره ورسومه، وفنيت هويته (أى شخصيته) لهوية غيره، وغيبت آثاره لآثار غيره؛ فالعارف خيار والزاهد سيار »، وفى هذا إشارة صريحة إلى التفرقة بين الزاهد والعارف أو الصوفى

***

فى أثناء هذا القرن كان التصوف الفلسفى فى دور التكوين: فقد توفرت العوامل على ظهوره، وتهيأت النفوس لقبوله. وظهرت بوادره بالفعل فى عبارات بعض الصوفية أمثال ذى النون المصرى وأبى يزيد البسطامى. ولكن من المغالاة أن نقول إن لأحد من متصوفة القرن الثالث مذهبا فلسفيا خاصا أو عقيدة فلسفية صوفية معينة، على الرغم من أن كثيرا من أقوالهم يمكن تأويلها تأويلا فلسفيا

ولكن سرعان ما انتهى عصر الانتقال وبدأ التصوف يدخل فى دوره الثالث وهو الدور الفلسفى الحقيقى؛ وكان ذلك فى القرن الرابع وما بعده، فقد تحول التصوف إلى شكل جديد بدخول النظريات الفلسفية فيه. وربما كان أول السابقين إلى هذا الميدان الحسين بن منصور الحلاج المتوفى سنة ٣٠٩ هـ

لم يقف الصوفية بعد القرن الثالث عند حد الكشف والشعور بالمواجد والأذواق فى أحوالهم الصوفية، بل حاولوا أن يفسروا ما يدركون ويؤولوا مايشعرون به، ويعللوا لما يتذوقونه من تلك المعانى التى هى فوق طور العقل، فكانت نتيجة شرحهم وتفسيرهم وتعليلهم أن وضعوا نظرياتهم الفلسفية. عرفوا الكشف فى أحوالهم فحاولوا أن يضعوا نظرية للكشف فى صحوهم: أدركوا وحدة الوجود فى حالة فنائهم فحاولوا تفسير وحدة الوجود. أدركوا الوحدة فى الكشف والتعدد فى الصحو فدعاهم ذلك إلى تفسير معنى الوحدة والكثرة، ومعنى الحق والخلق ومعنى الفيض والاتصال، والجمع والتفرقة وغير ذلك

فمجموعة تفسيراتهم لمظاهر الحياة الصوفية هى الذى نعنيه بفلسفتهم التى يمكننا أن نلخصها فى ثلاث نظريات: نظريتهم فى طبيعة الوجود، نظريتهم فى المعرفة، نظريتهم فى الانسان ومركزه فى العالم وموقفه من الله

على أن من الصوفية من رجال العصر المتأخر أمثال محيى الدين بن عدى، وشهاب الدين عمر السهروردى المقتول، من سلك مسلك الفلاسفة من بادىء الأمر، فكانت لهم وجهات نظر فلسفية خاصة فى طبيعة الوجود وفى الانسان والعالم، فاستعملوا المنهج النظرى الفلسفى وأساليب الفلاسفة واصطلاحاتهم واستدلالاتهم، ثم نظروا إلى التصوف باعتباره مرحلة متممة لمذهبهم، كما نظر الصوفية إلى الزهد باعتباره مرحلة متممة لطريقتهم

والفرق بين هذا النوع من الصوفية والنوع الأول أن الأولين أمثال الحلاج يضعون نظرياتهم الفلسفية فى عرض تأويلهم وتفسيرهم لما يشاهدونه فى أحوالهم ومواجدهم؛ أما الآخرون فيلجأون للكشف والذوق توكيدا وتحقيقا للنتائج التى يصلون إليها بالنظر العقلى

وهذه الطريقة ممثلة تمام التمثيل فى كتب ابن العربى بوجه خاص، فانه بعد أن يبحث المسائل الفلسفية بحثاً عميقا ويناقشها من جميع وجوهها يحس كأن العقل غير كاف فى الوصول إلى درجة اليقين فيها، فيحيل القارىء إلى الكشف والذوق، أو يخبره بانه هو نفسه قد أدرك حقيقتها كشفا أو ذوقا

صار التصوف الفلسفى بعد ذلك سيراً حثيثا بخطوات واسعة فسيحة وظهرت فيه المذاهب الفلسفية الكاملة، بل والمدارس الفلسفية، وألفت فيه المؤلفات أمثال الأحياء والمشكاة للغزالى

والنصوص والفتوحات لابن العربى وحكمة الاشراق للسهروردى والانسان الكامل لعبد الكريم الجبلى

أما العوامل التى ساعدت على ظهور التصوف الفلسفى فكثيرة ومتعددة ، فقد كانت البيئة التى يعيش فيها متصوفة القرن الثالث وما بعده مزيجا غريبا من الأمم المختلفة والثقافات المختلفة والديانات المختلفة والفلسفات المختلفة ، بل كان الجو الذى يتنفس فيه المسلمون خليطا من هذه العناصر كلها : فلا عجب إذن أن يأتى التصوف الفلسفى فى الاسلام ممثلا لكل مذهب من المذاهب ، حاويا لكل بدعة إسلامية وغير إسلامية ، فان فلسفة التصوف الاسلامى ليست مذهبا واحداً ولا عقيدة واحدة ، بل مجموعة من المذاهب بعضها يتفق مع روح الاسلام وبعضها يتعارض مع التعاليم الاسلامية معارضة صريحة

واهم هذه العناصر التى دخلت فى التصوف الفلسفى ومنها تركب هى :

أولا — التصوف نفسه بكل ما فيه من وصف للحياة الروحية ، وكلام فى المقامات والأحوال ، وذكر للمواجد والأذواق . وتعبيرات عن خاطر النفس ومحاسبتها ومراقبتها

ثانيا — القرآن والحديث : فان الصوفية قد اتخذوا كثيراً من الآيات القرآنية أساساً لنظرياتهم فأولوها تأويلات تتفق وروح هذه النظريات ، وذلك مثل قوله تعالى : كل شىء هالك إلا وجهه . وقوله : كل من عليها فان ، وقوله : الله نور السموات والأرض الخ فقد اولوا الوجه فى الآيتين الأولين على أنه الذات الالهية الأزلية المقومة لكل موجود ؛ وأولوا الهالك والفانى على أنه مظاهر الوجود أو الوجود المتكثر : أما النور ففسروه تفسيراً زرادشتيا على أنه الوجود الحقيقى وضده الظلمة التى هى العدم المحض . أما الأحاديث التى يستشهد به الصوفية فاكثرها مدخول على النبى منتحل

ثالثاً — علم الكلام : فقد وصل علم الكلام فى إبان ظهور التصوف الفلسفى فى الاسلام أقصى حده فى النضوج الفلسفى ، وتسرب الكثير من نظرياته إلى نظريات الصوفية

والمعروف أن عدداً كبيراً من رجال الصوفية فى القرن الثالث كانوا من كبار المتكلمين أيضاً أمثال أبى القاسم الجنيدى والحارث المحاسبى وغيرهما

والناظر فى كتب التصوف امثال اللمع للسراج والتعرف للكلاباذى والرسالة للقشيرى وغيرها يعرف مدى علم الصوفية بمسائل الكلام ومدى مزجهم لها بنظرياتهم . وتكفى الاشارة هنا إلى عقيدة وحدة الوجود التى هى أخص مظهر للتصوف الفلسفى الاسلامى ، فانها فيما أعتقد راجعة فى أصل نشأتها إلى تفكير إسلامى كلامى صوفى ؛ وليست كما يقول بعض المستشرقين راجعة إلى الفلسفة الأفلاطونية الجديدة أو الفلسفة الهندية ؛ فقد بدأ الصوفية يبحثون فى عقيدة التوحيد بحثا كلاميا فوقعوا من حيث لا يعلمون فى عقيدة وحدة الوجود . بدأوا يبحث الوحدانية فقالوا : الله واحد بمعنى أنه لا شريك له ، فنفوا الشريك والند والضد والمثل . وقالوا أهم صفة للأله الواحد وجوب الوجود . ثم بحثوا فى واجب الوجود فقالوا الله واجب الوجود بمعنى أن وجوده من ذاته ، وغيره ممكن الوجود أى وجوده من غيره ، ولكنهم زادوا على ذلك بقولهم إنه واجب الوجود بمعنى أن وجوده هو الوجود الحقيقى وكل ما عداه فوجوده ظاهرى أو وهمى . ثم توسعوا فى معنى وجوب الوجود فقالوا ان واجب الوجود هو الفاعل لكل شىء والعلة فى وجود كل شىء — فانتهوا من بحثهم بنتيجتين :

الأولى : نفى العلل كلها والقول بأن لا فاعل على الحقيقة إلا الله

والثانية : نفى الوجود المتكثر الظاهر فى الكون والقول بأنه وجود زائل متغير — وأن المقوم لكل موجود والحقيقى فى كل موجود هو الحق أو الله

وهكذا بدءوا بقولهم : لا إله إلا الله ، وانتهوا بقولهم : لا موجود على الحقيقة إلا الله . ثم وجدوا — أو خيل اليهم أنهم وجدوا — ما يعزز دعواهم هذه فى الحالة الصوفية التى يعبرون عنها بالفناء وهى الحالة التى يشعر فيها الصوفى بالوحدة المطلقة فلا يدرك فيها فرقا بين حق وخلق — وهى الحالة التى صاح فيها الحلاج بقوله : أنا الحق !

وقد سمى الصوفية عقيدة التوحيد بتوحيد العوام ، وعقيدة وحدة الوحدة بتوحيد الخواص ، وأوردوا لكل منهما تعريفا خاصا

يقول الجنيد فى تعريف توحيد العوام إنه إفراد الموحد بتحقيق وحدانيته . ويقول فى تعريف الخواص إنه الخروج من ضيق الرسوم الزمانية إلى سعة فناء السرمدية يعنى بذلك الفناء

رابعا — الفلسفة الأفلاطونية الجديدة - لاسيما الافلاطونية الجديدة المتاخرة التي ظهرت في كتابات برفلس ويمبليخوس والكاتب الافلاطوني المسمى خطأ ديو تسبوس الازيو باغي.

ولا نبالغ اذا قلنا إنه لاتكاد مسألة من مسائل التصوف الاسلامي الفلسفي أو نظرية من نظرياته تخلو من أثر للفلسفة الافلاطونية الجديدة: فنظريات الصوفية في خلق العالم والفيض أو الصدور عن الواحد الحق، وكلامهم في النفس والعقل والقلب والكشف والمعرفة والشهود، وفي العالم العلوي والعالم المحسوس وفي الانسان الكامل، كلها مطبوعة بطابع هذه الفلسفة ومستنداليها

خامسا — المسيحية ولا نعني بالمسيحية الديانة المسيحية وعقائدها، بل الحياة المسيحية كما حييها المسيحيون في البلاد التي انتشر فيها الاسلام ممثلة في حياة الرهبان والمتصوفين؛ ولم يأخذ الصوفية عن المسيحيين بعض أساليبهم في الزهد ومظاهر التقشف ولباس الصوف الذي منه اشتق اسمهم فحسب، بل أخذوا عنهم بعض نظرياتهم في طبيعة المسيح وفي التثليث: فقال بعضهم بالحلول، مثل الحسين بن منصور الحلاج الذي قتل بسبب هذه العقيدة سنة ٣٠٩. ومن أبياته في الحلول قوله:

سبحان من أظهر ناسوته سرَّ سنَا لاهوته الثاقب
ثم بدا لخلقه ظاهراً في صورة الآكل والشارب
حتى لقد عاينـــه خلقه كلحظة الحاجب بالحاجب

وقال بعضهم صراحة بالتثليث، وأن التثليث أساس يقوم عليه أمر الخلق كله، ولكنه تثليث اعتباري قائم بالفردية الألهية. وبهذا المعنى يجهر ابن عربي في غير مبالاة في قوله:

تثلَّثَ محبوبي وقد كان واحداً كما صير الأقنام بالذات أقنما

وليست نظرية الصوفية فيما يسمونه النور المحمدي (أو الحقيقة المحمدية) الذي يقولون إنه كان في القدم قبل أن يخلق الله العالم، وأنه بواسطته ومن أجله خلق الله العالم، سوى صورة من صور النظرية المسيحية في المسيح الذي يطلقون عليه اسم «الكلمة» ويقولون انها كانت في الأزل مع الله، وأنه بواسطتها ومن أجلها خلق الله العالم

سادسا — الفلسفة الهندية التي دخلت الاسلام عن طريق فارس وما وراء النهرين وما جاورهما من حدود الهند، فان المسلمين لم يفتحوا الهند إلا في القرن الرابع الهجري (في زمن السلطان محمود الغزنوي المتوفى سنة ٤٢١)، ولكن الفلسفة الهندية البوذية والتصوف الهندي قد شقا طريقهما إلى بلاد الفرس وما جاورها قبل الفتح الاسلامي بنحو ألف سنة، وقد كان كثير من بلاد هذه الناحية مراكز مشهورة بالتصوف غاصة بالادارة الوثنية القديمة: نخص بالذكر منها مدينة بلخ

ومما هو جدير بالذكر في هذا المقام أن كثيرا من أوائل الصوفية في الاسلام قد جاءوا من بلخ هذه وما جاورها، وبواسطتهم دخل في التصوف الاسلامي كثير من النظريات الهندية والتقاليد البوذية في مجاهدة النفس ورياضتها وتعذيب البدن وما إلى ذلك. من هؤلاء إبراهيم بن أدهم الذي يقول عنه الأستاذ جولدزيهر إن قصته قد حيكت على مثال قصة بوذا من أنه كان من بيت من بيوت الملك فزهد في الملك والدنيا بأسرها وعاش من عمل يده؛ ومثل أبي يزيد البسطامي الذي كان من أصل فارسي زرادشتي تلقى عقيدة الفناء عن أبي علي السندي، كما تلقى عنه الطريقة الهندية المعروفة بمراقبة الأنفاس؟ والفناء الذي يتكلم عنه أبو يزيد والذي شاع بعده في كلام الصوفية جميعهم هو ما يسميه الهنود «زفانا» أي انمحاء الشخصية الفردية والشعور بالوحدة العامة للوجود.

ومما يدل على أن عقيدة الفناء هندية الأصل أنها ظهرت أول ما ظهرت في كلام الصوفية من الفرس أمثال ابي يزيد البسطامي، وليس لها وجود في عبارات أهل مصر والشام أمثال ذي النون المصري مع أن ذا النون كان من معاصري ابي يزيد

* * *

كل هذه العناصر وعناصر أخرى ثانوية الأهمية دخلت التصوف الإسلامي فغيرت من عادته وصورته، وعنها جميعها ظهرت ناحية من نواحي الحياة العقلية الروحية في الإسلام على جانب كبير من الأهمية، لأنها مرآة نرى فيها النشاط العقلي والروحي على السواء، كما نرى فيها وصفا دقيقا لأحوال النفس الصوفية في أرقى درجات صفائها، ومحاولات فلسفية أراد بها أصحابها وضع نظريات في طبيعة الوجود أو طبيعة المعرفة أو طبيعة الإنسان ومركزه من الله والعالم.

ولم يقف الصوفية، كما لم يقف فلاسفة الاسلام من هذه المصادر كلها موقفا سلبيا، أي لم يكونوا مجرد نقلة أو مرددين لأقوال غيرهم ترديد الصدى للصوت، بل مزجوا كل هذه العناصر

المختلفة المتباينة مزجا ربما لم يعهده تاريخ الفلسفة ولا تاريخ التصوف فى أى أمة أخرى، وخرجوا بعد كل ذلك بمذاهب فى التصوف الفلسفى كان لها أثرها ولها خطرها فى تطور الفلسفة والتصوف فى القرون الوسطى والحديثة ، لا سيما بعد أن بلغ التصوف الذروة الفلسفية فى مذاهب أمثال محيي الدين بن عربى ، وشهاب الدين عمر السهروردى المقتول ، وعبد الحق بن سبعين الأندلسى ، وعبد الكريم الجيلى ، والصدر القونوى ، وجلال الدين الرومى ، وعبد الرحمن جامى وغيرهم

من هذا يتبين أن كل نظرية فى نشأة التصوف الاسلامى قائمة على فكرة إرجاعه إلى أصل واحد مقضى عليها بالفشل . إذ قد رأيت النواحى العديدة الاسلامية وغير الاسلامية التى استمد منها التصوف مادته .

ولكن بعض المستشرقين إن لم يكن أكثرهم لم يروا حرجا فى القول بأن التصوف الاسلامى قائم على أصل واحد أو مستمد من جهة واحدة : فذهب الأستاذ فون كريمر ودوزى إلى أن أصل التصوف الاسلامى هندى أساسه مذهب الفيدانتا ؛ وذهب الاستاذ «مركس» إلى أن أصله الفلسفة الأفلاطونية الجديدة ؛ وقال الأستاذ برون إنه فارسى فى جوهره وإنه نتيجة لرد فعل أحدثه ثوران العقل الآدمى ضد الدين الاسلامى الفاتح . وربما كان الأستاذ نيكلسون أكثر اعتدالا وأوسع نظرا من هؤلاء جميعاً ، إذ يعترف أن التصوف الاسلامى ظاهرة معقدة غاية فى التعقيد ، وأن أصوله متشعبة كثيرة لم يكشف البحث الحديث إلا عن بعضها فقط

والحق أن كل نظرية من هذه النظريات إنما تعبر عن جزء من الحقيقة لا الحقيقة برمتها ، وأن الذى دعا هؤلاء المستشرقين إليها قصرهم النظر على ناحية خاصة من التصوف دون النواحى الأخرى وملاحظتهم لبعض جهات الشبه بين التصوف الاسلامى والأحوال التى قالوا إنه مستمد منها ناسين أو متناسين الثقافة الاسلامية والعقلية الاسلامية التى هضمت كل ما وصل إليها من عناصر الفلسفة والتصوف الأخرى ، واستخلصت لنفسها فلسفة وتصوفا جديرين بالبقاء وجديرين بأن يطلق عليهما اسم الفلسفة الاسلامية والتصوف الاسلامى

أبو العلا عفيفى

صديق من صنوف الأعداء

للاستاذ أمين الخولى

— ١ —



مرت القرون تترى ، والغرب يرمى الشرق بأفلاذ أكباده، ويرصد لكيده أنفس عتاده ، ويهيج لقتاله غطاريف أجناده ، والشرق صامد باسل ، صابر على هذا البلاء النازل . . . يا عجبا ! هما يتنازعان قبرا ، وإن يكن لسيد الحواريين ، وكلاهما يؤمن أنه مرفوع ، وفى السماء قار . ليس فى الأرض مرقده ، ولا بين أطباق الثرى جسده . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض . حكمة الله وسنة الاجتماع ، لتصل الأسباب ، وتتم النواميس ، وتنمو الحضارات ، وتتواصل المدنيات

فى القرن الثالث عشر الميلادى ، وهذا الأتون لما يخمد ، يؤجج الحقد أواره ، ويورث البغض ناره ، كانت تتدانى قلوب بهذا التباعد ، وتتعارف نفوس بالتقاطع السائد ، ويأبى الله إلا أن يكون هذا الكون خيراً شيب بشر ، وشراً حمل خيراً ، وأن تكون الحرب ناراً ونوراً

— ٢ —

كان جرمانياً صلبة ، أوربياً محضاً ، غربياً صرفاً ؛ البابا وصيه وهو صغير ، والبابا مدبره وهو كبير ؛ نشأ فى حضن المسيحية ، وغذاء حب الكنيسة الكاثوليكية ، وبورك بها طفلا ، وفتى وزوجا وأباً ، ثم توج بها ملكا وأيد منها ، فبسط يده أمام المذبح يقسم أن يسير إلى الشرق غازياً ، ويخلص قبر المسيح فادياً ، ويعز النصرانية فى شرقها والغرب : ذلكم فردريك الثانى هو هنشتاوفن ، امبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، وملك صقلية - ١٢١٢ - ١٢٥٠ م -

— ٣ —

لكن الشرق الساحر ، بسنه الباهر ، وبجده الزاخر ، وعقله

القاهر، وفنه الفاخر، قد فتن الانبرور على غربيته؛ واستهواه فى أوربيته، وأصباه على جرمانيته، فاذا العاهل شرقى فى هواه وميله، شرقى فى عله وفنه، شرقى فى مزاجه وذوقه، شرقى فى خاصته وجنده؛ وإذا هو لا يبر للكنيسة بقسم، ولا يفى بموعد، . . ثم إذا هو حرب على صاحب مفاتيح الجنة، ينتهك حرمته، ويحقر قداسته؛ يرفع على رأسه سيفه، بدل أن يحنى أمامه رأسه. وإنها لمفارقة سجلها التاريخ دهشا

— ٤ —

كان ذوقه شرقيا، فى جده ولعبه، فى قصره وحاشيته، فى مركبه وسلاحه؛ يدبر ذلك من أمره أتباع شرقيون مسلمون، قد حكى فى ذلك ماعرف الشرق من قصور الخلفاء، حتى ما أفرد من مقاصير النساء (١) أنس إلى الفن الشرقى صامته وناطقه؛ تجرى حياته على أنماط وعادات شرقية (٢) تحرسه أجناد من بنى الشرق المسلمين (٣) يجيد العربية فيما يعرف من لغات حتى يتكلمها ويدرس بها (٤) وكم وراء ذلك من مظاهر فنية، وولع شرقى ليس أقل من هذا شانا ولا أيسر خطراً

كان عقله شرقيا، آثر الثقافة العربية على الثقافة اليونانية (٥) وعمل على اكتساب غربه من ذلك ما يصل إليه جهده، فتح التفكير العلمى لعصره اتجاها جديداً؛ وكان أقوى وأقدر من عرف الغرب فى حركة نقل المعارف عن الشرق فى تلك الأعصر؛ وفى كنفه نشط مترجمون من أنحاء أوربا المختلفة، لنقل ماحفظ الاسلام من تراث الانسانية، وذخر المدنية

ونسى أو تناسى مابين الشرق والغرب إذ ذاك، من حروب مشبوبة، وعداوة مذكاة، فراسل ملوكه فى الود، وفى العلم، يسألهم فتاوى الرياضة، وفنون الحكمة، سواء فى ذلك دانى الشرق منه، وقاصيه عنه؛ فكتب إلى علماء سبتة يسألهم فى شئون فلسفية، رد عليه فيها ابن سبعين أبو محمد عبد الحق بن ابراهيم الاشبيلى (٦)، كما كتب إلى الملك الكامل بمصر فى مسائل مشكلة من الهندسة والحكمة والرياضة، ورد عليه الشيخ علم الدين قيصر الحنفى وغيره من علماء مصر (٧): التى كانت تتلقى هجمات الغرب، وتلقنه أصول الحياة فى وقت واحد

(١) دائرة المعارف الايطالية الجديدة — فريدريك الثانى هوهنشتاوفن —
(٢) المصدر السابق
(٣) تراث الاسلام ج ٢ تعليقة ٢ ص ٣٣
(٤) الدائرة السابقة
(٥) الدائرة المذكورة
(٦) دائرة المعارف الاسلامية — ابن سبعين —
(٧) السلوك للمقريزى ، القسم الاول من الجزء الاول ص ٢٣١

— ٦ —

كان شرقى الوجدان، غمره فيض الشرق الروحى، ونزوعه الصوفى فلم يأسره تلقينه، ولم يعقله تعميده؛ بل كان وراء ذلك كله: دخل بيت المقدس - حفظا لناموسه - برضا الملك الكامل صلحا لجامله المسلمون بمنع الأذان، وإذا هو يقول: والله كان غرضى فى المبيت بالقدس أن أسمع أذان المسلمين وتسبيحهم فى الليل (١). وإذا المسلمون يحسون تسامحه، فيقول مؤرخهم: إنه كان دهريا، وإنما يتلاعب بالنصرانية. وحقا قد عرفت منه الكنيسة أشد ماعرفت فى تاريخها من ثورة ونضال

— ٧ —

تلك شخصية خليقة بالدرس الفلسفى والتاريخى، رجل أنقذ العقل إذ الجهل حالك، والظلام قاتم؛ وحرر الوجدان إذ العصبية طاغية باغية؛ وعرف الاسلام وتحبب إليه إذ أنكره الغرب وقاتله جاهداً جاهلا، وأخلص له الصداقة حتى لقبه قومه «السلطان المعمد» (٢).

إلا أنه فضل الشرق ومثله لا يجحد، وأنه مجد الشرق ومثله يعشق، وأنه عرف الشرق ومثله لا يجهل

— ٨ —

أيها الشبان: تلك فتنة الشرق، فهل فقدها فيكم ؟؟
أيها الشبان: تلك روحانية الشرق، فهل خسرها بكم ؟؟
أيها الشبان: تلك قوة الشرق، فهل أضلها عندكم ؟؟
ألا أجيبوا داعى الزمن المثوب!

أمين الخولى

(١) السلوك: الموضوع السابق ص ٢٣٢
(٢) دائرة المعارف الإيطالية الجديدة - المادة السابقة

الجيش والبحرية

في العصر العباسي الأول

للدكتور حسن ابراهيم حسن
أستاذ التاريخ الاسلامي بكلية الآداب

استمد العباسيون قوتهم من الجيش الذي نما نمواً عظيما على أثر دخول الكثيرين في الاسلام وانضوائهم تحت لوائه ، وقد بلغ عدده في عهد الخلفاء العباسيين الأوائل مئات الألوف من الجند ، ووصل هذا العدد في العراق وحدها إلى ١٢٥٫٠٠٠ جندي . وكان هؤلاء الجند يكونون الجيش النظامي للدولة تدفع لهم رواتبهم بانتظام . ومن ثم قلت أرزاقهم تبعا لزيادة عددهم ، ولما بلغت قوة العباسيين أشدها في بغداد ، أصبح الجندي يتقاضى راتباً شهريا قدره عشرون درهما (وكان الدرهم يساوي أربعة قروش تقريبا) ، وكانت هناك مع الجنود النظاميين طائفة أخرى من الجند المتطوعة من البدو ، وطبقة الزراع وسكان المدن الذين اشتركوا في الحروب مدفوعين بعوامل دينية أو مادية

وكان تقسيم الجند تابعاً لجنسية أفراده : فمنهم الحربية وهم الفرسان الذين كانوا يتسلحون بالرماح ؛ وهؤلاء من جند العرب . والمشاة وكانوا من الفرس ولا سيما الخراسانيين (وكان من سياسة الخلفاء أن يحكموا عرب الشمال والجنوب بتركهم يحارب بعضهم بعضا) ؛ حتى إذا ما انقضى العصر العباسي الأول دخل في الجيوش العباسية عنصر جديد مالبث أن غدا له النفوذ ، وأصبح أشد خطراً من الخراسانيين ، وهو عنصر الأتراك الذين كانوا يكونون القسم الرابع من الجيش العباسي . وما انفكت جموع هؤلاء الأتراك تتدفق سنة بعد سنة على أسواق بغداد حتى استطاعوا أن يصلوا من هذه الأسواق إلى بلاط الخلفاء ثم إلى جيش الخليفة أخيراً ؛ وقد خصهم الخليفة برعايته أملا في أن يكونوا بذلك أقوى ساعد للخلافة العباسية . ومن ثم أصبحوا حراس الخلفاء ، وسرعان ما أضحوا آفة على أهل بغداد الذين عانوا من جراء عنتهم وجورهم شيئا كثيراً ، وما لبث أن امتد نفوذهم إلى الخلفاء الذين غدوا تحت رحمتهم [1]

وكان أكبر القواد المعروفين في أول عهد هذه الدولة أبو مسلم الخراساني ، وكان تحت إمرته جند المشرق الخراسانية ؛ وعبد الله ابن علي العباسي على جند المغرب ، وأكثره عربي من بلاد الجزيرة والشام . فلما خرج عبد الله بن علي على المنصور وانتصر عليه أبو مسلم بجنده الخراساني كان هذا انتصاراً للفرس على العرب ، ومن ثم رجحت كفة الخراسانيين في الجيش ؛ بيد أن المنصور خشي شر أبي مسلم وشر جنده ، فقضى عليه . ورأى عدم الاعتماد على الخراسانيين ، لأن العصبية العربية كانت لا تزال في قوتها ، فاصطنع كثيرين من العرب ، وسلمهم قيادة جنده ، كما استعان ببعض أهل بيته . فمن أعظمهم عيسى بن موسى الذي انتصر على محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن العلوي وأخيه ابراهيم . وقد ظهر من قواد العرب معن بن زائدة الشيباني ، وكان من قواد الأمويين ؛ واشتغل مع يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراق وحارب معه في واسط ، ولما سلّم ابن هبيرة اختفى معن حتى كان يوم الهاشمية الذي ثار فيه الراوندية على المنصور ، فقاتل عن الخليفة وهو ملثم ، وأوقع برجال هذه الطائفة ، ثم كشف للخليفة عن نفسه ، فأمنه ووصله بعشرة آلاف درهم ، وسماه «أسد الرجال» ، وولاه اليمن ثم سجستان ، فبقي فيها حتى قتله الخوارج بمدينة بست [2] سنة ١٥١ هـ . ومن قواد العرب عمر بن العلاء وهو

(1) Hell : Cultur der Araber, p. 69 - 70

(٢) الطبري ج ٩ ص ١٧٤ - ١٧٥

أعظم قواد المنصور، وفيه يقول بشار بن برد :

فقل للخليفة إن جئته نصيحا ولا خير فى المتهم
إذا أيقظتك حروب العدا فنبه لها عمرا ثم نم
فتى لا ينام على دمنة ولا يشرب الماء إلا بدم

وقد وجهه المنصور سنة ١٤١ﻫ لإخضاع أهل طبرستان ، وكانوا قد خرجوا عليه ، فنازلهم ابن العلاء طويلا ، وفتح بلادهم من جديد ، ولم يزل ممتعا بعطف المنصور ، وابنه المهدى حتى مات فى خلافة المهدى (١)

أما الآلات الحربية التى كانت تجهز بها الجنود ، فلم تكن تختلف كثيراً عن الآلات البيزنطية ، فكان من أسلحتهم القسى والسهام والرماح والسيوف والفؤوس الحربية (البلط)

وكانت ملابس الجند تشمل تلك الملابس القديمة الملائمة لهم والتى كانت فى نفس الوقت ذات منظر يدل على ذوق سليم : خوذة ، ودرع ، ومنطقة ، وغيان . وكانوا يعنون عناية خاصة بالسيوف التى كانوا يصنعونها بطريقة فنية ، ويحلونها بالفضة . وكانت السروج مماثلة فى شكلها للسروج الإغريقية التى هى من نوع السروج الشرقية تماماً (٢) .

وكان عرض الجيش جزءا من تدريب الجند فى أوائل عهد الدولة العباسية وبخاصة فى عهد المنصور الذى اهتم اهتماماً كبيرا بالمسائل الحربية . وكان يحب أن يعرض جنده وهو جالس على عرشه لابساً خوذته ودرعه ، فكانت تصف الجيوش أمامه فى ثلاثة أقسام : عرب الشمال (مضر) ، وعرب الجنوب (اليمن) والخراسانيون (٣) . ومما ذكره المسعودى فى كتابه مروج الذهب عن حصار جند المأمون بغداد تتبين وصف الآلات الحربية التى كان يستعملها العباسيون فى ذلك العصر . وهاك ماذكره المسعودى بنصه : « ونصب هرثمة بن أعين على بغداد المنجنيقات ونزل فى رقة كلواذا والجزيرة ، فتأذى الناس به ، وصمد نحوه خلق من العيارين وأهل السجون ، وكانوا يقاتلون عراة فى أوساطهم السامين والميازر . وقد اتخذوا لرءوسهم دواخل من الخوص سموها الخوذ ، ودرقاً من الخوص والبوارى ، قد قرنت وحشيت بالحصا والرمل . على كل عشرة عريف ، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب ، وعلى كل عشرة نقباء قائد ، وعلى كل عشرة قواد أمير ، ولكل ذى مرتبة من المركوب على مقدار ما تحت يده . فالعريف له أناس مركبهم غيرما ذكرنا من المقاتلة ، وكذلك النقيب والقائد والأمير ، وناس عراة قد جعل فى أعناقهم الجلاجل والصوف الأحمر والأصفر ، ومقاود قد اتخذت ، ولجم من مكاس ومَذاب ، فيأتى العريف وقد أركب واحداً وقدامه عشرة من المقاتلة ، ويأتى النقيب والقائد والأمير ، فتقف النظارة ينظرون إلى حزبهم مع أصحاب الخيول المعدة ، والجواشن والدروع والتجافيف والرماح والدرق التبتية (١) » .

ولما ولى المتوكل الخلافة ، أمر كل الجنود بتغيير زيهم القديم ، وألبسهم أكسية رمادية ، وأمرهم ألا يحملوا السيوف على أعناقهم ، بل يضعوها فى مناطقهم حول وسطهم (٢) .

ومن أى جهة بحثنا فى الجيش فإننا نصادف ما يماثلها فى العصر الحديث ؛ من ذلك نظام الجاسوسية عند العباسيين ، فقد كانوا يستخدمون فى ذلك كلا الجنسين من الرجال والنساء الذين كانوا يرحلون إلى البلاد المجاورة متنكرين فى أزياء التجار والأطباء وغيرهم ، لجمع الأخبار ونقلها إلى دولتهم . ولم تكن الجاسوسية العربية أكثر نشاطا ولا أعم انتشارا فى بلد من البلاد منها فى الدولة البيزنطية التى كانت لا تزال تنافس الدولة العربية ، والتى كان أهلها فى الماضى أساتذة العرب فى الفنون الحربية

ولكى يحمى العرب أنفسهم من غارات الإغريق أقاموا الحصون على تخوم دولتهم وهى الثغور ؛ وهذا ضرب من الفنون الحربية التى تدل على نشاط العرب وولعهم بالحروب ونبوغهم الذى كان غريزيا فيهم . وكان حد سورية المقابل لآسيا الصغرى مصدرا للخطر بالنسبة إلى العرب ؛ وقد تحاربت القوتان المتنافستان مدة طويلة ، فكانت كفة النصر ترجح مرة فى جانب العرب وأخرى فى جانب الإغريق . لذلك كانت هذه الثغور وهى طرسوس ، وأذنة ، والمصيصة ، ومرعش ، وملطية ، تقع

---

(١) شرحه ج ٩ ص ١٧٧

(2) Hell p 70 ; Khuda Buksh : Onent under the Caliphs, p. 328.

(3) Khuda Buksh : Ount under the Calipho, p 340, 344, 345; Hell, p 70.

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٠٧ — ٣٠٨ .

(2) Hell : p 71.

طورا فى أيدى العرب ، وطورا فى أيدى الروم .

ولما استولى المنصور على المدن الرومية الواقعة على حدود سورية المقابلة لآسيا الصغرى مثل طرسوس وأذنة ومرعش وملطية حصنها وأحكم بناءها من جديد وأطلق عليها اسم الثغور [1]

ولما ولى هرون الرشيد الخلافة أنشأ ولاية جديدة سميت ولاية الثغور ، جعل لها نظاما عسكريا خاصا وأقام فيها المعاقل ، كما أمدها بحاميات دائمة ؛ ومنح الجند علاوة على أرزاقهم أرضا قاموا بتعميرها ، وزراعتها هم وأسراتهم ، فازدهرت هذه الثغور على الرغم من الحروب المتواصلة ، وأصبحت أحوالها فى يسر ورخاء إلى أيام الواثق ، ثم أخذت بعد ذلك فى الأفول [2] ، وطالما كان العلماء والشعراء الذين يؤثرون الهدوء يلجأون إلى هذه الثغور والتفرغ للبحث والدرس .

وهناك ناحية أخرى تدل على قوة المسلمين فى ذلك الوقت هى الأساطيل الحربية . ولم يكن العرب يعنون بالحروب البحرية فى صدر الإسلام لبداوتهم وعدم ممارستهم ركوب البحر . وكان أول من ركبه أبو العلاء الحضرمى والى البحرين فى عهد عمر ، فقد توجه لغزو بلاد الفرس فى اثنى عشر ألفا من المسلمين دون اذن الخليفة ، وعادوا إلى البصرة محملين بالغنائم بعد أن فقدوا سفنهم التى عبروا بها إلى بلاد فارس . ولما علم بذلك عمر - وكان يكره ركوب البحر - غضب على أبى العلاء وعزله . ولما فتحت الشام ألح معاوية على عمر فى ركوب البحر كى يغزو بلاد الروم لقربها منه ، فكتب إليه يردعه عن ركوب البحر

ولما ولى عثمان الخلافة ألح عليه معاوية فى غزو بلاد الروم ، فاذن له على ألا يحمل الناس على ركوب البحر ، فاستعمل على البحر عبد الله بن قيس فغزوا خمسين غزوة بين شاتية وصائفة ، كما غزا عبد الله بن سعد بن أبى سرح والى مصر من قبل عثمان البحر ، فحارب سنة ٣٤ هـ قسطنطين بن هرقل وانتصر عليه فى موقعة ذات الصوارى . وفى هذه السنة أيضا فتح العرب جزيرة قبرص ، كما جردوا حملة لغزو البلاد البيزنطية . ومنذ ذلك الوقت أخذت الحملات البحرية تترى على تلك البلاد

ولما ولى معاوية الخلافة عنى بإنشاء السفن الحربية ، وفى عهده غزا عقبة بن عامر جزيرة رودس . وفى ٥٣ هـ غزا الروم البرلس فى عهد ولاية مسلمة بن مخلد (٤٧ — ٦٢ هـ) ، وقتلوا عددا كبيرا من المسلمين وعلى رأسهم وردان مولى عمرو بن العاص ؛ ومن ثم اهتم أمراء مصر ببناء السفن ، فأنشئت لأول مرة سنة ٥٤ هجرية دار لبنائها فى جزيرة الروضة [1]

أما أن العرب كانوا مدينين فى الأصل للبيزنطيين فى هذه الناحية من الفنون الحربية فهذا أمر لاسبيل إلى إنكاره ؛ إلا أن العرب الذين فطروا على الشجاعة وحب المغامرة وإن تتلمذوا للبيزنطيين فى تلك الناحية فترة من الزمن ، فانهم قد أصبحوا أساتذة أوربا فى هذه الفنون . يدلنا على ذلك هذه الاصطلاحات البحرية المستعملة فى أوربة إلى اليوم ، والتى لاتزال محتفظة بعربيتها . وكان أثر العرب فى شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط بوجه خاص أبعد مدى من غيرهم من شعوب أهل أوربا . ويقول فون كريمر : « ومما يوضح لنا أن الأسطول العربى القديم كان نموذجا لأساطيل الاقطار المسيحية أن كثيرا من المصطلحات العربية البحرية لاتزال شائعة على ألسن البحارة فى جنوب أوربا نذكر منها كلمة Cable المأخوذة عن لفظ « جبل » العربى وكلمة Arsenal وبالايطالية (Darsenal) المأخوذة عن لفظ « دار الصناعة » وكذا كلمة Carvette المأخوذة من لفظ (غراب) العربية ، و Admiral المأخوذة عن لفظ « أمير البحر [2] »

حسن ابراهيم حسن

(1) Khuda Buksh : Orient p 349 suiv.; Hell, p 71

(2) Hell, p 71.

(١) المقريزى : خطط ج ٢ ص ١٩٠ — ١٩١ .

(2) Khuda Bukhsh : Orient under the Kaliphs pp 35 et seq.

تبصرة وذكرى

للأستاذ محمد أحمد الغمراوى

ليس خيراً فى الاحتفال بذكرى هجرة الرسول من الاجتهاد فى إحياء سنته صلوات الله عليه عن طريق التنبيه إلى بعض الأخطار التى تحف بها فى هذا العصر الذى تكالبت فيه عليها الميول والشهوات ومختلف النزعات الناجمة فى الغرب ، والتى توشك إن لم يجتهد أولو الرأى والدين فى صدها وإيقافها عن حدها أن تطمس من نور سنة صاحب الهجرة صلى الله عليه وسلم ونور كتاب الله نفسه ، فتعمى قلوب بعد إبصار ، وتنشا ناشئة المسلمين فى دياجى الشك بعد أن كان يرجى أن تنشأ فى نور اليقين

وأخطر تلك النزعات الناجمة والشهوات الهاجمة نزعة التشكيك فى أحكام الدين من ناحية ، وشهوة تأويلها إلى ما يتفق وما يسمونه روح العصر ، أو بالأحرى رأى الغرب وحكمه من ناحية أخرى . وأصحاب هـذه النزعة حين يذكرون روح العصر أو يدعون إلى اتباع الغرب إنما يريدون تقمص روح الغرب واتباع خطواته فى الاجتماعيات ، أى فى الميدان الذى ما نزل الدين إلا لتنظيمه ، وما جاء الرسول إلا لتقويم الحياة فيه . والغرب كما نبهنا فى مثل هذا المقام من قبل لم يصب سنن الله إلا فى عالم المادة أما فى عالم الروح والاجتماع فالغرب لم يصب سنة ولا حكما ، بل هو فى حيرة من أمره : يضطرب بالنظم المتناقضة ، ويعج بالآراء والنظريات ، ويميد بالأهواء والشهوات ، حتى أصبحت عوامل القوة والأمن التى أصابها من ناحية علومه الطبيعية ، هى بذاتها عوامل الخطر والخوف فيه ؛ وأصبح من مدنيته هذه المادية المسرفة المغرورة كالساكن على حرف بركان

لكن الذين يدعون إلى الغرب فتنتهم قوته المادية ، وجهلوا ضعفه الاجتماعى ، فظنوا أن القوة فى ناحية معناها القوة فى كل ناحية ، وأنه لما كان على حق فى طبيعياته ، فهو على حق فى اجتماعياته ؛ فسبيل النهوض والقوة فى زعمهم هو أن يدع الناس ما هم عليه ، ويأخذوا بما هو عليه ، لا يبالون ماذا يتركون ، ولا يترددون ماذا يأخذون

لكنهم نظروا أيضاً فوجدوا أن هذا معناه الدعوة إلى ترك كثير مما أمر به الاسلام والأخذ بكثير مما نهى عنه . والاسلام مهما ضعف فى نفوس أهله فقد بقيت من روحه فيهم ومحبته بينهم بقية لا تؤمن معها عواقب هـذه الدعوة على الدعاة من ناحية ، ولا يرجى معها من ناحية أخرى أن يستجيب أهله إلى ما يخالف نظمه وأحكامه التى جرى عليها المسلمون منذ قام صاحب الهجرة صلوات الله عليه فوضح للناس الدين حكما وعملا باسم الله فاطر السموات والأرض وفاطر الناس . هنالك ذهب دعاة الغرب مذاهب ، وانقسموا طرائق ، فيما يدعون إليه ، وكيف يحملون الناس عليه

فنهم من نظر فإذا القوة بيده ، ولاه الناس اياها فى ثقة به وغفلة عن نيته ، فرآها فرصة سانحة قد لا يؤتيه الزمن مثلها لحمل الناس على مايريد ، وتحقيق ماكان يتمناه من زمن بعيد ، فحمل قومه على غير الدين ، بنفس القوة التى ائتمنوه عليها للدفاع عن الدين . واشتط حتى كان يشنق فى سبيل القبعة ، ويحبس ويجلد فى سبيل السفور والاختلاط ؛ ولم يقف حتى جرد الدولة عن الدين ، وحال فى أمته بين الإسلام وبين الحكم الذى هو أخص خصائصه ، وحتى استبدل بأحكامه أحكام أوروبا فى الميدان الذى لم تكن أوروبا لتطمع فى غزوه : ميدان الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وتوريث . وشاءت رحمة الله ألا يطرد النجاح لهذا الصنف من المفتونين ممن أراد حمل الناس على سنن الغرب بالقوة رغم الدين ، فكان من هؤلاء من أفلح قومه فى الثورة عليه غضبا لدينهم حتى أنزلوه عن عرشه وشردوه عن بلده ، فكان فيما لقيه من الهزيمة والتشريد بعض العزاء للمسلم الذى ينظر الى ما يجرى فى أقطار الاسلام الأخرى من بعيد ، وشبه إنذار لمن عساه أن تحدثه نفسه بسلوك نفس الطريق . فوقف الخطر

من هذه الناحية وإن كان يخشى أنه لم يزل ، إذ يخشى أن يكون هذا النوع من الخطر كامنا فى بعض الأقطار ينتظر الفرصة ليشب كالنار

على أن مقلدة الغرب والمتحمسين له ليسوا كلهم ممن يستطيع أو يرجو أن يستطيع أن يحمل الناس على خطوات الغرب بالقوة. والذين ليس بيدهم القوة من دعاة الغرب لم يحملهم فقدان القوة على ترك السعى إلى غرضهم ، بل هم دائبون ناصبون فى سبيله لكنهم يكيفون وسائلهم بما يلائم الظروف . صحيح أن جميع وسائلهم يصح أن تتلخص فى « بث الدعوة » لكن سبيل الدعوة معبد لهم ميسر ، فإن جميع مايراه الناس ويسمعونه فى ملاهيهم ومتروضهم ، وجميع ما يقرأونه للتسلية لا يحلو مما ينألفهم إلى ما ينافى الدين ويبث فيهم روح الغرب الماجن من حيث يعلمون ومن حيث لايعلمون ؛ فالأغانى بألحانها ومعانيها المتهالكة . والراديو بما يذيعه من مهازل المسارح ومما جن الصالات ، والسينما بما تعرضه من روايات صنعت فى الغرب لتمثل فيما تمثل نواحى الشهوات فيه بما يغرى بها الناس ، والمجلات والجرائد بما تنشر من قصص غير طاهر وصور غير نقية منقول أكثرها عن مجلات الغرب وجرائده من غير نظر الى الشرق والى البلاد الاسلامية منه على الأخص — كل هذا وكثير غيره يعمل عمله فى النفس المسلمة الناشئة وغير الناشئة فتضعف من روح التدين فيها ، وتمهد للغرب ودعاته سبيل الاستيلاء عليها

هذه العوامل فى ذاتها خطر كبير ، لكن لا يزال هناك فى المسلمين شعور بأنها خطر ، وأن من الواجب مقاومتها والعمل على تلافى آثارها . صحيح ان هذا الشعور أكثره كامن لا يبدو إلا حينا بعد حين ، وإذا ظهر قويا فترة عاد إلى مكمنه فترات ، لكنه على أى حال شعور سليم . وهو على كل حال موجود منتشر ، ووجوده هو معقد الأمل والرجاء ان يصير يوما ما قوة دافعة تدفع هذه الكتل البشرية الاسلامية فى طريق الاسلام لتحيا فى بلادها حياة مسلمة ، ولتقيم على الأرض مرة أخرى دولة لا يكون الحكم فيها إلا لله العلى الكبير

لذلك كان الخطر الأكبر والشر الأعظم هو ما اتجه إليه دعاة ما يصح أن يسمى باللاإسلامية ، من تخدير هذا الشعور الاسلامى وإضعافه ثم إطفائه لما أوجسوا منه خيفة ، ورأوا فى إحساس المسلم بفرق ما بين تعاليم الغرب وتعاليم الاسلام ، عقبة العقبات فى سبيل دعوتهم التى يبثونها والتى ما فتئوا يوهمون الناس أن الخير كل الخير فيها . فتفتقت لهم حيلتهم ولطف كيدهم أن ينيموا هذا الشعور ويزيلوا هذا الاحساس فاتخذ كل منهم سبيلا إلى نفس الغاية ، او بالاحرى لم يدعوا سبيلا إلى تلك الغاية إلا سلكوها .

فمنهم من جعل يوهم المسلم المحافظ المتحفز للمقاومة أن المقاومة غير مجدية ، وان روح العصر لاشك غالب . فهم الغالبة والامر مفروغ منه والنصر مكتوب لاهل الرأى الجديد من الجيل الجديد ، وهذه طريقة قد اثرت فى كثيرين بل قد افلحت مع بعض من كان يظن انه اعقل وابصر من ان يجوز عليه هذه الخدعة من اهل القلم من المسلمين . فكتب حديثا ينبئ فئة الشباب المتمدين فى حرلتهم الدينية الحديثة ضد الاختلاط ، لا لأن الاختلاط عنده صواب ولكن لأن وقت المقاومة قد فات ، إذ الاختلاط قد بدأ منذ خمس عشرة سنة أو يزيد ! ولو كانت هذه الحجة على أساس من الحق لما أصابت الدعوة اللاإسلاميه شيئا من النجاح ، لان عمرها كله لايزيد على ربع قرن . ومع ذلك لم ييأس اهلها ان يبدأوها برغم القرون الكثيرة التى رسخت فيها تلك النظم والتقاليد الاسلامية التى قاموا لمحاربتها : وقد بداوها بالفعل واصابوا — لما اغتر المسلمون بقوتهم وضعفها — هذا النجاح الذى أوحى إلى ذلك الكاتب المسلم ما وحى من الكلام .

ومنهم من يحاول إدخال الطمأنينة على قلوب المسلمين المتململين بإيحائه إليهم ان لا ضير ولا خوف على الدين من ترك دعاة ما يسمونه الجديد يبشرون دعوتهم يميناوشمالا فى اذهان الاطفال ، وفى عقول النساء والرجال ، لان الحق سينتصر والباطل سينهزم والاصلح سيبقى ، وبتركهم يفهمون ان الباطل سينهزم من نفسه ، والحق سينتصر على رغم قعود اهله . وان الدين له رب يحميه : وإذن فليس هناك من داع إلى أن يعملوا هم على نصرته او يكلفوا أنفسهم مشقة الجهاد فى سبيله . ويصادف هذا الايحاء نفوساً تحركها للقيام كتحركها للقعود ، فتجنح إلى القعود والراحة مرة أخرى وتترك الميدان خلواً أو شبه خلو لأولئك الدعاة ، وهى

بذلك تعرض نفسها للهلاك لأن رب الدين حين يحمى الدين يحميه طبق سنته التى خلت فى الاولين باهلاك القاعدين واستخلاف غيرهم من المجاهدين الذين (يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ؛ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) .

وأبلغ فى الكيد من هذا إذا أرادوا أمراً وعارضهم حكم الدين أن يشككوا فى ذلك الحكم ويزعموا للناس أن ليس فى الدين ما يمنع مما يريدون ؛ فإذا قيل لهم إن الحكم ثابت عن طريق الإجماع أنكروا الاجماع أن يكون أصلا من أصول الدين ، أو طالبوك بأن تثبت انعقاد الاجماع ؛ فاذا جئت لهم بالنص على انعقاده تجده فى بطون الكتب ، جوزوا أن يكون الكتاب قد أخطأ أو أن يكون صاحبه قد كذب ، أو احتجوا لرأيهم برأى شاذ لبعض من كان لعله مثلهم فى ماضى الاسلام من الخارجين عن جماعة المسلمين . ولو كان الحكم لا يثبت فى الدين لرأى شاذ يراه واحد ولو كان من أهل العلم ما انعقدت بيعة أبى بكر ، فإن خلاف سعد بن عبادة وهو من كبار الصحابة فى أمر تلك البيعة معروف ، بل إذا كان الحكم فى جماعة ما يمكن تعطيله بمثل حجتهم الواهية هذه ما أمكن تنفيذ حكم أو دستور فى أمة من الأمم فى هذا العصر أو فى أى عصر ، ولكان قولهم هذا أبلغ ما يبرر به حكم الفرد ، إذ يصير حكم الفرد فى هذه الحالة هو البديل الوحيد من الفوضى

فإذا كان فى الحكم نص من السنة الكريمة واحتججت للحكم بذلك النص شككوا فى السنة وقالوا إن الذى وضع على الرسول كثير ، فلعل هذا من المكذوب الموضوع . فاذا قلت إنه قطعا ليس من الموضوع لأنه وارد فى الصحاح ، قالوا إن الحديث الصحيح لا يمكن الجزم بأنه ثابت قطعا عن الرسول ، فإن ما ثبت قطعاً عن الرسول هو المتواتر وهذا محدود معدود

ويحاولون أن يشككوك فى الحديث جملة باستغلال أمانة علماء الحديث ومبالغتهم فى التدقيق عند تميز درجات الحديث ، إذ جعلوا الاحتمال العقلى البعيد للسهو أو النسيان أو الخطأ فارقا بين الصحيح وبين ما لا يمكن أن يتطرق إليه إلا ذلك الاحتمال وهو المتواتر مع أن حديث الرسول قد محص بما لم يمحص به حديث أو رأى أو فعل صدر عن بشر كائناً من كان ، وأن هذا الحديث الصحيح قد صح عن الرسول بالسند المحص المنقود فاختبر عن طريق تمحيص السند من بين مئات الآلاف من الأحاديث فلم يتجاوز عدده بضعة الآلاف ، منها كثير مشترك . والمبالغة فى التدقيق فقط هى التى تجيز عقلا من بعيد ألا يكون مثل هذا الحديث مقطوعا بصدوره عن الرسول برغم ذلك التمحيص الدقيق . ولو كان مثل هذا الاحتمال مسقطا للحديث لسقط التاريخ كله ولكان من العبث الاعتماد على تاريخ ، أو كان هذا الاحتمال يجيز إهمال الحديث فلا يعمل به لجاز إهمال كل ماهو فى مرتبة دون مرتبة اليقين فى العلم وفى الفلسفة ، مع أن العلم يتمسك بالنظرية الراجحة حتى يثبت بطلانها ؛ وأولئك المشككون أنفسهم يستندون فى تدعيم آرائهم إلى آراء ونظريات هى من ناحية الثبوت فى العلم أو الفلسفة دون مرتبة الحديث الصحيح بكثير من ناحية الثبوت فى الدين . على أن الاجماع منعقد بين المسلمين على اختلاف مذاهبهم بوجوب الأخذ فى الأحكام بالحديث الصحيح . بل إن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يأخذون فى أحكامهم بالحديث يثبت عن الرسول عن طريق فرد ذكر أو أنثى ، وكانوا يرجعون عما عساهم يكونون ارتأوه أو حكموا به مما يخالف ذلك الحديث كما ترى توجيه ذلك مفصلا فى الرسالة التى كتبها الامام الشافعى مقدمة للأم فى الأصول

ويلتحق بهذا النوع من كيد أولئك المشككة المعطلة ما يحاولونه من تعطيل القرآن وإبطال مفعوله عند المسلم بالتوسع فى تأويله وصرف الآى عن وجهه وتخصيص عمومه وتخريجه على نحو يوافق ما يريدون ويعتقدون من آراء الغرب ونظرياته . ولقد لطفت حيلتهم فى هذا حتى وقع فى أحبولتها بعض قصيرى النظر ممن ينتسبون إلى الدين من المسلمين ؛ ووقوع ولو واحدا من رجال الدين فى أحبولتهم تلك دليل على مبلغ الخطر الذى يحف بالاسلام اليوم فى بلاده وصميم أهله . وإذا لم ينهض المسلمون لدرء هذا الشر ويصدقوا الله الجهاد فيه غير متوانين ولا متواكلين ولا مسوفين ، فسيجزيهم بتراخيهم ذلة فى الدنيا ، ويستخلف من بعدهم قوماً آخرين يؤيد بهم دينه الكريم (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) .

محمد أحمد الغمراوى

في ظلال الهجرة

غزوة بدر

للأستاذ ابراهيم مأمون

ذكرى، كما شاء الزمان أجالها … وخطى نكرت العالمين حيالها
ما المرسلات وما العواصف؟ ويحها … هل جزن بيداً أم وطوين تلالها؟
وإلام يحتث الهجان حداتها … في مهمه سبقت عليه ظلالها؟
قل للطوائر في الجواء حوائما: … رب السماء لغيركن أحالها
للريح. تنتظم الغمام ظعائناً … وتمد من لمع الشعاع كلالها
حرم السماء مجالها، وكأنها … سفن تخذن من الغباب مجالها
يمشين في حرس السماء، تديرها … أيدي الهواء. وما وعين عقالها

⊕ ⊕ ⊕

هي آذنت «بدراً» بنصر «محمد» … وطوى يديه استنزلت آمالها
جاءت «بجبريل السماء ووحيها»، … وحدت بآمال العلا «ميكالها»
تلك السماء تشققت بغمامها … تولى الرسالة في «العريش» صيالها
أزجت إلى جيش الحنيف ملائكا … لمس القليب طعانها ونزالها!
مثل الحمام برفعها وبخفضها، … وجرى الهوان يمينها وشمالها!
سائل جلود الشرك عن تبريحها … والشرك يبكيها، ويندب آلها
واستوح أشلاء القليب. فإنها … تبيان «بدر» إن أردت مقالها
يا يوم بدر: والمواقف جمة … فيك الحنيفة زايلت أسمالها
لبست دروعك سابغات في الوغى … ومضت بساحك تستثير رجالها
تلقى «محمداً النبي» يقودها … ويعز رايتها، وينهض قالها
ويذود عنها العاديات بحلمه … حيناً، وحيناً يستجيب قتالها
ما اللات؟ ما العزى؟ وأين مناتهم؟ … غال الحنيف عبادها، وأزالها
والشرك نكسه الجهاد. فلم يقم … أرأيت «هنداً» مثلت أمثالها؟
تدعو النساء إلى العويل، وتنتضي … سيف المهانة لم يغث أبطالها
تغري الوغى بملاحم دموية … شعواء تنهض بالرماح مجالها
بعثت من البيض الخفاف رسالة … حلقت لها يافوخها وقذالها
وجفت غدائرها وألقت قرطها … وتناهبت حسراتها خلخالها
تحدو الرجال إلى المواقع تارة … وتسير أخرى تستفز خبالها
كوساوس الشيطان أغرت مؤمناً … فجفا مودتها، وعاف وصالها!
ما غاظها جيش السماء. وإنما … جيش «المهاجر» يوم بدر غالها!
برز الحنيف على الحياض إلى الردى
يرمي الجهالة أو يدع مطالها!
وكأن أرض الله تقذف ما بها … وسماءه تولى النبي نضالها!
والكفر في بؤر الخنا متطلع … للعدوة الدنيا يرى رئبالها!
ويحس في كفيه أنفاس الوغى … تبدي من الصمت الرزين ملالها
ألوى بجيش الشرك مرهوب القنا … ونضا قراه، وما نضت سربالها

⊕ ⊕ ⊕

يا باسط الكفين في كنف العلا … تدعو السماء. وما تركت سؤالها
النصر وافى، واصطفتك مغانم … والله قسم بينكم أنفالها
فلذات مكة في رباك سوائل … ترجو نداك وما رجوت نوالها!
كانت تريك ببطن مكة بغيها … أفلا أرتك لدى الوغى استبسالها؟
خير البرية: تلك عقبى صابر … لاحته مكة: ظاهرت جهالها
جنبات ملك الله فزع دعمها … دعواتك اللائي نثرت إلا لها
والعرش حوم في رحاب المنتهى … يصغي لسدرتها وأنت حيالها
ويمد أجنحة الجلال لمنكب … بادي اللآلئ يجتلي لألالها
جافته بردتك الشريفة مذ رأت … ملأ العلا يضفي عليه مثالها
لو يعلم «الصديق» عند وقوعها … ما ترتديه لهاله ما هالها!
وسباه من وادي السنا لحاته … ومضى إليها يبتغي إمهالها!
ليرى تحيتها لوجهك ضاحياً … ويراك توليك العلا إجلالها!
ويراك والسبع الطباق خواشع … ويراك والدنيا تراك ثمالها!
نور الجلالة تحت ثوبك مشرق … يهدي السماء نجومها وهلالها،
من غير هديك ما تبسم طالع … في أمة أغرى الهوى اهمالها!

⊕ ⊕ ⊕

تلك الخلائق يا محمد: أعرضت … ورأت حطام الراشدين حلالها!
رجعت بها الأهواء عن غاياتها … وتنقصت في العاجزين كمالها
فتنت بزائفة النهوض، ولو رأت … مجد الأوائل أكبرت أطلالها
كفرت على مهد الندى آباءها … وجفت على قرب المدى أخوالها
جادت على وادي السماح بروحها … للناهبين، وما رعت إقلالها
جعلت لخاذل دينها تسليمها … ولناصريه المتقين جدالها
ولو أنها التمست هداك لصافحت … غدواتك البيض الخطا آصالها

في الأدب المقارن

الشعر والنـــثر

في الأدبين العربي والإنجليزي

للأستاذ فخرى أبو السعود

الشعر أسبق ظهوراً من النثر فى عالم الفن الذى يحتفى صاحبه بانشائه وتنميقه ، ويتعمد إيداعه شعوره وأفكاره على نحو جميل يراد له السيرورة والبقاء . فالشعر يظهر ويرتقى والأمة ماتزال متبدية قليلة الحظ من الثقافة وأسباب العمران ، أما النثر الفنى فلا تدعو الحاجة إليه ولا تتم وسائله إلا فى أمة متحضرة مستقرة واسعة الثقافة منتشرة فيها الكتابة الخطية ، فالكتابة الخطية تتيح للكاتب أن يتوفر على إنشاء النثر المنمق ، الذى يحوى تعمقاً فى التأمل واتصالا فى المجهود الأدبى وتدبيجاً للفظ ، وتتيح أيضاً للنثر الفنى أن يبقى ويذيع . أما الشعر فهو غنى بموسيقاه ورويه عن تقييد الطروس ، وهو أهل للنهوض بحاجة الأمة المتبدية ، من التعبير عن عواطفها وأفكارها البسيطة ؛ ومن ثم ارتقى الشعر الإغريقى كما يتمثل فى ملاحم هوميروس رقياً عظيما ، والأمة ماتزال إلى البداوة أقرب ، وتطور حتى تفرع منه فن جديد هو فن التمثيل ، كل ذلك قبل أن تتوطد قواعد النثر اليونانى ، وقبل أن يبلغ مبالغه على أيدى هيرودوت وثيوسيد وأفلاطون .

وكلا الشعر والنثر مدينان فى ظهورهما ورقيهما - كسائر الفنون - للدين والدولة بفضل عظيم : ينشأ الشعر مختلطا بالموسيقى مصاحبا للرقص فى الحفلات الدينية ، التى تحفلها الجماعات الأولى فى مواسم آلهتها ، وينفصل عن الموسيقى والرقص ويخرج من حظيرة الدين إلى حظيرة الدولة ، فيمدح الملوك ويزين قصورهم كما كان يفعل الشعر الاغريقى فى عصر الطغاة ، وعلى أيدى الكهنة يتألف أول ماتعرف الأمة من مبادىء النثر الفنى ، من نذوات مسجوعة وحكم وعقائد مدونة أو شفاهية وقصص عن الملوك والآلهة ، ثم ينحاز الكتاب الناثرون كما انحاز الشعراء إلى بلاطات الملوك ودواوينهم ، يزجون بضائعهم وينزلون آمالهم ؛ ثم يستقل الشعر والنثر عن حظيرتى الديانة والدولة قليلا قليلا ، لشيوع الرقى العقلى وانتشار الثقافة وتميز شخصية الفرد عن شخصية الجماعة ، فيصبح كل منهما فناً غايته التعبير الجميل عن شعور الانسان بالحياة ، وعلى قدر تحرر كل منهما من العلاقة بالكهان وبالحكام ، وتخلصه من الغرض المادى يكون رقيه الفنى وصدقه فى أداء رسالة الحياة .

فبانتشار الحضارة والثقافة يرتقى الشعر عما كان عليه فى عهد البداوة ، ويظهر بجانبه النثر فناً ثانياً مترجماً بالألفاظ عن شعور الانسان وتفكيره ، منافسا له فى كثير من مواضعه ومعانيه . فيتقاسمان النهوض بمهمة الأدب ، ويظهر من الأدباء من يجمعون بين الفنين ، يبرزون فى كليهما أو يشتهرون بأحدهما فوق اشتهارهم بالثانى . ويشارك النثر الفنى الشعر فى كثير من خصائصه ، أى خصائص الفنون جميعاً ، كالموسيقية ، والخيال ، والتقابل ، والتماثل ، والتجاوب ؛ بيد أنه وإن تشارك الفنان فى شتى الخصائص والموضوعات ، فما زالا متميزين فى خصائص ، مستقلا كل منهما دون الآخر بموضوعات هى به أشبه وهو على تأديتها أقدر . فللشعر قصب السبق فيما هو أدخل فى باب الخيال والعاطفة والشمول والغموض أحياناً ، وللنثر ما هو أقرب إلى التفكير والمنطق والدقة والترتيب والاستقصاء ، ومن ثم يلجأ الشاعر الناثر إلى الشعر طوراً وإلى النثر تارة

فالشعر والنثر كلاهما قادران على تأدية أغراض الوصف والحكمة والعتاب والاعتذار والفكاهة ؛ وربما رق النثر فى كل ذلك وتشبع بالخيال حتى صار أشبه بالشعر ، لا يميزه عنه سوى انعدام الوزن

ما اعتزّ من عزّوا بغيرك هاديا وبغيرك الدنيا رأت إذلالها

خطرَتْ تجر القيدَ تحسب أنها بلغتْ أمانيها أو استقلالها !

نشوى بحكم الفرد صاغ من العصا قلمَ المؤدّب يجتوى إملالها

تدعو وتنهض فى الحياة مُضلّلاً جعَل المتاحَ من الأمور مُحالها

تتزاحم الشورى على أبوابها فتشيح عنها تبتغى أبطالها !

ويميتُ أكفاء الرجال هدا ثُها وَيَجِع المواهب لا ترى استقلالها!

وأْدُ البنين ، كأنْ شرعتك انتهت وكأنّ عدْوانَ الزمانِ أدالها !

وكأنّ بنى الجاهلية لم يزل يُلغِى الحقوقَ ويزدرى سآلها !

ولعلّ من وأد البنات أنابها والجاهلية ترتضى إغفالها !

يا آسىَ التقوى : جفاها طبُّها ، بكَ تستجير ، فهل ترى ابلالها؟

ذاق الأمَرّين الأساةُ ، وأخفقوا ؛ فمن الذى يشفى السقام عضالها ؟

لجّت بصيحتها المشارقُ لم تجد كفا تحلّ بحزمها إشكالها !

تُعلى المعابدَ لا قنوتَ لخاشعٍ فيها ؛ ولا تَلْقَى هناك ه بلالها ه!

ما أكثر الداعين باسم هُداتها حتى إذا نُودُوا جفَوْا أقوالها !

ورأوْا مبادئها مسبّة جيلهم وكأنها لم تنتظم أجيالها !

هى تلك يا طه شريعة دينهم؟ أم تلك دنيا يشربون نهالها ؟

إبراهيم مأمون

وإن ساواه في الموسقية ؛ أما الحماسة والنسيب مثلا فالشعر أمهد لهما سبيلا وأرحب مجالا ، إلا أن يجيء النثر الحماسي خطابة فيكون له من رهبة الموقف وتعبير سيماء الخطيب وهيبة محضره عوض عما يمتاز به الشعر من خيال وروعة واستجاشة للعواطف ، ومن ثم كانت الخطابة من أشبه فنون النثر بالشعر ؛ وأما في سرد الوقائع التاريخية أو القصص الفردية ، أو تقرير الحقائق العلمية والأدبية ، فالنثر أرحب بكل ذلك صدراً . أطول باعاً . ومن ثم كان نقد الشعر والأدب عامة وتسديد خطى الأدباء وإظهار محاسن الشعراء من أهم وظائف النثر التي يضطلع بها إذا ما توطد وساير الشعر جنباً لجنب

وقصارى القول أن موضوعات الشعر والنثر يتباعد طرفاها ، ويلتقي الطرفان الآخران حتى يختلطا ؛ وإن الروح الشعري قد يكون في النثر الجيد كما قد ينعدم من النظم الرديء ؛ ولما كان الشعر والنثر يعبران مشتركين عن شتى خوالج النفس الانسانية ، فمن الطبعي أن يرتقيا معاً في عصور الرقي الانساني وينحطا معاً في عصور الانحطاط . بيد أنه يلاحظ بجانب ذلك أن أحدهما ربما ارتقى وفاز باحتفاء الادباء والثاني في انخذال وقعود ، تبعاً لما تميل إليه نزعة الشعب في عصر من عصوره ، فكما يختلف الفرد الواحد بين نزعة الخيال والعاطفة والخفة احياناً ، وبين نزعة التأمل الوقور والاستقصاء الهادىء للحقائق أحياناً حسب اختلاف أطوار النفس الانسانية الخفية الاغوار المتقلبة الاطوار ، كذلك تمر الأمم بعصور طموح ومغامرة يزدهر فيها الشعر والنثر الشعري ، وبعصور هدوء وركود ، وتأمل علمي وفلسفي ، يغزر فيها النثر ويلعب دوراً كبيراً ويخفت صوت الشعر

فاذا نحن رسمنا لأطوار الشعر والنثر دورة ، كتلك التي رسمها أرسطو لنظم الحكم في المدن اليونانية ، بين ملكية وارستقراطيه وهلم جراً ، كان أول أطوار تلك الدورة طورا شعرياً طويلا ، يبلغ ذروته بنهضة الأمة بين الأمم ، ونيلها نصيباً وافراً من الحضارة والثقافة ، يلي ذلك طور نثري يشتغل فيه النثر بنقد ما تجمع لديه من آثار الشعراء المتقدمين ، وينخذل الشعر في أثنائه أو عقبه مباشرة ؛ فاذا ما انبثت في الأمة روح جديدة جاء طور شعري جديد سابق أيضاً ، يليه طور نثري وهلم جراً . ولعل في تاريخ الأدب الفرنسي مثالا لذلك واضحاً : إذ سبق الشعر الفرنسي بالظهور على أيدي التروبادور ورونسار ، ثم نهض النثر على أيدي رابليه ومونتين في عهد النهضة الأوربية ، ثم نهض الشعر مرة أخرى في عهد لويس الرابع عشر على أيدي كورني وراسين ، ثم كان القرن الثامن عشر عهد نثر طويلا ظهر فيه فلتير وروسو ، ثم كانت النهضة الرومانسية الشعرية فظهر لامرتين وهوجو ، ثم نهض النثر بانتشار الحركة العلمية وذيوع القصة ، وظهر القصاصون كبلزاك وموباسان ، والنقاد كرينان وتين

يتشارك النثر والشعر - منذ ظهور النثر الفني - في تأدية رسالة الأدب ويتشاركان موضوعات وغايات ، ويتراوحان صعوداً وهبوطا مع تعاقب العصور ، ويظهر النوابغ في كل منهما ، وينال هؤلاء وأولئك حب المثقفين وإعجابهم ؛ بيد أن الشعر يظل آثر لدى المثقفين وأكثر استئثاراً بحفظهم واستشهادهم ، ويظل الشعراء أحظى بالرعاية والاهتمام ، وآثارهم أحظى بالدرس والنقد . وإلى الشعر والشعراء ينصرف الذهن أول ما ينصرف إذا تحدثنا عن الأدب أو فكرنا في الأدباء ، أو أردنا الموازنة والاستشهاد أو التدليل على صحة نظرية . وبأسماء فحول الشعراء تسمى عصور الأدب المتتابعة في تاريخ الأدب الانجليزي ، كل ذلك لما يمتاز به الشعر من تضمين المعنى الشامل اللفظ الموجز ، والنظرة النافذة القول الرصين ، وما يتوفر عليه من شرح العواطف والذكريات ، والآمال والأشجان والأطراب ، وما زال الانسان أكثر انجذاباً إلى العاطفة منه إلى الفكر ، وهو من ثم يؤثر الشعر على النثر .

نشأ الشعر العربي وارتقى في البادية ، سابقاً للنثر ، إذ بلغ ما بلغه من الرقي على أيدي أصحاب المعلقات وأضرابهم ، والنثر لا يتعدى بعد الخطب القصار والحكم المنثورة والأسجاع المأثورة والوصايا المتفرقة . نعم كان للقبائل خطباء كما كان لها شعراء . ولكن العرب كانوا بالشعر أولع حتى عدوه معرض مفاخرهم ، وقالوا : « الشعر ديوان العرب » ، ولم يقولوا : « الأدب » ولا « الخطابة » . ولم تدع كلمة النثر حتى تحضروا وتثقفوا وانتشرت بينهم الكتب .

وكان الشعر والنثر معا في بدء أمرهما مختلطين بالدين والدولة ، فشاعر القبيلة كان وزير دعايتها بتعبير العصر الحاضر ، والشعر والسحر والكهانة والعرافة والتنبؤ والسجع كانت معاني وألفاظا متلاحمة الوشائج . وقد كان للدين بين العرب من أقدم عصورهم مكان ، وأخرجت جزيرتهم عدداً من الأنبياء عديداً ، وكان الشعر إلى ظهور الاسلام ينشد في المواسم الدينية ، وتخاطب به الآلهة ، من ذلك قول بعض اليمانيين في طوافهم :

عك إليك عانية عبادك اليمانية

ولم ينفصم الشعر والنثر العربيان يوما علاقتهما بالدين والدولة ، بل ظلا طول عصورهما على اتصال بهما متين ؛ بل بفضل الدين احتوى النثر العربي على أثر فني لا يجارى بلاغة ، بل هو نموذج البلاغة الذي ظل يحتذى ويدرس ويقتبس في النثر والشعر معا طول العصور ، وهو القرآن الكريم ، وبقيام الملك على أساس ديني اتصلت علاقة الأدب بكلا الملك والدين ، وظل الشعر يتقرب إلى الحكام بالمدح ، والنثر يعمل في دواوينهم ، ولم يخرج الأدب العربي خروجا تاما من طور خدمة الملوك ، إلى الطور الفني الخالص المنزه عن كل غرض خارجي أو مطلب مادي ، وإنما ظل الشعراء

والكتاب يعتمدون على رعاية الأمراء، ويسخرون فهم لخدمتهم

وتوالت أطوار الشعر والنثر في تاريخ الأدب العربي: فسبق الشعر في الجاهلية، وحل محله النثر في صدر الاسلام متمثلا في الكتاب الكريم وخطب الرسول وخلفائه وكتبهم وكتب عمالهم، واستعاد الشعر مكانته في عهد الأمويين على ألسنة جرير والفرزدق والأخطل وجميل وكثير وابن أبي ربيعة وأضرابهم؟ وعند ذلك كان العرب قد تشربوا الحضارة والثقافة، فظهر النثر الفني على أقلام عبد الحميد وابن المقفع والجاحظ والبديع؛ وبلغ الشعر في الوقت نفسه أوجه على أيدي معاصري هؤلاء من الشعراء، كبشار وأبي نواس والطائي والبحتري وابن الرومي والمتنبي والمعري، ثم أفل نجم الشعر بدءا من القرن الخامس وأفسده التعمل، وأعوزته روح الطموح والمغامرة التي غاضت من نفوس الأمة التي أرهقها المتسلطون، وبقيت للنثر بقية من قوة مستمدة من نضج الثقافة الاسلامية، فكان العصر التالي طور نثر طويلا أنجب من النقاد والمؤرخين والكتاب أضراب ابن خلكان والنويري والقلقشندي وابن رشيق وابن خلدون، ممن كان هم أكثرهم جمع الآثار الأدبية والتاريخية المتخلفة من العصور السالفة، وتنظيمها والتعليق عليها. ثم لحق الوهن والاسفاف النثر كما لحق الشعر. فلما كانت النهضة الحديثة، كان الشعر أسبق إلى النهوض والحياة والتخلص من شوائب الصنعة والتقليد، فالشعر أسبق من النثر إلى الازدهار وأسبق منه إلى الذبول.

كان الشعر أسبق إلى الظهور والرقي في الجاهلية، وكان العرب يعدونه ديوانهم، وكانت له لديهم مكانة عظيمة، وقد ظلت له هذه المكانة على توالي العصور، على رغم ظهور النثر الفني ورقيه وحصول الكتاب دون الشعراء على المراتب السامية كالوزارة؛ وظل الشعر أعلق بالنفوس وآثر بالحفظ والذكر، ولم يساره في الحفظ والسيرورة من آثار النثر إلا القرآن الكريم، وهو على بالروح الشعري حافل بالتشبيهات والمجازات البليغة. ولما ارتقى النثر الفني راح يتتبع خطى الشعر: يقتبس أبياته ويضمن شطراته، ويتناول موضوعاته، ويحاكي موسيقاه ووزنه؛ فاصطنع السجع والازدواج والجناس، وأصبح السجع في النهاية للنثر لازماً لزوم القافية للشعر. والحق أن الأدب العربي بفنيه الشعر والنثر اتسم دائما بالاحتفاء باللفظ وجرسه وتنميقه، والأسلوب وتقسيمه وتدبيجه، وقد ظل ذلك مستساغا مقبولا حينا ثم أفرط وسمج. وظل الشعر العربي شديد الحرص على فخامة الموسيقى ووضوحها واطرادها بلا اخلال، كالاخلال الذي يكثر في الشعر الانجليزي ويلجأ إليه شعراء الانجليزية قصداً للتنويع واجتناب الاطراد الممل. وظلت القافية في الشعر العربي كذلك واضحة جزلة مكونة في الواقع من قافيتين صوتيتين، كما في «عانيه» و«مانيه» في البيت السالف الذكر، وهذا ما يعرف في الانجليزية بالقافية المؤنثة، وقد دخلت الانجليزية نقلا عن الايطالية ولكن الشعراء سرعان ما نبذوها، لعدم ملاءمتها لطبيعة اللغة الانجليزية التي تمج الافراط في الموسيقية نثراً أو نظما.

ولما ظهر النثر الفني بجوار الشعر، ونبغ فيه الكتاب واحترفوا إنشاء الرسائل الديوانية، وحرصوا على التزود بكل أسباب الثقافة، والتحلي بكل موجبات الفضل، عالج أكثرهم الشعر طبعا أو تكلفا، فأثرت عن الحسن بن وهب وابن الزيات وابن الصولي وسعيد بن حميد وابن العميد وابن عباد والخوارزمي والبديع والجرجاني والعسكري، أشعار قالها بعضهم تظرفا ورياضة للقريحة، وقالها بعضهم جادين في التعبير عن خوالج صميمة وآراء صادقة. وقد قيل إن الجاحظ عالج قرض الشعر طويلا ثم أقلع حين لم يفلح. وكان البديع والحريري يخالفان في مقاماتهما بين شعر ونثر لا يكاد يتميز أحدهما عن الآخر إلا بالعروض، وفيما عدا ذلك يتساويان تنميق لفظ وبلاغة إنشاء، ومن أجمل أشعار الكتاب قول الجرجاني من أبيات هي من غرر الشعر العربي: —

يقولون لي: فيك انقباض وإنما رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما

إذا قيل: هذا مشرب قلت: قد أرى ولكن نفس الحر تحتمل الظما

وقد كانت المقابلة والمفاضلة بين الشعر والنثر من هم نقاد العربية وكان أكثرهم يميل مع الشعر؛ على أنها مفاضلة لا موضع لها: فليس الشعر خيراً من النثر ولا النثر خيراً من الشعر، وإنما كلاهما ضروريان وكل منهما جميل في موضعه، زد على ذلك أن أولئك النقاد كانوا يدخلون في حسابهم اعتبارات خارجية لا صلة لها بالفن الصميم، بل هي شؤون اجتماعية أو سياسية أو فردية صاحبت الأدب في بعض العصور، فأصحاب الشعر يستدلون على أفضليته بأن الشاعر يخاطب الأمير باسمه مجرداً وباسم أمه وبصيغة المفرد، وبأن الشعر رفع قبائل كأنف الناقة ووضع أخرى كنمير، وبأن الكذب ومدح النفس يقبلان فيه ولا يستساغان نثراً؛ وأصحاب النثر يؤيدون حجتهم بأن الرسول الكريم لم يقرض الشعر، وأن الشعراء يخدمون الكتاب ويأخذون هباتهم. وأن الكاتب يجلس والشاعر ينشد وهو قائم وهلم جرا.

نشأ الشعر والنثر الانجليزيان كذلك على صلة بالدين والدولة، وكان مزاولوهما الأوائل أمثال تشوسر وسبنسر وهوكر من رجال السياسة والدين والحرب، أو كانوا على اتصال بالساسة والمحاربين وعلماء الدين. ومن الكنيسة خرج فن التمثيل ذو الصلة الوثيقة بالأدب، فكان قوامه الشعر أولا على عهد شكسبير؛ ثم انحاز تدريجاً إلى النثر؛ وكان للانجيل أثر بليغ في اللغة الانجليزية؛ غير أن الشعر والنثر مالبثا بعد ذلك أن انسلخا تدريجاً عن الملك والكنيسة

والأحزاب والأعيان ، واعتمد كلاهما مكان أولئك جميعاً على الجمهور القارىء ، ودخلا فى طور الفنون الخالصة التى لاغاية لها سوى وصف مشاعر الانسان وشعوره بجمال الحياة وغبطاتها ، وهو الطور الذى لم يبلغه الشعر والنثر العربيان تماماً ، بل قام من الادباء الانجليز من ناصبوا الملكية والكنيسة ، مثل شلى وبيرون

وكان الشعر الانجليزى أسبق إلى الازدهار من النثر : فبلغ أوجه فى عهد اليزابث فى آثار شكسبير ومعاصريه ، وتجلت الروح الشعرية حتى فى النثر الدليل الذى خلفه ذلك العصر الحافل بروح الاقدام ، فبوكر مثلا وهو يدرس مسائل دينية يعرج فيصف الموسيقى وصفاً شعرياً رائعاً ؛ وتلا ذلك طور نثرى طويل فى القرن الثامن عشر ، بلغ فيه النثر الغاية من السلاسة ورحب الجوانب ، ثم كانت هبة قومية جديدة فنهض الشعر فى العهد الرومانسى نهضة باهرة ، وكان كثير من شعرائها كتابا حذاقا أيضا تفيض كتاباتهم النثرية بما تفيض به أشعارهم من روح رومانسية ؛ ثم ارتقى النثر فى أعقاب ذلك مرة أخرى ، فظهر من النقاد ماكولى وارنولد ، ومن القصصيين ثكرى ودكنز ، وما زالت القصة فى ازدهار مطرد

وبلغ النثر الانجليزى من الرقى الشكلى والموضوعى ما لم يبلغه النثر العربى : فظهرت فيه المقالة والصورة والترجمة والتأريخ والقصة الفنية . وبهذا كله تهيأ له أن يزاحم الشعر على مكانته ، لا سيما بفضل القصة والرواية التمثيلية ، بل هو انتزع الرواية التمثيلية من الشعر واستأثر بها . والقصة اليوم تستقل بأسماء أعلام الأدب الانجليزى ، وقد مارسها أكبر شاعرين محدثين : كبلنج وهاردى ، بل كانت ممارسة النثر بجانب الشعر دائما من أدب شعراء الانجليزية ، يبسطون فيه آراءهم فى النقد الأدبى والأحوال الاجتماعية . فكان دريدن وكاولى وبوب الشعراء مثلا من أوائل من كتبوا المقالات ، أما كبار شعراء العربية فقلما روى لهم نثر مطنب

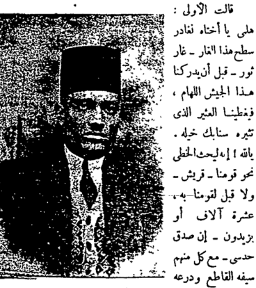
على أن الشعر الانجليزى وإن زاحمه النثر فى العصر الحديث هذه المزاحمة . واستأثر دونه بأ كثر احتفال الادباء والقراء ، لم يفقد موضعه الأثير من نفوس المثقفين ، وإنما هو يجتاز مثل عصر الركود الذى شهده فى القرن الثامن عشر ، إذ أن النثر والشعر كما تقدم يتجاذبان النفس الانسانية على اختلاف العصور ، بيد أن الناس حتى فى مثل هذا الطور لا ينزعون عن حبهم للشعر . بل يلتفتون إلى الماضى يروون صداهم من عبابه الزاخر ، ولا تزال لشكسبير وملتون ووردزورث وشلى منازل فى قلوب قراء الانجليزية ، كمنازل ابن الرومى والمتنبى والمعرى فى قلوب قرائهم ، لا يحتل مثلها الكتاب الناثرون فى كلا الأدبين

فخرى أبو السعود

بين يومى الهجرة والفتح

حمامتان تتناجيان

للأستاذ محمود غنيم



قالت الأولى : هلمى يا أختاه نغادر سطح هذا الغار — غار ثور — قبل أن يدركنا هذا الجيش اللهام ، فيغطينا العثير الذى تثيره سنابك خيله . يالله ! إنه ليحث الخطى نحو قومنا — قريش — ولا قبل لقومنا به ، عشرة آلاف أو يزيدون — إن صدق حدسى — مع كل منهم سيفه القاطع ودرعه المنيعة ، ويقين أقطع من سيفه وأمنع من درعه . يا لله لقريش ! من أين أقبل هذا الجيش ؟

قالت الثانية : لقد جاء القوم عن طريق يثرب ، لكنى لا إخالهم جميعا يثربيين . أنظرى ، هذه خيل من سليم ، وهذه من مزينة ، وهذه من غطفان ، هم أمشاج أخلاط ، من كل فج وعلى كل لون ؛ ولكن شيئا لا أكاد أتبينه ، تبدو أنواره على أساريرهم ، ويشع بريقه من عيونهم — يؤلف بينهم ، ويجعل منهم كتلة واحدة كأنهم بنيان مرصوص

بيد أن شعورا داخليا فى نفسى يجعلنى لا أرهب هذا الجيش ، حتى لا كاد أقف على ذباب سيوفهم وفوق شبا رماحهم آمنة مطمئنة ، كأننى فوق منبر الحرم ، أو على حافة مقام ابراهيم . أنظرى معى ، أنعمى النظر ، ألا ترين تلك الكتيبة الخضراء التى تتوسط الجيش ؟ ألا ترين هذا الرجل الذى يتوسط تلك الكتيبة الخضراء ، يومىء للقوم فيسيرون ، ويقفهم فيقفون ؟ إن لى عهدا بهذا الرجل — إن لم تخنى الذاكرة — آه ! تذكرت يا أختاه ، أليس هذا صاحبنا بالأمس الذى استضفناه فى هذا الغار ثلاثة أيام منذ عشرة أعوام ؟ إنه محمد ، محمد ، محمد ، ألا تذكرين ؟

قالت الأولى : تذكرت كل شيء ، حتى لكأن هجرته بنت الصباح، وكأن مكانه فى الغار لايزال حارا ، وكأن جرس صوته يرن فى اذنى وهو يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا ، ألم أحدثك يومئذ أن لهذا الرجل شأنا ؟ ما الذى أوحى إلينا يومئذ أن نحكم تدبير تلك المؤامرة التى اشتركنا فيها لتضليل القوم وإخفاء محمد عن عيونهم ؟ يوم عششنا بفم الغار ، وما كان فم الغار لنا بعش ، ونسجت العنكبوت خيوطها على بابه ، وما كان لها به عهد ، وأرسلت الشجرة الجرداء ذوائبها فاعترضت الطريق إليه . لقد تضافرنا على تضليل القوم حتى ضل القوم ، فظلوا يتخبطون فى كل مكان ، ويهيمون فى كل واد ، يبحثون عن محمد ، ومحمد منهم بحيث لو نظر أحدهم تحت قدميه ، لعثر عليه

تذكرت يوم تألب شبان قريش على محمد ، وأحاطوا بداره إحاطة السوار بالمعصم ، ينتظرون طلوع الصباح ، فيعطرون أديم الأرض بأطيب دم جرى فى أطهر عروق ، ويفصلون أعظم رأس عن أكرم جسد ، وكيف أن محمدا تغفلهم فى الهزيع الأخير من الليل فأضجع عليا فى فراشه ، وسجاه ببرده الحضرمى ، ليوهم القوم أنه هو ثم انسل من بينهم ، والكرى آخذ بمعاقد أجفانهم . كم كان ليلا هادئا ساكنا ، لم يقطع عليه سكونه إلا دبيب محمد الخافت ، يسير على أطراف أصابعه ، وإلا طرقة هامسة من أطراف أنامله على باب صديقه أبى بكر سرعان ما استجاب لها ، كأنهما كانا على ميعاد . على أنهما لم يأمنا أن يخرجا من باب الدار ، فخرجا من فجوة فى الجدار ، ثم اتجها فى طريق اليمن حتى طرقا علينا باب الغار ، وقد آذن أن ينبلج النهار ، فقابلناهما بالتجلة والاكرام ، طيلة ثلاثة الأيام . كم كان يثير إشفاقى وإعجابى ما كان يبدو عليهما من الخوف المركب فى طبيعة الإنسان ، مقرونا بالثبات الذى تبعثه قوة الايمان !

نعم تذكرت ذلك كله ، وتذكرت كيف كان عبد الله بن أبى بكر يندس بين قريش نهارا ، ثم يوافيهما فى الغار ليلا ، فيسر إليهما ما يأتمرون به ، وكيف كان عامر بن فهيرة غلام أبى بكر ، يمر بغنم عليهما موهنا فيحتلبان ويذبحان ، ثم يعفى بها على آثار عبد الله . وتذكرت يوم اعتزما الرحيل فالتمسا ما يعلقان به الطعام فشقت أسماء بنت أبى بكر — ذات النطاقين — نطاقها شطرين ، علقت الطعام بشطر ، وانتطقت بشطر . وتذكرت سراقة بن مالك وما كان من أمره يوم جعلت قريش لكل من يقبض على محمد مائة بعير ، فخرج يلتمس محمدا ، فاذا محمد منه عن كثب . لكنه ما كاد يصيح صيحة الظفر ، حتى شعر بجواده قد عثر ، فأنهضه فكبا ثانية ، ثم ثالثة ، حتى كأن الجنتان فقد قوائمه ، أو فقد الأرض التى تستقر عليها قوائمه ؛ وإذ ذاك رأى الفارس أن الأرض أثبت ظهرا من حصانه ، فترجل ودنا من محمد ، لكن لا ليقبض عليه ، بل ليعتذر إليه . ألم أحبرك يومئذ أن الرجل يكتنفه غموض وتحوطه أسرار ؟

قالت الثانية : دعينى مما تقولين ، أى سر فى جواد يكبو بصاحبه . أو فى حمامة تبيض ، أو عنكبوت تنسج خيوطها ، أو شجرة ترسل أغصانها ؟ إنما السر كل السر فى تعاليم هذا الرجل التى تنفذ إلى قلوب أصحابه ، فتفعل فيها مالا تفعل خمر الأندرين ولا سحر بابل . لقد هاجر الرجل وهو وحيد طريد ، فمن أين جاء بهذا العدد العديد ، الغارق فى يلب الحديد ؟ ، أتذكرين ما كنت تتنبئين به يومئذ من أن أهل المدينة لن يكونوا أبر به من أهله الذين آذوه وطردوه ، ولو تمكنوا منه لقتلوه ، ولامن اهل الطائف الذين أغروا به الصغار ، لحصبوه بالأحجار ؟ أما كنت تقولين : ماذا عسى أن تكون إقامة محمد بين ظهرانى اهل المدينة ، والمدينة معقل اليهودية التى يناصبها العداء ، ومهد الفتن التى لاتهدأ ثائرتها بين الأوس والخزرج ، وبينهما ما بينهما من تراث ودماء ، يتوارثها الأحفاد عن الاجداد ؟

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا

لقد كنت تقولين ذلك ، وحق ماتقولين ، فليت شعرى ماذا فعل محمد حتى استسل تلك السخائم المستأصلة من نفوس القبيلتين ؟ وكيف هادن اليهود ، وهم أشد تمسكا بتوراتهم ، من أمرمة بهيلهم ولائهم ؟ بماذا تفسرين هذا ؟ وماهو هذا الذى يأتى به يسميه قرآنا . فيصبه فى الآذان كما تصب الخمر فى الأفواه ، ويتلوه عليهم كما تتلى الرقى والتعاويذ ؟ إن لم يكن خمرا ، ولم يكن سحرا ، فأى شيء هو ؟ لقد سافر محمد فى قلة وذلة ، لا ينفر منه وحش ، ولا تشعر بوطأته ارض ، فما باله يعود فتدكدك الأرض تحت وقع سنابك خيله ، وتلوذ الوحوش منه بقمم الجبال ؟ كان هو وزميله ودليله عند هجرتهم يسيرون ليلا ، ويختفون عن العيون نهارا كما يزور الحبيب الحبيب ، عند مايخشى عين الرقيب

أزورهم وسواد الليل يشفع لى وانثنى وبياض الصبح يغرى بى

كانوا لا يأمنون نميمة الشمس ، ولا إغراء القمر ، ولا وشاية ظلالهم بهم ، ولا يطمئنون إلى سلوك طريق معبدة ذلول ، فهم أبدا يعوجون ويعرجون ويصدون وينحدرون ، فما بالهم الان يسيرون فى وضح النهار ، ويكادون يغطون قرص الشمس بما يثيرون من غبار ، ويهتكون حجابها بكل صارم بتار ؟

لشد ما تغيرت الحال ! ولشد ما تدهشنى تلك المغناطيسية التى تجذب اليه الرجال ! ولعمرى ما رأيت اتباعا أشد تعلقا بصاحبهم من تعلق أصحاب محمد بمحمد . أو ما تذكرين يوم كانت قريش تطرح بلالا على الرمضاء اذا اشتد الهجير ، وتلقى على صدره حجرا ينوء بحمله البعير . ليكفر عن اتباع محمد ، فلا يزيد على قوله : احد ، احد ؟ أو ما تذكرين يوم أسرت هذيل زيد بن الدثنة وباعته من قريش

لتقتله ببعض قتلى بدر ، فتقدم اليه أبوسفيان ، وهو واقف على أبواب الأبدية وقال : أنشدك الله يا زيد : أيسرك أن محمداً الآن فى مكانك تضرب عنقه ، وأنت فى أهلك ؟ فقال زيد : والله ما أحب أن تصيبه شوكة فى قدمه وأنا فى أهلى . أليس معنى ذلك أن القوم يتفانون فى حب محمد ودين محمد ، وهم أشد ما يكونون تفانيا اذا حزب الأمر ، واشتدت اللازبة وتحرجت المواقف ،

قالت الأولى : لقد ذكرتنى بأبى سفيان وإننى أكاد ألمح شخصاً يشبهه فى سواد الجيش ، يسير تحت لواء محمد . أنظرى معى ، أنعمى النظر ، كأنه هو ، عجباً ! أترينه هو أيضا سرى فيه تيار كهرباء محمد وجذبه مغناطيسه فاستجاب له ، بعد أن ناهضه من بدء دعوته ؟ أليس هو قائد جيش المشركين ببدر ، ثم بأحد ثم بالخندق ؟ ثم أليس هو زوج هند بنت عتبة التى مضغت كبد عمه حمزة بأحد ، وأرادت أن تشفى صدرها بابتلاعها لولا أن شعرت بمرارتها فلاكتها ، ثم قذفتها ، والتى آلت ألا يطأ فراشها أبو سفيان بعد بدر حتى ينتقم لأبيها وأخيها ، والتى جدعت أنوف صرعى المسلمين بأحد ، وصلت آذانهم ، واتخذت من كل ذلك قلادة تحلى بها عنقها ؟ ليت شعرى أترينها هى أيضا قد استجابت لمحمد فاستجاب بعلها ، إنها لأحاجى وألغاز

قالت الثانية : حقا أننى لألمح أبا سفيان يسير تحت لواء محمد بجوار عمه العباس ، وليس غريبا أن يكون تيار محمد جرفه كما جرف آلافا من أمثاله . إن تيار محمد جارف ، وريحه عاصفة تجتاح كل ما يعترضها فى طريقها ، ولئن كان أبو سفيان ناهض الاسلام ضعيفاً لما ضره أن يؤيده قوياً . وما أقل أشياع الضعيف حتى يشتد ساعده فيكثر أشياعه ، وينضوى تحت لوائه من أسرف فى عدائه . وهل تعتقدين أن كل من ناوأ الاسلام ناوأه مقتنعاً ببطلانه ، أو أن كل من أيده أيده بدافع من وجدانه ؟ وهل كان أبو سفيان بدعا فى الرجال ؟ كم لأبى سفيان من أمثال وأشباه ، كانت لهم تجارة وجاه أشفقوا عليهما وعلى أنفسهم من الهوان فصدهم ذلك عن الايمان . أما وقد تغير مركز محمد فيجب أن يعتدل موقف هؤلاء من محمد . وما يدريك أن أبا سفيان سيجبى من وراء إيمانه خيراً كثيراً ؟ وما يدريك أنه سيخرج من بين صلب أبى سفيان وترائب هند من يفتح البلاد ويتحكم فى رقاب العباد باسم محمد ودين محمد ؟ على أن أبا سفيان ما لجأ إلى الايمان ، إلا بعد ما قاساه من الهوان . أما سمعت ما تحدث به الناس أنه بعد أن نقضت قريش عهد الحديبية جعل قلب أبى سفيان لا يستقر بين ضلوعه خشية محمد وبطش محمد فتسنم راحلته ، وتوجه شطر المدينة ليؤكد العهد إن وفق ، أو يستشف نوايا محمد إن أخفق ، فنزل أول ما نزل على ابنته أم حبيبة زوج محمد ، فما كادت تراه حتى طوت فراشا كان مبسوطا أمامها ، فقال : أطوين الفراش رغبة بأبيك عنه ، أو رغبة به عن أبيك ، فقالت : لا والله إنه فراش رسول الله الطاهر الأمين ، أخشى عليه دنس الشرك ورجس الوثنية ، فتشاءم الرجل ، ونهض مغضباً ، ودخل على محمد فازورعنه جانبه ، فلجأ إلى أبى بكر فطوى عنه كشحا فلاذ بعمر ، فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار . عندئذ ارتد على عقبه يجر ذيل الفشل وخيبة الأمل . على أنه بعدها لم يغمض له جفن ، ولم يهدأ له جأش ، وجعل يتوقع غزو محمد لمكة ، وإن كان محمد أحاط هذا الغزو بالكتمان . ولقد اشتد القلق بأبى سفيان ، فخرج منذ حين ليكشف أمر المسلمين . نعم لقد شاهدته منذ حين فى نفر من قريش ، خرجوا يستطلعون خبر الجيش ، فلقد تناقلت خبره الركبان ، رغم مبالغة محمد فى الكتمان . وكأننى بأبى سفيان ماكاد يلوح غبار الجيش لعينيه ، حتى سقط فى يديه . وكانت فى نفسه بقية شك فى دعوة محمد ، فما هو إلا أن رأى جيش المسلمين ، فاذا الشك يقين . وكأننى به وقد مثل بين يدى محمد ، فنظر اليه نظرة يكمن فيها شبح الموت ، ولسان حال الرسول يقول :

إن على الله أن تبايعا تؤخذ كرها أو تجىء طائعاً
فلم يسع أبا سفيان إلا التسليم والاذعان

قالت الأولى : ها هو ذا الجيش قد دنا من مكة حتى صار قاب قوسين أو أدنى ، وإنى لألمح أبا سفيان واقفاً بمضيق تمر عليه جيوش المسلمين فيلقا فيلقا . وما إخال هذا إلا من تدبير محمد ، حتى يلمس الرجل مقدار ما يستهدف له قومه من الخطر إذا حدثتهم أنفسهم بالمقاومة ، فيذهب اليهم نديرا ينقل ما ألقى فى نفسه من الرعب إلى قلوبهم . يالله لسياسة محمد ! إنه يريد أن يتم الفتح بدون أن تتطاير الرءوس ، أو تتناثر الأشلاء ، أو تراق قطرة من دماء . هل تريدين أن تتبينى صدق ما أقول ؟ أرهفى أذنيك . أصيخى إلى هذا النداء : « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » أسمعت النداء ؟ أتحققت صدق رغبة محمد فى السلام ؟ وكيف يريد أن يحقن دماء أهل المدينتين : التى ربته وليداً والتى آوته طريداً . ها هو ذا أبو سفيان يتقدم الفاتحين داعيا قومه إلى ترك الكفاح وإلقاء السلاح . وها هو ذا جيش الفاتحين ينقسم أربعة أقسام ، يدخلون مكة من جهاتها الأربع : الزبير بن العوام على رأس فريق ، وخالد بن الوليد على رأس فريق ، وسعد بن عبادة على رأس ثالث ، وأبو عبيدة بن الجراح على رأس رابع . ولست أظن أن هؤلاء سيلقون مقاومة ، وإن كنت أشك فى هؤلاء الذين

بقيمون باسفل مكة ، وعلى رأسهم عكرمة بن أبي جهل ، فما أظنهم يخلدون إلى الاستسلام ، بل يابون إلا امتشاق الحسام . على أن خالدا سوف يعمل فيهم نباله ونصاله ، فلا يلبثون إلا ساعة من نهار يلوذون بعدها بأذيال الفرار ، وتستطيعين أن تعتبرى هذا اليوم فى تاريخ مكة فاصلا بين عهدين ، خالدا على مر الجديدين . هنيئا لمحمد ! لقد غادر مكة آبقا تحت أذيال الظلام ، ثم دخلها دخول القياصرة العظام ، فليصدح مؤذنه بالأذان حتى يشق أجواز الفضاء ، وليقم شعائره فى ضوء النهار لا من وراء ستار ، وليطف بأرجاء مكة آمنا مطمئنا ، وليتفقد منزله إن كانت أبقت أيدى القوم عليه ، وليزر معاهد صباه ، وليغش حراء الذى كان يتحنث فيه ، وليملأ عينيه من أرض مكة وسمائها ، وليملأ رئتيه من هوائها ، ليتنفس هواءها الآن نقيا صافيا ، بعد أن حرمه عشرة أعوام ، وتنفسه مسموما موبوءا ثلاثة عشر عاما . ولتتداع إلى خاطره الذكريات ، وليستجمع العمر فى لحظات . ويل لهبل ومناة ، والعزى واللات ، ولتلك الاصنام المشدودة إلى الكعبة بالرصاص . ولتلك الصور التى تمثل ملائكة السموات غوانى فاتنات . هذا آخر عهدهن بأستار البيت ، لشد ماكان يمقتها محمد . وكأنى به يعمل فيها معول التحطيم ويحرم من أجلها على قومه النحت والتصوير ، وهكذا تسىء الوثنية إلى الفن كما أساءت إلى الدين ، ولكن ما تظنين محمدأ فاعلا لقريش ؟

قالت الثانية : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم ، إن محمدا أبر بقومه من أن يحد عليهم أو يؤاخذهم بما اقترفوا ، وإنه لأكبر من أن يتشفى بالترة عند المقدرة ، وقريش بأسرها المعروف كما ترهبا حدة السيوف . ولو أن محمدا أراد الانتقام لرأى من المهاجرين محبذين ، ومن الأنصار أنصارا . إن سيوف أولئك وهؤلاء لتظمأ إلى ما فى عروق القوم من دماء ، أو ما سمعت سعد بن عبادة عندما دخل مكة صاح قائلا : « اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، فما هو إلا أن سمع محمد صياحه ، فتقلصت شفتاه ، وقدحت الشرر عيناه ، ثم اختطف الراية من سعد ، وأعطاها قيسا ابنه . إن الرجل لايريد بقومه شرا ، وإنه ليضرب للعالم بذلك المثل الأعلى فى الصفح والمغفرة عند القدرة ، وإنى لأذكر لمحمد مواقف من هذا القبيل تعتبر مثلا عليا فى الصفح الجميل . فلقد سمعت أنه يوم حشد هذا الجيش لفتح مكة ، أخذ على الناس المواثيق أن يتكتموا أمره ولا يذيعوا سره ، ولكن حاطب بن بلتعة كان له بمكة ولد وأهل أشفق عليهم فكتب إليهم حتى يتجهزوا لقتال محمد ؛ بيد أن خبر الكتاب نمى إلى محمد ، فسرعان ما أرسل عليا والزبير فى أثر حامل الكتاب ، وكان امرأة فأدركاها فاعترفت بجرمها وأخرجت الكتاب من بين غدائرها . اتعرفين ماذا كان جزاء حاطب وهو من جيش الرسول ومن شهود بدر ؟ لقد جوزى على هذه الخيانة العظمى بالصفح والغفران ! قال عمر : دعنى يا رسول الله أضرب عنقه فان الرجل قد نافق ، فقال الرسول ـ بعد أن أطرق هنيهة ـ « دعه ياعمر وما يدريك أن الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر فقال اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم » ، وهكذا تذكر النبى بجوار هذا الغدر موقف الرجل يبدر فاغتفر الاساءة اللاحقة للاحسان السابق وخالف مادرج عليه الناس ، فكل الناس

يبنى من الاحسان طودا قدرسا   وليس ينسى ذرةً من أسا

ولقد تمثلت محمدا إذ وقف بأحد بعد أن وضعت الحرب أوزارها فرأى عمه حمزة مبقور البطن مجدوع الأنف ممضوغ الكبد ممثلا به أى تمثيل . فأقسم لئن أظفره الله بقريش ليمثلن بسبعين من قتلاهم ؛ فها هى ذى قريش مطأطئة الرقاب ، وها هى ذى رءوس قريش دانية القطوف ، فما يمنع محمدا أن يطفىء من غلته ويبر بأليته ؟ إنه المتسامح فى أجل صوره وأعلى أمثلته . على أننى لا إخال محمدا مهما بلغ من تسامحه يعفو عن الحويرث الذى اغرى على زينب ابنته عند هجرتها ، أو عن هذين الرجلين اللذين أظهرا الاسلام ثم ارتكبا جريمة القتل بالمدينة ثم ارتدا إلى الشرك ، أو عن قينة ابن خطل التى كانت تتغنى وتسمر بهجائه ، فهو لابد قاتلهم ، ولعلك لا تنكرين ذلك على محمد متناسية أن اللين لا بد أن يشوبه العنف وإلا شاه جماله . ولقد كانت لمحمد بجانب تسامحه البالغ صرامة بالغة . ولعلك تذكرين أنه يوم قبل الفداء من بعض أسرى بدر وأطلق بعضا آخر أبى إلا أن يضرب عنق النضر ابن الحارث وعقبة بن ابى معيط ، لشدة مانا له من الأذى على أيديهما قبل هجرته . ولعلك تذكرين أنه ما كادت جنود الأحزاب تتخلى عنه فى غزوة الخندق حتى تفرغ لليهود الذين تألبوا مع العدو عليه فى ساعة العسرة فأباح دماءهم وأموالهم ونكل بهم شر تنكيل ، وكيف أنه كان يعترض لقريش وغير قريش من المشركين يريق دماءهم ، ويسلبهم إبلهم وشاءهم حتى يعتصموا بالاسلام ، وما كان ذلك تجنيا من محمد ، ولكنها الدعوة الروحية يجب ان تؤيدها القوة المادية ، حتى ينظر إليها الناس نظرة جدية ، وهكذا تمهد السيوف للأقلام ، ويتضافر الاثنان على نشر لواء الاسلام

قالت الأولى : ثم ماذا بعد فتح مكة

قالت الثانية : ما يدرينا ؟ لعل كان محمد بعد قومه ملك فارس والروم فيتهكم به كفار قريش قائلين : « هذا ابن أبى كبشة ـ يعنون زوج مرضعه حليمة ـ سيرث ملك الأكاسرة والقياصرة » ، ولعله لو امتد بنا الزمان بضعة أعوام ، شهدنا تحقيق هذه الاحلام

قالت الأولى : لقد احسنا إلى محمد يوم آويناه فى الغار ، وساعدناه على الفرار .

قالت الثانية : أكبر الظن أننا أحسنا إلى الانسانية جمعاء : استحدثنا ثقافة ، وأقمنا بناء حضارة ، وغيرنا مجرى التاريخ .

كوم حمادة

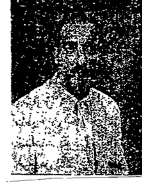
محمود غنيم

مدرس بالمدرسة الابتدائية الأميرية

نفحة شرقيـــة

فى أدب غربى

للأستاذ عبد الرحمن صدقى



كان شاعر الالمان « جوته » يعنى منذ صباه بتاريخ الشرق وشعره . فدرس العبرانية وأدمن مطالعة التوراة . وكان يهتز لها لما يجده بها من أريحية الشعر ، وبخاصة «قصة راعوث» و «نشيد الأناشيد» . وهو يعتبر النشيد نسيج وحده فى الرقة وحرارة الحب ، وكان يستروح منه نسمة دافئة تهب من بقاع «كنعان» ، وتتراءى له فيه حياة الحقول الوادعة ومزارع الكروم ومنبسط الرياض ومنابت الطيوب العاطرة . ويأنس من بعيد زحمة المدن بنى اسرائيل ، وفيما وراء ذلك جميعه يتخيل ديوان سليمان وأبهة ملكه .

وينتقل جوته من العهد القديم العبرى ، إلى عصر الجاهلية العربى ، حيث يقع على الكنوز المذخورة فى المعلقات . تلك القصائد المطولات التى أحرزت الفوز بميدان النزال الأدبى فى أسواق الشعر عند العرب . وهو يتمثل منها أهل البداوة الرعاة المقاتلين ، لايبرحون فى غارات إثر غارات ، يؤججها مابين قبائلهم من ترات وخصومات . ويقول شاعر الألمان إن المعلقات تحدثه بأقوى بيان عن العصبية التى تربط أبناء القبيلة الواحـدة ، وعما انطبع عليه العرب من روح الاقدام والبسالة ، والتحرز من العار والاستمساك بدرك الثار ، وطلاب المجد ، والتماس الفخار . وكيف أنهم كانوا يقدمون النسيب بين يدى هذه الفضائل الشديدة فيلطف عرامها وعنفها ، بمـا يبثه من الأسى والحنين ولوعة الهوى وحسن الوفاء . ويزيد هـذه القصائد العصماء قيمة عنده أن لكل منها سمة غالبة يلمسها القارىء ولا ينكرها

على أن الذى شغل جوته أكبر الشغل هو شخصية سيدنا محمد . وغير خاف أن العالم المسيحى كان من أيام الحروب الصليبية سيء الرأى بطبيعة الحال فى صاحب الشريعة الاسلامية . وكانت الكنيسة تتجاهل وجود القرآن وتحرم ترجمته ، حتى جاء القرن السادس عشر والسابع عشر ، فعمد بعض العلماء إلى نشر تراجم له مشفوعة دائما بدحض ما جاء به وتفنيده . ولعل ذلك منهم من قبيل التقية ودفع الشبهة ، وحرصا على تزكية عملهم والتكفير عنه عند أهل ملتهم . ثم بزغ على الأثر عصر الشك ، أو ما يسمونه عصر النور . وكان دعاته يحملون على الأديان كافة حملتهم الشعواء ، ولا يريدون أن يروا فى أصحابها إلا دجاجلة مغررين يزعمون للناس أنهم ملهمون . إلا أن الأحوال تعدلت ، وانبرى بعض المحققين من جهابذة الغرب الى هدم التخرصات المنسوبة إلى محمد فى العالم المسيحى ، وكتبوا سيرته الشريفة بروح عالية توفر لها التجرد عن الهوى والاستغراق فى الموضوع فانجلى لكل ذى عينين محمد رجل الدين ، الثابت اليقين فى الله الواحد الأحد ، وعرفوا فيه رسولا من رسل العناية لنشر التوحيد من أقاصى الهند إلى ربوع الاندلس . واطلع شاعرنا جوته وقتئذ على سيرة محمد ، وحيا فيه النبى العظيم والروح القوى الأمين ، حاطم الأصنام الداعى إلى دين الفطرة

وقرأ جوته القرآن وطبع مختارات منه مأخوذة عن الترجمة الألمانية . وظل طويلا يمعن فى درسه إمعان الباحثين . وهو يشير إلى أن القارىء الأجنبى قد لا يحبه لأول قراءته ، ولكنه يعود فينجذب اليه ، وفى النهاية يروعه ويلزمه الاكبار والتعظيم

ويستشهد جوته بآيات الكتاب العزيز فى بيان تعاليم الدين « ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون . إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم »

ويقول جوته إن القرآن يردد هذه التعاليم ويكرر البشير والنذير سورة بعد سورة . ولا يرى جوته فى هذا الترديد والتكرار مايراه النقاد الغربيون . لأن النبى لم يرسل للناس برسالة شاعر للتفنن والتنويع فى ضروب الكلام ، وعرض الصور المزوقة من الاخيلة والأوهام ، لاستحداث اللذة وادخال الطرب على الاسماع والاذهان . بل هو بنص القرآن بعيد عن هذا الوصف . وإنما هو نبى مرسل لغرض مقدر مرسوم يتوخى إليه أبسط وسيلة وأقوم طريق ، وهذا الغرض هو إعلان الشريعة وجمع الأمم حولها وانضواؤهم إلى لوائها . فالكتاب العزيز أنزل ليقتضى الناس الخبوت والايمان ، لا لمجرد المتعة والاستحسان ، واذا ما عرض للقصص فليس المقصد الأول هو التاريخ والاخبار ، وإنما ضرب الامثال للموعظة والاعتبار

وقد أراد جوته تاليف قصة تمثيلية عن محمد ، وشرع فيها من أيام شبيبته فنظم منها مناجاة للنبى وهو بالليل وحده فى الخلاء تحت السماء

الساجية السافرة النجوم . وقد اقتبس فيها هـذه الآيات فى دحض الشرك : « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة ؛ إنى أراك وقومك فى ضلال مبين . وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأ كونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى ، هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون ، إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض ، حنيفاً وما أنا من المشركين » . ثم أدار جوته حوارا بين محمد ومرضعته حليمة . كما أنه وضع نشيداً على صورة مقطعات يتناوب إنشادها « على » ، وزوجه « فاطمة » بنت الرسول . وهو تصوير رائع لقوة هذا الانسان المبعوث من عند الله ، ووصف شعرى لفيض الاسلام وسرعة ذيوعه ودخول القبائل والأمم فيـه أفواجا أشبه ما يكون بالنبع فى الجبل لا يزال يتحدر من النجاد إلى الوهاد ، ويزخر بما ينصب فيـه من الروافد فيتسع مجراه وينتظم البلاد الواسعة والممالك العظيمة حتى يبلغ المحيط الأعظم

ولم تزل فكرة هـذه الرواية ماثلة فى مخيلة جوته حتى وضع مشروعها . وعلى مقتضاه تبدأ الرواية بنشيد ينشده محمد وحده بالليل تحت السماء الساجية ، ويشعر بنفسه العاكفة على التأمل والتفكير يسمو صعداً إلى الله تعالى الذى تستمد سائر الكائنات وجودها من وجوده . ويكاشف محمد بهذا الهدى زوجه خديجة فتؤمن به عن طواعية أول المؤمنين . ثم فى الفصل الثانى يقوم النبى يناصره على بالدعوة إلى دينه بين قومه فيلتى العطف من فريق ، والمعارضة من فريق ، كل على حسب طبعه وما ركب فى جبلته . ويقع الخلف بين القوم وتشتد الملاحاة ويضطر محمد إلى الهجرة . وفى الفصل الثالث ينتصر محمد على خصومه ويطهر الكعبة من الأوثان . وتستوى دعوته دينا مقررا ، وتجتمع له أسباب الجهاد قولا وفعلا . ويظهر الرجل السياسى إلى جانب الرجل الدينى . وفى الفصل الرابع يتابع محمد مغازيه ، ويتخذ لها عدتها ويتوسل بوسائلها . وتدس له السم امرأة من يهود خيبر ثكلت أخاها . والفصل الخامس والأخير يبلغ فيـه محمد أوج كماله وتتجلى عظمته الروحية . ثم تعاوده عقابيل السم فينتقل إلى جوار ربه . . . غير أن هذه الرواية وقفت عند حد المشروع ، مما نأسف له شديد الأسف .

وقد كان جوته فى مدينة « ويمار » - وهى الآن تكريما له عاصمة الريخ الألمانى - حين جاز بها الروس المسلمون من شعب البشكير على ظهور جيادهم ، ونزلوا بهـا ، واتخذوا أحد معاهد البروتستانت مسجداً للصلاة ؛ ولا تسل عن فرحة جوته بهم وحضوره صلاتهم واستماعه إليهم يرتلون آيات القرآن ومقابلته إمامهم وتحيته لأميرهم فى المسرح . وهو يذكر فى هزة المحبور أنهم اختصوه من رعايتهم بقوس وسهام لم يزل يعلقها فوق موقده طيلة عمره تذكارا باقيا .

وبلغ من حب جوته للشرق أنه كان يعالج محاكاة الكتابة العربية ورسم حروفها ، ويغتبط وهو يقيمها ويسطرها من اليمين إلى اليسار على عكس كتابة أهل الغرب

فهل وقف جوته عند هذا الذى عرفه وأحبه فى الشرق ؟

الواقع أن فيما عرفه جوته حتى الآن عن الشرق وفيما أحبه منه مقنعاً وأى مقنع . ولكن الرجل أبت له نفسه الرحيبة ألا يجتمع فيها الشرق السامى والشرق الآرى كما يقولون : شرق العبرانيين والعرب وقد تقدم ، وشرق الهند والفرس

فقد أقبل الرجل يتعرف إلى المئات والمئات من آلهة الهند ويشهد فى التهاويل والصور أوثانهم الهائلة المخيفة ، واطلع على مطولات أساطيرهم ، واحتار بين أتاويه مذاهبهم ، وتعجب لاختلاط الشهوات بالقداسات عندهم ، والتقاء الحضيض بالسموات فى نظرهم . وقد أخرج من ذلك أساطير هندية رائعة منها (الآله والراقصة) و(موبذ البراهمة وزوجه) وغيرهما

وقد أثنى جوته على حكايات الفيلسوف (بيدبا) التى وضعها للملك (دبشليم) على ألسنة الحيوان ، ويلاحظ جوته أن الفرس نقلوا هذه دون غيرها عن الهند لعدم اتصالها بالوثنية الهندية الفظيعة ، ونفور أذواقهم الدقيقة المهذبة من تلك الفلسفة الدينية العويصة . أما هذه الحكايات عن كليلة ودمنة فهى تقع موقع القبول عند الناس أجمعين ، وقد صار لها شأنها الكبير عند الفرس والعرب لما انطوت عليه من الحكمة العملية والخبرة بالحياة .

وكان شاعرنا الالمانى فى ذلك الأوان قد أوفى على الستين ولكنه مجدد الشباب أبداً كالخالدين . وقد اختار لمطافه الأخير أدب فارس ، أدب الجنات والبساتين ، أدب الورد والبلابل ، والحب الحسى والوجد العلوى . ولقد استغرق جوته فى هذا الأدب ونسى عالمه الخارجى وكان يؤثر واحداً بين شعرائه الكثيرين ، وقد اتخذه صاحبه ومرشده الدينى فى هذا الجو الشرقى المشبع بالمتعة والحنين . وهو شمس الدين محمد حافظ الشيرازى أرق شعراء الفرس الغنائيين .

وزاد اعتزال جوته لما حوله ، وأبعد بفكره أميالا بعد أميال ، وارتفع أطباقاً فوق أطباق ، وتخلص من قيود الزمان والمكان وانفتحت له من ديوان حافظ الشيرازى أبواب الشرق ، الشرق مهد الانسانية ، بما فيه من أوضاع للشعر والاجتماع والاخلاق والدين تختلف عما يعهده . فخلص جوته من هذه وتلك إلى صميم الحياة ، الى الوحدة والبساطة .

وكانت أشعار حافظ تكشف لجوته عن حياة تمت إلى حياته بأقرب وشائج القربى . حياة حياها هو أيضاً ، حياة نفس تتقبل الوجود بمنتهى الحرية والمتعة ، وتناجي الغيب دون أن تقطع ما بينها وبين الأرض . وتواجه التعصب والجمود بالتصوف الحي والاحساس بالشمول . لكأنما هي حياة جوته هذه التي يحكيها حافظ . الممالك تنهار ويقوم الحاكمون في إثر الحاكمين فلا تسمع منهما غير الغناء يتجوى نفوسهما وأشجانها الحلوة وأسرارها الخالدة . وكلاهما يقف وجهاً لوجه أمام قاهر طاغية — هذا أمام تيمورلنك ، وهذا أمام نابليون ، فلا تتخذل عبقرية الأدب في وجه عبقرية الحرب . إن جوته المأخوذ بهذه المشابهة يهتز لها من اعماق نفسه . فهو يعلم ما لهذه اللحظة من خطر . إذ يتصل فيها الجنسان باتصال نفسين كبيرتين من الجانبين . وهذا هو جوته يحس باستكمال شطره الثاني ، يحس بالشرق والغرب يلتقيان فيه . وتضمهما دفتا كتاب واحد يخرجه للناس هو « الديوان الشرقي للمؤلف الغربي » .

وأبواب الديوان اثنا عشر باباً ؛ وهذه هي باسمائها الشرقية على الترتيب : كتاب المغني . كتاب حافظ . كتاب العشق . كتاب التفكير . كتاب السخط . كتاب الحكمة . كتاب تيمور . كتاب زليخا . كتاب الساقي . كتاب المثل . كتاب الفرس . كتاب الخلد . وفيما يلي ترجمة القليل من روائع هذه الأسفار :

نشيد الهجرة

« الشمال والغرب والجنوب أقطارها تتناثر بدداً ، وعروشها تثل وممالكها تنهار . فهاجر وامض إلى الشرق الطهور ، تستروح الطيب من الآباء الطيبين . وبالحب والنشوة والغناء يرد عليك ريعان صباك كأنما نضح عليك من نبع الشباب السرمد الخضر عليه السلام .

« هناك في ظل النقاء والصدق تطيب لي الرجعى إلى نشأة الانسانية الأولى . إلى الأزمان التي تلقى فيها بنو الانسان كلمة الحق منزلة من الله بلسان أهل الأرض . فلم يقدحوا فكراً ولم يكدوا ذهنا . إلى تلك الأزمان التي كانوا فيها يجلون السلف . وينهون عن كل دين غير دينهم

« أريد التملي من عصور الفطرة بأفقها الممدود المحدود : فكر قانع وإيمان واسع

« أريد معاشرة الرعاة في المنتجعات ، والاسترواح في ظلال الواحات ، والارتحال مع القوافل متجرا في الطرح والبن والمسك ، طارقاً كل درب من البوادي إلى الحضر

« وسيان أنجدت أو أتهمت ، فان أغانيك يا حافظ تؤنسني في وعثاء السفر ، إذ يترنم المرشد بها على ظهر برذونه مأخوذا طربا ، وكأنما يوقظ بها النجوم الوسنى ، ويرهب قطاع الطريق

« هناك في الشرق في ردهات حماماته وبين جدران خانه ، أريد أن أذكرك يا مولانا حافظ وقد رفعت حبيبتي خمارها ، وتضوع الطيب من غدائرها المهدلة المضمخة بالعنبر

« وليعلم الذين ينفسون على حافظ جمال حياته وحلاوة شعره ، والذين تطوع لهم نفوسهم التعريض بهتانا بكفره ، أن كلمات الشاعر لاتبرح حائمة حول جنة الخلد ، طارقة في لطف أبوابها تطلب الخلود »

تعويذة

« لله المشرق ، ولله المغرب ، وفي راحتيه الشمال والجنوب جميعا

« هو الحق ، ومايشاء بعباده فهو الحق . سبحانه له الأسماء الحسنى ، وتبارك اسمه الحق ، وتعالى علواً كبيرا

« ينازعني وسواس الغي . وأنت المعيذ من شر الوسواس . فاللهم اهدني في الأعمال والنيات إلى الصراط المستقيم

« ومهما تضللنا النزعات وتزين لنا الشهوات . فالنفس التي لاتذهب في الغي شعاعا ولا تضيع ضياعا ، لاتلبث بالادخار والأناة أن تنطلق عارجة إلى أوج العلاء

« وللناس في ترديد أنفاسهم آيتان من الشهيق والزفير : هذا يفعم الصدر وهذا يفرج عنه . كذلك الحياة عجيبة التركيب . فاشكر ربك إذا بليت . واشكر ربك إذا عوفيت

منح أربع

لكيما يسعد العرب في البيداء ، راتعين في بحبوحة الفضاء ، أولاهم المولى ذو الخير العميم منناً أربعا :

اولى هذه المنن : العمامة . وهي زينة أروع من التيجان كافة . ثم خيمة يتحملونها من مكان إلى مكان ، حتى ليعمروا كل مكان . ثم حسام بتار هو أمنع من الحصون وشاهق الأسوار . ثم القصيد يؤنس ويفيد ، ويسترعي أسماع الخرد الغيد)

الحرية

« دعوني كما أهوى على صهوة جوادي السابح ، وابقوا أنتم في بيوت المدر وخيام الوبر ! إنني لأنطلق جذلان في الفضاء الشاسع ، وليس فوق عمامتي إلا النجوم الزواهر

وما زينت السماء الدنيا بمصابيح ، إلا هدى للناس في البر والبحر ولتكون متعة للناظرين أبد الدهر كلما ولوا وجوههم قبلة السماء »

عناصر الشعر

« كم العناصر التي يقوم بها القصيد حتى يتملاه العامة ويلذ سماعه الخاصة ؟

« إذا قيل الشعر فليكن النسيب المقدم . فان الحب إذا مازج الشعر

زاد نبراته حلاوة وبعدها فليردد الشعر رنين الكؤوس ولتلألأ فيه كميت الخمر كالياقوت فانما العشاق والندامى هم وحدهم من ترتاح لهم وتهش لجلسهم

- كذلك يطيب فى الشعر سماع صلصلة السيوف ودوى النفير ولجب الوغى حتى إذا انجلى الحظ أبلج أزهر دان الناس للبطل، وغدا يهنيم مؤملا بما أصاب من النصر المؤزر

« ولا معدى للشاعر فى آخر الأمر عن التنكر لأشياء شتى والتعرض لها بالهجاء. فما كان لمثله أن يلقى القبيح المشنوء. بمثل ما يلقى الحسن المستحب

« فاذا اجتمعت للشاعر هذه المقومات الأربعة. فقد أشاع البهجة والحياة بين الورى أجمعين. إلى أبد الآبدين

أسير:

(هنا كان الطرف الأدعج والثغر الأحوى اللذان حظيت منهما باللحاظ والقبل، قوام سبط، وأعطاف بضة لينة، كأنما هى لحورية من جنة النعيم.

(أكانت هنا حقا؟ وأين مضت؟ أجل، هى بعينها التى جادت بهذا كله، هى التى سمحت ثم ولت هاربة. لقد تيمتنى وتركتنى ما حييت أسيرها)

كتاب مطالعة:

(سفر ما أعجبه بين الأسفار! ذلك سفر العشق. لقد أمعنت فى مطالعته. بضع صفحات من اللذة، وأبواب مستفيضة فى الألم. اختص الفراق بجزء كامل واقتصر اللقاء على فصل وجيز. على مقطوعة. وللأشجان مجلدات مذيلة بحواش لا حصر لها ولا آخر)

سلام:

(واها! ما أسعدنى!... كنت أتمشى خلال الحقول فإذا الهدهد يطفر فى طريقى، وكانت بغيتى البحث هنا وهناك عن ودعات متحجرات مما تخلف عن البحر القديم، فاعترضنى الهدهد فى اختيال ناشراً تاجه متبختراً فى هيئة المدل الساخر، وإنه لسخر الحى بالميت. فقلت له: يا هدهد! فى الحق إنك لطائر جميل. إنطلق يا هدهد وبلغ حبيبتى أنى لها وملك يمينها ما حييت. وكذلك كنت يا هدهد من قبل رسول الحب بين سليمان وملكة سبا،

(فقال الهدهد: إن التى أنت موفدى لها، قد أودعتنى كامل سرها، فى نظرة واحدة من ناعس طرفها. وأنا أغبطك على سعادتك. فأنت محب وأنت محبوب. ودوام الحب الزاهر مقترناً بالقوى الخالدة بقية أيامك قدر لك مقدور وطالع مكتوب)

قارورة العطر

(لكى يتحبب اليك المحب بالعطر العبق، ويزيد فى انشراحك وبهجتك، يهلك العطار على النار العدد العديد من أكمام الورد. فلابد له من عالم منها ليستقطر ملء قارورة صغيرة، قارورة مخروطة مستدقة كأناملك لكى تهدى اليك، فهل ترانا نذكر هذه الآلام والعطر يفعم حسنا ويزيد فى متاعنا! هيهات. وكم هلكت أنفس لا عداد لها فى سبيل عظمة تيمور)

لذة الإحسان

ما أحلى نظرة الجارية ذات الدل وهى تغمز بطرفها. ونظرة النديم تلمع عينه بالرضى وهو يحتسى كأسه. وما أحلى تسليم السيد الآمر يشملك بعطفه. وشعاع الشمس فى الخريف ينعشك بدفئه. فليكن أحلى من هذه جميعاً فى نفسك حركة الاستعطاف اللطيفة تمتد بها كف الفقير فى طلب الصدقة، وتلتى منك بالحد الجزل ما تجود به. فما أحلاها وقتئذ نظرة وما أحلاها تحية وما أحلاها بلاغة فى السؤال. تأمل هذا فاذا أنت الكريم الجواد على الدوام.

مثل الإيمان

تحدرت من السماء الى لجة الخضم قطرة مرتجفة، فأنحت عليها الأمواج خفقاً وضرباً. ولكن الله جزاها عن صبر ايمانها خيراً. فوهب لقطرة المطر قوة واعتصاما. فاحتوتها الصدفة فى حرز حريز. وأتم الله عليها العز والجزاء الأوفى فهى اليوم على تاج الشاه درة تتألق حلوة اللمح سنية البهاء

الدين

من الحماقة التعصب للدين. وإذا كان الاسلام هو التسليم لله فقد وجب أن نحيا ونموت مسلمين أجمعين.

ونحن نقف من الديوان عند هذا الحد. وإن كان فى الديوان زيادة للمستزيد. ولكن ضيق المقام يمنع من الافاضة. وفيما تقدم الكفاية للدلالة على ما انطوى عليه هذا الشاعر الغربى من الروح الشرقى.

والعجيب أن شاعرنا هذا كلما تقدمت به السن وآذنت شمس حياته بالغروب كان يزداد تطلعا إلى الشرق

وهذا عجيب، ولكنه من جوته غير عجيب فان ذلكم الرجل العامر بالحياة كان حتى ساعة أن حضرته الوفاة مولعاً بكل مطلع للنور حسيا كان أو روحيا. وقد قضى نحبه ويده المرتجفة تشير برفع الأستار، وعيناه إلى النافذة وهو يتمتم بهذه الكلمة العليا والمطلب الأخير: المزيد من النور! المزيد من النور

عبد الرحمن صدقى

علوم القدماء عند العرب

ولا سيما فى القرن الخامس للهجرة بمصر

للدكتور يوسف شخت
أستاذ الفلسفة بكلية الآداب

أجمع علماء الشئون الشرقية على أن أحد أركان المدنية الاسلامية راجع إلى المدنية الاغريقية فى آخر مراحلها

فلم يكد العرب يشتركون فى تدعيم صرح تلك المدنية العظيمة إلا بلغتهم ودينهم . أما معظم المواد الأخرى فهو مأخوذ من ذلك التراث المجيد الذى تركه اليونان والذى قد توطن فى البلاد الشرقية منذ عصر الاسكندر ذى القرنين . ثم جاءت الدولة العربية فأكملت توطن العلوم والآداب الاغريقية فى الشرق الأدنى ، ومكنتها من الازهار فى تلك المنطقة الرحيبة التى احتضنتها فى دائرة حدودها السياسية . فنجد أن حركة ترجمة الكتب اليونانية فى الفلسفة والعلوم الطبيعية والطب التى كانت قد بدأت فى تلك البلاد قبل فتح العرب لها قد نشطت إلى حد بعيد فى آخر القرن الثانى وفى القرن الثالث للهجرة . ولما كانت لغة التراجم الأولى هى اللغة السريانية فانها بهذا الوضع بقيت الوسيط بين تراث اليونان وبين مدنية الاسلام كما كان معظم المترجمين من النصارى النسطوريين وفى مقدمتهم الحكيم الفيلسوف حنين بن اسحق (١٩٤ - ٢٦٠) الذى كان يشتغل « فى بيت الحكمة » ذلك المعهد العلمى الذى أسسه المأمون الخليفة العباسى ببغداد لترجمة كتب العلوم . حنين هذا هو الذى خلق المركز الرائع لآراء جالينوس فى القرون الوسطى فى الشرق ومنه إلى الغرب

ويشهد بالمجهود العظيم الذى بذل فى ترجمة الكتب اليونانية أن الخلفاء أنفقوا على الرحلات للبحث عن مخطوطات قيمة ، وأن حنينا ، كما أوضح بنفسه لم يكتف بأصل واحد وإنما كان يراجع بقدر الامكان لا أقل من ثلاث نسخ ليستطيع بمقارنتها الحصول على متن صحيح

كانت هذه أى - دورة التراجم - مرحلة استعداد ، وتبعها فى القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس الدور العظيم للعلوم الطبيعية والطبية فى بلاد الاسلام . وجد علماء المسلمين أنفسهم بعدئذ على أساس متين من العلوم اليونانية مضافا إليها بعض نتائج دراسات الفرس والهنود ، وبدأوا يضيفون إلى هذا التراث من مبتكراتهم . وفى الوقت نفسه فقد المسيحيون مركز احتكارهم (أو كاد) لهذه العلوم وارتفع إلى مستواهم المسلمون

إنَّ أبرز ما فى ذلك العصر من الشخصيات العلمية الفذة ثلاثة : محمد بن زكرياء الرازى (المتوفى سنة ٣١١) وهو أكبر أطباء العالم الاسلامى وأحد أطباء الدنيا الخالدين ، وحسين بن عبد الله بن سينا (٣٧٠ - ٤٢٨) وكان فيلسوفاً وباحثاً طبيعيا له أكبر الأثر فى أوربا بصفته وسيطا لنقل الطب الاسلامى إليها بمؤلفه الكبير المسمى بالقانون ، وأبو ريحان محمد بن أحمد البيرونى (٣٦٢ - ٤٤٠) وهو أكبر الباحثين الطبيعيين فى دائرة الحضارة الاسلامية وأبدعهم تفكيراً ومنهجا .

ما أجوَدَ ثقافة هذا الرجل الخوارزمى العجيب وإحاطته بمختلف العلوم والفنون من يونانية وعربية وإسلامية ، كما يظهر من مقدمة كتابه فى الصيدلة إذ يقول :

« وكل واحدة من الأمم موصوفة بالتقدم فى علم ما أو عمل ، واليونانيون منهم قبل النصرانية موسومون بفضل العناية فى المباحث وترقية الأشياء إلى أشرف مراتبها وتقريبها من كمالها . ولو كان ذيسقوريدس فى نواحينا ، وتصرف جهده على تعرف ما فى جبالنا وبوادينا ، لكانت تصير حشائشها كلها أدوية ، وما يجتنى منها بحسب تجاربه أشفية ، ولكن ناحية المغرب فازت به وبأمثاله وأفازتنا بمشكور مساعيهم علما وعملا . وأما ناحية المشرق فليس فيها من الأمم من يهتز لعلم غير الهند ، ولكن هذه الفنون خاصة عندهم مؤسسة على أصول مخالفة لما اعتدناه من قوانين المغربيين ، ثم المباينة بيننا وبينهم فى اللغة والملة والعادات والرسوم وإفراطهم فى المجانبة بالطهارة والنجاسة تزيل المخالطة عن البين وتفصم عرى المباحثة . ديننا والدولة عربيان وتوأمان يرفرف على أحدهما القوة الالهية وعلى الآخر اليد السماوية ... وإلى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم فازدانت وحلت فى الأفئدة ، وسرت محاسن اللغة فى الشرايين والاوردة ، وإن كانت كل أمة تستحلى لغتها التى ألفتها واعتادتها واستعملتها » .

لم ينحصر تقدير العلوم اليونانية مثل هذا فى فئة معينة من

العلماء، بل كان منتشرا بين الجميع طول القرن الرابع .

ها هي ذي بغداد بمدرستها الفلسفية الطبية التي هي خليفة مدرسة الاسكندرية المشهورة ، ولا يصعب علينا اقتفاء أثر انتقالها من الاسكندرية إلى بغداد عن طريق انطاكية وحران . . ومن كبار العاملين بها في القرن الرابع المترجم المسيحي أبو بشر متى بن يونان (المتوفى سنة ٣٢٨) ، وأبو نصر محمد الفارابي الفيلسوف الاسلامي (المتوفى سنة ٣٣٩) ، وتلميذه الفيلسوف المسيحي يحيى بن عدى (المتوفى سنة ٣٦٤) ، والباحث المحقق أبو الحسن المسعودى (المتوفى سنه ٣٤٦) ، وغيرهم من الفضلاء . وقد خلد الأديب أبو حيان التوحيدى (المتوفى بعد سنة ٤٠٠) في مؤلفه المسمى « بالمقابسات » ، ذكر مجالس أبي سليمان السجستاني المنطق (المتوفى بعد سنة ٣٩١)

فكان القرن الرابع هذا أزهى عصر لدرس العلوم اليونانية في الحضارة الاسلامية ، واستمرت تلك الدراسات وازدهرت في القرن الخامس أيضا خصوصا في بغداد ، مع امتداد أشعتها إلى بلاد أخرى ولا سيما إلى مصر .

تمنى أن نبحث ذلك الدور الأخير لنفوذ التفكير اليوناني في الشرق الأدنى بمناسبة مخطوط محفوظ في إحدى مدارس الموصل يشمل مناظرة دارت بين طبيبين فيلسوفين ، وإن كانا دون أولئك الفحول درجة إلا أنهما شغلا مكانا جليلا في تاريخ الطب والعلوم الطبيعية في عالم الاسلام . هما أبو الحسن المختار ابن بطلان من نصارى بغداد ، وعلى بن رضوان المصرى . تتلخص مناظرتهما في أن كل واحد منهما كان يرغب في التدليل على علو كعبه في علوم القدماء ، وعلى مقدرته عن الآخر وبروزه فيها عليه . فإنا إن اطلعنا على تراجم حياتهما كما جاءت في تاريخ الحكماء لابن القفطى ، وفي عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ، نرى أن شخصية كل واحد منهما ليس بينها وبين شخصية الآخر أى تشابه ، حتى ليخال القارىء أنه يستحيل عليهما أن يكونا صديقين ؛ على أن تنافسهما ربما يرجع أيضا إلى غيرة كل منهما من صاحبه في صناعة الطب .

درس ابن بطلان الطب والفلسفة في الكرخ (حي من بغداد) على أشهر الأساتذة ، وأكثرهم من النصارى ، وتدل مؤلفاته على أنه لم يكن متطببا فقط ، بل تبحر أيضا في الآداب العربية والعلوم الاسلامية ، كما قال عنه ابن أبي أصيبعة : « وكان ابن بطلان أعذب ألفاظاً (أى من ابن رضوان) وأكثر ظرفا وأميز في الأدب وما يتعلق به . ومما يدل على ذلك ما ذكره في رسالته التي رسمها « بدعوة الأطباء » . ففي هذا الكتاب يحمل ابن بطلان على الفشارين المدعين بالطب ، ويظهر فسادهم ومضارهم الشائعة ذلك الحين .

يغلب على الظن أن ابن بطلان لم يكن شابا عند ما ترك بلدته التي حرمت عليه العودة اليها في مستهل شهر رمضان سنة ٤٤٠ متجهاً الى رحلة طويلة ماراً بالأنبار فالرحبة فالرصافة فحلب حيث مكث زماناً ، ثم واصل السفر الى انطاكية فاللاذقية فيافا حتى جاء مصر حيث مكث ثلاثة أعوام تعرف فيها بابن رضوان . ثم غادر مصر بعدئذ الى القسطنطينية ثم عاد منها في آخر الأمر إلى انطاكية . قال ابن القفطى : « فأقام بها وقد سئم كثرة الأسفار ، وضاق عطنه عن معاشرة الأغمار ، فغلب على خاطره الانقطاع فنزل بعض أديرة انطاكية وترهب وانقطع الى العبادة إلى أن توفى بها » . وكانت وفاته - خلافاً لما زعم ابن القفطى - بعد سنة ٤٥٥ بزمان لأنه قد أهل لبناء بيمارستان انطاكية في السنة المذكورة . وعند ما كان في مصر أرسل ابن بطلان الى المؤرخ الكاتب البغدادى هلال بن المحسن الصابىء كتاباً مفصلا عن رحلته ، دل على دقة ملاحظته وعنايته بكل ما رآه ، كما أنه لا يزال هذا الكتاب مرجعاً جغرافياً تاريخياً مفيداً للنواحي التي زارها ابن بطلان ، فلذلك أورد ياقوت الحموى في كتابه المسمى بمعجم البلدان كثيراً من كلام ابن بطلان . ودليلا على كل هذا نذكر شيئاً من وصفه لمدينة اللاذقية . قال : « وهي مدينة يونانية لها ميناء وملعب وميدان للخيل مدور ، وبها بيت كان للأصنام وهو اليوم كنيسة ، وكان في أول الاسلام مسجدا ، وهي راكبة البحر وفيها قاض للمسلمين وجامع يصلون فيه وآذان في أوقات الصلوات الخمس ، وعادة الروم إذا سمعوا الآذان أن يضربوا الناقوس ، وقاضى المسلمين الذى بها من قبل الروم »

أما ما ذكره من أخبار الروم والمسلمين فهو إيضاح للحالة كما كانت . فهي دورة الانحلال والضعف السياسي للدولة الاسلامية ، قد أصبحت البلاد التي كانت تتبع خلافة بغداد مستقلة ، وقامت خلافة الفاطميين بمصر ، أضف إلى هذا تفشى الوباء والمجاعات بأقطار عديدة وموت كثيرين من رجال العلم أحس الباقون منهم بفقدانهم وبالخلوة من بعدهم . وإنه لما يسر ان نلاحظ ان تلك البلايا كلها لم تستطع ان تقطع النهوض العلمى العظيم ولا اتصال

العلماء بعضهم ببعض برحلات علمية وراء كل الحدود السياسية ولا ارتباطهم بروابط الصناعة رغماً عن اختلاف العقائد الدينية

على أن ابن بطلان النصراني هذا الذي كان محترماً ومقدراً عند زملائه المسلمين قاسى متاعب من المسيحيين أنفسهم؛ فانه «لما دخل إلى حلب وتقدم عند المستولي عليها سأله رد أمر النصارى في عبادتهم اليه، فولاه ذلك، وأخذ في إقامة القوانين الدينية على أصولهم وشروطهم فكرهوه، وكان بحلب رجل كاتب طبيب نصراني ... يحمل عليه نصارى حلب فلم يمكن ابن بطلان المقام بين أظهرهم، وخرج عنهم ... وللحلبيين النصارى فيه هجو قالوه عند ما تولى أمرهم» (مختصر من كلام ابن القفطي)

قال ابن أبي أصيبعة: «وتوفى ابن بطلان ولم يتخذ امرأة ولا خلف ولدا، ولذلك يقول من أبيات:

ولا أحد إن مت يبكي لميتتي سوى مجلسي في الطب والكتب باكيا

كان ابن رضوان على النقيض لابن بطلان في اكثر مزاياه؛ فلم يكن لابن رضوان في صناعة الطب معلم ينتسب اليه، ولم يغادر نواحي القاهرة مرة، وكان معجباً بنفسه طماعا بخيلا، لما فقد ماله ذهب عقله، ولكنه مع ذلك كله لم يخل من خلق وعقل يحملاننا على العطف عليه والاعجاب به. هذا ما يمكننا تأكيده عن سيرة حياته: ذكر ابن أبي أصيبعة شيئاً غير قليل منها.

كان مولد ابن رضوان بالجيزة وكان أبوه فراناً، قال: «فلما بلغت السنة السادسة أسلمت نفسي في التعليم، ولما بلغت السنة العاشرة انتقلت إلى المدينة العظمى وأجهدت نفسي في التعليم. ولما أكملت أربع عشرة سنة أخذت في تعلم الطب والفلسفة ولم يكن لي مال أنفق منه فلذلك عرض لي في التعليم صعوبة ومشقة، فكنت مرة أتكسب بصناعة القضايا بالنجوم، ومرة بصناعة الطب، ومرة بالتعليم. ولم أزل كذلك وأنا في غاية الاجتهاد في التعليم إلى السنة الثانية والثلاثين، فاني اشتهرت فيها بالطب وكفاني ما كنت أكسبه بالطب، بل وكان يفضل عني إلى وقتي هذا، وهو آخر السنة التاسعة والخمسين». أما ابن القفطي فيقول «وكان في أول أمره منجما يقعد على الطريق ويرتزق لا بطريق التحقيق كعادة المنجمين، ثم قرأ شيئاً من الطب وشيئاً من المنطق وكان من المتلقين لا المحققين. ومع هذا تتلمذ له جماعة من الطلبة وأخذوا عنه، وسار ذكره، وصنف كتباً لم تكن غاية في بابها، بل هي مختطفة ملتقطة مبتكرة مستنبطة. فاما تلاميذه فقد كانوا ينقلون عنه من التعاليل الطبية والأقاويل النجومية والألفاظ المنطقية ما يضحك منه إن صدق النقلة».

على أنه إذا اعتبره ابن أبي أصيبعة أطب من ابن بطلان وأعلم بالعلوم الحكمية وما يتعلق بها، فربما صح حكمه بالنسبة لمهارته الطبية، إذ استشاره بعض ملوك مكران كتابة. أما في الفلسفة والأدب فلا تجد سبيلا إلى اعتباره متكافئاً مع ابن بطلان كما يظهر من مؤلفاته. رغماً عما يذكره عن نفسه في قوله: «وأما الأشياء التي أتنزه فيها فلأني فرضت نزهتي ذكر الله عز وجل وتمجيده بالنظر في ملكوت السماء والأرض؛ وكان قد كتب القدماء والعارفون في ذلك كتباً كثيرة رأيت أن أقتصر منها على ما أنصه من ذلك: خمسة كتب من كتب الأدب، وعشرة كتب من كتب الشرع، وكتب أبقراط وجالينوس في صناعة الطب وما جانسها مثل كتاب الحشائش لذيسقوريدس، وكتب روفس وأريباسيوس وبولس، وكتاب الحاوي للرازي، ومن كتب الفلاحة والصيدلة أربعة كتب، ومن كتب التعاليم المجسطي ومداخله وما انتفع به فيه، والمربعة لبطليوس، ومن كتب العارفين كتب أفلاطون وأرسطوطاليس والاسكندر وثامسطيوس ومحمد الفارابي وما انتفع به فيها؛ وما سوى ذلك إما أبيعه باي ثمن اتفق، وإما أن أخزنه في صناديق. وبيعه أجود من خزنه».

وجدير بالذكر أن ابن رضوان المسلم اكتفى بذكر الكتب الاسلامية اجمالا وتادية للواجب بينما فصل ذكر الكتب المنقولة عن اليونانية واحداً واحداً.

لا حاجة لنا بايراد تفاصيل اطراء ابن رضوان عن نفسه ومديحه لعمله اليومي ووصفه لمحاسن ترتيب بيته، ولكننا نذكر آخر أمره (عن ابن أبي أصيبعة):

«كان قد أخذ يتيمة رباها وكبرت عنده، فلما كان في بعض الأيام خلالها الموضع وكان قد ادخر أشياء نفيسة، ومن الذهب نحو عشرين ألف دينار، فاخذت الجميع وهربت ولم يظفر منها على خبر، ولا عرف أين توجهت فتغيرت أحواله من حينئذ، و» تغير عقله في آخر عمره «، وكانت وفاة ابن رضوان في سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة».

يدل على تفانيه في حب علوم قدماء اليونان افتخاره برؤية جالينوس في منامه، قال:

« وقد كان عرض لى منذ سنين صداع مبرح عن امتلاء فى عروق الرأس فقصدت فلم يسكن ، وأعدت الفصد مراراً وهو باق على حاله ، فرأيت جالينوس فى النوم وقد أمرنى أن أقرأ عليه حيلة البرء فقرأت عليه منها سبع مقالات ، فلما بلغت إلى آخر السابعة قال : فنسيت مابك من الصداع ، وأمرنى أن أحجم القمحدوة من الرأس ؛ ثم استيقظت فحجمتها فبرأت من الصداع على المكان »

هذا ما يكفى تعريفاً بابن بطلان وابن رضوان ، وتتجه الآن إلى المناظرة المشهورة التى قامت بينهما . قال ابن أبى أصيبعة : « وكان ابن رضوان كثير الرد على من كان معاصره من الأطباء وغيرهم ، وكذلك على كثير ممن تقدمه ، وكانت عنده سفاهة فى بحثه وتشنيع على من يريد مناقشته . وأكثر ذلك يوجد عند ما كان يرد على حنين بن اسحق وعلى أبى الفرج بن الطيب (وكان أبو الفرج هذا أستاذ ابن بطلان ببغداد) وكذلك أيضاً على أبى بكر محمد بن زكريا الرازى . ومن هذا النوع كانت مناقشته لابن بطلان . وقال أيضاً : « وكانت بين ابن بطلان وابن رضوان المراسلات العجيبة ، والكتب البديعة الغريبة ، ولم يكن أحد منهم يؤلف كتاباً ولا يبتدع رأياً إلا ويرد الآخر عليه ويسفه رأيه فيه » .

فاول من ابتدأ المجادلة هو ابن رضوان بمناسبة رسالة لابن بطلان لم تكن موجهة ضده اطلاقاً ، بل دارت حول مطلب من مطالب العلوم الطبيعية كثر الكلام فيه بين أطباء ذلك العصر ، وهو : أيهما أحرّ طبيعة الفرخ أم الفروج ؟ وكان ابن بطلان يعتقد - كما اعتقد السواد الأعظم من الأطباء - أن الفرخ أحر من الفروج ، ولكن اليبرودى الطبيب الدمشقى الذى قد درس مع ابن بطلان على أبى الفرج ابن الطيب كان عاياً أطباء مصر بمسألة ألزمهم بها أن يكون الفروج أحر من الفرخ . فجمع ابن بطلان فى مقالته حججا يعضد بها رأى اليبرودى وينقض الرأى الصحيح « بقياس المتعلمين تطريقاً لهم ورياضة ... وبقياس العدماء أن يظهر فضلهم فى حلول الشكوك الغامضة . . . وبقياس المذعنين تبكيتا لهم وهجنة » ، وأورد فى آخرها واحداً وثمانين سؤالا تتعلق بالبيض والحضان والفراريج يدعو الأطباء المصريين إلى الاجابة عنها

يظهر ان ابن رضوان ظن نفسه أو بعض تلاميذه مقصوداً بملاحظة من ملاحظات ابن بطلان فى رسالته هذه فاجاب عليها بمقالة لم يبحث فيها عن موضع المشكلة نفسها أو يرد على أدلة المعاياة ؛ بل نجده فيها أقرب إلى السفسطة والطعن منه إلى أصول الجدل العلمى .

وحسبنا أن نلتقط من مقالة ابن رضوان هذه موضعا يذكر فيه المزايا التى لا يخلو منها الطبيب الكامل ، قال : « وقد بين جالينوس ان الطبيب فيلسوف كامل ، وانه من قصر عن ذلك فهو متطبب لا طبيب . والفيلسوف الكامل هو الذى قد حصل له العلم التعليمى والطبيعى والالهى والمنطق ، فالطبيب هو الذى حصل كل واحد من هذه على الكمال »

لم يقتنع ابن رضوان بهذه المقالة بل ألف رسالة أخرى ضد ابن بطلان يمكننا الحكم بانها لم تحتو الا هجاء وذما . فلم يستطع ابن بطلان ان يترك الأمر عند هذا الحد ووجد نفسه مضطراً الى رد مفصل هو من أظرف الكتب العربية ومن أبدعها سماه « المقالة المصرية » عرّج فيه عروجا علميا فائقا يقصد به فضح آراء ابن رضوان كلية . يشتمل على مقدمة وسبعة فصول . يعتذر ابن رضوان فى المقدمة إلى خصمه بأنه انما ألف كتابه هذا امتثالا لرغبة بعض الجهات الجليلة ، ويناشده بإله السماء وتوحيد الفلاسفة ، ان يجيبه بقلب طاهر نقى خال من درن الغضب ؛ « فاميسطيوس يقول : قلوب الحكماء هياكل الرب ، فيجب أن تنظف كما تنظف بيوت عبادته . وفيثاغورس يقول : كما أن العوام تظن ان البارى تعالى فى الهياكل فقط فتحسن سيرتها فيها ، كذلك يجب على من علم ان الله فى كل مكان أن تكون سيرته فى كل مكان كسيرة العامة فى الهياكل » . أما الفصل الأول فهو فى العلل التى لأجلها صار المتعلم من أفواه الرجال أفضل من المتعلم من الصحف ، إذا ما كان قبولها للتعليم واحداً ، وهذا عكس ما زعمه ابن رضوان الذى ، كما لاحظنا ، لم يدرس هو نفسه على أستاذ بل تعلم بالمطالعة فقط . والدليل السادس منها يوضح لنا جيداً مقدار الصعوبات والمشكلات التى تلقاها أولئك العلماء الناطقون بالضاد عند دراستهم للكتب العلمية اليونانية : « يوجد فى الكتاب أشياء تصد عن العلم قد عدمت فى تعليم المعلم ، وهى اشتراك الأسماء ، والتصحيف العارض من اشتباه الحروف بعدم النقط . . . وسقم النسخ ورداءة النقل . . . وذكر ألفاظ مصطلح عليها فى الصناعة ، وألفاظ يونانية لم يترجمها الناقل وهذه كلها معوقة عن العلم . وقد استراح المتعلم عن تكلفها عند قراءته على المعلم » . والبيان السابع ينبنى على اجماع المفسرين أن فصلا من فصول أرسطو لو لم يسمعه ثاوفرسطس وأوذيمس من المعلم نفسه لما فهم قط من الكتاب . فاما الفصل الثانى فهو فى أن الذى علم المطالب من الكتب علما

ردينا ثار عليه باعتقاده أن الحق محال شكوك يعسر حلها . والفصل الثالث فى أن اثبات الحق فى عقل من لم يثبت فيه المحال أسهل من اثباته عند من ثبت فى عقله المحال . أما الفصل الرابع فهو فى أن من عادات الفضلاء إذا قرأوا كتابا من كتب القدماء ألا يقطعوا فى علمائها بظن دون معرفة الأمر على الحقيقة ، يتضح فيه احترام ابن بطلان للعلماء الأقدمين من اليونان ومن بعدهم كل الوضوح . قال : « إن من عادة القدماء إذا وقفت عليهم المطالب ، ولاح لهم فيها تباين وتناقص، أن يعودوا إلى التطلب ، ولا يتسرعوا إلى افساد المطلب . فان ارسطو بقى يرصد القوس الكائن عن القمر أكثر عمره فما رآه إلا دفعتين ؛ وجالينوس واظب على تطلب السكون الذى بعد الانقباض سنين كثيرة إلى أن أدركه . . . وشيخنا أبو الفرج عبد الله بقى عشرين سنة فى تفسير ما بعد الطبيعة ومرض من الفكر فيه مرضاً كاد يلفظ نفسه فيه . وما منهم رحمهم الله إلا من أنفق عمره فى العلم طلبا لدرك الحق . هذا والذى فى عقولهم مما بالفعل أكثر مما بالقوة ، فان كنا وما بالقوة فينا أكثر مما بالفعل أخلدنا إلى الطعن عليهم ضحك الحق منا وخسرنا أشرف ما فينا . ولذلك يجب على كل نسمة عالمة دونهم فى المرتبة إذا رأت أقاويلهم متباينة ألا تقطع بقول فيهم إلا بعد الثقة » . ثم أورد المؤلف أمثلة كثيرة من كتب أرسطو وجالينوس وابقراط وأضاف إلى كل هذا مع صغر شانه بقياس تلك الطائفة المعدودة الدفاع عن نفسه فى مسألة وصف التدبير المبرد بمصر خلافاً لبغداد ، وحجته اختلاف الهواء . يقول فى خصائص بغداد : « بغداد بلد شمالى ليس بكدر الماء ، ولا مختلف الأهوية ، ولا تنقطع عنه الأمطار فى الشتاء ، بل قد ينزل فيها الثلج من السماء ، ويجمد لكثرة البرد شطا دجلة وتزيد مياهها عند زيادة المياه ، وتاتى فواكهها وأزهارها فى أوانها من فصول السنة ، لا يكاد يرى فيهم مقشور ولا جرب ، ولا من به ضيق نفس ولا حكة إلا فى الندرة . أرضها قطب اقليم قال فيه أرسطو إنه ينبت الأذكياء ، فلما اختار أهله للنسل من جلب من البلاد الجنوبية ، فلهذا أوجههم على الأكثر بيعض مشربة حمرة ، وأخلاقهم طاهرة ، وطباعهم كريمة ؛ ليست أرضها فى وهدة فتحرقها الشمس وتغرقها كثرة المياه وهى من أسباب العفونة نعم ، ولا فى غربها بحر ولا فى شرقها جبل فى سفحه مقبرة وتتراقى منها الأبخرة ، وتعكسها الريح الغربية إلى المدينة ، لكنها فى بسيط من الأرض مستو ، جهاتها مكشوفة للشمس والرياح الأربع ، وأهلها مع هذه الخصال المعددة المضادة لمصر محتاجون من التدبير المبرد أقل مما يحتاج اليه أهل مصر وما والاها . والمصريون محتاجون إلى أكثر منه كثيراً . فلهذه العلل عدلت بهم عن الأشياء الحارة إلى الأشياء الباردة على موجب قانون الصناعة . وإذا كان عذرى قد اتضح بادنى عناية ، وبان خطل من عجل فى تغليظى من غير ارتياء ، فما ظن الشيخ باناس يجرون فى العالم مجرى الأنجم الزهر ، أبصارنا عند بصائرهم تجرى مجرى بصر الخفاش عند عيون العقبان فى ضوء النهار ، لاسيما المؤيد أبو زيد حنين بن اسحق الذى منح الله البشر علوم القدماء على يده ، فذوو العقول الى اليوم فى ضيافته يمتارون من فضله ويعيشون من بره » .

ويزعم ابن بطلان أن عمل خصمه تقليل من ذلك الاحترام الواجب لسلف العلماء كابقراط وغيره من جهابذة الفن ، كما أن إهمال كتب الأولين تقود ولا شك إلى هلاك المرضى . يؤيد ابن بطلان قوله هذا بما جرى بينه وبين بعض تلامذة ابن رضوان ؛ فلذلك ينبغى لابن رضوان أن يعلم الشبان تعليما صحيحاً ولا يشيع « عند الأحداث تخبط الاسكندرانيين فى تفاسيرهم وجوامعهم للكتب الست عشرة ، ومنهم اصطفن وماربنوس وجاسيوس واركيلاوس وانقيلاوس وبلاذيوس ويحيى النحوى المنجد البطل المحب للتعب . ولعل الشيخ يتعذر عليه معرفة أسمائهم على الحقيقة بالعربية . وهؤلاء مفسرو كتب الصناعة الطبية ليت شعرى كيف يذمهم فى عمل جوامع كتب فسروا فصوصها وعرفوا نصوصها » ، ثم يجيء الفصل الخامس فى مسائل مختلفة ، والفصل السادس فى تصفح مقالة ابن رضوان الهجائية التى قال فيها على سبيل المباهلة أن يساله ابن بطلان ألف مسالة ويساله هو مسألة واحدة . قال ابن بطلان جواباً عن هذه المقالة إن الخطباء والأطباء والفلاسفة لكل واحدة من تلك الفرق طريقة تسلكها فى المحاورة ، وأورد لكل واحدة من تلك الطرق أمثلة من تاريخ الآداب اليونانية ؛ أما طريق ابن رضوان فهو ـ كما زعمه ابن بطلان ـ هجاء محض من غير وزن وقافية .

أما السب بقبح الخلقة الذى قد اجترأ ابن رضوان أن يوجهه إلى ابن بطلان فيرده هذا باوفى الذكاء والفطانة ذاكراً أقوال سقراط وأفلاطون وجالينوس ؛ مورداً بعض أعلام الآداب العربية تجردوا من جمال الشكل مثل الجاحظ وعبد

بني الحسحاس، وفي النهاية يستفتي ابن رضوان عن خلقه هو نفسه قائلا: «لو أن رجلا استفتى بفتوى نسختها: ما يقول الشيخ وفقه الله في رجل أسود اللون، مضطرب الطبيعة والكون، غليظ الشفتين، منتشر المنخرين، جاموسي الوجه، بقري العينين، قليل الأنصاف، محب المراء والخلاف، قلق المشية جهر النغمة، يفتينا في ذلك مأجوراً من الله، للزمه أن يفتي بما نسخته: الجواب ومن الله المعونة: النفس الفاضلة تابعة لأشرف كيفيات الهيولى فهي توجب عن اللون المشرب حمرة وعن التخاطيط الخبيثة الأخلاق الكريمة، وهذه المعددة هي اضداد هذه. فالنفس التابعة لها غير فاضلة. وكتبه علي بن رضوان على مذهب القدماء وبحسب تفسير الصناعة الصغيرة»

وبعدئذ يدافع ابن بطلان عن حنين ابن اسحق فيما يرميه به ابن رضوان. فإن المسألة الوحيدة الجديرة بالاعتبار تتلخص - قال - في اختلاف بين حنين وجالينوس في الظاهر فقط، كما أن الاختلاف بين أبي حنيفة من جهة وبين أبي يوسف ومحمد ابن الحسن من الجهة الأخرى في نكاح الصابئين وأكل ذبائحهم اختلاف في الفتوى فقط

أما الفصل السابع والأخير فهو يتضمن لخص مفردات كثيرة من أغلاط ابن رضوان، وينتهي بانذاره بحساب يوم القيامة «فسأطالبه في الحق إذا جلس الله لفصل القضاء، واستغاث المرضى وأشخصوا الأطباء، وحضرت الملائكة الكتبة، وخرست الألسن الناطقة، وشهدت القوارير الصامتة، بدلالتها كأنها على الحالة الحاضرة، وظهر الغلط، واعترف الأطباء بالذي فرط، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ... وليتحقق أن ... لنا موقف حساب، ومجمع ثواب وعقاب، يتظلم فيه المرضى إلى خالقهم، ويطالبون الأطباء بالأغلاط القاضية بهلاكهم، وإنهم ليسامحون الشيخ كما سامحته . . . ويتحقق أنهم لا يرضون منه إلا بالحق المبين»

لم يتأخر ابن رضوان في الرد على ابن بطلان مرتين. فلما وجد نفسه عاجزاً عن النقض الصحيح لذلك الكتاب رجع الى أسلوبه الكريه المعتاد. أما الرد الأول فقد عجل تاليفه قبل فحصه كتاب ابن بطلان كله؛ وأما الثاني ففيه تلخيص لكل ما جرى بينهما من وجهة نظر مؤلفه، وغرضه الصريح دعوة أطباء مصر والقاهرة إلى مقاطعة ابن بطلان. يقول ابن رضوان في آخره: «فهذا فيه كفاية في ان تعجبوا من أمر هذا الرجل، وتضحكوا منه وتتركوا مكالمته فيما تستأنفونه منه، ولا تلتفتوا إلى شيء يقوله بل تنزلوه بمنزلة إنسان قد خولط ووسوس، فهو أبداً يهذر ويهذي فلا يستحق ان يرثى له ولا يرحم قط»

هذا غاية ما يسمح لي الوقت به من شرح تلك المناظرة بين الطبيبين الفيلسوفين. حاصل القول أن الخصمين مع كل ما لاحظناه بينهما من الاختلاف من جهة النشأة والتربية والبيئة والدين والأخلاق دانا بعلمهما الى الفكرة اليونانية دينا شديدا كانا به يعترفان ويفتخران، يجتهدان في التشبه بالعلماء الأقدمين، كما أن علوم الأوائل كانت عنصراً لازماً لمدنية البلاد الاسلامية في القرن الخامس. هذا هو العصر الأخير لأثر العقلية اليونانية العلمية في الشرق الأدنى قبل أن تسير الى الاضمحلال التدريجي حتى تلاشى. فان السلاجقة الذين يوافق ابتداء سيادتهم عصر ابن بطلان وابن رضوان لم يعنوا بتجديد النظام السياسي للناحية الشرقية من عالم الاسلام فحسب، بل قاموا أيضا بتاييد السنة وبمحاربة كل الحركات العقلية التي يعتبرونها مخالفة لها، فكان لعلوم القدماء حظ غير موفور، لأن بعض المحافظين استمروا يسيئون الظن فيها خصوصاً بعد ما انتفع بها القرامطة والفاطميون في إلباس تعاليمهم الباطنية ظواهر الحقيقة العلمية

ورغماً من هذا فقد جاء في القرون المتأخرة من حين الى حين بعض علماء مبرزين خلعوا عن أنفسهم تلك الأغلال، وأظهروا الروح العلمية الخالصة غير ملتفتين الى شكوك من دونهم. من هؤلاء الفيلسوف الاندلسي ابن رشد (المتوفى سنة ٥٩٥)، والجهبذ موسى بن ميمون (المتوفى سنة ٦٠١) والطبيب المصري ابن النفيس (المتوفى سنة ٦٨٧) مكتشف الدورة الرئوية للدم؛ إلا انه للأسف بقي أولئك الأفاضل في أوطانهم غرباء منفردين لم تقدر آراؤهم ولم تنتشر، على حين كان ابن بطلان وابن رضوان من المعبرين عن الحركة العقلية العامة في زمانهما التي اشتركا فيها مع رهط كبير من معاصريهما. لم تخل العلوم الأخرى غير الطبيعية والطبية من ذلك التدهور العلمي الذي نشاهده ابتداء من القرن السادس؛ وهذا حجة ساطعة لقيمة تاثير الفكرة اليونانية على الأعمال العقلية في كل نواحيها.

ومهما يكن من شيء فان ما تناولناه في بحثنا هذا يصور لنا صورة واضحة لضحى العلوم اليونانية العربية في بلاد الاسلام

يوسف شخت

5 me Année, No. 197

بدل الاشتراك عن سنة

ص	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣



Lundi - 12 - 4 - 1937

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العـــدد ١٩٧ « القاهرة فى يوم الاثنين ١ صفر سنة ١٣٥٦ — ١٢ أبريل سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

الـــزواج

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

لا أدرى ماذا دها الناس ، فإنه يندر أن أسمع فى هذه الأيام بزواج موفق ؛ فهل صار نظام الزواج غير صالح لهذا الزمن ؟ أم العيب فى الناس لا فى النظام ولا فى الزمن ؟ ولا شبهة فى أن للزواج عيوبه ، فما يخلو شيء فى دنيانا هذه من عيب ؛ وإن له متاعب ؛ وإن مسئولياته لعديدة وثقيلة ، ولكن النجاة من المتاعب عسيرة فى الحياة ؛ وإنه ليظن حقاً من يتوهم أنه يستطيع أن يحيا ويخلو مع ذلك من المتعبات سواء أتزوج أم آثر الوحدة والاستفراد . وأحسب أن كثيرين من الرجال والنساء أيضاً يقدمون على الزواج وهم يعتقدون أنه صفو لا كدرة فيه ، ومتعة لا تنقص ولا ينغصها أو يفسدها شيء ، وحلاوة لا تشوبها مرارة ، فتخيب آمالهم كما لا بد أن يحدث ، ويضجرون ويتأففون ويشكون وتتلف أعصابهم فلا تعود تقوى على احتمال ما كان ظنهم ألا يكون . وهذا شأن كل من يتناول الحياة بخفة ، وواجهها بغير ما ينبغى من التهيؤ للاحتمال ، ومن الاستعداد للتشدد والجلد والمقاومة .

وقد كنت أتكلم فى هذا وما إليه مع صديق فقال : « الحقيقة أن الزواج نظام ثبت إخفاقه وقلة صلاحه فى هذا

الزمن ، فعذرته لأنه ممن جر عليهم الزواج نكبات كثيرة يشق احتمالها ، ولكنني لم أر رأيه ، فقلت له : « لا تغلط يا صاحبي فإن كل زمن ككل زمن ، وهذه الاختراعات الكثيرة لم تغير شيئاً من حياة الناس وفطرهم ، ولم تقلب الحقائق الاجتماعية ، وما خلا زمن قط ممن يسعدهم الزواج وممن يشقون به ، ولا من الراضين والساخطين على هذا وغيره من أحوال الحياة ، وما زال الرجل كما كان ، والمرأة كما عهدها آباؤنا وأجدادنا عفا الله عنهم ورحمهم ، ومع ذلك قل لي ماذا تطلب من الزواج وأنا أقول لك ماذا ينبغي أن تبلغ به ، أو ما لابد أن يصيبك من خيره أو شره »

قال : « أطلب الراحة والاستقرار . . . ماذا أطلب غير ذلك ؟ »

قلت : « إن الراحة مطلب لا سبيل إليه في الحياة ، وهي لا تكون إلا بالموت . على أن هذه لا تعد راحة مادام المرء لا يحسها ولا يدرك أنه مرتاح ، ولا يعرف حتى ما صار إليه ؛ والاستقرار كذلك عسير لأن حياتك كلها قوامها التحول والتغير ، وجسمك ونفسك وخواطرك وآمالك وشهواتك وكل ما فيك أو لك يتغير ، فكيف بالله يكون هذا الاستقرار ؟ وأين السبيل إليه ؟ »

قال : « إنما أعني الراحة النسبية والاستقرار بالقياس إلى حياة العزوبة والوحدة »

قلت : « ولا هذه أيضاً . إن الزواج ليس أداة لراحة ولا وسيلة لاستقرار أو غير ذلك مما تتوهم ، وإنما هو نظام . فإذا كان يوافقك أن تحيا في ظل هذا النظام فتفضل وأهلاً بك وسهلاً ؛ ولكن يجب حينئذ أن تعرف أن له مقتضيات ، وأن توطن نفسك على الإذعان لها واحتمالها ، كما يخضع الجند للنظام العسكري ، ولم يقل أحد إن الجندية سبيل لراحة أو استقرار أو لذة ، أو غير ذلك مما يجرى هذا المجرى . وإنما هي نظام تقتضيه حياة الجماعة . وكل جندي يقول لنا إنه نظام شاق عسير ثقيل الوطأة ، ولكنه لازم ولابد منه . والفرق بين الزواج والجندية أن الجندي يعلم أنه داخل في نظام لا لذة فيه ولا متعة له منه ، وأنه سيلقى عناء ويكابد متاعب ، وأنه معرض للجلد والسجن ، بل للموت حتى من غير حرب . ولكن طالب الزواج يمنى نفسه الأماني المستحيلة فيلقى خلاف ما كان يقدر ، ولو أنه وطن نفسه - كما يفعل الجندي - على التعب والنصب ووجع القلب ومعاناة المنغصات إلى آخر ذلك لسعد بالزواج ، ولفاز منه بلذات كثيرة ونعم جزيلة ومتع يضن بها على النسيان . وقد ذكرت الجندية على سبيل التمثيل ، ولكن للجندية علاقة وثيقة بالزواج ، لأن الزواج غايته تنظيم أمور النسل اللازم للجماعة ، أي مد الجماعة بالعدد الكافي من الأفراد للقيام بأعباء حياتها . فهو نظام تمهيدي للجندية . وأنا أستعمل الجندية هنا بالمعنى الأعم الأشمل ، وأعني كل فرد لا الذين يحملون السلاح ويسيرون إلى القتال حين يدعون إلى ذلك - لا أعني هؤلاء وحدهم ، فإن كل فرد جندي للجماعة وإن لم يحمل سيفاً ولم يتقلد رمحاً ، إذا كان قد بقي في عصرنا هذا من يتقلد رماحا . والواجب على كل حال أن يدرك المرء أنه بالزواج يكون كالذي يعمل في شركة ؛ وللعمل نظامه . والعمل لا تطلب منه اللذة بل الثمرة ؛ والعمل لا يفيد الراحة بل التعب ؛ ولا آخر للتعب ما دامت الشركة قائمة تعمل وتؤدي ما هو منتظر منها . نعم يستطيع المرء أن يفوز بإجازة ، ولكن هذا ميسور في نظام الزواج : خذ إجازة كلما شعرت أنك تعبت ، وامنح زوجتك مثل ذلك كلما بدا لك أن أعصابها كلت . »

فعجب وسألني : « كيف ذلك . . ؟ إن هذا مزاح »

فأكدت له أني جاد ، وقلت : « إني أعيش مع زوجتي كأننا صديقان ؛ وليس يسعني أن أفعل غير ذلك ، لأنها إنسان مثلي ولها حياتها المستقلة عن حياتي وإن كنا متعايشين تحت سقف واحد . وأنا أحرص في حياتي معها على الاعتراف بهذا الوجود المستقل فلا أحاول أن أفني وجودها هذا وأجعله يغيب في وجودي ؛ ولو تيسر لي هذا لما كان لي فيه أي لذة لأني خليق أن أشعر حينئذ أني أعايش آلة لا إنساناً حساً مدركاً يبادلني ما يسرني أن أراه يبادلني إياه من العواطف والاحساسات والخوالج . ولو أفنيت شخصيتها في شخصيتي لانحطت في نظري إلى منزلة الخدم الذين تطعمهم وتنقدهم أجرهم على أن يفعلوا ما تريد ولا يجاوزوا مشيئتك . وليست زوجتي خادماً ولا آلة ، وإنما هي رفيق حياة ، أي صديق معين . ولست أقول هذا تملقاً أو نفاقاً بل أقوله لأني لا أفهم معنى للزواج غير ذلك . كلا . لست أحاول أن أغلب إرادتي على

إرادتها لأنى لا أحس حاجة إلى ذلك؛ وسبيلي التفاهم لا الاكراه، وأرانى أبلغ بهذا ما لا أبلغ بالقوة والضغط. ومطلبى ما هو أوفق لكلينا، لا ما هو أوفق لى وحدى، فإن الشركة لا تصلح بهذا الاستئثار. والزواج شركة على التحقيق، ولا يحسب أحد أن الرجل يضع فى هذه الشركة أكثر مما تضع المرأة، وأنه لهذا مغبون فيها، فإن هذا خطأ، فليس السعى للرزق كل ما تقتضيه هذه الشركة، وإن المرأة لتبذل حياتها كلها لا جهدها لانجاح الشركة؛ وحسبها الحمل والوضع. ولو أمكن أن يحمل الرجل لأمكن أن يدرك هول ما تتحمل المرأة فى سبيل هذه الشركة، ولكنه لا يحمل مع الأسف، فهو فى الغالب لا يستطيع أن يقدر نصيب المرأة وما يكلفها الزواج وما يعرضها له، ولا كيف تضحى بها الحياة لتملأ الدنيا بمثلى ومثله ممن لا يستحقون هذه التضحية»

فترك هذا وقال: «ولكن ألا يجب أن يكون للبيت سيد... إن المركب يغرق إذا كان له رئيسان»

فقلت: «آه.. حكاية التركى الذى جرد سيفه ليلة الزفاف وأطار به عنق القطة ليرهب الزوجة المسكينة.. لا ياسيدى.. ليس الأمر أمر سيد أو سيدة، فما ثم محل لذلك. وأين محل هذا ولكل من الرجل والمرأة عمل؟ وأصدقك فأقول إنى لا أدرى كيف يمكن أن تجور المرأة على الرجل أو يجور الرجل على المرأة. أخل ذهنك من كل فكرة عن السيادة وأخل لها ذهنها أيضا.. تفاهما معا.. هى لها عملها وواجباتها التى لا تستطيع - حتى إذا أرادت - أن تشاركها فيها؛ وأنت لك عملك وواجباتك التى يعييها أن تشاركك فيها؛ وكل منكما يمضى بعد ذلك فى طريقه لينهض بأعبائه الموكولة إليه. فأين يكون الاختلاط والاحتكاك والخلاف؟ وإذا حدث خلاف فلماذا لا يكون بالحسنى...»

قال: «والغيرة.. أليست بلاء؟»

قلت: «طبعا.. والرجل أيضا يغار. أليس هذا بلاء؟.. فلماذا لا تضع نفسك فى موضع المرأة وتنظر إلى الأمور من ناحيتها هى أيضا. صحيح أن المرأة أسرع إلى الغيرة من الرجل وأن غيرتها أحمى، فبلاؤها لهذا أعظم، ولكن هذه طبيعتها ولا حيلة لها فى ذلك، لأن الغريزة الجنسية فى المرأة أقوى منها فى الرجل إذ كانت هى مدار حياتها. ثم إن الواحد منا يتقبل أصدقاءه على علاتهم ويحتمل أمزجتهم التى تخالف مزاجه، ويوفق بين رغباته ورغباتهم - وما أكثر ما تتباين - ويظل مع ذلك صديقهم ويظلون هم أصدقاءه، فلماذا لا يكون هذا حال الزوجين..؟ لماذا لا يحتمل منهما الآخر على العلات وهما بذلك أولى من الصديقين..؟ المسألة يا أخى أن الرجل يريد أن يسود، وأن المرأة تريد أن تتحكم، لأن هذا هو «المودة» الجديدة. ولو تركا هذا وأهملاه فنزل الرجل عن الرأى الموروث فيما ينبغى أن تكون عليه علاقة الرجل بالمرأة، وتركت هى ماتشير به «المودة» الحديثة من أن الست هى السيدة المطاعة والرجل هو التابع والخادم الذليل - لو تركا هذا وسارا فى الحياة سيرة شريكين متعاونين على إنجاح الشركة واحتمال متاعبها والصبر على بلاياها فى سبيل مزاياها وفائدتها لارتاحا جدا ونعما بالحياة الزوجية»

فسألنى: «هل أنت سعيد؟»

قلت: «إنى سعيد لأنى لا أطلب من الزواج سعادة، ولو كنت أطلبها لشقيت على التحقيق؛ وقد تزوجت وأنا موطن نفسى على أن هذا واجب أؤديه كما أؤدى واجبى بالعمل فى الصحافة وبالاشتغال بالأدب - واجب والسلام. فاذا فزت بمتعة فهذا فضل من الله، وإذا فاتنى ذلك فما كنت أطمع فيه أو أرجوه. وقد أدخلت هذا فى رأس زوجتى فهى تفهمه حق الفهم، وقد كان على أن أفهمها هذا فى أول الأمر لأنى أردت من البداية أن أجنب سبيل الاخفاق. وقد أفلحت ولله الحمد والشكر؛ فاذا حدثتك نفسك بالزواج مرة أخرى فاصنع هذا»

فصاح: «أنا...أعوذ بالله ياشيخ!»

فقلت: «أرانى لم أوفق إلى إقناعك. لا بأس.. المسألة فى الحقيقة مرجعها إلى الاستعداد، ولو شئت لقلت إلى العقل والحكمة وسعة الصدر ورحابة أفق النفس»

فقال: «متشكر ياسيدى»

فعلمت أنه غضب. ومع ذلك ماذا قلت.. إنى لم أزد على إبداء رأى، فاذا كان لا يحتمل هذا بل يعده تعريضا شخصيا به فلا غرابة إذا كان قد أخفق فى زواجه

ابراهيم عبد القادر المازنى

النجاح فى القرن العشرين

لأديب مجهول

فى قطعة تعد من أجمل نماذج النثر الانجليزى يصف الأستاذ السير جيمس فريزر العادة الغريبة التى كانت متبعة فى تولية القسس الحاكمين بغاب ديانا القريب من موقع مدينة لارتشيا الحالية بإيطاليا : « فمن يوم إلى يوم ، ومن عام إلى عام ، فى الحر وفى البرد ، وفى الصحو وفى المطر ، يخرج القسيس من المعبد حذرا يترقب ويجوب الغابة ، والسيف مشهور فى يده ، وإن أغفى إغفاءة فقد يكون ثمنها حياته ويتولى من قتله الحكم مكانه » .

ذلك نوع من النجاح بعد به عنا الزمن ، وأنكرته المدنية حتى فى عهدها القديم (فإنى أذكر وأنا أكتب الآن أن الامبراطور كراكرا كان هو الذى أبطل قانون الغابة الذى سلف وصفه) لما تنطوى عليه فكرته من تغليب محض القوة أو الخديعة على كل اعتبار آخر وإباحة التخلص من وجود المنافس كلية بقتله ، وقد يكون المقتول أنفع لقومه من القاتل ، فضلا عن أن لا حياة لمجتمع ما إلا بالتواضع على حد أدنى من الأمن على النفس والمال وما يتصل بهاتين الغايتين من أفكار أدبية ونظم قانونية

وما زالت معايير النجاح تتغير تبعاً لاختلاف الجماعات والعصور حتى أتى هذا القرن وأوضح صفاته وصول التنافس الاقتصادى فيه إلى أشده سواء بين الأفراد أو الأمم ، وفى هذه الحالة مافيها من خطر على المدنية يكاد يرجع بها إلى عهد التناحر الأول ، وما استمرار الحرب الهجومية إلى هذا الوقت إلا نذير بما تستهدف له العلاقات الدولية من عودة الإنسان فيها إلى حكم غرائزه البحتة

نترك هذا الجانب الدولى من الموضوع ، فليس هو المقصود ببحثنا الآن فضلا عن مساسه بمسائل هى أدق بكثير مما يتناوله البحث فى تنافس الأفراد

والآن فما مقياس النجاح فى عصر الاقتصاد ؟ إن أسهل جواب على ذلك القول بأنه هو النجاح المشتق من روح العصر . أى النجاح فى الماديات ، وأسهل جواب ليس هو دائماً فصل الخطاب ، بل إن الأمر ليحتاج لنظر أدق وتفكير كثير ، فقد كان التنافس فى الماضى نضالاً بين اثنين أو أكثر يفوز فيه أحسنهم مواهب أو فرصا ، فتحول الآن إلى جهاد للتخلص مما أحاط به هذا العصر بنيه من صعوبات نشأت عن انتشار الديموقراطية من جانب وزيادة السكان من الجانب الآخر . وأكبر أخطار الديموقراطية هو ماتحاول نشره يوميا (خصوصا بالسينما والراديو) من فرص للمساواة المزعومة بين الناس مما يسهل انعدام شخصية الفرد فى آلاف يرام مثله . وأكبر أخطار زيادة السكان هو الفقر والعطلة ، فالتحول بالأخلاق من ينابيعها الأدبية والروحية إلى غرائز الاجرام الحيوانية الكامنة هى أيضا فى الطبيعة البشرية

ولا ريب فى أن الناشىء فى هذا القرن يقاسى من هذه الصعوبات مالا عهد للسابقين به ، ويتعرض من أخطاره لما لم يعرفه غيره ممن قبله ، غير أنه لاريب كذلك فى أن إطلاق مبادىء النجاح المادى من عقالها وترك النضال القديم الذى يعترف بحدود من الأخلاق والدين إنما هو فى الواقع هروب من الجهاد الصحيح إلى عراك آخر رخيص يبيح الصعود بالهبوط ، والوصول لنعيم الجسم بفقدان الروح ، ولضخامة الكسب بموت الضمير

وسيكون اختيار الناس لهذا النوع أو ذاك من النضال تبع فهم كل منهم معنى الكرامة والحياة ، ولا فائدة على أى حال من خطاب من فسدت مقاييسه أو خبث طبعه ، ولكن الذى لابد من بيانه فى هذا الصدد أن النجاح برغم كل ماتقدم من وصف صعابه لا يستلزم تغييراً فى كيف السعى بل فى كمه : وبعبارة أخرى هو يستلزم زيادة فى الجهد لا ما يدعو إليه المستهترون بالاجتماع السليم من اطراح ماقامت عليه المدنيات من قواعد الشرف والآداب

فاذا تبين أن سبيل النجاح الآن لايخرج عما كان فى كل آن من أنه طلب التقدم بكل وسيلة شريفة بقى أن نبحث عن أهم شروط هذا الطلب فلا نجد غير إرادة النجاح ، والارادة هى إرادة الوسائل وعقد النية على العمل بها لا الارادة الجوفاء الشبيهة بالأحلام

وباعتبار ما تقدم القول عنه من امتياز هذا القرن بشدة التنافس الاقتصادى فيه يجب أن نضيف إلى شرط الارادة شرطاً آخر هو القدرة على إنزال المال منزلته الصحيحة من أنه وسيلة للحياة المادية ، وأنه هو والحياة المادية نفسها يجب أن يتخذا وسيلة لأن يحيا المرء حياته الروحية التى هو جدير بها . فاذا عمل عامل بهذه العقلية وتلك الارادة فداوم على تهذيب نفسه مع السعى لترقية حاله وحافظ على شخصيته فى كل الظروف فهذا هو الفضل وهو النجاح .

(٭٭٭)

مصاير الحرب فى اسبانيا

والصراع بين انكلترا وايطاليا

بقلم باحث دبلوماسى كبير

مضت إلى اليوم تسعة أشهر مذ نشبت الحرب الأهلية الاسبانية فى أواخر يوليه الماضى، وما زالت على اضطرامها، ونستطيع بعد الذى شهدناه من تطور الحوادث خلال هذه الفترة أن نقول إن هذه المعركة الطاحنة التى تخضب أرض اسبانيا بالدماء وتبسط فى جنباتها أعلام الدمار والويل، لم تسفر حتى اليوم عن نتيجة حاسمة؛ بل لا نبالغ إذا قلنا إنها ما زالت حيثما بدأت من حيث أوضاعها الداخلية: فالجبهة الثائرة مازالت تجاهد جهاد اليأس لتنتزع ما تستطيع انتزاعه من المدن والأراضى؛ وجبهة الحكومة أو الجبهة الجمهورية ما زالت تصمد فى معظم الميادين وترد هجمات الثائرين؛ وقد أحرزت فى الأسابيع الأخيرة نجاحا يذكر فى المعارك التى دارت حول مدريد، ولا سيما فى وادى الحجارة (جوادى لاجارا) كما أحرزت بعض النجاح فى الشمال حول اوفيدو، وفى الجنوب فى بسائط قرطبة وغرناطة. وقد لاح مدى حين حينما استولى الثوار على مالقة فى أوائل شهر فبراير بمؤازرة الفرق الايطالية فى البر، والمدرعات الايطالية والألمانية فى البحر، ان الجبهة الثائرة تسير إلى نصر سريع محقق، وان الجبهة الجمهوريه قد أضحت على وشك الانهيار والتحطم؛ وكان سقوط مالقة فى الواقع تعويضا للثوار عما لحقهم أمام مدريد من فشل مستمر؛ وكان المظنون أن الثوار سيتابعون زحفهم الى المرية ثم إلى بلنسية حيث تقوم الحكومة الجمهورية؛ ولكن سقوط مالقة أذكى فى الجمهورية شعور الخطر، وأذكى فيها روح النضال، فضاعفت جهودها، واستطاعت أن ترد خطر الثوار فى الجنوب؛ واغتر الثوار بظفرهم فى مالقة فدبروا مع حلفائهم الايطاليين هجومهم الجديد على مدريد، واضطرمت حول العاصمة الاسبانية سلسلة جديدة من المعارك الطاحنة، ولكنها أسفرت فى تلك المرة كما أسفرت فى كل المرات السابقة عن فشل الثوار الذريع، بل أسفرت فوق ذلك عن احراز القوات الجمهورية لسلسلة من الانتصارات الباهرة فى جهة وادى الحجارة وفى آفيلا، وعن تمزيق الثوار وحلفائهم الايطاليين، وردهم بعيداً عن حدود العاصمة وعن طريق مدريد - بلنسية الذى يحاولون احتلاله لقطع العاصمة عن باقى اسبانيا

وقد كان لهذا التطور الجديد فى مصاير الحرب الأهلية الاسبانية أثر عميق فى الموقف الدولى، فقد كشفت الحوادث والمعارك الأخيرة عن مبلغ تدخل إيطاليا فى الحرب الاسبانية وعن ضخامة الدور الذى تقوم به إلى جانب الثوار، وبالأخص عما ارتكبته من المخالفات الصريحة لاتفاق عدم التدخل، إذ تبين أنها أرسلت إلى اسبانيا عدة فرق عسكرية كاملة فى أوائل شهر مارس، أعنى بعد أن عقد ميثاق عدم التدخل فى لندن وتعهدت جميع الدول الموقعة عليه ومنها إيطاليا بان تكف عن تدخلها فى الحرب الاسبانية، وأن تقطع عن الفريقين المتحاربين كل معاونة عسكرية، وتبين أن معظم القوى التى قامت بالهجوم الأخير على مدريد كانت مؤلفة من الايطاليين وأنه يوجد الآن فى اسبانيا إلى جانب الثوار نحو خمسين الف جندى إيطالى؛ وقد كشفت السياسة الايطالية عن مبلغ تمسكها بهذا التدخل وتصميمها على معاونة الثوار على تحقيق الغرض الذى ترمى إليه، وهو إقامة حكومة عسكرية فاشستية فى اسبانيا تكون خاضعة للنفوذ الايطالى؛ وقد قررت إيطاليا فى لجنة عدم التدخل، على يد سفيرها فى لندن، أنها ترفض سحب جنودها فى اسبانيا وصرحت صحافتها الشبيهة بالرسمية، بان الجنود الايطالية لن تغادر اسبانيا حتى يتم الظفر النهائى لزعيم الثورة الجنرال فرانكو، وأن إيطاليا لن تسمح باى حال أن تقوم فى اسبانيا حكومة بلشفية، وهو الوصف الذى تطلقه على حكومة اسبانيا الشعبية الجمهورية. ولنلاحظ أن إيطاليا تقف هذا الموقف العنيف غداة هزيمة جنودها أمام مدريد، وهى الهزيمة الذريعة التى كدرت على موسولينى صفو رحلته الرنانة فى طرابلس، وحملته على العودة إلى رومه قبل أن يتم برنامجه

وهذا الموقف الذى تقفه إيطاليا من المسألة الاسبانية يثير فى لندن وباريس مخاوف كثيرة ؛ وقد كان موقف ألمانيا ازاء هذه المسألة من قبل يثير مثل هذه المخاوف ، ولكن ألمانيا تقف فى معاونتها للثوار عند الحد الذى بلغته قبل عقد اتفاق عدم التدخل . ولا تريد الآن على مايظهر أن تتوسع فى تدخلها بعد أن رأت فشل سياستها فى المسألة الاسبانية ؛ أما إيطاليا فانها تثير بموقفها صعابا جمة فى سبيل تطبيق سياسة عدم التدخل التى ترى لندن وباريس أنها خير وسيلة لحصر أخطار الحرب الاسبانية وصون السلام الأوربى من شرورها المتطاير . وهنا تبدو الصبغة الدولية للحرب الأهلية الاسبانة وهى الصبغة التى نوهنا بخطرها وأهميتها مذ نشبت الثورة فى اسبانيا . فالعلائق الايطالية الانكليزية ، والنضال بين انكلترا وإيطاليا فى البحر الأبيض المتوسط ، تلعب أكبر دور فى تطور المسألة الاسبانية ، وفى سير الحوادث الدولية بوجه عام .

والمسألة الاسبانية ليست إلا واحدة من مسائل عديدة يثيرها النضال بين الدولتين فى هذا البحر ؛ وإيطاليا لم تنس موقف انكلترا فى المسألة الحبشية ، ولم تنزل عن شىء من أحقادها ومشاريعها رغم عقد اتفاق « الجنتلمان » بينها وبين انكلترا على احترام الحالة الراهنة فى البحر الأبيض المتوسط . وإذا كانت انكلترا تمضى اليوم فى تنفيذ برنامجها الدفاعى الهائل فلأنها اعتبرت بحوادث الحرب الحبشية ، وشعرت بالخطر الذى يهدد سيادتها الأمبراطورية من جراء تفوق التسليح الايطالى فى البحر الأبيض المتوسط ؛ وهى تستطيع اليوم بعد أن قطعت شوطاً كبيراً فى برنامجها الدفاعى أن تقف فى وجه السياسة الفاشستية وأن تناوىء اطماعها الخطرة . ولم ننس بعد تلك المعركة الصحفية المرة التى اضطرمت بين الصحافتين البريطانية والايطالية ، من جراء أقوال « الدوتشى » ومزاعمه المغرقة فى طرابلس حول حماية الاسلام والعرب ، وما أثارته تلك المزاعم من سخرية لاذعة فى العالم الاسلامى .

ولنلاحظ أن هذا النضال بين السياستين البريطانية والفاشستية كما أنه يحدث أثره فى المسألة الاسبانية أو غرب البحر الأبيض المتوسط ، فانه يحدث أثره العميق أيضاً فى شرق هذا البحر ، ففى الأشهر الأخيرة نشطت السياسة الايطالية فى البلقان وفى أوربا الوسطى ، وأحرزت أخيراً نجاحاً يذكر بعقد الميثاق اليوجوسلافى الايطالى ، ومن المعروف أن العلائق بين إيطاليا ومنافستها القوية فى بحر الادرياتيك لم تكن على ما يرام ، فعقد هذا الميثاق يحسم كثيراً من أسباب النزاع بينهما ، ويضمن لايطاليا حيدة يوجوسلافيا اذا وقع الصدام بينها وبين دولة أخرى ، كما أنه يضمن ليوجوسلافيا مثل هذه الحيدة ؛ والظاهر أن السياسة الايطالية تسعى إلى عقد مثل هذا الميثاق مع المجر حيث تتمتع بنفوذ واضح ، ومع تركيا الكمالية أيضاً . فاذا تم عقد هذه المواثيق ، فان ايطاليا الفاشستية تسوى بذلك علائقها فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، وتأمن غائلة الاعتداء من هذه الناحية ، وتستطيع أن تتفرغ لمقاومة السياسة البريطانية فى أواسط البحر الأبيض المتوسط وفى غربه أعنى فى أسبانيا

ولقد نوهنا من قبل غير مرة بخطورة هذا النضال بين ايطاليا وبريطانيا العظمى وشرحنا عناصره الظاهرة والخفية ، وليس من ريب فى أن هذا النضال يستغرق اليوم كثيرا من نشاط السياستين البريطانية والايطالية ؛ واذا كانت السياسة البريطانية تبدى كعادتها كثيرا من الأناة وضبط النفس ، فانها مع ذلك لاتخفى اهتمامها بحركات السياسة الايطالية ومقارعتها . ولقد دلت ايطاليا الفاشستية فى العامين الأخيرين على ماتجيش به من الأطماع المتوثبة والنزعات الاعتدائية ولاسيما ضد الامبراطورية البريطانية ؛ فغزو الحبشة والاستيلاء عليها بالعنف ، يهدد مركز بريطانيا فى السودان وفى شرق افريقية ؛ وتحصين جزيرة بانتلاريا الواقعة بين طرابلس وصقلية يهدد مركز بريطانيا فى مالطة ، ومن ثم يهدد مواصلاتها الامبراطورية فى البحر الأبيض ؛ ومد الطريق البرى من طرابلس إلى الحدود المصرية يخفى وراءه غايات عسكرية أكثر مما يقصد إلى غايات سلمية وتجارية ؛ ونشاط السياسة الايطالية فى المسألة الاسبانية هو مظهر آخر لتلك النزعة التى ترمى إلى تهديد انكلترا فى جميع النقط الحساسة من نفوذها الاستعمارى أو سيادتها البحرية

ولكن السياسة البريطانية مع ما تبدى من ضبط النفس

لا تخفى أنها مصممة على سحق جميع هذه المحاولات الفاشستية والاحتفاظ بسيادتها فى البحر الأبيض المتوسط ، وتدعيم نفوذها وسيادتها حيثما يقتضى الدفاع عن امبراطوريتها الاستعمارية الشاسعة . والمسألة الاسبانية هى أول مظهر من مظاهر النضال بين السياستين ؛ فكما أن رومة تحاول أن تدفع تدخلها فى الحرب الأهلية الاسبانية إلى النهاية أو حتى يظفر الجنرال فرانكو وتقوم فى اسبانيا حكومة فاشستية تخضع لنفوذ ايطاليا ، فكذلك السياسة البريطانية تعمل على احباط هذه المحاولة بتدعيم سياسة عدم التدخل ، وعزل ايطاليا عن باقى الدول ، وإظهارها بمظهر المعتدى المهدد لسلام القارة ؛ وانكلترا تفوز فى هذه السياسة بتأييد فرنسا التى تخشى عواقب التدخل الفاشستى فى اسبانيا مثل ما تخشاه انكلترا ، وتأييد روسيا السوفيتية التى تناصر الكتلة الديموقراطية ، والتى تعاون اسبانيا الجمهورية على مقاومة الثورة الفاشستية منذ نشوبها . ومما يلاحظ أيضاً أن ألمانيا تبدى الآن فتورا ظاهرا فى تأييد وجهة النظر الايطالية مما يدل على أنها قد ملت التدخل فى مغامرة لاتؤمن عواقبها ؛ هذا إلى أن حوادث الحرب الاسبانية ذاتها تدل على أن الجبهة الثورية الفاشستية قد سرى إليها الضعف والوهن ، فانتصارات الجمهوريين الأخيرة حول مدريد وفشل الثوار فى جميع هجماتهم الأخيرة وما أذيع من وقوع التمرد فى بعض الوحدات الثورية فى المغرب الاسبانى ، كل ذلك يؤذن بان مصاير الحرب الاهلية تتطور فى صالح الجمهورية الاسبانية . ولنذكر أخيرا أن اتفاق عدم التدخل الذى وفقت الدول إلى عقده وتنظيمه ، سينفذ بطريقة فعلية فى أيام قلائل بحيث يغدو من المتعذر على أحد الفريقين المتحاربين أن يتلق المدد من أى ناحية . وفى اعتقادنا أن الثورة الاسبانية التى قامت منذ الساعة الأولى بتحريض الفاشستية ومعاونتها المادية ستنهار عندئذ بسرعة ، وتحسم هذه المعركة الطاحنة بفوز الديموقراطية الأسبانية ، وبذلك يقضى على تلك العوامل الخطرة التى تلوح فى الأفق منذ أشهر مهددة سلام أوربا ، والتى كان لشهوات الفاشستية ودسائسها المضطرمة أكبر فضل فى بعثها وتغذيتها (•••)

النفس وخلودها عند ابن سينا

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

— ٥ —

ليس تأثر ابن سينا بافلاطون من الأمور التى تتطلب اثباتاً جديداً ، فقد فرغنا منه من قديم وأضحى واضحاً وضوحاً لا يقبل الشك . وإذا كان شيخ الأكاديمية قد استطاع أن ينفذ إلى فلاسفة الاسلام جميعاً بالرغم من تعصبهم لأرسطو فان أثره فى الأستاذ الرئيس أعمق ، وملاءمته لتفكيره أتم وأكمل . وقد بينا فيما سبق كيف قال ابن سينا بجوهرية النفس على نحو ما ذهب إليه أفلاطون . ونريد اليوم أن نوضح موقفه إزاء روحيتها ، فنهيئ بذلك فرصة أخرى لاظهار ما اشتملت عليه فلسفته من نزعات وآراء أفلاطونية

ابن سينا روحى فى طبيعته ، فالتغيرات الكونية ترجع فى رأيه إلى قوى خفية تحدثها وتشرف عليها ؛ روحى فى طبه ، إذ يعتبر النفس الانسانية مهيمنة على كل الأجهزة والعصارات الجسمية ؛ روحى فى فلكه ، فانه يذهب إلى أن الأفلاك والكواكب إنما تستمد قوتها وحركتها من نفوس خاصة موكلة بها ؛ روحى فى ميتافيزيقاه ، ولا أدل على هذا من أن عالم ما وراء الطبيعة فى نظره حافل بعقول قديمة أزلية كلها تفكير ونظر وتأمل ؛ روحى أخيراً فى أبحاثه السيكلوجية ، بدليل أن النفس عنده هى كل شىء والجسم والحواس مجرد آلة لها وأداة . ونستطيع أن نقول إن فلسفته كلها تتلخص فى مذهب روحانى تتجاذب أطرافه وتتناجى نواحيه . وفيلسوف هذه نزعته لا يدخر وسعاً فى البرهنة على روحية النفس ولا يمل حديثاً كهذا ، بل على العكس يعنى به ويذهب فيه مذاهب شتى ، فيلجأ تارة إلى بعض الأفكار الرياضية مستعيناً بما فيه من لباقة ومقدرة جدلية ليحمل القارىء على التسليم بهذه الروحية . ويركن تارة أخرى إلى معلوماته الطبية

وملاحظاته السيكلوجية فيتخذ منها أدلة أخرى لا تقل عن السابق إفحاما

فيقرر أولا أن النفس جوهر يدرك المعقولات والمعانى الكلية ويشتمل عليها ؛ وجوهر هذا شانه لا يمكن أن يكون جسما أو قائماً بجسم ، ذلك لأنا إن قلنا بجسميته لزم أن تحل المعقولات فى مكان ، وهذا محال . فانها ان شغلت حيزا فاما أن يكون قابلا للقسمة أولا ، وما لا يقبل القسمة هو تلك النقط الهندسية التى يتكون منها الخط والتى لا توجد منعزلة مطلقاً ؛ فلا يمكن أن تكون محلا لشىء ما . وعلى هذا لم يبق إلا أن تكون المعقولات حالّة فى مكان قابل للقسمة . وفى هذا الغرض أيضاً صعوبات كثيرة لا سبيل إلى تذليلها ومتناقضات لا نستطيع رفعها ، وأهمها أن الكلى يصبح قابلا للقسمة تبعاً للحيز الذى يشغله فيصير شكلا هندسياً أو كمية عددية بدل أن يكون فكرة عقلية . وإذا قلنا بقسمته فهل هو مكون من أجزاء مكررة متشابهة أو غير متشابهة ؟ إن أخذنا بالأول قادنا إلى نتيجة واضحة البطلان وهى أن يتكون الكل المتنوع المميزات من جزء واحد مكرر ؛ وإن ذهبنا إلى الثانى كان معناه أن الكلى قابل للقسمة إلى مالا نهاية ، شأنه فى هذا شان الجسم الذى حل فيه . ونحن نعلم أن الكليات وإن قسمت إلى أجناس وأنواع ينبغى أن تقف عند حد فى هذا التقسيم ، فهى فى ذاتها قابلة للقسمة إلى نهايته ، وتبعاً للحيز الذى تشغله يمكن تقسيمها عقلا إلى مالا نهاية ، وهذا تناقض صريح . على أن هناك معقولات بسيطة لا تقبل القسمة بحال فكيف نتصورها شاغلة لحيز قابل للقسمة ؟ وإذا بطل كل هذا فالجوهر الذى تحل فيه المعقولات روحانى غير موصوف بصفات الأجسام ، وهو ما نسميه النفس [1] . وواضح أن هذه النفس هى التى تجرد الكليات عن الكم والأين والوضع وتستخلصها من الجزئيات فلا يمكن أن تضعها فى حيز جديد ؛ ولن يصير الكلى كلياً ولا المعقول معقولا بالفعل إلا إذا انتزع من المكان وفهم فى ذاته بعيداً عن عوارض المادة [2]

(١) ابن سينا ، (الشفاء) ، ج ١ ، ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩ : (النجاة) ، ٢٨٥ ـ ٢٨٦ : (الاشارات) ، ١٣٠ ـ ١٣٢ : رسالة فى القوى النفسانية ، ٦٧-٦٩

(٢) الشفاء ، ج ١ ، ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠ : النجاة ، ٢٩٠ ـ ٢٩٢ .

هذا هو أعنف برهان يستدل به ابن سينا على روحية النفس ؛ ويظهر أنه كان معتدا به كل الاعتداد ، فإنه ساقه فى كل كتبه السيكلوجية التى وصلت الينا فى أشكال وألوان مختلفة بعضها أغمض وأعقد من بعض ؛ وربما كان أوضحها نسبيا ماجاء فى كتاب النجاة . وليس القول بأن المعقولات لا تشغل حيزا فكرة مبتكرة اهتدى اليها ابن سينا وحده ، فإنا نجدها لدى الأغريق من قديم ؛ وأرسطو بوجه خاص يفصل الكلام فى وجود الكليات مبينا أنها موجودة فى الجزئيات بالقوة وفى الذهن بالفعل . والوجود الذهنى هو الوجود الحقيقى ؛ واذا كان بينه وبين الوجود الخارجى من فارق فهو أنه مجرد عن الماديات [1] . وإنا لنرى بين المسلمين كذلك الفارابى يحاول من قبل البرهنة على روحية النفس محاولة نظن أنها التى ألهمت ابن سينا برهانه الذى نحن بصدده ، فهو يلاحظ أن المعقولات تتنافى مع الحيز بطبيعتها ، وما دامت النفس تدركها وتشتمل عليها فهى جوهر مفارق للمادة [2] . بيد أن الجديد لدى ابن سينا هو ذلك الجدل المحكم والالزام المبنى على أقيسة اقترانية وقسمة ثنائية لا يلبث المرء أن يسلم أمامها بالمطلوب رضى أم لم يرض . وقد لا نستسيغ نحن الآن كثيرا هذا الطراز من الاثبات ، فانه أشبه بالمناقشة اللفظية منه بالبحث العلمى ، إلا أنه كان من مميزات القرون الوسطى عامة ، ولابن سينا بوجه خاص فيه قدرة فائقة . ومع هذا فلن نعدم الحيلة فى إنكار بعض مقدماته أو الطعن فى بعض قضاياه ، ولكنا لا نحب أن نسترسل فى أمر نعتقد أنه قليل الجدوى . ومهما يكن من شأن البرهان السابق فإنه يعتمد على مبدأ لا يزال علم النفس الحديث يقره . فإن المحدثين يفرقون بين الظاهرة الجسمية والنفسية بأن الأولى هى التى تشغل حيزا فى حين أن الثانية مجردة عن المكان ، وكل ماتقاس به هو الزمان الذى تحدث فيه . ولئن فات ابن سينا أن ينمى معلوماتنا السيكلوجية ببرهانه هذا فإنه سيعرض علينا ذلك ببراهينه التالية

(1) Aristote; de l'âme, III, 4.

(٢) الفارابى الجرة المرضية ، ٦٤ ، ٧٦ ؛ المفارقات ، ٧ ـ ٨ .

كم كنا نود أن نجد السبيل الى ملاحظة النفس فى ذاتها لنقف على طبيعتها ومميزاتها . فاما ولا حيلة لنا الى ذلك فلنلجا الى آثارها ووظائفها فان فيها خير معين على فهم كنهها . وكثيرا ما قام الأثر دليلا على المؤثر وأعانت الوظيفة على توضيح مصدرها . ومن أهم وظائف النفس وألصقها بها الادراك ؛ وانا لنلحظ فيه ظاهرة غريبة هى أن النفس تدرك ذاتها وتدرك أنها تدرك ، وفى هذا دليل قاطع على أن ادراكها مباشر وبدون واسطة . ذلك لأنها لو كانت تدرك بآلة جسدية لا نعدم كل هذا وما استطاعت أن تدرك نفسها ولا أن تكون شاعرة بإدراكها ، بل ولا أن تدرك الآلة التى تستخدمها . ويكفى أن نقارن هذا الادراك العقلى بالأدراكات الحسية أو المتصلة بالجسم لنتبين الفرق بينها . فبينما النفس تدرك ذاتها وتدرك إدراكها لا تستطيع حاسة ما من حواسنا أن تحس نفسها ولا احساسها ولا العضو الذى يوصل اليها هذا الاحساس ، اللهم إلا إن عكس اليها بمرآة ونحوها . وكذلك المخيلة لا تتخيل ذاتها ولا فعلها ولا آلتها ، وانما تتخيل أمرا خارجا عن كل ذلك . واذن تكون النفس الناطقة من طبيعة غير طبيعة هذه القوى الجسمية [1] .

وفوق ذلك فهذه القوى تتأثر بما تقوم به من مجهود . فان عظم مجهودها أو استخدمت زمنا طويلا بدا عليها التعب والاعياء وعز عليها أن تقوم بوظائفها فى دقة . فالقراءة الطويلة تضعف العينين ، والضوء الشـديد قد يعشيهما فلا تكادان تبصران ، والرعد القاصف قد يصم الأذنين . وليس أثر هذه الاحساسات الشاقة بمقصور على وقتها ، فقد يبقى بعدها زمنا ، فمن أبصر ضوءا عظيما لا يبصر معه ولا عقبه ضوءا ضعيفا ، ومن سمع صوتا قويا لا يسمع معه ولا على أثره صوتا ضئيلا ، ومن ذاق طعما شديد الحلاوة لا يحس بعده خفيف الطعوم ، وعلى عكس هذا يزداد العقل نضجا كلما استخدم وقام بوظيفته ، واذا حل مسألة معقدة كان فى هذا ما يعينه على حل ما هو

(١) ابن سينا : (الشفاء) ، ج ١ ، ص ٣٥٠ - ٣٥١ : النجاة ، ص ٢٩٢ - ٢٩٤ : (الاشارات) ، ١٣٢ - ١٣٤ : (رسالة فى القوى النفسانية) ٦٩ - ٧٠ .

أعقد منها . حقا أنه قد يبدو متعبا احيانا ولكن هذا راجع الى ما يتصل به من ظروف عضوية ، فانه يستعين بالمخيلة كثيرا وهى مرتبطة بالجسم ارتباطا وثيقا [1]

وأخيراً كل أعضاء الجسم تضعف تبعاً لتقدم السن ، ويبدأ هـذا الضعف عادة بعد سن الأربعين . لكن القوة الفعلية تخالف هذا تمام المخالفة ، فهى لا تكتمل إلا حين يجاوز الانسان هذه السن . يقول ابن سينا : « لاشك أن الجسم الحيوانى والآلات الحيوانية إذا استوفين سن النمو وسن الوقوف أخذن فى الذبول والتنقص وضعف القوة وكلال المنة ، وذلك عند الإنافة على الأربعين سنة . ولو كانت القوة الناطقة العاقلة قوة جسمانية آلية لكان لا يوجد أحد من الناس فى هـذه السنين إلا وقد أخذت قوته هـذه تنتقص ، ولكن الأمر فى أكثر الناس على خلاف هذا ، بل العادة جرت فى الأكثر أنهم يستفيدون ذكاء فى القوة العاقلة وزيادة بصيرة ؛ فاذن ليس قوام القوة النطقية بالجسم والآلة ، وإذن هى هى جوهر قائم بذاته [2] » . وأما ما يبدو من نسيان أو ضعف فى التفكير أو خطا فى الأحكام أثناء الشيخوخة فليس راجعاً إلى نقص أو اضطراب فى القوة العاقلة ، وإنما مصدره مؤثرات جسمية وعضوية . وبيان ذلك أن النفس تؤدى مهمتين متباينتين ومتعارضتين تقريباً : فهى تسوس البدن وتدبر أمره ، كما تقوم بالتفكير والتعقل . وكثيراً ما عز عليها الجمع بين هذين الأمرين ؛ فيحول الحس دونها والاسترسال فى النظر والتأمل ، كما يصرفها البحث العميق ولو مدة معينة عن حاجات الطعام والشراب ، فما نظنه من ضعف التفكير أو تعطل العقل لدى الشيخ أو المريض منشؤه أن النفس قد شغلت بمهمتها الجسمية ، بدليل أنها تسترد كل قوتها العاقلة إذا ما زال المرض [3] .

هذا هو مجمل البراهين التى يستدل بها ابن سينا على روحانية النفس ، وفيها من غير شك ملاحظات سيكلوجية

(١) (الشفاء) ، ج ١ ، ص ٣٥٠ : (النجاة) ٢٩٤ - ٢٩٥ .
(٢) ابن سينا ، رسالة القوى النفسانية ، ص ٧١ .
(٣) الشفاء ، ج ١ ، ص ٣٥١ - ٣٥٢ : النجاة ٢٩٥ - ٢٩٧ .

جديرة بالتقدير ، فان ادراك القوة الناطقة لنفسها وإدراكها أنها تدرك أساس موضوع السفور الذى هو من أهم مباحث علم النفس الحديث ، ويمكننا أن نسلم إلى حد ما أن القوى الذهنية أقدر على تحمل المجهود من الأجهزة الجسمية . وليس بغريب على ابن سينا وهو الطبيب المعروف أن يقوم بمثل هذه الملاحظات ولا سيما وأستاذه أرسطو قد سبقه إلى بعضها ومهد له سبيل توسعتها[1] . ولكن الغريب هو أن تستخدم أفكار ارسطية فى إثبات أمر لا يقف أمامه أرسطو موقفاً واضحاً ، فانه غير صريح صراحة افلاطون فى القول بفصل النفس عن البدن وتميزها عنه ، فكأن ابن سينا ببرهنته السابقة ينتصر لأفلاطون فى الوقت الذى يزعم فيه أنه يردد آراء ارسطية . واذا ما شئنا أن نحكم على هذه البرهنة فى ذاتها ، وخاصة فى جزئها الاخير ، وجدنا قيمتها موقوفة على تفسير الصلة بين الجسم والروح ، وهذا ما سنحاوله فى الفرص المقبلة ان شاء الله .

ابراهيم مدكور

(1) Aristote, (De l'âme), III, 4.

فى الأدب المقارن

الطور الفـــنى

فى الأدبين العربى والإنجليزى

للأستاذ فخرى أبو السعود

مما عرف به الانسان أنه حيوان يتذوق الفن ، فحب الفن طبع فيه ، تبدو مظاهره حالما يأمن على نفسه ويتوفر له قوته وحاجاته ، فاذا ما فرغ من الضرورى من أموره التفت إلى الكمالى ، وطلب الفن والجمال ، ومن ثم تظهر بعض الفنون بدائية بين الجماعات المتبدية ، وترتقى بينها وتتنوع بقدر ما تسمح به بيئتها ودرجتها من الرقى المادى والعقلى . والرقص والموسيقى والشعر من الفنون السابقة إلى الظهور ، لقلة ما تحتاج إليه من المواد الأولية ، أما التصوير والنثر الفنى والنحت والعمارة ، فأكثر تأخراً عنها ، لما تحتاج إليه من تقدم الصناعة والمعرفة بالكتابة والاستقرار فى موطن

ومهما بلغ الشعر من التقدم فى عهد البداوة فما يزال محدود الجوانب قريب الأغوار متشابه الآثار ؛ فاذا كانت الحضارة والاستقرار والثقافة والتدوين ، اتسعت مواضيع الشعر باتساع جوانب العمران ، وبعد غوره باستفادته من العلم ، وجاد أسلوبه باستخدامه التدوين والتروى ، واتصلت الجهود فيه وتكاثر الابتكار بتوفر الوقت للتفرغ والتفنن ، وظهر بجانب الشعر أخوه الأصغر سنا وهو النثر ، وظهر بجانب الشعراء الكتّاب ، وبظهور النثر يمتد مجال الأدب حتى يتاخم مجال العلم أو يتداخل وإياه ، وإذ يدون الأدب يطلع عليه أبناء الأمم الاخرى ويطلع أدباؤه على آداب تلك الأمم ، فيتأثر بها ويؤثر فيها ، بعد أن كان الشعر فى عهد البداوة معزولا لا يحس به سواه ولا يعلم هو بوجود غيره ، وبتقييد الأدب يتوارثه جيل عن جيل ، ويزداد تراثه باطراد ، بعد أن كان فى عهد بداوته سريعاً إلى التلاشى فى ضباب النسيان ، لا يكاد يذكر منه جيل عن أجداده إلا القليل المحرف غير المستيقن

فحين تتحضر الأمة وتتثقف ، يصبح شعرها فنيا ويظهر بجانبه النثر الفنى ؛ على أن هذا يستغرق زمناً ، ولا يجىء الفن إلا متأخراً عن الصناعة وعن العلم . فالانسان يعمد دائما إلى الضرورى ، حتى إذا ماقضى منه وطره تحول إلى الفن ، أو تحولت الصناعة ذات الغرض المادى إلى فن لا غرض له خارجاً عن ذاته ، وهكذا ينشأ التصوير

والنحت والعمارة والنثر جميعاً ، تكون فى أول أمرها صناعات تخدم أغراضاً مادية وتسد حاجات الانسان ، من اتخاذ المسكن وزينته وتدوين المهم من الأحكام والمواعظ والأخبار ثم العلوم ، فاذا ما اطرد سلم الرقى تخلص الفن من تلك الأغراض الخارجية وصار غرضا فى نفسه ومتعة فى ذاته ، وتعبيراً عن الشعور خالصاً ، وعبادة للجمال منزهة .

إذا مادخل الأدب هذا الطور الفنى ، صارت الصنعة الفنية فيه أظهر والتجويد أوضح ، وليس يخلو الشعر حتى فى بداوته من صنعة ومعالجة وتجويد ، وبغير هذه لا يتصور له وجود ولا لسلكه انتظام ؛ بيد أن الأديب فى الطور الفنى يصبح أكثر بصراً بتجويد اللفظ وتنسيق الأسلوب وتجميل المعنى ، لما يمتاز به دون شاعر البداوة من ترفه المعيشة ورقة الذوق وسعة القراءة ، والاطلاع على الآثار الأدبية والقواعد والآراء ، فكلما أمعن الأدب فى طوره هذا زاد الأدباء لألفاظهم تخيراً وتسهيلا ، ولأساليبهم تقسيا وتذليلا ، ولمعانيهم استقصاء وتوضيحاً

وتزداد موضوعات الأدب اتساعاً وبعداً عن أسباب الحياة الشخصية الحاضرة ، وتحليقاً فى عنان الفكر وأجواز الخيال وآفاق الماضى والمستقبل : فعلى حين يكون أكثر ماينظم من شعر البداوة نتيجة حادث طارىء أو خاطر عابر ، يتوفر الأديب فى الطور الفنى على تقصى غايات التفكير ، إرضاء لنزعة التأمل والتفكير فى ذاتها ، وعلى توخى مناحى الفن حبا للفن وحده ، ويمسى الأديب ويصبح ولا هم له إلا استقصاء حقائق الحس والمشاهدة وتصويرها فى أدبه ، وتكثر فى الشعر والنثر آثار التأمل الطويل والوصف الفنى

وإذا ماتكاثرت الآثار المتجمعة بالتدوين جيلا بعد جيل ، وزخر التراث الأدبى بما تجود به قرائح الأدباء من فيض ، إذا انقضت سحائب منه أعقبت بسحائب كما يقول الطائى ، وكثر نظر الأدباء فيها واستظهارهم لها واحتذاؤهم إياها ، لم يعدموا أن ينتبهوا إلى شواهد فيها تتكرر ، وحقائق تتماثل ، وجزئيات تندرج تحت كليات ، فاستخلصوا من كل ذلك قواعد يجعلونها نصب أعينهم فى الانشاء ، ثم يحتفى بعضهم بجمعها وتبويبها والاستكثار من أمثلتها ، فتكون من ذلك علوم المعانى والبيان والبديع ، وكتب النقد والموازنة والتحليل ، وبرغم أن الفن سليقة والأدب ملكة لا اكتساب ، والشعر طبع لا تطبع ، فان تلك العلوم وهاتيك الكتب المستحدثة تترك أثرها فى تقويم السلائق ، وتوجيه الملكات وتحسين البصر بالأدب وأسبابه ، وجمع أشتاته ولم أطرافه ، ولا يستأثر النثر بهذا التبصر فى الأدب ، بل ينظم الشعراء القصيد فى مزايا الشعر وأطواره وأحوال الشعراء

ومن ذلك التراث الأدبى الزاخر يكتسب الأدب شيئاً آخر : يكتسب على مر الأجيال لغة أدبية خاصة ، وألفاظا خاصة للشعر وأخرى للنثر ، قد صقلها الاستعمال الطويل ورفعها استخدام كبار الأدباء إياها إلى مرتبة عالية ، وارتبطت بمعان سامية ، مما يجعلها أهلا لما ينزع إلى تصويره الأدباء من عواطف رفيعة ، فيصير للشعر والنثر من كل ذلك لغة خاصة متسامية على لغة العصر المستعملة فى الكلام ، الممتازة بسهولتها وإسفافها أحيانا ، وتطورها المستمر بتطور الحضارة المادية ؛ وتظل لغة الشعر والنثر الخاصة تلك فى ازدياد كلما أضاف إليها أقطاب الأدب ألفاظا من اختراعهم أو اشتقاقهم أو مما يرفعونه بعبقرياتهم من لغة العامة ، أو يقتطفونه من لغات الأمم الأخرى ، وتتوارث فى الأدب بجانب ذلك تعابير خاصة جارية ومجازات وأخيلة وأمثال ، يموت بعضها تدريجا ويحيا بعض ، ويزداد بمرور الزمان صقلا وانسياغا

هذا الطور الفنى لاشك طور نضج الأدب وبلوغه أشده : فيه يجمع بين حرارة الشعور وعمق الفكرة ، وبين طرافة الموضوع وجودة الأسلوب ، وفيه يتخلص من أقذاء المادية وشوائب الصناعات ، وفى هذا الطور لا فى طور البداوة يظهر أكبر أدبائه وفحولة شعرائه ؛ وما يزال الأدب فى رقيه المطرد ، وتراثه فى ازدياده المستمر ، مادامت فى الأمة فورة الحياة وصدق الشعور وصحة النظرة ، فاذا خمدت النفوس وزاغت النظرات ، انقلب الفن صناعة ، والحرية قيودا ، وتمسك الأدباء بالقشور دون اللباب ، وبالألفاظ دون الحقائق

كان أدب الجزيرة العربية فى الجاهلية وصدر من الإسلام بدويا : الشعر قوامه والبساطة سمته والقريب الحاضر من شؤون الحياة مادته ، محدود المواضيع ، غير متسق الأسلوب ولا منظم الأفكار ولا ظاهرا لوحدة فى القصيدة . وقد استعاض العرب عن التدوين بالراوية : يروى أشعار كل فحل ناشىء يقوم له مقام الديوان المخطوط ، ويقوم الشاعر من راويته مقام الاستاذ يبصره بالشعر ووجوه القول ؛ وبطريقة الرواية هذه حفظ من شعر العرب شيء كثير ، وبها ترعرعت الصناعة الشعرية حتى بلغت فى هذا العصر مبلغا من التقدم يعتد به ، وصارت لها تقاليد خاصة فى الأوضاع والمعانى والألفاظ ، كتصريع البيت الأول من القصيدة وتقديم النسيب فى مستهلها ، تتجلى كل هذه الميزات فى المعلقات ، التى يتحدث صاحب كل معلقة منها فى نفس القصيدة ، عن أحبابه وشرابه ، وحربه وأسفاره ، وحكمته وآدابه وقبيلته وعزها وهلم جرا

وبازدياد حظ العرب من الرفاهة والتثقف والتهذب ، ازداد

الشعر تهذيب لفظ واتساق أسلوب ، كما يتمثل فى شعر ابن أبى ربيعة وجميل ؛ وظهر النثر يستخدم أولا فى تدوين العلوم ورسائل الأمراء وإجراءات الحكومة ، ثم مازال حتى استحال على أيدى ابن المقفع والجاحظ والبديع ، فنا يتطلب الجمال اللفظى والمعنوى ويتوخى نواحى الفن ومذاهب التفكير بعيدة عن النفع المادى والغرض الحاضر . وبلغ الشعر الغاية من الصناعة الفنية والحلاوة اللفظية ، والتقسيم الموضوعى ، والتقصى فى المعانى ، والتفنن فى الوصف ، على أيدى أبى نواس وأبى تمام وابن المعتز وابن الرومى وغيرهم ؛ وهؤلاء وأضرابهم هم لاشك فحولة شعراء العربية ، وإن ظل كثير من الأدباء لنزعتهم من المحافظة يقدمون امرأ القيس وأصحابه من الجاهليين . وظهرت كتب النقد وعلوم البلاغة ، ونظم الشعراء القصيد فى إطراء فنهم ، ودبجوا أشعارهم بالتشبيهات والأمثال يحتفون بطلبها ويكاثرون بعرضها ، كقول الطائى :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

وقد سئل بشار فيما قيل : بم فقت أهل عصرك فى حسن معانى الشعر وتهذيب ألفاظه ؟ فأجاب : بأنى لم أقبل كل ماتورده على قريحتى ، ويناجينى به طبعى ، ونظرت إلى مغارس الفطن ، ومعادن الحقائق ، ولطائف التشبيهات ، فسرت إليها بفكر جيد وغريزة قوية ، فأحكمت سبرها وانتقيت حرها ، وكشفت عن حقائقها واحترزت عن متكلفها . فهذا قول اديب صناع يروض المعانى والألفاظ ، ويعرف خطر التروى وإعمال الفكر ، ولا يرسل القول على عواهنه ، ولا يطمئن إلى الارتجال الذى كان شيمة الجاهليين .

ومن امثلة التدقيق فى انتقاء الألفاظ ونقدها ومراعاة تناسب حروفها ومخارجها أيضا ، أن ابن المعتز عاب على أبى تمام تكرار كلمة « أمدحه » مع الجمع بين الحاء والهاء ، وهما معاً من حروف الحلق ، وذلك فى قوله :

كريم متى أمدحه أمدحه والورى معى وإذا مالمته لمته وحدى

هكذا يجرى تاريخ أدب كل أمة : يبدأ بطور اولى ، الأدب فيه ظاهر البداوة ، يليه طور فنى تابع لتحضر الأمة وأخذها بأسباب الكتابة والعلم ، وقد استطال الطور الاول فى العربية وغزر ما حفظ من آثاره لظروف خاصة ، وإن يكن الكثير مما اثر من ذلك موضع الشك . أما الأدب الانجليزى فلا يحتوى تاريخه على آثار ذات بال تمت إلى الطور الأول المتبدى ، إلا أساطير وشذوراً اتخذها الأدب فيما بعد مادة لسبحاته الفنية ، وإنما يبدأ تاريخ الأدب الانجليزى الصحيح بعصر اليزابيث التى كانت الأمة فيه قد تشربت ثقافة اللاتين والاغريق ، واقتبست كثيراً من حضارة أوربا ، وخمدت فيها الفتن واستتب السلام فى ظل آل تيودور . ومن ذلك العصر يبدأ الطور الفنى للأدب الانجليزى وهو طور تاريخه تاريخ رقى مطرد للأدب فى الأشكال والمواضيع والافكار والاساليب ، وتخلص مستمر من شوائب الصناعة وتجرد تام فى عالم الفن الصحيح . والأدب الانجليزى فى هذا كله يمثل التطور الطبيعى المعقول لكل أدب : جرى الشعر إلى غاياته وتلاه النثر ، وتوسعت جوانب كل منهما تدريجا ، وتعددت مجالاته وتميزت أشكاله وتبينت أغراضه

تهيأت لكلا الأدبين العربى والانجليزى أسباب الدخول فى الطور الفنى . فازدهرت الحضارة وذاعت العلوم ودونت الكتب وانتشرت الرفاهية وتوفر الوقت للعمل الفنى المتصل ، بيد أن الأدب الانجليزى كان أبعد شوطا فى مضمار الفن الخالص ، وأكثر تجرداً من شوائب الصناعة والمادة التى تلازم الأدب أو الفنون عامة فى بداءتها ، إذ أحاطت بالأدب العربى ظروف حالت بينه وبين التخلص من جميع هاتيك الشوائب ، فجاء الأدب الانجليزى أكثر فنية فى الموضوع وفى الأسلوب

ففى الموضوع احتوى الأدب الانجليزى من تصوير الطبيعة وسير الأبطال وخرافات الماضين وأوصاف الرحلات وآثار الفنون الأخرى كالتصوير ، مايفيض جمالا وتنسم منه نسمات الفن الخالص والفكر البعيد والانسانية الشاملة ، وكل هاتيك مواضيع لم يولها الأدب العربى مكانة أولى ، وفى الأسلوب توفر الأدباء الانجليز على استخدام اللفظ قدر المستطاع لأداء المعنى وتصوير المنظر ، مستعينين بجرس اللفظ ونغم الوزن فى النظم ، فى حين اهتم أدباء العربية للفظ فى ذاته لا على كونه مجرد وسيلة للمعنى ، وظهرت الوحدة الفنية أو الفكرة الجامعة فى القصيدة وفى المقالة وغيرهما من أشكال الأدب فى الانجليزية ، على حين ظلت القصيدة فى العربية وإن أصبحت أكثر تقسيما وأجود ترتيباً مما كانت عليه من قبل ، عديمة الوحدة مختلطة الأجزاء ، تثب من قريب إلى بعيد ومن نسيب إلى مديح ، ومن مديح للغير إلى فخر بالنفس ، ومن فخر إلى شكوى

ولم يتخلص الأدب العربى من شبهات الصناعة وأسر المادى قط : إذ ظل أكثر الشعراء والكتاب يخدمون الأمراء ويتوخون مواقع رضاهم . وليس يخرج الأدب من حيز الصنعة إلى عالم الفن الحر مادام ذا غرض خارج نفسه . وذلك مالم ينكره أدباء العربية أنفسهم ، فظلوا يسمون الأدب صنعة أو حرفة أو آلة ، وكان النقاد يوازنون بينها وبين صناعة المغنين ، ويقول ابن

رشيق فى تعليقه على حكاية شاعر مدح علوياً ثائراً فدفنه المنصور حياً : إن ذلك الشاعر قد جنت عليه حماقته ، إذ ما للشاعر والزج بنفسه فى أمثال تلك المآزق وإنما هو « طالب فضل » ؟

واحتفى أدباء العربية بالألفاظ احتفاء متزايداً : فنشأ السجع والطباق والجناس والتورية وما إليها فى الشعر والنثر معاً ، حتى بدا اللفظ منافساً للمعنى مزاحماً له على انتباه القارىء وفهمه ، بل صارت له فى النهاية المكانة الأولى ، وتضاءل المعنى بين يديه واختفى ، وأصبحت همة الأدباء موجهة لا إلى الغوص على حقائق الوجود وبواطن الشعور . بل إلى اقتناص شوارد الكلم وبارع النكات اللفظية ، فعيسى بن هشام مثلا يقول إنه كان يطوف البلدان « وقصاراى لفظة شرود أصيدها ، وكلمة بليغة أستزيدها » ، وعيسى بن هشام أيضا يعيب على الجاحظ أنه « قليل الاستعارات قريب العبارات ، منقاد لعريان الكلام يستعمله ، نفور من معتاصه يهمله ، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة ، أو كلمة غير مسموعة ؟ » ،

وإنما قصر بالأدب العربى عن غايات الفن المطلق ، ما قيد به من اتصال بالأمراء ، وما أرهق به من تقليد للقديم : أدخلت الأولى فيه التكلف والصنعة ، وأبقت فيه غرضاً خارجاً عن نفسه وصرفت الثانية همه إلى اللفظ البليغ والعبارة الطنانة ، التى تدل على بصر باللغة وتمكن من آثار فحولها المتقدمين ؛ ويتجلى الفرق بين مدى الأدب الانجليزى من الفنية الخالصة ، ومدى الأدب العربى منها ، من موازنة حياة الفن الخالص- والتأمل الدائب ، والمعالجة المستمرة لاشكال الادب ومواضيعه ، والطرق المتكرر لمذاهبه ومناحيه ، التى كان يحياها وردزورث وشلى وتنيسون مثلا ، وبين حياة البحترى والطائى والمتنبى المتصلة أوثق اتصال بالامراء ومنادمتهم وتملقهم ، كان الأولون كأنهم كهنة الفن المنقطعون إلى آلهته فى محاريبه المقدسة المصونة ، وكان الأخيرون يعيشون فى جلبة البلاطات وضجة المحافل والمواكب

فالأدب الانجليزى بعد أن توفرت له أسباب الحضارة والثقافة والتدوين والفراغ ، التى لابد منها لبلوغ الأدب أوج رقيه ، توفرت له أيضامزيتا الاستقلال بنفسه عن إرادة الحكام وخدمتهم ونزعة التجديد والحرية التى لاتقلد الماضى ولا تقف عند حدوده وبهاتين المزيتين إلى تلك الاسباب تجمعت للأدب الانجليزى كل وسائل التطور الطبيعى وبلوغ آماد الفن الخالص ؛ أما الادب العربى فأعوزته هاتان الميزتان ، فقعد به إعوازهما فى مجال الفن ، وأبقى به بعض شوائب الصناعة ، ومن ثم أمكن القول بأن الادب الانجليزى بلغ طور الفن ، أما الأدب العربى فى جملته فظل أقرب إلى الصناعة الفنية ؟

فخرى أبو السعود

الجباية فى الاسلام (١)

للأستاذ فارس بك الخورى
أستاذ علم المالية والمرافعات المدنية
ورئيس المجلس النيابى السورى

استندت الجباية عند العرب على الأسس الآتية :

١ — على القواعد المستنبطة من الكتاب والسنة ؛

٢ — على ما استنه الخلفاء الراشدون ؛

٣ — على ما أخذوه عن الدول التى غلبوها على أمرها

فلم تكن أموال الدولة فى أيام الرسول سوى الغنائم يخرجون خمسها للنبى وأهل بيته ويقتسمون الباقى بين المسلمين . وكانت الخزينة فى عهده قائمة على ما يجتمع لديه من الصدقات والزكوات من ماشية ونقود وحبوب وعروض يتصرف بها فى وجوه المصلحة العامة . ثم عند ما اتسع أمر الاسلام عمد إلى وضع الخراج . فجعل على سكان جزيرة العرب من المسلمين خراج مقاسمة على حاصلات أرضهم من العشر إلى نصف العشر بحسب درجة الأرض من الخصب ونصيبها من الرى ، فكانت أرض الجزيرة بتمامها عشرية ماعدا خيبر فقد صالح يهودها على نصف حاصلات أرضهم . وكان يسم الماشية العائدة لبيت المال بميسم خاص ويتولى ذلك بنفسه ؛ وبلغت هذه الماشية فى عهده نحو أربعين ألفاً . وبقى خمس الأفياء يعطى لأهل البيت حتى تولى الخلافة عمر بن الخطاب فعين الرواتب لمستحقيها من أهل البيت ومن القائمين بخدمة الخليفة من الحاشية والبطانة وأجراها عليهم شهراً بشهر ، ورد الأخماس على بيت المال لتقسم على المسلمين

وعند ما توسع الفتح الاسلامى واستولى المسلمون على بلاد الروم والفرس فى العراق والشام اختلف زعماء العرب فى الخطة الواجب اتباعها باستحواذ الأرض و « العلوج » الذين عليها ، فاراد قوم من الصحابة وزعماء العرب أن يقتسموا

---

(١) فصل من كتاب « علم المالية » يقوم بطبعه ونشره « مكتب النشر العربى بدمشق »

الأرضين التى يفتحونها غنيمة بينهم ويكون لكل منهم نصيبه منها مع من عليها من السكان فيبقى السكان اقناناً أى ارقاء ملحقين بالأرض يباعون معها وينتقلون بانتقالها . فقال عمر : فكيف بمن يأتى بعدكم من المسلمين فيجدون الأرض قد اقتسمت بمن عليها وحيزت ارثاً عن الآباء ؟ ماهذا برأى . فقال عبد الرحمن ابن عوف : فما الرأى اذن ؟ ما الأرض والعلوج الا مما أفاء الله على المسلمين . قال عمر : اذا اقتسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها فبماذا تسد الثغور وما يكون للذرية ؟. وما زالوا به حتى جمع ندوة من المهاجرين والأنصار قوامها عشرون رجلا من أهل الحنكة والعقل واستشارهم فى الأمر وقال لهم : سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا انى اظلمهم حقوقهم وانى أعوذ بالله ان اركب ظلماً ؛ لئن كنت ظلمتهم شيئاً هو لهم وأعطيته غيرهم لقد شقيت ، ولكن رأيت انه لم يبق شىء يفتح بعد أرض كسرى وقد غنمنا أموالهم وأرضهم وعلوجهم فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله واخرجت الخمس فوجهته على وجهه ، وأنا فى توجيهه ، وقد رأيت ان أحبس الأرضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج فتكون فيئاً للمسلمين المقاتلة والذرية ولمن يأتى بعدهم . أرأيتم هذه الثغور لا بد لها من رجال يلزمونها ؟ أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر لابد لها من أن تشحن بالجيوش وادرار العطاء عليهم ؟ فمن أين يعطى هؤلاء اذا قسمت الأرضون والعلوج ؟ فقالوا جميعاً : الرأى رأيك فنعما قلت وما رأيت ، ان لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال ولم تجر عليهم ما يتقوون به رجع أهل الكفر الى مدنهم . وكان عثمان وعلى وطلحة بين القائلين بقول عمر . فقال : من لى برجل له جزالة وعقل يضع الأرض مواضعها ويضع على العلوج ما يحتملون ؟ فاجتمعوا له على عثمان بن حنيف وقالوا تبعثه الى أهم ذلك فان له بصراً وعقلا وتجربة . فولاه مساحة أرض السواد من العراق فمسح سواد الكوفة وجباه مائة مليون درهم ، وفعل بالشام كما فعل بالعراق فترك أهله ذمة يؤدون الخراج الى المسلمين . قال أبو يوسف القاضى : ان الذى رآه عمر من ترك الأرض فى أيدى أصحابها وفرض الخراج عليها هو توفيق من الله فيه الخيرة لجميع المسلمين ؛ ولو لم يفعل ذلك لما شحنت الثغور وقويت الجيوش على السير فى الجهاد

وفى عهده وضعت القاعدة القائلة « إنما دار من دور الأعاجم ظهر عليها الامام وتركها فى أيدى أهلها فهى أرض خراج ؛ وان قسمها بين الذين غنموها فهى أرض عشر . وكل أرض من أراضى الأعاجم صالح الامام أهلها عليها وجعلهم ذمة فهى أرض خراج » فضرب على الأرض الخراجية مالا مقطوعاً يستأداه أصحابها العاملون بها فى حالتى الخصب والجدب ؛ وجعل هذا الخراج يختلف باختلاف خصب الأرض وأسلوب الرى والقرب من المدن الحافلة بما فى ذلك من العون على كثرة الاستغلال وبيع الغلة ؛ وجعل العشر فى الأراضى العشرية على ما يشرب من ماء المطر ونصف العشر على ما يسقى بالدلو ، وجباه على ما يبقى فى أيدى الناس من الغلة الأرضية كالحبوب ووضعه أى رفعه عما لا يبقى كالبطيخ والخضر ، كما وضعه عن المسلمين فى البلاد التى فتحها وأقطعهم اياها ، وقال ليس على المسلمين عشر وانما العشر على اليهود والنصارى . وقال : يامعشر العرب احمدوا الله الذى وضع عنكم العشور . فهو أول من مسح الأرض ودون الدواوين ووضع أصول الجباية ورقم الداخل إلى بيت المال والخارج منه . وهو الذى رتب الجزية على الرجال من غير المسلمين وكلف غنيهم بثمانية وأربعين درهماً ، ومتوسطهم بأربعة وعشرين ، وفقيرهم باثنى عشر فى السنة ، وقال : درهم فى الشهر لا يعوز أحداً . وجعل المعادن لمخرجها على أن يؤخذ منه خمس المستخرج لبيت المال ؛ وكذلك ما يخرج من البحر من حلية وعنبر . وهو الذى وضع أكثر القواعد المالية فلم يجرؤ من جاء بعده على مخالفتها ، فبقى جانب عظيم منها نافذاً فى عهد الأمويين والعباسيين واستمر بعضها حتى الزمن الحاضر .

كانت منابع بيت المال فى عهد الخلفاء الراشدين منها المقرر ومنها الطارىء ؛ فالمقرر هو الخراج والعشر والصدقات والجزية ، والطارىء هو العشور والغنائم والافياء والاموال المستخرجة

من العمال وعوائد المصادرة وأمثال ذلك . فالخراج هو ما كان يوضع على الأرض التى استولى عليها المسلمون وتركوها فى أيدى أهلها ملكا لهم ، فكانوا يجعلونه أحياناً خراجا موظفاً ثابتاً كما جرى فى سواد العراق ، وأحياناً خراج مقاسمة . وبقيت ضياع البطارقة والأمراء المنهزمين ملكا لبيت المال يقبلها العمال و يستثمرونها لحساب الخزينة العامة . والعشر هو الحصة الشائعة المضروبة على حاصلات الأرض التى أسلم أهلها عليها من أرض العرب أو العجم كالمدينة واليمن ، أو ملكها المسلمون عنوة من قوم لا تقبل منهم الجزية كعبدة الأوثان والمجوس ؛ ومثلها الارض التى احتازها المسلمون وقسموها بين الغانمين

والصدقات هى ما يعطيه المسلمون من أموالهم المنقولة ومكاسبهم ؛ وكانت فى الغالب بمعدل واحد فى الأربعين أى ربع العشر ؛ وتجبى على الأكثر من الماشية ، فكانوا يعينون لأهل البادية مصدقين يجبون الصدقات ويردونها على بيت المال لتصرف فى مصالح الخلافة . ولعل هذا الاساس بقى معتمداً عليه فى الاسلام وتجلى فى عهد الخلافة العثمانية بأموال الاغنام والسائمة التى ما زالت إلى اليوم تجبى على هذه النسبة نفسها

توسعت منابع الجباية بعد ذلك فتناولت مطارح أخرى من ذلك المكوس (الجمارك) التى كانوا يسمونها العشور لانها كانت تؤخذ بمعدل واحد من العشرة ، وأول ظهورها فى الاسلام على عهد عمر بن الخطاب عند ما كتب إليه أبو موسى الاشعرى عامله فى العراق يستشيره بما يأخذه الاجانب من تجار المسلمين الذين يدخلون بلادهم لبيع بضاعتهم ، فكتب إليه عمر أن خذ أنت منهم كما يأخذون من تجارنا ، وخذ من أهل الذمة نصف العشر ، ومن المسلمين ربع العشر بقدر الزكاة المفروضة عليهم . فانتشرت قاعدة التعشير فى ثغور المسلمين وحدودهم واستمرت طول أيام دولتهم .

ليس لدينا إحصاء يعرف منه ما كان يدخل لبيت المال فى عهد الراشدين من الخراج أو العشور أو الزكوات أو الاخماس أو غيرها من منابع الخزينة ، وجل ما نعلمه من هذه الجهة أن الدخول كانت جسيمة جداً وجميعها تنفق فى المصالح العامة ولا يختزن شىء منها . قدم أبو هريرة على عمر بمال من البحرين فقال له عمر : ما معك ؟ قال : « خمسمائة ألف درهم » . فدهش عمر لكثرته وقال له : « أتدرى ما تقول ؟ » ، قال « نعم مئة ألف خمس مرات » ، فصعد المنبر وقال : « أيها الناس جاءنا مال كثير ، فان شئتم كلنا لكم كيلا ، وإن شئتم عددنا لكم عداً » ، وهذا مثال على دهشة العرب بوفرة الاموال التى كانت ترد عليهم من فتوحاتهم ذهباً وفضة وعلى الاسراع فى توزيعها بين المسلمين . وكان أبو بكر وعلى لا يقلان عن عمر فى الزهد بالمال وتقسيمه بين الناس بالعدل

كان العرب قبل الاسلام يتعاملون بالنقود الكسروية والرومية من الدراهم والدنانير وبقى هذا حالهم إلى عهد عمر فضرب الدرهم وجعل وزنه من الفضة أربعة عشر قيراطاً من قراريط المثقال العشرين ، فكانت كل عشرة دراهم من دراهمه تزن سبعة مثاقيل ؛ ثم ضرب دراهم أخرى جعل وزن الواحد منها اثنى عشر قيراطاً . وكان يضربها على نقش الدراهم الكسروية ويزيد فى بعضها عبارات اسلامية كعبارة التوحيد أو عبارة الحمدلة . وضرب بعده عثمان دراهم نقش عليها عبارة التكبير . وحذا الخلفاء والامراء حذوهما فضربوا الدراهم والدنانير بعبارات وأوزان مختلفة . وكان أعظم الذين ضربوا النقود معاوية وعبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان ويزيد بن عبد الملك وغيرهم . وانما كان عبد الملك بن مروان أول من ضرب الدنانير الاسلامية الصرفة بدون نقوش كسروية ، فكان وزن ديناره يتراوح من أربعة غرامات وخمس الغرام إلى أربعة غرامات وثلثى الغرام ، فهو بذلك يقارب نصف الجنيه الانكليزى الذى وزنه أربعة غرامات وربع الغرام من الذهب . وأما الدرهم الفضى فكان وزنه أقل من ثلاثة غرامات ، وأكثر عبد الملك من ضرب هذه النقود العربية فى أيامه فى الشام ومصر والعراق ، وانتشر استعمالها فاستغنى العرب بها عن نقود الروم والفرس ، وصار للعرب نقود خاصة بدولتهم تم بها استقلالها المالى

فارس الخورى

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

ديباجة الكتاب

أهديتُ الى الأديب الكبير الأستاذ (خليل مردم بك) مائة نقلة من (نقل (١) الأديب) فأعطاني — وهو السخيّ السريّ — هذه اللؤلؤة العُمَانية أو الكلمة المردمية

كالروض مؤتلقاً بحمرة نَوره ،

وبياض زهرته ، وخضرة عشبه

وكأنها - والسمع معقود بها -

شخصُ الحبيب بدا لعين محبه (٢)

بل هي فوق القول البحتري ووصفه وأفسحرٌ هذا ، أم هو كلام روحاني ؟ !

قال (الخليل) — وقوله ديباجة الكتاب (٣) — :

« كنت أحسب أنّ هدية الأستاذ (نقل) كاسمها فاذا هيَ سحرٌ وخمرٌ ونقل ؛ وذلك أن عنوانها يستدرج القارىء ويوهمه أنه نقل فكه ليس غير ، وهذا لعمرى أول أبواب السحر ، فاذا جاز هذا الباب (أو جازت عليه تلك الحيلة) وجد نفسه في روضة فردوسيّة بين أقداح ونقل ؛ فالنقلة تغرى بالقدح ، والقدح يستدعي النقلة ، وهكذا دواليك حتى تستخفّه نشوة الطرب وتتلاعب بنفسه وله :

سقونى وقالوا : لا تغنّ ، ولو سقوا

جبال حنين ما سقونى لغنّتِ

فياليت شعرى كيف يستجيز من حرّم الصهباء على نفسه أن يغويَ الناس بالخمر ، ويفتنهم بالسحر ؟ »

°°°

١ — هذا بلاغ للناس

سئل على بن عيسى الرمّانى فقيل له : لكل كتاب ترجمة (١) فما ترجمة كتاب الله ؟

فقال : « هذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ »

٢ — النيل

الأندلسى :

ما أعجبَ النيل ، ما أحلى شمائله !

في ضفتيه من الأشجار أدواح

من جنة الخلد فيّاض على ترع

تهب فيها هبوب الريح أرواح

ليست زيادته ماء كما زعموا وانما هى أرزاق وأرباح

٣ — بقية السحر في مصر

ابن المغربى :

أيا ساكنى مصر ، غدا النيل جاركم

فاكسبكم تلك الحلاوة فى الشعر

وكان بتلك الأرض سحر وما بقى

سوى أثر يبدو على النظم والنثر

٤ — الهرمان نهدان

الشهاب الحجازى :

يا هرمَى مصر لقد حسّنتما رباها

عروس حسن قد غدت وأنتما نهداها

٥ — مراتب الكلام

أبو هلال العسكرى فى (الصناعتين) :

لكل مقام مقال ، وربما غلب سوء الرأى وقلة العقل على بعض علماء العربية فيخاطبون السوقى والمملوك والأعجمى بألفاظ أهل نجد ومعانى أهل السَّراة (٢) ؛ لأن العامى اذا كلمته

---

(١) النقل ما يتنقّل (أو يتقل) به على الشراب وهو بضم النون (أو فتحها) وتسكين القاف كما فى اللسان والأساس ، وبفتح النون والقاف كما فى الجمهرة . وضم النون وتسكين القاف « هو الذى اقتصر عليه الجوهرى واشتهر على ألسنة العامة » كما فى التاج .

(٢) البحترى

(٣) ديباجة الكتاب : خطبته ، فاتحته ، مقدمته

(١) يريد بترجمة الكتاب العنوان الذى يفسر مقصده ، وترجمة الكتاب فاتحته

(٢) السراة جبل بناحية الطائف . قال ابن السكيت : الطود المشرف على

بكلام العِلْيَة سخر منك ، وزرى عليك كما روى عن بعضهم انه قال لبعض العامة : بِمَ كنتم تتقلون البارحة ؟ (يعنى على النبيذ)

فقال : بالحالين . . .

ولو قال له : أى شىء كان نقلكم لسلم من سخريته . فيجب أن يخاطب كل فريق بما يعرفون ، ويتجنب ما يجهلون.

٦ — فى هذا مرة وفى هذا مرة

عن أبى بكرة : كنت عند النبى (صلوات الله عليه) وعنده أعرابى ينشده الشعر . فقلت : يا رسول الله ، أشعرا أم قرآناً ؟

فقال : فى هذا مرة ، وفى هذا مرة . . .

٧ — ظرف الدهر

فى تاريخ بغداد لابن الخطيب : حدث النضر بن حديد قال : كنا فى مجلس وفيه أبو العتاهية والعباس بن الأحنف وبكر بن النطاح ومنصور النمرى والعتابى ، فقالوا لمنصور : أنشدنا ؛ فأنشد مدائح الرشيد ؛ فقال أبو العتاهية لابن الأحنف : طرِّفنا بملحك [1] فأنشد أبياته :

تعلمت ألوان الرضا خوف عتبه | وعلمه حبى له كيف يغضب
ولى غير وجه قد عرفت مكانه | ولكن بلا قلب إلى أين أذهب؟

فقال أبو العتاهية : الجيوب من هذا الشعر على خطر ، ولا سيما إن سنح بين حلق ووتر . فقال بكر : قد حضرنى شى فى هذا فأنشد :

أرانا معشر الشعراء قوماً | بألسننا تنعمت القلوب
إذا انبعثت قرائحنا أتينا | بألفاظ تشق لها الجيوب

فقال العتابى :

ولا سيما إذا ما هيجتها | بنان قد تجيب وتستجيب [2]

قال النضر : فما زلت معهم فى سرور . وبلغ اسحق الموصلى خبرنا فقال : اجتماع هؤلاء ظَرْف الدهر

٨ — أمسلم هو ؟

فى (لسان الميزان) : مما يذكر من سرعة جواب المتنبى وقوة استحضاره أنه حضر مجلس الوزير ابن خنزابة وفيه أبو على الآمدى الأديب المشهور فأنشد المتنبى أبياتاً جاء فيها :

إنما التهنآت للأكفاء

فقال أبو على : التهنئة مصدر ، والمصدر لا يجمع . فقال المتنبى لآخر بجنبه : أمسلم هو ؟

فقال سبحان الله ! هذا أستاذ الجماعة أبو على الآمدى

قال : فاذا صلى المسلم وتشهد أليس يقول : (التحيات)

قال : فخجل أبو على وقام

٩ — لا ندعه يبرد

قيل لأعرابى : ما تسمون المرق ؟

قال : السخين

قال : فاذا برد ؟

قال : لا ندعه يبرد

١٠ — هل رأيت أحداً يهب ولده

قال جحظة : قال على بن الجهم لخالد الكاتب : هبْ لى بيتك الذى تقول فيه

ليت ما أصبح من رقة (م) خديك بقلبـــك

فقال : يا جاهل هل رأيت أحداً يهب ولده ؟ !

١١ — لئلا يرى فى عينها منة الكحل

أبو النصر الزورنى :

ولا أقبل الدنيا جميعاً بمنة | ولا أشترى عز المراتب بالذل
وأعشق كحلاء المدامع خلقة | لئلا يرى فى عينها منّة الكحل

١٢ — وهو ميروس عند الجمهور

فى (الكلم الروحانية) : سئل ديوجانس عن أشعر اليونانيين فقال : كل واحد عند نفسه ، وهو ميروس عند الجمهور

محمد اسعاف النشاشيبى

عرفة ينقاد إلى صنعاء يقال له السراة فاوله سراة ثقيف ثم سراة فهم وعدوان ثم الازد ثم الحرة آخر ذلك

(١) الذى فى كتب اللغة مثل اللسان والتاج اطرفنه كذا ، ولطرف معان أخر فيها

(٢) سيا قد تخفف

الديمقراطية

تساوى الفرص لا تساوى الأنصبة

للأستاذ أديب عباسي

ليس بين مسائل الاجتماع ما يسيء جمهور الناس فهمه ويخطئون دلالته كما يسيئون معنى الديمقراطية الصحيح فى مختلف مناحيها ونواحى تطبيقها على شؤون الحياة والاجتماع. فهى فى رأى قوم تحلل من قيود الاجتماع وخروج على كل عرف وعادة؛ وعند قوم غيرهم هى قسمة عادلة وملك مشاع لكل ما بيد الناس من متاع تالد ومال طريف؛ وعند فئة أخرى لا يكاد يعدو معنى الديمقراطية نطاق السياسة ومجال الحكومة، بل هذا المعنى الأخير للديمقراطية يكاد اليوم يطغى على كل معنى سواه، وذلك لكثرة ما يحمل محامل السياسة ويورد مواردها العديدة فى هذه الأيام.

أما أن الديمقراطية بمعناها الأعم ودلالتها الأدق ليست على الحصر هذا ولا ذاك مما مر، فشيء يحتاج إلى بعض البسط والبيان؛ فليست الديمقراطية انطلاق النفوس على سجاياها فلا قيود تراعى ولا حدود تلتزم، ولا هى تعنى تسليط النوكى والكسالى على جهد المجدين فينالون منه ويصيبون مثل ما يصيب المجد بالعرق الصبيب والجهد الدؤوب؛ ولا هى تحصر فى نطاق السياسة الضيق وإن وسعته الجرائد وضخمه الساسة. ليست الديمقراطية بمعناها الأدق أمراً من هذه الأمور، وإنما هى بدلالتها الصحيحة ومعناها العام تيسير على الناس وتهيئة لهم ليقفوا من فرص الحياة المتاحة موقفاً عادلا فيشتركوا شركة متساوية فى هذه الفرص المتاحة لا فى الأنصبة المحققة ونتائج الجهد المبذول.

وبعبارة أخرى تكون الديمقراطية ديمقراطية المثل الاعلى اذا انصرفت الى تهيئة الأسباب وتيسير السبل التى تجعل كل فرد من أفراد الأمة ينال على قدر استعداده وكفايته من فرص النجاح ووسائل التوفيق. واذا شبهنا الحياة بميدان للسباق فالديمقراطية الصحيحة أن ينطلق المتبارون من نقطة واحدة بعد أن يعدوا إعداداً عادلا لهذا السباق، لا أن يكبل البعض أو يحجز عن السباق أو يترك بلا اعداد ثم يحاسب على تخلفه ويلام على ابطائه!

وإذاً فالديمقراطية الصادقة هي ديمقراطية التيسير على الناس لاظهار كفاياتهم واقتدارهم الموهوب والمكسوب. وكل ما يؤدى إلى هذه النتيجة الأخيرة فهو فى صميم الديمقراطية الحق، وكل ما يؤدى الى عكسها فليس من الديمقراطية فى شيء. وفيما يلى شرح لوسائل تيسير الديمقراطية على النحو الذى عرفناها به.

وفى أول هذه الوسائل بل أولها أن يعم التعليم وينتظم التثقيف جميع أفراد الأمة، ثم يسار فيه على نهج واضح من الاختصاص والإفراد. وعموم التعليم يجيء فى أول وسائل الديمقراطية لأن عصرنا هذا عصر العلم والسرعة والاقتصاد، لا نجاح فيه مضمون إلا لمن توسل للنجاح فيه بوسائل من علم يتقن أو فن يكتسب. والأوربيون على أتم الادراك لهذه الحقيقة فتراهم لا يألون جهداً ولا يدخرون وسعاً فى تعميم التعليم وتيسيره بحيث ينتظم جميع أفراد الأمة ويصيب كل منه على قدر استعداده وكفايته. وهم يبالغون ويشددون فى هذا التعميم والتيسير فلا يكتفون أن يعدوا وسائل العلم والتثقيف ويتركوا أمر اكتسابها لاختيار الجمهور وهوى الأفراد، بل تراهم يفرضون العلم والثقافة فرضاً على جميع أفراد الأمة فلا يستطيع أحد أن يستمر على أمية أو يمضى فى جهل حتى لو أراده. والاوربيون بعد لا يكتفون بأن يعمموا التعليم ويفرضوه على جميع الافراد، بل تراهم ينوعون العلم ويعددون فروع الاختصاص حتى يصيب كل فرد من العلم ووسائل النجاح ما يتلاءم وكفاياته الخاصة ومواهبه الموروثة. وهذا هو الذى من أجله تفتح الجامعات ودور الفن الخاصة حيث يستطيع كل فرد أن ينال من العلم والفن كما وكيفاً خير ما يستطاع نيله. على أن حرص ذوى الشأن هناك على استغلال كفايات الأفراد أحسن استغلال لا يدعهم يتركون الأفراد وهواهم واختيارهم لما يشاءون من العلم والفن

بل تراهم فى كثير من الأحوال يتدخلون فى حرية الأفراد ويحددون اختيارهم ويربّطون بنوع أبرز كفاياتهم ، فترى المربين وعلماء النفس يتوسلون باختبارات الذكاء العام والخاص ، ليدركوا مبلغ قابلية الفرد للعلم وليدركوا فى أى نواحى المعرفة والمهارة يستطيع أن يجيد ويبرز نسبياً أو إطلاقا ، ثم يدفعونه فى ناحية أبرز كفاياته ، فتكون النتيجة خيراً له ولقومه

ولا يكتفى أولو الشأن هناك بأعداد الفرد أحسن الاعداد وتزويده بأحسن زاد من العلم والخبرة ، بل تراهم يزيلون من طريقه الكثير من العثرات والعقبات المصطنعة غير الطبيعية ؛ فلا مذهب سياسى ولا عقيدة دينية ولا منزلة اجتماعية ولا نفوذ شخصى يمعط فرداً فرصة من النجاح لا تؤهله لها كفاياته على وجه الدقة أو التقريب . هذا ولسنا نزعم أن جميع الدول الأوربية بلغت من فهم الديمقراطية وتطبيقها هـذا المبلغ ، وانما الذى نزعمه أن معظم هذه الدول الأوروبية تفهم الديمقراطية هذا الفهم ويسعى مخلصا لتطبيقها ، ومن هذه الدول من بلغت شأواً بعيداً فى التطبيق .

ولا يقف الأوربيون من تحقيق الديمقراطية عند هذا الحد الذى شرحنا ، بل تراهم يبذلون قصارى الجهد ليهيئوا لجميع أفراد الشعب جواً روحياً متقارباً لا فى دور التعليم وحسب ، بل فى كل مرحلة أخرى من مراحل الحياة . فترى الحكومات الأوروبية تبذل الجهود الكبيرة والأموال الوفيرة لانشاء الحدائق العامة ودور التمثيل والسينما والمكتبات العامة وخلافها من المؤسسات الاجتماعية الروحية ، فلا يكون ميسوراً لافراد دون أفراد سبيل الاستمتاع بما تيسره هذه المؤسسات من متع روحية غالية .

ويدرك الأوربيون العلاقة الوثيقة بين صحة الجسم وبين صحة الفهم وجودة الانتاج ، فترى الحكومات والجماعات غير الحكومية تبذل أقصى الجهد لانشاء الأطفال نشأة صحيحة سليمة ، ولا نزعم هنا أنهم بلغوا المثل الأعلى فى هذا الشأن وانما نزعم أنهم ساروا شوطاً بعيداً فى تحقيق هذا المثل ولا زالوا يسعون ليصلوا نهاية الأمد .

هذا ومعظم الدول الأوربية تسعى للمباعدة بين الأفراد وبين روح الاتكال ، وللضنّ ببذل الجهد أركاناً إلى ثروة تُورّث أو مال يأتى عن غير طريق السعى والعمل ، فتراها تقتطع لنفسها من أموال الارث مبالغ طائلة ، فتقلّل بذلك من روح الاتكال فى الأفراد الوارثين ، وتبذل هذا المال المقتطع فى تيسير الكثير من أسباب الثقافة والاستمتاع والصحة لمن تعوزه إليها الوسيلة

وليس هذا كل ما يفضى إليه فهم الديمقراطية وتطبيقها على النحو الذى أبنا فى أول هذا المقال ، فممّا لا ريب فيه أن الديمقراطية التى تفهم هذا الفهم وتطبق هـذا التطبيق تكون الوسيلة التى ليس فوقها وسيلة لتحسين أنواع الانتاج المختلفة كما وكيفاً ، ولبث روح الرضى والاطمئنان فى نفوس الجمهور إذ ليس فى الحق أبعث على الرضى فى نفوس الأفراد من شعورهم بأنهم يعملون فى أحسن ما أُعدّوا له من عمل ، وأن الحكومة والهيئة الاجتماعية قد أعدتا لهم أحسن الوسائل الحسية والفكرية والروحية لتوجيه كفاياتهم فى خير وجهاتها ثم الانتفاع من هـذه الكفايات بإبرازها قوية واضحة أحسن الانتفاع

أديب عباسى

تلخيص وتعليق

أسبوع الجاحظ (*)

لمندوب الرسالة

أتينا فى الرسالة (١٩٥) على خلاصة ما قيل فى اليوم الأول من أسبوع الجاحظ الذى قامت به كلية الآداب ، وقد كان هذا غاية ما أدركته الرسالة وهى تحت الطبع ، ونعود فنقدم إلى قرائنا إجمال ماقيل فى الأيام التى تعاقبت بعد ذلك

اليوم الثانى

كان القول فى هذا اليوم للأستاذين : أمين الخولى ، وعبدالوهاب حمودة ، وكان على الأول أن يقول فى منهج التفكير عند الجاحظ ، وكان على الثانى أن يقول فى أسلوب الجاحظ

وقد ابتدأ الأستاذ الخولى كلامه فقال : يقتضينا منهج البحث والتفكير – ونحن نتكلم عن منهج الجاحظ فى التفكير أن نعرف هل كان الجاحظ يقول بالمعرفة أم كان سوفسطائياً ، لأنه كان يقول بالشىء وضده . والحق أنه كان يقول بالمعرفة ويتهجها ، وله فى ذلك من الآثار كتاب المعرفة وكتاب الجوابات وغيرهامن الكتب التى لم تصلنا ، إلا أن موضوعاتها تدل على أن الرجل كان من القائلين بالمعرفة . قال الأستاذ : وطريق المعرفة عند الجاحظ للحواس والعقل على اتهام للحواس واطمئنان للعقل ، ولا شك أن الجاحظ كان له فى الدين والأدب والحيوان وكثير من النواحى ، وكان له في كل ناحية من هذه منهج تفكير ينتهجه ، فهل كان فى كل منهج منها على حظ واحد من الاجادة ودرجة متفقة فى السير ؟ إننا نرى أنه كان فى كل مناهج تفكيره متكلما أكثر منه أى شىء آخر ، فقد كان الرجل من علماء الكلام ، وكان يتخذ الكلام صناعة وتلك كانت شنشنة المعتزلة فإنهم أهل جدل وكلام ومناظرة ، وقد أخذ الجاحظ منهجهم واحتذاهم ، وقد أمعن فى ذلك حتى طغى منهجه الكلامى على تفكيره الأدبى . فكان يحفل بالجدل ويعنى باختلافات القوم يسردها وينقدها . ثم عرض لمذهب الرجل فى الصدق والكذب وقال : أنه كان يحتج للشىء وضده تطبيقاً على رأيه فى الصدق ! !

وتكلم على منهجه فى الرواية فاورد كلامه فى كتاب الحيوان عن اصطناع الكتب ثم قال : ومنهج الجاحظ فى ذلك مبنى على العيان والخبر ، ولكنه ينقد ماوصل إليه من الأخبار ويرده إلى اليقين العقلى كما انتقد الخطبة المنسوبة لمعاوية (١)..

وأتى بعد ذلك على منهجه النظرى فقال : إنه كان يحترم العقل ولكنه مع ذلك لا يرى أنه يكفى لسعادة الناس فى دينهم ودنياهم ؛ ثم هو يحترم أشياء قد جاءت على غير النهج العقلى وإنما هى نظرية سماعية كخلق عيسى وحواء وغير ذلك . وكان يرى أن الشرع انما جاء حاداً للعقل . وكان الجاحظ يشك فلسفيا ولكنه شك المتكلم يكتفى بالظواهر والمظاهر لأنه يعتد بعقله ويحترمه

قال : وكان الجاحظ يأخذ بالمنهج التجريبى ولكن منهجه فى ذلك كان ناقصا ؛ ثم عرض لنظريته فى المشابهة بين الانسان والقرد ، وقارن ذلك بنظرية « دارون » ليظهر الفرق بين التجربة الناقصه والتجربة الكاملة الممحصة . وضاق الوقت عن أن يتكلم الأستاذ فى منهج الجاحظ الفنى فاعتذر وقد ختم كلامه بقوله : إن منهجنا فى تكريم الجاحظ منهج ناقص ، لأن آثار الرجل لم تصلنا كاملة ، فلعلنا نعمل على اخراج آثاره للناس ، فبذلك نكون قد كرمنا الجاحظ حقا وذكرناه وانتفعنا به

وقام من بعده الأستاذ حمودة فقال : إن أسلوب الجاحظ مرآة نفسه وحسه ، وصورة عقله ومزاجه ، وقد عرف الجاحظ فى أسلوبه بخصائص لم يسبق اليها ، منها : مزج الفكاهة بالجد ، والبرهان المقنع بالتهكم الموجع ، وسبب ذلك دمامة شكله ، فإن أهل الدمامة قوم تشيع فيهم الدعابة ؛ واستدل على ذلك بما كان من حافظ وإمام العبد ونظير وأضرابهم . ثم تطرق الى دعابة الجاحظ فى شىء من البسط والإفاضة ثم قال : وكان الجاحظ يتخذ التهكم أسلوبا من أساليب النقد والاقناع ، ورسالة التربيع والتدوير نمط من ذلك ، وبعد أن قرأ الأستاذ فقرات من هذه الرسالة قال : وكثير من المتأدبين يحسبون أن ابن زيدون هو أول من اتخذ الأسلوب التهكمى فى رسالته الهزلية

(*) علمنا أن كلية الآداب قررت طبع هذه المحاضرات فى كتاب خاص كما قررت من قبل ذلك طبع محاضراتها فى المتنبى ، ولذلك لم تعط نسخها للصحف

(١) هذه الخطبة فى البيان والتبيين وقد قال الجاحظ إنها بخطب الامام على أشبه

الى ابن عبد وس، وانما هو تلميذ الجاحظ فى ذلك ، على أن فنه أشبه بالهجاء وأبعد من التهكم والسخر

ثم وازن بين الجاحظ وبين ابن المقفع فقال : ان ابن المقفع حكيم يستمد حكمته من نفسه ؛ فتجربة الدنيا هى التى كانت تملى عليه ما يكتب ، ولكن الجاحظ كان ينهج نهج من درس خطابة أرسطو فتأثر بها الى حد بعيد [1] ، ومن المشابهة بينه وبين أصحاب الخطابة فى الأسلوب استعماله القياس المضمر وهو ماعرف عند البديعين بالمذهب الكلامى ؛ وقد كان الجاحظ أول من قال بهذا المذهب واستخدمه وأنكر وجوده فى القرآن وتابعه ابن المعتز ورد عليه ابن أبى الأصبع ... قال وانما أخذ الجاحظ ذلك من كتاب الخطابة لأرسطو . وهناك دلالة قوية تدل على أن الجاحظ قد انتفع بكتاب الخطابة ، ولكن هناك يعترضنا سؤال وهو أن الجاحظ قد أنكر أن لليونانيين خطابة ، والجواب : أن الجاحظ حينما قال ذلك قاله وهو يرد على الشعوبية الذين كانوا يقولون إن الخطابة عند كل الأمم، تنقصا للعرب ، فموقف الرد هو الذى ألجأه الى ذلك الانكار . والجواب الثانى أنه لم يطلع على نصوص خطابية لليونانيين ، والثالث أنه انتقد التراجم والمترجمين لليونانية وانتقد على الخصوص ، كتاب المنطق بأنه قرأه فى أسلوب سقيم مترجم !!

فالجاحظ لا شك قد تأثر بكتاب الخطابة لأرسطو كثيراً ومنطقه ، وليس كتاب البيان والتبيين الا صدى لذلك الكتاب . وكان الجاحظ على طريقة أهل الخطابة يستخدم التمثيل اذا أحوجه الدليل وأعوزته الحجة ؛ ومن ذلك ما كان فى رسالته تفضيل السودان على البيضان . . . ثم قال : ومن خصائص الجاحظ : قصر الفقرات والازدواج ، وتعمد السجع دون أن يتكلفه ، وكذلك الافتنان فى الأسلوب ، والتنقل ، والاستطراد ، والتقصى للمعنى حتى لا يترك فيه بقية . أما الخصائص التى يشركه فيها غيره ، فالسهولة والسجع وما الى ذلك من خصائص الكتابة الشائعة فى ذلك العصر .

وبعد ، فاسلوب الجاحظ نتاج عقله وفكره أكثر منه نتاجا لروحه وعاطفته ؛ هذا فى رسائله العامة ، أما فى كتاباته الخاصة فقد كان يقصد الى التنميق والتزويق ، ويحفل بالديباجة المشرقة ، ويعتد بالشواهد والأمثال يقحمها فى ثنايا كلامه

[1] نخالف الأستاذ الفاضل فى هذا الرأى ونعتقد أن ابن المقفع أكثر تأثرا من الجاحظ بالثقافة الفارسية واليونانية ، وقد كانت كل حكمته أو جلها من ذلك المعين

اليوم الثالث

وفى اليوم الثالث تكلم الأديبان شوقى ضيف وعبد اللطيف حمزة ؛ فتكلم الأول عن الجاحظ بين النقد والبلاغة فقال : لقد كانت مكانة الجاحظ فى ذلك كمكانة أرسطو فى الخطابة عند اليونانيين ، وكان الجاحظ لا يكتب للخاصة فكان يعرف أن كتاباته فى حاجة شديدة إلى التوابل لتقريبها لأذهان الجمهور .

ثم قال : والنقد لم يبدأ كفن إلا فى العصر الأموى ؛ وقد كانت الشعوبية هى أول حافز على النقد لأنها كانت حركة هدامة تشك فى كل شئ ، وكانت تشك فى بلاغة الأدب العربى ، والشك فى بلاغة الأدب العربى شك فى بلاغة القرآن !

ثم جاءت بعد ذلك بيئة الأدباء واللغويين فى المزبد وغيره من أندية الثقافة فأدوا كثيراً فى خدمة النقد والبلاغة ، وقد اتصل الجاحظ بكل هذه البيئات وأخذ عنهم . ونحن يصعب علينا أن نحدد ما للرجل فى ذلك وأن نميز أقواله من الأقوال التى اقتبسها

ومهما يكن من شيء فالجاحظ قد فصل الأدب عن الأخلاق وروى كثيرا من الأدب العارى . وكان يطلب من الكتاب أن يتثقفوا ولكنه لم يطلب من الشعراء ذلك . والحق أن الجاحظ كان ناقدا ممتازا ، وكانت له طبيعة فى ذلك ؛ وكان حر الرأى فلم يقدم القديم لقدمه ، ولم يرفض الحديث لحداثته . وكان عربيا ولكنه كان يحترم شعراء الشعوبية ويقدمهم فمدح بشارا وأبا نواس وأمثالهم . ولقد كان الجاحظ بآرائه حرياً بان يخلق من حوله حركة أدبية حافلة لو أن النقاد تابعوه ، ولكنهم انصرفوا عن ذلك واكتفوا بنقد النصوص نقدا لفظياً نحوياً ولغوياً

وليس كتاب البيان والتبيين فيما أرى صدى لخطابة أرسطو [1] وأنا لا أشك فى أن الجاحظ لم يره ، وما ذكره

[1] هو هنا يرد على الأستاذ حوفة ولكنه لم يمس حجته بالتفنيد

ابن النديم لا يفيد ذلك ، وإن كان العرب قد وقفوا على شيء من الثقافة اليونانية والجاحظ لم يكن من رجال المنطق . وقد عابه قدامة بانه لم يذكر أقسام البيان !!

وقد أثرت آراء الجاحظ فيمن جاء بعده [1] ، ولعل أهم هذه الآراء مسألة اللفظ والمعنى ، وقد أطال الجاحظ القول فى هذه المسألة وهى عنده قبل كل شيء مسألة دينية لاتصالها ببلاغة القرآن . وقد أسقط الجاحظ قيمة المعنى وجعل اللفظ هو كل شيء ؛ وقال إن المعانى مطروحة فى الطريق لكل الناس يلتقطها العامى وغيره . وقد فتن العلماء بعد الجاحظ بهذا الرأى ووافقوه عليه . وقلما نجد فيهم واحدا اهتم بالمعنى والبحث فيه ، بل إنهم أسقطوا المعنى ولم يروا له فضلا [2] !!

ومن بعد ذلك أخذ الأديب عبد اللطيف حمزة فى الكلام عن « الجاحظ المعتزلى » فابتدأ القول فى نشأة الاعتزال ، فعرض لحركة الحسن البصرى فى مسجد البصرة وما كان بينه وبين واصل ، ثم قال : ومضت الدولة الأموية ، وأتت من بعدها العباسية ، وجاء الفرس بمزاياهم وبيلاياهم ، وأقول بيلاياهم لأنهم جاؤوا بالالحاد والزندقة ورفعوا لواء الشعوبية ، ولاشك أن المعتزلة هم الذين استطاعوا أن يردوا هجمات الفرس وأن يكبتوا الشعوبيين لأنهم تدرعوا لذلك بالنقل والعقل والفلسفة والكلام ، فكان المعتزلة قوة كبيرة تجاه الزنادقة والملاحدة .

وبعد أن أورد الأصول المعتبرة عند المعتزلة وشرحها وحدد العلاقة بينها وبين غيرها من الفرق قال : وكان للمعتزلة مدرستان ، واحدة فى البصرة ، والأخرى بالكوفة ، وقد كان من أقطاب الاولى النظام ثم تلميذه الجاحظ ، وكان المعتزلة على مقتضى تعاليمهم يتوارثون حرية الفكر ، فهم ولا شك جماعة أحرار الفكر كما يسميهم المستشرقون . وكان يطلق على كل اتباع رجل منهم اسم هذا الرجل فيقال النظامية لاتباع النظام ، والجاحظية لاتباع الجاحظ ، ولقد كان لهم بحكم مهمتهم فى كل ناحية من نواحى الفكر ، فكانت حركتهم - كما يقول الأستاذ أحمد أمين - إرهاصاً لحركة فلسفية منظمة تولاها الكندى والفارابى وابن سينا وأشكالهم .

ولقد أخذ الجاحظ عن المعتزلة جميع مزاياهم ، وكان بوقاً عظيماً لآرائهم يذيعها فى الناس ويشرحها وقد ينتقدها ، ثم أشار إلى آثاره فى ذلك فقال : إن أكثر رسائله قد ضاعت فى أجواء العصور الخالية ، وقد وصلنا بعض نصوص تدلنا على أن الجاحظ كسائر المعتزلة يطعن على أهل الحديث الحشويين . وله رسالة فى مدح النبى ورسالة فى الاحتجاج للنبوة ، ورسائل أخرى فى الرد على اليهود والنصارى والرافضة وقد كانوا أعدى أعداء المعتزلة . ثم له رسالة فى فضيلة المعتزلة رد عليها ابن الراوندى برسالة سماها فضيحة المعتزلة وهى التى عنى بدحضها ابن الخياط فى الانتصار

ولكن مهما قيل فى الجاحظ المعتزلى وأخذه بحرية الرأى لابد أن يكون له نظر فى حرية الارادة وهى مسألة المسائل بين علماء الكلام ومبعث الخلاف بين الفرق المختلفة ، وقد كان الجاحظ كما عرفنا معتزليا شديد الاخلاص لفرقته . وأكبر الظن أن الرجل قد وجد حلا لهذه المسألة فى نظرية الطبيعيات . والظاهر أن الجاحظ قد طبق هذه النظرية على العالم الاخروى ، وقد حمله هذا على الكلام فى مسالة المعارف أو المدركات على أن مسألة الطبيعيات لم تكن من ابتداع الجاحظ ولكنه شرحها وبسطها وطبقها ، وإنما هى لاستاذه النظام ؛ وقد جاءت هذه النظرية عند بعض الفرق الاخرى ، حتى نظرية العوارف التى أشرنا إليها قد انتهج الجاحظ فيها نهج أرسطو ، فالمظاهر التى يتجلى فيها اعتزال الجاحظ تبدو فى تعصبه للمعتزلة والدفاع عن آرائهم والاشادة بفضلهم ، وخصوصاً بفضل أستاذه النظام ، ثم فى الاشياء التى عرف بها وخاصة رأيه فى حرية الارادة ، وأخذه بحرية الفكر إلى أبعد حد ، فإن الدولة كانت لاتشجع على حرية الرأى لغير المعتزلة [1] ، ومن ثم نعرف أن الجاحظ لم يصف كثيرا لآراء المعتزلة ؛ ولكنه تولاها بالشرح والاذاعة.

(البقية فى العدد القادم) م . ف . ع

(١) أنظر تجد الأستاذ قد ناقض نفسه فينا يقول إن النقاد لم يتابعوا الجاحظ ثاد يقول إن آراءه قد أثرت فيمن جاء بعده وهذا الرأى هو ما نراه

(٢) الظاهر أن الأستاذ قد تأثر كثيرا مما كتبه الدكتور طه فى تقدمة نقد النثر ، والواقع أن قضية اللفظ والمعنى كانت من القضايا التى طال فيها جدال النقاد ، فاعتد بعضهم باللفظ واعتد بعضهم بالمعنى واعتد بعضهم بالاثنين معاً

(١) الذي نعرفه أن حرية الرأى كانت مكفولة لكل إنسان حتى وسعت ابن الراوندى فى مباذله وصحافاته ، وقد كان رجلا متقلبا يرتزق من الطعن فى الأديان وأهل الفرق . وكان يبيت مع اليهود ويصبح فى جانب النصارى

جولات في الأدب الفرنسي الحديث

تطور الحركة الأدبية
في فرنسا الحديثـــة

للأستاذ خليل هنداوي

النظرية الفنية للعقل – الرمزية

بينا أخذ المذهب الطبيعي يضمحل ثم ينتصر بعض أعوام في القصة . كان مذهب جديد يذر قرنه في عالم الشعر والفن . هذا هو مذهب شعراء وفنانين كانوا يزعمون أنهم لايعلمون الأدب كله ولكن تأثيره أخذ يمتد ، وحدوده بدأت تتسع ، حتى أصبح مذهب العقل والحياة الباطنة ، يؤثر في كل أشكال الفن ، ويعمل في كل حقول الفن . هذا مذهب « الرمزية » الذى نبتت أصوله عند الشاعر « بودلير » وكان تأثير « بودلير » آخذاً في الانتشار . ومن يجحد ماكان لبودلير من تأثير في شعراء « الرمزية » ولا سيا في الشعر الحديث الذى تهيمن عليه نفحات « بودلير » . وهذه الرمزية الخفية تولدت من آثار « فرلين » ومن آثار « رامبو »

بول فرلين PAUL - VERLAINE

إحساس فرلين ، خياله ، فنه ، تطوره (١)

احساس فرلين

لم يكن لفرلين خاصة معلومة من خواص العقل ، لأن حياته لم تكد تقاد بتأملات عقله وإنما بغرائزه وإحساسه ، ولم تكن لغرائزه من حاجة ولا غاية ، وإنما هو الكسل والاخلاد إلى الدعة وطلب اللذائذ التي شغلته حتى لقي حتفه متسمما بالكحول . أما احساسه فلم يكن عميقاً ولم يكن معقداً . فبيناهو ينظم أبياتاً عاطفية على المذهب الوجداني إذا به ينكر الهوى والتشاؤم العاطفي . ولم يكن يتحرى عن السمو فيا ينشده وكان يجهل الدركات التي تنحط فيها الانسانية في شدتها وفاقتها . يحب الحب ويترنم بالحب . وإذا لم ينشد اللذة البسيطة فهو لم ينشد أيضاً حب الأهواء . إن جد كان حلماً ، والغواني اللواتي أحببن كن أقرب إلى الأوهام . وهذه الأوهام كانت عنده ظلالا وأشباحا . أحلامه هي قلق خفيف يتولد من طفولته ، وإحساسه احساس بسيط سرعان مايسأم . يلبس حينا رداء الصدق وحينا رداء الكذب . فيه حياة وإبهام . وقد يكون أوجه وسطا لو لم تسم به المخيلة والفن

مخيلة فرلين

إن المخيلة الكلاسيكية والرومانتيكية هي التعبير عن المعاني بصور فهمها العقل وحللها ، ويقدر على تحليلها . أما مخيلة « فرلين » فقد كانت مخيلة صافية ، أي أنها كانت تأسرها الصورة دون أن تجرب أن تفهم معنى الصورة . والشاعر يحس أن الصورة لها معنى وأنها تعبير عن حالة في النفس . ولكن هذا التعبير ماهو إلا « مطابقة لها » ، إذ يصعب عليه أن يعبر عنها تعبيراً منطقيا . وهكذا تغدو المخيلة المحدودة بالمعايير المنطقية مخيلة تائهة شاردة . والاهواء الشاردة - عند فرلين - لاتغدو قاعدة أو مذهبا أدبيا . فان مخيلته الصبيانية تملك على أحلام صافية تعبر عن صور صافية . وتملك على أحلام أخرى يهيمن عليها نوع من النطق المشوش . وأحلام تلتحم مع افكار صافية لتضيعها ثم لتجدها . وهكذا يبدو على أسلوبه الخيالي سيماء الأسلوب المدرسي ، والأسلوب المتفكك . وليس لهذه المخيلة من قاعدة إلا الهوى والاختيار الباطني . هذا هو مذهب فرلين : إحساس متحرك صبياني يلتقي بسرعة مع مخيلة سريعة الالتقاط للأحلام المتبدلة . إذ يرى واجبه أن يعبر عن هذه الرسالات السرية المحسوسة بشدة وحدة . وهي تربط هذه الحركة بهذه الأوهام . وهذه الانعكاسات بهذه الأشباح ، يغمرها كلها ظلمة لايمشي فيها نور . لأن روحه الشقية وعبقريته يجدان فيها الراحة والحياة . وقد دأب فرلين على التأمل في الفن المدرسي وأصحاب هذا الفن ، ذاهبا متحريا عن الفن الذى يستطيع أن يعبر عن نفسه [illegible] طب نفسه به نفسه

فن فرلين

إن فرلين لم يبتكر كل شيء فقد تحرى شعراء قبله في أوقات مختلفة عن هذا الفن الرقيق ، وفرلين نفسه لم يجحد ما كان « لبودلير ومدام ديبـ[illegible] » من تأثير فيه . كما أنه تأثر بشعراء من الانجليز ، تلاهم ودرسهم يوم كان في انجلترا . على أن بودلير ومن ذهب مذهبه كانوا يحاولون أن يقرأهم الناس ويفهموهم . وكانوا — في الساعات التي تتكاثف معانيهم — يصونون الوضوح في التعبير والتركيب والنحو . أما فرلين فقد ذهب غير هذا المذهب إذ أراد أن يكون إنشاؤه خفيا ، وأراد أن يضع حجابا على لغته وأوزانه التي تعبر عن حالات نفسه الخفية ، وبهذا تراه - من أجل غايته هذه - خرق كثيراً من القواعد . فانت ترى بعض عباراته

---

(١) سبق لنا فصل عن « فرلين » نشر في الرسالة

تقارب وتلاحق ـ غنية عن عناء المنطق ـ بنغمة باطنية من الهوى الذى يغمرها . وحركتها لاتكون إلا إيقاعاً موسيقياً لايجد فيها الاعراب أسباب جملة صحيحة . وإنما هى جمل موسيقية لا جمل منطقية ؛ على أن عبقرية ڤرلين تتجلى فى أنه عمل على إيجاد أوزان باطنية موسيقية للتعبير عن خطرات النفس الباطنة تحل محل الأوزان الظاهرة وقد كانت عاطفته فى ذاك دقيقة مرهفة ، وذوقه عميقا فى انتقاء الألحان الملائمة المنسجمة التى تعبر عن المعانى ، وإنك لتجد شعره ـ سواء كان صافيا أو مبهما ـ يبدو كأنه يتجرد من كل معنى . وينتهى من وصوله إلى العقل حتى ينسكب فى رعشات أحساسنا الرقيقة

تطور ڤرلين

لقد كان « ڤرلين » منذ بدء حياته الشعرية هدفا لأطوار متباينة ، ولقد يكون انتقاله من طريق المذاهب المدرسية أقل حركة لو لم يتصل « بالشاعر رامبو » الذى كان تاثيره فيه تأثيراً عميقا . وقد اتصل به ڤرلين اتصالا وثيقا طوال سبعة عشر عاما . وهو الذى أوحى إليه بأن يزدرى هذه الحياة « العاقلة » والفن « العاقل » وهذه التأثيرات الرثة . وقد عكف « ڤرلين » على شرب الكحول حتى أرعشت قوته ، وطوت فتوته ، فانتابته الفاقة والشقاء والموت وأصبحت عبقريته الشعرية لاترسل إلا شعاعا . وأصبحت طريقته الموسيقية ، من عهد إلى عهد ـ تمتمة ضيقة الأنفاس

أرتور رامبو

نشأ « رامبو » نشأة شعرية ، وكتب مقاطيع مختلفة على أساليب مختلفة ، وقد حذا حذو « ليكونت دى ليل وبودلير وڤرلين قبيل عام ١٨٧٠ ولكن ، ثاره كانت تطغى عليها مخيلة محمومة ملتهبة تدفعه دائما إلى المجهول . وسرعان ماتلاشى عنده وجود العالم الحقيقى حتى أمسى عالما لمظاهر باطلة . إن الاحساس الحقيقى هو هو إحساس ابن صدفته وابن حادثه . . . هو الحجر المطروح فى الماء »

أما ماهو أكثر اعتباراً فهو تلك الرعشات المترجرجة فى الينبوع . هنالك حيث يبصر العقل العادى ـ على شاطئ قناة مظللة مصنعا للخمر ، يؤكد لنا « رامبو » بأنه يجد على ضفة نهر لامع معبداً ؛ هذه الأوهام هى حقيقة الوجود . « وماعسى يغدو الوجود إذا خرجت منه ؟ » إنه فى هذا الوجود لغربة طبيعية ، فى هذا الوجود الحقيقى وحده لايتقى للنطاق المفهوم إلا العمل . أما السحر الباطنى فله طرائقه التى لاتفهم ، ولكن الانسان يحسها ويتبعها بطريقة خفية وحاجة خفية كما هو الحال فى أجزاء خاتم غير متطابقة نراها طبيعية ضرورية . وإذا أردت الدخول فى عالم الشعر فلا تطلب ذلك العالم البالى السائم الكاذب محاولا أن تعبر عن عالم الظواهر العملية ، وإنما يجب أن تنادر هذا العالم وتفر منه إلى عالم جديد . فيه تفتح الحقيقة الشعرية والاحلام الحية . . . وقد وجد « رامبو » أن اللغة العادية عاجزة كل العجز عن التعبير عن هذه الحقيقة الوهمية ، فعمل على تنقيحها تنقيحاً فنيا ، فافترض لكل مقطع لونا وحركة ، وعمل لكل فعل معنى من معانى الشعر . وبذا تلونت الكلمات وأصبح لها أوقاع خاصة . . . والكلمة عنده أصبحت تتألف من ألحان يجب أن ينظر فى توقيعها الموسيقى لا فى معناها ، وهكذا أخذ شعر « رامبو » ينزاح من زمن إلى زمن عن تأثير الصور الواضحة والمنطق ، وأخذ يغدو كجوقة موسيقية للحلم الباطنى بفصل أصوات كلماته ورناتها .

المدرسة الرمزية[1]

نشأت مدرسة جديدة بتأثير « ڤرلين » و « رامبو » وفلسفة « شوبنهاور » وهذه المدرسة الجديدة اتخذت لها الرمزية اسما . وحقيقة أمر هذه المدرسة أنها نشأت ناقة على الشعر التقليدى عاملة على خلق شعر جديد . أما تعاليم هذه المدرسة فليست من الوضوح والترابط على شىء . وإذا شئنا أن نحلل معنى « الرمز » كما أرادوه لايصل بنا ذلك إلا إلى كلام لايغنى ؛ وإنما يفهم هذا الرمز ، ويفسر معناه العميق الحى من خلال آثار هذه المدرسة ونصوصها

وأما مذهبها العام فهو أن الشعر إنما هو تعبير عن الاحساس لا عن عقل الشاعر . وهو يتجه إلى إحساس القارىء . الشاعر يعروه إحساس ما فيعبر عنه بلغة عقله فيدركه القارىء بلغة عقله بعد أن يكلف إحساسه بالاهتزاز ؛ وفى هذه الأطوار نرى « التأثر » قد تغير وضعف وانعدم . إن الشعر الحقيقى ينبغى أن يكون اشتراكا مباشراً لاحساس مع إحساس . إذ يجب ألا يتوقف على عرضه والتحدث عنه وإنما يتوقف على « التلقين والايحاء » كالوتر يرن باللحن الذى يعطيه . . ويقول فى هذا المعرض الشاعر « هنرى دى رينى » « إن الشعر أصبح يهجر أساليبه الخطابية القديمة التى ارتداها طويلا . أصبح لايحلل شيئا وإنما يلقن ويوحى . . . » . ويقول مالارمى « إن تسميتك للشىء تذهب بثلاثة أرباع ارتياح الشاعر ، وذلك الارتياح الناشىء عن طربه بالتنبؤ عن الشىء قليلا قليلا ، إن التلقين هو الحلم »

(١) سبق لنا فصل عن المدرسة الرمزية نشر فى الرسالة

ولكى يدركوا هذه الغاية ولدوا طرائق مختلفة ، ففروا من الأشياء الواضحة ، أو أنهم لم يبحثوا عنها ، لأن جل الأحاسيس الشعرية فى زعمهم مشوشة مفعمة بالصور المبهمة والأحاسيس التى لايمكن التعبير عنها بجلاء إلا بعناء . ويقول « أناطول فرانس » « لا شعر بلا معنى خفى » فمهنة الشاعر أن يتغلغل فى هذه العوالم الخفية والاسرار المحجوبة ، فيقرب هذه الخفقات الحية وهذه المعانى المبهمة . ويقول « دوهامل » فى معرض كلامه عن « بول كلودل » : « اذا كان كلودل خفياً مكتوماً فذاك لأن أبواب المواضيع التى يلجها انما تعبر عن سر كبير هائل » ؛ ولأجل التعبير عن هذه المعانى الخفية والأسرار المكتومة ذهب الشاعر إلى توليد الرموز ؛ وليس الرمز فى التشبيه والمجاز ، إذا مر التشبيه والمجاز من العقل الذى يولدهما ويقبلهما ، وانما الرمز هو تلك الصورة أو جملة صور متتابعة آخذ بعضها بأعناق بعض يحس الانسان مباشرة أو يحس ولا يدرى سبب إحساسه بأن هذه الصور لا تترجم عن شىء ولكنها تعبر — أو بعبارة أوضح تنطوى على الفكرة . والتأثير الشعرى كالزهرة التى تفسر الغرسة التى هى منها وهى لا تشبهها .

ثم يغدو هذا الشعر الخفى الرمزى موسيقياً ، وقد كان تأثير الموسيقى فى الشعراء كبيراً فى فرنسا . ولبث الموسيقى تعد فناً بين الفنون حتى عام ١٨٨٥ ، فالموسيقى تستطيع أن تستمد من الشعر ، كما أن الموسيقى يغترف من معين وحى الشاعر . ولكنها لم تسيطر على بقية الفنون ، ولكنها غدت فى ذلك التاريخ الفن العتيد الذى يشرف على كل الفنون . ولقد طغت موسيقى « فاجنر » الجرمانى على النوادى الادبية . وهدت كثيرين من اتباعها إلى القدرة على التعبير الرمزى فى الموسيقى . ومن ذلك الحين طفق الشعراء يعملون على ابتكار فن يؤثر رنين الألفاظ فيه تأثير الموسيقى دون أن يفتقر إلى العقل ليترجم معانيها ، أرادوا أن يجعلوا من الشعر رقية ، وهو لا يرتل ولكنه يرقى . . . واذا تلوته يغدو موسيقياً .

وقد قال « كلودل » فى مقدمته لآثار « رامبو » ملخصاً مذهبه « بكلمات لاينبغى أن تتحرى عن معانيها وانما تقنع بتلقينها الصامت ، إذ قيمة اللغة — عندنا — فيما تشير اليه أكثر منها فيما تعبر عنه تعبيراً واضحاً . فالكلمات العرضية التى ترقى إلى العقل ، وترديد جملة دائمة قد تؤلف شيئاً من الرقية ، ولكنها تنتهى دائماً بتجميد الشعور . وظل الاشياء يقع رأساً على مخيلتنا ثم يأخذ يدور حول نفسه » .

وقامت تجربة أخرى هى تجربة « الشعر الحر » ، فان الشعر الفرنسى برغم ثورة الرومانتيقيين فقد ظل يرسف فى قيوده وأوزانه ، فعمل البعض من الرمزيين على الانطلاق والتحرر منها لاسيا الشاعر « غوستاف كاهن » . . . المذهب الوحيد هو الموسيقى الباطنة ، والتعبير الرومانتيقى كان نوعا من هذه الموسيقى . . . وهنالك أنواع أخرى موسيقية يبتكرها التوليد وتخلقها النفس المستوحية .

مثلان من شعراء المدرسة الرمزية

هنرى دى رينى HENRI DE RÉGNIÈR

لم يكن « هنرى دى رينى » شاعرا رمزيا إلا لأنه عاش فى زمن الحركة الرمزية . ورويدا رويدا عاد إلى شعر فيه الروح المدرسية والبرناسية . وبذلك اختلط عليه الأمر وكان فى كثير من مقاطيعه فاضحاً للمعانى الرمزية .

نفس الشاعر تنطلق بكليتها نحو حلم ، حلم قصيدة من قصائد الرعاة حيث تجتمع أفراح الحواس والقلب والفن وتمتزج فى رقة ناعمة صافية . حلم موطن بعيد يعج بالاشكال الالهية والافراح الشاعة ولذائذ الحياة . ولكن النفس الانسانية نفس قلقة مضطربة والانسان ابتكر الفكر والعلم والهوى والخطيئة . أراد أن يبدل الحياة وأن يستعيدها . فتحرى عن حقائقها المكتومة فى مظاهرها . وعن بقائها فى فنائها ، وعن هم المستقبل فى طرب الحاضر . وهذه تجربة عميقة مبتذلة أوحت إلى كثير من الشعراء . والشاعر المدرسى عبر عن هذه الخطرات بأسلوب واضح وأفكار منطقية . ولكن فى طبيعة هذا الحلم الباطنى اضطرابات وتموجات يحس بها قبل أن يبدأ العقل عمله .

فالحلم ينسل بين أمواج الخيالات الباطلة والقلق الراهن ، وعواصف الحياة الحقيقية ترفعه من هذه الاضطرابات المفاجئة وتحيطه بظلال سوداء تنزلق . وليس فى هذا مطابقات ، لأن هذه الخيالات انما تصاغ بتاملات مركبة تركيباً سيئاً . وهكذا يظل المقطع — بدون انقطاع — مشوشاً يتجاذب الخيال الشعرى والعقل الشعرى ، والصورة والرمز ، ثم يغدو الشاعر كجنية سكرى بالحياة الناعمة الخالية من الفكر ، والانسان يغدو صديقاً كئيباً لعيون الاحلام والعلم ، وليس من الضرورة أن يتناوب هذان الصوتان ، فقد يتعالى الصوت الواحد ممتزجاً بصدى مظلم ضجر من الصوت الآخر .

إننا لا نقدر أن نعرف هل يتركب الشعر من أحلام مزوقة ملفقة ، أو من أخيلة الماضى والذكريات ؟ إن ما نراه فى مقاطيع الشاعر كائنات غير مثبتة ، ليس لها أسماء ولا أوطان ، لا هى أرضية لا هى سماوية ، هى بعض كائنات ، هى عابرات راحلات غريبات ، ظلال ، وجنيات ، لا ندرى هل زوقها الشاعر بحياة الأحلام أو

بالحياة التي قضاها ، ذلك ما لا ندريه ولا يدريه الشاعر . الشعر الرمزي يتولد من هذا الاهتزاز الغير المحسوس ويتم عمله حيث لاتلفيق ولا حقيقة ، ولكن حقيقة ملفقة واحدة هي ابنة الحلم الباطني

على أن هذا الشعر الرمزي في كثير من الأحيان يتخذ له طريقة التعبير المدرسي . وإذا كان تعبيره يظل مائعاً ، وفكرته تبقى فكرة تلقين متحركة هادئة فان الصورة تخرج شيئاً فشيئاً من الضباب الرمزي لكي تتوقع بأشكال موجزة رقيقة ، ولوحات جميلة ، قصور تتألف من ضباب . وحدائق تغرس من أحلام ، حيث يخيل الينا أن يداً مفكرة شالت تماثيل من رخام وأواني من البرونز وطاقة من الزهر . ووردة واحدة ساطعة خافقة .

جول لافورج JULE LAFORGUE

يختلف تأثير شعر « لا فورج » عن تأثير « شعر هنري دي ريني » فهو لا يعمل على أن يحيا في مثل أعلى من البساطة والجمال اليوناني ، لقد غرهشك يائس قاتم تسرب اليه من الشك الرومانتيق وملأ قلبه يأساً . وساعد على ذلك ما ابتلى به من صحة معتلة وحظ أنكد ، لقد كان يطمح في أن يحيط عقله بأسرار هذا الوجود . فدرس كثيراً ، والتهم الفلاسفة التهاماً ولكنه عاد خائباً لأنه لم يجد في هذه التعاليم التي درسها إلا ظلاماً وإبهاماً ومتناقضات ! ورسا في ذهنه أن أقرب هؤلاء الفلاسفة إلى عقله هم من علموا « الجهل الانساني » والوهم الضروري وانسياق الانسان إلى مقادير عمياء . هؤلاء هم فلاسفة « اللاشعور » والقدرية منهم « هارتمان وشوبنهاور » . العاقل يجرب أن يصل إلى التنسك بشعوره بزوال هذه الأخيلة ، وبتأمله هذا العقل المضطرب اضطراباً أبدياً في هذه الجداول من الكواكب . إن هذا العقل لا يصرفه عن أن يكون شاعراً أي صارف . والشعر ـ بين الأخيلة الباطلة ـ هو أقل هذه الأخيلة خداعاً . وربما هبطت أغنية علينا لحظة وهزت حظوظنا البائسة السوداء . يمكننا أن نفكر في نساء نواعم ، لأن هذه الكائنات حسنة . أو أن نستدعي ـ كما فعل فيني ـ الأبواق : الأبواق الكئيبة . بشرط ألا تخدع بأوهامها ؛ الشاعر ليس بإله ولا بساحر ولا بكائن يفارق البشر . الشاعر هو موقع، وموسيقي يحسن التوقيع والضرب على القيثار .

كل الشعراء أرادوا أن يترجموا الشعر ، واختلفوا اختلافاً شديداً في كنه الشعر ، ولكنهم ظلوا على ارستقراطيتهم يحقرون الحقيقة لأنها حقيقة الشعب كما أنهم خدعوا بالأوهام البهيجة . أما شاعرنا فهو لا يريد أن يتقي أوهامه اتقاء . هو يتقبلها كما هي وكما تتمثل له يتقبل منها على السواء ما ينير فيه كآبته وسأمته . وما يذهله عن هذه الحياة في وادي الأحلام . يتقبل منها أوهام الحياة السطحية . والأوهام التي تلتف بالكائنات لتسبر أغوارها وتكشف أسرارها

ان « لافورج » قد هدم قاعدة قوية في الفن هي قاعدة وحدة اللهجة الشعرية ، وأثر تأثيراً كبيراً في بعض شعراء العصر الحاضر

اتباع المدرسة الرمزية

تهاوت على المدرسة الرمزية سهام نافذة من النقد ونوزعت نزاعاً عنيفاً وما كاد القرن التاسع عشر ينصرم حتى فقدت هذه المدرسة مذهبها كمدرسة . ولكنها ـ مهما ذهب الأمر فيها ـ فقد ساعدت على خلق أجواء جديدة من الفن والشعر تختلف عن الأجواء التي خلقتها المذاهب المدرسية والابداعية والواقعية . هؤلاء تحروا عن مثلهم الأعلى في دلائل الحياة والأعمال والتجارب العلمية ووضوح الاشكال الفنية . هب علماء وفلاسفة يعلنون أن اليقين الذي حمله العلم إن هو إلا يقين الاصطلاح وأعمال الظواهر أما الحقيقة فلا تزال مكتومة . لم تنجع كل هذه الأسباب في إزاحة الستار عنها . وبهذا بدأ فشل العلم وبفشله فشلت الحقيقة الظاهرة . ولكي نجد الحقيقة سواء كانت الحقيقة الأخلاقية أو الاجتماعية أو الفنية ينبغي لنا أن نفلت من هذا العالم المحسوس الذي لا فائدة ترجى منه إلا الفائدة العملية ، هذا العالم الذي طالما خدعتنا مظاهره وبياناته الكاذبة وإذا كان للحقيقة وجود فهي موجودة في عالم خفي . . . وإنما على الفنان أو المبدع أن يذهب متحرياً عنها في أطواء هذا العالم الخفي .

ولقد كان للمدرسة الرمزية أتباع وأنصار ، اتخذوا الصحف الخاصة والمجلات الخاصة ، يذيعون بواسطتها عن مدرستهم وآثار مدرستهم ، ويردون بمكرهم مكر خصومهم وأكبر هؤلاء الأنصار وأكثرهم ذيوعاً :

غوستاف كاهن : ومن آثاره الشعرية «القصور البدوية» وأغاني الحب ومسكن الجنية وكتاب الصور ، وهو أول من كتب بلغة الشعر المنثور وجعل للشعر المنثور حدوداً وقواعد ! وظل أسلوبه يغلب عليه الاسلوب المدرسي . وقيمة الرمز في شعره نشأت عن عواطفه التي أراد أن يتغنى بها ، والتي تعبر عن ألوان النفس الناشئة كأنها رغبة محيطة مبهمة أو قلب دفين ؛ ولكي يعبر عن هذه الالوان المختلفة لجأ إلى الرموز والتعابير المبهمة وكل ما فرضته الرمزية من أنواع التلقين .

و « جورج رودانباخ » الشاعر البلجيكي وهو ممن غلب على أسلوبهم الاسلوب المدرسي برغم ما تناول أسلوبه من معاني الرمزيين ومن آثاره التي تمت بالمدرسة الرمزية « مملكة الصمت »

حديث الأزهار

للكاتب الفرنسي ألفونس كار

زهرة الخشخاش

كنت فيما مضى أرسل عبيرى على الارقين فيرقدون ، ولكن النوم لم يعد كافياً للناس فى آلامهم ، لم يعد الانسان يكتفى بالوسن فهو يطلب الأحلام . لذلك كنت نسياناً فأصبحت أوهاماً .

لقد احتقر الانسان عبيرى المنوم فطمع بدنى المسكر ، فهو يطعن قلبى بالنصال ويستى من جراحى أشباح سلوانه .

لا تكاد زهرتى ترتفع عن التراب حتى أحس بالمسبر الجارح فى قلبى مستنزفاً منه السائل المخدر يسكبه الناس فى أحشائهم فيذهب بالاشباح إلى رؤوسهم .

عند ما يرتشف الانسان كأس دمى تستنبت روحه الاوهام أجنحة ترفعه إلى الأوج فاذا هو روح منعتقة من قيودها تقف لحظة فى برزخ الحيرة ثم ترجع إلى أدراجها إلى الماضى أو تقتحم حجب المستقبل لترفرف على تذكاراتها أو آمالها .

***

مضى الزمن الذى كنت التى فيه يذوى إلى الناس فيجدون بمنقوعها الوسن الهادى بعد منهكات الجهود ، ذلك زمان كنت فيه مبعث الأحلام الهادئة الجيلة . ذلك زمان كنت فيه أحمل الآمال الباسمة بالايمان . فأقف إلى جنب فراش الأم لأريها سعادة طفلها ، وأحوم حول فراش اليتيم لأريه أمه محنية فوق جبينه تهديه بركتها بقبلة سماوية .

فى ذلك الزمان كنت زهرة التعزية أعيش بسكون وأنقضى بسلام بعد حياة تنيرها بسمات الربيع .

***

من هدى الناس إلى دمى يستقطرونه شراباً يقتلهم ويقتلنى ولكن على م أحزن ... أفليس الشاعر أخى ، أفليست أشعاره كدمى كلاهما يقبضان على الروح ويرفعان بها إلى أجواء الخيال .

إن شعر الشاعر ودم الخشخاش كلاهما السم القاتل لمن يجود بهما ولمن يسكر بهما .

***

لقد كان الخشخاش جالباً للنوم وكان الشعر منزلا للتعزية فما كلاهما اليوم إلا سيال للسكر والجنون .

(ف . ف)

والحياة المسورة . وهى مقاطيع تحف بها غفوات حالمة وهدآت خفية . ونفوس يؤذيها الضجيج ومناظر قد يزورها الطرب أو الكآبة تمشى خلالها أخيلة النسيان والموت . ولقد كان لهذا الشعر الناحل المتزهد تأثير كبير .

و« بول فور » الذى أبدع « المسرح الفنى » صاحب « الارانيم » وصاحب طريقة الشعر المنثور التى عاناها كثيرون قبله ، فلم يستطيعوا أن يمرنوا على هذه الطريقة حتى جاء ابن بجدتها والضارب فيها كيف يشاء . ولقد أخضع الايقاع لوحى شعرى حيث تتعالى الصور بدون أن تنفد، طورا واضحة وتارة سرية محزنة ، فيه شيء من الواقعية يمتزج مع التلقين الرمزى . فتبقى المقطوعة الشعرية معلقة بين خيال الواقع وخيال الاسم كما أن « الايقاع » يعلق بين الشعر والنثر .

« وفرنسيس جامس » صاحب ديوان « من صلاة الصبح إلى صلاة المساء » وانتصار الحياة . يغلب على أسلوبه هذا القتام الرمزى حيث ترى الرمز يدخل فى السر والظل ، ويغيب فى الأحلام . وجامس يرى الشعر – بخلاف غيره – فى الأشياء البسيطة التى يلمحها ، وفى الحظوظ المتواضعة . وتظهر على شعره آثار الفاقة والمسكنة . وها هو ذا يقول :

« إلهى ! دعوتنى من الناس فهانذا جئت !
وكتبت بالكلمات التى ألهمتها أبى وأمى . . .

وقد يسخر القارئ من هذه البساطة فى المعانى . ولكن « جامس » اكتشف ينابيع حية ندية من الشعر . ببساطة عميقة مؤثرة . فهو يحب ويجعلك تحب مثله سلامة السريرة والنفوس الشاقة ، والحياة الهادئة الضعيفة للأشياء . والموسيقى الباطنة فى وزنه وصورة حية من صوره وكلمة ملونة .

كل هذا تراه يعبر لك عن هذه الرقة التى لا تلمس ، وعن الجمال الخفى فى كل أثر من آثار المبدع الخلاق .

خليل هنداوى

١٩ - تاريخ العرب الأدبى

للأستاذ رينولد نيكلسون

الجاهلية : شعرها ، وعاداتها ، ودياناتها

ترجمة حسن حبشى

ومهما يكن من أمر صاحب هذه القصيدة فإن أبياتها تنضح بالوثنية، وأسلوبها يدل على ذلك ، كما أن أهميتها القصوى تتضح لنا من أنها أثارت جوته Goethe بعد أن قرأ ترجمتها باللاتينية فقام بطبع ترجمة لها بالألمانية مع نقد جميل للشعر فى « الديوان الشرقى West-Oestricher Divan »(١).

وفى هذه القصيدة (٢) نرى الشاعر يصور كيف يلج به الثأر لخاله الذى قتله هذيل ، ويصف بطولة القتيل وخلقه والغزوة التى قام بها وانتصاره (الشاعر) فى النهاية على خصومه وظهوره عليهم فيقول :

إن بالشِّعب الذى عند سَلْعٍ   لَقتيلا دَمُهُ ما يُطَلُّ
خلف العبء علىَّ وولى   أنا بالعبء له مستقل
ووراء الثأرِ منى ابنُ أختٍ   مَصِع عقدَتهُ ما تُحَل
مُطرِق يرشح سماً كما أطـ   ـرقَ أفعَى يرشح السُمَّ صِلُّ
خَبَر ما نابَنا مُصْمَئِلٌّ   جلَّ حتى دَقَّ فيه الأجل
بزَّنى الدهرُ وكان غشوماً   بأبىٍّ جارُه ما يُذَل
شامس فى القُرِّ حتى إذا ما   ذَكَتِ الشِّعرَى فبَرْد وظِل
يابسُ الجنبين مِن غير بؤس   وندِى الكفين شهم مُدِل
ظاعن بالحزْم حتى إذا ما   حلَّ : حلَّ الحزْم حيث يَحُل
غيث مُزن غامر حيث يُجدِى   وإذا يسطو فليث أبل
مسبل فى الحىِّ أحوَى رِفَل   وإذا يغزُو فسِمْع أزَل(١)
وله طعمان أرْى وشَرْى   وكِلا الطعمَين قد ذاقَ كل
يركبُ الهول وحيداً ولا يَصْـ   ـحبُهُ إلا اليمانى الأفَل

٭٭٭

وفتُوٌّ هَجروا ثم أسرَوْا   ليلهم حتى إذا انجَابَ حلوا
كلُّ ماض قد تردَّى بماض   كسَنا البرق إذا ما يُسل
فادَّرَكنا الثأرَ منهم ولمَّا   يَنجُ مِ الحيَّين إلا الأقلُّ
فاحتَسوا أنفاس نوم فلمَّا   هوَّموا رُعتُهم فاشمَعلُّوا(٢)
فلَئن فَلَّتْ هُذيل شباهُ   لبما كان هذيلاً يَفِلُّ
وبما أدرَكَها فى مَناخٍ   جَعْجَعٍ ينقَبُ فيه الأظَل
وبما صبَّحَها فى ذُرَاها   منهُ بعدَ القتلِ نَهب وشَل

٭٭٭

صَليَتْ منى هُذيل بخِرْقٍ   لا يَمَل الشرَّ حتى يَملوا
يُنْهِلُ الصعْدَةَ حتى إذا مَا   نهلَتْ ، كانَ لها منهُ عَل
حلتِ الخمرُ وكانت حرَاماً   وبلأْىٍ ما ألَمَّتْ تحُلّ

(١) الرفل : الواسع الثوب الكثير اللحم ، والسمع ولد الذئب (المترجم)

(٢) أى أسرعوا فى الهرب

(١) مما جاء فى كتاب تراث الاسلام (الطبعة العربية اكتوبر ١٩٣٦) فى الفصل الذى كتبه الأستاذ جب عن الأدب العربى قوله « وتيسر للأدب الشرقى هنديا كان أم عربيا أم فارسيا أن يشغل فى تاريخ الأدب الالمانى فى القرن التاسع عشر حيزا لم يشغله مثله من قبل فى أوربا منذ عهدها بالادب الإسبانى فى القرون الوسطى وكان أولى الزهر وأينعه فى روضة الغرب كتاب جوته : West oslecher Divan » (ص ٢٠٨ س ٣ — ٨) المترجم

(٢) ذكر المؤلف قبل هذا كلاما ضربنا صفحا عن ترجمته لانه يشرح فيه لقراء الانكليزية ما صادفه من صعوبة فى التوفيق بين البحر المديد الذى اتبعه الشاعر العربى وبين البحر الانكليزى الذى ترجم به الاستاذ نيكلسون القصيدة ليكون قريبا منه فى روحه وموسيقاه . (المترجم)

فاسقنيها ياسوادَ ابنَ عمرو   إن جسمي بعد خالي لخَلّ (١)
تضحكُ الضبعُ لقتلى هُذيل   وترى الذيب لها يَستَهِل
وعِتاقُ الطيرِ تَغدو بِطاناً   تتخطاهم فما تستقِل (٢)

° ° °

ولم تكن الفضائل التى استوعبها العربى عن الشرف معدودة كأنها صفات شخصية فطرية أو مكتسبة ، بل إرثاً ورثه الخلف عن السلف منذ القدم ، ولا بد له من أن يحافظ عليه تماماً حتى يسلمه إلى أبنائه دون أن تشوبه شائبة مَّا ، ولم يكن الأمل ، فى الخلود بخلود النفس هو ما يحفز الشاعر العربى لأن « يقول القول ويفعل فعال الشرف » ، بل كان الرغبة فى أن يقاسم أسلافه ذكرهم ، وينافسهم صيتهم ، وهو بهذا أبعد ما يكون عن الفلاح الاسكتلندى ، حين يقول فى مثله الدارج « الانسان بشخصه أيًّا كان أصله » لأنه كان ينظر نظرة الشك والريبة إلى هذه الجدارة التى ليس لها أصل مأثور عند الآباء :

وَمَا تَستَوِي أَحسَابُ قَومٍ تُوُرِّثَتْ
قديماً وأَحسَابٌ نَبَتْنَ معَ البَقلِ (٣)

وإن الحسب عندهم أشبه بحصن حصين قد جد فى إقامته الآباء للأبناء أو كجبل شامخ يضرب بقنته فى أجواز الفضاء ، يرتد عنه مهاجموه بالفشل دون أن ينالوا منه شيئاً (٤) ، وكان الشعراء يعرفون جيداً المفاخر والمثالب ، فيتشدقون بالأولى بشرف أجدادهم وكرم أرومتهم ، ويتخذون الثانية أداة ينالون بها من أعدائهم دون رعاية أو اهتمام بقواعد الأدب والحشمة .

° ° °

لقد وجهت عنايتى أن أورد فى هذا المجال بعض الصفات الخاصة للشعر العربى إذا ما قورن بالشعر العبرى أو الفارسى أو الانكليزى ، ولكن لما كان إيراد الأمثال ذا جدوى غير منكورة فإنى أبدأ حالا بالتكلم عن القصائد الشهيرة بالمعلقات التى تحتل مكانة سامية ، وذروة رفيعة فى الأدب العربى

° ° °

الأرجح أن كلمة معلقة (١) قد اشتقت من قولهم « علق » أى الشىء النفيس الثمين العالى المستوى . إما لأن الانسان يتعلق بها تعلقا شديدا ، أو لأنها تعلق فى مكان شريف أو بين واضح كبيوت المال أو فى خزائن عامة (٢) ، وعلى مر الزمن تنوسى المدلول الحقيق لكلمة معلقة ، وأصبح من الضرورى ايجاد تفسير مقبول منصوب لها . وهنا ظهرت الخرافة التى أصبحت فيما بعد مألوفة لطول تكرارها . وكثرة استعمالها ، والتى تزعم أن تسمية المعلقات بهذا الاسم ، راجعة لتعليقها بأستار الكعبة تقديرا لفضلها الذى قضى لها به المحكمون فى عكاظ على مقربة من مكة ؛ حيث يجتمع الشعراء متنافسين فى انشاد أروع ما دبجته قرائحهم ، وأنها كانت تكتب بماء الذهب ، على القباطى (٣) الواردة من مصر قبل تعليقها على الكعبة .

« يتبع »   حسن حبشى

(١) كان من عادة العربي إذا قُتل له قتيل ألا يشرب الخمر أو يمس النساء حتى يثأر له .

(٢) الحماسة ص ٣٨٢ وما يليها .

(٣) الحماسة ٦٢٩

(٤) قارن هذا بما سيرد بعد قليل فى معلقة الحارث

(١) إن أحسن طبعة للمعلقات هى تلك التى نشرها سيرشارلز ليل سنة ١٨٩٤ (طبعة كلكتا) وسماها A Commentary on Ten Ancient Arabic Poems وهى تشمل إلى جانب المعلقات السبع المتفق عليها ثلاثة قصائد أخريات للأعشى والنابغة الذبياني وعبيد بن الأبرص ، كما ترجم تلدكه خمس معلقات (مسقطا معلقتى امرىء القيس وطرفة) . وأرفق بها شرحا بالألمانية فى Sitzungsbevichte der kais. Akad. Der Wissenschaften in Wien, Philo. Histor. Klasse, Vols : 140-144 (1899-1901).

وتلك إلى حد بعيد أتم ترجمة للباحثين والطلاب ، وليست هناك فى النثر الانكليزى أية ترجمة مقنعة ، ولكنى أشير على القارىء بمراجعة الترجمة الشعرية الانكليزية التى بلغت الغاية فى الجمال والروعة وإن يكن فيها شىء قليل من التصرف وهى التى نظمتها لادى آن بلنت Anne Blant ومستر ولفرد سكاون بلنت وسمياها : The LevenGolden Odes of Pagan Arabia (London 1903)

(٢) راجع مقدمة سير شارلز ليل لكتابه An Cient Arabian Poetry وقد اقترحت عدة تفسيرات أخرى . نحو « القصائد التى كتبت بالاملاء الشفهى » كما يقول فون كريمر ، أو « السموط المذهبات » كما يسميها أهلوارت ، أو « الاسماط » كما لو كانت لآلىء مدلات من قلادة كما يدعوها أوجست موللر

(٣) يظهر أن الاعتقاد بأن المعلقات قد كتبت بماء الذهب ناشىء عن الخطأ فى فهم اسم « المذهبات » (بسكون الذال وفتح الهاء) أو المذهبات (بفتح الذال وتشديد الهاء المفتوحة) أى القصائد المكتوبة بالذهب ، وهو الاسم الذى يطلق عليها أحيانا نظرا لفخامتها ، كما هو الحال عند الاغريق الذين أطلقوا اسم « خراسيا أى Khrousia Epi » على قصيدة تنسب زورا إلى فيثاغورس أما القول بان بعضا من المعلقات قد أنشد فى سوق عكاظ فهذا أغلب ما يحتمل بل ما قد تأكد بخبرته بشأن ما كان من معلقة عمرو بن كلثوم (الأغاني ج ٩ ص ٧٢)

لمحة . . . !

للسيد عمر أبو ريشة

أوقفي الركب يا رمال البيد ... إنه تاه في مداك البعيد
ظمئت نوقه وجف فم الحا ... دي وغصت لهاته بالنشيد
والأشداء يلهثون كخيل الـ ... ـغزو عادت من يومها المشهود
عصفت في جفونهم ريحك الهو
جاء والشمس عربدت في الخدود
والصبايا من الهوادج ينظر ... ن إلى الأفق نظرة المفئود
ليس يبصرن منك غير هضاب ... في هضاب مبعثرات الحدود
غابت الشمس يا رمال. وهذا الـ ... ـركب في قبضة العياء الشديد
وحبا الليل يا رمال وهذا الـ ... ـركب أخنته وطأة التسهيد
فهوى فاقد الرجاء يرى المو ... ت مشيحاً بمنجل من حديد
فتراءت إليه نار على البعـ ... ـد فكانت إماءة للشريد
فسرى في سنائها فاطلت ... خلفها مكة الفخار التليد
ياعروس الرمال يا قبس التا ... ئه في مهمه الضلال المبيد
أمنَ الركبُ في جمالك فرديـ ... ـه إلى ذكريات تلك العهود
يوم أرخى على جوانبك الوحـ ... ـيُ جناحين من سماء الخلود
حاملا آية النبوة ما بيـ ... ـن شفاه علوية التأييد
صبّها قبلة على فم طفل ... قرشي النجار سامي الجدود!
وحواليه من حمام الفراديـ ... ـس حسانٌ مرنّحات القدود
ساحبات بيض البرود كما لو ... جد النور فوق تلك البرود
يتزاحمن واثبات ويلثمـ ... ـن من الشوق مبسم المولود!
فاذا بالسماء تهمى تسابيح ... وتدوى أصداؤها في الوجود
وإذا الكون بعد عيسى تعرّى ... نصب عيني محمد من جديد!!

***

درج الطفل والهداية تحبو ... ه بتاج من السناء فريد
ودوى إذ نزاه في الدير يضرب في الـ ... ناقوس بشرى بالسيد المنشود
والذوابات من قريش سكارى ... في هوى الجاهلية العربيد!
هتكت كبرياؤهم سنن العقـ ... ـل وصالت بشرعها المردود
كم بنات لم تنفطم وأدتها ... كفُّ باغ على القضاء عتيد
كم وراء الجدران في الكعبة العصـ ... ـماء من عابد ومن معبود
جلجلت صرخة النبي فردّت ... رجع أصدائها أعالي النجود
وأشاحت يسراه بالمعول الصلـ ... ـد ويمناه بالكتاب المجيد!!
فتهاوت تلك الصفوف من الأصـ ... ـنام عن أوج عرشها المعقود
وتبارت - الله أكبر تعلو ... من شفاه المؤذن الغريد!!!

***

أخذت غضبة البداوة تخبو ... بعد إعنات ضلة وجحود
إنما النفس لا تبدل طبعا ... ألفته فكيف نفس الحقود
ومن الصعب أن يشاهد أعمى ... قبس الحق في الليالي السود
يوم «بدر» فض النزاع وبث الـ ... ـرعب في كل أشهب صنديد
فقريش مغلوبة وأبو سفـ ... ـيان في شبه رجفة الرعديد
والميامين في المدينة يطو ... ن سيوف السلام طي الغمود
فأتم النبي آيته الكبرى ... على شعبه الكريم الودود
وانطوت بعدها الهيولى فثارت ... فتنة في النفوس ذات وقود
وتلاشت كأنها حلم الذعـ ... ـر بجفن المسهد المكدود!!
الفجاءات كم تزلزل عزماً ... وترد الرشيد غير رشيد!!

***

دفقت موجة الهدى تغسل الشر ... ك وتروي النفوس بالتوحيد
وتبث الوئام والحب والرحـ ... ـمة ما بين سيد ومسود
مذهب ضجت الأعاجم منه ... وتعاموا عن شرعه المحمود
ورأوا فيه ما يدك عروشاً ... شيدوها بالظلم والتهديد
فرمت بالكتائب الخرس «روما»
وبأبطالها الغزاة الصيد
وطغى الهول والكتائب ماجت ... في خضم من القنا والبنود
فاطلت تلك الفلول من العر ... ب بعزم النبوة المشدود
وانحنت فوق ضُمّر تعلك اللجـ ... ـم وتنزو بجنونة في الصعيد!
وأغارت ترمي الفوارس رمياً ... وتحز الوريد إثر الوريد
كلما انهار حائط من جنود ... أتبعته بحائط من جنود

وضفاف «اليرموك» ترسل منها
زمزمات الحداء لابن الوليد!!
جولة ترعف الصوارم فيها وتصيح الأكف هل من مزيد
جولة كفنت بها الروم حلماً بين أنقاض صرحها المهدود!
وكأن اندحارها لم يردّ «الـــفرس» عن نشر بغيها المعهود
سخّرت كل فيلق كسروى لم يذق قبل نكبة التشريد!
مزقتـه فى القادسـية تلك الـ
بيض والسمر فى أكف الأسود
إن طود الرمال تحمله الريح وتذريه فى الفضاء المديد

***

بسطت كفها الهداية والشر ق تفيّأ بظلها الممدود
رافعاً مشعل الحضارة والغر ب صريع فى غفوة من جمود
إن فى الشام من معاوية الســمح بقايا من الدهاء السديد
وببغداد مسحة من نعيم تتغنى بذكريات «الرشيد»
وبغرناطة من الملك النا صر آثار روعة «للنشيد»
أمة يعربية تركت فى مسمع الدهر آية التمجيد؟
إنما عقها البنون فزجوا بالمروءات فى بطون اللحود
أسكرتهم لذائذ الترف الأهـ وج عن يقظة القضاء العنيد
وتلوّت ما بينهم تنفث الســمّ أفاعى حفائظ وحقود!
وتناسوا ما بثه السيد الأعـ ظم من سنة الوئام الأكيد
وخبت نارهم وصُبّت عليهم عاصفات التعذيب والتنكيد
فاذا جبهة الشموخ لطيم تتنزى بالجرح عند السجود
وانتهت سيرة الجدود البنا لجررنا القيود إثر القيود
والتفتنا فلم نجد غير مُلك مزقته أصابع التبديد
ونهدنا للذود عنه ولكن ما حملنا غير الإباء الحميد!
ورجعنا فكم جريح كئيب يتلوّى وكم قتيل شهيد!!
ياعروس الرمال يا قبس التا ئه فى مهمه الضلال المبيد
نحن فى هذه البلاد كذاك الـ ركب غشى فى طالع منكود
أنظرى فالجموع شاخصة الأبـ صار ترنو إلى ضياك الوحيد
فامددى الكف للكرام فغبن أن تعيش الكرام عيش العبيد!

(حلب) **عمر أبو ريشة**

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

الطفل والزواج

لى سؤال أخصك به لأسبر أعماق روحك يا أخى :

ـــ أنت فى مقتبل العمر وتتمنى أن يكون لك زوجة وولد، ولكن قل لى ألست الرجل الذى يحق له هذا التمنى؟ أأنت الظافر المنتصر على نفسه، الحاكم على حواسه، السائد على فضائله؟ أم أن تمنيك هذا ليس إلا شهوة حيوان أو خشية منفرد أو اضطراب من قام النزاع بينه وبين نفسه؟

إن ما أريده منك هو أن تتوق بانتصارك وحريتك إلى التجدد بالولد. إذ عليك أن تقيم الأنصاب الحية لانتصارك وحريتك، فترفع هذه الأنصاب إلى ما فوق مستواك. وهل بوسعك أن تفعل إذا لم تكن متين البنية من رأسك إلى أخمص قدميك؟

ليس عليك أن ترسل سلالتك إلى الأمام فحسب، بل عليك بخاصة أن ترفعها إلى ما فوق. فليكن عملك فى حقل الزواج منصبًّا إلى هذه الغاية

عليك أن توجد جسداً جوهره أنقى من جوهر جسدك ليكون حركة أولى وعجلة تدور لنفسها على محورها، فواجبك إذاً إنما هو إبداع من يبدع

ما الزواج فى عرفى إلا اتحاد إرادتين لايجاد فرد يفوق من كانا علة وجوده. فالزواج حرمة متبادلة ترسو على احترام هذه الارادة

ليكن هذا معنى زواجك وحقيقته، أما مايدعوه الدخلاء الأغبياء زواجاً فامر أحار فى تصريفه؛ فما هو إلا مسكنة روحية يتقاسمها اثنان، ودنس يتمرغ به اثنان، ولذة بائسة تتحكم فى اثنين. ولكن الدخلاء يرون فى مثل هذا الزواج رباطاً عقدته السماء

وما أنا بالمرتضى بمثل هذه السماء، سماء الدخلاء أطبقت

شباكها عليهم ، تبًا لها ، وسحقاً لمثل هذا ، الاله الذى يتقدم متراجعا ليبارك اثنين لم يجمع هو بينهما

لا يضحكنكم هذا الزواج ، فكم من طفل من حقه أن يبكى على أبويه.

رأيت رجلا وقورا لحسبته بالغاً من النضوج ما يدرك به معنى الأرض ، ولكننى رأيت امرأته بعد ذلك فلاحت لى الأرض كأنها ماوى المجانين . أود لو تميد الأرض بى عند ما أرى رجلا فاضلا يتخذ له زوجة حمقاء

من الناس من يتجرد كالأبطال سعياً وراء الحقائق ، فلا يلبث حتى يصطاد رباطاً مزيفاً يدعوه زواجاً . ومنهم من اشتهر بحذره فى علاقاته وبصرامته فى اختياره ، فاذا هو بين ليلة وضحاها قد أفسد حياته ووقف يدعو هذا الافساد زواجا . ومنهم أيضا من كان يفتش عن خادمة لها فضائل الملائكة ، فاذا هو ينقلب فجاة خادما لامرأة وقد حق عليه أن يتصف هو بالفضائل الملائكية

فتشت فى كل مكان فما رأيت إلا مشترين يقلبون السلع وعيونهم تتدفق مكراً ، ولكن أمكر هؤلاء الناس لا يتوصل فى آخر الأمر إلا إلى ابتياع هرة يدسها فى جلبابه

إن ماتدعونه عشقاً إنما هو جنون يتتالى نوبة بعد نوبة حتى يجىء زواجكم خاتماً هذه الحماقات بالحماقة المستقرة الكبرى . ويا ليت حب الرجل للمرأة وحب المرأة للرجل كانا إشفاقا يتبادله إلهان يتألمان ، ولكن هذا الحب لا يتجلى فى الغالب إلا تفاهما بين إحساس حيوانين . وما خير الحب لو تعلمون إلا تحول واضطرام فى ألم وخشوع ، إنْ هو إلا المشعل ينير أمامكم مسالك الاعتلاء . وسياتى يوم يتجه فيه حبكم إلى مقر أبعد وأرفع من مستقر ذاتكم ، لقد بدأتم بتعلم الحب ، لذلك ترتشفون الآن المرارة الطافية كالحب على كأسه

إن فى كأس كل حب إطلاقا وحتى فى كأس أرق حب مرارة لابد لكم من تجرعها ؛ وهذه المرارة هى التى تنبه فيكم الشوق إلى الإنسان الكامل وتلهب فيكم الظما إليه ، أيها المبدعون . إذا كان هذا الظما هو الذى يدفع بك إلى طلب الزواج يا أخى ، وإذا كنت تشعر بشوقك يندفع كالسهم نحو الانسان الكامل ، فاننى أقدس إرادتك وأقدس زواجك

هكذا تكلم زارا . . . .

تخير الموت

كثير من يتاخرون فى موتهم ، وكثير من يبكرون . فاذا قال قائل للناس بالموت فى الزمن المناسب ، رفعوا عقيرتهم مستغربين . وزارا يعلم الناس أن يموتوا فى الزمن المناسب . ولكن أنى لمن يعرف الحياة أن يتخير الموت فى أوانه ؟

أفما كان خيراً للدخلاء على الحياة لو أنهم لم يولدوا . ولكن هؤلاء الدخلاء يريدون أن يولى الناس أهمية كبرى لموتهم ، وكم من نواة تباهى بانها كسرت وهى جوفاء . . .

إنهم يعلقون أهمية على الموت لأنهم ماعرفوا بهجة الموت ، فالناس لم يعرفوا حتى اليوم كيف يقدسون أبهج الأعياد . ولسوف انبئكم بالموت الذى يقدس ، الموت الذى يدفع الأحياء ويجتذبهم بحوافزه وآماله . إن من أكمل عمله ياتى ظافراً وحوله من يحفزهم الأمل وتنطوى فيهم الأمانى . تعلموا أن تموتوا هكذا ، ولكن اعلموا أن لا ظفر لمن يموت إذا هو لم يبارك ما أقسم الأحياء باتمامه

تلك هى الميتة الفضلى ، تليها فى المراتب ميتة من يسقط فى المعركة وهو ينشر عليها عظمة روحه . غير أن ما يحتقره المجاهدون والظافرون على السواء إنما هو ميتتكم الشوهاء التى تزحف لصاً وتتقدم آمرا مطاعا

ما أجمل ميتتى إذا أنا تخيرتها فجاءتنى لأننى أطلبها
ولكن متى يجدر بالانسان أن يطلب الموت ؟

إن من يتجه إلى مقصد فى الحياة وله وريث ، وجب عليه أن يتمنى الموت فى الزمن المناسب لغايته ولوريثه ، لأنه يأنف حرمة لها من أن يلقى بالأكاليل الذابلة على هيكل الحياة

اننى لا أريد أن أحيك الخيوط وأنسحب إلى الوراء كمن يفتلون الحبال .

من الناس من لا يتجاوزون بأعمارهم الحد اللائق بالحقائق والظفر ، وخليق بالفم المجرد عن أسنانه ألا يتناول ببيانه جميع الحقائق . على الطامحين إلى الظفر أن يودعوا الأمجاد فى الزمن المناسب ليتمرنوا على فن الرحيل عن الدنيا فى الزمن المناسب أيضاً ، ومن واجب المرء أن يتوقف عن عرض نفسه للآكلين عند ما يكفون عن تذوقها ، ولا يعرف هذه الحقيقة إلا من يود الاحتفاظ بمحبة من حوله .

ولكن من الأثمار كالتفاح من تقضي طبيعته الحامضة عليه أن ينتظر النضوج إلى آخر أيام الخريف ، فاذا هو ماثل للنظر باصفرار الشيخوخة وتجاعيد أساريرها .

ومن الناس من يدب الهرم إلى قلوبهم أولا ، ومنهم من يدب الهرم إلى عقولهم ، ومنهم من يشيخون في ربيع الحياة ، غير أن من يبلغ الشباب متأخراً يحتفظ بشبابه أمداً طويلا .

ومن الناس من ضلوا السبيل في حياتهم ، فاضاعوا عمرهم ؛ فعلى هؤلاء أن يعملوا على بلوغ التوفيق في موتهم على الأقل .

وهنالك أثمار لا تنضج لأنها سهراء في الصيف ولكنها تبقى معلقة باغصانها لأن جبنها يصدها عن السقوط . وهكذا نرى في العالم أناساً يلتصقون التصاقا باغصانهم ، فهل من عاصفة تهب على الشجرة لتسقط ما عليها من أثمار تهرأت ورعى الدود قلبها ؟ ليتقدم دعاة الموت العاجل وليهبوا كالعاصفة على دوحة الحياة ، غير أنني لا أرى غير دعاة للموت البطيء يعظون بالصبر واحتمال كل مصائب الارض .

انكم تدعون إلى مكابرة الارض ومجالدتها ، أيها المجدفون والارض صابرة عليكم صبرها الجميل .

والحق أن ذلك العبراني الذي يمجده المبشرون بالموت البطيء قد مات قبل أوانه ، ولم يزل جم غفير يعتقد بان ميتته المبكرة كانت مقدورة عليه

وما كان هذا المسيح العبراني قد عرف إلا دموع قومه وأحزانهم وكيد أهل الصلاح والعدل ، لذلك راودته فجأة شهوة الفناء .

ولو أنه بقي في الصحراء بعيداً عن أهل الصلاح والعدل لكان تعلم حب الحياة وحب الأرض ، ولكان تعلم الضحك أيضاً .

صدقوني ، أيها الإخوة ، إن المسيح قد مات قبل أوانه ، ولو أنه بلغ العمر الذي بلغت ، لكان جحد تعاليمه ، وقد كان له من النبل ما يكفيه لاقتحام العدول عنها . ولكنه لم يبلغ النضوج ، ولم تبلغه المحبة في الشباب ، فكره الناس وكره الأرض . وهكذا بقيت روحه مثقلة ولم ينشر جناحه المهيض [1]

إن في الرجل من الطفولة ما ليس في الشاب ، فالرجل الناضج أقل حزناً وأقدر على فهم الحياة والموت ، لأنه يشعر بحريته للموت وبحريته في الموت ، وإذا امتنع عليه أن يثبت شيئاً أنكره .

حاذروا أن يكون موتكم تجديفاً على الأرض والإنسان أيها الصحاب . تلك هي النعمة التي استجديها من وداعة روحكم ليرسل فكركم وفضيلتكم آخر أشعتهما في احتضاركم كما ترسل الشمس الغاربة آخر أنوارها على الأرض ، وإلا فان ميتتكم ستكون فاشلة . إنني هكذا أريد أن أموت لتزداد حبكم للأرض من أجلي ، أيها الأصحاب . أريد أن أعود إلى الأرض التي خلقتُ منها لأجد الراحة في احضانها

لقد كان زارا يرمي إلى هدف وقد أطلق سهمه الآن فارموا إلى هذا الهدف بعدي ، لأنني من أجلكم أطلقت سهمي الذهبي . فما أشتهي شيئا إشتهائي أن أراكم تطلقون سهامكم الذهبية أيضاً ، ولسوف أبقى على الأرض قليلا لأمتع عيني بهذا المشهد ، فاغتفروا لى هذا التخلف إلى حين

هكذا تكلم زارا . . .

---

(1) يعترف زارا بان عيسى عرف دموع الشعب المظلوم وغطرسة من يدعون الصلاح والعدل ، فماذا يراد منه أن يعرف بعد ، وليس من قضية اجتماعية تخرج عن حدي دمعة الضعيف وكيد المستقوين في الحياة .

كان يريد زارا أن يبلغ عيسى ما بلغه هو من العمر ليجحد تعاليمه ويطلق جناحي نفسه فيحب الانسان والأرض ، فهل بلغ أحد من مصلحي الانسانية « باعتبار القضية الاجتماعية مستقلة جدلا عن المسألة الروحية » ما بلغه العبراني والعربي بعده من حب الانسانية والتضحية في سبيل اصلاح الحياة .

وهل لنيتشه أن يدعي أنه أتى بشيء جديد في فلسفته عند تصويره مبادىء الحياة، أفليس كل ما أصاب فيه مستمدا مما أوحي الى رسل الله وأنبيائه الأطهار ، أفليس كل ما ضل فيه ناشئا عن محاولته الاستغناء عن أنوار هذا الوحي . . .



من القصص العربي

حديث سمر

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

على بساط من رمل الصحراء الأحمر، وفي ثنية من ثنايا الجبل السامق نحو السماء، وفي جو رخاء يتموج في جوانبه نسيم العشية البليل، أخذ القوم مجلسهم كالعادة يسمرون ويتفكهون! انهم فتية شبوا في ظلال الخفض والرفاهية، لم يثقلهم من الدهر هم، ولم يشغلهم من الحياة شاغل، فكلهم في بيته سليل المجد، وربيب النعمة وأخو الفراغ والجدة. وكانوا من العمر في طور الشباب تغمرهم الأماني الواسعة وتستخفهم الأحلام اللذيذة، فالدنيا ما زالت في نظرهم حلوة خضرة، تتراءى لهم كالعروس قد جلتها يد الماشطة الصناع، فكلها اغراء وكلها فتنة، فتمردوا على العشيرة. وخرجوا على المجتمع، وجمعوا شملهم بالصداقة، وأقاموا الاخاء فيهم مقام القرابة، وشردوا عن أهلهم إلى البيداء، حيث مجال الحرية الواسع ومراد النظر السادر، وميدان الركض الفسيح!

وكان من عادة القوم أن يسمروا في بيدائهم، وكانوا يجرون في سمرهم على نظام متبع، وحياة رتيبة، فهم في كل أمسية حول واحد منهم يسري عنهم بالنادرة البارعة، ويفكههم بالملحة الشاردة، وكثيراً ما يثني بهم نحو الماضي المنصرم، فيقص عليهم من ذكرياته الحلوة الطيبة، ومصادفاته الغريبة

وها هم أولاء قد أخذوا مجلسهم على عادتهم في نظام واحد وأنصتوا. انتصب ذاكر منهم كان عليه حق الجماعة، ومن واجبه «حديث السمر» في تلك الليلة فقال: لقد انحدرت مع قومي فيما سلف من الزمن إلى بغداد، فاكترينا داراً شارعة على أحد الطرق المعمورة بالناس، وكنا في عيشنا نجري على طبيعة الدهر من الرخاء والبؤس، فترة يغمرنا اليسر والرغد وطوراً يشملنا العسر والفاقة! لله تلك النفوس الطيبة يا إخوان؛ لقد كنا لا تكر أن تقع مؤنتنا على واحد منا اذا أمكنه؛ ولقد يبقى الواحد فينا لا يقدر على شيء فيقوم به أصحابه الدهر الأطول، وكنا اذا أيسرنا أكلنا من الطعام ألينه، وانحدرنا إلى أسفل الدار، ننتهب اللهو، ونهتاج العواطف بالطرب، فاذا ما عدمنا ذلك انصرفنا إلى غرفة تتمتع منها بالنظر إلى الناس، ولكن لا أعرف أن النبيذ خلا من أيدينا على أية حال.

فانا لفي يوم من الأيام، صادفنا فيه افتقار القوت، وسعدنا منه بوفرة النبيذ، واذا بفتى يطرق علينا الباب طرقاً، فلما صعد إلينا بعد الاذن، ألفيناه حلو الوجه، سري الهيئة، ينبيء رواؤه عن الخير، ويدل مظهره على النعمة، ابتدأنا بالتحية واستمر يقول: لقد سمعت بمجتمعكم، وحسن منادمتكم وصحة ألفتكم. وعلمت كأنما أدرجتم في قالب واحد، فاحببت أن أكون واحداً منكم فلا تحتشموني، وخذوني باوضاع الأخوة لا بواجب الضيافة. فكنا في أنس بلقياه، ونشوة من حديثه، ولكنا كنا أيضاً في هم وفكر من تدبير القوت له والحصول على الزاد الواجب لغدائه.

ولم يمض كثير حتى أشار الفتى إلى غلامه فوضع بين أيدينا سلة خيزران فيها طعام المطبخ من جدي ودجاج وفراخ ورقاق وأشنان ومحلب وخلة، وأجبنا صاحبنا إلى ما طلب من حق الأخوة فلم نحتشم طعامه فحططنا فيه، ثم أفضنا في الشراب، وأفضنا في الحديث، وانبسط الفتى معنا في الكلام، فاذا به أحلى خلق الله إذا حدث، وأحسنهم استماعاً إذا حدث، وأمسكهم عن ملامة إذا خولف. ثم أفضينا منه - على طول المقام - إلى أكرم محالفة، وأجمل مساعدة، وكنا ربما امتحناه بأن ندعوه إلى الشيء يكرهه فيظهر لنا أنه لا يحب غيره، نطالع ذلك في إشراق وجهه، وانبساط أساريره، فصرنا نغني به عن حسن الغناء، وشغلنا بأخباره وآدابه، وشغفتنا نوادره وأماليحه، ومع ذلك فما وقفنا على اسمه،

ولاحققنا نسبه ، وإنما عرفناه بأبي الفضل ، وكنا ندعوه بذلك
وجلس في يوم يطرفنا بنوادره ويقص علينا شيئاً من تاريخه فقال: ألا أخبركم بم عرفتكم ، ولماذا آثرت صحبتكم ؟ قلنا : إنا لنحب ذلك ونطمع فيه ، قال : لقد أحببت جارية في جواركم ، فشغفت نفسي حبا ، وتدله قلبي في هواها فكنت أجلس في الطريق ألتمس اجتيازها فاراها ! ودمت على ذلك حتى أخلقني الجلوس على الطريق ، وأنكرت من نظرات السابلة ، ورأيت غرفتكم هذه ، ووقفت على خبركم في العيش وأخذكم بالائتلاف والمساعدة ، فكان الدخول فيما أنتم فيه أسر عندي من تلك الجارية !

فقلنا : هون على نفسك يا ابن العم ، وتمن في تحقيق مأربك ، وسنجد في اختداع الفتاة حتى تصير اليك ! فقال : حسبكم ياإخوان : إني والله على ما ترون مني من شدة الشغف والكلف بها ما قدرت فيها حراماً قط ، ولا تقديري إلا مطاولتها ومصابرتها إلى أن يمن الله بثروة فأشتريها ، وبغير هذا لا يكون الوصول اليها مني على بال .

وأمضى الرجل في أخوتنا شهرين ، فكنا في اغتباط بقربه ، وأنس من صحبته ، ثم خالسنا الفراق على غفلة فنالنا بذلك ثكل ممض ، ولوعة مؤلمة ، وما كنا نعرف له منزلا فنلتمسه ، ولا باباً فنطرقه . فوالله لقد كدر علينا بعده ، بقدر ما طاب لنا بقربه ، وجعلنا لانرى سروراً ولا غما إلا ذكرناه لانفصال السرور بصحبته وحضوره ، والغم بمفارقته وغيابه ، فكنا فيه كما قال الشاعر :

يذكرنيهم كل خير رأيته وشر ، فما أنفك منهم على ذكر

وتصرمت على غيابه عشرون يوماً وكأنها الدهر ، وما لنا مطمع في لقياه ثانية ، فإن فترات الصفو محدودة ، والحياة ضنينة في إرجاع ماكان ، فبينا نحن نجتاز الرصافة يوماً إذا به يطالعنا في موكب نبيل ، وزي جميل ، وما أبصر بنا حتى انحط عن راحلته وانحط غلمانه ، وإني ما زلت ألمحه في أعطاف الماضي وهو مقبل نحونا في لهفة يقول : والله يا إخواني ماهنا لي بعدكم عيش ، ولا طاب لي أنس ، ولا عرفت في نفسي معنى الصفو ، ولست أماطلكم بخبري فاني أتبين فيكم اللهفة إلى ذلك فيلوا بنا إلى المنزل وهو قريب ، فلنا معه عن رغبة ، ولما تم بنا المجلس قال : لقد آن لي أن أكشف لكم عن نفسي ! أنا

العباس ابن الأحنف وطبعاً سقط لكم شيء من أمري ، وكان من خبري بعدكم أني تركتكم أطلب منزلي لحاجة ، فاذا بالشرطة في طلبي ، وفي كثير من السرعة مضوا بي إلى دار الخلافة ودارة الملك ، فصرت إلى يحيى بن خالد فقال لي : ويحك يا عباس ؛ إنما اخترتك من ظرفاء الشعراء لقرب ماخذك ، وحسن تاتيك ؛ وإن الذي ندبتك في شأنه لجليل ، فانت أعرف بخطرات الخلفاء ، وإني أخبرك أن « ماردة » هي الغالبة على أمير المؤمنين اليوم ، وقد جرى بينهما عتب ، فهي بدل المعشوق تأبى أن تعتذر ، وهو بعز الخلافة وشرف الملك يتعالى على ذلك . فقل شعراً يسهل عليه سبيل الوصل ، ويقرب له شقة المعاودة . ثم اطرحني إلى غرفة خالية ، وقدم القرطاس والدواة ، وقال هيا يا عباس ! !

ولا أكتمكم يا إخوان ، لقد شرد مني الذهن ، وتبلد الفكر ، فتعذرت على كل عروض ، ونفرت عني كل قافية ، والرسل في كل فترة تعتبني ، والأمير يستحثني ، فما زلت أحاول وأداول حتى انفتح لي شيء فجئت باربعة أبيات رضيتها إذ وقعت صحيحة المعنى ، سهلة اللفظ ، ملائمة لما طلب مني ، وأخبرت عنها الوزير فقال في لهجة المستعجل : هاتها فني أقل منها مقنع . وفي ذهاب الرسول ورجوعه قلت بيتين من غير الروي ، ثم كتبت الأبيات الأربعة في صدر الرقعة وعقبت بالبيتين فقلت :

العاشقان كلاهما متغضب وكلاهما متوجد متعتب
صدت مغاضبة وصد مغاضباً وكلاهما مما يعالج متعب
راجع أحبتك الذين هجرتهم إن المتيم قلما يتجنب
إن التجنب إن تطاول منكما دب السلو له وعز المطلب

ثم كتبت تحت ذلك :

لابد للعاشق من وقفة تكون بين الهجر والصرم
حتى إذا الهجر تمادى به راجع من يهوى على رغم

فدفع يحيى بالرقعة إلى من حملها إلى الرشيد ، فلما وقف عليها قال : والله مارأيت شعراً أشبه بما نحن فيه من هذا ، والله لكأني قصدت به قصداً ، ثم أخذ يعاود قراءتها وهو يقول : نعم ! نعم ! راجع من يهوى على رغم ، أي والله أراجع على رغمي ، لقد تمادى الهجر فلا بد أن أراجع ، هات ياغلام النعل ، ونهض فوصل ما انقطع

« البقية في ذيل الصفحة التالية »



العالم الإسلامي اليوم

اطلعنا في بعض الصحف النمسوية الأخيرة على خلاصة آراء ومحاضرات يذيعها الدكتور يوليوس جرمانوس المستشرق المجرى في الاسلام والعالم الاسلامى الحاضر؛ وقد جاء الدكتور جرمانوس إلى مصر منذ عامين وقضى نحو أربعة أشهر في تعلم اللغة العربية وحج إلى مكة (لأنه يعتنق الاسلام)، ثم عاد إلى وطنه يلقى المحاضرات ويكتب المقالات العديدة عن العالم الاسلامى، ويعلن في كل فرصة أن أحداً لم يوفق مثل توفيقه إلى دراسة اللغة العربية وشئون العالم الاسلامى قاطبة. بيد أن الدكتور يبدى في معظم الأحيان آراء لا تخرج في جملتها عما نسمعه عن كثيرين غيره زاروا البلاد الاسلامية زيارات طائرة، ثم زعموا أنهم يعرفون من أمرها ومن حاضرها ومستقبلها كل شيء، فهو مثلا يقول عن اللغة العربية إنها تعتبر بالنسبة إلى اللغات (أو اللهجات) التي تتكلم بها الشعوب العربية مثل اللاتينية بالنسبة إلى اللغات الرومانية التي نشأت عنها، وهذا تشبيه هو أبعد الأشياء عن الحقيقة لأن اللغة العربية لم يصبها في أي عصر من عصور الركود ذلك الموت الذي اصاب اللاتينية ولأنها تكاد تكون بشكلها المصقول لغة الحديث العادي في الطبقات المستنيرة بالبلاد العربية، ثم يقول عن الاسلام انه أي الاسلام لايجوز اليوم نهضة ما، وإنما الشعوب الاسلامية هي التي تجوز مثل هذه النهضة، وأن الشباب في جميع العالم الاسلامى يتأثر أشد التأثر بمبادىء مصطفى كمال واصلاحاته، وأن مصر وسوريا والعراق وغيرها من الأمم الاسلامية ستسير في أثر مصطفى كمال وتنهج منهجه؛ والدكتور جرمانوس يخطىء في هذا الرأي أشد الخطأ، فقد أدركت الشعوب الاسلامية منذ بعيد ماتنطوى عليه الحركة الكمالية من الزيف والزيغ والخصومة المضطرمة للاسلام والعالم الاسلامى؛ ولم تبق الحركة الكمالية عنوانا لغير تركيا التي أخرجت من عداد العالم الاسلامى؛ ونستطيع أن نؤكد للدكتور جرمانوس أن مصر لم تتأثر في يوم ما ولن تتأثر بمثل هذه الحركات الالحادية المفرقة. أما أن العالم الاسلامى لايجوز اليوم نهضة ما، فكل الدلائل المعنوية والمادية تنم بالعكس عن نهضة إسلامية بعيدة المدى، وهذه حقيقة يقررها كثيرون ممن هم أبعد نظرا وأكثر خبرة بشئون العالم الاسلامى من الدكتور جرمانوس

وفاة عميد الشعر الانكليزى

أشارت الرسالة في العدد الماضى إلى وفاة الشاعر الانكليزى جون درنكواتر، وكانت وفاته فجأة وهو في عنفوان قوته

وكأن الخليفة قد أذهله السرور، فلم يسأل عن الشاعر الذي أطربه، ومضت فترة الرجاء وحسبت أني نسيت فراودت نفسي بالانصراف وغدوت على يحيى أستاذنه في ذلك فقال: مهلا ياعباس! لقد أمسيت أنبل الناس، إن ماردة لما وصلها الخليفة سألت عما حمله على ذلك فعلمت أنه الشعر، وقد همها وهم الخليفة أن يعرفا الشاعر الذي قدم لهما هذه اليد فجاء الرسول يسألني في ذلك فقلت له إنه «العباس بن الأحنف» فامر لك الخليفة بجائزة طائلة، وأمرت لك ماردة بأخرى، ولك مني يا عباس الثالثة، وإن من تمام اليد عندك ألا تخرج إلا في الزي الجليل، والمركب الفاره!!

فهذا يا إخواني ما عاقني عنكم، فهلموا أقاسمكم ما نلت، وأشاطركم ما كسبت فابينا وأبي، وتمنعنا وأصر. ثم ذكر لنا الجارية، وقال هيا نمضي اليها حتى نشتريها، فمشينا إلى صاحبها وكانت جارية حلوة ظريفة لا تحسن شيئاً، أكثر ما عندها ظرف اللسان وتأدية الرسائل، وكانت تساوي على وجهها خمسين ومائة دينار، فلما رأى ميل المشتري أسام بها خمسمائة فلما أجبناه بالعجب حط مائة ثم حط مائة، فقال العباس: مهلا يا إخوان، إني والله أحتشم أن أقول بعد ما قلتم، ولكنها حاجة في نفسي. فأكره أن تنظر إلى بعين من قد ما كس في ثمنها، دعوني أعطه الخمسمائة كما طلب، قلنا: وانه قد حط مائتين، قال: وان فعل؛ فصادف ذلك من مولاها رجلا حراً فأخذ ثلثمائة وجهزها بالمائتين، وحملها إليه!

ألا رحم الله العباس وطيب ثراه، فانه مازال الينا محسناً يرعى حق الأخوة فينا حتى فرق بيننا الموت!

محمد فهمي عبد اللطيف

وشاعريته ، ولما يبلغ بعد الخامسة والخمسين من عمره ، وقد فجع الشعر الانكليزى حقاً بوفاة درنكوانز ، ذلك أنه يعتبر منذ وفاة توماس هاردى ورديارد كبلنج عميد الشعر الانكليزى ، وكان مولده سنة ١٨٨٢ وتلقى تربيته في أكسفورد وبرمنجهام ، وبدأ حياته كاتبا فى إحدى شركات التأمين ، وشغف بالمسرح والشعر منذ فتوته وعاون فى إنشاء مسرح برمنجهام التوقيعى الذى كان يشرف عليه الفنان الشهير السير بارى جاكسون . وظهرت له أول مجموعة شعرية فى سنة ١٩١١ بعنوان « الرجال والأوقات ، Man and Hours ، وظهرت فى نفس العام أول قطعة مسرحية له موضوعة بالنظم ، ومنذ سنة ١٩١٤ يوالى درنكوانز اصدار مسرحياته ، وقد أحرزت جميعا نجاحا عظيما ، منها « الثورة ، Rebellion ، وهى شعرية ، و « السيوف والمحاريث ، Sowrds and ploughshares بيد أن أعظم قطعه المسرحية بلا مراء هى قطعته الشهيرة « ابراهام لنكولن ، وقد مثلت لأول مرة سنة ١٩١٩ ، ورفعت شهرته إلى السماكين ، وفى سنة ١٩٢١ ظهرت قطعته « أوليفر كرومويل » ، بيد أنها لم تكن فى نجاحها وروعتها كسابقتها « ابراهام لنكولن » . وفى سنة ١٩٢٦ نشر درنكوانز رواية توماس هاردى الشهيرة « عمدة كستر بروج » فى صورة مسرحية . وكتب درنكوانز أيضاً عدة فصول نقدية بديعة ؛ ومن أبدعها وأقواها دراسته لحياة صديقه الشاعر روبرت بروك ، الذى توفى فى اليونان أثناء الحرب الكبرى .

ومنذ عدة أعوام تزوج الشاعر من الموسيقية الشهيرة ، دیزی كندى ، وهى سيدة بارعة فى ثقافتها وفى فنها ، درست الموسيقى فى فينا وبرعت فىالعزف علىالقيثارة براعة مدهشة ، وأحرزت شهرة عظيمة فى جميع عواصم القارة .

ويذكر القراء أن الشاعر الكبير وزوجته الفنانة البارعة قدما إلى مصر فى شتاء سنة ١٩٣٣ ، وسحرت ديزى كندى بفنها الرائع المجتمع المصرى الرفيع الذى هرع إلى سماع عزفها فى الحفلات التى أقيمت يومئذ .

صاحب الجلالة الملك فاروق يتحدث عن البلاد الاسلامية

قابل مندوب جريدة « لنزانال » جلالة الملك فاروق فأدلى إليه بالحديث التالى :

بدأ الملك المحبوب حديثه قائلا :

لقد أصبحنا حلفاء انكلترا وسنعرف كيف نحافظ على هذا التحالف . إن شعبي يعترف بالجميل ، وهو ينسى الماضى ، ويعترف بالحاضر ، ويفكر فى المستقبل !

إن مصر كانت ولاتزال «عاصمة الاسلام» فىالعالم الاسلامى ومركز الحركة الوطنية فيه ، وقد كان للعلائق الانكليزية المصرية الجديدة أكبر أثر فى جميع العالم الاسلامى

— وهل لمصر علاقة سياسية مباشرة مع البلاد الاسلامية ؟

— إن علائق المسلمين - ونستطيع أن نقول الشرقيين - هى علائق أخوة وتضامن واتحاد ، وإذا كان المصرى يهتم بقضيته الخاصة فانه لا ينسى قط قضايا البلاد العربية الأخرى . وإنك لتجد أن كل حادث يقع فى ناحية من أنحاء الشرق يشغل النفوس بسرعة فى القاهرة

— إذن تعتقد جلالتكم بوجود « الوحدة الاسلامية » ؟

— إن هذه الوحدة كما يفهمها الأوربيون ليست موجودة ؛ ولكن الشعور بالاتحاد والتضامن يعمر نفوس جميع المسلمين إن اليقظة التى عمت البلاد الاسلامية - وخاصة البلاد العربية - بعد الحرب العامة ، بدأت تظهر بوضوح وصراحة . وسيكون للمسلمين شأن كبير فى المستقبل القريب

— وهل يضمر المسلمون روح « العداء للأجنبى » ؟

المسلمون كثيرو التسامح ، وهم لا يضمرون عداء لأحد ، ولكنهم يطالبون بحريتهم واستقلالهم ، ويبدون استعدادهم لتوطيد علاقتهم الودية مع الأجانب

النقوش الأثرية فى الواحات المصرية

كثر تردد العلماء الأثريين فى العهد الأخير على الواحات المصرية ، فظهر أنها ميدان حسن للبحث والتنقيب ، وعثر العلماء فيها على كثير من النقوش القديمة التى ربما كانت ترجع إلى العصر الحجرى ، وعلى كثير من النقوش الفرعونية قد صورت على الصخور ، وعلى جدران بعض الأبنية القديمة التى كشفت عنها الرمال ؛ وفيها صور لبعض مناظ الحياة الاجتماعية القديمة والحيوانات الضارية منقوشة إلى جانب بعض الآلهة المصرية القديمة ؛ وعثر المنقبون أخيرا على صور من طراز آخر منها صور تجار من اليونان والرومان ، وصور قوافل عربية أو بربرية قديمة ، ويقول العلامة الأثرى الألمانى الدكتور فنكلر أنه يستدل من النقوش المكتشفة أن الصحراء الواقعة على جانبى النيل كانت مسكونة منذ نحو ألفى عام من البدو ؛ وأن هذه القبائل كانت تجرى على مثل الفراعنة فى عبادة بعض الحيوانات المقدسة ، وتوجد صور رجال قد تدلت شعورهم على أكتافهم ورجال قد زينوا رؤوسهم بالريش ؛ ويستدل من صور السفن المنقوشة على أن هذه القبائل لم تكن مصرية الأصل ، وأنها إنما نزحت من شواطىء البحر الأحمر الشرقية إلى الصحراء ؛ ولهذه النقوش أهمية خاصة فى الكشف عن أصول الشعوب التى سكنت هذه الوهاد فى العصر الغابر .



فى سنن الله الكونية

تأليف الأستاذ محمد أحمد الغمراوى

عرض وتعليق — رجاء الى لجنة ترجمة معانى القرآن الكريم — واجب علمائنا الطبيعيين

للأستاذ عبد المنعم خلاف

تفضل حضرة الأستاذ الجليل العالم المؤمن محمد أحمد الغمراوى المدرس بكلية الطب بالجامعة المصرية والمنتدب للتدريس بكلية أصول الدين من الجامعة الأزهرية فأهدى إلى نسخة من كتابه الحديث « فى سنن الله الكونية » فقلبت عينى فيه بشوق الذى يعرف علم الأستاذ بالطبيعة وفقهه فى الدين، لأنى واحد من تلاميذ محاضراته ومحادثاته فى العلم والدين فى نادى المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين بالقاهرة، تلك المحاضرات التى كان لها كبير الأثر فى أنى صرت « آخذ الإسلام بروح العلم وآخذ العلم بروح الاسلام » كما يجب أن يكون وكما حققه هو فى كتابه القيم، اتباعاً لمنهاج القرآن وتلبية لدعوته العقول إلى الطبيعة

والكتاب فى العلوم الطبيعية، وقد درسه الأستاذ لطلاب قسم الوعظ والارشاد بالأزهر، وقد وازنته بما درسته فى دور التعليم وما قرأته فى المجلات العلمية من جهة ما فيه من مادة العلم الطبيعى فقط، وأؤكد للقارىء الكريم أنى خرجت منه بأشياء جديدة كثيرة ماعثرت عليها فى غيره على كثرة ماقرأت من هذه البحوث التى أحبها لأنها تصلنى بالحياة وقوانينها وسيرها بالأحياء. فى عبارة سهلة مشرقة محبوكة، لأن المؤلف فوق أنه عالم طبيعى كبير، هو أديب مليح ومنطقى يقظ لكل ما يدور حول ما يكتبه. يشهد له بذلك كتاب « النقد التحليلى لكتاب (فى الشعر الجاهلى) للدكتور طه حسين بك » الذى بين به أن له قلما سابقا فى الآداب كسبقه فى العلم. و« فى سنن الله الكونية » يقع فى ٢٢٢ صفحة عدا الفهارس وهو مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب: الأول فى العلم والدين، والثانى فى المادة وأصلها وخواصها وأحوالها وأنواعها وتغيراتها ... الخ، والثالث فى الطاقة وأبحاثها وآثارها ... الخ

وأنت واجد فى المقدمة إهابة بالمسلمين ومعاهد الدراسة الاسلامية ألا يغفلوا مباحث الفطرة وعلوم سنن الحياة لأن العلم بها جزء من العلم بدينهم وأصل من أصول قرآنهم الذى يتحدث بخمس آياته عن الطبيعة والنظر فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء وكيف بدأ الخلق ... وأن يعلموا أن رجل الدين لا يسيغ العلم إلا إذا قدم له بروح الدين، ورجل العلم لا يسيغ الدين إلا إذا قدم له بروح العلم، وهى حقيقة نفسية يجب أن يلتفت إليها. وفى التمهيد بحث قيم عن موضوع العلوم الطبيعية وأثر دراستها فى الوصول إلى فاطر الخلق والتوحيد بها بين العقل والقلب والعلم والعبادة.

أما الباب الأول فهو بحث جديد قيم عن العلم والدين، جدير بأن يترجم إلى المجامع العلمية، وأن يدرس فى المعاهد الاسلامية، لأن الأستاذ استطاع أن يبين بوضوح قرآنية اسم « العلم » بمعناه المحدود العصرى، وقرآنية « موضوعه »، وقرآنية « طريقته » ففتح بذلك فتحا جديدا « لعلم الكلام » الذى يجب أن يكون فى هذا العصر بعيدا عن منهج النظار والمتكلمين القدماء الذين كانوا يعتمدون على « تجريدات » الفلسفة اليونانية

إن قوانين العلم التى استخرجها الأستاذ من القرآن الكريم شىء ثمين جداً سيكون له أثر عظيم فى تطور « الفلسفة » الدينية، وفى لفت الأنظار إلى القرآن الذى أتى بذلك قبل أن يأتى به فلاسفة العلم المحدثون بأحقاب وأزمان؛ فالبرهان للإثبات، والحذر من تطرق الظنى إلى اليقينى، والفرضى إلى الظنى، ومنع الخلط بين الأشخاص فى المبادىء، ومنع التقاليد، وتحكيم العقل العام ثم قانونا توافق واطراد الفطرة، ثم اعتبار أصل المشاهدة واستعمال الحواس، كل أولئك استطاع أن يتبسط فيه الأستاذ المؤلف بالشرح والبيان وأن يستخرج مستنداته من القرآن الكريم، وأن يحبكه حبكة علمية باخراج فنى أخاذ

وأضف إلى ذلك أنه عقد مقارنة بين العلم القديم والعلم الحديث بين فيها كثيراً من أغلاط العلم القديم التى جره إليها طريقته وافتراضاته. وقد وقع بعض المسلمين فى خطأ كبير وإثم عظيم باعتمادهم على ذلك الأسلوب الفرضى حتى لقد بلغ بهم

الأمر أن كانوا يردون القرآن إليه مع أن مناهج القرآن في طرق الاثبات والاستدلال واضح بينهم ينكر عليهم الشرود والوهم ، ثم عقد الأستاذ فصلا بين فيه أدوار النظر العلمي من جمع الحقائق بالتجربة والمشاهدة ، ثم استخراج القانون ، وبين طرق اكتشاف قوانين الفطرة بالاستقراء والتلمس ، ثم ضرب مثلين يوضحان طريقة التلمس ، وختم هذا الباب القيم بهذا الكلام البديع : « إن هذه الحقائق الطبيعية التي يكشف عنها العلم ببحوثه إن هي إلا نوع من كلام الله أو هي كلمات الله الواقعة النافذة كما أن آيات القرآن هي كلمات الله الصادقة المنزلة . وقد سمى القرآن حقائق أسرار الخلق كلمات الله في مثل قوله تعالى : « ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » - (لقمان) « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا » (الكهف) . وكلمات الله في هاتين الآيتين الكريمتين لا يمكن أن تكون كلماته المنزلة على رسله لأن كلماته سبحانه في كتبه المنزلة محصورة محدودة في حين أن كلماته المشار إليها في هاتين الآيتين لا حصر لها ولا نهاية . فلابد أن تكون هي كلماته النافذة في خلقه والتي يبدو أثرها متجسما فيما نشاهد من الحوادث وفيما يكشف العلم من أسرار الكون . فالاسلام متسع للعلم كله حقائقه وفروضه ؛ والمجتهد مثاب أخطأ أم أصاب ما دام يريد وجه الحق ، وإن كان العلم لا يعرف إلى الآن أن سبيل الحق من سبيل الله »

* * *

أما بابا « المادة والطاقة » ففيهما يعرض الأستاذ المباحث الطبيعية عرض المطلع عليها في مراجع العلم القديم والحديث ، وفيهما مواقف ناجحة في تطبيق بعض الآيات الكونية في القرآن على حقائق العلم مما يضيف ثروة جديدة لنواحي إعجاز القرآن تمتلئ بها عقول الدعاة والوعاظ ؛ ففي مباحث الجاذبية والأثير والظواهر الجوية والتمثيل الخضري والضوء والظل والفيء حقائق أشار إليها القرآن يجدر بكل مسلم أن يعرفها ويجدر بلجنة ترجمة معاني القرآن أن تنتفع بها ، فلا تقف عند ما كان يفهمه منها العرب الذين أنزل عليهم كما اشارت إلى ذلك فيما وضعته من القواعد الأولية التي تسير عليها في الترجمة ، فان القرآن ليس كتاب جيل واحد ؛ ولنا أن نفهم منه غير ما كانوا يفهمون وبخاصة الآيات الكونية التي لم يكن علمهم ولا علم البشرية ليساعدهم على فهمها كما نفهمها نحن الآن . ولذلك كان القرآن يقول لهم « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ، « فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » ، « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » ، وإن في وقوف الأستاذ المؤلف وهو عالم بقوانين الضوء والظل وفي القرن العشرين من قوله تعالى « ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا » ، ومن قوله « ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً » ، وقفة العالم أمام حقيقة لاتزال مخبأة . . لشاهداً قائماً على أن في القرآن آيات لم تكن نازلة للجيل الذي شهد نزولها ، فلا يصح أن نتحاكم نحن إلى فهمهم فيها ما دام الزمن (أكبر مفسر للقرآن كما قال الشيخ حسن الطويل أستاذ الامام محمد عبده) قد أرانا بسير العلم وجها آخر يحتمله اللفظ ولا يأباه الأسلوب العربي

ولا يضر القرآن شيئا أن تتغير الأوجه العلمية التي يفسر بها كل جيل آياته ، مادامت نصوصه هو ثابتة . وما دام كل جيل يجد فيه ما يرضيه ، فان ذلك من أسرار إعجازه ومن عجائبه ، فاذا فهمنا نحن مثلا معنى اللقاح من قوله تعالى « وأرسلنا الرياح لواقح » على أنه تلاقح كهربائي بين الموجب والسالب في السحاب كما فسر الأستاذ الغمراوي . وفهمنا سر الاستدلال على البعث من قوله تعالى « الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا » كما بينه الأستاذ فأعتقد أنه لا يضر القرآن أن فهم من قبلنا في هذين الموضعين وغيرهما وأن يفهم من بعدنا غير ما نفهم نحن الآن . على أن الوجه العلمي متى صار حقيقة دخلت في صف الميراث العلمي الثابت ، فحتوم على المفسرين أن يأخذوا به ، كما يتحتم عليهم أن يؤولوا النص القطعي إذا لم يتفق ظاهره مع ما يلزمه العقل لتقرير القاعدة الأصولية .

* * *

وبعد فقد قرأت في مجلة الهلال عدد مارس سنة ١٩٣٧ قبل أن أقرأ كتاب الأستاذ الغمراوي ثلاث مقالات عن الذات الالهية لثلاثة من كبار علمائنا الطبيعيين هم : الدكتور علي توفيق شوشة بك مدير معامل وزارة الصحة ، والدكتور أحمد زكي بك مراقب مصلحة الكيمياء . والدكتور محمد ولي الاستاذ بكلية العلوم ، فاذا بالدكتور شوشه بك يقول : إذا كان هناك أناس أحق بمعرفة الله ودرك عظمته والاقرار بوحدانيته فهم العلماء ، ذلك لأنهم أكثر خلق الله اتصالا بالطبيعة وأقربهم إلى لمس غوامضها ثم يقول : إنني كلما جلست إلى المكرسكوب أو انصرفت إلى التجارب في معملي لم أزدد إلا خشوعا أمام تلك القدرة الالهية »

وإذا بالدكتور زكي بك يقول في آخر مقالة الطويل الممتع كأنه قصيدة، المطرب كأنه ترتيلة، المثبت لوحدانية الله بأسلوب عجيب. « وبعد فتسألونني : ما صورة الله ؟ تلك هي صورته : تلك المشيئة الهائلة العاملة التي لا تنام ولا تغفل، تلك الارادة الواحدة التي تنظم العالم جميعا ما عرفنا منه وما لم نعرف، تلك البصيرة النافذة في كل شيء، الشاملة لكل شيء، التي هي ملء الأرض والسموات التي أنا وأنت من بعضها، تلك الوحدانية الشائعة الجبارة الغامضة، هي الصورة التي شاء الله أن نراها منه »

وإذا بالدكتور ولي يقول « هنالك يشعر الباحث الذي لم يتحيز إلى أي مذهب فلسفي والذي جرد نفسه من المؤثرات التي انكبت عليه أن هنالك سلطة وأن هنالك قدرة فوق كل هذه المحاولات، وتنزهت عن كل هذه الصفات التي تعودها في أثناء بحثه واستقرائه » إلى أن يقول : « فالله هو هذه القدرة الباهرة التي تجردت عن الماديات وتنزهت عن كل ما هو مألوف للحواس »

قرأت هذا ثم قرأت كتاب الأستاذ الغمراوي الذي هو حجة من حجج إيمان العلماء، فإذا بي في عجب وأسف من أمر هؤلاء الذين لم يعرفوا من العلم إلا قشوره وزيوفه وهم مع ذلك قد نصبوا أنفسهم دعاة للالحاد وإنكار الله استنادا إلى العلم! هؤلاء أكثرهم من الأدباء طالبي الشهرة الذين يغرهم ما « يصنعونه » من الألفاظ ويخيل اليهم غرورهم وفتنتهم بما يقولون أنهم متى صنعوا جملة من الألفاظ فان مواكب الزمان ستقف عن المسير، وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا، لأن أقلامهم هذه معاول فيما يخيل إليهم، إذا ما أعملوها في أهول الحقائق وأعظمها وأملئها للكون ألا وهي « فكرة الله » فان ذلك سيجعل البشرية تستجيب إليهم تاركة ما في طبيعتها وما تنادى به الأكوان والأزمان من الايمان!

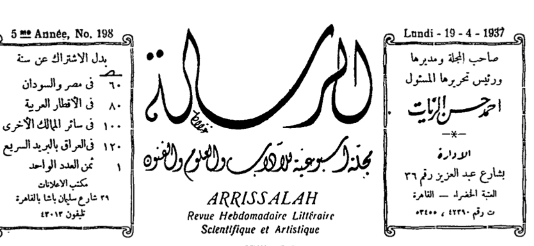
أجل إن أقلامهم معاول ولكنها لاتهدم إلا ضمير الجاهل أو طالب اللذة الذي يريد أن يتحلل من قيود هذه الفكرة، ومن رقابتها.

فهل آن الأوان لأن يجرد علماء الطبيعة ـ لاعلماء الدين ـ حملة تدعو إلى الايمان بالله عن طريق العلم، حتى يدحضوا بها حجج أدعياء العلم والفلسفة ممن هم في الواقع أعداء الجماعة وأنصار فوضى الضمائر والأوضاع كالشيوعيين الذين يحاربون الايمان بالله لأنه في زعمهم منشأ الاوتوقراطية فيجب أن ينزلوه ـ تعالى عما يصفون ـ عن عرشه كما أنزلوا القياصرة والملكين!

إني أعتقد أن ذلك من أوجب الواجبات على علماء الطبيعة الذين يعرفون الله أكثر من غيرهم والذين ما غرو بالناس إلا من طريق الانتساب إليهم. ولن يغني البشرية شيئا انتفاعها المادي من علوم الطبيعة مادامت لاترى اليد الجبارة التي تدير قوانينها، ولاتسجد لها طوعا كما تسجد كرها. وها نحن أولاء نرى الانسانية تستحيل إلى قطعان من الحيوان لها من العلم الطبيعي سلاح لاتلطف وقعه تلك الفكرة الرحيمة التي تستمدها الضمائر من « رحمان » ولا يصده خوف من « جبار » ولا يمنعه خشية « من قيوم » على السموات والأرض، « ديان » للخلائق!

وإذا كان علماء الطبيعة من غير المسلمين لايعترفون بإله معابدهم لأنه صورة غير صورة الإله الذي يجدون يده في الطبيعة فهم لذلك بعيدون عن محيط الدعوة إلى الايمان والدين... فان من حسن الحظ في الاسلام أن إله الطبيعة الذي وصل إلى الايمان به علماؤنا عن طريق الطبيعة... هو ذاته « الله » كما يصفه القرآن الكريم الذي ما مجد الطبيعة وظواهرها وما دعا إلى تعرف أسرارها كتاب مثل مادعا... بل لقد بلغ من اعتزازه بها أنه لم يترك ظاهرة من ظواهرها إلا أقسم بها... فأقسم بالزمان والمكان والحيوان والنفس والفجر، والضحى والليل والنهار والشمس والقمر والرياح والنجم والشفق... إلى آخر ما في الدنيا من ظواهر الخلق والأمر... أفلا يجب بعد هذا أن يبين علماء الطبيعة المسلمون أسرار هذه الاقسام؟ بل إن ذلك من أمانة العلم قبل أمانة الدين

(بغداد) عبد المنعم خلاف



5 me Année, No. 198

بدل الاشتراك عن سنة

مـ	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

Lundi - 19 - 4 - 1937

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٠٠

العـــدد ١٩٨ « القاهرة فى يوم الاثنين ٨ صفر سنة ١٣٥٦ — ١٩ أبريل سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

صفحة

حول مؤتمر الامتيازات

منطق الواقـــع

مصر الآن أمام اثنتى عشرة دولة فى (مونترو) ؛ تزيف الادعاء بالقانون ، وتكفكف الغُلواء بالحزم ، وتكشف المغالطة بالحجة ، وتقول للذين ظلموها وظلموا العدل : هأنذى أمامكم وجها لوجه ، وعقلا لعقل ، ولسانا للسان ؛ أخاطبكم بلغاتكم كأنى منكم ، وأجادلكم بعلومكم كأنى فيكم ؛ فهل تجدوننى أقل منكم فقها لفلسفة التشريع ، وعلما بمدنية العدل ، وفهما لسياسة الحكم ؟ هاهم أولاء بعض أبنائى أوفدتهم اليكم يحملون كلمتى ويمثلون ارادتى ؛ فهل رأيتم أروع خطابا من النحاس ، وأبرع برهانا من مكرم ، وأقطع بيانا من ماهر ؟ أليسوا هم حجتى العليا على أنكم تدافعون عن نظام لا يجد مساغا من طبيعة الناس ، ولا مساكا من منطق الأشياء ؟

لماذا تخشون أن يكون أمثال هؤلاء قضاة فى ديارهم بين مجرميكم ، وهم يجرون مع أخياركم فى عنان ، ولا يتخلفون عن أقطابكم فى ميدان ؟

لماذا تأبون أن يتساوى الوطنى والأجنبى فى الحق والواجب ، وأنتم ترون هذا النهر المبارك يضفى عليكم النعمة ، ويميزكم على أبنائه فى القسمة ؟

ooo

ذلك ما تقوله مصر لخصومها (الممتازين) الذين احتشدوا

فى مونترو يفاوضونها فى تنظيم العدوان ، ويعارضونها فى محو الاهانة . وهذا القول لاعيب فيه إلا اعتماده على الحق الذى زهق فى دول أوربا ، واستناده إلى المنطق الذى اختنق فى كتب الفلاسفة . فلو أنه قيل على أسلوب الزمن الحاضر ، وجرى على منهاج المنطق الحديث ، لما قابله المكابرون إلا بالتصفيق . والمنطق الحديث منطق الفعل لا منطق القول . وإذا كان مدار المنطق الكلامى على القياس ، فإن مدار المنطق العملى على الواقع ؛ والواقع فى قانون الطبيعة له سلطان الأمر الموجود وقوة الشىء المحكوم به ؛ والمفاوضة فيه تختلف عن المفاوضة فى النية المكتوبة والفكرة المقترحة .

كان بيننا وبين جيراننا فى المزرعة حد جرى عليه الخلاف فلم يتم ، فاختلط الحق بالحق ودخل من ملكنا فى ملك الجار مقدار كبير . وفى الأسبوع الماضى ندبت الحكومة مهندسا يبين الحق المشتبه، ويعين الحد المجهول ، فمسح الأرض، ورد المأخوذ، ودق الحديدة وحرر المحضر ، وأمضاه الجيران وفيهم العمدة . وكان الحد بين مزرعتين ، ولكن الخلاف بين قريتين ، فاتفقنا نحن وهم على أن نقيم الحد فى اليوم التالى ونجعله مصفًى ومروًى بينهما طريق . ولكننا علمنا فى الليل أنهم طمعوا فيما تحت أيديهم فلا يودون أن ينزلوا عنه . وتعليل هذا التحول يسير على من عرف غرائز الناس وخبر طبائع الريف . وفى الصباح الباكر كانت القرية فريقين : فريق الفأس والعمل وقد ذهب إلى المزرعة ، وفريق المنطق والكلام وقد ذهب إلى القرية العنيدة . وانعقد مجلس القريتين فى دار العمدة ؛ ثم انطلقت الألسنة البليغة تتجاوب بالعواطف الشاعرة تجاوب البلابل فى أعشاش الربيع . وكانت قوافى الأغاريد ترن موسيقاها بألفاظ الصداقة والود والمصاهرة والمجاورة والقانون والحق ، فتطرب الآذان ، وتهتز القلوب ، وتشرق الأوجه .

فلما انتهينا إلى أن هنالك حدا يجب أن يقام ، وحقا يجب أن يُعطى ، تكشر الوجه الضاحك ، وتنكر الصوت الرخيم ، وانتفخت لغاديد الشر ، فتهور بالكلام وتهدد بالمعارضة ؛ وكان فيهم رجل رشيد ، فكان يملأ الدلو من حين إلى حين ويُفرغه على القوم، فتقر الفورة ويهدأ الحديث . وفى فترة من تلك الفترات الساكنة ، اقترح أن نجعل لجيراننا الطامعين أجلا متى حل وجب عليهم أن يردوا الحق من غير اعتراض ولامطل . وارتاح القوم لهذا الحل لأنه يترك لهم العين ويأخذ منهم الأثر ، ورضينا به نحن لأنه يحسم النزاع بين القريتين ، ويذهب عن النفس المسالمة شعور الهزيمة

وكان الخلاف أشد ما كان على مدة الأجل فبدأت بشهر وانتهت بخمسة . وكان الذين وضعوا أيديهم على الحق بالباطل أبسط لسانا فى الرفض ، وأصلب عوداً فى القبول ؛ أما نحن والقانون والحكومة فكان (ارتكازنا) على خلاء .

كتبنا الاتفاق وأمضوه بعد وقفات طويلة على كل نص من نصوصه ؛ ثم أخذنا نستعد لنشيد الختام فى تمجيد الوئام والسلام ، لولا رسول أقبل من الغيط يعلن أن رجال الفأس والكريك لم ينتظروا نتيجة المؤتمر . فحفروا المصفى ، وشقوا المروى ، وأقاموا الطريق ، وحرثوا الأرض ، وأنجزوا فى ساعتين ، ما لا ينجز فى يومين .

كان هذا الخبر أضخم الدلاء التى صبت على المؤتمر ، فشدهنا نحن ، وخجلوا هم ، وتذكر الجيران الأعزة حينئذ عواطف المصاهرة والمجاورة فقالوا : هذا هو الحق ! ذلك ملككم وما ينبغى لأحد أن ينازعكم فيه !!

* * *

كان فى قدرة مصر أن تتخذ سياسة الأمر الواقع ، فتلغى بإرادتها المطلقة هذه المعرة التى ورثتها عن الترك كما يورث الزهرى الافرنجى عن الأب المريض . ولو أنها آثرت هذه الخطة لوجدت حجتها فى القانون لا فى القوة ، ولكن مصر الكريمة المضيافة لاتزال تجرى على أعراق أبائها الميامين فلا ترفع اليد ما دام يغنيها اللسان

على أن قوة الحق المصرى ، وقدرة المفاوض المصرى ، جعلتا القانون الأعزل أرفع صوتا من المدافع ، وأبعد نفوذاً من القنابل . وأعجب العجب أن الأمم اللاتينية التى سايرت نهضتنا وعاشرت أمتنا قرناً وثلث قرن ، كانت هى وحدها التى تجهل أن مصر دولة من دول البحر الأبيض لا أمة من أمم أفريقا ، وأن لها ديناً سماوياً يهدى إلى الحق ، وتشريعاً مدنياً يرمى إلى الخير ، وخلقاً شرقياً يدعو إلى المحبة ، وأن رعاياها كانوا قبل الامتيازات وبعدها يتقلبون فى خيرات النيل ، ولا وزر لهم إلا أخلاق هذا الشعب النيل

احمد حسن الزيات

على بك فوزى

للأستاذ أحمد أمين

لم يتجل لى وفاء المصرى وإخلاصه كما رأيته أول أمس فى جنازة أستاذى وصديقى على بك فوزى . فقد استقبل النعش فى محطة مصر عدد كبير من أصدقائه وساروا فى مشهده يعزى بعضهم بعضا إذ أبى الفقيد أن يكون له ولد ولا مال ولا جاه ؛ فكان أول مشهد عظيم رأيته لله وحده وكان أنبل ما رأيت منظر احمد باشا شفيق وقد تقدمت به السن وصعب عليه السير يتحامل على صديق ، ويسير من المحطة إلى جامع الكخيا ، ثم أسلم عليه وأسأله هل تعرف الفقيد فيقول : لا لم أره فى حياته ؛ ولكنى سمعت بنبل أخلاقه فرأيت وفاء للفضيلة أن أسير فى جنازته .

***

رحمة الله عليه ، فقد كان أمة وحده ، ولم أر له نظيراً فى كل من عاشرت . ولئن كان أكثر الناس نسخاً متشابهة من كتاب تافه مطبوع ، فقد كان نسخة خطية من كتاب قيم نادر . متمدن على آخر طراز من طراز المدنية فى ملبسه وأناقته وآدابه ولباقته ، متصوف إلى آخر حدود التصوف فى زهادته واحتقاره للمال والجاه والمناصب ، وفوق ذلك كله فى روحانيته السامية .

لم يفخر فى حياته بنسب ؛ على أنه كان جديراً أن يفخر به لو وجد الفخار مدخلا إلى نفسه ، فقد كان جد أبيه المملوك الشارد الذى قفز بفرسه من القلعة ؛ وناهيك بعظمة المماليك أيام سطوتهم .

ولم يفخر بعلمه وهو الواسع العلم العميق التفكير ؛ يجيد العربية إجادة قل أن يكون له فيها نظير ؛ ويتكلم الانجليزية كأحد أبنائها ؛ ويحذق الفرنسية والألمانية والتركية . ثم لا ينظر إلى اللغات على أنها مقاصد بل على أنها وسائل للثقافة ، فاتخذ هذه اللغات كلها أداة يتعرف بها الثقافات المختلفة ويقف على أحسن ما ألف فيها ؛ هذا الى صحة فى النقد وقوة فى الملاحظة وشخصية بارزة لا تخضع لأى مؤلف مهما عظم . ومع هذا كله تجلس اليه إن لم تكن تعرفه فكأنه أمى غبى جاهل بكل شىء ، فهو ذهب خالص غطى بقشرة من طين لا تعرفه حتى تحكه وتحكه وتصل إلى باطن نفسه ؛ ولا يكون ذلك إلا لتلاميذه وخلصائه ، وحتى مع هؤلاء يقدم اليك نتيجة معارفه الواسعة وتفكيره العميق وهو مختف وراء ذلك يحاول ألا يشعرك بنفسه ، وإنما يشعرك بالفكرة نفسها ، فكأن كلمة « أنا » لم تكن فى معجمه .

***

عرفته أول أمره أستاذاً لى بمدرسة القضاء يدرس لنا التاريخ الاسلامى ؛ وتطاير إلينا قبل قدومه أخبار منثورة عن تاريخ حياته . إنه تخرج فى مدرسة المعلمين ، ثم سافر فى بعثة الى انجلترا ، ثم عاد منها بعد أن نال إجازة من جامعتها ، وهى أوصاف لم نتحمس لها كثيراً ، فكنا قد شاهدنا بعض من سافروا إلى أوربا ورجعوا بشهاداتهم الضخمة وألقابهم العديدة وكانوا كالبندقة الفارغة : منظر ولا مخبر ، ورواء فى العين ، ولا شىء فى اليدين ؛ فقلنا لعله أحد أولئك الذين لم يكسبوا من أوربا إلا اعوجاجاً فى اللسان ورطانة فى الألفاظ وإنكاراً لعظمة أى شىء مصرى ، وعصبية لكل تافه أجنبى .

رحبسنا أنفاسنا عند قدومه نستطلع طلعته

دخل علينا رجل قصير القامة ، يحاول أن يخفى قصره بطول طربوشه وارتفاع حذائه ، أسمر اللون فى وسامة ، واسع العينين فى خجل ، كبير الرأس فى عظمة .

يتأبط كتباً كثيرة العدد لا يتناسب حجمها مع حجمه بين عربية وإنجليزية ، ويأبى أن يحملها الفراش عنه كما اعتدنا أن نرى من غيره .

وأكبر ما راعنا منه أنه بدأ درسه بعبارة عربية فصيحة التزمها فى كل درسه ، وفى كل دروسه بعد ، وفى كل أحاديثه معنا فى الدرس ، لا أعرفه شذ عنها مرة واحدة ، فى طلاقة وعذوبة واستشهاد بالأدب العربى والشعر العربى ، مما لم أعرفه لأزهرى ولا لمدرس من دار العلوم . يجيد فهم عبارة الطبرى على صعوبتها ، وابن خلدون على عمقها ، والكتب الانجليزية العميقة ، ويوضح ذلك كله بصياغة شهية لذيذة ، ويطبعها كلها بالطابع العربى فلا تسمع لفظة انجليزية ، ولا تستعصى عليه عبارة يريد أن يترجمها من لغة أجنبية

وما زادنا إعظاماً له أنه لم يكتف بالدرس بل اتصل أيضاً بنفوسنا ، فكان يخرج من الدرس أحياناً إلى شرح حالة نفسية أو ظاهرة اجتماعية يصل بها إلى أعماق نفوسنا ، وأخذنا بالنظام الشديد ، وكان يقدسه كل التقديس ، فيشمئز من الكلمة النابية ومن اللفظة تكتب منحرفة قليلا عن موضعها ، ومن النكتة إن كان فيها قليل من الشذوذ .

ولا تسل عنه فى ورق الامتحان ، فقد كان يصحح أوراقنا فى دقة غريبة ، ويأتى بالأوراق مدونة فيها ملاحظاته فى اللفظ والمعنى والأسلوب والخطأ الإملائى والخطأ التاريخى ، وينتقدنا انتقاداً لاذعاً لكن ظريفاً .

من أجل هذا كان الأستاذ المحبوب والأستاذ الجليل والأستاذ الظريف والأستاذ العالم .

لم تطل دراسته فى مدرسة القضاء ، وانتقل إلى وظيفة إدارية . ولم يطلب الانتقال لرغبة فى مال فهو يحتقر المال ، ولا فى جاه فهو يحتقر الجاه ، ولا رغبة عن التعليم فهو يحب التعليم ويصارحنى أن أكبر غلطة ارتكبها أنه تحول من التعليم إلى الادارة ، ولكنه كان شديداً ، وكان عاطف بك ناظر المدرسة شديداً ، وكان لكل شخصيته القوية ، ولكل آراؤه فى سياسة الطلبة ، فتصادما تصادماً نفسياً من غير أن ينبس أحدهما بكلمة ؛ وكان أن خرج « على فوزى » من المدرسة آسفين عليه كل الأسف شاعرين أنه لا يمكن أن يعوض ، وكان « عاطف » أول من حزن على خروجه بعد أن حاول كل محاولة فى استبقائه

كان حساساً إلى درجة لا تتصور . تجرحه الكلمة الخفيفة لا يشعر بها أحد ، والاشارة القليلة تصدر من رئيسه فيظنها بالغة منتهى الشدة ، والإيماءة المعتادة فتحز فى نفسه وتصل إلى أعماق قلبه .

فكيف يستطيع بعد أن يكون موظفاً ؟ لقد تداول عليه وزراء عديدون لا أسميهم ، كل منهم جرح نفسه جرحاً بل جروحاً . وأى الرؤساء يتحاشى حتى الهنات الهينات مع مرءوسيه ؟ وأى الرؤساء يدرك مقدار السهام المسمومة التى يوجهها إلى نفس كنفس على « فوزى » وهو لا يرى أنها سهام أصلا بل قد يظنها نوعا من الملاطفة ؟ - لقد رآه وزير يكتب خطاباً بالانجليزية فأعجبته بلاغته فقال له : لعلك تحسن أن تكتب مثل هذا بالعربية ! فما كان أشدها وقعاً فى نفسه .

ثم هو يعشق العدل المطلق الدقيق ، ويؤلمه أشد الألم الظلم الخفيف . وكان كل يوم يرى تصرفات فى الوزارات لا تتفق والعدالة التى ينشدها : هذا يحابى المتملقين ، وهذا ينصر الأجانب على المصريين ، وهنا يمنح ترقيات وعلاوات لغير المستحقين

ثم ما هذا النظام السخيف للدرجات ؟ فهنا موظف فى الدرجة الأولى وآخر فى الدرجة الثانية ! إنه يفهم أن يبدأ الموظف بمرتب صغير يزيد على القدم والكفاية ، ولكنه لا يفهم تقسيم الموظفين إلى طبقات يعلو بعضها بعضا ، ويدل بها بعضهم على بعض

لا . لا . ثارت نفسه على كل ذلك ، فى هدوء وسكون ، ومن غير أن يشعر أحد من أصدقائه دبّر أمره وأعد عدته للخروج من الوظائف الحكومية ، وألح فى طلب إحالته إلى المعاش ، فكان له ذلك . ورضى بنحو خمسة وعشرين جنيها فى الشهر على ثمانين وما كان يتبعها من علاوات وترقيات وحسبان معاشات

***

بل ليست الوظيفة وحدها هى التى يجب الفرار منها ، بل يجب الفرار أيضاً من مصر ، فما مصر هذه التى يحكمها الأجنبى وتستسلم له ؟ وما مصر التى يستمتع فيها صعاليك الأجانب بما لم يستمتع به سادة أهلها ؟ وما مصر التى تجلس فى مقهى من مقاهيها فتشعر أن الرومى الذى يقدم لك القهوة خير منك وأعز منك ، ويستطيع أن يحتقرك وأن ينكل بك ولا تستطيع أن تفعل به ما يفعل بك ؟ وما مصر التى لم تستطع أن تكون غنية فى أطبائها وعلمائها وتجارها وصناعها ولم تزل عالة فى كل ذلك على غيرها ؟ لا بد إذن من الهرب من الوظيفة ومن مصر معا

خرج من مصر ساخطاً غاضباً آسفاً حزيناً ، خرج هائماً على وجهه يمثل دور جده . لقد كان جده المملوك الشارد ، فكان هو الحر الشارد

خرج إلى أوربا هائماً فى ممالكها ، ولكنه كان فيها مستوحشاً ،

نعم إنه يتكلم لغاتها ويفهم مدنياتها ولكن ليس قومها قومه، لا دينها دينه، ولا روحانيتها روحانيته. ثم ألقى عصاه فى الأستانة عقب الحرب واطمأن إليها، فهى هى البلدة المستقلة بين ممالك البلاد الاسلامية؛ وهى هى التى لا تذلها الامتيازات الأجنبية؛ وهى التى يجد فيها غذاء روحه وعواطفه بمساجدها العظيمة ومآذنها التى تشق السحاب. من أجل هـذا اختار السكن فيها، وفى الأحياء الوطنية لا الأجنبية، واتخذ مجلسه فى مقهى تركى بلدى تحت شجرة زيزفون بجوار حائط مسجد بايزيد

ثم حاول اصدقاؤه جهدهم أن يحولوه عن رأيه ويعدلوا به عن غربته، فذهبت محاولتهم عبثا. عرضوا عليه وظائف مختلفة الالوان كان آخرها مدير دار الكتب، فكان جوابه: متى عرفتم سبب خروجي من الوظيفة وسبب خروجي من مصر لم ترضوا هذا العرض؛ فالاصل قبل الفرع، والحرية مع الفقر خير من الذل مع الغنى

* * *

قد رزق عيناً يرى بها غير ما يرى جمهور الناس؛ فكثيراً ما كان يحتقر من يجله الناس، ويجل من يحتقره الناس، لأن له مقاييس فى التقدير تختلف عن مقاييس الناس. ليس فى مقاييسه اعتبار لثروة ولا جاه، ولا منظر، ولا حسب، لا نسب.

حتى مكانه العام الذى كان يختاره لمقابلة أصدقائه لا يختاره لوجاهته، وإنما يختاره لنظافته، ولان صاحبه مسلم، ولانه يتنفس فيه جواً شرقيا لا غربيا، ولانه ليس فيه امتيازات أجنبية، وهكذا من اعتبارات متعددة لم أستطع أن أعرف منه إلا بعضها

ويفضل أن يزور حلاقا كان زميلا له فى المدرسة على أن يزور باشا من الباشوات أو من يعده الناس كبيراً من الكبراء

* * *

قد أعظمه فى عيوننا صغر الدنيا فى عينه؛ فليس للمال عنده إلا وظيفتان: قليله يتبلغ به ويسد حاجاته الضرورية، وكثيرة للمروءة. وأعرف له فى ذلك فصولا غاية فى السمو، فلقد كان حيناً يسكن فى أسرة أوربية عميدها فرنسى، وربة الدار ألمانية ولهما ابن وبنت. حتى إذا نشبت الحرب العظمى جند عميد الأسرة. فأحلت الاسرة فقيدنا محله على رأس المائدة.

وكان كثيراً ما يدور الجدال على المائدة فى نظريات الحرب وخصوصا الفتى والفتاة، فكان الفتى يذهب مذهب أبيه ويتعصب لفرنسا وحلفائها، والبنت تذهب مذهب أمها وتتعصب لألمانيا وحلفائها؛ ثم كان من الفتى أن طعن تركيا فى سمعتها وقيمتها. ولم يكن يعرف عصبية الفقيد لتركيا، فلم يعد على فوزى يطيق البقاء بعد فى البيت، ولكن ماذا يصنع ووفاؤه يقضى بمراعاة هذه الأسرة بعد غياب عميدها، وعصبيته التركية تأبى أن يسكن فى البيت بعد ما كان من الفتى؟ لا يحل هذا الاشكال إلا احتقار المال. فقد تظاهر بأنه يأخذ درسا على السيدة الألمانية ودفع ما كان يدفعه أيام سكناه لم ينقص منه شيئاً وإن قل ذهابه بعد ذلك لأخذ الدرس

وكان منظره فى استانبول غريبا: يجلس فى مقهى عرفه البؤساء والمحتاجون فهو يمنحهم ما أمكنه وهو الفقير الذى لا دخل له إلا معاشه الخمسة والعشرون جنيها، ينفق منها ثلثها على نفسه وثلثيها على مروءته، وطويل أن نعد مآثره فى هذا الباب

أحب العزلة وأكثر التفكير، فهو فى بيته وحده، إذ لا زوجة له ولا ولد، وفى تروضه وحده غالبا؛ هو وحده فى أكثر أوقاته، صديقه الكتاب، ثم ضعفت أعصابه ففقد صداقة الكتاب أيضاً إلا نادراً، وكان تفكيره فى العالم حيناً وفى نفسه كثيراً

وهذه حالة تستتبع الوحشة وتستتبع التشاؤم، وتستتبع الحزن والانقباض، وكذلك كان شانه

غلب عليه الخجل فى غلو، والخجل — كما يقول بعض علماء النفس — سببه كثرة تفكير الإنسان فى نفسه، فهو إذا مشى ظن أن الناس كلهم ينظرون إليه وينقدون مشيته؛ وإذا تكلم ظن أن الناس كلهم ينصتون إليه وينقدون كلامه؛ وإذا تحرك أو سكن أو تنفس فالناس يعدون حركاته وسكناته وأنفاسه؛ فكان هـذا الخلق فيه أكثر شقائه. وبلغت به الحالة أن كان فى آخر أيامه إذا جلس فى مقهى اختار مكانه وراء عمود، وإذا سكن فى «بنسيون» صحا قبل أن يصحو

الناس وعاد بعد أن ينام الناس حتى لا يراه الناس : وإذا عزم على الرياضة فليلا حتى تستره ظلمة الليل ، وإذا مشى في الشارع ليلا اختار من الشوارع أخلاها من الناس

***

تملكه خلق الرحمة فظهر منه في كل شيء : رحم الناس فخرج لهم عن ماله . ورحم المرأة فأبى أن يتزوج ، ورحم الحيوان فعاش نباتيا ، وأخيراً رحم نفسه . وويل للإنسان إذا رحم نفسه وأشفق عليها ! إنه ليعذب في ذلك عذابا لا يعدّه أحد . نعمة كبرى أن يرحم الإنسان غيره ، وشقوة كبرى أن يرحم الإنسان نفسه . فالرحمة استضعاف للمرحوم ، فإذا استضعف نفسه فهناك الألم وهناك الحسرة ، وهناك فقدان الثقة بالنفس ، وهناك انسحاب من الجهاد في الحياة ، وهل الحياة إلا جهاد ؟

رحم الله « علي فوزي » ، فقد عاش غريبا ، ومات غريبا ، وأخشى أن يبعث غريبا

أحمد أمين

في التاريخ السياسي

الدستور الهندي الجديد

هل يكون نذير ثورة قومية جديدة

لمؤرخ كبير

الهند الآن في مفتتح عهد جديد من تاريخها قد يكون بدء استقرار وسكينة ، وقد يكون فاتحة مرحلة جديدة من النضال بين الوطنية الهندية وبريطانيا العظمى . والمسألة الهندية تعود فتشغل الأذهان في الهند وفي انكلترا ، وتستغرق أعظم جانب من اهتمام السياسة البريطانية . ذلك أن دستور الهند الجديد قد بدىء تطبيقه منذ أول ابريل الجاري ، وهو الدستور الذي أقره البرلمان الانكليزي بعد مناقشات طويلة عنيفة ، وصدر في يناير سنة ١٩٣٥ باسم « قانون حكومة الهند » Government of India Bill ، مؤلفاً من أربعمائة وإحدى وخمسين مادة ، وخمسة عشر ملحقا على أن يبدأ تطبيقه منذ أول ابريل سنة ١٩٣٧

وقد اقترن تطبيق الدستور الجديد بحوادث داخلية خطيرة . ذلك أن الانتخابات التشريعية أجريت طبقاً لنصوص الدستور الجديد في شهر فبراير الماضي ، في إحدى عشرة ولاية تضم مجالسها التشريعية ١٥٨٥ كرسياً ، فتقدم لها نحو خمسة آلاف مرشح ؛ هذا عدا المجالس التشريعية العليا التي تضم ٢٦٠ كرسيا ؛ وبلغ عدد الناخبين نحو ثلاثين مليونا منهم خمسة ملايين امرأة ؛ ففاز حزب المؤتمر الوطني وهو أعظم الأحزاب الهندية وحزب الوطنية المتطرفة ، وزعيمه الباندت جواهر لال نهرو بالأغلبية المطلقة في ست ولايات من الاحدى عشرة . وكان المفهوم أن الحكومة المحلية الجديدة تؤلف من الأغلبية البرلمانية على قاعدة المسئولية الوزارية طبقاً للدستور الجديد ؛ ولكن حزب المؤتمر رفض أن يضطلع بأعباء الحكم في الولايات التي فاز فيها ، فلجأت الحكومة البريطانية إلى اختيار أعضاء الحكومات الجديدة بطريق التعيين حسبما نص عليه الدستور أيضا ؛ بيد أن هذا الاجراء لا يمكن أن يعتبر في بداية العهد الجديد حلا موفقا ، بل ربما كان بالعكس نذير مرحلة جديدة من النضال بين الوطنية الهندية والسياسة البريطانية

وترجع هذه المقاطعة من جانب حزب المؤتمر ، حسبما صرح وزير الهند اللورد زتلاند في مجلس اللوردات إلى ماطلبه حزب المؤتمر من ضمانات خاصة لتولي اعباء الحكم ؛ خلاصتها أن يتعهد الحاكم بأن يتبع مشورة وزرائه وألا يخالف القرارات الدستورية ، وألا يستعمل سلطته الخاصة في التدخل أو الضغط على الوزارة ، وهي عهود أبى الحكام أن يقطعوها لحزب المؤتمر ؛ وترتب على ذلك أن قرر الحزب التنحي عن قبول اعباء الحكم ، فخلق بهذا التنحي موقفا في غاية الخطورة والحرج ؛ ويتأهب الحزب الآن ليخوض عن طريق المعارضة البرلمانية نضالا عنيفا لا يمكن التنبؤ بعواقبه

***

والدستور الهندي الجديد هو أقصى مرحلة بلغتها السياسة

البريطانية فى تحقيق الأمانى الهندية فى سبيل الحكم الذاتى؛ وكان أول خطوة قطعتها السياسة البريطانية فى هذا السبيل فى سنة ١٩١٩ ، غداة الحرب الكبرى ، حينما رأت أن تثيب الهند البريطانية عما قدمت لبريطانيا العظمى من جليل المعاونات فى الحرب الكبرى . ففى ديسمبر سنة ١٩١٩ ، استصدرت الحكومة البريطانية دستور الهند الجديد المعروف بدستور مونتاجو وشلمسفورد ؛ والأول وزير الهند والثانى نائب الملك فى ذلك الحين ؛ وبمقتضى هذا الدستور منحت الهند لأول مرة بعض الحقوق والمزايا الدستورية المحدودة ؛ فألغى المجلس التشريعى الذى كان خاضعا لرأى نائب الملك ، وأنشئت مكانه هيئة تشريعية جديدة تضم هيئتين : الأولى مجلس الدولة Council of state والثانية الجمعية التشريعية Legislative Assembly ، وتؤلف الأولى من ستين عضوا منهم ستة وعشرون معينون ، والثانية من مائة وأربعة وأربعين عضوا منهم أربعون معينون ؛ واختصت الحكومة المركزية بالنظر فى الشئون السياسية والمالية والدفاع الوطنى والاشراف على الامارات وقصرت مهمة الحكومات المحلية (حكومات الولايات) على معالجة الشئون الادارية ؛ ونص فى الدستور الجديد على أنه مؤقت وأنه تمهيد لانشاء الحكم الذاتى ، وأنه سيعاد النظر فيه بعد فترة انتقالية قدرت بعشرة أعوام

ولكن هذه المنحة الضئيلة كانت صدمة شديدة للأمانى الهندية ، فاضطرمت الهند من أقصاها إلى أقصاها بفورة قوية من السخط ، وظهر مهاتما غاندى فى الميدان يذكى ضرام الحركة الوطنية بدعوته الى المقاطعة السلبية والعصيان المدنى ، وجازت الهند مرحلة عنيفة من الاضطراب ؛ ولجأت السياسة البريطانية الى وسائل القمع المنظم . وفى سنة ١٩٢٨ بدأت اللجنة الدستورية أو لجنة الاصلاح الدستورى التى ألفت برياسة السير جون سيمون مهمتها فى درس المسألة الهندية ، وكان تألفها تطبيقا لدستور مونتاجو وشلمفورد ، اذ نص على اعادة النظر فيه بعد عشرة أعوام ، وحددت مهمة اللجنة الجوهرية بما يأتى :

ان تبحث فى كيفية سير الادارة الحكومية ، ونمو التعليم وتقدم النظم النيابية فى الهند البريطانية وما يتعلق بذلك من الشئون ، ثم التقرير عما اذا كان يرغب فى تطبيق مبدأ الحكومة الذاتية والى أى حد ، أو ما اذا كان يجب توسيع او تعديل أو تقييد مرحلة الحكم الذاتى القائمة ، ويدخل فى ذلك بحث ما اذا كان يرغب فى إنشاء قاعة تشريعية اخرى فى المجالس التشريعية المحلية . واستمرت اللجنة فى طوافها ودراستها بالهند مدى أشهر ، وانقسم الرأى العام فى الهند ازاءها قسمين ، فريق يؤيد التعاون معها ، وفريق وهو الأغلبية يدعو الى مقاطعتها . وفى أواخر سنة ١٩٢٩ ألقى اللورد ايروين نائب الملك تصريحه المشهور بان الغاية التى تتوخاها الحكومة البريطانية من الاصلاح الدستورى هى الوصول بالهند الى مركز الأملاك المستقلة (نظام الدومنيون) ؛ فبث هذا التصريح فى الحركة القومية روحا جديدا ، وأيقنت انها سائرة الى الظفر ، ونزل غاندى الى ميدان النضال كرة أخرى ، وقام بحملته الشهيرة فى سبيل العصيان المدنى ، وعادت السياسة البريطانية الى خطة القمع العنف ، وقبض على غاندى وآلاف عدة من أنصاره ، ولكن الاضطراب بلغ حدا اضطرت معه السياسة البريطانية الى التراجع ، فتفاوض نائب الملك مع غاندى ، وأطلق سراح الزعيم الكبير ، واتفق على أن يشهد مؤتمر الهند الذى أزمع عقده فى لندن لبحث المسألة الهندية وان تلغى حكومة الهند جميع اجراءات القمع التى اتخذتها

وفى أثناء ذلك صدر تقرير لجنة سيمون فى مجلد ضخم ، وفيه بحوث ضافية عن أحوال الهند الاجتماعية والطائفية . وخلاصة رأى اللجنة هو أن تجربة الاصلاح الدستورى مدى الأعوام العشرة ليست كافية لتقرير الخطة الدستورية الملائمة ، وان الشعب الهندى ، نظرا لظروفه الجنسية والطائفية ، وما يفرق بين عناصره من اختلافات عميقة فى الدين واللغة والتقاليد والعادات والخواص ، ليس أهلا للتمتع بحكومة ذاتية مسؤولة ؛ وأما فيما يتعلق بالتوصيات ، فقد أوصت اللجنة بعدة اصلاحات نظامية وادارية خلاصتها أن تعتبر الهند البريطانية دولة متحدة قوامها الولايات ، وان تعدل حدود الأقاليم الحالية ، وأن يمنح حق الانتخاب لبعض الطبقات بشروط معينة ، وان يستبقى المبدأ الطائفى فى توزيع الدوائر الانتخابية ، وان تفصل ولاية بورما عن الهند لأنها تكون وحدة مستقلة ، وبعض توصيات

ثانوية أخرى لاصلاح التعليم والنظم الادارية . وهكذا جاءت توصيات لجنة سيمون ضربة جديدة للأماني الهندية القومية؛ بيد أن الحكومة البريطانية أشارت يومئذ الى أن توصيات اللجنة لا تخرج عن الآراء الاستشارية، وانمسألة الهند برمتها ستبحث في المؤتمر الخاص بذلك؛ وعاون اللورد ايروين بتصريحه بان الحكومة البريطانية تبغي بالاصلاح الدستوري أن تصل بالهند الى مركز «الدومنيون»، على تهدئة الرأي العام والتمهيد لعقد المؤتمر في نوع من التفاهم والوئام

***

وفي اكتوبر سنة ١٩٣٠ عقد مؤتمر الهند المعروف بمؤتمر المائدة المستديرة في لندن، وشهده غاندي ممثلا للهند مع عدد كبير من الزعماء الهنود يمثلون مختلف الطوائف والاحزاب، ولكن المؤتمر عقد في جو من الاضطراب والخلاف، وانشق ممثلو الهند على أنفسهم في المسألة الطائفية، فرأى غاندي أن يتمسك بالانتخاب المطلق، ورأى المسلمون أن يحتفظوا بالحقوق والنسب الطائفية. ولما اشتد الجدل والخلاف، وعجز المؤتمر عن الوصول الى اتفاق شامل، أعلنت الحكومة البريطانية أنها ستتناول الأمر بيدها مادام الهنود أنفسهم لم يتفقوا

وهكذا استعادت الحكومة البريطانية حريتها في العمل، واتخذت تقرير لجنة سيمون ومقترحاتها أساسا لوضع الدستور الهندي الجديد؛ وصدر قانون الهند الجديد في يناير سنة ١٩٣٥ بعد مباحثات ومفاوضات شاقة بين الحكومة والأحزاب، وبعد مناقشات عنيفة داخل البرلمان وخارجه، وبدئ بتطبيقه في الهند البريطانية منذ أول ابريل سنة ١٩٣٧ حسبما نص فيه؛ فغدت الهند دولة اتحادية، واستقلت ولاية بورما بشئونها، وأجريت الانتخابات الأولى طبقا للدستور الجديد حسبما قدمنا

وقد شرح نائب الملك اللورد لنلثجو مذ كان رئيسا للجنة الهند قواعد الدستور الجديد في بيان رسمي جاء فيه: «يقضي النظام الحالي بان تشرف الحكومة المركزية على أعمال الحكومات المحلية وتراقبها. ولكن الدستور الجديد يرفع هذا الأشراف، وتغدو الحكومات المحلية مستقلة في معظم شئونها، ويتمتع السكان بحكوماتهم المسئولة. أما الحكومة المركزية الجديدة فسوف تغدو حكومة اتحادية

«بيد أن الحكومة المركزية تحتفظ بالنظر في مسائل الدفاع عن البلاد وفي مسائل السياسة الخارجية، وليس لوزرائها أن ينصحوها في هذه الشئون. كذلك يعتبر كل حاكم ولاية مسئولا عن حفظ الأمن والنظام في ولايته، وله الحق في أن يتخذ ما يجب من الاجراءات الضرورية دون رأي وزرائه

«وسيتلقى حاكم الولاية التعليمات مباشرة من وزير الهند، كما يتلقى التعليمات من الحكومة المركزية. وهكذا نستطيع أن نقول ان الولايات الهندية ستحكم طبقا لآراء الوزراء الهنود المسئولين أمام البرلمانات المنتخبة، ماعدا بعض مسائل خاصة تبقى خاضعة لإشراف البرلمان الانكليزي»

والآن يطبق الدستور الجديد في ظروف دقيقة ويقف حزب المؤتمر الوطني بعد ظفره بالأغلبية البرلمانية المطلقة في الولايات الست موقف المعارضة. ولقد أعلن زعيم الحزب الباندت نهرو قبيل بدء الانتخابات ان حزبه يعارض الدستور الجديد منذ البداية، وانه يخوض الانتخابات لا لكي يتعاون مع الحكومة، ولكن لكي يستعين على محاربتها بالاغلبية البرلمانية؛ وقد نفذ الحزب وعيده فأبى أن يضطلع بأعباء الحكم في الولايات الست لأنه لم يحصل على الضمانات المطلوبة، واضطرت السلطة التنفيذية أن تقيم حكومات من عندها؛ وبذا يشل تطبيق الدستور الجديد منذ الساعة الأولى. والمعارضة تقوى كل يوم وتشتد؛ فماذا تزمع السياسة البريطانية أن تفعل؟ ان السياسة البريطانية لابد أن تجد لها مخرجا من هذا المأزق سواء بالتفاهم والمفاوضة، أو بالمضي في تجاهل المعارضة وتحديها؛ بيد أنها سوف تؤثر خطة اللين بلا ريب؛ وقد رأت السياسة البريطانية ان تقف في تحقيق الأماني الهندية في سبيل الحكم الذاتي عند هذا الحد المتواضع بعد أن لوحت للهند ابان اضطرام الحركة الوطنية، بامنية الاستقلال الذاتي. أما اليوم وقد خبت الحركة الوطنية، وسرى اليها التفرق والوهن، فان الهند لا تستطيع أن تطمح الى نيل المزيد دون أن تخوض مرحلة جديدة من النضال

«مؤرخ»

النفس وخلودها عند ابن سينا

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

- ٦ -

قد يكون أنصار المادية المفرطة معذورين فى زعمهم أن ليس ثمت إلا الجسم وأجهزته والمخ وآثاره، فانهم يرجعون الظواهر العقلية على اختلافها إلى مصدر ثابت ومنبع معين. كما أن المثاليين الغلاة يتفادون بعض الصعوبات حين يذهبون إلى أن النفس وحدها هى الحقيقة، وما وراءها صور وأوهام فان هؤلاء وهؤلاء لا يعترفون إلا باصل واحد ماديا كان أو روحياً يبنون عليه تفسيراتهم وحلولهم. أما من يقولون بالجسم والنفس، بالمادى والروحى، بالثنائية على العموم، فانهم يصطدمون بعقبة لم يجدوا السبيل إلى تذليلها. وكيف يمكن ربط المختلف والتوفيق بين المتنافر وضم أمرين من طبيعتين متغايرتين أحدهما إلى الآخر؟ لهذا كانت الصلة بين الجسم والنفس عقدة العقد ومشكل المشاكل فى كل مراحل التاريخ

فقديما نرى أفلاطون، وهو أكبر ممثل للثنائية لدى اليونان، مضطرباً وغامضاً إزاء هذه المشكلة، فيقول حينا إن النفس متميزة كل التميز من الجسم وانها الانسان على الحقيقة، ويظن حيناً آخر أنهما على اتصال وثيق وبينهما عراك دائم، فالجسم يصرف النفس عن الفكر ويجلب عليها آلاما كثيرة بميوله وأهوائه، وهى من جهة أخرى تحاربه وتجد فى الخلاص منه، ولكن كيف يتم هذا التفاعل ويلتقى الجسم بالنفس ويؤثر كل منهما فى الآخر؟ هذا ما لم يجب عليه أفلاطون. ولعل أرسطو قد حاول التخلص من هذا المأزق حين ذهب إلى أن النفس صورة للجسم؛ والصورة والمادة متصلان ومتداخلان بحيث يكونان شيئاً واحداً. بيد أن هذا الحل غامض كذلك ولا يخطو بنا إلى الأمام كثيراً. ومع هذا فقد قدر له نجاح كبير فى القرون الوسطى؛ فان أغلب الفلاسفة المدرسيين يزعمون أن النفس صورة للجسم فى الوقت الذى يقررون فيه أنها جوهر روحى ذو شخصية مستقلة، وهذا تناقض مكشوف

وفى التاريخ الحديث يعيدها ديكارت جذعة، ويثير هذا الموضوع فى شكل حاد، ويقول بجوهرية الجسم والنفس معاً مميزاً الاول بالحيز والثانية بالتفكير؛ وهذه هى الثنائية الأفلاطونية فى أجلى مظهر. ولكن عبثا حاول ربط هذين الجوهرين أو إيجاد علاقة بينهما. ثم طمع أتباعه فى أن يتلافوا هذا النقص فلم يكونوا أعظم منه خطأ. وربما كانت فكرة التناسق الأزلى التى قال بها ليبتز هى أشهر محاولة فى هذا الباب، فهو يعتقد أن الجسم والنفس نسقا أزلا بحيث يتفقان وإن صار كل منهما فى طريق خاصة؛ وخضوع الأول لقوانين السببية لا يحول دونه، والارتباط بالأخيرة التى تخضع لقوانين الغائية. وما أشبههما بساعتين محكمتى الصنع تلتقيان فى قياس الزمن، وإن كانتا تبينانه بأشكال مختلفة. تصوير جميل ومهارة فى التوفيق، شأن ليبتز فى كل فلسفته؛ غير أنه فى الواقع توفيق صورى وربط خيالى، فان مؤداه أن لا صلة بين الجسم والنفس، أو أن الصلة بينهما أنهما لا يتعارضان ولا يتعاكسان

لم يغفل ابن سينا هذه المشكلة ولم يتردد فى حلها وتوضيحها، وكيف يغفلها وهو من أنصار الروحية والثنائية؟ وقد سبق لنا أن لخصنا البراهين العديدة التى يستدل بها على جوهرية النفس وروحانيتها. وفى رأيه أن الجسم والنفس متصلان اتصالا وثيقا ومتعاونان دون انقطاع. فلولا النفس ما كان الجسم، فانها مصدر حياته والمدبرة لأمره والمنظمة لقواه. ولولا الجسم ما كانت النفس. فان تهيؤه لقبولها شرط لوجودها، وتخصصه بها مبدأ وحدتها واستقلالها؛ ولا يمكن أن توجد نفس إلا أن وجدت المادة الجسمية المعدة لها! فهى منذ نشأتها تواقة إلى الجسم ومتعلقة به ومخلوقة لأجله. وفى أدائها لمهامها الكثيرة تستخدمه وتعول عليه. ويكفى أن نشير إلى التفكير الذى هو عملها الخاص فانه لا يتم إلا أن أزقدتها الحواس بآثارها [1]. وواضح أن العقلى ذو دخل كبير فى الجسمى، فرب فكرة هيجت الجسم وأحدثت فيه انفعالات كثيرة،

(١) ابن سينا، الشفاء، ج ١، ص ٣٥٢ - ٣٥٣ : النجاة، ٢٩٧ - ٢٩٩ .

وللجسمي أيضاً أثر على العقلي ، فقد تنتج الحركة فكرة ويبعث اعتدال المزاج على الغبطة والسرور[1] . يقول ابن سينا : « انظر انك اذا استشعرت جانب الله وفكرت في جبروته كيف يقشعر جلدك ويقف شعرك ، وهذه الانفعالات والملكات قد تكون أقوى وقد تكون أضعف ، ولولا هذه الهيئات ما كانت نفس بعض الناس بحسب العادة أسرع إلى التهتك أو الاستشاطة غضباً من نفس بعض[2] » .

فهناك علاقة إذن بين الجسم والنفس وتأثير متبادل ؛ وهذا قدر يتفق عليه كل أنصار المذهب الروحي ولا يعز عليهم إثباته ، ولكن المشكلة هي : كيف يتم هذا التأثير وكيف يلتقي الجسمي بالنفسي ؟ لكي يجيب ابن سينا على هذا السؤال يلجأ إلى طبه مستمداً منه بعض الملاحظات الفسيولوجية ، فيوزع أولا قوى النفس المختلفة على أجزاء الرأس ويعد لكل واحدة منها مقراً معينا ، فالحس المشترك مثلا متمركز في أول التجويف المقدم للدماغ ، والمصورة في آخر هذا التجويف ، والوهم في نهاية التجويف الأوسط ، والحافظة في التجويف المؤخر[3] . ويلاحظ ثانيا أنه لابد لهذه القوى من خدم تنفذ أوامرها ومطايا تحمل آثارها . ومطيتها جميعا جسم لطيف روحاني منتشر في الجسم ، يخرج من القلب ويمتد إلى سائر الأطراف ، ولا أدل على هذا من أنه إذا تصلب أو انسدت مسالكه انقطعت الحركة والإحساس . وهذا الجسم هو الروح التي تمد الأعضاء بالحرارة الضرورية للحياة وتربط القوى النفسية بعضها ببعض ، فكأن القلب الجزء الرئيسي الذي يلتقي فيه الروحي بالمادي والعقلي بالجسمي . حقا إن الدماغ يشرف على الجهاز العصبي ويتقبل الاحساسات ويدفع إلى الحركة ، ولكنه هو أيضا خاضع للقلب ومحتاج إلى الحرارة العضوية التي يبعث بها إليه[4] .

هذه الفسيولوجيا تصعد إلى جالينوس وأبقراط وتمت بنسب إلى ارسطو . فان تركيز قوى النفس في مناطق خاصة من الدماغ أمر عني به جالينوس ، ثم أخذه عنه العرب في شيء من التصرف ، فنراه لدى الفارابي كما نراه لدى ابن سينا وأغلب الأطباء والفلاسفة المسلمين . والروح التي تربط القوى النفسية بأجزاء الجسم وتنفذ أوامرها ليست شيئاً آخر سوى الأبنيا (Pneuma) التي قال بها اليونانيون الأول . وذلك أن ديوجين الأبولوني يزعم أن التفكير إنما يتولد من ذلك الهواء الذي يسبح في أوردة الجسم وشرايينه[1] . ويقول هيرافليط إن التنفس يغذي النفس بالهواء الذي لولاه ما كانت حياة ولا عقل[2] ومن هنا تولدت نظرية الأبنيا التي لعبت دوراً هاماً في الفسيولوجيا وعلم النفس القديم .

ومعظم أطباء الأغريق لايرون في الابنيا مصدر القوة والحرارة الانسانية فقط ، بل يعدونها منبع التفكير ، وكثيراً ما يخلطون بينها وبين النفس . والرواقيون بوجه خاص وإن قالوا بجسميتها يصفونها بكل الصفات الروحية . وقد قدر لهذه الفكرة أن تحيا إلى أن استكشفت الدورة الدموية التي قامت على أنقاضها . ويظهر أن قسطا بن لوقا البعلبكي والمترجم المشهور المتوفى سنة ٨٣٥ ميلادية هو أول من أدخلها في العالم العربي ، فقد كتب بحثاً صغيراً فرق فيه بين النفس والروح[3] فبينما الأولى في رأيه جوهر روحي بسيط غير قابل للفناء اذا بالثانية جسم لطيف يشرف على أعمالنا العضوية والعقلية ، واذا ما توقف عن الحركة كان الموت . فالروح إذن أداة النفس وبواسطتها يتحرك الجسم ويعد للادراك ، وبذا استطاع قسطا أن يوفق بين الابنيا التي يعول عليها الأطباء والنفس التي ينادي بها الفلاسفة ، وقد سار على سنته من جاء بعده من مفكري الاسلام .

وأما الصلة بين القلب والدماغ وأثرهما في الظواهر النفسية فتلك نقطة خلاف بين أرسطو وجالينوس . ففي حين أن الفيلسوف يرى أن القلب هو مركز القوى النفسية الرئيسية نجد الطبيب يصعد بذلك الى الرأس ويعتبره المهيمن على كل الحياة العقلية . وابن سينا ، وان كانت منزلته الطبية لاتقل عن درجته الفلسفية ، لا يتردد في أن ينتصر لأرسطو . ويصرح ، على أي أساس لا أدري ، أن الفلاسفة هم أصحاب

(١) الاشارات ، ١٢١ .
(٢) المصدر نفسه ، ١٢١ – ١٢٢ .
(٣) النجاة ، ٢٦٦ .
(٤) الشفاء ، ج ١ ، ص ٢٦٦ – ٢٦٨ .

(1) Janer, Hisr. de la philos., 744.
(2) I bid., 752.
(٣) وصلنا هذا البحث عن طريق اللاتينية والعربية : ولقد نشر الاب لويس شيخو الاصل العربي سنة ١٩١١ .

الرأى والذين يستطيعون الفصل فى مثل هذه المسائل، ومع هذا فانه لا ينكر ما للدماغ وأعصابه من دخل فى الحركة والاحساس. ومهما يكن فلعل هذه الآراء هى منبع تعريف العقل المشهور الذى يردده المتاخرون من مؤلفى العرب، فهم يكادون يجمعون على أنه قوة أودعها الله فى القلب ولها شعاع متصل بالدماغ

لا نظن أنا فى حاجة الى مناقشة هذه الفسيولوجيا البائدة فان كشف الدورة الدموية قد قضى على فكرة الابنيا وما يتفرع عنها، ودراسة الجهاز العصبى الحديثة لا تدع مجالا لتلك الآراء التى كانت تعد القلب المركز الرئيسى للحياة النفسية. والنظرية القائلة بتوزيع المخ الى مناطق نفوذ مستقلة تقوم كل واحدة منها بعمل خاص، وإن كانت قد صادفت أنصارا عديدين فى القرن التاسع عشر، لا تفسر الظواهر العقلية تفسيراً مقنعا. على أن ابن سينا كان يمزج الفسيولوجيا بعلم النفس النظرى، ويخلط المادى بالروحى دون أن يوضح كيف يتفاعلان؛ والصعوبة كل الصعوبة فى توضيح هذا التفاعل. فهو اذن لم يوفق لحل مشكلة الصلة بين النفس والجسم ولم يأتنا فيها بجديد؛ وكل ما عمله هو أن ضم أفكارا أرسطية الى أخرى جالينوسية على الرغم مما بينها من تنافر أو تعارض.

(يتبع) ابراهيم مدكور

في الأدب المقارن

القصص

فى الأدبين العربى والانجليزى

للأستاذ فخرى أبو السعود

الميل إلى تأليف القصص والاستمتاع بسماعه طبيعيان فى الانسان، فهو كما يميل تبعا لغريزة الاستطلاع إلى مشاهدة حوادث الحياة تترى أمام عينيه، يميل إلى حكايتها لغيره كما رآها أو تخيلها؛ ويميل إلى الاستماع إلى غيره يرويها له، يشبع بها غريزة الاستطلاع وملكة الخيال من نفسه. والحياة دائما ليست سوى قصة متتابعة الحوادث متوالية الفصول. وليس بد لمن شاء وصف بعض مظاهرها أو ظروفها من اللجوء إلى القصص، وإلى القصص يلجأ بداهة كل صديقين تلاقيا بعد طول فراق، وبالقصص يشغف الأطفال اشد الشغف، وبه شغف الانسان فى عهد طفولته التاريخية.

كان القصص أول صور الأدب ظهوراً، بل كان جماع الأدب والعلم والثقافة العامة لدى الجماعات الأولى، يشمل معارفهم بالخلق والطبيعة والتاريخ وعقائدهم وتقاليدهم، فما من شيء من ذلك كله إلا حاكوا له قصة، ولا مظهر إلا اخترعوا له حكاية تعلله، فكان قصص تلك العهود مملوءاً بالخرافات والأوهام، دائرا حول الآلهة والملوك والابطال والقبائل، وبالجملة كان قصصاً رومانسياً تكثر فيه الخوارق والعظائم والمفاجآت والمخاطرات. وقد تخلف من كل ذلك تراث حافل من نثر وشعر، يتمثل فى أساطير الاولين من مصريين وفرس وإغريق ورومان، وبارتقاء الجماعة العقلى يتخلص العلم رويدا رويداً من آثار القصص والخرافة ويختص الأدب بتلك الآثار وتتمثل فى شعر الملاحم وما شاكله

وإذا ما ظهر النثر الفنى فقد ولت فى آثاره أساطير الأولين تلك، وإن بطل الاعتقاد فى كثير منها، وخطا القصص إلى المرحلة الثانية من مراحل تطوره، فاتخذ وسيلة لأسداء المواعظ وإذاعة التجارب وتحبيذ الفضيلة. أو لشرح النظريات العلمية أو الفلسفية ووضع لذلك على ألسنة الطير والحيوان، أو أفواه الأرواح

والجان ، وصيغ أحياناً في شكل حوار ، كما يرى في قصص إيزوب وجمهورية أفلاطون وحكايات لا فونتين وكتاب أميل لروسو ؛ ويتطور القصص الشعري أيضاً فتظهر الرواية الشعرية التمثيلية ، وتحل محل الملحمة ، وينفصل التاريخ مستقلا عن الأدب متخلصاً جهده من الأساطير ، وإن ظل الاتصال بين تاريخ والأدب وشيجا طول العصور .

فاذا اطرد رقي الحضارة ونمو العلم وازدهار الأدب ورواج النثر الفني ، خطا القصص إلى مرحلته الأخيرة نحو الكمال ، فصار فنا مستقلا من كل غاية خارجة ، غايته الوحيدة غاية كل الفنون ، وهي الجمال والشعور وتصوير النفس الانسانية ، وصارت له قواعده وتقاليده المفهومة ، وبلغ مكانة ضرب راق من ضروب الأدب كالملحمة والدرامه والخطابه ، وسامى به النثر الشعر وباراه جولانا في ميدان النفس الانسانية وأداء لوظيفة الأدب ، وظهر في مضماره من فحول الكتاب من يضاهون فحول الشعر منزلة ونبوغا ، بل ظهر من الادباء من يجمع بين الشعر والقصص ، وذهب الوهم الذي كان سائداً من قبل من أن القصص مطلب هين ، وقنص شهب البزاة سواء فيه والرخم

وللقصص ، إذا ما بلغ هذا الطور السامي من أطوار رقيه مزايا يختص بها دون غيره من ضروب الأدب منظومه ومنثوره فهو يمتاز برحب المجال رحبا يمكن من يمارسه من تناول أطراف الحياة المترامية ، بين جد وفكاهة ووصف وحكمة وعلم وأدب ، وهو يفسح للخيال متسعاً بعيد الآفاق ، ويمتع اللب بما يعرض من دقائق الحياة وتفاصيلها إلى جانب جلائلها وبعيد أقطارها ، وبه يعرض من أحوال الحب وأطواره ما يضيق الشعر نفسه ذرعا باستقصائه إلى لمحات خاطفة ، وقبل القصص كان النسيب وقفا على الشعر دون النثر ، والقصص لسهولة متناوله يذيع في الخاصة والعامة على حد سواء ، على حين كان الشعر وقفاً على خاصة المثقفين .

ولذيوع القصص في الخاصة والعامة وجد فيه المصلحون وسيلة عديمة النظير لنشر آرائهم ودعاياتهم ، بتصوير الحال التي يكرهون وإبراز مساوئها وعرض ضحاياها والتنديد بجناتها وتشخيص سبل ملافاتها ، كل ذلك في أسلوب قصصي شائق تقبله النفس وتسيغه وتقتنع به اقتناعاً كان صعب المنال لو عرض عليها الأمر في صورة النصح أو الوعظ . ومن أشهر القصصيين الدعاة تولستوي وإبسن وأبانيز وغيرهم ممن كان لهم أكبر الأثر في الفكر الحديث وأعظم الضلع في التطور العقلي والمادي ، وهو أثر قل أن يجاريه أثر الشعر في سالف العصور .

فالقصة ضرب من الأدب مرن ، يجمع مزايا الشعر كالخيال والعاطفة إلى مزايا النثر كالرحب والدقة والاستقصاء والفائدة العملية ، وهي بهذا تلائم العصر الحديث أكبر ملاءمة ، وهذا سر ذيوعها حتى كادت تعطل ماعداها من ضروب القول ، فقد تهيأت الأسباب من القرن الثامن عشر إلى اليوم لنهوض القصة الفنية ، التي تدرس نفس الفرد وحياة المجتمع وتحلل العواطف وتشرح الآراء والمبادىء ، وذلك برقي السواد الأعظم من الأمة بعد ان كان هملا في غابر العصور ، وانتشار التعليم العام وبروز شخصية الفرد وذيوع مبادىء الحرية والديمقراطية ، هذا إلى ارتقاء الطباعة واعتماد الأدباء على الجمهور القارىء لا على رعاية الأمراء والوجهاء

ولم تقتصر القصة في رقيها هذا الحديث على أن تميزت واستقلت ضربا قائما من ضروب الادب ، يتوفر على ممارسته بعض أقطاب الأدب ، بل تطورت القصة تطورا داخليا ، وتميزت فيها ضروب من القصص يتوفر على كل منها بعض القصصيين : فهناك القصة التاريخية التي تدور حول الملوك والعظماء السابقين ، والقصة البيتية التي تصور المجتمع المتواضع تصويراً شائقا ، والقصة النفسية التي تحلل بواطن النفوس معتمدة على نظريات علم النفس الحديث أحيانا ، والقصة الاصلاحية التي تحاول تحسين حال العامل أو تعديل بعض النظم القانونية أو الاجتماعية ، أو تقويم بعض المعتقدات والتقاليد ، والقصة المستقبلية التي تتنبأ بما سيصير إليه الانسان وتحاول تسديد خطاه إلى ما يجب أن ينزع إليه في مستقبله ، والقصة البوليسية التي تعرض حيل المجرمين وخطط متعقبيهم من الشرطة ، وقصة المغامرات التي تصف أعمال بعض الآفاقين ورحلاته في المجاهل

هكذا يتطور القصص ، من نوادر وأساطير بدائية واهية القصد منتشرة النظام ، إلى صور فنية محكمة ، ومن أشباح مبهمة وحوادث متضاربة إلى شخصيات ناطقة وسياق منطقي منسجم ، ومن الخرافي والخارق والبعيد إلى الواقع والعلمي والحاضر ، ومن الماضي بآلهته وأبطاله وعظائمه إلى الحاضر بمشاكله العادية وأفراده المشهودين ، ومن اللفظ الطنان والخيال الشارد والعاطفة الثائرة إلى المعنى المتدبر والتأمل الهادىء والوصف المفصل ؛ وهذه

الصفات التي تكتسبها القصة في طورها الراقي تكتسبها معها أو بعدها الرواية التمثيلية التي هي أسبق من صاحبتها إلى الظهور ، فتهجر الشعر إلى النثر ، والخيال إلى الدقة ، وتدرس النفس والمجتمع دراسة القصة لها ، لا تكادان تختلفان إلا شكلا وطريقة تناول . فصاحب الرواية التمثيلية يترك أبطاله يرسمون شخصياتهم وأخلاقهم بأفواههم ، وصاحب القصة لا يدعهم يفعلون ذلك إلا إلى مدى ؛ ثم هو يتولى عنهم الشرح ويحللهم تحليلا دقيقاً ، ويكون من الأدباء من يجمعون بين كتابة الرواية التمثيلية والقصة المقروءة

كان للانجليز قصصهم وأخبارهم وأساطيرهم قبل أن يتحضروا كما كان لغيرهم من الشعوب ، وكان كل ذلك يتداول شفاها ، فلما تحضروا وعرفوا الكتابة كان الشعر كعادته أسبق إلى الرقى ، فظهرت فيه قصص تشوسر المسماة حكايات كنتربرى ، ثم ارتقت الرواية التمثيلية في عصر اليزابث على يد شكسبير ومعاصريه رقياً عظيما ؛ وبدأت القصة النثرية مرحلتها الثانية ، فاتخذت وسيلة لغيرها : اتخذها صاحب كتاب « يوفيواس » وسيلة لشراح آداب الجنتلمان ، واتخذها مؤلف « يوتوبيا » وسيلة لتصوير المدينة الفاضلة ، واتخذها كاتب « أطلانطس » وسيلة لبسط النظريات العلمية ، وفي كل هذه كان الفن هزيلا والشخصيات مطموسة أو معدومة والسياق متداعيا

ثم تهيأت الأسباب الاجتماعية والمادية والمعنوية سالفة الذكر اللازمة لدخول القصة طورها الثالث ، طور الفن المنسجم المهذب الذي يتوفر على تحليل النفس ودرس المجتمع ، وذلك في أوائل القرن الثامن عشر ، وقد بدأ ذلك التطور تدريجيا كما هو الشأن في كل تطورات الطبيعة والمجتمع الانسانى ، فانسلخت القصة رويداً رويداً عن المقالة الاجتماعية التي كانت منتشرة إذ ذاك في الصحف الدورية على أيدى ستيل وإديسون : كانت تلك المقالة تهتم بالأحوال الاجتماعية ، وتعرض لشخصيات المجتمع تحللها ، وأولعت بشخص واحد يدعى سيررودجر ، تتبعه في شتى المواقف وتنطقه بشتى الملاحظات وتحيطه بمختلف الشخصيات ، فكان من مجموع تلك المقالات قصة ذات تصميم وشخصيات وبطل وحوار ووسط اجتماعى وهلم جرا ، ولم يبق امام الكتاب الذين جاءوا بعد اديسون وستيل ، إلا أن يزيدوا التصميم إحكاماً والحوار تسديدا والشخصيات بروزا

وكان تاريخ القصة بعد ذلك خلال القرنين السالفين تاريخ تطور ورقى مستمرين ، أحكمت أوضاعها وتعددت ضروبها وتتابعت أزياؤها ، وظهر فيها كبار المؤلفين رجالا ونساء : منهم فيلدنج وديفو وسمولت كتاب قصص المغامرات ، وجين أوستن وشارلوت برونتى ومسز جاسكل مؤلفات قصص المجتمع ، وسكوت صاحب القصص التاريخية ، ودكنز وبتلر أصحاب القصص الإصلاحية ، وكونان دويل مخترع القصص البوليسية الذى صير اسم شرلوك هولمز علما على ذلك الضرب من القصص ، إلى غير هؤلاء من القصصيين الذين لا يحصون ، وإلى غير تلك من ضروب القصص التي لا تستقصى . وفي تلك القصص تناول القصصيون أطراف الحياة المتباعدة وامتعوا النفوس وأرضوا الفن ، وما زالت القصة في صعود وكأنها لما تبلغ ذروتها

وفي خلال ذلك الوقت كانت الرواية التمثيلية تتطور وتبعث بعثا جديداً ، على صورة مماثلة للقصة المقروءة ، قوامها النثر السهل المرسل والواقع الحاضر ، ومرماها درس المجتمع والشخصيات وتحليل الآراء والمذاهب ، وظهر في مجالها ارنولد بنيت وبرناردشو وجالزوورذى وغيرهم ، وإلى الاخيرين يعزى الفضل في كثير من الإصلاح الذى طرا على النظم الاجتماعية والمذاهب الفكرية في الجيل الاخير ، حتى شبه شو بمكنسة كهربائية ذهنية ، تنقى أوضار العقول من خرافات وتعصب وحماقات وتقاليد فاسدة

وكان للعرب في جاهليتهم قصصهم وأخبارهم وأيامهم وأساطيرهم ، متداخلا كل ذلك في شعرهم ونثرهم ، مختلطا بثقافتهم ودينهم ، وقد تخلف كثير من ذلك بعد ذهاب الجاهلية ، وظل مختلطا بالأدب ممتزجاً بالتاريخ ، يظهر في كتابات الجاحظ والأصمعى والطبرى والاصبهانى ، وغيرهم من الكتاب والمؤرخين على السواء ؛ وحيكت نوادر جديدة حول اعلام الحب والحرب ، كابن أبى ربيعة وأبى نواس وعنترة ومهلهل ؛ وحوى القرآن الكريم طرفا جليلا من شائق القصص ، وما زالت السور المحتوية على قصص يوسف ومريم ونوح من أقرب سور القرآن إلى نفوس الخاصة والعامة ؛ ثم انتشرت الكتابة وذاع النثر الفنى ، فدخل القصص طوره الثانى : الطور الذى فيه يستخدم وسيلة لغيره ، فاتخذ في كليلة ودمنة وسيلة لبث الحكمة ، وفي رسالة حى بن يقظان ذريعة لشرح مسائل الفلسفة ، ولا حاجة إلى القول بأن خصائص القصة الفنية في هذه الكتب وأمثالها كانت ضعيفة واهية

ثم تمهدت بعض أسباب دخول القصة في طورها الثالث الفنى :

باستقرار الحضارة والرفاهة، ونضج الثقافة ورواج سوق الأدب وكان ذلك في القرن الرابع، فبدأت تنمو بذور القصة الفنية التي تدرس المجتمع وتحلل الشخصية وتهتم بالتصميم الفني والفكرة الموحدة، ويبدو كل ذلك في مقامات بديع الزمان، فهذا الكاتب يمثل في العربية من هذه الوجهة مكان أديسون وستيل في الانجليزية، وقد أبدى في ثنايا مقاماته من نفاذ النظرة وبداعة الوصف وبراعة الفكاهة وتنوع الموضوعات ما هو جدير بأسمى أنواع القصص؛ واخترع شخصية أبي الفتح الاسكندري فكان على الأرجح المؤلف العربي الوحيد الذي اخترع شخصية شائقة واضحة من صنع الخيال المجرد. ولم تكن شخصيات المقامات التالية فيما بعد إلا نسخاً مكررة منه لا ابتكار فيها، وشخصية أبي الفتح الاسكندري تعين من مراحل تطور القصة العربية نفس المرحلة التي تعينها شخصية سير رودجر ديكفرى من تطور القصة الانجليزية.

فمقامات البديع في الأدب العربي بمثابة مقالات أديسون وستيل في الأدب الانجليزي: تعين بدء ظهور القصة الفنية الاجتماعية التحليلية، بيد أن تطور القصة العربية وقف عند هذا الحد لا يتخطاه. ولم يبلغ مرحلته التالية، لأن الأسباب اللازمة لذلك لم تكن مكتملة: فالمقامات ذاتها قد ظهرت متأخرة، ظهرت في أوج رقي الأدب العربي في القرن الرابع. وكان أجدر أن تأتي متقدمة في القرن الثاني مثلا، فيليها باقي التطور المنشود الذي تلا مقالات أديسون وصاحبه في الانجليزية، وما ذاك إلا لنزعة الجمود والتقليد التي كانت دائما مخيمة على الأدب العربي، تمنع المغامرة الأدبية والابتكار والتنويع في الأشكال والموضوعات، وفقدت المقامات بعد بديع الزمان صبغتها الاجتماعية وأصبحت لعبا بالألفاظ والمعاني.

أضف إلى نزعة الجمود تلك استمرار اعتماد الأدب على الأمراء دون جمهور الشعب، فلما يصور رجاله مشاكل الشعب أو يحاولون الأخذ بيده وقيادة طريقه: فالحريري مثلا حين تابع بديع الزمان وكتب مقاماته لم يكتبها بداع من داخل نفسه يدعوه إلى تناول مشاكل المجتمع ومطامع الشعب بالدرس والعرض والاصلاح والتوجيه، بل امتثالا لاشارة بعض الأمراء ممن «أشارته حكم، وطاعته غنم» كما يقول هو في مقدمته. ومحال أن ترقى القصة الاجتماعية في مجتمع أدباؤه منتصلون من مشاكل شعبه لائذون بظل أمرائه

زد على ذلك مكانة المرأة في المجتمع، التي كانت قد بلغت قبل أن يكتب البديع مقاماته حدا من التدهور بعيدا، بعد ماكان من امتداد الفتوح واختلاط الأجناس وتفشي التسري والعبث. فضرب على المرأة الحجاب، وخيم عليها الجهل واعتزلت المجتمع، والمجتمع بغير المرأة لا يخرج القصة الفنية التي تدرس الحب وتقدس الزواج وتشرح العواطف، وإنما ينتج الشعر المستهتر البذيء كشعر بشار وأبي نواس. وقد كان انهاض حال المرأة نصب عيني أديسون وستيل وغيرهما ممن تلاهما من القصصيين كما كان الحب مدار أكثر القصص، كما كان من النساء جم غفير من القصصيات كما تقدم.

وإلى نزعة التقليد التي كانت تسود الأدب العربي، كان ذلك الأدب ينزع إلى الصنعة اللفظية: فمقامات البديع ذاتها مثقلة بالصنعة والمحسنات، ولا غرو، فاذا كان الأدب قد تخلى إلى حد بعيد عن مشاكل المجتمع، فلم يبق له من مواد القول إلا النذر اليسير، فلما أعوزه الافتنان في المعاني التفت إلى التلاعب بالفظ، وإلى هذه الزركشة اللفظية قصد الحريري أول ماقصد في محاكاته للبديع، ولم يفكر قط في ابتكار جديد من جهة المعاني والأفكار ولم يحاول الزيادة عليه من جهة تناول الموضوعات الاجتماعية، بل اكتفى بالتقليد الشكلي، فجعل في كل مقامة شخصين يروي أحدهما عن الآخر، وتنقسم المقامة بذلك إلى قسمين. دهليز للقصة كما يقول العامة، والقصة ذاتها التي تبدأ بظهور البطل، ولم تجيء شخصية بطله في وضوح شخصية أبي الفتح وتعدد نواحيها

فحالة المجتمع العربي، ونظام الحكم فيه، ومنزع الأدب العربي، كل هاتيك لم تكن ملائمة لتطور القصص إلى كماله، فوقف عند بدء الطور الثالث، وهو الطور الفني المصمم، فعرف الأدب العربي النوادر والأخبار والسير وما إليها، وعرف الحكايات ذوات المغزى العلمي أو الخلقي، ولم يعرف القصة الاجتماعية والنفسية ذات التصميم المحكم والشخصيات الواضحة، والفكرة الموحدة والغاية المستقلة والموضع الفني، ولم تسم القصة في الأدب العربي إلى منزلة عالية كالتي تمتع بها الشعر والخطابة والنقد، وظل للشعر المكانة الأولى وبقي مستأثراً بأكثر ضروب القول، ولم يظهر في القصة من الأعلام أمثال من ظهر في الشعر والنقد والخطابة، وترك القصص المطول الحافل بالوصف الاجتماعي والخيالي للعامة

فخري أبو السعود

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

١٣ — فى النيل

فى (حلبة الكميت) : ركب الأمير تميم فى النيل متنزها فمرّ ببعض الطاقات المشرفة فسمع جارية تنشد شعراً :

نبهتُ ندمانى بدجلة موْهناً والنجم فى أفق السماء معاق[1]
والبدر يضحك وجهه فى وجهها والماء يرقص حولها ويصفق

فاستحسنهما تميم وشرب عليهما ، ومازال يستعيدهما ويشرب حتى انصرف وهو لا يعقل سكرا . فلما أصبح قابلها بهذين البيتين :

شربنا على النيل لما بدا بموج يزيد ولا ينقص
كأنّ تكاثف أمواجه معاطفُ جارية ترقص

١٤ — شهادة ...

كان أبو عيسى بن الرشيد يقول لعمه ابراهيم بن المهدى: السكر على صوتك شهادة[2] ياعم ...

١٥ — أتكابر ابليس ؟

فى (محاضرات الراغب) : قال أبو نُواس : كنت يوماً فى الحمام فقلت قصيدة وفيها :

فتمشت فى مفاصلهم كتمشى النار فى الفحَم[3]

ولم يكن معى أحد فتراءى لى شبح فقال : قطع الله لسانك فإنك لا تفلح ! أتقول مثل مايقول العوام ؟ ألا قلت :

فتمشت فى مفاصلهم كتمشى البرء فى السقم

فقلت : هكذا قلت

فقال : أتكابر إبليس ؟ ؟

١٦ — أحسن الجواب

قال أبو العيناء : قال لى الخليفة المنتصر يوماً : ما أحسنُ الجواب ؟

فقلت : ما أسكت المبطل ، وحيّر المحق

فقالت : أحسنت والله !

١٧ — بالله إلا رحمت غربتها

فى (اليتيمة) : حكى أبو الخطاب بن عون الحريرى النحوى الشاعر أنه دخل على أبى العباس النامى قال : فوجدته جالساً ورأسه كالثغامة[1] بياضاً ، وفيه شعرة واحدة سوداء ، فقلت له : ياسيدى ، فى رأسك شعرة سوداء.

فقال : نعم ، هذه بقية شبابى وأنا أفرح بها ، ولى فيها شعر . فقلت : أنشدنيه ، فانشدنى :

رأيت فى الرأس شعرة بقيت سوداء تهوى العيون رؤيتها
فقلت للبيض إذ تروّعها بالله إلا رحمت غربتها !
فقلّ لبث السواد فى وطن تكون فيه البيضاء ضرتها

ثم قال : يا أبا الخطاب ، بيضاء واحدة تروّع ألف سوداء ، فكيف حال سوداء بين ألف بيضاء ؟

١٨ — المقادير تصير العى خطيباً

قال الطبرى فى تاريخه :

يحكى أن الحجاج ذُكر عنده رجل بالجهل فاراد اختباره فقال : أعظامى أم عصامى ؟ أراد أشرفت بآبائك الذين صاروا عظاماً أم بنفسك

فقال الرجل : أنا عصامى عظامى ، فقال الحجاج: هذا أفضل الناس ، فقضى حوائجه . ومكث عنده ثم فتشه فوجده أجهل الناس . فقال له : تصدقنى كيف أجبت بما أجبتنى به حين سألتك عما سألتك ؟

فقال : لم أعلم أعصامى خير أم عظامى ، فخشيت أن أقول أحدهما ، فقلت كليهما ، فان أضر نى أحدهما نفعنى الآخر

قال الحجاج عند ذلك : المقادير تصير العىّ خطيباً

١٩ — اذا تمت صارت سياسة

فى تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء لهلال بن المحسن الصابى قال أبو الحسن بن الفرات : أصل أمور السلطان مخرقة فاذا تمت واستحكمت صارت سياسة

(١) موهنا : نصف الليل (دجلة) بالفتح والكسر
(٢) الشهادة اسم من الشهيد : المقتول فى سبيل الله
(٣) الفحم بفتح الحاء وتسكينها

(١) الثغامة واحدة الثغام وهو نبت أبيض الزهر والثمر يشبه به الشيب

٢٠ — بكت رحمة للورى بالدم

قال أبو الأصبع بن رشيد الأشبيلي لما هطلت بأشبيلية سحابة بقَطْر أحمر في يوم السبت الثالث عشر من صفر عام (٥٦٤):

لقد آن للناس أن يقلعوا ويمشوا على السنن الأقوم
متى عهد الغيث (ياغافلا) كلون العقيق أو العندم[1]
أظن الغمائم في جوها بكت (رحمة للورى) بالدم

٢١ — اقرأ قرآنك

قال الشاطبي في (الاعتصام):

كان في الزمن القريب رجل يقال له الفزاري ادعى النبوة واستظهر عليها بامور موهمة للكرامات والإخبار بالمغيبات، ومخيلة لخوارق العادات، تبعه على ذلك من العوام جملة. وكان مقتل هذا المفترى على يد أبي جعفر بن الزبير.

قال الحسن بن الجباب: لما أمر بالتاهب يوم قتله، وهو في السجن الذي أخرج منه، جهر بتلاوة سورة (يس) فقال له أحد الدعار[2] ممن جمع السجن بينهما: اقرأ قرآنك، لأي شيء تتفضل على قرآننا اليوم؟ فتر كها مثلا بلوذعيته،

٢٢ — تعالوا نتكرم اليوم

قال أبو الحسن القروي يوماً لندمائه: تعالوا نتكرم اليوم
فقالوا: وأي يوم لا يتكرم فيه سيدنا؟
قال: قولي (تكرم[3]) من (الكرْم) لامن الكرَم
قالوا: وكيف؟
قال: نأكل سكباجة[4] وحصرمية، وحلوى دبسية، ونشرب العنبي، ونتنقل بالزبيب، لنكون قد استوفينا مرافق الكرْم ومنافعه
قال بعضهم: ينبغي أن نستوقد بقضبانه أيضاً ليتم التكرم.
فقال: أحسنت وجودت، وأمر بذلك كله وطاب يومهم

٢٣ — إن غبت عنا دخل الصبح

قال القاضي الفاضل:

بتنا على حال يسر الهوى وربما لا يمكن الشرح
بوابنا الليل وقلنا له: إن غبت عنا دخل الصبح!

٢٤ — صدق الأمير

في شرح (النهج) لابن أبي الحديد:

ناظر المامون محمد بن القاسم النوشجاني في مسئلة كلامية، فجعل النوشجاني يخضع في الكلام ويستخذي له، فقال: يا محمد، أراك تنقاد إلى ما أقوله قبل وجوب الحجة لي عليك وقد ساءني ذلك منك، ولو شئت أن افسر الامور بعزة الخلافة وهيبة الرياسة[1] لصدقت وان كنت كاذباً، وعدلت وان كنت جائراً، وصوبت وإن كنت مخطئاً؛ ولكني لا أقنع إلا باقامة الحجة، وإزالة الشبهة؛ وإن أنقص الملوك عقلا وأسخفهم رأياً من رضي بقولهم: صدق الأمير...

٢٥ — هناك والله قرارة اللؤم

وقف اعرابي فسأل قوماً فقالوا: عليك بالصيارفة.
قال: هناك (والله) قرارة اللؤم

٢٦ — كبرت

في (نفح الطيب):

قال أبو محمد بن حزم الحافظ: كنت يوما في مجلس الرئيس الفقيه أبي بكر بن زهر، فدخل علينا رجل عجمي من فضلاء خراسان، وكان ابن زهر يكرمه، فقلت له: ما تقول في علماء الاندلس وكتابهم وشعرائهم؟

فقال: كبُرت!

فلم أفهم مقصده، واستبردت ما أتى به؛ وفهم مني ابو بكر ابن زهر أني نظرته نظر المستبرد المنكر.

فقال لي: أقرأت شعر المتنبي؟

قلت: نعم، وحفظت جميعه.

قال: فعلى نفسك (إذن) فلتنكر، وخاطرك بقلة الفهم فلتتهم، فذكرني بقول المتنبي:

كبرت حول ديارهم لما بدت منها الشموس وليس فيها المشرق

فاعتذرت للخراساني وقلت له: قد (والله) كبرت[2] في عيني بقدر ما صغرت نفسي هنديحين لم أفهم نيل مقصدك

(١) العندم: دم الاخوين: شجر احمر، وقيل صبغ احمر
(٢) الداعر: الشرير، قاطع الطريق، الفاسق
(٣) اشتق التكرم من الكرْم وروى الثعالبي اللفظة في كتبه. والتكرم في لغة (الجزيرة): التنزه عن الشيء، وتكليف الكرَم.
(٤) السكباج: معرب عن (سركه باجه) وهو لحم يطبخ بخل، ويقال: سكبج الرجل إذا أعد سكباجا (التاج)

(١) في الأساس: كبر الرجل في قدره (بضم الباء) وكبر في سنه (بكسر الباء)
(٢) في كتب النحو والادب: الرئاسة والرياسة وفي كتب اللغة: الرآسة

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

— ١ —

هل الفلسفة الاغريقية وليدة الفلسفة الشرقية ؟

تمهيد

تشغل الباحثين منذ أقدم عصور التاريخ مشكلة لم يهتدوا إلى حلها حتى اليوم حلا حاسما يقف تيار الاعتراضات من الجهات المعارضة، وإن كانت بحوث المستشرقين والمستمصرين في العصر الحديث قد وصلت إلى ترجيح إحدى كفتي الميزان في هذه الفكرة العويصة التي يترتب عليها تغيير اتجاه الحكم على اليونان وعلى الشعوب الشرقية القديمة إلى ناحية غير التي كان يسير فيها قبل ظهور نتائج هذه البحوث. تلك المشكلة هي: هل الفلسفة اليونانية ابتدعت في يونان وليس لها أية صلة بالشعوب الشرقية ؟ أو هي تراث نظمه الاغريق ؟ وإذا كانت الأولى، فهل يرجع مبدؤها إلى القرن السادس فقط كما زعم «أرسطو» حين قرر أن «تاليس» هو أول الفلاسفة جميعا ؟ أو يمكن إصعاد الفلسفة إلى عصور غابرة إغريقية محضة ؟ وإذا كانت الثانية، فما هو أول تلك الشعوب الشرقية الذي نشأت الفلسفة بين ربوعه ؟

قرر أرسطو أن الفلسفة نشأت للمرة الأولى في تاريخ العقلية البشرية في تلك المستعمرة اليونانية التي تدعى «أيونيا»، والتي سبق أن أنشأها قوم من الاغريق القدماء الذين هاجروا في عصور ما قبل التاريخ إلى آسيا الصغرى وأسسوا بها تلك المدن التي لم يلبث الاغريق الأصليون أن احتلوها وبسطوا عليها سلطانهم السياسي والأدبي، فافسحوا بذلك الطريق أمام العقل الاغريقي الجبار، وحلوا عقاله الذي كان قد أمسكه في آسيا عن الصولان في عصور ماقبل الاستعمار الجديد. وأول من بدأت العقلية الاغريقية القديمة تتمثل فيه هو: «تاليس الملطي»، أول فيلسوف في الدنيا. وإذاً، فالفلسفة إغريقية الأصل والعنصر، وهي لا تصعد في رأى أرسطو إلى ماوراء القرن السادس قبل المسيح، ولكن «ديوجين لا إرس» المؤرخ الاغريقي الشهير الذي عاش في القرن الثالث قبل المسيح يحدثنا في كتابه «حياة الفلاسفة» عن فلسفة المصريين والفرس في العصور الغابرة حديثا ممتعا يدل دلالة قاطعة على أن الشرق قد سبق الغرب إلى الفلسفة بزمن بعيد. وأنه كان أستاذه في كل ماوراء الطبيعة كما كان أستاذه في العلوم الطبيعية والرياضية بانواعها، وأن الغرب جلس في الازمان المظلمة مجلس التلميذ المستلهم من الشرق العالم المستنير

فأنت ترى تعارض هاتين الفكرتين وتصادمهما منذ أكثر من ثلاثة وعشرين قرنا، وترى كذلك أن لكل منهما أشياعا ومؤيدين، ففريق يسلك منهج أرسطو فيؤكد أنه ليس للشرقيين فضل في هذه الثروة العقلية العظيمة إلا ما ظهر لفلاسفتهم بعد الاسلام من مجهودات في شرح الفلسفة اليونانية وتوجيهها؛ أما في العصور الاثرية فلم يعرف التاريخ عنهم إلا الدين المقيد بالوحي ولم يحفظ لنا عنهم مجهودات شخصية تشرف العقلية البشرية، بل إنهم نسبوا كل شيء عندهم إلى السماء، حتى تلك المتناثرات الاخلاقية المنتزعة من الفضائل العملية والمصوغة في حكم مقتضبة، ويتخذون دليلا على هذا ما تزدحم به كتب التاريخ من إزهار الدين وإجداب الفلسفة في الشرق كل هذا الوقت الطويل الذي تلا العصور الاثرية، ويقولون: إنه لو كان للشرق فلسفة لشملها ناموس التقدم ولشاهد العالم تطوراتها المختلفة كما حدث في بلاد الاغريق.

ومن أشهر أصحاب هذا الرأي في العصور الاخيرة «بار تلمي سانت - هلير»، إذ يقول في مقدمة ترجمته «للكون والفساد» ما نصه: «أما من جهة الفلسفة الشرقية فاننا لانعرف، بل ربما لن نعرف أبدا من امرها شيئا معينا بالضبط فيما يختص بعصورها الرئيسية وانقلاباتها، فان أزمنتها وأمكنتها وأهلها تكاد تعزب عنا على سواء. إنها مستعصمة دون إدراكنا مدعاة للشكوك لما يغشاها من كثيف الظلمات، حتى لو عرفنا منها هذه التفاصيل مع الضبط الكافي لما أفادنا ذلك إلا من جهة إرضاء رغبتنا في الاطلاع دون أن يتصل بنا أمرها

كثيراً . إن الفلسفة الشرقية لم تؤثر فى فلسفتنا مع التسليم بانها تقدمتها فى الهند وفى الصين وفى فارس وفى مصر فاننا لم نستعر منها كثيراً ولا قليلا . فليس علينا أن نصعد إليها ، لنعرف من نحن ومن أين جئنا (١)

ثم قال :

ولقد تصديت فوق ذلك لتبين أن العبقرية الاغريقية هى التى دانت العالم بهذا النفع العلمى الجليل دون أن تكون مدينة فيه لغيرها ، فاذا كانت الشعوب المجاورة لها آتتها شيئاً من العلم فما هو إلا مدد مبهم غاية فى الابهام . لا مراء فى أن المصريين والكلدان والهنود لهم فى ماضى الانسانية مقام كبير ، ولكنهم مع ذلك فى الفلسفة أو فى العلم بعبارة أعم ليسوا شيئاً مذكوراً فى جانب الاغريق الذين لم يكونوا ليتعلموا منهم (٢) .

وقال أيضاً : « وإن العلم على جميع صوره كان معدوماً فى الشرق فاخترعه الاغريق ونقلوه إلينا » (٣) .

ولهذا الرأى مقلدون (٤) فى مصر كما هى الحال فى كل فكرة تطعن على الشرق .

وفريق آخر يذهب الى مانقله « لايرس » من أن الفلسفة الاغريقية ليست إلا تراثاً شرقياً متغلغلا فى القدم ويستندون فى هذا إلى براهين أهمها ما يأتى :

١ — إن جهود المستشرقين قد وضعت أمام أنظارنا مدنيات شرقية ضاربة فى التقدم بسهم نفاذ كمدنيتى مصر والعراق مثلا ، وأنبأتنا بأن هذه المدنيات سابقة على مدنية الاغريق بعدة قرون ، وأثبتت لنا علائق متينة بين بعض ما تحتويه هذه المدنيات وبين الفلسفة الاغريقية مثل علاقة نظرية « تاليس » الشهيرة القائلة بأن أصل الكون هو الماء بأنشودة خلق الكون الدينية العراقية التى تصرح بأن كل شىء فى الكون منشؤه الماء إذ تقول فى مطلعها ما ترجمته : « حين لم تكن السماء العليا بعد قد فازت باسمها ولم تكن الأرض هى الأخرى قد تسمت بهذا الاسم كان أبوهما : « أبسو » ، وأمهما « تياما » وهما : « الماء » أو جوهر كل شىء ممتزجين امتزاجا تاما قصد التناسل والاخصاب » (١) .

فاذا لاحظنا أن الانشودة العراقية كانت قبل « تاليس » بعهد بعيد ، وأن سيادتها فى القرن السادس قبل المسيح كانت على أتم ماتكون قوة وتغلغلا فى النفوس ، ولاحظنا الصلات التجارية والاجتماعية فى ذلك العصر بين العراق وأيونيا استطعنا أن نرجح فى سهولة كفة تأثر تاليس بتلك الانشودة العراقية القديمة ، بل استطعنا ان نجزم بأن من المستحيل أن يكون تاليس قد ابتدع نظريته فى أصل الكون .

٢ — ان العلماء المشتغلين بالبحث فى الانسان وخواصه والفروق الموجودة بين طوائفه المختلفة قد قرروا أنهم التقوا أثناء بحوثهم بأدلة قاطعة على أن بعض النظريات الاغريقية لا يمكن أن تكون من أصل إغريقى ، لأنها توفرت فيها جميع شرائط العقلية الشرقية وخواصها .

٣ — إن الباحثين الأثريين قد عثروا على كلمات : العدالة والفضيلة والنفس والحياة الأخرى فى الشرق قبل مبدأ تاريخ وجودها فى الغرب بقرون لا يعرف مداها ، بل إنهم قد تأكدوا من أن الغرب لم ينطق بهذه الكلمات إلا بعد اختلاطه بالشرق .

٤ — إن علماء الرياضة قد فرغوا من تقرير أنه من غير الممكن أن تبنى الاهرام فى بلد لم تقطع فيه الهندسة العلمية أشواطا بعيدة .

وفى هذا رد بليغ على الذين يزعمون أن مصر لم يكن فيها هندسة علمية ، وإنما كان فيها هندسة عملية فحسب (٢) .

٥ — هناك أدلة أخرى لم تصل من القوة العلمية إلى ما وصلت اليه الأدلة السابقة ، وإن كان أنصار هذا الرأى يستأنسون بها مثل رحلة تاليس إلى مصر والشرق الأقصى ، ومثل وجود العناصر الأولى من منطق أرسطو فى المدارس الهندية السابقة

(١) راجع مقدمة كتاب الكون والفساد لارسطو ترجمة الاستاذ احمد لطفى السيد باشا صفحة ٢

(٢) انظر صفحة ٤٠ و ١٠ من مقدمة كتاب الكون والفساد لارسطو

(٣) انظر صفحة ١٠٦ من هذه المقدمة

(٤) انظر قادة الفكر للدكتور طه حسين بك

(١) انظر صفحة ٣ من مقدمة الجزء الاول من كتاب « ربيه »

(٢) انظر قادة الفكر للدكتور طه

لعصره، ومثل وجود الكلام عن الجوهر الفرد في المدارس الهندية كذلك أو وجود فكرة التناسخ عند المصريين والهنود وغير ذلك مما يسند هذا الرأي الأخير ويقويه.

إذا عرفنا كل هذا وتبينا أن هذه الفلسفة اليونانية العظيمة إنما هي وليدة الأساطير الشرقية، فقد وجب على كل باحث في الفلسفة أن يبدأ بحوثه بفلسفة هذه الشعوب الشرقية، ليكون على بينة من العناصر الأساسية التي تكون منها الجسم المراد درسه

غير أن هناك عقبات ومصاعب اعترضت ولا تزال تعترض سبيل دارس الفلسفة الشرقية وتقفهم موقف الحروجة والعسر مثل:

١ — مايزعمه بعض المتحاملين من المحدثين من أن فكرة بدء الخلق في الشرق تستمد عناصرها من الدين أكثر مما تستمدها من الفلسفة: وإن شئت فقل: إن الدين والفلسفة في الشرق شيء واحد، ولهذا لم يعرف للتاريخ نظرية فلسفية ظهرت في الشرق القديم مستقلة عن الدين، وإنما مهد النظريات الحرة البعيدة عن كل التأثرات الدينية من غير استثناء هو بلاد الإغريق. وهذا هو الباعث الأول الذي قلل من أهمية دراسة الفلسفة الشرقية في نظر علماء العصور الحديثة وحط من قيمتها عندهم

٢ — إن المصادر التي وصلت إلينا عن فلسفة تلك الشعوب الشرقية قليلة لاتكفي لإشباع الرغبة العلمية عند الدارس المتقصي الذي لايرضى من المشكلة بأقل من الاحاطة بجميع نواحيها، وإن كانت هذه الندرة في المراجع لم تحل بين الباحثين المحدثين وبين معالجة هذه الفلسفة الشرقية ووضع المؤلفات الضخمة عنها مثل كتب:

(ا) «هيكل تاريخ الفلسفة الهندية» تأليف «ماسون أورسيل» وقد ظهر في سنة ١٩٢٣

(ب) «تاريخ فكرة وحدة الوجود الهندية» تأليف «أولترامار» ظهر في سنة ١٩٢٣

(ج) «تاريخ الديانات» تأليف «دينيس سورا» ظهر في سنة ١٩٢٤

(د) «أصول الديانة الاسرائيلية»: «الجيوفية القديمة» تأليف «س. كوسان» ظهر في ١٩٣١

(ه) «تاريخ الفلسفة الصينية» تأليف «زانكير» ظهر في سنة ١٩٣٣

على أن هاتين العقبتين المتقدمتين لاتمنعاننا من أن نعتبر دراسة الفلسفة الشرقية هي أول مايجب على المشتغل بدراسة الفلسفة الاعتناء به، أما امتزاج الفلسفة بالدين الذي كان من عوامل حروجة دارس موقف الفلسفة الشرقية فسنجتهد في حله بأن نعين مهمة كل من هذين الممتزجين اللذين عقد امتزاجهما الموقف وجعله من المشاكل العويصة

ولكن قبل أن نعالج هذا الموضوع ينبغي لنا أن نشير إلى أن تلك العقبة الأولى الناشئة عن امتزاج الفلسفة الشرقية بالدين ليس مسلماً بها من جميع العلماء والباحثين المحدثين، إذ يصرح بعضهم بأن هذا الامتزاج ليس خاصاً بالشرقيين في العصور القديمة، وإنما هو طبيعة إنسانية عامة كما وجدت في مصر والعراق في الأزمان الغابرة، كما وجدت كذلك في أوربا في القرون الوسطى. وليس القديس «أوجستان» والقديس «توماس» والقديس «أنسلم» — وهم مشاهير فلاسفة المسيحيين في أوربا — إلا مظاهر لهذه الفترة البشرية التي نشأت على مزج الدين بالفلسفة، بل إن «ديكارت» و«اسبنوزا» و«كانت» أنفسهم — وهم اعلام فلاسفة العصر الحديث — ليسوا إلا مظهراً آخر من مظاهر هذا الانعطاف الطبيعي. وإذاً، فرمي الشرق القديم وحده بهذه النقيصة — إن صح أنها نقيصة — ضرب من العنت والجور اللذين يجب أن يتنزه عنهما الباحث المحايد

وسواء أصح الرأي الأول أم الثاني، فإننا سنحاول هنا أن ندرس الفلسفة الشرقية الممتزجة بديانات الشعوب التي ظهرت فيها، عاملين — كما قدمنا — على تمييز الفلسفة من العقيدة ما استطعنا إلى ذلك سبيلا.

وسنبدأ دراستنا بأقدم هذه الديانات الوثنية عهداً، وهي الديانة المصرية التي لم يعرف التاريخ أعرق منها في أغوار الماضي البعيد.

(يتبع)

الدكتور محمد غلاب

هتـــاف الشيطان

للأستاذ عبد المغنى على حسين

كنا فى حجرة استقبال، بدار انجليزية، باحدى مدائن انجلترا، والفصل شتاء، والوقت ليل؛ فالستائر مسدلة، ونار الفحم موقدة، ونحن فى غمرة من الدفء الشهى، ذلك الموج الخفى، فى اللجى الأثيرى. وكانت الطبيعة فى تلك الليلة غضبى والريح تهب من جميع الجهات إلى جميع الجهات، يجن جنونها فتثب على الشجر المنحف العارى تعركه عركا وتكاد تمزقه وتشظيه، لولا تلويه، فتختلط زمجراتها بعويل الشجر. كانت الريح فى الفينة بعد الفينة تهوى علينا من المدخنة، كأنما تبحث عنا جاهدة، فاذا استعصت عليها الأبواب والنوافذ لم تتحرج أن تأتى البيوت من سقوفها، فتنقض علينا تنفث فى وجوهنا السناج والدخان. ثم ترتد من المدخنة لتكر على زجاج النوافذ تحصبه برشاش المطر.

كنا فى الحجرة اثنين. أما الثانى فسيدة انجليزية شقراء أرملة فى نحو الخمسين، تنحنى على النار فتجيل فيها العود، وتعتدل فتضع ساقاً على ساق، وتنظر إلى اللظى بعينين رماديتين حالمتين حزينتين. هى (صاحبة البيت) كما كنا نسميها. كنا نسمر سمراً متراخياً أكثره سكوت، إذ كان الحس موزعاً ما بين تخدير الدفء وتخويف الطبيعة. إلى أن حدث أمر أيقظ منا الحس، وأهاج النفس، فاذا هياج الطبيعة من هياج النفس كخطر النسيم من لفح الجحيم.

ذلك أنه كان على إحدى حوائط الحجرة لوحة فيها رسم فتى وفتاة كلاهما فى نحو العشرين أو دونها، أما الفتى فكان صغير الجرم. فى وجهه إشراق الذكاء. وفى هيئته جد وحيوية؛ يبسم للدنيا — الدنيا المخاتلة! وأما الفتاة فكانت ناهداً هيفاء بسمتها الحلوة خليقة أن تمحو مرارة الدهر، وتطرد الحزن من أقطار الوجود. شعرها مكور على رأسها على النمط الفكتورى؛ ثوبها طويل محكم يبدى من سحرها النسوى ما لا أظن العرى يبديه؛ وقفتها فيها ميل من الدل والطراوة، وعيناها رماديتان حالمتان

كان فى الفتاة من سيدة الدار شبه، ولكنه ضئيل جداً. لاحت منى التفاتة إلى تلك الصورة، فقلت أسائل السيدة عنها وأجعلها موضوع حديث. فما إن فعلت حتى رأيتها وجمت وجوما انقبض له صدرى. قالت: «ألا تعرف من تكون الفتاة؟» قلت «من؟» قالت «أنا». فلم أقل شيئاً، ولكنى عجبت من فعل السنين، لئن كانت تلك هى هذه فان الزمن لم يترك منها إلا بقدر ماترك فى جسم أبى الهول من شكل الأسد. لابد وأن تكون أهوال ألف عام قد حشدت فى عمر هذه السيدة حتى صارت مما كانت إلى ما هى الآن.

قلت فمن الفتى الوسيم؟ قالت «زوجي» واغرورقت عيناها الحالمتان، ومن الغريب أن الدموع لم توقظهما من أحلامهما.

حسبت أننى آلمتها بذكرى هناء ذاهب. وحبيب غير آيب، فقلت متعثراً متعذراً: «أخشى أن أكون أدميت جرحاً عله كان اندمل». فقالت «لا إخال مثل جرحى يندمل». وتلا ذلك سكوت وجدته خيراً من الكلام، ووددت لو أن كلاماً لم يكن ثم رأيت السيدة تنظر إلى نظرة فيها حنان الأم، واذا بها تقول: «أوصيك يابنى ألا تذوق الخمر أبداً، فان كنت شربتها فلا تقربها بعد اليوم». فدهشت لهذا الكلام المفاجيء وعجبت له. قلت «ماهذا الذى تقولين؟» قالت «لقد كانت حياتى مأساة يؤلمنى أن اقصها فأحياها من جديد، ولكنها عبرة نافعة لمن هو فى سنك، فسأقصها عليك».

كان زوجى فى أول عهدنا فتى جم المحاسن، شديد الحب لى وللأطفال، يهوى العش الذى بنينا، وكان فى عمله مثال النشاط، جم الكفايات. وشاء الجد العاثر أن ينقل إلى وظيفة (بالجمارك)، فكانت مهمته تقدير المكوس على الخمر التى ترد من الخارج، ومرت الايام فاذا بى أشم ريح الخمر من فم زوجى، فأبديت له مخاوفى، فطمأننى قائلا انه يسترشد فى عمله أحياناً بتذوق عينات الخمر، وانه انما يفعل ذلك بحذر وما يتناوله لايذكر. ومرت الأيام فاذا به يعود إلى يترنح من الشراب ثم لم يعد المحب العطوف البسام، بل صار غضوبا اذا كلمته رفع صوته بالجواب الخشن. ثم ازداد فكان لا يفرغ هراؤه ما دمت بمرأى منه. ثم استغلظ فصار يضربنى ويضرب

الاطفال . كل ذلك وأنا حافظة عهده ، أكتم ما أنافيه عن الناس ثم حدث ما لم يكن منه بد ، ففصل من عمله لقلة كفايته وسوء خلقه ، واستعجف عيشنا ، فأكلنا ما ادخرنا في العهود السمينة ويعلم الله أننا ما كنا نأكل بمعشار ما كان ينفق في الشراب . ثم ساءت صحته ، وألح عليه السعال ، فكان يسعل الليل بطوله وأنا معه يقظى حتى الصباح . وذات صباح انتبهت من غفوة فلم أجده في فراشه ، فحسبت أنه بدورة المياه ، ثم شممت رائحة غاز الاستصباح ، فخفت أن يكون صنبوره بالمطبخ بات مفتوحا فذهبت إلى هناك ، فوجدت باب المطبخ مغلقاً ، فعالجته حتى انفتح ، وتراجعت إلى الوراء خشية الغاز السام ، ثم نظرت أمامي فرأيت . . . وياالهول ما رأيت . . . » وغطت وجهها بكلتا راحتيها وزلزل صدرها بنهنة خفت أن تحطمه . قالت : « رأيته ممدداً في أرض المطبخ وقد استنشق من الغاز القاتل حتى قضى الأمر » .

ثم كفكفت عبراتها ، وهدأ صدرها ، وجلسنا واجمين صامتين ، كأنما الميت ممدد أمامنا ونحن لجلال الموت في خشوع . أردت أن أقول شيئاً أنفس به عنها فلم أجد ما أقول ، وماذا يقال في رجل قتل عقله بالشراب ، وقتل نفسه بالغاز . عمد إلى أنفس ما أعطاه الله ، وإلى أقدس ما أعطاه الله فدمرهما ، ومرغ معه في رغام التعاسة سيدة فاضلة وأطفالا بيض الصحائف .

وحان وقت انصراف السيدة ، فجلست وحدي ، أنظر إلى نار الفحم ، وإنها لأبرد من نار الصدور ، وذهب بي الخيال مذاهب عجيبة ، حتى لقد خلت أني أرى الشيطان نحيف الوجه مستطيله محروق الجلد طويل الأصابع أحمر العينين ، في مجلس من أعوانه ، في جوف بركان خامد ، أول ظهور الانسان على الأرض ، قرض الشيطان بأنيابه المعوجة وقال : « ماذا ترون في الدمية التي صنع الله ؟ » مشيراً بإبهامه إلى أعلى حيث سطح الأرض . قال أحد الأعوان : « إن في رأس تلك الدمية ، جوهرة تغشى بصري ، لو اعتنى بها ذلك المخلوق ، وتبع ضياءها ببصره ، كاد أن يرى الله جهرة ! » . فازداد قرض الشيطان بأنيابه وصاح : « أريد جديداً أيها الأبله » فسكت الجميع زمناً ثم عاد الذي تكلم فقال : « والله ما أحسب ذلك المخلوق إلا مفلتاً من أيدينا بجوهرته تلك ، فهي خليقة أن تسمو به إلى حيث النور ، ولا يبقى في الظلام خائباً منبوذاً إلا نحن » . فوثب عليه الشيطان وثبة فر أمامها فأخطأته . ثم عاد الشيطان إلى مقعده والشرر يتطاير من عينيه ، وإذا بجني يهبط عليهم من فوهة البركان وهو يصيح : « أحطت بما لم تحيطوا به ، وجئتكم بنبأ عظيم » فصاح به الشيطان : « والله لقد كنت أنتظرك أيها الملعون لأقطع أوصالك بعد هذا الغياب الطويل . قل فلعل عندك ما يشفع لك » فشرع الجني يقول :

« بصرت بقبيل من تلك المخلوقات البغيضة يعيشون في كهوف هذه الجبال ، فتخيرت واحداً منهم قوي الجسم مغرورا ، فصرت أزين له الفتك بأقرانه ، وفي ذات يوم رأيت امرأته تدق الحب بالحجر لتطحنه ، ثم وضعت الطحن في حفرة بالصخر وذهبت لبعض شأنها ، فزينت لأولادها العبث ، فحملوا الماء وكفأوه على الطحن ، ثم أنسيت المرأة طحنها يومين ليفسد ، فتصاعد منه ريح خانق . وفي اليوم الثالث حضر الرجل من الصيد ظمئاً يلهث ، ونادى على المرأة لتسقيه ولم تكن المرأة بالكهف ، فثار ثائره ، وبحث عن ماء فلم يجد فانتهزت الفرصة وأرشدته إلى حفرة الماء والطحن ليشرب مما بها فيتسمم فيموت ، فلما بلغ الحفرة نظر فيها وعاف رائحتها فزينت له الشرب منها ، وكان ظمؤه بالغا ، فشرب قليلا وسكت ثم عاد يشرب حتى امتلأ ، وأنا أكاد أطير من الفرح ، ثم رأيته يقوم مترنحاً يضحك ملء شدقيه ، فعجبت ، وإذا به يسير بين الكهوف يجري وراء النساء كالمجنون فيهربن منه مذعورات ، ثم لقي امرأته فهجم عليها كالوحش وقتلها شر قتلة . ثم أخذ يقتل كل من صادفه من الرجال ويعتدي على النساء . ذلك الذي حسبته سيموت قد ازداد قوة وجرأة ، وأخيراً ارتمى فنام ، ثم صحا بعد ساعات فرجع اليه صوابه كما كان ، فعلمت أن ذلك الشراب يفقد الرجل عقله إلى حين .

عاد الرجل الى كهفه ، فلما رأى الخابية مال عليها يكرع وأعاد سيرة الأمس ، وتحدث أهل القبيل بهذا الأمر العجيب فجاء الرجال وكرعوا من الخابية ، وجنوا مثل صاحبهم ، وقد تركتهم ولا عمل لهم إلا اصنع ذلك الشراب والعب منه ، وتهتيك النساء ، وتقتيل الرجال ولا أحسب قبيلهم بعد قليل

إلا صائر أثراً بعد عين »

فما إن سمع الشيطان هذا الحديث حتى وثب على المتكلم ولكن ليعانقه ويقبله . وتصايح الجمع صيحات الفرح ، وأخذوا يرقصون ويقفزون . ثم رفع الشيطان يده فسكتوا . فقال : « أيها الاخوان ! لقد تجدد أملكم بذلك الشراب العجيب فانفروا إلى سطح الأرض . وانتشروا في المشارق والمغارب ، وعلموا العدو الأبله صنع الشراب ، وزينوا له شربه ، فسيفرح الغبي به ، ويذيب منه جوهرته اللعينة ، فاذا شربه صار لعبة في أيدينا ، وإذا أفاق اشتاق اليه فلا نزال به حتى نهلك منه الروح والجسد جميعا ، فرولوا معي أيها الاخوان : لتحي الخمر . »

فتدفقوا وهم يرددون هذا الهتاف ، ولا يزال هذا هتافهم إلى اليوم .

عبد المغني على حسين

على الطلل الماضي

ساعة في ... « سُرَّ مَن رأَى »

« في السنة الآتية يكون قد مر على انشاء سر من رأى ألف ومائة سنة » ع .

. . . الآن رجعت من التاريخ . إني أرى الدنيا صغيرة خابية لأني كنت في دنيا أكبر منها وأحفل بالنور والعطر : كنت في « سر من رأى » !

* * *

جلست أدون رحلتي إلى الحلة « دمشق العراق » ، ووقوفي على أنقاض بابل « أخت الدهر » ، وزيارتي السدة الهندية « القناطر الخيرية الثانية » ، وما أولاني الحليون من ألوان المن وأنواع الكرم . . . فلم أكد أمضي في المقالة حتى عرضت لي رحلة جديدة إلى سر من رأى . . . ومنذا الذي لا تفتنه سر من رأى ، ولا تهيج بلابل أشواقه ؟ ومنذا الذي نظر في كتب التاريخ أو شدا بشيء من الادب ثم لا يعرفها ولا يحس أن لها صلة بنفسه ؟

رددوا هذا الاسم الجميل عشر مرات بصوت خافت كأنه مناجاة النفس ، بطيء كأنه هجس الضمير ، وأنتم تنظرون بعيونكم إلى بعيد ، تحدقون في غير شيء ، فعل من يتذكر أمراً ، ثم انظروا كم يثير في نفوسكم من ذكر وحوادث ، وفكر وعواطف ، أقل ما توصف به ، أنها لا توصف ، وكيف تحتويها كلمات وهي عالم ؟ وكيف تنتظمها لغة الأرض وهي من لغة السماء ؟ ومتى كان الانسان ناطقا مبينا ؟ إن هذه اللغة رموز ضئيلة ، لكائنات عظيمة ؛ إن العواطف مئات ومئات وما ثم إلا كلمة واحدة . . . وكذلك الجمال والحب والطبيعة . . . لا . إن الانسان لا يزال طفلا لم يتعلم النطق ولم يحسن البيان !

* * *

سر من رأى ، وما سر من رأى ؟ هي التي نهضت لبغداد لما كانت بغداد عاصمة الأرض . ولما بلغت غاية المجد وأبعد الأماني ، وبذت كل مدنية ، وكان فيها مليونان من السكان ، وكان فيها العلم والفن والسلطان . . . نهضت لها تزاحمها وتنافسها ، فلم تكن إلا ليال حتى غلبتها وبهرتها ، وتربعت على دجلة من فوقها ، وسلبتها خليفتها وأبهتها وحلة أبنائها ، وكانت أجل منها وأعظم

سر من رأى ، المدينة الملوكية ، التي ولدت فجأة فاذا هي أجل المدن ، وإذا في كل ناحية منها عرش ، وفي كل بقعة منها عرش ، وإذا هي تتشح بالنور وتتضمخ بالعطر ، وتنام على الزهر ، وإذا هي تبلغ مالم تبلغه من بعد الزهراء المدهشة ، ولا فرساي . . .

ثم ماتت فجأة ، فاذا كل ذلك حلم سريع وبرق خاطف . لم تعش إلا نحو خمسين سنة ، (٨٣٨ — ٨٨٣) وما خمسون سنة في عمر المدن ، إلا خمسون دقيقة ، أفرأيت الجميلة التي ولدت بأعجوبة ، فاذا هي الغادة الفتانة ، ثم إذا هي تقضي بعد ساعة ؟

لم تكد تزدهر وتستقر حتى نودي فيها بالرحيل والرجوع إلى بغداد ، فهب الناس مذعورين ، يحملون ماخف حمله وغلا ثمنه وتركوا المدينة العظيمة للرياح والوحوش واللصوص . . .

* * *

قرأت ذلك من حديثها ، ثم لم أعد أعرف عنها شيئا ، ولم أدر ماصنع الدهر بها . . . وأين من يسأل عن الآثار ويبحث عنها ؟ ومن يعرف اليوم ماذا جرى بالكوفة ومسجدها ؟ والبصرة ومربدها ؟ أو يعلم صفة القادسية أو اليرموك ؟ من يسأل عنها وهذا مسجد بغداد العظيم ، مسجدها الجامع ، قد ابتلعته الدور وطغت عليه فلم يبق منه إلا منارته التي تقوم منحنية تبكي هذا المجد العظيم وهذا الماضي الفخم ، وتنادي لو وجدت سميعاً : وما كان ذنب هذا المسجد ، وما كان ذنب هذه الآثار ، إلا أننا نحن وارثوها لا الفرنسيس ولا الانكليز ، أولئك الذين لم يدعوا في بلادهم شبراً من الأرض فيه جمال من جمال الطبيعة ، أو أثر من آثار الماضي ، إلا كتب عنه مؤرخوهم ، ووصفه أدباؤهم ، وصوره

مصورروهم ، ونحن الذين أضعنا آثارنا الجليلة ، وهدمناها بأيدينا لنبنى بأنقاضها دورنا الحقيرة !

أسمعتم بالمدرسة النظامية التى درس فيها حجة الاسلام الغزالى والتى كانت من أكبر جامعات القرون الوسطى ؟ أتدرون ماذا بقى منها ؟ منارة مهدمة طولها أربعة أمتار ، فى زقاق عرضه ثلاثة أمتار ، عند جامع مرجان فى بغداد ، والمنارة مائلة قد انحنت تحت أثقال دار قد ركبتها ، وربما هدمت المنارة لتقام عليها الدار ، فمن يدرى؟ وأين من يدرس الآثار ويعنى بها ؟ وهذا قصر الخضراء فى دمشق ، مابقى منه إلا اسمه تحمله مصبغة ، فى زقاق القباقيب . يالعجائب الزمان ! صار مثوى التاج ومحط العرش زقاق القباقيب . . . فمن سأل عنه ؟ ومن وصفه ؟ ومن حفر فى أنقاضه ؟ أما لو أن هذه الآثار كانت لغيرنا ، إذن لحرقت هذه البقاع حرقا ثم أخرجت كنوزها ، ثم ملأت نفوس أهلها عزة ، ثم كانت لهم أجنحة يطيرون بها فى معارج العلاء . . . إن تحت هذه الارض علما ومجدا وجلالا ، ولكن ليس فوقها من يحفل العلم والمجد والجلال !

أو ليس من أعجب العجب ، ياقوم ، أن آثارنا لم يبحث عنها ولم يكشفها إلاهؤلاء الاوربيون ؟ إن فى دمشق قريتين هما معلولا وجبعدين تتكلمان السريانية منذ خلقتا ، فما فكر أحد فى درس هذه اللغة ومعرفتها ، حتى جاء هذا المستشرق الشاب ، رايخ النمسوى من آخر الدنيا ليدرسها . . . بل هذه هى سر من رأى ، ما نقب فيها وكشفها للناس إلا هرسفلد الالمانى ، الذى حفر فيها سنة ١٩١١ كلها وبعض سنة ١٩١٣ باشارة من أستاذه ساره (Sarre) وبنفقة المصرف الألمانى وبعض كبار الألمان . بدأ الحفر فى قصر المتوكل ثم انتقل إلى الجوسق ، وإلى القصر المعروف بقصر العاشق ، واستخرج من هذه البقعة الصغيرة كرائم الآثار ونفائس الأعلاق ، التى انتقلت إلى ألمانيا ، وبقيت لدينا نسخ معدودة من هذا الكتاب الجليل الذى أخرجه هرسفلد فى مجلدات كثيرة فيه صور هذه الآثار باهرة مدهشة حقا ؛ وهو يصف فى المجلد الأول نقوش الجدران وزخارفها ، ويقول انه لم تكن تخلو دار من هذه النقوش الجصية البارزة الملونة أحيانا ؛ وفى الثالث الرسوم والصور ، وأكثر هذه الصور مما وجد فى حمام الجوسق ، وقد حلت هذه الصور مشكلة قصر المشتى الذى كشف سنة ١٩٠٨ ، ويتحدث فى جزء عن الأوانى الزجاجية والخزفية ، وقد ظهر أنه كان فى سر من رأى معمل للزجاج ، ومعمل للأقمشة وجدت بعض قطع ملونة من مصنوعاته .

ومن أهم ماتمتاز به المدينة شوارعها ، التى لاتكاد تحوى مثلها (اليوم) مدينة فى العالم ، فقد كانت كلها مستقيمة متقاطعة بانتظام عجيب ، والشارع الأعظم ، (وآثاره باقية) يمتد بعرض مائة متر ، ودورها التى كان أكثرها كبيراً فيه خمسون غرفة ، وفيه مجار للماء وبرك ، ومجار أخرى للماء القذر ، وحمامات وسراديب للصيف مبنية على نظام يكفل لها حسن التهوية ، وكان أكثر الدور على طراز واحد ، فهى ذات ردهتين : ردهة حيال الباب تفضى إلى ردهة أخرى مستطيلة ، عمودية عليها والغرف من حولها



بقايا القصر المسمى بقصر العاشق

وقد صحب هرسفلد رجل عسكرى يدعى (لودلوف) متخصص برسم المصورات ، صنع خريطة للمدينة مفصلة بنسبة ١/٢٠٠٠ وصحبه رجلان مختصان بالنقوش هما (بارتوس وَ يبجر) على أن ما كشفه هرسفلد لايعد شيئاً ، والمتحف العراقى عامل على موالاة التنقيب فى الآثار ، وجمعها فى متحف الآثار العربية ، وينتظر ظهور أشياء هائلة

* * *

سرنا إلى (سر من رأى) فى قافلة مؤلفة من كبار طلاب (دار المعلمين العالية فى بغداد) والدكتور كامل بك عياد (أستاذ التاريخ الاسلامى فى الدار) و . . أنا ، فجزنا بالأعظمية ، وعبرنا النهر إلى الكاظمية ، ثم استقبلنا الفضاء .

ولم نقف فى الطريق إلا على جسر حربى ، وهو جسر قائم فى الفلاة ذو ثلاث قناطر . عليه كتابة ظاهرة تدل على أنه بنى فى أواخر العهد العباسى على نهر دجيل ليسقى مدينة حربى ، فتلفتنا فاذا النهر قد جف والمدينة قد محيت والعهد العباسى قد انقضى ، وإذا كل بلاد الله تتقدم وتزداد عمارة ، وبلادنا تتأخر وتمعن فى الخراب فوقفنا معتبرين . ومضينا مستعبرين .

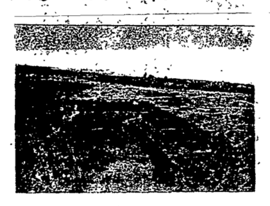
ولم نسر من بعد إلا قليلا حتى طلعت علينا (الملوية) وهى

منارة جامع المتوكل ، عالية تبدو من بعيد كالصرح الهائل ، وقد شبهت مكانها من سر من رأى ، ببرج ايفل من باريز ، فهى علم البلد ورمزه . ثم بلغنا دجلة فعبرناه . ودخلنا (قرية) سامراء لنستريح فى مدرستها ساعة بعد مسيرة ثلاث ساعات فى السيارة . ثم ولجنا حرم التاريخ ، يصحبنا معلمو المدرسة الذين أولونا من أياديهم وأرونا من كرمهم وحسن أخلاقهم ، ما نذكره لهم بالشكر ، فلولاهم ما رأينا شيئاً ، ولا عرفنا من أين ندخل أو نخرج فى هذا العالم الواسع !

إى والله . هو عالم ، هو شىء عظيم جداً .

سرنا أكثر من خمسة وعشرين كيلا ، وما قطعنا إلا نصف البلد من المسجد الجامع إلى الدور العليا ، وإن إلى الدور السفلى لمثلها ، وإن هذا كله لنصف المدينة ، وعلى الضفة الأخرى مثله

أنا لا أستطيع أن أتصور كيف كانت هذه البرية الواسعة التى يضل فيها البصر ، مدينة عامرة ، وكيف كان الناس يقطعونها ، وان بين أولها وآخرها اليوم لمسيرة اثنتى عشرة ساعة على الراكب



جسر حربى

* * *

كان أول ما رأينا المسجد الجامع ، وهو كبير جداً لو وضعت سامراء الحاضرة فيه لوسعها وفضل عنها ، لم يبق منه إلا السور وهو مبنى من اللبن مثل سائر الأبنية العراقية ، تدعمه من ظاهره أبراج مستديرة ، ووراء السور المنارة ، وتعرف عند الناس بالملوية أى المستديرة ، وهى حلزونية الشكل سلمها من ظاهرها ، مؤلفة من سبع طبقات ، ارتفاعها (٧٥) متراً ، وتحتها قاعدة مربعة أقيمت حديثاً لتقويتها ، طول الضلع من أضلاعها (٤٠) متراً ، فصار ارتفاع المنارة قريباً من (٨٥) متراً وقد بنيت على غرارها منارة جامع ابن طولون فى القاهرة ، ثم تركت هذه الصفة فى المآذن واتخذ لها سلم من جوفها



منارة سامرا (الملوية) وتبدو فى الصورة الاربع طبقات العليا وهى مؤلفة من سبع طبقات ارتفاعها ٨٥ مترا

* * *

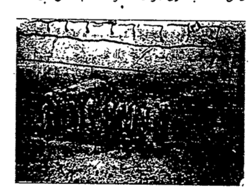
تركنا المسجد وسرنا فى وجهة واحدة ، كيلا نضل فى وسط هذه الاطلال ، وكان حولنا تلال من التراب ، كانت قبل ألف ومائة سنة ، دوراً عامرة ، وقصوراً فخمة ، فجزنا بها حتى بلغنا أنقاضاً حولها سور كبير ، أخبرنا بها معلم المدرسة أنها أنقاض قصر أم عيسى ابنة الواثق ، وعلا بنا على تل عال وقال : انظروا ، فنظرت فلم أر إلا برية واسعة ، لاشىء فيها . . . فقال : امعن ، انظر ، وحدق فى الارض ، ففعلت فرأيت شيئاً أدهشنى ، وخفق له قلبى ، رأيت تلالا صغيرة منتظمة ، على شكل دوائر متقاطعة على نمط هندسى بديع ، تمتد إلى مالا يدرك البصر آخره . . . فقلت وأنا مشدوه : ويحك ماهذا ؟ قال : حديقة !

وأى حديقة هى ؟ حسبى أن أقول : إنها شىء هائل !

* * *

ومضينا . . . نمر على الأطلال . حتى بلغنا آثار سور كبير جداً كأنه سور مدينة . . . فقال دليلنا : هذا بلاط الخليفة ، فترجلنا وسرنا فى طريق مبلطة باقية آثارها ، ونحن نتخيل كم مر فى هذه الطرقات من خلفاء وأمراء ، وكم شهدت من جلال وجمال ، حتى بلغنا مصيف المتوكل ، وهو أول ما استقبلنا من القصور ، ونسيت أن أقول إن البلاط بلدة واسعة ، فيها عشرات القصور تبدو أنقاضها ناطقة بعظمتها ، وفيها مسجد كبير ، وفيها البركة المتوكلية المشهورة ، بركة البحترى ، فولجنا المصيف ، وهو قصر كبير تحت الارض ، به غرفة محفورة فيها حفراً ، وهى متصلة يفضى بعضها

إلى بعض، ولها نوافذ كثيرة، تضمن لها حسن التهوية، وفي وسط القصر بركة... وقد كدنا نهلك من حرارة الشمس ونحن فوق الأرض، فلما هبطنا إلى جوف القصر كدنا نهلك من البرد...



في وسط بركة المتوكل
الخط (١) يمثل استدارة البركة وسمتها الخط (٢) يمثل عمقها
(٣) آثار الغرف التي كانت على جوانبها

وكان الصديق الأستاذ كامل بك يسرد فلسفته العلمية ويقص علينا قصة القصر وبناءه، وفنه وقيمته التاريخية، ولكن واحداً منا لم يكن يصغي أو يفهم شيئاً مما يقول... فكيف وعلم أن الكلام الآن للقلب وعواطفه الحية، لا للعقل ومقاييسه الجافة، وفلسفته البازدة...

كنا نتخيل هذا القصر، وقد كان يعج بالحياة، ويفيض بالحب؛ كنا نسمع الأصوات، ونبصر الألوان، ونشم عبق العطر ونحس كأنا نرى الخليفة ونشهد مجالس الأدب والغناء، وخلوات الحب..

كم عاش في هذا المكان من عواطف! كم خفقت فيه من قلوب! كم امتلأ بالحياة... أفيودي ذلك كله بمثل هذه السرعة وهذه السهولة، ويشمله العدم ولا يبقى له وجود قط؟

أي امرىء عرف الحب، وكابده وأدرك معناه، ثم يؤمن بأن العدم يقوى عليه؟ لا. إن ذلك كله موجود! موجود في زاوية من زوايا هذا الكون الفسيح، إنه خالد لا يفنى أبداً، إن في هذا القصر ذكريات جمة، تحتويها هذه الجدران الخرساء، وهذا اللبن البارد، إن فيه صدى تلك الهمسات التي كانت تتناجى بها الشفاه؛ إن فيه خفقات تلك القلوب؛ إن فيه رنات تلك القبل.

إن سؤال الديار، واستخبار الأطلال، أقدم فنون الشعر العربي، فهل ترى الشعراء كلهم مجانين؟ أتراهم كانوا عابثين؟

لا. إن في هذه الأطلال لحياة... إن كل شيء في الوجود حي يذكر ويأمل ويشعر ويحلم، ولكنه لا ينطق ولا يفكر...

آه... لو أن هذه الجدران كانت تنطق، وتتحدث وتصف ما تشعر به...

وخرجنا من القصر، ونحن نحس كأنا قد خرجنا من أنفسنا وانتقلنا إلى عالم آخر، عالم تمتزج فيه الأحلام بالحقيقة؛ عالم شعري ساحر... فررنا على جب واسع للماء خبرنا دليلنا أن بعض الجاهلين من الأدلاء والتراجمة يدعون بأنه سجن، ويختلقون حوله الأكاذيب... وهؤلاء الأدلاء والتراجمة بلاء أزرق، وقد سمعت واحداً منهم يشرح لبعض الافرنج تاريخ المسجد الأموي في دمشق، فقال لهم ما نصه: «هذه هي المنارة التي بناها الوليد بن هارون الرشيد لسيدنا عيسى، ولذلك سميت منارة عيسى» وهم يكتبون في دفاترهم ما يقول، فينشرونه على أنه كتاب علمي عن الشرق وأهله، وليس العهد ببعيد بتلك الكاتبة الفرنسية التي كتبت كتابا عن دمشق قالت فيه: ويخرج أهل دمشق كل مساء لزيارة قبر النبي في مكة القريبة من دمشق!!

***

أقول إننا سرنا إلى مسجد القصر. وقد حفر فيه هرسفلد واستخرج منه آثاراً رخامية ومحراباً جميلا حملها إلى ألمانيا ثم انتهينا إلى البركة، ولست أكتم القراء أني كنت أظن أن البحتري يبالغ في وصفها، على طريقة الشعراء الخياليين وأقرر ذلك في دروسي، وأقول ما عسى أن تبلغ هذه البركة، حتى تظل دجلة كالغيرى منها تنافسها وتباهيها، وحتى تبدو في الليل كأن سماء ركبت فيها، وحتى أن السمك المحصور لا يبلغ غايتها لبعد ما بين قاصيها ودانيها؟ فلما رأيت انقاضها رأيت شيئاً عظيما. رأيت بحراً، رأيت ميدان سباق، دائرة قطرها نحو مائتي متر، فأكبرتها وهي جافة فكيف لو رأيتها وهي ممتلئة بالماء، ومن حولها الغرف المفروشة المزخرفة، وقد عقد فيها مجلس الخليفة، إذن لرأيت أكثر مما قال البحتري، فرحم الله الشاعر وألهم شعراءنا تخليد ما يرون من جمال بلادهم، وعظمة مصانعهم، على نحو ما خلد البحتري البركة، والجعفري وطاق كسرى!



قصر الخلافة (منظر جانبي)

ثم سرنا إلى قصر الخليفة الرسمي ووقفنا في إيوانه الكبير ، وهو بني على شكل إيوان كسرى ، ولكنه أجل وأصغر ، وقفنا صامتين خاشعين تتقاذفنا عواطف وذكريات لا يدرى مداها ، تتخيل هذا الايوان وكم عقد فيه من مجالس ، وكم وقف فيه من ملوك ، وكم كتب فيه من تاريخ ، نبصر المعتصم وقد أخذ كأسه ليشرب فأبلغوه أن امرأة مسلمة أسيرة في بلاد الروم صاحت : وامعتصماه .

امرأة أسيرة ، وأمير المؤمنين يشرب كأسه هانئاً ؟ امرأة تنادي : وامعتصماه ، والمعتصم لا يجيب ؟ إن هذا لن يكون



بقايا قصر الخلافة في سر من رأى

وأرى المعتصم يخرج في الجيش اللجب الذي تضطرب له سر من رأى ، وتميد لثقله الأرض ، وتصعق لهوله المردة ، وترتجف الرواسي ، حتى يحط على عمورية ، فيدكها دكا ويعود مثقلا بالمجد والظفر والغنائم .

وأسمع أبا تمام ينشد آيته الخالدة .

السيف أصدق أنباء من الكتب	في حده الحد بين الجد واللعب
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به	نظم من الشعر أو نثر من الخطب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت	منك المنى حفلا معسولة الحلب
أبقيت جد بني الاسلام في صعد	والمشركين ودار الشرك في صبب

ثم أنظر حولي فأرى كل شيء قد تبدل

تغير حسن (الجعفري) وأنسه	وقوض بادي الجعفري وحاضره
تحمل عنه ساكنوه فجاءة	فعادت سواء دوره ومقابره
إذا نحن زرناه أجد لنا الأسى	وقد كان قبل اليوم يبهج زائره
(غدا) فوحشا قفرا) كأن لم يقم به	أنيس ولم تحسن لعين مناظره
كأن لم تبت فيه الخلافة طلقة	بشاشتها والملك يشرق زاهره
ولم تجمع الدنيا إليه بهاءها	وبهجتها والعيش غض مكاسره
فأن الحجاب الصعب حيث تمنعت	بهيبتها أبوابه ومفاخره

وأين عميد الناس في كل نوبة تنوب وناهي الدهر فيهم وآمره

لقد هجر الحياة . ونأى عن النعيم ، وجفاه ... حتى دجلة ... دجلة أعرضت عن القصر ، ونأت عنه وقد كانت تسيل على أعتابه . وجفته وكانت مع الدهر الدوار . . . والزمان الغدار ، حتى دجلة التي أفاضوا عليها المجد ، ووضعوا فيها الحياة ، وأعطوها أكثر مما أخذوا منها ... حتى دجلة التي تجري منذ ملايين السنين ، فلم تجد أكرم ولا أعز ولا أعظم ، من أصحاب هذا القصر وبناته . . .

حتى دجلة نسيت وكانت (١) ! !

* * *

ثم ودعنا البلاط وسرنا ـ وقد أودعناه قلوبنا وصبينا فيه نفوسنا ودموعنا ... سرنا في الشارع الأعظم نصف ساعة في السيارة ـ وقد رأيناه بيناً ، عرضه مائة متر والشوارع تتفرع عنه في نظام عجيب ، وهندسة محكمة ـ والبيوت قائمة على الجانبين وقد استحال أثرها إلى تلال من التراب كأنها القبور . . .

فررنا على معسكر أشناس ، وهو أشبه بميدان فسيح جداً حوله سور . حتى انتهينا إلى المسجد المعروف اليوم بجامع أبي دلف وهو أكبر من مسجد المتوكل وفيه رواق قائم على خمس قناطر ومنارة كالملوية ولكنها أصغر منها . فوقفنا عليه .



قسم من رواق جامع أبي دلف في سامرا

وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب ، فانتهت الرحلة هنا ، وعدنا ونحن صامتون خاشعون . . .

وقد علمنا لماذا يريدون منا أن نتجرد من ماضينا .

لأننا لا نستطيع أن نبني المستقبل الفخم ، إلا على انقاض الماضي الفخم

(بغداد) **علي الطنطاوي**

(١) وحيال القصر من الجهة الاخرى آثار قصر عظيم لم أعرف تاريخه بالضبط ولا لمن هو ـ يدعى اليوم قصر العاشق وبين القصرين آثار سد هائل في دجلة لاتزال إلى اليوم

تلخيص وتعليق

أسبوع الجاحظ

لمندوب الرسالة

بقية المنشور في العدد الماضي

اليوم الرابع

كتابا الحيوان، والبيان والتبيين هما أهم ما للجاحظ من الآثار التي وصلتنا، والتي انتفع بها الكتاب والأدباء، ولقد كان اليوم الرابع ميعاداً للقول في هذين الأثرين الكبيرين، وكان درس الحيوان منوطاً بالأستاذ «كراوس» وكان الكلام في البيان والتبيين على الأستاذ مصطفى السقا.

وقد تكلم الأستاذ كراوس عن الحيوان كلاما مستفيضاً فوضح غرضه وأهميته، واهتم كثيراً بتحقيق الصلة بينه وبين كتاب الحيوان لأرسطو فقال: إن أبا منصور البغدادي قد ذكر أن الجاحظ لم يعمل شيئاً إلا ان سلخ معاني كتاب الحيوان لأرسطو، ثم ضم اليه ماذكره المدائني من حكم العرب وأشعارها في منافع الحيوان، ولكن البغدادي هذا كان يطعن على الجاحظ، وكان كثير النيل منه، فقوله قول خصم لايصح أن نقبله على علاته، ونحن وان كنا نعتقد أن الجاحظ قد اتصل بالثقافة اليونانية ووقف على آراء أرسطو في الحيوان، إلا أننا نعتقد أنه ألف كتابه ليعارض كتاب أرسطو، وليقيم الدليل للشعوبية على أن العرب أصحاب علم ومعرفة كسائر الأمم، وقد أشار الجاحظ إلى ذلك إذ يقول في مقدمة الحيوان: «وهذا كتاب تستوي فيه رغبة الأمم، وتتشابه فيه العرب والعجم، لأنه وإن كان عربيا أعرابيا، وإسلاميا جماعيا، فقد أخذ من طرف الفلسفة، وجمع معرفة السماع وعلم التجربة، وأشرك بين علم الكتاب والسنة، وبين وجدان الحاسة وإحساس الغريزة، ويشتهيه الفتيان كما تشتهيه الشيوخ، ويشتهيه الفاتك كما يشتهيه الناسك، ويشتهيه اللاعب كما يشتهيه الجد، ويشتهيه الغفل كما يشتهيه الأريب»

ولذلك كان الجاحظ يهتم كثيرا بحشد أشعار العرب وأقوالهم وحكمهم في الحيوان، كما كان يهتم بالسخر من أقوال صاحب المنطق والضحك منها، فالبغدادي قد غبن الجاحظ وتجنى عليه وتنقصه بغير حق

وتكلم الأستاذ السقا من بعد ذلك عن البيان والتبيين فقدم بين يدي الموضوع كلاماً طويلا يتصل بشخصه أكثر مما يتصل بأمر الكتاب، فذكر أيامه في دار العلوم وهو طالب، وقال: إنه كان يكره البيان والتبيين ويستثقله وينفر منه، حتى حببه إلى نفسه نصيحة أستاذ مخلص، فأقبل عليه وانتفع به في ثقافته الأدبية. وبلغ من إعجابه به أن كان يعاود قراءته، ثم عرض لموضوع الكتاب وذكر أبوابه وفصوله، وتكلم في أسلوبه وطريقته وأفرغ عليه كثيرا من الثناء والتمجيد، ومن العجب أنه ذكر تعريف الانسان الذي نقله الجاحظ عن ارسطو فقال: إنه الحي الميت!! وقد سمعناه يعيده ثانية بهذا النص، وإنما هو الحي المبين على ما نعرف، ولكنه نطق التعريف كما جاء محرفا في الكتاب!!

اليوم الخامس

وكان القول فيه للأستاذين ابراهيم مصطفى وأحمد الشايب، وكان موضوع الكلام للأستاذ ابراهيم مصطفى عن «دعابة الجاحظ». وقد التبست الدعابة بالدعابة على السامعين، فانتظروا من الأستاذ أن يفيض عليهم من فكاهات الجاحظ ونوادره ولكنهم دهشوا إذ رأوه لايمس ذلك ولا يتقرب اليه، فجاؤا باللوم العنيف على الأستاذ، وقالوا: إنه أهمل موضوعه وخرج عليه، وما كان مبعث هذا كله إلا تلك «النقطة» الخبيثة التي أهملتها يد الطابع، فأساء إلى الأستاذ وأساء إلى السامعين!

وقد ابتدأ الأستاذ القول في دعابة الجاحظ بما كان بينه وبين أبي هفان اذ قيل لأبي هفان: لم لاتهجو الجاحظ وقد ندد بك وأخذ بمخنقك؟! فقال: أمثلي يخدع عن عقله؟! والله لو وضع رسالة في أرنبة أنفي لما أمست إلا بالصين شهرة، ولو قلت فيه ألف بيت لما طن منها بيت في ألف سنة!

وعلق الأستاذ على هذه النادرة فقال: ونحن اذا تأملنا هذه النادرة نجد أن أبا هفان الشاعر قد تراجع أمام الجاحظ الناثر، أو بالأحرى نجد الشعر قد انهزم أمام النثر، ذلك لأن

الجاحظ قد نصر النثر على الشعر ، فاستخدمه فى موضوعات لم تكن له من قبل ، وراضه على سبل استعصت على الكتاب السابقين ، ثم إن الجاحظ فى نثره قد اهتم بالتقرب من الجمهور ما استطاع ، فأخذ يطرق الأمور التى تشغل بالهم ، ويكتب فى المعانى والأغراض التى تحيط بهم فى حياتهم الأدبية والاجتماعية والأخلاقية والدينية ، ولما قامت الفتنة بين المأمون والأمين واندفع الناس فى تيار تلك الفتنة ، كان ذلك مما مكن الصلة بين الجاحظ والجمهور ، لأنه ابتدأ يؤلف لهم فى هذا الذى انصرفت اليه عقولهم ، فكتب كتاب الإمامة لهم ، فوقع عندهم الموقع الحسن ، وقد قرظه المأمون وأثنى عليه ، وإن تقريظ المأمون فى الواقع لأدق وصف لكتب الجاحظ وكتاباته .

على أن الجاحظ فى تقربه من الجمهور والعامة لم يكن الا متبعا لتعاليم المعتزلة الذين أخذوا يعملون لدفع الجمهور للعلم ، وتقريب المعارف من نفوسهم بشتى الوسائل الممكنة ، ونحن اذا تأملنا كثيراً من كتبه نجده قد اختار موضوعاتها مما يليق بالجمهور ويروج عندهم مثل كتاب البخلاء .

ولقد كان الجاحظ يدخل على نفوس العامة من ناحية أخرى هى ناحية الدعابة والتفكه ، فإنه كان يحفل بذلك ويعتد به ، ولست أذكر من فكاهات الجاحظ وأساليبه فى ذلك ومبلغ قوته فى التصوير ، فإن من قرأ منكم شيئاً من كتب الجاحظ فقد أدرك ذلك وتحققه ، ثم عرض الأستاذ لكتاب التربيع والتدوير فقال : إنه نمط من فكاهة الجاحظ ، ولكنه ملاه بالأسئلة عن اشياء لا تصح ، وفيها ما يدور فى أذهان العامة والجمهور ، ولم يعمل الجاحظ على أن يجيب عنها ، وقد قال الجاحظ فى آخره : فان أردت أن تعرف الفاسد والصحيح من هذه الأسئلة فالزم نفسك باب دارى ، وقراءة كتبى [١]

وعرض للجاحظ فى موقفه من المرأة فقال : ان الجاحظ لم يتزوج ولم يؤكد علاقته بالمرأة ، ولكنه قد دافع عنها وأكبر من شأنها . وله كتاب « الحرائر والآماء » كتبه فى مناصرة الإماء والثناء عليهن وتفضيلهن على الحرائر [١]

ثم تكلم عن أسلوب الجاحظ بما هو معروف ، وقال إنه لم يؤثر فى أحد من بعده تأثيراً فنيا ، وإن ابن العميد الذى كان يتعصب للجاحظ ، ويلقب فى ألسنة الأدباء بالجاحظ الثانى لم يكن له من خصائص الجاحظ شىء ، حتى القاضى الفاضل الذى يقول فى كلام له : أما الجاحظ فما منا معاشر الكتاب الا من دخل من كتبه الحاره ، وشن عليها الغاره ، وخرج على كتفه منها كاره ، لا نعرفه قد تاثر بالجاحظ فى قليل ولا كثير [٢] ، ثم أخذ يقارن بين الجاحظ وبين المبرد فى طريقته وأسلوبه ، ولم ينس ثعلبا فى هذه المقارنة . . وانتهى بعد ذلك الى القول بان الجاحظ كان داعية كبيراً ، قد استطاع أن يتصل بالجمهور الى حد بعيد ، وأن يؤدى لنفسه وللمعتزلة من هذه الناحية شيئاً كثيراً ، فكان مثله فى ذلك مثل الصحفى الماهر فى أيامنا الحاضرة [٣]

وقام من بعد ذلك الأستاذ أحمد الشايب للكلام فى مآخذ الجاحظ فابتدأ القول بكلام الناس فى ثقافة الجاحظ واتساعها وثنائهم عليه من هذه الناحية ، وقال إن الجاحظ كان واسع المعارف حقا ، قد اتصل بكل النواحى الفكرية والعقلية فى أيامه ، ولكن ثقافته كانت ثقافة عامة أو قل ثقافة صحفية يتلقفها من دكاكين الوراقين ، وقد كان ذلك مذموماً فى عصره حتى كانوا يقولون : هو صحفى اذا أرادوا الذم . ونحن نرى أن الجاحظ وان كان قد ألم بكل شىء ولكنه لم يتبحر فى شىء ، فثقافته أخذ من كل شىء بطرف كما يقولون

قال الأستاذ : ولقد أخذت أنظر الجاحظ فى كل ناحية من نواحى ثقافته فما وجدته إلا على ما وصفت ، ثم انتقص كلامه فى الحيوان ، وأورد فى ذلك كلام الباحث الفرنسى كارادفو فى كتابه « مفكرو الاسلام » وقد كان غاية ما حاوله

---

(١) كأنى بالأستاذ الفاضل لم يتبين الغرض الذى كتب الجاحظ من أجله كتاب التربيع والتدوير ولذلك فهو يؤاخذه بهذه الخرافات التى سردها ، والجاحظ إنما قصد إلى ذلك التهكم بصاحبه وهو قد أشار إلى ذلك فى أول الكتاب وفى الحيوان ، ثم إنه أورد العبارة الأخيرة على أنها خطاب للقارىء والجاحظ إنما خاطب بها صاحبه .

(١) المعروف للجاحظ كتاب الجواري وكتاب القيان

(٢) فى الواقع أن الجاحظ قد أثر فيمن جاء من بعده تأثيراً كبيراً بأسلوبه وطريقته وثقافته ولعلنا نستطيع أن نكشف هذه الناحية لقراء الرسالة فى بحث شامل

(٣) سمعت الاستاذ ينطق المبرد بالفتح وانما هو بالكسر حتى كان يقول برد الله من يردنى

الأستاذ أن ينتقص جهد الجاحظ وآراءه فى الحيوان والنقد والبلاغة ، وفى كل ناحية من النواحى التى كتب فيها . وقال إنه كان ينتهب آراء غيره ، وكان يخلط بين النقد والبلاغة ، على أن هناك فرقاً بين الناحيتين ، ولقد كان الجاحظ فى مؤلفاته يثير كثيراً من المشاكل ويمس الأمور المعضلة القائمة فى عصره فيستطيع أن يشخصها ويكيفها ويلقى فيها الأسئلة القوية ، ولكنه كان يتركها عند هذا الحد ، فلا علاج يشفى ، ولا جواب ينتهى بالقارئ إلى رأى حاسم ، ولذلك كان من السهل على الجاحظ أن يؤلف فى الشيء وضده وأن يناقض نفسه بنفسه ما دام هو يقف فى ذلك عند الآراء الشائعة والمسائل الذائعة فى كل فرقة . ولقد روى أن أحد الأمراء أرسل إلى الجاحظ يطلب منه أن يحتج له فى رأى ، فكتب له الجاحظ بما طلب ، فعاد الأمير يقول له : إن الخادم قد غلط فى تبليغ الرسالة اليك وإنما أريد أن تكتب فى نقيض هذا الرأى ، فلم يتورع الجاحظ عن أن يكتب له .

قال الأستاذ : وقد كان الجاحظ من المتكلمين ، وكان الجدل والكلام فى عصره على غاية ما يكون من الشدة ، ولكنى لم أعرفه قد كتب كتاباً فى أصول الجدل أو ألف فى علم الكلام كما كانت تقتضيه وظيفته ويقتضيه عصره [1] ، ثم انتقد الجاحظ فى تحقيقه ، وأورد كلاماً للمسعودى فى ذلك إذ يقول : زعم الجاحظ أن نهر مكران الذى هو نهر السند من النيل . واستدل على أنه من النيل بوجود التماسيح فيه ، وهذا تحقيق باطل ناقص ، لأن الجاحظ أقامه على قياس منطق نظرى فاسد النتيجة ولو طاوعنا الجاحظ فى قياسه لكان كل نهر فيه التماسيح هو من النيل ، لأن النيل فيه التماسيح

وكان من رأى الأستاذ أن غاية ما للجاحظ هو الأسلوب ففيه براعته وشخصيته ومميزاته ... ثم انتقده بالتكرار المملّ ، وقال إن الجاحظ كان يستعمل عبارات ثابتة يكررها كثيراً حتى كأنها « كلشيهات » [2] فهو ينقلها من كتاب إلى كتاب ومن موضع إلى موضع ، ومثل لذلك بكلامه فى اصطناع الكتب إذ أورده فى كتابه الحيوان ، وأعاده فى المحاسن

(١) ليس هذا على ما نرى مما يعاب به الجاحظ ، لأن هناك فرقاً بين المتكلم والعالم بالكلام الذى من مهمته أن يؤلف فى الكلام ، وهل لنا أن نعيب المتنبى بأنه لم يكتب فى الشعر وهو شاعر

(٢) هى المعروفة فى العربية بالرواسم . . .

والأضداد [1] ، وكذلك كلامه عن الحسد وعبارات كثيرة يدركها كل من وقف على كتبه .

اليوم السادس

أما اليوم السادس وهو اليوم الأخير فقد اضطلع به الدكتور طه وحده ، وكان عليه أن يملأ فراغه فمدّ رواق القول على كثير من نواحى الجاحظ مع أن موقفه فى القول كان عند « فكاهة الجاحظ » فتكلم أولا عن إطراء الأدباء للجاحظ وما يجب أن يكون له من هذا الإطراء ؛ ثم تكلم عن دعاية الجاحظ بما تكلم به الأستاذ ابراهيم مصطفى من قبل ، فقال إن الجاحظ قد نصر النثر على الشعر ، وجعله أقرب وأعذب فى نفوس الجمهور والعامة ، ولقد أشرت إلى ذلك فيما كتبته فى تقدمة نقد النثر لقدامة ، وقد قلت إن الجاحظ أثر فى ابن الرومى من هذه الناحية ، فهو له طريق التقصى فى المعنى والإسهاب [2]

ثم تكلم فى فكاهة الجاحظ فقال : ولقد كانت الفكاهة من النواحى البارزة عند الجاحظ ، وما كان الرجل يقصد فى فكاهته إلى الضحك والأضحاك فحسب ، ولكنه كان يقصد أيضاً إلى التصوير ، ويقصد إلى التهكم والسخر ، ويقصد إلى النقد والهجاء ، وأورد فى الاحتجاج لذلك كلامه فى نقد الخليل ابن أحمد . ثم ذكر بعض فكاهاته فذكر من ذلك قصته مع محمد بن أبى المؤمل البخيل [3] ، ثم انتدب الدكتور محمد عوض ليقرأ طرفاً من رسالة الجاحظ للمعتصم أو للمتوكل يحضه على تعليم أولاده ضروب العلوم وأنواع الأدب ، وفيها كثير من ألوان الدعابة والشعر الفكه [4]

قال الدكتور : وعندى أن الجاحظ كان كفولتير ، فكما أن فولتير لم يكن عالماً فحسب ولا أديبا فحسب ولا فيلسوفا فحسب ولا اجتماعيا فحسب ، وانما كان له فى كل هذا وأكثر من هذا ، فكذلك نجد الجاحظ له فى الأدب والفلسفة

(١) الذى نراه أن كتاب المحاسن والأضداد منسوب للجاحظ وما نعتقد أن أحدا درس الجاحظ يستطيع أن يقول غير ذلك .

(٢) هذه فى الواقع مبالغة لا تتصل بالحقيقة فى شيء ، ولست أدرى لماذا أثر الجاحظ فى ابن الرومى دون غيره من الشعراء وفيهم من كان يعاشره ويقاربه أكثر من ابن الرومى .

(٣) هى مذكورة فى البخلاء ص ٧٦ وما بعدها .

(٤) تجد هذه الرسالة كاملة فى جمع الجواهر للحصرى ص ١٦٦ وما بعدها .

والاجتماع الى آخر ماهو معروف عنه ؛ وكما أن فولتير لم يكن فى سخره وتهكمه يقف عند حد الفكاهة ولكنه كان يقصد الى كثير من الأغراض الشريفة ، فكذلك كان الجاحظ ، فالمشابهة قوية بين الرجلين (١)

ثم قال : فالجاحظ لاشك من الشخصيات الكبيرة ، وأهل العبقريات النادرة ، وهو حرى بالذكر والتكريم ، ونحن اذ نقوم له بهذا الأسبوع بمناسبة مرور أحد عشر قرنا على وفاته ، فإنما نحن نؤدى له بعض الواجب ، ولا أكتمكم ياسادة اذا قلت لكم اننا فى حاجة كبيرة الى دراسة الجاحظ فى كتبه وآثاره دراسة وافية كما تجب الدراسة ، فاننا مع الأسف لا نعرف عنه الا ما هو شائع فى المجالس وما يسقط الينا من نوادره . وكلية الآداب اذا كانت قد فكرت فى اقامة هذا الأسبوع فانها أرادت أن تلفت الأذهان للعناية بالجاحظ ، وأن تنبه على وجوب دراسة تلك العبقرية الواسعة الشاملة

هكذا قال الدكتور الفاضل ، ولست أدرى اذا كانت كلية الآداب لا تعلم عن الجاحظ الا ما هو شائع فى المجالس وما يسقط من النوادر ، واذا كانت لم تقصد الا لفت الأذهان، فمن الذى يكون عنده العلم بالجاحظ ، ومن الذى سيؤدى عنها هذا الحق للنقد والأدب م . ف . ع

(١) لعل أستاذنا الزيات هو أول من نبه على الشبه بين الجاحظ وفولتير وإنه ليقول فى كتابه : إن الجاحظ هو فولتير الشرق .

العاطفة (١)

وهى تحفة من الشعر الوصفى الرائع المبتكر فى أغراضه ومعانيه

للشاعر العالم الأستاذ أحمد الزين

خلجاتٌ تهفو بقلب الشَّجىِّ … هى سرُّ الحياة فى كلّ حىِّ
هى والرُّوح فى فؤادك صِنْوا … نِ وفيض من عالمٍ عُلْوِىِّ
هى ذكرى بعد المشيب وسلوى … فى اكتهالٍ وصبوة للفتِىِّ
ومُنًى للغــلام يهفو إليها … وحنان يحوط مهدَ الصبىِّ
رافقتْ رحلة الحياة وآخت … نِضْوَ أسفارها إخاء الوفىِّ
هى للقلب نعمةٌ أو شقاء … كم سعيد بها وكم من شقىِّ
رُبَّ من يبهر العيون رُواء … نا من همها بداء خفىِّ
ظاهر منه يخدع العينَ عمّا … ضَمّن القلبُ من ضنى مطوىِّ
من غرام مبرِّحٍ أو فراقٍ … أو مُنًى عُوجلت بصوت النعىِّ
باسم بين صَحْبه فإذا يخـــلو بكى شجوَه بدمعٍ شجىِّ
وأخى منظَر تراه فتَنْبُو الـــعَيْنُ عن منظر رثيث زَرِىِّ
يبصر الناس منه ما يبعث الرحـــمة فى قلب شانيءٍ وصفِىِّ
ما دَرَوْا أنه على البؤس يحيا … بفؤادٍ خالٍ وبالٍ رخىِّ
ملأت نفسَه السعادة حتّى … لا يبـــالى بمنظر أو بزِىِّ
نَزَعاتُ النفوس فى كلّ قلب … مَيَّزَتْ بين ساخطٍ ورضِىِّ
أسعدتْ آدماً وحوّاء حينا … ثم أشقتهما بإفك الغوىِّ
ورث النسلُ عن أبيه ميُولا … لم تدَعْه فى ظلِّ عيش هنِىِّ
ونفوسا حيْرَى تقلّبها الأهـــواء مفتونة بكل طــلِىِّ
فهى بين الآمال تمرح نَشْوَى … ثم تصحو باليأس من كلّ شىّ
إنَّ للعاطفات حُكما قويا … ظلُّه عاصف بكلّ قوىِّ
كم أذلّت جبارَ قومٍ ، وغَلَّت … من طليق ، وأسلَسَتْ من أبِىِّ
كم تولّى جهادَها فى قديم الدهر نُصْح لعـــالم ونبِىِّ
جاهَدَاها بالعقل حينا وحينا … سخَّرَا بعضَها لقتل البَغِىِّ
وهى تقْوَى مع الجهاد فويْلٌ … للورَى من جهادها الأبدى

(١) تستعمل العواطف فى منى ميول النفس ونزعاتها استعمالا شائعا فى كلام أهل العصر وهى المراد وصفها فى هذه القصيدة .

يوم عابس

في الربيــع الباسم

للأستاذ محمود غنيم

يالصباح أغــبرِ الأديمِ　　قد طعن الربيـع فى الصميمِ
أمطارُه قد شوّهت آذارهْ　　وريحه قد صوحت أزهاره
قد يظفر الباحثُ بالعنقاءِ　　فيـه ولا يرى ابنَةَ السماءِ
فقلتُ: هل ضلَّ صباحُ اليوم　　أم أغرقت شمس الضحى فى النوم؟
ويحك يا أيتها الشمس اطلعى　　يا أرضُ غيضى يا سماءُ أقلعى
وقفتُ حيرانَ على الطريقِ　　من غير ماء صرتُ كالغريق
الأرضُ تحتاجُ إلى عوّامِ　　فكيف بالسير على الأقدام
من رام أن يسعى يمينا أيسرا　　ومن مشى قدّامَ عاد القهقرى
لكننى شحذتُ غرب عزمى　　وخضتُ موج ذلك الخضمْ
فلست بالنِّكس ولا الجبانِ　　إذا دعا الداعى إلى الميْدانِ
مشيتُ كالنشوانِ كلُّ همى　　أنىَ أحفظ اتّزان جسمى
أسأل فى الطريق كلَّ سابلِ　　كأنَّنى أســيرُ فى المجاهل
دمع السماء فوق رأسى هامِ　　والأرض من تحتىَ بحرٌ طامِ
والماء قدران على منظارى　　فسرت أهتدى بصوت جارى
وبعد أن كنت على غيارى　　اخشى من الرشاش والغبار
فرطتُ فيـه غايةَ التفريطِ　　وصرت لا أخشى سوى السقوطِ
وعـثرةُ اللسانِ فى المقالِ　　دونَ غِبارِ الرِّجل فى الأوحالِ
وبينما نحن نجوزُ حارهْ　　إذ داهمتنا عنـدها سيارهْ
تنطلق انطلاق سهمٍ مارقِ　　سابحة فى خفة الزوارق
ينضحُ بالميـاهِ جانباها　　على ثيابٍ ليس لى سواها
فطرزتْ إذ ذاك من ثيابي　　ما أخطاته ريشةُ السحابِ
فقلت : ويلٌ للفقير العافى　　من الغنى المترفِ المتلافِ
قال رفيق : دنت الدروسُ　　وبعد خمس يضربُ الناقوسُ
فقلت : مهلا أيهـا الرفيق　　ما يفعلُ المدرسُ الغريقُ ؟
قال : «أجيا» تبتغي و«سينا»؟　　أسرع فلست تجهل القانونا
قلت : قوانين البلاد جائرهْ　　إن هى ساوتنا باهل القاهرهْ
لا تذكر القانون فى الأريافِ　　قد وضعَ القانونُ فى الجفافِ
حيث الشوارعُ التى لا تنضحُ　　ولا بمكث الماء فيها تسمحُ
وهكذا نشرب نحن المطرا　　وساكن المدن به ما شعَرَا
وكل ما فى الريف من محامدِ　　يذهب فى أمطارِ يومٍ واحدِ

(كوم حماده)　　**محمود غنيم**

دافعات إلى الغواية أحيــا　　نا وحينا إلى الطريق السوىّ
كم يواسى بها الفقير وتنجيـ　　ـه من البؤس رقّة فى غنىّ
كم سقيمٍ لولا ترفُّق آسٍ　　لقضَى نحبَـه بداءٍ دَوِىّ
ومشوقٍ لولا التعلل أودى　　يأسُه بالدم الطهور الزّكىّ
وجمالٍ لولا العواطف ساوَى الـ　　ـقبحَ فى عقلِ أبلَهٍ وذَكىّ
فبها قُــدِّر الجمالُ ولولا　　ها لعاش الوَرَى بقلبٍ خَلِىّ
يا لنفسٍ تعيش بين ميُولٍ　　أتعَبَتْها ما بين رُشْد وغَىّ

أحمد الزين

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

الفضيلة الواهبة

— ١ —

وبعد أن ودع زارا مدينة (البقرة الملوّنة) التي شغف قلبه بها، شيعه عدد غفير ممن كانوا يدعون أنفسهم أتباعه حتى بلغوا إلى منعطف الطريق، فقال زارا إنه يريد متابعة سيره وحده. فودّعه أتباعه وقدموا إليه عصا قبضتها من ذهب بشكل أفعى ملتفة حول الشمس، فسر زارا من هذه الهدية واتكأ عليها قائلا لأتباعه:

— قولوا لي، لماذا أصبح الذهب ذا قيمة؟ أليس لأنه نادر ولافائدة منه، ولأنه وديع في لمعانه، ويبذل نفسه في كل حين؟ لم يبلغ الذهب أسمى مراتب الأشياء القيمة إلا لأنه رمز لأسمى الفضائل، فعين الواهب برّاقة كالذهب، ووهج الذهب رسول سلام بين النيرين.

إن أسمى الفضائل نادرة ولانفع منها، فهي تتوهج بنورها الهادىء، وليس بين الفضائل من يطاول فضيلة السخاء.

والحق، أنني شاعر برغبتكم. أيها الصحاب. فانكم تطمحون مثل طموحي إلى الفضيلة الواهبة، فأنتم تريدون أن تحولوا نفوسكم إلى هبات وعطايا، وإلا لكنتم أشبه بالهررة والذئاب. ولهذا تتعطشون إلى حشد جميع الكنوز في أنفسكم فهي لن ترتوي من جمع الجواهر والكنوز لأنها ظامئة أبداً إلى العطاء. تجتذبون كل ما حولكم ليتسرب إلى داخلكم فينفجر ينبوعكم بها كأنها هبة من محبتكم.

إن المحبة السخية الواهبة تستحيل إلى لص يمد يده إلى جمع الأشياء القيمة، وما أرى هذه الأنانية إلا عملا صالحا مقدساً.

غير أن هنالك أنانية أخرى تدهورت إلى أدنى درجات المسكنة في مجاعتها المتحكمة أبدا فيها. تلك هي الأنانية التي تطمح إلى السرقة في كل آن، فهي أنانية المرض بل هي الأنانية المريضة، تحدج كل شيء بنظرات اللص وبنهم الجائع، فتزن لقمات الآكلين من أبناء النعمة وتدبُّ أبداً حول موائد الواهبين. وما مثل هذه الشهوة إلا عرض الداء الدفين ودليل الانحطاط الخفي، وما الطموح إلى السرقة بمثل هذه الأنانية إلا نزعة من نزعات الجسوم العليلة

أي شيء نراه أقبح الأشياء، أيها الأخوة، أفليس الانحطاط أقبحها؟ وهل يسعكم إلا أن تحكموا بانحطاط مجتمع لا أثر لروح السخاء والعطاء فيه.

إن سبيلنا يتجه الى الأعالي، وما نقصده إنما هو الارتقاء من نوع الى نوع، لذلك نرتعش عند ما نسمع الانحطاط يهتف قائلا: (لي كل شيء)

وهل روحنا الا رمز لجسدنا وهي تطمح الى الاعتلاء، وهل الصفات التي ندعوها فضيلة الا عبارة عن هذه الرموز عنها؟

إن الجسد يقطع مسافات التاريخ بكفاحه، ولكن ما تكون الروح من الجسد يا ترى إن لم تكن المزيع لكفاح الجسد وانتصاراته؟ وما الجسد الا الصوت، وما الروح الا الصدى الناجم عنه والتابع له. ليست الكلمات الموضوعة للدلالة على الخير والشر سوى رموز فهي تشير الى الأمور ولا تعبر عنها ولا يطلب المعرفة فيها ومنها الا المجانين

انتبهوا، أيها الاخوة، الى الزمن الذي يطمح فكركم فيه الى البيان بالرموز لأن في هذا الحين تتكون الفضيلة فيكم، وفيه يبعث جسدكم ويتجه الى الأعالي مجتذبا عقلكم من سكونه ليدفع به الى مراحل الابداع حتى اذا ما سار عليها عرف قيمة الأشياء وأحب فاجاد في كل أعماله

في الزمن الذي يختلج فيه قلبكم تتكون فضيلتكم لأن هذا القلب يفيض باختلاجه كالنهر العظيم فيغمر القائمين على ضفافه بالبركة كما يهددهم بأشد الأخطار

إنما تنشأ فضيلتكم عند ما يعجز المدح والذم عن بلوغ شعوركم. فتطمح إرادة الرجولة فيكم الى السيادة على كل شيء

إنما تنشأ فضيلتكم عند ما تحتقرون النعم والفراش الوثير وعندما لاتجدون راحة الا بعيدا عن مواطن الراحة

انما تنشا فضيلتكم عند ماتنصب ارادتكم على مقصد واحد، وعندمايصبح هذاالتحول فى آلامكم ضرورة لا يسعكم التحول عنها

أفليس هذا شكلا جديداً للخير والشر ؟ أفما تسمعون بهذا القول خرير الينبوع العميق الذى غربت مسالكه من قبل عنكم؟

إنها لفضيلة جديدة تمنح الانسان قوة وتبعث فيه عزماً، هذه الفكرة المتحكمة فروح بلغت الحكمة لأنها شمس مذهبة التفت عليها أفعى الحكمة

— ٢ —

وصمت زارا مرسلا نظرات الحب الى أتباعه، ثم ارتفع صوته بنبرات جديدة قائلا: — أخلصوا للأرض، يا إخوتى، بكل قوى فضيلتكم. لتكن محبتكم الواهبة ولتكن معرفتكم خادمتين لروح الأرض، إننى اطلب هذا متوسلا

لا تدعوا فضيلتكم تنسلخ عن حقائق الأرض لتطير باجنحتها ضاربة أسوار الأبدية، ولكم ضلت من فضيلة من قبل على هذا السبيل

أرجعوا الفضيلة الضالة كما رجعت بها أنا الى مرتعها فى الأرض. عودوا بها الى الجسد والى الحياة لتنفخ فى الأرض روحها، روحا بشرية

لقد تاه العقل وتاهت الفضيلة فخدعتهما آلاف الأمور، ولما يزل هذا الجنون يتسلط على جسدنا حتى أصبح جزءا منه فتحول فيه الى ارادة

لقد قام العقل وقامت الفضيلة معه بتجارب عديدة فضلا على ألف سبيل؛ وهكذا أصبح الانسان عبارة عن تجارب ومحاولات ألصقت بنا الجهل والضلال. وليس ما استقر فينا من التجارب حكمة الأجيال فحسب، بل جنونها أيضا. ولكم يتعرض الوارثون إلى أخطار

إننا لم نزل نصارع جبار الصدف، ولم يزل العته سائداً على الانسانية حتى اليوم

ليكن عقلكم وفضيلتكم بمثابة روح للأرض وعقل لها. أيها الأخوة، فتتجدد بكم قيم الأشياء جميعها، من أجل هذا وجب عليكم أن تبدعوا

إن الجسد يطهر بالمعرفة، فيرتفع بمرانه على العلم، لأن من يطلب الحكمة يطهر جميع غرائزه، ومن ارتقى فقد أدخل المسرة الى نفسه

أعن نفسك، أيها الطبيب، لتتمكن من إعانة مريضك. إن خير ما تبذله من معونة لهذا المريض هو أن يرى بعينه أنك قادر على شفاء نفسك

إن فى الأرض من السبل ما لم تطاها قدم بعد، فما أكثر مجاهلها وما أكثر خفاياها!!

اسهروا وانتبهوا أيها المنفردون لأن من المستقبل تهب نسمات سرية حاملة بشائر لا تقرع الا الآذان المرهفة

إنكم فى عزلة عن العالم، أيها المنفردون، ولكنكم ستصبحون شعباً فى آتى الزمان، ومنكم سيقوم الشعب المختار لأنكم اخترتم نفسكم اليوم. ومن هذا الشعب سيولد الانسان الكامل...

والحق أن الارض ستصبح يوماً مستشفى للأعلاء، فان فى نشرها عبيراً جديداً هو عبير الاخلاص والأمل الجديد.

— ٣ —

وسكت زارا كمن يقف عند كلمة تتلجلج فى فمه، وبعد أن قلب عصاه طويلا بين يديه، أطلق صوته وقد تغيرت نبراته فقال:

— سأذهب وحدى الآن، أيها الصحاب، وأنتم أيضاً ستذهبون بعدى وحدكم لأننى هكذا أريد.

هذه نصيحتى إليكم، ابتعدوا عنى وقفوا موقف الدفاع عن أنفسكم تجاهى، بل اذهبوا إلى أبعد من هذا. اخجلوا من انتسابكم إلىّ فلقد أكون لكم خادعاً.

على من يطلب الحكمة ألاّ يتعلّم محبة أعدائه فحسب بل عليه أيضا أن يتعلّم بغض أصدقائه. وما يعترف التلميذ اعترافا تاماً بفضل أستاذه إذا هو بقى أبداً له تلميذاً. لماذا لا تريدون أن تحطموا تاجى؟

إنكم تحوطوننى بالاجلال، ولكن ماهى الكارثة التى تتوقعونها من إعراضكم عنى، إن فى رفع الأنصاب لخطراً فاحترسوا من أن يسقط عليكم التمثال المنصوب فيقضى عليكم تقولون إنكم تؤمنون بزارا، ولكن أية أهمية له؟

تقولون إنكم مؤمنون، ولكن ما أهمية جميع المؤمنين؟ ما كان أحد منكم فتش عن نفسه قبل أن وجدتمونى، وهكذا جميع المؤمنين، فليس الإيمان شيئاً عظيما. لذلك آمركم الآن أن تضيعونى لتجدوا أنفسكم، ولن اعود إليكم إلا عندما تكونون جحدتمونى جميعكم.

والحق، يا إخوتى، أننى فى ذلك الحين، سافتش عن خرافى بعين أخرى فأبذل لكم حباً غير هذا الحب

سيأتى يوم تصيرون فيه أصحاباً لى إذا ماوحد بينكم الامل الواحد، عندئذ سارغب فى الإقامة بينكم للمرة الثالثة للاحتفاء بانوار الهاجرة العظمى.

وستبلغ الشمس الهاجرة عند مايصل الناس إلى منتصف طريقهم بين الحيوان والانسان الكامل. وعند ما يرون أملهم الأسمى على منتهى السبيل الذى يقودهم إلى الفجر الجديد

فى ذلك الحين يتوارى من يسير إلى الجهة الثانية وهو يبارك نفسه إذ ترتفع شمس معرفته لتتكبد الهاجرة

لقد مات جميع الآلهة، فلم يعد لنا من أمل إلا ظهور الإنسان الكامل. فلتكن هذه إرادتنا الأخيرة عند ماتبلغ الشمس الهاجرة.

هكذا تكلم زارا ...

حديث الأزهار

للكاتب الفرنسى ألفونس كار

السرو

كنت ولداً لأول مرة جلست فيها تحت ظلك ياشجرة السرو حين كانت أسراب الحمام تفتح أجنحتها للريح فاتبعها من روحى بأطيار تشق الأثير متجهة نحو السماء.

وهأنذا أتقدم اليوم ببطء تحت أغصانك لأطرح على الأرض جسدى المتعب وقد وقفت روحى عن تباع الأطيار فى اعتلائها. لقد صار الولد شيخاً.

لم تزل تظللنى أغصانك أيتها السروة، وقد أصبح جذعك متكأ لیدى المرتجفة، فأقف مستنداً إليه وأجيل أبصارى بين القبور حيث يرقد أجدادى وحيث أرقد أنا غدا.

ما أجملك، أيتها السروة، وأنت متجهة إلى ما فوق كصلاة المؤمنين، وحينما يمر الهواء بين أغصانك يخيل إلى المستغرق تحت ظلالك أنه يسمع ما تسر اليه قلوب أحبابه وقد استحالت إلى تراب فى القبور.

لقد مرت على صداقتنا السنون أيتها السروة الهرمة، ومنذ أول عهدى بك لم أزل أتفيأ غصونك لأناجيك مفكراً فى زوال الأيام. أنت أعرف منى بحالى، فأنا أستشهدك على إيمانى بالخلود واحتقارى لكل مرتجف أمام الفناء.

أحبك أيتها الأغصان القاتمة. أحبك يا زهرة المدافن لأنك رمز الراحة والسكون لمن أتعبته حركة الحياة

إلى متى تنطلق روحى من أسرها فتجول فى الفضاء الفسيح الغير المتناهى كما تجول أسراب الحمام فى آفاقها، فيرتفع مثلها فوق المآذن إلى السحاب إلى ما وراء كل منظور

هنالك السكون بالارتقاء إلى الأوج الأعلى، حيث لاشقاء ولا خداع. تقدم يا ملاك الموت وأطرق الباب فان وراءه روحاً أهرمها الدهر وهى مستعدة للرحيل

أيها الهواء الهاب على أغصان السروة القاتمة كأسرار الأبد، كل يوم أنتظر منك مناجاتى بساعة موتى وأنت فى أنينك ساكت عنها لأنها فى علم الله.

ف. ف

البريد الأدبي

الأزهر والجامعة المصرية في عيد جامعة أثينا

في هذا الأسبوع تحتفل جامعة أثينا بعيدها المئوي ؛ فقد دعيت جامعتنا المصرية ودعيت الجامعة الأزهرية لشهود هذا الاحتفال العلمي ، فلبتا الدعوة ؛ وانتدبت الجامعة المصرية مديرها الأستاذ لطفي السيد باشا لتمثيلها ، وانتدبت الجامعة الأزهرية أحد أساتذة التفتيش . ومما يلاحظ بهذه المناسبة أن الأزهر قد بدأ يتخذ مكانته في هذه المهرجانات العلمية الدولية بعد أن لبث دهرا بعيدا عنها ، وهذه هي المرة الثالثة أو الرابعة التي يوفد فيها ممثليه إلى الخارج للاشتراك فيها . وقد نشأت جامعة أثينا منذ مائة عام (سنة ١٨٣٧) معهدا متواضعا على سفح الأكروبول ، وكان قيامها من نفثات الاستقلال الذي كسبته اليونان بدمائها قبل ذلك بأعوام قلائل ؛ بيد أنها قطعت خلال هذه المائة العام أشواطا عظيمة ، فأضحت جامعة كبرى تتمتع بهيئة علمية لا بأس بها

وسيشهد عيد الجامعة الأثينية ممثلو نحو خمسمائة جامعة ومعهد ، وسيفتتح الاحتفال الرسمي ملك اليونان ويلقي خطاباً في هذه المناسبة وتمتد حفلات العيد مدى أسبوع من ١٧ إبريل الجاري إلى ٢٢ منه ؛ وقد وضع برنامج حافل يشتمل على خطب وأحاديث علمية مختلفة وعلى حفلات ومآدب اجتماعية ، ونزهات ورياضات خلوية مختلفة ؛ وسيلقي ممثل الجامعة المصرية وممثل الأزهر - كل كلمته في هذا المهرجان

ذكرى مكتشف البلهارسيا :

تستعد الجمعية الطبية المصرية للاحتفال في الشهر القادم بذكرى العلامة الألماني تيودور بلهارس لمناسبة مرور خمسة وسبعين عاما على وفاته : وقد اقترن اسم هذا العلامة إلى الأبد بأحد الأمراض المصرية المتوطنة وهو « البلهارسيا » ، التي ما زالت تفتك بمئات ألوف من المصريين ؛ وكان بلهارس أستاذاً بمدرسة الطب المصرية ، فعكف أعواماً على دراسة جراثيم الأمراض المتوطنة ، ووفق بعد مباحث طويلة إلى اكتشاف ديدان مرض البلهارسيا وبعض الجراثيم والطفيليات المتوطنة الأخرى ، وقد رأت الجمعية الطبية المصرية أن تقوم بواجب الوفاء لهذا العلامة الذي خدم الطب والعلم في مصر ، فتكرم ذكراه في حفلة جامعة تقيمها بكلية الطب في مساء يوم الأحد ٩ مايو القادم ، وسيلقي بعض حضرات الأساتذة والأطباء المصريين كلمات في ذكرى العلامة الراحل ، وفي حياته واكتشافاته الطبية ، ومن المحقق أن دوائر العلم الألماني ستحتفي بهذه الذكرى أيما احتفاء ، فاشتراك الجمعية الطبية المصرية في هذا التكريم تصرف محمود وعنوان على التضامن العلمي الذي لا يعرف واجباً ولا حدوداً

جوائز مدينة باريس الأدبية :

من أنباء فرنسا الأدبية أن مجلس باريس البلدي ، قد قرر إجابته لاقتراح مسيو رنيه جيوبن أحد أعضائه أن ينشيء جائزة أدبية قدرها خمسة وعشرون ألف فرنك (نحو ٢٣٠ جنيه) تسمى « جائزة مدينة باريس الكبرى » ، وتتولى منحها هيئة محكمين من الكتاب وأعضاء المجلس البلدي ؛ وتمنح عاما بعد عام لكبير من الكتاب أو الشعراء أو المفكرين ، فتمنح في العام الأول لكاتب « روائي » مثلا تحوز مؤلفاته قصب السبق ؛ ثم تمنح في العام التالي « لشاعر » ، وفي العام الثالث « لكاتب وصفي أو ناقد » ، وفي العام الرابع « لمؤرخ أو فيلسوف » ، وهكذا ، ويمكن منح هذه الجائزة عن مؤلف بعينه أو عن جميع التآليف مجتمعة ، كذلك قرر المجلس البلدي أن يرفع الإعانة المقررة « لجمعية الأدباء » ، من عشرين إلى خمسين ألف فرنك في العام

وهذه الجائزة الأدبية التي تقررها مدينة باريس ليست إلا واحدة من عشرات بل من مئات من الجوائز الأدبية

المختلفة التى تقررها الهيئات الرسمية وغير الرسمية من جمعيات علمية وأدبية وصحف وغيرها لتشجيع العلوم والآداب، ورعاية الحركة الفكرية وإذكاء همم الكتاب والأدباء والفنانين، فاين جوائزنا نحن؟ ومتى تفكر هيئاتنا الرسمية وغير الرسمية فى ترتيب الجوائز الأدبية الموفرة التى يمكن أن تسبغ بهيبتها الأدبية على أدبائنا وكتابنا شرفاً يتسابقون إليه. كما تسبغ بقيمتها المادية على جهودهم نوعاً من المؤازرة والتشجيع؟

كتاب عن الرحلات القطبية

صدر أخيرا بالانكليزية كتاب عن المكتشف الامريكى الشهير روبرت بيرى وعن رحلاته القطبية المختلفة عنوانه: «Peary»، ومؤلفه المؤرخ الامريكى هويز W. H. Hobbs وقد اشتهر هويز منذ بعيد بكتاباته عن القطب والرحلات القطبية، فهو من هذه الوجهة أستاذ موضوعه؛ وهو يسرد فى كتابه الجديد رحلات بيرى القطبية منذ رحلته الاولى الى الجزيرة الخضراء فى سنة ١٨٨٦، وهى السنة التى اكتشف فيها رأس الثلج الشهير. وبيرى من أشهر المكتشفين والرحل فى عصرنا؛ وكان مولده فى ولاية بنسلفانيا سنة ١٨٥٦؛ والتحق بالبحرية الامريكية سنة ١٨٨١؛ وفى سنة ١٨٨٦، رحل الى الأرض الخضراء رحلته الاولى؛ وفى سنة ١٨٩١ رحل اليها للمرة الثانية وقطع الجزيرة من جنوبها الى شمالها على ظهر زاحفة ثلجية، وأنفق فى رحلته ثلاثة عشر شهرا واستطاع أن يتحقق من أن الأرض الخضراء جزيرة تحدها الثلوج من الشمال كما تحدها من الجنوب. ثم قام برحلته الثالثة الى الارض الخضراء فى سنة ١٨٩٣ ومكث فى الجزيرة نحو أربعة أعوام؛ وكان بيرى يستعين فى رحلاته برجال «الاسكيمو» واليه يرجع الفضل فى دراسة خواص هذا الجنس المدهش الذى يعيش بين الجليد الخالد. وفى سنة ١٨٩٨ قام بيرى برحلة جديدة على ظهر الباخرة القطبية «روزفلت» حول الجزيرة الخضراء من الشمال والشرق، ولبث بيرى طول حياته يتطلع إلى القطب واكتشافه؛ وفى سنة ١٩٠٥ قام بأعظم رحلاته فى اتجاه القطب الشمالى، ووصل فى سنة ١٩٠٨ على ظهر السفينة القطبية روزفلت إلى رأس شريدان. وهى أبعد نقطة وصل إليها إنسان، وقضى الشتاء فى تلك الوهاد الثلجية؛ وفى ابريل سنة ١٩٠٩، وصل بيرى إلى القطب الشمالى وحقق بذلك أمنية حياته؛ وكتب بيرى عدة كتب خلاصة عن رحلاته؛ ورقى إلى رتبة الأميرال فى سنة ١٩١١، وتوفى فى واشنطون سنة ١٩١٩

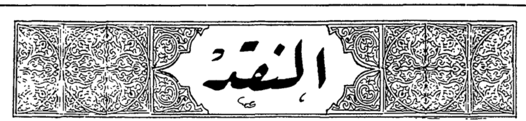
وقد استعرض مستر هويز فى كتابه الجديد حياة بيرى ورحلاته بأسلوب شائق، واستخلصها من كتبه ومذكراته ومعلوماته الخاصة، فجاء من أبدع الكتب التى صدرت عن الرحلات القطبية

قضية أدبية غريبة

رفعت إلى محكمة نيويورك العليا قضية أدبية غريبة تشغل دوائر النشر والأدب تدور حول هذا السؤال، هل يحق للعالم الذى أضحت حياته العامة ملكا للتاريخ أن يتمسك باخفاء بعض حقائق فى حياته لاعتبارات خاصة؟، وخلاصة القضية أن العلامة الباثولوجى الأشهر الدكتور كارلاندشتاينر الذى يحمل جائزة نوبل للعلوم، والذى يشغل مركزا هاما فى معهد روكفلر للباحث الطبية رفع قضية على شركة نشر قاموس الاعلام whos who يطلب فيها الحكم على الشركة بان تمتنع عن نشر صورته وترجمته فى قسم «أعلام يهود أمريكا» فى طبعتها الجديدة، وأن تدفع له عشرين ألف جنيه تعويضا عما لحقه من الضرر المحقق فى حياته الخاصة وفى مهنته

وقد ولد الدكتور لاندشتاينر فى النمسا من أبوين يهوديين ولكنه نبذ اليهودية واعتنق الكثلكة فى سنة ١٨٩٠ وتزوج من سيدة كاثوليكية، ويقول محاميه انه، أى الدكتور، يعيش منذ خمسين عاما فى وسط مسيحى، وينضى عن علائقه الدينية القديمة؛ وحق الخصوصية هنا قائم ويجب أن يحمى. ثم إن للمدعى ولداً فى التاسعة عشرة من عمره لايعرف شيئا عن أصل والده اليهودى. فاذا وقف على هذه الحقيقة فى القاموس المشار إليه فانه يصطدم لذلك وقد يعرضه للذلة فى الوسط المسيحى الذى يعيش فيه

ويقول الناشرون إن قاموس الاعلام هذا عمل تاريخى جليل، وإن كل مايتعلق بحياة المدعى من الوقائع والحقائق إنما هو ملك للتاريخ وإن نشرها لعدوان فيه على حقوقه الخاصة وهكذا تجد المحكمة العليا نفسها أمام مأزق دقيق



اسماعيل المفترى عليه

تأليف القاضى بيير كربتيس

وترجمة الأستاذ فؤاد صروف

لأستاذ كبير

المستر بيير كربتيس القاضى السابق بالمحاكم المختلطة مؤرخ محقق، كتب فى تاريخ مصر كتبا قيمة اعتمد فى إخراجها على مصادر ووثائق أكثرها لم ينشر بعد، رجع إليها فى دار المحفوظات المصرية بتصريح من جلالة الملك الراحل .

ويقول لنا الأستاذ صروف إنه يوشك أن يصدر فى تاريخ مصر كتابا آخر . وليس القاضى كربتيس أول رجال الولايات المتحدة الذين كتبوا عن مصر ، بل إن للكثيرين منهم على التاريخ المصرى فضلا كبيرا . ويمتاز هؤلاء المؤرخون ببعدهم عن التأثر بالمصالح والعواطف السياسية ، ولذلك تراهم ينظرون إلى الحقائق نظرة المحايد المحقق الذى يبحث ويتحرى ولا يهمه بعد ذلك أجاءت نتيجة البحث وفق ما يحب أم لم تجىء ؛ ومن أجل ذلك كانت كتبهم جديرة بأن تلقى من الكتاب المصريين المؤلفين منهم والمترجمين ما تستحقه من العناية .

ولكن يؤسفنا أن نرى هؤلاء المؤلفين والمترجمين لا يعتمدون إلا على مصادر من نوع واحد ، ويغفلون المصادر الأمريكية مع أنها من أهم المراجع وأصدقها ، ومع أن أصحابها بحكم مراكزهم كانوا ملمين بالشئون المصرية وكان لبعضهم يد فى تصريفها

لذلك اغتبطنا حين أخرج الأستاذ صروف ترجمته لكتاب إسماعيل الخديو المفترى عليه ، ونرجو أن نرى فى القريب ترجمة لكتاب « ابراهيم » وأخرى لكتاب « فارمن » وثالثة « لما كون » ورابعة « لادون ده ليون » ، وغيرهم من الكتاب المنصفين

وهذا المقام الذى نضع فيه المؤرخين الأمريكيين هو الذى حملنا على قراءة الترجمة العربية لكتاب كربتيس بعد أن قرأنا الأصل الانجليزى منذ عامين أو أكثر

ومن أجل هذا أيضا رأينا من الواجب علينا أن نبدى رأينا فى الترجمة لأن موضع الكتاب جليل ، يفتح فى التاريخ المصرى فتحا جديداً . ولأن المؤلف قاض نزيه وكاتب كبير ، ولأن المترجم من الكتاب المعروفين ، ولأن دار النشر الحديث قد بذلت فى إخراجه من العناية ما يجعلها جديرة بالثناء العظيم

وقبل أن نبدأ بالنظر فى هذا الكتاب يحسن بنا أن نضع أمام القراء المبادىء الأساسية التى سنسترشد بها فى نقدنا ، والتى نرى لزاما على كل مترجم أن يراعيها إذا شاء أن تكون ترجمته دقيقة أمينة سليمة

(١) فأول ما يجب على المترجم أن يكون ملما بموضوع الكتاب الذى يترجمه ، وإلا دفع فى الخطأ من حيث لا يدرى : ذلك بأن لكل علم ولكل فرع من علم مصطلحاته الخاصة التى يجب أن يعرفها المؤلف والمترجم . ويصدق هذا على التاريخ كما يصدق على العلوم الطبيعية والرياضية . ففى التاريخ معان وضعت لها مصطلحات اتفق عليها، وأصبح المؤلفون والمترجمون فى غير حاجة إلى اختراع ألفاظ جديدة للتعبير عنها ، بل أصبح من واجبهم أن يتقيدوا بها إن وجدت ، وإلا وقعوا فى الفوضى والاضطراب . وقد توجد فى الكتاب المترجم أغلاط مطبعية وغير مطبعية . وأسماء الأشخاص وأماكن محرفة أو غير محرفة ، ولا يستطيع المترجم أن يثبتها على حقيقتها إلا إذا كان عارفا بها أو كان فى استطاعته الرجوع إلى المصادر التاريخية التى تمكنه من تحقيقها . وتعريب الأسماء من اللغة الانجليزية يحتاج إلى

كثير من العلم والدقة ، وإلا خرج الكتاب مشوها بعيدا عن التحقيق التاريخي قليل القيمة غير مطابق للأصل المترجم

(٢) كذلك يجب أن تكون الترجمة كالأصل من غير زيادة ولا نقص ، ولسنا نرى بذلك إلى الترجمة الحرفية التي يتقيد صاحبها بالألفاظ فيحتم على نفسه أن يأتي لكل لفظ بما يقابله ولكل عبارة بمثلها مساوية لها في الطول وعدد الكلمات : ليس هذا هو المقصود بل المقصود أن يعبر المترجم عن جميع المعاني الواردة في الأصل المترجم بلغة سليمة وأسلوب صحيح ، والأمانة في الترجمة تحتم على المترجم أن لا يحذف من الأصل شيئاً إلا إذا اضطر إلى ذلك اضطراراً ، ويحمل به مع ذلك أن يذكر سبب هذا الحذف في هامش الكتاب أو في المقدمة إن شاء .

(٣) ويتفرع من هذا مبدأ ثالث عظيم الأهمية يتوقف عليه جمال الترجمة وسلاسة الأسلوب . ذلك أن اللغة الانجليزية تكتب جملا منفصلة قليلة الروابط اللفظية مع أن الفقرة الطويلة تعبر في الغالب عن معنى واحد شامل مرتبط الاجزاء متسلسل الجمل . والفقرات كذلك مرتبط بعضها ببعض . لكن هذه الروابط روابط ملحوظة غير ملفوظة في كثير من الاحيان ، ويتوقف إدراك المعنى على فهم هذه الروابط بين الجمل والفقرات ، وتختلف اللغة العربية في ذلك عن اللغة الانجليزية . فالعبارة العربية تحتاج إلى الروابط اللفظية بين الجمل ، ومتانة الأسلوب تستدعي حسن الانتقال من فقرة إلى فقرة ، وإلا كان هذا الاسلوب مفككا غير فصيح وبعيدا عن الذوق العربي ، وكل خطأ في فهم هذه الروابط والتعبير عنها يفسد الاسلوب ويغير المعنى . وربما كان ذلك أصعب شيء في الترجمة ، وهو الذي يجعل الكتب المترجمة ركيكة الأسلوب أجنبية في حقيقتها ، وإن كتبت بألفاظ عربية . والمترجم القدير هو الذي تقرأ كتابه فلا تشعر أنه مترجم ، بل تحس بأنك تقرأ كتابا عربيا فصيحا

(٤) وثمة مسألة أخرى ترتبط بالمسألة السابقة وهي الأمثال والتشبيهات ونحوها ، وهل تترجم بلفظها أو بمعناها . ونحن نرى أن يترجم معناها ، واللغة العربية غنية بالأمثال والحكم والتشبيهات ، ولا يعجز الأديب المطلع عن العثور لكل تشبيه أو مثل انجليزي على ما يقابله في اللغة العربية ، فاذا لم يجده فلا ضير عليه أن يترجمه بشرط ألا تكون الترجمة عسرة الفهم ولا بعيدة عن الذوق العربي السليم

(٥) وكثيراً ما يقصد المؤلف أن يؤكد بعض المعاني تأكيداً خاصاً لأهميتها في نظره ، وكثيراً ما يسبغ على بعض المعاني ثوبا روائياً أو شعرياً يقتضيه غرضه ، وواجب المترجم القدير في مثل هذه الاحوال ألا يغفل عن ذلك في الترجمة ليكون أميناً على معاني المؤلف وروحه معا

تلك أهم المبادئ التي سنبني عليها نقدنا لترجمة الأستاذ فؤاد صروف وبقدر انطباقها على الترجمة يكون حكمنا عليها وموعدنا بذلك العدد القادم إن شاء الله

الغنيمي

فى الـكتب

المطالعة التاريخية للمدارس الابتدائية

للأساتذة : محمد رفعت بك وزكي علي ومحمد مصطفى زيادة وأحمد نجيب هاشم والسيد أحمد خليل

للأستاذ أحمد الشايب

هذه أول مرة فى تاريخ الحياة المدرسية المصرية يعرض فيها التاريخ على التلاميذ عرضاً علمياً فنياً جميلاً ، يحاول به الأساتذة أن يصلوا بين الأطفال وبين العصور الأولى أقوى صلة وأجملها ، وأنفعها ، وأحبها إلى هذه النفوس الغضة الحديثة العهد بالحياة .
وما ظنك بدرس فى التاريخ - أو كتاب فى التاريخ - يشرك الطفل فى بناء الماضى درساً ، وقصصاً ، وعملاً ، ومتعة ، فيستمع به الناشىء إلى أحاديث الملوك السابقين ، ويرى آثارهم مصورة ، ويدخل إلى منازلهم ، ويلعب مع أطفالهم ، ويصنع مثل لعبهم ، ويتنقل بين الزراع ، والصناع ، والتجار ، فى المزارع ، والمصانع ، والمتاجر ، لا مشاهداً ومتحدثاً فقط ، بل مشاركاً ، مفيداً من الماضى خير الفضائل وأنبل الصفات . ذلك ، وأكثر منه ، وخير منه ، هو ما قام به هؤلاء الأساتذة الأفاضل مؤلفو كتاب المطالعة التاريخية للمدارس الابتدائية . وقد قرأت جزءه الأول الذى وضع فى حياة المصريين القدماء ، فإذا به يصور الخطوة القديمة لحياة مصر والمصريين ، ولكنها مع ذلك خطوة واضحة ، بهية ، استطاع واصفوها محتالين متلطفين أن يمزجوها بخطا الطفولة ومواهبها حتى لقد خشيت أن يستحيل أطفالنا ، بهذا الأسلوب الفنى الجميل ، أبناء فراعنة ، وأطفالاً تاريخيين .

لنترك الباحثين يختلفون حول التاريخ ، أعلم هو أم فن ، ولنقف عند طور الطفولة وما يلائمه موضوعاً وشكلاً ، فلن نرى - فيما نعرف - خيراً من هذا الكتيب ولا أصلح منه لأبناء المدرسة الابتدائية ، سواء فى ذلك اختيار المعلومات ، وتنوعها ، وشمولها ، وطريقة عرضها ، وسهولة أسلوبها ، وما أعقبها من التمارين العملية . . وأما الرسوم والأشكال فهى وحدها مدرسة فى إيضاحها وفى جمالها الذى يفتن الأطفال ، ويبهر الأبصار .

عرف المؤلفون ، أو المربون ، طبيعة الطفولة فكان تاريخهم قصصاً ، سهلاً ، مشوقاً ، متصلاً بحياة التلاميذ وما يألفون ، وعرفوا غرائز البنين وشغفها بالعمل ، فحولوا الدرس من هذا الشكل النظرى إلى تمارين عملية تسد هذه الحاجة الغرزية ، ولم يقفوا عند هذا المران التقليدى حتى عمدوا إلى قوة الخيال ، فاعتمدوا عليها لتجسيم الصور الوصفية ، وكافوا التلاميذ من ذلك قسطاً حسناً ينزع بهم إلى هذه العادات العملية المحققة ، ولحظوا فتنة الأولاد باللعب الصغيرة ، والمناظر البهجة ، فيسروا لهم الحصول على العرائس والكرات ، وزخرفوا صفحات الكتاب بأجمل ما ترك الفراعنة من صور وأشكال .

وبعد هذا ينتقلون بالطفل بين جوانب الحياة القديمة ، آباء عاطفين وأصدقاء مخلصين ، فهم به اليوم فى النوادى الرياضية يرونه المصارعة ، وحمل الأثقال والترامى بالكرات ، وغداً يأخذون بيده إلى المدرسة فيشهد زملاءه لاعبين كاتبين حاسبين ، وبعد غد يعرضون عليه الجيش المصرى بأسلحته وعرباته وسفنه يفتح فى الأقطار ، ويكون الامبراطورية القديمة . ثم يدخلون معه منزلاً لاحدى الأسر الراقية ليشهد مثل النظام ، والطاعة ، والألفة ، وحسن الآداب . وقد يحملونه على سفن الملكة حتشبسوت إلى بلاد الصومال بافريقية ليعود بالأشجار العطرية ، والحيوانات العجيبة . . وهكذا لا يتركون ناحية من هذه البيئة الفرعونية حتى يغرقوه فيها سامعاً ، مبصراً ، عاملاً ، خائلاً كأنه يشترك فى تمثيل رواية أو حفلة ألعاب .

ليس فى الكتاب هذه العبارات الجوفاء ، والمبالغات الممقوتة التى يلجأ إليها كتاب التاريخ للأطفال حين تعوزهم المادة المحدودة ، وبراعة الأسلوب . ولقد سررت حين رأيت (خوفو) ينتهز فرصة فراغ المصريين من الأعمال الزراعية أيام فيض النيل فيملأ فراغهم وجيوبهم ببناء الهرم الأكبر ، كما سررت بهذه الناحية التهذيبية التى تصل بالأبناء إلى غاية الدرس التاريخى ، وتحملهم على التعلق بأسباب المجد والفضيلة ، فهذا الملك أحبته الرعية لاخلاصه فى خدمتها ، والاسكندر المقدونى بكرت إليه أمارات النجابة ، فكان ملكاً كبيراً ، وهؤلاء الرسل أدوا رسالة الانسانية وصبروا فى سبيلها فكانوا البررة الكرام ، وهذه مصر المحبوبة العزيزة أصبحت بفضل هذا الماضى المجيد محج السائحين والباحثين من كل الأقطار .

أما بعد ، فلو كان لى طفل أو تلميذ فى مدرسة ابتدائية ، لما تركته ليلة دون أن أتدارس معه فى هذا الكتاب ، وأفيض على نفسه منه معرفة ، وتسلية وتهذيباً . . . ولعل التلاميذ قد ظفروا من هذا الكتاب بحياة مدرسية حديثة حقاً ، تجمع بين العلم والفن الجميل .

احمد الشايب

5 me Année, No. 199

بدل الاشتراك عن سنة

مصـ

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات

٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة

تليفون ٤٣٠١٣



ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

Lundi - 26 - 4 - 1937

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

أحمد حسن الزيات

الادارة

بشارع عبد العزيز رقم ٣٦

العتبة الخضراء — القاهرة

ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٠٠

العـــدد ١٩٩ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٥ صفر سنة ١٣٥٦ — ٢٦ أبريل سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

من أحاديث الشباب

حول الديمقراطية

— لا يا عزيزى ؛ أنا لا أتابعك على هذا التفسير . إن رأى الامام محمد عبده جلى صريح . وكلمة (ينهض) فى قوله المأثور : « لا ينهض الشرق إلا بمستبد عادل » أساس فكرته وعمود رأيه ؛ فان النهوض لا يكون إلا من القعود ؛ والأمة القاعدة أو الراقدة لا يبعثها إلا القرع الشديد والهتاف القوى ؛ ولا يمكن أن يكون هذا القارع الهاتف رأيها العام لأنه مفقود ، ولا ضميرها الاجتماعى لأنه ميت ؛ إنما يكون رسالة من الله على لسان نبى ، أو هداية من الطبيعة على يد مصلح ؛ وتنفيذ الرسالة الالهية ، أو الدعوة الاصلاحية ، يرجع إلى خليفة يحكم بأمر الله ، أو طاغية يحكم برأى نفسه . فاذا كانت الأمة قد نهضت بالفعل ، كان الاستبداد بأمورها كفاً لنزعاتها عن الطموح ، وحبساً لملكاتها عن العمل ؛ لأن النهضة معناها غافل أحس وجوده ، وخامل فهم نفسه ، وجاهل عرف حقه ، وعاطل أبصر واجبه ، وضال وجد سبيله . والحياة التى تسرى فى أفراد الشعب الناهض ، هى بعينها الحياة التى تجرى فى أعواد الربيع المنبعث : تتحرك فى الأمة

على صوت النذير فى الغفلة ، كما تتحرك فى الطبيعة على هزيم الرعد فى الشتاء . ومتى نفخ الله من روحه فى خمود الحى ، سيره على سنة الوجود وبصره بغاية الحياة ؛ وهنا يكون المستبد مهما عدل سحاباً يحجب النور الذى انبثق ، وسموماً يصوح الزهر الذى تفتح

فقال صاحبى الشاب وقد أنبى باله لما قلت ففترت حماسته بعض الفتور :

— ولكن المستبد برأيه أو الحاكم بأمره يختصر الآراء فى رأيه ، ويجمع الأهواء على هواه ، فنأمن التشرد الذى يُضل ، والتردد الذى يعوق ، والتواكل الذى يضعف ، والتساهل الذى يحابى . فقلت له :

— ذلك يصح والشعب لا يزال قطيعاً من الحيوان الأبله . لابد له حينئذ من الراعى وعصاه . أما إذا اصبح هذا القطيع أمة لكل فرد من أفرادها كرامة وإرادة ورأى ومصلحة ، فبأى منطق تلغى هذه العقول الملايين التى جُعلت لتفكر ، وتنسخ هذه النفوس الملايين التى خلقت لتريد ، لتجعل مكانها نفساً واحدة تغصب قوة الشعب لتقوده ، وتسرق ثروته لتسوده ، ثم يسرف عليها سلطانها فتتخذ الناس عبيداً والبلاد ضيعة ؟

أنا أفهم أن المرء يُقهر فيخضع ، ويؤسر فيسترق ، لأن الأمر فى ذلك لا يخرج عن قانون الطبيعة من تغلب الأقوى وسيادة الأصلح ؛ ولكنى لا أستطيع أن أفهم كيف يستأسر شعب بأسره لواحد منه ، فيلقى بزمامه إليه ، ويعول فى جميع أموره عليه ، والشعب مهما صغر لا يقل عن شعب ، والفرد مهما كبر لا يزيد على فرد . والقوة والثروة والسلطان هى فى ذلك الجمع الذى فيه الجندى والفلاح والعامل ، لا فى ذلك المفرد الذى فيه السرف والترف والبغى ؟

لقد مات ذلك الإنسان المغفل الذى كان يجعل إلهه حيواناً يربيه ثم يمجده ، أو جاداً يصنعه ثم يعبده

ان الديمقراطية ياصديقى أخلق النظم بكرامة الانسان وسلامة العالم . هبط وحيها على الانسان المفكر الحر فى أثينا ، ثم أصابها ما أصاب رسالات الخير فى الارض من شيوع الجهالة ، وبلادة الحس ، وأثرة الهوى ، وطغيان الحكم ، فصارت عروساً من عرائس الخيال كالحق والعدل والحرية ، تتمثل فى الاحلام ، وتتراءى فى المنى ، وتُقتل فى سبيلها الأنفس الكريمة ، حتى ظفر بها الأوربى الحديث بطول جهاده وكثرة ضحاياه ووفرة علمه وقوة شعوره ، فأصبح كل فرد بمقتضاها صاحب حق فى الوطن ، وصاحب رأى فى التشريع ، وصاحب صوت فى الحكم ؛ وصار العامل الفقير والصانع الأجير والفلاح المتواضع قادرين على أن يلغوا الوظيفة التى لا تفيد ، ويسقطوا الحكومة التى لا تعدل .

الديمقراطية هى المساواة فى الحق والواجب ، والمشاركة فى الغنم والغرم ، والميدان الحر للكفايات الممتازة لا يعوقها عن بلوغ الأمد فيه عائق من نسب أو لقب أو ثروة . فكيف يجرى فى ذهنك هذا الخاطر وأنت من أصفى الشباب حساً وأنبلهم نفساً وأكثرهم ثقافة ؟

***

لم يجد الشاب فى نفسه ما يقوله ؛ لأن الواقع فى ذهنه هو اضطراب الحيرة لا اختمار الفكرة ، فعبر عن كل ما بقى فى خاطره بهذا السؤال :

— وماذا تقول فى موسولينى وهتلر ؟

— أقول إنهما مظهر حادٌّ من مظاهر الديمقراطيه . كلا الرجلين يعمل بالشعب وللشعب ؛ وكلاهما يمثل قوة الأمة وينفذ إرادة الأمة ؛ وكلاهما يعتقد أن اليد التى استطاعت أن ترفع تستطيع أن تضع .

ولباب الأمر أن تعترف للأمة بالسلطان ثم تظهره بعد ذلك فى أى رجل شئت ، وتحت أى عنوان شئت .

ابتسم صديقى الشاب ابتسامة المقتنع ، وحيا تحية المسلِّم ، ثم قال وهو يضع يده فى يدى : إن جهودنا معشر الشباب كانت مسددة إلى غرض واحد هو استقلال الوطن . فلما أسفر الجهاد عن وجوه الفوز اضطربت الجهود وتشعبت الآراء ، واحتجنا فى هذا العهد الجديد ، إلى توجيه جديد . فقلت له : ذلك ما ستحاول « الرسالة » علاجه ابتداء من العدد القادم .

احمد حسن الزيات

حيرة العقل

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

أرانى فى هذه الأيام لا أكاد أعرف لى رأياً فى شىء، لا لأنى كففت عن التفكير فلعل الأمر على خلاف ذلك، وعسى أن أكون مسرفاً فى النظر والتدبر وفى التماس الوجوه المختلفة للأمر الواحد الذى يعرض لى، وإنما ترجع حيرتى إلى أن إطالة النظر تكشف لى كل يوم عن جديد، وإلى أن تدبر النواحى المختلفة تجعل الجزم عسيراً، وتغرى بالتردد، وتدفع إلى الشك، ومن طال وزنه للأمور وتقصيه لوجوهها وتأمله فى البواعث والاحتمالات قل بته - وعمله أيضاً - لأن العمل يراد منه الغاية، فلا بد من المجازفة والتعرض لعواقب الخطأ من بعض النواحى. وكل رجل عمل يضطر إلى الأخذ بالأرجح فيما يرى، وإلا تعذر عليه العمل بل استحال. ورجال الحرب والسياسة والمال والتجارة ومن إليهم لا يسعهم إلا المخاطرة لأن غايتهم ليست الاهتداء إلى الحقيقة بل بلوغ الغرض. وكثيراً ما أرانى أسأل نفسى لفرط ما أرى من ترددى وحيرتى، «هل أصبحت غير صالح للعمل؟» ولا يسرن ذلك فأروح أقول إن قدرة النفس على التكيف لا حد لها فيما أعرف، وإن العمل الذى يحوج إلى سرعة البت والجزم بلا تردد يضطر المرء إلى النزول على مقتضياته، وما أكثر ما تكون مواهب الانسان كامنة، فلا يظهرها إلا انتقال الأحوال به، وأنا مع طول ترددى بين الآراء أرانى مع ذلك أتصرف فى مواقف العمل بسرعة وضبط وإحكام. وليس هذا من الثناء على النفس، ولكنه من الواقع الذى أعرفه بالتجربة

ومن طول حيرتى بين الآراء أصبحت أثق بخطاى ولا أثق بصوابى، وأقدر الضلال فى كل ما أنتهى إليه، ولا أطمئن إلى السداد فيه، ومن أجل ذلك لا أزال أراجع نفسى فى كل قضية، وأنقض اليوم ما أبرمت بالأمس، ولولا أنى معجل فى حياتى لكان الأرجح أن أحجم عن المجاهرة برأى مخافة أن أكون قد أخطأت الصواب فيه. وأنا أعزى نفسى - لو أن فى هذا عزاء - بقول ويندل هولمز - على ما أذكر - إن الحقيقة «كزهر» النرد لها أكثر من وجه واحد، فاذا كنت قد رأيت وجهاً واحداً دون سائر الوجوه فان لى العذر إذا كان هذا كل ما بدا لى، وأين فى الناس من يرى وجوه الحقيقة كلها من كل جانب؟؟

ولهذه الحيرة عللها المعقولة فأنا قد ورثت آراء، وأفدت من مخالطة الناس آراء، واكتسبت من الاطلاع آراء، وكنت أسلم بما ورثت واكتسبت، وأنا فى سن التحصيل، وكنت ربما كابرت بالخلاف فيما أخذته من بيتى، أما ما كنت أفيده من الكتب فكنت أتلقاه بالاكبار والاقرار، لأنى لم أجد من يهدينى أو يرشدنى. فلا البيت كان لى فيه هذا المعين، ولا المدرسة كنت أجد فيها هذا المعلم الحاذق المرشد. وظل احترامى للكتب على حاله حتى احتجت فى سنة أن أبيعها، وشق على ذلك فى أول الأمر، وكنت لا أكاد أطيق أن أدخل الغرفة التى كانت مرصوصة فيها. وظللت أياماً أحس كلما نظرت إلى الرفوف التى خلت مما كان عليها أنى فقدت أقرب الناس إلى وأعزهم على، وأشعر أنى مشف على البكاء إذا لم أحول عينى عن هذه الرفوف الخالية. ولم يكن ما أتحسر عليه زينتها، وما أضعته فيها من مال خسرته بالبيع، وانما كانت الحسرة على فقدان أساتذتى واخوانى. وبقيت بعد ذلك زمناً لا أمر بمكتبة عامة إلا أشحت بوجهى عنها من فرط الألم، وإلا أحسست أن يداً عنيفة تلوى أحشائى وتحاول أن تقتلعها. وكان من غرائب ما حدث أنى لبثت أكثر من سنة لا أقتنى شيئاً من الكتب كأنما زهدتنى الحسرة على ما ضيعت فى كل جديد غيره

ومن الغريب أن هذا هو نفس الاحساس الذى عانيته لما توفيت زوجتى، فقد ظللت سنوات لا أطيق أن أنظر إلى امرأة، ثم فتر الألم وخفت وطأته، كما هى العادة. وكنت فى خلال ذلك قد احتجت أن أنظر بعينى وأفكر بعقلى فألفيتنى أشك فى كثير مما كنت أسلم به ولا أكابر فيه بل ما كان لا يخطر لى أن أعترض عليه، وتغير الأمر. فبعد

أن كنت آخذ الآراء من الكتب أو الناس ، صرت آخذها من الحياة بلا واسطة ، وأعرضها على عقلى بلا مؤثر فاعتدت الاستقلال فى النظر ، والحرية فى التفكير ، وخلا تفكيرى وإحساسى شيئاً فشيئاً من تأثير الكتب ، وسواها ، وبرزت نفسى بعد طول التضاؤل ؛ ثم أخذت أروض نفسى على التماس الجوانب الأخرى التى تخفى فى العادة ، فصارت وجوه الحقيقة تتعدد فيما أرى ، والفت ذلك حتى صار هذا ديدنى مع الناس ، فاذا رأيت من صاحب لى ما يسوءنى حاولت أن أضع نفسى فى مكانه وأن أنظر إلى الامر بعينه هو ، وأن أتمثل بواعثه وإحساساته إلى آخر ذلك ، فينتهى الأمر فى الأغلب بان أعذر ولا ألوم ، ويذهب الألم أو الغضب أو غير ذلك مما أثار صاحبى بما صنع .

بل ترقيت من هذا إلى ما هو أرفع ، فصار نظرى إلى الناس نظراً إلى مادة تدرس لا إلى مخلوقات تعاشر ويصدر عنها ما يسوء أو يسر ، ولا شك أن الفعل الجيد يحسن وقعه فى النفس ، وأن السوء يؤلم أو يغضب ، وليس يسعنى إلا أن أتلقى ما يكون من الناس بالحمد أو الذم ، وبالرضى أو السخط ؛ ولست بإنسان إذا لم يكن هذا شأنى ، ولكنى أعنى أنى لا أعجل بالذم والسخط ولا أندفع مع أول الخاطر ، بل أراجع نفسى وأجيل عينى فى الأمر لأراه من ناحية غير الناحية التى طالعتنى فى البداية ، فيتحول الموضوع من عمل أو قول باعث على الرضى أو الامتعاض إلى مادة للتفكير ، وتذهب عنه الصبغة الشخصية ، فكأنى أمتحن نظرية ولست أزن صنع إنسان أساء أو أحسن .

ويخيل إلى الآن أنى أعيش فى معمل ، فكل ما ألقاه فى الحياة من خير وشر ، وما أجدنى أو أجد سواى فيه ، من جد ولهو ، أتناوله بالتحليل والبحث لاستخلص منه ما يتيسر لى استخلاصه من الحقائق ، ثم أروح أقيسه إلى تجارى الأخرى وأقارن وأقابل ، ولا أزال أفعل ذلك حتى يهدنى التعب ، وقلما أهتدى ، وكثيراً ما أضل ، ولكنى لا أسأم ولا أضجر لأن هذا صار متعتى النفسية التى لا أعدل بها متع الدنيا ، بعد أن وجدت نفسى ، وعثرت عليها تحت طبقات الكتب التى بعتها والحمد لله على ما كنت أتوجع وأذم الدنيا من أجله ، فلولا أنى بعت هذه الكتب لما وجدت نفسى ، ولكان الأرجح أن أظل كالذى يعبد أصناماً .

والشك حيرة ولكنه حرية ، وسعة الأفق خير من ضيقه ، على الرغم من العناء الذى يكابده المرء من إرسال العين وإدارتها فى النواحى الخفية أو البعيدة ، وإنه لعذاب ، وإن جدواه لقليلة ، بالقياس إلى الجهد الذى يبذل فيه ، ولكنه خير وأمتع من التحجر الذى يؤدى اليه التسليم ، بلا نظر ، وحسبك من متعته أنه يريك كل يوم جديداً ، وقد يكون ما تهتدى إليه وتحسبه جديداً ، قديماً جداً فى الحقيقة ولكن المتعة فى الجهد نفسه لا فى النتيجة ، والشأن فى هذا كالشأن فى الألعاب الرياضية فان الغاية منها ليست الغلبة أو التفوق أو غير ذلك مما يجرى هذا المجرى ، وإنما العبرة فيها بما تفيده من التدريب وما تكتسبه بفضل الجهد الذى تنفقه فيها ، ولذتها فى مزاولتها لا فيما تنتهى به من الفوز وإن كان للفوز قيمته ومزيته ، ولكنه ليس كل ما تزاول الألعاب من أجله

ومتى صار كل شىء مادة للدرس والبحث فقد صارت الحياة أوسع وأرحب ، وصار المرء كأنه يحلق فوقها وإن كان يخوضها ويعانيها . وهذا ما أروض عليه نفسى الآن - أن أكابد الحياة والناس ، وأن يسعنى مع ذلك أن أقف منها ومنهم موقف الناظر المتفرج ، فكأنى اثنان لا واحد ، أحدهما يعيش ويجرب ، ويسعد ويشقى ، وييسر ويحزن ، ويجد ويهزل ، ويفعل ما يفعل الناس غيره ؛ وثانيهما يتلقى هذه التجارب وينشرها أمامه ، ويعرضها على عقله ، ويقارنها ويقابلها ، ويفحصها ويضم المتشاكل منها بعضه إلى بعض ، ويجمع ما يمكن أن يأتلف ، ويعمل خياله فيما يراه ناقصاً ليملأ الفراغ ويسد الثغرة ، ويصنع على العموم ما يصنع الكيميائى فى معمله الذى يجرى فيه تجاربه ، ولا يتأثر بالواقع ، ولا يعنيه ما عانى منه ، وهذا الازدواج عسير ولا شك ، ولست أطمع أن أبلغ منه الغاية وأوفى على الأمد ، ولكنى أطمع أن أوفق فى بابه إلى الكفاية مع المواظبة والصبر ، ويطمعنى فى

الأســـد

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

جلس أبو على أحمد بن محمد الرُّوذَبادى البغدادى (١) فى مجلس وعظه بمصر بعد وفاة شيخه أبى الحسن بُنَان الحمال الزاهد الواسطى شيخ الديار المصرية (٢) وكان يُضرب المثل بعبادته وزهده، وقد خرج أكثر أهل مصر فى جنازته فكان يومه يوما كالبرهان من العالم الآخر لأهل هذه الدنيا؛ ما بقى أحد إلا اقتنع أنه فى شهوات الحياة وأباطيلها كالأعمى فى سوء تمييزه بين لون التراب ولون الدقيق، إذ ينظر كل امرئ فى مصالحه ومنافعه مثل هذه النظرة باللمس لا بالبصر، وبالتوهم لا بالتحقيق، وعلى دليل نفسه فى الشىء لا على دليل الشىء فى نفسه، وبالإدراك من جهة واحدة دون الإدراك من كل جهة؛ ثم يأتى الموت فيكون كالماء صُبَّ على الدقيق والتراب جميعا فلا يرتاب مبصر ولا أعمى، ويبطل ما هو باطل ويحق الذى هو حق.

وتكلم أبو على فقال: كنت ذات يوم عند شيخنا الجنيد (١) فى بغداد فجاءه كتاب من يوسف بن الحسن شيخ الرىّ والجبال فى وقته (٢) يقول فيه: لا أذاقك الله طعم نفسك فانك إن ذقتها لم تذق بعدها خيراً أبداً. قال: فجعلت أفكر فى طعم النفس ما هو وجاءنى ما لم أرضه من الرأى حتى سمعت بخبر بُنان رحمه الله مع احمد بن طولون أمير مصر، فهو الذى كان سبب قدومى إلى هنا لأرى الشيخ أو صحبه وأنتفع به.

والبلد الذى ليس فيه شيخ من أهل الدين الصحيح والنفس الكاملة والأخلاق الالهية، هو فى الجهل كالبلد الذى ليس فيه كتاب من الكتب ألبتة، وإن كان كل أهله علماء، وإن كان فى كل محلة منه مدرسة، وفى كل دار من دوره خزانة كتب، فلا تغنى هذه الكتب عن الرجال، فانما هى صواب أو خطأ ينتهى إلى العقل، ولكن الرجل الكامل صواب ينتهى إلى الروح، وهو فى تأثيره على الناس أقوى من العلم إذ هو تفسير الحقائق فى العمل الواقع وحياتها عاملةً مرئيةً داعيةً إلى نفسها. ولو أقام الناس عشر سنين يتناظرون فى معانى الفضائل ووسائلها ووضعوا فى ذلك مائة كتاب، ثم رأوا رجلا فاضلا بأصدق معانى الفضيلة وخالطوه وصحبوه — لكان الرجل وحده أكبر فائدة من تلك المناظرة وأجدى على الناس منها وأدلّ على الفضيلة من مائة كتاب ومن ألف كتاب. ولهذا يرسل الله النبيَّ مع كل كتاب منزل ليعطى الكلمة قوة وجودها، ويخرج الحالة النفسية من المعنى المعقول، وينشئ الفضائل الانسانية على طريقة النسل من إنسانها الكبير.

وما مثل الكتاب يتعلم المرء منه حقائق الأخلاق العالية، إلا كوضع الانسان يدَه تحت إبطه ليرفع جسمه عن الأرض، فقد أنشأ يعمل ولكنه لن يرتفع. ومن ذلك كان شر الناس هم العلماء والمعلمين إذا لم تكن أخلاقهم دروسا أخرى تعمل عملا آخر غير الكلام؛ فان أحدهم ليجلس مجلس المعلم ثم تكون حوله رذائله تعلم تعليما آخر من حيث يدرى ولا يدرى، ويكون كتاب الله مع الانسان الظاهر منه وكتاب الشيطان مع الانسان الخفى فيه

ooo

(١) توفى سنة ٣٢٢ (٢) توفى سنة ٣١٦

(١) توفى سنة ٢٩٨ (٢) كانت وفاته سنة ٣٠٤

النجاح أن كل إنسان له أكثر من شخصية واحدة وإن كان لا يدرى ذلك.

ويثقل على نفسى خاطر واحد يكاد يصدنى عن المواظبة، هو ما جدوى ذلك كله؟.. ما آخر هذا العناء الذى أراه باطلا؟. آخر ذلك كله معروف. وهل ثم من آخر سوى الفناء؟. ولكنى أعود فأقول لنفسى إن هذا الآخر لا آخر سواه، سواء أبذل المرء الجهد، أم قعد عنه وضن به، فلا فائدة من التقصير، ولا ضير من السعى. والحياة أن تحيا، لا أن تجمد وتركد وتأسن. أما الجدوى فلماذا أعذب نفسى بالسؤال عنها؟ وما جدوى أى شىء فى الحياة؟. إن كل ما أعرفه أنى موجود، وأنى وهبت قدرة على الاحساس والتفكير، فكيف أعطل هذه المواهب وأبطل عليها؟. وكيف يمكن أن أنعم بالوجود وأتمتع بالشعور به وأنا أعطل ما أعطيت؟ ويعرف الجدوى من أعطانى الحياة، فلندع ذلك له فهو أعرف به.

ابراهيم عبد القادر المازنى

قال أبو على : وقدمتُ إلى مصر لأرى أبا الحسن وآخذ وأحقق ماسمعت من خبره مع ابن طولون . فلما لقيته لقيت رجلا من تلاميذ شيخنا الجنيد يتلألأ فيه نوره ويعمل فيه سره ؛ وهما كالشمعة والشمعة فى الضوء وإن صغرت واحدة وكبرت واحدة . وعلامة الرجل من هؤلاء أن يعمل وجوده فيمن حوله أكثر مما يعمل هو بنفسه ، كأن بين الأرواح وبينه نسباً شابكا ، فله معنى أبوة الأب فى أبنائه لا يراه من يراه منهم إلا أحسّ أنه شخصه الأكبر . فهذا هو الذى تكون فيه التكملة الإنسانية للناس وكأنه مخلوق خاصة لاثبات أن غير المستطاع مستطاع .

ومن عجيب حكمة الله أن الأمراض الشديدة تعمل بالعدوى فيمن قاربها أو لامسها ، وأن القوى الشديدة تعمل كذلك بالعدوى فيمن اتصل بها أوصاحبها ، ولهذا يخلق الله الصالحين ويجعل التقوى فيهم إصابة كاصابة المرض تصرف عن شهوات الدنيا كما يصرف المرض عنها ، وتكسر النفس كما يكسرها ذاك ، وتفقد الشيء ماهو به شيء ، فتتحول قيمته . فلا يكون بما فيه من الوهم بل بما فيه من الحق .

وإذا عدم الناس هذا الرجل الذى يعديهم بقوته العجيبة فقلّما يصلحون للقوة ، فكبار الصالحين وكبار الزعماء وكبار القواد ، وكبار الشجعان ، وكبار العلماء وأمثالهم ؛ كل هؤلاء من باب واحد ، وكلهم فى الحكمة ككبار المرضى

***

قال أبو على : وهممت مرة أن أسأل الشيخ عن خبره مع ابن طولون فقطعتنى هيبته ، فقلتُ أحتال بسؤاله عن كلمة شيخ الرى « لا أذاقك الله طعم نفسك » . وبينما أهيىء فى نفسى كلاما أجرى فيه هذه العبارة ، جاء رجل فقال للشيخ : لى على فلان مائة دينار وقد ذهبت الوثيقة التى كتب فيها الدين وأخشى أن ينكر اذا هو علم بضياعها ؛ فادع الله لى وله أن يظفرنى بدينى وأن يثبته على الحق . فقال الشيخ : إنى رجل قد كبرت وأنا أحب الحلوى . فاذهب فاشتر لى رطلا منها وأمتعنى به حتى أدعو لك .

فذهب الرجل فاشترى الحلوى ووضعها له البائع فى ورقة فإذا هى الوثيقة الضائعة . وجاء إلى الشيخ فأخبره ، فقال له : خذ الحلوى فأطعمها صبيانك لا أذاقنا الله طعم أنفسنا فيما نشتهى . ثم إنه التفت إلى وقال لو أن شجرة اشتهت غير ما به صحة وجودها وكمال منفعتها فأذيقت طعم نفسها ، لأكلت نفسها وذوت

***

قال أبو على : والمعجزات التى تحدث للأنبياء والكرامات التى تكون للاتقياء ، وما يخرق العادة ويخرج عن النسق ، كل ذلك كقول القدرة عن الرجل الشاذ : هو هذا . فلم تبق بى حاجة إلى سؤال الشيخ عن خبره مع ابن طولون ، وكنت كأنى أرى بعينى رأسى كل ما سمعت ، بيد أنى لم أنصرف حتى لقيت أبا جعفر القاضى أحمد بن عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينورى [1] ذاك الذى يحدث بكتب أبيه كلها من حفظه وهى واحد وعشرون مصنفا فيها الكبير والصغير . فقال لى : لعلك اشتفيت من خبر بنان مع ابن طولون فمن أجله زعمت جئت إلى مصر . قلت : إنه تواضع فلم يخبرنى وهبته فلم أسأله . قال : تعال أحدثك الحديث .

كان أحمد بن طولون [2] من جارية تركية وكان طولون أبوه مملوكا حمله نوح بن أسد عامل بخارى إلى المأمون فيما كان موظفا عليه من المال والرقيق والبراذين وغير ذلك . فولد أحمد فى منصب ذلة تستظهر بالطغيان ، وكانت هاتان طبيعته إلى آخر عمره ، فذهب بهمته مذهبا بعيدا ، ونشأ من أول أمره على أن يتم هذا النقص ويكون أكبر من أصله ، فطلب الفروسية والعلم والحديث ، وصحب الزهاد وأهل الورع ، وتميز على الأتراك وطمح إلى المعالى ، وظل يرمى بنفسه وهو فى ذلك يكبر ولا يزال يكبر كأنما يريد أن ينقطع من أصله ويلتحق بالأمراء ، فلما التحق بهم ظل يكبر ليلحق بالملوك ، فلما بلغ هؤلاء كانت نيته على مايعلم الله

قال : وكان عقله من أثر طبيعته كالعقلين لرجلين مختلفين فله يد مع الملائكة ويده الأخرى مع الشياطين ، فهو الذى بنى المارستان وأنفق عليه وأقام فيه الأطباء وشرط إذا جيء بالعليل أن تنزع ثيابه وتحفظ عند أمين المارستان ، ثم يلبس

(١) توفى سنة ٣٢٢

(٢) كانت امارة ابن طولون نحو ٢٦ سنة وتوفى سنة ٢٧٠

ثياباً ويفرش له ويغدى عليه ويراح بالأدوية والأغذية والأطباء حتى يبرأ، ولم يكن هذا قبل إمارته . وهو أول من نظر فى المظالم من أمراء مصر . وهو صاحب يوم الصدقة ، يكثر من صدقاته كلما كثرت نعمة الله عليه ، ومراتبه لذلك فى كل أسبوع ثلاثة آلاف دينار سوى مطابخه التى أقيمت فى كل يوم فى داره وغيرها ، يذبح فيها البقر والكباش ويغرف للناس . ولكل مسكين أربعة أرغفة يكون فى اثنين منها فالوذج[1] وفى الآخرين من القدور ، وينادى من أحب أن يحضر دار الأمير فليحضر . وتفتح الأبواب ويدخل الناس وهو فى المجلس ينظر إلى المساكين ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته . وكان راتب مطبخه فى كل يوم ألف دينار ، واقتدى به ابنه خمارويه ، فأنشأ بعده مطبخ العامة[2] ينفق عليه ثلاثة وعشرين ألف دينار ، كل شهر

وقد بلغ ما أرسله ابن طولون إلى فقراء بغداد وعلمائها فى مدة ولايته ألفى ألف ومائتى ألف دينار [3] وكان كثير التلاوة للقرآن ، وقد اتخذ حجرة بقربه فى القصر وضع فيها رجالا سماهم بالمكبرين ، يتعاقبون الليل نوباً ، يكبرون ويسبحون ، ويحمدون ، ويهللون ، ويقرأون القرآن تطريباً وينشدون قصائد الزهد ، ويؤذنون أوقات الآذان ، وهو الذى فتح انطاكية فى سنة خمس وستين ومائتين ثم مضى إلى طرسوس كأنه يريد فتحها ، فلما نابذه أهلها وقاتلهم ، أمر أصحابه أن ينهزموا عنها ليبلغ ذلك طاغية الروم ، فيعلم أن جيوش ابن طولون على كثرتها وشدتها لم تقم لأهل طرسوس فيكون بهذا كأنه قاتله وصده عن بلد من بلاد الاسلام ويجعل هذا الخبر كالجيش فى تلك الناحية

ومع كل ذلك فانه كان رجلا طائش السيف يجور ويعسف وقد أحصى من قتلهم صبراً أو ماتوا فى سجنه فكانوا ثمانية عشر ألفا . وأمر بسجن قاضيه بكار بن قتيبة فى حادثة معروفة وقال له : غرك قول الناس ما فى الدنيا مثل بكار ؟ أنت شيخ قد خرفت! ثم حبسه وقيده وأخذ منه جميع عطاياه مدة ولايته القضاء . فكانت عشرة آلاف دينار ؛ قيل إنها وجدت فى بيت بكار بختمها لم يمسها زهداً وتورعا

ولما ذهب شيخك أبو الحسن يعنفه ويأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر طاش عقله فأمر بالقائه إلى الأسد ، وهو الخبر الذى طار فى الدنيا حتى بلغك فى بغداد

* * *

قال : وكنت حاضر أمرهم ذلك اليوم ، فجىء بالأسد من قصر ابنه خمارويه . وكان هذا خمارويه مشغوفاً بالصيد لا يكاد يسمع بسبع فى غيضة أو بطن واد إلا قصده ومعه رجال عليهم لبود ، فيدخلون إلى الأسد ويتناولونه بأيديهم من غابه عنوة وهو سليم فيضعونه فى أقفاص من خشب محكمة الصنعة يسع الواحد منها السبع وهو قائم

وكان الأسد الذى اختاروه للشيخ أغلظ ما عندهم ، جسيماً، ضارياً ، عارم الوحشية ، متزيل العضل ، شديد عصب الخلق ، هراساً ، فراساً ، أهرت الشدق ، يلوح شدقه من سعته وروعته كفتحة القبر ينبىء أن جوفه مقبرة ، ويظهر وجهه خارجاً من لبدته ، يهم أن ينقذف على من يراه فيأ كله .

وأجلسوا الشيخ فى قاعة وأشرفوا عليه ينظرون ، ثم فتحوا باب القفص من أعلاه ، فجذبوه فارتفع ؛ وهجهجوا بالأسد يزجرونه فانطلق يزمجر ويزأر زئيراً تنشق له المرائر ويتوهم من يسمعه أنه الرعد وراءه الصاعقة .

ثم اجتمع الوحش فى نفسه واقشعر ، ثم تمطى كالمنجنيق يقذف الصخرة ، فما بقى من أجل الشيخ إلا طرفة عين . ورأيناه على ذلك ساكناً مطرقاً لا ينظر إلى الأسد ولا يحفل به ، وما منا إلا من كاد ينهتك حجاب قلبه من الفزع والرعب والاشفاق على الرجل .

ولم يرعنا إلا ذهول الأسد عن وحشيته فأقعى على ذنبه ثم لصق بالأرض هنيهة يفترش ذراعيه ، ثم نهض نهضة أخرى كأنه غير الأسد ، فمشى مترفقاً ثقيل الخطو تسمع لمفاصله قعقعة من شدته وجسامته ، وأقبل على الشيخ وطفق يحتك به ويلحظه ويشمه كما يصنع الكلب مع صاحبه الذى يأنس به ، وكأنه يعلن أن هذه ليست مصاولة بين الرجل

(١) نوع من الحلوى وهو ما يسميه العامة (البالوظة)

(٢) هذا هو الأصل فى مطعم الشعب

(٣) الدينار نصف جنيه مصرى فعدة ذلك مليون ومائة ألف جنيه ، صدقاته على بغداد وحدها رحمه الله

التقى والأسد ، ولكنها مبارزة بين إرادة ابن طولون وإرادة الله .

وضربته روح الشيخ فلم يبق بينه وبين الآدمى عمل ، ولم يكن منه بازاء لحم ودم ، فلو أكل الضوء والهواء والحجر والحديد ، كان ذلك أقرب وأيسر من أن يأكل هذا الرجل المتمثل فى روحانيته لا يحس لصورة الأسد معنى من معانيها الفاتكة ، ولا يسرى فيه إلا حياة خاضعة مسخرة للقوة العظمى التى هو مؤمن بها ومتوكل عليها كحياة الدودة والنملة ، وما دونها من الهوام والذر .

وورد النور على هذا القلب المؤمن يكشف له عن قرب الحق سبحانه وتعالى ، فهو ليس بين يدى الأسد ولكنه هو والأسد بين يدى الله ، وكان مندمجا فى يقين هذه الآية : « واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا » .

ورأى الأسد رجلا هو خوف الله ، فخاف منه ، وكما خرج الشيخ من ذاته ومعانيها الناقصة خرج الوحش من ذاته ومعانيها الوحشية ، فليس فى الرجل خوف ولا هم ولا جزع ولا تعلق برغبة ، ومن ذلك ليس فى الأسد فتك ولا ضراوة ولا جوع ولا تعلق برغبة .

ونسى الشيخ نفسه فكأنما رأى الاسد ميتاً ولم يجد فيه (أنا) التى يأكلها ، ولو أن خطرة من هم الدنيا خطرت على قلبه فى تلك الساعة أو اختلجت فى نفسه خالجة من الشك ، لفاحت رائحة لحمه فى خياشيم الأسد فتمزق فى أنيابه ومخالبه

***

قال : وانصرفنا عن النظر فى السبع إلى النظر فى وجه الشيخ فاذا هو ساهم مفكر ، ثم رفعوه وجعل كل منا يظن ظناً فى تفكيره ، فمن قائل انه الخوف أذهله عن نفسه . وقائل إنه الانصراف يعقله إلى الموت ، وثالث يقول إنه سكون الفكرة لمنع الحركة عن الجسم فلا يضطرب ، وزعم جماعة أن هذه حالة من الاستغراق يسحر بها الأسد . وأكثرنا فى ذلك وتجارينا فيه حتى سأله ابن طولون : ما الذى كان فى قلبك وفيم كنت تفكر ؟

فقال الشيخ : لم يكن على بأس ، وانما كنت أفكر فى لعاب الأسد أهو طاهر أم نجس ......

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

القاهرة المعزية

وجوب الاحتفاء بعيدها الألفى

للأستاذ محمد عبد الله عنان

منذ أعوام قلائل احتفلت فرنسا بذكرى إحدى مدنها العتيقة ، وهى مدينة قرقشونة (كاركاسون) الرومانية لمناسبة مضى ألفى عام على قيامها ؛ وما زلنا نذكر ما أفاضت به الأنباء يومئذ عن طرافة هذا الاحتفال وروعته وأهميته من الوجهة القومية . وقرقشونة احدى مدن ولاية « سبتمانيا » السبعة ، وقد كانت مدى حين معقلا اسلاميا فى جنوب فرنسا ؛ وما زالت على صغرها وتواضعها شهيرة بآثارها الرومانية وتاريخها الحافل أيام الرومان والقوط والعرب

وإن مصر لتستطيع أن تفخر بمدنها الألفية عنوان تراث مجيد وحضارة خالدة ؛ ويكفى أن نذكر فى هذا المقام عاصمتيها الجليلتين ، الاسكندرية ثغرها العظيم التالد ، والقاهرة عروس العواصم الاسلامية ؛ فقد قطعت الإسكندرية من عمرها المديد أكثر من ثلاثة وعشرين قرنا ؛ وأشرفت القاهرة على ألفها ؛ وإذا كانت العاصمة الكبرى تقترب من عيدها الألفى بخطى سريعة فان من بواعث الأسف أن يقترب هذا اليوم التاريخى العظيم دون أن تتأهب مصر للاحتفاء به واحاطته بما يجب من ضروب الاشادة والتكريم ؛ ومن بواعث الأسف ألا يرتفع حتى اليوم صوت رسمى ينبه إلى هذا الحادث القومى الجليل ، وينوه بخطورته وأهميته ، ويدعو المختصين إلى الاهتمام بأمره

ولقد احتفلت مصر بالأمس بالعيد المئوى لوزارة معارفها ، واحتفلت من قبل بالعيد المئوى لمدرسة الطب ، والعيد المئوى للمدرسة الخديوية ، والعيد الخمسينى لانشاء المحاكم الأهلية ، وغيرها من المواقف والحوادث القومية ، وأدركت ماوراء الاحتفاء بهذه المناسبات التاريخية من بعث للماضى ، وتكريم للذكريات المجيدة ، وإذكاء للعاطفة القومية ، ووصل بين

مراحل تاريخنا . بيد أن هـذه الذكريات والمناسبات الحافلة تبـدو ضئيلة متواضعة إلى جانب الاحتفاء بالعيد الألفى لمدينة القاهرة

ذلك أن الاحتفاء بالعيـد الألفى للقاهرة المعزية يعتبر حادثاً منقطع النظير فى تاريخ مصر الاسلامية . وليس بين عواصم العالم الكبرى سوى مدن قلائل قطعت عمرها الألفى؛ وأشهرها وأعظمها من الوجهة التاريخية هى بلا ريب أثينه والاسكندرية وروما وقسطنطينية . وإذا كان العالم الاسلامى يضم عدة مدن ألفية أخرى ، فانه ليس بينها من تضارع القاهرة فى ضخامتها وجلالها وأهميتها السياسية والفكرية والاجتماعية

ألف عام هجرية كادت تنقضى على قيام المدينة الفاطمية المتواضعة ، القاهرة المعزية أو قاهرة المعز لدين الله ؛ فنى ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، ٧ يوليه سنة ٩٦٩ م ، دخلت الجيوش الفاطمية بقيادة جوهر الصقلى قائد المعز الفاطمى مدينة مصر أو مدينة الفسطاط غازية ظافرة ، وعسكرت عند مغيب الشمس فى الفضاء الواقع فى شمال غربى الفسطاط ؛ وفى نفس الليلة وضع القائد جوهر تنفيذاً لأوامر المعز أول خطة فى مواقع المدينة الجديدة التى اعتزم الفاطميون إنشاءها بمصر لتكون لهم منزلا ومعقلا . وحفر أساس قصر جديد فى نفس الفضاء الذى نزل فيه جيشه ، فكان هذا مولد القاهرة التى سميت كذلك تفاؤلا وتيمناً بالنصر ؛ وقامت المدينة الجديدة بسرعة تتوسطها القصور الفاطمية والجامع الأزهر الذى أنشىء بعد ذلك بأشهر قلائل (فى جمادى الأولى سنه ٣٥٩) ليكون منبراً للدولة الجديدة وملاذاً لدعوتها ؛ ولم تلبث أن غدت منزل الخلافة الفاطمية مذ قدم المعز لدين الله إلى مصر بأمواله وأهله وبطانته وتوابيت أجداده ، واستقر فى عاصمته الجـديدة فى رمضان سنة ٣٦٢ هـ (يونيه سنة ٩٧٣ م)

ولبثت القاهرة مدى حين ملوكية عسكرية لا تضم سوى القصر الفاطمى ودواوين الحكم وخزائن المـال والسلاح ومساكن الأمراء والبطانة ومن إليهم من الأتباع النازحين فى ركب الغزاة ؛ ولكن لم يمض جيل واحد حتى اتسعت جنبات المدينة الجديدة ونمت نمواً عظيما وترامت معالمها وأحياؤها إلى ماوراء السور الذى أنشأه حولها القائد جوهر واتصلت بمدينة مصر (الفسطاط) وامتزجت المدينتان وتداخلتا وصارتا تكونان معا مدينة من أكبر وأعظم مدن الاسلام فى العصور الوسطى . وكان اسم القاهرة يطلق اصطلاحا على المدينة الفاطمية التى يضمها السور الذى أنشأه القائد جوهر ثم وسعه وأعاد إنشاءه أمير الجيوش بدر الجمالى فى أواخر عهد المستنصر بالله (سنة ٤٨٦ هـ) وأدخل فيه عدة أحياء ومواقع جديدة : وأما المناطق التى بقيت خارج السور والتى كانت تمتد فيما بين الجامع الطولونى وقلعة الجبل إلى الجهة المقابلة على ضفة النيل ، فكانت تعرف بظاهر القاهرة ، وكان اسم مصر يطلق دائما على الفسطاط القديمة ، ويطلق على المدينتين معا ، مصر القاهرة ،

وما زالت معالم القاهرة المعزية وحدودها القديمة قائمة يحدها من الشمال موقع باب الفتوح وباب النصر والسور الذى يصلهما وهو بقية من سور أمير الجيوش بدر الجمالى ، ويحدها من الجنوب باب زويلة ، ومن الشرق سفح الجبل ، ومن الغرب موقع الخليج القديم ، وما يلى ذلك حتى ضفة النيل ، وما يزال الجامع الأزهر قائما وسط المدينة القديمة حيث قام منذ ألف عام تحيط به معظم الأحياء والدروب الفاطمية القديمة بعد أن تغيرت أسماؤها ومعالمها

ولقد شهدت القاهرة فى ظل الخلافة الفاطمية ألواناً من العظمة والبهاء والبذخ قلما شهدتها فى ظل دولة اسلامية أخرى ؛ ومع أنها نمت بعد ذلك نمواً عظيما . واتسعت جنباتها وأحياؤها حتى غدت فى القرن التاسع الهجرى اضعاف ما كانت عليه أيام الفاطميين ، فانها لم تستطع بمثل ما سطعت فى عهدها الأول ، ولم تشهد مثل ما شهدت فيه من مواكب الخلافة الفخمة ، ورسومها وأعيادها الباذخة ولياليها وحفلاتها الباهرة ؛ كانت القصور الفاطمية آية الفخامة والبهاء وإن الخيال ليضطرم إلى الذروة حينما يستعرض تلك الصور الرائعة التى تقدمها الينا الروايات المعاصرة من عظمة الخلافة الفاطمية وروعتها فى مظاهرها العامة ، وعن حياة الخلفاء

الخاصة داخل القصر وأبهائه وأجنحته المنيفة . وقد كان القصر الزاهر يشرف من الغرب على ميدان شاسع يسع عشرات الألوف من الجند والنظارة يعرف بميدان بين القصرين ، وهو اسم شهير فى تاريخ القاهرة المعزية شهرة ميدان « القديس مرقص » (سان ماركو) فى تاريخ البندقية ، وقد سمى كذلك لوقوعه بين القصر الفاطمى الكبير والقصر الصغير المواجه له وهو المعروف بالقصر الغربى ؛ وقد لبث « بين القصرين » أيام الدولة الفاطمية مسرحاً لأعظم المواكب والمظاهرات الخلافية والعسكرية ، والحفلات العامة ، ولبث بعد زوال الدولة الفاطمية عصراً أعظم ميادين القاهرة ، وأزخرها عمارة وأشدها احتشاداً ، وإنك لتستطيع أن تتبع كثيراً من أخبار الخلافة الفاطمية والشعب القاهرى فى ميدان ما بين القصرين ، كما تستطيع أن تتبع كثيراً من أخبار الجمهورية البندقية فى ميدان القديس مرقس ، كلاهما امتزج بحياة الدولة والشعب ، واتخذ مكانة فيها .

***

ومنذ بضعة أعوام شعرت بعض الجهات الرسمية بأن الجامع الأزهر يدنو من عمره الألفى . وفكرت فى أن تحتفل بهذا العيد احتفالا عظيما يتفق مع روعته التاريخية ، ووضع بالفعل برنامج لتنظيم هذا الاحتفال . وانتدبت لجنة لوضع تاريخ شامل للأزهر منذ قيامه إلى يوم عيده ، ثم وقف المشروع لأسباب غير معروفة ؛ بيد أن الذى يثير الدهشة حقاً . هو أن تخطر للقائمين بالأمر فكرة الاحتفال بالعيد الألفى للجامع الأزهر دون أن تخطر لهم فكرة الاحتفال بالعيد الألفى لمدينة القاهرة ، مع أن القاهرة تسبق الأزهر فى مولدها بعدة أشهر ؛ وقد أنشىء الأزهر فى الأصل ، لا ليكون جامعة للدراسة ، ولكن ليكون مسجداً للعاصمة الفاطمية الجديدة وليكون منبراً للدولة الجديدة ومعقلا لدعوتها

فاذا كان مما يحمد أن فكر القائمون بالأمر فى تخليد الذكرى الألفية للجامع الشهير ، فان ما يبعث إلى الأسف أن يفوتهم حتى اليوم التفكير فى تخليد ذكرى القاهرة الألفية ؛ وهذه الذكرى الخالدة تدنو بسرعة ، فقد وضعت أسس العاصمة الفاطمية كما رأينا فى منتصف شعبان سنة ٣٥٨ هـ فنى منتصف شعبان سنة ١٣٥٨ هـ ، أعنى بعد نحو عامين ونصف فقط تبلغ القاهرة المعزية عمرها الألفى المديد

وبعد أشهر قلائل من ذلك التاريخ ، أعنى فى جمادى الأولى سنة ١٣٥٩ هـ يبلغ الجامع الأزهر عمره الألفى أيضاً ، إذا اعتبرنا تاريخ البدء فى إنشائه وهو جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ

وانه لمن بواعث الفخر حقاً أن يكون تاريخنا حافلا بمثل هذه الذكريات العظيمة التى هي عنوان تراث قومى مؤثل

فعلينا أن نفكر ملياً فى الاحتفاء بهذين العيدين القوميين الجليلين وإذا كان قد فاتنا حتى اليوم أن تؤلف للاحتفاء بهما اللجان الخاصة ، وأن نضع البرامج اللائقة ، فان ما يزال ثمة متسع من الوقت لتحقيق هذه الأمنية ؛ ولقد ارتبط اسم القاهرة المعزية والأزهر دائماً حتى أنه ليكفى أن تؤلف هيئة واحدة للقيام بهذه المهمة ، فتضع للاحتفال بعيد القاهرة الالفى برنامجاً خاصاً وتضع برنامجاً آخر للاحتفال بالعيد الألفى للجامع الأزهر ، يراعى فى كل منهما ظروفه ومناسباته الخاصة ؛ ومن الطبيعى أن يحتوى البرنامج على وضع تاريخ ألفى شامل لمدينة القاهرة وتاريخ شامل للجامع الأزهر ؛ وأن تنظم فى العيدين طائفة من المهرجانات العلمية والاجتماعية الباهرة وأن يدعى لعيد القاهرة رؤساء البلديات فى جميع المدن الكبرى ممثلين لحكوماتهم ومدنهم ، كما يدعى لعيد الأزهر ممثلو الجامعات فى جميع أنحاء العالم ، وأن ينظم بهذه المناسبة حج خاشع إلى معالم القاهرة المعزية وآثارها الباقية ومنها الجامع الأزهر . وأن تقام بها الأعمدة واللوحات التذكارية المختلفة . وأن تفتتح بهذه المناسبة طائفة من المشاريع العلمية والخيرية

وانه لما يسبغ على هذه الاحتفالات روعتها وجلالها ، أن تقام إلى جانب هذه المعالم الخالدة وفيما بينها .

فهل يحدث هذا النداء المتواضع أثره ؟ وهل يبادر أولو الأمر فيتخذوا الاهبة العاجلة لتحقيق هذه الأمنية القومية الرفيعة ؛ وهل تشهد القاهرة المعزية ، ويشهد الأزهر كلاهما عيده الألفى فى فيض من الروعة والجلال : أم تغيض هذه الذكريات العظيمة فى غمر الجدل والمناقشات العقيمة ؟

محمد عبد الله عنان

فى الأدب المقارن

أثر المجتمع

فى الأدبين العربى والانجليزى

للأستاذ فخرى أبو السعود

إنما يقصد الأديب فيما ينشىء إلى التعبير عن شعوره وأفكاره لأنه يحس حافزاً يدفعه إلى ذلك التعبير، ويشعر براحة وغبطة إذا ماطاوع ذلك الحافز، بيد أنه يتأثر فى كل مايحس ويفكر ويكتب ببيئته الجغرافية ووسطه الاجتماعى وجيله الذى يحيا فيه، لامندحة له مهما بلغ من استقلال الشخصية والاصالة فى الابتكار عن التأثر بكل ذلك، بل لانغالى إذا قلنا إن عبقرية الأديب ليست إلا مجموعة مؤلفة من تلك العوامل، والأديب الذى يعتزل مجتمعه لايتأثر به سائر أدبه إلى الاضمحلال وأن يكون سطحيا، وكلما كان الأدب صادقا حيا كانت صلته بمجتمعه شديدة التوثق، وكان هو مرآة لذلك المجتمع واضحة، وإن لم يمنعه ذلك أن يزخر بآثار الفردية القوية والشخصيات المتميزة

فالأديب يتأثر بالمجتمع تأثراً تلقائياً غير مقصود ولا محسوس أحيانا، ثم هو يتأثر به تأثرا واعيا مقصودا، وذلك حين يلجأ الأديب عمدا إلى وصف ما يحيط به من أحوال المجتمع، وما يحمد منها وما يذم، ومن يصادفهم ويخالطهم فى المجتمع من افراد ذوى خلائق متباينة، يلذ للأديب أحيانا عرض كل ذلك فى أدبه كما تعرض الصور والدمى فى المعارض والمتاحف، ويغتبط أى اغتباط بقدرته على تصوير ماراءه من تلك الحقائق والسلائق على ماهى عليه، وقد يزيد فيجلوها فى مجلى الفكاهة والسحرية، أو يزيد فيندد بما يرى من مساوىء ويدعو إلى الاصلاح ويوضح وسائله، ويؤلف لنفسه مبادىء يرضاها فى السياسة والاجتماع والاقتصاد والدين وهلم جرا، ولا يعود معبرا عن شعور الفرد فحسب، بل يصبح قائد فكر بين الجماعة كذلك

هكذا يصبح للأدب غرض اجتماعى إصلاحى، ولا ريب أن غرض الأدب الأول هو غرض كل الفنون، من التعبير الصحيح عن صادق الشعور بحقائق الحياة وجمالها، فاذا ماظهر بجانب ذلك غرض اجتماعى أصبح للأدب غرضان، بيد أنهما لايتنافران بل يأتلفان فى يد الأديب القدير أحسن ائتلاف، ويصوران الحياة أصدق تصوير وأجمله، أما فى يد الداعية المتحمس لدعوته الاجتماعية دون كبير احتفال بجمال الفن وروعة الأسلوب، فيوشك أن يخرج الأثر المنشأ من عالم الادب إلى حيز العلم، فيندرج تحت عنوان الاقتصاد أو التربية او السياسه أو غير ذلك، أما الأدب الصميم فلا غنى له عن الجمال والصبغة الفنية، ووظيفته الكبرى فى بيان الشعور وما اتصل به من افكار

وتدبر أحوال المجتمع ونقد أخلاق بنيه لاشك مجال للأدب رحيب، ومسرح لمن الاديب خصيب، ومهما تغيرت احوال المجتمعات على تتابع الأجيال، فإن طباع الانسان المركبة فيه واحدة لاتتغير، ومظاهره من كرم ولؤم ونبل وادعاء وغرور ونفاق، وولع بالمظاهر وتفاخر بالنعمة المحدثة، كل هاتيك امور تتكرر ولا تتبدل، وتبدو فى شتى الأشكال والازياء وهى فى الصميم سواء، ومن ثم نرى صورا لها فى شتى آداب الامم على تباعد عصورها ومنازلها: فالمسيو جوردان المحدث النعمة الذى رسمه موليير متعثرا فى أذيال ثروته مكاثرا بها فى سذاجته، هو أحد «النوابين» المحدثى النعمة الذين اولع بتصويرهم كتاب الدرامة الانجليز فى أواخر القرن الثامن عشر، وهو هو ذلك المحدث النعمة الذى صدع رأس عيسى بن هشام فى المقامه المضيرية بتعداد محتويات بيته وأثاثها ومزاياها؛ فالأديب الحاذق يفطن إلى الخطوط الرئيسية فى الصورة الشخصية التى يبغى رسمها، فاذا ماصورها لم تكن صورة فرد من الافراد، بل جاءت صورة ضرب من الناس فى شتى الأمم والعصور

وقد ترك المجتمع آثاره الواضحة على تعاقب العصور فى الأدبين العربى والانجليزى، واختلط ادباهما بتاريخيهما اختلاطا شديدا، ولا غرو فالأدب من بين الفنون أشدها بالحياة اليومية والأحوال الاجتماعية والأحداث السياسية ارتباطا، وتبينت فى ذينك الأدبين سمات الأجيال المتتابعة، وكثرت فيهما النظرات الاجتماعية كما كثرت التأملات الفردية، وقام فيهما من الاثار ما قوامه تدبر أحوال المجتمع ونقد أخلاق أبنائه، بجانب الاثار التى قوامها نظر الأديب فى ذات نفسه وبوحه بأشجانه وإطرابه؛ بيد أن الأدب الانجليزى كان أبعد فى تناول الشؤون الاجتماعية مدى، وكان أدباؤه أكثر شغلا بالدعوة إلى الاصلاح، وإن لم يهملوا التعبير عن خوالجهم الفردية، ولم يقصروا فى تصوير شخصياتهم المستقلة

ترى طابع العصر الاليزابثى فى أدب شكسبير ومعاصريه:

فهو عهد فتوح ومغامرات ، فامتلأت رواياته التمثيلية بذكر الشجعان والأسفار والحماسة الوطنية وتاريخ انجلترا ، وهو عصر لم تبدد الثقافة بعد أوهام سواد أبنائه ، فسرحياته تعج بذكر الشياطين والسحرة والأشباح والعرافة والتطير ، ولم تكن نفوس أبناء ذلك العصر قد رقت ولا أذوقهم قد صقلت ، ولذلك تكثر في رواياته المذابح والمبارزات وسفك الدماء ؛ وكان عهد تعصب ديني ، ومن ثم يسخر أدباؤه من أبناء النحل الأخرى كاليهود ، ولم يكن الحكم الدستوري قد توطد بعد ، وما تزال للملك اليد الطولى والكلمة العليا في السياسة الداخلية والخارجية ، ومن ثم ينسج شكسبير لنفسه في روايه هرى الرابع وغيرها نظرية سياسية قوامها الملكية المستبدة العادلة ، ويعدها أساس نظام الكون

ونرى أثر عهد الإصلاح الديني في انجلترا في أدب عهد المطهرين : إذ خفت صوت الأدب وغيره من الفنون التي لا يطمئن إليها عادة المتشددون من المتدينين ، واتصف الأديبان الكبيران اللذان ظهرا إذ ذاك - ملتون وبنيان - بالاهتمام بالشئون الدينية والتأثر بالكتاب المقدس موضوعا وأسلوبا ؛ ونرى أثر عصر المجون الذي تلا ذلك في مسرحياته المملوءة بالسقاط ؛ حتى إذا ما أشرق العصر التالي وقد اطمأنت النظم الدستورية وانتشرت الثقافة والثروة في جمهور الشعب أوغل الادب في تناول الشئون الاجتماعية ، ولم يقنع بالأشكال الموجودة أصلا ، فاتخذ لنفسه شكلا ادبيا هو أليق لتصوير المجتمع ونقده وهو القصة ؛ وفي قصة القرن الثامن عشر وفي شعره يتجلى ما كان يسود مجتمع ذلك العهد من تأنق وتصنع ، وحرص على تعلم اللغات وممارسه بعض الفنون ، ويجرى ذكر خروج الارستقراط للصيد بخيلهم وكلابهم ، ويبدو مع ذلك ما كان يتخلل المجتمع من نفاق ورذيلة وإدمان للشراب وإفراط في الطعام وما كان يعصف بالطرق العامة من عبث الأشقياء

اتخذت القصة وسيلة لوصف المجتمع ، وقد أدت غرضها ذاك خير أداء ، وكيف لا تؤديه والقصة في يد الأديب الحصيف ليست إلا قطعة من المجتمع الحي المتحرك منقولة على القرطاس؟ قطعة من المجتمع طوع بنان الاديب يؤلفها كيف شاء ويرسم بها من الأشخاص من شاء ويبرز بها من الآراء ما يختار ، فلا غرو ازدادت القصة الاجتماعية رقيا وذيوعا في القرن التالي ، بازدياد المبادىء الديمقراطية انتشارا أعقب الثورة بالفرنسية ، وإنتشار التعليم العام ، وتعقيه مشاكل المجتمع بظهور الصناعة الكبيرة ، وانتشار المذاهب الاجتماعية والاقتصادية الخطيرة كالاشتراكية والشيوعية ، ونزاع الرأسماليين والعمال ، ونهضة المرأة ورقي علوم الاجتماع والنفس والتربية ، وخاض الأدبا عمار كل هاتيك الحركات والتيارات المتضاربة ، ونقلوا في غضون قصصهم صور هاتيك المعارك الفكرية والأحوال المادية ، وفي قصص مريديث ودكنز وبنلر وهكسلي وبنيت من آثار كل ذلك ما لا يستقصى ، ومن تلك القصص تستخرج صور لتلك الحركات أوضح مما قد تعرضه التواريخ المنظمة

وطمت هده النزعة الاجتماعية الاصلاحية وهذه الصبغة العلمية التحليلية ، في القصه المعاصرة ، فأقطاب القصة والدرامة المعاصرون أمثال شو وهاردى وولز وجالزوردى ، كلهم متأثرون بالكشوف العلمية الحديثة والنظريات الاقتصادية الجديدة ، والأحوال الاجتماعية الراهنة ، ولكل منهم مبادئه ودعواته حتى أصبح الأدباء يختلفون ويعتركون ، لا على المداهب الأدبية والآراء النقدية الفنية كما كان الشأن فيما مضى ، بل على المذاهب الفكرية والآراء السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وعلى هذه المبادىء لا على مبادىء الفن والأدب ينقسمون شيعا ومدارس ، ويسرف بعض الكتاب كبرتراندرسل في التحمس للدعوة الاجتماعية وإطراح الأسلوب الأدبي ، حتى تخرج بعض مؤلفاتهم من عداد كتب الأدب ، ولا تعد إلا في كتب العلم إن كانت لها قيمة هناك !

كان الشعر العربي في الجاهلية حقاً ديوان العرب كما دعوه : كانوا يقولونه في شرح أحوالهم الفردية ، من حب وذكر للديار ومناجاة للمطايا ، وفي شرح أمورهم الاجتماعية ، من التمدح بالقرى والتفاخر بالبلاء في الحرب والتوعد بالثأر وإباء الضيم ، يرسلون كل ذلك على السجية فيجيء رائعاً بصدقه معجباً برجولته ، ويصوغونه فيما اتفق من لفظ وعر وأسلوب شديد ، فظل شعر ذلك العصر ممثلا صادقا له رغم عبث العابثين به ؛ بل لعله كان أهم مصادر تاريخ ذلك العهد حين دون تاريخه ، فقد ظل المؤرخون يذكرون ما يذكرون من حوادث وحقائق ويتبعونها أبيات الشعر مستشهدين

وظهر أثر عهد الاستقرار والثروة والنجاح في ظل الأمويين في غزليات ابن أبي ربيعة وجميل واضرابهما ، ومفاخرات جرير والفرزدق وأشباعهما ، ثم ظهر أثر الافراط في تلك الثرو والفراغ والاسراف في اجتناء لذات الحضارة ، في شعر بشار وأبي نواس وأمثالها ، ثم كان العهد التالي بدء التدهور والانحطاط المادي والخلقي : فهوت مكانة المرأة إلى حضيض من القهر والازدراء والجهالة ، وفشت الرشوة والمحاباة والمصادرة بين الحكام ، وكثر

الفقر من جراء ذلك وادعاء الفقر والتسول والاحتيال باسم الدين والطب والأدب والعلم، وذاع الفساد وفاحش القول ومبتذل التندر

يبدو أثر كل هذا فى تنديد المعرى بالمرأة وسخر غيره من الشعراء منها، وتلك الأقاصيص التى افتن الجاحظ والاصفهانى وابن دريد فى جمعها وتأليفها، عن عبث النساء وغدرهن وخيانة الزوجات ووجوب تشديد الحجاب عليهن، فكان ابن دريد مثلا يخترع الحكايات يفسر بها الأمثال السائرة فيتخذ ذلك الضرب من حديث النساء مادة لها. ويبدو أثر تلك الحال السالف شرحها أيضا فى مقامات بديع الزمان والحريرى، حيث لا يزال بطل المقامات يتنقل من تسول إلى احتيال إلى خديعة، ولا يزال الحارث ابن همام يؤكد حرصه فى أسفاره اذا ما هبط بلداً أن يتعرف إلى واليه أو قاضيه أو بعض ذوى الكلمة فيه، يتقى بمعرفته ظلم الغاشمين والمرتشين من عمال الحكومة، ويتحاشى غوائل الارهاق والمصادرة والسجن. ويقف كاتبا المقامات المذكورة صفحات طويلة على استعراض ضروب الشتائم والبذاء يتقاذفها أشخاص الأقصوصة. ويقول ابن الرومى واصفاً حال الموظفين والتجار وأضرابهم:

أتراني دون الألى بلغوا الآ مال من شرطة ومن كتاب؟
أصبحوا ذاهلين عن شجن النا س وإن كان حبلهم ذا اضطراب
وتجار مثل البهائم فازوا بالمنى فى النفوس والأحباب

هذه لمحة خاطفة إلى آثار أحوال المجتمع المتعاقبة فى الأدب العربى، إذ كان من المحال تقصى تلك الآثار الاجتماعية التى تنعكس فى الأدب، مادته وأشكاله ومذاهبه وألفاظه، وما يزال الناظر فى مخلفات الشعراء والكتاب يطلع من آثار مجتمعهم على جديد. وفى نوادر أبى نواس وفكاهات الجاحظ وحكايات الاصبهانى دلائل متفرقة على شتى نواحى الحياة الاجتماعية فى عصورهم. واذا قرأنا فى مقامات البديع مثلا أن أبا الفتح اصطنع فيما اصطنع من حيل لاقتناص الدراهم والدنانير حرفة القراءة، فرآه عيسى بن هشام مرة وسط جمع من الغوغاء يضحكهم بألاعيب قردة، علمنا أن تلك الحرفة التى ما تزال مشاهدة فى بعض البلدان حتى عصرنا هذا بعد انتشار حدائق الحيوان، كانت تمارس منذ تلك العهود. وكذلك نعلم أن أبناء السند وفدوا فيمن وفدوا من أبناء الشعوب إلى مقر الخلافة يبتغون الرزق تارة بالصيرفة إذ يقول الجاحظ إنه لا يكاد يوجد ذو تجارة رابحة إلا وصاحب كيسه سندى؛ وتارة باضحاك العامة — شأن أبى الفتح الاسكندرى — بألاعيب الفيل، وذلك إذ يقول دعبل:

هذا السنيدى لا فضل ولا حسب يكلم الفيل تصعيداً وتصويباً

كل هذه الآثار الاجتماعية ما جل منها وما ضؤل، واضحة فى الأدب العربى شعره ونثره؛ بيد أن أغلبها قد جاء فى الأدب عفوا أو عرضا، ولم يقصد لذاته ولم تنظم القصيدة أو لم يصنف الكتاب عمدا لوصفه وبيانه، بله نقده وإصلاحه، فأكثر أدباء العربية بعد الاسلام وبعد استتباب الملك كانوا عن مجتمعهم فى شغل، قد يرون من أموره ما لا يرضيهم، وقد تكون لهم آراء فى السياسة ومذاهب فى الدين لا ترضى أصحاب السلطان، ولكنهم كانوا فى أغلب الأحوال يكتمون مثل تلك الآراء والنظريات، وكيف يبوحون بنقداتهم وهم بين رجاء لنوال السلطان وإشفاق من غضبه؟ إن النقد الصريح الحر والنظر الاجتماعى الصادق لا يترعرعان بين ذهب المعز وسيفه، إنما كان يجهر الأدباء بالنقد والمعارضة فى الجاهلية وصدر من الاسلام، وهما عهد الحرية واستقلال الفرد؛ فلما توطدت الملكية المطلقة خفتت أصوات الأدباء وقطعت ألسنتهم. وكان شعراء الخوارج الكثيرون الذين أطاح الأمويون رؤوسهم عبرة لسواهم من الشعراء وقد مدح سويف الشاعر بعض العلويين الثائرين فواده المنصور، وثار المتنبى فى صباه يبتغى إصلاح الأحوال المتعاقبة فزج به فى السجن.

فالملكية المطلقة قد فرضت على الشعب ألا يراجعها فى أمر، وانقلبت بالأمة العربية بذلك من النقيض إلى النقيض. كان العرب فى جاهليتهم مسرفين فى الاستقلال والفردية، فصاروا فى ظل الملكية مسرفين فى الخضوع والاستسلام، وفرضت تلك الملكية على الأدباء أن يعيشوا عالة عليها وعلى المجتمع، لا يشاركون الشعب آماله وأعماله، ولا يقودون أفكاره وحركاته، فلم يكن المجال متسعاً أمام الأديب العربى، كما كان متسعا امام الأديب الانجليزى، لوصف المجتمع ونقد أحواله والدعوة إلى إصلاحه. فان هو فعل ذلك عرض نفسه للتهلكة ولم يعد المجتمع فتيلا. إنما يؤمل الاديب الانجليزى أن يفيد مجتمعه بآرائه، لانه يخاطب بآثاره الادبية الرأى العام فى بلاده، الذى هو فوق الحكومة يملى عليها إرادته؛ أما فى ظل الملكية المطلقة فى الدولة الاسلامية، فلم يك هناك رأى عام، وكان رأى الحكومة الاعلى

لذلك عاش أدباء العربية طالبى فضل، يمدحون الامير ويعيشون من عطاياه، وهى السبيل التى ألجئ إليها المتنبى بعد محنة سجنه، وعاش بها حياته على مضض باكيا مما هو به محسود، واستوزروا

للأمراء وكتبوا وعملوا لهم ، وطلبوا بذاك النجاح الشخصي لأنفسهم لا النفع الشامل لمجتمعهم . أما أدباء الانجليزية فقل منهم من عاش في ركاب الملوك ومن فضلهم على هذا النحو ، وكان أكثرهم إما مثرين غانين عن العمل لكسب القوت متوفرين على فنهم وحده ، واما مساهمين في الحياة العملية بجانب الحياة الفنية ، فكان منهم من ضربوا بسهم في السياسة والدين والحرب والكشف الجغرافي وكبار وظائف الدولة ، ومن أولئك فيلب سدني وبيكون ورالي وملتون وبنيان وأديسون وبيرون ، وكان أكثرهم في صف الشعب وجانب الحرية

بل كان من أدباء الانجليز من عاف الاجتماع الانساني قاطبة ، ونقم على أنظمة الملكية والكنيسة ، وكره التقاليد والاعراف السائدة ، وحاول إنشاء مجتمع جديد تسوده البساطة والمساواة ومن هؤلاء شعراء عهد الثورة الفرنسية . فالكتاب الفرنسيون الذين مهدوا لتلك الثورة أمثال فلتير وروسو اكتفوا بالعمل النظري وتركوا التنفيذ لغيرهم ؛ أما معاصروهم ومن جاءوا بعدهم من أدباء الانجليز ، فحاول بعضهم تنفيذ مبادئهم بأنفسهم ، ولهذا الغرض انتقل بركلي إلى أمريكا وشلي إلى أرلندة ، يريد كل منهما إنشاء مدينته الفاضلة ، وإن كانا قدمنيا بالفشل لضخامة المشروع . وعاضد وردزورث الثورة الفرنسية بقوة لمناداتها بمبادئها المعروفة حتى نقم على دولته إعلانها الحرب على فرنسا الثائرة ، وكاد ينتظم في أحد أحزاب الثورة ، ويركب تيارها الخطر ، واستشهد بيرون في حرب استقلال اليونان .

ولقد أبدى بعض أدباء العربية في عهد نضج الحضارة والثقافة والأدب شغفاً بتتبع أحوال الناس ومعايشهم وعاداتهم وأخلاقهم وظهر ذلك في كتب الجاحظ ؛ على أنه كان يروى الأشياء على علاتها ويخلطها بفكاهاته ؛ وفي مقامات البديع ، ولم يكن أيضاً يزيد على التصوير المجرد ، فاذا ما صرح بسخطه على بعض الأحوال والأحكام والأنظمة ، فتصريحاً سريعاً فيه تسليم واقتناع بعدم جدوى محاولة الاصلاح وعدم إمكان أحسن مما كان . وظهر ذلك الميل أيضاً في شعر ابن الرومي ، الذي صور كثيراً من الشخصيات الفكاهية ، على أنه كان يتناولها من ناحيته الفردية وينحى عادة على أعدائه الشخصيين ؛ وظهر نفس ذلك الميل إلى تتبع أحوال المجتمع في شعر المعري خاصة ، وذلك من الأبواب التي تفرد بها أو كاد بين أدباء العربية ، وسبق في التصريح بها عصره ، وله في ذلك أبيات رائعة ليست إلا خلاصة موجزة لبعض مذاهب السياسة والاقتصاد في العصور الحديثة ؛ ومن ذلك اعتباره الحكام خدام الرعية ، ونقمته على عدم تساوى توزيع الثروة ، وذلك قوله من لزومياته :

مل المقام فكم أعاشر أمة ... أمرت بغير صلاحها أمراؤها

ظلموا الرعية واستباحوا حقها ... وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

وقوله :

لقد جاءنا هذا الشتاء وتحته ... فقير معرى أو أمير متوج

وقد يرزق المجدود أقوات أمة ... ويحرم قوتا واحد وهو أحوج

على أن الشعر ليس بأصلح المجالات للنقد الاجتماعي والاصلاح الشعبي ، وإنما مجال ذلك النثر الذي هو أكثر شيوعا وأقرب إلى متناول القارئين ، والذي هو أرحب صدراً بالشرح والتفصيل والاسهاب ؛ والمقالة والقصة فرسا رهان هذا المضمار ، ولكن النثر العربي لم ينهض بهذا العبء ، ولم يزد أن خطا الخطوة الأولى في هذا السبيل في كتابات الجاحظ ومقامات البديع ؛ وقد جاءت هذه الخطوة متأخرة . ولما جاء الجيل التالي لم تتبعها خطوة أخرى ، بل أعقبها تقهقر إلى الوراء ، فلم تتطور المقامة إلى قصة فنية اجتماعية تدرس المجتمع وتقوده في سبيل الاصلاح ، بل تحولت في يد الحريري وغيره إلى معارض للألفاظ المزركشة والألغاز المعماة والحيل الملفقة ، فقد كانت الأمة في طريقها إلى الانحلال ، والأذهان في انحدارها إلى الجمود ، والحكام يزدادون على مرافق الأمة وطأة ، والأدب يتقلص رويداً رويداً ، ويهجر لباب الحياة إلى قشور الألفاظ .

فالأدبان العربي والانجليزي قد تأثرا في مختلف العصور تأثرا كبيرا بأحوال مجتمعيهما ، وهو أمر لم يكن منه بد ، بيد أن الأدب الانجليزي كان أكثر بالمجتمع تأثرا وأكثر فيه تأثيرا ، وأشد تشابكا وتفاعلا معه ، لما أحاط به من ظروف مساعدة ، مرجعها سيادة الحكم الديمقراطي وانتشار حرية القول والعمل وقوة الرأي العام ؛ أما الأدب العربي فلبلوغه أوج ازدهاره في ظل الملكية المطلقة ، فقد كاد يقتصر تأثره بالمجتمع وتأثيره فيه على ما جاء عرضا غير مقصود ، وما تم بحكم الظروف وطبائع الأشياء ، وكان تناول أدبائه لشؤون مجتمعهم رفيقا محدودا ، وفيما عدا ذلك كان كل منهم عاكفا على وصف خطراته وأشجانه وصبواته ، مولعا بذم أعدائه ومساجلة صحابته ، إلى غير ذلك من الشؤون الفردية

فخري أبو السعود

وفاة شاعر تركيا الكبير

عبد الحق حامد بك

۱۸٥۱ — ۱۹۳۷

ولد عبد الحق حامد بك يوم ٥ فبراير سنة ۱۸٥۱ بجهة بيك من الأستانة. والده خير الله افندى من المؤرخين المعدودين. وجده حكيم باشى ملا عبد الحق

تلقى دروسه الابتدائية فى مدرسة (كوليج روبرت) الأمريكية، وتلقى دروسه العربية والفارسية على معلمين خصوصيين وهم الأستاذ بهاء الدين، وسليم ثابت، وخوجا احسان. وقد ظهرت عليه مخايل النجابة والذكاء من صغره حينما كان يقرأ فى المدرسة المذكورة فعرف له ذلك معلموه فى المدرسة ومعلموه الخصوصيون

يعرف عبد الحق حامد من اللغات عدا التركية - الانكليزية والفرنسية والعربية والفارسية معرفة تامة، وله فى ادبيات هذه اللغات تعمق ونظر نافذ شهد له به كل من عرفه من اهل تلك اللغات

ولما كان له من العمر ستة عشر عاماً عين والده سفيراً لطهران فذهب معه، وهناك توفى والده فعاد إلى الأستانة ولازم قلم الترجمة فى الباب العالى. ثم أخذ ينشر أسفاره وابتدأت شهرته تذيع بين الأدباء فتعرف وهو شاب بسبب شهرته بالأديبين الكبيرين فى ذلك الوقت شناسى ونامق كمال الدين؛ عرفا للشاعر مزيته وقدرا نبوغه فى ذلك الحين. وكان بالأخص الصديق الحميم لنامق كمال الذى يكبره باثنى عشر عاما عين وهو فى الخامسة والعشرين من عمره كاتبا ثانياً بسفارة تركيا فى باريس، ثم رقى إلى (باشكاتب) بسفارة تركيا فى لوندرا، ثم عين شاهبندراً فى بومباى، ثم عاد إلى (باشكتابة) سفارة باريز مرة ثانية؛ وآخر وظائفه الحكومية تعيينه سفيراً فى بروكسل ۱۹۰۸. وأخيراً عاد إلى تركيا بعد إعلان الحرب فانتخب عضواً فى مجلس الأعيان وتولى فيه نيابة الرياسة مراراً وإلى حين وفاته شغل دورتين فى انتخاب مجلس الأمة الكبيرة فى عهد الجمهورية ۱۹۳۱، وكان فى المجلس المذكور أكبر الاعضاء سناً.

آثاره الأدبية

ابتدأ أثناء إقامته فى أوروبا (وقد قضى عشرين عاماً فى لندرا) بنشر آثاره البديعة متبعاً طريقة جديدة مما اقتبسه من الآداب الغربية فاستحق بما أبدع من التجديد أن يشغل أعظم محل من الأدبيات التركية. وطار صيته وتسنم ذروة الشهرة بما كتب فى رثاء زوجه فاطمة التى توفيت أثناء عودته من الهند ودفنت فى بيروت. فكان لأثره المسمى (مقبر) أثر فى الأدبيات التركية بلغ درجة الاعجاز. ثم انتشرت مؤلفاته الكثيرة التى منها:

مقبر - أولو - ماجراى عشق - أشبر - تهزاد - صبروتبان - طارق بن زياد - نظيفة - فيتين - ديوانه لكرم - نسترين - صحرا - عبد الله الصغير - تفيله - طيفلر كجيدى - زينب - سار وانبال - فتنت - آلام وطن - دوهترى هندى - طورخان - ايجلى قيز - روحلر - بالادن برسس. ابن موسى - ارخيلر - غرام - يانجى دوستلر - وغير ذلك من آثاره النادرة المثال.

وقد منع من النشر أكثرها زمن عبد الحميد بدعوى أنها مسممة لروح الشباب، مهيجة للأفكار على حكومة الاستبداد.

ولكنه تبوأ بتآليفه هذه أعظم مكان فى نشر الأدبيات الغربية التى بدأ بنشرها قبله شناسى ونامق كمال، ولكن عبد الحق حامد فاقهما وأربى عليهما بما وفق إليه من الأسلوب العذب والصناعة الأدبية الفائقة، فنال عنوان إمام المجددين دون رفيقيه اللذين تقدماه. وظل مدة ستين عاماً أستاذاً للأدباء الأتراك فأسدى إلى اللغة التركية والأدب التركى من

التجديد والاختراع ماليس له نظير ولن يكون له نظير فيما بعده .

يقول الأدباء الأتراك : لولا حامد لتأخر انتشار الأدب الغربى فى بلادنا عصراً كاملا ، ولظل مكان حامد فارغاً كما سيظل الآن خالياً ؛ ولكن لله الحمد جاء حامد وأدى مالم يكن غيره ليؤديه للأدب فكان أدبه حياً ملهماً من شعور الأمة ؛ لا بل الأمة هي التى تستلهم من شعوره الحساس وروحه الفياضة ، فهو فى شعور الأمة وحياتها من الخالدين إلى الأبد .

وخلاصة مايقال فى شعر حامد بك وطريقته الأدبية ، أنه لم يتقيد بالمألوف القديم من شعر الدواوين ، بل ابتدع طريقة عصرية جديدة ، لا يقال إنها اليوم أساس المدرسة الأدبية التركية ، بل ستكون فى المستقبل أيضاً منبع الإلهام الفياض لآداب الأجيال المقبلة .

كان يرجح الأدب الروائى فى مؤلفاته وينتخب موضوعات تاريخية يبرزها فى صور شائقة ممتعة (لتقرأ أكثرمنها لتمثل) بلغة سهلة ممتعة تدل على براعته واقتداره فى صنعته التى جعلته نسيج وحده .

توفى مساء الاثنين ١٢ ابريل الجارى عن ٨٦ عاماً قضاها فى خدمة وطنه وخدمة الادب حتى أنه قبل وفاته بيوم واحد استجمع قواه وقام إلى مطالعة كتبه والبحث فى تأليفه الاخير الذى يقال إنه سيكون اعظم أثر أدبي عصرى ، وتذاكر مع الاديب الكبير أحمد فاضل وأنشده بيته الاخير وهو قوله :

ذوق يوق كيجه سنده كوندزنده

بن نه ايله يم بوير يوزنده

ومعناه تقريباً —

مالى ودنيا كثرت أكدارها لا ليلها يصفو ولا نهارها

وكانت وفاته تشابه وفاة شاعرنا الزهاوى من بعض الوجوه . فبينما كان جالساً فى نادى الشرق أحس بألم شديد اضطره إلى الذهاب إلى بيته واستدعى إليه الطبيب ؛ وبعد فحصه أوصي بألا يخرج من البيت ويلزم الراحة التامة . وبعد ذهاب الطبيب اشتد عليه المرض ، وتحسنت صحته فى الغد فأحضر له طعام فلم يقبله ، وطلب فاكهة أكلها (كما أكل الزهاوى كذا) ثم قام كما قدمنا إلى كتبه وتأليفه ومذاكرة الأديب أحمد فاضل وأنشده بيته الأخير الذى ترجمناه . وفى اليوم التالى اشتدبه المرض إلى الظهر ، ثم نام نوماً هادئاً الى الليل ، وانتبه مدة ثم نام النومة الأبدية رحمه الله . وخلف عدا بناته من زوجه فاطمة ابنة عبد الحق ، حسين وحميد . وقد تزوج بعد فاطمة بالسيدة الانجليزية نيللى التى عاشرته عشرين عاماً ، ثم تزوج بعدها بالسيدة لوسيان البلجيكية التى مات عنها . ولم يولد له من الاخيرتين أحد

وقد شيعت جنازته باحتفال فخم لم يسبق لأديب أن شيع بمثله ؛ اشتركت فيه الأمة التركية بدافع المحبة والتقدير لشاعرها الكبير . وأرسل رئيس الجمهورية أحد ياوريه نائباً عنه من أنقرة . ووضعت جنازته على عربة مدفع ملفوفة بالعلم التركى . ودفن فى المقبرة العصرية فى زنجيرلى قويو ؛ وهذه المقبرة أنشأتها البلدية حديثاً ، وسيكون الشاعر العظيم أول دفين فيها . وسيقام له تمثال فى مكان لائق . رحمه الله رحمة واسعة

رفيق اللباوى

على هامش كتاب

نظام الطلاق فى الاسلام[1]

للأستاذ محمود حمدان

كنت منذ زمن أرى أن ما تعارف الناس من أمر إيقاع الطلاق جملة ، وفى أى مناسبة ، ويميناً ، وتعليقاً – عبث لا يتفق مع الحكمة ، ويجعل أقوى العقود رباطاً ، وأقدسها حرمة ، وأهمها فى الحياة قدراً ، أوهن من بيت العنكبوت . فما كان الله ليجعل المرأة الضعيفة تتقاذفها الأهواء كالريشة فى مهب الهواء

وكنت قد طلبت الفقه على مذهب أبى حنيفة رضى الله عنه فما وجدت فى الكتب التى بين يدى . ولا عند الأشياخ الذين تلقيت عنهم جواباً عما يخالجنى . فكنت أسكت وفى النفس شىء لا أستطيع أن أبوح به . وكنت كلما وقع بيدى مقال لبعض المصريين حول موضوع الطلاق أقرأه بشغف لعلى أجد فيه ضالتى ، فلا أجد إلا ثرثرة متحذلق فأطرحه كاسف البال

وبعد أن ترست الأزهر الشريف كان يتاح لى فى بعض الأحيان أن أقرأ للمرحوم الأستاذ رشيد رضا مواضيع مختلفة ، فصرت ألمس روحاً غير الذى كنت ألمسها فى الأزهر : صرت ألمس روح الحرية فى الفهم وتحكيم العقل والرجوع إلى القرآن الكريم ، فاطمأن قلبى وشعرت بنور الاسلام يغمرنى ويكونني خلقاً آخر

قلت إذن لتحل مشاكلنا على ضوء العقل الذى وهبنا الله ، ونور القرآن الكريم الذى حفظه الله كما أنزل ليكون حجة على الخلق إلى يوم الدين ، لا على رأى غيرنا ، ولا بمقتضى كتب لم يكتب الله لها العصمة

ورجعت إلى مشكلة الطلاق فاقتنعت بأن الطلاق الثلاث بلفظ واحد لا يقع إلا واحدة ولا يقع ثلاثاً لمخالفة ذلك لمقتضى اللغة ولصريح القرآن وللعقل أيضاً ، لأنه حصل فسخ عقد النكاح بقول المطلق : أنت طالق . فلم يبق محل لإيقاع الفسوخ الأخرى بالوصف العددى ، وأفتيت بهذا مراراً . وأثناء اشتغالى بالمحاماة الشرعية أفتيت فى حادثة من هذا القبيل لو وصلت إلى المحكمة لقضى بالتفريق بين الزوجين ببينونة كبرى كما يقولون

بيد أنه لم يتح لى دراسة هذا الموضوع دراسة وافية من جميع نواحيه حتى علمت من قراءتى للرسالة الغراء – نفع الله بها وحفظ صاحبها – بصدور كتاب (نظام الطلاق فى الاسلام) للعلامة المجتهد الشيخ احمد محمد شاكر القاضى الشرعى . فقلت : ابن بجدتها ، علم غزير ، وذكاء وفير ، والمهنة مستوجبة للدرس ، والظروف مؤاتية .

قرأت الكتاب بشغف قوى وبما يستحق من عناية وإنعام نظر ، فرأيته – ولا أريد أن أمدح – نعم الكتاب هو ، وافياً بالغرض ، قائماً على الحجة القوية من كتاب الله وسنة رسوله مسترشداً بالعقل وقوانين اللغة ، بعيداً عن اللغو ومواطن الزلل ، ورأيت الاخلاص للحق ماثلا فيه بدليل توفقه – بأسلوب سهل – للاحاطة باطراف الموضوع فى موجز كهذا (وهو بالنسبة لخطورة الموضوع وجيز) وبدليل بعده عن الخوض فى (سب سادات مضوا) شأن كثير ممن يتعرضون للكتابة فى مواضيع اختلفت فيها الآراء وتشعبت الأقوال .

ومسأله الكتاب ، إخراج الطلاق من حيز العبث الذى أدخله فيه الناس إلى حيز الحكمة التى ابتغاها الشارع الحكيم من مشروعيته ، واعتباره علاجا لاصلاح ما قد يطرأ على الرابطة الزوجية من أمراض تنغص العيش ، وتذهب بالسكينة المنشودة من الزواج (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها) والذى يجعل لاصلاح العلاقة الزوجية لا يستعمل لقطعها إلا إذا تعذر الاصلاح وكان العلاج هو القطع . ومن هنا أذن الله للرجل فى الطلاق وجعل له فيه أداة ومهلة يتروى فيها ويراجع نفسه (لعل الله يحدث بعد

---

(١) كتبت على أثر المكاتبة فى هذا الموضوع بين سماحة المجتهد الكبير الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء وبين فضيلة مؤلف الكتاب . وحالت موانع دون اعادة النظر فيها وارسالها .

ذلك أمراً) وبهذا تتجلى حكمة الطلاق ويبدو أنه تشريع منظم غاية التنظيم .

وقد حرص المؤلف على تقرير هذا المعنى فى المواضع المناسبة ؛ غير أن ما اشترط لصحة وقوع الطلاق غير كاف للحيطة من العبث به وتعجيل الفراق ، فقد اشترط فى طلاق المدخول بها أن يكون الطلاق فى طهر لم يمس فيه وقال : (فاذا رد الرجل مطلقته فى عدتها إلى عصمته بالرجعة تجدد العقد بينهما ، فكأنه وصله بعد إذ قطعه ، فيمكن قطعه وفسخه مرة أخرى ، وكذلك الثالثة . ص ٧٢) وهذا كله يتصور فى طهر واحد ، كان يطلق فى طهر لم يمس فيه ثم يراجع نفسه فيرجعها بشروط الرجعة - ثم يرى طلاقها فيطلقها فى نفس الطهر قبل أن يمس ثم يعود اليه صوابه فيرجعها ، ثم يرى طلاقها فى نفس الطهر أيضاً قبل أن يمس فيطلق . وحينئذ يقع الفراق الذى لا رجعة بعده فى طهر واحد ، ويكون قد تعجل الطلاق وخالف الحكمة فى تفريقه . وليس فيما حقق الاستاذ ما يمنع المطلق من إيقاع الطلاق على الصورة الذى ذكرنا أو ما يبطل طلاقه لو فعل .

والذى أراه يتمشى مع الحكمة هو التمشى مع نصوص القرآن الكريم ، وذلك بعدم إجازة الرجعة التى تترتب عليها صحة الطلاق الثانى الا عند نهاية العدة لقوله تعالى : (فاذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف) وقوله تعالى : (وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف) فانه رتب الامساك (وهو الرجعة) على بلوغ الأجل . وبلوغ الأجل فى حق الرجعة يراد منه قرب بلوغ الأجل لأن الرجعة لا تصح بعد بلوغه

وحرمان الزوجين من بعضهما مدة العدة أدعى للوفاق بينهما فيما بعد ؛ لأن الزوجة بسبب هذا الحرمان تصلح من شأنها ، والزوج بسببه لا يقدم على طلاق آخر إلا أن كانت الضرورة ماسة جدا خلاف ما لو راجع حالا فانه لا يشعر بشىء يزجره ويذيقه بالفعل خطورة ما أقدم عليه

وقرب بلوغ الأجل ، أى نهاية العدة ، يكون فى الحيض الأخير أو الطهر الذى قبله ، فان حصلت المراجعة فى الطهر الذى قبل الحيض الأخير ومست الحاجة للطلاق الثانى طلق إن شاء قبل أن يمس كما فى الحديث . وإن حصلت الرجعة فى الحيض الأخير صحت الرجعة ويطلق فى الطهر الذى بعدها إن شاء قبل أن يمس . وهكذا فى الطلقة الثالثة

وبهذا النظام لا تقع الفرقة النهائية إلا فى ظرف واسع كاف للتروى والتفكير ومراجعة الرأى . وهو وقت يقرب من ثلاث عدد . ومن لم يحسن العشرة فيه كان مستحقا لعقاب الحرمان الأدنى من رفيقه . أو ألا يرجع إليه إلا بعد زوج آخر ، وهو ما لا ترضاه النفوس غالبا

ooo

بقى : هل يبطل الطلاق فى الحيض أو يقع ويحرم؟

رجح المؤلف بطلانه . وهو رأى بعض الأئمة ؛ ورجح غيره حرمته فقط ، وسمى بالطلاق البدعى . استدل المؤلف بحديث ابن عمر من روايات متعددة ذكرها فيما بين الصفحة ٢٣ والصفحة ٢٨ ، واحتج القائلون بالوقوع بحديث ابن عمر نفسه من روايات أخرى قال المؤلف عنها : (ليس فيها شىء صريح وألفاظها مضطربة وهى تخالف ما ثبت صريحاً بالروايات الصحيحة ، وتخالف أيضا ما يفهم من ظاهر القرآن)

وأنا أصدق المؤلف فيما قال فى الروايات التى تمسك بها خصوم رأيه ، ولم أطالعها ، ولكننى أقطع النظر عنها وأقول : إن الروايات التى تمسك بها هو لا تساعده على رأيه لأن قوامها :

١ - ماروى مالك فى الموطأ عن نافع (أن عبد الله بن عمر طلق امرأته وهى حائض على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأل عمر بن الخطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مره فليراجعها ، فليمسكها حتى تطهر ، ثم تحيض ، ثم تطهر ، ثم إن شاء أمسكها بعد وإن شاء طلق قبل أن يمس . فتلك العدة التى أمر الله أن يطلق لها النساء)

٢ - وما روى ابن وهب فى كتابه الجامع : (قال ابن أبى ذئب إن نافعا أخبرهم عن ابن عمر أنه طلق امرأته وهى

حائض ، فسأل عمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فقال : مره فليراجعها ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ثم إن شاء أمسك بعد ذلك وإن شاء طلق قبل أن يمس . فتلك العدة التى أمر الله أن تطلق لها النساء . وهى واحدة)

وهذان الحديثان هما من لفظ النبى صلى الله عليه وسلم وقد صرح فيهما بقوله فليمسكها حتى تطهر ، ثم تحيض ، ثم تطهر ثم إن شاء أمسكها بعد وإن شاء طلق . فلو كان الطلاق الاول الذى طلقه ابن عمر غير واقع لم يكن فائدة لقوله فليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ، بل كان ينبغى أن يقول فليمسكها حتى تطهر ثم إن شاء طلقها قبل أن يمس ، ولا داعى لتعدد الحيض والاطهار

وأعجب للمؤلف كيف يقول : (فلو كانت الروايات التى يحتج بها القائلون لوقوع طلقة ابن عمر فى الحيض صحيحة لكان الأمر بمراجعتها ثم التربص بها إلى أن تطهر ثم يطلقها إن شاء فى الطهر الثانى قبل أن يمس - أمراً باطالة عدتها زمناً أكثر مما أريد من الرفق بها) أعجب له لأن التربص بها إلى أن تطهر الاطهار المعدودة فى الحديث ثم يطلقها إن شاء هو مناط الحكمة فى تفريق الطلاق (لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً) وليس لاطالة عدتها بل لاحتمال رجوعه عن إرادة الطلاق فيما بعد . أما الطلاق الأول فقد وقع والتربص عدة حيض واطهار كما فى الحديث دليل على وقوعه ، وإلا فهو حر فى طلاقها حين تطهر الطهر الاول . وقوله فى الحديث وإن شاء طلق قبل أن يمس فيظهر أنه إن شاء طلاقاً ثانياً ، ولا ينافيه قوله بعد ذلك (وهى واحدة) لأن الضمير فيها للطلقة الاولى المفهومة من سياق الكلام والتى هى محط السؤال ، فلا جرم يكون الجواب عنها بالاضمار ولا يمتنع ذلك ، وهو أسلوب عربى صحيح ، ولا نسلم للمؤلف (أنه لا يمكن أن يعود الضمير اليها) .

وأما الروايات الأخرى التى استند إليها المؤلف فاثنتان وهما :

١ — رواية ابن جريج عن ابن الزبير (وقال عبد الله فردها على ولم يرها شيئاً)

٢ — ورواية مسلم والنسائى بحذف كلمة ولم يرها شيئا فهاتان الروايتان ليستا من لفظ النبى عليه السلام ، بل هما من فهم عبد الله بن عمر بحسب سماع ابن الزبير وفهمه ، والأخذ بلفظ النبى عليه السلام أولى من الأخذ بفهم غيره

والرواية الثالثة وهى رواية الامام أحمد . . . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليراجعها فانها امرأته ، تحتمل على الأقل الوقوع والامر بالمراجعة . وعدم استعمال لفظ المراجعة فى القرآن بهذا المعنى لا ينفى استعماله فى الحديث

وبعد فهل الروايات التى تمسك بها القائلون بوقوع الطلاق فى الحيض ، أو بالتالى هل وقوع الطلاق فى الحيض يخالف ما يفهم من ظاهر القرآن كما قال المؤلف ؟

الجواب عندى أن حديثى مالك وابن وهب اللذين تمسك بهما المؤلف يفهم منهما ما يساعد على تأويل القرآن الكريم بما لا يخالف وقوع الطلاق فى الحيض

فالذى يفهم من الحديثين أنه أوقع الطلقة الاولى وكانت فى الحيض ، وأمر بالتربث حيضاً وإطهاراً بين هذه الطلقة وبين إيقاع الطلقة الثانية إن شاء المطلق ذلك وقال (فتلك العدة التى أمر الله أن يطلق لها النساء)

فالطلاق للعدة المأمور به فى القرآن معناه أن تطلق المرأة الطلقة الثانية بنهاية العدة من الطلقة الاولى ، ويكون تفسير آية الطلاق هكذا :

(يا أيها النبى إذا طلقتم النساء) أى الطلاق المعهود فى قوله (الطلاق مرتان) من سورة البقرة وهى أول سورة نزلت بالمدينة ، (فطلقوهن لعدتهن) أى أوقعوا الطلقة الثانية لعدة الاولى أى بنهاية عدتها كما فسر ذلك الحديث حيث أوقع الاولى وأحصى العدة بتعداد الحيض والاطهار وقال بعد ذلك (فتلك العدة التى أمر الله أن يطلق لها النساء)

وليس غريباً أن يكون هذا هو التفسير فالقرآن يفسر بعضه بعضاً والحديث مبين للقرآن (لتبين للناس ما نزل إليهم)

فمن آيات الطلاق مع الحديث يؤخذ أن الطلاق لا يقع الا متفرقاً بين كل طلقة وأخرى مقدار عدة ، وأن الرجعة لا تصح الا بنهاية العدة . وحيث كان الطلاق يختل نظامه اذ لم يراع فيه ذلك فقد أكد الله هذا المعنى بتكريره فى آيات الطلاق فقال تعالى فى سورة البقرة (وإذا طلقتم النساء فبلغن اجلهن

فأمسكوهن بمعروف أوسرحوهن بمعروف) فرتب الامساك والتسريح على بلوغ الاجل . وذكر مثله فى سورة الطلاق .

والحاصل أنى استنتج من هذا البحث ثلاثة أمور :

الاول : وقوع الطلاق فى الحيض .

الثانى : أن الرجعه لاتصح إلا قرب نهاية العدة .

الثالث: وهو مترتب على الثانى — أن الطلاق الثانى لايقع إلا قرب نهاية العدة من الطلاق الاول . والطلاق الثالث لا يقع إلا قرب نهاية العدة من الطلاق الثانى

وبذلك يصبح نظام الطلاق فى الاسلام ثابتا لا يتسرب إليه الخلل ولا يمكن العبث به مهما حاول ذلك المحاولون .

فأرجو من فضيلة الاستاذ العلامة الجليل الشيخ أحمد محمد شاكر مؤلف كتاب (نظام الطلاق فى الإسلام) أن يتفضل بالجواب عما رآه هذا العاجز سواء بالسلب أو بالايجاب مع الادلة الوافية لنستنير برأيه الراجح ، وله منا جزيل الشكر ومن الله عظيم الثواب

داود حمدان

حديث الأزهار

للكاتب الفرنسي الفونس كار

زهرة الاقحوان

نهضت الصبية مع الصباح وسارت نحو البرارى . وكانت العصافير قد فتحت عيونها للنور وبدأت تزقزق وقد أخذت رؤوسها مثقلة بتيجان من لآلىء الأنداء

سرحت الغادة أنظارها على المرج، فاستوقفتها زهرة الأقحوان، زهرة النضارة والجمال ، مفتحة عينها الصفراء ، محدقة بالسماء

انحنت على الزهرة وقالت لها : سوف تكشفين لى سر الأسرار يا ابنة الأرض والسماء . سوف تعلن لى وريقاتك ما لا يعرفه فى الانسان إلا إله الانسان ، سوف تقولين لى إذا كان يحبنى . . .

وأخذت الفتاة الزهرة بين أناملها وأخذت تنزع وريقاتها

ودفعت الزهرة بالأنين لأول ورقة سقطت من تويجها على الأرض . وقالت : لقد كنت مثلك أيتها الصبية جميلة ومليئة بالحياة ، مثلك كنت سعيدة ، وكما أحببت أنت أحببت أنا ، وما سال النسيم الذى هام بى عن سر غرامى احداً ، بل كان يمر بى كل ساعة ويحمل من عبيرى كلمة الغرام حرفا لحرفا . كان يقتلع هذه الحروف من قلبي كما تقتلعين أنت اليوم وريقاتى من تويجى بلا شفقة ولا رحمة . لقد سرق منى كل عبيرى ، وما عبيرى إلا شعورى يحيط طهارتى بسياجه المنيع

ذهب الشعور كلمة فكلمة ، وبقى قلبي عارياً كما سيبقى تويجي بين أناملك الآن . كنت أتعذب وأتأسف على عواطفى المخلوبة ، على وريقاتى البيضاء . . .

مالى ولك أيتها الصبية ؟ دعينى ، لا تنزعى وريقاتى ، أنا أختك زهرة الأرض يا زهرة العالم ، ارحمى الحياة التى وهبنيها الله ، فأجود عليك بسر عظيم جزاء على إشفاقك

إن المرأة تأخذ الزهرة وتنضو وريقاتها لتستمع الجواب على سؤالها المزدوج : يحبنى ، لا يحبنى . . . .

والرجل يطلب الجواب نفسه من المرأة عند ما ينثر وريقاتها البيضاء على الأرض .

أيتها الفتاة ، أبقى جوابك فى قلبك . . . إن الرجل ليطرحك بعيداً عنه إذا ما نزع وريقاتك البيضاء . . . (ف . ف .)

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

---

٢٧ — جنة فى نار

دخل بدوى حماما فاستطابه فقال لصاحبه :

ان حمامك هذا غير مذموم الجوار
ما رأينا قبل هذا جنة فى وسط نار

٢٨ — على أنه قيل فى الوقت

فى (أغانى) أبى الفرج :

قال أبو المستهل : دخلت يوما على سلم الخاسر واذا بين يديه قراطيس ، فيها أشعار يرثى ببعضها أم جعفر وببعضها جارية غير مسماة وببعضها أقواماً لم يموتوا . وأم جعفر يومئذ باقية . فقلت له : ويحك ما هذا ؟ !

فقال: تحدث الحوادث فيطالبونا بأن نقول فيها ، ويستعجلوننا ولا يجمل بنا أن نقول غير الجيد . فنعد لهم هذا قبل كونه ، فتى حدث حادث أظهرنا ما قلناه فيه قديما على أنه قيل فى الوقت .

٢٩ — الاذن الشرعى والقياس اللغوى

فى (طبقات) السبكى .

دخل رجل على الجبائى يوماً فقال : هل يجوز أن يسمى الله (تعالى) عاقلا ؟

فقال الجبائى : لا ، لأن العقل مشتق من العقال وهو المانع ، والمنع فى حق الله محال فامتنع الإطلاق . قال الشيخ أبو الحسن فقلت له : فعلى قياسك لايسمى الله (سبحانه) حكيما لأن هذا الاسم مشتق من حكمة اللجام وهى الحديدة المانعة للدابة عن الخروج ، ويشهد لذلك قول حسان بن ثابت

فنحكم بالقوافى من هجانا ونضرب حين تختلط الدماء

وقول الآخر (جرير) :

أبنى حنيفة . أحكموا سفهاءكم إنى أخاف عليكم أن اغضبا

أى نمنع بالقوافى من هجانا ، وامنعوا سفهاءكم . فاذا كان اللفظ مشتقاً من المنع ، والمنع على الله محال . لزمك أن تمنع إطلاق حكيم عليه (سبحانه وتعالى) . فلم يحد جواباً إلا أنه قال لى : فلم منعت أنت أن يسمى الله (سبحانه) عاقلا ، وأجزت أن يسمى حكيما ؟ فقلت له : لأن طريقى فى مأخذ أسماء الله الاذن الشرعى دون القياس اللغوى ، فأطلقت حكيما لأن الشرع أطلقه ، ومنعت عاقلا لأن الشرع منعه ، ولو أطلقه الشرع لأطلقته

٣٠ — ما قتل المحب حرام

قال القاضى المقرى : سألنى ابن حكم عن نسب المجيب فى هذا البيت :

ومهفهف الاعطاف قلت له انتسب فاجاب : ما قتل المحب حرام

ففكرت ثم قلت : أراه تميمياً لالغائه (ما) النافية فاستحسنه منى لصغر سنى يومئذ

٣١ — أجد بيانها فى قلبى

فى (وساطة) الجرجانى :

قال يونس ابن عبد الأعلى : سألت الشافعى عن مسئلة . فقال : إنى لأجد بيانها فى قلبى ، وليس ينطلق لسانى

٣٢ — بارت قريتك

فى (مفيد النعم) للسبكى :

ذكر الزبير ابن عمار أن بعض المتقعرين كتب إلى وكيل له بناحية البصرة : احمل إلينا من الخوزج والكنعد [1] المقورين [2] ، والأوز المهوج [3] ، ولحم مها البيد ، مايصلح للتشرير [4] والقديد

فكتب إليه وكيله : إن لم تكف عن هذا الكلام بارت قريتك ، فان الفلاحين ينسبون من ينطق بهذه الألفاظ إلى الجنون

---

(١) نوع من السمك البحرى

(٢) مقر السمكة المالحة نقعها فى الخل

(٣) ممهوج البطن مسترخيه

(٤) التشرير : التجفيف

٣٣ — عبودية الطاعة وأخوة العبد

كتب أبو حيان التوحيدى إلى صاحب له: كنت أعلمتنى أنك استحسنت منى هذين البيتين وهما:

ان كنت تطلب فضلا اذا ذكرت ومجداً
فكن لعبدك خلا وكن لخلك عبدا

وكان سببهما أن صديقاً لى ضرب عبداً له ، فحضره صديق له ، فمنعه الصديق فلم يمتنع ، فكتبت إليه بهذين البيتين أذكّره بحق الصديق فى عبودية الطاعة ، وأخوة العبد فى حق الايمان قال (تعالى) : «إنما المؤمنون إخوة» ، هذا مع ما فى النساط على المماليك من الدناءة

٣٤ — يخاف أن أعلم عليه

فى (زهر الآداب) للقيروانى :

قال الفتح بن خاقان : ما رأيت أظرف من ابن أبى دؤاد ، كنت يوماً ألاعب المتوكل بالنرد . فاستؤذن له عليه ، فلما قرب منا هممت برفعها ، فمنعنى المتوكل وقال : أجاهر الله بشىء وأستره عن عباده ؟ فقال المتوكل لما دخل : أراد الفتح أن يرفع النرد . قال : يخاف (يا أمير المؤمنين) أن أعلم عليه . فاستحليناه وقد كنا تجهمناه

٣٥ — الوجه الحسن والشعر المطبوع

قال أبو عمر بن سالم المالقى : كنت جالساً بمنزلى بمالقة فهاجت نفسى أن أخرج إلى الجبانة ، وكان يوماً شديد الحر فراودتها على القعود ، فلم تمكنى من القعود ، فمشيت حتى انتهيت الى مسجد يعرف برابطة الغبار ، وعنده الخطيب أبو محمد عبد الوهاب بن على المالقى ، فقال لى : إنى كنت أدعو الله أن يأتينى بك وقد فعل فالحمد لله ، فاخبرته بما كان منى ثم جلست عنده فقال : أنشدنى ، فأنشدته :

غصبوا الصباح فقسموه خدوداً
واستوعبوا قضب الأراك قدوداً
ورأوا حصا الياقوت دون نحورهم
فتقلدوا شهب النجوم عقودا
وتضافروا بضفائر أبدوا لنا
ضوء النهار بليلها معقوداً
صاغوا الثغور من الأقاحى ، بينها (١)
ماء الحياة ، لو اغتدى مورودا
لم يكفهم حـــد الأسنة والظبا
حتى استعاروا أعينا وخدودا (٢)

فصاح الشيخ وأغمى عليه ، وتصبب عرقاً ، ثم أفاق بعد ساعة وقال : يا بنى ، اعذرنى فشيئان يقهرانى ولا أملك نفسى عندهما : النظر إلى الوجه الحسن ، وسماع الشعر المطبوع

٣٦ — أنا لا أسمع لوما فى حبيب

فى خزانة ابن حجة :

كان صلاح الدين الصفدى ، مذهبه تقديم أبى الطيب المتنبى على أبى تمام حبيب الطائى . فاتفق أن صلاح الدين اجتمع بابن نباتة بالديار المصرية ، وذاكره فى أبى الطيب وأبى تمام ، فوجده على مذهبه . واجتمعا بعد ذلك بالشيخ أثير الدين بن حيان وذاكراه فى ذلك ، فقدم أبا تمام ، فلاماه على ذلك فقال :

أنا لا أسمع لوماً فى حبيب

٣٧ — كالحسن شيب لمغرم بدلال

فى (المثل السائر) لابن الأثير :

قال أبو تمام :

خلط الشجاعة بالحياء فأصبحا كالحسن شيب لمغرم بدلال

وهذا من غريب ما يأتى فى هذا الباب . وقد تغالت شيعة أبى تمام فى وصف هذا البيت ، وهو لعمرى كذلك

(١) الاقحوان : من نبات الربيع له نوار أبيض كأنه ثغر جارية حديثة السن ، وهو البابونج يجمع على اقاح واقاحى بتشديد الياء وقد خففت فى البيت .

(٢) أبو عبد الله بن اليمن البطليوسى

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٢ —

الديانة المصرية

يجمع الباحثون على أن الديانة المصرية هي أولى الديانات البشرية التي ظهرت على وجه الأرض من غير استثناء . ويؤكد بعضهم تأكيداً قاطعاً بأنه لم تظهر ديانة في الدنيا إلا ولها في عقائد وادي النيل عنصر ، وأن كل الديانات الانسانية ليست إلا فتاتا متساقطا حول مائدة بلاد الفراعنة الذين سبقوا جميع سكان الكرة الأرضية إلى حمل لواء المعرفة وفتح كثير من مغلقات العلم وحل ألغاز الكون . ومن أشهر العلماء الذين يعتنقون هذه الفكرة العالمان الانجليزيان : « برى » و « اليوت سميث » . أما الأستاذ « دينيس سورا » فيؤمن بالفكرة الأولى وهي سابقية الديانة المصرية على جميع الديانات الانسانية ، ولا يستبعد أن تكون جميع التطورات الدينية قد وجدت في مصر من الوثنية المحضة إلى الروحية المغالية في التجردية ، بل إلى « اللاأدرية » المطلقة ، ولكن الذى يعارض فيه هو أن بقية الشعوب القديمة قد تغذت من تساقط فتات المائدة المصرية ، كما يقول بعض العلماء ؛ وبراهينه في هذه المعارضة هي :

أولا : أنه لم يثبت عن المصريين أنهم بعثوا بعثات إلى البلاد الأجنبية للتبشير بديانتهم حتى انتشرت بين ربوع تلك الأمم .

ثانيا : أن الآثار المصرية التي يعتمد عليها العلماء في حكمهم هذا لا تؤيدهم في دعواهم إذا تأملوا في الأمر تأملا دقيقا ، لأنها ليست إلا رموزا وطلاسم قصد بها كاتبوها غايات دينية محضة لا تسجيل حقائق علمية ولا إذاعة أسرار الدين وإبانة تطوراته المختلفة . وإذاً ، فلا يمكننا أن نعتمد على تلك الآثار في حكمنا ، وفوق ذلك فإن أسرار العقيدة المصرية الأصلية لم تذع بين أفراد الشعب إلا في عصور التدهور أي حوالي القرن السادس قبل المسيح . وبناء على هذا يكون العامة – وهم الذين يحتكون بالأجانب في المعاملات – قد ظلوا جاهلين بحقيقة هذه الديانة حتى القرن السادس أي بعد ظهور كثير من الديانات الشرقية . وبهذا ينتفي تأثير الديانة المصرية على تلك الديانات .

ولا ريب أن البرهان الأول في رأينا برهان ضعيف ، لأن الديانة كما تنتشر بوساطة المبعوثين المختصين ، تنتشر كذلك عن طريق الاحتكاكات التجارية والسياسية والاجتماعية . ولا جرم أن هذا كان موجوداً وثابتاً الثبات كله . أما ادعاء أصحاب هذا الرأي جهل الشعب بالعقائد المصرية حتى القرن السادس فهو غير صحيح ، لأن الأدب المصري – وهو مرآة الحياة الاجتماعية بما تحتويه من دين وأخلاق وغيرهما – قد أنبأنا في مواضع تجل عن الحصر بكثير من أسرار العقيدة ، أضف إلى هذا أن الرسوم والنقوش التي تكتظ بها المعابد تذيع أكثر هذه الأسرار الدينية ، وليس سرا مايعلمه الكهنة والأمراء ، ورجال البلاط ، وكبار الموظفين ، والرسامون والعمال . على أنه إذا جازت سرية مالدى هؤلاء جميعا – وهي بعيدة – فلا تجوز سرية مالدى الأدباء والكتاب الذين أفعموا أسفارهم بوصف هذه المعلومات بأسلوب ضاف مسهب . وإذا فالأرجح – إن لم يكن مؤكدا – أن جميع الأمم القديمة من غير استثناء هي تلميذات مصر في الدين كما هي تلميذاتها في العلم والأدب والفن .

غير أنه بالرغم من صحة هذه النظريات القائلة بأخذ الأمم الشرقية دياناتها عن مصر في نظرنا يجب علينا أن نخطو إلى إثباتها خطوات حذرة متبصرة تأتلف مع تلك المعلومات البسيطة التي اكتشفها المستمصرون ، منتظرين ما تأتي به المكتشفات المقبلة عن هذه الأمة العريقة التي سمى العلماء بلادها بحق : « أرض الأسرار والعجائب » .

قداسة الحيوان وأسبابها عند المصريين

رأى علماء أوروبا في العصور الحديثة ، الآثار المصرية مكتظة بالحيوانات المقدسة ، ورأوا كذلك بعض الشعوب

البربرية المتوحشة في جنوب إفريقيا وفي أطراف آسيا وأمريكا تقدس الحيوانات في هذا العصر الذي نعيش فيه تقديسا لا يقل عن تقديس المصريين إياها في العصور الغابرة، فانخدعوا بهذه المشابهة السطحية وتوهموا أن تقديس المصريين القدماء للحيوانات هو من نوع تقديس المعاصرين المتوحشين لها، وحسبوا أن التقديس المصرى هو: «Totemisme» توتيمسم»، وهي كلمة تدل على قداسة الحيوان الناشئة عن اعتقاد القبيلة في قرابتها أو صلتها الوثيقة بهذا الحيوان، وهذا «التوتيمسم» موجود حقا عند المتوحشين العصريين ولا سيما في أطراف أمريكا. وقد عنى العلماء باستبطان دواخل هؤلاء المتوحشين، فسألوهم عن هذه الحيوانات المقدسة فأجاب البعض بأنها أجدادهم الاولون، وأنهم حين يقدسون هذه الحيوانات لا يزيدون على أنهم يجلون عنصرهم الأول ويحترمون دماء أسلافهم التي تجرى في عروق هذه الحيوانات. ورد البعض الآخر بأنها أقارب أجدادهم، وأكد البعض الثالث أنها من خلفاء أولئك الأجواد، وأعلن الرابع أن الحيوان المقدس عنده إنما هو إله قبيلة.

وقد شاهد العلماء أيضا في بعض الجهات المتوحشة القبيلة تنقسم إلى أربعة بطون: البطن الأول يقدس الكلب، وهو جده الأعلى، والثاني يقدس الخنزير، وهو عنصره الأول، والثالث يقدس الوزغ، وهو مبدؤه الأساسي. والرابع يقدس التمساح، وهو رأس الأسرة الأولى من هذا البطن.

فلما رأى العلماء هذا التقديس للحيوان عند الشعوب المتوحشة ورأوه عند المصريين الغابرين، جزموا بأن أولئك وهؤلاء متشابهون في عقيدتهم وتقديسهم لا يفرق بينهم إلا هذه العصور المترامية الأطراف

وقد أفاض بعض هؤلاء العلماء في هذه الموازنة إفاضة أنزلت آراءهم منزلة خيال الشعراء وأحلام النائمين. وأبرز هؤلاء العلماء الحالمين هو الأستاذ «فرازير»(١) الانجليزي مؤلف كتاب «الغصن الذهبي».

وقد عارض كثير من العلماء الأدقاء في هذه المشابهة معارضة شديدة وصرحوا بأنها تنقصها الأسانيد العلمية التي يعتمد عليها من ناحية، وبأنها غير متناسقة الجزئيات من ناحية أخرى، واستدلوا بأدلة على أن منشأ تقديس الحيوانات عند المصريين ليس هو «التوتيمسم»، وإنما هو سبب آخر سنذكره هنا. وإليك شيئا من هذه الأدلة:

(١) إن المصريين القدماء كانوا يبيحون زواج الأخ من أخته مع أن جميع قبائل التوتيمسم تعد هذا العمل أكبر جرائمها التي تستوجب السخط والغضب، بل إنها مجمعة من غير شذوذ واحد منها على أن زواج الرجل بامرأة من البطن الذي هو منه محرم، وهذا خلاف واضح يجعل المشابهة بعيدة كل البعد

(٢) إنه قد عثر على كثير من القبائل المتوحشة تجهل «التوتيمسم» جهلا تاما ولا تنظر إلى الحيوان إلا بمثل الاغضاء والاهمال اللذين ينظر بهما إليه أرقى المتمدينين العصريين

(٣) إن المصريين القدماء كانوا يعتقدون أن عنصرهم هو السماء فلا يمكن أن ينتسبوا إلى الانسان العادي فضلا عن الحيوان

(٤) إنهم صرحوا في عدة مواضع من آثارهم بأسباب تقديسهم لتلك الحيوانات، ولا يمت أي واحد من هذه الأسباب بصلة إلى تسلسلهم من الحيوان. وإذاً، فلا يمكن أن نسمى تقديس المصريين للحيوان: «توتيميسم» إلا إذا خرجنا بهذه الكلمة عن معناها الأصلي، وجعلناها مرادفة للتقديس فحسب بدل مرادفتها للتقديس الناشيء عن البنوة أو القرابة. على أن الذين يوافقون من المستمصرين على تسمية تقديس المصريين للحيوان «توتيميسم»، يجمعون على قصر هذه «التوتيميسمية» على عصور ما قبل التاريخ كما يجمعون على وجوب فصل عقائد تلك العصور «التوتيميسمية» عن عقائد العصور التاريخية الراقية.

أما منشأ هذه القداسة فهو يرجع — في رأى العلماء المحققين — إلى أنه قد حدثت حروب بين القبائل المصرية في عصور ما قبل التاريخ تجلت عن انتصار بعض هذه القبائل وانهزام البعض الآخر، فرمز المنتصرون لبلادهم ببعض الحيوانات القوية ولقرى خصومهم المنهزمين ببعض الحيوانات الضعيفة، فبقيت هذه الرموز دالة على معانيها ردحاً من الزمن

(١) يلاحظ أن أكثر الآراء الخاطئة التي يذيعها الأستاذ سلامة موسى مستقاة من مؤلفات هذا العالم الخرافي.

ثم تعاقبت الأجيال فنسيت الأسباب الأولى وبقيت أسماء تلك الحيوانات عالقة بهاتيك القرى ورامزة لها فى شكل خفى غامض. ولما كانت النفوس البشرية مجبولة على تقديس ما تجهله فقد قدست مصر تلك الحيوانات دون تفريق بين قويها وضعيفها.

ولما ارتقت مصر نوعاً، ونظمت بلادها وقسمتها إلى مقاطعات وأنشأ سكان كل مقاطعة على حدة راية خاصة بهم ظل بعض تلك الرموز القديمة باقياً ونقش كل منها على مقاطعته. كما اختفى البعض الآخر الذى لأمر ما لم يصلح للحياة، ولكن ذلك البعض الذى بقى لم يظل جامدا على راية حاله الاولى، وانما تطور انسجاما مع المدنية الحديثة مثل البازى الذى كان فى عصور ما قبل التاريخ رمزاً لاحد الانتصارات الغابرة ثم أصبح فى العصور التاريخية رمزاً للاله «هوروس» إله القوة والخير والبركة، وكالبقرة التى كانت كذلك فى العصور الاولى رمزاً لأحد تلك الانتصارات التى سجلت على القرية المنهزمة ضعفها، فرمز اليها بحيوان صغير كالتمساح مثلا ثم أصبح رمز البقرة رمزاً للاله «هاتور».

ومع طول الزمن اندمج بعض المقاطعات فى البعض الآخر وأصبح الكثير منها تحت إمرة إله واحد كما حدث فى الماضى أن أصبح المنهزم تحت إمرة المنتصر، وهذا هو مأتى تقديس الحيوانات فى مصر القديمة ؟

«يتبع» **محمد غلاب**

سر مجهول

فى تحريم لحم الخنزير

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

فى التشريع الإسلامى أسرار لا يعلمها إلا من طهر الله قلوبهم لحكمته، وألهمها من العلم مالا يقاس به شىء عندها. وقد كان الناس يظنون أن الحكمة فى تحريم لحم الخنزير تعبدية إلى ان أخذوا فى هذا العصر يلتمسون حكم التشريع، ويعنون بالبحث عن فوائده ومزاياه؛ فحينما بحثوا فى حكمة تحريم لحم الخنزير ظنوا أنه استثناء من أصل أحل لحمه، فأخذوا يبحثون فى تحريمه عن حكمة خاصة به. وقد ذكروا من ذلك ان الخنزير يصاب فى كثير من الأحيان بديدان تنتقل منه إلى من يأكل لحمه، وتتربى فى جسده، فتكون منها الدودة الوحيدة الخطيرة؛ وذكروا أيضاً أن فى الخنزير ديدانا أخرى تتربى فى لحمه يقال لها (تريشين)، ومن عادتها أن تكون محاطة بكيس ينتهى أمره بأن يتحجر فتموت تلك الدودة فيه، ولكن هذا لا يكون إلا بعد أن تلد ألوفاً لا تحصى من الديدان، وكل دودة منها ينتهى أمرها إلى مثل ما انتهى اليه أمر الدودة الأولى؛ فاذا أكل الانسان لحم الخنزير نزلت هذه الأكياس الحجرية الحاوية لهذه الديدان إلى معدته، وذابت فيها بتأثير العصارة المعدية، فتخرج منها ديدانها وتتكاثر فى جسمه وتسكن فى لحمه، وهذا من أقبح الأمراض وأشنعها وناهيك بمرض يكون فيه لحم الانسان كله مساكن لتلك الديدان المؤذية.

وقد يكون هذا من ضمن الأسباب التى حرم الله بها لحم الخنزير، وإن كان لا يوجد له نظير فيما حرم الله أكله علينا؛ ولكن يبقى بعد هذا أن يقال: هل حرم الله علينا الخنزير لانه خنزير، أو لانه من جنس السباع التى حرم علينا أكلها لحكمة عظيمة سنبينها؟ ولقد سألنى بعض المخالفين منذ سنين

عن الحكمة فى تحريم الاسلام لحم الخنزير ، فأجبته بان الله حرمه لأنه سبع من السباع ، ثم ذكرت له الحكمة فى تحريم لحمها . فسكت سكوت المفحم أو المقتنع، ولم يعقب على كلامى بكلمة تبين لى حقيقة أمره ، فاكتفيت منه بذلك وتركته ، وهأنذا أفصل هنا ما أجملته فى جوابى له :

روى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : كل ذى ناب من السباع فأكله حرام . فهذا الحديث يدل على تحريم ما له ناب من السباع ، والناب هو السن خلف الرباعية ،كما جاء فى القاموس ، والسبع هو المفترس من الحيوان كما جاء فى القاموس أيضاً ، وجاء فيه أن الافتراس الاصطياد . وجاء فى كتاب النهاية لابن الأثير أن السبع هو ما يفترس الحيوان ويأكله قهرا وقسرا ، كالأسد والذئب والنمر ونحوهما . وقال أبو حنيفة : كل ما أكل اللحم فهو سبع ، حتى الفيل والضبع واليربوع عنده من السباع ، وكذلك السنور . وقال الشافعى: السباع المحرمة هى التى تعدو على الناس كالأسد والنمر والذئب ، أما الذى لا يعدو منها على الناس فهو حلال ، كالضبع والثعلب

فاذا أردنا بعد هذا أن نعرف أمر الخنزير فى ذلك وجب أن نرجع إلى ما كتب فى علم الحيوان عنه . وقد جاء فى كتاب حياة الحيوان للدميرى أن الخنزير يشترك بين البهيمية والسبعية ، ففيه من السبع الناب وأكل الجيف ، ومن البهيم الظلف وأكل العشب والعلف . ويقال إنه ليس لشىء من ذوات الأنياب ما للخنزير من القوة فى نابه ، حتى إنه يضرب به صاحب السيف والرمح فيقطع كل ما لاقى من جسده من عظم وعصب

وجاء فى دائرة معارف البستانى أن الخنزير يمتاز بقوة أنيابه المعوجة ، وأن منها نابين فى الفك الأعلى ونابين فى الفك الأسفل يقدر أن يجرح بها جراحاً غائرة ، وهو فى الغالب يضرب بها الأماكن الرخوة عند الهجوم عليه ، كبطن الفرس والإنسان ونحوهما ، وقيل إنه يتغلب أحيانا بأنيابه على الأسد

ثم ذكر أن الخنازير الآبدة أقوى وأضخم من الخنازير المستانسة ، وأنها أشرس منها طباعا ، وأعظم أنيابا ، وأنها تصاد بالحمل عليها وهى فى كهوفها ، وبنصب الفخاخ لها ونحو ذلك ، وقد تطارد بالكلاب إلى أن تقف مصادمة مطارديها ، ويكون وقوفها عند رجلى الفرس ، وكثيراً ما تتمكن من جرحه فى ساقيه بنابيها المخيفين ، وقد تأتى إلى جنب الفرس وتطعنه بنابيها فى بطنه فتشقه قبل أن يتمكن منها راكبه . وبعض الخنازير فى أمريكا إذا حمل إنسان أو وحش على القطيع منها يقف على شكل دائرة ، ويدفع بأسنانه الحادة هجمات العدو عليه ، وإن كان النمر الأمريكى المشهور بالقوة . وكثيرا ما تقتل هذه الخنازير الكلاب التى تستعمل فى صيدها ، وكثيرا ما تقتل صيادها أو تجرحه ، وكثيراً ما تجاهر الناس العداء بشجاعة لامزيد عليها ، فتحمل على الإنسان بدون أن يغيظها ، وإذا رأت كلباً غير متعود صيدها تحيط به حالا وتقتله ، وهى على العموم شديدة البأس ، كثيرة الحنق

وقد ذكر أيضا أن للخنزير ستة أضراس أو سبعة فى كل جانب من جوانبه ، وأن الأمامية منها تشبه أضراس آكلة اللحوم ، أما الخلفية فتشبه أضراس الإنسان ، وهذا يدل على أنه يأكل النبات واللحم

وكذلك ذكر الأستاذ أحمد ندى فى كتابه (الحجج البينات فى علم الحيوانات) أن الخنزير يسكن الغابات ويتغذى فيها بالجذور والثمار ، ولكنه إذا فقد هذا الغذاء يصير آكل لحوم ، فيفترس الحيوانات الحية ، ويأكل من لحومها

وينقسم الخنزير إلى قسمين : خنزير برى وخنزير بحرى . ومن الخنزير البحرى نوع يسمى عند الفرنجة (بيروسا) أو الخنزير الملاسمى ، ويوجد فى جزائر الهند الشرقية ، وهو شرس الطباع كالخنزير البرى ، قادر على السباحة طويلا . وقد ذكر الدميرى فى كتابه (حياة الحيوان) أن الخنزير البحرى هو الدلفين على المشهور ، وقد سئل مالك عنه فقال : أنتم تسمونه خنزيراً ، يعنى أن العرب لاتسميه بذلك . لأنها لاتعرف فى البحر خنزيرا

(للبحث بقية)

عبد المتعال الصعيدى
المدرس بالقسم العام بمعهد طنطا

بين القاضي منصور الهروى والوزير أبو سهل الزوزنى

للأديب الفارسي عباس اقبال

ترجمة الدكتور عبد الوهاب عزام

مقـــدمة:

لما قامت الدولة العثمانية فاستولت على آسيا الصغرى والعراق العربى والشام وجزيرة العرب ومصر وشمال افريقية تقطعت الأواصر العلمية والأدبية التي جمعت بين العهد العباسي بين المسلمين فى الأقطار كلها من بخارى وسمرقند إلى القيروان ومراكش

اشتدت المنافسة الدينية والسياسية بين الصفويين فى إيران وسلاطين آل عثمان فى البلاد الاسلامية الأخرى وانتهت إلى العداء والحرب ، فأقامت سداً منيعاً بين مسلمى إيران وإخوانهم فى الدين ، فتقطع ما بينهم من روابط. فسلمو الشرق الذين كان اهتمامهم بالفارسية يزيد يوماً بعد يوم بحكم الزمان ، والذين كانوا ينصرفون عن العربية لزوال دولها المستقلة سلكوا طريقاً غير الطريق التي سلكها مسلمو الغرب تحت سيطرة الترك العثمانيين ولواء السلطان حامى مذهب أهل السنة والجماعة .

وكانت عاقبة هذا أن الايرانى حرم الاستفادة من المؤلفات التى كانت تكتب خارج حدود بلاده والكتب القديمة التى كانت مدخرة فى غير وطنه . وكذلك حيل بين رعايا العثمانيين وبين آثار النهضة العلمية والأدبية فى إيران . وزاد تعصب الفريقين هذه الفرقة على مر الزمان . واليوم وقد نهضت أهل مصر والشام لاحياء الآداب والمعارف الاسلامية ، لا نزال نرى العلماء والأدباء على براءتهم من التعصب والحمد لله يهملون كل ما كتب بالفارسية - إحدى لغتى التمدن الاسلامى العظيمتين - ويصدفون عما كتبه علماء المذهب الشيعى - أحد المذهبين العظيمين فى الاسلام . يتبين من مطالعة الكتب والمقالات التى يكتبها فحول الكتاب والمؤرخين فى مصر والشام أنهم متمكنون فى الآداب العربية وتاريخ الاسلام ، بصيرون بكثير من الحقائق الراجعة إلى الفرنج وآدابهم . حتى إذا عرض بحث عن إيران والآداب الفارسية ، أو مذهب الشيعة كبا جوادهم وكثرت زلات أقلامهم . ونرى بعض هؤلاء الكتاب يحاولون الرجوع إلى المراجع الفارسية وهم يجهلون لغتها فيتوسلون إليها بالمراجع الأوربية فيحرفون الأعلام حين ينقلونها من الحروف اللاتينية إلى الهجاء العربى تحريفاً يغير معالم التاريخ والجغرافيا

كتب أحد كتاب مصر (ونمسك عن ذكر اسمه إجلالا لمقامه) ترجمة ناصر الدين شاه والوزير ميرزا تقى خان . وكان أخذه عن كتاب انجليزى فكتب «نصر الدين» و«طاغى خان» ، والذى يعرف العربية يدرك الفرق بين ناصر ونصر وتقى وطاغى . وللتحرز من مثل هذا اللبس عنى العلماء المدققون من قبل بتأليف كتب مثل «المؤتلف والمختلف» و«المشتبهات» و«المشترك» وغيرها . واجتهدوا فى ضبط الاعلام وتعيين لفظها ورسمها .

وهذا الخلط والمسخ ظاهران فى ترجمة دائرة المعارف الاسلامية التى تنشر فى مصر الآن فهى مليئة بأغلاط من هذا القبيل لا يتيسر تعدادها .

انما يريد الكاتب من هذه المقدمة أن يلفت أدباء العربية ومؤرخيها ومحققيها الذين يجتهدون فى كشف حقائق التمدن الاسلامى على سَنن المحققين من الفرنج ، إلى هذه النكتة الدقيقة : وهى أن أمامهم مصدرين عظيمين لتكميل معارفهم فى كل ما يرجع الى التمدن الاسلامى - مصدرين لا يعنى بهما كثير من الباحثين على ما ضمنا من حقائق لا يظفر بها الباحث فى الكتب العربية المعروفة . هذان المصدران هما الكتب الفارسية وكتب الشيعة التى ألفت فى إيران بالعربية أو الفارسية

أرى كثيراً من فضلاء الشبان فى مصر والشام يكتبون رسائل أو كتباً عن حكماء الاسلام وعلمائه ومؤرخيه فلا يستطيعون بلوغ الغاية فى التحقيق بما جهلوا الفارسية فحرموا

الاستفادة من الكتب المعروفة فى إيران . كيف يستطيع كاتب أن يحقق تاريخ ابن سينا وفلسفته وهو يغض الطرف عن كتبه الفارسية : « دانشنامة علائى » و « رسالة نبضية » ومعراجنامه ، أو عن أشعاره الفارسية . وكيف يستطيع أن يوفى البحث عن أبى الريحان البيرونى وهو يغفل النسخة الفارسية من كتاب التفهيم فى صناعة التنجيم وما كتبه عنه مؤلفو الفارسية القدماء مثل أبى الفضل البيهقى فى تاريخ آل سبكتكين ، ونظامى العروضى السمرقندى فى جهار مقاله وفيه حقائق لا تلفى فى كتب أخرى ؟ ومثل هذا يقال عن كثير من العلماء أمثال الامام فخر الدين الرازى ، والعلامة قطب الدين الشيرازى ، والامام عمر الخيامى ، وجار الله الزمخشرى ، ورشيد الدين الوطواط ، ونصير الدين الطوسى .

من ذا الذى يعنى بالتاريخ ومايحتاج إلى كتبه مثل تاريخ قم (وقد فقد أصله العربى ، ولم يبق إلا جزء من ترجمته الفارسية) ومحاسن اصفهان لسعد الدين البافروخى ، وكتاب الفهرس للطوسى ، ومعالم العلماء لابن شهراشوب ، والفهرست للقمى ، وكتاب الرجال للكشى ، وكتاب الرجال للنجاشى ، وكتاب الرجال الكبير للاسترابادى ، وروضات الجنات للخونسارى ، وكلها من أمهات كتب الشيعة ؟ أوكيف يغض الطرف عن كتب التاريخ الفارسية مثل جهانكشا للجوينى ، وجامع التواريخ لرشيد الدين فضل الله الوزير ، وتجزية الأمصار وتزجية الأعصار أعنى تاريخ الوصاف ، وزبدة التواريخ للحافظ ابرو ، ومطلع السعدين لعبد الرزاق السمرقندى ، وظفرنامه للنظام الشامى ، وشرف الدين على اليزدى ، وحبيب السير ، وروضة الصفا ، ومجمع الأنساب ، وتاريخ كراميره وكلها ثقة فى تاريخ المغول وعصر تيمور ؟

كل متأدب فى العالم العربى سمع اسم أطباق الذهب لشرف الدين عبد المؤمن الاصفهانى ، كتبه على نسق أطواق الذهب لأبى القاسم الزمخشرى ، وربما لا يوجد فى هذه البلاد من يعلم أن شرف الدين المذكور (ويعرف باسم شرف الدين ابن شفروه) واحد من أشهر شعراء الفارسية له ترجمة فى كل كتاب فارسى مترجم للشعراء . وكذلك كتاب الفخرى لصفى الدين محمد بن على بن الطقطقى طبقت شهرته الآفاق ، ولكن قليلا من فضلاء العربية من يعلم أن فى الفارسية نسخة من هذا الكتاب أكثر تفصيلا كتبها هندوشاه النخجوانى سنة ٧٢٤ ، ويؤخذ من هذه النسخة الفارسية أن اسم كتاب الفخرى الحقيق : « منية الفضلاء فى تواريخ الخلفاء والوزراء » .

أرجو أن يعذرنى القراء الكرام فى تطويل هذه المقدمة التى يمكن أن يكتب فى موضوعها كتاب والتى يرى القارىء فيها وفيما بعدها أن الفرع قد زاد على الأصل . إن عذرى فى هذه الإطالة رجائى أن يكون فيها بعض الفائدة

° ° °

ومن أمثلة ماذكرنا فى المقدمة أعنى الأمثلة التى تبين أن الكتب الفارسية تعين على إيضاح مسائل تاريخية ودقائق فى الأدب العربى أو تتضمن أحياناً فوائد لاتلفى فى الكتب العربية ، قصة القاضى منصور الهروى أحد الشعراء النابهين فى القرن الخامس الهجرى ومن ذوى الصيت الذائع فى البلاد الاسلامية الشرقية فى هذا العصر .

القاضى أبو أحمد منصور بن أبى منصور محمد الأزدى الدولى . المعروف بالقاضى منصور أو منصور الفقيه [1] ، ولى قضاء هرات فى عهد الملوك الغزنويين ، وكان منصب القضاء وراثة فى أسرته . وكان القاضى مع هذا المقام الجليل ، يمضى أكثر أيامه فى مصاحبة أهل الطرب ومنادمة إخوان اللهو والتمتع بالعيش الرضىّ ، والوجه الجميل ، يرى طبعه الشاعر أن الحياة فى السرور والطرب ، وكأن لسان حاله بيتا شمس الدين محمد حافظ الشيرازى :

« صديقان أريبان ، ومنوان من الخمر المعتقة ، وفراغ ، وكتاب وزاوية فى المرج ، لاأبيع هذا المقام بالدنيا والآخرة وإن يكن الناس قد اتخذونى إماما)

والقاضى منصور من معاصرى أبى منصور الثعالبى مؤلف يتيمة الدهر وتلميذه أبى الحسن الباخرزى مؤلف دمية القصر ، وقد أثبت هذان المؤلفان له ترجمة مختصرة

(١) ينبغى التمييز بين منصور الفقيه هذا أعنى القاضى منصور الهروى الازدى ومنصور الفقيه المصرى أعنى أبا الحسن منصور بن إسماعيل بن عمر التميمى الضرير ويذكر غالبا فى الكتب القديمة باسم منصور الفقيه . وكان شاعرا أيضا توفى سنة ٣٠٦ .

ونبذة من شعره فى يتيمة الدهر (٤ — ٢٤٣) وتتمة اليتيمة (٢ : ٤٦ — ٥٣) وفى دمية القصر (فى ذيل شعراء خراسان)

وهذه نبذة مما كتبه الباخرزي :

وكان مغرى بالشراب ، مغرماً بالأطراب ، يمناه متوجة بكأس الرحيق ، ويسراه مقرطة بعروة الإبريق . وخمرياته مما يحكم له فيها بالفضل على الحكمى ، وغزلياته مما يحصل بها مطاوعة الغزال الأبى ،

وكذلك فى معجم الأدباء طرف من أخباره وقطع من أشعاره (٧ — ١٨٩ — ١٩١) ويقول ياقوت إن القاضى منصور كان من مادحى القادر بالله (٣٨١ — ٤٢٢) وأنه توفى سنة ٤٤٠ .

وفى تاريخ آل سبكتكين الذى ألفه بالفارسية أبو الفضل محمد بن الحسين البيهق (٣٨٥ — ٤٧٠) ، وهو من معاصرى القاضى وأصدقائه ، فصل ممتع فى ترجمته لا يلقى فى مصدر من المصادر المذكورة ، ولا فى غيره من المراجع المشهورة . ونحن نثبته هنا إفادة للقراء وإثباتا لدعوانا فى المقدمة (طبع طهران ص ٥٩٩ - ٦٠١) . يقول أبو الفضل البيهقى :

وكان بهرات رجل يقال له القاضى منصور له قدم فى كل علم وفضل قد سكن الى الشراب واللهو ، وأخذ حظه من الدنيا الغادرة وجعل شعاره : خذ العيش ، ودع الطيش . وكان ريحانة الأكابر لا يأنسون بمجلس لا يضمه . وكان صديقاً لأبي سهل الزوزني[1] قد أحكمت مودتهما أواصر الأدب . وكانا يتلازمان ويعكفان على المدام . بكر القاضى منصور يوماً الى لهوه وشرابه ، وأرسل اليه أبو سهل أبياتا ، فأجاب بديهة على رويها ؛ وأعاد أبو سهل الكتابة فأجاب أبو منصور ولم يحضر ومضى اليوم .

وهذه هى الأبيات التى كتبها الشيخ أبو سهل الزوزنى :

أيها الصدر الذى دا نت لغرته الرقاب
انتدب ترضى الندامى هم على الدهر كتاب
وأسغ غصة شرب ليس يكفيها الشراب
واحضرن لطفا بناد فيه للشوق التهاب
ودع العذر وزرنا أيها المحض اللباب
بينك المر عذاب وسجاياك عذاب
انما أنت غناء وشراب وشباب
جودك المرجو بحر فضلك الوافى سحاب
انما الدنيا ظلام ومعاليك شهاب

فاجابه القاضى فى الوقت :

أيها الصدر السعيد الماجد القرم اللباب
وجهك الوجه المضىء رأيك الرأى الصواب
عندك الدنيا جميعا واليها لى مآب
ولقد أقعدنى السكر وأعيانى الجواب
فى ذرى من قد حوى من كل شىء يستطاب
ولو اسطعت قسمت الجسم قسمين لطاب
غير أنى عاجز عنه وقلبي ذو التهاب
فبسطت العذر عنى فى أساطير الكتاب

وكتب اليه أيضا أبو سهل :

أيها الصدر تأن ليس لى عنك ذهاب
كل ما عندك نخر كل ما دونك عاب
وجهك البدر ولكن بعد ما انجاب السحاب
قربك المحبوب روض صدك المكروه غاب
عذرك المقبول عندى أبد الدهر يصاب
أنت إن أبت إلينا فكما آب الشباب
أو كما كان على المحل من الغيث الضباب
بل كما ينتاش ميت حين واراه التراب

فكتب منصور بعد ما أدركه السكر :

نام رجلى مذ عبرت القنطره
فاقبلن إن شئت منى المعذره
ان هذا الكأس شىء عجب
كل من أغرق فيه أسكره

(باريس) عباس اقبال

(١) الشيخ العميد أبو سهل محمد بن الحسين الزوزني كان من كتاب السلطان شهاب الدولة مسعود بن محمود الغزنوى (٤٢٠ - ٤٣٦) ورئيس ديوان رسائله .

زهرة فى مستهل الربيع

للأستاذ محمود الخفيف

قد بعثْتُ القديم من أحلامى   إذ تبسّمْتِ للربيع الجديد
ياابنة الصبح قد ثكلْتُ غرامى   وتأسّيْتُ من زمان بعيد
ما لهذا النّدى يزيد أوامى   ويُثير الجوى بقلبى الشهيد!

فيم أحييْتِ بابتسامك وجدى   ياعروس الربيع رفقاً بقلبى
كيف أصبو إلى جمالك وحدى   أىُّ حُسن يخالج اليوم لبى؟
يتساوى القتاد والزهر عندى   وتناسىَّ ماضى العيشَ حسى

يوجعُ النفس أن ترى اليومَ حُسناً
كان بالأمس من بهيج رواها
تنظرُ العين لا ترى فيك معنًى   من معانى الجمال إلا شجاها
أغنيات المنى تألفن لحناً   صارَ للنفس من صميم أساها!

صوّرَتْ لى كآبة العيش حولى   عند لقياكِ كلَّ معنى كئيب
ذائب الطل ليسَ عندى بطلٍّ   هو سحُّ الجفون عند النحيب
وكأنّ الزمان مسّكِ مثلى   بالضنى كفّهُ وبالتعذيب

إنّ هذا النّماء يوحى لنفسى   صوراً هُنّ من نسيج الفناء
سوف يَطوى بهاؤه حين يمسى   يومُكِ الضاحكُ المديد الضياء
كلما زاد قلّ رونقُ أمسى   بالموتٍ رأيته فى النّماء!

هكذا يا ابنة الربيع حياتى   غير أنى معذّبٌ بشعورى
حائر النفس بين ماضٍ وآتٍ   غاب فى لجّة الزمان حبورى

سوف تطوى يد المنية عمرى   بعد أن يُطفىء الزمان شبابى
للونى والنحول فى الدهر سيرى
لا ترى العينُ غيرَ لمع السراب
فسواءٌ صبرْتُ أم رثّ صبرى   وسواء مسرّتى واكتئابى

فيكِ رمز لكل ما هو فانٍ   عابر ان يقيم إلا قليلا
ياعروس الربيع كم من معانٍ   فيكِ زادت غليل قلبى غليلا
يا لقلبى ما طارقات زمان   لم تذر لى فى الكون معنًى جميلا

أنتِ كالعيش فتنة وغرور   وأمانٍ كلها للنفاد
أنتِ كالحب نشوة وفتور   ورؤًى تمّحى بلا ميعاد
لمع كلهن مَين وزور   الليالى لهنّ بالمرصاد

خيلت لى عيناى صورة أنس   برهة ثم خيلت لى ثبورا
ورأى القلب فيكِ موحش رَمْسٍ
يضحك الزهر فوقه منثورا
لسواء زينت ساحة عرس   ياابنة الصبح أم كسوت القبورا

موتكِ الباكر المحتّم يوحى   لفؤادى الهموم من كل جنس
كم صبى كالزهر غض صبوح   كان ريا حين عوده طيب غرس
ناعم كالملاك رقة روح   موته يوجعُ القلوب ويؤسى!

كم فتىً فى ضحوة العمر ولى   مثلما متّ، نابه عبقرىٌّ
ومحيّا من ضاحك الزهر أحلى   قد محاه الفناء قبل الذّوِى!

كنت ألقاك فى الربيع فألقى   ألف معنى فى سحر ذاك الشباب
يمعن الحس عند مرآك عمقاً   فأرى الروح من وراء حجاب
وكأنى والقلب يسجد خفقاً   هيكل ليس ينتمى للتراب!

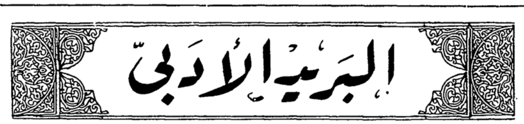
ينجلى فيكِ والزمان نضير   ومعانى الربيع تملأُ نفسى
أمل ضاحك وعيش غرير   وطيوف تثير كامن حسى
كان لى منك فى الصباح بشير   وأنيس إن غاب طائر أنسى

ياابنة الصبح كم رأى الصبح منى   نظرات المتيم المسحور
من بنات الهديل أقبس لحنى   حبذا السجع فى صفاء البكور
وسطور الرياض تبهر عينى   فأملى بوشيهن سطورى

كان هذا الزمان حلماً تقضى   أى حلم خياله لن يزولا
أى حسن يبقى على الأرض غضاً   آية الحسن أنه لن يطولا
كم قطعت الرياض طولا وعرضاً   فرأيتَ النماء ثم الذبولا

ياابنة الصبح قد ذكرت زمانى   حين أومأت فى رواء بديع
كل شىء بعثت إلا الأمانى   أفلا كنت مثل هذا الربيع؟

الخفيف



مظاهرة علمية خطيرة :

تفيض الصحف الانكليزية فى التعليق على موقف الجامعات الانكليزية من الدعوة التى وجهت إليها من جامعة تبنجن Teubingen الألمانية للاشتراك فى عيدها الذى سيقام فى يونيه القادم احتفاء بانقضاء مائتى عام على تاسيسها ، فقد قررت الجامعات الانكليزية كلها أن تعتذر عن قبول الدعوة وأن تقاطع هذا الاحتفال ، ويقولون إن الجامعات الأمريكية قد تحذو حذو الجامعات الانكليزية فى هذه المقاطعة . وقد كان لهذه المقاطعة العلمية وقع عميق فى المانيا . وقد شرحت الصحف الانكليزية موقف الجامعات الانكليزية ، فقالت إنه لا يرجع إلى أية بواعث سياسية ، ولا يرجع بالأخص إلى أية خصومة نحو المانيا أو الشعب الألمانى ، ولكنه يرجع إلى بواعث علمية محضة ، ذلك أن المانيا الهتلرية قد أخضعت العلم للسياسة وبالغت فى اضطهاد الفكر ، وجعلت من الجامعات الألمانية أدوات للدعاية السياسية والجنسية ، وسحقت بذلك هيبة العلم وثلت تراث الجامعات الألمانية ، وقد كانت فى مقدمة جامعات العالم صيتاً وهيبة ؛ ولم تبق الجامعات الألمانية كما كانت قبل قيام الحكم الهتلرى منابر لإعلان الحقائق العلمية ، بل غدت منابر لبث النظريات العنصرية والسياسية والجرمانية الجديدة وتسخير الحقائق العلمية لخدمة مزاعم سادة المانيا الجدد ومبادئهم المفرقة . وقد علقت مجلة « سبكتاتور » الانكليزية على هذا الحادث بمقال رنان استعرضت فيه حالة التفكير الألمانى الحاضر وما انتهى اليه فى ظل الطغيان الهتلرى من الانحلال ، وأشارت بهذه المناسبة إلى ما صرح به وزير المعارف الالمانية فى العام الماضى فى الاحتفال بعيد جامعة هيدلبرج ، من « ان العلم الألمانى الجديد يرفض المبدأ القائل بأن شرف العلم وغايته ينحصران فى البحث عن الحقيقة دائماً » ؛ وأشارت إلى ما وقع فى العهد الحاضر من تخريب الجامعات وتشريد الأساتذة بسبب كونهم من اليهود ، أو لأنهم من خصوم النظام الحاضر حتى بلغ ما طرد منهم فى الأعوام الثلاثة الأخيرة أكثر من ألف وسبعمائة أستاذ بينهم فطاحل العلم الألمانى فى كل فن وضرب .

وهذه أول مظاهرة دولية علمية خطيرة ضد المانيا الهتلرية وسيكون لها بلا ريب مغزاها العميق فى الحكم على المبادىء والمزاعم المفرقة التى تتخذها المانيا النازية شعاراً لها وخصوصاً فى المسائل العلمية التى تعتبر بالاجماع مسائل إنسانية تهم العالم بأسره ، ولا يمكن أن تدعى فيها أية أمة أو دولة شيئاً من الاختصاص ، ولا يمكن أن تسيرها سوى المباحث والحقائق المجردة عن كل اعتبار قومى أو جنسى او سياسى .

كتاب عن الواحات المصرية النائية

أصدرت الجمعية الجغرافية الملكية المصرية أخيرا مؤلفاً جديدا بالفرنسية عنوانه « الاكتشافات الأخيرة فى صحراء لوبية » Récentes Explorations dans le Désért Libyque بقلم الكونت ألماسى الرحالة المعروف ؛ وفيه يقص المؤلف محاولاته لاستكشاف واحة « زرزورة » ، وهو اسم كان يجرى على الالسن مجرى الأسطورة ؛ وكان أول أوربى ذكره هو الرحالة الانكليزى ولكنسون فى كتابه الذى صدر سنة ١٨٣٥ ، وهو يصف الاسم بانه علم على واحة تقع بعيدا فيما وراء الواحات المصرية الغربية ؛ وأسفرت الاكتشافات الصخرية فى الأعوام الأخيرة عن اكتشاف صحراء « العوينات » ، التى لم تكن معروفة فى الناحية المصرية من الصحراء ؛ وكان عرب الواحات المصرية يعتقدون انه ليس بعد واحاتهم أى واحة أو بقعة خضراء أخرى تجاه الغرب .. ثم اكتشفت واحة الكفرة بواسطة عرب من قبيلة الزاوية التى نزحت من برقة

استطاعوا الاتصال ببعض سكان صحراء تيبو المجاورة . وفى سنة ١٩٢٣ قام البرنس كمال الدين برحلته الأولى الى العوينات، وتبعه بعد ذلك السير جلبرت كلايتون واكتشف كلاهما بعض الأودية الجديدة . وفى سنة ١٩٣٣ قام الكونت الماسى برحلة أخرى الى واحة العوينات ، واتصل فى واحة الكفرة ببعض زنوج تيبو ، واكتشف بواسطتهم بعض وديان أخرى . ويستعرض المؤلف هذه الرحلات الصحراوية الشاقة ، ويورد بعض النصوص والمقارنات التاريخية القديمة من أقوال هيرودوتوس وغيره ، ويورد صورا لبعض النقوش العتيقة التى عثر عليها فى بعض صخور الصحراء

الفن المصرى القديم

صدرت أخيراً طبعة انكليزية لكتاب الفن المصرى القديم تأليف الدكتور هيرمان رانكه العلامة الأثرى . وأهمية هذه الطبعة فى أنها تسهل على القارىء اقتناء هذا السفر وقد كان من قبل بطبعته الألمانية التى أصدرتها شركة فيدون النمسوية الشهيرة محجوبا عن القارىء لارتفاع ثمنه إلى بضعة جنيهات للنسخة الواحدة ، إذ تعتبر الطبعة الألمانية من حيث الصور الفنية والتلوين تحفة فنية لا يستطيع اقتناءها سوى الهواة ودور الكتب . أما الطبعة الانكليزية فمع أنها قد احتوت جميع اللوحات والصور الفنية فان ثمنها لا يتجاوز ثمانية شلنات

ويحتوى الكتاب على تاريخ للفن المصرى القديم بقلم الدكتور رانكه وعلى موجز لتاريخ مصر الفرعونية ، وبه ٣٤٠ لوحة وصورة فنية ، منها صورة بديعة لرأس الملكة نفرتيتى تبين بوضوح سحابة عينها اليسرى وهو عيب لا يبدو فى الصور الجانبية ، وصور عديدة لأبدع التماثيل والرسوم الفرعونية الشهيرة ؛ وفى الاستعراض النقدى الذى يقدمه الدكتور رانكه عن الفن المصرى القديم مقارنات وملاحظات قيمة جداً من الوجهة العلمية والفنية

كتاب للمرشال دى بونو عن الحرب الحبشية

شغلت الأوساط السياسية والأدبية فى أوروبا هذه الأيام بالكتاب الخطير الذى وضعه المارشال دى بونو أول قائد عام فى الحملة الايطالية على الحبشة عن هذه الحرب وأسماه (العام الثالث عشر ، الاستيلاء على إمبراطورية) وسر الضجة العظيمة التى أثارها هذا الكتاب هو ماحواه من أسرار واعترافات عن تأهب ايطاليا للجملة قبل ظهور الذرائع التى تذرعت بها لارسال جيوشها والاصطدام بالاحباش ، ثم ما جاء فيه عن الأساليب التى اتبعها للتمهيد للفوز فى الحرب . فقد اعترف بأنه وضع مع السنيور موسولينى خطة الحرب من سنة ١٩٣٣ وجعلاها سراً بينهما لكيلا يطلع عليها الجمهور فيقاوم الفكرة ؛ ثم بين ما دفعته ايطاليا من الرشى لاشتراء بعض الاحباش والجواسيس الذين بثهم فى أرجاء الامبراطورية فصار يعرف كل كبيرة وصغيرة فيها . وأشار الى أن ايطاليا أنفقت فى هذا الباب بسخاء عظيم وقد أفادتها الدعاية فحرمت الامبراطور من حوالى ٢٠٠٠٠٠ محارب

ويسهب دى بونو فى وصف الاستعدادات العظيمة التى قامت بها ايطاليا قبل الحملة سراً وكيف زادت قواتها فى الاريترية وأنشأت المطارات وأرسلت الطيارات للاستكشاف على الاراضى الحبشية وأخذ الصور .

والظاهر ان ايطاليا كانت متوقعة أن تعلنها بريطانيا بالحرب. فقد أشار الى أن موسولينى أرسل اليه قبيل الحملة يأمره أن يوقف الحرب الحبشية اذا أعلنت بريطانيا الحرب والتزام الدفاع عن الاريترية .

والكتاب مصدر بمقدمة من السنيور موسولينى نفسه

المبرد [1]

من مزايا ابن خلكان فى كتابه ضبط الاسماء وقد قال : « والمبرد بضم الميم وفتح الباء الموحدة والراء المشددة وبعدها دال مهملة وهو لقب عرف به . واختلف العلماء فى سبب تلقيبه بذلك » ثم ذكر قصة (المزملة) التى أوردها ابن الجوزى فى (كتاب الالقاب) وان صحت رواية فى (إرشاد الأريب) وهى « لما صنف المازنى كتاب الالف واللام سأل (المبرد) عن دقيقه وعويصه فأجابه بأحسن جواب ، فقال له المازنى: قم فأنت المبرد (بكسر الراء) أى المثبت للحق فحرفه الكوفيون

(١) راجع الجزء الماضي الصفحة ٦٦٨ الحاشية

وفتحوا الراء » . فان صح ذلك فقد غلب عليه اللقب المحرف على ان ابن خلكان يقول ان الذى لقبه بالمبرد (بفتح الراء) هو شيخه أبو عثمان المازني . ومما يثبت قول (وفيات الاعيان) هذه الطرفة : « لقى برد الخيار المغنى أبا العباس المبرد فى يوم ثلج بالجسر فقال له : أنت المبرد وأنا برد الخيار واليوم كما ترى ، اعبر بنا لا يهلك الناس من الفالج بسببنا » .

أحمد القراء

تركية تحيي ذكرى الفيلسوف العظيم ابن سينا

نشطت اللجنة التى تألفت أخيراً برعاية جمعية التاريخ التركى وبرآسة نائب سيواس فى المجلس الوطنى الكبير شمس الدين وعضوية كبار العلماء المشتغلين فى جمعية التاريخ التركى فى اتخاذ التدابير اللازمة للاحتفال بذكرى وفاة الحكيم الفيلسوف ابن سينا ، وذلك فى يوم ٢٠ يونيه القادم إذ يصادف ذلك اليوم بلوغ وفاة الفيلسوف الأشهر العام التسعمائة . وستقام هذه الحفلة الكبرى فى ابهاء الجامعة التركية بعد انجاز جميع المعدات

وتشير جريدة قورون التركية إلى هذا الاحتفال الممتاز قائلة :

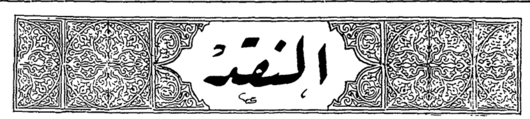
« إن الفيلسوف ابن سينا الذى طبقت شهرته الشرق والغرب ، كان أبوه من بخارى ، وأمه من بلخ ، فهو ولا ريب كان تركياً ؛ بيد أنه لما كانت اللغة العربية على عهده هى لغة الثقافة فى العالم الاسلامى قاطبة فقد كتب ابن سينا جميع تآليفه بالعربية باستثناء مؤلفين وضعهما باللغة الفارسية .

أما تآليف ابن سينا فتقسم إلى ثلاثة أقسام كبيرة : الطب والفلسفة والاخلاق ، ويؤلف كل من هذه الاقسام الثلاثة مجلدات ضخمة ، وكتابه الموضوع فى الطب باسم (القانون) قد ترجم إلى اللغة التركية ترجمه عالم تركى يدعى توقاتلى مصطفى ؛ وهـذه الترجمة موجودة اليوم فى مكتبة بايزيد وهى مكتوبة بالخط وفى مجلدات يبلغ عددها العشرين مجلداً

وإننا لمغتبطون جداً لانصراف الهمة إلى طبع كتاب ابن سينا (القانون) طبعا جديدا لمناسبة الاحتفال بذكراه . وستنشر لجنة الحفلة مؤلفا تضمنه شخصية ابن سينا العلمية والفلسفية تشرف على تأليفه طائفة من كبار العلماء المتضلعين فى الطب والفلسفة والاخلاق . وستعرض فى الحفلة تآليف ابن سينا المطبوعة والمخطوطة » .

إلى المشتركين بالتقسيط

لقد اشترطنا حين فتحنا الاشتراك المخفض المقسط للطلاب ولرجال التعليم الإلزامى أن تكون الأقساط متابعة ، والاخلال بهذا الشرط يستوجب طبعا إلغاء الاشتراك . فكل من لم يدفع القسط الرابع إلى اليوم أو الثالث من باب أولى ستنقطع عنه الرسالة والرواية ابتداء من هذا العدد .



اسماعيل المفترى عليه

تاليف القاضى بيير كربتيس

وترجمة الأستاذ فؤاد صروف

— ٢ —

ذكرنا فى العدد السابق المبادىء الأساسية التى يجب أن يتقيد بها كل مترجم والتى يحكم بمقتضاها على ترجمته . واليوم ننتقل إلى الترجمة نفسها ؛ ونحب قبل هذا أن نذكر للأستاذ حسنة من حسناته وهى إصلاحه خطأً مطبعياً وقع فى الكتاب . ذلك أن اسم محمود باشا وزير البحرية قد حرف مرة فكتب « محمد باشا » فتدارك الأستاذ هذه الغلطة وذكر اسمه الصحيح

كذلك أصلح الأستاذ غلطة مطبعية أخرى وهى قول المؤلف عند الكلام على امتياز القناة إنه لا يحق لأحد من حملة الأسهم أن يكون له أكثر من صوت واحد فأصلح المترجم ذلك إلى عشرة أصوات كما ورد فى الأصل الانجليزى بعد سطور قلائل

وإذا رجعنا بعد ذلك إلى الكتاب المترجم لم نجد الأستاذ صروف قد وفى بالشرط الأول؛ ولسنا نريد أن نقول إن الأستاذ غير ملم بتاريخ اسماعيل وكل مايتعلق به . كلا إنا نعتقد أنه ليس فى الكتاب المصريين ولا سيما رجال الصحافة من لايعرف تاريخ اسماعيل ، ولكن الأستاذ لسبب مالم يكلف نفسه عناء البحث عن صحة الأسماء وبخاصة الأسماء التركية فحرف بعضها تحريفاً يضل القارىء ويربكه ؛ وبدل أن يرجع إلى المصادر المطولة ليحقق هذه الأسماء وضع بدلها أسماء من عنده كثير منها لايتسمى به الأتراك . وقد تكون هذه الأسماء لأشخاص نكرات ولكن هذا لايعفى المترجم من البحث عنها وضبطها ؛ والأتراك فى مصر كثيرون ومن السهل على الأستاذ أن يعرف حقيقة الأسماء منهم إذا لم يشأ أن يرجع إلى الوثائق التى وردت فيها أو إلى كتب التاريخ نفسها ؛ وبعض هذه الأسماء لرجال شغلوا أكبر مناصب الدولة ولم يكن يليق والحالة هذه أن تحرف . وإلى القارىء مثل واحد من هذا النوع يدل على الفرق بين الأسماء الأصلية والأسماء التى أوردها الأستاذ . ذكر المؤلف اسم أحد الأتراك الفارين من الاضطهاد وكتبه هكذا Suavir Eff ، وبدل أن يحقق الأستاذ هذا الاسم ليعرف أن صاحبه هو على سعاوى أفندى ، كتبه موافى أفندى مع أن الحروف الانجليزية أقرب ماتكون إلى الاسم التركى ، وأمثلة هذا كثيرة . كذلك لم يتقيد الأستاذ بالمصطلحات العلمية الدقيقة الصحيحة واخترع بدلها ألفاظاً من عنده لا يقبلها الذوق فسمى الدين السائر بالدين العائم وذكر هذا اللفظ الأخير فى مواضع متعددة مع أنه قد استعمل اللفظ الصحيح الأول مرة فى الترجمة ولا ندرى لم عدل عنه واستبدل به اللفظ الآخر . وسنذكر هذا كله مفصلا فيما بعد

ننتقل بعد ذلك للأمانة والدقة فى الترجمة ومطابقة الكتاب المترجم للأصل فنقول إن الأستاذ لم يكن موفقا فى هذه الناحية أيضاً فلم يحرص على معانى المؤلف بل تناولها بالحذف والتغيير بغير سبب ؛ فالعبارات التى تحتاج إلى شىء من العناية لفهمها أو التعبير عنها قد حذفها أو بدلها ، وكثيرا ماوضع بدلها عبارات تؤدى عكس المعنى المراد ، بل إن كثيراً من العبارات السهلة العادية قد نالها أيضاً مانال اخواتها الصعبة . وسيرى القارىء فيما بعد أمثلة من ذلك .

أما أسلوب الكتاب فيختلف باختلاف أجزائه ، فالجمل فى بعض أجزائه مرتبطة متصلة وفى البعض الآخر مفككة منقطعة العلاقة ، وحروف العطف التى استعملها لربط هذه الجمل لاتظهر هذه الصلة ؛ ويشعر القارىء وهو يطالع الفصول الأخيرة من الكتاب بنوع خاص أنه يقرأ جملا مترجمة منفصلة لاموضوعا تاريخياً مرتبط الأجزاء .

وأما التشبيهات والأمثال الواردة فى الكتاب فقد ترجم الأستاذ الكثير منها ترجمة لفظية سببت غموض المعنى مع أن اللغة العربية كما قلنا غنية من هذه الناحية ، ويستطيع الباحث أن يجد فيها مايغنيه عن هذه الترجمة فى معظم الأحيان . وبعضها قد حذفه الأستاذ ولم يترجم لفظه أو معناه

هذه كلمة مجملة عن الترجمة ننتقل بعدها إلى بيان الأغلاط التي وقعت فيها . وكنا نحب أن نقسمها أنواعا ونذكر كل نوع على حدة ، ولكننا وجدنا في ذلك عناء. ووجدنا وقتنا أضيق من أن يتسع إلى هذا الترتيب ، ولذلك سنذكر أغلاط كل فصل مجتمعة . وقد أحصينا أغلاط الفصول الأولى من الكتاب فوجدناها لاتقل عن خمسين في كل فصل لاتدخل فيها عيوب الأسلوب وسنكتفي بذكر أمثلة منها :

(١) قال الاستاذ صروف مشيرا إلى الفرمان الذى انتزعه محمد علي من السلطان أنه « يقضي باحترام شعائر الاسلام » بنصه على أن وراثة العرش تكون لأكبر أفراد الاسرة . وليس هذا من شعائر الاسلام في شيء ولم يقل المؤلف ذلك بل قال إنه يقضي باحترام التقاليد الاسلامية Traditions وفرق بين التقاليد والشعائر

(٢) وترجم الاستاذ Intellectical monenity بالجهل ومعناها الحقيقي الغباوة أو عدم الفطنة

(٣) وترجم European progress بقوله أنه كان يكره « كل ما هو غربي » وهذا تعميم لم يقله المؤلف بل قال انه يكره الحضارة الغربية

(٤) وترجم عبارة Ghastly farce برواية هزلية وإذا صح ترجمة farce برواية هزلية فأين ترجمة Ghastly وهي تؤدى معنى جديدا هو الذى ينطبق على هذه المهزلة ، وهل غاب عن الاستاذ لفظ مروعة أو رهيبة أو نحوهما

(٥) He reached Cairo with his mute Companion without exciting suspicion.

اقتصر الأستاذ في ترجمة هذه العبارة كلها على قوله « ووصلا إلى القاهرة من دون أن يدرى أحد بالحقيقة » وإذا فرضنا أن عبارة من دون أن يدرى أحد بالحقيقة تؤدى معنى without exciting suspicion وهو ما لا نسلم به فأين ترجمة with his mute companion أي مع رفيقه الصامت يريد جثة الوالي .

(٦) Aided by the habitual Shrinking from observation which characterised his master.

ترجم الأستاذ هذه العبارة بقوله : إن عباسا « اعتاد أن يسير في طريقه لا يلتفت يمنة ولا يسرة » ولا ندرى كيف يستطيع الوالي أن يسير في الطريق دون أن يلتفت يمنة ولا يسرة . وهل هو جندى في ميدان التمرين ؟ وليس في العبارة الانجليزية من الغموض ما يعذر الأستاذ معه على هذا الخطأ في ترجمتها بل هي سهلة لا لبس فيها ولا غموض ومعناها « وساعده على ذلك ما عرف عن سيده من كرهه رؤية الناس إياه »

(٧) He caused his guns to be pointed on the city, strongly reinforced the garrison and declared the truth.

ترجم الأستاذ العبارة السابقة بقوله « وأمر بتصويب مدافعها إلى مدينة القاهرة وكانت تحرسها حامية قوية » والمؤلف لم يقل إن حامية القلعة كانت قوية بل قال إنه « عزز حامية القلعة »

(٨) The prince to whom this cold blooded stage-manager sought to transfer his master's throne was Abbas Pasha's eldest son.

ترجم الأستاذ هذا المعنى كله بقوله « وكان الأمير إلهامي هذا ابن عباس باشا الأكبر » ولا ندرى لم أغفل الأستاذ كل ما في العبارة الانجليزية من معان لم يذكرها كأنها عبثاً وهل صعوبة ترجمتها تبرر هذا الاغفال ؟

(٩) Had not diplomatic pressure put the fear of God into the breast of the intriguing governor.

قال الأستاذ في ترجمة ذلك « لولا الضغط السياسي الذى أعاد محافظ القاهرة إلى صوابه وأوقع الفشل في فؤاده » فهل هذا هو المعنى ؟ أو أن معنى عبارة المؤلف « لولا قوة دبلوماسية (أو سياسية إذا شاء) أشعرت المحافظ الدساس خشية الله » .

(١٠) He gave orders that the youth should climb the mast..., them jump the rope, row for a while.

ترجمت هذه العبارة هكذا : وأمر أن يتسلق صاري أحد المراكب . . . ثم يقفز من الصاري إلى الماء ويسبح زمنا !

فهل معنى Jump the rope يقفز من الصاري إلى الماء ؟ وهل معنى row يسبح في الماء ؟

(١٣) To safeguard the child's morals... He should visit no other house than that of Mathieu.

ترجمت هذه العبارة هكذا « ومنعه من زيارة أي منزل من منازل العامة » فأضاف العامة من عنده وجعل القارىء يفهم انه كان يسمح له بزيارة منازل الخاصة . ثم أين سبب هذا المنع وهو حرص محمد علي على أخلاق سعيد ؟

(١١) When the two young men were revelling in the joys of the Latin quarter de Lesseps did not suspect etc... His attention was not yet riveted upon the Isthmus of Suez.

لم يترجم الأستاذ أول هذه الجملة وآخرها واكتفى بترجمة وسطها وكلاهما يؤدى معنى ؛ فالجزء الأول يشير إلى أن دلسبس وسعيد كانا يمرحان في مسرات الحي اللاتيني بباريس ، والثاني يدل على أن برزخ السويس لم يكن قد استرعى نظره .

(١٢) De Lesseps was marking time and temporarily unassigned.

قال الأستاذ في ترجمة ذلك « ولبث دلسبس يترقب الفرص » ولكن أين قول المؤلف إنه لم يكن يتولى منصباً أو يقوم بعمل

معين . وهل صعوبة هذه العبارة تبرر حذفها ؟

(١٣) And by placing France in control of that strategic waterway make his country mistress of the seas.

كل ما ترجم به الأستاذ هذه العبارة هو قوله « لكي تصبح فرنسا سيدة البحار » ، وترك الجزء المهم وهو قول المؤلف « بسيطرتها على هذا الطريق المائي ذي المركز الحربي الخطير

(١٤) It had but one immediate objective, simple and well-defined but not too obvious.

اقتصر في ترجمة العبارة السابقة على قوله « كانت غايته المباشرة أن . . . » وترك الصفات التي وصف بها المؤلف هذه الغاية ؟

(١٥) All at once a rainbow of surprising beauty charmed my vision runming from East to West.

قال الأستاذ صروف في ترجمة هذه العبارة وخيل إلى وأنا أنظر إلى السماء أنني أرى قوس قزح ذات جمال باهر .

فهل خيل إليه أنه رأى قوس قزح أو أنه رأى قوس قزح حقا ؟ وأين هذه العبارة العربية من عبارة المؤلف المنقولة عن دلسبس نفسه والتي يقول فيها « ثم ظهرت على حين غفلة تدأة في السماء امتدت من الشرق إلى الغرب وكانت ذات جمال خلاب افتتن به ناظري » وكل ما وصف به دلسبس هذه الحادثة في حاجة إلى أسلوب غير الأسلوب الذي ترجمه به الأستاذ صروف .

(١٦) وصف المؤلف موقف محمد علي من قناة السويس والتجارة الأوروبية الهندية بقوله :

He did not adopt a dog-in-the-manger attitude.

أي أنه لم يكن من أولئك الذين لا يفعلون الخير ويمنعون غيرهم من فعله وقد ترك الأستاذ العبارة من غير أن يحاول ترجمتها

(١٧) My studies and reflections about the canal passed repidly through my mind.

قال الأستاذ صروف في ترجمة هذه الجملة « ومرت بمخيلتي صورة ترعة السويس بسرعة البرق » ومعنى العبارة بالضبط « وأخذت أفكاري وأبحاثي عن قناة السويس تمر بخاطري سراعا »

(١٨) Professor charles W. Halberg of Syracuse University

عرب الأستاذ Syracuse بسرقسطة فنقلها بذلك مكان Saragossa

(١٩) Halberg agrees with the judge who resigned and the deposed sovereign.

« قال في ترجمتها وذهب الأستاذ هلبرج مذهبا يتفق ومذاهب إليه القاضي الهولندي الذي تقدمت الاشارة إليه » فأين هذا من عبارة المؤلف التي تقول فيها إنه يتفق في الرأي مع القاضي المستقيل والأمير المخلوع ، ويقصد بالأمير المخلوع سمو الخديو السابق

(٢٠) He had a hobby and he was enamoured of it.

تركها الأستاذ من غير ترجمة

(٢١) L'homme le plus desinterrsé du monde.

ترجمت هذه العبارة هكذا « إنه كان أزهد الناس في العالم » . فهل هذا هو معنى العبارة الفرنسية . أترك الجواب عن ذلك إلى الأستاذ الكبير صاحب الرسالة .

(٢٢) He had everything to gain and nothing to lose

لم يحاول الأستاذ صروف ترجمة هذه العبارة على سهولتها ووضوح معناها الذي لم تسبق الاشارة إليه في الكتاب

(٢٣) Moh. Said is to be judged by other standards.

ترجم الأستاذ هذه العبارة بقوله « فالحكم عليه يجب أن يكون مع مراعاة هذا الاعتبار » والمؤلف يقول إن الحكم عليه يحتاج إلى موازين أخرى (غير الموازين التي توزن بها أعمال دلسبس) فأيهما أوضح ؟

(٢٤) But when hours become days, days weeks, and weeks months,his stranglehold usually weekens.

لم نعثر في الكتاب على ترجمة هذه العبارة فهل هي خالية من المعنى أو أن معناها لا يستحق الترجمة ؟

(٢٥) « وأن رئيس دولة يمنح أحد رعاياه امتيازاً » زاد الأستاذ من عنده على عبارة المؤلف قوله « أحد رعاياه » وهي زيادة لا مبرر لها أفسدت المعنى ولا ندري ما الذي دعا الأستاذ إليها وهو الذي حذف من عبارات المؤلف ما حذف

(٢٦) And drew his moral portrait in the act.

هل معنى هذه العبارة « وهو يسيء إلى ذكراه بنفسه » كما قال الأستاذ صروف أو أن معناها « وهو يكشف عن خبيئة أخلاقه » قد يقول الأستاذ صروف إن هذه العبارة هي وما قبلها « يقضي على طيب أحدوثته » ترجمة لقول المؤلف Wrote his own epitaph

وفي هذه الحال يكون قد ترك العبارة الثانية من غير ترجمة

(٢٧) That day which began with a rainbow and ended with a target practice.

لم يزد الأستاذ في ترجمة هذه العبارة على قوله « اليوم الذي سبقت الاشارة إليه » فهل هذه العبارة الغامضة تؤدي معنى عبارة المؤلف

(٢٨) It might have been proclaimed from the house tos and probably was.

لم ير الأستاذ أن هذا المعنى يستحق الترجمة فتركه

هذه طائفة من أغلاط الفصل الأول من كتاب اسماعيل ذكرناها على سبيل المثل نضعها أمام القراء حتى لا يخفى عليهم ما كتبه المؤلف نفسه ؛ ونقول بعد ذلك إنصافا للأستاذ صروف أن أسلوب هذا الفصل ليس فيه من التعقيد ما في الفصول الأخيرة

وسنذكر في العدد التالي أغلاط الفصل الثاني إن شاء الله

الغنيمي

(١) لعل الصواب أترك لا أزهد (الرسالة)



(١) الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية

تأليف الأستاذ محمد عبد الله عنان

(٢) من حديث الشرق والغرب

تأليف الدكتور محمد عوض محمد

للأستاذ محمود الخفيف

هما كتابان، أشعر بكثير من الغبطة إذ أقدمهما للقراء على صفحات الرسالة، ذلك لأنى أرى فى كليهما مظهراً من مظاهر الحركة الفكرية الحديثة فى مصر، جديراً بالاعتبار والعناية.

أما أولها فأثر جديد من آثار الأستاذ عنان، والأستاذ عنان كما أعتقد، قد أصبح بآثاره وبحوثه ناحية مستقلة فى نهضة التأليف المعاصرة، ذلك أن آثاره تمتاز جميعاً بما تمتاز به الآثار العلمية القيمة، من دقة البحث، مع استقامة النهج ووضوح الغاية، وقوة الأسلوب؛ هذا إلى أصالة وسلامة منطق وبسطة فى العلم، تظهر كلها واضحة فى تمحيص الروايات المختلفة فيما يعرض الأستاذ من حوادث وفيما يسرد من وجوه الرأى.

عرفنا له تلك الخلال فيما سلف من آثاره، وإنا لنراها اليوم على خير ما يرجى من كتابه هـذا، فهو يدور حول موضوع كان ولا زال مثار الجدل الشديد ومبعث التناقض والاضطراب؛ ومن ثم فهو موضوع تظهر فيـه مدى قوة المؤلف ونشاط ذهنه، وحسبك الحاكم بأمر الله وحوادث عصره، وما اكتنف شخصه من غموض وخفاء.

على أن الكتاب لا يدور كله على الحاكم، بل إن نصيب الحاكم منه لا يزيد على نصفه بكثير. ولقد أحسن الأستاذ صنعا، إذ جعل بقية الكتاب لدراسة أسرار الدعوة الفاطمية وخواص العصر الفاطمى، هذا إلى ما أورده الاستاذ فى نهاية كتابه من الوثائق والسجلات الفاطمية.

مهد الأستاذ عنان لبحثه بمقدمة موجزة متينة عن حال مصر قبيل الفتح الفاطمى، ثم بكلمة عن نشأة تلك الدولة فى مهدها، وذكر بعد ذلك فتح مصر وأورد طرفاً من سيرتى المعز والعزيز، كل ذلك فى إحكام المؤرخ المتمكن الذى يستطيع على رغم الايجاز أن يمهد السبيل لموضوعه خير تمهيد.

تناول الأستاذ بعد ذلك سيرة الحاكم، وشرح فى جزالة ووضوح خلاله وصفاته وما لجأ اليه من سفك الدماء وما أقام من مراسيم اجتماعية ودينية، وما اكتنف الدولة من الاحداث الخارجية، ثم ما كان من أمر اختفائه، ويعجبك منه فى هذا القسم من كتابه مهارة مناقشته الروايات المختلفة ودقة التعليق عليها، تتبين ذلك فى مثل شرحه لنسب الحاكم وأخته ست الملك، ثم فيما أورد من روايات عن صفاته ومزاجه وأخيرا فى حادث اختفائه.

على أن أهم الأشياء عندى فى الكتاب وأولاها بالدرس والاعتبار، هو رأى الأستاذ المؤلف فى الحاكم وصفاته، وهو رأى لم يسبقه إليه غيره فيما أعرف، فالاستاذ لا يرى فى الحاكم ما اعتاد المؤرخون أن يروا فيه من رجل معتوه أخرق، يبطش لمجرد البطش، ويصدر من الأحكام الغريبة ما يدل على شذوذ وحمق. بل إنه على العكس يراه مصلحاً من كبار المصلحين، كانت أعماله التى اعتاد الناس استنكارها وسائله إلى ما يتوخى من إصلاح لا أكثر من ذلك ولا أقل: نعم كان الحاكم عنده، ذهناً بعيد الغور، وافر الابتكار، وكان عقلية تسمو على مجتمعها وتتقدم عصرها بمراحل، وكان بالاختصار عبقرية يجب أن تتبوأ فى التاريخ مكانها الحق،

والاستاذ لا يرسل القول جزافاً، وكيف يقع لمن كانت له مثل متانة حجته وحصافة رأيه أن يجازف برأى؟ وإنما راح الاستاذ يدافع عن رأيه هذا دفاعا قوياً يبهرك ويستميلك. أليس القتل والطغيان هما من أقوى وسائل الديكتاتوريات الحديثة فى إقامة نظمها؟ ثم أليست سياسة الحاكم هى السياسة الميكيافيلية التى قد يلجأ اليها كثير من الحكومات فى شتى

الظروف ؟ أليس الحد من حرية النساء مما تلجأ اليه اليوم ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشستية من وسائل محاربة الخلاعة والفجور اللذين يؤديان الى انحلال المجتمع؟ إلى غير ذلك من حجج الاستاذ وآرائه النيرة الظريفة التي تشوقك وتلذك . والاستاذ لا يبرر بها مسلك الحاكم كما استدرك ، ولكنه يدفع بها ما اتهم به .

بيد أني وإن أعجبتني تلك الآراء واستمالتني في كثير من المواقف ، قد أحسست شيئاً من الصعوبة في أن أحمل نفسي على الأخذ ببعضها . نعم رأيت مشقة في أن أنفي الشذوذ بل الجنون عن شخص يحرم الجرجير لأنه ينسب إلى السيدة عائشة ، والملوخية من أجل معاوية ، والمتوكلية من أجل الخليفة المتوكل العباسي ؟ وكيف أسيغ تشجيعه الدعوة الإلحادية ؟ وعلى أي أساس من العقل أحمل قتله قائده الفضل بعد أن هزم أبا ركوة الذي احتل مصر ؟ بل كيف يجوز في عقل خروجه ليلا إلى الجبل على ظهر حماره في غير قوة تحميه على الرغم مما كان يضطرم به المجتمع يومئذ من الرغبة في الانتقاض عليه والتخلص من طغيانه .

على أن الأستاذ يصرح في نزاهة المؤرخ وإنصافه «أنه ليس يدعي أنه يستطيع أن يعلل كل قوانين الحاكم وإجراءاته وتصرفاته أو أن ينفذ إلى بواعثها وحكمتها جميعاً ، فهناك كثير منها مما لا يستطاع فهمه وتعليله»

وقصاراي في هذا المجال الضيق أن أعلن إعجابي بهذا الكتاب ، وأن أنوه بما أفدته من دراسة أسرار الدعوة الفاطمية ونواحي العصر الفاطمي ، ذلك العصر الفذ الذي تجدمن آثاره الأزهر المعمور - دراسة لم أظفر بمثلها فيما كتب حديثا عن الدولة الفاطمية . وكم كان عظيما من الأستاذ عنان ذلك الجهد المرير الذي تستبينه فيما يشير إليه من مراجع مكتوبة وخطية ليس ثمة من يستوعبها إلا من كان له مثل جلده ودأبه وإخلاصه . ولا عجب أن جاء كتابه مظهراً من مظاهر الجد والقوة في نهضتنا الأدبية ، وهو مطبوع طبعاً جميلا في دار النشر الحديث ويقع في مائتين وست وسبعين صفحة من القطع الكبير ، بآخره ثبت حافل للمصادر ، وفهرس أبجدي عام

— ٢ —

يأتي بعد ذلك الكتاب الثاني « من حديث الشرق والغرب » للدكتور عوض ، وأحب أن أتخطى الكتاب إلى صاحبه برهة وأعرض عليك طرفاً من خلاله ، لا أرى مندوحة عن عرضه في مثل ذلك المقام . الدكتور المؤلف بما له من مكانة في حياتنا الأدبية غني عن التعريف ، ولكني أذكر لمن لم يعرفه إلا في آثاره أن من أبرز صفاته الذكاء الحاد وعذوبة الروح ومحبة الأدب حباً صادقاً ، حتى لو أنه حاول بكل ما في وسعه أن يهجر الأدب لما استطاع ذلك الهجران ؛ محدث ماهر طلي الحديث ، يميل إلى الفكاهة ولكنها الفكاهة التي يتخللها الجد المرير في غالب المواقف ؛ يحب قومه وبلاده حباً مؤكداً ؛ مثقف من الطراز الأول في الادبين العربي والغربي

ذكرت من خلاله ما ذكرت لأمر يعنيني الساعة ، ذلك أن كتابه الذي أقدمه لك صورة صادقة من شخصه ، وذلك لعمري خير ما يوصف به كتاب لصاحبه مثل هاتيك الخلال . ولا جرم أن الصدق في الآثار الأدبية أكبر عامل في نفاذها إلى القلوب ودوامها على الأيام ، وإنك لتجد الصدق في هذا الكتاب في مقدمة فضائله

وبعد فما موضوع هذا الكتاب ؟ أهو سلسلة مقالات في شتى الفنون ؟ كلا فلست تجد فيه ما تجد غالباً في المقالات من غلظة وثقل يتقاضيانك كد ذهنك والتحامل على نفسك . إذاً فهل هو قصة أو مجموعة من الأقاصيص ؟ كلا ليس هو من ذلك الفن من فنون الأدب وإن كنت تحس روح القصة وتمثل شبحها في كثير من مواضعه . ليس الكتاب من أدب المقالة وإن كان موضوعات متفرقة ، ولا هو من القصة وإن كان للكثير من موضوعاته شبحها ، وإنما هو « حديث » نعم هو « أساطير وخاطرات خطرت ملكت على الفكر سبله فلم يستطع تشريدها أو الفرار منها »

ينتظم هذا الكتاب ما جاشت به نفس صاحبه من معان وخطرات ، فاذا عدت الى ما سردت عليك من خلاله ، أمكنك أن تدرك موضوع الكتاب جملة وتلمح شيئا من روحه .

ذكرني هذا الكتاب الطريف الفذ ، بآثار الأديبين الانجليزيين الكبيرين « اديسون » وصاحبه « ستيل » . عمد هذان الكاتبان في كثير مما كتبا في مستهل القرن الثامن عشر الى نقد بعض أحوال المجتمع ودراسة بعض الأشخاص ، بطريقة لطيفة هادئة ، لا ترى فيها أثراً للهجوم اللاذع ولا التجريح القاسي

العالم المسرحي والسينمائي

اليتيمة
على مسرح الأوبرا الملكية
إخراج الفرقة القومية المصرية

استأنفت الفرقة القومية موسمها الثانى ابتداء من مساء الأحد الماضى ١٨ ابريل الجارى ، مفتتحة هذا الشطر من الموسم بمسرحية محلية هى « اليتيمة » من وضع الأديب السعيد يوسف موسى

وقد عالج المؤلف فى مسرحيته ناحية من نواحى النقص الاجتماعى فى البيئة المصرية ، إذ جعل من بطل الرواية وبطلتها ضحيتين للتقاليد القديمة الموروثة المتسلسلة فى دماء الطبقة العليا فى الشعب ، الذين لا يزالون يستمسكون بمعتقداتهم فى أن الله جعل الناس طبقات فى الغنى والجاه والحسب والنسب ، وليس فى العلم والفضل والقيمة الاجتماعية ، ولا يعترفون بعاطفة إلا ما وافق منها تلك العادات البالية .

لهذا نرى صبرى باشا يقف حائلا شديد الكثافة بين ولده ووحيده ثابت الطالب الذى يدرس الاقتصاد السياسى فى فرنسا وبين ابنة ناظر زراعته المتوفى « أمينة » على الرغم من أنها نشأت فى بيت الباشا نفسه وتعلمت وتثقفت كابنته ، وعلى الرغم من تعلق ولده بها وولع كل منهما بصاحبه وتعاهدهما على الوفاء والزواج

لا يعبأ الباشا بهذه الاعتبارات ، فينتهز فرصة عودة ابنه إلى فرنسا لاتمام دراسته ، ثم يرغم حبيبة ابنه على الزواج من أحمد افندى ناظر زراعته الذى حل محل أبيها

ولما كان هذا الزواج باكراه وإرغام ، فقد اعترى الفتاة يأس وأصابها غم ، فاستحال بيت الزوجية جحيما ، وانقلبت نعمى ذلك البيت الوادع بؤسا وشقاء ، واستمر الخصام بينها

البغيض ، بل ترى الرفق واللين اللذين يفعلان مالا يستطيع العنف أن يفعل ، كل ذلك فى خفة روح ورقة دعابة وروعة تصوير

وأنت ترى ذلك واضحا فى كتاب الدكتور عوض ، وانى أقرر هنا أنه ما قصر به فنه عن فنهما ، ولا نزل به أسلوبه عن مستواهما ؛ بل لست أغلو ان ذكرت أن بعض قطع عوض قد فاقت عندى بعضا مما قرأت لهما . خذ لذلك مثلا « فى طريق البغال » و « الثور فى مستودع الخزف » و «معهد الطفيليات»

اقرأ تلك وأمثالها ، فلا يسعك الا أن تسلم معى أنه يحق لأدبنا العصرى أن يفخر بها . ثم اقرأ تلك القطعة : « الكائن الممسوخ » وانظر كيف كان الدكتور ماهرا مهارة يستحق عليها كل ثناء وتقريظ فى معالجة هذا الداء الوبيل ، داء الاهتمام بكل ما هو غربى فى رفق وقوة معا . لقد أعجبتنى تلك القطعة بنوع خاص ، وانى أدعو شبابنا الى قراءتها وأستحثهم على ذلك

الكتاب كله كما قدمت صورة من نفس صاحبه ، فسواء استمعت الى الدكتور أو قرأت له ، فستجد الأمر سواء . فستظفر بعذوبة روحه فى فكاهاته البارعة ، وخطرات نفسه فى تهكمه الرقيق العميق ، كما ستلمس سموه فيما يتوخى من غرض وما يحرص على بلوغه من غاية . هذا وتحملنى صراحة الدكتور أن أذكر له قطعتين لم أسغهما كما كنت أحب ، هما « عاصفة فى قدح » و « عقد من اليشب » . ذلك أنى لم أجد محلا للملكين فى القطعة الأولى ، ولا انسجاما فى الزمن فى القطعة الثانية .

ولقد أذكر أيضا أنى لم أفهم ماالذى أحال العسل خلافى قطعة « ثم أرادت أن تجعل منه رجلا » فجعل الزوج بغيضا فى عين زوجته

وإنى لأحس أن أدب الدكتور أعز على من أن أمر على بعض هنات سقطت إلى أسلوبه دون أن أشير اليها ، ذلك أنه يضع فى كلامه عبارات معروفة تظهر نابية حين يوردها فى غير مواضع المزاح كقوله « أذن مؤذن الطعام » ثم كنت أعثر على بعض الأخيلة التى لم أسغها ، كقوله : « الهواء مغرب فى الضحك » و « سنديان الشقاء » و «مطرقة البلاء» و « شمر عن ساعد الفلسفة » وأمثالها .

على أن هذه كما ذكرت هنات ما أشرت اليها إلا لأنى رأيتها غريبة وسط هذا الأسلوب المشرق البديع ، فى هذا الكتاب الذى أحببته وأكبرته ، وأعتقد أن القراء سيحبونه مثل ما أحببت ، ويكبرونه مثل ما أكبرت . « الخفيف »

وبين زوجها واتصلت أسباب التشاحن والتغاضب حتى كره الزوج حياته وكره نفسه .

وفى صباح يوم نشبت بينهما مغاضبة اشتركت فيها « أم احمد » وجعلت تعير الفتاة وتهجوها وتقول إن الناس يتقولون على بيتهم منذ دخلته إذ يزعمون انها ما زوجت من ناظر الزراعة إلا لأن ابن مخدومه عبث بها ولوث شرفها وفوجئت الفتاة بهذا الاتهام فدهشت له وأدركها الحزن واليأس .

وجاء الباشا يعلن أن ابنه عاد من باريس وأنه قادم إلى هذا البيت ليرى « أمينة » وهو لايعلم أنها تزوجت من احمد افندى

ويفزع الزوج لهذا الخبر ويجزع من رؤية هذا اللقاء ، فيستعفى الباشا ويذهب إلى الدائرة ويأخذ الباشا فى تهدئة الفتاة التى تشكو إليه ظلمها وتتضرع إليه أن يعفيها من هذا العذاب

وبينما هما فى ذلك إذ يدخل « ثابت » فتهرع إليه الفتاة وتتعلق بعنقه ويكون بينهما لقاء تطرب له قلوب العشاق وتنفطر له مرائر الأزواج الذين يكرهون على مثل هذه الزوجية ، ويطول بينهما العناق وتستمر شكواهما حتى يقول الفتى : أحبك إلى الأبد فيقول الباشا : حتى ولو كانت متزوجة ؟ . .

وينزل الخبر على الفتى نزول الصاعقة ويموت رجاؤه وينفصل عن الفتاة ، فترجوه وتبثه آلامها وتقول إنها أرغمت وأكرهت على هذا الزواج ، ولكنه يقول إنها لوثت ودنست بالزواج فهو لذلك يتركها ويدفن آماله فيها .

وحين تيأس الفتاة منه تلقى بنفسها من النافذة وتنتهى القصة

وإلى هنا نجد أن المؤلف عالج الموضوع أو فى علاج وكشف عن مستور هذه العلة وبين سوء أثرها فى المجتمع موفقا فى ذلك أعظم توفيق ، ولذلك نعتقد أن الفرقة أنصفت حين اختارت هذه المسرحية واخرجتها .

* * *

أما إخراج الرواية فقدتولاه مخرج الفرقة الأستاذ عزيز عيد وليست لنا ملاحظات على إخراج هذه المسرحية إلا أنه فى الفصل الثانى حين استيقظت « أمينة وثابت » وهما فى بيت احمد أفندى ثم جاء الناظر وامه طلب هذا إلى والدته أن تجيئهم بطعام الافطار فخرجت لهذا الغرض ، ولكنهم لم يذكروا شيئا عن ذلك فيما بعد ولم يحضر الطعام .

* * *

وقد أدى « احمد علام » والسيدة زوزو حمدى الحكيم دورى البطولة فى هذه الرواية وبذلا فيه جهدا جبارا كان عاملا كبيرا فى نجاح الرواية إلى أبعد الحدود وفى آخر فصل من الرواية أظهرت « زوزو » منتهى ماتصل إليه عبقرية الممثلة

وكان جميع الممثلين يعرفون أدوارهم ويفهمونها تمام المعرفة والفهم ، فظهروا بمظهر الاتقان البالغ الذى يستحقون عليه التهنئة الحارة الصادقة .

الحل الأخـــير

اخراج استوديو مصر

لم يكن أصحاب شركات السينما الناشئة فى مصر يعنون فى الروايات التى يخرجونها بالموضوع والمغزى . ولعلهم لايرون الموضوع عنصراً مهماً فى روايات السينما . وبحسبهم العناية بالمناظر والاخراج ، وأن يكون الممثلون من الشخصيات المعروفة . فكانت رواياتهم خالية من المغزى أو هى ذات مغزى تافه ، وكان ذلك من أهم المآخذ التى تؤخذ عليهم

نذكر هذا أمام التحدث عن رواية الحل الأخير التى عرضت بسينما رويال ، وهى الرواية الثانية لاستديو مصر ، وهى من الروايات المصرية القليلة التى تتضمن مغزى وتدور حول فكرة ، وموضوعها من صميم الحياة . يسرد المؤلف حوادثها فى تسلسل طبيعى حتى ينتهى إلى المغزى الاجتماعى الذى يرمى إليه ؛ والمخرج صور هذه الحوادث على طبيعتها من غير تهويل ولا خروج عن الحقيقة . وقد فهم الممثلون مايرمى إليه المؤلف فقاموا بأدوارهم كأنهم أبطالها الحقيقيون لاممثلون على الشاشة البيضاء ، فتم بذلك التعاون بين التأليف والاخراج والتمثيل على تصوير الغرض وابراز الحقيقة

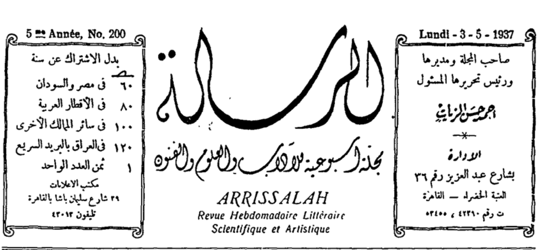
ولم يجر المؤلف فى هذه الرواية على عادة كثير من المؤلفين فى وضع الأدوار والمواقف لتناسب أشخاصا معينين ، بل وضع روايته كما يقتضى انسجام الحوادث، ثم اختار لها الممثلين الموافقين لجاءت منسجمة متماسكة

وعمل المخرج على ابراز هذه الحقيقة فوجه عنايته إلى تنسيق المشاهد تنسيقا طبيعيا أكسبها روعة وجلالا ، وتجنب المواقف المصطنعة او المناظر المستفزة للشاعر

وتعد هذه الرواية بحق مثلا يحتذى فى روايات السينما المصرية وتدل على اتجاه استوديو مصر إلى الاتقان فى صناعة السينما ، وقد تنبه إلى أهم عنصر من عناصر النجاح فى الروايات ، وهو الموضوع والمغزى ، فانه الأثر الذى تتركه الرواية فى نفوس الجمهور ؛ والحوادث التى لاتخرج عن مجال الحقيقة الرائعة إلى التهويل والمبالغة تشعر الجمهور بروعة الحياة الطبيعية التى يعيش فيها بإحساسه وفكره

فلعل المتصدين لصناعة السينما يلتفتون إلى هذه الحقائق ويعملون بها ، متجهين إلى الفن فى ذاته ، نابذين غير ذلك من الوسائل التى لاتغنى ولاتجدى

(ع)



العـــدد ٢٠٠ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٢ صفر سنة ١٣٥٦ — ٣ مايو سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

٨٠٤٦

الى الشباب

حول الديمقراطية أيضا

لأستاذ كبير

لست أدرى والله أى يومى (الرسالة) أمجد وأعلى ، أهو الأمس وقد قصدت إلى عالى الأدب تنشره ، وسامى المثل تضربه ؟ أم هو اليوم وقد ضمت إلى ذلك مناجاتها لشباب البلاد وتوجهها إليهم لتحاورهم فيما يمس حياتهم ، ولتلتمس معهم سبيل الهداية إلى ما هو أحرى بالقصد وأجدى على الوطن؟

ولقد أصاب مقالها الأخير فى الديمقراطية مكانا من النفس هز أوتارها ، فإننا فى أول عهدنا بحكم أنفسنا كما تقول وقد تشعبت أمامنا السبل ونشطت الآمال من عقالها ؛ ولا بد لنا من أن نسترشد فى هذا العصر بالعقل الرزين والمنطق المتين ، كما لا بد لنا أن نستلهم الشرف والوطنية ، وأن ننأى عن كل مظنات الخطأ أو الإسفاف . وليس أحق من الرسالة بأن تلج هذه المعانى وتعالجها معالجة صريحة قوية ؛ وليس أحق من شباب البلاد بأن يرمى فى هذا الحوار بسهمه ويدلى بدلوه ، فإن المستقبل للشباب ، ومصير البلاد آيل إليهم بعد حين ؛ وما يكون اليوم خطأ يكون عليهم فى المستقبل

حملا ثقيلا، بل ربمـا يكون فى سبيلهم عقبة لا يطيقونها ولا يقومون على تذليلها إلا بتضحيات ومشقات . فإذا نحن قلنا إن مصلحة البلاد فى توخى هذه السبيل أو تلك فإن الشباب أول من يعنيه هـذا القول، وينبغى لهم أن يكونوا أول المصريين اهتماما للبحث وسعيا وراء المصلحة، لأنهم الذين سيجنون ثمار الخير إن كان خير، أو يحملون أوزار الخطأ إن كان لا قدر الله خطأ .

ولقد ثارت فى الأيام الأخيرة كلمة فى صحيفة من الصحف، ثم تبعتها كلمة أخرى فى صحيفة أخرى، تناول فيها كاتباها موضوع الديمقراطية؛ وهاهى الرسالة ترددالمعنى نفسه وتبحث فيه على أسلوبها ونبالة مراميها . وهذا الترديد فى نفسه عظيم الدلالة، لأنه يدل على أن فى النفوس معنى تحاول أن تستجليه، وذلك المعنى طبيعى لمن كان فى عصرنا هذا يعيش بين تيارات مختلفة فى مشارق الأرض ومغاربها؛ فبعض البلاد قد اتجه وجهة يسمونها الفاشية أو الدكتاتورية، ويحاول أنصارها أن يدعوا لها ويمهدوا لحكمها بكل مااستطاعوا من وسائل الدعاية، ويدعمون حجتهم بأمرين : الأمر الأول أن تلك البلاد تهددها أخطار جمة من جميع النواحى، فلا قبل لها بمقابلة تلك الأخطار إلا بجمع الشمل وضم الصفوف واتحاد الأفراد تحت إرادة واحدة لا يشذ عنها أحد . والأمر الثانى أن الطغاة القائمين على تلك الدول قد أصلحوا مرافق البلاد وزادوا فى مجدها وقوتها ورفعوا شأنها بين بلاد العالم

ولسنا فى صدد مناقشة هذه الحجج ، ولا نريد أن نبين ما فيها من وجوه المغالطة والمداورة . وحسبنا أن نكرر هنا تلك الكلمة البديعة التى جاءت فى افتتاحية العدد الأخير من الرسالة : « أنا أفهم أن المرء يُقهر فيخضع، ويؤسر فيُسترق، لأن الأمر فى ذلك لا يخرج عن قانون الطبيعة من تغلب الأقوى وسيادة الأصلح، ولكنى لا أستطيع أن أفهم كيف يستأسر شعب بأسره لواحد منه فيلقى بزمامه إليه ، ويعول فى جميع أموره عليه، والشعب مهما صغر لا يقل عن شعب، والفرد مهما كبر لا يزيد على فرد » ؟

ولعل مصر أبعد بلاد العالم عن فكرة الطغيان ولعل شعب مصر أشد شعوب العالم كرها لحكومات الطغاة . ولقد جربت تلك المحاولة مرات فى مصر الحديثة، وجربتها من قبل دول فلم تدم تجربتها طويلا على أساس ثابت . وجربها ساسة فاسفرت تجربتهم عن فشل، وعادوا من التجربة بصفحة شوهاء؛ ولم يفوزوا بما أرادوا من ثبات الحكم بل ضاعت مجهوداتهم فى مناضلة روح الشعب الثائرة، ولم يستطيعوا التفرغ لإصلاح ولا لتجديد . وحسب البلاد انهـا عرفت ان مآل الطغيان الى الانهيار، فلا نحسب أحدا يحدث نفسه بتجربة أخرى فى ذلك السبيل، ولا نظن احدا يجرؤ على الدعوة اليها صراحة، لأن الشعب كله يشعر بأن ذلك جرم اجتماعى لا ينبغى له أن يتسامح فيه . فلذلك لا نرى ثمت حاجة تدعو الى التعرض لفكرة الدكتاتورية بالنقد أو الهدم اذ قد كفانا الماضى شرها فهدمها فى عقائد الشعب وأظهرها له فى أبشع صورها وأشنع آثارها

ولكننا مع ذلك نحمد للرسالة الغراء أنها هتفت بذلك الاسم الحبيب الى النفس وهو (الديمقراطية) لأن الشباب جدير بأن يجعلها قبلته وشعاره . فان الشعب الذى يحترم نفسه لا يتسامح فى أمر حكم نفسه، بل يصر على أن يكون مرجع كل أموره الى ارادته، ويصر على أن يكون رأى الفرد وارادة الفرد ومجهود الفرد وحرية الفرد اساسا ثابتا للمجتمع لا يحد من ذلك كله الا حد الدستور وحد القانون »

ولكن الحكم الديمقراطى لا يكون حقيقياً إلا إذا كان متغلغلا فى كل نواحى الحياة غير مقصور على حكومة الدولة . فجدير بنا فى هذا العهد أن نتجه إلى شبابنا نناشده أن يقيم كل حيـاته فى مجتمعاته ومشروعاته على ذلك الأساس الحر الديمقراطى فيكون فى مدارسه وفى جمعياته وفى نواديه صادراً عن عقيدة ثابتة فى أن الفرد الكامل الحر هو الوحدة الصالحة للمجتمع الصالح الحر . وأن المجتمع الذى يقنع بأن يسير وراء إرادة فرد سيرا أعمى لا عن عقيدة بل عن خمول واستخذاء لن يكون مجتمعا جديرا بالحياة .

(مصرى)

ندرة البطولة

للأستاذ أحمد أمين

قالوا — انا نلتفت يمنة ويسرة فلا نجد فى عصرنا بطولة من جنس بطولة العصور الماضية ، ولا نجد نبوغا رائعا قويا كنبوغ من نبغ فى الأجيال السابقة . فتش — اذا شئت — فى كل لون من ألوان البطولة ، وفى كل ناحية من نواحى النبوغ تجد هذه الحقيقة واضحة

فهل تجد فى الشعر أمثال بشار وأبى نواس وابن الرومى وابن المعتز وأبى العلاء ؟

وهل تجد فى النثر أمثال ابن المقفع والجاحظ وسهل بن هارون وعمرو بن مسعدة ؟

وهل تجد فى قيادة الحروب أمثال خالد بن الوليد وأبى عبيدة ؟

وهل تجد فى سياسة الأمم أمثال عمر بن الخطاب وعمر ابن عبد العزيز ؟

وهل تجد فى الغناء أمثال اسحق الموصلى وابراهيم بن المهدى ؟

وهل تجد مؤلفا فى الأغانى كأبى الفرج الأصفهانى ؟

وما لنا نذهب بعيدا ويوم فقدنا السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده لم نجد عوضا عنهما فى العلم بالدين والأخلاق والسياسة ؟

ويوم فقدنا البارودى وحافظا وشوقى لم نجد لهم خلفا فى شعرائنا

ويوم فقدنا عبده الحمولى ومحمد عثمان تبلغ من الغناء بالقليل ويوم فقدنا الشيخ على يوسف لم نر من يسد مسده فى الصحافة ومن الغريب أنهم يشكون فى أوروبا شكايتنا ، ويلاحظون عندهم ملاحظتنا ، فيقولون أن ليس عندهم فى حاضرهم أمثال بجنر وبيتهوفن ، ولا أمثال شكسبير وجوته ، ولا أمثال رفائيل ولا أمثال دارون وسبنسر ، ولا أمثال نابليون وبسمارك

فهل هذه ظاهرة صحيحة ؟ وان كانت فما سببها ؟

قد كانت كل الظواهر تدل على أن الجيل الحاضر أحسن استعدادا وأكثر ملاءمة لكثرة النبوغ وازدياد البطولة ، فقد كثر العلم وسهل التعلم ، ومهدت كل الوسائل للتربية والتثقيف ، وكثر عدد المتعلمين فى كل أمة ، وفتح المجال أمام النساء كما فتح أمام الرجال ، فأصبحت وسائل النبوغ ممهدة للجنسين على السواء ، وتقطر العلم الى العامة فاصبحوا يشاطرون العلماء بعض معلوماتهم ، وانتشرت الصحف والمجلات تغذى جمهور الناس بالعلم والأدب ، واتصل العالم بعضه ببعض اتصالا وثيقا فى المواصلات والعلم والسياسة والاقتصاد وما الى ذلك

كل هذا كان يجب أن يكون ارهاصا لكثرة النبوغ والتفنن فى البطولة ، لا لقلة النبوغ وندرة البطولة ؛ فلم أصيبت الأمم كلها بهذا العقم وكان مقتضى الظاهر أن كثرة المواليد تزيد فى كثرة النابغين ، وكان مقتضى الظاهر أيضا أن عصر النور يلد من الأشخاص الممتازين أكثر مما يلد عصر الظلام

***

يظهر لى مع الأسف — أن الظاهرة صحيحة وان الجيل الحاضر فى الأمم المختلفة لا يلد كثيرا من النوابغ ، ولا ينتج كثيراً من الأبطال ، وأن طابع هذه العصور هو « طابع المألوف والمعتاد » لا « طابع النابغة والبطل »

بقى علينا معرفة السبب فى ذلك

من الأسباب القوية على ما يظهر أن الناس علا مثلهم الأعلى فى النابغة والبطل ، فلا يسمون بطلا أو نابغة الا من حاز صفات كثيرة ممتازة قل أن تتحقق ؛ وهذا طبيعى ، فكلما رقى الناس ارتقى مثلهم الأعلى

قد كنا الى عهد قريب تعد من يقرأ ويكتب ، وبعبارة أخرى « من يفك الخط » رجلا ممتازا لأنه نادر وقليل ، فكان ينظر اليه نظرة تجلة واحترام ؛ فلما كثر التعليم بعض الشىء كان من أخذ الشهادة الابتدائية شابا ممتازا ؛ فلما كثرت انتقل الامتياز الى البكالوريا ، ثم الى الشهادة العليا ، ثم الى شهادات جامعات أوروبا ، ثم أصبحت هذه أيضا ليست محل امتياز ، وارتفعت درجة النبوغ الى شىء وراء هذا كله

والناس — على الجملة — استنارت أذهانهم إلى حد بعيد ،

وا كتشفوا سر العظمة ، فأصبحت العظمة المعتادة لا تروعهم ، انما يروعهم الخارق للعادة ، وأين هو تحت هذه الأنوار الكشافة؟

ثم شعر الناس بعظمتهم هم أيضا وبشخصيتهم ؛ والبطولة تأتي — في الغالب — عند ما يسلس الناس زمام نفوسهم للبطل ، فهم بطاعتهم له واستسلامهم لأمره واشارته يزيدون في عظمته ، ويغذون بطولته — فان كانوا هم أيضا يشعرون بعظمة أنفسهم قلت طاعتهم وقل تبجيلهم وخضوعهم لكائن من كان ، وبذلك لا يفسحون للبطل بطولته فلا يكون . فلو وجد اليوم شخص في أخلاق نابليون وصفاته وميزاته ما حققوه في عصرنا ، ولا كان الا رجلا عاديا أو ممتازا بعض الامتياز ؛ فأما أن تطيعه الخلائق هذه الطاعة العمياء وتبيع نفوسها رخيصة في سبيل مجده ، وتسفك دماءها أنهارا لتحقيق عظمته ، فذلك مالا يكون اليوم كما كان بالامس

قد تضرب لي اليوم مثلا بموسوليني ومصطفى كمال وهتلر ، ولكن الفرق عظيم جداً ، فهؤلاء يؤثرون في شعوبهم من ناحية أنهم خدام للشعوب لا سادة لهم ، وان الشعب اذا عظمهم فلأنهم يخدمونه ، ويوم يثبت له أنهم لا يعملون لخيره ينفضون يدهم عنه . فأين هذا من الطاعة العمياء التي كانت لنابليون ؟ ولهذا نرى كلا من هؤلاء يتملق شعبه ويحاول أن يقيم البرهان كل يوم على أنه عامل لخيره ساع في سعادته لشعوره التام بأنه انما يحكم الشعب بارادة الشعب لا بارادته هو ، فاذا هو لم يتمتع بهذه الثقة سقط من عرشه ، وهذا — من غير شك — يقلل شان البطولة

* * *

ولهذه الأسباب التي ذكرت أنها كانت تؤذن بكثرة النوابغ هي بعينها التي قللت النوابغ ؛ وتعليل ذلك معقول ، فكثرة العلم واستنارة الشعب جعلت النبوغ عسيراً لا سهلا يسيراً

ومصداق ذلك أن الامم فيما مضى كانت تمنح المشعوذين والمخرفين ألقاب البطولة ، وتنظر إليهم نظر تفوق ونبوغ ؛ من أمثال من كانوا يسمونهم « الأولياء » فيكفي أن يتظاهروا بالجذب ويتصنعوا الصلاح ويدعوا معرفة الغيب ليهرع اليهم الناس ويقبلوا أيديهم ويلتمسوا منهم البركة ويرفعوهم فوق النوابغ والأبطال ؛ وأحيانا يلقبوهم « بالاقطاب » ، فلما فتح الناس عيونهم ، وعقلوا بعد غفلتهم ، وا كتشفوا حيلهم ومكرهم لم تعد لهم هذه المكانة ، وحل بعض محلهم المصلحون الاجتماعيون الذين يخدمون أمتهم بعلمهم . ومعنى ذلك أن الشعوذة والمخرقة حل محلها مقياس المنفعة وسار الناس في طريق التقدير الصحيح وهو الاحترام والتبجيل على قدر ما يصدر من الشخص من خير عام حقيقي

* * *

ومن أجل هذا أيضا رأينا التيار في هذه الايام يتجه إلى تقليل شأن البطولة في الأعصر الماضية ، فلم يعد البطل القديم في الأدب والسياسة والفن والعلم يقدر التقدير الكبير الذي كان يقدر به من قبل ، لأن الناس أخذوا يحللون كل بطل ، ويبينون سر بطولته ، ومتى ظهر السبب بطل العجب ، ولم يقنعهم ما كان يحيط به من غموض فألقوا أضواء كثيرة على من كانوا يسمون الأبطال ، فأحيانا يؤديهم البحث إلى إنكار بطولة بعض الأشخاص بتاتا ، وأحيانا يقللون من قيمة البطل ، بل وأحياناً يرون بطلا من أنكر الناس قديما بطولته

ذلك لأن مقاييس البطولة تغيرت وأصبحت عند المحدثين خيرا منها عند الأقدمين ، ولأن المحدثين رأوا أن القدم نسج لكثير من الناس أثوابا من البطولة لم تكن موجودة أيام حياتهم ، وكلما تقدم الزمن منحهم الناس شارة بطولة جديدة . فلما عرض هذا كله للنقد وأزاح أهل العلم الحديث ستائر القدم تبين البطل في صورته الحقيقية أو قريبا من صورته الحقيقية ، فأحيانا يرتفع الستار عن لا بطل ، وأحيانا يرتفع عن بطل ، ولكن دون ما كان يقدره القدماء ؛ ونادرا ما يبقى البطل بطلا كبيراً حتى بعد ما ترتفع حجب القدم

ولهذا نجد كثيراً من المعاصرين هم في الحقيقة نوابغ ، وهم يفوقون بمراحل بعض نوابغ الأقدمين ، ولو كانوا في العصور الماضية لا رتفعت منزلتهم فوق ما ارتفعت اليوم ، ولكن لم نمنحهم نحن لقب البطولة للأسباب التي أشرنا اليها قبل من أننا رفعنا إلى حد بعيد المثل الأعلى للنبوغ ، ولأننا نحلل

النابغ ونكتشف سره ، وذلك يقلل من تقديره ، ولأنه معاصر والمعاصرة أعدى أعداء الاعتراف بالنبوغ

وقد يتصل بهذا أن كثرة النبوغ تضيع الاعتراف بالنبوغ ، فكل أمة راقية الآن لديها عدد كبير من المتفوقين فى كل فرع من فروع العلم والفن ـ فى القانون ـ فى الأدب ـ فى الطبيعة ـ فى الكيميا ـ فى الرسم ـ فى التصوير . فلما كثر هؤلاء فى كل أمة أصبح من العسير أن تميز أكبر متفوق منهم لتمنحه صفة النبوغ ؛ ومن العسير أيضاً أن تسميهم كلهم نوابغ ، لأن النبوغ بحكم اسمه ومعناه يتطلب الندرة ، فلما كثر النابغون أضاعوا اسم النبوغ . وعلى العكس من ذلك الأمم المنحطة . لما لم يوجد فيها إلا قانونى واحد أو أديب واحد أو موسيقى واحد كان من السهل أن يمنح لقب النبوغ .

ooo

ثم إن الديمقراطية التى سادت الناس فى العصور الأخيرة ونادت بالمساواة وألحت فى الطلب أوجدت فى الشعوب حالة نفسية كان لها أثرها فى موضوعنا اذ أصبح الناس لا يؤمنون بتفوق كبير ، لا فى المال فهم يريدون الاشتراكية ، ولا فى السياسة فقد يتبوأ الحكم حزب العمال فيدير الأمور كما يديرها الأرستقراطيون فى السياسة بل أحسن منهم

فدعتهم هـذه الحالة النفسية إلى أن يكفروا بالتفوق أو بعبارة أخرى يكفرون بالنبوغ ؛ وبعيد أن يُعترف بنبوغ فى جو يكفر به ـ لقد كان الناس قبلُ أكثر إيماناً بالفروق فى المال والكفاية والعلم فكان هذا الايمان وسيلة صالحة لظهور النبوغ ، فلما جحدوا كل شىء كان النبوغ مما جحدوا

وأخيرا كان من أثر هـذه الديمقراطية تعميم التعليم ، والبحث فى خير الوسائل لنشر العلم ، فقامت النظريات المختلفة فى التربية والتعليم وأصبح العلم شعبيا بعد أن كان أرستقراطيا

واستخدمت الوسائل المختلفة لتبسيط العلم وتحبيبه إلى النفوس ، وغيرت نظم المدارس . فأنشئت رياض الأطفال مكان الكتاتيب ، والمدارس الناعمة بدل المدارس الخشنة ، واخترعت البداجوجيا وسائل لتسهيل الدرس وإيصاله إلى الذهن من أقرب طريق

كان من نتيجة ذلك كثرة المتعلمين وقلة النابغين ، واتساع البحر وقلة عمقه ، وذلك لأن من كان يتفوق فى الماضى كان يصادف عقبات لاحد لعددها ولا حد لصعوبتها ، فكان من الطبيعي ألا يجتازها إلا الأقلون . ولكن من يجتازها تكون لديه الحصانة الطبيعية ويكون قد تعود اجتياز العقبات واحتمل مشقة السير ، فكان ذلك سبب النبوغ من ناحيتين ، من ناحية قلة من يجتاز العقبات ومن ناحية من يجتازها

أما وقد أصبح التعليم معبدا ميسرا فقد زاد عدد المتعلمين وقل النابغون وأصبح الفرق بين العهدين كبذرة تربى فى حديقة بستان وبذرة تنبت فى الجبال حيث الرياح العاصفة والشمس المحرقة والمطر الذى لانظام له . فأين نبت البستان من نبت الجبال ، واين الحيوان المستأنس من الحيوان المستوحش ؟

وبعد ، فما أحق هذا الموضوع بالدرس ، وتناول الكتاب له من وجوهه المختلفة ؟

احمد أمين

قرائي الذين يحبونني

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

لكل كاتب قراؤه . وما من كاتب يعدم قارئاً من كل طبقة ، ولكن المعوّل على الأوفياء الثابتين على الولاء ، فان هؤلاء طريق الرزق ، ووسيلة الاطمئنان والدعة ، ولولاهم لما عرف المرء متى يمكن أن يتاح له أن يأكل ، وإن كان لا يجهل كيف يجوع . ولست أعرف ماذا يصنع غيري ليهتدي إلى طبقات قرائه ، ولكني أعرف أن مصلحة البريد أغنتني عن عناء السعي ومشقة التفكير في الوسائل المعينة على الاهتداء ، فان رسائل كثيرة تأتيني منها فاستخلص منها العلم الذي أطلبه والمعرفة التي أشتهيها . وما أكثر ما قلت لنفسي إن الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد الكاتب ومن إليهم من هؤلاء الزملاء والرصفاء ، كانوا مساكين . — أوه جداً — فما عرفت الدنيا في أيامهم مصلحة البريد . وقد كان من الصعب ولا شك أن يعرفوا مبلغ حب الجمهور لهم وإعجابه بهم وماذا كان يمكن أن يبلغ من رواج كتبهم لو أنها كانت تطبع وتباع في المكاتب ، وقد حرمهم هذا الحال الاستقلال عن الأمراء ومن إليهم . ومن الصعب أن يعمل المرء في الظلام . نعم كان الواحد منهم لا يعدم تشجيعاً من الشعب ، ولكن هذا كان فلتة لا تحتسب ولا يعول عليها . ومن السهل أن يتصور المرء أن الجاحظ مثلا كان يلقى في الطريق واحداً يتقدم إليه ويقول له : « اسمح لي . . هل أنت الذي يسمى الجاحظ ؟ . »

فيهز رأسه أن « نعم » وهو راجف القلب لأنه يخشى الاعتراف الصريح المقيِّد ، لئلا يكون هذا السائل من الشرطة

فيقول الرجل : « لقد صدقوا . . أنني أن اسمه في محله . . على كل حال . . ثابر يا بني ! . . فاني أتنبأ لك بمستقبل باهر . . »

ويربت له على كتفه ويمضي عنه مبتسما ، وعينه إلى الملك الذي ينبغي أن يكون محتفظاً بمكانه على يمينه ، مرهف الأذن مقيما سنّ القلم على الدفتر المفتوح ليقيد له هذه الحسنة — حسنة التبرع الكريم بالتشجيع

وإذا كانت الرسائل التي ترد إلي دليلا على شيء ، فاني أكون أحب الناس — أعني الكتاب — إلى ثلاث طبقات : — المرضى ، واللصوص ، وقد نسيت الطبقة الثالثة . . لا باس من يدري ؟ . . ربما تذكرتها أثناء الكلام . وقد عرفت هذا من الرسائل التي يحملها إليّ البريد ، كما قلت . وهذا نموذج منها :

« . . . . وبعد فاني لم أسمع باسمك من قبل ، ولكن مرضت ودخلت المستشفى ، وجاءني زائر فترك لي كتاباً أتسلى به ، غير أني لم استطع أن أتصفحه في أول الأمر لشدة وطأة المرض ، فلما خف قليلا مددت يدي إليه وبدأت أطالع . وأؤكد لك أنه سرني جدا . وأنا صحيح الجسم في العادة ، ولكن الأمراض لا أمان لها ، كما تعرف ، فارجوا أن تبعث إليّ بمجموعة من كتبك كلها — ومعها جملة ثمنها — استعداداً للطوارىء فان الحيطة واجبة وإن كان الأمر كله بيد الله

وتقبل سلام المعجب بك المعتمد بعد الله عليك »

وفي وسع القارىء أن يدرك مبلغ حيرتي ، فانه لا يسعني إلا أن أتمنى لمثل هذا الرجل الصحة والسلامة ، ولكن المصيبة والبلاء العظيم أنه إذا صح وسلم كان خليقاً ألا يعود إلى كتبي ليقرأها ، فما العمل ؟ . . هذه هي المسألة — كما يقول هملت — وليس ذنبي أن الأمراض تحبب الناس في كتبي ، فاذا كنت أسرحين أقرأ في الصحف أن الملاريا انتشرت فان لي العذر ، فما كان هذا ظني ، ولا خطر لي قط على بال ، ولكن مشيئة الله جعلتني مثل « الحانوتي » الذي يسره ويفرحه ما يحزن الخلق ويبكي المفجوعين . ولهذا تروني إذا سمعت بفشو مرض أدخل مسروراً على أهل بيتي وأقول لزوجتي : « خذي يا امرأة . . (وألقي إليها بكل ما يكون معي ، قل أو كثر) خذي وأنفقي بلا حساب ، فان ما عند الله أكثر »

فتعجب وتسألني : « ماذا جرى ؟ . . . هل ربحت ورقة يانصيب ؟ . »

فأقول منكراً عليها هذا الخاطر : « وهل مثلي يعنى بورق

اليانصيب ؟ سبحان الله يا امرأة فى طبعك ! ،

فتقول ضاحكة : « ولكن ألا تخبرنى ؟ . . إننى أكاد أموت شوقاً إلى المعرفة »

فأقول وأنا أرمى إليها بالصحيفة التى قرأت فيها خبر المرض المتفشى ، وعجز وزارة الصحة عن مكافحته : « خذى واقرئى ، واشكرى الله ، وقبلى يدك بطناً وظهراً ، فلن نجوع أو نفتقر ، مادام فى الدنيا شىء اسمه مرض وشىء آخر اسمه وزارة الصحة . لقد جعلوها وزارة . . . رفعوها ورقوها ووسعوها . . أليس هذا باعثاً قوياً على الاطمئنان والثقة بالله ؟ »

° ° °

وقد بالغت حين قلت إنى محبوب من اللصوص وما أردت إلا أن لصاً واحداً – على ما يظهر لى الآن – هو الذى يحبنى ، فلقد تلقيت مرة كتاباً يذكر لى فيه أنه سمع باسمى وشهرتى ، فعرف أنى كاتب عظيم جداً ، فهو يكتب إلىّ مستنجداً فقد اتهموه بسرقة كلب . والقضية معروضة على القضاء ، وكان محبوساً رهن التحقيق ، ثم أفرجوا عنه بالكفالة الشخصية ، وهو يحتاج إلى محام يدافع عنه ولكنه لا مال معه فهل أستطيع أن أدله على محام كريم ، أو أعينه بطريقة أخرى . . ؟ وهو يترك الأمر بين يدى واثقاً من مروءتى وكرمى فان مثلى لا يخيب من يقصده

هذا هو الزبون الجديد ، وقد قلت لنفسى لما تلقيت هذا الكتاب العجيب : « والله نجحت يا مازنى ! . . بلغت شهرتك أخفى الزوايا وتغلغلت إلى لصوص الكلاب . . ماشاء الله ! . أحسب أن اللص حين يخرج إلى السرقة بعد اليوم ، ستقول له زوجته أو أمه أو لا أدرى من غيرهما :

« هل أنت متأكد أن معك كل ما تحتاج إليه ؟ »

فيقول : « أيوه . . أيوه »

فتقول : « احذر أن تكون نسيت الطفاشة ! . . العدة كلها معك ؟ . . »

فيقول : « قلت لك أيوه . . ألا تسمعين ؟ »

فتقول : « والمازنى ؟ . . هل أخذته معك ؟ . . »

فيقول : « أوه . . طول الليل وأنا أقرأ كتابه . . وهل أستطيع أن أعمل شيئاً دون أن أقرأه ؟ . . أتظنيننى مغفلا ؟ أم تحسبين أنى حديث عهد بالفن ؟ »

فتقول : « لا . . إنما أردت أن أطمئن . . وأسمع . . امش بحساب . . والبس القفاز قبل أن تلمس أى باب أو مفتاح أو حائط . . حاذر ! »

فيقول : « اطمئنى . . كل شىء على مايرام . . ومعى المازنى فلا تخافى ولا تقلقى »

ويلمس صدره حيث وضع الكتاب تحت ثوبه

° ° °

ولكل قاعدة شذوذ واستثناء . وقد حدث منذ بضعة أيام ما كاد يغرينى بتغيير رأيى فى طبقات القراء الذين يحبوننى ويؤثروننى على من عداى من كتاب هذا الزمان . ذلك أنى كنت مدعواً إلى مادبة عشاء فاتفق أن أجلسونى إلى جانب سيدة عجوز شمطاء ، ودار الكلام على الأكل وكان بعض الذين يخاطبوننى يدعوننى : « الأستاذ » والبعض يؤثر أن يرفعنى درجة فيقول لى : « يا بك » ولكنه لم يدعنى باسمى أحد كأنه عيب لا يليق أن يذكر ولا سيما على مسمع من السيدات

ثم التفتت إلى العجوز وقالت : « إنى سعيدة »

فقلت باختصار : « أهنئك »

فألحت فى صرفى عن جارتى الأخرى ، وكانت فتاة هيفاء نضيرة الحسن وصوتها كالتغريد

« صحيح . . سعيدة جداً . . كل كتبك قرأناها »

فتركت الفتاة وأدرت وجهى إلى هذه العجوز وسألت باهتمام : « صحيح ؟ »

فقالت باضطراب رابنى : « كلها كلنا »

فقلت مردداً قولها : « كلكم ؟ . . كلها . . ؟ شىء جميل ؟ »

فقالت : « ابنى على الخصوص . . إعجابه بك لا حد له »

فأردت أن أستوثق وسألتها : « هل هو مريض ؟ »

قالت : « أعوذ بالله . . إن صحته جيدة جدا »

فقلت لنفسى إن هذا جديد ، فيحسن أن أتقصى الأمر وسألتها : « ألم يصبه مرض قط ؟ »

(البقية فى ذيل الصفحة التالية)

أمراء للبيع ...

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال الشيخ تاج الدين محمد بن على الملقّب طُوير الليل أحد أئمة الفقهاء بالمدرسة الظاهرية بالقاهرة (١) :

كان شيخنا الامامُ العظيم شيخُ الإسلام تقى الدين بن مجد الدين بن دقيق العيد (٢) لا يخاطب السلطان إلا بقوله : (يا إنسان) ، فما يخشاه ولا يتعبّد له ولا ينحلُه ألقابَ الجبروت والعظمة ولا يُزينه بالنفاق ولا يُداجيه كما يصنع غيره من العلماء . وكان هذا عجيبا ؛ غير أن تمام العجب أن الشيخ لم يكن يخاطب أحداً قط من عامة الناس إلا بهذا اللفظ عينه (يا إنسان) ، فما يعلو بالسلطان والأمراء ولا ينزل بالضعفاء والمساكين ، ولا يرى أحسنَ ما فى هؤلاء وهؤلاء إلا الحقيقة الانسانية .

ثم كان لا يعظم فى الخطاب إلا أئمة الفقهاء ، فاذا خاطب منهم أحداً قال له (يافقيه) . على أنه لم يكن يسمح بهذا إلا لمثل شيخ الإسلام نجم الدين بن الرفعة (٣) . ثم يخص علاء الدين بن الباجى وحده بقوله (يا إمام) ؛ اذ كان آية من آيات الله فى صناعة الحجة لا يكاد يقطعه أحد فى المناظرة والمباحثة ؛ فهو كالبرهان إجلاله إجلالُ الحق لأن فيه المعنى وتثبيتَ المعنى .

وقلت له يوما : ياسيدى أراك تخاطب السلطان بخطاب العامة ، فان علوت قلت (ياإنسان) وإن نزلت قلت ياإنسان ؛ أفلا يُسخطه هـذا منك وقد تذوّق حلاوة ألفاظ الطاعة والخضوع ، وخصه النفاق بكلمات هى ظلُّ الكلمات التى يوصف اللهُ بها ، ثم جعله الملك إنسانا بذاته فى وجود ذاته حتى أصبح من غيره كالجبل والحصاة ، يستويان فى العنصر ويتباينان فى القدر ، وأقله مهما قلّ هو أكثرها مهما عظمت ، ووجوده شيء ووجودها شيء آخر ؟

فتبسم الشيخ وقال : يا ولدى إيش هـذا ؟ إننا نفوس لا ألفاظ ، والكلمة من قائلها هى بمعناها فى نفسه لا بمعناها فى نفسها ؛ فما يحسن بحامل الشريعة أن ينطق بكلام يرده الشرع عليه ؛ ولو نافق الدين لبطل أن يكون دينا ؛ ولو نافق العالم الدينى لكان كل منافق أشرف منه ؛ فلطخة فى الثوب الأبيض ليست كلطخة فى الثوب الأسود . والمنافق رجل مغطى فى حياته ولكن عالم الدين رجل مكشوف فى حياته لامغطى ؛ فهو للهداية لا للتلبيس ، وفيه معانى النور لا معانى الظلمة ؛ وذلك يتصل بالدين من ناحية العمل فاذا نافق فقد كذب ؛ والعالم يتصل بالدين من ناحية العمل وناحية التبيين فاذا نافق فقد كذب وغش وخان .

وما معنى العلماء بالشرع إلا أنهم امتداد لعمل النبوة فى الناس دهراً بعد دهر ، ينطقون بكلمتها ويقومون بحجتها ، ويأخذون من أخلاقها كما تأخذ المرآة النور ، تحويه فى نفسها وتلقيه على غيرها فهى أداة لاظهاره وإظهار جماله معا .

أتدرى يا ولدى ما الفرق بين علماء الحق وعلماء السوء وكلهم آخذ من نور واحد لا يختلف ؟ إن أولئك فى أخلاقهم كاللوح من البلور يظهر النور نفسه فيه ويظهر حقيقته البلورية ، وهؤلاء بأخلاقهم كاللوح من الخشب يظهر النور حقيقته الخشبية لا غير

---

(١) توفى سنة ٧١٧ هـ (٢) كانت وفاته سنة ٧٠٢ (٣) توفى سنة ٧١٠

قالت : « أبدا . . أبدا . . قوى جداً . . كسيد نصير »

قلت : « عجيب هذا . . »

فقالت : « كتبك كلها عندنا تراها فى كل غرفة . . »

فسالتها : « أهى حسنة التجليد ؟ »

قالت : « لا . . كما اشتريناها . . كل بناتى وأحفادى يقرأونها ويحملونها معهم حيثما يكونون »

قلت : « شيء جميل »

فقالت : « أوه . . لشد ما يفرحون الليلة حين أقول لهم إنى كنت جالسة إلى جانب تيمور بك »

ابراهيم عبد القادر المازنى

حاشية — أرجو من الأستاذ تيمور بك أن يحول إلى الشاء الذى يغلط به الناس كما حولت إليه حقه المازنى

وعالم السوء يفكر فى كتب الشريعة وحدها ، فيسهل عليه أن يتأول ويحتال ويغير ويبدل ويظهر ويخفى ، ولكن العالم الحق يفكر مع كتب الشريعة فى صاحب الشريعة فهو معه فى كل حالة يسأله : ـ ماذا تفعل وماذا تقول ؟

والرجل الدينى لا تتحول أخلاقه ولا تتفاوت ولا يجيء كل يوم من حوادث اليوم ، فهو بأخلاقه كلها لا يكون مرة ببعضها ومرة ببعضها ، ولن تراه مع ذوى السلطان وأهل الحكم والنعمة كعالم السوء . هذا الذى لو نطقت أفعاله لقالت لله بلسانه : هم يعطوننى الدراهم والدنانير فأين دراهمك أنت ودنانيرك ؟

إن الدينار يا ولدى اذا كان صحيحا فى أحد وجهيه دون الآخر أو فى بعضه دون بعضه فهو زائف كله . وأهل الحكم والجاه حين يتعاملون مع أمثال هؤلاء يتعاملون مع قوة الهضم فيهم . . . فينزلونهم بذلك منزلة البهائم تقدم أعمالها لتأخذ لبطونها . والبطن الآكل فى العالم السوء يأكل دين العالم فيما يأكله . . .

فاذا رأيت لعلماء السوء وقارا فهو البلادة ، أو رقة فسمها الضعف ، أو محاسنة فقل انها النفاق ، أو سكوتا عن الظلم فتلك رشوة يأكلون بها

ooo

قال الامام وما رأيت مثل شيخى سلطان العلماء عز الدين ابن عبد السلام [1] . فلقد كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر شيئاً تصنعه طبيعته كما يصنع جسمه الحياة ، فلا يبالى هلك فيه أو عاش إذ هو فى الدم كالقلب لا تناله يد صاحبه ولا يد غيره . ولم يتعلق بمال ولا جاه ولا ترف ولا نعيم ، فكان تجرده من أوهام القوة قوة لا تغلب . وانتزع خوف الدنيا من قلبه فعمرته الروح السماوية التى تخيف كل شيء ولا تخاف : وكان بهذه الروح كأنه تحويل وتبديل فى طباع الناس حتى قال الملك الظاهر بيبرس وقد رأى كثرة الخلق فى جنازته حين مرت تحت القلعة : الآن استقر أمرى فى الملك ، فلو أن هذا الشيخ دعا الناس إلى الخروج على لانتزع منى المملكة

وكان سلطانه فى دمشق الصالح اسماعيل ، فاستنجد بالافرنج على الملك نجم الدين أيوب سلطان مصر ؛ فغضب الشيخ وأسقط اسم الصالح من الخطبة وخرج مهاجراً ، فأتبعه الصالح بعض خواصه يتلطف به ويقول له : ما بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه وأكثر مما كنت عليه إلا أن تتخشع للسلطان وتقبل يده . فقال له الشيخ : يامسكين أنا لا أرضى أن يقبل السلطان يدى . أنتم فى واد وأنا واد :

ثم قدم إلى مصر فى سنة ٦٣٩ فأقبل عليه السلطان نجم الدين أيوب وتخفى به وولاه خطابة مصر وقضاءها . وكان أيوب ملكا شديد البأس لا يجسر أحد أن يخاطبه إلا مجيباً ، ولا يتكلم فى أحد بحضرته ابتداء ؛ وقد جمع من المماليك الترك مالم يجتمع مثله لغيره من أهل بيته حتى كان أكثر أمراء عسكره منهم وهم معروفون بالخشونة والبأس والفظاظة والاستهانة بكل أمر . فلما كان يوم العيد صعد إليه الشيخ وهو يعرض الجند ويظهر ملكه وسطوته والأمراء يقبلون الأرض بين يديه ؛ فناداه الشيخ بأعلى صوته ليسمع هذا الملأ العظيم : ياأيوب ! ثم أمره بابطال منكر انتهى إلى علمه فى حانة تباع فيها الخمر . فرسم السلطان لوقته بابطال الحانة واعتذر إليه

فحدثنى الباجى قال : سألت الشيخ بعد رجوعه من القلعة وقد شاع الخبر فقلت ياسيدى كيف كانت الحال ؟

قال يا بنى رأيته فى تلك العظمة فخشيت على نفسه أن يدخلها الغرور فتبطره ، فكان ما باديته به

قلت : أما خفته ؟

قال : يا بنى استحضرت هيبة الله تعالى فكان السلطان أمامى كالقط [1] . ولو أن حاجة من الدنيا كانت فى نفسى لرأيته الدنيا كلها ؛ بيد أنى نظرت بالآخرة فامتدت عينى فيه إلى غير المنظور للناس ، فلا عظمة ولا سلطان ولا بقاء ولا دنيا ، بل هو لا شيء فى صورة شيء

نحن ياولدى مع هؤلاء كالمعنى الذى يصحح معنى آخر ، فاذا أمرناهم فالذى يأمرهم فينا هو الشرع لا الانسان . وهم قوم يرون لأنفسهم الحق فى إسكات الكلمة الصحيحة أو

---

(١) هو الامام العظيم شيخ الاسلام عبد العزيز بن عبد السلام بركة الدنيا فى عصره توفى سنة ٦٦٠

(١) هذه كلمات الشيخ بحروفها

طمسها أو تحريفها ؛ فما بدٌّ أن يقابَلوا من العلماء والصالحين بمن يرون لأنفسهم الحق فى إنطاق هذه الكلمة وبيانها وتوضيحها . فاذا كان ذلك فهنا المعنى بإزاء المعنى . فلا خوف ولا مبالاة ولا شأن للحياة والموت

وإنما الشر كل الشر أن يتقدم إليهم العالم لحظوظ نفسه ومنافعها فيكون باطلا مزوَّراً فى صورة الحق وهنا تكون الذات مع الذات فيخشع الضعف أمام القوة ، ويذل الفقر بين يدى الغنى ، وترجو الحياة لنفسها وتخشى على نفسها فإذا العالم من السلطان كالخشبة البالية النخرة حاولت أن تقارع السيف

كلا يا ولدى ! إن السلطان والحكام أدوات يجب تعيين عملها قبل إقامتها . فإذا تفككت واحتاجت إلى مسامير دقت فيها المسامير . وإذا انفتق الثوب فمن أين للإبرة أن تسلك بالخيط الذى فيها إذا هى لم تخرِزْه ؟

إن العالم الحق كالمسمار ؛ إذا أوجد المسمار لذاته دون عمله كفرت به كل خشبة . . .

***

قال الامام تقى الدين : وطغى الأمراء من المماليك وثقلت وطأتهم على الناس ؛ وحيثما وجدت القوة المسلطة المستبدة جعلت طغيانها واستبدادها أدباً وشريعة ؛ إلا أن تقوم بإزائها قوة معنوية أقوى منها . ففكّر شيخنا فى هؤلاء الأمراء وقال إن خداع القوة الكاذبة لشعور الناس باب من الفساد ؛ إذ يحسبون كل حسَن منها هو الحسَن وإن كان قبيحاً فى ذاته ولا أقبح منه ؛ ويرون كل قبيح عندها هو القبيح وإن كان حسَناً ولا أحسن منه

وقال : ما معنى الأمارة والأمراء ؟ وإنما قوة الكل الكبير هى عماد الفرد الكبير ، فلكل جزء من هذا الكل حقه وعمله . وكان ينبغى أن تكون هذه الامارة أعمالا نافعة قد كبرت وعظمت فاستحقت هذا اللقب بطبيعة فيها كطبيعة أن العشرة أكثر من الواحد ، لا أهواء وشهوات ورذائل ومفاسد تتخذ لقبها فى الضعفاء بطبيعة كطبيعة أن الوحش مفترس

وفكر الشيخ فهداه تفكيره إلى أن هؤلاء الأمراء مماليك ، فحكم الرِّق مُسْتَصْحَب عليهم لبيت مال المسلمين ويجب شرعاً بيعهم كما يباع الرقيق

وبلغهم ذلك فجزعوا له وعظم فيه الخطب عليهم ؛ ثم احتدم الأمر وأيقنوا أنهم بإزاء الشرع لا بإزاء القاضى ابن عبد السلام

وأفتى الشيخ أنه لا يصح لهم بيع ولا شراء ولا زواج ولا طلاق ولا معاملة ، وأنه لا يصحح لهم شيئاً من هذا حتى يباعوا ويحصل عتقهم بطريق شرعى

ثم جعلوا يتسببون الى رضاه ويتحملون عليه بالشفاعات وهو مصر لا يعبأ بجلالة أخطارهم ولا يخشى اتسامه بعداوتهم ، فرفعوا الأمر الى السلطان فأرسل اليه فلم يتحول عن رأيه وحكمه

واستشنع السلطان فعله وحنق عليه وأنكر منه دخوله فيما لا يعنيه وقبح عمله وسياسته وما تطاول إليه وهو رجل ليس له الا نفسه وما تكاد تصل يده الى ما يقيمه ، وهم وافرون وفى أيديهم القوة ولهم الأمر والنهى

وانتهى ذلك الى الشيخ الامام فغضب ولم يبال بالسلطان ولا كبر عليه إعراضه ، وأزمع الهجرة من مصر فاكترى حميراً أركب أهله وولده عليها ومشى هو خلفهم يريد الخروج الى الشام . فلم يبعد الا قليلا نحو نصف بريد حتى طار الخبر فى القاهرة ففزع الناس وتبعوه لا يتخلف منهم رجل ولا امرأة ولا صبى ، وسار فيهم العلماء والصلحاء والتجار والمحترفون كأن خروجه خروج نبى من بين المؤمنين به . واستعلنت قوة الشرع فى مظهرها الحاكم الآمر من هذه الجماهير ، فقيل للسلطان : إن ذهب هذا الرجل ذهب ملكك

فارتاع السلطان فركب بنفسه ولحق بالشيخ يترضاه ويستدفع به غضب الأمة ، وأطلق له أن يأمر بما شاء . وقد أيقن أنه ليس رجل الدينار والدرهم والعيش والجاه ، ولبس طيلسان العلماء كما يلصق الريش على حجر فى صورة الطائر

ورجع الشيخ وأمر أن يعقد المجلس ويجمع الأمراء وينادى عليهم للمساومة فى بيعهم وضرب لذلك أجلا بعد أن يكون الأمر قد تعالمه كل القاهرة ليتهيأ من يتهيأ للشراء والسوم فى هذا الرقيق الغالى

***

وكان من الأمراء المماليك نائب السلطنة فبعث الى الشيخ يلاطفه ويسترضيه فلم يعبأ الشيخ به . فهاج هائجه وقال :

كيف يبيعنا هذا الشيخ وينادي علينا وينزلنا منزلة العبيد ويفسد محلنا من الناس ويبتذل أقدارنا ونحن ملوك الأرض؟ وما الذي يفقد هذا الشيخ من الدنيا فيدرك ما نحن فيه؟ إنه يفقد مالا يملك ويفقد غير الموجود، فلا جَرَمَ لا يبالي ولا يرجع عن رأيه مادام هذا الرأي لا يمر في منافعه ولا في شهواته ولا في أطماعه كالذين نراهم من علماء الدنيا. أما والله لأضربنه بسيفي هذا فما يموت رأيه وهو حي.

ثم ركب النائب في عسكره وجاء الى دار الشيخ واستل سيفه وطرق الباب

فخرج ابنه عبد اللطيف ورأى ما رأى فانقلب الى أبيه وقال له: انج بنفسك، إنه الموت، وإنه السيف. وإنه وإنه

فما اكترث الشيخ لذلك ولا جزع ولا تغير بل قال له: يا ولدي! أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله

وخرج لا يعرف الحياة ولا الموت فليس فيه الانساني بل الالهي؛ ونظر الى نائب السلطنة وفي يده السيف؛ فانطلقت أشعة عينيه في أعصاب هذه اليد فيبست ووقع السيف منها

وتناوله بروحه القوية فاضطرب الرجل وتزلزل وكأنما تكسر من أعصابه فهو يرعد ولا يستقر ولا يهدأ

وأخذ النائب يبكي ويسأل الشيخ أن يدعو له؛ ثم قال: ياسيدي ما تصنع بنا؟

قال الشيخ: أنادي عليكم وأبيعكم

— وفيم تصرف ثمننا؟

— في مصالح المسلمين

— ومن يقبضه؟

— أنا

وكان الشرع هو الذي يقول (أنا)، فتم للشيخ ما أراد ونادى على الأمراء واحدا واحدا واشتط في ثمنهم لا يبيع الواحد منهم حتى يبلغ الثمن آخر ما يبلغ. وكان كل أمير قد أعد من شيعته جماعة يستامونه ليشتروه...

ودمغ الظلم والنفاق والطغيان والتكبر والاستطالة على الناس بهذه الكلمة التي أعلنها الشرع:

أمراء للبيع! أمراء للبيع...

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

القاهرة المعزية

ووجوب الاحتفاء بعيدها الألفي

للأستاذ محمد عبد الله عنان

— ٢ —

تقترب القاهرة المعزية من عيدها الألفي دون أن يثير ذلك في دوائرنا الرسمية أو الأدبية كبير صدى؛ ومن الغريب أن بعض الأجانب الوافدين الذين يكتبون عن بلادنا الفصول والملاحظات الطائرة لم يفتهم أن ينوهوا فيما يكتبونه عن القاهرة بأنها مدينة ألفية، وأنها موطن الجامعة الألفية الوحيدة في العالم؛ ذلك أن هذه الحقيقة التاريخية تثير حقاً أعظم إهتمام من كل أولئك الذين يضطرمون إعجاباً بعظمة التراث الحافل، ويحنون رؤوسهم إجلالا لروعة التاريخ

وإذا كانت القاهرة ليست هي المدينة الألفية الوحيدة بين حواضر العالم القديم، وإذا كانت أثينة وروما والاسكندرية وقسطنطينية تشاطرها هذا الفخر وتفوقها في مداه، بل تشاطرها هذا الفخر حواضر إسلامية أخرى مثل بيت المقدس، ودمشق، وبغداد، فإنها مع ذلك تمتاز على هذه الحواضر جميعا بأنها تمثل أروع عصور التاريخ جنبا إلى جنب؛ فالآثار الفرعونية الباهرة التي تغيض فيما وراء القرون تشرف عليها مجللة بروعة الخلود، وآثار العصور الاسلامية المختلفة تنبث في جنباتها وتسبغ عليها لونا إسلاميا عميقا وتزينها بكل ما ازدانت به هذه العصور المجيدة من فن وروعة وبذخ؛ ثم أن بشائر العصر الحديث وأمارات الحضر الناضج، وكل ألوان الحضارة المعاصرة بما فيها من تطور وتجديد وابتكار، تطبعها بطابعها القوي، فهي من هذه الناحية من أجمل وأحدث العواصم القديمة، بل هي تفوق من هذه الناحية عواصم العالم القديم: رومة وأثينة وقسطنطينية، ومع ذلك فان هذا التجدد السريع لم يجردها من جلالها القديم، ولم يخلع عنها تلك الروعة التي يسبغها تعاقب الأحقاب على الحواضر التالدة

وفى وسع القاهرة أن تتيه على عواصم العالم القديم كلها بتراثها الأثرى والفنى الباهر ؛ ذلك أنها فضلا عما يحتويه متحفها الفرعونى الشهير من الكنوز الرائعة التى لا تضارعها أية كنوز أثرية أخرى ، تحتفظ بأعظم مجموعة من آثار العصور الوسطى يمكن أن تفخر بها مدينة عظيمة ومنها آثار المدينة الألفية القديمة التي ما زالت ماثلة إلى يومنا

والقاهرة ليست مدينة عظيمة فقط ، وإنما هى كباقى حواضر العالم القديم عنوان حضارة ومجمع تاريخ ؛ وتاريخ الأمصار العظيمة من أهم النواحى فى تاريخ الحضارات والدول ، ولاسيما فى العصور الوسطى ، حينما كانت حياة المدينة ترتبط أشد الارتباط بمصاير حضارة أو دولة معينة . وإذا كان تاريخ أثينة والمجتمع الأثينى يعنى تاريخ اليونان القديم دولة وحضارة . وإذا كان تاريخ رومة ومجتمعاتها فى عصور الجمهورية والامبراطورية ، هو تاريخ الرومان والحضارة الرومانية ، وإذا كان تاريخ قسطنطينية فى العصور الوسطى ، هو تاريخ الدولة البيزنطية وحضارتها ، فان تاريخ القاهرة وتاريخ أسرها الملوكية ومجتمعاتها الرسمية والشعبية هو تاريخ مصر الاسلامية وتاريخ حضارتها فى العصور الوسطى

***

ولا ريب أن العيد الألفى لمصر من الأمصار التالدة أو منشأة من المنشآت الجليلة هو من الحوادث القومية العظيمة التى يحق للأمم أن تفخر بها وتعتز ؛ ذلك أن هذه الأعياد الألفية ليست من الاحداث العادية فى تواريخ الأمم ، بل هو بالعكس احداث فريدة نادرة ، ومثولها فى تاريخ أمة من الأمم دليل على عراقة هـذه الأمة فى ماضيها وحضارتها ودليل على ما تمتاز به من الحيوية والصفات الأزلية ؛ ومصر أمة أزلية بلا ريب ، وهى من هذه الوجهة تستطيع أن تتيه على أمم الأرض جميعا بما حباها الله به من صفات الأزلية والخلود التى ترجع بها إلى ما قبل عصور التاريخ ؛ وتتخذ الأمم العظيمة من الاشادة بهذه الذكريات والخواص الأزلية وسيلة للدعاية ، وتحيطها بأعظم مظاهر التكريم ، وتتبع فى ذلك سياسة ثابتة تقوم على تنفيذها هيئات خاصة يقظة لكل ما يجد من هذه المناسبات؛

وقد تضع هـذه الهيئات برامجها وتبدأ استعداداتها للاحتفاء بأحدى الذكريات القومية العظيمة قبل وقوعها بأعوام عديدة ، فاذا حل موعد الذكرى كانت الاحتفالات العظيمة والمهرجانات الباذخة والمظاهرات القومية الرائعة التى تحج اليها الوفود من كل صوب ، والتى تتخذ وسيلة للدعاية الواسعة فى سائر الأقطار الأخرى

ولن يمض سوى القليل حتى تواجه مصر عيدين من أجل الأعياد القومية : هما العيد الألفى لقيام القاهرة المعزية ، والعيد الألفى للجامع الأزهر ؛ فماذا فعلت دوائرنا الرسمية والعلمية للاحتفاء بهذين الحادثين العظيمين ؛ أكبر الظن أنه لم تتخذ حتى الآن أية خطة رسمية مقررة فى هذا الشأن سوى ما رددته مشيخة الأزهر منذ ثلاثة أعوام فى شأن الاحتفال بعيد الأزهر ، ثم انقطع صداه بعد حين ؛ وأكبر الظن أنه سيمضى حين آخر قبل أن توضع برامج أو تقرر اعتمادات أو تتخذ أهبات فى هذا السبيل ؛ فاذا وقفت الجهات المختصة إلى اتخاذ أية خطوة عملية كان ذلك بعد فوات الوقت أو فى آخر لحظة ، وعندئذ يجىء الاحتفال خلواً من الروعة التى يجب أن تحاط بها مثل هذه المناسبات

والواقع أن ما تبقى من الوقت بيننا وبين هذين العيدين الجليلين لا يكاد يكفى لاتخاذ أهبات غير عادية ؛ فليس بيننا وبين عيد القاهرة الألفى الذى يقع فى شعبان سنة ١٣٥٨ سوى ثلاثين شهراً ؛ ويقع العيد الألفى للأزهر بعد ذلك بعدة أشهر فى جمادى الأولى سنة ١٣٥٩ ؛ بيد أنه ما زال ثمة متسع من الوقت يكفى للعمل الجدى المتواصل فى سبيل تنظيم الاحتفاء القومى بهذين العيدين فى نوع من الفخامة والجلال

***

ولقد كانت القاهرة المعزية منشأة فاطمية ، نمت وترعرعت فى كنف الدولة الفاطمية الباذخة ، وشهدت فى ظلها ألوانا ساحرة من الفخامة والبذخ والبهاء ، يقصها عليك المؤرخون المعاصرون مثل المسبحى وابن الطوير وابن المأمون ؛ وكان الأزهر غرس الدولة الفاطمية اليانع ، بل كان أينع ما غرست دولة اسلامية ، وأعظمه قدراً ، وابعده أثراً ، وأبقاه على كر

العصور ؛ ولقد قامت الخلافة الفاطمية بمصر بعد قيام القاهرة والجامع الأزهر بقليل ، فى رمضان سنة ٣٦٢ هـ (يونية سنة ٩٧٣ م) حينما قدم المعز لدين الله أول الخلفاء الفاطميين بأهله وماله إلى القاهرة عاصمته الجديدة ؛ فنى أعوام قلائل يكون قد مضى ألف عام على قيام الخلافة الفاطمية بمصر . وقد كانت هى الخلافة الاسلامية المستقلة الوحيدة التى قامت بمصر الاسلامية ، وعاشت فى ظلها أكثر من قرنين

أفلا يجمل أيضا أن نحتفى بذكرى الخلافة الفاطمية منشئة القاهرة والجامع الأزهر لمناسبة مرور ألف عام على قيامها بمصر ؟

إن ذكرى الخلافة الفاطمية ترتبط أشد الارتباط بذكرى القاهرة والأزهر حتى إنه ليصعب أن نحتفى بعيديهما دون أن تشغل ذكرى الخلافة الفاطمية مكانتها فى هذين العيدين ؛ وان يكون للإشارة بهذه الذكرى سوى معناها التاريخى الجليل ، ولن تحيط بها أى اعتبارات دينية أو مذهبية ؛ ونذكر للتنويه بهذا المعنى التاريخى الجليل ، أن اسبانيا النصرانية لم تر بأساً من الاحتفاء بذكرى الخلافة الاسلامية ؛ فى سنة ١٩٢٩ احتفلت جامعة قرطبة بذكرى الخلافة الاسلامية لمناسبة مرور ألف عام على قيامها بقرطبة ؛ وقد كان قيام الخلافة الاسلامية فى قرطبة كما نعرف سنة ٣١٧ هـ الموافقة لسنة ٩٢٩ ميلادية ، وكان أول خلفاء الأندلس من بنى أمية عبد الرحمن الناصر ، وهذه الذكرى التاريخية الجليلة هى التى احتفلت بها جامعة قرطبة فى سنة ١٩٢٩ ، وكان لتصرفها أجمل وقع فى العالم الاسلامى

ولقد جرت مصر الفتية الناهضة على انتهاز كل الفرص والمناسبات العلمية والاجتماعية الدولية والاشتراك فيها ، والاعلان عن نفسها بأحسن ماتعلن أمة حديثة ناهضة ؛ وهى تلبى كل عام عشرات الدعوات لشهود المؤتمرات والمعارض الدولية المختلفة والمهرجانات العلمية ولا تبخل فى ذلك السبيل بالانفاق لأنها تقدر كل ما تجنيه من الفوائد المعنوية والمادية من الاشتراك فى تلك الاجتماعات الدولية الكبيرة ؛ وقد كانت آخر مناسبة من هذا النوع اشتراكها فى معرض باريس الدولى ، وهو اشتراك اقتضت نفقاته الرسمية منها زهاء عشرين الف جنيه ؛ فهل تبخل مصر بأن ترصد مثل هذا المبلغ بل أن ترصد اضعافه للاحتفال بعيد القاهرة وعيد أزهرها الألفى ؟

ان اقامة مهرجان ألفى لمدينة القاهرة تحج اليه وفود الأمم من أنحاء الشرق والغرب يكون أعظم دعاية لمصر التالدة ومصر الفتية الحديثة معا ، وأعظم وسيلة للتعريف عن ماضيها الباهر وعظمتها السالفة ؛ وأن اقامة مهرجان ألفى للجامع الأزهر تشترك فيه وفود الجامعات والهيئات العلمية من جميع الأمم يكون مظاهرة اسلامية علمية رائعة للاعلان عن الدور العظيم الذى أدته الجامعة الألفية فى تكوين التفكير الاسلامى لا فى مصر فقط ولكن فى العالم الاسلامى كله . وعن الصرح العلمى العظيم الذى كان الازهر قوامه والذى لبث ملاذ التفكير الاسلامى والآداب العربية قرونا مديدة ولا سيما فى عصور الاستعباد والانحلال الفكرى والاجتماعى

تلك دعوتنا المتواضعة نرسلها للمرة الثانية راجين أن تجد صدى قويا فى دوائرنا الرسمية والعلمية ، فتعمل على تحقيق هذه الأمنية القومية الكبرى بكل ما يجب لها من روعة وجلال

محمد عبد الله عنان

في الأدب المقارن

الوصف

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

الوصف من صميم الفن ولباب الأدب وأدل ضروب القول على صدق الشعور وذكاء القلب، إذ أن روائع المشاهدات وطرائف المحسوسات وجديد المرئيات من أشد الأمور تأثيراً في نفس الأديب، واستجاشة له إلى التأمل، ودفعاً له إلى القول؛ وليس خير الوصف ما أحاط بكل حقائق الموصوف وأحصى كل دقائق أجزائه، كما تحصى الصورة الشمسية كل صغيرة وكبيرة من الشيء المصور، وإنما خير الوصف ما أظهر المهم الرائع من أجزاء تلك الصورة، وأبان عن أثرها في النفس، وما تبعثه فيها من ذكريات وأطياف وأشجان وإطراب، وارتحال الأديب من صقع إلى آخر، ومن بلد إلى سواه ومن دواعي لجوئه إلى الوصف، يعرض فيه ما يتوالى على عينيه وحواسه من آثار ومظاهر؛ ومن ثم كانت الرحلة من أهم الأحداث في حياة الأديب بل من أهم مكونات شخصيته.

والوصف من أشد آثار الأدب امتاعاً للنفس واستدعاء لانتباهها وإرضاء لغرائزها: إذ هو يرضي من الانسان غريزة التقليد والحكاية اشتى المرئيات والمحسوسات، ويروي منه الميل إلى إحساس صدى عواطفه لدى الآخرين، فهو يستريح إلى الأديب الذي يصف من المشاهدات ويروي من الاحساسات ما قد يكون القارىء مر به في مختلف أطوار حياته. والوصف أيضاً يحرك الخيال ويمتعه ويفسح له مجال العمل، ويبعد به وراء حدود الحياة اليومية الحاضرة. ومن ثم نرى البيت أو البيتين يعرضان في القصيدة الطويلة مشتملين على وصف رائع لمنظر أو حادث أو إحساس، فيكونان غرة القصيدة وأحب أبياتها إلى النفوس.

ولما كان الوصف ضرباً من القول فنياً صميماً، وكان يحتاج لتجويده إلى إطالة النظر وطول التقصي ورياضة الكلام، وكانت موضوعاته أكثر من أن تعد وأوسع من أن تفنى، كان الوصف يبلغ أوج ازدهاره حين يبلغ الأدب طوره الفني، باستقرار الأمة وتحضر مجتمعها وذيوع الثقافة بين أبنائها، واستعمال الكتابة الخطية وتوفر الفراغ للتروي والمعالجة والمعاودة للمنشآت الأدبية فالوصف من أهم أبواب القول التي تتسع وتترقى في طور الأدب الفني ذاك. ومصداق ذلك واضح في الأدب اليوناني قبل ازدهار الحضارة وبعده: ففي أشعار هوميروس لا يأتي الوصف إلا عرضاً ولا يوصف من الأشياء إلا ما دعت إليه الضرورة، وأكثر الاهتمام مصروف إلى القصص؛ فلما جاء شعراء الدرامة واستغلوا نفس موضوعات هوميروس أحياناً، وشوها ببديع الأوصاف الفنية المقصودة لذاتها.

وفي الشعر العربي الجاهلي شذرات من الوصف رائعة، إذ كان ذلك الشعر بلغ من الفنية حداً لا بأس به؛ وكان لبعض الشعراء إلمام بالموصوفات يبدون فيه ما عرف به العربي من توقد القريحة ونفاذ البديهة وبلاغة الايجاز؛ ولهم أوصاف حسنة لبعض أنواع الحيوان ولا سيما الجياد والابل والظباء، وللمواقع والأطلال والأنواء، وفي المعلقات نماذج لكل ذلك ممتعة، حيث يصف كل من عنترة وامرىء القيس جواده ويصف لبيد ناقته، ويصفون جميعاً أطلال ديار أحبتهم

ومن أجود أوصاف الحرب في الشعر الجاهلي قول القائل:

صريف أنيابها صوت الحديد إذا	قض الحديد بها أبناؤها الوقر
في جوها البيض والماذي مختلط	والجرد والمرد والخطية السمر
جاءت بكل كمي معلم ذكر	في كفه ذكر يسعى به ذكر
لهم سرابيل من ماء الحديد ومن	نضح الدماء سرابيل لهم أخر
مضاعفات عليهم يوم بأسهم	لونان جون وأخرى فوقهم حمر

وبانتشار الحضارة وذيوع الثقافة اتسع باب الوصف في العربية أعظم اتساع، ووصف الشعراء مظاهر العمران والترف وقصور الملوك ومواكبهم وحدائقهم وجيوشهم وسفائنهم، ووصفوا الخمر ومجالس الشراب والطرب، ووصفوا الجواري والغلمان، ووصفوا الصيد والسباق، وأولع الجاحظ وبديع الزمان بوصف الأحوال الاجتماعية، فصورا مناظر في الحمام وفي السوق ومواقف التخاصم والتقاضي، وأجريا الحوار بين شتى الأشخاص عاليهم وسافلهم. واشتهر أبو نواس بوصف الخمر، والبحتري بوصف القصور، والمتنبي بوصف الحروب، وابن الرومي بوصف الفواكه والمآكل وتصوير الشخصيات الهزلية ولما تغلبت الصناعة وطلبت البراعة اللفظية والنكتة المعنوية

والتأنق والتظرف ، انعدم الحس أو كاد فى الوصف ، وتعلق الأدباء بوصف توافه الأشياء كالمحبرة أو الاسطرلاب أو القلم أو الكأس ، أو ماشابه ذلك مما هو فى غنى عن الوصف ، وما وصفه إلا تحصيل حاصل وإضاعة وقت ، فان الأصل فى الوصف الفنى كما تقدم أن يكون له باعث من شعور صميم ، لا أن يكون الغرض منه حكاية تفاصيل باردة فاترة . وقد أولع بذلك الضرب من الوصف النظرى ابن المعتز وابن خفاجة وكشاجم ؛ فلما أوغل الأدب فى التصنع وجانب الأدباء كل ذوق وكل معقول فى التعمل والإغراب ، انقلب الوصف فى أيدى أكثرهم إلغازاً ، فألغزوا فى أنواع المآكل والأسماء والآلات ، وبأمثلة هذا الضرب من الاحاجى السقيمة تمتلىء مقامات الحريرى وأشعار ابن نباتة المصرى وأضرابه

والأدب الانجليزى حافل منظومه ومنثوره بمحاسن الأوصاف؛ بيد أن باب الوصف فيه يخالف للوصف فى الأدب العربى من وجوه شتى : فهما مختلفان فى الموضوعات التى اتخذها كل منهما مادة وأدمن طروقها ؛ فقد تناول الأدب العربى — كما تقدم — وصف أنواع من الحيوان ، ووصف مظاهر اللهو والرفاهية ، وتناول بعد ذلك قليلا من وصف الطبيعة والمجتمع ؛ أما الأدب الانجليزى فهو أحفل بوصف هذين الأخيرين منه بوصف أى شيء آخر ، فالطبيعة كانت قبلة أكبر شعرائه وكتابه وشغلهم الشاغل ، ووصفها كان دأبهم أيا طرقوا من موضوعات القول ، فامتلأ الأدب الانجليزى بكنوز من أوصاف الطبيعة ، تكاثر ماقيل فى أى باب آخر من أبواب الشعر والنثر ؛ فالوصف الطبيعى مادة جانب عظيم من الشعر الانجليزى ، كما أن الوصف الاجتماعى مادة جانب عظيم من القصص والدرامات

وفى الأدب الانجليزى ضرب آخر من الوصف يستأثر به دون الأدب العربى ، على أنه من صميم الفن وأعلق نواحيه بالانسانية الشاملة والشعور العميق ، ذلك هو وصف آثار الأقدمين من عمائر وحصون وتماثيل وصور وأنباء وعظائم ، ففى ذلك كله منادح للخيال ومجال للابتداع ومذاهب للفكر ، وتأملات فى أحوال الانسان وتقلب العصور والأحداث ، وتعظيم لقدرة الانسان وتقدير للفنون ، وكل ذلك يكاد يكون معدوماً فى الأدب العربى ، والمثل الرائع الفريد فى هذا الباب هو سينية البحترى التى لو كثرت مثيلاتها فى الأدب العربى لكان أرفع قدراً ، وكان أعلامه أسير فى العالمين ذكرا

ولم يقتصر أدباء الانجليزية على آثار التاريخ يستوحونها ما فيها من منادح الوصف الشائق والتصوير المجسم ، بل عمدوا إلى الخرافة ولعلها أحفل بذلك من التاريخ ، إذ كانت أحفل منه بآثار الخيال وأحلام الانسانية ومثلها العليا فى القوة والجمال والسعادة ، فاتخذ الشعراء والقصاصون تلك الخرافات مادة وهيكلا لمنشآتهم ، ورصعوها بما شاءت لهم براعتهم من أوصاف ووجدوا فى أشعار هوميروس وفرجيل وقصص العصور الوسطى وأساطير الشرق والغرب مجالا لفنهم ، فأعادوا سرد ما راعهم من حوادثها ومواقفها سردا فنيا مسهب الوصف مشبعا بجميل المناظر والعواطف .

وكما يختلف الوصف فى الانجليزية عنه فى العربية فى الموضوع اختلافا كبيراً ، يخالفه فى الوسيلة مخالفة معدودة ، ففى العربية أوصاف بالغة من الكمال والامتاع ، بيد أنها جميعاً تعتمد على المعنى دون اللفظ ، وعلى التشبيهات والمجازات ، وتحتوى على كأن أو كاف التشبيه ظاهرة أو مستترة ، أما فى الانجليزية فيستعين الشعراء بجانب هاتيك جميعاً على وسيلة أخرى ، ليست أقل أداء للغرض وتصويراً للمنظر وإشباعا للخيال والحواس ، تلك هى الملاءمة بين صوت اللفظ وبين المعنى المصوغ فيه

وهذه الطريقة التى يلجأ إليها الانسان عمداً وعن وعى فى طور الأدب الفنى ، قد لجأ إليها فى عهوده البدائية ، أيام كان يصوغ ألفاظ لغته ويطلق كلا منها على كائن من الكائنات ، أو صوت من الأصوات ، أو عمل من الأعمال ، أو غير ذلك . فألفاظ الرشاش والشواظ والسلسبيل والسكون وغيرها ، تدل بنطقها على مدلولها لأن الأقدمين إنما اشتقوها من هيئة مدلولاتها ، فعلوا ذلك عفوا وبداهة ، حتى إذا ما بلغ الأدب الطور الفنى واستعان الشعراء والكتاب بالتدوين وأطالوا التجويد لما ينشئون استرعت الألفاظ انتباههم بعد أن كان جل اهتمامهم موجها إلى المعانى ؛ وعند هذا الحد من التطور افترق الأدبان العربى والانجليزى فى طريقة استخدام الألفاظ . فأما الأدب العربى فجعل اللفظ غاية فى ذاته ، وجعل التأنق فيه مطمحا مستقلا ، وأما الأدب الانجليزى فعالج اللفظ وراضه وتأنق فى صياغته ، ولكن لا على أنه غاية فى نفسه ، بل على أنه وسيلة للمعنى لا أكثر

فاذا كان فى المنظر المراد تصويره حركة كجريان نهر أو عدو جواد ، استخدم الشاعر الانجليزى بحراً من بحور الشعر يلائم تلك الحركة ، وإذا كان به صوت أو أصوات مختلطة كهدير الأمواج أو قصف المدافع ، اختار من الألفاظ تلك التى تحتوى على حروف خشنة قوية ، وإذا كان يصف منظراً ساكناً وادعا

لم يذكر ذلك فى القصيدة ذكراً ، وإنما استعمل الألفاظ ذات الحروف اللينة كالسين مثلا ، وهناك عدا هذا وذاك ضروب شتى من الملاءمة بين الصيغة والمعنى يفتن فيها الشاعر الوصاف ماشاء له فنه ، ككثرة العطف أو القطع ، وتكرار الحروف أو الكلمات أو التراكيب أو الشطور أو الأبيات الكاملة . وقد اشتهر بالتفنن فى هذا التصوير اللفظى تنيسون وسبنسر وملتون ، بل سائر أقطاب الشعر الانجليزى ، بل جاراهم فى ذلك بعض الكتاب مثل ستيفنسون

وقد وقع شىء من ذلك فى بعض أشعار الوصف فى العربية ، ولكنه كان إلهاماً محضاً أو اتفاقا عارضاً ساقت الشاعر إليه الصدفة السعيدة أو السليقة الجيدة ، دون أن يتعمده عن وعى أو يتكلف فيه عناء كالذى تكلفه فى استخراج ما به من تشبيه ومجاز .

و يتجلى الفرق بين الأدبين فى هذا الصدد فى علم البديع فيهما : فالبديع فى العربية يشمل الجناس والسجع وهلم جرا ، وهى محسنات للفظ مستقلا بنفسه وليست لها علاقة بالمعنى ، أما علم البديع فى الانجليزية فيشمل الملاءمة بين جرس الألفاظ وبين المعانى التى تؤديها ، ويشمل تشابه الحروف الأولى فى جميع ألفاظ الجملة الواحدة لأداء المعنى بطريق الجرس أيضاً ، وغير ذلك من حلى بلاغية ليست لها مصطلحات تترجم إليها فى العربية ، لأنها لم تكن من مألوف أدبائها (١)

واللغة العربية بغزارة مادتها وتلاطم عبابها وتعدد أوزانها وقوافيها ، وجمعها بين وعر الألفاظ ولينها ، ودقيق الأوصاف وجليلها ، وما لها من مرونة فى التراكيب ورحب فى الأساليب ومطاوعة لفن الأديب ، هى خير معوان له على إبراز شتى الصور من جرس الحروف وتتابع الألفاظ وتجاور التراكيب ، وتدفع الأوزان ورنين القوافى . انظر إلى الوزن كيف ساعد على إبراز المعنى فى قول بشار فى صوت مغنية :

تميت به أرواحنا وقلوبنا ... مرارا وتحييهن بعد هجود

وقول ابن المعتز فى خيل السباق :

خرجن وبعضهن قريب بعض ... سوى فوت العذار أو العنان
ترى ذا السبق والمسبوق منها ... كما بسطت أناملها اليدان

ساعدت السليقة المواتية أو الجد الموفق بشارا ، فجاء بيته ذاك ببحره الطويل وحروف اللين المتتالية الوئيدة الحركة فى « تميت » و « أرواحنا » و « قلوبنا » و « مرارا » و « تحييهن » و « هجود » أصدق مصور لصوت المغنية إذا هى مددته وخالفت بين المدات فيه والقصرات ، ويبدو ذلك جلياً إذا قرىء البيت على مهل . كذلك حالف التوفيق ابن المعتز فاختار لبيتيه البحر الوافر المتدفق تدفق الخيل فى مجالها ، وحالفه التوفيق مرة أخرى فذكر العذار والعنان ، وفضلا عن أن تتابع هذين اللفظين مما يزيد الحركة جلاء فإن ذكرهما مما يزيد الصورة تجسيما ، فإن ذكر جزء من الصورة دون بقية الأجزاء كثيرا ما يزيد الصورة وضوحا ، ويبعث من تلقاء نفسه باقى الأجزاء إلى الخيال . ولذلك مثال آخر فى قول جميل :

ولما قضينا من منى كل حاجة ... ومسح بالأركان من هو ماسح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطى الأباطح

فذكر الأعناق هنا بلاغة فائقة ، فهو يستتبع إلى المخيلة منظر الابل والأباطح والركب ، ويرسم حركة المطى معا . ومما يزيد الحركة تصويرا أيضاً اختيار الشاعر البحر الطويل البطىء النغم . وهناك وسائل أخرى لتجسيم الحركة البطيئة ، منها كثرة العطف ففيها دلالة على التطاول والتوانى ، ومنها كثرة الألفاظ القصيرة فإنها تستغرق نفس القارىء حتى يكاد يلهث بعد قراءتها ، ومن ثم يشعر بالبطء فى المعنى تبعاً للبطء فى اللفظ . ومثال الوسيلة الأولى قول امرىء القيس فى تطاول الليل

فقلت له لما تمطى بصلبه ... وأردف أعجازا وناء بكلكل

ومثال الثانية قول المتنبى :

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه ... وفى أذن الجوزاء منــــه زمازم

فقد احتوى بيت امرىء القيس على ثلاث جمل معطوفة ، واحتوت الشطرة الأولى من بيت المتنبى على خمس كلمات كلها قصير ، إذا قرأها القارىء متروياجاءت بطيئة مشعرة ببطء الجيش أو موحية بضخامته ، فلم يذكر المتنبى صراحة ومباشرة أن الجيش كان ضخما ، فيعتمد على المعنى وحده فى إعطائنا الصورة ، بل أوحى إلينا بمعنى الفخامة بوساطة كلمات الشرق والغرب والزحف ، ولا علاقة لهذه الكلمات فى غير هذا البيت بالضخامة قط ، وبذلك استخدم المتنبى اللفظ ونطقه لأداء المعنى وهى هى الوسيلة التى استغلها أدباء الانجليزية قصداً وعمداً أكبر استغلال وأبدعه . أما الحركة السريعة فيؤديها البحر الكامل المتدفع ، وهو لذلك خير ما يصور فيه عدو الجياد ، كما فى قول المتنبى

أقبلت تبسم والجياد عوابس ... يخببن بالحلق المضاعف والقنا

وقول ابن هانىء الأندلسى :

وفوارس لاالهضب يوم مغارها ... هضب ولا الوعر الحزون حزون

ففى هذين البيتين تصوير رائع لعدو الخيل . وقد ساعد التوفيق

---

(١) ليس فى اللغات كلها أوسع ولا أدق من علم البديع فى اللغة العربية . والمحسنات المعنوية فيه ثلاثة أرباعه . والنوع الذى يصفه الكاتب الفاضل فى الانجليزية يشبه (ائتلاف اللفظ والمعنى) فى العربية (الرسالة)

الشاعرين فى ألفاظهما بجانب الوزن الذى اختاراه ، فتكرار حرف الباء فى بيت أبى الطيب مما يزيد وقع حوافر الخيل فى بيته جلبة ووضوحا ، وتكرار كلمتى الهضب والحزون فى بيت ابن هانىء يوحى إلى المخيلة تتابع الهضاب والروابى أثناء عدو الفوارس ، حتى يكاد يتخيل الانسان سيقان الخيل وهى تنهب تلك الحزون وتقفز من ربوة إلى ربوة . ويكاد البيت يعرض أمامك شريطاً سينمائيا متحركا ، ومتى بلغ الشاعر هذا المدى من دقة التصوير وروعته ، فقد أوفى على الغاية من الفن والشاعرية ، كذلك نرى الوزن واللفظ قد اصطلحا على إبراز المعانى فى قول مسلم بن الوليد فى مفازة :

تمشى الرياح بها حيرى مولهة حسرى تلوذ بأطراف الجلاميد

وقول ابن حمديس :

وراقصة لقطت رجلهـــا حساب يد نقرت طارها

وقول المتنبى :

فى سعة الخافقين مضطرب وفى بلاد من أختها بدل

ففى بيت مسلم تكاد تحس الرياح المحرقة تلفح وجوهنا وتمثلها تضرب جوانب الصخور ؛ وفى بيت الصقلى تمثل حركة الراقصة السريعة الخاطفة ؛ وفى البيت الثالث تمثل المتنبى على ظهر ناقته وهى تخالف بين أظلافها ممعنة فى الذهاب ، لما يمتاز به بحر المنسرح من اضطراب الحركة واندفاعها ، على حين يمتاز بحر الخفيف بالتؤدة وزنة الحزن ، مما يجعله أليق البحور بالمراثى والوجدانيات ، وهو من أهم أسباب سيماء الوقار والشجن التى تتسم بها دالية المعرى المشهورة التى مطلعها :

غير مجد فى ملتى واعتقادى نوح باك ولا ترنم شاد

وصفوة القول أن الأدبين العربى والانجليزى قد احتويا على بدائع من الوصف ، هى غذاء اللب ومتاع الخيال ؛ بيد أن آثارها فى الأدب الانجليزى أغزر ، ونواحيها أكثر تعددا ، ونصيب الطبيعة منها أوفر ، ووسائلها أكثر عددا واختلافا ، وأدباء الانجليزية كانوا أكثر بصرا بها وأطول رياضة لها ، وكان نجاحهم فيها راجعا إلى المجهود المتبصر الواعى ، بجانب الطبع الصادق المواتى على حين كان نجاح أدباء العربية الذى مرت بعض أمثلته راجعا فى أكثر الأحيان إلى عفو الخاطر وهداية البديهة ، وما ذاك إلا لأن أدباء الانجليزية كانوا أكثر عكوفا على فنهم ، وتفرغا لأدبهم . على حين كان أدباء العربية يولون الأمراء وذوى الهبات من اهتمامهم وتفرغهم ما كان فنهم به أحق ، وشاعريتهم به أولى

فخرى أبو السعود

٨٠٤٧

ثورة دجـــلة

للأستاذ على الطنطاوى

« ازدادت دجلة يومي الأربعاء والخميس ٣ ، ٤ صفر ١٣٥٥ زيادة هائلة لم تكن منتظرة ، وغدت بغداد عرضة للغرق بين كل لحظة وأخرى ، وسبق الناس كلهم للعمل على إقامة السدود ، ولم تغمض فى بغداد ليلة الخميس عين ... وكان شىء عظيم ... »

كانت تجرى فى الوادى حالمة سكرى ، غارقة فى بحر من الحب والشعر ، هادئة لا ترى فيها إلا آثار هذه القبل المعطرة المعسولة التى تطبعها الشمس على وجنتيها الصافيتين كل صباح ومساء ، تخطفها منها فى غفلة من الطبيعة ، فلا يبصرها إلا الشفق الذى يطل من نافذة الأفق يرمقها بنظرة الكاشح الحاسد ، فيحمر وجه دجلة الفتاة من الخجل . وتغمض عينها من الحياء ثم تسرع فى جريها . . .

وكانت تلتق بين ذراعيها العاشقين المدلهين ، كلما دجا الليل وأطفىء مصباح الكون ، وهم فى الزوارق ذوات الأجنحة البيض التى تشبه قلوبهم فى بياضها وخفقانها ، فتحدب عليهم ، وتحفظ أسرارهم ، وتمنحهم الخلوة الحلوة الآمنة ، ، تترع نفوسهم بالجمال والشعر ، حتى يغيبوا عن الوجود فى حلم فاتن بديد . . .

وكانت تغضى عن هذا النخيل العاشق ، وقد تعانق كل زوجين منه ، وتلامسا بالشفاه ، واستسلما إلى الغيبة الهنيئة ، وعن هذه القصور التى تفيأت ظلاله ، سكرى بخمرة الجمال ، قد ضمت أحناءها على حياة لذة وادعة ، ملؤها الحب . . .

وكانت دجلة جمال العراق ونعمته وحياته . . .

° ° °

وكنت أذهب كل مساء ، إلى جسر مود ، انحدر إليه من الرصافة ، أمشى فى طريق ضيق ، كأنى أهبط وادياً من أودية بلادى الحبيبة ، ثم أصعد حتى أبلغ ضفة الكرخ ، فاسلك شوارع الصالحية ، حتى أصل إلى المطار . . . حيث أبقى ساعة شاخصا إلى الأفق البعيد أتبصر فيه طيف موطنى الأصغر(١) وأتحسس نسمه فأشم فيه شذا الغوطة ، وانشق ريا نشرها العطر ، وعرف آسها ونسرينها ، وفلها وياسمينها ، وزنبقها ونرجسها . . . حتى إذا قضيت

(١) أما موطنى الأكبر ، وموطن كل مسلم ، فكل بلد يقول أهله . لا إله إلا الله محمد رسول الله ، سواء لدى أقالوها بالعربية أم باى لسان

من ذلك وطراً ، عدت وقد خلا الجسر ، لحييت دجلة ، وصببت فى أذنيها آلامى وأحزانى ، واستمنحتها الراحة والاطمئنان ، ثم مضيت إلى وكرى المنعزل ، فى « الأعظمية » بنفس هادئة كدجلة مطمئنة كاطمئنانها . . .

* * *

وذهبت فى مساء الأمس ، كما كنت أذهب ، فإذا الأرض قد بدلت غير الأرض ، وإذا الجسر الذى كان واديا تنحدر إليه ، قد أمسى جبلا تتسلقه ، وصار أعلى من الشارع وقد كان تحته ، وإذا الناس يقبلون عليه ، فأقبلت معهم وعلى وجهى من الدهشة والحيرة مثل ماعلى وجوههم من الروعة والفزع ، ونظرت فاذا النهر الذى كان يجرى فى الأعماق هادئا متطامنا حالما ، يبدو كأنه صفحة المرآة ، لاتنداح عليه دائرة ، ولا تموج فيه موجة ؛ قد علا وارتفع وعاد ثائراً هائجاً فضاحا ، له هدير ودردرة ، قد علاه موج كالروابى . . . وإذا هو قد نسى سنه ووقاره . وأضاع حلمه وعقله ، ورجع شابا مجنونا أهوج ، يقفز ويصرخ ، ويقرع الأرض بقدميه ، ويضرب بقبضته القويتين المخيفتين أبنية الشاطىء الآمن ، ويعبث بهذه الكرات الحديدية الضخمة ، التى أقيمت لتثبيت الجسر العائم والتى ترجح بالقناطير ، وتزن الصخور الجلاميد ، ويقذف بها هنا وهناك كما يقذف الصبى كرته . . . وإذا هو مرعب حقا ، يدخل الروع على أجلد الرجال . . .

وكانت الوجوه كالحة ، قد ارتسمت عليها سمات الذعر الشديد والماء يرتفع ، لم يبق بينه وبين الشاطىء إلا شبر واحد . لقد بلغ عمق المياه خمسة وثلاثين مترا وعشرين معشارا . . . وخمسين . . . إنه لايزال يرتفع . . . لقد صاقب الشاطىء . . . إن بغداد فى خطر !

* * *

وطارت كلمة الخطر على الألسنة ، ففزع الشعب ، واهتمت الحكومة ، ووضع قانون المساعدة الالزامية ، فابتدر الناس الشاطىء ، واستبقوا إلى العمل . . . يقيمون السدود ، ويضعون للجنون القيود ، ولكن المجنون لايبالى بقيد الذباب . . . إنه يقتل أمة منها بضربة واحدة . . .

إن النمر(١) يقفز فى حبسه ويثب ، لقد جن : إنه يريد أن يخرج فينبعث فى الأرض ، يريد أن يمشى إلى هذه الجنات الظليلة ، التى طالما أمدها بالحياة ، وحمل إليها النعمة ، ليحمل إليها الموت !

وبدأ الصراع المهول بين الطبيعة والانسان . . . وامسى المساء على بغداد وهى قائمة على قدم وساق ، ليس فيها من يبيع أو يشترى أو يلهو أو يلعب ، أو يطعم أو يشرب . . ليس لها إلا غاية واحدة ، هى النجاة من الغرق . . .

وكنت قد بلغت منزلى فصعدت السطح ، فانحسرت أمامى صفحة دجلة ، وهى تلتوى من حول الأعظمية كالأفعى ، تطيف بها كالقضاء النازل ، وقد استرخت عند المنحنى وتمددت على الحقول والدور التى هجرها أهلوها ، فصار عرضها أكثر من ألفى متر . . . وصارت بحراً خضما ، ولكنه يركض دفاعا يحمل فى طياته الموت والغرق والخراب ، وكانت حمرة الشفق تخالط الماء ، فيلتهب فيبدو كأنه أتون مستعر ، أو كأنه جهنم الحمراء . . .

وبسط الليل ثوبه الأسود على الدنيا ، فأخفى تحته ثمانية وأربعين ألف شاب ، يشتغلون لينقذوا بغداد من الغرق المحقق ، من ورائهم أربعمائة ألف قلب ، تحوطهم بالرعاية والحب . . .

واستمر الصراع المهول . . .

* * *

وكان الناس من الفزع والذعر كأنهم فى يوم القيامة ؛ غير أن المرء فى يوم القيامة يجد مايشغله عن أمه وبنيه ، وصاحبته وأخيه ؛ وهنا أم حائرة مولهة قد ضاع منها ولدها فى وسط الزحمة فهى تعدو وتصيح من غير وعى لاتدرى أهو فى الأحياء ، أم افترسه هذا النمر الجبار . . . وهنا بنت تفتش عن أمها ، وولد ينادى أخاه ، وأسرة قد هيأت متاعها ووقفت على باب الدار تنظر الساعة الرهيبة التى يطغى فيها الماء فيدك أدوارها وما فيها ويدعها فقيرة مسكينة ، مسكنها الشارع ... وشباب عصفت النخوة برؤوسهم فهم يقدمون ، يتسابقون إلى الخطر ... وتلاميذ قد دفعتهم الحمية فأقبلوا يتبادرون الموت ، والجنود يعملون فى كل مكان بهمم الأسود ...

كان الصراخ يملأ الجو : هتاف الشباب ، وأنغام الجند ، وصياح النساء ، ونداء الأولاد ، والنهر فوق ذلك كله يهدر هديره المستمر المرعب ، فيكون له فى هذا الليل دوى مخيف ، والحركة متصلة ، والشوارع ممتلئة بالناس . . .

ولكن السلامة توالت . ووقف النهر عن الارتفاع ، ولم يقع الثبق (أى الكسر) الذى كانوا يخشونه ، وكان قد تصرم الهزيع الأول من الليل ، فأمن الناس ، وتفرقوا إلا قليلا قاموا يحرسون النهر ، ودخلوا بيوتهم ، وولجت دارى أستريح ، فما لبثت أن ذهبت فى رقدة عميقة .

* * *

رأيت المياه تنساب فى كل جهة ، تغنى أغنية الرعب ، تقتلع البيوت ثم تلقى بها إلى بعيد ، وتلج فى باطن الأرض ثم تقلبها بما

(١) اسم دجلة بالفرنسية (Tigre) وبالانكليزية (تايجرس) ومعناه كليهما . . . النمر !

عليها ، وتصعد فى الجو ، ثم تنزل كالبلاء المصبوب . . ثم انصدع صدع عظيم وهويت إلى قعر الهاوية ، وكان حولى مئات من النمور والفهود والأفاعى ، وسمعت رعداً شديداً ، ورأيت برقاً ومطراً ، ثم عادت السيول تجرى ،تدحرج آلافاً من الصخور .

. . . ففتحت عينى . . وإذا الحلم حقيقة ، وإذا الصيحة فى الحى والقيامة قد قامت ، وخفارات الحراس ، وأبواق الجنود تصدح باستمرار ، والنساء يولولن ويعدون ، والأطفال تبكى وتركض فى كل مكان ، والرجال تصيح طالبة النجدة ؛ وتبينت وسط الضجة الكلمة الرهيبة : كسر النهر . . النهر انكسر !

وتدفق سيل العرم !

* * *

إن هذا النهر الذى جاء من قمم الأناضول الشاهقة وسلك على السهول الممرعة ، والصحارى المجدبة ، قد تعب من سيره الطويل المضنى . فجاء يستريح على هذه الحقول التى زخرفها الربيع وأزهر فيها النارنج ، وفتح الورد والقرنفل والفل ، واترع نسيمها العطر . فيحيل ذلك كله إلى صحراء قاحلة . . جاء يغرس هذه الحياة الرخية السعيدة بزور اليتم والفقر والنكد .

ولكن الذنب علينا ؛ لو أنا أنشأنا له ماوى يستريح فيه وسريراً ينام عليه ، لهجع فيه إلى أيام الصيف ، ثم لخرج بالبركة واليمن إلى أراضينا وبلادنا !

* * *

تركت الدار وخرجت أسبح فى هذا الخضم من الناس ، أدفع النساء والشيوخ والشباب ، لأصل إلى الشاطىء فأعمل عملا ولست أدرى ما ذا أعمل ؟ ولست أحسن السباحة ، ولست أعلم ما الفائدة من ذهابى ، ولم أفكر فى شىء من ذلك لأن الانسان لا يفكر فى ساعة الخطر ، وإنما يعمل . . فلما وقفت على الصدع هالنى وارعبنى أن النمر قد أفلت من القفص . وخرج يعدو مجنوناً مستطار اللب ، كاشراً عن أنيابه يزمجر ويزأر ، ويبرق ويرعد

إن الماء يندفع إلى العلاء بقوة الديناميت ، ثم ينزل على الحقول ، فيقضى فيها مكتسحاً كل شىء فى طريقه ، يقتلع الأشجار الضخمة ، ويقذف بها كأنما هى عيدان الكبريت ، وينسف البيوت كأنما هى أعلب من الورق ، ويتدفق من كل جهة . . . وقد ابتلع صوته المدوى كل ضجة ، وملأ الأسماع بترتيلة الموت المستمرة . . . وكان لمنظره فى ظلمة الليل صورة لا توصف . .

وأقدم الناس ، يسبقون الماء ليقيموا فى وجهه السدود ، ليقيدوا هذا النمر الهائج بحمية منقطعة النظير ، وحماسة نادرة المثال . . . وأقدمت أخوض هذه اللجة من الناس ، لأصل إلى هذه اللجة الطامية من الماء أمشى فى ظلتين : ظلمة هذا الحشد المزدحم . وظلمة الليل البهيم ، أتعرض لرهبتين : رهبة الليل وسواده ، والسيل واندفاعه . أصغى إلى لحنين : لحن الروع على ألسنة الناس ، ولحن الهول على لسان النهر . . .

ولم أخش شيئاً . . .

إنها ساعة الخطر . . .

بوركت ياساعة الخطر ! أنت لحظة الانسانية . أنت التى تورق فيك أغصان الحب ، ويزهر فيك الاخلاص ، ويعود الناس فيك إخواناً متحابين . قد خرجوا من أطماعهم ومات فى نفوسهم الحسد والبغضاء وعاش فيها الحب والتضحية والاخلاص والوئام . .

* * *

تقدمت إلى الأمام ولكنى لم أصل إلى شىء ، لأن الناس كانوا يستبقون العمل ، ويهرعون إلى الموت ، كأن العمل غنيمة ، والموت وليمة . . وكانوا يصرخون صراخ الحية . ويهتفون باسم الوطن والمروءة والشجاعة . . ومرت على ذلك ساعة كاملة والصدع يتسع ، والماء يزداد اندفاعاً ، فكلت الأيدى النشيطة ، وجمدت الصيحات والأناشيد على الشفاه ، وخامر الناس اليأس . .

هنالك انتبهت فا ذا أنا أسمع النشيد الذى ارتقبه وأصبوا إليه ، ليس نشيد الوطن والمروءة ولكنه أجل وأقوى ، النشيد الذى له قوة السيل ، وعظمة البحر ، وبهاء الشمس ، وصلادة الصخور . النشيد الذى لا يقوم له شىء ، النشيد الذى كان أجدادنا يهتفون به ، كلما حاقت بهم ضجة فيدكون به كل حصن ويكتسحون كل عدو ، ويخلصون من كل خطر . النشيد الذى يحيل الجبان بطلا . واليأس أملا ، والطفل رجلا . .

ذلك هو نشيد الرجال والنساء والأطفال بصوت واحد يجرى على قرع الطبل ، فيشق الليل ، ويخشع له كل من يسمعه حتى النخيل والحقول ، والسحاب والنجوم ، وهذا النمر الثائر

الله أكبر ـ الله أكبر ـ لا إله الا الله

الله أكبر ـ الله أكبر ـ ولله الحمد

* * *

وبدأ الصراع كرة ثانية . .

وأقبلوا على العمل بهمم لا تنثنى ، وقلوب لا تلين ، وسواعد لا تكل . .

وصب النشيد فى عروقهم روح الظفر . . .

فظفروا . . .

* * *

وعند ما كانت الشمس تطبع أول قبلاتها على جبين الكون كان الموكب الظافر قد رجع ، يحمل أجمل أزهار الرياض التى أنقذها وحماها من الغرق . . . يمشى فيه الجند والطلاب ، بصفوف

منتظمة ، قرأت فيها أروع شعر الحياة . . . كما تلوت فى هذه الجماهير المنثورة فى كل مكان أبلغ « نثرها » . . .

وكان الإشراق يكسو الوجوه ، وغناء النصر يرقص على الألسنة . . .

فوقفت أحيي هذه المواكب الماجدة ، حتى غابت عنى فى طريقها إلى بغداد :

ألف تحية أيها الأبطال الذين مشوا إلى الموت ، لينقذوا بلادهم من الموت .

ألف تحية أيها الشعب القوى العامل الجرىء .

ألف تحية أيها الطلاب المبرؤون الذين حملوا الفئوس والمعاول ، وأقاموا من جسومهم الملساء الناعمة سداً فى وجه هذا السيل الطامى . . .

ألف تحية أيها الجنود البواسل ، ياحماة الديار ، يامن وطنوا نفوسهم على محاربة كل من يريد بلادهم شراً ، سواء لديهم أكان جبارا من جبابرة الأنس ، أو عفريتا من عفاريت الجن ، أو قوة من قوى الطبيعة . . .

لكم منى ألف تحية ، ألف سلام !

(بغداد) **على الطنطاوى**

سر مجهول

فى تحريم لحم الخنزير

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

— ٢ —

ويمكننا بعد هذا أن نحكم بأن الخنزير من جنس السباع مثل الكلب ، لأنا إذا جرينا على ما جاء فى القاموس من أن السبع هو المفترس من الحيوان فالخنزير يفترس الحيوانات كالسبع ، خصوصا إذا لم يجد ما يأكله من العشب . فإنه يصير إلى أن يكون آكل لحوم ، فيفترس الحيوانات الحية ، ويأكل من لحومها ، كما جاء فى كتاب (الحجج البينات فى علم الحيوانات)

وكذلك إذا جرينا على ما جاء فى كتاب النهاية لابن الأثير من أن السبع هو ما يفترس الحيوان ويأكله قهرا وقسرا ، لأن هذا يوجد فى الخنزير أيضا ، أما إذا جرينا على ما ذكره أبو حنيفة من أن كل ما أكل اللحم فهو سبع فأمر الخنزير فى السبعية عليه أظهر ، لأنه لا يشترط فيها الافتراس كما اشترطه فيها غيره ، بل يكتفى فيها بأكل اللحم ، ولذلك عد الفيل ونحوه من جنس السبع

فأما إذا جرينا على ما ذكره الشافعى من أن السباع المحرمة هى التى تعدو على الناس فانا نجده ضيق فى ذلك بما لم يضيق به غيره ، ولكن الخنزير يدخل فى السباع على ذلك أيضاً ، لأن الخنازير كثيراً ما تجاهر الناس العداء وتحمل على الانسان بدون أن يغيظها ، كما جاء فى دائرة معارف البستانى

على أن الحديث الوارد فى تحريم السباع (كل ذى ناب من السباع فأكله حرام) يظهر منه أن لأنياب السباع أثراً فى تحريمها ، بل الظاهر منه أنها هى العلة فى هذا التحريم . ولا شك أن هذه العلة فى الخنزير أظهر منها فى سائر السباع لأن قوة نابه لا توجد فى غيره منها ، وقد بلغ من أمرها أن يتغلب بها أحياناً على الأسد ، كما جاء فى كتاب حياة الحيوان وغيره من الكتب القديمة والحديثة فى علم الحيوان

وإذن يكون تحريم لحم الخنزير لسبعيته ، وتكون هذه السبعية هى التى جعلت الاسلام ينظر اليه هذه النظرة البغيضة . وإذا كان الاسلام قد اهتم بأمره أكثر من غيره من السباع فأنزل تحريمه فى القرآن الكريم ، وحكم بنجاسته مع تحريمه ولم يحكم بنجاسة غيره من جنسه ، فان الجاحظ رحمه الله قد بين حكمة ذلك فى كتاب الحيوان (ج ٤ ص ١٣) وإن كانت هذه الحكمة قد جاءت فى الموازنة التى عقدها بينه وبين القرد ، لا فيما نحن بصدده من ذلك الأمر السابق ؛ وهذا ما قاله فى تلك الحكمة : إنما خص الخنزير بالذكر دون القرد مع استوائهما فى المسخ لما فيه من قبح المنظر ، وسماجة التمثيل ، وقبح الصوت ، وأكل العذرة مع الخلاف الشديد ، واللواطة المفرطة ، والاخلاق السمجة . وقد زعم ناس أن العرب لم تكن تأكل القرود . وكان بعض كبار القبائل وملوكها يأكلون الخنزير ، فأظهر الله لذلك تحريمه إذ كان هناك عالم من الناس . وكثير من الاشراف والوضعاء . والملوك والسوقة ، يأكلونه أشد الأكل ، ويرغبون فى لحمه أشد الرغبة .

ثم ذكر أن الخنزير يكون أهلياً ووحشياً كالجاميز والسنانير مما يعايش الناس، وكلها لا تقبل الآداب، وأن الفهود وهى وحشية تقبل كلها ذلك، كما تقبله البوازى والشواهين وغيرها، والخنزير وإن كان بهيمة فهو فى طباع ذئب

فهذه الخصال التى اجتمعت فى الخنزير هى التى جعلت الاسلام يهتم بأمر تحريمه ذلك الاهتمام؛ والمهم منها فى نظرنا ما ذكره الجاحظ من شغف كثير من الناس بأكل لحمه واستطابته فان هذا فى الحقيقة هو الذى اقتضى أن يعنى بأمر تحريمه فى الاسلام هذه العناية.

وقد أجمع الفقهاء بسبب ذلك على تحريم لحم الخنزير واختلفوا فى تحريم لحم غيره من السباع، لأنه لم ينص على تحريمها. فى القرآن كما نص على تحريمه، ولكن جمهورهم على تحريم لحمها أيضاً، ومن خالفهم فى ذلك قال بكراهة لحمها دون تحريمه. وقد اختلفوا أيضاً فى تحريم الخنزير البحرى، قال الربيع: سئل الشافعى رضى الله تعالى عنه عن خنزير الماء فقال: يؤكل

وروى أنه لما دخل العراق قال فيه حرمه أبو حنيفة وأحله ابن أبى ليلى، وروى هذا القول عن عمر وعثمان وابن عباس وغيرهم. وقد أبى مالك أن يقول فيه شيئا، وأبقاه مرة أخرى على جهة الورع. وحكى ابن أبى هريرة عن ابن خيران أن أكارا صاد له خنزير ماء وحمله إليه فأكله، وقال كان طعمه موافقا لطعم الحوت سواء. وقال ابن وهب سألت الليث بن سعد عنه فقال: إن سماه الناس خنزيرا لم يؤكل، لأن الله حرم الخنزير

وهذه العلة التى ذكرناها فى تحريم لحم الخنزير قد علل بها تحريم لحم الكلب أيضا، ولا يخفى أن الخنزير والكلب يتساويان فى نظر الشارع من هذه الناحية. وقد صرح ابن حميد السالمى الفقيه الاباضى بهذه العلة فى تحريم لحم الكلب فقال فى باب أحكام صنوف الحيوانات من أرجوزته المساة (جوهر النظام فى علمى الأديان والأحكام)

وما الكلابُ عندنا حلالُ ولا السَّنانير كما يقالُ
لأنها من السباع الضارية وبعضهم أحلها علانيه

وهذه العلة أظهر فى الخنزير من الكلب، لأنها تعتمد على وجود الناب الذى يحصل الافتراس به، وقد سبق أن الخنزير أقوى الحيوان ناباً، حتى إنه يتغلب بقوة نابه على الأسد وغيره

أما حكمة تحريم لحم السباع لحفظ الانسان من صفاتها الوحشية المنافية لبقاء العمران، لأن غذاء الانسان له تأثير كبير فى صفاته وأخلاقه. وقد غالى بعض الشرائع فحرم لحم الحيوان مطلقا لأنه يورث فى نفوس البشر ما يورث من القسوة والغلظة. والشريعة الاسلامية تنظر إلى لحم الحيوان نظرة معتدلة، فتبيحه فى اعتدال ولا تحرمه على أهلها. وقد روى أن من داوم على أكل اللحم أربعين يوما قسا قلبه. وقيل فى ذلك أيضا (إنما أهلك الناس الأحمران النبيذ واللحم) وعن عمر رضى الله عنه قال: إياكم واللحم فان له ضراوة كضراوة الخمر وإن الله يكره أهل البيت اللحميين. ولعل الأيام المقبلة تظهر فى تحريم لحم السباع حكما أخرى غير هذه الحكمة.

عبد المتعال الصعيدى

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٣٨ — فمن لها بزياد أو بحجاج

الأبيوَردي الأموي :

دهر تذأب من أبنائه نقد
وأوطئت عرب أعقاب أعلاج (١)
وأينع الهام لكن نام قاطفها
فمن لها بزياد أو بحجاج (٢)
وكم أهبنا إليها بالملوك فلم نظفر بأروع ، للغماء فراج !

٣٩ — أفضل المناديل

في (الكامل) :

قال عبد الملك بن مروان يوماً لجلسائه (وكان يجتنب غير الأدباء) : أي المناديل أفضل ؟

فقال قائل منهم : مناديل مصر كأنها غرقىء البيض (٣)

وقال آخر : مناديل اليمن كأنها أنوار الربيع (٤)

فقال عبد الملك : ما صنعتما شيئاً . أفضل المناديل ماقال أخو تميم (يعني عبدة بن الطيب) :

ثمت قمنا إلى جُرْد مسوَّمة أعرافهن لأيدينا مناديل (٥)

٤٠ — كفيت الدعوة

في (مجمع الأمثال) للميداني :

أصل هذا المثل : (كفيت الدعوة) أن بعض المجان نزل براهب في صومعته ، وساعده على دينه ، وجعل يقتدى

(١) النقد : صغار الغنم واحدتها نقدة والجمع نقاد . يقال : هو أذل من النقد

(٢) في خطبة الحجاج في الكوفة : اني لأرى رؤوسا قد اينعت وحان قطافها واني لصاحبها

(٣) الغرقىء قشر البيض الذى تحت القيض . والقيض القشرة العليا اليابسة على البيضة . والآح والقرقد بياض البيض والمح صفرة البيض

(٤) الأنوار : الازهار

(٥) الجرد : الخيل القصار الشعرة . المسومة : المعلمة

به ، ويزيد عليه في صلاته وصيامه ؛ ثم إنه سرق صليب ذهب كان عنده ، واستأذن لمفارقته ، فأذن له ، وزوده من طعامه .

ولما ودعه قال له : (صحبك الصليب) على رسم لهم فيمن يريدون الدعاء له بالخير . فقال له الماجن : (كُفيت الدعوة ..) فصار مثلا لمن يدعو بشيء مفروغ منه

٤١ — فارجف في السما

كان ببغداد شخص يقال له ابن بشران ، وكان كثير الأراجيف فمُنع من ذلك ، فقعد على الطريق ينجم ، فقال فيه ابن صابر :

إن ابن بشران ولست ألومه من خيفة السلطان صار منجما
طبُع المشُوم على الفضول فلم يُطق في الأرض إرجافاً فارجف في السما (١)

٤٢ — انك عن لسانه تنطق

في (طبقات الشعراء) للجمحي :

أتى الفرزدقُ الحسنَ البصريَ (٢) فقال : إني قد هجوت ابليس فاسمع

قال : لا حاجة لنا بما تقول

قال : لتسمعنّ أو لأخرجنّ فأقول : إن الحسن ينهى عن هجاء ابليس . .

فقال الحسن : اسكت فانك عن لسانه تنطق . .

٤٣ — الشيطان أصلح للشاعر

في (ثمار القلوب في المضاف والمنسوب) للثعالبي :

من ظريف أمر حسان أنه كان يقول الشعر في الجاهلية فيجيد جداً ، ويغبّر في وجوه الفحول ، ويدعي أن له شيطاناً يقول الشعر على لسانه ـ كعبارة الشعراء في ذلك ـ فلما أدرك

(١) في (شفاء الغليل) مشوم ومشوم خطأ عامي وصوابه مشؤم قاله الزبيدي . وفي (القاموس) . رجل مشؤم ومشوم . وفي (التاج) ومشوم نادر وحكمه السلامة

(٢) بكسر الباء نسبة الى البصرة وفي بائها ثلاث لغات والعالية الفتح . وفي (اللسان) البصرة حجارة رخوة الى البياض وبها سميت البصرة . وفي (القاموس) أو هو معرب (بس راه) أي كثير الطرق

الاسلام وتُبُدِّل بالشيطان الملاكُ تراجع شعره ، وكاد يرك قوله ؛ هذا ليعلم أن الشيطان أصلح للشاعر ، وأليق به . . .

٤٤ — متى تجوع ببطن غيرك

فى (كتاب القضاة) : قال سهل بن على : كنت ألازم خير بن نعيم القاضى وأجالسه وأنا يومئذ حديث السن . وكنت أراه يتجر فى الزيت ، فقلت له : وأنت أيضا تتجر ؟! فضرب بيده على كتفى ثم قال : (انتظره حتى تجوع ببطن غيرك) فقلت فى نفسى : كيف يجوع انسان ببطن غيره ؟ فلما ابتليت بالعيال إذا أنا أجوع ببطونهم

٤٥ — عمل كل واحد محضرا

قال ابن خلكان : أخبرنى ابن مطروح انه جرى بينه وبين أبى الفضل جعفر بن شمس الخلافة منازعة فى هذا البيت :

وأقول : يا أخت الغزال ملاحة !

فتقول : لا عاش الغزال ولا بقى !

فزعم ابن شمس الخلافة ان هذا البيت له من جملة قصيدة هى فى ديوانه ، وعمل كل واحد منهما محضرا شهد فيه جماعة بان البيت له . وحلف لى ابن مطروح ان البيت له ، وكان محترزا فى أقواله ، ولم تعرف منه الدعوى بما ليس له

٤٦ — الحظوظ مقسومة

فى (معجم البلدان) لياقوت الحموى : رووا عن ابن عباس انه قال : الحظوظ المقسومة لا يقدر أحد على صرفها ونقلها عن أما كنها . ألا ترى سكة اصطفانوس (فى البصرة) كان يقال لها سكة الصحابة ، نزلها عشرة من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فلم تضف الى واحد منهم ، وأضيفت الى كاتب نصرانى من أهل البحرين وتركوا الصحابة ؟

٤٧ — ماتنكر لله قدرة

فى (كتاب قضاة قرطبة) :

من المستفيض عن القاضى (أسلم بن عبد العزيز) قوله لرجل من أهل لبلة وقد أتاه وسلم عليه ثم جلس ثم قال : أتعرفنى ياقاضى ؟

قال له : لا

قال : أنا قاضى لبلة

فقال أسلم : ما تنكر لله قدرة . . .

٤٨ — أحسن توجيه

فى (خزانة) البغدادى :

كان أمين الدولة أبو الحسين بن صاعد الطبيب قاطع (محمد بن حكينا) ثم استماله ، وكان ابن حكينا قد أضر بصره وافتقر فكتب اليه :

واذا شئت ان تصالح بشار بن برد فاطرح عليه أباه . فنفّذ اليه بردا واسترضاه فاصطلحا . وهذا أحسن ما سمعت فى التوجيه [1] . قوله (بشار بن برد) أى : أعمى (فاطرح عليه أباه) هذه لفظة بغدادية ، يقال لمن يريد أن يصالح : اطرح عليه فلانا أى احمله إليه ليشفع لك . ولم يتفق لأحد فى التوجيه أحسن من هذا

٤٩ — ابن ورد يبغى أباه

مر العالم أبو القاسم بن ورد بجنة لأحد الأعيان ، فيها ورد ، فوقف بالباب وكتب إليه :

شاعر قد أتاك يبغى أباه ... عند ما اشتاق حسنه وشذاه

فلما وقف على قوله علم أنه (ابن ورد) فبادر من جنته إليه ، وأقسم فى النزول عليه ، ونثر من الورد ما استطاع بين يديه

(النقل ممنوع)

---

(١) التوجيه أن يحتمل الكلام وجهين من المعنى احتمالا مطلقا من غير تقييد بمدح أو غيره وتوجيه (المتأخرين) هو ابهام (المتقدمين) ومن شواهد الابهام :

بارك الله للحسن ... ولبوران فى الختن
يا امام الهدى ظفر ... ت ولكن ببنت من ؟

ومن شواهد التوجيه :

من أم بابك لم تبرح جوارحه ... تروى أحاديث ما أوليت من منن
فالعين عن (قرة) والكف عن (صلة) ... والقلب عن (جابر) والاذن عن (حسن)

قرة بن خالد السدوسى ، صلة بن أشيم العدوى ، جابر بن عبد الله (لا جابر الجعفى) الحسن البصرى .

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

- ٣ -

الديانة المصرية — التأليه فى العصور التاريخية

أثرت أقاصيص المعارك التى اشتعل أوارها بين المصريين فى عصور ما قبل التاريخ فى نفوس أبنائهم المصريين المدنيين تأثيراً دفعهم إلى تحوير هذه الأقاصيص الاجتماعية إلى أساطير دينية فزعموا أن « أوزيريس » — وهو إله الانبات والخصوبة وبالجملة إله النيل — قد استعان بأخته وزوجته « إيزيس » إلهة الحكمة والتشريع والسحر ورمز الوفاء والإخلاص ، وبوزيره « توت » إله العلم والتدبير وبعض الآلهة الآخرين على تكوين مملكة إلهية عظيمة فى مصر . وكان لهذا الإله أخ وهو « سيت » إله الشر والقحط والاجداب فحقد عليه من أجل هذا الجلال الباهر المثل فى مملكته العظيمة الصافية ، ولأنه لا يستطيع مجابهته وجها لوجه رهبة منه وفرقاً أمامه ، فقد غدر به إذ احتال عليه بحيلة شيطانية حتى أدخله فى تابوت كان قد صنعه خصيصاً لهذه الخديعة بحجة أنه يود أن يعرف سعة هذا التابوت ، ثم أقفله عليه وقذف به فى النيل فحمله التيار إلى المصب وسلمه إلى البحر الأبيض فحمله هذا البحر من المصب إلى « بيبلوس » . وفى أثناء ذلك افتقدته زوجته الوفية فلم تجده ، فأدركت ما حدث له ، فصممت على أن تفتش عنه حتى تعيده إلى الحياة وإلا لحقت به ، وظلت تجهد نفسها فى البحث عنه حتى عثرت عليه وأعادته إلى الدلتا وقبل أن تتمكن من فتح التابوت فاجأها « سيت » وتغلب عليها بقوته ثم مزق جسم أخيه أشلاء عددها اثنان وسبعون شلوا ، ألقى بكل شلو منها فى مقاطعة من مقاطعات مصر ، وكان عددها إذ ذاك يساوى عدد هذه الأشلاء ، فلم يفت ذلك فى شجاعة إيزيس ولم يضعضع من عزيمتها ، بل ثابرت على جمع هذه الأشلاء المتناثرة حتى استكملتها ووضعت كل واحد منها فى مكانه الطبيعى ، ثم تلت عليه بعض ما تعرفه من الرقى والتعاويذ السحرية ، فعاد إلى الحياة ، ولكنها حياة لا تشبه الحياة الأولى ، فلم يلبث على الأرض إلا بقدر ما أنسل « هوروس » ثم غادرها واستبدلها بمملكة الأموات العظيمة حيث أصبحت مهمته محاسبة أهل الدنيا ووزن أعمالهم واصدار الأمر لهم أو عليهم بالنعيم أو بالجحيم

وقد استخلف على مملكة الدنيا من بعده ابنه « هوروس » ، ولكن « سيت » عاد الى مشاكسة هذا الإله الشاب من ناحية القانون فأعلن أنه ليس ابن « أوزيريس » ، لأن « أوزيريس » قد مات منذ عهد طويل ، ولأنه من غير الممكن أن ينسل فى هذه الفترة الوجيزة التى عاد فيها إلى الحياة على الأرض . وإذاً فليس للعرش الإلهى وارث شرعى إلا هو . وقد رفع بهذه الدعوى قضية أمام محكمة الآلهة فهبت « إيزيس » تدافع عن شرفها ، و « هوروس » يثبت بنوته من « أوزيريس » ، ثم استشهدت الزوجة المتهمة والابن المجحود بالإله اللبق الفصيح « توت » فشهد بشرف الوالدة وشرعية الولد فحكمت المحكمة بالعرش المقدس لذلك الإله الشاب

ومما يلفت النظر فى هذه الأسطورة الشيقة هو أن « إيزيس » أثناء طيرانها للبحث عن أشلاء زوجها بكت حزنا عليه فسقطت من عينها دمعة فوق النيل فزاد لساعته ، وكان ذلك فى شهر بؤونة ، فظل النيل يزيد فى هذا الشهر من كل عام إلى اليوم . ومن الغريب أن يوم بدء هذه الزيادة يسمى فى أرياف مصر الى الآن بـ « يوم النقطة » أى نقطة الدمع التى نزلت من عين « إيزيس » . فانظر كيف أن هذه الثمانية آلاف سنة لم تستطع أن تمحو هذه الأسطورة من صحائف الوجود ؟!

روت بعض الأساطير المصرية الأخرى قصة « أوزيريس » و « هوروس » على نحو يخالف ذلك ، ولكن هذه الرواية هى أصح الروايات أو بالحرى هى أكثر الروايات تنسيقا على نظام الحقائق

ومهما يكن من شيء ، فإن أهم الملاحظات العظمية القيمة في هذه الأسطورة هو أن روح القانون والأنظمة الشرعية كانت سائدة في مصر سيادة تامة حتى في عهود ماقبل التاريخ ، ولولا ذلك لما طلب « سيت » عزل « هوروس » عن العرش بحجة أن بنوته من « أوزيريس » لم تثبت ، ولأن موته سابق على مولد هـذا الإله الشاب بزمن طويل . ولولا سيادة هذه الروح القانونية أيضا لما اضطرت « إزيس » إلى الاستشهاد بـ « توت » على براءتها وشرعية ابنها وأحقيته في العرش .

ويجمع على هذه الملاحظة كل العلماء الباحثين ويعدونها برهان رقي الحياة الاجتماعية والسياسية والعقلية وإن كانوا يختلفون في موضوع القضية الواردة في الأسطورة فيذهب البعض إلى تأييـد الرأي الذي ذكرناه آنفا ، وهو أن الغاية من القضية كانت إثبات بنوة « هوروس » من « أوزيريس » بوساطة زواجه من أخته « إيزيس » ويرجعون زواج الإخوة بأخواتهم عند قدماء المصريين إلى هـذه الأسطورة التي يقول البعض : إن « إيزيس » قد اذعتها لتبرر بها موقفها بعد أن ولدت «هوروس» من ناحية ، ولتمكن ابنها من الصعود إلى العرش بوسيلة شرعية من ناحية أخرى .

ويؤكد البعض الآخر من الباحثين أن القضية التي أقامتها « إيزيس » أمام محكمة الآلهة لم تكن لإثبات بنوة « هوروس » من « أوزيريس » وإنما قصدت بها إثبات حق ابنها «هوروس» في العرش بحجة أنه ابنها هي ، وهي أخت « أوزيريس » الإله الراحل ، لأن احترام المصريين القدماء للمرأة كان يجعل الوراثة عن الخال أمرا محققا ؛ ولكن الذي لا شك فيه هو أن هذه الأسطورة على وجهيها تشهد بالشوط البعيد الذي كانت مصر قد قطعته في المدنية حتى في عصر ما قبل تكوين المملكة الأولى .

ظل ذلك النزاع الذي احتدم لهيبه بين « هوروس » وعمه أو خاله « سيت » إله الشر والغدر رمزا لتلك الحروب العديدة التي كانت تقع من حين إلى آخر بين رؤساء مقاطعات الوجهين القبلي والبحري زمنا طويلا تطورت بعده إلى فكرة أجرأ من الرمز ، وهي أن كلا من الرئيسين المتحاربين أصبح يمثل أحد ذينك الإلهين المتنازعين ، ومازال هذا شأنهم حتى هب ذلك الفرعون العظيم : « مينيس » أو « مينا الأول » فكان أكثر جرأة وأعظم صراحة ، فأعلن في غير مواربة أن الإلهين كليهما قد حلا في جسده ، وأن جسمه يشتمل على الجوهر الأساسي أو روح القدس للإلهين جميعا ، وأنهما لهذا قد استخلفاه على ذلك العرش السامي الذي طالما كان موضع نزاع بينهما ، وأنه حين يضع فوق رأسه تاج الوجهين: القبلي والبحري ويضمهما تحت إمرته في شيء عظيم من الحزم لا يزيد على كونه منفذا فعليا لأمر الإلهين .

وقد تم له ما أراد ، إذ أصبح إلها حيا جامعا بين القوتين اللتين ظلتا مفترقتين إلى عهده . ومنذ هذا العصر أطلق على « مينا » وأعقابه اسم الاله أو مليك القطرين أو اسم : « هوروس » و « سيت » أو مصدر الخير والشر ، والنور والظلمة ، والخصوبة والجدب ، وأصبحت زوجته تدعى بالملكة التي تحظى في كل ليلة بـ « هوروس » و « سيت» ولكن « سيت كان في الأناشيد والأغاني يظل كامنا في أغلب الأحايين ولا يبرز على مسرح الأساطير المصرية إلا في حالات السخط والغضب ، أما في الظروف العادية فلا ترى في الأناشيد إلا فرعون ممثلا لهوروس ، مشيدا بنعمه ، شاكرا لآلائه ، متحدثا على لسانه بعظمة مصر وعرشها عنده ، كما جاء في هذه الأنشودة الموجهة إلى مصر : « تحية إليك يا مخلوقة « هوروس » التي زينها بذراعيه مجتمعتين والتي لم يسمح لها بأن تخضع لسكان المغرب ولا لسكان المشرق ولا لسكان الجنوب ولا لسكان الشمال ولا لسكان الوسط المركزي ، وإنما له هو وحده فحسب ، أنت لا تخضعين إلا لهوروس الذي خلقك وأسسك ثم سواك وزينك ، وأنت تحملين إليه كل ما فيك من خيرات حاضرة ومستقبلة وتقدمين إليه كل ما يشتهيه قلبه [1] .

« يتبع » محمد غلاب

(١) راجع كتاب الكسندر موريه « من القطون إلى الامبراطوريات » صفحتي ٢١٤ - ٢١٠



الى أين يتجه الشباب ؟

الآن تقف مصر وأكثر بلاد الشرق العربي على مفرق الطرق فى تاريخها الحديث ، فهى تودع عهداً كان غرضها فيه واحداً استنزف كل ما لديها من حيوية ونشاط ، وهو استعادة سيادتها المنصوبة ومجدها المفقود ؛ وتستقبل عهد الإصلاح والإنشاء لتعوض مافات عليها من فرص الاصلاح الداخلى ، فتصلح ما أفسده العصر المنصرم ، وتنشىء ما يطلبه العصر الجديد .

ومن شأن هذا العهد الانتقالى أن يحمل الأمة على إعادة النظر فى أساليب الكفاح ، فلكل ميدان عدته ، ولكل عهد أساليبه .

والرسالة يهمها فى هذا الباب مصير الشباب ، فنحن موقنون بأن العهد الجديد سيتناول موقفه بالتغيير وغرضه بالتحديد

حمل الشباب بالأمس علم الجهاد الوطنى ، فكان جندى المعركة المضحى بوقته ومستقبله ودمه . وسجل فى تاريخ الحركة الوطنية صفحات خالدات من الاخلاص والبطولة والتفدية .

اما الآن وقد صمت النفير ، وتوارى الخصم المهاجم وراء المفاهدة ، وارتدى ثوب الحليف ، وآب المجاهدون إلى الزرع الذى تركوه ، وإلى الأرض التى أغفلوها ، فقد انفتحت للكفاح ميادين جديدة ، وأبواب عديدة ، وضاق الميدان السياسى عن الجهود الشابة والحماسات الدافقة

فهل يخرج الشباب من الميدان السياسى لينكب على تحصيل العلم وجمع الثروة وتنظيم الحاضر وتدعيم المستقبل ثم يتركه لقادة الرأى من شيوخ السياسة ورجال الادارة ؟

أم يبقى فيه ويظل زيته المضىء المحترق على أن يتطور مع مقتضياته الجديدة ؟

وإذا أخذ بالرأى الثانى فإلى أى اتجاه يتجه بين مزدحم الآراء ومهب الأهواء فى هذا العالم المضطرب الصاخب ؟

ذلك ما فتحنا لأجله هذا الباب ، مقدرين أن تتبارى فيه مطامع الشباب وتجارب الشيوخ

ويهمنا على الأخص رأى الشباب لأننا نريد أن نطلع على انفعالاته واتجاهاته ، فنقف منها موقف البستانى من نبت الحديقة ، يستأصل أشواكها وزوانها ، ويتعهد أورادها وريحانها .

ولا بد لنا من كلمة ندخل بها إلى هـذا الموضوع ؛ فنحن لانرى للشباب الانسحاب من ميدان الكفاح السياسى ، فالجيل الماضى قد انهكته المعركة الكبرى ، وهو الآن يقوم بآخر خدماته فيمهد العمل للجيل الناشىء إذ يتعهده برعايته ، ويظلله بحمايته ، حتى يشتد ساعده فيترك له الميدان . وطبيعى أن اتجاه الكفاح فى ميدان الاصلاح الداخلى ، وتعقد مرامى هذا الاصلاح وتشعبها يتطلب شباباً كامل الثقافة صادق العزيمة واسع التجربة ، يتخذ موقف المدرس لا موقف المحمس ؛ وسيحتاج إلى اقناع الجماهير بالحجة ، لا إلى إغرائها بالعاطفة

ooo

وأما الاتجاه فميدان الاصلاح الداخلى واسع الجنبات ، وحرية اندفاع المثل والكفايات فيه أكثر ، وسيتلمس كل فريق الرأى الذى يراه أكثر اسراعاً فى تعمير البلاد ، فيلتفت الشباب بطبيعة الحال إلى الغرب يسترشد بتجاربه ويستضىء بنوره . وهنا نحذره من أن تغره مظاهر الأمور ؛ وهنا نقرع له جرس الخطر ، ونصيح به صيحة الحذر ، فإن أوربا

الآن تعج بأفكار خلابة ودعوات أخاذة زادتها الدعاية المقصودة بريقاً وضجة، فعسى الا يغره هذا البريق، فهذه الافكار وليدة المحنة، محنة ما بعد الحرب؛ فاوربا الآن محمومة؛ واذا كان لا بد لنا من الاقتداء بها فلنميز بين أسباب الرقى الحقيقية وبين ما انتجته هذه الحمى من أعراض وهذيان وفوضى. ونقول بصراحة أكثر: - إن فى أوربا الآن تطاحناً ظاهراً بين القومية والماركسية، وقد اندفعت الأولى للفاشية، والثانية للشيوعية؛ ولكل منهما مظهرها المتطرف الذى لا ينفع هذه البلدان الناشئة

نحن لا يفيدنا الاكثار من قرع الطبول ولا حرب الطبقات، فقد كان كفاحنا فى الماضى رزيناً قوياً فنجح لأنه استمد قوته من طبيعة الأشياء، فقاوم العبودية التى يعافها الانسان؛ ويجب أن يظل فى دوره الجديد على هذه الصبغة الأصلية لينجح

ربما تبهرنا تلك المظاهر بضجة العمل وسرعة التنفيذ، وتظهر لنا ان العمل الانشائى فى العهد الجديد أبطأ مما تصورناه؛ فايانا أن ننسب ذلك الى عيب فى نظمنا الأساسية، لأن أكثر ما نعانيه هو من أثر التحكم الأجنبى وانشغال الأمة عن تلافى نواقصها ومداواة عيوبها

وهل يعنينا الا أن يكون الصرح وإن تراخى الزمن فى انشائه متين البنيان يستطيع مقاومة الزعازع التى تنتاب البلدان الناشئة؟

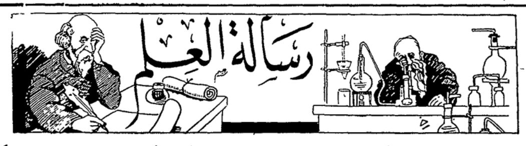
يجب أن نحتفظ بوحدة الصفوف وان نبقى لجهادنا العام صبغة التطوع المشترك من كل طبقاته

إننا نريد أن نبنى أمة قوية لا تيتم بفقد فرد، ولا تضل بزوال حزب. نريد أمة توجه ساسة، لا ساسة يوجهون أمة.

وخير ما نختم به هذه الكلمة أن نخاطب شبابنا بما خاطب به المستر بلدوين قومه بالأمس اذ قال:

«فى هذا العصر تستطيعون السير بسرعة ستين ميلا فى الساعة آمنين، فاياكم أن تسيروا بهذه السرعة فى طريق التغييرات الدستورية، فانكم اذا سرتم على هذا المنوال تحطم فى يدكم الدستور، وجرى فى تحطمه الخراب واهراق الدماء. قد تكون الافكار فى بعض الأحيان مجلبة للخطر العظيم، فإن مئات الملايين تحكم الآن فى روسيا وألمانيا وايطاليا بافكار غريبة عن هذه البلاد، فاتقوا شر الشيوعية والفاشية بينكم بعض من يتحدثون عن التغييرات الدستورية والأساسية بغير حساب فراقبوهم»

بهذا الخطاب يودع السياسى البريطانى الشيخ ناخبيه وهو مشفق على أمته المسكينة أن تحطمها الآراء المتطرفة. وبمثل هذا نوصى الشاب الناشىء، فالامم الجديدة أحوج الى مثل هذه النصيحة. وان فيما تصنعه الافكار المتطرفة فى أسبانيا عبرة للمعتبرين (محرر الصحيفة)



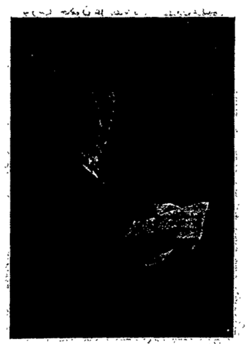
قصــة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكي
مراقب مصلحة الكيمياء

الرصاصة المسحورة

— ١ —



بدأنا هذه القصة بلوفن هوك ، بهذا الرجل الذي لا يعرف إلا الحقيقة الواقعة يتوجه إليها قُدُماً دون مداورة أو محاورة ، وبدأناها به لأنه منذ نحو من مائتين وخمسين عاماً نظر بعين من السحر ، نَظَر بعدسه ، فرأى المكروبات أولَ من رأى . نقول بعين من السحر ، وهو لو سمعنا نَصِف مكرسكوبه بأنه من السحر لشخر ونخر كما قد يفعل اليوم بعض مواطنيه الهولانديين استهزاء بنا واحتقاراً لوصفنا

وهانحن أولاء نختم هذه القصة ببول إرْلِيش Paul Ehrlich وهي خاتمة مباركة سعيدة ، والخواتيم المباركة السعيدة لا بد منها لكل قصة جدية ذات بال . كان صاحبنا رجلا مِفراحاً ، وكان يدخن في اليوم الواحد خمساً وعشرين لفيفة من لفائف التبغ الطويلة الثخينة [1] cigars ، وكان مشغوفاً بشرب كوب من البيرة على الملأ مع خادم معمله القديم ، وأكواب كثيرة أخرى مع زملائه من ألمانيين وانجليزيين وأمريكيين . ومع أنه جاء في العصر الأخير الحديث ، إلا أنه كان به شيء كبقية من العصور الوسطى ، فقد كان يقول : « يجب أن نتعلم صيد المكروب برصاص من عَبَقَر [2] » ، فضحك الناس منه . وأما أعداؤه فصوروه صوراً مضحكة وكتبوا تحتها « الدكتور فَنْتازُس » [3]

على أنه مع هذا قد صنع حقاً رصاصة من عبقر . وكان له مزاج الكيماويين القدماء الذين يُحيلون الرصاص إلى الفضة ويستخرجون من خسيس المعادن الذهب ، ولكنه صنع فوق ما حسب هؤلاء أنهم صانعوه : قَلَبَ سماً معروفاً مألوفاً يتخذه القتلة المجرمون لإبادة الأنفس ، فصيره دواء وشفاء وخلاصاً لتلك الأنفس من داء من شر دائها . طبخ

(١) المسماة في مصر بسجاير زنوبيا

(٢) جلد الجن

(٣) كلمة يونانية من فنتاذيا ومعناها الشبح أو الخيال . أعني أنه رجل وهم وخيال وتخريف .

الزرنيخ طبخة ومزجه مزجة أحالته إلى عقار يذهب عن مرضى بنى الانسان بلعنة ذلك الداء الكريه ذى المكروب اللولبي، ذلك الداء القبيح الاسم [1] الذى هو جزاء الخطيئة الكبرى . وكان لارليش خيال غريب عجيب مقلوب . لا يتصل بالمألوف فى هذه الأرض، ولا بالمعروف فى العلم، فأعانه هذا الخيال فدار بصيّاد المكروب فى طرائق البحث دورة جديدة. وطلع بهم وبعلم المكروب فى صحراء المجهول طلعة جديدة كشفت لهم من فوق رابية عن وديان من الأرض جديدة، ولكنهم وآأسفاه لم يدروا إلا القليل منهم ما ذا يصنعون بالوديان الخصيبة الجديدة التى حلوها ولهذا السبب سنختتم هذه القصة بأرليش

وليس معنى هذا أن بحث المكروب انتهى وجاء ختامه . فأنا مؤمن، كايمانى بطلوع الشمس غداً، بأن أبحاث المكروب لم يجىء بعدُ ختامها ، وبأن الغد كفيل بخلق قوم كارليش يأتون من عبقر بمثل رصاصته التى أتى. ولعلهم يكونون كارليش رجالا برغم ابتكارهم مفاريح مماريح مهازير مفاكيه . فالأدوية الرائعة لا تُستخرَج من العمل الجدّ المتواصل والمعمل البديع وحدهما . . . أما اليوم ، فلا يوجد من صيّاد المكروب رجال إذا هم اقتنعوا بالذى يرونه ركبوا رؤوسهم فى سبيله واقتحموا كل معارضة لبلوغ مقصدهم منه ولو خالف المألوف واصطدم بالشائع المعروف. فهكذا إرليش، ينظر فى عينك بُوسعَتَىْ عينيه محدّقا محدّجاً يريد أن يقنعك بأن الاثنين تضاف إلى الاثنين فتجعل منها خمساً. وولد فى سيلسليا [2] Silesia فى مارس عام ١٨٥٤ فلما شبّ أرسلوه إلى المدرسة الثانوية فى مدينة برسلاو [3] Breslau فسأله أستاذه أن يكتب مقالة إنشاء موضوعها : الحياة حُلم . فكتب هذا الصبى اليهودى الذكى يقول : ان الحياة تعتمد على الأكسدة العادية . . . . والأحلام مظاهر من مناشط المخ ، ومناشط المخ ليست إلا أكسدة . . . إن الأحلام أشبه شىء بفسفرة مُخّيّة ! »

وبالطبع كان حظه من هذا الانشاء رقم خسيس ، ولكن هذا لم يعكر عليه صفوه ، فقد كان قد مَرَن على هذه الأرقام الخسيسة عن أعماله المدرسية . ومن المدرسة الثانوية ذهب إلى مدرسة للطب ، بل إلى ثلاث مدارس للطب أو أربع . هكذا كان ارليش وهكذا تعلم . وفى كل مدرسة ممتازة فى الطب دخل من استراسبورج إلى فرايبورج إلى ليبزج ، ارتأى فيه الأساتذة أنه طالب غير عادى ، وارتأوا فيه أنه طالب سيء بالغ أقصى درجات السوء ، وذلك لأنه أبى أن يحفظ ١٠٠٥٠ كلمة طويلة زعموا أنه لابد من حفظها لعلاج المرضى . كان ارليش ثائراً ، وكانت ثورته جزءا من تلك الثورة التى بدأها الكيماوى بستور Pasteur وطبيب القرية كوخ Koch وسأله أساتذته أن يقطّع جثث الموتى ويتعلم أجزاءها . ولكنه بدل هذا قطع جزءاً من جثة واحدة . وقطعه سليخة سليخة ، وجعل هذه السلائخ غاية فى الرّقة ثم أكبّ على تلوينها بشتيت من أصباغ أنلينية Aniline [1] جميلة بديعة اشتراها أو اقترضها أو سرقها على عين مدرّسه

ولم يكن يدرى هو نفسه لِمَ يفعل هذا . وبقى إلى آخر أيامه يجد متعته الكبرى فى النظر إلى كل لون بهيج وصناعة كل صبغ زاه جميل . أقول متعته الكبرى ولا أذكر تلك المتعة الأخرى التى كان يجدها فى الجدَل الجموح والنّقاش الشرود الذى كان يتعاطاه على مناضد البيرة ومن فوق أكؤسها

وكان يكره التربية الكلاسيكية ويَعُدّ نفسه من نصراء الجديد ، ومع هذا كان يحسن الالمام باللاتينية ، ومن هذه اللاتينية كان يصوغ تلك الجمل الجامعة المناغمة التى كان يدعو بها كلما خاض غمار حرب ، واستعدى العقول فى الحملة على الخصماء . فتلك الجمل الصارخة كان يُعنَى أكثر من عنايته بالمنطق . كان يصرخ : «Corpora non agunt nisi fixata» أى ، أن الأجسام لا تعمل إلا بعد تثبيتها ، وكان فى صرخته يضرب المنضدة بيده حتى ترقص الصّحاف التى عليها ، فظلّت تلك الصرخة بتلك الجملة تقوى قلبه وتحيى أمله فى ثلاثين سنة

(١) يقصد بالداء القبيح الزهرى
(٢) مقاطعة أكثرها فى ألمانيا رأوتها فى تشيكوسلافيا
(٣) مدينة معروفة فى سيليسيا الألمانية

(١) الأنيلين مركب كيماوى عضوى شهير هو أصل لمشتقات عدة منها الأصباغ المذكورة

لم يكن له فيها غير الخيبة . وكان إذا حدثك بهذه اللاتينية يُلوح فى وجهك بنظارته فى إطارها القرنى وهو يؤكد معناه فى نفسك ويقول : « لعلك سامع ! لعلك فاهم ! » . ولو أنك أخذته بجده لحسبت أن هذا الهراء اللاتينى لاعقله البحّاث هو الذى أفضى به إلى النجاح أخيراً . وعندى أنه أفضى بعض الشيء إلى هذا النجاح يقيناً

وكان إرليش أصغر من كُوخ بعشر سنوات ، وكان يعمل فى معمل كنهايم Cohnheim فى اليوم الذى عرض فيه كوخُ على الناس بشلة الجرة لأول مرة : وكان إرليش زنديقاً لا يؤمن بالله ، فلما افتقد فى السماء ربا يعبده توجه بعبادته إلى رب فى الأرض ، فكان كوخ . وبينا هو يصبغ بألوانه كبدا مريضه وقع على جرثومة السل ورآها قبل أن يراها كوخ بزمن ، ولكن لجهله ، ولقصور ذكائه عن ذكاء كوخ ، ظن تلك القضبان الملونة التى رآها بلورات جامدة ، فطاش سهمه بعد أن كاد . ولما جاء مارس عام ١٨٨٢ وجلس فى بعض أمسائه فى تلك الحجرة فى برلين يستمع الى كوخ وهو يشرح كيف اكتشف جرثومة السل ، اهتز للذى سمع واتضح لعينه ما كان غم عليها ، ورأى الحقيقة واضحة صريحة . ووصف هذه الحادثة فقال : « إنها أكبر الحوادث أثراً فى نفسه فى كل ما صادف فى حياته العلمية » ، قالها بعدها بزمن طويل . وعلى اثرها اعتزم ان يتصيّد المكروب هو أيضا ، فذهب الى كوخ وأطلعه على طريقة بديعة يصبغ بها مكروب السل فيتراءى فى العين سهلا واضحا — وهذه الطريقة لا تزال تتّبع الى يومنا هذا بلا تغير يذكر . ولزمه وهو يشتغل بمكروب السل حماسةُ الصاحب ، فلوّث نفسه من قدمه الى رأسه بالمكروب ، فأصابه السل فكان لا بد له أن يذهب الى مصر ففعل

— ٢ —

وكان عمره إذ ذاك أربعا وثلاثين سنة ، ولو أنه مات عندئذ فى مصر ، اذن لنُسى أمره بدون شك ، أو إن هو ذُكر فانما يذكر بأنه رجل مِفراح مراح أحب الألوان وأغرم بالخيالات ثم خاب . وكان كالمولِّد الكهربائى dynamo فى جهده الفياض ونشاطه المتواصل . واعتقد أنه يستطيع الجمع بين صيادة المكروب ومعالجة المرضى . وتعين رئيساً للأطباء فى دار للعلاج شهيرة فى برلين ، ولكنه كان مُرْهف الحس مضطرب الأعصاب لا يقوى على استماع صراخ المرضى وأنين من يوشك منهم أن يموت بعد أن استعصى داؤهم وعز علاجهم . نعم علاجهم . علاجهم الحق . علاجهم الشافى لاعلاج الظن والتخمين ، ولا العلاج بالتأسية الكاذبة والتلطف الفارغ عند سرير المريض ثم ترك الأمر للطبيعة عساها تحل العقدة التى أعجز الطب حلها . وساورته هذه الأفكار وأمثالها فأفسدت عليه صناعة التطبيب فكان طبيبا مخيِّبا ، ذلك لأن المؤاساة ولو كانت كاذبة صفة لابد منها للأساة ، أما اليأس من الأمراض ولو مؤنسة وقطع الأمل وتقطيعه على أسماع المرضى فلا يؤدى بالطبيب الا الى الخيبة . وعدا هذا فقد ساء إرليش طبيبا عندما لعبت برأسه لواعب الأحلام : كان ينظر إلى جسم المريض فينفذ ببصره إلى ماوراء جلده وكأنما يستعير لعينه مجهراً بالغ التكبير ، فتتراءى له مادة الخلية المرتعشة وقد ارتسمت فى عينه رمزاً كيماويا كبيراً لمادة كيماوية معقدة . وتراءت له حلقات البنزين وسلاسلها الجانبية (١) فى تلك الخلايا بمثل ما تراءت له فى رموز أصباغه ، ونحى جانباً أحدث النظريات فى علم وظائف الأعضاء ، واصطنع لنفسه كيمياء للأجساد غريبة قديمة ، فجاءت كالثوب ذى الزىّ العتيق تلبسه فى غير عصره . واختصاراً تستطيع أن تصف إرليش بما تحب إلا أنه مطبب عظيم ، ولو أنه كان طبيباً فحسب إذنْ لحقَّت عليه الخيبة ولمات ذكره . . . . . ولكنه لم يمت !

وصاح إرليش : « إن فى اعتزامى أن أصبغ الحيوانات وهى حية ، ولِمَ لا وكيمياء أجسامها لا تختلف عن كيمياء أصباغى ؟ وصبغها وهى حية قمين أن يكشف لى عن كل شيء فيها » ، وعلى هذا تناول صبغته الحبيبة ، وهى أزرق المثلين Methlene blue وحقن قليلا منها فى وريد بأذن أرنب ، وتتبع بعينه انسياح الصبغة الزرقاء فى دم الأرنب وجسمه فوجدها تمر بكل جزء منه ثم تنقشع فلا يصطبغ بها شيء إلا

(١) حلقات البنزين هي حلقات في الكيمياء العضوية مركبة من ست ذرات من الكربون . والحلقة البنزينية تدخل في تركيب كثير من المركبات العضوية . وقد يرتبط باحدى ذرات كربونها تركيبات من عناصر أخرى تسمى بالسلسلة الجانبية

أطراف الأعصاب الحية. فعند هذه الأطراف وحدها وقفت الصبغة وصبّغتها دون سائر ما مرت عليه فكأنما تخيرتها تخيراً! ألا ما أغرب! ألا ما أعجب! ونسى عله الأصيل برهة، وأغرى بالمداواة وازدهته الطبابة لحة، فقال في نفسه: «ألا من أدراني، فلعل هذه الصبغة الزرقاء تقتل الألم!»، وما نطق بهذا حتى صدق نفسه وأخذ يحقن هذه الصبغة في المرضى وهم يتوجعون. ولعل آلامهم خفت بعض الشيء من جراء هذا، ولكنه ما لبث أن اعترضته في سبيل ذلك صعوبات لو تحكى ماخلت حكايتها من المتعة والفكاهة. فأجفل مرضاه من الصبغة؛ ومن ذا الذي يلومهم؟

خاب إذن إرليش فيما اعتزمه من إيجاد دواء يقتل الآلام توّا، ولكنه اهتدى إلى تلك الحقيقة الغريبة عن أزرق المثلين: أنه يقع من أنسجة الجسم ومادته الحية على أشتات مئات مختلفات فلا يتعلق إلا بواحدة منها؛ ومن هذه الحقيقة ابتدع فكرة أشبه بالخيال قادته أخيراً إلى اختراع رصاصته المسحورة.

وتحدث في أحلامه قال: «هذه صبغة بين يدي لا تصبغ من أنسجة الحيوان جميعها إلا نسيجا واحدا. واذن فلا بد من وجود صبغة لا تصبغ من أنسجة الانسان شيئا. ولكن مع هذا يكون من شأنها أن تصبغ المكروبات التي تعدو على الانسان فتقتلها. وعاوده هذا الحلم خمس عشرة سنة أو تزيد قبل أن تهيأ له الأمور لتجربة الفكرة التي تضمنها

وفي عام ١٨٩٠ عاد من مصر ولم يكن مات هناك من السل وحقنه كوخُ بدوائه الفظيع المزعوم للسل رجاء شفائه، ولكنه لم يمت من هذا أيضاً. ولم يلبث أن بدأ العمل في معهد كوخ ببرلين في تلك الأيام العظمى التي كان فيها بارنج Behring يقتل الخنازير الغينية في سبيل خلاص الأطفال من الدفتريا، وكان فيها كيتا ساتو الياباني يصنع العُجّاب بالفئران ذوات الكزاز الفكي. دخل إرليش هذا المعهد الذي أثقله الوقار وأناخت عليه الرزانة بكلكلها فكان روحه الحيّ وفيضَ حياة ثوّارة فيه. وكان له معمل تدخله فلا تكاد تجد سبيلك فيه لشدة امتلائه ولتبعثر الأشياء فيه، تتألق فيه صفوف الزجاجات وتتلألأ وتزهو بالذي فيها من أصباغ كثيرة ضاق وقته عن استعمالها. ويدخل كوخ على تلميذه وهو في هذا الامتلاء وعلى هذا التبعثر ليرى ماذا يصنع، وكوخ ذو سلطان في معهده كسلطان قيصر في دولته. وما كان كوخ يرى في أحلام إرليش عن رصاصاته المسحورة الا أنها بعض أحلام خرفة. أقول يدخل كوخ على إرليش في معمله فيقول: «أي عزيزي إرليش خبّرني ما الذي خبّرتكَ به تجارب اليوم». فيأتي الرد من إرليش متدفّقاً مضطربا يفسر هذا ويوضح ذلك في غزارة وتلاحق كأنه عين ماءٍ ثرّة تدفّعت أمواهها ساخنة إلى السماء. وذات مرة كان إرليش يبحث في الحصانة التي تأتي الفئران ضد السم الكائن في حبوب الشّشم والخروع إذا هي تعاطته، فلما دخل عليه كوخ فسأله في ذلك تدفّع يقول:

إني أستطيع أن أقدر بالضبط مقدار السم الذي يقتل في ثمان وأربعين ساعة «فأراً زنته عشرة جرامات. فهذا المقدار دائماً واحد... والآن أستطيع أن أخطّ خطا بيانياً يرينا كيف تزيد الحصانة في الفار — إنها تجربة تضارع في دقتها تجارب علم الفيزياء.... أمُلق سيدي سمعك إلي؟ ووجدت أيضاً كيف يقتل السم الفئران. إنه يجبن كرات الدم في شرايينها، وهذا كل تفسيرها...»، وهو في أثناء ذلك يلوح بأنانيبه الزجاجية وقد امتلأت بدم الفئران المنجمد القاني في وجه رئيسه العظيم مؤكداً له أن مقدار السم الذي جبّن هذا الدم هو عينه الذي يكفي لقتل الفار الذي جاء هذا الدم منه. ولا يلبث كوخ أن يجد نفسه بين أرقام وتجارب تنصب عليه انصباباً فلا يكاد يلاحقها. ثم إذا هو يقول لإرليش

«ولكن مهلا يا عزيزي إرليش، فاني أكاد أجاريك. أرجوك أن تزيد تفسيرك وضوحاً». فيجيب: «على العين والرأس يا سيدي الدكتور فأنا أعطيك المزيد من ذلك فوراً»، ولا ينقطع كلامه برهة، بل هو يختطف قطعة من الطباشير ويرجع على ركبتيه ويخط على أرض المعمل أشكالا هائلة توضح آراءه. ثم ينظر إلى كوخ فيقول: «والآن ياسيدي أفهمتَ ما عنيتُ؟ أواضح تفسيري لك الآن؟»

«يتبع» أحمد زكي



اسماعيل المفترى عليه

تأليف القاضي بيير كربتيس

وترجمة الأستاذ فؤاد صروف

للأستاذ الغنيمي

— ٣ —

ذكرنا في العدد الماضي طائفة من أغلاط الفصل الأول من الترجمة العربية لكتاب اسماعيل ، والآن نذكر طائفة أخرى من أغلاط الفصول التالية . ويظهر أننا سنضطر إلى الاكتفاء بذكر أمثلة قليلة من هذه الأغلاط في كل فصل حتى لا نستأثر وحدنا بباب النقد في الرسالة

(١) اقتضب الأستاذ صروف الفقرة الأولى من هذا الفصل اقتضاباً أفقدها نصف معانيها . أنظر إلى قول المؤلف:

But even his magnetic optimism would not have sufficed had English statesmanship been able to appeal to the Nonconformist conscience of the rank and file of the liberal electorate. It seems strange that Lord Palmerstone did not drive home the message that the Frenchman etc.

ثم انظر إلى الترجمة العربية : « إلا أن روح التفاؤل التي كانت تملأ صدره ما كانت لتمكنه من التغلب على تلك الصعاب لو أن الوزارة الانجليزية التي كانت يومئذ في الحكم أفهمت الرأي العام البريطاني أن دلسبس ينوي . . .

(٢) The man who thought in terms of civis romanus sum should have known that whatever the Concessions...

كل ما ترجم به الأستاذ هذه العبارة هو قوله : « ومهما يكن من أمر الامتياز »

(٣) The fame of De Lesseps called up the name of Egypt.

هل معنى هذه العبارة هو : « كان اسم دلسبس على فم كل إنسان في مصر » كما قال المترجم أو أن معناها : « إن شهرة دلسبس جعلت الناس يذكرون اسم مصر »

(٤) « ترجم الأستاذ عبارة Floating debt « بالدين العائم » وهو اصطلاح لم نره قبل الآن . والذي نعرفه أن معنى هذه العبارة الانجليزية « الدين السائر »

(٥) He undoes everything, does very little and is preparing us for some great catastrophe.

اكتفى الأستاذ في ترجمة هذه العبارة بقوله : « وأخشى أنه يمهد لكارثة » وترك قول المؤلف إنه يفسد كل شيء ولا يكاد يفعل شيئاً

(٦) His figures differ a little from those of the author just quoted.

قال الأستاذ في ترجمة هذه العبارة « وقد أورد أرقاماً تختلف قليلا عن الأرقام التي أوردها لورد كرومر » وقد جاء الأستاذ باسم لورد كرومر من عنده فغير بذلك المعنى ، لأن المؤلف يشير إلى السير أوكلندكلفن لا إلى اللورد كرومر

(٧) في ص ٢٤ من الأصل الانجليزي يذكر المؤلف اختلاف المؤرخين في مقدار ديون سعيد باشا ثم يرجع هذا الاختلاف إلى شيئين : الديون السائرة ، وديون سعيد الشخصية فيقول :

This difference is explained by Rae's reference to floating debts. It is also touched upon by the German economist . . . who published an interesting book on Egypt entitled Das heutige Agypten.

اقتضب الأستاذ هذه العبارة اقتضاباً قطع الصلة بينها وبين ماقبلها فقال «وقد بحث الأستاذ . . . وهو من كبار علماء الاقتصاد الألمان في هذا الدين في كتاب له »

(٨) He served in the Egn. army at a time when the memory of Said's reign was still green.

ترجم الأستاذ صروف هذه العبارة بقوله إنه « كان في الجيش المصري في أيام سعيد باشا » مع أن الأستاذ يعرف أن اسماعيل باشا هو الذي استخدم الضباط الأمريكيين في جيشه وأن الجنرال لورنج لم يكن في جيش مصر أيام سعيد . وعبارة المؤلف صريحة في هذا لأن معناها أنه خدم في الجيش المصري وقت أن كانت ذكرى سعيد لاتزال ماثلة في الأذهان

(٩) He was not phuysically prepossessi·ng

ليس معنى هذه العبارة أنه « لم يكن قوى الجسم» كما قال الاستاذ صروف بل معناها انه لم يكن حسن الهيئة منظريا

(١٠) When his featurés were in repose his dark eyes seemed half closed.

اكتفى الاستاذ بترجمة جزئها الأخير فقال « وكان يخيل الى الناظر أن عينيه نصف مغمضتين » فغير بذلك معناها

(١١) His successor wisely kept in the background

قال الأستاذ فى ترجمتها « وكان خلفه مهملا مغضى عنه » وما أبعد هذا القول عن المعنى الذى يقصده المؤلف وهو انخلفه رأى من الحكمة ألا يراه الناس كثيراً

(١٢) And from the vantage point of a man who moved behind the scenes and whose business it was to know what was going on the same writer brings out that during the days when Said was being more generous to de Lesseps than Esau was to jacob.

لم يزد الأستاذ صروف فى ترجمة هذه العبارة التى يصف فيها المؤلف ادون ده ليون وإكرام محمد سعيد لدلسبس على قوله « وذكر هذا الكاتب أيضاً » وأين هذه الألفاظ الأربعة من قول المؤلف « وقد قال هذا الكاتب نفسه الذى كان يرقب الأمور من وراء ستار ، والذى كانت مهمته ان يلم بتصاريفها ، قال انه فى الوقت الذى كان فيه محمد سعيد يكرم دلسبس أكثر من اكرام عيسو ليعقوب » وان شاء الاستاذ ان يعرف قصة عيسو ويعقوب فليرجع إلى سفر التكوين من الكتاب المقدس . واذا جاز للأستاذ ان يترك ما أشار به المؤلف الى قصة عيسو ويعقوب فهل يجوز له أن يترك ما وصف به ادون ده ليون قنصل امريكا العام فى الاسكندرية والتى أوردها ليدل على سعة اطلاع هذا القنصل وصدق أخباره ؟

وهنا نحب أن نرجو الاستاذ المترجم ألا يضيف شروحاً من عنده إلى ألفاظ لا تحتاج إلى شرح ، وبخاصة إذا وضع هذا الشرح فى صلب الكتاب وكتب إلى جواره لفظ المعرب كوضع كلمة كوبرى بعد كلمة جسر ؛ واعتقادنا أن ليس فى قراء ترجمة الاستاذ صروف كلهم من لا يعرف معنى جسر

وسنكتفى بذكر هذا العدد من أغلاط الفصل الثانى لننتقل بعد ذلك إلى ذكر بعض أغلاط الفصل الثالث .

(١) Of this formidable sum the 16, ooo, ooo spent on the Suez Canal was the only portion for which assets of any value could be shown, the balance . . . had been squandered.

ترجم الاستاذ صروف هذه بقوله : « أنفق منه (من ٩١٠٠٠٠٠٠ جنيه) ١٦ مليون جنيه على قناة السويس وانفق الباقى تودير اً وتبذيراً .

فهل هذه هى ترجمة العبارة الانجليزية ؟ وماذا أعجب الاستاذ فى لفظ تودير الذى كرره فى كتابه أكثر من مرة . نعم انه لفظ عربى فى معاجم اللغة ولكن الأذن لا تستسيغه ولدينا بدلا منه التبذير و لاسراف وبسط اليد والاتلاف الخ

(٢) Isnail himself is as fine a type of the pend-thrift as can well be found whether in history or in fiction. No equally reckless prodigal ever possessed equally unlimited contiol of equally vast resources. He came to the throne etc.

انظر إلى ترجمة الاستاذ لهذه العبارة المقتطفة من كتاب لورد ملنر فقد قال :

« ان اسماعيل خير مثال للرجل المبذر عرفه التاريخ أو تصوره مؤلفو الروايات . وما من مبذر طائش كان له سلطان غير محدود على موارد غير محدودة . فقد ارتقى العرش »

ما هى العلاقة التى يستطيع القارىء أن يفهمها بين الجملة الثانية وما قبلها أو بعدها ؛ ان لورد ملنر يريد أن يقول : « إن اسماعيل باشا خير مثال للرجل المبذر عرفه التاريخ أو القصص ، ولم يؤت أحد مثل ما أوتى اسماعيل من الطيش والتصرف المطلق من كل قيد فى موارد لا حد لها وقد اعتلى عرش مصر الخ .

(٣) قال المؤلف يشرح سبب بقاء ادون ده ليون فى مصر بعد ان اعتزل منصبه :

The climate of Egypt is most attractive. Cairo is, in many, ways, what the Germans call a weltstadt. It is thus easy to understand why this official kept for years in close touch with the scenes where he claims to have played an important part.

كل ما عنى الاستاذ بترجمته من هذه العبارة هو أنه « أقام عدة سنوات بالقاهرة بعد اعتزاله منصبه » أما سبب مقامه فيها وما كان لوجوده من الأهمية فلم يذكر الاستاذ صروف منه شيئاً .

(٤) The labours which used to constitute his pleasure have become an imperious necessity.

قال الاستاذ فى ترجمة هذه الجملة : « فالأعمال التى كان يقوم بها على سبيل التسلية قد أصبحت ضربة لازب عليه » فهل كان الخديوى يقوم بأعمال الدولة كلها التى ذكرها المؤلف قبل هذه العبارة على سبيل التسلية أو أنها كانت واجبات يراها فرضاً عليه ولكنها فى نفس الوقت كانت « مصدر سروره وغبطته »

(٥) ثم انظر إلى الفقرة الآتية من قول الاستاذ صروف :
« والكاتب لا يقتصر على القول بأن قصر عابدين بناء وضيع الشكل من الوجه الهندسي بل يضيف اليه قوله إن بهو المآدب والحفلات لا يشف مرآه أو أثاثه أو زخرفه عن شيء من العظمة »
« واقرأ بعد ذلك معناها الحقيق الذى يريده المؤلف » لكنه فى كتابته يبدى آراء من عنده إلى حد ما ولا يقتصر على ذكر الحقائق المجردة حين يصف قصر عابدين ، بأنه متواضع البناء ، وحين يقول : « إن حجرة الاستقبال غير فاخرة الأثاث أو بديعة النقش »
ولا داعى إلى ذكر النص الانجليزى لأن ما أوردناه هنا هو ترجمته الحرفية ونحب أن نقول هنا أن ترجمة Modest بوضيع كما فعل الاستاذ أكثر من مرة ليست ترجمة دقيقة .

(٦) An equally sincere visitor might perhaps have arrived at a diametrically opposite view of the same physical conditions.

هذه معان لم يترجم منها الاستاذ صروف شيئاً

(٧) But, however this may be, the following lines cannot be brushed aside without accusing the man who wrote them of subjective untruthfulness

وهذه العبارة كلها أيضا لم يترجمها الاستاذ بأكثر من قوله « وعلى كل يجدر بنا أن نقتبس العبارات التالية توفية للكلام حقه »

(٨) Writing to his chief a confidential report which was not inteuded for publication and in which he could call a spade a spade he said.

قال الأستاذ صروف فى ترجمة هذه العبارة « أما البيان الذى قدمه القنصل فلم يكن يراد نشره ولذلك أطلق لنفسه العنان ليقول كل ما يخطر بباله . ونحن نجل هذا القنصل عن أن يطلق لنفسه العنان ليقول كل ما يخطر بباله ونعتقد انه «فى هذا التقرير السرى الذى كتبه الى رئيسه والذى لم يكن يراد نشره كان صريحا كل الصراحة لا يخفى من الحق شيئا »

(٩) لينظر القارىء معنا الى هذه الفقرة الطويلة من قول الاستاذ صروف « على أن إسماعيل لم يكتف بان صرح بعزمه على الغاء السخرة ، وفى الحقيقة ان كلمة السخرة كانت على كل شفة حتى ان القنصل الفرنسى العام كتب يومئذ الى وزارة الخارجية الفرنسية يقول « ان هذه اللفظة تفرق بين الأعمال الحكومية والمصالح العامة وهى تنطوى دائما على إشارة الى الاعمال الجارية فى ترعة السويس بحيث ان جميع العيون تشخص الى » وليقل لنا هل يفهم لها معنى ؟

(١٠) ولينظر إلى هذه العبارة الأخرى من ترجمة الاستاذ صروف « وليس ثمة سبب يحملنا على القول بأن الخديو كان مستعداً أن يسلك تلك الخطة لو لم يكن مقتنعاً بصوابها . وعلى كل فقد أظهر بمعاداة فرنسا جرأة عظيمة

ألم يكن أسلس من ذلك أن يقول مثلا « وليس ثمة ما يحملنا على الاعتقاد بأن الوالى قد فعل ما فعل وهو غير مقتنع بانه إنما يؤدى الواجب المفروض عليه . وسواء أكان ذلك أو لم يكن فقد كان وقوفه فى وجه فرنسا عملا جريئاً . أما عبارة المؤلف فهى : —

There is no reason to believe that the Viceroy would have done what he did had he not been convinced that it was the proper thing to do. At all events it was a bold act on his part to antagonise France.

(١١) The conviction is thus driven home that Ismail's first official contact with the consular corps accredited to him tends to refute the Milner indictment and the popular heresy that Imail was etc

إلى القارىء كيف ترجم الاستاذ صروف هذه العبارة : وعليه فان الصدمة التى صدم بها اسماعيل قنصل فرنسا فى مصر تدحض التهمة التى وجهها ملنر إلى اسماعيل » . فهل هناك ترجمة أبعد عن الحقيقة من هذه الترجمة ؟

تلك أمثلة من أغلاط الفصلين الثانى والثالث ذكرناها موجزة لكى يتسع لها باب النقد فى الرسالة ولكى يسمح لنا الاستاذ الأديب صاحبها أن نواصل نقدنا حتى نتمه ، وسنسير على هذا الايجاز فى الفصول المقبلة إن شاء الله .

الغنيمى



ملاحظات على التعليم في مصر

نشرت جريدة المنشستر جارديان في أحد أعدادها الأخيرة فصلا طويلا عن التعليم في مصر ومسائل الطلبة المصريين في حاضرهم ومستقبلهم بقلم الدكتور ماكلانهان عميد قسم الدراسات الشرقية بالجامعة الأمريكية استهله الكاتب بتقديم الاحصاءات الأخيرة عن عدد الطلبة المتخرجين في مختلف الكليات والمعاهد الفنية والخصوصية، وتبيان التقدم السريع الذي طرأ على سير التعليم العالي والفني. وفي رأيه أن هذا التقدم إنما هو نتيجة طبيعية مشروعة لآمال الشباب المصري الذي يرغب في مهن ومراكز رفيعة في الحياة العملية. بيد أن اضطراد هذا التقدم يثير مشكلة دقيقة، فهل تستمر مصر على ترك حبل التعليم العالي على غاربه؟ وهل تظل على تخريج هذه الجموع الحاشدة من الشباب الطموح المتعطل؟ أم أنها سوف تتخذ الاجراءات لتقييد بعض أنواع التعليم؟ يرى الكاتب أن مصر ستحذو حذو الأمم الأخرى في الاحتفاظ بحرية التعليم. على أن ما يثير القلق هو أن جماعة الطلبة قد اعتادت في الأعوام الأخيرة أن تأخذ الأمور بيدها وأن تطالب بأمور كثيرة فيما يتعلق بمصاريف التعليم ونظام الدراسة، وما سيكون نصيب الطلبة من إدارة الشؤون العامة ولم يشذ عن هذه القاعدة طلبة الجامعة الأزهرية الذين يبلغون وحدهم اثنى عشر ألفا

وتبدي جماعة الطلبة رغبة قوية في الاشتراك في بحث المسائل السياسية والاقتصادية المصرية، بل يمكن القول بأنها تتأثر في حركتها بالنزعة الفاشستية، وذلك على رغم ارادة الزعماء السياسيين.

وقد اتخذت الحكومة بعض خطوات في سبيل ترقية التعليم التجاري ورفع مستواه، ولكن الشركات والمتاجر الأجنبية تصر على توفر معيار خاص من الكفاية. وما زال على مصر أن تبحث في المستقبل القريب عن حل هذه المشكلة الدقيقة، أعني مشكلة التعليم، وعما إذا كان من الواجب أن تسير في سبيل التوسع في شئون التربية أم في سبيل تقييدها ولا ينكر أحد ضرورة التعليم كعامل في تقدم الأمة، بيد أنه يجب أن تتخذ بعض التحوطات؛ ويخشى أن يفضي التقدم السريع إلى أزمة. أما إذا كانت مصر قد عولت على السير الحثيث، فسوف يطلب إليها أن تؤدي الثمن. وقد أدركت بعض الدول الأوربية خطر تدخل الشباب في الشئون العامة وتأثره بنفوذ الزعامات الشعبية الطائفة. فعملت على تجنبه

نقول. وهذه ملاحظات جديرة بالعناية والتأمل من كل أولئك الذين يعنون بتربية الشباب ومستقبله

ثلاثة كتب عن الحرب الحبشية

ظهرت أخيراً عن الحرب الحبشية ثلاثة كتب هامة، أولها وأهمها كتاب المارشال دي بونو وعنوانه: «السنة الرابعة عشرة. فتح امبراطورية» Anno XIV، أعني السنة الرابعة عشرة لقيام النظام الفاشستي في إيطاليا وهي سنة ١٩٣٦ التي تم فيها استيلاء ايطاليا على الحبشة. والثاني بقلم الماجور بولسون نيومان المعروف بمؤلفاته عن مصر والشرق الأدنى وعنوانه: «فتح إيطاليا للحبشة» Italy's Conques of Abyssinia، والثالث بقلم الصحافي الأمريكي هربرت ماتيوس وعنوانه «شاهد عيان في الحبشة» Eyeurtness in Abyss، وكتاب المارشال دي بونو هو بلاريب أهم هذه الكتب وقد نوهت عنه الرسالة في عددها الماضي؛ فقد كان المارشال كما نعلم أول قائد للحملة الايطالية على الحبشة، وقد

قاد هذه الغزوة فى أشهر الحرب الأولى ؛ وأهمية الكتاب فى أنه يميط اللثام عن حقائق سياسية وعسكرية خطيرة ؛ مثال ذلك أن المارشال يعترف لنا فى كتابه أن مشروع غزوة الحبشة يرجع إلى سنة ١٩٣٣ أعنى قبل حادث وال وال الذى اتخذته ايطاليا حجة لغزو الحبشة بعامين ، وإن موسولينى وضع هذا المشروع خفية مع المارشال ، وفكر فى تحقيقه أولا بالعمل على اضرام نار الثورة فى الحبشة ، ثم التدخل بحجة المحافظة على السلام ؛ وقد أنفقت إيطاليا فى سبيل هذه المحاولة مبالغ طائلة ، ولكن القبائل لم تثر فى وجه النجاشى كما أريد وحبط المشروع ، فلبث موسولينى وقائده يتربصان بالحوادث حتى وقع حادث وال وال ، وزعمت ايطاليا عندئذ أن الحبشة تنوى الاغارة على المستعمرات الايطالية ، ووقع الاعتداء الشنيع على الحبشة وقد عجب الرأى العام حين صدر كتاب المارشال ولم يعترض موسولينى على ظهوره متضمناً لهذه الأسرار التى تفضح مشاريع إيطاليا الاستعمارية ونياتها المبيتة على الاعتداء ولكن الظاهر أن السياسة الفاشستية لم تعد تقيم للرأى الدولى وزناً ولا ترى فى لومه أو مؤاخذته عاملا يحسب حسابه ، ومن جهة أخرى فقد اعتبر التصريح للمارشال باصدار كتابه حراً طليقاً تعويضاً أدبياً عما أصابه من آلام العزل خلال نشوب الحرب وانتداب المارشال بادوليو لاتمامها وفوزه بشرف الظفر دونه .

وأما كتاب الماجور نيومان فهو كباقى كتبه عرض للحوادث من الوجهة الاستعمارية ، وفيه يحبذ افتتاح الحبشة ويعرب عن ثقته بأنها سوف تستقبل فى ظل الحكم الأوربى عهداً جديداً ، وأن الزمن كفيل بتسوية الاخطاء التى ارتكبت

وأما الكتاب الثالث ، وهو كتاب «شاهد عيان فى الحبشة» فهو مشاهدات صحفى . صحب الحملة الايطالية منذ بدء الحوادث وتنقل معها فى جميع الميادين . فهو ليس تاريخاً بالمعنى المقصود ولكنه جريدة يومية للوقائع مشبعة بروح العطف على الغزاة .

دار لنوادى القلم فى باريس

كان الكاتب الفرنسى الكبير جول رومان رئيس نادى القلم الدولى قد أذاع فى إحدى خطبه منذ أشهر أن الحكومة الفرنسية ستنشىء فى باريس داراً لأعضاء نادى القلم من كافة أنحاء العالم . وقد تحقق نبأ المسيو جول رومان ؛ ففى أنباء باريس الأخيرة أن الحكومة الفرنسية قد اختارت فى حى الشانزليزيه داراً عظيمة فخمة ، وخصصتها للوافدين على باريس من أعضاء نوادى القلم فى انحاء العالم ؛ وستحتوى الدار المذكورة على غرف للنوم ، وابهاء للمطالعة والاجتماعات . وستزود بمكتبة عظيمة ؛ وسيكون بها قلم سكرتيرية دائمة تعاون الضيوف على زيارة معالم باريس وقضاء مهامهم . وللدار المذكورة شرفة عظيمة تسع خمسين شخصاً خصصت لخلسات الصيف ؛ وسيقدم طعام الافطار للضيوف الذين يبيتون فى الدار

ولما كان مؤتمر نادى القلم الدولى سيعقد هذا العام فى باريس بدعوة من نادى القلم الفرنسى فانه من المنتظر أن يفد كثيرون من أعضاء نوادى القلم فى مختلف أنحاء العالم على باريس لتمثيل هيآتهم فى المؤتمر ؛ وسيكون نادى القلم المصرى ضمن النوادى الماثلة فى هذا المؤتمر على يد ثلاثة أو أربعة من أعضائه ؛ وسيعقد المؤتمر المذكور ، وهو الخامس عشر من نوعه ، فى شهر يونيه القادم

وهذه الخطوة التى تتخذها الحكومة الفرنسية لتكريم الكتاب الأجانب هى من أثر المساعى الجمة التى يبذلها مسيو جول رومان لتقوية نفوذ هذه الهيئة الأدبية الدولية

اكتشاف مدينة مصرية قديمة

روت الصحف السويدية نبأ اكتشاف أثرى هام وفقت إليه البعثة الأثرية السويدية التى تقوم بالحفر فى مصر برياسة الدكتور يلمار لارسن ؛ وكانت حفائر البعثة هذا العام فى منطقة أبو غالب . فكشف المنقبون عن مدينة مصرية قديمة ترجع إلى نحو أربعة آلاف عام ؛ وظهر من أحيائها جانب يشمل عدة منازل ، ومنها منزل ظهرت به سلالم كاملة ، ومخازن للغلال ؛ ووفقت البعثة أيضاً إلى اكتشاف عدة آنية وتحف أثرية أخرى ؛ بيد أن الحفر لم يكشف عن كل شىء بعد ؛ ويرى الدكتور لارسن أن هناك منطقة أثرية هامة سيكشف عنها قريباً ، وقد توفق البعثة إلى اكتشافات عظيمة

الشأن من الوجهة التاريخية ، وتؤمل الدوائر السويدية أن ينال متحف ستوكهلم الوطنى شيئاً من الآثار المكتشفة تزيد فى قيمة مجموعته المصرية

متحف لحياة الطلبة

من أنباء ألمانيا أن مدينة فرزبورج قد قررت أن تنشىء فى قلعتها الشهيرة معهداً لتاريخ الجامعات الألمانية ، وسيلحق به متحف هو الأول من نوعه ، لأنه سيخصص لاستعراض حياة الطلبة فى الجامعة ؛ وقد جمعت إلى الآن نحو الف وستمائة قطعة مختلفة من جامعات ألمانيا من صور وأدوات وأسلحة وغلايين وبرانيط ، وثياب ، مما يستعمل الطلبة فى مختلف العهود والفصول ؛ هذا إلى كثير من الدفاتر والمحابر والأوراق والقصائد والصور التذكارية ، وأدوات اللعب المختلفة نسقت جميعها فى أروقة وأبهاء تمثل حياة الطلبة أثناء الدرس وأثناء اللعب والتريض

مشروع معجم للأعلام عن مصر

تصدر شركة انكليزية قاموسا للاعلام فى أوربا الوسطى وأوربا الشرقية بعنوان Who's who in C. and E. urope وهومرجع الأعلام الوحيدمن نوعه . وقد فكرت الشركة الناشرة أخيراً أن تضع ملحقا لهـذا المعجم عن الاعلام فى مصر فى طبعته القادمة ؛ وأوفدت بالفعل أخيراً إلى مصر مندوبا خاصا لها لمقابلة الشخصيات البارزة فى مصر وجمع المعلومات اللازمة عنها لوضع التراجم الخاصة بها

ونظام هذا المعجم على نظام المعجم العالمى الكبير فى وضع تراجم موجزة تدرج بها أهم الخواص عن الشخص مثل تاريخ ميلاده ، وشهاداته ، ووظائفه وعنوانه الدائم

المبرد

كنت أخذت على الأستاذ ابراهيم مصطفى فى أسبوع الجاحظ أنه نطق المبرد بالفتح ، فكتب أحد القراء الكرام إلى الرسالة ينتصف فيها للأستاذ وينصره ، والواقع أن هذا خطأ شائع فى ألسن الناس حتى فى الألسن المثقفة ، وإنى لأجعل الحكومة فى هذه القضية لحجة اللغة والأدب أستاذنا المرصفى إذ يقول فى تقدمة كتابه رغبة الآمل فى شرح الكامل : « كثيراً ما يتساءل الناس عن كلمة المبرد ، أ بكسر الراء أم بفتحها ؟ والقول الثابت عندنا ماذكره ياقوت فى كتابه معجم الأدباء قال : وإنما لقب بالمبرد لأنه لما صنف المازنى كتاب الألف واللام ساله عن دقيقه وعويصه فأجابه بأحسن جواب فقال له المازنى : قم فأنت المبرد بكسر الراء أى المثبت للحق ، فحرفه الكوفيون ففتحوا الراء ؛ وعن السيوطى فى مزهره أن شيخه أبا عثمان المازنى سأله عن عويصة فأجاب بجواب برد به غليله ، فقال له : قم فأنت المبرد ، فهو الذى لقبه به ، وكان الكوفيون يفتحون الراء تهكما به !

قلنا : ولذلك كان الرجل يقول : برد الله من بردنى ، والرجل أدرى بحقيقة لقبه ، ونعوذ بالله أن تحق فينا كلمته فنكون من المبردين

محمد فهمى عبد اللطيف

احياء ذكرى المنفلوطى

لجنة إحياء ذكرى المنفلوطى تناشد أساطين الأدب وأعلام البيان العربى باسم الوفاء لفقيد اللغة والأدب المرحوم السيد مصطفى لطفى المنفلوطى أن يتفضلوا بالكتابة عن أدبه الخالد من شتى نواحيه بمناسبة مرور ثلاثة عشر عاما على وفاته وتمهيداً لإقامة مهرجان أدبى لإحياء ذكراه فى ١٦ يوليو القادم

وترجو حضرات الكتاب والأدباء أن يعدوا مباحثهم الأدبية التى سيلقونها فى مهرجان إحياء الذكرى وليتكرموا بمخابرتنا بمصر بشارع ذهنى رقم ٨ بالظاهر . وسنعلن فيما بعد عن المكان الذى سيقام فيه الاحتفال فى الموعد المحدد علنا نكفر عن تقصيرنا فى حق الفقيد الراحل ثلاثة عشر عاماً

سكرتير اللجنة

متولى حسنين عقيل

كتب الرحلات

كتب الرحلات من الأسفار التي يعنى الأوربيون بالإكثار منها لأنها وسيلة من وسائل إيقافهم على مجرى أساليب الحياة في الأقطار الأخرى، ولعل أكثر الأمم اهتماماً بذلك الشعب الانجليزي، فقد جبل على حب المخاطرات والتنقل بين بلدان الشرق والغرب، وهذان كتابان أصدرتهما مطبعة Hutchinson في الشهر الماضي أما الأول فهو رحلة إلى سمرقند وبعض البلدان الأسيوية South to Samarkand لسيدة انجليزية هي إثيل مانين E. Mannin وهي تذكر في كتابها هذا ما لاقته من صعاب البيروقراطية الروسية في منعها من الدخول هناك، وتقص كيف تمكنت من عبور الحدود ودخول تركستان الروسية من «كراسنوفدسك» الواقعة على بحر قزوين ثم منها إلى تاشقند: وذلك في أسلوب يستهوي القارىء وتصف معيشة أهل السهوب والقفار وتقول في سياق حديثها «وفي القوقاز، كنا أول سيدات انجليزيات يزرن هذه البلدة الألمانية الصغيرة جراندبرج، تلك الواحة المنسية في بحر مترامي الأطراف من العشب، كما تلم بعادات القبائل الكردية والفارسية والقوقاز، والأزبك والتتار، وتصف حياة النساء مما يدل على أنها تغلغلت بين طبقات هذا المجتمع الذي يعد حلقة اتصال بين البداوة في صورها الأولى والحضارة الغربية وتقول إن الحرية التامة متوفرة بين هذه الشعوب الشرقية، وإن الحضارة الأوربية إنما تفقدهم الكثير من صفاتهم الجيلة ولكنها لا تصيرهم غربيين.

أما الكتاب الآخر فعن ألمانيا الهتلرية وعنوانه German Journey ألفه شاب انجليزي حدث يدعى C. Sidgwick سمع الكثير عن ألمانيا النازية من مدح وقدح فأحب أن يلمس ذلك عن قرب. فسافر اليها، وفي الفصول الأولى تقدمة تاريخية عن ألمانيا منذ أواخر القرن التاسع عشر ويصف فيه محاسن النازية ومثالبها، وإن كان يميل في الغالب لاستحسان أعمالها على وجه الاجمال

حفلات غنائية هائلة

تقام في شهر يولية القادم بمدينة برزلاو بألمانيا حفلات غناء هائلة يشترك فيها مائة وعشرون ألف مغن؛ وتنظم فيها جماعات للغناء والنشيد المشترك تضم الواحدة ثلاثين ألفاً أو أربعين ألفاً من المغنين؛ وهذه أعداد ضخمة لم يسمع باجتماع مثلها من قبل في حظيرة واحدة للغناء؛ ولهذا اتخذت إجراءات غير عادية لتنظيمها وتدريبها، ومهدت لها أبهاء فسيحة يجرى إعدادها منذ أعوام؛ وقد تم منها بهوان عظيمان أحيط أحدهما بالمنابر وبلغ مسطحه ١٤٠ ألف متر مربع، ويمكن أن يتسع لأربعمائة ألف وعشرين ألفاً من الناس، وأقيمت في البهو الثاني منصة هائلة تتسع لثلاثين ألفاً من المغنين؛ وإنه لمن الصعب أن يتصور المرء كيف تجتمع هذه الألوف الحاشدة من الفنانين في حظيرة واحدة، وكيف ترتفع هذه الأصوات بالغناء المنسق المنتظم؛ ولكن عصرنا أضحى أهلاً لكل أعجوبة وكل مدهش

كتاب عن الرهبنة

ظهر أخيراً بالانكليزية كتاب عن الرهبنة والرهبان في انكلترا عنوانه «الرهبان الانكليز وإلغاء الأديار» English Monks and Suppression of Monastries بقلم المستر جوفري باسكرفيل وهو كتاب شائق في موضوعه وفي أسلوبه، وقد لعبت الأديار في العصر القديم دوراً هاماً في تاريخ انكلترا كما لعبت دورها في تواريخ الأمم الأخرى؛ ومن ثم كانت أهمية هذا الكتاب؛ ولدينا نحن بالعربية أكثر من كتاب عن تاريخ الأديار والكنائس



عالم السدود والقيود

تأليف الاستاذ عباس محمود العقاد

للأستاذ كامل محمود حبيب

أهو كتاب أدب ؟

أهو بحث فلسفي اجتماعي ؟

أهو نقد يراد به إصلاح ناحية خاصة ؟

أهو سرد حوادث مرت على عيني الكاتب فسجلها يُراد المتعة وإزجاء الفراغ ؟

أهو صرخة من أعماق قلب رجل طوحت به الأيام إلى قرارة سجن .. فتلمس فيها الثورة والحنق .. ؟

أم هو ماذا ؟ ..

لقد كفانا الأستاذ - وهو يقدم لكتابه - مئونة التخبط بين هذه الأسئلة فقال : « لست أعني بها (الصفحات) أن تكون قصة ، وإن كانت تشبه القصة فى سرد حوادث ووصف شخوص ؛ ولست أعنى بها أن تكون بحثاً فى الإصلاح الاجتماعى ، وإن جاءت فيها إشارات لما عرض لى من وجوه الإصلاح ؛ ولست أعنى بها أن تكون رحلة ، وإن كانت كالرحلة فى كل شىء إلا أنها مشاهدات فى مكان واحد ؛ ولا أستقصى كل ما رأيتُ وأحسستُ وإن كنتُ أقول بعد هذا أن الاستقصاء لا يزيد القارىء شعوراً بما هناك ، لا فرق بينه وبين الخلاصة إلا فى التفصيل والتكرار . . »

نعم ، لم يرد المؤلف شيئاً من هذا وإنما أرادها جميعاً ، فجمع بين أشتاتها وألف بين أطرافها ثم زاد عليها نقداً فى سخرية ، وتهكما فى مرارة ، بثهما فى أعراض هذا السفر الصغير

فهو قد قال فى باب « المنع والترخيص » . . « فاذا أبيح الشىء مرة فانما يُباح فى حالة لا تسرى إلى غيرها ، وفى وقت لا يمتد إلى ما بعده . . الخ الخ » وفى قصة الفجل والجرجير ص ٥٢ ، ص ٥٣ نوع من هذا التهكم اللاذع

ولا يبرح الاستاذ العقاد فى كتابه يطرفنا بنكتة مستملحة أو حادثة ممتعة منذ دخل فى عالم السدود والقيود إلى أن خرج منه ، ففى باب « الليلة الأولى فى السجن » وكذا فى باب « أحمد حمزة » من الدعابات مالا يستطيع معها القارىء أن يمسك عن الانفجار ضحكا وقهقهة كأنه أراد أن يزيل عن القارىء بعض ما يسيطر عليه من الجد وهو يقرأ ، أو كأنه أراد أن يستحث القارىء فيدفعه إلى آخر صفحة من الصفحات ، أو كأنه نسى بعض ماقاسى فى السجن وهو يكتب . . !

وقد يجول بالخاطر أن الإجرام ينزع عن الإنسان إنسانيته فيبدو حيواناً مفترساً يفر منه الناس ، خوف التعدى وخشية الضرر ، غير أننا نرى فى الكتاب براهين وأدلة تأتى على هذه الخاطرة من أساسها ، نراها فى الصفحات (٧٣ - ٨٠) وفى صفحة ١٩٧ . . . وقد تدفع الضرورات رجلا دمثاً إلى اقتراف جرم محظور ، فيكشف وينال الجزاء ، إلا أنه لا يندر أن يظل بعد ذلك رجلا دمثاً كما كان . . .

وإذا كان « السجن إصلاح وتهذيب » كما يقولون ؛ فلم لا نرى أثر ذلك فى سجوننا لما ينال السجين من ظلم وإعنات وتحقير ومهانة واستصغار . وإذا كانت هذه الشدة تفيد فى قليل من الحالات فما لا ريب فيه أنها تبذر الحنق والضغينة والحفيظة فى نفس السجين إن كان دمثاً ، وتغرس فيه الثورة والجموح إن كان شريراً . ولقد أشار المؤلف إلى نظام السجون الأوروبية لنرى ما بيننا وبينهم من بون شاسع

فى هذه الناحية ، وإن كان بعض الأمم قد جاوز الحد فيا خولوا السجين من حرية وتسلية . ولقد هفت بى نفسى نحو سجون موسكو — وأنا أقرأ بعض ما كتبه جيمس برفن ستيوارت ص ٢١٠ إلى ص ٢١٤ - لأستمتع بما يستمتعون به بعيداً عن عناء العمل ، وعناء الأمل ، وعناء الفكر ، إلا أننى - وأستميح الاستاذ عذراً - لا أستطيع أن أعمل ثمانى ساعات كل يوم تتخللها ساعة واحدة للطعام . . .

ولقد رأيت فى الكتاب هدوء من يقص قصة لا تضطرب حوادثها فى نفسه ، ولا تلبس مفاجآتها قلبه ، فعجبت - بادىء ذى بدء - غير أنى عدت إلى نفسى فقلت : لعله النسيان قد محا كثيراً من الذكرى ، أو لعله الاطئنان إلى كل ما يجىء به القدر ، أو لعله الايمان بالتضحية ، أو لعلها حكمة الشيوخ ورزانتهم لا تعبأ . . .

هذه كلمة إن لم يكن فيها الاستقصاء ففيها التعريف بالكتاب وليس بالمؤلف .

كامل محمود حبيب

أحسن القصص

للاساتذة : محمد عطيه الابراشى ، محمود السيد عبد اللطيف ، حسن محمد جوهر

القصة ضرب من الأدب الرفيع تجمع بين رقيق النثر ، ورشيق الشعر ، فلها من الشعر سحره وجماله ، ومن النثر ترسله وانسجامه ، يسير سلساً كالماء ساعة الأصيل رقراقا كالنسيم العليل ، لا تقف فى طريقه جنادل الأوزان ، ولا يغل بأغلال القافية ، وقد صيرت وزارة المعارف القصة أساسا من أسس التعليم فى منهج المدارس الابتدائية ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، وتنافس الكتاب فى إصدار القصص ، فهذه قصة تاريخية ، وتلك جغرافية والأخرى أدبية ، والتلاميذ يستسيغون جميع ذلك

وبينا نحن نتمنى للقصة « فى أفق المدارس » الكمال والسلامة من زيف الخيال ، وزيغ المطابع والأقلام برزت الحلقة الأولى من حلقات « أحسن القصص » لأساتذة أمجاد بارعين فاذا هى مزيج من الأدبين العربى والافرنجى ، وصلة بين الخيالين الغربى والشرقى فى أسلوب هو - كما يقولون - السهل الممتنع ، والقريب البعيد ، وإذا كان هذا أول الغيث ، فإنه غيث ممرع ، وصيب بالخير مترع ، فالحلقة خالية من التكلف والصنعة مفعمة بالروعة والمتعة ، قد أنفق عليها مؤلفوها عن سعة إيماناً بفنهم واطمئناناً إلى آثارهم ، فالغلاف جميل أنيق يحدثك دون قراءة عنوانه أنه قصة ، وتنطق ريشة المصور بأنها ساحرة ، والورق ناصع ، والطبع صاف دقيق والصور خلابة ، وإن بدا للقارىء أن الكتاب فى غنية عن التصوير ؛ فقلم كاتبه أفصح من ريشة مصوره ، وسحر عبارته آخذ من دقائق صورته .

يشتمل الكتاب على أربع قصص : قصتين عربيتين وأخريين مصريتين . تلمس فى الأولى حياة العرب فى حضارتهم وجدهم فى دعتهم ، ومزحهم فى حكومتهم ، وسماحتهم فى ضيافتهم ، وتقرأ فى الثانية مثلا لحقد المرأة ، وآخر للحب الظافر ، وفى الثالثة وصف محكم للصحراء وجوها وللواحات وثمراتها ، ولصبر البدو وعزمهم وثباتهم على العقبات فى جلد وصرامة ، وتنتظم الرابعة مواقف محرجة سهلة الابتداء عسيرة الانتهاء ، وفيها مثل نبيلة للحنو والعطف .

وإذا كان على الناقد أن يتقصى الحسنات والسيئات فإنا لانكاد نلقى فى هذه الحلقة سيئات تذكر ، اللهم إلا هنات تبدو كالكلف فى جبين الحسناء ، من ذلك أن صورة الغلاف لا تمثل منظراً فى الكتاب ، والرقصة الموصوفة بأنها عربية فى « خليفة فى الخيال » لا تمت إلى العرب من قريب أو بعيد ، كما أرى وجوه الراقصات وجوها غير عربية ، فالوجه العربي مستطيل غالباً ، وأرى أن توضيح الصور بالكتابة تحت الرسم تزييف لها ، فللرسم لغته ، وهو غنى عن الكلام ، وإلا عد دليل الضعف والقصور ، وتسمية القصة الثالثة « عزة فى الصحراء » تسمية غير موفقة إذ مكانتها فى القصة ثانوية ولا يرفع من منزلتها أنها وحيدة أبيها ، ولفت نظرى تكرار عبارة « حباً وكرامة » فى روايتين عربية وإفرنجية ، وحبذا لو نوعت العبارة ولدى المؤلفين من أفانين القول معين لا ينضب ، على أن الكتاب مع ذلك طاقة يانعة من أزاهير الجمال

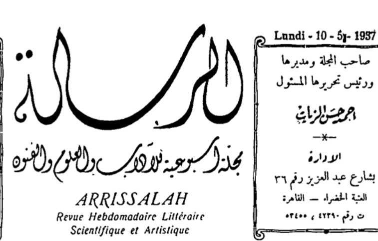
المعادى عبد العظيم على قناوى

5 me Année, No. 201

بدل الاشتراك عن سنة

مـ	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣



Lundi - 10 - 5 - 1937

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

—*—

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٠٠

العـــدد ٢٠١ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٩ صفر سنة ١٣٥٦ — ١٠ مايو سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

بعد مؤتمر الامتيازات

ألآن يبدأ الاستقلال !

كان يوم السبت أول أمس آخر أيام المؤتمر ، فغابت فى أقصى الحلوق الألسنة التى كانت تجادل وتقاتل للمنفعة ، وانبسطت من القلوب ألسنة معسولة كانت تجامل وتداهن للعاطفة . وجدوى المدنية على الإنسان ، أنها خلقت له لسانا مع اللسان ، إذا جرح هذا ، لعق دم جرحه ذاك . وجملة القول فى المؤتمر أنه ألغى الامتيازات إلا ذيلا سينسحب فى ردهات المحاكم المختلطة اثنى عشر عاماً ثم ينقطع . ومصر التى كابدت رهق هذا النظام المهين فى الأعمال والأموال والأنفس ، تدرك أن هذا الاتفاق المدنى مع الدول الممتازة ، أبلغ شأنا وأبعد مدى من ذلك الاتفاق العسكرى مع الدولة المحتلة ؛ فان الاحتلال الانجليزى كان محصوراً فى ثكنتين وقلعة ، يطل من نوافذها الضيقة إطلال المتقحم الغاصب ، فلا يرى إلا النظر الشزر ، ولا يسمع غير الهتاف العدو ؛ وكان وجوده الباطل تحدياً لرجولة الشعب فتيقظت فيه عواطف الوطنية والقومية والحرية ، فدافع بمواهبه حتى نضجت فيه الكفاية ، وضحى بدمائه حتى نبغت فيه البطولة. وأما الاحتلال الدولى فقد كان معتمداً على اتفاقات موروثة

ومساومات مكتوبة وامتيازات مكتسبة ، فتدخل في كل عمل، وتغلغل في كل مكان . وأخذ على الأهلين سبل العيش وموارد الرزق فتعطلت في نفوسهم الملكات المنشئة ، وسكنت في رءوسهم النوازي الحافزة ، ورضوا من بلادهم بالنصيب الأخس ضراعة وذلة ؛ وكان نظام الامتيازات الذي استتبع هذا التفاوت في نظام الحياة ، إيحاء مُلحاً بأننا دون الأجنبي في القوة والقدرة والخلق ، فخضعنا خضوع التابع ، وقنعنا قنوع المحروم . وتأخرنا في ميدان الاقتصاد بقدر ماتقدمنا في ميدان السياسة . فاذا أنقذ الوفد بهذا الاتفاق كرامتنا من الذل ، وسيادتنا من العجز ، وثروتنا من الغبن ، واستقلالنا من النقص ، كنا أحرياء بأن نفخر بسمائنا التي لا تعبس ، وبأرضنا التي لا تيبس ، وبنيلنا الذي لا يُخلف

الآن يبدأ الاستقلال ؛ لأن الاستقلال الصحيح أن تقول صادقاً في وطنك : أنا السيد ؛ وفي محكمتك : أنا القاضي ؛ وفي أرضك : أنا المستغل ؛ وفي مالك : أنا المتصرف . على أن (بَدَأ) ليس معناها (تم) ؛ وتسجيل الاستقلال عمل من أعمال الحكومة ، ولكن تثبيته عبء من أعباء الشعب ؛ وإذا كان المدافع عن جهته السياسية جنود الدولة ، فان المدافع عن جهاته الأخرى شباب الأمة . هذه ميادينا الحيوية تعج بالجيوش الغريبة ، ليس لنا من بينها جندي ولا قائد ، وليس لنا من ورائها فخر ولا مغنم إنما يتنافسون ونحن الخصوم ويتقاتلون ونحن القتلى . فمن الذي يحتل هذه الميادين المنصوبة ، ويغزو هذه الجيوش الغاصبة ؟ وهذه طبقاتنا العاملة تفتك بنشاطها الفطري جرائيم الجهل والفقر والمرض ؛ فمن الذي ينبه عقولها بالعلم ، ويشد أيديها بالمال ، ويمسح على أبدانها بالعافية ؟ الشباب هم الجواب عن هذين السؤالين وعن غيرهما من كل مايخطر بالبال من مسائل الاستقلال ومشاكل البلد

ستقرأ في (رسالة الشباب) من هذا العدد كلمة لشاب كريم يقترح فيها على إخوانه التجنيد المدني لزحف اجتماعي عام يهاجم عوامل الضعف في العلم والأدب والسياسة والاقتصاد والأخلاق والنظم ، وجعل لهذه الغزوات الأدبية خمسة أعوام تحشد فيها الجنود وتنصب القادة وتوضع الخطط وتوزع الفرق وتعين الميادين ويتم النصر . وليس أجدى ولا أجدر في الحال التي نحن فيها من هذه الفكرة . فقد وقفنا طويلا نقنع المكابرين أننا أمة لها وجود مستقل ، ودولة لها سلطان سيد ، فجر علينا هذا الوقوف أن تخلفنا عن الأشباه تخلفا لا يسوغه مجد الماضي ولا طموح الحاضر . فسبيلنا إلى اللحاق أن نتهالك في السير لانتراخى ولا نتريث ، نبصر هدانا على رأي الشيوخ ، ونحمل ضعفنا على قوة الشباب . ونستمد حوافزنا من الذكرى ، ونرسل مطامعنا مع الأمل .

هذا الاقتراح طبيعي تقتضيه الحال بعد أن فرغنا من الانجليز بمعاهدة الزعفران ، ومن الدول باتفاق مونترو ، فلم يبق ما يشغل الرءوس والأيدي إلا أمورنا الداخلية ، ومشاكلنا الاجتماعية . فكيف السبيل إلى تحقيق هذا المقترح ؟ أنكتفي بجهاد الطلاب من الشباب في أوقات الفراغ وأيام العطلة ، يزورون المدن ويرودون القرى فيثقفون العامل ويعلمون الفلاح وينفثون من روحهم الوثابة حياة في النفوس ، وصحة في الجسوم ، ويقظة في المدارك ؟ أم نؤلف فرقا دائمة من الشباب المتخرج يكون فيها المعلم والطبيب والمهندس والزراعي والواعظ ، فيسيرون بعتادهم وخيامهم (روادا) يغشون القرية بعد القرية . يدرسون أحوالها ، ويكشفون أدواءها ، ويعالجون كل شيء بما يساعد على صلاحه ، أو يعين على نجاحه ؟ أم نعبئ جيشاً سلمياً نظامياً من المتعلمين المتعطلين نُعدهم إعداداً خاصا للدعاية والارشاد والدفاع ، ونمدهم بالكفاف من المال ، ونجعل بعضهم مع الزراع . وبعضهم مع العمال ، وبعضهم مع الطلبة ، يروضون جسومهم على الدفاع المنظم ، ونفوسهم على الخلق الصالح ، وأيديهم على الانتاج الصحيح ؟ ثم ماذا تكون صلة هذه الفرق بالحكومة والأمة ؟ لمن القيادة ؟ على من النفقة ؟ ألحكومة ؟ أعلى الأمة ؟ أم لها وعليهما معا ؟

ذلك اقتراح جدير بأن يقسّم فيه الرأي ويُحكم له التدبير ؛ وقد عرضه صاحبه هناك وعرضناه نحن هنا لنستعين على تمحيصه بأقطاب الرأي ، وعلى تنفيذه بأرباب العزيمة .

احمد حسن الزيات

الذى نعمـــله

للأستاذ عباس محمود العقاد

جاءتنى من الأديب صاحب الامضاء رسالة يقول فى ختامها :

« . . . قد رأيت بما لى من حق طالب العلم على أستاذه أن أطلب إلى سيدى الأستاذ أن يتبع هـذا المقال بنفحة أخرى تبين لنا ما نعمله لنبلغ من أمرنا ما نريد ، وأرجو ألا يعتبر منى هـذا اقتراحا أو ما فى معناه ، وإنمـا هو محض استزادة من خير علمك العميق النظيف . . . . »

احمد حنفى نصار القوصى

* * *

وهذا سؤال حقيق بأن يسأل ، وكنت أود أن يسال ، فهو حقيق بأن يجاب

وجوابى للأديب أن حاجتنا الكبرى إنما هى أن نعلم كيف نريد لا أن نعلم كيف نعمل . فاذا أردنا عملنا ؛ وكل مريد عامل وعارف بوسيلته إلى إنجاز مراده

مضى زمن والناس يتحدثون عن الارادة والعمل كأنهما قدرتان مفصولتان ، وعن العاطفة والفكر كأنهما شيئان لا يتلاقيان ، وعن الخيال وفهم الواقع كأنهما ملكتان نقيضتان ، إلى آخر ما يفرقون ويقابلون بين ملكات الطبائع وخصائص الأذهان . وهذا خطأ فى تصوير الحقائق يتبعه لا محالة خطأ فى تصوير العلاج والاصلاح

ليست الارادة والعمل ولا غيرهما من الملكات والطبائع خطين متلا حقين يبدأ أحدهما عند نهاية الآخر ، أو جسمين متحيز ين لا يجتمعان فى مكان واحد ، وإنما هما مظهران من قوة النفس يصدران عن معين لا يتجزأ ولا ينفصل بالحدود والمعالم . فاذا امتلأت النفس بالقدرة على الارادة فقد امتلأت بالقدرة على العمل فى وقت واحد وفى صورة واحدة ؛ ولن يفشل الفاشل فى عمله ـ وقد تهيأت للعمل أسبابه ـ إلا لأنه ناقص الارادة

أرأيت إلى الناس وهم يطلبون السيادة ولا يبلغها منهم إلا قليل ؟ ما بال قوم منهم يبلغونها وأقوام ينكلون عنها خاسئين ؟

إنما يبلغها من بلغ لأنه أرادها ولم يرد غيرها . فهو سيد وإن تراخى الزمن دون الا قرار له بالسيادة ؛ وهو سيد لأنه لن يكون عبداً وإن أخطأته الذرائع إلى حين

أما الذى يبغى أن يسود ولا يأبى أن يكون عبدا فأين هو من إرادة السيادة ؟

وأما الذى يبغى أن يسود ولا يختلف عنده مقام السيد الرفيع ومقام العبد الذليل فأين هو من إرادة السيادة ؟

وأما الذى يبغى أن يسود ويحسب أن الناس يسودونه قبل أن يسود عليهم فأين هو من إرادة السيادة ؟

قل إنه يتمنى أن يسود ، أو قل إنه يحلم بأن يسود ، أو قل إنه لا يكره أن يسود ؛ فأما أنه يريد فعاذ الارادة أن تجتمع ونقيضها فى عزيمة واحدة ؛ ومعاذ الارادة أن تجتمع ولا يتبعها عمل ولا يتبع العمل نجاح .

لماذا لا نعمل ؟ لأننا لا نريد ؛ ولماذا لا نريد ؟ لأن زادنا من الحس والوعى والخيال قليل

ومع هذا نحن لا نُزهى بشىء كما نزهى بفرط الحس وفرط الوعى وفرط الخيال . . فهل رأيت إلى بعد ما بين الحقيقة والدعوى ، وبعد ما بين وصف الداء ووصف العلاج ؟ !

املأ النفس بالحس والوعى والخيال تملأها بالحركة والارادة غير منفصلين . وانظر إلى الطفل الدارج لماذا لا يهدأ ؟ ألأنه قرأ الفصول والمباحث فى فضل الحركة والنشاط ؟ ألأن أحداً أمره أو أحداً أغراه ؟ كلا ! ولكنه يتحرك وينشط لأنه شبعان من الحس شبعان من ارادة العمل الذى يهواه . ولو سبب غير ذلك دعاه إلى الحركة والنشاط لما استجاب . إذا أحسسنا لم نصبر على الركود ، وإذا نفضنا الركود فماذا أمامنا غير الحركة والعمل ؟ وماذا أمامنا غير الظفر والفلاح ؟

لننس كل النسيان وأشد النسيان أننا ـ معاشر الشرقيين

قوم مصابون بفرط الحس والوعى والخيال . فاننا لأبرأ الناس من هذا المصاب إن كان مصاباً . وإننا لأحوج الناس إلى هذا الشفاء ، وهو شفاء

وآية ذلك أن نسأل كم عدد المعبرين عن الحس والخيال فى الشرق كله ؟ وكم عدد هؤلاء فى أمة واحدة من أمم الدنيا المريدة العاملة ؟

كم فى أمة واحدة من أمم الدنيا المريدة العاملة السيدة الآيدة من مصورين ومثالين ؟ وكم فيها من موسيقيين ومنشدين ؟ وكم فيها من ممثلين ومخرجين وكتاب روايات وشعراء وأدباء ؟ وكم فيها من متاحف وتماثيل ؟ وكم فيها من باعة أزهار وأساتذة تجميل ؟ وكم فيها من مغامرين مقاديم يبيعون الواقع بالخيال ، ويستغنون عن الممكن الميسور بما يلوح للعاجزين كأنه محال ؟

كم من هؤلاء فى أمة واحدة وكم منهم فى الشرق كله هذا الزمان وأخشى أن أقول فى جميع الأزمان ؟

إن لم تكن الحقيقة أن الشرق مسكين غاية المسكنة مدقع غاية الادقاع فى ازواد الحس والخيال ، فالأسطورة الكبرى ولا ريب هى أنه مسرف فى حسه وخياله ، مفرط فى شطحاته وآماله .

فما بالنا نحار كيف نعمل ، وأولى بنا أن نحار كيف نحس ونتخيل ؟ وما بالنا ننشد أسباباً للحركة والعمل غير أن نملأ نفوسنا بالاحساس كأنما هذا وحده غير كاف ؟ وكأنما نحتاج بعد الاحساس إلى مزيد ؟

إن الانسان ليثور من السخط والغضب حين ينظر إلى فقرائنا العجزة المعدمين وهم يتيهون من الغنى الموهوم ، ويتغطرسون بالثراء المعدوم . واسمعهم يتغنون بالحب مثلا والحب فيض فى الشعور واتساع فى آفاق الوجدان ؛ واسمعهم يتغنون به وهو صنوف صنوف صنوف لا تنحصر فى معنى واحد ولا فى نمط فريد : حب الناشئين غير حب الكهول ، وحب التفاهم والتعاطف غير حب المتع والشهوات ، وحب المرأة المطواع اللعوب غير حب المرأة العصية الشموس ، وحب المنكوب اللاجىء إلى حرم العاطفة غير حب السعيد الناعم بما فى يديه ، وحب الواثق غير حب المرتاب ، وحب الوسيمة القسيمة غير حب الرشيقة الظريفة ، وحبك الأول غير حبك بعد تجربة ومراس ، وصنوف غير ذلك تتعدد بعداد الرجال والنساء وعداد الأحيان والأعمار والمناسبات .

اسمعهم يتغنون بهذه العاطفة الشاملة الداوية العميقة الرحيبة التى لا عداد لها بالألوان وان عدت باللفظ فى كلمة واحدة ، وقل لى ماذا تسمع غير نغمة واحدة معروضة فى شتى أساليب ؟ ماذا تسمع غير أن حبيبة هاجرة أبدا وحبيبا سيموت أبدا وفوق ذلك قطرات هنا من دموع وشهقات هناك من أنين ؟

ودع هذا واسمع المنشد أو المنشدة لا يكادان يفرغان من نغمة مبدوءة حتى يتبعهما ضجيج وزعيق وقرع وخبط وتصفيق كله نشوز واختلاط ومنافاة أبعد المنافاة لسماع الألحان والانغام . وقل لى : هل تصدق أن هؤلاء السامعين يستمعون إلى موسيقى ويصغون إلى فن وينعمون بتعبير جميل وتنسيق لا يطيق الاختلال ؟

فأما الموسيقى والنشوز والخبط والزعيق فمحال أن يجتمع هواها فى أذن واحدة فى لحظة واحدة ؛ وأما الذى يجتمع مع النشوز والخبط والزعيق فهو تخبط الجسد المحموم بحمى البهيمية لا تمييز فيه ولا ذوق ولا خيال

علم الله ما أصغيت إلى جمع من هؤلاء الناعقين الناهقين ولا توسمت ما يزهون به من « حساسة » وظرافة إلا تلمست فى يدى موضع السوط ألهب به تلك « الحساسة » وأطير به تلك « الظرافة » وأثبت لهم بالسوط وحده - ولا اثبات بغيره لأمثال هؤلاء - أنهم بلداء بلداء بلداء بلداء ، وانهم يغثون النفوس من فرط كونهم بلداء غارقين فى بلادة لا تفيق

* * *

لا يا أساة الشرق الحزين والمشفقين عليه !

داووه من نقص الاحساس لا من فرط الاحساس ؛ وداووه من ضنانة الخيال لا من سرف الخيال

وعلموه أن يحس تعلموه أن يريد ؛ ومتى تعلم أن يريد فلا حاجة به وراء ذلك إلى تعليم

جلسة عائلية

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

« عمي . ! »

فلم أجب ، ولم ألتفت ، فكأن النداء كان لغيري ، ومضيت في كلامي مع صاحبتي ، وكان الهواء طول النهار راكداً ، والحر شديداً ، ثم بدأ الجو يطيب ، والجلسة تحسن ، في هذه الصحراء النائية التي لم يكن يخطر لي أن يهجم على أحد فيها من أهلي .

« عمي . . . »

فأبيت أن أشعر أن النداء لي ؛ فقالت صاحبتي : « ألا تسمع ؟ »

ولم يكن ثم شك في أني أنا العم المقصود ، فقلت : « سامع ، وفاهم . . . »

« عمي . أنت هنا ؟ من الصبح أناديك »

فوقفت — فما بقي من هذا بد — والتفت إلى الصغيرة التي بح صوتها وقلت : « هل سمعتك تنادين عمك ؟ »

قالت : « طبعاً . . لي نصف ساعة وأنا أفعل ذلك »

قلت : « هل تريدين مني أن أبحث لك عنه ؟ . . أناديه معك ؟ ان صوتي مع الأسف خافت . خفيض جدا . . . لا يذهب إلى أكثر من متر . يصلح للهمس فقط . في الأذن »

فضحكت الصغيرة وقالت : « ماذا تقول ياعمي ؟ لماذا تتكلم هكذا ؟ »

قلت : « عمك ؟ أنا ؟ أنا عمك ؟ » .

قالت : « بالطبع . . ألا أعرف عمي ؟ » وضحكت .

قلت : « واثقة ؟ » .

قالت وهي لا تزال تضحك وقد راقها كلامي : « جدا » .

قلت : « ولا شك عندك ؟ »

قالت : « أبدا » .

قلت : « ولا رغبة في الشك ؟ »

قالت : « كلا » .

قلت : « يعني أن لي أخاً أنت بنته فأنا عمك ؟ »

قالت : « آه » .

قلت : « بهذه السهولة ؟ بلا تردد أو مناقشة أو بحث ؟ . وا أسفاه ! . الحق أن روح البحث العلمي ينقص الجيل الجديد »

قالت : « ماذا تعني ؟ »

قلت : « يابنت أخي — أظن أنه لا شك عندك في هذا — إن الذي أعنيه هو أن المسألة تحتاج إلى تمحيص قليل ، وأن التسليم بهذه السهولة ليس من أخلاق العلماء . تفضلي واجلسي فان الجلوس أعون على البحث السديد » .

فجلست وطلبت لها شيئاً من عصير البرتقال . فهو خير ما يشرب في هذا المكان وفي مثل ذلك الجو وعرفتها بصاحبتي ثم قلت لها :

« نعود الآن إلى عمك »

فقالت : « ماله ؟ »

قلت : « لاشيء به . كان الله في عونه . هل تعرفين ابن الرومي ؟ »

فابتسمت صاحبتي وقالت الصغيرة « ابن الـ ؟ ابن إيه ؟ »

قلت : « مسكين ابن الرومي ! . ألم تسمعي به قط ؟ »

قالت : « لا . . أبداً . . أين هذا ؟ »

قلت : « مات من زمان » .

قالت : « وكيف أعرفه وقد مات من زمان ؟ »

ولقد يسأل السائل من جديد : ومن لنا أن تثبت فيه الحس المأمول ؟ وجواب ذلك سهل في التعبير ، ولا أزعم أنه سهل في الانجاز والتحقيق

جواب ذلك ان الحس لا يخلق خلقاً ولكنه يتعهد بالحث والايقاظ إن أصابه جمود ورانت عليه ثقلة الكسل والجثوم

وليس أنجع في الحث والايقاظ من تصحيح الأجسام وتصحيح الأذواق : تصحيح الأجسام بالرياضة الصالحة القوية ، وتصحيح الأذواق بالفنون الجميلة الرفيعة ؛ ومن صح جسده وحسن ذوقه فلن يفوته الشعور بما حوله ؛ ومن شعر بما حوله فماذا يبقى له إلا أن ينشط ويعمل ، وإلا أن يريد وينجز ما يريد ؟

عباس محمود العقاد

قلت : « صدقت . الذى يموت لا يعرفه أحد . يكون ذنبه على جنبه . خازوق ! »

قالت : « ما هو ؟ »

قلت : « ان يموت . . أ . . أ . . إن ابن الرومى مات »

وقالت صاحبتى : « دع الموت والموتى بالله . حسبك الأحياء فاركبهم بما شئت من هزلك »

وقالت الصغيرة : « من هو ابن الرومى ياعمى ؟ . إني أراك تعطف عليه »

قلت : « صحيح . . مسكين . . ابن الرومى هذا ياستى كان رجلا له لحية . . كان ينبغى أن يظل وجهه أمرد ، أملس ناعما فقد كان جميلا فى صباه ، ولكنه كان مع الأسف رجلا ، والرجال مصابون باللحى . . آه لو كانت اللحى تنبت للنساء ! ولكن الله أعفاكن من هـذا البلاء . . ومن حسن حظ ابن الرومى ـ أو من سوء حظه ، لا أدرى ـ أن الناس فى زمانه كانوا لا يحلقون لحاهم كل يوم كما نفعل نحن تقليداً لكن يابنات حواء . . غريب ! ينفر الرجال من مظاهر الرجولة ويدأبون على محوها كل يوم ! . . . ولا نرى المرأة تحاول أن تكون لها لحية كالرجل ! . . لاتخافا فلست أنوى أن ألقى محاضرة عليكما ، ولكنه يخطر لى الآن أن من غير المقبول من الرجل أن يتجمل ويحاكى المرأة ويحاول منافستها فى مزيتها فهل هذا ياترى تخنث منه ؟ أم هو من الرغبة فى أن يتسلح للنضال بكل سلاح ؟ . . ماعلينا ! . . فلنرجع إلى ابن الرومى ؛ كان هذا ياستى ذا لحية خفيفة قليلة الشعرات ، ولكنها لحية على كل حال ؛ وكان يأسف لأن « السيفتى ريزور » — آلة الحلاقة الحديثة — لم تكن قد اخترعت فى زمانه . . »

فقالت الصغيرة محتجة : « ياعمى ماهذا الكلام ؟ . . كيف يمكن أن يأسف على شىء لم يكن يعرف أنه سيكون ؟ »

قلت : « والله ذكية ياملعونة ! . . نهايته . . الحق معك . . فهل الأصح أن أقول إنه لم يكن يأسف على عدم اختراع السيفتى ريزور ؟ . . سيان ؟ . . هيه ؟ . وكان ياستى يخاف من البرد جداً ، فكان إذا دخل الحمام ـ أعنى إذا أراد أن يستحم ـ يوقد فيه النار ليضمن لنفسه الدفء حين يكون فيه ويملأ الطشت بالماء الساخن ، ويعد الليف والصابون النابلسى الجيد ـ أم ترى هذا لم يكن معروفاً ؟ . . لا بأس ـ ويطلق البخور ثم يدخل متوكلا على الله ، متوسلا إليه تعالى أن يحرسه فى الحمام ، وأن يخرجه منه بخير وسلام . . »

فقالت الصغيرة : « أكان يخاف إلى هذا الحد ؟ . . لماذا ؟ مم كان يخاف ؟ »

قلت : « أوه ، لا أدرى ! . يظهر أن كلباً كلباً ـ مسعوراً ـ عضه فى طفولته ولم يشف قط ، أو لم يشف تماماً . . كووه بالنار أو لا أدرى ماذا فعلوا به . . ولكنه لم يشف »

فقاطعتنى سائلة : « صحيح ياعمى ؟ . . مسكين ! »

قلت : « لا أدرى . . هذا تخمين . . وإلا فلماذا كان يخاف من الماء كل هذا الخوف حتى ليقول :

وأيسرُ إشفاقى من الماء أننى أمرُّ به فى الكوز مرَّ المجانب
وأخشى الردى منه على كل شارب
فكيف بأمنيه على نفس راكب ؟

فقالت صاحبتى : « ياشيخ حرام عليك ! . . اتق الله ! . . لا تصدقيه »

فتلفتت الصغيرة منها إلىَّ ، ثم قالت بعد تردد : « هل كان شاعراً ؟ »

قلت : « لا . . لم يكن شاعراً . . وإنما كان يغنى فى الحمام فيخرج الكلام موزوناً وهو لايدرى . . ولكن الناس لايتركون أحداً مرتاحاً . . ويظهر أن بعضهم كان يسترق السمع وراء باب الحمام ، ويقيد كل مايسمعه من ابن الرومى وهو يغنى نفسه ويتسلى فى الحمام . ثم جمع كل ماسمعه ، ودفعه إلى الناس وقال هذا شعر ابن الرومى . ، الناس ملاعين . . أشقياء . . لايدعون أحداً مرتاحاً . . الرجل كان يسلى نفسه فى الحمام فالهم هم ؟ . . إيه ! . . هكذا الناس يحشرون أنفسهم فيما لا يعنيهم . . فضول ورزالة . . نهايته . . وكان مما يغنى به وهو ينظر فى المرآة إلى لحيته ، ويمشط شعراتها القليلة ويفتل أطرافها لتكون كالقلم الرصاص المبرى هذا البيت :

أصبحت شيخا له سَمْتٌ وأبهة
يدعوننى الغيد عما ـ تارة ـ وأبا

كان يتحسر على شبابه ، ويأسف لأنه صار ذا لحية . .
ويظهر أن الغيد الحسان من أمثالكن يغلطن فتارة يقلن له ياعمي ، وطوراً يقلن له يا أبي . . غريب ألا يعرفن أهو أب لهن أم عم ؟ . . ولكنك أنت لاتغلطين . . أنا عمك فقط . . متأكدة أني لست أباك أحياناً ؟ ،

فقالت صاحبتي : « أعوذ بالله منك ! »

وقالت الصغيرة : « متأكدة جداً . . عمي بالطبع . كيف يمكن أن تكون أبي ؟ »

قلت : « معقول ألا تغلطي . . لسببين : الأول أني لا أرسل لحيتي كما كان ابن الرومي مضطراً أن يفعل لأن الله خلق السيفتي ريزور في زماني والحمد له ، أعني لله ، بالطبع ، لا للموسى ؛ والثاني أن أباك المحترم مقبل علينا يتهادى في مشيته . . أحسبه يفخر بأن له بنتاً مثلك . . له الحق ! »

وجاء الاخ الفاضل وقمت بواجب التعريف الذي لامهرب منه ، واتضح لي — بعد أن تجشمت عناء القيام بهذا الواجب انه كان يسعني أن أريح نفسي ، فقد سبق لأخي أن عرف صاحبتي في بيتنا .

وجلسوا . وجلست وأنا أتنهد وأنظر إلى صاحبتي وأقول :

« معذرة . ليس هذا ذنبي . وأنت ذكية ، وتستطيعين أن تدركي بسهولة أنه لا مهرب من الأهل . لقدجئنا إلى آخر الدنيا من ناحية الشرق ، ولو أنصف الزمان لذهب أخي الفاضل إلى آخر الدنيا من ناحية الغرب مثلا ، أو الجنوب أو الشمال ؛ ثلاث جهات كان يمكنه أن يذهب اليها ، ولكن جاذبية الدم تصرفه عن الجهات الثلاث وتدفعه إلى هذه الجهة فيدركنا ويملأ علينا الدنيا ، ويشعرنا بأنها في الحقيقة أصغر مما كنا نظنها . ويؤنسنا طبعاً . أظن أن في وسعنا أن نغتفر له هذا من أجل بنته ، من أجل عينيها اللتين وقعتا على بسرعة البرق ، نصفح عن أبيها ونرحب به . تعال ياجرسون والأمر لله . وحسبي الله »

إبراهيم عبد القادر المازني

في تبويب الكتب

للدكتور محمد عوض محمد

لقد تجري في حياتنا الأدبية الهادئة حادثات ونوادر طريفة تستحق أن تُسجَّلَ وتُثبتَ ؛ ومن ذلك هذه الرسالة التي كتبها صديقنا الأديب إسماعيل بن زيد إلى صديقه الفاضل الأستاذ طه حسين ، مُستَفتياً ومداعباً

وصاحبنا إسماعيل يزعم أنه قد تكدَّست لديه المؤلفات القيمة ، ولكنه لا يعرف كيف يقسم كتبه إلى أبواب وفصول ، ولذلك لم يستطع نشر شيء من مؤلفاته إلى اليوم . وهو يزعم في هذا أن عناء التأليف والتصنيف ليس بشيء يذكر إلى جانب عناء التبويب والتفصيل .

فلم يكد يطالع في كتاب للأستاذ حسن إبراهيم حسن قطعةً يصف فيها الأستاذ طه حسين بأنه « لا يشق له غُبار في تبويب الكتب » حتى تناول قلمه الرشيق ، وأرسل اليه هذا الكتاب ، الذي عثرنا عليه بمحض الصدفة ، والذي نثبته هاهنا بنصه وفصه :

استفتاء

إلى العميد العظيم طه بن حسين !
نَعِمَ صباحُك أيها العميد !

وبعد فاني أريد أن أستفتيَكَ في أمر شهد لك فيه صديقنا حسن إبراهيم حسن بالتقدم والبراعة ، حيث قال في غير موضع من رسائله الممتعة إنك لا يشق لك غبار في تبويب الكتب

ولديَّ أيها العميد العزيز رسائل عديدة في موضوعات جليلة ، حرت في أمري وفي أمرها : كيف أجعل لها أبواباً ونوافذ وشبابيك . . . وهي رسائل - وحقك - ذات خطر عظيم وشأن جليل ؛ أريد أن أتقدم بها إلى بعض معاهد العلم لكي أحصل بها على ألقاب فخمة ، وأسماء ضخمة . .

وما خيرُ حياة ، يعيش صاحبها من غير ألقاب ولا أسماء؟ ولقد حدثني من أثق بشهادته أن الألقاب أعظم شيء في الحياة ، وأنه أفضل لابن آدم أن يكون له لقب ، من أن يكون له أدب .

وأن يكون له اسم ، من أن يكون له جسم . والألقاب مثلها كمثل الأثواب تستر الهنات ، وتكسب الفخامة والجلال .

ألا ترى أن الكرنب وهو نبت قليل الخطر ، حقير الجوهر ، قد سما على سائر النبات ، وشمخ بأنفه ، ومال بأعطافه ؛ وليس له من فضيلة يُدِلّ بها سوى أنه يتألف من ثياب بعضها فوق بعض ، فاذا نزعت عنه ثيابه لم تجده شيئاً .

ومثل هذا يقال في الخس والجرجير ، وهما الغذاء الأساسي لكبار الكتاب والشعراء . . . (١)

صدقني ، أيها العميد ! إن الثياب والألقاب هي كل شيء في الحياة .

ooo

والآن لا بد لك - إن كنت ترعى للمودة حرمة ، وتستجيب لداعي الإخاء والصداقة - أن تُفْتِيَنِي كيف أرتِّب الأبواب لهذه الأسفار التي أريد أن أتقدم بها إلى رجال العلم ، إن كنت حقاً لا يشق لك غبار في تبويب الرسائل والأسفار .

فأما الرسالة الأولى فهي ، في صيد الضفادع : كيف يكون ومتى يكون ، فقد حِرْت كيف أبوِّب هذه الرسالة . هل يكون الباب الأول منها في الضفادع أم في الصيد . . وقد تراءى لي أن أتحدث عن هذه الكائنات العزيزة ؟ هل هي من حيوان البر أم من حيوان الماء ؟ وهل نقيقها خارج من الحنجرة والبلعوم أم من الحلق والخياشيم ؟ وهل هي أسرع حينَ تسبح في الماء ، أو حين تثب على أديم الغبراء ؟ وهل غذاؤها الطحلب الحامض أم الحلو ؟ والعشب اليابس أم الطري ؟ وهل أرجلها أطيب في المأكل أم أيديها ؟ وهل يُمَهِّدُ لصيدها بأناشيد وأغان غربيَّة على طريقة شوبرت ، أم بأناشيد شرقية مثل نغمات معبد في الثقيل الأول على مدار البنصر ؟ وهل تستطيع ضفدعة أن تسبح في الماء إذا استلقت على ظهرها من شدة الضحك مثلا ؟ فان كانت عاجزة عن السباحة وهي في هذه الحال . جاز لنا أن نفكر جدياً في صيدها وهي تضحك حين نتلو عليها رسالة للجاحظ ، أو قطعة لموليير .

كذلك يجب أن تفهمني في أي باب أضع ما كان بين الضفادع ومسيلمة الكذاب ، وهل انخدعت بأكاذيبه كما ينخدع الناس بأحاديث الكذابين في كل مكان وزمن . ومتى كانت الضفادع ممن يؤخذ بالأكاذيب ؟ فهل يجوز استخدام هذه الحيلة في صيدهن والاستيلاء عليهن ؛ أم تلك خدعة لا تليق بالصياد الشريف والباحث العفيف ؟

فهلم يا مُبَوِّبَ الكتب ! ضع أبوابا ونوافذ ودهاليز لهذه الرسالة ولا تبطىء على فاني مستعجل .

ooo

أما الرسالة الثانية فوضوعها ، تعليم الجراد مبادىء الفلسفة ؛ فقد أنبأنا عالم فاضل أن هذه خير وسيلة لتحويل الجراد عن حياة النهب والسلب ، إلى حياة الشرف والاستقامة . . وتحولُ عقبات كثيرة دون تثقيف الجراد بهذه الثقافة الفلسفية المنشودة ، ذلك أن الجراد لا يستقر لحظة في مكان ، فلا تكاد تتحدث اليه عن أفلاطون وتأخذ في شرح القواعد التي تقوم عليها جمهوريته ، حتى تستهويه سنبلةُ قمح أو كوز من الذرة ، فيتركك في فلسفتك العلوية وينطلق إلى عالمه السفلي . ولقد تظن أنه سيقف على كوز الذرة زمناً طويلا يمكِّنك من أن تشرح له كتاب الأخلاق لأرسطو ، لكنك لا تكاد تفرغ من الفقرة الاولى من الفصل الأول حتى يكون المجرم قد سئم الكوز الأول ، ووثب يلتمس كوزا سواه .

غير أن العالم الجرادي الألماني ميلرقام بعدة تجارب تدل على أن في الجراد ميلا إلى فلسفة ما كيافلي ونيتشه ، ولا بد من أن نفرد باباً خاصاً لتحقيق هذا الأمر .

وهنالك عقبة أخرى تجعل من الصعب إدخال الفلسفة في رأس الجراد ، ذلك أنني قد كشفت في ساعة من ساعات الالهام أن الجراد لا يفهم بعقله ، بل بفمه وبطنه . فهل الفلسفة من المواد التي يمكن استيعابها عن طريق البطن والمعدة ؟ هذا أيضا باب مهم أرجو أن تفتيني في أي جزء من الكتاب أجعله ، وأي الأقسام تليق به ويليق بها ، ولابد كذلك من بحث عميق في عادة النهب والسلب عند الجراد : هل ترجع إلى البيئة ، أو ترجع إلى الوراثة والغريزة ؟ فان كانت أصيلة في النفس ، مغروسة في الطبع ، فبأي الوسائل نحتال إلى إدخال الفلسفة في نفوس طبعت على الانتهاب والاختطاف ؟

هلم أيها العميد وشمر عن ساعد التبويب ، ولا تدعني في حيرتي طويلا !

ooo

(١) يشير هنا الى كتاب الحدود والقيود للاستاذ العقاد

أما الرسالة الثالثة فهى : « فى استخراج أشعة الشمس من قشر الخيار » . وهذا موضوع قد أشار اليه الأستاذ (سويفت) ولكنه قصر فى متابعته واستقصائه . وفى نظرى قد آن لهذا الموضوع أن يقتل بحثا وتمحيصا ، حتى لو استنفدنا فى سبيل ذلك كل مافى الأرض من خيار وقثاء .

إن أشعة الشمس ضرورية للانسان والحيوان على السواء ؛ فقد حدثنا من نثق بعلمه أن القليل منها اذا أخذ فى فنجال على الريق كل صباح يشفى من الأمراض ، ويحدث فى البليد ذكاء وفى الغبى فهما ؛ وناهيك بما فى هذا من فائدة فى زمان ضعفت فيه الأحلام ، وصغرت فيه الأفهام . ولئن اعترض معترض بأن هذا الموضوع لا يهمنا لأن بلادنا غنية بأشعتها ، فليس فى هذا وجاهة ؛ لأن الباحث لا يختص ببحثه أرضا ولا بلداً ؛ وفى العالم أقطار كثيرة قد حرمت هذه النعمة ، ولابد من تزويدها بأشعة مستخرجة من قشر الخيار ، ومع هذا فان هنالك شكا كبيراً فى أن الأشعة التى تتأثر بها وتتعرض لها هاهنا ، هي من ذلك النوع الخيارى الممتاز ، وإلا لما انتشرت البلادة فى وادى النيل السعيد كل هذا الانتشار . فلقد بات من الثابت المعلوم أن للخيار مقدرة فذة يمتاز بها على سائر الكائنات فى استخلاص الأشعة النقية — فوق البنفسجية وتحتها — وتثبيتها فى ثنايا قشوره

هذا بحث طويل عريض عميق أرجو أن تسلط عليه غبارك الذى لا يشق ، من أجل تبويبه وتفصيله وترتيبه .

***

بقى البحث الرابع الذى أرجو أن يكون شهياً ممتعا ، وهو « فى أثر الموسيقى فى طول الأنف وعرضه وارتفاعه » فقد تعلم غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر أن الأنف أشرف الأعضاء وأمثلها ، وأن العرب كانت لا تجد مدحا أسمى ولا شرفا أعلى من أن يكون الرجل أشم العرنين ، ولم تنحط الزنج عن سائر الشعوب والأجيال ، ولم يستعبدهم الناس استعبادا إلا لما فى أنفهم من الفطس . والذين زعموا أن فطس الأنف عند الزنج راجع إلى بيئتهم لم يأتوا بشىء ؛ والصحيح عندنا أن هذا راجع إلى موسيقاهم وغنائهم المنحرف كما وصفه ابن خلدون . ودليلنا فى هذا محسوس وملموس ، ذلك أن الشعوب المتمدنة من أهل أوربا وأمريكا ، منذ اتخذوا موسيقى الزنج للهوهم ورقصهم قد استعرضت أنوفهم ، واستولى عليها الفطس ، كأنما القوم يجلسون على أنوفهم إذا جلسوا لا على مقاعدهم . وقد قام بعض الباحثين المحققين بقياس سعة الأنف وارتفاعه . فبدا له انخفاض محسوس فى الأنوف اليوم ، بالنسبة لما كانت عليه فى أواخر القرن الماضى وخرج من هذا البحث إلى نظريته المعروفة بأن العالم سائر كله إلى الفطس ، وأن الكبرياء والشمم محكوم عليهما بالفناء . وهو يزعم فى هذا كله أنه راجع إلى كثرة البقع فى وجه الشمس ؛ وهو فى تعليله هذا جد واهم ، والصواب ماذكرناه من أن هذه الظاهرة مرتبطة ارتباطا وثيقا بانتشار موسيقى الزنج والاقبال الشديد عليها .

كذلك أخطأ نهج الصواب ولم يوفق فى بحثه ذلك العالم الذى أرجع هذه الظاهرة إلى انتشار عادة الحك على المناخير التى كانت سائدة أيام الحرب الكبرى وما بعدها ، فقد ثبت انتشار هذه العادة فى أزمنة أخرى مثل عصر نابليون ، فلم يكن لها فى المناخير تأثير يذكر .

والراجح ماذكرناه من اتصال هـذا بالموسيقى . والله سبحانه وتعالى أعلم .

والبحث فى هذا الموضوع متشعب الفروع والغصون ، متعدد المخارج والمداخل ، وأريد منك أن تبوبه تبويباً يلم شعثه ، ويجمع بين شوارده ونوافره : ويجب أن يكون تبويباً مرناً نستطيع أن ندخل فيه أية دراسة أنفية جديدة قد تبدو لنا فى أثناء التأليف والتصنيف

***

هذا بعض مالدينا من الرسائل التى نرغب منك أن تساعدنا فى تبويبها . فهلم أيها العميد ، واجلس فى كرسيك المعهود ، ممسكا فى يمينك سبحتك التى تستعين بها على التسبيح ، وربما كانت لك فيها مآرب أخرى — وممسكا فى يسارك سيجارة تبعث الوحى وتفتح أبواب التبويب .

فان فعلت أسديت إلى البحث العلمى يدا يعمل بها ورجلا يمشى عليها . هداك الله إلى محجة الصواب ، وإليه المرجع والمآب

اخوك المخلص : اسماعيل بن زيد

طبق الأصل محمد عوض محمد

في التاريخ السياسي

الدبلوماسية الأوربية

في طورها الجديد

بقلم باحث دبلوماسي كبير

اجتازت الدبلوماسية الأوربية منذ نهاية الحرب الكبرى ثلاث مراحل: الأولى مرحلة التصفية وهي التي شغلت فيها الأمم الظافرة والمهزومة معاً بتصفية التركة الفادحة التي خلفتها الحرب، واحتملت الدول المهزومة معظم تبعاتها وأعبائها. والثانية يمكن تسميتها بمرحلة عصبة الأمم ولوكارنو، وهي المرحلة التي اشتد فيها ساعد العصبة بمؤازرة الدول الظافرة وانضمام ألمانيا المهزومة إليها لأول مرة بعد أن قامت بتأدية معظم الأعباء والمغارم التي فرضت في معاهدة الصلح؛ وفي أثنائها أيضاً تقدمت فكرة السلامة المشتركة تقدماً عظيماً، فعقد ميثاق لوكارنو لتأمين سلامة حدود الرين بين ألمانيا وفرنسا وبلجيكا، وعقد مؤتمر نزع السلاح واستمر حيناً يباشر أعماله، وعقد ميثاق تحريم الحرب الذي اقترحته امريكا على دول العالم، وقد استمرت هذه المرحلة حتى سنة ١٩٣٢. والمرحلة الثالثة، مرحلة السياسة القومية العنيفة، وعود الدبلوماسية الاوربية إلى أساليبها القديمة من عقد المحالفات والمواثيق العسكرية الظاهرة والخفية، وتكوين الجبهات الخصيمة، والتسابق في التسليح، وهذه هي المرحلة التي تجتازها أوربا اليوم.

ولا شك أن هذه المرحلة هي أخطر وأدق مرحلة انتهت إليها الدبلوماسية الاوربية مذ عقدت معاهدة الصلح (معاهدة فرساي) ولا شك أيضاً أنها تسير بأوربا إلى موطن الفصل

وتنقسم أوربا اليوم إلى معسكرين واضحين هما معسكر الدول الفاشستية التي تتخذ شعارها القومية المتطرفة والعسكرية المتوثبة والتسليح الشامل، وقوام هذه الكتلة ايطاليا الفاشستية والمانيا النازية. ومعسكر الدول الديمقراطية إذا صح التعبير، وشعارها السلام المسلح، والاستعداد لدفع الاعتداء الذي قد يقع عليها من الدول الفاشستية، وقوام هذه الكتلة انكلترا وفرنسا تؤازرهما روسيا السوفيتية.

وهذا التطور الحاسم في سير الدبلوماسية الاوربية، وتحولها من ميدان التعاون السلمي الذي عملت فيه من قبل إلى ميدان التنابذ والخصومة المسلحة يرجع قبل كل شيء إلى عنف الفاشستية الايطالية والالمانية وإلى شهواتها وأطماعها المغرقة وإلى اعتدادها بالقوة المادية الغاشمة؛ بيد أن الفاشستية تلقي التبعة في ذلك على الدول الديمقراطية وعلى ما أبدته من الأثرة في استخلاص المغانم الاستعمارية والاقتصادية لنفسها دون ايطاليا والمانيا، ودفعهما بهذا التصرف إلى خطة العنف واليأس التي تلجآن اليها

وتستقبل الدبلوماسية الاوربية عهدها الجديد بسلسلة من الاحداث والظواهر الجديدة؛ أولها وأهمها انهيار ميثاق لوكارنو نهائياً، بعد أن نقضته المانيا من جانبها في العام الماضي؛ وانحلال التحالف الصغير في شرق أوربا بعقد الميثاق الايطالي اليوجوسلافي؛ وتوثق العلائق بين السياستين الفرنسية والبريطانية؛ وفتور العلائق بين تركيا وروسيا السوفيتية، وتقدمها في الوقت نفسه بين تركيا وايطاليا وتقوية الجبهة الايطالية الألمانية واشتداد ضغطها في وسط أوربا وفي شرقها

وقد كان عقد الميثاق الفرنسي الروسي في أوائل العام الماضي أول نذير بانهيار الأوضاع القائمة، ففي ٧ مارس سنة ١٩٣٦، أعلنت ألمانيا نقضها لآخر الشروط العسكرية التي فرضت عليها في معاهدة الصلح وهي الخاصة بتجريد منطقة الرين من التسليحات والتحصينات، وأعلنت في نفس الوقت نقضها لميثاق لوكارنو، بحجة أن الميثاق الفرنسي الروسي قد عقد بقصد تهديدها وتطويقها وأن عقده مخالف لما كفلته نصوص ميثاق لوكارنو من سلامة الحدود الألمانية الفرنسية على الرين؛ وكان تصرف ألمانيا ضربة قاضية لهذا الميثاق الذي علقت عليه أوربا والعالم كله يوم عقده أعظم الآمال، ولم تلبث بلجيكا وهي إحدى الدول الموقعة عليه، والتي تستمد

سلامة حدودها من نصوصه ، أن رأت أيضاً أن تتحرر من تبعاته ، فأعلنت سياسة الاستقلال والحياد الجديدة التي انتهت أخيراً بصدور تصريح بريطاني فرنسي يحررها من تبعاتها المترتبة عليها في ميثاق لوكارنو ، مع استبقاء تعهد فرنسا وبريطانيا من جانبهما بالدفاع عن البلجيك في حالة الاعتداء عليها ؛ وهكذا انهارت دعائم هـذا الميثاق الذي كان دعامته السلام في غرب أوربا ، وحلت مكانه حالة جديدة لم يتضح مداها بعد ؛ على أن هنالك حقيقه لاريب فيها ، هو أن انهيار ميثاق لوكارنو ، وما اقترن به من مضاعفة التسليح الألماني ، وتقدم التفاهم بين ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشستية كان عاملا في إذكاء استعدادات فرنسا وبريطانيا العسكرية ، وفي توثق العلائق بينهما

وكان للمسألة الحبشية أثرها القوي في التقرب بين إيطاليا وألمانيا ، وتوجيه الأوضاع الجديدة للدبلوماسية الأوربية ، فقد رأت ايطاليا بعد الذي لقيته أثناء اعتدائها على الحبشة من خصومة بريطانيا ، أن تنسلخ نهائياً عن كتلة الدول الغربية ، وأن تتقرب إلى ألمانيا النازية التي تؤمن بمثل مبادئها العسكرية العنيفة ، والتي أيدتها وآزرتها خلال الأزمة الحبشية لأنها تجيش بمثل مطامعها الاستعمارية . وقد أثمر هذا التقرب بين الدولتين الفاشستيتين ثمرته في أوربا الوسطى وأوربا الشرقية ؛ وتبدو نتائج هذا التطور واضحة في موقف إيطاليا نحو النمسا ومسألة انضمامها إلى ألمانيا (الآنشلوس) ، فقبل التقرب الألماني الايطالي ، كانت ايطاليا تعارض هـذا الانضمام بكل قوتها ، وتعلن أنها مستعدة لتأييد الاستقلال النمسوي بالقوة المادية إذا اقتضى الأمر ، وما زلنا نذكر موقفها في سنة ١٩٣٤ حينما وقعت الثورة النازية في النمسا ، فقد حشدت بعض قواتها على الحدود النمسوية استعداداً لمقاومة أي حركة تقوم بها ألمانيا في سبيل الاستيلاء على النمسا . أما اليوم فان السياسة الايطالية حسبما تبين من مباحثات الدكتور شوشنج المستشار النمسوي والسنيور موسوليني ، لاتريد أن تذهب في سبيل تأييد النمسا إلى هـذا الحد ، خصوصاً وأنها ترى مسألة الضم إلى ألمانيا بعيدة الحدوث في الوقت الحاضر ؛ وتحاول السياسة الايطالية فوق ذلك أن تباعد بين النمسا وتشيكوسلوفاكيا التي تربطها بروسيا علائق وثيقة . ومن جهة أخرى فان التحالف الصغير المكون من تشيكوسلوفاكيا ورومانيا ويوجوسلافيا قد تصدعت أسسه من جراء التقرب بين يوجوسلافيا وايطاليا وارتباطهما بميثاق صداقة وتفاهم ؛ وهذا الميثاق الجديد فضلا عن كونه يلطف حـدة التنافس بين الدولتين ، يمهد لنفوذ ايطاليا في البلقان ؛ وهنا تصطدم جهود السياسة الفاشستية والسياسة النازية ، ذلك أن ألمانيا تريد أيضاً أن تمكن لنفوذها في البلقان ، وان تستأنف زحفه القديم نحو الشرق ؛ ولكن إيطاليا استطاعت أن تسبقها في هـذا الميدان على مايلوح ، وذلك بعقد الميثاق اليوجوسلافي ، والتقرب إلى تركيا الكمالية تقرباً ربما أسفر في القريب العاجل عن عقد ميثاق بين الدولتين ؛ كذلك تتودد إيطاليا إلى اليونان وتعمل على توثيق العلائق معها

وهكذا تنشط السياسة الفاشستية للعمل السريع الحاسم في حوض الدانوب وفي شرق أوربا ؛ وتعمل السياسة النازية من جانبها . في نفس الميدان ، في الحدود التي خصصت لنفوذها فيما يسمونه « محور برلين رومه » ، وتعمل بالاخص في المجر ورومانيا ، هذا عدا محاولاتها في النمسا ؛ وترى ايطاليا بهذه الجهود الدبلوماسية المتواصلة الى تأمين مكانتها وسلامها في شرق البحر الأبيض المتوسط لكي تتفرغ الى العمل في هذا البحر ، ضد بريطانيا العظمى وضد ما تدعيه لنفسها فيه من السيادة البحرية ، ولتحقق ما تزعمه لنفسها من الاطماع الاستعمارية ؛ وترى المانيا النازية بالعمل في شرق أوربا وفي البلقان الى تكوين جبهة موحدة ضد روسيا السوفيتية بيد أنه يشك كثيراً فيما اذا كانت المانيا تفيد من هذه الجهود ضد المارد الروسي العظيم

ويجب أخيرا ألا ننسى المشكلة الاسبانية الشائكة ، وماكان لها من أثر في هذا التطور الجديد في سير الدبلوماسية الأوربية ؛ وسيكون لنتائج الحرب الأهلية الأسبانية متى استقرت نهائياً أثرها العميق أيضا في توجيه الأوضاع السياسية الجديدة في غرب أوربا

وقد أدركت الدولتان الغربيتان الكبيرتان ، أعنى بريطانيا العظمى وفرنسا ، ما تقتضيه هذه العوامل والظروف الجديدة من تغيير عميق فى سياستيهما ، وخصوصاً أزاء ماتبديه الدولتان الفاشستيتان أعنى ايطاليا وألمانيا من نشاط متواصل فى الاستعدادات العسكرية ؛ فاما فرنسا فقد اقتنعت بأن المواثيق والعهود الدولية لم تبق لها قيمة يعتمد عليها وان ألمانيا النازية بعد أن حطمت كل ما تبقى من عهودها فى معاهدة الصلح وفى لوكارنو ، وأخذت تستأنف قواها العسكرية القديمة ، لا يمكن ردها وكبح جماح عدوانها وأطماعها الا بمضاعفة الاهبات العسكرية ، وهذا ماتفعله اليوم هى وحليفتها روسيا السوفيتية التى تحذر من عدوان ألمانيا مثل ما تحذر فرنسا ؛ واما بريطانيا العظمى ، فقد اقتنعت بعد مأساة الحبشة بانهيار فكرة السلامة المشتركة وعبث الاعتماد عليها فى رد الاعتداء المدبر ، وأدركت ما يهدد سلامة الامبراطورية البريطانية من جراء ظهور الفاشستية الايطالية بمظهر الظافر المتحفز ؛ فاخذت تستدرك بسرعة مدهشة مافاتها من الاهبات العسكرية ، ووضعت برنامجا هائلا للتسليح يكفل لها تفوقها القديم فى البحر والهواء ويمكنها من أن تعود فتملى كلمتها وارادتها على أولئك الذين يتحرشون بها ويحاولون تحديها ومنافستها ، وتزداد العلائق توثقا بين الدولتين الغربيتين الكبيرتين ، يجمع بينهما الخطر المشترك ، والمصالح المشتركة ، وروابط الديموقراطية

وهكذا تعود أوربا الى ما كانت عليه قبل الحرب: معسكران خصيمان يعمل كل منهما لاحراز التفوق فى الاهبات العسكرية، ويسيطر كل منهما بنفوذه على عدد من الدول الصغيرة ؛ وهذان هما معسكر الفاشستية ، تقوده ألمانيا وايطاليا ، ومعسكر الديموقراطية تقوده بريطانيا وفرنسا ؛ وهكذا تعود الدبلوماسية الأوربية الى وسائلها القديمة من عقد المحالفات العسكرية والمعاهدات السرية والاعتماد على القوة الغاشمة

(***)

فى الأدب المقارن

الخيـــــال

فى الأدبين العربى والانجليزى

للأستاذ فخرى أبو السعود

الخيال ، أو القدرة على انتزاع شتى الصور الذهنية من الواقع واستحضارها والتصرف فيها ، من المواهب التى يمتاز بها الانسان على سائر الأحياء ، ويمتاز بها النابغة على سائر الناس . ورقى العلم رهين برقيه ، واتساع الأدب متصل باتساعه ، وهو بين الجماعات الأولى مصدر تلك الأساطير والأوهام التى تسود بينهم ، كما أنه مصدر ماتغص به اللغات من مجازات وتشبيهات ، بها تتسع جوانب اللغة وجوانب التفكير معا أيما اتساع ، ولولا الخيال لالتزم الفكر الانسانى الواقع المتحجر أى التزام

والخيال قوام جانب عظيم من الأدب ، إن لم يكن قوام الجانب الأرقى فيه ، إن لم يكن قوام الأدب جميعاً : فالمجازات والتشبيهات يتأتى للأديب أن يصور شعوره ويبرز تفكيره ، إذ يمثل لنضرة الخد بنضرة الورد ، ولطلعة البطل بهيبة الأسد ، ولجيشان المعركة بتدافع الآذى ، وهلم جرا . وبالخيال يستطيع الأديب أن يسبك موضوعه ويجمع أطرافه ، وينبذ ما لا حاجة به إليه من تفصيلات قد تشوه ماهو بسبيله ، ويُضفى ثوبا من الجمال والانسجام على ما ينشىء . والخيال أظهر ملكات الشاعر وأول مميزات الشعر التى تفرق بينه وبين النثر

وارتقاء الخيال واتساعه وكثرة آثاره أهم ظواهر دخول الأدب فى طوره الفنى : فانه إذا خرجت الأمة من بداوتها وعزلتها وبسطت سيادتها واتصلت بجيرانها القريبين والبعيدين ، وتحضرت وتثقفت ، اتسعت أذهان أبنائها وترامى خيالهم وتصوروا من الحقائق والمعانى والممكنات مالم يكونوا يتصورون ، وغزر المعين الذى يستمدون منه التشبيهات والاستعارات ، وينتزعون منه الحكم والأمثال ، ويتوفر الفراغ ويتسع للمجهود الأدبى المتصل ، فتظهر القصة والدرامة والقصيدة الطويلة ، ويحلق الأدباء فى أجواز الخيال وآماد الماضى والمستقبل ، مبتعدين عن دواعى الحاضر الحازبة ومجالاته الضيقة ، ولا يبلغ الأدب أوج رقيه

حتى يرتقي الخيال فيه هذا الارتقاء وحتى يشغل أكثر جوانبه

وللخيال في الأدب الانجليزي مكان رفيع وأثر بعيد شامل يتمثل في موضوعات الأدب وأشكاله وطرائق تناول الأدباء لما هم بسبيله : فالأديب الانجليزي غزير العاطفة ، إذا جاشت أطلق لها العنان واسترسل مع خياله ، وأثار به منظر طبيعي أو غناء طائر أو ذكرى طارئة أو أثر من آثار الغابرين أو أسطورة من أساطيرهم شتى الأحلام والأطياف ، وتاهت به عاطفته إلى حدود الأماني وآفاق الماضي والمستقبل ، وهذا الاسترسال مع الخيال إذا أثارته فكرة رئيسية هو مرجع وحدة القصيدة في الانجليزية

وهناك عدا هذا الخيال المنبث في كل مناحي الأدب أشكال خاصة من الأدب قوامها الخيال ، ينهض بكيانها ويوثق وشائجها . وهذه هي الملاحم الطوال في الشعر والقصص الممثلة أو المقروءة شعراً أو نثراً ، ففي هذه لايلتزم الأديب الواقع المجرد بل يفترق عنه افتراقاً جسيماً ، ويؤلف من شتى أفكاره وتجاريبه وأمانيه وصور الحياة التي مرت به ، عالماً يجيش بالحياة والحركة ويموج بالعواطف والنوازع ويفيض بالجمال والامتاع ؛ بهذه الضروب القائمة على أساس من التخيل المحض يحفل الأدب الانجليزي

فقد عالج الملاحم والمطولات من القصائد ملتون وسبنسر وهاردي ووردزورث وكثيرون غيرهم . وأشعار الملاحم تعج بالمردة والجبابرة والآلهة ، وتحفل بخوارق الأعمال وجسائم البطولة ، وهي على رغم هذا لاتخرج عن عالمنا الانساني ولا تغفل النفس الانسانية ، بل تظل نوازع تلك النفس ومشاغلها هي الهدف الوحيد الذي يرمي إليه ناظموها : إذ فيها يتخذ أولئك الأرباب والجبابرة طبائع الناس وميول الأفراد ، وإن فاقوا البشر قوة وعظماً ؛ ومن هنا يتأتى للشاعر أن يبسط آراءه في ميدان متسع وإلى مدى فسيح ، فيستعرض مشاغل عصره ويبث خوالج نفسه ، فالخيال هنا لايعدو الحقيقة وإنما يوضحها أحسن توضيح ، فضلا عما يمتع النفس به من قصص متسق وجمال وجلال

وفي الأدب الانجليزي مالا يعد من قصص في الشعر والنثر ممثلة ومقروءة ، وقوام القصة بطبيعتها الخيال ، وإن تراوح نصيبها منه ، فهناك القصص التي ترمي إلى أغوار الماضي وتدور حول عظماء التاريخ والأساطير ، من طموح يبيع نفسه للشيطان كي يعينه الشيطان على إدراك مطامحه ، إلى دائن يتقاضى دينه من لحم غريمه ودمه ، كما في روايات مارلو وشكسبير . وهناك القصص الواقعية التي تلتزم الحقيقة إلى حد بعيد ، وتصور المجتمع الحاضر تصويرا دقيقا لابدع شاردة ولا واردة ، كقصص هاردي ، ودرامات جالزورذي ، ولكل من الضربين متعته

ولشغف الانجليز بسبحات الخيال ، وميلهم إلى إطلاق الفكر في أجوازه ، لجأوا في شعرهم ونثرهم إلى تصوير حوادث التاريخ وغرائب الأساطير ، فاستقى شعراؤهم وكتابهم عذب القصص وممتعه من تاريخ انجلترا وتواريخ اليونان والرومان وبني اسرائيل وغيرهم ، واتخذوا من خرافات الأمم مجالا لفنهم ، فعرض سبنسر وتنيسون وكولردج وغيرهم تلك الخرافات عرضا شعريا رائقا مرصعا بجميل الوصف وبدائع المناظر الطبيعية ، وشائق مواقف الحب والبطولة .

ومن ثم امتلأ الأدب الانجليزي بأسماء الشخصيات الخيالية التي اخترعها الأدباء من مخيلاتهم ولم يكن لها قبلهم وجود أو كان لها وجود مبهم في عالم الخرافة فأخرجوها بعبقرياتهم إلى عالم النور والوضوح ، وألبسوها ثوبا من الجمال والجاذبية ، وأصبح بعض هؤلاء الأشخاص الخياليين الذين امتلأت بذكرهم وأخبارهم الملاحم والقصص والشعر والنثر ، أعلاما على طبائع في الانسان معروفة ، ورموزا على حقائق في النفس البشرية مشهودة ، فشكسبير مثلا لم يكن يدع خلقا إنسانياً نبيلا أو وضيعا إلاصوره في رواياته وخلق مالا يعد من الشخصيات الحية ، مثل هملت وروميو وجولييت وياجو وشيلوخ ، وغيرهم ممن صار لهم وجود قائم في عالم الأدب كوجود أعلام الماضي في عالم التاريخ

لم يجر الأدب العربي إلى هذا المدى من الخيال ، فلم تكن فيه ملاحم ولم تكن المطولات من هم شعرائه ، ولم يرتق فيه القصص ولم يحتو على شخصيات متخيلة من خلق الأدباء ، وظل الحاضر القريب والواقع المحقق ديدن أدبائه ، فالأديب العربي كان شديد الايجاز في مقاله وتعبيره عما يحس ، يعبر عن أفكاره أشتاتا كلما عن له حافز إلى الكتابة ، لايدخر أفكاره ولا يربط منها حاضرا بماض ، بل يرسلها الشاعر على السجية أبياتا محكمة النسج موجزة البيان ، ويرسلها الكاتب روايات قصيرة متتابعة منسوبة كل رواية منها إلى صاحبها أو راويها أو شهودها ؛ فأحسن أشعار المتنبي حكم موجزة متتابعة مستقل كل منها ببيت لاتكاد تجمعها علاقة ؛ وقوام كتب كثيرة كمؤلفات الجاحظ والثعالبي وابن عبد ربه روايات وشواهد متتابعة ، لايكاد يكون للأديب فضل غير جمعها وتبويبها

كان الشعر الجاهلي محدود الخيال قريب المأخذ لمكان أربابه من البداوة وبعدهم عن الثقافة ، فلما تحضر العرب وتثقفوا واختلطوا بالأمم واطلعوا على أحوال الأقطار البعيدة ، اتسع من

جراء ذلك خيالهم وبان أثره فى شعرهم ونثرهم ، فالمحدثون من الشعراء لاشك أبعد خيالا وأكثر تفننا فى التشبيهات من الجاهليين. وظهر ضرب من القصص الخيالى يتجلى فى مقامات بديع الزمان ، ورسالة الغفران ، فى هذه وتلك مواقف وحوادث كلها من اختراع الخيال ؛ ثم هناك الروايات والأخبار العديدة التى كان يخترعها الرواة والكتاب ، يطلبون الاغراب والتطرف والرواج ، أو يؤيدون الحجج والمذاهب.

بيد أن هاتيك جميعا آثار ضئيلة الشأن ، وهى إذا قيست بمافى الانجليزية من سبحات الخيال ، لم تكن إلا شبيهة بطيران الدجاجة الخفيف مقيساً بتحليق البازى الكاسر ؛ ورسالة الغفران على جمال فكرتها ومشابهتها لما فى آداب الأمم الكبيرة فى جريان حوادثها فى عالم الخلد ، وامتلائها بممتع المواقف والمحاورات ، مكتظة بمسائل النحو والأدب النظرية العقيمة ، التى كان كثير من الأدباء ينفقون أعمارهم فى غياهبها غافلين عما هو أهم منها من حقائق الحياة وجمالها ، ولم يكن الخيال ولا الجمال ولا القصص غرض المعرى الصحيح حين أملاها ، وإنما كانت تلك المسائل اللغوية هى مقصده الأول ؛ ومقامات البديع على جمالها واهتداء البديع إلى اختراع شخصية أبى الفتح فيها ، مكتظة كذلك بالألاعيب اللفظية والبراعات اللغوية ؛ فالمقامات ورسالة الغفران جيلتان على أن تكونا خطوتين إلى مابعدهما ، ومرحلتين فى طريق نمو القصص الصحيح وازدهار الخيال الراق ؛ بيد أن ذلك النمو لم يطرد وذلك الرقى وقف فى أول الطريق . وإن من العجائب حقاً أن يكون أعظم أثر خيال فى الأدب العربى من صنع شاعر كفيف محجوب عن آفاق الحياة ومباهجها

فكبح عنان الخيال كان دأب أدباء العربية حتى بعد دخول الأدب عصره الفنى ، فالفكرة التى تخطر للأديب الانجليزى فيحوك حولها قصة تموج بشتى الصور المنتزعة من الحياة ، أو ينظم حولها قصيدة طويلة تجمع أشتات الأفكار والمعانى ، يكتفى الأديب العربى بصوغها فى بيت شعر محكم يذهب مثلا ويروع بايجازه وشموله ، لا بتقصيه واستيعابه ، فكل بيت من أبيات المتنبى السائرة يحوى نظرة نافذة إلى حقائق الحياة ، هى بنفسها محور صالح أن تدور حوله قصة أو درامة ، بينما الأديب العربى قد أودعها أوجز لفظ وأعمه

وقد نظم شِلى قصيدة فى قرابة مائة بيت ، حين استرعى تفكيره هبوب ريح الشتاء الباردة فى إيطاليا ، فصور عصفها بالأوراق الجافة ، ودفعها البذور إلى حيث تنام فى التربة حتى ينبهها الربيع بدفئه وطيب أوانه ، وشبه ثوران عاصفتها على الأفق بالشعور المتهدلة عن رأس مايناد احدى العرائس الخرافية ، ووصف اقشعرار النبات المائى فى قاع المحيط لدى إحساسه مرور تلك الرياح ، ثم طلب إلى الريح أن ترفعه كما ترفع تلك الأوراق وتدفعه كما تدفع تلك البذور ، وتنفخ فيه من قوتها ، وتتخذه ناياً لها ، عله يستطيع أن يطير بأجنحتها ، ويبذر بين الخلق بذور أفكاره الاصلاحية التى كان أميناً لها طول حياته . ولشكسبير مقطوعة عن ريح الشتاء أيضاً فى رواية «كما تشاء» ، يسترسل فيها فى التأمل على ذلك النحو ؛ اما الشاعر العربى فاذا استرعى انتباهه هبوب الريح فيودع خاطره أوجز لفظ ، واصفا تهييج الريح لذكرياته أو محملا إياها سلامه إلى أحبائه ، كما قال بشار :

هوى صاحبى ريح الشمال وإنما ... أحب لقلبى أن تهب جنوب
وما ذاك إلا أنها حين تنتهى ... تناهى وفيها من عبيدة طيب

والغريب أنه برغم غنى الأدب الانجليزى بآثار الخيال وندرة تلك الآثار فى الأدب العربى ، نرى كلمات الخيال وخيال الشعراء والمخيلة وغيرها كثيرة التداول فى العربية نادرة الورود فى النقد الانجليزى ؛ وإنما كان نقاد العربية يطلقون اسم الخيال على أبعد الأقوال عن مجال الخيال الصحيح ، يطلقونه على مادرج عليه الشعراء المداحون من اختراع مواقف الغرام فى استهلال قصائدهم ، وتلفيق صفات الجود والبأس لممدوحيهم ، ومن ثم اشتهر البحترى بالخيال ، لا لأنه دبج القصص المحكم أو نظم المطولات الرائعات بل لأنه كان من أمضى الشعراء فى بابى المديح والغزل الاستهلالى ، ومن أكثرهم ذكراً للأطياف والوداع واللقاء ، وليس تحت مثل هذا الخيال طائل ، إذ قوامه التكلف والمحال والا يغال فى البعد عن حقائق الحياة والشعور ، بينما اخص خصائص الخيال الفنى الصحيح صدق البيان للشعور الصحيح فى أعمق أعماقه وأرحب آفاقه

فاذا قال بشار إن الجود من كف ممدوحه يعدى ، وقال أبو تمام إن ممدوحه لايستطيع قبض أنامله لأنه تعود بسطها بالعطاء ، وقال المتنبى إن أسنان صواحبه برد خشى أن يذيبه من حر أنفاسه فكان هو الذائب من حر أشواقه ، وإذا شبه ابن المعتز الهلال بمنجل يحصد نجوم الليل حصداً ، أو شبه ابن خفاجة النهر وعشب ضفافه بهدب يحف بمقلة زرقاء ، فقد باعدوا جميعاً وأغربوا وخالفوا حقائق المنطق والشعور ، وجاءوا بما هو أشبه بعبث الصبيان وهذر المخمورين ، وكان قولهم أبعد الأشياء عن الخيال ، فالخيال ليس هو تجاهل حقائق الحياة وتحديها والتفنن فى مناقضتها ، وإنما هو قدرة الفكر على استيعابها والاشتمال على قريبها وبعيدها ، والتصرف فيها

والتفنن فى عرضها ، ولا غرو إذ كانت تلك نظرة نقاد العربية إلى الخيال أن قالوا إن أعذب الشعر أكذبه ، والحق أن أعذب الشعر أصدقه ، وأجود الخيال أكثره اشتمالا على الحقيقة

وغزارة آثار الخيال فى الأدب الإنجليزى ترجع لا شك إلى اختلاف مناظر الطبيعة فى انجلترا وتعددها وتقلب أحوال الجو ، ثم هى ترجع إلى اتساع أذهان الانجليز باقتباسهم حضارة أوربا ومساهمتهم فيها ، وإلى الكشوف الجغرافية العظيمة التى عاصرت نهوض الأدب الانجليزى ، وهى ترجع أيضاً إلى اطلاع الانجليز على الأدب اليونانى الحافل بروائع الحوادث والأساطير ، المملوء بأشعار الملاحم والدرامات ، فقد كان لشعراء الانجليزية وكتابها من ذلك معين لا يفنى ، وكان الاطلاع على التراث الكلاسى بمثابة كشف جغرافى آخر واطلاع على عالم ثان غير هذا العالم المعهود ، مما أطلق الأذهان إلى غايات الخيال ، وكان للأدب العامى فى ذلك أثره أيضاً

وترجع ضآلة حظ الأدب العربى من الخيال الصحيح السامى، وكثرة ما به من آثار التخيل الزائف ، إلى نزعة الجمود التى كانت تسوده وتقره دائماً على محاكاة الأقدمين واحتذاء الأدب الجاهلى ، وهذا بطبيعته المتبدية وبيئته الصحراوية التى ترعرع فيها ، أدب أولى قليل الحظ من الخيال كثير الالتزام للواقع الحاضر ؛ هذا إلى اشتغال الأدباء بمدح ذوى السلطان واجتهادهم فى تخيل كل منقبة وإضافتها إليهم ؛ أضف إلى ذلك أن الأدب العربى لم ينتفع كما انتفع الأدب الانجليزى بأدب الاغريق، فحجبت عنه تلك العوالم الزاخرة بالحقائق والخيالات . وقد اطلع العرب على فلسفة الاغريق فحاكى غير واحد من فلاسفتهم جمهورية أفلاطون بتخيل المدينة الفاضلة ، ولو اطلعوا كذلك على أدبهم لاستفادوا منه فائدته المحتومة

ظل الأدب العربى مكبوح الخيال ملتزماً للواقع مؤثراً للايجاز متشبثاً بالرواية التاريخية المسندة ، وترك الخيال الواسع للعامة يسبحون فى عوالمه التى تستهوى النفس الانسانية ، فجالوا فى نواحى القصص يودعونه أفكارهم على ما بها من قصور، وآمالهم على ما بها من سذاجة وما يشوبها من شهوات الحس ، وثقافتهم على ما يخالجها من جهل واضطراب ، وجاء الأدب العربى الفصيح فى أزهر عصوره مشتملا على ضروب من التخيل الفج لا يستسيغها لب ، ولا يقرها فن ، مشتملا بجانب ذلك على وجدانيات صادقة وحكم وأمثال رائعة موجزة ، هى خير ما فى الأدب العربى من لباب الفكر والشعور، فالأدب العربى يبلغ قمته بما فيه من آثار الحكمة ، لا بما يحويه من صور الخيال

فخرى أبو السعود

الفلسفة الشرقيـــة

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٤ —

الديانة المصرية — التوفيق بين الديانة والفلسفة

ان ذيوع عقيدة تأليه الملك أو حلول روح القدس فى جسده الذى حدثناك عنه فى الكلمة السابقة قد خلق أمام العقل المصرى مشكلة معقدة عويصة يمكن أن تعتبر اللبنة الأولى من بناء الفلسفة المصرية ، وأن تعد محاولة حلها أقدم المحاولات الفلسفية التى عرفها تاريخ العقل البشرى ، لأن عهدها يصعد فى سلم الماضى أكثر من ستة آلاف سنة ، وأين من هذه الفلسفات الأخرى التى لا يتجاوز أقدمها بضعة عشر قرنا قبل المسيح ؟ تلك المشكلة التى نشأت عند المصريين من تأليه الملك هى : « إننا نشاهد أن الملك يموت كما تموت عامة الناس فكيف يموت الإله الذى أولى صفاته الخلود ؟! » .

لم تكد هذه المشكلة تأخذ مكانها فى الحياة الفكرية المصرية حتى وجد المتفلسفون الأولون لها حلا وهو أن فرعون لا يموت كما يموت الناس ، وإنما حين يعجز جسمه المادى عن النشاط العملى يخرج منه السر الإلهى أو الروح القدس . ليحل فى جسم ابنه الشاب الممتلئ قوة ونشاطا . وإذاً فروح « هورس » هى التى تحكم فى كل هذه الأجساد المختلفة المسماة بالفراعنة والتى أطلق على كل جسد منها اسم خاص فى الظاهر فحسب ، ولكن هذا الجواب لا يشفى غليل المتفلسفين الباحثين عن خفايا الكون وأسرار الوجود ، لأنهم لا يكادون يتلقون هذا الجواب حتى يصطدموا بالتقاليد الدينية التى تصرح بأن فرعون وهو فى قبره يعين ابنه على الحكم وينصحه فى المواقف الحرجة . ومن هذا تنشأ مشكلة فلسفية أخرى وهى « كيف تقولون إن روح (هورس) تغادر جسم فرعون المائت بعد عجزه عن النشاط إلى جسم ابنه الشاب النشيط ثم

تعودون فتقولون : إن فرعون بعد رحيله إلى العالم الآخر يظل متصلا بابنه يعاونه وينصحه ؟ فالتصريح الأول يفيد أنه ليس هناك إلا شخصية روحية واحدة تغادر الجسم الضعيف العاجز إلى الجسم القوى النشيط . والتصريح الثانى يفهم منه أن فرعون بعد موته تبقى له شخصية روحية مستقلة تنصح الملك الجديد وتعاونه . ولا ريب أن هذا تناقض ظاهر يدعو العقول الفلسفية إلى البحث والتنقيب ، وهذا هو الذى كان بالفعل . إذ بدأت الروح الفلسفية تسرى بين البيئات المصرية المفكرة منذ ذلك العهد المتغلغل فى غيابات الماضى فاهتدت إلى حل خيل إليها أنه مقبول من الوجهة العقلية ، وهو أن « هوروس » له عدة شخصيات إحداهـا الشخصية الدنيا التى تتقمص جسد فرعون ؛ وثانيتها الشخصية العليا الحاكمة فى عالم الآخرة ؛ وثالثتها الشخصية الوسطى وهى التى تقوم بنصيحة الشخصية الدنيا فى جسدها الجديد . وبهذا تنحل المشكلة ويزول التناقض .

لم يكن المصريون كغيرهم من الأمم القديمة يعتقدون أن الجسم الفرعونى بعد مغادرة الروح إياه يصبح جيفة كأجسام بقية البشر والحيوانات ، وإنما كانوا يرون أن حلول روح القدس فيها تكسبها شرفا خالداو بركة أبدية . ولهذا فبقدر ما يبقى جسم الملك محفوظاً فى قبره تنتشر السعادة ويعم الخير فى مصر ، وهذا هو الإدراك الأول الذى كان يعاصر مبدأ الملكة القديمة ، أما بعد هذا العهد بقليل فقد انتقل تقديس الروح من دائرة الملوك الضيقة إلى جميع الأرواح البشرية وأخذ المفكرون يترقون فى الروحية حتى بلغوا فيها الأوج الذى سنشير إليه فيما بعد .

وقد كانت الروح تعنى بأن يترك فى الجسم فرجة ، لتستطيع العودة اليـه منها متى شاءت الرجوع من عالم « أوزوريس » إلى عالم الدنيا ، ولكن هذه العودة لم تكن محبوبة عند الروح إلا إبان صلاحية الجسم لها ، فاذا يبست « المومياء » وتقلص جلدها وانكمشت أعصابها وفقدت هذه الصلاحية تأخرت الروح عن المجىء إلى الجسم ، وهذه خسارة كبرى كانت أحد الدوافع التى حملت المصريين على الدقة فى صنع التماثيل بعد التحنيط .

وكان عالم « أوزيريس » فى أول عهد المصريين بهذه العقيدة عالما قاسيا محفوفا بالأشواك والمخاطر حتى على فرعون نفسه ، إذ كانت روحه لا تمر إلى مملكة « أوزيريس » إلا بعد أن تجتاز عدة عقبات ومصاعب تنشأ من أسئلة دقيقة ومحاسبات عسيرة يوجهها الحارس المكلف بمحاسبة المارة ، وكانت هذه المملكة فى عقيدة المصريين تحت الأرض وكان يجب أن يمر إليها الفراعنة ، ومن فى حكمهم ، ليستمتعوا بعد اجتياز عقباتها بالنعيم المقيم فى عالم الخلود .

ولما رأى الكهنة أن فرعون يقاسى قبل الوصول إلى امبراطورية « أوزيريس » أهوالا صعابا أشاروا بأن تتلى عند دفن المومياء الملكية التعاويذ التى تلتها « إيزيس » على جسم زوجها أوزيريس فأعادته إلى الحياة ، أو أن تكتب هذه التعاويذ وتوضع مع المومياء فى مقرها الأخير ، ليعود فرعون فى سهولة إلى الحياة ليجتاز العقبات إلى مملكة الآخرة

ولما ارتقت الديانة المصرية تطورت هذه الشعيرة فانتقل فرعون من مملكة « أوزيريس » إلى مملكة « رع » كبير الآلهة وترك الأولى لأفراد الشعب الذين يجب أن يجتازوا الصراط جميعاً إلى المملكة وأن يمر بهم ما كان فى العهد القديم خاصاً بفرعون

أما فرعون فقد أصبح فى العقيدة الجديدة قمينا بأن يذهب إلى المملكة الساطعة كما كانوا يسمونها . وكان يستعين على الصعود إليها فى السماء تارة بجناحى « هوروس » وأخرى بجناحى « توت » وثالثة بسلم يحضره إليه الآلهة ، وهو سلم طويل يتصل أوله بمملكة « أوزيريس » تحت الأرض وتلامس قمة مملكة « رع » فى السماء فاذا وصل إلى هذا المقر الالهى ظل فيه زمناً يحمل اسم « هوروس » ويستمتع بامتيازاته ، ثم ارتقى بعد ذلك إلى منزلة « رع » نفسه وامتزج به واتحد فيه اتحاداً كلياً . ومنذ أن ظهرت فى الديانة المصرية هذه الصلة بين « رع » وفرعون حصل فيها تطور وانقلاب عظيمان إذ أصبح « رع » هو الذى يطوف بالملكة ليلا ثم يتغشاها قبل حلها بالملك المقبل . وهكذا اصبح « رع » هو الأب المباشر لفراعنة الدنيا وهو الكل الأعظم الذى يتلاشون فيه فى الآخرة

هل نشأ التطور الدينى الجديد من الفلسفة أو الفلسفة هى التى نشأت من هذا التطور ؟

اختلف الباحثون من العلماء فى هذه النقطة فى الاجابة على هذا السؤال اختلافاً شديداً ، فأجاب الفريق الأول وهم الأكثرية العظمى من الباحثين بأن الأصل هو التطور الدينى وأن الفلسفة ناشئة عن هذا التطور ووليدة احتكاك الأفكار حوله كما حدث فى مسألة تعدد شخصيات روح « هوروس » التى أسلفنا لك الحديث عنها . وأجاب الفريق الثانى إجابة مباينة لرأى الفريق الأول تمام المباينة فقرروا أن التفكير الحر هو الذى سبق إلى إنشاء نظريات فلسفية لم يجد الدين بداً من أن يتجه نحوها ويصبغها بلونه . وإليك بيان هذين المذهبين :

المذهب الأول

لما سرت عقيدة امتزاج الآلهة التى ترجع بالتعدد إلى أصل واحد وقالت بالثالوث المكون من : « أوزيريس » و « إيزيس » و « هوروس » الثلاثة الراجعين إلى واحد ، ثم تطورت من التثليث الموحد إلى التتسيع الموحد كذلك ، فقالت بتسعة آلهة يرجعون فى النهاية إلى إله واحد ، حدث اضطراب فى الأفكار ، وتناقضت العقيدة مع العقل وكاد يحدث بينهما تناقض خطير لولا أن أخذ المفكرون يفلسفون ويسلكون الممكن والمستحيل من السبل ليوفقوا بين العقل والعقيدة ولكنهم أخضعوا العقيدة للعقل ، بل وللعقل الواقعى أو الطبيعى حيث قرروا أن الماء هو « الكاؤوس » المبهم أو العنصر الأول المشتمل على جميع ما فى الكون من عناصر ، وأنه كان ولا شيء معه لا آلهة ولا أناسى ، وأول من ظهر من الماء هو « رع » الذى لم يلبث أن تمركز وكون الشمس ، ذلك الكوكب العظيم الذى من فعله ظهر إلهان عظيمان هما : « سو » أى الهواء و « تيفنيه » أى الفراغ . ومن اجتماع هذين الإلهين تولد إلهان آخران هما : « جيب » أى الأرض و « نوت » أى السماء ، ومن اجتماع هذين الإلهين أيضاً نشأ أربعة آلهة كل اثنين منها على طرفى نقيض من الآخرين . فأما الزوج الأول فهو « أوزيريس » أى النيل ، و « إيزيس » أى الأرض المخصبة ؛ وأما الزوج الثانى فهو « سيت » أى الصحراء ، و « نيفتيس » أى الأرض القاحلة ، وهذه هى الآلهة التسعة الراجعة إلى واحد والتى كان المصريون يطلقون عليها : « L, Enneade » أى المتسع أو التاسوع المقدس . ولم يكن هذا التاسوع هو كل ما عند المصريين من آلهة وإنما كان هيئة رياسة عليا لجمهور كبير من صغار الآلهة وأنصافها

المذهب الثانى

ذهب جماعة من العلماء نخص منهم بالذكر الأستاذ « ألكسندر موريه » المستمصر الكبير إلى أن التاسوع لم يكن هو الأصل كما فهم العلماء الآخرون ، وإنما اكتشف العقل المصرى القوى المتمدين تسع قوى من قوى الطبيعة هى الشمس والهواء والفراغ والأرض والسماء والنيل والخصوبة والجدب والصحراء . ثم أسندوا إلى هذه القوى كل أفاعيل الكون ، ولما رأوا أن هذا التفكير الفلسفى ليس فى متناول أذهان العامة لم يسعهم إلا أن يؤلهوا هذه القوى ، وأن يطلقوا عليها أسماء مقدسة لتفهمها الجماهير هى نفسها حين رأت هذا التقدير العظيم من جانب العلماء لتلك القوى أولته تأويلا دينياً يتفق مع عاطفتها الفطرية التى لا تقدس إلا المعبودات ؛ وفى كلتا الحالتين يكون العقل المصرى العلمى هو الذى أوجد التاسوع ، لا التاسوع هو الذى أوجد التفكير فى قوى الطبيعة كما يذهب الفريق الأول

(يتبع) محمد غلاب

مدخل الفردوس المفقود

لملتون

ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود

يا ربة الشعر أنشدينا :
كيف كان من الانسان أول العصيان ؟
ما تلكم الشجرة الحرام وما جناها ؟
فقطفها الفاني أورَدَ الأرضَ الفناء ،
وأضعنا به عَدْناً ، وعانينا ما نلاقي من عناء .
وهكذا نظل حتى يبعثنا نبي عظيم ، فيسترد لنا دار النعيم .
غردي ! يا من أوحيت إلى موسى ،
في جنح الذُّرى من « حوريب » أو « طور سينين » ،
فألهمت ذيّاك الراعي ، الذي عَلّم القبيل المصطفى
كيف استقام في الأزل العماءُ ، فجاءت منه الأرض والسماء .
فان استطبت سماوة « الصهيون » ،
حيث غدير « سلوى » تدفق واثباً حيال بيت الله ،
فاياكِ ثَمت أستعين على نشيدي العصيب
الذي اعتزَمَ ألا يلوى في تحوامه
حتى يحلق صاعداً فوق سامق « أونيا » ،
ينشد غاية لم يحاولها قبلُ نثرٌ ولا قصيد .
أنت على الخصوص ياذا « الروحُ » ، اليك أنحو !
يا من يؤثر على جلاميد المعابد طهر القلب والتقوى ،
فأتنى العلم إنك أنت العليم .
قد شهدتَ الوجود منذ فاتحة الوجود ،
وجلستَ في وداعة الورقاء ، باسطاً جناحيك العاتيين ،
تاملُ « المهوى » الرحيب ، حتى أثقلته فكراً وشعراً .
فاجلُ ياذا الروح قاتمي ، وارفع وطيء دعائمي ،
علىّ بهذا المقال الجليل أبلغ شأواً ،
فأكون « للحكمة السرمدية » ترجماناً

ولرحمة الله بالانسان برهاناً .
ألا حدثينا - فليست تخفى الجنة عنك شيئاً ، كلا ، ولا مهوى
الجحيم السحيق - حدثينا
عن أبوينا الأوَّلَيْن : ماذا دعاهما ، إذ هما يرفلان في
ذاك النعيم ،
وإذ هما عند الله أقرب المقربين ، ماذا دعاهما
أن يهجرا « البارى » فيهويا ؟ وان يعصيا مشيئة الله
لمحظور واحد ، لولاه لسيطرا على العالمين ؟
من ذا أغواهما بديًّا بذاك العقوق الذميم ؟
إنه « الأرقم » الرجيم ثارت غيلته
حقداً ووتراً ، فمكر بأم البشر
حين ألقاه الغرور من الفردوس طريداً ،
وفي أعقابه عصبة الملائكة الثائرين .
فتطاول أن يَفْضُل في السلطان سائر الاحداث
وطمع بعونهم أن يضارع « العلى العظيم » ،
أن عصاه : ثم دعاه الأمل الطامع في العرش والملكوت
أن يثير في الجنة حرباً وقودها الغرور والفجور
فخاب الرجاء ؛ إذ طوح به الله ذو الجبروت
فهوى من علياء السماء يتقد لهيباً ،
يروع القلب منه ما احترق وما انحطم ؛
وتردى في هاوية ما لها من قرار ، بها يأوى
مغلولا بصم السلاسل يصطلى النار جزاء
بما حدثته النفس أن يناجز « القوى القدير » ،
وفي قرار مهواه تسع فضاوات
مما يذرع به الأناسى خطو الليل والنهار
تردى الأثيم هزيلا بصحبة شيعته
يتقلب في حمأة الجحيم ، لعيناً خالداً في لعنته ؛
ثم قضى نحسه أن ينال من غضب الله المزيد
فأخذت تضنيه لوعة النعيم المفقود ، وتشقيه لذعة العذاب
الموجود ، وطفق يجيل البصر الذي يقدح الشرر
والذي شهد ماشهد من أليم الكرب والكدر

وفى نظراته الغرور العنيد والمقت الشديد
فسرعان مارأى — ماوسع الملائكة النظر —
رأى ما حوله موحشاً قفراً يبابا
ورآه فى حب مخيف التهبت جوانبه التهاباً
كأنه أتون سحيق مستعر . ناره لاتبعث النور ،
فإن هو إلا ظلام منظور ، كأنما أضيء ليضيء
مشاهد الغم ومطارح الهم وأشباح الأسى
حيث الدعة والسلام لايجدان مقراً
وحيث لايشرق الأمل الذى يشرق على العالمين أجمعين ،
فهو ماينفك يصلى عذاباً مقيما وطوفاناً من حميم
تغذو لظاه شواظ أبدا تذكو ولا تخبو
فذلك مستقر أولئك العصاة كما أراده عدل الإله
حيث أعدّ لهم سجن محلولك داج
مُقامهم فيه ينأى عن الله وعن نور السماء
ثلاثة أمثال ماينأى قلب الأرض عن قطبها الأقصى
فيا بعد مأواهم عن الذى كان منه مهواهم !
وهنالك سرعان ماشهد الأثيم رفاق هُوِيه
يحتويهم الطوفان وتغمرهم الأعاصير ونار السعير ؛
ورأى إلى جواره يتلوى من يتلوه سلطاناً وعصياناً
ومن عرفته أرض القدس بعدئذ باسم « أبليس »
فاتجه إليه كبير أعداء الله :
من سُمّى فى السماء منذ ذلك الحين « شيطانا »
وألقى عبارة جريئة دوت فى ذلك السكون الرهيب ، فقال :
« أفأنت هو ؟ — إذن ياويلتاه ! لشدمازللت وما تبدلت ! —
ألا إن كنتَ مَنْ فى دار النور والنعيم
كان متشحاً بهالة من سنيّ الضياء
أخمدت بسناها الألوف من مشرق الوجوه —
لئن كنتَ من وشجنى به يوما
تبادل العهد ، واجتماع الرأى والكلمة ، واتحاد الأمل ،
وآصرتنا غمرات هذا المطلب الجليل ،

فهاهى ذى أواصر الشقاء توشج اليوم بيننا ، فتوحدُ هلكنا .
أفرأيت إلى أى هاوية أوينا ، ومن أى الذرى هوينا ؟
ألا إن الله فى غضبته ، ساق الدليل على رجحان قوته ؛
فَمَنْ قبلئذ كان يدرى كم تبطش تانك الذراعان العَتِيّتان ؟
ولكنّى على ذلك لست بنادم ، وإن صبَّ علينا الظافر القادر
ما استطاع فى سورته من صنوف العذاب
فعزمى المصمم لن يحول . وإن حال منى رونق الإهاب ؛
ولن أبدل ما أثاره حق الهضيم فى نفسى من أبى الكبرياء
التى سموت بها فنازلت « أقوى الأقوياء »
واستَعْدَيْتُ معى فى النزال عرمرما
من « الأرواح » شاكى السلاح
الذين استبسلوا فكانوا على حكمَ الله مارقين ،
وآثرونى من دونه . ثم قارعوه جبروتا بجبروت
حتى زلزلوا قوائم عرشه
فى حرب كانت فى حومة السماء سجالا
وماذا أنْ فاتنا النصر فى حومة الوغى ؟
فإنا بذلك لم نفقد كل شيء —
وهل يكون هزيما ، من له هذا العزم الحديد
والثأر السديد والمقت الذى لا يزول ؟
ومن له هذا الجنان الذى لا يلين ولا يحول ؟
ذاك نصر لن يسلبنيه الله بسورته أو صولته
فما كان أخسها ضعة ،
لو أنى جثوت له مسترحما وركعت ضارعا ،
أو أنى خشعت لصولته ،
وهو الذى ارتاع لهذى الذراع منذ هنيهة
حتى ارتاب فى دولته !
أما وقد شاء القضاء لسطوة الآلهة ألا تدول ،
ولهذه الجحيم ألا تزول ،
وبعد أن عجمتنا خطوب هذا الحدث الجسيم ،
فازددنا به رشادا وما فُلّ لنا سلاح
وما يزال يحدونا زاهر الرجاء ،
فلنُشرْها على عدونا الألدّ ـ بالقتل أو الختل ـ حربا عوانا ،

إنه أصاب النصر فانتشى جذلا
أنْ رآه طليق الحكمْ ، فطغى فى السماء ،
هكذا قال « الملكُ » الكافر ، برغم ما يشقيه من العذاب
مختالا يصول ، وإن يكن خطيم النفس باليأس العميق ،
فلم يلبث رفيقه الجرىء أن أجاب : —
« مولاى ! وأنت زعيم العديد من العتاة متوجين
قدتَ إلى الوغى تحت لوائك « السيروفيم » مدججين
وتهددت رب السماء الدائم بالخطر
فأقمت الدليل على رفيع جلاله
سواء أ كان بالحق أم بالحظ أم بالقدر .
ياويح نفسى أن ترى جليا هذا الخطب الرهيب
الذى طوّحنا فأشجانا وهزمنا فأردانا
وأضاع منا الجنة ، وهوينا به إلى هذا الحضيض
بهدنا ، ونحن المعشر القوى ، هلاك مبيد
ما بادت الأرباب وكائنات السماء :
فلا يزال الروح والعقل منا عن الهلك فى حرز حريز
وسرعان مانسترد العنفوان المفقود ، وأما المجد فلن يعود
وسالف النعيم قد استأصله الشقاء الموجود .
ولكن لم لا يكون الله وهو لنا « قاهر »
(فقد آمنت أنه على كل شىء قادر ،
إذ ما كان يستطيع أن يدك قوانا سوى مطلق قدرته)
لم لا يكون الله قد أبقى على نفوسنا وقوانا ،
لم ينتقصها ليشتد أذانا ونضطلع بمر العذاب
لكى يُرضى فينا غيظه النافم
أو ليامرنا بما شاء من فادح الأعمال ، فنستطيع الأداء ؟
فقد أمسينا له بحق النصر عبيدا أرقاء ،
إن شاء اصطلينا النار فى قلب الجحيم
وإن شاء سخَّرنا فى اللج البهيم
فإن أحسسنا بالقوة موفورة ، فاين فى ذلك الغَناء ؟
وهل أجدى علينا خلود البقاء إلا دوام الشقاء ؟ »

زكى نجيب محمود

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

أحقاد

أفتقيمون للحق دليلا من اقتحام أحد الناس للهب فى سبيل تعاليمه ؟ وهل لمثل هذا التعليم ماللعقيدة التى تتولد متقدة من لهبها نفسه . إذا ما تلاقى رأس بارد بقلب مضطرم نشأت من التقائهما تلك العاصفة التى يدعوها الناس مخلصا . ولكم وجد على الأرض من رجل أعرق منشأ وأرفع مقاماً ممن يدعوهم الشعب مخلصين ، وما كان هؤلاء المخلصون إلا عاصفات كاسحات تهب متوالية على الأرض

إذا ما كنتم تنشدون سبل الحرية ، أيها الأخوة ، فعليكم أن تنقذوا أنفسكم حتى ممن يفوقون هؤلاء المخلصين عظمة ومجداً . فإن الانسان الكامل لم يظهر على الأرض بعد . لقد حدقت باعظم رجل وبأحقر رجل عن كثب وهما عاريان فظهرا لعيانى متشابهين ، بل رأيت أعظمها أشد توغلا فى المعائب البشرية من الآخرين .

هكذا تكلم زارا . . .

الفضلاء

لا ينبه الشعور الغافل إلا الأرعاد والأبراق ، وما تكلم الجمال إلا بنبرات هامسة لا تنفد إلا إلى أشد الأرواح انتباهاً

أسمعتنى عصمتى اليوم ضحكة تعالت فيها قهقهة الجمال السامية . فجمالى يسخر بكم ، أيها الفضلاء ، إذ سمعته يقول : — إنهم يطلبون لفضائلهم ثمناً .

إنكم تتقاضون ثمن فضيلتكم وتطالبون بالجزاء ، أيها الفضلاء ، طامحين إلى امتلاك أما كن فى السماء ، بدلا من أما كن فى الأرض ، وإلى الظفر بالأبدية بدلا من الدهر الزائل .

إنكم لتحقدون على لأنى أعلم الناس أن ليس هنالك

لاحسيب ولا مثيب ، والحق أنى أمتنع عن القول بالثواب بل أذهب إلى أبعد من هذا فأقول أن ليس للفضيلة ماتجزى به نفسها بجميل الجزاء .

إن ما يؤلمنى هو أن العقاب والثواب قد دسا دسا فى غاية كل أمر ، بل حشرا حشراً فى أعماق نفوسكم ، أيها الفضلاء .

ولكن لكلمتى أن تشق أعماق هذه النفوس ذاهبة فيها كقرن الوعل وكالسكة تشق الأرض لتحرثها . فلتتكشف نفوسكم عن خفاياها أمام النور ، لأن الحقيقة لن تنفصل عن الضلال فيكم حتى تنطرحوا عراة تحت شعاع الشمس . ذلك لأن حقيقة ذاتكم إنما هي أطهر من أن تسمح بتدنسكم بكلمات الانتقام والعقاب والمكافأة والمقابلة بالمثل .

إنكم تحبون فضيلتكم كما تحب الأم طفلها ، وهل سمعتم أن أما طلبت مكافأة على عطف الأمومة فيها ؟

هل فضيلتكم إلا ذاتكم نفسها وهى أعز ما لكم ؛ وما أمنيتكم إلا أمنية الحلقة التى لاتلتوى وتستدير إلا ليصبح أخرها أولا لها .

إن كل عمل ينشأ عن فضيلتكم إنما هو بمثابة نور كوكب يعروه الانطفاء ، فما يزال نوره يخترق مجراه فى الأفلاك ، وليس من حد ينتهى سيره إليه . وهكذا لن تزال أشعة فضيلتكم سائرة فى سبيلها حتى بعد انتهاء عملها وتواريه فى عالم النسيان ، لأن إشعاع الفضيلة مستمر لا يعروه زوال .

لتكن فضيلتكم تعبيراً عن ذاتكم وما تلك غريبة عن هذه فلا تحسبوا أنها جلد ورداء .

هذه هى حقيقة روحكم الكامنة ، أيها العقلاء . ولكن من الناس من يخيل له أن الفضيلة عبارة عن تشنج تحت السياط الجالدة ، ولطالما سمعتم صياح هؤلاء الواهمين .

ومن الناس من يرى الفضيلة فى الكسل والرزيلة ، وما ينتبه عدلهم إلا عند ما يتثاءب حقدهم وحسدهم ؛ عندئذ يفركون أجفانهم وقد أثقلها النعاس .

من الناس من تشدهم شياطينهم إلى أسفل فكلما تدهوروا على الدركات زادت أحداقهم توهجاً وتزايد شوقهم إلى ربهم . إن صوت هؤلاء المتدهورين يبلغ آذانكم .

أيها الفضلاء وهم يصيحون : ــ إن كل ما هو خارج عن كيانى إنما هو الله وإنما هو الفضيلة .

وهنالك آخرون يتقدمون مثقلين مقرقعين كأنهم عجلات تحمل صخوراً إلى الوادى ، وهؤلاء الناس لا ينون يتكلمون عن الفضيلة ، وما الفضيلة فى عرفهم إلا عبارة عن كابح عجلاتهم .

وهنالك قوم أشبه بالساعات يربط زنبركها فتسمعك تكتكتها وهم يريدون أن تدعى حركتهم الآلية فضيلة . إننى ألهو بمشاهدة مثل هذه الساعات لأننى ما صادفتها مرة إلا ربطت زنبركها بتهكمى وأكرهتها على تحريك رقاصها .

وهنالك المغترون بذرة من العدل ترتفع فيهم على جبل من الدعوى فتراهم يجدفون على كل شيء إلى أن يغرقوا العالم بظلمهم ؛ وما تخرج كلمة الفضيلة من أفواه هؤلاء الناس إلا وتحسب أنهم يتجشأونها ، واذا قال أحدهم : ــ لقد عدلت ، فكأنه يقول : ــ انتقمت .

هؤلاء من يريدون أن يفقأوا أعين أعدائهم بفضيلتهم وما يطلبون من الاعتلاء إلا إسقاط سائر الناس .

وهنالك أيضاً من يدب اليهم الفساد كأنهم ماء آسن فى المستنقعات ، يختفون بين المناصب منادين بالفضيلة كأنها جود فى المستنقعات . فهؤلاء الناس يعلنون أنهم لا ينهشون أحداً ويتحاشون الالتقاء بالناهشين ، فاذا عرض عليهم أى رأى أخذوا به تفادياً لكل أخذ ورد .

وهنالك عشاق الحركات المعتقدون بأن الفضيلة نوع من الايمان فتراهم فى كل حين جاثين على ركبهم وقد قبضت إحدى راحتيهما على الأخرى تمجيداً للفضيلة وما يدرك قلبهم منها شيئاً .

وهنالك من يرون الفضيلة فى القول بلزوم الفضيلة وهم لا يعتقدون إلا بلزوم ردع الشر بالقوة .

وبعض من امتنع عليهم إدراك ما فى الانسان من صفات عليا لا يذكرون الفضيلة إلا عند ما يحدقون بما فيه من دنايا وهكذا لا تنشأ فضيلة هؤلاء القوم إلا من عيوب عيونهم .

من الناس من يطلب المعرفة وتقويم ما التوى فيه فيدعو هذه النزعة فضيلة ؛ ومنهم من يطلب قلب كيانه رأساً على عقب فيدعو هذه الرغبة فضيلة أيضاً ، وهكذا ترى الجميع يعتقدون بوجود الفضيلة فى ناحية من نواحى كيانهم وتراهم يتجهون إلى معرفة ما فيهم من خير وشر . غير أن زارا قد جاء

شاعر الاسلام محمد عاكف

للدكتور عبد الوهاب عزام

تتمة

عرف قراء الرسالة الموضوعات التي عالجها الشاعر الكبير في ديوانه « الصفحات » كما عرفوا من قبل مثلا من شعره . واليوم أقدم لهم مثالا من شعره الاجتماعي الذي يصور فيه الواقعات الصغيرة والحادثات الجارية التي لا يأبه لها الناس كثيرا ، وهي قطعة من الجزء الأول من الصفحات .

وينبغي أن يذكر القارىء ما ينال الشعر حين يترجم منثورا فيفقد كثيرا من روعته ، ولا سيما نظم عاكف الذي يذهب مثلا في انسجامه وقدرته على تذليل كل موضوع أبى وكل معنى شامس .

كان أنصاره وخصومه مجمعين على أنه أوتى في النظم قدرة تأبى على المحاكاة . وكان دعاة الأوزان التركية وأعداء العروض العربي يقولون لا يهزم هذا العروض حتى يقتل محمد عاكف فهو حجة دامغة تفحم كل معارض . وما ظنك برجل يصف مصارعة فينطق الشعر بحركات المصارعين وأقوالهم في بيان سلس ونظام لاشية فيه من التكلف

السفط

قبل خمسة عشر يوما غدوت على عادتي من داري مبكراً ومحلتنا في أطراف استانبول فليس يستطيع السير في أزقتها إلا من يحسن السباحة ، ما تزال تعترض سبيله بحيرة مائجة بعد أخرى . فاذا أظلم الليل فليس إلا الصبر على اللأواء ، واحتمال ما يرمى به القضاء . لا بد من قنديل في إحدى اليدين واسقنديل في الأخرى . هذه سبيل النجاة لا سبيل سواها

وكانت في يدي هراوة أتحسس بها الطريق إن أصابت جزيرة وقفت ، وإن لقيت بحراً وثبت .

ويأوى دليلي الأمين إلى أطناف الدور العتيقة المتداعية ويلوذ بجدرانها فيصدم شيئاً ضخما . نظرت فاذا سفط كبير قديم . قلت سفط حمال . لمن هذا ليت شعري ؟ ويقبل غلام في الثالثة عشرة عامداً إلى السفط بعصا غليظة . فما زال يرفع عصاه جاهداً ويهوى بها حرداً حتى تدحرج السفط خائراً منهوكا

— « قد مات أبي تحتك وأنت لا تزال في وسط الزقاق جاثماً متعجرفاً » ! ! وبرزت من دار أمامنا امرأة تصف :

— ويلك يابنيَّ ! مهلاً إليَّ ، كفَّ . إياك أن تحطمه . مالك وللسفط يابني ؟ إنه أخرس لا فم له ولا لسان . لقد ارتفق به أبوك سنين ثمانيا ، وكان يقول إنه سفط مبارك ، قلما بقيت تحته بغير حمل . وقد ذهب أبوك فهو اليوم كاليتيم . وستعول به أمك وأخاك . أطفل أنت ؟ ألا تعرف ما عليك ؟

قلت : — استمع يابني إلى أمك

فصاح الصبي متجهماً : —

« ياذا اللحية الأعمل لك ؟ اذهب من هنا إلى جهنم . اذهب إلى جميع هؤلاء المخادعين وإلى جميع هؤلاء المجانين ليقول لهم إنهم لا يعرفون عن الفضيلة شيئاً وان ليس في وسعهم أن يعرفوها .

ما أتى زارا إلا ليشعركم بأنكم تعبتم من تكرار الأقوال القديمة التي علمكم إياها المخادعون والمجانين ، فينفركم من كلمات المكافأة والمقابلة بالمثل والعقاب والانتقام في العدل ولتقلعوا عن القول بصلاح الأعمال عند تجردها عن الغايات

لتكن ذاتكم متجلية في عملكم كما تتجلى الأم في طفلها وليكن هذا التعبير ما تعرفون الفضيلة به .

والحق ، أنني انتزعت منكم كثيراً من أقوالكم وسلبتكم أعز ما تلهون بمضغه عن الفضيلة ، ولذلك أراكم تزورون كالأطفال . وقد كنتم مثلهم تتسلون بألعابكم على الشاطىء فطغت موجة انتزعتها من بين أيديكم وحملتها إلى العباب ، فها أنتم تعولون الآن كهؤلاء الأطفال ، غير أن الأمواج ستكر راجعة حاملة اليهم ألعاباً جديدة ناثرة بين أيديهم الأصداف المخططة ، وأنتم أيضاً أيها الصحاب ستسلون مثلهم حين تأتيكم التعزية ناثرة بين أيديكم الأصداف المخططة .

هكذا تكلم زارا . . .

ما وقوفك هنا هاذيا فى هذه الغداة ؟ ان قلبى يشتعل . قد ذهب أب لى كالجبل

— ماذا تبغى الآن من رجل فى مقام أبيك ؟ اسمع يابنى . .

— دعيه ياسيدتى إنه طفل . أنا لا أبالى ما يقول .

— ما اسمك يابنى ؟

— حسن

— اصغ ياحسن . إنك ستضير نفسك بهذه الحدة . لقد احترق قلبى يابنى حين عرف مصيبتك ، ولكن أباك قد أوصى إليك وذهب . فانظر كيف جاهد هذه السنين الطوال ورباك بعرق جبينه ! وكذلك عليك ألا تترك أخاك يتيما . عليك أن تربيه .

— بالسفط ؟ أكذلك ؟

— نعم نعم . ماهذا الكلام يابنى ؟ أعار أن تعمل ؟ ثم أن تحمل الأعباء ؟ إنما العار الاستجداء ، إنما العار أن تسأل الناس ولك يد ورجل

— ما أصدق ما قال عمك ياولدى . قبل يابنى يد عمك .

— أنسيت سريعاً ماقالته امرأة جارنا ؟ ألم تقل : وياحسن خالى ضابط فى إحدى المدارس . ولو كلمناه مرة لأخذك إلى المدرسة . انتظر ساكلمه ،

فلا تعلمينى أنت واجعلينى فى هذه السن حمالا ! !

* * *

عرفت أن الحديث طويل وأنه سيزداد طولا وكانت مشاغلى كثيرة ذلك اليوم فتركتهما .

ليت شعرى ماخطب حسن المسكين اليوم ؟

لى بنية عرمة لاتستقر فى الدار . خرجت بها إلى الفاتح ، بعد العصر بقليل . فبينا ندخل من باب الفحامين راق البنية منظر الجمل ، تعجب من هذا البدن المعوج ، وذلك العنق المفرط فى الطول . وهذه الأرجل ، وهذا الذيل المعلق من خلفه ـ هذا الذيل أليس هذا كله عجيبا ؟

التفت ورائى فاذا على خطوات منا شيخ ربعة ، وضاء الوجه مشرق السيما . قد لف على وسطه شالا ، وعلى رأسه يابانية . وبجانبه صبى ينوء تحت سفط كبير . أقبلا يمشيان الهوينى . فواعجبا ! هذا هو الصبى الذى رأيته ذلك الصباح . .

أى مرأى ! مرأى يذيب القلب ويذهب باللب : رجلان هزيلتان عاريتان إلى الركبتين ، وبدن برعد تحت ثوب رقيق يكاد ينجمد من البرد . وقدم حافية ، ورأس حاسر . لم تكن نفسا هـذه اللهثات ولكن أنينا مديدا ، ولم تكن نظرا هـذه اللمحات ولكن بكاء شديدا . ياله بؤسا حافيا حاسرا . وإنه لحسرة ذلك الجبين المجعد فى الثالثة عشرة .

* * *

ويخرج من المدرسة الرشدية أفواج من الطلبة قد انتظموا صفوفا . وساروا قليلا ثم وقفوا . ما أقسى هـذا المنظر على قلب حسن التعيس ! أجل غلمان تفيض منهم نغمات النعمة والشباب يطير كل منهم إلى عشه السعيد . وسيفرغون للعب عما قليل . هؤلاء سعداء ، وأما حسن فسيحمل أبدا على كتف الفاقة هذا السفط المشئوم الذى ورثه عن أبيه ـ السفط الذى أراد أن يحطمه حين بصر به فى طريقه .

ليس هذا حِملا ولكنه عقابُ القدر لهذا البرئ

واحسرتاه ، ما ذنبه ، ماذنب هذا المعاقب الذى لا يدرى ما ذنبه ؟

عبد الوهاب عزام

نقـل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٥٠ — الطبيب أبو المنذر نعمان

قال ابن فارس : سمعت أبا الحسن السروجي يقول : كان عندنا طبيب يسمى نعمان ويكنى أبا المنذر فقال فيه صديق لي :

أقول لنعمان وقد ساق طبه
نفوساً نفيسات إلى باطن الأرض
« أبا منذر ، أفنيتَ فاستبق بعضاً
حنانيك بعض الشر أهون من بعض ! »

٥١ — قبل أن تكدره الخلائق بأنفاسها

قال الأصمعي : كانت امرأة من العرب تأتي بصبية لها كل يوم قبل الصبح ، فتقف بهم على تل عال وتقول : أيْ بنيَّ ، خذوا صفوَ هذا النسيم قبل أن تكدره الخلائق بأنفاسها

٥٢ — لو رقد المخمور فيه لصحا

قال الثعالبي في (اليتيمة) :

قرأت في بعض الكتب عن ابن حمدون قال : كان الفتح ابن خاقان يأنس بي ، ويطلعني على الخاص من سره ، فقال لي مرة : أشعرتَ يا أباعبد الله ، إني انصرفت البارحة من مجلس أمير المؤمنين فلما دخلت منزلي استقبلتني فلانة (يعني جارية له) فلم أتمالك أن قبلتها ، فوجدت فيما بين شفتيها هواء لو رقد المخموم فيه لصحا

فكان هذا مما يستحسن ويستظرف من كلام الفتح . وكأنّ الوأواء قد سمع ذلك فنظمه في قوله :

سقى الله ليلا طاب إذ زار طيفه
فأفنيته حتى الصباح عناقا
بطيب نسيم منه يُستجلب الكرى
ولو رقد المخمور فيه أفاقا

٥٣ — الجندي العربي المجهول

في (عيون الأخبار) :

حاصر مسلمة بن عبد الملك حصنا فندب الناسَ إلى نَقْب (١) منه فما دخله أحد . فجاء رجل من عَـرْض الجيش (٢) فدخله ففتحه الله عليهم ، فنادى مسلمة أين صاحب النقب ؟ فما جاءه أحد . فنادى أني قد أمرت الآذن بادخاله ساعة يأتي فعزمت عليه إلا جاء . فجاء رجل فقال استأذن لي على الأمير فقال له أنت صاحب النقب ؟

قال أنا أخبركم عنه

فأتى مسلمة فأخبره فأذن له ، فقال له . إن صاحب النقب يأخذ عليكم ثلاثاً :

(١) ألا تسودوا اسمه في صحيفة إلى الخليفة
(٢) ولا تأمروا له بشيء
(٣) ولا تسألوه ممن هو

قال : فذاك له

قال أنا هو

فكان مسلمة لا يصلي بعدها صلاة إلا قال : اللهم اجعلني مع صاحب النقب

٥٤ — لا تظنوا أنني أسلو

أبو الوليد بن الجنان محمد بن الشرف من شعراء الملك الناصر صاحب (مصر) والشام :

أنا من سكر هواهم ثمل	لا أبالي هجروا أم وصلوا
فبشعري وحديثي فيهم	زمزم الحادي وسار المثل
إن عشاق الحمى تعرفني	والحمى يعرفني والطلل
رحلوا عن ربع عيني فلذا	ادمعي عن مقلتي ترتحل
مالها قد فارقت أوطانها	وهي ليست لحماهم تصل ؟
لا تظنوا أنني أسلو فما	مذهبي عن حبكم ينتقل

٥٥ — الأب والابن والروح القدس

كان أبو نواس يوما جالسا وفي يده كأس خمر ، وعن

(١) النقب : الثقب جمعه نقاب وأنقاب
(٢) من عرض الجيش : من وسطه أو طرفه

يمينه عنقود، وعن يساره زبيب . فقيل له ما هذا ؟
فقال : الأب والابن والروح القدس

٥٦ — ويرحم القبح فيهواه

قال جعفر بن قدامة : كنا عند ابن المعتز يوما ومعنا النميرى ، وعنده جارية لبعض بنات المغنين تغنيه وكانت محسنة إلا أنها كانت في غاية من القبح ، فجعل عبدالله (أى ابن المعتز) يجمشها (١) ، ويتعلق بها . فلما قامت قال له النميرى : أيها الأمير، سألتك بالله أتعشق هذه التي ما رأيت قط أقبح منها ؟

فقال عبد الله وهو يضحك :

قلبي وثاب إلى ذا وذا ليس يرى شيئا فيأباه
يهيم بالحسن كما ينبغي ويرحم القبح فيهواه

٥٧ — يا كذاب !

قال رجل لامرأة : قد أخذت بمجامع قلبي فلست أستحسن سواك .

فقالت : إن لى أختا هى أحسن منى وها هى خلفى . فالتفت الرجل فقالت : يا كذاب ! تدعى هوانا ، وفيك فضل لسوانا

٥٨ — هذه أنفاس ريا جلقا

قال ابن الكتبي في (فوات الوفيات) :

قال بعضهم : مررت يوما ببعض شوارع القاهرة وقد ظهرت جمال حولها تفاح فتحى من الشام ، فعبقت روائح تلك الحمول ، فأكثرت التلفت لها ، وكان أمامى امرأة سائرة ففطنت لما دخلني من الإعجاب بتلك الرائحة فأومأت إلى وقالت : هذه أنفاس ريا جلقا (٢)

٥٩ — يا نسيما هب مسكا عبقا

قال السلمى الدمشقى المعروف بالبديع (وقد اشتهرت هذه الأبيات ، وغنى بها المغنون) :

يا نسيما هب مسكا عبقا هــــذه أنفاس ريا جلقا
كف عنى (والهوى) مازادنى برد أنفاسك إلا حرَقا
ليت شعرى نقضت أحبابنا (ياحبيب النفس) ذاك الموثقا؟
يا رياح الشوق، سوقى نحوهم عارضا من سحب عينى غدقا (١)
وانثرى عقد دموع طالما كان منظوما بأيام اللقا

٦٠ — لأجل هذا البيت الواحد

وفد أبو الفضل بن شرف بن برجة على المعتصم (صاحب المرية) يشكو عاملا ناقشه فى قرية يحرث فيها وأنشده الرائية التى مطلعها :

قامت تجر ذيول العصب والحبر
ضعيفة الخصر والميثاق والنظر (٢)

إلى أن بلغ إلى قوله :

لم يبق للجور فى أيامهم أثر
غير الذى فى عيون الغيد من حور

فقال له : كم بيتا فى القرية التى تحرث فيها ؟

قال فيها نحو خمسين بيتا

قال : أنا أسوغك جميعها لأجل هذا البيت الواحد ، ثم وقع له بها ، وعزل عنها نظر كل وال

---

(١) الجمش والتجميش : المغازلة والملاعبة .

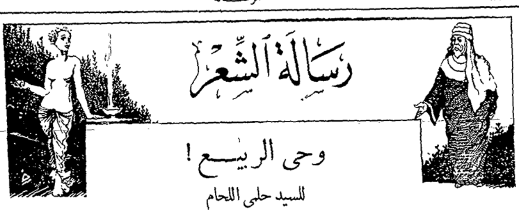
(٢) جلق (بكسر اللام وفتحها والتشديد) اسم دمشق قال حسان :

لله در عصابة نادمتهم يوما بجلق فى الزمان الأول

وفى (قاموس) المجد ؛ جلق دمشق او غوطها

(١) الغدق : الماء الكثير

(٢) (العصب) : برد يصبغ غزله ثم ينسج . ولا يثنى ولا يجمع وإنما يثنى ويجمع ما يضاف إليه يقال بردا عصب وبرود عصب . وربما اكتفوا بأن يقولوا عليه العصب (المصباح ، اللسان)



وحى الربيـــع !

للسيد حلمى اللحام

فتنة الغوطة :

ماجتِ الغوطة الأنيسة بالحســـنِ وفاضت شذاً، وسالت غِناءَ
غمغماتٌ بين العشاش، وهمس فى زوايا الغصون يندى ولاء
ليتَ شعرى ماذا تتمتِمُ هذى الطيـ
رُ ، فوق الربا ، صباحَ مَساء !
أترى أرسلَ النسيمُ نداءَ الحـــبِّ فى سرها ، فحنتْ وفاءَ ؟
أم سرى العِطر فاغماً فانتشت منـــهُ وناحت ، رياضة الغناء !
أمْ حباها الرَّبيعُ أحلى معانيـــهِ ، فراحت تعيدها أصداء ؟!
وعلى أفيح المروج عذارى يرتشفن الأظلالَ والأنداء
ويصُوِّرن فى الضمائر أطيا ف هوى تترع الوجود رواء
ويغنِّينَ هائمات نشاوى فيَميد الروض الأغن اشتهاء !
ويدَغدِغ ذكرياتِ أخى الحـــب ، فيهوِى فؤادُه إعياء ...

دنيا الشاعر :

شاعرٌ مرُهفُ الشعورِ ، حنون اللحـ
نِ ، يهوَى الخيالَ والأوهاما
عيْنه ترمقُ السماء فهل فا رَقها حلمُها ، فهامتْ هياما ؟
أم سَبى عالَمُ الأشعةِ جفْنيْـــها ، فحامَتْ ترْناهُ فيه مُقاما !
قلبهُ جذْوة من الحقِّ والنو ر تشع الهدى ، وتجلو الظلاما
إنْ غفا المَجد أشعَلَ الثوْرة الحمـــراء، كالشمس، أو يذيب القتاما
أو تدجَّى الفضا فتانِكَ عَينا هُ تكادانِ ترْشفان الغماما
روحه مِزْهرٌ ينام على الأفـــقِ كزَهر لم ينفض الأكماما
كلما مسَّتِ النسائمُ منه وتراً راحَ يرْسل الأنغاما
أيها الشاعر الطروب املإ الدنيـــا حُبوراً وبهجة وابتساما
واسكبِ اللحنَ فى النفوس كما يَســـرب فيها صوْت الحبيب مداما !

عالم الحبيب :

ياحبيبي أطِلَّ من كوّة الغيــــب وأشرِق على الوجود صباحا
واسْرِ فى مقلتىَّ حُلماً ضحُوكا واهمِ فى مهجتى ندى وسَماحا
وادنُ فى خاطرى نشيداً مُرِنّاً وابقَ فى خافقى سناً لمّاحا
وأثرْ غافِىَ الصبابات، وانكأْ ذكريات الصبا، وأدمِ الجراحا
لا يَسيلُ الغِناء من مهجة الشــاعر إلا إذا استحرَّ نواحا
والأمانىُّ لا تجنحُ إلا بشجون الغرام، عزّت جناحا
واسقِنى من دمِ ابنةِ الكرم ، واسكب
فى دمى من صدى غِنائِك راحا
وأرق من شعاع عينيك فى رو حى ضياء، ونشوة، ومِراحا
زرقة يسبغ الصفاء عليها من غلالاتِهِ الرِّقاق وشاحا
أنا منها فى زورق يمخرُ اليَـــمَّ ، وبدر السماء فى الأفق لاحا

ضحكة الربيع :

ياحبيبي تعال نغنم صِبا العمـــر ، ونكرع كؤوسه والدِّنانا
ونغن الشباب أعذبَ ألحا ن التصابي، ونطرب الأكوانا
ماترى ضحكة الربيع على السهـــل ، وزهو الجواء ، والألوانا
نبضت بالحياة خضر التعاشيـــب . ورفَّ الندى عليها جمانا
ألق يبهر العيون سناهُ ورؤى حلوة تفيضُ حنانا !
أى كفٍّ سمحاء نضّرت الأفـــق . ووشّتْ وجه الثرى العريانا
أى سر فى الزهر يبتعث الحـــب ويحيى المنى ويذكى الجنانا

هو فى مرشف الحب كثغر الحـــب ، يرى فؤاده نشوانا
وهو فى ناظريه صورة طيف ... علق الطرف لحظة ثمّ بانا
ليتنا بلبلان يغمرنا الصفـــو ، ويوحى الهوى لنا الألحانا

غناء الحب :

أيها الحبُّ أنت فيض من الخلـــد يحيل الأسى الممضّ رغابا
أنت ومض الهدى على مهمه العيـــش ، يضئ الشعاب والأسرابا
أنت لحن الحياة إن رفرق الشد ... و عليها زهت وطابت رحابا !
غنّ هذى العشاش تندَ صبابا ... ت ، وتنسج من الضحى جلبابا
وتردد فيها الحمائمُ والطيـــر أغانى الهوى رخاماً عذابا
غنّ هذى الحقول تخضل أفيا ... ءٌ ، وتهتز دوحة وجنابا
غن هذى الأزهار تطرح الأكـــمام عنها ، وتنشر الأطيابا
غن هذى القلوب حتى تحس الشـــعر ، والحسن والمنى والشبابا
كل نفس لم ترتشف من حميّا ... ك تخالُ الحياة سمًّا مذابا
كل قلبٍ لم تجرِ فيه ينابيعـــك يبقى ، على الزمان ، يبابا

حلمى اللحام

أخرس ...!

للأســــتاذ عمر أبو ريشه

رفع الرأس للسماء وصلّى ... بدموع ترجرجت فى هدبه
بين شدقيه مضغة عقلتها ... يوم ميلاده أنامل ربه !!
جرّدت عن لسانه لذّة النط ... ق وبثّت إعجازه فى قلبه
فإذا حبه يصول عليه ... وإذا بؤسه يعبث بحبه !

***

أخذت ثورة الكآبة تطغى ... بين حالى فؤاده ولسانه
ليس يسطيع أن يبث خليلا ... ما تقول الدموع فى أجفانه !
حمل العبء وحده كغريب ... ضلّ عن أهله وعن جيرانه
تتهاوى أشلاء آماله الغرّ ... تباعاً على خطا أحزانه
كيف يطوى سفر النعيم كئيباً ... والشباب الشباب فى ريعانه ؟!

***

صفعت قبضة الذهول حجاه ... فانثنى فى الحياة حيران تائه
أشعث الشعر لوّح السهد خدّ ... يه وهزّ الشقاء من كبريائه
تلمح الفقر هادئاً فى زوايا ... مقلتيه وثائراً فى ردائه !
يسحب الساق متعباً كعليل ... هجر الدار قبل يوم شفائه
كلما جاشت اللواعج فيه ... أطرق الرأس غارقاً فى شقائه !

***

وقف العاشق الكئيب حزيناً ... يرقب الغادة الطهور إزارا
فترامت إليه من بعد لأى ... فهفا لوعة وضج اصطبارا
فجثا باسطاً يديه إليها ... شاكياً بالدموع حباً مثارا
فرمته .. بدرهم .. وتوارت ... وسنا ثغرها يشع افترارا
رفع الرأس للسماء وأرغى
ثم أبدى ، ما لست أدرى ، وسارا !!

عمر أبو ريشه

القبرة

للأستاذ إبراهيم العريض

تحوّم فى أفق السماء أصيلا ... كنجم تراءى للعيون ضئيلا
فيتخذ الصوت الذى تستجدّه ... مع الريح فى رحب الفضاء سبيلا
يدق على الأسماع خافتُ جرسه ... فإن أعلنته الريح جاوزَ ميلا
وتدركه شيئاً فشيئاً غشاوة ... من الحزن حتى يستحيل عويلا

***

أقبرة ! هل أنت فى الجو قطعة ... من الحس سالت باللحون مسيلا
تغالين فى الألحان حتى إذا انتشت ... بها روحك الولهى خففتِ قليلا
كما تخفتُ الأوتار بعد رنينها ... ويبقى صداها فى النفوس طويلا
فقد برأ الله الطبيعة - وهى لا ... تحس به - حتى بعثت رسولا
فأحسنت فى الترتيل حتى كأنما ... بآيك ظلُّ الروض صار ظليلا
ولقّنتنا سرّ الجمال ولم نكن ... لندركَ لولاكِ الوجود جميلا
فازهرة فى الروض تفتح جفنها ... على الدمع إلا وهى تنشد سولا
فتغرينا فى شجوها بابتسامة ... ببثك معنى للخلود جليلا

(البحرين) ... ابراهيم العريض



الزحف الاجتماعى

لم نكد نفتح هذه الفرجة لآراء الشباب نرى منها اتجاه موجاته ومنزع خلجاته حتى انثالت علينا رسائله الفتية تعرض مسائله ، وتبحث مشاكله ، وتصور هواه . وسننشر منها ما يستحق النشر ، وتناقش ما يستوجب المناقشة ، عسى أن يكون من وراء ذلك الطريقُ الذى يستقيم عليه الجهاد ونوفى منه على الغاية

كتب (شاب) مكتمل الشباب ناضج الفكر يقول :

قرأت مع الاعجاب كلمتكم البليغة فى مجلة الرسالة المحبوبة تعلنون فيها أنه يهمكم على الأخص أن تعرفوا رأى الشباب وتطلعوا على انفعالاته واتجاهاته وتبدون فيه رأيكم ، فى أن واجب الشباب أن يستمر على صياله فى ميدان الكفاح السياسى .

ولسنا معشر الشباب نوافق على رأيكم فى أن الجيل الماضى قد أنهكه النضال فى المعركة الكبرى ، ونعتقد أن قولكم هذا ناشىء من تواضع طبيعى ، اذ أنكم من ذلك الجيل الماضى فلستم تريدون أن تستأثروا بالمفاخر كلها فتنازلتم عن المجد طواعية واختيارا . فإنا نرى أن ذلك الجيل الماضى قد أخذ على عاتقه أمانة قومية ثقيلة الحمل ، ولا يزال قادرا على المضى فى سبيله رافعا علم البلاد موفقا إن شاء الله . ولا نزال نرى رجال هذا الجيل أمثلة نحتذيها ونسير فى آثارها إذ لابد للمعركة من قواد وجنود ، فاذا كانوا هم القواد ونحن الجنود فليس ذلك بمنقص من مقدار جهادهم ، لان جهاد القواد لا يقل فى عظمته ومجده عن جهاد عامة الجند . وإننا ندخر لمستقبلنا أن نكون فى آخر عهدنا بالجهاد قوادا عندما يجىء الوقت الذى يكون علينا القيام بالقيادة – وإنه ليقر أعيننا أن نتصور أننا نكون عند ذلك جديرين بالثقة والتقدير . ينظر الينا شبان عهدنا فيجدوننا لا نزال اخوانا مجاهدين متضامنين معهم فى القيام بالواجب

نرى أن الشباب يستطيع أن يؤدى واجبه الوطنى فى ناحية لا يستطيع أن يجول فيها رجال الجيل الماضى ، فاننا أقدر على الاتصال بجمهور الشعب وأخف حركة وأقوى على احتمال المجهود الجسمانى الذى تطلبه الحركة المستمرة ، ولهذا نرى أن من واجبنا هذا الاتصال بالجمهور لكى نعمل على نشر المبادىء السياسية السامية والعمل على تنوير الشعب وتثقيفه وتنظيم ما يحتاج إلى التنظيم من حياته العامة .

ويستطيع شبان البلاد ولا سيما طلبة المدارس والكليات أن ينتشروا فى الريف والمدن فى أثناء العطلة الصيفية ويقوموا على إنفاذ برنامج وطنى شامل ، وأقترح لهذا أن تقوم دعوة واسعة على تكوين جمعية منظمة من هيئات الطلبة والشبان لتنظيم البرنامج الذى يقوم الشبان على انفاذه ؛ وأعتقد أن شباب البلاد إذا تضافر فى مدى خمسة أعوام يسميها (أعوام الزحف العام الاجتماعى) على أن يغزو أطراف الريف والمدن بدعاية تهذيبية واقتصادية قوية أمكن أن تخرج البلاد بعد تلك الأعوام الخمسة بفائدة عظمى تساعد أكبر المساعدة على جعل استقلالنا حقيقيا بكل معنى الكلمة ، ونكون عند ذلك قد قمنا بحمل الواجب مع الكتلة الوطنية المخلصة .

فارسل اليكم هذه الدعوة لعلها تصادف قبولا عند إخوانى الشبان وأسأل الله أن يوفقنا جميعا إلى خدمة بلادنا التى نرجو أن تتضامن على خدمتها كل الصفوف وكل الأجيال

(شاب)

اعتراض الشاب الفاضل وجيه واقتراحه أوجه ؛ ورأيه يستحق النظر المتقصى والبحث المفصل . وسنعود إليه فى العدد المقبل فنناقش الوسائل إلى تنفيذه

السياسة فتوة هذا العصر

وكتب إلينا الأديب صاحب الإمضاء يقول :

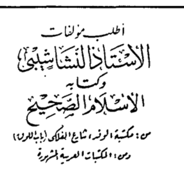
... يظهر مما كتبتموه فى العدد الماضى أنكم ترون دخول الشبان فى الميدان السياسى ، وفى هذا على ما أظن توجيه لجهوده فى طريق غير مأمون ولا موصل . إذا كان واجبنا الأعظم فى الحياة أن نقدم للمجتمع خير ما نستطيعه من إنتاج فلماذا لا نصرف هذا النشاط المتدفق إلى ميادين العلم والأدب والفن والاقتصاد فيؤتى أكله وينتج ثمره ، وندع السياسة لأهل الرأى من شيوخ الأمة الذين مارسوها واضطلعوا بها وعرفوا مداخلها ومخارجها ؟ — إن السياسة حطمت كثيراً من المواهب الصالحة ، وجرف تيارها كثيراً من العناصر النافعة ، فهلا ترون أن يكون شباننا كشبان إنجلترا لا يسمعون بالسياسة إلا بعد أن يقطعوا أكثر مراحل الحياة وتمرسوا بكل عمل من أعمال الأمة ؟ إن الموضوع فى نظرى يحتاج إلى إثارة المناقشة ومعاودة البحث فلعلى أكون المخطىء ، ولعلى أكون المصيب ...

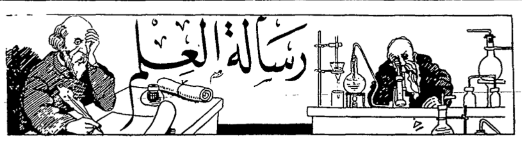
العباسية — محمد زهدى ناصر

* * *

ربما كان رأى الكاتب الفاضل يستقيم إذا كانت مصر كإنجلترا فى شدة بنيانها وثبات دعائمها وقوة مجتمعها ونضوج أحزابها واطراد سياستها ، ولكننا نعيش فى شعب ناشىء لا يزال يصارع أطماع القوة من الخارج ، وعوامل الضعف من الداخل ؛ وما دامت القلوب خانعة والنفوس قانعة والطرق وعرة والاحداث راصدة ، فإن العمل السياسى أو التوجيه القومى يبقى أول الواجبات وأنبل الأعمال على الشباب . أن الشاب هو أجلد على اقتحام الطريق المخوف ، واكتشاف الموضع المجهول ، ومواجهة العدو الكامن ، وإيقاظ الشعور الخامد ؛ ولا يهمه أن يحترق وهو يضىء ، ويغتال وهو يهدى . ويسقط وهو يدافع . ولا ريب أن الشيوخ أنضج رأياً وأنفذ بصيرة وأوسع ثقافة ولكن الشباب هم الأيدى التى تنفذ ، والروح التى تنشط ، والأجنحة التى تطير ، على أن السياسة التى نريدها للشبان أوسع وأشمل مما يتصوره الكاتب الفاضل ؛ فالسياسة دعوة وتدبير وقيادة ، وقوى البلد المادية والأدبية معطلة من طول الإغفاء والترك ؛ والاحساس الشاب هو وحده الذى يستطيع أن يحرك فى طبقات الشعب هذا الجمود المزمن بالدعوة الصارخة ، والارشاد الصالح . والقدوة الحسنة . ان السياسة هى فتوة العصر الحديث فى الأمم الحديثة : وإن الأمم الأوربية التى أضعفها انحلال الخلق . أوفتكت بها أدواء الحرب ، لا يجدد الآن ما رث منها ولا يحيى ما مات فيها إلا الشباب

قد يكون صحيحاً أن الشباب لو انصرف إلى الاختصاص فى العلم لجاء بأعظم المخترعات ودون خير المؤلفات ؛ ولو كتب فى الأدب لخلد اسمه بين أعلامه ؛ ولو مارس الفن لتألق نجمه فى سمائه ، ولكن أى علم يفيد أكثر من هذا الذى تنير به للشعوب المغلوبة طريقها إلى الحرية والمجد ؟ وأية قصة تكتبها أروع من هذه التى تكون أنت أحد أبطالها ؟ وأية قصيدة تنظمها أبلغ من أن تكون مثال التضحية ؟ وأية صورة ترسمها أجمل من هذه الجموع البائسة تعمل على نقلها من حال البؤس إلى حال النعيم ؟ وأى طب أنفع من طب الجوع ؟ وأى تدوين للتاريخ أتم من أن تصنع التاريخ ! قل معى : حيا الله السياسة وأدامها فتنة للشباب !





قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكي
مراقب مصلحة الكيمياء

كان حظ ارليش من التوقر والرزانة حظ الفقير المعدم ، وذلك من حيث سلوكه ومن حيث آراؤه سواء سواء . أما من حيث سلوكه فكان يرسم صوراً من نظرياته فى أى مكان اتفق على كم قميصه وعلى نعل حذائه ؛ وكان يرسمها على صدر قميصه فتصرخ زوجته ، أو على صدر قميص صاحبه إذا خان الحظ هذا الصاحب فلم يستطع أن يفلت قبل أن تقع الواقعة . انعدم فيه الحس بالذى يليق والذى لا يليق فكان كولد صغير أولع بالأذى . أما من حيث آراؤه فكان يقضى الأربع والعشرين ساعة التى يحتويها اليوم يتخيل الأسباب الغريبة المستحيلة ليفسر كيف يتحصن الانسان من الأدواء ، أو كيف نقيس الحصانة ، أو كيف تنقلب الصبغة إلى رصاصة مسحورة ؛ وخلف وراءه صوراً من هذى الخيالات تجدها فى كل بقعة وناحية

وبالرغم من هذا كان أدق الناس فى التجارب التى يجربها وكان أول من رفع عقيرة بالتسخط على صيّاد المكروب لتخبطهم فى طرائق للبحث مهوشة ولتوقعهم كشف الحقائق العاصية بمجرد سكب شىء من هذا على شىء من ذاك . وفى طلب الدقة قتل إرليش فى معمل كوخ فى تجربته خمسين فأراً حيثما كان يكتفى من قبله بقتل فأر واحد ، وذلك لاستخلاص قوانين بسيطة سهلة تتعبر بالأرقام فى سهولة خال أنها تفسر لغز الحصانة وسر الموت والحياة . وهذه الدقة التى لم تنفعه فى حل هذه الطلاسم أعانته أخيراً على اصطناع رصاصته المنشودة

— ٣ —

هكذا كان إرليش مرحا فرحا متواضعا لا يفتأ يجد النكتة عن نفسه ، ويولد الفكاهة من سخافته فينطلق بها لسانه غير باسم ولا هازل . وبهذا كسب الأصدقاء كسبا هينا . وكان ماكرا ، فقصد إلى أن يكون بعض هؤلاء الأصدقاء من ذوى الجاه والنفوذ . ولم يلبث أن صار في عام ١٨٩٦ مديرا لمعمل استقل به وحده ؛ وكان اسمه المعهد البروسى الملكى لامتحان الأمصال ومكانه فى استجلتس Steglitz بالقرب من برلين ؛ واحتوى على حجرتين صغيرتين كانت إحداهما مخبزا وكانت الأخرى اصطبلا . قال إرليش : « إننا نخيب لأننا لا نتوخى الدقة فى أعمالنا » ، يشير بذلك إلى خيبة بستور الصغرى فى ألفحته ، وخيبة بارنج الكبرى فى أمصاله . وألح يقول : لا بد من وجود قوانين رياضية تجرى على سننها هذه الأمصال وهذه السموم وأضدادها » . وظل هذا الرجل يضطرب مع خياله غاديا رائحا فى هاتين الحجرتين المظلمتين مدخنا مفسرا مجادلا معاتبا مدققا فى القياس ما أمكنته الدقة ، بين قطرات من أحسية مسمومة وأنابيب مدرجة مقدرة من أمصال شافية

نعم لا بد من قوانين ! ويقوم على تجربة يؤديها . ويخرج من التجربة على نتيجة باهرة ، فيقول : « أتعلمون لم كانت هذه النتيجة هكذا ؟ » وإذا به يخطط صورة غريبة للسم تخبر عن مظهره كيف يكون ، وإذا به يخطط صورة أخرى لخلية الجسم تنبىء عن مظهرها الكيماوى كيف يجب

أن يكون . ويستمر يعمل ، وتستمر ألوف الخنازير الغينية تسير إلى موتها صفاً صفاً ويجد أن ما يختلف مع نظريته البسيطة من النتائج أكثر مما يأتلف بها ، فلا تروعه هذه الاستثناءات لقاعدته ، ويَدِرّ عليه خياله الخصب فيخترع قواعد أخرى تتولى أمر هذه الاستثناءات . ويخطط فى سبيل الشرح صوراً أغرب وأعجب . إلى أن وصل إلى نظريته الشهيرة عن الحصانة المعروفة بنظرية السلسلة الجانبية [1] Side chain Theory فصارت أحجية مُغلقة لاتكاد تفسر شيئاً ولا تقدر على التنبؤ بشيء . وظل إلى آخر أنفاسه يعتقد بصدق هذه النظرية السخيفة . ودقها النقّادون دقا من كل جانب وفى كل بقعة من بقاع الأرض ، وظل متشبثا بها . وإذا أعوزته التجربة فى الرد على منتقديه وإفحامهم بالحجة لجأ إلى المكابرة والمماحكة ، وكان يدفع عن نظريته فى المؤتمرات الطبية فينهزم فيها فيخرج منها يسب خصومه علانية وهو فى طريقه إلى البيت ، وفى الترام يرفع عقيرته بالسباب وهو فرح منبسط ، فيغضب الكمسارى فيعيد السباب تكرارا يتحداه به أن ينزله من الترام إذا هو استطاع

ولما جاءت سنة ١٨٩٩ كان إرليش بلغ عامه الخامس والأربعين . فلو أنه مات عندئذ لأدخله التاريخ فى زمرة الخائبين . فكل المجهود الذى بذله فى البحث عن قوانين تجرى عليها الأمصال لم يجنه إلا بصور من نتاج الخيال لم تقنع أحداً ، وهى على كل حال لم تفد شيئا فى سبيل تقوية أمصال ضعيف أثرها فى العلاج . خاب ارليش فما الذى هو صانعه بعد هذا ؟ وفكر وخطط . ثم اتصل ببعض من عرف من رجال ذوى جاه وسلطان ، فالقهم وداهنهم وسلب ما أراد من عقولهم ، وإذا بك تجد خادمه الأمين الثمين ، السيد المحترم قدريت ، قضنًا الحاجات من كل ماهب ودبّ ، إذا بك تجده قائما فى معمل سيده فى استجليتس يحل أجهزته للرحيل عن برلين ومدارسها الطبية وجلبتها العلمية إلى مدينة فرنكفورت على نهر المين . وتسألنى ما الذى جذبه إلى هذه المدينة ؟ إن الذى جذبه إليها أن بقربها تلك المصانع الشهيرة التى يخرج فيها أعلام الكيمياء تلك الأصباغ الجميلة الشتيتة العديدة عدا لا يناله الحصر ، الجميلة جمالا لا يؤديه الوصف ، فكأنها باقات الزهر ازدهاراً وابتساما . وجذبه إليها أن بها أغنياء من اليهود عُرف عنهم حب المجتمع وسهولة بذل الذهب فى خيره . والذهب والذكاء والحظ والصبر أمور أربعة يراها إرليش لازمة لنجاحه فيما قصد إليه . وإذن جاء إرليش إلى فرنكفورت ، أو على حد قول السيد المعظم المحترم النافع قدريت : « جئنا إلى فرنكفورت » : ويعلم الله ما عانى قدريت فى نقل تلك الأصباغ والمجلات الكيماوية المتناثرة بما فيها من هوامش كتبها إرليش وما بصفحاتها من طيات كان يطويها عليها ليرجع بها إليها

أظنك أيها القارىء تخرج من قراءة قصة المكروب هذه على أن صيادة الميكروب القويمة لا يصلح لها إلا نوع واحد من البُحّاث ، باحثٌ يعتمد على نفسه وحدها كل الاعتماد ، باحث لا يلقى بالا إلى ما يجده غيره من البُحّاث ، رجل يقرأ الطبيعة ويعاف الكتب . إذن فاعلم ان إرليش لم يكن هذا الرجل ، فانه قل أن نظر فى الطبيعة إلا أن تكون

---

(١) نظرية السلسلة الجانبية نظرية ابتدعها إرليس لتفسير الحصانة والشفاء . وقد اقتبسها من الكيمياء العضوية لا سيما من المركبات البنزينية حيث يتركب المركب من نواة بنزينية ثابتة تتصل بها مجموعات جانبية من العناصر تسمى بالسلاسل الجانبية هي مناشط التفاعل الكيميائى وهى المراكز الأمامية التى ينال بها المركب غيره من المركبات فيتفاعل معها . قال إرليش إن خلايا الجسم تتركب من الوجهة الكيميائية من نواة هى أصل الخلية تخرج منها سلاسل جانبية عديدة كأذيال الصوت . فاذا دخل مكروب إلى الجسم لوثه بسمه . وهذا السم مركب كيميائي فاذا جاء إلى الخلية من خلايا الجسم جذبته سلاسلها الجانبية فاتحد بها اتحادا يميت الخلية ويفقدها وظائفها الطبيعية . وهذا هو المرض فالموت . ولكن الجسم تطبيعته يدافع للحياة . وطريقته فى ذلك على زعم إرليش أن خلية الجسم إذا اتحد السم بسلاسلها حاولت أن تنزع عن نفسها السم بالسلاسل التى ارتبط بها . ثم هى تخلق من نواتها سلاسل جديدة . ولكن بحكم قانون معروف إذا فقد الجسم عشر وحدات من شيء قامت حيويته تستعيض عنها بأضعاف ما فقدت ، وإذن تستعيض الخلية بأضعاف ما فقدت من السلاسل الجانبية وتطلق الزائد منها فى الدم فيلتقط السم الشائع فيه فيتحد به ويذهب بشره فيكون الشفاء . والانتيتكسين الذى يعرفه الطب ، أى أضداد السم التى يخلقها الجسم لحماية نفسه ، هي هذه السلاسل الجانبية الزائدة نتيجة رد الفعل لافتقاد الخلايا سلاسلها الأولى (المترجم)

ضفدعته المختارة التى حفظها فى جنينته فأعانته باختلاف مناشطها على التنبؤ بالجو ما سيكون — وهذه الضفدعة تولى أمرها السيد قدريت . فكان أول واجباته أن يأتيها بكثير من الذباب . . . . . لا ، لم يكن إرليش يقرأ الطبيعة بل يقرأ الكتب ومن هذه جاء بكل أفكاره

عاش بين الكتب العلمية ، واشترك فى كل مجلة كيماوية تخرج فى لغة يقرؤها ، وفى مجلات أخرى تخرج فى عدة لغات لم يكن يقرأها . وتبعثرت الكتب فى معمله وانتشرت ، فكان يجيئه الزائرون فيقول لهم : «تفضلوا فاجلسوا» ، فاذا نظروا حولهم لم يجدوا موضعا يجلسون فيه . وكانت المجلات تطل من جيوب معطفه ـ هذا إذا تذكر ولبس معطفا . وتدخل الخادمة بالقهوة اليه فى الصباح فتتعثر فى أكوام من الكتب لا تفتأ تكبر يوما عن يوم . فهذه الكتب والسجائر الكبيرة الغالية استعانت جميعا على إفقاره . وتراكمت الكتب أكواما على أرائك مكتبته فعششت الفئران فيها . وكنت تجده إما قائما فى تلوين باطن حيواناته بأصباغه وتلوين ظاهر نفسه بها ، وإما قاعداً ينظر فى هذه الكتب . وكل ذى بال تجده فى هذه الكتب تجده فى رأس إرليش ينضج ويختمر ويستحيل إلى تلك الآراء الغريبة البعيدة ، ثم تظل مخزونة هناك حتى تستخرجها الحاجة . هكذا كان إرليش يأتى بآرائه . وإنك لن تستطيع أن تتهمه بسرقتها من آراء غيره ، فانها بين دخولها رأسه وخروجها منه تنطبخ انطباخا يفقدها كل معالمها الأولى

وجاء عام ١٩٠١ فبدأ العام الأول من أعوامه الثمانية التى قضاها يبحث عن رصاصته المسحورة . ففى هذا العام قرأ أبحاث ألفنس لفران Alphonse laveran وهو إن ذكرت الرجل الذى كان اكتشف مكروب الملاريا . وكان لفران أخذ فى هذه الأيام الأخيرة يشغل همه بالأحياء الحيوانية الصغيرة المسماة بالتريبنسومات Trypansomes[1]

وكانت تدخل إلى الخيول فتعيث فى مؤخرها وتصيبها بالداء المعروف بمرض الورك Mal de Caderas . وكان لفران حقن هذه الشياطين المزعنفة فى الفئران فوجدها تقتل من المائة مائة .

وجاء ببعض هذه الفئران وهى تعانى المرض فحقنها بالزرنيخ تحت جلدها فوجد الزرنيخ قد أفادها بعض الشىء وقتل كثيراً من التريبنسومات التى تعيث بالفساد فيها ولكنه مع ذلك لم ينج منها فأراً واحداً . وإلى هذا الحد وقف لفران

وما عتم إرليش أن قرأ هذا حتى صاح : «هذه فرصة عظمى. هذا مكروب أنسب ما يكون للبحث ، فهو كبير يرى فى سهولة ، وهو يربى سهلا فى الفئران ، وهو يقتلها دائماً فلا يخيب مرة واحدة . فأى مكروب خير من هذا فى البحث عن الرصاصة المسحورة التى تقتله ! فمن لى بصبغة تقدر على شفاء فأر واحد لا أكثر شفاء شاملا كاملا !»

(يتبع) أحمد زكى

[1] هى أحياء حيوانية من البروتوزوات . ومعنى اللفظة باليونانية الجسم الأولى . وهى أنواع تتطفل فى الدم ومنها ما يصيب الانسان ويسبب له أمراضا مختلفة منها مرض النوم (المترجم)



من القصص العربي

ثقيل ما أظرفه

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

قال الفتى لصاحبه وهو يقص عليه تاريخه ويروى له من حوادثه : لقد نشأت ياصاحبي فى البصرة ، وقد كان والدى من أمجاد البادية ، وأجواد العرب ، قضت عليه شؤون الدنيا بالنزوح إلى ذلك المصر، يوم أن شب على جدرانه النعيم، وأشرقت فى محلاته(١) أنوار الحضارة ، فنسلت إليه صنوف الناس من كل حدب ، وفيهم طالب الكسب بالتجارة ، والراغب فى العلم بالتعلم ، والطامع فى الصلة بالشعر ، والحريص على متاع الحضارة بالبذل ، ولست أدرى لأى أمر من هذه الأمور نزح والدى عن موطنه ، ولكنى أدرى أنه ما كان فى حاجة إلى مال ، ولا هو من أهل الرغبة فى العلم ، فلعله كان لايطمع إلا فى نعيم الحضارة الوارف ، يروى به جسمه ويمتع به نفسه . على أنى سمعت بأنه كان مطلوباً بدم فى إحدى القبائل فربما كانت هجرته فراراً من العدو وخوفاً من الانتقام

وليس تحقيق هذا مما يعنيني ، وإنما أريد أن أقول لك : إن والدى لم يعرف للحضارة أساليبها ، فعاش فى حياته الجديدة على أوضاع الحياة القديمة ، فالامتهان فى نظره مهانة ، والعمل فى تقديره ذلة ، والمال فى يده شيء حقير تافه يبذره باسم الجود ، ويسرف فيه بلفظ الانفاق ، ففي كل عشية له مجلس عامر بالغناء والشراب ، وفى كل ضحوة سامر حافل بالإخوان والأصحاب ، وبين هذه وتلك موائد ممدودة ، وولائم قائمة ، كأن أيام عندنا عرس دائم ، فكان أن درجت فى أعطاف هذا البذخ ، ومررت على هذه الحياة اللاهية المسرفة حتى كنت فتى يافعا ولم تعرف الأيام منى غير اللهو المسرف ، والتبذل المفرط ، والبطالة المستهترة . ليس فى تفكيرى أن أعمل ، بل ليس من همى إلا أن أشبع الجسد من لذائذ الحضارة ومتاعها الموفور .

ومضت السنون بعضها فى أعقاب بعض ، ونحن على هذه الحال من السرف والبطالة ، وكان لابد للمعين أن ينضب ، فقل المال الكثير ، وتضاءلت الثروة الضخمة ، ولم يلبث والدى أن مات بعمره ، وإذا كان لى أن أنسى فلن أنسى ما حييت يوم أن عدت من قبره أتكسر على نفسى كما يعود القائد المخذول من ساحة الحرب ، أحصى المال المتروك فلا أقع على شيء ، وألتمس الأصحاب فلا أقف لهم على ظل ، وأنظر إلى نفسى فأجدنى كالآلة المعطلة لا أصلح لشأن من شؤون الحياة ، حتى ليرهقنى سد الرمق فى مجتمع صاخب عجاج يتدافع أهله بالمناكب فى طلب الرزق ، ويقتتلون على الفوز باللقمة الحقيرة ، وأن من الصعب على نفسى أطلب العيش من مروءات الناس ، وأن أقيم الأود من فضلهم ومعروفهم ، لأن ذل السؤال صعب على نفس يجرى فى عنصرها إباء البادية ، وتكنفها كرم النشأة ، وقد قيل : إن من طبع الكريم أن يخفى عسرته ويكتم شدته :

يحنى الضلوع على مثل اللظى حرقا
والوجه غمر بماء البشر ملآن

ويعلم الله لقد كتمت ما استطعت ، وصبرت حتى أرهقنى الصبر وكنت كل يوم أؤمل فى غد فلا يكون الغد إلا أشد . آه ياصاحبي لشد ما ضمنى الدهر ضما لارحمة فيه ولا شفقة ! ولشد ما عركتنى الأيام عرك الرحى بثفالها كما يقولون ! ولا أكتمك أنى فكرت فى الخلاص من ذلك بالموت ، ولكنى خفت أن يقول الناس فى شأنى : جبان فر من معركة الحياة ، ومارق تمرد على حكم القدر ؛ وعملت على أن أصل نفسى بموطن العشيرة فى البادية ، ولكنى تذكرت الدم الذى كان مطلوبا به والدى فخشيت الهلاك من تلك الناحية ، لأن البدوى حريص على ثأره مهما طال به الزمن ، حتى ليطلبه فى الأجيال المتعاقبة

فلما اضطرب بى الفكر ، وتبلبل منى الخاطر ، سألت صاحبا

(١) جمع محلة وقد كان العرب يقسمون مدنهم إلى محلات وأخطاط كما تقسم مدننا إلى أحياء

من أهل الرأى لعله يشير بما ينفع ، فقال لى : لو ذهبت فتسببت .
فقلت : مالى صناعة ، ولا عندى بضاعة ! فقال : على كل حال :
انك امرؤ فيك ظرف ، ولك لطف ، وانك لوانحدرت إلى بغداد
لاتعدم لك فى مجالسها السامرة ، وأنديتها الساهرة . فرأيتها نصيحة
نافعة من الرجل ، وقلت لعل الاخذ بها يجدى ، فانى أحفظ عن
والدى شيئاً من طرائف الاعراب وقصص البادية . ولقد أكسبتنى
الحياة السالفة دراية باداء الحديث ، اختار له موضعه ، وأخرجه
مخرجه ، وأعرف كيف أصل به إلى نفس السامع ، وأستطيع أن
أجرى النادرة الطيبة فاهز القلوب وأحرك المشاعر . على أنى
قدرت فى ذلك السفر منأى يسترنى عن اخوان أكتم عنهم حالى ،
ويخجلنى أن يرونى أتدنى فى طلب الرزق ، فعزمت على تحقيق
الفكرة ، ولم يبخل على الرجل بزاد السفر ، وسرعان ما كنت
فى الركب السائر والقافلة الراحلة .

هبطت بغداد يا أخى أجهل ما أكون بمسالكها ومحلاتها ،
فأخذت فى السير على هدى السابلة ، وإرشاد المارة ، حتى انتهيت
إلى دارة الخلافة ، ونزلت بدار الضافة ، وكأن نحس الطالع قد
سبقنى إلى ذلك البلد الأمين ، إذ علمت أن الخليفة المأمون قد حرم
الغناء وشدد فيه ، وأمسك على الناس أبواب اللهو والاستهتار ،
فانفضت الملاعب والمشاهد ، وأعتمت الأندية والسوامر ، وصار
ليل المدينة ليلا حلولكا مملولا ، لا يرن به طاس ولا يحن فيه
مزهر ، فايقنت بنحس السفرة وحبوط المسعى ، وتمثلت لى الدنيا
فى مثل كفة الحابل ، وهانت على النفس العزيزة ، إذ لم أجد أمامى
طريقا للعيش غير التساقط على بيوت أهل الفضل والخير ، أتدسس
إلى موائدهم ، واتقحم على ولائمهم ، وأتلف فى طريقهم ، وأجرى
فى ركبهم ، فلم تمض أيام حتى كنت قد وقفت على جميع اعيان
المدينة ووجوه القوم ، وعرفت مراتبهم فى الجود والخير ، وتبينت
اساليبهم فى الحياة ونظام العيش ، وعرفونى هم كذلك متطفلا
بغيضاً وفضوليا ثقيلا ! .

فانى لفى يوم خرجت فيه إلى الجسر (١) ، علنى أجد أميراً
أتبعه ، أو كبيراً أمتاح من فضله ، فلم أذهب غير بعيد حتى رأيت
إسحاق الموصلى يتحدث إلى على بن هشام بكلام يخفيه ، فأرهفت
أذنى أتسمع فسمعته يقول : لقد زارتنى اليوم فلانة يا على ، وهى
كما تعلم من أحسن الناس غناء ، وأطيبهم محضراً ، فحياتى إلا كنت
اليوم عندى ، فنجلو السمع ونمتع القلب ، وننتهز فترة من
فترات العمر التى حرمناها ، ونعيدها ذكرى من ذكريات الأيام
الماضية ، فوعده بالحضور ومضى كل لسبيله . فقلت فى نفسى :
يا لها من فرصه سانحة لابد أن أحتال فى اغتنامها ! وأخذت أفكر
وأقدر ، وأسعفتنى الفكرة بالحيلة النافذة ، فلت إلى من أعارنى
الزى النبيل والمركب الفاره ، ومضيت إلى منزل على بن هشام
فقلت لحاجبه : عرف الأمير أن رسول صاحبه اسحاق الموصلى
بالباب ، فدخل الحاجب وخرج مسرعا يحمل الاذن بالدخول ،
فدخلت على على فرحب بى أجمل ترحيب ، فقلت له : صاحبك
إسحاق يقول لك إنك تعلم ما اتفقنا عليه فلم تأخرت عنى ؟
فقال : الساعة وحياتك نزلت من الركوب ، والساعة أغير ثيابى
وأوافيه ، فامهله قليلا وإنى على أثرك .

فاستويت على دابتى ، ووافيت منزل اسحاق ، فقلت للحاجب
عرف الأمير أنى رسول على بن هشام ، فدخل الحاجب وخرج
مسرعاً يقول : ادخل ياسيدى جعلت فداك ، فدخلت فسلمت ،
فنهض إلى إسحاق فى بشاشة ، فقلت : أخوك على يقرئك السلام ،
ويقول لك الساعة نزلت من الركوب ، وقد غيرت ثيابى وتأهبت
للسير تحقيقا لوعدك فانتظرنى ؟ فقال : قل له ياسيدى قتلتنا جوعاً ،
ونحن من انتظارك على أحر من الجمر ، فحياتى إلا ما أسرعت

فعدت إلى منزل على ، وقلت للحاجب عرف الأمير أن
صاحبه أمرنى أن لا أبرح أو يجىء ، فقد طال عليه الانتظار ،
وأضر به الجوع . فاسرع على فغير ثيابه ، وركب دابته ، وسار
وسرت من خلفه ، حتى نزل بباب إسحاق فنزلت معه ، وبعد
السلام أخذنا مكاننا على المائدة . وإسحاق لايشك أنى أخص الناس
بعلى ، وعلى لايشك أنى أخص الناس باسحاق ، فبالغ كل فى إكرامى
وإيثارى باللقمة الشهية ، والهبرة الوثيرة . ولما قضينا حق الخوان
أو حق البطن انصرفنا إلى الشراب ، وخرجت إلينا جارية كأن
بشاراً كان ينظر إليها من وراء الغيب إذ يقول .

تلقى بتسبيحة من حسن ماخلقت ... وتستفز حشا الرائى بأرعاد
كأنما صورت من ماء لؤلؤة ... فكل جارحة وجه بمرصاد

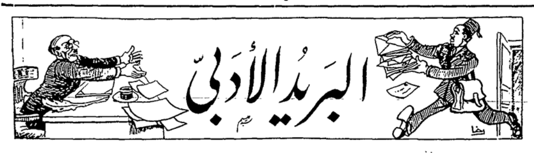
ولم تلبث أن حملت عودها وغنت صوتاً فملت فيه ما أحل الله
وحرم ، ودارت الأقداح ، فشعشعت القلوب ، وايقظت العواطف
وأفعمت النفس بالصفو والأنس ، وبقينا فى هذا حتى هم النهار
بالتصرم ، وألح على البول فنهضت إلى الخلاء ، فسمعت علياً يقول
لإسحاق : ألاما أخف روح هذا الفتى ياسيدى وما أطيب نوادره !
فمن أى وقت كان لك ؟ فقال اسحاق : أوليس هو بصاحبك ؟ !

(١) هو جسر بغداد المشهور وقد كان للشعراء مسرح الهوى وله فى الشعر ذكر كثير

قال: لا وحيانك ولا أعرف أنى رأيته قبل اليوم، وأنه جاءنى برسالتك يستعجلنى للحضور وقص قصته فى ذلك، وقص اسحاق مثلها، وداخله من الغيظ ما لم يملك معه نفسه، فقال: أنها لكبيرة ياصديق على النفس، طفيلى يستجرئ على فيستبيح النظر إلى حرمى والدخول إلى دارى! أبلغنا من الهوان إلى هذا الحد، وبلغت الصفاقة بهذا وأمثاله إلى هذا القدر؟ والله لابد أن أنتقم. وسأعرف كيف أصون بيتى من كل رذل ثقيل. ياغلمان! السياط والمقارع. أعدوا عدتكم، واحشدوا جمعكم. وقامت فى الدار جلبة ارتجت لها الجدران، وارتاعت لهولها الجيران، وكل هذا وأنا فى الخلاء أفكر وأقدر؛ وكانت عزيمة صارمة، إذ خرجت على القوم فى ثبات واطمئنان، كأنى لا أعبأ بأمرهم، ولا أحفل بشأنهم، وأقبلت على اسحاق فقلت: وماذا بقى من جهدك بعد ذلك؟ ألا ويل لك يا رجل ثم ويل! لقد كان أولى بك أن تعرفنى قبل هذا كله، فكنت هونت على نفسك هذا كله!! قال: ومن تكون؟ قلت أنا - كما تقول - الثقيل البغيض المتطفل الذى اجترأ على بيتك واستباح النظر إلى حرمك. لا: بل أنا الذى أعددت له السياط والمقارع، وانتدبت لضربه الجلادين، وأقسمت بكل محرجة ألا تتركه إلا لحما من غير دم، وعظما من غير لحم، ولو علمت الواقع لعلمت أنى أنا القادر الذى عفوت، والقوى الذى سامحت، وإنى لا أستطيع أن آخذك بجرمك فأدفعك إلى الهلاك أنت وصاحبك دفعا. فشده الرجل بما سمع، فقال: ولكن بربك ألا أخبرنى من أنت؟ قلت. أناصاحب خبرأمير المؤمنين وعينه والأمين على سره، ووالله لولاتحرمى بطعامك، وتمالحى بحديثك، وأنى أعرفك أنت وصاحبك على الاخلاص للخليفة والطاعة له، لتركتكمانى عمى من أمرى حتى كنت تعرف عاقبة حالك، وإقدامك على ما فيه هلاكك. فنهض إلى الرجلان يسكتانى فى استعطف، ويعتذران فى انكسار. وقال إسحاق: فديتك يا سيدى! إنا لم نعرف حالك، ولم نتبين أمرك، فلنا العذر، ونسألك الصفح، ونضرع إليك فى كتمان ما كان، وأنت بنا المحسن المجمل. فوعدتهما بالخير، وقلت: لايخون العهد إلا لئيم وحاشاى. وجاء وقت الانصراف فخلع على إسحاق ثيابا فاخرة، وأمر لى بمركب نبيل، ودفع إلى بصرة فيها ثلاثمائة دينار، ونهض فى وداعى حتى مضيت.

فلما كان من الغد دخل على بن هشام على المأمون فقال: كيف خبرك يا على فى أمس؟ قالها على حسب ما يجرى فى السؤال وقد كانت عادته، ولم يفطن لها على فتغير لونه، واخذلت به رجلاه، إذ لم يشك فى أن الحديث قد رفع إليه، فاكب على البساط يقبله ويقول: يا أمير المؤمنين العفو! يا أمير المؤمنين! الصفح الجميل! يا أمير المؤمنين الأمان! فوالله لن تعود، قال: لك الأمان ولكن بماذا جئت يا على؟ فأخبره الخبر، فضحك المأمون حتى كاد أن يغشى عليه، وقال: إنه «لثقيل ولكن ما أظرفه»، وأرسل فى طلب إسحاق فلما حضر قال: هيه يا إسحاق؟ كيف كان خبرك أمس؟ فأخبره كخبر على بن هشام، والمأمون يضحك ويصفق من العجب، ثم قال بحياتى ما فى الدنيا أملح من هذا، فاطلب الرجل وجئنى به. واجتهد إسحاق فى ذلك حتى وجدنى، فكنت على ماترى ياصاحبى فى المقدمين من ندماء المأمون، والأخيار من أصفيائه، ولا تنس أن هذه قد حملت المأمون على أن يرد على الناس حريتهم، وأباح لهم الغناء، وتركهم يأخذون بأسباب الأنس والسرور

محمد فهمى عبد اللطيف



الجمعية الطبية ومشكلة تحديد النسل

عقدت الجمعية الطبية المصرية عدة اجتماعات لبحث مشكلة تحديد النسل . كان آخرها اجتماع يوم الثلاثاء الماضي (٤ مايو) ، وقد اهتمت الجمعية الطبية باثارة هذا الموضوع وبحثه مذ ظهر رأى شرعى لفضيلة مفتى الديار المصرية خلاصته أن تحديد النسل بالوسائل المشروعة جائز فى بعض الأحوال والظروف القاهرة ؛ ورأت الجمعية الطبية أن تأخذ البحث بيدها وأن تثيره لا من الوجهة الطبية فقط بل من جميع نواحيه الأخرى الاجتماعية والاقتصادية ؛ ولهذا الغرض عقدت أربع جلسات كبيرة ، ألقى فيها عدد كبير من الأطباء والمفكرين والاقتصاديين والاجتماعيين آراءهم ؛ وكان اتجاه هذه المباحث يرمى إلى وجه العموم إلى تبرير تحديد النسل نزولا على الضرورات الصحية أو الاقتصادية أو الاجتماعية التى لا مفر من الخضوع لمقتضياتها . وقد ظهر من الاحصاء الأخير أن سكان مصر فى زيادة مضطردة مؤكدة وأنه إذا لم توفق البلاد إلى تنمية مواردها الزراعية والانتاجية بسرعة توسيعاً يتفق مع نمو السكان ، فان مصر ستواجه فى المستقبل القريب مشكلة اقتصادية واجتماعية خطيرة ؛ ومن جهة أخرى فان مقتضيات الحياة العائلية توجب أحياناً أن يقف انتاج النسل عند حدود معينة ، وإلا كان مستقبل العائلة مهدداً بالأزمات الاجتماعية هذا ؛ إلى مقتضيات العوامل الصحية ، وظروف الحياة الجديدة التى تجعل من المرأة أكثر من آلة للانتاج البشرى . هذه خلاصة الآراء والنظريات التى عرضت وشرحت فى الجلسات المذكورة ؛ وستعنى الجمعية الطبية بجمع كل ما قيل وكتب عن هذا الموضوع الخطير ونشره فى كتاب خاص وهى عناية تشكر عليها

جائزة مختار

كانت لجنة جائزة المرحوم مختار مثال مصر الكبير قد جعلت موضوع جائزتها هذا العام « الفلاحة » فتقدم إلى المباراة أكثر من عشرين مثالا من الفنانين الشبان ، وقدموا تماثيلهم إلى اللجنة ، وكلها تعبر عن الفلاحة المصرية بأشكال ومواقف مختلفة . وقد اجتمعت اللجنة أخيراً فى قاعة جمعية المهندسين الملكية برآسة معالى محرم باشا وزير الأشغال وحضور السيدة هدى هانم شعراوى رئيسة اللجنة الفخرية والعاملة الحقيقية لتأسيسها ؛ واستعرضت اللجنة التماثيل المقدمة وانتهت إلى منح الجائزة الأولى وقدرها ١٥ جنيهاً إلى المثال فتحى محمد على ، والجائزة الثانية وقدرها ١٠ جنيهات إلى المثال أحمد محمد صدقى افندى ، ومنحت ثلاث جوائز صغيرة أخرى إلى ثلاثة من المتقدمين . وفى بقاء هذه اللجنة وقيامها بمهمتها النبيلة إلى اليوم وهى العمل على إحياء ذكرى مثال مصر الكبير مختار وتشجيع الفن الذى نبغ فيه ، وتعهد الغرس الذى غرسه ما يبعث على الغبطة ، ويحمل على الثناء والتقدير لعواطف الوفاء التى أحاطت اللجنة بها ذكرى المثال الراحل

ذكرى تيودور بلهارس

سبق أن أشرنا إلى ما اعتزمته الجمعية الطبية المصرية من تكريم ذكرى العلامة الألمانى تيودور بلهارس ، مكتشف ميكروب البلهارسيا لمناسبة مرور خمسة وسبعين عاما على وفاته ؛ وذلك فى التاسع من الشهر الجارى . ونذكر الآن بهذه المناسبة كلمة عن حياة هذا العلامة الراحل ؛ فقد ولد فى سنة ١٨٢٥ فى سجمارنجن (بألمانيا) ودرس الطب فى فريبورج وتبنجن - وعين فى سنة ١٨٤٩ أستاذاً بجامعة

فريبورج . وفى العام التالى قدم بلهارس إلى مصر برفقة أستاذه الدكتور جريزنجر الذى انتدب طبيبا لوالى مصر ، وعهد إليه بوضع نظام طبى لمصر . وفى سنة ١٨٥٢ استقال جريزنجر من منصبه وخلفه بلهارس كرئيس للقسم الطبى بالداخلية . وفى سنة ١٨٥٥ انتدب أستاذاً بمدرسة الطب ، وبعدئذ بعام تولى كرسى التشريح بالمدرسة . وفى أثناء ذلك عكف بلهارس على درس جراثيم الأمراض المتوطنة ، ووفق فى سنة ١٨٥٦ الى اكتشاف مكروب المرض الذريع الذى يفتك بملايين المصريين وسمى « البلهارسيا » وبعد ذلك بثلاثة أعوام نشر بلهارس رسالة عن مسألة الأوبئة بمصر . وكان بلهارس أثناء ذلك يعانى من جراء الطقس وشدة الحرارة . وفى أوائل مايو سنة ١٨٦٢ أصابته نزلة معوية قوية ، فتوفى فى التاسع من هذا الشهر ودفن بمصر القديمة بمقبرة الآباء الفرنسيسكان ، وفى سنة ١٩٣٠ عثر الدكتور كايمر على قبره بعد أن اختفى زمنا ، وتعاون مع بعض زملائه ولاسيما الدكتور مكس ما يرهوف على نقل رفاته وإيداعها كنيسة المقبرة

المبرد أيضاً (١)

منقول الأستاذ (المرصنى) هو رواية ياقوت فى كتابه (ارشاد الأريب) وقد أشرت إلى ذلك . وأضيف إلى تحقيق ابن خلكان ، وحكاية (برد الخيار) - وقد رواها كثيرون منهم القيروانى فى كتابه (جمع الجواهر فى الملح والنوادر) - هاتين الروايتين :

قال ابن عبد ربه فى كتابه (العقد (٢))

سوء الاختيار أغلب على طبائع الناس من حسن الاختيار؛ ألا ترى أن محمد بن يزيد النحوى — على علمه باللغة ومعرفته باللسان — وضع كتابا سماه بـ (الروضة) وقصد فيه إلى أخبار الشعراء المحدثين ، فلم يختر لكل شاعر إلا أبرد ما وجد له (٣) ، فما أحسبه لحقه هذا الاسم (المبرد) إلا لبرده ،

(١) راجع الجزء السابق ، الصفحة ٧٠٧ .

(٢) اسمه (العقد) فقط والعقد الفريد للملك السعيد ، وعقد ابن عبد ربه تذوب أمامه العقود .

(٣) فى (كامله) نثر باهر وطائفة من شعر جيد .

وقد تخير لأبى العتاهية أشعارا تقتل من بردها ،

وفى (تاريخ بغداد) لابن الخطيب :

قال أبو الفضل بن طومار : كنت عند محمد بن نصر بن بسام فدخل عليه حاجبه فأعطاه رقعة وثلاثة دفاتر كباراً ، فقرأ الرقعة فاذا المبرد قد أهدى إليه كتاب (الروضة) وكان ابنه علىّ حاضراً فرمى بالجزء الأول إليه ، وقال له : انظر يابنى ، هذه أهداها إلينا أبو العباس المبرد ، فاخذ ينظر فيه ، وكان بين يديه دواة ، فأخذها علىّ ووقع على ظهر الجزء شيئاً وتركه وقام . فلما انصرف ، قال أبو جعفر (محمد بن نصر) أرونى أى شيء قد وقع هذا المشئوم ! فاذا هو :

لو برا الله المبرِّدْ من جحيم يتوقَّدْ
كان فى (الروضة) حقاً من جميع الناس أبردْ

وعصر ابن عبد ربه وعصر ابن الخطيب هما أقرب إلى زمن المبرد من وقت ياقوت . وذلك اللقب المشهور هو الذى جلب فى قولى ابن عبد ربه وعلىّ تلك الدعابة .

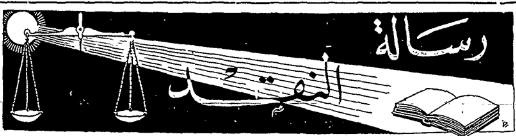
وأن هذا الامام العظيم لخليق بأن يشغلنى ويشغل حضرة الأديب (محمد فهمي عبد اللطيف) . وصاحبُ (الكامل والاقتضاب (١)) وغيرهما جدير بأن يذكر - فى كل وقت - بخير أو شر . . . (أحد القراء)

وفاة الأب لامنس

توفى أخيراً المستشرق البلجيكى الأب هنرى لامنس ، وكان هذا الحبر العلامة من خيرة المستشرقين الذين انقطعوا لدراسة العصر الأموى ، وله فيه عدة مؤلفات قيمة . كان مولده فى البلجيك سنة ١٨٦٢ ، وقد نزح منذ حداثته إلى لبنان واعتنق الرهبنة وانتظم فى سلك الآباء اليسوعيين ودرس العربية وعلومها دراسة مستفيضة

ولعلنا نوفق فى عدد تال إلى الافاضة فى تاريخ حياته ووصف مؤلفاته

(١) قال الزمخشرى فى الاقتضاب : يا له من كتاب بعد (الكتاب)



اسماعيل المفترى عليه

تأليف القاضي بيير كربتيس

وترجمة الأستاذ فؤاد صروف

للأستاذ الغنيمي

— ٤ —

نحب أن نبدأ هذه الكلمة بالاشارة إلى غلطة هامة من أغلاط الفصل الثالث وهى قول الأستاذ صروف إن اسماعيل كان « يستقبل ولديه وأحدهما الآن رئيس المجلس الخاص والآخر وزير المالية والحربية والأشغال العمومية ، وبذلك جعل لاسماعيل ولدين وهو غير صحيح، وجعل واحداً منهما رئيس المجلس المخصوص، وجعل الثانى وزيراً للمالية والحربية والأشغال العمومية مجتمعة ، فهل تأكد الأستاذ صروف حين كتب ذلك أن وزارات المالية والحربية والأشغال كانت كلها مجتمعة لوزير واحد من أبناء اسماعيل ؟ اذا كان البحث قد دله على ذلك فاراد أن يصحح قول المؤلف فلماذا لم يشر إلى ذلك صراحة واذا لم يكن فلماذا غير قول المؤلف

Receives his sons, who are now respectively President of the Privy Council and Ministers of Finance, War and Public Words.

ولو كانت وزارات المالية والحربية والأشغال العمومية اجتمعت كلها لوزير واحد من أبناء اسماعيل لما قال المؤلف Ministers بصيغة الجمع ولعله ظن أن لفظ respectively لا يستعمل إلا للاشارة إلى اثنين ونحن نقول إنه يستعمل للاشارة للجمع كما يستعمل للاشارة إلى المثنى .

ننتقل بعد ذلك للفصل الرابع فنقول ان حظه من الحذف والتغيير كحظ الفصول الثلاثة السابقة . ولقد أحصينا فيه أكثر من خمسين غلطة مختلفة الأنواع نكتفى بذكر أمثلة منها :

(١) قال المؤلف يصف موقف وزارة الخارجية البريطانية من مشروع قناة السويس :

Inspired by this motive, but perfectly loyal to Ismail as the move fitted in with their common tactics of the movement, Downiog Street brought pressure to bear on the Sublime Porte.

لم يترجم الاستاذ صروف هذه العبارة كلها إلا بقوله : « وعليه شرعت وزارة الخارجية البريطانية فى تحريض الباب العالى واستفزاز همته » ، وأين هذا من قول المؤلف « وكذلك أخذت دوننج استريت تضغط على الباب العالى مدفوعة إلى ذلك بهذا الباعث الذى ذكرناه وان كانت فى الوقت نفسه قد بقيت مخلصة كل الاخلاص لاسماعيل لأن العمل الذى قامت به يتفق مع خططهما المشتركة »

(٢) وقال المؤلف عن فرديناند دلسبس :

His love for France does him credit. He also had a second fatherland.

ولكن الاستاذ صروف أغفل الجملتين وأولاهما على الأقل ذات معنى جديد لم يشر إليه من قبل وهو ان حبه فرنسا مما يشرفه ويعلى من قدره .

(٣) وقال المؤلف يصف الوزير المصرى نوبار باشا :

The Egyptain Minister was not a man who could be brushed aside with impunity, he launched a counter offensive.

فقال الاستاذ صروف مترجما هذه العبارة « على أن نوبار باشا لم يكن ممن يسهل إهانتهم وعدم الاعتداد بهم » ، وبذلك أضاف من عنده لفظ الاهانة وهو عمل لا يليق وحذف فى نظير اضافتها الجملة الثانية كأن المترجم يجوز له اذا أضاف من عنده عبارة أن يحذف فى نظير ذلك عبارة أخرى . ومعنى العبارة الانجليزية : « أن الوزير المصرى لم يكن ممن يسهل إغفالهم (أو الاستهانة بأمرهم اذا شاء) من غير أن يقابلوا هذا العمل بمثله فلم يسعه إلا أن يهاجم خصومه كما هاجموه » .

(٤) وقال المؤلف :

Living up to the principle outlined in this question Sir Henry Bulwer . . .

فترجم الاستاذ صروف هذا كله بقوله « وعليه »

(٥) وقال المؤلف يصف ماالقيه اسماعيل من الصعاب فى موقفه بين فرنسا وانجلترا :

The Viceroy had to steer between the Scylla of France fighting for a concession which was far too friendly to de Lesseps to be equitable to Egypt...

فترجم الاستاذ صروف ذلك بقوله « وكان سمو الخديو ... مضطرا إلى السير بحكمة بين رغبات فرنسا التى كانت تدافع عن امتياز دلسبس » نحن لا نحتم على الأستاذ أن يترجم إلى قراء العربية Seylla ، charybdis ولا نحتم عليه أن يشير اليهما إشارة بسيطة فى هامش الكتاب ، ولو فعل لجل بذلك ترجمته لأن القصص اليونانى القديم أصبح قصصاً عالميا ولا مانع من أن يشار اليه فى الكتب العربية ، ولكننا كنا ننتظر منه أن يترجم العبارة الأخيرة التى وصف بها المؤلف الامتياز . ولو قال «وكان على الوالى أن يتبين طريقه بين ثلاث قوى شديدة الخطر أولها فرنسا التى كانت تناضل عن امتياز أسس على الصداقة القوية بين سعيد ودلسبس فكان لذلك بجحفا بحق مصر ... الخ

But this 15 per cent share in the profits of the waterway meant hard cash to Ismail.

لم ير الأستاذ صروف فى هذه العبارة ما يستحق الترجمة وإلا فلماذا أغفلها ؟

(٧) وقال المؤلف مشيرا إلى بيع حصة مصر فى أرباح القناة

It was M. de Blignière and Major Baring not the sovereign who had been deposed who were at the helm when this priceless possession was disposed of and a condition created by which to quote Lord Milner Egypt has no onger any share whatever in the vast profits of that undertaking.

قيل فى ترجمة هذه العبارة من أولها إلى أخرها « وكان المسيو بلنيير والماجور بارنج هما الموكول اليهما تصريف الامور فى مصر عندما بيعت حصة مصر » فهل هذا هو كل ما قاله المؤلف ، أو أن الباقى لايستحق أن يترجم ؟

(٨) ومن العبارات التى اقتضبت أو لخصت بعض معانيها كل الفقرة الواردة فى ص ٦١ من كتاب الاستاذ صروف وفى ص ٥٩ من الأصل الانجليزى . وقد تركت من هذا التلخيص عدة معان . ولما كان ايراد الأصل والترجمة يشغل نحو صحيفة من صحف الرسالة فانا نكتفى بالاشارة إليها ليرجع اليها القارىء إن شاء

(٩) ثم نرجو أن ينظر القارىء معنا إلى العبارة الانجليزية الآتية والى ترجمة الأستاذ صروف ليرى الفرق بين المعنيين قال المؤلف

Had his attention been directed to it, he would not have broadcast the accusation that when Ismail had abdicated, Egypt had longer any share of the vast profits of the Suez Canal - He would, it may be assumed, have devoted his literary talents and his powers of concentration to attempt to demonstrate that...

وقال الأستاذ صروف فى ترجمتها « ولو أدركها يومئذ ما اتهم اسماعيل بأنه لم يترك لمصر عند تنزله عن العرش أية حصة من من أرباح ترعة السويس . والشيء الوحيد الذى كان يحق للمنر أن يفعله هو ان يقف بيانه وعارضته على أن ... » أن الجملة الأخيرة فى هذه العبارة وهى قول الأستاذ صروف « والشيء الوحيد الذى كان يحق للمنر أن يفعله » بعيدة كل البعد عن الأصل الانجليزى الذى معناه « ونظن أنه لو وجه نظره إلى ذلك لوقف بيانه وعارضته على إثبات أن ... » ويظهر أن الأستاذ صروف قد فاته أن هذه الجملة هى جواب ثان للشرط الوارد فى أول الجملة الأولى وهى ولو نبه اللورد ملنر إلى ذلك أو ولو أدركها كما يقول المترجم . فليس هناك إذن شيء يحق للمنر أن يفعله .

(١٠) وهذه الغلطة نفسها أى عدم انتباه الأستاذ صروف إلى وجود جواب شرط ثالث جعله يقطع الجملة الآتية من سابقاتها ويغير معناها تغيراً كليا قال « على أن الهفوة التى ارتكبتها تلك اللجنة فى مارس سنة ١٨٨٠ كانت عظيمة جدا إلى حد أنها لم تجد مناصاً من إلقاء اللوم على الخديو المعزول » مع أن معنى هذه العبارة الحقيق : « ولو وجه نظره إلى ذلك لحاول من غير شك محاولة جدية أن يلقى اللوم على الأمير المنفى لأن الغلطة التى ارتكبت فى مارس سنه ١٨٨٠ كانت غلطة شنيعة » ولذلك قلنا فى مقالنا الأول إن إدراك العلاقة القائمة بين الجمل الانجليزية شرط أساسى للترجمة الصحيحة .

(١١) وإلى القارىء مثال صغير من عدم التدقيق . قال المؤلف على لسان اسماعيل

These holdings cannot bring me any revenue.

فأضاف الأستاذ لفظ والأرجح فى ترجمته لهذه العبارة مع أن المؤلف يقول « إن هذه الأسهم لن تدر على أى ريع » بصيغة التأكيد . إن لفظا واحداً يزيد أو ينقص يكفى فى بعض الأحيان لتغيير المعنى .

(١٢) قال المؤلف ينتقد عمل المراقبة الثنائية

A group of French capitalists should not have been handed, upon a gold platter the « winners ticket » bequeathed to Egypt by Ismail.

فلم ير الأستاذ فى هذا المعنى شيئاً يصح أن يترجم

(١٣) قال الأستاذ فى ص ٦٥ من الترجمة « وعند ما أرغم ذلك العاهل على التنزل عن عرشه فى سنة ١٨٧٩ كان الماجور بارنج هو المراقب البريطانى العام وصاحب السلطة المطلقة فى لجنة المراقبة الثنائية ... »

وكلمة كان فى هذه الجملة كلمة مشئومة أفسدت المعنى لأن تارنج لم يكن مراقبا عاما وقت خلع إسماعيل والمؤلف يقول :

And when that... Oriental had to submit to an enforced abdication in 1879 it was Major Baring who became the British Controller Geneneral etc.

ولقد كان عدم الدقة فى ترجمة كلمه became هو السبب فى هذا الخطأ التاريخى .

(١٤) قال المؤلف تعليقا على التهم التى وجهها ملنر إلى اسماعيل باشا

This indictment brushes aside finance and presents a moral issue.

فترجم الأستاذ صروف ذلك بقوله :

« فهذا القول يدل على أن للمسألة وجهة أدبية . والمعنى الحقيقى لهذه العبارة هو، أن هذا الاتهام يطرح الأمور المالية جانباً ويضع أمامنا مسألة أخلاقية »

(١٥) يشير المؤلف فى ص ٦٥ من الأصل الانجليزى إلى إلى ما استخلصه اسماعيل من شركة القناة وما أنفق من مال للدفاع عن الفلاح ويقول أنه لو وجد ناقد لكتابات لورد ملنر لتجلت للناس حقيقة هذا العمل المجيد .

« ولو وجد هـذا الناقد أيضا للفت نظر الناس إلى أن استرداد ستين الف هكتار من أرض مصر الزراعية من براثن شركة القناة لم يكن من الأعمال المزرية . . . الخ » ، ولكن الأستاذ صروف قد فاته هنا أيضاً ارتباط الجمل بعضها ببعض وإن الجملة السابقة هى أيضاً جواب شرط ثان للجملة التى قبلها فى آخر الفقرة السابقة

فقال فى ترجمتها « وكان يجـدر باللورد ملنر أن يذكر حسنة أخرى من حسنات إسماعيل وهى استنقاذه ستين الف هكتار من الأراضى الزراعية من بين مخالب الشركة وهى محمدة لا يجوز إغفالها » والفرق شاسع بين ما قاله المؤلف وما قاله الاستاذ صروف لأن المؤلف يقول :

The same spokesman would also have called attentim to the fact that the redemption was no mean accomplishment.

نقول مرة أخرى أن إدراك العلاقة بين الجمل شرط أساسى للترجمة الصحيحة.

(١٥) 16, ooo, ooo francs were charged up against Ismail, but 10, ooo, ooo represealed the work already done.

هذه المسألة الحسابية لم يعن الاستاذ بترجمتها

(١٦) وإلى القارىء مثل من الاضطراب فى العبارة يحار بسببه القارىء فى فهم المعنى . قال الأستاذ صروف :

« فاذا نظرنا إلى ذلك الامتياز باعتبار الأراضى الخصبة الآهلة بالسكان التى نشأت على ضفافها وباعتبار أنها تقوم بحاجات المدن ومقتضيات الرى كانت قيمتها أعظم مما قدرت به يومئذ بحيث إذا أردنا أن نحكم على إسماعيل من وجهة علاقته بشركة السويس حكماً منصفاً لم يكن لنا بد من تقدير هذه القيمة . على أن محاسبتنا لاسماعيل فى هذا المقام هى من الوجه الأدبى ، وعليه فيكاد يكون من المتعذر تقدير الخدمة التى أسداها ذلك العاهل إلى بلاده .

أيدرى القارىء حقيقة ما يريد أن يقوله المؤلف . انه يريد أن يقول : « وهذا الامتياز وهو حق الشركة فى أن تورد الماء إلى مجتمع غنى كبير العدد مطرد النماء ليستخدمه فى حاجات المدن وفى شؤون الرى ، هذا الامتياز يساوى الآن أضعاف المبلغ الذى قوم به . ولو كنا نريد أن نضع أمام القارىء الحساب الختامى لعلاقة اسماعيل المالية بقناة السويس لوجب علينا أن نضع بدل هذا القدر المجهول رقما حقيقياً معلوما . لكن بحثنا الآن مقصور على تلك الآثار التى لا تدركها الحواس والتى تسمى بالعوامل الأخلاقية . فاذا نظرنا الى المسألة من هذه الوجهة كان من المستحيل أن نغلو فى تقدير فضل إسماعيل فى الاحتفاظ بهذا المرفق العام الخطير خالصاً لمصر » .

ونكتفى بهذا عن ذكر العبارة الانجليزية لأنها طويلة تشغل كثيرا من فراغ هذه الصفحات القليلة التى تسمح لنا بها هذه المجلة . ونحن نؤكد للقراء أن هذه الترجمة الأخيرة تكاد تكون ترجمة حرفية للأصل الانجليزى .

(١٦) قال المؤلف عن النزاع القائم فى الولايات المتحدة بين مصلحة الأمة والمصالح المكتسبة لشركات الاحتكار

The fight is one of the general welfare against vested rights.

فترجم الأستاذ صروف ذلك بقوله « فالكفاح ضدها هو كفاح فى سبيل الخير العام » والمؤلف يقول : أن « الكفاح القائم هناك كفاح بين الصالح العام والحقوق المكتسبة »

نكتفى اليوم بهذا القدر لنبدأ بذكر أغلاط الفصل الخامس فى العدد القادم إن شاء الله

« الغنيمى »

5 me Année, No. 202

بدل الاشتراك عن سنة

مـ	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣



ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

Lundi - 17 - 5 - 1937

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢٠٢ « القاهرة فى يوم الاثنين ٧ ربيع الأول سنة ١٣٥٦ — ١٧ مايو سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العــــدد

مصطفى صادق الرافعى



١٨٨٢ — ١٩٣٧

شديد على الرسالة أن تنعى الرافعى إلى ديار الحنيفة وأقطار العروبة بدل أن تزف إليها كعادتها درة من غوص فكره وآية من وحى قلبه ! وعزيز على هذا القلم أن يتقطر سواده على الرافعى وهو نوره فى مداده وسنده فى جهاده وصديقه فى شدته ! وعظيم على العالم الأدبى أن يرزأ فى الرافعى وهو الطريقة المثلى لغاية الناشىء ، والمثل الأسمى لطموح الأديب ، والحجة العليا على قصور القاصر !

يالله !! أفى لحظة عابرة من صباح يوم الاثنين الماضى يلفظ الرافعى نفسه فى طوايا الغيب كومضة البرق لفها الليل ، وقطرة الندى شربتها الشمس ، وورقة الشجر أطاحها الخريف ؛ ثم لا يبقى من هذا القلب الجياش ، وهذا الشعور المرهف ،

وذلك الذهن الولود، إلا كما يبقى من النور في العين، ومن السرور في الحس، ومن الحلم في الذاكرة!!

كان الرافعي يكره موت العافية فمات به: أرسل إلىّ قبل موته الفاجئ بساعات كتابه الأخير يشكو فيه بعض الوهن في أعصابه، وأثر الركود في قريحته؛ ويقترح عليّ نظاماً جديداً للعمل يجد فيه الراحة حتى يخرج إلى المعاش فيقصر جهده على الأدب؛ ثم يسرد في إيجاز عزائمه ونواياه، ويعد المستقبل البعيد بالانتاج الخصب والثمر المختلف؛ ويقول: «إن بنيتي الوثيقة وقلبي القوى سيتغلبان على هذا الضعف الطارئ فأصمد إلى حملة التطهير التي أريدها ...»

كتب الرافعي إليّ هذا الكتاب في صباح الأحد، وتولى القدر عني الجواب في صباح الاثنين: قضى الصديق العامل الآمل الليلة الفاصلة بين ذينك اليومين على خير ما يقضيها الرخي الآمن على صحته وغبطته: صلى العشاء في عيادة ولده الدكتور محمد؛ ثم أقبل على بعض أصحابه هناك فجلا عنهم صدأ الفتور بحديثه الفكه ومزحه المهذب؛ ثم خرج فقضى واجب العزاء لبعض الجيرة؛ ثم ذهب وحده إلى متنزه المدينة فاستراض فيه طويلا بالمشي والتأمل؛ ثم رجع بعد موهن من الليل إلى داره فأكل بعض الأكل ثم أوى إلى مضجعه

وفي الساعة الخامسة استيقظ فصلى الفجر وهو يجد في جوفه حزة كانت تعتاده من حموضة الطعام. فلما فرغ دخل على ولده الطبيب فسقاه دواء، ثم عاد فنام. وهب من نومه في منتصف الساعة السابعة، وخرج يريد الحمام فسقط واحسرتاه من دونه سقطة همد فيها جسده فلا صوت ولا حركة! وذهب الرافعي ذو اللسان الجبار والذكر الدوار والأثر المنتشر، ذهاب الحباب كأنه لم يملأ مسامع الدهر، ولم يشغل مدارك الناس زهاء أربعين سنة!

كان آباء الرافعي شيوخ الحنفية في مصر، تولوا قضاءها وإفتاءها وإقراءها حقبة طويلة من الدهر؛ فدرج هذا الناشئ الصالح في حجور أربعين قاضيا من قضاة الشريعة كانوا من أهل بيته، وقد نوه بهم اللورد كرومر في بعض تقاريره. وكان أبوه الشيخ عبد الرازق الرافعي قد جرى على أعراق هذه الأسرة الكريمة من ورع القلب وصحة الدين وسلامة الضمير؛ ثم تميز في قضائه بمرارة الحق وصلابة الرأي وثبات العقيدة، فجاء مصطفى في كل ذلك صورة أسرته وسر أبيه

لم يذهب الرافعي إلى الأزهر، فقد كان في أزهر من قومه: وإنما نشأ في مغداي ومراحي بين طلخا والمنصورة أفنديا يتلقى معارفه الأولى بمدرسة الفرير، ويتخرج في علوم اللسان والشريعة على أبيه، حتى حذق العربية وفقه الدين وثقف الأدب وأصبح فارساً في الحلبتين ولما يعد العشرين. فلما بلغ ريـع العمر ختم الله على سمعه بالصمم الشديد، فكان منذ شبابه الأول بنجوة من لغو الناس ولغط المجتمع، فسلم عقله من السخف، وبرئ ذوقه من التبذل؛ وعاش في عالم الخيال ودنيا الكتب، فاتسع أفق تفكيره، وارتفع مقياس فنه. وظلت طبيعته البشرية على الكهولة نقية حرة كطبيعة الفتى الشابل، فيها الغضب الحاد، والرضى الهش، والدلال المتعظم، والهوى الجموح، والفتوة الأبية. فهو يخلص في الحب ويصدق في البغض، فلا يداور ولا يداري، ولا يحقد ولا يحسد

عملت في الرافعي عوامل الوراثة والبيئة والدراسة والعاهة؛ واتفق له من كل أولئك ما لم يتفق لغيره، فكان أفقه العلماء في دينه، وأعلم الأدباء بلغته، وواحد الآحاد في فنه. والدين واللغة والأدب هي عناصر شخصيته وروافد عقليته وطوابع وجوده. لذلك كان يقظ الرأي شاهد الحس لما يعلق بثلاثتها من أباطيل وشبه. وعبقريات المصطفى إنما كانت تتنزل على قلبه المرسل حين تمتد الأفيكة إلى كتاب الله أو إلى لغة العرب أو إلى أدب الرافعي

الرافعي أمة وحده، لها وجودها المستقل وعالمها المنفرد ومزاجها الخاص. وأكثر الذين كرهوه هم الذين جهلوه: كرهه الأدباء لأنه أصحر لهم بالخصومة فانفرجت الحال بينهم وبينه. وكرهه المتأدبون لأنه رفع مقياس الأدب فوسمهم بالعجز عنه. وأنكره العامة لأن الأمر بينهم وبينه كالأمر بين العمى والنور! إنما يحب الرافعي ويبكيه من عرف وحي الله في قرآنه، وفهم إعجاز الفن في بيانه، وادرك سر العقيدة في إيمانه.

ذلك بعض الرافعي الانسان؛ أما الرافعي الفنان فوعدك به خمود الحزن وانكسار المصيبة.

أحمد حسن الزيات

كتاب الارشاد

إلى فلسفة الجراد

للدكتور طه حسين بك
عميد كلية الآداب

صديقى العزيز المجهول اسماعيل بن زيد حفظه الله وأكثر من أمثاله .

تحية طيبة تلقاك حيث كنت ، فانى لا أعرف أين تكون ، كما أنى لا أعرف من تكون .

أما بعدفقد قرأت كتابك فى (الرسالة) منذ أيام ، ولست أدرى أين ظفر به صديقنا الدكتورعوض ، فانى لم أتلقه قبل نشره ، ولوقد وصل إلى لما أبطأت فى الرد عليك برغم كثرة العمل واشتغال النفس بأشياء يراها الناس خطيرة بعيدة الأثر فى حياة الافراد والجماعات ، وأراها أنا كما تراها أنت أهون شأناً وأقل خطراً من صيد الضفادع ، وتثقيف الجراد ، واستخراج أشعة الشمس من قشر الخيار . وأكبر الظن أنك رجل رؤوف بالأصدقاء شفيق على الاخلاء خطر لك أن تستفتينى فيما عرض لك من الأمر فسطرت كتابك وهممت بارساله إلى ، ثم عرفت أنى مجهود مكدود فرحمتنى ورفقت بى وأجلت إرسال كتابك إلى حتى ينقضى العام وأفرغ لمثل هذه الموضوعات الجليلة القيمة . ولكن كتابك وقع إلى صديقنا عوض على أى نحو من هذه الأنحاء التى تقع بها الكتب إلى الناس أو يقع بها الناس على الكتب . وعوض رجل فيه مهارة العفاريت ولباقة الشياطين اكتسبهما فى أكبر الظن من ترجمته لقصة فاوست ومن طول عشرته لشيطان الشاعر الألمانى العظيم . فلم يكد يقع الكتاب إليه ، أو لم يكد هو يقع على الكتاب ، حتى أسرع به إلى الرسالة يكيد بنشره لك ولى جميعاً .

يكيد لك لأنه يحسب أن الناس سيضحكون حين يظهرون على هذه الموضوعات الغريبة التى تفكر فيها وتنفق فى درسها وقتك وجهدك ، ويكيد لى حين يطلب إلى باسمك على ملأ من قراء الرسالة أن أبوب لك الكتب التى تريد أن تذيعها فى هذه الموضوعات .

وليس عوض شيطانا ولا عفريتا ولا مترجماً لفوست ولا معاشرا طويل العشرة لمفستوفيليس انقضى يومه وليله دون أن يجد ويكد ليغيظ إنسانا من الناس ويعبث بصديق من الأصدقاء ، وأحسبه إن أعياه الظفر بمن يغيظه أو يعبث به لايتردد فى أن يغيظ نفسه أو يعبث بها ، وله فى الحطيئة قدوة سيئة وأسوة قبيحة . ولا بد من أن يوجد فى الأرض من يدعو الناس إلى الشر ويدفعهم إلى البغى كما يوجد فى الأرض من يدعو الناس إلى الخير ويهديهم إلى البر والرشاد.

وقد هممت أيها الصديق العزيز المجهول أن أعرض عن هذه الرسالة التى لم أتلقها أو أن أؤجل الرد عليها كما أجلت أنت إرسالها ولكنى ـ ولا أكذبك ـ لم أكد أتم قراءتها حتى استرحت إليها ونعمت بها لأنها صادفت هوى فى نفسى ولاءمت بعض ما كان يضطرب فى رأسى من الخواطر والآراء . فلم أجد بدا من أن أرد عليك فى (الرسالة) لأنى لا أعرف عنوانك ، ولأنى قرأت كتابك فى الرسالة وتلقيته من طريقها ، ولأنى لا آمن هذا العفريت الذى نسميه عوضاً ونكل إليه تعليم الجغرافيا فى كليتين من كليات الجامعة أن ينالها بقليل أو كثير من التبديل والتغيير ، وأنت تعلم أن من العسير جدا أن أجيبك فى فصل واحد إلى تبويب هذه الكتب الأربعة التى ألفتها غير مبوبة ، فذلك يحتاج إلى وقت وفراغ لا أملكهما فى هذه الأيام أيضاً ؛ وذلك يحتاج بعد هذا إلى مكان من الرسالة قد لا تستطيع أن تخصصه لنا دون أن تظلم واحداً أو اثنين من كتابها الأدباء . ولست أذكر الرفق بالقارئ ولا الترفيه عليه ، فالقارئ آخر من أفكر فيه ؛ وليس يعنينى أن يغضب أو يرضى ، وليس يهمنى أن يقرأ أو يعرض عن القراءة ، فانى لا اكتب له وإنما اكتب لك . وأنا لا أكتب له لأن هذا الموضوع أعمق وأدق من أن يكتب للقراء ؛ إنما يكتب للقراء فى فلسفة أفلاطون وأرسطاليس ونيتشة وأمثالهم من أصحاب العقول الجبارة ؛ فأما فلسفة الجراد فانها ألطف وأخفى وأرق من أن تبلغها عقول المثقفين أو تنفذ اليها بصائر المستنيرين ؛ لهذا أفكر فيك أنت ولا أفكر فى القراء ؛ ولو فكرت فيهم لما كتبت شيئا ، لأنى لا أحب أن ألقاهم بما يكرهون . لا سبيل إذن إلى أن أتحدث اليك فى هذه الموضوعات الاربعة التى ألفت فيها كتبا غير مبوبة ، وإنما أتحدث اليك فى موضوع واحد منها أختاره ليكون نموذجا لغيره من الموضوعات التى ألفت فيها والتى يمكن أن تؤلف فيها ؛ فان أبيت إلا أن أبوب لك هذه الكتب الأربعة فقد نستطيع أن نصنع ذلك فى مجالس خاصة نلتقى فيها بين حين وحين لهذا العمل الجليل ، نلتقى فيها لنتحدث على مهل وفى حرية دون ان يشاركنا فى الحديث هؤلاء القراء الذين لا نأمنهم أن يذهبوا فينا المذاهب وأن يطلقوا فينا الألسنة وأن يظنوا بنا الظنون .

وقد اخترت تعليم الجراد أصول الفلسفة موضوعا لهذا الحديث . وأول ما ألاحظه أيها الصديق العزيز المجهول أنك أهملت عنوان الكتاب الذى ألفته إهمالا شديدا ، وأكبر الظن أن إهمالك للفنون هو الذى حال بينك وبين تبويب الكتاب على ما تحب .

ولست أدرى أصحيح ما قال القدماء من أن الكتاب يعرف

(البقية على صفحة ٨٢٩)

ظاهرة وتعليلها

للأستاذ أحمد أمين

أعرفه غزير العلم واسع المعرفة ، ولكنه يأبى أن يجالس أمثاله من العلماء ، ولا يلذه إلا أن يجالس لفيفاً من صغار الناس فى مهنتهم وعقليتهم ؛ وليس الشراب هو الذى يجمعهم ويؤلف بينهم كما هو الشأن فى كثير من الأحيان .

وأعرفها فتاة على جانب من الجمال ، ولكنها لا تؤمن بجمالها ، لأن أهلها أدخلوا فى روعها من صغرها أن الجمال فى البياض والحمرة والشعر الأصفر ، وهى سمراء شديدة السمرة وليس فى وجهها حمرة ولا فى شعرها صفرة ، فهى فى اعتقادها ليس لديها من الجمال شىء ، وأراها تصاحب فتاتين ليس فيهما من الجمال شىء ، وتأبى أن تصاحب جميلة ، وخاصة اذا كان جمالها فى لونها الأبيض المشرب بحمرة .

وأعرفه فناناً كبيراً ، ولكنه يأبى أن يجالس الفنانين الكبار أمثاله ويفضل أن يجلس الى مبتدئى الفن يعلمهم ويصلح من أخطائهم ، وهم من جانبهم يتملقونه ، ويفيضون عليه من ألقاب الثناء ما يملؤه غبطة وسروراً .

وأعرف عشرات من هذه الأمثلة أشاهدها كل يوم ، وأسمع بها كل حين وأقرأها فى وصف كثير من الرجال والنساء ، فما سرها ؟

سرها عندى أن من طبيعة الانسان أنه يكره « الضعة » ويكره كل ما يشعره بالضعة ، ويحب العظمة ويحب كل ما يشعره بالعظمة .

من أجل هذا تراه — فى العادة — يكره أن يجالس من هو خير منه فى علمه وفنه وأدبه ، لأن ذلك كله يشعره بصغر نفسه ؛ وهو أقل كراهية لمجالسة من هو مثله ، لأنه لا يحط من شأن نفسه ؛ وهو أشد حبا لمجالسة من دونه لأن ذلك يجعله أكثر شعوراً بعظمة نفسه

ويمكن تطبيق ذلك على كثير من الأحداث اليومية والمشاهدات المألوفة . ألست ترى أن « حلبة الكميت » أو جمعية الشراب تكره كل الكراهية أن يكون بينهم وقت شرابهم من لا يشرب ، ويستثقلونه مهما ظرف ، ويستسمجونه مهما لطف ، لأنه يذكرهم بالفضيلة حين ارتكابهم الرذيلة ، ويشعرهم بأنهم الوضعاء وهو الرفيع ، وأنه العين الناقدة وأنه الرقيب عليهم ، وأنه العاد لسقطاتهم ، وأنه المحتفظ بقوة إرادته عن ضعف إرادتهم ؟ كل هذا يشعرهم بالضعة فيكرهونه ، ويبدءون بالالحاح عليه أن يشرب لا حباً فيه ولكن حباً لأنفسهم ، وإبعاداً لشعورهم بضعتهم ، ولا يزالون يستحلفونه حتى إذا نجحوا أمنوا الشعور بالضعة ، وإذا فشلوا مقتوه ومقتوا جلوسه بينهم ، لأنه نغص عليهم بهجتهم - ومن أجل هذا أيضاً أحبوا أن يسمعوا أدب الخمر ، وأحبوا أن يسمعوا من يفلسف لهم الحياة وأنها ليست إلا متعة الساعة وشهوة الوقت . فان تجاوز المحدث ذلك إلى أنه لا يعبأ بحرام ولا حلال ، وأن يقول كما قال أبو نواس :

فان قالوا حرام قل حرام فان لذاذة العيش الحرام

فذلك عندهم أظرف وأفكه لأنه اجتث الشعور بالضعة من جذوره .

* * *

هذا هو سبب العداء دائما بين الفضيلة والرذيلة أو بين الفاضل والرذل ، وهذا هو السبب فى أن الرذل يكره الفاضل أكثر مما يكره الفاضل الرذل . لأن الرذل هو الذى يشعر بالضعة من رؤية الفاضل .

وهو السبب فى أن الفقير يكره الغنى أكثر من كره الغنى للفقير . لأن الفقير هو الذى يشعر بالضعة إذا قاس نفسه بالغنى

وكثيراً ما يكون سبباً فى فساد الحياة الزوجية ، أن تكون فى أحد الزوجين صفات راقية ليست فى الآخر ، فيشعر هذا الآخر بالضعة عند قياس نفسه بنفس قرينه فتسوء الحياة ويجهل السبب .

* * *

بل أرى أن فى هذا القانون تفسيراً لكثير من الرجال والنساء الذين يحبون العزلة وينفرون من الناس .

فتفسير هذا أنهم يشعرون بنقص فيهم من ناحية من النواحي الخلقية أو العلمية أو الاجتماعية

كأن يشعروا أنهم لا يحسنون حديث المجالس ، أو أن فى جسمهم عاهة من العاهات ، أو أنهم إذا جودلوا أفحموا ، أو إذا نيل منهم لم يستطيعوا أن يأخذوا بحقهم . فتراهم يفضلون العزلة ويتغنون بمدحها ، ويصبون جام غضبهم وسخطهم على الناس ويطنبون فى ذم الأخلاق وسوء المجتمعات - والسير وراء ذلك كله ، وهو نقص فى محب العزلة جعله يشعر بضعة نفسه فى المجتمعات ؛ وهو يكره الضعة ويكره كل ما يسببها ، وهو لا يحب أن يلوم نفسه وهى السبب ، لأن فى هذا ضعة أيضاً ، فيلوم الناس ويلوم المجتمعات ، ويكون مثله مثل من عجز من أن ينتقم من عدوه ، فانتقم من صديقه

* * *

أتدرى السبب فى أن الشباب لا يودون كثيرا أن يجالسوا آباءهم ولا إخوتهم ولا أقرباءهم ويفضلون - غالبا - أن يجالسوا الغرباء ؟

هو أيضا - هذا القانون ، فان آباءهم وإخوتهم وأقرباءهم يعلمون نشأتهم وكل شىء فيهم ، وكل شىء حولهم ، وفى ذلك عيوب عرفوها ، وزلات وقعت تحت أعين الآباء ومن إليهم ، فالشباب يشعر بهذا التاريخ كله إذا جلس إليهم ، وهذا يشعره بالضعة - فهو يفضل عليهم صداقة الغرباء ، لانهم يجهلون تاريخه ، ويجهلون زلاته فهو عندهم لا يشعر بنقص ، ولا يشعر بضعة ، فكان إليهم أميل ، وبهم آنس ؛ والمثل العربى يقول « برّق لمن لا يعرفك » ومعناه تبجح وهدد من لا يعرفك ، لأن من عرفك لا يعبأ بك

لقد كان لى أستاذ فى سن الخمسين وكان جلساؤه أقلهم فى سن الستين ، فسألته فى ذلك فقال : إنى اخترتهم لأنى أشعر وأنا معهم أنى شاب

* * *

بل هـذا هو السر فى أن الرذيلة فى كثير من الأحيان توثق الصداقة بين أصحابها ، فالمقامر أقرب إلى صداقة المقامر ، ومدمن الخمر إلى مدمنها ، والغزل إلى الغزل ، واللص إلى اللص ، وقل أن ترى ذلك فى الفضيلة ، فالصدق قل أن يؤلف بين اثنين لصدقهما ، ولا العدل إلى العدل ، ولا الصريح إلى الصريح

والسبب فى هـذا أن ذوى الرذيلة يشعرون بالضعة من رذيلتهم فيهربون إلى الأراذل مثلهم حتى يتجردوا من هـذا الشعور ؛ أما الشعور بالعدل أو الصدق فليس فيه هذا الألم فلا يحتاج صاحبه إلى البحث عن مهرب - وهو السبب فى احتياج أصحاب الرذيلة إلى مخبأ ، فحجرة المقامرة مستورة ، ومجلس الشراب فى مخبأ ، والغزلون يتسترون ، ومحال الحشيش والكوكايين فى حرز خفى . وليس السبب فى ذلك فقط أن رجال الأمن يطاردونهم . بل أكاد أوقن أن هذه الأمور لو أبيحت من رجال الأمن لتستروا أيضا لأنهم يريدون أن يهربوا بأنفسهم من الشعور بالضعة أمام من لم ينغمسوا فى الرذيلة انغماسهم

* * *

ألست ترى معى أن الرجل الملتزم للأخلاق المتشدد فيها أقل الناس أصدقاء وأشد الناس وحشة ، وكلما اشتد فى تزمته اشتد الناس فى كراهيته ، وأن الرجل كلما سما عقله بعد عن الناس وبعدوا عنه ، وأنهم قد يجلونه ولكن لا يحبونه ، لأن سموه إعلان لضعفهم ، وعلوه رمز لضعتهم ؟

ولعل كثيرا من صفحات التاريخ الملوثة باضطهاد العظماء ، وقتل النبغاء ، واغتيال الأبطال ، تستر وراءها هذا السر الكامن الخطير ، وهو أن الاضطهاد والقتل والاغتيال كان سببه الخفى شعور المدبرين بضعتهم أمام هؤلاء العظاء فتخلصوا من الشعور بالضعة بالقضاء على من كانوا سببه - فلما امحوا من الوجود كان لا بأس عند من قتلوهم أن يمجدوهم ، وأن تمجدهم القرون بعدهم ، لأن الحقيقة الواقعة أشد إشعارا بالضعة من الذكرى الماضية

* * *

وبعد فلا يستطيع الناس أن يتغلبوا على هذه الرذيلة وأن يجلس عالمهم إلى من هو أعلم منه ، وفنانهم إلى من هو أفن منه ، وفاضلهم إلى من هو أفضل منه ، يستفيد منه ويأخذ عنه فى غير حقد ولا ضغن إلا بكثير من مجاهدة النفس وهيهات ثم هيهات

أحمد أمين

لعب الطاولة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

ليس لي شغف بالألعاب ، فان حياتي كلها لعب ؛ فما حاجتي إلى لعبة معينة على الخصوص . ولكن لي إخواناً ألقاهم في حيث ألفوا أن يكونوا — أي في القهوات — وليس من العدل أن أكرههم على أن يلقوني في حيث أحب أنا وأوثر . ولأن ينتقل واحد الى جمع أيسر من أن ينتقل جمع إلى واحد . ولست أعرف عملا لرواد القهوات إلا أن ينظروا الى المارة وهم مقبلون ومدبرون فاذا اتفق أن كانت الصفوف الأمامية مزدحمة ولا محل لطالب الجلوس إلا في الداخل ، فماذا يمكن أن يكون عمله إلا قراءة الصحف — اذا كان وحده — أو تدخين « الشيشة » — أو كما تسمى أيضاً « الأرجيلة » و « النرجيلة » — ولعب الطاولة أو الشطرنج أو « الدومينو » فأما الشطرنج فيحتاج الى عقل يكده اللاعب ، وهو لم يجيء إلى القهوة ليتعب بل ليتسلى . وأما « الدومينو » فآفتها الحساب ، فلم يبق إلا الطاولة يفتحها الصديقان ويقبلان عليها ليخرجا بها من الصمت الثقيل ، وليختصرا الوقت الذي يريانه أطول من أن يحتمل وإن كانت شكواهما — ككثيرهما — أن العمر في هذه الدنيا قصير ، أو ليتقيا الحديث في أمر نافع أوجدي .

ولم أجد إلى الآن لاعباً للطاولة أستريح إلى منازلته ، وأفيد متعة من ملاعبته ، فهذا واحد لا يحلو له أن يروي لك قصة حياته إلا وهو يلعب ! وتكون قد حمست وكبر أملك في الفوز ، فتضطر أن تضطجع وتصغي ، أي أن تدع حماستك تفتر ودمك يبرد . وليته مع ذلك يقص حكايته ويفرغ منها فان البلاء أنه يقطع الحديث ويقول لك : « دوري يا سيدي . شيش بيش .. خذ » ويلقي إليك حجراً « مضروبا » أو يضعه لك في كفك تأكيداً لاغتباطه بسوء حظك . فتتمنى لو وسعك أن تقذف بالحجر . . فلا أنت سمعت القصة ، ولا أنت مضيت في اللعب بالروح التي كانت مستولية عليك . وليس هذا لعباً وإنما هو . . هو . . لا أدري ماذا أسميه ، أو كيف أصفه ، فقل أنت فيه ما تشاء !

وثان لا يلاعبك إلا برهان ، وهذا ضرب من القمار لا أطيقه ، وقد حاول كثيرون من إخواني أن يعلموني لعب الورق فأخفقوا — أو أخفقت أنا على الأصح — وماذا عندي مما يمكن أن أقامر به غير حياتي ؟ وأقول لصاحبي « هذا قمار فالعب بغير رهان » فيقول : « قمار ؟ استغفر الله . هذه تسلية . زيادة تصلح بها روح اللعب ، فيصبح أحمى وأمتع فأصر وأقول « كلا . اذا أردت اللعب فليكن بغير رهان » فلا ينهزم ويقول « قرش واحد ! » فأقول : « ولا مليم » فيهز رأسه آسفاً ويقبل

ونشرع في اللعب ويتفق أن يؤاتيه الحظ فيضيق عليّ الخناق ويعظم أمله في النصر فيميل على الطاولة ويقول « ما رأيك ؟ . هذا الدور لي أم لك ؟ » فأدير عيني في مواضع الحجارة فلا أرى داعياً لليأس فاقول « إني أرجو أن يكون الدور لي » فيقول « حسن .. تراهن ؟ » فأقول محتجاً « رجعنا ؟ » لا يا سيدي » فيقول « إذا كنت واثقاً من الفوز ، فماذا يمنعك أن تراهن ؟ » فأقول « لست واثقاً » . . ثم إن الأمر عندي مرجعه إلى كراهتي للقمار ، لا للخوف من الخسارة » فيتنهد آسفاً على الفرصة التي أضعتها عليه ببلادتي وجمودي

وثالث لا يترك الأمر للحظ كما هو الواجب في لعبة كهذه بل « يقرص كما يقولون - أي يسوي » « الزهر » واحداً فوق الآخر ثم يلقيهما برفق وتؤدة لتجيء الأعداد أو الأرقام التي يطلبها ، وهذا شيء لا يليق لأن مؤداه أن ملاعبك قد وثق من الفوز بالغة ما بلغت قدرتك ومهارتك وبراعتك في اللعب . ولا أدري أية متعة يستفيدها المرء من « القرص » إلا إذا كانت المتعة هي التنغيص عليك

وأعوذ بالله من لاعب لا يزال يحوجك إلى النهوض عن كرسيك لتبحث عن « الزهر » الذي قذف به لا تدري أين وتمضي دقائق في البحث والتحديق - وأنت منحن - تحت الكراسي وبين أرجل الناس الذين لا تعرفهم . وكثيراً ما يتفق أن يكون « الزهر » الضائع في طية البنطلون . وليس بالنادر

ألا تجده لا أنت ولا صاحبك فتصفق ليجيئك عامل القهوة « بزهر » جديد . وقد يكون العامل سمجاً أو قليل العقل فيروح يبحث أولا ، وتنقضى دقائق أخرى وأنت تتبعه بعينك . ثم يجىء « الزهر » الجديد فيتناوله صاحبك - لأن هذا دوره - ويقلبه فى كفيه ويقول « لا . هذا كبير . » أو لا . هذا صغير « فيضيق صدرك وتقول » يا أخى العب . كله زهر » وتستأنفان اللعب فتزهق روحك لأن صاحبك ممن يأبون إلا أن يقدروا كل احتمال ، ويحسبوا كل حساب ، ويحتاطوا لكل أمر ، كأنما صار مصير العالم رهناً بهذه اللعبة ، فينفد صبرك وتقول له « يا أخى العب » فيقول « حلمك يا سيدى . . بقى إن سحبنا هذا « القشاط » ؟ . من يدرى ؟ . ربما ضربنا وعطلنا . طيب . . وإذا خرجنا فماذا يكون ؟ . والله هـذا أحسن . . أقول لك . . ننتظر ولا نخرج . . نسد عليه هنا . . لا والله . . الخروج أحسن . . لكن يمكن يساعده الحظ فماذا يكون العمل ؟ . » وهكذا إلى غير نهاية

وشر من هذا الذى يعقب على كل لعبة منك بالاستحسان أو الاستهجان ولا ينفك يقول لك « كان أولى أن تصنع كيت وكيت » فتقول « ومالك أنت ؟ . أنا المسئول عن لعبى وأنا الذى يخسر لا أنت » فيقول « لا يا سيدى ، المسألة هى أن اللعب مع غير الحاذق لا لذة فيه »

وقد لا يكتفى بالتعليق والتعقيب بل يحاول أن يلعب لك لعبك ، ويردك عما تريد ، أو ما تهم به ، من تنقيل الحجارة على الوجه الذى يبدو لك ، وينقلها هو لك على هواه وأولى بمثل هذا أن يلاعب نفسه ، ولكن لذته هى أن يفرض عليك إرادته ، مدعياً أن هذا هو ما يقضى به الفن ، وأن الغيرة على الفن لا تسمح له بالتساهل ، ويتركك تخلط وتغلط وتخالف الأصول .

وآه لو وقعت مع واحد من المبتدئين لا يزال يعد - ويشير أيضاً - بأصبعه فى كل لعبة . . وآه وآه وآه - ثلاث آهات طويلة يمتد بها النفس إلى الليلة التالية - من المغالط الذى يدعى أن الرقم خمسة وأربعة ، على حين رأيته بعينيك ثلاثة وستة . ويزعم أنه جاء بالحجر من هنا وهو قد جاء به من آخر الدنيا ، وتراه « أكل » أربعة ، فتنظر إليه عاتباً فيبتسم ، ولا يتلعثم ، ويرفع بين أصبعيه حجراً ويقول لك « والله ما أكلت إلا واحداً فقط » فلا تستطيع أن تقول له إنه كاذب ويعييك أن تدرك الباعث على هذه السرقة فى لعبة يراد بها التسلية وتزجية الوقت ليس إلا .

وأحياناً يحلو لصاحبك أن يمازحك ... ولكن أى مزاح فيتلف لك أعصابك ويطير عقلك ... لأنه يزيغ بصرك بكثرة عبثه « الظريف » . ويا ويلك ممن يغضبه أن يرى نفسه مشفياً على الهزيمة فيعيث بيديه فى الحجارة ويفسد نظامها وترتيبها ، ويغلق الطاولة فى وجهك ، ثم يوليك ظهره أو جنبه ، ويضع رجلا على رجل - أعنى ساقا على ساق - وهو لا يبرطم بما لا يسرك أن تسمع ، وقد ينهض ويتركك بلا كلام أو سلام

ومن بلاء الطاولة أنها تجمع عليك الناس ، ويندر أن يكونوا ممن تعرف ، فتراهم قد التفوا بكما - والبعض جالس والبعض واقف سينظرون ولا يسكتون ليهون احتمالهم ، بل يستجيدون لعبك أو يستضعفونه ، بصوت مسموع ، وقد يراهنون عليكما كأنما أنتما جوادان فى ميدان السباق ... ...

فتسمع أحدهم يقول « أنا أحط على هذا (ويشير اليك فما يعرف اسمك) ريالا ... تجى يا ألفريد ؟ »

فتسمع الفريد يقول « يكفى نصف ريال ... »

فيلتفت الأول إلى غيره ويقول « تجى يا جاك ؟ »

فيمط جاك بوزه ويقول : « لا ما يستاهل »

فتعلم أنك لا تساوى مليما فى رأى جاك ، وأنك من الجياد التى لا تستحق المخاطرة عليها بمال ولو قل .

ومن المستحيل أن يستطيع أحد أن يصف لعب الطاولة ، وكيف كسب دوراً أو خسره ، ولكن بعضهم يتكلف ذلك ويحاوله ويقول لك كلاما لا يمكن أن تفهم منه شيئا ، أو تعرف له مدلولا . وأمثال هذا ليس من سوى الالحاح فى المقاطعة ، واللجاجة فى اسكاتهم بما أقول أنا . يبدأ الواحد منهم وصفه الذى لا يصف شيئا فأشعر — سلفا — ان رأسى تحطم فأقول « اسمع . . حدث أمس شىء غريب »

فيقول « وبعد ذلك ضربته وهربت وسددت عليه ... »

فأقاطعه وأقول « كنت راكبا الترام رقم ٧٠ (وليس ثم ترام بهذا الرقم ولكن هذا لا يهم لأن المراد هو أن اتكلم بأى كلام والسلام) فجاءت فتاة صغيرة لا شك انها من تلميذات المدارس فقد كانت تحمل حقيبة . . »

وأسكت لآخذ نفس ، فيغتنم الفرصة ويقول « ثم ياسيدى بدأت الأكل . . أكلت . . أكلت . . . » فأعود الى المقاطعة وأقول « وكان الترام مزدحما فوقفت لها لتجلس فى مكانى . . الأدب واجب ، أليس كذلك »

فيقول « وظللت آكل حتى . . »

فأسرع فأقول « فشكرتنى برقة - الحقيقة انها فتاة مؤدبة . هنا حدث شىء عجيب فقد وقف الترام فى محطة اختيارية من غير أن يطلب ذلك أحد من الركاب ولا من الواقفين على الرصيف »

ويشعر هو أن لا فائدة فى محاولة التغلب على فيضطجع وينظر الى شزرا ويخرج سيجارة ويشعلها ويروح يدخن غير ملتفت الى ، أو عابىء بى ، ولكنى لا أدعه يهملنى مخافة أن يستأنف الوصف الذى قطعته عليه ، فأقول « سامع ؟ . حدث شىء أغرب . سار الترام بسرعة ومررنا بمحطات كثيرة لم نقف عليها لا بل وقعنا فيها كلها وأخيراً وصلنا إلى الموسكى . . أعنى المغربلين . . بعد ربع ساعة من قيامنا . . أليس هذا جميلا ؟ . ما قولك ؟ . ألا تقول شيئا ؟

فيقول « شىء بديع جداً »

فاقول « أشكرك . . ليلتك سعيدة »

فيقول وهو معبس « سعيدة »

وأنهض منصرفا وقد نجوت من الوصف .

كلا . لن ألاعب أحداً الطاولة . واذا شاء إخوانى أن القاهم فليكن ذلك فى مكان لا طاولة فيه

ابراهيم عبد القادر المازنى

في التاريخ السياسي

مصر والامتيازات الأجنبية

كيف ألغيت الامتيازات فى مونترو

بعد أربعة قرون على قيامها

لباحث دبلوماسى كبير

انتهت المفاوضات التى تجرى بين الحكومة المصرية وبين الدول منذ الثانى عشر من شهر ابريل فى مونترو - فى مسألة إلغاء الامتيازات الأجنبية بعقد اتفاق جديد بين مصر والدول حققت فيه مصر أمنيتها الكبرى، وهى إلغاء الامتيازات الأجنبية .

والامتيازات الأجنبية التى وفقت مصر إلى إلغائها فى مونترو هى من تراث الدولة العثمانية الذاهبة ، وترجع إلى أوائل القرن السادس عشر ، حينما بدأ السلطان سليمان بعقد معاهدة مع فرانسو الأول ملك فرنسا ، منحت فيها للرعايا الفرنسيين الذين يقيمون فى أراضى الدولة حقوقاً ومزايا خاصة ؛ واستطاعت معظم الدول الأوربية بعد ذلك أن تحصل تباعا من سلاطين تركيا على منح مماثلة لرعاياها ؛ ولم يأت القرن الثامن عشر حتى كانت هذه الامتيازات التى اتخذ منحها فى البداية صورة التفضل والمنحة الاختيارية قد غدت بالنسبة للأجانب حقوقاً مكتسبة تغل سلطة الباب العالى نحو الأجانب فى كثير من الشؤون المالية والقضائية

ولما كانت مصر بحكم خضوعها للدولة العثمانية فى تلك العصور تخضع لنظام الامتيازات الأجنبية الذى يـ[illegible]ن فى جميع الأراضى التابعة للدولة ، فقد بقى هذا النظام سارياً فيها حتى بعد أن حصلت على استقلالها فى عصر محمد على ، ولم تستطع أن تتحرر منه بعد أن رسخت جذوره على كر العصور وغدا معقلا لرعايا الدول الممتازة يحتمون به ، ويتمتعون فى ظله بكثير من الحقوق وضروب الاعفاء القضائية والمالية

وكانت الدول تعمل تباعا على توسيع هذه الحقوق والامتيازات حتى غدت فى النهاية عبئاً ثقيلا على كاهل مصر

يحد من سيادتها فى كثير من النواحى ، ويعرقل حريتها وتقدمها ، ويحدث الخلل والاضطراب فى شئونها القضائية والمالية والادارية . وتفاقمت هذه الحالة فى عهد الخديو اسماعيل ففكر وزيره نوبار باشا فى مفاوضة الدول فى إنشاء نظام خاص ومحاكم خاصة للأجانب ، وانتهت هذه المفاوضات إلى إنشاء المحاكم المختلطة فى سنة ١٨٧٥ ، لتختص بالفصل فى قضايا الأجانب المختلفى الجنسية والأجانب والمصريين ، وجعل أغلبية قضاتها من الأجانب ، ووضعت لها لوائح وقوانين جديدة مستمدة من القانون الفرنسى ؛ والدول ذوات الامتيازات التى عقدت مع مصر هذا الاتفاق هى : بريطانيا العظمى ؛ الولايات المتحدة (أمريكا) ، فرنسا ، ألمانيا ، النمسا والمجر ، إيطاليا ، الروسيا ، السويد والنرويج ، اسبانيا ، البلجيك اليونان ، هولنده ، الدانماركة ، البرتغال .

وهذه خلاصة القواعد الأساسية لاختصاصات المحاكم المختلطة .

أولا - تختص بالفصل فى المنازعات المدنية والتجارية بين المصريين والأجانب ، سواء فى المسائل العقارية أو المنقولة

ثانياً - تختص بالفصل فى المنازعات المدنية والتجارية بين الأجانب المختلفى الجنسية ؛ وكذلك بين الأجانب المتحدى الجنسية فى المسائل العينية العقارية فقط .

ثالثاً - إذا وجد رهن عقارى لأجنبى على عين ثابتة تختص المحاكم المختلطة بالفصل فى صحة الرهن وكل ما يتعلق به ويترتب عليه .

رابعاً - تختص بالفصل فى التعويضات التى يطلبها الأجانب من الحكومة المصرية عن الضرر الناشىء عن أعمال الادارة إذا مست هذه التصرفات حقوقا مكتسبة أو مقررة .

خامساً - أما فى المواد الجنائية فلا تختص المحاكم المختلطة إلا بالفصل فى بعض الجنح والمخالفات البسيطة ، وبالأخص الجرائم التى تقع على قضاة المحاكم المختلطة وموظفيها

وإلى جانب المحاكم المختلطة بقيت المحاكم القنصلية مختصة بالفصل فى المواد الجنائية المتعلقة بالاجانب ، وفى المنازعات المدنية والتجارية المنقولة بين الأجانب المتحدى الجنسية وفى قضايا الأحوال الشخصية . كل قنصلية بالنسبة للرعايا التابعين لها .

وهذا كله إلى جانب ضروب الاعفاء والحصانة التشريعية والمالية والبوليسية التى يتمتع بها الأجانب ، فليس فى وسع الحكومة المصرية أن تصدر تشريعاً يسرى عليهم إلا بموافقة دولهم ، وفيما بعد بموافقة الجمعية العمومية لمحكمة الاستئناف المختلطة ؛ وليس لها أن تفرض عليهم أية ضريبة إلا بموافقة دولهم ، وليس للبوليس أن يهاجم منازلهم أو محالهم فى المسائل الجنائية أو يفتشها إلا فى حالة التلبس أو بموافقة القنصل ، وليس له أن يقرر إبعاد أجنبى غير مرغوب فيه إلا بموافقة القنصلية التابع لها .

وقد كان الأمل معقوداً بأن يكون إنشاء المحاكم المختلطة خطوة موفقة فى سبيل الاصلاح ، وفى سبيل تخفيف الأغلال التى تحد من السيادة المصرية ، ولكن ظهر بمضى الزمن أن المحاكم المختلطة جاءت بالعكس عبئا باهظاً على السيادة المصرية وأنها ذهبت فى أحكامها ، وفى تفسيراتها القضائية وفى مزاعم اختصاصها إلى حدود غير معقولة حتى غدت أشبه بدولة داخل الدولة ، وغدت حصناً للنفوذ الأجنبى ، وسياجا منيعا لحماية المصالح الأجنبية ؛ وابتدعت المحاكم المختلطة نظرية الصالح المختلط ، فادعت الاختصاص فى كل قضية وكل نزاع فيه صالح أو شبه صالح لأجنبى ، وتوسعت فى تفسير كلمة أجنبى بحيث شملت كل الأجانب التابعين للدول الممتازة وغير الممتازة والرعايا المحميين وغيرهم ، وأضحت رقيبا على السلطة التشريعية فيما تصدره من قوانين يراد سريانها على الأجانب مهما كان نوعها وغرضها .

وشعرت الحكومة المصرية وشعرت مصر كلها بفداحة هذه الأغلال المرهقة التى تقيد سيادتها وسلطانها من جراء هذا النظام الشاذ الذى فرضته عليها الامتيازات الأجنبية ، والذى غدا بما يسبغه على الأجانب من الحقوق والمنح الاستثنائية ، وصمة فى جبين الأمة تؤذى شعورها وكرامتها ؛ هذا فضلا عن كونه قد غدا بما يسبغه على سفلة الأجانب وأفاقيهم من ضروب الحماية غير المشروعة ، وما يمكن لهم من ضروب العيث والفساد والاجرام الدنيئة - خطرا على الأمن والنظام والصحة والأخلاق العامة . لذلك لم تنس البلاد ، منذ اضطرمت حركتها الوطنية الكبرى أن تعتبر قيام

الامتيازات الأجنبية كارثة قومية لا تزول إلا بزوال هذه الامتيازات .

— ٢ —

ولما وفقت مصر بعد طول الكفاح إلى التفاهم مع بريطانيا العظمى واستطاعت أن تفوز منها بوثيقة استقلالها بعقد المعاهدة المصرية الانجليزية في أغسطس الماضي ، كانت مسألة الامتيازات الأجنبية ضمن المسائل الجوهرية التي تناولتها . ووضعت قواعد خاصة لحلها .

فقد نص في المعاهدة المصرية الانكليزية في المادة الثانية عشرة على ما يأتي :

« يعترف صاحب الجلالة الملك والامبراطور بأن المسئولية عن أرواح الأجانب وأموالهم في مصر هي من خصائص الحكومة المصرية دون سواها ، وهي التي تتولى تنفيذ واجباتها في هذا الصدد » .

ونصت المادة الثالثة عشرة على ما يأتي :

« يعترف صاحب الجلالة الملك والامبراطور بأن نظام الامتيازات القائم بمصر الآن لم يعد يلائم روح العصر ولا حالة مصر الحاضرة .

ويرغب صاحب الجلالة ملك مصر في إلغاء هذا النظام دون إبطاء .

وقد اتفق الطرفان المتعاقدان على الترتيبات الواردة بهذا الشأن في ملحق بهذه المعاهدة » .

وخلاصة الملحق المشار اليه ، هو أن مصر ترمي إلى اتخاذ التدابير التي تمكنها من الغاء نظام الامتيازات وما يترتب عليه من القيود التشريعية والمالية بالنسبة للأجانب في أقرب وقت وإقامة نظام انتقال لمدة معقولة لا تطول بلا مبرر تبقى فيها المحاكم المختلطة وتباشر الاختصاص المخول الآن للمحاكم القنصلية في المواد الجنائية والمدنية فضلا عن اختصاصها الحالي ثم تلغى نهائياً بانتهاء فترة الانتقال ، ولتحقيق هذه الغاية تتصل الحكومة المصرية بالدول ذوات الامتيازات للاتفاق على ما تقدم . أما فيما يتعلق ببريطانيا العظمى ، فانها بصفتها من الدول العظمى ، وبصفتها حليفة لمصر لا تعارض مطلقاً في التدابير المشار اليها . وتعد فوق ذلك بأن تعاون مصر على تحقيق غايتها وذلك باستعمال نفوذها لدى الدول الممتازة ، فاذا تعذر وصول مصر إلى غايتها بطريق التفاهم مع الدول ، فانها تحتفظ بحقوقها كاملة إزاء نظام الامتيازات والمحاكم المختلطة ، أو بعبارة أخرى تصبح حرة في إلغائها من تلقاء نفسها .

وينص الملحق المذكور فوق ذلك على بعض المبادىء العامة التي اتفق على اتخاذها أساساً لوضع الاتفاق المذكور ، ومنها أن أي تشريع مصري يطبق على الأجانب يجب ألا يتنافى مع مبادىء التشريع الحديث ويجب ألا يتضمن تمييزاً مجحفاً بالأجانب ، وأن تبقى مسائل الأحوال الشخصية الخاصة برعايا الدول الممتازة من اختصاص المحاكم القنصلية لمن ترغب ذلك من الدول ، وأن يعاد النظر في القوانين الحالية وأن يصدر قانون جديد لتحقيق الجنايات .

وقد بادرت الحكومة المصرية منذ أبرمت المعاهدة المصرية الانكليزية في ديسمبر الماضي ، إلى اتخاذ الخطوات السريعة لتنفيذ هذا البرنامج . ففي السادس عشر من يناير سنة ١٩٣٧ وجهت الحكومة المصرية إلى الدول ذوات الامتيازات مذكرة أولى تدعوها فيها إلى المثول في المؤتمر الذي اعتزمت عقده للبحث في مسألة إلغاء الامتيازات الأجنبية في مدينة مونترو بسويسرا في ١٢ ابريل . وفي الثالث من فبراير وجهت اليها مذكرة أخرى تفصل فيها المبادىء التي ترى مصر من جانبها أن تتخذها أساساً للاتفاق المنشود ، وخلاصتها أن يحال اختصاص المحاكم القنصلية سواء الجنائية أو في منازعات الأجانب المتحدي الجنسية الى المحاكم المختلطة ، وأن لا يشمل اختصاص هذه المحاكم سوى الأجانب الذين هم فعلا رعايا الدول ذوات الامتيازات ، وأن يلغى التوسع الصوري الواقع في تفسير كلمة أجنبي وفي مسألة الصالح المختلط ، وأن يكون للمحاكم الأهلية أن تنظر في قضايا الأجانب الذين يرغبون في اختصاصها ، وأن تمتنع المحاكم المختلطة عن النظر في القضايا الخاصة بسيادة الحكومة وألا تفسر أو تفصل في صحة أي قانون أو أمر إداري ، وألا يكون هناك تمييز بين القضاة الوطنيين والأجانب في مسألة تنظيم الدوائر ورياستها ، وأن تحرر الاحكام باللغة العربية مع إحدى اللغات الأجنبية المقررة . . . الخ

وقد قبلت الدول الممتازة دعوة الحكومة وأبلغتها في

الوقت المناسب أسماء مندوبيها فى المؤتمر ؛ وهذه الدول هى بريطانيا العظمى ، وفرنسا ، والولايات المتحدة (أمريكا) وإيطاليا ، والسويد، والنرويج، وأسبانيا، والبلجيك، واليونان ، وهولنده ، والدانمارك ، والبرتغال . أما ألمانيا فقد فقدت امتيازاتها بمقتضى معاهدة فرساى فى سنة ١٩١٩ ، وتعاقدت فيما بعد بمعاهدة صداقة مع مصر منحت فيها بعض الامتيازات المؤقتة لحين إلغاء الامتيازات ، وكذلك فقدت امبراطورية النمسا والمجر (وهى الآن مكونة من النمسا ، والمجر ، وتشيكوسلوفاكيا) امتيازاتها بمقتضى معاهدة سان جرمان (معاهدة الصلح أيضا) ، ولكن النمسا عقدت مع مصر معاهدة صداقة منحت فيها امتيازات مماثلة لامتيازات ألمانيا ؛ وكذلك فقدت روسيا السوفيتية امتيازاتها نهائيا ، ولم تعترف الحكومة المصرية بها إلى اليوم

وعقد مؤتمر مونترو فى موعده المحدد أى فى الثانى عشر من إبريل سنة ١٩٣٧ ؛ وكان وفد مصر مؤلفا من مصطفى النحاس باشا رئيس الوزارة ، والدكتور احمد ماهر رئيس مجلس النواب ، وواصف غالى باشا وزير الخارجية ، وعبد الحميد بدوى باشا رئيس أقلام قضايا الحكومة ؛ واستمر المؤتمر منعقدا حتى اليوم الثامن من مايو حيث تم توقيع الاتفاق الذى انتهت إليه مصر والدول ؛ وكانت فرنسا أشد الدول صلابة وتمسكا ؛ وقد دافعت مصر عن وجهة نظرها ما استطاعت ، وتمسكت بالأخص بالنقط الأساسية التى تتعلق بالسيادة المصرية ؛ بيد أنها اضطرت إلى التساهل فى بعض التفاصيل والضمانات الخاصة بفترة الانتقال ؛ وجاز المؤتمر كثيرا من الأزمات الدقيقة التى أثارتها فرنسا بتشددها وفداحة مطالبها .

وهذه خلاصة للمبادىء الهامة التى تم الاتفاق عليها :

أولا — وافقت الدول على إلغاء الامتيازات الأجنبية وكل ما يترتب عليها من الحقوق والمزايا الخاصة إلغاء تاما شاملا

ثانيا — ألغيت جميع القيود التى كانت قائمة فى سبيل التشريع المصرى بما ذلك التشريع المالى على الأجانب ، وأصبح من حق مصر أن تطبق على الأجانب جميع القوانين التى تطبقها على الوطنيين ، وألغى حق الاشراف الذى كانت تزاوله المحاكم المختلطة فى تطبيق هذه القوانين وفى الحكم بصحتها

ثالثا — رضيت مصر بتنظيم فترة للانتقال حددت مدتها باثنى عشرة عاما ، يحتفظ خلالها بالمحاكم المختلطة ، ويضاف إلى اختصاصها اختصاص المحاكم القنصلية فى المواد الجنائية والمدنية ؛ وكذلك فى مواد الأحوال الشخصية بالنسبة للدول التى ترغب فى نقل الأحوال الشخصية إليها

رابعا — يقتصر اختصاص المحاكم المختلطة أثناء هذه المدة على رعايا الدول ذوات الامتيازات ، وكذلك رعايا الدول الآتية : ألمانيا ، النمسا ، تشيكوسلوفاكيا ، المجر ، يوجوسلافيا ، سويسرا ، بولونيا ، رومانيا ؛ ويتناول اختصاصها الرعايا المحميين أيضا فى المواد الجنائية . أما فى المواد المدنية فلهؤلاء الرعايا أن يختاروا بين المحاكم الأهلية والمختلطة . وفى الأحوال الشخصية بالنسبة للرعايا الذين ينتمون إلى طوائف دينية معينة يبقى الاختصاص الطائفى . ولا امتيازات لرعايا سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن

خامسا — يحظر على جميع المصريين أن يلجأوا إلى حماية أية دولة أجنبية

سادسا — فى نهاية فترة الانتقال تلغى المحاكم المختلطة وذلك فى ١٢ اكتوبر سنة ١٩٤٩ ، كما تلغى المحاكم القنصلية ويخضع جميع الأجانب المقيمين بالقطر للصرى للقضاء المصرى فى جميع الأحوال المدنية والجنائية والشخصية

هذه هى المبادىء الجوهرية التى انتهى إليها اتفاق مونترو بين مصر والدول لحل مشكلة الامتيازات الاجنبية

ويعتبر اتفاق مونترو بالنسبة لمصر حادثا عظيما فى تاريخها لا يقل فى أهميته عن المعاهدة المصرية الانكليزية ذاتها ؛ وقد تحطم صرح الامتيازات الأجنبية بعد أن لبث زهاء أربعة قرون كابوسا مرهقا ، يحد من سلطان مصر وسيادتها حدا أليما ، ويجعل الأجانب سادة فى أرضها ، يتمتعون بحقوق ومنح لا يتمتع بها أبناء البلاد أنفسهم . نعم أن مصر اضطرت نزولا على مقتضيات الظروف الدولية أن تقبل فترة انتقال يبقى فيها هذا النظام اثنى عشرة عاما أخرى تستعد المصالح الأجنبية فيها لاستقبال العهد الجديد ؛ ولكن نظام الانتقال يعتبر بصورته التى بسطناها نظاما مخففا معقولا بالنسبة للامتيازات القديمة ، ولا يحدمن السياسة المصرية حدا خطيرا ، هذا فضلا عن أن اثنى عشرة عاما ليست شيئا مذكورا فى حياة الأمم

(...)

من الأدب التحليلي

أنـــا ...

للاستاذ علي الطنطاوي

— ١ —

... ... قال لى أهلى : لقد جئت إلى هذه الدنيا عارياً بلا أسنان ، لا تحسن النطق ، ولا تعرف شيئاً ... فضحكت ولم أصدق . فأعادوا ذلك على ، وألقوه كأنه قضية مسلمة وأمر واضح لا يحتمل الشك ، وعجبوا منى حين أكذبه وأرده ... ولكنى بقيت على رأيى الأول ، لم أستطع مطلقاً أن أصدق ما يقولون ، لأنى أعرف بنفسى منهم ، ولأنى أذكر ماضى كله : أذكر اننى فتحت عينى ذات يوم فجأة ونظرت ... فوجدت نفسى ، ورأيت أن لى أسناناً وعلى ثياباً ، وبى قدرة على المشى والنطق ، ورأيتنى شخصاً مستقلا عن أبى وأمى وسائر أهلى ، أحب أشياء لا يحبها أحد منهم ، وأكره أشياء لا يكرهونها ، ولا يميزنى منهم إلا أنى كالطبعة المختصرة من الكتاب ، فيها كل الأبواب والفصول بيد أنها موجزة و ... بالقطع الصغير ، ...

أفيعقل أن أكون موجوداً قبل ذلك اليوم ، وأنا لا أعرف نفسى ؟

مستحيل !

واستقر فى ذهنى من يومئذ ، أنى ولدت وأنا فى الرابعة من عمرى ! !

— ٢ —

وصرت أرى هذا الطفل دائماً ، أبصر صورته فى المرآة وأسمع صوته باذنى ، وأصغى إلى حديث أمى عنه بشغف وسرور ، فكنت أشعر بميل غريب اليه ، حتى أنى لأعترف الآن بأنه كان أحب إلى من أمى ، التى لم أكن أعدل بها أحداً ولا أقبل كنوز الأرض بدلا من امتصاص ثديها والنوم على صدرها ...

ذلك الطفل الباسم ، ذو العينين السوداوين ، والشعر ... يا للأسف ! انى لا أستطيع أن أتخيل شعره ، لقد محيت صورته من ذاكرتى ، لقد اختفى من الدنيا منذ ربع قرن ، لقد ذهب الى حيث لا أدرى ؟ فهل كنت أنا ذلك الطفل ؟ هل تجىء يده الصغيرة الغضة فى يدى الخشنة التى أخط بها هذا المقال ؟ فأين ذهب إذن ؟ ومن أين جئت أنا ؟ ... اننى لست ذلك الطفل ولست غيره ... فكيف يعقل هذا ؟

هذا يحيرنى دائماً ، ولا أعرف له حلا ، بل ان مجرد التفكير فيه يدفعنى الى الجنون ...

— ٣ —

ونظرت يوما من الأيام - فاذا فى مكان ذلك الطفل اللاهى اللاعب - العابث بكل شىء ، الذى يحطم كل ما يصل اليه ، ويقبض على الجمرة المشتعلة بيده كما يقبض على البرتقالة الحمراء ، ويعبث بلحية القاضى إذا هو بلغها ، كما يعبث بشعر المرة ... إذ أنى مكانه تلميذ يقرأ مكرهاً ، ويكتب مضطراً ويحمل هم المدرسة التى يذهب اليها كل يوم كالذى يساق إلى الموت ، لا يعرف لوجوده فيها معنى ، ولا يدرى فيم يدع عطف أمه ، والأنس باخوته ، ولم يترك بيته وما فيه من الدفء فى الشتاء ، والظل فى الصيف ، ليذهب إلى هذه الدار التى يحشد فيها الأطفال الأبرياء المساكين ، لتحشى أدمغتهم بمسائل لا يدركون معناها ، وشروح لا يعرفون مغزاها ، وتنال من أبشارهم وظهورهم عصا المعلم الغليظة ، وتقذى عيونهم برؤية طلعته البغيضة ، لا المعلم يبسم لهم ، ويدعوهم إلى حبه ، ولا أهلوهم يستمعون شكواهم وينصفونهم ... لقد كان فى هـذه المدرسة كالمحكوم عليه بالسجن ظلماً ...

يا لهذا التلميذ البائس الذى لم يكد يفتح عينيه على الدنيا حتى أبصر الشقاء والآلام . لقد مات كمداً ، ومضى مسرعاً فى طريق الفناء ... مسكين ... إنه لم يكن إلا أنا ، أنا الذى ولدت ومت مائة مرة ، حتى صرت الآن ... (أنا)

— ٤ —

وكان يوم آخر ، فاذا (الفلم) ينكشف هذه المرة عن منظر جديد : اختفى التلميذ الجميل ، ذو السراويل القصيرة ، والقميص الأحمر ، والحقيبة الزرقاء الصغيرة ، وذهب بجسمه ونفسه وميوله وأفكاره ، وظهر الشاب الحليق الوجه ، ذو (الربطة) الطويلة ، والحقيبة السوداء الواسعة ... ظهر في الثانوية طالباً متحمساً ، كأنما ركبت أعصابه من الدناميت . وصنع فيه على مثال فوهات الرشاشات ، فلا يكاد يقع في المدرسة حادث ، أو تقوم في البلد ضجة ، إلا انفجر الديناميت وانطلق الرشاش ، وقام في الطلاب خطيبا ثائراً مثيراً ، فخطموا الباب وخرجوا ... كان ينتقم بهياجه وثورته لذلك التلميذ الهادئ الحيي المظلوم ... ولكن الامتحان لم يلبث أن كشر له عن أنيابه وجاء ينتقم منه ...

هذه هي البكالوريا . فتهيأ لها ، إن مستقبلك معلق عليها ... ولم يكن قد فكر في المستقبل . أو حسب له حساباً فلما سمع به وقف وتردد وكبح من جماح نفسه ... يجب أن يضمن المستقبل . ليصل إلى آماله . آماله الكبار التي كانت تملأ نفسه ولا يشك في بلوغها ... وكان قد بدأ ينشر في جرائد البلد فهو يجب أن يكون كاتباً كبيراً منتجاً يخدم بقلمه وطنه . ويدافع به عن الحق والفضيلة . ويقاتل به خصومها وأعداءها ويساهم في تحرير وطنه . ويكون له في (الاصلاح الشعبي) أثر يذكر . فليسع إذن لنيل الشهادة ، فانها تبلغه كل أمل . وتوصله إلى أبعد غاية . إن الدنيا كلها ترتقب نجاحه في (البكالوريا) . فاذا نجح فتحت له الأرض كنوزها . وحمله الناس على أعناقهم إلى سدة المجد . وقاموا بين يديه قيام الخدم بين أيدي الملوك ...

تلك كانت أحلام الصبا ... فيا رحمة الله على عهد الصبا !

— ٥ —

حرم الشاب على نفسه كل متعة من متع الدنيا ، فلا نزهة ولا راحة ، ولا حظ له في النوم العميق ، ولا الطعام الهنيء ولا شغل إلا شغل المدرسة ، حبس نفسه بين كتبه ودفاتره يقرأ آناء الليل وأطراف النهار ، ينتقل من هذيان الأدباء إلى طلسمات الرياضيين والعلماء ، وحساب الجيب والمماس ، إلى شعوذات الطبيعيين وأصحاب الكيمياء ، ودرس الملح والحامض والضياء والكهرباء ، إلى خرافات الفلكيين وجغرافية السماء ، يدس هذا الهراء كله في دماغه ليصبه يوم الامتحان في ورقة الفحص ، ثم يلقيه في مكانه ، ويخرج من المدرسة فارغ الرأس كما دخلها أول مرة ...

كان يخشى أن يثأر منه المدرسون الذين جرعهم الصاب وسقاهم الحنظل باعتراضاته ومناقشاته وثوراته فيسقطوه في الامتحان ، فجد كل الجد . ولم يدع في كتب المدرسة حاشية إلا حشاها في رأسه ، ولا تعليقة إلا علقها في ذاكرته ، ثم دخل الامتحان بعقل من سطوح وأجسام ، وخطوط وأرقام ، وخرافات وأوهام ، فنجح أعظم نجاح ...

وهل ينجح في الامتحان إلا من حفظ ولم يفهم ؟ وهل تدل هذه الامتحانات إلا على قوة الذاكرة ، وشدة الحفظ وإتقان المنهج المقرر ؟

٭٭٭

نجح ، فوثب فرحا ، وتهيأ لخوض معركة الحياة ، فقالوا له : مهلا ! قال : ماذا ؟ قالوا : لابد من شهادة عالية ، إن المستقبل لا يضمن إلا بشهادة عالية !

قال : ويحكم ! وهل يبنى المستقبل على (الورق) ؟

وانطلق يلعن هذا المستقبل . الذى حرمه عبث الطفولة ومتعة الشباب ، ونغص عليه حياته ، ولم يتركه يستريح إلى حاضره يوما واحداً ، كان أبداً يدفعه إلى الأمام ، فيعدو كالفرس المحموم ، فيتعب من العدو ، ولا يصل إلى منزل !

— ٦ —

راح الشاب يدرس الحقوق لينال الشهادة ، ويضمن المستقبل ، ويشتغل بالأدب ، ليستجيب للرغبة ، ويحظى بالمتعة ويعمل في الجريدة ، ليضمن العيش ، ويعول الأسرة ... واستمر على ذلك حتى نال (الليسانس) فربح بقربه من الأدب البعد عن الناس ، والجهل بالحياة ، وكسب بميله الأدبي وطبعه المستوحش ، وجهله بالحياة ، خصومة الناس ، ومضادة الكبراء وعداوة المال ...

— ٧ —

نزل الشاب الى ميدان الحياة ، برأس مترع بالعلوم . والمبادىء السامية ، ويد مثقلة بالشهادة الابتدائية والثانوية والعالية ، وجيب خاو خال .

فلم تكن إلا جولة واحدة ، حتى ولى منهزما !

* * *

ذلك لأن سلاحه ، من (طراز قديم) لم يعد يصلح اليوم فى معركة الحياة !

ولقد خدعته المدرسة ، وكذبت عليه ، وصورت له الحياة على غير حقيقتها :

قالت له المدرسة : العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، فرأى أن المال فى الحياة خير من العلم ، العلم لا ينال إلا بالمال ، فلو أن شابا كان أذكى الناس ، وأنبه الناس ، وكان مفلساً لا يملك أجور المدرسة ، وأثمان الكتب والثياب ، لما قبل فى جامعة ولا حصل علما — والعلم لا يثمر إلا بالمال ، فلو أن أعلم أهل الأرض ، كان مفلسا ، يفكر فى خبزه من أين يأتى به ، وبيته كيف يستأجره ، لما بقى له عقل يفكر ، وذكاء ينتج ، ورأى أن أصحاب الأموال الجاهلين ، تبيحهم الحياة أجمل ما تملك من متع ولذائذ ومجد وجاه ، والعلماء الفقراء محرومون من كل شىء .

نعم إن المدرسة كانت تكذب عليه !

وقالت له المدرسة : « الأخلاق أساس النجاح » وضرب له المعلم مثلا سيئاً طلابا لا أخلاق لهم ولا عفاف . وضرب له مثلا عالياً طلاباً كانوا نموذج الطهر والاستقامة والشرف ، فرأى أن الأولين قد بلغوا أعلى المراتب وأسمى المناصب والآخرين تحت تحت ... على العتبة ...

فعلم أن المدرسة كانت تكذب عليه !

وقالت له المدرسة : إن الحق فوق القوة . القوة للحق وليس الحق للقوة ، فآمن بذلك وصدقه . وتسلح بسلاح الحق ، فما راعه إلا اللص يضع مسدسه فى صدغه يطلب ماله وثيابه ، فألقى عليه محاضرة فى الحق ، جمع فيها كل ما تعلمه من أساتيذه ، وأضاف اليه ما انشق عنه ذهنه فرد عليها اللص بقهقهة مروعة ... وذهب بأمواله وثيابه ورجع هو عارياً . لم يبق له إلا فكرة سخيفة لا تسمن ولا تغنى من جوع ولا تنجى من برد ...

ورفع شكواه إلى القاضى ، فلم ير عند القاضى حقا يقهر القوة ، ولكن وجد عنده قوة تصنع الحق ، وجدقوة الجنود ، فأين يبقى الحق اذا ثار اللصوص على الجند أو فتكوا بهم ؟

هذه هى سنة الحياة ، وليس على الحياة ذنب ، فهى سافرة لم تستتر ولم تخدع أحدا عن نفسها ، ولكن الذنب على الأدباء والمدرسين الذين وضعوا عيونهم فى أوراقهم ، وحبسوا أنفسهم فى مكاتبهم ، وأرادوا أن يدرسوا الحياة فلم يفهموا منها شيئاً ...

— ٨ —

وجلس الشاب (الليسانسيه فى الحقوق) يدون آراءه تلك فى كتاب ، فلما انتهى منه حمله إلى الناشر ، وكله زهو وإعجاب بنفسه ... فقلبه الناشر العامى وصفحه ، فلما رأى اسم صاحبنا عليه لوى شفتيه ، وقوس حاجبيه ، وقال له :

ـ إن الناس لا يقرءون الآن ما تكتب ، ومتى صرت (فى المستقبل) كاتباً مشهوراً ننشر لك آثارك

فخرج متعثراً بأذيال الخيبة ... يلعن المستقبل لعناً

* * *

ما هو هذا المستقبل ؟ وهل اقتربت منه شبراً واحداً وأنا أركض وراءه منذ سبعة وعشرين عاما ؟ فتى أصل اليه؟ وأين هو ؟ أهو فى العام الآتى ، أهو فيما بعد خمس سنين ؟ وهل يبقى مستقبلا إذا أنا بلغته أم يصبح حاضرا ، ويكون على أن أبلغ مستقبلا آخر ؟ .. أيكون مستقبلى القبر ؟ لقد طوفت فى الآفاق ، وشرقت وغربت ، وأنجدت وأعرقت ... فما رجعت إلا بالخيبة والتعب والافلاس . فأين أجد الهدوء والراحة من هموم العيش ، حتى أنصرف إلى ما خلقت له من الدرس والمطالعة والكتابة والتأليف ؟

* * *

وذهب الشاب (الليسانسيه فى الحقوق) يفتش عن الخبز فلم يجده عند ناشر الكتاب ، ولا فى إدارة الجريدة ، ولا فى

مكتب المحامى ولم يجده إلا فى مدرسة القرية . فصار (معلم صبيان) فيها ، يقرئهم الف باء ، ثم ارتقت به الحال قليلا ، فصار يدرس سير الأدباء ، واشعار الشعراء ... يكد ويتعب، فى الليل والنهار يحمل آلام الغربة ، وعناء العمل ، ثم لا ينتج أثراً أدبياً ، ولا يفيد علماً ، ولا يحفظ فى جيبه درهماً واحداً ...

إنه يشتغل من أجل المستقبل ... ...

— ٩ —

أين ذلك الطفل الذى كان يكره المدرسة ، ويبغض المعلم القاسى - من هذا المعلم الفظ ، الذى يرهق الأطفال ويهز عصاه فى وجوههم ، ويقرع بها جنوبهم . . . من يستطيع ان يتصور ان هذا هو ذلك ؟ وأى شبه بينهما ؟ انهما مختلفان فى الجسم والشكل والطبائع والميول ، فلن يكونا شخصاً واحداً !

أين ذلك الطالب المتحمس الذى كان يقود الطلاب الى المظاهرات ، ويخطب فى المساجد والجامع والاسواق ؟ من هذا المدرس الخامل الذى يلقى دروس الأدب على هؤلاء الطلاب، ويبدو فيهم كشيخ هِم فى الثمانين ؟ هل هما شخص واحد ؟

ان ذلك الطالب لو رأى هذا المدرس لأبغضه وكرهه ولما تردد فى البطش به !

وأين ذلك الشاب الذى تفيض نفسه بالآمال الكبار ؟ من هذا اليائس القانط الذى لم يعد يامل فى شىء ، لأنه جرب فلم يصل الى شىء ؟

— ١٠ —

وبعد . فلم أفكر فى هذا ؟ إننى لا أدرى من أنا . ولا أعرف كيف وجدت ، ولا أعلم ماهى صلتى بذلك الطفل الذى نسيت حتى صورة وجهه ، وذلك التلميذ الذى لم أعد أعرفه إلا بالتخيل ، وذلك الطالب الذى أحبه وأتشوق اليه ، وذلك المعلم الذى أرثى له وأشفق عليه ؟

هل أنا كل هؤلاء ؟ وماذا بعد ؟

يالله ! إنى أحس كأنى جُننت حقاً ؟ !

(بغداد) **على الطنطاوى**

تحيـــة للرافعى

للأستاذ منصور فهمى بك

مات مصطفى صادق الرافعى ، وما لقيته إلا مرات قليلة قد لا تتجاوز أصابع اليد عدا ، ولم ترتبط بينى وبينه عقدة الصداقة الخاصة التى طالما يكون من شأنها أن تؤلف بين قلوب الناس على الأنس والمودة فى الحياة ، وطالما يكون من شأنها فى الممات أن تؤوى الأسى فى القلوب .

على أنه إذا كان قد قل لقائى بالرافعى فى الحياة ، ولم تربطنى به علاقة وثيقة من حقها أن تدفع القلم فى سبيل الرثاء فان فى حق الوفاء لما قدم الرافعى من خير متسعاً يفسح لقلمى ولغيره من الأقلام الوفية أن تذكر ذلك الراحل العظيم .

وعظمة الرافعى التى أنوه بها الآن على عجل إنما مرجعها اتصاله الوثيق بتراثنا الأدبى القديم دون غيره فنهل من شرابه العذب ، وتغذى من خلاصاته القوية الصالحة ، فاذا بها تتمثل فى أسلوبه ، وتتغلغل فى أدبه وتهذيبه ، وتتمازج فى تفكيره وتعبيره ، وتندمج فى تقديره وتدبيره ، فاستطاع أن يشق للأدب القديم التليد ، سبيله فى الأدب الحديث العتيد .

فاى إنسان يرى فى التراث الماضى نبل هذا التراث ولا يألم حين يفتقد حارساً يقظاً لهذا التراث وداعياً له عليما ، ومعرفاً به حكيما ؟ وأى وريث لثقافة العرب لا يجزع حين يموت أديب عربى كبير كان يعرض فى أدبه للخلف ، جميل ما جادت به نفوس السلف ؟ وأى أسف لا يستولى على النفوس بموت الرافعى النابغة الأديب حين يمر على الخاطر أن الناس قد فتنوا بالحاضر ، فنسوا وعقوا محامد الغابر ؟

وإذا كان من حق الآثار الصالحة أن تبعث من قبورها ، أفلا يحق على الناس أن يأسفوا على من كان يعمل على نشرها من مراقدها ؟

وا أسفاً على الرافعى ، ثم وا أسفاً على الرافعى !

فالى الأدباء إذن والى الشعراء ، والى آل الرافعى جميل العزاء ، وعليهم جميعاً للرافعى الأديب الكبير بعد ذلك حق الوفاء .

منصور فهمى

في الأدب المقارن

التـــــاريخ

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

التاريخ قصة الانسانية وحكاية ماضيها ، يصف حياة الانسان من قديم عهوده ، وتقلب أحواله على مرور العصور ، وكفاحه في سبيل التقدم والسعادة ، ويعرض أعمال الأمم وعظائم الأفراد وتعاون الشعوب حيناً وتعاديها أحياناً ، ويشرح سريان الحضارة والثقافة من صقع إلى صقع ، ومن جيل إلى جيل ، ومن أمة إلى أخرى ، وما أضافته إليهما عبقرية كل شعب ، من مستحدثات العلوم والفنون والصناعات ؛ فالتاريخ سجل مليء بالعظات والدروس ، حافل بالمتعات والطرائف ، يمتع اللب سياقه القصصي ، وينبه الخيال بعده الزمني ، ويملأ النفس أحياناً بالفخار الوطني ، ويثقف الانسان في حاضره ويبصره بما بين يديه ، حين يعرض عليه أنباء الماضي ووقائعه

ولا يستمد التاريخ مما دونه المؤرخون في طروسهم فقط ، بل يستمد بجانب ذلك من آثار الفنون المتخلفة عن الأمم ، من عمارة ونحت وتصوير وأدب ، ففي كل هاتيك صور من عقلياتها ومذاهبها ومجتمعاتها ومنازعها ؛ فتاريخ الحضارة المصرية القديمة لا يستمد إلا أقله مما دونه المصريون أنفسهم أو من جاء بعد عهدهم من مؤرخي الأمم التالية ، أما أكثر ما يعرف عن حياتهم الاجتماعية وتقاليدهم ودياناتهم وعلومهم ، فستقى من مخلفاتهم في عالم البناء والنحت والنقش والصناعة ، وقل مثل ذلك في تاريخ اليونان والرومان ، وغيرهم من الأمم التي أنشأت الحضارات وكان لها في العلم والفن شأن يذكر

فتاريخ الأمة وفنونها متصلان أوثق اتصال ، فالعوامل النفسية التي تسيطر على المجتمع والحكومة وتؤدي إلى الأحداث والتطورات السياسية والاقتصادية ، هي هي العوامل النفسية التي تسيطر على فنون الأمة ، فيميل أبناؤها إلى فنون دون أخرى ، وينحون بفنونهم اتجاهاً خاصة دون غيرها ؛ فقدماء المصريين الذين كانوا يخضعون للملكية مطلقة دينية الصبغة ويؤلهون ملوكهم ، نبغوا في عالم العمارة في بناء المعابد والمقابر دون القصور ، ونحتوا التماثيل للملوك والآلهة ، لا للأبطال والزعماء والخطباء والرياضيين كما فعل الاغريق ، ولم يرتق فيهم الأدب الذي يترجم عن مشاعر الفرد ، ويعبر عن خوالج المجتمع

والأدب أشد الفنون اتصالا بتاريخ الأمة وارتباطا بتطورات المجتمع ، إذ كان صدى ناطقاً دقيقاً لما يحس به الفرد والمجتمع ، بل الأدب مصاحب في بدئه للتاريخ في ظهوره ، يتمازجان لدى الجماعات البدائية في محاولتها تفسير ظواهر الكون والتغني بمفاخر أسلافها ، ويشاب كل ذلك بالخرافات ، ويظل الأدب والتاريخ مختلطين على ذلك النحو مادامت الأمة في عهد بداوتها ، فاذا ماتحضرت ودونت الكتب بدأت العلوم تتفرق وتتميز ويستقل كل منها بنفسه ، فظهر المؤرخون واستقلوا بأمرهم عن الأدباء ، بيد أن الصلات بين الأدب والتاريخ تظل محكمة ، إذ كان كل منها مرآة للمجتمع تعكس صورته من زاوية مختلفة

فالأديب لا غنى له عن درس تاريخ الماضين والتبصر في تاريخ عصره ، كي يتثقف عقله ويحصف فكره لأحوال البشر ، والمؤرخ لا غنى له عن النظر في كتب الأدباء ليفهم روح العصر الذي يؤرخ له ومثله العليا ، ولا غنى له إذا أراد أن يجيء تاريخه كاملا عن أن يفرد جانباً منه لدرس الحياة الأدبية لذلك العصر ، والمؤرخ للأدب لامندحة له عن درس التاريخ السياسي للعصور الأدبية ، والبيئات السياسية والاجتماعية التي عاش فيها الأدباء الذين يترجم لهم ؛ وقد كان من عظماء اليونان والرومان أمثال ديموستين وتيوسيديد وقيصر وشيشرون من جمعوا بين البلاغة الأدبية والتأليف التاريخي ، أو بين حرفة الأدب وحرفة السياسة وصنعة الحرب ..

إذا مابلغت الأمة طور الحضارة والاستقرار والثقافة ، ودخل الأدب في طوره الفني ، تميز التاريخ وقام علما مستقلا بنفسه كما تقدم والتفت إليه الأدباء فوجدوا به مجالا لفنهم رحيباً ومرتعاً لابتكارهم خصيباً ، فهم لا يكتفون باستيعاب حقائقه واجتناء فوائده ، بل يتخذون من مشاهده وأحداثه ورجاله مادة وغذاء لأقلامهم ، ومسارح لخيالهم ومنادح لبيان آرائهم في الانسان والحياة ، وشواهد لتدعيم حججهم في المذاهب والمشاكل ، فيتخذ منه الشعراء موضوعات لقصيدهم ، والقصصيون هياكل لقصصهم ، ويجدون في عوالمه البعيدة وحوادثه القريبة وعظائه النابهين ، مهربا للنفوس من عقال الحاضر القريب ، وأحداثه العادية

كان الشعر في الجاهلية ديوان العرب لأنه – هو والقصص – كانا يحويان أخبار العرب ، ويحفظان مشهور حوادثهم وأيامهم ،

ويحكيان أخبار رحلاتهم واستقرارهم ، ويشيران إلى ماوراء ذلك من عوامل اقتصادية واجتماعية وعصبية ، فلم يكن العرب إذ ذاك يعرفون من التاريخ إلا حفظ الأنساب ، فلما تحضروا واستقروا فى المدن تضاءل شأن النسابة وظهر التاريخ المدون ، ظهر أولا لغرض عملى شأن كل العلوم والفنون ، لحفظ أخبار الفتوح وسيرة النبى الكريم وصحابته وتفسير بعض آيات الذكر الحكيم ، وارتقى التاريخ شيئاً فشيئاً وصارت له أغراض غير هذه وتناول موضوعات أخرى أرحب وأعم

بيد أن التاريخ لدى العرب — كالأدب — ترعرع فى ظل الملكية المطلقة ، فجاء كلاهما مشتملا على نفس النقائص : احتفى كلاهما بأمر الملوك وأغفل جانب الشعوب ، واهتم بالأحداث السياسية والحروب وتجاهل التطورات الاجتماعية والاقتصادية ، واتسم كلاهما بالمحافظة والتقليد والنقل فى غير نقد ، لأن وطأة الملكية كانت تضطر كلا منهما إلى الاطراق والاغضاء والتغافل عن مواطن الضعف ودواعى الاصلاح ، وكما كان الشعراء يقرضون الشعر ليتقدموا به إلى الأمراء متزلفين ، فيملأونه بالمدح المغالى فيه ، كان بعض المؤرخين يصنفون أسفارهم ليرفعوها إلى بعض الخلائف والسلاطين بغية الثواب والحظوة ، فيملأونها بمدحه ومدح أسرته وتعداد مآثره ومفاخر دولته ، ويؤيدون دعواه وينحون على عداه ، ويتغاضون عما عدا ذلك

وقد ظل الاتصال قائما بين الأدب والتاريخ بعد تدوين الكتب واستقلال علم التاريخ بنفسه ، فظلت كتب الأدب تحوى كثيراً من أخبار الجاهلية والاسلام ، بل كانت تلك السير والأخبار والشذرات والنوادر من أهم مواد كتب الأدب العربى ، ووردت فى أشعار الشعراء شتى الاشارات إلى أحداث الماضى ورجاله ، كما أن المؤرخين وكتاب التراجم والمعاجم كثيراً ما كانوا يلجأون إلى الشعر مستشهدين لما هم بصدده من تحقيق حادثة ، أو تصويب رواية ؛ وكان بعضهم يعيرون الشعراء اهتمامهم فيترجمون حياتهم ترجمة موجزة ، وكان بعض الشعراء ينظم فى أحداث جيله ، كما فعل ابن الرومى فى ثورة الزنج وفى مقتل بعض العلويين الخارجين . وكان كتاب الأمراء يتناولون مسائل السياسة فى رسائلهم ، فيندرج أشعار أولئك وكتابات هؤلاء فى تراث التاريخ اندماجها فى كنوز الأدب

بيد أن الأدب العربى الذى أغفل كثيرا من موضوعات القول التى يتهافت عليها الأدب إذا مابلغ طوره الفنى ، أهمل التاريخ إهمالا كبيرا ، فلم يتخذ من حوادثه وحيا للنظم ، ولا من أعاجيبه مدارا للقصص ، ولا من أبطاله أمثلة للتمجيد ، فليس من بين أدباء العربية الكبار من استهزه حادث تاريخى قرأه ، أو أثر تاريخى وقف به ، إلى نظم قصيدة أو إنشاء رسالة يستجلى فيها عبر التاريخ ويمجد قوة الانسان ، أو يندب ضعف حيلته إزاء جبروت المقادير . وليس من كتاب العربية ذوى الأساليب الجزلة من شمر عن ساعد الجد والبحث والاطلاع حتى كتب تاريخاً رفيعاً لبعض العصور أو الرجال ، تاريخاً يعد تحفة فى عالم الأدب كما قد يعد مرجعاً فى عالم التاريخ ، وإنما كان بعض الشعراء يتنصلون من الشؤون الاجتماعية والسياسية ، ويتبرؤون من الاشتغال بمسائل التاريخ ، كما قال ابن المعتز :

قليل هموم القلب إلا للذة ينعم نفسا آذنت بالتنقل
ولست تراه سائلا عن خليفة
ولا قائلا : من يعزلون ؟ ومن يلى ؟
ولا صائحا كالعير فى يوم لذة يناظر فى تفضيل عثمان أو على

أما فى الانجليزية حيث كان الأدباء والمؤرخون كغيرهم من أفراد الشعب يشاركون فى الحياة الاجتماعية والسياسية بآرائهم ومذاهبهم ، بل بأعمالهم ومساعيهم ، فقد جاء كل من الأدب والتاريخ أكثر حرية وأقرب إلى جانب الشعب ، وأكثر طروقا لمواضيع المجتمع ومشاكل بنيه ، وجاء الاتصال بين الأدب والتاريخ شديد التوثق ، وجاء الأدب الانجليزى أحفل بآثار المجتمع الذى قيل فيه من الأدب العربى ، ومن ثم تدرس النصوص الأدبية الكثيرة فى أثناء دراسة التاريخ فى الجامعات ، فتدرس آثار ملتون مثلا عند دراسة عهد المطهرين فى انجلترا

ووجد أدباء الانجليزية فى التاريخ مجالا واسعاً لفنهم وابتداعهم ، فجال فيه شكسبير ومعاصروه جولات عديدة ، واتخذوا مشاهد رواياتهم فى بلاد اليونان أو إيطاليا أو دانيمركة أو انجلترة القديمة ، واشتق ملتون ودريدن موضوعات كثيرة من قصيدهم من تاريخ اليهود وأبناء ملوكهم وأنبيائهم ، فلما ظهر النثر الفنى بجوار الشعر لم يغفل التاريخ ولم يكن أقل لموضوعاته طرقا من الشعر ، بل كان أحرى أن يشتمل على حقائقه ودقائقه ويعالج مسالكه ودروبه . بما يمتاز به على الشعر من رحب جوانبه ودقة تعبيره ، فعالج جيبون وهيوم وآدم سميث وكارليل وغيرهم التاريخ والاجتماع وفلسفتيهما فى أسلوب أدبى شائق ، وجمع بعض الأدباء أمثال ماكولى وأرنولد بين الكتابة فى الأدب والتأليف فى التاريخ فكان الأدب والتاريخ لديهم كلا واحدا يجولون فى نواحيه

بلا تفريق ، وبقيت كتاباتهم يدرسها طلاب الأدب كما يدرسها باحثو التاريخ

بل بلغ غرام بعض الأدباء بالماضي ، وشغفهم بتقاليده وأزيائه وحبتهم لأفذاذه وعظمائه حداً بعيداً ، وقد كان سكوت من ذلك الضرب الذي يحيا في الماضي وبجلائله ولآلائه وبطولته ، ولا يكاد يلتفت إلى الحاضر أو يعنى بالمستقبل ، وفي ذلك العالم السالف كتب سكوت أحسن قصصه . ومن كتب في الروايات والقصص التاريخية أيضا تيسون وبرونتج ودرنكووتروشو ، وقد نرى موضوعاً تاريخياً حديثاً كالثورة الفرنسية ، وقد تناوله المؤلفون الانجليز من شتى النواحي ، فحال لحوادث الثورة وشخصياتها ككارليل ، ومندد بمبادئها كبرك ، ومرحب بتلك المبادىء مترنم بها كوردزورث ، ومتخذ من قصة وليد تلك الثورة نابليون موضوعا لملحمة طويلة كهاردى ، وهكذا تحيا حوادث التاريخ في أذهان مطالعي الأدب مصورة من شتى النواحي

ولا شك أن هذا التاريخ الأدبي ، إذا سميناه كذلك ، أجدر بالقراءة وأحق باهتمام المثقف من التاريخ المجرد ، إذ في آثار الأدباء تحيا حقائق التاريخ وتدب فيها روح انسانية جديدة وتمتلىء بالإمتاع ، ويعود التاريخ والأدب وكلاهما مظهر لحياة الانسان المطردة التطور والتغير ، وتفكيره الدائب الحركة والتقلب ، وفي هذا التاريخ الأدبي يرتبط الحاضر بالماضي ، والقريب من الأمم بالبعيد ، وتتقاصر مسافات الزمان والمكان ، ولا يبقى إلا الانسانية الشاملة ، وهذه الانسانية هي مجال كل فن صميم

هذا التاريخ الأدبي لم يعرف في العربية ، فكان هناك المؤرخون وكان هناك الأدباء ، ولكن كلا منهما كان مستقلا عن الآخر استقلالا كبيراً ، ولم يكن الأدباء يعدون التاريخ مجالا من مجالات أدبهم ، أومطمحا من مطامح فنهم ، يبتكرون في مجاله وينشئون ، وما ذلك إلا لانشغالهم بالقريب الحاضر من شؤون العيش ، عن البعيد المترامي من أمور الحياة وآفاق الفكر ، لأن الأدب ظل أكثره بلاطياً يمدح الأمير ويحرر رسائله ، وكان الفوز بتلك الحظوة مطمح الأديب ووسيلته الكبرى إلى الظهور فاذا ما بلغ ذلك المكان لازم ذلك الضرب الوحيد من القول ، ولم يصرف أدبه إلى التأمل في شؤون الماضي والمستقبل ، وهكذا أغفل الأدب العربي التاريخ فيما أغفل من موضوعات هي صميم الفن ، الوثيق صلتها بالانسانية

فخرى ابو السعود

ضوء جديد على الدين الدرزى

الحياة والمعيشة الدرزية

للأستاذ محمد خالد ظاظا

يقول الأستاذ (عنان) إن كافة الرواة أجمعوا على أن الحاكم ذهب (ضحية المؤامرة والجريمة المدبرة) مع أن أنصار الحاكم ومؤيدى مذهبه يدعون أن الحاكم ارتفع إلى السماء امتحاناً للمؤمنين ولم يقتل أبداً ؛ وعن قريب سيعود من البلاد الصينية ومعه الجيوش الجرارة فيفتح هذه البلاد جميعها ويعيد الحالة إلى ما كانت عليه ؛ وسوف لا يبقى إلا الديانة الدرزية الحقة . لأنه بحكم الواقع تلغى جميع الأديان عند قدومه . وهؤلاء المؤمنون نزحوا من البلاد المصرية وقطنوا البلاد الشامية في الجبال الشرقية منها ، وأسسوا مدناً وقرى اشتهر منها السويداء ومجدل شمس وبعقلين . وقد كانت لهم هذه الجبال معاقل تصد عنهم غارة الأمم الفاتحة حتى أصبح يخشى بأسهم وشدتهم ، ولم يختلطوا مع الأقوام السورية ، بل تجنبوهم حتى أنهم لبثوا ليومنا هذا محافظين على تقاليدهم وعاداتهم برغم تطور الزمان وانقلاب السلطان ، وبقيت هذه الديانة سراً مدفوناً إلى حين نشوب الثورة السورية في عام سنة ١٩٢٦ فأذاعت من أسرارهم ودياناتهم ما خفى طيلة هذه الأعوام الماضية . فالدروز ثاروا ودافعوا عن بلادهم وساهموا بقسط وافر من الوطنية ، واضطروا بحكم الشدة أن يتركوا بلادهم تفعل بها نيران القنابل والمدافع فعلها ، فلعبت الأيدى بكتبهم المقدسة وتراثهم المدفون وانتقلت هذه الكتب إلى أيدى الكثيرين .

وقد أكد لي أحد رجال الدروز العقل أن كتابهم المقدس الذي يسيرون بموجبه ويتبعون أثره هو خلاصة عدة كتب مقدسة ، أو بالأحرى خلاصة جميع الكتب الدينية ويزاد عليه بعض الحكم والنصائح . ويندر وجود هذا الكتاب عند كل درزى لأنه ينسخ ويخبأ عند رئيس الدين الأكبر

ولا يقرأ به إلا فى الخلوة ـ أى الجامع . وكيفية قراءته أن الشيخ يجلس فى صدر المكان ويلتف حوله السامعون بشكل حلقة مكتفى الأيدى ، مطأطئى الرءوس والأبصار ، خاشعي البصائر ، يسمعون مايقوله ، ويفعلون مايأمرهم به . ولا يدخل فى هذه الخلوة إلا من استكملت به درجة الرجولة التامة ، وبلغ مبلغ الرجال العقل ، وهم بحسب ديانتهم ينقسمون إلى درجات ثلاث :

الدرجة الأولى : الجهال وهؤلاء لا دين لهم ولا يعلمون شيئاً من أمور الديانة الدرزية ، وهم على الأغلب دون الثلاثين

الدرجة الثانية : العقل ولا يصل الرجل منهم إلى هذه المرتبة إلا بعد أن يبرهن أمام القوم أنه أخلد للسكينة وترفع عن الأفعال الدنيئة . وعليه قبل أن يصبح عاقلا أن يحلق رأسه بالموسى ويترك لحيته تسترسل فى نموها نحو الصدر وكلما طالت كان أجره عظيما ، وثوابه جزيلا . وعليه أن يتعمم بالعمة البيضاء الكبيرة .

الدرجة الثالثة : الأجاويد ، وهذه الطبقة هم الأكثر تقشفاً والأعظم أجراً ، وهم رؤساء الديانة الدرزية ومشايخ المؤمنين الموحدين وبيدهم الأمر والنهى ، فإذا ما وجدوا أمراً ساءهم من أحد العقل طردوه من الخلوة وأخذوا الدين منه . وبذلك يصبح المطرود لا دين له ، فلا يحق لهم الجلوس معه ولا السلام عليه ولا الأكل والشرب قربه ، يفر منه كل من يراه ، حتى أن عائلته تنفر منه وتكرهه ؛ وإذا مات فى هذه الأثناء يموت مسلماً وتنتقل روحه إلى كلب أو نصرانى أو يهودى أو أى حيوان آخر . وأما إذا مات درزياً ومعه الدين فينال الحسنات وتنتقل روحه إلى درزى آخر أو تذهب إلى بلاد الصين ، وهناك تعيش قرب الحاكم بأمره والأخوان الصالحين . ويعتقد الدروز بالتقمص ويقولون إن الروح تنتقل من رجل إلى آخر كما أسلفنا .

والمرأة الدرزية حكمها فى الدين حكم الرجل ، ولها ثلاث درجات بخلاف مذهب النصيرية الذين لا يعطون للمرأة ديناً مطلقاً ، والدين عندهم من خصائص الرجال دون النساء .

والدروز لا صلاة ولا صوم مفروض عليهم . ولا يعرفون شيئاً من أنواع الطرب لأنها معدودة عندهم من المنكرات المحرمة فى الدين . وأقسامهم المغلظة هى : بالنبى شعيب واليعفورى ، والحدود الستة ، والحكمة المقدسة .

وللنبى شعيب احترام عظيم فى نفوسهم ولا يعتقدون إلا بنبوته دون كافة الأنبياء . وأما اليعفورى فهو أحد أوليائهم الصالحين ذوى الكرامات له مقام يقع بين قرية مسعدة وقرية بجدل شمس فى القسم الجنوبى من سورية ، ويقصده الدروز من أماكن بعيدة للتبرك به والدعاء له . ولعل أغرب ما فى مذهبهم أنهم لا يتزوجون من المسلمين ولا يزوجون بناتهم منهم بحجة أنه يسمح للمسلم أن يتزوج بنصرانية أو يهودية ، أو يحق لمن يدخل فى الدين الاسلامى أن يتزوج مسلمة مهما كان شأنها ، ولا يقبلون أحداً أن يدخل فى دينهم مهما كان شأنه ، ولا يسمحون لأحد منهم أن يترك دينه ويدخل فى دين آخر وإن فعل ذلك عرض نفسه للقتل المحتم . وإذا خطفت فتاة منهم يتحرون عنها حتى يجدوها فيقتلون الخاطف والمخطوفة خوف إفشاء السر ـ هذا إذا علموا مكانهما .

والدروز ذو أجسام كبيرة وقامات طويلة ووجوه دموية يغلب عليهم الشجاعة ، يسترون رؤوسهم بالعمائم الكبيرة البيضاء ويحتذون الزربول ويلبسون السروال والصدرية والعباءة ذات الأكمام القصيرة ، ديانتهم عندهم إلى التقشف فى كل شىء فى الحياة رغبة فى نوال الآخرة والجنة الموعودة .

وتحرم عليهم تعاطى المسكرات والملذات وشرب الدخان ومن فعل ذلك منهم يطرد كما أوضحنا سابقاً . وأما النساء فيتلثمن بالشاشة البيضاء ولا يظهرن من وجوههن إلا عيونهن ويرتدين الثياب الطويلة حتى الارجل ، والشرف هو الواجب الأول عندهن ـ وهن على العموم يتمسكن بأهداب الفضيلة وترك الرزيلة ...

محمد خالد ظاظا

الى الأستاذ المازني

من الأستاذ محمود تيمور

سيدي الأستاذ الأجل :

أشرتَ إليّ في حديثك الطريف المنشور بالعدد ٢٠٠ من الرسالة الغراء ، إشارة تنطوي على دعابة من دعاباتك اللطيفة التي تعودنا أن نسمعها منك . فقد ذكرت أنك كنت مدعواً إلى مأدبة عشاء ، واتفق أن أجلسوك بجانب سيدة (وقور) ظنتك إياي ، فانطلقت تمتدحك . وتمدح مؤلفاتك ، وتخبرك مسرورة أن أولادها يقرؤون كتبك (أي كتبي ولا مؤاخذة) وأنهم جد معجبين بك .

أشكرك ياسيدي الأستاذ على نشرك هذا الخبر . وسواء أكان من مبتكرات خيالك أم هو حقيقة واقعة لا شأن للخيال فيها ، فإني أرى فيه دعاية طيبة لي ولمؤلفاتي ، خصوصا وإني أعد في هذه الآونة مجموعة جديدة . ولعلك قد علمت بخبر هذه المجموعة فتطوعت ، من تلقاء نفسك ، حبا في مساعدة زملائك الصغار (الصغار في المنزلة ، وليس في السن طبعا) والأخذ بيدهم في معترك هذه الحياة الأدبية العابسة . أشكرك على طيبة قلبك ؛ فأنت حقا زميل نافع لزملائه .

وإني أخشى أن يفطن الأستاذ الزيات إلى هذه الطريقة المخادعة التي لجأنا إليها - أنت وأنا - فاستغللنا بضع أعمدة من رسالته في الإعلان عن أنفسنا ومؤلفاتنا ، فتكون العاقبة غير حميدة !

لا أدري ، أي شيطان أجلسك بجوار هذه السيدة الوقور ، فصرفتك بحديثها الثقيل عن مغازلة - بريئة أو غير بريئة - لجارتك الأخرى ، تلك الغادة الهيفاء التي صوتها كالتغرد (على حد تعبيرك) . لو علِمت هذه السيدة الوقور أي خسارة لحقت بأدبنا العربي ، بصرفها إياك عن غادتك الهيفاء ، لتركتك على الفور طليقا تنعم بحريتك مع فتاتك ، تستمتع بتغريدها العذب ، ولفاز أدبنا بقصة رائعة من قلمك ، تصف لنا فيها مغامرة جديدة من مغامراتك الغرامية ، تلك المغامرات التي سيكون لزوجك (الخيالية) أثر كبير فيها ، فنسمعك تقول لها : ياامرأة ، ما شأنك أنت وهذه الغادة الهيفاء التي صوتها كتغريد الطيور . . . . ؟ فلا تكاد تتم جملتك حتى تشعر بيد قد استولت على أذنك ، وأخذت تعركها عرك أستاذية عريقاً . . . !

ولكن ما لنا ولهذا ؟ إني أراهن أن هذه السيدة الوقور لم تقرأ سطراً واحداً من مؤلفاتي وإلا لمّا تركتها بين يدي صبيانها (فتيان وفتيات) يقرءونها بلا تحرج . هذه المؤلفات ياسيدي الأستاذ لا تخلو - كما تعلم أو لعلك لا تعلم - من قطع نعتها البعض بأنها من الأدب المكشوف . وإني شخصيا لا أميز بين هذه القطع وبين غيرها ؛ فالأدب ليس له عندي غير اسم واحد هو الأدب بمعناه الواسع ؛ وليس له إلا هدف واحد : هو الفن ، أو على الأصح هذا ما نزعمه - والله أعلم !

فهل لك ياسيدي المحترم أن تبادر إلى هذه السيدة ، وتعلن لها تلك النتيجة المحزنة ، ثم تدعوها باسم الفضيلة والأخلاق أن تسلمك هذه المؤلفات الموبوءة لتطهر البيت منها ؟ ولك أن تقترح استبدالها بغيرها مما يعني بالتربية والتهذيب ، وزرع الفضيلة في النشء الصغير . وكنت أود أن تحل كتبك محل كتبي ، ولكني أشك في صلاحيتها لهذه الأسرة المحترمة : إذ أن مغامراتك الغرامية المنقطعة النظير ، وهذا الشجار العائلي القائم على الدوام بينك وبين أهل بيتك (في عالم الخيال طبعا) ، خطر لا يقل في نظري عن الأدب المكشوف . إذن ، عليك أن توجه نفسك شطر مكتبة الأطفال . وليس أمامك إلا صديقنا الأستاذ كامل الكيلاني ، فهو خير من يزودك بما تشتهي وتحب .

إن ذكر الأدب المكشوف والمغامرات الغرامية والشجار العائلي ، سيدعو الفتيان والفتيات ، من الأدباء وغير الأدباء ، إلى أن يلتفتوا بنوع خاص لهذا النوع الجديد من الأدب ، فيهرعوا إلى المكاتب متزاحمين ... ومن ثم ينهال علينا وافر الربح ...

وبعد هذا ، ألا ترى أننا ما زلنا نستغل طيبة الأستاذ الزيات في سبيل الدعاية لأنفسنا ؟ إذن فلنختصر ولنقفل الباب والشكر الوافر والتحية القلبية من المعجب بأدبك

محمود تيمور

الرافــعي

للأستاذ محمود محمد شاكر

رحمةُ الله عليكَ ! رحمةُ الله عليكَ !
رحمة الله لقلبٍ حزينٍ ، وكبدٍ مصدوعة !

* * *

لمْ أفقدكَ أيها الحبيبُ ولكنِّي فقدْتُ قلبي .
كنتَ لي أملاً أستمسكُ به كلما تقطَّعت آمالي في الحياة .
كنتَ راحةَ قلبي كلما اضطربَ القلبُ في العناء .
كنتَ اليَنبُوعَ الرَّويَّ كلما ظَمِئَ القلبُ وأحرقه الصَّدَى .
كنت فجراً يتبلَّج نورُهُ في قلبي وتتنفس نسماته ،
فوَجدتُ قلبي . . . إذ وجدتُ عَلاقتي بكَ .
لمْ أفقدكَ أيها الحبيبُ ولكني فقدتُ قلبي

* * *

جزعي عليك يمسك لساني أن يقول ، ويرسل دمعي ليتكلم .
والأحزانُ تجدُ الدمعَ الذي تذوب فيه لتهونَ وتضاءَل ،
ولكنَّ أحزاني عليك تجد الدمع الذي تروَى منه لتنمو وتنتشر .
ليس في قلبي مكان لم يرفَّ عليه حبي لكَ وهوايَ فيك ،
فليس في القلبِ مكان لم يحرقه حزني فيك وجزَعي عليك .
هذه دموعي تُترجم عن أحزانِ قلبي ،
ولكنها دموع لا تُحسِنُ تتكلَّم

* * *

عشتُ بنفسٍ مُجدِبةٍ قد انصرفَ عنها الخصب ،
ثم رحمَ الله نفسي بزهرتين ترِفَّان نضرة ورواء .
كنتُ أجدُ في أنفاسهما نَزْوةَ الروضة الممرعة فلا أحسُّ فقر الجدب !
أما إحداهما فقد قطفتْها حقيقةُ الحياة ،
وأما الأخرى فانتزعتْها حقيقةُ الموت ،
وبقيت نفسي مجدبة تستشعرُ ذلَّ الفقر

* * *

تحت الثرى ... عليك رحمة الله التي وسعتْ كلَّ شيء ،
وفوق الثرى ... عليَّ أحزان قلبي التي ضاقت بكل شيء ؛
تحت الثرى تتجدَّدُ عليكَ أفراحُ الجنة ؛
وفوق الثرى تتقادمُ عليَّ أحزان الأرض !
تحت الثرى تتراءى لرُوحك كلُّ حقائق الخلود
وفوق الثرى تتحقَّقُ في قلبي كلُّ معاني الموت .
لم أفقدك أيها الحبيب ولكنِّي فقدت قلبي

* * *

حضَرَ أجلك ، فحضرتني همومي وآلامي .
فبين ضلوعي مأتم قد اجتمعت فيه أحزاني للبكاء ؛
وفي روحي جنازة قد تهيَّأت للسير ؛
وعواطفي تشيِّعُ الميت الحبيب مُطرقة صامتة ؛
والجنازة كلها في دمي ـ في طريقها إلى القبر
وفي القلب ... في القلب تحفَر القبور العزيزة التي لا تُنسَى

* * *

في القلب يجد الحبيب روحَ الحياة وقد فرغ من الحياة ؛
وتجد الروح أحبابها وقد نأى جثمانها .
في قلبي تجد الملائكة مكاناً طهّرته الأحزان من رجس اللذات .
وتجدُ أجنحتها الروح الذي تهفهف عليه وتحفُّ به .
هنا ... في القلب ، تتنزّل رحمة الله على أحبابي وأحزاني ،
ففي القلب تعيش الأرواح الحبيبة الخالدة التي لا تفنَى ،
وفي القلب تُحفَرُ القبور العزيزة التي لا تُنسَى

* * *

لم تُبقِ لي بَعدَكَ أيها الحبيب إلا الشوقَ إلى لقائك .
فقدتُكَ وحدِي إذ فقدك الناس جميعاً
سمَا بكَ فرحك بالله ، وقعدت بي أحزاني عليكَ .
لقد وجدتَ الأنسَ في جوارِ ربِّكَ ، فوجدتُ الوحشة في جوار الناس
لم أفقدك أيها الحبيب ولكني فقدتُ قلبي
لم تُبقِ لي بَعدَك إلا الشوق إلى لقائك
رحمة الله عليك ، رحمة الله عليك !

محمود محمد شاكر

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
استاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٥ —

الديانة المصرية — التوفيق بين الديانة والفلسفة

أشرنا فى الكلمة السابقة إلى الخلاف الذى وقع بين المستمصرين حول التطور الدينى المصرى وهل هو وليد الفلسفة أو الفلسفة هى وليدته. ولما كنا قد تناولنا بهذه المناسبة الكلام على «رع» وتاسوعه، فقد وجب علينا إتماما للموضوع أن نشير إلى إلهة أخرى لا تقل عن السابقين أهمية، وهى «مآت» ابنة «رع» العظيمة

ليست هذه الإلهة من التاسوع، لأنها روحه كله، وبدونها لا يحيا أى واحد من الآلهة، لأنها هى: «الحقيقة والعقل والعدالة». وهل يمكن أن يحيا أى إله بدون الحقيقة والعقل والعدالة؟ وتمتاز هذه الإلهة بأنها تجىء إلى الأرض يحملها فرعون ويتولى تطبيق صفاتها وإبرازها إلى حيز الوجود بطريقة عملية ويظل حارسها الأمين إلى أن يموت فتعود إلى السماء وتبقى فيها ريثما يصعد الملك الجديد على العرش فيوكل إليه أمر حملها وحراستها كسابقه. ولهذا كان كل فرعون يعنى بأن يكتب على آثاره أنه لم يدخر وسعا فى حماية الحقيقة والعدالة وفى إعلاء شأن العقل، لكى يثبت بهذا أنه قام بواجبه فى حمل «مآت» إلى الأرض ورعايتها خير قيام. وهاك ترجمة شىء مما يخاطب به فرعون «رع» كبير الآلهة فيقول: «ها أنذا أتيت نحوك، وذراعاى مجتمعتان لحمل مآت التى أنت موجود، لأنها موجودة؛ وهى موجودة، لأنك موجود؛ والتاسوع يناديك أنك أنت الإله العظيم الذى انتصرت منذ ملايين السنين. وأن مآت هى وحيدتك»

ولا شك فى أن لمرادفة مآت ابنة رع للحقيقة والعقل والعدالة أهمية فلسفية وأخلاقية عظيمة، إذ منذا الذى لا يحث عن الحقيقة ولا يحترم العقل ولا يطبق العدالة مع علمه بأن هذه الأشياء الثلاثة هى مرادفة لابنة رع. وهى روح التاسوع المقدس كله. وإذن، فقد كانت هذه الأسطورة عاملا قويا فى تحفيز الهمم على البحث عن الحقيقة وعلى احترام العقل وعلى إجلال فضيلة العدالة كما سنذكر ذلك فيما بعد. وهل الفلسفة النظرية الإغريقية شىء آخر غير البحث عن الحقيقة؟ وهل الفلسفة العملية شىء غير تطبيق الفضائل التى أهمها - بعد الحكمة الناجمة عن احترام العقل المشروط فى الفلسفة المصرية - هى فضيلة العدالة التى استقامت بها كفتا ميزان السماء والأرض؟

تعقل العامة

كان كل ما أسلفناه لك من تطورات دينية ومن محاولات قوية فى التوفيق بين الدين والعقل هو تعقلات الخاصة والمستنيرين. أما العامة فكان لهم تعقل يخالف هذا مخالفة طفيفة حينا وشديدة حينا آخر، فهم لما وجدوا «أتوم» الممتزج عند الخاصة برع لا زوجة له ولم يستطيعوا أن يعقلوا أثره الذى سماه الخاصة «فعل الشمس» ونسبوا اليه نشوء الفراغ والهواء زعموا أنه ولد طفلين بطريقة لا ترضى عنها الأخلاق، وهما الهواء والفراغ، فتزوج ذكرهما أنثاهما فولدت له السماء والأرض. وهذان الأخيران أيضا قد تزاوجا بدورهما، ولكنهما التصقا بعضهما التصاقا محكما يحول بينهما وبين تحقق وجود الكائنات؛ فلما رأى الهواء ذلك اجتهد فى تفريقهما فسعى حتى مر من بينهما ففصلهما ورفع السماء إلى أعلى فوق ذراعيه، فغضب الزوجان من هذه الفرقة غضبا شديداً وما زالا يجتهدان فى إزالتها حتى الآن.

وما الجبال الشامخة التى تحاول الوصل بين الأرض والسماء إلا من نتائج هذا المجهود الذى يحاوله الزوجان. غير أن هذه الفرقة التى آلمت الزوجين إيلاما شديداً كانت سعيدة، لأنها سمحت للكائنات الحية بالوجود فوق الأرض كما سمحت للشمس بان تظهر من السماء، ولكن سكان «هيليو بوليس» الذين كانوا على وفاق فى هذه الأسطورة يبدأون بعد هذه النقطة يختلفون، فيذهب بعضهم إلى أن «نوت» الذى هو عند الفريق الأول أحد الزوجين المنفرقين إنما هو البقرة العظمى الخالدة التى تنسل كل يوم عجلا هو شمس ذلك اليوم؛ أما زوجها فهو رع نفسه، ولذلك أصبح رع فى نظر هذا

الفريق متزوجا وترك حياة العزوبة القاحلة وهناك فريق ثالث تفرع من الفريق الثانى وذهب إلى أن هذه البقرة الخالدة هى « نون » التى هى أصل العناصر جميعها والتى منها نشأ « رع » نفسه

غير أنه ينبغى أن نلاحظ أن البقرة الخالدة التى هى عند بعض العامة زوجة رع وعند البعض الآخر منهم أمه ليست إحدى هذا البقر الذى يدب على الأرض ، وإنما هو تصوير لكائن عظيم كثير الخصوبة والانتاج لا أكثر ولا أقل . وهذا الفريق الأخير الذى يرى أن البقرة الخالدة هى أم رع يعتقد أنها واقفة فى الجو ، وأن رع يتنزه فى فلك من الذهب يسبح فوق ظهرها كل يوم من الشرق إلى الغرب على مرأى من الناس جميعاً . ولما أدركته الشيخوخة ، وكانت أعضاؤه من ذهب ، وعظامه من فضة ، فقد طمع البشر فى أن يستولوا عليه وأخذوا ينظرون اليه بعين الشراهة ، فشا كته منهم هذه الجرأة الوقحة وصمم على عقابهم ، ولكنه أبى أن يستبد باصدار هذا العقاب فدعا مجلس الآلهة للانعقاد وعرض عليه هذه القضية ، فأشارت عليه أمه بأن يبعث فيهم الإلهة « هاتور » تريق دماءهم وتقطع أعناقهم جزاء وفاقا لوقاحتهم وطمعهم فى الآلهة ؛ وقد كان ، فنزلت الإلهة هاتور مقتلة مدمرة حتى ملأت سطح الأرض دماء ، وكانت ستظل على هذه الحال حتى تبيد جميع العنصر البشرى لولا أن أخذت الإله الشفقة على الانسان من جديد ، فصمم على العفو عنه ، ولكنه لم يستطع اقناع « هاتور » الجبارة بالعدول عن خطتها التى كلفها بها مجلس الآلهة فأحضر لها عصيراً أحمر من بعض الفاكهة وأنبأها بأنه من دماء البشرية التى تحقد عليها فشربته مسرورة ولم تعد تميز شيئاً ، وبهذا وقف القتل والتدمير

وبعد أن كف رع حركة القتل عن بنى الانسان أحس بتقزز من استمراره فى الحكم مع هذه الشيخوخة فاعتزل السلطة آسفاً محزوناً على الشباب وقوته . وقد انتهزت « ايزيس » هذه الفرصة الذهبية فاتجهت إلى رع وأنبأته بأنها تستطيع أن تعيد اليه الشباب على شرط أن يكشف لها عن اسمه الأعظم الذى لا يعرفه إلا هو . وما زالت به تغريه حتى حصلت على بغيتها التى كانت تعلم أنها تنيلها كل فرصة ، للتصرف فى الكون ثم مرت هذه السلطة بالتتابع إلى الآلهة « سو » « ف » « جيب » « ف » « أوزيريس » « ف » « هوروس » ففرعون ؛ وبهذا استطاع الشعب أن يؤول عقيدة الخاصة فى ألوهية فرعون ، ولعل القارىء لا تخفى عليه فطنة أولئك العامة الذين حينما رأوا الخاصة يؤلهون فرعون ، ابتدعوا لذلك مبررات لبقة تسير فى طريق منسق من رع إلى فرعون

نظرية الفكر المصرية أو أصل المثل الأفلاطونية

كان المصريون يعتقدون أن الاسم هو كل شىء فى الكائن وأنه لا كائن بدون اسم ، أو أن الاسم هو الفارق الأوحد بين العدم والوجود . لهذا تقول الآية المصرية القديمة : « إن جميع الآلهة قد خرجوا من فم رع ، وأن رع هو الذى خلق كل عناصر الطبيعة » . ومعنى هذا أن « رع » هو الذى سمى الآلهة والعناصر ، وكان أول من نطق بأسمائها جميعاً . ومن حيث إنه كان إذ ذاك وحده . فيكفى لايجاد الإله أو العنصر أن ينطق باسمه فيما بينه وبين نفسه أو أن يفكر فيه لأن نطق الاسم باللسان ليس إلا تعبيراً عن المسمى الموجود أو الفكرة التى يحتويها القلب والتى هى جوهر الأشياء جميعاً وبدونها لا يفوز موجود بالكينونة . وقد ذهب كهنة « هيليوبوليس » أو مدينة الشمس إلى أن الفكرة لا تمنح الكائن الوجود فحسب . بل إنها هى التى تحفظ عليه وجوده الدائم ، فإذا قدر على أى كائن ما أن يزول اسمه من فكرة الإله ، فإنه يهوى فى الحال إلى العدم المطلق . ولا أحسب أن من العسير على الباحث المتقصى أن يستكشف عناصر « المثل الأفلاطونية » واضحة جلية فى هذه الفلسفة المصرية التى سبقت أفلاطون بأكثر من ثلاثة آلاف سنة ، لأن أفلاطون يعتبر جميع هذه الكائنات المادية التى تدب على الأرض خيالات لا حقائق ، ولا يعترف بوجود حقيقى إلا لعالم « الفكر » المجرد عن علائق المادة وغواشى الطبيعة . أما هذا الوجود المشاهد بالمدركات الدنيا ، وهى الحواس ، فهو لا يزيد على أنه ظلال لعالم الحقيقة الذى لا تدركه إلا قوة البصيرة التى تخلص صاحبها من الشهوات الحيوانية ؛ وأما هذه الظلال المشاهدة ، فوجودها لا يحقق حقيقة الكائن لأنه وجود مؤقت فوق أنه خيالى . وإذاً ، فلست أظننى فى حاجة إلى إيضاح الرابط المتين الموحود بين نظرية أفلاطون

هذه وبين قول المصريين: «إن الفكرة لا تحقق للكائن وجوده فحسب، بل هي وحدها التي تضمن له دوام هذا الوجود» أو قولهم: «إن جميع الموجودات قد خرجت من فم (رع) وإنه يكفي لإيجاد الكائن أن يجرى اسمه على لسان (رع) بعد أن مرسماه بقلبه، لأن اللسان ليس إلا معبراً عن الجنان».

أليس في تعبيرهم بان الفكرة وحدها كافية لتحقيق الوجود وخلوده تصريح واضح بان كل ما عدا الفكرة في الكائن لا يؤبه له؟ ثم أليس في قولهم: إن الموجودات كلها خرجت من فم (رع) إيذان بأن المادة المحسة لا يستحق منها بالوجود إلا فكرتها التي خطرت لرع وان المحس منها لا قيمة له؟

لا ريب أن في هذا الاكتشاف الذى أسجله اليوم على صفحات هذه المجلة رداً جديداً على أرسطو و «سانتهاير» ومقلديهما وأذنابهم القائلين باستقلال الفلسفة اليونانية وعدم تأثرها بالفلسفات الشرقية، كما أن فيه رداً بليغاً على ذلك الفريق الذى يحط من شأن العقلية الشرقية، لأن مذهب «المثل» - وهو أسمى ما أنتجته العقلية الغربية - هو مشيد على أساس هذه النظرية المصرية ما في ذلك لبس ولا ارتياب.

وكما أن الفكرة هي التي تمنح الوجود للحوادث وتحفظه عليها، هي تحفظ الوجود الكامل كذلك على «رع» نفسه. ولهذا السبب اهتم بأن يخلق العالم، لكي يظل اسمه حياً منبثاً في جميع عناصر الطبيعة، مذكوراً على ألسنة أفراد المخلوقات حتى يضمن لنفسه وجوداً كاملا من كل الوجوه، لأن تعقله هو لذاته لا يكفي في تحقيق الوجود الكامل إلا إذا خلا الكون من جميع ما سواه؛ أما وفي الوجود كائنات أخرى، فلا يتحقق له الوجود الأكمل إلا بتغلغل فكرته في كل قلب وجريان اسمه على كل لسان.

ومن هذا التغلغل نتج دور تفكيري عجيب، وهو أن الإله ضروري للانسان بحيث لا يمكن وجوده إلا به، وأن الانسان ضروري للإله بحيث لا يمكن استمرار وجوده الكامل إلا بتغلغل الإنسان إياه وتفكيره فيه ونطقه باسمه. ولا ريب أن هذه الدائرة قد أعلت من شأن الكهنة، لأنهم هم أكثر الناس ذكراً لأسماء المعبودات، وبالتالي هم أكثر الناس تأثيراً في احتفاظ الآلهة بوجودهم الكامل.

(يتبع) **محمد غلاب**

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشة

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

الوغد

ما الحياة إلا ينبوع مسرة، ولكن أيان شرب الوغد فهنا لك جدول مسموم. أحب كل ما هو نقي، ولكنني لا أحتمل رؤية الأشداق تتثاءب معلنة ظمأ الأرجاس، وقد جاؤا يسبرون أعماق البئر بأنظارهم فانعكست في قرارتها ابتسامتهم الشنعاء توجه سخريتها إلي.

لقد دنسوا المياه المقدسة بأرجاسهم، وما تورعوا فدعوا أحلامهم القذرة سروراً فدنسوا سموهم حتى في البيان.

إن اللهب يتعالى مشمئزاً عند ما يعرضون قلوبهم المائعة عليه، والروح نفسها تغلي وتتصاعد بخاراً عند ما يقترب الأوغاد من النار، والأثمار نفسها يفسد طعمها وتتراخى عند ما يلمسونها بأيديهم، وإذا ما حدجوا بانظارهم الأشجار المثمرة فإنها لتجف على أعراقها.

لكم من معرض عن الحياة لم ينفره منها سوى الوغد الزنيم، فعافها إذ لم يشأ أن يقاسم هذا الوغد ما عليها من ماء ولهب وأثمار.

لكم من شارد لجأ إلى الصحراء متحملا السعار عائشاً بين الوحوش كيلا يجلس إلى بئر يدور بها حداة العيس بما عليهم من أقذار.

ولكم جاء الأرض من مكتسح أشبه بالبرد المتساقط من السحاب ولا أمنية له سوى ضرب قدمه في أشداق الأوغاد ليسد حناجرهم.

ما صعب علي الاعتقاد باحتياج الحياة إلى العداء والقتل والاستشهاد كما صعب علي التسليم بضرورة وجود الوغد الزنيم فيها.

أمن ضرورة الحياة هذه الينابيع المسممة والنيران المشبوبة

تفوح بالروائح الكريهة وهذه الأحلام الرجسة وهذه الديدان ترتعى فى خبز الحياة ؟

ليس العداء ما قرض حياتى بل الكراهة والاشمئزاز . ولكم استثقلت الفكر نفسه عند ما رأيت شيئاً من الفكر فى رأس الوغد الزنيم .

لقد وليّت ظهرى للحاكمين عند ما أدركت معنى الحكم فى هذه الأزمان وتأكدت أنه إنجاز بالقوة ومساومة الاوغاد عليها .

استولى اليأس علىّ فاجتزت مراحل الماضى والمستقبل وأنا أسد أنفى إذا انتشرت على منهما روائح البيان السخيف

لقد عشت طويلا كالكسيح أصابه الصمم والعمى والخرس كيلا أعايش أوغاد السلطة وزعانف الأقلام والمسرات

ارتفع فكرى درجة فدرجة وهو يعانى من حذره ما يعانى ولا عزاء له إلا بالغبطة ؛ وهكذا مرت حياة الأعمى وهو يتوكأ على عصاه .

ماحدث لى ياترى ؟ وما الذى أنقذنى من اشمئزازى وأعاد النور إلى عينى ؟ وكيف تمكنت من ارتقاء المرتفعات حيث الينبوع الذى لا يحيط به الأوغاد ؟ .

أهى الكراهة نفسها استنبتت جناحى وأوجدت لى القوة للاهتداء إلى مفجر الينابيع ؟ والحق أننى ارتقيت الذروة ، ولو لم أبلغها لما وجدت ينبوع الغبطة والسرور .

لقد وجدته ، أيها الأخوة ، فرأيته يتدفق على الذروة غبطة وحبوراً ، فاهتديت إلى المكان الذى يتاح فيه للانسان أن يروى ظمأه دون أن يعكر عليه الأوغاد الأدنياء

إنك لتسيل بشدة ، أيها الينبوع المتفجر بالغبطة فتفرغ الكأس التى تملأها دهاقا ،

علىّ أن أتمرن على الاقتراب منك بتؤدة ، أيها الينبوع فإن قلبى يندفع بعنف إلى مسيلك . لقد استولى اليأس مع الحبور على هذا القلب الذى تمر عليه بحرها أيام صيفه فهو يتشوق إلى مياهك تنزل عليه برداً وسلاما .

لقد انقضت أحزان ترددى فى الربيع وأذاب الصيف ثلوج نقمتى ، فأصبحت وكل جوارحى تتوق إلى الاصطياف .

إن خير الراحة ما تتجمع فى أعالى الجبال قرب الينابيع الباردة . إلىّ أيها الأصحاب لنحول هذه الراحة إلى غبطة وحبور فهذه ذروتنا ، وهنا موطننا حيث نعتصم بالصخور فلا يبلغها الأرجاس ولا يصل اليها عطشهم المدنس .

أرسلوا أنظاركم الطاهرة على ينبوع مسرتى ، أيها الأصحاب ، فإنها لن تعكره بل تبق على نفائسه فيبتسم لكم .

هنا تتعالى دوحة المستقبل . فلنبن لنا عشاً بين أغصانها فتجىء الينا العقبان حاملة لنا الغذاء ، نحن المنفردين .

ذلك غذاء لا يستطيع الأرجاس مقاسمتنا إياه فهو النار تحرق أشداقهم . وما نعد هنا مساكن للمدنسين . فان سعادتنا تلفح أجسادهم وأرواحهم . ونحن نريد أن نحيا فوقهم فنهب كالرياح فى مسارح العقبان ومطالع الشموس .

إننى سأعصف كالريح الصرصر على الأرجاس فأخمد أنفاسهم بانفاسى ، ذلك هو المقدور . فما زارا إلا ريح عاصفة ترهق الاعماق ، وهو ينصح أعداءه وكل متفيء نافث بألا يبصقوا فى وجه الرياح .

هكذا تكلم زارا . .



السياسة والروح العام

جاءنا من الأستاذ محمد فريد أبو حديد هذا الكتاب تعليقاً على كتاب الأديب محمد زهدي ناصر وتوضيحاً لتعقيبنا عليه ننشره شاكرين للأستاذ مساهمته الحرة في دعوة الرسالة

اطلعت فى مجلتكم الغراء على مقال للأديب محمد زهدى ناصر ذهب فيه إلى أن دعوة الشباب إلى الاشتغال بالسياسة فيه مضيعة لجهودهم وفيه إقحام لهم فى ميادين لا يستطيعون اقتحامها ولا يجمل بهم التلوث بما فيها من الأدران وهم لا يزالون فى سن البراءة والاخلاص ، وأنه أجدى بهم أن ينصرفوا إلى العلم والدرس حتى يستطيعوا أن يستفيدوا بوقتهم أكبر استفادة .

والحق أن الأديب على حق فى رأيي إذا كان المقصود هو اشتغال الشباب بالسياسة العملية ، فان تلك السياسة أشد تعقداً وأوعر مرتقى من أن نجازف بشبابنا فندخله فى ميدانها . ولقد كان رد الرسالة على حضرته رداً صائباً ، ولكنى أخشى أن يكون المحرر الأديب الذى كتب ذلك الرد لم يوضح التفريق بين السياسة والروح العام إذ قال : « على أن السياسة التى نريدها للشبان أوسع وأشمل مما يتصوره الكاتب الفاضل ؛ فالسياسة دعوة وتدبير وقيادة ؛ وقوى البلد المادية والأدبية معطلة من طول الاغفاء والترك ؛ والاحساس الشاب هو وحده الذى يستطيع أن يحرك فى طبقات الشعب هذا الجمود المزمن بالدعوة الصادقة والارشاد الصالح والقدوة الحسنة » فالأستاذ المحرر يريد أن يفرق بين أن يعمل الشباب فى ميدان السياسة العملى وأن ينغمر فى تيار الاختلاف الحزبى ، وبين أن يكون الشباب غافلاً حياً تتوثب فيه الحماسة إلى ما فيه خير المجموع وتتقد فيه الروح العامة التى تتجه إلى إعلاء الوطن ورقى أهله من كل الوجوه . فهذا الروح العام الذى يتجه نحو المثل الأعلى جدير بأن يملأ قلوب الشباب ، وليس فيه ما يشغل عن الدرس والعلم ، بل إن قلب الشاب الذى يخلو من الاهتمام بأمور وطنه العام ولا يثور إلى الرغبة فى خير مواطنيه ورفعة شأنهم لهو قلب فاتر قليل الخير .

إن أعز ذكريات الشباب التى نحملها هى تلك الرغبة المتوقدة فى خدمة الوطن ، وهى تلك الأمانى التى كنا نسعى جهدنا إلى تحقيقها ، إذ كانت الأمانى لا تزال طليقة ، وإذ كان القلب لا يزال قوى النبضات . . . .

محمد فريد أبو حديد

جمعية الانبعاث القومى

وجاءنا من الأديب صاحب الامضاء ما يأتى :

حيا الله « الرسالة » فى عهدها الجديد : عهد توجيه شباب مصر إلى واجبه الأسمى نحو مصر .

وبارك الله فى أستاذنا الكبير صاحبها ، وجعله نبراساً ساطعاً للعاملين المخلصين من أبناء مصر ، فى سبيل مجدها ونهضتها .

وبعـد : فلى كلمة متواضعة . من حق أو من واجبى - كشاب - أن أدلى بها فى موضوع الاقتراح الناضج الذى نشر فى العدد السابق من الرسالة . تحت عنوان « الزحف الاجتماعى » . أرجو - مخلصاً - أن يكون لها أثرها المفيد عند تنفيذه .

اقتراح لا إخالنى أجانب الصدق إذ أقول إنه اقتراح شباب مصر جميعاً . قام بواجب التبليغ عنهم أحدهم وأدى رسالته أميناً مشكوراً .

أرى ، لضمان نجاح هذا المشروع القومى الجليل . وتمشيا مع ظروفنا الحاضرة . أن تتوفر لتنفيذه على الوجه الأكمل الشروط الآتية وهى :

أولا : — تضامن شيوخ الأمة مع شبابها .

ثانياً : — أن تكون قيادة المشروع للأمة وحدها . وتؤلف لهذا الغرض جمعية ، أسميها جمعية الانبعاث القومى ، من عناصر قوية بارزة تمثل كلا من الجامعة الأزهرية والجامعة المصرية ، والصحافة المصرية . والمؤسسات المصرية وعلى رأسها بنك مصر

ثالثا : — على الحكومة ، فقط ، تعبيد الطريق للعاملين دون التدخل ، فضلا عن الرقابة ، إلا فى حدود القانون .

رابعا : — أن يكون عنصر الرواد من الجنسين ، ويشترط فيهم الكفاية والأهلية ، ويعطى تشجيعا للمتعطلين منهم مكافآت مالية ثابتة .

خامسا : — إدماج الجمعيات الخيرية والعلمية والثقافية الموجودة حالا تحت لواء جمعية الانبعاث القومى توحيداً للجهود والأغراض

سادسا : — أن تقوم بالنفقة الأمة وحدها فى شخص الأغنياء من جميع الطبقات ومتوسطى المعيشة من أفراد الأمة ، عن طريق الإعانات الدورية ، والاشتراكات الشهرية

سابعا : — الاحتفاظ بقومية المشروع من المبدأ إلى المنتهى

سيد عويس

عبرة الشباب من حفلة التتويج

شهد الأسبوع الماضى فى لندن مهرجانا قلما يجود الدهر بمثله . ذهلت فيه انجلترا عن مشاغلها ومشاكلها ، فى خارجها وفى داخلها ، ثم راحت تخرج تاريخها الرائع الساطع من كنوز ماضيها الجليل الأثيل لتجعل منه الدرة الكبرى لتاجها الماسى الذى تضعه من جديد ، على مفرق ملكها الجديد .

سمع الناس وصف المهرجان فى الراديو ، ورأى الناس مناظر المهرجان فى السينما ، فتمثلت لهم عظمة هذه الامة العريقة على أروع ما يتصوره الخيال ويدركه الحس : تقاليد الماضى العتيقة فى جدة الحاضر الطريفة ؛ وقرع النواقيس بجانب قصف المدافع ؛ ومظاهر الارستقراطية النبيلة فى وسط الديمقراطية الاصلية ؛ ومَلِكٌ أثقلوه بالماس والذهب ، وقلدوه السيوف والصوالج ، وألبسوه الحلل والمعاطف ، وضمخوه بالزيت المبارك ، وأجلسوه على كرسى متأكل فوق حجر منسوب إلى يعقوب . وأركبوه مركبة بالية نابية طافت به شوارع لندن ؛ ثم رئيس الاساقفة فى طقوسه الغريبة ، وكبار النبلاء فى أرديتهم العجيبة ! وهذه القوى الثلاث : قوى المُلك والدين والنبل هى التى كانت تحكم الدنيا الغربية أيام كان الزمان غير الزمان ، والانسان غير الانسان . فأصبحت اليوم من عبر التاريخ التى تعرضها انجلترا على أعين الامم الحاشدة فى لندن وهى تقول لهم : انظروا ماذا كلفت الامة الانجليزية حتى ظفرت بالحرية والديمقراطية والدستور ! هل منعنا احتفاظنا بالتقاليد من أن نكون أمة التجديد ، واحترامنا للدين من أن نكون أمة المدنية ، وإخلاصنا للملك من أن نكون أمة البرلمان؟

فى هذا الذى تسمعه وتراه من أمس الانجليز ويومهم جواب مفحم لأولئك الغلاة الذين يريدوننا على أن نتجرد من الماضى العظيم ، ونتخلى عن التراث الكريم ، ونخرج إلى العالم كما تخرج اللقطاء إلى الوجود . لا تليد يغذى الطريف . ولا نسب يرفع الحسب .

إن شخصية الفرد هى مجموعة مزاياه الخاصة فى التفكير والخلق والتصرف ، وشخصية الأمة هى مجموعة تقاليدها الصالحة من العادات والاعتقادات والنظم . والشخصية هى حافزة الفرد على النهوض ، ودافعة الأمة إلى الاستقلال ؛ فإذا عبث بها عابث من النزق أو الضعف انمحى طابع الفرد فشاع ، وفنيت قومية الشعب فخضع .

وإذا قال لنا الانجليز أقوى دول الغرب ، واليابان أقوى دول الشرق ، إن الحاضر الثابت لا يقوم إلا على الماضى الراسخ ، وإن الحوافز الشخصية لا يقويها إلا السنن القومية ، كان شبابنا أحرياء بأن يقولوا لأولئك الناعقين : لا تعجلوا حجل الغراب ، ولا تنصبوا مضحتكم على السراب !



قصـــة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكي بك

مدير مصلحة الكيمياء

— ٤ —

وفي عام ١٩٠٢ انبرى إرليش يطلب غايته ، فأخرج كل ما لديه من الأصباغ وسواها صفاً صفاً فلمعت وبرقت واختلط لألاؤها . وتقاصر متقرفصاً أمام قطراتها فتراءت زجاجاتها على رفوفها كالفسيفساء الرائعة في اختلاط ألوانها . فصاح لما جرت عينه عليها : « ألا ما أجل وأجمل ! » . ثم اقتنى لنفسه طائفة كبيرة من أصح الفئران . واقتنى لنفسه معها دكتوراً يابانياً مخلصاً غاية الاخلاص في عمله ، صبوراً غاية الصبر فيه ؛ وكان اسمه شيجا Shiga ، وكان عمله ملاحظة هذه الفئران وقص قطع من أطراف ذيولها ليأتي منها بنقطة من الدم يبحث فيها عن التريبنسومات ، أو قص قطع أخرى من نفس الذيول ليأتي منها بنقطة دم يحقنها في دم الفأر السليم التالي وهلم جرا - واختصاراً كان واجبه أن يقوم بكل الأعمال الثقيلة الطويلة التي لا ينهض بها إلا الجهد الياباني وصبره . وجاءت التريبنسومات اللعينة إليه أولا من معمل بستور بباريس في خنزير غيني حق عليه الفناء . ومن هذا الخنزير أخذها وحقنها في أول فأر ، ومن ثم بدأ الطراد

وجربوا في هذه الفئران نحوا من خمسمائة صبغة ! تجارب اعتباط وخبطات عشواء لا تمت بسبب إلى الأسلوب العلمي ، ولكن هكذا كان إرليش في بحثه . كان كأنه البحار الأول يبحث بين أخشاب الشجر عن أوفقها لصناعة مجاذيفه . كان كالحداد الأول ينكش معادن الأرض يتحرى أنسبها لسبك سيوفه . كانت في اختصار طريقة بدائية هي أقدم طرق الإنسان للوصول إلى المعرفة ، طريقة المحاولة الطويلة والعرق الكثير في سبيلها . وتقسماها بينهما ، فقام إرليش بالمحاولة الطويلة ، وقام شيجا بالعرق الكثير . وتلونت أجسام الفئران ألواناً كثيرة ، فمن الأحمر ومن الأصفر ومن الأزرق ، ولكن التريبنسومات اللعينة تكاثرت وازدحمت ورقصت في دمائها ثم قتلت الفئران جميعا مائة في المائة

وزاد إرليش في سجائره الأجنبية الغالية تدخينا ، حتى في الليل كان يقوم ليدخن منها . وزاد شربه المياه المعدنية . وقذف بالكتب إلى رأس قدريت المسكين ، وعلم الله ما كان مثله ليلام على جهله السبب في أن هذه الاصباغ لا تقتل هذه المكروبات . ونطق إرليش باللاتينية جملا رنانة ، وابتدع أغرب النظريات يشرح بها ما ينتظر من هذه الأصباغ أن تفعله ، وابتدع منها أعدادا لم يسبقه باحث إلى إبتداع مثلها من نظريات كلها خاطئة . ولكن في عام ١٩٠٣ جاءت إحدى هذه النظريات الخاطئة تأخذ بيده فتهديه سواء السبيل

فذات يوم كان إرليش يمتحن ما تصنع أصباغ فصيلة البنزو بربورين benzo-purpurin في الفئران ، وهي أصباغ معقدة التركيب جملة ، فوجد أن الفئران لا تحفل بها وتموت في تواصل مسئم لا انقطاع فيه . فتقطب جبين إرليش وقد كان مقطبا خلقة من هموم عشرين عاما لم يجد فيها النجاح إلى أعماله سبيلا . فقال لشيجا : —

« إن هذه الصبغة لا تنتشر إنتشارا مرضيا في جسم هذا الفأر ، فلو أننا يا عزيزي شيجا غيرنا تركيب هذه الصبغة قليلا ؛ لو أننا

مثلا أضفنا إلى جزيئها المجموعة الكبريتيه sulpho-group [1] فلعلها عندئذ تذوب فى دم هذا الفأر وتنتشر بذلك فيه . وتقطب جبين إرليش. ولم تكن يد إرليش يد الكيميائى الصناع، ولكن رأسه كان مستودعا عظيما ودائرة معارف واسعة لعلم الكيميا.. وكره الأجهزة المركبة بمقدار ما أحب النظريات المعقدة . ذلك أنه لم يكن يدرى ماذا يصنع بالأجهزة . وإذا هو تناول الكيمياء بيده فانما يتناولها للهو تناول اللاعب فى الماء يخوض فى الشاطئ الضحل ويخشى التعمق فالغرق . يبدأ ألف بدء بألف تجربة فى أنابيب اختباره . فيلق من هذه المادة على هذه، ومن هذه على تلك ، وينظر ما أثر هذا فى تغيير لون الصبغة ؛ ثم هو يخرج متدفعا من معمله ليرى أول شخص يلقاه جمال ما وجد ، ملوحا بالأنبوبة فى وجهه صارخا فيه : « أنظر أى جمال ! أنظر أى بدع ! » . أما التركيب الكيماوى الدقيق وخلق المواد الكيماوية بعضها من بعض فعمل لم يكن له إلا أساتذة الكيمياء وأبطالها .

وصاح إرليش : « لابد من تغيير تركيب هذه الصبغة قليلا ، وإذن تنفع حيث لم تنفع من قبل ! » وكان كما تعلم رجلا مفراحا ممراحا ، وكان من أظرف الرجال وأحبهم إلى الناس ، فلم يلبث أن عاد من مصنع الأصباغ القريب وفى يده تلك الصبغة المذكورة وقد ألصقوا بجزئيها المجموعة الكبريتية المطلوبة فتغير تركيبها التغير « القليل » المطلوب

وضرب شيجا بمحقنه تحت جلد فأرين يطلق فيهما تريبنسومات داء الورك . ومضى يوم ؛ ثم أعقبه يومان ، فأخذت عيون الفأرين تلتحم جفونها بهلام الموت ، ووقف شعرهما وتعامد هلعا من الفناء المنذر ، ولم يبق إلا يوم واحد حتى ينتهى أمرهما جميعا... ولكن صبرا ! فتحت جلد أحدهما ضرب شيجا محقنه يطلق فى جسمه تلك الصبغة الجديدة الحمراء التى تغير تركيبها « قليلا » . وشهد إرليش ما صنع شيجا ، وأخذ يتمتم ويدمدم ويقيس الأرض بخطى ذاهبة آيبة ، ويضرب بيديه ورجليه . وما هى إلا دقائق حتى أخذت أذنا هذا الفأر تحمران ، وانفتحت عيناه بعد انغلاق ، وأخذ بياضهما يستحيل إلى لون الورد فيزيد فى احمراره على حمرة إنسانيهما . هذا يوم إرليش الأسعد . هذا اليوم الذى خبأته له الأقدار طويلا وخبأت فيه مجده . فتلك التريبنسومات ذابت بدم الفأر ذوبانا فى وجه هذه الصبغة كما يذوب ثلج الأرض إذا طلعت عليه شمس إبريل الدافئة . تساقطت كل هذه المكروبات واحدة بعد واحدة حتى أخيرة الوحدات ، أسقطتها تلك الصبغة المسمومة ، تلك الرصاصة المسحورة التى طلبها طويلا حتى وجدها أخيرا . والفأر ، ماذا كان منه ؟ انفتحت عيناه بعد إنغلاقها وأخذ يجوس بمنخره فى سقاطة الخشب بقاع قفصه حتى جاء يتشمم جثة زميله الذى لم يعالج بالصبغة وقد ارتمت هامدة باردة يُرثى لها .

هذا أول فأر على ظهر هذه الأرض نجا من شرة هذا المكروب . أنجاه إرليش بفضل المثابرة والحظ ، وبفضل الله ، وبفضل صبغة أسموها « أحمر التريبان Trypan-red » ، وأما اسمها الكيماوى فيطول كثيرا . وما أنجاه حتى زاد جرأة على جرأته ، وزادت أحلام هذا اليهودى الألمانى توثبا . قال يحلم : « ها قد وجدت صبغة تشفى فأرا ، فلأجدنّ أخرى تشفى ألف ألف رجل »

ولم يتحقق رجاؤه بالسرعة التى تمنى ، واستمر شيجا يضرب أحمر التريبان فى أجسام الفيران فى جلد شنيع ، فشفيت بعضها ، وساء حال بعضها . وقد يظهر على أحدها أنه برىء فيلعب ويمرح فى قفصه ، ثم يمضى عليه ستون يوماً فيطلع عليه الصباح بسوء المزاج ، فيأتى شيجا فيقص قطعة من ذيله ثم يدعو إرليش ليريه المكروب الحى الفظيع وقد كثر فى دم الفأر حتى تلبد . ما أفظع هذه التريبنسومات ، وما أخدعها وما أصلب عودها ! إن كل المكروبات الفظيعة عودها صليب ؛ وإنك لواجد هذا المكروب أصلب المكروبات عوداً . وكيف لا وهذا هو قد اجتمع عليه ألمانى ويابانى فقذفاه بتلك الصبغة الزاهية فلعقها واستمرأها . وقد يتراجع عنها فى حذر وتبصر وينتحى لنفسه منجى عن السوء فى بعض نواحى الفأر ، ولكنه يتربص الفرص ليخرج ويتكاثر مرة أخرى .

[1] هى مجموعة معروفة للكيماويين تتركب من الكبريت والأكسجين وتنقل فى المركبات كوحدة قائمة بذاتها (المترجم)

فأرليش لم يكد يستمتع بنجاحه الأول القليل حتى توالت عليه ألف خيبة وخيبة .

فالتريبنسوم الذى وجد داود بروس David Bruce أنه سبب مرض الناجانا [1] Nagana ، وكذلك التريبنسوم الذى يسبب مرض النوم sleeping sickness ، كلاهما برقا لأحمر التريبان وهزءا منه وضحكا عليه وأبيا كل الاباء أن يقرباه ، كذلك وجد إرليش أن الصبغة التى نجحت نجاحاً باهراً فى الفيران ، أخفقت كل الاخفاق لما جربت فى الفيران البيضاء والخنازير الغينية والكلاب . لله الله ماكان أكثر جلده على مشقة مثل هذا العمل الطويل المسئم الذى لم يكن لينهض به إلا رجل ملحاح مثله رأى بشائر النجاح فى شفاء فأر واحد فتشبث بأن النجاح سوف يأتى كله ولو امتد به الزمن واشتد عليه العمل .

إنك لو عرفت كم قتل إرليش من الحيوانات فى تجاربه لقلت : « يا خسارتها » ، وأنا مثلك كنت شديد الايمان بالعلم معتزاً به وبسرعة إنتاجه اعتزازاً بلغ حد الغرور والغباء ، فكنت مثلك أقولك : « يا خسارتها » . ولكن لا . أو إن شئت فقل إنها خسارة كبرى ، ولكن اعلم إلى جانب هذا أن الطبيعة ذاتها كثيراً ما تجود بأبرع أنتجتها ولكن بعد أن تبذل وتسرف فى البذل فى سبيلها عن سعة عظمى . ومع هذا فلا بد أن تذكر أن إرليش تعلم من هـذه الخسارة درساً قيما : هات صبغة لا نفع فيها إلا ازدهاؤها وجمالها ، وغير تركيبها الكيماوى قليلا ، تستحل إلى دواء ذى شفاء . فهـذا الدرس نفع إرليش وملأه بالثقة وهو الواثق المعتز بنفسه دئماً أبداً

وزاد معمله على الزمن اتساعاً ، وزاد نصيبه من محبة الناس واحترامهم . واعتقد أهل المدينة فيه العلم وفهم كل خفية من خفاياه وحل كل طلسم من طلاسم الطبيعة . وعلموا فيه النسيان فأحبوه لهذا النسيان . وتحدثوا فيما تحدثوا أن السيد الأستاذ الدكتور إرليش كان يعلم من نفسه النسيان ، فتحين أحيان الأفراح فى بيته فيضرب لها الموعد للاحتفال بها ، فيخشى أن ينسى المواعيد فيكتب لنفسه بنفسه خطابات فى البريد يذكر نفسه بها . قالوا : « ما أسماه إنساناً ! » . وقال الحوذيون الذين اعتادوا حمله كل يوم إلى معمله : « ما أعمقه مفكراً ! » . وقال لاعب الأرغون فى الشارع ، وكان إرليش يتحفه بالحلوان الطيب كل أسبوع ليضرب له بموسيقى الرقص فى البستان بجوار معمله . قال : « لا بد أن هذا الرجل عبقرى ! » . وكان إرليش يكره الارستقراطية فى الموسيقى والآداب والفنون ، ويرى أن موسيقى الرقص تدر عليه أحسن أفكار . وقال أهل المدينة الأخيار : « ما أكثر ديمقراطيته فى الحياة إذا هى قورنت بأرستقراطيته فى العلم » ، وسموا شارعاً باسمه فى فرنكفورت . ولم يبلغ سن الكبر حتى قالوا فيه ما قالت أساطير الأولين

ثم عبده أثرياء القوم . وفى عام ١٩٠٦ نزل عليه السعد من السماء ، فوهبته امرأة تدعى فرنسسكا إسباير ، Franziska Speyer ، وكانت أرملة لصاحب مصرف ثرى مبلغاً عظيما من المال ليبنى معملا يسميه « جورج إسباير » ، وليشترى حاجته من الأدوات الزجاجية والفئران ، وحاجته من حذاق الكيمائيين الذين يستطيعون بتلويحة يد أن يخلقوا كل صبغة حبيبة اليه ، وأن يركبوا كل العقاقير الكيمائية التى يركبها هو تخطيطاً على الورق . ولولا هذه الهبة من هذه السيدة ما استطاع إرليش أن يصنع رصاصاته المسحورة أبداً ، فلصنعها احتاج إلى مجهود هذا المعمل الكبير ، هذا المصنع الملىء بالبحاث . وفى هـذا البيت ترأس إرليش على بحاث كيمائيين وسادة مكروبيين فكان كرئيس شركة تخرج فى اليوم آلاف السيارات ، ولكنه فى الواقع كان رئيساً عتيق الطريقة ، فلم يجر على أسلوب رؤساء الشركات الحديثين من دق الأجراس وإصدار الأوامر من كرسيه فى حجرة الرياسة . بل كان دائم الحركة جوالا يدخل فى هذا المعمل ، ثم فى هذا ، ثم هذا ، فى كل وقت من أوقات النهار ، ينظر ما يصنع أعوانه بل أرقاؤه وعبيده لكثرة ما يهيل عليهم من الأعمال . يدخل إلى هذا فيوبخه ، ويدخل إلى هـذا فيلاطفه ويربت على ظهره ، ثم آخر يحكى له عن أخطاء صارخة أتاها هو نفسه من قبل

« يتبع » أحمد زكى

---

(١) داء يصيب المواشي



ليوناردو دافينشي

الرجل الكامل

LEONARDO DAVINCI

للدكتور أحمد موسى

– ١ –

من أزهى عصور الفن فى أوروبا عصر الرفعة الايطالية الذى اتجه فيه الفن منذ بدء القرن السادس عشر اتجاهاً مثلياً سواء فى النحت أو التصوير .

وكان الميل كله منصبا على التعبير عن المثل الأعلى فى النحت ، وكان العطش نحو الكمال الفنى بالغاً أشده ، الأمر الذى ترتب عليه اتجاه الفنانين إلى الجمع بين الجمال السامى وبين المشاهد الحية :

فعمل الفنانون العارفون على دراسة الفن الاغريقى والتبحر فيه والغوص إلى أعماقه ، مستلهمين منه الوحى ، ساعين وراء درره الفذة ، التى لولاها لما أمكن وصول الفن فى عصر الأحياء إلى ما وصل اليه ، مما يحار المشاهد فى تعليل المقدرة الهائلة التى ذهبت به إلى هذه الناحية العالية ، التى كانت ولا تزال رمزاً يتجه اليه الفنانون والعاشقون بكليتهم وبوجدانهم .

وعلى ذلك لا مناص من اعتبار عصر الرفعة عصر إحياء للفن الكلاسيكى فى جوهره ، واقتباس منه فى مظهره ، ورجوع اليه فى أساسه ، واستلهام منه فى خياله .

ويرى المشاهد لما تركه أساطين الفن فى القرن السادس عشر بإيطاليا ، أن الغاية كانت الوصول إلى أسمى وأكمل تكوين كلى ، وأرفع وأجل مجموع إنشائى ، كما يلاحظ أن التصوير الزيتى أصبح تصويراً تاريخيا أكثر منه اجتماعيا أو منظرياً .

ولم يفز بدرجة الوصول فى القرن السادس عشر إلا ثلاثة هم : ليوناردو ، وميكيلانجلو ، ورفائيل .

واذا كنا قد تخيرنا اليوم ليوناردو دافينشي ، فان ذلك راجع الى أنه المؤسس لهذا الاتجاه العظيم . فكان بذلك النابغة الفذ ، الذى لم يماثله فى نبوغه أحد من معاصريه ، فقد جمع إلى القدرة الفنية ، الاحاطة بالهندسة والرياضة والعلوم الطبيعية والميكانيكا التطبيقية والموسيقى والشعر ، كما كان مهندساً معمارياً قديراً ومثالا ومصوراً .



١ — المادونا فى المغارة ، متحف اللوفر

وعرف عنه أنه كان جميل الخلق جميل الطلعة نبيل الأصل ، فلا غرابة إذا أطلق عليه المؤرخون « الرجل الكامل » . كتب فى كثير من الابحاث ، وله فيها آثار جليلة ، من أهمها لتاريخ الفن كتاباه البديعان « قواعد علم التصوير » ، و « الصناعة والجمال » .

ولكن جوهر حياته ، وأعظم ما أنتج ووصل إلى الذروة فيه كان التصوير الذى اتخذه مهنة له عاش من أجله لتأدية رسالته فيه .

أما ميزاته الفنية فكانت المعرفة والمقدرة والخلق إلى أبعد حدود معانيها كلها . أما المعرفة فقد وصل فيها إلى حدود الدهشة فاحاط بالطبيعة إحاطة غريبة ، لاسيما إلمامه بطبيعة الانسان من الناحية التشريحية والفسيوجنومية ، أعنى ما يفهم من إشارات الأيدى وأوضاعها ، وما تعبر عنه كل إشارة وما يقصد بكل وضع لها ، ودرس حياة الحيوان وحياة النبات ، وأخيرا المناظر الطبيعية الشاملة لكليهما . فضلا عن محبته العظيمة للحيوانات ، ورغبته البالغة فى مراقبتها ودراستها .

كان له الفضل فى تأسيس منهج جديد فى التصوير جعله نابضا بالحياة ، كما خلق فيه الظل والنور الممزوجين كالدخان ، فخلا كلاهما من خطوط التحديد ، وأصبح النور مندمجاً فى الظل متداخلا فيه لايستطيع الناظر اليه أن يحدد موضع الفصل بينهما .

ووصل بتسجيله للواقع إلى أبدع ما يمكن الوصول اليه وهو المثل الأعلى فى الجمال ، وكان التكوين الكلاسيكى مذهبه ، كما كان الانسجام روح هذا المذهب .

وتوفر معنى الاستاذية فى الانشاء الموضوعى لكل لوحاته ، لعمق بحثه ، ورقة تأثره ، وبعده عن العنف التكوينى إلا فى بعض لوحاته التى أصدرها فى المرحلة الأخيرة من حياته ، فخلق بريشته شعراً منثوراً ، يذهب بالمشاهد الى استمتاع العاشق بالقرب من معشوقه ، كما لا يحرم المعشوق من كل معانى المديح والاطراء ، فتراه يظهر أجسام النساء جميلة صحيحة منسجمة التكوين بعيدة عن التكلف أو التعمد .

ولد ليوناردو سنة ١٤٥٢ فى فيلا فينشى فى حدود مقاطعة فيرنزا (فلورنسا) ، جاء صغيرا مع أبيه بيرو دافينشى إلى فلورنسا العاصمة ، وتربى تربية علمية إلى أن التحق بالعمل عند اندريا فيروتشيو ، واستمر لديه حتى سافر إلى روما فى مارس سنة ١٤٨٠ ، وأقام فيها إلى يوليوسنة ١٤٨١ ثم عاد إلى فلورنسا .

على أن لوحات ليوناردو الأولى ليست معروفة كلها ، وقد أحاط بها شىء من الغموض لايمكننا من تناولها جميعها بالفحص الوصف . ولكن هذا لايمنع من أن نذكر أهم لوحتين له فى مرحلته الفنية الأولى ، وكلتاهما تمثل (التبشير) ، توجد الأولى باللوفر ومؤرخة سنة ١٤٧٠ ، والثانية بالجاليرى أو فى فيتزى بفلورنسا مؤرخة سنة ١٤٧٢ ، وفيها ترى العذراء جالسة إلى مدخل بيتها وعلى يسار اللوحة ركع ملاك يبشرها بالمسيح ، وفى مؤخر المنظر مجموعة أشجار ذات لون طبيعى جميل .

وله أيضاً جزء من لوحة معلمه فيروتشيو (تعميد المسيح) ، قام ليوناردو بتصوير الملاك عليها ، وهى محفوظة بأكاديمى فلورنسا وصورة العذراء مع الطفل (متحف ميونيخ) ١٤٧٨ ، وقيامة المسيح مع القديس ليوناردو والقديسة لوتشيا (جاليرى برلين) وصلاة الملوك الثلاثة للمسيح ، وهى صورة لهيكل كنيسة عملت لوضع الفكرة والتصميم باللون الأسمر (جاليرى الفاتيكان) . ولعل آخر صورتين للمرحلة الأولى فى خلقه الفنى هما الصورتان المتشابهتان اسما وموضوعا (المادونا فى المغارة) ، الأولى من



٢ — العشاء الاخير ، بميلانو — سانتاه ماديا دى لاجواتسيا



الفن المصري في حاجة إلى الرعاية

ارتفع صوت الفنانين المصريين بالشكوى من موقف الحكومة معهم وضنها عليهم بالتشجيع والرعاية. بينما هي لا تضن بتشجيعها ورعايتها على الفنانين الأجانب الذين يهبطون مصر ويجدون فيها سبيل العيش خصبا موفورا في ظل هذه الرعاية. وفي مصر الآن طائفة لا بأس بها من الشباب الذين برعوا في الفنون الجميلة وتلقوها في أحسن المعاهد الأوربية، وقد ظهرت هذه البراعة ماثلة في كثير من المعارض التي عرضت فيها صور وتماثيل من صنع الشباب المصري؛ ولكن الحكومة المصرية أو بالحرى وزارة المعارف لم تحفل كثيرا بجهود أولئك الفنانين الشبان، وقلما عنيت بشهود معارضهم، بينما لا تتوانى عن شهود معارض الفنانين الأجانب سواء بحضور الوزير ذاته أو بعض أكابر الموظفين، أو شراء بعض اللوحات والقطع المعروضة. ومنذ أعوام قلائل أنشأ الفنانون المصريون لهم رابطة لتعنى بشؤونهم، فلم تولها الجهات الرسمية أية رعاية. ولم تتكرم عليها بأية معاونة. وهذه سياسة تحمل على التساؤل. ونحن لا نأخذ على وزارة المعارف أنها تشجع الفن والفنانين من أي الجنسيات؛ ولكن الذي يحز في نفس كل مصري أن يبقى هذا التشجيع كأنه وقف على الفنانين الأجانب؛ وأن يترك الفنانون المصريون بلا رعاية رسمية تذكي هممهم وتحقق أمانيهم. وقد آن الوقت الذي يحسن أن تعدل فيه وزارة المعارف خطتها، وأن تشمل الفنانين المصريين بسابغ رعايتها

مؤتمر القلم الدولي وبرنامجه:

يعقد المؤتمر الدولي الخامس عشر لاتحاد نوادي القلم في باريس في يوم الأحد ٢٠ يونيه، ويستمر انعقاده إلى الرابع والعشرين وتقام حفلة الافتتاح في معهد التعاون العقلي، ويشمل البرنامج عدة حفلات واستقبالات ومآدب

ناسيونال حاليري بلندن والثانية ش ١ - باللوفر. والناظر إلى هذه اللوحة تأخذه لأول وهلة روعة القوة الانسانية، وإحاطة ليوناردو بالمظاهر الطبيعية والتأثر بها؛ فالمغارة الجميلة مجسمة صادقة المحاكاة، وأوراق الشجر حية دقيقة التفاصيل، هذا إلى جانب تصويره لطبقات الأرض على شاطىء الغدير، فجعلها تحاكي النظرية الجيولوجية محاكاة علمية.

انظر إلى ركعة العذراء، وإلى الطهارة المتجلية في ملامح وجهها، ثم تأمل قوة الاخراج الرائعة لملابسها، وشاهد الظل والنور الذي تخلل انكسار هذه الملابس. ولاحظ الطريقة العدة التي أخرج بها اليد اليسرى للعذراء وهي تشير للملاك، ثم تأمل إلى جانب هذا، الحنان الفائق الذي يتمثل في الكيفية التي أمسكت العذراء بها الطفل الجالس إلى يمينها.

وقف الملاك راكعا خلف المسيح الطفل يشير بيمناه إلى طفل آخر يصلي أمامه، والمتأمل لوجه الملاك لا يستطيع إلا أن يرى فيه سحرا يبعث في النفس كل معاني التقديس للملائكة، ولعلك إذا قارنت بين نظرة العذراء إلى أسفل، ونظرة الملاك إلى المشاهد ترى أنك لا تعرف أيهما أروع. فأنت تحار في هذه القوة الخارقة التي وهبها ليوناردو والتي لم تكن لغيره من معاصريه.

انظر إلى اللوحة نظرة محيطة، واجتهد أن تتذوق ما فيها من تفاصيل، وارجع بفكرك إلى علم النبات، تر أن الفنان قد أعطانا فكرة رائعة عن حال الاشجار من كبيرة وصغيرة، تأمل أوراق الشجر تر أنها كلها مع صدقها في محاكاة الطبيعة مختلفة التكوين والشكل، وهذا دليل على التفوق والاحاطة.

(له بقية) **أحمد موسى**

منها حفلة استقبال يقيمها رئيس الجمهورية للندوبين، وحفلة ساهرة تقام فى الكوميدى فرانسيز، وزيارات لمعالم باريس وفرساى، وحضور اللوار، ومعرض باريس الدولى. ويشمل برنامج العمل فضلا عن بحث الاقتراحات المختلفة مناقشة عدة مسائل أدبية هامة منها:

(١) هل يوجد أسلوب معاصر للأدب العالمى ؟

(٢) كيف يمكن التوصل إلى جعل الثقافة عالمية بغير طريق الترجمة ؟

(٣) وكيف يمكن تنظيم التبادل فى مسألة العقد الأدبى بين مختلف الأمم وإنشاء نقد أدبى دولى ؟

(٤) الوسائل التى يمكن بحثها للتعبير المشترك فى أدب الجيل الحاضر والمستقبل.

(٥) مستقبل الشعر فى العالم الحديث.

وسينزل المندوبون ضيوفاً على لجنة تنظيم المؤتمر أيام المؤتمر الرسمية. وقد سبق أن أشرنا إلى أن نادى القلم المصرى سيشترك فى هذا المؤتمر على يد وفد من أعضائه برياسة الدكتور طه حسين بك عميد كلية الآداب، وقد ينتهز ممثلو مصر هذه الفرصة فيقدمون الدعوة إلى لجنة تنظيم المؤتمر بعقد أحد المؤتمرات القريبة المقبلة لنوادى القلم بمدينة القاهرة؛ على أن ذلك لا يمكن أن يكون قبل سنة ١٩٤٠.

استعمار المناطق القطبية

لفتت روسيا السوفياتية فى الأعوام الأخيرة أنظار العالم بالجهود الجبارة التى تقوم بها فى سبيل إصلاح المناطق القطبية واستثمارها وتعميرها. والمناطق القطبية كما هو معروف بسائط شاسعة لا نهاية من الجليد، وتكاد تكون قفراً من البشر. وروسيا تسيطر على مساحات عظيمة من هذه المناطق سواء فى سيبيريا أو فى الجزر الشمالية القطبية مثل نوفازمبلا وستبزبرجن. وقد صدر أخيراً كتاب عجيب عن الجهود التى تبذلها روسيا لتعمير هذه الوهاد الثلجية الهائلة، وفيه بحوث هامة عن «المعهد القطبى» الذى أقامته الحكومة الروسية فى لننجراد وزودته بجمع عظيم من العلماء فى مختلف الفروع التى تعاون على تحقيق هذه المهمة الاستعمارية العظيمة مثل الجيولوجيا والمترولوجيا والكيميا وعلوم المحيط والبيولوجيا والتحليلات وغيرها. وعدد هؤلاء الاخصائيين ثلاثمائة وخمسون، وهم يبذلون جهوداً تدعو إلى الاعجاب فى الكشف عن أسرار هذه الأنحاء القطبية. وعنوان الكتاب المذكور هو: «أربعون الفاً ضد المحيط المتجمد»، ومؤلفه كاتب خبير بشئون روسيا هو ه. سمولكا. وقد استعرض المؤلف جهود روسيا فى سبيل اكتشاف المناطق القطبية وتعميرها، وذكر أن هذه المهمة تكاد تكون اليوم وقفاً على روسيا؛ وروسيا تقوم فيها بأعظم قسط من الجهود الانسانية وربما كانت جهودها فى ذلك أعظم ماقدمته فى العصر الأخير للعالم وللانسانية. ويصف الكاتب أعاجيب «المعهد القطبى» وجهود علمائه وما وفقوا اليه من الاكتشافات العلمية والعمرانية، كل ذلك فى فصول قوية شائقة بما تحويه من مختلف المعلومات الغريبة عن الحياة فى تلك الأصقاع المتجمدة

جوائز أدبية أمريكية

من أنباء نيويورك أن جائزة الأدب الكبرى المعروفة بجائزة «بولتزر» وقدرها ألف دولار (مائتا جنيه)، وهى المخصصة لأحسن رواية، تصدر فى العام، قد منحت بواسطة جامعة كولومبيا التى تتولى أمرها، إلى الكاتبه الأمريكية مس مرجريت متشل من أجل روايتها «ذهبت مع الريح» Gone with the wind التى بيع منها فى أقل من عام نحو مليون ونصف نسخة

ومنحت نفس الجائزة عن أحسن قطعة مسرحية تصدر فى العام إلى الكاتبين المسرحيين جورج كاوفمان وموسى هارت من أجل مسرحيتهما «لن تستطيع أخذها معك»، وهى تمثل الآن على جميع المسارح الأمريكية الكبرى

ومنحت جائزة «بولتزر» أيضاً عن الصحافة لمستر جون ومن محرر جريدة «شمس بلتيمور» لأنه نشر أبدع مقال افتتاحى فى سنة ١٩٣٦

بحث عن البغاء

صدر أخيراً فى فرنسا كتاب اجتماعى خطير عنوانه «بحث عن البغاء» Enquête sur la prostitution بقلم الكاتب الكبير جان جوسى فرابا، وهو عبارة عن صور قوية مؤثرة عما شهد الكاتب وبحث بنفسه سواء فى اماكن البغاء العلنية، أو فى الشارع، أو فى المنازل السرية الرفيعة، أو فى أوكار البؤس المروعة. وقد قضى الكاتب فى بحثه أعواما يجوس فيها أعماق باريس، ويحقق حالها الاجتماعية الخطيرة، وهو يتوجه فيه بالدعوة الحارة الى الحكومة والبرلمان والامة الفرنسية أن يعملوا جميعا لانقاذ الانسانية من هذا الوباء الاجتماعى الجارف وقد أثار الكتاب منذ ظهوره كثيراً من الاهتمام.

موقع طروادة

لبثت الياذة هوميروس حتى العصر الحديث تعتبر قطعة من الخيال المحض، ولبثت مدينه طروادة التى اتخذت مسرحا لحوادث الالياذة مدينة خيالية؛ ولكن مباحث العلامة الأثرى شليمان فى منطقة «حصارلك» فى غرب الأناضول كشفت عن موقع مدينة مسورة، عليها آثار الغنى والفخامة، ودلائل تدل على أنها أحرقت؛ فقيل عندئذ إن هذه ليست سوى مدينة طروادة، وأن هوميروس حينما تحدث عن حصار طروادة حديثه الرائع لم يكن يروى سوى واقعة تاريخية؛ وحاول كثير من العلماء أن يطبقوا أوصاف الالياذة على المدينة المكتشفه؛ بيد أن الحفر المتواصل فى هذه المنطقة كشف عن سبع مدائن قديمة. فأيها فى الواقع طروادة؟ ولاحظ بعض العلماء من جهة أخرى أن هذه المدن المتواضعة لا تتناسب مع الأوصاف الرائعة التى يسبغها الشاعر على «طروادة». وقد ظهر أخيراً كتاب بالفرنسية عنوانه «الجدل حول طروادة» Controverses autour de Troeiu بقلم العلامة الفرنسى شارل فلاى، يستعرض فيه مختلف الفروض والنظريات التى تنطبق على طروادة وظروفها. ذلك أن المعروف أن طروادة قد خربت وأبيدت، فكيف يرجو المنقبون أن يقفوا على أطلالها كاملة؟ ومن جهة أخرى فليس من المحقق أن هوميروس كتب عن علم دقيق بالجغرافيا والمواقع، وقد يكون للخيال شأن كبير فى الأوصاف التى يقدمها إلينا عن المدينة الشهيرة. ويحاول المؤلف أن يناقش هذه الآراء كلها، وأن يستخلص أوضح النتائج التى تؤيدها الأسانيد التاريخية والجغرافية والأثرية عن موقع طروادة، وعن مصايرها منذ التاريخ القديم

الخطابات الغفل

ذاع فى العهد الأخير فى فرنسا توجيه الخطابات القاذفة الغفل من التوقيع، وضبطت لهذه الخطابات عدة وقائع رنانة؛ وكتب الكتاب والعلماء بهذه المناسبة يبحثون عن أعراض هذه العلة وأسبابها؛ ويقول الدكتور لوكار فى مقال نشرته جريدة الجورنال الباريسية إن كتابة الخطابات الغفل ترجع إلى بواعث ثلاثة هى المصلحة والانتقام والحسد، فهذه البواعث الثلاثة هى التى تحمل الشخص العاقل على عدم توقيع ما يكتبه. بيد أن هناك أشخاصا تنتابهم أزمات عقلية وعصبية معينة فيكتبون مئات الخطابات الغفل، وهنا تبدأ أعراض المرض ذلك لأن شهوة الخطابات الغفل مرض حقيقى؛ وربما كانت أهم أسبابه راجعة إلى عوامل جنسية، ومن النادر أن تجد الخطابات الغفل مكتوبة باتزان أو لغة محتشمة، فهى فى الغالب مصوغة فى لهجة فاحشة، ولكنها تدل أيضا على جهل كاتبيها بهذه الصيغ القاذفة لأنهم فى الواقع ينتمون إلى بيئة رفيعة.

وكثير من العذارى اللائى تقدمن فى السن، أو أرهقهن الضغط الاجتماعى يجدن متنفسا فى كتابة الخطابات الغفل؛ وقلما تصدر هذه الخطابات من شخص - رجل أو امرأة - يتمتع بحياة جنسية منتظمة

ومن خواص كاتب الخطاب الغفل ألا يعترف أبدا. وكثير من النساء يضبطن وهن متلبسات بالكتابة ومع ذلك ينكرن عملهن.

والخلاصة أن شهوة الخطابات الغفل مرض؛ والمصاب بها يمكن أن يعتبر شخصا غير عادى إذا لم يكن مجنونا فى الواقع



اسماعيل المفترى عليه

تأليف القاضى بيير كربتيس

وترجمة الأستاذ فؤاد صروف

للأستاذ الغنيمى

— ٥ —

نستطيع أن نفهم أن المترجم قد يخطىء فى عبارة صعبة غامضة المعنى ، ولكن الذى لا نستطيع أن نفهمه أن يعمد المترجم إلى عبارة سهلة واضحة المعنى فيستبدل بمعناها معنى آخر من عنده بعيد كل البعد عن المعنى المراد

(١) أنظر إلى قول المؤلف عن موقف اسماعيل من السخرة

Ismail's attitude towards the corvée was not a fleeting fancy.

فهل فى هذه العبارة غموض يجيز للأستاذ صروف أن يترجمها بقوله : « إن موقف اسماعيل بازاء السخرة لم يكن يقصد منه التظاهر » من أين جاء الأستاذ بالتظاهر . إن المعنى الذى لا يخفى على إنسان هو لم يقف اسماعيل موقفه من السخرة لفكرة عارضة زائلة »

(٢) ومن هذا النوع أيضاً العبارة الآتية التى تبين الأثر الذى انطبع فى ذهن اسماعيل حين رأى صمويل بيكر لأول مرة

Ismail became impressed with his vigorous personality.

والتى ترجمها الأستاذ صروف بهذه العبارة الغامضة « وقع عنده موقعاً حسناً » فأين ذلك من قول المؤلف أن اسماعيل قد أعجب بشخصيته القوية أو أثرت فيه شخصيته القوية

(٣) ولا يختلف عن ذلك ما ترجم به الأستاذ صروف وصف المؤلف لحملة بيكر الذى يقول فيه

The official nature and character of which made it an undertaking of considerable importance

فقد ترجمه الأستاذ صروف بقوله « انها كانت عملا ذا شأن خطير » أما سبب هذا الخطر وهو طبيعتها وصفتها الرسمية فلم يعن المترجم ببيانه كما بينه المؤلف

(٤) ومن العبارات التى أغفلها المترجم قول المؤلف فى موقف اسماعيل من السير صمويل بيكر

His good faith cannot be successfully attacked, for his agent's field of operation was several thousond miles south of Cairo. In the territory over which he was appointed, the Englishman was lord and master.

وكل هذه معان لها قيمتها لم يذكرها المؤلف عبثاً ، وليس فيها شىء من الصعوبة ، ولكن الأستاذ حذفها كلها

(٥) وترجم الأستاذ عبارة Legitimate commerce بقوله التجارة المنظمة مع أن معناها التجارة المشروعة ؛ والفرق بين المعنيين كبير لأن النخاسة قد تكون تجارة منظمة . أما التجارة المشروعة أو المباحة فلا يمكن أن تشمل تجارة الرقيق

(٧) ثم لينظر القارىء معنا إلى هذه العبارة التى يصف بها المؤلف عمل المراجعين الذين جاءوا لفحص حسابات اسماعيل

Auditors, as a rule, are as cold as fishes. The human equation means nothing to them. They have but one mandate. It is a mission of heartless scrutiny. Tangible assets and liabilities, real or potential, are the only things that interest them.

ولينظر بعد ذلك إلى ترجمة الأستاذ صروف التى يقول فيها « إن فاحصى الحسابات (المراجعون) لا يهمهم عادة إلا فحص ما يقدم إليهم من سجلات ودفاتر ومن مستندات الديون التى هى للغير أو على الغير »

ونحن إذا تجاوزنا عن أسلوب هذه العبارة نرى أنها لم تؤد إلا جزءاً يسيراً من معانى العبارة الانجليزية . قد يكون فى هذه العبارة الانجليزية شىء من الصعوبة ولكن هذه الصعوبة هى محك القدرة على الترجمة وإلى الاستاذ ترجمة لهذه القطعة جامعة لكل ما فيها من المعانى :

« إن المحاسبين في العادة لاقلب لهم ، وليس لهم شان باحساس الناس وعواطفهم ، ولا يضعون نصب أعينهم إلا غرضا واحدا هو البحث والتدقيق ، لا تاخذهم فيه هوادة . وكل ما يعنون به هو ما للشخص وما عليه سواء أكان ذلك حقيقة حاضرة أم تقديرا مستقبلا

(٧) هل يصدق القارىء أن الأستاذ صروف قد ترجم

Before he left for the Sudan on his first mission

بقوله « قبل مغادرته السودان في مهمته الأولى » وهل يمكن أن لايعرف الاستاذ صروف أن Left for معناها « سافر إلى » لا غادر ؟ وأين كانت مهمة غردون الا ولى التي سافر اليها من السودان ؟

إنا لانكاد نصدق أن الاستاذ صروف قد ترجم هذه العبارة أو اطلع عليها وعلى الأصل بعد الترجمة

قال المؤلف في الأموال التي أنفقها إسماعيل في حرب الرقيق

Even if such considerations as these may perhaps tend to warrant the blotting out from the « moral principle » balance sheet of the money spent by Ismail etc.

فقلب الاستاذ صروف معنى هذه العبارة إذ قال : « ومع أن الاعتبارات المار ذكرها قد تسوغ انفاق اسماعيل للمال الخ » مع أن الترجمة الصحيحة هي : وحتى لو كانت هذه الاعتبارات كلها تبرر اغفال الأموال التي أنفقها اسماعيل وتجيز محوها من سجل أعماله الأدبية الخ ، وما أكبر الفرق بين المعنيين !

(٨) وقال المؤلف في تقديره الأموال التي أنفقها اسماعيل في محاربة النخاسة

In order to estimate what this X may possibly amount to, it is well to recall etc.

فلم ير الاستاذ صروف أن يترجم هذه العبارة با كثر من قوله « ولا يعزب عن البال » والاستاذ مولع بمثل هذه العبارة المبهمة فقد تكررت هي ولفظ « وعليه » أكثر من مرة بدل جمل طويلة ذات معان كثيرة في الأصل الانجليزي

(١٠) ويقول القاضي كريبتس إن قناصل أوربا وأمريكا كانوا يحمون تجارة الرقيق ، وان السفن التي كانت تحمل العبيد كانت ترفع الراية الامريكية ثم يقول بعد ذلك :

Thus secured from interference by the Consuls of Europe and America etc.

فقال الاستاذ صروف في ترجمتها إنهم كانوا بمأمن من تعرض قناصل أوربا وأمريكا ، مع أن المعنى الحقيقي أن « قناصل أوربا وأمريكا كانوا يحمون هؤلاء التجار من أن يتعرض لهم أحد .

ذكر المؤلف ذلك في الفقرة السابقة لهذه العبارة المنقولة من كتاب السير صمويل .

(٩) هل سمع القارىء أن كلمة :

Uususpecting villags

معناها « القرية المقصودة » هذا ما ترجمها به الاستاذ صروف بدل القرية الآمنة أو الغافلة عما يراد بها .

(١٠) وقال المؤلف عن العقد الذي كان بين بيكر واسماعيل باشا

It appears that he drafted the contract which defines his relations with the Viceroy.

أليس المعنى الذي يفهمه كل إنسان من هذه العبارة هو : ويلوح أن (السير صمويل بيكر) هو الذي كتب صورة العقد الذي يحدد علاقته بالوالي . لكن الاستاذ لم يفهمها كذلك بدليل أنه قال في ترجمتها « ويظهر أنه كان بينه وبين الخديو عقد لتنظيم علاقته به » وهذا مالم يقله المؤلف ، فان وجود العقد لاشك فيه كما قال ذلك بصريح العبارة بعد سطر واحد من هذا الكلام ولكن الذي لم يتأكد منه هو أن كاتب هذا العقد هو السير صمويل بيكر .

(١١) وقال المؤلف يصف صعوبة نقل المؤن والذخائر والسفن من مصر إلى السودان

It had to be delivered at so great a distance and transported by sea-going steamers, river boats and camel back.

فترجم الأستاذ صروف ذلك بقوله « كان يجب نقلها مسافات شاسعة جدا » وأين بقية المعاني ؟ أين طرق نقلها - البواخر البحرية والقوارب النهرية وظهور الابل ؟

نكتفي بهذه الأغلاط من الفصل الخامس لننتقل إلى الفصل السادس لنبدأه بهذه الغلطة التي لايصح أن يقع فيها مترجم .

(١) قال المؤلف عن الرجال الذين صحبوا بيكر في رحلته

It had for its heroes the two Bakers uncle and nephew, Abdel Kader, the Muslim, Mansur the Copt and every man of that élite corps etc.

أيدري القارىء ماذا قال الأستاذ صروف ؟ قال : « أبطالها السير صمويل بيكر نفسه وابن أخيه وأتباعه عبد القادر ومسلم ومنصور ورجل قبطي وطائفة من الأتباع والانصار » . إننا كلما أمعنا في قراءة الكتاب زادت شكوكنا في أن الاستاذ صروف قد ترجمه بنفسه أو اطلع على الترجمة ، وإلا فهل كان يخفى عليه أن معنى العبارة هو : « أبطالها السير صمويل بيكر وابن أخيه وعبد القادر المسلم ومنصور القبطي وكل رجل من هذه الطائفة المصطفاة » : قد يظن الاستاذ صروف أن الشولات تجيز له أن

يفهمها كما فهمها ولكن ذلك ظن غير صحيح فعبد القادر هو المسلم ومنصور هو القبطى مهما وضع بينها من شولات

(١) وقال المؤلف فى هذا المعنى نفسه :

Its brigands become saints.

فقال المترجم « لصوصها الذين تحولوا إلى الشهامة » وهى عبارة لا معنى لها ولا ندرى لم لم يترجمها الأستاذ كما هى ليفهمها الناس فيقول « لصوصها الذين عدوا (أو أصبحوا) فيما بعد قديسين »

(٢) وقال المؤلف يصف حفلة رفع العلم المصرى على البلاد التى فتحها بيكر

The troops formed three sides of a square.

فقال الاستاذ صروف « ووقف الجنود بشكل ثلاث أضلاع من أضلاع مربع مستطيل » ولاندرى ما هو هذا المربع المستطيل ولا من أين جاء الاستاذ صروف بلفظ مستطيل التى أفسدت المعنى

(٣) وقال اسماعيل فى عهده إلى السير صموئيل بيكر وهو ذاهب لمحاربة الرق

You will in a short time get the natives to replace an illegitimate interest by a legitimate one.

فقال الأستاذ صروف فى ترجمة الجملة المنقولة عن وثيقة رسمية عظيمة القيمة : « فتجذب إليك القبائل » فإن هذا من معناها الحقيقى وهو « أنك لاتلبث أن ترى الاهلين يستبدلون بعملهم المحرم عملا مشروعا »

(٤) وقال المؤلف عن غردون واسماعيل

Two English gentlemen who would not give their friendship and confidence to a bad man.

ومعنى ذلك أنهما « من أشراف الانجليز الذين يضنون بصداقتهما وثقتهما على أشرار الناس » ولكن الاستاذ صروف يترجم ذلك بقوله « وما كانا ليفرطا فى صداقته »

(٤) هل معنى Great profits « بعض الأرباح » أو معناها أرباحاً عظيمة

(٥) وقال المؤلف فى معرض كلامه عن الضباط الأمريكيين الذين استخدمهم اسماعيل

Blue book material cannot be found to bear out these statements.

وهى عبارة معناها « لا توجد كتاب زرقاء تؤيد هذه الأقوال ولكن المترجم لسبب ما ترك هذه العبارة من غير ترجمة

(٦) وقال اسماعيل فى خطابه إلى رئيس الضباط الأمريكيين

I count upon your discretion, devotion and zeal.

معناها أنى أعتمد على حكمتك وإخلاصك وغيرتك » ولكن الأستاذ ظن أن discretion مشتقة من لفظ secret فترجم العبارة كلها بقوله : « إنى أعتمد على حبكم وإخلاصكم ومراعاتكم لشروط الكتمان » فغير بذلك المعنى وأفسد الأسلوب

(٧) وقال المؤلف يعلق على تعيين الجنرال استون رئيسا لهيئة أركان حرب الجيش المصرى

This designation meant more than the . . .

وهى عبارة طويلة ترجمتها بالضبط « وكان لهذا التعيين معنىً أبعد من مجرد ! إختيار مت ، ولورنج ، وسبلى لجيش الوالى كان يحوى كثيرا من الضباط الأجانب . لقد كان اختيار هذا الضابط الأمريكى لذلك المنصب ثم اختيار عدد كبير من بنى وطنه معه ذا معنى خاص . كان إيذانا بانقضاء عهد السيادة الفرنسية على مصر ولم يكن معناه أن إنجلترا سكسونيا قد خلف غاليا (فرنسيا) أو أن الصقلى والتيوتونى قد ضعف أمرهما معا . لم يكن معناه ذلك بل كان معناه أن عهدا جديدا قد طلع على مصر وأن إسماعيل قد حرر بلاده من القيود الأجنبية واعتزم أن لا يكون لأحد سلطان عليه : نعم إنه استعان بالأمريكيين ولكن أحدا لا يجهل أن الولايات المتحدة لم يكن لها مطامع إستعمارية فى مصر أو فى إفريقية

ثم انظر بعد ذلك إلى ترجمة الأستاذ « وكان لهذا التعيين مغزى أبعد من تعيين سائر الضباط الأجانب فى جيش الخديو إذ كان نذيرا بانتهاء السيادة الفرنسية وبدء عهد جديد تتمتع فيه مصر باستقلالها ويصبح فيه الخديو سيد نفسه . ومما أعان على تحقيق ذلك ما يعرفه الخاص والعام من أن الولايات المتحدة كانت منزهة عن كل غرض إستعمارى أو غاية أمبريالستية فى مصر وأفريقية . »

لو أن الاستاذ كان يلخص الكتاب لجاز له أن يقول هذا القول على ما فيه من تغيير واختلاف عن قول المؤلف ؛ أما الترجمة فلا يجوز فيها هذا . وقد حذفنا أصل هذه الفقرة الانجليزى لانه يشغل عمودا كاملا من الرسالة فليرجع إليه القارىء إن شاء ونؤكد له أنه يطابق ترجمتنا مطابقة تامة

(٨) هل يصدق القارىء أن الاستاذ صروف يقول « وفى وسعنا ان نخمن على تلك الأعمال » ترجمة لقول المؤلف

But the total of this outlay can be surmised.

الذى معناه « أننا نستطيع أن نتصور مجموع هذه المبالغ بوجه التقريب الخ »

ولنكتف بهذا القدر اليوم وموعدنا العدد القادم ان شاء الله

الغنيمى

(بقية المنشور على صفحة ٨٠٣)

بعنوانه ، ولكنى أعتقد أن عنوان الكتاب يبوبه وينظمه ، ويلائم بين أجزائه ويشيع فيه هذه الموسيقى التى تحببه إلى النفوس وتغرى به عقول القراء . وأول ما يجب من العناية بالعنوان فيما أرى أن نذهب به مذهب القدماء الصالحين ، فلا نرسله إرسالاً ولكن نقيده بالسجع ، لأن ارسال الأشياء فى غير قيد يمكنها من أن تهيم على وجهها وتنطلق فى غير وجه ، وتكون كالجراد هذا الذى لا يستقر على سنبلة أو كوز الا ريثما ينتقل إلى سنبلة أو كوز . فاذا أردت يا صديقى أن تضع كتاباً فلا تفكر فى موضوعه ولا فى أجزائه ولا فى أبوابه وفصوله ولا فى غاياته وأغراضه ، فهذا كله يأتى وحده دون أن تدعوه أو تلح فى دعائه بالعناية أو التفكير ، إنما الشىء الذى يجب أن تقف عليه جهدك ، وتنفق فيه وقتك ، وتستنفد فيه قوتك ، هو العنوان ، والعنوان المقيد المسجوع . ويشهد بذلك تراثنا الأدبى العظيم الذى إن أحصيته وجدت أكثره قد قيد بهذه العنوانات المسجوعة ؛ ويشهد بذلك صديقنا الزيات فقد كانت لنا معه جولات قيمة خصبة أيام الشباب فى هذا الفن الذى لا يحسنه إلا الأقلون ؛ ويشهد بذلك صديقنا محمود حسن زناتى الذى كان أستاذنا فى هذا الفن العجيب . لذلك لم أكد أختار هذا الموضوع للحديث حتى فكرت قبل كل شىء فى عنوان الكتاب الذى ألفته ولم تذبنى منه إلا بطرف يسير قصير . وقد سميت هذا الكتاب كتاب الارشاد إلى فلسفة الجراد . وأخص ما يمتاز به العنوان البارع أن يراه القارىء فيظنه واضحا جليا ، فاذا رآه الاخصائى تبين فيه ألوانا من الغموض وفنونا من الغرابة تحتاج إلى الشرح والتفسير ، وإلى الحاشية والتقرير . ولا شك فى أن المثقفين من قراء الرسالة سيرون هذا العنوان سهلا سائغا وقريبا دانياً .

ولكن أصحاب البيان والراسخين فى علم التاويل سيلاحظون أن كلمة الفلسفة هنا قد استعملت فى غير معناها الحقيقى المعروف ؛ فليس للجراد فلسفة ؛ والدليل على ذلك أنك تريد أن تعلمه الفلسفة ، وإذن فقد يقال إن فى هذه الكلمة مجازا مرسلا لأن المؤلف أراد فلسفة الجراد باعتبار ماسيكون، لأن الجراد إذا قرأ كتابك إن شاء الله تهذب وتأدب وصارت له فلسفة . ولكن ليس هذا هو الذى اراده المؤلف ، فقد يكون أراد شيئاً آخر ، وهو أن للجراد الآن فلسفة جرادية يراد أن يعدل عنها إلى الفلسفة الانسانية . وقد يكون المؤلف أراد بالفلسفة المصدر أى جعل الجراد فيلسوفا يقال فلسفت الشىء جعلته فلسفيا ، وفلسفت الانسان جعلته من اصحاب الفلسفة ، وفلسفت الجراد جعلته مفلسفا . ولا تبحث عن هذه الكلمة فى المعاجم العربية القديمة ، فقد لا تظفر فى هذه المعاجم بشىء ، ولكن ابحث عن هذه الكلمة عند الفلاسفة فى كلية الآداب فهم الذين يلائمون بين القديم والجديد ، وهم الذين يرجع اليهم فى مثل هذه المشكلات .

أرأيت أن كلمة واحدة من هذا العنوان قد أثارت كل هذه الأبحاث التى أومأت إليها إيماء ، فكيف بكلماته الاخرى إذا لوحظت مفرقة وإذا لوحظت مجموعة . والشىء الذى ليس فيه شك هو أن هذا العنوان سيضمن لك شيئين : الأول أنه اعلان سيعجب القراء ويروقهم ، بل سيبهرهم ويروعهم ، وسيدعوهم إلى شراء الكتاب والترويج له عند الأصحاب والأصدقاء . ولعله يروق فى وزارة المعارف وأنت أعلم بما وراء ذلك من المنافع التى لا تحصى . والشىء الثانى أن هذا العنوان سيرسم لك برنامج الكتاب ويمكنك من تبويبه فى غير مشقة ولا عسر . ولا تكلف نفسك تروية ولا تفكيراً ، ولكن خذ كلمات هذا العنوان واجعل منها عنوانات لابحاثك فسترى أن كتابك قد بوب باذن الله . فليكن موضوع الباب الأول إذن هو البحث عن كلمة الكتاب مم اشتقت ، ومن اين أخذت ، وما معانيها المختلفة التى دلت عليها فى العصور المختلفة والبيئات المتباينة . ولا تخف أن يقال لك إن هذا استطراد وإطالة وتزيد فى القول ، فلولا الاستطراد والاطالة والتزيد فى القول لذهب أكثر العلم أو أكثر الأدب على الأقل . ولك فى الجاحظ أسوة حسنة فهو قد أطال فى ذكر الكتاب حين أراد أن يؤلف فى الحيوان .

وقد ألف أرسططاليس من قبله فى هذا الموضوع فآثر الايجاز واجتنب الاستطراد وكانت النتيجة ان الناس جميعا يقرءون كتاب الجاحظ وليس منهم من ينظر فى كتاب ارسططاليس ، لان كتاب أرسططاليس علم وقد غير علم الحيوان ، وكتاب الجاحظ أدب وقلما يتغير الأدب ، ولا سيما حين يمتاز بالاطالة والاستطراد . ونحن فى كلية الآداب لا نبدأ دروس الأدب حتى نعلم الشبان علما كثيراً عن لفظ الأدب ومعانيه ، فسر سيرتنا ولا بأس عليك . وإذا فرغت من هذه الأبحاث القيمة التى لا تتصل ولا يجب أن تتصل بالموضوع ، فخذ بعد ذلك فى بحث يكون صلة بينها وبين الموضوع وهو إضافة الكتاب إلى الارشاد والصلة بينه وبين الجراد . وكيف تختلف الكتب باختلاف أصناف الناس ، وكيف تختلف الكتب باختلاف أنواع الحيوان ، لا من جهة موضوعها وأسلوبها فحسب ، بل من جهة أحجامها وقطعها أيضا ومن جهة مادتها التى تطبع وتذاع فيها ، ومن جهة الخط والحروف التى تستخدم فى هذا الطبع ؛ فانواع الطبع تختلف باختلاف القراء فى القدرة والذوق ، وكذلك الأحجام ، وكذلك مادة الورق والغلاف ؛ ويجب أن يطرد هذا بالقياس إلى الحيوان وبالقياس إلى الجراد خاصة ، وواضح جدا أن هذا سيذهب بك فى ألوان من البحث الطريف الذى لم تسبق إليه ؛ فاذا فسرت آراءك بعض الصور فثق بانك ستحدث فى عالم التاليف حدثا عظيما ، وثق بانك ستفتح للجنة الترجمة والتاليف والنشر

أبوابا لن تتردد فى ولوجها ولكنها لن تعرف كيف تخرج منها.

ثم دع هذا الباب إلى الباب الثانى واجعل عنوانه الارشاد واسلك فى هذا الباب مسلكك فى الباب الأول، فخضع لفظ الارشاد ومعانيه لكل هذه التجارب التى اخضعت لها لفظ الكتاب ومعانيه، ثم ابحث عن ارشاد الجراد كيف يكون فاعقد فصلا تصور فيه مذهب الذين يرون أن الجراد يفهم بالعقل وبين كيف يكون إرشاده على هذا النحو، واعقد فصلا آخر تصور فيه رأى المحدثين الذين يرون أن الجراد يفهم بالفم والبطن وبين فيه كيف يكون ارشاد الجراد من طريق الأفواه والبطون. والناس كما تعلم يختلفون فى هذا الموضوع، ومنهم من يرى أن تكتب أصول الفلسفة على أوراق الأشجار والنجوم والزرع التى يحبها الجراد ويميل إلى أكلها ويقولون إن الجراد إذا أكل هذه الأوراق المفلسفة فهم العلم ووعى الحكمة وأصبح فيلسوفا باذن الله.

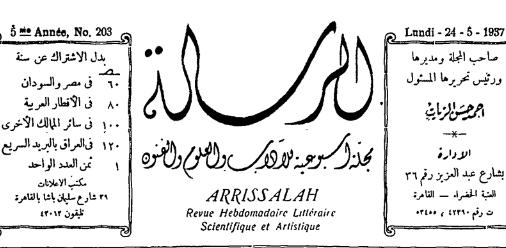
ثم اجعل الكلمة الثالثة عنوانا للباب الثالث وهى إلى. ولابد من أن تبحث عن السبب فى ان الارشاد يتعدى بالى ولا يتعدى بغيرها من حروف الجر؛ ولم لا يقال كتاب الارشاد لفلسفة أو بفلسفة أو فى فلسفة أو من فلسفة أو عن فلسفة أو على فلسفة الجراد. وواضح أن كل خرف من هذه الأحرف سيحتاج إلى فصل مطول جدا وستجد فى كتاب المغنى لابن هشام ما يعينك على تحرير هذه الفصول. ولا تخف من هذه الاطالة فانها هى التى ستنفعك وتروج كتابك عند أصدقائنا الأزهريين. ثم إذا اردت ان يروج كتابك عند الجامعيين وفى كلية الادب خاصة فحسن عنايتك بالباب الرابع وهو باب الفلسفة وهو اللب الأول للكتاب، لأن الأبواب التى سبقت كانت قشوراً ولكنها كانت قشورا لابد منها، فكل لب محتاج إلى قشر وإلا لما كان لبا. فابحث الآن عن الفلسفة وعن أصل لفظها واحذر أن تقول إنه يونانى فقد يكون هذا مطابقاً للحق، ولكن الحق فى هذه الايام لايغنى عن البدع شيئا. والبدع فى هذه الايام ان تخرج الأشياء عن أصولها وتوضع فى غير مواضعها وترد إلى غير مصادرها. والظاهر أن كلمة الفلسفة ترجع إلى أصل سامى عربى، وما أشك فى أنك ستجد فى شعر قضاعة بيتا يثبت لك وللناس جميعا ان العرب قد عرفوا الفلسفة واستعملوا لفظها قبل ان يولد سقراط. ولابد أن تعرض معانى الفلسفة ومذاهب الفلاسفة فى العصور المختلفة وتبحث عن أيها أدنى إلى الجراد، إلى عقله إن كنت من أنصار العقل، وإلى بطنه إن كنت من أنصار البطون. فاذا فرغت من هذا البحث الهائل المخيف وصلت إلى الباب الاخير الذى هو نتيجة النتائج وجوهر الجواهر وأصل الأصول وفصل الفصول وخلاصة الكتاب ولب الألباب وهو باب الجراد الذى وجه اليه الارشاد.

وهذا الباب معقد بطبعه فلابد من أن تبحث عن لفظ الجراد من أين جاء وإلى أين انتهى، ولا بد من أن تبحث عن منزلة الجراد بين أنواع الحيوان، ولابد من أن تبحث عن محاسنه وعيوبه، ثم لابد من أن تبحث عن عقله وما يكونه من الملكات وعن بطنه وما يمتاز به من الخصال فى الاستيعاب والهضم وتصريف العلم والفلسفة إلى أجزاء الجسم وأطرافه والوصول آخر الامر إلى أن يسير الجراد سيرة فلسفية صالحة. فاذا وصلت إلى هذا الموضع من كتابك وخيل إليك أنك قد انتهيت به إلى غايته وأفدت العلم فائدة محققة تمكنك من نيل الدكتوراه من كلية الاداب فعد إلى منهج ديكارت وألغ هذا الذى كتبته كله إلغاء، وافترض أنك لم تكتب شيئا ولم تعلم شيئا واستانف البحث من جديد فسترى أنك قد أضعت وقتك فى غير نفع، وأنفقت جهدك فى غير طائل، واستهلكت راحتك وورقك وحبرك واقلامك فى غير غناء، لأن الجراد ليس فى حاجة إلى أن يتعلم الفلسفة الانسانية الان، فقد تعلمها منذ عهد بعيد؛ فهو إن كان ناهبا سالبا ومغيراً محاربا فقد أخذ ذلك عن الانسان. وهل زاد الانسان على أنه حيوان قوام حياته السلب والنهب والحرب؟ وهو إن كان خفيفا سريعا متنقلا لايستقر على حال من القلق فقد أخذ ذلك عن الانسان. وما أظن أنك تستطيع أن تلقى جرادة تجهل قول الشاعر القديم: « تنقل فلذات الهوى فى التنقل »

وهو إن كان مفتنا فى الخفة والتنقل فقد اخذ هذا الافتنان عن الانسان، لانه يراقب الحضارة وتطورها، ويراقب المبادىء وتلونها، ويراقب اضطراب الناس فى آرائهم وأهوائهم ومذاهبهم ومبادئهم، ويراقب الضمائر التى تباع، والعقول التى تمتهن، والحريات التى تزدرى، والأصول التى تتخذ تجارة ووسيلة إلى الربح وتحقيق المنافع الدنيئة. وقد هم الجراد أن يقلد الانسان فى هذا فادركته بقية من عقله أو من بطنه الذى تستقر فيه الفلسفة وامتنعت به عن أن ينحط إلى هذه القرارة الحقيرة الموبوءة التى انحط اليها الانسان الحديث، فظل حيث هو يغير كريما ليأكل من ثمرات الأرض مايستطيع أن يصل إليه، ويعود كريما ان استطاع العودة أو يموت كريما بما يسلط عليه الانسان من ألوان الباس وضروب الفناء. وأنت حين تصل إلى هذه النتيجة بين اثنتين: فان كنت من أنصار الفساد وعشاق الانحطاط الذين يرون أن الانسان قد وصل فى هذا العصر إلى أرقى أطوار الحضارة فاستانف العمل لتبحث عن طريق تهدى بها الجراد إلى تقليد الانسان فى الانحدار إلى هذه القرارة، وإن كنت من المحافظين الذين يكرهون التطور الحديث ويمقتون نتائجه فادع الانسان إلى أن يتعلم فلسفة الجراد وضع فى هذا كتابا اسمه: (التبيان عن تجرد الانسان) والتجرد هنا مشتق بالطبع من الجراد.

وتقبل أيها الصديق العزيز المجهول أخلص تحياتى

طه حسين



العــــدد ٢٠٣ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٤ ربيع الأول سنة ١٣٥٦ — ٢٤ مايو سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العــــدد

الرافـــعى

للدكتور عبد الوهاب عزام

(قال قائل : « مات سنائي ! »
ان موت مثل هـذا العظيم ليس خطبا أمما . لم يكن تبنة ذهبت بها الريح ، ولا كان ماء جمد في الزمهرير ، ولا كان مشطا كسرته شعرة ، ولا كان حبة سحقتها الارض ، انما كان كنزا من الذهب فى هذا التراب لايزن العالمين بمثقال ذرة
لقد رمى القالب الترابى الى التراب ، وحمل الروح والعقل الى السموات) (١)

ذكرت هذه الأبيات : أبيات جلال الدين الرومى حينما قرأت نعى الرافعى ، واعجباً ! أنضبت هذه النفس الفياضة ؟ أذبل هذا الخلق النضير ؟ أخمدت هذه الجذوة ؟ أطفىء هذا المصباح ؟ أكلت هذه العزيمة الماضية ؟ أفترت هذه الهمة الدائبة ؟ أأظلم هذا القلب الذى يملأ الدنيا ضياء ؟ أوقف هذا الفكر السيار ؟ أوقع هذا الخيال الطيار ؟ أسكن هـذا القلم المصور الذى يصبغ العالم كما يشاء ، يضحكه ويبكيه ، ويسخطه ويرضيه ، والذى اذا شاء صور أحزانه مواسم ، ورد أعياده مآتم ؟

(١) ترجمة أبيات لجلال الدين الرومي . وسنائي شاعر صوفى كبير .

أمات الرافعى فى وقدة جنانه، وشعلة بيانه. وعزة قلبه وسلطانه؟ أطوى القلب الذى وسع الدنيا وماوسعته، وحقرها وأكبرته؟

كلا كلا! إن مولد الحر فى الدنيا قليل؛ وإن موت الحر مستحيل. إن مولد الحر تتمخض عنه الأجيال بعد عناء، ويمهد له الزمان بعد جهاد، ليولد على الأرض تاريخ أو فصل من تاريخ، فاذا انقضى عمله وجاء أجله فهو تاريخ لا يمحى، وذكرى لا تموت!

ان الحر ليولد على هذه الأرض كما يولد النجم فى أطباق السماء فلا يزال وضاء هادياً، أو كما يولد النهر فى سفح الجبل فلا يفتأ جارياً ساقياً، أو كما تولد الحقيقة فى أفكار البشر ثم لا تموت.

ان الحر الكريم قطرة صافية تستمد الله، فلا يحول عنها نوره؛ ولا يتحول عنها وحيه، وهى فى خلق الله سنة لا تتبدل فلا تستعبد الحر الأهواء، ولا تذله المطامع؛ وهو يأبى على الحدود، وينفر من القيود، ويكبر على الزمان والمكان، إن خلق الناس زمانهم خلق هو زمانه، وان جد الناس مكانهم حد هو مكانه؛ فاذا ساق الناس التقليد أو قادهم، واذا خيل اليهم الباطل حقا والحق باطلا؛ وقف هو هازئاً أبياً يستوحى ربه، ويستفتى قلبه؛ واذا جرف التيار الخاصة والدهماء، فاضطربوا فى موج الحادثات كالغثاء، ترمى بهم كل شط، وتنفر من كل أرض، ثبت الحر كالطود الأشم فى البحر الخضم:

يظل كالطود يجرى حوله نهر	من الخطوب له بالناس طغيان
فاتت مآرب أهل الذل قمته	فما يذله نيـــل وحرمان

ان الرجل الحر صفحة فى التاريخ جديدة. وخطوة فى سير البشرية متقدمة، على حين لا يظفر التاريخ بجديد فى آلاف المواليد، ولا يخطو خطوة إلى الامام فى كثير من الأعوام. وهل التاريخ كما قالوا إلا إعادة وتكرار؟

٭٭٭

ولقد أوتى الرافعى من الحرية الالهية نصيباً، ومن النور الالهى قلباً، ومن الفيض الالهى ينبوعاً، فلبث دهره نسيج وحده، وظل حياته ينير للسالكين، ويسقى للظامئين. ولقد أوتى من العزة الاسلامية ما تخر له الجبال، ومن الهمة القرآنية ما تنشق له الأهوال. ولقد أوتى من الايمان ما أصغر الدهر فى سطواته، ومن نور الايمان ما شق على الزمان ظلماته

كان الرافعى نوراً وسلاماً، ومحبة ووئاماً، فاذا سيم الدنية فى دينه أو فى أمته؛ وإذا تجهم الباطل لحقه، أو تطلعت المذلة إلى خلقه، ألفيت النور ناراً تلظى، والسلم حرباً تهيج، والحب بغضاً ثائراً، والرحمة شدة حاطمة

لبثت سنين طوالا أقرأ للرافعى ولا أراه، وأحبه ولا ألقاه، وأتحدث عنه معجباً ثم أقول لمحدثى: هذا وجه ماسعدت برؤياه، حتى لقيته العام فى لجنة التأليف والترجمة والنشر وكأنا صديقان قديمان. ثم أتاحت الفرص لقاءه مرتين أو ثلاثاً كانت آخرتها فى دار (الرسالة) بعد أن كتبت مقالى عن كتابه وحى القلم. ثم افترقنا وما علمت أنه آخر العهد، وفرقة الدهر!

٭٭٭

وإنى لأعترف للقارىء فى غير تزيد ولا تصنع أنى أجد فى نفسى وقلبى تهيباً للكتابة عن الرافعى؛ وأرى جوانب تتسع ثم تتسع حتى يضيق المجال. ولقد حاولت أن أنظم فكنت كلما أخذت القلم تذكرت هذه الأبيات من منظومتى «اللمعات» فقلت انها تمثله. انها تمثل الرجل الحر حيث كان

حبذا الصوت فمن هذا البشير؟	ومن الهاتف بالقلب الكسير؟
ومن البارق فى هذى الغيوم؟	ومن المسعد فى هذى الهموم؟
ومن الهابط فى نور السما	هادياً فى الأرض جيلا مظلماً؟
ومن السائق شطر الحرم	وإلى الأصنام سير الأمم؟
ومن القارىء فى بيت الصنم	سورة الاخلاص فى هذا النغم؟
ومن الحر الذى قد حطما	من قيود الأسر هذا الأدهما؟
ومن الآبى على كل القيود؟	ومن القاطع أغلال العبيد؟
ومن الباعث فى ميت الأمم؟	ثورة العزة من هذى الهمم؟
لاح كالغرة فى هذا السواد	بص كالجمرة فى هذا الرماد؟

إنه ليصدق من يجيب كل سؤال فى هذه الأبيات بهذا الاسم الكبير: «مصطفى صادق الرافعى».

عبد الوهاب عزام

بل ضرورية جداً

للأستاذ عباس محمود العقاد

تعودنا أن نسمع أن الفنون الجميلة من الكماليات التي يأتي دورها بعد العلم والصناعة في الأهمية ، وفي مقالكم المشار إليه تقولون إن علينا أن نبدأ بالفنون الجميلة والرياضة لنتعلم الارادة والعمل ، فهل لكم أن تنيروا الطريق لنا بالتوفيق بين القولين . . . ،

الاسكندرية صالح شحاته

***

الحق ياصاحبي أننا في عصر نحتاج فيه إلى غربلة وافية لجميع الالفاظ التي لهجنا بها زمناً في مطلع نهضتنا الحديثة ، ومنها ألفاظ الضروريات والكماليات وتقديم الأهم على المهم والمفاضلة بين العلوم والفنون ، وسائر هذه المحفوظات التي خلت من المدلول لكثرة تكرارها واكتفاء الآذان بسماعها دون التفكير فيها .

فمن الواجب ، أولا ، أن نفرق بين الفرد والأمة فيما هو من الشؤون الضرورية وما هو من الشؤون الكمالية .

فالفرد لا يشترط فيه أن يستوفي جميع المزايا الانسانية والملكات الحية ، وليس من اللازم ولا من المستطاع أن يكون قوياً وذكياً وجميلا وعالما وشاعراً وصانعاً وغنياً وسائساً زعيما ومفكراً مقتدى به وإماما متبعاً في مطالب الحياة كافة .

ولكن إذا اجتمع عشرون مليون فرد في قطر واحد فمن الضروري — وليس من الكمالي — أن تتوافر بينهم جميع المزايا الانسانية والملكات الحية التي تتفرق في الأفراد ، وإلا كان النقص دليلا على مسخ ذريع في التركيب وعجز شائع في عناصر الطباع . ويستوى هنا أن يكون الناقص لعباً أو جداً ، وفناً أو علما ، وخلقا أو رأياً ، فانما المهم أن الملايين العشرين يتسعون لكل مزية عرفت في بني الإنسان ، وإلا كانوا ناقصين في الضروريات للأمة وإن كانت معدودة بالقياس إلى الفرد من الكماليات والنوافل

***

ومن الواجب ، ثانيا ، أن نقلع عن تقويم المطالب القومية بمقدار الحاجة إليها والاستغناء عنها ، فان ذلك تقويم غير صالح وغير صحيح .

فنحن نستطيع أن نعيش بغير ملكة النظر وبغير ملكة السمع أو الكلام سبعين سنة دون أن نهلك من جراء ذلك .

ولكننا لا نستطيع أن نعيش بغير الرغيف وما إليه سبعين سنة ولا سبعين شهراً ولا سبعين يوما إلا هلكنا هلاكا لاريب فيه ؛ ولم يقل أحد من أجل ذلك إن الرغيف أغلى من البصر ، وإن ملكات الحس لا تستحق المبالاة كما يستحقها الطعام والشراب .

وندع تقويم الفكر إلى تقويم السوق ، فانا واجدون أن الرغيف أرخص من الكتاب ، وأن التمثال أغلى من الكساء ، وأن الحلية أقوم من الآنية الضرورية ، وأن قيمة الشيء لا تتعلق بمقدار الحاجة اليه والاستغناء عنه ، بل بمقدار ما نكون عليه إذا حصلناه . فنحن اذا حصلنا الرغيف فأقصى ما نبلغه في تحصيله أن نتساوى وسائر الأحياء في إشباع الجسد وصيانة الوظائف الحيوانية . ونحن اذا حصلنا الفنون الجميلة فانحن بأحياء وحسب ، ولا بأناسي وحسب ، ولا بأفراد وحسب ؛ بل نحن أناسي ممتازون نعيش في أمة ممتازة ، تحس ما حولها وتحسن التعبير عن احساسها .

ان الضروريات توكلنا بالأدنى فالأدنى من مراتب الحياة ، أما الذي يرفعنا إلى الأوج من طبقات الانسان فهو ما نسميه النوافل والكماليات ، أو هو ما نستغني عنه ونعيش !

ولكن كيف نعيش ؟

هذا هو موضع السؤال الصحيح . فان كنا لا نبغي إلا أن نعيش كما تعيش الأحياء كافة فحسبنا الضروريات المزعومة إلى حين : حسبنا الخبز حتى يجيئنا من ينزع منا الخبز أيضا ونحن لا نقدر على دفاعه ، ولا نطيق غير الخضوع له والصبر على بلائه .

وإن كنا نبغي أن نعيش ، أكمل ، العيش فلا غنى إذن عن الكماليات لبلوغ الكمال ، ولا معدى إذن عن اعتبار الكماليات من ألزم الضروريات .

***

ومن الواجب ، ثالثا ، أن نذكر ما هو ، العلم ، الذي

يفوقنا به الغربيون قبل أن نعقد المقارنة بين العلوم والفنون .

فالغربيون لا يفوقوننا بالعلم « المصنوع » علم الطيارات والسيارات والسفن والدبابات والمناسج والمنسوجات .

كلا ! لا يفوقنا الغربيون بهذا ، فان الشرقي ليحذق صناعة الطيارة اذا رآها كما يحذقها الغربي الماهر في عمله ، ولعله يبذه ويسبقه في الوقت والبراعة .

إنما يفوقنا الغربيون بالعلم الملحوظ لا بالعلم المصنوع : يفوقوننا بعلم الملاحظة والابتكار والاختراع ؛ يفوقوننا بالعلم الذي يحتاج إلى عين لا تفوتها الرؤية ، وبديهة لا يفوتها الادراك ، وخيال لا يفوته تركيب الصغائر وضم الأجزاء إلى الأجزاء حتى يتألف منها المصنوع الجديد

وما هذا الذي يفوقوننا به غير ملكة الحس والتخيل التي يترجمها المصور تمثالا والموسيقي لحناً والشاعر قصيداً والمخترع صناعة حديثة ؟ ما هو غير أن نحس ما حولنا ونقرن بين إحساس وإحساس حتى نستخرج منها جميعاً صورة كاملة في عالم العلم أو في عالم الفن أو في عالم التجارة ؟

فليست المقارنة بين العلم والفن مقارنة بين طيارة تنفع في التجارة والحرب وتمثال لا ينفع لغير الزينة ، بل هي مقارنة بين ملكة مستنبط لا تتم بغيره الحياة ، وملكة مستنبط لا تتم بغيره الحياة !

وإذا فقدنا الفنون الجميلة فليس كل ما نفقده إذن هو تمثال الرخام الذي لا يصلح لغير الزينة ، بل نحن فاقدون جزءاً من حياتنا وجزءاً من العلاقة بيننا وبين الدنيا ، وعائشون عيشة الممسوخ الأبتر المحجوب عن جوانب دنياه

إن الرجل البصير يرى الحجر كما يرى الجوهرة ، ولكنه إذا عجز عن رؤية الحجر وهو أمامه فليس الحجر وحده بالمفقود في نظره ، بل المفقود كل شيء يتراءى لعينيه

***

لقد حيينا في خدمة غيرنا عصوراً طوالا حتى أوشكنا إذا قيل لنا : « اشعروا بالحياة » أن نطلب أجراً على حياتنا

فالرجل الذي يسأل : ما فائدة الفنون الجميلة ؟ هو كالرجل الذي يسأل : ما فائدة العين ؟ وما فائدة الأذن ؟ وما فائدة الشعور ؟ وما فائدة الحياة ؟

وإن الانسان لينظر إلى الروضة ولا يبسط يديه بعدها إلى أحد يعطيه أجراً على ما رآه ، فلماذا يحس الجمال وهو يسأل عن فائدة الاحساس ؟ ولماذا يعبر عن الجمال وهو يسأل عن فائدة التعبير ؟ ولماذا يقتني التمثال وهو يسأل لماذا أقتنيه ؟ ولماذا يسمع الغناء وهو يسأل لماذا أصغي اليه ؟

إنه ينبغي أن يصنع ذلك لأنه يحس ، وإنه يحس لأنه يحيا فمن من يا ترى يريد أجراً على الحياة ! إن كان عبداً فمن سيده فليطلب أجره لو كان سيد يعني بتهذيب عبيده ؛ وإن كان هو سيداً فهو مالك حياته وكفى أنه يحيا تعليلا لكل عمل وترغيباً في كل مطلب وتقويماً لكل عزيز نفيس

***

ولقد يخطيء بعض الفلاسفة المصلحين في تقويم الفنون فيستكثرون ما أنفقت عليها الدول والملوك والسروات من مال وفير وجهد عنيف . كذلك أخطأ تولستوي في كتابه عن الفن الجميل وهو نفسه قد أنفق عمراً مديداً في خدمة الفن الجميل

على أن خطأهم قريب المأخذ سهل المراجعة من ناحية الحساب ، إذ ليس القياس في هذا الصدد أن تنظر إلى مدينة مثل « هليوود » كم تنفق من الملايين على الروايات والممثلين ! وإنما القياس أن ننظر إلى مدن العالم كم عدادها بالقياس إلى « هليوود » وحدها أو كل مدينة جرت على مجراها

وليس القياس أن تنظر إلى الموسر كم يبذل من الألوف في تمثال واحد ، وإنما القياس أن تنظر اليه وإلى كل فرد كم ينفق على خبزه وكسائه وسكنه وراحته ، وكم ينفق على الفنون الجميلة التي يهواها من تماثيل وأغان وأشعار ؟ ومتى نظرنا هذه النظرة علمنا أن الكماليات لا تجور على الضروريات ، وأن قياس النفقات على ما يسمى بالكماليات والنفقات على ما يسمى بالضروريات أقل من قياس الآحاد إلى المئات

إلا أننا نعود فنقول إن الفنون الجميلة ضروريات في الأمم وإن عدت نوافل في آحاد الناس ، وإنها ضروريات لمن ينشد « العيش الأكمل » ولا يقنع بكل عيش ، وإنها ضروريات لمن يسأل : كيف نسود ؟ وإن كانت هباء عند من يسأل : كيف نعيش ؛ وأحرى به أن يسأل : كيف نموت ؟ فعيش هذا وموته سواء

عباس محمود العقاد

فائدة هندسية

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

كيف تقيس المسافة بين نقطتين؟ أما أنا وأنت - أو أنت وأنا، كما يقضي الأدب الحديث أن أقول - فان الواحد منا يقف ثم يروح يخطو بين النقطتين كالجندي الحديث العهد بالتدريب العسكري، ويقول وهو يفعل ذلك: «واحد.. اثنين.. ثلاثة.. الخ» ثم يضرب عدد الخطوات في طول كل خطوة فيكون الناتج هو المسافة التي يراد قياسها. أو يفعل شيئاً آخر: يجيء بحبل ويمده بين النقطتين ثم يعقده عقدة في كل ناحية، ثم يجيء بمقياس كالمتر ويقيس به ما بين العقدتين، فاذا لم يكن ثم متر، فان المسافة بين أنامل يمناك - حين تمد ذراعك - والكتف اليسرى طولها متر.

ولكن لي صاحبا يعرف طريقة أخرى في قياس المسافات المستقيمة أبرع مما نعرف، وقد حدثني بها ووصفها لي. ونحن نتغدى منذ أيام قال:

«لا علم كالهندسة... أعني أنها علم مضبوط لا موضع للخطأ فيه»

وأنا - كما يعرف القارىء - لا علم لي بالهندسة ولا بسواها مما هو منها بسبيل، ولست أدري إلى هذه الساعة كيف أمكن أن أجتاز الامتحانات المدرسية التي كانت تعقد لنا في المدارس، أو في السرادقات، وقد كان مما نمتحن فيه الهندسة - بأنواعها، فانها كثيرة - والجبر والحساب وحساب المثلثات إلى آخر هذا الذي نسيت حتى أسماءه. وأحسب أن الذين كانوا يراجعون أوراق الاجابات كانوا يقولون إن هذا المازني سيكون أديباً كبيراً، والأدب لا يتطلب العلم بالرياضة، ومن الخير للأدب أن ندعه يخرج بشهادته وأن لا نعطله بالرسوب. فإلا يكن هذا هكذا، فليقل لي من يدري كيف أمكن أن أجتاز هذه الامتحانات في علوم الرياضة والكيمياء أيضا والطبيعة كذلك؟ فاني أذكر - الآن - أني كنت أملأ أوراق الاجابة عن أسئلة الرياضة وما إليها من المعارف المستحيلة بالرسوم والتصاوير: رسوم فتيات وطيور وبقر وجمال، وكنت أفرد الصفحة الأخيرة من ورقة الاجابة لأساتذتي في علوم الرياضة، فأرسم بضعة خطوطهنا، وأكتب تحتها «المستر فلان، معلم الحساب» وخطوطا أخرى تحتها وأكتب إلى جانبها «المستر علان، مدرس الجبر» وهكذا ومن يدري؟. لعل رسمي لأساتذتي كان يرضيهم ويعجبهم، فيدعون جواب المسائل ويمنحونني الدرجات على الرسم الجيد من الذاكرة!

وقلت لصاحبي: «ياسلام!. صحيح؟»

فقال «بالطبع... اسمع... كيف تقيس المسافة بين شاطئ النيل؟»

قلت: «أوه.. المسألة لا تحتاج إلى هندسة أو غيرها.. أمشي على كوبري قصر النيل وأعد خطاي ثم أضرب العدد في طول الخطوة.. مسألة بسيطة جدا»

فقال: «لا لا لا لا. افرض أنك تريد أن تقيس المسافة بين الشاطئين حيث لا كوبري ولا شبهه»

قلت: «آه.. هذه مسألة أخرى.. أقول لك.. أركب زورقا ومعي حبل أثبته على شاطئ وأدليه في الماء ونحن نمرق حتى نبلغ الشاطئ الآخر، ثم نقيس الحبل»

قال: «يا أخي ألا تعرف أن الزورق لا يستطيع أن يمضي من شاطئ إلى شاطئ في خط مستقيم؟»

قلت: «صحيح.. والله فاتتني!. طيب! وما العمل؟ أما أنا فلا أرى طريقة أخرى فيحسن بالنيل أن يقنع بأن يبقى بغير قياس لعرضه.. يكفي طوله»

قال: «لا تمزح...»

قلت مقاطعا: «والله إني أتكلم جاداً.. ثم إني لا أدري لماذا أتعب نفسي وأكلفها أن تقيس النيل؟»

قال: «اسمع.. أنا أعرفك الطريقة.. ألم تتعلم في المدرسة أن ضلعي المثلث المتساوي الضلعين أكبر من الضلع الثالث أي القاعدة؟»

قلت: «جايز»

قال : « جائز ؟ ماذا تعني ؟ هذه حقائق »

قلت : « جائز ! الحقيقة أني تعلمت أشياء كثيرة في المدارس ولكني لا أذكر الآن شيئاً منها فأنا مضطر أن أصدقك . . . ولكني أخشى أن يكون غرضك أن تضحك مني . ولهذا أوثر الحذر وأقول لك جائز . . على كل حال تفضل »

قال : « حسن . . اسمع . . هذه حقيقة لا شك فيها . . ضلعا المثلث المتساوي الضلعين أكبر من القاعدة . . فكيف ينفعنا هذا في قياس عرض النيل ؟ . . أنا أقول لك . . تأخذ ثلاثة أوتاد ، وثلاثة حبال ، وتذهب إلى أحد الشاطئين وتثبت فيه — على الأرض — وتدين . . تدقهما دقاً قوياً ليثبتا ولا يتزعزعا . . وتذهب إلى الشاطئ الآخر ، وتدق هناك الوتد الثالث . . هذا الوتد الثالث هو رأس المثلث . . وما بين الوتدين الآخرين على الشاطئ الآخر هو القاعدة . . فاهم ؟ ثم تصل الأوتاد بالحبال . . مسألة سهلة جداً . . ثم تقيس وتحسب فتجيء النتيجة مطابقة للحقيقة »

قلت : « غريب ! . ولكن اسمع . . ما العمل في المراكب والزوارق التي تمخر ؟ هل تؤخرها حتى تفرغ من الحساب أليست هذه مشكلة عسيرة الحل ؟ . أم لها يا ترى حل هندسي أيضاً ؟ »

قال : « يا أخي لا تمزح . . لقد فعلت ذلك مرات كثيرة »

قلت : « صادق . . صادق . . والله إن هذا لذكاء ! . لو كان الذي اهتدى إلى الحقائق الهندسية يعرف أنك ستستغلها على هذا النحو العلمي المفيد . . ؟ »

قال : « لقد ورثت هذه الدقة عن أبي . . ولكني لم أبلغ مبلغه مع الأسف . . مع التدرب آمل أن أكون مثله . . إن حسابي الآن — طبقاً لهذه الحقيقة الهندسية لا يجيء مخالفاً للواقع إلا بمقدار خمسين أو على الأكثر سبعين متراً فقط . . شيء تافه كما ترى ! »

قلت : « ولكن هل من الضروري أن يكون المثلث متساوي الضلعين أو لا أدري ماذا تسميه ؟ »

قال : « لا . . أبداً . . ليس هذا ضرورياً . . »

ثم شردت نظرته وعلا وجهه السهوم ، فتركته لخواطره ولم يلبث أن رد عينه إلى وقال :

أبي لا يكاد يخطئ . . صياد ماهر جداً . . وأغرب ما في الأمر أنه يستطيع أن يقول لك إنه أخطأ الهدف بمقدار متر أو نصف متر أو ستي . . خرجنا مرة إلى الصيد فأدهشني بدقته وإحكامه . . أطلق البندقية على بطة ثم نظر إليّ وقال : يا فريد ! الطلق مرّ من تحتها على مسافة ثلاثة سنتيات . . ثم رمى أخرى وقال يا فريد : الطلق مر من فوقها على مسافة ملليمترين ؛ ورمى ثالثة وقال آه يا فريد ! هذه طلقة لا مثيل لها . . شعرة فقط بينها وبين البطة ! . وهكذا يا أخي . . فهل سمعت بمثل هذه البراعة العجيبة ؟ . . مقدار شعرة فقط ، لا أكثر ولا أقل ؟ تصور الشعرة ماذا يبلغ من سمكها ؟ . ومع ذلك عرف ! استطاع أن يقدر المسافة بين الطلق والبطة على هذا البعد العظيم ما قولك ؟ . . أليس آية ؟ »

قلت : « والله شيء مدهش حقيقة . . ومن أين جاءته هذه البراعة ؟ »

قال : « العلم نور يا أخي . . وما فائدة العلم إذا كان الانسان لا يطبقه ولا ينتفع به في حياته ؟ »

قلت : « صدقت . . ولكن هل أبوك يعرف المسافات بين الطلقات وبين الطيور التي لا يصيدها بالهندسة — أعني بواسطة المثلث المتساوي الضلعين أو غير المتساوي الضلعين ؟ »

قال : « وهل هذا كل ما في الهندسة ؟ يظهر أنك نسيت دروسك »

قلت : « كل النسيان . . نسيتها قبل أن أحفظها »

قال : « صحيح . . هذا يحدث كثيراً »

قلت : « إنه يحدث دائماً »

قال : « لا . أنا لم أنس دروسي قبل حفظها . . ولا بعد الحفظ »

قلت : « أنت أعجوبة . . وهل في الناس اثنان مثلك ؟ »

فصار وجهه كالجمرة من شدة الحياء والخجل من سماع المدح ، وكأنما أراد أن يصرفني عن نفسه

فقال : « ولكن أبي ليست له مثل هذه الدقة حين تكون الحيوانات أليفة والطيور داجنة »

قلت : « وكيف كان ذلك ؟ »

قال : « إن نظره بعيد جداً يبصر كل شيء - أى شيء - على مسافة ميل ، ولكن إذا كان الشيء قريباً منه ، صعبت عليه الرؤية الدقيقة . . وأذكر أنه قام بيني وبينه خلاف على المسافة بين رجلي الدجاجة »

فصحت به : « إيه ؟ »

فقال : « لا تصح هكذا . . إننا في مطعم . . فهل تريد أن يلتف حولنا الناس ؟ »

قلت : « معذرة . . لقد نسيت أن ههنا ناساً . . الحق أن كلامك استبد بعقلي . تفضل »

قال : « أشكرك . . نعم اختلفنا على المسافة بين رجلي الدجاجة . . هو يقول إنها خمسة سنتيات وأنا أقول إنها أقل بكثير . . وأخيراً اتفقنا على قياسها بالضبط والدقة ، فقال أبي هات الدجاجة ، فجئته بها . . تناولتها من رجليها فقال كيف تريد أن تقيس وقد ضممت رجليها . فتناولتها من عنقها ، فصارت تلعب وتحاول أن تفلت وتضرب برجليها فاستحال قياس ما بينهما ، ثم سكنت ولكن رجليها بقيتا مضمومتين فاتفقنا على تركها على الأرض ، وحاولنا أن نغريها بالسكون بقليل من الحب رميناه لها لتلقطه ، ولكنها يا أخي لا تسكن أبداً . . حركة دائمة »

قلت : « لماذا لم تنتظرا حتى تنام وحينئذ يتيسر القياس كما تشاءان ؟ »

قال : « والله فكرة »

قلت : « هل تعني أن تقول إنك لم تعرف إلى الآن أيكما المصيب وأيكما المخطيء ؟ »

قال : « بالطبع أبي هو المخطيء . . ألم أقل لك إن نظره بعيد ؟ »

قلت : « آه صحيح . . . »

قال : « طبعاً »

قلت : « طبعاً »

وكانت هذه نهاية الحديث في يومنا ذاك ، فعدت إلى البيت وقيدته لئلا أنساه

ابراهيم عبد القادر المازني

في الأدب المقارن

بيئات الأدباء

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

أثر البيئة في الانسان ومجتمعه وعلومه وفنونه من النواميس التي اهتم العلم الحديث بكشفها وتتبع مظاهرها والرجوع إليها في شتى الدراسات . وأثر البيئة في أدب كل أمة على إطلاقه واضح مشاهد ؛ بيد أن لكل أديب بيئة خاصة داخل البيئة العامة التي تحيط به وبغيره من أدباء أمته ، ولهذه البيئة الخاصة أثر بعيد في تكييف عبقريته وتوجيه ميوله وصبغ نظرته إلى الحياة وتكوين فهمه للأدب ، ولهذه البيئة في أكثر الأحايين فضل توجيه عبقريته إلى الأدب دون غيره من الفنون والحرف الانسانية

فالوراثة لها أثر في فن الأديب ، لاشتراكها في تكوين مزاجه وميوله ، وذلك الأثر الوراثي ملحوظ في أدب شلي وبيرون من شعراء الانجليز ، بل في حياتهما إذ عاش كل منهما ساخطاً قلق المقام مضطرباً بين البلدان مساجلا المجتمع حرباً لاتهدأ ، وقد كان كلاهما منحدراً من أسرة أرستقراطية عرفت صفات الجماح والتمرد في غير واحد من أسلافها . وللوراثة أثرها الواضح في أدب ابن الرومي الذي جاء لانتمائه إلى الروم مخالفاً أدب غيره من فحول العربية ، في النظرة إلى الحياة والطبيعة ؛ وفي استقصاء المعاني وتوليدها

ولتكوين جسم الأديب ، بين الصحة والمرض والكمال والنقص والوسامة والدمامة أثره كذلك في أدبه ، فالأديب السليم الجسم يكون صافي المزاج معتدل النظرة إلى الحياة ، والآخر المعتل الصحة المنهوك بالأوصاب ، كالمعري وابن الرومي في العربية ، وبوب وسويفت وجراي في الانجليزية ، يكون ضيق العطن أو قاتم النظرة إلى الحياة أو كثير النقمة على معاصريه شديد الشغب معهم . وقد قيل قديماً إن للأدب ضريبة على محترفه يتقاضاه إياها من ذات جسمه أو ذات نفسه ، فلا تكاد ترى أديبا إلا محروبا أو شقيا أو معسراً ، ولعل فقدان الأديب لبعض

ما يتمتع به سواه من بهجة الحياة من دواعي إرهاف حسه وصرفه إلى التأمل وعطفه إلى الأدب ، ولعل المعري لولا عماه وانحباسه عن متعات الدنيا على ذلك الوجه ، لما حفل بالتفكير في الأرض والسماء وأصل الخلق ومصير الانسان وهلم جرا

وللتربية والنشأة المنزلية أثرهما في تكوين الأديب ، فكثيراً ماتتجه عبقرية الناشيء إلى الأدب لأن أباه أو كافله مشتغل بالأدب ، وقد كان ذلك شائعاً بين العرب ، إذ كان الآباء يقومون بتاديب أبنائهم ، فنشأ كثير من الأدباء كالصاحب وابن العميد وابن المعتز وابن زيدون في بيوت فضل وأدب . وقال ياقوت في ترجمة المعري : « وكان في آبائه وأعمامه ، ومن تقدمه من أهله وتاخر عنه من ولد أبيه ونسله ، فضل ، وقضاة وشعراء ، أنا ذاكر منهم من حضرني لتعلم نسبه في العلم » . ولحظ البيئة المنزلية من الرق أو الحطة أثره كذلك في أخلاق الناشيء ومنازعه ، ومن ثم يتسم أدب الشريف الرضى في العربية وتنيسون في الانجليزية بنزعة التسامي والتدين ، لانتمائهما إلى أرومة شريفة دينية ، بينما تبدو لوثة العامية والتبذل في أشعار بشار وأبي نواس

ولنصيب الأديب من الغنى أو الفقر أثر بعيد في حياته وعقليته وأدبه ، فلا بد للأديب من حظ من المال يستطيع معه أن يتفرغ إلى فنه أو يتفنن في ابتكاره ، أما إذا كان لا يكسب رزقه إلا بجهد جهيد فهيهات أن يوفى الأدب حقه . والأديب المعسر المخفق كابن الرومي لاينفك شاكيا في شعره متحرقا ؛ ولا يشكو هذه الشكوى أديب نشأ في بيت نعمة كابن المعتز أو نجح في إدراك الغنى كالبحتري ، فشعر هذين أكثر امتلاء بوصف اللذات وأوقات الصفاء . وقد وجد ابن الرومي على البحتري وهجاه حسداً وغيظا ، فرد عليه البحتري رداً هادئاً وأتحفه بهدية ، فعل المطمئن إلى نفسه الراضي في بحبوحته ، ولم يطلب الطغرائي شططاً حين قال

أريد بسطة كف استعين بها على قضاء حقوق للعلى قبلي

ولنوع الثقافة التي يتلقاها الناشيء ، والأدب الذي يقرأ ، والأستاذ الذي يأخذ عنه ، والأديب الذي يقدمه ويشغف بآثاره ، والأدب الأجنبي الذي يدرسه ، لكل ذلك أثره في توجيه أدبه وفلسفته في الحياة . فآراء المتزندقة التي فشت في صدر العصر العباسي ظاهرة الأثر في شعر بشار وحماد وأبي نواس ، والآراء الفلسفية التي ذاعت بعد ذلك ظاهرة في أشعار الطائي والمعري والمتنبي ؛ ولم يتأثر أدباء العربية بادب أجنبي تأثراً ذا بال ، أما أدباء الانجليزية فضلا عن اغترافهم جميعاً من مناهل الأدب اليوناني ، كان منهم من تاثر بالأدب الايطالي كسبنسر ، وبالألماني كشلي وسكوت وكارليل ، وبالفرنسي ككثير من كتاب القرن الثامن عشر وشعراء القرن السابع عشر ؛ وكما أثر مذهب أبي تمام الشعري في تلميذه البحتري وفي المتنبي وغيرهما ، كان لملتون أثر بعيد في كثير من شعراء الانجليز منهم وردزورث وتنيسون

وللجيل الأديب ، بسياسته وأدبه وأخلاقه وأزيائه وفنونه ، أعظم أثر في أدبه : فبعض الأدباء ينحاز إلى حزب سياسي ويخصص جانباً من كتاباته للدفاع عنه ، كما كان الكميت ودعبل وعمارة اليمني شيعيين ينتصرون لآل البيت ؛ وكما كان بشار عقيلياً بالولاء ينتصر لمضر ويفخر بغضبتها التي تهتك حجاب الشمس ؛ وكما كان ابن الرومي علويا بالولاء أيضا . وكان أدباء الانجليزية أكثر اتصالا بشؤون المجتمع والسياسة وتأثراً بها ، فعرضوا لمشاكل عصورهم في أشعارهم وقصصهم ، وحين ملأ دكنز قصصه بوصف أحوال الطبقات العاملة ، إنما كان متأثراً بأحوال عصره الصناعي ، وإذا امتلأ شعر المتنبي بذكر القنا والصوارم والفتكة البكر وتضريب أعناق الملوك ، فانما كان ذلك صدى عصر التناحر والقلاقل الذي عاش فيه

وتؤثر حرفة الأديب كذلك في أدبه ، موضوعه ولغته وتشبيهاته : فالأديب الجندي كعنترة وأبي فراس لايكاد يخوض في غير حديث النجدة والعزة والبأس وإطاحة الرؤوس عن الأجسام ؛ والأدباء الوزراء الذين عرفوا في الدول الاسلامية تتعلق خير كتاباتهم بالسياسة والولاية والعزل وهلم جرا ؛ والشاعر المداح كالبحتري لاينفك عن ذكر أحوال الملك ومظاهر أبهته ؛ وتوماس هاردي الذي كان مهندساً معمارياً مشغوفا بفن العمارة لايزال يبديء ويعيد في وصف العمائر والصروح في شعره وقصصه ، ويستخدم في ذلك من المصطلحات العلمية مالا يكاد يفقهه إلا خبير مثله بتلك الشؤون ؛ أما الأديب المنقطع إلى الأدب فلا يكاد يخوض في غير شؤون الأدب وسير الأدباء . وقد أورد الجاحظ هذه الحقائق مورد الفكاهة في رسالة صناعات القواد ، إذ جعل الطبيب والخياط والخباز والمؤدب وصاحب الحمام وغيرهم ، يتحدثون في الأدب وينظمون الشعر فيستخدم كل منهم مصطلحات حرفته في استعاراته وتشبيهاته

وللاقليم الذي يختاره الأديب مستقرا ومقاما ، والأقاليم التي يرحل اليها في أدوار حياته ، أثر عظيم في موضوعاته وأسلوبه : إذ هو يشتق أسباب القول مما يحيط به في حله وترحاله ، ولا ريب

أن الأديب الكثير الرحلة يكون أوسع أفقا وأغزر مادة وأعمق فكرة من الأديب القاعد ، إذ كان من يعيش يرى ومن يسير يرى أكثر كما يقول المثل العامي . وقد كان وردزورث يقطن مقاطعة البحيرات في انجلترا وكان كثير التجوال بين الجبال والروابي ، فجاء لفظه مجردا عاريا عري الصخور وتجردها ، وكثرت فيه ألفاظ الوحشة والوحدة وهلم جرا . ونشأ كبلنج في الهند فامتلأ شعره وقصصه بوصف غياضها وأدغالها ، وحفل بالتعصب الجنسي المتطرف ؛ وتركت رحلات المتنبي بعض الآثار في أشعاره ، من وصف الطبيعة كوصف بحيرة طبرية وشعب بوان ، إلى وصف الأحوال السياسية في مثل قوله :

بكل أرض وطئتها أمم ترعى بعبد كأنها غنم

فإلى البيئة التي ينشأ فيها الأديب وتضطرب في محيطها حياته ، مرد ما يمتاز به أدبه من اتجاه خاص وطرق موضوعات دون غيرها ، وتناول لها على نحو خاص ، وما يتصف به من سمو أوضعة ، وورع أو استهتار ، وفكاهة أو انقباض ، وتفاؤل أو تشاؤم ، وعمق أو سطحية ، يختلف حظه من كل ذلك عن حظوظ أبناء أمته بل أبناء جيله بل أصحابه وخلفائه ؛ وبسبب عوامل البيئة تلك يختلف عنترة وعمر بن أبي ربيعة والشريف الرضي والمتنبي في العربية في الموضوع والنزعة واللفظ والاسلوب ، كما يختلف وردزورث وبيرون وسكوت وشلي في الانجليزية ، حتى يستغث الثاني شعر الأول أي استغثاث ، ويجمل الثاني رأيه في الأخير في قوله : ذلك الملحد شلي ! وما ذلك إلا لاختلاف ما يحمل رأس كل منهم من آثار الوراثة والثقافة والعقيدة والتربية والنشأة ، على تعاصرهم وتشاركهم في وجوه أخرى ، وعلى كونهم يعدون اليوم أبناء مدرسة واحدة .

على أن اختلاف بيئات الأدباء أشد ظهورا في الانجليزية منه في العربية ، لأن أدباء الانجليزية أكثر اضطرابا في المجتمع وإدخالا له في أدبهم وأكثر ارتحالا في البلدان وذهابا في آفاق الفكر وإعرابا عن أفكارهم الصميمة وآثار تجاربهم ، ولأن المجتمع الانجليزي تغير وتجدد على توالي العصور من عهد اليزابث إلى الوقت الحاضر مالم يتغيره المجتمع الاسلامي ، والثقافة الانجليزية تطورت بتقدم العلوم مالم تتطوره الثقافة العربية ، فالمحافظة كانت اغلب على المجتمع والفكر العربيين ، وهي أيضا كانت سمة الأدب العربي وديدن أدباء العربية ، ومن ثم تشابهوا كثيرا في الموضوعات والأساليب على تباعد المواطن والعصور .

فأدباء العربية بعد قيام الدولة الاسلامية ودخول الادب طوره الفني الراق ، كانوا يأخذون أنفسهم بضروب من القول يطلبون بها البراعة الفنية أو الشهرة أو الحظوة والنجاح ، كالتمدح بجليل الصفات والتفاخر بتالد المجد ومدح الأمراء ، وجروا في ذلك على سنن مألوفة واغترفوا من مناهل مطروقة ، حتى تشابه أولهم وأخيرهم وبعيدهم وقريبهم . فاذا قرأت مئات القصائد التي نظمها مروان بن أبي حفصة وبشار وأبو تمام والبحتري وغيرهم في مدح الخلفاء ، كي ترى أثر البيئة الخاصة للشاعر في كل ذلك فلن تظفر بطائل ، لأنهم إنما نظموها لأغراض مادية وعلى أنماط مأثورة ، لادخل للنفس ولا لتراثها الفكري فيها . وإذا قرأت قول أبي نواس :

ومستعبد إخوانه بثرائه لبست له كبراً أبر على الكبر
لقد زادني تيها على الناس أنني أراني أغناهم وإن كنت ذا فقر
فوالله لايبدي لساني حاجة إلى أحد حتى أغيب في القبر
فلا يطمعن في ذاك مني سوقة ولا الملك الدنيا المحجب في القصر

كدت تحسب قائل هذا الشعر شريفا حسيباً عفيفا ، يزهد في غرور الدنيا ويقنع بالقليل استمساكا بالأنفة والكبرياء ، ولم تعز هذا الفخر المغرق إلى ذلك المداح السآل الذي أنفق العمر في اجتداء عطايا الحكام ليبذرها في انتهاب اللذات الجسدية ، وماذاك إلا أن أبا نواس اقتفى في نظم هذا الشعر الطنان أثر أشراف الجاهلية الذين كانوا يتمدحون بالأنفة ، وأراد أن يظهر أنه لا يقصر عن شأوهم في ذلك الباب من أبواب القول . والأدب العربي حافل بهذا الضرب من الإنشاء التقليدي الذي لا أثر فيه يذكر للشخصية المستقلة والبيئة الخاصة

هذا ، ونشأة كثير من أدباء العربية مجهولة ، وبيئتهم الأولى غامضة ، وأكثرهم لا يظهرون في ضوء تاريخ الأدب إلا حين يصلون إلى ذرا الأمير ، وقد كان ذلك الوصول غاية أكثرهم ؛ ومن ثم نرى في تاريخ الأدب العربي بيئتين كبيرتين تتلو إحداهما الأخرى وتشملان أكثر أعلام الأدب العربي : الأولى بيئة القتال التي كانت بيئة الجاهلية ، وكان الجلاد فيها هم الأشراف ، والتمدح بالبلاء في الوغى هم الشعراء ، وكان الأشراف في كثير من الأحوال هم الشعراء أو هم الخطباء الفحول ، يشفعون بلاءهم في الهيجاء بلاغتهم في القصيد والارتجال ؛ والبيئة الثانية بيئة البلاط التي اضطرب في محيطها أكثر الشعراء والكتاب بعد الاسلام وقيام الدولة ، وتأثروا بها ونظموا فيها ونثروا

فبيئات أدباء العربية المادية والذهنية كانت كثيرة التشابه من

وجوه ، والبيئات الأولى التى شب فيها كثير منهم مبهمة غامضة ، وقد كان نقاد العربية قليلى العناية بأمر البيئة وأثرها فى تكوين الأديب ، إنما كانوا يعرضون لبعض التواريخ الجافة المتعلقة بمولد الأديب ووفاته ورحلته إلى بعض العواصم واتصاله ببعض الحكام ، ويستحسنون بعض ما أنشأ أو يستهجنونه ، ويفضلونه أو يفضلون عليه ما قال أديب غيره فى نفس الباب ؛ ولهم فى ذلك بعض العذر ، إذ كانت للقول كما تقدم أوضاع وأنماط معروفة ، يأخذ الأديب بها نفسه ما استطاع ، ويحاكى الاقدمين فيها ما أمكنته براعته . أما بيئته الخاصة وتراثه الذهنى والنفسى ، فيذره جانبا وقلما يدخله فى أدبه

ولا يرد ذكر البيئة وأثرها فى كتب النقد العربى إلا عرضا ، كالذى ورد من أن ابن الرومى سئل لم لا يشبه كتشبيهات ابن المعتز ، فقال لسائله : أنشدنى شيئا من قوله الذى استعجزتنى عن مثله ، فانشده بعض أشعار ابن المعتز التى يشبه فيها النجوم والزهور بالفضة والعنبر ومداهن الغالية وهلم جرا ، فصاح ابن الرومى : واغوثاه ! لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ؛ ذاك إنما يصف ماعون بيته ، وأنا أى شىء أصف ؟ ووضع الجاحظ رسالته سالفة الذكر على لسان أرباب المهن ، فأجرى القول فيها مجرى الدعابة والمغالاة ، وكان أولى لو عرض للأمر من ناحيته الجدية . واستعرض بديع الزمان فى بعض مقاماته عدداً من فحول الشعراء المتقدمين ، فقال إن أحدهم أشعر الناس إذا غضب ، والآخر أشعرهم إذا رهب ، والثالث إذا شرب وهلم جرا ، فلم ير إلا أن هذه جبلتهم التى فطروا عليها ، ولم يتخيل لبيئة كل منهم فى ذلك أثراً

أما فى الأدب الانجليزى ، ولاسيما فى العصر الحديث ، فدرس أثر البيئة وعواملها من وراثة وتربية وثقافة وعقيدة ، أساس كل دراسة أدبية وكل نقد وترجمة ، والوسيلة الأولى لفهم الأديب وقدر آثاره حق قدرها ، وما ذاك إلا نتيجة ارتقاء العلوم والاجتماعيات فى العصور الحديثة ، واستفادة الادب الانجليزى بمجهودات أدباء الأمم الأخرى ، كادباء الايطالية الذين ارتقوا بعلم تاريخ الادب ، وأدباء الفرنسية الذين هذبوا أصول النقد ، وقد درس الأدب الانجليزى وترجم أدباؤه على ضوء هذه القواعد والأصول ، فبلغ من الوضوح والترتيب مالم يبلغه تاريخ الادب العربى بعد

فخرى ابو السعود

بمناسبة ذكرى المولد

للأستاذ على الطنطاوى

احتفل العالم الاسلامى كله أول أمس — بذكرى مولد سيد العالم وخاتم النبيين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا الاحتفال يعد فرصة سانحة من فرص الدعوة إلى الاسلام ، والسعى فى سبيل الاصلاح ، تفيدنا فائدة كبيرة إذا نحن عرفنا طريق الاستفادة منها ولم نجعلها قاصرة على إقامة السرادقات الفخمة ، وإيقاد آلاف من المصابيح الكهربائية ، وإطلاق البارود فى الجو ، والاجتماع على ترتيل قصة المولد والتطريب فيها ، وتلاوة الأغانى والأناشيد ، وأكل الحلويات والأنقال ، والتسلى واللهو والطرب ، وإضاعة الأموال بلا حساب

وطريق الاستفادة منها ، أن يبحث الخاصة من رجال وأولياء الأمر ، فى مجالسهم واحتفالاتهم أدواء المسلمين اليوم ، ويصوروها ويفتشوا عن أدويتها ، وأن يضعوا خططاً جديدة للدعوة ، ومناهج للعمل المثمر ، وأن تشرح السيرة النبوية للعامة فى مجامعهم واحتفالاتهم ، وينبهوا إلى مواطن العبرة فيها . لأن ذلك هو المراد من الاحتفال بالمولد ، لاسرد الأخبار الموضوعة . والعجائب والخرافات ، واللهو والطرب ، وأن تبين لهم مزايا الاسلام وفوائده ، وأصوله ومبادئه ، لأن الكثيرين من المسلمين لا يعرفون من الاسلام إلا اسمه ، ولا يفرقون بين طبيعة الاسلام وطبائع الأديان الأخرى ، ولا يعلمون أن الأديان كلها أديان فقط ، بمعنى أنها جاءت بعقائد وعبادات وأخلاق ، أما الاسلام فهو دين ، وهو تشريع ، وهو سياسة ، وهو أدب . وانظر فى أى مسألة من مسائل الفكر الكبرى ، أو أى أمر من أمور الحياة ، تر للاسلام رأيا فيه وحكما ، فالتشريع الاسلامى أغزر أو من أغزر وأصفى المنابع التشريعية فى العالم . والاسلام قد أقر الحرية الفكرية ، ووضع أصول البحث العلمى ، بما أمر به

من دراسة الكون ، والنظر في ملكوت السموات والأرض ، والاسلام قد وضع أسس السياسة العامة ، والشرع الدولى ، والاسلام وحده هو الذى يحل المشكلة الاجتماعية والاقتصادية الكبرى ، وينقذ الانسانية من استبداد المتمولين ، وجحود الفرديين ، ومن خيالات الاشتراكيين ، وبلاء الشيوعيين ، بما جاء به من قواعد حكيمة عادلة للزكاة والمساواة ونظام الحكم . وللاسلام بعد ذلك كله حكمه فى كل عمل من أعمال الانسان ، فلا يخلو عمل على الاطلاق من أن يكون له حكم فى الدين وللدين دخل فيه ، فيكون مباحاً أو مندوبا أو واجبا أو مكروها أو حراما ، ولا يستطيع المسلم أن ينسى الاسلام لحظة أو يمشى بدونه خطوة .

ثم إن هذه الأحكام كلها مساوقة للعقل — موافقة له — سائرة مع العلم . والاسلام يقدر العقل حق قدره ، ويجعله الموجب الأول ، ويربط المسئولية والتكليف به ، ويخاطبه دائما ويعتمد عليه ولا يخالفه أبداً . ولم يستطع أحد إلى اليوم ولن يستطيع فى الغد أن يجد قضية شرعية قطعية ، تناقض قضية عقلية قطعية ، فلا يثبت الشرع محالا فى العقل (١) ولا يحيل ثابتا ، ولا يخالف أصلا من الأصول الثابتة فى العلم . وأعنى بالأصول الثابتة الحقائق والقوانين العلمية ، لا الفروض والنظريات (٢) وأيسر نظرة يلقيها العاقل البصير على كتب الدين ، وأقل إلمامة بعلومه ، تثبت هذا الذى ذكرنا .

***

فإذا كان هذا هو الاسلام ، وهذه منزلته من العلم والمدنية فلماذا ينصرف عنه أكثر الشباب ؟ إنهم منصرفون عنه لأنهم لا يعرفونه . ومن أين يعرفون وهم لا يدرسون منه فى المدارس إلا شيئا تافهاً لا يحل حلالا ولا يحرم حراما ، ثم إنهم لا يجعلونه ولا يحلونه إلا دون الدروس كلها . وسبب ذلك أن الطلاب إنما يقرءون ويجدون ابتغاء النجاح فى الامتحان والدين لا يدخل فى امتحان رسمى أبداً ، لا فى الشام ولا مصر ولا العراق . وهذه مناهج الكفاءة وما دونها ، والبكالوريا

وما فوقها ، فيها كل علم إلا علوم الدين . وليس الغرض من حذفها والمانع من اثباتها وجود طلاب غير مسلمين فى هذه الامتحانات ، فإن ذلك يمكن تلافيه ، بأن يمتحن كل طالب فى دينه ، وتدعى كل أمة إلى كتابها ، ولكن ذلك شىء تعمده الأجانب يوم كانت سياسة البلاد وإدارتها ومناهجها فى أيديهم وكان أمضى سلاح حاربونا به فى ديننا وأبنائنا ، فكيف نبقى عليه وقد انتقلت سياسة البلاد ومناهجها إلى أيد وطنية يريد أصحابها الخير لبلادهم والصلاح ؟

ثم إن هؤلاء الطلاب إذا خرجوا من المدرسة ، وبقى فريق منهم على شىء من التدين وأحبوا أن يطالعوا علوم الاسلام ، لم يجدوا كتابا سهلا جامعاً بين دفتيه خلاصة ما يجب على الشاب المسلم أن يعرف من أصول الدين وفروعه ، وإنما يجدون كتبا فى علم الكلام مشحونة بالمجادلات الجوفاء . والرد على ملل قد بادت ونحل قد نسيت منذ مئات السنين ، وعرض شبهها وضلالاتها ؛ وكتبا فى الأصول معقدة غامضة ، لا يفهم الشاب شيئا منها ، وكتبا فى الفقه مملوءة بالمناقشات اللفظية ، والفروض البعيدة والاحتمالات الغريبة ، لا تكاد تخلو من اختصار مخل أو تطويل ممل ، وكتبا فى التفسير مطولة ومختصرة فيها كل شىء من نحو وصرف ولغة وبلاغة وتاريخ وفلسفة وإسرائيليات ولكن ليس فيها تفسير واحد يرضى الشاب وينفعه ويجد فيه المراد من الآية ويعينه على التدبر الذى أمر الله به ، وكتبا فى الحديث مرتبة على غير حاجة العصر مبوبة بحسب أبواب الفقه أو أسماء الرواة ، ينصدع رأس الشاب ويفنى صبره قبل أن يصل إلى حديث واحد يفتش عنه ويطلبه ، ورسائل فى علم المصطلح غامضة فيها تعقيد ، وقل مثل ذلك فى سائر العلوم ... وهذه الكتب مؤلفة على طريقة لا تخلو من غرابة وشذوذ ، فالكتاب الواحد متن وشرح للمتن ، ومختصر للشرح ، وشرح للمختصر ، وحاشية على شرح المتن ، وتقرير على حاشية الشرح ... ولست أفهم لماذا ارتقت أساليب الكتابة فى كافة العلوم وأخذت شكلا جديداً ، ولماذا يؤلف اليوم الكتاب فى الأدب على غير ما كان يؤلف عليه قبل خمسين سنة ولا تزال هذه الكتب على ما كانت عليه منذ مئات السنين لم تصل إليها موجة الحياة ؟ ولماذا نجد فى علماء كل فرع مؤلفين

(١) كاستحالة كون الثلاثة واحدا (٢) كنظرية لابلاس فى أصل الأرض وداروين فى أصل الانسان

مجددين ولا نكاد نجد فى علماء الدين إلا مقلدين مرددين ؟

فماذا يصنع الشاب الذى لم يدرس الاسلام فى مدرسة ولم يفهم كتبه ؟ أيسأل المشايخ ؟ إنه إن فعل لم يجد أكثرهم إلا مجلدات تمشي ، ليس فى ثيابهم وتحت عمائمهم إلا أوراق الكتاب ، فهم يسردون عليك ما حفظوا كأنهم يتناولونه من مستودعات أدمغتهم باليد ؛ ومن كان منهم ذا فكر جوال ، وعقل باحث كان فى كثير من الأحيان ضعيفاً فى مادته العلمية ، فهو يخالف الأولين والآخرين ، ويتنكب سبيل الدين . وقليل منهم من جمع إلى العلم ، سرعة الفهم ، وفهم روح العصر ، وحسن مخاطبة الناس . ثم أكثر هؤلاء المشايخ بعيدون عن الأدب ليس لهم فى صناعة البيان يد ، قل أن ترى فيهم من يعد كاتبا مجيداً ، أو لسناً مفوهاً . على أننا بعد هذا كله نخشى أن ينقرض هؤلاء المشايخ ولا نجد لهم خلفاً ، وعلى أننى لا أحملهم الذنب وحدهم ، فالذنب على المسلمين كلهم وليس فى الاسلام (رجال دين) مسئولون عنه ، وقائمون به ، ووكلاء عليه ، ولكن رجال الدين عندنا هم كافة أهله وأتباعه ، لا فرق فى ذلك بين شيخ الاسلام ، وآخر مسلم فى أفريقيا الوسطى ، أو القطب الشمالى . ولو أن أكبر شيخ فى حلقته ، أو خطيب على منبره ، أخطأ فى حكم ، أو حرف آية ، لرد عليه من يحفظ الآية ، ويعرف الحكم ولو كان طفلا صغيراً ، أو امرأة ... وما هذه المرأة بأقل من تلك العجوز ، ولا هذا الخطيب بأجل من عمر ؟

***

ثم إن الشبان المسلمين كلهم يذكرون الإعجاز ويعتقدون به ، ولكن من منهم يعرف أوجه الإعجاز على حقيقتها . وإذا أراد أن يفهمها ففى أى كتاب يجدها ؟ بل من منهم يفهم القرآن فهما صحيحاً يتجاوز التفسير العادى ؟ بل كم من الناس يعرفون تفسيره العادى ، وكم منهم يسمعه ليعتبر ويتدبر ؟ ألا يسمع أكثر المسلمين القرآن ليطربوا بنغماته وأصوات تلاوته ؟

وكلنا يعتقد بأن الاسلام صالح لكل زمان ومكان ، ولكن أى دولة بل أى جمعية إسلامية حاولت أن تستخلص من كتب الفقه ونظريات الفقهاء قانونا مدنياً ينطبق على عصرنا الحاضر ؛ ويكون تتمة العمل الكبير الذى بدئ بوضع (مجلة الأحكام الشرعية) وفى الفقه متسع لهذا العمل ، وفى إنجازه إنقاذ البلاد الاسلامية من الحكم بغير ما أنزل الله ، والتعرض لما ورد فى ذلك من الوعيد الشديد ، فضلا عما فيه من المس بالكرامة الوطنية ، والسيادة القومية ؟

ومن حاول أن يؤلف فى بيان رأى الاسلام فى الاشتراكية وموقفه منها ، وحكمه فى الديمقراطية وأساليب الحكم المعروفة ؟

أليس اغتنام فرصة ذكرى المولد الشريف للبحث فى هذا وشبهه جزءاً من هذه الحفلات التى لا معنى لها ، والمظاهر التى لا طائل تحتها ؟

***

وإنى لأرجو من الله — لما أرى من انصراف مصر علمائها وأدبائها وشبابها المثقف إلى الاسلام وإقبالها عليه — أن يكون يوم ذكرى المولد من هذا العام ، فاتحة عهد جديد فى تاريخ الاسلام ، كما كان يوم المولد الشريف ، فاتحة عهد جديد فى تاريخ العالم .

(بغداد) **على الطنطاوى**

خاتمة المأساة الأندلسية :

الصراع الأخير

بين الموريسكيين واسبانيا

للاستاذ محمد عبد الله عنان

— ١ —

حدث أثناء المفاوضات التي جرت في مونترو بين مصر والدول لالغاء الامتيازات الأجنبية أن تقدم الوفد الاسباني بطلب يختص باليهود « السفرديم » المقيمين بمصر ، هو أن يعاملوا كالرعايا الاسبانيين وأن يمنحوا مزية التقاضي أمام المحاكم المختلطة أثناء فترة الانتقال ، وشرح أحد أعضاء الوفد بواعث هذا الطلب لممثلي الصحف ، فقال : إن هؤلاء اليهود « السفرديم » هم من ذرية اليهود الاسبانيين الذين طاردتهم مجالس التحقيق « محاكم التفتيش » في القرن السادس عشر وشردتهم عن وطنهم في مختلف البلاد ، وأن اسبانيا الجمهورية التي تحررت من نزعات التحامل والتعصب تريد أن تقدم ترضية لسلالة هذه الطائفة التي نكبت في عصور الظلم والتعصب والطغيان .

وهذه الملاحظة تثير الشجن . ذلك أن اسبانيا النصرانية تعترف بعد أربعة قرون بزلتها التاريخية الكبرى ، وتلعن مع التاريخ ذكرى ديوان التحقيق . بيد أن هذا الاعتراف ليس إلا لمحة بسيطة من الحقيقة المروعة ؛ ذلك ان اسبانيا النصرانية ما كادت تظفر بتحقيق سياستها الوطنية القديمة في سحق اسبانيا المسلمة والاستيلاء على تراثها كله والظفر بغرناطة آخر معاقلها ، حتى وضعت برنامجها الشائن لمحو تراث الأندلس ، وسحق الاسلام وكل ذكرياته وآثاره ، وإبادة هذه البقية الباقية من سلالة المسلمين والعرب الذين لبثوا سادة في الجزيرة زهاء ثمانية قرون ؛ وكان اليهود الذين عاشوا وازدهروا في ظل الدولة الاسلامية ، كالمسلمين ضحايا هذه السياسة البربرية ؛ وكانت محاكم التحقيق تنشط لمطاردة الضحايا ، وكانت محارقها تسطع في مختلف القواعد الأندلسية القديمة حتى قبل سقوط غرناطة ؛ وكان سقوط غرناطة في فاتحة سنة ١٤٩٢م نذير المأساة المروعة التي لم تستطع اسبانيا النصرانية في حمى الظفر وغلوائه أن تقدر عواقبها المخربة ؛ وكان المسلمون المغلوبون قد أخذوا على الظافرين قبل التسليم كل ما يستطيع أن يأخذه الضعيف على القوى من العهود النظرية ، لتأمين النفس والمال والعرض ، والدين والتراث القومي ؛ ولكن هذه العهود التي لا سند لها إلا إرادة الظافر ، لم تكن شيئاً مذكورا في نظر اسبانيا النصرانية ؛ فلم تمض سوى أعوام قلائل ، حتى كشفت اسبانيا النصرانية عن سياستها ونياتها الحقيقية فسحقت العهود المقطوعة وأرغمت المسلمين على التنصر ، ولم تدخر وسيلة من الوسائل البربرية ، من سجن وحرق وتشريد وتعذيب إلا استعملتها لتحقيق هذه الغاية ، وسطعت محارق ديوان التحقيق في غرناطة كما سطعت من قبل في غيرها من قواعد الأندلس لتلتهم المخالفين والمارقين ، وغدا أبناء قريش ومضر نصارى يشهدون القداس في الكنائس ويتحدثون القشتالية ، واختفت آثار الاسلام والعربية بسرعة ، واستحال الشعب الأندلسي إلى مجتمع جديد هو مجتمع الموريسكيين أو العرب المتنصرين

ولقد كان استشهاد الموريسكيين من أروع مآسي التاريخ ، وكان هذا الشعب المهيض الذي أدخل قسرا في حظيرة النصرانية ، والذي أنكرته مع ذلك إسبانيا سيدته الجديدة وأنكرته الكنيسة التي عملت على تنصيره ، يحاول أن يروض نفسه على حياته الجديدة ، وأن يتقبل مصيره المنكود بإباء وجلد ؛ ولكن إسبانيا النصرانية كانت ترى في هذه البقية الباقية من الشعب الأندلسي المجيد عدوها القديم الخالد ، وتتصور أن هذا المجتمع المهيض الأعزل ، الذي أحكمت أغلالها في عنقه مصدر خطر دائم على سلامها وطمأنينتها ، وتشتد في مطاردته وإرهاقه بمختلف الفروض والقوانين والمغارم ، وتمعن في انتهاك عواطفه وحرماته وفي تعذيبه وتشريده ، وتنكر عليه أبسط الحقوق الانسانية ؛ وكانت محاكم التحقيق تحمل هذه الرسالة الدموية المخربة ، وتعمل على تنفيذها بوحشية لم يسمع بها ؛ واستطالت هذه الوندالية منذ

سقوط غرناطة أكثر من قرن . بيد أن الموريسكيين يحملهم اليأس العميق ، وغريزة الدفاع عن النفس ولمحة باقية من عزم النضال القديم ، لم يخلدوا إلى هذا الاستشهاد المؤسى ، دون تذمر ، ودون انتقاض ، فقد ثاروا غير مرة على الطغاة والجلادين ، وحاولوا مقاومة هذه السياسة الوندالية والخروج على فروضها ؛ ولكن يد الطغيان القوية مزقتهم وسحقتهم بلا رأفة ، وتركتهم أشلاء دامية

وكانت أعظم ثورة قام بها الموريسكيون فى وجه اسبانيا النصرانية سنه ١٥٦٩ م . أعنى بعد سقوط غرناطة بثمانية وسبعين عاماً ؛ وكان التنصر قد عم الموريسكيين يومئذ وغاضت منهم كل مظاهر الاسلام ؛ ولكن قبساً دفيناً من دين الآباء والأجداد كان لا يزال يجثم فى قرارة هذه النفوس الأبية الكليمة ؛ ولم تنجح اسبانيا النصرانية بسياستها البربرية فى اكتساب شيء من ولائها المغصوب ، وكان الموريسكيون يحتشدون فى جماعات كبيرة وصغيرة فى بسائط غرناطة وفى منطقة البشرات الجبلية تتوسطها الحاميات والكنائس ، لتسهر الأولى على حركاتهم ، وتسهر الثانية على إيمانهم وضمائرهم ، وكانوا يشتغلون بالأخص بالزراعة والتجارة ، ولهم صلات تجارية وثيقة بثغور المغرب

وكانت بقية من التقاليد والمظاهر القومية لازالت تربط هذا الشعب الذى زادته المحنة والخطوب اتحاداً وتعلقاً بتراثه القومى والروحى ؛ وكانت الكنيسة تحيط هذا الشعب العاق الذى لم تنجح تعاليمها فى النفاذ إلى أعماق نفسه بكثير من البغضاء والحقد ؛ فلما تولى فيليب الثانى الملك ألفت فرصتها فى اذكاء عوامل الاضطهاد والتعصب . وكان هذا الملك المتعصب حبراً فى أعماق نفسه ، يخضع لوحى الاحبار والكنيسة ، ففى سنة ١٥٦٣ ظهرت بوادر السياسة الجديدة إذ صدر قانون جديد يحرم حمل السلاح على الموريسكيين إلا بترخيص من الحاكم العام ؛ فأثار صدوره سخط الموريكسيين ؛ بيد أنه كان مقدمة لقانون بربرى جديد أعلن فى غرناطة فى يناير سنة ١٥٦٧ وهو الشهر الذى سقطت فيه غرناطة ، واتخذته اسبانيا عيداً قومياً تحتفل به كل عام وكان القانون الجديد يرمى إلى القضاء على آخر المظاهر والتقاليد التى تربط الموريسكيين بماضيهم وتراثهم القومى ، فحرم عليهم أن يتكلموا العربية أو يتعاملوا بها ، وأن لا يستعملوا سوى القشتالية فى التخاطب والتعامل وذلك فى ظرف ثلاثة أشهر من صدور القانون ، وألا يتخذوا أسماء عربية ، أو يرتدوا الثياب العربية ، وحظر التحجب على النساء وألزمن بارتداء الثياب الأوربية المكشوفة وذلك فى ظرف عام ، وأن تبقى بيوتهم مفتوحة أثناء حفلات الزواج وغيرها ليستطيع القسس ورجال السلطة أن يروا ما يقع بداخلها من المظاهر والمراسيم المحرمة ، وألا ينشدوا الأغانى العربية أو يزاولوا الرقص العربى ، وفرضت للمخالفين عقوبات فادحة تختلف من السجن إلى النفى والاعدام

أعلن هذا القانون فى غرناطة فى ميدان باب البنود أعظم ميادينها القديمة فى يناير سنة ١٥٦٧ ؛ ونستطيع أن نتصور وقعه لدى الموريسكيين فقد فاضت قلوبهم سخطاً وأسى ويأساً ، وحاولوا أن يسعوا بالضراعة والحسنى لالغائه أو على الأقل لتخفيف وطأته ، فاجتمع أعيانهم وقرروا التظلم للعرش ، وحمل رسالتهم إلى فيليب الثانى وإلى وزيره الطاغية اسبنوسا ، سيد إسبانى نبيل من أعيان غرناطة يدعى الدون خوان هنريكس ، وقد كان يعطف على هذا الشعب المنكود ويرى خطر السياسة التى اتبعت لابادته ؛ ولكن وساطة ذهبت عبثاً وحملت سياسه العنف والتعصب كل شيء فى طريقها ، ونفذت الأحكام الجديدة فى المواعيد التى حددت لها ، وأحيط تنفيذها بمنتهى الصرامة والشدة .

عندئذ بلغ اليأس بالموريسكيين ذروته ، فتهامسوا على المقاومة والثورة والذود عن أنفسهم إزاء هذا العسف المضنى أو الموت قبل أن تنطفىء فى قلوبهم وضمائرهم آخر جذوة من الكرامة والعزة وقبل أن تقطع آخر صلاتهم بالماضى المجيد والتراث العزيز .

— ٢ —

وهنا يبدأ الصراع الأخير بين الموريسكيين واسبانيا النصرانية ؛ ومن الأسف أننا لم نتلق عن هذا المرحلة المؤسية من تاريخ اسبانيا المسلمة شيئاً من الروايات العربية ، وكل

ما انتهى إلينا منها عن المأساة أثر صغير يسمى «أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر» كتبه فيما يظهر مسلم أو موريسكى من أشراف غرناطة وذلك سنة ٩٤٧ هـ (١٥٤٢ م) أعنى بعد سقوط غرناطة بخمسين سنة. وفيه يصف حوادث سقوطها وما تلا ذلك من ارغام المسلمين على التنصر، ومن مطاردتهم وإرهاقهم وتعذيبهم، ويجمل لنا مأساة التنصر فى هذه الكلمات المؤثرة.

«ثم بعد ذلك دعاهم (أى ملك قشتالة) الى التنصر وأكرههم عليه وذلك فى سنة اربع وتسعمائة، فدخلوا فى دينهم كرها، وصارت الاندلس كلها نصرانية، ولم يبق فيها من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله، إلا من يقولها فى قلبه وفى خفية من الناس، وجعلت النواقيس فى صوامعها بعد الآذان، وفى مساجدها الصور والصلبان بعد ذكر الله وتلاوة القرآن. فكم فيها من عين باكية وقلب حزين، وكم فيها من الضعفاء والمعذورين لم يقدروا على الهجرة واللحوق باخوانهم المسلمين قلوبهم تشتعل ناراً، ودموعهم تسيل سيلا غزيرا، وينظرون أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان ويسجدون للأوثان ويأكلون الخنزير والميتات ويشربون الخمر التى هى أم الخبائث والمنكرات، فلا يقدرون على منعهم ولا على نهيهم ولا على زجرهم، ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب وعذب بأشد العذاب، فيا لها من فجيعة ما أمرها ومصيبة ما أعظمها وطامة ما أكبرها»[1]

بيد أن هذه الرواية العربية الوحيدة تقف فى تتبع حوادث المأساة عند هذا الحد؛ وإذن فليس لدينا لتتبع حوادث هذا الصراع الأخير بين الموريسكيين وبين اسبانيا النصرانية سوى المصادر القشتالية؛ وإذا كانت هذه المصادر النصرانية، تتأثر فى كثير من المواطن بالعوامل الدينية والقومية، فانها مع ذلك تعرض هذه الحوادث المؤسية فى أسلوب مؤثر، ولا تضن فى بعض المواطن والمواقف بعطفها وأحياناً باعجابها على ذلك الشعب الباسل الذى لبث يناضل حتى الرمق الأخير عن كرامته وعن تراثه الروحى والقومى.

(للبحث بقية)
(النقل ممنوع)

محمد عبد الله عنان

(١) أخبار العصر (طبعة المستشرق ميلر) ص ٥٤، ٥٥

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
استاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٥ —

الديانة المصرية — قداسة الحيوان عند الخاصة

بقى علينا قبل أن نغادر فصل الألوهية عند قدماء المصريين أن نبين حقيقة علمية ظلت مستورة وقتا طويلا يكتنفها الغموض ويحوطها الابهام من كل جانب، وظل العلماء والباحثون يتخبطون فى حل مشكلتها مدى بعيدا. تلك المشكلة هى عبادة المصريين للحيوانات التى طالما كانت موضع الحيرة من المستمصرين الذين يدينون بمدنية مصر الفائقة ورقى عقليتها الممتاز الذى لا يتفق مع عبادة الحيوانات تحت لواء منطق مستقيم

وها نحن أولاء نبين رأى الخاصة المتفلسفين فى عبادة الحيوان بعد أن أبنا فى الكلمات السابقة منشأ عقائد العامة الذين كانوا يعبدون تلك الحيوانات دون أن ينشغلوا بأسباب هذه العبادة. وقد ذكرنا لك فروض العلماء التى تمحلوها فى هذا الشأن؛ أما الخواص من المصريين فمبررات عبادتهم للحيوان تتلخص فيما يلى:

كان المصريون يعتقدون أن الروح تعود بعد الموت فتقطن فى المومياء المحنطة وفى التمثال الحجرى على ما سنبين ذلك فى بابه، ثم تدرجوا إلى أن للانسان عدة شخصيات بعضها مادى وبعضها روحى، وأن كل شخصية من هذه الشخصيات يمكن أن تستقل بنفسها فى مأوى خاص وإذا كان هذا شأن الانسان فأحر بالإله - وهو الأعظم روحانية - أن يكون له عدة شخصيات تحل كل واحدة منها فى مأوى، ثم فكروا فهداهم تفكيرهم إلى أن مأوى شخصيات الإله لا يصح أن تكون ميتة كالمومياء ولا حجراً بارداً كالتمثال، وإنما يجب أن تكون مستحوذة على الحياة الواقعية وأن تكون غير إنسان. فأخذوا يحلون الإله تارة فى ثور وأخرى فى تمساح،

وثالثة فى قط ، ورابعة فى طائر ، ثم يتبعون هذا الحلول بتقديس ذلك القط أو ذاك الثور أو هذا الطائر ، ويقدمون إلى هذه الحيوانات أنواع العبادة والإجلال ، لا على أنها معبودات لهم ، ولكن على أنها ظروف قد حلت فيها شخصيات الإله الأعظم التى لا تتناهى .

وكانت هذه العبادة فى أول الأمر مقصورة على فرد واحد من أفراد كل نوع من الحيوانات ينحصر فيه الاختيار من بين جميع أفراد نوعه لميزة لا توجد فى غيره ، ثم تطورت هذه العقيدة فأخذت تشمل أفراد كل نوع عبد منه فرد واحد فى الماضى . وقد شاهد « هيرودوت » فى مصر هذه الحالة فنبأنا بأن حريقاً شب فى مصر فوجه السكان جميعهم عنايتهم إلى نجاة القطط قبل أن يفكروا فى إطفاء النار . وهو ينبئنا كذلك بأن موت بعض الحيوانات كالقطط والكلاب كان يعقبه فى مصر حداد شامل وألم عميق[1]. وليست رواية هيرودوت بأغرب مما يحدثنا به الأدب عن الحيوانات ، إذ ينبئنا أن المصريين كانوا يعتقدون أنها مشتملة على كثير من أسرار الكون الخفية ، فهى مثلا تعلم الغيب وتحيط بما فى المستقبل الغامض على الانسان ، ولكنها تحتفظ بهذه الأسرار ولا تبوح بشىء منها إلا للمقربين الذين اصطفاهم الإله أو سيصطفيهم عما قريب . وها هى ذى الأساطير المصرية تحدثنا فى قصة « الأخوين » أن « بيتيو » أحد الشقيقين اللذين وشت بينهما زوجة أكبرهما كان عند مواشيه ، وهو لا يدرى تربص شقيقه به ، فهتفت به إحدى البقرات قائلة : ها هو ذا أخوك يريد قتلك بسكينة فانج بنفسك من أمامه[2]

ولم يكن الحيوان وحده هو موضع هذا الحلول الإلهى ومقر تلك الأسرار الكونية ، وإنما كان النبات كذلك . ولهذا فكثيراً ما يصادفك فى التاريخ المصرى : حقائقه وأساطيره ، آثار أو قصص تتحدث عن الأشجار المقدسة الحائزة لغوامض الأسرار . فمن ذلك ما ينبئنا به كتاب « الأدب المصرى القديم » من أنه بينما كان فرعون جالساً ذات مرة مع زوجته التى كان يحبها حباً جماً تحت إحدى الشجرات المقدسة فى سرور وسعادة ، وإذا بالشجرة تنحنى على الملك وتسر فى أذنه أن زوجته خائنة ؛ إلى غير ذلك مما لو تعقبناه لطال بنا البحث

ارتقت بعد ذلك هذه العقيدة وسارت إلى الفلسفة بخطوات واسعة فقررت أن الإله حال فى كل كائن حى ، بل فى كل جزئية من جزئيات الطبيعة ، وأنه ذو مظاهر مختلفة . فهو مرة روح فى جسم حى ، ومرة روح مجردة ، وثالثة قوة من قوى الطبيعة فى الجو أو على الأرض أو فى أعماق البحار ؛ وهذا الحلول الدينى أولا ، والفلسفى ثانياً ، هو سر عبادتهم للحيوان والنبات.

النفس عند قدماء المصريين

يرى بعض العلماء أن المصريين فى أول عصورهم الفكرية لم يكونوا يعنون بالروح ، أو بعبارة أدق لم يكن عندهم عن الروح فكرة واضحة . ويعللون هذا بأن المصريين كانوا يعتقدون فى تلك العهود السحيقة أن الجسم نفس حى يستمتع فى القبر بكل ميزات الحياة . ولكن هذا الرأى عندى غير صحيح ، إذ أن المعروف عند قدماء المصريين أنهم كانوا منذ أقدم عصورهم يدينون بوجود كائن أجنبى عن الجسم ، وأنه أثناء وجود الجسم فى القبر يختلف إليه من حين إلى آخر ، وأنهم لهذا كانوا يتركون فى بناء القبر ثغرة بسيطة تمر منها الروح جيئة وذهاباً ، وأنه لكى تظل الروح حية يجب أن يبقى مأواها وهو الجسم سليما من الخدوش والجروح ، ولا يضمن سلامة الجسم إلا التحنيط ، فابتدعوه مدفوعين إلى ذلك باحتياجهم اليه ، (والحيلة بنت الحاجة كما يقولون) ؛ ثم أخذ المحنطون الفنيون يتنافسون فى هذه الصناعة ، ويبرهن كل واحد منهم على أنه أقدر من صاحبه على حفظ الجسم سليما زمناً طويلا . غير أنهم اقتنعوا بعد ذلك بأن الجسم مهما كان تحنيطه متقناً سيلحقه البلى على كل حال . وهنا تتعرض الروح للخطر ، فلا مناص إذاً من أن يصنعوا لها مأوى آخر تقيم فيه إذا ما بلى الجسم ؛ فاخترعوا فن النحت . ولما كانت الأسطورة الدينية تشترط أن يكون هذا التمثال المحنط شبيهاً بالجسم الأصلى فى كل تقاطيعه وملامحه دفعتهم هذه الوسوسة إلى الاجادة والإتقان فى النحت بهيئة تعجز أكابر فنانى العصور الحديثة .

عدد المصريون بعد ذلك التماثيل للشخص الواحد حتى جاوزت فى بعض الأحيان مائة تمثال للدفين الواحد . وكان لهذا التعديد سببان : الأول الوسوسة الدينية التى كانت تقض مضاجعهم وتنذرهم بالأخطار المرعبة التى تتعرض لها الروح إذا أخطأ المثَّال فى شىء ولو يسيرا من تقاطيع الجسم أو

(١) راجع هيرودوت الكتاب الثانى فصل ٦٦ و٦٧ .

(٢) راجع كتاب « قصص مصر الشعبية » ترجمة الأستاذ « ماسبرو » طبعة ثالثة

ملامح الوجه ، فكان الاكثار من التماثيل يقيهم شر هـذا الخوف المتسيطر . أما السبب الثانى فهو أن تكون الروح فى عالم الآخرة غنية سعيدة بالتنقل من تمثال إلى تمثال . ولكن منشأ هذا التعديد قد نسى بمرور الزمن ثم تطرقت اليه التأويلات المختلفة التى تلحق عادة كل عقيدة نسى أصلها . وكان أحد هذه التأويلات الكثيرة أن هذه التماثيل لم تصنع عبثاً ، وإنما صنع كل تمثال منها لروح خاصة ، لأن كل شخص يشتمل على عدة أرواح تسمى إحداها : « L, âme » أى الروح ، والثانية : « L, esprit » أى النفس أو العقل . والثالثة « Le double » (دوبل) وهى صورة صيغت من مادة أدق من مادة الجسم ، ولكنها على هيئة الجسم تماما . والرابعة « Le Ka » (الكا) وهى الجوهر الخالد الموجود فى الانسان وفى كل إله ، وهو سر الحياة وسر السمو .

وتمتاز « الكا » عند المصريين عن بقية شخصيات النفس بأنها تظل فى عالم السماء مادام الانسان فى الحياة ، فاذا مات اتصلت به اتصالا وثيقاً يجعله غير قابل للزوال . أما الروح فانها تظل مترددة على الجسم فى قبره كما أسلفنا . حتى اذا مافاز الميت برضى « توت » انكشفت أمامه كل أسرار الحياة وأصبح لافرق بينه وبين الأحياء إلا أنهم يسيرون على الأرض وهو نائم فى قبره . ومن أسباب هذا الرضى أن يتعبد الشخص فى حالة حياته بتلاوة كتاب توت وأن يوصى بوضعه معه فى قبره إذا أمكن ذلك . وفى هذا المعنى تقول الأسطورة المصرية « إن كتاب توت الذى كتبه الإله بيده ، والذى لا يحتوى إلا على عزيمتين اثنتين والذى اشتمل على جميع كلمات الخلق والتكوين المقيدة للآلهة أنفسهم ، إذا حصلت عليه ثم تلوت القسم الاول منه سحرت السماء والأرض وعالم الليل والجبال والبحار وفهمت لغة الطير واستطعت أن ترى الأسماك فى أغوار الأنهار ، لأن قوة خفية تصعد بها على وجه الماء ؛ واذا تلوت القسم الثانى من هذا الكتاب فانك بعد أن تصير فى القبر تعود إلى شكلك الذى كنت عليه فى حال الحياة وترى الشمس حينما تشرق والقمر حينما يظهر [1] » .

وكان المصريون يعتقدون أن الروح وهى فى عالم الآخرة تظل مفتقرة إلى ما يقدمه إليها الأحياء من طعام وشراب فى الضحايا والقرابين ، وانها إذا تركت بدون هذه الضحايا يؤلمها هذا الاهمال كما يؤلم الأحياء . ولا ريب أن هذه العقيدة تدل للوهلة الأولى على مادية المصريين . وقد استند بعض الباحثين إلى هذه الأسطورة ومثيلاتها من ترك المصريين ثغرة للروح تمر منها . ومن قولهم بافتقار الروح إلى مأوى مادى تقيم فيه كالمومياء والتمثال ، لجزموا من كل هذا بأنه اذا كان للمصريين فلسفة فانها مادية ساذجة ؛ وهو قول بعيد عن الصحة بعد العدم عن الوجود ، لأن للنفس عند المصريين عدة شخصيات ، فاذا كانت إحدى هذه الشخصيات مادية تأكل وتشرب بعد الموت من الضحايا والقرابين وتحتاج إلى مأوى تقيم فيه وثغرة تنفذ منها ، فلا ينزل ذلك بفلسفتهم إلى المادية ، لأن قولهم بوجود الشخصية الأخرى التى هى جوهر الأسرار الإلهية يصعد بهذه الفلسفة إلى أسمى أوج الروحانية . على أنى لا أدرى كيف يجرؤ هذا البعض من العلماء على أن يرموا فلسفة المصريين بالمادية الساذجة من أجل قولهم بافتقار الروح إلى الأكل والشرب والمأوى ثم هم يسوغون لأنفسهم أن يشيدوا بفلسفه « تاليس » و « أناكسياندر » و « أنا كسيمين » و « ديوجين » وهم لم تخطر لهم الروح ببال ؛ أو بفلسفة « ديموقريت » و « إبيقور » اللذين — وإن قالا بالثنائية — لا يميزان الروح عن المادة إلا بنفس الميزة التى ميز بها المصريون من قبل « الدوبل » عن الجسم ، وهى كما نص « ديموقريت » و « إبيقور » : « إن النفس من ذرات أدق وأكثر شفافية من ذرات الجسم ، وهذا هو كل ما بينهما من فرق ، أضف إلى هذا أن « أفلاطون » نفسه — وهو ثانى أجلاء فلاسفة اليونان الروحانيين — يرى أن النفس مكونة من ثلاث قوى : إحداها جوهرية خالدة ، والاثنتان الأخريان ماديتان قابلتان للفناء . فهل عيب التفكير المصرى هو أنه سبق غيره إلى النظريات الراقية بأكثر من عشرين قرنا ؟ !

مما هو جدير بالذكر عند قدماء المصريين أن الروح كانت عندهم تتصل بعالم الأحياء فتذكره بعظات الماضى وتنبئه بأسرار المستقبل وتنصحه بعمل شىء وتحذره من عمل آخر إلى غير ذلك مما تفيض به الأساطير

(يتبع)

محمد غلاب

(١) راجع « القصص المصرية » للاستاذ « ماسبرو » صفحة (١٠٨)

ذكرى المولد النبي

من مشاهد عكاظ المؤثرة (١)

للأستاذ سعيد الأفغاني

استيقظت مكة ذات صباح ، بعد عام الفيل بأربعين ، على جرس حلو ساحر ، يرسله محمد الأمين داعيا قومه إلى الله وحده ، وأن ينبذوا ما هم فيه من عبادة أصنام ووأد بنات وقتل أولاد ، وأن يقبلوا على ما يشيع فيهم المحبة والسعادة ويوطد لهم المجد والعزة فى العالمين .

استمع مشركو مكة إلى هذا الرجل الذى كان حبيبا إلى قلوبهم ، عظيم المنزلة فى صدورهم ، مضرب المثل بينهم فى علو الخلق وطهارة السيرة وصفاء السريرة ، فنظر بعض إلى بعض مكبرين ما أتى به ابن عبد المطلب سيد فتيان هاشم ورجل مكة المنتظر .

ونزت فى تلك الرءوس حمية جاهلية استعصى قيادها على البيان الساحر والعقل الوافر والحرص المخلص ، فعظم عليها أن تترك ما ألفت ، وتألبت قوى أهل مكة جيوشاً متضافرة تكيد لهذا الداعى إلى الخير ولأولئك القانتين المخبتين من الضعفاء والنساء والصبيان ، الذين ملكت عليهم الدعوة الجديدة شعورهم وتغلغل صوت الإله فى أعماق نفوسهم فصفاها وأخلصها ، ليكون منها الهدف الأول الذى يصمد فى سبيل العقيدة الحق للأذى والتشريد والتجويع والتعذيب بصبر عجيب وإيمان صليب واغتباط متزايد ، كأنما يجدون فى هذه الآلام نعيما ولذائذ . فكانت مصابرتهم وثباتهم خير ما ضمن نجاح الدعوة وتقاطر الناس عليها فيما بعد .

إلا أن الأذية عظمت ، وأبى المشركون إلا إصراراً واستكباراً وصداً عن سبيل الله من آمن به ، وكادت تتسرب شوائب من يأس إلى بعض تلك النفوس العظيمة ، لولا بارقة أمل لاحت لهم فى قصد قبائل العرب بالمواسم فى عكاظ ومجنة وذى المجاز .

* * *

وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد مبعثه بثلاث سنين فى عكاظ ، يدعو الناس إلى الخير والهدى والسعادة . وقد لزمه منذ قيامه بالدعوة حزن عميق على قومه الذين كفروا بنعمة الله ، وآلمه ألا يراهم مسارعين إلى ما به صلاحهم ، فعزم ليقصدن المواسم وليأتين فيها القبائل ، كل قبيلة بمنزلها ، وكل جماعة فى حيهم ، يعرض عليهم هذا الدين الجديد . ولقد حرص الحرص كله على أن يهتدوا ، وكان أسفه يشتد كلما أخ قومه بالصد .

قام فى عكاظ يقول :

« يا أيها الناس : قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتنجحوا » ،

ويتبعه رجل له غديرتان كأن وجهه الذهب وهو يقول :

« يا أيها الناس ، إن هذا ابن أخى وهو كذاب فاحذروه . »

فعرف الناس أن هذا (الصاد عن سبيل الله) هو عمه أبو لهب ابن عبد المطلب ، يكذبه كلما قال كلمة الحق .

عاود والرسول الدعوة مراراً فلم يجب ولم ييأس ، ورجا أن يجد فيهم الحامى والمجير على الأقل إذ لم يجد المجيب ، فكان يقول للحى فى موسم عكاظ :

« لا أكره منكم أحداً على شىء : من رضى الذى أدعوه إليه قبله ، ومن كرهه لم أكرهه ؛ إنما أريد أن تحوزونى مما يراد بى من القتل ، فتحوزونى حتى أبلغ رسالات ربى ويقضى الله لى ولمن صحبنى بما شاء (١) . »

كان الناس يعجبون من أمره وأمر عمه ، وهم بين راض وغاضب ، ومتعجب يرى بعينه ثم يمضى كأن الأمر لا يهمه . منهم من لا ينكر ما يسمع ، ومنهم من يرد أقبح الرد ، ومنهم من يقول : قومه أعلم به .

كان هذا دأبه أبداً ، يوافى به القبائل سنة بعد سنة ، حتى إن منهم من قال له : « أيها الرجل ، أما آن لك أن تيأس ؟! » ، من طول ما يعرض نفسه عليهم .

* * *

انتهى رسول الله فى تطوافه على القبائل فى عكاظ ، إلى بنى محارب ابن خصفة ، فوجد فيهم شيخاً ابن عشرين ومائة سنة ، فكلمه ودعاه إلى الاسلام وأن يمنعه حتى يبلغ رسالة ربه ؛ فقال الشيخ : « أيها الرجل قومك أعلم بنبئك . والله لا يئوب بك رجل إلى أهله إلا آب بشر ما يئوب به أهل الموسم . فأغن عنا نفسك . » وإن أبا لهب لقائم يسمع كلام المحاربى .

ثم وقف أبو لهب على المحاربى فقال .

« ولو كان أهل الموسم كلهم مثلك لترك هذا الدين الذى هو عليه ، إنه صابىء كذاب . »

(١) من كتابنا (أسواق العرب) الذى تصدره فى هذه الايام : المكتبة الهاشمية بدمشق ، بتصرف قليل

(١) دلائل النبوة ص ١٠٢

قال المحاربي: «أنت والله أعرف به، هو ابن أخيك ولحمك.»

ثم قال: «لعل به يا أبا عتبة لمماً، فإن معنا رجلا من الحي يهتدي لعلاجه.» فلم يرجع أبو لهب بشيء.(١)

روى عبد الرحمن العامري عن أشياخ من قومه قالوا: أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بسوق عكاظ فقال:

- ممن القوم؟

قلنا: - من بني عامر بن صعصعة.

- من أي بني عامر؟

- بنو كعب بن ربيعة.

- كيف المنعة فيكم؟

- لا يرام ما قبلنا ولا يصطلى بنارنا.

فقال: إني رسول الله، فإن أتيتكم تمنعوني حتى أبلغ رسالة ربي ولم أكره أحداً منكم على شيء؟

قالوا: - ومن أي قريش أنت؟

- من بني عبد المطلب.

- فأين أنت من بني عبد مناف؟

هم أول من كذبني وطردني

قالوا: — ولكننا لانطردك ولا نؤمن بك، ونمنعك حتى تبلغ رسالة ربك.

فنزل إليهم والقوم يتسوقون، إذ أتاهم بجرة بن قيس القشيري فقال:

- من هذا الذي أراه عندكم أنكره؟

قالوا: - هذا محمد بن عبد الله القرشي.

- مالكم وله؟

- زعم لنا أنه رسول الله، يطلب إلينا أن نمنعه حتى يبلغ رسالة ربه.

- فماذا رددتم عليه؟

- قلنا في الرحب والسعة، نخرجك إلى بلادنا ونمنعك مما نمنع به أنفسنا.

قال بجرة: — ما أعلم أحداً من أهل هذه السوق يرجع بشيء أشر من شيء ترجعون به. بدأتم لتنابذ كم الناس وترميكم العرب عن قوس واحدة. قومه أعلم به، لو آنسوا منه خيراً لكانوا أسعد الناس به. تعمدون إلى رهيق قوم قد طرده قومه وكذبوه فتؤوونه وتنصرونه؟ فبئس الرأي رأيتم.

ثم أقبل على رسول الله فقال: «قم الحق بقومك، فوالله لولا أنك عند قومي لضربت عنقك»

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ناقته فركبها، فغمز الخبيث بجرة شاكلتها فقمصت برسول الله فألقته. وعند بني عامر يومئذ ضباعة بنت عامر بن قرط، كانت من النسوة اللاتي أسلمن مع رسول الله بمكة، جاءت زائرة إلى بني عمها فقالت: «يا آل عامر ولا عامر لي! أيصنع هذا برسول الله بين أظهركم لا يمنعه أحد منكم؟»

فقام ثلاثة نفر من بني عمها إلى بجرة، وثلاثة أعانوه، فأخذ كل رجل منهم رجلا فجلد به الأرض ثم جلس على صدره، ثم علقوا وجوههم لطماً، فقال رسول الله:

«اللهم بارك على هؤلاء، والعن هؤلاء.»

فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم قد كان أدركته السن حتى لايقدر أن يوافي معهم الموسم، فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه بما يكون في ذلك الموسم، فلما قدموا عليه سألهم عمن كان في الموسم فقالوا:

«جاءنا فتى من قريش ثم حدث أنه أحد بني عبد المطلب يزعم أنه نبي، يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به معنا إلى بلادنا.»

فوضع الشيخ يده على رأسه ثم قال:

«يابني عامر: هل لها من تلاف؟ هل لذناباها من تطلب؟ فوالذي نفس فلان بيده، ماتقولها إسماعيلي قط. ألا إنها الحق؛ فأين كان رأيكم؟ (١)»

ﻫ ﻫ ﻫ

هذه الأسواق الثلاث: عكاظ ومجنة وذو المجاز، التي كانت تقوم في أيام الحج ويؤمها العرب قاطبة من كل حدب وصوب، شهدت إلى جانب مناظر البيع والشراء والمفاخرة والانشاد، مشهداً من أفظع مشاهد الجفاء والتنكر والأذى لصاحب الشريعة الإسلامية صلى الله عليه وسلم. وابتلعت تلك الأصوات بضجيجها وما كانت تموج به من حوادث، صوت الدعوة الإسلامية فيما ابتلعت من دعوات، وغاب صوت صاحبها في ذلك الصخب والزحام؛ فلقد مكث الرسول بمكة مستخفياً ثلاث سنين، ثم أعلن في الرابعة ودعا الناس إلى الإسلام عشر سنين يوافي فيهن المواسم كل عام، يتبع الحاج في منازلهم بعكاظ ومجنة وذي المجاز يدعوهم أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه، فلا يجد أحداً ينصره أو يجيبه، حتى إنه ليسأل عن القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة فيردون

(١) المصدر نفسه ص ١٠١

(١) دلائل النبوة ص ١٠٠

عليه أقبح الرد ، ويؤذونه ويقولون له : قومك أعلم بك (١) »

كان قاصد هذه الأسواق أيام الحج موزع السمع بين داع إلى ثأر وناشد ضالة ، ومنشد قصيدة ، وخطيب ، وعارض بضاعة ، وحامل مال لفك أسير ، وقاصد شريف لإجارة أو حمالة ، وداع إلى عصبية ، وآمر بمنكر . . . ، فيجد شيئاً معروفاً قد ألفه منذ عقل وأبصر الدنيا . لكنه بعد عام الفيل بثلاث وأربعين سنة يجد أمراً لم يألفه قط ، ولا سمع بمثله : رجلا كهلا وضيئاً عليه سمات الوقار والرحمة والخير ، يسأل عن منازل القبائل قبيلة قبيلة : هذه بنو عامر بن صعصعة ، وهذه محارب ، وتلك فزارة ، والرابعة غسان ، وهناك مرة وحنيفة ، وسليم ، وعبس ، وهنا بنو نصر وكندة ، وكعب ، وعذرة ، وهؤلاء بنو الحارث بن كعب وأولئك الحضارمة . . . الخ

يؤم منازل كل قبيلة ، ويقصد إلى شريفها يدعوه بالرفق إلى الله وفعل الخير فيتجهم له هذا ويعبس ذاك ، ويجبهه ذلك ، ويحقره آخر .. فيلقى من الصد ألواناً يضيق ببعضها صدر الحليم ، فلا يؤيسه مالقى ، ولا يكفه ما أوذى ، فيمضى متئداً حزيناً إلى قبيلة أخرى وشريف آخر : يعرض عليهم نفسه ويقول :

« هل من رجل يحملنى إلى قومه ، فإن قريشاً قد منعونى أن أبلغ كلام ربى . فلا يجد مجيباً ، حتى تدارك الله نبيه بوفد الأنصار .

* * *

هذا ما حفظته لنا كتب السيرة من مشاهد مؤثرة ، فرأينا أن تلك الأسواق لم تخل من دعوة إلى خير ، فقد تردد فى أجوائها الصوت الضعيف الخافت ، يطلب حماية وإجابة . ولئن صدف عنه الناس وازوروا فى أسواق الجاهلية ، إنه ملأ فيما بعد ما بين المشرق والمغرب ، وطبق الخافقين بآثاره التى بثها فى العالمين رحمة وعدلا وعلماً ، وإنسانية وسعادة ومثلا عليا .

وما زال يستجيب لهذا الصوت كل يوم أفواج من أمم الحضارة والعرفان ، فى آسيا وأوروبا وأمريكا . صد عنه قديماً أجلاف البادين ، وهرع إليه اليوم زمر المتحضرين ، من كل عالم ومخترع ومصلح وأديب وسياسى ومفكر . . ممن يستضىء بعلمهم وفكرهم الملايين من الخلق .

فلنأخذ من هذه الأسواق العبرة ، ولنحفظ هذا الدرس ؛ فان الحق مهما بدا ضعيفا وبدا خصيمه الباطل قويا صائلا ، لابد أنه ظافر فى النهاية عليه . فليس فى الدنيا شىء يصمد للحق ، لا الجيوش ولا الأساطيل ، ولا النار ولا الحديد ، لا شىء له المغنى إلا الحق . وأهون بعد ذلك بالمعاهدات والمراسيم وصكوك الانتدابات وسائر القصاصات من أوراق الزور . كل أولئك يضمحل ويذوب متى سلط عليه الإخلاص والثبات وصلابة العقيدة والايمان . وما نرى فى أيامنا هذه من استضعاف الباطل المعتز بالصولة ، لأناس وقفوا يدعون النضال فى سبيل الحق ، واستخذاء هؤلاء له ، وطواعيتهم فى يديه ، ناشىء من فقدان الاخلاص والعقيدة فيما يضمرون . ولعل كثيراً منهم يظهر دفاعا عن حق ، ويبطن سعياً إلى منصب أو استدراراً لمال . وما أسرع ما ينزع الزمان الأثواب المزورة عن هذا الفريق فيظهر للناس ما يخفون .

ولنعلم بعد أن اليأس لا ينبغى أن يجد سبيلا إلى قلب المؤمن ، وأنه : « لا ييأس من روح الله إلى القوم الكافرون » .

« دمشق » **سعيد الأفغانى**

(١) شرح المواهب ١ : ٣٠٦

عبرة وفاء

الرافعي

للأستاذ كامل محمود حبيب

أليس الحق أن العيش فان   وأن الحي غايته الممات
(شوقي)

فقدتك - يا رافعي - ففقدت صديقاً، والأصدقاء قليل؛ وأخاً كبيراً طيب القلب، والقلوب هواء؛ وأباً شفيقاً فيه الرحمة والحنان؛ وأستاذاً غمرني نور علمه ونور أدبه

كنتَ وكنا ... ففتحت على عينيك مغاليق نفسي، فأحسست كأني ألمس روحك تتدفق في روحي، فهفوت نحوك أجد في حديثك اللذة والمتعة، وأجد في نصيحتك الهداية والنور ... فلما فقدتك فقدت قلبي، وأذهلتني الصدمة فخرجت عن صبري إلى حزني؛ وكدتُ أشق عليك الجيب، وألطم الخد. ولكنَّ الايمان يارافعي ... ولكن الايمان ...

وانطويتُ على نفسي ألتمس في عبرات حرَّى أسكبها، أشيعك بها إلى الدار الأخرى ... ألتمس فيها بعض ما يخفف عني بَرْح الشوق، وألم الفجيعة؛ فما وجدتُ فيها سلوة ولا وجدتُ عزاءً، فاستحوذ على الأسى والشجن، ونسيتُ ما كنتَ تقوله حين تزعزعني الأيام: «الايمانَ، يا بنيَّ، الايمان ...»

وخرجتُ إلى الناس فرأوا في أثر الحزن والضنى في سواد لبستُه، وفي تجهم وعبوس اكتسى بهما وجهي، وفي عبرة تترقرق في محجري أجهد أن أكفكفها لأخفي ضعفي، وفي جفوني قرح من أثر البكاء والسهر؛ فما استطاع واحد أن يقول شيئاً، غير أن نظراتهم كان فيها الرثاء والشفقة ... ثم انطووا عني جميعاً، وخلفوني وحيداً، أحس ألم الوخزة في قلبي ... قلبي وحده

ومرَّ رجل يبسم وعلى وجهه سمات الفرح فهاجت في نفسي الذكرى فبكيت، ونظر هو إلى حزني ثم استغرق في الضحك، لا يرعوي ولا يرحم؛ فقلت لنفسي «ويل للشجيّ من الخليّ!»

وجاء صديق يريد أن يرفه عني، ويطمع في أن ينزعني من آلامي، بعبارات فاترة ثقيلة لا معنى فيها ولا روح؛ ولكنها أثارت شجوني، فانتفض قلبي، وارفضَّ جبيني عرقاً، وانهمرت عبراتي؛ فانطلق وهو يرثي لحال صاحبه ... صاحبه المسكين الذي لا يسمع ولا يعي ... وماذا يعزيني عنك يا رافعي وأنت ... في دمي وفي روحي؟

وجلستُ إلى كتاب من كتبك أنشق عبير روحك الطاهرة، وأتنسم من ألفاظك روح قلبك الخالص؛ فارتدت الذكرى تبعثك في خيالي، فتوقظ في نفسي الألم والحسرة لأنني استشعرت فقدك في قلبي

إن في النفس عواطف لا يرقى اليها القول. وفي الفؤاد نوازع لا يستطيع أن يكشف عنها المنطق، أحس بها جياشة ثائرة فانطوي على أحزان تأكل قلبي وتضطرم في جوانحي ... ثم لا أجد عاصماً سوى الدمع ...

* * *

وجاء النعي يقول: إنك بت تحت الثرى، وإن تاريخك على الأرض قد تم، فوجمتُ، وجاء الظلام يترع أيامي في وقت رفَّ عليَّ فيه الأمل الحلو حين خيل إليَّ أني أنتظر لقياك، ولكن ... فجعت مرتين: فيك وفي أملي ...

وطال بعدك ليلي حين لج بي الأسى، ونأت عني مسراتي حين لازمتني أشجاني، وغدوتُ إنساناً غيري فيه اللوعة والأسف.

لقد عرفتك فبعثت في روحي الحياة والنور، ونفثتَ في قلبي الايمان والسمو؛ والآن ... الآن رانت على حياتي ظلمات وظلمات فما أستطيع أن أهتدي، والبحر يزخر حوالي فلا أرى الشاطىء الأمين، فأين يدك تجذبني إليه، وأين قلبك ينير لي الطريق ...؟

تركتني وأتراحي، وفي القلب شوق، وفيه شكاية، فمن تغسل دموعي هذه الأشجان لأبدو للناس رجلا فيه الصبر والسلوان.

* * *

لفتك يد المنون في كفن لتنشر في الأفئدة اللوعة والأسى

بعـــد الموت

ماذا أريد أن يقال عني

بقلم المرحوم الأستاذ مصطفى صادق الرافعي

سأله محرر الدنيا منذ شهرين هذا السؤال فكتب اليه هذا المقال :

ما هي الكلمات التي تقال عن الحي بعد موته إلا ترجمة أعماله في كلمات ؟ فمن عرف حقيقة الحياة عرف أنه فيها ليهيء لنفسه ما يحسن أن يأخذه ، ويعد للناس ما يحسن أن يتركه ، فان الأعمال أشياء حقيقية لها صورها الموجودة وإن كانت لا ترى .

وبعد الموت يقول الناس أقوال الضمائرهم لا أقوال ألسنتهم ، إذ تنقطع مادة العداوة بذهاب من كان عدوا ، وتخلص معاني الصداقة بفقد الصديق ، ويرتفع الحسد بموت المحسود ، وتبطل المجاملة باختفاء من يجاملونه ، وتبقى الأعمال تنبه إلى قيمة عاملها ، ويفرغ المكان فيدل على قدر من كان فيه ، وينتزع من الزمن ليل الميت ونهاره فيذهب اسمه عن شخصه ويبقى على أعماله .

ومن هنا كان الموت أصدق وأتم ما يعرف الناس بالناس ، وكانت الكلمة بعده عن الميت خالصة مصفاة لا يشوبها كذب الدنيا على إنسانها ، ولا كذب الانسان على دنياه ، وهي الكلمة التي لا تقال إلا في النهاية ، ومن أجل ذلك تجيء وفيها نهاية ما تضمر النفس للنفس .

وماذا يقولون اليوم عن هذا الضعيف ؟ وماذا تكتب الصحف ؟

هذه كلمات من أقوالهم : حجة العرب . مؤيد الدين ، حارس لغة القرآن ، صدر البيان العربي ، الأديب الامام ، معجزة الأدب ، إلى آخر ما يطرد في هذا النسق ، وينطوي في هذه الجملة . فسيقال هذا كله ولكن باللهفة لا بالاعجاب ، وللتاريخ لا للتقريظ ، ولمنفعة الأدب لا لمنفعة الأديب . ثم لا يكون كلاماً كالذي يقال على الأرض يتغير ويتبدل ، بل كلاماً ختم عليه بالخاتم الأبدي ، وكأنما مات قائلوه كما مات الذي قيل فيه .

أما أنا فماذا ترى روحي وهي في الغمام وقد أصبح الشيء عندها لا يسمى شيئاً ؟ إنها سترى هذه الأقوال كلها فارغة من المعنى اللغوي الذي تدل عليه لا تفهم منها شيئاً إلا معنى واحداً هو حركة نفس القائل ، وخفقة ضميره . فشعور القلب التأثر هو وحده اللغة المفهومة بين الحي والميت

سترى روحي أن هؤلاء الناس جميعاً كالأشجار المنبعثة من التراب عالية فوقه وثابتة فيه ، وستبحث منهم لا عن الجذوع والأغصان والأوراق والظاهر والباطن ، بل عن شيء واحد هو هذه الثمرة السماوية المسماة القلب . وكل كلمة دعاء وكلمة ترحم وكلمة خير . ذلك هو ما تذوقه الروح من حلاوة هذه الثمرة

مصطفى صادق الرافعي

وأودعتك رمساً لتوقظ في النفوس الهموم والشجن .
وأطفأت السراج المنير لينقلب ناراً تستعر بين الضلوع .
ونزعتك من بيننا لتشعرنا الوحدة والفراغ .
فلنا الله ... لنا الله بعدك يارافعي .

* * *

آذني هذا الأمر فانشق له قلبي .
وتفطر فؤادي حين لفحني أواره .
وفقدت الآسي وقد فزع عني الصديق والخليل
فظللت وحدي أذرف الدمع السخين .
فواحر كبدي ... واحر كبدي مما أقاسي بعدك يا رافعي !

كامل محمود حبيب

من كلام الرافعي

قيل له رحمه الله : هل تكره الموت ؟ فقال لا بل أكره ذنوبي ، أما الموت فهو اكتشاف العالم الأكبر ، نسأل الله حسن الخاتمة . وقيل له ما هي وصيتك إذا حضرتك الوفاة ؟ فقال : هي تكرار المبدأ الذي وضعته لأولادي :

النجاح لا ينفعنا بل ينفعنا الامتياز في النجاح

مات الرافــعى

بقلم السيد محمد زيادة

إذن فقد مات مصطفى، وانطفأ السراج الوهاج ...
وهدأت الروح النبيلة الرفافة التى ماخلقت لتهدأ ...
وفرغ الوجدان الفضفاض من هموم الانسانية وآلام الناس... وسكن القلب الصخاب المتكلم، المحلق فى أجواء السمو، الخافق خفقات الهوى العفيف ...
وغربت النفس الأبية الملهمة الجائشة فيها خواطرُ الغيب وأسرار الكيان ...
ونام العقل الجبار الحر النافذ شعاعه إلى كل سماء يستطلع الحقائق، المرسل سناه على كل أرض يُطالع الناس ...
وانطفأ السراج ... انطفأ السراج الوهاج ...

* * *

إذن فقد مات مصطفى وخلا من الحياة مكانه ليظل خالياً لايجد الكفؤ الذى يملؤه ...
وجنحت الشخصية الحبيبة المرموقة إلى العزلة ... عزلة الأبد
وعدمت الموهبة المخلوقة للكفاح والاصلاح ...
وانهدّت القوة الفعالة المبدَعة المبدِعة ...
وانحصر الميدان الآهل بعرائس الخيال الفاتنة بين جدران قبر ضيق ...
وتهيأ الأدب العريق الفتى ليزول أو زال ...
وانطفأ السراج ... انطفأ السراج الوهاج ...

* * *

إذن فقد مات مصطفى، ورحلت البارقة الهفافة من أفق الدنيا إلى آفاق الآخرة ...
وشال الطائر الغريد عن الحى يرف بجناحيه رفيف الوداع، وخفقت القلوب، وتباكت العيون، وذابت قطع من النفوس، وسرى فى جو الأدب برق ورعد هز كيانه ... ثم أعقبه غبار ودخان لاح فيه سواد المصيبة ...
ووجمت الحياة من روعة ما جدّ فيها ...
وشاع فى العالم العربى أن الرافعى قد مات ...
وانطفأ السراج ... انطفأ السراج الوهاج ...

* * *

مصطفى ... أأناديك يا أبى أم يا أخى أم ياصديقى ؟! إنك والله كنت الثلاثة ... كنت الوالد فى حنوِّك علىّ، واهتمامك بى ... وكنت الأخ فى استبشارك بلقياى وانتصارك لى ... وكنت الصديق فى إخلاصك النادر، ووفائك المُعْجب، وحبك النقى وعطفك الكريم
فأين بعدك الصديق ؟.. وأين مثلك الصديق ؟!.
وكيف بعدك الحياة وأنت كنت العون فى الملمة، والفرج فى الضيق، والسّراء فى الضّراء ؟!
لقد فقدت بفقدك ركن حياتى الثابت المدعم ؛ وشيعت فى تشييعك مسرة النفس، وراحة الفؤاد، وأمان العيش ؛ وقبرت معك أملا من آمالى كان أنضرها ...

* * *

مصطفى ... لقد ذهبت فلم توص ولم تودِّع ... فهل من كلمة أو همسة تسر بها إلى هابطة من روحك فى السماء إلى روحى على الأرض ؟ ...
هل من إشراقة عطف يطل بها وجهك الصبوح من عليائك على صديقك الشاعر فى فقدك بفقد نفسه، الحامل لك فى أعماقه شوق الولهان وحسرة السجين، الواجد من بعدك كل هم وعناء ؟
هل من بسمة ود تسطع على شفتيك فتنير وحشة النفس فى ظلام الوحدة بعد أن حرمتك وحرمت كل حبيب ؟ ...

السيد محمد زيادة

تاريخ وفاة الرافعى بالتركية

ام دنيا بى وفا دنيا قدر فضل اهلنه،
تولدى دأهىء ادب، صور : نه يدى رسمى موقعى ؟
آلدم ابواب جناندن مصرع تاريخى :

قدريكى	بيلسين	ملكلر	آسمانده	رافعى !
٣٤٤	١٦٢	٣٢٠	١٦١	٣٦١

١٣٤٨ المجموع
٨ مضافة إلى المجموع مقتبسة من عدد أبواب الجنة الثمانية
١٣٥٦ المشار إليها فى المصراع الثالث

ترجمة البيتين :

ان أم الدنيا (١) كالدنيا فى عدم وفائها لذوى الفضل والأدب، فقد مات أكبر الكتاب وهو من صغار الموظفين فى الحكومة! فاستعرت مصراعا لتاريخ وفاته من أبواب الجنة الثمانية وقلت : ليقدر الملائكة قدرك فى السموات أيها الأستاذ الرافعى . ابراهيم صبرى

نجل شيخ الاسلام السابق للدولة العثمانية

(١) (أم الدنيا) من الأسماء التى يكنى بها فى الأدب التركى عن مصر .

أقوال العظماء فى الرافعى

... إن الناظم لم يتجاوز الثالثة والعشرين من سنه ، ولاريب أن من أدرك هذه المنزلة فى مثل هذه السن سيكون من الأفراد المجلين فى هذا العصر ، ومن سيحلون جيد البلاغة بقلائد النظم والنثر

ابراهيم اليازجى

أسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفا يمحق به الباطل ، وأن يقيمك فى الأواخر مقام حسان فى الأوائل

محمد عبده

سيأتى يوم إذا ذكر فيه الرافعى قال الناس : هو الحكمة العالية مصوغة فى أجمل قالب من البيان

مصطفى كامل
فى جريدة اللواء

بيان كأنه تنزيل من التنزيل أو قبس من النور الحكيم

سعد زغلول

ثق أنى أسافر مطمئناً وأنت بقيتى فى مصر

عبد المحسن الكاظمى
وهو مسافر الى الأندلس

أراك وأنت نبت اليوم تمشى بشعرك فوق هام الأولينا
وأوتيت النبوة فى المعانى وما جاوزت حد الأربعينا

حافظ ابراهيم

« لو كان هذا الكتاب فى بيت حرام إخراجه للناس منه لكان جديراً بأن يحج إليه ، ولو عكف على غير كتاب الله فى نواشىء الأسحار لكان جديراً بأن يعكف عليه »

شكيب ارسلان
فى كتاب تاريخ آداب العرب

لقد جعلت لنا شكسبير كما للانجليز شكسبير ، وجوته كما للألمان جوته ، وهوجو كما للفرنسيين هوجو

أحمد زكى باشا
فى كتاب المساكين

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألمانى فردريك نيتشة
ترجمة الأستاذ فليكس فارس

العناكب :

هذا هو العنكب ، فاذا كنت ترغب فى مشاهدته فالمس نسيجه ليتحرك ويسرع بالظهور ، أهلا بك أيها العنكب ، إنى أرى على ظهرك شعاراً أسود مثلث الزوايا ، وما يخفى عنى أيضا ما تضمر من النقمة فى سريرتك .

ان للسعا تك بقعاً قاتمة على الجلود . ولها سمها المضلل فى النفوس ، أيها العنكب ، فانا أخاطبكم بالرموز ، أيها العناكب المضللون المبشرون بالمساواة . فما أنتم فى نظرى إلا مستودع لعواطف الانتقام سأكشف عن مكامنكم وأنا أواجهكم بقهقهة تسقط عليكم من الذرى التى أتسنمها . وها أنذا أمزق نسيجكم حتى اذا تملكم الغضب خرجتم من مغاور أكاذيبكم وتدفقت نقمتكم بكلمة العدل التى تتفوهون بها .

لقد وجب على أن أنقذ الانسان من عاطفة الانتقام ، وهذا الواجب هو المعبر المؤدى الى أشرف الآمال ينتصب فوقه قوس قزح بعد هبوب العواصف الكاسحات . ولكن إرادة العناكب لا تتجه إلى هذه الغاية ، فهم يتناجون فيما بينهم قائلين : لا عدل إلا فى عواصف انتقامنا تهب على العالم لتلقى العار على كل من ليس منا .

وهم يقولون أيضا : ما من فضيلة إلا فى طلب المساواة ، فلنرفع عقيرتنا ضد كل سلطان .

آى كهان المساواة ! لقد تسلط عليكم جنون عجزكم ، فهتفتم بهذه المساواة وقد كمنت شهوة عتوكم واستبدادكم وراء ما تعلنون من الفضائل .

إننى أرى فيكم الغرور المتمرمر والحسد المقيم ، ولعل الحسد الذى رعى قلوب أسلافكم يتعالى منكم الآن لهباً يندلع بجنون الانتقام ، وما الأبناء إلا مظهر ما أضمر الآباء . ولكم أفشى الابن سر أبيه !

إن لهؤلاء الناس مظهر المتحمسين ، وما تلهب حماسهم المحبة بل الانتقام . وإذا ، وإذاً ما بدت لك منهم رصانة ومرونة ، فما مصدرهما فيهم العقل بل الحسد . وهو الدافع

لهم إلى التفكير . ودليل حسدهم هو أنهم يندفعون دائماً إلى أبعد من مراميهم فيطرحهم العياء على وساد الثلوج .

وما تسمع لهؤلاء الناس أنيناً يخلو من نبرات الانتقام، فكل ما يصدر عنهم من مديح ينطوي على أذية . فهم يرون منتهى السعادة فى إقامة أنفسهم قضاة على العالمين . فاصغوا إلى نصيحتي ، أيها الأصدقاء : احذروا من تغلبت عليهم غريزة إنزال العقاب . لأنهم متحدرون من أفسد الأنواع وعلى وجوههم سيماء الجلادين .

إحذروا من لا ينقطعون عن ذكر عدالتهم فان نفوسهم خالية من كل صفة حميدة، وإذا ما هم ادعوا الصلاح والانصاف فلا تنسوا أنهم لم يتخذوا ابن الفرنسيين مقامهم إلا لما يشعرون به من عجز

إننى أربأ بنفسى ، أيها الصحاب ، أن تنزلوها بين هؤلاء الناس فلا تميزون بينى وبينهم . فهنالك من يذيعون تعاليمى عن الحياة وهم فى الوقت نفسه ينادون بالمساواة وينتمون إلى العنا كب المسمومة ، هم يدافعون عن الحياة ولكنهم يعرضون عنها قابعين فى مغاورهم ليتمكنوا من اجتراح الشرور والايقاع بمن يقبضون على زمام السلطة فى هذا الزمان ، وقد تعودوا إنذارهم بالسقوط ، ولو أن السلطة كانت فى يد العنا كب ، لكانت تعاليمهم تتخذ شكلا آخر ، لأنهم عرفوا فيما مضى ، أكثر مما عرف غيرهم ، كيف يوقدون المحارق ويرهقون مخالفيهم اضطهاداً وتعذيباً .

لا أريد أن أحسب من هؤلاء المنادين بالمساواة لأن العدالة علمتنى : (أن لا مساواة بين الناس) وإنه من الواجب ألا يتساووا ؛ وليس لى أن أقول بغير هذا المبدأ وإلا فان محبتى للانسان تصبح ادعاء ومينا ...

على الناس أن يسيروا على آلاف الطرق وآلاف المعابر مسارعين نحو آتى الزمان فتنشأ بينهم الحروب وتتسع شقة التفاوت بينهم على مر السنين ، ذلك ما ألهمنى إياه حبى العميم .

يجب أن يقيم الناس فى أعماق سرائرهم مثلا علياً وأشباحاً يجاهدون فى سبيلها فيسير الصالح والطالح والغنى والفقير والرفيع والوضيع إلى التصادم بجميع ما فى الأرض من نظم فتضطرم الحروب سلاحاً لسلاح ورمزاً لرمز لأن على الحياة أن تتفوق أبداً على ذاتها

إن الحياة تتجه إلى الارتقاء بدعائمها ودرجاتها ، فهى تتطلع إلى الآفاق البعيدة ما وراء الجمال المقتعد عرش غبطته ، لتبلغ مستقرها فى أعالى الذرى

وبما أن الحياة بحاجة إلى ارتقاء المرتفعات ، فهى لا غنى لها عن الدرجات والدركات ليعارض المنخفضون المرتفعين ، إنها لفى حاجة إلى التفوق على ذاتها وهى متجهة إلى الارتقاء

أنظروا ، أيها الصحاب ، هاهى مغارة العنا كب وقد لاحت فيها خرائب هيكل قديم فأرسلوا عليه نظرات المستلهمين

والحق أن من جمع أفكاره قديما ليرفعها صرحا من الصخر ينطح السحاب كان كأحكم الحكماء عارفا بأسرار الحياة

إن الجمال نفسه ليقوم على التفاوت والمجالدة فى القوة والتفوق ، وهذا ما يعلمنا إياه هذا الحكيم بأشد الرموز إشراقا

هنا تتدافع القباب والنوافذ فى عراك جلل فتهاجم الظلمة النور ويهاجم النور الظلمة كأنهما إلهان ينازل أحدهما الآخر

اقتدوا بهذا الرمز ، أنتم أيضا فى مجال الجمال والثقة بالنفس .

لنكن نحن أيضا أعداء فيما بيننا أيها الصحاب

وليحشد كل ما قواه ليحارب الآخرين

ويلاه ، لقد أصبت أنا أيضاً بلسعة العنكبة عدوتى القديمة فقد توصلت بثقتها بنفسها وبجمالها الالهى إلى نوال بنانى بلسعتها ، وهاهى تقول الآن : لابد من إنزال العقاب . لابد من أن يأخذ العدل مجراه . فانك تعنيت بعظمة السرائر ، فلن يذهب إنشادك جزافا

أجل لقد انتفعت ، ويلاه إنها ستوجه نفسى إلى عاطفة الانتقام .

تقدموا أيها الصحاب وقيدونى بهذا العمود كيلا أتحول عن مبدئى ، فخير لى أن أصبح تمثالا جامداً من أن أهب كعاصفة منتقمة

لن يكون زارا عاصفة وأعصارا ، فما هو إلا رقاص ولكنه ليس رقاص عناكب ... (١)

(١) ما تخبط زارا بمثل تخبطه فى هذا الفصل ، فهو القائل بسحق الضعفاء وتطهير الارض من الدخلاء أو الذين يدعوهم بهذا الاسم ولكنه الآن لا يريد أن يكون عاصفة وأعصارا . فهو يكتفى بأن يكون رقاصا لا نتيجة لحركته عند ما يقتحم مبدأ نصرة الضعفاء والمطالبة بحق الشعوب ، غير أنه لا يصل إلى آخر فصله حتى ينقض بعبارة واحدة كل ما أراد اثباته .

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٦١ — عجيبة . . .

في (طبقات الشافعية الكبرى) للسبكي : عجيبة هي مغنية كانت بمصر على عهد السلطان الملك الكامل بن أيوب ، ويذكر أن الكامل كان مع تصميمه [1] بالنسبة إلى أبناء جنسه تحضر اليه ليلا ، وتغنيه بالجنك [2] على الدف في مجلس بحضرة ابن شيخ الشيوخ وغيره ، وأولع الكامل بها جداً ، ثم انفقت قضية شهد فيها الكامل عنـد ابن عين الدولة ، [3] وهو في دست مملكته . فقال ابن عين الدولة : السلطان يأمر ولا يشهد . فأعاد عليه السلطان الشهادة ، فأعاد القاضي القول . فلما زاد الأمر وفهم السلطان انه لا يقبل شهادته ، قال : أنا أشهد ، تقبلني أم لا ؟

فقال القاضي : لا ، ما أقبلك . وكيف أقبلك وعجيبة تطلع اليك بجنكها كل ليـلة ، وتنزل ثاني يوم بكرة ، وهي تمايل سكراً على أيدي الجواري ، وينزل ابن الشيخ من عندك أبخس مما نزلت !

فقال له السلطان : يا كنواخ ! (وهي كلمة شتم بالفارسية)

فقال القاضي : ما في الشرع يا كنواخ . اشهدوا على أني قد عزلت نفسي ونهض .

فجاء ابن الشيخ وقال : المصلحة للملك إعادته لئلا يقال لأي شيء عزل القاضي نفسه ؟ وتطير الأخبار إلى بغـداد ، ويشيع أمر عجيبة . فقال له قم اليه ، فنهض إلى القاضي وترضاه ، وعاد إلى القضاء

(١) يريد حزمه . صمم على الامر مضى على رأيه فيه

(٢) يطلق على الدف الذي يضرب به ، ويقال للذي يضربه : جنكي

(٣) القاضي شرف الدين بن عين الدولة : محمد بن عبد الله . ولى سنة (٦١٧) قضاء القضاة بالقاهرة والوجه البحري ، ومصر والوجه القبلي

٦٢ — الكبر ، النفط

كتب عبد الصمد بن المعذل إلى صديق له ولى النفاطات [1] فأظهر تيها :

لعمري لقـد أظهرت تيهاً كأنما
تولیت للفضل بن مروان عكبرا [2]

دع الكبر واستبق التواضع إنه
قبيح بوالى النفط أن يتغيرا [3]

من أجل عيون النفط أحدثت نخوة [4]
فكيف به لو كان مسكا وعنبرا

٦٣ — كيف ترى هذا الفقه

في (تلبيس ابليس) لابن الجوزي :

قال عبد الرحيم بن جعفر السيرافي الفقيه : حضرت بشيراز عند قاضيا أبي سعيد بشر بن حسن الداودي وقد ارتفع إليه صوفي وصوفية (وأمر الصوفية هناك مفرط جداً حتى يقال إن عددهم ألوف) فاستعدت الصوفية على زوجها إلى القاضي . فلما حضر قالت له : أيها القاضي إن هذا زوجي ويريد أن يطلقني وليس له ذلك ، فإن رأيت أن تمنعه . فأخذ القاضي يتعجب ، وحنق على مذاهب الصوفية ثم قال لها : وكيف ليس له ذلك ؟ قالت : لأنه تزوج بي ومعناه قائم بي ، والآن هو يذكر أن معناه قد انقضى مني ، وأنا معناي قائم فيه ما انقضى فيجب عليه أن يصبر حتى ينقضي معناي منه كما انقضى معناه مني

فقال لي القاضي : كيف ترى هذا الفقه ؟ ! ثم أصلح بينهما وخرجا من غير طلاق

٦٤ — أما بشرع محمد من أين لك ؟

قال هبة الله بن الفضل في يحيى بن المظفر المعروف بابن المرخم :

(١) النفاطة (بفتح الفاء وتشديدها وفتحها فقط) : الموضع الذي يستخرج منه النفط وفي الاساس : واستعمل فلان على النفاطات وهي معادن النفط

(٢) عكبرا (بضم العين وسكون الكاف وفتح الباء) بلدة بينها وبين بغداد عشرة فراسخ . النسبة إليها عكبرى ، وعكبراوى

(٣) النفط :(بفتح النون وتشديدها وبكسرها والكسر أفصح) حلابة جبل في قعر بئر ، توقد به النار (اللسان)

(٤) النخوة : العظمة . (قلت) لو بعث (ابن المعذل) في عصرنا هـذا وشهد قدر النفط والنفطيين لاجتزأ باستصغار الكبر وتهجين المستكبرين ، والكبر وصاحبه مذمومان في كل حالة في كل زمان . وأما النفط فهو ذو الكلمة العليا في هذا الوقت ، في سياسة الدنيا ، واليوم يوم النفط يا عبد الصمد . . .

يا ابن المرخم ، صرت فينا قاضيا
خرف الزمان تراه أم جن الفلك ؟
إن كنت تحكم بالنجوم فربما
أما بشرع محمد من أين لك ؟ !

٦٥ — أفلا يزول هذا التوهم ؟

في (إرشاد الأديب) لياقوت الحموي :

سال بعض الأكابر من بني طاهر ابا العباس ثعلبا ان يكتب له مصحفا على مذهب اهل التحقيق فكتب : (والضحى) بالياء . ومذهب الكوفيين أنه إذا كانت كلمة من هذا النحو ، اولها ضمة او كسرة كتبت بالياء ـ وإن كانت من ذوات الواو . والبصريون يكتبون بالألف . فنظر المبرد في ذلك المصحف فقال : ينبغي ان يكتب (والضحى) بالألف لأنه من ذوات الواو . فجمع ابن طاهر بينهما . فقال المبرد لثعلب : لم كتبت والضحى بالياء ؟

قال : لضمة اوله

قال : ولم إذا ضم اوله ـ وهو من ذوات الواو ـ تكتبه بالياء ؟

قال : لأن الضمة تشبه الواو ، وما اوله واو يكون آخره ياء ، فتوهموا أنه اوله واو

فقال المبرد : افلا يزول هذا التوهم إلى يوم القيامة ؟ !

٦٦ — سرة الدنيا ، العروة الوثقى

في (البدر الطالع) للشوكاني :

خرج بيبرس العثماني الجاشنكير الملك المظفر للحج بعد سنة (٧٠١) وصحبه كثير من الأمراء ، فحج بالناس فصنع من المعروف شيئاً كثيراً . ومن محاسنه أنه قلع المسمار الذي كان في وسط الكعبة وكان العوام يسمونه (سرة الدنيا) وينبطح الواحد منهم على وجهه ، ويضع سرته مكشوفة عليه . ويعتقد أن من فعل ذلك عتق[1] من النار وكان بدعة سيئة ، وكذلك أزال الحلقة التي يسمونها (العروة الوثقى) .

(١) عتق لازم ويتعدى بالهمزة . والعبد عاتق وعتيق ومعتق ولا يجوز معتوق وهي عتيق وعتيقة .

٦٧ — وكيف لا تطرب عوديه

القيراطي :

تنفس الصبح فجاءت لنا من نحوه الأنفاس مسكيه
وأطربت في العود قرية وكيف لا تطرب عوديه ؟

٦٨ — الطبع والتمرين

في (الخصائص) لابن جني :

قرأ السجستاني : قرأ علي اعرابي بالحرم : (طيبى لهم وحسن مآب) فقلت له : طوبى ، فقال : طيبى ، فقلت : طوبى فقال : طيبى . فلما طال على قلت : طوطو ، فقال طي طي

أفلا ترى إلى هذا الأعرابي وأنت تعتقده جافياً كزا ، لا دمثاً ولا طيعا كيف نبا طبعه عن ثقل الواو إلى الياء ، فلم يؤثر فيه التلقين ، ولا ثنى طبعه عن التماس الخفة هزولا تمرين

٦٩ — والقوم أغصان

حضر الشاعر ابن القيسراني مرة في سماع ، وكان المغني حسن الغناء ، فلما طربت الجماعة وتواجدوا[1] قال :

والله لو انصف العشاق انفسهم فدوك منها بما عزوا وماهانوا
ما انت حين تغني في مجالسهم إلا نسيم الصبا والقوم اغصان

٧٠ — الخبز والبقل

في (فتوح البلدان) للبلاذري :

قال كثير بن شهاب يوماً : يا غلام ، أطعمنا .

فقال : ما عندي إلا خبز وبقل

فقال : وهل افتتلت فارس والروم إلا على الخبز والبقل ؟ ؟

(١) في (تعريفات) الجرجاني : التواجد استدعاء الوجد تكلفا بضرب اختيار وليس لصاحبه كمال الوجد . وفي الاساس : وله بها وجد وهو المحبة . وتواجد فلان أرى من نفسه الوجد

ميلاد الرسول

للأستاذ محمد الأسمر

فجرٌ أطلَّ على الوجود فأطلعا
شمسين : شمسَ سناً ، وشمس هدًى معا

ظلَّتْ مطالع كل شمس لا ترَى   من بعدِه شيئاً كمكةَ مطلعا
قبس من الرحمن لاحَ فلم يَدعْ   لألاؤه فوقَ البسيطة موضعا
ما كان ميلادُ الرسول المصطفى   إلا الربيعَ نضارة وتَضوعا
يوم أغر كفاكَ منه أنه   يوم كأن الدهر فيه تجمعا
ويكادُ غابرُ كل يومٍ قبله   يثنى إليه جيده مُتطلعا
فلو استطاع لكرَّ من أحقابه   وثباً على هام السنين ليرجعا
كادُ مُقبلُ كل يوم بعده   ينسل من خلف الزمان ليسرعا
فلو استطاع لجاء قبل أوانه   وانساب يخترق السنين وأتلعا
تتنافس الأيام في الشرف الذي   ملأ الوجود فلم يغادرْ أصبعا
خير أفاض الله منه على الورى   أنى جرى ترك الجناب الممرعا
وسناً جلاه لتعمُرَ الدنيا به   من بعد ما كانت خراباً بلقعا
وافى وليلُ الجاهليَّة مُطبق   فانجاب عن جنباتها وتقشعا
وكذا الهداية إن قذفتَ بها على   ركن الغواية والضلال تصدعا
نادى إلى الحسنى فلما أعرضوا   واستكبروا شَرَع الرماح فأسمعا
والحقُّ أعزلَ لا يروعُ فإن بدا   مستلئماً لاقى الطُغاة فروَّعا
والحقُّ أخفى ما يكون مجرداً   وتراه أوضحَ ما يكونُ مُدرَّعا
والحقُّ ليس بمعتدٍ لكنَّه   إن دافعته يدُ الضلال تدفعا
مثل الرياحِ جرَت رُخاء ثم لم   تلبثْ فهبَّتْ بعد ذلك زعزعا
بعض الأنام إذا رأى نور الهدى   عرَف الطريقَ ولم يضلَّ المهيعا
ومن البريَّة معشرٌ لا ينتهى   عن غيِّه حتى يخاف ويفزعا

* * *

إن الرسولَ محمداً صبحٌ بدا   من راح يعشُرُ في سناهُ فلا لعا
وافى بها بيضاءَ عدل كلها   لا تلفينَّ بها الضعيفَ مُضيَّعا
الناسُ كلهمُ سواسية بها   لا (قيصرا) تلقى بها أو (تُبَّعا)
دخلت على الجبروت وهو مُقطَّب
صَلَفاً فأبصر وجهها فتفزعا
وأبى له حبَّ البقاء وطبعُهُ   إلا الصِيالَ فصاولت فتضعضعا
(الفرسُ) و (الرومانُ) لم يعصمهما
مُلكُ الممالك كلها أن يُصرَعا
من لم تزعزعه العواصف قبلها   بعثت له بنسيمها فتزعزعا
ثلت عروش الظالمين ومُلكهم
وبنت لعرش العدل مُلكا أوسعا
وجرى العباد على السجيَّةِ سُجدا   لله . لا لِلمُسخِّريهم ، رُكعا
وتراهمُ حول النبيِّ فلا ترى   مُتملقاً أو خائفاً متخشعاً
دينُ المساواةِ الصحيحة دِينه   يرعاهمُ في الله أشفق من رعى
جاءت له الدنيا فأعرض زاهداً   يبغى من الأخرى المكان الأرفعا
ما جرَّ أثواب الحرير ولا مشى   بالتاجِ من فوق الجبين مرُصَّعا
من ألبس الدنيا السعادة حُلة
فضفاضة ، لبس القميص مرُقعا
وهو الذي لو شاء نالت كفه   كلَّ الذي فوق البسيطة أجمعا
لم يبغها مُلكا عضوضاً بل دعى
لله لا لسواه أفضل من دعى

* * *

يا مصطفى أدعوكَ دعوة شاعر   وافى إليك بشعره متشفعا
هب لى من النفحات ما أشفى به   نفساً معذبة وقلباً موجعاً
فلعلَّ صدراً أن تزول همومه   وعليلَ قوم أن يصح وينفعا
ولعل ذابلة الرجاء ينالها   بلل من الغيثِ العميم فتينعا
صلى عليك الله جل جلاله   دنيا وأخرى شافعاً ومشفعا

محمد الأسمر

هدية الشاعر للشاعر

أهدى الأستاذ عبد الله حبيب إلى صديقه الأستاذ أحمد رامى زهرة ومعها هذان البيتان :

قطفتها فى صبحيَ الباكر   هدية الشاعر للشاعر
فانعم بها إذ أنت أولى بها   من كل من مر على خاطرى

فتقبلها شاعر الشباب وأجابه بهذين البيتين :

يا مهدياً من زهرك العاطر   آنست روحي بالجنَى الباكر
ذكرتنى والصبح فى مهده   وأنت مرسوم على خاطرى



شبابنا والسياسة

تدعو الرسالة الشباب دعوة حرة جريئة إلى العمل السياسي ، وقد يعجم على بعض الناس غرض الرسالة من دعوتها ، ويَنبَهِم عليهم وجه الحق والمصلحة فيها .

وإنما تريد الرسالة ونريد معها شباباً مطبوعاً على الوطنية قد سرت فى دمه مسرى الدم الحار فى عروقه ، وتشبعت بها روحه واستبْطَنتها نفسه ، فصارت جزءاً منها لا وطنية مصطنعة زائفة تلبس وتخلع كالرداء .

نريد شباباً غزلا كلفاً صباً لا بالحور الحسان والخرد الغيد ، ولكن يحب مصر . نريد منهم وطنية تفيضها الغريزة لا تكلف فيها ولا تعمّل ، تنتقل بقانون الوراثة من الأجداد إلى الأحفاد كما تنتقل مميزات الشعوب الراقية من السلف إلى الخلف : أى نريدها خلقاً لا حرفة .

نريدها وطنية طاهرة نقية كنفوس الشباب لم تلوثها جراثيم المنفعة ولا أرجاس الأهواء والشهوات ، تسمو سمو المثل العليا لا تسف بالتطبيق المحرف الخاطىء .

نريدها وطنية عامة شاملة تسع الدولة والمواطنين وتسوى بينهم ، لا وطنية ضيقة العطن محدودة المدلول محصورة بالأحزاب والأشخاص . يجب أن ينبلج الصبح على أعين نفر من النفعيين يحرمون على الشباب الاشتغال بالسياسة كأن السياسة حرفة لا تحترف إلا بترخيص . يجب أن تحشد جميع قوى الأمة لمصلحة الأمة فيعمل الكل فى حقل الوطن لينتج للوطن .

إن الحياة صراع وغلاب ولاسيما فى عصر الكهرباء والكيمياء واللاسلكى ، فليس من سداد الرأى ولا من بعد النظر أن تحيا الأمة عالة على زعمائها ؛ وليس معنى هذا ألا يكون للشعب زعماء ، ولكننا ندعو كل فرد أن يكون بنفسه دائرة كهربائية تامة ، فاذا ما وصل بينها واجتمع شتيتها ووجهتها زعامتها الرشيدة كانت قوة لا تغلب

إن نظرة فاحصة إلى ألمانيا وإيطاليا وتركيا تؤيد ما نقول ، فانك لا تسمع اسم إحداها إلا وتصورتها كتلة واحدة من القوة مندفعة نحو غايتها كأنها قنبلة انطلقت من فوهة مدفع ، وإن دخانها وجلجلة صوتها وصخب قصفها لكاف فى شق طريقها وتعبيد مسراها بله كتلتها وجرمها

نريد شباباً يفهم ما يريد ، ويعمل ما يفهم ، ويحمى ما يعمل ، ويحب ما يحمى ، ويضحى بدمه وروحه فى سبيل ما يحب

نريد هذا الشباب الذى يحول التاريخ إلى الوجهة التى يجب أن تكون وجهة العز والكرامة ، الشباب الذى يعمل تاريخ جيله بقصد وتعمد ، لا الشباب الذى يقف من تاريخ جيله على الحياد ويدع الظروف والمؤثرات تكتب هذا التاريخ

نريد جيلا صلباً متعصباً سليما من المرونة والرخاوة يقف كالشلال ، لا جيلا خفيفاً كالخشبة الطافية على سطح الماء يقذف بها أنى شاء وكيف شاء . نريد أن نكتب كما كتبنا أسطع السطور فى سجل تاريخ الانسانية الخالد !

عبد العزيز بيومى غفارى

بالقايات

واجب الكتاب والمفكرين

... رئيس تحرير الرسالة

أشكر للرسالة الغراء اهتمامها بتوجيه الشباب إلى الغاية المثلى فى عهدنا الحديث ، وأؤيد بقلبي ويدى أخى الشاب الذى اقترح (زحف الشباب الاجتماعى) ولكنى أشعر بأن الشباب حين يبدأ العمل سيعمل من غير خطط ولا رسوم ولا تقارير ولا أدلة . فقد كان من الواجب على الكتاب والمفكرين وهم الأطباء الاجتماعيون أن يشرحوا أدواء الأمة شرحاً دقيقاً فى كل ناحية من نواحى الحياة ، ثم يصفوا العلاج ويجعلوا التمريض والتنفيذ على عواتق الشباب . فاننا إذا استثنينا الفصول التى تكتبها الآنسة الأديبة (ابنة الشاطئ) فى أحوال القرية وبؤس القرويين لا نكاد نجد كاتباً واحدا درس حالة من أحوال الأمة . ليقم الطبيب والمهندس والزراعى والأديب بدرس هذه الأحوال كل فى دائرة اختصاصه حتى يعمل العامل عن خبرة ، ويتقدم الدليل عن هداية ، وبذلك تقوم الجهود على أساس قوى ومنهاج واضح ونظام صحيح ...

مصطفى كامل
المحامى

(المحرر) ملاحظة الأستاذ الكاتب سديدة ، فان نهضتنا الأدبية قد بدأت بإحياء آثار السلف فعرفنا عن القديم أكثر مما نعرف عن الحديث ؛ ثم انصرفت إلى النقل عن الغرب فعلمنا عن أوربا أكثر مما نعلم عن مصر ؛ وظلت قوانا مجهولة لم تكشف وعللنا مدفونة لم تعرف . واقتصر كتابنا على معالجة بعض المسائل السهلة من طريق القصة أو الصورة ووقف زعماؤنا عند المقالات الصحفية التى تنطوى مع اليوم والخطب السياسية التى تذهب مع الساعة . إنا نريد كما قال الكاتب الفاضل كتباً تعالج المسائل العامة عن اختصاص ودرس ، وترسم المناهج الاصلاحية عن دراية وخبرة وتبرز ما دق عن الشعور من آفات المجتمع فى جلاء وصدق . فهل تتجه أفكار الكتاب ، إلى ما اتجهت إليه رغائب الشباب ؟

اهتمام الشباب بالشؤون العامة

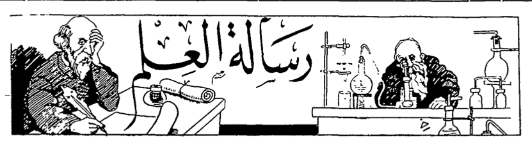
... محرر صحيفة الشباب

كان لما كتبتموه فى هذه الصحيفة عن ضرورة اهتمام الشباب بالشؤون العامة أثره البليغ فى نفسى . فقد حملنى ذلك على أن أفكر فى غفلة الشعب عن الأمور العامة وحصره كل أفكاره وأعماله فى دائرة عمله اليومى ، فوجدت أن واحداً فى الألف هو الذى يتتبع مجارى الأمور ، ويعنى بشؤون مواطنيه وسياسة وطنه ، وربما تجد قرى بأسرها لا تقرأ جريدة ولا تتصل بالعالم . وكل ما يهم الفلاح هو زراعة أرضه وأسعار محاصيله . ومن الصعب أن يتكون فى الأمة رأى عام محترم إذا بقى حال الأفراد على هذه الحال فدخول الشباب المثقف فى الميادين الاجتماعية والاقتصادية بالدعوة والارشاد يفتح عيون العامة على الحياة الصحيحة فتتسع أفكارهم، وتبعد آمالهم ، وينشأ فيهم الطموح إلى الأحسن ، والنزوع إلى الأكمل ، والشعور بأن الوطن وطنهم والحكومة حكومتهم ، فاذا قدموا أبناءهم إلى العسكرية قدموهم مغتبطين لأنهم يدافعون عن أنفسهم ؛ وإذا أدوا الضرائب أدوها راضين لأنهم ينفقون على مصلحتهم . وقد لمست أثر دعوتكم فى نفسى فأصبحت أقرأ صحيفتى اليومية بروح جديدة واهتمام قوى

كنت آخذ الصحيفة فأمر على عناوينها مرا لأتخير ما يستفز اهتمامى من أمور قد لا تتعدى مسألة اليوم وأخبار الملاهى والسينما ، وها أنذا اليوم أحرص على تتبع الشؤون الداخلية كرجل ذى علاقة وثيقة بها . فأصبحت أقرأ أخبار المصالح المختلفة وكأنها تهمنى مباشرة ، وأمسيت أتتبع مناقشات البرلمان . ولا أكتمك أنى حين قدمت الميزانية إلى المجلس كنت وأنا أقرأ مقدمة وزير المالية أتخيل نفسى زعيم المعارضة فأقرأها وأناقشها ، فلما قرأت رد المعارضين تصورت نفسى وزير المالية فرحت أحاول الرد عليها وتبرير موقفى . وهكذا حالى مع كل ما يجد فى البلد من أحوال وأخبار

هذه آثار دعوتكم فى نفسى ولعل أثرها يكون فى اخوانى الشباب أبلغ مدى وأعمق أثرا ... ...

(الجيزة) **مختار يونس**



قصـــة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى بك
مدير مصلحة الكيمياء

وكان يضحك كلما جاء النبأ بأن بعض أعوانه يقول عنه إنه مخبول ، كان فى كل حجرة من هذا البيت وفى كل مكان ، ولكنك دائماً مستطيع معرفة مكانه وحصره فى الناحية التى هو فيها وذلك من صوته الذى لا يفتأ يتردد ينادى فى الردهات : « يا قدريت ... يا قدريت ! أين سجائرى ... هات مائى المعدنى ... ! »

— ٥ —

وخاب أمر الاصباغ خيبة كبرى ، وجرى الحديث تمتمة بين الكيمائيين أن إرليش رجل غبي لا يفهم ، ولكن يجب أن تذكر دائماً أن إرليش كان يقرأ الكتب ، فذات يوم كان جالساً فى مكتبه على كرسى خلا مصادفة من الكتب التى تراكمت عليه وعلى غيره ، وكان يقرأ فى المجلات الكيماوية كبعض قدماء الحكماء يبحثون عن حجر الفلاسفة ، فاذا به يقع على عقار من أخبث العقاقير . وكان اسمه أتكسيل Atoxyl ومعناه غير السام ، وكان هذا العقار شفى الفئران من مرض النوم ، أو كاد ؛ وكان قتل فيرانا ليس بها مرض النوم ؛ وكان قد جُرب فى بعض أهل السواد فى أفريقا عسى أن يشفيهم من مرض النوم فلم يشفهم . بل أصاب عدداً وفيراً منهم بالعمى قتم عماهم قبل أن يدركهم الموت من دائهم . فهذا عقار مروع لو أن مركبه كان حياً لاختزى منها واستبرأ . وكان تركيبه من حلقة بنزين ، وهي مكونة من ست ذرات من الكربون قامت فى حلقة كالخاتم كأنما يطارد بعضها بعضاً فى دائرة كالكلب يدور حول نفسه يريد أن يعض ذيله ؛ ويتركب عدا ذلك من اربع ذرات من الادروجين ، وشيء من النشادر ، وبعض أكسيد الزرنيخ ، وهذا الأخير يعلم الناس أنه سم زعاف .

قال إرليش : « علينا أن نغير من تركيب هذا العقار قليلا » قال هذا وهو يعلم أن الكيمائيين الذين ابتدعوه قالوا إنه تركب بحيث أن أى تغيير يلحقه يفسده ؛ ولكن إرليش لم يستمع لما قالوا ، وظل يقضى بعد ظهر كل يوم فى معمله وحده يبذل فى العمل كل نشاطه . وكان معملا ليس كمثله معمل فى الدنيا فلم يكن به معوجات ولا كؤوس ولا قنينات ولا ترمومترات ولا أفران ، حتى ولا ميزان واحد . كان فى فقره كمنضدة صيدلانى بقرية يمزج عليها ما يطلب إليه من بسائط الأدوية عند فراغه من مكتب البريد الذى يتولى إدارته أيضا [١] . فان كان بينهما فرق فهو فى أن معمل إرليش كانت فى وسطه منضدة كبيرة جداً ترصصت عليها صفوف وصفوف من قنينات ، قنينات عليها أوراق باسمها ، وقنينات ليس عليها اسم لها ، ثم قنينات عليها أسماء لا تقرأ من سوء ما كتبت أو مما سال على ظواهرها من بواطن القنينات من أصباغ قرمزية طمست أسماءها . ولكن إرليش وعى كل تلك الأسماء برغم هذا . ومن وسط أحراج الزجاجات هذه خرج رأس مصباح بنسن [٢] واحد يبعث فوق أرؤسها بلهبه الأزرق . فأى كيميائى لا يضحك من هذا المعمل ؟

(١) فى بعض القرى الاوروبية يقوم القائم باعمال البريد باعمال أخرى كالصيدلة أو البقالة ونحوها وذلك فى نفس مكتب البريد وهو أشبه بدكان (المترجم)

(٢) مصباح بنسن هو مصباح غاز استصباح يتخذ فى المعامل للتسخين

وفى هذا المعمل لعب إرليش بعقاره أتكسيل . وكم صاح وهو يعبث به : « هذا جميل » ! « هذا بديع » ، « هذا فوق التصديق » ، وهو أثناء ذلك يملى على الآنسة مَرْكَرْت Marquardt ، ويأطول ما صبرت ، أو يصرخ إلى السيد قدريت فى طلب هذا أو ذاك . وشاءت الأقدار أن تمنحه ذكاء كيماويا شاذاً تمنحه البحاثَ أحيانا ممن ليس فى مقدورهم بالطبع أو بالتطبع أن يكونوا كيماويين ، فاذا به يجد أن هذا العَقار قابل للتغيير ، لاقليلا بل كثيراً ، وأنه يمكن تشكيله أشكالا عدة لم يُسمَع بها من قبل ، دون أدنى مساس بما بين الزرنيخ وحلقة البنْزين

« أنا أستطيع أن أغير الأتكسيل » . وخرج يهلع بلا قبعة ولا معطف إلى معمل برتْهَايم Bertheim ، معمل كيميائيه الأول أو رئيس أرقائه ، وصاح فيه : إن الأتكسيل يمكن تغييره ، ولعلنا نستطيع تغييره إلى مائة مركب ، أو إلى ألف مركب من مركبات الزرنيخ . وهاك كيف يكون هذا « ياعزيزى برتهايم » . وأخذ يشرح ألف طريقة لإحداث هذا التغيير . فماذا صنع برتهايم؟ بالطبع انصاع ، وكيف يستطيع أن يقف جامداً أمام « ياعزيزى برتهايم » ؟

وجاءت سنتان اشتغل فيهما كل من فى المعمل من الألمانيين ويابانيين ، ومن بعض اليهود ، وكل من فيه وما فيه من رجال وفئران ، غير ناسين الآنسة مَرْكَرْت Marquardt ولا الآنسة ليوبلد Leupold ، وغير ناسين السيد قدريت بجلال قدره . اشتغلوا جميعاً وكدحوا كدحاً ، وأجهدوا أنفسهم إجهاداً ، فى مثابرة ومصابرة ، حتى صار المعمل كبعض مصاهر الجن يعمل فيها كل عفريت مريد . وفيه جرّبوا هذه المادة ، ثم هذه ، حتى بلغ ما امتحنوه من مركبات الزرنيخ ٦٠٦ مركب وقعوا جميعاً تحت تأثير عفريتهم الأكبر ، فلم يفرغ أحدهم ليفكرَ فى بطلان ما يصنعون ، وفى استحالة ما يطلبون ، وهو قلب الزرنيخ من سم معروف مُجَنَّب لدى كل مجرم قاتل ، إلى دواء وشفاء لم يجزم أحد بجواز وجوده ، لداء لم يحلم إرليش أبداً بجَوَاز شفائه . نعم وقع هؤلاء الأرقاء جميعاً تحت تأثير ارليش فكدحوا على نمط لا يجرى عليه الرجال فى كدحهم إلا إذا حفزهم اليه رجل متعصّب عصيّ مثله ، رجلٌ خـدد العزم جبهته ورقق حب الخير من عينيه

وغيروا الأتكسيل ! واشتقوا من تركيبه مركبات زرنيخ عجيبة شفت الفئران فعلا . وبكادون يصيحون صيحة الفرح والنصر ، ولكن الحظ يدير لهم ظهره فيجدون أن المكروب الفظيع ، مكروب داء الورك ، يذهب حقاً من الفئران ، ولكن الزرنيخ يحيل دماءها الثخينة إلى سائل رقيق ، أو هو يصيبها بالصفراء فتقتلها ... ... ومن أدوية الزرنيخ هـذه ما جعل الفئران ترقص رقصاً ، فهل تصدق هذا يا صاحبى ! نعم جعلتها ترقص رقصاً ، ولم ترقص دقيقة ثم تسكن ، بل تدور ثم تدور ، وتنط ثم تنط طول حياتها . عذاب مرير لها بعد شفائها من دائها ما كان يخطر على بال الشيطان لو أراده . ضاع الأمل فى الدواء الكامل ، وأى أمل لا يضيع بعد الذى كان . إلا أمل إرليش . كتب يقول : إنه ليسرنا أن نجد أن الضرر الوحيد الذى أصاب الفئران من الدواء أنه قلبها فصارت فئراناً راقصة . والذين يزورون معملى سيدهشون لكثرة ما يجدون فيه من الفئران الراقصة ... » فأى رجل ملىء بالأمل والحياة !

واصطنعوا مركبات لا حصر لها ؛ وكان جهادهم فى كل هذا جهاد المستيئس المستبسل حين لا أمل ولا رجاء . وطلع لهم فيما طلع أحجية غريبة : وجد إرليش أن جرعة الزرنيخ الكبيرة يعطاها الحيوان دفعة واحدة تكون خطرة على حياته فجزأها إلى أجزاء صغيرة وأعطاها إياه ورجا الخير من بعـد ذلك ، ولكن النحس تبعه بالخيبة ، فالتريبنسومات اعتادت بالتدرج على الزرنيخ فتمنعت عليه ورفضت أن تقتل به . والنتيجة أن الفئران مشت إلى فنائها أفواجاً أفواجا

فهذا ما كان مآل المركبات الكيماوية الزرنيخية الخمسمائة والخمسة والتسعين الأولى ، تتابعت جميعا يحدوها الرجاء وانتهت جميعا إلى نهاية واحدة متكررة فاشلة تسقط لها القلوب فى الصدور ، ولكن بول ارليش ثبت على ابتسامته ، وظل ينعش نفسه بأقاصيص يخترعها عن دواء جديد مؤمَّل منشود . وعلمَ الله وأكدت الطبيعة ما كانت إلا أقاصيص أكاذيب لا تحتمل نقداً ولا تجيزها طبائع الأمور . وأخذ

يرسم الرسوم لبرتهايم ورجاله ، رسوما خيالية لمركبات زرنيخية علموا فى قرارة أنفسهم وهم الخبراء أنها لن تكون . وظل يرسم لهم ثم يرسم . وهم يعلمون من الكيمياء فوق ماعلم حتى ملأ بمخطوطاته أوراقاً لاعدّ لها . ورسم لهم فى المطاعم على جداول المأكولات ، وفى الخمارات على جداول المشروبات . وهال رجاله فقدانه الحسّ بما بين الممكن والمستحيل ، ولكنهم عدّتهم حماسته التى لاتحدّ ، وجوحه الذى لا يُرَدّ ، وعناد البغال الذى لاتنفع معه مجادلة أو مسايسة . قالوا : « ماأجمل تحمسه وتحرقه ! » ، وتحرقوا مثله . وانتهى إرليش بأن استنفد كل ماعنده من جهد ، وأحرق شمعته من طرفيها ، حتى بلغ أمله المنشود ، وطلع عليه يومه الأسطع المأمول ، وذلك فى عام ١٩٠٩

— ٦ —

أشعل شمعته من طرفيها ، وفعل مافعله طارق حين حرق سفائنه ، لأنه كان قد فات الخمسين ربيعاً ولم يبق من عمره غير القليل القصير . وبذلك عثر على المركب الشهير برقم ٦٠٦ . واعلم أنه ماكان بمستطيع إيجاده لولا معونة خبيره العالم برتهايم . وهو مركب استخدم فى تركيبه كل حذق الكيمياء ، وركب فى جو مخطر لكثرة ما يملؤه من أبخرة الأثير ، وهى أبخرة تنذر فى كل وقت بالتفرقع والحريق . وهو عدا هذا مركب حساس سريع التلف يحيله القليل الذى يمسه من الهواء من دواء معتدل التأثير إلى سم بالغ المفعول قتال

هذا هو المركب الشهير رقم ٦٠٦ ، وهو يستمتع باسم طويل : فانى أكسى ثانى أمينو أرسينو بنزول ثانى هيدروكلوريد . وكان غلوّه فى الفتك بالتريبنسومات كغلوه فى الطول ، فحقنة واحدة منه تكسح دم الفأر كسحاً من كل ما به من تريبنسومات داء الورك فلا تترك واحدة منها تحكى للخلف أخبار السلف . وهو عدا ذلك كان مأموناً جداً برغم أنه مُثقّل بالزرنيخ ، ذلك السم المختار المحبّب إلى كل قاتل أثيم . وهو لم يَعْمِ الفئران ، ولم يَحُلْ دمهم فيرق ، ولم يُرقصهم رقصة العذاب المذكورة ، واختصاراً كان عقاراً مأمون الضرر محقق النفع

قال قدريت بذكر هذه الأيام بعد فواتها بزمن طويل : «تلك كانت الأيام» . «وما كان بالشاب عندها ، فقد كان سبق الكبر إليه فصلب من عوده ، وذهب بالمرونة من عضلاته ، ولكنه ظل يدب وراء الأستاذ ، يُعنى به ويسد من طلباته . قال قدريت ، تلك كانت أيامنا أيام كشفنا عن رقم ٦٠٦ ، وأيْ والله تلك كانت الأيام ! وأيّ أيام أصابتها ما أصابت هذه من الحمى ، وأى أيام حظيت من الجنون والعمل الخابط الراقع الجموح بمثل ما حظيت به هذه ؛ اللهم إلا أيام بستور Pasteur . وصار رقم ٦٠٦ يشفى من مرض الورك فتطيب منه الفئران وأعجاز الخيول ، ولكن ماذا بعد هذا ؟ وهنا يدخل الحظ فى تسيير الأمور ، فيذكر إرليش نظرية قديمة خاطئة كان قرأها لرجل ألمانى عالم فى الحيوان اسمه شَوْدِين Schaudinn . قرأ إرليش فى عام ١٩٠٦ أن شودين اكتشف مكروباً لولبياً رفيعاً باهتاً أشبه شئ ببريمة الفلين ، ولكن دون يدها ؛ وكان اكتشافاً باهراً هذا الذى اكتشفه شودين . وَوَدِدْتُ لو اتسع المقام لأحدثكم عن هذا الرجل وعن تعصبه وعن شربه الخمر وإسرافه حتى تتراءى لعينه غرائب الأطياف والخيالات . وسمى هذا المكروب إسبيروشيتا باليدا Spirocheta pallida ، وأثبت أنه سبب الداء الرذيل المعروف بالزهرى

لم يفت إرليش ، وهو القارئ كل شئ ، أن يقرأ هذا الاكتشاف ، ولكن رسخ فى ذاكرته أكثر من كل شئ أن شودين قال : « ان هذا المكروب الباهت يدخل فى نطاق المملكة الحيوانية ، فهو ليس من مملكة النبات كالبكتريا . والحق أنه قريب الصلة بالتريبنسومات ، وقد ينقلب إليها أحيانا

بالطبع هذا لم يكن غير حدس وتخمين رمى به خيال شودين رمياً ، ولكنه فعل بعقل إرليش الأفاعيل . قال إرليش : « إذا كانت الاسبيروشيتات بنات عمات التريبنسومات إذن فمركب رقم ٦٠٦ لابد قاتل الأخيرة كما قتل الأولى » . ولم يعُن إرليش أقل عناية ، أو يعكر صفو مزاجه أقل تعكير ، تلك الحقيقة الواقعة وهى أن أحداً من الناس لم يثبت قط أن هذه المكروبات بنات عمات . وما مثله من يعنى بمثل ذلك ... ومن هذا مشى قدما إلى يوم مجده الأكبر

(يتبع) أحمد زكى



ليوناردو دافنشي

الرجل الكامل

للدكتور أحمد موسى

– ٢ –

أما المرحلة الثانية من حياته فقد بدأت عند ما استدعاه الدوق لودوفيتشو سفورزا للتوجه سنة ١٤٨٣ إلى ميلانو . وهناك استمتع بأجمل أيام حياته ، لأن الدوق نظر اليه نظرة الرجل المؤثر الذي يقدر الفن ويجله ، نظرة الرجل الذي يعلم بأنه لا معنى للحياة بدون الفن ، فاذا كان الدوق غنياً ومقدراً للفن ، فهذا معناه أن ليوناردو قد وفق الى الوجود الشخصية التي تعمل على تشجيعه ومعرفة قدره ، فعمل بكل قواه على إظهار مواهبه ، فكان معمارياً ومهندساً وعالما ومشجعا للأكاديمية كما كان نحاتاً ومصورا .

وله في هذه المرحلة لوحات رائعة منها صورة الدوق وصورة لعائلته ، ولوحات لبعض رؤوس غاية في القوة والجمال .

وأهم أعماله في هذه المرحلة ، بل وفي حياته كلها صورته المعروفة « العشاء الأخير » والمحفوظة بدير القديسة ماريا في ميلانو . صورها في سنتين ، وهي للأسف في حالة غير مرضية الآن ، ولكن لحسن الحظ أن منها جملة لوحات مقلدة متقنة ومعاصرة لها . وهذه اللوحة تمثل المسيح ، وقد توسط تلامذته الاثنى عشر مجتمعين حول مائدة بعضهم جالس والبعض الآخر واقف ، وأمامهم الخبز والاطباق وأكواب الشراب . قال المسيح لتلامذته : « إن أحدكم سيسلمني ! » فما كان من تلاميذه إلا أن اتجه بعضهم إليه وبعضهم إلى بعض متسائلين مستفسرين ، متألمين خائفين ، تمثل الوجد على وجه كل منهم ، فبعضهم أشار بأصبعه ، والبعض أشار بيديه .

أنظر إلى ش – ٢ – وتأمل القوة الانشائية والاخراج العظيم ترى الوجوه الثلاثة عشرة مختلفة الوضع والتفاصيل والتكوين الكلي ، والحركة البادية والمعنى الذي يعبر عنه كل منهم في منتهى الرقة والحسن .



العشاء الاخير ، بميلانو – سانتا ماريا دي لاجراتسيا

أما التوازن البادى على مجموعهما الشكلى والوضعى فهو عظيم وأما اختلاف التكوين الجسمانى لكل منهم ، واختلاف الطريقة التى يجلس أو يشير بها، فهى رائعة ، لأن هذا الاختلاف لم يذهب بك إلا إلى منتهى حسن الانسجام وكمال الاندماج .



موناليزا – متحف اللوفر

أنظر إلى الأيدى ، تأمل الأكف التى استطاع بها ليوناردو اخراج ست وعشرين يداً . لا ترى منها واحدة تشبه الأخرى . أليس هذا منتهى ما يطمح اليه فنان ؟ لم يترك ليوناردو الحوائط دون تحلية ، ولم يفته أن يصور لك منظراً ظهرت بعض أجزائه من خلال الباب والشبابيك فى مؤخر للصورة . فكأن هذه القطعة لم تخلد مجد ليوناردو فحسب ؛ بل هى لوحة من اللوحات الخالدة الفذة فى تاريخ الفن كله .

وبدأت المرحلة الثالثة من مراحل حياته عند ما غادر ميلانو سنة ١٤٩٩ متنقلا حتى وصل البندقية (١٥٠٣ - ١٥٠٦) ثم فلورنسا (١٥٠٦ - ١٥١٦) ثم غادرها إلى فرنسا لخدمة الملك فرانس الأول سنة ١٥١٦ وعاش فى قصر كلو حتى وفاته فى ٢ مايو سنة ١٥١٩ بعد بلوغه السابعة والستين .

وقد أنتج فى هذه المرحلة لوحات كثيرة أيضا ، منها لوحة القديسة أنا ، والقديسة مريا ، وعيسى ويوحنا بأكاديمية لندن ، وكلها رؤوس هائلة رائعة ، امتزج فيها الظل بالنور امتزاجا لا يستطيعه إلا ليوناردو . وبعض هذه الصور كان على الكرتون الذى خصصه لتصميم رسم لعمل الفسيفساء فى بيت البلدية بفلورنسا منها قطعة أسماها مذبحة انجيارى . وقد فقدت هذه الكارتونات ما عدا القطعة الوسطى منها التى مثلت المقاتلة على العلم ، وهذه القطعة ش - ٣ - قد نقلها الفنان روبنز (راجع الرسالة بتاريخ ٣ يناير سنة ١٩٣٧) عن الأصل وهى محفوظة باللوفر .

والناظر اليها يرى العنف والشدة يتمثلان فى كل جزء من أجزائها ، ولعلنا نستطيع أن نعرف أثر الفن الاغريقى فى ليوناردو وعند ما نتذكر تلك الصور التى شملها مقالنا عن منحوتات معبد بارتنون (اكروبوليس أثينا) .

وله لوحة هى أجمل ما صوره دون منازع ، ألا وهى « مونا ليزا » محفوظة باللوفر ، ولا يمكن مهما حاولنا الوصف أن نقدر جمال هذه القطعة ش - ٤ - دون مشاهدتها فى الأصل بألوانها الطبيعية الخلابة التى تمثل الجمال الايطالى فى أسمى مظهر له انظر إلى ابتسامتها الساحرة الخالدة التى تجذب إليها المشاهد الراغب فى الجمال النبيل .



صورة خطية لسيدة – جاليرى أوفيزى

وله غير ذلك لوحات فذة الى جانب لوحاته الخطية بالقلم الرصاص وهى ايضا من أروع ما يمكن تصويره اطلاقا ، منها جزء محفوظ باللوفر وفينيسيا وميلانو .

احمد موسى



معهد للدراسات الإسلامية بالجامعة المصرية

قرر مجلس إدارة الجامعة المصرية أن ينشئ معهداً جديداً للدراسات الاسلامية يلحق بكلية الآداب: وقد نص فى مشروع تنظيم هذا المعهد الجديد أن الغرض من انشائه « تمكين الأساتذة والطلاب من العناية المنظمة بالعلوم الاسلامية من طريق الدرس والبحث ونشر النصوص القديمة. ومن طريق التأليف والترجمة أيضاً، وتبيين مدى ما كان من صلة بين الحضارة الاسلامية والحضارة الغربية »: وأما العلوم التى ستدرس فى هذا المعهد فهى القرآن الكريم وما يتصل به من العلوم، والحديث وما يتصل به، والفقه وأصوله، والتاريخ الاسلامى وعلومه، واللغة العربية وعلومها وصلتها بالدين الاسلامى، واللغات الشرقية الاسلامية وآدابها من حيث صلتها بالدين الاسلامى. وسيعتبر المعهد من المعاهد العالية ولا يلتحق به إلا من يحمل ليسانس الآداب، أو مايعادلها. ومدة الدراسة فيه سنتان، وسيجرى على قاعدة التخصص، فيتخصص الطالب فى إحدى المواد المذكورة ويتقدم إلى نيل الدبلوم برسالة فى مادته.

وهذه خطوة موفقة فى الواقع. فقد كانت الدراسات الاسلامية فى الجامعة إلى اليوم مشتتة مبعثرة، ولم تكن برامج كلية الآداب المقتضبة لتسمح بالتوسع فى هذه الدراسات إلى الغاية المقصودة؛ وكان مما يبعث على الأسف أن نجد فى كثير من الجامعات الأوربية الكبرى معاهد خاصة بالدراسات الاسلامية ولا نجد لها فى جامعتنا المصرية نظيراً. نعم إن العلوم التى ستدرس فى المعهد الجديد يدرس معظمها فى الجامع الأزهر، ولكن الدراسة الأزهرية لهذه العلوم لا تجرى على القواعد العلمية الحديثة ولم تحقق حتى اليوم آمال أنصار الثقافة الاسلامية فى ميدان التخصص المستنير والتحقيق العلمى الصحيح.

الأستاذ ليفى بروفنسال

وفد على القاهرة منذ أيام العلامة المستشرق الأستاذ ليفى بروفنسال عميد معهد الدراسات الاسلامية برباط المغرب ليقوم ببعض بحوث فى مخطوطات بدار الكتب المصرية. والأستاذ بروفنسال من أكبر الاخصائيين فى عصرنا فى تاريخ الاندلس والمغرب أو كما يسميه تاريخ الغرب الاسلامى. وهو منذ ثلاثين عاماً يحقق وينقب فى هذا الميدان؛ وله فيه عدة مؤلفات نفيسة منها بالفرنسية « تاريخ اسبانيا المسلمة فى القرن العاشر »، و« النقوش العربية فى اسبانيا ». وقد أصدر طبعة جديدة بالفرنسية لتاريخ العلامة دوزى « تاريخ دولة المسلمين فى اسبانيا لغاية الفتح الرابطى »، مقروناً بهوامش ومذكرات نفيسة. وأصدر فهرساً جديداً بالفرنسية للمخطوطات العربية فى الأسكوريال. ونشر عدة مؤلفات عربية قيمة فى تاريخ الأندلس والمغرب منها الجزءان الثالث والرابع من كتاب البيان المغرب لابن العذرى المراكشى، وقطعة من تاريخ ابن حيان، وكتاب لابن البيدق عن ابن تومرت. هذا عدا بحوث عديدة فى هذا الباب فى المجلة الأسيوية، وفى دائرة المعارف الاسلامية. وقد وفق الأستاذ بروفنسال أيضاً إلى العثور فى مكتبات المغرب على عدة مخطوطات نفيسة عن تاريخ المغرب والأندلس منها كتاب « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » لابن بسام، ولديه الآن منه نسخة كاملة؛ ومنها الجزء الرابع الذى يحتفظ منه بنسخة وحيدة. ويعنى الأستاذ الآن بالعمل لاخراج هذا الأثر النفيس، وقد أعد بالفعل أصول الجزء الأول منه، وربما قرر طبعه بمدينة القاهرة ويعاونه فى هذه المهمة الجليلة عدة من الزملاء الأعلام

لجنة تأبين الرافعي

لبى دعوة الأستاذ الكبير محمود بك بسيونى رئيس مجلس الشيوخ بصفته رئيساً للرابطة العربية ، لفيف كبير من أئمة الأدب والبيان وأعلام الفكر والقلم للنظر فى تأليف اللجنة التى تؤدى واجب الرثاء والذكرى لفقيد العروبة والأدب السيد مصطفى صادق الرافعى . ولما اكتمل عقد الاجتماع طلب سعادة الرئيس وقف الجلسة دقيقتين حداداً على الفقيد الكريم وبعد ذلك شرع فى تكوين اللجنة فتم تأليفها على النحو الآتى :

سعادة الأستاذ الكبير محمود بسيونى رئيساً ، والأستاذ كامل زيتون سكرتيراً ، وحضرات أصحاب العزة والسيادة الدكتور محمد حسين هيكل بك والدكتور منصور فهمى بك وخليل ثابت بك وأنطون الجميل بك وميرزا مهدى رفيع مشكى بك والاستاذ احمد الاسكندرى وعبد الحميد سعيد بك والاستاذ محمد توفيق دياب ومصطفى عبد الرازق بك وعلى الجارم بك ومحمد أحمد جاد المولى بك وخليل مطران بك والأستاذ محمد مسعود والدكتور محجوب ثابت والأستاذ أحمد فريد رفاعى بك والاستاذ أحمد أمين والاستاذ أحمد حسن الزيات والسيد محمد الخضر حسين والدكتور زكى مبارك والدكتور أحمد نشأت وصالح جودت بك والأستاذ محمد عبد اللطيف دراز والأستاذ سامى السراج والاستاذ خير الدين الزركلى والاستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى والاستاذ عبد الله عفيفى والسيد عبد المقصود خضر والاستاذ محمد الهراوى والاستاذ محمد الأسمر والاستاذ أحمد الزين والاستاذ حسين شفيق المصرى والاستاذ حافظ محمود والاستاذ رمزى نظيم أعضاء

ثم قررت اللجنة ما يلى :

١ — أن يكون موعد الحفلة فى اكتوبر المقبل مراعاة لفصل الأجازات الصيفية حتى يتمكن عارفو فضل الفقيد ومحبو آثاره من الاشتراك فى هذا الواجب المقدس

٢ — مخاطبة حضرة صاحب المعالى وزير المعارف العمومية فى شأن التصريح باقامة الحفلة بدار الأوبرا الملكية

٣ — توجيه الدعوة إلى حضرات الأدباء والشعراء بمصر والأقطار العربية الكريمة للاشتراك فى تأبين الفقيد وإرسال ما تجود به قرائحهم باسم سكرتير اللجنة الأستاذ كامل زيتون بعنوان الرابطة العربية بحدائق القبة شارع الملك رقم ١١٢

٤ — تكوين لجان من بين حضرات الأعضاء للشعر والنثر والتنظيم والنشر وتفويض كل لجنة فى أن تضم إليها من ترى فى اشتراكهم تحقيقاً لأغراضهم

٥ — تمثيل الأقطار العربية فى لجنة التأبين بقدر المستطاع حتى يقوم جميع الناطقين بالضاد بما يجب عليهم نحو الفقيد الكريم

٦ — تحديد الموضوعات النثرية التى سيتناولها الأدباء لبحثها والكتابة فيها وهى :

(١) تاريخ حياة الفقيد ومؤلفاته
(٢) مكانة الفقيد فى الشعر
(٣) المعركة بين القديم والحديث
(٤) أدب الرافعى الدينى
(٥) الجوانب الوجدانية فى أدب الرافعى
(٦) القصص التاريخى فى أدب الرافعى
(٧) أسلوب الرافعى فى الكتابة والنقد

ثم ارفض الاجتماع على أن تكون الجلسة المقبلة فى الأسبوع الأول من شهر يونيو المقبل

سكرتير اللجنة : كامل زيتون

تأبين الرافعى فى حمص :

لقد عزم فريق من أدباء الشباب الحمصى على أن يقيم حفلة تأبينية كبرى لفقيد البيان العربى المرحوم مصطفى صادق الرافعي ، وستكون الدعوة للإشتراك فى هذه الحفلة عامة تضم نخبة ممتازة من أدباء سوريا وشعرائها نخص بالذكر منهم الأساتذة : معروف الأرناءوط ، عمر أبو ريشه ، سامى الكيالى ، رفيق فاخورى ، أنور العطار ، محمد روحى فيصل ، عبد القادر جنيدى ، محيي الدين الدرويش ، رضا صافى ، برهان الأتاسى ، نذير الحسامى ، فؤاد الخورى ، بدر الدين الحامد ، أحمد نورس ، عبد الرحمن أبو قوس

سكرتير اللجنة : عبد القادر جنيدى

الطب المصري القديم

فى سنة ١٨٧٣ نشر العلامة الأثرى الألمانى جورج ابرس وثيقة مصرية من البردى وفق إلى العثور عليها . فكان لها وقع عميق فى جميع الدوائر العلمية إذ ظهر أنها تحتوى على خلاصة كبيرة من طب المصريين القدماء ؛ وهذه الوثيقة التى هى أكبر وثيقة من نوعها ترجع إلى سنة ١٥٥٠ ق . م . ومن ذلك الحين عثر المنقبون على عدد آخر من الوثائق الفرعونية الطبية ، منها وثيقة كاهون التى ترجع إلى سنة ١٨٠٠ ق . م ووثيقة ادوين سميث التى ترجع إلى سنة ١٦٠٠ وهى خاصة بالجراحة الفرعونية ، ومجموعة برلين الطبية وغيرها . وقد ظهر أخيراً كتاب عن وثائق الطب الفرعونية ولاسيما وثيقة ابرس عنوانه « بردى ابرس The Papyrus Ebers بقلم ثلاثة علماء دنماركيين هم : ايبل ولفين ومونكسجارد

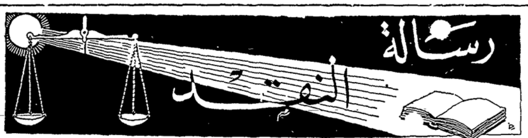
وفى هذا الكتاب شرح واف لوثيقة ابرس وبسط لمحتوياتها الطبية وهى فيما يبدو أثمن مجموعة من نوعها . والظاهر أنها بمثابة شرح عام لقواعد الطب الفرعونية ، ومعالجة الأمراض المختلفة ، وبها عدة أقسام ، فمنها مثلا قسم يتعلق بعلاج الأمراض الباطنية ، وآخر بفن الجراحة ، وقسم للعقاقير الشافية ؛ والظاهر أيضاً أن ما فيها من المعلومات يرجع إلى عصر متأخر عن الذى كتبت فيه . ويقول الدكتور ايبل إن كثيراً من المعلومات تدلل على مبلغ ما وصل إليه الفراعنة فى فن الطب والعلاج من البراعة والمقدرة ؛ ثم إن كثيراً من العقاقير والعلاجات التى وصفت الأمراض خاصة تدلل على تقدم فن الكيمياء والصيدلة لديهم وعلى وقوفهم على أسرار كثير من الجواهر والعناصر العلاجية المفيدة

تنظيم أوراق البردى المصرية

قرأنا فى البريد الألمانى الأخير نبأ لم يرد فى الصحف المصرية ، وهو أن الحكومة المصرية قد استدعت العلامة الأثرى الألمانى الدكتور هوجو أبشر مدير قسم المحفوظات الكتابية بمتحف برلين إلى مصر ليقوم بتنظيم أوراق البردى المصرية بالمتحف المصرى وقراءة رموزها واتخاذ التحوطات الكيماوية لحفظها . والدكتور أبشر أعظم حجة فى قراءة أوراق البردى الفرعونية ، وله فوق ذلك مقدرة فنية خاصة فى فصلها واستخراجها من رزمها الملصقة ، ومن بين لفائف المومياء . ذلك أن أوراق البردى توجد أحياناً ملتصقا بعضها ببعض بحيث يتعذر فصلها . ولما كانت تكتب غالباً من الجانبين ، فانه يجب بذل جهود فنية دقيقة لفصلها دون أن تمزق . وهذا هو فن الدكتور أبشر فهو يتولى فصلها وجمع قطعها ثم قراءتها . وقد اشتهر الدكتور ابشر بالأخص بتنظيم مجموعة البردى الخاصة بالفيلسوف مانى ، والتى وجدت بالفيوم منذ أعوام وتسربت إلى خارج مصر . واستطاع تصنيفها واستخراج صحائفها سليمة ، ومنها كتب بأسرها من كتب مانى . والمنظور أن يقضى الدكتور ابشر بمصر ثلاثة أشهر ليقوم بمهمته العلمية والأثرية الدقيقة ؛ لأن مصر تحتفظ بثروة طائلة من هذه الأوراق الأثرية النفيسة

ذكرى الموسيقى فاجنر

تحتفل مدينة لايبزج فى العام القادم بذكرى الموسيقى الشهير ريخارد فاجنر لمناسبة مرور مائة وخمسة وعشرين عاماً على مولده ومرور خمسة وخمسين عاماً على وفاته ؛ وبهذه المناسبة ستمثل فى مسرح لايبزج جميع أوبراته الشهيرة ، وستقوم بتنفيذها فرقة تحرص على تقاليد الموسيقى الكبير وسيحتفل فى نفس الوقت بازاحة الستار عن أثر عظيم لفاجنر



اسماعيل المفترى عليه

تأليف القاضى بيير كربتيس

وترجمة الأستاذ فؤاد صروف

للأستاذ الغنيمى

— ٦ —

عرضنا على القارىء فى المقالات الخمس السابقة أمثلة من الأغلاط التى يجدها القارىء فى ترجمة الأستاذ صروف ، ولقد وصلنا فى نقدنا إلى الفصل السادس من الكتاب ونظن أن الأمثلة التى ذكرناها تكفى لأن تعطى القارىء فكرة صحيحة عن هذه الترجمة ؛ وقد كانت معظم الأغلاط التى ذكرناها إما عبارات محذوفة رغم أهميتها ، وأما عبارات أضافها المؤلف من عنده غيرت المعنى ، وإما جملا ترجمت ترجمة خاطئة أفسدته . وقد ذكرنا مثلا أو مثلين من العبارات الغامضة التى لا يستطيع القارىء أن يفهم لها معنى . وسنلقى نظرة عاجلة على الفصول الباقية من الكتاب ونمر بها مراً سريعاً وسنضرب صفحاً عن العبارات المحذوفة أو المضافة ونكتفى بذكر أمثلة قليلة من العبارات التى ترجمت على غير حقيقتها فغيرت المعنى تغييراً كبيراً ، وذلك لكى نصل إلى الفصول الأخيرة من الكتاب فننقل للقراء نوعا جديداً من الأغلاط هو تحريف الأسماء وتغييرها . وليس أضر على الكتب التاريخية والجغرافية من تحريف الأسماء لأن ذلك يفقدها قيمتها

فن العبارات التى ترجمت على غير حقيقتها .

Gordon's aide de camp

وقد ترجمها المؤلف بقوله « رئيس أركان حرب الجنرال غردون » ، وليس معنى aide - de - camp أركان حرب ولا رئيس أركان حرب بل معناها « ياور » ، وقد ظننا أول الأمر أن القاموس لم يذكر هذا اللفظ ـ وإن كان هذا لا يجيز للأستاذ صروف أن يخطىء فيه ـ ولكننا وجدناه مشروحاً شرحاً وافياً لا لبس فيه ولا غموض فقد فسر هذا اللفظ هكذا .

An offirer who carries the onders of a general on the field and brings him Intelligence

(١) الضابط الذى ينقل أوامر القائد فى ميدان القتال ويأتيه بالأخبار . فهل هذا عمل رئيس أركان حرب الجيش . إن الاستاذ صروف نفسه قد ترجم Chief of staff فى ص ١١٣ من الكتاب برئيس أركان حرب ولا ندرى لماذا لم يتنبه بعد ذلك إلى اصلاح خطئه السابق .

(٢) ثم أنظر إلى هذه العبارة الغامضة التى لا يستطيع الانسان أن يفهم لها معنى « أما الشأن المعزو إلى عمل الكولونيل ماسون فراجع إلى كونه اكتشف نهيراً يخرج من بحيرة ألبرت » . إن وضوح المعنى هو أول ما يجب أن يحرص عليه المترجم

(٣) وهاك مثلا آخر من الغموض الذى يحير القارىء ، ذلك هو قول الأستاذ صروف فى وصف ابراهام بك « رقيب » اسماعيل باشا فى الآستانة « ولكنه مع سيطرته على سياسة الباب العالى وعدم إخفائه نوره تحت مكيال تمكن من أن يجتنب الشهرة الصحفية » فهل لأحد القراء أن يدلنا على معنى « وعدم إخفائه نوره تحت مكيال » ؟ أو على معنى « تمكن من أن يجتنب الشهرة الصحفية ؟ »

إن الذى يعجب له كثيرا أن الأستاذ صروف فى بعض الأحيان يترجم عبارات المؤلف كلمة كلمة وإن لم يؤد ذلك إلى معنى ، وفى البعض الآخر يغفل عبارات المؤلف ويأتى هو بعبارات من عنده مع أنه لو لم يتصرف فيها وترجمها ترجمة حرفية لجاء بالمعنى المراد .

(٤) ولا يختلف عن هذا قول الاستاذ صروف « وعرض على المقترح التالى حبرا على ورق » ، والمعنى الوحيد الذى أفهمه أنا ويفهمه القارىء من لفظ حبر على ورق هو « أنه شىء لا قيمة له

أولا يراد له بقاءه ولكن المؤلف يريد أن يقول إن صاحب الاقتراح عرضه « كتابة »

He submitted to me in writing.

(٥) ثم انظر معي أيها القارئ كيف ترجم الأستاذ صروف العبارة الآتية :—

As soon as the consideration fon its transfer wos forth coming.

فقال « ولما كان النظر في هذا التبادل متوقعاً في المستقبل » وهو كلام ليس له معنى ، والمؤلف يريد أن يقول « ولما أوشك المال أن ينتقل من يد إلى يد » .

(٦) وانظر أيضاً إلى العبارة التالية من قول المؤلف

And i take it therefore that a certain solid advantage attached, at any rate in his opinion, to the distinction between his being officilaly dsicribed as a k'hedive instead of as a vicerey.

وإلى ترجمة الأستاذ صروف وهي :

« وعندي أنه كان يعلق امتيازاً — في رأيه على الأقل — على التمييز بين تلقيبه بلقب خديو بدلا من وال » .

ومعنى هذه العبارة هو « ولهذا أعتقد أنه هو على الأقل كان يرى أن ثمة فائدة حقيقية في تغيير لقبه الرسمي من وال إلى خديو »

(٧) وهاك مثلا آخر لا يقل عن الأمثلة السابقة في تغيير المعنى قال المؤلف نقلا عن رسالة إلى سمو الخديو

Your Highness will afford the Sutn pleasure if your Highness will give L 7 500 plus 1,100 for the Imperial suite and ship's company.

فقال الأستاذ صروف « إن سموكم تتيحون لجلالته فرصة للاغتباط إذا تبرعتم بمبلغ ٧٥٠٠ جنيه مضافاً إليه ١١٠٠ للحجرات الملكية في السفينة » فجعل الأستاذ عبارتي Imperial suite و Ships Com-oany — شيئاً واحداً ثم ترجمها ترجمة خاطئة بقوله الحجرات الملكية في السفينة ، والمعنى الحقيقي هو « الحاشية السلطانية ورجال السفينة أو بحارة السفينة » ويريد بهما الحاشية التي صحبت السلطان إلى مصر وبحارة السفينة التي أقلته اليها في هذه الزيارة

(٨) وقال المؤلف أنه كان يفهم أن... Beys ana journaistsits cost less than birds and dogs. فقال الأستاذ صروف في الترجمة

« ما ينفق على بعض الباشوات والبكاوات كان أقل مما ينفق على الطيور والكلاب » .

لا ندري لماذا استبدل الباشوات بالصحفيين مع أن أولئك الصحفيين الذين يشير اليهم المؤلف كانوا كلهم من الأجانب وليس منهم باشا واحد .

(٩) وهذه عبارة أخرى أخطأ المترجم في فهمها فقلب معناها :

أرسل ابراهام إلى الخديو يبلغه أنه قابل الصدر الأعظم وحادثه في شأن المبلغ الذي طلبه هذا وهو ١٥٠٠٠٠ جنيه وشرح له وجهة نظر سمو الخديو ثم يقول :

He entirely approves of it, thanks your highness for having proposed it, and accepts it.

والمعنى الذي يفهمه كل إنسان من هذه العبارة هو أن الصدر الأعظم يوافق على اقتراح سمو الخديو ويشكر له اقتراحه ويقبله ولكن الاستاذ صروف يقول في ترجمة هذه العبارة :

« وهو يوافق عليها كل الموافقة ، ويعرب لكم عن شكره لسموكم لأنكم اقترحتموها وقبلتموها » ، وبذلك جعل سمو الخديو هو صاحب الاقتراح وهو الذي يقبله وهو كلام غير معقول ويخالف النص الانجليزي كل المخالفة ، فالخديو هو الذي اقترح والصدر الأعظم هو الذي قبل الاقتراح .

(١٠) ومن العبارات التي لا يستطيع إنسان أن يفهم معناها قول الأستاذ صروف عن ديون اسماعيل « إن هذه الأرقام تدل على أن أصحاب البنوك ابتزوا من اسماعيل مبلغ ٢٣٫٢٤٧٫٨٠٠ جنيه على قروض مجموعها ٤١٫٩٥٧٫٠٠٠ وأما هذا المبلغ فخصم كبير ولا سيا لأن جميع هذه القروض ما عدا قرض سنة ١٨٦٥ كانت بفائدة ٧ في المائة » .

ولا ندري ماذا يريد الأستاذ بقوله وأما هذا المبلغ فخصم كبير الخ وبهذه المناسبة نقول إن الأستاذ صروف استبدل برقم ٦٥٫٢٠٤٫٠٠٠ جنيه الذي ذكره المؤلف رقماً جاء به هو ، وذلك الرقم هو ٤١٫٩٥٧٫٠٠٠ لسبب لا نعرفه

(١١) هل يصدق أحد أن نفقات حملات إفريقية الوسطى كانت أكبر نسبياً من نفقات الحرب العظمى الماضية ؟

ذلك ما يقوله لنا الأستاذ صروف في ص ١١٩ من ترجمته مع أن كل ما يقوله المؤلف هو

The Armies thus equipped cost relatively large sums.

إن عدم الدقة في الترجمة يفسد كل شيء على المترجم

(يتبع) الغنيمي

5ème Année, No. 204

بدل الاشتراك عن سنة
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

Lundi - 31 - 5 - 1937

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٠

العـــدد ٢٠٤ « القاهرة في يوم الاثنين ٢٠ ربيع الأول سنة ١٣٥٦ — ٣١ مايو سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

من أيامنا المشهودة

مصر في جمعية الأمم

دخلت مصر يوم الأربعاء الماضي عضوا في جماعة الأمم فكانت تحية دخولها نشيداً من أناشيد النصر هتفت به خمسون دولة من دول التمدن، تمجيداً لأول أرض رأت الحضارة، وأقدم أمة عرفت المدنية، وأعرق دولة قدست المعرفة؛ وكان يوم دخولها عيداً من أعياد الحرية خفقت له القلوب الرزينة ابتهاجاً بظفر الحق بالعدالة، وضمان الاستقلال بالقانون، وتوكيد السيادة بتحقيق المساواة؛ وكان حادث دخولها الفصل الختامي من ملحمة الجهاد المقدس في سبيل الحرية المقدسة، فصفقت له أكف الساسة في العالم، وارتفعت له ألوية السلام في جنيف، وخطب ثمانية وعشرون خطيباً في مجلس العصبة فقالوا في مصر بعض ما قال التاريخ المتحجر الماثل على جبهة الدهر، فما احتك في الصدور شبهة من صرف الحديث ولا زور المجاملة. قال السنيور كيفيدو الأمريكي: «إن الدولة التي تطرق بابنا اليوم تمثل العالم بقدمه وجدته. ولكن هذه المظاهر على تنافرها تتسق فيها فتؤلف شيئا واحدا كاملا له قيمة تكاد تكون رمزية بالنسبة الينا جميعا. فمصر تدخل

بيننا مكللة الجبين بمجد لا نظير له ، لأنها البلاد التي نبت فيها كثير من المدنيات ، وحفظت على أرضها كثيراً من الشواهد الرائعة على عبقرية بلغ من إتساع مداها أن رفدت كل فن وأمدت كل حضارة . أن مصر صاحبة هذا الميراث العريق في القدم الحافل بالروائع ، تتقدم الينا اليوم في مظهر دولة في ريق الشباب ونضرة العمر وطدت مكانتها على التدريج في المجتمع الدولي ، وحصلت على استقلالها بفضل جدارتها الخاصة ونضجها الكامل » ثم قال السيد رشدي آراس وزير خارجية تركيا : « ان هذه البلاد ذات الخطر العظيم بين أمم البحر الابيض المتوسط . . . قد استطاعت في زمن يسير أن تقطع المراحل المتتابعة في تطورها السلمي المجيد . وإني لأذكر حادثاً تاريخياً يتعلق بروابط مصر القديمة بأحد شعوب آسيا الصغرى ، فقد ثبت من الأدلة الاركيولوجية أن أقدم صلح دولي ، أو أقدم معاهدة سياسية ، هي التي عقدت بين المصريين والحيثيين » وقال المستر إيدن وزير انجلترا : « إننا هنا خمسون دولة ليس بينها من لم يكن مديناً إلى حد ما لحضارة مصر السامية . فقبل أن تخرج بعض الأمم التي تمثلها من مجاهلها الأولى بزمن طويل ، كانت مصر قد منحت الجنس البشري هبات من العلوم والآداب فوق كنوز الفنون التي لا تبارى ولا تزال إلى اليوم مصدراً للاعجاب والعجب ؟ » وقال المسيو بوليتيس وزير اليونان : « إذا كانت أثينا أم المدنية الحديثة في أوربا ، فان مصر جدتها على التحقيق . فقد أثبتت الكشوف الاثرية أن مصر أفاضت على العالم من علمها وفنونها وآدابها وفلسفتها ، وأنها كانت مدرسة للاغريق أنفسهم ، حتى أن الأدب الاغريقي الخالد قد اقتبس من الأدب المصري كما دلت على ذلك المقارنة » .

وكلام البقية من الخطباء الوزراء مضروب على هذا الايقاع ، مطرود على هذا النسق ، فلم تشهد القاعة الدولية حفلا كهذا الحفل ، ولا قولا كهذا القول .

***

كان مجد مصر ونبل مصر وعبقرية مصر أمثالا مضروبة على لسان التاريخ ، وتماثيل منصوبة على وجه الأرض ، تعقد عليها الكتب ، وتطوى اليها المراحل ، ولكننا في أيام جهادنا الدامي العنيف كانت شهادة لا تدل وأثراً لا يذكر ، فكنا نحن المتمردين على ضراعة الذل واستكانة الرق ندعى : (آراب) و(أنديجين) ثم لا يرفعنا نسب عمرو ، ولا تغنينا قرابة (مينا) .

فلما انتهى أمر الدولة المحتلة بالمعاهدة ، وأمر الدول الممتازة بالاتفاق ، لم تبق إلا كلمة الحق ؛ ولا يضر كلمة الحق أن تقال في الآخر ، فان من الحق أيضاً أن عظمة الأجداد وآثار الأمجاد تظل سطوراً في الصحف ، أو صخوراً على الثرى ، حتى تتاح لها من الأبناء ألسنة فتذكرها وأيد فتنشرها وأعمال فتحييها .

لا ريب أن ماضي مصر المجيد كان له أثر ظاهر في هذه المظاهرة الدولية ، ولكن براعة المفاوضين وكفاية الممثلين كانتا شاهد هذا التاريخ وباعث هذا المجد . فاذا فخرت مصر بآبائها الذين أشاد بفضلهم أقوى أمم الدهر ، كانت حرية أن تفخر كذلك بأبنائها الذين جروا في عنان مع أسبق أمم الارض .

***

قال وزير خارجية فرنسا في خطبته : « إن مصر ستفد إلى جنيف بتجارب الشرق ، ولكنها حين تحمل الغرب على الاستفادة من حكمة الشرق ، ستحمل هي نفسها على تجديد حضارتها بحضارة الغرب » .

وهذا كلام لا يحتاج حقه إلى شاهد ؛ ولو طبق على معناه ومغزاه لكان خليقاً أن يفتح للعصبة باب عهد جديد . فقد دأب الغرب لقوته على أن يعطى ، ودأب الشرق لضعفه على أن يأخذ . وليس ما عند القوى خيراً كله ، ولا ما عند الضعيف شراً كله ؛ وأولى المؤسسات الغربية بالأخذ عن الشرق هي عصبة الامم ، فان مبدأها السلام وغايتها السلام ؛ وليس لدين الشرق وحكمة الشرق إلا هذه الرسالة .

فلعل مندوبي مصر والعراق وإيران وأفغانستان والهند وتركيا أيضاً ، يحملون عن مطلع الشمس إلى مغربها هذه الامانة ، فيسطعون في جو الجمعية سطوع النور ، ويرفون في جوانبها رفيف الروح ، فيكون من أصواتهم الندية للعالم الشارد المجهود سلام ووئام ورحمة

امتيازات من نوع آخر

للأستاذ احمد أمين

هل لاحظت أنك إذا استعرضت مقاهي مصر وفنادقها رأيت أن أعظمها بناء، وأحسنها نظاماً، وأغناها رواداً، وأجملها موقعاً، وأشدها إتقاناً للخدمة، وأكثرها تفنناً في إدخال الراحة والسرور على زوارها، وأمهرها في استدرار مال الجمهور عن رضى واختيار، إنما هي لسادتنا الأجانب؟

وأن أحقرها مكاناً - وأفقرها سكاناً، وشرها موقعاً، وأسوأها خدمة، وأرخصها سعراً، وأكثرها تفنناً في إقلاق راحة زوارها، لا يغشاها إلا من هزل جيبه، أو فسد ذوقه، أو اضطرته حاجة ملحة، أو ضحى براحته ولذته وسعادته لفكرته الوطنية ونزعته القومية، إنما هي لإخواننا المصريين؟

ثم هل لاحظت إن المقاهي والفنادق الارستقراطية وما يشبهها وما يقرب منها، صاحبها أجنبي، ومديرها أجنبي، والمشرف على ماليتها أجنبي، والذي يقدم إليك الخدمات الرفيعة أجنبي، ومن يقبض ثمن ما قدم ويأخذ منك «البقشيش» أجنبي؛ ثم من يمسح الأرض مصري، ومن يتولى أحقر الأعمال مصري، ومن يمسح لك حذاءك في المقهى أو الفندق مصري، ومن يجمع أعقاب السجاير مصري؛ وأن الأجنبي له الخيار في الأعمال، فما استنظفه عمله بنفسه، وما استقذره كلف به مصرياً؛ ثم أنت لا تجد العكس أبداً في المقاهي المصرية والفنادق المصرية، فلا تجد رئيساً مصرياً ومرءوساً أجنبياً، ولا تجد الأعمال الرفيعة لمصري، والأعمال الوضيعة لأجنبي؛ وإذا كان لكل قاعدة استثناء كما يقولون فقد ظفرنا في هذه الحال بقاعدة لا استثناء فيها

***

وهل تتبعت الصناعات في مصر فرأيت أن كل صناعة رأسها أجنبي وذنباها مصريان؟ فخير ميكانيكي في مصر أجنبي والخيالة مصريون. وقل مثل ذلك في أعمال الكهرباء والنجارة والحدادة والخياطة، وما شئت من صناعة، حتى لقد زاحمونا في مصنوعاتنا الوطنية، ونشأت فرقة من الأجانب تجيد عمل «الطعمية» و «الفول المدمس» وبزت فيهما المصريين، وأصبحت الطبقة المصرية الارستقراطية تشتهيهما من يد الأجنبي أيضاً وتفضل ما يصنعه على منتجات «أبي ظريفة» و«الحلوجي» ومن إليهما؟

فالصناعات في مصر - على العموم - تتخذ شكل هرم، قاعدته التي تلامس الأرض للمصريين، وقمته التي تناطح السحاب للأجانب.

***

وهل بلغك أن في بورسعيد - المدينة المصرية - حيين يسمى أحدهما «حي الفرنج» ويسمى الآخر «حي العرب»؟ فأما البناء الجميل، والنظافة والإناقة والعناية بالوسائل الصحية ومظهر الغنى والنعمة، ومظهر المدنية والحضارة، فلحي الفرنج؛ وأما مظهر الفوضى والإهمال والبؤس والفقر وسوء الحالة الصحية ومأوى الفقراء ومسكن التواضع والرضا بما قسم الله فلحي العرب؟

أو هل سمعت أيضاً أن «مصر الجديدة» - وهي ضاحية من ضواحي القاهرة - يسكنها كثير من الأجانب فينعمون بشوارعها الفسيحة، وبيوتها الضخمة الأنيقة؛ ثم في ركن متواضع من أركانها ناحية تسميها الشركة «عزبة المسلمين» فيها كل ما لا يخطر على البال من تكدس السكان في حجرة واحدة ومن إهمال ومن أمراض ومن فقر وبؤس، يفر منها من يسكنون بجوارها هرباً بأنفسهم وبصحتهم، وهرباً بعيونهم عن مناظر القبح، وبآذانهم عن ألفاظ الهجر، وبأنوفهم عن كريه الريح؟

أوليس مما يثير عجبك، ويبعث دهشتك، أن كلمة «الأحياء الوطنية» في مصر تحمل من المعاني كل أنواع السوء والفوضى والاهمال وكان يجب أن تحمل كل معاني العناية والنظافة والنظام؟

***

ثم هل رأيت الأجنبي في وسط الفلاحين في العزبة، هو وحده النظيف في ملبسه ومسكنه ومأكله، وهو الذي له عقل يدبر ماله ويعرف كيف يستغله، وهم المغفلون الذين لا يعرفون

كيف يحسبون دخلهم وخرجهم، ولا يعرفون حساب أموالهم ولا يعرفون كيف يديرون شؤون حياتهم ، فخضع هذا وهؤلاء لقانون الانتخاب الطبيعي وبقاء الأصلح ؟

***

ثم هل علمت أن امتيازات أخرى بجانب هذه الامتيازات المادية، هي امتيازات عقلية أو نفسية؟

فان غلبة الأجنبي في الصراع بينه وبين المصري في مرافق الحياة المادية أوجدت حالة نفسية شرا من الحالة المادية، مظهرها قلة وثوق المصري بنفسه وقوة وثوقه بالأجنبي . فإذا تعسرت حالة مرضية اتجه أهل المريض إلى الطبيب الأجنبي ، وإذا أراد رب مال أن ينجح في إدارته قصد إلى مدير أجنبي ، وإذا تعقدت مسألة حكومية أو أهلية اختير لها خبير أجنبي ، وإذا اختلف الباحثون في مسألة علمية كان الحكم الفصل قول المؤلف الأجنبي ، وهكذا في كل شأن من شؤون حياتنا ؟

واستتبع هذا تقويمنا للأجنبي قيمة غالية ، ودخل في التقويم أجنبيته أكثر ما دخل في التقويم فنه أو علمه .

ألم يبلغك الحادث الطريف الذي حدث بالأمس من مدرس ثانوي للغة الفرنسية يتقاضى أمثاله في وزارة المعارف فوق الثلاثين جنيها ، فكان من سوء حظ هذا المدرس أن تجنس بالجنسية المصرية قبل أن يبت في مرتبه ، فلما طبقت عليه القوانين المصرية والحوائج المصرية ، كانت نتيجة ذلك أنه لم يمنح إلا اثنى عشر جنيها ؟ أو لم يبلغك المصري الذي اخترع بالأمس نوعاً من طوب البناء فعرضه على الجهات المصرية فخاب أمله ، ثم عرضه في انجلترا فأقرت قيمة اختراعه ، ثم تأسست شركة انجليزية برأس مال انجليزي لاستغلال هذا المخترع المصري ؟

والأمثلة على ذلك كثيرة تحدث كل يوم ، فيكاد يكون مغروساً في أعماق نفوسنا أن القبعة لا توضع على رأس سخيف ، وأن الطربوش لا يمكن أن يلف رأس نابغ

***

إن كان في مصر دائن ومدين ، فالدائن الأجنبي والمدين المصري .

وإن كان في مصر غنى وفقر ، فالغنى للأجنبي والفقر للمصري .

وإن كان في مصر ذكاء وغباوة ، فالذكاء للأجنبي والغباء للمصري .

وإن كان في مصر نعيم وبؤس ، فالنعيم للأجنبي والبؤس للمصري .

***

هذه الامتيازات في المادة والعقل والنفس شر مما اصطلحنا على تسميته بالامتيازات الأجنبية

ومن الأسف أنها لا تحل بمؤتمر كمؤتمر مونترو ، ولا باشتراك الدول ومفاوضتها ، ولا بمعاهدة ، ولا بقانون .

إن حلها أصعب من ذلك كله

إنها تحتاج إلى عقول جبارة ، وإرادات من نار ، وحمية لا خمد لها ، ووطنية قوية وثابة .

إنها تحتاج إلى مؤتمرات لا من جنس مؤتمر مونترو ، إلى مؤتمر يتكون من فطاحل في التربية يعرفون كيف فشا فينا مرض العبودية حتى حبب إلينا العمل الذنب وبغض إلينا العمل الرفيع ، فرضينا من المقهى والفندق بمسح البلاط ولم أعقاب السجاير . ورضينا دائما بفتات الموائد ، ولم نستطع أن نكون العمل الرفيع ونجلس في صدر المائدة ؟ ويعرفون كيف يقضون على أخلاق العبيد من ذل ومكر وخنوع واحتيال ودسائس ، ويحلون محلها أخلاق السادة من عظمة ، وصراحة ، وحب للعمل ، وطلب للمجد ، وعشق للصدارة ؛ ويعرفون طبيعة المصري ، وتاريخه ، وبيئته ، وأنواع الأسلحة العلمية والعقلية والخلقية التي يحتاج إليها ليستطيع الكفاح في الحياة والسير مع الأجنبي على قدم المساواة

فهذا خير ألف مرة من لجان تؤلف وتؤلف لزيادة حصة في الحساب ونقص حصة في الجغرافيا

ونحتاج لمؤتمر من القادة تكون مهمته العظمى إبادة روح الذلة الفاشية ، وبذر روح الغيرة النادرة ، وتعهدها بالتقاليد الجديدة التي ترعاها وتضمن نموها

نحتاج إلى مؤتمرات عديدة من هذا القبيل تغير وجه الحياة المصرية ، وتخلق قلب المصري خلقا جديداً ، فلا يخاف مرءوس رئيساً ، ولا يخاف مصري أجنبياً ، ولا يخاف محكوم حاكما

الخادمة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

وقفت نعيمة أمام المرآة تنظر فيها، وتتأمل نفسها بادية في صقالها، وفي يدها منفضة من الريش الناعم، ثم صوبت عينها إلى أدوات الزينة المرصوصة.. لقد صارت الآن خادمة وصار عملها أن ترتب هذه الغرف الوثيرة الأثاث.. فلشد ما انتقلت بها الأحوال!! منذ سنتين اثنتين، لا أكثر، كانت تنام على مثل هذا السرير.. وكان لها خدم، وحولها حشم.. وكانت قلما تقوم قبل الضحى.. كانت تفتح عينيها، وتتمطى، وتتثاءب، وتنظر إلى الساعة الدقيقة على معصمها فتعلم أن الشمس قد ارتفعت، وأنه آن لها أن تنهض. وتمد يدها إلى الزر، وتضغط فتجيء الخادمة - بهية - وتسألها «نعم يا ستي؟» فتقول لها «أعدي الحمام» فتفعل وتجيئها قبل ذلك بالشاي وتنحي الستائر... وتهم بهية بالخروج فتناديها وهي تتقلب على السرير من الكسل، «والنبي يا بهية دوسي لي على كتفي ... كان هذا منذ سنتين.. كأنه حلم!.. زالت النعمة كلها وأفلس أبوها «إفلاساً بتدليس»... وانتحر... وتركها تملك قوت يومها.. استطاعت أن تحيا، على نحو ما، بضعة شهور، ثم لم يبق بد من ابتغاء الوسيلة إلى القوت.. وهذا أول بيت غريب دخلته لتعمل فيه

وانتقلت نعيمة إلى السرير، وتناولت الوسائد الصغيرة المبعثرة عليه، لتصلحها وترتبها، فأوحى إليها منظر السرير الواطئ اللين الشعور بالحاجة إلى التمطي.. أن تستلقي عليه وتمد رجليها وتفتح ذراعيها وتتثاءب وتقول «آ..الخ»... ولم لا؟.. إن هذا الجناح من البيت ليس فيه أحد.. وقد خرج سيدها منذ ساعة، وهي الموكلة بهذه الناحية.. وليس هناك من تخشى أن يفاجئها سوى «حسن».. ما أثقله!! هو رئيس الخدم.. يدخل في رحمته من يشاء ويخرج منها من يشاء.. لم يكن في بيتها هي أيام النعمة رئيس للخدم. كانوا جميعاً خداماً، وكانت هي الرئيسة دون سواها.. أمها ميتة، وأبوها يدع لها هذه الأمور.. ولكن جميل بك يؤثر نظاماً غير هذا.. ولا سيما بعد أن فسد ما بينه وبين زوجته فخرجت من البيت

وجلست على السرير، وهي تحدث نفسها بأنها لا شك تستطيع أن تسمع وقع قدمي حسن، إذا خطر له أن يجيء إلى هذه الناحية. فانه ضخم غليظ ثقيل.. ومشيه دبدبة. ومالت على السرير، وأراحت جسمها البض على فراشه اللين، وحدثت نفسها، وهي تحس أن جسمها يسترخي، أنها خليقة أن تحمد الله على التوفيق إلى العمل، في بيت كهذا، بعد الذي نزل بها، وإنها إذا كانت لا تنام على هذا السرير فان من بواعث سرورها أن يكون أمره موكولا إليها، وأن يكون في وسعها أن تروح وتجيء في هذا البيت الحسن، وأن تكون في خدمة

تحتاج إلى مؤتمرات تبيد الخوف إلا الخوف من الذل والعار، وتبيد السيطرة إلا احتراماً لخلق أو قانون

* * *

ما أصعب هذه المؤتمرات وما أشقها وما أحوجنا إليها! أنها تتكون من رجال من أمة واحدة، ولكنها أصعب من مؤتمر مثلت فيه كل الدول، لأنها مؤتمرات لا تلغى قانوناً موضوعاً، ولكنها تلغى أخلاقاً موروثة، وتقاليد سمرها الزمان، وتحطم أوتاداً سهر عليها الحاكم الظالم المستبد حتى صلبت الأرض عليها

* * *

لست أومن بنظرية العمال العاطلين حتى يصعب على الأجنبي والمصري الحصول على العيش الرغد على السواء. فأما إن سهل تحصيل العيش على الأجنبي وصعب على المصري فليست النظرية - إذن - نظرية عمال عاطلين، ولكنها نظرية فقر في الأخلاق، وجهل بفن الحياة

* * *

فهل لنا وقد نجحنا في مؤتمر الامتيازات الأجنبية أن نوجه همنا لمعالجة أختها الامتيازات التي هي من نوع آخر علنا ننجح أيضاً؟

أحمد أمين

هذا السيد الكريم الوديع المهذب .. الحمد لله على كل حال .

ولو أن سيدها رآها ، وهي راقدة على سريره ، وأخذت عينه هذا المنظر الفاتن ، لكان الأرجح أن يقف مفتوح الفم من دهشة الإعجاب ولسحره ؟ وسمره في مكانه ، هذا الخط المتموج الذي يبدأ من فخذها الأملس ، ويرتقي ويستدير مع ردفها ، ثم ينحدر في لين مع خصرها ، ثم يعود فيرتفع حتى يبلغ الحلمة الحلوة الناشرة من ثديها الراسخ ... وكان شعرها الذهبي مرسلاً ، كأنه أمواج من النار على الوسادة . وأسندت نعيمة خدها الأسيل على الحرير الناعم ، وتنهدت ، وخطر لها أن حظها على كل حال خير مما كان يمكن أن يكون .. كل شيء هنا حسن ، إلا حسن ... فإنه دميم غليظ ، وثقيل الدم بارده ، وفظ شرس ... ونظراته أعوذ بالله منها ! ... إنها لتتعلق بصدرها ، فتحس أنها نفذت إلى ما تحت ثيابها ، فكأنها واقفة أمامه عارية لا كاسية ! ... وما أكثر ما يلمس كتفها ، وهو يحدثها ، أو يدعوها إلى الوقوف .. فتسري الرعدة في بدنها .. وأصابعه ؟ ... يا لحفيظ ! ... قصيرة ، غليظة ، مبططة !

وأغمضت نعيمة ، وهي تفكر في هذا وما إليه من مظاهر حياتها الجديدة ، ثم انتفضت قائمة وفي يقينها أن بعضهم ينظر إليها . ولكنها لم تر في الغرفة أحداً ، فلا شك أنها كانت تحلم أو لعل هذا ضميرها يزجرها عن الاجتراء والتسحب بهذه الطريقة .

ووقفت نعيمة وأجالت عينها فيما حولها ، فلمحت زجاجة عطر صغيرة ، فقد كانت فيما مضى تتخذ مثلها ، بل كان هذا هو العطر المفضل عندها . واضطربت يدها ، وهي تتناول الزجاجة ، وترفع عنها الغطاء .. وأدنتها من أنفها الجميل ، لتشم وتنعم بالأرج المفتر .. وإذا كان لا تسعها الآن أن تتعطر ، فلا أقل من متعة الأنف .. وما اليأس .. وأحست وهي تتنشق العطر الخفيف بالحنين إلى الأيام السالفة .. وتفلتت الزجاجة من بين أصابعها فارتفعت كفها الرخصة ، بسرعة ، إلى فمها ، لتكتم صرخة جزع حين رأت الزجاجة تهوي على السجادة ، وقد حمتها السجادة أن تتكسر ولكن ما فيها أريق كله ، وملأ الغرفة بأرجه ، فصار المكان كأنه بستان زهر . وصوبت عينها إلى السجادة فرأت العطر قد رسم دائرة كبيرة داكنة على النقوش الفارسية الجميلة ، فانحنت والتقطت الزجاجة الفارغة ، وردتها إلى مكانها . وسمعت في هذه اللحظة صوتاً فريعت ودارت على عقبها ، فإذا حسن أمامها يثرها النظر كأنما يريد أن يأكلها بعينيه ، وكان قد دخل كالقطة ، وساعده لين السجادة السميكة على إخفات صوت قدميه الغليظتين .

وكان حسن يبهج كأنما كان يجري ، وكانت أنفاسه تروح وتجيء بسرعة ، وعيناه كالجمرتين ، ونعيمة ترى هيئته ، وترعد كأنها في ثلاجة ، وقد أيقنت أنها فقدت عملها .. وهل يبقيها حسن وقد رأى ما صنعت ؟؟ .. ربما .. فما صنعت شيئاً في الحقيقة سوى أن زجاجة عطر سقطت من بين أصابعها ؛ ولكن الرجل فيه جفوة وغطرسة ، وهو قاس . وقد أطغاه أن سيده ترك له أمر الخدم .. فهل يطردها .. أم تراه سيترفق بها ويعفو عنها ؟ ..

ولم تمض في تفكيرها ، فقد مد حسن يديه إليها ، بغتة ، وتناول كتفيها — أو على الأصح ثوبها على كتفيها — وهزها وقال لها « سيكون هذا آخر لعبك هنا » .

فتوسلت إليه ، وأقبلت عليه تستعطفه ، وتقول له إنها محتاجة إلى البقاء ، وأين تذهب إذا طردها ؟ ..

فقال بجفوة « تريقين زجاجة ثمنها ثمانون قرشاً وتظنين أن في وسعك أن تبقي ؟ » .

فأيقنت نعيمة أن هذا آخر عهدها بالبيت الجميل ، والسيد الوديع الظريف ، وصار صدرها يعلو ويهبط .

ولم تفت حسن حركة صدرها المغرية ، فدنا منها وقال : « ثم إني رأيتك راقدة فوق هذا السرير أيضاً » .

فكادت نعيمة تسقط على الأرض ، وأحست أن رجليها تخذلانها .. ستفقد الآن عملها على التحقيق !! ومن ذا الذي يستخدم مثلها وهي حديثة عهد بالخدمة ؟ . وكانت يدا حسن لا تزالان على كتفيها فشد بهما على جسمها ، حتى لقد أحست نعيمة أن أصابعه انغرزت في لحمها ، وشعرت بأنفاسه الحارة على وجهها وسمعته يقول « إذا أردت البقاء فليس هناك إلا طريقة واحدة » .

وكانت نعيمة تعرف أن له أن يخرج الخدم ، فقالت وهى ذاهلة « كيف؟ ما ذا تعنى ؟ »

وكانت تعلم ما ذا يعنى ، وتقرأه فى عينيه ، ولكنها كانت تؤثر الطرد والجوع على هذا . . كلا . . أبداً

فقال « إنك تعرفين ما أعنى . . لقد رقدت على هذا السرير مرة . . ارقدى عليه مرة أخرى »

ففزعت وإن كانت تعلم مراده ، وصاحت به « أبداً . . مستحيل »

ولكن حسن حملها كالدجاجة بين ذراعيه ، وألقاها على السرير ، وركع أمامها ، وأهوى بشفتيه الغليظتين على غلالتى شفتيها الرقيقتين ، وكانت يداه قاسيتين ، وكانتا تجرحان جسمها الغض ، وهى تحاول أن تفلت منه ، وهو يشد عليها ؛ وهمت بأن تصرخ فوضع كفه على فمها ، وأخرسها ، ثم تناول ثوبها عند صدرها وجذبه فتمزق وتعرى صدرها فأكب عليها كالمجنون ، فلم تعد تطيق الصبر ، وفضلت أن تخسر عملها ، وأن تتضور وتتسول فى الطريق ، وأطلقتها صيحة مجلجلة خليقة أن تجمع عليهما كل من فى البيت فانتفض حسن قائماً وصاح بها بدوره « إنك مطرودة . أخرجى »

وشرع يخرج من الغرفة بسرعة قبل أن يجيء أحد على صوتها ، وإذا بسيده فى الباب .

وقال جميل بك « ما هذا »؟

فقال حسن : « سيدى . . لقد رأيت نعيمة ترقد على هذا السرير ؛ ولم يكفها هذا ، بل أراقت زجاجة العطر . . . »

ولكن جميل بك لم يكن يسمع شيئاً مما يقول حسن ، وإنما كان ينظر إلى نعيمة ، وهى واقفة فى هذا الثوب الذى صار هلاهيل ، وكانت تجمعه بيديها على صدرها لتستره . ولكنها لم تستطع أن تستر منه إلا قليلا . والتفت جميل بك من نعيمة المطرقة المتقدة الوجه من الحياء إلى هذا الخادم النذل وصاح به : « أخرج فانك أنت المطرود . . . »

فخرج وظهره مقوس

ثم التفت جميل بك إلى نعيمة وقال « إنى آسف لما حصل . لم أكن أتصور أن هذا الرجل الذى ائتمنته وحش . . . فلننسه . . »

فأدارت نعيمة وجهها إلى حيث أريقت الزجاجة وقالت لقد سقطت منى . . أريقت كلها ولم يبق فيها ولا قطرة »

فقال جميل بك ببساطة : « لا بأس .. لا بأس . إذا كنت تستحقين عقاباً ، فقد لقيت فوق ما تستحق أية مجرمة صغيرة مثلك »

فابتسمت نعيمة ، وكانت لا تزال تحاول عبثاً أن تضم طرفى الثوب الممزق الذى أصارته يدا حسن كالعباءة لولا ضيقه . ومشى جميل بك اليها وقال لها وهو يلمس الثوب « لم يعد هذا يصلح » وأشار إلى خزانة الثياب وقال « اخلعيه وخذى شيئاً من هنا بدلا منه » ولم يتركها تفعل ما أمرها به ، بل نزعه عنها فصارت أمامه فى ثيابها التحتية ، وهى كافية للستر ، ولكنها تظهر من الصدر والكتفين أكثر مما يكشف فى العادة . على أن جميل بك لم يكن ينظر إلى ما بدا له من جسمها ، بل إلى نفاسة الحرير الذى تلبسه تحت هذا الثوب الممزق ، فقد هز رأسه كالمتعجب ، ومضى إلى الخزانة فجاء منها بثوب من أثواب زوجته ألقاه اليها ومشى إلى النافذة . ولم يخف على نعيمة معنى النظرة فقد كانت صريحة فارتدت الثوب وقالت « هذه الثياب التحتية بقية من زمن النعمة وقد اشتريتها بنفسى »

فدار وقال « أيه ؟ »

فقالت ببساطة وابتسام « لقد كنت أستطيع أن أشترى ما أريد . . قبل الكارثة »

فذهب إلى السرير وقعد عليه وقال وهو مقطب : « ما اسمك؟ اسمك كله »

فذكرته له فقال « اسمى ... هل كان أبوك تاجراً فى الحمزاوى ... ؟ »

قالت « نعم »

قال « وماذا صنع الله به حتى احتجت إلى هذا ؟ »

قالت « مات ... انتحر ... »

فقال « اممممم ! ... إنى آسف ... ، لم أكن أعرف هذا ... لو كنت أعرفه لما تكلمت بهذه اللهجة عنه »

فابتسمت ولم تستطع أن تقول شيئا . فقال وجذبها إليه

وأجلسها بجانبه على السرير: «اسمعي ... أن مثلك لا يجوز أن تعمل كخادمة».

فقالت باخلاص: «إني مسرورة ... وجودي هنا خير مما كنت أنتظر ... والآن اسمح لي أن أذهب وأغير الثوب وأرد هذا».

وأشارت إلى الثوب الذي كساها فقال: «خله لك ... وغيره أيضاً ... كل ما في الخزانة خذيه».

فقالت: «سيدي ... لم أعتد أن آخذ شيئاً من أحد».

قال وهو ينهض: «أوه ... هذه مسألة يسهل أن تسويها فيما بعد ...».

وكانت هي قد نهضت أيضاً فوقفا متقابلين. وقد يكون الأريج المتضوع في الغرفة أو غيره هو الذي أدار رأسيهما فقد مال عليها فلم تبعد، ولثم فمها. وكانت القبلة في أول الأمر خفيفة - لمساً لا أكثر - ولكن الأيدي ارتفعت إلى الأكتاف فكان عناق طويل.

وقال جميل بك: «نعيمة ... إنك ساحرة ... كان دائماً يخطر لي انك لست من الخدم ... ويخيل إلي أنك ستبقين هنا ... سيدة ...».

وكان قلب نعيمة يخفق بشدة فنأت عنه قليلا وهي تفكر في معنى ما سمعت ثم قالت: «ولكن الست؟».

قال: «لا تقولي الست كأنك مازلت خادمة».

قالت وهي تضحك: «زوجتك إذن؟».

قال: «آه ... نسيت أن أخبرك أننا اتفقنا - أبوها وأنا - على فض الإشكال بالحسنى ... لا محاكم ولا شيء ... طلقتها اليوم وانتهى الأمر».

قالت: «الست آسفاً؟».

قال: «كلا ... كان هذا أحسن حل ... حياتنا مستحيلة ... لا وفاق».

ولأول مرة منذ سنتين شعرت نعيمة أن لها بيتاً، ونظرت إلى السرير - سريرها الآن، أو هو سيصبح سريرها بعد العقد ... ثم ردت عينيها إلى جميل بك فالتقت الشفاه مرة أخرى في قبلة معسولة

إبراهيم عبد القادر المازني

خاتمة المأساة الأندلسية

الصراع الأخير

بين الموريسكيين واسبانيا

للأستاذ محمد عبد الله عنان

(٢)

سرى إلى الموريسكيين يأس بالغ يذكيه السخط العميق فعولوا على الثورة مؤثرين الموت على ذلك الاستشهاد المعنوي الهائل. ونبتت فكرة الثورة أولا في غرناطة حيث يقيم أعيان الموريسكيين، وحيث كانت جمهرة كبيرة تحتشد في ضاحية «البيازين»؛ وكان زعيم الفكرة ومثير ضرامها موريسكي يدعى فرج بن فرج؛ وكان ابن فرج صباغاً بمهنته؛ ولكنه حسبما تصفه الرواية القشتالية كان رجلا جريئاً وافر العزم والحماسة، يضطرب بغضاً للنصارى، ويتوق إلى الانتقام الذريع منهم؛ ولا غرو فقد كان ينتسب إلى بني سراج وهم من أشراف غرناطة وفرسانها الأنجاد أيام الدولة الاسلامية. وكان ابن فرج كثير التردد على أنحاء البشرات، وثيق الصلة بمواطنيه؛ فاتفق الزعماء على أن يتولى حشد قوة كبيرة منهم تزحف سراً إلى غرناطة وتجوز إليها من ضاحية البيازين، ثم تفاجيء حامية الحمراء وتسحقها وتستولي على المدينة، وحددوا للتنفيذ «يوم الخميس المقدس» من شهر ابريل سنة ١٥٦٨ إذ يشغل النصارى عندئذ باحتفالاتهم وصلواتهم؛ ولكن أنباء هذا المشروع الخطير تسربت إلى السلطات منذ البداية فاتخذت التحوطات لدرئه، وعززت حامية غرناطة، وحاميات الثغور، واضطر الموريسكيون أزاء هذه الأهبة أن يرجئوا مشروعهم إلى فرصة أخرى

واستمر الموريسكيون على عزمهم وأهبتهم، ووجهوا بعض الكتب خفية إلى أمراء الثغور في المغرب يطلبون إليهم الغوث والعون؛ فوقع كتاب منها في يد حاكم غرناطة؛ وتقول

الرواية القشتالية أنه كان موجها من أحد زعماء البيازين إلى مسلمي الثغور المغربية يستحلفهم فيه الغوث بحق روابط الدين الدم ويقول: «لقد غمرتنا الهموم، وأعداؤنا يحيطون بنا إحاطة النار المهلكة. إن مصائبنا لأعظم من أن تحتمل، ولقد كتبنا إليكم في ليال تفيض بالعذاب والدمع، وفي قلوبنا قبس من الأمل، إذا كانت ثمة بقية من الأمل في أعماق الروح المعذب». ولكن الحكومات المغربية كانت مشغولة بمشاكلها الداخلية، فلم يلب داعي الغوث سوى جماعة من المتطوعين الذين نفذوا سراً إلى إخوانهم في البشرات، ومنهم كثيرون من البحارة المجاهدين الذين كانوا حربا عوانا على الثغور والسفن الأسبانية في ذلك العصر

وفي شهر ديسمبر سنة ١٥٦٨، وقع حادث كان نذير الانفجار؛ إذ اعتدى الموريسكيون على بعض المأمورين والقضاة الأسبانيين في طريقهم إلى غرناطة ووثبت جماعة منهم في نفس الوقت بشرذمة من الجند كانت تحمل كمية كبيرة من البنادق وفتكت بهم جميعا. وفي الحال سار ابن فرج على رأس مائتين من أتباعه ونفذ إلى المدينة ليلا، وحاول تحريض مواطنيه في البيازين على نصرته ولكنهم أبوا أن يشتركوا في مثل هذه المغامرة الجنونية وقد كان موقفهم حرجاً في الواقع لأنهم يعيشون إلى جانب النصارى على مقربة من الحامية وهم أعيان الطائفة ولهم في غرناطة مصالح عظيمة يخشون عليها من انتقام الأسبان؛ بيد أنهم كانوا من وراء الثورة يؤيدونها برعايتهم ونصحهم ومالهم فارتد ابن فرج على أعقابه واجتاز شعب جبل شلير (سيرا نفادا)، إلى الهضاب الجنوبية فيما بين بلش (فيليز) والمرية، فلم تمض بضعة أيام حتى عم ضرام الثورة جميع الدساكر والقرى الموريسكية في أنحاء البشرات، وهرعت الجموع المسلحة إلى ابن فرج ووثب الموريسكيون بالنصارى القاطنين فيما بينهم ففتكوا بهم ومزقوهم شر ممزق.

— ٣ —

اندلع لهيب الثورة في أنحاء الأندلس ودوت بصيحة الحرب القديمة وأعلن الموريسكيون استقلالهم واستعدوا لخوض معركة الحياة والموت، وبدأ الزعماء باختيار أمير يلتفون حوله، ويكون رمز ملكهم القديم فوقع اختيارهم على فتى من أهل البيازين يدعى الدون فرناندو دي فالور؛ وكان هذا الاسم النصراني القشتالي يحجب نسبة عربية اسلامية رفيعة ذلك أن فرناندو دي فالور كان ينتمي في الواقع إلى بني أمية وكان سليل الملوك والخلفاء الذي سطعت في ظلهم الدولة الاسلامية في الأندلس زهاء ثلاثة قرون، وكان فتى في العشرين تنوه الدوائر القشتالية المعاصرة بوسامة محياه، ونبل طلعته؛ وكان الأمير الجديد يعرف خطر المهمة التي انتدب لها، ولكنه كان يضطرم حماسة وجرأة وإقداماً، ففي الحال غادر غرناطة سرا إلى الجبال ولجأ إلى شيعته آل فالور في قرية بزنار، فهرعت اليه الوفود والجموع من كل ناحية، واحتفل الموريسكيون بتويجه في احتفال بسيط مؤثر، فرشت فيه على الأرض أعلام اسلامية ذات أهلة فصلى عليها الأمير متجها صوب مكة، وقبل أحد أتباعه الأرض رمزا بالخضوع والطاعة، وأقسم الأمير أن يموت في سبيل دينه وأمته، وتسمى باسم ملوكي عربي هو محمد بن أمية صاحب الأندلس وغرناطة. واختار محمد عمه الملقب بالزغوير، قائدا عاما لجيشه. وقد كان صاحب الفضل الأكبر في اختياره للرياسة، وبعث ابن فرج على رأس بعض قواته إلى هضاب البشرات ليجمع ما استطاع من أموال الكنائس، واتخذ مقامه في أعماق الجبال في مواقع منيعة، وبعث رسله في جميع الأنحاء يدعون الموريسكيين إلى خلع طاعة النصارى والعود إلى دينهم القديم

ووقعت نقمة الموريسكيين بادىء ذي بدء على النصارى المقيمين بين ظهرانيهم في أنحاء البشرات ولا سيما القسس وعمال الحكومة؛ وكان هؤلاء يقيمون في محلات متفرقة سادة قساة يعاملون الموريسكيين بمنتهى الصرامة والزراية، وكان القسس بالأخص أس بلائهم ومصائبهم؛ ومن ثم فقد كانوا ضحايا الفورة الاولى. وانقض ابن فرج ورجاله على النصارى في تلك الأنحاء فمزقوهم تمزيقا. وقتلوا القسس وعمال

الحكومة، ومثلوا بهم أشنع تمثيل. وكانت حسبما تقول الروايات القشتالية مذبحة عامة لم ينج منها حتى النساء والأطفال والشيوخ؛ وذاعت أنباء المذبحة الهائلة في غرناطة فوجم لها الموريسكيون والنصارى معاً، وكل يخشى عواقبها الوخيمة؛ وكان الموريسكيون يخشون أن يبطش النصارى بهم انتقاماً لمواطنيهم، وكان النصارى يخشون أن يزحف جيش الموريسكيين على غرناطة فتسقط المدينة في يدهم وعندئذ يحل بهم النكال الرائع. بيد أن الرواية القشتالية تنصف هنا محمد بن امية فتقول أنه لم يحرض على هذه المذابح ولم يوافق عليها، بل لقد ثار لها وعزل نائبه ابن فرج عن القيادة، فنزل عنها راضياً واندمج في صفوف المجاهدين. وهنا يختفي ذكره ولا يبدو على مسرح الحوادث بعد

— ٤ —

وكانت غرناطة في أثناء ذلك ترتجف سخطاً وروعاً؛ وكان حاكمها المركيز منديخار يتخذ الأهبة لقمع الثورة منذ الساعة الأولى؛ بيد أنه لم يكن يقدر مدى الانفجار الحقيقي؛ فغصت غرناطة بالجند، ووضع الموريسكيون أهل البيازين تحت الرقابة رغم احتجاجهم وتوكيدهم بأنهم لا علاقة لهم بالثائرين من مواطنيهم؛ وخرج منديخار من غرناطة بقواته في ٢ يناير سنة ١٥٦٩ تاركاً حكم المدينة لابنه الكونت تنديلا، وعبر جبل شلير (سيرا نفادا) وسار تواً إلى أعماق البشرات حيث يحتشد جيش الثوار؛ وكان محمد ابن أمية متحصناً بقواته في آكام بوكيرا الوعرة، وكان الموريسكيون رغم نقص مواردهم وسلاحهم قد حذقوا حرب الجبال ومفاجآتها. فما كاد الاسبان يقتربون منهم حتى انقضوا عليهم، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة، ارتد الموريسكيون على أثرها إلى سهول باترنا، وتخلف كثيرون منهم ولا سيما النساء؛ ففتك الاسبان بهم فتكاً ذريعاً، وحاول منديخار أن يتفاهم مع الثائرين على العفو وأن يخلدوا إلى السكينة، وبعث إليهم بعض المسالمين من مواطنيهم، وكان محمد بن أمية يميل إلى الصلح والتفاهم، ولكن المتطرفين من أنصاره ولا سيما المتطوعين المغاربة رفضوا الصلح، فاستؤنفت المعارك، ورجحت كفة الاسبان

وهزم الموريسكيون مرة أخرى، وفر محمد بن أمية وأسرت أمه وزوجه وأخواته؛ وأصيب الاسبان بهزيمة شديدة في آكام «جواخاريس»، ولكن الموريسكيين آثروا الارتداد؛ وقتل الاسبان من تخلف منهم أشنع قتل. وكان ممن تخلف زعيم باسل يدعى «الزمار» وأسره الاسبان مع ابنته الصغيرة وأرسلوه إلى غرناطة حيث عذب عذاباً وحشياً إذ نزع لحمه من عظامه حياً، ثم مزقت أشلاؤه؛ وهكذا كانت أساليب الاسبان ومحاكم التحقيق إزاء العرب المنتصرين

واختفى محمد بن أمية مدى حين في منزل قريبه «ابن عبو» وكان من انجاد الزعماء أيضاً، وطارده الاسبان دون أن يظفروا به. على ان هذه الهزائم الاولى لم تفل عزم الموريسكيين فقد احتشدوا في شرق البشرات في جموع عظيمة وأخذوا يهددون المريه، فبادر اليهم المركيز «لويس فيليس» على رأس جيش آخر، ووقعت بين الفريقين عدة معارك شديدة قتل فيها كثير من الفريقين، ومزق الموريسكيون، وفتك الاسبان كعادتهم بالاسرى وقتلوا النساء والأطفال قتلاً ذريعاً

ووقعت في نفس الوقت في غرناطة مذبحة مروعة أخرى فقد كان في سجنها العام نحو مائة وخمسين من أعيان الموريسكيين اعتقلوا رهينة وكفالة بالطاعة فأذاع الاسبان أن الموريسكيين سيهاجمون غرناطة لانقاذ السجناء بمؤازرة مواطنيهم في البيازين؛ وعلى ذلك صدر الأمر باعدام السجناء فانقض عليهم الجند وذبحوهم في مناظر مروعة من السفك الآثم

وكان لهذا الحادث الأخير أثره في اذكاء نار الثورة، وكان نذيراً جديداً للموريسكيين بأن الموت في ساحة الحرب خير مصير يلقون، فسرى إليهم لهب الثورة بأشد من قبل وطافت بهم صيحة الانتقام فانقضوا على الحاميات الاسبانية المبعثرة في أنحاء البشرات ومزقوها تمزيقاً وهزموا قوة اسبانية تصدت لقتالهم واحتشدت جموعهم مرة أخرى تملأ الهضاب والسهل؛ وعاد محمد بن أمية ثانية إلى تبوأ عرشه الخطر، والتف حوله الموريسكيون أضعاف ما كانوا. وبعث أخاه عبد الله إلى القسطنطينية يطلب العون من سلطانها، ولكن سلاطين قسطنطينية لم يلبوا ضراعة الموريسكيين برغم

في الأدب المقارن

المعنى والأسلوب

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

المعنى الصادق الرفيع والأسلوب المحكم الجميل هما قوام كل أدب خليق بهذا الاسم، لا يغني أحدهما إذا غاب الثاني؛ فلا بد من شعور عميق، أو تفكير ثاقب جدير بعناء الإنشاء والقراءة، ولا بد بجانب ذلك من عبارة منسجمة جميلة تعرض المعنى على أحسن وجه وأحبه إلى النفوس؛ وكبار الأدباء في شتى الأمم يجمعون دائماً بين الفكر الواسع المتصرف في شؤون الحياة، وبين المقدرة اللغوية التي تذلل لهم أعنة البيان، ويتصرفون بها في الألفاظ والتراكيب، ويكون لكثير منهم فضل ترحيب جوانب اللغة وإكساب تعبيراتها جدة ومرونة، وإعطاء بعض ألفاظها منزلة سامية لورودها مورداً حسنا في بعض آثارهم، وشأن الأديب الكبير في ذلك شأن غيره من رجال الفنون، فالمصور مثلا لا يبلغ الذروة في فنه حتى يجمع إلى خصب مشاعره بصراً بتأليف الألوان والأصباغ، وكل فنان لا بد له من الجمع بين رقة الشعور وبين البصر بالآلات التي يكون بها أداء ذلك الشعور

والفكر واللغة، أو المعنى واللفظ، شديدا التوثق والتوشج، فلا مندوحة للأديب عن التأثر بروح اللغة التي يكتب فيها وتراثها على مدى الأجيال، ولا سبيل له إلى الإنشاء والنظم فيها حتى يختلط بروحها، وتمتزج أفكاره بالمفردات والأساليب التي تهيئها له اللغة؛ والأديب الصناع يختار من المفردات تلك التي تنهض بأفكاره ومشاعره في أوجز لفظ وأحكمه وأوضحه بيانا، بما تمتاز به تلك المفردات من أجواء من المعاني رحيبة تجمعت حولها على مرور الأجيال وتوالي الاستعمال، حتى غدت يثيرها مجرد ذكر تلك المفردات على نحو خاص، وذلك ما يجعل آثار بعض الأدباء المفتنين والشعراء المجودين متعذرة الترجمة إلى غير لغتها، لتعذر نقل هذه الأجواء المعنوية برمتها من لسان إلى لسان، بل يتعذر أحيانا التفريق بين المعاني والأساليب التي هي مفرغة فيها، لتمازجها تمازج الروح والجسد

ويبلغ الأدب كماله حيث يسود القصد والاعتدال بين اللفظ والمعنى، فإذا استبد المعنى بالأهمية كلها وتحيف اللفظ خرج الأثر المنشأ من حظيرة الأدب إلى حيز العلم؛ وإذا تحيف اللفظ المعنى وصار غاية في ذاته هبطت قيمة الأثر الأدبي، وأصبح أشبه بالزخرف والصناعة منه بالفن السامي. ويغلب الاحتفاء بالزخرف اللفظي في عهد طفولة الأدب، إذ يكون الشعر مجرد أهازيج وقواف موسيقية تافهة المعاني، وفي عهود انحطاط الأدب حين ينصرف الأدباء عن لباب الحياة إلى القشور؛ وبالزخرف اللفظي والبراعة اللغوية والأسجاع والإيقاع الموسيقي يكلف الأديب الناشئ أول عهده بالأدب، وكلما نضجت نفسه وحصف ذهنه بتجربة الحياة واستيعاب المعارف تحول اهتمامه إلى المعاني والحقائق والتزم اللفظ في آثاره منزلته الصحيحة، وهي كونه وسيلة للمعنى لا غاية في ذاته

وقد عرف أقطاب الأدب الانجليزي بواسع بصرهم بأسرار لغتهم، وإليهم يرجع فضل توطئة جوانبها وتعبيد مسالكها؛ ولكل منهم في هذا الباب أثر: فشكسبير قد استخدم في رواياته أكبر عدد من مفردات اللغة استخدمه أديب، وصرف تلك المفردات على شتى الوجوه؛ وسبنسر اعتنى باللغة بما أدخل فيها من

تكرارها منذ سقوط غرناطة ولم يلبها غير إخوانهم المجاهدين في افريقية، فقد استطاعت جموع جريئة مخاطرة منهم أن تجوز الشواطئ الأسبانية ومنهم فرقة من الترك المرتزقة وان تهرع الى نصرة المنكوبين

وهكذا عاد النضال الى اشده، وخشي الأسبان من احتشاد الموريسكيين في البيازين ضاحية غرناطة، فصدر قرار بتشريدهم في بعض الأنحاء الشمالية، وكانت ماساة جديدة مزقت فيها هذه الاسر التعسة وفرق فيها بين الاباء والأبناء، والازواج والزوجات في مناظر مؤثرة تذيب القلب، وسار المركيز لوس فيليس في نفس الوقت إلى مقاتلة الموريسكيين في سهول المنصورة على مقربة من أراضي مرسية، ونشبت بينه وبينهم عدة وقائع غير حاسمة، ولم يستطع متابعة القتال لنقص في الأهبة والمؤن وكان بينه وبين زميله منديخار خصومة ومنافسة كانتا سبباً في اضطراب الخطط المشتركة، واتهم منديخار بالعطف على الموريسكيين فاستدعي إلى مدريد، وأقيل من القيادة، واتخذت مدريد خطوتها الجديدة الحاسمة في هذا الصراع الذي لا رحمة فيه ولا هوادة

(للبحث بقية)
(والنقل ممنوع)

محمد عبد الله عنان

ألفاظ جديدة لم تعرفها قبله؛ وملتون أصبح اسمه علما على ضرب من النظم عذب الموسيقى فخم الرنين؛ وبوب بلغ الغاية من إحكام الصناعة وجزالة الأسلوب؛ ووردزورث كان دائم التجارب في الأساليب يحاول أن يشق للشعر أسلوباً جديداً؛ وتنيسون تفنن في استخدام الألفاظ وتحوير التراكيب يؤلف بها روائع الصور الشعرية، ولا تزال مخطوطات بعض أولئك الأدباء موضع دراسة النقاد والأدباء، يتفقهون بها في أسرار اللغة ويزدادون بصراً بخصائص الألفاظ والتراكيب، ويرون كيف يحل لفظ محل لفظ فتشرق به ديباجة البيت من الشعر ويسفر به وجه المعنى جميلا بعد خفاء والتياث.

على أن أولئك الأدباء برغم احتفائهم بالأسلوب ذلك الاحتفاء لم يغلبوه على المعنى ولم يجعلوه غاية في ذاته، ولم يصبح الأدب في أيديهم براعة في اللفظ وتأنقاً في النسج، بل ظل اللفظ لديهم دائماً خادماً للمعنى، وظل غرضهم الأول من الانشاء الافصاح عن الفكر والشعور. ولم يسرف الأدباء في الاحتفاء باللفظ إلا في عهد انحطاط الشعر في بعض القرن الثامن عشر، في حقبة لم تنجب شاعراً كبيراً، ولم يحظ بالشهرة في حياته والذكر بعد موته من أدباء الانجليزية إلا من أهلته لذلك نظرة في الحياة صادقة عميقة، ولم تكن كل بضاعته أسلوباً مزخرفاً منمقاً، بل عرف من كبار الشعراء من لم يكن يولي أسلوبه كبير احتفاء، ومع ذلك رفعه فكره الجوال في آفاق الحياة، ونفسيته الجياشة بأشتات الاحاسيس إلى قمة المجد، فبيرون كان كما قال عن نفسه لا يعاود النظر في بيت شعر خطه، ووردزورث نظم كثيراً من بدائع شعره في أبسط لفظ يستعمل في النثر والتحدث، وهاردي لم يكن شعره إلا نثراً جيد النظم عارياً مجرداً من تلك الألفاظ الشعرية ذات الأجواء المعنوية، ومن ثم لا يسمو به النقاد إلى طبقة الفحول كشكسبير وملتون، بل ينزلونه الطبقة الثانية بين الشعراء، وهذا الأسلوب العاري المجرد يزداد شيوعاً في العصر الحديث.

أما في العربية فكان الأمر على نقيض ذلك: فلم يكد يكون بين كبار أدبائها بعد دخول الأدب طوره الفني من أهمل الأسلوب واحتفى بالمعنى وحده، وإن كان أكثرهم ليقدم الأسلوب على المعنى ويحتفي للفظ وزينه أي احتفاء وإن تضاءل المعنى وتفه، فاذا كان النثر العربي يبلغ ذروته من الكمال على أيدي ابن المقفع والجاحظ، والشعر العربي يجري إلى غايته في آثار المتنبي وابن الرومي والمعري، حيث يجتمع صدق النظرة وجمال الأسلوب، فان غيرهم من مشهوري أدباء العربية إنما نبه ذكرهم لبلاغتهم اللفظية، لا لفلسفة في الحياة معدودة، ولا لرسالة في الأدب عتيدة: ومن أولئك البحتري ومن نحا نحوه من الشعراء والمداحين، والصاحب ابن عباد ومن سلك دربه من المنشئين المسجعين؛ فالناظر في الأبيات الآتية من نظم أشهر شعراء العربية، يرى أن حظها من المعنى ضئيل ونصيبها من جزالة الأسلوب ورنين اللفظ وعذوبة الموسيقى كبير، قال أبو نواس في مدح بعض الوزراء:

عباس عباس إذا احتدم الوغى والفضل فضل والربيع ربيع

وقال البحتري في النسيب:

لما مشين بذي الأراك تشابهت أعطاف قضبان به وقدود

ومتى يساعدنا الوصال ودهرنا يومان يوم نوى ويوم صدود

وقال أبو تمام في رثاء طفلين:

مازالت الأيام تخبر جاهلا أن سوف تفجع مسهلا أو عاقلا

بدران شاء الله أن لا يطلعا إلا ارتداد الطرف حتى يأفلا

إن الفجيعة بالرياض نواضرا لأجل منها بالرياض ذوابلا

نصيب هذه الأبيات جميعها من الفكرة البعيدة أو النظرة المستقلة أو الشعور الصميم ضئيل. وماذا في قول أبي نواس إن العباس عباس والفضل فضل والربيع ربيع، إلا أنه ظرف وأحسن نظم تلك الأشياء مزدوجة في ذلك البيت؟ وأي الناس لا يعبس إذا احتدم الوغى؟ ولو قال: عباس بسام لكان وصفه بالشجاعة التي لا تحفل بالموت المحدق. ثم ماذا من جديد في جمع البحتري بين الغصون والقدود وشكواه النوى والصدود، أو في تشبيه أبي تمام للطفلين بالبدرين الآفلين مرة وبالروضين المصوحين أخرى؟ إنما فضيلة هذا الشعر كله حسن اختيار اللفظ النقي وجمال الموسيقى ولطافة التقسيم والمقابلة، اما المعنى فلا عمق فيه ولا ابتكار

فالاحتفاء باللفظ ولو على حساب المعنى قد تزايد في العربية تدريجا مع دخول الأدب طوره الفني، طور التدوين والتجويد، وتزايد الولع بالتسجيع والمطابقة وغيرهما من المحسنات اللفظية. وكاد الولع بالسجع عند الصاحب بن عباد فيما روى يبلغ حد الجنون، حتى قيل إنه عزل قاضياً بناحية يقال لها (قم) لأنه أراد أن يتم سجعة فقال: أيها القاضي بقم، قد عزلناك فقم. وتكلف في بعض أسفاره كما حدث عنه ابن العميد أن يذهب إلى قرية غامرة ذات ماء ملح يقال لها النوبهار لا لشيء إلا ليكتب إليه: كتابي هذا من النوبهار، يوم السبت نصف النهار، وما زال اللفظ يستبد باحتفال الأدباء ويطغى على المعنى، حتى ارتد الأدب في عصور التدهور زخرفا لفظيا صرفا، ولم يبق من المعنى إلا هذيان كهذيان المخالطين

فلا نبالغ إذا قلنا إن المعنى كان في أزهر عصور الأدب العربي يحتل المكان الثاني بعد اللفظ ، وهذا واضح في أقوال النقاد . قال الآمدي في موازنته بين الطائيين : « وليس الشعر عند أهل العلم به إلا حسن التأتي وقرب المأخذ واختيار الكلام ووضع الألفاظ في مواضعها . . . . فإن اتفق مع هذا معنى لطيف أو حكمة غريبة أو أدب حسن فذلك زائد في بهاء الكلام ، وإن لم يتفق فقد قام الكلام بنفسه واستغنى عما سواه » . وقال الخليلي في سياق حديث له أورده ياقوت في ترجمة الصاحب بن عباد : « الشاعر يطلب لفظا حرا ومعنى بديعا ولفظا حلوا وكلمة رشيقة ومثلا سهلا ووزنا مقبولا » ، فكل الاهتمام هنا موجه إلى لطافة النسج والتجويد لا إلى عمق الفكرة والشعور

كان الشعراء في الجاهلية وصدر الاسلام يرسلون القول على سجيته في نسج محكم يرمون به إلى بيان أفكارهم وشعورهم على أقصد سبيل وأقربه . فلما كان عهد التحضر والتثقف أحاطت بالأدب عوامل أدت إلى تقديم اللفظ على المعنى ، منها فساد اللغة بمخالطة الأعاجم فاشتد الحرص على طلب اللغة الصحيحة وإتقان أساليب العرب الأقحاح وتقليد فحول المتقدمين . وزاد هذا الحرص شدة اشتغال الأعاجم أنفسهم بالأدب وجدهم في تحصيل لغة العرب ولسان الكتاب المنزل ، وسبقهم في العلوم والتأليف ، وتفاخرهم بمحاكاة أدب الجاهلية وصدر الاسلام ، وتظاهرهم بالقدرة على التصرف في الألفاظ والتراكيب ، فكان همهم صحة التعبير وبلاغته قبل صدق المعنى وعمقه

ومما زاد الأدباء انصرافا إلى اللفظ وتجويده واختيار الأسلوب والافتنان في صياغته وتحويره ، انتشار المدح والتكسب بالأدب ، فإنه لما كانت الفضائل الإنسانية ، ولا سيما تلك التي كانت مشهورة مطلوبة في المجتمع الاسلامي ، محدودة معروفة ، كان مجال القول فيها محدودا ، ومجال الابتكار ضيقا ، فطلب الشعراء المداحون السعة في جانب اللفظ ، يتأنقون في تزويقه وترصيعه ، ويعتاضون عن الابتكار في المعاني بالأوزان الرشيقة والقوافي الرخيمة والتشبيهات اللبقة ، والتقسيم والمقابلة والسجع والتجنيس . وبهذه المحسنات البديعية - ما راق منها وما سمج - تحفل مدائح أبي نواس وأبي تمام والبحتري والمتنبي وابن الرومي ، إذا جردت من زينتها اللفظية لم يبق من نسيبها الاستهلالي ومدحها المغرق شيء ذو بال ؛ من ذلك قول أبي تمام في مدح بعض القواد ، ولا داعي لذكر إسم ذلك القائد أو صفته ، فما كان لكل ذلك أي دخل في نظم مثل ذلك القصيد :

وجرد من آرائه حين أضرمت ... به الحرب حداً مثل حد المناصل
وسارت به بين القنابل والقنا ... عزائم كانت كالقنا والقنابل
وقد ظللت عقبان أعلامه ضحى ... بعقبان طير في الدماء نواهل

فكل هذه المعاني الدائرة حول شجاعة القائد وآرائه التي تفوق الجيوش ، وعزائمه التي تفل السيوف ، والعقبان التي تتبع أعلامه لتنهل من دماء أعدائه ، كل هذه المعاني مطروقة من قبل أبي تمام ، مذكورة بعده في ميمية المتنبي المشهورة وغيرها من مدائحه لسيف الدولة ، ولا غرو فقد غدت أكثر معاني الأدب في أبواب المدح والهجاء والفخر والوصف والحكمة وغيرها ، تراثا متداولا بين الشعراء من جيل إلى جيل ، إذا تفنن الشاعر صاغ بعضه صياغة جديدة أو ولد منه بعض التوليد ، فإذا اتفق له أن صاغ معنى قديما صياغة جديدة يفوق صياغة صاحبه الأول صفق له النقاد وقالوا سرقة مغفورة ولص ظريف هو أولى بالمعنى من صاحبه لأنه أجود لفظا ، كما قيل في بيت البحتري في مدح المتوكل :

فلو ان مشتاقا تكلف فوق ما ... في وسعه لمشى إليك المنبر

أخذه وتصرف فيه من قول أبي تمام :

تكاد مغانيه تهش عراصها ... فتركب من شوق إلى كل راكب

كان الشعراء إذا صرفوا القول إلى المديح أتوا بالمعاني الجوفاء الهزيلة ، واحتفوا باللفظ يدارون بزخارفه ركاكة المعنى ، وكان أكابر شعراء العربية في طور الأدب الفني مداحين ، فامتلأ الأدب العربي بذلك الضرب السقيم المعاني الطنان الألفاظ ؛ وإنما كان الشعراء يبتكرون المعاني الجيدة يلبسونها من اللفظ أجمل لبوس حين ينظمون في غير المديح من الوجوه التي يدفع إلى النظم فيها شعور صحيح وفكر ثاقب ، فكانت من ذلك حكم المتنبي وأوصاف ابن الرومي ونظرات المعري ، كما ظهرت في الأدب العربي تلك الظاهرة الفريدة ، وهي أن أشعار كثير من المقلين وممن يعدون في الطبقة الثانية من الشعراء كالصولي والامام الشافعي ، تروع النفس بصدقها وحصافتها أكثر مما تروعها أشعار المكثرين المشهورين ، لأن أولئك المقلين كانوا لا ينظمون الشعر إلا تلبية لحافز نفسي ، وهؤلاء المكثرين كانوا ينظمون ابتغاء النوال

ومن عوامل احتفاء أدباء العربية باللفظ أيضا ، أن الأدب العربي في ظل الدولة الاسلامية كان أكثره أدبا بلاطيا

وأرستقراطيا ، مكفوفا عن شؤون المجتمع ، منزويا عن أكثر مواضيع القول ومجالات الفن ومسارح الأدب ، من وصف الطبيعة والتأليف التاريخي الفني ووصف آثار الاقدمين في عالم الحضارة والفنون ، وسبحات الخيال في عوالم الحقيقة والخرافة ، وتصوير آثار الرحلات والمغامرات ، فلما حرم الأدب طرق هذه المواضيع الجمة الخصبة الحافلة بمنادح التفكير والشعور والقول ، لم يبق لديه كبير مجال للابتكار في المعاني ، فتوفر على الافتنان في الالفاظ يدور بها في مجالاته المحدودة الموروثة عن المتقدمين .

وزاد مجال القول ضيقا حرمان الأدب العربي من الاطلاع على الأدب اليوناني ؛ فلو كان على اتصال مستمر بذلك الأدب لتمهدت أمامه منادح للقول من جهة ، ولا نصرف اهتمامه من جهة أخرى إلى المعاني دون الالفاظ ، لأن المعاني دون الالفاظ هي التي تتشارك فيها آداب الأمم المختلفة ، أما أدباء العربية الذين لم يطلعوا على أدب أجنبي راق ، فكان اعتدادهم بتفوق اللغة العربية على اللغات شديداً ، وكانت ألفاظها وتعبيراتها تقوم في مخيلتهم مقام الحقائق المتحجرة ، وكان التجويد في استخدام تلك الالفاظ والتعبيرات في الأبواب المطروقة من قديم غاية الأديب ، فظل بيت زهير بن أبي سلمى الذي قاله في عهد البداوة ، يصدق على شعراء العربية في أوج عهد الحضارة والثقافة :

ما أرانا نقول إلا معارا أو معاداً من قولنا مكروراً

ثم لاشك في أن حياة الترف وزخارف العيش التي انغمس فيها العرب بعد الفتوح ، وأبهة البلاط التي كان الأدباء يحومون حولها ويتزاحمون في مواكبها ، كانت من أسباب شيوع الزخرف في الأدب الذي هو مرآة للحياة المحيطة به ، فإذا كان الأدب الفارسي قد كان في ذلك العهد من الضآلة بحيث لم يؤثر كثيراً في أدب العرب ، فقد أثر الفرس في الأدب العربي بمظاهر الترف والبذخ المادية التي نقلها عنهم العباسيون وتركت آثارها في الأدب ، وهذا الترف الأدبي كالترف المادي دليل الرخاوة والضعف ، والسير إلى الانحلال .

وقد ساعدت طبيعة اللغة العربية ذلك الميل الذي غلب على أدبائها ، الميل إلى التأنق في اللفظ ، وتثقيله بالمحسنات التي ينوء المعنى تحتها ويتضاءل ، وذلك لما للغة العربية من بلاغة أصيلة ، وموسيقى فخمة ، وما لألفاظها وتراكيبها في النفوس من روعة وبهاء ، وما لأوزان الشعر العربي وقوافيه من رصانة وجلال ، وما للغة من ثروة طائلة وغنى بطرق الاشتقاق وامتلاء بالمترادفات ، واتساع لصنوف التشبيهات والمجازات ، بحيث يستطيع المتمكن من كل هذا أن يجمع حوله المستجيدين ويستولي على الألباب ، دون أن يبتدع في المعنى أو يتعمق في الشعور . كما تصرفك عذوبة اللحن الموسيقي عن تفاهة المعنى المتغنى به ؛ وقد استغل كتاب العربية كابن العميد والصاحب والبديع والحريري ثروة اللغة هذه أيما استغلال ، وجاءت رسائلهم ومقاماتهم معارض مائجة بتلك الكنوز العظيمة

ففي الأدبين العربي والانجليزي آثار بالغة حد الفن من الصدق والعمق والجمال ، تجمع بين حرارة الشعور وجودة الأسلوب ؛ غير أن الأدب العربي لإحاطة تلك الظروف والعوامل به ، أحفل من الأدب الانجليزي بالآثار التي يغلب فيها اللفظ على المعنى ، وتظهر الصنعة على الطبع ، وتبدو فيه دلائل الاحتفاء بالأسلوب واضحة ، حتى في مخلفات أكبر أدبائه وأعظمهم حظا من النبوغ والشاعرية . ويعد بين أقطابه أفراد لم تؤثر عنهم فلسفة في الحياة خاصة أو شخصية مستقلة ، ولم يرفع ذكرهم إلا اقتدارهم على تصريف الكلام ، ويمتلئ الأدب بآثار أولئك الأدباء التي تعجب بحلاوة أسلوبها وإن لم تعجب بعمق فكرتها ، فلسنا نسرف إذا قلنا في الجملة إن الأدب العربي كان أدب أسلوب ، والأدب الانجليزي أدب معنى

فخري أبو السعود

الحياة على الكواكب

للأستاذ قدري حافظ طوقان

لقد خطا علم الفلك خطوات فسيحة أثارت الانسان وأثارت دهشته وأذهلته وأصبح بفضل ما اخترعه من الآلات الدقيقة ومن جمعه بين مبادىء العلوم الطبيعية والكيماوية واستعانته بالرياضيات ومعادلاتها من معقدة وغير معقدة، أقول بفضل هذا كله استطاع العلماء أن يحلوا بعض المشكلات وأن يتفهموا بعض أسرار الكون.

من كان يتصور أن الانسان يستطيع أن يعرف شيئاً عن تركيب الشمس والاجرام السماوية، حتى الفيلسوف (كنت) وهو العالم ذو النظر الواسع والبصيرة النافذة لم يخطر على باله أن الانسان سيصل إلى ما وصل إليه في علم الأفلاك فقال: «سيبقى الانسان جاهلا حقيقة تركيب الشموس ومعرفة عناصرها..» أما الآن فبفضل المختبرات والمراصد وما تحويه من آلات ومعدات عرف الإنسان بعض الشيء عن النجوم والكواكب والعناصر التي تتألف منها ووقف على خصائصها وقاس حرارتها.

لقد ثبت للعلماء من دراساتهم للأجرام السماوية أنه ما من عنصر موجود في تركيب هذه الاجرام إلا وفي الأرض ما يقابله، وأن الذرة بكهاربها وبروتوناتها وحركات هذه حول بعضها وحول الكهارب تشبه النظام الشمسي والنظم الشمسية الأخرى، أي أن الكون الأعظم يتألف من أكوان أخرى متشابهة في التركيب والبناء، وأن هناك تناسقاً ووحدة مادية كونية، فالنجوم والجزر الكونية، والشهب والنيازك والمذنبات وغيرها - كل هذه تتركب من العناصر الكيماوية التي نعرفها وأن هناك قوانين تسودها ونواميس تسيطر عليها وعلى حركاتها، وأنه ما من شيء إلا يسير في دائرة من الأنظمة لا يتعداها ولا يشذ عنها؛ ولكن على الرغم من هذا كله ومن وقوف الانسان على بعض الحقائق عن الكون لا يزال هناك أبواب مغلقة يحتاج فتحها إلى تعمق وجهود متواصلة. ومن الغريب أن الانسان كلما تقدم في البحث انفتحت أمامه أبواب جديدة من المعرفة وزاد اعتقاداً بضآلته وإيماناً بأنه لا يزال على عتبة اليقظة العقلية.

وهناك أسئلة لم يستطع أحد الاجابة عليها؛ ويظهر أن أمام هذه الأسئلة صعوبات وعقبات لا يزال العلماء يجاهدون للتغلب عليها واقتحامها بما يكتشفونه من قوانين ونواميس، وبما يخترعونه من آلات وأدوات. وقد يكون السؤال الآتي من أكثر الأسئلة التي شغلت الناس وعلماء الفلك على السواء. هل يوجد في الاجرام السماوية أو في بعضها حياة كحياتنا؟ أم هل في الكون عوالم مسكونة غير الأرض؟ وعلى الرغم من معرفة الانسان كثيراً عن خصائص الكواكب والنجوم فانه لم يستطع أن يصل في مسألة (سكنى الكواكب) إلى نتيجة قاطعة. ويعود السبب في ذلك إلى عوامل عديدة أهمها: عدم تمكن الإنسان من اختراع آلات يستطيع أن يعرف بوساطتها وجود حياة على الاجرام السماوية. فقد يكون في بعض الاجرام حياة، وقد لا يكون؛ وقد تكون الحياة عليها من نوع لا نعرف كنهه أو ندرك حقيقته. وبحثنا الآن يدور حول الحياة على الكواكب التابعة للنظام الشمسي؛ ونعني بالحياة الحياة التي تماثل الحياة على سطح الارض. ولا شأن لنا بغيرها إن كان في الوجود أحياء أو حياة من طراز آخر. فالأرض كما لا يخفى هي بنت الشمس وهي أحد أفراد الأسرة الشمسية تدور حول أمها (الشمس) كما يدور أيضاً بقية شقيقاتها (السيارات).

وهذه السيارات، بما فيها الارض، انفصلت عن الشمس ثم كونت كل واحدة منها فلكا تدور عليه. وقد مرت ملايين السنين قبل أن أصبحت الارض في حالة صالحة لظهور الحياة عليها. ولا بد أن التطورات التي مرت عليها الارض مرت (وتمر) على سيارات أخرى، وقد أدت (وتؤدي) إلى نفس النتيجة على غيرها من الاجرام، ولكن باستطاعة العلم من دراسة بعض السيارات أن يجزم بأن التطورات عليها لم تصل إلى درجة يصلح معها ظهور حياة أو أحياء.

فاذا أخذنا عطارد وهو أقرب السيارات إلى الشمس نجد أنه لا يحيط به جو وكذلك السيار بلوتو (وهو أبعد السيارات المعروفة عن الشمس) لا يحيط به جو. وهذان السياران صغيرا الجرم إلى درجة أن جاذبيتهما لا تستطيع أن تحتفظ بالذرات الهوائية التي تفلت وتخرج إلى حيث الجاذبية أقوى.

ويتنج عن هذا عدم وجود أجواء على الاجرام الصغيرة .

أما المشترى وزحل فحول كل منهما غلاف جوى يمتد إلى آلاف الأميال ؛ ويحدث هذا الغلاف ضغطاً عظيماً إلى درجة أن الغازات لا تستطيع تحت تأثيره أن تبقى فى حالة غازية بل لا بد لها من أن تميع .

ويرجع السبب فى وجود هذا الغلاف الجوى حول هذين الكوكبين وحول أورانوس ونبتون أيضاً إلى كبر أجرامهما . فكلما كان جرم الكوكب كبيراً استطاع (بفضل قوة جاذبيته) أن يحتفظ بالغازات حوله ومنعها من الانفلات .

وعلى ذكر أورانوس ونبتون نقول إن البرودة عليهما أشد من البرودة على زحل والمشترى ، ويحتوى غلافهما الخارجى على غاز المستنقعات أكثر مما يحتوى على غاز النشادر . ويعلل العلماء ذلك بأن النشادر لا يبقى فى حالة غازية فى برودة كالبرودة الموجودة على أورانوس ونبتون .

يتبين مما مر انه لا يمكن أن تكون بيئة هذه الكواكب الستة صالحة لظهور الحياة عليها ، إذ كيف يمكن أن تكون صالحة وبعضها خال من الهواء والبعض الآخر محاط بالأجواء التى تمتد إلى آلاف الأميال محدثة من الضغط ما يستحيل معه وجود أحياء أو حياة . بقى علينا أن نبحث عن الزهرة والمريخ وهما الكوكبان اللذان نجد فيهما بيئة أصلح من غيرهما لظهور الحياة أو لسكنى الأحياء على سطحهما . فالزهرة يحيط بها جو ملىء بالغيوم حتى يصعب رؤية سطحها من ورائه ؛ ولم يستطع العلماء أن يتأكدوا من وجود أوكسيجين أو بخار ما ؛ ولكن ثبت لديهم وجود ثانى أوكسيد الكربون بكميات كبيرة تفوق الكميات الموجودة فى جو الأرض . وثبت للفلكيين من دراسة هذا الكوكب انه أصلح من غيره من حيث امكان ظهور حياة عليه ، فليس هناك من العوامل الطبيعية والجوية ما يجعل معها الحياة عليه مستحيلة .

وأما المريخ فقد شغل الناس وشغل علماء الفلك أكثر من أى جرم سماوى آخر ؛ واختلفت الاقوال فيه وفى خصائصه ومميزاته ، وكثر التحدث عن هذه الاقوال ، وراحت الصحف والمجلات تكتب عنه كأنه مسكون ، وراحت تصف سكانه وأحوال معيشتهم فقال بعضهم ان سكانه احتفروا ترعاً لرى مزروعاتهم ، ترعاً هى فى الاتقان غاية وفى البناء آية يعجز أهل الارض عن محاكاتها وعن الاتيان بمثلها ولو اجتمعوا لذلك

والمريخ أكبر من القمر وأصغر من الأرض ، تشرق عليه الشمس كما تشرق على الارض وتعطيه نوراً وحرارة .

ويقول السر روبرت بول : « ان صغر كوكب المريخ يزيد صلاحيته لاقامة الاحياء التى لها حركات مستقلة ؛ فثقل الاجسام على سطح المريخ أقل من ثقلها على الارض ، حتى إذا أردت الطيران مثلا لم تجد فيه من الصعوبة ما تجده فوق سطح الارض » وهو الذى يقول أيضاً « والمريخ من حيث جرمه ليس فيه ما يمنع كونه داراً للأحياء ... » وعلل البعض الظواهر التى تحدث فى فصل الشتاء بأن بقعاً بيضاء تتكون على كل من قطبيه ثم تضيق هذه البقع بالتدريج حينما يقرب فصل الصيف . وقال آخرون ان فى المريخ ماء ، وان هذا الماء يتجمد ويصير ثلجاً عند القطبين . وهناك من العلماء من ينفى هذه الاقوال ويقول إنها من وحى الخيال .

وليس فى المريخ بحور واسعة كبحور الأرض ، فسطحه بر لا بحر فيه ، يتعاقب عليه الليل والنهار كما يتعاقبان على الأرض ؛ ويومه أطول بقليل من يوم الأرض ، وله غلاف من الهواء يحيط به ، ولكنه لطيف جداً بالنسبة إلى هواء الأرض ، وهو يتركب من الاوكسجين وبخار الماء . ولاشك أن كمية الأوكسيجين الموجودة فى جو المريخ أقل بكثير من الكمية الموجودة فى جو الأرض . وقد يتبادر إلى ذهن القارىء أنه ما دام الأمر كذلك (أى قلة الأوكسيجين) فلا مجال لظهور الحياة عليه ، ولكننا نقابل ما تبادر إلى الذهن بالقول أن الأحياء الأرضية وجدت الاكسيجين فاستخلصته بالانتخاب الطبيعى لأنه أصلح من غيره لتوليد القوة باتحاده مع الكربون ، أي أن الأحياء تهيىء نفسها للأحوال التى توجد فيها ، وعلى هذا فلسنا فى وضع نستطيع معه الجزم بان كمية مغنية من الأوكسيجين ، أو أن الاوكسيجين ضرورى للحياة لا غنى لها عنه ، فقد تكيف هذه الاحياء نفسها إلى الوضع الذى توجد فيه ، وتستخدمه لما فيه نفعها واستمرار حياتها

ويقول الاستاذ (لول) وهو الذى درس المريخ أكثر من غيره وإليه ترجع أكثر معلوماتنا عنه - يقول إن سكان المريخ أرقى من سكان الأرض ، ويستدل على ذلك بهندسة الاقنية العجيبة (الموجودة على المريخ) ، ويجد فى صنعها المثير للإعجاب ما يؤيد رأيه وأقواله

وعلى فرض وجود أحياء على سطح المريخ فصغر جرمه وما ينتج عن ذلك من ضعف للجاذبية - كل هذا يقضى بأن تكون تلك الأحياء كبيرة الحجم بالنسبة إلى الأحياء الموجودة على سطح الأرض، كما أن كبر جرم الكوكب يقضى بوجود أحياء (أن كان ثمة حياة) صغيرة الجرم . . .

وعلى العموم فالزهرة والمريخ أصلح الكواكب لسكنى الأحياء عليهما، وليس هناك من العوامل ما يمنع وجود حياة كحياتنا على سطحهما؛ وحالة الزهرة الآن هي الحالة التي كانت عليها الأرض قبل ملايين السنين، كما أن حالة الأرض بعد ملايين السنين ستكون مشابهة لحالة المريخ الآن؛ إذ يقل الاوكسجين وتقل الحرارة التي تأتيها من الشمس. وقد يكون هذا هو السبب في تعليل تفوق سكان المريخ (إن كان في المريخ حياة) على سكان الارض؛ وقد يكون أيضاً هو السبب الذي دفع البعض إلى تعليل تقدم سكان المريخ في الحضارة ووسائل الرفاهية والمهارة في البناء والانشاء .

والآن ... وقد أنهينا الكلام عن الكواكب التابعة للنظام الشمسي نقول إن في الكون نجوما وشموسا لا عد لها، ولهذه كواكبها وما يتبعها من مذنبات وشهب ونيازك . ولقد دلت المراصد على وجود ٧٥ مليوناً من العوالم التي تشبه عالمنا، وآلاف الملايين من النجوم . وكلما تقدم الانسان دقة في آلات الرصد تجلى له اتساع الكون بصورة أوضح وأجلى، وثبت له أن ما كشفه من الكون إن هو إلا جزء ضئيل جداً مما لم يستطع اكتشافه بعد . فكون هذه حالته وهذا اتساعه لمن الطبيعي أن يكون فيه من الكواكب ما اجتاز (ويجتاز) الأدوار التي مرت (وتمر) على الأرض . ومن المحتمل جداً أن تكون بيئة بعض هذه الكواكب صالحة لسكنى أحياء أو ظهور حياة عليها

وأخيراً إذا سئلت عن رأيي في مسألة الحياة على الكواكب لا كتفيت بالجواب الآتي :

ليس الغريب أن تكون بعض الأجرام السماوية مسكونة وعامرة بالأحياء، بل الغريب ألا تكون كذلك

قدري حافظ طوقان

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٧ —

الديانة المصرية — الحياة الأخرة

اعتقد المصريون منذ أقدم عصورهم بخلود الروح وبأن هناك حياة آخرة يجازى فيها المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته. والمنطق الذى استندوا إليه فى هذه العقيدة، هو أن هذه الحياة الدنيا مزيج من الخيرات والشرور، وأن المشاهد أن هذه الفترة القصيرة التى يعيشها الانسان على الأرض، ليست جديرة بتحقيق مكافآت الأخيار، ولا عقوبات الأشرار. وإذن فالمنطق يقفنا أمام أمرين لا ثالث لهما، وهما: إما أن تكون هناك حياة أخرى يوفي فيها الأخيار والأشرار جزاء أعمالهم فى دقة وعدالة، وإما أن ينتهى كل شيء بمجرد انتهاء هذه الحياة. وفى هذه الحالة الأخيرة لا يتحقق تقدير الفضيلة والرذيلة، ولا يمتاز الخير عن الشر بأية ميزة. وبذلك تنتفى عن الإله صفة العدالة، ومتى انتفت عنه هذه الصفة لحقه النقص، ومتى لحقه النقص فقد انهارت ألوهيته من أساسها، وإذن فالحياة الأخرى من لوازم الألوهية نفسها.

أما طريق معرفة الخير من الشرير فهى أن يؤتى بأعمال كل منهما الدنيوية المقيدة فى سجل أمين لم يدع منها كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها، ثم يجلس المسئول أمام محكمة «أوزيريس» الذى نكتفى أن نسوق إليك فى وصفها نص ما كتبه الأستاذ «بريستيد»: «وتتكون محكمة أوزيريس فى عقيدة القوم من اثنين وأربعين قاضياً يجلسون أمام المعبود كالزبانية يمثل كل منهم قسماً من أقسام مصر، فإذا دخل المتوفى أمام المحكمة وأنكر أمام كل قاض إثماً من آثامه، يوزن قلبه فى ميزان مقابل ريشة العدالة، للتأكد من صدق قوله. أما الآثام التى يتبرأ منها الميت أمام محكمة أوزيريس فهى بعينها الآثام المستهجنة فى عهدنا هذا. وهاك بياناً موجزاً لتلك الآثام: السرقة، والقتل، والاختلاس (وبالأخص السلب)، والكذب، والخداع، وشهادة الزور، والرياء، والتنابذ بالألقاب، والتجسس، وعدم الاعتدال فى الأمور الجنسية، وامتهان كرامة المعبودات أو الأموات كالكفر بهم، وسرقة أمتعة الموتى. ومن هذه القائمة يستدل على عظم الرادع النفسي عند المصريين وتشدد استنكاراً للنكرات. وعليه فالمصريون هم أول قوم اعتقدوا بترتب الحياة الأخروية على الحياة الدنيوية. ويرجع هذا الاعتقاد فى الحقيقة إلى المملكة القديمة. والغريب أن هذه العقيدة انحصرت فى المصريين أكثر من ألف سنة فى حين أن البابليين والإسرائيليين اعتقدوا أن انتقال الموتى عموماً إلى سقر المعرفة باسم «شول». واعتقد المصريون أن الأموات الذين تحكم عليهم محكمة أوزيريس بالاجرام يعرضون للجوع والعطش ويحجزون فى أماكن مظلمة لا يبصرون فيها ضوء الشمس. وفى المحكمة طريق أخرى للقصاص، منها حيوان بشع له رأس تمساح ومقدم أسد ومؤخر دب البحر يفترس المجرمين الآثمين. وأخذت آراء القوم فى عهد المملكة الوسطى تحوم حول تطهير النفس من المعاصى والمظاهر التماساً للبراءة بعد الوفاة وتجنباً للعقاب الأليم، فأصبحت ترى الكثير من نقوش شواهد القبور شديدة الشبه بما ألمعنا إليه فى عهد المملكة القديمة، وهى تتلخص فى أن الميت يطعم الجوعان ويروى الظمآن ويكسو العريان وينقل فى سفينته من ليس له سفينة. وجاء على بعض الشواهد أن المتوفى كان أبا اليتيم وزوج الأرملة وملجأ الذى لا ملجأ له مما أشرنا إليه حين تكلمنا على كرم وسخاء حكام الأقسام والشخص الذى تبرئه المحكمة أوزيريس تلقبه بالرجل الطاهر العادل أو صادق القول أو المنتصر» (١)

فإذا فرغ «توت» — وهو الذى تصوره لنا الآثار حاملا الميزان فى يده — من مهمته أمر بهذا المسئول فيساق إلى ذلك الصراط المخوف الذى مد فوق الجحيم والذى إذا اجتازه

(١) راجع صفحتي ١١٢ و ١١٣ من كتاب تاريخ مصر من أقدم عصورها للأستاذ بريستيد.

الشخص نجا وارتقى إلى جوار الآلهة والفراعنة الأبرار ، وإذا هوى من فوقه سقط في واد سحيق مملوء بالأفاعي والحيات التي تتولى تعذيبه بقسوة حتى ينال قسطه من الجزاء

ومن الغريب أن المصريين مع إيمانهم بهذه العدالة الصارمة في الحساب ووزن الأعمال كانوا يعتقدون أن تلاوة الرقى والتعاويذ وكتابتها على تابوت الميت أو على حوائط قبره تستطيع أن تنفعه أمام محكمة أوزيريس فتزيد في نعيمه وتخفف من عذابه ، وهذا هو معنى قول المحدثين : « الرحمة فوق العدل » . وقد كتبت هذه التعاويذ في كتاب « الموتى » وكتاب توت الذي ألمعنا إليه آنفا .

عقائد وطقوس دينية

اعتقد المصريون - كما أسلفنا - بالبعث والحشر والحساب على الأعمال والميزان والصراط والنعيم والجحيم ، وآمنوا كذلك بأن هذا النعيم درجات ، أدناها المتع المادية ، وأعلاها الذهاب إلى جوار الآلهة أو الصعود بوساطة السلم الإلهي من مملكة الموتى إلى مملكة « رع » حيث يقيم الصالحون والمقربون مقاما أبديا لا مرض فيه ولا تعب ولا موت ولا فناء . واعتقدوا أن في الجحيم كذلك درجات بعضها خفيف وبعضها قاس ، وأن بها ثعابين وحيات وتنينات تتولى تعذيب الآثمين بقدر ما يرسم لها إله الجحيم .

هذا كله في الآخرة ، أما في الدنيا فمن طقوسهم الدينية أنه إذا مات الميت يجب أن يغسل بالماء النقي وأن يكفن ويدفن بعد أن يلقنه الكاهن ما كانوا يسمونه بالرقى المنجية التي تحميه في القبر من الأرواح الشريرة وتكفل له في الآخرة رحمة الآلهة ، وأن تكتب تعاويذ « توت » على تابوته وجدران قبره إن كان من ذوي الحيثيات كأن يكون ملكا أو أميرا أو كاهنا أو وزيرا أو موظفا كبيرا أو أديبا أو طبيبا مثلا ، أما إن كان من أبناء الطبقات الدنيا ، فإن هذه التعاويذ تكتب على كفنه أو في ورقة بردية تدفن معه .

ومن هذه الطقوس أيضا تضحية الحيوانات على قبر المائت ووضع بعض لحومها مع الخبز والماء والفاكهة والنبيذ في داخل القبر ، وأن يتولى تقديم هذه الضحايا أحد الكهنة ليتقبلها أوزيريس فيضمن أهل الميت بهذا القبول لمتوفاهم الرحمة والغفران (١)

رأى بعض الباحثين الغربيين أن هذه العقائد الفرعونية من : بعث وحشر ووزن وثواب وعقاب ونعيم ، بعضه مادي وبعضه معنوي ، وعذاب يتفاوت بتفاوت درجات الآثام والشرور ، وأن تلك الطقوس الوثنية من : غسل الميت وتكفينه وتلقينه ودفنه ونحر الضحايا بمناسبة موته ، كل هذا يوجد بحذافيره في بعض الديانات التي تدعى لنفسها السماوية فرموا هذه الديانات الأخيرة باستقائها عقائدها وطقوسها من تلك الديانة الوثنية لا من عند الله كما تدعي

ولست أدري كيف يستسيغ أولئك الباحثون هذا المنطق العجيب مع اعترافهم بالجهل التام للأصول الأولية في الديانة المصرية ؛ وما المانع من أن يكون مصدر هذه الأصول المجهولة لديهم هو « السماء » وأن يكون التوثن والتعدد عارضين لها بعد التأليه والتوحيد ؟ وفي هذه الحالة يكون من الطبيعي أن تتفق مع الديانات السماوية في جميع العقائد والطقوس التي لم ينلها التحريف ؛ ثم ما المانع كذلك من أن تكون تلك الطقوس مستحدثة في الديانة المصرية لا يصعد مبدؤها على سلم التاريخ إلا إلى العهود التي اختلط فيها المصريون بالساميين واقتبسوا منهم بعض طقوسهم الدينية ؟ هذه كلها احتمالات جائزة الوقوع ، ولكن الذي لاشك فيه هو أن اتفاق ديانة وثنية مع أخرى سماوية لا يقوم برهانا على أخذ الثانية من الأولى ، ولا يصح الاستناد إليه في الحيلولة بينها وبين سماويتها

الأخلاق

آمن المصريون - كما قدمنا - منذ عهود تقصر عن إدراكها مجهودات التاريخ بأن لهذه الأكوان منشئا أو منشئين خلقوها ونظموها وهم يتولون تصريف شئونها بحكمة واقتدار وعدالة وإنصاف . ولأمر ما ، اقتنع المصريون منذ أقدم عصورهم بأن هؤلاء الآلهة المتصرفين في الأكوان اختاروا في مبدأ الدنيا عرش مصر واتخذوه مقرا لهم يصدرون من فوقه أحكامهم وأوامرهم النافذة التي لا يجرؤ أي فرد من أفراد

(١) راجع رسالتنا « الآثار الحية لمصر البائدة » صفحات ٢٢٨ إلى ٢٤٤ و « كتاب القصص المصرية » صفحة ١٠

الوجود على التمرد عليها أو عدم الانصياع لها ؛ ثم عن هؤلاء الآلهة أن يغادروا عرش مصر الى عرش السماء ففعلوا ، ولكن بعد أن استخلفوا على هذا العرش العزيز أبناءهم وأحفادهم الفراعنة العظماء وزودوهم بكل ما يحتاجون إليه فى حكمهم للبلاد وسياستهم للدولة وقيادتهم لجميع أنحاء النظم الاجتماعية والأخلاقية التى لا تسير بالبلاد إلا الى التقدم والعمران ، وأن أولئك الآلهة سيلحظون الحاكمين والمحكومين بعنايتهم ويكلؤونهم بعين رعايتهم ماداموا يقومون بواجباتهم نحو أولئك الآلهة المحسنين . وكان هذا القيام بالواجب يتلخص فى الشعائر الدينية وفى الإتصاف بالفضائل الأخلاقية ، وأولها الولاء للعرش والعدالة والصدق والأمانة والرحمة والإحسان وأشباهها

ولا ريب أن هذه الأسطورة — على بطلانها — كانت أقوى العوامل وأهم الأسباب فى رقى مصر العمرانى ، وتماسكها الإجتماعى وجلالها السياسى ، وسموها الأخلاقى ، واطراد تقدمها فى العلم والأدب والفنون الجميلة والصناعات النافعة .

ومن الطبيعى أن الأمة التى تعتقد أن نجاحها فى الدنيا وفوزها فى الآخرة مترتبان على الفضائل لا تألو جهداً فى أن تكون أمة فاضلة خيّرة ، وهذا هو الذى حدث بالفعل ، فقد انتشرت الفضائل فى وادى النيل انتشاراً قويا وعظم الخاصة والعامة معتنقيها وكافأهم الملوك على حسن سلوكهم بجلائل النعم وأعاظم المنح كما ضرب على الرذائل والشرور بأيد من حديد ، وأصبح أفراد هذه الأمة جميعهم يفخرون بالفضائل ويتبرأون من الرذائل لافرق فى ذلك بين فرعون على جلاله وبين الفلاح الصغير أو العامل الحقير . وإليك شيئا من نصوص تصوير هذا العصر الغابر ، ومقدار تمسكه بالفضائل وأثر ذلك التمسك فى حياته : « واعتقد القوم أن الوصول إلى حقول الخيرات الأخروية يكون بالإهتمام بالشعائر الدينية والاعتناء بها ، وبتوالى الأيام اعتقد الناس أن النعيم الأخروى يكافأ به من يحافظ على طهارة الذمة والشرف و الأعمال الصالحة فى الدنيا . من ذلك ما ورد فى مقبرة أحد أمراء الأسرة الخامسة مترجماً : « لقد شيدت مقبرتى بغاية العدل والحق فلا شىء فيها يستحقه غيرى ، وأنا لم أوذ أى شخص » . وما ورد أيضاً من النقوش على جدر مقبرة لأحد أبناء تلك العصور مترجماً : « أنا لم أعاقب قط فى حياتى أمام رجال الحكومة ولم أسرق شيئاً من غيرى ؛ بل فعلت كل ما يرضى غيرى » . ولم تقتصر نقوش مقابر تلك العصور على إنكار السيئات ، بل شملت أيضا فعل الخيرات كما ورد على جدار مقبرة وجيه فى الأسرة الخامسة مترجماً : « كنت أقدم الخبز لفقراء إقليمى ، وأكسو عراته ، ولم أوذ أحداً طمعاً فى أملاكه حتى اشتكانى إلى معبود بلده ، ولم أسمح لضعيف أن يخشى بأس قوى فيتظلم من ذلك للإله » (١)

ومما ورد فى موضع آخر تعزيزاً لما قدمناه ما يلى : « ومنه يتضح أن القوم وقتئذ أخذوا يعتقدون بوجود محاكمة فى الآخرة أمام (أوزيريس) وأن هذه العقيدة أحدثت تأثيراً أدبيا عظيما فى نفوس المصريين ، فإنهم وإن كانوا حقيقة منذ قديم الزمن ذوى ضمائر ونفوس رادعة إلا أنهم كانوا فى احتياج إلى زجر قوى كالوارد فى عقيدة أوزريس . لذلك نشاهد بين نقوش دهاليز أهرام أمراء الأسرتين : الخامسة والسادسة نذير كل من يستولى على مقابرهم بأنه سيحاكم على أفعاله أمام المعبود الكبير ، كما ورد فى مقبرة أخرى ما يشير إلى تجنب الكذب كلية رغبة فى رضاء المعبود وقت الحساب . كل هذه الحقائق وجدت مدونة بين أقدم نصوص الموتى المعروفة الآن بمصر » (٢)

ومما لا شك فيه أن اتصاف المصريين بالفضائل والخيرات يرجع إلى أوائل عهدهم بالتعقل والتفكير . ونحن بهذه المناسبة لا نوافق الأستاذ « بريستيد » على قوله : إن الواجب الدينى كان فى أول أمره مقصوراً على الشعائر ثم تحول بعد ذلك إلى تناول الفضائل . فهذا القول غير صحيح ألبتة ، لأن المصريين لم يعرفوا الحياة يوماً واحداً بدون اعتناق الفضائل والأخلاق وإيمانهم بأنها أوامر الآلهة كانوا ينشرونها بين الناس إبان اتخاذهم عرش مصر مقراً ، أى قبل صعودهم إلى السماء فى الأزمان السحيقة . ولو كان قول بريستيد صحيحاً للزم أن يكون الآلهة قد شغلوا زمناً عن الأمر بالفضائل ولم يهتموا إلا بشعائرهم الدينية ، وهذا منقص لشئونهم ، حاط بعظمتهم عما لم يشعر به المصريون يوماً واحداً

(يتبع) **محمد غلاب**

(١) أنظر صفحة ٤٢ من كتاب « تاريخ مصر من أقدم عصورها » « هارى بريستيد » . (٢) راجع صفحتى ٤٣ و ٤٤ من الكتاب المذكور

دالت دولة الشعر

للأديب هلال أحمد شتا

تصاحب هذه الحقيقة المرة رأسي منذ زمن بعيد ، ويقوم بيني وبين نفسي من أجلها جدال عنيف ؛ فلا أنا قادر على أن أفلتها لتجد لها مكاناً عند غيري ، ولا على أن أدعها تقض مضجعي وتلهب رأسي . . وليس شك في أنني تركتها تؤرقني طوال هذا الزمن ، فلم أفض بها إلى مثل هذه السطور ، خوفاً على نفسي وإشفاقاً وفرقاً . . فكلما تمثل في خيالي وصح في ذهني أن مئات من الناس يقوون على هذه الصناعة — صناعة الشعر — ويخلصون لها ، ويؤمنون بها ، ترددت في الكتابة ، ثم أحجمت . .

على أنني — وقد آمنت بهذه الحقيقة منذ كان شوقي قائماً بيننا يملأ الدنيا صدحا وتغريداً ، ومنذ كان غيره من فحول الشعر لا يزالون في الميدان صوالين جوالين — أحسبني اليوم قادراً على أن أبوح بما آمنت به ، بعد أن خلت عرائن الأسود إلا من الأشبال ، وبعد أن تقدم بنا العصر بضع خطوات كفيلة بأن تقضي على دولة الشعر أي قضاء . .

ذلك أن الشعر لم يصبح مما يسيغه ذوق عصرنا هذا ، ولا أصبح قادراً على أن ينهض على قدميه أو يواصل سيره في سبيل البقاء . وسأحاول على هذه الصفحات أن أبسط ذلك بعض البسط ، مترفقاً في محاولتي عازفاً عن المبالغة . وفي يقيني أنني سأخرج من هذه الكلمة الهادئة ، وإلى جانبي غير قليل من القراء الكرام . . فأما الشعراء والمؤمنون بهم ؛ فلست أخشى اليوم نقمتهم أو أشفق مما عساهم يفعلون .

* * *

ولقد يدرك القارىء أني لا أحاول أن أنتقص من قدر الشعر القديم أو أكفر برسالته ، فأنا عن مثل ذلك عزوف عفيف . . ولكن الذي أقول : هو أن رسالة الجمال والفن في ذلك الشعر القديم ليست خالدة ولا باقية على الأيام ؛ وبحسب الشعراء الأقدمين أنهم قاموا على تأدية هذه الرسالة في عصورهم وأزمانهم ، وأنهم صوروا بشعرهم صوراً بهرت نفوس ذويهم وأقوامهم ومعاصريهم ؛ بل إن تقدير الزمن قد امتد بآثارهم عصوراً أخرى غير تلك العصور . . ولكن نتاجهم هذا لم يعد راويا لظمأنا نحن إلى الجمال ، مصوراً في صورتهم نفوس أبناء هذا العصر الحديث الناظرين إلى الحياة بغير منظار السادة الأولين . . وكل ما بقي لنا من آثار ذلك السلف الكريم لا يعدو أن يكون ثروة لفظية ولغوية تقوم منا اللسان وتبسط أمامنا سبل الحديث المستقيم ، ولا يعدو أن يكون موضوعا لدراسات أدبية ، أو اجتماعية ، أو نفسية ، يفيد منها التاريخ ، ويفيد منها رواد الأدب والباحثون في حياة الجماعات الأولى . . كيف كانت ، وكيف سارت بها السنون نحو الرقي والكمال ، أو نحو التدهور والقعود . .

وهذه اللغة العربية التي جمعت على هيكلها شعوبا وقبائل في شبه الجزيرة ، كانت في حاجة الى الشعر وهي ما زالت طفلة تحبو ، شأنها في ذلك شأن كل اللغات اليافعة القريبة المولد ؛ فالشعر يكاد أن يكون هو المظهر الأوحد للأدب أو الفن في البيئات الأمية التي تقطع فيها أسباب الكتابة والتدوين . وكل جماعة من الجماعات الأمية محتاجة أشد الحاجة الى وسيلة تسجل بها خواطرها المشتركة ، وتعبر عن مشاعرها ، وتتحدث بمفاخرها ؛ ولا بد من أن تكون هذه الوسيلة قادرة على اذاعة رسالتها بين الأفراد ، وحثهم على أن يتلقنوها ؛ ولا يستطيع كل ذلك الا الشعر ، فان اتزانه ، وتقفيته ، وموسيقاه ، تسوقه الى ذاكرة سامعيه من أيسر طريق وأقصد سبيل

ولا شك في أن علم الناس بالقراءة والكتابة — بعد ذلك — يحمل عن كاهل الشعر بعض هذه الإعباء ، ويجد كذلك من سلطانه شيئا ، ويسلبه بعض نفوذه العريض ، ولكنه يوجهه توجيها ساميا نحو الفن الرفيع ، وتلبس ألوان الجمال ، التي تختفي في ثنايا الوجود ، وتتوارى وراء أغشية الجمود

على أن الشعر لا يمكن أن يكون متفردا بهذا التوجيه الجديد الذي دفعته اليه معرفة الناس القراءة والكتابة ، لأن هذه المعرفة خلقت النثر الواسع الأجواء ، الذي يلعب بسائر فنون القول ، والذي أصبح بعد قليل أقدر عليها من الشعر وأقوى ساعدا . ولست بحاجة الى أن أثبت قدرة النثر على التعبير ، وتفوقه على الشعر في هذا السبيل . فذلك أمر بديهي ؛

ولن يجد الكاتب الذى يسجل خواطره، أو يترجم أحاسيسه، أو يعبر عما يختلج فى ذهنه من المعانى - أفسح من النثر مجالا، ولا أوسع ميدانا لقلمه الجوال. ولن يتقيد فيما يكتب بوزن يتحتم عليه أن يرعاه، ولا بقافية تأخذ بخناق قلمه أخذا.

وأخشى أن يتحدث المفتونون بالشعر - فى هذا المجال - عن روحانية الشعر، وسمو أجوائه، وروعة أخيلته، وفتنة موسيقاه، وما الى ذلك مما يجيدون فيه الحديث؛ وألا يدركوا أن روحانية المعنى.. وسمو الجو، وروعة الخيال، ليست قاصرة على الشعر ولا هى وقف عليه؛ فما أجمل ما يكتب الناثرون أصحاب النفوس الشاعرة، وما أروع ما ينتجون..

وفى جنبات سطورهم المنثورة تسفر الفتنة الخالدة التى تلعب بالمشاعر لعباً.. ولن يسىء إلى هذه الفتنة الرائعة أنها محاطة بجلال الصمت، وأنها عارية عن موسيقى الشعر التى لم تعد إليها بحاجة،. فلقد كانت هذه الموسيقى تهز النفوس يوم كانت النفوس لاتزال على فطرتها طفلة رخوة؛ ولكنها اليوم لم تهز نفوساً تنصيت كل يوم لموسيقى الأوتار.

لقد دار الزمن دورة قصيرة المدى، فاذا الشعر يصبح قاصراً عن أداء رسالة الفن والجمال، التى وجهه إليها علم الناس بالقراءة والكتابة؛ وليس عمر الشعر العربى الصحيح الذى أدى رسالته هذه فأحسن الأداء سوى لمحة خاطفة من عمر الزمان، فلقد وقف بعد ذلك حينا فأطال الوقوف، ولم يخط إلى الأمام خطوة واحدة، بل إنه سار إلى الوراء خطوات وخطوات، ليصبح ترديداً معوجاً لما قال الأقدمون

ولقد ذهب الباحثون يتلمسون أسباب وقفته، ويخلقون المعاذير، وراحوا يوغلون فى مسالك من القول متشعبة لاتنتهى إلى مصير؛ يضرب الأكثرون منهم على وتر واحد هو وتر الخطوب السياسية التى هدت كاهل العرب والعربية والتى طوحت بآثارهم إلى مهاوى الفناء.. ومهما يكن فى ذلك من الصدق أو سلامة المنطق، فانه لا ينهض سبباً لوقفة الشعر العربى فى أيامنا هذه التى شملتنا فيها موجة من الرقى فى مناحى التفكير جميعاً، إلا ناحية الشعر.. والتى بلغ نثرنا فيها مكاناً فوق مكان الأولين

وفى يقينى أن وقفة الشعر هذه، وتخاذله، وسيره نحو الفناء، لاسبب له سوى أنه قد أدركته الكهولة، فلم يبق ثمة أمل فى شفائه من أهوال السنين التى تستشرى اليوم فى عظامه وخلاياه، والتى سوف تحيله أثراً وذكرى. فليست عقولنا كهلة ولا مريضة، وإنما الشعر هو المريض المهيض؛ وما أجدبت منا القرائح ولا زايلتنا خصوبة الخيال، وإنما الشعر هو الذى يضيق عما خلقت قرائحنا المصقولة بمعول التفكير الحديث من آفاق واسعة ممدودة الأطراف. وهاهم الأوربيون - وهم من تتحدث معجزات العصر بعبقريتهم ونبوغهم فى شتى جوانب التفكير، وسائر ضروب الفن الجميل - قد أدركوا منذ زمن بعيد قصور الشعر وضيق ذات نفسه، وتوجه شعراؤهم إلى ألوان من القصة والمسرحية وغيرهما. وها هو شعرهم آخذ سمته نحو الهزيمة القاتلة والفناء الذريع.

ويلوح أن شعراءنا المحدثين قد آمنوا بهزيمة الشعر فيما بينهم وبين أنفسهم - ولو من حيث لا يشعرون - ويلوح كذلك أن جهود شوقى الأخيرة فى سبيل المسرحية الشعرية كانت مظهرا من مظاهر هذا الايمان.. وإننا لنلمس أن النثر فى نتاج العقاد عشرة أضعاف الشعر أو يزيد، وأن القصة وحدها والمقالة القصيرة هما قبلة جهود المازنى جميعا - وقد كان شاعرا -

وأحمد الله على أن شعراءنا الشبان، أمثال ناجى، والخفيف، وفتحى موسى، والطرابلسى، وغيرهم، قد وجهوا عنايتهم إلى القصة وما اليها من فنون الكتابة والبحث، قبل أن يبعثر الشعر أيامهم الغر، وهى أعز علينا من أن تلق فى الهراء..

ولا حاجة بعد هذا إلى القول بأن دولة الشعر قد دالت، فذلك ما انتهيت اليه، وما أظن القراء الامنتهين إليه أيضا.. وإذا كان الشعر قد استطاع أن يحافظ على بقائه طوال هذه السنين، وأن يعارك الزمن فتيا وكهلا، فلن يستطيع البقاء فى عصر الطباعة والصحافة، ولن يستطيع البقاء فى عصر القصة — وقد سلبته ما تبقى له من بعض الفتنة والجمال. ولكننى لن أنسى أن أقول إن نوعا واحدا من الشعر لا يزال قادرا على البقاء، هو شعر الغناء، ليكمل جانبا من فن الموسيقى، كما يكمل أدب المسرحية فن التمثيل.

ويستطيع الشعراء بعد ذلك أن ينظموا لأنفسهم ما يشاءون، وأن يقرأوا لأنفسهم كذلك ما يشاءون.. فأما المجد الادبى، وأما رسالة الجمال والفن، فليبحثوا عنهما من طريق غير هذه الطريق..

هلال أحمد شتا

بجلس الصبوخ

مات كاتب البعث!

للأستاذ عبد المنعم خلاف

ما أدركت روحي موته لأول منعاه لأنه يملؤها ويدفعها على بحور من قلبه، ولا يزال شفق شمسه على آفاقها يسحب ذيوله في بطء، ولذلك استطعت أن أتلقى منعاه تلقي الخبير بالموت العالم بأنه شيء عادي يجب ألا تضج منه الأحياء بالشكوى والتفجع.

ثم أفقت دفعة واحدة منزعجاً على ضجة روحي وهي تنزى من الألم وتلوى تحت هول الفجيعة... لجيعة قلبي في صاحب حديثه، الكاتب الأصم الذي كان يسمع من هناك... مما وراء الأبعاد والحدود... ثم يحدث

ولجيعة نفسي التي كانت تغتسل كل أسبوع بمداده الأسود المنير... ولجيعة قلبي العاجز في صاحب القلم المعجز الذي كان في يده كعصا سحرية يلعب بها تارة فيخايل «بالسحاب الأحمر» و«حديث القمر» ويكتب بها على «أوراق الورد»، ويضرب بها على قسوة القلوب فتنبجس للمساكين، ويسوق بها وتحت راية القرآن، نحو هدف الشرق الإسلامي أجيالا جديدة هي مدينة له لاريب بجزء كبير من الروح الذي يملؤها بفتنة المجد وسحر العزة ومرارة الجد، وبعث تاريخ الأبوة، والإيمان بالشرق والعروبة والاسلام إيمانا يحمل عليه الفن الساحر والروح الغامر الذي يستولي على القارئ ويتركه في غمرة لايفيق منها إلا وقد انتقل إليه سر الكاتب، وسحر المكتوب.

وابتدأت جراح روحي تتسع وتستدمي وتنغل حتى توجعت واضطربت وراب أصدقائي من أمري شيء غريب، وصاح الألم ينادي القلم ليسعفه بالبلسم فيشيع الراحل العظيم ويسعى في جنازته الروحية على صفحات (الرسالة).

ولكن العاطفة إذا ثارت وفارت وماج هيجها شلت جميع قوى العقل. وها أنذا أجلس ساعتين لأكتب الكلمة التي أخفف بها عن نفسي فلا أستطيع! مع أني ممتلئ بميراث الرجل وشخصيته وأدبه وحيه وأخباره.

وأشهد أن جميع ما في نفسي من الحزن يختفي حين أريد أن أدفعه عني في أجياد وصور من كلمات، وأن ما أريد أن أقوله يروغ مني وتزيغ حواسي دون مكمنه فلا أراه ولا أدركه...

والأمر بعد للصمت وإن أتلف، وللدمع وإن أسعف.

وقدرت أن مناحة ستقام بمصر على كاتب البعث فانتظرت حتى بكوا وكتبوا، فقرأت بعض الكلمات، وشربت بعض العبرات.. ورأيت مكان قلمه خاليا في (الرسالة) فراعني وحدثني أن أعلام الأدب الإسلامي التي كانت تخفق على نصاب من قلمه قد طويت إلى يوم النشور... وأن البيان الهدار الرجاف الجارف قد غاض... وأن القلب الذي كنا نسمع لغته بين السطور قد تقطعت أوتاره... وأن الحركة الدائبة المجاهدة الناصبة لغاية الشرق الاسلامي والاعتزاز به والدفاع عن محاسنه وجلوة آثاره والصمود بها أمام الزلزلة التي أصابت الشرقيين غداة صحوا على قصف القوة الغربية وفتنة مباهجها صمودا ترك كثيرا من الشبان متماسكين مؤمنين بأنفسهم وبلادهم وميراثهم على رغم ما أتى به الغرب من تخانيث المدنية وزيغ الحواس بها.. هذه الحركة قد ركدت إلى الأبد في وادي السكون...

ثم قرأت قصة موته بقلم صديقه وأستاذنا صاحب الرسالة فعجبت لذلك القلب الكبير الذي يأبى أن يموت إلا على نية عمل عظيم للحياة.! يريد أن يطهر... إنها وصيته إلى تلاميذ مدرسته فلينفذوها، فانها رغبة التاريخ حدث بها على لسان حي ميت

وهكذا تنتهي حياة المجاهد لا يموت في فراشه إلا على نية الجهاد، لأن أشواق روحه وأوطارها دائما في حياة الميدان..

وهكذا تسلم حياة الطهارة إلى تلك الخاتمة السعيدة بالنية العظيمة كما تسلم حياة الإثم وخيانة الميراث الانساني والأمجاد القومية إلى أن يموت أحدهم وهو في ضجة من شهوات النفس. ولكن هل يستويان مثلا؟ لا والذي جعل الحياة واجبا حملناه غير مخيرين ولا يسناه على كره منا! وجعل الأرض ميدانا للكفاح، لا وليمة للتشهي! وجعل من التاريخ كيراً لا ينى ينفي الخبث!

***

قصة حياة الرافعي العظيم هي قصة الكفاح بين أولئك الذين أرادوا أن يجمعوا للشرق بين الحسنيين من الطريف النافع والتالد الخالد الثابت الذي لا يمكن أن يتغير بتغير العصور، فإغفاله ضلال في الحاضر وعقوق للماضي وتضييع للمستقبل وإفناء للشخصية؛ وبين أولئك الذين أرادوا على حد تعبيره أن يترجموا أمم الشرق إلى أمم غربية برغم الدم والاستعداد وطبيعة المكان ووحي التاريخ. وقد بدأ رحمه الله أن يأخذ مكانه في صفوف الفريق الأول منذ عهد الإمام محمد عبده، ولذلك دعا له بهذه الدعوة التي تعتبر نبوءة صادقة من الامام قال له: «أقامك الله في الأواخر مقام حسان في الأوائل»

وما زال الرافعي حجة من حجج الشرق والإسلام في عصر فقير من الأقلام المجاهدة الذائدة ؛ وقد أتى عليه زمن أوشك فيه أن يكون وحده آخذاً جهة في الميدان وجميع الكتاب في جهة مضادة ، وكان هذا في الزمن الذي أعقب الثورة المصرية سنة ١٩١٩ والذي طغت فيه على مصر موجة هدامة تطرفت حتى إلى أقدس مقدساتنا وهو القرآن الكريم ، ولم تنحسر هذه الموجة إلا بعد سنة ١٩٣٠ حيث تعرف الناس بفضل الجمعيات الدينية إلى أمجاد دينهم وتاريخهم . وقد أمد الرافعي هذه الجمعيات ببيانه المترجم عن النزعات العربية الاسلامية في زمن كانوا أحوج ما يكونون فيه إلى مثله . ولم ينته عصر المقاومة بين الفريقين إلا وقد ظهرت في الميدان أقلام تبني وتترجم وتكشف عن المدخرات في ميراثنا وكان لها من قلم الرافعي لواء وروح وموسيق . . . . ثم أعقب ذلك هذه الموجة الدينية العربية التي تغمر روح الشباب المصري وتدفعه إلى الثورة في سبيل تعميم التعليم الديني حتى في كليتي الطب والهندسة !

أليس هذا نصراً عزيزاً للرافعي وأمثاله ممن سلخوا ثلاثين عاما وهم في شبه وحدة في الميدان ؟ أليست مقالته القريبة « قنبلة بالبارود لا بالماء المقطر » نشيد النصر وأهازيج الظفر بخصوم عتاة ؟

فليت شعري ماذا كان يريد بعد ذلك من حركة التطهير ؟

***

إن الرافعي ليتسامى إلى حيث لا يبلغه أحد حين يضع نشيداً دينياً أو وطنياً . ويخيل إلى أنه حين كان ينظم أناشيده يستجمع حاسته السادسة التي تعوض بها من حاسة السمع ، ويجلس على جناحي الزمن : التاريخ والغيب ، ثم يضرب على أوتار القلوب بألحانه التي كان يسمعها من ذكريات الأصوات والأنغام ، ومعانيه التي كانت لا تتنزل إلا له وحده

واقرأ إن شئت برهانا على ما نقول النشيد الذي وضعه لجمعيات الشبان المسلمين ، أو نشيد سعد زغلول ، أو نشيد الوطن ، أو النشيد الوطني الذي وضعه أخيراً ، لترى هل يستطيع غيره أن يصل إلى ما وصل إليه هو من بيان واجبات الشباب ونجواه لمجده ودينه ووطنه

***

إن الرافعي لم يكن كاتبا يكتب للفن وحده ، ولكنه كان صاحب رسالة وأهداف سار إليها منذ أن شب عن الطوق في دولة القلم

وإن شعوره برسالته تلك استولى عليه في كل ما كتب حتى فيما كتبه يعاجز به أدعياء التجديد الذين كانوا يخوضون منه في ساحل ضحضاح ويضرب هو في عبابه وأعماقه ويخرج بالدرر اليتيمات ، فهو لم ينس غايته فيما كتبه من أحاديث الحب والمراقص والسوامر

ولم تخدعه عن غايته فتنة الشهرة وتملق الجماهير بادعاء الالحاد وزعم التجديد فيدلي بالكلمة الكافرة والرأي الآثم ، بل فرض نفسه وفكره فرضا . وكان ينعى على الأدب الصحفي الذي يسير فيه « صعاليك الصحافة » وراء الجماهير حتى أسلمهم الحال إلى أن يكونوا مقودين لا قادة كما يجب أن يكونوا وكما تملي عليهم مهمتهم

***

لقد حظي الرافعي بشرف المبالغة من مؤيديه ومعارضيه ، شأن كل عظيم رأته الأرض ؛ غير أن حظه من شهادات المقدرين لأدبه في حياته من أوفر حظوظ الأدباء . فقد ظفر بنبوءة الأستاذ الامام وتقدير الزعيم الأكبر سعد زغلول لبيانه الذي « كأنه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم » ، وتلقيب أمير البيان الأمير شكيب أرسلان له بحجة العرب ونابغة الأدب . وقول المغفور له أحمد زكي باشا « لقد جعلت لنا شكسبير كما للانجليز شكسبير وهوجو كما للفرنسيين هوجو ، وجوته كما للألمان جوته » ، وإجماع الناس على أنه أوحدي في فنه اللفظي وتوليد معانيه مما وراء حدود الكتاب والمنشئين ، مما سما بنثره إلى درجة تعلو الشعر في موسيقاه وترجيعه . وأذكر أنه محرر مجلة الهلال كتب عنه كلمة : بمناسبة ظهور الطبعة الثانية من كتابه « المساكين » قال فيها ما معناه « إن من يقرأ للرافعي يؤمن بأن البلاغة حاسة سادسة »

وقد سمعت منذ ثلاثة أشهر من أحد كبار من أثق بعقلهم وتقدمهم وممن كانوا يسخطون على طريقة بيان الرافعي قبل أن تجلوه (الرسالة) يقول : « إن الرافعي يصل في بعض الأحيان إلى مرتبة الاعجاز . . .

وأذكر أيضا أني قرأت في مجلة الزهراء التي كان يصدرها الأستاذ الكبير محب الدين الخطيب منذ عشر سنوات أو تزيد أن أحد المعجبين به من أدباء المهجر كتب إليه يقول إن لولا « الجملة القرآنية » لكان أبلغ من كتب بالعربية في جميع عصورها . .

والذين لا يقدرون أدب الرافعي هم الذين يقرءون للتسلية وتزجية الفراغ لا للدرس ولا « لتمثيل » المعاني ؛ لذلك كان يؤودهم ويجهدهم أن يتابعوا سمو عقله وأن يكثروا مما على موائده الدسمة .

أما الذين كانوا يقرءونه للمتاع بمعانيه الخارقة فكانوا لا يكتفون بقراءته مرة أو اثنتين أو أكثر إذا أحوج الأمر ، وهم الكاسبون لأنهم قرأوا « قراءة عريضة » لا « قراءة مستطيلة » ليس وراءها غناء

وأذكر أني قرأت خطرة من « خطرات نفس » للدكتور منصور فهمي بك التي كان ينشرها في الاهرام منذ ١٣ سنة يقرظ « رسائل الأحزان » للرافعي قال فيها ما معناه : « إنك كالموسيق الألماني فجنر الذي كانت ألحانه لا يفهمها البشر ، حتى قال الناس إنه

ومضة خالصة من الحيف على الرافعي

فقيد البيان الرفيع

للأستاذ حسين مروة

إننا — علم الله — لنشعر بالتياع حزاز فى قرارة النفس ان لم تؤآتنا الفرصة للجهر برأينا فى أدب المغفور له الأستاذ مصطفى صادق الرافعى إلا فى هذه الساعة الرهيبة إذ تفجؤنا أنباء وادى النيل بنعى الرجل راحلا إلى دار الله الباقية ، ملقياً عن نفسه هذا العبء الذى كانت تضطلع به في سبيل الله ، وفى سبيل الفصحى الكريمة لغة القرآن الكريم ، وفى سبيل البيان الرفيع اللهجة ، العلى النغمة ، النبيل المعنى والقصد والأداء . وإننا لنشعر بالألم يشيع فى أحناء الصدر أن رزئت دولة الأدب والبيان العربى هذه الرزيئة بفقد علم خفاق من أعلامها لم يطل به عهد الجهاد فى سبيلها ، ونكسته يد القدر قبل أن يؤدى رسالته العالية ، وإن هى إلا الرسالة التى تنتظرها الروح العربية الناشطة من عقال الخنوع والاستعباد ، والنهضة الاسلامية الطالعة اليوم من كل فج وواد ؛ بل هى الرسالة التى تتحرق الانسانية كلها شوقاً إلى سلسلها العذب وخمرتها العلوية الخالدة ؛ فلقد كان الرافعى الراحل كياناً أدبياً شامخ السمك رفعته يد العناية فى هذا الجيل ليبث فيه عبق الفصاحة العربية التى أسنت فى آنية الزمن حتى كادت تستحيل على أسلات الأقلام الناشئة المتأدبة فى هـذا العصر ريحاً غريبة ماتكاد تتبين فيها نفحة العروبة أو عذوبة الضاد ، أوشمائل الأجداد . ولقد كان الرافعى الراحل كذلك كلمة إسلامية جامعة تتلخص بالدعوة الصارمة الصارخة الصادقة إلى فضائل الإسلام فى زمن كادت تتقلص فيه عن هـذه الأرض الواسعة ظلال الفضيلة وخلائق الخير ومثل الانسانية العليا . ولقد كان — إلى هذا — فكراً تتدفق فى مطارحه أشعة الحقائق الاسلامية ، وقلباً يطفح بفيوض الايمان بعبقرية هذا الدين الحنيف ، فكان من أجل هـذا وذاك أنطق ناطق فى التعبير عن « الاشراق الإلاهى » الذى يطفو على وجه هذه الشريعة السمحة الغراء فى كل قضية من قضاياها التشريعية أو الروحية العبادية الخالصة ؛ وكان من أجل هذين أيضاً أبرع بارع فى تفسير « النبوة » على ما يريد الله منها فى بعث الرسل إلى الخلق وبث النبوات فى الكون ؛ وكان أقوم لسان فى حكاية « فلسفة الاسلام » على وجهها الذى ينبغى أن ندين الله به :

هذا هو الرافعى فى أدبه من الوجهة الروحية كما فهمته فى جملة ما قرأت له من كتب ومقالات ؛ ولا سيما هذه المقالات التى كان يكتبها « للرسالة » فى المناسبات الاسلامية التى جرت (الرسالة) على الاعتداد بها ، وعقد الفصول حولها ، وتخصيص بعض الأعداد لها ؛ ولكن المصيبة فى أمر الرجل أن الجيل الناشىء يتجافى عن أدبه ، وينقبض عنه انقباضه

يطرب للملائكة . ورجاه ان ينزل من مستواه قليلا حتى يفهمه الجمهور . وهو نقد لبق يعترف للرافعى بالسمو وإن كان يأخذ عليه غلوه فيه فى بعض الأحيان . . ولكن للرافعى عذره من قوة جناحيه وقد كانا يحملانه إلى جوه الذى فيه سر عبقرياته . .

ويخيل إلى أنه كان يكتب كما يتنفس . . كما عبر واصف بلاغة جعفر بن يحيى البرمكي « وأنه لم يكن يقصد إلى الاغراب وإنما هو عفو الخاطر . على أن تلاحق السعى من قلمه فى « الرسالة » قد خدمه أجل خدمة ، وبه استطاع أن يخترع ذلك اللون الجديد من أدب البعث فيما يشبه القصة

حاولت أن أرثيه بكلمات شفافة طائرة تليق بروحه وبيانه فإنه لايليق به أن يرثى بهذا الكلام الجسمانى . . . وحاولت أن أصنع ريشا يرفعنى إلى السماء التى كان يأخذ من كواكبها نور قلمه ، فأعددت جو الذكرى وأحرقت البخور واستجمعت اطرافى للوثبة ، ولكن كثافة النفس وخفوت الطبع قعدا بى فاجتزأت بوصف عجزى . . .

سأقرأه فى لباس التاريخ وروح الذكرى بعد أن مات وصار كلمة

وسأضع أذنى على قبره دائما لأسمع نداء قلبه بهذه « العقدة الروحية » التى دعا إليها فى مقالته « فى وحى الروح » . .

وسأجعل من شعلة روحه شمعتى . . .

ومن وحى قلبه غاسولا لحوبتى :

ومن أناشيده موسيقى همتى . .

جعل الله ميراثه للخلود ، وجهاده للنصر ، وروحه الى الجنة .

« نزيل بغداد » عبد المنعم خلاف

الهازل اللاهي السادر في هزله ولهوه ، إذا ما جئته بالأمر الجد ولوحت له بشأن من الحق . ولعل كثيراً من المؤمنين بعظمة الرافعي من هذه الناحية ما كانوا يستطيعون الجهر بإيمانهم هذا خشية أن يرميهم جمهرة من الناس لها شأنها في هذا الجيل بهذه الرمية التي اتخذت سبيلا إلى غل الأفكار عن البوح بما تفكر فيه ، هذه هي ما يسمونها « الرجعية » كما اتخذ غير هذه الكلمة سبيلا إلى ذلك عند جمهرة أخرى من الناس لها شأنها كذلك ، تلك هي ما يسميها الجامدون « هرطقة » أو « كفراً » أو « عصرية » ... ؛ والويل لنا من هاتين الفئتين ...

أما رأيي في أدب الرافعي الذي فصل الموت بين عالمنا هذا وبينه في عالم الآخرة — أما رأيي في أدب الرجل من الوجهة الفنية ، فهو رأي كونته لنفسي منذ بدأت « الرسالة » تنشر له أدبه ، وقد كان قبل ذلك يشرف على الناس من كوة ضيقة ؛ وكان يتلهى في الأدب تلهياً ، وكان يعبث فيه عبثاً ؛ وكانت الفصاحة اللفظية كل همه فيما ينشيء من مقالات أو كتب أدبية ، وكانت الصناعة الظاهرة والزينة والبهرج كل ما يطمح إليه . وقد كنت أرغب عنه يومئذ كما يرغب عنه اليوم كثير من ناشئة المتأدبين وقراء الأدب ؛ وقد انقطعت عن قراءته من أجل ذلك زمناً ؛ ثم قامت في مصر مجلة « الرسالة » وأقبلنا عليها في كل دار من ديار العروبة ، وكانت لي رغبة حينئذ في أن أجدد عهدي بالرافعي ، وقد جاءت هذه المجلة الجديدة به إلى حظيرتها فأقبلت عليه بعد موقف قصير ترددت فيه بين عقل مستطلع ونفس تطلب اللذة السهلة الميسورة ؛ وما طال عهدي معه في هذا الدور حتى أصلحت رأيي فيه ، وكونت لي هذا الرأي في أدبه من الوجهة الفنية ... هذا الرأي الذي قلت في مستهل الحديث أني أشعر بالتباع حزاز في قرارة النفس أن لم أجهر به إلا في هذه الفرصة الآلية إذ رحل الرجل إلى دار الخلود الحق .

ورأيي هذا في أدب الرافعي هو أن الفصاحة العربية الخالصة وإن كانت أولى مطامحه حين يجلس إلى كتابة المقالة ، ولكنه يأبى الإباء كله أن يضع جملته الفصيحة المشرقة قبل أن ينحت لها المعنى الدقيق العالي . وأشهد أنه ينحت هذا المعنى من قلب الحياة أحياناً ، وقد يستأسره بلباقة من أرحب أجواء الخيال الشعري الصافي ؛ فاذا امتلك عنانه وصار قيد قريحته الخصبة كساه هذه الأجنحة الطاووسية الأخاذة ، ونفحه بريح طيبة من نفس العروبة الشذي الأفيح . وإذا كان في بعض ما يقرأ له الناس ما يسمونه تعقيداً فليس هو — في رأيي — بتعقيد ؛ ولكن هذا الجهاد الفكري الذي يلقي نفسه في غمراته كي يقتلع المعنى من قلب الحياة ، أو يستأسر الصورة الجميلة من جو الخيال الشعري ، ثم هذا الترفع الذي يطلبه في الكسوة اللفظية ، وهذه النفحة العذبة التي يقصدها في مهابها من الأدب العربي القديم ؛ كل هذه مجتمعة تعمل في إنتاجه هذا العمل الذي يخيل للقارئ البعيد عن روحه أنه تعقيد . ولو كان الصبر والجلد مما يسره الله لنا في طبيعتنا واستعملنا هذا الصبر والجلد في مرافقة الرافعي قليلا لأنست به أذواقنا الفنية وأرواحنا ، ولأفدنا من فصاحته العالية الشيء الثمين الغالي ؛ ولكن مصيبة الرجل في هذا الجيل كما قلت لك هي مصيبة الجاد بالهازل ، مصيبة من يطلب الحق ممن لا يطلب إلا موارد اللهو الميسور الرخيص . ومن الحق أن نقول — آخر الأمر — إن ضآلة ما يحمل الرجل من ثقافة أبناء الجيل الحاضر هي الأخرى من جملة العوامل على ضيعته فيهم ، وذهابه عن دنياهم قبل أن يفيدوا من رسالته ما هم في أشد الحاجة إليه . ولعل هذا الجهد العظيم الذي يجهده حين يكتب فيخيل لقرائه أنه يقصد إلى التعقيد — لعل هذا يرجع إلى قلة بضاعته من الثقافة الحديثة ؛ ولعل من آثار هذا الأمر ما نرى من عنايته في إخراج الجمل قوية دون أن يعني ، أو دون أن يستطيع العناية ، بوحدة المقالة وجعل الموضوع وحدة كاملة متماسكة .

وبعد فان الرافعي الراحل هو — في عقيدتي — بنيان أدبي شامخ ينهار قبل أن يصل إلى أهدافه السامية . رحمه الله رحمة واسعة ، وعوض الأدب العربي خير العوض عن هذه الخسارة الجسيمة .

« النجف » صبغة مروة



رسالة الشباب فى الحاضر

مهداة إلى الشباب المصرى المتوثب

للأستاذ خليل هنداوى

يسرنا جداً أن تعلن «الرسالة» فى جملة رسالاتها رسالة الشباب، وتقوم بها فى جيل عرف قيمة الشباب وعظمة مقامه فى حياة أصبحت دعائمها ترتكز عليه، وهو الجيل الذى قضى على ثرثرة الشيوخ وترددهم، وأثبت لهم أن الأمة فى استطاعة شبابها أن يمشوا بها إلى المورد العذب، والغاية المثلى؛ وفى تنظيم فئات الشباب فى كل أمة واعتماد الدولة على هذه الفئات المنظمة آية بل آيات لمن كفر بمعجزة الشباب.

وقد كانت رسالة الشباب — قبل انجاز المعاهدات سواء فى مصر وسورية والعراق — رسالة تيقظ وتدمير، وخلق للفوضى؛ لأن الفوضى وحدها — فى عصر الجمود — تحرك الذرات الواقفة، وتخلق الوعى والشعور فى الأنفس الهامدة.

ويظهر أن رسالة الشباب بدأت — فى هذه الأصقاع واحدة، ويظهر أنها سائرة إلى هدفها على طريق واحد... بدأت برسالة التهديم، والتهديم وسيلة لا غاية، وذريعة إلى بناء جديد، ولا يقوم هذا البناء إلا على كواهل من خربوا وهدموا للقديم وحاربوا الذل والقيد! وإن مما يستوقف المفكر أن يفكر فى رسالة البناء؛ والبناء صفة أدق من التهديم، لأنها تحتاج إلى دقة ونظام واستقامة فى العمل. والهندسة قبل البناء، توفر كثيراً من العناء! فما هى رسالة البناء؟ وما هى حدود هذه الرسالة التى يجب أن يقوم بها الشباب؟

أصبحت لا أخاف على شبابنا بعد أن عرفوا التطرف؛ وكيف يبلغ القمة من لم يتطرف! وأصبحت لا أخشى خوراً ينفذ إلى نفوسهم، أو سكوناً يطغى على حركتهم، بل إننى أصبحت أخشى أن تصرفهم لذة التهديم عن لذة البناء، لأن لذة الشباب وهواه فى الطفرة والتطرف ... ولكن لا أريد أن يقوم هذا البناء إلا على سواعد الشباب مهما شابته الأهواء ومهما داخله فساد ... لأنى أريد أن يلم الشباب بالبناء وأن يلموا بأمر عظيم ما تلقى عليهم تبعاته، وبهذا نعيد لشبابنا حاسة العمل التى عطلتها التقاليد وأثرة الشيوخ.

ويقينى أن الشباب لا يهدأ نضاله ولا يصرفه عن عمله كلل أو فشل! وكيف نريد أن نحرم الشباب لذة العمل فى هذا الانقلاب وهم كانوا يده المتصرفة وقلبه الذى ينزف دماً!

لعل الشباب يزعمون أنهم قد انتهى عملهم بعد أن انتهى الفوز لهم؛ ولعل الشباب يقولون: لنسترح الآن فقد تم جهادنا؛ ولعل الشباب يظنون أن العهد الذى جاهدوا فيه فى سبيل الحرية قد انقضى. على أن عملهم الحقيقى قد (بدأ الآن) لأنهم هم الذين خلقوا العهد الجديد وهم الذين ينبغى أن يكونوا دعائمه.

بلى! ياشبابنا، ومصابيحنا فى طريقنا! لم ينته عملكم وإنما عملكم ابتدأ الآن، لأن العبودية السياسية التى تحررتم منها لا يزال خلفها عبوديات مختلفة ليست بأقل خطراً منها. ومن ذا يعمل على التحرر من هذه العبوديات إلا الذين لا يعرفون الوهن فى العزم ولا التردد فى الأقدام، وهم الشباب!

أنقذتم أنفسنا من العبودية السياسية، فأنقذونا من العبودية الروحية التى أورثت أرواحنا الذل وأورثتنا مع الذل الضعف والجبن حتى أصبحنا إذا طلبنا حقنا طلبناه سائلين.

أنقذوا نفوسنا من العبودية العقلية التى غادرت تفكيرنا رياء، وتظاهرنا بالتقاليد رياء. وهل كان الرياء إلا ثوباً من أثواب العجز؟ وهل كانت العبودية العقلية إلا أثراً من العبودية السياسية؟

أنقذوا نفوسنا من عبودية الألقاب الفارغة، والتقاليد البالية، التى تشهد بها على حقارة أنفسنا بأنفسنا. وكونوا أمثال

العزة والكرامة التي لا تكرم إلا الكرامة ..

هنالك عبوديات كثيرة تقف في طريقكم، وعقبات كثيرة تريد وقف سيركم المبارك، ومن لها إلا الشباب؟ إلا الذين يسعون إلى الحرية لتقتلهم الحرية، وبقتلها إياهم يعتزون وينتصرون، ومن لها إلا الشباب الذين يرى فيهم الجامدون خطراً على المجتمع لأنهم متطرفون متهورون يجمح بهم طموحهم كثيراً. فأي شيء يخاف هؤلاء الجامدون من خطر يريد أن يقلب مجتمعاً تراكم الفساد فيه على الفساد؟ أي شيء يخاف هؤلاء البالون من تهور على طريق الحرية وخيرها! وأي شيء يخاف هؤلاء الجبناء من طموح يريد أن يصعد ويصعد!

هاقد جاء عهدكم أيها الشباب! العهد الذي يعطيكم الحرية ويفتح لكم آفاق الأمل فيما تحلمون! وهذا العهد ليس بالخفيف عهده، ومتى كان عهد التحرر خفيفاً؟

هذا عهد تريد فيه أمة أن تخلق

هذا عهد تريد فيه أمجاد قديمة أن ترجف

هذا عهد تريد فيه كبرياء شعب أن تتيقظ!

هذا عهد تريد فيه حضارة ساهمت في الحضارة الإنسانية أن تسطع منارتها وأن تتم رسالتها!

ومن لهذا العهد إلا الشباب الذين لا يقولون «القناعة كنز لا يفنى» لأنهم لا يعرفون القناعة ... إلا الشباب الذين لا يقولون ما يقول ذوو النفوس الحقيرة: «كلب جوال خير من أسد رابض» لأنهم يعلمون أن روح الأسد لا تنوب عنها أرواح الكلاب مجتمعة. والربوة التي يحميها أسد رابض لا يقدر على حمايتها ألف كلب جوال.. وهو بعد ذلك أسد لا يربض، لأن الأسد لا يعرف الربوض.

... إلا الشباب الذين يقولون ما قال أبو حمزة الخارجي عند ما عيره أهل مكة بأصحابه: «تعيرونني بأصحابي! تزعمون أنهم شباب، وهل كان أصحاب رسول الله إلا شباباً!»

هذا العهد ينادي إليه الأرواح الجبارة لترافقه ولا ينادي جثثاً خالية من الاحساس يحملها على ظهره. لأنه يريد رفاقاً يحسون ويلتهبون، قد ادرعوا الإرادة وساروا يقتحمون كل شيء كالسيل الجارف، يثبون فوق القمم وثباً ولا يزحفون زحفاً، في نفوسهم عقيدة تفيض حماسة وقوة، يفرضونها فرضاً على الزمان ولا يجد الزمان إلى اخفاقها سبيلا.

هؤلاء الرفاق يستطيعون أن يمشوا معه لا تثنيهم عقبة ولا يحول بينهم وبين بغيتهم حائل. ومن هم هؤلاء الرفاق الأشداء إلا الشباب؟ روح الأمة ولون وردها الأحمر المشتعل، وعزمتها التي لا تكل.

تحررتم أيها الشباب من العبودية السياسية، فلتتحرروا من كل عبودية. وليكن هدفكم التحرر في كل شيء. وكره العبودية في كل شيء.

شباب قنع لا خير فيهم وبورك في الشباب الطامحينا

«دير الزور» **خليل هنداوي**

سيدي الأستاذ رئيس تحرير مجلة الرسالة الغراء

أقرأ باهتمام فصلكم الذي عقدتموه للشباب تدعونه فيه إلى الاهتمام بالأمور العامة. ويسرني أن أوجه إليكم هذه الكلمة لغرضين: الغرض الأول أن أبين أن شبابنا يستطيع أن يؤدي للبلاد خدمة جليلة بأن ينتشر في أثناء العطلة الصيفية وهي على وشك الحلول فيذهب كل شاب إلى قريته أو منزله في المدينة ويضع نصب عينيه أن يترك الدائرة التي هو فيها في آخر الصيف خيراً مما وجدها في أوله. ويمكنه أن يعمل في أحد المقاصد الآتية:

(١) تعليم أهل الجهة القراءة والكتابة والأخلاق ومبادىء التربية الوطنية في قسم ليلي يفكر هو وجماعة من إخوانه على إنشائه ويختارون له محلا يتبرع به أحدهم ممن يستطيع ذلك

(٢) توجيه أهل جهته إلى العناية بالرياضة البدنية والاشتراك معهم في ذلك السبيل اشتراكا فعليا

(٣) التعاون مع إخوانه على عمل محلة كمحلة الرواد تكون مركزاً لثقافة الصبيان الفقراء وهدايتهم وإدخال الفرح عليهم

(٤) إرشاد أهل جهته إرشاداً صحياً في محاضرات يقوم بالقائها من يستطيع المحاضرة من الشبان.

الغرض الثاني أن أقترح عقد اجتماع تشرف مجلة الرسالة على الدعوة إليه قبل بدء فصل الاجازات الصيفية لتنظيم حركة الزحف الاجتماعي. وتفضلوا بقبول عظيم شكري وتقديري لمجهودكم النبيل (مصري)

(الرسالة) جاءتنا رسائل الشباب في هذا الباب تترى، وكلها آراء سديدة ومقترحات قيمة سننشرها أو نلخصها تباعا في الاعداد القادمة.



قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكي بك

مدير مصلحة الكيمياء

ــــــ

وزادت أوامر إرليش وكبر مقدارها، وتزايدت السجائر الحامية التي عكف على تدخينها يوماً فيوماً . وما لبث أن دخلت طوائف كبيرة من الأرانب الذكور بيت جورج اسباير (١) كأنها ألوية الجيش تتابعا وكثرة ، ودخل فى زمرتها إلى هذا البيت رجل صغير قصير ياباني صياد مكروب لا يألو فى بحثه جهداً . وكان اسمه هاتا . وكان قديراً وكان دقيقاً . وكان له جلد واسع وصبر على التجريب طويل ، فهو يحتمل التجربة الواحدة يعيدها عشر مرات ولا يكل . وكان خفيف الحركة جم النشاط متزنه ، فهو يقوم بعشر تجارب فى آن واحد . فوافق هوى إرليش ، وهو كما تعلم دقيق يحب كل دقيق

فبدأ هاتا يجرب مركب رقم ٦٠٦ ، لا على مكروب الزهرى نفسه . بل على مكروب من نوعه ولكن أقل منه امتقاعاً فى اللون وشرة فى الأثر ، ذلك اسبيروشيتة الدجاج وكانت تقتل الدجاج قتلا . فماذا كانت نتيجة هذه التجارب العديدة الطويلة ؟ صاح إرليش : « باهرة ! ... خارقة ! ... لا تكاد تصدق ! » . فهذه الدجاجات الكبيرة والأفراخ الصغيرة امتلأت دماؤها بهذا المكروب امتلاء ، فما هى إلا ان حقنت برقم ٦٠٦ وأصبح عليها الصباح حتى كانت تسير مرفوعة الرأس تقوق وتتخطر ناعمة بالصحة والحياة . فهذه نتيجة لاشك مجيدة . ولكن ما الذى كان من أمر نسيبه المكروب الآخر مكروب الداء الانسانى اللئيم ؟

***

فى اليوم الحادى والثلاثين من أغسطس عام ١٩٠٩ وقف إرليش وهاتا أمام قفص به أرنب ذكر جميل سليم من أية وجهة نظرته ، إلا صفنه (١) ، فقد كان شوهه قرحتان فظيعتان كلتاهما أكبر من ربع الريال سببهما دبيب هذا المكروب اللعين الذى يأتى الانسان جزاء الخطيئة الكبرى (٢) .

وكان هاتا وضع هذا المكروب تحت جلد هذا الأرنب من شهر مضى . ووضع هاتا قطرة صغيرة من ماء هاتين القرحتين الكريهتين تحت مكرسكوب صنع خصيصاً لرؤية أمثال هذه المكروبات الخبيثة الرفيعة الشاحبة . وضعها ونظر فرأى فى ظلام المجال لهذا المكرسكوب الخاص ، رأى تلك المكروبات ألوفا تتلألأ فى شعاع نور قوى سلط من الجانب عمدا عليها . وترامت له كأنها ألوف من خرامات الحدادين ومثاقيب النجارين تطير فى المجال رائحة غادية . منظر جميل يستوقفك الساعات ، ولكنه مروع ، فأى المكروبات يجر على البشر من البلاء والويلات ما تجر هذه ؟ !

ومال هاتا عن المكرسكوب بمنة لينال إرليش من هذا المنظر نظرة . فلما رآه نظر إلى هاتا ، ثم نظر إلى الأرنب ثم قال : « دونك فاحقنه » . وجزت الحقنة فى وريد أذن الأرنب ، ودخل المركب ٦٠٦ فى محلوله الأصفر إلى دم

ــــــ

(١) معمل ارليش وقد تقدم

(١) كيس الخصية

(٢) الزنا

الأرنب يلقى مكروب الزهرى ويقاتله لأول مرة فى تاريخ هذه الدنيا .

وفى الغد لم يبق فى صفن الأرنب من لوالب هذا المكروب لولبة واحدة . والقرحتان ؟ سبق اليهما الجفاف وأخذت جلبة(١) تكون عليهما . ولم يكد يمضى على هذا شهران حتى لم يبق من الجُلبة غير جليبة صغيرة . شفاء هو السحر أو كشفاء المسيح بن مريم . واستطاع إرليش أن يكتب بعد ذلك بقليل :

« ويتضح من هذه التجارب أن هذا المكروب يفنى عن آخره تواً إذا حقن الحيوان حقنة كبيرة كافية »

وإذن جاء يومه الكبير المنظور ؛ فهذه رصاصته المسحورة ، فما أسرع قتلها للمكروب ! وهى مع هذا سليمة مأمونة على الحيوان . وإن شككت فى سلامتها فانظر إلى هذا العدد العديد من الأرانب البارئة ، فهل نالها مثقال ذرة من سوء لما ضربنا حقنة فى آذانها بجرعة هذا الدواء ، برغم أنها جرعة كبيرة كانت ثلاثة أضعاف الجرعة اللازمة الكافية لمحو الداء محواً محققاً سريعاً ؟ لقد نال إرليش بهذا الكشف فوق بغيته ، وأطلق من هذا المحقن على الداء رصاصة أروع من رصاصته . وضحك بحاث ألمانيا بالأمس من أحلامه ، فجاء دوره اليوم فى الضحك فضحك وُسْع فيه . صاح إرليش : « إنها رصاصة مأمونة . إنها سم للداء ، وللجى فيها البرء والشفاء »

وتستطيعُ أن تتصور أى الأطياف كانت تُطوف بخيال هذا الرجل المستوثق بنفسه استيثاقاً لا يقصر منه حد . وصاح فى وجه كل أحد : « إنها مأمونة ! إنها سليمة ! » . ولكن فى ليلته ولياليه جلس فى مكتبه وقد تعبأ جوه بدخان السجائر حتى ضاقت به الأنفاس ؛ جلس بين أكوام الكتب وركام المجلات وقد ارتمت ظلالها حوله متراكبة غريبة ؛ جلس وحده وبين يديه تلك الكراسات الزرقاء الخضراء البرتقالية الصفراء التى كان ينقش عليها كل ليلة فى انهام كل ما يخطر بباله مما سيصدره إلى رجاله وعبّاده من الأوامر فى الصباح

(١) القشرة التى تعلو الجرح عند البرء

الطالع . ففى هذه الحجرة خلا إرليش لنفسه فسألها فى خفوت : « أحقاً أنها سليمة مأمونة ؟ »

« إن الزرنيخ سم محبب إلى السيامين ... ؟ ! » قال إرليش محتجاً ، « ولكنا تناولنا طبيعته بالعجب العُجاب فغيرناها ! »

« وهذا الذى شفا الفئران والأرانب قد يقتل الرجال . . ؟ ! »

قال إرليش مجيباً : « إن النقلة من الأرانب والفئران نُقْلَة خطيرة ، ولكنها خطوة لا بد منها »

وطوى الليل رداءه الأسود ، وانبلج الصباح وبعث شعاعه الأبيض إلى المعمل ينشر فيه مع النور الأمل والثقة والأقدام . ودخله إرليش فنظر فوجد الأرانب التى برئت ، ولقى عونه برتهايم ، هذا الرجل الساحر الذى لوى الزرنيخ الفاتك سم لواه ستاً وستمائة مرة حتى عاد حربه سلاما . وتشمم إرليش فسطعت فى أنفه رائحات مائة مخلطات طيبات لمائة من حيوانات تجريبية ، ورائحات ألف مخلطات طيبات لألف من مواد كيماوية ، وتلفت إرليش يمنة ويسرة فوجد كل هذا الجمع من أعوانه رجالاً ونساء يؤمن به ويثق فيه . إذن فما التشكك وما التردد ؟ وهيا أيها الأعوان إلى هذه الخطوة الأخيرة نخطوها ولو خطيرة . فقد والله خاب من أحجم

كان إرليش فى قرارة نفسه مقامرا ، ومَن من كبار صادة المكروب لم يكن مقامراً ؟ !

وقبل أن يزول تقرح صَفَن الأرنب بتمامه ، وقبل أن تسقط عنه أخيرة جلبانه(١) ، كتب ارليش إلى صديقه الدكتور كنراد ألت Konrad alt يقول : « فهل لك أن تتكرم فتجرب هذا المركب الجديد رقم ٦٠٦ فى مرضى الزهرى من بنى الانسان ؟ »

فأجابه الدكتور ألت : « بالطبع نعم » . وأى ألمانى لا يجيب بهذا وهم قوم غلب صعاب ؟

وجاءت سنة ١٩١٠ فكانت سنة إرليش الكبرى . ففى يوم من أيام هذه السنة انعقد المؤتمر العلمى فى مدينة كونجزبرج Konigsberg

(١) الجلبة القشرة التى تعلو الجرح عند البرء . وقد مرت

فلما دخله إرليش دوى المكان بالتصفيق الشديد وزاد وحمي حتى خيل أن الناس أصابتهم الحمى ، وطال حتى خيل أن إرليش لن يقوم فيُلقي في القوم مقالته . وقام أخيراً فحكى لهم كيف تمهدت السبيل بعد لأي إلى وجدان الرصاصة المسحورة ، ووصف لهم داء الزهري اللعين ، وقص لهم قصة الرجال الذين انتهى بهم المآل إلى تشوه فظيع ثم موت قبيح ، أو انتهى بهم الحال إلى ماهو شر من هذا — إلى مستشفى المجاذيب . لم ينفعهم الزئبق ، الزئبق الذي أطعموه والزئبق الذي دُلكوا به والزئبق الذي حُقنوه حتى كادت أسنانهم أن تسقط من لثاهم . حكى لهم حكاية هؤلاء المناحيس وقد انقطع الرجاء منهم ، ثم ماهي إلا أن دخلت فيهم إبرة المحقن واندفع فيهم محلول رقم ٦٠٦ وانتشر في دمهم حتى نهض المريض وانتصب الراقد . وزادوا في الوزن ثلاثين رطلا وتطهروا من نجسهم فلن يتحاشاهم الأصدقاء ... ...

وقص عليهم قصة رجل جاءه الشفاء كالمعجزة جاء بها بعض الأنبياء : قصة رجل منكود قرض المكروب بلعومه قرضاً وأكل منه أكلا حتى لم يعد مدخلا صالحاً للطعام فأطعموه بأنبوبة أطعمة سائلة كي تجرى فيها . ومرت به أشهر على هذه الحال . ثم ما هي إلا حقنة واحدة من مركب رقم ٦٠٦ حقنها في الساعة الثانية بعد الظهر حتى استطاع في العشاء أن يأكل ويزدرد سَنْدَتشاية [1] من « السجق » . ولم تكن الحال قاصرة على الرجال ، فمن النساء المساكين زوجات بريئات أصابهن الداء من أزواج ولغوا في الخطيئة . فمن هؤلاء امرأة ألحت عليها الآلام ، وبلغت منها العظام ، ولازمتها سنين لم تنم لياليها بعض النوم إلا بالمرفين . فهذه عولجت بحقنة واحدة من هذا الدواء فنامت في ليلة ذلك اليوم نوماً هادئاً عميقاً من غير مرفين . معجزة والله وأي معجزة ! أي عقار وأي عشب وأي وصفة وصفها العجائز والكنائس وأطباء الدهور منذ الأزل بلغت من الشفاء ما بلغه هذا الدواء ! وأي مصل وأي لقاح مما ابتدعه المحدثون من صائدة المكروب يبلغ ما بلغه هذا المركب في قتل الجراثيم ، أو يقارب في الفتك بها بعض ما فعلته هذه الرصاصة المسحورة الساحرة من القضاء عليها قضاء كأنه تنزل من السماء ؟

وهتف الناس لإرليش هتافاً لم يهتفوه لأحد . وهتفوا له هتافاً لم يستحقه استحقاقه أحد . دع عنك ما أثاره في الناس من قبل من آمال كواذب ، وتناس ما تلاذلك من متاعب ومصاعب ، واذكر الساعة أنه بكشفه هذا مشى بجماعة البحاث في طريق جديد لفتح مجيد .

تقول علوم الجوامد : لكل فعل رد فعل يساويه ويذهب في ضد اتجاهه . وما يصدق في عالم الجوامد يصدق في عالم الأحياء ، وهو يصدق في حياة الرجال من أمثال إرليش . فما كاد يشيع في الناس ما جرى ، حتى تجاوبت أرجاء المعمورة تصرخ في طلب هذا الدواء : في طلب المركب رقم ٦٠٦ . فهكذا أسماه إرليش اسماً ضخماً يملأ السمع ويبهر الحساب فلتغفر له طلب الضخامة وحب الفخامة . فقام برتهايم ومساعدوه العشرة في بيت إسباير يصنعون مئات الألوف من جرعات هذه المادة البديعة ، ولم يقعدهم أنهم كانوا متعبين منهوكين من طول ما كدوا وجهدوا . وقاموا في هذا البيت الصغير بصناعة مقادير لا ينهض بها إلا المصنع الكبير . وصنعوها في جو مخطر ملىء بالأثير . وصنعوها في خشية من زلة قليلة تحدث في التركيب فتقضي على العدد الكثير الوفير من الرجال والنساء . فالسلفرسان [1] Salvarsan سيف له حدان : حد لقتل الجراثيم ، وحد لقتل الانسان . وإرليش ، فما الذي كان من أمره ؟ أصبح جلدة على عظمة ، وزاده داء السكر سوءاً . ولم ينقطع عن شرب سيجائره الكبيرة وليته لم يفعل . فهذا ما كان من أمره : بالأمس أحرق شمعته من طرفيها ، واليوم هو حارقها من وسطها أيضاً

(يتبع) أحمد زكي

(1) Sanduitch

(١) اسم هذا الدواء أي مركب ٦٠٦



ميكيلانجــلو

العبقرية الملهمة

MICHELANGLO

للدكتور أحمد موسى

عرفنا من المقال السابق كيف بدأ القرن السادس عشر بشخصية الرجل الكامل ليناردو دافينشي ، وكيف كانت الرغبة أكيدة في إحياء علوم الإغريق وفنونهم ، وعلمنا مدى أثرهما على ليوناردو

واليوم نعالج عبقرية ملهمة ، وشخصية فذة . اعتبرت ولا تزال معتبرة من أبرز شخصيات الفن إطلاقاً ، ألا وهى شخصية ميكيلانجلو ، النحات القدير ، بل قائد النحت الحديث ، والمعمارى العظيم ، والمصور الهائل

وكم كنت أود أن أدرس مختلف نواحيه الفنية ، لولا أن هذا قد يذهب بنا إلى تفاصيل قد لا تؤدى إلى ما نرمى إليه من تزويد القارىء بمعرفة شىء مبسط عن الفن وعن تاريخه ، بقصد السمو بذوقه ، وفتح ناحية من الاستمتاع النظرى أمامه ، لا تقل روعة عن نواحي الاستمتاع النفسانى الأخرى ؛ بل قد تزيد أهمية ، نظراً لقلة ثقافتنا الفنية بوجه عام

هذا يرغمنى على أن أحاول الجمع بين غايتين مختلفتين : الأولى الاقتضاب حتى لا يمل القارىء ، والثانية الايضاح الصادق حتى يعلم أهم ما تجب معرفته عن شخصية من أبرز شخصيات الفن اطلاقاً

ولعل أهم ما تجب معرفته مبدئياً هى مميزاته الفنية ، والطابع الذى طبع به إنتاجه . أما مميزاته فقد يمكن فهمها عند ما يشاهد ما تركه من تراث مجيد ، فعندئذ نرى أنه كان سامى الخيال باحثاً وراء المثل العليا فى خلقه ؛ وأما طابعه فهو يتلخص فى أنه استطاع أن يخلق لنفسه عالماً فنياً خاصاً ، جال فيه ثم ارتفع حتى أصبح مضرب الأمثال فى الجمع بين سمو الخيال وجمال الاقتباس ، وبين القوة والعنف ، هذا إلى جانب روعة الانشاء التى كانت له دون غيره

وموضع الدهشة والحيرة فى خلق هذا الفنان العبقرى أنك عند ما تشاهد إنتاجه لا تستطيع أن تتصور أنه مستمد من الواقع الملموس أو مشابه له ؛ بل ترى دون شك أن هذا الانتاج يعبر عن المثل الأعلى فى الجمال ، ولكنه مع هذا ملىء بكل مظاهر الحياة لا ينقصه شىء منها إلا النبض

كانت الغاية عن ميكيلانجلو أن يظهر الجسم البشرى إظهاراً جميلا سامياً ، مليئاً بالقوة نابضاً بالحياة ، وهو فى هذا المجال أول وأعظم فنان أنجبه الدهر فى المدرسة الحديثة دون منازع

وقد وصل فى المعرفة بأصول علم التشريح إلى درجة لامثيل لها مطلقاً ، وهذه المعرفة تتضح عند ما نشاهد ما غلب على انتاجه من مظاهر الحركة بمختلف أوضاعها

وإذا قارنا خلقه بتراث الإغريق الخالد ؛ وجدنا الفارق يتلخص فى عنف ميكيلانجلو فى الإخراج ، لأنه تخير المواقف التى تكاد تكون مستحيلة ، كما فضل مواقف الضغط والاضطرار راغبا من وراء ذلك فى إظهار جمال التكوين الجسمانى الإنسانى طامحاً وراء البناء الهرقلى (نسبة إلى هرقلس) ، فكان

بما ملك من القوة ، فذاً في الإخراج ، عظيما في الوضع ، إماماً لكل فنان طامح ، ملك الجمال بمعناه الفلسفي ، وبعد كل البعد عن الجمال المثير ، فكان نقيا في اختيار موضوعاته لا يهتم فيها إلا بالعظائم .

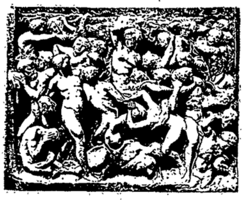
كان بشخصه يقوم بنحت تماثيله الرخامية من أبسط شيء فيها إلى أكبر وأهم جانب منها ، سائراً في ذلك تبعا لرسومه الخطية التي كان يرسمها لتكون بمثابة المنهج الدراسي قبل البدء في النحت .

ولد ميكيلانجلو يوم ٦ مارس سنة ١٤٧٥ في كابريزه ، وتلقى أول دروسه في التصوير منذ سنة ١٤٨٨ عند المصور المعروف دومينيكو جيرلانداجو الذي كان بارزاً في فلورنسا في ذلك الحين .



المادونا جالسة إلى جوار السلم

ولكنه بجانب درسه للتصوير ، عرج كثيراً على دراسة النحت الأغريقي ، ووجد فيه الغاية . وكانت التماثيل الموجودة بحديقة مديتشي في سان ماركو خير مدرسة له . ولم تمض مدة طويلة حتى لاحظ لورنسو دي مديتشي استعداد ميكيلانجلو للنحت ؛ فأخذه ليتتلمذ في بيته على النحات برتالدو ، الذي كان تلميذاً لدوناتيللو المعتبر من أحسن نحاتي عصره .



مذبحة كنتاور

وأول منحوتاته قطعة (نصف بارزة) أسماها « المادونا جالسة إلى جوار السلم » ش - ١ - ، وبالنظر إليها نرى الكيفية التي تمكن بها ، وهو حديث عهد بالنحت ، من صبغ ما نحته بشيء كثير من الحياة ، يتضح من تأملنا نبل وجه العذراء ، وكثرة الثنايا التي تخللت ملابسها ، إلى جانب القوة التي بدت في نحت الأيدي . كذلك من الطريقة التي جلست بها العذراء على ذلك المقعد الرخامي الواطئ ، والمنهج الذي سار عليه في إخراج الملابس ، ثم جلسة الطفل في حجر أمه ، والأطفال الصغار الذين يلهون على السلم .

وقطعته الثانية نصف بارزة أسماها « مذبحة كنتاور » وهي تمثل لقصة أغريقية خرافية ، أبطالها مخلوقات نصفها الأعلى كانسان والأسفل كحصان ، ش - ٢ - وهي من أهم الأدلة على اتجاه الفنان إلى الأغريق وتأثره بهم .

أنظر إلى القطعة نظرة شاملة ، وتأمل كيف استطاع إظهار كل من الأجسام في حالة حركة مملوءة بالحياة ، تناسبت كل التناسب مع موضوع القطعة من الناحية الإنشائية ، فترى العضلات بارزة ، مع اختلاف التكوين الكلي وملامح الوجه لكل منهم ، فضلا عما تعبر عنه بعض هذه الأجسام

والوجوه من المقاومة والعنف ، على حين يعبر البعض الآخر عن الاستسلام أو الخوف . أما التفاصيل التشريحية فهي في غاية الكمال ، فالثنايا والعضلات والانحناءات كلها على غاية الدقة



يوحنا الصبي

تأمل الرجل العجوز الواقف إلى أقصى اليسار وهو يحمل حجراً بيديه ، يريد الإلقاء به على أحد المغضوب عليهم ، ثم قارن بين مظهره الكلي وشكله التكويني ، وبين وجوه الواقفين إلى أقصى اليمين ، فإنك تلاحظ اختلاف التعبير في ملامح الوجوه ، لأن حالة الدفاع وما ترسمه على ملامح الوجه تخالف حالة الاعتداء

تأمل الأذرع والأيدي وكيفية انثنائها وامتدادها وانقباضها ، وسر بنظرك خلال أجزاء هذه القطعة الفنية التي شملت أكثر من عشرين رأساً ، لا ترى منها واحدة تشابه الأخرى ، وفكر قليلا واذكر أن ميكيلانجلو بدأ المرحلة الأولى من حياته الفنية بهذه القطعة

فر هارباً إلى بولونا عند ما علم أن الحزب المعارض لبيت المديتشي قد انتصر عليه . وفي بولونا نحت تمثالا من الرخام للملاك ، بقصد التحلية لمقبرة دومونيكوس ، وكذلك تمثال يوحنا الصبي حاملا لقرص شمع العسل ش - ٣ - بمتحف برلين ، وإذا نظرنا إلى هذا التمثال فإننا نرى عليه مسحة البراءة ، إلى جانب جمال التكوين العام وسماحة الوجه . أنظر إلى العنق والذراعين والساقين والقدمين ، ثم قارن بين التكوين الكلي لهذا التمثال وبين ما سبق أن شاهدته بالقطعة الفائتة واجتهد أن تتعرف بعض الفوارق .

(له بقية) **أحمد موسى**



الاضطراب في نظم التعليم

لا تزال برامجنا التعليمية بعيدة عن الاستقرار ، فهي منذ أكثر من عشرة أعوام في اضطراب دائم ؛ وفي كل عام توضع مناهج وخطط جديدة ، ثم لا يكاد يبدأ في تنفيذها حتى تطرأ عليها تغييرات جديدة ؛ وهذا الاضطراب لا يشمل المناهج التفصيلية فقط ، ولكنه يشمل أيضاً مدد الدراسة وأنواع التعليم وغاياته واتجاهاته ، وقد أصاب هذا التردد سير التعليم في الأعوام الأخيرة بأضرار ظاهرة ؛ ولوحظ أن مستوى التعليم في هذه الفترة قد ضعف ، وأن مستوى الثقافة بين الشباب في انحلال ، هذا فضلاً عن قصورهم الظاهر في مجاراة الحياة العملية . والآن تعيد وزارة المعارف نفس العملية التي تكررها في كل عام ، وتضع للتعليم مناهج ونظما جديدة متينة ، فإلى متى يستمر هذا التردد الخطير؟ لقد عالجت وزارة المعارف والجامعة المصرية في الأعوام الأخيرة هذا المشكل غير مرة ، واستقدمت الحكومة المصرية خبيرين شهيرين في مسائل التربية هما الأستاذان مان وكلاباريد ، ووضعا تقريرهما المعروف ، فلم يعاون على حل المسألة . وفي كل عام تعرض آراء واقتراحات جديدة . ومن الأسف أن وزارة المعارف لم تضع لها حتى اليوم سياسة عامة مستقرة للتعليم والتربية ، وفي كل تغيير وزاري جديد نراها تتجه وجهة جديدة ، وفي هذا على مستقبل التعليم ما فيه من الخطر ؛ ذلك أن التعليم يجب أن يتخذ وجهة قوية ثابتة ، وأن توضع الأسس المستقرة لسياسته العامة ، وأن تترك التفاصيل وحدها عرضة للتغيير والتبديل . ومصر اليوم في مفترق الطرق بالنسبة لمستقبل التعليم والثقافة فعلى وزارة المعارف أن تعجل بوضع الخطط المستقرة الثابتة لتعليم الشباب وإعداده في العصر الجديد

من آثار التشكيك

ظهر أخيراً كتاب ديني عنوانه « المصاحف » ، قام على نشره المستشرق المعروف الدكتور إرثر جفري الأستاذ بالمعهد الشرقي بالجامعة الامريكية . وكتاب المصاحف هذا هو الكتاب الذي ألفه عبد الله بن داود السجستاني ، وهو من آثار التشكيك التي أنكرها العالم الاسلامي منذ صدورها ؛ وهو يقوم في الواقع على فكرة التشكيك في القرآن الكريم على ما جمعه الخليفة عثمان ، وفي أنه وقع بالكتاب الكريم كثير من الحذف والزيادة في مواطن كثيرة ينوه بها مؤلفه ويورد عليها أمثلة عديدة . بيد أن علماء القرآن والمتكلمين المسلمين لم يحفلوا بهذه المزاعم ، فبقي كتاب المصاحف مطموراً في أقبية بعض المكاتب العامة والخاصة حتى فكر المعهد الشرقي بجامعة « منشن » (ميونيخ) أن يقوم بنشره ؛ ونشره الأستاذ جفري عن نسخة في المكتبة الظاهرية بدمشق ، ومهد له بمقدمة طويلة بها كثير من المغامز التي تؤيد غايته من نشر الكتاب . والمعروف أن المعهد الشرقي في جامعة منشن يهتم منذ أعوام بدراسة القرآن ولهجات القراءات المختلفة ، وأنه أوفد إلى مصر بعض أعضائه ليدرس هذا الموضوع في مواطنه المختلفة ، ولكن يلوح لنا أن هذه العناية تنحرف عن غايتها العلمية بنشر مثل هذا الأثر الذي أنكره العالم الاسلامي

معرض باريس

افتتح معرض باريس للصناعات والفنون في الموعد الذي حدد لافتتاحه وهو ٢٤ مايو الجاري . بيد أن معظم

الأقسام مازالت في طور الانشاء ولم يكتمل بناؤها وإعدادها . وقد اشتركت في المعرض اثنتان وأربعون دولة منها مصر ، وأنفقت مصر في سبيل هذا الاشتراك عشرين ألف جنيه .

ومعرض باريس هو بلا ريب أعظم وأحدث المعارض الصناعية والفنية ؛ وهو بذاته مدينة عظيمة أقيمت على ضفاف السين في ساحة التروكاديرو ، وخطت فيها شوارع كبيرة ، وأقيمت طائفة كبيرة من البنايات الضخمة والمسارح والملاهي المتعددة من شرقية وغربية . ويقدر الخبراء أن زوار المعرض في مدة الافتتاح وهي تمتد إلى نوفمبر القادم قد يبلغون عشرين مليوناً ؛ ولكن الظاهر أن هذا التفاؤل مبالغ فيه فالحكومة الفرنسية لم تقدم لزوار المعرض أية تسهيلات خاصة ، ولم تقرر أي تخفيض في أجور السفر لا في البر ولا في البحر سوى ما تمنحه مصلحة السياحة كل عام من تخفيض ٥٠ ٪ على خطوط السكك الحديدية . وهي مسألة لا جديد فيها . وقد ارتفعت تكاليف المعيشة في باريس إلى حدود مروعة ، وزادت الأثمان زيادة تفوق كل ما يستطيع الزائر أن يفيده من تخفيض سعر الفرنك . وسياسة فرنسا إزاء المعرض تخالف السياسة الدولية المتبعة في مثل هذه الظروف لأن الحكومات المختلفة اعتادت أن تمنح أثناء إقامة هذه المعارض تسهيلات عظيمة للزوار خصوصاً في أجور السفر في البر والبحر

هذا وسيفتتح القسم المصري بمعرض باريس في ١٦ يونيه . وسيتولى افتتاحه جلالة الملك فاروق الذي سيكون في باريس في هذه الفترة

بعثة علمية كبيرة إلى القطب

طارت في الأسبوع الماضي من موسكو بعثة علمية روسية إلى القطب الشمالي تتألف من ٤٢ عالماً برياسة العلامة الأستاذ أوتو شميت ؛ وقد وصلت إلى القطب بالفعل وطارت فوقه ونزلت شمالة على جبل من الثلج يقع على بعد عشرين كيلو مترا من القطب ؛ وسيقضي أربعة أعضاء من البعثة برياسة العلامة شميت عاماً في هذا الجبل الثلجي يقومون بالمباحث العلمية اللازمة حتى يبدأ ذوبان الثلج . وقد نظمت المواصلات اللاسلكية بين طيارة البعثة ومركز اللاسلكي في جزيرة رودلف التي اتخذت مركزاً لقيام البعثة وتموينها ، وهي تبعد بالطيارة عن القطب نحو سبع ساعات . وستقيم البعثة لها منزلا من المطاط وتقوم الطيارات بامدادها بالمؤن والملابس ، وذلك بواسطة إلقائها من الجو بالمظلات . وستعنى البعثة خلال إقامتها ببحث عوامل المغنطة في القطب وحركة الثلوج وأعماق المياه في تلك الأنحاء ، والبحث عن تيارات الهواء الدافىء على مقربة من القطب . والأستاذ شميت رئيس البعثة علامة مشهور في المسائل القطبية ، وقد كان في الأعوام الأخيرة خير معوان على ارتيادها وكشف مجاهلها . والمظنون أن المعلومات التي تجمعها البعثة قد تفيد فائدة عظيمة في تسهيل إنشاء المواصلات الجوية بين روسيا وأمريكا عن طريق القطب الشمالي ؛ بيد أن غاية موسكو الجوهرية من تجهيز هذه البعثات هو على ما يظهر تمهيد الوسائل اللازمة لاستعمار الأنحاء القطبية بصورة عملية ، والعمل على استثمار ثروتها الدفينة بتذليل العقبات الجوية والاقليمية ؛ وقد بذل العلماء الروس في العهد الأخير في هذا السبيل جهوداً تدعو إلى الاعجاب

المبرد أخيراً

أحب أن أقول (لأحد القراء) الكرام : أن المسألة ليست مسألة روايات ، ولكن الأمر في التمييز بينها ، والوقوف على مرماها في إفادة المطلوب ، وهذا الضبط الذي ذكره ابن خلكان إنما جاء على ما هو شائع في ألسنة الناس ، وهذه الرواية المذكورة عن برد الخيار مقصود بها إلى النكتة والفكاهة ؛ وما ذكره ابن عبد ربه قائم على الحدس والحسبان لأنه يقول : فما أحسبه ... الخ ، ورواية ابن الخطيب في تاريخ بغداد إنما جاءت في مقام الزراية على الرجل .

ولقد قلت للأديب الفاضل من قبل إن المبرد بالفتح

خطأ شائع في ألسنة الناس حتى في الألسنة المثقفة، وأصل اللقب في وضعه كان بالكسر ثم فتحه الكوفيون ؛ قد يكون استهزاء بالرجل أو قد يكون لأنه كتب كتاب الروضة بازداً كما روى ابن عبد ربه وابن الخطيب ؛ وعلى كل حال فليس من المروءة أن نمسك على الرجل هذا الثين ، وليس من الصواب أن نتصرف عن الخير إلى الشر . ولقد كان يكفيني ويكفي الأديب الفاضل قول الرجل نفسه : برد الله من بردني ، فان الرجل أدرى بحقيقة لقبه من أي كاتب آخر .

هذا ولا يحتج علينا الأستاذ بقرب عصر ابن عبد ربه وابن الخطيب لأن ما رواه ياقوت هو عن المازني ، والمازني معاصر للمبرد وألصق به ، كما أن ياقوت هو سيد الكتاب وعمدتهم في تحقيق الأعلام ، وليس ثمة من يجاريه في هذه الحلبة ، والله نسأل أن يوفقنا للصواب ، وأرجو أن يكون في هذه ما يقنع الأستاذ

محمد فهمي عبد اللطيف

ديوان حافظ ابراهيم

أخرجت وزارة المعارف العمومية الجزء الأول من ديوان حافظ في ٣١٨ صفحة من القطع المتوسط مشتملا على المدائح والتهاني والاهاجي والاخوانيات والوصف والخمريات والغزل والاجتماعيات . وقد ضبطه وصححه وشرحه ورتبه الاساتذة احمد امين ، واحمد الزين ، وابراهيم الابياري . وصدره الاستاذ احمد امين بمقدمة جليلة ممتعة في ٤٣ صفحة تناول فيها حياة حافظ وشعره بالتحليل البصير والنقد الكاشف والحكم الموفق . وإخراج الديوان على هذا الوضع المحكم ، والطبع الجميل ، والتصحيح البالغ ، يد لا ينساها الادب الحديث للاساتذة الاجلاء ولوزارة المعارف . والديوان مطبوع في دار الكتب المصرية وهو يباع فيها

وفاة شاعر مجري كبير

في الانباء الأخيرة أن شاعر المجر الكبير يوليوس يوهاش Julius Juhasz قد توفي في نحو الرابعة والخمسين من عمره ؛ وكان مولده في مدينة شيجيد سنة ١٨٨٣ ، وتلقى تربيته في جامعة بودابست ، وظهر منذ الحداثة بحسن نظمه ، بيد أنه مال في أول أمره إلى النظم القوي العنيف ثم تدرج بعد ذلك إلى النظم الرقيق الهادئ ، وظهرت أول مجموعاته الشعرية في سنة ١٩٠٧ ثم تلاها مجموعة أخرى اسمها «قصائد جديدة» في سنة ١٩١٤ ، وظهرت له بعد ذلك دواوين أخرى منها : «هذا دمي» و «لا تنسني» و «وصيتي» وغيرها

وقد فقدت المجر منذ أشهر قلائل شاعراً كبيراً آخر هو ديزو كشتولاني الذي توفي في نوفمبر الماضي وبذلك فقدت المجر أعظم شاعرين من شعرائها المعاصرين الذين جمعوا بين العهدين القديم ، وهو عهد الامبراطورية ، والحديث وهو عهد ما بعد الحرب



اسماعيل المفترى عليه

تأليف القاضي بيير كربتيس

وترجمة الأستاذ فؤاد صروف

للأستاذ الغنيمى

تتمة

(١٢) وقال المؤلف يصف القلق الذى كان سائداً فى مصر فى آخر أيام اسماعيل باشا

There is a certain amount of fermentation in the country. If this fermentation were natural, it would not be an unhealthy sgmptom.

فقال الأستاذ صروف فى ترجمتها « فى هذه الديار نوع من الاختمار الفكرى . ولو كان هذا الاختمار طبيعيا لأوجد فى النفس قلقا » ونحن أولا لانستحسن ترجمة كلمة Iermentation فى هذا الموضع باختمار لأن فيها غموضاً كثيراً وكان الافضل أن تترجم بكلمة « قلق » وثانيا وهو الأهم أن الجزء الاخير من الجملة هو عكس المعنى الذى أراده المؤلف وهو ولو كان هذا القلق طبيعيا (غير مفتعل) لعددناه من دلائل الخير . فاين هذا من قول المؤلف « لأوجد فى النفس قلقا » .

(١٣) ومن أمثلة عدم الدقة فى اختيار الألفاظ المناسبة قول المترجم عن رفض ضباط الجيش فى عهد الوزارة الأوربية « هذا التدبير كان فظا » فهل يوصف التدبير بالفظاظة ؟

وقوله أيضاً عن الضباط المفصولين «جمع ألفا وخمسمائة ضابط فى حالة الغليان » وتلك أيضاً عبارة ثقيلة على السمع

وقوله عن الناظرين الأوربيين فى وزارة نوبار باشا « وأهانا الشعب برفضهما التزى بالوشاح الوطنى » يريد أنهما أساءا إلى الشعب أو جرحا عواطفه بعدم لبس الشعار القومى (الطربوش)

وقوله عن اسماعيل باشا « يمكن الاعتراف بأن اسماعيل كان كبش التضحية على هيكل الأنظمة الاقتصادية » وهى عبارة لا يقبلها ذوق . مثلها فى ذلك مثل قوله الآخر

(١٥) « وقفز اسماعيل من المقلاة إلى النار » وقوله « فاسماعيل كان واقفاً وظهره إلى الجدار » يريد أن إسماعيل سدت فى وجوهه السبل أو أظلم يومه أو نحو ذلك

(١٤) ومن أمثلة العبارات التى يحار القارئ فى فهم معناها لغموضها أو ضعف أسلوبها قوله عن وزارة نوبار باشا « ونظاره يحكمون تحت سيطرة الإلغاء من ولسن وبلنيير »

وقوله عن مقتل اسماعيل صديق باشا « فالذين يجهلون مصر كذبوا الخبر بجملته والذين يعرفونها صدقوه ورأوا فيه خاتمة غير فجائية ولا فاجعة لما بد مهزلة وانتهى إلى مأساه » وإذا فرضنا أن بد الواردة فى آخر الجملة غلطة مطبعية صوابها بدأ فان الجملة بعد هذا التصحيح تظل غامضة

(١٥) ومن الجمل التى تغير معناها خطأ فى ترجمة إحدى كلماتها قول الأستاذ صروف عن تقرير لجنة التصفية « وقد وضع نصفه الاول لورد كرومر » مع أن المؤلف يقول « وقد وضع صورته الأولى أو مسودته لورد كرومر »

The first draft was prepared by Lord Cromer

وقوله « ولقد حان الوقت حقا لحل مجلس النواب القديم » يريد مجلس النظار

(١٥) ومن أمثلة الاسلوب الضعيف قول الأستاذ صروف فى وصف سفر الخديو اسماعيل باشا على ظهر المحروسة « فكل مفكر راقب المحروسة تبحر من مرفأ الاسكندرية بعد ظهر ذلك اليوم فى الصيف تنهد بطبيعة الحال أمام مشهد بارز فى أفق العالم للفرص الذهبية تسنح وتلمع ثم تضيع »

فهل هذا وصف يمثل لخيال القارى صورة ذلك المشهد الرهيب ؟

(١٦) ومن الأشياء التى لا نستطيع أن نفهم لها سببا حرص

الأستاذ صروف حرصاً شديداً على أن يترجم كلمة Ministry دائماً أو في معظم الأحيان بكلمة مجلس نظار حتى ولو أدى ذلك إلى غموض المعنى وضعف الأسلوب فيقول مثلا :

فقد مجلس النظار ثقة البلاد بدل أن يقول فقدت الوزارة ثقة البلاد ويقول ، فقرر مجلس نوبار (يريد قررت وزارة نوبار) دفع جانب من المتأخرات ويقول فتألف مجلس نظار مصرى (يريد وزارة مصرية) ويقول وعندما ألف نوبار مجلس نظاره ويقول انتدب نوبار لتأليف مجلس النظار ، وكتب الخديو إلى نوبار يفوض إليه تأليف مجلس نظار وهكذا

وربما كان السبب أن الأستاذ صروف يظن أن كلمة وزارة لم تكن تستعمل في ذلك الوقت والحقيقة أنها كانت مستعملة وقد استعملها الاستاذ صروف في بعض المواضع

يخيل إلينا أن الذي ترجم الجزء الأخير من الكتاب ليس هو الذي ترجم الجزء الأول منه

(١٧) قال المؤلف في معرض تبرير الرشا التي كان سمو الخديو يدفعها إلى رجال السراي

If the world does not approve of encouraging itching palms

وهي عبارة معناها « إذا كان العالم لايرضى عن تشجيع الرشوة » ولكن الأستاذ صروف ترجمها بهذه العبارة الغامضة التي لا يفهم لها معنى وهي « إذا كان العالم لايرضى عن تشجيع ما يثير »

(١٨) ولينظر القارىء ايضا إلى العبارة الآتية التي يذكر فيها المؤلف ما أنفقه سمو الخديو على التعليم

True it is that much of this amonnt is absorbed by the board and clothing of pauper pupils

ومعنى board الواردة في هذه العبارة هو إطعام التلاميذ الفقراء وهو معنى عادي لهذه الكلمة ذكر في القاموس صراحة بلفظ food ومعنى العبارة إذن هو « نعم إن كثيرا من هذا المال ينفق على طعام التلاميذ الفقراء ولباسهم » ولكن الأستاذ صروف غفل عن ذلك فترجمها بالمجلس ، وأفسد معنى العبارة إذ قال « نعم إن جانبا كبيرا من هذه المبالغ استنفده المجلس » ولا ندرى أى مجلس يريد . ولماذا لا يرجع الأستاذ للقاموس ليعرف معنى العبارات التي يشك فيها ؟

ننتقل بعد هذا إلى أسماء الأعلام الواردة في الكتاب فنقول إن الأستاذ حرفها بل بدلها تبديلا لم نر له نظيرا في كتاب من كتب التاريخ

إن أكثر ما يؤلم المصححين والمراجعين في دار الكتب المصرية عند ما ينشرون كتابا من الكتب العربية القديمة المخطوطة هو ما يجدونه في أسماء الأعلام من تحريف ؛ وإذا علمت أن معظم هذا التحريف الذي يلاقونه إنما ينشأ من اختلاف في وضع نقطة على حرف بدل حرف أو حذفها أو نحو ذلك وأنه مع هذا يسبب لموظفي هذه الدار عناء ليس بعده عناء لأنهم يريدون أن يخرجوا للجمهور كتبا صحيحة مضبوطة ، إذا علمت ذلك أيقنت أنه من حق القراء على الكتاب والمترجمين أن يتحروا الحقيقة فيما يكتبون وأن يتأكدوا من صحة الأسماء التي يكتبونها لهم . ان الأشخاص في التاريخ هم المحور الذي تدور حوله الحوادث وهم بمنزلة أحجار البناء فيه ، فاذا كانت أسماؤهم خاطئة وبعيدة كل البعد عن الصواب فسد البناء كله ، والاستاذ صروف لسبب مالم يتحر صحة الأسماء فأخطأ في كثير منها خطأ لا يصح أن يقع فيه

(١) فنالي باشا الصدر الأعظم في عهد الخديو اسماعيل وقبل اسماعيل الذي ظل يتناوب هو وفؤاد باشا منصب الصدارة ووزارة الخارجية قد سماه الأستاذ « علي باشا » لانه ترجم الحروف الانجليزية دون بحث عن الحقيقة

(٢) وسرور باشا الذي تولى وزارة الخارجية في وزارة محمود نديم باشا الاولى بعد وفاة عالي باشا ثم تولاها مرة أخرى بعد ست سنين من ذلك التاريخ قد سماه الاستاذ « سيور » . وليس خطأ المؤلف في هذا بما يبرر خطأ المترجم لأن واجب المترجم أن يحقق ويراجع لا ان ينقل ألفاظاً وحروفاً

(٣) وهاك غلطة ثالثة من هذا النوع : من الأشخاص الذين كانوا يأخذون المال من اسماعيل باشا شخص يدعى « رشدي باشا الصغير الاقياني » وهو من اقليم يدعى أقيان أو أكيان قريب من أرضروم كتبه المؤلف Rushdi Pasha of Akkian فكتبه الاستاذ رشدي باشا المكني بأقيان ، وليست أقيان كنية لرشدي باشا ولا لقبا له بل هي اسم الاقليم الذي ينتسب إليه . فاذا قلنا Al Ghoneimy of Assiut فليس معنى هذا الغنيمي المكنى بأسيوط بل الغنيمي الأسيوطي وهكذا



العـــدد ٢٠٥ « القاهرة في يوم الإثنين ٢٧ ربيع الأول سنة ١٣٥٦ — ٧ يونية سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

الطربوش والقبعة

بمناسبة فوزنا الجديد

كان للطربوش امتياز على العمامة أيام كان الأمر للترك والأرناءود، لأنه كان يومئذ تاج السلطان، وشعار الحكم، ولباس الجيش، ورمز البطش، وعلامة الخطر؛ فكان يكفي أن يكون في الحي أو في الناحية (جندي)[1] واحد لتخشع النفوس وتخضع الرءوس ويمحى القانون وتنتفي الحكومة، فلا يمر أحد وهو واقف، ولا يشتجر اثنان وهو موجود، ولا يعرف الناس من وراء بيته شرطة في قسم، ولا قضاة في محكمة

وكان للقبعة امتياز على الطربوش أيام كان الشأن لاحتلال الانجليز وامتياز الدول؛ لأنها كانت حينئذ شارة الغلبة وبراءة الإجرام وصك الغصب وجواز المرور واشارة الثراء وأمارة التفوق؛ فكان يكفي أن نرى (الخواجة) لنرى الغانم الذي لا يغرم، والمتصرف الذي لا يحاسب، والضارب الذي لا تقدر أن تغل يديه، والسفيه الذي لا تستطيع أن ترد عليه، والمدير الذي يملك المصارف والمصانع والمتاجر والشركات والبارات والمقاهي والملاهي والفنادق، ومن ورائه (المحكمة المخصوصة)، والمحاكم القنصلية، والمحاكم المختلطة، والتبجح

(١) اسم كان يطلق يومئذ على لابس الطربوش

الأشر والدعوى العريضة والبأو السليط . فكان الطربوش عنوانا على ذلك الانسان الذي أفسدت فيه العبودية والجهالة مزايا الانسانية فجعلتاه حيا تعافه الحياة ، ووطنياً ينكره الوطن ، ووريثاً يأنف منه التراث ، وخلفا يعرض عنه التاريخ؛ وكانت القبعة سمة على ذلك الأجنبي المتقحم بقوته على الضعف ، وبقدرته على العجز ، وبصحوته على الغفلة ؛ فالتمايز في واقع الأمر كان بين ناس وناس ، لا بين لباس ولباس . فانك إذا وضعت الطربوش على جبهة الأسد كان مفخرة ، واذا وضعته على رأس القرد انقلب مسخرة ؛ وهل تصنع القبعة في الرأس الذليل إلا أن تجعل منه زنجيا في أمريكا ، وحبشيا في أفريقا ، وصعلوكا في كل قارة ؟

***

أما نحن اليوم فخلق جديد في دنيا جديدة : تنبهت فينا ملكات الجنس فثرنا على الخسف ، وتمردنا على الأذى ، وزاحمنا الناس بالمناكب العريضة على مكاننا الخالي منذ قرون في صدارة الأمم ، فانفتح الطريق البشرى من خلفنا على المجد الأول ، ومن أمامنا على النصر الأخير ، وأصبح في وضع الطربوش على جباهنا مواح من سمو الشمس وشموخ الهرم ، وفي حمرته معان من أشعة الشروق ، ودماء التضحية ، وأوراد الربيع ، وأضواء اللهب . فالتبرم به اليوم لا يجد له فينا أظن مساغاً من العقل مادام الرأس الذي يحمله قد ارتفع وامتلأ واتزن .

لا أريد أن أدخل بين الطربوش والقبعة ، ولا أن أدعو إلى ذاك أو إلى تلك ؛ وإنما أريد أن أقول إن ضعفنا هو الذي ظلم الطربوش كما ظلم اللغة والعلم ، فاذا سوغ المنطق أن نترك الطربوش لأنه لا يطاول القبعة ، سوغ كذلك أن نهجر العربية لأنها لا تنتشر في كل أرض ، وأن نخرج على العلم لأنه لا يخفق في كل سماء . ولن تجد أهون على الناس من رجل يأنس في نفسه الضعة فيحتال على العظمة بارتداء ثوب العظيم .

ماذا يضرك الطربوش إذا كان لك طوائر تئز في السحاب ، وبواخر تمخر في العباب ، ومدافع ترعد في البر ، وغازات تسطع في الجو ، ومجلس ظاهر في العصبة ، وقول نافذ في السياسة ، ورأى مسموع في العلم ، ومذهب متبوع في الأدب ، ووطن يديره حكمك ، ويستثمره علمك ، ويستقل بخيره وميره بنوه ؟

وماذا تنفعك القبعة إذا قنعت من استقلالك بالاقرار به ، ومن وطنك بالقرار فيه ؛ ورضيت أن تعيش حيلة على قوة الخليفة ، وصنيعة على رحمة الدول ؛ واكتفيت بمظاهر التمدن من اللباس والرياش والترف واللهو ؛ وظللت على الغرائز الجافية والحس البليد ، تكذب لتمزح ، وتغش لتربح ، وتناقش فيفرط عليك صوتك ولسانك ويدك ، وتحضر مجلس السماع فتجعله من التأوه والأنين والصخب والعربدة ماخوراً في مستشفى ؛ وتسير في الطريق مرحاً أو ذاهلا فتصدم المار فيلتفت إليك التفاتة العاتب ترضيه ابتسامة عاذرة ، فتهجم أنت عليه بالنظرة الشزراء والكلمة الفاحشة ؛ وتصعد الترام فتخطو بنعليك على أقدام الراكبين حتى تبلغ محلك فتنحط فيه كاشر الوجه غير ملتفت ، أو ضاحك السن غير مكترث ؛ وتمر بك الآنسة الخفرة أو السيدة الحاصن فتخزحسها بالنظر الفاجر ، وتؤذي سمعها بالمنطق الخطل ، ولا ينبهك ضميرك الأغلف إلى أن للأسرة حرمة وللمجتمع كرامة ؟

طهر رأسك ياسيدى من درن هذه الخلال ثم ضع عليه طاقية أو لبدة أو أى غطاء شئت ، ترتفع منزلتك في كل عين ، وتقر هيبتك في كل صدر ؛ فان قيمة ذلك في الرأس الذي يحمله ، والشعب الذي يمثله ، لا في أصله ولا في شكله ولا في لونه ؛ والثوب كما يقول الفرنسيون لا يصنع الراهب

أى شرف أرفع للرأس ، وأى فخر أملأ للفم ، من أن تذهب اليوم بشرقيتك ومصريتك وطربوشك فتقول للذين غمطوك بالأمس : أرأيتم إلى الجوهر الحر والمعدن الكريم ، كيف طمرته القرون ، وصهرته الأحداث ، وتناهبته الأطماع ، ثم خرج من عرك العبودية ومعركة الحرية ، باهر اللون ، متميز الشكل ، كامل الخصائص ، حر الوجود ، لا هو ماسة في خاتم ولا درة في تاج !!

احمد حسن الزيات

ندرة البطولة

للأستاذ عباس محمود العقاد

العالم الفاضل الأستاذ أحمد أمين يروي ما يتحدث به فريق من المتشائمين حين ينعون على العصر الحديث ندرة البطولة وقلة النبوغ ، ويسأل معهم : « هل تجد في الشعر أمثال بشار وأبي نواس وابن الرومي وابن المعتز وأبي العلاء ؟ وهل تجد في النثر أمثال ابن المقفع والجاحظ وسهل بن هرون وعمرو بن مسعدة ! وهل تجد في الغناء أمثال اسحق الموصلي وابراهيم بن المهدي ؟ » وقس على ذلك بطولة الحرب والسياسة والزعامة وسائر البطولات

ثم يعقب الأستاذ على ذلك قائلا : « يظهر لي مع الأسف أن الظاهرة صحيحة ، وأن الجيل الحاضر في الأمم المختلفة لا يلد كثيراً من النوابغ ولا ينتج كثيراً من الإبطال . وأن طابع هذه العصور هو طابع المألوف والمعتاد ، لا طابع النابغة والبطل »

ثم يستعرض الأسباب ويختمها بقوله : « ما أحق هذا الموضوع بالدرس وتناول الكتاب له من وجوهه المختلفة »

والموضوع كما قال الأستاذ النابه حقيق بالدرس والتناول من وجوه مختلفة ، وليس له أوان يفوت بفواته . فاذا شغلتنا موضوعات أخرى عن تناوله في الأيام الماضية فليس ما يمنع اليوم أن نبدي الرأي فيه

ورأينا أننا نخالف الأستاذ مخالفة النقيض للنقيض ؛ ونعتقد أن العصر الحديث أغنى بالبطولة والنبوغ من كل عصر سلف بغير استثناء ولا تحفظ ولا تغليب للظن والاحتمال . وأنه ليس أسهل ولا أقرب من ظهور خطأ المتشائمين فيما وصلوا إليه من نتيجة ، لأنه ليس أسهل ولا أقرب من ظهور الخطأ فيما اعتمدوه من قياس

إن الوجه في المقارنة بين جيل وجيل أن نحصر الزمن وأن نحصر المزايا ، وأن نحصر العناصر التي تقوم عليها شهرة الأدباء أو الأجيال

وهذا الذي ينساه المفاضلون بين عصرنا الحديث والعصور الغابرة كل النسيان

فمن أمثلة ذلك سؤالهم : « هل تجد في الشعر أمثال بشار وأبي نواس وابن الرومي وابن المعتز وأبي العلاء ؟ »

فالذين يسألون هذا السؤال يحسبون الماضي كله عصراً واحداً يقابله واحد من الحاضر هو العصر الذي نعيش فيه

وينسون أن الزمن الذي نشأ فيه بشار والمعري يمتد من أواسط القرن الثاني للهجرة إلى أواسط القرن الخامس ، أي نحو ثلاثمائة سنة !

وينسون أن المكان الذي نشأوا فيه يمتد من العراق إلى الشام ، ومن الحضر إلى البادية

وينسون أن العصر الحاضر الذي نعيش فيه لا يمتد إلى أكثر من أربعين أو خمسين سنة وهو الزمن الذي يبدأ بفتوة الشاعر وينتهي بوفاته

وإنما الوجه أن يحصروا أربعين أو خمسين سنة من العصر الحديث ثم يحصروا أربعين أو خمسين سنة من العصور القديمة ، ثم يعقدوا المقارنة بين هاتين الفترتين ، فانهم ليدركون إذن حقيقة التفاوت بين عصرنا الحاضر وبين كل عصر من تلك العصور

* * *

كذلك ينسى النعاة على المحدثين أن يسألوا أنفسهم : ماهي المزية التي كان بها النابغ القديم « انبغ » من قرينه الحديث ؟

فلا يسألون مثلا : ماهو كتاب الجاحظ الذي يستعجزون أبناء عصرنا عن الاتيان بنظيره ؟ فان لم يكن كتاب فما هو الموضوع ؟ وان لم يكن موضوع فما هو المقال أو الجملة أو العبارة !

ولو كلفوا أنفسهم سؤالا كهذا لمالت معهم كفة الميزان وعلموا ان الجاحظ ومن هم أكبر من الجاحظ يحتاجون الى أن يتتلمذوا على أناس من المتخلفين ، وقلما يعتزون بمزية واحدة لا يعد لها نظير من مزايا المتأخرين

وأعجب من ذلك حديثهم عن الموصلي وابراهيم بن المهدي ومن جرى مجراهما من المطربين في العصور الأولى . فاذا سمعوا من هذا أو ذاك ؟ ومن أين لهم أن الموصلي يبلغ شأو سلامة حجازي أو السيد درويش أو أم كلثوم فضلا عن السبق الذي لا يجارى والبون الذي لا يدرك ؟

أما أنا فأغلب الظن عندي أن الأمر معكوس ، وان ألحان الموصلي لا تعدو أن تكون مزيجا من تنغيم البدو وصبغة

الحضارة المستعارة والآلات الناقصة ، وكل ما يأتي على هذا النمط معروف الأصول معروف النطاق، وإن لم يكن معروفا بحروف النوطة وأصوات السماع.

كذلك ينسى المتشائمون أن يتقصوا عناصر الشهرة فى العصور القديمة قبل أن يعقدوا المقارنة بينها وبين نظائرها فى العصور الحديثة

فدع أنهم ينسون أن يرجعوا الى وقائع قائد مثل يوليوس قيصر أو الاسكندر المقدونى أو جنكيزخان قبل أن يرجحوهم فى فنون الحرب على فوش وهندنبرج ومصطفى كمال ولو أنهم رجعوا الى تلك الوقائع لما أكبروا من شأن الانتصار فيها كل ذلك الاكبار

ودع أنهم ينسون ان كل حرب لا بد فيها من ظافر ومن مهزوم ، وأن الظفر وحده ليس بشيء ان لم تنظر معه الى عوامله ودواعيه وتتبين انها صالحة للتكرار فى كل وقعة وكل حين

ودع أنهم ينسون أحكام المصادفات والعوارض وأنها تندر فى الزمن الحديث وتكثر فى الزمن القديم

دع هذا جميعه فقد يكون فى نسيانه بعض أعذار لمن ينسونه، ولكن كيف تراهم يجارون الأقدمين فى مبالغاتهم عن هؤلاء العظماء وهى قائمة على دعاوى وأكاذيب نحن على يقين من بطلانها كل البطلان ؟ ألم يكن هؤلاء العظماء أربابا وأنصاف أرباب وقديسين وأشباه قديسين فى رأى الأقدمين ؟ فكيف تقابل بينهم وبين خلفائهم فى عصرنا قبل أن تسقط فى الميزان تلك المبالغات وتلك الدعاوى والأكاذيب ؟ إن هذا لخليق أن يضيف الى فضل المتأخرين لا أن يغض منه ويجيف عليه ، لأنهم وهم آدميون ليس إلا يوضعون فى الميزان أمام أرباب وأنصاف أرباب !

* * *

ليس فى تاريخ بنى الانسان منذ بدايته الى يومنا هذا عصر يعرض لنا من عجائب الحوادث والامم والأفراد مثل ما يعرضه لنا العصر الذى نحن فيه

ليس فى تاريخ بنى الانسان عصر برز فيه من البطولة والمغامرة والدهاء والقدرة والصبر على النصر والهزيمة مثل ما برز أمامنا فى الحرب العظمى

وليس فى تاريخ بنى الانسان عصر تولى فيه عروش القياصرة والخواقين والأكاسرة وقبض فيه على أعنة السلطان رجال من أبناء الشعب ، كمصطفى كمال ورضا بهلوى وستالين وموسليني وهتلر وكابللرو وكاردينياس . فماذا عندنا من الأدلة على أن العصاميين فى الزمن القديم كانوا أعجب وأدنى الى البطولة فى صنيعهم من هؤلاء ؟

وليس فى تاريخ بنى الانسان عصر واحد عرض لنا من نخوة الحب وفروسية العاطفة مثل ما عرضه لنا العصر الحاضر فى غرام ملك الإنجليز السابق وصديقته السيدة سمبسون . فماذا عندنا من الادلة على أن غرام هيلانة فى طروادة المزعومة كان أعجب وأدنى الى البطولة من هذا الغرام ؟

وليس فى تاريخ بنى الانسان عصر واحد عرض لنا من أطوار الشعوب ما عرضته لنا الثورة الأسبانية والثورة الروسية من قبلها وعرضته معها الثورات فى مصر والهند والصين . فماذا عندنا من الأدلة على أن عصر الثورة الفرنسية أو عصور ثورات اليونان والرومان كان لها نصيب من العجب وجلائل الخطوب أوفى من هذا النصيب الذى شهدناه ؟

وليس فى تاريخ بنى الانسان عصر أنجب فى كل أمة نموذجا يمثلها كما أنجب عصرنا سعد زغلول وغاندى وسون ياتسن وشيان كاى شيكر وفيصلا وابن سعود

وليس فى تاريخ بنى الانسان عصر فيه ما فى عصرنا من الحقائق التى تشبه الخيال ، والعبر التى تشبه نوادر الأمثال ، والشواهد التى تتعدد على كل ملاحظة من ملاحظات النفس الانسانية والبواعث القومية والطوارق السياسية . فعندنا على مسمع ومشهد منا مصداق كل رأى حام فى ذهن فيلسوف ، وتطبيق كل مذهب دعا إليه داعية قديم أو حديث فى عالم النظريات

وليس فى تاريخ بنى الانسان مخاطرات أهول ولا أنبل من مخاطرات ركاب الطيارات والمظلات والغواصات المتفجرة والسفن المدمرة التى يقع فيها الخطر كل يوم ويقع فيها الاقدام كل يوم ، ولا مبالاة بالموت ولا بالخطر كأنهما رياضة من من اللهو أو لعبة من ألعاب الرهان

فان كنا لا نسمى ما نبصره ونسمعه عجائب وروائع ولا نحسبها معارض للبطولة والنبوغ فقد غيرنا الأسماء وقد بدلنا اللغة ،

وقد أصبحنا مطبوعين على النظر إلى البعيد دون النظر إلى القريب

نعم إننا ننظر حولنا إلى عظيم في الشعر من طراز شكسبير فلا نرى له ندا بين الشعراء المعاصرين . ولكن النوابغ من طراز شكسبير تتساوى فيهم جميع العصور ولا يستأثر بهم القرن الذى نبغوا فيه . وهكذا كان أبناء القرن السادس عشر خلقاء أن يبحثوا فى زمانهم عمن يضارعون نوابغ القرن العشرين فى العلم والاختراع والموسيقى والفن كافة فلا يجدوا بينهم أنداداً لهم يضارعونهم كثرة وقيمة ؛ وإن العصر الحديث مع هذا ليفهم قصائد شكسبير خيراً مما فهمها معاصروه ، ويقدره خيراً مما قدروه ، ويمثل رواياته أكثر وأجمل وأبرع وأكفل بالاقبال والاعجاب مما كانوا يمثلونها فى حياته

أذكر أننى رأيت منذ سنوات فى إحدى الصحف الانجليزية صوراً لبعض العظماء الغابرين فى أزياء العصر الحديث ، شفعتها الصحيفة بهذا السؤال : هل تعرفهم ؟

وحق للصحيفة أن تسأل سؤالها الآن ، لأن الصور التى رأيناها لأولئك العظماء قد سلبتهم كثيراً من الهيبة وبددت ما حولهم من هالات الفوارق والمسافات التى يوحيها اختلاف المظاهر والأزياء .

وإن حاجتنا اليوم لشديدة إلى متحف يستعرض لنا عظماء الأمس فى أزياء اليوم ، وعظماء اليوم فى أزياء الأمس ، لنعرف مقدار ما نضيفه إلى الغابرين من هيبة الفوارق والمسافات ومقدار ما نسلبه المعاصرين من جراء الألفة والمقاربة

فان تعذر علينا أن نرسم ذلك المتحف عيانا فلنرسمه بالظن والتقدير . ولنرجع إذن إلى مقاييسنا وموازيننا نلمس مواضع الزيادة والنقصان فيها ، ونصلح جوانب الغلو والبخس فى كفاتها ، ونغنم تصحيح الميزان فى الحكم على الرجال والأزمان ، لأن هذا التصحيح غنيمة أنفس وأجدى من تفضيل نابغ على نابغ أو ترجيح جانب على جانب . إذ لا ضرر ولا قصور فى اختلاف التفضيل والترجيح متى صحت النظرة واستقام القياس . تلك هى الحقيقة فيما يقال عن ندرة البطولة والنبوغ بيننا كما أراها

أما تواتر القول بندرتها بين جماعة من الناقدين منهم أناس فضلاء محبون للانصاف فله أسباب قد نعود إلى تفصيلها ومناقشتها

عباس محمود العقاد

الزمن

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى

حدث مرة أنى سافرت فجأة إلى أوربا من غير أن يعرف أحد من أهلى وأصحابى — عزمت على ذلك وأمضيت العزم فكانت هذه الرحلة التى لم تكن لى فى حساب قبل يومين اثنين. وأسباب ذلك كثيرة يطول شرحها . وركبنا الباخرة فما كان يمكن أن أذهب إلى أوربا سابحا ، ومضى يوم وثان وإذا بفتاة ممن عرفناهن على ظهر السفينة مقبلة على تقول :

« هل ضبطت الساعة ؟ » .

ونظرت إلى ساعتها الصغيرة على معصمها ثم رفعتها إلى أذنها فقلت : « دعى هذا لى فإنى حاد السمع مرهفه .. هاتى يدك واسمعينى »

قالت : « يظهر أنك لا تسمع إلا ما تريد . . لقد سألتك الآن هل أصلحت ساعتك ؟ »

فقلت وأنا أتعجب : « أصلحتها ؟ . . ومن الذى قال إن ساعتى خربت ؟ . إنى أؤكد لك أنها من أحسن الساعات . . كانت لرجل ممن يكثر المال فى أيديهم يوما فيذهبون يشترون كل ما يخطر لهم على البال ، ويصبحون فى اليوم الثانى وقد صفرت أكفهم فيرهنون ما اشتروا أمس أو يبيعونه . . صاحب هذه الساعة شاء أن يرهنها ، ثم لم يؤد ما اقترض عليها ، فاضطر الصائغ اليهودى أن يبيعها . . ولا أحتاج أن أقول إنك ترين الرجل الفاضل الذى اشتراها منه »

فألقت إلى ابتسامة عذبة أدارت رأسى دورة جديدة — وأقول الحق إنها هى التى كانت سبب سفرى إلى أوربا فجأة — وقالت : « لا شك أنها ساعة معرقة فى الفخار . . ولكنها تحتاج الآن إلى إصلاح »

فقلت ببساطة : « أبدا . . »

فقالت : « أسرع . . رد العقربين »

فدهشت وقلت : « أردهما ؟ . . لماذا ؟ . . »

قالت : « نعم ... ردهما ... أخرهما ساعة ... لو كنا فى الشتاء لوجب أن تؤخرها ساعتين »

قلت : « اسمعى ... لو أمرتنى أن أرتد طفلا ، وكان هذا فى وسعى ، لفعلت بلا تردد ، وبلا شرط سوى أن ترتدى معى طفلة لنلعب معاً ... ونكبر معا ... ونعوض على العموم مافاتنا - مافاتنى أنا على الأصح - ليس عليك إلا أن تأمرى فإذا الذى تشائين كائن - ولكن من المجانين الذين يحبون أن يعلموا لماذا يصنعون ما يصنعون »

قالت : « لا أدرى سوى أن كل الناس هنا ردوا عقارب الساعات وأرجعوها ساعة ... حساب الوقت بعد هذا الخط يتقدم ساعة »

قلت : « تعنين يتأخر »

قالت : « كلا ... بل يتقدم »

قلت : « لن تحل هذا الاشكال قط فيحسن أن نتركه ... ولننتقل إلى سواه فهل تعنين أننا كنا سائرين إلى الوراء ؟ - كنا نرتد فى الزمن ؟ »

قالت : « لا أدرى ... هكذا يقولون ... فأصلح الساعة وتعال إلى فوق فان الجو جميل »

قلت : « أفهمينى أولا كيف كنا نرجع القهقرى فى الزمن »

فلم تستطع أن تفهمنى - ولها العذر ، وكيف بالله تستطيع أن تفهم أنك تمشى إلى الوراء وأنت تمشى إلى الأمام ؟ - وأصررت أنا على ترك ساعتى كما هى ، وقلت لها : « إنك ولا مؤاخذة مثل مدرس الجغرافيا الانجليزى فى المدرسة الخديوية »

قالت : « ماله ؟ »

قلت : « كان يقول لنا ، لنفرض أنكم فى أستراليا - ولا أدرى لماذا اختار استراليا ولكن هكذا كان يقول - وأنى أنا - يعنى نفسه - فى لندن ... فماذا يحدث ؟ ... فلا نعرف ما ذا يمكن أن يحدث ، فيقول ... اسمعوا فى يوم من الأيام ، وليكن الجمعة ، فأعترض وأقول : إن يوم الجمعة فيه ساعة منحوسة ، فيقول : حسن ، إذن ليكن اليوم يوم الأحد ولكن الوقت الصباح ... ولنفرض أيضاً أن المخاطبات التليفونية ممكنة بين استراليا ولندن فيدق لى أحدكم التليفون ويقول صباح الخير ... مفهوم ؟ ... فنقول جداً : فيسألنا ما ذا ينبغى أن أقول أنا فى رد التحية التى وجهها إلى من باستراليا ؟ فنقول له تقول صباح الخير ، أو عموا صباحاً يا أولادكا تقول لنا هنا ، فيقول كلا ! ... فى هذا تخطئون لأننا فى لندن نكون فى ذلك الوقت فى مساء السبت بينما تكونون أنتم فى استراليا فى صباح الأحد ، فأنا أرد على تحيته بقولى له « عم مساء » فتقولون لى مستغربين كيف هذا ؟ ... إننا ما زلنا فى الصباح ، فأقول إن الوقت الآن فى لندن الثامنة مساء ، وقد تناولت عشائى منذ لحظة قصيرة ؛ فتقولون كلا ، بل الساعة الآن الخامسة صباحا ، ونحن لم نفطر فألتفت إلى الذين معى وأقول اسمعوا ... إن لفيفاً من تلاميذى فى استراليا استيقظوا - بصيغة الماضى من فضلكم - صباح غد فيسألنى اخوانى كيف يمكن أن تعرف ما عسى أن يفعلوا غداً صباحاً ؟ فأقول إنى أعرف ماعسى أن يفعلوا غدا صباحا لأنهم أنبأونى أنهم فعلوه فيقول إخوانى لى إنك مجنون - أو كلاماً آخر كهذا - لأنهم لا يستطيعون أن يتصوروا أن يكونوا هم فى الساعة الثامنة مساء من يوم السبت على حين يكون غيرهم فى نفس الوقت فى الساعة الخامسة صباحاً من يوم الأحد ، فنهز نحن التلاميذ رؤوسنا الصغيرة ونقول ، ولا نحن نفهم هذا ، فيقول المدرس اسمعوا ... لنفرض أن لى طيارة سريعة تقطع المسافة بين القاهرة واستراليا فى أربع ساعات أو خمس ... أركبها من القاهرة يوم السبت وأفطر فى استراليا صباح الأحد وأرجع إلى القاهرة مساء السبت - أرجع اليها قبل الوقت الذى غادرتها فيه - فما قولكم ؟ ... أليس هذا واضحاً ؟ ... فنضع أصابعنا فى الشق ، ونريح أنفسنا من العناء الباطل ، ونقول إن الأمر واضح جداً .

وأزيد أنا على هذا أن من الواضح من كلامك أن فى وسعك أن تقوم من القاهرة يوم السبت وتكون فى استراليا - أو حيث شئت غيرها - يوم الاثنين ، لا الأحد فقط ، ثم

ترجع إلى القاهرة يوم الجمعة ، الذى هو قبل السبت الذى سافرت فيه ... معلوم !.. الأمر واضح جداً !.. فيحسب المدرس أنى أسخر منه ، ويعاقبنى بالحبس ساعة ، آخر النهار.. هذا يا ستى ما كان مدرسنا يعلمنا .. لقد ضاع علينا والله ما أنفقناه فى التعلم .. والآن بعد أن استرحنا من المدارس والمدرسين المخرفين نركب هذه الباخرة الجليلة ونحن نعتقد أن الدنيا بخير ، وأن العقول لم تطر من الرؤوس وإذا بهم يقولون لنا ردوا عقارب الساعات لأنا رجعنا ساعة ؟؟ والذى يدهشنى هو أن تصدقيهم

فتقول فتاتى : « ولكن هذا صحيح »

فأصيح بها - برغمى - : « كيف تقولين هذا الكلام ؟ .. هل تريدين منى أن أقول إن الساعة الرابعة حين تكون الخامسة ؟ .. إنك تكلفينني شططاً »

فتقول : « لقد كسبنا ساعة »

فأقول : « أرجوك !.. أرجوك !.. »

فتقول : « صحيح والله »

فأقول : « يابنت الحلال كيف يمكن أن نكون قد كسبنا هذه الساعة وهى قد ولت ؟ ثم إنى لم أكن معك فيها . لأنى كنت نائماً فالخسارة مضاعفة »

فتضحك وتقول : « كسبناها لأنا استرجعناها »

فأقول : « إيه ؟ استرجعنا الساعة التى ولت ؟ . مدهش ! »

فتقول : « ألا تصدق ؟ »

فأقول : « يا حبيبتى ، يا زوجى ، يا عقلى .. أرجوك ! . ألف راء جيم واو الخ الخ .. »

فتضحك فأقول : اسمعى إنى لا أحب أن يبقى هذا الخلاف بيننا ، وأنا من أجل عينيك النجلاوين أفعل ما تريدين - لا عن اقتناع ، بل ارضاء لك - وأنا مستعد أن أقول إننا رجعنا إلى العام الماضى .. والله فكرة ! تعالى نرجع طفلين ونلعب .. »

فتذهب تعدو ضاحكة وأعدو وراءها حتى أدركها .

ابراهيم عبد القادر المازنى

خاتمة المأساة الأندلسية

الصراع الأخير

بين الموريسكيين واسبانيا

للأستاذ محمد عبد الله عنان

بينما كانت هذه الحوادث والمعارك الدموية تضطرم فى هضاب الأندلس وسهولها وتحمل إليها أعلام الخراب والموت ، إذ وقع فى المعسكر الموريسكى حادث خطير هو مصرع محمد بن أمية ؛ وكان مصرعه نتيجة المؤامرة والخيانة ؛ وكانت عوامل الخلاف والحسد تحيط هذا العرش بسياج من الأهواء الخطرة ؛ وكان محمد بن أمية يثير بين مواطنيه بظرفه وفروسته ورقيق شمائله كثيراً من العطف ، ولكنه كان يثير بصرامته وبطشه الحقد فى نفوس نفر من ضباطه ؛ وتقص علينا الرواية القشتالية سيرة مقتله ، فتقول إنه كان ثمة ضابط من هؤلاء يدعى ديجو الجوازيل له عشيقة حسناء تسمى « زهره » فانتزعها محمد منه قسراً ، فحقد عليه ، وسعى لإهلاكه بمعاونة خليلته ، فزور على لسانه خطاباً إلى القائد العام « ابن عبو » يحرضه على التخلص من المرتزقة الترك ، وكانت ثمة منهم فرقة فى المعسكر الموريسكى ، فعلم الترك بأمر الخطاب ، واقتحموا المعسكر إلى مقر محمد بن أمية . وقتلوه بالرغم من احتجاجه وتوكيد براءته ؛ واستقبل الجند الحادث بالسكون ؛ وفى الحال اختار الزعماء ملكاً جديداً هو « ابن عبو » فتسمى بمولاى عبد الله محمد ، وأعلن ملكاً على الأندلس بنفس الاحتفال المؤثر الذى وصفناه . وكان مولاى عبدالله أكثر فطنة وروية وتدبراً ، فحمل الجميع على احترامه ؛ واشتغل مدى حين بتنظيم الجيش واستقدم السلاح والذخيرة من ثغور المغرب ، واستطاع أن يجمع حوله جيشاً مدرباً قوامه زهاء عشرة آلاف بين مجاهد ومرتزق ومغامر

وفى أواخر اكتوبر سنة ١٥٦٩ سار مولاى عبد الله

بجيشه صوب «أورجبة» وهي مفتاح غرناطة واستولى عليها بعد حصار قصير، فذاعت شهرته، وهرع الموريسكيون في شرق البشرات إلى إعلان طاعته، وامتدت سلطته جنوباً حتى بسائط رندة ومالقة؛ وكثرت غارات الموريسكيين على فحص غرناطة (لافيجا)، وقد كان قبيل سقوطها ميدان المعارك الفاصلة بين المسلمين والنصارى. وكان فيليب الثاني حينما رأى استفحال الثورة الموريسكية وعجز القادة المحليين عن قمعها؛ قد عين أخاه الدون جون (خوان) قائداً عاماً لولاية غرناطة؛ ولما رأى الدون جون اشتداد ساعد الموريسكيين، اعتزم أن يسير لمحاربتهم بنفسه، فخرج في أواخر ديسمبر على رأس جيشه، وسار صوب «وادي آش»، وحاصر بلدة «جاليرا» وهي من أمنع مواقع الموريسكيين، وكان يدافع عنها زهاء ثلاثة آلاف موريسكي منهم فرقة تركية، فهاجمها الاسبان عدة مرات، وصبوا عليها نار المدافع بشدة؛ فسقطت في أيديهم بعد مواقع هائلة أبدى فيها الموريسكيون والنساء الموريسكيات أعظم ضروب البسالة، وقتل فيها عدة من أكابر الاسبان وضباطهم، ودخلها الاسبان دخول الضواري المفترسة وقتلوا كل من فيها، ولم يفرقوا النساء والأطفال، وكانت مذبحة رائعة (فبراير سنة ١٥٧٠) وتوغل الدون جون بعد ذلك في شعب الجبال حتى سيدون الواقعة على مقربة من بسطة، وكانت هنالك قوة أخرى من الموريسكيين بقيادة زعيم يدعى «الحبقي» تبلغ بضعة آلاف؛ ففاجأت الاسبان في سيدون ومزقت بعض سراياهم، وأوقعت الرعب والخلل في صفوفهم، وقتل منهم عدة كبيرة، ولم يستطع الدون جون أن يعيد النظام إلا بصعوبة؛ فجمع شتات جيشه، وطارد الموريسكيين، واستمر في سيره حتى وصل إلى اندرش في مايو سنة ١٥٧٠

وهنا رأت الحكومة الاسبانية أن تجنح إلى شيء من اللين خشية من عواقب هذا النضال الرائع، فبعث الدون جون رسله إلى الزعيم الحبقي يفاتحه في أمر الصلح، وصدر أمر ملكي بالوعد بالعفو التام عن جميع الموريسكيين الذين يقدمون خضوعهم في ظرف عشرين يوماً من إعلانه، ولهم أن يقدموا ظلاماتهم فتبحث بعناية، وكل من رفض الخضوع ماعدا النساء والأطفال دون الرابعة عشرة، قضي عليه بالموت؛ فلم يصغ إلى النداء أحد. ذلك أن الموريسكيين أيقنوا نهائياً بأن أسبانيا النصرانية لا عهد لها ولا ذمام، وإنها غير أهل للوفاء؛ فعاد الدون جون إلى استئناف القتال والمطاردة وانقض الاسبان على الموريسكيين محاربين ومسالمين يمعنون فيهم قتلا وأسراً؛ وسارت قوة بقيادة دوق سيزا إلى شمال البشرات واشتبكت مع قوات مولاي عبد الله في عدة معارك غير حاسمة وسارت مفاوضات الصلح في نفس الوقت عن طريق الحبقي؛ وكان مولاي عبد الله قد رأى تجهم الموقف ورأى أتباعه ومواطنيه يسقطون من حوله تباعاً، والقوة الغاشمة تجتاح في طريقها كل شيء، فمال إلى الصلح والمسالمة، واستخلاص ما يمكن استخلاصه من براثن القوة القاهرة؛ واتفق المفاوضون على أن يتقدم الحبقي إلى الدون جون بإعلان خضوعه وطلب العفو لمواطنيه، فيصدر العفو العام عن الموريسكيين، وتكفل الحكومة الاسبانية حمايتها لهم أينما ارتأت إقامتهم، وفي ذات مساء سار الحبقي في سرية من فرسانه إلى معسكر الدون في اندرش وقدم له الخضوع وحصل على العفو المنشود

ولكن هذا الصلح لم يرض الموريسكيين، ولم يرض بالأخص مولاي عبد الله وباقي الزعماء، ذلك لأنهم لمحوا فيه نية إسبانيا النصرانية في نفيهم ونزعهم عن أوطانهم؛ ففيم كانت الثورة إذاً، وفيم كان النضال؟ لقد ثار الموريسكيون لأن اسبانيا أرادت أن تنزعهم لغتهم وتقاليدهم، فكيف بها إذ تعتزم أن تنزعهم ذلك الوطن العزيز الذي نشأوا في ظلاله الفيحاء، والذي يضم تاريخهم وكل مجدهم وذكرياتهم؟ أنكر الموريسكيون ذلك الصلح المجحف، وارتاب مولاي عبد الله في موقف الحبقي إذ رآه يروج لهذا الصلح بكل قواه، ويدعو إلى الخضوع والطاعة للعدو، فاستقدمه إلى معسكره بالحيلة؛ وهنالك أعدم سراً

ووقف الدون جوان على ذلك بعد أسابيع من الانتظار والتريث، وبعث رسوله إلى مولاي عبد الله، فأعلن اليه أنه يترك الموريسكيين أحراراً في تصرفهم، بيد أنه يأبى الخضوع

مابقى فيه رمق ينبض ، وأنه يؤثر أن يموت مسلماً مخلصاً لدينه ووطنه على أن يحصل على ملك اسبانيا بأسره ؛ والظاهر أن مولاى عبد الله كانت قد وصلته يومئذ أمداد من المغرب شدت أزره وقويت أمله ، وعادت الثورة إلى اضطرامها حول رندة ، وأرسل مولاى عبد الله أخاه الغالب ، ليقود الثوار فى تلك الأنحاء ؛ وثارت الحكومة الاسبانية لهذا التحدى ، واعتزمت سحق الثوار بما ملكت ؛ فسار الدون جوان فى قواته إلى وادى آش ، وسار جيش آخر من غرناطة بقيادة دوق ركيصانص إلى شمال البشرات ، وسار جيش ثالث إلى بسائط رندة ، واجتاح الاسبان فى طريقهم كل شىء وامعنت فى التقتيل والتخريب ، وعبثاً حاولت السرايا الموريسكية أن تقف فى وجه هذا السيل فمزقت تباعا ، وهدم الاسبان الضياع والقرى والمعاقل ، وأتلفت الأحراش والحقول حتى لا يبقى للثائرين مثوى أو مصدر للقوت ، وأخذت دعائم الثورة تنهار بسرعة وفر كثير من الموريسكين إلى إخوانهم فى أفريقية ، ولم يبق أمام الاسبان سوى مولاى عبد الله وجيشه الصغير ؛ بيد أن مولاى عبد الله لبث معتصما بأعماق الجبال يحاذر الظهور أمام هذا السيل الجارف

وفى ٢٨ أكتوبر سنة ١٥٧٠ أصدر فيليب الثانى قراراً بنفى الموريسكين من مملكة غرناطة إلى داخل البلاد ، ومصادرة أملاكهم العقارية وترك أملاكهم المنقولة يتصرفون فيها ؛ ونفذ القرار الجديد بمنتهى الصرامة والتحوط ، وجمع الموريسكيون فى الكنائس أكداساً ، يحيط بهم الجند فى كل مكان ، ونزعوا من أوطانهم وربوعهم العزيزة ، وشتتوا داخل الأقاليم الاسبانية ، وانهار بذلك المجتمع الموريسكى فى مملكة غرناطة

ولم يبق إلا أن يسحق مولاى عبد الله وجيشه الصغير ؛ وكان هذا الأمير المنكود يرى قواده وموارده تذوب بسرعة وقد انهار كل أمل فى النصر أو السلم الشريف ؛ بيد أنه لبث مختفياً فى أغوار الجبال مع شرذمة من جنده المخلصين ، وفى مارس سنة ١٥٧١ كشف بعض الأسرى سر مخبئه للأسبان فأوفدوا رسلهم إلى معسكره فى بعض المغائر وهناك استطاعوا إغراء ضابط مغربى من خاصته يدعى « الزنيش » أغدقوا له المنح والوعود إذا استطاع أن يسلمهم مولاى عبد الله حياً أو ميتاً وزودوه بالعفو الشامل ؛ فدبر الضابط الخائن خطة لاغتيال سيده ؛ وفى ذات يوم فاجأه مع شرذمة من أصحابه فقاوم مولاى عبد الله ما استطاع ولكنه سقط أخيراً مثخناً بجراحه فحمل الخونة جثته إلى غرناطة ؛ وهناك رتب الاسبان موكباً أركبت فيه الجثة مسندة إلى بغل كأنما هى إنسان حى ، ثم حملت إلى النطع وأجرى فيها حكم الاعدام ، فقطع رأسها ثم جرت فى شوارع غرناطة مبالغة فى التمثيل والنكال ، وبعد ذلك أحرقت فى الميدان الكبير

— ٥ —

وهكذا انهارت الثورة الموريسكية وسحقت وخبت آخر جذوة من العزم والنضال فى صدور هذا المجتمع الأبى المجاهد وقضت المشانق والمحارق والمحن المروعة على كل نزعة إلى الخروج والنضال ، وهبت ريح من الرهبة والاستكانة المطلقة على ذلك المجتمع المهيض المعذب ، وعاش الموريسكيون لا يسمع لهم صوت ، ولا تقوم لهم قائمة ، فى ظل العبودية الشاملة والارهاق المطبق حقبة أخرى

على أن اسبانيا النصرانية لم تطمئن مع ذلك إلى وجود هذا الشعب المستكين الأعزل الذى ما زال رغم ضعفه وذلته يملأ جنباتها بفنونه ونشاطه المنتج : وكانت الكنيسة ما زالت تنفث إلى الدولة تحريضها البغيض على مجتمع لم تطمئن إلى صحة إيمانه ، وكانت الدولة ذاتها تلتمس المعاذير لاضطهاد هذا المجتمع ومطاردته ، فهى تخشى من أن يعود إلى الثورة ، وهى تخشى من صلاته المستمرة مع مسلمى إفريقية ، وكان التنصر المطبق قد عم الموريسكيين وغدا أبناء قريش ومضر بحكم القوة والتطور نصارى وقشتاليين ، يشهدون القداس ، ويتكلمون القشتالية ؛ غير أنهم لبثوا مع ذلك فى معزل تلفظهم إسبانيا النصرانية وتحيطهم بريبها وبغضها ؛ وكانت ثمة منهم جموع كبيرة فى بلنسية ومرسية ؛ ففى عهد فيليب الثالث اتخذت إسبانيا النصرانية خطوتها الحاسمة ، وأصدرت قرارها الشهير فى صحف الاضطهاد ، بنفى الموريسكيين أو العرب المتنصرين من إسبانيا ، وإخراجهم

في الأدب المقارن

أثر الأخلاق

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

التخلق من صفات الإنسان الذي يحيا في الجماعة ، تضطره الحياة الاجتماعية إلى تعديل كثير من طباعه الفطرية التي يجبل عليها ، وكبح مايتنافى منها مع مصلحة المجتمع ، والأخذ بما فيه تلك المصلحة ، فالأخلاق الحسنة أو الفضائل هي الصفات التي بها يكون صلاح الفرد والمجتمع ، ومن أجل هذا الصلاح يحمد الصدق والشجاعة والعفة ، ويذم الكذب والجبن والفجور ؛ وهذه الأخلاق الحسنة التي هي مزيج من طباع الانسان المركبة فيه ، ومقتضيات المجتمع التي يفرضها عليه ، تكاد تتفق بين جميع الأمم في شتى الأصقاع والعصور ، فما من أمة لايحمد فيها الكرم والإيثار والقناعة وتذم الرذائل المضادة لهذه الفضائل ، معايير الأخلاق هذه يكاد يتحد فيها الجميع ، إنما تختلف الامم والأفراد في مدى مراعاتها حقاً واتباعها عملا ، باختلاف الجبلات والأوساط الجغرافية والاجتماعية .

وللأخلاق أثرها المحقق في آداب الأمة وأدب الفرد . تنعكس الأخلاق في مرآة الأدب كما تنعكس العقليات ، ويكون ظهور آثارها في الأدب أحيانا بدهياً تلقائياً غير مقصود ، كما يكون أحياناً مقصوداً معنياً ، إذ يلجأ الأديب إلى تصوير أخلاقه الذاتية وأخلاق غيره من أفراد مجتمعه ، وتختلف صبغة أدب الأمة الأخلاقية من جيل إلى جيل ، حسب ما يتوالى على المجتمع من عوامل الفضيلة والرذيلة ، ومتانة العقيدة الدينية أو انحلالها ، وارتفاع المثل العليا التي يتوخاها المجتمع أو انحطاطها ، أثر كل ذلك واضح في آداب الأمة المكتوبة وفي أقاصيصها الشعبية وأناشيدها المتداولة .

وفي الأخلاق الفاضلة كما تقدم صلاح المجتمع ، بيد أن تحبيذ الفضيلة وذم الرذيلة ليسا وظيفة الأدب الأولى ، إنما وظيفته تصوير الجمال ووصف الشعور وبيان الحقائق على ماهي عليه غير مموهة ، والعبقرية الفنية والفضيلة ليستا دائماً توأمين ، بل ربما كان الكثير من رجال الفن أميل إلى الإفراط والتفريط في حياتهم ، وأبعد عن القصد والاعتدال من عامة الناس ، وقد ترقى الفنون وتزدهر في عصور الادبار الخلقي ، كما كانت الحال في إطاليا في عهد النهضة الأوربية ؛ على أن الأدب وإن لم تكن غايته نشر الفضيلة ، ولا وظيفته ترقية الأخلاق ، إن هو إلا مظهر من مظاهر رقي الانسان وتحضره ، وناحية من نواحي حياته الاجتماعية يجب عليه أن يخضع لما يخضع له سائر مناحي تلك الحياة من مقاييس خلقية فيها صلاح المجموع .

فإذا لم يكن واجب الأدب الوعظ والارشاد إلى الخلق القويم فواجبه الذي لاشك فيه ألا يصادم الخلق القويم ولا يتحدى تقاليد المجتمع الصالحة ، وواجبه أن يتجه ما استطاع وجهة الخير ويتنكب مواضيع الفساد ودواعي التبذل ، وكل أثر أدبي مهما بلغت براعته وصدقه ودل على عبقرية صاحبه ، إذا خالطه الفجور والاخفاش واتسم بالاستهتار وتوخى الهنات والسوءات ، لابد أن يمجه الذوق السليم وينفر منه الطبع الكريم ، لما فيه من منافاة للأخلاق السامية التي يأخذ نفسه بها كل متحضر متهذب مثقف ويدرج عليها حتى تتأصل فيه وتصير له طباعاً ثانية .

كانت للعرب في الجاهلية أمثلة عليا من الأخلاق الفاضلة التي تمليها حياة البادية ، كالشجاعة والذود عن الذمار والدفاع عن الحريم والجود والقناعة وإجارة المستجير ، وحول التمدح بتلك الأخلاق

نهائياً من جميع الأراضي الاسبانية (سنة ١٦٠٩ م - ١٠١٧ هـ) وحشدت السفن لنقل من كان منهم في الثغور إلى أفريقية ، ونزح سكان الشمال منهم إلى فرنسا حيث استقروا في لانجدوك وجويان ، وبذلك انتهى الفصل الأخير ، من مأساة الموريسكيين وطويت صفحة شعب من أمجد عصور التاريخ ، وحضارة من أعرق حضاراته

ولكن فلك التاريخ يسير بلا هوادة ؛ فقد كانت مأساة الموريسكيين ضربة لاسبانيا النصرانية ذاتها ، وكانت بدء عصور التدهور والانحلال التي ما زالت تتخبط أسبانيا في ظلماتها

وهل يكون من عدالة الله في أرضه وبين شعوبه ان تجتاح أسبانيا النصرانية اليوم موجة مدمرة من الحديد والنار تحصد أبناءها وحضارتها حصدا ؟ وهل تكون الحرب الأهلية الاسبانية نقمة الموريسكيين تلحق أسبانيا بعد اربعمائة عام ؟

(تم البحث)
(النقل ؟ دع)

محمد عبد الله عنان

يدور جانب عظيم من الشعر الجاهلي ، يعزو الشاعر تلك الفضائل إلى نفسه تارة كما فعل عنترة في معلقته ، وإلى قومه عامة كما فعل عمرو بن كلثوم ولبيد والسموأل ، وإلى ممدوحه كما كان يفعل زهير والأعشى ، ولبعض أشراف الجاهلية كالأفوه الأودي وحاتم الطائي وذي الأصبع العدواني ، وآثار في ذلك رائعة ، يلاغتها وقوة أسرها وسمو منزعها ، ويرسلها بعضهم قصيداً رصيناً ، وبعضهم يرسلها نصائح للمخاطب ، ويصوغها بعضهم وصايا إلى أبنائهم ، وبعضهم يجعلها حواراً بينه وبين زوجه على تلك الطريقة العربية الجميلة ؛ وطلب العرب حسن الأحدوثة وطيب الأثر ، ولم يدخروا في ذلك قولا أو فعلا ، قال حاتم الطائي :

وتذكر أخلاق الفتى وعظامه   مغيبة في اللحد بال رميمها

وبديهي أن التمسك بكل هاتيك المثل العليا الخلقية لم يكن ديدن جميع العرب ولا التغني بها دأب جميع الشعراء ، بل كانت أسباب الشر والفجور موفورة ، ودواعي المجون والخلاعة عديدة ، تجلى في سيرة امرىء القيس الذي لم يكن يكاد يفيق غراماً أو خماراً ، وحياة طرفه التي صورها في معلقته ، حيث وصف ثلاث حاجاته في الحياة ، فمن سبقه العاذلات بشربة كميت ، وتقصير يوم الدجن ببهكنة تحت الخباء المعمد ، وكره إذا نادى المضاف محنباً ، وكان ذيوع المفاسد قبيل ظهور الاسلام سبب ظهور كثير من الحكماء الذين أخذوا أنفسهم بالزهد ودعوا إليه ، كما أخذ كثير من أشراف العرب أنفسهم بمجانبة الخمر والقمار ونحوهما ، ومن أولئك عامر بن الظرب الذي يقول وقد حرم في جماعة من السادة الخمر على أنفسهم

أقسمت بالله أسقيها وأشربها   حتى يفرق ترب القبر أوصالي
مورثة القوم أضغانا بلا إحن   مزرية بالفتى ذي النجدة الحالي

وظل أكثر المثل العليا الأخلاقية في الاسلام كما كانت في الجاهلية ، بعد أن هذب الاسلام من حواشيها وكفكف من غلوائها ، فتمدح شعراء الاسلام بالفضائل كالكرم والوفاء وحسن الجوار وكتمان السر والحلم عن السفيه والتصون عن الفحشاء والترفع عن المماراة والمجازاة بالحسنة عن السيئة ، كما فعل مسكين الدارمي وأوس بن معن ، والمقنع الكندي والشريف الرضي ، وتفاخروا بالبلاء في الحروب والاباء على الضيم والتعالي على الجهال وطلب السيادة والمعالي ، كما فعل أبو فراس والمتنبي ، ومدح الشعراء ممدوحيهم بهذا وذاك ، ورموا مهجويهم بأضداد تلك الفضائل ، وتهكموا في مداعباتهم بالبخلاء والجبناء والمنهزمين والأدعياء والمتطفلين . ومن محاسن أشعار امتداح الخلق الكريم قول سالم بن وابصة الذي يتمثل فيه الروح الاسلامي :

أحب الفتى ينفي الفواحش سمعه   كأن به عن كل فاحشة وقرا
سليم دواعي الصدر لا باسطاً أذى   ولا مانعاً خيراً ولا قائلا هجرا
إذا ما أتت من صاحب لك زلة   فكن أنت محتالا لزلته عذرا

وقول الشريف الرضي :

يصول على الجاهلون وأعتلي   ويعجم في القائلون وأعرب
لساني حصاة يقرع الجهل بالحجى   إذا نال مني العاضه المتأوب
ولا أعرف الفحشاء إلا بوصفها   ولا أنطق العوراء والقلب مغضب

وكان احتواء الشعر على تلك الآداب النفسية من أسباب ضن العرب الشديد به ، وتسميتهم إياه ديوانهم ، وأخذهم أبناءهم بحفظه ، وكانت دراسة آثار أبطال العرب وأشرافهم تلك تقوم في التربية العربية مقام دراسة أشعار هوميروس في التربية اليونانية القديمة ، كل منهما تقدم للناشىء نماذج من الفضيلة وأمثلة من الشخصيات العظيمة يحاكيها ويتشبه بها ، وهذا الباب من أكرم أبواب الشعر العربي وأجمعه لخير ميزات الأدب العربي ، من البلاغة والصراحة والإيجاز ونفاذ النظرة

على أنه بجانب هذه النزعة الخلقية السامية المتخلفة عن أشراف الجاهلية ، والتي رفعتها فضائل الاسلام درجات من الرقة والسمو ظهرت رويداً رويداً نزعة مضادة لها كانت ذات أثر في الأدب واضح وضوح نزعة التسامي تلك أو هو أوضح ، وتلك هي نزعة الاستهتار والمجون والاباحة التي كانت نتيجة محتومة لاتساع الفتوح واختلاط العرب بأشتات الأجناس واستفحال الترف واتساع الثروة وتفاقم دواعي الشهوات ، ثم انحطاط مكانة المرأة من جراء ذلك واختفائها من المجتمع ، حتى ذاعت فيه الآداب الخشنة والألفاظ الفاحشة ، بدل أن يتهذب مع الحضارة ، ويتخلص من جفوة البداوة الجاهلية

وانعكس أثر كل هذا الفساد في الأدب العربي ، فجاءت كتب الأدب محلاة بالحكايات المخزية والعبارات النابية والاشارات المندية ، وشبب الشعراء بالذكور ، وتبجحوا بالتسلل إلى الخدور ، وتفاخروا بالاسراف في الشراب والعكوف على سماع الألحان ، وجاهر بعضهم بالزندقة وتهكموا بعقائد المجتمع الدينية ، ووقع بعضهم في خصومهم بأفذع الهجاء وتهجموا على أعراضهم واتهموا حلائلهم ، وفي أشعار جرير والفرزدق وبشار وأبي نواس والمتنبي وابن الرومي من ذلك الشيء الكثير

وأوغل الشعراء في تلك الأبواب إيغالا لا يكاد يصدقه العقل ، ومن العجيب أن الطريقة التقليدية التي يجري عليها تاريخ الأدب العربي لا تزال تعد من فحول العربية شعراء لم يكد يؤثر عنهم

فقال في سوى تلك الأغراض الحيوانية . ومن البديهي أنه مهما تفنن الناظم في وصف الخمر وتصوير الشهوات ، فلن يرفعه ذلك إلى مصاف الشعراء العظام . ودواوين ابن أبي ربيعة وبشار وحماد وأبي نواس وأمثالهم إن هي إلا استهتار وتمدح بالمخازي ومجاهرة بالفسوق محكمة الديباجة بارعة النظم ؛ فاذا كان هؤلاء من فحول الأدب العربي فما أقصره عن بلوغ المثل الأعلى للأدب الراقي . ومن أيسر مجون أبي نواس قوله :

ألا فاسقني خمراً وقل لي : هي الخمر ولا تسقني سراً إذا أمكن الجهر

فهو لا يقنع أن يفرط في الشراب ماشاء ، بل يأبى إلا الامعان في الفجور وإلا أن يتم لذته بالجهر بالعربدة .

ولئن حمدت الحرية الفكرية التي كان يتمتع بها الفلاسفة والعلماء في كثير من الدول الاسلامية ، فما كذلك هذه الحرية التي أستباحها المجان من الأدباء ، الأولى حرية تساعد تقدم الفكر ورقي العلم ، والثانية تؤدي إلى انحطاط الخلق وتضرب في دعائم المجتمع . الأولى حرية فكرية نافعة ، والثانية إباحية خلقية ضارة ، والأدب يرسم للمجتمع - وإن لم يقصد - مثلا عليا يتوخاها ، فاذا تمادى في تصوير دنيء النوازع فانه يهبط بالنفوس إلى مستوى منحط لا تزيد عنه ارتفاعا . وليس شك في أن أشعار أبي نواس وأمثاله كانت من أكبر أسباب انحطاط المجتمع الاسلامي ، وقد كانت حياة الصعلكة التي كان يحياها ، وأشعار العربدة التي نظمها ، نموذجا للأدباء في عصور الإدبار ، فكان الأدب والصعلكة وإدمان الشراب ووصف الخمر في نظرهم توائم لابد أن تجتمع .

ففي الأدب العربي آثار من الخلق الكريم وتمدح بالفضيلة ، بجانبها آثار من الأخلاق المنحطة ومجاهرة بالاستهتار ؛ وفي الانجليزية طرف من هذه وطرف من تلك أيضاً : فقد تأثر بعض شعراء الانجليزية بالمثل العليا الأخلاقية التي سنتها المسيحية ، بجانب تلك التي أثرت عن الوثنية ، وظهر أثر ذلك في أشعار سبنسر الذي جعل كل فارس في ملحمته والملكة الحسناء عنوانا على فضيلة من الفضائل المسيحية . وبدا ذلك أيضاً في أدب عهد المطهرين ، في كتاب « رحلة الحاج » لبنيان تتشخص الفضائل والرذائل على ذلك النحو ، ثم كان تنيسون وكبلنج يمزجان النزعة المسيحية بالنعرة الوطنية ؛ وظهرت في الأدب الانجليزي بجانب ذلك نزعة الاستهتار والمجون في بعض الفترات ، كما حدث في بعض القرن السابع عشر من جراء التأثر بالبلاط الفرنسي المترف ، وفي أواخر القرن التاسع عشر من جراء التأثر بالأدب الفرنسي أيضاً ، إذ نزع بعض القصصيين الانجليز كأوسكار وايلد إلى ذلك الضرب التحليلي من القصص الذي يسرف في تصوير اللذات ، واستكناه دنيء العواطف وخسيس النزعات

على أن كلا الأمرين - أعني التمدح بكريم الأخلاق والمجاهرة بالاستهتار والتبذل - كانا ضئيلي الأثر قصيري العمر قليلي الاتباع في تاريخ المجتمع والأدب الانجليزيين ، فالتشدق بالمحامد والمكارم ليس يعجب الذوق الانجليزي الذي يؤثر الصمت ويفضل العمل على القول ، ومن ثم لم تنفق أخلاقيات تنيسون وأضرابه بين صفوة المثقفين ، بل كانت من أسباب خمول ذلك الشاعر بعد وفاته ؛ والتمادي في التحدث بالشهوات بعيد كذلك عن طبع الانجليزي والاجتراء على قواعد الفضيلة ومراسيم الحشمة وتقاليد المجتمع لا يحظى منه بغير الانكار والاعراض ، ومن ثم ثار بالمتهورين من الشعراء والكتاب أمثال بيرون وشلي وأوسكار وايلد ، فالجأ الأولين إلى حياة المنفى وزج الثالث في غيابة السجن ، ولم تشفع لهم لديه مواهبهم الممتازة ولا صيتهم خارج انجلترا ، بل قد يغلو المجتمع الانجليزي في الغيرة على تقاليده إلى حد يسميه بعض الناس نفاقاً اجتماعياً ، فيغضب على أدباء كرام سليمي الطوية ، كما غضب على هاردي ولورانس من القصصيين المحدثين

فالطبع الانجليزي يأبى أن يكون الأدب مطية للتفلسف الخلقي والفخر الطنان ، كما يأبى أن يكون الأدب معرضا للتبذل والتوقح ، وإنما رسالة الأدب الانجليزي التي ورثها عن الأدب الاغريقي هي الجمال والشعور الصادق ، يحوط ذلك جو من الوقار والتسامي كان يعوز حتى الأدب الاغريقي ذاته أحيانا ؛ وإنما احتفظ الانجليز بصفات الرجولة والرزانة تلك لأنهم - فضلا عن طبيعتهم الهادئة التي هي وليدة جوهم البارد - لم ينساقوا في تيار من الترف الموبق بانتشار فتوحهم وترامي أملاكهم ، كما فعل غيرهم من الأمم التي شادت الإمبراطوريات في عصور التاريخ ، لأن تشييد الامبراطورية البريطانية جاء تدريجياً هادئاً كالنمو الطبيعي ، وبنجاة الانجليز من مفاسد الترف والثروة المفاجئة سلمت لهم أخلاقهم القوية .

أضف إلى ذلك تمتعهم بالحكم الديمقراطي ، أي بحكمهم أنفسهم وخضوع الشعب لمشيئة الشعب وحدها ، مما جعل للرأي العام الكلمة العليا في المحافظة على الأخلاق والذب عن تقاليد المجتمع إذا تحداه متحد وقع عليه الغرم المادي والأدبي وطاشت دعوته قبل أن يتأثر بها سواه ؛ على حين كان الرأي العام في الأمم الاسلامية ضعيفاً مستخذيا أمام جبروت الملكية المطلقة ، فكان

أفاضل القوم ينقمون على حركات الاستهتار في المجتمع وآثار المجون في الأدب ، ولكنهم كانوا مغلولي الأيدي لا يستطيعون عن عقيدتهم دفاعاً ، وألف بعضهم حيناً جمعيات للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والضرب على أيدي العابثين فأصابهم من بطش السلطان وتعقبه ما لم يصب أولئك العابثين .

وكانت الملكية في الدول الاسلامية أحياناً تشجع التهاجي بالمقذعات بين الشعراء شغلا لهم وللجمهور عن شؤون السياسة وظل بشار يتحدى عقائد الناس ويسخر من فضائلهم وينال من أغراضهم وهو آمن معافى ، حتى تطاول على عرض الخليفة ذاته فكان في ذلك تلفه . ولما لم يكن للناس من قوة الرأي العام حارس ومدافع ، عمد من استطاع منهم بحول أو مكيدة إلى الانتقام بنفسه ممن تعرض له بالفحش ، فلقى كل من المتنبي وابن الرومي حتفه على يد مهجوه . هكذا استفحل المنكر في المجتمع والاباحة في الأدب من أثر ذيوع الترف وتحكم الملكية المطلقة ، رغم أن المجمع كان مجتمعاً إسلامياً والدولة كان أساسها دينياً ، وكان الأجدر أن أدباً يزدهر في ظل الدين الاسلامي الحنيف ، يكون أعف الآداب لفظاً وأشرفها قصداً .

وقد تقدم القول أن سريان ذلك الفساد في كيان المجتمع الاسلامي عقب الفتوح أدى إلى انحطاط المرأة واختفائها من المجتمع ، وكان ذلك من دواعي انتشار هجر القول في الأدب فإن وجود المرأة في المجتمع عامل تجمل وتوقر وتعفف في المسلك والمقال ، وهو عامل سعد به الأدب الانجليزي فكان من أسباب تساميه الخلقي ، وظلت النظرة إلى المرأة في الانجليزية سامية عفيفة ، وظلت صحبتها منبع وحي وداعية تكرم لدى الأدباء ، وقد قال ستيل عن صاحبة له فاضلة إن محادثتها هي ثقافة قائمة بذاتها

فالأديب الانجليزي لا يتمدح بالمحامد ولا يجاهر بالمباذل ، لأن طبعه لا يستسيغ هذا ولا ذاك ، ومجتمعه لا يقبلهما منه ، ثم هو لا يهجو غيره ولا يفحش في الهجاء . وإنما يصور أخلاق أفراد المجتمع بما فيها من فضائل ومعايب ، ويتهكم بالمتشدقين بالفضائل والمتظاهرين بالعلم أو بالثروة أو بالعظمة ، أي بالمسرفين في كل شيء المجاوزين حد القصد والاعتدال ، والتوسط الذي هو خير الأمور ، فالاعتدال شعار الانجليزي في مسلكه وفي أدبه ، والتطرف يثير سخره واحتقاره ، وهذا الميل منه واضح في مواضيع الأدب الفكاهية ، وضوحه في أغراضه الجدية

فخري أبو السعود

ذكريات . . .

للأستاذ علي الطنطاوي

هما موقفان لا أزال أذكرهما ، أو تغمض عيني كف الغاسل :
أما الأول فعلى ضفاف بردى ، في الثامن والعشرين من سبتمبر ١٩٣٦

وأما الثاني فعلى شاطىء دجلة في الخامس من مايو ١٩٣٧

***

كان بردى يخطو على مهل ، متهللا منطلق الوجه ، يرد على الشمس الوليدة أول تحياتها ، وهي تغمره برشاش من عطر أشعتها الحمراء ... وكنت في السيارة الفخمة ، أنظر إلى جموع المودعين من الصحب والرفاق ، الذين خرجوا من بيوتهم في هذا الصباح ، ليودعوني قبل نزوحي إلى العراق فأقلب النظر في وجوههم ، شاكراً لهم فضلهم ، حزيناً لفراقهم ، ثم أتأمل بردى صديق الصبا وسمير الوحدة ونجي النفس ، فأبصر في خلاله ظلال الحور والصفصاف تميس دلا وتيهاً ، وأرى ظلال المآذن البعيدة السامقة تضطرب في الماء فأبصر فيها ذكرياتي حية تطالعني وتحدثني ، وتعيد على مسمعي قصة حياتي ، وتتلو علي تاريخي فأحس بلوعة الفراق ، وأشعر في تلك الساعة بأني أحب دمشق ... دمشق مثوى ذكرياتي ، ودنياي من الدنيا ، وغاية أملي في حياتي ... ثم يطوي المرج هذه الصور كلها ، ولا يدع خيال عيني إلا صور إخوتي ، فأتأملها بعين دامعة وقلب واجف خائف من الفراق ، ثم تجتمع كلها في وجه واحد ، هو أحب الوجوه إلي وأدناها إلى قلبي ... وألمح في الماء مشهداً طال عليه العهد ونأى به الزمان ، فأراه ينفض عنه غبار السنين العشر ، ويعود حياً جديداً ...

... رأيتني في محطة الحجاز ، آية الفن الحديث في دمشق ، والمحطة مائجة بأهلها كما يموج البحر بمياهه ، فمن مسافر عجل ، ومن مودع باك ، ومن بائع يصيح ... ومن آت وذاهب ، وطالع ونازل ... وكنت منزوياً في ركن من أركان القطار

المسافر إلى حيفا ، وإلى جانبي أختي الصغيرة ... أنظر إلى بعيد ، فأرى هناك ، في أخريات الناس امرأة تمسك بيدها طفلين ، ملفعة بملاءة لا تبدي منها شيئاً ، ولكن وراء هذا القناع الأسود عينين تفيضان بالدمع عالقتين بمكاننا من القطار . وخلال تلك الضلوع قلباً يخفق شوقاً ، ويسيل دمعاً ، ووراء هذه الوقفة الساكنة الهادئة ناراً تضطرم في الجو ، وزلزالا شديداً يدك نفسها دكا ...

وصفر القطار الذي يحملنا إلى مصر ، فازداد قلبنا خفقانا واضطراباً ، ثم قذف إلى الجو بدخانه كأنما هو حي قد أخذ بموقف الوداع ، فزفر زفرة الحزن الدفين ، والألم الحبيس ثم هدر وسار وراجت المحطة تبتعد عنا وعني عالقة بيد تلك المرأة التي تلوح لي بمنديل أبيض ، حتى غاب عني كل شيء ...

هنالك تلفت فرأيتني وحيداً ، ورأيت القطار يحدلينأى بي عن أهلي وبلدي ، فهممت بالقاء نفسي من نافذة القطار – لولا أن تعلقت بي أختي التي كانت على صغرها أكبر مني ، وعلى أنوثتها أقوى وأجلد ...

أردت أن ألقي بنفسي لأني لم أكن أتخيل أن في استطاعتي الحياة يوماً واحداً بعيداً عن أمي التي كان تعلقها بنا ، وتعلقنا بها لا يشبه ما نرى من الأمهات والأبناء ، وكان ... آه ماذا تفيد (كان) ، وقد كان ما كان ؟ ...

تلك هي أمي ، التي مر على (غيابها) عن سنوات طوال ، ولكني أحس كأن الحادثة كانت أمس – فتحز في نفسي ولا أطيق أن أكتب عنها حرفا

تلك هي أمي التي كانت لي أما وأبا ، بعد أبي رحمهما الله ، وكانت حبيبة وكانت أستاذة ، وكانت دنياي وكانت آخرتي ... وكانت أمي !

تلك هي أمي التي فوجئت كما تفاجأ الشجرة الغضة الفينانة في ربيعها الزاهر ، حين تعصف بها العاصفة فتدعها جذعا مقطوعا جافا ...

تلك هي أمي التي ما نسيتها – علم الله – أبداً ، ولم أذكرها أبداً ، كأنها تملأ نفسي ولكني لا أجري ذكرها على لساني .

أراها في أحلامي حية فأشعر كأني عدت حيا ، وأهم بعناقها وأفتح عيني فأجد على وجهي حر لطمة الدهر الساخر ، ولكني أحمل اللطمة ، وأغضي على القذى ، ولا أخبر إخوتي بشيء ، لئلا أذكرهم ما هم ناسون ، أو أجدد لهم بالمصيبة عهداً ، فأهمل ذكرى أمي ويهملونه ... ولعل كل واحد منهم يحس مثلما أحس ويكتم مثلما أكتم !

ذكرت ذلك ساعة الوداع ، لأني كنت متألما ، وليس لآلامي كلها إلا معنى واحد هو أني أذكر وفاة أمي ، ذلك هو الألم عندي لا ألم سواه

فلما صحوت نظرت في وجوه المودعين فلمحت وجه أمي مرة ثانية ، ولكني لمحته حياً ماثلا في وجوه إخوتي الأحياء . فودعته بدمعة من العين ، وابتسامة على الفم ، وإشارة بالكف ، ثم سارت بنا السيارة تطوي الأرض وتستقبل الصحراء ... ذلك هو الموقف الأول !

* * *

أما الموقف الثاني فقد كان على شاطيء دجلة في الهزيع الأول من الليل ؛ وكانت محطة بغداد الغربية زاخرة بعشرات من خير شباب بغداد وزهرة فتيانها تركوا دروسهم وامتحانهم القريب وخرجوا من دورهم في هذا الليل ليودعوا صديقاً أحبهم وأحبوه ، وأخلصوا له الحب وأخلص لهم ... ذلك الصديق هو أنا ، وأولئك هم تلاميذي بل إخوتي ، جاءوا يودعونني لا قياماً بواجب رسمي ، ولا رغبة في ثواب ولا رهبة من عقاب ، ولكن وفاء وحباً . والحب أجمل ما في الوجود ؛ والوفاء أقدس ما فيه بعد الايمان ... وكنت مستنداً إلى نافذة القطار الذي سيحملني إلى البصرة ، أصغي إلى خطبهم وأشعارهم التي صبوا فيها عواطفهم ، وكتبوها بمداد قلوبهم ، أتأمل فلا أرى (والله) إلا بردى ودمشق وإخوتي

وغبت عني في شبه ذهول ، فما انتبهت إلا وأنا وحيد في القطار ، أضم إلى قلبي هذه الهدية التي قدمها الى تلاميذي ، وأطللت من النافذة فلم أجد إلا الظلام ...

* * *

لما دخلت عليهم الصف أول مرة كنت مشتاقاً إلى بلدي

كارهاً لغربتي متألماً ملتاعاً ، فلم أر في الصف إلا عيوناً جامدة وقلوباً معرضة وأفواهاً مغلقة ، وكانوا عندي من العدم لأنه لم يكن لهم في ذاكرتي وجود. ولكن لم ألبث أن وضعت بين أيديهم قلبي فأحببتهم كما يحب الأخ أخاه ، (أحببتهم في مجموعهم لا أحب واحداً منهم ...) وأخلص لهم ، وأحرص على رضاهم وأحس الفرح يغمر نفسي إذا قدمت لواحد منهم خيراً . أو درأت عنه شراً ويتصدع فؤادي إن وجدت أحدهم متألماً ، فلا آني أخفف ألمه . وأدفع عنه حزنه ؛ وكنت أعيش بهم ولهم ومعهم

ووضعت بين أيديهم رأسي أطلعهم على كل ما اختزنته فيه هذه السنين الطوال . أستغل أضعف المناسبات لأطلعهم على جمال الأدب العربي ، وعظمة التراث الإسلامي ، وقيمة التفكير الحديث ، واتجاه النقد الجديد ، وأعلمهم الاستقلال الفكري ، وأحفزهم إلى المناقشة ، ولا أستعمل في إقناعهم سلطة المدرس لأن ذلك ضعف ، ولكن أستعمل قوة الحق ولسن الجدل النظار . وأعترف لهم بالحق إذا ظهر على لسانهم ؛ وأقر بأني لا أدري ما لا أكون أدريه ... وأبعث في ملكاتهم المهملة ، وأشجعهم على الانتاج والنشر ... ...

وكان زملاؤنا من المدرسين يحذرونني عواقب هذه الطريقة لأن الطلاب (في رأيهم) لا يقدرون قيمة الحرية واللطف ، ويحسبونها عجزاً وضعفاً ويتخذونها سبيلا إلى الشغب ولكني وجدتهم يقدرون قيمتها ، ويحترمون المدرس العادل العالم اللطيف ، أكثر مما يحترمون المدرس الجبار العنيف ، ووجدت هذه الطريقة قد أجدت جدى كبيراً ، فأقبل الطلاب على الأدب وقد كانوا عنه منصرفين ، وصار أحب الدروس إليهم وقد كانوا يكرهونه ، ونشأ فيهم كتاب وشعراء ونقاد يؤمل منهم بعث الحياة الأدبية في العراق في بضع سنين ...

وضعت بين أيديهم رأسي وقلبي ، فلما أثمرا الثمرة ولما تحركت هذه العيون بالاخلاص ، وأقبلت هذه القلوب بالحب وتفتحت هذه الأفواه عن أجمل أحاديث العلم والأدب والود ... ولما محيت تلك الفروق كلها . وزال التكلف بين المدرس والطلاب ، ولم يبق إلا إخوة يعيش الواحد منهم للجميع ، ويعمل الجميع للواحد ... جاء الأمر بنقلي إلى البصرة ...

ooo

وها أنذا الآن في البصرة في هذه الغرفة الصغيرة أذكر مجالسنا على شاطئ دجلة فيخفق قلبي خفقانا شديداً ، وأتمثل أمامي صورة أخي الشاعر وهو ينشدنا أعذب أشعاره التي تشبه في رقتها نسيم الماء الرخي اللين ، وفي انسيابها دجلة التي خلع عليها الغروب ثوبا منسوجاً من خيوط النور فيه مائة لون ... وأذكر (ليلة المطر) ... ليلة جلسنا في هذه الحديقة التي تنبسط وراء المطار المدني في بغداد ، وأمامنا الفضاء الذي يمتد إلى ... إلى دمشق ، لا يحجبه شيء ؛ وكان مصباح المطار الأحمر القوي يريق ضوءه على الحديقة ومن فيها فيجعلها كأنها بقعة من عالم مسحور ، لا يشبهه شيء ، ولكنه جميل أخاذ يملأ النفس نشوة وسكرا ؛ وكانت الطبيعة تبدو أمامنا كأنها لوحة خطتها ريشة أبرع المصورين ؛ فهذه الحمرة العجيبة ، وزرقة السماء الصافية ، وسواد الليل عند الأفق ، والنساء بثيابهن الملونة المبرقشة ، والنادبون بقمصهم البيض ، يمشون على الحشائش . لا يسمع لهم صوت ، يتكلمون همساً ...

وكان النسيم رخياً ناعشاً ، تميل منه الأزهار فتفوح من أثوابها رائحة العطر ، فتطفو على هذا النسيم والأضواء البعيدة - كأنها تائهة في الظلام فهي ترتجف من الخوف ، وقد جمعت الطبيعة في تلك الليلة سحرها كله : صفاء السماء ، وسكون الليل : والربيع الذي زخرف هذه الحديقة ورصعها بالورد والزهر ، ووضع فيها خلاصة فنه ونتاج عبقريته

وكان كل شيء عاشقاً قد سكر بخمرة الجمال ، وراح يحلم . فالصحراء الواسعة قد سكرت وتغلغلت في الظلام منفردة تحلم بالظل والماء ، والسهول المجاورة راحت تحلم بربيع دائم ، وعاد الأمس حياً حالما بالخلود ، وأطل الغد نشوان يحلم بليلة مثل هذه الليلة ...

وكنت أحلم ... فما راعني وهبط بي من سماء أحلامي إلا ضحكة عذبة رقيقة كأنها رنين الذهب ، لم أسمعها بأذني ولكني رأيتها بعيني تتدحرج طافية على وجه النسيم الأحمر حتى غاصت

في الظلام الساكن ، وعاد الصمت ... وكانت ضحكة عاشقين قد نسيا الوجود وما فيه ، وغابا في حلم حي يقظان !

فهاج ذلك صديق الشاعر فانحني عليَّ ، وألقى في أذني إحدى أغانيه (الجديدة) ...

« زرعت روض شفتي بالقبل فأزهر وأينع ، ولكن لم يقطفه أحد فذوى وجف ...

« وأعددت سرير الحب في قلبي وضمخته بالعطر ، ولكن لم يهجع عليه أحد فعلاه الغبار ...

« كأن الناس لما خلقوا قسموا أنصافاً ، ثم نثروا في الحياة ، فمن وجد نصفه صار إنساناً ، ومن وجد غيره كان مسخاً ، ومن لم يجد بقي نصف إنسان ...

« فأين أنت يا نصفي الآخر ؟ ...

« لقد ضاع النصف الذي فيه قلبي ، فمن هي التي يخفق قلبي في صدرها ؟

« من هي التي تنظر بعيني ، وتسمع بأذني ؟

« من هي التي لم أرها أبداً ، ولا أرى غيرها أبداً ؟ »

* * *

شعرت بأن أغاني الشاعر قد سمت بي إلى عالم كله خير وجمال ، وشعرت بنشوة عجيبة وعلمت أن ما أنا فيه غاية السعادة ونهاية السمو ، وإذا أنا أسمع نغمة موسيقية فاتنة عادت تسمو بي ، حتى رأيت ما كنت فيه أرضاً وهذي سماء ، فذكرت كلمة فاجنر : « تبدأ الموسيقى حيث ينتهي الشعر » (١)

واختلط علينا الجمال ، فصار باقة واحدة ، قد اجتمع فيها همس الحب وألحان الموسيقى بعبق الزهر ، وأريج العطر بخيوط الأشعة ، وروعة الألوان ، فصرنا نسمع ما نرى ، ونشم ما نسمع ، وصارت الحواس كلها حاسة واحدة ... هي حاسة الجمال !

* * *

وهأنذا أذكر مئات من الذكريات ، وأتمثل طلابي كلهم أمامي حتى إني لأمد يدي أصافحهم فلا تقبض يدي إلا الهواء فارتد مذعوراً وأجلس يائساً ... لقد غدا هؤلاء الفتيان جزءاً مني لأنهم عاشوا في نفسي ذكريات ... كما عشت في نفوسهم ذكرى ، فنحن مجتمعون ولو نأت بنا الديار ...

وهأنذا آلف هذا البلد الذي كرهته واجتويته ، وأصبر على شظف العيش فيه من أجل هؤلاء الطلاب الذين أحبوني هم أيضاً ... أحببتهم ، وتعلقوا بي ، فلا يأتون المدرسة إلا لسماع درسي ، فإن لم يكن لي درس أقاموا في بيوتهم يجدون ويستعدون للامتحان ، ولا يدخرون وسعاً في إسداء يد إلى أو دفع الألم عني ... ويحرصون على راحتي أكثر من حرصهم على نجاحهم في امتحانهم ، ويفضلون كلمة مني على كلمة تقولها القانون ...

أصبر من أجل هؤلاء الذين أغرس الآن حبهم في قلبي لأنتزعه منه غداً وأدعه جريحاً ... أفهذه حياة المعلم ؟ ماذا يبقى من قلب في كل مدرسة منه قطعة ؟

هنيئاً لمعلم ليس له قلب ... ...

ويا ويل المعلم إذا كان إنساناً ... .

« البصرة » **علي الطنطاوي**

(١) وسترى قراء الرسالة إن شاء الله في مقال آخر أن الشعور الذي يبدأ حيث تنتهي الموسيقى .

الاسلام والديمقراطية

للأستاذ عبد المجيد نافع

أحببت أن أتكلم عن الاسلام والديمقراطية لأنى رأيت بعض الصحف الأجنبية كلما تعرضت للنظم فى مصر قالت : ليست الديمقراطية مادة للتصدير ! وهى تقصد أنها لاتصلح لنا ولا نصلح لها . وما علمت أن قوما يدينون بالاسلام حرام أن تضيع الديمقراطية بينهم

وإذا ناديت أن الاسلام دين الديمقراطية فانى استوحى التنزيل الحكيم ، وأستلهم الحديث الشريف ، وأستهدى المأثور من أقوال أعلام الاسلام ، وأحكم فى ضوء الأعمال الخالدة فى تاريخ الانسانية ، ليتم لى القول أن دين محمد قد كتب للحرية أجل الصفحات وأروعها ، وقرر من مبادىء الاخاء أسماها ، ومن قواعد المساواة أعلاها . فكان دين الديمقراطية من الوجهتين النظرية والعملية ، وكانت خير ديمقراطية أخرجت للناس

إذا اعتبرنا ميلاد الديمقراطية الغربية إعلان حقوق الانسان فى الانقلاب الفرنسى الكبير عام ١٧٨٩ فان الاسلام قد سجل مبادئها قبل مولدها فى أوربا بأكثر من ألف ومائتى عام . وإذ كان الفضل للمتقدم ، فالفضل للاسلام فى تحرير الانسانية من ربقة الاستعباد ، وخلاصها من أغلال الأوهام

جاء الاسلام فوضع قواعد الديمقراطية فى غير جلبة ولا ضوضاء ، ودون أن يحدث هزة عنيفة فى كيان الأمة العربية ، بل دون أن يريق قطرة واحدة من الدماء . على حين أن الروح الديمقراطى لم يستطع أن يتنفس فى جو أوروبا ، وبذور المساواة لم تنبت فى البيئة الغربية ، إلا بعد قرون ثلاثة حافلة بالثورات ، وصراع دموى بين طبقة الأشراف وطبقات الشعب ، صبغ أرض أوربا بالدماء

وسترون أن الاسلام جاء بالاخاء الصحيح ، والمساواة الحق فى حين أن الديمقراطية العصرية ، باعتراف أنصارها وخصومها على السواء ، لم تبرأ من شوائب النظم البالية العتيقة

الديمقراطية ، فى اصطلاح العلوم السياسية ، هى النظام الذى يحكم الشعب فيه نفسه بنفسه ، إما مباشرة أو بواسطة ممثلين يختارهم عنه

على أنى أسارع إلى القول بأن مدلول عبارة الديمقراطية قد اتسع اليوم نطاقه بحيث أصبح يشمل النظم الاجتماعية والاقتصادية فوق اشتماله على النظام السياسى . ولو شئنا أن نستغنى بالاجمال عن التفصيل ، لقلنا فى كلمة : إن الديمقراطية هى النظام أو مجموعة النظم التى تحقق مبادىء الحرية والمساواة بين الناس بقدر ما يمكن أن يكون الانسان حراً ، وبالقسط من المساواة الذى لا يصطدم مع النواميس الطبيعية

ورأيت الناس مشغوفين كلفين بالديمقراطية حتى لأجدهم يسرفون فى استعمالها فيقولون الأدب الديمقراطى ، والفن الديمقراطى ؛ بل أراهم لا يقتصدون فى التبرع بها حتى يخرجوا بها عن معناها الأصلى ، فالرجل المتواضع فى عرفهم رجل ديمقراطى ، وإن كان للديمقراطية من ألد الخصام

عرف أرسطو الديمقراطية بأنها نظام الحكم الذى تنتقل السلطة فيه إلى أيدى طائفة من المواطنين الأحرار المتساوين عند طبقة الارستقراطية

يخلص لنا من هذا التعريف أن الحرية والمساواة هما الدعامتان اللتان يقوم عليهما صرح الديمقراطية .

إن من يمعن النظر فى أقوال أرسطو يجد أن حكم اليونان كان متبرما بالنظام الديمقراطى فى عصره ، لا لأنه كان يتنكر لمبادىء الحرية ، أو يخاصم تعاليم المساواة ، أو يضيق صدراً بتوسيع دائرة اشتراك الشعب فى إدارة شؤون الدولة ، بل لأن النظام الديمقراطى فى عهده قد ساء حتى تردت اليونان فى هاوية الفساد والفوضى

كلما اتسع أفق المعارف الانسانية ، شعر الناس بالكرامة وأحس العقل البشرى بالعزة ، فتطلعوا إلى تحقيق المثل العليا ، وطمحوا إلى توسيع قاعدة اشتراكهم فى إدارة دفة الشؤون العامة ، والهيمنة والإشراف على أمور الدولة ، لذلك كان النضال حاداً عنيفاً بين الشعوب الطامحة إلى الحرية ، والطغاة المستبدين الذين يصدونهم عن سبيلها ، والتطاحن شديداً بين طبقة الأشراف التى تنعم بالامتيازات ، وطبقات الشعب التى تتطلع إلى تحقيق مبادىء المساواة . وإذن فمن الحق أن يقال : إن تاريخ الديمقراطية هو تاريخ الحضارة الانسانية

وما أنصف كارل ماركس الحقيقة والتاريخ حين صاح بأن البطون هى مصدر الانقلابات فى كل أدوار التاريخ ، وأن الناس

حين هبوا يسفكون دماءهم ، ويزهقون أرواحهم ، فإنما كانت هبتهم للخبز لا للحرية ، وثورتهم في سبيل أغراض مادية لا لتحقيق المثل العليا والسعي وراء الكمال الانساني .

وما أنصف من قبله بعض قادة الفكر في روما حين قالوا بان الشعب الروماني يحتوي بالخبز والملاهي عن الحرية السياسية والاشتراك في تسيير أداة الحكم .

وإذا كان قد أتيح لفريق من الرومان أن يقولوا ساخرين متهكمين : لدى الشعب أصوات انتخابية وليس لديه خبز ؛ فقد كان ذلك من جراء فساد النظم ، وانحطاط أداة الحكم ، لا من جراء مسخ الطبيعة البشرية .

تميز تاريخ روما القديمة بسلسلة من المناضلات متصلة الحلقات بين جماعة الأشراف وطبقات الشعب لتحقيق مبادىء المساواة .

على أن تربة روما لم تكن صالحة لبذور الديمقراطية ، وكلما اتسع ملك الرومانيين وبسطوا سلطانهم في الأرض طلقوا مبادىء الديمقراطية واعتنقوا روح الاستعمار ، وأقاموا بناء إمبراطوريتهم على الغلبة والقهر ، وأصبحت الأمم المغلوبة على أمرها أسلابا تقتنى وضياعا تستغل .

كان المسلمون إذا فتحوا أمة تركوا لأهلها حرية العقيدة وحرية العبادة وخلوا بينهم وبين أملاكهم ، وضمنوا لهم أمنهم وأرواحهم وسووا بينهم في المعاملة وهتفوا فيهم بذلك المبدأ القويم : لهم مالنا وعليهم ما علينا .

وكذلك كان الاسلام كلما دخل أمة حل معه بذور الاخاء والمساواة .

أود أن أضع تحت الأنظار صورتين متباينتين لأمة اليونان القديمة ، وأمة العرب قبل بزوغ فجر الاسلام ؛ لتروا بأعينكم وتلمسوا بأيديكم ، إلى أي حد وفق دين الهدى والحق إلى صبغ جزيرة العرب بالصبغة الديمقراطية وطبع أهلها بطابع المساواة .

كانت اليونان القديمة بطبيعة تكوينها ومزاج أهلها مهداً صالحا للديمقراطية ، فقد كانوا يقيمون بالمدن ولا مشاحة في أن المدن هي مواطن الديمقراطية . وكانت ميول اليونانيين متجانسة ، ومشاعرهم منسجمة ، ومصالحهم متحدة ، غير متنافرة تجمعهم ذكريات تاريخية مشتركة ، وتؤلف بين قلوبهم مثل عليا واحدة

على النقيض من ذلك تماما تجد سكان الجزيرة : فقد كان العرب يسكنون مضارب الخيام ، وانقسموا إلى شيع وقبائل . وكانت أهواؤهم متفرقة ، ومصالحهم متنافرة . بل كانت المنازعات بينهم سلاسل متصلة الحلقات ، والحروب متواصلة الضروب

ومن ينكر اعتزاز العرب بالعصبية ؟!

ومن يتبين تطاولهم بالاحساب والأنساب ؟!

ومن ذا الذي لم يملأ سمعه بأخبار مفاخرتهم ومكاثرتهم ومنافرتهم ؟!

فأنت ترى من هذه الصورة أن جزيرة العرب لم تكن المهاد الصالح لنو شجرة الديمقراطية ، والعرب لم يكونوا القوم المستعدين لإساغة تعاليم الديمقراطية وهضمها

وجاء الاسلام فنشر راية الديمقراطية ، وبث مبادىء الاخاء والمساواة ، لا لأن الجو كان مهيئا لها ، ولا لأن العقول كانت مستعدة لهضمها ، ولا لأن الإسلام شاء أن يتمشى مع العرب في رغباتهم ، ومنازع نفوسهم ليضم الأولياء ، ويكسب الأنصار ، ولكن الاسلام جاء فألقى بذور الديمقراطية ، لأنه دين الفطرة ، لأنه دين الانسانية الطامحة إلى الكمال ، لأنه الدين الذي أخذ نفسه ببث أحكم المبادىء ، وغرس أقوم الأحكام .

أجل ، لقد حمل الاسلام راية الاخاء وأهاب بأتباعه : إنما المؤمنون إخوة . والمؤمنون بعضهم أولياء بعض : وعبيدكم الذين هم ملك يمينكم إخوانكم في الدين .

نعم ، لقد رفع الاسلام لواء المساواة ، وأذن في أنصاره : لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ، والناس سواسية كأسنان المشط .

ولم يقف الاسلام عند حد تلقين أتباعه مبادىء الاخاء والمساواة نظريا ، بل راضهم عليها عمليا ، فشرع لهم الأحكام القائمة على الاخاء والمساواة ، وأراهم القدوة الصالحة ، والأسوة الحسنة ، فطبعت قلوبهم على الاخاء ، وأشربت نفوسهم حب المساواة ، حتى صاح أعرابي في وجه عمر صيحته التاريخية الخالدة ، ولم يتعثر ، ولم يتلجلج : لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا .

انطفأت شعلة الديمقراطية في عصور الظلمات في أوربا ، وخبا نور الحرية ، واندثرت معالم المساواة ، وانشطر المجتمع الأوربي إلى ثلاث طبقات : فريق الاشراف ، وجماعة الاكليروس ، وطبقة الشعب . وكان التاريخ الغربي صفحة دامية من النضال بين الشعوب المهضومة الحقوق والطغاة المستبدين الذين يتنكرون لتلك الحقوق فينكرونها ، واتصل التطاحن بين الطبقات ؛ فأما الأشراف فكانوا يحرصون على امتيازاتهم ، وأما رجال الدين فكانوا يضنون بأنفسهم أن يهبطوا إلى مستوى الشعب ، وأما

الشعب الطامح الطامع في رد اعتبار الكرامة البشرية ، ووضع حد لامتهان العقل الانساني ؛ فلم يضن بأية تضحية يبذلها في سبيل الحرية والمساواة ، فبذل دماء المجاهدين بسخاء.

كانت الحرية السياسية منعدمة ، والحرية الشخصية كلمة جوفاء ، والحرية الدينية خيالا متلاشياً ، والمساواة عبارة ذاهبة في الهواء . وكان الملوك المستبدون يستمدون عناصر طغيانهم مما أسموه «الحق الالهي» . وكان الأشراف يلتمسون أسباب تميزهم من اختلاف المولد ، ورجال الدين يتوسلون إلى التمتع بالامتيازات بما تأولوه من نصوص الدين ، وصبرت الشعوب وصابرت حتى عقد النصر بلوائها على تلك القوى مجتمعة .

وشاورهم في الأمر : وأمرهم شورى بينهم : وكذلك وضع الاسلام قاعدة الحكم النيابي .

وما كان على الاسلام أن يضع غير الأصول والكليات والقواعد العامة؛ فاما الصور والأشكال التي يتحقق بها معنى الحكم النيابي فن الطبيعي أن يترك اختيارها للقائمين بالتنفيذ .

ولا تحسبوا أن الحكم النيابي لا يوجد إلا حيث يوجد مجلس نواب ومجلس شيوخ . ففي مدن اليونان القديمة كان الشعب يحكم نفسه بنفسه مباشرة بغير واسطة نواب أو ممثلين . وكذلك الشأن اليوم في بعض المقاطعات السويسرية حيث يحصل استفتاء الشعب في جميع الشئون التي تمس حياته العامة . ولقد يوجد التمثيل النيابي وعلى الرغم من وجوده تنعدم سلطة الأمة وتصبح خيالا متلاشياً . ثم ألا ترى أنصار الحكم النيابي وخصومه على السواء في أوربا يشكون من اضطهاد الأغلبيات للأقليات وتراهم يحاولون أن يطبوا لهذا الداء بواسطة التمثيل النسبي ؟

الشورى إذن هي قوام الحكم النيابي وهي دعامته وروحه دون اعتبار بالصور والأشكال .

في الصدر الأول من الاسلام كان يطبق مبدأ الشورى تطبيقاً دقيقاً .

أيقن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بأنه لم تعد للمسلمين مندوحة عن حرب الفرس ، وأنه إذا دانت لهم تلك البلاد خفقت راية الاسلام في ربوع الشعوب .

لم يشأ ابن الخطاب أن يستبد بالأمر أو يستأثر بالرأي وهو من تعلم بعد نظر وصواب فكر وقوة حزم وعزم ، بل أراد أن ينزل على رأى المسلمين فيمن يصلح لتولى القيادة؛ وأراد أن لا يضيق دائرة الاستشارة أو يقصرها على فريق دون فريق؛ فاستشار العامة والخاصة معاً . فأما العامة فأشاروا عليه أن يكون بنفسه على رأس الجيش إذ كان الناس أشد تعلقاً به ، وأكثر طاعة له . وأما الخاصة فأشاروا عليه بأن يسلم القيادة لغيره وأن يبقى هو بالمدينة ضناً بحياته وحرصاً على بقائه يدير دفة الشئون . ثم ارتاوا أن يكون سعد بن أبي وقاص على رأس الجيش ، فنزل عمر على إرادتهم وولاه القيادة .

وضع الاسلام دعائم الحكم النيابي وطبق أبو بكر وعمر مبدأ الشورى تطبيقاً دقيقاً .

لكن وا أسفاه ما لبثت دولة بني مروان أن احتك خلفاؤها بالفرس والروم فرأوا مبلغ تسلط الحكومة على الرعية ، وإذعان المحكومين لسلطان الحاكمين ، فجنحوا للاستبداد ، وضربوا بمبدأ الشورى عرض الافق، ذلك بان النفس البشرية نزاعة إلى الاستبداد بفطرتها ، وللبيئة في طبع النفوس بطابعها أثر أى أثر .

ولو أن بني مروان لم ينزعوا إلى الاستبداد لما وجدت دعاية بني العباس ضدهم سميعاً ولا مجيباً

كان النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فأمر باصلاح شاة ، فقال رجل : يارسول الله على ذبحها ، وقال آخر: على سلخها ، وقال ثالث : على طبخها . فقال صلى الله عليه وسلم : وعلى جمع الحطب . فقالوا : يارسول الله نحن نكفيك ذلك ، فقال قد علمت ولكنى أكره أن أتميز عليكم ، فان الله يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه ؛ وقام لجمع الحطب

ولا أريد أن أشوه جلال هذا المثل الرائع بمحاولة التعليق عليه ولما استقرت الخلافة إلى أبي بكر ، وذلك سنة إحدى عشرة صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني

ومما يروى عن زهده ورضاه بالكفاف من العيش إن زوجته اشتهت حلواً . فقال: ليس لنا ما نشترى به . فقالت : أنا أستفضل من نفقتنا في عدة أيام ما نشترى به . قال : افعلي ، ففعلت ذلك ، فاجتمع لها في أيام كثيرة شيء قليل، فلما عرفته ذلك ليشترى به حلوا أخذه فرده إلى بيت المال . قال : هذا يفضل عن قوتنا ، وأسقط من نفقته بمقدار ما نقصت كل يوم وغرمه لبيت المال من ملك كان له

ولما ولى الخلافة رأى أن يستمر على استغلال ملكه والارتزاق من وراء عمل يده ولا ينفق على نفسه من بيت مال المسلمين شيئا وأصبح يوما وعلى ساعده أبراد وهو ذاهب إلى السوق فلقيه عمر فقال . أين تريد ؟ قال : إلى السوق . قال : أتصنع ماذا وقد وليت

أمر المسلمين؟ قال: فمن أين أطعم عيالي؟ فقال: انطلق يفرض لك أبو عبيدة، فانطلقا إلى أبي عبيدة فقال: افرض لك قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا بأوكسهم كسوة الشتاء والصيف، إذا أخلفت شيئاً رددته وأخذت غيره، ففرضا له كل يوم نصف شاة وما كساه في الرأس والبطن

وأخرج ابن سعد عن ميمون قال: لما استخلف أبو بكر جعلوا له ألفين فقال: زيدوني فان لي عيالا وقد شغلتموني عن التجارة، فزادوه خمسمائة

وخطب عمر بن الخطاب يوما فقال: أيها الناس من رأى منكم في اعوجاجاً فليقومه. فقام رجل فقال: والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا. فقال عمر: الحمد لله الذي أوجد في المسلمين من يقوم اعوجاج عمر بسيفه

أراد أحد ملوك الروم أن يتعرف شخصية عمر العظيمة ويتبين العوامل التي جعلت حفنة من العرب تدوخ الممالك وتبسط سلطانها على الامبراطوريات الضخمة العظيمة، فبعث برسول فتلمس الرسول طريقه إلى عمر، وإذ سأل الناس عنه أشاروا إلى رجل نائم إلى جانب جدار وهو يتوسد عصاه. فقال: عدلت فأمنت فنمت يا عمر.

ولما سير العرب جيوشهم على مصر وعلى رأسها عمرو بن العاص أرسل ملك مصر من يستطلع طلع تلك الحملة. فما راعه إلا أن يرى عمرا القائد للجيش يتبسط في تناول الطعام مع جنوده على الأرض. فلما ارتد الرسول فأعطى الملك تلك الصورة الرائعة قال: إن قوما ذلك شأنهم، وتلك حال كبارهم مع صغارهم، محال أن تجد الهزيمة إلى صفوفهم سبيلا.

يفترى خصوم الاسلام على الدعوى بأن مجد الاسلام قام على السيف، وتلك دعوى باطلة تتنافر العدل والحق على هدمها من أساسها.

وكيف يجوز في عقل عاقل أن حفنة من الرجال تقوى على هدم امبراطوريتي الرومان والفرس إذا لم تكن عدتها إلا السيف؟

أين قوة العرب المادية من قوة الفرس والرومان؟ وأين مواردهم من مواردهم؟

وكيف استطاع المسلمون أن يفتحوا في ثمانين سنة ما فتحه الرومان في ثمانمائة؟ فامتد رواق الملك العربي من الأندلس إلى حدود الهند، وخفقت راية الاسلام فوق تلك الربوع جميعاً؟

عندي أن المبادىء الحقة العادلة هي التي مهدت للمسلمين السبيل إلى بسط ملكهم في الأرض..

ثلاثة قرون كاملة حفلت بالثورات الدموية في سبيل تقرير قواعد الديموقراطية العصرية في أوربا. شهدت انجلترا انقلابين في سنة ١٦٤٢ و ١٦٨٨، وفي عام ١٧٦٦ وقعت حرب استقلال أميركا لخلع نير الاستعباد البريطاني. واضطرمت نيران الثورة في فرنسا في عام ١٧٨٩. وكأن شجرة الحرية كانت لا تزال في حاجة لدماء تُرويها، والديمقراطية لضحايا وشهداء لتغذيها، فأججت نيران الثورة في ١٨٣٠ و ١٨٤٨. وتواصلت الثورات في أوربا بين ١٩٠٦ و ١٩٢٠

فأنتم ترون أن النصر لم يعقد بلواء الديمقراطية إلا في القرن التاسع عشر

وفي أواسط القرن الثامن عشر في فرنسا لم تكن حرية سياسية ولا مساواة اجتماعية، حتى هب فولتير وروسو يبشران بمبادىء الحرية والمساواة. وتشبع لافاييت بتعاليم الديمقراطية، فلما عاد ورفاقه إلى فرنسا حملوا إليها بنورها الصالحة

وجعل روسو براعة الاستهلال في كتابه «العقد الاجتماعي» ولد الانسان حرا على أنا نراه في كل مكان يرسف في القيود

وأعلنت الثورة الفرنسية حقوق الانسان في عام ١٧٨٩ وجرت المادة الأولى من إعلان الحقوق: يولد الناس أحرارا ويبقون أحرارا ومتساوين

رأيتم أن الحرية والمساواة هما الدعامتان اللتان يقوم عليهما صرح الديمقراطية:

ولقد جاء الاسلام فأعلن حقوق الانسان قبل الثورة الفرنسية بأكثر من ١٢٠٠ سنة

أتى رجل من أهل مصر إلى عمر بن الخطاب فقال يا أمير المؤمنين عائذ بك من الظلم. قال: عذت معاذا: قال: سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته فجعل يضربني بالسوط ويقول أنا ابن الأكرمين. فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم عليه ويقدم بابنه عليه فقدم: فقال عمر: أين المصري؟ خذ السوط فاضرب، فجعل يضربه بالسوط ويقول عمر اضرب ابن الأكرمين. ثم قال للمصري: ضعه على صلعة عمرو، قال: يا أمير المؤمنين إنما ابنه الذي ضربني وقد اشتفيت منه. فقال عمر لعمرو: مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟ قال: يا أمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتني. يعني المصري.

«يتبع»

عبد المجيد نافع
المحامي

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٧١ — فما يبلغ السيف المهند درهما

في (نقد الشعر) لقدامة :

قد أومأ السمط بن مروان بن أبي حفصة في مدحه شرحبيل بن معن بن زائدة إيماء موجزاً ظريفاً أتى على كثير من المدح باختصار وإشارة بديعة فقال :

رأيت ابن معن أفقن الناس جوده
فكلف قول الشعر من كان مفحما
وأرخص بالعدل السلاح بأرضنا
فما يبلغ السيف المهند درهما

٧٢ — نقنع منه ببعضه

في (غرر أخبار الفرس وسيدهم) للثعالبي :

رُفع إلى ابرويز إن بعض العمال استُدعي إلى الباب فتثاقل عن الإجابة فوقع : إن ثقل عليه المصير إلينا بكله . فأنا نقنع منه ببعضه ، ونخفف عنه المؤونة فليحمل رأسه إلى الباب دون جسده

ومن معنى هذا التوقيع أخذ المنصور قوله في توقيعه إلى قائد ركب محظوراً : يا هذا إن كان رأسك قد أثقلك خففناه عنك

٧٣ — لم تبق رتبة لمستحق

في (تاريخ الوزراء) لهلال بن المحسن :

بلغني أن بعض خواص (المقتدر بالله) سأل علي بن عيسى الوزير زيادة أحد العمال المتقدمين، في خطابه . وكان يخاطبه بـ (أعزك الله) فامتنع عليه امتناعاً شديداً وعاوده حتى وعده وكتب إلى الرجل بـ (أعزك الله) بممدود ما بين العين والزاي فقال : ألم يعدني الوزير بالزيادة ؟ قال : قد فعلت . قال : في أي شيء ؟ قال : كنت أجمع بين العين والزاي وقد مددت بينهما مدة ، وهي الزيادة

فكان القوم على هذه الصورة من المناقشة ليبين الترتيب فيها . فأما عصرنا هذا فقد اختلفت الرسوم فيه ، وقلت المراعاة لما كانت موكولة به . لاجرم أن الرتب قد نزلت لما تساوت ولم يبق لها طلاوة يشار إليها حتى لقد بلغني عن مولانا الخليفة ، القائم بأمر الله ، أنه قال لم تبق رتبة لمستحق .

٧٤ — إذا تقاربت الآداب

كتب البحتري إلى صديقه ابن خرداذبة الأديب المشهور:

إن كنت من فارس في بيت سؤددها
وكنت من بحتدي بالبيت والنسب
فلم يضرنا تنائي المنصبين وقد رحنا نسيبين في علم وفي أدب
إذا تقاربت الآداب والتأمت
دنت مسافة بين العجم والعرب [١]

٧٥ — ما عندكم في المرية غير الدجاج

في (نفح الطيب) : كان المعتصم [٢] ابن صمادح قد أحسن إلى النحلي البطليوسي ثم أن النحلي سار إلى إشبيلية فمدح المعتضد ابن عباد بشعر قال فيه :

أباد ابن عباد البربرا [٣] وأفنى ابن معن دجاج القرى

ونسي ما قاله حتى حل بالمرية فأحضره ابن صمادح لمنادمته ، وأحضر العشاء موائد ليس فيها غير دجاج ، فقال إنما أردنا أن نكذبك في قولك :

وأفنى ابن معن دجاج القرى

---

(١) بين فارقت الطرفية وفي (الكتاب) الكريم : لقد تقطع بينكم (بضم النون) ومودة بينكم (بكسر النون)

(٢) ابو يحيى محمد بن معن بن صمادح ملك اقام سوق المعارف على ساقها ، وأبدع في انتظام مجالسها واتساقها ، لم تخل أيامه من مناظرة ، ولا عمرت الا بمذاكرة أو محاضرة (قلايد العقيان)

(٣) متيلق بهري ، ويهذى . والبربر اخوتنا وأبطالنا ، وقد جيدة بن قيس العقيلي القائل :

ألا أيها الساعي لفرقة بيننا توقف ، هداك الله سبل الاطايب
فانهم انا والبرابر اخوة نمانا جد كريم المناسب
فنحن وهم ركن منيع واخوة على رغم أعدائنا لئام المناقب

فطار سكر النخلي، وجعل يعتذر فقال له: خفض عليك إنما ينفق مثلك بمثل هذا، وإنما العتب على من سمعه فاحتمل منك في حق من هو في نصابه ثم أحسن إليه.

وخاف النخلي فقر من المرية ثم ندم فكتب إلى المعتصم:

رضا ابن صمادح فارقته فلم يرضني بعده العالم

وكانت مرية جنة فجئت بما جاءه آدم!

فما زال يتفقده بالاحسان على بعد دياره.

٧٦ — تمثال شبديز وابرويز

شاعر:

(شبديز) منحوت صخر يعد بهجته للناظرين فلا جرى ولا خببُ(١)

عليه (برويز) مثل البدر منتصباً للناظرين فلا يجدى ولا يهب

وربما فاض للعافين من يده سحائب، ودقها المرجان والذهب

فلا تزال مدى الأيام صورته تحن شوقاً إليها العرب والعجم

أبو عمران الكردي:

وهم تقروا (شبديز) في الصخر عبرة

وراكبه (برويز) كالبدر طالع

عليه بهاء الملك والوفد عكف

يخال به فجر من الأفق ساطع

تلاحظه (شيرين) واللحظ فاتن

وتعطو بكف حسنتها الاشاجع (٢)

(١) يسقط بن المهلهل: صورة شبديز على فرسخ من مدينة قرميسين وهو رجل على فرس من حجر، عليه درع لا يخرم كأنه من الحديد يبين زرده والمسامير المسمرة في الزرد، من نظر اليه يظن إنه متحرك، وهذه الصورة صورة ابرويز على فرسه شبديز. قال احمد بن محمد الهمذاني: سمعت بعض فقهاء المنزلة يقول: لو ان رجلا خرج من فرغانة القصوى وآخر من السوس الابعد قاصدين النظر الى صورة شبديز ما عنفا على ذلك.

(٢) الأشاجع: ودوس الاصابع، عروق ظاهر الكف (شيرين) تمثالها قريب من شبديز. قال العالم الاديب النابغة الدكتور عبد الوهاب عزام في كتابه (كتاب الشاهنامه): كانت شيرين في خدمة احد أشراف الفرس، وكان خسرو برويز في صباه ينتاب دار هذا الشريف فاحب شيرين واعطاها خاتما، فلما علم رب الدار امر أحد خدامه ان يغرقها ولكنها نجت ولجأت الى دير، ولما تولى برويز أرسلت اليه الخاتم فذكرها واخذها الى قصره. (راجع الشاهنامه، الثاني، الصفحة ١٢٦ فهناك التفصيل)

يدوم على كر الجديدين شخصه

ويلقى قويم الجسم واللون ناصع(١)

٧٧ — ثم أتوب

في (أمالي) القالي:

دخل أعرابي على بعض الأمراء وهو يشرب فجعل يحدثه وينشده ثم سقاه، فلما شربها قال: هي (والله) أيها الأمير (أي هي الخمر) فقال: كلا، انها زبيب وعسل، فلما طرب قال له: قل فيها فقال:

أتانا بها صفراء يزعم أنها زبيب فصدقناه وهو كذوب

وما هي إلا ليلة غاب نحسها أواقع فيها الذنب ثم أتوب

٧٨ — ... ما فاته من الدنيا

في (روضة المحبين) لابن قيم الجوزية:

عن عبد الله بن شوذب: دخلت امرأة جميلة على الحسن البصري فقالت: يا أبا سعيد ينبغي للرجال أن يتزوجوا على النساء؟

قال: نعم.

قالت وعلى مثلي؟ ثم سفرت(٢) عن وجه لم ير مثله حسناً وقالت: يا أبا سعيد لا تفتو الرجال بهذا، ثم ولت

فقال الحسن: ما على رجل كانت هذه في زاوية بيته ما فاته من الدنيا!

٧٩ — مهرها اسلام

في طبقات ابن سعد:

جاء أبو طلحة يخطب أم سليم بن ملحان، فقالت: إنه لا ينبغي لي أن أتزوج مشركا، أما تعلم يا أبا طلحة، إن آلهتكم التي تعبدون ينحتها عبد آل فلان النجار، وإنكم لو أشعلتم فيها ناراً لاحترقت فانصرف عنها وقد وقع في قلبه من ذلك موقعاً، وجعل لا يجيئها يوماً إلا قالت له ذلك. فأتى يوماً فقال: الذي عرضت علي قد قبلت

فما كان لها مهر إلا إسلام أبي طلحة

(١) اجتاز بعض الملوك هناك وشرب واعجبه الموضع فاستدعي خلوقا وزعفرانا فخلق وجه شبديز وشيرين والملك فقال بعض الشعراء أبياتا أولها:

كاد شبديز ان يحمحم لما خلق الوجه منه بالزعفران

(٢) في المصباح: سفرت المرأة سفوراً كشفت وجهها فهي سافر بدونها

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٨ —

الديانة المصرية

العلم والأدب والفن والقانون

رأى رجال الدين أن الشعب لا يتبع التقاليد الدينية إلا إذا امتزجت تعاليمها بنفوس أبنائه امتزاجاً قوياً، وهذا لا يتيسر إلا إذا بشر بالدين رجال مثقفون فصحاء يملكون أعنة البلاغة ويستولون على أزمة البيان . وإذاً، فهم مضطرون قبل كل شيء إلى أن يفسحوا في مدارسهم للأدب أمكنة واسعة وأن ينزلوه بين معارفهم منزلة عالية وقد فعلوا ، فكان من نتائج هذه العناية الفائقة بالأدب أن ظهر كتاب « افتاح حتب » وزير الملك « إيزيس » الذي هو أقدم كتاب في الدنيا والذي يرى فيه القارىء من الحكم والنصائح والأمر باحترام المرأة وإعزازها والتحذير من إغضاب الملوك والرؤساء والحث على طلب العلم واعتباره أهم ضروريات الحياة وألزم واجبات الأشخاص من كل الطبقات إلى غير ذلك من وصف حلاوة الشباب ولذة القوة ومرارة الشيخوخة وانكسار النفس في أيامها وانطفاء مصباح الآمال والأحلام إلى آخره إلى آخره ، مما يجعل من غير الممكن أن يكون كتاب هذا شأنه من منتجات عقول شابة في الأدب ، ناشئة في الكتابة والتأليف .

ومن الطبيعي أن الأمة التي يصل فيها الدين والأدب إلى هذه المرتبة الرفيعة تسمو فيها الحالة الاجتماعية سمواً عظيماً يتبعه تقدم في جميع نواحي الحياة ، لأن الأمة تنبغ في المخترعات وتبرع في الفنون بمقدار حاجتها إليها ، وهذه الحاجة تتعدد تبعاً لتقدم المدنية التي هي أولى مظاهر السمو الاجتماعي .

وإذن ، فالدين يتطلب سمو الأدب ، والأدب عامل أساسي في الرقي الاجتماعي ، والمدنية أولى مظاهر هذا الرقي ، والحاجة إلى الاختراع والفن طليعة نتائج تلك المدنية . وهذه هي الدرجات التي صعدت عليها الدولة المصرية القديمة حتى وصلت إلى قمة سلم الحياة العالية فارتقت فيها الفنون الجميلة على اختلاف ألوانها حتى وصلت إلى درجة حيرت كبار الفنيين في العصر الحديث .

لم تكن معارف المصريين إبان الدولة القديمة ناشئة ولا في أول عهدها بالحياة كما يزعم الجاهلون ، ويدل على ذلك أنه في أواخر القرن الماضي اكتشف عالم من كبار المستمصرين الفرنسيين خلف الهرم الغربي جثة موظف كبير من موظفي الامبراطورية الأولى كتب على تابوته العبارة التالية : « هذه جثة الحارس الأكبر لدار الكتب الملكية » .

وقد علق الأستاذ « ماسبيرو » على هذه العبارة في كتابه « تاريخ الشرق القديم » طبعة أولى بأن هذه المكتبة التي كان هذا الموظف الكبير مديرها أو حارسها كانت تحوي بين جدرانها كثيراً من الكتب في الأدب والفلسفة والأخلاق والتاريخ والاجتماع والقانون والسياسة والطب والحساب والهندسة والفلك والسحر والتنجيم .

ويؤكد الأستاذ « ماسبيرو » أن هذه المواد التي كانت موجودة في أدمغة العلماء ومسطرة في أوراق البردي لم تكن أثناء الدولة القديمة في عهد الحداثة والتكوين ، بل كانت قد نضجت نضوجاً تاماً وأصبحت في دور الانتاج العملي المفيد ، إذ أن من المستحيل أن تبنى الأهرام في عصر بادىء في الهندسة لم يتعمق أهله — أو العلماء منهم على الأقل — في غامض النظريات ومعقد الرسوم ؛ وكذلك من المستبعد عقلا أن نتصور أن المحاكم التي لا تحكم على المجرم إلا بعد سماع المرافعات الشفوية الطويلة ، وقراءة المذكرات التحريرية المقدمة من المتهم يكون قضاتها ومستشاروها حديثي عهد بالقوانين المدنية والجنائية .

وإنني أنتهز فرصة هذه المناسبة فأذكر لك مثلا من أمثلة استقلال هذا القضاء وعدالة الملوك في تلك العصور الغابرة التي نتصور أنها كانت مفعمة بالظلم والاستبداد :

حاولت زوجة « باتوو » الخائنة قتل زوجها عدة مرات

قبل أن يجلس على عرش مصر ، فلما تولى الملكة لم يشأ أن يقتلها دون تبرير هذا القتل بحكم المحكمة ، ولم يكن شيء أسهل عليه من أن ينتقم بالقتل من زوجة مجرمة أثيمة ، ولكنه أعلنها بالحضور أمام المحكمة التي تألفت من أكابر رجال القضاء في الدولة ، ووقف جلالته خصما نزيهاً لهذه الخائنة ، وتلا مذكرة الإتهام على مسامع القضاة ثم ترك لهم الكلمة ، فطلبوا إليها أن تدافع عن نفسها ، ولكنها حنت رأسها مشيرة إلى الإفلاس من البراهين وإلى التسليم بالاجرام ، فأصدر القضاة حكمهم عليها بالاعدام

فانت ترى هذه الصورة العادلة التي صور بها مؤلف القصة فرعونه العظيم . وقد تكون هذه القصة خيالية ، ولكن الذي لا شك فيه هو أن الكتاب في كل عصر يستمدون مؤلفاتهم مما يقع حولهم من الحوادث ولو في شيء من المبالغة والمغالاة فنحن نستطيع أن نؤكد أنه كان في تلك العصور الغابرة قضاة يستندون في أحكامهم إلى قوانين مدنية وجنائية ، وأنهم كانوا يسمعون ويقرأون دفاع المتهمين وشهادة الشهود ، بل يبالغ الأستاذ « نوبارى » المستمصر الألماني فيؤكد لنا أن القضاء في تلك العصور كان لا يقل عنه في عصرنا الحاضر بحال.

وإذا غادرنا القضاء وعنايته بالقوانين وتوجيه العدالة والإنصاف واهتمامه بأنواع الدفاع وضروب المرافعات ثم اتجهنا إلى الطب ألفيناه قد بلغ حد النضوج ووصل إلى درجة توشك أن تلحق بالكمال . ويبرهن على ذلك ثقة الأطباء بأنفسهم وتحققهم من معارفهم إلى درجة المجازفة بحياتهم في سبيل توطيد تلك المعارف ، فقد كان الطبيب إذا اخترع نوعاً جديداً من الدواء لم يكن قد سبقه إليه طبيب آخر يرفع اختراعه إلى هيئة الاختصاص حتى إذا نظرت فيه استدعته أمامها وتلت عليه نص الشرط الذي نلخصه فيما يلي : - « للطبيب أن يعالج مريضه بهذا الدواء الذي اخترعه ، فاذا شفي وثبت بالكشف الطبي أنه شفي بسبب هذا الدواء ، منح مكافأة مادية قدرها كذا وكذا . وأخرى معنوية ، وهي تدوين اسمه واسم دوائه في الدواوين الرسمية والكتب العلمية المقررة ، وإذا مات المريض مسموماً بدوائه حكم على الطبيب بالإعدام » .

فاذا قبل الطبيب هذا الشرط وأخذ منه توقيع بالقبول أمام شهود عدول صرح له بالابتداء في تجربة الدواء .

وفي رأينا أن هذا النظام المصري القديم أدق وأحرص على سلامة الجمهور من نظام القرن العشرين الذي لا يتحرز فيه الأطباء من العبث بأرواح المرضى الذين أصبحوا لهم عبيداً يأتمرون بأوامرهم التي لا يلاحظ فيها قانون ولا تترتب عليها أية مسئولية رادعة ، بل لا يترتب عليها سؤال بسيط من قبل القضاء . وضحايا الأطباء والصيادلة الذين لا يعنون العناية الكافية بتركيب الدواء لا تندرج تحت حصر ، ومهما يكن من الأمر فهل تتصور أن أطباء ناشئين في الطب أو مبتدئين في الحكمة لم يقتنعوا بعد بتجاربهم العلمية يقدمون على تعريض حياتهم للخطر؟

أحسبك بعد أن صورت لك هذه المنزلة العالية التي ارتقى إليها الطب المصري في العصور القديمة توافقني على أن الآراء القائلة بأن الطب المصري كان نوعاً من الرقى والتعاويذ السحرية أو مشوبا بها كما صرح الأستاذ أمين الخولي في مذكراته صفحة ٤٤ هي ضرب من الخرافات التي ليس لها من الأدلة العلمية مستند ولا دليل

وإذا ألقينا نظرة متأملة على الرسم مثلا وجدناه لا يقل روعة وجلالا عن بقية الفنون والعلوم الأخرى التي أسلفنا لك أنها كادت تصل إلى مرتبة الكمال .

وأخص ما يمتاز به الرسم المصري هو ما يشاهده عليه الرائي من الحياة لأنك حين تنظر إلى ما يرسمونه من صور لا تشك في أنها حية تستمتع بالحركة والاحساس وذلك لإتقان رسمها وإجادة الفن فيها .

ولقد بلغ هذا التصوير درجة جعله يعم المعابد والمقابر ثم يتخطاها إلى المنازل والمنتديات ، والحدائق والمتنزهات والمحاكم والدواوين وينقش على الحوائط والأسوار والسقوف والأراضي وفي غرفة النوم وحجر الإستقبال وقاعات المائدة وفي كل مكان . وإليك ما قاله الأستاذ « بريستيد » في هذا الشأن :

« وبلغت الفنون الجميلة درجة قريبة من الطبيعة بعيدة عن الأوهام لم تبلغها أية بلدة أخرى في تلك العصور القديمة إلى أن يقول : « بل كان المصري مغرماً بمظاهر الطبيعة الأصلية فقط كما يراها داخل منزله وخارجه ، ولذلك نقش زهر (اللوطس) على أيدي ملاعقه وشرب النبيذ في أقداح زرقاوية اللون على شكل برعوم اللوطس ، وصنع أرجل سريره بهيئة أرجل الثيران القوية العضلات ولبسها بالعاج ، ورسم سقف منزله بهيئة سماء تبدو منها النجوم ورفعها على عمد

شبيهة بالنخيل الباسقة الأغصان أو بسيقان اللوطس المنتهية أعاليها ببراعيم ذلك النبات ، وكثيراً ما زين المصرى سقوف حجراته برسوم الحمام والفراش الطائرة بين الأشجار . وكان يحلى أرض منزله باللون الأخضر على شكل مستنقعات يسبح بين أعشابها السمك وتشاهد بها أحياناً ثيراناً وحشية طاردة للعصافير المحلقة فوق الأعشاب المائلة ، ويرى الناظر أن هذه الطيور تسعى فى الوقت نفسه لخلاص صغارها من ابن عرس الذى يريد افتراسها .

أما الأدوات المنزلية المستعملة يومياً فى منازل الأغنياء فجميلة متناسبة الأجزاء تشاهد على أبسطها صنعا مناظر الطبيعة وجمالها المرئيات فى خلال القطر المصرى [١] .

وليس هذا هو كل شىء فى رقى الصناعات العملية فى مصر بل إن هناك خوارق ومعجزات ظهرت على أيدى أولئك الصناع المهرة البارعين ، فالتاريخ يحدثنا بأن الصائغين قد بلغوا فى صناعة الحلى دقة لم يسع فنى مصر الحديث إلا أن يعترفوا أمامهم بعجزهم الكامل عن مجاراتها ، وهو ينبئنا كذلك بأن صناع الكؤوس والأكواب قد وصلوا فى صناعتهم إلى حد أن يبتدعوا أكواباً من الصوان تشف عما فى داخلها فيرى فى وضوح كما يرى ما هو فى داخل الزجاج سواء بسواء ، وأن النساجين توصلوا إلى صنع غلائل من الكتان شفافة لا تحجب ماوراءها ولا ريب أن هذا هو فى الصناعة أعلى مراتب الاعجاز .

ويحدثنا الأستاذ « بريستيد » فى صفحة ٦٦ من كتابه « أن مهندسى العمارة والبنائين عرفوا شيئاً كثيراً من علم رفع الأثقال (الميكانيكا) كما يستدل من قبو مقبرة بيت الخلاف يرجع تاريخها إلى القرن الثلاثين قبل الميلاد وغير ذلك مما يبرهن على ان العلوم العقلية والعملية كانت قد وصلت فى مصر إلى أبعد مدى تستبيحه تلك العصور .

هذا ، ولما كانت الفلسفة الهندية هى أهم الفلسفات الشرقية جميعها بعد فلسفة مصر من ناحية وأقدمها إلا الفلسفة المصرية من ناحية أخرى فقد آثرنا ان نثنى بها بعد أن بدأنا بفلسفة وادى النيل التى هى مبدأ الجميع فى رأى أدق العلماء والباحثين .

(يتبع) **محمد غلاب**

(١) راجع صفحة ٦٧ من كتاب الأستاذ بريستيد

٨٠٦٠

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

مشاهير الحكماء

جميعكم أيها الحكماء المتمتعون بالشهرة ، قد خدمتم الشعب وما يؤمن به من خرافات ، ولو أنكم خدمتم الحقيقة لما كرمكم أحد ، ومن أجل هذا احتمل الشعب شكوككم فى بيانكم المنمق لأنها كانت السبيل الملتوى الذى يقودكم إليه . وهكذا يوجد السيد لنفسه عبيداً يلهو بضلالهم الصاخب . وما الانسان الذى يكرهه الشعب كره الكلاب للذئب إلا صاحب الفكر الحر عدو القيود الذى لا يتعبد ولا يلذ له إلا ارتياد الغاب

إن ما حسبه الشعب فى كل زمان روحاً للعدل إنما هو العدو الكامن المترصد لروح الحرية يستنبح عليها أشد كلابه افتراساً وقد قيل فى كل زمان (لا حقيقة إلا فى الشعب فويل لمن يطلبها خارجاً عنه)

لقد أردتم أن تؤيدوا الشعب فى ما يبدى من خشوع وإجلال ، فدعوتم هذه المذلة (إرادة الحق) فيا لكم من حكماء

غير أنكم كنتم تقولون فى أنفسكم لقد نشأنا من الشعب وصوت الشعب هو صوت الله فكنتم كالحمار الصبور المراوغ تعرضون وساطتكم على الشعب ، ولكم من ذى سلطان أراد ان توافق عجلته ذوق الشعب فقطر لجرها حماراً صغيراً ، حكيما مشهوراً ...

فيا مشاهير الحكماء ، إننى أطلب منكم أن تخلعوا عنكم ما تلبسون به من جلود الأسود وجلود الوحوش الكاسرة المخططة وفراء المستكشفين للمجاهل والفاتحين ، إذ لا يسعنى أن أؤمن بالحقائق التى تنادون بها مالم تقلعوا عن بذل التبجيل والتعظيم ، فما رجل الحق إلا الضارب فى القفار ولا إله له لأنه

حطم بين جنبيه قلب التبجيل والتعظيم وإذا هو تلفت ورمال الصحراء تحرق قدميه إلى الواحات حيث يتدفق الماء الزلال، ويمتد وارف الظلال، وترتاح الحياة ملقية عصا الترحال، فلا يقتاده الظمأ إلى الاتجاه نحوها طلباً للاغتباط بين المغتبطين لأنه يعلم أن لكل واحدة أصنامها، وما يريد الأسد إلا الانفراد محرراً من عبودية الأرباب ومن سعادة المستبدين، بعيداً عن الآلهة والمتعبدين وعن الخوف ومنزليه في القلوب، ذلك ما يصبو رجل الحق إليه. وما عاش رجال الحق إلا في القفار يسودونها بانطلاق تفكيرهم في مجالها الوسيع. وهل في المدن إلا مشاهير الحكماء يتناولون خير الغذاء كذوات الضرع تغذى لتحلب. ويجرون عجلة الشعب وقد كُدنوا بها كالحمير

وما أنا بالناقم عليهم ولكن ليعلموا أنهم خدم مشدودون إلى عجلة وما يرفع من ذلهم توهج الذهب على العجلة التي يجرونها

ولطالما أخلص هؤلاء الناس في خدمتهم فاستحقوا الثناء لأن الحكمة تقضي بأن يفتش الخادم عن سيد يستفيد من خدماته

لقد وجب أن يتسامى عقل سيدك وتعلو فضيلته لأنك بهما تعلو أنت

والحق أنكم قد علوتم بارتقاء عقل الشعب وفضيلته، أيها الحكماء الخادمون للشعب كما اعتلى هو بكم. وما أعلن هذا تمجيداً لكم، فانكم قد بقيتم أنتم شعباً حتى في فضائلكم، وما تزالون شعباً لا بصيرة له، ولا يدرك العقل معنى

إنما العقل حياة تمزق الحياة تمزيقاً، وما تزداد الحياة معرفة إلا بما تتحمل من آلام، فهل كنتم لهذه الحقيقة عارفين؟

لا يسعد العقل إلا إذا مسح بالدموع وتوج بالتضحية فهل كنتم لهذه الحقيقة عارفين؟

إن عماء الضرير وتلمسه لطريقه إنما هو شهادة لقوة الشمس، التي حدق بها فهل كنتم لهذه الحقيقة عارفين؟

على طالب المعرفة أن يتعلم البناء باستخدامه الجبال حجارة لاقامة صرحه، وما يصعب على العقل أن ينقل الجبال. فهل كنتم لهذه الحقيقة عارفين؟

إنكم لا تلمحون من العقل إلا ما يقذف به من شرر. فلا تعرفون، أي سندان هو هذا العقل، ولا تعرفون أيضاً قساوة المطرقة التي تهاوى عليه

والحق أنكم تجهلون كبر العقل ويصعب عليكم احتمال تواضعه لو أراد تواضع العقل أن يعلن حقيقته

إنكم ما تمكنتم في أي زمان من إرسال عقلكم إلى مهاوى الثلوج، فما بكم الحرارة الكافية لاقتحامها، ولذلك لا تدركون لذة من تنعشه لفحات هذه المهاوى، غير أني أراكم بالرغم من هذا تقدمون على مداعبة التفكير، وقد جعلتم الحكمة ملجأ ومستشفى للمتشاعرين ...

لستم عقباناً أيها الحكماء المشتهرون، فأنتم إذاً لا تدركون ما يلذ العقل من لذة في ارتياعه، فلا يحق لغير المجنح أن يخترق الهواء فوق الوهاد

ما أنتم إلا فاترون أيها الحكماء، وفي كل معرفة عميقة يهب تيار من الصقيع لأن ينابيع العقل الخفية باردة كالثلج ولا تلذ بردها غير الأيدي الملتهبة بحرارة جهادها

إني أراكم أمامي أيها الحكماء المشتهرون ملفعين بقساوتكم جامدين على غروركم فما للريح أن تدفعكم ولا للارادة أن تهيب بكم إلى الاقدام

أما رأيتم على مضطربات الأمواج شراعا خفاقا يندفع وقد عصفت في ثنياته هوجاء الرياح. إن حكمتي تجتاز العمر خافقة كهذا الشراع وقد ملأتها عواصف التفكير، تلك هي حكمتي الشاردة النفور. فهل لكم أن تجاروني في اندفاعي أنتم يا من تخدمون الشعب، أنتم مشاهير الحكماء

هكذا تكلم زارا ...

نشيد الليل

لقد أرخى الليل سدوله فتعالى خرير المياه المتدفقة، ولنفسي أيضاً ينبوعها المتفجر

لقد أرخى الليل سدوله فتعالت الاناشيد من أفواه جميع

المغرمين ، وما روحى إلا نشيد من هذه الأناشيد . إن فى داخلى قوة ثائرة تريد إطلاق صوتها وهى شوق إلى الحب بيانه بيان المغرمين . أنا نور وليتنى كنت ظلاماً ، وما قضى على بالعزلة والانفراد إلا لأنى تلفعت بالأنوار . ولو أننى كنت ظلاماً ، لكان لى أن أتعلق بأسداء النور فأتقع من درها على ، لكان لى أن أرسل بركتى إليك أيتها النجوم المتألقة كصغيرات الحباحب فى السماء إذ أتمتع بما تدرين على من شعاع . غير أنى أحيا بأنوارى فأتشرب اللهب المندلع من ذاتى وقد حرمت لذة الآخذين ، وقد خطر لى مراراً أن فى السرقة من اللذة ماليس فى الأخذ .

إن يدى لاتقف عن البذل وذلك هو فقرى فأنا أنظر أبدا إلى العيون يملؤها الانتظار وإلى الليالى تلهبها الأشواق ، وذلك هو الحسد الذى يقض مضجعى

يالشقاء الواهبين .... يالظلمة شمسى ويا لشوق إلى الاشتياق ويا لشدة المجاعة فى شبعى .

إنهم يأخذون ما أهبهم ولكننى أبقى بعيداً عن أرواحهم فان بين الباذل والآخذ هوة عميقة ، ولعل أقرب الأغوار قعراً أصعبها ردماً

إن نوعاً من الجوع ينشأ فى أحشائى فيحفزنى إلى إيلام من أرسل إليهم أنوارى ، فأتوق إلى سلب من أغدق عليهم هباتى وهكذا اتعطش إلى إيقاع الأذية فأرد يدى بعد أن أكون مددتها وأتردد تردد الشلال فى تدفقه نحو مراميه

إن مثل هذا الانتقام يراود عظمتى ، ومثل هذا المكر ينشأ من عزلتى

لقد فقدت السعادة فى العطاء لوفرة ماأعطيت وقد زهقت فضيلتى من نفسها ومن جودها ، إن من يستمر على بذل الهبات مهدد بفقد الحياء . ولا بد أن تتصلب راحته ويتصلب قلبه .

لم تعد مآقى تذرف الدموع على خجل المسترحين وما إن يدى قست حتى امتنع علينا أن تشعر بارتعاش الأيدى اذا امتلأت .

أين هى دموع عينى وأين رقة قلبى . فيا لوحدة جميع الواهبين ويا لصمت كل متلفع بالسناء .

إن شموساً لا عداد لها تدور فى قفار الأجواء مخاطبة بأشعاعها لبدات الظلام وأنا وحدى محروم من حديث هذه الشموس وبيانها .

ويلاه ! أية علاقة يمكن أن تربط الأنوار بالاجرام المنيرة من نفسها ؟ فان الأنوار تمر عليها وهى تحدجها بلفتات الجفاء وتمضى ذاهبة فى سبيلها ، وهكذا تسير جميع الشموس فى أجوائها نافرة من كل جرم منير باردة لا تحس اخواتها بحرارتها .

ان الشموس تندفع كالعاصفات فى أبراجها متبعة ما أختطته إرادتها الجبارة وفى ذلك كتمان حرارتها وبرودتها .

هل غيرك أيتها الأجرام الملفعة بظلام الليل من يخلق حرارة من اللمعان ؟ أنت وحدك ترضعين أفاويق القوة من انداء النور .

ويلاه ان الصقيع يدور بى ويدى تحترق من لفحات الجليد ، فأنا مشتعل بسعار لا يطفىء أواره غير عطشكم ، لقد سادت الظلمة فلماذا قضى على أن أكون نوراً منفرداً متعطشا إلى الظلام ؟

لقد سادت الظلمة فتدفقت كالجداول اشواق وهى تريد أن تهتف بما تضمر .

لقد أرخى الليل سدوله ، فتعالى خرير المياه المتدفقة ، ولنفسى أيضا ينبوعها المتفجر .

لقد أرخى الليل سدوله فتعالت الأناشيد من أفواه جميع المغرمين ، وما روحى إلا نشيد من هذه الأناشيد .

هكذا تكلم زارا . . .

ساعة فى هياكل الشعراء

طاغــور

شعره ، تأمله وتساؤله ، مناجاته ، الشرق والغرب

للأستاذ يوسف اليعيني

كأنى بالقارىء وقد أثاره حب الاستطلاع لجاء يطالبنى بشوق واهتمام قائلا : أراك قد اخترت ــ طاغور ــ موضوعا لبحثك وحديثك دون سواه من الشعراء اللامعين على كثرتهم وتعدد نواحي الاستقراء فى شؤونهم وشجونهم . وأنا حتى أجيبك إلى طلبك وأبين لك الغاية من اختياره لحديثى هذا ، أريدك أن تعلم أن طاغور هو شاعر عبقرى متصون ذو خيال رقيق تسربل بالرشاقة والفخامة والتوت عنه عواثير العقم والخشونة . وهذه مزية سامية لم يتصف بها شاعر من شعراء هذا العصر . . .

على أن إذاعة البحث فى شاعرية طاغور تتطلب أمرا هاما وهو أن نلقى نظرة بعيدة على شخصيته لنعلم ما إذا كان مثالا صادقا للعصر الذى يعيش فيه ، وما إذا كان مرآة صافية لأخلاق البيئة التى ترعرع فيها . أم هو شاعر محلى محصور الثقافة والاحساس لاينقل لقرائه سوى أصداء أوهامه ، ولا يرسم شعره إلا المواضيع التافهة والصور الباهتة لحسب .

أما أنا فأرى أنه يمثل عصره تمام التمثيل لأنه يعيش فى عهد التجديد ونهوضه وبعثه ، وفى عهد يقظة الروح بالشرق الأقصى وإذا فأحلامه التى تلمع فى شعره هى أحلام الجيل الذى يعاصره ، ذلك الجيل الذى روعته الثورات والحروب ، وأبهظته مخاوف الآلام والموت

شعره

قرأت لطاغور كثيراً من شعره ، وكنت قبل أن أقرأ ذلك الشعر أعتقد أن الشاعر الحقيقى هو من يحسن حبك القوافى وسبك الألفاظ وتحكيم الأوزان . ولكن بعد أن قرأته وتذوقت أقواله وتصوراته أصبحت أعلم أن الشاعر هو ذلك المغن المتقد الاحساس الذى يحرق نفسه بخوراً فوق محاريب البشرية لينير تلك الأرواح الهائمة فى دياجى آلامها وبلاياها

وتأكدت أن الشاعر هو من يرهف أذنيه لاستماع خشخشة العبودية تجرها الأقدام الدامية فى سيرها إلى أعماق السجون ، ونحو أعواد المشانق !

هو من تحزنه الزهرة الذابلة ، وإنه يشاهد فى ذبولها صفحة حياته البالية . . .

هو من يخيفه قصف الرعود لأنه يعيد إلى ذهنه ذكرى الحروب والثورات . . .

بلى . . . فى شعر طاغور شاهدت كيف يحرق الألم نفس الشاعر ، وسمعت زفرات قلب متفطر ينسحق فى قبضة الأسى والحنين ، ويتبعثر بين غمائم التذكار والكآبة !

وطاغور شاعر متفنن ذو رقة لذيذة وخيال طافح بالعذوبة ، وأنت إذا قرأت قطعة من شعره فكأنك تقرأ روحاً تذوب فى مرجل آلامها وحسراتها ، أو تشرب كأساً من الدموع المريرة .

إذا حدثك عن حب مستتر فى لفوف الماضى ، فأنت ترى ذلك الحب بعينيك . وإذا رسم لك ما ينهش قلبه من أسى وحنين فتكاد تسمع ذلك بأذنيك فتحترق شفقة عليه !

يداعب ميولك ومشاربك فتحس به قد دخل عليك واحتل ذاتيتك ، فتتعشقه راكضاً وراء الفراشة فى الحقل ، أو صاعداً إلى النجوم على سلم منسوج من ضوء القمر

وهو خيالى . . . ولكن يا له من خيالى رائع يحاول أن يملأ كأسك من عصير روحه الساحرة . لكنه يعترف لك بأن هذا الذى يرشحه فى مراشف سطوره وتعابيره ليس سوى أنداء هاوية سكبتها الطبيعة فى روعه الخالق ليفرغها فى محاجر الانسانية التى تريد التملص من قيودها وأغلالها

فمن هذا يستدل القارىء على بعد غور شاعريته ، وصفاء مصدره ، وصدق عقيدته ، ورحابة آفاق تأملاته وأحلامه !

تأمله وتساؤله

لم يعرف الأدب العالمى فى أوائل هذا الجيل شاعراً كثير التأمل والتساؤل إلا ــ بيرلوتى ــ الأديب الفرنسى المشهور ، هذا الشاعر الحساس أخرج للناس طائفة من القصائد والقصص هى غاية فى الاستغراق والتحالم بينها كتاب (موت أنس الوجود) الذى رسم فيه ليالى مصر المقمرة البيضاء رسماً يغمر القلوب بموجة من السحر والجمال ، ويبنه فى سراديبها المظلمة أشباح الشجن والحنين ، ويعلم الناس أن بيرلوتى لم يفعل ذلك إلا ونفسه مستبشرة بنور الفن ، ثملة بلذة المذهب الوجدانى وفتونه . ولكن طاغور ، أى حافز ، بل أى داع دفع به إلى اجتناء تلك الزهرة اليانعة وهو رجل يعيش فى معترك بعيد من الفن والنضج والألمعية . إذا لم يكن ذلك دليلا واضحاً على أن الروح المظيمة ، الروح المستنيرة بنور الآلهة ، لايقعدها المحيط الصاخب عن تغريدها ، ولا تؤثر بها عوامل الحياة

ولكي يقف القارىء على صحة ما أقول ، أورد له مثالا من تأمله وتساؤله . قال في قصيدة جزلة مؤثرة تحت عنوان (المنشأ) أنالته مع غيرها جائزة (نوبل) في عام ١٩١٤ :

***

« سأل الطفل أمه ذات مرة : أين كنت يا أماه ، وفي أي مكان كنت تحتفظين بي ؟

فارتعشت عواطف الأم حنواً وضمت طفلها إلى صدرها وأجابت :

كنت ياحبيبي مستتراً في أعماق فؤادي ، بل كنت ماثلا بين ألاعيب طفولتي . . فعند ما كنت أنهض في الصباح لأجبل مثال الله العجيب من الطين لم أكن أجبل سواك .

كنت يابني في هيكل بيتنا المقدس سرياً أعبده فأعبدك فيه . وهكذا نشأت في حياتي وحياة أمي من قبلي . فبآمالي ورغائبي كنت أغذيك ، وبحرارة الروح الكامنة في كنت أهيئك للحياة !

وبينما كنت لا أزال عذراء ، كانت روحي تفتح كأنم زهرتك المزمعة لتلفك بعبير الشوق والحنين . يوم ذاك كنت يابني نوراً ضئيلا يلمع في أحشائي كسنا الشمس عند ما تنحسر عنه سجوف الظلام .

فياحبيب السماء ووليد الصباح المشرق في وهاد قلبي : إني كلما تأملتك يغمرني فيض من العاطفة فأحس أنك لي وحدي . وأنتا متحدان دائما بالشعور والعاطفة

ولكن ليت شعري ، أي القوى هي تلك التي جعلتني أحتفظ بك أيها الكنز الثمين ؟

وفيما هو مصغ إليها ، دب الموت في فؤاد الطفل فقال متمتما :

ـــ ها قد دنا الموت يا أماه ليذهب بي حيث يذهب الموتى أجمعون . . ولكن عند ما يأتي المساء وتمدين يدك لكي تطبعي على شفتي قبلة ناعمة يمازجها العطف والحنان سيهتف بك هاتف من الظلام مقيما بأنك لاتجدينني ههنا !

ولكن ثق يا أماه بأني سأتحول نسيماً يقبل ثغرك كل حين ، أو نوراً يغني مأواك في الليالي الداجية المفعمة بعويل العواصف وأنين الرياح

وفي الليل ، في ذكرياتك المحرقة عند ماتناجين طفلك الحبيب ، سأقول لك نامي يا أماه ولا تذكريني ، فإني عند ما يمسي البدر هلالا أسيل مع الشعاع لأنام في حضنك الأمين !

وسأغدو حلماً يدخل من فتحات عينيك لانزع من قلبك حزنه القاتل الساحق . ولكن إذا أفقت مذعورة ترين حولك فراشة بيضاء تؤنسك بطنين أجنحتها الصغيرة

ومتى أقبل عيد (جايا) وترنحت عذارى الهيكل خففات بأنغامهن العذبة وحشة حياتك . . سأهرق نفسي في تلك الأنغام حتى إذا لامست قلبك محت عنه كل الأحزان

وإذا جاءتك خالتي حاملة إلى هدية جميلة وسألتك أين طفلك يا أختاه فإني أذوب شوقاً إليه . . . فأجيبي أختك يا أماه بأني توسدت عينيك ، واتحدت روحك التي لايستطيع أن يلحدها الموت »

***

أجل . . . إن في هذه القطعة الفاتنة التي يسأل فيها – وابندرانات طاغور – أمه الطيبة عن كيفية مجيئه إلى هذا العالم

نعم إن فيها عصارة من جيد الشعر لا تأتي بمثلها إلا نفس انحدرت إلى قلب الحياة حيث التقطت كل ما فيها من ألم وبؤس ، وفرح وسعادة ، وابتسامات ودموع . . . ولعمري إن نفسا تنتهي بك إلى هذا الحد العميق لهي نفس جبارة تجابه الدهر بشعاعها الوضاح ، فتملأ الأيام هيبة وجلالا ، والليالي سحراً ونوراً ! !

مناجاته

وطاغور شاعر عالمي قبل كل شيء . فإن آراءه أصوات مرتلة تلعب بالقلوب والمشاعر ، وتحمل الاحساس على أجنحة من الخيال ، فترود به معالم الخلود وتغذيه بمواد الجمال الأزلي ، وتطبعه بطابع الجمال الالهي

ومما يمتاز به طاغور هو أنه شاعر متصوف كثير التأمل عميق المناجاة . وإن الانسان ليحار عند ما يقرأ قطعة له فيرى المعاني موشحة بغلاف رقيق من الفلسفة الوجدانية . وقد جنح تصوفه أخيراً إلى حد أصبح يحب فيه أن يرى الله في كل مكان تحتضنه عيناه ، فهو يود أن يشاهده في الوردة الخضراء ، وفي طلعة الفجر ، وفي مغرب الشمس ، وفي سكون الليل ، وفي سر الموت والحياة

نجوى

« ألا شرفني يا إلهي ، وجرد حياتي من تلك المساوىء المعيبة التي تسود دائماً ابن الطينة ، ضمها تحت رعايتك ، وأخبئها بين ظلال الموت والنور ، أو في مكمن الليل بين نجومك . ثم أطلقها في الصباح بين الزهور لتشدو كالبلابل بتسابيحك وترانيمك ! ! »

شكوى

إيه أيها القدر العاتي ! لقد حجبها النبع عني فما اكتأبت . ولكن أبت إرادتك إلا أن تبقى ساقية خبيها سارية في أودية قلبي لا ينضب لها معين ، ولا ينقطع لها خرير

ولكن الزمن قاس جداً ، فهو لا يحنو على النفوس المعذبة . وإنه ليهزأ من ألم القلوب كلما لج بها تذكار الماضي الدفين

آه !! إني أذكر ... ولكن الحياة كلها نسيان . إنها سريعة الخطى نحو الموت ... إنها تختنق ولكنها تترك للخيال مرارة الذكرى وتباريح الشوق والحنين

***

وفي اعتقادي أن هذه المقاطع هي من أروع المناجاة . وأنت إذا قرأت باقي مناجاته ترى رجلا حائراً مرتعشاً قد شمله ظلام ليل الأسى . فهو يبكي ، وهو يرجو (القدر) أن يرحمه في دجى الليل البهيم بخلود ذكرياته الماضية ... ويا لها من ذكريات رقيقة عارية من أثواب الادعاء والكبرياء ، حافلة بمعاني اللوعة والحزن هي ذكريات الشاعر الحنون .

والحقيقة أنك لا تكاد تقرأ هذه المناجاة حتى تجري الدموع من عينيك ويغمرك سكون رهيب طافح بالحزن والكآبة ، وحتى يأخذك شيء من اليأس والسخط على الحياة والاستمساك بها !!

الشرق والغرب في نظر طاغور

ولطاغور رسالة قيمة يبشر فيها بانتشار السلام والمحبة بين الناس على اختلاف مشاربهم ومنازعهم وميولهم . وهذا لعمري عمل جليل يدل على عظمة هذا الشاعر الجبار . فهو رجل عالمي جامع ، وبخلاف «كتابنا وشعرائنا» الذين يكتبون للدين والأحزاب والجنسية أو لفئة جاهلة متعصبة من الناس ... ومن المضحك أن هؤلاء الأدباء المزيفين الذين يقلقون الشرق العربي بكتاباتهم وأشعارهم ينعون على البشرية عدم اكتراثها بهم ...

لقد قرأت كثيراً من مؤلفاته . ففي كتابه « سيد هانا » يتغنى بالمحبة ويدعو الناس إلى اعتناقها . ولطالما نادى بتوثيق عرى الحب ليعيش العالم في سعادة وهناء . ومن قوله :

« إذا كانت الأمهات يلدن والقبور تبتلع ، فلماذا الحروب والثورات التي تدمي فؤاد الانسانية وتقاق روعها ؟ ولماذا لا يعيش الإنسان تلك المدة القصيرة في حب وسلام ؟ »

فمن هذه الجملة الوجيزة يستخلص القارىء صورة صحيحة لنفسية طاغور

وأما الشرق والغرب فهما في نظره اخوان توأمان يجب عليهما التقيد بقانون العدل والمساواة . وأنه ليس حقاً أن يظل الشرق عبداً للغرب كما هي الحال اليوم ، فيسومه جميع أنواع الذل والعبودية

في عام ١٩٢٠ طاف طاغور في أنحاء العالم ، ثم عرج أخيراً على « نيويورك » المدينة المتبعلة أجنحة الروح ، والمازقة أبراجها الحديدية الصماء بأحلام الشرق وعوائده القديمة ... فألقى هناك محاضرة نخبة عن مدنية الشرق وطابعها الفلسفي جاء فيها ما يأتي :

« الغرب يكون للشرق عوامل الحياة الزاحلة ، والشرق يعطي الغرب تعاليم الروح الخالدة . فيا لله انظر أيها الغرب وتأمل . ألا يستطيع الشرق المستعبد أن يقدم لك غير أرضه ورقاب أبنائه ؟

فالى متى ينظر الغرب إلى الشرق نظرة السخرية والاحتقار ، ومتى يستيقظ الغرب من نشوته العمياء ؟

لا تصدق يا غرب عنا كل ما تسمعه من دعاة الاستعمار ، فان هؤلاء يصورون لك الشرق صورة متناقضة ينش حقائقها التعاظل المقوت . بل تعال أنت أيها الغرب الحر المتسامي ، غرب أجناد الحق وأبناء الخلود ، وادرس حياة الشرق الجليل ... تعال بروح الحرية التي بنيت عليها حضارتك الأولى ، فترى حينئذ كما نرى نحن أن الشرق الضعيف أهل للحرية ، وأن في أعماق أخلاقه ومبادئه وميوله حكمة خالدة أسمى من الحياة المادية »

وكأني هنا - بطاغور - وقد رأى بعينيه جشع الغرب وتكالبه على امتلاك قطعة من الأرض ، وشاهد انتحار الفضيلة فيه ، واستيلاء الحياة المادية على عقول أبنائه ، وتقلص الشعور من النفوس ، وتلاشي حرارة الشعر ، وتمشي الأطماع والأكاذيب في متنه وقوانينه فهو يقول « أن في أعماق روح الشرق وميوله جمالا أسمى من الحياة المادية التي يعيشها الغرب ، وان ذلك الذي تضمه روح الشرق ومبادئه ليس سوى الوداعة المستحكمة من قلوب أبنائه ، والطهارة الناشرة أجنحتها فوق قصوره وأكواخه ، والنجوم التي تنير حقوله ووهاده ... فتبدو الحياة في ذلك الشرق الشعري الخلاب كأنها حلم من الأحلام الرائعة . وفي الحقيقة أن طبيعة الشرق لهي عرس من أعراس الحياة . فعلى الشواطيء تمرح عذارى الحب والجمال ، وفي الكهوف تمرح تخيلات الدهور والأجيال

***

إن في روح هذا الشاعر الهندي المتصوف الذي نشأ في ظلال الشرائع الشرقية القديمة مالا قبله من عصير « النرفانا » وكتب أجداده الخالدة خيالا يقظا سوف يصغي الدهر إلى همسه المسكر مستمهلا في قراره بين أكوام الموتى وساحات الحروب ... ولكن إنسانية اليوم لن تصغي إلى حفيف أجنحة أطيافه ، ولن تمرح في حكمته من نور ، ولن تجرع مافي كأبته الصاحية من كوثر ، لأنها إنسانية ثملة بأبخرة الدماء ، وعبق البارود ، وهزيم المدافع ، وقلقلة القيود

ستبقى ثملة ... وسوف لا تستفيق من نزواتها وخيلائها حتى تقتلها النزوات وتقهقرها الخيلاء فتبصر عندئذ نجمة الحق لامعة في أفقها المثلى حيث تلتقي الأزلية والأبدية ، وحيث يتعانق فجر الحياة ومساؤها ،

« البرازيل » يوسف البعيني



قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكي بك

مدير مصلحة الكيمياء

ظل يغدو ويروح بين عماله في هذا البيت فلا يستقر به مكان، وظل يشرف فيهم على تركيب مركبات جديدة رجاء أن تكون أكثر إبداعا من المركب الذي كان ، ودار في كل حجرة وسار إلى كل ركن فلم يستطع أحد حتى قدريت أن يتتبع أثره . وأملى كاتبته الآنسة مرثا مركرت Martha Marquardt مئات من الكتب اتسعت لكثير من حماسته وحرارته ، وقرأ آلافا من الكتب جاءته من كل ركن من اركان الأرض ، واحتفظ بتقرير دقيق عن كل حالة بل عن كل جرعة من الجرعات الخمس والستين ألفاً من السلفرسان التي حقنها الحاقنون في بقاع الدنيا في عام ١٩١٠ . وكان احتفاظه بها على مثال هذا النظام الغريب الذي تأصل في هذا الرجل : كتبها جميعاً على صحيفة ورق كبيرة دبسها في باطن باب القمطر الذي كان في مكتبه ، وغطت الصحيفة باطن هذا الباب من أعلاه إلى أسفله فكان كلما طلب شيئاً في أسفل الصحيفة تقاصر وتقرفص ، وكلما طلب شيئاً في أعلاها تطاول على أصابع رجليه وتمدد ، وكان في كلتا الحالتين يركز بصره تركيزاً، ويعمله إعمالا ليقرأ سطورها وهي خطوط دقيقة مهملة معماة.

وتزايدت التقارير فجاءت بأنباء عن حوادث للشفاء غريبة بديعة حبيبة تلذ قراءتها ، ولكنها تضمنت كذلك أنباء مسيئة متجهمة تتحدث عن فواق وقيء ثم تصلب في الأرجل وتشنج في الجسم يعقبه الموت . وجاءت الأنباء الفينة بعد الفينة بموت مرضى كان يجب ألا يموتوا ، وجاء موتهم عقب حقنهم بالدواء .

ألا ما أشد ما اشتغل إرليش ليفسر هذه الأحداث ! ألا ما أشد ما قسا على نفسه ونحل من جسمه ليتجنب هذه الأرزاء ، فما كان إرليش بالرجل الجامد الذي لا تهزه مصائب الخلق ولا تؤلمه آلام الناس ، فأجرى التجارب العديدة ، وكتب الكتب الكثيرة يستفسر عن تلك الرزايا كيف وقعت ، وعن الحاقن كيف ضربت ، وكان يجلس في الأمساء يلعب الورق وحده . فيغلبه الفكر في تلك الحوادث ، فيأخذ يكتب على هوامش الورقات ما يعن له من تفسيرات ، أو هو يكتبها على ظاهر مجلات قصصية تحكي عن فظائع وجرائم بوليسية كان يفزع دائما الى قراءتها ظناً منه أن فيها دون سواها راحة البال المكدود ورياضة النفس المريضة ، ولكنه ما استروح قط ولا استراض ، وكيف يفعل وهذه البلايا تقفو أثره فتذهب بالذي كسبه من مجد عظيم .

وزادت أسارير جبينه تغضناً ، وازدادت تعمقاً ، واسود ما تحت عينيه الزرقاوين ، وبقيت فيهما بقية ما فتئت ترقص من تلك الفكاهة الهادئة المستحية .

فهذا المركب رقم ٦٠٦ نجى آلافا من الموت ، ونجى آلافا من الجنون ، وخلص آلافاً آخرين مما هو شر من الموت : من قطيعة المجتمع إياهم لما ضرب المكروب في أجسامهم ضرباً ، وأكل منها أكلا ، حتى صارت مناظرهم في العين قذى وفي الأنفس تهوعاً . ولكنه بعد تنجيته المرضى بهذه الآلاف أخذ يقتل منهم بالعشرات ، وأخذ إرليش ينهك جسمه الناحل أو ما تبقى له من جسم ، حتى أصبح خيالا ، وذلك ليفسر أحجية عز على الحكماء تفسيرها . ولقد مضى الآن على آخر سيجارة دخنها إرليش عشر سنوات ، والأحجية ما زالت أحجية .

فترى من هذا أن النجاح العظيم الذي كسبه إرليش كان أكبر حجة على بطلان نظرياته . قال : « ان المركب رقم ٦٠٦ يتحد

اتحاداً كيميائياً بالمكروب فيقتله ، وهو لا يتحمع الجسم فهو لا يناله بسوء . هذه نظرية من نظرياته فأين هي مما جرى ؟

إن المركب رقم ٦٠٦ مركب ذو كيمياء معروفة ، ولكن تفاعله مع الجسم تفاعل خاف مجهول ، وأخفى منه كيمياء هذا الجسم الإنساني العجيب ، هذه المكنة الحية الغريبة ، هذا الطلسم الذي لا نفهم إلى اليوم منه وآسفاه كثيراً . ولقد أخطأ إرليش ونال عاقبة خطاه ، لأنه لم يدرك إلا بعد فوات الاوان أن رصاصته المسحورة يطلقها آلاف المرات فتصيب غايتها من المكروب آلاف المرات ، ولكنها قد تطيش أحيانا فتصيب غير غايتها فتقتل العدو والصديق . على أنه لا تثريب اليوم عليه ولا ملامة ، فإن يكن أردى العشرات فقد رد الصحة والسلامة على الألوف . وصادة المكروب العظام ماذا كانوا سوى سادة مقامرين ، إذن فلنذكر إرليش بالحمد ، ولنذكره بشجاعته وجرأته ومخاطرته ، ولنذكره بما دفع من البؤس عن ألوف كثيرين

ولنذكر بأنه أثار سبيلا جديدة سيسلكها صادة المكروب لا محالة من بعده يبحثون فيها مثله عن رصاص جديد يطلقونه على مكروب جديد

وليس هذا بالأمل البعيد أو الأمنية الخائبة . فقد بدت فعلا تباشير ما نرجوه من بعد إرليش . فإن قوماً بحاثا من غير ذوي النباهة وذائعي الصيت قاموا في مصانع الإصباغ بمدينة إلبرفلد Elberfeld [1] يترسمون خطى الأستاذ الأكبر ، وبعضهم من أعوانه الأقدمين ، فكدوا وكدحوا كما كانوا في خدمته يكدون ويكدحون ، حتى وقعوا على عقار جديد غريب أبدعوه إبداعا . وقد احتفظوا بسر تركيبه ، وأسموه « باير رقم ٢٠٥ » Bayer 205 . وهو مسحوق عادي المظهر لا يهولك منه شيء ، ولكنه يشفي من مرض النوم الذي ينتهي دائما بالموت في بلاد روديسيا Rhodesia وبلاد نياسا Niassland بأفريقيا . وإن كنت لا تزال تذكر فهو الداء الذي كافحه الرجل الجلد دافيد بروس David Bruce آخر كفاح في حياته ، وارتد عنه مغلوباً . فهذا العقار يفعل في خلايا الجسم وسوائله أفعالا لو سمعتها لحسبتها خرفا أو خيالا . ولكن أحسن ما في الحسن منها أنه يقتل المكروب قتلا ، وأنه يقتله قتلا دقيقا جميلا كاملا شاملا لو سمع به إرليش لتحركت أشلاؤه في قبره سروراً واغتباطا . فإن كان في المكروب ما لا يقتله ، فهو على الأقل يحُد من نشاطه ويقلم من أظفاره فيجعله أنيساً مأمونا . على أن حكاية هذا العقار لم تختتم بعد فلندع للأيام ختامها

وإني لواثق وثوقي بطلوع الغد بأن المستقبل كفيل بخلق صادة للمكروب غير من ذكرنا يطلعون على الناس برصاصات غير ما وصفنا ، ستكون أكثر سلاماً على الانسان وأشد حربا على المكروب وأفتك بكل جرثوم خبيث شديد المراس حكينا حكايته في هذه القصة فلنذكر إرليش بانه فاتح هذا الباب وأول سالك لهذه الطريق

وقبل أن أختم هذه القصة أجد في صدري سرا لا بد من فضحه قبل الختام : ذلك أني أحب صادة المكروب هؤلاء ، من لوفن هوك إلى إرليش ، ليس على الأخص للكشوفات التي كشفوا ، ولا للنعم الجليلة التي بها على البشرية أنعموا ، ولكني أحبهم على الأكثر لأنهم رجال أي رجال ، أحبهم لرجولة جميلة فيهم سأظل أذكرها لكل فحل منهم ما استطاعت ذاكرتي وعيا

ولهذه الرجولة الجميلة أحببت إرليش . كان إرليش رجلا مغراما مراحا يحمل أوسمته معه في صندوق أخلاطا أملاطا لا يدري في أي المحافل والمآدب بأيها يزدان . وكان رجلا قليل التؤدة فزاعا يخطر له الخاطر فيفزع لجاءة إليه وينسى ماهو فيه . جاءه رجل من إخوانه بحاث المكروب ليخرج به العشية على شراب ، وكان إرليش في بيته في حجرة نومه يلبس ويتهيأ للخروج ، فما علم بمقدمه حتى خرج في قميصه يحييه

وكان رجلا صموتا معتكفا . قال له بعض عباده يشير إلى المركب رقم ٦٠٦ : « إنه عمل رائع من خلق عقل جبار . إنه كشف من كشوفات العلم الرائعة » . فقال له إرليش معيداً : عمل رائع من خلق عقل جبار ، وكشف رائع من كشوفات العلم ! ؟ لا يا زميلي العزيز ، بل هي فلتة واحدة من فلتات الحظ جاءتني بعد سنوات لم أعرف فيها إلا إلى الخيبة سبيلا »

احمد زكي

(١) سنأتي في ختام القصة على ختام لها بقلم المترجم يحكي ما جرى بعدها إلى الآن

(استدراك) ذكرنا في مقال ٢٤ مايو ان في بعض القرى الأوروبية يقوم القائم بأعمال البريد بأعمال أخرى كالصيدلة أو البقالة ونحوها . وقد نمي الينا أن بعض اخواننا من الصيادلة استاء من الجمع بين الصيدلة والبقالة في هذا العطف البغيض . وما قصدنا بالطبع تحقيراً للصيدلة وانما تقريرا للواقع . فالصيدلي هناك في أطراف البلاد قد يقوم بأعمال البريد وبيع الشكولاتة والحلوى وبكل عمل يستطيعه ما دام يملأ به وقته ويؤدي به الى مكسب شريف . فالاعتبارات التي أساءت الى احساس اخواننا وقلقهم لا وجود لها هناك . وقديما رعى الأنبياء الخراف وباعوا البقول وغير البقول في الأسواق

أحمد زكي



ميكلانجلو

العبقرية الملهمة

MICHELANGELO

للدكتور أحمد موسى

— ٢ —

وعاد من بولونا إلى فلورنسا فى صيف سنة ١٤٩٥ بعد أن نحت فيها بعض القطع التى نذكر أهمها « الملاك الراكع » و « القديس بطرونيوس » . أما فى فلورنسا فقد عمل تمثال « يوحنا الصبى » ، وهو التمثال الذى أتمه سنة ١٤٩٥ كما سبق القول وهو محفوظ ببرلين

وله أيضاً تمثال مشكوك فى صحة انتسابه إليه يسمى « أودونيس الميت » لا يزال محفوظاً بمتحف ناسيونال فى فلورنسا

وسافر فى يونيو سنة ١٤٩٦ إلى روما لأول مرة ، وأقام فيها إلى يونيو سنة ١٥٠١ ، وهناك أنتج أبرز عمل فى مرحلة حياته الأولى بناء على طلب أحد الفرنسيين سنة ١٤٩٩ لعمل مجموعة منظرية تمثل المادونا حاملة جثة المسيح على فخذيها (Pietà) ، وهى موجودة بكنيسة بطرس بروما . والناظر إليها يرى إشعاع المثل الأعلى ممثلا خير تمثيل فى كل أجزائها ، فضلا عن رجوعها إلى الفن الاغريقى من الناحية المجموعية ، إلى جانب حداثتها فى قوة الاخراج ، وحسن التكوين ، والألم والجزع الذى ارتسم على وجه المادونا بالغ حد الاعجاز لغيره

وله أيضاً قطعة أسماها باخوس « إله الخمر » (ش ١) عملها تنفيذاً لطلب السنيور جالى أحد مشاهير التجار فى عصره ، وبالنظر إليها يتضح الابداع فى التكوين الجسمانى الرقيق ، كما تظهر لنا الكيفية التى أخرج بها الوجه والشعر المحاط بعناقيد العنب ظهوراً جلياً وبهذا يتم الانسجام المعنوى للتمثال . أنظر إلى اليد اليمنى وكيف حملت وعاء الخمر ، وتأمل إلى أى حد بلغت رقة إله الخمر فى طريقة حمله هذا الوعاء ، ثم شاهد الولد الصغير الجالس إلى يمين باخوس حاملا عناقيد أخرى غطاها بلباسه فى شىء كثير من الحرص أشبه بمن يطوق حاجة عزيزة عليه . وقد كون ميكلانجلو الساق على هيئة ساق الخيل إكمالا للتعبير عن قصته الاغريقية



ش ١ — إله الخمر

وله غير ذلك تمثال كيوبيدو (أو أبولو) محفوظ بمتحف لنسنجتون بلندن

ومن يونيو سنة ١٥٠١ إلى مارس سنة ١٥٠٥ أقام فى فلورنسا واتصل فيها بليوناردو دافينشى ، بالرغم من اختلاف مشارب كل منهما ؛ إلا أنه تأثر به إلى حد بعيد . وله فى هذه الفترة تمثال « داود » (ش ٢) وهو منحوت من قطعة واحدة من الرخام ومحفوظ بأكاديمية فلورنسا

ولذلك تلمس الفارق الشديد بين تمثال باخوس وبين هذا التمثال من الناحية المجموعية والتكوينية والتفصيلية ، وبذلك تستطيع أن تقرر أن هذا العبقري الملهم قد أدى رسالته بأقصى ما يمكن الوصول إليه من النجاح .



ش ٢ - تمثال داود

وتمثاله «صبي الراعي» لا يقل عن هذين التمثالين روعة، وهو لصبي طويل حسن التكوين إلى أبعد حد ، ارتسمت على وجهه مسحة الصلابة والأنفة الريفية . وغير ذلك خمسة تماثيل صغيرة عملها لتحلية هيكل كنيسة سينا Siena ، والمادونا مع يسوع الطفل بكنيسة ليفراون في بروجه ، وهي ويسوع بالحجم الطبيعي تقريباً ، وقد جعل ملامح المادونا على غاية البهاء والتناسب

هذا وله منحوتات نصف بارزة مستديرة الشكل للمادونا مع الطفل القارىء ويوحنا ، وهي محفوظة بفلورنسا وبأكاديمية لندن

إلى هنا تكون مرحلة إنتاجه في شبابه قد انتهت .

ويستقبل مرحلة الرجولة من سنة ١٥٠٥ عند ما استدعاه البابا يوليوس الثاني إلى روما ليشرف على تشييد ضريحه . وقد صادفته عقبات جمة حالت دون تنفيذ هذا المشروع الفني ، وقاسى الأمرين . أهمل التصميم الذي وضعه لهذا الضريح بعد المجهود الهائل الذي استنفده . ولم ينفذ إلا بعد انقضاء أربعين سنة بعد كثير من التعديلات والبتر . وأول خطوة لهذه المأساة بدأت عند ما أهمل البابا نفسه تصميم ميكلانجلو مدة سنة كاملة ، ولم يطق العبقري هذا التسويف فرحل إلى فلورنسا ، لأنه لم يكن قد حضر إلى روما إلا بناء على استدعاء البابا .

وشاءت المصادفة أنه كان يوماً في بولونيا ، وإذا به يواجه البابا ويصالحه ، فطلب إليه ترميم تمثاله البرنزي في هذه المدينة ؛ وهو تمثال قيم كان قد أصيب بالعطب من جراء التخريب الذي قام به البولونيون فيها . وبعد انتهائه من العمل عاد إلى روما في ربيع ١٥٠٨ ، وهناك كلفه البابا تعديل مصورات السقف ذي الستة عشر حقلا بالفاتيكان ، وفيه انهمك عاملا أربع سنوات من ١٥٠٨ إلى ١٥١٢ .

وبعد موت يوليوس بدأ ميكلانجلو في تنفيذ مشروع الضريح من سنة ١٥١٣ إلى ١٥١٦ ، وما قارب الانتهاء حتى فاجأه ليو العاشر خليفة يوليوس بوقف العمل .

وانقضت الأيام وتعاقبت الشهور ، فاستأنف ميكلانجلو العمل في الضريح الشامل لبناء أرضي مربع الشكل ينتهي أحد أضلاعه إلى حائط مجاور ؛ كله من الرخام وله ستة نوافذ مستعارة كل منها أشبه بقبلة أقام فيها تمثالا لاحدى آلهات النصر (ش ٣) وجعل السقف محمولا على رؤوس الأسرى كما هو واضح بالنظر إلى الصورة . هذا عدا التماثيل الحاملة للتابوت ، والمحيطة به ، منها



ش ٣ - تمثال موسى

ستة جالسة وأربعة واقفة ، وعدا تمثال البابا نفسه راكعاً أعلى التابوت .

وللبناء الأرضى لهذا الضريح تمثالان لعبدين (محفوظان باللوفر) وفيهما تمثل ألم العبودية تمثيلا رائعا ، كما أن له تماثيل أخرى لمساجين وهي أيضا عظيمة .

ولا بد لنا من ذكر تمثاله « النبي موسى » وهو الجالس في الوسط (ش ٣) وهو تمثال معروف في العالم كله بعظمة إخراجه وقوة إنشائه ، ولذلك يعتبرونه حاجة إلى تدليل أعظم تمثال مفرد في مدرسة النحت الحديث . أنظر إليه تره جالساً وقد ارتسم على وجهه ألم التفكير في مصير بني إسرائيل ، وظهرت بوادر الغيظ على وجه النبي ، مما دفع به إلى وضع يده اليسرى على بطنه ، وأسند اليمنى على كتابه ، مداعبا شعر لحيته الطويل بأصابعه ، ألا ترى أن ميكلا بجلو بهذا النحو قد وفق إلى إخراج آية من آيات الفن الخالدة؟ وهل تظن أنه مهما أوتي فنان من سعة الخيال وقوة الإخراج ، يستطيع أن يعبر لك عن نبي طائفة من الناس دون وطن معين ، بأحسن مما أخرجه ميكلانجلو ؟ أمل الكيفية التي أخرج بها التمثال العظيم الذي يعد في نظر الدارس معجزة فنية لا يستطيع إنسان أن يأتي بمثلها ! ثم انظر إلى اللحية وإلى طول الشعر والبعثرة التي أصابته من مداعبته له بأصابع يمينه كما قلت .

هذا كله لا ينسينا التنويه بعظمة الإخراج الكلي للضريح ، الشامل لنقوش على غاية الدقة والانسجام المعاصر

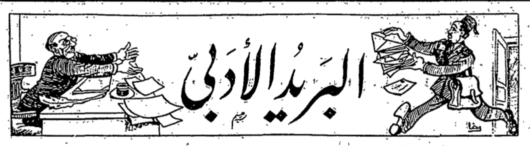
ترك روما إلى فلورنسا في صيف سنه ١٥١٧ للشروع في عمل الواجهة البنائية « لسان لورنسو » التي قرر أن يكون لها ثمانية أعمدة واثنا عشر تمثالا كلها من الرخام ، وستة تماثيل نحاسية ، وتسعة عشر منظراً نصف بارز ، وصادفته صعاب لا تقل عن سابقتها ، إلا أن نظرته إليها لم تكن بالحدة الأولى .

ظل مقيما في فلورنسا ، وهناك أتم في سنة ١٥٢١ إخراج التمثال الرخامي للمسيح ، والذي كان قد وضع منهج العمل فيه سنة ١٥١٤ ولعل هذا التمثال أعظم قطعة تمثل فيها النبل والترفع في الاخراج

وله أيضاً في هذه الفترة تمثال مشهور لأبولو ، تركه دون إكمال وهو لا يزال محفوظاً بفلورنسا .

أما ثاني إنتاج رائع في حياته ، فهو وضعه لتصميم بناء مقابر المديتشي وتنفيذه لما جاء فيها من فن الاعجاز ، وهو ما سنتناوله بالدرس في المقال القادم ؟

أحمد موسى



المجلس التنظيم وعيد القاهرة الألفي

يظهر أن الدعوة التي وجهت منذ حين على صفحات الرسالة إلى السلطات المختصة للعمل على إحياء عيد القاهرة الألفي بما يليق بهذه المناسبة التاريخية من الاهتمام والتكريم قد لقيت صدى ضعيفاً في بعض الدوائر ، فقد نشرت الصحف أخيراً أن مجلس تنظيم القاهرة قد رأى لمناسبة حلول العيد الألفي للقاهرة المعزية أن يطلق اسم القائد جوهر الصقلي منشىء العاصمة الفاطمية (القاهرة) على قسم من شارع السكة الجديدة ، وأن يطلق اسم الخليفة المعز لدين الله الذي أمر قائده جوهر بانشاء المدينة ، وإليه تنسب «القاهرة المعزية» على شارع المغربلين . ومجلس التنظيم يرى بذلك أن يكرم ذكرى الرجلين العظيمين اللذين يرجع إليهما قيام هذه العاصمة الألفية الجليلة . بيد أننا نلاحظ أن اختيار هذين الشارعين لاطلاق الاسمين عليهما ليس اختياراً موفقاً ، بل هو ينم عن التقتير والضن ؛ إذ بينما نرى أسماء تاريخية أقل أهمية ورنيناً وأقل جدارة واستحقاقاً تطلق على شوارع عظيمة من شوارع العاصمة ، نرى مجلس التنظيم يكتفي بهذين الشارعين تكريماً لمنشئي القاهرة . وإذا كان مجلس التنظيم يريد بهذا الاختيار أن يحافظ على المناسبات التاريخية ، فيحسن به أن يختار شارع الأزهر الجديد ليطلق عليه اسم القائد جوهر ، فجوهر هو أيضاً مؤسس الجامع الأزهر ، وفي وسعه أن يطلق اسم المعز على شارع الموسكي ثم امتداده من السكة الجديدة حتى الدراسة ، أو على الشارع الممتد من باب الفتوح حتى السكة الجديدة ، ثم امتداده حتى باب زويلة ، فهذان الشارعان هما في الواقع قطر المدينة الفاطمية القديمة . أما اذا لم يكن للخطط التاريخية دخل في هذا التكريم ، واذا كان التكريم مقصوداً لذاته فليطلق اسمي جوهر والمعز اذن على شارعين من أعظم شوارع القاهرة ، لا على شارعين من أحقر شوارعها

النيل في مصر لاميل لودفيج

ظهر أخيراً الجزء الثاني من كتاب النيل لاميل لودفيج وعنوانه «النيل في مصر» The Nile in Egypt ؛ أما الجزء الأول وعنوانه «النيل من المنبع الى مصر» فقد صدر منذ بضعة أشهر حسبما ذكرنا في هذا المكان من الرسالة ، وهو يتناول وصف النهر العظيم من منابعه حتى حدود مصر الجنوبية ، ووصف الحيوانات والجماعات التي تسكن هذه المناطق . أما الجزء الثاني فقد خصص للقسم الممتد داخل مصر ، وفيه وصف ضاف لهذا القسم ولمصر التي عاشت من مائه منذ القرون الغابرة حتى الوقت الحاضر . ومن رأى الكاتب ان النيل كانت له دائماً في هذا القسم العامر من مجراه مؤثراته العميقة على الشعوب التي سكنت واديه ، وكان لهذه الشعوب بلا ريب نفوذها وارادتها في تكييف مجرى النهر والانتفاع بمائه . ويتناول لودفيج وصف هذه المرحلة التي يبلغ طولها ستمائة ميل ، كما يتناول وصف مصر منذ الفراعنة ، وعصر المسيح والقديسين ، ثم مصر الاسلامية ، ومصر أيام عصر الانحلال التركي ؛ ثم يصف مغامرة نابوليون القصيرة ، وحفر قناة السويس وتدخل انكلترا ، ثم يتناول حركة مصر القومية في أسلوب حماسي مشبع بالعطف . ويتبع لودفيج في الكتابة والوصف أسلوباً جديداً لم يسبق لمن طرق نفس الموضوع أن اتبعه ، فالنيل ليس في نظره وحدة جغرافية فقط توصف من الناحية الطبيعية ، بل هو كائن حي له خواصه الانسانية

كما أن له خواصه الجغرافية والطبيعية ، ولهذا يعامله لودفيج كأنه شخصية تترجم كما يترجم الرجل العبقري . وفي مواقف كثيرة ترى لودفيج شاعرا يتبع الوصف الخيالي ؛ واذا كان يبدو محققا في بعض الحقائق والوقائع التاريخية ، فهو يبدو أحياناً سطحياً يكتب كما يكتب السائح الطارىء . ومن جهة أخرى فقد وجه النقد المر إلى الأسلوب الذى أخرج به الكتاب بالانجليزية (لأنه كتب أصلا بالألمانية) وقيل إن فيه كثيراً من النقص والتشويه

كتاب خطير عن روسيا السوفيتية

ظهر أخيراً كتاب خطير فى روسيا السوفيتية بقلم زعيم كبير من زعمائها القدماء هو ليون تروتسكى أحد مؤسسى روسيا البلشفية ؛ ويقدم الينا تروتسكى كتابه الجديد بعنوان « خيانة الثورة . ما هو الإتحاد السوفيتي وأين يسير » « Revolution Betraged etc » . ونحن نعرف أن تروتسكى لبث من سادة روسيا وزعمائها حتى سنة ١٩٢٧ ؛ وعندئذ بدأ الخلاف بينه وبين ستالين وعصبته ، وانتهى الأمر بتغلب ستالين ونفى تروتسكى وتمزيق عصبته . ومن ذلك الحين يعيش تروتسكى فى منفاه متتبعا أحوال روسيا وتطوراتها . ولكن تروتسكى يخلف وراءه عددا كبيرا من الزعماء القدماء الذين يناصرونه ويخاصمون النظام الجديد ، ولهؤلاء أنصار كثيرون فى روسيا . وينعى تروتسكى على ستالين سيد روسيا الحالى أنه خان قضية العمال ، وبدد تراث لينين ، واتبع سياسة رأسمالية ، وأنه أقام نظام ارهاب شامل . ويقول تروتسكى فى كتابه المذكور : « ان الثورة قد غدر بها القائمون بالأمر ، ولكن لم تسحق نهائياً » . هذا هو ملخص نظريته وهو يشرح بعد ذلك مساوىء النظام القائم ، ويدلل على أن ستالين يسير بوحى الدول الرأسمالية ، ويرغم روسيا على الخضوع لها ؛ ويشهر بسياسة الإرهاب القائمة ، وذيوع الجاسوسية الشنيعة ، وتدبير المؤامرات ضد الأبرياء من الزعماء المخالفين . ولا ريب أن تروتسكى هو اليوم أعظم حجة فى شؤون روسيا السوفيتية . ويقال إن لديه مستندات هامة تلقى الضياء على أعمال العصبة التى تسيطر اليوم على مصاير روسيا ؛ وسوف يثير كتابه اهتماماً جديداً بأحوال روسيا وشؤونها

ومما يؤثر عن تروتسكى أنه فضلا عن الدور العظيم الذى لعبه فى قيام الثورة البلشفية وسحق حكومة القياصرة ، يعتبر من أعظم كتاب روسيا المعاصرين ؛ وهو يكتب بعدة لغات بمقدرة مدهشة .

حديث جديد عن المسرح المصرى :

قرأنا فى بعض الصحف الفرنسية الواردة فى البريد الأخير حديثا جديداً لمسيو أميل فابر عن المسرح المصرى . ويذكر القارىء أن مسيو فابر ، وهو من أكبر الفنانين الفرنسيين ، وكان مدير المسرح الكوميدى فرانسيز ، قد انتدبته الحكومة المصرية فى الشتاء الماضى لدراسة المسرح المصرى ، واقتراح ما يجب اتخاذه لانهاضه وإصلاحه ، وأنه قام بهذه المهمة ، ولا يزال تقريره بين يدى ولاة الأمر فى وزارة المعارف . ويقول مسيو فابر فى حديثه الجديد إن المسرح المصرى يرجع إلى نحو أربعين سنة ، ولكنه يعيش منزوياً على هامش الحوادث ؛ بيد أن المسرح العربى جدير بأن ينهض وأن يتسع نطاق عمله ، فاللغة العربية هى لغة مصر وشمال افريقية ، فضلا عن البلاد العربية ، بل هى ذائعة فى أمريكا الجنوبية حيث يوجد ثمانون ألف سورى فى المهجر .

والمسرح المصرى ينقصه التأليف المسرحى وتعوزه الأبهاء والزخارف . وهنالك ممثلون للكوميديا ، ولا توجد لها ممثلات ، حتى أن أدوار النساء يقوم بها الرجال . ومن الأسف أن المسرح المصرى لا يملك الآن غير دار الأوبرا ؛ وهذه الدار تحتلها فى معظم الفصل فرق أجنبية مختلفة ؛ وفى وسع الحكومة أن تشترى مسرح الأزبكية ، فهو يصلح لتمثيل القطع الكوميدية . والمسرح المصرى فقير فى المناظر حتى أنه يصعب فيه تمثيل القطع المنوعة . أما عن التأليف المسرحى فلا يوجد بمصر ، وكل ما هنالك قطع مترجمة عن الانكليزية والفرنسية والألمانية . وليست هنالك قطع أصيلة مكتوبة بالعربية . وأخيراً توجد مشكلة اللغة ، فالحكومة ولجنة الفرقة القومية تريدان استعمال اللغة العربية الفصحى ، وهذه لا يفهمها كثير من رواد المسرح ،

زاد « المبرد » مرة أخرى للأستاذ ابراهيم مصطفى

لقى اسم المبرد من عناية الرسالة وعناية الأدباء الباحثين حظاً حسناً . وكان مثار الخلاف انى قلت « المبرّد » بالفتح في محاضرة ألقيتها بالجمعية الجغرافية فنقدنى أديب وتصدى له أديب وامتلأ الحوار بالحجة وبقيت أقرأ مستفيداً شاكراً . وحق على من بعد ، أن أذكر ما من أجله فتحت هذه الراء

لقد تلقيت هذا الاسم بالكسر عن الشيخين اللغويين الشنقيطى والمرصفى . وسمعنا من الشنقيطى شعراً أو نظماً فى ذم من فتحها ليس يخلو ذكره من تفكه وهو :

والكسر فى راء المبرد واجب وبغير هذا ينطق الجهلاء

وكان رحمه الله يلقى القول يفخمه ويمط البيت عند آخره . أما شيخنا المرصفى فلم يكن متشدداً فى الكسر تشدد الشنقيطى ، ولكن كان يفضله — ومن هنا غلب على لسان الأدباء كسر الراء وتلقيناه ولقيناه كذلك . ثم تبين لنا أن الصواب هو الفتح لما رأينا أن هذا الاسم إنما وضع نبزاً للعيب لا لقباً للمدح ؛ وكان من عادة ذاك الزمن أن يكون تكريم العلماء بالكنية ؛ ويكثر أن تغلب عليهم ألقاب تحمل نبزاً وعيباً ؛ وقد يلتوى ذلك غريباً ولكنه أمر واقع . فأبو العباس محمد بن يزيد « المبرد » شيخ النحاة بالبصرة ، وأبو العباس احمد بن يحيى « ثعلب » شيخ النحاة بالكوفة فى زمنه يعاصره وينافسه ؛ وثعلب والمبرد نبزان ، وكذلك أمام الأدباء فى ذات العصر أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ .

والجاحظ نبز بلا ريب . ومن ألقاب العلماء فى ذاك الزمن قطرب وعجرد والجعد والبغل والحامض والأخفش والأعمش والأعور والأعمى والأثرم والأشعث والفراء والزجاج والرؤاس (بائع الرؤوس) ولكل كنية لا يدعى إلا بها ولا يحب أن يتسمى بغيرها .

ولو كان فى هذه الأسماء مثار للخلاف واحتملت أبنازهم الفتح والكسر كالجحظ والخفش والمعور لرأيت من يدعى لها ويقربها من المدح بوجه ما « كالمبرد » وينسى أصل النبز وعادة العصر ولولا سعة صدر الجاحظ لقال أيضاً جحظ الله من جحظنى . و قال الأخفش خفش الله من خفشنى كما قال المبرد برد الله من بردنى . على أن السعى لتجميل ألقاب العلماء عاطفة جميلة ، ولكنها تباعد التاريخ وتخفى الحق ؛ فقد رأيت لم خالفنا ما روينا عن الشيخين . ولعمرى لو أنهما شهدا وهدى إليهما ما قدم فى الرسالة من النصوص لما رأيا إلا الفتح ، ولشكرا للأديب العالم الذى تسمى « أحد القراء » فطوى اسمه ونشر علمه . فما كان لهؤلاء العلماء من التشدد فى الحق إلا ريثما تنكشف لهم الحجة فى غيرما بأيديهم ؛ فهم أتباع الحق أبداً . ولقد ذكرت بهذا قصة للمرحوم الشيخ الشنقيطى كان يقرأ عليه الأستاذ الخضرى شعراً فيه كلمة « الخزامى » بالراء المهملة ، فقال الشنقيطى هى الخزامى بالزاء أصلحها ، فحدثنا الشيخ الخضرى أن نفسه تطلعت أن ينظر القاموس ليرى الكلمة وكان قريباً منه فنظره وإذا فى القاموس الخزامى والخرامى بالزاى وبالراء وكل منهما نبت بالصحراء ، فقرأ على الشيخ ما وجد . قال الشيخ : أعدها بالراء واستغفر الله . قال الخضرى : كنت أظن أن القاموس أدنى علم الشيخ من اللغة . فضحك الشنقيطى وقال : « دون هذا وينفق الحمار » . فتلك منزلة العلماء من الحق إذا تبين وما التوفيق إلا بالله ابراهيم مصطفى



بل ضرورية جداً

للسيدة كرم حسن فهمي

« الى استاذى الجليل عباس محمود العقاد »

عادت خضرة وقد أنهكها التعب من جمع القطن تحت أشعة الشمس المحرقة فى الحقل .

عادت خضرة إلى الدار ذات الحيطان السود والسقف المتداعى وجلست بجانب أخيها حسن على الحصير البالية وسألته :

... ألم تجد عملاً فى القاهرة ؟

... لم أجد

ألم تذهب إلى عمك ؟

... لا فائدة

تذكرت خضرة زيارات عمها الغنى للقرية وكيف كان يستقبله القرويون وما استدانه والدها الفقير مبالغة فى اكرامه

بل تذكرت كيف كان حديث عمها لايدور إلا عن نفسه وأملاكه ومركزه الرفيع فى الجيش وعن قصره وما يحويه من تحف وصور وتماثيل

وتذكرت خضرة أن عمها عرض على والدها قبل وفاته أن يستصحبها معه إلى القاهرة ورفض والدها إذ ذاك

فاليوم وقد مات أبوها وماتت زوج عمها الخيفة التى ورث عنها كل هذه الثروة فلِمَ لا تذهب ؟

***

... ألا تأخذنى معك ياحسن إلى قصر عمى

... إنك لم تذهبى إلى القاهرة قط

... أرجو ياحسن ! ربما كان لى من التأثير على عمى ما ليس لك فيهتم بشأنك

***

سافرا إلى القاهرة وأدهشت حركة المدينة الكبيرة الفتاة وبلعت أخيرا قصر عمها وتساءلت عن محتوياته فى دهشة والعم يشرح :

... هذا البساط النادر ثمنه مائة جنيه . خلعت الفتاة خفيها ووضعتهما تحت إبطها خشية تلويثه

العم : وهذه السجادة الفارسية الأثرية ثمنها ثلاثمائة جنيه .

فتحسستها الفتاة وقالت : لكنها قديمة ياعمى ، فقهقه صاحب القصر وأجابها : لهذا كانت ثمينة ، فانها أثرية منذ ألف سنة

... انظرى هذا التمثال النصفى البديع ! صنعه أكبر مثال فرنسى معاصر

... وهذه صورة زوجتى بريشة الرسام سوسانت كلفتنا مائة جنيه

قالت الفتاة : هل هى أثرية أيضا أى منذ ألف سنة ؟

فقهقه العم مرة أخرى لسذاجتها

***

وفى المساء نامت الفتاة تحلم بالقصر البديع الذى يقطنه عمها وحيداً لا يشاركه فيه إلا خادمه العجوز والاهنه التحف والتماثيل . ونام أخوها حسن وهو يدبر أمراً

فى مساء اليوم التالى عاد حسن إلى القصر بعد أن جال فى شوارع العاصمة وقال لعمه :

عثرت اليوم ياعمى على صورة فنية بديعة للرسام الشهير ج . س

قال العم : يالشوق لصورة من ريشته !

حسن : رفض الايطالى العنيد أن يبيعها

العم : أغره بالمال ، هذه ألف جنيه ؛ وإذا طلب أكثر فأنا مستعد

***

وعاد حسن فى صباح اليوم الثالث يحمل إطارا كبيراً أسدل عليه ستار من الحرير الأزرق حجب الصورة ، ووضع الاطار بصورته الغامضة في صدر قاعة الاستقبال الكبرى بقصر عمه

وفى المساء حضر صاحب القصر ومعه رهط من الغواة والفنانين والمعجبين بالفنون

ووقف حسن بجانب الاطار ورفع عن الصورة الستار وتكلم :

أيها السادة . ترون الآن صورة « فاتنين البائسة » صورها هوجو بقلمه كلاماً ، وعربها حافظ بلاغة ، ورسمها ج . س الرسام الإيطالى الشهير صورة ناطقة

كم أتقن الفنان تصويرها وتصوير البؤس فيها ! ألا تعد آية من آيات الفن ؟ كم تقدرون ثمناً لها ؟

البعض : ألف جنيه

بعضهم : وأكثر

واستطرد حسن يقول : يجب أن نقدر الفن فالفن ضرورى للحياة « بل ضرورى جداً » .

فمن الواجب أن نقلع عن تقويم مطالبنا بمقدار الحاجة إليها ، فان ذلك التقويم غير صحيح ، فنحن نستطيع أن نفقأ أعيننا بأصابعنا أو نقطع ألسنتنا ونعيش بغير ملكة النظر والكلام سبعين سنة ولا نستطيع أن نعيش بغير الخير ...

وندع تقويم الفكر إلى تقويم السوق ، فالحلية أقوم من الآنية الضرورية ، ولأن نشيد قصراً بديعاً ينحت فيه عشرة مثالين فينتجون تماثيل للزينة خير ألف مرة من بناء مصنع أو سفينة يعمل فيهما الآلاف فينتجون ....

« والتمثال أغلى من الكساء ، وكأس الويسكى أغلى من طن الماء ، والطباق أغلى من الهواء .

« وأقصى ما نبلغه فى تحصيل الخبز أن نتساوى وسائر الأحياء ، ونحن إذا حصلنا الفنون الجميلة فما نحن بأناسى فحسب بل أناسى ممتازون نعيش فى أمة ممتازة ، نعيش فى أكواخ من اللبن والطين

« فان كنا نبغى أن نعيش كما تعيش الأحياء فحسبنا الضروريات المزعومة ، حتى تأتى الكماليات فتلاشيها ، وحتى يأتى غيرنا ، فينزع هذه وتلك .

« ومن الواجب ثالثا أن نذكر ما هو العلم الذى يفوقنا به الغربيون ، فليس هو التجارب العويصة فى مصانع السيارات ، ولا الاختبارات والمخاطرات الشاقة فى عالم الطيارات والسفن والدبابات ، كلا ، لا يفوقنا الغربيون بهذا فان الشرق ليحذق صناعة الطيارة ... اذا ... (فتأملوا من فضلكم اذا) .

أيها السادة ! فى علم حسابنا أن القصيدة الغرامية تساوى طيارة ، وفى نحونا أن التمثال يعنى سفينة أو سيارة ، وقال أمين الريحانى : يامن يبيعنى فلسفة بطيارات فلم يعبأ به أحد .

« ولقد يخطىء بعض المصلحين فى تقويم الفنون فيستكثرون ما أنفقت عليها الدول والملوك والسروات ، وأخطأ اللورد بافرلوك لما قال : إن المقتصدين أسياد العالم ، وروكفلر يجنون إذ رفض رسم صورته نظير ثلثمائة جنيه بريشة أكبر رسام أمريكى .

أيها السادة ! قدرتم ألف جنيه لصورة « فاتنين البائسة » فكم تقدرون لها الآن اذا عرفتم أنها بائسة حقيقية من اللحم والدم ؟ (تتحرك الصورة وتخرج من الأطار لأنها امرأة حقيقية)

كم تقدرون لها الآن ؟

أصوات — لاشىء .

أيها الساده ... هكذا نقوم الحقيقة ، وهكذا نقوم الخيال ، وهكذا نبيع نصف عقولنا ونخسر نصف أعمارنا ، وننفق نصف أموالنا لنظهر بمظهر الامتياز واللباقة والتهذيب

أيها السادة ... تلك أمم بلغت شأوها ونالت الضروريات ثم التفتت إلى الكماليات ، ونحن أمة لا تزال فى أشد الحاجة الى الضروريات ، والضروريات القصوى أولا

كرم حسين فهمى

حرم ناظر محطة م . ا

***

Lundi - 14 - 6 - 1937

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
أحمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠، ٥٣٤٥٥



5 me Année, No. 206

بدل الاشتراك عن سنة

ص	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العـــدد ٢٠٦ « القاهرة فى يوم الاثنين ٥ ربيع الثانى سنة ١٣٥٦ — ١٤ يونية سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

أدب السندوتش

لعلك تقول لنفسك سائلاً أو هازلاً ما علاقة الأدب بالسندوتش ؟ ولو كنت أريد الأدب الذى تعارفه أولو الجد من الناس لأعيا نفسك وأعيانى أن ندلك على هذه العلاقة .

ولكننى أريد الأدب الذى تتأدبه ناشئة اليوم ؛ والسندوتش أو الشطيرتان بينهما الكامخ كما يريدون أن نقول ، لقيمات تشتريها وأنت واقف فى المطعم ، وتأكلها وأنت ماش فى الطريق ، وتهضمها وأنت قاعد فى المكتب ، فلا تجد لها بين ذهول العجلة وتفكير العمل هناءة فى ذوقك ولا مراءة فى جوفك . وهذا الضرب من الطعام القائم على القطف والخطف جنى على الأسرة فحرمها لذة المؤاكلة ومتعة المنادمة وأنس العشرة ؛ وجنى على المائدة فسلبها فنها الطاهى وذوقها المنظم وجلستها البهيجة ؛ وجنى على الصحة فأضعف الشهوة وأفسد الهضم ونقص العافية . والثقافة الأدبية اليوم لا تختلف فى سرعتها وتفاهتها وفسادها عن هذا النوع الجديد من الأكل ، فهى نتفات من الكتب ، ولقفات من الصحف ، وخطفات من الأحاديث ، ومطالعات فى القهوة أو فى الترام أو فى السرير يلقط الكلم فيها النظر الخاطف ، كما يلقط الحب الطائر الفزع ، ثم نتاج مختصَر معتسَر كجنين الحامل أسقطته قبل التمام ،

وصراخ مزعج في أذني هذا السقط ليبتهل وهو مضغة من اللحم المسيخ لا تشعر ولا تنبض ، وأصبح مآل غرفة المكتب في البيت كمآل غرفة الطعام وقاعة الجلوس فيه ، بنى عليها سندوتش الصحيفة كما بغى على هاتين سندوتش البار والقهوة

يقول أنصار السندوتش في الحياة : ان المائدة لا تتفق مع الزمن الدافق والعمل المتصل والتطور المستمر والحركة السريعة ؛ فان في طول الجلوس اليها ، وقواعد الأكل عليها ، وتعدد الألوان فيها ، واحتفال الأسرة لها ، إضاعة للمال والوقت ، وقتلا للنشاط والحركة ، وجلباً للسقام والمرض .

ويقول أنصار السندوتش في الأدب : ان قواعد اللغة قيود لا توافق حرية العصر ، وأساليب البلاغة عوائق لا تجاري قراءة السرعة ، وبدائع الفن شواغل لا تساعد وفرة الانتاج . والحق الصريح أن آكلي السندوتش أعجلتهم محاقر العمل ومشاغل الرزق عن النعيم الآمن ، والجمام الخصب ، والبيت المطمئن ، فجعلوا صعلكة المطاعم نظاماً وفلسفة ؛ وأن قارئي السندوتش صرفتهم وعوثة الطريق وتكاليف الغاية عن اكتساب الملكة ، وتحصيل الأداة ، وتوفير المعرفة ، فقنعوا بهذا الفتات المتخلف ثم تجشأوا من غير شبع ، وتشدقوا من غير علم ، وطلبوا محو القيود والحدود والمقاييس ليصبح الأدب كوناً عاماً والفن حمى مباحاً ، فيسمو راوي الأقاويل قصصياً ، ووزان التفاعيل شاعراً ، ونهاش الأعراض ناقداً ، وسلاب القرائح نابغة ؛ ولكن الطبيعة التي تحفظ سر الكمال ، وتحمي ندرة النبوغ ، وتبغي بقاء الأصلح ، تأبى إلا أن يظل قراء السندوتش وآكلو السندوتش فقراء ذوي عمل ، أو أغنياء ذوي لهو ، لا تهيئهم الحياة المضطربة إلى زعامة في أمر ولا إلى نبوغ في فكرة

***

أثار هذا الموضوع في ذهني طائفة من الرسائل النقدية تلقيتها من أقطار العربية تستنكر بعض ما تظهر المطابع المصرية من لغو الكهول وعبث الشباب ، وتشدد النكير على بعض الاحاديث الأدبية التي تبثها الاذاعة اللاسلكية ، ويعجب فاضل من بغداد وأديب من حلب كيف تمتهن مصر كرامتها فترفع صوتها الأدبي في العالم من فم شاعر له ديوان مطبوع وذكر مرفوع ثم لا يدري شيئاً في قواعد اللغة ولا ضوابط العروض ، فكان يقرأ النثر ولا يقيم لسانه ، وينشد الشعر ولا يضبط ميزانه ، حتى قالوا والعهدة عليهم إنه أنشد قصيدة ابن سعيد المغربي ، وهي من بحر السريع على روي الكاف الساكنة ، ففتح الكاف وجعل صدور الأبيات من بحر وأعجازها من بحر آخر !

الواقع الأليم أن الذين درسوا لغتهم وفقهوها من الأدباء النابهين نفر قليل ، فاذا استثنيت هؤلاء الستة أو السبعة وهم من الكهول الراحلين ، وجدت طبقة الأدباء كطبقات الصناع والزراع والتجار يأخذون الأمور بالتقليد والمحاكاة لا بالدرس والمعاناة ؛ وكما تجد في هؤلاء من ينشيء المتجر ثم يكله إلى أجنبي ينظمه ويرتبه ، تجد في أولئك من يؤلف الكتاب ثم يدفعه إلى نحوي يعربه ويهذبه . ولا تجد في تاريخ العربية قبل هذا العصر ، ولا في تاريخ اللغات في جميع العصور ، من يحسب نفسه أديباً في لغة وهو لا يعرف منها إلا ما يعرفه العامي الألثغ . والغرور المتبجح والادعاء السفيه لا يستطيعان أن يحملا الناس على أن يقرأوا السخف ، ولا الزمن على أن يبقي على الضعيف .

إن رسالة الأدباء كرسالة الانبياء فيها عبقرية وجلالة وسمو . فاذا لم يكن الكاتب أو الشاعر خليقا أن يسيطر على العقول والميول بمكانه في العلم وسلطانه في الأدب ورجحانه في الرأي كان أشبه بمن يدعي النبوة في مكة ، أو بمن يمارس الشعوذة في لندن !

إن المدارس المصرية تعلم اللغة على منهاج غير واضح ، والجامعة المصرية تبني الأدب على أساس غير صالح ، والجامعة الأزهرية لا تزال تنفض البلى عن كتب ملتاثة التعبير من مخلفات العجمة ، إن صلحت لشيء فلن تصلح لتعليم البلاغة . فليت شعري اذا خلت أمكنة هؤلاء النفر الذين نبغوا بالاستعداد والاجتهاد كيف تكون حال الأدب الرفيع في مصر ؟ أيذهبون ويُبطئان ما يعوضون على رأي الأستاذ احمد أمين ، أم يذهبون وسرعان ما يُخلفون على رأي الأستاذ العقاد ؟

احمد حسن الزيات

ندرة البطـــولة

للأستاذ أحمد أمين

كتب الكاتب القدير الأستاذ عباس محمود العقاد مقالا رد فيه على مقالى فى « ندرة البطولة » ؛ وأنا سعيد حقاً بهذا الرد الممتع ، فقد أبان فيه جانباً من جوانب الموضوع ، وأوضحه أيما إيضاح ، ودعمه بالحجج والبراهين القوية

وحبذا لو اتخذ هذا المقال مثلا للناقدين ، فيناقشون ما يعرض من الأفكار فى هدوء وجد وتفكير عميق وأسلوب مهذب ، ولا يكون لهم غرض إلا الوصول إلى الحق وتجليته

ثم نعود بعد إلى موضوعنا ، فيخيل إلى أن ليس بينى وبين الأستاذ العقاد خلاف إلا فى مسألة واحدة متى حددت ظهر وجه الصواب وانكشف جانب الحق

تلك هى تحديد ما نريد بالنابغة أو البطل ، وما نريد بالمقارنة بين العصر الماضى والعصر الحاضر .

مقياس النابغة فى نظرى أن يفوق أهل زمانه ويسبقهم فى فنه أو علمه أو أدبه حتى لا يدركوه إلا بعد أزمان ؛ وعلى مقدار هذا السبق يكون النبوغ . فسيبويه نابغة فى النحو لأنه رأى من قواعده ما عجز أهل زمانه عن النظر إليه ، وفاقهم فى ذلك بمراحل ؛ وإسحق الموصلى نابغة لأنه ابتدع من الفن مالم يعرفه فنانو عصره ، وكان فى ذلك هو السباق وهم المقلدون . وقل مثل ذلك فى الجاحظ وابن الرومى وشكسبير وجوته . فأما إن هو عرف ما يعرفه أهل زمانه ، أو أتى من الفن بما يأتيه أهل زمانه ، فلسنا نسميه نابغة وإنما نسميه عالماً أو فناناً

هذه مسألة ، والمسألة الأخرى أننا إذا أردنا أن نقارن عصراً بعصر فى كثرة النبوغ وندرته ، فلا نقارن معلومات عصر بمعلومات عصر ، ولا فن عصر بفن عصر ، إنما نقارن مسافة البعد بين النابغين فى عصر وبين عامة المتعلمين فيه ؛ ونفعل مثل ذلك فى العصر الذى نريد أن نقارنه به . فاذا أردنا المقارنة بين العصر العباسى الأول - مثلا - وبين عصرنا الحاضر فى الأدب ، وازنا بين ابن المقفع والجاحظ وبشار وأبى نواس ، وبين الكتاب العاديين والشعراء العاديين فى ذلك العصر ، وقسنا مسافة البعد بينهم ؛ ثم فعلنا مثل ذلك فى عصرنا الحاضر ، فان كانت مسافة البعد بين البارزين والعاديين فى العصر العباسى أطول منها بين البارزين والعاديين فى عصرنا حكمنا بأن البارزين فى العصر العباسى أنبغ

هذا فى رأيى أعدل فى الحكم ، وأقرب إلى الصواب ؛ وإلا لم يعد أى نابغة من نوابغ العصر الماضى نابغة ؛ فتلميذ المدارس الثانوية اليوم يعرف من قواعد النحو مالم يكن يعرفه سيبويه ، ويعرف من الطبيعة مالم يكن يعرفه « نيوتن » ، وتلميذ الهندسة اليوم يعرف من نظريات الهندسة مالم يكن يعرفه إقليدس ، ويعرف من الهندسة التحليلية مالم يكن يعرفه ديكارت ؛ وقد يكون من كتابنا اليوم من يجيد الكتابة خيرا من ابن المقفع والجاحظ ، ولكن قيمة سيبويه ونيوتن وإقليدس وديكارت وابن المقفع والجاحظ ليست فى مقارنتهم بأمثالهم فى عصرنا ، ولكن بمجموعة المتعلمين فى عصرهم ، ثم بموازنة ذلك فى عصرنا على هذا النمط وهذا المنهج . فنقطة المقارنة هى مسافة البعد ، لا مجموعة المعارف ولا المقدرة الفنية أو السياسية أو الحربية . هذه هى نظريتى ، فأنا أدعى أن العصر الحاضر تندر فيه البطولة ويقل فيه النبوغ بهذا المعنى

فلا يسألنى الأستاذ بعد ذلك « ما كتاب الجاحظ الذى يعجز أبناء عصرنا عن الاتيان بمثله ؟ »

ولا يقل : « إن الموصلى وابراهيم بن المهدى لا يبلغان شأو سلامة حجازي والسيد درويش وأم كلثوم »

ولا يذكر أن فوش وهندنبرج ومصطفى كمال أتوا من الوقائع ما يفوق ما أتى به يوليوس قيصر واسكندر المقدونى وجنكيزخان ... الخ

فكل الذى ذكره الأستاذ حق ، ولكنه لا ينقض ما ادعيت . قد كان ينقضه لو أننى ادعيت أن النبوغ هو إتيان الآخر بخير مما أتى به الأول ؛ ولو ادعيت ذلك لكانت دعوى ظاهرة البطلان ، ولكان ابنى فى المدارس الثانوية خيراً من رياضيى القرون الوسطى ، فهو يعرف مالم يعرفوا ، وأنبغ من كل علماء البلاغة فى العصر العباسى الأول لأنه يعرف من مصطلحات

البلاغة مالم يعرفوا ؛ وهكذا في كل علم وكل فن

أخشى أن أكون في مقالي السابق لم أوضح القصد ، ولم أجل الغرض ؛ أما الآن فأظن أن الأستاذ يوافقني بعد هذا التحديد على نظريتي ؛ فعندنا كتاب قديرون يفوقون الجاحظ في كتابتهم وفي تأليفهم ، ولكنهم مع ذلك لم ينبغوا نبوغ الجاحظ ، فقد كان بصيراً بين عميان ، وصاحيا بين سكارى ، وفي القمة ومن حوله في القاع ؛ ولكن كتابنا إن فاق منهم عدد قليل فحولهم كثير مقاربون ؛ وإن نبغ في عصرنا قانوني فليس هو في السماء ومن عداه في الأرض كما كان الشأن في القرون الماضية ، ولكنك ترى قانونيين مثله أو قريبين منه ومسافة البعد ليست واسعة

والعالم الآن متخم بالعلماء المتبحرين ، والساسة الماهرين ، والفنانين المبدعين ، والحربيين القادرين ، والصناع الحاذقين ، ولكن من العسير جداً أن تعد منهم نوابغ لأن كل طائفة منهم تكاد تكون كأسنان المشط في الاستواء ، وإن فاق واحد منها فتفوق قليل

ظهر نابليون فاستعبد الناس ، وأجرى الدماء أنهاراً ، وقلب الممالك رأساً على عقب ، ودوخ الدنيا ، فكان نابغة حقاً في ناحية ؛ وبيننا الآن في عصرنا من هم أعلم منه بفنون الحرب ومن هم أقوى منه إرادة ، وأبعد نظرا ، ولكن من الصعب أن نسميهم نوابغ ، لأن الناس ليسوا مغفلين كما كانوا أيام نابليون ، ولأنه وحده كان هو القاهر المريد ومن حوله كانوا هم المنفذين المأمورين ، فظهر ولم يظهروا ، ونبغ ولم ينبغ بجانبه إلا القليل

لقد أتى عصرنا بالعجائب — كما يقول الاستاذ — وأتى بالحقائق التي تشبه الخيال ، وبالعبر التي تشبه نوادر الأمثال ، ولكن كل ذلك — مع الأسف — لا يسمى نبوغا بالمعنى الذي نقصده ، لأنها قد كثرت حتى صارت مألوفة معتادة . هل إذا كثر الصناع الماهرون في بلدة سميتهم كلهم نوابغ ؟ أم هل إذا كثر القانونيون البارعون في فرنسا سميتهم كلهم نوابغ ؟ أو هل إذا كثر الفلاسفة المتعمقون في ألمانيا كانوا كلهم نوابغ ؟ كلا ليس هذا هو مصطلحنا في الحياة ، فالبلدة التي يكثر فيها الجمال يكون الجمال فيها عاديا مألوفا ، والحقل الذي تطول أكثر أشجاره وتنمو نمواً جيداً لا يمكننا أن نسبغ صفة التفوق عليها جميعاً وهكذا

فكثرة العلماء والفنانين في عصرنا الحاضر حجة لي لا علي ، وهي السبب في أننا لا نعدم نابغين ولا أبطالا . ولو كان واحد منهم في الزمن القديم ، وكان وحده هو البارز وهو السائد لكان وحده هو النابغ . فلو كانت المسألة مسألة تقدم عصرنا وتفوقه على الأعصر الماضية في سياسة جميع العلوم والفنون لوافقتك على ذلك كل الموافقة ، ولكن المسألة هي مسألة النبوغ في العصر . فلو قارنت مزرعة بمزرعة وكانت كل أشجار إحدى المزرعتين ضعيفة وكل أشجار الأخرى قوية نامية لقلت بلا تحرج وبالبداهة إن المزرعة الثانية خير من الأولى ، وإنها تفوقها بمراحل ؛ ولكن لو سئلت هل في المزرعة الثانية شجرة متفوقة على أقرانها لقلت بالبداهة أيضا « لا » بملء في .

فعصرنا كذلك غني بكل مرافق الحياة ، غني بالرجال في كل علم وفن ، ولكن هذا الغنى سلبه النبوغ أيضاً ، فكان عجيباً أن نرى الغنى علة الفقر ، والتخمة سبب الجوع .

لقد انقسم كل مجتمع إلى طوائف ، وكان من نتائج المدنية الحديثة زيادة التخصص ، فكما تخصص الصناع في جزء خاص من الصناعة تخصص علماء كل علم لفرع منه ، فصار من المضحك أن يكون الرجل قانونيا في كل فروع القانون ، أو طبيباً في كل فروع الطب ، أو أديباً في كل فنون الادب ، ونشأ عن هذا التخصص توفر العدد الكثير على كل فرع من فروع العلم والفن وإتقانهم له ؛ فحيثما تلفت وجدت العدد الذي لا يحصى في الأمم المتمدنة في كل نوع وكل فرع وكل صناعة . ونتج من ذلك أن ما كان يسمى نبوغاً في العصور الماضية أصبح اليوم شيئاً عادياً مألوفاً ، فعز النبوغ وندرت البطولة . ولم نعد نرى أمثال الجاحظ الذي يؤلف في الأدب والاجتماع والجغرافيا والتاريخ والمذاهب الدينية والطب والنفس والحيوان والاقتصاد ؛ وصار الاقتصار على مادة واحدة بل فرع من مادة بل جزء من فرع هو المنهج العلمي الصحيح ، وهذا أغنى العلم وسهل للعدد الوفير أن يصل إلى شأو بعيد وفي الوقت نفسه كان سبباً لقلة النبوغ ، فالنبوغ يكثر حيث يعز الشبيه

هذا من ناحية العلماء أنفسهم وكثرتهم . وهناك ناحية أخرى وهي ناحية الناس الذين يحكمون بالنبوغ ، فلا بد للنبوغ من نابغ وحاكم بالنبوغ ، كما لا بد للجميل من ناظر ومنظور .

فهؤلاء الناس أصبحوا - على العموم - مثقفين ثقافة عامة خيراً مما كانوا عليه في العصور الماضية . اتسعت معارفهم ودقت أنظارهم ، وكان لهم أيضاً شبه تخصص ، فمنهم من يميل الى الأدب ، ومنهم من يميل إلى العلم ، ومنهم من يميل إلى الفن ، وأصبح الفرق بينهم وبين العلماء المتخصصين أقل بكثير من الفرق الذى كان بين العامة والعلماء في العصور الماضية ؛ وكذلك شأنهم في السياسة ، بل شأنهم في السياسة خير من شأنهم في العلم ، كل يعرف حقوقه وواجباته السياسية ، ويستطيع أن يزن قادته وزناً صحيحاً إلى حد ما .

كل هذا أنتج نتيجتين بعيدتي الأثر ، أولاهما أنهم أصبحوا يتطلبون من النابغة ما يشبه المستحيل حتى يعد في نظرهم نابغة ، وقد كان ذلك فيما مضى سهلا يسيرا ، فمن عاش في الظلماء يبهره نور القنديل ، ومن عاش في ضوء الكهرباء لا يبهره ضوء الشمس ؛ والثانية أن الناس أصبحوا متسائلين مدققين باحثين لا يستطيع السياسي القدير أن يتلاعب بهم وأن يجعلهم آلة صماء كما كانوا من قبل . من أجل هذا لا نرى كبار الساسة اليوم يستطيعون أن يخضعوا الناس لأمرهم كما فعل نابليون ويوليوس قيصر وجنكيز خان وأمثالهم ، وعدم الخضوع وكثرة البحث والسؤال والتدقيق يقلل من مجد الساسة ، ولا يرفعهم إلى درجة الآلهة وأنصاف الآلهة كما كان الشأن في سالف الزمان ؛ ومثل هذا يقال في كل علم وكل فن

فعصرنا الحاضر وطابعه طابع المألوف والمعتاد لا طابع النابغة والبطل ، وإن كان مألوفنا ومعتادنا أرقى من نابغة القرون الماضية وبطل القرون الماضية

إن كان هذا - يا أخي - هو الذى أردتَ ، فأظن أنه لا يرد على بمزايا العصر الحاضر ، وعلم العصر الحاضر ، وفن العصر الحاضر ؛ وإذا كان النبوغ في السبق وكانت المقارنة بين عصرين بقياس مسافتي البعد ، فأرجو أن نكون على وفاق فيما ذكرتَ وذكرتُ ، وسلامي عليك ورحمة الله

أحمد أمين

آلعلم للعلم ، أم العلم للوطن

بوسيلة دراسة التاريخ ؟

للأستاذ أبي خلدون ساطع الحصري

— ١ —

رغب إلى بعض الشباب أن أدلي برأيي في موضوع « هل العلم للعلم أم العلم للوطن — بوسيلة دراسة التاريخ » وهو الذى استغلت المفكرين فيه الرابطة العربية ، فكتبت هذا المقال متوخياً فيه بيان الرأي على وجه عام ، غير متصد لمناقشة رأي خاص . وقد رأيت نشره بالرسالة الغراء ليتسع مدى المناقشة في هذه المسألة بتنوع المجال .

أبو خلدون

أنا لا أعترض على من يقول إن « العلم للعلم » ؛ واسلم بان « الابحاث العلمية » يجب ان تكون غايتها « معرفة الحقيقة » ؛ معرفة مجردة عن كل الاعتبارات النفعية .

غير أنني أقول في الوقت نفسه إن العلم شيء والتعليم شيء آخر ، فما يصح في « العلم » قد لا يصح في « التعليم » .

فعند ما نقول « العلم للعلم » ، لا يتحتم علينا - منطقياً - ان نقول في الوقت نفسه « التعليم للتعليم » . وعندما نسلم بأن « العلم لذاته لا لشيء غيره » لا يلزمنا التسليم في الوقت نفسه بان « التعليم أيضا لذاته ، لا لشيء غيره » .

فان مبدأ « العلم للعلم » لا يمنعنا من القول بان « التعليم ليس من الأمور المقصودة بالذات ، بل هو من الوسائل التي تستخدم للوصول الى بعض الغايات » .

ان هذه الغايات لا تكون « مادية ونفعية » في كل الاحيان ، بل تكون « معنوية وتربوية » في معظم الاحوال : فقد يقصد من التعليم « إعطاء بعض المعلومات المفيدة للحياة » في بعض الأحوال ؛ غير أنه يقصد منه - في كثير من الاحيان - « الحصول على بعض الفوائد المعنوية والتأثيرات التربوية » ، كالتعويد على البحث والملاحظة ، والترغيب في الدرس والمطالعة ، أو تنمية الميول الفنية واستثارة العواطف النفسية . . . وأما التعليم الذى يتجرد عن مثل هذه الاهداف والغايات ، فانه يكون مخالفاً لأبسط مبادئ التربية الصحيحة مخالفة كلية .

ويمكننا أن نقول : «ان قيمة التعليم تقاس بقيمة الغايات التي تقصد به من جهة ، وبجودة الطرق التي تتبع في خلاله من جهة أخرى » ولا نغالي إذا قلنا : ان « الغايات » في هذا الشأن تكون أهم من « الطرق » بوجه عام ؛ لأن « الطريقة تتبع الغاية وتخضع لمقتضياتها » بطبيعة الحال .

هذا ، ومما يجب ملاحظته في هذا الباب أن تعليم أي علم من العلوم لا يمكن أن يشمل ويستوعب جميع الحقائق المكتشفة والمقررة في ذلك العلم ، حتى في الدراسات العالية . فكل تعليم يضطر - بطبيعة الحال - الى انتخاب بعض الحقائق والاهتمام بها أكثر من غيرها . فنستطيع ان نقول لذلك : ان التعليم يتضمن شيئا من الانتخاب ؛ فجودة التعليم تتوقف على حسن الانتخاب ؛ ولا جدال في أن حسن الانتخاب لا يتيسر الا بموازنة الفوائد التي يمكن الحصول عليها من تعليم كل بحث من الابحاث ، من جميع الوجوه العلمية والتربوية . ولا شك في أن هذه الموازنة توسع مجال عمل « الغايات في التعليم » توسيعا كبيرا .

وأما نوع التربية الذي يستهدف والتأثير الذي يتوخى من تعليم كل علم من العلوم ، فيختلف باختلاف العلوم من جهة ، وباختلاف درجات التعليم من جهة أخرى . فالفوائد العملية والأهداف التربوية التي تستهدف في تعليم الرياضيات مثلا تختلف عما يتوخى من تعليم الطبيعيات والاجتماعيات . كما أن الغايات التي تقصد في تعليم هذه العلوم في المدارس الابتدائية ، تختلف عما يقصد منها في تعليمها في المدارس الثانوية والعالية .

ونستطيع أن نقول بوجه عام : ان دور الغايات التربوية في التعليم يتضاءل كلما ارتفعت درجة التعليم ؛ ومع هذا فأن التعليم العالي نفسه لا يتجرد عن الغايات التربوية تماما ، فان هذا التعليم أيضا لا يكتفي بسرد الحقائق وحدها ، بل يستهدف في الوقت نفسه تعويد الطلاب على « التعلم من تلقاء أنفسهم » بمراجعة المصادر وجمع الوثائق وملاحظة الوقائع واستقراء الحوادث . . . حسب ما تقتضيه طرائق البحث العلمي والدرس الذاتي . .

وأما التعليم العالي الذي لا يقوم بهذه المهمة خير قيام ، فانه يكون مقصرا في واجباته الاساسية ، مهما توسع في سرد الحقائق وتوغل في شرح الابحاث ؛ .

فلا نغالي إذا قلنا : ان التعليم لا يصبح مقصودا بالذات ، الا في الدراسات العالية الاختصاصية وحدها .

— ٢ —

ان ما قررناه آنفا في شأن « العلم والتعليم » ينطبق على أمر « التاريخ وتعليم التاريخ » بطبيعة الحال .

ففي شأن التاريخ أيضاً نستطيع أن نقول : إن الابحاث العلمية التي تتوخى معرفة الحقائق التاريخية شيء ، والشؤون التعليمية التي تتوخى نشر تلك الحقائق شيء آخر . ومهما بالغنا في القول بأن « التاريخ » يجب أن يكون الغرض منه معرفة الحقائق معرفة مجردة عن كل غاية ، لا نستطيع أن نقول ذلك في « تعليم التاريخ » بحال . بل لا بد لنا من التسليم بان هذا التعليم يجب أن يوجه نحو غايات تربوية واضحة . . على أي حال .

ويجب أن نلاحظ زيادة على ذلك ، أن الغايات التربوية التي يرمى اليها من « تعليم التاريخ » كبيرة وخطيرة جدا ، لأن المعلومات التاريخية تمتاز عن سائر المعلومات بالتأثيرات العميقة التي تحدثها في الشعور القومي والحس الوطني ، وبالادوار العامة التي تلعبها في تكوين القومية الوطنية .

فان شعور الأفراد نحو أمتهم ووطنهم لا يتأثر بمعرفتهم أو عدم معرفتهم للحقائق الطبيعية مثلا ؛ غير أن شعورهم هذا يتأثر تأثراً شديدا من علمهم أو عدم علمهم بالوقائع التاريخية التي تعاقبت على الوطن والأمة في سالف الأزمان .

ويمكننا أن نقول : ان الشعور القومي يستند على « الذكريات التاريخية » أكثر من كل شيء آخر . ونستطيع أن نؤكد أن « الأفكار والمعلومات المتعلقة بالتاريخ » تلعب دورا هاما في حياة الامم ، وتؤثر تأثيراً كبيرا في سير حوادثها .

ولهذا السبب نجد أن الأمم المتمدينة بأجمعها تهتم بالتاريخ اهتماماً عظيما . فهي لا تكتفي بالتذكير بالماضي بواسطة الدروس والمؤلفات بل تبذل أنواع الجهود لاقامة التماثيل والانصاب ، بقصد « تجسيد وتخليد الذكريات » ؛ كما تنتهز جميع الفرص لاقامة الاحتفالات ، لاحياء ذكر بعض الوقائع التاريخية ، بقصد استثارة انتباه الشعب وإيقاد نار الذكريات القومية في قلوب الناس .

كما نشاهد أن الدول المستعمرة ، عند ما تستولى على أمة من الامم ، تحاول أن تدعم استيلاءها العسكري باستيلاء معنوى ، وتعتبر السيطرة على « المعلومات التاريخية » من أهم وسائل هذا الاستيلاء . ولذلك ، حالما تنتهى من الاعمال التي تمحو بها الحكومة المحلية وقواها المختلفة ، تأخذ في تصويب سهامها نحو

«التاريخ القومى» ، وتبذل كل ما لديها من الوسائل لاخفات صوت ذلك التاريخ ، وتستعمل كل ما لديها من الحيل لابعاد ذا كرة الأمة عن تاريخها الخاص .

كما نجد أن الشعور القومى عند الأمم المحكومة يأخذ فى الخمود والتضاؤل عند ما يسحب النسيان ذيله على «التاريخ القومى» ولا سيما عند ما تنصرف الأمة عن تاريخها الخاص إلى «التاريخ» الذى تلفقه وتعرضه عليها السلطة الحاكمة . . حسبما تقتضيه سياسة السيطرة والاستعمار .

وأما عودة الشعور القومى إلى مثل هذه الأمم المحكومة فلا تتم إلا بعودة الذكريات التاريخية ؛ ولا نغالى إذا قلنا : إن حركات الاستيقاظ والانبعاث ومجاهدات الاستقلال والاتحاد . . لا تبدأ إلا بتذكير الماضى واستلهام التاريخ ، هذه حقيقة ناصعة تتجلى من بين صفحات التاريخ بوضوح تام .

فان «حب الاستقلال» يتغذى بذكريات الاستقلال المفقود ؛ والتوقان الى السؤدد والمجد يبدأ بالتحسر على السيادة الماضية والمجد السالف ؛ والايمان بمستقبل الأمة يستمد قوة من الاعتقاد بماضيها الباهر ، والنزوع الى الاتحاد يزداد شدة وحماسة بتجدد ذكريات الوحدة المضاعة . . . هذه كلها حقائق ثابتة ، تشهد بها جميع التواريخ ، من تاريخ استقلال اليونان الى تاريخ اتحاد الألمان ، ومن تاريخ ثورة الصرب الى تاريخ وثبة الأتراك . .

ولذلك كله نجد ان جميع علماء التربية يتفقون فى القول بان دروس التاريخ من أهم وسائط التربية الوطنية والقومية .

فهل يجوز - وهذه هى الحال - للمعلمين والمؤلفين أن يتغاضوا عن ملاحظة تأثير المعلومات التاريخية فى هذا المضمار ، وألا يستفيدوا من تأثيرها هذا فى تقوية الروح القومى وتوجيه الشعور الوطنى نحو الأهداف التى يتطلبها مجد الأمة ونهوضها ؟

— ٣ —

يظن البعض أن استخدام دروس التاريخ كواسطة للتربية الوطنية والقومية وتكييف كتب التاريخ لمقتضيات هذه التربية ، هما من الخطط والنزعات الخاصة بالأمم التى تدار بالديكتاتوريات الوطنية ؛ والواقع أنه لا فرق بين هذه الأمم وغيرها فى ذلك . ونحن لا نعلم بوجود أمة بين الأمم الراقية تجردت عن هذه النزعة فاهملت الاستفادة من دروس التاريخ فى هذا المضمار .

وإذا تجلت آثار هذه النزعة الآن عند فريق من الأمم بوضوح أكبر فما ذلك إلا لأن هؤلاء غيروا نظام حكمهم حديثاً فاضطروا لذلك إلى القيام بتكييف تاريخهم لمقتضيات هذا النظام الجديد بصورة فجائية وعلى رؤوس الأشهاد ، فى حين أن غيرهم أقدموا على مثل هذا العمل قبلهم ، فأوجدوا لأنفسهم تاريخاً مكيفاً بمقتضيات الوطنية ، منذ مدة غير يسيرة من الزمن . . .

فيمكننا أن نقول : إن الفرق بين الفريق الأول والفريق الثانى ينحصر فى تاريخ علمهم بهذه النزعة ، لا فى انقيادهم اليها أو انصرافهم عنها .

ومن الغريب أننا نجد بين مفكرى الفريق الثانى من الأمم من ينتقد بشدة الخطط التى يتبعها الفريق الأول فى هذا الباب ، غير أننا نشبه انتقادهم هذا بعمل بعض الأمم المستعمرة التى تستهجن فكرة الاستعمار عند ما تشاهد آثارها عند غيرها ، مع أنها كانت ولا تزال من آباء الاستعمار وأبطاله ، ومع أنها تنعم بخيرات مستعمرات كثيرة ولا تتوانى فى التوسل بجميع وسائل العنف والشدة لادامة سيطرتها عليها .

فيجب علينا ألا ننخدع بمثل هذه الدعايات والانتقادات السياسية وأن نعلم علم اليقين أن تكييف دروس التاريخ بمقتضيات القومية والوطنية من الخطط التى تعمل بها جميع الأمم من غير استثناء ، ومن الخطط التى تتحتم على جميع الأمم المستضعفة بوجه خاص . . .

هذا ويجب أن نلاحظ فى الوقت نفسه أن «التكييف» الذى نشير اليه لا يستلزم «الاختلاق» . لأن «الانتخاب والإبراز» وحدهما يكفلان «التكييف» ويكفيان «للتوجيه» بوجه عام

وذلك لأن الوقائع التاريخية تؤلف سلسلة طويلة لا مجال لتحديدها ، بل شبكة معقدة لا حد لتعقيدها ، فعدم ذكر الوقائع بأجمعها - قصداً أو اضطراراً - واختيار بعضها أو تفصيله أو اختصاره - كل ذلك مما يغير منظر الوقائع وتأثيرها النفسى تغييراً كبيراً ، كما تتغير الألوان حسب مشيئة المصورين ، تبعاً لتغيير أنواع الأصباغ التى تمزج بعضها ببعض من جهة ، ولتغير نسب هذا المزج من جهة أخرى .

ولذلك نستطيع أن نقول : إن عملية الاختيار والإبراز ، إذا كانت من الامور المهمة فى جميع فروع التعليم ، فهى فى منتهى الاهمية فى تعليم التاريخ .

لنذكر مثالا بسيطا لتوضيح تأثير عملية الانتخاب والإبراز فى مثل هذه الامور لنفرض أننا نود أن نبحث عن علاقة فرنسا

بوحدة إيطاليا . فاذا استعرضنا الحوادث التي تعاقبت في إيطاليا منذ حروب نابليون إلى حرب السبعين ، ولاحظنا علاقة هذه الحوادث بسياسة فرنسا وأعمالها ، وجدنا أن هذه السياسة كانت مساعدة لوحدة إيطاليا في بعض الاحوال والادوار . ومعرقلة لها في أحوال وأدوار أخرى ، فاذا ذكرنا النوع الاول من الوقائع دون أن نبحث عن النوع الثاني منها ، أو إذا سردنا النوع الثاني من الوقائع دون أن نتطرق إلى النوع الاول منها ، سنوصل قراءنا وطلابنا إلى أحكام متخالفة ومتعاكسة في هذا الباب . وهذا الاختلاف سيظهر حتى عند عدم إهمال ذكر نوع من نوعي هذه الوقائع اهمالا تاما ، بل نتوسع في شرح أحد النوعين ونكتفي باشارة مختصرة في النوع الآخر . .

وهذا ما يحدث فعلا في تدوين وتدريس هذه الوقائع التاريخية في مدارس كل واحدة من هاتين الدولتين . فان الفرنسيين يوجهون الانظار إلى الوقائع التي كانت من نوع المساعدة للوحدة الايطالية ، ويبرزون هذه الوقائع أكثر من غيرها . . في حين أن الايطاليين — بعكس ذلك — يوجهون الانظار إلى الوقائع التي كانت من النوع الثاني ، ويتوسعون فيها أكثر من غيرها ولهذا السبب تجد أن رأي الايطاليين في هذه القضية يختلف عن رأي الفرنسيين اختلافاً بيناً في معظم الاحوال

وقد لاحظ الكثيرون من رجال الفكر والسياسة ، التأثير الشديد الذي يتأتى من دروس التاريخ في إدامة الضغائن وإثارة الحروب بين الأمم ، فاخذوا يفكرون فيما يجب عمله في هذا الباب ؛ وهذا ما حمل عصبة الأمم على الاهتمام بالامر اهتماماً خاصاً ، وتكوين فرع مختص بشئون تعليم التاريخ بين جوانب معهد التعاون الفكري الأممي . . كما حمل عدداً كبيراً من المربين والمؤرخين على عقد مؤتمرات أممية عديدة للمداولة في القضايا المتعلقة بدروس التاريخ . . .

وإذا تتبعنا مناهج هذه المؤتمرات ونشراتها ، ولاحظنا أعمالها ومقرراتها ، نجد أنها لم تعارض قط في استخدام التاريخ كواسطة للتربية الوطنية ، وكل ما طالبته من المعلمين والمؤلفين في هذا الباب ، انحصر في التماس السعي إلى تخليص دروس التاريخ وكتب التاريخ من الابحاث والاتجاهات التي تثير الضغائن وتحول دون التفاهم والتقارب بين الامم

إنها دعت المعلمين والمؤلفين إلى توجيه جهودهم وأعمالهم إلى هذا الاتجاه على الدوام ، دون أن تطلب إليهم أن يجردوا دروسهم وكتبهم من النزعات القومية والوطنية ، أو يتركوا الاستفادة من التاريخ في التربية القومية والوطنية

وعلى كل حال نحن نستطيع أن نؤكد أن « تعليم التاريخ » يستهدف التربية الوطنية والقومية قبل كل شيء ، عند جميع الامم بدون استثناء

— ٤ —

بعد هذه التفصيلات يجدر بنا أن نعود إلى أنفسنا ونتساءل عما يترتب علينا عمله في دروس التاريخ ، نحن الناطقين بالضاد .

نحن نعتقد بأن حاجتنا إلى الاستفادة من التاريخ في التربية الوطنية والقومية ، تفوق حاجة جميع الأمم على الإطلاق . لأن حالة العالم العربي الآن تزيد في احتياجه إلى الاستفادة من دروس التاريخ وكتب التاريخ في هذا المضمار زيادة هائلة .

هذا ويجب ألا ننسى من جهة أخرى أن موضوع تأليف وتدريس التاريخ — في العالم العربي — ظل بعيداً عن مقتضيات البحث العلمي والتربية الوطنية في وقت واحد

وذلك لأن المؤلفات التاريخية العربية تستند إلى نوعين من المصادر : غربية وشرقية ؛ والمصادر الغربية لم تتخلص تماماً من تأثير « النظرات الأوربية » التي نشأت على معاداة الشرق واستضعاف العرب حتى الآن . . . وأما المصادر الشرقية فقد ظلت بعيدة عن التطورات العلمية والنزعات التربوية في وقت واحد . . .

فيجب علينا في مرحلة النهضة التي وصلنا إليها أن نعيد النظر في أبحاث التاريخ بروح علمي وشعور قومي ؛ وأن نوجد لأنفسنا — على هذا الاساس — مؤلفات تاريخية تجمع بين مقتضيات البحث العلمي ومطالب التربية الوطنية في وقت واحد . .

« بغداد » أبو خلدون

فى الحب وتهيؤ النفس له

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

أشرت فى فصل إلى الوقت الذى تكون فيه النفس أحسن تهيؤا للحب وقلت إنه وقت الفتور الخفيف ، لا النشاط ولا التعب الشديد . وقد رأيت أن كثيرين استغربوا هذا ؛ فيحسن أن أبين ما أعنى وأن أجلوه إذا استطعت . وخير وسيلة لذلك أن نضيق دائرة الاحتمالات وأن نسأل أنفسنا فى أية ساعة يا ترى من ساعات الليل أو النهار يكون المرء أقوى استعداد نفس للحب ؟ . أيكون ذلك فى الصباح حين ينهض المرء من النوم مستريحا مجدد النفس موفور النشاط ؟ أى على الريق ؟ . لا أظن ! وأحسب أنه لو خطرت أمام المرء فى هذه اللحظة أبرع الفتيات جمالا ، وأرشقهن قداً ، وأسحرهن لحظاً ، وأحلاهن ابتسامة ، لما كان لجمالها من الوقع إلا أيسره . نعم يطرف المرء ويفرك عينيه ليستوثق من أنه ليس فى حلم ولا يسعه بعد أن يوقن أن عينيه لم تخدعه إلا أن يعجب بالقد الرشيق والرونق البارع . وقد ينطق فيقول « ما شاء الله . سبحان ربى الخالق » ولكن الأمر يقف عند حد الاعجاب . أوقل إن السهم لا يستطيع أن ينفذ من اللحاف . وليس أحلى من أن يستطيع المرء أن يستأنف النوم بعد أن يستيقظ فى البكور ، فان للنوم فى هذه اللحظة إغراء لا أعرفه يكون له فى ساعة أخرى ؛ والرجل الذى يسعه أن يقاوم إغراء النوم فى البكرة المطلولة لا أظن شيئا آخر يعجزه . والجسم فى هذه الساعة يكون مستريحا إلى تفتير الراحة فيكون المرء مستيقظا ولكن ينقصه النشاط الكافى والتنبه التام ومن هنا لا يحدث الحسن أثره لأنه لا يلاقى وعيا كاملا .

أم ترى يكون الحب أسرع الى النفس وأنفذ إلى القلب حين يخرج المرء فى الصباح ؟ لا أظن أيضاً ! فان القوى تكون مجددة والنفس منتعشة . ومعنى هذا أن نشاط الانسان جم وأن قدرته على المقاومة تامة ؛ فى وسع الانسان أن يعجب فى هذه الساعة ما شاء من غير أن يقع فى الشرك أو يصاب فى مقتل . والحب مرض

ومن الحقائق التى لا مكابرة فيها أنه كلما كان الجسم أصح كانت مقاومته للمرض أوفى وأكبر ؛ وما من ساعة يكون فيها الجسم أوفر نشاطا ، وأعظم استجماما ، كساعة الصباح ، بعد راحة النوم العميق الكافى ومن كان يعرف أن أحدا أصيب بالحب فى الفجر أو الصبح فليتفضل على بنبأ ذلك فان العلم به ينقصنى ؛ وقد قرأت كل ما وسعنى أن أقرأ من شعراء العرب والانجليز وغيرهم واطلعت على ما وقع لى من التراجم والأخبار ومن قصص العشاق الصحيحة والكاذبة المختلفة فلم أر أن أحداً أحب على الريق ، فاذا كان هناك من اهتدى إلى غير ذلك فانه يكون أحسن توفيقا وأنا مستعد لتصديقه وتصحيح رأيى .

ولا أكاد أتصور أن يحب المرء وهو جائع ولا بعد أن تكتظ معدته بالطعام ؛ فاما قبل أن يأكل فلأن إلحاح المعدة يشغله ويستغرق عنايته ولا يترك له بالا الى أمر آخر . وأما بعد الأكل فان الامتلاء يصرف جهد الجسم إلى المعدة ؛ أو اذا شئت فقل إنه يعدل المزاج فيشعر المرء أن كل شىء فى الدنيا على ما يرام ، وأنه ليس فى الامكان أبدع مما كان ، فلا تكون له رغبة ولا فيه استعداد لتغيير هذه الحالة وإبدالها بغيرها مما لعله مزعج أو ناف لهذا الشعور السار الذى تسكن اليه النفس . وقد جربت - وأظن أن غيرى جرب أيضاً - أن أسباب الخلاف والنزاع وخصوصا بين الرجل وزوجته تقة جدا ، وكثيرا ما تزول جملة ، بعد الأكل لسببين : الأول أن الجسم يشغل بما حشى به وما صار أولى بجهده ؛ والثانى أن الشعور بلذة الامتلاء - وهو شعور راجع الى الحرص على الحياة - وما يفيده ذلك من الرضى والاغتباط لا يدعان محلا للعود إلى خلاف سخيف خليق أن يفسد هذا الشعور الجميل

وأنا لا عالم ولا فيلسوف ولا شىء على الاطلاق مما يجرى هذا المجرى ، وإنما أتكلم بما أعرف وأتحدث عما جربت ؛ والذى عرفته وجربته هو أن المرء فى الصباح يحس حصانة ومناعة - من الأمراض ومن الجمال - وقلما يعنى بأن يتبع النظرة النظرة فى هذا الوقت ؛ ولو أن اليوم كله صباح لكان على

الحب السلام ، ولكن اليوم ليس كله صباحا مع الأسف .
والمثل يقول اذا أردت أن تطاع فمر بما يستطاع . وما من أحد يستطيع أن يكون فى الظهر كما يكون فى الصباح ، ولا فى التاسعة صباحا كما يكون فى التاسعة مساء . فى الصبح يكون قويا قادراً على العمل كفؤا لمقاومة المغريات لأنه مستجم مستريح ، فاذا جاء الظهر يكون قد تعب وشعر بالفتور وبالحاجة الى الراحة والطعام - أو الطعام والراحة - ويكون العمل قد هد منه وسرق من قوته وسلبه بعض ما ادخره للكفاح والنضال . ولكن الحاجة إلى الطعام تكون أقوى ما يحس وألح ما يدرك ، فيصرفه ذلك عن كل ماعداه ولا يبقى له هم إلا أن يجلس إلى مائدة حافلة بما يسكت هذه العصافير المزقزقة ويعفيه من ثقل الشعور بما يتلوى فى جوفه . فاذا رأى جمالا فبعيد جداً أن يحبه مهما بلغ من ظما النفس الى الحب ؛ وقد يشعر بالسرور وينشرح صدره ولكنه لا يتمهل فى عدوه إلى البيت أو إلى حيث يكون الطعام الذى يطلبه ما لا سلطان له عليه ، وأحسب أن كل ما تؤدى اليه رؤية الجمال فى هذه الساعة هو أن السرور يزيد القدرة على التهام الطعام .

ويأكل المرء وينام ويستيقظ ويقوم متثاقلا ، وقد أصاب حظا من الراحة - لا كل ما يحتاج اليه - ويستحم أو يكتفى بغسل رأسه ووجهه ولكن الثقلة لا تزايله ، لأنه لم يستوف نصيبه العادل من الراحة ، ولم يعوض كل ما انفقه فى يومه ، فهو لا يزال متعبا ولكنه تعب خفيف لا يشق على النفس ولا يبهظ الجسم احتماله . وهذا هو الوقت الخطر على ذى القلب الحساس . ويستوى أن يكون الوقت العصر أو نصف الليل فإن المهم أن يكون الجسم متعبا بعض التعب وأن يكون تعبه بحيث لا يثقل عليه ولا يمنعه أن يخرج ويجالس الناس ويشهد السينما ويسهر مع الساهرين ويلتمس المتع التى يلتمسها الناس فى العادة بعد أن يفرغوا من أعمالهم ويتخلوا لانفسهم . والتعب الخفيف هو الخطر . وهذا لا وقت له على وجه التعيين فقد يكون العصر وقته عندى فى يوم والصباح وقته فى يوم آخر . والتعب الخفيف هو فرصة الأمراض والحب لأن المرء لا يفطن اليه ولا يباليه ولا يتحرز من عواقبه ولا يحاول أن يقاوم ما يهجم عليه فى فترته ، فكأن المرء يؤخذ على غرة ، وأهبته للكفاح والمقاومة غير تامة .

ولو عنى الانسان بان يدرس نفسه ويتدبر حالاتها لوجد أنه لا يمكن مثلا أن يفضى بسر له يحرص عليه وهو مستجم مستريح الجسم ، وانما يبيث بجواه ويقول بسره وشجوه حين يكون متعبا قليلا - كائنا ما كان سبب التعب ، فقد يكون ذلك من جراء العمل أو يكون بفعل الحر أو يكون بعد المشى مسافة طويلة أو بعد جلسة يمتد زمنها ، أو على أثر برد خفيف إلى آخر ذلك - وصاحب الجسم المستوفى نصيبه من الراحة لا يخطر له مثلا أن يخوض بحثا فى نظام الكون ، ويروح يجزم بما يدور فى نفسه من الأوهام التى يحسبها حقائق لا تدفع ، لان صحة الجسم تساعد على إدراك القصور الانسانى . وإنما يفعل ذلك الذى به تعب خفيف لا يحسه ، ولا يعرف له وطأة . والتعب الخفيف يهيج شهوات الجسم كما يتيح لجراثيم الأمراض فرصة العيث ، فيلقى المرء نفسه غير قادر كما ينبغى على المقاومة ، ويحس أنه أصبح طوع الجواذب ؛ فاذا عرضت عليه كأسا لم يطل تمنعه ، وقد تحدثه نفسه بأن ذلك ربما كان أجلب للنشاط وينسى رد الفعل الذى يعقب هذا النشاط المجلوب . وإذا خايله الجمال تحركت نفسه كما لا يمكن أن تتحرك وهو موفور القوة أو شديد التعب . واذا استطرد الحديث إلى ما وراء الطبيعة جازف بالآراء وقطع وجزم بلا تردد أو تلعثم ، وليس ذلك من الثقة بالنفس ولا من طول التدبر والنظر وانما هو من الفتور الحاصل الذى يغرى بالكسل واتقاء عناء البحث الذى يزيد به التعب . والمرء فى هذه الحالة لا يكسل وهو شاعر بكسله ولا يتقى العناء وهو عارف بأنه يتقيه ، وانما يفعل ذلك بغريزته التى تدفعه من حيث يشعر ولا يشعر إلى وقاية نفسه والمحافظة عليها .

ومتى جاوز التعب - أعنى الشعور به - الحد الذى يسهل احتماله ويهون الصبر عليه فقد استحال الحب . فالمتضور جوعا ، والذى يرعد من البرد ، والذى به مغص أو غيره من المزعجات والمنغصات ، والذى يكاد يسقط من فرط الإعياء ، والذى يغالبه النوم ويثنى رأسه النعاس الخ الخ لا يمكن أن يجد الحب سبيلا الى قلبه قبل أن يزول ذلك عنه ، واذا اتفق أنه كان عاشقاً فانه لاشك ينسى حبه وعشقه حتى يشفى

أو يستريح أو يشبع ، ومن كان لا يصدق فليجرب وليختبر نفسه . وفى وسع كل إنسان أن يجعل باله إلى حالات نفسه فى الصحة والمرض وفى الجوع والشبع وأن ينظر هل يكون له عقل يفكر فى حبيب وهو جائع أو بردان أو متألم أو متهافت من النصب .

والمرأة تدرك هذه الحقائق بغريزتها الذكية ، فهى دليلى على صحة ما أقول . واسألوا أنفسكم متى ترون المرأة تعنى بزينتها وعرض محاسنها على الرجل فلن تجدوها تفعل ذلك فى الوقت الذى تحس فيه أن الرجل مستجم مستريح أي قادر على مقاومة فتنتها ، وإنما نراها تفعل ذلك وتلجأ إلى معونة الثياب المنسجمة على الجسم المبرزة للمفاتن ، وإلى المساحيق التى تؤكد الإشراق والنضرة فى وقت التعب الخفيف لا فى وقت النشاط التام ولا وقت التقوض والانهداد . وأحسب أن من المفهوم أن كلامى هو على المرأة حين تتصدى للرجل بحكم طبيعتها لا عامدة ولا حين تخرج لعملها إذا كانت تعمل أو لقضاء حاجة لها فما تستطيع إلا أن تتزين إلى حد ما تبرز للناس لأن طبيعتها تغريها بأن تحشد قوتها كلها وسلاحها أجمعه على سبيل الاستعداد للمنازلة ، ولو كانت فرصتها بعيدة فان الأمر بين الرجل والمرأة أمر حرب — هى تقاتله وتحاول أن تغلبه بالجمال وهو سلاحها وهو يقاومها ويحاول أن يغلبها بقوته وجلده الخ ، وقد يكون من غريب أمر هذه الحرب أن النصر فيها موزع وأن الذى يبدو فيها ظافراً كثيراً ما يكون هو المهزوم ، وأن الذى يتظاهر بالتسليم وإلقاء السلاح عسى أن يكون هو الغالب المنصور بل الفريقان المقتتلان لا نصر لهما ولا هزيمة ، وإنما النصر للحياة التى تسخرهما لغاياتها وتتخذ منهما أداة . ولكن هذا استطراد فلنعد إلى سؤالنا ، ولنتوسع فيه قليلا . فهل يظن أحد أن من المصادفات البحتة أن المرأة لا تتزين فى الأغلب إلا فى العصر أو المساء أو الليل ؟ . إن ثياب المرأة للزينة ، قبل أن تكون للمنفعة — وكذلك ثياب الرجل إلى حد كبير — ولكن الزينة مقدمة على المنفعة عند المرأة ، لأن المرأة هى الشرك الذى تنصبه الحياة للرجل والزينة تؤكد الجمال وتبرزه . وهل يستطيع أحد أن يزعم أن هذه الثياب التى تلبسها المرأة لها أدنى نفع فى وقاية أو ستر ؟ ولكنها لا تعني بالزينة فى الأوقات التى تقول لها غريزتها إنها تكون زيادة لا داعى لها ولا تأثير ، مثل الصباح الباكر أو قبيل الظهر حين يكون الناس جياعاً ، فاذا مال ميزان النهار الذى هو وقت العمل الطبيعى وأحدث العمل اليومى أثره الذى لابد منه وأنتج السعى للرزق أو غيره ذلك الفتور الخفيف وأنشأ الرغبة فى اللهو والتسرية عن النفس والتماس ما ينسي الانسان تعب النهار ومشقات العمل ومتاعب الحياة — اذا جاء هذا الوقت رأيت المرأة معنية بزينتها وثيابها ، ومن هنا كانت ثياب السهرة وتوخى المرأة فيها أن تجعلها ثياب جلوة ، تجلو محاسنها كلها وتعرض مفاتنها وتحيلها أوقع فى النفس ، ولو كان الأمر الى العقل وحده وإلى الفائدة المطلوبة من الثياب لما كان الليل أحق بهذه الثياب من النهار ، ولكن الغرض ليس الفائدة بل الفتنة ، والفتنة تكون أسهل ومطلبها أيسر بعد تعب النهار وبعد حلول الفتور الخفيف الخفى الذى يساعد على التغلب على الفريسة .

ولنسأل سؤالا آخر : لماذا يحلو الغزل والمناجاة فى الليل الساجى وفى ضوء القمر اللين ولا يحلوان تحت الشمس المحرقة وفى الظهر الأحمر ؟ . وأجمل الجواب اتقاء للاطالة فأقول : إن الليل هو وقت الفتور ، وإن سهوم القمر وسكونه يزيدان هذا الفتور ، وإن اجتماع الفتور الطبيعى بالليل بعد الكدح بالنهار واللين المفتر الذى يحسه الانسان من ضوء القمر يجعل مقاومة الإغراء أضعف ، لما يحدثه ذلك من استرخاء الأعصاب وكسلها ؛ وشيء آخر أحسبه حقيقة وإن كنت لا أعرف له علة وذلك أن للقمر أثراً محسوساً فى حالة الأعصاب . ومن هنا يعتقد العامة أن طول النظر إلى وجه القمر يحدث الخبل ويورث الجنون ؛ ولا أعرف علة لذلك ولست أدرى أن العلم اهتدى إلى تعليل له ، ولكن الذى أعرفه أن للقمر أثراً معترفا به فى المد والجزر ، فما دام أن له هذا الأثر فماذا يمنع أن يكون أثره أبلغ وأوسع نطاقا وأمس بحياة الجسم الانسانى وحالاته ؟ إن الماء الذى يؤثر فيه القمر ليس شيئا أجنبيا منا وإنما هو بعض ما نحيا به ، بل هو أصل لا مكابرة فيه . ثم إن أثره فى المرأة معروف ، حتى أن الدورة عندها تحسب بالشهر القمرى . والذى أعرفه أيضا أن الناس من أقدم العصور قرنوا ضوء القمر بالجنون ولا تزال فى اللغات المختلفة ألفاظ يفهم منها اقتران معنى الجنون

بضوء القمر ، بل إن اللفظ الدال على الجنون فى لغات كثيرة مشتق من اسم القمر . وعسى من يسأل ، ولكن ماعلاقة هذا بالحب ؟ ، والجواب أنى لفت النظر إلى أن الغزل والمناجاة يكونان فى الأغلب والأعم فى الليل ويطيبان فى ضوء القمر . وقد قلت إن تجربة الناس من أقدم العصور هدتهم إلى أن للقمر أثراً سيئا فى عقل الانسان واتزانه ؛ وقد بقى فى لغاتهم أثر هذا الاعتقاد . وقد يكون أو لا يكون هذا صحيحاً ولكنه خلاصة تجارب الخلق ومشاهداتهم فى عصور طويلة لا يعرف لها أول ، ويبعد جداً أن يكون كله وهما . ومهما يكن من ذلك فالمحقق أن ساعات الليل ساعات ضعف بالقياس إلى نشاط النهار بعد راحة النوم الكافى . فالتأثر بالجمال يكون فيها أقوى والمقاومة تكون أضعف

وقد قلت إن الحب شرك تنصبه الطبيعة للإنسان لابقاء الدنيا عامرة بنسله — لا أدرى لماذا — ولكن هذا هو المشاهد على كل حال . ففى هذا يحسن أن أقول كلمة وجيزة : سئلت امرأة عجوز عن آرائها فى بعض وجوه الحياة فقالت : إن سخافة الرجال تظهر فى ثلاثة أمور : الأول أنهم يتكلفون عناء شديدا ليتسلقوا الشجر ويقطفوا الثمر ؛ ولو صبروا وأراحوا أنفسهم وجلسوا ينعمون بالظل تحت أفنان الشجرة لألقت إليهم بثمرها فى أوانه . والثانى أنهم يذهبون إلى الحرب ليقتل بعضهم بعضا ؛ ولو انتظروا لجاءهم الموت جميعاً . والثالث أنهم يجرون وراء المرأة ؛ ولو كفوا عن ذلك لجرت وراءهم المرأة . فهذه عجوز حكيمة . وأحسب أن حكمة الصبر هذه يرجع الفضل فيها إلى السن العالية وما تجره من العجز . ولكن الواقع على كل حال أن المرأة هى التى تطارد الرجل وليس الرجل هو الذى يطارد المرأة . وقد كنت فى أول عهدى بالأدب أستنكر قول ابن الرومى :

أضحت الدنيا تروق من نظر
بمنظر فيه جـلاء للبصر
أثنت على الله بآلاء المطر
فالأرض فى روض كأفواف الحبر
نيرة النوار زهراء الزهر
تبرجت بعد حياء وخفر
تبرج الأنثى تصدت للذكر

والشطر الأخير هو المقصود . وكنت أستثقل قوله إن المرأة تتبرج لتتصدى للرجل ولكن المرء يزداد فهمه للحياة على الأيام . وإنه ليضحكنى الآن أن الرجل يتوهم أنه هو الصائد الجرئ المقدام الذى يوقع منظره الخشن الرعب فى قلب المرأة المسكينة الضعيفة ! وإنما يضحكنى أن هذا الوهم وما يفضى اليه من الغرور هما اللذان يوقعانه فى شرك المرأة . فهو ينسى لغروره أنه لا يفكر فى الحب إلا بعد أن تلقحه المرأة بجرثومته ، أى بعد أن يصاب به ، على حين كانت المرأة تعد عدتها لهذا اليوم وتدرب على إجادة هذا الفن وتدرس كل أساليب الاغراء مذ كانت طفلة فى المهد . وهذه مبالغة ولكنى أريد أن أقول إن الطبيعة جعلتها أداة لاغراء الرجل وأعدتها بفطرتها لاجتذابه واستدراجه وإيقاعه فى الفخ ، وهى فى هذا لا تحتاج إلى معلم ، وحسبها غريزتها هادياً ومرشداً . وهى تتقن فن الاستدراج إتقاناً عظيما وتعرف فى أية لحظة ينبغى أن تزيد المسافة بينها وبين الرجل الذى تدعه يتوهم أنه هو الذى يبدأ بمطاردتها ، وتعرف متى تتباطأ وتقصر الخطوء لتزيد أمله فى إدراكها ، فيقوى عزمه ويشتد عدوه وراءها والمرأة أعرف بالمرأة ، أو هى أولى بذلك من الرجل وأخلق بأن تكون أقدر عليه ، وقد وجدت فى كتاب لكاتبة اسمها « الينورجلين » - واسم الكتاب « العاطفة التى تدعى الحب » هذه النصيحة التى يجدر بكل رجل أن يتدبرها قالت :

« قاعدة عامة - أول ما ينبغى أن تتذكريه هو ألا تظهرى رغبة شديدة أو إقبالا عظيما أو لهفة ، فان الغرض هو الاستيلاء على الرجل . والرجل مهما بلغ من وداعته وضعفه يحب أن يتوهم أنه هو الذى يقوم بالمطاردة . ولا بد للفتاة التى تخرج للقنص والصيد من أن تدرس أساليب الصيد ووسائله وأن تستعين على التوفيق بمعرفة طباع القنيصة . وما من رجل يعتقد أن فى وسعه أن يصيد غزالا بأن يجرى وراءه ويصيح به . والأساليب التى يستخدمها لصيد الفهود والنمور غير التى يلجأ اليها حين تكون غايته الأرانب ، ومتى استطعت أن تثيرى اهتمامه بك فليس عليك بعد ذلك إلا أن تغذى نفسه ببواعث الرغبة فاذا هو بين يديك ، واعلمى أن الرجل يجد لذة فى

المطاردة، ولكن حماسته تفتر متى ألفى الطريدة في حقيبته . وإذا وجد أن الصيد سهل جداً فقلما يعنى بأن يمد يده ليتناوله وقد يدعه على الأرض حيث وقع . أما إذا كان الطراد شاقاً عنيفاً مثيراً وكانت الطريدة شديدة الحذر طويلة الصبر على جهد الطراد فان الرجل خليق بأن يزهى بالفوز بها وأن يروح يعرض الصيد على العيون مفاخراً مباهياً » ا ه .

ولا شك أن الواجب الذي وكلته الطبيعة إلى المرأة شاق ، فليس من السهل أن تلعب دور الهارب وهي في الوقت نفسه مصممة على الوقوع في يد المطارد . فقد تطول المسافة بينها وبينه جداً فييأس وينكفئ راجعاً ويعدل عن المطاردة . فاذا تركته يدنو منها جداً ويدركها بسرعة وسهولة وبلا جهد يستحق الذكر فقد ينفض يده من الأمر لأنه يراه أسهل عليه من أن يحس أنه يفيد منه متعة ويروح يلتمس صيداً غيره يستحق العناء . فالأمر يتطلب حذقاً في التقدير وبراعة وسرعة في التقرير من جانب المرأة . ومن هنا يحدث كثير من المضحكات التي يعجب لها الرجل ولا يرى له قدرة على فهمها . وكثيراً ما يفوته الجانب المضحك لأنه يشغل بالفهم على طريقه هو ، فيصرفه ذلك عن الفكاهة . من ذلك مثلا أن واحدة اشترطت لقبول الزواج أن يكون للرجل ألف جنيه مدخرة لأن القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود ، فراح المسكين يقتصد ويدخر - أو يحاول ذلك على الأصح - وطال الأمر وتعاقبت الشهور وهو يجد ولا يتكلم ولا يظهر أيضاً وكيف يظهر لها قبل أن يجمع المبلغ المطلوب . فلقيته اتفاقاً وسألته عما صنع ، فقال : « لم استطع أن أقتصد إلى اليوم أكثر من جنيهين » فابتسمت له بعد أن أطالت النظر اليه وقالت « أظن أن هذا قريب جداً من الغاية » .

وكما أن الرجل يجد لذة في المطاردة ، كذلك المرأة تجد لذة في أن تطارد حتى ولو كانت نيتها معقودة على النجاة لا على الوقوع ؛ وهذا معقول ، لأنه يسر المرأة أن تعرف أنها جميلة وأن الرجل يريدها وإن كانت هي لا تريده . وأحسب أن المتعة المستفادة من الطراد هي كل ما في الحب من لذاذة ؛ ومتى انتهى الأمر ووقعت الفريسة ، فتر النشاط والحماسة ، وسكنت النفس وهدأت الأعصاب . ومن هنا يخطئ الذين يتوهمون أن للحب عمراً أكثر من عمر المطاردة ، ومن هنا أيضاً يخيب أمل الذين يتزوجون وهم يحسبون أن الحب يدوم . وما أكثر من يسألون عن الوفاء والحفاظ ما فعل الله بهما . ولو فكروا لما انتظروا وفاء ولا حفاظاً ولا خاب لهم أمل ولا ندبوا حظوظهم في الدنيا . فان الحب - ككل شيء في هذه الحياة - لا عمر له ولا بقاء ؛ وهو يبقى مابقيت لذته ؛ ولذته تنتهي بانتهاء المطاردة . كل شيء في هذه الدنيا إلى حين ، فلماذا يكون الحب وحده هو الباقي الدائم ؟

والمرأة تدرك هذه الحقيقة بغريزتها أيضاً ؛ ولذلك نراها تحاول أن تستبقي روح المطاردة بعد انتهائها بما نسميه الدلال وهو فن يراد به أن يشعر الرجل أن به حاجة إلى السعي والجهد فيؤدي ذلك إلى شحذ الرغبة ونفي الفتور وتجدد الطلب ، فالحق أن الطبيعة حكيمة وإن كانت حكمتها لا تبدو لنا في أكثر الأحيان

ابراهيم عبد القادر المازني

لمناسبة تتويج جلالة الفاروق

رسوم البيعة والتتويج

في عهد الدولة الفاطمية

للاستاذ محمد عبد الله عنان

يبلغ صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ملك مصر رشده الدستوري في الثامن والعشرين من شهر يولية القادم . وقد أثيرت بهذه المناسبة مسألة الرسوم والاجراءات التي يحسن اتباعها لاعلان هذا الحادث السعيد ، وافتتاح العهد الجديد بما يليق به من الروعة الملوكية والدستورية .

ومن المقرر أن الدول الملوكية العريقة تتبع في مثل هذه المناسبة رسومها وتقاليدها الملوكية الخاصة ؛ وقد رأينا كيف أحيطت حفلات التتويج البريطاني بكثير من الرسوم الملوكية القديمة التي يرجع بعضها إلى عدة قرون ؛ ولكن يلاحظ هنا أن الملوكية الانكليزية لبثت منذ قيامها حتى يومنا متصلة الحلقات، يحتفظ العرش بمعظم رسومها وتقاليدها عصراً بعد عصر . أما الملوكية المصرية فقد انقطع سيرها وعفت رسومها منذ الفتح العثماني زهاء أربعة قرون حتى أعلن المغفور له الملك فؤاد الأول ملكا على مصر في سنة ١٩٢٢

ومع ذلك فان للملوكية المصرية الاسلامية رسوما وتقاليد عريقة انتهت إلينا منها صور وذكريات باهرة . وقد عرفت مصر الاسلامية هذه الرسوم الملوكية الخاصة منذ استحالت من ولاية خلافية إلى وحدة سياسية مستقلة في ظل الدولتين الطولونية والاخشيدية اللتين كانتا بالرغم من ولائهما الإسمي للخلافة العباسية تتمتعان ببعض الرسوم والتقاليد الملوكية الخاصة ، مثل صدور البيعة للأمير ، وتحليه بألقاب الامارة وأحياناً بالألقاب الملوكية مثل اتخاذ محمد بن طغج لقب الاخشيد (أي أمير الأمراء) ، أو تمتعه ببعض الامتيازات الملوكية السياسية ، كما فعل الاخشيد حينما اتصل بقيصر قسطنطينية مباشرة في المكاتبات الدبلوماسية المتعلقة بمصر وغير ذلك ؛ وثانيا حينما غدت مصر خلافة أو دولة مستقلة كاملة السيادة في ظل الدول الاسلامية المتعاقبة

وقد عرفت الملوكية المصرية رسومها وتقاليدها الراسخة في ظل الدولة الفاطمية : وكانت هذه الدولة القوية تجنح إلى البهاء والفخامة في جميع رسومها وتقاليدها . وكانت تولية الخليفة الفاطمي تحاط بطائفة من الرسوم والمواكب الباذخة ؛ ولما قدم المعز لدين الله أول الخلفاء الفاطميين إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ ، بعد أن افتتحها قائده جوهر الصقلي قبل ذلك بأربعة أعوام (سنة ٣٥٨ هـ) لم ترتب إجراءات خاصة لاعلانه خليفة أو ملكا على مصر ، لأن المصريين ارتضوه على يد زعمائهم وأعيانهم خليفة وملكا عليهم عند الفتح حينما قدموا خضوعهم لنائبه وممثله جوهر ، وقطع جوهر الدعوة العباسية ، وبدأت الدعوة للخليفة الفاطمي ؛ بيد أنه حينما وصل المعز إلى الاسكندرية في شعبان سنة ٣٦٢ هـ ، استقبله أعيان مصر وعلى رأسهم قاضيها الأكبر وجددوا له مراسيم الخضوع والبيعة ، وقصد المعز بعد ذلك إلى القاهرة ونزل بالقصر ، وبدأ عهده في الحكم والولاية في اليوم الخامس عشر من رمضان ، إذ جلس بالقصر على عرشه الذهبي الذي أعده له جوهر في الأيوان الجديد ، وأذن بدخول الأشراف ثم الأولياء وسائر وجوه الناس ، وكان القائد جوهر قائما بين يديه يقدمهم إليه فوجا بعد فوج فيأخذون له البيعة والعهد ، وعلى هذا النحو نظمت مراسيم التتويج لأول خليفة فاطمي بمصر

ومنذ عهد العزيز بالله ولد المعز لدين الله تتخذ رسوم التتويج الفاطمية صورها الباذخة ، وكانت هذه الرسوم تجرى أولا في القصر الفاطمي في الأيوان الكبير ثم بعد ذلك في قاعة الذهب التي أنشأها العزيز بالله ، وجددها المستنصر بالله فيما بعد ، وكان بها عرش الخلافة ، وبها يجلس الخليفة أيام المواسم العامة ، ويجلس للركوب يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع ، وبها كان يقام سماط العيدين ، وسماط رمضان للأمراء ، وكانت تعرف أحيانا بقصر الذهب . وكانت مبايعة

الخليفة الجديد تجرى في حفل عام يرتبه مدبر الدولة أو كبير الوزراء أيا كان لقبه، وصاحب الباب أو حاجب الحجاب وهو أكبر رجال القصر، والإسفهسلار أو القائد العام للجيش، وذلك بالاتفاق مع قاضى القضاة، وهو فى العرف السياسى أعظم رجال الدولة مقاماً ونفوذاً

وكان ينادى بالخليفة الجديد عقب وفاة سلفه مباشرة؛ ولا فرق فى ذلك أن يكون الخليفة الجديد صبياً أو بالغ الرشد؛ ويقع هذا الاجراء الأول بالقصر أو حيث كانت وفاة الخليفة الذاهب، ويتولاه أعظم رجال القصر نفوذاً أو قاضى القضاة ثم يعقبه اجراء البيعة العامة بالإيوان الكبير وهو أيضا من منشآت العزيز بالله، وجرت فيه بيعة الحاكم بأمر الله فابنه الظاهر لإعزاز دين الله، فابنه المستنصر بالله، فابنه المستعلى بالله، فابنه الآمر بأحكام الله. ثم نقل الخليفة الآمر بأحكام الله سرير الملك (العرش الخلافى) من الإيوان الكبير إلى قاعة الذهب، فحلت مكان الإيوان من ذلك الحين فى إجراء الرسوم الخلافية العظيمة؛ وكان الاحتفال بالبيعة عاما يشهده رجال الدولة وأكابر الجند والأعيان وأفراد الشعب، ويبدأ بأخذ البيعة للخليفة الجديد قاضى القضاة وأعضاء الأسرة الفاطمية وأكابر رجال الدولة والقصر، ويسلمون عليه بسلام الخلافة وصيغته « السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » ثم يقبلون له الأرض؛ وإذا وافق جلوسه يوم عيد، خرج الخليفة فى موكبه إلى الصلاة، كما حدث عند تولية الظاهر لإعزاز دين الله حيث وافق جلوسه يوم النحر (عيد الأضحى) فأخذت له البيعة، ثم خرج إلى صلاة العيد، وعلى رأسه المظلة وحوله العساكر، وصلى بالناس، ثم عاد إلى القصر، فكتب بخلافته إلى سائر الأنحاء.

وكان للعرش الفاطمى عدة من الذخائر والآلات الملوكية كانت آية فى الفخامة والبهاء والبذخ، من ذلك سرير الملك، أو العرش الذى يجلس عليه الخليفة يوم توليه الملك، ثم بعد ذلك أيام المواكب والاستقبالات الرسمية. ويقول مؤرخ معاصر فى وصفه: « إن وزن ما استعمل من الذهب الابريز الخالص فى سرير الملك الكبير مائة ألف مثقال وعشرة آلاف مثقال، ووزن ما حلى به الستر الذى أنشأه سيد الوزراء أبو محمد اليازورى من الذهب أيضاً ثلاثون ألف مثقال، وأنه رصع بألف وخمسمائة وستين قطعة جوهر من سائر ألوانه. وذكر أن فى الشمسية الكبيرة ثلاثين ألف مثقال ذهباً، وعشرين ألف درهم مخرقة، وثلاثة آلاف وستمائة قطعة جوهر من سائر ألوانه وأنواعه، وأن فى الشمسية التى لم تتم من الذهب سبعة عشر ألف مثقال، وإلى جانب العرش يوجد تاج الخليفة أو التاج الشريف، وهو تاج يضعه الخليفة على رأسه فى الموكب والأيام العظام، وبه جوهرة عظيمة تعرف باليتيمة زنتها سبعة دراهم، وحولها جواهر أخرى دونها؛ وقضيب الملك، وهو عود طوله شبر ونصف ملبس بالذهب مرصع بالدر والجواهر يحمله الخليفة بيده فى المواكب العظام؛ والسيف الخاص، يحمل مع الخليفة فى المواكب العظام أيضا؛ وله أمير من أعظم الأمراء يحمله عند ركوب الخليفة؛ ومنها المظلة التى تحمل على رأس الخليفة عند ركوبه، وهى قبة فاخرة ملبسة فى أنابيب الذهب، وحاملها من أعظم الأمراء؛ والرمح والدواة، والدرقة، والحافر، وهى قطعة من ياقوت أحمر فى شكل الهلال تحمل فى وجه فرس الخليفة عند ركوبه فى المواكب العظيمة؛ ومنها الأعلام والبنود والسلاح الخاص الذى يحمله الركابية أو الحرس الملكى.

وقد انتهى إلينا وصف بعض المناظر الواقعية التى أحاطت بتولية أحد الخلفاء الفاطميين، وهو الحاكم بأمر الله ولد العزيز بالله، نقلها إلينا مؤرخ معاصر هو عز الملك المسبحى وزير الحاكم وصديقه ونحن نعرف أن الحاكم بأمر الله تولى الملك حدثاً عقب وفاة والده العزيز فى مدينة بلبيس فى ٢٨ رمضان سنة ٣٨٦هـ. يقول المسبحى: « قال لى الحاكم، وقد جرى ذكر والده العزيز يا مختار، استدعانى والدى قبل موته، وعليه الخرق والضماد؛ فاستدنانى اليه وقبلنى وضمنى اليه وقال: واغمى عليك يا حبيب قلبى ودمعت عيناه. ثم قال امض ياسيدى والعب، فأنا فى عافية

قال : فضيت ، والتهيت بما يلتهي به الصبيان من اللعب إلى أن نقل الله سبحانه وتعالى العزيز إليه ، قال فبادر إلى برجوان ، وأنا في أعلى جميزة كانت في الدار ، فقال : انزل ، ويحكم الله فينا وفيك ، قال فنزلت ، فوضع العمامة بالجوهر على رأسي وقبل لي الأرض ، وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . قال ، وأخرجني حينئذ إلى الناس على تلك الهيئة ، فقبل جميعهم لي الأرض وسلموا على بالخلافة . وقع هذا المنظر بمدينة بلبيس في ٢٨ رمضان ، وفي اليوم التالي سار الحاكم إلى عاصمة ملكه في موكب رهيب فخم وأمامه جثة أبيه ، وبين يديه البنود والرايات ؛ وقد ارتدى دراعة مصمت ، وعمامة يكللها الجوهر ، وتقلد السيف وبيده رمح فدخل القاهرة عند مغيب الشمس ؛ وفي الحال أخذ في تجهيز أبيه ، ودفن عشاء بالقصر . وفي صباح اليوم التالي ، بكر سائر رجال الدولة إلى القصر ، وقد نصب للخليفة الصبي في الايوان الكبير ، سرير من الذهب عليه مرتبة مذهبة ، وخرج من القصر إلى الايوان راكباً وعلى رأسه معممة الجوهر والناس وقوف في صحن الايوان ، فقبلوا الأرض ومشوا بين يديه حتى جلس على عرشه ، وسلم عليه الجميع بالامامة ونودي في القاهرة والبلدان أن الأمن موطد والنظام مستتب فلا مؤنة ولا كلفة ، ولا خوف على النفس أو المال

هذه لمحة من الرسوم والتقاليد التي كانت تجرى عليها الدولة الفاطمية في تولية خلفائها ، وهي رسوم ملوكية عريقة يطبعها لون من البذخ الساحر . وقد كانت الدولة الفاطمية ، وهي أولى الدول الاسلامية المستقلة بمصر ، دولة البذخ والبهاء ، وكانت رسومها وتقاليدها فيما بعد مستقى خصباً للدولة الاسلامية التي تعاقبت من بعدها في عرش مصر (١)

محمد عبد الله عنان

(١) رجعنا في هذا البحث الى خطط المقريزي ، وصبح الاعشى للقلقشندي وحسن المحاضرة للسيوطي ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، وابن خلكان .. الخ

دمـــوع الحب

للأستاذ يوسف البعيني

لتتذوق رحيق الفن ، وتتسلل إلى سراديبه الرهيبة وتعانق غوانيه المعطرة .. يجب أن تقرأ - بول فاليري - فقصيدة واحدة من هذا الشاعر العبقري المجدد حياة فنية منفردة لها ألوانها وخطوطها وأصباغها . جملة صغيرة من ريشة بول فاليري تعطيك معنى ألذ من تغريدة البلبل ، وأطرب من أنغام الرباب . وأعذب من الاحلام . . أما الحياة التي تلبسها في سطوره وصوره فتبكي وتفرح ، تشكو وتبتسم . تغرد للصباح الضاحك ، وتكتئب للمساء الحزين ؛ حياة ككل حياة ، لكنها تختلف برموزها وأسرارها . وهذه الرموز والأسرار هي عبقرية الشاعر العظيم والفنان الملهم ؛ هي كائنه الحي الأعلى ؛ هي روحه التي غاصت في البحر فالتقطت درره ، وتغلغلت في الليل فاتشحت بازاره . وفي القلوب فاجتنت ميولها وعواطفها وشهواتها .

لقد قرأت أكثر مؤلفاته فتبينت فيها الفن المجنح الذي يفتح عينيك على صور موشاة بجميع ألوان الحياة وأدهنتها الرائعة . وما إن تحدق قليلا بسطر من سطوره حتى تتولاك رحاب الشاعرية ؛ هي غيبوبة بعيدة القرار يشملك بها الشاعر الفنان فيريك بهجة الربيع واخضراره ، ويسمعك عويل الخريف وشكواه . وإن شاعراً يغمرك بكل ماتشتاقه الروح ويحلم به القلب ليعرف من الحياة غير أسمائها ، ويقرأ من الكلمات أكثر من حروفها ، ويبصر في مشاهد الأعراس والمآتم غير ما يبصره الناس !

***

ومن أروع ما طالعته أخيراً لهذا الشاعر الساحر رسالة دعاها - دموع الحب - قرأتها بروح نهمة تريد أن تتفهم معاني الحياة وتتكشف أسرار الجمال فاذا هي قطعة فنية

خالدة يشوقك ما فيها من تقديس لدموع الحب ، الحب الذي يتفجر من صدر المرأة فيبقى خافقاً في روع الماضي والحاضر والمستقبل . وليت شعرى هل في العالم حديث أعذب من حديث رقيق تدبجه ريشة الفنان المتعبد للنيل الأعلى في ساعات وحيه وإلهامه ؟ إن الكلمة التي تتحدر في قلبك وقد تشربت بدموع الحب وتسربلت بعبابه لهي الكلمة الحية ، بل هي الكلمة الخالدة التي تتناغم بها أشباح الأيام والليالي

لكنني وقفت مبهوتاً أمام مقطع صغير عنوانه - انتحار ودموع - لا لشيء إلا لأنه مقطع تنبو عنه الحياة ، وإن يكن يستظرفه الفن ؛ وينبذه الحب الروحاني الملظى بجمر التضحية والمدمّى بالألم والاستشهاد ، وإن تكن ترتضيه الشهوة الوحشية المتسلطة . . وإنى لمورد خلاصته فيما يلى لتعلم أن الشاعر مهما مُنح من فن وإبداع . وأوتي من تصور وإدراك ، يظل جاهلا أسرار المرأة ، رازحاً من حبها ودموعها على كلال

أما المرأة التي جاء الشاعر يقدس دموعها في ذلك المقطع الصغير فهي - كليوباطرة - ملكة مصر وربة النيل . ولكن أصادقة تلك الدموع التي ذرفتها المرأة الحسناء على موت حبها ؟ هذا ما أريد معرفته . . فلنقرأ الآن خلاصة القصيدة :

قبل أن تودع كليوباطرة حياتها الزاخرة بذكريات الحب أحبت أن تهيء لعشاق جمالها مأدبة كبرى مثقلة بكرمها الملكى ، ففعلت : وبعد انتهاء المأدبة أحضرت لها وصيفتها الأمينة «إيراس» سلة مملوءة بالتين ، فكافأتها وشكرتها كثيراً ثم أخرجت من طيات ثوبها الفاخر خطاباً قصيراً لتسلمه الوصيفة إلى « أوكتافيوس » قيصر روما في ذلك العهد

وبعد هذا بحين انسحبت كليوباطره إلى مخدعها الشيق المزين بزهر الجلنار وجلست وحيدة ، وفي وحدتها الموحشة شرعت تحلم إلى أن اخضلت أجفانها بالدموع

بكت لأنها تذكرت أيامها الماضية ... تلك الأيام المخمرة بالحب !

إلا أنها لم تلبث أن مسحت دموعها ونظرت إلى وريقات التين نظرة عميقة مفعمة بالتأمل وطافحة بالحزن والألم . ذلك لأن عيني الحية الماكرتين كانتا تلمعان في وسطها لمعاناً موحشاً مخيفاً كنور الحباحب على قبر مهجور

وفيما هي تتناول الحية السامة بأناملها قالت تناغيها بكلام رقيق كنوم السحر : أيتها المخلوقة الفاتنة ، المرذولة من جميع الناس ، إني أعبدك ... ولهذا تريني لا أخشى لدغتك ! نعم لا أخشاها ... لكونها تريحني من هذا العالم ، وتجمعني بمن أحب ... ثم وخزتها وخزة موجعة فتململت الحية ولسعتها في صدرها !

عند هذا نهضت كليوباطرة وتمددت على سريرها هامسة : هأنذي أوافيك يا أنطونيوس ! يامن غذيت أزاهير أحلامى بالحب !

انتحرت - كليوباطرة - فاضطرب النيل وارتعشت أوراق النخيل في مملكة ممفيس ... لقد ارتجف كل كائن حي خلا قلباً واحداً لم يرتجف ، هو قلب - أوكتافيوس - سيد روما في ذلك الزمن . لكنه على الرغم من كل ذلك فض الخطاب الصغير وتمتم قائلا :

إنها تريد أن تدفن مع حبيبها أنطونيوس . نعم ، تريد أن تعانقه دائماً بعد الممات . فليكن لها ما تبتغى ... هو الحب فلتبلل ضريحها دموعه المقدسة ،

* * *

هذا ملخص القصيدة . ففيه تلمس تخليد الشاعر لحب - كليوباطرة - ذلك الحب الذي شغل فريقاً من العبقريين في التاريخ ، ولكن على الرغم من الجمال الشعرى والاشراق الفنى في القصيدة أود أن أعرف أصادقة تلك الدموع أم كاذبة ، أشريفة أم أثيمة ؟

لم يبق بين الذين عنوا بتاريخ كليوباطرة من لم يمجد دموعها في حبها ، ويطرى موقفها المؤثر في ساعات انتحارها . أما أنا فأهزأ بتلك الدموع التي حملتها على الانتحار لأنها دموع لا يقرها الحب الروحي السامي الخاضع للتضحية

لقد بكت كليوباطرة وهي تنتحر ، ولكنها لم تبك على

حب مقدس ، بل على نزوة حمراء تصرمت وتبددت ...

والحب الذى يسوده نزوان اللحم والعظام خادع كالتراب المنهب!

إن أشرف أنواع الحب هو ما تبدت به العاطفة واختمرت به الروح ، فدموعه تبقى منهلة فى المحاجر كندى الفجر . أما الحب الذى تولده الأعصاب فدموعه مستقطرة من الوحل لا من أجفان السماء .

ولا يعتقدن القارىء أن كليوباطرة احتكرت وحدها هذا النوع الفريد من الحب الحيوانى الغليظ ، فهنالك امرأة تبزها هى (جان ديفال) التى أضرمت بضراوتها المستكرة عبقرية - بودلير - شاعر فرنسا فى الجيل الماضى . فقد كونت فيه عنصرين متناصرين أبداً ... عنصر يبتليه جسدها الغامر بالشهوة ، وعنصر يحترق حنقاً منها فيجوب رحاب الروح شاكياً من تلك النار المشبوبة ، الناغلة بأحط انواع الحب . ومن يراجع كتابه المشهور - ازاهير الشر - وهو من أروع الكتب الشعرية فى دولة البيان يقرأ تلك المقاطع التى تصور انتحاره النفسى البطىء ، وهى عندى من ابلغ ما أخرجه الشعراء فى العالم .

فانظر كيف يصفها الشاعر :

« عندما أجلس قربها فى ليالى الخريف الدافئة مستنشقاً شذا صدرها الحار ... تحملنى الأحلام إلى بلاد سعيدة رافلة فى حلل وضاءة من نور الشمس فأرى فيها نساء تستبيك أجسامهن الفاترة المتكاسلة لما يعذبها من شهوة مخدرة ، وبريح أليم !

« وعندما تنتقل متمايلة فى غلائلها الهفافة ، المنبهة للحواس ... إخالها ترقص كتلك الأفاعى الخبيثة التى يرقصها الحواة فى الشرق على أنغام الشبابة الحزينة !

« وعندما تتمدد عند أقدامى مستضرعة إلى بأرق كلمات الصبابة لكى أطفىء جذوة لهبها المحرقة . . . أحسبنى أرى موجة من أمواج البحر العرارة تتراخى واهية على الشاطىء بعد أن أفرغت الزبد من فمها !

— هى بعينيها المتقدتين كأشرار المعادن

— وهى بلحمها الوضاء المغرى كجمرة الأتون الحمراء

— إن فيها بريقاً وناراً ...

— وإن فيها لهيباً وكبريتاً !

— هى امرأة سحرية .... تمثل لك بجمودها المخزى أبا الهول الصامت ، وبشهوتها اللافحة حية هائلة مخيفة ! »

ثم انظر كيف يصفها هنا :

« أحبك وأمقتك معاً أيتها الفاجرة الطاعنة قلبى بخنجر سام ، الناغلة فى جسمى كما تنغل الحشرات فى جيفة منتنة !

المازدة فى روحى كالشياطين !

أيتها الضارية المتخذة شرقى سريراً لفحشائها ، أيتها الساقطة المكبلة إرادتى بالأصفاد ، انى أكرهك ... فلعنة أنت !

لقد استغثت بالسماء ان تقبضنى اليها . واستنجدت بالموت تخلصاً من موبقاتك ... فلا السماء سمعت دعائى ، ولا الموت استجاب طلبى ، وكيف تفعل السماء والموت وأنا أنزف دمى على مضجعك الفاسد ، وأنحر جسدى فى طريق استهتارك المتقنعة ؟ »

* * *

إن دموع الحب رائعة ومؤثرة عند ما تجيشها العاطفة المسحوقة . ويحركها الاحساس الذبيح . أما اذا أجراها الغرام العابث فهى أفظع من المقصلة ، وأقسى من العبودية

مسكين اذاً - بول فاليرى - لقد أخطأ وهو يصور دمعة من دموع الحب . فلو انه رسم لنا دموع الذين يموتون من اليأس ، وبأسهم من خيانة المرأة لكان أبدع وأجاد

إن الحياة ، الحياة المتغلغلة فى القلوب والأرواح والسابحة على أمواج الماضى والحاضر والمستقبل ، إن هذه الحياة لتهزها نبرة الشاعر العبقرى وتفتنها ألوانه وخطوطه وأصباغه التى يطلى بها قصائده . أما الدموع الكاذبة الآثمة التى يسعى إلى تقديسها بذلك البيان المورق الأنيق لتنفر منها ولا تقرها أبداً !

« البرازيل » يوسف البعينى

في الأدب المقارن

أثر المـرأة

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

للمرأة أثرها الخطير في المجتمع، ولمنزلتها من الارتفاع أو الانحطاط أوثق الصلات بتقدم المجتمع أو تأخره، واطراد رقيه أو ابتداء تدهوره، ولنظرة الرجل إليها ومعاملته إياها أبلغ الدلالة على سمو الأخلاق أو تدليها، فالمرأة هي الأليف الذي يسكن إليه رجل اليوم، والمربي الأول الذي ينشئ رجل الغد؛ فاذا كان ذلك يأوي منها إلى صحبة ممتعة للنفس مغذية للشعور، وكان هذا ينشأ في حجر راعية برة حازمة، فقد توفرت للمجتمع أكبر أسباب السعادة والنجاح، أما حيث تحتقر المرأة وتذاد عن نور العلم ازدراء لها واستهانة بوظيفتها، ويساء فهم علاقتها بالرجل حتى لا تحسب تلك العلاقة سوى شهوة تافهة، فذلك مجتمع دوام انحطاطه محتوم، واطراد تدهوره بدهي، إذ لابنجاح لمجتمع تمتهن فيه مكانة المرأة، وتغفل وظيفة الأم، وتجهل نعمة التعاون الزوجي

ولما كان للمرأة هذا الأثر العميق في المجتمع ورقيه وآدابه العامة، كان لها في أدب اللغة أثر بعيد ومكان ظاهر؛ فالى منزلتها من الرفعة أو الضعة ترجع الصبغة التي ترين على الأدب من وقار وعفاف أو استهتار وفجور، وعلى التغني بجمالها والترنم بحبها يتوفر باب من أهم أبواب الأدب وهو النسيب، وارتفاع شأنها في المجتمع مقرون دائماً بازدهار الأدب، لأن المجتمع الذي يجل المرأة ويتغنى بمحاسنها مجتمع صادق الشعور، عالي النفوس، وبعكس ذلك المجتمع الذي يزدري المرأة ويسخر منها وترين فيه الشهوة لا ينتج علماً ولا أدباً، وارتفاع شأن المرأة في المجتمع مقرون كذلك بمساهمتها في الأدب منشئة وناظمة وناقدة، والأدب لكل هذه الأسباب مرآة صادقة واضحة لمنزلة المرأة في المجتمع، ومنزلة المجتمع من الرقي، وحظه من الأخلاق

كان للمرأة العربية على العموم في الجاهلية وصدر الاسلام لاسيما نساء السادة والأشراف، منزلة عالية: كانت تشارك الرجل أعمال السلم وتعاونه في إبان الحرب، واشتهرت نساء كثيرات في تاريخ تلك العهود، واحترفن الأعمال كالطب والتدريس، وشاركن في السياسة فتركن أثرهن في سير الحوادث، وزاد الاسلام منزلة المرأة ارتفاعاً وحررها من كثير من أسباب الشقاء التي كانت تقاسيها نساء الطبقات السفلى، ومما له دلالته على مكانة المرأة إذ ذاك أن كبار الرجال كانوا يعتزون بالانتساب إلى أمهاتهم وعصبياتهن، وكانوا يلقبون في مواقف التبجيل والمدح بابن هند وابن عائشة وابن ذات النطاقين

هذه المكانة المحترمة التي تمتعت بها المرأة في المجتمع في ذلك العصر، تركت آثارها واضحة في أدبه: فقد كان أدب ذلك العصر مزدهراً قويا صادق العاطفة نبيل الغرض في جملته، وكان للمرأة فيه ذكر مردد، تستهل بذكرها القصائد، وتنظم في الترنم بحبها الأشعار، ويسجل الشاعر حواره مع زوجه في شتى الشئون في القصيدة يبدأها بقوله: «وقائلة . . . فقلت لها . . . .»؛ وبلغ النسيب في هذا العصر أعلى درجاته من الرقي وعمق الشعور وعفة المقال. وما أجمل نسيب عنترة بعبلة، ومناجاة جميل لبثينة، وهتاف قطري بن الفجاءة بزوجه أم حكيم؛ وساهمت المرأة في الأدب، فأثر عن كثير من الأعرابيات غرر من سحر البيان، وعرفت نساء من خيرة المسلمات بالرواية والنقد، وظهر في هذا العصر أكبر شاعرتين في تاريخ الأدب العربي: الخنساء وليلى الأخيلية اللتان ضارعتا الفحول رصانة قصيد وجودة معان؛ وكان بجانبهما العدد العديد من الشاعرات المجيدات اللاتي كان بعضهن يساجلن محبيهن شعراً؛ وتفاخر الشعراء بالعفة وحسن المعاشرة والجوار ورعاية مكانة المرأة، قال مسكين الدارمي:

ما ضر جاري إذ أجاوره ... ألا يكون لبيته ستر
أعمى إذا ما جارتي خرجت ... حتى يواري جارتي الخدر

هنالك بلغ المجتمع الاسلامي أوج رقيه، ثم داخلته عوامل الفساد بتضخم الملك الفجائي وانتشار الثروة والجواري والغلمان وذيوع الترف والانصراف إلى الشهوات، ومخالطة الشعوب المختلفة واقتباس الضار من تقاليدها. ووهنت أخلاق العرب القويمة التي رفعوا بها لواء سيادتهم، فضعفت روابط الأسرة بذيوع التسري، وانحطت نظرة الرجل إلى المرأة بانتشار صناعات القيان والمغنيات والراقصات، وفشت الريبة وشدد الحجاب على المرأة وعزلت عن المجتمع فحرمت العلم والنور والحياة، وحرم المجتمع تأثيرها المرقق للشعور والمتسامي بالآداب، وازداد المجتمع انحطاطاً وشاع فيه هجر القول، وخلا تاريخ ذلك العهد من اسم امرأة واحدة ذات أثر في حياة الأمة

فهذا الطور الثانى من تاريخ المرأة العربية مضاد للطور الاول سارت فيه مكانتها إلى انحطاط مستمر ، وبدا أثر ذلك الانحطاط في أدب ذلك العصر : اتسم بالاخاش والاقذاع ، وضعف وحل التقليد فيه محل الابتكار ، والزخرف اللفظي محل الشعور العميق وأصبح النسيب فيه إما بذيئاً شهوانياً كأشعار بشار . وإما تقليدياً وهمياً أجوف كاستهلالات البحترى ، وشبب بعض المجان بالذكور ، وتفنن بعض الكتاب كابن دريد فى أحاديثه وصاحب كتاب المحاسن والأضداد ، والأصبهانى فى أغانيه فى إيراد القصص الشهوانية والنوادر التى تبدو فيها المرأة متاعا ينتهب ، أو مخلوقاً نزقاً خائنا متقلبا ؛ ولم تنبغ فى الأدب امرأة يعتد بآثارها ، وإذا كانت القيان قد ألهمن الشعر كثيراً من الشعراء ، وكانت منتدياتهن مجمعاً للأدباء ، فما أنتج ذلك كله إلا أدبا شهوانيا فاترا هزيلا ، وبعد أن كان الشاعر فى الطور السابق يتمدح بتبجيل المرأة ، ويتقرب إليها بالمكارم « لتحمد يوماً عند عز شمائله » كما قال كثير أصبح النيل منها والاغراء بها والتهكم بطباعها من هم بعض الشعراء ، قال بشار :

عسر النساء إلى مياسرة ... والصعب يسهل بعد ما جمحا

وقال غيره :

وإن حلفت لايخلف النأى عهدها ... فليس لمخضوب البنان يمين

وهكذا حرم الأدب العربى إلهام المرأة السامى الجليل ، وما أقل ما بقى من منادح القول لأدب حرم ذلك الالهام ؛ وجاء شعر فحول العربية فى أوج ازدهار الأدب خلواً من تاريخهم الغرامى الصحيح ؛ فهل كان لأبى تمام والبحترى والمتنبى غرام صادق عميق ، صهرت فى تنوره نفوسهم ، وتكشفت لهم الحياة من خلاله عن عوالم جديدة من الاحساس والتفكير ، إن أثر ذلك معدوم فى شعرهم ، وليس فى شعرهم إلا النسيب التقليدى الاستهلالى المملوء بذكر هند ودعد ، والكثبان والأغصان ، والأطياف والمدامع ؛ لا يثير فى نفوسهم هذه العواطف الغبية إلا الطمع فى عطايا الممدوحين . أما النسيب المستقل بكل القصيدة المقصود لذاته فليس هناك . وبلغ من موت العلاقة السامية بين الرجل والمرأة أن المتنبى نفسه كان لا يكاد ينظم فى النسيب الاستهلالى أبياتا تحمله عليها تقاليد الصنعة حتى يبرم ويتملل ، فيزيح النسيب جانبا صائحاً بصاحبته المتخيلة : صلينا نصلك فى هذه الدنيا ، فان مقامنا فيها قليل ، فان لم تصلى فاذهبى ودعينى أستطرد إلى ما هو أهم من أمرك من امتداح هذا الكريم ذى العطايا الجزيلة ، أو ربما انقلب على محبوبته وجنسها هاجيا ، فقال إن الغوانى جميعا ضياء فى بواطنه ظلام .

ولم يقتصر التهجم على المرأة على ذوى المجون وعبيد الشهوات بل اتخذ سبيله إلى كتابات المفكرين ، وتقنع بمظهر العلم فى آثار المعرى الذى صب فى لزومياته جام غضبه على المرأة ، ورماها بالغدر وشبهها بالأفعى ، وعاد إلى تشديد الحجاب عليها ونهى عن تعليمها حتى تقويم السطور ، ولا ريب أن مزاج المعرى السوداوى وحياته المقفرة من حنان المرأة ، ونقمته على الحياة جميعا ، كل ذلك كان ذا أثر فى نظرته القاسية إلى المرأة ، واعتباره إياها رمزا للحياة فى جهلها وتقلبها وغدرها ، بيد أن ظروفه الشخصية التعسة هذه إنما هيأته ليكون معبرا عن أفكار عصره الذى كان يعج بالفساد والاضطراب والانحطاط الخلقى ، فلا ريب أنه كان يجد آذانا صاغية ، وأنه مسؤول عن بعض ما حاق بالمرأة بعد ذلك من قهر وإهمال .

فتاريخ المرأة العربية طوران : الاول طور رقى مصاحب لسمو الأخلاق ورقى المجتمع ونهوض الدولة وازدهار العمران ، والثانى طور انحطاط معاصر لقعود الهمم وتدهور المجتمع وإدبار السلطان وركود الأدب ؛ أما تاريخ المرأة الانجليزية فهو طور رقى مستمر مطرد من عهد شكسبير إلى الوقت الحاضر ، ازدادت فيه المرأة حظا من التعلم والاحترام والمساهمة فى الأعمال ، ولم تعترض ذلك الرقى المطرد إلا فترة رجعة فى عهد الملكية العائدة من فرنسا فى القرن السابع عشر ، وما لبثت تلك الفترة الماجنة أن تلاشت إذ صمد لها الخلق الانجليزى المتين ، وشمر لاماطة آثارها كبار الهمم من الأدباء المثقفين . وتابعت المرأة سبيل رقيها المقرون برقى الأخلاق وسيادة الآداب العامة وتقدم المجتمع .

كانت منزلة المرأة فى عهد اليزابث على درجة من الرقى محسوسة وكان بنات السراة ينلن من التهذيب مثل حظ البنين ، واشتهرت منهن بسعة العلم كثيرات مثل ليدى جين جراى وليدى بيكون والدة الفيلسوف فرنسيس بيكون ، وليس أدل على ارتفاع مكانة النساء فى ذلك العهد من قبول الشعب اليزابث ، وهى بعد فى حداثتها ملكة عليه دون تردد ، وإيلائه إياها من الولاء ما لم يوله غيرها من الملوك ، وإظهارها هى حنكة سياسية بذت بها ملوك أوربا وساستها ، ووضعت بها أساس مجد انجلترا ، وازن ذلك بما كان من ارتياع الناس فى عهد انحطاط المرأة العربية سالف الذكر ، حين وليت شجرة الدر عرش مصر ، حتى بعث الخليفة العباسى يوبخ أمراء مصر ويتوعدهم بالويل والثبور . إن لم يتنحوا ذلك

العار الذى يبقى فى الأجيال، على حين لم يحرك أبناؤه ساكنا يوم ولى نفس العرش عبد خصى، كان يبرى بظفره القلم.

وأثر المرأة الانجليزية فى الأدب تبعا لرقى منزلتها الاجتماعية جليل، يزداد وضوحا وشمولا على تقدم العصور: فهى تبدو فى قصص تشوسر تشارك الرجال أعمالهم، وفى درامات شكسبير مثالا للقدرة الفائقة أحيانا، وموضعا للحب والتقديس تارة، ورمزا للطهارة والوفاء طورا، وفى أشعار شكسبير ومعاصريه ومن جاءوا بعده من كبار شعراء الانجليزية نسيب حاز العاطفة سامى النظرة، وفى القصص والشعر دراسات لشتى الشخصيات النسوية، ونهما تمجيد للجمال وتبجيل للمرأة، يتوسل إليهما بسرد خرافات الاغريق وبطلاتهم وإلاهاتهم، وأساطير القرون الوسطى، سردا شعريا خياليا؛ وضربت المرأة فى انشاء الأدب بسهم وافر فكان من النساء شواعر وقصصيات بارين فحول الرجال

ويبدو أثر المرأة الانجليزية فى المجتمع والأدب الانجليزيين على أوضحه فى القصة: فقد كان للمرأة الفضل الأول فى ظهور هذا الضرب من الأدب، فعلى أيدى اديسون وستيل اللذين اهتما بتثقيف المرأة وتنقية المجتمع ظهرت بذور القصة، ولما أخذت القصة شكلها الاجتماعى الحديث فى القرن الثامن عشر، كان للمرأة دور رئيسى فى حوادثها، ولولا اختلاط المرأة الانجليزية فى المجتمع ومساهمتها فى الحياة لما نمت القصة، ولا وقفت على قدميها، وقد جاء نموها وذيوعها مصاحبا لنهضة المرأة وازدياد حظها من التثقف. ولما بلغ ذلك الرقى الاجتماعى غاية بعيدة فى القرن التاسع عشر، بانتشار الديمقراطية وذيوع التعليم العام، نبغت جمهرة من كبريات القصصيات بارين كبار قصصى العصر الحديث، وفى مقدمتهن جين أوستن وشارلوت برونتى ومزجاسكل

والقصة ضرب من الأدب يلائم طبع المرأة أكثر مما يلائمه نظم الشعر الذى هو أشبه بالرجل، لانه يحتاج إلى قوة وفخامة وشمول نظرة لا تتفق كثيرا للمرأة، التى أهم صفاتها النعومة والدعة، أما القصة التى تدرس الحياة الاجتماعية وتصف الحركات والسكنات، وتحصى التفاصيل وتتبع الحوادث وتسترد ما قيل وما فعل، فتجد فيها المرأة خير مجال للتعبير عن خلجاتها ومشاهداتها، وملاحظاتها الدقيقة للأشخاص والأشياء؛ زد على ذلك ان المرأة تستطيع فى القصة ان تعبر على لسان غيرها عن نزعات الحب وأطواره، تعبيرا لا يستساغ منها إذا هى أعلنته فيه شعرا

فالقصة أدب المرأة: ظهورها رهن برقى منزلة المرأة فى المجتمع، فاذا ظهرت فحول المرأة يدور حديثها، وبين النساء تلقى الرواج والاقبال، وفيها تجد المرأة خير مجال لمواهبها الأدبية، ومن ثم أنتجت المرأة الانجليزية فى فن القصة خير إنتاجها الأدبى، أما المرأة العربية فأخرجت أحسن آثارها فى الشعر فى طورها الأول، فلما تطور المجتمع العربى وجاء أوان ظهور القصة الاجتماعية، كانت عوامل الفساد سالفة الذكر قد اجتاحت مكانة المرأة وضربت بحجاب كثيف بينها وبين المجتمع والأدب، فأقفت القصة فى بدء نموها، واستحال تطورها ورقيها، وجاءت مقامات البديع التى هى الخطوة الأولى فى الأدب العربى فى سبيل القصة الاجتماعية، خلوا من شخصية نسائية واحدة جديرة بالذكر، ولم يعرض الحريرى إلا عجوزا يسحبها أبو زيد فى استجدائه، أو لكاعا يبارزها وتنافسه فى بذائه

ولنجاة المجتمع الانجليزى من مثل تيار الترف الجارف الذى غمر المجتمع العربى، عقب الفتوح، ظل ذلك المجتمع رفيع الآداب قويم الأخلاق، وظل الأدب عفيف المقال، وظل النسيب شريف اللفظ والغرض، وخلا النسيب الانجليزى مما تدرن به النسيب العربى فى عصره المتأخر، من تحدث بالشهوات، ووصف لأجزاء الجسم وهجاء للجنس اللطيف وتغزل بالذكور؛ فاذا حمل على المرأة خصم عنيد كلتون الذى وصمها بالنزق والختل وجعلها دون الرجل منزلة، وجعل شخصية دليلة، فى قصته الشعرية «شمسون الجبار» نموذجا لها، أو سلك مسلك الاستهتار والتبذل كبيرون الذى كان يقرن الانقياد للشهوات باحتقار المرأة، لم يجد من حوله إلا صدى ضعيفاً لايلبث أن يتلاشى مع صوته، ويتابع المجتمع سبيل تقاليده التى درج عليها، تقاليد الاعتدال والتعفف واحترام المرأة

فأثر المرأة فى الادبين العربى والانجليزى جلى خطير، بيد أنه أجلى وأجل خطرا فى الأدب الانجليزى، وهو فى الأدب العربى دليل ارتقاء تبعه انحطاط، وفى الانجليزية برهان ارتقاء مطرد، فى المجتمع والأخلاق والأدب، ومكانة المرأة الانجليزية العالية فى مجتمعها مرد ما يمتاز به الأدب الانجليزى عامة والنسيب خاصة، من عفة ووقار؛ وهبوط مكانة المرأة العربية فى عصور التدهور مرجع الفحش الذى ذاع فى النسيب والهجاء وغيرهما من أبواب الأدب العربى فى عصوره المتأخرة، وبرغم تساوى المرأة العربية والمرأة الانجليزية فى تقصيرهما دون الرجل فى حلبات الأدب، وضآلة أثرهما فيه إذا قيس بآثار الرجل فى شتى الاغراض، فإن المرأة الانجليزية تفوق العربية فى كثرة إنتاجها الأدبى، كما فاقتها فى كثرة ما أنشأ الرجل حولها من أدب، وما استلهمها من وحى، للسبب عينه: وهو أن المرأة الانجليزية كانت أكثر مساهمة فى المجتمع وأرفع منزلة فيه

فخرى أبو السعود

الاسلام والديمقراطية

للأستاذ عبد المجيد نافع

بقية ما نشر في العدد الماضي

رأى عمر مرة يهودياً ممسكاً برسول الله يطالبه بدين له ، فعظم ذلك عليه وأخذ بخناق اليهودي وقال : دعني أقتله يارسول الله . فقال : دعه يا عمر إن لصاحب الحق مقالا

وخطب أبو بكر فقال : القوى فيكم ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق ، والضعيف فيكم قوى عندي حتى آخذ له الحق إن شاء الله تعالى

واختلف عمر مع اعرابي فاحتكما إلى أبي بكر فقال : قف بجانب خصمك وقص يا ابن الخطاب قصتك ، فقام عمر وعلى وجهه أثر الامتعاض . فقال له أبو بكر : أيسوؤك أن تقف بجانب خصمك ؟ قال : لا . ولكن ساءني أن كنيتني وفي التكنية تعظيم

ولما أسلم جبلة بن الأيهم ملك غسان وفد على عمر بن الخطاب بأبهة الملك وحشمه فتلقاه عمر بالترحيب ، وبينما هو يطوف يوماً وطيء على إزاره اعرابي فضربه على وجهه ، فشكاه الاعرابي إلى أمير المؤمنين ، فاستدعى عمر جبلة وقال له : إما أن ترضيه وإما أن يضربك كما ضربته . فكبر ذلك على جبلة وقال : ألا تفرقون بين الملك والسوقة ؟ قال : لا . قد جمع بينكما الاسلام . فاستمهله إلى الغد ثم أخذ قومه وفر بهم ليلا ، ولحق بالأمبراطور هرقل بالقسطنطينية

وعزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد من قيادة الجيش وقال له : ما عزلتك لريبة فيك ، ولكن افتتن بك الناس فخفت أن تفتتن بالناس

على أن نفس خالد كانت متشبعة بمبادىء المساواة ، فارتضى أن يهبط من القيادة إلى مصاف الجندية ، وأن يكون في الجهاد جندياً بسيطاً

وإن شئت أن ترى آية من آيات المساواة في الاسلام فأنعم النظر في كتاب عمر إلى أبي موسى الأشعري في القضاء حيث يقول : آس بين الناس في مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا يخاف ضعيف من جورك

وكذلك كان يبغي عمر العدالة ومظاهر العدالة

وجمع عمر الناس بالمدينة حين انتهى إليه فتح القادسية ودمشق فقال : إني كنت امرأ تاجراً وقد شغلتموني بأمركم هذا فماذا ترون أن يحل لي من هذا المال ؟ فأكثر القوم وعلى رضى الله عنه ساكت . فقال : ياعلى ما تقول ؟ قال : مايصلحك ويصلح عيالك بالمعروف ليس لك من هذا الأمر غيره . فقال : القول ما قال على بن أبي طالب

وما كان المسلمون يأنفون من العمل الحر الشريف ، فقد كان أبو طالب يبيع العطر وربما باع البر . وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه بزازاً . وكان عثمان بزازاً . وكان طلحة بزازاً . وكان عبد الرحمن بن عوف بزازاً . وكان سعد بن أبي وقاص يبرى النبل . وكان العوام أبو الزبير خياطاً . وكان الزبير جزاراً ، وكان عمرو بن العاص جزاراً

يفاخر الغربيون بعظمائهم الذين خرجوا من صفوف العمال وأولئك بناة مجد الاسلام قد خرجوا من جميع البيئات . ونبتوا في كل الطبقات

وما سقت لك تلك الأمثال عبثاً ، وإنما أردت أن أدلك على أن المساواة في معناها الصحيح ، وفي كافة مظاهرها ، ومختلف صورها لم تتحقق يوماً كما تحققت في الصدر الأول من الاسلام

مساواة أمام القانون ، فقد شرع للناس كافة لا فرق بين عظيم وحقير ، وغنى وفقير ، وقوى وضعيف

مساواة أمام القضاء ، ولقد أطلعتك على جانب منها في أروع مظاهره وأسمى معانيه

مساواة في الوظائف العامة ، فقد رأيت كيف ينشأ الرجل منهم في البيئة الصغيرة ثم يصل إلى أسمى مناصب الدولة

مساواة في الضرائب ، فما كانوا يرهقون أحداً أو يظلمون فتيلا

وعلى الجملة فقد كانت مساواة في الحقوق والواجبات

حقق الاسلام مبدأ المساواة السياسية والمساواة المدنية

على أنه لم يشأ أن يمنى أتباعه بالمساواة الاقتصادية أو بعبارة أوضح بالمساواة في الأرزاق ، ذلك بأنه دين الفطرة

وكيف السبيل إلى المساواة الاقتصادية ، وفي الناس العملاق والقزم والقوى والضعيف وجبار العقل والأبله المعتوه

إن نواميس الطبيعة تأبى المساواة الاقتصادية ، ولئن جاز أن تكون في هذا الميدان مساواة فأولى بها أن تكون مساواة في البؤس والشقاء

ورأى الاسلام أن المساواة الطبيعية مستحيلة . قال تعالى في

محكم كتابه : وجعلنا بعضكم فوق بعض درجات

وشاء الإسلام أن يلطف من قسوة قوانين الطبيعة فشرع الزكاة . وعندي لو أن نظام الزكاة طبق على وجهه الصحيح لوجدنا السبيل إلى حل المسألة الاجتماعية التي عجز إلى اليوم عن حلها فطاحل علماء الاجتماع في أوربا . تلك المسألة التي كانت مثار النضال بين الطبقات ، ومبعث المذاهب المتطرفة والنظريات الهدامة

وإذن فليس من الإسراف في القول أن يقال إن الإسلام هو الحصن الذي يرد غزوة المذاهب الهدامة التي تهز كيان المجتمع الأوربي أعنف الهزات ، وتهدد الحضارة الأوربية بالتلاشي والفناء

لم تعرف أوربا المساواة في القرون الوسطى فقد انقسمت الشعوب إلى طبقات ممتازة وطبقات محرومة من الامتيازات ، وكان للأشراف قوانينهم الخاصة ومحاكمهم الخاصة وعقوباتهم الخاصة وضرائبهم الخاصة ، وكانت المدارس الحربية تحرم دخولها على طبقات الشعب ، وكانت المناصب الكبرى في الدولة وقفاً على طبقات الأشراف

وهل تحققت المساواة بمعناها الصحيح في أوربا اليوم ؟ لا تزال هناك مراحل كثيرة لا يزال على أوربا اجتيازها قبل ترسيخ قواعد المساواة

أو ليس النظام في فرنسا مزيجاً من النظم الديمقراطية والأوضاع الملكية والأشكال الأرستقراطية ؟

وإنجلترا التي يقولون عنها إنها مهد النظام الدستوري ومعقل الديمقراطية أو ليس فيها إلى اليوم لوردات ومجلس لأولئك اللوردات ؟

أثار كاتب فرنسي الشكوك حول تحقق مبدأ الحرية السياسية في فرنسا فاسترعى النظر إلى أن رأي الأمة الفرنسية لا يؤخذ في أمس الشؤون بحياتها وأشدها تعلقاً بمصيرها كالحرب مثلا

واستلفت ذلك الكاتب الأنظار أيضاً إلى أن القضاة في فرنسا يؤخذون من بيئات خاصة والمحلفين من طبقات عليها مسحة الأرستقراطية ، واختلاف العقوبة حين يرتكب الفعل الواحد غني أو فقير

والحكم مع إيقاف التنفيذ ؟ أفلا يكاد يستأثر به الغني دون الفقير مع أن الغني قد يكون اختلس مبالغ طائلة أو بدد أموالا كثيرة ؟

أفلا يسخر المداره المقاويل من كبار المحامين بلاغتهم في انتزاع الأغنياء دون الفقراء من براثن العدالة ؟

وهل يتاح للفقير ما يتاح للغني أن يبقى بملابسه فلا يرتدي ملابس السجن ، ويأكل من بيته فلا يأكل من طعام السجون حين يكون سجيناً تحت التحقيق مقابل جعل بسيط تتقاضاه منه إدارة السجن ؟

وأين المساواة إذا كنتم أيها الغربيون تسلحون الأغنياء بأسلحة العلم العالي وتجردون منه الفقراء الذين لا يكادون يجدون السبيل إلى ثمن الخبز فضلا عن أجر التعليم ؟

ليس عجيباً إذن أن يهاجم الديمقراطية خصومها تارة باسم العلم وطوراً باسم الواقع

وليس بدعاً أن يصيح صائح : المجتمع الأوربي يسعى للمساواة ولا يجد السبيل إليها ، شأنه في ذلك شأن الإنسانية التي تجد في طلب السعادة والحقيقة فلا تظفر بهما كما أعيا طلابهما فوست جيته

التسامح الديني في الإسلام يقابله الاضطهاد الديني في أوربا في عصور الظلمات

وإذا ذكرنا اضطهاد الفكر والعقيدة ذكرنا محاكم التفتيش

وفي الحق لم تشهد الإنسانية قضاء أشد نزوعا إلى الظلم وأكثر جنوحاً إلى القسوة من قضاء محكمة التفتيش

نهضت تلك المحاكم لتصد عن الكنيسة تيار الإلحاد المتدفق ، فلئن كانت دينية في نشأتها فإن التعصب قد سخر العدالة في سبيل تحقيق لبانته وغايته

وفوق ذلك فقد وقفت تناهض كل حركة فكرية وعلمية ، ولعل من أبرز ضحاياها غاليليو الرياضي الفلكي الشهير ، أحدث ذلك العالم ثورة في العلوم الفلكية ولبث ردحا من الزمن يواصل العمل في بث نظرياته في دوران الأرض ، فأصدرت البابوية ، وفاقا لآراء أحبار محكمة التفتيش قراراً بنقض تلك النظريات وتحريمها ، واعتبارها تحدياً للنصوص المقدسة . ونصح البابا لغاليليو بالكف عن نشر دعاويه . فلم يأبه الرجل لقرار التحريم ، ولم يحفل بذلك النصح ، ومضى في خدمة العلم والحقيقة . وفي عام ١٦٣٢ نشر كتابه ، محادثات عن الأصول العالمية ، فأحدث صدوره ضجة عظيمة واستقبلته دوائر العلم والفكر في أوربا استقبالا حماسيا منقطع النظير . وهنا ثارت ثائرة الكنيسة وحرمت بيع الكتاب في الحال . ودعي غاليليو للمثول أمام محكمة التفتيش في روما ، فاعتذر بشيخوخته وضعفه وكان قد نيف على السبعين . فاستشاط البابا غضباً وعد تخلفه عصيانا . فأجاب الدعوة واعتقل في قصر محكمة التفتيش في ابريل من عام ١٦٣٣ . حقق معه وعذب ولم ترحم محكمة التفتيش شيخوخته وضعفه ، وكانوا كلما أمعنوا في تعذيبه ولجوا في التنكيل به ، أمعن هو في التشبث بالحق ، والإصرار على الحقيقة . فاذا زادوه نكالا صاح في وجوههم : ومع ذلك فإن الأرض تدور !

وإنه ليهولك أن تعلم أن عدد المحكوم عليهم من محاكم التفتيش المختلفة بلغ في الفترة ما بين ١٤٨١ – ١٤٩٨، ١٢٥٢٩٤، منهم ٨٨٠٠ أعدموا بإحراقهم و٦٥٠٠ أحرقت رموزهم و٩٠ ألفا طبقت عليهم عقوبات مختلفة بالسجن والغرامة والتوبة .

وفي الفترة ما بين ١٤٩٩-١٥٠٦ بلغ عدد المحكوم عليهم ٣٤٩٩٢ منهم ١٦٦٤ أحرقوا و٨٣٢ أحرقت رموزهم والباقون وقعت عليهم أحكام مختلفة

ومن ١٥٠٦ إلى ١٥١٨ بلغ عدد الضحايا ١٦٧٫٥٠٠ من هؤلاء ٢٥٣٦ ماتوا حرقا و١٦٣٨ احرقت رموزهم والباقون طبقت عليهم عقوبات أخرى

والآن ندع التقدير للمؤرخ الشهير «لورنتي» ، وهو أكبر حجة وأعظم ثقة في الموضوع

٣١٫٩١٢	أحرقوا
١٧٫٦٥٩	أحرقت رموزهم
٢٧١٫٤٥٠	طبقت عليهم عقوبات شديدة
٣٤١٫٠٢١	المجموع

والآن فاسمع هذا الوصف الذي تقشعر لهوله الأبدان وصاحب الوصف هو فيكتور هوجو ألقاه في الاحتفال بتأبين فولتير :

في ١٣ أكتوبر من عام ١٧٦١ وجد شاب مشنوقا . ثارت الخواطر واضطربت الأفكار . وهاج هائج رجال الدين بينا أخذ رجال القضاء في التحقيق . ومشى الناس بعضهم إلى بعض يتساءلون : انتحار أم قتل ؟ وكان الاتهام منصبا على رأس الوالد . وقال الذين أثاروا الشكوك حوله إنه من الهجنوت وقد حال بين ابنه وبين اعتناق المذهب الكاثوليكي . وكانت البداهة تمج هذا الاتهام وتحمي الوالد من ارتكاب هذا الجرم الفظيع . وإلا فأي عقل يسوغ أن يسفك الأب دم الابن ويشنق الشيخ الشاب

وما لبث الناس أن شهدوا في يوم ٩ مارس سنة ١٧٦٢ مشهداً هائلا رهيبا . رأوا رجلا جلل الشيب فوديه يساق إلى أحد الميادين العامة ، ذلكم هو جان كالا ، وما راعهم إلا أن يروا الشيخ المتهدم الفاني عاري الجسم مطروحا على عجلة موثق الأكتاف متدلي الرأس ، ووقف إلى جانب المشنقة ثلاثة رجال فأما الأول فطبيب ليعنى به . وأما الثاني فقس يحمل الصليب ، وأما الثالث فالجلاد وبيده قضيب من حديد .

وعرت الضحية نوبة ذهول واضطراب ، وتمشى الرعب في أضالعه ، فما كان يرنو إلى القس بل كان يرمق الجلاد بنظراته المضطربة الحائرة ، وما يلبث الجلاد حتى يهوي بالقضيب الحديد فيهشم للمسكين ذراعا . أنين يمزق نياط القلوب يعقبه فقد الرشد . فيتقدم الطبيب فيعيده إلى الصواب بشم بعض الأملاح . فينبري الجلاد لضربة جديدة . صرخات دامية ثم غيبة عن الصواب . يعيدونه للحياة والجلاد يعاود الضرب . وإذا كان كل عضو لا بد أن يكسر في موضعين فلا مفر له من تلقي ضربتين . وإذن فقد تلقى المسكين ثماني ضربات . وفي عقب الضربة الثامنة يتقدم القس له الصليب ليقبله ، على أن «كالا» يشيح عنه بوجهه . لو كانت الرحمة تجد سبيلا إلى تلك القلوب المتحجرة لقلنا إن كان في نفوسهم بقية منها فقد أجهز الجلاد على «كالا» بضربة قاضية من رأس القضيب الغليظة ، حطمت صدره تحطيما . وبذلك وضع حد لعذاب كالا وآلامه . إذ فاضت روحه في الحال

دام التعذيب ساعتين كاملتين ، وما إن مات كالا حتى تبين في جلاء ووضوح أن الشاب مات منتحراً . على أن جريمة قد ارتكبت ومن هم مرتكبوها ؟ هم جماعة القضاة الذين قضوا على كالا بغير الحق .

وفي عام ١٧٦٥ بعد ليلة عاصفة وجدوا على إفريز أحد الجسور صليباً خشبيا عتيقا ملقى على الأرض . ومضت ثلاثة قرون والصليب معلق في رأس السور . فمن الذي طرح الصليب أرضا ؟ من ذا الذي اجترأ على ارتكاب ذلك الإثم ؟ لا يعلم أحد . أيكون أحد المارة هو الذي عبث به ؟ أم تكون الريح هي التي عصفت به ؟ ويرى الناس مطران «أميان» يرغي ويزبد ، ويبرق ويرعد ، ويتوعد ويتهدد بالنار كل من يعلم الحق ثم يكتمه . وهنا تتلاقى هوجاء التعصب مع هوجاء الجهالة . ولا تلبث العدالة أن تكتشف أو تتوهم أن تكتشف أن ضابطين مرا بالجسر وأنهما كانا ثملين وينشدان نشيداً حربيا ؛ فأما أحدهما فيلوذ بأذيال بالفرار ، وأما ثانيهما «لابار» فيؤخذ بتلابيبه ، فيسأل ، فيعتصم بالإنكار ويقسم جهد أيمانه إنه لم يمر بالجسر . فيبدو لهم أن يسألوه عن شركائه . ولكن شركاءه في ماذا ؟ أفي أنه اجتاز الجسر ؟ أم في أنه أنشد وصاحبه نشيداً عسكريا ؟ ثم يعذبونه لينتزعوا منه اعترافا فيحطمون إحدى ركبتيه . والمكلف بأخذ الاعتراف منه يهوله صوت قرقعة العظام حتى يغيب عن صوابه من عظم الهول . ثم يسوقون لابار إلى أحد الميادين العامة ، وقد أذكوا في بعض جوانبها نيرانا مضطرمة . يتلون عليه الحكم . فيكسرون احدى يديه . ثم يستلون لسانه بكماشة من حديد . ثم يريحونه بأن يفصلوا رأسه عن جسده . ثم يلقون جثته طعاما للنيران ، وكذلك مات لابار في ربيع العمر إذ لم يكن جاوز التاسعة عشرة وراح ضحية بريئة للتعصب الأعمى .

لم يقض الاسلام بالقاء أحد طعمة للنار لمجرد الزيغ في عقيدته ولم يضطهد حرية الفكر والاعتقاد ، ولم ينكل بغير معتنقيه ولم يطارد العلماء والفلاسفة بل اتسع صدره للعلم والفلسفة .

وهنا لا نرى مندوحة عن أن نبدد وهما ، فنسارع إلى القول بأن حروب الخوارج لم تكن لها صبغة دينية على الإطلاق ، بل كانت حروبا سياسية بحتة .

نعم ، لم يكن مثار تلك الحروب الخلاف في العقائد ، وإنما أشعلتها الآراء السياسية في طريقة الحكم ، وما اقتتل الخوارج مع الخلفاء لينصروا عقيدة . ولكن سعيا وراء قلب نظام الحكم وتغيير شكله

وما اضطرمت نيران الحرب بين الأمويين والهاشميين لشيء غير الخلافة ، وبذلك كانت حروبا سياسية لا دينية .

وكان المسلمون إذا هموا بفتح أمة خيروا أهلها بين الاسلام أو الجزية . أو الحرب . وذلك هو أقصى ما يبلغ اليه التسامح .

فاذا أدخل الاسلام بلدا تحت ظلاله خلى بين المحكومين وبين حريتهم الدينية ، وما يكلفهم إلا بجزية يؤدونها صيانة لأنفسهم ومحافظة على أمنهم في ديارهم وذودا عن عقائدهم ومعابدهم .

لهم ما لنا وعليهم ما علينا
من آذى ذميـاً فليس منا
إن المسلمين يسعى بذمتهم أدناهم

ذلك هو شعار الاسلام في معاملة الذميين

روى البلاذري في فتوح البلدان أنه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع ، وبلغ المسلمين اقبالهم اليهم لوقعة اليرموك ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج ، وقالوا قد شغلنا عن نصرتكم والدفاع عنكم فأنتم على أمركم . فقال أهل حمص : لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم ونهض اليهود وقالوا : والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد . فأغلقوا الأبواب وحرسوها

من ذلك ترون أن الجزية كانت تؤخذ مقابل الدفاع

يقولون إنا في عصر عملي يكره الأحلام والحالمين

بل نحن في عصر مادي فترت فيه حرارة الناس في التعلق بالمثل العليا وانعدم إيمانهم بالمبادىء السامية أو كاد وأصبح من يتشبث فيهم بتلك المبادىء يسمى خيالياً يعيش في السحاب

وترى خصوم الديمقراطية يهاجمونها بعنف وشدة ، فهذا يهاجمها باسم العلم وذاك يهاجمها باسم الواقع وغيرهما يتكلم عن أزمة الديمقراطية ، ورابع يخوض في حديث إفلاسها

يقولون إن النواميس الطبيعية لا تعرف المساواة ، وإن الارستقراطية هي دعامة الحضارة والرقي ، وإن من الناس من يجب أن يعمل بيده ومنهم من يجب أن يتوافر على الأعمال العقلية ، وإن حكماء اليونان كان لهم بعض العذر حين ذهبوا إلى تبرير الرق بضرورة أن يتفرغ الحكماء لادارة شؤون الدولة

ولا شك أن الديمقراطية تعاني اليوم أزمة شديدة بدليل أن الدكتاتورية قد غلبتها على أمرها في بعض الأمم

على أن البقاء للاصلح من المبادىء والفوز معقود بلواء الديمقراطية في النهاية إن شاء الله

فالذين بنوا الحضارة هم من الطبقات الشعبية لا من طبقات الأشراف .

والمشاهد الملموس في أوربا أن طبقات الأشراف تفنى سراعاً

والمذاهب المتطرفة التي تغزو موجتها أوربا اليوم لا يلبث أن يتجلى زيفها حين يتبين للناس أنها تبني لهم قصوراً من الورق أو قصوراً في أسبانيا

والاسلام الذي وقف طوال العصور في وجه العواصف الهوج كالجبل الأشم هو الاسلام الذي يقف اليوم معقلاً حصينا يرد عن العالم الاسلامي عادية خصوم الديمقراطية وعدوان دعاة المذاهب الهدامة

فاذا دعونا اليوم للتشبث بمبادئه والتعلق بتعاليمه فانما ندعو إلى الاحتفاظ بمعقل الديمقراطية ؛ إنما ندعو إلى الذود عن دين الحرية والاخاء والمساواة .

عبد المجيد نافع

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٩ —

الفلسفة الهندية

تمتاز بلاد الهند بخصوبة أوديتها، وتعدد نباتاتها وكثافة غاباتها وتعقد مسالكها، وكثرة منعرجاتها ومصاعدها ومهابطها، وتباين أجوائها ومناخاتها، ووفرة التناقض الطبيعي في أرضها وسمائها، فبينما ترى فيها جبالاً شاهقة تتجاوز السحاب سمواً، وهضبات متفرقة تفصل بعضها عن بعض هوى سحيقة وحفر طبيعية عميقة، وتلالاً تتخللها من جهة كثبان ضخمة وتعترضها من الجهة المقابلة صخور عظيمة النتوء صعبة الاجتياز، إذ بك ترى إلى جانب هذا أودية مبسوطة ومروجاً باسمة تتباهى بما تزدان به من ألوان الزهور وأفانين الثمار والبقول. وكذلك جوها لا تكاد تحس بدفئه وحرارته حتى يفاجئك برده ورطوبته، بل إن الانسان — كما أنبأني أحد الذين أقاموا في هذه البلاد — قد يشكو من شدة الحرارة التي يحس بها في جنبه الأسفل الذي على الفراش بينما يألم أشد الألم من الرطوبة التي تصب على جنبه الأعلى. ولا ريب أن هذه طبيعة غريبة قد يدهش لها المصري الذي اعتاد أن يشاهد زيادة النيل ونقصانه، واشتداد البرودة وتوسطها، وارتفاع الحرارة وهبوطها، وحرارة الشمس وفداءتها، وحلول الفصول وارتحالها، كل ذلك في أوقات منظمة محددة لا تختلف إلا لشذوذ نادر يعلله العلماء حيناً ويعجزون عن تعليله حيناً آخر.

كان لهذا التعدد في المناظر والمظاهر الطبيعية أثر بارز في عقلية الهنود على رغم ما يوجهه بعض العلماء إلى نظرية تأثير المناظر في العقليات من طعون واعتراضات يحطون بها من شأنها ويحاولون إثبات الأثر كله للعنصر ومواهبه الفطرية ومهما يكن من الأمر فقد استطاع التاريخ أن يتغلغل بالمدنية الهندية في أغوار الماضي مدى ثلاثين قرناً قبل المسيح إذ يحدثنا أن تلك الأودية الخصبة كانت في ذلك العهد مأهولة بقوم من الجنس السامي لهم مدنيتهم ودياناتهم وتفكيرهم، وأن هؤلاء القوم قد ساهموا في بناء صرح المدنية العالمية بنصيب وافر، وكان لهم في تاريخ الفكر البشري مجهود جبار ظل مجهولاً أو غامضاً على الأقل حتى قام العلماء الأثريون والمستشرقون بمكتشفاتهم العلمية فأماطوا اللثام عن هذه الحقائق الناصعة وساعدوا البحث الحديث على رد الأشياء إلى أصولها، وأبانوا أن الديانات الهندية المتأخرة والفلسفات العويصة التي ظهرت في تلك الأصقاع إنما تتصل بالعناصر السامية القديمة أضعاف اتصالها بالمنتجات الآرية التي غمرت الهند بعد الفتح الآجني

يحدثنا بعض المؤرخين أن الهند كانت قبل هذا الفتح الآري قبائل متفرقة أو شعوباً صغيرة، لكل شعب حاكمه وقوانينه وعقائده وعاداته، وأن الوحدة السياسية والعمرانية إنما وجدت فيها على أيدي أولئك الفاتحين «الآريين» الذين يزعم الأستاذ «ماسون» أنهم كانوا في أزمنة لا تعيها ذاكرة التاريخ يقطنون وادي «الدانوب» المخصب في تلك العهود الغابرة، ثم عبروا البوسفور إلى آسيا لضرورة العيش الذي ألجأهم إليه قحط وقع في وطنهم قبل هذه الهجرة التي لم تكن مألوفة لديهم على عكس الشعوب الأسيوية الرحالة. وما زالوا يتابعون سيرهم انتجاعاً للغيث فعبروا الفرات وواصلوا الزحف حتى «البنجاب»، وأخذوا يغيرون على تلك البلاد الخصبة الوادعة حتى بسطوا سلطانهم عليها وأسسوا بها وحدات قوية يصح أن تسمى دولاً، وكان ذلك حوالى القرن الخامس عشر قبل المسيح. ومنذ ذلك العهد بدأت الهند في مرحلة جديدة في الدين والفلسفة والعلم والسياسة، وهذه المرحلة هي التي تشغل الآن أذهان الباحثين المشتغلين بدراسة الفلسفة الهندية

أما الأغصان الأخرى التي بقيت في الدانوب من تلك الدوحة الآرية فقد انتشرت في أوروبا يحمل كل غصن منها اسماً خاصاً به مثل «السيلت» و«الجرمان» و«السلاف» و«اللاتين» و«الهلين»، وقد خالف أصحاب هذه الفكرة الرأي القديم القائل بأن أصل العنصر الآري كان يقيم في بلاد الهند ثم ارتحلت منه بطون إلى أوروبا فكانت منشأ هذه الأجناس السابقة الذكر. ولا ريب أن لكل منهما أدلة خاصة غير أن النار لم تكن هي الإله الأوحد عند هؤلاء القوم

تؤيد مذهبه، لأن مجرد اتفاق هذه الأجناس الأوروبية مع آريي الهند في اللغة «السنسكريتية» وفي بعض العقائد والنظريات لا يؤيد الرأي الأول ولا ينصر الثاني؛ غير أن أصحاب الرأي الحديث يزعمون أن مكتشفات حديثة يرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل المسيح تؤيدهم فيما ذهبوا إليه من أن الهجرة كانت من أوروبا إلى آسيا. وسواء أصح الرأي الأول أم الثاني فإن الاستكشافات الحديثة التي قام بها العلماء منذ أن بدأها الأستاذ «بانيرجي» الهندي، وثنى على أثره فيها «سيرجوهن» تسمح لنا بأن نؤكد أن مدنية الهند الغابرة تمتد جذورها في الماضي أكثر من ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح، ولكن هذه المدنية التي كانت قد ازدهرت في وادي «البنجاب» قبل احتلال «الآريين» لتلك الأصقاع بأكثر من خمسة عشر قرنا قد اندثرت قبل هذا الاحتلال بزمن لا يعرف التاريخ تحديده بالضبط.

ويؤكد فريق من الباحثين أن تلك المدنية القديمة كانت راقية رقياً يسمح لها بأن تصعد إلى ما هو أدنى من صفوف المدنية الفرعونية بقليل، ويجعل «الآريين» الفاتحين إلى جانب الوطنيين برابرة متوحشين. وأنت ترى أن هذا الرأي يخالف ما نقلناه لك آنفاً من أن السكان الأصليين كانوا شعوباً متنثرة أقل مدنية من الفاتحين، وأن «الآريين» هم أول من حققوا لبلاد الهند الوحدة السياسية والاجتماعية.

ومهما يكن من شيء فقد احتل أولئك «الآريون» تلك الأصقاع المتمدينة وطغوا على مدنيتها وديانتها طغياناً محاهما من صحائف أذهان الخاصة وإن كان لم يستطع أن يمحوهما من صحائف الوجود، بل ولا من أذهان العامة والجماهير.

هذا، وللعلماء الباحثين موطد الأمل في أن يصلوا على مر الزمن إلى حل رموز الآثار الهندية القديمة التي أنشأها الوطنيون قبل الاحتلال الأجنبي، فإذا وصلوا إلى هذه البغية استطاعوا أن يتبينوا المدنية الهندية القديمة والديانة المحلية وما امتزج بهما وطغى عليهما من مدنية الفاتحين وديانتهم. أما الآن فأكثر ما يقال في هذا الصدد لا يعدو دائرة الفرض والتخمين.

على أن أهم ما يلفت النظر في الاكتشافات الحديثة للآثار الهندية القديمة هو أنه قد عثر على بعض تماثيل يرجع تاريخها إلى عهد المدنية الأولى، ولكنها تشبه كل الشبه تمثال الإله «سيفا» الذي هو من آلهة عهد الاحتلال «الآري»، وكذلك عثر المكتشفون على رموز يرجع تاريخها إلى القرن الثلاثين قبل المسيح، وهي لا تزال حية في الديانة الحديثة حياة قوية.

ويستنتج الباحثون من هذا أن الإله «سيفا» ليس إلا إلها محلياً قديماً لونه الفاتحون بلون جديد ثم أقروه في الديانة المحدثة، كما أن تلك الرموز الحية في الديانة «الهندوآرية» هي بعينها الرموز الوطنية القديمة. وينجم عن هذا أن تكون الديانة الهندية المستحدثة بعد «البراهمانية الأرثوذوكسية» مزيجاً من الديانة المحلية المندثرة والديانة «الهندوآرية»، ولكنه كان مزيجاً مجهولا لدى الهنود أنفسهم ولدى جميع العلماء والمؤرخين حتى ظهرت استكشافات «بانيرجي» الأخيرة

وتدل دراسة الديانة الهندية بوجه عام على أن الهند هي بعد مصر البقعة الثانية التي يصح أن يطلق عليها اسم أرض الآلهة والتي لا يفوقها في كثرة آلهتها وتعقد مشاكلها الدينية وصعوبة تحديد اختصاص الآلهة وسعة الخيال وخصوبته في تصوير المعبودات إلا بلاد الفراعنة

الديانة المحلية

لم يصل الاكتشاف الحديث بعد إلى الدرجة التي يصح معها للباحث الدقيق - كما أسلفنا - أن يصدر حكماً جازماً على الديانة المحلية التي سبقت عهد الاحتلال «الآري»، إذ قد رأيت تناقض العلماء وتضارب آرائهم في هذا الموضوع حيث يقرر فريق منهم أن الوطنيين الأولين كانوا أرقى عقلية وأعظم مدنية من الفاتحين. ويذهب فريق آخر إلى العكس فيقرر أنهم كانوا بطونا منتثرة وقبائل متفرقة لا تربطهم مدنية اجتماعية ولا تجمعهم وحدة سياسية، ولكن الذي لا ريب فيه هو أن أولئك القوم كان لهم ديانة مهما تبلغ من السذاجة فإن لها قيمة تاريخية لا يصح للمشتغلين بتاريخ العقلية الإنسانية أن يهملوها. وتتلخص هذه الديانة في أن النار كانت هي المعبودة المقدسة التي تقدم إليها الضحايا والقرابين من لحوم مشوية وخمور معتقة وألبان وخبز وأعشاب صالحة للأكل أو للتخمير إلى غير ذلك، وأن كهنة النار الذين كانوا يتولون إيقادها كان لهم بين أفراد الشعب مكانة رفيعة وإجلال مفروض. وقد كان هؤلاء الكهنة سدنة للنار وسحرة وأساتذة فنيين يعلمون الشعب طقوس الدين وأركان العبادة.

الرافعي في الحجاز

مصطفى الرافعي

للأستاذ محمد حسين زيدان

ليست هذه الكلمة رثاء أرثي به الفقيد ولكنها حادثة وقعت لنا بسببه فأحب إخواني نشرها ليعلم الناس مكان الفقيد من نفس شباب الإسلام والعرب في كل قطر ومصر

كنا أربعة نسمر حول مائدة فانتحى اثنان منا جانباً يتذاكران اللغة الانكليزية وجلس آخر يقرأ — يقرأ ضحى الاسلام — أما أنا فكنت أكتب موضوعاً لجريدة (المدينة) وجاء صديق يحمل (الرسالة) ولم نكن قرأنا هذا العدد الذي يحمل، إذ تأخر وصوله فقلت: الرسالة؟ الرسالة! هاتها. فتصفحت الافتتاحية وخطوتها إلى كلمة الأستاذ أحمد أمين. فالأستاذ المازني، ثم إني قرأت للرافعي «أمراء للبيع» فلما وصلت إلى منتصف المقال ألقيت الرسالة وقلت لأصدقائي «هلموا إلي — هيا بنا نؤمن ساعة — أقرأ لكم الرافعي» فقالوا: اقرأ. اقرأ. فأخذت أقرأ وهم سامعون ساهمون. يسمعون البيان بيان الرافعي. ويعجبون بالبطولة. بطولة الشيخ بن عبد السلام. ويهزءون بالقوة الغاشمة والامارة الكاذبة والجهل الفاضح. وما انتهينا من المقال حتى ملأ الاعجاب أفئدتنا. وهذا حالنا كلما قرأنا لأبي السامي. ومن تصاريف القدر وأعاجيبه أنه لم تمض لحظة حتى وافانا البريد فطالع أحدنا (أم القرى) وفيها الخبر الفاجع المحزن خبر وفاة الفقيد. فنزل علينا كالصاعقة ولقد كدنا لا نصدق، قبل لحظة كان الرجل حياً يسمعنا بيانه وإيمانه. ويطالعنا بعجيب من البطولة والصراحة والصرامة في الحق وتأييد الحق. والآن هو ميت نسمعه أنين الحزين وبكاء المتألم، وطفق أحدنا يبكي ويقول: لكم العزاء في الرافعي فقد حرمنا نحن الناشئة أديباً كبيراً نتعلم منه البيان والأدب العالي والنبل والفضيلة، حرمنا هذا في زمن اتجه أدباؤه إلى ارضاء الساسة والعامة، والعامة هم عصا الساسة يسوقون بها هؤلاء الأدباء، وإن كان هؤلاء الساسة لا يتحركون إلا بما يرضي العامة لأنهم يستمدون سلطتهم على مقدرات الأمة وشؤونها من هذه العصا العوجاء «الرأي العام» وما هو الرأي العام «يرحم الله قاسم أمين» — قلت: حسبك فقد آلمتنا وأبكيتنا قال: أكتب حادثنا وحديثنا في جريدة (المدينة) ليعرف هذا وإني أعرفك لا تستطيع أن تكتب راثياً فالرثاء شعر ولست بشاعر، وإنما أنا أبكي الفقيد بدموعي وفؤادي المحترق. قلت: أعرفك بكاء وإني لعاجز. ولكن اسمع وما أردت أن أكون دونه — اسمع لقد انهدمت الدعامة الرابعة من دعائم (الرسالة) بموت الرافعي. وإنا لنرجو أن تعود، فهي اليوم تقوم على ثلاث دعائم، قال: لم أفهم فأفصح. قلت: ياهذا ألا ترى أن دعائم الرسالة أربع:

العاطفة والشعر، فالعقل والعلم. فالتجربة والتهذيب، فالايمان والفضيلة: رجل العاطفة والشعر الزيات يكتب بعاطفته من قلبه وحنينه وأنينه ليلهب عواطف الأمة ويوقظ شعورها ويوقد حماسها فتتجه نحو المثل الأعلى. يفعل هذا

وإنما كان هناك آلهة كثيرون، بعضهم يتمثل في الشمس وما تسكبه على الكون من نعمة الاضاءة والدفء والانعاش، والبعض الآخر يتمثل في تنين هائل أو وحش مخيف، وكان عدد أولئك الآلهة يصل أحياناً إلى ثلاثين أو ثلاثة وثلاثين إلهاً متساوين حيناً، ولهم رئيس أعلى حيناً آخر، ولكن هذا الرئيس لم يكن هو خالق الأكوان، لا لأن هؤلاء القوم كانوا دهريين أو طبيعيين، بل لأن سذاجتهم كانت قد بلغت حداً حال بينهم وبين الرجوع بعقولهم إلى بدء الخلق، فاقتصروا على التفكير فيما هو بين أيديهم فحسب ولم يتعدوه إلا إلى ماض قريب فرضوا فيه وجود عالم أحط منهم مرتبة وأقل مدنية. وبناء على هذا كان عمل الاله أو الآلهة عندهم مقصوراً على التصرف في الموجود ولا يتناول الايجاد بأي حال.

وكانوا يعتقدون أن هناك عالماً آخر وراء هذا العالم يدعى «عالم الأموات» وأن ملك هذا العالم هو أول ملك من أجدادهم وهو: «ياما» بن «فيفاسفان» كما كانوا يعتقدون أن الخيرين الذين يموتون وهم حائزون رضى الآلهة لا تكاد أرواحهم تغادر أجسامهم حتى يمنحهم أولئك الآلهة معرفة الغيب والقدرة على التصرف في الكون وعلى تدبير الأقدار خيرها وشرها.

(يتبع) محمد غلاب

لأن فيه طبيعة الشاعر الملهم المتألم المتأمل.

ورجل العقل والعلم أحمد أمين يكتب بعقله وعلمه ليثير عقل الأمة وليزيد فى علمها من علمها وتراثها فتسير فى طريق العقل النير والعلم الممحص، يفعل هذا لأن فيه طبيعة القاضى النزيه والعالم المخلص ... ورجل التربية والتجربة المازنى يكتب من تجاريبه ودراسته للنفس والأمة ليهذب من أخلاق الشباب، فيسير على ضوء التجربة من حوادث الماضى. يفعل هذا لأن فيه طبيعة الأستاذ المربى

ورجل الإيمان والفضيلة الرافعي يكتب بإيمانه وعقيدته ليدافع عن ايمان الأمة ويثبت ايمان الأمة وعقيدتها، فتسير بنور الايمان ثابتة العقيدة طاهرة المبادىء جريئة فى الحق صريحة فى نبذ الباطل، يفعل هذا لأن فيه طبيعة المسجد وشيوخ المسجد، ولأن فيه أثر آمن وراثة الأسرة المجيدة والبيت الرفيع من الفاروق رضى الله عنه الى عبد الغنى وعبد القادر وأمين وعبد الرحمن ومصطفى صادق. أسمعت ووعيت؟ قال: سمعت وزد. قلت: وإن هذا الارتباط بين كتاب الرسالة بدون تعمل وتعمد من أعاجيب نهضة الأمة ويقظة الأمة ورغبة الأمة وتوفيق الرسالة، فهى قد لفظت وتركت غير هؤلاء الذين شذوا عن هذه المبادىء وضمت من سار على نهجها وخطتها. تركت غير هؤلاء عن غير قصد ولا عمد، وان زعموا انهم تركوها حاسبين انها محتاجة اليهم مع انها فى غنى عنهم، فليسوا هم أصحاب رسالة وإن أيدوها بموقفهم السلبي ومناقضتهم، فان جلاء الحق لا يظهر إلا بمزاحمة الباطل، أسمعت ووعيت؟ قال: هذا صحيح فزدنى. قلت: ماذا أزيدك؟ وأخذتنى عبرة وطفقت أنشد بيت الرافعى الذى يرثى به أحمد تيمور باشا، وما أحقه ان يرثى به.

تأتى المصائب كالتقليد فى نسق أما مصيبتنا هذى فتخترع

وبعد فهذه حادثة واقعة وحديث جرى مازدت فى ذلك شيئا. ويرحم الله أبا السامى فقد ناضل عن الأدب وجدد فى البيان. انه خلاق المعانى وملك الألفاظ يتلاعب بها كيف شاء. ناضل عن الأدب حتى كاد يستقر، ودافع عن الدين والقرآن والنبي صلى الله عليه وسلم دفاعا يجزيه الله عليه أحسن الجزاء انه ولى الرحمة والغفران.

عن جريدة (المدينة المنورة) محمد حسين زيدان

أدب الرافعى أدب ممتاز

للسيد كمال الحريرى

للمرحوم فقيد الأدب مصطفى صادق الرافعى فى وصف الجمال وصوره والتعبير عن آثاره فى النفس والروح طريقة ممتازة هو فيها طراز وحده بين أدباء العربية فى جميع عصورها. فانت من وصفه الجمال الإنسانى أمام لوحات بيانية سحرية، تكاد الحياة والعاطفة والروح تنطق مجتمعة من خلالها. وهو فى الوصف الروحى العاطفى للجمال الإنسانى المادى، صاحب مدرسة سدت فى فراغ الأدب ثغرة ما أغنت استعاراته وتشابيهه عن سدها شيئاً. ولا غرو فإن روح التعبير عن الجمال التى تسللت إلى أنامل فيدياس الاغريقى فأنشأت له من الصخر الأصم هياكل وتماثيل بشرية فى عاطفتها وحيويتها وروحها، قد هبطت بعد أجيال على قلم الرافعى، فأوحت إليه تحفه الأربع[1] فى فلسفة الجمال والحب.

وأنا فى هذا الحوار الذى دار بينى وبين صديقى الرسام إنما أعرض لوناً جديداً حيوياً من اصباغ وصف الجمال البشرى، للأستاذ الرافعى وحده فضل استكشافه وفرضه على الأدب، ولوددت أن الأدباء غمسوا فيه ريشاتهم حين رسمهم لوحات الجمال الإنسانى. ولا بأس أن أحتكم فى تذوق هذا اللون أو النفور منه إلى أدباء الرسالة ليقولوا فيه كلمتهم

لى صديق فنان فى الرسم، ريشته لسانه، وترجمانه ألوانه، أسمعته جملة لى فى وصف أبى نواس وهى: لقد كان أبو نواس فى حدائق الكرخ فراشة شاعرة ترتع بين أغصان القدود وأوراد الخدود. ثم وقفت عند هذه الجملة منتظراً أن تروقه هذه الاستعارة. ولكنه ما زاد على أن قال: صعب على يا صديقى أن أتصور كيف يتجرد صاحبك أبو نواس من

(1) نعنى بها كتب رسائل الأحزان والسحاب الأحمر وأوراق الورد وحديث القمر

هيكله البشري ليتجسد في جسم فراشة شاعرة ترتع بين أغصان القدود ووردات الخدود. وهل القدود ما تنبت الأيك والخدود ما تتفتح عنه خميلة الورد؟

قلت دهشاً: أين يذهب بك يا صاح؟ ان هي إلا استعارة بديعة يلجأ اليها الأدباء حين يشبهون اعتدال القد بالغصن وحمرة الخد بالورد. قال: ان أصحابك ينسبون الى الخدود الموردة والقدود المتأودة حين يشبهون الأولى بالورد والأخرى بالغصن. الغصن جميل والورد فتان ولكن جمالها مادي لا يقاس الى جمال خد العذراء حين يتورد وقوام الحسناء حين يتأود.

وأمامي الآن — وهنا أشار الى لوحته — منظر فتاة حسناء تقطف من خميلة ورودا زاهية حمراء. فأيهما أجمل وأنضر وأحلى وأملح؟ هذه الورود في يديها أم هذه الحمرة في خديها؟ ان حمرة خديها الملتهبين بدماء النضارة والصبا حرام أن تشبه بحمرة الورد. فليس في الورد خدود تلتهب التهاباً، ولا وجنات ترق نضارة وشباباً. وكيف يستوى خد الورد البارد الجامد الذي لا يحرك احساساً ولا يثير عاطفة، وخد الفتاة المضرم من نار الصبى، المتوهج من حرارة العاطفة، المشبوب من خمرة الروح، المطلول من ندي الشهوة. يثير في كل قلب ألواناً من المشاعر الراقدة، وضروباً من الاحاسيس الهامدة؟

وعيون النرجس على ما بها من جمال وتناسق بليدة جامدة فليس فيها هدب طويل يثير، ولا جفن كحيل يغري. وأين من مقل النرجس مغناطيس العيون وكهرباؤها، وسحرها واغراؤها؟

الجمال بسره الكامن وجوهره الرمزي انما هو فن الروح والعاطفة، فكيف تعبر عنه وردة محارة أو غصن أملود أو طاقة نرجس أو سبيكة ذهب أو فضة مجلوة أو ما شئت من هذه التشابيه النفسية المادية التي خلقت لامتاع النظر اللهيف وإرضاء الحاسة الرغيبة؟ أما تمثيل الجمال وتصوير الحلاوة ففن تلعب فيه الروح أهم دور وأخطره، وليست كل هذه التشابيه من فن الروح في مراح ولا مغدي. قلت: ولكن الجاحظ يقول في صفة جارية حسناء: وكأنها طاقة نرجس أو كأنها ياسمينة أو كأنها خرطت من ياقوتة، ثم ينقطع به نفس الوصف فلا يجعل للروح وفنها بالا ولا ذكراً. قال صديقي ولكن ما عجز عنه الجاحظ من الوصف الروحي للجمال المادي أدركه نابغة كتاب هذا الجيل الرافعي. وهمك به من أديب يستعلن بالأدب العربي على آداب الأمم الراقية ويقول (أنا أدب لغة القرآن).

ولقد لبثت زمناً أبتغي من الأدب العربي صوراً بيانية لوصف الجمال الانساني تكون في دقة تعبيرها كلوحات الزيت أو صور الفوتوغراف، فلا أظفر منه إلا بهذه الاستعارات (الزهرية) أو التشابيه الجوهرية حتى قرأت للمرحوم كتبه الثلاثة في فلسفة الحب والجمال فألقيت عصاي وآمنت بمعجزات الرافعي.

قال الاستاذ رحمه الله في كتابه حديث القمر:

يا رحمة لهذا الجمال! وجه وضيء الطلعة كأنه السعادة المقبلة يصل إليه دم الشباب من القلب فيتحول فيه إلى جمال وفتنة، وكأن معاني الحسن التي تتحير في خديه حقيقة إلهية تطل على النفوس من وراء الشفق. فيه عينان تنظران والله بروح تكاد تنطق ولا يفهم عنها إلا كأنها ناطقة. وتفيضان دلالا وتفترا فكأنما تلقيان على الروح فترة تحلم فيها من أحلام السماء وتستيقظ. وخدان تحير فيهما الجمال فوقف يتلفت عن يمين وشمال، وتراءهما أسيلين بارزين، فيالله! اهل هنا ثديان صغيران من الورد دير ضعان طفل الحب؟ قال: صديقي فكم بين هذا الوصف الساحر الدقيق العاطفي وبين وصف صاحبك الجاحظ المادي السطحي «وكأنها طاقة نرجس وكأنها ياسمينة»؟. إن هذه التشابيه على ما بها من جمال المادة والعطر واللون مادية لا ترسم حور العيون وسحر الجفون ولا تصور تواثب النهود والحياة الكامنة في الخدود. أتدرى لماذا؟ لأن لغة العواطف يا صاحبي غير لغة الورود، وتمايل الأغصان لا يشبه تأدد القدود

(حلب) كمال الحريري

أي أسبانيا !

للأديب حسين شوقي

أي اسبانيا ! إني لأذرف دمعة صادقة على نكبتك لأنك وطني الثاني ! ألم أقض طفولتي في ربوعك أثناء الحرب العالمية حينما نفي إليك والدي ؟

أي اسبانيا ! أصحيح أن الموت والدمار نزلا بمدنك التي كانت رؤيتها بهجة للنفس ومتعة للنظر ؟

أي اسبانيا ! أصحيح أن المرء يستنشق رائحة البارود البغيضة من حقول بلنسية حيث كانت تعبق رائحة البرتقال ؟

أصحيح أن يد الدمار قد امتدت إلى غرف الحمراء حيث مرحت الأميرات العربيات في شباب الدهر ، بين أحضان الترف والنعيم ؟

أصحيح أن كنائسك الفخمة قد أحرقت أو تهدمت ، وكانت مقصد النبيلات الاسبانيات — أيام فتوح شارل الخامس وفليب الثاني — للتضرع والصلاة ، كي ترد إليهن أزواجهن من الحرب سالمين مظفرين ؟ . .

أي اسبانيا ! أصحيح أن قومك الذين كانوا بالأمس مضرب الأمثال في اللطف والدعة وإكرام الضيف والترحيب بالغريب جن جنونهم بغتة ، كأنهم أصيبوا بداء الصرع ، فأخذوا يقتلون يمنة ويسرة ؟

أصحيح أن قلوبهم غلظت إلى حد أنهم يقطعون أيدي الحسان الناعمة كي يسلبوها حليها ، تلك الأيدي التي ما خلقت إلا للتدليل والتقبيل ؟

أصحيح أنهم سئموا مصارعة الثيران فاستبدلوا بها الأنفس البشرية ؟

أي اسبانيا ! أين كانت كامنة هذه القسوة ؟

بل من أين هبطت عليك ؟

إن بعض الكتاب الغربيين ينسبها إلى الدم العربي الذي يجري في عروق الاسبان اليوم ، ولكن الله يشهد أن هذا الدم بريء ، لأنه دم أموي نبيل ! إن أسلافنا العرب الذين استوطنوا الأندلس كانوا أبطالا ولم يكونوا أنذالا ، انهم لم يقتلوا العجزة والأطفال والنساء !

بل إن العرب فقدوا ثمار فتوحهم العظيمة بما كانوا يبدون من الحلم المتناهي إزاء الشعوب المغلوبة ! ألم يتركوا لها حرية العقائد والعادات ، مكتفين بأخذ الجزية ؟

إذن ما مصدر هذه القسوة ؟

إن « أنامونو » الفيلسوف الأسباني الشهير الذي توفي أخيراً ينسبها إلى دم النور (بفتح الواو) المنتشرين بكثرة في ربوع أسبانيا ، وبخاصة في الجنوب ، لأن هؤلاء القوم لهم — على حد زعمه — غرائز بعيدة عن المجتمع ، بل وحشية . ومما يؤيد قوله هذا ما حدث في برشلونة من أعمال القتل والحرق والسلب فقد قام بمعظمها عمال من الجنوب لم يستوطنوا برشلونة إلا في السنوات الأخيرة . . .

أي اسبانيا ! أصحيح أن حسانك قد مللن أقنعة « وسهن الجميلة من « الدانتلا » المعروف « بالمانتليا » ، ففضلن عليها خوذة الجند الحديدية ؟

أصحيح أنهن حطمن بأيديهن تماثيل العذراء التي طالما توسلن إليها كي ترقق لهن قلب العاشق النافر ؟

أصحيح أنهن أصبحن يقتلن بالحديد والنار بعد ما قتلن زمنا بسهام اللواحظ وحد الجفون ؟

أصحيح أنهن سئمن أناشيد الحب فأخذن يحرضن خطابهن الرشيقين ذوي العيون الغربية البراقة على الذهاب إلى ساحات الموت ؟

أي اسبانيا ! أصحيح أن قومك يهدمون مآثر ماضيهم المجيد بزعم التقدم والرقي ؟

رب ! كيف تمحى قرون متتابعة من العز والفخار ؟ هل من المدنية أن تدفن المتاحف وتنسف الآثار ؟

ألا ينظرون إلى حسرة أبناء العالم الجديد لافتقارهم إلى الآثار وهم قدوة المدنية والتقدم ؟

ألا يرون كيف ينقل هؤلاء القوم الكنائس والقصور الأثرية من أوروبا ، حجراً حجراً ، لاعادة تركيبها في بلادهم ، رغم ما يكلفهم عملهم هذا من جهد ومال ؟

أي سرفانتس (١) ! هلا تركت ضجعتك الهنيئة الأبدية لحظة لتشاهد مقدار عبث قومك ؟

أي سرفانتس ! إن صاحبك « دون كيخوت » لأقل جنونا من هؤلاء القوم جميعا إذ جنونه بريء لا يتعدى مهاجمة الخراف والطواحين ، أما هؤلاء فلا يهدأ لهم بال إلا بقتل الأطفال والنساء والاخوان من بني جلدتهم !

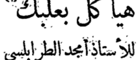
« كرمة ابن هاني » **حسين شوقي**

---

(١) مؤلف قصة « دون كيخوت » الخالدة



رسالة الشعر



هيا كل بعلبك[1]

للأستاذ أمجد الطرابلسي

وأجلّ من حلل النبي ووشيه   خِرَقٌ على الأبطال أو أسمال



أطلالُ! ما البنيانُ يا أطلالُ؟   فَبَنيتَ على ضَحَاتك الأجيالُ!

هزئتْ رمامُك بالزمانِ وصرفهِ   ما تفعلُ النكباتُ والأهوالُ؟

يفنى الزمان جديدُهُ وجميلُهُ   وعلى حطامِك بَسْمَةٌ وجمالُ

إنّ الخلود يَفِرّ من سطوانهِ   عادى الردى وتباعَدُ الآجالُ

لا يَقْحَمُ النَّكَسُ المُرَوَّعُ غابةً   تختال في جنباتها الأشبالُ

***

يا غادةَ الماضي البعيد تَبَختري!   إنّ العصورَ هوادجٌ وحِجال

تيهي على الدنيا فإنكِ أختها   والسّحْرُ بينكما الزمانَ سِجال

وتخايلي مِلْءَ العيون، مليكةً   تعنو لها الأملاكُ والأقيال

فَلِصَولجانكِ يا مليكةُ صفعةٌ   يخزى بها المتكبر المختال

هاتي حديثكِ بعلبكُّ أو أصمتي!   إنّ الزمان محدّثٌ قوّال

تتكلم الآبادُ فيكِ مبينةً   وتخبرُ الأعصارُ والأجيالُ

هذي الرسومُ وهي الزمانُ وما وهتْ   وقضى البُناةُ الظالمون وزالوا

ما زال يدهمها الزلازلِ بعدهم   حتى ارتضى بالخيبةِ الزلزال

ماذا يضيركِ أن وَهتْ وتمايلتْ   عُمُدٌ ودالتْ دولةٌ ورجال

إن الخلود على جبينكِ مشرقٌ   ونصيبُكِ التقديسُ والإجلالُ

وأجلُّ من حُلَلِ الغنيِّ ووشيهِ   خِرَقٌ على الأبطال أو أسمال!

***

يا بعلبكُّ! وقفتُ فيكِ كأنني   وصحابتي بين الطلولِ رمالُ

نرنو إلى الرئبالِ وهو من الصفا   فيكادُ يفزعنا بكِ الرئبالُ

ونحدّثُ الأطلالَ وهي طريحةٌ   فتكادُ تنطقُ مثلنا الأطلالُ

تتسلّقُ العَمَدَ المنيفةَ مثلما   تتسلّق الصخر الأشمَّ نِمال

فنطلُّ منها فوق سفرٍ زاخرٍ   أسطارُه الأعصارُ لا الأقوال

نتلو صحائفَهُ وملءُ بُرودنا   عُجْبُ العجيبِ، وفيمَ لا نختالِ؟

أقدامنا فوقَ الزمان قريرةٌ   ولنا الهياكلُ والبعولُ نِعالُ

نختالُ في ذُرُواتِها فتسبنا   عُصُرٌ تكنفها الظلامُ طوالُ

يا أيُّها العاتون! بعضَ عُتُوِّكم   إن الزمانَ مخادعٌ ختّال!

أرأيتمُ لَعِبَ الصروفِ وهدمَها   ما يرفعُ الإرهاقُ والإذلال؟

هذي النِّعالُ تدوسُ وهي فخورةٌ   ما شادتِ الأصفادُ والأغلال!

تلكَ الأوابدُ كم أهلّ لها دمٌ   ومتى تراها مدمعٌ هطّالُ

كم ذلّتِ الأملاكُ في أعتابها   وجثتْ على أقدامها الأبطالُ

واليومَ نمرحُ نحنُ في هاماتها   يا للمشيب تهينُهُ الأطفالُ!

يا للفنونِ الخالداتِ تدوسُها   وتذلها الجُنّانُ والجُهّالُ!

***

عفواً هيا كلَ بعلبكّ! فإنما   هذا الزمانُ وصرفُهُ أحوالُ

صبراً على عبثِ الزمان! فربما   رقصت على جُثثِ الأسود سِخال

كنّا نجوسُكِ ساخرين وربما   أقعى لكِ الجبّارُ والصوّالُ

***

(١) من أروع وأضخم الآثار الرومانية. بنيت في القرن الميلادي الثاني. وهو ثلاثة هيا كل عظيمة للآلهة الثلاثة (جوبيتر) و(باخوس) و(فينوس).

كم ذلّت الأدغالُ بعدَ ليوثِها ... ولقد تُهابُ لأسدِها الأدغال

***

جوبتيرُ ! أين جبابرٌ لك شيدوا ... ما لا يزول على الزمان وزالوا ؟

بذلت لهيكلك الرفيع نفوسهم ... ودماؤهم ، وأُهينت الأموال

أرضيت أن تُبنى القصورُ من الأذى

لك أو يُخضّبَ بالدم التمثالُ

عبدوك فاستعبدتهم ، وتمزّقت ... في ظلّك العُبدانُ والعُمّالُ

تلك العُبوديّاتُ من آثارها ... هذي الصُّروحُ كأنها الأجبال

نحتت بأصفادِ العبيد صخورُها ... وعلى العُناةِ أُقيمتِ الأثقال

لا كنتِ يا آثارُ ! إنكِ طعنةٌ ... في كلّ قلبِ شاعرٍ ونصالُ

***

عبدوا بكِ الشمسَ المنيرةَ في الضحى

والشمسُ خيرٌ كلُّها وجَمال

خشعت لها منذُ القديم معاشرٌ ... شغفتهمُ الأنوارُ والأظلالُ

فلئن يعبكِ الناسُ أو يستهزئوا ... فاليومَ معبودُ الأنامِ المالُ

كم تُحرقُ الأبناءُ قُرْباناً له ... وتذبحُ الأعمامُ والأخوالُ

أغلى من الخُلُق المُكرَّم درهمٌ ... وأجلُّ من أعلى العُلى مثقالُ

***

(باخوسُ) يا ربَّ الكؤوسِ ! وكم عنا

لمُجونك المُتزمّتُ المفضالُ

هذي الكروم تكادُ وهي نحيتةٌ ... يُصْبي العقولَ رحيقُها السَّلسالُ

ياليتَ شعري أَلهوك فهل رأوا ... كيف استبدّت خمرُكَ الجرْيالُ

شادوا لكَ الصَّرحَ الأشمَّ تَجِلّةً ... وجَثا لكَ النُّسّاكُ والضُّلّالُ

وبنوا لِفينوس جِوارِكَ معبداً ... يختالُ فيهِ الحُسْنُ والإدلالُ

صوَرُ الهوى المعسولِ مِلءُ رحابهِ ... والجوُّ حبٌّ كلُّه ووِصال

يا أُمّةَ الرُّومانِ ! مازالَ الورى ... يَسْبيه كوبٌ مُترَعٌ ودلال

في كلّ قلبٍ للمحاسِنِ معبدٌ ... تأوي الجراحُ إليهِ والآمالُ

لكنما ذهبت ملوكُكِ في الهوى ... سِيَراً تُدارُ كؤوسُها وتُجالُ

(أنطونيو) ملءُ الخمائلِ حبُّهُ ... و(سيزار) كم ضُربت به الأمثال

ملِكان صاغهما الغرامُ قصائداً ... تَشدو بها الاسحارُ والآصال

***

بنتَ الخلود أما سئمت جراحهُ ؟ ... إنّ الخلودَ سآمةٌ وملال !

إني لأسمعُ من صَفاكِ صُراخهُ ... وكأنّهُ التَّنعابُ والإعوالُ

ماذا عرفتِ من الحياةِ ، وإنما ... سرُّ الحياةِ تعاقُبٌ وزوالُ ؟ !

ويلٌ لمفجوعٍ يرى أحبابهُ ... يترحّلون وماله ترحالُ ! !

تتتابعُ من بعدهم أطيافهم ... والذكرياتُ عواصفٌ ونبال

أَوَ تذكرين (أبا عبيدة) غازياً ... من حولهِ الفرسانُ والنُّبّالُ ؟

تتبخترُ الجُرْدُ الضوامرُ تحتهمْ ... نَشْوى يُصعّرُ جيدَها الإدلال

تزهو على الأرضِ الفخور بحمْلها ... عزّت وعزّت فوقها الأحمال !

رَكْبٌ تحفُّ به الملائكُ هُتّفاً ... وتحوطهُ بقلوبها الأجيالُ

أرأيتِ أشرفَ فاتحاً ، سارَ الهدى ... في ركبهِ واليمنُ والإقبالُ ؟

أعلمت ... ؟ مالي والسؤال فربما ... نكأ الجراحَ الداملاتِ سؤال ! !

أمجد الطرابلسي

الى عصفورة

للأستاذ خليل هنداوي

حلّقي ، حلقي ! الك الجو مهد ... والسموات ، والمنى كالشهاب

رجعي ما أردت شدوكِ حتى ... يسكر الكون بالغناء المذاب

أنا لا أستطيع يوماً صعوداً ... وجناحي مهشم الأسباب

أنا طير يدرى السماء ويدرى

ما يوارى السحاب خلف السحاب

كلما هم لم يطعه جناح ... أوهنت عزمه رياح الرغاب

كمحب سار الركاب بمن يهـ‍ـوى ، ولكن هواه عند الركاب

أنا كالزهر أملأ الجو عطراً ... وجذوري تعلقت بالتراب . .



هلموا يا شباب !

كأن كلمة الشباب مقصورة الدلالة على الطلاب . وكأن الذين هم فى ربيع العمر من الموظفين والمحامين والأطباء والملاك لا يعنيهم الأمر إذا وجهت دعوة إلى الشباب . فقد دعت الرسالة الشباب إلى أن يديروا بينهم الرأى فيما يهيء الأمة إلى العهد الجديد من توفير سلامة الجسم وتقريب وسائل الثقافة وترقية أساليب الانتاج وتكوين رأى عام صحيح صريح يتشاور فى بناء الهيكل القومى على أساس الخلق والدين والعلم والتعاون ، ويتجاوب فى كل حادث بالصوت المتحد الذى ينبه الغافل ويحذر المغتر ويكون سياجا للأمة من جمحات الأهواء وطغيان النفوس . تحرك لهذه الدعوة الطيبة كرام الطلاب ثم شغلهم الاستعداد للامتحانات عن توسيع المناقشة فيها ودراسة الوسائل اليها ، وانتظرنا من غيرهم أن يلجوا هذا الميدان الاصلاحى ، أو يعملوا على تزويد الداخلين فيه ، فلم نسمع صوتاً ولم نشعر بحركة ، كأن أصحاب الوظائف وأرباب الأعمال يظنون أن واجبهم ينتهى عند عتبة الديوان ، وأملهم يقف على باب المكتب ؛ أما العمل التعاونى القومى فأمره بين شيوخ الحكومة وشباب الجامعة .

أنا أحد الذين حددت آمالهم وأعمالهم الوظيفة ، ولكنى أشعر أن الإنسان المثقف والوطنى الصادق لا يسمح لنفسه أن يمثل فى يقظة أمته فتور النعسان أو جمود الكسلان فيكتفى بقراءة الصحف فى القهوة ومناقشة الأخبار فى الطريق . المسألة مسألة تجنيد عام لمحاربة عوامل الضعف التى فشت فينا من تغير الزمان وفساد الحكم ، فيجب أن يؤدى كل منا واجبه الوطنى فى الميدان الذى يستطيعه . والموظفون وهم ألصق الناس بالجمهور يستطيعون أن يؤدوا واجبهم على الوجه الأكمل فيرشدون الجاهل ، ويعاونون المتعلم ، ويضربون للناس الأمثال فى إخلاص العمل وتقدير المسئولية وسلامة الضمير ومراعاة المصلحة . والذين يتصلون منهم بالفلاحين من أطباء ومهندسين ومعلمين يتسع أمامهم مجال الاصلاح فيكونون رسل سلام ودعاة خير وناشرى ثقافة ، فإلى إخوانى الشباب من الموظفين أوجه هذه الكلمة وأرجو أن يكون لها صدى فى نقاباتنا وأنديتنا ومكاتبنا ، يبلغ كل أذن ويهز كل قلب فنجيب دعوة الداعين ونعمل مع العاملين .

علي اسماعيل
بالمالية

حول توجيه الشباب

إن أول واجب أشعر به هو تقديم وافر الشكر لصاحب الرسالة ومحرر رسالة الشباب فيها ، وكل من ساهم ويساهم فى تأدية هاته الرسالة السامية التى اضطلعت بأعبائها الثقال هذه المجلة المحبوبة الى جانب رسالة الأدب والعلم والفن التى قامت بتأديتها خير قيام . ونحن شديدو الايمان بأن نصيبها من التوفيق فى تأدية رسالة الشباب لن يكون أقل منه فى غيرها إن شاء الله

ولقد استرعى انتباهى — بصفة خاصة — هاته الكلمة التى ختم بها محرر رسالة الشباب صفحته فى عدد سابق وكان عنوانها : « عبرة الشباب من حفلة التتويج » . وإنى وإن كنت من كارهى الحديث المعاد أشعر بدافع قوى يحملنى على أن أعيد مغزاها على إخوانى الشباب لا ليمتعوا أنفسهم بسلاسة أسلوبها أو جمال شاعريتها أو غير ذلك من ضروب الاستمتاع . بل ليجعلوها منهاجهم فى كل عمل من أعمال الحياة

ذلك المغزى أو العبرة ، كما أرادها المحرر — والتى أريدها نبراساً للشباب هى : أن الامبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس لم يمنعها احتفاظها بالتقاليد من أن تكون أمة التجديد ، واحترامها للدين من أن تكون أمة المدنية ، وإخلاصها للملك من أن تكون أمة البرلمان والديموقراطية والدستور

فأى عبرة هذه ؟ بل أى عبر يمكن لشبابنا المثقف أن

يتلقنها من حفلة تتويج ملك الإنجليز ؟ وأي توجيه هذا الذي ينادي به أستاذنا عميد كلية الآداب لشباب مصر بعد ما سمع بأخبار حفلة التتويج، وفهم منها ما فهم من محافظة الإنجليز على تقاليدهم واحترامهم لدينهم الذي هو مصدر الروحانية عندهم كما أن ديننا يجب أن يكون مصدر روحانيتنا؟

وحتى هذا المقال الأخير الذي قرأته لعميدنا الكبير في إحدى مجلاتنا تحت عنوان: «توجيه الشباب أيضاً» كنت أحس في مطالعته بارتياح عميق بل باغتباط لا شائبة فيه. ولكني لم أكد أتصفح هذا المقال وأكرر ذلك — عادتي في كل ما يكتبه كبار أدبائنا — حتى وجدت لساني يتطاول — على الرغم مني — باتهام عميد الأدب بعدم توفيقه المرة في معالجة شئون الشباب. فليسمح لي سيدي الدكتور بهذه اللهجة الجافة التي لم أجد خيراً منها لمناقشة رسالته. فهي الصراحة لا تعرف المجاملة والحق لا يقوم على المداهنة.

ينادي عميد الأدب بأن يتجرد شباب مصر من روحانية الشرق التي هي لباب دينه، ليتجه بفكره صوب مادية الغرب ليغترف من تعاليمها الخير كل الخير على ما يقول، فأي خير هذا الذي وجدته ياسيدي في مادية الغرب التي تحبها، وتؤمن بها وتنتظر منها الخير الكثير وقد فقدته في روحانية الشرق؟

أهذه المبادئ والمذاهب الخاطئة التي ينادي بها زعماء الغرب والتي تسير بأوربا نحو الهلاك السريع والتي بنيت على حب المادة والعمل للمادة وحدها؟ أم هذه النزعات والميول المتطرفة التي قلبت رسالة الإنسانية السامية إلى رسالة بهيمية وضيعة والتي سوف يجني الغرب عارها المرة الشائكة إن عاجلاً وإن آجلاً؟ أم هذا وذاك من مساخر الغرب ومساوىء ماديته؟

إن أحداً لا ينكر سير الغرب بخطى واسعة نحو الرقي والحضارة المزعومة في هذا العصر. ولكني كبير الشك في أن هذه الحضارة التي سخرت للمادة وقامت على دعائم خالصة من المادية تعمر أو تطول. وليست هذه الأحداث والمهازل التي يعج بها المجتمع الغربي، ويستصرخ المصلحين لانقاذه منها إلا إحدى نتائج هذا الاتجاه المادي الصرف

أما الحضارة الحق التي يؤمل من ورائها الخير، وينتظر لها البقاء، ويجب علينا أن ننير سبيل شبابنا اليها فهي تلك التي تأخذ ضرورتها من المادة إلى جانب حاجتها من الروح. وما تذوق الحياة جسد من غير روح. وهذه سنة الله في خلقه أنطق بها رسوله الأمين حيث قال: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً»

وعندي أن هذا الحديث الشريف هو جماع دستور الفرد الذي ينشد الكمال من المجتمع الذي يرجو الصلاح. وتلك الامبراطورية الاسلامية — التي بلغت حدود الهند والسند شرقاً والاطلنطيق غرباً — قامت على أسس من الروحانية الشرقية التي ينكرها الدكتور ولا يرى فيها أي خير...

كامل بركات

من رسالة

... أما إن الشباب سيظل زيت النهضة المضيء المحترق فهذا ما لا شك فيه

سلختا من العمر ثمانية عشر عاماً هي ربيعه في نهضة شريفة سامية طامحة جامحة جريئة رزينة — تقنع بالحجة وتغري بالعاطفة وتلهم الشعور وتحرك القلوب — فعزيز علينا ثم عزيز أن نسلم علم الجهاد وقد دافعنا عنه بالمهج والأرواح، فإلى الأمام نسير في كل فن وعلم بتجاريب السنين الماضية، أما الميدان السياسي فلن يضيق عن الجهود الوثابة التي اكتسبت من المحن خبرة ومن الشدائد عظة، وقد كان لنا فضل السبق في الاصلاح وها هو ذا بنك مصر لا يزال شاهداً بما كان للشباب من قوة أثر في تعميره. بل إن طربوش القرش هو غرس يد الشباب

فمن يوم أن قام الشباب قومته إلى الآن لا نجد أثراً عمرانياً أو أدبياً أو سياسياً إلا لمست فيه يد الشباب حادة قوية

وما زال كل في طريقه شجاعاً في غير عنف، فخوراً في غير زهو، جريئاً يقول الحق ولا يهاب فيه الموت. وتلك كلها صفات اكتسبت من تعاليم سعد، وتغلغل أثر النهضة في نفوس تعطشت إلى الحرية فنالتها من يوم أن طلبتها



تقدير صحيفة ألمانية لأمة سامية

استقبلت مصر حين دخولها في عصبة الأمم في أواخر مايو الماضي بتحية اجتماعية مؤثرة من اثنتين وأربعين دولة بينهما اثنتان من الدول العظمى؛ وكان التقدير الذي لقيته مصر يقوم بالأخص على التنويه بمكانتها التاريخية، وعلى الدور العظيم الذي أدته في تكوين الحضارة اليونانية القديمة؛ ومن ثم في تكوين الحضارة الغربية بوجه عام؛ ولم تكن هذه المظاهرة الاجتماعية المؤثرة حديثاً أفلاطونياً فقط، ولكنها كانت إشارة بحقيقة تاريخية يستحيل على أوربا الحديثة تجاهلها، وفي الأسبوع الماضي نشرت جريدة «الأسبوع» الألمانية Die Woche عدة صفحات خاصة بمصر وحضارتها القديمة، ثم استأنفت في عددها الصادر هذا الأسبوع فكتبت عدة صفحات أخرى واستطردت فيها إلى الاشادة بما لمصر من فضل على المدنية وما يرجى لها من مستقبل باهر، وهذه أول مرة في عهد ألمانيا النازية تقوم الصحف الألمانية بمثل هذه الاشادة بمقام أمة شرقية «سامية»، ولقد كان علماء الآثار الألمان في مقدمة علماء الغرب الذين عاونوا على اكتشاف الحضارة الفرعونية وعلى إظهار الدور العظيم الذي قام به الفراعنة في تكوين حضارة العالم، فلم تكن هذه الحقيقة بخافية يوما على العلم الألماني. ولكن حدث بعد ذلك أن اجتاحت الدعوة الهتلرية العلم الألماني كما اجتاحت كل شيء في حياة هذه الأمة العظيمة، وذاعت نظريات هتلر عن الشعوب الشرقية والشعوب السامية بوجه خاص

فهذه الشعوب في نظر زعيم ألمانيا الجديدة، شعوب منحطة، هدامة للحضارة، غير أهل لانشائها. ومصر أمة سامية شرقية، فهي طبقاً لإنجيل ألمانيا الجديد أمة منحطة هدامة للحضارة، لا تستحق أن ترتفع إلى مصاف الأمم «الآرية» وهي الشعوب التي يحق لها أن تستعبد الشعوب السامية وأن تخضعها لثقافتها. ولقد اعتبرت مصر في ألمانيا بعد ذلك بصفة رسمية دولة غير آرية لا يصح لأبنائها أن يختلطوا بالعنصر الآري، وكان لذلك فيما نذكر ضجة في العام الماضي. فهل نعتبر إقدام صحيفة ألمانية كبيرة على التنويه بحضارة أمة «سامية» كمصر دليلا على تطور هذه النظرية النازية المجحفة؟ إن الصحافة الألمانية تخضع في كل ما تكتب لرقابة حكومية صارمة؛ فاذا كان يسمح لها الآن أن تنوه بمركز أمة «غير آرية» في إنشاء الحضارة العالمية، فانه يسمح لنا أن نعتقد أن التفكير الألماني قد أخذ يتحرر من بعض النظريات المغرقة التي أذاعها كتاب «كفاحي»، وهي نظريات ليس لها في الغالب سند من التاريخ الحق أو التدليل الصائب

كتاب عن تاليران

عرف تاليران الوزير الفرنسي الشهير بأنه نموذج للسياسي الداهية الذي لا يعرف في سبيل تحقيق سياسته مبدأ ولا ذماماً، وأضحى اسمه علماً على السياسة الغادرة المتقلبة، بيد أن للتاريخ دورته وتطوراته؛ فاذا كان التاريخ قد رأى في تاليران من قبل

حرية بعنا لأجلها نفوساً عزيزة علينا، ودستوراً قاومنا في سبيله كل من حدثته نفسه أن يكون عليه ظهيراً. وسيعرف بإذن الله كيف نحيطه بسياج من الأخلاق متين، غير منتظرين الوحي من الغرب؛ فالديموقراطية الشرقية مستمدة من وحي الله ومن تعاليم الأنبياء، فالمشورة كانت من صفات النبي صلى الله عليه وسلم؛ وما كان مستبداً حتى في إبان الحروب التي تتخذها الأمم الغربية كلها ذريعة لاعلان الأحكام العرفية. وان كان بعض مشرعي الغرب يحذرون شعوبهم من اندفاع جارف يؤدي بهم إلى الفاشستية أو الشيوعية، فانا لا نزال بحمد الله بعيدين عن كل ذلك، فان التأني البصير خير من الاندفاع الأعمى، وان دستوراً راسخاً متين البنيان لذو أثر عظيم في تشييد صرح النهضة. فليطمئن الشيوخ، فلن يجدوا إلا شباباً مجرباً وثاباً دمه الحار بمثابة وقود لعقله المتزن

م. حسن سليمان

سياسيا غادراً متقلبا ، فقد يرى فيه اليوم رأيا آخر . وهذا الرأى الجديد عن شخصية تاليران وعن سياسته يقدمه إلينا وزير انكليزى هو مستر دوف كوبر فى بحث تاريخى جليل صدر أخيراً بعنوان «تاليران» Talleyrand والواقع أن حياة تاليران العجيبة تستحق الدرس ؛ فقد خرج من الكنيسة إلى السياسة ، وخدم لويس الخامس عشر ، فلويس السادس عشر ، فالمؤتمر الوطنى والثورة الفرنسية ، فنابليون بونابرت فى جميع أطوار حكمه ، ثم لويس الثامن عشر ، وشارل العاشر ، وأخيراً لويس فيليب ؛ وهكذا وضع تاليران مواهبه تحت تصرف أنظمة وحكومات مختلفة ؛ ولم يحجم فى أى ظرف عن أن يتخلى عن حكومة أفل نجمها لتأييد حكومة جديدة ، ولم ير بأسا من أن يخون عرشا على وشك السقوط لخدمة عرش تألق نجمه ؛ فهذا التقلب النادر هو الذى يأخذه المؤرخون الفرنسيون على تاليران ، ويرون فيه سفالة أخلاقية لا تغتفر ؛ ولكن الوزير الانكليزى يرى فى كتابه الجديد رأيا آخر ؛ فهو يرى أن تاليران كان مثل السياسى العملى البارع ؛ وهو يقدم لنا عنه هذه الصورة القوية : «إن للفرنسيين ذاكرة بعيدة ؛ والسياسة فى نظرهم هى استمرار التاريخ ، والكتاب الفرنسيون ينتمون إلى مختلف الأحزاب والنحل : فهم ملكيون أو جمهوريون أو بونابارتيون . أما تاليران فلم يخلص لناحية خاصة من هذه . ولهذا لم يحدقط مدافعاته فى فرنسا . ومع ذلك فليس للفرنسيين أن ينحوا عليه باللوم ؛ ذلك لأن كل تقلباته كانت تبذل فى سبيل فرنسا كلها ، وهو يصرح بحق أنه لم يتآمر قط إلا جنبا بجنب مع معظم مواطنيه فى سلك المؤامرة . وقد هلل كباقى الفرنسيين لمثل الثورة الفرنسية واعتقد فى ضرورتها . ولكنه كباقى فرنسا سخط على حكم الارهاب وخدم الحكومة المؤقتة وناصر نابوليون كرسول النظام والسلم . بيد أنه كباقى فرنسا كان يبغض الظلم ، فلما سئم من الحروب عاد يسعى إلى إعادة البوربون . ولما رأى استحالة العمل مع شارل العاشر ، اتجه نحو لويس فيليب ، وقد كانت مثله التى لم يحد عنها قط الملكية الدستورية ، وتأييد النظام والحرية فى فرنسا . والسلام فى أوربا ، والتحالف مع انكلترا »

وقد انتهى الوزير الانكليزى إلى هذا الرأى بعد البحث واستقراء الوثائق التاريخية الهامة ؛ وهو يستعرض كل أعمال تاليران وتقلباته ويشرحها على ضوء الحوادث والأشخاص ؛ وهو يجنح إلى العطف فى معظم تعليقاته ؛ ومن رأيه أن تاليران كان من أعظم الساسة الذين عرفهم العالم ، وأن تقلباته المزعومة لم تكن إلا نوعا من السياسة العملية التى يقدرها الانكليز قدرها ، وأنه كان يتمتع بصفات باهرة تجعلت منه أقدر سياسى فى عصره .

ونحن إذا قلبنا صحف تاريخنا وجدنا لدينا قرين تاليران ؛ ذلك هو السياسى الفيلسوف ابن خلدون ؛ فهو أشبه الناس بتاليران فى خدمة الحكومات المختلفة ، وفى الأخذ بقواعد السياسة العملية ، وفى تقلباته مع الظافرين .

من نفائس أوراق البردى

تحتفظ مكتبة فينا الوطنية بمجموعة من أوراق البردى المصرية القديمة ، ومنها بحس أوراق ظهر من فحصها ودراستها أنها جزء من التوراة ، وأن هذه التوراة المخطوطة هى أقدم توراة وجدت حتى الآن . وقصة هذه التحفة الأثرية هى كقصة جميع التحف التى تتسرب من مصر إلى الخارج بانتظام ؛ وهى أنه فى سنة ١٩٣٠ اشترى بعضهم لحساب مكتبة (فينا) عدة من أوراق البردى من أحد تجار العاديات بالقاهرة ؛ ولما أظهر البحث أنها قسم من التوراة سئل التاجر المذكور عما إذا كان يملك أوراقا أخرى من هذا النوع فذكر أنه باع مجموعة أخرى منها إلى أحد اليهود المشهورين وهو مستر شستربيتى . ولم يمض على ذلك قليل حتى أذاعت الدوائر الأثرية فى لندن أنها قد حصلت على أقدم نسخة خطية فى العالم كله من العهد الجديد (الانجيل) ، وبه نص كامل لانجيل متى ، وأن هذه النسخة ترجع إلى منتصف القرن الثالث الميلادى . وتحتفظ فينا فى الوقت نفسه بأقدم قطعة من أوراق البردى اليونانية ، وبهذه الوثيقة نص كامل لقصة « فرار ارتميسيا » الشهيرة كذلك تحتفظ بأقدم ورقة من أوراق البردى اللاتينية ، وهى وثيقة عسكرية ترجع إلى أيام الامبراطور أوغسطوس أعنى إلى القرن الأول من الميلاد غير أنه لاريب أن أوراق البردى المصرية القديمة من أثمن ما تحتفظ به العواصم الأوربية المختلفة ، ومع أن مصر لا زالت تحتفظ منها بمجموعة ضخمة فان أثمن ما فيها قد تسرب اليوم إلى الدوائر الأثرية الأجنبية فى مختلف أنحاء العالم

المكاتب العامة فى فرنسا

قررت الحكومة الفرنسية تحقيقاً لأغراض سياستها الثقافية أن تعمل على تعميم المكاتب الشعبية بطرق وأساليب مغرية للقراءة والتثقيف . وقد رؤى أن تنظم هذه المكاتب فى المدن المكتظة بطريقة خاصة ، إذ تنشأ فى مواقع مزهرة منيرة ، وأن تعمل لها واجهات زجاجية تحلى بالصور والأزهار والتحف ، ثم تعرض فيها أحدث الكتب كما تفعل المكاتب التجارية ؛ والمقصود بذلك التوصل إلى إغراء المارة من عمال وعاملات وطلبة أمكنهم العمل أو الطواف بدخول المكتبة وتمضية لحظات فى القراءة أو تصفح الكتب والمجلات المصورة ، وسيعنى بان تعرض فى هذه المكاتب جميع الصحف والمجلات من كل لون ونزعة سياسية ، كما تعرض

الكتب العلمية والروايات وغيرها ليكون هناك مجال للجميع كل حسب ذوقه ونزعته، كذلك ستنشأ في هذه المكتبات أجنحة خاصة للأطفال وتزود بطائفة من كتب الأحداث المصورة؛ بل واللعب والصور المختلفة .

المؤتمر الدولي لكتاب اللغة الفرنسية من الأجانب

افتتح يوم الثلاثاء الماضي في باريس المؤتمر الدولي لكتاب اللغة الفرنسية من الأجانب فألقى الأستاذ جورج قطاوي الأديب المصري خطبة جاء فيها :

في مقدمة الكتاب المصريين باللغة الفرنسية واصف غالي باشا وزير الخارجية المصرية وقد شرفنا بحضور اجتماعنا هذا . وجميع المصريين يقدرون عمله السياسي حق قدره ، فالاستقلال الذي أحرزته مصر ومكنها من دخول جامعة الأمم من عهد قريب مرجع الفضل فيه إلى الجهود الوطنية والتضحيات وهمة الذين جاهدوا إلى جانب سعد زغلول باشا وفي جملتهم واصف غالي لنيل الأمة المصرية مطالبها المشروعة . فالخطب التي ألقاها واصف غالي والنشرات التي أصدرها في أثناء الثورة المصرية تكاد تكون صدى لصوت دانتون أحد أعلام الثورة الفرنسية الكبرى . ومع اشتغال واصف غالي بالشئون السياسية لم يهمل حرفة الأدب والبحوث التاريخية وقرض الشعر ، فإن آثاره القلمية معدودة من محاسن النثر وعيون الشعر ، وقد بين فيها أن الغرب والنصرانية اقتبسا كثيراً من الحضارة الإسلامية ، وأحيا ذكر شياطين الشعر العربي القديم والقصة العربية ، ولم يسبقه في معالجة هذا الموضوع إلا المغفور له ثروت باشا أحد رؤساء الوزارة المصرية السابقين

وما من أديب في مصر كلطفي السيد وطه حسين وأحمد ضيف ومنصور فهمي لم ينشر نبذاً باللغة الفرنسية على هامش مؤلفاته العربية النفيسة . ولو شئنا الاسهاب في هذا الموضوع لتمادى الكلام إلى مدى بعيد . وحسبنا أن نذكر أسماءهم . وأظن أن اسمي عدس وجوزيبو فتشي مستحقان أن يكونا في رأس جدول أسماء الذين نكرمهم ، فإن كتابهما (نجحا الساذج) قد بلغ بهما إلى أوج البلاغة ، فقال عنه أوكتاف ميربو إنه لا يقل قيمة عن الكتب التي نسجت بردتها يراع ستندهال وفلوبير وتلستوي وقال إنه لم يدرك حقيقة الشرق إلا حينما قرأ كتاب « جحا الساذج »

وكتب أحمد ضيف بالاشتراك مع فرنسوا بون جان قصة « منصور » وغيرها فوصف الأول محاسن الريف المصري ومعيشة النوتية في النيل ومرفأ الاسكندرية ، واشترك معه بون جان في وصف جامعة الأزهر

وفي جملة الذين عالجوا محاسن مصر القديمة التركية أحمد راسم فإن نثره الشعري يحكي بسلاسته وابتكاره ما نراه في شعر فرنسيس جام . وفي كتابة أحمد راسم تكثر النكتة والتعابير الشعرية والأمثال العلمية . وقد عالج تحليل قصائد الشعراء المصريين باللغة الفرنسية ، وسيتسنى لكم الاطلاع على تراجم هؤلاء الشعراء في الديوان الذي يعده في القاهرة المسيو روبرت بلوم الأديب الفرنسي الذي اختار مصر وطنا له

ومن المؤلفين الذين لا يغفل راسم عن الاشادة بهم أمامكم شاعر أريد أن أسبقه إلى التنويه به وهو محمد ذو الفقار فانه من أرق شعراء مصر وأحسنهم ديباجة ، ولكنه ينفر من الظهور والتبجح ، وهو علاوة على تفوقه في الشعر يعد من المصورين البارعين . ويحب في غالب الاحيان أن يستر عواطفه الحقيقية بنكتة لطيفة أو بتهكم لاذع . وقد قال عنه أحد النقاد : « إن الكلمات العادية في اللغة الفرنسية تتخذ إذا عالجها بقلمه طلاوة جديدة » .

وأول من رفع الستار عن قصائد ذو الفقار وأعلنها للجمهور هو الكاتب المصري جورج دوماني بك ، ولم يكن قبل ذلك قد اطلع عليها إلا أخلصاؤه . أما جورج دوماني الذي اشتهر بالسياسة والأعمال وشغلته عن عالم الأدب ، فهو والحق يقال من أدق النقادين نظراً وأرقهم قلبا ، فالمواهب التي يسخرها لتخليد ذكرى بعض زملائه وإظهار عبقرية البعض الآخر ، تدل على أن نزوعه إلى النقد لم يضعف فيه قوة الشاعرية

ومن عهد قريب صارت مصر تضيف إلى عداد شعرائها الذين ينظمون باللغة الفرنسية شاعرة جديدة هي السيدة قوت القلوب كريمة المغفور له عبد الرحيم الدمرداش باشا ، فقد أصدرت رواية مطولة بعنوان « الحريم » أجادت في إنشائها كل الأجادة ونظم لها الكتاب الفرنسيون عقود الثناء عليها

وإذا كانت الصداقة ، الحقيقية وليدة اندغام بعض المتضادات والتقرب عن طريق المصاهرة فقد وجدت فرنسا ومصر لتفاهما فمنذ طرفي حوض البحر الأبيض المتوسط لا تتخدش شواطئنا المتطرفة بخطوط منحرفة . وكأن شعبينا قد أعدا من الوجهتين الجغرافية والتاريخية لأن يكونا في ملتقى الطرق حيث تتواجه وتندغم الحضارات المتضادة . فباريس في الغرب تقوم بين العالم الجرماني والعالم اللاتيني بمهمة تماثل المهمة التي تقوم بها الاسكندرية بين أسيا والعالم الافريقي . ونجد في فرنسا كما نجد في مصر الفلاح المتعلق بالأرض وحراثتها ، فاليسر لم يجرده من الميل إلى العمل ولا التعلق بأهداب الحرية ولا السعي وراء الاقتصاد المحمود . وكان بوسويه يقول عن مصر الفرعونية : إن الأحوال الجوية المتساوية فيها دائماً تولى عقول أهلها متانة وثباتاً .



غريب القرآن

لمحمد بن عزيز السجستاني المتوفى سنة ٤٥٠ هـ

طبع المطبعة الرحمانية بالخرنفش بمصر

أنجزت المطبعة الرحمانية بالخرنفش بمصر طبع هذا الكتاب النفيس من تراثنا الأدبي بعد ما عهدت إلى الأستاذ الشيخ مصطفى عناني بك المفتش الأول بالمعاهد الدينية ، تصحيحه وترقيمه ، وضبط المهم من ألفاظه وتعليق حواشيه ومراجعته على أصوله ؛ وقد اعتنى به ناشره عناية فائقة تناسب قيمة هذا الكتاب الجليل

ونحن نحب أن نعرف هذا الكتاب إلى جمهور المتأدبين من قراء الرسالة ليتقدموا به ويستفيدوا منه ؛ فهذا كتاب وضعه واضعه ليعين قارىء القرآن وسامعه على أن يفهم ما يشاء من آياته على وجه السرعة ، غير مستعين بما كتب المفسرون لأنه ينشد الفهم العاجل أو لأنه لا يتسع صدره لفضول الكلام الذي يملأ كتب التفسير في إسهاب عجيب . ونحن الآن نسمع القرآن يتلى في (الراديو) أو يقرأ في المساجد والمآتم والبيوت ، فنستمع إلى هذا الجرس الجميل في كتاب الله ونتابعه بأذن واعية وفكر يقظ وقلب مشوق ؛ ثم يضايقنا أحياناً أن يقف الفكر عند آية أو كلمة من آية لا نستطيع أن نفهمها لطول العهد بما قرأنا من كتب التفسير ، أو لبعدها عن محيطنا اللغوي ؛ في مثل هذه الحالة يعيننا كتاب (غريب القرآن) فيفسر لنا الكلمة الغريبة عنا في بساطة ووضوح تعيننا على فهم الآية كلها وتصل بين ما نسمع من آي الذكر الحكيم .

على أنه مع ذلك قاموس صغير يعين اللغوي والكاتب والشاعر بما اجتمع فيه من كلمات قد لا نجدها فيما بين أيدينا من معاجم اللغة . ثم هو مرتب ترتيباً أبجدياً يدل على موضع الكلمة منه بسهولة وبغير كبير عناء .

لهذه الأسباب كان طبع هذا الكتاب خدمة كبرى أسديت إلى العربية يستحق ناشره من أجلها الشكر الجزيل

وهذه هي الطبعة الثانية من الكتاب ، وكانت طبعته الأولى منذ خمس عشرة سنة ؛ على أن ما لقيه الكتاب من رواج ، وتقدير الأدباء والمتأدبين لقيمته العلمية والأدبية ، قد حدا ببعض المرتزقة من تجار الكتب أن يعيدوا طبعه من غير إذن ناشره ، فكان على علمهم طابع السرقة ودليلها ، فجاء مطبوعهم مغلوطاً ناقصاً مشوهاً يسيء إلى الكتاب وقارئه أكثر مما يسيء إلى ناشره

ولكن هذه الطبعة الجديدة بضبطها وتحقيقها والعناية بها قد أنستنا هذه السيئة التي أقدم عليها طابعه المغتصب ، وردت إلى الكتاب قيمته العلمية الجليلة .

س

شرح الإيضاح

تأليف الأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدي

أتمت المطبعة المحمودية التجارية بالأزهر بمصر طبع الجزء الرابع من شرح الإيضاح في علوم البلاغة للأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدي ، فتم به شرح كتاب الإيضاح للخطيب القزويني ، وهو الكتاب الذي جمع فيه بين طريقة الإمام عبد القاهر الجرجاني ، وطريقة الشيخ أبي يعقوب السكاكي ، بعد أن هذب الطريقتين ، وأبدع في ترتيب مسائل علوم البلاغة ، فاستقام له بهذا طريقة ثالثة بلغ من حسنها أنها لا تزال قدوة المؤلفين في علوم البلاغة إلى يومنا هذا

وقد شرح الأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدي في هذا الجزء علم البديع من كتاب الإيضاح ، وسار فيه على طريقته في الأجزاء الثلاثة قبله ؛ لا يعنى إلا بشرح ما يهم من المسائل التي تكون من صميم هذه العلوم . فإذا فرغ من شرح المسألة عني بشرح شواهدها وتكميلها وإيراد شواهد أخرى لها ، وضرب بما سوى هذا عرض الحائط ، وهو مما لا تزال المعاهد الدينية تتشبث به ، وترى أنه الميزة التي يمتاز بها الأزهري على غيره . ونرى نحن أن إصلاح العلوم في الأزهر لا يتم إلا بالقضاء على هذا الأسلوب الذي يبعدها عن تحقيق ثمراتها ، وتلتوي به مسائلها على المعلم والطالب حتى ينتهي منها على مثل ما بدأ به فيها ، وحتى لو شاء الاثنان أن يقضيا سنة في مسألة على هذا الأسلوب لقضياها في تحقيقها ، وقد

تضيق بهما عن غايتهما . ومن غريب أمر هذا الأسلوب أنك تتعب في تذليله ما تتعب حتى تنتهي منه ، فإذا عدت إليه بعد هذا بسنة أو شهر أو يوم كنت كأنك تحاول شيئاً لم تذلله من قبل ، وأحوجك إلى مثل تعبك الأول أو أشق منه . فيالله من هذا الأسلوب العويص الذي لا يذلل ، ويا لهؤلاء المساكين الذين يشقون فيه هذا الشقاء بدون ثمرة نافعة !

ولا يفوتنا بعد هذا أن نذكر مثالاً من شرح الأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدي في هذا الجزء ، ليعرف منه القارئ نوعاً من طريقته في شرح مسائل البلاغة ، وهي طريقة يجمع فيها بين العلم والأدب ، وتحقيق المسألة وإيراد الشاهد على نحو ما كان يفعل المتقدمون قبل شيوع الطريقة النظرية في تدوين هذه العلوم

قال الخطيب في تعريف علم البيان (علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة)

فقال في شرحه : قد اختار السبكي أن كل واحد من تطبيق الكلام على مقتضى الحال ومن الإيراد بطرق مختلفة ومن وجوه التحسين قد يوجد دون الآخرين ، فلا يكون الأول عنده شرطاً في الثاني كما سبق في علم البيان ، ولا يكون كل منهما شرطاً في الثالث كما هنا ، ولكن الحق خلاف ذلك ، لأنه لا قيمة لوجوه التحسين عند فقد المطابقة ووضوح الدلالة ، ولا لوضوح الدلالة عند فقد المطابقة ، ولهذا عد من عيوب الطباق قول الأخطل :

قلت المقام وناعب قال النوى
فعصيت قولي والمطاع غراب

لأن هذا من غث الكلام وبارده

وكذا قول أبي تمام

يوم أفاض جوى أغاض تعزياً
خاض الهوى بحرى حجاه المزبد

لأنه جعل الحجى مزبداً ، ولا يعرف عاقل يقول إن العقل يزبد ، وكذلك خوض الهوى بحر التعزي من أبعد الاستعارات

وإنا نهنئ الأستاذ الصعيدي بتمام شرحه على الايضاح ، وندعو الله أن يقويه على هذا العمل المتواصل (ص)

بغداد أو المدينة المدورة

في عهد الخلافة العباسية

كان الأستاذ النبيه بشير يوسف فرنسيس قد أخرج في الصيف الماضي الجزء الأول من ترجمة كتاب « بغداد أو المدينة المدورة » لمؤلفه المستشرق الذائع الصيت الأستاذ « غي ليسترنج » وكنت في وقته قد كتبت كلمة في العدد « ٣٥٣ » الصادر بتاريخ ٨ حزيران ٩٣٦ من مجلة « الرسالة » الغراء بينت فيها ما لفريق من علماء المشرقيات من الفضل الأكبر في إخراج الآثار القيمة والأسفار العظيمة ، وقد وعدت القراء بنشر مقال أصف به الكتاب عند نشر الجزء الثاني ، وها أنذا بعد أن تناولت الجزء الثاني – وهو المتمم للكتاب – من مؤلفه الفاضل أفي بوعدي فأقول كلمتي خدمة للحقيقة والتاريخ :

لقد بذل المؤلف في اخراج كتابه هذا جهوداً عظيمة لا تقدر بقدر حتى تمكن من إخراج كتابه إلى عالم المطبوعات بصورة متقنة مستنداً إلى أوثق المصادر التاريخية وأصدقها برهاناً وأقواها حجة ، وإن هذا الكتاب لهو معجم جغرافي لمدينة بغداد وفروعها وشعبانها ، ومحلاتها ، وأزقتها ، وشوارعها العامة والخاصة ، وقبورها ، وبيوتها ودورها ، وجسورها وجميع مرافقها ومساجدها ، ومعابدها ، ومدارسها ، ومعاهدها الدينية والعلمية منذ تأسيسها على عهد أبي جعفر المنصور المتوفى سنة (١٤٥ ﻫ ٧٦٢ م) حتى انقراض الدولة العباسية بهجوم المغول على بغداد واستيلائهم عليها سنة (٦٥٦ ﻫ ١٢٥٨ م) . نظرة بسيطة يلقيها القارئ على مقدمة الكتاب وثبت المصادر التاريخية التي استقى منها المؤلف وألف كتابه هذا تجعله يقدر ما لهذا السفر الجليل من القيمة التاريخية العظيمة التي خدم بها المؤلف العرب والعلوم التاريخية العربية ، وبعد أن فرغ المؤلف من مقدمته دون الوقائع المهمة التاريخية منذ سنة « ١٣٢ ﻫ ٧٥٠ م » حتى سنة « ٦٤٠ ﻫ ١٢٤٢ م » بجدول ذاكراً فيه اسم السنة واسم الخلفاء والحوادث والأبنية الحادثة والمؤرخين المعاصرين . ثم قسم الكتاب إلى أربعة وعشرين فصلاً بين فيها الحوادث الواقعة واحدة تلو الأخرى بصورة واضحة لا إشكال فيها ولا التباس ، وقد وضح كثيراً من الحوادث في ثماني خرائط تبين موقع بغداد في مختلف القرون . وقد بلغت صفحات الكتاب ثلثمائة واثنتين وعشرين صفحة من القطع المتوسط

وبعد فإن الجهود العظيمة والأعمال الجبارة التي قام بها المترجم الفاضل لم تكن بأقل أهمية مما بذله المؤلف من الجهود .

ويكفيه فخراً أنه بالرغم من أن التعلم مستغرق كل وقته فإنه اغتنم فرص الراحة والخلود إلى السكينة فآثر الخدمة العامة على النفع الخاص وثابر على جهاده في الترجمة وتعقيب الحوادث من مصادرها الأصلية – رغم ندورها في العراق – حتى اخرج ترجمته هذه إلى عالم المطبوعات باحسن صورة وأبدع أسلوب . وإني لا يسعني هنا إلا أن أقدم التهاني القلبية للمترجم الفاضل ، وأدعو اخوانه الشبان المتحمسين المخلصين إلى اقتفاء أثره والسير على منواله ليفيدوا بلادهم وأبناءها ويستفيدوا ، فان رجل الدنيا من أفاد واستفاد

(بغداد) ابراهيم الواعظ

5 me Année, No. 207

Lundi - 21 - 6 - 1937



بدل الاشتراك عن سنة

مصـ	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر المالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٢٤٠٥

العــــدد ٢٠٧ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٢ ربيع الثانى سنة ١٣٥٦ — ٢١ يونية سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

الأدب وتحصيله

على ذكر مقال « أدب السندوتش »

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

نعى صديق الأستاذ الزيات - صاحب الرسالة - على أدباء هذا الجيل الجديد، جهلهم بلغتهم وتقصيرهم فى تحصيل آدابها ، وقال : « ان الواقع الأليم أن الذين درسوا لغتهم وفقهوها من الأدباء النابهين نفر قليل . فاذا استثنيت هؤلاء الستة أو السبعة وهم من الكهول الراحلين ، وجدت طبقة الأدباء كطبقة الصناع والزراع والتجار يأخذون الأمور بالتقليد والمحاكاة ، لا بالدرس والمعاناة » وقال أيضا : « ولا تجد فى تاريخ العربية قبل هذا العصر ، ولا فى تاريخ اللغات فى جميع العصور ، من يحسب نفسه أديبا فى لغة وهو لا يعرف منها إلا ما يعرف العامى الألف » .

وهذا صحيح . وأحسبنى من الستة أو السبعة الذين أشار اليهم الاستاذ ؛ وإنى لمن الكهول فقد جاوزت الأربعين وقاربت الخمسين ، ولكنى إن شاء الله من الباقين لا من الراحلين ، فانى أحس من العزم والقوة والنشاط مالو فرق بعضه على الأدباء النابتين أو الناجمين فى زماننا هذا ، لكفاهم

فهرس العــدد

وزيادة . ولست أكتب لأقول هذا ، وإنما أريد أن أرسم للقراء صورة لأيام التحصيل الأولى . وأقول «الأولى» لأنا ما زلنا دائبين على التحصيل لا نعرف له نهاية إلا نهاية الحياة نفسها .

عرفنا القراءة والاطلاع ونحن تلاميذ في المدارس الثانوية ؛ وأدع غيري وأتحدث عن نفسي فأقول إن مواردي كانت محدودة جداً ، وكان حسبي أن أؤدي نفقات التعليم . وكنت أحمد الله إذا وجدت بعد ذلك قرشاً في اليوم . وكان من زملائي في مرحلة التعليم الثانوي الأستاذ حسن فهمي رفعت بك – وكيل الداخلية الآن – ولا أعرف كيف كان حاله ، ولكني أعرف أنه كان يعيرني ما يشتري من الكتب بعد أن يفرغ منها ؛ وقلما كان يسترد ما يقرضني من كتبه . وكان فريق منا يعني بأن يحضر دروس الإمام الشيخ محمد عبده ، والشيخ سيد المرصفي .

وانتقلنا إلى التعليم العالي ، وكتب الله لي – على خلاف ما كنت أريد – أن أدخل مدرسة المعلمين العليا ، فكان مرشدي فيها وأستاذي ، زميلي وصديقي الأستاذ عبد الرحمن شكري ، فقد كان شاعراً ناضجاً ذا مذهب في الأدب يدعو إليه ؛ وكنت أنا مبتدئاً ، فصرفني عن البهاء زهير وابن الفارض وابن نباتة ومن إلى هؤلاء ، ووجهني إلى الأدب الجاهلي والأموي والعباسي ، ودلني على ما ينبغي أن أقرأ من الأدب الغربي . وكانوا ينقدوننا في هذه المدرسة بضعة جنيهات في الشهر : ثلاثة في السنة الأولى ، وأربعة في الثانية والثالثة ، فكنت أقسم هذه الجنيهات قسمة عادلة ، فأدفع للبيت نصفها وأستأثر بالنصف ، وأذهب إلى مكتبة فأنتقي منها «مؤونة الشهر» . وكنت أعود إلى البيت بهذا الحمل فتسألني أمي : «أنفقت فلوسك كلها ! وتظل طول الشهر تقول لي : هاتي ! – هاتي ! – أي تدبير هذا ؟»

فأقول : «يا أمي .. لك مؤونتك من السمن والعسل والأرز والبصل والفلفل والثوم ، ولي مؤونتي من المتنبي والشريف الرضي والأغاني وهازليت وثاكري وديكنز وماكولي ؛ ولا غنى بك عن سمنك وبصلك ، ولا بي عن هؤلاء ؟»

فتبتسم وتقول : «طيب . . .» وتدعو لي بالتوفيق

وكنت أشتري ديوان الشاعر ورقاً ، أعني بغير غلاف أو تجليد ، ليتسنى لي حين أخرج من البيت أن أحمل معي ملزمة أو ملزمتين أقرأ فيهما وأنا جالس في مقهى ، أو إذ أتمشى على شاطئ النيل . وكان حديثنا إذ نجتمع في الأدب والكتب ؛ وكانت رسائلنا التي نتبادلها في الصيف حين نتفرق لا تدور إلا على ما نقرأ . وكان أحدنا يلقى صاحبه في الطريق اتفاقاً فيقول له : «لقد عثرت على كتاب نفيس بغلاف فتعال نقرأه» . لا يدعوه إلى طعام ، أو شراب ، أو سينما ، أو لهو ، بل إلى قراءة كتاب . وكان كل من يقع على كتاب قيم يخف به إلى صاحبه فينبئه به ويلخصه له ويحضه على اقتنائه . وكان أساتذتنا في مدرسة المعلمين يحثوننا على التحصيل وييسرون لنا أسبابه ، ما وسعهم ذلك ، فلما تركنا المدرسة وفرغنا من الطلب «الرسمي» كنا قد عرفنا أمهات الكتب في الأدبين العربي والانجليزي ، وغيرهما أيضاً من الآداب ، ودرسنا أكثر شعراء العرب والغرب ، وكان لكل منا مكتبته الخاصة المتخيرة

وتزوجت . وفي صباح ليلة «الجلوة» دخلت مكتبتي ورددت الباب . وأدرت عيني في رفوف المكتب ، فراقني منها ديوان «شيلي» فتناولته واضطجعت على كرسي وشرعت أقرأ ، ونسيت الزوجة التي ما مضى عليها في بيتي إلا سواد ليلة واحدة ، وكانوا يبحثون عني في حيث يظنون أن يجدوني – في «الحمام» وفي غرفة «الاستقبال» وفي «المنظرة» – حتى تحت السرير بحثوا ، ولم يخطر لهم قط أني في المكتبة ، لأني «عريس» جديد لا يعقل في رأيهم أن يهجر عروسه هذا الهجر القبيح الفاضح ! وكانت أمي في «الكرار» أو المخزن تعد مالا أدري لهذا الصباح السعيد ، فأنبأوها أني اختفيت كأنما انشقت الأرض فابتلعتني ، وأنهم بحثوا ونقبوا في كل مكان فلم يعثروا لي على أثر ، فما العمل ؟

فضحكت أمي وقالت : «ليس في كل مكان ... اذهبوا إلى المكتبة فانه لاشك فيها»

فقالت حماتي وضربت صدرها بكفها : «في المكتبة ؟ يا نهار أسود ! وهل هذا وقت كتب وكلام فارغ ؟»

فقالت أمي بجزع : «اسمعي ... كل ساعة من ساعات الليل والنهار وقت كتب ... افهمي هذا وأريحي نفسك ، فان كل محاولة لصرفه عن الكتب ، عبث»

فقالت حماتي : « لو كنت أعرف هذا ... مسكينة يا بنتي ... وقعت وكان ما كان »

فقالت أمي : « هل تكون مسكينة إذا وطدت نفسها على هذه المعرفة ؟ ويحسن أن تكبحي لسانك . وأن تدعي الأمر لبنتك فانه من شأنها »

فلم تكبح لسانها بل قالت : « لو كانت ضرة ... لكان أهون ! »

فقالت أمي : « إنك حمقاء ... وليس في الأمر ما يحوج إلى هذا الهراء ... اذهبي إليه وناديه ... »

فارتدت إلىّ ، وفتحت الباب علي ، وكنت ذاهلا ؛ فلما شعرت بالباب يفتح أزعجني ذلك ، فأشرت إلى الداخل أن يرجع من غير أن أنظر إليه ؛ وكنت مقطباً ، وكان لساني يخرج أصواتاً كهذه : « شش ! شش ! »

فخرجت المسكينة وأغلقت الباب ، وذهبت تقول لأمي والدموع تنحدر من عينيها إني طردتها وصحت بها : « هشش ! » كما يصاح بالدجاج ؟

وقد عرفت هذا كله فيما بعد ، فطردتها ، لأني خفت أن تخرب لي البيت ؛ ثم إني زوجت بنتها ، ولم أزوجها هي ، فما مقامها عندي ولها بيت طويل عريض وزوج كريم ؟ وكان رأي بنتها فيها مثل رأيي ، فلم يسؤها مني ما فعلت . وأراحنا الله من دوشتها ، ولكن زوجتي كانت تقول إلى آخر أيام حياتها رحمها الله : « ليس لي ضرة سوى هذه الكتب » - كانت تقولها مازحة ، فقد راضت نفسها على احتمال هذا الجنون مني ، واستطاعت أن تدرك أنه ليس لها ولا لسواها حيلة ، وأن في الوسع صرفي عن أي شيء إلا عن الكتب والدرس .

ويا ما أذكى المرأة !! تكون لها حاجة تريد مني قضاءها ، وتخشى رفضي وعنادي ، فتكتمها ولا تكاشفني بها ، وتنتظر حتى تراني غارقاً في كتاب ، وذاهلا به عن الدنيا ، وآية الذهول أن تدخل مرات فلا أشعر بها ، فتقبل علي وتلاطفني وهي عارفة بما سيكون مني ، فأعبس ، كما كانت تتوقع ، فتقول « كلمة واحدة ... لن أعطلك ... »

فأقول متململا متأففاً : « لا حول ولا قوة إلا بالله ! » قوليها يا ستي ولا تعطليني » فتطيل عامدة لتضجرني : « كلمة واحدة بس ... لماذا تغضب هكذا ؟ ... ألا يتسع صدرك لكلمة ليس إلا ؟ »

فأكاد أجن وأقول : « يا ستي قوليها ، وأريحيني ! »

فتقول : « المسألة الفلانية ... »

وأنهض ، وأمضي بها إلى الباب وأنا أقول : اصنعي ما تشائين . كل ما بدا لك اصنعيه ، ولكن لا تعطليني ... أنا محتاج لعقلي كله الآن ... ألا تفهمين ؟ هذه نسخة مخطوطة ، منسوخة ... من ديوان ابن الرومي ... نسخها حمار كلها غلط وتحريف وتصحيف ، ... ليس فيها بيت واحد له معنى ... فكيف يمكن أن أصلح غلطة واحدة إذا كنت تطيرين لي عقلي بالفساتين والخياطة والركامة ... ؟ ؟ ... »

فتبتسم ، فقد بلغت سؤلها ، وتعدني أن تحرس هذا الباب فلا تترك أحداً يدخل منه أو يقربه .

ومن العناء الذي تكلفته أني اشتريت الأغاني الذي طبعه « الساسي » - اشتريته ورقاً على عادتي ، فكنت أراجع الأبيات التي ترد فيه ، في دواوين الشعراء أو كتب الأدب الأخرى ، فأصلحها أو أتمم القصيدة - أنسخ ذلك في ورقة وألصقها في الكتاب ، وكلما فرغت من جزء جلدته ، وقد أصبح ضعف ما كان ؛ وهذا هو الكتاب الوحيد الذي بعته بأضعاف ثمنه ، فقد اشتريته بمائة قرش وخمسة قروش ، فلما بعت مكتبتي في سنة ١٩١٧ أو ١٩١٨ - لا أذكر - ابتاعه مني وراق بخمسين وسبعمائة قرش . وقد ندمت على بيعه ، فما أستطيع أن أصنع الآن ما صنعته قديماً ، ولكن العناء الذي تكبدته نفعني ، فقد أحوجني إلى مراجعات لا آخر لها ، وأطلعني على ما كنت خليقاً أن أخطئه فيفوتني العلم به

وأنا مع ذلك أقل الثلاثة - العقاد وشكري - اطلاعاً وصبراً على التحصيل . وأدع للقارئ أن يتصور مبلغ شرههما العقلي ؛ ولا خوف من المبالغة هنا ، فإن كل ظني دون الحقيقة التي أعرفها عنهما . وأنا أجتر كالخروف ، ولكنهما يقضمان قضم الأسود ، ويهضمان كالنعامة ، فليتني مثلهما !

إبراهيم عبد القادر المازني

كثرة البطولة أو ندرتها ؟

للأستاذ عباس محمود العقاد

لخص العالم الفاضل الأستاذ أحمد أمين ما بيننا من خلاف على مسألة النبوغ والبطولة فى ختام مقاله فقال :

« عصرنا الحاضر طابعه طابع المألوف والمعتاد لا طابع النابغة والبطل ، وإن كان مألوفنا ومعتادنا أرقى من نابغة القرون الماضية وبطل القرون الماضية

« إن كان هذا - يا أخى - هو الذى أردتُ فأظن أنه لا يرد على بمزايا العصر الحاضر ، وعلم العصر الحاضر ، وفن العصر الحاضر . وإذا كان النبوغ فى السبق وكانت المقارنة بين عصرين بقياس مسافتى البعد ، فأرجو أن نكون على وفاق فيما ذكرتَ وذكرتُ »

وموضع الوفاق بين ما قال الأستاذ وما قلت أنا لا ينبغى أن نقيس علم السابقين إلى علم المحدثين ، فليست المقارنة بين مقدار ما نعلم ومقدار ما يعلمون ، وإنما المقارنة بين الملكات فى الزمن الماضى ، والملكات فى الزمن الحاضر ، وهذا ما نختلف عليه ؛ إذ لا موجب عندى لأن تكون ملكات النابغين فى عصرنا أقل مما كانت فى عصر الأقدمين

إن النبوغ صفة فى أصحابها وليست صفة فى غيرهم ، فاذا تعلم غير النابغين أو لم يتعلموا فصفة النبوغ باقية فى أصحابها سواء ظهروا بين المتعلمين أو ظهروا بين الجهلاء . وكل ما هنالك من فرق أن النابغة الذى يظهر بين المتعلمين أنبغ من زميله الذى يظهر بين الجهلاء ، وتلك شهادة للنابغين فى العصر الحديث تضاف إلى ميزان الحسنات والمرجحات

ومسافة البعد بين النابغ القديم ومعاصريه ، هى مسافة البعد بين نابغينا وأبناء عصرنا إذا نحن تجاوزنا مسألة التعليم ووفرة المتعلمين ، لأن النبوغ ملكة مطبوعة ، والمسافة بين المطبوعين وغير المطبوعين اليوم هى هى المسافة بين الفريقين قبل مائة عام أو ألف عام . فليس فضل إديسون فى زماننا أنه يعرف فى علم الضوء وعلم الصوت ما ليس يعرفه أبناء عصره ، ولكنما فضله أنه نابغ وهم غير نابغين . فأفاد بالعلم اليسير ما لم يفده الآخرون بالعلم الغزير ، وظلت المسافة بينهم وبينه فى النبوغ كالمسافة بين ارخميد ومن عاصروه من غير النابغين ، وإن اختلف العصران فى شيوع العلم وكثرة المتعلمين

يقول الأستاذ الفاضل : « مقياس النابغة فى نظرى أن يفوق أهل زمانه ويسبقهم فى فنه أو علمه أو أدبه حتى لا يدركوه إلا بعد أزمان ، وعلى مقدار هذا السبق يكون النبوغ . فسيبويه نابغة فى النحو ، لأنه رأى من قواعده ما عجز أهل زمانه عن النظر إليه »

وأنا أقول كما يقول الأستاذ : إن النابغة يفوق أهل زمانه فى معرض من معارض العلوم والفنون ، ولكنى لا أقول إن عصرنا لم ينجب أمثال سيبويه ، بل أقول إن سيبويه لو عاش فى عصرنا لما فاق نوابغه الأحياء ، وإن نوابغنا الأحياء لو عاشوا فى عصره لما قصروا عن شأوه ، لأن الملكات التى تعرف وحدة الأسماء والأفعال بين لغات أوربا ولغات آسيا لا تقل عن الملكات التى تعرف الوحدة أو الاختلاف بين قبيلة وقبيلة من أبناء البادية . لا لأن الأمر يرجع إلى كثرة المتعلمين عندنا وقلة المتعلمين قبل نيف وعشرة قرون

وعندى أن المعاصرين ينظرون إلى نوابغهم وأبطالهم كما كان الأقدمون ينظرون إلى النوابغ والأبطال فى عصورهم إلا من كان منهم موسوماً بسمة الدين أو محوطاً بهالة الايمان .

فالاستاذ يقول إن نابليون ظهر « فاستعبد الناس وأجرى الدماء أنهاراً وقلب الممالك رأساً على عقب ودوخ الدنيا فكان نابغة حقاً فى ناحية . وبيننا الآن فى عصرنا من هم أعلم منه بفنون الحرب ومن هم أقوى منه إرادة وأبعد نظراً ، ولكن من الصعب أن تسميهم نوابغ ، لأن الناس ليسوا مغفلين كما كانوا أيام نابليون ، ولأنه وحده كان هو القاهر المريد ومن حوله كانوا المنفذين المأمورين . فظهر ولم يظهروا ، ونبغ ولم ينبغ بجانبه إلا قليل »

فليت الأمر كما يبشرنا الأستاذ من هذه الناحية ؛ إنما الواقع أن أحداً من أبناء القرن الثانى عشر لم يناد بأن الامبراطور معصوم كما ينادى الفاشيون من أبناء القرن العشرين بعصمة « الدوتشى » وطاعته بغير تفكير ولا امتعاض

والواقع أن نابليون لم يخسر يوماً على صنيع كالذى صنعه « الفوهرر » قبل ثلاث سنوات من « تطهير » البلاد بلا محاكمة ولا سؤال

وقد كان « لينين » ينحى على القديسين ، ولا يعترف للعظماء بأثر فى توجيه التاريخ إلى الأثر الذى يعترف به الشيوعيون ، فلما مات أقاموا له ضريحاً لم يحلم به كاهن ولا راهب فى عهد القياصرة أو عهد الكنائس والقديسين

وإننا لنسمع كل يوم عن الألوف التى تتدفع حول نوابغ الصور المتحركة للظفر بتوقيع بطاقة أو صورة شمسية ، كما نسمع بالألوف التى تتدفع من أجل هذا حول أبطال الألعاب الرياضية وأبطال السباحة والطيران وأشباههم من أصحاب الشهرة فى كل ميدان يتصل بالجماهير . أما العلماء والأدباء فمن نبغ منهم واشتهر فليس نصيبه من الاعجاب والجزاء بأقل من نصيب أمثاله قبل أجيال وأحقاب ، ومن لم ينبغ ولم يشتهر فله قرناء يماثلونه بؤساً وغبناً وشظفاً فى أقرب العصور وأبعد العصور

لا ، بل نحن لا نستثنى أصحاب المكانة الدينية على اطلاق الاستثناء ، فما يربحه الدعاة باسم الدين اليوم لايقل عما كانوا يربحونه فى الأيام الخالية ؛ والثقة بأغاخان اليوم وهو يعيش فى أوربا عيشة المترفين المتطلقين لا تقل عن الثقة بإمام زاهد عاكف على العبادة كان يعيش فى صومعته قبل عصر الكشف والاختراع

ولم تنفرد نحن بإكبار البعيد فى الزمان أو المكان وترجيحه على أنداده وقرنائه الذين نراهم رأى العين ونعرفهم بالمصاحبة واللقاء ، فقديماً كانوا يقولون إن زامر الحى لايحظى بإطراب ، وقديماً كان الجاحظ يكتب الرسائل وينحلها الكتاب الأسبقين ليحظى بالاصغاء والتقريظ

وأحسب أن إيثار الماضى على هذا النمط له علة شائعة بل علل شائعات لا تنحصر فى وقت ولا يخلو منها قبيل

فالماضى يشبه المثل الأعلى لأنه غائب عن الأنظار كالمثل الأعلى فى هالاته وخيالاته ، أما الحاضر فهو كالواقع المحسوس الذى نحب أبداً أن نتجاوزه ونطمح إلى ما وراءه

ولقد كان المشركون ينكرون النبى عليه السلام ولا ينكرون منه إلا أنه « يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق » ... ترى هل كان الأنبياء فيما مضى لا يأكلون طعاماً ولا يمشون فى سوق ؟ كلا بل كانوا يأكلون ويمشون ، ولكنهم بعدوا واحتجبوا فخيل إلى غير معاصريهم أنهم مختلفون

ومن العلل التى تجنح ببعضهم إلى تهيب « السلف الصالح » أننا ننظر إليهم كما ننظر إلى الآباء والأجداد ، كأنهم كبار ونحن صغار ، لأنهم ولدوا قبلنا بمائة عام أو مئات من الأعوام ، وينسى المتهيبون أن السابقين كانوا أطفالا فى سن الطفولة وأننا سنصبح شيوخاً مع السنين أو نربى فى الشيخوخة على أولئك الآباء والأجداد

ومن تلك العلل ما أومأنا اليه فى مقالنا الأول عن سهو الذين يقارنون بين الماضى والحاضر فيجعلونهما كفتين تتساويان فى نطاق الزمان والمكان ، مع أن الحاضر زمن واحد والماضى حاضر قد تكرر عشرات ومئات

وعندنا نحن الوارثين للثقافة العربية سببان آخران لا يلحظان بهذه القوة فى جميع الشعوب : أحدهما أن العربى يعتز بالأنساب وينوط الفخار كله بماضيه ، لأنه سلالة من القبائل التى تغلب فيها العصبية وترسخ فيها الاصول

والثانى أن الماضى أقرب إلى منشأ الدين ، فيخيل الينا أن الأقدم فالأقدم هو الأصلح فالأصلح والأعلم فالأعلم ، وإن لم تدلنا الدلائل على اطراد هذا القياس

***

تلك الأسباب كلها خليقة أن تضاعف احتراسنا كلما عمدنا إلى الموازنة بين حاضر وغائب وقريب وبعيد . فهى صنجة تؤخذ من كفة الأقدمين وتضاف إلى كفة المحدثين فى ميزان الانصاف . ومما لا شك فيه أن ملكات النبوغ لا تقل فى عصرنا بل هى أحجى أن تزيد وتنشط ، بل هى قد زادت ونشطت فعلا باتساع مجال السعى والمنافسة والتفكير والاستنباط ؛ ومما لا شك فيه أن الاقدمين لم ينظروا إلى معاصريهم إلا كما ننظر نحن إلى معاصرينا ، وأنهم لم يشعروا قط بتلك المهابة التى نضفيها عليهم الآن ولا بذلك الترجيح الذى نخصهم إياه . أما أنهم كانوا يرون نوابغهم وأبطالهم

العلم والوطنية

الى الأستاذ توفيق الحكيم

من الأستاذ أبي خلدون ساطع الحصري
مدير دار الآثار ببغداد

قرأت الكلمة الرشيقة التي دبجتها يراعتكم الفنانة، في صدد الرد على استفتاء الرابطة العربية حول مسألة «العلم للعلم أم العلم للوطنية؟»

قرأتها بإمعان واهتمام، وأعجبت بالأخيلة والتشبيهات التي تحلت بها؛ غير أنني لم أقتنع بصحة الأفكار والآراء التي تضمنتها.

لقد قلتم بصيغة التأكيد الجازم: «العلم والوطنية لا يمكن أن يتفقا ...»

إذن فأنتم تعتقدون أن العلم والوطنية مختلفان؛ وزيادة على ذلك تقولون بأن اختلافهما هذا سيستمر إلى الأبد، ولن يزول في يوم من الأيام ...

على أني أعترف أيها الأستاذ بأنني من الذين يدينون بدين العلم والوطنية في وقت واحد، ومن الذين يقولون على الدوام بوجوب «نشر الروح العلمي» من جهة، و«تقوية الشعور الوطني» من جهة أخرى.

أفلا تعذروني إذن إذا ما اعتبرت نظريتكم هذه من الخطورة بمكان، فأخذت على عاتقي مناقشتكم فيها مناقشة شاملة لإظهار الحقيقة التي أعتقدها؟

* * *

تقولون، أيها الأستاذ، بأن «العلم والوطنية لا يمكن أن يتفقا»، وتحاولون أن تبرهنوا على هذه الدعوى بثلاث قضايا:

«إن الوطنية هي الأنانية في المجموع».

«والأنانية عمياء».

«والعلم هو البصر - المنزه - بحقيقة الأشياء ...»

إنني لا أود أن أبدأ المناقشة بالبحث عن مبلغ صحة هذه القضايا؛ بل أود أن أسلم بها مؤقتاً، لأرى هل تكفي للدلالة على صحة رأيكم في هذا الصدد ...

تقولون: «إن الوطنية هي الأنانية في المجموع»، فهل تستطيعون أن تقولوا - في الوقت نفسه - بأن العلم ينكر الأنانية على الإطلاق، ولا يعترف بأثرها في حياة الحيوان والإنسان؟

تقولون: «إن الأنانية عمياء»، فهل تستطيعون أن تقولوا - في الوقت نفسه - إن العلم يخالف كل ما هو أعمى؟ أفتنكرون أن القوى الطبيعية أيضاً عمياء؟

تقولون: «إن العلم هو البصر المنزه بحقيقة الأشياء»، فهل تستطيعون أن تأتوا ببرهان يدل على أن الوطنية خارجة عن حقائق الأشياء»؟ ...

كلا.. إن الوطنية قوة اجتماعية فعالة، ليس إلى إنكارها من سبيل ... آثارها تظهر دائماً، من خلال الوقائع التاريخية والحادثات الاجتماعية، بكل وضوح وجلاء، فهي تدخل لذلك في نطاق «حقائق الأشياء»، كما تدخل فيه سائر القوى والمؤثرات الطبيعية، كالوراثة والمناعة والمغناطيسية والجاذبية ...

فإذا أردنا أن نجعل الوطنية موضوع بحث علمي، يجب

كما نراهم الآن فذلك ما نخالف فيه الإستاذ لأنه خلاف المعهود والمروي والمسطور. وهبهم أكبروا معاصريهم لأنهم قلائل، وأصغرنا معاصرينا لإنهم كثيرون لا نادرون كما يقول الأستاذ الفاضل، فإنما يكون ذلك كالذهب الذي يكثر تداوله فيرخص سعره وهو ذهب لاشك فيه، وإنما يكون النبوغ نبوغاً ولا يكون شيئاً آخر مهما يكن حظ الناس من التعليم، لأنه ملكة في الطباع لا يختلف كنهها وإن اختلفت أنظار الناس إليها، ولا تزال الإنسانية بحاجة إلى الكثير منهم والقليل

وخلاصة القول أننا نستطيع أن نقول مع الأستاذ الكبير إن النبوغ في عصرنا كثرة لا ندرة، ولا نستطيع أن نقول معه ان المسافة بين النابغ وسواد الناس تقترب في العصر الحديث، لأن ازدياد التعليم يزيد نصيب المتعلم من المعرفة ولا يخوله فطرة أخرى ولا ملكة مطبوعة كتلك التي يخلق بها النابغون الممتازون

عباس محمود العقاد

أن ندرسها كما ندرس الحادثات والقوى الطبيعية بوجه عام، والحادثات والقوى الاجتماعية بوجه خاص ...

ولا جدال في أن العلم يدرس الكون وحادثات الكون «بحياد تام». يدرس خواص الأشياء، ويتتبع سير الحادثات ويتحرى أسبابها، ويستقصي قوانينها؛ وقد يتنبأ في بعض الأحوال بمستقبلها أيضاً، استناداً إلى القوانين التي اكتشفها والعوامل التي أظهرها... إنه يفعل كل ذلك، دون أن يقدم على استحسان أو استهجان الحقائق الثابتة بوجه من الوجوه، دون أن يتأثر بموافقة أو مخالفة تلك الحقائق لمصالحنا المادية أو لنزعاتنا الفكرية بصورة من الصور. لأن مهمة العلم تنحصر في معرفة حقائق الأشياء واكتشاف قوانين الحادثات، ولا يتعدى ذلك إلى تحبيذ أو تقبيح تلك الحقائق أو استحسان أو استهجان تلك القوانين ...

لنا أن نتخيل كوناً غير هذا الكون، ولنا أن نتصور «مجتمعاً غير هذا المجتمع»، ولنا ألا نكتفي بالتخيل والتصور بهذه الصورة، بل نوصل الأمر إلى درجة التمني، فنتمنى أن يتحول الكون إلى الحالة التي تخيلناها، وأن يتطور المجتمع إلى الهيأة التي تصورناها.. ولنا أن نذهب إلى أبعد من ذلك أيضاً: لنا أن نعتبر ما تخيلناه وتصورناه في هذا الباب مثلا أعلى نسعى إلى تحقيقه بنشاط وحماس، وهدفاً أسمى نتجه نحوه بقوة واندفاع ... لنا أن نفعل كل ذلك، على أن نعلم في الوقت نفسه، بأن تفكيرنا وعملنا في هذا السبيل يكون من قبيل الشعر أو الفلسفة أو السياسة ... فلا يدخل في نطاق «البحث العلمي» بوجه من الوجوه..

لكم، أيها الأستاذ، أن تتمنوا زوال الأنانية من الأمم؛ ولكم أن تصبوا إلى رؤية مجتمع تتغلب فيه مصلحة الدول على مصلحة الدولة الواحدة. ولكم إذا شئتم أن تقوموا بدعاية ترمي إلى تضحية مصلحة الدولة الواحدة إلى مصلحة سائر الدول.. فإني لا أناقشكم في كل ذلك في هذا المقام؛ غير أني أقول بأنه لا يحق لكم بوجه من الوجوه أن تعزوا تمنياتكم ونزعاتكم هذه إلى «العلم»، فتقولوا «العلم لا يتفق مع الوطنية»

فان العلم لا يختلف الآن إلا مع ما يخالف الواقع..

وإننا مهما تعمقنا في تحليل طبيعة العلم من جهة وطبيعة الوطنية من جهة أخرى لا نجد بينهما ما يستوجب الاختلاف بوجه من الوجوه.

٭٭٭

بعد أن وصلنا إلى هذه المرحلة من المناقشة أرى أن نترك هذه «الأحكام الآنية» جانباً، لنستقرىء الوقائع التاريخية فننظر فيما إذا كان العلم والوطنية قد اتفقا أم اختلفا فعلا في مختلف الأجيال...

إني أستطيع أن أذكر وقائع تاريخية كثيرة تشهد على «اتفاق العلم مع الوطنية» و «خدمة العلم للوطنية» بصورة فعلية. لعل أقدم هذه الوقائع يعود إلى عهد «أرخميديس» الشهير، ويتعلق بقصة مقاومته للرومان. فان هذا العالم الكبير الذي يعتبر من آباء علم الميكانيك، والذي يتردد اسمه حتى على ألسنة طلاب المدارس الابتدائية في دروس الطبيعة والأشياء، هذا العالم الكبير لعب (بعلمه) دوراً هاماً في تاريخ وطنه سيراقسة. فعند ما حاصرها الرومان. وضع كل ما عنده من علم وقوة تفكير واختراع إلى خدمة وطنه. فاستعمل المنجنيقات والمرايا المحرقة لتخريب اسطول المحاصرين، فمكن المدينة من الدفاع عن نفسها دفاع الأبطال. إذن، فالعلم والوطنية اتفقا في نفسية أرخميديس في أمر الدفاع عن الوطن المحصور، ولم يختلفا بوجه من الوجوه.

ان الثورة الفرنسية أيضا تعطي لنا مثالا بارزاً «لتعاون العلم والوطنية»: عند ما تألبت الدول الأوربية على فرنسا بقصد خنق الثورة في مهدها، جابهت الدولة المذكورة مشكلة كبرى، كادت تقضي عليها لولا مساعدة العلم والعلماء لها. فان الحصار الذي أحاط فرنسا بالنار والحديد من كل الجهات، حرم رجال الثورة إمكان استيراد المواد الأصلية الضرورية لصنع الصابون والبارود والمدافع والأسلحة، عندئذ فكرت لجنة الدفاع الشعبي في الاستفادة من علماء الكيمياء، فاستنهضت هممهم لتخليص الوطن من هذه المحنة.

ومن هؤلاء العلماء «برتوله» و «فوركروا» وجهوا أبحاثهم العلمية وجهودهم الفكرية ، نحو إيجاد الطرق التي تساعد على إحضار المواد المذكورة بصورة صناعية من المواد الموجودة داخل البلاد ، فنجحوا في مسعاهم هذا وخدموا وطنهم بذلك أجل الخدمات .

وأما بعد ذلك فنستطيع أن نقول : إن « خدمات العلم للوطنية » أصبحت من الأمور الاعتيادية التي يصعب احصاؤها فإن صحائف تاريخ العلوم من جهة وتاريخ الدول من جهة أخرى مملوءة بأمثلة دالة على ذلك ، ولاسيما ماحدث منها خلال الحرب العالمية .

ربما تقولون أيها الأستاذ : « إن هذه كلها من الأمور التطبيقية » وستكررون في هذا المقام رأيكم في « العلم وتطبيق العلم » لأنكم قلتم في كلمتكم « فالعلماء الحقيقيون لا يطبقون العلم ، إنما يعيشون حياتهم للمعرفة المجردة لا يبتغون من ورائها غير مجرد الدنو منها . تلك لذتهم الكبرى . أما رجال الأعمال الذين يأتون بعد ذلك لاستغلال نتائج هذا العلم فليسوا من العلماء وإن درسوا العلم دراسة عميقة » .

فاسمحوا لي أن أقول : إن الطبيعة بعيدة عن مثل هذه التقسيمات القطعية في أمر « العلوم وتطبيقاتها » فإن استغلال نتائج العلوم — بعد اكتشافها — لا يكون دائماً من عمل رجال آخرين غير العلماء المكتشفين ، بل كثيراً ما نشاهد في تاريخ العلوم أن العالم الباحث ، بعد أن يتوصل إلى معرفة الحقائق واكتشاف القوانين ينتقل بنفسه إلى التفكير في النتائج المأمولة والفوائد المتوقعة منها ، ويبحث عن تطبيقاتها فهل يحق لنا — في هذه الحالة — أن نخرجه من عداد « العلماء » بحجة أنه لم يكتف باكتشاف الحقيقة ، بل تعدى ذلك إلى التفكير في الاستفادة منها ؟ فهل يحق لنا مثلا ألا نعتبر « أرخميديس » من « العلماء الحقيقيين » بالرغم من نظرياته واكتشافاته العلمية الكبيرة — لمجرد إقدامه على تطبيق بعض القوانين التي اكتشفها ؟ وهل يحق لنا أن نخرج « برتوله » من عداد العلماء — بالرغم من نظرياته وقوانينه المشهورة — لمجرد عدم اكتفائه باكتشاف تلك القوانين — وإقدامه على توجيه بعض أبحاثه العلمية إلى الاتجاه الذي تتطلبه منه خدمة الوطن ؟ .

كلا ... إن مبدأ « العلم للعلم » يتطلب البحث عن الحقائق لنفسها ولو لم ينتظر فائدة من وراء معرفتها ، غير أنه لا يتطلب الامتناع عن الاستفادة منها .

إن هذا المبدأ يتطلب الاعتراف بالحقائق الثابتة ، مهما كانت نتائجها ؛ غير أنه لا يتطلب الامتناع عن توجيه الأبحاث العلمية نحو الحقائق التي ينتظر الحصول على فائدة وطنية من وراء معرفتها .

* * *

هذا وإتماماً لاستقراء الوقائع التاريخية ، يجب علي أن أشير إلى بعض الحوادث التي تدل على حدوث شيء من المخالفة والمشادة بين رجال العلم ورجال الوطنية في بعض الأحوال :

إن تاريخ الثورة الفرنسية يعطينا مثالا بارزاً لذلك : فإن رجال الثورة أعدموا « لافوازيه » Lavoisier الذي يعتبر مؤسس علم الكيمياء الحديث ، و « بايلي » Bailly الذي اشتهر بأبحاث فلكية هامة ؛ وسجنوا « كوندورسه » Condarcet الذي كان من كبار المفكرين ، فاضطروه الى الانتحار تخلصاً من المقصلة والعذاب ...

كما أن الانقلاب الألماني الأخير أعطانا مثالا جديداً لذلك : فإن الحكومة الوطنية ، طردت من البلاد عددا غير قليل من العلماء ، وعلى رأسهم « إينشتاين » الشهير ...

غير أنه يجب علينا أن نلاحظ أن هذه الوقائع لا تدل على خصام بين العلم والوطنية ، من حيث الأساس . لأن العالم قلما يتفرغ إلى الأبحاث العلمية تفرغاً مطلقاً ، فإنه لا يتجرد عادة عن الحياة الشخصية ، بل كثيرا ما يقوم ببعض الأعمال السياسية أيضاً ، كما أن تفكيراته لا تكون علمية في كل الموضوعات ، إذ أنه قد يفكر كما يفكر سائر الناس في المسائل التي تخرج عن نطاق اختصاصه ، ولا سيما في الأمور التي تدخل في ساحة الدعايات الحزبية والأعمال السياسية . فإذا ما تحدث مخالفة بينه وبين رجال السياسة الوطنية ، يكون قد حدث ذلك بالرغم من علمه لا بسبب علمه .

فان « لافوزييه » مثلا كان من النبلاء الذين يحملون لقب « المركيز » كما أنه كان من « الملتزمين » الذين كانوا يشتغلون بجباية الضرائب من الناس . فاذا ما اتهمه رجال الثورة الفرنسية — بحق أو بغير حق — بالخيانة للوطن ، وحاكموه فأعدموه ، انما كان ذلك من جراء صفاته وأعماله هذه ، لا من جراء أبحاثه وآرائه العلمية .

وكذلك الأمر في « إينشتاين » : فان أبحاثه العلمية ونظرياته الفلسفية لم تجرده عن النزعات الطائفية ولم تبعده عن الأعمال السياسية . فاذا وجد رجال الحكومة الوطنية الالمانية — بحق أو بغير حق — في سلوكه وسلوك طائفته ما يضر بسلامة الوطن ، كان ذلك من جراء أعماله وأعمال طائفته السياسية ، لا من جراء أبحاثه وآرائه العلمية .

٭٭٭

وربما كان من المفيد أن نذكر رأى بعض العلماء لايضاح هذا البحث أكثر مما تقدم . وربما كان رأى « باستور » الشهير من أبلغ الشهادات في هذا الباب :

إن هذا العالم الذى يعتبر بحق من العلماء الذين انتظمهم الروح العلمي بأكمل معانيه ، والذى قام بسلسلة أبحاث تعد بحق من أبرز وأنجع الأمثلة للطريقة التجريبية ... هذا العالم الكبير كان وطنياً متحمساً طول حياته ؛ وقد قال في خطبة بليغة ألقاها في أحد المؤتمرات الأممية :

« لا وطن للعلم أو بالأحرى ، وطن العلم يشمل العالم بأجمعه ومع هذا لكل عالم وطن وعلى كل عالم أن يهتم بكل ما يخدم مجد وطنه فى كل عالم حقيقى كبير تجدون دائماً وطنياً كبيراً » .

٭٭٭

والآن بعد الانتهاء من هذه المناقشة ، اسمحوا لى أن أعود إلى إحدى القضايا التى كنت سلمت بها جدلا ، وهى أولى القضايا الثلاث التى سقتموها للبرهنة على عدم امكان اتفاق العلم والوطنية :

« الوطنية هى الأنانية فى المجموع » .

إننى لا أنكر صحة هذه القضية من حيث الأساس ، غير أننى أرى من الضرورى أن نتبعها بقضية ثانية فنقول :

« الوطنية هى الأنانية فى المجموع ، غير أنها التضحية والايثار فى الفرد ... » .

نعم ان الوطنية هى التضحية والايثار — بالنسبة إلى أفراد البشر ، وإن كانت من قبيل الأنانية بالنسبة إلى الكتل البشرية . ونستطيع أن نقول : انها أرقى أشكال التضحية والايثار . فان مظاهر التضحية والايثار لا تتجلى فى مجال من مجالات أعمال الانسان بالتنوع والسمو والقوة التى تتجلى بها فى مجال الوطنية . وأما مظاهر الايثار التى تنشأ من الشعور الأممى فإنها لا تذكر بجانب ذلك ...

انى لا أود أن أتوسع فى هذه المسألة الآن غير أنى أود أن أختم هذه الرسالة بإحدى الكلمات التى قالها جان جاك روسو بأسلوبه الخلاب :

« بعض الناس يحبون أبناء الصين ، وذلك لكى يتخلصوا من الواجبات الفعلية التى يتطلبها منهم حب أبناء وطنهم الأقربين »

(بغداد) أبو خلدون

في التاريخ السياسي :

الحرب الأهلية الأسبانية

وخطرها على السلام

بقلم باحث دبلوماسي كبير

حينما اضطرمت الحرب الأهلية الاسبانية في أواخر يولية الماضي ، لمحنا في حوادثها منذ البداية عوامل معركة دولية خطيرة وكنا يومئذ نلتمس القرائن والأدلة لتأييد هذا الرأي ، لأن العوامل الدولية التي كانت وراء هذه المأساة لم تكن قد وضحت بعد بصورة جلية ؛ بيد أنه لم تمض عدة أسابيع على ذلك ، حتى تكشفت هذه العوامل واضحة ، وحتى بدا أصبع إيطاليا وألمانيا ظاهراً وراء الثورة الاسبانية يذكى ضرامها ويمدها بكل صنوف المعاونة العسكرية والسياسية ، وحتى بدت روسيا السوفيتية في جهة أخرى وراء الجبهة الجمهورية الاسبانية تؤيدها بكل ما وسعت وتمدها بالأسلحة والذخائر والفنيين ، وحتى بدت انكلترا وفرنسا أيضاً من وراء الجبهة الجمهورية تمدها بعونها السياسي والأدبي . وآثرت انجلترا وفرنسا الأخذ بسياسة عدم التدخل في المشكلة الاسبانية ونجحتا في حمل الدول الأخرى أعني إيطاليا وألمانيا وروسيا والبرتغال على إقرار هذه السياسة ، وتألفت لجنة عدم التدخل الدولية في لندن . وبينما كانت هذه اللجنة تسير في مباحثها وقراراتها ببطء وتسويف ظاهرين كانت المعركة الدولية في اسبانيا تتفاقم يوماً بعد يوم ويتوالى نزول القوات الإيطالية والالمانية في الثغور الاسبانية لتشد أزر الجبهة الثورية ، وتتوالى الإمدادات الروسية لتشد أزر الجبهة الجمهورية ويتسع تدخل إيطاليا وألمانيا في اسبانيا نفسها ، وفي جزر البليار ومراكش الاسبانية بشكل يزعج فرنسا وانكلترا . عندئذ خطت السياسة البريطانية خطوة أخرى واستطاعت بعد مفاوضات ومباحثات طويلة أن تحمل الدول الممثلة في لجنة عدم التدخل على إقرار مشروع دولي لرقابة الشواطئ والحدود الاسبانية وذلك لمنع الامدادات الأجنبية عن الفريقين المتحاربين ، وتطبيق سياسة عدم التدخل بطريقة فعلية ، وترك المشكلة الاسبانية يحلها الشعب الاسباني وحده ؛ وبذلك تحصر الحرب في أسبانيا ، ويحمى السلام الدولي من عواقبها .

ونفذ مشروع الرقابة الدولية منذ عدة أسابيع . واشتركت فيه انجلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا والبرتغال ، وحصرت الشواطئ والحدود الاسبانية على يد السفن الدولية والمراقبين الدوليين . ولكن الواقع أن إيطاليا وألمانيا كانتا قد بعثتا إلى اسبانيا قبل تنفيذ مشروع الرقابة من القوات العسكرية والجوية لمعاونة الجنرال فرانكو زعيم الثورة الاسبانية ما اعتقدتا أنه كاف لاحراز الجبهة الثائرة النصر النهائي على الجمهوريين وإقامة الحكم الفاشستي المنشود في اسبانيا على أنقاض الحكم الجمهوري ، بل ظهر أن إيطاليا وألمانيا لم تكفا عن إرسال الامداد حتى بعد أن نفذ مشروع الرقابة ، على أن الرقابة الدولية أفادت في تضييق نطاق المعاونات الخارجية ، وحصرت احتمالات الحرب الأهلية نوعاً .

وفي أثناء ذلك حاولت السياسة البريطانية أن تتقدم خطوة جديدة في تصفية المشكلة الاسبانية ، فقدمت إلى الدول اقتراحها بسحب جميع الجنود الأجانب من اسبانيا سواء منهم من يحارب مع الجنرال فرانكو أو مع حكومة مدريد ؛ فرفضت إيطاليا النظر في الاقتراح ، وأجابت الصحف الإيطالية بأن الجنود الإيطالية لن تغادر اسبانيا قبل أن يحرز الجنرال فرانكو النصر النهائي . والمعروف المحقق أن لإيطاليا في اسبانيا جيشاً لا يقل عن مائة وعشرين ألف مقاتل . هذا عدا القوات الالمانية وهي تقدر بنحو ثلاثين ألفاً ، وهذه القوى الأجنبية هي عصب الثورة الاسبانية وهي سند الجنرال فرانكو ؛ وقد أبدت ألمانيا وإيطاليا في غير فرصة سواء في التصريحات الرسمية أو عن طريق الصحافة أنها لن تدخر وسعاً في تأييد الجنرال فرانكو حتى يحرز النصر النهائي ، وحتى تقوم في مدريد حكومة فاشستية ، ولم يبق ريب بعد أن الثورة الاسبانية إنما

هي محاولة عسكرية فاشستية تديرها الفاشستية الايطالية والألمانية ، وأن الجنرال فرانكو إنما هو أداة هذه السياسة الأجنبية ؛ فالثورة الاسبانية تفقد بذلك كثيراً من صبغتها الوطنية ، وتفقد عطف الديموقراطية ، والعالم المتمدن الذي يعرف وسائل الفاشستية وأساليبها الهمجية وجنوحها إلى العنف والعدوان ، ويقدر خطرها على السلام العام

ولكن هل تنجح الفاشستية في هذه المحاولة الدموية ؟ لقد مضى على الثورة الاسبانية التي دبرتها الفاشستية وسلحتها أحد عشر شهراً ، واستطاع الجنرال فرانكو بمؤازرة معاونيه الأجانب أن يستولوا على نصف الأراضي الاسبانية ؛ ولكنه لم يحرز حتى اليوم أي نصر حاسم ، بل فشل في كل محاولة خطيرة قام بها لتحطيم قوى الجمهورية ، وكان مقدراً أن الثورة لن تستغرق في تنفيذ برنامجها أكثر من عدة أسابيع ، ولكن مضت الأسابيع والأشهر ، وتحطم هجوم الجنرال فرانكو على مدريد ولقي الثوار أكثر من هزيمة شديدة أمام العاصمة ومزقت الوحدات الايطالية في وادي الحجارة شر ممزق ؛ وعندئذ فكر الحلفاء في مهاجمة ناحية أخرى من الجبهة الجمهورية ، فنظم فرانكو هجومه على بلاد الباسك منذ أكثر من شهرين ، وحاول أن يطوقها من البر والبحر ؛ ولكن قوات الباسك خيبت آمال الهاجمين، وردتهم غير مرة ، وانتقم فرانكو وحلفاؤه من الجمهورية الصغيرة الباسلة بتخريب بلادها وضياعها ، وأحرق الطيارون الألمان المدن والقرى الباسكية من الجو بطريقة وبدالية أثارت سخط العالم المتمدن وكان فرانكو يقدر أنه بحصار بلباو من البحر يمهد لافتتاحها بسرعة وأنه كما حدث من الهجوم على مالطة يستطيع الاعتماد على معاونة الغواصات الايطالية ، ولكن انجلترا التي خشيت على مصالحها ومناجمها العظيمة في هذه المنطقة بعثت بوارجها الكبرى إلى مياه بلباو ، وأنكرت حتى حكومة فرانكو في محاصرتها وخرقت السفن الانكليزية الحصار وأمدت المدينة المحصورة بالأطعمة ، وعاونت على إخلائها من غير المحاربين ؛ ومازالت قوات الباسك تصمد للهاجمين وتكبدهم أفدح الخسائر ، وان كان في الانباء الأخيرة ما يدل على أن بلباو قد لا تستطيع المقاومة طويلا

ooo

قلنا إن الفاشستية الايطالية تزعم أنها لن تتخلى عن الجنرال فرانكو حتى يحرز النصر النهائي . وتزعم إيطاليا والمانيا معاً أنهما لن تسمحا ، باقامة حكومة بلشفية في أسبانيا تهدد سلام غرب أوربا ؛ وهما تصفان حكومة اسبانيا الجمهورية بالحكومة البلشفية لأنها تستمد العون من حكومة موسكو ، وتلك دعاية مغرضة كما أسلفنا في فرص سابقة . فالجبهة الاسبانية الجمهورية هي جبهة الشعب الاسباني التي تحاول الفاشستية تحطيمها على يد الجنرال فرانكو ، وإذا كان في الجبهة الجمهورية عنصر شيوعي فهو أقلية سياسية ، كما هو الشأن في معظم الدول الديموقراطية ؛ وإذا كانت الجبهة الجمهورية تعتمد على مؤازرة روسيا السوفيتية ، فلأنها الدولة الوحيدة التي سارعت لنجدتها في محنتها ، ولأن روسيا ليست لها مطامع استعمارية في اسبانيا بل يحدوها إلى هذا العون معركة المبادىء والمثل ، فهي في أسبانيا تضرب الفاشستية ألد وأخطر خصومها على أنه إذا كانت الفاشستية تزعم أنها لن تتخلى عن فرانكو حتى يحرز النصر النهائي ، فان السياسة البريطانية من جهة أخرى تبدي صراحة أنها لن تسمح بانتهاك استقلال اسبانيا أو الاعتداء على سلامة أراضيها ؛ وهذا ما صرح به أخيراً مستر أيدن وزير الخارجية البريطانية في مجلس العموم ، ومعنى ذلك أن بريطانيا لن تسمح بفوز الجنرال فرانكو ، لأن هذا الفوز الذي تدعمه الحراب الأجنبية يعقبه تحقيق بعض المطامع الايطالية في جزر البليار وربما في مراكش الاسبانية ؛ وانكلترا مع تمسكها بسياسة الحيدة وعدم التدخل في المسألة الاسبانية ، لا تخفي عطفها على حكومة بلنسية ، وفي ذلك تؤازرها فرنسا بل ربما ذهبت فرنسا إلى أكثر من هذا العطف في معاونة الجبهة الجمهورية . وإذا كانت انكلترا وفرنسا تقفان في الميدان الدولي إلى جانب أسبانيا الجمهورية ، فإن ذلك لا يرجع إلى لونهما الديموقراطي ولا إلى معركة المبادىء فقط ، بل يرجع

بالأخص إلى خوفهما من غلبة الفاشستية في أسبانيا، وبما تهدد به مصالحهما الاستعمارية ومواصلاتهما في غرب البحر الأبيض المتوسط.

ومن جهة أخرى فإن انكلترا وفرنسا تخشيان على مصير السلام من تفاقم الحوادث الاسبانية. ولقد تجلى هذا الحرص على السلام في حادث البارجة الألمانية دويتشلاند، فقد ألقت طيارات حكومة بلنسية القنابل على هذه البارجة أثناء رسوها في ميناء أبيزا بجزيرة ميورقة فقتلت من بحارتها خمسة وعشرين وجرحت عدداً آخر؛ وثارت ألمانيا لهذا الاعتداء، فلم يمض يومان حتى ضربت بوارجها ثغر المرية الاسباني على حين فجأة ضرباً شديداً فقتلت وجرحت من أهلها المسالمين مئات وخربت قسماً كبيراً منها؛ وعلى أثر ذلك أعلنت ألمانيا وإيطاليا انسحابهما من لجنة عدم التدخل حتى توضع الضمانات الكفيلة بحماية بوارجهما؛ وكان لهذا الاعتداء الذي يشبه أعمال القرصنة من جانب البوارج الألمانية وقع عميق في الأوساط الدولية، لأنه حتى مع التسليم بأن ألمانيا قد اعتدي عليها في حادث البارجة دويتشلاند، فإنها لم تتقدم بطلب الترضية الودية ولم تقدم إلى حكومة بلنسية إنذاراً بها كما يقضي بذلك القانون الدولي، ولم يسبق في قانون الأمم أن اعترف بحق الانتقام من المدن الآمنة دون أن تكون هناك حرب شرعية بين الخصوم. خصوصاً إذا وقع الانتقام على النساء والأطفال كما حدث في ضرب المرية. ومن الغريب أن تنفرد ألمانيا بمثل هذا التصرف لاعتداء وقع على إحدى سفنها تبرئه حكومة بلنسية بوجود هذه السفينة في إحدى المواني التي بيد خصومها الوطنيين، مع أن مثل هذا الاعتداء قد وقع من قبل في أكثر من فرصة على السفن الانكليزية ولم تندفع في مثل هذا الانتقام الوحشي.

على أن انجلترا رأت مع ذلك أن تتفادى عواقب هذا المشكل الخطر، وأن تعمل على رد ألمانيا وإيطاليا إلى لجنة عدم التدخل، فوضعت مشروعاً جديداً يقضي بتعيين مناطق أمينة تستطيع السفن المشتركة في المراقبة أن تلجأ إليها ويحترمها الفريقان المتحاربان، ويعترف المشروع فوق ذلك بحق الدفاع الشرعي للسفن التي يعتدى عليها وقت الاعتداء فقط، ولكن الاجراءات اللاحقة تكون موضع بحث بين الدول، وتدل الأنباء الأخيرة على أن ألمانيا وإيطاليا قبلتا هذا المشروع، وقررتا العودة إلى لجنة عدم التدخل؛ وبذلك تكون السياسة الانكليزية قد استطاعت أن تتفادى عواقب هذا الاحتكاك الخطر بين ألمانيا وحكومة بلنسية.

على أن المأساة الاسبانية ما زالت مفعمة بالأخطار والمفاجآت. والخطر في هذه المأساة هي صبغتها الدولية، التي أشرنا إليها. فالصراع الدولي بين الجبهتين الاوربيتين الفاشستية والديموقراطية مازال قائماً، وإذا لم تبذل الدبلوماسية الأوربية جهوداً جدية لإخراج القوات الأجنبية من اسبانيا، وترك اسبانيا تقرر مصيرها بيدها، فسوف تبقى المشكلة الاسبانية خطراً دائماً على السلم الأوربي.

***

في الأدب المقارن

الحكمة

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

يولد المرء جاهلا ثم لا تزال التجارب تبصره بحقائق الحياة ولا يزال الدهر يعلمه ويؤدبه ، ولا يزال هو يثاقب فكره ، يتعظ بماضيه وينتفع بمشاهداته ، ويصوغ من جزئيات التجارب التي يمر بها كليات يلخص فيها نواميس الحياة وطباع الأشياء ، التي يجدر بالعاقل أن يسايرها ويحتال لها ، لا أن يصادمها ويجري على غير سننها ، وتلك هي الحكم التي هي لباب التجارب وثمار المعرفة ، والتي يغتبط الأديب أي اغتباط حين يستخلص عصارتها من مرير الشدائد وعصيب الأزمات ، ويتجلى له ضياؤها بعد أن تنقشع غيوم المطامع وعواصف المخاوف ، ويتوارثها الناس جيلا بعد جيل ، وتتشكل مع اختلاف بيئاتهم وتقاليدهم ، ويشدو بها الصغار وهم ناشئون ولا يعرف صدقها إلا الكبار ، بعد أن يخوضوا أتون التجارب الذي ينضج النفوس

فالحكمة خلاصة التجربة العملية ، ولا تقرأ في الكتب ولا تؤخذ عن المؤدبين . ومن ثم يستوي فيها الخاصة المثقفون والعامة الأميون ، إذ كان كلاهما يستقي من معين الحياة المشهودة ؛ وتذيع بين العامة أمثال وحكم هي غاية في الصدق ونفاذ النظرة وبلاغة التعبير . وقد يطابق بعضها أمثال الخاصة والحكماء في كتبهم ؛ وتدل تلك الحكم السائرة بين الشعب على الكثير من أخلاقه وأعماله ، من سعي وتوان ، ووقار واستهتار ، وامعان في الحروب واستراحة إلى السلم والدعة ، ومن ثم نرى كثيراً من الأمثال المتخلفة عن جيل الانحطاط الماضي ، رغم صدقها وعمقها مصوغة في أبذأ لفظ وأخش صورة ، ونرى كثيرا منها يحث على القناعة والتواكل والقعود .

ومن الحكم ما ترسل موجزة مستقلة كأنها القضايا المنطقية مبدوءة ببعض حروف الشرط أو أسمائه ، ومنها ما تصاغ في قصة محكمة ذات مغزى ، ومن تلك القصص ما ينسب إلى حكيم من الأقدمين كلقمان ، أو إلى شخص خيالي مثل جحا الذي صاغ العامة حوله قصصا بالغة غاية الحكمة والمتعة والفكاهة ، ومن تلك القصص ما يجري على ألسنة الحيوان ، ويقوم الأسد فيها بدور السلطان ويلعب الثعلب دور المكر والاحتيال ، ويمثل الذئب دور الغدر والافتئات ، وقد كان للأمم القديمة كالمصريين والفرس والهنود ، من كل هذه الضروب حظ وفير ، وفيها يبسط الحكماء المجربون لأبناء جلدتهم ثمار تجاربهم ، ويحضون على حسن المعاملة ويدعون إلى الفضيلة .

والشرق ، مهد المدنيات القديمة والامبراطوريات العظيمة ، والملكيات المطلقة ذات الطول والأبهة والبذخ ، والموارد الواسعة والكنوز الطائلة ، هو مهد الحكمة ومطلع الحكماء والأنبياء ، فيه تتجلى طباع الأشياء على جهارتها ، ويتجاور البذخ المفرط والبؤس المرمض ، وتتابع السعود والنحوس ، وتتقلب الأيام والدولات وتعقب عصور الرخاء والازدهار عهود الشدائد والادبار ، ومن كل ذلك تستخلص عبر الحياة وعظاتها ، ويتجلى لذوي النفوس العالية غرورها وبهارجها ، وتنصرف همة الحكماء والفضلاء إلى هداية مواطنيهم إلى سبيل الخير والسلامة وتلقينهم كيف يعيشون في أمن من جور الغاشمين وبطش الأقدار ويسعون جهدهم لتخفيف ما حولهم من آثار البؤس والبلاء ، وإصلاح ما يرون من أسباب الفوضى والفساد ، وهكذا كان يظهر المصلحون والأنبياء بين اليهود والهنود وغيرهم من أمم الشرق ، بين الفترة والفترة .

وللحكمة الصادقة المصوغة في اللفظ البليغ المحكم مكانها في أدب كل لغة : ففي كل أدب ما لا يعد من الحكم المتواترة يقتبسها الأدباء في مواطنها ، وقد نسيت أسماء قائليها وضاعت نسبتها وصارت من تراث الأدب المشاع ، وفيه كذلك ما لا يعد من آثار الشعراء والكتاب التي أساسها الحكمة وقوامها خلاصات التجارب التي عركتهم ؛ وفي الأدبين العربي والانجليزي تراث حافل من الحكم والامثال ، وفي كل منهما أدباء اشتهروا خاصة بصوغ الحكم وجرت آثارهم على الأقلام والأفواه ، لما تمتاز به من صدق النظرة وشمول الفكرة وإيجاز اللفظ .

ففي الانجليزية اشتهر شكسبير أولا وبوب ثانياً بروائع حكمهما ، وسارت كثير من أبياتهما مسير الأمثال ، لما امتاز به كلاهما من التمكن من اللغة وبلاغة الأداء ووجازة التعبير ، رغم اختلافهما فيما عدا ذلك من نظرة إلى الحياة ومذهب في الفن ؛ وندر من كبار أدباء الانجليزية من لم يسر له مثل أو أكثر فيما توفر عليه من موضوع كالطبيعة والجمال والاجتماع والمرأة ونحو ذلك ، جزاء ومن الانجيل سرت في اللغة الانجليزية المكتوبة والمتكلمة أمثال

وحكم عديدة، لا تزال تحمل طابعها الإسرائيلي وتدل بأسماء أعلامها ومواطنها على نشأتها الشرقية؛ وسرت في الانجليزية كذلك أمثال عديدة من الاغريقية واللاتينية يترجمها الأدباء إذا استعملوها وقد يثبتونها في لغتها الأصلية.

بيد أن ذلك هو كل ما هنالك، والحكمة في الانجليزية نادرة إلى حد بعيد، وهي لم تكن من مطلوب أدبائها ولا من هم شعرائها يتوخونها عمداً ويودعونها اللفظ البليغ الموجز. ولم يكن الإيجاز من دأبهم كما كان من دأب شعراء العربية وأدبائها في أحسن آثارها وأزهر عصورها. فالأديب الانجليزي إذا أخذ في الكتابة أرسل لخياله العنان، وأبرز فكرته الواحدة في شتى الصور متسلسلة مستتبعة غيرها من الأفكار، أما الأديب العربي فيؤثر الايجاز البليغ ويودع المعنى الواسع الشامل البيت الموجز أو العبارة المحكمة ويتجه إلى غيره. وهذا الايجاز المشهود في جيد الشعر الجاهلي راجع بلاشك إلى أمية العرب وحاجتهم إلى الإستغناء بالقول الجامع، والاجتزاء بالحكمة الشاملة، وقد توورثت هذه الخلة من خلال الأدب الجاهلي فيما تلا ذلك من عصور الأدب العربي كما توورث غيرها من خلال.

ومما حبب العرب في جاهليتهم في الحكمة أخذهم بحياة الحل والترحال، واشتغالهم أبداً بالقتال وإدراك الثارات: فتلك حياة شديدة كانت تتطلب كثيراً من العمل وقليلا من الكلام المفيد مع قلته. وكان الانتفاع بالتجارب من أكبر أسباب النجاح فيها، والاشتهار بالحكمة والدراية من صفات الشيوخ والرؤساء؛ ومنهم كان كثير من فحول الشعر ورجال البيان ومصاقع الخطباء كالأفوه الأودي وأكثم بن صيفي وقس بن ساعدة الايادي. ومن ثم أثر عن الجاهليين ما لا يعد من روائع الحكم نظماً ونثراً. ومن أمثلتها خطبة قس بن ساعدة وحكم زهير بن أبي سلمى في معلقته. وقد أعجب المتأخرون من الشعراء والأدباء بهاتيك الحكم أيما إعجاب، وشمروا عن ساعد الجد للاتيان بأمثالها، وعدوها محك قدرة الشاعر وبرهان الشاعرية الصادقة، وكاد يلهيهم الاشتداد في طلبها عن ابتكار شيء جديد في الشعر

وكان العرب في الجاهلية لا يعدون الشاعر فحلا حتى ينطق بالحكمة، فما لم يأت بشيء منها فهو بعد غر لم ينضجه تنور التجارب ولم تتكشف له حقائق الحياة؛ وظل الأعشى فيما قيل مزوياً عن مرتبة الفحول، رغم ضربه بسهم في مجالات المدح والهجاء والاعتذار ووصف الخمر، حتى قال في مدحه سلامة ذو فائش: « والشيء حيثما جعلا ». فرفعته هذه الجملة الموجزة إلى مصاف النابغة وامرىء القيس. وتروى حكايات كهذه عن شعراء الاسلام: فقد قيل إن جريرا سمع دالية عمر بن أبي ربيعة التي يقول منها: « إنما العاجز من لا يستبد »، فقال: « ما زال هذا الفتى يهذي حتى قال الشعر »، فهو لم يحفل بكل ما قاله الفتى في التشبيب، حتى ضرب على وتر الحكمة فاستثار إعجابه.

وأدب الجاهلية وصدر الاسلام حافل بتلك الحكم البليغة المشتملة على تجارب قائليها من سادة القبائل وأشرافها، الجامعة لنظراتهم في الحياة وخطتهم وسنتهم فيها، وتمدحهم بما رسموه لأنفسهم من مناهج وما أخذوها به من فضائل، وهذا الباب من أكرم أبواب الادب العربي وأدعاها إلى الاعجاب، ومن أجله كان العرب في تلك العهود يغالون بالشعر وينشئون أبناءهم على مدارسته، وكانوا يسمون هذا الباب من الشعر بالادب، لأن حفظ آثاره والتمثل بها يؤدبان النفس ويهذبان الخلق، وذاك هو الاسم الذي أطلقه أبو تمام في حماسته على ذلك الضرب من القول الشامل للحكمة والتمدح بالفضيلة. وقد اتسع معنى هذا اللفظ فبعد أن كان اسم جزء صار اسم كل وأطلق على الشعر جميعه والنثر معاً. وليس شك في أن هذا التطور الطبيعي البسيط هو منشأ كلمة أدب اللغة، وإن يكن بعض المستشرقين قد تحذلق وزعم أنها مقلوبة عن كلمة دأب؛ فذلك من قبيل النظريات المحضة التي لا تبلغ مبلغ اليقين أبداً؛ وليست إلا من قبيل التظرف العلمي والتظاهر بالتعمق في البحث، وإن لم يجد ذلك العلم فتيلا، ولم يدرك يوما منزلة الاقناع.

كانت الحكمة من أظهر أبواب الأدب في الجاهلية وصدر الاسلام، وكان من أقطابها في الجاهلية من ذكر، وفي الاسلام الامام علي والأحنف بن قيس وكثير من الصحابة، وبظهور الاسلام ثم توطد الدولة زاد العرب كلفاً بالحكمة وزاد الداعي اليها أهمية، فقد جاء القرآن الكريم والحديث حافلين بروائع الحكم وجوامع الكلم، التي أربت على الغاية من البلاغة والسمو، وحثا على طلب الحكمة التي هي ضالة المؤمن، وقد ظل الكتاب والحديث دائما نموذج الأدباء ومستقاهم؛ فلما فرضت الملكية المطلقة سلطتها كاملة، وأخرست الأفواه وأسكتت النقد، عادلة حينا وجائرة أحيانا، وجد الناس في الحكمة الشاملة المعممة سلوة للنفوس المقهورة، وعزاء عن المآرب المحظورة، وتنفيسا عن المطامح المستورة، واتقاء لشبهات السلطان، فأجريت الأمثال والمواعظ على ألسنة السلف الصالح، وملوك الأمم الغابرة وحكمائها وفلاسفتها، ووضعت على أفواه الحيوان والارواح، وأرسلت شعرا ونثرا، وترجمت عن اللغات، وكان من ذلك مترجمات ابن المقفع.

وكانت الصبغة الدينية التي لازمت توطد الدولة الاسلامية وتطور المجتمع الاسلامى ، داعيا آخر الى انتشار الحكمة فى الادب ، وفى الحكمة كتب ونظم كثير من رجال الدين ، ومن آثار الحكمة التي مبعثها الشعور الدينى اشعار أبى العتاهية وابن عبد القدوس والامام الشافعي ، ومما زاد هذه النزعة الدينية احتدادا ، وهذه الحكم الدينية ذيوعا ، ما كان يجاورها من مظاهر الترف المغرق وآثار اللذات والمفاسد ، فكانت تلك رد فعل لهذه ؛ وكان من الشعراء المغرقين فى المجون والتبذل كأبى نواس وبشار ، من تعاودهم رجعات من التبصر فى الحياة وغرورها ، حين تسئمهم اللذات ويرهقهم بشمها وخمارها ، فيرسلون فى أشعارهم من الحكم ما قد ينسب إلى أزهد الزهاد وأحكم الحكماء.

وبدخول الأدب العربى طوره الفنى طلب الشعراء البراعة والتفنن بصوغ الحكم وضرب الأمثال محاكاة للأقدمين وتوليدا من معانيهم ، وكانوا يشفعون الحكمة الانسانية أحيانا بمصداقها من عالم الطبيعة والحيوان والجماد ، فإذا أرسل أبو تمام حكمة فى ظهور فضل المحسود على يد الحاسد ضرب لذلك مثلا اشتعال النار فيما جاورت وإعلانها بذلك طيب عرف العود ، ويقول فى موضع آخر منتزعا مصداق كلامه من ظواهر الطبيعة :

وإذا رأيت من الهلال نموه أيقنت أن سيكون بدرا كاملا

ويقول غيره :

يعيش المرء ما استحيا بخير ويبقى العود ما بقى اللحاء

واشتغل المسلمون بدراسة الفلسفة اليونانية دون الأدب اليونانى ، فتأثر أدباؤهم بتلك الدراسة ، وازداد ولعهم بالحكمة ، واتخذت حكمتهم صبغة فلسفية أقرب إلى القضايا المنطقية وأشبه بالاستقراء العلمى ، وذلك واضح فى أشعار المتنبى والمعرى اللذين انحرفا بذلك بعض الانحراف عن الأسلوب العربى الأصيل ، الذي يمتاز بالبلاغة والوضوح والاطلاق ، وبلغ من تأثر شعر الحكمة فى العربية بروح الفلسفة اليونانية ، أن أبا على الحاتمى وضع رسالة يرد فيها أكثر حكم المتنبى إلى كلام أرسطو . وفى شعر المتنبي بلغت الحكمة العربية أوج رقيها ، أو بالأحرى بلغ الشعر العربى ذروة عظمته ، وبلغ من احتفاء الشعراء بتضمين الحكمة أشعارهم أن قيل فى الموازنة بين أبى تمام والمتنبي والبحترى إن الأولين حكيمان ، والشاعر البحترى ، لكثرة ما فى شعرهما من الحكم ، وأبو تمام هو القائل فى ذلك الضرب من الشعر :

يرى حكمة ما فيه وهو فكاهة ويقضي بما يقضى به وهو ظالم
ولولا خلال سنها الشعر ما درى بغاة العلا من أين تؤتى المكارم

فالولع بالحكمة ظاهر فى الأدب العربى : فاقتباس المأثور من كلام المتقدمين أكثر ذيوعا فى العربية منه فى الإنجليزية ، والحكمة مادة جانب عظيم من كتب الأدب التى تحفل بما أثر عن الحكماء والخلفاء والفقهاء من جوامع الكلم ، وهى موضوع مطولات كثيرة كمقصورة ابن دريد ولامية ابن الوردى وأرجوزة صاحب كتاب الصادح والباغم ، وبها تمتلىء الخطب المنسوبة إلى وفود العرب إلى كسرى وإلى أهل بيت المهدى عند مشاورته لهم فى حرب خراسان . وقد أولع الكتاب بنثر حكم الشعراء فى رسائلهم مسجوعة منمقة ، كما أولع الشعراء بنظم الحكم السائرة وأمثال العامة ، وكان الشعراء أكثر لجوءا إلى نظم الحكم وسرد العبر والاستشهاد بعظات التاريخ خاصة فى قصائد الرثاء ورسائل التعزية وأشعار الشكوى والوجدانيات ؛ وكثيرا ما كانت تساق الحكم فى هيئة نصائح . ويقول ابن عبد القدوس « والنصح أغلى ما يباع ويوهب » ، ومن شعر النصيحة جيمية محمد ابن بشير التى يقول منها :

قدم لرجلك قبل الخطو موضعها فمن علا زلقا عن غرة زلجا

أما الموضوعات التى طرقتها الحكمة فى الأدب العربى فلا تحصر ، فقد جالت فى شتى نواحي الحياة : من غرور الدنيا وتقلبها ووجوب الحذر منها وتوقع زوالها ، إلى مزايا الشدائد وامتحانها للرجال ، إلى ندرة الصديق الصدوق ، ومن شؤون الحياة اليومية إلى سياسة الدول وحكم الشعوب ، ومن آداب الحوار إلى آداب مصاحبة السلطان ؛ وكان بعض الشعراء يتوفرون على ضروب دون غيرها من الحكمة ، حسب ما توجههم اليه بيئاتهم ونفسياتهم ؛ فأبو العتاهية كان دائم الذكر للموت ، والمتنبى كان يشتق حكمه من حياة التناحر والمطامع والمعارك الأدبية والسياسية التي كان يحياها ، والمعرى كان يستقى حكمته ويستخرج عبره من ظواهر الكون التى كان دائم الاشتغال بها ، فهذان البيتان من نظمه يحملان طابع تفكيره ولا يمكن أن ينسبا إلى سواه :

يغادر غابة الضرغام كيما ينازع ظبى رمل فى كناس
سجايا كلها غدر ولؤم توارثها أناس عن أناس

فكثير من الظروف التى أحاطت بالأدب العربى فى الجاهلية والاسلام كانت تدعو إلى انتشار آثار الحكمة فيه ، فجاء حافلا بها منثوره ومنظومه على متعدد الصور ومختلف الأوضاع ، ومثل هاتيك الظروف لم تصاحب الأدب الانجليزى ، ومن ثم كانت الحكمة فيه أندر كثيرا ، فلا البداوة ولا الملكية المطلقة ولا رد الفعل المنعكس من الترف المفرط ، ولا الروح الدينى المتغلغل فى المجتمع ، لم يؤثر شىء من ذلك فى الانجليزية تأثيره فى العربية ولم يقتصر الانجليز على دراسة الفلسفة الاغريقية بل درسوا معها

البطولة وهل ندرت؟

للأستاذ فتحى رضوان

يحلو لى أن أدخل فى المناقشة التى أدارها الكاتبان النابغان، عباس العقاد وأحمد أمين حول النبوغ والبطولة.... يحلو لى أن أدخل فى هذه المناقشة خصماً ثالثاً، وإن كنت أكره لفظة «خصم»، ولكن ماحيلتى وقد علمنيها القانون...!

لقد طالعت مقال الكاتب «النابغ» أحمد أمين، وأدركت نظريته التى بناها على أن النبوغ هو سبق النابغ لمعاصريه، حتى ليعجزوا عن اللحاق به، إلا بعد زمن قد يطول، وذلك حين يكون النبوغ غالياً ورفيعاً، وقد يقصر، وذلك حين لا يكون النابغ ممتازاً إلا بقدر ...

الأدب الاغريقى، وعنه تلقوا رسالته وهى الجمال، فصارت هذه رسالة الأدب الانجليزى أيضاً، فكان الأديب الانجليزى يتوخى الجمال فيما يشاهد ويحس ويكتب، فى حين كانت الحكمة والعبرة والموعظة قبلة الأديب العربى فى كل ذلك، ومن الأدب الاغريقى تعلم الأديب الانجليزى أيضاً أن يطلق لفكره العنان ويفسح لبيانه المجال، على حين ظل رائد الأديب العربى بلاغة الايجاز، وكبح جمحات الخيال.

ومن ثم تمثل خير ما فى الأدب العربى فى حكم الشعراء والخطباء والكتاب، وجوامع كلمهم وموجز بيانهم، وتمثل خير ما فى الأدب الانجليزى فى سبحات الخيال المطلق المطنب، من درامات وملاحم وقصص، فالعيب الاجتماعى أو النقص السياسى الذى كان يراه الأديب العربى، فتحمله الظروف سالفة الذكر على أن يصوغه حكمة موجزة عامة لا تثير ريبة السلطان، كان يحوك حوله الأديب الانجليزى قصة اجتماعية رحيبة الجوانب تشخص موضع الداء تشخيصاً، وتعين الدواء، ويتجلى الفرق بين الأدبين فى هذا الصدد فى نوع عبقرية شاعريهما الفذين: فقد بلغت العبقرية الشعرية الانجليزية ذروتها فى آثار شكسبير صاحب الدرامات العجاجة بالخيال المطلق، وبلغت العبقرية الشعرية العربية أوجها فى قصيد المتنبى الحافل بالحكمة البليغة

فخرى أبو السعود

ولقد ساقته هذه النظرية إلى نتيجة، آمن بها، ودافع عنها، وضرب الأمثلة العديدة على صحتها وسلامتها. والنتيجة هى التى استوقفتنى، فدفعتنى إلى التأمل فيما جاء بهذا المقال، ثم هى التى حفزتنى على كتابة هذا الرد. فالأستاذ أحمد أمين يرى أن نوابغ هذا العصر قلة، لأن أساليب التربية الحديثة، ونظام المجتمع الذى نعيش فى ظله أشاع العلم، وأضعف الفوارق بين الخاصة والعامة، وأتاح فرصة التحصيل والتفوق للفقراء وذوى الثراء. وقد بلغ اقتناع الأستاذ أحمد أمين بهذه النظرية وبنتيجتها مبلغاً حمله على أن يضرب لنا الأمثال بالتلميذ فى المدارس الثانوية، فهو ينظر اليه كل يوم، فيراه يطالع كتب الطبيعة التى تشرح قواعد الضوء والصوت، والحرارة والكهرباء، فيقول: «إنه يعرف ما يعرفه نيوتن، وأكثر مما يعرفه»، ثم يراه يقرأ كتب النحو والصرف، والبلاغة فيقوى يقينه بأن ما وصل اليه من نتيجة صحيح جداً فيقول: «إنه يدرى من النحو، ما لا يدريه سيبويه».

ثم يطمئن إلى هذا الاستقراء فيقول لنا إذا كان محصول علمه يفوق علم جهابذة العلوم والآداب، وهو بعد تلميذ فى المدارس، يخطىء ويصيب، وينجح ويتعرض للسقوط، ويذاكر ويشكو قسوة الامتحان، فكيف تظنون أن عهد النبوغ لم ينصرم بعد؟. وأين مجال التفوق أمام الموهوبين وذوى الجد ما دامت المدارس قد ذللت المعرفة وفتحت أبوابها على المصاريع؟

قد كان التفوق والنبوغ بالأمس ممكناً، لأن النابغة كان مبصراً أوسط عمى، وصاحياً أوسط مغفلين ومدركاً بين جهال. أما اليوم فأصغر علماء الطبيعة كأكبرهم، يعرفان من أمر هذا العلم وقواعده قدراً يكاد يكون متساوياً، فاذا وجد الفارق بين العالم الصغير والعالم الكبير فليس هو بالفارق الذى يضفى على الكبير منهما صفة النبوغ والتفوق...

وقد سألنا الأستاذ أحمد أمين أن ندله على السياسى الذى يفوق أقرانه ويبذهم، وقد نبهنا إلى استنارة الشعوب وبصرها الآن بأساليب الحكم وفقهها لطرائق الادارة؛ ثم سألنا أن ندله على العالم الذى يسبق جيله أو معاصريه، ونبهنا إلى أن العلوم اليوم والفنون كذلك قائمة على سنة التخصص.

وأفهما أنه لا يوجد طبيب، وإنما يوجد اخصائيون في كل فرع من فروع الطب، ولا يوجد قانونيون، بل مطبقون لناحية واحدة من نواحي القانون ...

والحق أننا نشكر للأستاذ هذا التنبيه، لأننا نستطيع بعده أن ندله على النابغين المتفوقين الذين يسبقون معاصريهم بالسنين ويفوتونهم بالمراحل. فالتاريخ لم يعرف حاكماً كموسوليني ينبعث من خنادق الحرب، ثم يشتغل سنين معدودة في الصحافة، ثم تدين له الدولة والأمة بالطاعة والانصياع. ويصبح البون بينه وبين أكبر رجال أمته شاسعاً، حتى لا يكاد يوجد في إيطاليا إلا موسوليني، الكلمة كلمته، وكلمته قانون، وقانونه مقدس أسمى من أن يشوبه خطأ، ثم تتحالف عليه الدول وتطوق بلاده بحصار لا يرحم، فيجرح شجاعته، ويواجه العاصفة بسيل من الخطب ودنيا من التدابير ... فالتخصص ومجانية المدارس وتذليل أساليب التحصيل، كلها لم تحل دون بروز شخصية سياسية طاغية في إيطاليا. وهذا البروز، هو النبوغ على الأقل كما وضح لنا الأستاذ أحمد أمين مقياسه - ولكن الأستاذ يريد أن ندله على نوابغ كثيرين وإلا كان محقاً فيما ذهب اليه من أن العصر الحديث لا يعتبر عصر النوابغ، بل عصر ارتقاء الجماعة الانسانية ارتقاء لا يسمح بايجاد الفوارق الواسعة بين العامة والخاصة، وبين الكبار والصغار. ولكن حسب الأستاذ الكبير أن يدير بصره في العالم بأسره ليعلم أننا نعيش في عصر النابغين فألمانيا يحكمها رجل واحد يتصرف في أمورها كما يحلو له، أو على الأقل كما يحلو له ومستشاروه الذين من حوله.

وروسيا، على رأسها رجل يضع دستورها، وينفذ قانونها ويشرف على جيشها، والذين من حوله أقزام ينظرون اليه ولا يقوون على مقاومة إرادته ... وعلى الأستاذ الكبير أن يسأل من اليوم صاحب النفوذ الذي لا يحد في تركيا، وفي بولندا - قبل وفاة سلسودسكي - وفي النمسا وفي تشكوسلوفاكيا في عهد مازاريك ليعرف أننا محكومون بالنابغين والمتفوقين في عالم السياسة وليدرك أن بصر الشعوب بأساليب الحكم. وفطنتها الدستورية، لم تحل دون ظهور هذه الكثرة من ذوي السلطان المطلق ..

فاذا رجعنا إلى التاريخ القديم، وجدنا أن روما التي احتملت موسوليني أربع عشرة سنة متوالية، لم تستطع أن تحمل يوليوس قيصر مثل هذه المدة.

قد يعترض الأستاذ فيقول: ولكن من قال عن هؤلاء الحكام نابغون؟ وهو لا يحرجني بهذا السؤال، لأنه هو الذي ضرب لنا المثل «بنابليون»، ولا أحسب أن نابليون من حيث معدن العظمة يفذ واحداً من هؤلاء الذين ذكرت أسماءهم

فاذا أدرنا وجهنا إلى ميدان العلوم والفنون ألفيناه ميدان العمالقة والأقزام، ميدان الذين تلامس هاماتهم السماء والذين تلاصق أسماؤهم التراب. على الرغم من أن هؤلاء وأولئك، حصلوا على نصيب واحد من العلم المدرسي. فالأستاذ أحمد أمين يصيب كثيراً من العناء إذا هو أراد أن يجد قريناً لرجل ككارل ماركس ألف كتاباً قل هذا الكتاب عروشاً، وأزال دولا، وقلب وجه التاريخ، ورجل كداروين لا يشابهه في ميدان الطبيعة أكثر الذين حوله، ولا تستطيع أن نقول إن كارل ماركس هو وحده النابغة في ميدان الاقتصاد، ولا أن داروين هو وحده المتفوق في ميدان الطبيعة، فالى جانب ماركس برودون وبلاخانوف وبوخارين وغيرهم وغيرهم ممن كانوا إلى جانب طلاب الاقتصاد وأساتذته وكتابه والمشتغلين به نوابغ بل عباقرة. وفي الأدب يكتب الآن الكثيرون، والمطابع لا تنفك تخرج المؤلفات والمصنفات. ولكن ألا يوجد الكاتب الذي تساوي كلمته في حساب المادة عشرات الجنيهات، والكاتب الذي لا تساوي كتبه شروى نقير ... ثم ألا يوجد الكاتب الذي تفعل بدائعه في النفوس وفي الشعوب فعلا تارة يدفع بها الى العنف، وأخرى يميل بها إلى الرضا ... فكثرة الكتاب في أوربا وفي العالم، وكثرة الموسيقيين وكثرة الاقتصاديين لم تحل دون النابغين، ولكن الأستاذ احمد أمين يريد أن يرى هؤلاء النوابغ، ويريد أن يسألنا عن الفرق الكبير بين كاتب انجليزي وكاتب انجليزي آخر ... والحق أننا لا نتعب كثيراً في أن ندله عليهم، لا بذكر الأسماء بل بوضع قاعدة تغير الموقف.

فالإستاذ لا يرى موسيقياً كالموصلي ولا كبتهوفن ، ولا شاعراً كشكسبير ، ولا كالمتنبي ، ولا كاتباً كعبد الحميد ولا كابن المقفع ولا كاكوكلي . فيقول : لانبوغ في هذه الإيام وينسى أن الذين يتحدث عنهم جميعاً طواهم الموت وأحاطهم القدم بجلاله ، ومحا أسماء منافسيهم الذين كانوا يعيشون معهم وبقيت أسماؤهم وحدهم ، وأن المعاصرين يعيشون معنا ، ونحن نقرأ أسماء النوابغ وأسماء العامة ، أقصد العاديين من الكتاب والفنانين ، ولكن غداً سيموت الجميع ، والأجيال القادمة هي وحدها التي ستدون أسماء المتفوقين الذين عاشت بدائعهم ، وخلدت مؤلفاتهم ، وظهرت آثارهم ، عظيمة ومؤثرة وجليلة وستقول هذه الأجيال كما يقول اليوم الاستاذ احمد أمين إن جيلها يخلو من النوابغ وإن الأجيال السابقة هي عهد المتفوقين والمبرزين .

فمثلنا مثل الذي يقف إلى جانب الجبل ، لا يرى قممه ، ولا سوافله ، إنما يرى جسماً مسطحاً لا تضاريس فيه ، فإذا بعد عنه ظهرت معالمه وبانت خطوطه واتضح له أنه عال في ناحية ومنخفض في ثانية ، أو قل إن مثلنا مثل الوالد يعيش مع بنيه فلا يدرى أنهم يزدادون طولا مع مرور الزمن ، فاذا غاب عنهم شهراً وعاد أدرك أن هذا أطول من ذاك ، وأن أكبرهم أشد سمرة من أصغرهم ، لأن طول النظر إلى الصورة لا يبرز معالمها .

المدارس انتشرت ، والمعارف رخصت ، ولكن النفس البشرية هي هي باستعدادها ، سيبق النبوغ فيها استعدادا لا يضعفه نظام ، ولا يقويه نظام ، إنما يغير فيه قليلا .

لقد طرنا في السماء ، وغصنا في الماء ، ولكن لا يزال الواحد منا اذا ما خلا إلى نفسه في القمر ، ثارت شجونه ، وتحركت في عيونه شؤونه ، تماما كما يفعل ابن الصحراء وراكب الجمل .

وأحفادنا سيقولون — حينما يقرأون مقالنا — إننا تعجلنا الزمن ، فقلنا عن عهدنا إنه عهد لا نبوغ فيه ، وإنهم سيرونه عهدا ككل العهود ، فيه النوابغ وفيه العاديون ، فيه العمالقة وفيه الأقزام .

فتحي رضوان

على هامش رحلتي الى الحجاز

ليلة في مكة

بقلم الدكتور عبد الكريم جرمانوس
أستاذ التاريخ الشرقي بجامعة بودابست

أخذ الغسق يهبط بسرعة في وادي مكة الضيق ، المشبع بهواء الصحراء الجاف ؛ وهنا بدأت خيوط الأصيل الذهبية تتلاشى ثم تختفي دفعة واحدة كأن ستاراً أسدل عليها بغتة ؛ وبعد فترة وجيزة أخذ الليل ينشر خيمته السوداء فنسينا حينذاك ذكريات الغروب الجميلة وأصبحت لدينا كحلم سافر بعيد ، ثم خيم السكون وشمل المدينة كلها .

وكنت أشاهد منظر غروب الشمس من إحدى نوافذ بيتي الصغير في مكة . ولم ير الديك الذي كان يصيح طيلة النهار داعياً لإيقاف صياحه ، كأن عظمة هذا الغروب لم تؤثر في نفسه ، ولكن الدجاج لاذت بالصمت وراحت تتسلق أقفاصها استعداداً للنوم .

وكان يقع في طرف فناء البيت الصغير الذي أعد لضيافتنا قسم خاص بالحريم تجلس في إحدى غرفه سيدة وقور اسمها سنية ، تقرأ القرآن على ضوء مصباح خافت اللون ، على حين كانت ابنتها فاطمة النحيلة الخصر منصرفة إلى اعداد طعام العشاء لارساله إلينا مع إحدى العجائز . وحتى هذه العجوز الشمطاء كانت تتخذ كل الحيطة عند احضارها الطعام بحيث لا يظهر وجهها ، وكانت تحمل الصينية على يديها ثم تدفعها بحذر على عتبة الغرفة وتنسل راجعة ، فأقوم بدوري لآخذ الصينية بمجرد وضعها على العتبة . أما الطعام فهو لا يخلو عادة من الأصناف العربية المشبعة بالتوابل

كانت هذه العجوز تحاول كما قلت أن تمنعني من رؤية وجهها ، ولقد أفلحت في ذلك إلى حد كبير ، فلم أر منها إلا ذلك الهيكل العظمي ، ولم أسمع من حركتها إلا صوت ذلك القبقاب الخشبي الذي كنت أسمع طقطقته على الدرج

حين صعودها وحين أوبتها إلى الحريم . فالمرأة فى كل زمان ومكان ، هي المرأة ، أو ذلك اللغز الغامض ، فى الغرب وفى الشرق على السواء ، فاذا ما دفعنى حب الاستطلاع لرؤية فاطمة الجميلة ، وليس هذا بمستغرب من رجل مثلى ، أخذت أنظر اليها خلسة من احدى الثغرات ، ويلوح لى أن الفتاة الصغيرة كانت تشعر أيضاً بأن العيون موجهة اليها من خصاص الشباك فكانت تتخذ كل حيطة وحذر فتقفل نوافذها وترخى السدول عليها حتى تمنع عنها تلك النظرات التى تخافها وتخشاها ، ولكن فاتها أن فى الفضاء تياراً خفياً ينشر جاذبية العواطف ، وينبعث من شعاعه شرارة سرعان ما تكون سبباً فى تأجج تلك النيران التى تضيء الحياة بلهيبها . هذه التيارات مخيفة فى الواقع لأنه حين اشتعالها تزيد أوار الحب فى القلوب البشرية ، فتوقظ فيها وسائل الحياة ووسائل الموت دون تفرقة بينهما . أما أنا فلا أخفى عنك انى ارتعدت من هول ذلك التيار ، فرميت رأسى إلى الوراء حياء مخافة أن يقع نظر الفتاة على وأنا أتجسس عليها عن كثب ، ومخافة العار والفضيحة ولا سيما وأنا غريب عن البلاد

ففى أرض الحجاز ، تلك البلاد التى لا يوجد فيها من الجنس الأوربى غير شخصى الضعيف ، مرتدياً تلك الملابس الأفرنجية ، والذى تخرج من فمه رطانة لا يفهمها غيره ، كنت مضطراً بحكم البيئة التى تربيت فيها أن أبحث وأدقق فى كل ما يقع نظرى عليه ، ولكن بروح أجنبية . فكان شأنى شأن اللص الذى يتسلل إلى بيت تحت جنح الظلام ، فى وقت هجوع سكانه ، ثم يخشى أن يقوده سوء الطالع فتصدم رجله قطعة من الأثاث ، أو يفتح باباً خلسة ، بيد مرتجفة ، بل قد تراه يتلفت ذات اليمين وذات اليسار خائفاً وجلا ، فاذا صادف أن شعوره الاجرامى لم ينبض فى صدره ، فحينذاك يكاد يطير فرحاً لاقتناصه فريسته ، وإذا لم يجد وازعا من ضميره فانه يفخر بانتصاره على ضحيته . ومن الأسف أن هذا الشعور الاجرامى يلازمنا من المهد إلى اللحد ، فأمامنا الرجل العادى الذى يهرع إلى فراشه ليلا على حين نقضيه نحن فى مسامرة النجوم - وفى الوقت الذى يعود هو فيه إلى بيته بعد أن يكون قد اكتسب قوته بعرق جبينه فما علينا إلا أن نوجه أنظارنا إلى ألوان الشمس العظيمة ساعة غروبها ، ونتعلم منها عن كثب طرق التحول . ونعد قبلاتها الحلوة التى تطبعها على سطح الأرض من نعم الطبيعة . أجل يتحتم علينا أن نبحث بدقة وحذر خشية أن نتخبط فى ديجور الظلام كما يتخبط اللص فى الخفاء

انه لاحساس نبيل لو أتيح للانسان أن يكون كشجرة الأرز الباسقة ، تلك الشجرة المغروسة على أعالى القمم ، تنقل عينها من حين إلى آخر على المروج الخضراء والكروم الزمردية ، ولكن هذه الشجرة - وهي سيدة الأشجار - ستبقى على الدوام مهددة بميلها للسقوط فى وسط الأدغال ، حيث الحركة والحياة بين الحشرات والأزهار وبين القطعان فى مراعيها ، وحيث الأطفال يضحكون وحيث تستغرق السعادة فى سباتها العميق

هذه الأفكار مرت سراعاً بمخيلتى ، عند ما كنت أنظر صفوف نوافذ منازل مكة التى تطل على هذا الوادى الضيق ، ثم وقع نظرى على المآذن الشامخة وقد فارقتها أشعة الشمس الذهبية ، كأنها تناديني أن أقترب منها . وهذه الشمس التى غربت هى بغير نزاع ذلك الصاحب الأمين للأجنبى ، فشمس الصباح وشمس الظهيرة بهما قوة واقتدار مثل قوة الشاب العاشق ، ولكنهما على الدوام واحدة لا تتغير ، أى أنها لا لون لها ، وتكاد تكون فى الغالب وحشية شاحبة ومزعجة . انها لا شيء سوى القوة الغشوم ، فهى كالآلة ، بيد أنه ينقصها الاحساس ، والصوت ، والضمير ، والشوق . فهذه الشمس التى تغرب ، ليست سوى حب الرجل البالغ ، فالضمير ، والمعرفة ، والفرج ، والأحزان قد تغلبت عليها مئات المرات ، وأخضعتها لسلطانها ، وظلت الآن فى كفاحها تغالبها ، وستظل فى هذا الكفاح الدائم راضية بالحياة ، ممتزجة مع الموت

هنا سمعت المؤذن يدعو المؤمنين إلى الصلاة ، وهنا يجب علينا أن نولى وجوهنا شطر الكعبة المقدسة لنسجد للحى القيوم ، مالك الملك ، الذى خلقنا فسوانا ، وفى قدرته الحياة والموت ، صاحب الأمر الذى إذا أراد شيئاً فانما يقول

له كن فيكون . فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ، إننا ندعوه ونبتهل إليه فى قعودنا وقيامنا ، إذليس أفضل من الابتهال إلى قدرته ، تلك القدرة الدائمة الأبدية ، فطوبى لمن يخشون ربهم . نعم طوبى لهم وحسن مآب.

خيم الظلام المخيف على جميع أطراف مكة ، وفى هذه البقعة الصحراوية الجرداء نرى بيت الله . ذلك البيت العتيق قبلة الشعوب الاسلامية ، الذين ينسون حطام الدنيا ومتاعها ويطأون المادة بأقدامهم ويستعيضون عنها بالايمان المطلق ، وهو لعمرى أثمن من كل شيء فى الوجود ، فيتخلصون من شرور الجسد ويصعدون بأرواحهم إلى أعلى عليين . وما أحلى وأطيب سماعك آذان المغرب فى بلاد العرب ، أو على الأقل ما وجدت شيئاً أروع منه ، خصوصاً وقد قدمت إلى هذه الأرض المقدسة لأتطهر من أدرانى وأبغى الثواب والمغفرة ، وسيعلم الانسان عند ما تصعد الروح إلى بارئها ، وعند ما تتهاوى أعمال الرجال ، فاننا بفطرتنا نلجأ إلى حماية الرب العظيم ، حيث الماء والهواء يحركان الصخور . ولكن على الرغم من ذلك نحاول أن ننشل أنفسنا من وهدة القنوط بقوة الايمان ، تلك القوة التى تخفف عنا عذاب الضمير وتهدئ من ثورة عواطفنا الجامحة ، فتطمئن قلوبنا بذكر الله وتجرى على شفاهنا آيات الكتاب الكريم

أليست كلمات الله العذبة الفصيحة قادرة على أن ترشد الانسان مهما كان زائغ العقيدة إلى الصراط المستقيم ؟

ذلك الصراط الذى وعد الله به عباده المتقين فيرون ضوء الشمس الساطعة فى كل جزء من أجزاء الحياة ، وعند ما تشعر النفس بالكآبة فلا عزاء لها إلا أن تيمم نحو الخالق العظيم لأن الله سبحانه وتعالى يحب من عباده التوسل والضراعة إليه ، والكل يغترفون من فيض نعمائه لأنه رحيم رؤوف بعباده . على ضوء هذه العقيدة اضطجعت فى غرفتى وأغمضت عينى فشعرت بازدياد ضربات قلبى ثم ألفيت نفسى أتلو آية الكرسى ، وهناك شعرت بدمعتين حارتين تنحدران على خدى . ثم أسدل الليل ستاره وخيم السكون على أنحاء المدينة

وبدأ القوم يوقدون مصابيحهم الزيتية ، وحضرت الخادم تحمل طعام العشاء فسرعان ما شعرت بأنى أهبط من طبقات السمو والتفكير فى صفات الخالق إلى حضيض الأرض . وبعد أن تناولت عشائى نهضت فارتديت سروالى وعصبت رأسى بعصبة أحكمت فوقها عقالا ، ثم يممت شطر جبل أبى قبيس لزيارة صديق الأستاذ عبد الله رافع الذى دعانى مع آخرين لقضاء ليلة ساهرة فى بيته ، فاخترقت فى طريق سوق المدينة ورأيت الشوارع لا تزال مكتظة بالزوار وحجاج البيت الحرام . وكانت دار صديقى حافلة بالضيوف فما كدت أغشى الصالة الكبرى حتى أحسست أنى فى عزلة عن الضوضاء ، وشعرت بالهدوء الشامل والطمأنينة المريحة

وأستطيع أن أقول إن جماعة الوهابيين فى بلاد العرب يحرمون بتاتاً الاجتماع فى الولائم وغيرها ، وحجتهم فى ذلك أنها مخالفة لنصوص الشريعة والسنة ، ويقولون إن فى التقشف الغذاء النفسانى لكل طالب ، ويعززون رأيهم بأن الانسان ما خلق إلا للعبادة والتقوى ، وليس له أن يتوغل فى إعطاء النفس شهواتها لأن الحياة فى ذاتها كلها تعب وقصيرة ؛ وليس الغرض منها أن يتمتع الناس وينغمسون فى شهواتهم . بيد أنى أرى أنهم يبالغون فى هذا التحريم لأن الله حين نظر إلى التراب الذى خلق منه آدم والذى تكون منه العالم ، سقطت من عينه دمعة ، وهذه الدمعة كانت تحمل شطراً من القلب ومن طبيعته أن يوجد فيه الحب والاحزان وغيرها من الصفات الكامنة الآن فى نفوسنا .

(البقية فى العدد القادم)

أول مدرسة مصرية فرنسية *

للدكتور زكي مبارك

هذه أول مرة تلتقي فيها كلمة اللغة العربية ، بجانب كلمة اللغة الفرنسية ، في هذا المعهد ؛ وذلك حق كسبته اللغة العربية منذ عامين ، منذ إنشاء القسم المصري الذي تسود فيه اللغة العربية سيادة أصيلة ، ويدرس فيه الأدب العربي دراسة مفصلة ، على نحو ما يدرس في أرقى المدارس المصرية

والقسم المصري لم ينشأ بهذا المعهد لمجرد المجاملة ، وإنما هي خطة تعليمية قضى بها المنطق السليم ، وتوجيه صالح وفق إليه المشرفون على سياسة التعليم في هذا المعهد الذي يجمع بين القديم والحديث .

فأنا أيها السادة أتكلم باسم أساتذة اللغة العربية في القسم المصري كما تكلم زميلي المسيو بارال باسم أساتذة اللغة الفرنسية في القسم الفرنسي ، وكذلك يأخذ الأدب العربي مكانه في تقاليد الحفلات السنوية منذ اليوم ، ويصير من حظ هذا المنبر أن يطرب في كل عام وهو يستمع لغة القرآن .

وإنشاء القسم المصري في معهد الليسيه هو الذي أوحى إلي موضوع هذه الخطبة ، وهو الكلام عن أول مدرسة مصرية فرنسية في التاريخ الحديث .

والمدرسة التي أعنيها هي البعثة التي أرسلها محمد علي الكبير إلى فرنسا في سنة ١٨٢٦ وقد كانت مؤلفة من اثنين وأربعين طالباً منهم ثلاثة من طلبة الأزهر الشريف .

وما سميت تلك البعثة مدرسة من باب المجاز فقد كانت مدرسة بالفعل ، وكذلك سماها المسيو جومار في التقرير الذي نشره في الجورنال أزياتيك في سنة ١٨٢٨ .

ومن طريف التشابه أن أذكر أن المدرسة المصرية الأولى كانت مؤلفة من اثنين وأربعين طالباً ثم زاد طلبتها بعد ذلك وأن القسم المصري في الليسيه كان طلبته في الأسبوع الأول اثنين وأربعين طالباً ثم تكاثر العدد وازدحمت الفصول .

ولعل تشابه الحظوظ في هذه البداية يبشر بتشابه الحظوظ في التسامي والتفوق . والله بالتوفيق كفيل .

سافرت البعثة من مصر في يناير فوصلت إلى باريس في يوليو ، وإنما كان السفر طويلا لأن المواصلات لم تكن سهلت إلى الحد الذي تعرفونه في هذه الأيام ، وقد كانت تلك الرحلة المطولة سبباً في أن يتعرف الطلاب إلى الأقاليم الفرنسية ، ويدرسوا ما ائتلف وما اختلف من أخلاق الناس .

ولما استقر الطلبة في باريس عاشوا تحت إشراف ثلاثة من الأساتذة المصريين ، وكان لأولئك الأساتذة الثلاثة واجبات دراسية ، ومن هذا ترون كيف كان المصريون يعرفون واجبهم في ذلك الحين

كان الطلبة يقيمون أول الأمر مجتمعين في بيت واحد يسمونه المركز ، ثم رؤي أن يتفرقوا في المنازل الفرنسية ليتذوقوا الروح الفرنسي . فنظمت لهم لائحة مكونة من أربع عشرة مادة . وإليكم نصوص تلك المواد لتروا كيف كانت إدارة البعثة تفهم الواجبات التعليمية في تلك العهود

المادة الأولى : (١) إن يوم الأحد المقرر لهم الخروج فيه يلزم أن يخرجوا من البنسيونات في الساعة تسعة ويأتوا إلى البيت المركز من أول الأمر ويقدموا وقت الدخول ورقة معلمهم إلى الأفندي النوبتجي لأجل أن يعلم ساعة دخولهم في البيت ، وبعد ذلك يذهبون إلى المواضع المعدة للفرجة بشرط أن يجتمع ثلاثة أو أربعة ، ثم يرجعون إلى البنسيونات في أيام الصيف الساعة تسعة ، وفي أيام الشتاء الساعة ثمانية

المادة الثانية : إن من لم يمتثل لخصوص ما سبق يمنع الخروج من البنسيون بحسب الاقتضاء جمعة أو جمعتين

المادة الثالثة : إن كل من له شكاية من معلمه لا تسمع ولا تقبل حتى يكتبها في ورقة . ولا تسمع إلا إذا كانت من جهة التعليم أو جهة أخرى يحصل له منها ضرر

---

(١) هذه اللائحة كتبت بقلم المغفور له الشيخ رفاعه بك الطهطاوي وقد احتفظنا بعباراته

* خطبة ألقيت في حفلة توزيع الجوائز بمعهد الليسيه فرانسيه

المادة الرابعة : إن جميع الأفندية يمتحنون فى آخر كل شهر ليعرف ما حصلوه من العلوم فى هذا الشهر ويسألون عما يحتاجون إليه من الكتب والآلات ويكتب فى آخر كل شهر كشيهم وتحصيلهم وأفعالهم على الوجه الصحيح

المادة الخامسة : لو احتاجوا شيئاً من الكتب والآلات فى أثناء الشهر يطلبونه من معلمهم بورقة يكتبونها له ، ومعلمهم يخبر بذلك مسيو جومار ، فان رآه مناسباً يعطيهم ذلك بعد ما يخبر النوبتجى ، فان اشترى أحد شيئاً من غير إجازة يلزمه أن يدفع ثمنه من عنده

المادة السادسة : إنه بعد الامتحان بما ذكرنا فى المادة الرابعة إن استحق أحد من الأفندية الهدية (١) لنجابته تعطى له كتب وأدوات وسبحة

المادة السابعة : فى محل التفرج أو الطريق لا ينبغى لأحد منهم أن يرتكب ما يخل بمروءته . وهذا الأمر هو أهم الجميع وممنوع أشد المنع

المادة الثامنة : إن كل الأفندية الذين فى البنسيونات لا يدخلون البيت المركز إلا كل خمسة عشر يوماً مرة وهو يوم الأحد

المادة التاسعة : إن يوم الأحد الذى لا يأتون فيه إلى البيت يخرجون فيه مع أولاد الفرنساوية أو مع المعلمين إلى مواضع التفرج أو الرياضة أو ما ينبغى رؤيته ، وكذلك يوم الخميس أو يوم التعطيل (٢) ، إن لم يكن عليهم شغل فيذهبون مع من ذكر إلى المواضع المذكورة

المادة العاشرة : إذا خالف أحد هذا الترتيب يقابل بقدر مخالفته ، وإذا أظهر عدم الطاعة يحبس بالخشونة ، وإن كان يتشبث بأفعال غير لائقة وأطوار غير مرضية وجاءت تذكرة من معلمه تشهد عليه بقبح حاله وتبين عصيانه فبمثل ما ذكر بحضرة ولى النعم أفندينا فى القوانين التى أعطاها لنا نتشاور مع المحبين لحضرة أفندينا من أهالى هذه المدينة ونرسل فاعل القبح والعصيان بنفسه حالا إلى مصر من غير شك ولا شبهة .

المادة الثانية عشرة : إن جميع الأفندية يكونون فى البنسيونات فى هذا الترتيب على حد سواء ، وإن كان فى البنسيونات مائدتان احداهما للمعلمين والأخرى للتلاميذ فأفنديتنا يأكلون مع معلميهم .

المادة الثالثة عشرة : إن الأفندية المذكورين يلزمهم جميع ما ذكر من القوانين من غير امتياز ولسبب ذلك أعطينا كل واحد منهم صورة ذلك

المادة الرابعة عشرة : كل المواد السابقة هى خلاصة أفكارنا ونتيجة أذهاننا وأذهان الأعيان الذين وصاهم علينا حضرة أفندينا ، وبناء على ذلك كل أحد يلزمه أن يتبعها مع التنبه لأجل تحصيل رضاء حضرة أفندينا ولى النعم . فمن لم يمتثل أو تعلل بشيء يجرى عليه ما هو مذكور فى قانون حضرة أفندينا ولى النعم حفظه الله

٭٭٭

أيها السادة :

خدثتكم أن محمد على الكبير وكل رعاية تلك البعثة إلى المسيو جومار ، فاسمحوا لى أن أشير إلى بعض النواحى من أخلاق ذلكم المربى العظيم .

كان المسيو جومار يحرص أشد الحرص على تذكير الطلبة المصريين بأنهم من شعب يجب له فضل سابق على الانسانية فقد قال فى الخطبة التى ألقاها عليهم فى حفلة توزيع الجوائز فى اليوم الرابع من يوليه سنة ١٨٢٨ :

« أيها الشبان ، هذه أول مرة بعد وصولكم إلى فرنسا تعطى لكم أمام الجمهور المكافأة التى تستحقونها على عملكم الذى ثابرتم عليه ، وهذا اليوم يعد من أفضل أيام حياتكم ، والأكاليل التى ستتوج بها رءوسكم بعد هنيهة هى رمز فخر عظيم ، لأنكم أتيتم فى عاصمة العلوم والفنون ، وفى وسط مدينة تجمع بين جوانبها كل ما وجد من عناصر المدنية اليونانية وكل ما وجد من العناصر الفخمة فى طيبة ذات المائة باب .

أمامكم مناهل العلم فاغترفوا منها بكلتا يديكم ، وهذا هو

(١) المدية هى الجائزة فى التعبير الحديث

(٢) يوم التعطيل هو الآن يوم العطلة

قبسه المضيء بأنواره أمام أعينكم . فاقتبسوا من فرنسا نور العقل الذى رفع أوربا على سائر أجزاء الدنيا ، وبذلك تردون إلى وطنكم منافع الشرائع والفنون التى ازدان بها عدة قرون فى الأزمان الماضية فمصر التى تنوبون عنها ستسترد بكم خواصها الأصلية ، وفرنسا التى تعلمكم وتهذبكم تفى ما عليها من الدين الذى للشرق على الغرب كله ،

ولم يقف المسيو جومار عند هذا الحد من التذكير بمجد مصر ، بل تحدث إلى الجورنال أزياتيك عن البعثة المصرية فأشار إلى ما أنشأ محمد على الكبير من المدارس فى وادى النيل فقال إنها ستكون عاملا لرد النور إلى وطنه الأصلى . ذلك النور الذى يجب على كل من يعنى بنشر العلوم والمعارف والمدنية أن يرده إلى مهده الأصيل

٭٭٭

ولعلكم تسألون أيها السادة عن عناية محمد على الكبير بتلك البعثة ، وجواب ذلك عند الشيخ رفاعة الطهطاوى ، فقد حدثنا مذكراته أن محمد على الكبير كان يبعث إليهم من وقت إلى آخر خطاباً يحضهم به على الجد والتحصيل ، وأثبت شاهداً لذلك نسوق منه طرفا للدلالة على مبلغ عناية ذلك الرجل العظيم بأولئك المبعوثين

قال طيب الله ثراه :

قدوة الأماثل الكرام الأفندية المقيمين فى باريس لتحصيل العلوم والفنون . زيد قدرهم

قد وصلتنا أخباركم الشهرية والجداول المكتوب فيها مدة تحصيلكم ، وكانت الجداول المشتملة على شغلكم ثلاثة أشهر مبهمة لم يفهم منها ما حصلتموه فى هذه المدة ، وما فهمنا منها شيئاً ، وأنتم فى مدينة مثل مدينة باريس التى هى منبع العلوم والفنون ، فقياسا على قلة شغلكم هذه المدة عرفنا عدم غيرتكم وتحصيلكم ، وهذا الأمر غمنا كثيراً ، فيا أفندية ما هو مأمولنا منكم ، فكان ينبغى لهذا الوقت ان كل واحد منكم يرسل لنا شيئاً من أثمار شغله وآثار مهارته ، فاذا لم تغيروا هذه البطالة بشدة الشغل والاجتهاد والغيرة وجئتم إلى مصر بعد قراءة بعض الكتب فظننتم أنكم مثلهم فى العلوم والفنون فان ظنكم باطل ، فعندنا ولله الحمد والمنة رفقاؤكم المتعلمون يشتغلون ويحصلون الشهرة فكيف تقابلونهم إذا جئتم بهذه الكيفية وتظهرون عليهم كمال العلوم والفنون ، فينبغى للانسان أن يتبصر فى عاقبة أمره وعلى العاقل أن لا يفوت الفرصة وأن يجنى ثمرة تعبه ...

فان أردتم أن تكسبوا ارضاءنا فكل واحد منكم لا يفوت دقيقة واحدة من غير تحصيل العلوم والفنون ، الخ . الخ

ويحدثنا الشيخ رفاعة أن هذا الخطاب كان له فى أنفس الطلاب تأثير شديد ، وكان من نتائجه أن صاروا يكتبون إلى مصر فى كل شهر بياناً بما قرأوه وما تعلموه

٭٭٭

أيها السادة . سمعتم اسم المسيو جومار فى هذه الخطبة غير مرة ، وعرفتم فضله على تلك البعثة ، فمن الخير أن نشير إلى أن محمد على حفظ له ذلك الجميل ، فأرسل إليه خطاب ثناء فى ١٠ يناير سنة ١٨٣٤ وترون ذلك الخطاب فى كتاب سمو الأمير عمر طوسون عن البعثات

أما بعد فقد كان المسيو جومار واثقاً كل الثقة وهو يلقى أول خطبة فى توزيع الجوائز على أول مدرسة مصرية ، وقد حققت الأيام ظنه فكان أولئك المبعوثون رسل علم وهداية وكانت معارفهم الأدبية والعلمية أساساً لما عرفت مصر من أصول التمدن الحديث

وأنا أيها السادة فى أول خطبة لتوزيع الجوائز على طلبة القسم المصرى أثق بتلاميذى أكثر مما كان يثق المسيو جومار بتلاميذه ، وأعتقد أن القسم المصرى بالليسيه سيخرج لكم نماذج جميلة من الشبان المثقفين الذين يعرفون واجبات الرجال

نحن نعرف تلاميذنا أيها السادة ، وأؤكد لكم أننا وضعنا فى صدورهم جذوة لن تخمد ، وهديناهم إلى نمير من المعارف لن ينضب ولن يغيض

والتلاميذ الذين يفرحون اليوم بتسلم الجوائز خليقون أن ينسوا إساءتنا إليهم أيام الدرس ، فقد أسرفنا فى إثقالهم بالواجبات وعاقبناهم أحياناً على هفوات صغيرة لا تستحق العقاب . إنهم خليقون أن ينسوا عنفنا وقسوتنا فى معاملتهم فقد كنا على يقين من أن الأبوة تبيح لنا حق التحكم فيهم ،

وتفرض علينا أن نلقاهم بوجوه تمثل الحزم وقلوب تضمر العطف والوداد

إنما نمنحكم الجوائز أيها الأبناء النجباء لتنسوا هموم الدرس فماذا تصنعون أنتم لمكافأة أساتذتكم ؟ إن لنا فى ذمتكم جائزة واحدة فتفضلوا بها علينا

أو تدرون ماهى تلك الجائزة ؟ هى أن تكونوا أبطالا يرفعون الوطن ويخدمون الإنسانية

لقد منحناكم خير ما نملك ، فامنحوا الوطن والانسانية خير ما تملكون

أيها الأبناء النجباء

لقد شقينا لتسعدوا ، فليس من الكثير أن نطلب منكم أن تشقوا ليسعد الوطن وتسعد الانسانية

تذكروا يا أبناءنا الأعزاء أن الشقاء فى سبيل الخير هو السعادة الغالية التى ينشدها أرباب القلوب

زكى مبارك

فى الأدب الانجليزى

شكسبير والأدب العربى

للأستاذ جريس القسوس

(مهداة الى الأستاذ فخرى أبو السعود)

يقف من يتعمق فى دراسة الأدبين العربى والانجليزى على ظاهرة غريبة حرية باهتمام من يعنون بدراسة الآداب الأفرنجية، أعنى بها التماثل الظاهر بين مايرد فى كلا الأدبين من قصص وحكم وآراء فلسفية : وهو تماثل يحمل المرء على الاعتقاد الجازم بأن أحد هذين الأدبين قد اقتبس من الآخر ، أو تأثر به تأثراً بعيداً

وفى روايات شكسبير خاصة من القصص والحكم والكنايات والاشارات ما يثبت أن مؤلف هذه الروايات الخالدة كان ملماً بعض الالمام بالأدب العربى ، وخاصة القديم منه ، ولا نقول العكس لأن هذه القصص المتشابهة وردت فى الآداب العربية قبل الانكليزية بعهد طويل .

وأننى لا أرى مبرراً للزعم بأن شكسبير نقل حكمه وآراءه الفلسفية عن الادب العربى ، إذ أن الشاعر فى كل آن ومكان وفى أية حالة أو ظرف من ظروف الحياة . لا يخرج عن كونه إنساناً يتألم ويحس بما يحس به غيره من الشعراء عند الامم الاخرى ، وإن اختلفوا لغة وجنساً ، فالحياة والطبيعة البشرية ، اللتان هما المصدران الرئيسيان واللتان يستمد منهما الشاعر الخالد وحيه ، إنما هما ثابتتان لا تتغيران أصلا فى كل بيئة وزمان ، فشكسبير والمتنبى ، وبيرون وعمر بن أبى ربيعة ، وشلى وموسيه ، ودانتى وأبو العلاء ، جميعهم حلقوا فى سماء الشعر ، واختلجت فى صدورهم أحاسيس وأخيلة وفكر متماثلة بعض التماثل فى المعنى ، وإن كانت تختلف بما ألبسته هذه المعانى الرائعة من أثواب قشيبة منمقة . لهذا ترى العباقرة فى كل باب وفن يتجردون من السفاسف البشرية التافهة والهنات السخيفة التى يتمسك بأذيالها فئة الجهال ، كالفروق الدينية والجنسية واللغوية ، إذ يتسامى العباقرة عن كل تعصب ذميم ممقوت وينضوون تحت لواء مملكة واحدة هى فوق هذه الممالك التى تظهر متباينة الالوان على المخططات الجغرافية

ولعل هذا القول يصدق على التشابه الظاهر بين الحكم والآراء الفلسفية الواردة فى شكسبير والأدب العربى ، أكثر منه على الخرافات والقصص العامية .

فهذه تتداولها الألسن من قطر إلى قطر وتتناقلها الأجيال من عهد إلى عهد ، ولاحرج على الأديب المبتدع من تضمين أدبه قصة عامية تلقاها عن أمة أخرى بالرواية أو المطالعة .

وللعالم والأديب الكبير بيزا Beza . قنصل رومانيا السابق فى فلسطين . أبحاث شيقة حول موضوع شكسبير والخرافات الشرقية . وقد سرد فى محاضرة له قيمة سماها :

Sheakespeare V. the Obiental Folklore (شكسبير والقصص العامية الشرقية) طائفة من القصص والخرافات التى كانت تدور على ألسنة العوام والفلاحين فى الشرق ، وحين

رجع الصليبيون إلى أوروبا نقلوا معهم الشيء الكثير منها ، فانتشرت تلك القصص بين الخاصة والعامة في الأوساط الأوربية . فكان شكسبير أحد أولئك الذين ذكروا هذه القصص في منتوجاتهم الأدبية . وأنا لا أدري إلى أي حد تبلغ هذه النظرية من الصحة . بيد أنني وقفت على قصص عديدة في روايات شكسبير ، ذكرتني بأخرى في الأدب العربي ، شبيهة بها بعض الشبه .

ولا إخال أحداً طالع رواية مكبث Macbeth ولا يذكر لأول وهلة قصة زرقاء اليمامة . فشكسبير قد ضمن هذه الرواية فكرة الغاب المتحرك . إذ حينما عبأ مكدوف Macduff جيشه العظيم منتقماً لوالده المغدور به ، ومستعيداً ملكه المغتصب من مكبث القائد الطاغية العنيد ، بعث مكبث من يستطلع أمر العدو . فاعتلى أحد جنده ربوة عالية تشرف على جيش عدوه . وبدلا من أن يرى جيشاً لجباً ، رأى غاباً كثيفاً يتحرك نحوه رويداً رويداً . فعاد الرسول وأخبر مولاه بما رأى . فأيقن مكبث أنه لا محالة هالك ، إذ بذلك تتحقق نبوءة الساحرات الثلاث اللاتي ظهرن له في أول عهده ، وتنبأن له باعتلاء العرش ، وأنه لن يلقى حتفه حتى يرى غاب برنام Birnam wood ، يتحرك نحو مقاطعة دنسنان Dunsinane . وما كان غاب برنام الذي شاهده جندي الطليعة يتحرك إلا جيش مكدوف متستراً بأشجار اقتطعها وحمل كل جندي منهم شجرة يسير تحتها متخفياً ليتمكنوا بذلك من مفاجأة العدو ، والإيقاع به على حين غرة . وهكذا أسفرت المعركة عن انهزام مكبث ولقاء حتفه على يد الابن الثائر .

وصاحب الأغاني [1] يذكر كيف كانت زرقاء اليمامة ترى الجيش من مسير ثلاثين ميلا ، وكيف أن قوماً آخرين غزوا قبيلتها ، فلما قربوا من مسافة منظرها ، قالوا : كيف لكم الوصول مع الزرقاء ، فأجمعوا على اقتلاع أشجار تستر كل منها فارساً إذا حملها . ففعلوا ذلك وساروا . فأشرفت الزرقاء كعادتها ، فأجابت قومها وقد سألوها ماترى ، قائلة : أرى شجراً يسير ، فقالوا : كذبت أو كذبتك عينك ، واستهانوا بقولها ، فلما أصبحوا صبحهم القوم ، فاكتسحوهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وقيل أخذوا الزرقاء فقلعوا عينيها

وقصة أخرى يشير إليها المستشرق الانكليزي الشهير نيكلسون في كتابه Literary History of the Arabs في سياق البحث عن الحياة العامية في القسم الجنوبي من جزيرة العرب

ولقد وردت هذه القصة في قصيدة (أسعد كامل أو أبو كرب) التي أطلق عليها نيكلسون اسم (قصيدة الساحرات الثلاث «The Ballad of the three witches») ذلك لما بينها وبين خرافة الساحرات الثلاث . اللواتي يمثلن ذلك الدور المدهش في رواية مكبث ، من تشابه كلي وتشابه عظيمين . والقصيدة كما يرى ، موضوعة في قالب أقرب إلى العامية منه إلى الفصحى . وقد نقلها فون كريمر Von Kremer المستشرق الألماني إلى الألمانية مودعا إياها كتابه Altarabische Gedichte وكذلك نقلها نيكلسون إلى الإنكليزية في كتابه المذكور [1]

وفي هذه القصيدة يخاطب أسعد ابنه حسنا ويوصيه بالبطولة . ويسرد له في سياق الحديث قصة الساحرات الثلاث كيف صادفنه غلاماً ، فرجت له الكبرى أولا دواء ، وأعطته فشرب ، وقدمت له الوسطى ضبعاً بريا امتطاه وذلله ، ثم جاءت الصغرى تمرضه فتجنبها . ولما أيقن فيه هذه الجرأة النادرة والقدرة على مقارعة الخطوب ، تنبأن له بعهد سعيد ومستقبل باهر ، يتنسم فيه ذرى المجد . وهكذا تمت النبوءة فقد أصبح أسعد ، على ما جاء في القصيدة ، قائد جيش مجرب ، ثم ملكاً نهابه الأعداء .

وأنت تذكر أن مكبث كان في أول عهده قائداً مغواراً في عسكر الملك دانكين Duncen ولما عاد هو وبنكو Benku مظفرين لقيا في طريقهما ، ثلاث عجائز شمطاء ، دأبهن القيام بأعمال سحرية خارقة ، ولهن القدرة على قراءة المستقبل ، ومعرفة الغيب فتنبأن أن سيكون مكبث مبدئياً من الشرفاء ، ثم يعتلي العرش . وبعد ذلك بقليل تحقق القسم الأول من النبوءة ، فقد اختار الملك القائد مكبث ليكون شريفاً ، ثم تعلم كيف

---

(١) الأغاني ، ج ٢ ص ٣١

(1) Literary Hist. of the Arabs p. 19.

سوّلت لمكبث نفسه التطلع إلى الملك ، فدعا الملك « دنكن » إلى وليمة وقضى عليه ليلا ، ثم نصب نفسه ملكا على الشعب

ومن يدرس ما جاء على لسان هؤلاء الساحرات في رواية مكبث من أقوال دقيقة معقدة ويقابل ذلك بحديث الساحرات في العقيدة العربية يلقى تشابهاً يدعو إلى الاعجاب الشديد ، فساحرات مكبث من شأنهن طبخ الادواء ومزجها واستعمالها في جميع أعمالهن السحرية ، وشبيه بذلك ما جاء عن ساحرة أسعد الكبرى ، فقد ورد أنها

جاءت إليه الكبرى بأسقية   شتى وفى بعضها دم كدر

ثم إن الضبع الذى قدمته الساحرة الوسطى لأسعد هو من مطايا ساحرات أسعد ؛ وفى رواية مكبث تشير إحدى الساحرات إلى اتخاذ زوجها النمر مطية تحمله إلى حلب العربية

ولا أدري ما الذي حدا بشكسبير إلى ذكر حلب البلدة السورية العربية . لو لم يكن بين هاتين الخرافتين من علاقة وثيقة وسبب متين

أما وقد بسطنا بعض وجوه الشبه بين الخرافتين ، فمن المستحسن الاتيان بقصيدة أسعد كامل بكاملها ليتسنى بذلك مقابلتها مع الخرافة الشكسبيرية بالتفصيل والتدقيق

الدهر يأتيك بالعجائب و   الأيام والدهر فيه معتبر
بينا ترى الشمل فيه مجتمعا   فرقه فى صروفه القدر
لا ينفع المرء فيه حيلته   فيما سيلقاه لا ولا الحذر
انى زعيم بقصة (عجب)   عندى لمن (يستردهذا) الخبر
يأتى بتصديقها الليالى و   الأيام إن المقدور ينتظر
يكون فى (الأسد)[1] مرة رجل   (ثم) له فى ملوكه الخطر
مولده فى قرى ظواهر همـــدان بتلك التى اسمها (خمر)
يقهر أصحابه على حدث   السن (ويحقرهم) فيحتقر
حتى إذا أمكنته صولته   وليس يدرى ما شأنه البشر
أصبح فى هيوم[2] على وجل   وأهله غافلون ما شعروا
رأوا غلاماً بالأمس عندهم   أزرى اليهم بجهله الصغر
أن يفقدوه لا در درهم   لو علموا العلم فيه لافتخروا
حتى إذا أدركته روعته   بين ثلاث وثلاثة صخروا

(١) الأسر (٢) أهنوم

جاءت اليه الكبرى بأسقية   شتى وفى بعضها دم كدر
فقال هاتى إلى أشربهـــا   قالت له ذر فقال لا أذر
فناولته فبـــا توزع عن   حصاه حتى أماده السكر
فنهنهته الوسطى فنازلهـــا   كأنه الليث هاجه (الزعر)[1]
قالت له هذه مراكبنا   فاركب فشر المراكب الحمر
فقال حقاً صدقت ثم سما   فوق ضبيع قد زانه القمر
فدق منه جنباً فغـــادره   فيه جراح منهـــا به أثر
ثم أتته الصغرى تمرضه   فوق الحشايا ودمعه درر
فـــال عنها بمضجع ضجر   لا يتساوى الوطاء والزعر[2]
كان إذ ذاك بعد صرعته   من شدة الجهل تحته (الابر)
فقلن لمـــا رأين جرأته   أسعد أنت الذى لك الظفر
فى كل ما توجهه بوجهها   وأنت يشقى بحربك البشر
وأنت للسيف والسنان وفى   الأبدان تبدو كأنها الشمر
(وإن) أنت المهريق (كل) دم   إذا ترامى (يشخصك) السفر
فارشد ولا تستكن فى (خمر)   ورد ظفاراً فانهـــا الظفر
فلست تلتذ عيشة أبداً   وللأعادى عين ولا أثر
نحن من الجن يا أبا كرب   يا تبع الخير هاجناً (الدغر)
فمـــا بلوناه فيك من تلف   عن عمد عين وأنت مصطبر
ثم أتى أهله فأخبرهم   بكل ما قد رأى فما اعتبروا
فسار عنهم من بعد تاسعة   إلى ظفار وشانه (الفكر)
فحـــل فيها والدهر يرفعه   فى عظم الشأن وهو يشتمر
حتى أتته من المدينة تشكو الظلم شمطاء قومها غدروا
(أدت) إليه منهم ظلامتها   ترجو به ثأرها وتنتصر
فأعمل الرأى فى الذى طلبت   (فكان) كل بذاك يأتمر
فعبأ الجيش ثم سار به   مثل الدبا فى البلاد ينتشر
قد ملأ الخافقين عسكره   كأنه الليل حين يعتكر
تعم أعداءه (كتائبه)   وليس يبقى فيهم ولا يذر
حتى مضى منه (لثانية)   وفاز بالنصر ثم ينتصر
إنا وجدنا هذا يكون معاً   فى علمنـــا والمليك مقتدر
فالحمـــد لله والبقاء له   كل إلى ذى الجلال مفتقر

(السلط ـ شرق الأردن)   جريس القسوس ب . ع

مدرس اللغة الانجليزية فى مدرسة السلط التجهيزية

(١) الذعر (٢) الوعر

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٩٠ — من اكتتب ضمناً بعثه الله ضمناً

في (الفائق) للزمخشري:

قال عمر (رضي الله عنه): من اكتتب ضمناً بعثه الله ضمناً [1]. وهو الرجل يضرب عليه بالبعث فيتعالّ ويتمارض ولامرض به. ويحكي أن أعرابياً جاء إلى صاحب العرض فقال:

إن تكتبوا الضمني فاني لضمن ... من داخل القلب وداء مستكن

٩١ — منذ ثلاثين سنة أنتظر

سئل الشاعر الاهوازي كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت (والله) أظرف الناس، وأشعر الناس، وآدب الناس.

فقال السائل: اسكت حتى يقول الناس ذلك.

فقال: أنا منذ ثلاثين سنة انتظر الناس، وليسوا يقولون.

وعزيز على مدحي لنفسي ... غير أني جشمته للدلاله

وهو عيب يكاد يسقط فيه ... كل حر يريد يظهر حاله [2]

٩٢ — حلقة، حلقة

في تاريخ ابن عساكر:

كان زريع على عسس بلال فقال له يوماً: يابني، إن أهل الأهواء [3] يجتمعون في المسجد ويتنازعون، فاذهب فتعرف ذلك، فذهب ثم رجع إليه، فقال: ما وجدت فيه إلا أهل العربية حلَقة، حلَقة.

(١) نسب القول في غير الفائق إلى ابن عمر وإلى عبد الله بن عمرو بن العاص وفي (النهاية): الضمن الذي به ضمانة في جسده من زمانة أو كسر أو بلاء. المعنى من كتب نفسه في ديون الزمنى ليعذر عن الجهاد ولا زمانة به بعثه الله يوم القيامة زمناً

(٢) (يظهر) بالرفع. والنصب جائز عند الكوفيين وحجتهم: (ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى) وغيره. والشعر لابن الرومي

(٣) أهل الأهواء: أهل البدع، النحل الزائغة

فقال له: ألا جلست إليهم حتى لا تقول: حلَقة، حلَقة [1]؟

٩٣ — الخاطر

قال ابن جني في (الخصائص):

حدثني أبو علي (الفارسي) قال: قلت لأبي عبد الله البصري: أنا أعجب من هذا الخاطر في حضوره تارة ومغيبه أخرى، وهذا يدل على أنه من عند الله، فقال: نعم، هو من عند الله إلا أنه لابد من تقديم النظر، ألا ترى أن حامداً البقال لا يخطر له.

ومن ظريف حديث الخاطر أني كنت منذ زمان طويل رأيت رأياً جمعت فيه بين معنى آية ومعنى قول الشاعر:

وكنت أمشي على رجلين معتدلا

فصرت أمشي على أخرى من الشجر

ولم أثبت حينئذ شرح الجمع بينهما ثقة بحضوره متى استحضرته، ثم إني الآن وقد مضى له سنون أعان [2] الخاطر واستثمده [3] وأفانيه [4] وأتودده على أن يسمح لي بما كان أرانيه من الجمع بين معنى الآية والبيت، وهو معتاص متأب، وضنين به غير معط.

٩٤ — أفضل الناس بعد رسول الله

أتى شيعي وسني أبا نواس فقالا: أي الناس أفضل بعد رسول الله؟

فقال: أفضلهم بعده يزيد بن الفضل.

فقالا: ومن يزيد بن الفضل؟

فقال: رجل يعطيني كل سنة ثلاثة آلاف درهم ...

٩٥ — ريبة

في (الكشاف):

عن بعض العرب أنه سئل عن نسبه، فقال: قرشي والحمد لله!!

فقيل له: قولك: (الحمد لله) في هذا المقام ريبة..

(١) يرى بلال — كما يرى ابن السكيت — تسكين اللام، وقد حكى سيبويه فتح اللام. وحكى الأموى كسر الحاء وسكون اللام (وهي لغة بني الحارث بن كعب)

(٢) في اللسان: عانه عناناً ومعانة كما يقال: عارضه معارضة وعراضاً

(٣) في الأساس: استثمدني فلان فثمدته أي استعطاني فأعطيته

(٤) في اللسان: المفاناة: المداراة وفانيت الرجل داريته وسكنته

٩٦ — أستريح منه اليك

في (الصناعتين) لأبي هلال العسكري :
قال معاوية (رضي الله عنه) لابن أوس : ابغ لي محدثاً
قال : أو تحتاج معي إلى محدث ؟!
قال : أستريح منه إليك ، ومنك اليه ، وربما كان صمتك في حال أوفق من كلامك .

٩٧ — والي شرطة بغداد وأهل السنة والشيعة سنة ٤٤٢

في (النجوم الزاهرة) لابن تغري بردي :
في سنة (٤٤٢) كان من العجائب أنه وقع الصلح بين أهل السنة والشيعة ، وصارت كلمتهم واحدة . وسبب ذلك أن أبا محمد النسوي ولي شرطة بغداد ، وكان فاتكاً ، فاتفقوا على أنه متى رحل اليهم قتلوه ، واجتمعوا وتحالفوا . وأذن بباب البصرة بـ (حي على خير العمل) وقرئ في الكرخ فضائل الصحابة ، ومضى أهل السنة والشيعة إلى مقابر قريش فعد ذلك من العجائب . فان الفتنة كانت قائمة ، والدماء تسكب ، والملوك والخلفاء يعجزون عن ردهم ، حتى ولي هذا الشرطة

٩٨ — تغير شعره ورق طبعه

قال السمعاني : لما ورد علي بن حسن الباخرزي بغداد مدح (القائم بأمر الله) بقصيدته التي صدر بها ديوانه وهي :

عشنا إلى أن رأينا في الهوى عجبا
كل الشهور وفي الأمثال : عش رجبا
أليس من عجب اني ضحى احتملوا
أوقدت من ماء دمعي في الحشا لهبا
وإن أجفان عيني أمطرت ورقا
وان ساحة خدي أنبتت ذهبا [1]
وان تلهب برق من جوانبهم
توقــد الشوق في جنبيّ والتهبا

فاستهجن البغداديون شعره وقالوا : فيه برودة العجم ، فانتقل إلى الكرخ وسكنها وخالط فضلاءها وسوقتها ثم أنشأ قصيدته التي أولها :

هبت على صبا تكاد تقول ... إني اليك من الحبيب رسول
سكرى تجشمت الربى لتزورني ... من علتي ، وهبوبها تعليل

فاستحسنوها وقالوا : تغير شعره ، ورق طبعه

٩٩ — خطباء الطير

قال الثعالبي : خطباء الطير هي الفواخت [1] والقماري [2] والراوشين [3] والعنادل [4] وما أشبهها . وأظن ان أول من اخترع هذه الاستعارة المليحة أبو العلا السروي في قوله :

أما ترى قضب الأشجار لابسة ... حسناً يبيح دم العنقود للحاسي؟
وغردت خطباء الطير ساجعة ... على منابر من ورد ومن آس [5]

١٠٠ — ما مدحته الا ثقة بضمانك

مدح ابن نباتة الكبير فخر الدولة وزير بهاء الدولة بن عضد الدولة بقصيدة قال فيها :

لكل فتى قرين حين يسمو ... وفخر الملك ليس له قرين
أنخ بجنابه واحكم عليه ... بما أملته وأنا الضمين

فامتدح بعض الشعراء فخر الدولة بعد هذه القصيدة ، فأجازه بجائزة لم يرضها ، فجاء الشاعر إلى ابن نباتة وقال له : أنت غررتني ، وأنا ما مدحته إلا ثقة بضمانك فتعطيني ما يليق بمثل قصيدي . فأعطاه من عنده شيئاً رضي به ، فبلغ ذلك فخر الدولة ، فسير لابن نباتة جملة مستكثرة لهذا السبب .

(١) (الفاختة) ضرب من الحمام المطوق ، الجواليقي : الفاختة : مشتقة من الفخت الذي هو ظل القمر

(٢) القمرية ضرب من الحمام جمعه قماري بكسر الراء غير مصروف (وقتهما بضمهم) وقر او الأنثى من القماري قربة والذكر ساق حر (التاج) وفي المصباح القمري من الفواخت منسوب إلى طير قمر والأنثى قرية والذكر ساق حر

(٣) الورشان وجمه وراشين وورشان (بكسر الواو وسكون الراء) هو ساق حر ، وقيل طائر يتولد بين الفاختة والحمامة

(٤) العنادل جمع عندليب وهو البلبل

(٥) الآس : ضرب من الرياحين ، خضرته دائمة أبدا ، واحدته آسة ، وهو المعروف عند العامة بالريحان

(١) "تورق" الفضة ، وفي المصباح : الورق النقرة المضروبة ومنهم من يقول : النقرة مضروبة كانت أو غير مضروبة ، والنقرة القطعة المذابة من الفضة

١٠١ — أحسنت والله! هذا أحسن

قال ابن الخطيب البغدادي : كان بين أبوي العباس (ثعلب والمبرّد) منافرات كثيرة ، والناس مختلفون في تفضيل كل واحد منهما على صاحبه . وقال محمد بن خلف : كان بين المبرد وثعلب من المنافرة ما لا خفاء به ، ولكن أهل التحصيل يفضلون المبرد على ثعلب

قال عبيد الله [1] بن عبد الله بن طاهر : حضرت مجلس أخي محمد بن عبد الله بن طاهر ، وحضره أبو العباس ثعلب وأبو العباس المبرد النحويان . فقال لي أخي محمد : قد حضر هذان الشيخان وأنا أحب أن أعرف أيهما أعلم ، فاجلس في الدار الفلانية ، ويحضر هذان الشيخان بحضرتك ويتناظران ففعلت ما أمر ، وحضرا فتناظرا في شيء من علم النحو ما أعرفه ، فكنت أشاركهما فيه ، إلى أن دققا فلم أفهم ، ثم عدت بعد انقضاء المجلس ، فسألني فقلت : إنهما تكلما فيما أعرف فشاركتهما في معرفتي ، ثم دققا فلم أعرف ما قالا ، ولا والله يا سيدي ، ما يعرف أعلمهما إلا من هو أعلم منهما ، ولست ذاك الرجل فقال أخي : أحسنت والله ! هذا أحسن (٢)

(١) له محل من الأدب والتصرف في فنونه وروايه الشعر وقوله ، والعلم باللغة وأيام الناس ، وعلوم الأوائل من الفلاسفة في الموسيقى والهندسة وغير ذلك مما يجل عن الوصف (الأغاني) (٢) يعني اعترافه بذلك

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

نشيد الرقص

ومر زارا بالغاب يوماً ومعه صحبه فاكتشف وهو يفتش عن ينبوع مرجاً منبسطاً بين الأشجار والأدغال . وكان هنالك رهط من الصبايا يرقصن بعيداً عن أعين الرقباء . وإذ لمحن القادم وعرفنه توقفن عن الرقص ولكن زارا اقترب منهن وخاطبهن قائلا .

— داومن على رقصكن ، أيتها الآنسات الجميلات ، فما القادم بمزعج للفرحين وما هو بعدو للصبايا . أنا من يدافع عن الله أمام الشيطان ، وما الشيطان إلا الروح الثقيل فهل يسعني أن أكون عدواً لما فيكن من بهاء ورشاقة وخفة روح؟ وهل لي أن أكون عدواً للرقص الالهي ترسمه مثل هذه الأقدام الضوامر الرشيقات . . . ؟

لاريب في أنني غابة اشتبكت فيها قائمات الأشجار وساد الحلك على أرجائها ولكن من يقتحم ظلماتي بلا خوف ليجدن تحت سرواتي الرهيبات طرقاً تحف بجانبيها الورود . وليجدن أيضاً الاله الصغير الذي تشتاقه الصبايا منطرحاً بسكون قرب الينبوع وقد أغمض عينيه

لقد نام في وقت الظهيرة ، هذا الاله المتراخي ، ولعله سعى طويلا ليصطاد من الفراشات عدداً كبيراً . .

لا يكدركن مني أيتها الراقصات الجميلات تأديبي لهذا الاله الصغير ، ولعله يصيح ويبكي ولكنه إله يجلب المسرة حتى في بكائه . فلسوف اقتاده إليكن والدموع سائلة على خديه ليطلب اليكن أن ترقصنه ، وإذا مارقص فسأرافقه أنا بانشادي فما تجيء نغماتي إلا هزجاً أصفع به الروح الثقيل ، روح الشيطان المتعالي الذي يقول الناس إنه يسود العالم

وهذه هي الأغنية التي رفع زارا صوته بها بينما كان (كوبيدون) إله الحب يرقص مع الصبايا الفاتنات:

«لقد حدقت يوماً في عينيك، أيتها الحياة، فحسبتني هويت إلى غور بعيد القرار، غير أنك سحبتني بشابك من ذهب وأطلقت قهقهة ساخرة عند ما قلت إن غورك لاقرار له. وأجبتني: — هذا ما تقوله الأسماك جميعها، فهي إذ تعجز عن سبر الأغوار تحسبها لا قرار لها. وهل أنا إلا المتقلبة النفور؟ وهل أنا إلا امرأة، وامرأة لا فضيلة لها. لقد تقول الناس كثيراً عن صفاتي ولكنهم أجمعوا على أنني غير المتناهية، المليئة بالأسرار.

أيها الرجال، إنكم ترون في فضائلكم، فأنتم لا قبل لكم بادراك شيء آخر غيرها أيها الفضلاء...

هذا ما كانت تقهقه به في سخريتها تلك الحياة، غير أنني لا أثق بها ولا أصدق ضحكها عند ما تهجو نفسها.

وناجيت يوماً حكمتي النفورة فقالت لي غاضبة: — إنك تطلب الحياة وتشتاقها وتحبها وذلك ما يحفز بك إلى بذل الثناء عليها

ولولا أنني تمالكت نفسي لكنت رددت بعنف على حكمتي وأعلنت الحقيقة لها وهي تغاضبني وهل من جواب أشد وقعاً على الحكمة من أن تهتك سرائرها

ما أحب شيئاً من صميم الفؤاد إلا الحياة، ولا يبلغ حبي لها أشده إلا حين أكرهها. وإذا ما أنا اندفعت إلى الحكمة وأغرقت في الالتجاء إليها فما ذلك إلا لأنها تبالغ بتذكيري بالحياة. فان للحكمة عيني الحياة ولها ابتسامتها، بل لها أيضاً شابكها المذهب، فما حيلتي بهما إذا تشابهتا إلى هذا الحد؟

وعند ما سألتني الحياة عن الحكمة أجبتها: هي الحكمة يشتهيها الانسان بكل قوته ولا يشبع منها. فهو يحدق فيها ليتبين وجهها من وراء القناع ويمد أصابعه بين فرجات شباكها متسائلاً عن جمالها وما يدريه ما هو هذا الجمال ومع هذا فان أقدم الأسماء لا تنفك عن الانجذاب إلى طعمة شباكها فهي متقلبة شديدة المراس. ولكم رأيتها تعض على شفتها وتسرح شعرها، ولعلها شريرة ومخادعة، بل لعل لها صفات المرأة بأجمعها فهي لا تبلغ أبعد مداها في اجتذاب القلوب إلا عند ما تهجو ذاتها...

وبعد أن قلت هذا عن الحكمة للحياة، مرت على شفتيها ابتسامة شريرة وغضت من جفنيها قائلة: — عمن تتكلم... لعلك تتكلم عني أنا... وهل للانسان أن يعلن مثل هذه الأمور بوجه من تعنيه حتى ولو كان محقاً. فما قولك الآن في حكمتك يا هذا...؟

وفتحت الحياة المحبوبة عينيها فحسبتني عدت إلى التدهور في الهاوية البعيدة القرار»

هذا ما يتغنى زارا به وما انتهى الرقص وتوارت الصبايا عن أبصاره حتى تملكه حزن عميق فقال: لقد اختفت الشمس وترطب المرج وقد بدأ الغاب يرسل لفحاته الباردات. إن شيئاً مجهولاً يدور حولي ويحدجني قائلاً: — ألم تزل على قيد الحياة، يا زارا؟ ولماذا أنت حي بعد؟ وما هي فائدة هذه الحياة؟ ما هو مصدرك وإلى أين مصيرك أفليس من الجنون أن تبقى في الحياة؟

ويلاه، أيها الصحاب، إن ما يتناجى في إنما هو الغسق فاغتفروا لي شجوني. لقد جاء المساء فاغتفروا لي قدوم المساء...

هكذا تكلم زارا... ...

الكهنة

وتمثل زارا مرور رهط من الكهنة أمامه، فقال لاتباعه: هؤلاء هم الكهنة؛ فعليكم — وإن كانوا أعدائي — أن تمروا أمامهم صامتين وسيوفكم ساكنة في أغمادها فإن بينهم أبطالا ومنهم من تحملوا شديد العذاب فهم لذلك يريدون أن يعذبوا الآخرين.

إنهم لأعداء خطرون، وما من حقد يوازي ما في اتضاعهم من ضغينة، وقد يتعرض من يهاجمهم إلى تلطيخ نفسه. ولكن بيني وبينهم صلة الدم وأنا أريد أن يبقى دمي مشرفاً حتى في دمائهم.

وعاد زارا يتمثل أنهم مروا وانصرفوا، فشعر بألم شديد قاومه لحظة حتى سكن روعه، فقال: — إنني أشفق على هؤلاء

الكهنة ، وأنا لا أزال أنفر منهم ولكنني تعودت الاشفاق مرغماً نفوري منذ صحبت بني الانسان ، ومع ذلك فأنا أتألم مع هؤلاء الكهنة لأنهم في نظري سجناء يحملون وسم المنبوذين في العالم ، وما كبلهم بالاصفاد إلا من دعوه مخلصاً لهم ، وما أصفادهم إلا الوصايا الكاذبة والكلمات الوهمية ، فمن لهؤلاء من يخلصهم من مخلصهم ...

لقد لاحت لهؤلاء الناس جزيرة في البحر على حين ثارت عليهم زوبعة فنزلوا اليها فاذا هم على ظهر تنين نائم على العباب

وهل من تنين أشد خطراً على أبناء الحياة من تنين الوصايا والكلمات الوهمية وقد كمن فيها المقدور طويلا حتى حان وقت انتباه التنين ؟ وها هو يهب مفترساً جميع من بنوا مسا كنهم على ظهره .

انظروا إلى المساكن التي بناها هؤلاء الكهنة وقد أسموها كنائس وما هي إلا كهوف تنبعث روائح التعفن منها . وهل للروح أن ترتفع إلى مستواها تحت لألاء هذه الأنوار الكاذبة وفي هذا الجو الكثيف ، حيث لا يسود إلا عقيدة تصم الناس بالخطيئة وتأمرهم بصعود درجات الهيكل زحفاً على الركب

انني لأفضل أن أنظر الى اللحظات الفاحشة من أن أرى هذه العيون أطبقت أجفانها معلنة خشوعها واستغراقها :

من ذا الذي اخترع هذه الكهوف وهذه الدرجات يرقاها النادمون زاحفين ، أهي من إيجاد من استحيوا من صفاء السماء فلجأوا إلى الاستتار ؟

لن أعود بقلبي إلى مساكن هذا الإله إلا اذا انثلمت قبابها واخترقها نور السماء الصافية لتتكشف عن الشقائق الحمراء النابتة على جدرانها المتهدمة .

لقد أراد هؤلاء الكهنة أن يعيشوا كأشلاء اموات فسربلوا جثثهم بالسواد فإذا هم ألقوا مواعظهم انتشرت منها رائحة اللحود .

إن من يجاور هؤلاء الناس فكأنما هو ساكن على ضفة الأنهار السوداء حيث لا يسمع إلا نقيق الضفادع الحزين ليسمعني هؤلاء الناس نشيداً غير هذا النشيد لأمرن نفسي على الاعتقاد بمخلصهم ، إذ لا يلوح لي أن أتباع هذا المخلص قد ظفروا بالخلاص .

لكم أتمنى أن أراهم عراة ، وهل لغير الجمال أن يدعوا الناس إلى التوبة ، ولكنهم عبارة عن جائع متسترة لا يسعها أن تجتذب إلى الايمان أحداً .

والحق ، أن مخلصي هؤلاء الكهنة نفسهم لم ينحدروا من سماء الحرية وما وطئوا مسالك المعرفة قط ، فما كانت حكمتهم إلا نسيجا ملأته الخروق رقعوه بما أوجد جنونهم من آلهة . لقد أغرقتهم حكمتهم في بحيرة الاشفاق فهم كلما زفروا فيها أرسلوا بجثة عظمى تطفو على سطحها .

ولقد زعق هؤلاء الرعاة بقطعانهم فمضت متدافعة في فجوة واحدة وقد علا صراخها كأن التوصل إلى مخارج المستقبل ممتنع من غير هذه الفجوة الضيقة . أما والحق ما هؤلاء الرعاة إلا فريق من هذه السائمة وقد ضاقت عقولهم ورحبت نفوسهم وسرعان ما تصغر العقول إذا كبرت النفوس .

لقد تركوا على كل معبر اجتازته أرجلهم آثار الدماء ، إذ كانوا يستلهمون جنونهم ليعلموا الناس أن الدماء تقوم شاهدة للحق . وقد جهلوا أن أفسد شهادة تقوم للحق إنما هي شهادة الدم ، لأن الدم يقطر سماً على أنقى التعاليم فيحولها إلى جنون وإلى أحقاد .

أفتقيمون للحق دليلا من اقتحام أحد الناس اللهب في سبيل تعاليمه . وهل أجل هذا التعليم ما للعقيدة التي تتولد متقدة من لهبها نفسه ؟ إذا ما تلاقى رأس بارد بقلب مضطرم نشأت من التقائهما تلك العاصفة التي يدعوها الناس مخلصاً .

ولكم وجد على الأرض من رجل أعرق منشأ وأرفع مقاماً ممن يدعوهم الشعب مخلصين ، وما كان هؤلاء المخلصون إلا عاصفات كاسحات تهب متوالية على الأرض

اذا ما كنتم تنشدون سبل الحرية ، أيها الاخوة ، فعليكم أن تنقذوا أنفسكم حتى ممن يفوقون هؤلاء المخلصين عظمة ومجداً . فإن الإنسان الكامل لم يظهر على الأرض بعد . لقد حدقت باعظم رجل وباحقر رجل عن كثب وهما عاريان فظهرا لعياني متشابهين ، بل رأيت أعظمهما أشد توغلا في المعائب البشرية من الآخرين .

هكذا تكلم زارا ....



فى فن التصوير

يقف الانسان أمام صورة من الصور ويلقى عليها نظرة عارضة عاجلة فيصدر فى الحال حكمه عليها أعجب بها أم لم يعجب؟ أنالت من نفسه ارتياحا؟ أسكن وجدانه إليها؟ ولماذا أعجب بها؟ ولماذا لم يعجب؟ وما هى العاطفة الكامنة التى تصدر هذا الحكم بتلك السهولة لها أو عليها؟ أهو الذوق؟ وما هو الذوق؟ أهو العقل؟ وعلام يستند العقل؟ هذا ما نحاول شرحه فى هذا المقال متوخين الايجاز فى تناول موضوع التصوير بصفة عامة لأنه فن واسع الأفق لا يحيط به مقال واحد ولا كتاب واحد.

ليس التصوير إلا لغة للتعبير وأسلوباً من أساليب الوصف والإفضاء عن الشعور والعاطفة، فكل مصور درس أصول التصوير وقواعده هو ككل إنسان تلقن قواعد الكلام وأصول الصرف والنحو ليستطيع التخاطب بلغة سليمة متآلفة، ولكن على قدر انتشار اللغة سليمة صحيحة غير مشوبة باللحن لا نجد كل متكلم أديباً ولا شاعراً، فكذلك ليس كل من تناول ريشة الفن وأتقن مزج الألوان فناناً موفقاً، وكذلك على قدر التفاوت بين طبقات الأدباء والشعراء يتفاوت الفنانون مقدرة وعجزاً.

فلغة التصوير على ذلك ليست إلا أداة أو وسيلة لغاية بعيدة يريد المصور أن يبلغها، ونحن إذ ننظر إلى الصورة يجب أن نبحث أولاً عن هذه الغاية ماذا يريد صانعها أن يقول. فاذا لم نجد من وراء صورته فكرة أو غاية مفيدة فالصورة لغو لا طائل تحته، إذ لكل صورة قصة يجب أن تقصها وإلا فهى بكاء صماء أو هراء من القول وهذر مخطوط ومضيعة للجهد والوقت بالغة ما بلغت أداة التعبير من إتقان. وأقل ما نلتمسه فى صورة من الصور أن نستخرج لها ميزة تميزها وشخصية تتسم بها. هل سجلت شيئاً جديداً كان خافياً علينا؟ أو هل فسرت معنى مجهولا؟ أو هل مهدت خطوة فى سبيل غرض سام؟ أو هل ألقت بصيصاً ولو ضئيلا من النور على ظلام الحياة؟ أو هل أضافت نغمة ولو خافتة إلى موسيقى الكون؟ اذا التمسنا شيئا من ذلك ووجدنا له أثراً يشير إليه أو لمسنا صدى له فى نفس المصور كان لنا أن نأمل من هذا الفنان شيئا.

المصور العبقرى كالشاعر العبقرى كلاهما كالنبى المعجز غرس الله فى قلوبهم بذرة الخلود تجمع بينهم رابطة الروح السماوى والنور الالهى وهم يصدرون عن إيمان صادق ووحى أمين وإن كان لكل وجهة يوليها وعالم يكشفه.

والمصور الصادق قطعة من الحياة تهذبت وتثقفت، يرتاد سبيله ملهماً ببصيرة سماوية وقلب دافق الاحساس مرهفه، ومهجة فياضة الشعور، ووجدان بالغ الدقة منته فى اللطف؛ فهو روح مجرد يطير فى كل أفق، ويحوم فى كل خميلة، ويرد كل غدير، ويعتلى كل فنن، ويدوم فوق كل منظر بهيج فيحيطه بفؤاد خفاق، ويلتهمه بعين حديدة، ويحيله أشعة وظلالا ويحمله روحاً بروح تسجله للأبصار فى أسلوب ناطق وخفى، ويحده بأطار من شعوره وفيض إحساسه.

فاذا كان هذا قدر المصور الفنان الصادق الأمين. إنسان بالغ النبل نقى الروح زكى النفس عظيم السمو لزم أن يكون أسلوبه الذى يضمنه روحه نبيلا على قدر نبله سامياً على قدر سموه، ولزم أن تكون موضوعاته التى يختارها لأداء فكرته وحكاية قصته ولشرح عاطفته أو غير ذلك من الأغراض، لزم أن تكون على قدر نبله وسامية على قدر سموه؛ فالفنان الذى يصور البعث أو الوحى أو الصلاة أو الحزن أو الحب أو الأمومة وما يدخل تحت فصل الجمال الروحى أنبل من المصور الذى يصور الحقد والدمامة أو التبذل والوحشية أو الرذيلة للاستمتاع بتصويرها لا للنهى عنها. هذا تدور خواطره على مشاغل

الناس اليومية المادية ، وذلك لا تتعلق نفسه ولا يحس في قلبه إلا بكل جليل الشأن . ويلي هذين من يعنى بتصوير الصغير من الأمور والتافه الحقير كلعب الأطفال وأعمال المهرجين وما إلى ذلك ولا ينبغي أن تضيق هذه الحدود إلى أقصى تخومها فنحكم بمقتضاها حكماً قاطعاً لا نقض فيه ، إذ أن الفنان النبيل قد يتناول موضوعاً يقل عن مستوى موضوعاته فيسبغ عليه من روحه ويضفي عليه من قدرته وبراعته ، ولكن كثيراً ما يشرئب النقاش الصغير غير الموهوب والمشغول بحقير الأمور إلى تقليد جليلها فلا يبلغ منه مبلغاً ولا يخرج عن الدائرة التي يدور فيها ، وينتهي حيث يبتدىء ، بل أنه يكشف عن عجزه ويدل على ضعفه ولا يتمخض بعد الجهد الشاق والعناء العنيف عن غير ما تطيقه مؤهلاته وما تنتجه قريحة مثله ، ومثل هذا النقاش يحسب غروره وحيا وطمعه عظمة في الروح وعلوا في النفس

وشتان بين الاثنين ! أحدهما كالنحلة لا يغذيها إلا الرحيق ولا تهيم أو تسعى إلا وراء الشذى الذكي والعبق النقي والعرف الندى ، ولا يستهويها إلا الزهر المنور والجو المعطر ؛ والآخر كالزنبور الطنان يقع على الأقذار ويستطعم الأدران ويأكل الحشرات والديدان .

والنحلة تنتج رحيقاً من رحيق ، والزنبور أذى وشرا . تلك رمز التضحية والغيرية ، وهذا عنوان الأنانية والأثرة ؛ تلك متواضعة خجولة تعمل في رصانة وسكون ، وذلك مدع مغرور صخاب طنان بهرجت الطبيعة من ألوانه وعددت فيها للنميمة عليه والايقاع به أو لتفاديه

فلا تستصغرن من النحلة اندماج لونها وهدوئها ؛ ولا يغرنك من الزنبور بروزه وطنينه .

وكذلك لا يغرنك من الصورة بهرجة الدعاية لها بل ابحث عن الغاية المجيدة وعن التعبير الصادق الجميل .

كثيراً ما يتفق الناس على أن هذه المرأة جميلة ، وأن تلك دميمة ، ويكادون لا يختلفون في حكمهم ، فما الذي جمع بينهم على رأي واحد ؟ قد يحتج بان هذه هي أذواقهم وهذه أمزجتهم وأنهم يرون أنها جميلة لأن هذا احساسهم فلا تطلب تعليلا ولا تحليلا ، وفي الحق أن المرأة الجميلة تعجبنا لأول ما نراها لأن قلبنا يهفو إلى حسنها ، ونفسنا تصبو إلى جمالها ، ولكننا نتفق في النزوع إلى جمالها والصبابة اليها بدافع من الغريزة فالغريزة هي في الواقع التي تؤلف بين الرجال على الاعجاب بجمال المرأة أو هي على الأصح التي كانت منذ الزمن الأول ترغب الرجل في المرأة ؛ فلما ارتقى وهذب من غرائزه وتسامى بها عن أن تكون مطلقة الحيوانية تغير إلى حد كبير نظره إلى المرأة فأصبح يجل جمالها لذاته مجرداً عن دافع الشهوة ، وبعدت عن خياله تلك الصور التي كانت تجسمها الغريزة الجنسية وتمثلها الرغبة الحيوانية ، فلم نعد نسمع شاعراً يتغنى بثقل الردفين وانقطاع الخصر وكثيب الرمل ولم نعد نسمع قول بشار بن برد :

أو عضة في ذراعهـــا ولها فوق ذراعي من عضها أثر
أو لمسة دون مرطها بيدي والباب قد حال دونه الستر

ولم نعد نسمع تلك النواسيات الماجنة وما اليها من دلائل الاحساسات البهيمية ، وإذا بنا تطرق قلوبنا هذه الأغاني الخالدة التي تسمو بأرواحنا ، إذا بنا نسمع العقاد يقول :

أغلى جمالك في النواظر أنه عوض لشين في النفوس كثير
وأنا له منها المقـــادة أنه في الأرض رمز كالها المحظور

وقوله : —

ان التعاطف بالأرواح بغيتنا وفي القلوب على الأرواح عنوان

وقوله : —

فعش في جوار الناس شخصاً مجسما
وعش في فؤادي صورة تتخيل

فالغريزة هي الأصل في الاعجاب بشيء دون شيء ، ولما تهذبت وارتقت استحالت إلى ما نسميه نبلا أو ذوقاً رفيعاً وإن بقيت للغرائز الأولى بعد نزعاتها .

ولكن هذا الذوق له فصول وأسس ، وله قواعد وقوانين تضبطه وتحده ، فلم يعد جمال الجسم الانساني صباحة وجه ، وسطوع جبين ، وامتلاء جسم أو نحافته ، أو غير هذه الأوصاف من المعاني المطلقة ، بل وضعت له مقاييس وأطوال — وإلى هنا يكون للذوق ضابط يحفظه في حدود مرسومة ، ولكنه لا يخضع لها خضوعاً مطلقاً ولا ينكمش بين تلك الاعلام والأوضاع الضيقة إذ أنه يكون بذلك جامداً كزاً ذا وجه واحد .. ولكن ذلك الجمود يتحرك ويحيا بما ينفخ فيه من روح ، وما ينفث فيه من سحر ، فيتخذ صوراً متباينة مختلفة ، وإن كانت كلها تدور في حدود هذه الأوضاع ، ولكل وجه سيماه

ضربت المثل بجمال الجسم الإنساني مثلا في المرأة لأنها مركز اهتمام الرجل ، ولأن الاتفاق على مقياس الجمال فيها يكاد يكون مفروغاً منه . وكلما بعد موضوع الحكم عن أن يكون ذا صلة بغريزة من الغرائز ، أو بعلاقة مباشرة بعاطفة فسيولوجية أو نفسية ، تعقد الموضوع ، وصعب الاتفاق على حكم واحد فيه ، واختلفت الأذواق : فهذا ذوق جميل يصدر حكما صائباً ، وذلك ذوق فاسد مضطرب الحكم . ولهذا السبب كان لا مناص من أن يوضع لكل شيء حدود يصدر الحكم على أساسها ، فالشجر والنبات ، والنهر والشلال ، والغدير والبحر ، والمحيط والجبل ، والسماء والسحاب ، والأبنية والعمائر ، لكل هذه المظاهر أصول وقواعد يؤدي الفن في حدودها ، وكانت هذه الأصول على ذلك ضابط الذوق إلى حد محدود ، فكأن الذوق الجميل لم ينشأ نشأة لدنية ، بل هو في الحقيقة غاية الثقافة والتهذيب ، وهو عند ما يقبل شيئاً أو يرفضه يظهر لنا أنه أتى ذلك في التو بغير سند واضح ، ولكن عمل الذوق في الحقيقة نتيجة طبيعية لما وعته النفس وكسبه العقل من قضايا مختلفة ومقدمات منطقية وتاريخ حافل من تجارب الحياة

وليس من شأننا هنا أن نعدد الأصول التي تراعى في في التعبير عن هذه المظاهر الطبيعية السالفة الذكر فلها مجال آخر نرجو أن يتاح لنا في المستقبل ، ولكنا هنا سنبسط الشرائط التي يجب توفرها في الصورة ، بوجه عام ، وفي الفنان أيضاً والتي يمكن بمقتضاها أن نصدر حكماً أدنى للصواب فيما نشاهده من صور الفن وهذه الشرائط هي كما ذكرها جون راسكن :

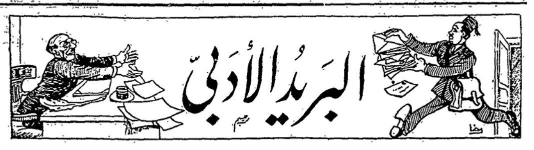
(١) الصدق والحقيقة (٢) البساطة
(٣) نوع من الإبهام السحري (٤) إيجاز التعبير
(٥) الجرأة (٦) السرعة

هذا ولكي يكون تقديرنا لجمال المظاهر الطبيعية أتم وأوفى يجب أن نجردها من النفعية وننظر لها نظرة خالصة للفن ذاته وللجمال ذاته . فعند ما نرى نهراً جميلا يجري بين شاطئين بسقت عليهما الأشجار وغطاهما بساط سندسي من العشب يجب أن تقبل أذواقنا جمال هذا المنظر كما خططته يد الله بعيداً عن تدخل يد الإنسان في التحكم فيه والسيطرة على أجزائه — فنخفي عن ذوقنا أنه أقيم هنا سد اعترض من النهر انسيابه الجميل — وأن هناك آلة رافعة وضعت لتختلس من مائه بضجيجها وصريرها ، وقامت على جانبه شوهاء كالقرحة في الجسم الغض . وننى عنه أن هناك حطاباً قوياً يعمل فأسه في جذع شجرة ليسقطها وليأخذ خشبها ليصنع منه باباً أو نافذة . والينبوع إذ يتسلسل ماؤه على الحصى ويتدفق على الثرى أجمل مما لو أحطناه بسور من البناء لنحصر ماءه ، والسياج الحديدي حول مجموعة من الأشجار مشوه لجمالها ، والعصفور الطليق أجمل من العصفور الحبيس في قفص ضيق . وهكذا فإن القلب يحس إحساساً خالصاً بجمال الطبيعة ويندمج فيها ويخفق لها لأن طبيعة الإحساس العاطفي المحض في القلب وهو ناموزة الحياة في الجسم الإنساني ، أجل وهو الذي يستجيب ويلبي كل شيء جميل حي

وإذا أصاب القلب مرض أو تعطلت وظيفته النبيلة لسبب ما كأن كدر صفاءه غضب أو اهتياج أو حقد أو غيرها من الحالات التي تخرجه عن طبيعته انبتت علاقته بالحياة فلم يعد يستجيب لها ولا يحس بها إحساساً سليما صحيحاً . وكذلك الحال عند ما نرى مظهراً من مظاهر الطبيعة قد طرأ عليه ما يعطل من طبيعة الحياة فيه . فالزهرة النضرة يعجبنا منها رونقها واتساقها وزهاء لونها ونورها وهي بذلك حية سليمة ، وهي لحياتها جميلة غاية الجمال ، فإذا رأيناها ذاوية خبا رونقها ومالت إلى العدم ؛ والظبي رشيق الحركة وهو سليم صحيح ، فإذا أصيب في ساقه بعرج فهو سقيم ثقيل ، والطير جميل وهو قوي الجناح سليمه ، فإذا كسر جناحه فهو ضعيف ذليل — وكل هذه المخلوقات بعيدة ما دامت وافرة الحياة سليمة الوظائف وهي بذلك جميلة غاية الجمال

ولا ينبغي أن نقرن النظر للشيء الجميل بتحليله إلى عناصره وتعليل مظاهره فنبحث في أن ماء النهر يكون من عنصري الهدروجين والأوكسجين . وأن النهر ينحدر ماؤه بالجاذبية ، وأن الشجر يمتص بجذوره من الأرض عناصر التغذية . وأنه يحيل ثاني أوكسيد الكربون إلى أكسوجين نهاراً والعكس ليلا .

فالنظرة إلى الجمال يجب أن تكون مجردة من جميع هذه العوامل وإلا طغى الفكر المحلل على الذوق السليم وسكتت العاطفة وقد تكلم العقل وانتقلنا إلى عالم مادي وبعدنا عن عالم الروح والكمال .



ربيعة الرقي وقصة الذئب والحمل

يعرف كل متأدب الشاعر الفرنسي المشهور لافونتين Fontaine ومنظومته المعروفة (الأمثال) « Les Fables » ولكن من تتبع المصادر التي أخذ عنها هذا الشاعر أمثاله، يتبين أن معظم هذه القصص المنظومة التي حكى أكثرها على لسان الحيوان، مأخوذة من مصادر شرقية ولا سيما كتاب كليلة ودمنة وأشباهه. نقلت هذه القصص إلى أوربا قبل عصر لافونتين بالتراجم اللاتينية أو على ألسنة التجار والمسافرين، وتناولها هذا الشاعر فغيرها لتلائم أذواق بلاده، ثم صبها في قالب من الشعر الفرنسي السلس. وتبع هذه الطريقة شاعر فرنسي آخر اسمه فلوريان بعد لافونتين بنصف قرن.

وليس قصدنا أن نبحث في هذا الموضوع لنكشف عن مرجع كل قصة من أمثال لافونتين، وإنما نريد هنا أن نقتصر على واحدة من أكثر هذه الأمثال ذيوعاً، وهي قصة الذئب والحمل التي شاعت حتى طبقت الآفاق وصارت مثلا لتجني الأقوياء على الضعفاء.

وكان كاتب هذه السطور يصحح كتاب «طبقات الشعراء المحدثين» لأبي العباس عبد الله بن المعتز الذي تطبعه لجنة ذكرى جب في انكلترا، وسيظهر عما قريب، فألفيت الحكاية نفسها في قصيدة لربيعة الرقي أحد الشعراء المحدثين، وعلمت أن هذه الحكاية أيضاً مقتبسة من القصص الشرقية القديمة التي كانت شائعة عند المسلمين في عصر ربيعة الرقي وعنهم نقلها أهل أوربا، فنظمها لافونتين واشتهرت في تلك الأقطار.

وقد رأيت أن هذه المسألة لا تخلو من فائدة، وأن ديوان ربيعة الرقي أحد شعراء الغزل المشهورين في عهد هارون الرشيد غير مطبوع فاستحسنت أن أقدم إلى قراء الرسالة الكرام قصيدة ربيعة المشتملة على هذه القصة وهي هذه:

أعلل نفسي منك بالوعد والمنى ... فهلا بيأس منك قلبي أعللُ
وموعدك الشهدُ المصفّى حلاوة ... ودون نجاز الوعد صاب وحنظل
وأمنحُ طرف العين غيرك رِقبةً ... حذار العدى والطرفُ نحوكِ أميلُ
لكيما يقولَ الناسُ إنّ امرأً رَمى ... ربيعة في ليلى بسوء لمبطلُ
لقد كذب الواشونَ بغياً عليهما ... وما منهما إلا برئٌ معقلُ
فلو كنت ذا عقل لأجمعت صرمكم ... برأيي ولكني امرؤٌ لستُ أعقلُ
وكيف يصبر القلب لا كيف عنكم ... وبابُ فؤادي دونَ صرمكِ مُقفلُ
ومن أينَ لامن أين يَحرم قتلُكم ... وقتلي لكم يا أم ليلى محلّلُ
أغرك أن لا صبرَ لي في طلابكم ... وأن ليسَ لي إلاّ عليكِ معوّلُ
ولما تبينتِ الذي بي منَ الهوى ... وأيقنتِ أني عنكِ لا أتحول
ظلمت كذئب السوء إذ قال مرة ... لسَخلٍ رأى والذئب غرثان مرمل
أأنت الذي في غير جُرْمٍ شتمتني؟ ... فقال: متى ذا؟ قال ذا عـــام أوّلُ
فقال وُلدتُ العامَ بل رُمتُ غدرة ... فدونك كلني لا هَنَــالك مأكل

أتبكين من قتلي وأنت قتلتني بحبك قتلا بيناً ليس يشكل
فأنت كذبّاح العصافير دائباً وعيناه من وجد عليهن تهمل
فلو كان من رأف بهن ورحمة لكف يداً ليست عن الذبح تعقل
فلا تنظري ماتهمل العين وانظري إلى الكف ماذا بالعصافير تفعل

(باريس) عباس اقبال

حمى السياحة

كانت السياحة إلى ما قبل جيل فقط نوعاً من الترف لا يتمتع به سوى الأغنياء؛ وكانت الرحلة إلى الشام أو إلى استانبول مثلا بالنسبة لآبائنا وأجدادنا حادثاً عظيما يتحدث به؛ وكان السفر إلى باريس أو الريفيرا متعة الأمراء والخاصة؛ أما اليوم فإن السياحة تغدو حركة ثقافية ورياضية عالمية، يستطيع أن يتمتع بنعمها جميع الطبقات المتوسطة، وغدت المواصلات البحرية والبرية والجوية ميسورة يطيقها ويستعملها جميع الناس؛ وفي عصر السرعة الذي تهب ريحه اليوم على جميع الأمم والمجتمعات يستطيع السائح أن يطوف قارة بأسرها في أيام معدودات، ويستطيع أن يقطع البحر إلى إيطاليا في سبعين ساعة فقط، وإلى فرنسا في أربعة أيام، ويستطيع أن يقطع ما بين الاسكندرية ولندن بالطيارة في عشرين ساعة. وقد نظمت جميع الأمم السياحة عواصمها وربوعها ومتنزهاتها بصور وأساليب جذابة سواء في برامج الزيارة أو في تخفيض النفقات، وتسابقت معظم الأمم في تقرير الامتيازات للسائحين بتسهيل المواصلات ومسائل النقد وغيرها مما يغري السائح بتفضيلها، وتعنى الهيئات الثقافية والرياضية بتنظيم الرحلات الرخيصة للطلبة وأصحاب المهن وجماعات المثقفين وتعنى مكاتب السياحة نفسها بتنظيم الرحلات الرخيصة للطبقات المتوسطة بأجور مدهشة.

فالسياحة لم تبق اليوم أمنية المترفين ولا حكر الأغنياء، ولكنها تغدو في متناول معظم الطبقات؛ ويرجع الفضل في ذلك إلى تحسن المواصلات العالمية ورقيها السريع المدهش، وإلى تنافس الأمم السياحية في استثمار موارد السياحة إلى أقصى الحدود، ويرجع أيضاً إلى تقدم الصلات الدولية بين الشعوب المختلفة وإلى الرغبة في تبادل الاطلاع والمعرفة والتثقيف، وتبادل المزايا التجارية والاقتصادية، وقد هبت هذه الريح السياحية على مصر في الأعوام الأخيرة، وأتيحت الفرصة لطبقات جديدة من المتوسطين أن يقوموا برحلات بديعة بأجور زهيدة، وسرت الرغبة في جميع طبقات المثقفين ولا سيما الشباب أن يسافروا وأن يسوحوا وأن يتعرفوا أحوال الأمم الأخرى، وقد وصلت هذه الحمى السياحية إلى أقصاها في هذا الفصل حيث تعتزم ألوف عديدة من المصريين السفر إلى زيارة معرض باريس الدولي لا فرق في ذلك بين المترفين وصغار الموظفين والطلبة والمتوسطين؛ وهذه رغبة مشروعة لا اعتراض عليها، بيد أنه يخشى أن تؤدي المبالغة في تحقيقها إلى إسراف لا تحمد عواقبه، إذ تتسرب أموال المصريين إلى الخارج بكثرة، وتضطرب مالية كثير من المتوسطين وصغار الموظفين خصوصاً وإنه لا توجد بمصر قوانين لتقييد العملة أو تحديدها كما هو الشأن في معظم البلدان، ولهذا يحسن بولاة الأمور أن يبحثوا هذه المسألة وأن يضعوا لها بعض الحدود والقيود المعقولة

كتاب جديد لماريا ريمارك

صدر أخيرا في أمريكا كتاب جديد لماريا ريمارك عنوانه: «الرفاق الثلاثة، Drei Kameraden». وريمارك كما نذكر هو مؤلف الكتاب الذي لقي أعظم نجاح في عصرنا وهو القصة المسماة «كل شيء هادئ في الميدان الغربي»، التي تدور حوادثها على حياة الجندي أثناء الحرب الكبرى. والكتاب الجديد هو أيضا قصة اجتماعية عسكرية من النوع الذي حذقه هذا المؤلف الذي حباه الحظ بأكثر مما حبته مواهبه الكتابية

وريمارك الآن في التاسعة والثلاثين من عمره؛ وحياته قصة عجيبة. فهو ألماني من وستفاليا، وكان في حداثته يغني في جوقة بعض الكنائس؛ ولما نشبت الحرب كان جنديا يحارب في الميدان الغربي؛ ولما انتهت الحرب في سنة ١٩١٨ وعاد ريمارك إلى وطنه لم يجد سبيلا للعيش؛ فاحترف مهنة البائع المتجول في القرى، وأخذ يبيع السلع الرخيصة للنساء القرويات، ولكنه كان في خوف دائم من البوليس لأنه لا يحمل رخصة البائع، ثم ترك هذه الحرفة واشتغل صبياً لبناء أثرى، ثم اشتغل عاملا في أحد الملاجئ وبدأ حياته الكتابية بتحرير الاعلانات، وكان يحررها أحياناً بالنظم، ثم اشتغل كاتباً رياضياً

لاحدى الصحف ، ثم كتب قصته الشهيرة فلم تنل في البداية سوى قليل من النجاح ، ولكن القدر كتب له بعد ذلك هذا النجاح العظيم الذي لقيه والذي أثرى من جرائه وعرف الحياة الناعمة وهو ما يزال في عنفوان شبابه ، وكان من حسن طالعه أيضاً أنه كسب على مائدة الميسر ذات يوم مبلغاً كبيراً من المال قبل أن يؤاتيه النجاح ، فاستطاع بذلك أن يصلح شأنه وأن يسيح في معظم بلاد العالم . ويعيش ريمارك الآن في منفاه في سويسرا كباقي الكتاب الألمان الأحرار الذين طاردتهم ألمانيا الهتلرية وأخرجتهم من أرض الوطن

قسم التفكير والآداب بمعرض باريس

أنشيء أخيراً في معرض باريس الدولي قسم للكتاب وإذاعة الفكر برياسة المسيو (جوليان كان) مدير المكتبة الوطنية . والمنتظر أن يكون هذا القسم نواة لمتحف الآداب الذي سينشأ في المستقبل القريب في أبنية دار الصناعة (الأرسنال) وسيكون متحف الآداب أكبر ما عرف من نوعه ، ويضم مجموعات عظيمة من الصور والمخطوطات والطبعات النادرة والتجارب المصححة والوثائق المتعلقة بتراجم كبار الكتاب والمجموعات الخاصة ؛ وهذه المجموعات والتحف توجد الآن مبعثرة في أقسام المكتبة الوطنية : ويتضمن القسم الأدبي بالمعرض تطور الآداب منذ عصر الامبراطورية حتى الوقت الحاضر ، ومنها معروضات كثيرة تخص الكتاب المعاصرين . والمقصود أن تعطى فكرة واضحة عن تطور الكتابة والطباعة والأعمال الأدبية ، وأن تعرف أكثر الأوقات والمواسم الأدبية انتاجاً . ويشمل القسم الأدبي ما يتعلق بكتاب عظام مثل بلزاك وفكتور هوجو وفلوبير وستندال ورينان وبودلير وبروست ، ويقوم بعرض كل كاتب من هؤلاء كاتب من المعاصرين يختص بالتحدث عن حياته وآثاره وأسلوبه . ويشرف على عرض مخطوطاته وصوره وجميع الوثائق المتعلقة به ومنها تحفه وآثاره وتجارب المطبعة التي تحمل تصحيحاته ، وطبعات كتبه وترجماتها . كذلك أعدت أقسام خاصة لكل نوع من المدارس الأدبية مثل المدرسة الواقعية والطبيعية والرمزية ، وأدب المقاهي والأبهاء وغيرها . ولا ريب أن هذا القسم من المعرض سيجتذب أنظار الكثيرين من الكتاب والأدباء من جميع الأمم

آثار فرعونية في خطر

من أنباء فينا أن الدكتور أرنست آبلت العلامة الأثرى النمسوي والأستاذ بالمعهد المصري بجامعة فينا قد أعاد أخيراً إلى العاصمة النمسوية بعد أن قضى بمصر بضعة أشهر منقباً في بعض أنحاء الصعيد الجنوبية ، ووقف على معلومات ومواد أثرية ثمينة ولا سيا بشأن المعابد والهياكل الجنوبية . وقد صرح الدكتور آبلت لبعض الصحف النمسوية أن تعلية خزان أسوان ، وما يستتبع ذلك من غمر مياه النيل لبعض المناطق الأثرية المجاورة يهدد سلامة المعابد والآثار القائمة في هذه المناطق خصوصاً أن المياه تغمر بعضها الآن حتى القمة ، وكانت البعثة النمسوية للحفريات قد توقفت عن العمل نحو ثلاث سنوات لحاجتها إلى المال ثم استأنفت عملها في الشتاء الماضي . وقد عثرت أثناء حفرياتها على عدة هياكل عظيمة فرعونية وبعض تحف حجرية ؛ وستعود في الشتاء القادم إلى استئناف أعمالها في منطقة بني سلامة من أعمال مديرية أسوان

كتاب فارسي قديم في الجغرافيا

أصدرت مطبعة « بريل » في ليدن E. J. Brill . Leiden كتابا فارسيا قديما في الجغرافية ترجمه المستشرق منورسكي ترجمة كاملة عن الفن الفارسي :

وهذا الكتاب - واسمه « حدود العالم » - لمؤلف فارسي قديم لم يعرف ، ألفه سنة ٣٧٢هـ . وكان قد عني به المستشرق الروسي بارتولد فكتب له مقدمة طويله ونشره في سنة ١٩٣٠ ، غير أنه وجد صعوبة في تحقيق أسماء الأماكن والمدن الانجليزية التي وردت في الكتاب فعمد إلى اختصار بعض موضوعاته .

كتاب المثنوى في الانجليزية

أصدرت مطبعة بريل في ليدن الجزء السابع من سلسلة كتاب المثنوى لجلال الدين الرومي . وهي توالي إخراج هذا الكتاب سلاسل وأجزاء مع ترجمته إلى الانجليزية وتعليقات عليه بقلم المستشرق رينولد نيكلسن

وكتاب المثنوى مؤلف قيم معروف ، وقد قرظ صاحبه بهذه العبارة المأثورة : « إنه جاء بكتاب وإن لم يكن نبياً » وقد عرض فيه مؤلفه لمبادىء الصوفية وتعاليمها فشرحها شرحا مستفيضاً .

(البقية في ذيل الصفحة التالية)



ممنون الفيلسوف

أو الحكمة الإنسانية

بقلم فولتير

ترجمة الأستاذ عبد اللطيف النشار

آلى ممنون على نفسه أن يصير فيلسوفاً عظيماً في يوم من الأيام . وقليل من الناس هم الذين لم يعتزموا في وقت ما مثل هذا العزم الرائع .

قال ممنون في نفسه : إن بلوغ الكمال في الفلسفة معناه بلوغ الكمال في السعادة . وليس على أن أعمل لكي أصير فيلسوفاً إلا التجرد من كل الشهوات ؛ ولا شيء أسهل من ذلك كما يعرف كل إنسان . وسأبدأ بمقاومة الحب فإذا رأيت امرأة جميلة أقول في نفسي إن هذه الخدود ستدركها الغضون ، وإن هذه العيون ستصبح طعاماً للدود ، وإن هذا الرأس سيصبح جمجمة منخوبة . فإذا ما تصورت خيالها وهي كذلك فإن جمال وجهها لن يؤثر في نفسي

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإني سألزم القصد والاعتدال ، فإذا ما وجدت من نفسي إغراء على شرب النبيذ الشهي أو الطعام المريء أو غيره مما يفتتن به المجتمع ذكرتها بآلام الرأس من التغالي في الشراب ، وبآلام البطن من التغالي في الطعام ، وحذرتها من فقدان العقل والصحة . ومتى تجنبت التغالي ظلت صحتي موفورة وظل ذهني نقياً وضاء

وقال ممنون : كذلك يجب ألا أفكر كثيراً في الثروة لأن رغباتي معتدلة وما عندي من المال يكفي لأن أعيش مستقلا

ويتضمن هذا الجزء الذي صدر أخيراً تعليقات المستشرق نيكلسن على الجزء الأول والثاني من الكتاب ، أما الأجزاء التي ظهرت من قبل فهي :

١ — نص الكتابين الأول والثاني .
٢ — ترجمة الكتابين الأول والثاني إلى الإنجليزية .
٣ — نص الكتابين الثالث والرابع
٤ — ترجمة الكتابين الثالث والرابع إلى الإنجليزية .
٥ — نص الكتابين الخامس والسادس .
٦ — ترجمتهما إلى الإنجليزية .

لجنة إحياء ذكرى المنفلوطي :

ناشدت لجنة إحياء ذكرى المنفلوطي أساطين الأدب وأعلام البيان في الشرق العربي على صفحات الجرائد والمجلات أن يتفضلوا بالكتابة عن أدب الفقيد الخالد من شتى نواحيه بمناسبة مرور ثلاثة عشر عاماً على وفاته وتمهيداً لإحياء ذكراه في ١٦ يوليو القادم ، وكان ذلك في أول مايو غير أنه والأسف يحز في نفوسنا لم يتحرك قلم لأداء هذا الغرض النبيل كما أنه لم تصل السكرتارية حتى الآن أية رسالة في هذا الموضوع ، ولقد قر الرأي - بناء على اقتراح الأستاذ توفيق حبيب - على وضع كتاب عن أدب المنفلوطي لتخليد ذكراه ، تتبارى فيه جهابذة الأدباء في جميع أقطار الشرق العربي ، وذلك بأن يختار كل من حضرات الأدباء والشعراء ما يروقه من الموضوعات فيكتب فيها بحثاً ضافياً يرسله إلى السكرتارية قبل آخر يونيو الحالي حتى إذا تكامل لديها ما يكفي لمادة الكتاب قامت بطبعه وأنفقت ثمنه في تشييد قبر يليق ومكانة المنفلوطي العالمية . واللجنة تتوجه بالرجاء الشديد إلى حضرات الكتاب والأدباء والشعراء ألا يضنوا بجهودهم وأن يحققوا ما تعلقه عليهم من آمال .

سكرتير اللجنة   متولي حسنين عقيل

وهذه أكبر نعمة في الوجود . ولن أجد ضرورة لحضور الحفلات الراقصة في القصر . ولن أحسد إنساناً ولن يحسدني إنسان . وهذا كله سهل . ولي أصدقاء سأحتفظ بهم ولم ينشب بيني وبينهم خلاف فلم أعترض أحدهم في قول أو فعل وسيسلكون معي هذا المسلك . ولا صعوبة في ذلك ...

وهكذا وضع ممنون خطة لفلسفته ثم أطل من النافذة فرأى امرأتين تسيران تحت الأشجار ، وكانت احداهما كبيرة تبدو عليها علائم الرضى ، والثانية صغيرة جميلة . ولكن علائم التذمر بادية عليها . وكانت تبكي وتتنهد ، فتأثر فيلسوفنا من رؤيتها - على أنه من المحقق أن جمالها لم يكن له دخل في هذا التأثير - (لأنه آلى على نفسه ألا يزعجه شيء من هذا القبيل) بل كان تأثره بسبب الحزن الذي رآها فيه ، فنزل من المنزل ليعزي تلك السيدة بفلسفته ، فروت له الجميلة بأبسط اللهجات وأشدها تأثيراً ما تألم منه . وشكت له من عم تخيل وجوده يريد أن يحرمها ثروة تتوهمها . وقالت : يظهر أنك رجل حكيم . وإنك لتنقذني من متاعبي إذا أتيت إلى منزلي ودرست قضيتي وأشرت عليّ بالرأي الذي تراه

فلم يتردد ممنون في اتباعها لدرس قضيتها دراسة فلسفية وليشير عليها بالرأي الراجح

وقادته المرأة الجميلة إلى حجرة تفوح منها روائح العطر وأجلسته على نمرقة متسعة وجلست أمامه جلسة المتحدث إلى من يحدثه وقد تقاربت أقدامهما . وكان أحدهما يقص قصته والآخر يصغي اليه أتم الاصغاء .

وكانت السيدة تتكلم وهي ناظرة إلى الأرض والدموع تنحدر من عينيها بين حين وحين ، ثم ترفع بصرها لتنظر إلى وجه الحكيم ممنون . وكان الحديث في منتهى الرقة . وقد زاد عطف الفيلسوف وسر بأن يكون في وسعه تخفيف الألم عن مخلوقة بهذه الدرجة من الجمال ، وهذه الدرجة من التعاسة . ولما اشتدت حرارة الحديث جلس المتحادثان المتقابلان جنباً لجنب ، وتدانى الساقان ، وكان ممنون يمنحها من نصحه الرقيق ومن عطفه حتى صار كلاهما لا يستطيع الكلام عن الموضوع الذي كانا يتناولانه . وحتى صار كل منهما لا يدري أين هو

وفي مثل هذا الحين من الذي يظن أنه يأتي إليهما غير العم الذي كانت تشكوه ؟ لقد جاء مسلحاً ، وكانت أولى كلماته أنه سيضحي بالحكيم ممنون ، وبنت أخيه ، وقد أسرعت الأخيرة فغفرت ، وهي موقنة بأن صاحبها سينجو إذا اشترى حياته بكل ما معه من المال وقد اضطر إلى بذل ما معه ليفتدي نفسه وقد كان الناس في ذلك العهد سعداء لأنهم يستطيعون النجاة ، بسهولة بمثل هذه الوسيلة . وكانت أمريكا لما تستكشف بعد ، وكان السيدات التاعسات أقل تعرضاً للخطر مما هن عليه الآن

وخرج ممنون من المنزل متعثراً بأذيال الخجل فذهب إلى منزله . وهناك وجد دعوة إلى تناول العشاء من بعض أصدقائه الخلصاء ، فقال في نفسه اذا بقيت وحدي في المنزل فان ذهني سيظل مشغولاً بالتفكير في حادثة اليوم ، ولا أستطيع أن أتناول لقمة ، وربما جلب إلى ذلك مرضاً ، ولذلك سأذهب إلى أصدقائي . وسأنسى في مجلسهم ما ارتكبته اليوم من الحماقة

وذهب اليهم فوجدوا عليه بعض علائم القلق وحثوه على أن يشرب ليصرف عن نفسه الهم فقال في نفسه : « إن قليلا من النبيذ لا يتنافى مع الاعتدال ، وهكذا شرب ممنون حتى سكر .

ودعى إلى اللعب بالأوراق فقال إن اللعب بها مدة يسيرة مع صديق لا يتنافى مع الاعتدال . وهذا اللعب من خير الوسائل لتمضية الوقت .

ولعب حتى خسر كل ما معه وهو أربعة أضعاف ما كان مستعداً ليلعب به .

ولسبب ما نشأ خلاف بين اللاعبين واشتد الخلاف فصار مشاجرة ، فرماه بعض أصدقائه بصندوق صغير جرح رأسه وإحدى عينيه ، فحمل الفيلسوف ممنون إلى منزله سكران مفقود إحدى العينين .

نام . ولما أبل بعض الابلال أرسل إلى مدير المصرف الذي يودع فيه أمواله يطلب ما يفي به ديونه في اللعب ، فعاد الخادم وأخبره بأن المصرف أفلس بالتدليس وأن مئات من الأسر قد أصبحت في أشد حالات البؤس والفاقة ، فكاد يذهل ممنون ، وذهب إلى البلاط لرفع قضيته ، وهناك وجد عدداً من السيدات وآخر من القسس ورأته إحدى صديقاته فصاحت : « مالك يا مسيو ممنون ! كيف فقدت إحدى عينيك؟ » ثم جرت دون أن تنتظر الجواب ، فانتظر ممنون حتى الساعة

التي يستطيع فيها الارتماء على قدمى الملك لبث شكواه.

وأخيراً جاءت تلك الساعة فقدم إليه عريضته واستقبله الملك إستقبالاحسناً. ولكن كبير الأمناء صاح به بعد ذهاب الملك: «كيف تقدم عريضتك إلى الملك مباشرة دون تقديمها إلى؟ وكيف تطلب المقاضاة على تفليسة شريفة ضد ابن أخت وصيفة زوجتى؟ إن هذا التصرف يدل على أنك لا تحرص على عينك الأخرى»

فعندما سمع ممنون ذلك — وكان إلى الآن عازماً على هجر النساء والتقليل من الطعام والشراب وترك المشاجرة — عزم أيضاً على الكف عن دخول البلاط وعن طرق سبيل القضاء لأن هذا السبيل ألحق به الاهانة وحرمه الإنصاف

وتصدع قلبه من الحزن فعاد إلى المنزل يائساً. ولكنه وجد المحضرين يشرعون في بيع أثاثه وفاء لديون دائنيه فوقع على الأرض في حالة تشبه الاغماء. ورأى في الطريق السيدة التي قابلها في الصباح مع عمها فضحكا منه ضحكة عالية.

وفي المساء صنع ممنون لنفسه وسادة من القش ونام بجانب الحائط، فرأى في الحلم تلك الروح الفلسفية التي كان يتعشقها وهي روح من النور لها ستة أجنحة جميلة. ولكن ليس لها رأس ولا قدمان وهي لا تشبه شيئاً مما سبقت له رؤيته، فقال: «من أنت أيتها الروح؟»

قالت: «أنا روحك» فقال: «ردى إلى عيني وصحتى وثروتى وعقلى»

ثم قص عليها قصة يومه فقالت: «هذه حوادث لا تحدث في الموطن الذى أنا فيه».

قال: «وأين ذلك الموطن؟» فأجابته: «هو على بعد خمسمائة مليون فرسخ من الشمس، وهو موطن جميل. وليس هناك شياطين تغرى ولا أصدقاء يجالسون المرء ليسلبوا ماله، وليس هناك من يخرقون عيون الناس، ولا إفلاس بالتدليس، ولا أمناء ملوك يسخرون ممن يطلب العدالة؛ وليست تخدعنا النساء لأنه لا نساء بيننا، وليس عندنا طعام ولا شراب، وليس عندنا تفليس لأنه لا ذهب عندنا ولا فضة، وليس لنا عيون تقلع لأن أجسادنا نورانية ليست كأجسادكم. وليس عندنا بلاط لأن الكل متساوون».

قال ممنون الفيلسوف: «اذا لم يكن عندكم نساء ولا طعام ولا شراب فكيف تقضون أوقاتكم؟».

قالت: «نحن موكول إلينا مراقبة دنياكم وقد جئت إليك لأعزيك».

قال ممنون: «ولكن لماذا لم تأتى بالأمس لتمنعيني من اقتراف ما اقترفت؟».

فقالت: «لقد كنت مع أخيك الأكبر «حسن» الذى كان في بؤس أشد من بؤسك لأن سلطان الهند أمر بقلع عينيه وهو الآن في السجن ويداه ورجلاه في السلاسل والأغلال»

قال: «وهل من العدل أن يكون اثنان من أسرة واحدة أحدهما أعور والثاني أعمى، وأحدهما ينام على وسادة من قش والآخر في السجن؟».

فقالت الروح: «إن حظك سيتغير سريعاً. نعم إن عينك لن تشفى ولكنك ستصير سعيداً إذا نزعت عن فكرك الرغبة في أن تكون فيلسوفاً كاملا»

قال ممنون: «إذن فذلك مستحيل!» فقالت الروح: «إنه لمن المستحيل أن يصير المرء كامل العقل كامل السعادة، فنحن أنفسنا بعداء عن الكمال مع أننا أرواح. وسيأتى عالم غير هذا العالم يكون ذلك كله ممكناً فيه. ولكن بيننا وبين هذا العالم مائة الف مليون من العوالم يتدرج فيها المرء إلى ذلك العالم الكامل. وفي كل درجة من تلك الدرجات العالية تنقص الفلسفة وتنقص المسرات بالتدريج حتى يصير الناس في العالم الكامل كلهم بلهاء»

قال ممنون: «أخشى أن تكون هذه العوالم التى تدرج فيها إلى الكمال ليست إلا مستشفيات للمجاذيب وإن عالمنا هذا ليس إلا واحدا منها»

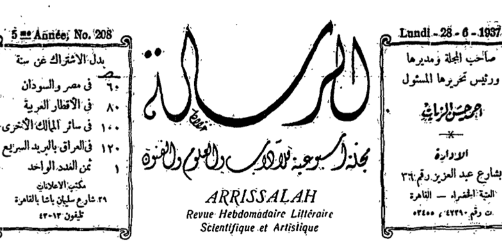
فقالت الروح: «إذا لم يكن هذا الوصف منطبقاً فانه ليس بالبعيد»

قال: «ولكن هل الشعراء والفلاسفة مخطئون إذ يقولون إن كل شيء في هذا الوجود آخذ في سبيل الارتقاء»

فقالت: «كلا ليسوا مخطئين ولكن لكى نتبين الصدق فيما يقولون يجب أن نراعى صلة كل شيء بمجموعة العالم فانما كمال الأشياء أن يتم اتصالها بالعالم لصالح العالم»

فأجاب ممنون: «لست أستطيع تصديق ذلك إلا إذا رجعت إلى عيني»

عبد اللطيف النشار


5 me Année, No. 208

Lundi - 28 - 6 - 1937

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات

٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة

تليفون ٤٣٠١٣

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع عبد العزيز رقم ٣٦

العتبة الخضراء — القاهرة

ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢٠٨ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٩ ربيع الثانى سنة ١٣٥٦ — ٢٨ يونية سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العــــدد

صفحة

الضعف فى اللغة العربية

للأستاذ أحمد أمين

رددت الجرائد والمجلات فى هذه الأيام الشكوى من ضعف الطلبة وخريجى الجامعة فى اللغة العربية - ولا شك أنها مسألة لا يصح أن تمر من غير أن يتناولها الكتاب بالشرح والتعليل ، ويقلبوها على وجوهها المختلفة ، حتى يصلوا إلى علاج جاسم .

أما إن الطلبة ضعاف جداً فى اللغة العربية فأمر لا يحتاج إلى برهان . فأكثرهم لا يحسن أن يكتب أسطراً ولا أن يقرأ أسطراً من غير لحن فظيع يكاد يكون بعدد الكلمات التى يكتبها أو يقرؤها ؛ وهم إذا خطبوا أو قرءوا أو كتبوا أو أدوا امتحاناً رأيت وسمعت ما يثير العجب ويبعث الأسف . وأما أن الضعف فى اللغة العربية نكبة على البلاد فذلك أيضاً أمر فى منتهى الوضوح ، لا لأن اللغة العربية لغة البلاد والضعف فيها ضعف فى القومية فقط ، بل لأنها اللغة التى يعتمد عليها جمهور الأمة فى ثقافتهم وتكوين عقليتهم ؛ فاللغة الأجنبية التى يتعلمها طلاب المدارس الثانوية والعالية ليست هى عماد الثقافة ، وليست هى التى تكون أكبر جزء فى عقليتنا ، إنما الذى يقوم بهذا كله هو اللغة العربية التى تتعلمها فى الكتاتيب ورياض الأطفال ، وندرس بها العلوم المختلفة

٦٠٦-٥-٨

في المدارس الابتدائية والثانوية والعالية . فالضعف في اللغة العربية ضعف في الوسيلة والنتيجة معاً ، على حين أن الضعف في اللغة الأجنبية في كثير من الأحيان ضعف في الوسيلة فقط ؛ ولهذا أعتقد أن معلم اللغة العربية في المدارس على اختلاف أنواعها عليه أكبر واجب وأخطر تبعة ، وبمقدار قوته وضعفه تكون – إلى حد كبير – عقلية الأمة .

وبعد ، فما هي الأسباب التي نشأ عنها هذا الضعف ؟ أظن أنه يكفينا في هذا المقال الاجابة عن هذا السؤال وإرجاء الكلام في العلاج إلى مقال أو مقالات أخر .

فعندي أن الأسباب ترجع إلى أمور ثلاثة : طبيعة اللغة العربية نفسها ، والمعلم الذي يعلمها ، والمكتبة العربية .

فأما طبيعة اللغة العربية فهي صعبة عسرة إذا قيست – مثلا – باللغة الانجليزية أو الفرنسية . ويكفي للتدليل على صعوبتها ذكر بعض عوارضها : فهي – مثلا – لغة معربة ، تتعاور أواخرها الحركات من رفع ونصب وجر وجزم حسب العوامل المختلفة ؛ ولا شك أن اللغة المعربة أصعب من اللغة الموقوفة ، أعني التي يلتزم آخرها شكلا واحداً في جميع المواضع ومع جميع العوامل كاللغة الانجليزية والفرنسية .

وهي صعبة كذلك من ناحية أن حروفها وحدها لا تدل على كيفية النطق بها ، بل لا بد لصحة النطق من الضبط بالحركات أو المران الطويل ، على عكس اللغات الأوربية التي تدل كتابتها على كيفية النطق بها في أكثر مواضعها . والضبط بالشكل عسير فلا نستعمله في الجرائد والمجلات ولا في أكثر الكتب الأدبية قديمها وحديثها .

وهي صعبة – أيضاً – من ناحية الاختلاف الكثير في الفعل الثلاثي ، فله أشكال كثيرة لا يمكن إخضاعها لضوابط حاسمة ، وكصيغ جموع التكسير فهي كثيرة وضوابطها قلما تطرد ، وكنظام العدد والمعدود فانه معقد تعقيداً شديداً حتى لا يجيده إلا الخاصة وأشباههم .

كل هذا ونحوه يجعل اللغة العربية صعبة المنال ، وإتقانها يحتاج إلى مران كثير ومجهود كبير من المتعلم والمعلم .

ولست أعرض هذا لبيان ما إذا كانت هذه الأعراض مظهراً من مظاهر رقي اللغة أو ضعفها فان هذا لا يعنيني الآن ، وأما الذي يعنيني فهو تقرير صعوبة اللغة العربية وحاجتها الشديدة إلى عناية كبرى لتذليل صعوباتها ورسم أقرب خطة للتغلب عليها حتى يحذقها المتعلم من أقرب سبيل .

***

فإذا نحن وصلنا إلى المعلم فقد وصلنا إلى نقطة شائكة ، ذلك لأننا اعتدنا دائماً أن ننقل النقد في الأمور العامة إلى مسائل شخصية ، ونحول الكلام في المبادىء العامة إلى فئات وأحزاب ، ونسيء الظن بالناقد ، فان كان من فئة خاصة ظنوا أنه يدافع عن فئته وأنه يريد تنقص غيره . فهل يسمح لي المعلمون بأن أصارحهم القول مؤكداً أن لا غرض لي إلا الاخلاص للحق ؟

إن كان كذلك فاني أصدقهم القول أن جزءاً كبيراً من ضعف اللغة العربية يرجع إليهم . ولست أنكر أن منهم أفذاذاً نابغين يصح أن يكونوا المثل الذي ننشده ، ولكن المنطق عودنا أن يكون حكمنا على الكثير الشائع لا على القليل النادر

فالحق أن دار العلوم والأزهر وكلية الآداب لم تستطع أن تخرج المعلمين الأكفاء الذين تتطلبهم والذين تتطلبهم اللغة العربية للأخذ بيدها والنهوض بها ومحاربة الضعف الفاشي فيها .

فأما دار العلوم فقد تأسست . والذي دعا وزارة المعارف إلى إنشائها أنها أحست بعجز الأزهر عن أن يمدها بالمعلمين الصالحين لها ، إذ رأت الأزهر تنقصه – إذ ذاك – الثقافة الحديثة والعلم بمناهج التربية والتعليم ، وقد نجحت الوزارة في تحقيق هذا الغرض الى حد كبير ، وأخرجت رجالا نهضوا باللغة العربية إلى حد ما ، وأحسنوا التدريس على خير مما كان يدرسه الازهريون ، ولكن دار العلوم كانت سادة لحاجة الأمة في السنين الأولى من إنشائها ، ثم تقدمت الأمة في ثقافتها ووقفت دار العلوم حيث كانت ، فأصبحت لا تؤدي رسالتها كاملة ، وأصبح خريج دار العلوم لا يحذق الأدب القديم ولا الأدب الحديث ، ولا يستطيع تغذية الشعب بالأدب الذي هو في حاجة اليه ، ولا له من المهارة في الوسائل ما يستطيع بها أن ينهض بالطلبة النهوض اللائق ، ولا هو يساير الزمن في ثقافته حتى يخضع الطلبة لشخصيته القوية ؛ ودليل ذلك أمور كثيرة : منها ضعف المكتبة العربية وهو ما سأبينه بعد ؛ ومنها عجز معلمي اللغة العربية عن تشويق الجمهور والطلبة إلى القراءة العربية ، حتى انا نرى الناشيء لا يكاد يستطيع القراءة في الكتب الأجنبية حتى يهيم بها ويفضلها ألف مرة على المطالعة العربية ؛

ومنها نظر الطلبة فى صميم نفوسهم إلى أن اللغة العربية مادة ثانوية وإن وضعت فى المناهج فى أوائلها ؛ ومنها أن الثقافة فى الجمهور فيما يتعلق بالتاريخ الاسلامى والأدب العربى والمعلومات العامة التى تتصل بذلك ضعيفة إلى حد بعيد ، والمسئول عنها - كما أسلفنا - هم معلمو اللغة العربية لأنها لغة البلاد وعليها يعتمد فى تكوين العقلية ، إلى كثير من مثل هذه الأسباب .

وأما الازهر من ناحية اللغة العربية فهو الآن وليد دار العلوم ، والمشرف على تعليم اللغة العربية فيه هم خريجوها ؛ فقصاراه أن يبلغ من الرقى ما بلغته مدرسة دار العلوم فى تعليمها ونظمها ومناهجها حتى يحل محلها ؛ ويكفى هذا برهاناً على أنه لا يحقق الغرض الذى نرمى اليه .

وأما قسم اللغة العربية فى كلية الآداب فكذلك ناقص ضعيف ، فهو يعلم طرق البحث الجامعى ، وهذا يضطره إلى أن يتوسع فى مسألة وأن يهمل مسائل ، فلا يخرج الطالب دارساً لكل ما ينبغى أن يدرس . أضف إلى ذلك أنه يعتمد فى طلبته على طائفة تخرج أكثرها من المدارس الأميرية وحصلوا على شهادة الدراسة الثانوية ، وهؤلاء لا يصلحون صلاحية تامة لدراسة اللغة العربية إلا بعد عهد طويل لا تكفى له سنو الدراسة الجامعية ؛ ذلك أن اللغة العربية متصلة اتصالا وثيقاً بالدين ، ولا يمكن أن يحذقها ويستطيع أن يفهم كتبها القديمة إلا من بلغ درجة عالية فى فهم القرآن والحديث والفقه وأصول الفقه والتاريخ الاسلامى ، والطلبة الذين تأخذهم الجامعة لهذا القسم لم يثقفوا هذه الثقافة ، ولا تستطيع الجامعة أن تكمل هذا النقص مهما بذل المدرسون من الجهد . ومن أجل هذا ترى أن طلبته بينما يجيدون نهج البحث فى المسائل إذ يقصرون تقصيراً معيباً فى مسائل تعد فى نظر الازهر ودار العلوم مسائل أولية وهى فى الواقع كذلك .

* * *

إذن من الحق أن نقول إن المعاهد التى تدرس اللغة العربية فى مصر تعجز عن إخراج المعلم الكفء ، ومن العجيب أن توجد هيئات ثلاث لتحضير معلمى اللغة العربية والبلد لا يحتاج إلا إلى هيئة واحدة ؛ ثم كل هذه الهيئات معيب لتوزع قواها ، ولو وجدت القوى فى هيئة واحدة - ولا أتعرض الآن لبيان ما هى - لاستطاعت أن تخرج خير نموذج للمعلم ، ولكن يعصف بهذه الفكرة الصالحة تعصب كل فئة لنفسها ، فضاعت بذلك المصلحة العامة

* * *

ويتصل بأمر المعلمين مسائل كانت هى الأخرى سبباً فى الضعف وهي مناهج الدراسة والامتحانات والتفتيش

فمناهج تدريس اللغة العربية متحجرة برغم ما يبدو من مدنيتها وأناقتها . خذ - مثلا - منهج قواعد اللغة العربية والبلاغة تجد أنهما إلى الآن لا يزالان هما بعينيهما منهجي سيبويه والسكاكى على الرغم من زخرفتهما ، فالتقسيم الذى قسمه سيبويه فى النحو والتعاريف التى وضعها والمصطلحات التى ذكرها هى هى فى كتب المدارس اليوم . وكل ما حدث حتى فى الكتب التى ألفت منذ سنوات قليلة - هو ذكر الأمثلة الرشيقة وتبسيط الشرح ، ولكن لم يبذل أى مجهود فى معالجة النحو على أساس جديد كضم مسائل متعددة إلى أصل واحد حتى يسهل على الطلبة فهمها وتحصيلها وكوضع مصطلحات جديدة أقرب إلى الفهم ونحو ذلك . وحسبنا دليلا على ذلك ما نراه فى أجروميات اللغات الحية الاخرى ؛ فأجرومية اللغة الفرنسية أو الانجليزية اليوم تخالف - فى الجوهر - ما كانت عليه منذ عشرين سنة فضلا عن قرن وقرنين

ومصيبتنا فى البلاغة أعظم ، فبرامجنا لا توحى ببلاغة ، ولا تربى ذوقاً ؛ وإلا فقل لى بربك ماذا تفيد دراسة الفصل والوصل ، على هذا المنهج إلا تكرير مصطلحات فارغة ككمال الاتصال وكمال الانقطاع وشبه كمال الانقطاع وشبه كمال الاتصال ؟ وأخبرنى أى أديب يراعى ذلك عند كتابته ، ومتى كانت هذه المصطلحات الفارغة وسيلة لرقى الذوق الأدبى ؟

وليست برامجنا فى الأدب بأقل سوءاً من هذين ، فإنا نضع فى البرنامج أول الأمر مسائل فلسفية وقواعد فى النقد وتاريخ الأدب فى العصور المختلفة قبل أن يلم الطالب بجمهرة كبيرة من الأدب يقرؤها ويحفظها ويتذوقها ، وبذلك تقدم له نتائج من غير مقدمات ، وتصعده على السطح من غير سلم .

والذين يضعون البرامج يكلفون وضعها فى أسبوع أو أسبوعين أو شهر أو شهرين . وماذا على وزارة المعارف لو كلفت من يضع لها البرامج المستقبلة فى سنتين أو أكثر على ألا توضع إلا بعد دراسة عميقة ، ثم تنشر فى الجرائد والمجلات

وتقبل الاعتراضات عليها ويعمل بالصالح منها ، ثم تثبت الوزارة العمل بها عهداً طويلا حتى تتم تجربتها ؟

ثم الامتحانات أمرها غريب ! فمع هذا الضعف الذى نسمعه في كل مكان ، تظهر نتيجة الامتحانات فى اللغة العربية باهرة ، والسقوط فيها نادر ! فشيء من شيئين : إما أن تكون الشكوى فى غير محلها ، وهذا مالا يسلم به عاقل ، أو تكون الامتحانات على غير وجهها ، وهذا مايقوله كل عاقل . وسبب هذا السوء فى الامتحان كثير ، فنظريات النحو واسعة تحتمل أن يكون لكل خطأ تأويل من الصواب ، ومنها عدم تقدير ورقة الامتحانات فى جملتها حتى يصح أن يسقط الطالب إن أتى بخطأ شنيع فى موضع ولو أصاب فى مواضع أخرى ، ومنها الرحمة والشفقة فى التصحيح ، وأوكد أن لو زالت هذه الرحمة سنة من السنوات وأدرك الطالب ما تعامل به ورقته من الجزم فى الامتحان لخدم هذا الموقف اللغة العربية فى المدارس جملة سنين .

ثم التفتيش ؛ والمفتش معذور ، فهو كالقاضى يطبق مواد القانون ولا يشرعها ، فعليه أن ينظر كم موضوعاً إنشائياً كتبه الطلبة ، وهل هذا يتناسب مع العدد المقرر فى السنة . وهل ترك المدرس كلمة خطأ فى كراسة الطالب من غير أن يصححها ، وهل أساء المدرس إساءة كبرى فاستعمل كلمة « التليفون » و « الراديو » أو على العموم استعمل كلمة ليست فى « القاموس المحيط » أو « لسان العرب » . فأما هل نجح المدرس فى تعليمه اللغة العربية لطلبته ، وما الوسائل التى استعملها ، وهل تقدم الطلبة فى القراءة والكتابة فأمر فى المنزلة الثانية ؛ وأما ما ينبغى أن يدرس هنا أو لا يدرس . وما العوامل فى الرقى باللغة العربية – على العموم – فأمر يرجع فى الأغلب إلى المشرع لا إلى المفتش .

نعود – بعد – إلى المسألة الأخيرة من أسباب ضعف اللغة العربية . وهى مسألة « المكتبة العربية » ، فالحق أنها مكتبة ضعيفة فاترة ، هى مائدة ليست دسمة ولا شهية ولا متنوعة الألوان . والحق أيضاً أن القائمين باخصارها لم يجيدوا طهيها ، فدار العلوم وقد أتى على إنشائها أكثر من خمسين عاماً وقد خرجت الألوف من أبنائها ، هل أجادت فى إخراج الكتب النافعة المختلفة الألوان والموضوع ؟ أو هى قصرت كل التقصير فاخرجت من الكتب مالا يتفق وعدد خريجيها ومنزلتهم فى الحياة الاجتماعية والأدبية ؟

والأزهر وهو أقدم عهداً وأعرق أصلا لم يشترك فى التأليف الحديث اشتراكا جدياً ، ولم يساهم بالقدر الذى كان يجب عليه ، ولم يعرف عقلية الناس فى العصر الحديث حتى يخرج لهم ما هم فى أشد الحاجة إليه

وكلية الآداب – وإن قصر عهدها – لم تؤد رسالتها فى هذا الموضوع كاملة ، واتجهت أكثر ما اتجهت إلى الثقافة الخاصة لا العامة

فمكتبتنا فى كل نواحيها ناقصة من ناحية الأطفال ، ومن ناحية الجمهور ، ومن ناحية المتعلمين . وحسبك أن تقوم بسياحة فى مكتبة أفرنجية وأخرى فى مكتبة عربية لترى الفرق الذى يحزنك ويبعث فى نفسك الخجل والشعور بالتقصير

ماذا يقرأ الطفل فى بيته وفى عطلته ؟ وماذا تقرأ الفتاة فى بيتها ؟ وأين الروايات الراقية التى يصح أن نضعها فى يد أبنائنا وبناتنا ؟ وأين الكتب فى الثقافة العامة التى تزيد بها معلومات الجمهور ؟ وأين الأدب القديم المبسط ؟ وأين الأدب الحديث المنشأ ؟ الاجابة عن هذه الأسئلة يعرفها كل قارىء لمقالى . وواضح أن اللغة لا ترقى بكتبها فى قواعد النحو والصرف والبلاغة بمقدار ماترقى بالكتب الأدبية ذوات الموضوع

سيقول المعلمون : وماذا نصنع وليس العيب عيبنا ، فوزارة المعارف ترهقنا بالدروس وترهقنا بنظام الكراسات وتصحيحها ، وبنحو ذلك حتى لا نجد وقتاً لترقية نفوسنا والازدياد فى معلوماتنا فضلا عن المساهمة فى تضخيم « المكتبة العربية » والمشاركة فى إصلاح جوانب النقص منها

ذلك حق ، ولكنه ليس رداً على ما أقول ، فانى فى هذا المقال أكتفى باستعراض الأدواء استعراضاً خاطفاً سريعاً ثم أعود بعد ، إن شاء الله إلى ذكر ما يعن لى من طرق العلاج

وأياً ما كان فالموضوع جد خطير ، وهو – كما قلت – جدير بأن يتناوله الكتاب بالبحث والتفكير والكتابة ومناقشة الآراء ، وكل ما أرجو هو ما أشرت اليه ألا تتحول المسألة إلى نزاع شخصى أو طائفى ، فالأمر أهم من ذلك كله . وإلى الجحيم كل مسألة شخصية أو طائفية تقف فى سبيل الخير العام

احمد أمين

في الحب أيضا

وجواب بعض المســائل

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

يظهر أني لم أحسن البيان فيما كتبته عن الحب والوقت الذي تكون فيه النفس احسن تهيؤاً له ، فقد تلقيت رسائل من هنا وهنا . ومن مصر وغيرها من أقطار العرب ، جملة ما استخلصته منها أني حمار طويل الأذنين ، وأن لي نهيقاً عالياً ولكنه نهيق لا أكثر ، وقد أكون كذلك فما أدري ، ولو أني عرفت نفسي على حقيقتها لكان هذا حسبي . وعزائي . إذا كنت هذا ، قول صديقي الفاضل ابن الرومي :

« في طبع ملائكيّ لديه عازف صادف عن الإطراب
أو حمارية فقدار حظي شبعة عنده بلا إتعاب

فبين الملائكية والحمارية هذه الجامعة – إن الملائكة تغرى بالعزوف والزهد ترفعاً أو استنكافاً ، أو لا أدري لماذا ، فما ارتقيت قط إلى هذه المرتبة ، وإن الحمارية تؤدي أيضاً إلى الزهد وإن كان هذا منها عن نقص الادراك وعدم الشعور بالحاجة . ولا تعنيني الاسباب ، وإنما تعنيني النتيجة وهي كما ترى واحدة والحمد لله ، ولقد أطلت النظر إلى وجهي في المرآة لما وردتني هذه الرسائل ورفعت يدي إلى أذني أتحسسهما ثم قلت لنفسي إن الحمارية طبيعية لا صورة ، وارتددت عن المرآة ورأسي مثنيّ على صدري وأذناي مسترخيتان – مجازاً .

وقال أحد الأفاضل الذين كتبوا إلي ، إني لو قضيت يوماً على شاطىء البحر في الاسكندرية لأدركت أن الحب يجيء في وقت النشاط الجم لا الفتور كما زعمت ، واعترف لي غير واحد أنهم أحبوا على الريق وذكر لي أحدهم أنه كان يلقى صاحبته كل صباح فأحبها ، وقال ثان انه سمع صوتاً في الصباح فخيل إليه أنه يعرفه ، فلما رآها عرف أنه ذاكرته لم تخنه ، وكان أن أحب ذات الصوت الذي أيقظه من النوم ، ولكن الله لم يكتب له الفوز بها . وذكر ثالث أن المرأة تتزين في كل وقت – في البيت وخارج البيت الخ الخ فما بي إلى الإطالة حاجة .

لهذا قلت إني لم أحسن البيان ، فما أردت أن أعين ساعة معلومة للحب في الصباح أو الظهر أو العصر أو الليل ، وإنما أردت أن أبين أن الحب – ككل مرض – تكون فرصته حين يكون الجسم متعباً قليلا وإن كان المرء لا يدرك ذلك ولا يفطن اليه . وهذا التعب الخفيف لا وقت له ، وما أكثر ما أصبحت برأس مصدع على الرغم من النوم ساعات طويلة فأضحك وأقول لزوجتي : « يا امرأة ، هل رأيت أحداً قبلي يفطر على الاسبرين ؟ » فتسألني : « أبك حاجة إلى الاسبرين ؟ » فأقول : « نعم بي حاجة اليه . . إلى صيدلية كاملة من الاسبرين ... ولكني سأحاول الاستغناء عنه . . إنما أردت أن أبين لك أن زوجك أعجوبة . . الناس غيري يصبحون وريقهم يجرى على الفول المدمس والبيض والقشدة واللبن والشاي والمربيات وما إلى ذلك ، أما زوجك المحترم فلا يخطر على باله شيء من ذلك كل همه قرص من الاسبرين يعفيه من وقع هذه الفؤوس التي تحطم رأسه »

فتقول : « الذنب لك . . من قال لك افعل ما فعلت البارحة ؟ »

فأقول : « يا ستي ان المهم الآن هو التسكين وبعد ذلك يصح أن يجيء دور الحساب ... ثم إني لا أذكر ماذا كنت أصنع البارحة . . كلا . . لا يختلج في ذاكرتي شيء . . . »

وأما صاحبنا الذي كان يرى فتاته كل صباح فأحبها ، فأقول له ان هذا ليس من الحب على الريق وقد وقع لي ما وقع له ، أيام كنت تلميذاً في المدرسة الخديوية ، وكان بيتي في « البغالة » وطريقي إلى المدرسة من درب « الجماميز » وكنت أرى في كل صباح فتاة على وجهها النقاب الأبيض وحولها ذلك الازار الأسود – وكان هذا هو اللباس الشائع في ذلك الزمان – ومعها خادمها يحمل لها كتبها ويتبعها ويحرسها ، وهي ذاهبة إلى المدرسة السنية ، وعائدة منها إلى البيت فكنا نلتقي كل يوم ، واستملحت وجهها ، وأعجبني قدها ، فكنت أتعمد أن أقف على أول الطريق حتى أراها مقبلة وتكرر ذلك فصار عادة .

ومضت سنوات طويلات وأصبحت مدرساً ، وإني لراكب مرة إلى الجيزة وإذا بي أرى أمامي فتاتي القديمة ، ومعها طفلان

فعرفتها ، فما تغيرت عن العهد بها ، ونظرت حولي فلم أر أحداً معها سوى هذين الطفلين فتشجعت وقلت لها : « اسمحي لي .. إننا صديقان قديمان اذا كانت ذاكرتك كذاكرتي .. هل تذكرين هذا الوجه الدميم الذي كنت لا أخجل أن ألقاك به كل صباح في شارع درب الجماميز وأنت ذاهبة إلى المدرسة ؟ »

فابتسمت وقالت : « أظن أني أذكره » .

قلت — ويداي على طفليها — : « وهذان ... المحروسان أهما اللذان كان يمكن أن يكونا ولدي ؟ » .

ففهمت وهزت رأسها أن نعم ، فقلت : « وتسمحين لي أن أقبلهما ، إذ كنت لا أستطيع أن أقبل غيرهما ؟ »

فهزت رأسها مرة أخرى ، فقبلتهما وقلت كالمعتذر : « اذكري أنهما كان يمكن أن يكونا لي »

وقصت علي قصة عجيبة ، فقالت : إن جاراً لها أحبها وإن أباه أبى أن يزوجه قبل أن يفرغ من المدرسة ، فحاول أن يتصل بها فلم يوفق ، فانتحر ، فسألتها : أين كنت تسكنين ؟ » فذكرت لي اسم الشارع والحارة ، فاذا الذي انتحر قريب لي ! وقلت لها : « أما أنا وأنت فلم ننتحر ... آثرنا أن نتزوج ... أظن أن الأمرين سيان .... »

فأنا أيضا أحببت في الصباح ، كما أحب الفاضل الذي كتب إلي ، ولكن الحب لم يكن على الريق بل كان بتأثير العادة وفعلها .

وصاحبنا الذي سمع الصوت في الصباح فتذكره — هذا أيضا لم يحب على الريق وانما استيقظت في نفسه ذكرى . ولو كانت هذه أول مرة يسمع فيها الصوت الحلو لاستغرب ولكان قصاراه أن يستعذبه وأن يشتاق أن يرى صاحبته ، ولما منعه ذلك أن يتثاءب ويتمطى ويشتهي أن يعاوده النوم .

بقيت الزينة وأظن أني قلت إن المرأة تحب أن تؤكد جمالها وتبرز مفاتنها بالزينة ، وانها لا تستطيع أن تهمل زينتها حين تخرج في أي وقت . فلا خلاف بيني وبين الناقد الفاضل فما أنكرت أن المرأة تطلب الزينة ، لأن طبيعتها تقضي عليها بذلك حتى ولو كان الرجال لا يرتاحون إلى هذه المساحيق المختلفة الألوان . ولو ظللت تنهى المرأة عن ذلك طول العمر لما انتهت إلا إذا كانت هي تزهد في المحسنات من تلقاء نفسها أو تضطر إلى الزهد لمرض جلدي أو نحوه . وما أكثر من قلت لهن : « أين منديلك ؟ » فتخرجه وتريننيه وتسألني : « ماذا تريد أن تصنع به ؟ » فأقول : « لست أحب أن أرى فمك الجميل كالطماطة المشقوقة ، فهاتي المنديل لأمسح هذا الأحمر » فتأبى وتقاوم ، فألح عليها وأقول : « ثم إن هناك داعياً آخر هو أن هذا الأحمر يحول دون التقبيل » فيكون هذا مغرياً لها بالاصرار على ترك الأحمر على شفتيها ، على حين كنت أظن — لغروري — أني زهدتها فيه .. !!

وأحمد الله الذي أعفاني وأراحني من سخافة المساحيق ، فان زوجتي لا تتخذها ، فليس في بيتي ذرة من الأحمر أو الأبيض . ومن القواعد المقررة عندنا أن على من تزورنا من قريباتنا أو من هن في حكمهن لتقضي يوماً او أياماً معنا ، أن تجيء معها بمساحيقها ، فلن تجد حتى ولا ما يُنفَضُ على الوجه بعد حلاقة الذقن . وأحسب أن زوجتي اطمأنت إلى عجز فريستها عن النجاة فهي لا تعنى الآن بشيء من هذه المزينات ..

ولست مجنوناً حتى أقف على شاطئ البحر وأنظر إلى الفتيات الناهدات ، الرشيقات ، المشوقات ، وهن يخرجن من الماء وقد لصق بأبدانهن القليل الذي عليها ، فإني محتاج إلى عقلي كله . ولكني أحسب الفاضل الذي كتب إليّ يدعوني إلى ذلك ، يدرك أن الأمر هنا أشبه بأن يكون أمر اشتهاء ، لا حب ، وخليق بالمرء وهو ينظر إلى هذه الفتنة المجتمعة ، أن تدركه الحيرة ، وأن يزوغ بصره ، فلا يعود يدري أي هؤلاء الجميلات أولى بحبه ، فان لكل جسم فتنة ، ولكل محيا سحره . ولو أني وقفت على البحر لكان الأرجح أن أحب هؤلاء جميعاً ، جملة ، وأن أشتهي أن أضمهن كلهن في عناق واحد ، فان الظلم قبيح . ونفسي لا تطاوعني على غمط الجمال في أية صورة من صوره . ومن يدري ... لعل القدرة على إدراك معاني الجمال في مظاهره المختلفة هي التي وقتني الحب ، ومنعت أن أعشق واحدة على الخصوص أجن بها . ولكني لست واثقاً أن هذا كهذا ، وإن كان يحلو لي أن أغر نفسي به . والأرجح انها بلادة ، وان جلدي سميك ...

ويجب أن نفرق بين النشوة العارضة ، والنشاط الصحيح وبين الاعجاب والحب ؛ وأن ننسى كل ما علق بالحب من الحواشي الخيالية التي كان الفضل فيها لمبالغة الشعراء وهذيان المرضى ، فليس الحب إلا مرضاً فالشأن فيه هو الشأن في كل

جهاد شعب مصر

فى سبيل حقوقه فى القرن الثامن عشر

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

ألف الأستاذ محمد فريد أبو حديد كتاباً أسماه « سيرة السيد عمر مكرم » تتبع فيه تاريخ الحركة القومية فى مصر منذ القرن الثامن عشر وتناول سيرة « السيد عمر مكرم » زعيم مصر إذ ذاك ، وأوضح فيه سعى مصر إلى الحرية والاستقلال فى فجر العصر الحديث ، وبين أن الروح القومية والتطلع إلى الحرية كانا قويين منذ القرن الثامن عشر .

والكتاب تحت الطبع ، وسيظهر قريبا ، وهذا الفصل الممتع من ذلك المؤلف القيم :

ولم يكن صوت المصريين داوياً فى مجتمعات الديوان وحدها ، بل كان للشعب منافذ أخرى يعبر بها عن إرادته ويردد منها شكواه ويرسم بوساطتها أمانيه ومثله العليا ، فان بعض المتكلمين من الوعاظ الذين كانوا يتعاقبون فى تلك العصور كانوا بمثابة الصحفيين يعقدون مجالسهم فى المساجد فيلقون فيها دروساً فى معانى العدل وواجبات الحكام وحقوق المحكومين ، ويدسون فى خلال تلك الدروس نقدات للحكام لا يخشون منهم غضباً ولا يتوجسون منهم خوفاً ، وكان بعض الحكام يضيق بنقدهم ، ولكنهم كانوا فى أغلب الأحوال يتركونهم آمنين أحراراً لا يقيدون ولا يعاقبون على ما يصدر عنهم من النقد . وكان نقدهم فى كل الأحوال نقداً عالياً نبيلا يقصدون به تصوير المثل الأعلى للحكم ، ويدعون فيه إلى العدل وأداء الواجب . ولعل أول من نبغ من هؤلاء الوعاظ هو الشيخ الحفنى الذى كان يعاصر ملك مصر العظيم على بك الكبير . وهو محمد بن سالم الحفناوى أو الحفنى الحسينى نسباً وكان زاهداً ورعاً كريماً كثير البذل للفقراء . واتخذ سبيل الدعوة إلى الخير على طريقة صوفية اسمها الطريقة الخلوتية وكثر أتباعه واعتقد فيه الناس اعتقاداً كبيراً سواء فى ذلك العامة والخاصة ، حتى قال عنه الجبرتى صاحب « عجائب الآثار » : « إنه كان قطب رحى الديار المصرية لا يتم أمر من أمور الدولة إلا باطلاعه ومشورته » ، وكان لا يتردد فى إبداء نصحه صريحاً قوياً وإن كره أهل الحكم رأيه وصراحته .

وكان الشيخ الحفنى فوق هذا عضواً فى ديوان الحكومة يمثل الشعب المصرى مع جماعة من اخوانه تمثيلا رائعاً ، حتى كان على بك الكبير على شدته وقوة ملكه لا يستطيع مقاومته ولا معاداته . وكان فى مناقشاته فى الديوان لا يتردد أحياناً أن يهدد الحكام باسم الشعب إذا هم عمدوا إلى ما يسىء إليه أو يضر بمصلحته ، فقد وقف مرة يناقش فى ضرورة إرسال حملة حربية لإخضاع بعض الأمراء الخارجين فى الصعيد ، وكان رأيه أن تلك الحملات الحربية تضر بالناس وتعطل مصلحتهم ، فلم يتردد فى آخر خطبته القوية أن يصيح قائلا : « والله لن تسمح أن يسافر أحد وإن سافرت الحملة فلن يحدث خير أبداً » .

ولما توفى الشيخ الحفنى حل محله فى زعامة النقد واعظ آخر وهو ابن النقيب السيد على بن موسى الحسينى المقدسى ، وعرف بابن النقيب لأن جدوده كانوا نقباء الأشراف فى بيت المقدس . وكان واسع العلم يلقى دروساً فى المسجد الحسينى فى التفسير والفقه والحديث ، وكان فوق ذلك كاتباً أديباً

مرض . والمرء يصاب بالأمراض فى حالتى الصحة والضعف ولكنه يكون أكثر تعرضاً للمرض فى حالة الفتور الخفى الذى يضعف المقاومة ، لأنه يغرى بالاطمئنان على حين ينبغى الحذر . أو هو فى حقيقته ضرب من الجوع كما قلت . وفى الناس الشره المبطان ، وفيهم القنوع الذى يكفيه اليسير الموجود . والجوع ضعف . والجائع لا يملك من القدرة على مقاومة الاغراء ما يملك الشبعان

هذا جواب بعض ما وردنى من المسائل . وقد مللت الحب وذكره ، ولم أكن أظن أن الكتابة فيه تثير كل هذه الضجة ، قاتل الله الشعر والشعراء !!

ابراهيم عبد القادر المازنى

حسن الأسلوب، وزاهداً لا يضن بشيء يملكه على سائليه. ولهذا كانت له مكانة عظيمة في قلوب الناس. وكان فوق كل هذا فارساً ماهراً في فنون الحرب واستعمال السلاح واللعب بالرماح، فكان يجمع كل صفات النساك المحاربين الذين ينهجون نهج القاضي عيسى الهكاري الذي كان معاصراً لصلاح الدين الأيوبي واشترك معه في محاربة الصليبيين.

وكان أهل مصر يعرفونه بالمحدث، ومع أنه كان محبوباً عند الأمراء ورجال الدولة لم يمتنع عن نقد ما كان يراه فيهم وفي أحكامهم من العيوب، وكان نقده أحياناً يبلغ حد المرارة والعنف. ولكن صدر هؤلاء الحكام لم يضق به، ولم يحدث له من وراء نقده أي ضرر. مع أنه ذهب مرة إلى القسطنطينية حوالي عام ١٧٦٣ للبلاد فلم يسمح له بالبقاء طويلا فيها لما عرف عنه من الصراحة في النقد، واضطر إلى العودة إلى مصر. وكان الأمير محمد بك أبو الذهب يرحب به ويوسع له في مجلسه مع ما يلقى منه من النقد، وكان يقابل نقده بالإحسان فوق التسامح. ومن ذلك أنه سأله مرة عن حاله، وكيف وجد عاصمة الخلافة في استامبول عند زيارته لها، فكان جوابه على ذلك قوله: «لم يبق باستامبول خير ولا بمصر كذلك خير، فلا يكرم بهما الإشرار الخلق»، فلم يغضب الأمير من ردة بل أرسل إليه بعد انصرافه من مجلسه هدية قدرها مائة ألف نصف فضة ليقضي بها ديونه ولينفق منها على الفقراء كعادته.

وقد عاصر هذا الواعظ الكبير شيخ آخر جليل كان ينهج مثل نهجه مع شيء من الاعتدال، وهو الشيخ علي الصعيدي. وكان معاصراً للملكين مصر العظيمين علي بك الكبير ومحمد بك أبي الذهب. وبلغ من إكرام هذين الملكين له أنهما كانا إذا دخل عليهما أفسحا له وقبلا يده، ولم يردا له شفاعة، وكان كثير الشفاعة عندهما، يتدخل لمصالح الناس. فكان من الدولة بمثابة النائب الشعبي الذي يسعى لمصالح الناس عند أهل الحكم. وكان الناس يلجأون إليه إذا ما مسهم ما يشكون منه، فيكتب شكاواهم في ثبت ويدخل بها على الأمير فلا يخالفه في شيء مما يرجوه فيه، ولا ينقبض عنه، وكان يقول لمحمد بك أبي الذهب إذا وجد منه شيئاً من التردد: «لا تضجر ولا تأسف على شيء يفوتك بغير حق في الدنيا، فان الدنيا فانية وكلنا نموت ويوم القيامة يسألني الله عن تأخرنا عن نصحك؛ وها نحن قد نصحناك وخرجنا من العهدة». فاذا امتنع الأمير عن إجابة مطلب له صرخ وقال له: «اتق النار وعذاب جهنم»، ثم يمسك يده ويقول له: «أنا خائف على هذه اليد من النار».

وسنذكر فيما يأتي أسماء بعض زعماء الشعب الذين انتهجوا فيما بعد خطة أخرى غير النقد والنصح عند ما تحولت مجاري الأمور في أيام مراد وإبراهيم. وحسبنا هنا أن نقول إن أمراء مصر في أثناء القرن الثامن عشر كانوا يحاولون بكل ما استطاعوا أن يكون حكمهم مرضياً عنه عند الشعب، وأن يكونوا في سياستهم موفقين إلى العدل فيهم بحسب عقلية عصرهم وأساليبه وكانوا يعملون على تقريب أهل العلم والأعيان والأدباء، ويشجعونهم على غشيان مجالسهم، فكانت مجالس علي بك الكبير تمتاز بوقار من يؤمها من العلماء الأجلاء، والزهاد الفضلاء. وكذلك كانت مجالس أبي الذهب من بعده، في حين كانت مجالس الأمير رضوان بعد ذلك مضرب الأمثال في البهجة الفنية والسمو الأدبي، حافلة بأسماء تباهي بها مصر من الأدباء المبرزين الأعلام، وكان هذا التقريب عاملا من أقوى العوامل على إيجاد روح من الود طالما ساعد على تبادل العطف بين الحاكم والمحكوم، وهو عطف كان يؤدي بغير شك إلى إصلاح الحكم والمحافظة على حقوق الناس وعواطفهم.

ولما تولى الطاغيتان إبراهيم ومراد؛ تغير الحال واختل الأمر ورأى الشعب أن لا بد له من انتهاج خطة جديدة للمحافظة على حرياته وحقوقه؛ فخطا خطوة جديدة لم يسبق له عهد بها. فان الطاغيتين كانت تحيط بهما هالة من أهل الطاغوت، وهي عصبة للشر ما كانت تنتبه إلى حق، ولا ترعوي عن غي، ورأى أهل مصر أنهم حيال نوع جديد من الحكم، لا تنفع فيه النصيحة ولا تستقيم معه الأمور على الشفاعة، ولم يكن للشعب بعد أن عجز عن النصح إلا ذلك الحق الطبيعي الذي للشعوب وهو أن يرغم الحكام على الاصلاح، وهكذا رأى أهل مصر ألا ملجأ

لهم من طغيان إبراهيم ومراد ، إلا أن يلجأوا إلى القوة والثورة .

بعد مضى سنة واحدة من حكم الطاغيتين ، ثارت مسألة فى خلاف على وقف ، ولم يكن للمسألة فى ذاتها خطر خاص ، بل كان القصد منها نضالا على مبدأ قانونى وهو : هل يجوز للأمير القوى أن يدل بقوته ويثور على القانون فيعصاه ، أم لابد له من الخضوع للقانون ولو كان خصمه ضعيفاً لاسند له من سلطان الدولة . وكانت الخصومة بين رجل من أفراد الشعب ، وأمير من كبار الأمراء من عصابة الطغيان ، واعتصم الرجل الضعيف بالشريعة فلجأ إلى القضاء ، ولوح الأمير القوى بالقوة والبطش . وحكم الشرع للرجل الضعيف ، فأبى الامير الإذعان للحق ، وأصبح الأمر معلقاً بين أن ينتصر القانون ، وبين أن تجتاح القوة كل سياج وكل حرمة .

فأدرك العلماء أن واجبهم يناديهم — وهم ممثلو الشعب والطبقة المستنيرة منه — بالمحافظة على القانون والحق ، ولم يترددوا لحظة ، بل هبوا لنداء الواجب ، وتصدر فيهم زعيم اسمه الشيخ الدردير ، رحمه الله وطيب ثراه ، فأرعد الأمير المبدل وأبرق ، وأرغى وأزبد ، ونهر وتوعد ، فوقف العلماء وثبتوا ، وأرغوا وأزبدوا كذلك ، وقام الشعب من ورائهم يؤيدهم . وكانت مظاهرة كبرى ، فأغلق الناس حوانيتهم لينظروا مآل النضال بين الحق والقوة ، وأوشك الأمر أن يؤدى الى فوضى شاملة ، لولا أن جزع عقلاء الأمراء من ذلك الاضطراب ، وأشفقوا من تلك الحال فاجتمعوا وتشاوروا ثم أرسلوا إلى الأمير المعاند فلاموه على وقفته ، وأمروه بالنزول على ما أراد القانون ، فأذعن وهو كاره بعد مشادة عنيفة ، ولم يرض العلماء أن يدعوا الأمر يفلت من أيديهم بغير حق مسجل يكتسبونه للناس ، فطلبوا أن تكتب لهم وثيقة بالحق المكتسب ، وكتب لهم صلح رسمى به شروط على الأمراء ، وتعهد من الحكام بالتزام ما يقضى به القانون ويحتمه العرف .

وقد أثرت أمثال هذه الصيحة فى الأمراء ، فصاروا يخشون الشعب خشية عظيمة ، حتى إنه عند ما أشيع مجىء الحملة التركية لإصلاح الحكم فى مدة مراد وإبراهيم بقيادة القبودان حسن باشا ، ذعر الطاغيتان خوفاً من أن ينتهز الشعب تلك الفرصة فيثور مظهراً ما فى نفسه من الألم ، فحاولوا التقرب إلى زعمائه .

وقد وصف أحد من شهد ذلك العصر تذلل الامراء بقوله : « فذهب إبراهيم بك إلى الشيخ البكرى ، ثم الشيخ العروسى والشيخ الدردير ، وصار يبكى لهم وتصاغر فى نفسه جداً وأوصاهم على المحافظة وكف الرعية عن أمر يحدثونه أو قومة أو حركة فى مثل هذا الوقت ، فانه كان يخاف ذلك جداً » (١)

والحق أن شعب مصر كان عند ذلك قوى الاحساس بنفسه ، وبما ينبغى له من الحرية ، وما يجب له من الحقوق ، لا يتهاون فى إظهار ذلك الاحساس بشتى الوسائل كلما لاحت له فرصة ، أو كلما حدث حادث يشتم منه رائحة الاستهانة بكرامته أو الاعتداء على حرماته . ولهذا كانت ثوراته تتوالى عند كل مناسبة ، فما تكاد ثورة تهدأ فى القاهرة حتى تشب أخت لها فى رشيد ، وما تكاد تلك تخبو حتى تبدأ أخرى فى بلبيس ، وكان بعض هذه الثورات يبدو عنيفاً كأنما هو ينذر بثورة شاملة كثورة فرنسا . ونحن إذا بحثنا حال فرنسا قبيل ثورتها لا نستطيع أن نرى من بوادر ثوران النفوس أكثر مما بدا فى أواخر القرن الثامن عشر فى مصر ، فان فرنسا ظلت على ما كانت عليه من سوء الحكم ، ومن العبث بالحريات إلى أواخر ذلك القرن ؛ لا بل إن سوء الحكم فيها قد زاد فى أواخر ذلك القرن عما كان فى أواسطه . فكانت أفاعيل لويس الخامس عشر وخليلته المشئومة فى أواخر ذلك القرن جديرة بكل حنق وكل غيظ ، ولكن الفرنسيين لم يثوروا عند ذلك ، وإنما كانت ثورتهم فى أيام الملك الطيب الذى جاء عقبه . أما فى مصر فقد بدت تلك الثورات كالشرر المتطاير وما كان أقنها أن تنتهى إما بثورة تامة كثورة فرنسا ، وإما بإصلاح تدريجى شامل يتناول كل نظمها .

وأغلب ظننا أن حكام مصر ما كانوا ليسمحوا للأمور أن تتفاقم إلى أن تحرج الصدور وتدفع بها إلى الثورة المدمرة ، فقد كانوا دائماً ينزلون عند إرادة الشعب بعد أن يروا غضبته ، ويصلحون ما يشكوا منه من فساد ، ويقومون ما يشير اليه من اعوجاج ؛ وتكررت الأمثلة الدالة على ذلك

فريد أبو حديد

(١) عجائب الآثار جزء ٢ ص ١١٨

مصر في خاتمة القرن السابع عشر

كما رآها العلامة عبد الغني النابلسي

للأستاذ محمد عبد الله عنان

ليس في تاريخ مصر الاسلامية أغمض من العصر التركي بل نستطيع أن نقول إن ليل الاسلام وليل الأمم العربية والاسلامية كلها يبتدىء بابتداء العصر التركي . وبينما نرى تاريخ مصر الإسلامية زاهراً وضاء قبل الفتح التركي إذا بستار كثيف من الغموض والظلمات ينسدل من بعده على هذه العصور المجيدة ، وإذا بالانحلال والفساد والفوضى تغمر ذلك المجتمع الزاهر الذي لبث قروناً يسطع خلال العصور الوسطى ؛ وفي هذه المرحلة الغامضة المؤسية من تاريخ مصر لا نظفر بكثير من المواد أو المصادر التي تلقي كبير ضوء على المجتمع المصري ، ولا يدون المؤرخ غير تعاقب الولاة الترك ولا يكاد يروي لنا شيئاً من الأحداث العظيمة أو الحوادث الشائقة ، اللهم إلا في أواخر هذا العصر ، حينما تستيقظ الحركة القومية المصرية من سباتها الطويل ، وينزع الزعماء المماليك إلى تحطيم نير الأجنبي ، ثم تمهد الحملة الفرنسية لانهيار الحكم التركي ، وبزوغ العصر الجديد .

بيد أننا نستطيع أن نتتبع أحوال المجتمع المصري في تلك المرحلة على يد جمهور من الأدباء والرحل الذين وفدوا على مصر في تلك العصور سواء من الشرق أو الغرب . وقد انتهت الينا طائفة من مشاهداتهم التي دونوها في رحلاتهم ، وهي وثائق لها قيمتها في الكشف عن بعض نواحي المجتمع المصري في هذا العصر ؛ ثم هنالك أنفس آثار هذه المرحلة اطلاقاً ، وهي مذكرات الجبرتي التي تلقي أعظم ضياء على تاريخ مصر والمجتمع المصري في القرن الثامن عشر ، وأوائل القرن التاسع عشر .

وقد رأينا أن نستعرض مشاهدات أولئك الرحل كلما سنحت الفرص ، وأن نستخرج من آثارهم ما يفيد في تعرف أحوال المجتمع المصري في تلك المرحلة ، وسنبدأ اليوم باستعراض رحلة علامة وأديب دمشقي وفد على مصر في خاتمة القرن السابع عشر ، وترك لنا عن رحلته بمصر أثراً يدون به بعض الملاحظات المفيدة عن المجتمع المصري في ذلك العصر .

ذلك الرحالة هو الفقيه والعلامة الصوفي الشهير عبد الغني النابلسي ، وهو شخصية غريبة تستحق الدرس ، بيد أنا نكتفي هنا بترجمته بايجاز ، فهو عبد الغني بن اسماعيل بن عبد الغني ابن اسماعيل بن احمد النابلسي الحنفي الدمشقي النقشبندي القادري ، وينعت بشيخ الاسلام وأستاذ الاساتذة ؛ ولد بدمشق في سنة ١٠٥٠ هـ (١٦٤٠ م) ودرس القرآن والحديث والفقه والنحو ، وقرأ على أعظم شيوخ العصر في دمشق ، وانتظم منذ فتوته في الطريقة القادرية ثم الطريقة النقشبندية ، وانكب على قراءة الأدب الصوفي ولا سيما آثار محيي الدين ابن العربي ؛ وتولى التدريس حيناً بالجامع الأموي ؛ وحمله تيار التصوف في شبابه إلى نوع من الشذوذ والهيام فلزم داره مدى أعوام ، وأطلق شعره حتى تدلى على كتفيه ، وأطلق أظافره ، وصارت تعتريه نوبات من الذهول حتى ظن أنه جن ؛ ورماه خصومه بالزندقة واشتدت الحملة عليه ؛ ولكنه تغلب على خصومه ، وضاعفت المحنة هيبته وشهرته ؛ وكان مغرماً بالسياحة ، فسافر إلى استانبول أو دار الخلافة كما كانت تسمى يومئذ ، سنة ١٠٧٥ هـ (١٦٦٤ م) ومكث بها حيناً ؛ ثم طاف بالشام وثغوره ، ورحل بعد ذلك إلى مصر والحجاز ؛ وانقطع للتدريس منذ سنة ١١١٥ هـ ، وهو في الخامسة والستين من عمره وأقام في أواخر حياته بالصالحية على مقربة من دمشق ، وغلا قدره وطار صيته ، وتوفي سنة ١١٤٣ (١٧٣٠ م) وقد أربى على التسعين من عمره ، ودفن بالصالحية ، وقبره يعتبر مزاراً يتبرك به إلى اليوم .

وكتب النابلسي عدة كبيرة من الكتب والرسائل في التفسير والحديث والفقه والتصوف ؛ وقد اشتهر بالأخص ببديعيته في مدح النبي صلى الله عليه وسلم وهي المسماة « نسمات الأسحار في مدح النبي المختار » ؛ وله شرح لديوان ابن الفارض ؛ ومنظومة في تاريخ ملوك بني عثمان ؛ ودون رحلته عن الشام ومصر والحجاز في سفر كبير أسماه « الحقيقة والمجاز » ؛ وبلغت مؤلفاته ورسائله أكثر من مائة ، اشتهر الكثير منها

فى أنحاء العالم الإسلامى (١).

***

كانت أمنية الحج باعث الرحلة الكبيرة التى قام بها عبد الغنى النابلسى سنة ١١٠٥ هـ (١٦٩٣ م) فى الشام ومصر والحجاز ؛ وهو يخصص لهذه الرحلة كما قدمنا سفراً خاصاً عنوانه « الحقيقة والمجاز فى رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز » ، لدينا منه بدار الكتب نسخة خطية جميلة(٢) ؛ وينقسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام ، يخصص القسم الأول منه لرحلة الشام وفلسطين ، والثانى للرحلة المصرية ، والثالث لرحلة الحجاز ؛ ويدون النابلسى رحلته بطريقة اليوميات ، فيذكر تنقلاته وزياراته ومشاهداته ، ويستطرد فى أحيان كثيرة إلى ذكر النبذ التاريخية والأدبية ؛ وقد بدأ رحلته من مدينة دمشق فى غرة المحرم سنة ١١٠٥ ، (٢ سبتمبر سنة ١٦٩٣) وطاف أولا بمدن الشام وثغوره ، ووصل إلى الحدود المصرية حسبما يذكر فى يومياته فى اليوم الثالث بعد المائة من بدء الرحلة وذلك فى ١٤ ربيع الثانى سنة ١١٠٥ ، ودخل مدينة القاهرة من باب الشعرية فى ٢٤ ربيع الثانى (أواخر ديسمبر سنة ١٦٩٣) وهو يحيها بإعجاب وحماسة كما حياها من قبل جميع الأعلام الوافدين عليها من المشرق والمغرب ؛ ونزل ضيفاً على صديقه الشيخ شاهين بن فتح الله حيث أفرد له داراً خاصة ملاصقة لداره ورتب له بها كل ما يلزم لراحته ورفاهته ؛ وكان أول من استقبله من أعيان مصر عميد السادة البكرية السيد زين العابدين البكرى ، فزاره بداره الواقعة على بركة الأزبكية ، ويشير النابلسى إلى فخامة هذه الدار وروعة مجلسها المنيف المطل على البركة ، ويصف البركة الشهيرة « ذات الروح والريحان التى فيها نفحة من نفحات الجنان » ؛ ثم يصف الحمام المجاور لدار البكرية ، وبه جناح خاص لا يدخله سوى السيد . وقد دعاه إليه وتمتع بالاستحمام فيه . وكان والى مصر التركى يومئذ على باشا خازن دار والياً من قبل السلطان احمد خان (١٦٩٠ — ٩٤) ، فاستصحبه السيد البكرى لزيارته بمنزله بالقصر العينى المطل على النيل ؛ وكانت لمضيفه السيد شاهين علاقة صداقة بالوزير (الوالى) فكان يدعوه للمنادمة ، ويذهب النابلسى معه إلى مجلس الباشا فيقضيان فى زيارته أوقاتاً طويلة

وزار النابلسى المحكمة وقاضيها التركى عارف افندى وأعجب بضخامتها وبساتينها اليانعة ، وزار مراد بك المصرى وهو من أعيان الصناجق المصرية بقصره الفخم فى « سبيل علام » على قيد ساعتين من القاهرة ، وينعته « بفخر الاكارم والاماجد » ، وقد أعجب النابلسى بفخامة مجالس أعيان المصريين وبذخها وحسن روائها ، وكانت تجهز بالأنوار الساطعة من قناديل وشموع ، وتطلق فيها مباخر العود والعنبر ، وينتظم فيها أهل الفن ويوقعون نغماتهم الساحرة على الجنك والعود والرباب وتنشد فيها القصائد الغراء ، وبالجملة . فقد كانت مجالس السحر والطرب والسمر الرفيع .

ويصف النابلسى جزيرة الروضة وجمالها ، والمقياس وعجائبه وجامع عمرو وفخامته ؛ ثم قلعة الجبل ، وقد كانت مركز الوزير التركى (الوالى) وبها ديوان العساكر ، ويصف لنا المؤرخ بئر « الحلزون » الشهيرة التى أنشأها بها السلطان الغورى لاستخراج الماء من أعماق الأرض وقد شهد البقر تدور فيها على عمق سحيق ، وكان بالقلعة يومئذ عدة من السرايات والجوامع والمساجد والحمامات كأنها مدينة مستقلة ، وأبراجها العظيمة مما يلفت الأنظار ، وكان بها مصنع خاص لعمل الكسوة النبوية ، وعمل السجاد للحرم الشريف .

ثم يحدثنا الرحالة عن الجامع الأزهر وعن شيخه وهو يومئذ الشيخ منصور المنوفى الشافعى الضرير ، وكان يكثر من زيارته ويجتمع بأساتذته وطلابه ويستمع لبعض ما يلقى فيه من الدروس ، ويقول لنا النابلسى إن طلبة الأزهر رجوه فى إلقاء بعض دروس فى الحديث فاعتذر إليهم ، وكانوا يجتمعون حوله ، ويلتمسون بركته ، وهو يبكى تأثراً .

وكان الرحالة كثيراً ما يمر فى غدواته وروحاته بباب زويلة ، وقد كان يومئذ مخرج القاهرة القديمة من الجنوب ، ولم يفته أن يصف محلة زويلة ، وما كان يجتمع بها يومئذ من أرباب الملاعب والسيميا ، وهم طائفة المهرجين والحواة ، الذين لم ينقرض نسلهم إلى يومنا

على أن أهم ما عنى به الرحالة هو زيارته للقرافة ومزاراتها ، وقد كانت الفسطاط ما تزال مجمع المقابر والمزارات الفخمة ،

(١) راجع فى ترجمة عبد الغنى النابلسى وذكر مؤلفاته سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر (ج ٣ ص ٣٠ وما بعدها) ؛ وكذلك الجبرتى ج ١ ص ١٠٩ .

(٢) تحفظ هذه النسخة برقم ٢٤٤ جغرافيا .

يتوسطها مقبرة الشافعي الخالدة؛ وكان النابلسي كما رأينا من أقطاب الصوفية الذين تستهويهم ذكريات القبور والمزارات المشهورة، ومن ثم نراه يفيض في وصف زياراته للقرافة ومقابر الفسطاط التاريخية ولا سيما مقبرة الشافعي، وينوه بعظمتها وسحرها، ويترجم لمن يأتي ذكرهم من العلماء والأولياء؛ ثم يصف زيارته لمزار وليه المصطفى ابن الفارض بجامع القرافة، كما يصف لنا حلقات الذكر الصوفي الذي تنشد فيه القصائد والأناشيد المؤثرة، ويقول لنا إنه شهد الأولياء أحياناً يأخذهم التأثر فيمزق بعضهم ثيابه أو يدوس الناس هائماً على وجهه لا يلوى على شيء.

ولبث النابلسي بالقاهرة ثمانين يوماً حتى اقترب موعد السفر إلى الحج؛ فقابل أمير الحاج المصري إبراهيم بك واستشاره في خير الوسائل للسفر الأمين، وبذل أمير الحج له ما استطاع من النصح والمعونة، وأعد النابلسي عدته للسفر وودع أصدقاءه في مظاهر مؤثرة، وغادر القاهرة في السادس من رجب (سنة ١١٠٥) في ركب من المصريين والشاميين، وغادرها من باب الشعرية كما دخلها، وودع الوزير خارج القاهرة بقصره بالعادلية، وإلى هنا تنتهي رحلته المصرية

٭٭٭

وإذا كان النابلسي لم يعن كثيراً بدراسة أحوال المجتمع المصري يومئذ ولم يقدم إلينا عنه بيانات شافية، فإنه يقدم إلينا بيانات وملاحظات لها قيمتها في دراسة المجتمع المصري في خاتمة القرن السابع عشر؛ ولعل أنفس ما فيها أقواله عن معالم القاهرة ومعاهدها؛ فهذه الأقوال في ذكر أبواب القاهرة وبركة الأزبكية وجزيرة الروضة والمزارات الشهيرة وغيرها ما يفيد في تعرف خطط القاهرة في هذا العصر، وهي تعتبر حلقة في مجموعة الآثار التي لدينا عن الخطط؛ ثم أن أحاديثه عن أعيان القاهرة وعن مجالسهم من الصور التي لها قيمتها في تعرف مجتمع هذا العصر. ولنذكر أن العصر الذي يحدثنا عنه النابلسي يسبق بداية العصر الذي يحدثنا عنه الجبرتي بنحو خمسين عاما فقط، ومن ثم في وسعنا أن نصل بين المواد المشتركة في هذين الأثرين في دراسة المجتمع المصري في القرن الثامن عشر

محمد عبد الله عنان

في الأدب المقارن

التشابه والاختلاف

في الأدبين العربي والإنجليزي

خاتمة

للأستاذ فخري أبو السعود

يروع الناظر في الأدبين العربي والإنجليزي شدة ما بينهما من تباعد، وكثرة ما هنالك من وجوه الاختلاف، وقلة ما فيهما من وجوه التشابه والاتفاق، ولا غرو فإن الظروف الجغرافية والتاريخية التي أحاطت بنشأة كل منهما ونموه وازدهاره، كانت متباينة أي تباين، والعوامل الاجتماعية والسياسية التي تترك آثارها في الأدب كانت متضادة أي تضاد، فجاء الأدبان اللذان هما وليدا تلك الظروف والعوامل مختلفين أعظم اختلاف، في الموضوعات والأساليب والأشكال والأغراض، ولم يتفقا إلا في كل عام من الوجوه التي يستوي فيها جميع الآداب لشيوعها بين جميع شعوب الإنسانية

فالأمة العربية أمة سامية ضربت في فيافي الجزيرة أحقاباً، وترعرع أدبها تحت سماء البادية، ثم خرجت من جزيرتها فورثت حضارات الأمم الشرقية، وأخضعت لسلطانها أغنى بلاد الشرق وسيرت تحت لوائها شعوباً أرقى منها مدنية وأعرق في العلم والصناعة ودانت لحكومة ملكية مطلقة، وكان الدين أساس دولتها وشارة مجتمعها؛ والأمة الإنجليزية أمة آرية خرجت من جزيرتها المنعزلة لجولات في البحار، وشاركت في تراث الاغريق والرومان، واعتنقت المسيحية، وساهمت في الحضارة الأوربية، وتمسكت بنظام الحكم الديمقراطي؛ فهما أمتان مختلفتان في الجبلة ونوع المجتمع ومتجه التفكير، فاختلف أدباهما تبعاً لذلك، ولم يتفقا كما تقدم إلا في وجوه عامة ومناح عارضة:

فعصر الجاهلية في تاريخ الأدب العربي شبيه بعصر ما قبل اليزابث في التاريخ والأدب الانجليزيين: ففي ذينك العصرين كان كل من الشعبين يعيش داخل جزيرته في عزلة كبيرة عن العالم، على حال شبيه بعصر الأبطال في بلاد اليونان الذي أنتج ملاحم

هوميروس ، وكان الأدبان تبعا لذلك جافيين ، وعرى اللفظ والأسلوب ، ساذجى المعنى ، بعيدين عن الصناعة الفنية ، وكانا أقل رقيا من الأدب الفنى الذى جاء فى العصر التالى . وإن يكن الأدب العربى بلغ فى عهد الجاهلية والبداوة والعزلة مبلغا من الرقى أعلى كثيراً من مبلغ الأدب الانجليزى قبل أن يتصل اتصالا وثيقا بثقافات الأمم الأخرى وآدابها

ونهضة العرب بظهور الاسلام تماثل نهضة الانجليز فى عصر اليزابث ، بوصول النهضة الأوربية إلى انجلترا ، واتجاه نظر الانجليز إلى ما وراء البحر ، ففى كل من هذين العصرين بدأت الأمة تخرج من محيط جزيرتها وتشب عن طوق عزلتها ، وتتصل بالعالم وتصطنع حضارته ، وتبنى لنفسها إمبراطورية مترامية الأطراف ، وارتقى أدبها من جراء ذلك ارتقاء عظيما ، ورقت ديباجته ودخل فى طوره الفنى ، طور الانشاء المحكم والمجهود الأدبى المتصل ، وانتشرت كلتا اللغتين فى بقاع الأرض وافتتحت آدابها كثيراً من الأمم : فاللسان العربى الذى لم يكن يتجاوز حدود الجزيرة فى الجاهلية ، صار يتكلم من تخوم الصين إلى المحيط الأطلسى ، وأثر فى لغات وأزال غيرها وحل محلها ، واللغة الانجليزية التى لم يكن يتكلمها إلا ملايين معدودة فى عهد شكسبير أصبحت تتكلم وتدرس فى مشارق الأرض ومغاربها ، وأصبح أدبها عالميا كما كان أدب العرب عالميا على عهد عظمتهم

ولم تكن كل من الأمتين توطد أركان أمبراطوريتها حتى انسلخ عنها جانب من أملاكها ونما مستقلا حتى طاولها فى النفوذ والسلطان ، ودانأها فى ازدهار العلوم والآداب : فكما انفصلت الأندلس عن الخلافة العربية ، استقلت الولايات الأمريكية عن الامبراطورية البريطانية ، بيد أن البلاد الأصلية احتفظت بالزعامة الأدبية على طول المدى : فلم تنجب الأندلس من الأدباء من بذوا الفحول العباسيين ، ولا ظهر فى أمريكا ولا غيرها من أنحاء الامبراطورية البريطانية من دانى شكسبير وملتون ، فلعل التراث الثقافى الحافل ، والماضى التاريخى المؤثل من ضروريات ازدهار الأدب الأساسية ، وذلك ما كان يعوز الاندلس الاسلامية ، وما يعوز أمريكا الحديثة ، فظلت كلتاهما تلتفتان إلى الوطن الاول فى طلب النموذج والمنهاج والوحى

وكلا الأدبين العربى والانجليزى تأثر إلى حد بعيد بالكتاب السماوى الذى تدين به أمته : فأثر القرآن فى المجتمع العربى وتاريخ اللغة العربية وآدابها وثقافة أدبائها وأساليبهم جسيم شامل ، فقد كان منذ جاء مثلا أعلى فى البلاغة وثقافة قائمة بذاتها ، والانجيل منذ ترجم إلى الانجليزية فى عهد الاصلاح الدينى كانت له اليد الطولى فى تثبيت الأسلوب النثرى الانجليزى ، وتثبيت مفردات اللغة وإدخال مفردات جديدة ، واشتقاق غيرها ، واختراع طرق للاشتقاق أدت إلى توسيع جوانب اللغة ، وكان دائماً قدوة للأدباء يحتذونها فى إسلاس الأسلوب ، وله أثر مباشر جلى فى كتابين هما من ذخائر الأدب الانجليزى ، أحدهما « رحلة الحاج » لبنيان والثانى « الفردوس المفقود » لملتون ، ففى كليهما يقوم أساس القصة على ما ورد فى الانجيل من أنباء الخلق والبعث والحساب ، بل إن دراسة الانجيل كانت هى الثقافة الوحيدة التى نالها بنيان ، الذى كان قساً ضئيل الحظ من العلم ، ومع ذلك يعد أسلوبه المبنى على أسلوب الانجيل فى الذروة فى أدب اللغة .

تلك أمثلة من وجوه التشابه فى الأدبين ، وظاهر أنه تشابه عام عارض محدود ، أما وجوه التناقض فعديدة تشمل نواحى الأدب وتضرب جذورها فى صميمه : فالأدب العربى ازدهر فى كل دولة إسلامية فهو أشد تأثراً واصطباغاً بالنزعة الدينية من الأدب الانجليزى ، ومع ذلك قد جرى العرب إلى غايات من الترف واجتناء اللذات لم يبلغ بعضها الانجليز ، وبدا أثر ذلك الترف المغرق بجانب ذلك الروح الدينى فى أدبهم ؛ وقضت التقاليد التى نمت فى المجتمع الاسلامى بإسدال الحجاب على المرأة ، فتقلص ظلها من المجتمع وضؤل أثرها فى الأدب ، وازداد ضآلة بمرور الأيام بدل أن يزداد جسامة بتوطد الحضارة وذيوع التعليم واتساع جوانب الأدب ، فكانت المرأة الانجليزية أبين أثراً فى أدبها - كاتبة ومكتوبا عنها - من المرأة العربية .

وعرف الانجليز فنونا لم يحفل بها العرب كثيراً كالتصوير والنحت ، وأغرموا بما اطلعوا عليه من آثار تلك الفنون من مخلفات الأمم القديمة ، وامتلأ أدبهم بوصف كل ذلك وتقديره والأدب العربى يكاد يكون خلوا من ذلك ؛ وانكب أدباء الانجليزية على دراسة الآداب الأوربية المعاصرة وأفادوا منها كثيراً ، وتوفروا خاصة على دراسة الأدب الإغريقى القديم ، فكان لهذا الأدب أبعد الآثار وأشملها فى الادب الانجليزى : رحب آفاقه وبسط أساليبه وأشكاله ، ومد أمامه منادح القول ووجه نظره إلى جمال الحياة الذى تصويره غرض الادب والفن جميعا واكتسب الأدب الانجليزى صبغة إغريقية ظل الأدب العربى

بعيداً عنها، فان هذا الاخير لشديد اعتداده بنفسه لم يحاول أن يطلع على آداب غيره، أو يستفيد من تراث اليونان الادبي الحافل فكان ذلك الاقبال على الادب الاغريقي من جانب الانجليز، وذلك الاعراض عنه من جانب العرب من أكبر دواعي اختلاف الادبين وتباعدهما.

وفى عهد الدولة والحضارة والثقافة، عهد الطور الفنى للأدب حين يبلغ أوج رقيه، رضخ العرب للملكية المطلقة، والملكية تكف الشعب عن الحكم وتكف الأدب عن النقد والاصلاح وتلحق الادباء بحاشيتها، فجاء الأدب العربي بلاطياً فى جملته، يتمدح بمآثر الملوك ويصف مواكبهم ومظاهر عظمتهم، ويغفل الشعب وأحواله وآماله إلى جد بعيد، على حين اعتمد الادب الإنجليزي فى أكثر عصوره على استجلاب رضى الشعب، وتصوير أحواله ونشدان آماله، فامتلأ الادب الانجليزي بالنظرات النقدية والقصص الاجتماعية والبحوث السياسية، وحفل بتمجيد الحرية والديمقراطية واحترام الفردية والرأى العام، على حين امتلأ الأدب العربي بالمدائح والرسائل الديوانية، فمن أكبر مظاهر اختلاف الادبين العربي والانجليزى، صبغة الاخير الشعبية الفردية وصبغة الاول البلاطية الرسمية.

وهذا الانضواء تحت لواء الملكية أكسب الأدب العربى صفات وخصائص ظل الأدب الانجليزى خلوا منها: فغلبت على الادب العربى — الذى تعود الإغضاء والرضا بالكائن وعدم محاولة الاصلاح — نزعة المحافظة والتقليد، على حين سادت الادب الانجليزى روح التجديد، وتجدد على طول العصور لفظا وأسلوبا وموضوعا؛ وكان من دواعي تلك المحافظه أيضا اشتغال غير العرب بالأدب العربى، بل ظهورهم على العرب فى مجال الصناعة الأدبية، وقدم من جراء ذلك كله الاسلوب على المعنى، وكان يعد أديبا من تمكن من أصول اللغة وأحكم انشاء الجمل البليغة، لا من لطف حسه وأرهف شعوره، واتسعت نظرته وسمت فكرته فى الحياة؛ وكان من أثر نزعة المحافظة والجمود التى سادت الأدب العربى ان جمدت أشكاله وموضوعاته، فلم تتطور أشكاله وتتميز وتتعدد، ولم تتجدد موضوعاته وتتكاثر وتتوالد، على حين كان تاريخ الأدب الانجليزى تاريخ تجدد مستمر وإخصاب متزايد في هذه النواحي جميعا.

ولسير الأدب العربي فى ركاب الامراء، واعتماده على عطفهم دون عطف الجمهور، أهمل الأدب موضوعات كثيرة هى من صميم الفن ولباب الحياة، وهى هم الأديب المفكر المحس، كعبادة مفاتن الطبيعة والتفنن فى عرضها، واستلهام حكم التاريخ والتأنق فى وصفها، واستيحاء جلائل البطولة وتصوير روائعها، واستخلاص مواضع الفتنة والمتعة والجمال من خرافات الأقدمين، وإرضاء الفن بنظمها وتجديد شبابها، وعرض آثار الرحلات التى يقوم بها الأديب ووقعها فى نفسه، والسبح فى عوالم الخيال البعيدة الساحرة، والضرب فى أعماق الماضى وآماد المستقبل وآفاق الانسانية الواسعة، كان الأدب العربي — لاعتماده على صلات الأمراء — فى شغل شاغل بحاضر العيش وقريب المطلب عن كل تلك العوالم الزاخرة بالفن والحياة والشعور والمتعة، فأهمل بعضها ولم يمس بعضها إلا مسا رفيقا، وبكل هاتيك العوالم وذخائرها وأصدائها يحفل الأدب الانجليزى

هذا الاختلاف المطرد الشامل فى البيئة والمجتمع والموضوع والأسلوب، مرجع ذلك الاختلاف الرائع الملحوظ بين كتب الأدبين العربي وكتب الأدب الإنجليزى، وفحول هذا وأقطاب ذاك، وسيرهم وآثارهم وعقلياتهم وشخصياتهم، حتى ما نكاد نرى فى الأدبين شاعرين متماثلين أو كاتبين يذكرنا أحدهما بالآخر، من جهة العقلية والأسلوب أو الموضوعات، أو يتشابه موضوع كتاب هنا وموضوع كتاب هناك، أو تخال فكرة قصيدة فى هذا الأدب صادرة عن نفس الحالة النفسية الصادرة عنها أخرى فى الأدب الآخر، ليس هناك شيء من ذلك، وليس بين الأدبين إلا التباعد والتناكر، كما يتباعد ويتناكر شخصان غريبان مختلفا الموطن والنشأة والتربية، والعقيدة الدينية والثقافة، والنزعة فى الحياة والمنجه فى التفكير

فإذا وازنا بين كبيرى شعراء الأدبين، المتنبي وشكسبير، بدا لنا الاختلاف والبون العظيم: فجانب كبير من شعر المتنبي موقوف على المدح والهجاء، ولم يقل فيهما شكسبير حرفاً، وشعر المتنبي ملىء بالحكم البليغة الموجزة المتجاورة يزاحم بعضها بعضاً وشعر شكسبير حافل بوصف الشخصيات وتحليل النفوس تحليلا مسهبا لا يتوخى بلاغة الايجاز فى شىء؛ وبجانب المدح والهجاء والحكمة وما يتصل بذلك لم يكد المتنبي يطرق موضوعا آخر بعيدا عن دائرة حياته الشخصية، بينما روايات شكسبير وقصائده تعج بوصف الطبيعة وتقديس الفنون كالموسيقى وتمجيد الأبطال،

وتضرب فى شعاب الخرافة وأرجاء التاريخ ؛ وشكسبير يراوح فى نظمه بين أشكال الشعر المختلفة، بين الشعر المرسل والدوبيت والسونيت ، والفقرات المتراوحة طولا ، المتداخلة القوافى ، وقد دعى ضرب من السونيت باسمه لما أكسبه بعبقريته من مرونة ، على حين ظل المتنبى - وهو الشاعر العظيم المتمكن من اللغة والادب المطلع على حقائق الحياة - متمسكا بالشكل الشعرى الوحيد الذى وصل إليه من المتقدمين ، وهو القصيدة المصرعة المطلع الموحدة الوزن والقافية غير الموحدة الفكرة ، فلم يمنح الادب العربى شكلا ولا موضوعا لم يكن من قبله ؛ وعاش المتنبى ومات طامحاً إلى الملك وتضريب الاعناق ، ساخطا على تبريزه فى مضمار الادب الذى كان يحسد عليه ويكاد له من أجله ، ولم يكن شيء من ذلك مما يخطر لشكسبير على بال

وجلى واضح أن هذه الفروق بين الشاعرين العظيمين إنما ترجع إلى العوامل الاجتماعية والسياسية ، التى كانت تحيط بكل منهما وتكون نفسيته وعقليته ، وإلى هذه العوامل ذاتها يرجع التباين الشديد بين أبى نواس وأبى تمام والبحترى وابن العميد وبديع الزمان من جهة ، وبين ملتون وبيرون وشلى وكيتس وجيبون وكارليل وماكولى من جهة أخرى ، وهو تباين يجعل من المحال تشبيه واحد من الفريق الاول بواحد من الفريق الثانى ، فى سيرته فى الحياة أو فلسفته الفكرية أو مذهبه الادبى ، وإن كان من أسهل الأمور استخراج العديد من أوجه الاختلاف والتضاد .

هذا الاختلاف فى البيئتين الجغرافية والظروف التاريخية ، والعوامل الاجتماعية والاقتصادية ، والجبلة والتقاليد والمنازع ، وهذا التباين بين الادبين فى المشرب والاسلوب والموضوع وشخصيات الادباء وسيرهم ، كل ذلك يجعل الموازنة بين الادبين من أمتع الدراسات الأدبية وأحفلها بالدروس والعبر ، وأدعاها إلى استخلاص المبادىء والنظريات الادبية ، وإلى التفطن إلى العوامل المؤثرة فى الآداب ونتاجها ، وقديما قيل : وبضدها تتميز الاشياء . ولو كان الادبان شديدى التشابه ولدى ظروف متقاربة وعوامل مؤثرة متماثلة ، لما كان فى الموازنة بينهما كبير طائل ، ولا كان تتبع ظواهرهما يستحق طويل عناء ، ولأشبها أن يكونا أدبا واحدا مشتركا بين أمتين ، موزعا بين لسانين

فخرى أبو السعود

واجبنا الثقافى

نحو الآداب والفنون

للأستاذ اسماعيل مظهر

قال الأستاذ الكبير ازلى إستيفن فى أول الفصل الثانى من كتابه العظيم « الفكر الانجليزى فى القرن الثامن عشر » ما يلى :

إن الكتب التى هى بمثابة الدعائم الثابتة فى تاريخ الآداب ، إنما تكون من طائفتين : احداهما طائفة الكتب التى تلخص جدل الماضى ، والثانية طائفة الكتب التى تعد جدل المستقبل

والظاهر من كلام هذا الرجل الفذ يتضمن فى مطاويه كثيرا من الحقائق التى ينبغى لنا أن نمعن النظر فيها ، ونطيل التأمل والاستبصار منها ، ذلك بأن آدابنا وفنونا حتى الآن تفتقر إلى الطائفتين معاً : تحتاج إلى كتب تلخص جدل الماضى ، وتحتاج إلى كتب تعد العدة لجدل المستقبل .

أما الكتب التى تلخص جدل الماضى فلا سبيل اليها إلا بالترجمة والنقل عن اللغات الأخرى ، لنستكمل بها - فى لغتنا العربية المنيفة - الأداة التى تعدنا لجدل المستقبل . وعلى هذا نريد أن ننظر أتسع آدابنا وفنونا اليوم تلك الكتب التى تتضمن مشاكل الماضى وتعدنا لمشاكل المستقبل ؟

أما الذين هم أميل إلى التفاؤل فيقولون إن ما بين أيدينا من الكتب يكفى لتكوين الأديب الذى يستطيع أن يخلق القضايا العقلية والنظريات التى سوف تكون عدة الجدل فى المستقبل . وعلى النقيض من هؤلاء فئة تذهب إلى عكس ما تذهب اليه الأولى وإن كل من يعرف مقدار التراث الذى خلفته القرون الاولى ، ويجول بفكره جولة يقطع بها تاريخ ستين قرناً من الزمان ليقنعه بعدُ الشقة التى تفصل بين أبناء العرب وبين المراجع التى هى عدة لجدل المستقبل ، بلزوم الإكباب على درس ما يلخص جدل الماضى ، من آثار الآداب والفنون .

***

عن لى أن أكتب فى هذا الموضوع ، وأن أخص الرسالة بما أكتب ، إثر سؤال تقدم به إلى صديق من خريجى الازهر ومن رجال التخصص فيه يريد به أن يعرف المصادر التى يستطيع أن يدرس فيها تاريخ الاسكندر المقدونى وحياته وأعماله ، وقد أراد

أن يكتب رسالة فى تاريخ هذا الرجل وأن يعقد فى الرسالة فصلا يبحث فيه العلاقة التاريخية بين الاسكندر المقدونى وذى القرنين الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم. وعبثاً ما حاولت أن أستذكر اسم كتاب واحد فى اللغة العربية يمكن أن يتخذ مرجعاً فى مثل هذا الدرس التاريخى الحافل. وهب أنى استطعت أن أقفه على اسم كتاب أو كتابين، على تقدير ذلك، فهل ذلك يغنيه عن الرجوع إلى المصادر القديمة التى تصدت لذكر الاسكندر المقدونى وفتوحاته، مثل فلوطرخوس وإفليبوس وإسطرابون وبطليموس ويوستين وكورتيوس. وغيرهم وغيرهم ممن لا تحصيهم الذاكرة. وهل ذلك يغنيه إذا أراد أن يكتب فى أخلاق الاسكندر عن درس المراجع التى كتبت فى فيليبس الثانى أبيه، والمراجع التى كتبت فى صفات أمه أولمبياس؟ هل ذلك يغنيه عن أن يعرف أن هنالك قصة أكثر ما فيها خرافى تدعى عند الأعاجم قصة الاسكندر، يرجح الثقات أنها كتبت فى مصر فى خلال القرن الثالث الميلادى، وأن هذه القصة ترجمت إلى أكثر اللغات الحية ما عدا العربية بالطبع، وأن ذيوع هذه القصة كان سبباً فيما ذاع عن الإسكندر من الخرافات، حتى قيل إنه نبى مرة وإنه رسول مرة أخرى؟

ذكرت للأديب العالم الذى سألنى مجمل هذه الأشياء، وزدت على ذلك أن درس تاريخ الاسكندر على الصورة التى رسمها يحتاج إلى إلمام بتاريخ الثقافة الهلينية وعلاقتها بغزوات الاسكندر فى الشرق؛ ثم زدت على ذلك أن هذا الدرس يحتاج إلى إكباب على درس جغرافية حوض البحر المتوسط القديمة والمدن التى قامت حقا فيه وتاريخها وأثرها فى نشر الثقافة الهلينية، ثم درس جغرافية الشرق القديمة من حدود بحر الروم إلى حدود بلاد الهند؛ ثم زدت على ذلك أنه من المحتوم على من يريد أن يدرس هذا الدرس وينحو هذا النحو أن يلم بتاريخ الصراع بين فارس وبلاد اليونان قبل ظهور الاسكندر، وأن يلم بالحالات التى قامت فى بلاد فارس قبيل الفتح المقدونى.

صور لنفسك أيها الباحث بعد ذلك عدد المراجع التى يحتاج اليها باحث كهذا الباحث ليدرس موضوعاً خيل إليه بدءاً أن بحثه هين وأن درسه سهل، وصور لنفسك بعد ذلك مقدار ما يكون فى بحث مثل هذا يتم بغير مراجع وثيقة فيه من نقص وجهل وتقليل، ثم صور لنفسك بعد هذا كله مقدار ما يكون فى مؤلف يبرز للناس عفو الخاطر من قدرة على تلخيص جدل الماضى، ليكون للمستقبل جدله الخاص به؟ وإنى لأقول آسفاً إن صديقى هذا على مقدار ما كان فيه من شغف لبحث هذا الموضوع، قد اضطر إلى الميل عنه إلى بحث آخر عرى المراجع. بحث من تلكم البحوث التى يعتمد فيها على كتب عربية لم يصقلها النقد، ولم يقف على إخراجها للناس علماء أنفقوا من وقتهم فى تصحيحها وضبط أعلامها وألفاظها ما يجدر بكتب هى فى الواقع مراجع العلم ومآل العالم فى البحث

***

انتهت محاولة ذلك العالم بأن يتحول عن الاسكندر إلى غيره، لأنه فقد المراجع التى يستطيع أن يتخذها عدة للبحث. ولم ينته الأمر عند ذلك. فقد أرسل إلى أديب من أدباء العراق كتابا يسألنى فيه عن المراجع العربية التى يستطيع أن يخلص منها بشىء من تاريخ تاسيس مدينة الاسكندرية والبحوث التى قام بها الذين عنوا بموضوع هذه المدينة، ولقد أردت أن ألبى طلب الأديب فبحثت عن المراجع فلم أجد لها أثرا، وتقبت عن الكتب التى ألمت بشىء من تاريخ العصر المقدونى بمصر فلم أقف لها على وجود وفى النهاية اضطررت أن أكتب اليه بأن يستعين بأحد الذين يجيدون اللغة الانجليزية ويراجع ما كتب مهفى وهوجارت واردن بيفن، وأنا على علم بأن حظه من التأليف والبحث سوف لا يعدو حظ صديقى الأول:

وبعد فان أمثال الباحثين كثيرون، يريدون أن يلخصوا جدل الماضى، وأن يعدوا العدة لجدل المستقبل، ولكن عمادهم مفقود، وسلاحهم مفلول، على أن ما طلب الباحثان لأهون بكثير مما يطلب غيرهما، فالتاريخ على ما فيه من عويص المشكلات يهونه نقل مراجعه إلى العربية، بقدر ما يصعب نقل الآثار الأدبية أو الفلسفية، فلو أن كاتبا أراد أن يكتب فى تاريخ الشعر الاغريقى فأى المراجع يقصد وأى الإبواب يلج؟ ولو أن كاتبا آخر أراد أن يستقصى تاريخ المذاهب الفلسفية التى اندست فى ما نظم شعراء الحكمة عند اليونان، فأى الكتب يستذكر وأى المدونات يدرس؟

دعك من كل هذا، وصور لنفسك حال باحث يريد أن يقف على تاريخ العصر الرومانى فى مصر، أو أن يقف على شىء من تاريخ الكنيسة النصرانية فيها، أو أن يقيم من تاريخ الصراع بين الهيئتين السياسية والدينية، هيكلا يخلص منه تاريخ شامل لمصر فى خلال سبعة قرون حكم فيها الرومان أرض النيل، فأى الكتب العربية يستوحى وأى الابواب يطرق؟

أما إذا كان هذا مقدار النقص الذى نحسه فى مراجعنا العربية فى مسائل هى أكثر المسائل مساسا بتاريخنا، فكيف بنا إذا

أراد أحدنا أن يتخذ من الكتب العربية مرجعاً لدرس تاريخ الاستكشاف الجغرافى وعلاقة ذلك بتاريخ الاستعمار الأوروبى ، أو التاريخ السياسى لدول أوربا فى القرن التاسع عشر ، أو أثر الحروب الأوربية فى تكوين التصور السياسى الجديد فى القرن العشرين ؟

تشعرنا هذه الحقائق بأن أدبنا ناقص ، وأن علمنا ناقص ، وأننا مصدودون عن البحث بصواد ليس لنا من يد فى دفعها ونحن أكثر شعوراً بذلك إذا أردنا أن نؤلف فى تاريخ العلم الحديث أو فى تاريخ الفكر عامة أو فى تاريخ الفنون أو الفلسفة .

* * *

مثل الظرف الذى تجتازه ثقافتنا ، قد اجتازته من قبل أمم عديدة . والعرب فى العصر العباسى ، وأوربا فى حدود القرون الوسطى ، أقرب ما نمثل به ، على أن احتياجنا إلى الكتب التى ندرس فيها شتى موضوعات الأدب والفن ، ونكمل بها عدتنا فى اللغة العربية ، ينبغى أن لا يقتصر على كتب المراجع وحدها بل يجب أن يتعدى إلى الأمهات المؤلفة فى مختلف الموضوعات ، ففى تاريخ اليونان مثلا تدعونا الحاجة إلى أن ننقل إلى جانب المؤلفات القديمة مؤلف جورج جروت مثلاً ، وفى تاريخ الرومان نضطر إلى نقل كتاب ممزن الذى حلل الحياة الرومانية اجتماعياً واقتصادياً وكتاب انحلال القيصرية الرومانية الذى يبحث الأسباب السياسية التى أدت إلى ذلك الانحلال . كذلك ينبغى لنا أن ننقل إلى العربية كل المراجع التى تعالج تاريخ الفكر وثورات العقل وأن لم يكل ما يتاح لنا الالمام به من المظان التى توسع من أفق العلم بأخبار الأمم وحالاتها وأسباب ارتفاعها وسقوطها

أضف إلى ذلك أن أدبنا تنقصه المعاجم الكثيرة . فهل يمكن لأديب باحث أو عالم متفرغ للعلم أن يستكمل عدة البحث بغير معاجم قريبة التناول سهلة الأسلوب ؟ وإذا أردت أن تعرف مقدار افتقارنا إلى المعاجم فانظر هل فى مراجعنا شىء من المعاجم الآتية : —

(١) معجم لغوى تاريخى (٢) معجم اصطلاحى لمفردات العلوم
(٣) معجم لغوى عام (٤) معجم للآداب
(٥) معجم للفلسفة وعلم النفس (٦) معجم الأسماء القديمة
(٧) معجم الأسماء الحديثة : فى الجغرافيا والتاريخ
(٨) معجم الأسماء العربية (٩) معجم أسماء طبقات الحيوان
(١٠) معجم أسماء طبقات النبات (١١) معجم المصطلحات الاسلامية

إلى غير ذلك مما يصعب حصره وتحديد الحاجة إليه .

وإنك إذا تصفحت رسالة فى التاريخ القديم مترجمة إلى اللغة العربية عن الفرنسية ، ثم قارنتها برسالة فى نفس الموضوع مترجمة إلى العربية عن اللغة الإنجليزية أو الالمانية ، لتعذر عليك فى كثير من الاحوال التمييز بين الاسم العلم الواحد لشدة ما تنافر الناقلان فى طريقة نقله إلى العربية ، حتى لقد تقدم إلى كثيرون من طلاب الآداب يسألون عن حقيقة أسماء مختلفة عرضت فى درج رسائل فى التاريخ ، وبمقارنتها اتضح لى أنها اسم واحد نقله عدة من المترجمين بصيغ مختلفة فى العربية . ولا شك فى أن هذه الفوضى الغامرة من شأنها أن تعمى على طلاب العلم وربما كانت سببا فى تناقضهم .

وإذا وقع التناقض للبلبلين بشىء من آداب اللغات الأوروبية بسبب ذلك ، فأحرى بمن يدرسون باللغة العربية خالصة ، أن يكونوا أشد تناقضا وأكثر تطوحا مع الأوهام التى أكاد أجزم بأنها شائعة فى أكثر ما يكتبونه ويؤلفونه شيوعاً عظيما إذا تعرض أحدهم للكتابة فى غير الموضوعات الاسلامية ، وما السبب فى هذا إلا احتياجنا إلى معاجم لأسماء الأعلام تجرى فى تعريب الأسماء القديمة والحديثة على قواعد معينة ، اللهم إلا ما عربه العرب ، وهو قليل ، فانه يبقى كما عربوه .

خيل إلى بعض المشتغلين بحركة الثقافة فى مصر ، وتتبعوا أطوارها منذ مائة سنة ، أن ما نقل إلى العربية من فروع المعرفة كاف لأنه يكون جزءاً صالحا من العلم بحقائق الأشياء ، والحقيقة التى أحسها تناقض هذا الخيال ، فقد اتبع النقلة عندنا حتى الآن طريقين : إما التلخيص وإما نقل نتف من المذاهب أو قطع متفرقة عن كتاب الأدب المعروفين ، وكلا الأمرين مضر أقصى الضرر بالثقافة الصحيحة ، فان هذه الثقافة لا يمكن أن تتلق نتفا وأقساطا إلا لتكون أدبا ناقصاً أو علماً ناقصا أو فنا ناقصاً ، والمعرفة اذا اعتورها النقص فى الأصول التى تقوم عليها ، امتنع عليها أن تكون أداة قويمة لخلق التصورات العامة فى العلم والأدب والفلسفة . وخلق التصور العام فى العلم والأدب والفلسفة هى الغاية التى يجب أن تنتهى إليها الثقافة العامة ، هى المثل الأعلى الذى ينبغى أن ينشد من العلم ، وهى الهدف الذى يجب أن يرمى اليه التعليم .

إذن يكون ما نقلنا إلى اليوم من الآثار العلمية والأدبية عن المعرفة الجديدة ، وبالحرى عن الثقافة الاوربية ، إنما هو نتف وأجزاء ، لها من الفائدة على قدر ما فيها من تعبير صحيح عن مذاهب أصحابها ، وقلما يعبر الجزء عن الكل تعبيراً صادقا قويما

من جراء هذا كان ذلك الارتجاج العظيم الذى نشهده فى مجالى الأدب العصرى فى مصر والشرق . ذلك بأنه أدب اعتمد على نتف من قديمنا وعلى نتف من الحديث المنقول عن أوربا ، اعتمد على

درس غير كامل لآدابنا القديمة ، وعلى درس غير كامل للآداب الأوربية ، فكان فى جملته أشبه ببقايا السلع المختلفة إذا اجتمعت لتكون شيئاً جديداً ، وإلك أن تتصور مقدار ما فى ذلك الشىء المكون من تلك البقايا من تنافر ونقص ، إذا أنت صورت لنفسك حيواناً استحدثت صورته من أجزاء مختلفة من البقايا الحفرية جمعت من مختلف أجزاء الكرة الأرضية .

* * *

تلك حال الأدب ، وهذه طريق العلم فى عهدنا الجديد ، فمن المسؤول إذن عن هذه الفوضى العظيمة ؟

من الحقائق التى لا نزاع فيها ان ما استحدث حتى الآن من ألوان الأدب والعلم على نقصه ، إنما يرجع إلى جهود بضعة أفراد يمكن عدهم على أصابع اليدين . على أن جهود هؤلاء كانت جهوداً متفرقة موزعة لم تجتمع يوماً على غرض رمت اليه ولا تظافرت إلى هدف صوبت نحوه ووجهت عملها نحو البلوغ اليه . ولقد عانى أكثر هؤلاء من عنت الدنيا ومن انصراف الناس عن الأدب والعلم ما جعلهم ينفرون من ميدان العمل الواحد تلو الآخر ، ليفسحوا الطريق لغيرهم ممن يريدون أن يقامروا على موائد الأدب والعلم إما بمالهم وإما بعافيتهم ، تاركين للأقدار وزن ما جاهدوا فيه وعملوا له السنين الطوال . ومن أعجب العجب أن أكثر الذين سقطوا فى ذلك الميدان كانوا ممن حملوا لواء فكرة جديدة أو مذهب حديث حاولوا نشره فى الناس وقيهم حرارة الايمان وحماسة الاقتناع بصلاحيته ، وكان من الواجب أن يؤيدوا ولو إلى الحد الذى يمكنهم من إتمام رسالتهم وتأديتها على وجه يضمن فى المستقبل سلامتها لتكون عدة من العدد التى يقوم من حولها جدل المستقبل . ولكن شيئاً من ذلك لم يعش فى بيئتنا الأدبية على صورة يتخيل معها أشد الناس تفاؤلا بأن لها أثراً ثابتا فى عقل الجماعات العلمية أو الأدبية فى هذه البلاد أو فى غيرها من بقاع الشرق .

فلا نكران إذن فى أن الافراد قد قاموا بأوفر نصيب فى تنشئة تلك الجرثومة التى تبعث فى أدبنا شيئا من مجالى الحياة ، ولا يطالب الافراد مطالب بأكثر مما جهدوا له إلا ويكون إلى الظلم والتجنى أقرب منه إلى الانصاف والعدل .

غير أن أمامنا بعد الأفراد الذين عملوا على تكوين التصور الأدبى الجديد جهات أربع يجب أن نتوجه إليها بالكلام فى ختام هذه الكلمة

فان الأدب والعلم لم ينلهما حتى الآن نصيب من تقدير ظهراء لهم من الجاه والمال ما يكفل لأفراد ممتازين فى المعرفة على اختلاف ألوانها إبراز آثارهم وتسجيلها فى تاريخ العصر الذى يعيشون فيه . ولقد كان لظهراء العلم والمعرفة فى القرون الوسطى الأثر الأعظم فى انتقال العلوم إلى أوربا ، كما كان لهم فى العصر العباسى الأثر الأدبى فى نقل العلوم والمعرفة إلى الشرق . وفى مصر ولله الحمد فئة من هؤلاء ، ولكنهم لا يفكرون فى الأدب أو فى العلم أو فى حماية حرية الفكر إلا كما يفكرون فى أتفه الأشياء التى تمر بهم فى الحياة . وهؤلاء لا يستحقون من كل نصير للأدب أو حليف للعلم إلا أشد اللوم والتقريع . ولقد برهن هؤلاء على أنهم فى هذا العصر ، عصر النور والمعرفة ، أقل إجلالا للعلم وتقديراً للمعرفة والأدب والفن ، من أمراء المماليك رحمهم الله ، وقد ازدهر عهدهم بالأدب واستنار بالعلم ، لأنهم كانوا ولا شك من أشد الأمراء المسلمين رعاية لآثار العقل والفن أدبية كانت أو فنية . لقد كان أمراء المماليك ظهراء لرجال العلم نصراء لرجال الأدب وفى معتقدى أن ذلك أفخم وأروع ما خلفوا لأعقابهم من صالح الاعمال .

بقى بعد ذلك جهات ثلاث : الأولى وزارة المعارف ، والثانية الجامعة المصرية ، والثالثة الأزهر الشريف ، ولا أعلم لماذا لا يكون فى كل من هذه الجهات مؤسسات علمية لترجمة ما يعنينا من المؤلفات قديمة وحديثة ؟ اللهم إلا أننا لم ندرك بعد أننا فى نهاية الأمم المتمدينة من حيث العلم والمعرفة والعناية بنقل العلوم والمذاهب الأدبية والفلسفية إلى لغتنا العربية المبينة

سيظل أدبنا وعلمنا ناقصين من نقل المظان والامهات إلى العربية ؛ فهل نحن فاعلون ؟

اسماعيل مظهر

على هامش رحلتي الى الحجاز

ليلة في مكة

بقلم الدكتور عبد الكريم جرمانوس
أستاذ التاريخ الشرقي بجامعة بودابست

تتمة ما نشر في العدد الماضي

ولابد أن هذا الأمر كان مقصوداً من الله جلت قدرته وهي بعض صفاته العليا. فالعلماء الذين يتجردون من المادة ويصعدون بأفكارهم إلى أعلى عليين، والصوفيون الذين يحاولون التوحيد بين ذواتهم وذات الله وفنائهم فيها، والفلاسفة الذين أرصدوا أنفسهم في سبيل البحث عن الحق المطلق الذي لا يلمس وليس له زمان. ألم يكن هؤلاء جميعاً يحاولون الوصول من طرق مختلفة، إلى غرض واحد، هو الاشراف الباطني؟ تلك هي نعمة التجرد التي ترد الظلام كما يرده المشعل في الليل، وفي الوقت ذاته يعمى حامله إلا عن نفسه.

ولا يخفى أن النفس العربية نبتت في الصحراء القاحلة - أجل - لقد رأت ذلك النور المتألق في تلك الصحراء التي تحدها بحار من الرمال، ويعلوها أفق لا شائبة فيه حيث يستطيعون حتى في ضوء القمر أن يميزوا بين الظل والنور، بين الأسود والأبيض. ولكنهم قلما يدركون شيئاً من أسباب هذا التطور، ولا يعرفون ما تخفيه لهم الأقدار في رحلاتهم البعيدة وهم يجتازون مفاوز الصحراء، إنهم يستخفون بمظاهر هذا العالم الفاني لأنهم يعتقدون اعتقاداً جازماً بحياة أطيب وأنقى من تلك التي يعيشونها الآن، وللدار الآخرة خير وأبقى.

***

لقد راعني جلال الحفلة، فرأيت الرجال يضطجعون على الأرائك المبعثرة في أركان الثوى يتمتعون بلذة التدخين في ظل المصابيح ذات الضوء الشاحب، وعلى الرغم من أن التدخين محرم في الأراضي السعودية فقد ألفيت بعضهم يدخن النارجيلة ويسبح مع دخانها في عالم الخيال.

وقابلني رب الدار بكل بشاشة وترحاب وكذلك بقية الضيوف، وكان السرور يطفح من وجوههم والبشر يتألق على محياهم، وكانت أول تحية سمعتها من صاحبي قوله:

— على الرحب والسعة، الله سبحانه وتعالى يوليك برحمته ويمنحك بركته.

فأجبت: شكراً لك وللرفاق، وفي الحقيقة إنني مستأنس لوجودي بينكم، فلا حرمنا الله منكم.

ثم اتكأت على إحدى الارائك ووضعت وسادة تحت ذراعي. وفي الحال أحضر صاحب الدار نارجيلة مزخرفة بالنقوش بيد أني اعتذرت عن التدخين لعدم تعودي عليه من قبل، وإني أخشى أن يصيبني دوار منه، مع اعتقادي بأن في تدخين النارجيلة لذة وتنشيطاً للقريحة، وهو مظهر من مظاهر العز الشرقي البائد، حيث تظل زافياً رأسك، محدقاً في غيرك وأنت ممسك بقبضة خرطوم النارجيلة.

في ذلك الثوى المثقل بدخان التبغ والذي كانت حرارته تكاد تصهر الوجه، رأيت لأول مرة منظر الجواري وهن يدخلن علينا بأكواب الشاي المعطر، وكانت إحداهن المسماة فريدة، عذراء في ريعان الصبا، وهي من جنوب بلاد العرب، صبوحة المحيا، بسامة الثغر، رشيقة في حركاتها، تخطو كخطو الغزال الوحشي. وكانت تحلي جيدها ومعصمها ببعض الحلي، وترتدي من الملابس أفخرها. وكانت عندما تصل إلى موضع الضيف تحني رأسها بابتسامة ثم تقدم اليه الشراب المثلج.

هذه الجارية كانت مملوكة لصاحب الدار الذي يسيطر عليها سيطرة تامة، فمن حقه مثلاً أن يبيعها أو يعتقها أو يهبها إلى غيره وعلى الرغم من أن الفتاة كانت تدرك ذلك فقلما كانت تأبه بهذه الأحمال الثقيلة، بل كانت تتنقل من مكان إلى مكان دون خوف أو وجل، كعصفور موضوع في قفص يحوي طيوراً جارحة. أما الرجال فإنهم يتسامرون في خلواتهم بأحاديث الهوى والعشق ويلتمسون في ذلك عزاء وسلوى. لأن المرأة في كل البلاد العربية لا يمكنها أن تشترك في الحفلات والمجتمعات، بل انهن يكتفين بالنظر خلسة إلى الرجال أثناء سمرهم، وهن

لا يغلبن شيئاً من مجريات الأمور الخارجية إلا ما يصل إلى سمعهن من الأحاديث التي تدور حول الموائد .

ولقد أفضى إليّ أحد الضيوف المسمى الغرابى بحادث زواجه للمرة الثانية وما لاقاه من زوجه الجديدة من عنت وقسوة عند ما أراد التبنى بها . فالزواج فى تلك الديار موكول إلى أهل الزوجة ، وعليهم أن ينتخبوا بأنفسهم الزوج الصالح لابنتهم . أما القبائل البدوية التى ترابط خارج مكة فهم لا يتزوجون إلا من عشيرتهم . وذكر صاحبى الغرابى ، أنه بعد إتمام مراسيم حفلة العرس ، تلك الحفلة التى يحتفل بها الرجال والنساء كل على حدته ، يدلف العريس إلى مخدعه حيث تكون العروس فى انتظاره . ومن البديهى ان ذلك السيد الذى فرضوه عليها ، لم يقع نظرها عليه قبل البتاعة .

يدخل صاحبنا المخدع الذى يكون مضاء بسرجة باهتة اللون ، وهناك يقع نظره على كومة منزوية فى أحد الأركان وما تلك الكومة إلا عروسه ملفوفة بين الوسائد ، ومشدودة بالحبال . وتشعر بدخول عريسها فتخرج رأسها من بين تلك الوسائد — كما يخرج القنفذ رأسه — فيتقدم اليها بلطف محاولا أن يصافحها ، ولكن عوضاً عن أن تمديدها اليه ، فانها تلطمه على خديه بكل قواها ، بحيث تبعده عنها . ثم يحاول أن يقترب منها للمرة الثانية فيكون نصيبه مثل ما أصابه فى المرة الأولى وربما أحدثت فى يده جروحاً من أظافرها الطويلة — أما هو فيجد نفسه غير قادر على معاملتها بالمثل ، وبفرض أنه حاول أن يضربها ، فانها لا تحس بتأثير تلك الضربات التى لا تقع إلا على الوسائد . وفى هذه الحالة ليس من وسيلة أمامه سوى أن يشرع فى تمزيق هذه الوسائد الواحدة بعد الأخرى . وهو فى خلال هذه الفترة معرض لكل ضروب اللكم والعض والخربشة . ولا يكاد يفرغ من هذه العملية الشاقة حتى يضنيه الاجهاد فتهدأ ثائرة العروس وتبدأ تسلم نفسها اليه .

وضحكنا ضحكا عالياً من هذا الحديث ثم أخذنا نتمتع باحتساء القهوة العربية وأكل شرائح البطيخ . وكانت هذه القصة الطريفة بداية السمر لأنهم استحضروا بعد ذلك حاكياً كان مخبأ فى إحدى الزوايا ، وشرعوا يضعون عليه أقراصاً بها قصائد وأغانى تسودها مسحة من الحزن والكآبة . وارتفع صوت بعض الضيوف بأغان من نوع الرومبا ، وكان فى ركن من أركان الثوى رجل يغنى بواسطة عود يحمله . وكان هذا الرجل قد تعلم هذا النوع من الضرب الموسيقى المصحوب بالغناء فى فترة إقامته بالديار المصرية ولما رآنى مهتما بالاغانى التى يذيعها اقترب منى وطلب إلى بالحاح أن أندمج معهم فى هذا اللهو البرىء ، فلبيت الطلب وتناولت العود فضممته إلى صدرى ، كما تضم المرضعة فطيمها ، وسرعان ما تحركت أصابعى فوق الأوتار وانبعثت من حلقى أنشودة مجرية ، من نوع تلك الأغانى التى تعلمتها فى البرارى فسر المدعوون من تلك النغمات التى لم تألفها آذانهم وأقبلوا يصافحوننى بحرارة ، وهنا دخلت الجوارى حاملات فى أيديهن الصوانى الطافحة بأنواع شتى من المرطبات ، ثم تقدمت احداهن فتصدرت الثوى وبدأت تطربنا بصوت عربى جميل يسيل رقة وليونة على حين كنا نتلذذ بالشراب المثلج سكارى من رائحة التبغ ومثيرات الغناء .

والواقع أن هذه الأغانى الشعرية الرائعة هى إحدى عوائد العرب القديمة التى ما برحت نافذة إلى عصرنا الحاضر دون تغيير ولا تبديل . فالعرب عن بكرة أبيهم ميالون بفطرتهم إلى الشعر ، ففيه الحكمة التى تأخذ بمجامع اللب ، وله تأثير خاص على الحواس والمشاعر . مع أنهم فى أحاديثهم الخاصة يلجأون إلى استعمال اللغة الدارجة ، وهى لهجة معقدة ليس فى وسع كل إنسان أن يتفهمها بمجرد سماعها . وقد يتعذر على كثير من الناس أن يتذوقوا طلاوتها لأول وهلة ، رغم أنها حافلة بالألفاظ العذبة والنكات السمحة . أما الشعر العربى فيدور كله حول الغزل ، ويرجع الفضل فى ازدهار حركة الشعر الغزلى إلى عمر بن أبى ربيعة الملقب « بدون جوان جزيرة العرب » .

وكانت الفتاة قد انتهت من غنائها فنهضت وغادرت الثوى ثم تقدمت اخرى وأنشدت قصيدة غرامية تفيض بالعواطف الذائبة ، وبعد ذلك خيم الصمت والسكون ، ولم يعد يسمع غير أصوات تقلب المياه فى جوف النارجيلة ، واصوات

التنهدات والزفرات وهي تخرج قوية حارة من صدور الرجال وراعني هذا الصمت العميق الشامل، وأحسست أني تحت تأثير قوة مغناطيسية لا قوة لي على دفعها أو ردها، وراعني أيضاً أنها كانت حالة جميع الضيوف تقريباً، فلقد رأيت أنهم يتوجعون ويتأوهون ، ولاحظت أن البعض منهم يئن من لوعة الفراق، ويتذكرون خليلاتهم ، فاقتربت من أحدهم ويدعى الكبتي وسألته على الفور:

هل أنت مغرم ياصاحبي إلى هذا الحد؟ فأحنى رأسه ولم يحر جواباً لأول وهلة ، ولاحظت أن وجهه احتقن بالدم ثم سمعته بعد لحظة يقول:

ولكن ليس في وسعي أن أملكها ، فأنا كما ترى رجل فقير ، وهي من عائلة مثرية ، ما حيلتي وقد وقعت في شراك غرامها وأصبحت أسير هواها؟ لقد أصبحت أسير امرأة ...

وكف عن الحديث فجأة ، فطيبت خاطره وقلت له:

— ولكن المرأة التي تشير إليها ليست كسائر النساء

فقال الرجل:

— انك تقول الحق وتنطق بالصواب ولكن انظر إلى فقد أصبحت في حالة يرثى لها، بعد أن وقعت في غرامها . ما حيلتي وقد رزقها الله قداً نحيلا وقامة هيفاء ، وعينين نجلاوين كعيني الغزال؟ انى أبتهل إلى الله ليل نهار أن يجعلها من نسائي ويرزقني منها الذرية الصالحة

وتأثرت تأثراً شديداً من حالة هذا العاشق المدنف وأردت أن أنتقل إلى صاحب آخر ، وكان الليل قد انسلخ منه نحو ثلثيه ، فألفيت الضيوف يسبحون في عالم الخيال وعالم الحب ، وكلهم يشكون تباريح الهوى ولوعة الهجر ، ولاحظت أن البعض منهم يبكون نساءهم ويندبون حظوظهم ، وهكذا كانت ترتعد فرائصي من هول الموقف وأنا أفر من صاحب إلى صاحب

والخلاصة التي أستطيع أن أقررها أن هذه العواطف النبيلة التي اكتسبها البدو إن هي إلا أثر من آثار الصحراء التي يرجع الفضل إليها في تهذيب نفوسهم ، وفي تلقينهم أصول هذا الغزل الذي قلما نجده في سواهم من الشباب

وحينذاك أخذ ضوء المصابيح يخفت ، فدخلت إحدى الجواري الحسان إلى البهو تحمل مصابيح أخرى جديدة بعد أن سحبت المصابيح المستعملة من داخل الفوانيس . . .

وكان من حظي أن اقتربت الجارية من ناحيتي ، ولاحظت أن وسادتي سقطت على الارض فالتقطتها من مكانها بمهارة وقدمتها إلى . هناك وقع نظري عليها وطالعت وجهها في ضوء المصباح اللامع ، وراقني منها شعرها الأسود المتموج كخيوط الليل ، وأسنانها اللؤلؤية وقامتها الهيفاء ، كما أعجبت بحركاتها الرشيقة ، فأدمنت النظر اليها وصرت أتبعها بخاطري وهي تتحرك كالطائر من غصن إلى غصن ، ولاحظ مضيفي اهتمامي بهذه الجارية فاقترب مني وقال :

— هل أعجبتك عائشة ؟

فأجبته على الفور:

— انها فتاة بديعة حقاً

ثم حاولت أن أغير مجرى الحديث ، ولكنه أدرك حيلتي فقلت له : ماذا دهاك يا أخي ؟ هل كنت سبباً في إيلامك ؟

فأجاب : كلا ! لا شيء مطلقاً ، لقد اغتبطت حين سمعتك تطنب في جمال عائشة ، لأنني شخصياً مفتون بها موله في حبها .

فقلت مبتسما :

— ولكن مادام الله قد من عليك بها فانك في نظرى رجل سعيد .

فتبرم وقال في ضجر : أنا سعيد ؟ ومن أين لي هذه السعادة ؟

فقلت له : أليست عائشة ملك يمينك ؟

فقال : أجل إنها لى ، ولكنها جارية ، ابتعتها بعشرين ديناراً من سوق الرقيق ، كانت إذ ذاك في العاشرة من عمرها وهي الآن في السادسة عشرة .

فنظرت اليه في دهشة ، بيد أنه أحنى رأسه ثم صرح لي أنه يحبها من أعماق قلبه ، فسألته للمرة الثانية : وما يمنعك عنها وهي جاريتك وملك يمينك ؟

فأجاب : هذا صحيح ، ولكن دون ذلك خرط القتاد ، فالانسان في هذا الوجود قد يبلغ قمة المجد وقد يصل إلى الشهرة وإلى المال ولكن هذه أمور ثانوية وليست لها أدنى قيمة إذا

لم تؤد بنا إلى حب جارية مملوكة .

فهززت رأسي وأعدت نفس السؤال : ولكنها ملك يمينك ؟

فقال : هذا صحيح . إن جسمها ملكي ولكن روحها ليست ملكاً لي . إني لا أبغي منها ذلك الجسد ولا متعة الشهوة وحدها . بل أريد أن تبادلني حباً بحب وإخلاصاً بإخلاص .

وراحت الدموع تنحدر من عينيه وتسيل فوق خديه ، ورمقته بنظرة فيها كل معاني الشفقة والرثاء لحاليه ، فهو والد وله أطفال وزوجتان أخشى عليهم جميعاً عاقبة هذا الحب الجديد .

وأعقب ذلك صمت طويل ، تذكرت في خلاله مواقف الحب وسلطانها على النفوس . ثم رأيت أن أغادر الدار فودعت مضيفي وسرت اجتاز شوارع مكة الضيقة ، حتى وصلت إلى الميدان العام وكانت تخترقه قافلة يحدو أصحابها بغناء شجي مطلعه :

من ذا (يلمى) إن بكيت صبابة الدمع دمعي والعيون عيوني

عبد الكريم جرمانوس

موانع الابتكار في أدبنا الحديث

للأستاذ محمد يونس

إنه ليسعدنا حقاً أن يكون قريباً ذلك اليوم الذي نشعر فيه من جمهرة كتابنا أنهم أهملوا الابتكار على المحاكاة وأبدعوا فيما يكتبون ابداعاً فيه غناء وإغناء للأدب العالمي العام

الدكتور منصور فهمي مجلة المصرية

كان حديث الدكتور منصور فهمي في مجلة المصرية ذا شجون ، فقد تناول فيه الأدب العربي الحديث والأدباء بالنقد اللاذع ، وصورهم بصورة المقلد المفتون ، وعراهم من أردية المجد التي اكتسوها بعد الكفاح الطويل

وأنا وإن كنت إلى حد ما أؤيد الدكتور في أن أدبنا الحالي أدب تقليد ومحاكاة لا أدب ابتكار وإبداع . فإني أخالفه في تحديد أدب المحاكاة عندنا وفي قيمة هذا الأدب ، ثم لا ألقي اللوم كله على الأدباء أنفسهم . لأن الدوافع إلى المحاكاة كما سيرى القارئ قريباً أقوى من أن يغلبها الكاتب اللبيب

كان كلام الدكتور عن الأدب عاماً شاملا كل أنواعه ، ولكن من الظلم ونحن نلصق طابع التقليد على أدبنا الحديث أن نغفل طائفة خاصة من الكتاب برعت في الابتكار وأعني بها كتاب المقالة . فالمقالة خطت في الأدب العربي الحديث خطوات واسعة وأصبحت تتحدث في موضوعاتها الخاصة وأهدافها "قربة حديثاً وصل حد الابتداع عند كثير من الكتاب . وها هي ذي المقالة العربية في مصر لا تقل عنها في البلدان الغربية إن هذه المقالات التي تقدمها إليك الصحف والمجلات تحركك معها إلى حيث تريد من حيث لا تريده أنت ، وتفهمك مطالبها بكل وضوح ، هي فخر الأدب الحديث . وكثيرون لدينا برعوا في حيل الاقناع وفي مفاجأة القارىء واللعب به وبكل ما يجعل للمقالة العربية مجدها وشخصيتها . إلى هنا يقف أدباؤنا عن الابتكار ، وما بقي من أنواع الأدب العربي أكثره خلو من الابتكار ، ولكن خلوه من الابتكار لا يعني فقره في الاجادة ودقة الانتاج ، فأدب المحاكاة أدب قائم بذاته له قيمته وفائدته ، وله ـ وهذا ما نريد الإشارة إليه في هذا المقال ـ أوانه ، ولابد للأدب كما للمجتمعات البشرية من المرور في أدوار تاريخية مختلفة يتبع فيها سنة التطور ومنطق التدرج وهو قانون ثابت لا تفيد معه ثورة الأديب ، ولا ألقاب الابتكار والتجديد التي تمنح له بغير حساب

وهذا الدور في الأدب العربي ، دور محاكاة ونقل تتجه فيه العبقرية راضية أو غير راضية إلى النقل عن أدب الغرب أو إحياء ما اندرس من أدب العرب ، وهو تيار جارف لا يقف أمامه كاتب مهما كبر ، ولذلك فشلت محاولات الابتكار عند كبار أدبائنا . هذه محاولات شتى قام بها كثيرون منهم في السنوات الأخيرة وأرادوا أن يظهروا بها الابتكار والابداع . ليقرأها القارىء جيداً وليحكم عليها من غير مداجاة ، ألا يرى عليها الهزال والشحوب ؟ فيدرك أن هذه الجهود المبتورة

لاتناسب اسم اولئك الكتاب وما لهم من مجد عظيم نالوه عن طريق النقل .

وما يقال عن النثر يقال عن الشعر أيضاً . ولقد أدرك شوقي — رحمه الله — في أواخر أيامه أن خير ما يختم به إنتاجه قصص شعرية ، عجز عن أن يستمدها من المحيط الذي يعيش فيه فرجع إلى كليوباترة في التاريخ المصري ومجنون ليلى في التاريخ العربي ، وكأن الحياة الدارجة ما استطاعت أن تلهم الشاعر الموهوب موضوعاً لرواية قوية تقترن بحياة هذا الجيل

ولا عيب على هؤلاء الأدباء أن ينجحوا في دور الناقل ويخفقوا في دور المبتكر ، ولا ينقص من قيمة جهدهم أن يبرز في النقل وحده ، فالأدب المنقول يؤدي واجباً كبيراً في خدمة الأمة العربية ويشغل حلقة لابد منها للوصل بين الماضي والمستقبل . هي قسمة لابد منها وتوزيع لنوع الإنتاج بين أدباء المستقبل وأدباء اليوم الذين كان من حظهم أن يأتوا في في هذا العهد ، عهد النقل فلا يسطع نجمهم إلا فيه ولا يذهب تقيدهم به بسناء عبقريتهم

وهنا من حق القارىء أن يسألني : لماذا يعجز أدباؤنا عن الابتكار ؟ أهو كسل منهم كما يقول الأستاذ المازني وفيهم النشاط الجم . أم فقر في المواهب . وفيهم العبقري الموهوب أم فقر في المحيط وهو عامر بشتى الصور والمفاجآت ؟

وقد ثار مثل هذا التساؤل من حين قصير بين أدباء الانكليز وتناول ناقدان كبيران البحث عن أسباب جمود الأدب الانكليزي الحديث (ولاسيما في ناحية القصة التي تجتاح أكثر ميادين الأدب الغربي) وتأخره عن الأدب الامريكي الذي أصبح يخطو خطوات واسعة وينتج آثاراً مدهشة .

قال أولهم : إن الابتكار — وليد ما أسماه شعوراً بالاستغراب يأخذ على الكاتب أنفاسه ويدفعه في مجالي الابداع ، ومتى عجز المحيط عن إثارة مثل هذا الشعور في الكاتب إما لكثرة الصور السابقة المرسومة عنه أو لفقره خلا جو الأدب من المبتكرين

وقال الثاني : إن الاديب يبتكر يوم يثق بمحيطه ويؤمن به ، ويعجز عن الابتكار اذا فقد هذه الثقة فلا يثير فيه العناية بدرسه وتصويره بلونه الخاص

وإني أرى أن المانع من الابتكار في الأدب العربي ، مزيج من السببين .

ولقد يبدو غريباً لأول وهلة أن تكون الحالة واحدة في المحيط الانكليزي الذي كثرت الصور عنه وفي المحيط العربي الحديث الذي لم ترسم له صورة صحيحة باهرة إلى الآن ، ولكن هذا نتيجة فقدان الشعور بالاستغراب . أما في الأول فأحسب القارىء قد فهم سببه وهو كثرة الصور الباهرة التي رسمها لهذا المحيط أكابر الكتاب فلم تترك مجالاً للمزيد ؛ وأما في الثاني فلأن هذا المحيط لا يمكن أن يثير الكاتب إلى الاهتمام به ما دام فكره مشدوهاً بأنوار أخرى بديعة تأتيه من بعيد .

أرجو أن يتصور القارىء نفسه مكان الاديب العربي اليوم : فهو إذا كان مجدداً لا يزال مسحوراً بصور الأدب الغربي العامرة وما فيها من عبقرية ونبوغ ؛ وإذا كان من دعاة القديم فلا يزال مفتوناً بالصنعة الباهرة وقوة الاندفاع والحيوية التي يشهدها عند الجاحظ أو المتنبي مثلا . إن هذه الصور تأخذ بلبه فتشغله عن المحيط الذي هو فيه وهو لا يزال محدقاً بها غير ملتفت إلى ما حوله ما دامت أضواؤها الخلابة تبهر عينيه . وإني لأشعر أن هذا الكاتب المنصف لنفسه ولقارئه إذا حاول رسم صورة لشخص من الذين حوله يقعده عن المحاولة ما يراه من تصوير باهر لأساتذة كبار كموباسان ودكنز . فيقول في نفسه : خير أن أنقل هذه الصور الغربية الناجحة من أن أقحمهم على مجازفاتي في التصوير . ويقعد عن الابتكار .

ومثله هنا مثل العاقل لا يشعل سراجه ما دامت الشمس طالعة ، فهو يكتفي بفتح باب النافذة فتضيء أشعتها المكان وليس في هذا عيب على كهرباء البيت ولا انتقاص لمخترعها العظيم .

ولن يشعل صاحبنا العاقل كهرباءه إلا ساعة تغيب الشمس وهي هنا في الأدب الساعة التي تذهب فيها دهشة الأديب من منتجات الأدب الغربي أو العربي القديم .

وهنا يدخل السبب الآخر الذي ذهب اليه الناقد الانكليزي الثاني، فان انبهار الأديب العربي بصور الأدب الغربي أو العربي القديم يبهت أمامه صور محيطه ويضعف ثقته فيه، فلا يزال هذا المحيط متردداً بين الغرب والشرق وبين الجديد والقديم وبين التقليد والرجعية وقد فقد شخصيته المستقلة القديمة التي تثير الكاتب إلى التغني بامجادها، ولم يكتسب الشخصية الجديدة التي تثيره إلى الإشادة بقوتها، ولذلك كان طبيعياً أن يذهب الكتاب والشعراء الى المحيطين البعيدين، الغربي والعربي القديم، لأن شخصيتيهما أقوى وأتم.

وأظن القارىء أدرك الآن لماذا اندفع شعراء العصر الأول من الإسلام في الابتكار في الشعر لأن المحيط الجديد الذي خرج اليه العرب من الجزيرة كان عامراً مدهشاً وهكذا ذهب أبو نواس المشدوه بالمحيط الجديد يفاخر به ويتهكم على شعراء الجاهلية، أما ابن المعتز الذي الف حياة النعيم الجديد إلى حد ما، فكانت أحسن نفحاته هي التي يستمد وحيها من الصحراء ومعانيها التي أصبحت غريبة عنه تثير استغرابه أكثر مما حوله، وان كانت نضارة هذا المحيط الباقية حافزة له على عدم التخلي عنه تماماً كما صنع الذين جاءوا بعده من ذبلت أمامهم زهرة المحيط الجديد وعاشوا في العهد المتأخر فرجعوا إلى تراث الجاهلية يقلدونه تقليداً فاضحاً لان هذا الشعر الجاهلي أقوى شخصية وأسطع نوراً من أي شعر جاء بعده

ونعود إلى أدبائنا اليوم، فهم مهما غالوا في المكابرة لا يستطيعون إنكار زهدهم واستخفافهم بهذا المحيط الباهت الألوان الفقير إلى الأمجاد الباهرة، ولذلك فهم لن يبتكروا إلا يوم يؤمنون به، ولا يؤمنون به إلا متى ذهب أثر الدهشة التي يحدثها الأدب الغربي الجديد أو العربي القديم في أذهانهم، على أن ترافق هذا زيادة في سطوع المحيط.

هذه هي موانع الابتكار وهي قوية لا يستطيع الكاتب مهما كانت عبقريته التخلص منها.

خير لأدباء هذا الجيل أن يكتفوا بأدب النقل ويجودوا فيه ويهيئوا المجال للجيل القادم فان مجدهم لن يقوم إلا على النقل وهو مجد له خلوده.

(نزيل القاهرة) محمد يونس

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

١٠٢ — فيه غيره . . .

ابن الشبل البغدادي:

وكأنما الانسان فيه غيره	متكوناً والحسن فيه معار
متصرف وله القضاء مصرف	ومكلف وكأنه مختار
طوراً تصوّبه الحظوظ وتارة	خطأ تحيل صوابه الأقدار (١)
تعمى بصيرته ويبصر بعد ما	لا يسترد الفائت استبصار (٢)
فتراه يؤخذ قلبه من صدره	ويرد فيه وقد جرى المقدار
فيظل يضرب بالملامة نفسه	ندماً إذا لعبت به الأفكار
لا يعرف الافراط في إيراده	حتى يبينه له الإصدار

١٠٣ — لم تبلغ قدرتي هذا كله

حدث المبرد: قال رجل لثمامة (القدري المعتزلي): أنت إن شئت قضى فلان حاجتي

فقال ثمامة: أنا قدري، ولم تبلغ قدرتي هذا كله، انما قلت: (إن شئت فعلت) (٣) ولم أقل: إن شئت فعل فلان

١٠٤ — جد الأدب جد وهزله هزل

قال خالد بن يزيد الكاتب: لما بويع ابراهيم بن المهدي طلبني، وقد كان يعرفني وكنت متصلا ببعض أسبابه (٤). فقال: يا خالد، أنشدني من شعرك

---

(١) تحيل صوابه: تجعل صوابه خطأ

(٢) أستبصر الشيء: استبانه، وفيه: تأمل

(٣) في شرح المقاصد: «اتفقت المعتزلة ومن تابعهم من أهل الزيغ . . . على أن العباد موجدون لأفعالهم مخترعون لها بقدرهم، واجترأ المتأخرون فسموا العبد خالقاً على الحقيقة».

والجبرية تخالف القدرية في مقالتها. في (التعريفات): الجبرية من الجبر وهو إسناد فعل العبد إلى الله والجبرية اثنان: متوسطة تثبت للعبد كسبا في الفعل كالأشعرية، وخالصة لا تثبت كالجهمية أصحاب جهم بن صفوان

(٤) أسبابه: رجاله (حاشيته)

فقلت : يا أمير المؤمنين ، ليس شعري من الشعر الذى قال فيه رسول الله : « إن من الشعر حُكما (١) » وإنما أمزح وأهزل ، وليس مما ينشده أمير المؤمنين

فقال لى : لا تقل هذا يا خالد ، فان جد الأدب جد ، وهزله هزل ، أنشدنى ، فأنشدته :

عش لحبيك سريعاً قاتلى والضنى إن لم تصلنى واصلى
ظفر الشوق بقلب كمد فيك ، والسقم بجسم ناحل
فهما بين اكتئاب وبلى تركانى كالقضيب الذابل
يبكى العاذل لى من رحمة فبكائى لبكاء العاذل

فاستملح ذلك ، ووصلنى

١٠٥ — ندمان الفتى قبل كأسه

العطوى (أبو عبد الرحمن) :

يقولون قبل الدار جار موافق وقبل طريق المرء أنس رفيق

فقلت :

وندمان الفتى قبل كأسه
فما حث سير الكأس مثل صديق

١٠٦ — الملحة

قال ابن أبى الحديد : وجدت بخط أبى محمد عبد الله بن احمد الخشاب فى تعاليق مسودة أبياتا للعطوى وهى :

قد رأينا الغزال والغصن والنجمين
شمس الضحى وبدر الظلام
فوحق البيان يعضده البرهان
فى مأقط ألد الخصام (٢)
ما رأينا سوى المليحة شيئاً
جمع الحسن كله فى نظام
فهى تجرى مجرى الاصالة فى الرأى
ومجرى الأرواح فى الأجسام

وقد كتب ابن الخشاب تحت المليحة : ما أصدقه إن أراد بالملحية الحكمة !

١٠٧ — شهود ثقات

أنشد رجل الامام ابراهيم الحربى قول الشاعر :

أنكرت ذلى فأى شىء أحسن من ذلة المحب
أليس شوقى ، وفيض دمعى وضعف جسمى ، شهود حبى

فقال ابراهيم : هؤلاء شهود ثقات . . .

١٠٨ — هذا من خاطر الجن

قال الصولى : حدثنى على بن عيسى قال : كان البحترى معى جالسا ، فسلم علىّ ابن لعيسى بن المنصور ، فقال لى : من هذا

قلت : هذا ابن عيسى بن المنصور الذى يقول ابن الرومى فى أبيه :

يقتر عيسى على نفسه وليس بباق ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد

فقال لى : أف ، وتف ! هذا من خاطر الجن لا من خاطر الإنس ووثب ومضى

١٠٩ — وإذا غاب فبالثانى

(فى محاضرات الأدباء) للراغب :

قال خالد بن صفوان لجاريته : أطعمينا جبناً فانه يشهى الطعام ويدبغ المعدة (١) ، ويهيج الشهوة ، فقالت : ما عندنا

فقال : ما عليك ، فانه يقدح فى الأسنان ، ويلين البطن وهو من طعام أهل الذمة .

فقال بعض أصحابه : بأى القولين نأخذ ؟

فقال : إذا حضر فبالأول ، وإذا غاب فبالثانى

١١٠ — استعرت التاريخ

قال الفقيه المقرى : أنشدت يوما الابلى قول ابن الرومى :

أفنى وأعمى ذا الطبيب بطبه وبكحله الأموات والأحياء
فاذا مررت رأيت من عميانه أمما على أمواته قـرّاء

فاستعادنى حتى عجبت منه مع ما أعرف من عدم ميله إلى

---

(١) الحكم : الحكمة ويروى أن من الشعر لحكمة . فى (النهاية) : قيل أراد بها المواعظ والامثال التى ينتفع بها

(٢) (البرهان) الحجة (المأقط) موضع الحرب فضربة مثلا لموضع المناظرة والمحاجة . والالد الشديد الخصومة (المبرد)

(١) بفتح الميم وكسر الدال ، وبكسر الميم وسكون العين . وأجمع معد بفتح الميم وكسر العين ، وبكسر الميم وفتح العين

الشعر وانفعاله ، وظننت أنه أعجب بما تضمنه البيت الأول من غريب اللف والنشر المكرر الذى لا أعرف له ثانياً فيه ، فقال : أظننت أنى استحسنت الشعر ؟

فقلت : مثلك يستحسن هذا الشعر

فقال : تعرفت منه إن العميان كانوا فى ذلك الزمان يقرأون على المقابر فانى كنت أرى ذلك حديث العهد فاستفدت التاريخ

١١١ — ... متى أتى الله بالفرج

فى (العقد) : قال عبد الله بن مسلم بن جندب :

تعالوا أعينونى على الليل إنه على كل عين لا تنام طويل

قال عبد الله : فطرقنى عيسى بن طلحة فقال لى : سمعت قولك فجئت أعينك

فقلت : يرحمك الله ، أغفلت الاجابة حتى أتى الله بالفرج

١١٢ — وآباؤنا أفعال غيرنا

أتى ضرار المتكلم بمجوسى ليكلمه فقال : أبو من أنت ؟ فقال : نحن أجل من أن ننسب إلى أبنائنا إنما ننسب إلى آبائنا

فورد على ضرار ما لم يكن فى حسابه . فأطرق ساعة ثم قال : أبناؤنا أفعالنا وآباؤنا أفعال غيرنا

١١٣ — ليته جور مشاع

عبدان الأصبهانى :

تكلفنى التصبر والتسلى وهل يسطاع إلا المستطاع ؟
وقالوا قسمة نزلت بعدل فقلنا ليته جور مشاع !!

١١٤ — وأما غيرهن فما نلتمس صبوتهن

قال المبرد : حدثنى الزيادى قال : قيل لأعرابى : ألا تخضب بالوسمة (١) ؟

فقال : لم ذاك ؟

قال : لتصبو إليك النساء

فقال : أما نساؤنا فما يرون بنا بديلا ، وأما غيرهن فما نلتمس صبوتهن

(١) الوسمة : (بكسر السين وقد تسكن) نبت يختضب بورقه

١١٥ — كيف يصوغ الموسيقى الألحان

قال الرشيد لابراهيم الموصلى : كيف تصوغ الألحان ؟ فقال : ياأمير المؤمنين أخرج الهم من قلبى وأمثل الطرب بين عينى . فتنزع إلىّ مسالك الألحان فأسالكها بدليل من الايقاع (١) فلا أرجع خائباً

فقال له الرشيد : يحق لك (ياابراهيم) أن تدرك ماطلبت

١١٦ — ان الحديث مع الغناء حرام

احمد بن علوية الكرمانى :

حَكَمُ الغناء تسمع ومدام ما للغناء مع الحديث نظام
لو أننى قاض قضيت قضية أن الحديث مع الغناء حرام

١١٧ — اعطنى فروتى

فى الشرح الكبير للشريشى ، قال بعضهم : كنت فى متنزه لى وإذا شيخ معه صبى فى يوم بارد فكنت أسمع الصبى يقول للشيخ : أعطنى فروتى ، فيناوله شيئاً لا أتبينه . فبعثت غلامى ينظر إليه فإذا عند الشيخ قنينة ، كلما طلب الصبى فروته سقاه قدحاً .

(١) الايقاع ايقاع ألحان الغناء وهو أن يوقع الالحان ويبنيها تبييناً ، هكذا هو فى اللسان والعباب وفى بعض النسخ ويبنيها من البناء ، وسمى الخليل كتاباً من كتبه فى ذلك المعنى كتاب الايقاع (التاج)

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ١٠ —

الفلسفة الهندية

البراهمية الأولى أو الأورثوذوكسية

تشبه آلهة البراهمية الأولى بوجه عام آلهة الإغريق ، إذ لا يخفى على الباحث — إذا أغضى عن الموازنة الدقيقة — ما يلفت النظر من المشابهة الواضحة بين آلهة « الفيدا » و آلهة « الإلياذة » و « الأودسا » . تلك المشابهة التي لا تجعل مجالا للشك في أن آلهة الكتابين من أسرة واحدة يتفقون جميعاً في البساطة والطفولة وسرعة الغضب وسهولة العودة إلى الرضى وفي الخلو من الحقد وسوء النية والأنانية والوحشية المتأصلة في آلهة الآشوريين أو البابليين مثلا ، وهم يتفقون كذلك في القرب من صف الإنسانية كاستعانتهم ببني البشر مثلا في الوصول إلى غاياتهم ثم مكافأتهم إياهم بحمايتهم لهم وعطفهم عليهم .

ومما يلفت النظر في هذه المشابهة هو بساطة اختصاص آلهة « الفيدا » كآلهة « الإلياذة » و « الأودسا » وخلوها من التعقيد الذي كان فيما بعد من مميزات الديانة « الأندويسمية » التي ظهرت بعد الفيدا بعدة قرون وكانت مزيجاً من الديانتين : « الفيدية » والهندية المحلية القديمة ، فـ « أندرا » مثلا هو كبير الآلهة وهو إله السماء والمناخ ، و « رودرا » و « أجني » هما صاحباه وساعداه على تصريف شؤون الكون . و « جاما » إله الموت و « أوسهاس » إلهة الفجر . وهكذا كل إله له اختصاص محدد ودائرة محصورة .

بدء الخلق

تستقي « البراهمية » الأولى عقيدة بدء الخلق من أسطورتين قديمتين فأما أولاهما ، فهي أن الإله « براجاباتي » هو في نفس الوقت خالق ومخلوق ، لأنه كان في أول الأمر واحداً فاشتاق إلى التكثر وتمناه . فلم يكن من بقية الآلهة إلا أن أجابوه إلى سؤله . فذبحوه وقطعوه إرباً ونثروا أجزاءه في جميع البقاع ، لتحقق هذا التوحد المنشود من جميع الأجزاء ، وهذا الشوق هو سر التجاذب الخفي الموجود في جميع عناصر الكون ، وأنجع الوسائل لتحقيق هذه الغاية هي الضحايا التي يقوم بها بنو البشر .

على أن الوصول النهائي إلى هذه الغاية لا يتحقق تماماً ، لأن ما يجتمع من هذا الإله بوساطة الجاذبية الطبيعية من جهة وبالضحايا المقدمة من بني الإنسان من جهة أخرى لا يلبث أن يعود إلى التفكك بعملية خلق جديد يتولاها هذا الإله بنفسه من نفسه رغبة منه في إنشاء كون وتكثير وحداته . ويظل هذه الدورة مستمرة كالحلقة المفرغة التي لا يمتاز مبدؤها عن منتهاها إلى ما شاء الله أن يكون ، ولكن القرابين والضحايا هي أهم أسباب هذا التجاذب الذي يقع بين العناصر المتناثرة فيجمع شتاتها ، إذ هي العامل الأوحد الذي يصل بين الإله والأناسي من جهة وبين الأفراد بعضهم مع بعض من جهة أخرى ، وأكثر من هذا أنها هي التي تعيد للإله قوته بعد تفككها بسبب تناثر أجزائه .

هذه هي الأسطورة الأولى في عقيدة بدء الخلق ، أما الثانية فهي أن الإله « براجاباتي » أحس يوماً بشغف مادي شديد نحو ابنة « أوسهاس » إلهة الفجر الجميلة فأبدى لها هذه الرغبة فارتاعت منها ارتياعاً شديداً وفرت من وجهه مذعورة ، فتعقبها وأخذ يرقب حركاتها ، فكلما تشكلت بأنثى كائن من الكائنات تشكل هو بصورة ذكر هذا الكائن ، وظل على هذه الحال حتى استولى عليها ونال منها بغيته ، فحبلت لساعتها بأول أفراد هذا العالم الموجود .

وحدة الوجود

كان من نتائج الأسطورة الأولى أن سرت في تلك البلاد

فكرة وحدة وجود ساذجة لم تلبث أن تحولت إلى وحدة الوجود الفلسفية ، تلك الوحدة التي أخذت تقوى مع الزمن حتى عم الاعتقاد بها بلاد الهند كافة . وها هو ذا البيروني يحدثنا عن وحدة الوجود في الديانة الهندية بعد تاريخ « الفيدا » ببضعة وعشرين قرناً فيقول : « قال (باسديو) في كتاب (بكيتا) : أما عند التحقيق فجميع الاشياء إلهية لأن (بشن) جعل نفسه أرضاً ليستقر الحيوان عليها ، وجعله ماء ليغذيهم ، وجعله ناراً وريحاً لينميهم وينشئهم . وجعله قلبا لكل واحد منهم ، ومنح الذكر والعلم وضديهما على ما هو مذكور في بيذ[1] » .

اختلاف الطبقات

كانت طبقات الشعب الهندي في عهد البراهمية الأولى أربعاً ، أولاها البراهمة « Brahmanes » وهم الكهنة ثانيتها (كساتريا) « Ksatriyas » ويسميها البيروني (كشتر) وهي طبقة الجند . ثالثتها طبقة « Vaicyas » الفيسيا ، ويسميها البيروني « بيش » وهي طبقة العمال وأصحاب المهن والزراع . رابعتها « سودرا Çudras » ويسميها البيروني (سودر) وهي طبقة الأرقاء ، ومما جاء في كتاب البيروني عن هذه الطبقات قوله : « وهذه الطبقات في أول الأمر أربع ، علياها البراهمة قد ذكروا في كتابهم أن خلقتهم من رأس براهم وأن الاسم كناية عن القوة المسماة طبيعة ، والرأس علاوة الحيوان فالبراهمة نقاوة الجنس ، ولذلك صاروا عندهم خيرة الأنس ، والطبقة التي تلوهم (كشتر) خلقوا بزعمهم من مناكب براهم ويديه ، ورتبتهم عن رتبة البراهمة غير متباعدة جداً ، ودونهم (بيش) ثم (شودر) خلقوا من رجلي براهم . وهاتان المرتبتان الأخيرتان متقاربتان[2] » .

كتابهم الأول المقدس — الفيدا

ليست « الفيدا » كتاباً هندياً أصلياً وإنما هي كتاب « أندوآرى » حمل الفاتحون عناصره معهم إلى وادى « البنجاب » المفتوح حيث فرضوا تعاليمه على الوطنيين فرضاً . وإذاً ، فهو لا يمثل العقلية الهندية ولا يصور المدنية القديمة التي كانت زاهرة في تلك البلاد قبل وجوده فيها بأكثر من خمسة عشر قرناً كما أسلفنا ، بل بالعكس كثيراً ما يجد فيه القارئ صوراً عقلية واجتماعية هي على طرفي نقيض مع الصور التي اكتشفها الأثريون حديثاً للهند المحلية الغابرة ، وفوق ذلك هو مكتوب باللغة « السانسكريتية » التي لم تكن معروفة عند الهنود الأصليين من غير شك والتي هي لغة الآريين وحدهم .

غير أن هذا الكتاب لا يزال هو أقدم المستندات العلمية المعتمدة في تاريخ الديانة الهندية ، وسيظل كذلك — رغم يقيننا بأجنبيته — حتى يكشف علماء العاديات ما يحل محله في هذه الأولوية من الكتب المقدسة القديمة .

ولا يعرف المؤرخون بالضبط متى جمعت « الفيدا » ، وإنما كل الذي ثبت لديهم هو أن بعض أناشيدها يرجع إلى القرن الخامس عشر قبل المسيح ، وأن صيرورة هذا الكتاب إلى ما هو عليه الآن قد استغرقت عدة قرون ، ويرجح بعض العلماء أنه قد جمع في القرن الثاني عشر قبل المسيح ، وأن تياره القوي لم يستطع أن يجرف العقيدة القديمة من نفوس جميع أبناء الشعب الهندي ، وإنما قد صبغ تلك العقيدة بلونه الجديد كما أسلفنا ، ولم يقو على محوها إلا من نفوس الخاصة المثقفة أما الجماهير فقد ظلت العقيدة القديمة محتفظة بمكانتها في نفوسهم احتفاظاً كان في أول الأمر صامتاً أمام قوة الديانة الأجنبية المنتصرة ، ولكنه أخذ بعد ذلك يقوى وينتعش شيئاً فشيئاً حتى برز منه الشيء الكثير على مسرح الوجود .

لكلمة « الفيدا » عدة معان ، أدقها : « العلم عن طريق الدين بكل ما هو مجهول » . وينجم عن هذا التعريف أن تكون « الفيدا » منبع جميع المعارف الهندية من : دينيات وأخلاقيات ونظريات علمية أو اجتماعية ، وهي تحتوي أوراداً تعبدية وأناشيد دينية ، وتعاويذ سحرية نزل بها الوحي من عند الله على قلب « براهما » فتلاها على الناس فاستظهروها وأخذوا يتعبدون بتلاوتها دون أن يكتبوا أسرارها . وهي مؤلفة من أربع مجموعات تختلف كل واحدة منها عن الأخرى باختلاف الموضوع الذي تعالجه ، فالأولى تسمى « رك بيذ »

---

[1] صفحة ١٩ من كتاب « تحقيق ماللهند من مقولة ، مقبولة في العقل أو مرذولة » لأبي الريحان البيروني .

[2] أنظر صفحة ٤٩ من كتاب البيروني

Rec-Veda «رك فيذا» وهي تحتوى على الأوراد. والثانية تسمى : «سام بيذ» Saman-Veda «سامان فيذا» وتحتوى على الأناشيد. والثالثة «جزر بيذ» Gajus Veda «ياجوس فيذا» وتحتوى على طقوس الضحايا والقرابين. والرابعة «أثارفين — بيذ» Atharvan-Veda «أتهارفان فيذا» وتحتوى على التعاويذ السحرية.

هذا، واليك ما كتبه أبو الريحان البيرونى عن هذا الكتاب : «بيذ» تفسيره العلم بما ليس بمعلوم، وهو كلام نسبوه إلى الله تعالى من فم «براهم» ويتلوه «البراهمة» تلاوة من غير أن يفهموا تفسيره، ويتعلمونه كذلك فيما بينهم يأخذه بعضهم من بعض، ثم لا يتعلم تفسيره إلا قليل منهم. وأقل من ذلك من يتصرف فى معانيه وتأويلاته على وجه النظر والجدل ويعلمونه «كشتر»[1] فيتعلمه من غير أن يطلق له تعليمه ولو لبرهمن، ثم لا يحل لبيش[2] ولا لشودر[3] أن يسمعاه فضلا عن أن يتلفظا به ويقرآه، وإن صح ذلك على أحدهما دفعته البراهمة إلى الوالى فعاقبه بقطع اللسان. ويتضمن «بيذ» الأوامر والنواهى والترغيب والترهيب بالتحديد والتعيين والثواب والعقاب، ومعظمه على التسابيح وقرابين النار بأنواعها التى لا تكاد تحصى كثرة وعسرة، ولا يجوزون كتابته، لأنه مقروء بألحان، فيتحرجون عن عجز القلم وإيقاعه زيادة ونقصاناً فى المكتوب. ولهذا فاتهم مراراً[4] ويروى لنا البيرونى كذلك أن أكثر البراهمة يدعون أن «الفيدا» معجزة لا يستطيع أحد مهما أوتى من ذكاء الجنان وقوة البيان أن يأتى بمثله، أما أقلهم فيزعمون أن بلغاءهم قادرون على الاتيان بمثله ولكنهم ممنوعون عن ذلك احتراماً له.

ولعلك - إن كنت ممن لهم إلمام بالمذاهب الاسلامية - تذكر أن هذه المسألة بالذات قد أثيرت بين علماء المسلمين، وأن هذا الخلاف عينه موجود بينهم على الصورة التى وجد عليها بين البراهمة، فذهبت الأكثرية الساحقة من علماء المسلمين إلى أنه ليس فى طاقة البشر الاتيان بمثل أصغر سورة من القرآن مهما أوتوا من الفصاحة والبلاغة، وذهبت أقلية من من هؤلاء العلماء إلى أن الفصحاء ممنوعون قسر إرادتهم عن هذه المحاكاة بحيث أنه لو فرض وجود كتاب آخر يستوى مع القرآن فى البلاغة ويصعد إلى طبقته فى الفصاحة والإتقان لأمكن للفصحاء تقليده. وإذاً فالعجز عن الاتيان بمثل القرآن فى رأى هذا الفريق ليس أصلياً فى عقول الفصحاء، وإنما هو عارض دعا اليه إجلال القرآن. ونحن نرجح أن عناصر الخلاف فى هذه المسألة بين علماء المسلمين إنما هى دخيلة جاءتهم من الديانة الهندية، ونرجح كذلك أنهم لو لم يتأثروا بهذا الخلاف الهندى لظلوا جميعاً على رأى واحد فى هذه المسألة ولأجمعوا على أن القرآن لا يقصد بقوله : «قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا» إلا إعلان العجز الطبيعى الأصيل، وإلا لما صح التحدى، لأنه لا معنى لأن تتحدى شخصاً ثم لا تدعه على حريته، بل تحاول صرفه عما تحديته فيه. وإذا، فلو دقق هذا الفريق النظر فى الآية الكريمة لما ذهب إلى ما ذهب اليه.

هذا، ولا يفوتنا قبل مغادرة هذه النقطة أن نعلن أن هذه المغالاة من جانب البراهمة فى تقديس كتاب الفيدا هى التى حالت بينه وبين التبديل والعبث اللذين وقعا فى كتاب البوذية كما سنشير إلى ذلك فى حينه

(يتبع) غلاب

استدراك : وقع خطأ فى المقال السابق عدد ٢٠٦ بأن وضع سطر أوله : غير أن النار . . . الخ فى آخر ص ٩٨٦ وصحته فى آخر ص ٩٨٧ فوجب التنبيه

(١) كشتر (٢) بيش (٣) شودر، أسماء طبقات فى الهند كما قدمنا
(٤) راجع صفحة ٦٠ من كتاب البيرونى المذكور

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

الانتصار على الذات

ليست إرادة الحق فى عرفكم، أيها الحكماء، إلا تلك القوة التى تحفزكم وتضطرم فيكم، تلك هى إرادتكم التى أسميها أنا (إرادة تصور الوجود) فانكم تطمحون إلى جعل كل موجود خاضعا لتصوركم، وأنتم تحاذرون بحق أن يكون هذا الوجود قد أحاط به التصور من قبل فتريدون أن تخضعوا لإرادتكم كل كائن لتتحكموا فيه بالصقل ليصبح مرآة تنعكس عليها صورة العقل.

هذا ما تطمحون إليه، يا أحكم الحكماء، وتلك هى إرادتكم تجله القوة والخير والشر وتقدير قيم الأشياء.

انكم تريدون خلق عالم يمكن لكم أن تجثوا أمامه، تلك هى نهاية نشوتكم وآخر أمنية لكم. ولكن البسطاء الذين يدعون شعبا يشبهون نهراً تخوضه أبداً ماخرة تقل الشرائع، وقد جلسن عليها بعظمة وأنزلن على وجوههن الحجاب.

لقد أرسلتم إرادتكم وشرعتكم على نهر الزمان، ولكن إرادة القوة مثلت أمامى وكشفت لى حقيقة الخير والشر فى اعتقاد الشعوب

وهل سواكم، أيها الحكماء، من أنزل بارادته المتسلطة هذه الشرائع فى هذه الماخرة وقد حليتموهن بالجواهر وأسبغتم عليهن أروع الأسماء.

لقد سار النهر يحملهن بانسيابه وسهم الماخرة يشق أمواجه ومن يبالى بالموجة تقاوم عبثاً فى إرغائها وإزبادها.

إن الخطر الذى يتهدد خيركم وشركم لا يكمن فى النهر، أيها الحكماء، بل الخطر كل الخطر فى إرادة القوة نفسها لأنها الارادة الحية الدائمة المبدعة.

ان ماسأقوله عن الحياة سيوضح لكم اعتقادى فى الخير والشر عند ما أتناول ببيانى ما تفعل العادات فى الأحياء.

لقد سايرت الكائن الحى على معابره وأشواطه لأتعرف إلى عاداته، وعند ما كانت الحياة صامتة نصبت أمامها مرآة بألف ضلع لأستنطق عينيها فكلمتنى لحاظها.

في كل مكان عثرت فيه على حى، طرقت أذنى كلمات الطاعة فما من حى يتعالى عن الخضوع، وعرفت أيضاً أن ليس من محكوم فى الحياة سوى من لا قبل له بإطاعة نفسه .. تلك هى عادة كل حى ..

وهذا ما سمعت أخيراً: إن تولى الحكم أصعب من الطاعة لأن الآمر يحمل أثقال جميع الخاضعين له وكثيراً ما ترهق هذه الأثقال كواهل الآمرين.

إن فى أمر خطراً ومجازفة، وكل مرة يصدر الحى فيها أمراً يقتحم خطرا.

وإذا ما تحكم الحى فى ذاته فانه يؤدى جزية لسلطانه إذ يصبح قاضياً ومنفذاً وضحية للشرائع التى يستنها.

وتساءلت عن علة هذه الأمور وعن القوة التى ترغم الحى على الانقياد والتحكم فتجعله خاضعاً حتى إذا حكم. ولعلى توصلت إلى سبر قلب الحياة إلى الصميم، فاصغوا إلى قولى أيها الحكماء

لقد تيقنت وجود إرادة القوة فى كل حى ورأيت الخاضعين أنفسهم يطمحون إلى السيادة لأن فى إرادة الخاضع مبدأ سيادة القوى على الضعيف، فإرادة الخاضع تطمح إلى السيادة أيضاً لتتحكم فيمن هو أضعف وتلك اللذة الوحيدة الباقية لها فلا تتخلى عنها.

وبما أن الأضعف يستسلم للأقوى والأقوى يتمتع بسيادته على هذا الأضعف فان الأقوى يعرض نفسه للخطر فى سبيل قوته فهو يجازف بحياته مستهدفا للأخطار.

إن إرادة القوة كامنة حتى فى مجال التضحية والخدمة المتبادلة وبين نظرات العاشقين لذلك يتجه الأضعف إلى السبل الملتوية قاصدا اجتياز الحصن والتربع فى قلب الأقوى مستولياً فيه على قوته

لقد أودعتني الحياة سرها قائلة: لقد تحتم على أن أتفوق أبدا على ذاتى. وانكم لتحسبون هذا الاندفاع إرادة إبداع أو غريزة تحفز بى إلى الهدف الأسمى والأبعد منالا بعديد جهاته، فى حين أن ليس هنالك إلا وجهة واحدة وسر واحد. وإنى لأفضل العدم على التحول عن هذه الوحدة.

والحق أنكم حيث تشهدون انحدارا وسقوط أوراق من الأدواح، فهنالك تشهدون تضحية الحياة من أجل القوة.

لقد وجب على أن أكون أنا الجهاد والمستقبل والهدف وأن أكون فى الوقت نفسه الحائل الذى يعترضنى فى انطلاقى إلى هدفى لذلك لا يعرف الانسان الطريق المتعرجة التى عليه أن يسلكها إذا هو لم يدرك حقيقة إرادتى.

مهما كان الشىء الذى أبدعه ولو مهما بلغ حبى له فان على أن.

أنقلب له خصما ، وأتحول عن حبي وحناني ، ذلك ما قضته إرادتي على

وأنت ، أنت يا من تطلب المعرفة ليس لك من سبيل غير سبيلي فعليك أن تقتفي أثر إرادتي ، وما تقتفي إرادتي إلا آثار إرادة الحق .

ما عثر على الحقيقة من قال بارادة الحياة ، لأن مثل هذه الارادة لا وجود لها ، وليس للعدم إرادة كما أن المتمتع بالحياة لا يمكنه أن يطلب الحياة

ولا إرادة إلا حيث تتجلى حياة ، ومع هذا فان ما أدعو إليه إن هو إلا إرادة القوة لا إرادة الحياة

ان هنالك أموراً كثيرة يراها الحي أرفع من الحياة نفسها ، وما كان ليرى أشياء أفضل من الحياة ، لو لم تكن هنالك إرادة القوة .

هذا ما علمتني إياه الحياة يوماً ، وأنا بهذا التعليم أهتك أسرار قلبكم ، أيها الحكماء ، فأقول لكم : إنه ليس هنالك من خير دائم وشر دائم ، لأن على الخير والشر كليهما أن يندفعا أبداً إلى التفوق والإعتلا

وأنتم أيها الواضعون للقيم أقدارها بمقاييسكم وأوزانكم وبما تقولونه عن الخير والشر هل كان لكم أن تفعلوا هذا لو لم تكن لكم إرادة القوة ؟ وما تطمحون في أعماق ضمائركم إلا إلى الشهرة والشعور بتأثركم وفيضان أرواحكم . ولكم تجهلون أن في الأمور التي تخضعونها لتقديركم قوة أعظم من تقديركم تنمو وتتفوق على ذاتها لتحطم غلافها وقشورها ، فمن أراد أن يكون مبدعا سواء أكان في الخير أو في الشر فعليه أن يبدأ بهدم ما سبق تقديره وبتحطيمه تحطيما . وهكذا فان أعظم الشر يبدو جزءاً من أعظم الخير ، ولكن هذا الخير لم يعط إدراكه إلا للمبدعين

لقد حق علينا القول أيها الحكماء ، مهما كلفنا الجهر به فان الصمت أشد وطأة علينا ، لأن كل حقيقة نكتمها انما تتحول إلى سم زعاف فينا ، فلنحطم الحقائق التي نجهر بها ما يمكنها أن تحطم فان هنالك أبنية عديدة يجب علينا أن نرفعها

هكذا تكلم زارا . . .

العظماء

إن في بحراً هدأت أعماقه ، فمن يظن أنه يخفي مسوخا دأبها المزاح ؟ إن أغواري صامدة لا تتزعزع ، غير أنها تتماوج بالمعميات وتتجاوب فيها من الضحك نبرات وأصداء .

رأيت اليوم رجلا من العظماء الأجلاء الذين يكفرون من أجل الروح . فاستغرقت روحي في ضحكها هازئة بقبحه . غير أن هذا العظيم لم يبد ولم يعد . بل انتفخ صدره كمن يتنفس الصعداء ، فلاح لي بحقائقه المروعة وبأثوابه الممزقة غصنا كله أشواك وليس فيه ورد .

ما تعلم هذا القناص الضحك ولا عرف الجمال ، فانه راجع من غاب المعرفة أغبر الوجه بعد أن صارع فيها الوحوش فانطبعت صورهم على سيمائه ، فهو كالنمر يتحفز للوثوب ، وما أحب مثل هذه الأرواح المنقبضة على ما تضمر .

تقولون ، أيها الصحاب ، إنه لا جدال في الذوق وفي الالوان فكأنكم تجهلون أن الحياة بأسرها نضال من أجل الأذواق والألوان .

ما الذوق إلا الموزون والميزان والوازن . . . فويل لكل حي يريد أن يعيش دون نضال من أجل الموزونات والموازين والوازنين

ليت هذا الرجل العظيم يتعب من عظمته ليظهر الجمال فيه فانه في ملاله من هذه العظمة يستحق أن أتذوقه فأجد له طعما .

اذا لم يتحول العظيم عن نفسه فلا يمكنه أن يقفز فوق خياله لتغمره أشعة شمسه . لقد تفيأ الظل طويلا ، هذا المفكر من أجل الروح ، فشحب وجهه وكاد في انتظاره أن يموت جوعا ، وهذه عيناه تشعان بالاحتقار وشفتاه تتبرمان بالاشمئزاز ، انه يلتمس الراحة الآن ولكنه لم ينطرح تحت الشمس بعد .

ليت هذا الرجل يتمثل بالثور فيفوح من سعادته عبق الأرض لا احتقار الارض . ليته كالثور الابيض يهيج أمام المحراث فيرتفع عجيجه تسبيحا للأرض وما عليها .

لقد اكفهر وجه هذا العظيم إذ تلاعبت على خديه أظلال يده فاختفت عيناه . وأعماله نفسها لم تزل كالخيال تلوح ولا تبدو عليه . فان اليد ترسل ظلا قاتما على العامل إذا هو لم يتفوق على عمله

إنني أقدر احتمال هذا الرجل لنير الثور ولكنني أتمنى أن تشع نظرات الملاك في عينيه ، ولن تشع هذه النظرات ما لم ينس ما فيه من إرادة الأبطال . لان ما أريد له هو أن يصير رجلا ساميا لا أن يبقى في مرتبة الرجل العظيم حيث يفقد الانسان إرادته فتتلاعب به أضعف النسمات .

لقد تغلب هذا العظيم على الجبابرة وتوصل إلى حل الرموز ولكن عليه الآن أن ينقذ هذه الجبابرة وهذه الرموز ليحولها إلى طفولة الألوهية .

إن معرفة هذا الرجل لم تتعلم الابتسام ولا الترفع عن الحسد كما أن موجة شهواته لم تسكن في خضم الجمال . وما عليه أن يدفع

(البقية في ذيل الصفحة التالية)



ميكلانجلو

العبقرية الملهمة

MICHELANGELO

للدكتور أحمد موسى

- ٣ -

وما صادفه من صعاب سبق ذكرها ، صادفه هنا في تنفيذ مشروعاته الفنية الخاصة بمقبرتي أميري المديتشي جيليانو ولورنسو ، اللتين كان قد أوصى بعملهما الكردينال جليودى مديتشي في سنة ١٥١٩ ، ولم يبدأ في تنفيذهما إلا سنة ١٥٢١ بعد تعديلات وأخذ ورد

على أنه عمل بيده فيها من سنة ١٥٢٧ إلى سنة ١٥٣٠ ، ووقف عند ما اضطر للفرار لهبوب العاصفة السياسية التي انتهت بانهزام المديتشي وخروجهم من فلورنسا ، عندئذ عمل ميكلانجلو تحت لواء الجمهورية حتى عودة المديتشي ثانياً

وبعد موت البابا بقليل سافر في سبتمبر سنة ١٥٣٤ إلى روما دون أن يتم أعماله إلى النهاية فقد ترك اثنى عشر تمثالا دون إكمال إلى أن أتمها جورجيو فاسارى (١٥١١ - ١٥٧٤) الذي كان مصوراً ومهندساً معمارياً ومؤرخاً لعصره ، والذى بنى قصر أوفيسين بفلورنسا بردهته المعتبرة من أجمل ردهات قصور إيطاليا .

ويحسن بنا أن نعلم بعض الشيء عن هاتين المقبرتين المشهورتين ، اللتين تعدان آية من آيات الاعجاز الفني ، فبين حائطين تنحصر مسافة خصصت للمقبرتين . ولكل منهما تمثالان رمزيان أحدهما لامرأة والآخر لرجل ، وفوقهما نافذة أشبه بقبلة وضع فيها تمثال للمتوفى جالس .

أما التماثيل الرمزية فهي عارية الجسم ، وأكبر من الحجم الطبيعى قليلا ، وتمثل الأوقات اليومية الأربعة وعلاقتها

بهذه الشهوات إلى سكون الشبع بل عليه أن يغرقها في الجمال لأن اللطف لا ينفصل عن مكارم من بلغوا الأوج بتفكيرهم

على البطل ألا يستسلم للراحة ما لم يضع يده على رأسه ليتفوق على راحته ، وربما يصعب على البطل شيء كادراكه الجمال ، لأن الجمال لا يستسلم لأبناء العنف .

إن بين الإفراط والتفريط قيد أنملة ، فلا تحتقروا هذا المدى لأنه بعيد وإن قصر وفيه الأهمية الكبرى . ولكن عضلات العظماء لا تلجأ إلى السكون وإرادتهم لا تنضب . وما من جمال إلا في تنازل القوة إلى الرحمة وخلودها في المنظور .

انى لا أطالب بالرحمة سواك ، أيها المقتدر ، فلتكن الرحمة آخر مرحلة تقطعها في انتصارك على ذاتك . وما كنت لأفرض الخير عليك لولا انى أراك قادراً على ارتكاب كل الشرور . ولكم أضحكني أولئك الصعاليك يعدون أنفسهم رحماء وقد شلت يدهم ولا حول لهم ولا طول

عليك أن تتمثل في فضيلتك بفضيلة الاعمدة التي تزداد بهاء ودقة وصلابة في لبابها كلما ازداد ارتفاعها

أجل أيها الرجل العظيم إنك ستبلغ الجمال يوما فترفع المرآة إلى وجهك لتتمتع برؤية جمالك وعندئذ تختلج روحك بالشهوات وعندئذ تتجلى العبادة في غرورك

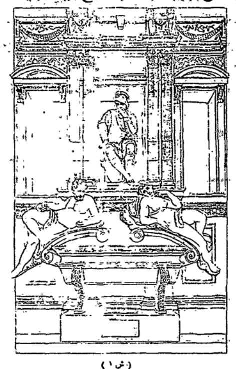
لا يقترب البطل في أحلامه إلى مرتبة البطل الكامل ما لم يغفل الروح ويتحول عنها .

هكذا تكلم زارا ...

بالنفس وهى «الليل ، النهار ، و «الفجر ، المساء» معبرة عن الأسى والحزن لوفاة الاميرين .

وقد عبر ميكيلانجو عن الليل بامرأة نائمة وعند قدمها بوم . وأما النهار فقد مثله برجل هرقلى التكوين ، ولكنه ترك الرأس والذراع غير كاملين . وكلاهما فى غاية القوة الانشائية وحسن الاخراج ، ولكن الطريقة الوضعية لهذين التمثالين تكاد تكون مستحيلة بالنظر إلى الكيفية التى أجلستهما بمقتضاها ، وهذا ما قررته عند ما تناولت امميزاته الفنية بالبحث

ونأتى هنا بصورة لجانب آخر من هذه المقبرة (ش ١) فترى فيها لورنسو جالساً ، وعند قدميه تمثالا الفجر والمساء (ش ٢ ، ش ٣) . أنظر إلى رأس كل منهما وتأمل القوة فى الاخراج والعظمة فى الانشاء ؛ فالوضع العام خال من الارغام



(ش ١)

والطريقة الوضعية أهدأ كثيرا من تمثاليه لليل والنهار ، وقد عبر عن الحزن تعبيرا قويا ، هذا والتكوين الجسمانى وسير الخطوط الانشائية مما يثير الدهشة والاستغراب لهذه القوة الخارقة فى تقدير الجمال الكامل وحسن إخراجه

أنظر إلى جمال اليد اليسرى للمرأة ، وإلى اليد اليمنى للرجل وتأمل نعومة جسم المرأة وقوة عضلات الرجل ، ترى أن



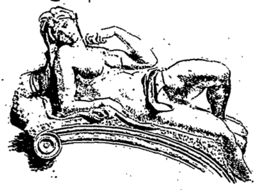
(ش ٢)

ميكيلانجلو كان موفقاً كل التوفيق فى هذين التمثالين

أراد أن يمثل لك بطريقة إخراجه ألم الأحلام الحزينة فى الليل وما ترسمه على الملامح عند الفجر ، فأخرج وجه المرأة على هذه الصفة ، كما أراد أن يمثل لك كيف أن الحزن نهاراً يعود على الجسم العامل والعقل المفكر بملامح أقرب إلى إنهاك القوى والتعجيل بحلول الشيخوخة ، فكان إماماً يحتذى وقائداً يتبع وفناناً يذكر على مر القرون

وتمثالاه لجيليانو وفلورنسو أقرب إلى الاخراج الاغريقى وهما لا يمثلان صاحبيهما وإنما هما رمزيان للتعبير عنهما فالأول مثل قائداً حربياً ارتسمت على وجهه ملامح التفكير وقوة الارادة وصرامة الأوامر . وأما الثانى (لورنسو) (ش ١) فتراه جالساً وقد اكتسى جبينه بغطاء رأسه فأحدث ظلا على العينين أكسب صاحبهما شيئاً من الخفاء وعمق التفكير . أنظر إلى اليد اليسرى وقد لامست شفتيه وإلى السبابة وقد جاورت الأنف ، ثم تأمل المجموع الكلى ، تر أن صاحب هذا التمثال بحالته هذه وبطريقة جلسته وعمقه فى تفكيره ، لا بد وأن يكون من رجال السلطة العامة . وهذا ما قصده ميكيلانجلو تماماً فقد سجل بذلك للأخوين أميز وأبرز صفاتهما وهى الحكم .

والدارس للمجموع الإنشائي لهاتين المقبرتين يسجل لميكيلانجلو المعرفة الصادقة بأصول علم التشريح بالنسبة إلى



(ش ٣)

التماثيل ، والإحاطة الكاملة بعلم النفس بالنسبة إلى مظهرها ، فضلا عن القدرة في فن المعمار التي تجلت في وضعه التصميم الكلي وما انطبع عليه من الانسجام

وله على الحائط الثالث للمقبرة مجموعة تمثل المادونا مع يسوع الطفل ، وهي جالسة والطفل متجه إلى ثديها للرضاعة ، وهي لا تقل جمالا عن قطعه الأخرى ، لا سيما وأن المادونا على جانب كبير من الجمال الرفيع مع شيء كثير من الحزن

وعلى ذلك لا مناص للمؤرخ الفني من اعتبار هاتين المقبرتين مجموعتين أعظم انتاج مجسم أخرجه ميكيلانجلو وأكمل عمل في أفرغ فيه غايته وأدى به رسالته ، كما أن ما شملناه من تماثيل بجانب تمثاله للنبي موسى (راجع المقال السابق) أهم وأبرز انتاج فني في مدرسة النحت الحديث

أما المرحلة الثالثة من حياته فقد بدأت منذ رحيله نهائياً إلى روما في سبتمبر سنة ١٥٣٤ ، وإقامته فيها حتى وفاته بعد أن بلغ التاسعة والثمانين في ١٨ فبراير سنة ١٥٦٤

وقد ارتقى رئيساً عاماً للمعماريين والنحاتين والمصورين في القصر الابوستولي ، وكلفه البابا بتصوير السقف السكستيني (نسبة إلى البابا سكستس الرابع) واشتغل منهمكا فيه من سنة ١٥٣٥ إلى سنة ١٥٤١ ، وصور «يوم القيامة» كما صور بين سنة ١٥٤٢ وبين سنة ١٥٥٠ الصور اللازمة لمجموعة باولينا .

أما من سنة ١٥٤٢ إلى سنة ١٥٤٥ فقد أكمل البناء التذكاري ليوليوس . وهو بناء شامل لطبقتين (دورين) لكل منهما ثلاث قبلات ، في الطبقة الأرضية تمثال موسى ، وعلى اليمين واليسار وضع تمثالان جديدان ، الأول يمثل « ليا » امرأة يعقوب الأولى وبيدها المرآة ، والثاني لامرأته الثانية « راشيل » وهي تصلي ، وهما مليئتان بالحياة والحركة .

أما في الطبقة العليا ، فله قطع مثلت البابا والمادونا والكاهن والنبي ، وهي ليست في جودة قطعه السابقة ، ولذلك يخيل الينا أنها من نحت تلاميذه .

ونحت بعض التماثيل وتركها دون إتمام ، منها مجموعة ليتا pieta ومنها المجموعة الصغرى محفوظة بقصر روندانيني بروما ، والمجموعة الكبرى عملها خصيصاً لمقبرته وهي تشمل أربعة تماثيل موجودة الآن في كاتدرائية فلورنسا بالردهة الرئيسية .

واشتغل في هذه المرحلة بالشعر أيضاً وله ملحات معروفة ، خصوصاً تلك التي كتبها غزلا في معشوقته فيتوريا كولونا بين سنة ١٥٣٤ و ١٥٤٧ وكان لها تأثير عظيم في فنه وفي مجرى حياته

ومنذ سنة ١٥٤٦ أسند اليه الاشراف الفعلي على بناء قبة كنيسة بطرس واشتغل بهندسة المعمار السبعة عشرة سنة الأخيرة من عمره ، ودفن في كروسه بفلورنسا .

أما ميكيلانجلو المصور فسيكون موضوع بحثنا في العدد القادم .

أحمد موسى



وفاة جيمس باري عميد الكوميديا الإنكليزية

نعت أنباء لندن الأخيرة كاتباً من أعظم كتاب انكلترا المعاصرين هو السير جيمس باري J. Barrie القصصي والكاتب المسرحي الكبير ؛ توفي عقب إصابته بالتهاب رئوي صاعق . وكان مولده سنة ١٨٦٠ في قرية من أعمال اسكتلنده وتلقى تربيته في جامعة أدنبورج ، وشغف بالأدب منذ حداثته وفي سنة ١٨٨٣ بدأ حياته في الصحافة ، واشتغل بالتحرير في جريدة « نوتنهام جورنال » ، ولفت الأنظار إليه بعدة مقالات أدبية رائعة ؛ وفي سنة ١٨٨٥ انتقل إلى لندن ، وظهر كتابه الأول بعد ذلك بعامين بعنوان : « الموت أفضل » Better Dead ، وهو مزيج من الخيال الساحر والتهكم اللاذع ثم ظهر كتابه Aul Licht Idylls ؛ وهو مجموعة صور ريفية فزاد في شهرته ؛ وبعد قليل ظهرت روايته الصحفية الشهيرة « حينما يكون الرجل أعزب » When a man is Single ثم مجموعة صور جديدة عن الحياة في أدنبورج ، وظهرت في سنة ١٨٨٩ أقوى وأعظم رواياته وهي « أرملة في ثياب خشنة » A widow in Thrums ، ثم رواية ظريفة عن التدخين عنوانها My Lady Nicotine ، ثم « الوزير الصغير » Little Minister

وفي ذلك الحين بدأ باري يكتب للمسرح ، وافتتح مجهوده بمسرحية عنوانها Walker London فنالت نجاحاً عظيماً وتلاها بكوميديا عنوانها « قصة غرام الأستاذ » Professor's Lov-Story في سنة ١٨٩٥ ؛ وأصدر في هذا الوقت أيضاً مذكراته في حياته الأولى مع والدته بعنوان Margaret Ogilvy ثم استأنفها في روايتين أخريين هما Tommy and Grisel و Sentimental Tommyn وتمتاز هذه السلسلة بأسلوبها الفكاهي اللاذع الذي برع فيه باري براعة عظيمة

وفي سنة ١٩٠٢ ، أخرج باري مسرحيته الغريبة : « العصفور الصغير الأبيض » ، وهي أول حلقة من سلسلة القطع الشهيرة التي اتخذ لها بطلا مدهشاً هو « بيتر بان »

واشتهر أيضاً بقطعة أخرى عنوانها : « لعبة الاختفاء مع الملائكة » Hide and Seak with the Angels ، وفيها يشرح طريقته في العمل وفي الحياة كأنها مداعبة مع الملائكة

ويرى النقدة أن سير باري يبلغ أروع مواهبه في الكوميديا ، وأنه يعرضها بفن لا يجارى ويتفوق فيها على المأساة (الدرامة) ، وفي أثناء الحرب أخرج باري عدة من المسرحيات المؤسية والكوميدية ، بيد أنها لم تكن من النوع الممتاز وأشهر هذه القطع : « قبلة لسندريلا » Akiss forCindrella ويبدو باري في هذه القطع متأثراً بطابع هانس اندرسون

وحصل باري سنة ١٩١٣ على وسام البارونية ، ثم وسام الاستحقاق سنة ١٩٢٢ . وانتخب منذ سنة ١٨٣٠ مستشاراً لجامعة ادنبورج .

أعياد جامعة لوزان :

قرأنا في البريد السويسري الأخير شيئاً عن جامعة لوزان التي احتفلت أخيراً بعيدها بمناسبة مرور أربعمائة عام على تأسيسها ويذكر القراء أن الجامعة المصرية قد اشتركت في هذا الاحتفال على يد مديرها الأستاذ الكبير لطفي السيد باشا وقد نشأت جامعة لوزان سنة ١٥٣٧ أكاديمية متواضعة

أنشأها أهل برن فى مقاطعة فات (فود) بعد أن افتتحوها لتكون معهداً للتبشير للدين البروتستانتى الذى غلب فى سويسرا يومئذ، وقطعت الأكاديمية الجديدة عهداً من الاضطراب خلال الجدل والخصومات الدينية ، ولكنها لقيت عضداً كبيراً فى معاونة البروتستانتيين الفرنسيين ؛ وفى سنة ١٧٠٠ زادت الأكاديمية على قسم اللاهوت قسمين جديدين للتاريخ والقانون ، ولما استقلت مقاطعة فات بشئونها الادارية عنيت بتنظيم الأكاديمية ، وصدر سنة ١٨٣٧ قانون بانشاء ثلاث كليات بها . وفى سنة ١٨٦٩ وضع العلامة لوى ريشونيه مشروعاً لتنظيمها ؛ وأخيراً فى سنة ١٨٩٠ حولت إلى جامعة كبيرة . وأنشئت لها مبان فخمة .

وقد كان الاحتفال بعيد جامعة لوزان مظاهرة علمية دولية عظيمة ؛ فقد اشترك فيه ممثلو الجامعات والهيئات العلمية فى سائر أنحاء الأرض ؛ وافتتح الاحتفال فى الكتدرائية الكبيرة ، ثم أقيم مهرجان على بالجامعة لمنح العالميات الفخرية لطائفة من العظماء ؛ ثم نظمت بعد ذلك نزهة لقصر شيلون الشهير الذى تغنى به الشاعر بيرون

كتاب جديد لإميل لودفيج

يعنى الكاتب المؤرخ الألمانى الكبير أميل لودفيج بعد أن أخرج كتابه الضخم عن نهر النيل بقسميه حسبما ذكرنا ذلك فى الرسالة ، بوضع كتاب جديد عن كليوباترا ملكة مصر ، وينتظر أن يظهر هذا المؤلف الجديد بعد بضعة أشهر فقط ؛ وفى ترجمة كليوباترا يستطيع أميل لودفيج أن يعرض كل مواهبه وبراعته كمترجم لأبطال العالم ، وقد ظهرت هذه البراعة من قبل فى جميع التراجم التى أخرجها المؤرخ عن «المسيح» وعن «نابوليون» وعن «بسمارك» وعن «ولهلم الثانى» وغيرها ، بيد أنه يجد فى حياة كليوباترا ميداناً أكثر سحراً وخصوبة ، «فحياة هذه الملكة المصرية العظيمة لم تكن سوى مأساة مؤثرة ؛ وأميل لودفيج فى الواقع كاتب مسرحى قبل كل شيء يجيد عرض المآسى ؛ وأخص ما فى تراجمه هو هذا العرض الذى يصوغها فى صورة الأشخاص الحية ، تراها أمامك تحت قلمه بجميع مناظرها وجميع حسناتها وعيوبها ، وعنصر المأساة هو الذى يجتذب أميل لودفيج ويذكى خياله وقلمه ، ولا يتوفر هذا العنصر قدر توفره فى حياة كليوباترا فهى ملكة عظيمة وامرأة ساحرة ، تستعمل سحرها كامرأة فى الذود عن مركزها كملكة ، فاذا خانها الحظ ، ولم يعد سحرها يحدث أثره ، وخشيت تشعر أن كل شىء قد أفلت من يدها ولم يبق غير العبودية ، فانها تؤثر أن تغادر هذه الحياة بمحض إرادتها ؛ وفى حياة كليوباترا نلتق بشخصيات عظيمة كشخصية أنتونى ، ويوليوس قيصر ، ثم أوغسطوس ، وفى هذا المزيج من العبقريات المدهشة يستطيع أميل لودفيج أن يطلق العنان لقلمه ، وسوف تعنى شركة «الان وانوين» باخراج هذا الكتاب

جامعة انكليزية فى قبرص

منذ بضعة أشهر قام اللورد جورج لويد المندوب السامى لانكلترا بمصر سابقاً برحلة فى بلاد الشرق الأدنى ، وقيل انه مكلف بمهمة سياسية وثقافية خاصة ، والآن يتضح لناظر من هذه المهمة ؛ فقد راع السياسة البريطانية انتشار الثقافات الأجنبية الأخرى ؛ ولاسيما الثقافة الايطالية فى مصر وفلسطين وقبرص ومالطة ، فرأت أن تتقى هذه المنافسة الخطرة بمثلها ؛ وعرض لورد لويد أخيراً نتائج بحثه على لجنة الشئون الخارجية بمجلس العموم البريطانى ؛ وأخص ما يقترحه اللورد علاجاً لهذا المشكل أن تنشأ جامعة انكليزية فى قبرص تكون مهداً لإذاعة الثقافة البريطانية فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، ويقول لورد لويد بأن الثقافة البريطانية ليست أقل فى نوعها ونفوذها من الثقافة الإيطالية ، وأن شعوب هذه الأنحاء تفكر ولا ريب أن تتغذى بالثقافة البريطانية . ثم ان الدعاية الايطالية التى تشتد وطأتها الآن فى شرق البحر الأبيض المتوسط لا يمكن مقاومتها إلا عن هذا الطريق الثقافى القوى

وإذا كانت إيطاليا وهي ليست ذات مصالح حيوية في هذا القسم من البحر الأبيض تعنى هذه العناية بنشر ثقافتها فأولى بريطانيا العظمى ذات المصالح العظيمة في هذه البلاد أن تدعم هذه المصالح بنشر ثقافتها

مسارح الهواء الطلق

أعدت ألمانيا هذا العام ثمانية وأربعين مسرحاً مكشوفاً يمثل فيها في الهواء الطلق، وتوجد هذه المسارح اليوم في معظم المدن الكبرى ومراكز الاصطياف والاستشفاء؛ ويجرى فيها التمثيل في شهور الصيف من يولية حتى سبتمبر وقد اختير لها برنامج معظمه من القطع الكلاسيكية الخالدة مثل «حلم ليلة صيف» و«روميو وجوليت» لشكسبير ومسرحيات جيته وشيللر شاعرى ألمانيا العظيمين، وكذلك انتخبت عدة قطع محدثة من مسرحيات ابسن وهاوبتمان، وبيرجنت، وفلوريان جير وغيرهم، وبعض قطع كوميدية شهيرة. وسوف تمثل أيضاً في هذه المسارح المكشوفة أوبرات موسيقية لأعظم أقطاب الموسيقى مثل جلوك، وهاندل وريخارد شتراوس، وأوجين البرت وغيرهم

وفكرة المسارح المكشوفة مستمدة من اليونان القديمة حيث كانت أثينة واسبارطة وكورونته تغص بهذه المسارح الرياضية الفنية؛ وكانت كالمدارس الشعبية العملية تتخذ أداة لتثقيف الشعب وتهذيب مشاعره.

الاحتفال بذكرى وفاة ابن سينا

من أنباء الآستانة أن جمعية التاريخ التركية احتفلت في ٢١ من هذا الشهر بمرور ٩٠٠ عام على وفاة الطبيب الفيلسوف التركي الكبير ابن سينا احتفالا يليق به. وقد بدأ الاحتفال في الساعة الثانية في معهد البيولوجيا بالجامعة. وألقى كثير من العلماء الأتراك والأجانب محاضرات شرحوا فيها الخدمات التي أداها ابن سينا للعلم. ونخص بالذكر من بين هؤلاء العلماء المسيو لوفان رئيس شرف الجمعية الدولية لتاريخ الطب والدكتور تريكو ردايرِ أستاذ تاريخ الطب بالجامعة والرئيس العامل لنفس الجمعية والدكتور جويرلو. وقد نشرت بهذه المناسبة كتاباً عن حياة الفيلسوف الشهير وأعماله وعرضت في الوقت نفسه كتب ابن سينا المخطوطة والمطبوعة في المعهد البيولوجي وقد أعدت جمعية التاريخ التركية في المطبعة الأميرية بالألوان الكتاب الأصلي للفيلسوف الشهير وهو الموجود في متحف المؤلفات التركية والاسلامية

كذلك احتفل في جميع أوزبكستان بالذكرى التسعمائة لوفاة (ابن سينا) وقد جمعت بهذه المناسبة النماذج النادرة لمؤلفات العالم الكبير باللغات العبرية والعربية واللاتينية في مكتبة طشقند وقد نشر المستشرقون في أوزبكستان نشرة تضمنت مقالات عدة عن ابن سينا

منح جوائز التفوق العلمي

اتصل بنا أن معالي وزير المعارف يدرس الآن مشروعاً لإقامة حفلات عامة في القاهرة تمنح فيها جوائز التفوق العلمي. وهذه رغبة من رغبات الرسالة نادت بها في مستهل هذا العهد الجديد.

ونقول بهذه المناسبة إن مجلس إدارة الجامعة قرر إقامة حفلة سنوية تمنح فيها الدرجات الجامعية باحتفال كبير



بقعة من حبر

للقصصي الفرنسي رينه بازين

UNE TACHE D'EUCRE
René Bazui

للأديب أحمد المحمود

١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، هذا كل ما أستطيع أن أذكره عن الثلاث والعشرين سنة الأولى من سني حياتي، وبمجرد تعداد هذه الأرقام يكفي — كما ترى — لإظهار تشابهها المشترك وتوضيح وحدة اللون بينها.

مات أهلي ولم أعد الطفولة الأولى، وإني لأستحضر صورهم في شيء من الجهد والمشقة، وتكاد معالم البيت الذي شهد حبوي الأول تنمحي من ذاكرتي لولا أنني نشأت غير بعيد عنه أرنو إليه ويرنو إلي، ولكن الدار بيعت وا أسفاه ! وغاضت حياتها أبد الدهر، أجل بيع البيت لجري عليه حكم القدر القاسي وفي هذا المكان اكتحلت عيناي بالنور، وفي مدرسة البلدة تصرم ثمانية عشر عاماً من عمري وقد اعتاد المدير أن يشرح لنا معنى المدرسة وأنها عائلة ثانية لها قيمتها وأثرها في النفس حتى خيل لنا أنها تفضل الأولى بمراحل كثيرة وتسمو عليها شرفاً وقدراً.

وما كدت أنهي دراستي الثانوية وأحمل شهادتها النهائية حتى بعث بي خالي إلى باريس لدراسة الحقوق والتثقف بالثقافة العالية وفي ثلاث سنوات نلت الاجازة التي مضى عليها ثمانية عشر شهراً وهي في يدي، ثم أقسمت يمين المهنة وغدوت — بهذه الصفة المكتسبة على حد تعبير خالي — محامياً متمرناً وكنت كل صباح اثنين أثبت وجودي في المكتب مع زملاء آخرين وظهر لي بذلك أنني حزت ثقة الأرملة واليتيم.

نلت اجازة الأدب — في يسر ولباقة — بينما كنت أتابع دراستي الحقوقية، وأنا الآن أوشك أن أغدو « دوكتورا » في الحقوق، ولقد كانت امتحاناتي حسنة في الجملة، ولكنها ليست في الدرجة التي كنت أرجوها إذ قال لي أستاذي إن الذوق الأدبي عمل فيها عمله الشديد « وطبيعة الحقوق — يا بني — لا تمت — على عادة العلوم — إلى القلب والقاطعة بسبب من الأسباب ». أصحيح أن قلبي موزع بين الأدب والحقوق؟ ذلك ما لا أعتقده، ولكنني لن أعترف بهذا إلى أستاذي الذي لم ينس بعد أنني نلت أجازة في الأدب. إنه يبني علي بعض الآمال ومن الطبيعي أن أبني عليه — بدوري أنا — بعض الأماني في الفحوص المقبلة.

وماضي حياتي تختصره ورقتان نلتهما وثالثة تتراءى لي عن بعيد، وأوشك أن أنالها ثم خال ذو ثروة كبرى. وإلى تاريخ ١١ ديسمبر ١٨٨٤ لم يكن ثمت حادث يذكر ولكن من يستطيع أن يضمن جمود الحياة فلا تتطور، وهذا حادث خطير جرى لي بعد ظهر هذا اليوم فأثر في نفسي أثره العميق وهاج من خواطري كلما أمعنت التفكير فيه والتحليل له والوقوف عنده.

كثيراً ما كنت أذهب إلى دار « المكتبة الأهلية » للعمل في صالة المخطوطات الخاصة التي تضم بين جدرها الطبقة المشهورة من الكتاب والعلماء المرخص لهم بالعمل فيها، وكنت في كل مرة ألج باب هذه الصالة أحس بشعور الغبطة والكبرياء لوجودي في مكان لا يقبل إلا من كان على جانب من الشهرة وذيوع الاسم. وأتخطى برهبة سدة الحارس الذي اتخذ مكانه إلى رتاج الباب يستقبل الزائرين القدماء ببسمة لا تخرجه عن وقاره وهيبته عند ما يمرون به إلى مقاعدهم. ولم تكن بيني وبينه هذه المعرفة الزمنية حتى يجود علي بابتسامة، ولكنه على كل حال كان يستقبلني بانحناءة قصيرة من رأسه وقد اعتاد أن يراني كل يوم فلا يطلب مني البطاقة كما كان يطلبها من الزائرين الجدد وفهمت أنني أصبحت فرداً من أفراد العائلة فما علي إلا أن أجوس خلال البيت بأمن وسلام.

ها أنذا في هذه الصالة الفخمة أسرح البصر في اتساعها وجدرها المزينة التي تشبه في أصباغها الجميلة الألواح الفنية الرائعة فتمت

فى النفس شعور الاجلال والتعظيم . وعلق بصرى بما يشبه المنبر فتبينت أن هذا المكان يجلس فيه النفر المختار من رواد هذه الدار الذين يتمتعون بألقاب العلم وأوسمة الأندية الأدبية . وينتثر إلى جانبي هذا الممر على صورة أصبحت عادية سكان المكتبة العلماء، ومن يتأملهم مقوسى الظهور مطرقى الرؤوس حادبين على كتبهم يفترسونها بصمت وسكون رهيبين يتعظم فى نفسه تأثير الفكرة فى العقل البشرى ومبلغ اجتياحها فى رؤوس هؤلاء التى قلت شعورها ، ومع ذلك فان هذا الجمع من القرعان كان لايعدم بعض من برقت شعورهم

وغالباً ما ينقطع بعض هؤلاء العلماء القراء - عند ما أمر - عن القراءة فيشخصون إلى بعين « تائهة ، بلهاء لاتميزنى جليا لاغراقها فى القراءة والتفهم ، ولكن هذه الابصار كانت تنحسر عنى عندما تلمح تقطيب وجهى فتتصهب العيون وتعود إلى ما كانت عليه وهى أشد ما تكون نشاطا وشوقا وندما على أن أضاعت الوقت فى تفحص هذا الآتى الغريب . ولكننى كنت أحس بخواطر هؤلاء وبما هم دائبون فيه . هذا يتدر رفيقه بأنه يدرس منشأ الصناعات والحزف وأصولها ، وذاك عا كف على دراسة عصر لويس الثانى عشر، وآخر يهمس فى أذن رفيقه : أنا أدرس أحوال المرأة المدنية فى عصر طيباريوس، ويسرع آخر إلى شده الجمع بأنه يبحث عن ترجمة جديدة لهوراس . وشعرت بان جميع من فى هـذا المكان يبتدرنى بالسؤال : وأنت أيها الحدث ماذا جئت تفعل هنا ؟ ألا لا تعكر صفاء هذا المكان الوقور

ماذا جئت أفعل هنا ؟ ! وا أسفاه ! . . . يا سادة . . . وهل أنا فى حاجة إلى أن أقول لكم إن خالى ما فتىء يستحثنى ويلحف على فى انهاء أطروحة الدكتوراه ويضطرنى إلى العودة إلى الريف ويبدى سأمه من بطىء الوضع والتأليف، وهاهوذا صراخه فى كتبه إلى : « أقلل من النظريات يابنى ؟ . . . أسرع إلى العمل ودع عالم الخيالات والاحلام وما الذى أهاب بك إلى انتقاء هذا الموضوع دون سواه ؟ . . . » والواقع أن موضوع « اطروحتى الرومانية » انتقى خصيصا لتمديد إقامتى فى باريس. « لاتين جونيوس » هذا موضوع اطروحتى — أيها السادة القراء — وانه لموضوع طريف كما ترون ولكنه صعب عسر التوضيح ، وليس بينه وبين الحياة العملية أقل صلة أو علاقة وهو يسبب لى تعبا كثيرا ونصباً جما ، وياليتكم تتصورون بعض ما أقاسيه من مشاق الدرس والمراجعات والمطالعات

ومن الصدق والواجب أن أقول إننى كثيراً ما أمزج مع هذه المشاق بعض القراءات المسلية الجذابة وأرود أمكنة المعارض والملاهى وان خالى يجهل من أمرى كل شىء إلا أننى مدمن للكسب والموسوعات ومغرق فى استنطاق أسطرها ومتونها وهوامشها وان خالى ليعجب كثيراً بابن أخته الناشىء ، هذا الراهب الناسك « البندكتى » الذى لا يفارق دور العلم وأروقة « المكتبة الأهلية » فى باريس ، بابل الحديثة - كما يسميها - مفنياً لياليه وأيامه مع « غايوس » مستصحباً « لاتنيه » غير عابىء بكل ما لا يمت إلى هؤلاء بصلة . وأنا أحرص كثيراً على حسن ظنه بى فأرسل له دائما بطاقات الانتساب للمكاتب ودور العلم موقعة من قيميها ويحافظها وهو دائما يحتفظ بها حتى يتوفر لديه منها صندوق . ولقد وصلت هذا الصباح ناشطا أكثر منى فى بقية الأصباح وكأن سوء الطالع كان يرافقنى للقضاء على هذا النشاط المنبعث من قرارة نفسى فيسبب لى بلية ما كان أشغلنى عنها وأغنانى ! . .

تنتصب إلى جانبي سدة قيم المكتبة اريكتان تحملان أوراق الطلب وأقلام الكتابة وقادتنى خطاى إلى الاريكة اليمنى وياليتنى لم أقصدها، اذن لكنت فى نجوة عما أنا فيه الآن من أسف وندامة.

أخذت الريشة المتصلة بسلسلة نحاسية وخططت بغير وضوح كثير اسم الكتاب والمؤلف الذى أتوخى مطالعته وأعدت الريشة إلى مكانها، ولكن ما أدرى والله كيف أركزتها ولعلها فقدت اتزانها فاضطربت وتدحرجت السلسلة والريشة وانى لأسمع صوتها . . . لقد ارتجفت وندت نقطة حبر كبيرة . . . على . . . على كتاب أثرى . . . أمام أحد الأعلام الشيوخ ! . . وإن كنت أذكر لا أذكر إلا انتصاب هذا الإنسان الأبيض الهزيل فى ظلام مقعده صارخا :

- يا للغباوة ! . . لقد لوثت الكتاب الأثرى !

وملت إلى المقعد أتفحص فعلتى التاعسة فوجدت أن نقطة الحبر السوداء القاتمة قد استقرت على غلاف الكتاب إلى جانب اسمه المذهب ، وهاهى ذى تتفرطح فتتشعب إلى مايشبه المغزل والسنان وأشكال مختلفة ، وهنا وهناك انتثرت نقاط صغيرة وتوزعت على صفحته كما تنتثر النجوم فى السماء . وإذا ببعض الخطوط تتجمع فتشكل أخدوداً ينحدر فيه الحبر إلى أسفل الصفحة . وتطلعت فاذا أنا محاط بهالة من القراء وكلهم ينظر إلى بعينين متفحصتين فجمدت عروقى وسمرت فى مكانى لانتظار الفضيحة وتمتمت بكلمات اعتذار وأسف كانت لاترد على ما فات . وأما قارىء الكتاب فلم ينبس ببنت شفة وكأنه قد فقد الحركة وكنا ننظر سوية إلى تشكل البقعة ونرود بأعيننا خطوط جريانها وانبثاقها على الصفحة وكأنه قد عاد إلى مداركه بعد استقرار البقعة واستكمال

الملاحظة فاهتز اهتزازة محمومة وتناول من جيبه ورقة نشاف وشرع يمتص برجفة عصبية لطوخ الحبر ويعالجها بدقة الممرضة تضمد جراحا . واهتبلت الفرصة لا تقهقر إلى الصف الثالث من المقاعد حيث وضع لى غلام المكتبة الكتب التى طلبتها . وجلست أحمل نفسى على الاعتقاد بأنى لو لم آته بشيء ولو أنى أتوارى عن الانظار أو أن أخبىء رأسى بين يدى كرجل أثقلته جسامة المسؤولية إذن لكفيت هذا الغضب وهذا الصخب ولكن الامر لم يكن ليتوقف عند هذا الحد ، وفوقت البصر قليلا أسترق تتمة المشهد فاذا بى أبصر هذا الانسان الابيض الصغير الذى كان واقفا الى جانب القيم يكثر من الحركات بيديه قد أصبح بين يدى وكان تارة يشير بسبابته إلى الكتاب الملوث وطورا إلى متجها نصيف اتجاه ، وحزرت دون ما تعب أو مشقة أنه يقصدنى بالكلمات الخشنة التى كان يذروها ، وقد بدا لى بنظرة خاطفة أن قيم المكتبة أشفق على من كلمات هذا الشيخ الذرب ، فاحمر وجهى خجلا وأحسست بالخجل يسير فى كل جسمى .

وهاهم أولاء يتصفحون دفترا أو أظنه البيان الذى يشير إلى قيمة الكتاب وثمنه ومكان الابتياع وانهم ليتآمرون على إفراغ المكان منى وتحديد الجزاء والغرامة ! . . أواه ! . . يا خال تأهب لتحملها !

إلى هنا استرسلت فى أفكارى المحزنة وما رجعت إلى نفسى إلا وشعرت بان يداً تربت على كتفى دون أن أحس بدنو صاحبها ، قال :

— إن الحافظ يطلبك إليه

فنهضت أتاثر الغلام وما إن حاذيت القارىء الرهيب الذى كان قد استقر به مكانه حتى لمت بعضى فى الوصول إلى سدة القيم الذى بدرنى :

— أو أنت الذى لوثت هذا الكتاب ؟ . . .

— نعم ياسيدى

— . . . إنك لم تتعمد فعلتك هذه ؟

— طبعا لا ، وأنا آسف لوقوع الحادث يا سيدى

— أنت على حق فى ندمك وعلى صواب ، لأن هذا الكتاب من أندر الكتب الاثرية الموجودة ، والبقعة أيضا من اغرب البقع ولا أعتقد أنى رأيت بقعة على هذا الشكل .

وأحسست بانى ساقول له إن الانسان يلوث كما يشاء ، لولا أنى أمسكت نفسى ، فقال لى :

— اكتب اسمك وصنعتك ومكان إقامتك ؟

فكتبت ما يلى :

« فابان جان جاك مويارد عامى ، ٩١ ، شارع رن

— هذا كل شيء ؟ . . .

— نعم هذا كل شيء مؤقتا ولكننى أعلمك بان « مسيو شارنو » مغيظ جداً ومن المناسب والمستحسن أن تعتذر له عن الخطيئة التى اقترفتها .

— مسيو شارنو ! ؟ . .

— نعم المسيو شارنو عضو المؤسسة العلمية الذى كان يقرأ الكتاب الاثرى .

وتساءلت فى نفسى عن هذا القارىء الخطير . . . يا الهى ! . . أيكون المسيو شارنو هذا الذى تكلم لى عنه المسيو فلامارون رئيس لجنة التدقيق فى اطروحتى ؟ انهما زميلان إذن أحدهما عضو مجمع العلوم السياسية والمعنوية والثانى عضو معهد دراسة النقوش والفنون الجميلة .

شارنو ! . . شارنو ! . . . أجل ولا يزال جرس هذه الكلمة يطن فى أذنى ولاسيما فى المرة الاخيرة عند ما قال لى استاذى : انه (أى شارنو) صديق الحميم من معهد الفنون والآثار . وأحسست بأن خطراً يتهددنى فى شهادتى وامتحاناتى ونزلت إلى أعماق نفسى اتحسس غوامضها فاذا بى فى مأزق حرج ما أهتدى إلى الخروج منه ، وان الخوف يتسرب إلى من جهتين اثنتين :

أولا — لا أعلم ماذا ينتظرنى من الجزاء والعقوبة للكلمة التى فاه بها القيم عند ما استكتبنى اسمى وكنيتى . وثانياً — أخشى ان يفسد على هذا العالم « شارنو » عطف استاذى فلامارون لاتهامى كى حرمة الكتاب الذى كان يقرأه ، هذا إذا كان نزقا غضوبا كما ظهر لى عند وقوع الحادث المشئوم .

وهل يجب أن أعتذر للمسيو شرنو ؟ وأى الاعتذار أقدمها له ؟ وهل أنا لوثته حتى أسرع إلى الاعتذار ؟ أم ان هذا من حق الكتاب الذى احتمل اعتدائى ؟ ان المسيو سالم مما لحق بالكتاب وليس على قميصه أو أثوابه شيء من الحبر أو اللطوخ ، فلماذا اذن يأخذنى بهذه الحدة وهذا الغضب ؟ . . ولكننى سأقول له :

— سيدي أنا آسف جداً لأنى عكرت عليك الصفو فى أبحاثك العلمية . ان كلمة أبحاثك العلمية ستتملق ولاريب أثرته واحساسه وستكون مخدراً قويا لأعصابه المتوترة . . . .

واستجمعت نفسى للنهوض واذا بالمسيو شارنو يقبل بهزة عصبية وبغضب مازال يشتد منذ وقوع الحادثة وترتسم على وجهه أمائر الاستياء الشديد من تقلص فى الشفاه إلى سهوم فى الوجه والنظر وكان يتأبط محفظته وذراعه تضطرب فى امسا كها الى خاصرته . وخدجنى بنظرة قاسية . . . وتابع خطاه .

حسنا يا مسيو شارنو ! . . إن رجلا غاضبا فى حالتك التى أشهد لايمكنه استساغة المعاذير ولكننى سأعتذر لك فيما لو تقابلنا اذا كان للايام أن تضعنا وجها لوجه . . .

(طرطوس) احمد المحمود

فهرس الموضوعات للمجلد الأول من السنة الخامسة

فهرس الكتاب للمجلد الأول من السنة الخامسة

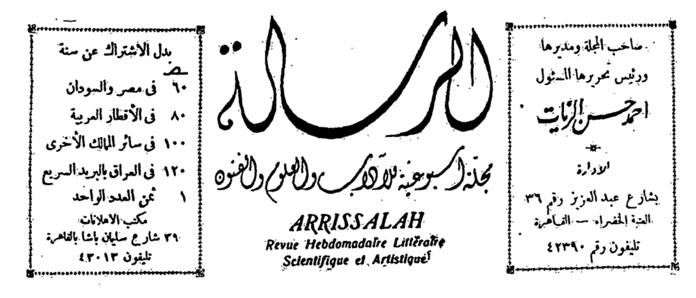
(هـ)

(ى)

FIN

DU

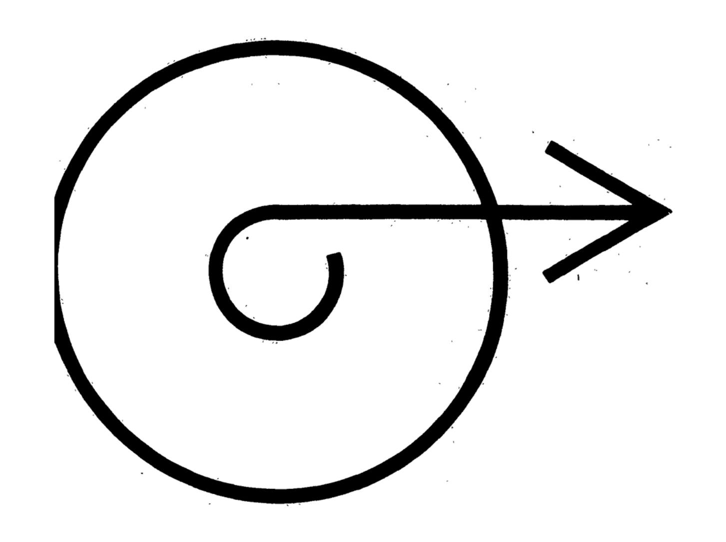
DOCUMENT



1937

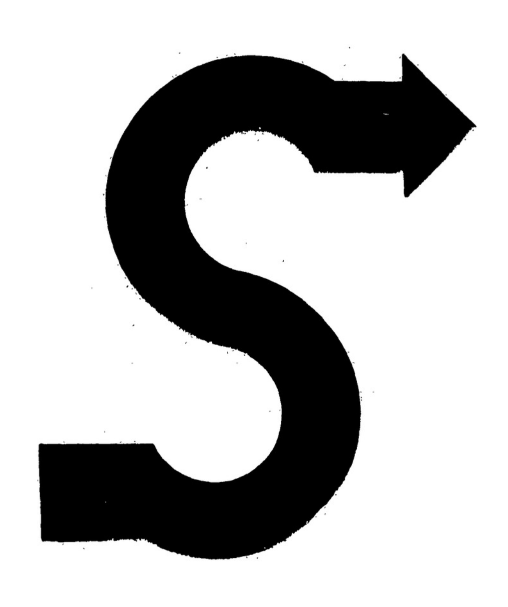
4 janvier - 28 juin

(n° 183-208)



Fin de bobine

NF Z 43 120 3



Suite sur une autre bobine

NF Z 43-120-6